GEORGE ORWELL



جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

ترجمة: أسعد الحسين

دراسات فكرية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

الجزء الأول

جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

عنوان الكتـــاب: جورج أورويل - الأعمال السياسية والأدبية - الجزء الأول

اســم المؤلــف: جورج أورويل

إعداد وترجمـة: أسعد الحسين

الموضـــوع: دراسات فكرية

عدد الصفحات: 628 ص

القيـــاس: 17 × 24 سم

الطبعـة الأولى: 1000 / 2019 م - 1440 هـ

ISBN: 978-9933-38-149-3

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963+

هاتــف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org

ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

الجزء الأول

إعداد وترجمة:

أسعد الحسين

الفهرس

ملاحظات حول القومية

استفاد بايرون من كلمة LONGEUR الفرنسية (التي تعني طول) في أكثر من مكان، وعلق ملاحظاً على ذلك: رغم أننا لا نملك الكلمة في إنكلترا، إلا أننا نملك الشيء بوفرة هائلة، وبنفس الطريقة هناك عادة ذهنية منتشرة كثيراً الآن، وتؤثر على تفكيرنا في كل موضوع تقريباً، لكنها لم تُعط اسماً بعد. وقد اخترت كلمة "قومية" كأقرب مرادف موجود لها. وسيتبين في لحظة أنني لا أستخدمها بمعناها العادي تماماً، لأن العاطفة التي أتكلم عنها، لا تربط نفسها بما يسمى أمة دائماً – أي، سلالة واحدة أو منطقة جغرافية واحدة، وإنما يمكن أن ترتبط بكنيسة أو طبقة أو يكون لها معنى سلبي ضد شيء ما أو آخر، من دون أي هدف إيجابي من الولاء.

أقصد بـ"القومية" أولاً عادة الافتراض بإمكانية تصنيف الكائنات البشرية كالحشرات، ووصف زمر كاملة من ملايين أو عشرات ملايين الناس بثقة بـ"خيرين" أو "شريرين"[1] وأقصد ثانياً- وهذا أهم بكثير- عادة نسب الشخص نفسه إلى أمة واحدة أو وحدة أخرى، ووضعها في منزلة أبعد من الخير والشر، وعدم الاعتراف بأي واجب آخر يتقدم على مصالحها. يجب ألا نخلط بين القومية والوطنية، فكلاهما تستخدمان عادة بطريقة غامضة جداً. لذلك بات أي تعريف لهما عرضة للاعتراض، لكن يجب التمييز بينهما، فهما يتضمنان فكرتين مختلفتين، بل ومتعارضتين حتى. أقصد بـ"الوطنية" الولاء لمكان خاص أو أسلوب حياة خاص، يُعتقد بأنه الأفضل في العالم، لكن دون فرضه بأية طريقة على أي شعب آخر، كما أن الوطنية بطبيعتها دفاعية عسكرياً وثقافياً، لكن القومية من الجانب الآخر، لا تنفصل عن الرغبة في السلطة، والهدف الثابت لكل شخص قومي، أن يضمن سلطة أكبر ونفوذاً أكثر، ليس لنفسه، وإنما للأمة أو الوحدة الأخرى التي اختار أن يغرق فرديته فيها.

---

١ – ينظر إلى الأمم والكيانات الأكثر غموضاً كالكنسية الكاثوليكية أو البروليتاريا مثلاً، على نحو شائع، كأفراد، ويشار إليها بـ"هي" إن الملاحظات السخيفة الجلية مثل "ألمانيا غدارة بشكل طبيعي" موجودة في أي صحيفة يفتحها المرء، وتقال التعميمات الطائشة حول الهوية القومية ("الإسباني أرستقراطي بالفطرة" أو "كل إنكليزي منافق") في كل مكان ومن قبل الجميع تقريباً. يتبين بشكل متقطع أن هذه التعميمات بلا أساس، لكن عادة صنعها تدوم، ويتحمل الناس من ذوي النظرة الدولية الصريحة من أمثال تولستوي وبرنارد شو هذا الذنب غالباً.

طالما تطبق على الحركات القومية الأكثر تميزاً والأردأ سمعة في ألمانيا واليابان ودول أخرى فحسب، فكل هذا واضح تماماً، وعند مقارنتها بظاهرة كالنازية مثلاً التي نستطيع ملاحظتها من الخارج، سنقول كلنا تقريباً الأشياء عينها بخصوصها. لكن يجب أن أكرر هنا ما قلته آنفاً أنني أستعمل كلمة "قومية" لعدم وجود الأفضل. تشمل القومية، بالمعني الموسع الذي أستخدمه، حركات وميول مثل الشيوعية والكاثوليكية السياسية والصهيونية ومعاداة السامية والتروتسكية والسلامية، ولا تعني بالضرورة الولاء لحكومة ما أو بلاد، حتى لبلاد الشخص نفسها. وليس من الضروري نهائياً أن تكون الوحدات التي تتعامل معها موجودة فعلياً. لنسمي بضع أمثلة واضحة: اليهودية والإسلام والمسيحية والبروليتاريا والعرق الأبيض، كلها مواضيع شعور قومي متقد، لكن وجودها يمكن أن يكون مثار جدل جدي، وليس لها أي تعريف مقبول عالمياً.

يجدر بنا أن نؤكد مرة أخرى، أن الشعور القومي يمكن أن يكون سلبياً فقط. هناك مثلاً التروتسكويون الذين أصبحوا أعداء للاتحاد السوفييتي، فقط من دون تطوير ولاء مماثل لأي وحدة (كيان) أخرى. حين يفهم المرء مضامين هذا، تصبح طبيعة ما أقصده بالقومية أوضح بكثير. إن الشخص القومي، هو المرء الذي يفكر فقط أو أساساً من منظور مكانة تنافسية. قد يكون قومياً إيجابياً أو سلبياً، أي أنه يمكن أن يستخدم طاقته العقلية في التعزيز والتشجيع أو التشويه والتسويد- لكن في كل المعايير تدور أفكاره حول انتصارات وهزائم وأفراح انتصارات ومشاعر خزي وعار، ويرى التاريخ، وخصوصاً المعاصر منه، مجرد ارتقاء وانحطاط لا ينتهيان لوحدات القوة العظمى، ويبدو له كل حدث تاريخي برهاناً وإثباتاً بأن جانبه الخاص في حالة ارتقاء، ومنافسه المكروه في حالة انحدار. لكن أخيراً من المهم ألا نخلط القومية بتأليه النجاح. على العكس، بعد أن يختار القومي جانبه يقنع نفسه بأنه الأقوى، ويستطيع التمسك بمعتقده، حتى عندما تكون الحقائق ضده بشكل ساحق. إن القومية تعطش للقوة ملطف بخداع الذات، وكل شخص قومي قادر على أشد أنواع التضليل - بما أنه يخدم شيئاً أكبر من نفسه - وواثق بشكل لا يتزحزح بأنه على حق وصواب.

بعد أن أعطيت هذا التعريف المطول، أعتقد أنه سيتم الاعتراف والتسليم بأن عادة الذهن التي أتحدث عنها منتشرة وسط الطبقة المثقفة الإنكليزية، بشكل أوسع من انتشارها وسط جماهير الشعب. بالنسبة إلى هؤلاء الذين يشعرون بعمق حول السياسة المعاصرة، فإن مواضيع

محددة أصبحت ملوثة جداً باعتبارات من المكانة والهيبة، لدرجة باتت مقاربتها المنطقية الصادقة مستحيلة تقريباً. من مئات الأمثلة التي يمكن أن يختارها المرء، نأخذ هذا السؤال: أي من الحلفاء الثلاث، الاتحاد السوفييتي وبريطانيا والولايات المتحدة، ساهم أكثر في هزيمة ألمانيا؟ نظرياً، من الممكن كما يفترض إعطاء جواب منطقي وحاسم لهذا السؤال، لكن عملياً لا يمكن إجراء الحسابات الضرورية، لأن أي شخص مهتم بمثل هذا السؤال سيراه حتماً بمنظور المكانة التنافسية، لذلك سيبدأ حكمه بتفضيل روسيا أو بريطانيا أو أمريكا كما تتطلب الحالة. وبهذا فقط سيبدأ البحث عن حجج تؤيد حالته. وهذا هو سبب الفشل اللافت للتكهن السياسي والعسكري في زمننا. من الغريب ألا يكون هناك واحد من بين خبراء المدارس كلها قادر على التنبؤ باحتمال حدوث حدث مثل معاهدة ١٩٣٩ بين روسيا وألمانيا[١] التي بعد أن تفشى خبرها، حظيت بأشد التفسيرات المختلفة وأكثرها شذوذاً، وأُطلقت التكهنات التي دُحضت على الفور تقريباً، لأن كل حالة منها لم تتأسس على دراسة للاحتمالات، وإنما على رغبة في جعل الاتحاد السوفييتي يبدو خيراً أو رديئاً، قوياً أو ضعيفاً. يستطيع المعلقون السياسيون النجاة من أي خطأ تقريباً كالمنجمين، لأن أكثر أتباعهم المخلصين لا ينظرون إليهم من أجل تقييم الوقائع، وإنما من أجل تحفيز الولاءات القومية.[٢] إن الأحكام الجمالية والأدبية منها خصوصاً فاسدة كنظيراتها السياسية؛ إذ من الصعب على القومي الهندي الاستمتاع بقراءة كيبلينغ، وبالمثل لا يرى الشخص المحافظ أية جدارة في ماياكوفسكي. وهناك إغراء دائم للزعم بأن أي كتاب لا يتفق المرء مع فحواه وميله، يجب أن يكون كتاباً رديئاً من وجهة النظر الأدبية، والناس من ذوي النظرة القومية يقومون بهذه الخدعة، من دون شعور بعدم الاستقامة.

---

١ - تكهن بضعة كتاب من ذوي الميول المحافظة كبيتر دروكر مثلاً باتفاق بين ألمانيا وروسيا، لكنهم توقعوا تحالفاً فعلياً أو اندماجاً دائماً. لم يقترب أي ماركسي أو يساري مهما كان لونه من التكهن بالمعاهدة.

٢ - يمكن تصنيف المعلقين العسكريين في الصحافة الشعبية بمؤيدين للروس ومعادين للروس، مؤيدين للبليمب أو معارضين للبليمب. أخطاء مثل الاعتقاد بأن خط ميرغينوت منيع، أو التكهن بأن روسيا ستدحر ألمانيا في غضون ثلاثة أشهر، فشلت في هز سمعتهم، لأنهم يقولون دائماً ما يريد مستمعوهم الخاصون بهم سماعه. الناقدان العسكريان المفضلان لدى الطبقة المثقفة هما النقيب لبديل هارت واللواء فولر، تعلمنا من الأول أن الدفاع أقوى من الهجوم، ومن الثاني أن الهجوم أقوى من الدفاع. لم يمنع تناقضهما من القبول بهما كخبيرين من الجمهور نفسه. السبب الخفي لهذا الرواج والشعبية في دوائر اليسار، كونهما على خلاف ونزاع مع وزارة الحرب. (حاشية المؤلف)

في إنكلترا، لو تأمل المرء عدد الناس المتورطين فقط، لوجد على الأرجح أن الشكل المهيمن للقومية هو شكل قديم الطراز من النعرة الوطنية البريطانية (الشوفينية). ومن المؤكد أنه لازال واسع الانتشار وأكثر بكثير مما ظنه أغلب المراقبين قبل عشر سنوات. لكنني سأهتم بشكل أساسي، في هذا المقال، بردود أفعال المثقفين الذين ماتت فيهم تقريباً النعرتان القومية (الشوفينية) والوطنية من النوع القديم، واللتان كما يبدو تعودان الآن إلى الحياة ثانية وسط أقلية. لا ضرورة للقول إن الشكل المهيمن من القومية وسط المثقفين هو الشيوعية - أستخدم هذه الكلمة بمعنى فضفاض جداً لتشمل ليس أعضاء الحزب الشيوعي فقط وإنما "رفاق السفر" ومحبي الروس عموماً. الشيوعي، لغرضي هنا، شخص ينظر إلى الاتحاد السوفييتي كأرض أجداده، ويشعر أن واجبه تبرير السياسية الروسية وتقديم مصالح روسيا على غيرها بأي ثمن. من الواضح أن مثل هؤلاء الناس كثيرون في إنكلترا اليوم، وتأثيرهم المباشر وغير المباشر عظيم جداً. لقد ازدهرت أشكال أخرى من القومية أيضاً، ويستطيع المرء رؤية المسألة من منظور أفضل بملاحظة التشابه في التيارات الفكرية المختلفة والمتعارضة بشكل ظاهر.

قبل عشر سنوات أو عشرين سنة، كانت الكاثوليكية السياسية شكل القومية الأقرب للشيوعية والأشد شبهاً بها، ومن أبرز دعاتها - ربما جي كي تشيسترتون الذي كان حالة متطرفة أكثر من كونها حالة أنموذجية. كان تشيسترتون كاتباً ذا موهبة معتبرة، استخدمها لكبت أحاسيسه واستقامته الفكرية، من أجل قضية الدعاية الرومانية الكاثوليكية. خلال العشرين سنة الأخيرة تقريباً من حياته، كان كل نتاجه في الحقيقة تكراراً دائماً لنفس الشيء البسيط والممل تحت براعة مجهدة، مثل كتابه "عظيمة ديانا الإيفسوسية" كل كتاب كتبه وكل حوار صغير يجب أن يثبت فيه، بما لا يدع مجالاً للخطأ، تفوق الكاثوليك على البروتستانت والوثنيين. لكن تشيسترتون لم يقنع بأن يقتصر هذا التفوق على جانبه الفكري أو الروحي، وإنما يجب أن يُترجم في شكل مكانة وطنية مميزة وقوة عسكرية، استلزمت إضفاء مثالية جاهلة على البلدان اللاتينية وخصوصاً فرنسا. لم يعش تشيسترتون في فرنسا طويلاً، وصورته عنها - كأرض للفلاحين الكاثوليكيين الذين ينشدون باستمرار النشيد القومي الفرنسي فوق أكواب النبيذ الأحمر - علاقة هذه الصورة بالواقع كعلاقة شو شين شاو بالحياة اليومية في بغداد، ولم يستمر بهذه المغالاة الهائلة بتقدير القوة العسكرية الفرنسية (قبل وبعد

١٩١٤ - ١٩١٨ وقوله إن فرنسا لوحدها أقوى من ألمانيا) فقط، وإنما بتمجيد سخيف وسوقي لعملية الحرب الفعلية. إن قصائد تشيسترتون عن المعارك مثل ليبانتو أو أغنية القديسة بربارة، تجعل من هجوم الفرقة الخفيفة كراسة دينية سلمية: أشد المقاطع المبهرجة من الكلام الطنان الذي يمكن إيجاده في لغتنا ربما. الشيء المشوق، لو كان الهراء الوهمي الذي كتبه بشكل عادي عن فرنسا والجيش الفرنسي مكتوباً بواسطة شخص آخر عن بريطانيا والجيش البريطاني، لكان هو أول من سخر منه. في السياسة المحلية كان تشيسترتون إنكليزياً صغيراً وكارهاً حقيقياً للنعرة القومية والإمبريالية، ووفقاً لمبادئه التي وضعها لنفسه، هو صديق حقيقي للديمقراطية. ومع ذلك عندما تطلع للخارج إلى المجال الدولي، استطاع هجر مبادئه، من دون أن يلاحظ أنه فعل ذلك. ولهذا لم يمنعه إيمانه شبه الصوفي بفضائل الديمقراطية، من الإعجاب بموسوليني، الذي دمر الحكومة النيابية وحرية الصحافة، اللتين ناضل تشيسترتون من أجلهما بقوة في الوطن. لكن موسوليني كان إيطالياً، وجعل من إيطاليا دولة قوية، وهذا برر القضية. كما لم يجد تشيسترتون كلمة يقولها عن الإمبريالية وغزو العروق الملونة، حين مارس ذلك الإيطاليون أو الفرنسيون. كانت قبضته على الحقيقة وذوقه الأدبي وحتى حسه الأخلاقي، إلى حد ما، تنخلع وتتفكك، حالما يتعلق الأمر بولاءاته القومية.

من الواضح وجود تشابه هام بين الكاثوليكية السياسية ممثلة بتشيسترتون، وبين الشيوعية، وكذلك بينهما وبين الوطنية الاسكتلندية أو الصهيونية أو عداء السامية أو التروتسكية مثلاً. إن القول بأن كل أشكال القومية متماثلة، هو تبسيط مفرط حتى في جوها الفكري، لكن هناك قواعد محددة تظل جيدة في كل الحالات. التالية هي المزايا الرئيسية للفكر القومي:

الهاجس: تقريباً لم يفكر أو يتحدث أو يكتب أي قومجي عن أي شيء سوى تفوق قوة وحدته أو الكيان الذي ينتمي إليه، ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، لأي قومي أن يخفي ولاءه، كما أن أصغر قدح لكيانه الاجتماعي أو مدح ضمني للوحدة المنافسة، يملأه بالقلق الذي لا يريحه منه سوى القيام برد حاسم وحاد؛ فإن كانت الوحدة المختارة بلاداً حقيقية كإيرلندا أو الهند، يزعم بتفوقها ليس في القوة العسكرية والطهارة السياسية فقط، وإنما في الفن والأدب والرياضة وبنية اللغة وفي الجمال البدني للسكان وربما في المناخ والمناظر الطبيعية والطبخ أيضاً، ويبدي حساسية كبيرة حول أشياء كهذه مثل العرض الصحيح للأعلام والرايات والحجم

النسبي للعناوين والترتيب الذي تُسمى فيه البلدان.[١] تلعب التسمية والتصنيف دوراً هاماً في الفكر القومي. تبدل البلدان، التي نالت استقلالها أو باشرت في ثورات قومية، أسماءها عادة. وأي بلاد أو وحدة أخرى تدور حولها مشاعر قوية، يكون لها أسماء كثيرة، على الأرجح يحمل كل منها دلالة مختلفة. كان لدى طرفي الحرب الأهلية الإسبانية تسعة أو عشرة أسماء تعبر عن درجات الحب والكره. كان بعض هذه الأسماء (مثل "وطنيين" لمؤيدي فرانكو أو "موالين" لمؤيدي الحكومة) مسألة جدالية، ولم يستطع أي من الطرفين المتنافسين الاتفاق على استخدام اسم واحد منها. يعتبر القوميون كلهم أن واجبهم يقضي بنشر لغتهم الخاصة بهم للإضرار باللغات المنافسة، ويظهر هذا الصراع بين الناطقين بالإنكليزية في أشكال أحد كصراع بين اللهجات؛ فالأمريكيون المبغضون للإنكليز يرفضون استخدام عبارة عامية، إن عرفوا أنها من أصل بريطاني، وكذلك تكمن خلف الصراع، بين من يعتبرون أنفسهم لاتينيين ومن يعتبرون أنفسهم ألمانيين، محرضات قومية. يصر القوميون الاسكتلنديون على تفوق اسكتلنديي - الأراضي المنخفضة والاشتراكيون الذين تأخذ قوميتهم شكل كره طبقي عنيف ومطول ضد لهجة محطة البي بي سي، والذي يعطي في أحوال كثيرة الانطباع بأن فيه مسحة اعتقاد بسحر عصبي ودي - اعتقاد ربما يتجلى في عادة منتشرة في حرق الأعداء السياسيين، من خلال حرق تماثيل مصغرة لهم، أو استخدام صورهم كأهداف في صالات الرماية.

عدم الاستقرار: إن الحدة التي تُضبط بها الولاءات القومية، لا تعيقها من القدرة على الانتقال. وكما أشرت مسبقاً في البداية، يمكنها الارتباط ببلد أجنبي ما. يجد المرء على نحو عادي أن القادة القوميين الكبار أو مؤسسي الحركات القومية، لا ينتمون إلى البلاد التي يمجدوها حتى، وأحياناً يكونون أجانب تماماً، أو في الغالب ينحدرون من مناطق محيطية يُشك بصفتها القومية. والأمثلة على ذلك ستالين وهتلر ونابليون ودي فاليرا وديزرائيلي وبوينكير وبيفربروك. كانت الحركة الجامعة للألمان من ابتداع رجل إنكليزي يدعى هوستون تشامبرلاين جزئياً. في الخمسين أو المائة سنة الماضية كانت القومية المنقولة ظاهرة شائعة وسط المثقفين الأدبيين، فمع لافيكاديو هيرنه كان الانتقال إلى اليابان، ومع كارليل وآخرين غيره في زمنهم إلى ألمانيا، وفي عصرنا نحن

---

١ - عبر بعض الأميركيين عن استيائهم من أن كلمة "أنغلوأميريكان" التي هي شكل لتوحيد هاتين الكلمتين، أُقترحوا تحويلها إلى "أميريكوبريتش".

إلى روسيا. لكن الحقيقة المشوقة بشكل خاص هي إمكانية إعادة الانتقال أيضاً، فقد تُصبح فجأة بلاداً أو وحدة أخرى ظلت تؤله لسنوات كثيرة مقيتة جداً، وربما يأخذ مكانها شيء آخر بدون أي فترة فاصلة تقريباً. في النسخة الأولى من كتاب إتش جي ويلز، **موجز للتاريخ** وفي كتابات أخرى له عن ذلك الزمن، يجد المرء أنه مجد الولايات المتحدة بشكل مسرف، كما يمجد الشيوعيون روسيا اليوم. وخلال بضع سنوات فقط، انقلب هذا الإعجاب الساذج إلى عداوة. إن الشيوعي المتعصب الذي يتغير في غضون أسابيع أو حتى أيام إلى تروتسكاوي متعصب، هو مشهد مألوف وشائع. في أوروبا القارية كانت الحركات الفاشية تُجند من بين الشيوعيين، وقد تحدث العملية المعاكسة خلال السنوات القليلة التالية. ما يبقى ثابتاً في القومجي حالته الذهنية: موضوع هذه المشاعر متقلب وقد يكون خيالياً.

لكن الانتقال بالنسبة إلى المثقف، له وظيفة هامة ذكرتها آنفا بإيجاز فيما يتعلق بتشيسترتون، فقد مكنته من أن يكون أكثر قومجية - أكثر سوقية وأكثر سخفاً وأكثر خبثاً وأكثر تضليلاً - مما يستطيع أن يكونه لمصلحة بلاده الأصلية أو أي وحدة له معرفة حقيقية بها. حين يرى المرء الهراء الوضيع والمتبجح الذي كتبه أشخاص أذكياء وحساسون عن ستالين والجيش الأحمر، يدرك أن هذا غير ممكن إلا بسبب حدوث نوع من الخلع. من النادر في مجتمعات كمجتمعاتنا أن يشعر أي شخص يمكن وصفه بالمثقف، برابط عميق جداً ببلاده. الرأي العام - أي القسم من الرأي العام الذي يدرك أنه مثقف يقظ - لن يمسح له بفعل هذا. إن أكثر الناس المحيطين به شكاكين وساخطين، وربما يتبنى نفس الموقف بدافع التقليد أو الجبن: في تلك الحالة سيتخلى عن شكل الوطنية الأقرب إلى متناوله دون الاقتراب أكثر من وجهة نظر أممية أصيلة، وباكتشافها يستطيع التمرغ دون قيد في تلك العواطف التي يعتقد أنه تحرر منها، ويعود الرب والملك والإمبراطورية وبريطانيا - كل الأوثان الساقطة - إلى الظهور ثانية تحت مسميات مختلفة، ولكونها غير معترف بها لما هي عليه، تستطيع أن تُؤله بضمير صالح. تستخدم القومية المنقولة كطريقة لتحقيق الخلاص من دون تبديل للسلوك مثل كباش الفداء.

عدم المبالاة بالحقيقة: لدى كل القوميين القدرة على التعامي عن أوجه الشبه بين مجموعات من الحقائق المتماثلة؛ فالإنكليزي المحافظ (توري) يدافع عن حق تقرير المصير في أوروبا، ويعارضه في الهند بدون الشعور بالتناقض، وتعتبر الأعمال جيدة أو رديئة، ليس بما

تستحقه، وإنما حسب من فعلها. ولا يوجد تقريباً أي نوع من السخط والتعذيب واستخدام الرهائن والعمل القسري والترحيل الجماعي والحبس، بدون محاكمة والتزوير والاغتيال وقصف المدنيين - الذي لا يتبدل لونه الأخلاقي حين يرتكبه من يقف في "جانبنا". نشرت صحيفة نيوز كرونيكل الليبرالية صوراً لروس شنقهم الألمان مثالاً عن البربرية المروعة، ثم نشرت بعد سنة أو اثنتين باستحسان حار نفس الصور تقريباً لألمان شنقهم الروس.[1] وينطبق الشيء نفسه على الأحداث التاريخية. يُنظر إلى التاريخ أساساً من مناظير قومية، وأصبحت أشياء مثل التحقيق والتعذيب في حجرة النجوم ومآثر القراصنة الإنكليز (مثل فرانسيس دريك الذي عاقب أسرى إسبان بإغراقهم أحياء) وعهد الإرهاب، وأبطال العصيان الذين أزهقوا أرواح مئات اليهود ببنادقهم، أو جنود كرومويل الذي شقوا وجوه النساء الإيرلنديات بأمواس الحلاقة، أعمالاً محايدة أخلاقياً أو حتى أهلاً للتقدير، حين اعتبرت أنها حدثت في القضية "الصحيحة". لو نظر المرء إلى ربع القرن الماضي، لما وجد سنة واحدة لم تنقل فيها أخبار عن قصص وحشية من جزء من العالم؛ ومع ذلك لم تصدق الطبقة المثقفة الإنكليزية أو تستنكر حالة واحدة من هذه الأعمال الوحشية، التي ارتكبت في إسبانيا وروسيا والصين وهنغاريا والمكسيك وارمستار وسميرنا. كانت النزعات والميول السياسية تقرر استحقاق هذه الأفعال للشجب من عدمه وحدوثها حتى.

لا يكتفي القومجي بعدم شجب الأعمال الوحشية التي تُرتكب من جانبه فقط، وإنما لديه قدرة رائعة بعدم السماع بها. لمدة ست سنوات كاملة استنبط الإنكليز المعجبون بهتلر طريقة تجاهلوا فيها وجود داخو وبوخنوفالت. وهؤلاء الذين رفعوا عقيرتهم عالياً في استنكار معسكرات الاعتقال الألمانية، لم يشعروا أبداً أو شعروا بشكل باهت جداً بوجود معسكرات اعتقال في روسيا أيضاً. أحداث هائلة مثل مجاعة أوكرانيا عام ١٩٣٣ التي تسببت في موت الملايين من الناس، غابت عن انتباه غالبية الإنكليز المحبين للروس، وكثير من الإنكليز لم يسمعوا شيئاً عن إبادة الألمان واليهود البولونيين أثناء الحرب الحالية. تسبب عداؤهم الذاتي

---

١ - نصحت صحيفة نيوز كرونيكل قراءها بحضور الأفلام الجديدة التي تُظهر عملية الإعدام برمتها بلقطات مقربة. نشرت صحيفة ذا ستار باستحسان ظاهر صورا لنساء عاريات تقريباً متعاونات مع العدو مزقتهم غوغاء باريس. تحمل هذه الصور أوجه شبه ملحوظة مع الصور النازية لليهود الذين مزقتهم غوغاء برلين.

للسامية في إسقاط هذه الجريمة الضخمة من وعيهم. في الفكر القومي هناك وقائع صحيحة وغير صحيحة، معروفة وغير معروفة. قد تكون الواقعة المعروفة لا تحتمل أبداً، لذلك تُزاح جانباً عادة، ولا يُسمح بالدخول إلى صيرورتها المنطقية، وحتى لو دخلت فلا يُعترف بها كواقعة حتى في ذهن المرء.

يراود كل قومجي الاعتقاد بأن الماضي يمكن تبديله، ويقضي قسماً من وقته في عالم خيالي تحدث فيه الأشياء كما يفترض ويجب - يبدو فيه الأسطول الحربي الإسباني عملاً ناجحاً أو أن الثورة الروسية سُحقت في ١٩١٨ - وينقل شظايا من هذا العالم إلى كتب التاريخ كلما أمكن ذلك. إن الكثير من الكتابات الدعائية في عصرنا، ترقى إلى درجة التزوير. تطمس الحوادث المادية وتبدل التواريخ وتزال الاقتباسات من سياقاتها وتعالج لكي تتغير معانيها. الأحداث التي يُرى أنها ينبغي ألا تحدث، لا تُترك بدون ذكر فقط، بل يتم نكرانها نهائياً[١]. في عام ١٩٢٧ سلق شيانغ كاي شيك مئات الشيوعيين الأحياء، ومع ذلك أصبح واحداً من أبطال اليسار خلال عشر سنوات، وجلبته إعادة الاصطفاف في عالم السياسة إلى المعسكر المعادي للفاشية، واعتُبر سلق الشيوعيين "لا يهم" أو ربما لم يحدث. إن الهدف الأساسي للدعاية، هو التأثير على الرأي المعاصر طبعاً، لكن الذين يعيدون كتابة التاريخ، يؤمنون بقسم من عقولهم أنهم يقحمون فعلياً بعض الحقائق في الماضي. حين يتأمل المرء أعمال التزوير الواسعة التي ارتُكبت، لتبين أن تروتسكي لم يلعب أي دور مهم في الحرب الأهلية الروسية، يصعب علينا أن نشعر بأن هؤلاء الناس المسؤولين يكذبون. إن الاحتمال الأكبر أنهم يشعرون أن روايتهم هي ما حدث في نظر الرب، وأن له الحق في إعادة ترتيب السجلات التاريخية بناء على ذلك.

إن عدم المبالاة بالحقيقة الموضوعية التي يساعدها عزل كل قسم من العالم عن الآخر، تصعب أكثر اكتشاف ما يحدث فعلياً ويظل هناك شك حقيقي حول أضخم الأحداث دائماً تقريباً فمثلا يستحيل حساب عدد الوفيات التي سببتها الحرب الحالية ضمن ملايين أو حتى عشرات الملايين. تنزع الأخبار التي تنقل الكوارث دائماً - المعارك والمجازر والمجاعات والثورات - إلى إثارة شعور بالزيف في الشخص العادي. ليس لدى المرء طريقة للتأكد من

---

١ - مثال: المعاهدة الروسية الألمانية التي مُحيت بأسرع ما يمكن من الذاكرة الشعبية. أخبرني مراسل روسي أن ذكر المعاهدة قد حذف مسبقاً من الكتاب السنوي الروسي، الذي يرتب الأحداث السياسية الحديثة.

الوقائع أو حتى التأكد من حدوثها، وتُقدم له دائماً تفسيرات مختلفة كلياً من مصادر مختلفة. ما هي صوابات وأخطاء تمرد وارسو في أغسطس/ آب ١٩٤٤؟ هل صحيح ما قيل عن أفران الغاز الألمانية في بولندا؟ على من تقع اللائمة عن مجاعة البنغال؟ ربما الحقيقة قابلة للاكتشاف، لكن الوقائع تقدم بطريقة مضللة في أي جريدة تقريباً، لذلك يترك القارئ العادي إما ليبلع الأكاذيب ويقبل بها أو يفشل في تشكيل رأي. الشك العام بما يحدث فعلياً يجعل التشبث بالاعتقادات المجنونة أسهل. إن أشد الحقائق وضوحاً يمكن نكرانها لعدم وجود شيء مثبت أو منفي. إضافة إلى ذلك، فإن التفكير الدائم بالقوة والنصر والهزيمة والانتقام، يجعل القومجي غير مهتم إلى حد ما بما يحدث في العالم الحقيقي، فكل ما يريده هو الشعور بأن وحدته الاجتماعية تتقدم على وحدة أخرى، ويفعل هذا بواسطة تقريع الخصم بدلاً من تفحص الوقائع ليرى إن كانت تؤيده أم لا. إن الجدل قومجي غير حاسم تماماً، لأن كل متنافس يصدق نفسه بشكل ثابت أنه فاز بالنصر، وبعض القومجيين ليسوا بعيدين عن (الشيزوفرينيا) الانفصام، ويعيشون سعداء تماماً وسط أحلام بالقوة والفتح لا صلة لها بالعالم الطبيعي المادي.

تفحصت بأقصى ما أستطيع العادات العقلية المشتركة في كل أشكال القومية. الشيء التالي هو أن أُصنف تلك الأشكال، لكن من الواضح أن هذا لا يمكن فعله بشكل شامل. القومية موضوع هائل. العالم تقلقه وتعذبه أوهام وضغائن لا تحصى، تتقاطع مع بعضها البعض بطريقة معقدة جداً، وبعض من أشدها فساداً وشراً لم يصطدم بعد بالوعي الأوروبي. أنا مهتم في هذا المقال بالقومية كما تحدث وسط الطبقة المثقفة الإنكليزية، فهي لم تختلط عند أفراد الطبقة المثقفة بالوطنية، كما حدث للشعب الإنكليزي العادي، ولذلك يمكن أن تدرس نقية. أدرجت قائمة في الأسفل بضروب القومية المتنوعة التي تزدهر الآن وسط المثقفين الإنكليز، مع تعليقات يبدو أنها ضرورية. من المناسب استخدام ثلاثة عناوين، إيجابي ومنقول وسلبي، لكن بعض الضروب يندرج ضمن أكثر من تصنيف:

القومية الإيجابية

أ - التورية الجديدة ممثلة بأشخاص مثل اللورد إيلتون، وأ ب هيربرت، وجي أم يونغ، وبالبروفيسور بيكتهورن، وأدب لجنة توري للإصلاح، ومجلات مثل نيوإنغليش ريفيو، وذا نايتينث سنتشري، وأند آفتر. القوة الدافعة الحقيقية للتورية الجديدة، بسبب ميزتها القومية

وتميزها عن النزعة المحافظة العادية، هي الرغبة في عدم الاعتراف بانحسار السلطة البريطانية وتأثيرها. حتى هؤلاء الواقعيون الذين يرون أن موقع بريطاني العسكري ليس كما كان، يميلون إلى الادعاء بأن "الأفكار الإنكليزية" (عادة يسارية غير محددة) يجب أن تهيمن على العالم. كل التوريين الجدد معادين للروس، وأحياناً يكون العداء للأمريكان هو التأكيد الأساسي. الشيء الهام هو أن تلك المدرسة الفكرية تكسب أرضية وسط المثقفين الصغار كما يبدو: أحياناً، شيوعيون سابقون مروا بعملية التحرر من الوهم المعتادة. مبغضون للإنكليز أصبحوا فجأة مناصرين أقوياء للبريطانيين شكل شائع جداً. من الكتاب الذين يمثلون هذه النزعة إف أي فويت ومالكولم ماغريدج وإيفيلن واو وهيو كينغزميل، ويمكن ملاحظة تطور نفسي مماثل في تي إس إيليوت ووينـدهام لويس والعديد من أتباعهما.

١ - القومية السلتية: تتشابه القوميات الويلزية والإيرلندية والاسكتلندية في توجهها المعادي للإنكليز رغم ما بينها من نقاط خلاف. عارض أعضاء الحركات الثلاث الحرب، واستمروا في وصف أنفسهم بأنهم مؤيدون للروس، والحاشية المجنونة استنبطت لتكون مؤيدة للروس ومؤيدة للنازية في الوقت نفسه. لكن القومية السلتية ليست مثل بغض الإنكليز. إن قوتها الدافعة هي الاعتقاد بعظمة ماضي ومستقبل الشعوب السلتية، وفيها مسحة قوية من العنصرية، فهي تفترض أن السلتيين متفوقين روحياً على الساكسونيين - أبسط وأكثر إبداعاً وأقل سوقية وأقل تكبراً إلخ - لكن التعطش المعتاد للسلطة موجود تحت السطح. أحد أعراضها الوهم بأن إيرلندا أو اسكتلندا أو حتى ويلز، تستطيع الحفاظ على استقلالها دون مساعدة، ولا تدين بأي شيء للحماية البريطانية. من بين الكتاب الذين يعتبرون أمثلة جيدة عن هذه المدرسة الفكرية، هو هيو مكدياماردو وشون أوكيسي، ولا يخلو أي كاتب إيرلندي حديث، حتى ولو كان بمكانة ييتس أو جويس، من آثار القومية.

٢ - الصهيونية: حركة قومية ذات خصائص غير معتادة، لكن بديلها الأمريكي أكثر عنفاً وخبثاً من البريطاني كما يبدو. أنا أصنفها تحت قومية مباشرة وليست منقولة، لأنها تزدهر حصرياً تقريباً وسط اليهود أنفسهم. يؤيد المثقفون في إنكلترا لأسباب عديدة متنافرة، اليهود في قضية فلسطين، لكنهم غير متحمسين كثيراً لها. وكل الشعب الإنكليزي الودود مؤيد

لليهود، بمعنى استنكار الاضطهاد النازي، لكن لا يوجد أي ولاء قومي فعلي أو إيمان بالتفوق اليهودي الفطري وسط غير اليهود.

ب- القومية المنقولة

١ - الشيوعية

٢ - الكاثوليكية السياسية

٣ - الشعور اللوني: لقد ضعف الموقف القديم المزدري نحو "السكان الأصليين" كثيراً في إنكلترا، وهُجرت نظريات علمية زائفة متنوعة تؤكد تفوق العرق الأبيض.[1] وسط الطبقة المثقفة لا يحدث الشعور باللون إلا في أشكال منقولة، أي، كاعتقاد في التفوق الفطري للأعراق الملونة. هذا شائع الآن وبشكل متزايد وسط المثقفين الإنكليز، وناتج ربما عن المازوشية (الانحراف الجنسي) والإحباط الجنسي، أكثر من اتصاله بالحركات القومية الشرقية والزنجية. وللتكبر والمحاكاة تأثير قوي حتى وسط هؤلاء الذين لا يتحمسون لمسألة اللون. كل مثقف إنكليزي تقريباً يصدمه الادعاء بتفوق العروق البيضاء على العروق الملونة، بينما يبدو له الزعم المضاد فوق الاعتراض حتى لو اختلف معه. تتوجه المودة القومية نحو الأعراق الملونة عادة، باعتقاد يرى أن حياتها الجنسية أقوى وأفضل. وهناك أسطورة سرية واسعة حول البراعة الجنسية الفائقة للزنوج.

٤ - الشعور الطبقي: يوجد الشعور الطبقي وسط مثقفي الطبقتين العليا والوسطى فقط في الشكل المنقول - أي الاعتقاد في تفوق البروليتاريا. هنا يكون ضغط الرأي العام غامراً داخل الطبقة المثقفة مرة أخرى، ويمكن أن يتواجد الولاء القومي في البروليتاريا، وأبغض أشكال الكره النظري للبورجوازية مع التكبر العادي في الحياة اليومية.

---

١ - مثال جيد خرافة ضربة الشمس. حتى وقت متأخر ظل يُعتقد بأن العروق البيضاء أكثر عرضة لضربة الشمس من الملونة، وأن الرجل الأبيض لا يستطيع المشي بأمان في الشمس الاستوائية من دون خوذة من الريش. ليس هناك أي دليل لهذه النظرية، لكنها خدمت الغرض في تأكيد الاختلاف بين "السكان الأصليين" والأوروبيين. أثناء الحرب سقطت النظرية تماماً، وكانت جيوش بأكملها تناور في المنطقة الاستوائية من دون خوذ ريشية. طالما تظل خرافة ضربة الشمس موجودة، يتوجب على الأطباء الإنكليز الإيمان بها بقوة مثل عامة الناس. (حاشية المؤلف).

٥ - السلامية (رفض العنف): إن أغلب الرافضين للعنف (السلاميين) إما أنهم ينتمون إلى طوائف دينية مبهمة، أو مجرد إنسانويين يعارضون انتزاع الحياة، ويفضلون أن يتابعوا أفكارهم إلى أبعد من تلك النقطة. لكن هناك أقلية من السلميين المثقفين حافزهم الحقيقي لكن غير المعترف به هو كره الديمقراطية الغربية كما يبدو والإعجاب بالنظام الشمولي الاستبدادي. تنحط دعاية السلميين إلى القول إن ذاك الجانب سيء كالجانب الآخر، لكن لو نظر المرء عن كثب إلى كتابات السلميين المثقفين الشباب، لوجد أنها لا تُعبّر عن استنكار جزئي، وإنما موجهة بشكل كامل ضد بريطانيا والولايات المتحدة. علاوة على ذلك هم كقاعدة لا يشجبون العنف لذاته، وإنما العنف المستخدم في الدفاع عن البلدان الغربية. فالروس مثلاً على خلاف البريطانيين، لا يلقى اللوم عليهم بسبب الدفاع عن أنفسهم بوسائل حربية. وفي الواقع كل دعاية السلميين التي من هذا النوع، تتجنب ذكر روسيا أو الصين، ولم يطالبوا أيضاً بوجوب تجنب الهنود للعنف في صراعهم ضد البريطانيين. إن أدب السلميين يعج بملاحظات ملتبسة، التي إن كانت تعني شيئاً، فهي تعني كما يبدو أنهم يفضلون رجال دولة من أنموذج هتلر على الآخرين من أنموذج تشرشل، وأن العنف ممكن غفرانه إن كان عنفاً بالحد الكافي. بعد سقوط فرنسا واجه السلميون الفرنسيون خياراً حقيقياً، لم يُجبر زملاؤهم الإنكليز على اتخاذه؛ حيث انتقل أغلبهم إلى الحزب النازي. وفي إنكلترا هناك عضوية مشتركة صغيرة بين اتحاد ضمان السلام والقمصان السود كما يبدو. كتب كتاب سلميون مديحاً في كارليل، أحد آباء الفاشية المثقفون. إجمالاً من الصعب ألا نشعر أن السلامية كما ظهرت وسط شريحة من الطبقة المثقفة، قد أُلهمها سراً وجزئياً إعجابها بالقوة والوحشية الناجحة. كان الخطأ الذي ارتكب، قد ربط هذه العاطفة، وشبكها بهتلر، لكن يمكن نقلها بسهولة.

ج- القومية السلبية

١ - الأنغلوفوبيا (الخوف من الإنكليز وبغضهم): هناك موقف ساخر وعدائي باعتدال وإلزامي تقريباً ضمن الطبقة المثقفة تجاه بريطانيا، لكنه عاطفة غير زائفة في كل الأحوال. تمظهر خلال الحرب في انهزامية الطبقة المثقفة التي استمرت طويلاً بعد أن بات واضحاً بأن قوى المحور لا يمكنها أن تنتصر. أناس كثيرون كانوا مسرورين على نحو غير خفي حين سقطت سنغافورة أو حين طُرد البريطانيون من اليونان، وكان هناك عناد لافت في تصديق

الأخبار الطيبة مثل العلمين أو عدد الطائرات الألمانية التي أسقطت في بريطانيا. لم يرد المثقفون البريطانيون في الحقيقة أن يفوز الألمان أو اليابانيون في الحرب، لكن الكثير منهم لم يستطيعوا تجنب فرحة رؤية بلادهم وهي تذل، وأرادوا أن يكون النصر النهائي لروسيا أو ربما لأمريكا وليس لبريطانيا. في السياسة الخارجية، اتبع كثير من المثقفين المبدأ الذي يرى أن أي زمرة تدعمها بريطانيا، يجب أن تكون في الخطأ. كنتيجة الرأي "النير" في غالبه، فهي صورة معكوسة لسياسة المحافظين. إن بغض الإنكليز عرضة للانعكاس غالباً، لهذا مشهد مألوف أن يكون السلمي في حرب مولع بالقتال في حرب تالية.

٢ - معاداة السامية: هناك دليل قليل حول هذا في الوقت الحاضر، لأن أعمال الاضطهاد النازية جعلت من الضروري لأي شخص يفكر، أن يصطف إلى جانب اليهود ضد مضطهديهم. أي متعلم بدرجة كافية يسمع بكلمة "معاداة السامية" يزعم كأمر بديهي بأنه متحرر منها، كما أزيلت الملاحظات المعادية لليهود بعناية من كل أصناف الأدب. فعلياً يبدو أن معادة السامية تتسع في انتشارها حتى بين المثقفين، والمؤامرة العامة في الصمت ربما تساعد على مفاقمتها. الناس ذوو الآراء اليسارية ليسوا محصنين ضدها وموقفهم يتأثر أحياناً بواقع أن التروتسكيين والفوضويين من اليهود. لكن معادة السامية تأتي بشكل طبيعي أكثر إلى الناس ذوي الميول المحافظة، الذين يتهمون اليهود بإضعاف المعنويات القومية وتوهين الثقافة القومية. إن التوريين الجدد والكاثوليك السياسيين دائماً عرضة للقبول بمعادة السامية، على الأقل على نحو متقطع.

٣ - التروتسكية: استخدمت هذه الكلمة بشكل فضفاض، لتشمل الفوضويين والاشتراكيين الديمقراطيين وحتى الليبراليين، أما أنا فأستعملها هنا لتعني الماركسي العقائدي المتشدد الذي دافعه الرئيسي عداؤه لنظام حكم ستالين. من الأفضل للمرء دراسة التروتسكية من كراسات مغمورة أو من جرائد مثل سوشاليست ابيل، بدلاً من دراستها من أعمال تروتسكي نفسه الذي كان رجل الفكرة الواحدة بلا شك. تمكنت التروتسكية في بعض الأماكن كالولايات المتحدة مثلاً، من جذب عدد كبير من الأنصار، وأن تتطور إلى حركة منظمة مع فوهرر صغير خاص بها وإلهامها سلبي في جوهره. إن التروتسكوي ضد ستالين كما الشيوعي مؤيد له، ومثل الغالبية من الشيوعيين لا يريد كثيراً أن يبدل العالم الخارجي بقدر أن

يشعر بأن المعركة من أجل المكانة والنفوذ تسير لمصلحته. في كلا الحالتين هناك ولع مفرط في موضوع واحد، ونفس العجز في تشكيل رأي منطقي أصيل مؤسس على الاحتمالات الراجحة. حقيقة أن التروتسكويين أقلية مضطهدة في كل مكان، وأن الاتهام الموجه ضدها كالتآمر مع الفاشيين مثلاً زائف بشكل مفضوح، يخلق انطباعا بأن التروتسكية فكرياً وأخلاقياً أسمى من الشيوعية، لكن يشك إن كان ذلك الفرق كبيراً جداً. التروتسكاوي الأكثر نموذجية في كل الحالات هو شيوعي سابق، ولم يصل أحد إلى التروتسكية إلا من خلال إحدى حركات الجناح اليساري. ليس هناك شيوعي واحد آمن ضد سقطة مفاجئة للتروتسكية، إلا إذا كان مقيداً بالحزب بسنين من العادة. العملية المعاكسة لا تحدث بالتساوي كثيراً كما يبدو، لكن ليس هناك سبب واضح لعدم حصول ذلك.

في التصنيف الذي حاولته آنفاً، ربما يبدو أنني بالغتُ وأفرطتُ في التبسيط، وقمت بافتراضات غير مجازة، وحذفت الدوافع المحترمة العادية من الوجود. هذا كان محتوماً، لأنني حاولت في هذا المقال أن أعزل وأحدد الميول التي توجد في عقولنا وتضلل تفكيرنا، من دون أن تخطر في بالنا بالضرورة في حالة نقية أو تعمل باستمرار. من المهم في هذه النقطة تصحيح التبسيط المفرط للصورة التي أُجبرت على رسمها. بداية ليس للمرء الحق أن يفترض أن كل شخص أو كل مثقف حتى مصاب بعدوى القومية. ثانياً، يمكن أن تكون القومية متقطعة ومحدودة. قد يستسلم الشخص الذكي جزئياً لاعتقاد يعرف أنه سخيف ويبقيه خارج عقله لفترات طويلة، ولا يرجع إليه إلا في لحظات الغضب والتدفق العاطفي، أو حين يكون واثقاً أنه لا يتضمن قضايا مهمة. ثالثاً، يمكن تبني العقيدة القومية بنية سليمة بسبب دوافع غير قومية. رابعاً، تستطيع أنواع كثيرة من القومية، حتى التي تلغي منها، أن تتعايش في الشخص نفسه.

من خلال كل ما قلت،"القومجي يفعل هذا" أو "القومجي يفعل ذاك" مستغلاً لأغراض توضيحية النموذج المتطرف وغير العقلاني من القومجي، الذي ليس في عقله مناطق محايدة ولا اهتمام بأي شيء سوى الصراع من أجل القوة والنفوذ. في الواقع مثل هؤلاء الناس شائعين كثيراً لكنهم لا يستحقون البارود والطلقة. في الحياة الحقيقية يجب القتال ضد اللورد إيلتون ودي ان بيت والليدي هوستون وإيزرا باوند واللورد فانيستارت والأب كوفلين وكل الآخرين من قبيلتهم الكئيبة، أما نقائصهم الفكرية فلا تحتاج إلى من يشير إليها. المس

الأحادي ليس مشوقاً، وحقيقة عدم وجود أي قومجي واحد من النوع المتعصب جداً يستطيع أن يكتب كتاباً يظل جديراً بالقراءة بعد فترة من السنين وله أثر طيب. لكن حين يعترف المرء أن القومية لم تنتصر في كل مكان، وأنه مازال هناك أناس أحكامهم وآراؤهم ليست تحت رحمة رغباتهم، تبقى الحقيقة أن المشاكل الضاغطة مثل الهند وبولندا وفلسطين والحرب الأهلية الإسبانية ومحاكمات موسكو والزنوج الأمريكان والمعاهدة الروسية الألمانية أو ما لديك – لا يمكن أن تناقش أو لم تناقش بمستوى معقول على الأقل أبداً. إن أمثال إيلتون وبيت وكوفلين أفواه وأبواق هائلة، يجأرون بنفس الأكذوبة ويكررنها مرة تلو أخرى، هم حالات متطرفة بشكل جلي، لكننا نخدع أنفسنا إن لم ندرك أننا نستطيع أن نكون مثلهم في لحظات غير محمية. دعونا نلفت الاهتمام إلى ملاحظة محددة، دع هذه أو تلك الحبة تُداس – وقد تكون حبة لم يُشك بوجودها ذاته حتى الآن – وربما يتحول الشخص المنفتح والودود فجأة إلى متعصب شرير، غير متلهف إلا لتسجيل انتصار على خصمه، وغير مبال بعدد الأكاذيب التي يقولها أو بعدد الأخطاء المنطقية التي يرتكبها بفعلته هذه. حين أعلن لويد جورج الذي كان مناوئاً لحرب البوير في مجلس العموم أن البلاغات الرسمية البريطانية، إن جمعها المرء معاً، ادعت بقتل بويريين أكثر من كل ما في الأمة البويرية من أناس، وسجل أيضاً عن اللورد بيلفور أنه وقف على قدميه وصاح "وغد!". عدد قليل جداً من الناس منيعون ضد زلات من هذا النموذج. إن الزنجي الذي يُعامل بازدراء من امرأة بيضاء، والإنكليزي الذي يسمع بإنكلترا تُنتقد عن جهل من قبل أمريكي، والمدافع عن الكاثوليكية الذي يذكر بالحرب الإسبانية، سيرد هؤلاء كلهم بنفس الطريقة تقريباً. يمكن بضربة واحدة على عصب القومية، أن تتلاشى الآداب الفكرية وتزول، ويمكن أن يصبح إنكار أوضح الحقائق ممكناً.

إذا خبأ المرء ولاء أو كرهاً قومياً في أي مكان في عقله، تظل بعض الوقائع الحقيقية غير مقبولة له. هذه بضعة أمثلة فقط، جدولتها في خمسة نماذج من القوميين، وضد كل واحد منهم ذيّلت واقعة يستحيل على ذلك النموذج القومي القبول بها حتى في أفكاره السرية:

البريطاني المحافظ (التوري): ستخرج بريطانيا من هذه الحرب بنفوذ أضعف ومكانة أقل.

الشيوعي: روسيا ستُهزم أمام ألمانيا، إن لم تساعدها بريطانيا وأمريكا.

القومي الإيرلندي: لا تستطيع إيرلندا البقاء مستقلة إلا بالحماية البريطانية.

التروتسكاوي: نظام ستالين مقبول من قبل الجماهير الروسية.

الرافض لحمل السلاح (السلمي): يستطيع الذين "يشجبون" العنف فعل هذا، فقط لأن غيرهم يرتكب العنف نيابة عنهم.

كل هذه الحقائق واضحة جداً، إن لم يشرك المرء عواطفه في ذلك؛ لكنها لا تطاق بالنسبة إلى الشخص المسمى في كل حالة، ولهذا يجب أن يتم إنكارها، وتُبنى نظريات زائفة على نكرانها. أعود إلى الفشل المذهل للتكهن العسكري في الحرب الحالية. صحيح، كما أعتقد، القول إن الطبقة المثقفة كانت مخطئة حول تقدم الحرب وتطورها أكثر من الشعب العادي، وأنها تأرجحت أكثر في مشاعرها الموالية. فمثلاً أعتقد المثقف اليساري أن الحرب خُسرت في عام ١٩٤٠ وأن الألمان سيجتاحون مصر في ١٩٤٢ بالتأكيد، وأن اليابانيون سيبقون، ولن يطردوا من الأراضي التي فتحوها أبداً، وأن الهجوم الأنكلوأمريكي الجوي لم يكن له أي أثر على ألمانيا. يقدر على تصديق هذه الأشياء، لأن كرهه للطبقة الحاكمة البريطانية يمنعه من الاعتراف بإمكانية نجاح الخطط البريطانية. ليس هناك حد للحماقات التي يمكن بلعها إن كان المرء تحت تأثير شعور من هذا النوع. لقد سمعتهم يصرحون عن ثقة أن القوات الأمريكية لم تُجلب إلى أوروبا لتحارب الألمان وإنما لسحق الثورة الإنكليزية. يجب أن يكون المرء منتمياً إلى الطبقة المثقفة حتى يصدق أشياء مثل تلك: لا يستطيع أي إنسان عادي أن يكون مثل هذا المغفل. حين غزا هتلر روسيا، أصدر مسؤولو وزارة الإعلام تحذيراً يتوقعون فيه انهياراً في غضون ستة أسابيع. من جانب آخر، اعتبر الشيوعيون كل طور من الحرب نصراً روسياً حتى عندما أُجبر الروس على التقهقر إلى بحر قزوين وخسروا ملايين الأسرى. لا ضرورة لمضاعفة الأمثلة. المغزى حالما أنه يُشرك الخوف والكره والغيرة وعبادة القوة، يصبح الإحساس بالحقيقة مفككاً ومشوشاً. وكما أشرت مسبقاً، يصبح الإحساس بالخطأ والصواب مفككاً ومشوشاً أيضاً. ليس هناك جريمة على الإطلاق لا يمكن غفرانها حين يرتكبها جانبنا. حتى لو لم ينكر المرء حدوث الجريمة، وحتى لو عرف المرء أن نفس الجريمة بالضبط أُدينت في حالة أخرى، وحتى لو اعترف المرء بشكل عقلي أنها غير مبررة - رغم ذلك لا يستطيع الشعور بأنها خطأ. بمجرد إشراك الولاء، تتوقف الشفقة عن تأدية وظيفتها.

سبب عودة القومية وانتشارها سؤال أكبر بكثير من أن يطرح هنا. يكفي القول، في الأشكال التي تظهر فيها وسط المثقفين الإنكليز، أنها انعكاس مشوه للمعارك البغيضة التي تحدث فعلياً في العالم الخارجي، وأن أسوأ حماقاتها باتت ممكنة من خلال تعطيل الوطنية والمعتقد الديني. لو تابع المرء تسلسل هذه الأفكار سيكون مهدداً بالانقياد إلى نوع من النزعة المحافظة أو إلى التصوف السياسي. ويمكن الجدل بشكل عقلاني، مثلاً - وحتى صحيح - أن الوطنية لقاح ضد القومية، وأن الملكية حماية من الديكتاتورية، وأن الدين المنظم حارس ضد الخرافة. أو مرة أخرى بالجدل بعدم وجود رأي غير منحاز، وأن كل العقائد والقضايا تتضمن نفس الأكاذيب والحماقات والأعمال البربرية؛ وهذا يُقدم كمبرر دائماً تقريباً للابتعاد عن السياسة برمتها. أنا لن أقبل بهذه الحجة، حتى لو لم يكن هناك واحد فقط يمكن وصفه بالمثقف في العالم الحديث يستطيع الابتعاد عن السياسة بمعنى عدم الاكتراث بها. أعتقد أن على المرء أن ينهمك بالسياسة - أستعمل الكلمة بعناها الواسع - ويجب أن تكون لديه خياراته المفضلة: أي يجب أن يعترف أن بعض القضايا أفضل بشكل موضوعي من الأخرى، حتى لو قُدمت على التساوي بوسائط سيئة. إن لأشياء التي يحبها القومجيون ويكرهونها التي تكلمت عنها، هي جزء من تركيبتنا كلنا إن أحببناها أم كرهناها. أنا لا أعرف إن كان التخلص منها ممكناً أم لا، لكني أعتقد أن الصراع ضدها ممكن وأنها محاولة أخلاقية أساساً. أولاً وقبل كل شيء، هي مسألة اكتشاف المرء لما يكونه في الحقيقة وما هي مشاعره الحقيقية، ومن ثم التفكير ملياً في الانحياز المحتوم. إن كنت تكره روسيا وتخشاها، أو كنت غيوراً من ثروة أمريكا وقوتها، أو كنت تحتقر اليهود، أو كان لديك شعور بالدونية اتجاه الطبقة الإنكليزية الحاكمة، فإنك لا تستطيع التخلص من تلك المشاعر بمجرد معرفتك بها والتفكير فيها، لكنك تستطيع الاعتراف بأنها لديك على الأقل ومنعها من تلويث صيرورتك العقلية. يجب على الحوافز العاطفية التي لا مفر منها والتي قد تكون ضرورية للفعل السياسي حتى، أن تكون قادرة على التعايش جنباً إلى جنب مع القبول بالحقيقة. لكن أكرر وأقول إن هذا يحتاج إلى جهد أخلاقي. ويظهر الأدب الإنكليزي المعاصر بقدر إدراكه لقضايا زمننا الرئيسية، أن المستعدين لبذل هذا الجهد قلة قليلة.

الأسد ووحيد القرن:
الاشتراكية والعبقرية الإنكليزية

القسم الأول: إنكلترا إنكلترتكم.

١ - وأنا اكتب الآن، هناك مخلوقات بشرية قمة في التمدن، تطير فوق رأسي وتحاول قتلي.

هم لا يكنون أية عداوة ضدي كفرد، وأنا لا أضمر لهم الشر بالمثل أيضاً، لكنهم "يقومون بما يفرضه عليهم واجبهم فقط" كما يقال. ولا أشك بأن أغلبهم طيبو القلب ومطيعون للقانون، ولم يحلموا بارتكاب أية جريمة في حياتهم الخاصة. ومن جانب آخر، إذا نجح أحدهم في قصفي وتمزيقي بقنبلة توضع في مكان مناسب، فلن يتورع عن ذلك، فهو يخدم البلاد التي لها السلطة التي تحله من شر عمله.

لا يستطيع المرء أن يرى العالم الحديث، حتى يدرك قوة الوطنية الغامرة والولاء القومي. في ظروف معينة يمكن للعاطفة القومية أن تنهار وألا تتواجد في مستويات محددة من الحضارة، لكنها تظل قوة إيجابية لا يضاهيها شيء. وتعتبر المسيحية والاشتراكية الأممية مجرد قشة مقارنة بها. وصعد كل من هتلر وموسوليني إلى السلطة في بلديهما بقوة، لأنهما استوعبا هذه الحقيقة التي لم يفهمها غيرهما.

ويجب أن يعترف المرء أيضاً بأن التقسيمات بين أمة وأمة أخرى، تُؤسس على اختلافات حقيقية في وجهات النظر. حتى وقت متأخر، ظل الاعتقاد المناسب هو التظاهر بأن كل البشر متماثلين جداً، لكن في الواقع كل من يستطيع استخدام عينيه، يعرف أن السلوك البشري العادي يختلف من دولة إلى أخرى. الأشياء التي يمكن حدوثها في بلاد ما، يستحيل حدوثها في بلاد أخرى. إن أعمال التطهير التي ارتكبها هتلر في حزيران، لا يمكن أن تحدث في إنكلترا. وكما ترى الشعوب الغربية إن الإنكليز مختلفون بشكل كبير. يوجد نوع من الاعتراف غير المباشر بهذا في الكره الذي يشعر به كل الأجانب تقريباً نحو طريقتنا القومية في الحياة. لا تستطيع سوى ثلة من الأوروبيين تحمل العيش في إنكلترا. وحتى الأمريكان يشعرون بالارتياح في أوروبا في أكثر الأحوال.

حين تعود إلى إنكلترا من بلاد أجنبية، يتكون لديك الإحساس بأن تتنفس هواء مختلفاً. عشرات الأشياء الصغيرة تتعاون منذ الدقائق القليلة الأولى لتعطيك هذا الشعور: البيرة أشد مرارة والنقود المعدنية أثقل والعشب أكثر اخضراراً، والإعلانات أكثر صخباً. حشود الناس في البلدات الكبيرة بوجوههم اللطيفة الملوية وأسنانهم الرديئة وطرائقهم الدمثة، تختلف عن الحشود الأوروبية. ثم تبتلعك سعة إنكلترا، وتفقد للحظة شعورك بأن للأمة كلها شخصية مستقلة وحيدة. هل توجد فعلاً أشياء كهذه في الأمم مثلاً؟ ألسنا ستة وأربعون مليون فرد مختلفين؟ اختلافها وتنوعها هو الفوضى! قعقعة القباقيب في بلدات لانكشاير الصناعية والشاحنات الذاهبة والعائدة على طريق الشمال العظيم والطوابير خارج مكاتب التشغيل والتوظيف، وجلبة طاولات البولينغ في حانات سوهو، ونزهة العذراوات الكبيرات في السن إلى العشاء الرباني عبر غشاوة سديم صباح خريفي - كل هذه الأشياء ليست سوى شظايا، لكنها شظايا مميزة للمشهد الإنكليزي. كيف يستطيع المرء صنع نمط من هذا الخليط المشوش؟

لكن تحدث مع الأجانب واقرأ كتباً وصحفاً أجنبية، وستعود إلى التفكير نفسه. نعم هناك شيء مميز ومدرك في الحضارة الإنكليزية. إنها حضارة فذة وفريدة كحضارة إسبانيا. إنها مرتبطة بشكل ما بوجبات إفطار صلبة وأيام آحاد كئيبة وبلدات ينبعث منها الدخان وطرق متعرجة وحقول خضراء وصناديق البريد العمودية الحمراء. فيها نكهة خاصة بها. علاوة على ذلك إنها مستمرة، تمتد إلى المستقبل والماضي، يوجد شيء ما فيها يواصل بعزم وعناد كما في أي مخلوق حي. ما هو المشترك والمتشابه بين إنكلترا عام ١٩٤٠ وإنكلترا عام ١٨٤٠؟ لكن عندئذ ما هو المشترك بينك وبين الطفل ابن الخمس سنوات الذي تحتفظ أمك بصورته على رف الموقد؟ لا شيء باستثناء أن صادف وكنت الشخص نفسه.

أولاً وقبل كل شيء إنها حضارتك، إنها أنت. مهما كرهتها أو سخرت منها لن تكون سعيداً أبداً بعيداً عنها لأي فترة من الزمن. الحلوى الدهنية وصناديق البريد الحمراء دخلت إلى روحك. إنها أنت سواء كانت خيرة أم شريرة، وأنت تنتمي إليها ولن تستطيع الهروب أبداً من العلامات التي أعطاها لك هذا الجانب من القبر.

إن إنكلترا المعاصرة تتغير، وكذلك بقية العالم في الوقت الحالي. ومثل أي شيء آخر تستطيع التغير في اتجاهات محددة فقط، يمكن التنبؤ بها إلى حد ما، لكن هذا لا يعني أن

المستقبل ثابت فيه بدائل محددة ممكنة وبدائل أخرى غير ممكنة. يمكن لأية بذرة أن تنمو أو لا تنمو، لكن في كل الأحوال لن تنمو بذرة اللفت في جزرة بيضاء أبداً. لذلك من الأهمية القصوى أن نحاول ونحدد أي إنكلترا تكون، قبل التخمين حول القسم من إنكلترا الذي يستطيع أن يلعب في الأحداث الضخمة التي تحدث الآن.

٢ - ليس من السهل تحديد الصفات القومية، وحين تحدد تبدو تفاهات لا علاقة بينها. الإسبان قساة في معاملة الحيوانات، والطليان لا يستطيعون القيام بأي شيء دون إصدار ضجيج صام للآذان، والصينيون مدمنون على القمار. من الواضح أن هذه الأشياء لا تعني شيئاً بحد ذاتها. لكن رغم ذلك لاشيء بلا سبب، وواقع أن للإنكليز أسناناً رديئة، يمكن أن يخبرنا شيئاً ما عن حقائق الحياة الإنكليزية.

هناك تعميمان حول إنكلترا. الأول أن الإنكليز ليسوا موهوبين فنياً. ليسوا موسيقيين مثل الألمان أو الإيطاليين، ولم يزدهر التصوير الزيتي والنحت في إنكلترا كما في فرنسا. الثاني أن الإنكليز ليسوا مفكرين. لديهم رعب من التفكير المجرد، لا يشعرون بالحاجة إلى الفلسفة أو وجهة النظر العالمية المنظمة، وهذا ليس لأنهم "عمليون"، كما هم مغرمون في نسب هذا لهم. على المرء فقط أن ينظر إلى أساليبهم في تخطيط المدن والإمداد بالمياه وتشبثهم العنيد بكل شيء قديم ومزعج - نظام هجائي يتحدى التحليل، ونظام في الوزن والقياس لا يفهمه سوى مؤلفو كتب الحساب - ليرى مدى قلة اهتمامهم بالكفاءة. لكنهم يملكون قدرة معينة للعمل بدون الأمل والتفكير. رياؤهم المشهورون به عالمياً - مواقفهم المزدوجة نحو الإمبراطورية مثلاً - مرتبط بهذا. وأيضاً في لحظات أزمة ما شديدة الخطورة، تلتقي الأمة بكاملها معاً وتتصرف بنوع من الغريزة، وفي شيفرة سلوكية يفهمها كل واحد تقريباً رغم أنها لم تُصغ أبداً. إن العبارة التي صاغها هتلر للألمان "شعب يمشي وهو نائم" يمكن أن تنطبق على الإنكليز بشكل أفضل، بالرغم من عدم وجود ما يدعو للفخر في هذا اللقب.

لكن من الجدير الانتباه إلى ميزة إنكليزية ثانوية، لُوحظت جيداً لكن لم يُعلق عليها كثيراً، وهي حب الزهور. هذه واحدة من الأشياء الأولى التي يلاحظها المرء حين يصل إلى إنكلترا من الخارج، خصوصاً إن كان قادماً من جنوب أوروبا. ألا تتناقض هذه مع لامبالاة الإنكليز بالفنون؟ لا في الحقيقة، لأنها موجودة في أناس ليس لديهم أحاسيس جمالية أياً كانت. إنها

ترتبط بميزة إنكليزية أخرى لم يلاحظها جزء كبير منا، وهي الإدمان على الهوايات والنشاطات التي تمارس في وقت الفراغ. إنها خصوصية الحياة الإنكليزية. نحن أمة من عاشقي الزهور، لكننا أمة من جامعي الطوابع ومربي الحمام والنجارين الهواة ومن قناصي الكوبونات ولاعبي سهام الريشة ومن أنصار ألغاز الكلمات المتقاطعة. كل الثقافة الأصيلة الحقيقية تتركز حول أشياء ليست رسمية، حتى عندما تكون شعبية ومشاعية، مثل الحانة ومباراة كرة القدم والحديقة الخلفية وطرف الموقد و"كأس الشاي اللذيذ". لا تزال حرية الفرد موضع تصديق وإيمان كما كانت في القرن التاسع عشر تقريباً. لكن هذا لا علاقة له بالحرية الاقتصادية، الحق في استغلال الآخرين من أجل الربح. إنها الحرية بأن تمتلك بيتاً لك وتفعل ما تحب في وقت فراغك، وتختار تسليتك بدلاً من أن يتم اختيارها لك من الأعلى. أكثر الأسماء كرهاً في الأذن الإنكليزية هو نوزي باركر (كناية عن الشخص الفضولي والمتطفل - المترجم). من الواضح طبعاً أن حتى هذه الحرية الشخصية قضية خاسرة. إن الشعب الإنكليزي ككل الشعوب العصرية يمر بعملية متواصلة من التعداد والإحصاء والتصنيف والتجنيد الإجباري والتنسيق. لكن قوة جذب بواعثهم في الاتجاه الآخر. ونتيجة لذلك سوف يُعدل نوع النظام الصارم الذي يمكن أن يُفرض عليهم. لن تكون هناك حشود حزبية كبيرة أو حركات شبابية أو قمصان ملونة أو مضايقة لليهود أو مظاهرات "عفوية" ولا جيستابو أيضاً بالتأكيد.

لكن في كل المجتمعات، يجب على عامة الناس أن يعيشوا ضد النظام القائم إلى حد ما. الثقافة الشعبية الأصيلة لإنكلترا هي شيء يستمر تحت السطح، بطريقة غير رسمية ومستنكرة من قبل السلطات. شيء واحد يلاحظه المرء إن نظر مباشرة إلى عامة الناس، خصوصاً في البلدات الكبيرة، أنهم ليسوا متزمتين. هم يقامرون بإدمان ويشربون البيرة بالقدر الذي تسمح لهم فيه أجورهم، ويكرسون أنفسهم للدعابات الفاسقة، ويستعملون أشنع لغة في العالم ربما. هم مضطرون لإرضاء هذه الأذواق في وجه قوانين مرائية مذهلة (قوانين الترخيص ومراسيم اليانصيب، إلخ.. إلخ) صُممت كي تتدخل في كل شخص، لكنها عملياً تسمح بحدوث أي شيء. أيضاً ليس للعامة معتقد ديني محدد، وهم هكذا منذ قرون. لم يكن للكنيسة الإنكليزية قبضة حقيقية عليهم أبداً، إنها مجرد حامية لطبقة ملاكي الأراضي، والطوائف المنشقة مجرد أقليات متأثرة. ومع ذلك احتفظوا بمسحة عميقة من الشعور المسيحي، في الوقت الذي نسوا

فيه اسم المسيح تقريباً. إن عبادة السلطة - الدين الجديد لأوروبا - التي أصابت بعدواها الطبقة المثقفة الإنكليزية لم تلمس العوام أبداً. لم يتورطوا أبداً في سياسة القوة و"الواقعية" التي وعظت بها الصحف اليابانية والإيطالية، وكانت ترعبهم. يستطيع المرء أن يتعلم الكثير حول روح إنكلترا من البطاقات البريدية الملونة الهزلية التي تراها في واجهات محلات القرطاسية الرخيصة. هذه الأشياء نوع من مفكرة دوّن الإنكليز أنفسهم عليها. نظرتهم القديمة الطراز وعجرفتهم المتدرجة ومزجهم بين الفسق والرياء ودماثتهم المفرطة وموقفهم الأخلاقي العميق من الحياة، كلها معكوسة هناك.

ربما تكون رقة الحضارة الإنكليزية أهم صفة مميزة فيها. تلاحظها بمجرد أن تطأ قدمك التراب البريطاني. إنها بلاد فيها محصلو الحافلات دمثون ورجال الأمن لا يحملون المسدسات. لا توجد بلاد سكنها الناس البيض يمكن إبعاد الناس عن الرصيف فيها بطريقة أسهل منها. ومع هذا يسري شي نبذه المراقبون الأوروبيون دائماً ووصفوه بـ"الانحطاط" أو الرياء، وهو الكره الإنكليزي للحرب والعسكرة. إنه متجذر عميقاً في التاريخ وقوي في الطبقات الوسطى الدنيا والطبقة العاملة أيضاً. هزته حروب متتالية لكنها لم تدمره. في الذاكرة الحية من المألوف تماماً أن تُطلق صيحات استهجان على "المعاطف الحمراء" في الشوارع، وأن يرفض أصحاب الحانات المحترمة السماح بدخول الجنود لمجرد الافتراض أنهم جنود. في زمن السلم حتى حين يكون هناك أكثر من مليوني عاطل عن العمل، من الصعب أن تملأ صفوف الجيش الصغير الدائم الذي تديره طبقة نبلاء البلاد وشريحة مختصة من الطبقة الوسطى ويشكل قوامه الأساسي عمال المزارع وبروليتاريو الأحياء الفقيرة. ليس لدى جمهور الناس أي معرفة عسكرية أو تقليد، وموقفهم من الحرب دفاعي بشكل ثابت، ولم يتمكن أي سياسي من الصعود إلى السلطة من خلال تعهده بغزو أو مجد عسكري، ولم تنجح أية ترنيمة كره في جذبهم. في الحرب الأخيرة، لم تكن الأغاني التي ألّفها الجنود بأنفسهم انتقامية، وإنما هزلية وانهزامية ساخرة.[1]

---

١ - (مثال على ذلك: أنا لا أريد أن التحق بالجيش الدموي/ أنا لا أريد أن أذهب إلى الحرب / لا أريد المزيد من التجوال/ أفضل البقاء في البيت / أقتات على ما تكسبه عاهرة. لكنهم لم يقاتلوا أبداً بتلك الروح. كان العدو الوحيد الذي سموه قط هو الرقيب الأول. حاشية المؤلف).

في إنكلترا كل التبجح والتلويح بالأعلام وهراء "احكم بريطانيا" تم فعله من قبل أقليات صغيرة. وطنية الناس العاديين ليست صريحة أو متعمدة. هم لا يحتفظون بذاكرتهم التاريخية ولو باسم انتصار عسكري واحد. الأدب الإنكليزي كغيره من الآداب، يغص بقصائد المعارك، لكن الجدير بالملاحظة أن القصائد التي نالت لنفسها نوعاً من الشعبية، هي دائماً حكاية النكبات والانسحابات. ليس هناك قصيدة واحدة محبوبة عن ترافيلغار أو واترلو مثلاً. جيش السير جون مور في كورونا، الذي كان يخوض معركة دفاعية يائسة في المؤخرة قبل الفرار عبر البحار (مثل دونكيرك تماماً!) لها جاذبية أكبر من انتصار مشرق. أكثر قصيدة معركة محركة للمشاعر في الإنكليزية، هي واحدة حول لواء من سلاح الفرسان عُبئ في الاتجاه الخاطئ. وفي الحرب الأخيرة، الأسماء الأربعة التي نقشت نفسها حقيقة في الذاكرة الشعبية هي مونس وايبر وغاليبولي وباسشينديل وكلها نكبات. أسماء المعارك الكبرى التي انكسرت فيها الجيوش الألمانية غير معروفة تماماً لعموم الشعب.

إن السبب الذي يجعل النزعة الإنكليزية المعادية للعسكرة تثير اشمئزاز المراقبين الأجانب، هو تجاهلها لوجود الإمبراطورية، وهي تبدو مجرد رياء. فأولاً وأخيراً امتص الإنكليز ربع الأرض وسيطروا عليها بواسطة أسطول بحري ضخم، فكيف يجرؤون على الالتفات بعدئذ والقول بأن الحرب شريرة؟

صحيح تماماً أن الإنكليز مراؤون بخصوص إمبراطوريتهم، وهذا الرياء عند الطبقة العاملة يأخذ الشكل المتمثل في جهلهم وعدم معرفتهم بوجود الإمبراطورية، لكن كرههم للجيوش الدائمة غريزة صحيحة تماماً. توظف البحرية عدد قليل من الناس نسبياً، وهي سلاح خارجي لا يمكنه التأثير على السياسة الداخلية مباشرة. تتواجد الديكتاتوريات العسكرية في كل مكان، لكن لا يوجد شيء اسمه ديكتاتورية بحرية. ما يشمئز منه الشعب الإنكليزي في كل طبقاته تقريباً ومن صميم قلوبهم، هو أنموذج الضابط المختال وجلجلة المهاميز وصوت الأحذية العسكرية. قبل أن يُسمع بهتلر بعقود، كان لكلمة "بروسي" نفس القدر من المعنى في إنكلترا الذي تحمله كلمة "نازي" اليوم. هذا الشعور متجذر في الأعماق، لذلك منذ مائة سنة مضت كان ضباط الجيش البريطاني في أوقات السلم، يلبسون دائماً ثياباً مدنية حين يكونون خارج أوقات العمل.

أحد المعالم الدالة السريعة والأكيدة تماماً على الجو الاجتماعي للبلاد، هو الاستعراض العسكري لجيشها. الاستعراض العسكري حقيقة، هو نوع من الرقص الشعائري، وشيء مثل رقص الباليه، وتعبير عن فلسفة معينة في الحياة، وخطوة الوزة مثلاً واحدة من أكثر المناظر رهبة في العالم، مرعبة أكثر من الطائرة القاذفة. إنها مجرد تأكيد للقوة السافرة؛ تتضمن عمداً وبشكل مقصود صورة حذاء عسكري يدوس بقوة على وجه بشري ويسحقه. قبحه جزء من جوهره، لأنه يقول "نعم أنا قبيح لكنكم لا تجرؤون أن تسخروا مني"، مثل المستأسد الذي يسخر من ضحيته. لماذا مشية الوزة غير مستخدمة في إنكلترا؟ يوجد الكثيرون من ضباط الجيش الذين يسرهم إدخال مثل هذا الشيء. إنها غير مستخدمة، لأن الناس في الشارع سيضحكون ويسخرون منها. إن العرض العسكري ممكن فقط في البلدان التي لا يجرؤ فيها الناس العاديون على السخرية من الجيش. تبنى الإيطاليون مشية الوزة في الوقت الذي مرت فيه إيطاليا بوضوح تحت السيطرة الألمانية، وكما للمرء أن يتوقع، فعلوها بإتقان أقل من الألمان. ولو بقيت حكومة فيشي حية، لأدخلت قواعد انضباط أقسى للاصطفاف والاستعراض وطبقتها على ما تبقى من الجيش الفرنسي. في الجيش البريطاني، التدريب صارم ومعقد ومليء بالذكريات من القرن الثامن عشر، لكن بدون اختيال واضح ومحدد، والمشية العسكرية مجرد مشية شكلية. إنها تنتمي إلى مجتمع يحكمه السيف بلا شك، لكنه سيف يجب ألا يُستل من غمده أبداً.

مع ذلك إن رقة الحضارة الإنكليزية اختلطت بأعمال بربرية ومفارقات تاريخية. قانونها الجنائي قديم مثل البنادق القديمة التي في البرج. بمواجهة جنود العاصفة النازيين، عليك أن تطلق تلك الشخصية النمطية الإنكليزية: القاضي الشناق المتنمر العجوز الملطخ بالدم، الذي تجذر عقله في القرن التاسع عشر، يوزع الأحكام الوحشية. لازال الناس في إنكلترا يُشنقون من رقابهم ويُجلدون بالسياط. هاتان العقوبتان فاحشتان وقاسيتان، لكن لم يكن هناك أي احتجاج شعبي صادق ضدهما. الناس قبلوا بهما (ودارتمور – سجن في ديفون – المترجم – وبورستال – سجن للمجرمين القاصرين – المترجم) كما قبلوا بالطقس تقريباً، وهما جزء من القانون الذي يبدو غير قابل للتغيير.

وهنا نصل إلى الصفة الإنكليزية الأكثر أهمية والمميزة: احترام الدستورية والشرعية والإيمان بالقانون كشيء فوق الدولة وفوق الأفراد، وهي صفة قاسية وغبية طبعاً، لكنها غير قابلة للفساد في أي حال.

ليس الأمر أن الكل يتخيلون أن القانون عادل، فكل واحد منهم يعرف أن هناك قانوناً للأغنياء وآخر للفقراء، لكن لا أحد يقبل مضامين هذا، وكلهم يسلمون بديهياً بأن القانون، كما هو عليه، يجب أن يُحترم، ويشعرون بإحساس من الإهانة إن لم يكن كذلك. ملاحظات مثل "لا يستطيعون اعتقالي وحبسي، أنا لم أرتكب أي خطأ" و"لا يستطيعون فعل ذلك؛ فهو مخالف للقانون" هي جزء من الجو في إنكلترا. أعداء المجتمع المعترف بهم، لديهم هذا الشعور بقوة مثل أي شخص آخر. يراه المرء في كتب السجن مثل كتاب ويلفريد مكارثي للجدران أفواه أو كتاب جيم فيلان رحلة في السجن وفي البلاهات الرزينة التي تحدث في محاكمات (السلامين) رافضي حمل السلاح لأسباب عقائدية، وفي الرسائل التي تصل من الأساتذة الجامعيين الماركسيين إلى الصحف الذين يشيرون بأن هذا أو ذاك "إجهاض للعدالة البريطانية". كل شخص يؤمن من صميم قلبه بأن القانون يمكن ويجب وفي المجمل أن يُدار بتحيز ونزاهة. إن الفكرة الديكتاتورية التي لا ترى وجوداً لشيء اسمه القانون ولا ترى إلا القوة فقط، لم تتجذر أبداً. حتى الإنتلجنسيا لم تتقبلها إلا نظرياً فقط.

يمكن للوهم أن يصبح شبه حقيقة، ويستطيع القناع أن يبدل ملامح الوجه. الجدل المألوف الذي فحواه أن الديمقراطية "تماماً مثل" أو "سيئة مثل" الحكم الشمولي، لم يأخذ في حسابه هذا الواقع أبداً. كل هذه الجدالات تنتهي إلى القول بأن نصف الرغيف مثل عدم وجود خبز تماماً. في إنكلترا مازال الناس يؤمنون بمفاهيم كالعدالة والحرية والحقيقة الموضوعية مثلاً، التي قد تكون أوهاماً، لكنها أوهام جبارة جداً والإيمان عليها يؤثر على السلوك، وبسببها تختلف الحياة القومية، ولإثبات أي منها انظر حولك فقط. أين الهراوات المطاطية وأين زيت القندس؟ لايزال السيف في غمده، وطالما هو هناك لا يستطيع الفساد أن يتجاوز نقطة معينة. إن النظام الانتخابي الإنكليزي مثلاً كله خداع، لكنه صريح، وبدزينة من الطرق البينة يُقسّم إلى مناطق انتخابية لفائدة الطبقة الثرية، لكنه لا يستطيع أن يصبح فاسداً تماماً حتى يحدث تغيير عميق في عقل الشعب. أنت لا تصل إلى كشك الاقتراع لتجد رجالاً يحملون المسدسات ويأمرونك بالطريقة التي يجب أن تنتخب فيها، ولا يحصل أي خطأ في تعداد الأصوات، وليس هناك أية رشوة مباشرة. حتى الرياء حماية جبارة. إن القاضي الشناق الرجل العجوز في الرداء القرمزي والشعر المستعار الذي لا يمكنك أن تعلمه بأي قرن يعيش،

لا يقل عن الديناميت، ولكنه أيضاً يفسر القانون وفقاً للكتب، ولا يأخذ رشوة مالية بأي ظرف كان، هو واحد من الشخصيات الرمزية في إنكلترا. إنه رمز للخليط الغريب من الواقع والوهم ومن الديمقراطية والامتياز ومن الدجل والاحتشام، وهو الشبكة المصقولة من التسويات التي تحفظ الأمة بواسطتها شكلها المألوف.

٣ - لقد كنت أتكلم عن"الأمة"، "إنكلترا" كما لو أن التعامل مع خمس وأربعين مليون روح كوحدة واحدة ممكناً. لكن أليست إنكلترا أمتين، الفقراء والأغنياء؟ هل هناك من يجرؤ ويزعم بوجود أي شيء مشترك بين أناس دخلهم السنوي ١٠٠,٠٠٠ جنية في السنة وأناس دخلهم جنيه واحد في الأسبوع؟ حتى أن القراء الويلزيين والاسكتلنديين يشعرون بالإهانة لأنني أستخدم دائماً كلمة إنكلترا وليس بريطانيا، كما لو أن كل السكان استوطنوا في لندن، وليس لمقاطعات المركز ولا الشمال أو الغرب أي حضارة بحد ذاتها.

يمكن للمرء أن يرى هذه القضية بشكل أفضل، لو اهتم بالنقاط الثانوية أولاً. صحيح أن السلالات البريطانية تشعر باختلافها عن بعضها البعض، فالاسكتلندي لا يشكرك حين تناديه بالإنكليزية. نستطيع رؤية التردد الذي نحس به في هذه النقطة بحقيقة أننا نسمي جزرنا بما لا يقل عن ستة أسماء مختلفة: إنكلترا وبريطانيا وبريطانيا العظمى والجزر البريطانية والمملكة المتحدة، وفي لحظات الصفاء الكبيرة البيون. حتى الاختلافات بين الشمال والجنوب، تبدو ضخمة في عيوننا. لكن بطريقة ما تتلاشى هذه الاختلافات في اللحظة التي يتواجه فيها بريطانيان اثنان مع أوروبي. من النادر أن تقابل أجنبياً غير الأمريكي، يستطيع التمييز بين الإنكليز والاسكوتلنديين أو حتى بين الإنكليز والإيرلنديين. بالنسبة إلى الفرنسي يبدو البريتوني والأوفري كائنين مختلفين جداً، وتثير لهجة المرسيليين دعابة كبيرة في باريس. ومع ذلك نحن نتكلم عن "فرنسا" و"الفرنسيين" مقرين بفرنسا ككيان وحضارة متفردة، وهي في الواقع كذلك وكذلك نحن أيضاً. فحتى الكوكني واليوركشايري بينهما شبه عائلي قوي حين ينظر إليهما الغريب.

وحتى التمييز والفرق بين الأغنياء والفقراء يتضاءل نوعاً ما، حين ينظر المرء إلى الأمة من الخارج. ليس هناك شك في عدم التساوي في الثروة في إنكلترا. إنه أفدح من أي بلد أوروبي، وما عليك إلا أن تنظر إلى أقرب شارع إليك حتى ترى ذلك. اقتصادياً، إنكلترا أمتان بالتأكيد إن لم تكن أربعة. لكن في الوقت نفسه فإن الغالبية الواسعة من الناس يشعرون بأنهم أمة

واحدة، ويدركون التشابه فيما بينهم أكثر من تشابههم مع الأجانب. الوطنية عادة أقوى من الكره الطبقي وأقوى دائماً من أي نوع من الأممية. لم تفكر الطبقة العاملة البريطانية أو تتصرف بشكل أممي أبداً ماعدا لحظة قصيرة في عام ١٩٢٠ حركة (لا تتدخلوا في روسيا). لسنتين ونصف راقبوا رفاقهم في إسبانيا وهم يُخنقون ببطء ولم يساعدوهم ولو بإضراب واحد.[١]

لكن حين كانت بلادهم (بلاد لورد نوفيلد والسيد مونتاغ نورمان) في خطر كان موقفهم مختلفاً جداً. في اللحظة التي بدت فيها إنكلترا معرضة للغزو، ناشد أنتوني ايدن من خلال الإذاعة متطوعين محليين للدفاع، فحصل على ربع مليون رجل في الساعات الأربع والعشرين الأولى ومليون رجل آخر في الشهر التالي. يجب على المرء أن يقارن هذه الأرقام مثلاً مع عدد الرافضين للقتال، ليرى المدى الواسع لقوة الولاءات التقليدية مقارنة بالولاءات الجديدة.

في إنكلترا تأخذ الوطنية أشكالاً مختلفة في الطبقات المختلفة، لكنها تسري كخيط واصل بينها كلها. فقط طبقة المثقفين المتأوربين هي المنيعة عن ذلك. كعاطفة موجبة هي في الطبقة الوسطى أقوى مما هي عليه في الطبقة العليا - المدارس الخاصة الرخيصة مثلا، مكرسة للمظاهرات الوطنية أكثر من المدارس الغنية - لكن عدد الرجال الأغنياء الخونة على نحو واضح، أنموذج لافال - كويسلينغ، صغير ربما. الوطنية عند الطبقة العاملة عميقة، لكنها غير واعية. قلب الرجل العامل لا يثب حين يرى العلم الاتحادي. لكن "العزلة" و"الخوف من الأجانب" اللذين يشتهر بهما الإنكليز، أقوى بكثير في الطبقة العاملة منه في البورجوازية. في كل البلدان، الفقراء أكثر وطنية من الأغنياء، لكن الطبقة العاملة الإنكليزية بارزة في بغضها للعادات الأجنبية. حتى عندما يُكرهون على العيش خارج البلاد لسنوات، يرفضون أقلمة أنفسهم على الطعام الأجنبي أو تعلم اللغات الأجنبية. كل إنكليزي تقريباً أصوله من الطبقة العاملة، يعتبر لفظ كلمة أجنبية بشكل صحيح تخنثاً. أثناء حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ كانت الطبقة العاملة في تماس مع الأجانب بأدنى حد ممكن. كانت النتيجة الوحيدة أنهم جلبوا معهم كره الأوروبيين، ماعدا الألمان، الذين أعجبوا بشجاعتهم. في أربع سنوات على التراب الفرنسي لم يكتسبوا حب النبيذ. "عزلة" الإنكليز، رفضهم لأخذ الأجانب على محمل الجد،

---

١ - (صحيح أنهم ساعدوهم إلى حد معين بالمال، لكن المبلغ المجموع للصناديق المخصصة لمساعدة إسبانيا لم يكن يساوي خمسة بالمائة من دخل رهانات كرة القدم أثناء الفترة نفسها). حاشية المؤلف.

حماقة كان عليهم دفع تكلفتها غالياً من حين إلى آخر. لكنها تلعب دورها في الغموض الإنكليزي، والمثقفون الذين حاولوا تحطيمها سببوا ضرراً أكبر من الفائدة بشكل عام. في القاع إنها نفس الصفة في الشخصية الإنكليزية التي تنفر من السائح وتطرد الغازي.

هنا نعود إلى صفتين مميزتين إنكليزيتين أشرت إليهما، عشوائياً على ما يبدو، في بداية الفصل الأخير. الأولى نقص البراعة الفنية. هذه ربما طريقة أخرى للقول بأن الإنكليز خارج الثقافة الأوروبية، إذ ليس هناك سوى فن واحد أظهروا فيه وفرة من الموهبة – أقصد الأدب، لكنه أيضاً الفن الوحيد الذي لا يستطيع عبور الحدود. الأدب وخصوصاً الشعر والشعر الغنائي أغلبه نوع من المزاح العائلي، مع قيمة قليلة أو بلا قيمة خارج مجموعته اللغوية الخاصة به. ماعدا شكسبير، أفضل الشعراء الإنكليز غير معروفين في أوروبا حتى كأسماء إلا نادراً. الشعراء الوحيدون الذين تُقرأ أعمالهم على نطاق واسع هما بايرون الذي نال الإعجاب لأسباب خاطئة وأوسكار وايلد، الذي رُثي بأنه ضحية للرياء الإنكليزي. وارتبط بهذا، لكن ليس بشكل واضح جداً، نقص القدرة الفلسفية، الغياب وسط الإنكليز كلهم لأي حاجة لمنظومة فكرية مرتبة أو حتى لاستخدام المنطق.

إلى حد ما، الإحساس بالوحدة الوطنية بديل عن "رؤية عالمية". فقط لأن الوطنية عالمية تقريباً ويتأثر بها ليس الأغنياء فقط، يمكن أن تكون هناك لحظات تتمايل فيها الأمة معاً فجأة وتفعل الشيء نفسه، مثل قطيع من الماشية يواجه ذئباً. كانت هناك مثل تلك اللحظة، بوضوح، في زمن النكبة في فرنسا. بعد ثمانية أشهر من التساؤل الغامض حول السبب الذي اندلعت من أجله الحرب، عرف الناس فجأة ما يجب عليهم أن يفعلوه: أولاً، ترحيل الجيش من دونكيرك، وثانياً منع الغزو. كانت مثل يقظة عملاق. أسرع! خطر! الفلسطينيون فوقك يا شمشون! ثم بعد ذلك العمل الجماعي السريع – و، من ثم، واأسفاه، الارتداد العاجل إلى النوم. في أمة مقسومة كان ذلك بمقدوره أن يكون اللحظة المناسبة من أجل نهوض حركة سلام كبيرة. لكن هل هذا يعني أن غريزة الإنكليز ستخبرهم بفعل الشيء الصحيح دائماً؟ لا إطلاقاً. هي ستخبرهم بفعل الشيء عينه. في الانتخاب العام لسنة ١٩٣١ مثلاً فعلنا كلنا الشيء الخطأ في انسجام تام، وكنا عنيدين مثل خنزير إدارين، لكنني أشك بصدق إن كنا نستطيع القول بأننا دُفعنا إلى أسفل المنحدر دون رغبة منا.

هذا يؤدي إلى أن الديمقراطية البريطانية أقل من الخداع الذي تظهر به أحياناً. لا يرى المراقب الأجنبي سوى عدم المساواة الهائل في الثروة والنظام الانتخابي غير العادل وسيطرة الطبقة الحاكمة على الصحافة والإذاعة والتعليم، ويستنتج بأن الديمقراطية مجرد اسم مهذب للديكتاتورية. لكن هذا يتجاهل الاتفاق المهم الموجود لسوء الحظ بين القادة والمنقادين. مهما كره المرء أن يعترف به، من المؤكد تقريباً أن بين ١٩٣١ و١٩٤٠ مثلت الحكومة الوطنية إرادة الجمهور الكبير من الشعب. لقد تسامحت مع الأحياء الفقيرة، والبطالة والسياسة الخارجية الجبانة. نعم، لكن هكذا فعل الرأي العام. كانت فترة ركود، وقادتها الطبيعيون كانوا معتدلي القدرة.

رغم الحملات لبضعة آلاف من الأجنحة اليسارية، من المؤكد تماماً أن السواد الأعظم من الشعب الإنكليزي كان خلف سياسة تشامبرلاين الخارجية بل أكثر، من المؤكد تماماً أن نفس الصراع كان دائراً في ذهن تشامبرلاين كما في أذهان الناس العاديين. قبل خصومه بأن يروا فيه مخططاً مراوغاً غامضاً يتآمر لبيع إنكلترا إلى هتلر، لكنه على الأرجح كان مجرد عجوز غبي بذل أقصى جهده وفقاً لأضوائه الباهتة جداً، وإلا من الصعب تفسير تناقضات سياسته وفشله في إدراك المسارات التي كانت مفتوحة له. مثل الجمهور الأكبر من الشعب، لم يرد أن يدفع ثمن السلام أو الحرب أيضاً، وكان الرأي العام خلفه كل الفترة، في سياسات كانت متضاربة تماماً. كان خلفه حين ذهب إلى ميونيخ، وحين حاول أن يصل إلى تفاهم مع روسيا، وحين أعطى الضمانة لبولندا، وحين كرمها، وحين أدان الحرب بصورة ضعيفة ومترددة. فقط حين أصبحت نتائج سياسته ظاهرة وانقلبت ضده؛ أي أنها انقلبت ضد سباتها في السنين السبع الماضية، اختار الشعب بناء عليه قائداً أقرب إلى مزاجه، تشرشل، الذي كان قادراً بأي حال أن يدرك بأن الفوز في الحروب لا يتم بدون قتال. ربما سيختار الشعب قائداً آخر لاحقاً يستطيع أن يدرك أن الأمم الاشتراكية فقط هي التي تستطيع القتال بشكل فعال.

هل أقصد من كل هذا بأن إنكلترا ديمقراطية أصيلة؟ كلا، ولا حتى قارئ الديلي تيلغراف يستطيع ابتلاع ذلك تماماً.

إنكلترا هي الدولة المريضة بالطبقية الأكثر تحت الشمس. إنها بلد التكبر والامتياز، محكومة بالعجزة والسخيفين. لكن في أي حساب حولها، يجب على المرء أن يأخذ في اعتباره وحدتها العاطفية، نزعة كل ساكنيها للشعور بالتشابه والعمل معاً في لحظات أزمة كبرى. إنها

البلاد الوحيدة في أوروبا التي ليست مجبرة أن تسوق مئات الآلاف من مواطنيها إلى المنفى أو معسكرات الاعتقال. في هذه اللحظة، سنة تلو أخرى، صحف وكراريس تسيء للحكومة، تمدح العدو وتطالب بالاستسلام تُباع في الشوارع، بدون تدخل تقريباً. وهذا ليس مجرد إدراك لأهمية هذه الأشياء، وإنما هو احترام لحرية التعبير في المقام الأول. من الآمن أن تدع صحيفة مثل بيس نيوز تباع، لأنه من المؤكد أن خمسة وتسعين بالمائة من السكان لن يرغبوا في قراءتها. الأمة مرتبطة معاً بسلسلة خفية. في أي وقت عادي الطبقة الحاكمة تسرق وتسيء الإدارة وتخرب وتقودنا إلى الدرك الأسفل؛ لكن لندع الرأي يكون مسموعاً، ولندعهم (الطبقة الحاكمة) يتعرضون لشد قوي من الأسفل بأنهم لا يستطيعون التغاضي عن الشعور، وأنه من الصعب عليهم ألا يستجيبوا. كتاب اليسار الذين اتهموا وشجبوا الطبقة الحاكمة كلها بأنها "مناصرة للفاشية"، بالغوا في تبسيط الأمور لدرجة مقززة. حتى وسط الزمرة الداخلية من السياسيين الذين أوصلونا إلى مأزقنا الحالي، من المشكوك فيه أنهم كانوا خونة متعمدين. الفساد الذي يحدث في إنكلترا نادر شبيهه. هو دائماً تقريباً نوع من طبيعة خداع الذات ومن اليد اليمنى التي لا تعرف ماذا فعلته اليد اليسرى. وكونه غير مقصود، هو محدود. يرى المرء هذا في أجلى صوره في الصحافة الإنكليزية. هل الصحافة الإنكليزية صادقة وأمينة أم كاذبة ومضللة؟ في الأوقات العادية هي ضليعة في الكذب والتضليل. كل الصحف المهمة تقتات على إعلاناتها، ويمارس المعلنون رقابة غير مباشرة على الأخبار. لكنني مع ذلك لا أعتقد بوجود صحيفة واحدة في إنكلترا يمكن أن تُرشى بالمال العيني بشكل صريح. في فرنسا الجمهورية الثالثة كان من الممكن شراء الصحف كلها ما عدا القليل بطريقة شائنة وفوق الطاولة مثل باوندات من الجبنة. الحياة العامة في إنكلترا لم تكن مخزية علناً وعلى المكشوف أبداً. لم تصل إلى درجة التفسخ التي يمكن للخداع فيها أن يُمرر بلا حساب.

إنكلترا ليست الجزيرة المزينة بالحلي التي تجدها في رسالة شكسبير وتُقتبس كثيراً، ولا الجحيم الذي صوره الدكتور غوبلز. هي أكثر من كليهما، وتشبه عائلة أو بالأحرى عائلة فيكتورية تقليدية، لكن بدون خراف سوداء كثيرة فيها، وإنما مع كل خزنها الطافحة بالهياكل العظمية. لديها علاقات ثرية يجب أن يُسجد لها وعلاقات فقيرة يُرثى لها بشكل رهيب، وهناك مؤامرة عميقة من الصمت حول مصدر الدخل العائلي. إنها عائلة الصغار، فيها عموماً

معاقون ومحبطون وجلّ السلطة بأيدي الأعمام والأخوال غير المسؤولين والعمات والخالات طريحات الفراش. لكنها تظل عائلة. لها لغتها الخاصة وذكرياتها المشتركة، وعند اقتراب العدو تغلق صفوفها. عائلة يسيطر عليها الأفراد الخطأ - ذلك ربما أقرب ما يستطيع المرء أن يصل في وصف إنكلترا في عبارة واحدة.

٤ - ربما جرى الفوز بمعركة واترلو في على ملاعب ايتون، ولكن خسارة كل المعارك الافتتاحية للحروب اللاحقة تمت هناك. كانت إحدى الحقائق المهيمنة على الحياة الإنكليزية في ثلاثة أرباع القرن الماضي، هي انحطاط قدرة الطبقة الحاكمة الذي حدث بسرعة التفاعل الكيمائي في الفترة بين ١٩٢٠ و١٩٤٠. لكن حتى زمن هذه الكتابة من الممكن القول إن الطبقة الحاكمة الإنكليزية مثل سكين لها شفرتان جديدتان وثلاثة مقابض جيدة؛ الحافة العليا من المجتمع الإنكليزي لا تزال كما كانت في منتصف القرن التاسع عشر. بعد عام ١٨٣٢ فقدت الطبقة الأرستقراطية القديمة المالكة للأرض سلطتها، لكنها بدلاً من الاختفاء أو التحول إلى مستحاثة، اختلطت ببساطة مع التجار والصناعيين والماليين الذين حلوا محلها وحولتهم فوراً إلى نسخ دقيقة عن نفسها. إذ نصّب مالك السفن الثري أو صاحب معمل القطن نصب نفسه سيداً ريفياً، بينما تعلم أبناؤه حق التأنق في المدارس الخاصة التي صُممت لأجل ذلك الغرض. حُكمت إنكلترا من قبل أرستقراطية تُجند دائماً من حديثي النعمة، ونظراً للطاقة التي يملكها هؤلاء الرجال العصاميين ونظراً لأنهم كانوا يشترون طريقهم إلى طبقة لها تقليد في الخدمة العامة بأي ثمن، كاد المرء أن يتكهن بأن الحكام القادرين يُمكن أن يُحدثوا بطريقة كهذه.

ولكن الطبقة الحاكمة فسدت رغم ذلك، فقدت قدرتها وجرأتها وأخيراً قسوتها أيضاً، حتى أتى وقت استطاعت فيه القمصان المكوية المنشاة مثل ايدين أو هاليفاكس أن يبرزا كرجلين ذوي مواهب استثنائية. بالنسبة إلى بولدوين، لا يستطيع المرء أن يبجله حتى بقميص محشو. كان مجرد ثقب في الهواء. سوء معالجة المشاكل الداخلية في إنكلترا أثناء عشرينات القرن العشرين كان متردياً بما يكفي، لكن سياسة بريطانيا الخارجية بين ١٩٣١و١٩٣٩ كانت إحدى أعاجيب العالم. لماذا؟ ماذا حدث؟ ما الذي يجعل كل لحظة حاسمة تجعل كل رجل دولة بريطاني يقوم بالشيء الخطأ بغريزة معصومة جداً؟

الحقيقة الضمنية، هي أن موقع الطبقة المالية، لم يعد له أي مبرر منذ زمن طويل. هناك جلس أفراد تلك الطبقة، في مركز إمبراطورية شاسعة وشبكة مالية عالمية يستجرون الفوائد والأرباح وينفقونها - على ماذا؟ من المناسب القول إن الحياة ضمن الإمبراطورية البريطانية، كانت أفضل من الحياة في خارجها بأشكال كثيرة. لكن الإمبراطورية كانت متخلفة، فالهند نائمة في العصور الوسطى، والسيادة البريطانية على المستعمرات تركت فارغة مع أجانب حُظر عليهم الحكم، وحتى إنكلترا نفسها كانت مملوءة بالأحياء القذرة الفقيرة وبالبطالة. نصف مليون شخص فقط، أولئك الناس في البيوت الريفية، الذين استفادوا من النظام القائم. إضافة إلى ذلك، ميل المشاريع التجارية الصغيرة للاندماج في مشاريع أكبر، سرق أكثر فأكثر من أفراد الطبقة المالية وظيفتهم وحوّلهم إلى مجرد مالكين، عملهم يقوم لهم به مدراء وفنيون برواتب، أناس آخرون لقاء رواتب. لوقت طويل ظلت هناك طبقة لا وظيفة لها نهائياً في إنكلترا، تعيش على المال المستثمر وقلما عرفت مكانه، "الأثرياء الكسالى" الناس الذين يمكنك النظر إلى صورهم الفوتوغرافية في تاتلر وبايستاندر، يفترضون دائماً بأنك راغب في ذلك. كان وجود هؤلاء الناس غير مبرر بأي مقياس. كانوا مجرد طفيليين، أقل نفعاً للمجتمع من نفع براغيثهم لكلب.

في عام ١٩٢٠ كان هناك الكثير من الناس الذين أدركوا كل هذا، وفي عام ١٩٣٠ أصبحوا ملايين، لكن من الواضح أن الطبقة الحاكمة البريطانية لم تعترف لنفسها بأن نفعها لم يبق منه شيء، ولو أنها فعلت ذلك لتنازلت عن السلطة. لأنه من غير الممكن لأفرادها أن يحولوا أنفسهم إلى مجرد قطاع طرق، مثل المليونيريين الأمريكيين، الذين تشبثوا عمداً بامتيازاتهم غير الجائرة، وأقنعوا المعارضة بالرشوة والقنابل الغازية. أخيراً، هم انتموا إلى طبقة ذات تقاليد محددة وارتادوا المدارس الخاصة حيث الموت من أجل بلادك واجب إن كان ضرورياً، ويُعتبر أول وأهم الوصايا. كان عليهم أن يشعروا بأنهم مواطنون حقيقيون حتى حين ينهبون أبناء بلدهم. من الواضح وجود مفر واحد لهم - إلى الغباوة. استطاعوا إبقاء المجتمع في شكله القائم لأنهم عجزوا عن إدراك إمكانية التحسين. رغم صعوبة هذا، فقد أنجزوه إلى حد كبير، وذلك بتثبيت أعينهم على الماضي، ورفض ملاحظة التغييرات التي كانت تجري في كل العالم.

هذا يفسر الكثير في إنكلترا. إنه يفسر اضمحلال الحياة في الريف، بسبب الإبقاء على النظام الإقطاعي المزيف الذي أبعد العمال الأكثر نشاطاً عن الأرض، ويفسر أيضاً جمود المدارس الخاصة التي قلما تبدلت منذ ثمانينات القرن الماضي. إنه يفسر العجز العسكري الذي أذهل العالم مرة تلو أخرى؛ فمنذ الخمسينات، كل حرب تورطت فيها إنكلترا، كانت تبدأ بسلسة من النكبات، ثم يُنقذ الوضع بعد ذلك بواسطة أناس دونيين نسبياً في السلم الاجتماعي، فكبار القادة المأخوذين من الطبقة الأرستقراطية، لم يستطيعوا أبداً التحضير لحرب حديثة، لأنهم لكي يفعلوا هذا يتوجب عليهم الاعتراف لأنفسهم بأن العالم كان يتغيّر. ظلوا يتمسكون دائماً بوسائل وأسلحة مهجورة، لأنهم رؤوا كل حرب أمراً محتوماً، نسخة عن سابقتها. قبل حرب البوير حضروا لحرب الزولو، قبل حرب ١٩١٤ لحرب البوير، وقبل الحرب الحالية لحرب ١٩١٤ لكن في هذه اللحظة مئات الآلاف من الرجال في إنكلترا يدربون على الحربة، ذلك السلاح القيم تماماً ماعدا لفتح المعلبات. يجدر الملاحظة بأن البحرية ومؤخراً القوة الجوية، كانت دائماً أكثر كفاءة من الجيش النظامي. لكن البحرية كانت جزئياً فقط، والقوة الجوية نادرة تماماً، ضمن فلك الطبقة الحاكمة.

يجب الاعتراف أن الأشياء طالما كانت سلمية، فإن أساليب الطبقة الحاكمة البريطانية تخدمها بشكل مقبول. شعبها كان يتحملها على ما يبدو. مهما كان جائراً الشكل الذي نُظّمت فيه إنكلترا، فإنها لم تكن في كل الأحوال منطقة تمزقها حرب طبقية أو تلازمها الشرطة السرية. كانت الإمبراطورية هادئة كما لم تكن منطقة بحجم مشابه لها أبداً. عبر امتدادها الواسع، تقريباً ربع الأرض، كان هناك عدد من الرجال المسلحين أقل مما يتوجب وجوده في دولة البلقان. كناس يحكمون، وبالنظر إليهم من نقطة استشراف ليبرالية سلبية، حققت الطبقة الحاكمة الإنكليزية نقاطاً لصالحها. فقد كان أفرادها مفضلين على الرجال العصريين الحقيقيين، النازيين والفاشيين. لكن بات واضحاً ومنذ زمن بعيد بأنهم سيكونون عاجزين ضد أي هجوم خطير من الخارج.

لم يستطيعوا النضال ضد النازية أو الفاشية، لأنهم لم يستطيعوا فهمهما، وكذلك لم يكن بمقدورهم النضال ضد الشيوعية كذلك، لو كانت الشيوعية قوة خطرة في أوروبا الغربية. لكي يفهموا الفاشية، كان يجدر بهم أن يدرسوا النظرية الاشتراكية، التي كانت ستجبرهم

على إدراك أن النظام الاقتصادي الذي يعيشون فيه جائر وغير كفؤ وخارج التاريخ. لكن هذه كانت الحقيقة بالضبط التي دربوا أنفسهم على ألا يواجهوها أبداً. تعاملوا مع الفاشية كما تعامل جنرالات سلاح الفرسان لسنة ١٩١٤مع البنادق الآلية - بتجاهلها. بعد سنوات من العدوان والمذابح، لم يستوعبوا سوى حقيقة واحدة، بأن هتلر وموسوليني كان معاديين للشيوعية. لذلك نُوقش الأمر وتوصلوا بأنهما يجب أن يكونا صديقين لساحب الحصص البريطاني. لذلك المشهد المرعب حقيقة لأعضاء البرلمان المحافظين المهللين لخبر تعرض السفن البريطانية التي كانت تجلب الطعام لحكومة الجمهورية الإسبانية، للقصف من قبل الطائرات الإيطالية. حتى حين بدؤوا يدركون خطورة الفاشية، ظل جوهر طبيعتها الثورية والجهد العسكري الضخم التي تقدر على صنعه ونوع التكتيك الذي ستستخدمه، أبعد من فهمهم. في زمن الحرب الأهلية الإسبانية، عرف كل واحد ملمّ بمعرفة سياسية بالقدر الذي يمكن اكتسابه من كراسة رخيصة عن الاشتراكية، بأنه لو فاز فرانكو، فستكون النتيجة كارثية بالنسبة إلى إنكلترا. ورغم ذلك الجنرالات والأدميرالات الذي وهبوا حياتهم لدراسة الحرب، عجزوا عن أن يفهموا هذه الحقيقة. وريد الجهل السياسي يسري في الحياة الرسمية الإنكليزية، عبر وزراء المجلس والسفراء والقناصل والحكام والقضاة ورجال الأمن. رجل الأمن الذي يعتقل "الحمر" لا يفهم النظريات التي يبشر بها "الحمر"؛ ولو قام بعمله كحارس للطبقة المالية، لبدت له أقل إمتاعاً. يوجد مبرر للتفكير بأن التجسس العسكري نفسه معاق بشكل ميئوس منه بواسطة جهل العقائد الاقتصادية الجديدة وتشعب الأحزاب السرية.

لم تكن الطبقة الحاكمة الإنكليزية مخطئة تماماً في الاعتقاد بأن الفاشية كانت إلى جانبها. الحقيقة أن أي رجل غني، إن لم يكن يهودياً، لديه خوف من الفاشية أقل من خوفه من الشيوعية أو الديمقراطية الاشتراكية. ينبغي ألا ينسى المرء هذا، لأن كل الدعاية الألمانية والإيطالية تقريباً مصممة لتغطيتها. الغريزة الطبيعية لرجال مثل سايمون، هاور، تشامبرلاين..إلخ، كانت ستتوصل إلى اتفاق مع هتلر. لكن - تدخلت هنا الميزة الخاصة الغريبة للحياة الإنكليزية التي تكلمت عنها، الإحساس العميق بالتضامن الوطني - لم يستطيعوا أن يفعلوا هذا إلا بتفتيت الإمبراطورية وبيع شعبهم إلى شبه عبودية. طبقة فاسدة حقيقية كانت ستفعل ذلك بدون تردد كما في فرنسا. لكن الأشياء لم تصل إلى ذلك المدى في

إنكلترا. من النادر أن يوجد السياسيون الذين سيلقون خطابات تملقية حول "واجب الولاء لفاتحينا" في الحياة العامة الإنكليزية. مترددين بين دخولهم ومبادئهم، كان من المستحيل على رجال مثل تشامبرلاين أن يفعلوا أي شيء، سوى أن يقرروا الأسوأ من كلا العالمين.

الشيء الوحيد الذي يبين دائماً بأن الطبقة الحاكمة الإنكليزية سليمة أخلاقياً بشكل مقبول، هو استعدادها الكامل لأن تُقتل في زمن الحرب. قُتل الكثير من أفرادها من أدواق وايرلات والذين بلا ألقاب في حملات حديثة في فلاندرز. ذلك لم يكن يحدث لو أن هؤلاء الناس كانوا الأنذال الكلبيين كما اتهموا علناً أحياناً. من المهم ألا يُساء فهم دوافعهم، وإلا لن يستطيع المرء التنبؤ بأفعالهم. لم يكن المتوقع منهم خيانة أو جبناً بدنياً، وإنما غباوة وتخريب غير مقصود وغريزة لا تخطئ لفعل الأشياء الخطأ. هم ليسوا أشراراً، أو ليسوا أشراراً بالكامل؛ هم غير قادرين على التعلم فقط. عندما تزول أموالهم وسلطتهم، فقط سيدرك الصغار منهم بأي قرن يعيشون.

٥ - أثّر ركود الإمبراطورية في فترة ما بين الحربين على كل واحد في إنكلترا، لكن هذا التأثير كان مباشراً على شريحتين فرعيتين هامتين من الطبقة الوسطى بشكل خاص. الأولى الطبقة الوسطى العسكرية والإمبريالية، الملقبة عموماً بالبليمبس، والثانية مثقفو الجناح اليساري. هذان النموذجان المتخاصمان، نقيضان رمزيان - الكولونيل بمرتبه الزهيد ورقبته الضخمة كرقبة ثور ودماغه الشديد الصغر، مثل ديناصور، والمثقف بجبينه المقبب ورقبته الرفيعة كقصبة مرتبطان معاً عقلياً ويؤثران على بعضهما البعض دائماً، في كافة الأحوال هما مولودان في نفس العائلات إلى درجة مهمة.

كانت طبقة البليمبس تفقد حيويتها قبل ثلاثين سنة. كانت عائلات الطبقة الوسطى التي مجدها كيبلينغ، العائلات ذات الثقافة البسيطة الخصبة التي قاد أبناؤها الجيش والبحرية واندفعوا كالجراد في كل أرجاء الأماكن الخاوية في الأرض من يوكون إلى ايراوادي، تتضاءل قبل عام ١٩١٤. الشيء الذي قتلهم كان التلغراف. في عالم يضيق، ويخضع أكثر فأكثر للتحكم من الوايتهول (الحكومة)، ضاقت فيه الفرص بوجه المبادرات الفردية سنة تلو أخرى. فلم يجد رجال مثل كلايف وويلسون ونيكلسون وغوردون مكاناً لهم في الإمبراطورية البريطانية الحديثة. في عام ١٩٢٠ كانت كل بوصة

من الإمبراطورية الكولونيالية في قبضة الوايتهول (الحكومة). رجال متمدنون جداً ونواياهم حسنة، في بدلات سوداء وقبعات لبادية سوداء، ومظلات ملفوفة بأناقة عقفت فوق أذرعهم اليسرى، كانوا يفرضون رؤيتهم المصابة بالإمساك في الحياة على مالايا ونيجيريا وموميازا وماندالي. وتحول بناة الإمبراطورية السابقين إلى مجرد كتبة، طُمروا تحت أكوام من الورق والشرائط الحمر. في العشرينات كان المرء يرى في كل أرجاء الإمبراطورية الموظفين الكبار الذين عرفوا أياما أكثر ترفاً، وهم يتلوون تحت التغيرات التي كانت تحدث. منذ ذلك الوقت فصاعداً، كان من شبه المستحيل أن تُقنع الشباب النشيطين في المشاركة في إدارة الإمبريالية. وما هو صحيح في عالم الموظفين، صحيح أيضاً في عالم التجارة. ابتلعت الشركات الاحتكارية الكبرى جموع التجار الصغار. بدلاً من الخروج إلى الأنديز ليتاجروا بجرأة، دخلوا إلى مكتب في بومباي أو سنغافورة. والحياة في بومباي أو سنغافورة كانت عملياً أكثر بلادة وأماناً من الحياة في لندن. العاطفة الإمبريالية ظلت قوية بالطبقة الوسطى، ويعود ذلك إلى التقليد العائلي بشكل أساسي، لكن وظيفة إدارة الإمبراطورية لم تعد جذابة. قلة من الرجال فقط ذهبوا إلى شرق السويس، حين لم يكن تفادي ذلك ممكناً بأي شكل.

لكن الإضعاف العام للإمبريالية وكل المعنويات البريطانية إلى درجة ما الذي حدث في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كان من فعل الطبقة المثقفة اليسارية جزئياً، ونوع من التطور تبرعم من ركود الإمبراطورية.

يجب أن يُلاحظ الآن انعدام وجود أي طبقة مثقفة ليست "يسارية" بشكل ما. ربما كان آخر مثقف من الجناح اليميني تي أي لورانس. منذ عام ١٩٣٠ تقريباً كل واحد يُوصف بـ"مثقف" يعيش في حالة من السخط المزمن من النظام القائم. وهكذا بالضرورة، لأن المجتمع بالشكل الذي نشأ فيه، لم يترك مكاناً له. في إمبراطورية راكدة لا تتطور ولا تتداعى، وفي إنكلترا يحكمها أشخاص رصيدهم الرئيسي غباءهم، كان الذكاء شبهة. لو كان لديك عقل يستطيع أن يفهم قصائد تي إس إيليوت أو نظريات كارل ماركس، سيعتبرونك من في القمة شخصاً يجب أن يُقصى عن أي وظيفة هامة، لذلك لم يجد المفكرون عملاً لهم إلا في المراجعات الأدبية النقدية وفي أحزاب اليسار السياسية.

يمكن دراسة عقلية طبقة المثقفين اليساريين الإنكليز في نصف دزينة من الصحف الأسبوعية والشهرية. الشيء اللافت على الفور حول هذه الصحف سلبيتها العامة والموقف الخلافي والانعدام التام وفي كل الأوقات لأي مقترح بناء. يوجد القليل فيها ماعدا الانتقاد غير المسؤول للناس الذين لم يكونوا من أصحاب المناصب في السلطة أو لن يكونوا أبداً. صفة مميزة أخرى بارزة، وهي الضحالة العاطفية للناس الذين يعيشون في عالم من الأفكار، وليس لديهم سوى القليل من الاتصال بالواقع المادي. الكثير من مثقفي اليسار كانوا سلميين مترهلين حتى عام ١٩٣٥، يصرخون من أجل الحرب ضد ألمانيا في السنوات ١٩٣٥ - ١٩٣٩ وهدأوا فجأة حين بدأت الحرب. من الصحيح وعلى نطاق واسع ولكن ليس دقيقاً، أن الناس الذين كانوا الأشد عداوة للفاشيين خلال الحرب الأهلية الإسبانية، هم الآن الأكثر انهزامية. وضمن هذا تنطوي حقيقة هامة حول الكثيرين جداً من الطبقة المثقفة الإنكليزية - انفصالهم عن الثقافة الشعبية العامة للبلاد.

لكن على أي حال، تأورب أفراد الطبقة المثقفة الإنكليزية في النوايا. أخذوا طبخهم من باريس وآراءهم من موسكو، أما في الوطنية العامة للبلاد، فقد شكلوا نوعاً من جزيرة من الفكر المنشق. ربما إنكلترا هي البلاد العظيمة الوحيدة التي يخجل مثقفوها من قوميتهم وجنسيتهم. في دوائر اليسار، هناك شعور دائم بأن هناك شيئاً مخزياً في كونك إنكليزياً، ويجب أن تسخر من كل عادة إنكليزية، من سباق الخيل إلى الحلويات الدهنية. إنها حقيقة غريبة، ولكنها صحيحة بلا ريب، ويشعر كل مثقف إنكليزي تقريباً بالخجل من الوقوف باستعداد أثناء "حفظ الرب الملك" أكثر من سرقة صندوق للفقراء. في كل السنوات الحرجة، كان الكثير من اليساريين يقضمون بالمعنويات الإنكليزية ويوهنونها محاولين نشر نظرة كانت سلمية بشكل مهروس أحياناً وأحياناً أخرى مؤيدة للروس بشكل عنيف، لكنها معادية دائماً للبريطانيين. قد يُشكك بدرجة التأثير، لكن التأثير ذاته مؤكد. لقد عانى الإنكليز من إضعاف حقيقي للمعنويات لعدد من السنوات، لذلك قدّرت الأمم الفاشية وحكمت بأنهم "منحطين" وأن خوض الحرب أمر آمن ومضمون، وكان التخريب الثقافي الذي سببه اليسار مسؤولاً عن ذلك جزئياً. كلتاهما نيوستيتمان ونيوزكرونيكل صرختا ضد تسوية ميونيخ، حتى لو كانتا قد فعلتا شيئاً لتحقيقها. عشر سنوات من إغواء البليمب (الضباط القدماء)

أصابت حتى البليمب أنفسهم وصعّبت أكثر من قبل أمر تهيئة شاب للانضمام إلى القوات المسلحة. بسب ركود الإمبراطورية، يفترض بالطبقة الوسطى العسكرية أنها فسدت في كافة الأحوال، لكن انتشار اليسارية الضحلة عجّل بالعملية.

من الواضح أن الموقف الخاص للمثقفين الإنكليز أثناء السنوات العشر الماضية، كمخلوقات سلبية تماماً وكمجرد معادين للبليمب، كان منتجاً جانبياً لغباء الطبقة الحاكمة. لم يستطع المجتمع الاستفادة منهم، ولم يدركوا ليروا بأن إخلاص المرء وتفانيه لوطنه شيء لا يتغير ضمنياً. كلاهما المثقفون والبليمبز سلّما بديهياً، كما لو كان قانوناً طبيعياً، بالطلاق بين الوطنية والذكاء. إن كنت وطنياً فأنت تقرأ مجلة بلاكوود وتحمد الرب علناً بأنك "لست ذكياً". إن كنت مثقفاً فأنت تسخر من العلم البريطاني وتعتبر الشجاعة البدنية بربرية. من الواضح أن هذا العرف المنافي للعقل والطبيعة لا يستطيع الاستمرار. مثقف بلومزبيري مع قهقهته الآلية، هو عتيق وبالٍ مثل الكولونيل في سلاح الفرسان. الأمة الحديثة لا تستطيع أن تتحمل أياً منهما. الوطنية والذكاء يجب أن يتعاونا مرة أخرى. الواقع أننا نخوض حرباً وحرباً من النوع الغريب جداً، الذي قد يجعل هذا ممكناً.

٦ - أحد أهم التطورات المهمة في إنكلترا خلال السنوات العشرين الماضية، كان المد الصاعد والنازل للطبقة الوسطى الذي حدث بوتيرة كبيرة، جعلت التصنيف القديم للمجتمع إلى رأسمالي وبروليتاري وبورجوازي صغير (أصحاب الملكيات الصغيرة) مهملاً وعتيقاً تقريباً.

إنكلترا بلاد تتركز فيها الملكية والقوة المالية في أيد قليلة جداً. قلة من الناس في إنكلترا الحديثة لا يملكون أي شيء إطلاقاً سوى ثياب وأثاث وربما بيت. لقد اختفى الفلاحون منذ زمن بعيد، وتلاشى أصحاب المتاجر المستقلون، وتناقص عدد رجال الأعمال الصغار. لكن بنفس الوقت فالصناعة الحديثة معقدة جداً، لذلك لا تستطيع البقاء حية دون أعداد عظيمة من المدراء والباعة والمهندسين والكيميائيين والتقنيين من كافة الأنواع، الذي ينالون مرتبات كبيرة. وهذا بدوره استدعى وجود طبقة مهنية من الأطباء والمحامين والمعلمين والفنانين.. إلخ.. إلخ. لذلك كان ميل الرأسمالية المتقدمة نحو توسيع الطبقة الوسطى، وليس مسحها، كما بدا كفعل محتمل في الماضي.

لكن الأهم من هذا هو انتشار أفكار الطبقة الوسطى وعاداتها وسط الطبقة العاملة. الطبقة العاملة البريطانية الآن أغنى وأكثر راحة في كل الأشكال تقريباً مما كانت عليه قبل ثلاثين سنة. هذا بسبب جهود النقابات جزئياً والتقدم في العلوم الطبيعية جزئياً. لم يُدرك دائماً أنه ضمن حدود قصوى ضيقة، يمكن لمستوى الحياة في البلاد أن يرتفع دون ارتفاع متماثل ومواز في الأجور الحقيقية. إلى حد ما، تستطيع الحضارة رفع نفسها بواسطة بيانات صناديقها. لكن بعض التقدم التقني في مجالات محددة ملزم بتقديم النفع لكل الجماعة في المجتمعات المنظمة على نحو غير عادل، لأن أنواعاً معينة من البضائع تبقى بالضرورة مشتركة. فالمليونير مثلاً، لا يستطيع أن ينير الشوارع لنفسه ويتركها مظلمة للناس الآخرين. كل مواطني البلدان المتحضرة تقريباً ينعمون باستخدام طرق جيدة ومياه خالية من الجراثيم وحماية الشرطة ومكتبات مجانية وربما نوع من التعليم المجاني. التعليم العام في إنكلترا كان يعاني من افتقاره للمال، لكنه تحسن رغم ذلك، وإلى حد كبير بسبب جهود المعلمين المخلصة وعادة المطالعة التي أصبحت أوسع انتشاراً. فالغني والفقير يقرآن نفس الكتب ويشاهدان نفس الأفلام ويستمعان إلى نفس البرامج الإذاعية بشكل هائل وبدرجة متزايدة، كما قلّت الفروق بين طرق معيشتهم بفضل إنتاج الجملة للثياب الرخيصة وللتحسينات في الإسكان. وفيما يتعلق بالمظهر الخارجي، باتت ثياب الغني والفقير، خصوصاً في حالة النساء، تختلف بصورة أقل بكثير عما كانت عليه قبل ثلاثين أو خمسة عشر سنة. بالنسبة إلى الإسكان، لا تزال هناك أحياء قذرة مكتظة فقيرة في إنكلترا وهي وصمة عار على جبين الحضارة، لكن خلال السنوات العشر الأخيرة، تم بناء الكثير من المساكن جلها بواسطة السلطات المحلية. بيت الجمعية الحديث، بحمامه وإضاءته الكهربائية، أصغر من دارة سمسار البورصة، لكن كما هو واضح، ليس من نفس نوع كوخ عامل المزرعة. على الأرجح أو في الحقيقة، من الجلي أن يكون موقف الشخص الذي تربى في عقار جمعية سكنية مماثلاً لموقف الطبقة الوسطى أكثر من الشخص الذي تربى في حي فقير.

أثّر هذا كله في تليين عام لآداب السلوك الذي تعزز بحقيقة أن الأساليب الصناعية الحديثة تميل دوماً إلى طلب جهد عضلي أقل، ولذلك إلى ترك الناس بطاقة أكبر حين ينجزون عملهم اليومي. كثير من عمال الصناعات الخفيفة هم في الحقيقة عمال يدويون أقل من الطبيب أو البقال. في الأذواق والعادات وآداب السلوك ووجهة النظر كانت الطبقة العاملة والطبقة الوسطى

تتقاربان معاً. الفروق غير العادلة تبقى، لكن الاختلافات الرئيسية تقلّ. النمط القديم البروليتاري - بلا قبة وغير حليق الذقن مع عضلات مفتولة بالعمل المجهد - لا يزال موجوداً، لكنه يتناقص عددياً باستمرار؛ ويسود فقط في مناطق الصناعة الثقيلة في شمال إنكلترا.

بعد عام ١٩١٨ بدأ هناك ظهور شيء لم يكن موجوداً في إنكلترا من قبل قط: أناس من طبقة اجتماعية غير محددة. في ١٩١٠ في هذه الجزر كان بالإمكان تحديد منزلة كل كائن بشري في لحظة من ثيابه وسلوكه ولهجته. لم يعد الوضع كذلك. أولاً لم يعد الوضع في المناطق الإدارية الجديدة التي تطورت نتيجة السيارات الرخيصة والانتقال الصناعي باتجاه الجنوب. إن المكان الذي يجب البحث فيه عن بذور المستقبل، هو في مناطق الصناعة الخفيفة وعلى طول الطرق الشريانية. في سلو وداغنهام وبارنيت وليتشويرث وهيز - في كل مكان في الحقيقة، في ضواحي المدن الكبرى - النموذج القديم يتبدل تدريجياً إلى شيء جديد. في تلك البراري الجديدة الشاسعة من الزجاج والقرميد، لم يعد هناك وجود للفروق الحادة للنوع الأقدم من المدن بأحيائها القذرة وقصورها الفخمة، أو في الريف، بقصور مالكي العزب والأكواخ الحقيرة. هناك تدرج واسع في الدخل، لكن نوع الحياة المعاشة نفسه في مستويات مختلفة، في شقق التوفير العمالية أو في بيوت الجمعية، بموازاة الطرق الإسمنتية وفي الديمقراطية الصريحة لبرك السباحة. إنها حياة تخلو من الثقافة والطمأنينة نوعاً ما، تترَكز حول الطعام المعلب، ومسند الصور والراديو ومحرك الاحتراق الداخلي. إنها حضارة يكبر فيها الأطفال بمعرفة أساسية للمولدات المغناطيسية وجهل تام للكتاب المقدس. إلى تلك الحضارة ينتمي الناس المرتاحون جداً في العالم الحديث، ومنهم بدون أدنى شك، التقنيون والعمال المهرة ذوو الأجور العالية وملاحو الجو وميكانيكيوهم وخبراء الراديو ومنتجو الأفلام والصحفيون الشعبيون والكيميائيون الصناعيون. هم طبقة غير محددة، بدأت الامتيازات الطبقية للكبار فيها بالتوقف.

هذه الحرب، إن لم نُهزم، ستكنس أغلب الامتيازات الطبقية القائمة، ففي كل يوم يقلّ عدد الناس الذين يرغبون في استمرارها، كما لم نعد نخشى من أن تبديل نمط الحياة في إنكلترا سيفقدها نكهتها المميزة. المدن الحمراء الجديدة في لندن الكبرى بسيطة كفاية، لكن هذه الأشياء هي مجرد طفح يرافق التغيير. مهما كان الشكل الذي ستنبثق فيه إنكلترا من الحرب، فسيكون مشوباً بشكل عميق بالصفات التي تحدثت عنها آنفاً. سيخيب أمل المثقفين الذين

تمنوا بأن يروها بصبغة روسية أو ألمانية. سوف تبقى الدماثة والرياء واللامبالاة وتوقير القانون وكره البدلات النظامية، بموازاة الحلويات الدهنية والسموات السديمية. تدمير ثقافة قومية يحتاج إلى كارثة كبرى، كالخضوع المطول لعدو أجنبي. سوف تنهار سوق الأوراق المالية، وسيخلي المحراث الذي يقوده الحصان المجال للجرار، وستتحول البيوت الريفية إلى معسكرات يقضي الأطفال إجازاتهم فيها، وسوف تُنسى مباريات إيتون وهارو، لكن إنكلترا سوف تظل إنكلترا، حيوان أزلي يتمطى في المستقبل والماضي، ومثل كل الأشياء الحية، يملك القوة لكي يتبدل إلى درجة لا يمكن معرفته فيها، ومع ذلك يظل نفسه.

القسم الثاني: أصحاب المتاجر يتحاربون

١ - بدأتُ هذا الكتاب على أنغام القنابل الألمانية، وأكملت الفصل الثاني في صخب وابل القصف المدفعي الإضافي. وميض المدافع الأصفر يضيء السماء، الشظايا تقعقع فوق أسطح المنازل وجسر لندن يتهاوى ويتساقط. كل من يقدر على قراءة الخريطة، يدرك أننا في خطر مميت. لا أقصد أننا هُزمنا أو سنُهزم، فالنتيجة تعتمد على إرادتنا بالتأكيد. لكننا في هذه اللحظة نحن في مأزق كبير، سنغرق فيه كلنا، إن لم نصلح طرقنا بسرعة.

هذه الحرب تثبت أن الرأسمالية الخاصة التي هي نظام اقتصادي، تكون فيه الأرض والمصانع والمناجم ووسائط النقل ملكية خاصة، تعمل من أجل الربح فقط، لن تنجح. إنها لا تستطيع توزيع البضائع. لقد باتت هذه الحقيقة معروفة لملايين الناس، لكن من دون أن ينجم شيء عن ذلك، لعدم وجود دفع حقيقي من الأسفل لتبديل النظام، وهؤلاء الذين في القمة دربوا أنفسهم ليكونوا أغبياء بشكل لا يخترق حول هذه النقطة. حجج ودعايات عقيمة. جلس أسياد الملكية متكاسلين، وصرحوا بأن كل شيء سيكون بأفضل حال. إن غزو هتلر لأوروبا كان تعرية مادية للرأسمالية. الحرب، بكل شرورها، في كل الأحوال، اختبار مفحم للقوة، مثل آلة تجريب القبضة. القوة الكبرى تستعيد المال، وليس هناك طريقة لتزييف النتيجة.

حين اخترع اللولب البحري لأول مرة، كان هناك جدل استمر لسنوات حول الأفضل بين السفن ذات اللولب وبين سفن التجذيف. سفن التجذيف، مثل كل الأشياء القديمة الطراز،

كان لها أبطالها، الذين أيدوها بحجج حاذقة. لكن أخيراً ربط أدميرال مميز سفينة لولب وسفينة تجذيف من نفس قوة الأحصنة، مؤخرة إلى مؤخرة، وأطلق محركيهما. هذا سوّى المسألة نهائياً وإلى الأبد، كما حدث شيء مماثل على حقول النرويج وفالاندرز. مرة وإلى الأبد أُثبت أن الاقتصاد المخطط أقوى من الاقتصاد غير المخطط. لكن من الضروري هنا أن نعطي نوعاً من التعريف لتلك الكلمات التي أُسيء استخدامها كثيراً، الاشتراكية والفاشية.

تُعرّف الاشتراكية ببساطة عادة بأنها "الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج": الدولة التي تمثل كل الأمة تملك كل شيء والكل مستخدمون عندها. هذا لا يعني أن الناس مجردون من الملكيات الشخصية مثل الثياب والأثاث، وإنما كل السلع الإنتاجية كالأرض والمناجم والسفن والمعدات مثلاً، هي ملك للدولة. الدولة هي المنتج الكبير. ليس من المؤكد أن الاشتراكية أفضل من الرأسمالية، لكنها بالتأكيد على خلاف الرأسمالية، تستطيع حل مشاكل الإنتاج والاستهلاك. في الأوقات العادية، لا يستطيع الاقتصاد الرأسمالي استهلاك كل ما ينتج، لذلك هناك دائماً فائض ضائع (حرق القمح في الأفران وإعادة السمك إلى البحر) وبطالة دائمة. في زمن الحرب من جهة أخرى، تواجه صعوبة في إنتاج كل ما تحتاجه، إذ لا يتم إنتاج شيء إلا إذا رأى أحد وسيلته لتحقيق الربح منه. في الاقتصاد الاشتراكي لا توجد هذه الأشياء. تحسب الدولة البضائع التي تحتاجها، وتبذل أقصى جهدها لإنتاجها. يتحدد الإنتاج بمقدار العمل والمواد الخام. المال، لغايات داخلية، يتوقف عن كونه الشيء الغامض الكلي القدرة، ويصبح نوعاً من القسائم أو البطاقات التموينية، التي تصدر بكميات كافية لشراء ما هو متوفر من سلع استهلاكية في وقتها.

لكن أصبح واضحاً في السنوات القليلة الأخيرة أن "الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج" ليست تعريفاً كافياً للاشتراكية، ويجب أن يضاف إليه التالي: الاقتراب من المساواة في الدخول والديمقراطية السياسية وإلغاء الامتيازات المورثة خصوصاً في التعليم. هذه ضمانات ضرورية ضد ظهور النظام الطبقي ثانية. ويمكن ألا تعني الدولة أكثر من حزب سياسي منتخب ذاتياً وحكم قلة وإمكانية لعودة الامتيازات المبنية على السلطة بدلاً من المال.

لكن ما هي الفاشية إذاً؟

الفاشية، في كل الأحوال نسخة ألمانية، وشكل من الرأسمالية التي استعارت من الاشتراكية المزايا التي تجعلها فعالة لأغراض الحرب فقط. داخلياً، هناك الكثير من الصفات المشتركة بينها وبين الدولة الاشتراكية، لكنها لم تُلغ الملكية أبداً، فهناك رأسماليون وعمال. وهذه هي النقطة الهامة والسبب الحقيقي لتعاطف الأغنياء في كل أرجاء العالم مع الفاشية - عموماً الناس أنفسهم رأسماليون وعمال أيضاً أمام الثورة النازية، لكن بنفس الوقت، فإن الدولة، التي هي ببساطة الحزب النازي، تسيطر على كل شيء. فهي تسيطر على الاستثمار والمواد الخام ومعدلات الفائدة وساعات العمل والأجور؛ فصاحب المصنع ظل يملك مصنعه لكن لأغراض عملية وتقلصت مكانته إلى مدير؛ الكل مستخدمون عند الدولة لكن الرواتب متنوعة؛ الكفاءة الوحيدة لهذا النظام، هي استئصال الهدر والانسداد، وقد تمكن في غضون سبع سنوات من بناء أقوى آلة حربية عرفها العالم.

لكن الفكرة التي تشكل أساس الفاشية، مختلفة بشكل لا يقبل التسوية عن تلك التي في الاشتراكية. تهدف الاشتراكية أخيراً إلى دولة عالمية من البشر الأحرار والمتساوين، وتعتبر المساواة في حقوق الإنسان أمراً بديهياً. أما النازية، فتفترض العكس تماماً، فالقوة الدافعة خلف الحركة النازية، هو الاعتقاد في عدم المساواة الإنسانية وتفوق الألمان على كل الأعراق الأخرى وحقهم في حكم العالم. كما "أثبت" بروفيسور نازي بارز مرة تلو أخرى، بأن الإنسان الاسكندينافي هو البشري تماماً الوحيد، وطرح فكرة إمكانية تهجين الشعوب غير الاسكندينافية (مثلنا) مع الغوريلات! لذلك مادام جنس الاشتراكية الحربية متواجد ضمن الدولة الألمانية، فإن موقفها من الأمم المهزومة موقف مستغل. إن دور التشيك والبولونيين والفرنسيين..إلخ إنتاج البضائع التي يحتاجها الألمان فقط، وينالون مقابل ذلك ما يكفي لمنعهم من التمرد. لو انتصر علينا هتلر وهزمنا، فستكون وظيفتنا صنع أسلحة لحروبه ضد روسيا وأمريكا. إن هدف النازيين بالتالي هو توطيد نوع من نظام طبقي فئوي مؤلف من أربع طبقات، مشابه للدين الهندوسي. في القمة يأتي الحزب النازي، ثانياً يأتي الشعب الألماني، ثالثاً تأتي الشعوب الأوروبية المهزومة، رابعاً وأخير تأتي الشعوب الملونة، "أنصاف القردة" كما سماهم هتلر، وقلص تماماً مرتبتهم إلى العبيد وبشكل صريح.

مهما بدا لنا هذا النظام رهيباً، فإنه ناجح. إنه ينجح، لأنه نظام مخطط ومولف لغرض محدد، وهو فتح العالم، ولا يسمح لأي مصلحة خاصة إن كانت للرأسمالي أم للعامل، بأن تقف في

طريقه. الرأسمالية البريطانية لا تنجح، لأنها نظام تنافسي، الربح الخاص فيه هو الهدف الرئيسي ويجب أن يكون. إنها نظام كل القوى فيه تشد في اتجاهات متعارضة، ومصالح الفرد عادة ليست متعارضة تماماً مع مصالح الدولة.

خلال كل السنوات الحرجة للرأسمالية البريطانية، مع مصانعها الضخمة ومواردها الفذ من العمال المهرة، لم تكن كفؤاً لعبء الاستعداد للحرب. لتستعد لحرب حديثة يجب أن تحول قسماً من الدخل القومي للتسلح، مما يعني تقليص البضائع الاستهلاكية. تعادل الطائرة القاذفة في السعر خمسين سيارة وثمانين ألف جورب حريري أو مليون رغيف من الخبز. لا يمكنك امتلاك عدد كبير من القاذفات من دون تخفيض المستوى القومي للحياة. هي إما البنادق أو الزبدة كما لاحظ مارشال غورينغ. لكن في إنكلترا تشامبرلاين لم يكن الانتقال ممكناً. لم يواجه الأغنياء الضريبة الضرورية، وطالما ظل الغني غنياً بشكل واضح، فمن غير الممكن فرض ضرائب ثقيلة على الفقير أيضاً. علاوة على ذلك، طالما كان الربح الهدف الرئيسي لصاحب المصنع، فلم يكن لديه أي حافز كي يحول من البضائع الاستهلاكية إلى التسليح. واجب رجل الأعمال الأول هو لمساهميه. ربما تحتاج إنكلترا إلى الدبابات، لكن ربما تدر السيارات ربحاً أكبر لصاحب المصنع. أن تمنع المواد الحربية من الوصول إلى العدو أمر منطقي وشرعي، لكن أن تباع في أغلى سوق، فهو واجب رجل الأعمال. في نهاية شهر أغسطس/ آب مباشرة عام ١٩٣٩ كان التجار البريطانيون يتهاوون فوق بعضهم في تلهفهم لبيع ألمانيا القصدير والمطاط والنحاس والكـ - وهذا عمل بريء، ويعرفون بشكل مؤكد أن الحرب ستندلع في غضون أسبوع أو اثنين، وكان عملاً منطقياً مثل بيع شخص موسى حلاقة ليقطع حلقك بها تقريباً، لكنه كان "تجارة رابحة".

والآن انظر إلى النتائج. بعد عام ١٩٣٤ بات معروفاً بأن ألمانيا كانت تتسلح ثانية. بعد ١٩٣٦ كل من له عينان في رأسه عرف بأن الحرب قادمة. بعد ميونيخ كانت مسألة متى ستبدأ لحرب التي اندلعت في سبتمبر/ أيلول ١٩٣٩. بعد ثمانية أشهر اكتُشف بأن الجيش البريطاني كان دون مستواه في عام ١٩١٨ بالنسبة إلى المعدات. رأينا جنودنا يشقون طرقهم يائسين إلى الشاطئ مع طائرة ضد ثلاث طائرات وبنادق ضد دبابات وحراب ضد رشاشات ولم تكن هناك مسدسات كافية للضباط حتى. بعد سنة من الحرب كان ينقص الجيش النظامي

٣٠٠,٠٠٠ خوذة معدنية كما كان هناك نقص في الثياب الرسمية، في واحدة من أكبر بلدان العالم المنتجة للبضائع الصوفية!

ما حدث، أن الطبقة الثرية كلها التي لم تواجه التغيير في أسلوب عيشها بجرأة، تعامت عن طبيعة الفاشية والحرب الحديثة. غذت صحافة البواليع التي تعتاش على الإعلانات تفاؤلية كاذبة، وسعت للحفاظ على أحوال التجارة عادية، فظلت صحافة بيفربروك سنة تلو الأخرى تؤكد لنا بعناوينها العريضة بأنه لن تكون هناك حرب، وظل اللورد روثرمير حتى بداية عام ١٩٣٩ يصف هتلر بـ"السيد العظيم". وفي الوقت الذي ثُبت فيه بأن إنكلترا في لحظة الكارثة كان ينقصها كل مواد الحرب ماعدا السفن، لم يُسجّل وجود أي عجز في السيارات ومعاطف الفرو والفونوغراف وأحمر الشفاه والشوكولا أو الجوارب الحريرية. وهل تجرأ أحد على الادعاء بأن نفس الصراع العنيف كان دائراً بين الربح الخاص والضرورة العامة؟ إنكلترا تقاتل من أجل حياتها، لكن التجارة تقاتل من أجل الأرباح. لا يمكن أن تفتح صحيفة دون أن ترى العمليتين المتناقضتين وهما تحدثان جنباً إلى جنب. على الصفحة نفسها ستجد الحكومة تحثك على التوفير والادخار، وبائع بعض وسائل الترف العقيمة يحثك على الإنفاق. قدم قرضاً للدفاع، لكن غينيس جيد بالنسبة إليك. اشتر سبيتفاير، لكن اشتر هيغ أند هيغ أيضاً، كريم بوند للوجه وشوكولا بلاك ماجيك.

لكن شيئاً واحداً يعطي الأمل - التأرجح الجلي في الرأي العام. إن استطعنا أن ننجو من هذه الحرب ونبقى أحياء، فستتحول الهزيمة في فلاندرز، وتكون نقطة تحول عظيمة في التاريخ الإنكليزي. في تلك الكارثة المثيرة، استطاعت الطبقة العاملة والطبقة الوسطى وقسم من جماعة التجارة، أن ترى تعفن الرأسمالية الخاصة. قبل ذلك لم تُثبت القضية ضد الرأسمالية أبداً. روسيا، الدولة الاشتراكية الوحيدة بشكل واضح، كانت متخلفة ومعزولة. تفجر النقد بوجوه أصحاب البنوك المخادعة والضحك الوقح لحاملي الأسهم. اشتراكية؟ ها!ها! من أين ستأتي النقود؟ها!ها!ها! لوردات الممتلكات كانوا متشبثين في مقاعدهم وكانوا يعرفونها. لكن بعد سقوط فرنسا قدم شيء لم يكن مضحكاً، شيء لم يكن يفيد فيه لا دفتر شيكات ولا رجال شرطة ضد القصف. زوي - بوم! ما ذلك؟ أوه، مجرد قنبلة على سوق الأوراق المالية. زوي - بوم! أكر آخر من ملكية أحد الأشخاص النفيسة للأحياء القذرة الفقيرة انتقلت

غرباً. في كافة الأحوال سيُسجل هتلر في التاريخ بأنه الرجل الذي جعل مدينة لندن تضحك في الجانب الخاطئ من وجهها! للمرة الأولى في حياتهم كان المرتاحون غير مرتاحين، أُجبر المرتاحون المتفائلون على الاعتراف بوجود شي خاطئ. كانت خطوة عظيمة إلى الأمام. منذ ذلك الوقت فصاعداً لم تعد الوظيفة المرعبة في محاولة إقناع الناس المخدرين الزائفة بأن الاقتصاد المخطط أفضل من الاقتصاد المفتوح بوجه الجميع الذي يكسب فيه أسوأ رجل - تلك الوظيفة لن تكون مخيفة تماماً مرة أخرى.

٢ - الفرق بين الاشتراكية والرأسمالية، ليس في الأصل فرقاً في التكنيك. لا يستطيع المرء ببساطة الانتقال من نظام إلى آخر كما يمكنه إدخال قطعة جديدة من الآلات وتركيبها في المصنع، ثم يستمر كما كان من قبل، مع نفس الأشخاص الذين في مركز التحكم والسيطرة. من الواضح وجود ضرورة لتغيير كامل للسلطة. دم جديد، رجال جدد، أفكار جديدة - بكل معنى الكلمة، ثورة.

لقد تحدثت سابقاً عن جدارة وصلابة وتجانس إنكلترا، الوطنية التي تسري مثل خيط يصل كل الطبقات ببعضها. بعد دونكيرك كل من له عينان ورأس استطاع رؤية ذلك. لكن من السخف التظاهر بأن وعد تلك اللحظة قد أُنجز. من المؤكد تقريباً أن جمهور الشعب جاهز الآن لتغييرات واسعة ضرورية؛ لكن هذه التغييرات لم تبدأ في الحدوث حتى.

إنكلترا عائلة يسيطر عليها أفرادها الخطأ. نحن نُحكم تماماً تقريباً من قبل الأغنياء، ومن أناس وصلوا إلى مواقع القيادة بحق المولد. قلة أو لا أحد من هؤلاء الناس خائن عمداً وبعضهم ليسوا حمقى أيضاً، لكنهم كطبقة عاجزين تماماً عن قيادتنا إلى النصر. هم لا يستطيعون تحقيق ذلك حتى لو لم تعثرهم مصالحهم المادية دائماً. كما أشرت سابقاً، كانوا مخدرين بصورة اصطناعية. بمعزل عن أي شيء آخر، نظر حكم المال للمسألة بأننا سنُحكم من قبل الكبار - أي، من قبل أناس عاجزين بشكل واضح عن إدراك العصر يعيشون فيه أو العدو الذي يقاتلونه. في بداية هذه الحرب لاشيء كان أكثر بؤساً من الطريقة التي تآمر الجيل الأكبر سناً بها ليزعم بأن الحرب كانت مثل حرب ١٩١٤ - ١٩١٨مرة أخرى. كل الفاشلين الكبار أعيدوا إلى لعمل الذين كانوا أكبر بعشرين سنة والجمجمة واضحة بوجوههم، فكان إيان هاي يهتف للجنود، وبيلوك كان يكتب مقالات حول الاستراتيجية، وموريس يقدم نشرات الأخبار، وبرينزفاذر

يرسم الكاريكاتير. كانت مثل حفلة شاي لأشباح. تلك الحالة لم تتبدل إلا بالكاد. صدمة الكارثة جلبت قلة من الرجال القادرين مثل بيفن إلى الواجهة، لكن بشكل عام كنا لا نزال نُحكم ونُؤمر من قبل الناس الذين نجحوا في أن يحيوا خلال سنوات ١٩٣١ - ١٩٣٩ من دون أن يكتشفوا بأن هتلر خطير حتى. جيل من رافضين التعلم معلق فوقنا مثل قلادة من الجيف.

حالما يتأمل أي واحد في مشكلة هذه الحرب - ولا يهم إن كانت أوسع وجه من الاستراتيجية أو أصغر تفصيل من تنظيم الوطن - يرى بأن الحركات الضرورية لا يمكن أن تُصنع طالما ظل البناء الاجتماعي لإنكلترا كما هو عليه. من المحتم، بسبب موقعها وتربيتها، الطبقة الحاكمة تقاتل من أجل امتيازاتها التي لا يمكن التوفيق بينها وبين المصلحة العامة. من الخطأ التخيل بأن أهداف الحرب والاستراتيجية والدعاية والتنظيم الصناعي، تتواجد في حجيرات معزولة كتومة. كلها متداخلة. كل خطة استراتيجية وكل أسلوب تكتيكي وحتى كل سلاح سيحمل طابع النظام الاجتماعي الذي أنتجه. الطبقة الحاكمة البريطانية تقاتل هتلر، الذي أجلته دائماً والذي لا يزال قسم منها يعتبره حاميها ضد البلشفية. هذا لا يعني أن أفرادها يبيعون أرواحهم قصداً؛ لكنه لا يعني أنهم في كل لحظة حاسمة يحتمل بهم أن يتلعثموا، ويعبروا بقوة ويفعلوا الخطأ.

إلى أن دعت حكومة تشرشل إلى نوع من التوقف لتلك العملية، ظلوا يقومون بالشيء الخطأ بغريزة لا تخطئ دائماً منذ ١٩٣١. ساعدوا فرانكو ليطيح بالحكومة الإسبانية، رغم تأكد أي شخص غير معتوه بأن إسبانيا فاشية ستكون عدوة لإنكلترا، وزودوا إيطاليا بمواد الحرب طيلة شتاء ١٩٣٩ - ٤٠، رغم الحقيقة الواضحة لكل العالم بأن الإيطاليين كانوا سيهاجموننا في الربيع. وحولوا الهند من حليف إلى عدو من أجل بضع مئات الآلاف من ساحبي الحوالات الرابحة. علاوة على ذلك، طالما ظلت الطبقات الغنية مسيطرة، فلن نستطيع تطوير أي شيء باستثناء استراتيجية دفاعية. كل انتصار يعني تغييراً في الوضع القائم. كيف نستطيع طرد الإيطاليين من إثيوبيا دون إثارة أصداء وسط الشعوب الملونة في إمبراطوريتنا؟ كيف لنا أن نحطم هتلر دون جلب الاشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين إلى السلطة؟ الأجنحة اليسارية التي تنتحب بأن "هذه حرب رأسمالية" وأن "الإمبريالية البريطانية" تقاتل من أجل غنائم، لوت رأسها إلى الخلف. آخر شيء تتمناه الطبقة الثرية البريطانية، هو كسب أراضٍ جديدة. سيكون ذلك مجرد إرباك. هدفها (الذي يمكن بلوغه ويتعذر بلوغه) هو التمسك بما كسبته.

داخلياً، إنكلترا لا تزال فردوس الرجل الغني. كل الحديث عن "التساوي في التضحية" هراء. بنفس الوقت كما طُلب من عمال المصانع أن يتحملوا ساعات عمل أطول، ظهرت إعلانات لـ"بتلر. واحد كعائلة وثمانية في مجموع العاملين، في الصحافة. السكان الذين شردهم القصف في إيست ايند باتوا جائعين ومشردين، بينما الضحايا الأكثر ثراء، ركبوا سياراتهم وفروا إلى بيوت ريفية مريحة. تضخمت أعداد الحرس الوطني إلى مليون رجل في بضعة أسابيع، وجرى تنظيمهم عمداً من الأعلى بطريقة لا يستطيع فيها سوى أصحاب الدخول الخاصة من تسلم المناصب القيادية. حتى نظام المحاصصة رُتب لكي يضرب الفقراء دائما، بينما لم يتأثر به الأشخاص الذين يفوق دخلهم الـ٢٠٠٠ جنيه سنوياً. في كل مكان الامتياز يبدد النية الحسنة. في ظروف كهذه حتى الدعاية أصبحت شبه مستحيلة تقريباً. كمحاولات لتحريك الشعور الوطني، نشرت حكومة تشامبرلاين ملصقات حمراء في بداية الحرب، فاقت كل الأرقام القياسية. مع ذلك لم تكن أكثر مما كانت عليه، لأنه كيف لتشامبرلاين وأتباعه أن يخاطروا بإثارة شعور شعبي قوي ضد الفاشية؟ كل واحد كان معادياً صادقاً للفاشية، يجب أن يكون معارضاً لتشامبرلاين نفسه ولكل الآخرين الذين ساعدوا هتلر للوصول إلى السلطة. كذلك كان الأمر بالنسبة إلى الدعاية الخارجية. في كل خطابات اللورد هاليفاكس ليس هناك اقتراح ملموس واحد يخاطر من أجله ساكن أوروبي واحد بالجزء العلوي من إصبعه الصغير. وهل كان لهاليفاكس أو أمثاله أي هدف حربي سوى إعادة عقارب الساعة إلى الوراء إلى عام ١٩٣٣؟

لا يمكن تحرير عبقرية الشعب الإنكليزي الأصيلة إلا بواسطة الثورة. لا تعني الثورة الرايات الحمر وقتال الشوارع، وإنما تغيير أساسي للسلطة. إن كانت ستحدث بسفك الدم أم بدونه، هي حدث يتعلق بالزمان والمكان. ولا تعني أيضاً ديكتاتورية طبقة بمفردها. في إنكلترا لم يقتصر الناس الذين أدركوا ما هي التغييرات المطلوبة والقادرين على حملها، على طبقة واحدة، لكن صحيح أن قلة قليلة من الناس الذين يفوق دخلهم السنوي ألفي جنيه من بينهم. ما هو مطلوب ومرغوب هو ثورة واعية صريحة من قبل الناس العاديين ضد عدم الكفاءة، والامتياز الطبقي وحكم الكبار. إنها ليست مسألة تغيير حكومي فقط. الحكومات البريطانية تمثل كما يشاع، إرادة الشعب، وإذا بدلنا بنيتنا من الأسفل، سننال الحكومة التي نحتاجها. سفراء وجنرالات وموظفون وإداريو مستعمرات مخرفون أو مناصرون للفاشية أكثر خطورة من مجلس وزراء يرتكب حماقاته أمام الملأ. خلال حياتنا الوطنية علينا أن نقاتل

ضد الامتياز وضد فكرة أن يكون طالب مدرسة خاصة أبله مؤهلاً بشكل أفضل للقيادة من ميكانيكي ذكي. رغم وجود أفراد موهوبين وصادقين بينهم، علينا أن نكسر قبضة الطبقة الثرية ككل. يجب على إنكلترا أن تلبس شكلها الحقيقي. إنكلترا تلك التي تحت السطح، في المعامل ومكاتب الصحف، في الطائرات والغواصات، يجب أن تتولى قدرها الذاتي بيدها.

في المدى القصير، "التساوي في التضحية"، أهم من التغييرات الاقتصادية الراديكالية حتى. من الضروري أن تؤمم الصناعة، لكن من الأكثر أهمية وبشكل عاجل أن تختفي تلك الفظاعات مثل الخدم و"الدخول الخاصة" على الفور. من المؤكد تقريباً أن السبب الرئيسي الذي مكّن الجمهورية الإسبانية من مواصلة القتال لأكثر من سنتين ونصف ضد خلافات بغيضة، هو عدم وجود تباينات ضخمة في الثروة. من ضباط وكولونيلات وسطهم. عانى الناس بشكل رهيب، لكنهم عانوا على قدم المساواة. حين لا يمتلك الجندي العادي سيجارة لا يكون عند الجنرال واحدة أيضاً. بسبب المساواة في التضحية، ستكون معنويات بلاد مثل إنكلترا غير قابلة للكسر. لكن في الوقت الحاضر نحن لا نملك شيئاً جذابا سوى الوطنية التقليدية، التي هي أعمق هنا من أي مكان آخر، لكن ليست بالضرورة بلا قرار. في نقطة أو أخرى عليك أن تتعامل مع الرجل الذي يقول "أنا لن أكون في حالة أسوأ تحت حكم هتلر". لكن ما هو الجواب الذي تقدمه له - أي ما الجواب الذي تستطيع أن تتوقع أن يسمعه - بينما يخاطر الجنود العاديون بحياتهم من أجل شلنين وست بنسات في اليوم، ونساء بدينات متجولات في سياراتهن الرولس رويس يربين الكلاب البكينية؟

يُحتمل جداً لهذه الحرب أن تستمر ثلاث سنين، وستعني جهداً قاسياً وشتاءات باردة كئيبة وطعاماً غير ممتع وانعداماً لكل أشكال التسلية، قصف مطول. لا تستطيع سوى تخفيض مستوى العيش العام، لكن الفعل الأساسي للحرب، هو لتصنيع الأسلحة بدلاً من البضائع الاستهلاكية. سيتوجب على الطبقة العاملة أن تعاني أشياء فظيعة. وسيعانون منها بشكل غير محدود تقريباً، بشرط أن يعرفوا ما يقاتلون من أجله. هم ليسوا جبناء ولا حتى مهتمين عالمياً. يستطيعون تحمل كل ما تحمله العمال الإسبان وأكثر، لكنهم سيطلبون نوعاً من الإثبات بأن حياة أفضل تنتظرهم وأطفالهم. عندما تفرض عليهم الأعباء ويرهقون، فالعلامة الأكيدة الوحيدة بأن يروا الأغنياء يضربون بشكل أقسى منهم، وإن صرخ الأغنياء بصوت مسموع، سيكون أفضل بكثير.

يمكننا خلق هذه الأشياء إن أردنا ذلك بشكل حقيقي. ليس صحيحاً أن الرأي العام ليس له قوة في إنكلترا. لم يجعل نفسه مسموعاً دون إنجاز شيء؛ لقد كان مسؤولاً عن أكثر التغييرات نحو الأفضل خلال الستة شهور الماضية. لكننا نتحرك ببطء النهر الجليدي؛ ولا نتعلم إلا من الكوارث. كلفنا التخلص من تشامبرلاين سقوط باريس، وكلفنا التخلص من سير جون انرسون معاناة غير ضرورية لعشرات آلاف الناس في إيست ايند. لا يجدر بنا أن نخسر معركة لكي ندفن جثة، لأننا نقاتل ضد عقول شريرة سريعة والزمن يضغط و: قد يقول التاريخ للمهزوم واحسرتاه! لكنه لا يستطيع أن يتبدل أو يصفح.

٣ – خلال ال أشهر الستة الأخيرة، دار حديث كثير عن "الطابور الخامس". من حين إلى آخر، يُسجن مجانين خفيون لإلقاء خطابات مؤيدة لهتلر، وتُعتقل أعداد كبيرة من اللاجئين الألمان، شيء سبب لنا بالتأكيد ضرراً كبيراً في أوروبا. من الواضح طبعاً أن فكرة جيش كبير منظم من الطابور الخامس يظهر فجأة في الشوارع مع أسلحة بأيديهم كما في هولندا وبلجيكا، هو شيء سخيف. لكن رغم ذلك، فإن خطر الطابور الخامس متواجد. يمكن للمرء أن يفكر فيه لو فكر في الطريقة التي قد تندحر فيها إنكلترا.

من غير المحتمل أن يستطيع القصف الجوي حسم حرب رئيسية. قد تتعرض إنكلترا للغزو والهزيمة، لكن الغزو سيكون مقامرة خطيرة، وإن حدث وفشل، سيتركنا أكثر اتحاداً وأقل تعرضاً لقصف المناطيد من قبل. علاوة على ذلك، إن اجتاحت القوات الأجنبية إنكلترا، سيعرف الشعب الإنكليزي بأنه هُزم، وسيستمر في الصراع. من المشكوك فيه إن كان ممكناً كبحهم بشكل دائم، أو إن كان هتلر يرغب في إبقاء جيش من مليون رجل متمركزاً في هذه الجزر. حكومة – و– (يمكنك ملأها بالأسماء) ستناسبه أكثر. لا يمكن للإنكليز أن يُخوفوا ويُدفعوا للاستسلام، لكنهم قد يُحملون على ذلك من خلال الملل أو المداهنة أو الخداع بشرط ما، مثلما لم يعرفوا في ميونيخ بأنهم كانوا يستسلمون. يمكن أن تحدث بسهولة أكبر حين تبدو الحرب تسير على نحو جيد بدلاً من سيء. النغمة المهددة للدعاية الألمانية والإيطالية، هي خطأ نفسي، ولن تؤثر إلا على المثقفين، أما مع عموم الناس، فستكون المقاربة المناسبة "دعنا نسميه تعادلاً". حين يُبذل مسعى للسلام بموازاة تلك الخطوط، يرفع مؤيدو الفاشية أصواتهم.

لكن من هم مؤيدو الفاشية؟ فكرة انتصار هتلر جذابة للأثرياء وللشيوعيين ولأتباع موسلي وللسلميين ولقطاعات معينة وسط الكاثوليك. أيضاً، إن ساءت الأوضاع كثيراً على الجبهة الداخلية، كل القطاعات الأشد فقراً من الطبقة العاملة، قد تميل إلى موقع انهزامي جداً، لكنه غير مؤيد لهتلر بشكل فعال.

في هذه القائمة متعددة الألوان، يستطيع المرء أن يرى جرأة الدعاية الألمانية، استعدادها لتقديم كل شيء إلى كل شخص. لكن القوى المؤيدة للفاشية المختلفة لا تعمل معاً بشكل مقصود، وإنما تعمل بطرق مختلفة.

يجب أن يُعتبر الشيوعيون مناصرين لهتلر، ومحكومين بالبقاء هكذا حتى تتبدل السياسة الروسية، لكنهم لا يملكون تأثيراً كبيراً. أتباع موسلي من أصحاب القمصان السود، الذين يتوسعون الآن ببطء شديد، يشكلون خطراً أكثر جدية بسبب موطئ القدم الذي يملكونه في القوات المسلحة. لكن، حتى في أزهى أيامهم لم يستطع أتباع موسلي أن يبلغوا الـ ٥٠٠٠٠ عضو. السلامية (رفض العنف) صفة غرابة نفسية أكثر منها حركية سياسية. بعض السلميين المتطرفين الذين بدؤوا بنبذ كامل عن العنف، انتهوا بمناصرة هتلر بحرارة وحتى العبث بمعاداة السامية. هذا ممتع، لكنه غير مهم. السلامية "النقية" التي هي منتج جانبي للسلطة البحرية، ليست جذابة إلا للناس الذين في مواقع محمية جداً. علاوة على ذلك، كونها سلبية وغير مسؤولة، لا تثير الكثير من الإخلاص والتفاني. أقل من ١٥ بالمائة من عضوية اتحاد ضمان السلام يدفعون اشتراكاتهم السنوية. لم يستطع أحد من هذه الكيانات البشرية، السلميون أو الشيوعيون أو أصحاب القمصان السود، تكوين حركة واسعة لوقف الحرب بجهودهم الذاتية، لكنهم ربما يساعدون في تسهيل حكومة خائنة للتفاوض على الاستسلام، مثل الشيوعيين الفرنسيين الذين أصبحوا العملاء شبه المعتمدين للمليونيرات.

الخطر الحقيقي من فوق. لا يجب على المرء أن يكترث بخط هتلر الحديث في الكلام بأنه صديق للفقراء وعدو لحكومة الأغنياء، إلخ إلخ، فذات هتلر الحقيقية في كتابه "كفاحي" وفي أفعاله. هو لم يضطهد الأغنياء أبداً، إلا من كان يهودياً منهم أو من حاول معارضته بشكل فعال، ولا يؤيد الاقتصاد المركز الذي يسرق الرأسمالي من جلّ قدرته، لكنه يترك إلى حد كبير تركيب المجتمع مقلوباً رأساً على عقب؛ تسيطر الدولة فيه على الصناعة، لكن يظل هناك

أغنياء وفقراء، سادة ورجال لذلك، كضد أصيل للاشتراكية، الطبقة الثرية كانت في صفه دائماً. هذا كان واضحاً جداً في زمن الحرب الإسبانية، وواضحاً مرة أخرى حين استسلم الفرنسيون. حكومة هتلر الدمية ليست من العمال، وإنما عصابة من أصحاب البنوك والجنرالات الحمقى وسياسيي الجناح اليميني الفاسدين.

إن احتمال نجاح ذلك النوع المثير المتعمد من الخيانة قليل في إنكلترا، وأكثر من قليل في الواقع حتى لو حاول. مع ذلك، بالنسبة إلى كثير من دافعي الضريبة الإضافية، هذه الحرب هي مجرد شجار عائلة مجنونة يجب أن تُوّقف بأي ثمن. يجب ألا يشكك المرء بأن حركة "سلام" ما تقف في مكان ما في المراتب العالية، وربما شكلت وزارة ظل مسبقاً. هؤلاء الناس سينالون فرصتهم ليس في لحظة الهزيمة، وإنما في فترة راكدة، حين يفرض الاستياء الضجر ويعززه. هم لن يتحدثوا عن الاستسلام، بل عن السلام فقط؛ وبدون شك سيقنعون أنفسهم والناس الآخرين ربما بأنهم يعملون من أجل الأفضل. جيش من العاطلين عن العمل يقوده ميلونيرات يقتبسون خطبة على الجبل - ذلك هو خطرنا، لكن ليس بمقدوره أن يظهر حين ندخل درجة معقولة من العدالة الاجتماعية. إن السيدة التي في سيارة الرولس رويس مضرة للمعنويات أكثر من أسطول من طائرات غورينغ القاذفة.

الجزء الثالث: الثورة الإنكليزية

١ - لقد انطلقت الثورة الإنكليزية منذ سنوات عدة، وبدأت تجمع زخمها حين عادت القوات المسلحة من دونكريك، وككل شيء آخر في إنكلترا، إنها تحدث بطريقة بليدة ومكروهة، لكنها تحدث، وسرعت الحرب بحدوثها، وزادت أيضاً وبشكل مفرط في ضرورة التعجيل بها.

لم يعد للعلامات والشعارات الحزبية علاقة بالتقدمية أو الرجعية. إن أراد أحد أن يسمي لحظة معينة، يستطيع القول بأن الفرق القديم بين اليمين واليسار انتهى حين نُشر أول ملصق مصور. ما هي سياسية الملصقات المصورة؟ أو مواكب العربات أو نشرات بريستلس الإخبارية أو المقالات الافتتاحية في إيفينينغ ستاندرد؟ لا يناسبها أي من التصنيفات القديمة. إنها تشير إلى وجود أعداد غفيرة من الناس غير المصنفين، الذين أدركوا في السنة الأخيرة أو السنتين أن هناك شيئاً خاطئاً. وطالما يمكن القول عموماً عن أي مجتمع غير طبقي وبلا ملاكين "اشتراكية"، نستطيع أن نعطي ذلك الاسم للمجتمع

الذي نحن متوجهون نحوه. الحرب والثورة لا ينفصلان. لا يمكن توطيد أي شيء تعتبره الأمة الغربية اشتراكية دون دحر هتلر، ومن جهة أخرى لا نستطيع دحر هتلر، طالما نحن في القرن التاسع عشر اقتصادياً واجتماعياً. الماضي يحارب المستقبل، ولدينا سنتان أو ربما شهور قليلة لنرى بأن المستقبل ينتصر.

لا يمكننا النظر إلى هذه الحكومة أو مثيلاتها بأن تقوم بالتغييرات الضرورية من تلقاء نفسها؛ يجب أن تأتي المبادرة من الأسفل، وهذا يعني ضرورة أن ينبثق شيء لم تعرفه إنكلترا من قبل أبداً، حركة اشتراكية لديها جماهير شعبية تقف خلفها فعلياً، لكن يجب علينا أن نباشر في إدراك سبب فشل الاشتراكية الإنكليزية.

في إنكلترا لا يوجد سوى حزب اشتراكي واحد مهم هو حزب العمال، الذي لم يقدر أن ينجز أي تغيير رئيسي، لأنه لم يملك سياسة مستقلة بشكل حقيقي باستثناء القضايا المحلية. وكان في المقام الأول حزباً للنقابات العمالية، مكرساً لرفع الأجور وتحسين ظروف العمل. هذا يعني أنه خلال كل تلك السنين الحرجة، كان مهتماً مباشرة بازدهار الرأسمالية البريطانية. واهتم بالخصوص في الحفاظ على الإمبراطورية، لأن ثروة إنكلترا كانت تستجر بشكل واسع من آسيا وأفريقيا. مستوى معيشة عمال النقابات الذين يمثلهم حزب العمال، اعتمد مباشرة على عرق الحمالين الهنود. في الوقت نفسه كان حزب العمال حزباً اشتراكياً، استخدم اللغة الاشتراكية، وفكر بالطريقة المعادية للإمبريالية البالية، وتعهد إلى حد ما بتعويض الأعراق الملونة. كان عليه أن يناضل من أجل "استقلال" الهند، كما كان عليه أن يناضل من أجل نزع التسلح و"التقدم" عموماً، رغم إدراك الجميع بعقم ذلك. في عصر الدبابة والطائرة القاذفة، لم يعد بإمكان الدول المتخلفة الزراعية مثل الهند والمستعمرات الأفريقية، أن تكون مستقلة أكثر من القطط أو الكلاب. لو أن أي حكومة عمالية وصلت إلى السلطة بأغلبية واضحة، ثم شرعت في منح الهند أي شيء يمكن تسميته على نحو حقيقي بالاستقلال، لجرى امتصاص الهند من قبل اليابان أو تقسيمها بين اليابان وروسيا.

أمام حكومة عمالية تتولى السلطة، هناك ثلاث سياسات إمبريالية مفتوحة. الأولى أن تستمر في إدارة الإمبراطورية كما هي عليه في السابق تماماً، ما يعني إسقاط كل الذرائع للاشتراكية. السياسية الأخرى أن تطلق حريات الشعوب التابعة، ما يعني عملياً تسليم هذه الشعوب

لليابان وإيطاليا وقوى سلب أخرى، والتسبب بهبوط كارثي في مستوى المعيشة البريطاني. السياسة الثالثة والأخيرة، هي تطوير سياسة إمبريالية إيجابية تهدف إلى تحويل الإمبراطورية إلى اتحاد من الدويلات الاشتراكية كنسخة من جمهوريات الاتحاد السوفيتي أكثر حرية وأقل إحكاماً. لكن تاريخ الحزب وخلفيته جعل من هذا مستحيلاً. كان حزباً من الاتحادات العمالية، ضيق الأفق بشكل ميئوس منه في نظرته، مع اهتمام ضئيل في المسائل الإمبريالية وفاقداً لأي اتصال بالرجال الذي حافظوا على تماسك الإمبراطورية. لكانت سلمت إدارة الهند وأفريقيا وكل مهمة الدفاع عن الإمبريالية لرجال مأخوذين من طبقة مختلفة ومعادين تقليديين للاشتراكية. يرجح على كل شيء الشك إن كانت حكومة العمال أي التجارة ستكون مطاعة. بالرغم من كل حجم أتباع حزب العمال، فليس لديهم أي سند في البحرية، وقلة أو لا أحد في الجيش أو القوة الجوية ولا بأي شكل في الخدمات الإمبريالية، ولا حتى مسند أكيد في الخدمة المدنية الوطنية. في إنكلترا كان موقعه قوياً، لكنه ليس مطلقاً. أما في خارج إنكلترا، فكل المواقع الأساسية في أيدي الأعداء. بمجرد أن يتسلم السلطة، ستواجهه نفس المعضلة دائماً: نفذ وعودك، وخاطر بالثورة أو استمر بنفس سياسة المحافظين وكفّ عن الحديث بالاشتراكية. لم يجد أبداً قادة الحزب حلاً. ومنذ عام ١٩٣٥ فصاعداً، بات من المشكوك فيه إن كانت لدى الحزب أي رغبة في تولي منصب الحكومة؛ لقد انحط إلى مستوى معارضة دائمة.

توجد أحزاب راديكالية متطرفة خارج حزب العمال، أقواها الحزب الشيوعي. وكان للشيوعيين تأثير ملحوظ على حزب العمال في الفترة ما بين ١٩٢٠ - ١٩٢٦ والفترة ما بين ١٩٣٥ - ١٩٣٩ لكن أهميتهم الرئيسية وأهمية الجناح اليساري ككل، كانت في دورهم الذي لعبوه في إبعاد الطبقات الوسطى عن الاشتراكية.

لقد بينت السنوات السبع الأخيرة تماماً عدم وجود أي فرصة للشيوعية في أوروبا الغربية. وكان الافتتان بالفاشية أعظم، وجرى في بلاد تلو الأخرى استئصال الشيوعيين من جذورهم من قبل أعدائهم العصريين، النازيين. لم يكن لهم موطئ قدم في البلدان الناطقة بالإنكليزية، ولم تجذب العقيدة التي ينشرونها سوى أنموذج نادر من الأشخاص، الموجود وسط مثقفين الطبقة الوسطى الذين توقفوا عن حب بلادهم، لكنهم ظلوا بحاجة إلى الوطنية، لذلك طوروا عاطفة وطنية تجاه روسيا. في عام ١٩٤٠ وبعد العمل لمدة عشرين عاماً وإنفاق الأموال

الكثيرة، لم يبلغ عدد الشيوعيين ٢٠,٠٠٠ عضو، وهو عملياً أقل من عددهم الذين بدؤوا فيه عام ١٩٢٠ أما الأحزاب الماركسية الأخرى، فكانت أقل أهمية، حتى إنه لم يكن لديها المال الروسي والنفوذ الداعم، وكانت مربوطة أكثر بعقيدة القرن التاسع عشر في الحرب الطبقية. لذلك استمرت سنة تلو أخرى في الوعظ بهذا الإنجيل العتيق والمهمل، ولم تتعلم أي درس، بأنه لن يكسبها أي تابع أو مريد.

لم يكن هناك أيضاً أي حركة فاشية قوية أهلية؛ فالظروف المادية ليست سيئة بما يكفي، وليس هناك قائد وشيك يؤخذ بجدية، فالمرء مضطر للانتظار طويلاً حتى يجد رجلاً أكثر عقماً في أفكاره من السير أوزوالد موسلي الفارغ كالإبريق الذي فاتته حتى الحقيقة الأولية بأن الفاشية يجب ألا تجرح الشعور القومي. وكانت حركته الكاملة مقلدة بشكل وضيع ومستوحاة من الخارج، فالزي الرسمي وبرنامج الحزب من إيطاليا، والتحية من ألمانيا، أما كره اليهود فأضافه كفكرة متأخرة، لأن موسلي بدأ حركته فعلياً بيهود كانوا من بين أبرز أتباعه. كان يمكن لرجل من طابع بتوملي أو لويد جورج أن يجلب حركة فاشية حقيقية إلى الوجود، لكن مثل هؤلاء القادة لا يظهرون إلا حين تكون هناك حاجة نفسية لتواجدهم.

بعد عشرين سنة من الركود والبطالة، لم تقدر الحركة الاشتراكية الإنكليزية أن تنتج نسخة من الاشتراكية مقبولة من الجماهير. فحزب العمال قبل بإصلاحية رعديدة، والماركسيون كانوا ينظرون إلى العالم الحديث بنظارات القرن التاسع عشر، فتجاهل كلاهما الزراعة والمشاكل الإمبريالية، واستعديا الطبقات الوسطى. لقد أرعبت دعاية الجناح اليساري الخانقة، ونفرت طبقات كاملة من الناس الضروريين، كمدراء المعامل والطيارين والملاحين وضباط البحرية والعمال ذوي الياقات البيض وأصحاب الحوانيت ورجال الشرطة. لقد ثُقف هؤلاء الناس على الاعتقاد بأن الاشتراكية خطر يهدد أسباب رزقهم، أو شيء منفر وتحريضي، "ضد بريطاني" كما كانوا يسمونها. لم ينجذب إلى الحركة سوى المثقفين، الفئة الأقل نفعاً في الطبقة العاملة.

كان على أي حزب اشتراكي راغب بصدق في إنجاز شيء، مواجهة حقائق كثيرة ظلت لليوم تعتبر أشياء لا يصح ذكرها في وسط دوائر الجناح اليساري. لقد كان الإقرار ضرورياً بأن إنكلترا متوحدة أكثر من غالبية البلدان، وأن العمال البريطانيين لديهم الكثير الذي يفقدونه غير

قيودهم، وأن الاختلافات في وجهة النظر والعادات بين طبقة وأخرى كانت تتقلص بسرعة. عموماً كان يجب الإقرار بأن الثورة البروليتارية العتيقة هي استحالة. لكن لم يظهر أي برنامج اشتراكي ثوري وعملي خلال فترة ما بين الحربين كلها؛ لأنه أساساً وبلا شك لم يكن هناك من أراد حدوث أي تغيير أساسي، فقادة العمال أرادوا الاستمرار في استجرار مرتباتهم وتبادل الوظائف دورياً مع المحافظين، وأراد الشيوعيون الاستمرار في معاناة الاستشهاد المريح وتقبل الهزائم التي لا تحصى، ثم الرمي باللائمة على الآخرين. أما الطبقة المثقفة اليسارية، فأرادت أن تستمر في السخرية في البليمبس واحتقار معنويات الطبقة الوسطى، مع احتفاظها بمركزها المفضل كطفيلي على ساحب الحصص. لقد أصبحت سياسة حزب العمال نوعاً آخر وبديلاً عن سياسة حزب المحافظين، وباتت السياسة "الثورية" لعبة الكاذب.

لكن الظروف تبدلت الآن، وانتهت سنوات النعاس. كونك اشتراكياً لم يعد يعني مقاومة النظام نظرياً والذي أنت راض عنه عملياً. هذه المرة ورطتنا حقيقية. إنهم "الفلسطينيون أصبحوا فوقك يا شمشون". يجب علينا أن نعطي لكلماتنا شكلاً مادياً أو نموت. نحن نعرف جيداً أن إنكلترا بهذه التركيبة الاجتماعية لن تنج، ويقع على كاهلنا أن نجعل شعبنا يرى هذه الحقيقة ويعمل عليها. لا يمكننا أن نربح الحرب دون البدء بالاشتراكية، ولا نستطيع تشييد اشتراكية دون الفوز بالحرب. في وقت كهذا، من الممكن كما لم يتوفر ذلك في سنوات السلام، أن تكون ثورياً وواقعياً في الوقت نفسه. حركة اشتراكية تستطيع تحريك الجماهير خلفها، وتطرد أنصار الفاشية من مراكز التحكم، وتزيل المظالم العامة الفاضحة، وتدع الطبقة العاملة ترى بأن لديها ما تقاتل من أجله، وتكسب الطبقة الوسطى بدلاً من مخاصمتها، وتنتج سياسة إمبريالية عملية بدلاً من خليط الخدع والطوباوية، وتُمكّن الوطنية والعقل من الشراكة - لأول مرة، حركة من هذا النوع سوف تصبح ممكنة.

٢ - إن حقيقة كوننا في حالة حرب، حوّلت الاشتراكية من كلمة في كتيب مدرسي، إلى سياسة قابلة للتحقق.

لقد ثبت عدم كفاءة الرأسمالية في كل أنحاء أوروبا، وثبت ظلمها في إيست ايند في لندن، وأصبحت الوطنية التي قاتل ضدها الاشتراكيون طويلاً، رافعة هائلة في أيديهم. الناس الذين كانوا متشبثين كالصمغ في نتف امتيازاتهم البائسة في أي وقت آخر، سيتخلون عنها سريعاً ما

إن يهدد الخطر بلادهم. إن الحرب أعظم عوامل التغيير كلها. فقد سرّعت كل العمليات وأزالت الفروقات الثانوية، وأبرزت الحقائق إلى السطح، وأوضحت قبل كل شيء للفرد بأنه ليس فرداً تماماً. سيموت الرجال في ميدان المعركة بسبب هذا الإدراك فقط. لم تكن القضية الآن مسألة تنازل عن الحياة، بقدر كونها تخلياً عن وقت الفراغ والراحة والحرية الاقتصادية والمقام الاجتماعي. ولم تكن هناك سوى قلة قليلة من الناس أرادت فعلاً أن ترى هتلر يهزم بلادها ولو تم تبيان أن دحر هتلر يعني إزالة الامتيازات الطبقية، لكانت الكتلة العظمى من الناس المتوسطين إلى جانبنا الذين يتراوح دخلهم بين ٦ جنيهات في الأسبوع إلى ٢٠٠٠ جنيه في السنة، وهؤلاء الناس لا يمكن الاستغناء عنهم، لأن أغلب الخبراء الفنيين منهم. من الواضح أن الغطرسة والجهل السياسي لهؤلاء الناس كالطيارين وضباط البحرية مثلاً، سيشكل صعوبة كبيرة، لكن بدون هؤلاء الطيارين، وقادة المدمرات، إلخ، لا يمكننا البقاء أحياء أكثر من أسبوع واحد. إن المقاربة الوحيدة معهم من خلال الوطنية، وستستفيد الحركة الوطنية الذكية من وطنيتهم، بدلاً من إهانتهم كما يحدث الآن.

لكن هل أقصد بأنه لن تكون هناك معارضة؟ لا طبعاً. من الحماقة توقع أي شيء من ذلك النوع.

سيكون هناك صراع سياسي، وسيكون هناك تخريب غير متعمد وشبه متعمد في كل مكان، وفي نقطة ما من الضروري استخدام العنف. من السهل تخيل اندلاع تمرد مناصر للفاشية في الهند مثلاً. يجب أن نقاتل ضد الرشوة والجهل والغطرسة. سيعارض المصرفيون ورجال الأعمال الكبار ومالكو الأراضي وساحبو الحصص والموظفون بعجائزهم الملتصقة بالمقاعد، وحتى الطبقات الوسطى ستقاوم حين تتهدد طريقة عيشها، لكن لكي لا يتفسخ الشعور الإنكليزي بالوحدة القومية، لأن الوطنية أخيراً أقوى من الكره الطبقي، ستكون الفرص لسيادة الأغلبية. لا فائدة من التوهم بإمكانية إحداث تغييرات أساسية دون التسبب بشقاق في الأمة؛ لكن الأقلية الخائنة ستكون في زمن الحرب أقل بكثير من أي وقت آخر.

تأرجح الآراء سيحدث من تلقاء ذاته، لكن لا يمكن التعويل على حدوثه بالسرعة المطلوبة. الحرب سباق بين تماسك إمبراطورية هتلر وبين نمو الوعي الديمقراطي. في كل مكان في إنكلترا يمكن أن ترى معركة مجلجلة تقوى وتضعف – في البرلمان وفي الحكومة وفي

المصانع والقوات المسلحة وفي الحانات وفي ملاجئ الغارات الجوية وفي الصحف والإذاعة. في كل يوم هناك انكسارات صغيرة وانتصارات صغيرة. إنه صراع بين المتلمسين طريقهم ومحطمي الأكاذيب، بين الشباب والكبار، بين الأحياء والأموات. لكن من الضروري جداً أن يأخذ ذلك السخط الموجود بشكل يقيني شكلاً هادفاً وليس مجرد عائق. لقد آن للشعب أن يحدد أهدافه الحربية. المطلوب بسيط، برنامج عمل واقعي يعطي كل الإشهار والشيوع الممكنين ويجمع الرأي العام حوله. وأرى بأن البرنامج الذي نحتاجه هو من البرنامج التالي المؤلف من ست نقاط. النقاط الثلاث الأولى تتعامل مع سياسة إنكلترا الداخلية، والنقاط الأخرى الباقية مع الإمبراطورية والعالم:

١ - تأميم الأرض والمناجم والخطوط الحديدية والمصارف والصناعات الرئيسية.

٢ - تحديد الدخول، بمقياس يكون فيه أعلى دخل معفى من الضرائب في بريطانيا، لا يتجاوز أقل دخل بأكثر من عشرة إلى واحد.

٣ - إصلاح النظام التعليمي وفق خطوط ديمقراطية.

٤ - اعتراف فوري بسيادة الهند ضمن مجموعة دول الكومنويلث، مع الحق في الانسحاب حين تنتهي الحرب.

٥ - تشكيل مجلس إمبريالي عام يجب تمثيل الملونين فيه.

٦ - إعلان تحالف رسمي مع الصين وإثيوبيا وكل ضحايا القوى الفاشية.

هذا البرنامج واضح، ويهدف بجلاء إلى تحويل هذه الحرب إلى حرب ثورية، وتحويل إنكلترا إلى ديمقراطية اشتراكية. تعمدت بألا أضمنه أي شيء قد لا يفهمه الشخص البسيط ولا يرى مبرراً له، ويمكن نشره في الشكل الذي وضعته فيه مطبوعاً على الصفحة الأولى من الديلي ميرور، لكن هناك ضرورة لقدر محدد من التضخيم لأجل الأهداف من هذا الكتاب.

١ - التأميم: يستطيع المرء "تأميم" الصناعة بجرة قلم، لكن العملية الفعلية ستكون بطيئة ومعقدة. المطلوب والضروري أن يُعهد بملكية كل الصناعات الرئيسية رسمياً إلى الدولة التي تمثل عامة الشعب. بمجرد أن يحدث ذلك، يصبح من الممكن استئصال طبقة الملاكين الذي لا يعيشون بفضل ما ينتجون، وإنما بامتلاك صكوك التمليك وشهادات الأسهم. لذلك تستلزم ملكية الدولة ألا يكون هناك من يعيش دون أن يعمل، لكن سرعة التغيير في سلوك الصناعة

التي اشترطتها غير محددة. في بلاد مثل إنكلترا لا نستطيع أن ندك كل البنية ونبني من جديد من القاع، في زمن الحرب على الأقل. من المحتم أن تستمر أغلبية الكونسيرنات الصناعية بنفس دائرة الموظفين والمستخدمين كما في السابق، ويواصل الملاكون السابقون أو المدراء أعمالهم كموظفين عند الدولة. هناك سبب للاعتقاد بأن الكثير من الرأسماليين الصغار سيرحبون فعلياً بهذا الترتيب. المقاومة ستأتي من الرأسماليين الكبار والمصرفيين وملاكي الأراضي الأثرياء المتبطلين، وكل الطبقة التي يفوق دخلها ٢٠٠٠ جنيه سنوياً تقريباً، وحتى لو أحصى المرء كل أتباعهم، فهم لن يكونوا أكثر من نصف مليون شخص من سكان إنكلترا. تأميم الأرض الزراعية يتضمن إلغاء مالك الأرض وساحب العشر، لكن ليس بالضرورة التدخل في شؤون المزارع. من الصعب تخيل أية إعادة تنظيم للزراعة الإنكليزية لا تبقي على أكثر المزارع الحالية كوحدات في كافة الأحوال في البداية. المزارع، حين يكون كفؤاً، سيستمر كمدير بمرتب. هو كذلك مسبقاً عملياً لكن مع سلبية أنه ملزم بإنتاج الربح وأنه مدان للمصرف دائماً. مع أنواع معينة من التجارة الصغيرة، وحتى ملكية الأرض على درجة صغيرة، الدولة ربما لن تتدخل إطلاقاً. ستكون التضحية بطبقة الملاكين الصغار خطأ فادحاً. إن هؤلاء الناس ضروريين، فهم أكفاء إجمالاً، ومقدار العمل الذي يقومون به يعتمد على الإحساس بأنهم "سادة أنفسهم"، لكن الدولة ستفرض بالتأكيد حداً أقصى لملكية الأرض (ربما خمسة عشر أكراً على الأغلب)، ولن تسمح أبداً بأي ملكية للأرض في نطاق المدن. من اللحظة التي يُعلن فيها أن كل البضائع المنتجة ملكية للدولة، سيشعر عامة الشعب، لا كما يشعرون الآن، بأن الدولة هي هم. سيكونون مستعدين عندئذ لتحمل التضحيات التي تنتظرهم، في حالة الحرب أو بدونها. حتى وإن بدا بأن وجه إنكلترا لن يتغير إلا بالكاد، فإن سيطرة الطبقة الواحدة ستنكسر في اليوم الذي تُـأمم فيه صناعاتنا الرئيسية رسمياً. ومنذ ذلك الحين فصاعداً سينتقل التأكيد من الملكية إلى الإدارة ومن الامتياز إلى الكفاءة. من المحتمل جداً أن تسبب ملكية الدولة بحد ذاتها بإحداث تغيير اجتماعي أقل من ذلك الذي ستفرضه علينا بالقوة الصعوبات الشائعة للحرب، لكنها الخطوة الضرورية الأولى التي تستحيل بدونها إعادة بناء حقيقية.

٢ - الدخول: يقتضي تحديد الدخول تثبيت حد أدنى للأجور، ويقتضي بدوره عملة داخلية منضبطة مؤسسة على كمية البضائع المستهلكة المتاحة. وهذا يقتضي مرة أخرى نظام محاصصة أشد انضباطاً من النظام المطبق الآن. من العبث في هذه المرحلة من تاريخ العالم

الاقتراح بأن يكون لكل لبشر دخول متساوية بالضبط فقد تبين وتكرر ذلك أنه لن يكون هناك حافز للتعهد بوظائف محددة بدون نوع من المكافأة المالية، ولكن من جانب آخر ليس بالضرورة أن تكون المكافأة المالية كبيرة جداً. في الواقع من المستحيل أن يكون المال المكتسب محدداً بصرامة كما أوحيت. ستظل هناك حالات دائمة من الشذوذ والتملص. لكن لا يوجد أي مبرر لكي لا يكون التفاوت القياسي الأقصى هو عشرة إلى واحد، وضمن هذين الحدين يصبح بعض الإحساس بالمساواة ممكناً، لكن إنسان دخله ثلاث جنيهات بالأسبوع وآخر دخله ألف وخمسمائة جنيه في السنة يستطيعان الشعور بأنهما مخلوقان متماثلان، هذا ما لا يستطيع دوق ويستمنستر والنائمون على مناضد السدود والجسور الشعور به.

٣ - التعليم: في وقت الحرب، يجب أن يكون الإصلاح التربوي بالضرورة تعهداً ووعداً أكثر منه إنجازاً. في الوقت الراهن نحن لسنا في وضع يسمح برفع سن ترك المدرسة أو زيادة الهيئة التعليمية للمدارس الابتدائية. لكن هناك خطوات محددة فورية نستطيع أخذها نحو نظام تربوي ديمقراطي. يمكننا الشروع في إلغاء الاستقلال الذاتي للمدارس الخاصة والجامعات القديمة وإشباعها بتلاميذ تساعدهم الدولة يُختارون على أسس المقدرة فقط. في الوقت الحاضر، إن التعليم في المدارس الخاصة جزئياً، هو تدريب على التحامل الطبقي، وجزئياً نوع من الضريبة تدفعها الطبقة الوسطى للطبقة العليا مقابل الحق في دخول مهن معينة. صحيح أن الظروف تتبدل. فقد بدأت الطبقة الوسطى في التمرد ضد غلاء تكاليف التعليم، وسوف تتسبب الحرب في إفلاس القسم الأعظم من المدارس الخاصة إن استمرت سنة أخرى أو سنتين. الإخلاء ينتج بعض التغييرات الثانوية المحددة أيضاً. لكن ليس هناك خطر من بعض المدارس القديمة التي ستنجو من العاصفة المالية الطويلة التي ستبقى حية بشكل أو بآخر كمراكز متقيحة للتكبر. بالنسبة إلى العشرة آلاف مدرسة "خاصة" التي تمتلكها إنكلترا، فإن أغلبها لا يستحق سوى القمع. هي مجرد مقاولات تجارية، وفي حالات كثيرة، مستواها التعليمي أدنى في الواقع من مستوى المدارس الابتدائية. هي موجودة فقط بسبب فكرة واسعة الانتشار بأن التعلم بواسطة السلطات الحكومية فيه شيء شائن. تستطيع الدولة تلطيف هذه الفكرة بإعلان نفسها مسؤولة عن كل التعليم، حتى لو لم يكن هذا أكثر من إيماءة في البداية. نحن نحتاج إلى إيماءات كما نحتاج إلى أفعال. من الواضح تماماً أن حديثنا

عن "الدفاع عن الديمقراطية" مجرد لغو عندما يكون مجرد حادث المولد هو الذي يقرر إن كان الطفل الموهوب سينال أو لن ينال التعليم الذي يستحقه.

٤ - الهند: ما يجب أن نقدمه للهند ليس "الحرية"، التي كما قلت سابقاً، بأنها مستحيلة وإنما التحالف، الشراكة - باختصار المساواة. لكن يجب أن نخبر الهنود أيضاً بأنهم أحرار في الانسحاب إن أرادوا ذلك. بدون ذلك لا يمكن أن تكون هناك مساواة في الشراكة، وادعاؤنا بالدفاع عن الشعوب الملونة ضد الفاشية لن يُصدق أبداً. لكن من الخطأ التخيل بأن الهنود سوف ينفصلون فوراً إن كانوا أحراراً في ذلك، وحين تقدم لهم الحكومة البريطانية استقلالاً غير مشروط، فإنهم سيرفضونه، لأنهم حالما يملكون السلطة للانسحاب فإن المبررات الرئيسية لهذا الفعل ستختفي.

الفصل القاطع بين الدولتين سيكون كارثة للهند لا تقل خطورتها عما سيكون لإنكلترا، والأذكياء من الهنود يعرفون هذا. كما هي الأشياء في الوقت الحالي، الهند ليس فقط لا تستطيع الدفاع عن نفسها بل إنها غير قادرة على إطعام نفسها إلا بالكاد حتى. إدارة البلاد كلها تعتمد على هيكل من الخبراء (مهندسين ضباط غابات رجال الخطوط الحديدية الجنود الأطباء) أغلبهم من الإنكليز، وليس في الإمكان استبدالهم خلال خمس أو عشر سنوات. علاوة على ذلك، اللغة الإنكليزية هي اللغة المشتركة الرئيسية، وكل الطبقة الهندية المثقفة تقريباً "تأنكلزت" بعمق. أي انتقال إلى حكم أجنبي - لأنه إن انسحب البريطانيون من الهند، فسوف تزحف إليها اليابان وقوى أخرى فوراً - سيعني خلعاً هائلاً. سيعجز اليابانيون والروس والألمان وكذلك الإيطاليون عن إدارة الهند حتى في المستوى المتدني من الكفاءة الذي بلغه البريطانيون، فهم لا يملكون الإمداد الضروري من الخبراء الفنيين أو المعرفة باللغات والظروف المحلية، وربما لا يستطيعون الفوز بثقة الوسطاء الذين لا غنى عنهم كالأوارسيين مثلاً. لو "حُررت" الهند أي حرمت من الحماية العسكرية البريطانية، فستكون النتيجة الأولى فتحاً أجنبياً جديداً، والنتيجة الثانية سلسلة من المجاعات الهائلة التي ستقتل ملايين الأشخاص خلال بضع سنوات.

ما تحتاجه الهند، هو القوة لتضع دستورها الخاص بها دون تدخل بريطاني، لكن في نوع من الشراكة التي تكفل حمايتها العسكرية والمشورة التقنية، وهذا لا يمكن التفكير فيه قبل أن تكون هناك حكومة اشتراكية في إنكلترا. لمدة ثمانين سنة على الأقل، ظلت إنكلترا تمنع على

نحو مصطنع تطور الهند، جزئياً خشية المنافسة التجارية من أن تكون الصناعات الهندية متطورة جداً، وجزئياً لأن الناس المتخلفين يُحكمون بسهولة أكبر من الناس المتمدنين. من المعتاد أن الهندي العادي (المتوسط) يعاني من أبناء بلده أضعاف ما يعانيه من البريطانيين. يستغل الرأسمالي الهندي الصغير عمال بلدته بأقصى قسوة، فالفلاح يعيش من ولادته حتى مماته في قبضة قارض المال. لكن هذا كله نتيجة غير مباشرة للحكم البريطاني الذي هدف متعمداً إلى إبقاء الهند متخلفة بقدر ما أمكن. الطبقات الأكثر ولاء لبريطانيا هم الأمراء ومالكو الأراضي وجمهور التجار - عموماً الطبقات التي تربح من الوضع الراهن. في اللحظة التي تكف فيها إنكلترا عن الوقوف تجاه الهند بعلاقتها كمستغل، ستبدل ميزان القوى. لن تظل هناك حاجة لتملق الأمراء الهنود السخيفين بفيلهم المطلية بالذهب وجيوشهم الكرتونية، لمنع تنامي الاتحادات العمالية الهندية، وتحريض المسلمين ضد الهندوس، وحماية الحياة التافهة لمقرضي المال، وتلقي التحيات من الموظفين الصغار المتزلفين، وتفضيل" الغوركا نصف البربري على المثقف البنغالي. ما إن تدفق في ذلك النهر من إيرادات الأسهم التي تتدفق من أجساد الحمالين الهنود إلى الحسابات المصرفية للسيدات العجائز في شيلتينهام، رابطة الساكن المحلي والصاحب مع الجهل المتغطرس من الجانب الأول والحسد والخنوع من الجانب الآخر التي يمكن وضع نهاية لها. يستطيع الإنكليز والهنود أن يعملا جنباً إلى جنب من أجل تطوير الهند، ومن أجل تدريب الهنود في كل الفنون الممنوعين بشكل منهجي من تعلمها حتى الآن. كم عدد دوائر الموظفين المتواجدين في الهند، التجاريين والرسميين، الذين سينهارون جراء اتفاق كهذا، يعني بأن يظلوا "أصحاب" لكن، بشكل عام، يجب أن نتأمل الكثير من الشباب ومن هؤلاء الموظفين (المهندسين وخبراء الحراجة والزراعة والأطباء والتربويين) الذين تعلموا بشكل علمي. أما الموظفون الكبار من حكام المناطق والأرياف ومندوبي الحكومة والقضاة..إلخ، فميئوس منهم؛ لكنهم الأسهل استبدالاً أيضاً.

ذلك تقريباً ما يقصد بوضع السيادة إن قدمتها حكومة اشتراكية للهند. إنه عرض للشراكة بشروط متساوية، حتى يحين وقت تتوقف الطائرات القاذفة فيه عن حكم العالم. لكننا يجب أن نضيف إليها حقاً غير مشروط للانسحاب. إنه الطريقة الوحيدة التي نثبت فيها بأننا نعني ما نقول. وما ينطبق على الهند، ينطبق مع التعديلات الضرورية على بورما ومالايا وأغلب الممتلكات الأفريقية.

٥ و٦ يفسران نفسيهما. هما الإجراءان التمهيديان الضروريان لأي زعم بأننا نخوض هذه الحرب من أجل حماية الشعوب المسالمة ضد العدوان الفاشي.

هل الاعتقاد بأن تلك السياسة ستجد لها أتباعاً في إنكلترا، أمل ميئوس منه؟ منذ سنة أو قبل ستة أشهر حتى، كان الأمر كذلك، لكن ليس الآن. إضافة - وهذه الفرصة الفريدة لهذه اللحظة - يمكن أن تحظى بالعلنية الضرورية. هناك الآن صحافة أسبوعية ضخمة، تداولها بالملايين، ستكون جاهزة لتعممها على الجماهير - إن لم يكن البرنامج الذي رسمت مخططه آنفاً بالضبط، فبعض من السياسية المتوافقة مع تلك الخطوط في أي حال، فهناك ثلاث أو أربع صحف يومية ستكون مستعدة لنشرها وتأييدها. هذه هي المسافة التي قطعناها في الأشهر الستة الأخيرة.

لكن هل مثل هذه السياسة قابلة للتحقق؟ يعتمد ذلك علينا نحن.

بعض النقاط التي اقترحتها هي من النوع الذي يمكن تنفيذه فورياً، أما بعضها الآخر فيستغرق سنيناً أو عقوداً، ولن تُنجز بشكل كامل حتى بعدئذ. ليس هناك أبداً برنامج سياسي نُفّذ بكليته. لكن ما يهم أن شيئاً مثله يجب أن يكون سياستنا المعلنة. المهم دائماً هو التوجه والمسار. من المتعذر تماماً طبعاً أن نتوقع من الحكومة الحالية أن تُلزم نفسها بأية سياسة تتضمن تحويل هذه الحرب إلى حرب ثورية. إنها أفضل حكومة تسويات، مع تشرشل يمتطي حصانين مثل بهلوان سيرك. قبل أن تصبح إجراءات مثل تحديد الدخول قابلة للتفكير حتى، يجب أن يكون هناك انتقال كامل للسلطة من الطبقة الحاكمة القديمة. إن تحولت الحرب أثناء هذا الشتاء إلى فترة ركود أخرى، ينبغي علينا برأيي أن نتحرك من أجل انتخابات عامة، شيء ستبذل ماكينة حزب توري جهوداً مسعورة لمنعه. لكننا نستطيع الحصول على الحكومة التي نريدها بدون انتخابات حتى، بشرط أن نريدها بشكل ملحّ وضروري تماماً. الدفع الحقيقي من الأسفل سوف ينجزها. بالنسبة إلى من سيكون في تلك الحكومة حين تأتي، لن أخمن ذلك. أنا أعرف فقط أن الرجال المناسبين سيكونون هناك حين يريدهم الشعب حقيقة، لأن الحركات تصنع القادة، وليس القادة هم من يصنعون الحركات.

خلال سنة أو ستة أشهر ربما، إن بقينا غير مدحورين، سنرى نهوض شيء لم يوجد من قبل قط، على وجه الخصوص حركة اشتراكية إنكليزية. حتى الآن ليس هناك سوى حزب العمال وهو من إنشاء الطبقة العاملة، لكنه لا يهدف إلى أي تغيير أساسي، والماركسية وهي نظرية

ألمانية فسرها الروس ونُقلت إلى إنكلترا بشكل غير ناجح، ولم يكن هناك شيء يلامس حقيقة قلب الشعب الإنكليزي. لم تنتج الحركة الاشتراكية خلال تاريخها كله أغنية بنغمة جذابة - لا شيء كالمارسييز أو الكوكوراشا مثلاً. حين تظهر حركة اشتراكية نابعة من طبيعة إنكلترا، سيكون الماركسيون ككل الآخرين غيرهم من ذوي الاهتمام الراسخ بالماضي، ألد أعدائها ومن المحتم أنهم سيشجبونها وينعتونها بـ"الفاشية". من المعتاد مسبقاً بين المثقفين نصف الناضجين من اليسار التصريح بأننا أن قاتلنا ضد النازيين، فستتحول نحن إلى نازيين. وربما يقولون بالمثل إننا إن قاتلنا ضد الزنوج فستتحول إلى سود. لنتحول إلى نازيين يجب أن يكون لدينا تاريخ ألمانيا خلفنا. الأمم لا تفر من ماضيها بمجرد القيام بثورة. حكومة اشتراكية إنكليزية سوف تبدل الأمة من القمة إلى القاع، لكنها ستظل تحمل فوق كاهلها العلامات الجلية لحضارتنا، الحضارة الفريدة التي ناقشتها آنفاً في هذا الكتاب.

لن تكون نظرية غير علمية أو حتى منطقية. إنها ستلغي مجلس اللوردات، لكنها ربما لن تلغي الملكية. ستترك المفارقات التاريخية والنهايات في كل مكان، القاضي بشعره المستعار السخيف والمأخوذ من ذيل الحصان والأسد ووحيد القرن التي على أزرار قبعة الجندي. هي لن تُنصّب أي ديكتاتورية طبقية صريحة. سوف تجمع نفسها حول حزب العمال القديم، وسيكون جمهور أتباعها من الاتحادات العمالية، لكنها ستسحب إلى داخلها أكثرية الطبقة الوسطى والكثيرين من الأبناء الأصغر من البورجوازية، وسيأتي أغلب عقولها الموجهة من عمال الطبقة غير المحددة الجديدة من المهرة والخبراء التقنيين والملاحين الجويين والعلماء والصحفيين، والناس الذين يشعرون بالارتياح في عصر الراديو والإسمنت المسلح، لكنها لن تفقد الاتصال مع عرف التسوية والحلول الوسطى والإيمان بالقانون الذي هو فوق الدولة. تسوف تعدم الخونة بالرصاص، لكنها ستعطيهم محاكمة وقورة سلفاً، وأحياناً ستبرئهم. سوف تسحق أي تمرد علني بقسوة وبدون إبطاء، لكنها لن تتدخل إلا قليلاً جداً في الكلمة المحكية أو المكتوبة، وستظل الأحزاب السياسية بمختلف مسمياتها موجودة، وستظل كذلك الفرق الثورية تواصل نشر صحفها وتمارس تأثيرها القليل كما كانت دائماً. سوف تسحب اعترافها بالكنيسة، لكنها لن تقمع الدين، وإنما ستُبقي على توقير غامض للنظام الأخلاقي المسيحي، وسوف تشير من حين إلى آخر إلى إنكلترا بـ"بلاد مسيحية". سوف تكون الكنيسة

الكاثوليكية ضدها، لكن الطوائف المنشقة والقسم الأعظم من الكنيسة الأنجليكانية، سوف تتوصل إلى تفاهم معها، وسوف تظهر قوة في استيعاب الماضي، ما سيصدم المراقبين الأجانب ويجعلهم يشكون أحياناً إن كانت الثورة قد حدثت.

لكن رغم ذلك، فهي ستقوم بالشيء الجوهري. سوف تؤمم الصناعة وتخفض الدخول وتؤسس نظاما تربوياً غير طبقي. ستكون طبيعتها الحقيقية ظاهرة من الكره الذي سيكنه لها الناجون من الأغنياء. لن تستهدف حل الإمبراطورية، وإنما تحويلها إلى اتحاد فيدرالي من الدول الاشتراكية، متحرر من العلم البريطاني، لكن ليس كشدة تحرره من مقرض المال وساحب إيرادات الأسهم المالية والموظف البريطاني الأحمق. إنها استراتيجية حربية ستكون مختلفة تماماً عن أية دولة تحكمها الملكية، لأنها لن تكون خائفة من أصغر الوساوس حول مهاجمة المحايدين المعادين أو إثارة عصيانات محلية في مستعمرات عدوة. سوف تقاتل بطريقة، حتى لو انهزمت فيها ستظل ذكراها خطرة على المنتصر. كما كانت ذكرى الثورة الفرنسية خطرة على أوروبا مترنيخ. سيهابها الحكام المستبدون كما لم يخافوا من نظام الحكم البريطاني الحالي حتى لو كانت قوته العسكرية عشرة أضعاف ما هو عليه.

لكن في هذه اللحظة، وفي الوقت الذي لم تتبدل فيه الحياة الناعسة لإنكلترا، وحين لا يزال التباين المهين للثروة والفقر موجوداً في كل مكان، حتى وسط القنابل، لماذا أتجرأ وأقول بأن كل هذه الأشياء "سوف" تحدث؟

لأن الوقت الذي يستطيع المرء فيه التنبؤ بالمستقبل على ضوء "إما - أو" قد حان. إما أن نحول هذه الحرب إلى حرب ثورية (أنا لا أقول إن سياستنا سوف تكون ما أشرت إليه آنفاً بالضبط - لكنها ستكون بموازاة تلك الخطوط العامة) أو أن نخسرها، بالإضافة إلى أشياء أكثر بكثير. قريباً جداً سيكون من الممكن القول بلا ريب بأن أقدامنا وُضعت إما على السبيل الأول أو على الآخر. لكن في كافة الأحوال، فمن المؤكد أننا لا نستطيع الفوز بتركيبتنا الاجتماعية الحاضرة، إذ لا يمكن تعبئة قوانا البدنية أو الأخلاقية أو العقلية.

٣ - الوطنية لا علاقة لها بالنزعة المحافظة. إنها في الواقع نقيض النزعة المحافظة، بما أنها تفان لشيء يتبدل دائماً ومع ذلك يظل يبدو نفسه على نحو خفي. إنها الجسر بين المستقبل والماضي. لم يحدث أبداً أن كان الثائر الحقيقي أممياً ولن يكون.

خلال العشرين سنة الماضية النظرة، فإن السلبية الخاملة التي كانت حديثة وسط أجنحة اليسار الإنكليزي، المثقف الساخر من الوطنية والشجاعة البدنية والجهد الحثيث لتكسير المعنويات الإنكليزية ونشر النظرة التلذذية، ما الذي سأناله منها – في الحياة، لم تفعل سوى الضرر. ستكون ضارة حتى لو كنا نعيش في عالم عصبة الأمم الهش الذي تخيله هؤلاء الناس. عصر الفوهررات والطائرات القاذفة كان كارثة. مهما كان حبنا للخشونة قليلاً، فهي ثمن البقاء. الأمة التي تدربت لتفكر بأسلوب تلذذي، لا تستطيع البقاء حية وسط شعوب تعمل مثل العبيد وتتناسل كالأرانب، وصناعتها الوطنية الرئيسية هي الحرب. الاشتراكيون الإنكليز من كل الألوان تقريباً أرادوا أن يتخذوا موقفاً ضد الفاشية، لكن في الوقت نفسه هدفوا إلى جعل أبناء بلدهم غير محبين للحرب. لقد فشلوا، لأن الولاءات التقليدية في إنكلترا أقوى من الولاءات الجديدة. لكن رغم كل بطولات صحافة الجناح اليساري "المعادية للفاشية"، ما هي فرصة صمودنا وما هو وضعنا حين يأتي الصراع مع الفاشية، إذا كان الإنكليزي العادي من نوع المخلوق الذي رغبت نيوستيتمان وديلي وركر وحتى نيوز كرونيكل في صنعه؟

حتى عام ١٩٣٥ عملياً، كانت كل أجنحة اليسار الإنكليزية سلمية على نحو غامض. بعد عام ١٩٣٥ الأكثر تشدقاً منهم رموا بأنفسهم بتلهف في حركة الجبهة الشعبية، التي كانت مجرد تهرب من المشكلة برمتها التي فرضتها الفاشية. بدأت لتكون "معادية للفاشية" بطريقة سلبية محضة – "ضد" الفاشية دون أن تكون "مؤيدة" لأية سياسة قابلة للاكتشاف – وتحتها تكمن الفكرة الرخوة بأن الروس سيقاتلون بدلاً منا حين يأتي الوقت. من المدهش كيف يفشل هذا الوهم في أن يموت. كل أسبوع يشهد فيضاً من الرسائل للصحافة تشير أنه لو كان لدينا حكومة ليس فيها توريين (محافظين) فإن الروس لن يستطيعوا تفادي تبديل رأيهم والوقوف إلى جانبنا. أو علينا أن نعلن عن أهداف حربية طنانة (راجع كتباً مثل كفاحي، مائة مليون حليف – لو رغبنا، إلخ)، عندئذ ستهب الشعوب تماماً لتقف لمصلحتنا. إنها نفس الفكرة الدائمة – ابحث عن إلهامك في الخارج، دع أحداً آخر يخوض حربك عنك. تحتها تكمن عقدة الدونية المخيفة للمثقف الإنكليزي، الاعتقاد بأن الإنكليز لم يعودوا سلالة حربية ولم يعودوا قادرين على التحمل والثبات.

في الحقيقة ليس هناك مبرر للاعتقاد بأن أي أحد سيخوض حربنا بدلاً منا ولو للحظة، ماعدا الصينيين الذين بدأوا يقومون بذلك منذ ثلاث سنوات.[1] وربما يُدفع الروس إلى القتال إلى جانبنا بفعل هجوم مباشر، لكنهم أوضحوا كفاية بأنهم لن يواجهوا الجيش الألماني إن كانت هناك وسيلة لتفادي ذلك. في كافة الأحوال من غير المحتمل أن يجذبهم مشهد حكومة يسارية في إنكلترا. نظام الحكم الروسي الحالي يجب أن يكون وبشكل مؤكد معادياً لأي ثورة في الغرب. شعوب أوروبا الخاضعة سوف تتمرد حين يبدأ هتلر في الترنح، لكن ليس قبل ذلك. حلفاؤنا المحتملون ليسوا الأوروبيين، وإنما من جهة الأميركيين الذين سيحتاجون إلى سنة ليعبئوا مواردهم، حتى لو تم إجبار التجارة وتطويعها. ومن جهة أخرى، فالشعوب الملونة لا يمكن أن تكون في صفنا حتى تبدأ ثورتنا. لوقت طويل، سنة، سنتين، ربما ثلاثة، يجب على إنكلترا أن تكون ماص الصدمات بالنسبة إلى العالم. يجب علينا أن نواجه القصف والجوع والعمل المفرط والأنفلونزا والضجر وعروض السلام الغادرة. من الجلي أنه زمن لتقسية المعنويات، وليس لإضعافها. بدلاً من أخذ موقف معادٍ للبريطانيين بشكل ميكانيكي وهو المعتاد من اليسار، من الأنسب أن نفكر في الشكل الذي سيؤول إليه العالم لو فنيت الحضارة الناطقة بالإنكليزية. من الصبيانية الافتراض أن البلدان الناطقة بالإنكليزية الأخرى، حتى الولايات المتحدة لن تتأثر إن دُحرت بريطانيا.

يعتقد اللورد هاليفاكس وكل قبيلته، بأن الأشياء ستعود كما كانت من قبل بالضبط، بمجرد أن تنتهي الحرب. عودة إلى الحجارة الواهنة لفرساي وعودة إلى "الديمقراطية" أي الرأسمالية، عودة إلى طوابير إعانات البطالة وسيارات الرولزرويس، عودة إلى القبعات الرمادية العالية والسراويل الفضفاضة المبطنة. من الواضح طبعاً أنه لن يحدث أي شيء من هذا النوع. تقليد عنه شبه واهن ربما يحدث في حالة سلام متفاوض عليه، لكن لفترة قصيرة. لقد ماتت رأسمالية عدم التدخل في الاقتصاد.[2] الخيار يكمن بين نوع من المجتمع التعاوني الذي سينشئه هتلر، والنوع الذي يمكن أن يظهر إن اندحر وخسر الحرب.

---

١ - (كتب قبل اندلاع الحرب في اليونان. حاشية المؤلف).

٢ - (من المشوق أن نلاحظ بأن السيد كنيدي، سفير الولايات المتحدة في لندن، لاحظ عند عودته إلى نيويورك في أكتوبر تشرين أول ١٩٤٠ أن "الديمقراطية هلكت" نتيجة للحرب. عنى بـ"الديمقراطية" طبعاً الرأسمالية الخاصة. حاشية المؤلف)

إن ربح هتلر هذه الحرب، فسوف يعزز حكمه فوق كل أوروبا وأفريقيا والشرق الأوسط، وإن لم يهد الإنهاك جيوشه، سينتزع مناطق واسعة من روسيا السوفييتية. سوف ينشئ مجتمعاً طبقياً متدرجاً، فيه الألمان هيرفولك ("العرق السيد" أو "العرق الأرستقراطي") وسيحكمون السلاف والشعوب الأقل التي ستكون مهمتها إنتاج منتجات زراعية منخفضة التكلفة. سوف يقلل منزلة الشعوب الملونة ويحولها إلى عبودية تامة. الصراع الحقيقي للقوى الفاشية مع الإمبراطورية البريطانية، هو أن الأولى تعرف بأن الثانية تتفسخ وتنحل. عشرون سنة أخرى بموازاة الخط الحالي للتطور، وستكون الهند جمهورية فلاحية مرتبطة بإنكلترا بتحالف طوعي فقط. "أنصاف القردة" الذين تكلم هتلر عنهم باشمئزاز كبير، سوف يقودون الطائرات ويصنعون البنادق الآلية. الحلم الفاشي بإمبراطورية رق سوف ينتهي. من الجانب الآخر، إن هُزمنا، فإننا سنسلم ضحايانا ببساطة إلى سادة جدد وصلوا إلى المهمة ولا يظهر عليهم أي تردد.

لكن الأمر أكبر من مصير الشعوب الملونة. رؤيتان متنافرتان للحياة تصارعان بعضهما. "بين الديمقراطية والشمولية" قال موسوليني، "لن تكون هناك تسوية أو حل وسط". لا تستطيع العقيدتان العيش جنباً إلى جنب حتى ولو لفترة محدودة من الوقت. طالما توجد الديمقراطية حتى في شكلها الإنكليزي الناقص، تكون الشمولية في خطر حقيقي. العالم الناطق بالإنكليزية برمته تلازمه فكرة المساواة الإنسانية، ورغم كذب القول بأننا نحن أو الأمريكان كنا نعمل دائماً وفقاً لمعتقداتنا، تظل الفكرة هناك، وقادرة بأن تصبح حقيقة في يوم من الأيام. من الثقافة الناطقة بالإنكليزية، إن لم تفنَ، سينبثق مجتمع مكون من كائنات بشرية حرة ومتساوية في النهاية. لكن هي بالضبط فكرة المساواة الإنسانية - الفكرة "اليهودية" أو "اليهودية - المسيحية" - بأن هتلر جاء إلى العالم كي يدمره. وهو كرر قول ذلك بنفسه كثيراً. فكرة العالم الذي فيه السود خيرون كالبيض، واليهود يعاملون فيه ككائنات بشرية، تسبب له رعباً ويأساً كالذي تسببه لنا فكرة العبودية اللانهائية لنا.

من المهم أن نتذكر التنافر الشديد بين وجهتي النظر هاتين. في وقت ما خلال السنة التالية يُحتمل تماماً حدوث رد فعل مؤيد لهتلر ضمن مثقفي اليسار، فهناك علامات أولية دالة عليه مسبقاً، كما أن إنجاز هتلر الموجب الحقيقي جذاب لخلاء هؤلاء الناس و- في حالة هؤلاء من ذوي الميول السلامية - لمازوشيتهم. المرء يعرف مقدماً ما سيقولونه تقريباً. سيبدؤون برفض

الاعتراف بأن الرأسمالية البريطانية تتطور إلى شيء مختلف أو أن دحر هتلر لا يمكن أن يعني أكثر من نصر بالنسبة إلى الأثرياء البريطانيين والأمريكيين. ومن ذلك سوف يشرعون في الجدل بأن الديمقراطية أخيراً "تماماً مثل" أو "تماماً بنفس سوء" الحكم الشمولي. ليس هناك حرية تعبير كبيرة في إنكلترا؛ لذلك هي ليست أكثر مما يوجد منها في ألمانيا. أن تكون على الإعانة الحكومية تجربة هيبة؛ لذلك هي ليست أسوأ من أن تكون في غرف تعذيب الجيستابو. على العموم، أسودان اثنان يساويان أبيض، نصف رغيف مثل بلا خبز.

لكن في الواقع مهما يكون صحيحاً عن الديمقراطية والشمولية، فليس صحيحاً أنهما متماثلتان. لن يكون صحيحاً، حتى لو كانت الديمقراطية البريطانية غير قادرة على التطور إلى أبعد من مرحلتها الحالية. فكرة الدولة القارية المعسكرة برمتها مع قواتها الأمنية السرية وأدبها الخاضع للرقابة وعملها الإلزامي، شيء مختلف تماماً عن ذلك الذي في الديمقراطية الملاحية الرخوة، مع أحيائها الفقيرة القذرة والبطالة وإضراباتها وسياساتها. إنه الاختلاف بين القدرة البرية والقدرة البحرية، بين القسوة وعدم الكفاءة، بين الكذب وخداع الذات، بين رجل الإس إس وجابي الإيجار. والاختيار بينهما ليس على أساس مدى القوة التي هما عليها الآن، وإنما على ما هما قادران أن يصبحا عليه. لكن بمعنى غير متصل بالموضوع، إن كانت الديمقراطية في أوجها أم في حضيضها، "أفضل" من الشمولية. لكي يقرر المرء، ينبغي عليه أن يمتلك مدخلاً إلى معايير كاملة. السؤال الوحيد الذي له أهمية، هو أين سيكمن تعاطف المرء حين يأتي الحرمان (القرصة). المثقفون المغرمون بالموازنة بين الديمقراطية والشمولية و"أثبتوا" أن الأولى بنفس سوء الثانية المهمة، هم ببساطة أشخاص تافهون لم يُدفعوا قط لمواجهة الحقائق. يظهرون نفس سوء الفهم الضحل للفاشية الآن، حين بدؤوا في مغازلتها، كما منذ سنة أو سنتين، عندما كانوا يتصارخون ضدها. السؤال هو ليس "هل تستطيع أن تقترح قضية اجتماعية جدالية لصالح هتلر؟" بل السؤال هو "هل تقبل بصدق بتلك القضية؟ هل أنت راغب بأن تخضع لحكم هتلر؟ هل تريد أن ترى إنكلترا مهزومة، أم لا تريد؟". يفضل أن تتأكد من تلك النقطة قبل الانحياز الطائش إلى صف العدو. لأنه في الحرب ليس هناك شيء اسمه الحياد؛ وعملياً يجب على المرء أن يساعد الطرف الأول أو الآخر.

حين يأتي الحرمان، فلن تقبل أية سلالة في العرف الغربي بالرؤيا الفاشية للحياة. من المهم أن يُدرك ذلك الآن ونعي ما ينتج عنه. بكل كسلها ورياءها وإجحافها، فالحضارة الناطقة

بالإنكليزية هي العقبة الكبيرة الوحيدة في درب هتلر. إنها تناقض حي لكل العقائد الفاشية "المعصومة" لهذا اتفق كل الكتاب الفاشيين خلال السنوات الماضية على وجوب تدمير سلطة إنكلترا ونفوذها. إنكلترا يجب أن "تُباد"، يجب أن "تتوقف عن البقاء". استراتيجياً من الممكن أن تنتهي هذه الحرب بحيازة هتلر المضمونة على أوروبا وببقاء الإمبراطورية البريطانية سليمة، وكذلك قوتها البحرية التي لن تتضرر تقريباً. لكن أيديولوجياً هذا غير ممكن، فلو قدّم هتلر مقترحاً بموازاة تلك الخطوط، فسيكون مجرد خداع، مع تطلع لإخضاع إنكلترا بشكل غير مباشر أو تجديد الهجوم في وقت مناسب أكثر. لا يمكن السماح لإنكلترا بأن تبقى نوعاً من القمع (الأنبوب) عبره تتدفق الأفكار المميتة من وراء الأطلنطي إلى دول أوروبا الأمنية. وبالنظر للقضية من وجهة نظرنا، نرى ضخامتها أمامنا، والأهمية الكبيرة للحفاظ على ديمقراطيتنا تقريباً كما عرفناها. لكن أن تحافظ وتصون يعني أن تتوسع وتتمدد. الخيار أمامنا ليس بين نصر وهزيمة بقدر ما هو بين ثورة ولامبالاة. إن تهدم الشيء الذي نقاتل من أجله تماماً، فإنه سيتهدم بفعلنا نحن جزئياً.

يمكن أن يحدث وتستطيع بريطانيا إدخال بدايات الاشتراكية وتحويل هذه الحرب إلى حرب ثورية وتظل مهزومة. ذلك قابل للتصور على أي حال. لكن، مهما كان ذلك بغيضاً لأي شخص بالغ الآن، إلا أنه أقل إماتة من "تسوية سلمية" تنشدها حفنة من الأثرياء والأفاقين المستأجرين من قبلها. الدمار النهائي لإنكلترا لا يمكن أن يُنجز إلا بعمل حكومة إنكليزية تتلقى أوامرها من برلين. لكن ذلك لا يمكن أن يحدث إن تنبهت إنكلترا مسبقاً، ففي تلك الحالة ستكون الهزيمة جلية والصراع سيستمر وتنجو الفكرة. الفرق بين النزول إلى القتال والاستسلام بدون قتال، هو بلا شك مسألة "شرف" وبطولات طلابية. قال هتلر مرة إن القبول بالهزيمة يدمر روح الأمة. هذا يبدو مثل قطعة من الكلام الفارغ، لكنه صحيح تماماً. هزيمة ١٨٧٠ لم تقلل التأثير العالمي لفرنسا. كان للجمهورية الثالثة تأثير فكري أكبر مما كان لفرنسا نابليون الثالث. لكن السلام الذي قبل به بيتان ولافال وكو، لا يمكن تحقيقه إلا بمسح متعمد للثقافة القومية. ستنعم حكومة فيشي باستقلال زائف، لكن بشرط أن تدمر المعالم المميزة للثقافة الفرنسية: الحكم الجمهوري والعلمانية واحترام العقل وغياب التحامل بحق الملونين. لا يمكن أن نُهزم بشكل تام إذا قمنا بثورتنا مقدماً. يمكن أن نرى جنود القوات

الألمانية يتبخترون في الوايتهول (مقر الحكومة) لكن ستبدأ صيرورة أخرى، مهلكة جوهرياً للحلم الألماني بالسلطان. لقد انهزم الشعب الإسباني، لكن الأشياء التي تعلمها خلال هاتين السنتين والنصف البارزتين، ستعود يوماً ما على الفاشيين الإسبان مثل الكيد المرتد.

مقطع من كلام شكسبير المنمق اقتبس في بداية الحرب. حتى السيد تشامبرلاين اقتبسه مرة، إن لم تخدعني ذاكرتي:

لتأتي بأسلحتها أركان العالم الأربعة كلها وسوف نصدمهم: لا شيء سيجعلنا نندم إن اعتمدت إنكلترا على نفسها بصدق.

صحيح تماماً، إن فسرته بشكل صحيح، لكن على إنكلترا أن تكون صادقة مع نفسها. هي ليست صادقة مع نفسها حين يظل اللاجئون المحتجزون الذين سعوا إلى شواطئنا في معسكرات الاعتقال، ومدراء الشركات يخترعون مكائد حاذقة للتهرب من ضرائب فائض أرباحهم. إنه وداع للنيام وللمتفرج ووداع للسيدة التي في سيارة الرولزرويس. ورثة نيلسون وكرومويل ليسوا في مجلس اللوردات. هم في الحقول والشوارع، في المصانع والقوات المسلحة، في مشرب الجعة الرخيص وفي الحدائق الخلفية في الضواحي، وفي الوقت الحاضر لا يزالون محكومين من قبل جيل من الأشباح. مقارنة بمهمة إعادة إنكلترا الحقيقية إلى السطح، حتى الفوز بالحرب، رغم ضرورته، ثانوي. بالثورة نصبح أنفسنا أكثر وليس أقل. ليس هناك شك من أن إيقافها المفاجئ وعقد تسوية، و"إنقاذ الديمقراطية" لا يزال قائماً. ليس هناك شيء يظل قائماً للأبد. يجب علينا أن نضيف إلى تراثنا أو نخسره، يجب علينا إما أن نقوى أكثر أو نضعف أكثر، يجب علينا إما أن نتقدم أو نتراجع. أنا أؤمن بإنكلترا وأؤمن بأننا ستتقدم.

الكتّاب واللويثان (الدولة)

يعنون أورويل المقال على الشكل التالي: الكتّاب واللويثان، وهو وحش بحري مخيف ورد ذكره في الكتاب المقدس.

نوقش كثيراً وعلى نطاق واسع موضوع وضع الكاتب في زمن سيطرة الدولة، لكن أغلب الأدلة المتعلقة بالموضوع ليست متوفرة بعد. في هذا الموضع لا أريد أن أعبر عن رأي مؤيد أو معارض لعصر تبني الدولة للفنون، وإنما لأبين أن قواعد الدولة أياً كانت التي تتحكم بنا، يجب أن تعتمد جزئياً على الجو الفكري السائد: أقصد، في هذا السياق، جزئياً على موقف الكتاب والفنانين أنفسهم، وعلى رغبتهم واستعدادهم لإبقاء روح الليبرالية حية. فإن وجدنا أنفسنا في غضون عشر سنوات نتذلل أمام شخص مثل جدانوف، فسيكون هذا ما نستحقه. من الواضح وجود ميول قوية نحو الشمولية والديكتاتورية تعمل داخل الإنتلجنسيا الأدبية الإنكليزية مسبقاً. لكني لست مهتماً هنا بأية حركة واعية منظمة مثل الشيوعية، بل في الأثر على حماسة الناس وعلى التفكير السياسي وفي الحاجة إلى الاصطفاف السياسي.

هذا عصر سياسي. الحرب والفاشية ومعسكرات الاعتقال والعصي المطاطية والقنابل الذرية..إلخ، هي ما نفكر فيه يومياً، وما نكتب عنه إلى درجة ما حتى عندما لا نسميها صراحة. حين تكون على متن سفينة غارقة لا يمكنك التفكير إلا بالسفن الغارقة. لكن لم يتقلص موضوعنا الرئيسي فقط، وإنما تلون موقفنا من الأدب كله بولاءات غير أدبية بشكل متقطع على الأقل. لدي شعور شبه دائم بأن النقد الأدبي في أفضل أوقاته مخادع نظراً لغياب معايير مقبولة أياً كان نوعها - أي مرجع خارجي يستطيع أن يعطي معنى لمقولة إن هذا الكتاب "جيد" وذاك "رديء" - فكل حكم أدبي مبني على تلفيق مجموعة من القواعد لتبرير خيار غريزي. رد الفعل الحقيقي للمرء، إن وجد، يكون عادة "أنا أحب هذا الكتاب" أو "أنا لا أحبه" وما يتلو ذلك هو منطقة (تسويغ). لكني أعتقد أن "أنا أحب هذا الكتاب" ليس رد فعل غير أدبي؛ رد الفعل غير الأدبي هو "هذا الكتاب في صفي، ولذا يجب أن اكتشف فيه الفضائل" من الطبيعي أن يمجد المرء كتاباً لأسباب سياسية ربما يكون موالياً لها، بمعنى أنه يشعر باستحسان

قوي نحوها، لكن يحدث كثيراً أيضاً أن هذا التضامن الحزبي يتطلب الكذب الصريح. وكل من يكتب مراجعات نقدية للكتب لصالح الدوريات السياسية يدرك هذا. عموماً إن كنت تكتب لجريدة، يعني أنك متعاقد معها، أنت ترتكب إثماً بالتكليف، وإن كانت الجريدة ذات طابع مناقض فبالحذف. في كل الأحوال يجري الحكم على كتب خلافية لا تحصى - كتب ضد أو مع روسيا السوفيتية أو الصهيونية أو الكنيسة الكاثوليكية..إلخ قبل أن تُقرأ وبالأحرى قبل أن تُكتب، فالمرء يعرف مسبقاً أي استقبال سيناله بأي جريدة، ومع ذلك بالخداع الذي لا يكون شبه مدرك أحياناً يظل الزعم بتطبيق المعايير الأدبية الأصيلة والصادقة.

إن غزو السياسيين للأدب محتوم حدوثه طبعاً. كان يجب أن يحدث حتى لو لم تظهر مشكلة الشمولية والديكتاتورية أبداً، لأننا طوّرنا نوعاً من وخز الضمير الذي لم يعرفه أجدادنا، ووعي بالظلم الهائل وببؤس العالم، وشعور بالذنب يفرض على المرء القيام بشيء حوله، ما جعل الموقف الجمالي الصرف نحو الحياة مستحيلاً. لا أحد يستطيع الآن أن يكرس نفسه للأدب بإخلاص كما فعل جويس أو هنري جيمس. لكن لسوء الحظ، القبول بمسؤولية سياسية الآن يعني التخلي عن النفس إلى أرثوذوكسيات (عقائد تقليدية) و"خطوط حزبية" بكل ما يتضمنه ذلك من جبن وخداع. بعكس الكتاب الفيكتوريين، لدينا عائق العيش في أيديولوجيات سياسية محددة وواضحة تعرف بلمحة عادة الأفكار المهرطقة (منشقة). يعيش المفكر الأدبي المعاصر ويكتب في خوف دائم - في الحقيقة ليس من الرأي العام بمعناه الشامل، بل من الرأي العام ضمن مجموعته. كقاعدة، لحسن الحظ، هناك أكثر من مجموعة، لكن في أية لحظة مفترضة هناك أرثوذوكسية مهيمنة يجب تحديها، ما يتطلب جلداً سميكاً، وأحياناً يعني تخفيض دخل المرء إلى النصف لسنوات طويلة متتالية. من الواضح أن المعتقد المهيمن في السنوات الخمس عشرة الماضية وسط الشباب خصوصاً هو اليسار والكلمات الرئيسة هي "تقدمي" و"ديمقراطي" و"برجوازي" و"رجعي" و"فاشي". الكل تقدميون تقريباً اليوم، حتى أكثرية الكاثوليك والمحافظين يرغبون أن يُظن بهم أنهم كذلك على الأقل. ليس هناك من وصف نفسه بـ"البرجوازي" حسب معرفتي مثلما، ليس هناك متعلم واحد يعترف بكونه متهماً بعدائه للسلمية. كلنا ديمقراطيون طيبون نعادي الفاشية والإمبريالية ونحتقر الامتيازات الطبقية ومنيعون ضد الانحياز للون وهلم جرا. لا يوجد شك كبير بأن عقيدة

"اليسار" اليوم أفضل من عقيدة المحافظين المتكبرين الأتقياء التي سادت قبل عشرين سنة حين كانت الكراريتريون (وبمستويات أدنى) ميزان لندن ميركيوري، المجلتين الأدبيتين المسيطرتين. العقيدة التي هدفت ضمنياً إلى شكل مجتمعي قابل للحياة يريده عدد كبير من الناس حقيقة، لكن أيضاً زيفها الخاص بها الذي لم يكن الاعتراف به ممكناً، جعل من المستحيل مناقشة قضايا محددة بشكل جدي.

وضعَ الأيديولوجيا اليسارية العلمية والطوباوية أشخاص لم يكن لديهم الأمل بنيل السلطة، لذلك كانت أيديولوجيا متطرفة تحتقر الملوك والحكومات والقوانين والسجون وقوات الأمن والجيوش والرايات والكشافة والدين والأخلاق التقليدية، وكل نظام الأشياء القائم في الحقيقة.

لقد ورث اليسار من الليبرالية معتقدات مشكوك بها، من مثل أن الحقيقة ستسود وأن الاضطهاد سيهزم نفسه أو أن الإنسان خيِر بطبعه لكن البيئة تفسده. واستمرت هذه الأيديولوجيا المثالية في داخل كل واحد منا، لكننا راكمنا في أذهاننا سلسلة كاملة من المتناقضات غير المعترف بها نتيجة ارتطامات متتالية مع الواقع.

كانت الصدمة الكبيرة الأولى هي الثورة الروسية. لأسباب معقدة اندفع كل اليسار الإنكليزي تقريباً للقبول بالنظام الروسي كنظام "اشتراكي"، في الوقت الذي أقر فيه صامتاً أن روحه وممارسته غريبة تماماً عن أي شيء تعنيه "الاشتراكية" في هذه البلاد. من هنا نشأ نوع من الانفصام في طريقة التفكير، كلمات مثل ديمقراطية تحمل فيه معنيين متناقضين، وأشياء مثل معسكرات الاعتقال والترحيل الجماعي القسري، يمكن أن تكون صحيحة أو خاطئة بنفس الوقت. أما الصدمة الثانية للأيديولوجيا اليسارية، فكانت ظهور الفاشية التي هزت سلامية اليسار وأمميته. إن تجربة الاحتلال الألماني، علمت الشعوب الأوروبية أن الشعوب الكولونيالية عرفت مسبقاً أن العداء الطبقي ليس كلي الأهمية، وهناك شيء يسمى المصلحة القومية. وبعد هتلر بات من الصعب الحفاظ بشكل جدي على "أن العدو في بلادنا" وأن الاستقلال القومي لا قيمة له.

خيبت الحكومات اليسارية على اختلاف أنواعها تقريباً آمال مناصريها، فحتى بعدما يُنجز الازدهار الذي وعدت به، تظل هناك حاجة لفترة انتقالية مزعجة لم يُحكَ عنها سوى القليل.

نحن نرى في هذا الوقت أن حكومتنا في العسر الاقتصادي اليائس تقاتل ضد دعايتها السابقة. إن الأزمة التي نحن فيها الآن ليست كارثة مفاجئة وغير متوقعة كالزلزال مثلاً ولم تسببها الحرب وإنما عجلت بحدوثها. كان يمكن التنبؤ منذ عقود بحدوث شيء من هذا النوع. منذ القرن التاسع عشر دخلنا القومي، الذي اعتمد جزئياً على الربح من الاستثمارات الأجنبية وعلى الأسواق المضمونة والمواد الخام الرخيصة في البلدان المستعمرة، كان في خطر محدق شديد. كان من المؤكد أن خطأ ما سيحدث عاجلاً أو آجلاً، وسنجبر على إقامة التوازن بين صادراتنا ووارداتنا، وعند حدوث ذلك سوف يهبط مستوى الحياة البريطانية بما فيها مستوى عيش الطبقة العاملة مؤقتاً على الأقل، ومع ذلك لم توضح أحزاب اليسار هذه الحقائق أبداً حتى حين كانت معادية للإمبريالية بصوت صاخب، وإنما كانت في المناسبات تعترف بأن الشغيلة البريطانيين استفادوا إلى حد ما من نهب آسيا وأفريقيا، ولكنها كانت تظهر الأمر دائماً بأننا يمكننا التخلي عن النهب، وسنجد وسيلة للبقاء مزدهرين.

مبدئياً، وفي الحقيقة، جرى إقناع الشغيلة بالاشتراكية، بإخبارهم أنهم كانوا مستغلين (بالفتح) بينما كانت الحقيقة الوحشية وبالشروط العالمية أنهم كانوا هم المستغِلين (بالكسر). لقد وصلنا الآن إلى النقطة التي لم يعد فيها الحفاظ على مستوى معيشة الطبقة العاملة ممكناً، عداك عن رفعه.

إن القبول بمعتقد تقليدي، يورث متناقضات مستعصية دائماً. خذ مثلاً حقيقة أن كل الأشخاص الحساسين يشمئزون من الصناعوية ومنتجاتها رغم أنهم يدركون أن قهر الفقر وتحرير الطبقة العاملة يشترطان الإكثار من التصنيع وليس الإقلال منه. أو خذ حقيقة وجود وظائف محددة ضرورية بلا ريب لكنها لا تُنجز إلا تحت نوع من القسر، أو حقيقة أنه يستحيل أن تكون لك سياسة خارجية إيجابية، دون أن تكون لديك قوات مسلحة قوية، ويمكن مضاعفة الأمثلة. في كل حالة كهذه، هناك نتيجة واضحة تماماً، لكن لا يمكن استخلاصها إلا إذا كان المرء غير مخلص وخائن بشكل سري للأيديولوجيا الرسمية. إن الاستجابة الطبيعية أن تدفع السؤال الذي لم يُجب عليه إلى زاوية العقل، وتستمر في تكرار الشعارات المتناقضة. يجب على المرء ألا يتعمق في البحث في مراجعات الكتب النقدية والمجلات، ليكتشف آثار هذا النوع من التفكير.

أنا لا أوحي طبعاً إلى أن التضليل العقلي يتميز به الاشتراكيون واليساريون فقط عموماً أو أنه الشائع بينهم. إن مجرد القبول بأي مبدأ سياسي يبدو متنافراً مع الاستقامة الأدبية. هذا يطبق بالتساوي على حركات مثل السلامية (رفض حمل السلاح) والشخصانية اللتين تزعمان أنهما خارج أي صراع سياسي عادي. في الحقيقة إن مجرد صوت الكلمات التي تنتهي في اللاحقة (ية) تجلب معها رائحة البروباغندا (الدعاية). إن الولاءات للجماعة ضرورية، لكنها سامة للأدب، طالما ظل الأدب نتاجاً فردياً، وحالما يُسمح لها بأي تأثير على الكتابة الإبداعية، حتى السلبي منه، فلن تكون النتيجة التزييف فقط، وإنما التجفيف الفعلي للقدرات الخلاقة غالباً.

حسناً، ماذا إذاً؟ هل علينا أن نستنتج أن من واجب كل كاتب أن "يبتعد عن السياسة؟" بالتأكيد لا! وبأي حال، كما قلت مسبقاً، ليس هناك شخص عاقل يستطيع الابتعاد بصدق عن السياسة في عصر كالعصر الحالي. أنا أقترح التالي: يجب أن نرسم خطاً أوضح مما نفعله الآن بين ولاءاتنا السياسية وولاءاتنا الأدبية، ويجب أن نعترف أن الاستعداد لفعل أشياء محددة مقززة، لكنها ضرورية، لا يحمل معه أي التزام بتصديق وقبول المعتقدات المرافقة له. حين ينشغل كاتب في السياسة، عليه أن يقوم بذلك كمواطن وكإنسان وليس ككاتب. أنا لا أعتقد أنه يمتلك الحق، لمجرد أحاسيسه المرهفة، بأن ينكمش ويتجنب العمل السياسي العادي القذر. تماماً كغيره يجب أن يعد نفسه ويتجهز ليلقي محاضرات في قاعات باردة ويعلّم الأرصفة بالطباشير ويجذب الناخبين ويوزع الوريقات والكراريس ويقاتل في الحروب الأهلية إن كان ذلك ضرورياً. يجب أن يبين أنه لا يكتب أبداً عن حزبه مهما فعل في خدمته وأياً كان، وأن يوضح أن كتاباته شيء آخر، وعليه أن يكون قادراً على العمل بشكل متعاون ومفيد إن اختار نبذ الأيديولوجيا الرسمية تماماً، وألا يتراجع عن متابعة أفكار قد تؤدي إلى هرطقة، وألا يهتم كثيراً إن فاحت رائحة هرطقته وانشقاقه كما يمكن أن يحدث. ربما يكون عدم اتهام الكاتب بميول رجعية، علامة سيئة اليوم، مثلما كان عدم اتهامه بالتعاطف مع الشيوعية قبل عشرين سنة.

لكن هل كل هذا يعني أن على الكاتب ألا يرفض ما يمليه عليه رؤساؤه السياسيون فقط، وإنما أن يمتنع عن الكتابة في السياسة أيضاً؟ مرة أخرى لا بالتأكيد. ليس هناك أي سبب بأن لا يكتب بأكثر الأساليب السياسية فجاجة، إذا رغب في ذلك. يجب عليه أن يقوم بذلك فقط كفرد وكغريب لامنتمٍ، وفي أقصى الحدود كمحارب عصابات غير مرغوب فيه إلى جانب

جيش نظامي. إن هذا الموقف منسجم تماماً مع المنفعة السياسية. من المنطقي، مثلاً، أن يكون مستعداً لخوض حرب يعتقد بوجوب الفوز بها، وفي الوقت نفسه يرفض كتابة دعاية حربية لها. إن كان الكاتب صادقاً ومخلصاً، قد تناقض كتاباته ونشاطاته السياسية بعضها البعض أحياناً، وهناك مناسبات كثيرة يكون فيها ذلك غير مرغوب بشكل واضح: لكن العلاج عندها ليس بتزييف بواعث المرء ودوافعه، وإنما بالبقاء ساكتاً.

الرأي الذي يرى أن على الكاتب المبدع في زمن الصراع، أن يفصل حياته في حجرتين منفصلتين، يبدو انهزامياً وتافهاً: لكن عملياً أنا لا أرى شيئاً آخر يمكنه فعله. أن تحبس نفسك في برج عاجي، أمر مستحيل وغير مرغوب. أن يستسلم ذاتياً ليس لآلة حزب فقط بل حتى لجماعة أيديولوجية، هو أن يدمر نفسه ككاتب. نحن نعرف أن هذا المأزق مؤلم، لأننا نرى الحاجة إلى الانشغال بالسياسة، ونرى في الوقت نفسه إلى أي مدى هي مهنة قذرة ومهينة، وأغلبنا مازال لديه اعتقاد راسخ بأن كل خيار حتى السياسي منه هو خيار بين الخير والشر، وأن كل ما هو ضروري يكون صحيحاً أيضاً. أعتقد أننا يجب أن نتخلص من هذا الاعتقاد الذي ينتمي إلى الحضانة. في السياسة لا يستطيع المرء أبداً أن يفعل أكثر من الحكم أي الشرين أقل، وفي بعض الأوضاع لا نستطيع سوى الهروب منها والتصرف مثل شيطان أو معتوه. الحرب مثلاً قد تكون ضرورية، لكنها ليست عملاً صحيحاً أو سليماً. حتى الانتخابات العامة ليست مشهداً مسراً أو مهذباً تماماً. إن وجب عليك المشاركة في مثل هذه الأشياء - وأعتقد أنه يجب عليك ذلك، إلا إذا كنت محصناً بالهرم أو الغباء أو الرياء - حينها عليك أن تحفظ جزءاً من نفسك من الانتهاك. لا تظهر المشكلة بالنسبة إلى أغلب الناس بنفس الشكل، لأن حياتهم انفصلت مسبقاً وهم أحياء حقاً فقط في ساعات فراغهم، وليس هناك أي رابط بين عملهم ونشاطاتهم السياسية، ولم يُطلب منهم عادة باسم الولاء السياسي أن يحطوا من قدرهم كعمال، أما الفنان وخصوصا الكاتب، فيُسأل عن ذلك بالضبط - في الحقيقة هو الشيء الوحيد الذي يطلبه منه السياسيون دائماً. إن رفض هذا لا يعني الحكم عليه باللافعالية. يستطيع أحد نصفيه، الذي هو كله بمعنى ما، العمل بتصميم وعنف إن تطلب الأمر كأي شخص آخر. لكن كتاباته بقدر ما لها من قيمة، تظل دائماً نتاج الذات العاقلة التي تقف جانباً، تسجل الأشياء التي تم فعلها وتعترف بحتميتها، لكنها ترفض أن تنخدع بطبيعتها الحقيقية.

لماذا أكتب؟

منذ نعومة أظفاري، وربما منذ الخامسة أو السادسة، عرفت أنني يجب أن أكون كاتباً حين أكبر. وبين السابعة عشرة والرابعة والعشرين، حاولت التخلي عن هذه الفكرة، لكنني قمت بذلك وأنا أعي أنني انتهكت طبيعتي الحقيقية، وأنني يجب أن أستقر عاجلاً أو آجلاً وأؤلف الكتب.

كنت الولد الأوسط من ثلاثة أطفال، لكن كانت هناك فجوة من خمس سنين بيني وبينهما، ونادراً ما رأيت والدي قبل أن أصبح في الثامنة، ويعود ذلك إلى أسباب أخرى، فقد كانت شخصاً انعزالياً، وقد طوّرت طريقة كريهة جعلتني غير محبوب في أيام الدراسة. كانت لدي عادة الأطفال الانعزاليين في تأليف القصص والتحدث مع أشخاص وهميين، وأعتقد أنه منذ البداية كانت آمالي الأدبية ممزوجة بشعوري بالانعزال والاستخفاف، وعرفت أن لدي براعة مع الكلمات، وقوة لمواجهة الحقائق البغيضة. وشعرت أن هذا خلق لي نوعاً من عالم خاص ألجأ إليه تعويضاً عن فشلي في الحياة اليومية، لكن كل ما كتبته خلال طفولتي وصباي لم يتجاوز نصف دزينة من الأوراق. كتبت قصيدتي الأولى في عمر الرابعة أو الخامسة، وأذلتها أمي إلى مستوى الإملاء. لا أتذكر أي شيء سوى أنها كانت عن نمر، وأتصور أنها انتحال لقصيدة وليام بليك (نمر، نمر). في الحادية عشرة، وحين اندلعت حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ كتبت قصيدة وطنية نشرتها لي صحيفة محلية، ثم قصيدة أخرى بعد سنتين عند موت اللورد كيتشنر. وبعد أن كبرت قليلاً كتبت بين الحين والآخر قصائد لم أكملها (قصائد الطبيعة) بالأسلوب الأورويلي، كما حاولت أيضاً كتابة القصة القصيرة، وفشلت فشلاً ذريعاً في هذا المجال. هذا كل ما كتبته خلال تلك السنوات.

لكن خلال هذا الوقت، انهمكت في نشاطات أدبية، وكنت أنتج بسرعة ودون متعة كبيرة مواد تطلب مني. عدا العمل المدرسي، كتبت قصائد شبه هزلية بسرعة مدهشة – في الرابعة عشرة كتبت مسرحية كاملة مقفاة تقليداً لأريستوفانيس، في غضون أسبوع،

وساعدت في تحرير مجلة المدرسة. لكن جنباً إلى جنب مع كل هذا، كنت أتدرب على نوع مختلف: كنت عاكفاً على كتابة قصة متواصلة عن نفسي، نوع من المفكرة موجودة في ذهني فقط، وأعتقد أنها عادة لدى الأطفال والمراهقين. كطفل صغير كنت أتخيل أنني روبين هود وأتصور نفسي بطل مغامرات تحبس الأنفاس، لكن فجأة أصبحت قصتي أنانية بطريقة فجة، وأصبحت مجرد وصف لما كنت أفعله وأراه. استمرت هذه العادة حتى الخامسة والعشرين. رغم أنني كنت أبحث عن الكلمات المناسبة، لكنني كنت أنتج هذا الجهد الوصفي رغماً عن إرادتي تحت نوع من الإجبار الخارجي. وأعتقد أن القصة عكست أساليب كتاب متنوعين أُعجبت بهم في فترات مختلفة من عمري. ولكن بقدر ما أتذكر، ظلت تحمل نفس النوعية الوصفية التفصيلية. حين كنت في السادسة عشرة، اكتشفت متعة الكلمات بحد ذاتها أي الأصوات وترابط الكلمات، ورغبت بكتابة روايات طبيعية ضخمة (المذهب الطبيعي) بنهايات غير سعيدة، تغص بوصف تفصيلي وتشبيهات لافتة، وتحفل بالمقاطع البنفسجية التي تستخدم الكلمات فيها لمجرد أصواتها، وفي الواقع تصور روايتي المكتملة الأولى، أيام بورمية، التي كتبتها وأنا في الثلاثين، هذا النوع إلى حد كبير.

قدمت كل هذه المعلومات عن خلفيتي، لأنني أعتقد أنه لا يمكن تقييم دوافع كاتب ما، دون معرفة شيء عن خلفيته المبكرة، وموضوعه الأساسي يتحدد بالزمن الذي يعيش فيه - على الأقل هذا صحيح في أوقات مضطربة وثورية كأزمنتنا - لكن قبل أن يبدأ في الكتابة، يفترض به أن يكتسب موقفاً عاطفياً لن ينجو منه نهائياً أبداً. إن وظيفته بلا شك أن يضبط مزاجه ويتفادى الانحباس في مزاج منحرف في مرحلة غير ناضجة، لكنه إن نجا من كل تأثيراته المبكرة كلها، سيقتل دافعه للكتابة. بالإضافة إلى كسب الرزق، أعتقد بوجود أربعة بواعث للكتابة، تتنوع نسبتها من كاتب إلى آخر حسب الجو الذي يعيشه.

١ - الأنانية المحضة: الرغبة في الظهور كشخص ذكي، وأن تكون موضوع الأحاديث، وأن تُذكر بعد الموت..إلخ، وأن تتباهى وتنتقم من الراشدين الذين وبخوك وأنت طفل، ومن الخداع أن نتظاهر بأن هذا ليس حافزاً قوياً. ويشترك الكتاب في هذه الصفة مع العلماء

والفنانين والسياسيين والمحامين والجنود ورجال الاعمال الناجحين - باختصار مع كل قشرة الصفوة الإنسانية. إن القسم الأعظم من البشر، ليسوا أنانيين بصورة حادة، وبعد سن الثلاثين يتخلون عن شعورهم كأفراد، ويعيشون من أجل الآخرين أو يهزمهم الكدح، لكن هناك أقلية من الأشخاص الموهوبين العنيدين الذين يصممون أن يعيشوا حياتهم حتى النهاية، والكتاب ينتمون إلى هذه الفئة. إن الكتاب الجادين على العموم أنانيون ومغرورون أكثر من الصحفيين، لكن اهتمامهم بالمال أقل.

٢ - الحماس الجمالي. إدراك جمال العالم الخارجي أو من جانب آخر في الكلمات وترتيبها الصحيح. المتعة في أثر صوت على صوت آخر في متانة النثر الجيد أو الإيقاع في أقصوصة جيدة. الرغبة في المشاركة بتجربة يشعر المرء بقيمتها النفيسة وعدم تفويتها. إن الدافع الجمالي ضعيف جداً لدى الكثير من الكتاب، لكن حتى كتاب الكراريس والكتب المدرسية لديهم كلمات وعبارات محببة تجذبهم لأسباب غير نفعية، أو ربما يحسون بحماسة تجاه الطباعة وعرض الهوامش..إلخ. أي كتاب فوق مستوى كتيب مرشد القطارات، لا يخلو من اعتبارات جمالية.

٣ - الدافع التاريخي. الرغبة برؤية الأشياء كما هي، واكتشاف الوقائع الحقيقية، وتخزينها كي تستخدمها لأجيال القادمة.

٤ - الغرض السياسي - استخدام كلمة "سياسة" بأوسع معانيها. الرغبة في دفع العالم إلى جهة محددة، وتبديل أفكار الآخرين عن نوع المجتمع الذي يناضلون من أجل تحقيقه. أؤكد ثانية بأنه ليس هناك كتاب يخلو من الانحياز السياسي، والرأي الذي يقول إن الفن يجب ألا تكون له علاقة بالسياسة، هو موقف سياسي بحد ذاته.

يمكن رؤية تصارع هذه الدوافع ضد بعضها البعض وكيف تتموج من شخص لأخر ومن زمن لزمن. بالطبيعة - أقصد طبيعتك التي نلتها حين أصبحت راشداً لأول مرة - أنا شخص كانت دوافعه الثلاثة الأولى أهم من الدافع الرابع. لو كنت في زمن مسالم، لربما كتبت زخرفات ومنمقات أو مجرد كتب وصفية، وبقيت غير مدرك تقريباً لولاءاتي السياسية، وأُجبرت أن أكون كاتب كراريس. في الأول أمضيت خمس سنوات في مهنة غير لائقة (الشرطة الإمبريالية الهندية في بورما) ثم بعد ذلك قاسيت من الفقر والإحساس بالفشل،

وهذا زاد من كرهي الطبيعي للسلطة، وجعلني أدرك الطبقات العاملة بشكل كامل لأول مرة، وأعطتني وظيفتي في بورما فهماً لطبيعة الإمبريالية. ثم جاء هتلر والحرب الأهلية الإسبانية إلخ. في نهاية عام ١٩٣٥ لم أنجح في التوصل إلى قرار ثابت، وأتذكر قصيدة صغيرة كتبتها في ذلك التاريخ تعبر عن حيرتي:

ربما كنت قساً سعيد قبل مائتي عام، أبشر بالقدر الأبدي، وأراقب أشجار جوزي وهي تكبر، لكن يا للأسف، لقد ولدت في زمن شرير، وفقدت ذلك الملاذ المسر، لأن الشعر نما على شفتي العليا والقساوسة حليقون كلهم........ حلمت أني اسكن في قصور من المرمر، واستيقظت لأجد الحقيقة؛ لم أولد لعصر كهذا.

رجحت الحرب الإسبانية والأحداث اللاحقة في عامي ١٩٣٦ - ٧ الكفة، وعرفت بعدها أين أقف. كل سطر من الأعمال الجدية التي كتبتها منذ عام ١٩٣٦ كُتب بصورة مباشرة أو بشكل غير مباشر ضد الاستبداد (التوتاليتارية) ومؤيداً للاشتراكية الديمقراطية كما أفهمها، ويبدو لي من العبث في زمن كزمننا الاعتقاد بأن المرء يستطيع تجنب كتابة هكذا مواضيع. كل شخص يكتب عنها بقناع أو بآخر. إنها مسألة أي طرف تأخذه وأية مقاربة تسلكها، وكلما زاد وعي المرء بانحيازه السياسي، زادت فرصته أن يعمل كسياسي من دون أن يفرط باستقامته الجمالية والفكرية.

إن أكثر ما ابتغيته وأردته خلال تلك السنوات العشر الماضية، أن اجعل من الكتابة السياسية فناً بحد ذاته. كانت نقطة البداية والانطلاق عندي دائماً هي شعوري بالتحزب وإحساسي بالظلم. حين أجلس لأكتب، لا أقول لنفسي "سوف أنتج عملاً فنياً". أنا أكتب لأن هناك كذبة أريد كشفها وحقيقة أريد لفت الأنظار إليها، وأن هدفي الأولي أن أحظى بأن يسمعني الآخرون. لكنني لا أستطيع أن أقوم بعمل كتابة كتاب أو حتى مقال لمجلة، إن لم يكن تجربة جمالية أيضاً. أنا لا أقدر ولا أريد أن أتخلى تماماً عن نظرتي إلى العالم التي اكتسبتها في طفولتي. طالما أنا حي سأستمر في الإحساس بقوة في الأسلوب النثري، وبحب سطح الأرض، والاستمتاع في الأشياء الصلبة وفتات المعلومات المهملة. من غير المجدي إخماد ذلك الجانب من نفسي. المهم أن أسوي بين

الأشياء الراسخة التي أحبها والتي لا أحبها، وبين النشاطات العامة غير الفردية الجوهرية التي يفرضها علينا كلنا هذا العصر.

وهذا ليس سهلاً. بل إنه يثير مشاكل في التركيب واللغة ويثير مشكلة الصدق بطريقة جديدة. دعوني أقدم مثالاً واحداً عن أبسط نوع من الصعوبة التي تُثار. كتابي عن الحرب الأهلية الإسبانية، **الولاء لكاتالونيا**، هو كتاب سياسي صريح طبعاً، لكن في جزئه الأساسي كُتب في تجرد واحترام للشكل. حاولت بكل جهدي أن أروي الحقيقة كلها دون انتهاك لغرائزي الأدبية، لكن من بين الأشياء الأخرى هناك فصل طويل يغص باقتباسات من الصحف وأشباهها تدافع عن التروتسكيين الذين اتهموا بالتآمر مع فرانكو. من الواضح أن مثل هذا الفصل الذي سيفقد أهميته بعد سنة أو اثنتين عند القارئ العادي، سوف يفقر الكتاب، وقد حاضر بي أحد النقاد الذين احترمهم قائلاً "لماذا وضعتَ كل ذلك الهراء؟ لقد حولت ما كان يجب أن يكون كتاباً جيداً إلى كتابة صحفية؟". ما قاله صحيح، لكنني لم أستطع القيام بغير ذلك. صدف أنني عرفت، ما سُمح للقلة القليلة في إنكلترا أن تعرفه، بأن هناك رجالاً أبرياء اتهموا زوراً وبهتاناً. لو لم أغضب من ذلك لما كتبت الكتاب أبداً.

لكن المشكلة تظهر بشكل أو آخر مرة أخرى. مشكلة اللغة أكثر حدة، ويستغرق نقاشها الكثير من الوقت. سأقول إنني في السنوات الخيرة فقط، حاولت أن أكتب بأسلوب أقل تصويرية وأكثر دقة. على أي حال وجدت أنه في الوقت الذي تتقن فيه أي أسلوب في الكتابة، فإنك تكبر عليه دائماً وتتخلص منه. مزرعة الحيوان كانت الكتاب الأول الذي حاولت بوعي تام بما أفعل، أن أدمج فيها الغرض السياسي والغرض الفني في كل واحد. لم أكتب رواية منذ سبع سنوات، وأرجو أن أكتب، واحدة أخرى قريباً، وهي ملزمة بالفشل، فكل كتاب هو عمل فاشل. لكني أعرف بنوع من الوضوح أي نوع من الكتب أريد أن أكتب.

بالنظر ثانية إلى الصفحة الأخيرة أو الصفحتين، أرى أنني جعلت الأمر يبدو كما لو أن دوافعي للكتابة كانت مفعمة بالروح الشعبية تماماً. أنا لا أريد أن أترك ذلك كانطباع نهائي.

إن كل الكتاب تافهين وأنانيين وكسولين، ويكمن الغموض في صلب دوافعهم. إن كتابة كتاب صراع منهك ورهيب، مثل نوبة طويلة من مرض موجع. لا يباشر المرء بهكذا عمل إن لم يكن مدفوعاً بشيطان لا يستطيع مقاومته ولا فهمه. وكل ما يعرفه أن ذلك الشيطان هو نفس الغريزة التي تجعل الطفل يصرخ للفت الانتباه. لكن من الصحيح أيضاً أن المرء لا يستطيع كتابة شيء مقروء، إلا إذا صارع باستمرار كي يطمس شخصيته الخاصة. إن النثر الجيد مثل زجاج النافذة. لا أستطيع القول عن يقين أي حافز منها هو الأقوى، لكنني أعرف أيها يستحق أن يتبع. عند النظر إلى أعمالي ثانية، أرى دائماً وبشكل ثابت أنني كتبت كتباً ميتة لا حياة فيها، وانخدعت بمقاطع أرجوانية وجملاً لا معنى لها وصفات مزخرفة منمقة ودجل عموماً في تلك التي افتقرت فيها إلى هدف سياسي.

الأدب والديكتاتورية

قلت في بداية حديثي الأول إن هذا العصر ليس نقدياً. إنه عصر تحازب وليس انفصال، عصر من الصعب خصوصاً أن ترى فيه قيمة أدبية في كِتاب تختلف أنت مع استنتاجاته. السياسة – السياسة بمفهومها العام – غزت الأدب إلى درجة لم تحدث عادة، ما جلب إلى سطح وعينا الصراع الدائر دائماً بين الفرد والمجتمع. حين يفكر المرء بصعوبة كتابة نقد صادق غير منحاز في زمن كزمننا، يبدأ يدرك طبيعة التهديد المسلط فوق الأدب في العصر القادم.

نحن نعيش في عصر لم يعد للفرد المستقل وجود فيه – أو ربما ينبغي القول لم يعد لفرد فيه الوهم بأنه مستقل. الآن في كل ما قلناه عن الأدب والأهم وكل ما نقوله عن النقد، نحن نسلم غريزياً بالفرد المستقل. لقد بني الأدب الأوروبي الحديث كله – أنا أتكلم عن الأدب في السنوات الأربعمائة الأخيرة منه – على مفهوم الأمانة الفكرية، أو إن أحببت قولها بالطريقة الشكسبيرية 'كن صادقاً مع نفسك'. الشيء الأول الذي نطلبه من الكاتب، هو ألا يكذب وأن يقول ما يفكر ويشعر فيه حقيقة. الشيء الأسوأ الذي نستطيع قوله عن عمل فني إنه غير صادق. وهذا يصح في النقد أكثر منه في الأدب الإبداعي، الذي فيه قدر محدد من التكلف والتأنق، وحتى مقدار محدد من الخداع غير مهم، طالما كان الكاتب صادقاً بشكل أساسي. الأدب الحديث شيء فردي في الجوهر. إنه إما التعبير الصادق عما يفكر ويشعر فيه الإنسان، أو أنه لا شيء.

كما قلت، نحن نأخذ هذه الفكرة كشيء مسلم به، ومع ذلك حالما يعبر عنها المرء بالكلمات، يدرك حجم التهديد الكبير المحيط بالأدب. لأن هذا العصر عصر الدولة الديكتاتورية التي لا تسمح وربما لا تستطيع أن تسمح للفرد بأية حرية مهما كانت. حين يذكر المرء الديكتاتورية، يفكر فوراً بألمانيا وروسيا وإيطاليا، لكن في اعتقادي يجب علينا أن نواجه الخطر بأن هذه الظاهرة ستكون عالمية. من الواضح أن فترة الرأسمالية الحرة تشارف على نهايتها، وأن البلدان الواحدة تلو الأخرى تتبنى اقتصاداً مركزاً يمكن تسميته بالاشتراكية أو

رأسمالية الدولة حسب ما يفضل، وبذلك الحرية الاقتصادية للفرد وإلى درجة كبيرة حريته بأن يفعل ما يشاء وأن يختار عمله الخاص به وأن يتحرك أماماً وخلفاً عبر سطح الأرض لم يعد لها وجود. الآن لم يتكهن أحد بمضامين هذا حتى عهد قريب، ولم يُدرك أنَّ اختفاء الحرية الاقتصادية سيؤثر على الحرية الفكرية. لقد نُظر إلى الاشتراكية عادة كنوع من الليبرالية المسؤولة أخلاقياً، وأن الدولة ستتولى أمر حياتك الاقتصادية وتعتقك من الخوف من الفقر والبطالة وهلم جرا، لكنها لن تضطر إلى التدخل في حياتك الفكرية الشخصية، ويمكن للفن أن يزدهر كما فعل في العصر الرأسمالي الليبرالي تقريباً، لأن الفنان لن يظل تحت الإكراه الاقتصادي.

الآن من الدليل الموجود، يجب على المرء أن يعترف أن هذه الأفكار كانت مغشوشة، فقد ألغت الديكتاتورية حرية الفكر إلى درجة غير مسبوقة في أي عصر. ومن الهام أن ندرك أن سيطرتها على الفكر ليست سلبية فقط، وإنما إيجابية، فهي لا تمنعك من التعبير - التفكير حتى - عن أفكار محددة، وإنما تملي عليك ما ستفكر فيه، فهي تخلق لك أيديولوجيا وتحاول التحكم بحياتك العاطفية، بالإضافة إلى تنصيب مجموعة قواعد للسلوك، وتعزلك بأقصى ما يمكن عن العالم الخارجي، وتحبسك في كون اصطناعي ليس لديك فيه أي معيار للمقارنة. تحاول الدولة الاستبدادية بكل الأشكال أن تتحكم بأفكار وعواطف رعاياها، تماماً كما تتحكم في أفعالهم على الأقل.

السؤال المهم لنا هو: هل يمكن للأدب أن ينجو ويبقى في هذا الجو؟ أعتقد على المرء أن يجيب باختصار بأنه لن يستطيع. إن أصبحت الديكتاتورية عالمية ودائمة، فإن الأدب كما عرفناه يجب أن ينتهي، ولن ينفع - كما يبدو معقولاً في الأول - القول إن الذي سينتهي هو أدب ما بعد النهضة في أوروبا فقط.

هناك اختلافات أساسية كثيرة بين الديكتاتورية وكل أرثوذوكسيات الماضي في أوروبا أو في الشرق. الأهم أن هذه الأرثوذوكسيات السابقة لم تتبدل أو لم تتبدل بسرعة على الأقل. في أوروبا العصور الوسطى أملت الكنيسة عليك كل ما يجب أن تؤمن به لكنها على الأقل سمحت لك بأن تحتفظ بنفس المعتقدات من الولادة إلى الموت. لم تأمرك بأن تؤمن بشيء يوم

الاثنين وبشيء آخر غيره يوم الثلاثاء، وهذا صحيح تقريباً على كل الأرثوذوكسيات المسيحية والهندوسية والبوذية أو الإسلامية اليوم. بمعنى أن أفكار المرء محددة، لكنه يمضي كل حياته ضمن نفس الإطار الفكري، ولا يجري التلاعب بعواطفه.

الآن مع الديكتاتورية، فالعكس تماماً هو الصحيح. إن فرادة الدولة الاستبدادية تتجلى بأنها لا تدع الفكر يثبت رغم سيطرتها عليه، فهي تنصب تعاليم لا تقبل النقاش وتبدلها من يوم إلى آخر. هي تحتاج إلى التعاليم لأنها تحتاج إلى طاعة مطلقة من رعاياها، لكنها لا تستطيع تحاشي التغيرات التي تمليها حاجات سياسة السلطة. تعلن نفسها معصومة عن الخطأ، وفي الوقت نفسه تهاجم مفهوم الحقيقة الموضوعية عينه. لنأخذ مثالاً فجاً صريحاً، كل ألماني إلى شهر أيلول سبتمبر ١٩٣٩ كان ينظر إلى البلشفية الروسية برعب ومقت، ومنذ أيلول سبتمبر ١٩٣٩ أُجبر على أن ينظر إليها بإعجاب وحب. إن تحاربت روسيا وألمانيا كما ستفعلان خلال السنين القليلة التالية، سيحدث تغيير عنيف مساوي أيضاً. الحياة العاطفية للألماني، الأشياء التي يحب والتي يكره، متوقع منها عند الضرورة، أن تعكس نفسها في عشية وضحاها. لا حاجة للإشارة إلى أثر هذا النوع من الشيء على الأدب. إن الكتابة قضية شعور إلى حد كبير، ولا يمكن أن تُضبط من الخارج دائماً. من السهل التمتمة بالصلاة للأرثوذوكسية القائمة، لكن كتابة أي شيء له معنى لا يمكن أن تتم إلا حين يشعر المرء بصدق ما يقوله؛ بدون ذلك ينعدم الباعث الإبداعي. كل الدليل الذي قدمناه يبين أن التغييرات العاطفية المفاجئة التي تطالب الديكتاتورية اتباعها بها مستحيلة، وهذا هو السبب الرئيسي الذي دعاني إلى القول إنه إن انتصرت الديكتاتورية في كل العالم سينتهي الأدب كما عرفناه. في الواقع للديكتاتورية آثار أبعد من هذا بكثير كما يبدو، ففي إيطاليا عُطل الأدب، وفي ألمانيا يبدو أنه توقف ومات تقريباً، وبات أهم نشاط مميز للنازيين إحراق الكتب، وحتى في روسيا لم تحدث النهضة الأدبية التي توقعناها، وأظهر أشهر الكتاب الروس الواعدين نزعة ملحوظة للانتحار أو الاختفاء في السجن.

قلت في البداية إن الرأسمالية الليبرالية انتهت بشكل واضح، ولذلك قد يبدو أنني أوحيت بأن حرية الفكر هلكت بشكل محتوم أيضاً، لكن لا أعتقد أن هذا هو ما سيكون، وسأقول

ببساطة في ختام ذلك إنني أصدق الأمل في أن بقاء الأدب يكمن في تلك البلدان التي أرست فيها الليبرالية جذورها العميقة في البلدان غير العسكرية أوروبا الغربية والأمريكيتين والهند والصين. أعتقد - قد يكون أكثر من أمل زائف - وبالرغم من قدوم الاقتصاد الجماعي، إن تلك البلدان ستعرف كيف تطور شكلاً ليس ديكتاتورياً من الاشتراكية، تستطيع حرية الفكر فيه البقاء حية والنجاة من اختفاء الفردانية الاقتصادية. ذلك هو الأمل الوحيد في كل الأحوال الذي يستطيع كل من يهتم بالأدب التشبث به. كل من يشعر بقيم الأدب وكل من يرى الدور المركزي الذي يلعبه في تطور التاريخ البشري، يجب أن يرى أيضاً الضرورة القصوى في مقاومة الديكتاتورية، سواء أُفرضت علناً من الخارج أم من الداخل.

نشرت لأول مرة: ليسنر، (بث على محطة البي بي سي لما وراء البحار ١٩ يونيو حزيران ١٩٤١

المقالات المجمعة، الصحافة ورسائل أورويل ١٩٦٨.

معاداة السامية في بريطانيا

يوجد حوالي ٤٠٠٠٠٠ يهودي في بريطانيا، بالإضافة إلى بعض آلاف أو عشرات الآلاف على الأغلب من اللاجئين اليهود الذين دخلوا البلاد منذ عام ١٩٤٣ وبعد ذلك. تركز كل السكان اليهود تقريباً في عدد قليل من البلدات الكبيرة، وعمل أغلبهم في المهن الغذائية والملابس والأثاث، كما يوجد هناك قلة من الشركات الاحتكارية الكبيرة كآي سي أي مثلاً وجريدة أو اثنتان من الصحف الرئيسية، وواحد أو اثنان من المتاجر المتسلسلة على الأقل التي تعود ملكيتها كاملة أو جزئية إلى اليهود، لكن القول بأن حياة التجارة والأعمال خاضعة لسيطرة اليهود هو مجافاة للصواب. بل على العكس، يبدو أن اليهود فشلوا في مواكبة النزعة العصرية نحو اندماجات الشركات الكبرى، وبقوا متعلقين بتلك المهن التي تنفذ على صعيد صغير وبأساليب قديمة الطراز بالضرورة.

بدأت بهذه الحقائق المعروفة مسبقاً لأي شخص حسن الاطلاع، لكي أؤكد على عدم وجود "مشكلة" يهودية في بريطانيا. اليهود ليسوا كثيرين أو متنفذين جداً، وليس لهم أي تأثير ملحوظ إلا فيما يسمى بشكل مفكك بـ"الدوائر الثقافية". لكن من المسلم به عموماً أن عداء السامية في ازدياد، وأنها تفاقمت من خلال الحرب، وأن الإنسانيين والمتنورين ليسوا محصنين عن ذلك، ولم يأخذ هذا العداء الأشكال العنيفة (الشعب الإنكليزي بشكل ثابت تقريباً شعب لطيف ومطيع للقانون) لكنه ذو طبيعة سيئة تماماً، ويمكن له أن يفرز نتائج سياسية في ظروف مواتية. هذه بعض الأمثلة عن ملاحظات معادية للسامية حدثت لي أثناء السنة أو السنتين الماضيتين:

مستخدم في مكتب في أواسط عمره: "أنا أذهب إلى العمل بالحافلة عادة، وذلك تستغرق وقتاً أطول، لكنني لا أزعج نفسي في استخدام قطار الأنفاق من غولدرز غرين في هذه الأيام. هناك الكثير جداً من السلالة المختارة على ذلك الخط".

بائعة تبغ: "كلا، ليس لدي أعواد ثقاب لك. يجب أن أحاول مع السيدة التي بأسفل الشارع. لديها أعواد ثقاب دائماً. واحدة من السلالة المختارة، كما ترى"

مثقف شاب شيوعي أو قريب منه: "لا، أنا لا أحب اليهود. أنا لا أخفي ذلك أبداً. لا أستطيع تحملهم. انتبه أنا لست معادياً للسامية طبعاً".

امرأة من الطبقة الوسطى: "حسناً، لا أحد يستطيع نعتي بأنني معادية للسامية، لكن أظن أن الطريقة التي يتصرف بها هؤلاء اليهود نتنة بكل تأكيد. الطريقة التي يشقون طريقهم فيها إلى رأس الطوابير وهلم جر. هم أنانيون بشكل مقيت. أعتقد أنهم مسؤولون عن الكثير مما يحدث لهم".

موزع حليب: "اليهودي لا يعمل كما يعمل الرجل الإنكليزي. هو ذكي جداً. نحن نعمل بهذه "هنا" (يثني عضلة ذراعه) وهم يعملون بذاك" (ينقر جبينه بإصبعه).

محاسب مجاز، مثقف ومن الجناح اليساري بطريقة غير مباشرة: "هؤلاء الصبيان القذرون كلهم مؤيدون للألمان. سيبدلون تحالفهم غداً إن وصل النازيون هنا. أرى الكثير منهم في عملي. هم معجبون بهتلر في أعماق قلوبهم. هم ينافقون دائماً لكل من يركلهم."

امرأة ذكية، حين عرض لها كتاب لشرائه يعالج معاداة السامية والأعمال الوحشية الألمانية: "لا تعرضه علي أرجوك لا تفعل ذلك. سيجعلني فقط أكره اليهود أكثر من قبل".

يمكنني أن أملأ صفحات بملاحظات مماثلة، لكن هذه تفي بالغرض، وتنبثق منها حقيقتان: الأولى – وهي هامة جداً ويجب أن أعود إليها سريعاً – أن الناس الذين من فوق مستوى ثقافي معين يخجلون من كونهم معادين "للسامية" و"كارهين لليهود". الحقيقة الأخرى: أن السامية شيء غير عقلاني. لقد اتّهم اليهود بجرائم محددة (مثلاً، سلوك سيء في طوابير الطعام) التي يتحدث بها بعض الأشخاص بحماس، لكن من الواضح أن هذه الاتهامات تبرر تحامل متجذر وأن محاولة مجادلتهم بالحقائق والإحصائيات عمل عقيم وقد يكون أسوأ من عقيم أحياناً. كما تبين الملاحظات الأخيرة المقتبسة آنفاً، أن الناس يستطيعون أن يظلوا معادين للسامية أو معادين لليهود على الأقل، رغم إدراكهم التام لتعذر الدفاع عن وجهة نظرهم. إن كرهت شخصاً فأنت تكرهه، وهناك غاية لهذا الكره: لن تتحسن مشاعرك بسرد فضائله.

يحدث كثيراً أن الحرب تشجع على نمو معاداة السامية حتى في عيون الكثير من الناس العاديين، وتعطي بعض التبرير لها. بداية إن اليهود شعب واحد، ويمكن القول بيقين تام

إنهم سيستفيدون من انتصار الحلفاء. وبناء على تلك النظرية التي ترى أن "هذه الحرب حرب يهودية" لها قدر معين من المعقولية والتصديق، وسبب هذا لأن مجهود اليهود الحربي نادراً ما ينال حصته العادلة من التقدير والاعتراف. إن الإمبراطورية البريطانية منظمة هائلة متباينة يربطها معاً الوفاق المتبادل إلى حد كبير، ومن الضروري دائماً تقريباً أن نداهن العناصر الأقل تعويلاً عليها على حساب العناصر الأكثر ولاء. إن نشر وإعلان مآثر الجنود اليهود أو حتى الاعتراف بوجود جيش يهودي كبير في الشرق الأوسط، يثير العداء في جنوب أفريقيا والبلدان العربية وغيرها من الأماكن: من الأسهل تجاهل الموضوع برمته، والسماح لرجل الشارع أن يستمر في الاعتقاد بأن اليهود أذكياء على نحو استثنائي في التملص من الخدمة العسكرية. ثم مرة أخرى أن اليهود يتواجدون بالضبط في تلك المهن الملزمة في إثارة استهجان الجمهور المدني في زمن الحرب. يهتم اليهود كثيراً في بيع الأطعمة والملابس والأثاث والتبغ - بالضبط السلع التي فيها نقص مزمن مع ما ينتج عنها من أثمان فاحشة وبيع في السوق السوداء ومحاباة. ومرة أخرى إن التهمة الشائعة بأن اليهود يتصرفون بطريقة جبانة لافتة أثناء الغارات الجوية، أُعطيت مقداراً معيناً من الحجة بواسطة الغارات الكبيرة في عام ١٩٤٠ كما حدث كان الحي اليهودي في وايتشابل واحداً من أولى المناطق التي قصفت بقوة، مع النتيجة الطبيعية أن أسراب من النازحين اليهود وزعوا أنفسهم في كل أرجاء لندن. لو حكم المرء من خلال هذه الظاهرة في زمن الحرب فقط، لسهل عليه التخيل أن عداء السامية شيء شبه منطقي ومؤسس على مقدمات خاطئة، وبشكل طبيعي يظن المعادي للسامية نفسه كائناً صائب التفكير. كلما لامست هذا الموضوع في مقالة في جريدة، تأتيني ردود كثيرة، وبشكل ثابت بعض الرسائل من أناس متزنين ومعتدلين - دكاترة مثلا - بدون شكوى اقتصادية واضحة. هؤلاء الناس يقولون (كما قال هتلر في كفاحي) إنهم بدأوا بلا تحامل عدائي لليهود، لكنهم دُفعوا إلى موقفهم الحالي بمجرد رصد الحقائق. لكن إحدى علامات معاداة السامية هي المقدرة على تصديق قصص لا يمكن أن تكون حقيقية. يمكن للمرء أن يرى في الحادث الغريب الذي حدث في لندن عام ١٩٤٢ مثالاً جيداً، حين فرت مجموعة من الناس مرعوبين من انفجار قنبلة قربهم إلى داخل مدخل محطة المترو، مما أدى إلى انسحاق أكثر من مائة شخص إلى حد الموت. فتكرر في نفس اليوم

في كل أنحاء لندن أن "اليهود كانوا مسؤولين" وإن ظل الناس يصدقون هذا النوع من الشيء، فمن الواضح أن المرء لن يستفد كثيراً من الجدال معهم. إن المقاربة المفيدة الوحيدة، هي أن تكتشف لماذا هم يستطيعون بلع سخافات عن موضوع خاص واحد، بينما يبقون عقلاء في مواضيع أخرى غيرها.

لكن لنعد الآن إلى تلك النقطة التي ذكرتها سابقاً - هناك إدراك واسع الانتشار لتفشي الشعور المعادي للسامية وعدم الاعتراف بالمشاركة فيه. وسط الناس المتعلمين تعتبر معادة السامية خطيئة لا تغتفر، وفي تصنيف مختلف عن الأنواع الأخرى من التحامل العنصري، ويتمادى الناس إلى حدود لافتة ليبرهنوا أنهم ليسوا معادين للسامية. لهذا، عُقدت جلسة وساطة لفائدة اليهود البولونيين في كنيس في سينت وود في عام ١٩٤٣ أعربت السلطات المحلية عن تشوقها للمشاركة فيها، وحضر الجلسة عمدة المدينة بثيابه الرسمية وسلاسله، وممثلين عن كل الكنائس ومفرزة من آر إيه إف (القوات الجوية الملكية) ومن الحرس الوطني والممرضات والكشافة الذكور وغيرهم. ظاهرياً كانت تعبيراً مؤثراً عن التضامن مع معاناة اليهود، لكنها جوهرياً محاولة مقصودة للتصرف باحتشام من قبل أشخاص يفترض أن مشاعرهم الشخصية مختلفة جداً في حالات كثيرة. لقد كان ذلك الحي في لندن يهودياً جزئياً وعداء السامية حافل هناك. وأعرف جيداً بعض من الرجال الجالسين حولي في الكنيس الذين تلفظوا من ذلك. في الحقيقة إن قائد فصيلتي من الحرس الوطني الذي كان متحمساً على نحو خاص مسبقاً كي "نقدم عرضاً جيداً" في جلسة المصالحة، كان عضواً سابقاً في عصبة القمصان السود التي أسسها موسلي. بينما يتواجد هذا الانقسام في المشاعر، إلا أن التسامح مع العنف الجماعي ضد اليهود أو الأكثر أهمية التشريع المعادي للسامية، غير ممكنين في إنكلترا. في الحقيقة ليس من المحتمل أن تصبح معاداة السامية محتشمة. لكن هذه فائدة أقل مما تبدو عليه.

لقد كان لواحد من آثار أعمال الاضطهاد في ألمانيا منع عداء السامية من أن يكون موضوعاً لدراسة جادة. في إنكلترا أُجري مسح مختصر وغير دقيق من خلال رصد جماهيري منذ سنة أو أثنيتن، وإن كان هناك أية دراسة أخرى للموضوع، فإن نتائجها ظلت في سرية تامة. وفي الوقت نفسه كان هناك قمع متعمد من قبل كل الأشخاص

المهتمين لأي شيء يجرح حساسية المشاعر اليهودية. وبعد عام ١٩٣٤ اختفت الدعاية اليهودية من البطاقات البريدية والدوريات وصالات الموسيقى وبلمسة سحرية بات يعتبر رسم شخصية يهودية غير متعاطفة في رواية أو قصة قصيرة عداء للسامية. أما بخصوص القضية الفلسطينية، فقد كان قبول الناس المتنورين بالحالة اليهودية كحالة مثبتة وتجنب تفحص مزاعم العرب فظاظة - قرار قد يكون صحيحاً من حيث قيمته، لكنه أُقر أساساً لأن اليهود كانوا في ورطة ويجب عدم انتقادهم. بفضل لهتلر كانت الصحافة خاضعة لرقابة فاعلة لفائدة اليهود بينما كان عداء السامية يتطور في السر حتى بين الناس الحساسين والأذكياء إلى حد ما. لُوحظ هذا في عام ١٩٤٠ على نحو خاص في زمن اعتقال اللاجئين. من الطبيعي أن يشعر كل شخص مفكر أن من واجبه أن يحتج ضد حبس الأجانب التعساء الجماعي الذين كان أكثرهم في إنكلترا لأنهم خصوم هتلر. لكن سُمعت عواطف مختلفة معبّر عنها بصورة سرية. أقلية من اللاجئين تصرفوا في طريقة تخلو من أي لباقة، وكان للشعور ضدهم بالضرورة تيار خفي معادي للسامية بما أن غالبيتهم من اليهود. شخصية بارزة في حزب العمال - لن أسميه، لكنه واحد من الأشخاص الأكثر احتراماً في إنكلترا - قال لي بعنف شديد: "لم نطلب من هؤلاء الناس أن يأتوا إلى هذه البلاد. إن اختاروا أن يأتوا إلى هنا فليتحملوا العواقب". على الرغم أن هذا الرجل كأمر طبيعي كان يشارك في أي عريضة أو بيان رسمي ضد احتجاز الأغراب. إن هذا الشعور بأن معاداة السامية شيء شرير وشائن وشيء لا يعاني منه الشخص المتمدن، غير مرغوب فيه وغير ملائم لأية مقاربة علمية. وفي الحقيقة سيعرف الكثير من الناس أنهم يخشون من إجراء سبر عميق للموضوع، أي ليس من اكتشاف انتشار عداء السامية وتفشيه فقط، وإنما من تعرضهم أنفسهم للإصابة به أيضاً.

لفهم هذا المنظور، يجب على المرء الالتفات إلى بضعة عقود إلى الوراء، إلى الأيام التي كان فيها هتلر صبّاغاً عاطلاً عن العمل لا يعرفه أحد، ليجد أن العداء للسامية الظاهر بصورة كافية الآن، أقل انتشاراً في إنكلترا، مما كان عليه قبل ثلاثين سنة. صحيح أن معاداة السامية كعقيدة عنصرية دينية مرسومة لم تزدهر في إنكلترا أبداً. لم يكن هناك شعور قوي ضد التزاوج أو ضد أن يأخذ اليهود دوراً بارزاً في الحياة العامة. لكن قبل ثلاثين سنة كان من المقبول تقريباً

كما لو كان قانوناً طبيعياً أن اليهودي شخص للهو والتسلية - رغم تفوقه في الذكاء - وشخصية ناقضة قليلاً. نظرياً لا يعاني اليهودي من أي إعاقات قانونية، لكنه فعلياً مُنع من مزاولة مهن محددة؛ فمثلاً لم يكن يُقبل كضابط في البحرية أو في فوج "أنيق وذكي" في الجيش كما جرت التسمية، والصبي اليهودي في المدارس العامة يقضي وقتاً سيئاً بشكل ثابت تقريباً. يمكنه طبعاً أن يعيش يهوديته إن كان رياضياً ساحراً بشكل استثنائي، لكنها كانت إعاقة أولية مشابهة للفأفأة أو الوحمة. نزع أثرياء اليهود إلى التخفي وراء أسماء أرستقراطية إنكليزية أو اسكتلندية، وبالنسبة إلى الشخص العادي كان من الطبيعي أن يفعلوا هذا، كما يبدو الأمر طبيعياً للمجرم أن يبدل هويته إن أمكن. منذ عشرين سنة تقريباً في رانغون، كنت أصعد إلى سيارة أجرة مع صديق حين اندفع نحونا صبي صغير الحجم رث الثياب ذو ملامح شقراء، وبدأ بسرد قصة معقدة عن وصوله من كولومبو على متن سفينة، ويريد نقوداً ليعود. كان من الصعب "تحديده وتمييزه" من طريقته ومظهره فقلت له:

"أنت تتكلم بلغة إنكليزية جيدة. ما هي جنسيتك؟".

أجاب بتلهف بلهجة تشي تشي (هندية) خاصته: "أنا يهودي يا سيدي!".

وأتذكر أنني التفت إلى رفيقي وقلت بصورة تهكمية نوعاً ما "هو يعترف بها صراحة". كل اليهود الذين عرفتهم كانوا أشخاصاً يخجلون من كونهم يهود أو يفضلون عدم التحدث عن نسبهم، وإن اضطروا إلى ذلك يميلون إلى استخدام كلمة "عبري".

لم يكن موقف الطبقة العاملة أفضل. كان اليهودي الذي تربى وترعرع في وايتشابل يعتقد كأمر بديهي أنه سيُهاجم أو يتعرض لصيحات الاستهجان، إن غامر ودخل إلى الأحياء المسيحية الفقيرة المكتظة والقذرة المجاورة، وكانت "الدعابة اليهودية" في صالات الموسيقى ومجلات الرسوم الهزلية المصورة مزعجة دائماً.[١] كان هناك أيضاً مضايقة أدبية لليهود، وصلت

---

١ - من الممتع المقارنة بين "الدعابة اليهودية" وتلك الأخرى البديلة في صالات الموسيقى "الدعابة الاسكتلندية" التي تشبهها سطحياً. أحياناً تُروى قصة (مثلاً عن اليهودي والاسكتلندي اللذين دخلا إلى حانة معاً وماتا كلاهما بسبب العطش) وتضع كلا العرقين في مساواة، لكن اليهودي لا يشتهر إلا بالمكر والجشع، بينما يشتهر الاسكتلندي بالقوة الجسدية أيضاً. تر هذا في قصة اليهودي والاسكتلندي اللذين حضرا معاً اجتماعاً مجانياً وبشكل غير متوقع، كان هناك جمع للمال، ولتجنب هذا أُغمي على اليهودي فحمله الاسكتلندي إلى الخارج. هنا ينجز الاسكتلندي عمله البطولي الرياضي في حمل الآخر. (حاشية للمؤلف).

إلى مستوى قاري في البذاءة على يدي بيلوك وتشيسترتون وأتباعهما، كما أتهم الكتاب غير الكاثوليكيين بالجرم نفسه، لكن بشكل أكثر اعتدالاً. كانت هناك نزعة معادية للسامية ملموسة في الأدب الإنكليزي منذ عصر تشوسر وما بعد، وأستطيع تذكر مقاطع دون أن أنهض عن طاولتي هذه لأبحث في كتاب لو كتبت الآن لوسمت بمعاداة السامية في أعمال شكسبير وسمولبت وثاكري وبرنارد شو وإتش حي ويلز وتي إس إيليوت وألدوس هكسلي وغيرهم. بشكل مرتجل إن الكاتبين الوحيدين الذين أستطيع تذكرهما واللذين بذلا جهداً للدفاع عن اليهود قبل عصر هتلر هما ديكنز وتشارلز ريد، ومهما كان قبول المثقف العادي لآراء بيلوك وتشيسترتون قليلاً، إلا أنه لم يستهجن رأيهما بحدة. إن خطب تشيسترتون المقرعة المطنبة ضد اليهود التي أقحمها في قصصه ومقالاته المستندة على ذرائع واهية، لم تورطه في أية مشكلة - في الحقيقة كان تشيسترتون واحداً من أكثر الشخصيات احتراماً في الحياة الأدبية الإنكليزية. أي واحد يكتب في تلك النزعة الآن سيجلب على نفسه عاصفة من الأذى والاحتمال، والأرجح سيجد أن نشر كتاباته مستحيل.

إذا كان التحامل ضد اليهود متتشراً نوعاً ما في إنكلترا دائماً كما أوحيت، فليس هناك مبرر للاعتقاد أن هتلر قلله بشكل حقيقي، لكنه سبّب انقساماً حاداً بين الشخص الواعي سياسياً الذي أدرك أن هذا ليس وقتاً لقذف اليهود بالحجارة، وبين الشخص غير الواعي الذي زادت عداوته الفطرية للسامية بسبب الإجهاد العصبي الذي سببته الحرب المتقدة. لذلك يمكن للمرء أن يفترض أن كثيراً من الناس يفضلون الموت على الاعتراف بمشاعرهم المعادية للسامية الذين هم عرضة لها. لقد أشرت مسبقاً أنني أعتقد أن معاداة السامية مرض عصابي في جوهرها، لكن لها مبرراتها التي تُصدق بإخلاص والصحيحة جزئياً طبعاً. إن التبرير الذي يقدمه الرجل العادي هو أن اليهودي شخص استغلالي، أما التبرير المحايد أن ذلك اليهودي في إنكلترا رجل أعمال صغير عموماً - يعني شخص أعمال سلبه ونهبه واضحة ومفهومة أكثر من أعمال بنك أو شركة تأمين مثلاً. في مستوى أعلى من السلم الثقافي تُبرر معاداة السامية في القول إن اليهودي شخص ينشر النفور ويضعف المعنويات الوطنية. مرة أخرى هناك تبرير سطحي لهذا. خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية نشاطات من يسمون بـ "المثقفين" كانت مؤذية بشكل واسع. لا أظن أنني أبالغ في القول لو أن المثقفين قاموا بعملهم بشكل

منظم وشامل لاستسلمت بريطانيا في عام ١٩٤٠ وطبعاً شملت تلك الإنتلجنسيا المستاءة بشكل محتوم عدداً كبيراً من اليهود، لذلك أصبح من الممكن القول مع بعض المصداقية أن اليهود أعداء للثقافة المحلية والمعنويات الوطنية. عند التفحص الدقيق يعتبر الزعم مجرد هراء، لكن هناك دائماً بضعة أفراد بارزين يمكن اقتباسهم لدعمه. أثناء السنوات الماضية القليلة كان هناك ما ارتقى إلى هجمة مضادة ضد اليساروية الضحلة التي راجت وكانت موضة في العقد السابق، واعتبرت قدوة من قبل منظمات كنادي الكتاب اليساري مثلاً. لقد كان في هذه الهجمة المضادة (راجع كتباً مثل كتاب أرنولد لوتين **الغوريلا الطيب** أو إيفلين واو **انشر رايات أكثر**) نزعة معادية للسامية ولو لم يكن الموضوع خطيراً جداً بشكل جلي للاحظت أكثر. وكما حدث ظلت بريطانيا لعقود كثيرة بلا إنتلجنسيا وطنية تستحق الاهتمام. لكن الوطنية البريطانية أي الوطنية من النوع الثقافي قد تنتعش وستنتعش إذا خرجت بريطانيا من الحرب الحالية ضعيفة جداً. ربما يكون المثقفون الشباب لعام ١٩٥٠ وطنيين بشكل ساذج مقارنة بأقرانهم لعام ١٩١٤. في تلك الحالة ربما تجد معاداة السامية التي ازدهرت وسط المناوئين لدريفوس في فرنسا والتي حاول أن يستوردها تشيسترتون وبيلوك ويدخلاها إلى هذه البلاد، موطئ قدم لها.

ليس لدي نظرية صلبة حول أصول معادة السامية والمصادر التي نشأت منها. التفسيران الحاليان، الأول أنها تعود لأسباب اقتصادية والثاني أنها إرث من العصور الوسطى، يبدوان لي غير مقبولين، لكني أعترف لو جمعا معاً لشكلا غطاء للحقائق. كل ما سأقوله بثقة أن عداء السامية جزء من مشكلة القومية الأكبر التي لم تمحص بجدية حتى الآن، وأن اليهودي كبش فداء بشكل واضح، لكننا لا نعرف بعد لماذا هو كبش فداء ومن أجل من. في هذا المقال اعتمدت تماماً على تجربتي المحدودة، وقد يكون كل واحد من استنتاجاتي باطلاً ومنفياً من قبل مراقبين آخرين. في الحقيقة ليست هناك معلومات وبيانات حول هذا الموضوع. لكن سأوجز آرائي لما تستحقه التي أصبحت كالتالي بعد اختصارها:

هناك عداء للسامية في إنكلترا أكثر مما نرغب في الاعتراف به، أبرزته الحرب وأكدته، لكنها بالتأكيد ليست متنامية لو فكر المرء بمنظور العقود وليس السنوات.

وهي لن تؤدي إلى اضطهاد علني في الوقت الحاضر، لكنها تؤثر في تقسية قلوب الناس حول عذابات اليهود ومعاناتهم في بلدان أخرى.

أنها غير منطقية ولا تقبل بالحجة والبرهان.

أعمال الاضطهاد في ألمانيا سببت إخفاء الكثير من الشعور المعادي للسامية، ما أدى إلى تعتيم الصورة الكاملة.

الموضوع يحتاج إلى تفحص جدي.

النقطة الأخيرة هي الوحيدة الجديرة بالتوسع. لدراسة أي موضوع بشكل علمي يحتاج المرء إلى موقف غير متحيز يكون أصعب بصورة جلية حين تتورط المصالح والعواطف فيه. يستطيع الكثير من الناس أن يكونوا موضوعيين حول قنافذ البحر مثلاً أو الجذر التربيعي للعدد ٢ لكنهم يصبحون فصاميين إن كان عليهم التفكير حول مصادر دخولهم الخاصة. إن ما يفسد كل ما كتب عن معادة السامية تقريباً، هو الافتراض الموجود في عقل الكاتب بأنه هو نفسه منيع عليها. ويجادل: "بما أني أعرف أن معاداة السامية غير منطقية، فهذا يؤدي أني لا أستطيع أن أشارك فيها". وهكذا يفشل في بدء تقصيه في المكان الوحيد الذي يستطيع الإمساك بدليل موثوق - أي، في عقله الخاص.

يبدو لي الافتراض بأن المرض الذي يسمى على صورة غير دقيقة بالقومية هو كوني تقريباً الآن افتراضاً سليماً. إن معاداة السامية مجرد عرض من أعراض القومية وعلاماتها، ولن يكون المرض عند كل شخص بهذا الشكل الخاص، فاليهودي مثلاً لن يكون معادياً للسامية: لكن يبدو لي الكثيرون من الصهاينة مجرد أعداء للسامية مقلوبين رأساً على عقب، مثلما يظهر الكثير من الهنود والزنوج التعصب اللوني العادي بشكل معكوس. القصد أن المدنية الحديثة تفتقر إلى شيء ما أو فيتامين نفسي ما، وكنتيجة له نحن كلنا تقريباً عرضة لهذا الاعتقاد المجنون بأن كل الأعراق أو الأمم خيرة بشكل غامض خفية أو شريرة بشكل غامض. أتحدى أي مثقف معاصر أن يتفحص عن قرب وبصدق في عقله الخاص به دون أن يقع على ولاءات قومية وأحقاد من نوع أو آخر. وفي الواقع هو يشعر بجذب مثل هذه الأشياء العاطفية ويراها بنزاهة كما هي عليه والتي تعطيه منزلته كمثقف. لذلك سيتبين أن نقطة بداية تفحصي لمعاداة السامية

يجب ألا تكون "لماذا هذا الاعتقاد غير المنطقي يجذب إليه الناس؟" وإنما "لماذا معاداة السامية تبدو جذابة لي؟ ما الشيء فيها الذي أشعر بأنه صحيح وحقيقي؟". لو سأل المرء نفسه هذا السؤال لاكتشف مبرراته الخاصة على الأقل، ولربما تمكن من اكتشاف ما يكمن تحتها. يجب أن تُفحص معاداة السامية – وأنا لن أقول بواسطة المعادين للسامية وإنما من قبل الأشخاص الذين يعرفون أنهم غير محصنين ضد ذلك النوع من العاطفة. حين يختفي هتلر سيصبح في الإمكان إجراء تحقيق حقيقي في هذا الموضوع، وقد يكون من الأفضل البدء ليس بفضح معادة السامية وإنما بتجميع وتنظيم كل مبرراتها التي يمكن إيجادها في عقل المرء نفسه أو في عقل غيره. بتلك الطريقة ربما يحصل المرء على بعض المؤشرات والعلامات التي تؤدي إلى جذورها النفسية. لكن معاداة السامية لن تشفى نهائياً بدون شفاء المرض الأكبر، القومية كما أعتقد، التي لا أؤمن بها.

منع الأدب ١٩٤٦

منذ حوالي السنة تقريباً، حضرت اجتماعاً لنادي بي أي إن (الشعراء والروائيون والكتاب - المترجم) بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لكتيب ميلتون "ايروباغيتيكا" دفاعاً عن حرية الصحافة. وطبعت عبارة ميلتون الشهيرة حول جريمة "قتل" كتاب على الوريقات الإعلانية للقاء التي وزعت مسبقاً.

كان على المنصة أربعة خطباء. ألقى أحدهم خطاباً عن حرية الصحافة، لكن فيما يتعلق بالهند، والآخر قال متردداً وبشكل عام إن الحرية شيء جيد، أما الثالث فهاجم القوانين المتعلقة بالفحش في الأدب، والرابع كرس جل خطابه دفاعاً عن حملات التطهير الروسية. رجع بعض من خطابات القاعة إلى مسألة الفحش والقوانين المتعلقة بها، وكان بعضها الآخر مديحاً لروسيا السوفييتية. بدت الحرية الأخلاقية - مناقشة المسائل الجنسية بشكل صريح في الطباعة - مقبولة ومتفق عليها، أما الحرية السياسية فلم يرد ذكرها. نصف هذا الحشد المؤلف من عدة مئات من الناس لم يكن له أي علاقة مع مهنة الكتابة، ولم يشر أي واحد منهم إلى أن حرية الصحافة إن قصد بها شيء - فهو الحرية في أن تنتقد وتعارض، والمهم لم يقتبس أحد شيئاً من الكتيب المحتفى به، كما لم يرد ذكر لأي من الكتب التي "قتلت" في إنكلترا والولايات المتحدة أثناء الحرب. وبالمجمل كان اللقاء تأييداً لمصلحة رقابة المطبوعات.

لم يكن ما يدهش على نحو خاص في هذا. إن فكرة الحرية الفكرية في عصرنا تتعرض للهجوم من جهتين، من الجهة الأولى أعداؤها النظريون المدافعون عن الأنظمة الشمولية، ومن الجهة الثانية أعداؤها العمليون المباشرون الاحتكار والبيروقراطية. أي كاتب أو صحفي يريد أن يحفظ استقامته، يجد نفسه بمواجهة الانجراف العام للمجتمع الذي يمنعه ويخذله قبل القمع الفعال. إن طبيعة الأشياء التي تعمل ضده من تمركز الصحافة بيد قلة من الأثرياء وقبضة الاحتكارات على الإذاعة والسينما، ورفض العوام إنفاق المال على الكتب، جعلت من الضروري على كل كاتب تقريباً أن يكسب قسماً من معيشته من الأعمال الفنية التجارية، وتجاوز الهيئات الرسمية مثل وزارة الإعلام والمجلس الاستشاري البريطاني التي تساعد الكتاب في البقاء على قيد الحياة،

لكنها تهدر وقتهم وتملي عليهم آراءهم أيضاً، بالإضافة إلى جو الحرب المستمرة في السنوات العشر الماضية الذي لم يستطع أن ينجو من آثاره أحد. كل شيء في عصرنا يتآمر لقلب آراء الكاتب وكل أنواع الفن الأخرى أيضاً، وتحويله إلى موظف ثانوي يعمل على مواضيع تسلم له من الأعلى ولا يستطيع أبداً قول الحقيقة الكاملة كما تبدو له. لكن في صراعه ضد هذا القدر، لا يحصل على أي عون من جانبه؛ أي، ليس هناك هيئة كبيرة للرأي تدعمه وتؤيده بأنه في المجال القويم. في الماضي، في القرون البروتستانتية اختلطت فكرة التمرد وفكرة الاستقامة الفكرية ببعضهما. المنشق (المهرطق) سياسياً أو دينياً أو جمالياً – هو من رفض أن يغتصب ضميره. وجهة نظره تتلخص في كلمات في الترتيلة الدينية: **تجرأ أن تكون دانيال، تجرأ أن تقف لوحدك، تجرأ أن يكون لك هدف ثابت، تجرأ أن تكون معروفاً.**

لتحديث هذه الأنشودة كي تلائم عصرنا، يجب أن نضيف (لا) في بداية كل سطر فيها، فمن غرابة عصرنا أن المتمردين ضد النظام القائم وميزتهم الأهم والأكثر شيوعاً أنهم يتمردون ضد فكرة الاستقامة الفردية. "تجرأ أن تقف لوحدك" هو أن تكون أيديولوجياً مجرماً وعملياً خطيراً. لقد تآكلت استقلالية الكاتب بواسطة قوى اقتصادية غامضة، وقوضها بنفس الوقت من عليهم الدفاع عنها. سأهتم بالمسار الثاني هنا.

إن حرية الفكر والصحافة تهاجم بحجج ليست جديرة بالاهتمام عادة، وكل شخص لديه خبرة في إلقاء المحاضرات أو النقاش يعرفها. أنا لا أحاول هنا التعامل مع الزعم المألوف بأن الحرية وهم، أو الزعم بوجود حرية أكثر في البلدان الشمولية من البلدان الديمقراطية، وإنما مع الفرضيات الأكثر قبولاً وخطورة بأن الحرية غير مرغوبة، وإن الأمانة الفكرية شكل من الأنانية المعادية للمجتمع. رغم مظاهر القضية الأخرى التي تكون عادة في المقدمة، فإن حرية الخطاب والصحافة في صميمها مسألة خلافية عن المرغوبية أو كذب إن لم تكن كذلك. إن الموضوع المهم والحقيقي هو الحق في نقل أخبار الأحداث المعاصرة بصدق أو بصدق ينسجم مع الجهل والتحيز وخداع الذات الذي يعاني منه كل مراقب بالضرورة. ربما يبدو من قولي هذا أن "التحقيق الصحفي" المباشر والمستقيم، هو الفرع المهم الوحيد من الأدب، لكني سأبين لاحقاً أن القضية نفسها تظهر في كل مستوى أدبي وربما في كل واحد من الفنون في أشكال مكررة. في الوقت الراهن من الضروري أن نزيل الأشياء غير الزائدة التي لا علاقة لها بالموضوع، والتي تلف هذا الجدال.

يحاول أعداء الحرية الفكرية دائماً عرض دعوتهم دائماً كذريعة للانضباط والنظام ضد الفردانية، أما قضية الحقيقة ضد اللاحقيقة فتبقى في الخلفية قدر الإمكان. رغم الاختلاف في درجة التأكيد يصنف الكاتب الذي يرفض بيع آرائه ومعتقداته دائماً بالأناني، ويتهم إما بعزل نفسه في برج عاجي، أو بتقديم عرض تفاخري لشخصيته، أو بمقاومة التيار التاريخي المحتوم في محاولة للتشبث بامتياز لا أساس له. يتشابه الكاثوليكيون والشيوعيون في افتراضهم بأن الخصم لا يمكن أن يكون صادقاً وذكياً معاً، ويدعي كل منهما ضمناً أن "الحقيقة" كشفت مسبقاً وأن المنشق (المهرطق) إن لم يكن ساذجاً، يدرك للحقيقة بالخفاء، ولكنه يقاومها بدوافع أنانية محضة. في الأدب الشيوعي يقنع الهجوم على الحرية الفكرية عادة بخطاب عن "فردانية البورجوازية الصغيرة" و"أوهام ليبرالية القرن التاسع عشر"....إلخ ويدعمونه بكلمات مسيئة وتعسفية مثل "خيالي" و"انفعالي" ليس لها معنى متفق عليه، لذلك يصعب الرد عليها. وبهذا الشكل المناور يتم إبعاد الجدال عن القضية الرئيسية. يستطيع المرء قبول، وأغلب المتنورين قبلوا، بالفرضية الشيوعية التي ترى أن الحرية الخالصة لا توجد إلا في مجتمع لاطبقي وأن المرء يكون حراً تماماً تقريباً حين يعمل على تحقيق وإحداث هذا النوع من المجتمع. لكن يتسلل مع هذا زعم آخر لا أساس له بأن الحزب الشيوعي نفسه يهدف إلى توطيد المجتمع اللاطبقي وأن هذا الهدف في طريقة إلى التحقق الفعلي في الاتحاد السوفييتي. لكن إن أجيز للزعم الأول اشتراط الثاني، فليس هناك هجوم لا يمكن تبريره على الفطرة السليمة والحشمة العامة. لكن في الوقت الحالي يجرى الزوغان عن النقطة الحقيقية. إن حرية العقل تعنيَ الحرية في نقل ما يراه الشخص ويسمعه ويحس به وعدم إجباره على تلفيق حقائق وهمية ومشاعر. إن الخطب العنيفة المسهبة ضد "الفرارية" و"الفردانية" و"الرومانتيكية" وهلم جرا، مجرد وسيلة جدالية وبلاغية، الهدف منها أن يبدو تحريف التاريخ عملاً محترماً.

قبل خمسة عشر عاماً، عندما كنا ندافع عن حرية العقل، كنا نحميها من المحافظين والكاثوليك وإلى حد ما من الفاشيين الذين لم يكن لهم أهمية كبيرة آنذاك. أما اليوم فعلينا أن نحميها من الشيوعيين و"رفاق الطريق". ينبغي ألا يبالغ المرء في التأثير المباشر للحزب الشيوعي الإنكليزي الصغير، لكن ليس هناك أي شك حول الأثر السام للأسطورة الروسية على الحياة الفكرية الإنكليزية التي بسببها تكبت الوقائع والحقائق المعروفة وتشوه، لدرجة تثير الشكوك في إمكانية كتابة تاريخ حقيقي وصحيح لعصرنا. دعني أقدم مثالاً واحداً من المئات

التي يمكن الاستشهاد بها. حين انهارت ألمانيا وجد أن عدد كبير من الروس السوفييت - أغلبهم بسبب دوافع غير سياسية، لاشك - بدلوا اصطفائهم وولاءهم وكانوا يقاتلون مع الألمان. أيضاً جزء صغير لكنه مهم من الأسرى السوفييت والأشخاص المهجرين رفضوا العودة إلى الاتحاد السوفييتي وبعضهم على الأقل أعيدوا رغماً عنهم. هذه الحقائق المعروفة لكثير من الصحفيين مرت دون ذكر في الصحافة البريطانية، بينما في نفس الوقت استمر المعلقون على الشؤون العامة المحبون للروس في تبرير حملات التطهير والترحيل التي حدثت بين ١٩٣٦ - ١٩٣٨ وزعموا أن الاتحاد السوفييتي لا يوجد فيه "بائعو أوطان". ضباب الكذب والمعلومات المضللة التي غلفت أشياء كالمجاعة الأوكرانية والحرب الأهلية الإسبانية وسياسة روسيا في بولونيا وهلم جرا، لم تكن بسبب عدم الاستقامة المتعمدة كلياً، وإنما لأن كل صحفي أو كاتب متعاطف مع الاتحاد السوفيتي تماماً بالطريقة التي يريدها الروس - عليه أن يذعن ويقبل بالتزييف المتعمد للقضايا المهمة. أمامي كتيب نادر جداً كتبه مكسيم ليتفينوف عام ١٩١٨ يوجز فيه الأحداث الأخيرة في الثورة الروسية. لم يأت على ذكر ستالين، لكنه يكيل المديح لتروتسكي وزينوفييف وكامينيف وآخرين. ما هو موقف الشيوعي الأكثر شكوكاً بمثل هذا الكتاب؟ في أفضل الأحوال موقف الشخص الظلامي الذي يرى أن هذا الكتيب وثيقة غير مرغوبة ومن الأفضل قمعها وإن تقرر نشر نسخة مشوهة منه فستحط من قدر تروتسكي، وتقحم الإشارة إلى ستالين، ولا يمكن لأي شيوعي مخلص لحزبه الاحتجاج على ذلك. لقد ارتكبت أعمال تزوير كهذه على نطاق إجمالي وواسع في السنوات الأخيرة. لكن ليست العبرة بحدوثها، وإنما حتى حين تكشف وتصبح معروفة، فإنها لا تحدث أي رد فعل من مثقفي الجناح اليساري ككل.

إن الكذب المنظم الذي تمارسه الدول الشمولية، ليس حيلة مؤقتة من نفس طبيعة الخداع العسكري كما تزعم أحياناً. إنه شيء متمم للشمولية وشيء سيستمر حتى لو انتهت ضرورة معسكرات الاعتقال والشرطة السرية. هناك أسطورة سرية بين الشيوعيون الأذكياء، ترى أن الحكومة الروسية مجبرة الآن على التعامل بالدعاية الكاذبة والمحاكمات المدبرة وغيرها وأنها تدون سراً الوقائع الحقيقية وستنشرها في وقت ما في المستقبل. يمكننا التأكد تماماً في اعتقادي من أن هذا ليس هو الحال، لأن العقلية الضمنية لمثل هذا الأفعال هي لمؤرخ ليبرالي يعتقد أن الماضي لا يمكن تبديله وأن المعرفة الصحيحة للتاريخ قيمة ومسألة بديهية. إن رأي الشمولي في التاريخ شيء يمكن ابتداعه وليس تعلمه. إن الدولة الشمولية في الحقيقة والفعل دولة دينية

(ثيوقراطية) ويجب أن ينظر إلى طبقتها الحاكمة المتحجرة بأنها معصومة عن الخطأ لكي تحافظ على مركزها. وبما أنه ليس هناك أحد معصوم عن الخطأ عملياً غالباً ومراراً ما يكون من الضروري إعادة ترتيب الأحداث الماضية لكي تبين أن هذا أو ذاك الخطأ لم يرتكب أو هذا أو ذاك الانتصار الخيالي حدث فعلاً. ثم مرة أخرى كل تغيير رئيسي في السياسية يستلزم تغييراً مماثلاً في العقيدة وإظهار رموز تاريخية بارزة. هذا الشيء يحدث في كل مكان، ومن الواضح أنه سيؤدي إلى تزييف صريح وشامل في مجتمعات لا يسمح فيها إلا لرأي واحد في أية لحظة مفترضة. إن الشمولية في الحقيقة تستدعي التبديل المستمر للماضي، وعلى المدى البعيد تستدعي إنكار وجود الحقيقة الموضوعية نفسها. يميل أصدقاء الأنظمة الشمولية في هذه البلاد عادة إلى الجدال: بما أن الحقيقة المطلقة لا يمكن بلوغها، فالكذبة الكبيرة ليست أسوأ من الصغيرة. وتمت الإشارة إلى أن كل السجلات التاريخية منحازة وغير دقيقة أو من جانب آخر، إن الفيزياء الحديثة أثبتت أن ما يبدو لنا على أنه العالم الحقيقي، هو مجرد وهم، لذلك فإن الاعتقاد بدليل إحساس المرء، هو نزعة قديمة محافظة ومبتذلة. المجتمع الشمولي الذي نجح في تأبيد نفسه سيشيد نظاماً شيزوفرينياً للفكر تكون فيه قوانين التفكير السليم صحيحة في الحياة اليومية، وإلى درجة ما في بعض العلوم الدقيقة، لكن يمكن للسياسي والمؤرخ وعالم الاجتماع أن يتجاهلوها. يوجد مسبقاً عدد لا يحصى من الناس من يعتبر تزييف كتيب مدرسي فضيحة علمياً، ولا يرون شيئاً خطأً في تزييف حقيقة تاريخية. هذه هي النقطة التي يتقاطع فيها الأدب والسياسة التي تمارس فيها الشمولية أعظم ضغطها على المفكرين. العلوم الصارمة حتى هذا التاريخ لا تمثل خطراً على أي شيء بنفس الدرجة، ويعود هذا جزئياً إلى حقيقة أن العلماء يستطيعون الاصطفاف خلف حكوماتهم الخاصة، بصورة أسهل من الكتاب في كل البلدان.

لتظل الأشياء واضحة للعين، دعوني أكرر ما قلته في بداية المقال: إن الأعداء المباشرين للصدق، وبالتالي لحرية الفكر في إنكلترا، هم أسياد الصحافة وأقطاب السينما والبيروقراطيون، لكن العلامة الأكثر أهمية على إضعاف الرغبة في الحرية على المدى الطويل، تجدها لدى المفكرين أنفسهم. قد يبدو أني كنت أتحدث كل هذا الوقت عن آثار الرقابة عن قسم واحد من الكتابة الصحفية السياسية، وليس عن الأدب عموماً. لنسلم أن روسيا السوفييتية منطقة محظورة في الصحافة البريطانية، ولنسلم أيضاً أن بولونيا والحرب الإسبانية والمعاهدة الروسية الألمانية مواضيع لا يسمح بنقاش جاد لها. ولو كنت تملك معلومات

تتعارض مع الأرثوذوكسية السائدة فأنت إما شوهتها أو عليك أن تبقيها سراً - سلمنا بكل ذلك، لكن لماذا يجب أن يتأثر الأدب بمعناه العام؟ هل كل كاتب رجل سياسي وكل كتاب تحقيق صحفي مباشر بالضرورة؟ حتى في أشد الديكتاتوريات لا يستطيع الكاتب الفرد أن يبقى حراً داخل عقله ويسرب أفكاره اللاتقليدية ويقنعها بطريقة لا تدركها السلطات الغبية؟ وفي كافة الأحوال إن كان الكاتب في اتفاق مع الأرثوذوكسية السائدة، فلماذا يكون لها أثر مقيد عليه؟ أليس من المرجح أن يزدهر الأدب وكل الفنون الأخرى في المجتمعات التي ليس فيها صراعات رأي رئيسية وفرق حاد بين الفنان والمتلقي؟ هل يجب علينا أن نعتبر كل كاتب رجلاً متمرداً أو شخصاً استثنائياً إن كان هكذا؟

كلما حاول المرء الدفاع عن الحرية الفكرية ضد مزاعم الشمولية، فإنه يواجه هذه الحجج من شخص أو آخر، وهي حجج مبنية على فهم خاطئ تماماً للأدب، ما هو وكيف - يجب أن يسأل المرء لماذا - يظهر إلى الوجود. يعتقد الشموليون أن الكاتب إما مجرد مضيف مسلٍ أو سائق عربة مرتش يستطيع تبديل مواقفه من جانب دعائي إلى آخر بالسهولة التي يبدل فيها عازف الأورغان النغمات. لكن أخيراً وبعد كل هذا، كيف أصبحت الكتب تكتب دائماً؟ أولاً الأدب محاولة الأديب للتأثير على رأي معاصريه من خلال تسجيل تجربته وتدوينها. وبالنسبة إلى حرية التعبير، ليس هناك فرق كبير بين الصحفي العادي وأبرع كاتب خيالي "غير سياسي". الصحفي غير حر ومدرك لعدم حريته حين يجبر ويكتب أكاذيب أو يخمد ما تبدو له أخباراً هامة رغماً عنه؛ والكاتب الخيالي غير حر حين يجبر على تزييف مشاعره الشخصية التي تعتبر حقائق من وجهة نظره. ربما يشوه الحقيقة ويبالغ في تشويهها ليوضح معانيه، لكنه لا يستطيع تشويه مشهد عقله الخاص، ولا يستطيع القول بأي قناعة إنه يحب ما يكره أو يؤمن بما لا يؤمن به. إن أجبر على فعل ذلك، فالنتيجة الوحيدة هي تجفاف قدراته الإبداعية كما أنه لا يستطيع حل المشكلة بالابتعاد عن المواضيع الخلافية. لا يوجد هناك أدب غير سياسي حقيقي، على الأقل في زمن كعصرنا، حين يكون الخوف والكره والولاءات السياسية المباشرة قريبة من سطح وعي كل واحد منا. حتى لو كان تحريماً واحداً، فله نتيجة معطلة قاسية على العقل، لأن هناك خطر دائم بأن أية فكرة يتابعها المرء بحرية، قد تؤدي إلى الفكر الممنوع والمحرم. هذا يؤدي إلى أن جو الشمولية مميت ومهلك لأي نوع من كتاب النثر، لكن الشاعر وعلى الأقل الشاعر الغنائي ربما

يجد هذا الجو قابلاً للتنفس. وفي أي مجتمع شمولي يبقى حياً لأكثر من جيلين اثنين، من المحتمل أن يموت أدب النثر من النوع الذي وجد خلال الأربعمائة سنة الماضية وينتهي.

يزدهر الأدب أحياناً في ظل الأنظمة الاستبدادية، لكن كما أبرزنا مراراً فإن الأنظمة الاستبدادية في الماضي لم تكن شمولية. لقد كان جهازها القمعي عاجزاً على الدوام وكانت طبقاتها الحاكمة عادة إما فاسدة أو لامبالية أو شبه ليبرالية في وجهة نظرها، وكانت العقائد الدينية السائدة فيها تعمل عادة ضد الكمالية وفكرة العصمة الإنسانية، ولكن وبرغم ذلك وصل الأدب النثري إلى أعلى مستوياته في فترات الديمقراطية والتأمل الحر. إن الجديد في الأنظمة الشمولية ليس في أن عقائدها غير قابلة للتغيير فقط، وإنما في تقلبها أيضاً، ويجب أن يقبل بها تحت التهديد بالإدانة، لكنها من جهة أخرى هي عرضة للتبدل دائماً في لحظة دون سابق إنذار. لنأخذ مثلاً المواقف المتباينة والمتنافرة تماماً مع بعضها البعض التي كان على الشيوعي الإنكليزي أو رفيق السفر أن يتبناها نحو الحرب بين بريطانيا وألمانيا. في السنين التي سبقت أيلول ١٩٣٩ كان متوقعاً منه أنه يغلي من الغضب حول "الرعب من النازية" وأن يحرف كل شيء كتبه إلى اتهام لهتلر: بعد أيلول ١٩٣٩ ولمدة عشرين شهراً، كان عليه أن يصدق ويؤمن أن ألمانيا تعرضت لظلم أكثر مما فعلته بحق غيرها، وأن كلمة "نازي" بالشكل الذي استخدمتها الصحافة يجب أن تحذف تماماً ومباشرة من قاموس مفرداته. وكان عليه بعد سماع نشرة أخبار الساعة الثامنة في صباح ٢٢ حزيران ١٩٤١ أن يبدأ ويصدق ثانية أن النازية أفظع الشرور التي شهدها العالم. الآن من السهل على السياسي القيام بهذه التبدلات: لكن حال الكاتب مختلفة. إن كان عليه تبديل ولاءه في اللحظة الصحية تماماً، فعليه إما أن يكذب في مشاعره الشخصية أو يخمدها كلياً، وفي كلا الحالتين فهو يدمر مولده (طاقته الإبداعية وفاعليته). سترفض الأفكار أن تأتي إليه، وسوف تتيبس كل كلمة يستخدمها تحت لمسته أيضاً. إن الكتابة السياسية في زمننا تتألف من عبارات مصنعة مسبقاً مربوطة ببعضها مثل قطع طقم لعبة الأطفال ميكانو. إنها النتيجة الحتمية للرقابة الذاتية. لتكتب بلغة واضحة وسهلة وحيوية، عليك أن تفكر بدون خوف، وإن فكرت بلا خوف، لا يمكن أن تكون أرثوذوكسياً (تقليدياً) في السياسة. كان يمكن أن يكون الأمر مختلفاً في "عصر إيمان آخر تكون فيه العقيدة الأرثوذوكسية مؤسسة منذ زمن طويل ولا تؤخذ بالحسبان بشكل جاد جداً. في تلك الحالة سيكون من الممكن أو ربما يكون من الممكن لمناطق واسعة من عقل المرء

أن تبقى غير متأثرة بما يؤمن به رسمياً. حتى مع هذا يجدر أن نلاحظ أن أدب النثر اختفى تقريباً أثناء عصر الإيمان الوحيد الذي نعمت به أوروبا، وخلال كل العصور الوسطى لم يكن هناك نثر خيالي والقليل جداً من الكتابة التاريخية، وقد عبر قادة الفكر في المجتمع عن أفكارهم الأكثر جدية بلغة ميتة لم تتبدل خلال آلاف السنين.

في كل الأحوال إن الشمولية لا تنذر بأنها ستكون عصر إيمان بقدر ما هي عصر شيزوفرينيا (انفصام). يصبح المجتمع شمولياً حين يكون بنيانه اصطناعياً وزائفاً بشكل فاضح: أي حين تفقد طبقته الحاكمة دورها، لكنها تنجح في التشبث بالسلطة بواسطة القوة أو الخداع، ومهما استمر هذا المجتمع، فلا يمكنه أن يصبح متسامحاً أو مستقراً فكرياً أبداً، ولا يسمح أبداً بتسجيل حقيقي للوقائع أو للصدق العاطفي الذي يتطلبه الإبداع. لكن إن تفسد بالشمولية، ليس بالضرورة أن تعيش في مجتمع شمولي، إذ إن مجرد سيادة أفكار معينة تستطيع نشر نوع من السم يجعل المواضيع الواحد تلو الآخر مستحيلة للأغراض الأدبية. متى ما كان هناك عقيدة تقليدية مفروضة بالقوة أو حتى عقيدتين كما يحدث غالباً - تتوقف الكتابة الجيدة وقد توضح ذلك تماماً في الحرب الأهلية الإسبانية. كانت تلك الحرب لكثير من المفكرين الإنكليز تجربة مؤثرة بعمق، لكنها لم تكن التجربة التي استطاعوا أن يكتبوا عنها بأمانة وإخلاص. لم يسمح لهم بالكلام إلا عن شيئين اثنين وكلاهما كذبتان صريحتان: بالنتيجة، كان نتاج الحرب فدادين من المطبوعات التي أغلبها لا يستحق القراءة.

ليس مؤكداً إن كانت آثار الشمولية على الشعر مميتة كآثارها على النثر. هناك سلسلة كاملة من الأسباب المجتمعة التي تجعل الشاعر أكثر ارتياحاً وحرية في المجتمع الشمولي. بداية يحتقر البيروقراطيون والرجال "العمليون" الآخرون الشاعر كثيراً جداً لدرجة لا يهتمون كثيراً بما يقوله. ثانياً إن ما يقوله الشاعر أي ما تعنيه قصيدته إن شرحت نثراً - غير مهم نسبياً حتى له نفسه. إن الفكرة المحتواة في القصيدة بسيطة دائماً، ولم يعد الغرض أساسي للقصيدة أكثر من الغرض الأساسي للمخطط بالنسبة إلى الصورة. إن القصيدة ترتيب لأصوات وتداعيات كما التصوير الزيتي ترتيب لعلامات الفرشاة. في لحظات خاطفة قصيرة وليس دائماً كما في لازمة الأغنية يمكن للشعر، أن يستغني عن المعنى كلياً. لذلك من السهل جداً على الشاعر أن ينأى عن المواضيع الخطرة ويتجنب التلفظ بالبدع؛ وحتى حين يتلفظ بها، قد تمر دون أن تثير الانتباه. لكن الأهم وقبل كل شيء أن الشعر الجيد لا يكون بالضرورة نتاجاً فردياً مثل النثر

الجيد. هناك أنواع محددة من الأشعار كالأغاني الشعبية، ومن جانب آخر، هناك أشكال اصطناعية جداً من الشعر يمكن نظمها بتشارك جماعات من الناس. مازال هناك نزاع وجدل إن كانت القصائد الغنائية الشعبية الإنكليزية والاسكتلندية قد أنتجت بواسطة أفراد أم بواسطة الناس عموماً، ولكن في كافة الأحوال هي غير فردية، بمعنى أنها تتبدل دائماً حين تنتقل من فم إلى آخر. حتى في الطباعة لا توجد نسختان متشابهتان تماماً لأغنية شعبية. إن الكثير من شعوب العالم تؤلف الشعر جماعياً. يبدأ أحد ما في الارتجال وربما يرفق نفسه بآلة موسيقية وينظم آخر غيره بيتاً مقفى حين يتوقف المغني الأول، وهكذا تستمر العملية حتى تتواجد أغنية كاملة ليس لها مؤلف خاص ومستقل.

إن هذا النوع من التعاون مستحيل تماماً في النثر. في كل الأحوال، يجب أن يؤلف النثر الجاد في عزلة، بينما الإثارة في كونك جزءاً من مجموعة، هي عبارة عملية مساعدة لأنواع محددة من نظم الشعر. يستطيع الشعر والنوع الجيد منه خصوصاً أن يبقى حياً تحت أسوأ الأنظمة البوليسية. حتى في المجتمعات التي أبطلت فيها الحرية والفردانية، تظل هناك حاجة إلى الأغاني الوطنية والقصائد الغنائية البطولية التي تحتفل بالانتصارات أو لحفلات التملق المنمقة. وهذه هي القصائد التي يمكن أن تكتب بناء على الطلب أو تؤلف بشكل جماعي دون أن ينقصها بالضرورة القيمة الفنية. إن النثر مسألة مختلفة، لأن الكاتب لا يستطيع أن يضيق مدى أفكاره دون قتل قدراته الإبداعية. لكن تاريخ المجتمعات الشمولية أو جماعات الناس التي تبنت وجهة النظر الشمولية، يشير إلى أن غياب الحرية ضار بكل أشكال الأدب. لقد اختفى الأدب الألماني خلال حكم هتلر، ولم تكن الحال أفضل في إيطاليا، والأدب الروسي بقدر ما يمكن للمرء الحكم من خلال الترجمة، انحط بشكل بارز منذ الأيام الأولى للثورة، لكن كان وضع بعض الشعر أفضل من النثر. لم يكن ممكناً أخذ أية رواية روسية باستثناء بضع منها على محمل الجد لكي تترجم خلال الخمس عشرة سنة الماضية. في أوروبا الغربية وأمريكا فئات وأسعة من الإنتلجنسيا الأدبية جربت الحزب الشيوعي أو كانت متعاطفة معه، لكن هذه الحركة اليسارية بمجملها أنتجت كتباً استثنائية تستحق القراءة. يبدو أن للكاثوليكية الأرثوذوكسية أثراً مدمراً وماحقاً على بعض الأشكال الأدبية وخصوصاً الرواية. خلال فترة ثلاثمائة سنة، كم شخصاً كانوا روائيين جيدين وكاثوليكيين خيرين في الوقت نفسه؟ الحقيقة أن أفكار ومواضيع رئيسية لا محددة يمكن تمجيدها بالكلمات، والاستبداد أحدها. لم يكتب أحد أبداً كتاباً جيداً يمجد فيه

محاكم التفتيش. قد ينجو الشعر ويحيا في العصر الشمولي وبعض الفنون الأخرى وأشباه الفنون كالهندسة المعمارية مثلاً، وقد تجد الاستبداد مفيداً لها. أما كاتب النثر فخياره بين الصمت أو الموت. إن أدب النثر كما نعرف هو نتاج العقلانية والقرون البروتستانتية والفرد المستقل. إن تدمير الحرية الفكرية يعطل ويشل الصحفي وعالم الاجتماع والمؤرخ والروائي والناقد والشاعر بالترتيب. في المستقبل يمكن أن يظهر نوع جديد من الأدب لا يشترط مشاعر فردية أو مراقبة صادقة، لكن لا يمكن تخيل هذا الآن، ويحتمل أكثر كما يبدو لو تنتهي الثقافة الليبرالية التي عشنا فيها منذ عصر النهضة وتتوقف، فسيفنى الفن الأدبي معها.

طبعاً سوف يستمر استخدام الطباعة، ومن الممتع التخمين والتساؤل عن أنواع القراءة التي ستنجو في المجتمع الاستبدادي المتصلب. يفترض بالجرائد أن تستمر حتى تصل تقنية التلفاز إلى مستوى أعلى، لكن بمعزل عن الجرائد يشك حتى الآن إن كانت الكتلة الأكبر من الناس في البلدان الصناعية تشعر بالحاجة إلى أي نوع من الأدب فأفرادها غير راغبين بأية نسبة أن ينفقوا على مسألة القراءة شيئاً قريباً مما ينفقونه على هوايات عديدة أخرى، أو ربما ينجو نوع متدنٍ من النثر الحسي المثير يتتج بعملية الحزام الناقل الذي سيقلل المبادرة الإنسانية إلى الحد الأقصى.

تكتب أفلام الراديو عادة بواسطة كتاب هاكس مبتذلين يملى عليهم الموضوع وطريقة المعالجة مسبقاً: ومع ذلك، ما يكتبونه مجرد نوع من مادة خام تحول إلى شكل بواسطة المنتجين والرقابة، وهكذا الأمر أيضاً مع الكتب التي لا تحصى والكراريس التي تكتب بتكليف من دوائر الحكومة، أما إنتاج القصص القصيرة والمسلسلات والقصائد التي تكتب للمجلات الرخيصة جداً، فهو الأكثر شبهاً بالإنتاج الآلي. صحف مثل صحيفة ذا رايتر تزخر بإعلانات عن مدارس أدبية تعرض عليك كلها حبكات روائية جاهزة ببضع شلنات للحبكة الواحدة، وبعضها تزودك مع الحبكة بالجمل الافتتاحية والختامية لكل فصل، وبعضها الآخر تمدك بنوع من الصيغة الجبرية التي باستخدامها يمكنك بناء حبكة روائية لنفسك، ونوع آخر من الصحف فيها رزم بطاقات لشخصيات وأوضاع لا تحتاج إلا إلى خلطها وتوزيعها كورق الشدة لكي تنتج قصصاً إبداعية بشكل أتوماتيكي. من المحتمل أن ينتج الأدب في المجتمع الشمولي ببعض من هذه الطرق. الخيال - حتى الوعي، بأقصى ما يمكن - سوف يتم حذفه من عملية الكتابة، وسيجري تخطيط الكتب في خطوطها العريضة بواسطة بيروقراطيين، وتمرر إلى عدد كبير من الأيدي، وحين

تكتمل وتنجز لا تعود منتجاً فردياً أكثر من سيارة الفورد في نهاية خط التجميع. لا حاجة للقول إن أي شيء يتج بهذه الطريقة سيكون عبارة عن هراء؛ لكن أي شيء لا يكون مجرد هراء سيشكل خطراً على بنية وتركيب الدولة. أما بالنسبة إلى ما سينجو من الأدب القديم، فسيكون من الضروري كبته وقمعه أو إعادة كتابته بشكل محكم ومدروس.

في الوقت الحالي لم تنتصر الشمولية تماماً في كل مكان، ولايزال مجتمعنا ليبرالياً عموماً. ولكي تمارس حقك في حرية التعبير، عليك أن تناضل ضد الضغط الاقتصادي وضد فئات قوية من الرأي العام، لكن ليس ضد قوات الشرطة السرية حتى الآن. يمكنك أن تقول وتنشر أي شيء تقريباً طالما أنك مستعد لفعل ذلك بطريقة صعبة، لكن النحس والشر كما قلت في بداية هذا المقال. إن أعداء الحرية المتعمدين هم هؤلاء الذين ينبغي أن تعني لهم الحرية الشيء الأهم. إن الجمهور الكبير لا يهتم بالمسألة بشكل أو بآخر، وهو لا يؤيد اضطهاد المنشق، ولا يحث نفسه للدفاع عنه. إن الجمهور عاقل جداً وغبي جداً بنفس الوقت في اكتساب وجهة النظر الشمولية. ويأتي الهجوم المباشر والمتعمد على الآداب الفكرية واللباقة، من المفكرين أنفسهم.

لو لم يخضع المثقفون المحبون لروسيا إلى تلك الخرافة الغريبة، لربما خضعوا إلى خرافة أخرى من نفس النوع، لكن على كافة الأحوال فإن الخرافة الروسية موجودة والعفن الذي تسببه تفوح رائحته. حين يرى المرء رجالاً مثقفين ينظرون بعدم اكتراث للقمع والاضطهاد، يتساءل عن الذي سيحتقره أكثر، كلبيتهم أم قصر نظرهم. إن كثيراً من العلماء مثلاً معجبون سذج بالاتحاد السوفييتي ويعتقدون أن تخريب الحرية ليس ذا أهمية طالما لم يتضرر خط عملهم الخاص بهم الحالي. إن الاتحاد السوفييتي شاسع وينمو بشكل سريع، ولديه حاجة حادة للعمال العلميين، وبالتالي يعاملهم بكرم وتسامح. فالعلماء أشخاص يحظون بامتيازات، بشرط أن يتجنبوا المواضيع الخطيرة كعلم النفس مثلاً. أما الكتاب من جانب آخر، فيضطهدون بقسوة. صحيح أن الفجار الأدبيين مثل إيليا اهرينبورغ أو ألكسي تولستوي تدفع لهم الأموال الطائلة، ولكن بعد أن سلبوا منهم كل ما له قيمة في عين الكاتب كحرية التعبير مثلاً. يستطيع بعض من العلماء الإنكليز على الأقل الذين يتكلمون بحماسة عن الفرص التي يتمتع بها العلماء في روسيا فهم هذا. إن تفكيرهم كالتالي كما يبدو: "الكتاب يضطهدون في روسيا.

وماذا في ذلك؟ أنا لست كاتباً". إنهم لا يرون ويدركون أن أي هجوم على الحرية الفكرية وعلى مفهوم الحقيقة الموضوعية، يهدد كل فروع الفكر على المدى الطويل.

في الوقت الحالي تتسامح الدولة الشمولية مع العلماء لأنها بحاجتهم. حتى في ألمانيا النازية، يعامل العلماء غير اليهود بشكل جيد نسبياً، والمجتمع العلمي الألماني عموماً لم يظهر أي مقاومة بوجه هتلر. في هذه المرحلة من التاريخ حتى أعتى حاكم استبدادي مجبر أن يأخذ بحسابه الواقع الفيزيائي المادي بسبب الاتكال على العادات الليبرالية في الفكر جزئياً وبسبب حاجة الاستعداد إلى الحرب جزئياً. طالما لا يمكن تجاهل الواقع المادي وطالما اثنان واثنان يجب أن يكونا أربعة، فحين ترسم مخطط طائرة مثلاً يظل للعالم دوره ويمكن السماح له بدرجة معقولة من الحرية. ستأتي يقظته لاحقاً بعد أن تتوطد الدولة الشمولية بقوة. في الوقت الحالي، إن كان يريد أن يحمي استقامة العلم وصدقه، فإن وظيفته أن يطور نوعاً من التضامن مع زملائه الأدبيين، وألا يغض النظر حين تكمم أفواه الكتاب أو يدفعوا إلى الانتحار وعندما تزيف الصحف بصورة منظمة، ويعتبر الأمر عدم انحياز.

لكن مهما سيكون الأمر مع العلوم الطبيعية أو مع الموسيقا والهندسة المعمارية، فمن المؤكد – كما حاولت أن أبين – إن الأدب محكوم بالهلاك والفناء إذا هلكت حرية الفكر. لن يموت الأدب في البلدان التي تحتفظ ببنية شمولية فقط، وكل كاتب يتبنى رأي الشمولية ووجهة نظرها ويجد أعذاراً للاضطهاد وتزوير الواقع والحقيقة، فإنه سيدمر نفسه ككاتب. لا يوجد أي مخرج من هذا الوضع. لا خطب حماسية ضد "الفردانية" و"البرج العاجي"، ولا ملاحظات مبتذلة ورعة في أن "الفردانية الحقة لا تكتسب إلا عبر التماهي مع المجتمع" تستطيع أن تتخطى حقيقة أن العقل المشترى عقل فاسد، وإذا لم تدخل العفوية بدرجة ما أو أخرى فسيكون الإبداع الأدبي مستحيلًا وتصبح اللغة نفسها شيئاً مختلفا تماماً عما عليه الآن، وربما نتعلم فصل الإبداع الأدبي عن الاستقامة الفكرية. في الوقت الحاضر لا نعرف إلا أن الخيال مثل بعض الحيوانات البرية لا يتكاثر في الأسر. أي كاتب أو صحفي ينكر تلك الحقيقة – كل المديح الحالي للاتحاد السوفييتي وتقريباً يحتوي أو يتضمن مثل هذا الإنكار – يطالب بتدمير نفسه.

دفاعاً عن بي جي ودهاوس

حين حقق الألمان تقدمهم السريع والمباغت في بلجيكا في وقت مبكر من صيف عام ١٩٤٠ أسروا من بين أشياء أخرى السيد بي جي ودهاوس، الذي كان يعيش طيلة الفترة الأولى للحرب في فيلته في لاتوكيت، ويبدو أنه لم يدرك الخطر حتى اللحظة الأخيرة. وروي عنه أنه قال حين اقتيد إلى الأسر "ربما أكتب كتاباً جاداً بعد هذا". وُضع تحت الإقامة الجبرية في الوقت الحالي، ويبدو من تصريحاته اللاحقة أنه لاقى معاملة ودية، فقد كان يزوره ضباط ألمان في الجوار من أجل الاستحمام أو حفلة سمر.

بعد أكثر من سنة، في الخامس من يونيو حزيران ١٩٤١ أتت الأخبار بأن ودهاوس قد أطلق سراحه ويعيش في فندق ادلون في برلين. في اليوم التالي اندهش الجمهور حين علم أنه وافق على أن يلقي بعض النشرات ذات طبيعة غير سياسية في الراديو الألماني. إن الحصول على النصوص الكاملة لهذه النشرات ليس سهلاً في هذا الوقت، لكن يبدو أن ودهاوس قدم خمساً منها بين السادس والعشرين من يونيو حزيران والثاني من يوليو تموز، ثم أوقفه الألمان عن البث الحي ثانية. كانت النشرة الأولى في السادس والعشرين من حزيران، ولم تبث على الراديو النازي، وإنما أخذت شكل مقابلة مع ممثل شبكة الراديو الكولمبية هاري فلانري التي لايزال لها مراسلون في برلين، كما نشر وود هاوس أيضاً مقالة في ساتردي إيفيننغ بوست حين كان في معسكر الاعتقال.

كانت المقالة والنشرات الإذاعية عن تجارب ودهاوس في المعتقل، لكنها تضمنت تعليقاً صغيراً على الحرب. التالي نماذج مناسبة:

"أنا لم أهتم بالسياسة في حياتي قط، وأنا عاجز تماماً عن إحداث أي نوع من المشاعر القتالية والعدوانية، وحين أشعر بحب القتال ضد دولة ما، ألتقي بأحد الفتيان المهذبين ثم نخرج معاً وأفقد كل الأفكار أو المشاعر القتالية".

منذ وقت قريب ألقوا علي نظرة في موكب، وأدركت الفكرة الصحيحة؛ لقد أرسلونا إلى مصح للمجانين، على الأقل قضيت فيه اثنين وأربعين أسبوعاً. هناك الكثير الذي يقال عن

المعتقل، فهو يبعدك عن الصالون الأدبي، ويساعدك على أن تواظب على قراءتك، وحين أنضم إلى زوجتي، فمن الأفضل لي أن آخذ رسالة تقديم لأكون على الجانب الآمن.

في الأيام التي سبقت الحرب، كنت أفتخر بتواضع بكوني إنكليزياً دائماً، لكن الآن بعد أن أمضيت بضعة أشهر قاطناً في هذا المخزن أو المستودع من الرجال الإنكليز، فأنا لست متأكداً.... الامتياز الوحيد الذي أريده من ألمانيا أن تعطيني رغيف خبز وتأمر السادة حاملي البنادق عند البوابة الرئيسية أن ينظروا إلى الجهة الأخرى ويتركوا لي الباقي. مقابل ذلك أنا مستعد أن أسلم الهند ومجموعة من كتبي المهورة بإمضائي، وأن أكشف سر عمل طبخ البطاطا على مشع الحرارة. هذا العرض قائم إلى أول أسبوع الصوم الكبير".

لقد سبب المقطع الأول المقتبس إهانة عظيمة، وانتقد وودهاوس من أجل استخدام عبارة "إن ربحت بريطانيا الحرب أم لم تربح" (في المقابلة مع فلانيري) ولم يفعل أفضل حين وصف في برنامج إذاعي آخر العادات القذرة للأسرى البلجيكيين الذين اعتقل معهم. سجل الألمان هذا البرنامج وأعادوه عدداً من المرات. يبدو أنهم أشرفوا على أحاديثه قليل،اً ولم يسمحوا بأن يسخر من إزعاجات الاعتقال فقط وإنما في التعليق "بأن الأسرى المعتقلين في معسكر تروست يؤمنون بحماس أن بريطانيا ستربح في آخر المطاف"، لكن الجوهر العام لأحاديثه كان عن عدم تعرضه لأية معاملة سيئة وأنه لا يكنّ أية ضغينة.

سببت هذه البرامج الإذاعية ضجيجاً فورياً في إنكلترا. كانت هناك أسئلة في البرلمان وتعليقات افتتاحية في الصحافة وسيل من الرسائل من الزملاء المؤلفين، عبروا فيها عن استنكارهم كلهم تقريباً، واقترح واحد أو اثنان تعليق الحكم، ودافع البعض القليل بأن ودهاوس ربما لم يكن يدرك ما يفعل. في ١٥ تموز نقلت محطة البي بي سي في الوطن مقالاً عنيفاً جداً لـ"كاساندرا" في الديلي ميرور تتهم فيه ودهاوس "ببيع وطنه" وأباح هذا الملحق استخدام عبارات مثل "بائع وطن" و"عبادة الفوهرر". كان التهمة الرئيسية أن وودهاوس وافق أن يقوم بدعاية ألمانية كطريقة لشراء نفسه وإنقاذها من معسكر الاعتقال.

سبب ملحق كاساندرا قدراً محدداً من الاحتجاج، لكنه كثف الشعور الشعبي ضد وودهاوس إجمالاً، كما يبدو، ومن نتائج ذلك أن عدداً هائلاً من مكتبات الإعارة سحبت كتب وودهاوس من التداول. ها هو بند نموذجي من الأخبار:

بعد أربع وعشرين ساعة من الاستماع إلى برنامج كاساندرا، أفاد كاتب العمود في الديلي ميرور أن مجلس بلدة بورتاداون (إيرلندا الشمالية) منع كتب وودهاوس من المكتبات العامة. وقال السيد إدوارد مككان إن برنامج كاساندرا حسم المسألة، وأن وودهاوس لم يعد مضحكاً بعد الآن". الديلي ميرور.

بالإضافة إلى ذلك، منعت محطة البي بي سي أشعار وودهاوس الغنائية من الهواء، وظلت تفعل بعد سنتين من ذلك، وكانت هناك مطالب في البرلمان على ضرورة محاكمة وود هاوس كخائن حتى وقت متأخر في كانون أول ديسمبر كانون الأول ١٩٤٤.

هناك قول قديم يقول إنك لو رميت ما يكفي من الوحل، فسيلصق بعضه، والتصق الوحل بوودهاوس بطريقة غريبة نوعاً ما. تُرك انطباع أن أحاديث وودهاوس (التي لا يتذكر أحد ما قاله فيها) لم تكشفه كخائن فقط، وإنما كمتعاطف أيديولوجي مع الفاشية. وفي ذلك الوقت زعمت عدة رسائل للصحافة باكتشاف "ميول فاشية" في كتبه، وتكررت التهمة منذ ذلك الوقت.

سوف أحاول أن أحلل الجو العقلي لتلك الكتب في الحال، لكن المهم أن ندرك أن الأحداث في عام ١٩٤١ لم تدن وودهاوس بأي شيء أسوأ من الغباء. السؤال المشوق فعلاً لماذا وكيف أمكنه أن يكون بهذا الغباء. حين قابل فلانيري وودهاوس (الذي أطلق سراحه لكنه ظل تحت الحراسة) في فندق ادلون في حزيران ١٩٤١ رأى فوراً أنه كان يتعامل مع بريء سياسي، وعند تحضيره للمقابلة الإذاعية اضطر إلى أن يحذره ضد التفوه بتعليقات غير ملائمة جداً كانت إحداها التلميح الضمني بعدائه للروس. وهكذا مرت عبارة "إن ربحت إنكلترا أم لم تربح" وانتشرت. بعد المقابلة بقليل أخبره وودهاوس أنه سيبث برنامجاً على الراديو النازي، وكان من الواضح أنه لم يدرك أن لهذا الفعل أي معنى خاص. (فلانيري تعليقات [مهمة إلى برلين] بقلم هاري دبليو فلانيري).

في هذا الوقت كانت مكيدة وودهاوس واضحة، وكانت واحدة من أفضل أعمال الدعاية النازية عن الحرب، المكيدة الأولى مع مظهر إنساني.... ذهب بلاك مساعد غوبلز إلى المعسكر قرب جليويتز ليرى وودهاوس، فوجد المؤلف بلا إحساس سياسي تماماً وليس لديه أي

فكرة، فاقترح على وودهاوس أنه سيطلق سراحه من المعتقل مقابل سلسلة من البرامج الإذاعية يكتبها ودهاوس عن تجاربه، ووعد أنها لن تخضع للرقابة، وأنه سيلقيها على الهواء بنفسه. بطرح هذا المقترح أظهر بلاك أنه عرف رجله وعرف أن وودهاوس كان يسخر من الإنكليز في كل قصصه، ولن يكتب بأية طريقة أخرى، وأنه مازال يعيش في الفترة التي كتب عنها، وليس لديه أي تصور لما تعنيه النازية، فكان وودهاوس بيرتي ووستر الخاص به.

اللافت أن الصفقة الحقيقية بين وودهاوس وبلاك ليست سوى ترجمة لفلانيري. ربما كان الترتيب أقل وضوحاً وتحديداً، وللحكم من البرامج نفسها كانت فكرة ودهاوس الأساسية من عمل هذه النشرات الإذاعية أن تبقيه على اتصال مع جمهوره. ومن الواضح أن أقواله لم تكن عبارات بائع وطن من نموذج إيزرا باوند أو جون اميري، وليست لشخص قادر على فهم طبيعة بيع الأوطان. يبدو أن فلانيري حذر وودهاوس من بث البرنامج، لكن ليس بشكل قوي وأضاف أن وودهاوس (رغم أنه أشار إلى نفسه في أحد البرامج كإنكليزي) بدا يعتبر نفسه مواطناً أمريكياً. لقد فكر بالتجنيس، لكنه لم يملأ الأوراق الضرورية أبداً. حتى إنه استخدم مع فلانيري عبارة "نحن لسنا في حالة حرب مع ألمانيا".

أمامي الآن بيان بأعمال بي جي وودهاوس المطبوعة التي تقترب من الخمسين كتاباً، لكنها غير مكتملة بالتأكيد. ولكي أكون صادقاً ينبغي أن أعترف أن هناك كتباً كثيرة بقلم وودهاوس ربما الربع أو الثلث – لم اقرأها. ليس من السهل في الحقيقة أن تقرأ كل نتاج كاتب مشهور تنشر أعماله عادة في طبعات رخيصة، لكنني تابعت أعماله عن كثب منذ عام ١٩١١ حين كنت في الثامنة من عمري، وأنا مطلع بشكل جيد على جوها العقلي الغريب – جو لم يبق تماماً بلا تغيير طبعاً، لكنه يظهر تبدلاً بسيطاً منذ عام ١٩٢٥. في المقطع المأخوذ من كتاب فلانيري الذي اقتبسته آنفاً، هناك ملاحظتان تلفتان انتباه أي قارئ يقظ لوودهاوس. الأولى هي حقيقة أن وودهاوس "مازال يعيش في الفترة التي كتب عنها" والأخرى أن وزارة الدعاية النازية استغلته لأنه "كان يسخر من الإنكليز". الحقيقة الثانية مبنية على اعتقاد خاطئ، سأعود إليه في الحال، لكن تعليق فلانيري الآخر صحيح تماماً ويحتوي فيه جزء من معلومات عن سلوك وودهاوس.

الشيء الذي ينساه الناس غالباً عن روايات بي جي وودهاوس، هو منذ متى كتبت رواياته الأكثر شهرة. نحن نراه في شعور ما يصور سخافة عشرينات القرن العشرين وثلاثيناته، لكن في الحقيقة المشاهد والشخصيات التي تذكر به أكثر، ظهرت كلها قبل عام ١٩٢٥ فقد ظهرت شخصية بيسميث أول مرة في ١٩٠٩ بعد أن تنبأت بها شخصيات أخرى في قصصه المدرسية المبكرة، وقُدمت قلعة بلاندينغز مع باكستر وايرل ايمزورث كلاهما في فترة الدراسة الجامعية في ١٩١٥ وبدأت دائرة جيفيز - ووستر في ١٩١٩ وظهر جيفيز ووستر بشكل مختصر قبل ذلك. ظهر اوكريدج في عام ١٩٢٤ حين يتفحص المرء قائمة كتب وودهاوس من عام ١٩٠٢ فصاعداً يلاحظ ثلاث فترات مميزة جداً. الأولى فترة القصص المدرسية وتشمل كتباً مثل المضرب الذهبي واللاعبون المحترفون، إلخ، وكانت ذروتها في مايك في عام ١٩٠٩. نُشرت بيسميث في المدينة في السنة التالية، وتنتمي إلى هذا الصنف، رغم أنها لا تهتم مباشرة في الحياة المدرسية. الفترة الثانية هي الفترة الأمريكية. بدا وودهاوس يعيش في الولايات المتحدة من ١٩١٣ إلى ١٩٢٠ وأظهر علامات تأمركه في المصطلحات ووجهات النظر، فبعض القصص في الرجل الذي بقدمين يساريتين (١٩١٧) تبدو متأثرة بـ أو هنري، وتضمنت كتب أخرى كتبت بنفس الوقت تقريباً مصطلحات أمريكية (مثل "هاي بول" بدلًا من "ويسكي وصودا" التي لا يستخدمها الرجل الإنكليزي شخصياً عادة. ورغم ذلك كل كتب تلك الفترة - بسميث والصحفي والأحمق الصغير وحماقات ارتشي وجيم البيكاديلي وغيرها - تعتمد في جوهرها على التباين بين أنماط السلوك الإنكليزية والأمريكية. تظهر الشخصية الإنكليزية في بيئة أمريكية أو العكس: هناك عدد محدد من القصص الإنكليزية الصرفة، لكن قلما توجد قصص أمريكية صرفة. الفترة الثالثة يمكن تسميتها على نحو ملائم بفترة البيوت الريفية. قبل بداية عشرينات القرن العشرين يفترض أن وودهاوس أحرز دخلاً ضخماً وارتفعت المكانة الاجتماعية لشخصياته بناء عليه، لكن قصص اوكريدج تشكل استثناء ناقصاً. البيئة النموذجية قصر ريفي أو شقة عازب مترف أو نادي غولف مكلف جداً. رياضية طالب المدرسة في الكتب السابقة تخبو وتخلي كرة القدم والكريكيت المجال للغولف، وأصبح عنصر الهزل والسخرية ملحوظاً أكثر. لا شك أن الكثير من الكتب التالية كبرق الصيف مثلاً كانت عبارة عن كوميديا (ملهاة) خفيفة أكثر من كونها هزلية صرفة، لكن

المحاولات العرضية في الجدية الأخلاقية التي توجد في بيسميث والصحفي والأحمق الصغير ومجيء بيل والرجل ذو القدمين اليساريتين وبعض من القصص المدرسية، لم تعد تظهر، وتحول مايك جاكسون إلى بيرتي ووستر. لكن هذا ليس تحولاً مفاجئاً، فإن أحد الأشياء الأكثر بروزاً عن وودهاوس، هو افتقاره إلى التطور، فكتب مثل المضرب الذهبي وحكايا القديس أوستن التي كتبت في السنوات الأولى من هذا القرن، لها جوها المألوف مسبقاً. يستطيع المرء أن يرى كم وكيف أصبح أسلوبه في كتبه التالية، من حقيقة أنه استمر في كتابة قصص عن الحياة الإنكليزية رغم السنوات الست عشرة التي عاشها في هوليوود ولاتوكيت قبل اعتقاله.

مايك الكتاب الذي يصعب الحصول عليه في شكله غير المختصر، يفترض أنه واحد من أفضل قصص المدارس الخفيفة في اللغة الإنكليزية. لكن رغم أحداثه الهزلية جداً هو بكل الأشكال هجاء لنظام المدارس العامة، والمضرب الذهبي واللاعبون المحترفون..إلخ أقل من هذا حتى. تعلم وودهاوس في دولويتش، ثم عمل بعد ذلك في بنك، ودخل عالم الرواية بالتدريج عن طريق الصحافة الرخيصة جداً. من الواضح أنه ظل لسنوات كثيرة "مثبتاً" في مدرسته القديمة واشمأز من الوظيفة غير الرمانسية وبيئة أسفل الطبقة الوسطى التي وجد نفسه فيها. في القصص السابقة عن الحياة في المدارس العامة "الفتنة" (المباريات المدرسية تدخين السجائر والشاي حول موقد الدراسة إلخ) بُنيت بشكل مكثف و"العب اللعبة: بلي ذا غيم" على مجموعة مبادئ أخلاقية، قُبلت بدون تحفظات كثيرة. رايكان مدرسة وودهاوس الخيالية الخاصة، أنموذج أكثر تطوراً من دولويتش، ويحصل المرء على انطباع بين المضرب الذهبي (١٩٠٤) ومايك (١٩٠٨) أن رايكاين نفسها أصبحت مكلفة أكثر وانتقلت إلى مكان أبعد عن لندن. نفسياً الكتاب المنور الأكبر من كتب وودهاوس في فترته الأولى، هو بيسميث في المدينة. يخسر جاكسون (والد مايك) نقوده فجأة، ويُقحم مايك، مثل وودهاوس، نفسه في وظيفة غير مجزية في بنك وهو في عمر الثامنة عشرة. بيسميث يُوظف بالمثل لكن ليس لضرورة مالية. هذا الكتاب والصحفي (١٩١٥) كلاهما غير عاديين في كونهما يعرضان قدراً محدداً من الوعي السياسي وودهاوس. يختار بيسميث في هذه المرحلة أن يلقب نفسه بالاشتراكي - برأيه، وهذا يعني بلا شك في رأي وودهاوس

ليس أكثر من تجاهل الفروق الطبقية - وفي إحدى المناسبات يحضر الصبيان اجتماعاً في الهواء الطلق في مجلس عموم كلافام، ويذهبان إلى البيت لشرب الشاي مع خطيب اشتراكي كهل يُوصف بيته الأرستقراطي البالي ببعض الدقة. لكن اللافت الأهم في الكتاب هو عجز مايك أن يفطم نفسه من جو المدرسة، فهو يباشر وظيفته دون التظاهر بالحماس، ولم تكن رغبته الرئيسية كما قد يتوقع المرء إيجاد وظيفة أكثر إمتاعاً وفائدة، وإنما لعب الكريكت فقط. حين يُجبر أن يجد لنفسه مسكناً، يختار الاستقرار في دولويتش، لأنه هناك يكون قريباً من مدرسة ويستطيع سماع الصوت السائغ لضرب الكرة بالمضرب. نصل إلى ذروة الكتاب حين يحصل مايك على فرصة للعب في مباراة ريفية يخرج من وظيفته ويتركها لكي يفعل ذلك. المغزى أن وودهاوس يتعاطف هنا مع مايك: في الحقيقة هو يتطابق معه ومن الواضح أن مايك يحمل نفس القرابة لوودهاوس كما جوليان سوريل إلى ستاندال. لكنه خلق أبطالاً آخرين كثيرين متشابهين في الجوهر. خلال كتب هذه الفترة والفترة التالية، مرت سلسلة من الشبان، كان لعب الألعاب والحفاظ على اللياقة البدنية لهم مهنة حياتية كافية. كان وودهاوس عاجزاً عن تخيل مهنة مرغوبة، فالشيء العظيم امتلاك المال الخاص بك، وفي حال الفشل إيجاد وظيفة لا تقوم بأي عمل فيها، فبطل شيء نضر وجديد (١٩١٥) يفر من صحافة الطبقة الدنيا ليصبح مدرب تربية بدنية لمليونير نكد وكئيب: هذا اعتبر كخطوة للأعلى، أخلاقياً ومالياً أيضاً.

في كتب الفترة الثالثة، ليست هناك نرجسية أو فصول إضافية، لكن المغزى الضمني والخلفية الاجتماعية تبدلت أقل بكثير مما تبدو من النظرة الأولى. لو قارن المرء بيرتي ووستر مع مايك أو حتى مع الطلاب المتقدمين الغليظين في أقدم المدارس القصصية، سيرى أن الفرق الوحيد الحقيقي بينهما أن بيرتي كان أغنى وأكسل. مثله العليا نفس مثلهم تقريباً، لكنه يفشل في الارتقاء إلى مستواهم. ارتشي موفام في **حماقات ارتشي** (١٩٢١)، أنموذج وسط بين بيرتي والأبطال الأوائل: هو أحمق وعنيد لكنه صادق وطيب القلب ورياضي وشجاع أيضاً. من البداية إلى النهاية يعتبر وودهاوس منظومة السلوك في المدارس الخاصة أمراً مسلماً به مع اختلاف في فترته المتأخرة الأكثر صقلاً، إذ فضل أن يظهر شخصياته تنتهكها أو ترتقي لمستواها رغماً عن إراداتها:

"بيرتي! أنت لن تخذل صديقاً أليس كذلك؟".

"نعم سأفعل".

"لكننا كنا ندرس في مدرسة معاً يا بيرتي"

"لا يهمني هذا".

"المدرسة القديمة يا بيرتي، المدرسة القديمة".

"أوه – حسناً اللعنة!"

بيرتي، دون كيشوت بليد، ليس لديه رغبة في مبارزة طواحين الهواء، لكنه لم يفكر برفض أن يفعل ذلك حين يناديه الشرف. كان أغلب الناس الذين أعدهم وودهاوس ليكونوا شخصيات متعاطفة طفيليين وبعضهم معتوهين خالصين والقليل جداً منهم يمكن وصفهم بفاسقين. حتى اوكريدج هو شخص حالم أكثر من كونه محتالاً صريحاً. الأشد فسقاً أو غير الأخلاقي من شخصيات وودهاوس جيفيس الذي يقوم بدور فويل، الشيء المغاير لنبل بريتي ووستر، وربما يرمز إلى الاعتقاد الإنكليزي الواسع الانتشار أن الذكاء والتجرد من المبادئ الأخلاقية هما نفس الشيء. يمكن رؤية مدى تقيد وودهاوس بالمبادئ الأخلاقية التقليدية في كتبه في خلوها من أي نوع من الدعابة الجنسية. هذه تضحية هائلة بالنسبة إلى كاتب هزلي، فليس هناك نكات قذرة فقط، بل ليس هناك أوضاع تعرض الشبهة والفضيحة: تجنب حافز القرون على الجبهة تماماً تقريباً. أغلب الكتب ذات الطول الطبيعي طبعاً تحتوي على "الحب كعنصر تشويق" لكن على مستوى الملهاة الخفيفة: علاقة الحب بتعقيداتها والمشاهد المسرة تستمر وتستمر لكن كما يقول المثل "لا شيء يحدث". من الهام أن وودهاوس كاتب مسرحيات هزلية بطبيعته، استطاع أن يتعاون في أكثر من مرة مع إيان الكاتب الهزلي الجدي والمناصر (راجع بيب) لتقاليد الرجل الإنكليزي المحتشم بأسخف أشكالها.

في شيء نضر وجديد اكتشف وودهاوس الإمكانيات الكوميدية للطبقة الأرستقراطية الإنكليزية وإرث من السخافات، لكنهم لم يكونوا في الواقع بارونات وضيعين وايرلات وأمثالهم الذين يتلونهم ما عدا قلة من الأمثلة. وكان لهذا أثر غريب نوعاً ما وسبب لاعتبار وودهاوس ناقداً حاداً للمجتمع الإنكليزي خارج إنكلترا. ولهذا كان تصريح فلانيري أن

وودهاوس "سخر من الإنكليز" هو الانطباع الذي تركه وودهاوس على القارئ الألماني أو الأمريكي. بعد بثه الإذاعي من برلين بوقت، كنت أناقش برامجه مع شاب هندي وطني دافع عن وودهاوس بحرارة، واعتبر ذهاب وودهاوس إلى العدو شيئاً صحيحاً من وجهة نظره، لكن الذي أمتعني أنه اعتبر وودهاوس كاتباً معادياً لبريطانيا، قام بعمل جيد حين أظهر الطبقة الأرستقراطية الإنكليزية بألوانها الحقيقية. هذا خطأ من الصعب على شخص إنكليزي أن يرتكبه ومثال جيد على الطريقة التي تفقد فيها الكتب وخصوصاً الهزلية منها الظلال الرقيقة حين تصل إلى قارئ أجنبي. من الواضح أن وودهاوس ليس كاتباً معادياً لبريطانيا ولا للطبقة العليا، بل على النقيض ففي كل أعماله تلمس الغطرسة العتيقة غير الضارة، فكما يستطيع الكاثوليكي الذكي أن يرى أن تجذيف بودلير أو جيمس جويس لا يضر جدياً بالإيمان الكاثوليكي، كذلك يستطيع القارئ الإنكليزي أن يرى أن وودهاوس لا يهاجم حقيقة التراتب الاجتماعي في خلقه شخصيات مثل هيلدبراند سبنسر بوينس دو جون هانيسايد وكومبي – كرومبي وايرل دريفر الثاني عشر. وفي الواقع ليس هناك واحد احتقر الألقاب بصدق وكتب عنها هذا الكم الكبير. إن موقف وودهاوس تجاه النظام الاجتماعي الإنكليزي هو نفس موقفه تجاه منظومة المدارس الخاصة الأخلاقية – فكاهة معتدلة تغطي قبولاً غافلاً. إن ايرل ايمزويرث مضحك، إذ يفترض بالايرل أن يملك قدراً أكبر من الكرامة وأن اتكال بيرتي ووستر العاجز على جيفيز مضحك أيضاً لأن الخادم لا ينبغي أن يكون أعظم وأقوى من سيده. يمكن للقارئ الأمريكي أن يخطئ بهذين المثالين وبأمثلة أخرى مثليهما على أنهما كاريكتور عدائي لأنه يميل إلى بغض الإنكليز مسبقاً، ولأن هذه الأمثلة تتوافق مع أفكاره المسبقة عن أرستقراطية متفسخة. بيرتي ووستر بقماطه وخيزرانته رجل مسرحي إنكليزي تقليدي، لكن وودهاوس أعده ليكون شخصية متعاطفة كما يجب أن يراه أي قارئ إنكليزي. وإن خطيئة وودهاوس الحقيقية، هي أنه قدم الطبقات العليا الإنكليزية بأنهم أناس أفضل مما هم عليه في الواقع. في كل كتبه جرى تحاشي مشاكل محددة دائماً، فشبانه الأثرياء بدون استثناء تقريباً متواضعون وغير جشعين ويختلطون جيداً بالمجتمع: أسلوبهم حدده لهم بيسميث الذي احتفظ بمظهره الخارجي كفرد من الطبقة العليا وجسر الفجوة الاجتماعية بمخاطبة كل شخص بـ"رفيق"

لكن هناك نقطة هامة أخرى حول بيرتي ووستر: عتقه وقدمه. لقد تم تخيل بيرتي في عام ١٩١٧ تقريباً، لكنه ينتمي حقاً إلى فترة أسبق من ذلك. إنه "كنوت" فترة ما قبل عام ١٩١٤ الذي اشتهر في أغان مثل "جلبرت ذا فلبرت" أو "ريغي الطائش من قصر وصي العرش". هذا النوع من الحياة التي كتب عنها وودهاوس باختياره، حياة "عضو النادي" أو "رجل قرب البلدة" أو الشاب الأنيق الذي يتسكع كل الفترة الصباحية في البيكاديلي مع خيزرانة تحت ذراعه وقرنفلة في عروة سترته، لم ينجُ ويصل إلى عشرينات القرن العشرين. من الهام أن وودهاوس تمكن من نشر كتاب في عام ١٩٣٦ بعنوان شبان في أقمطة في ذلك التاريخ. لأنه من كان يرتدي أقمطة في ذلك التاريخ المحدد؟ لقد خرجت من الموضة قبل عشر سنوات. لكن "كنوت" التقليدي و"جوني البكاديلي" يجب أن يرتديا القماط، كما يجب على الممثل الإيمائي الصيني ارتداء ذيل الخنزير (ضفيرة تتدلى من خلف رأسه). الكاتب الهزلي غير ملزم بالتقيد بتاريخ محدد، وبعد أن اكتشف عرقاً ذهبياً أو عرقين (نجح) استمر وودهاوس في استغلالها بانتظام، فهذا أسهل عليه بلا شك، فهو لم يطأ أرض إنكلترا خلال السنوات الست عشرة التي سبقت اعتقاله، وصورته عن المجتمع الإنكليزي تشكلت قبل عام ١٩١٤ وكانت صورة ساذجة وتقليدية ومداهنة، ولم يتأمرك بشكل صادق وحقيقي أبداً كذلك. كما بينت سابقاً أن الأمركة العفوية ظهرت في كتب الفترة الوسطى، لكن وودهاوس بقي إنكليزيا تماماً، ولكنه وجد العامية الأمريكية بدعة مضحكة وصادمة قليلاً، فأحب أن يقحم عبارة عامية أو حادثة فجة في وسط إنكليزية شارع وردور ("بتأوه أجوف استقرض اوكريدج خمسة شلنات مني وخرج إلى قلب الظلام") وعبارات مثل "قطعة من الجبن" أو "لكمه على الرأس" تخدم غرضه، لكن الخدعة طُورت قبل أن يكون له أي اتصالات أمريكية، واستخدامه للاقتباسات المحرفة وسيلة شائعة بين الكتاب الإنكليز تعود في قدمها إلى فيلدينغ. كما بين السيد جون هيوارد أن وودهاوس يدين بالكثير من معرفته بالأدب الإنكليزي وخصوصاً شكسبير. لم تستهدف كتبه كما هو جلي جمهور القراء الرفيع الثقافة، وإنما جمهور تعلم وتثقف عبر الخطوط التقليدية، فمثلاً حين وصف شخصاً ما يطلق "نوع الحسرة التي أطلقها بروميثيوس حين خر عليه النسر من أجل غدائه" كان

يفترض بقارئه أن يعرف شيئاً عن الأساطير الإغريقية. إن الكتاب الذين أعجب بهم في أيامه الأولى باري باين وجيروم كي جيروم ودبليو دبليو جاكوبز وكيبلينغ واف انستي، وظل أقرب إليهم منه إلى الكتاب الأمريكيين الهزليين سريعي التنقل مثل رينغ لاندر أو دامون رانيون. في مقابلته الإذاعية مع فلانيري تساءل وودهاوس إن كان "نوع الناس ونوع إنكلترا الذين أكتب عنهم سيعيشون بعد الحرب" غير مدرك أنهم كانوا أشباحاً مسبقاً. لقد قال فلانيري "إنه لايزال يعيش في الفترة التي كتب عنها"، وربما كان يقصد عشرينات القرن العشرين. لكن الفترة كانت في الحقيقة العصر الإدواردي بيرتي، ووستر قد قتل في عام ١٩١٥ إن كان له وجود.

إن كان تحليلي لعقلية وودهاوس مقبولاً، فستصبح فكرة مساعدته المتعمدة للنازية في ١٩٤١ مهزوزة وسخيفة حتى. ربما أُغري أن يذيع برنامجاً مقابل وعد بإطلاق سراح ميكر (كان إطلاق سراحه مستحقاً بعد بضعة أشهر عند بلوغه عيد مولده الستين) لكنه لم يدرك أن ما فعله سيضر بالمصالح البريطانية. كما حاولت أن أظهر، موقفه الأخلاقي ظل موقف تلميذ مدرسة خاصة وبناء على المبادئ الأخلاقية للمدرسة الخاصة، تعتبر الخيانة في زمن الحرب واحدة من أكبر الخطايا التي لا تغتفر. لكن لماذا لم يفهم أن ما فعله سيكون نصراً دعائياً كبيراً للألمان وسيجلب سيلاً جارفاً من الاستهجان على رأسه. للإجابة على هذا السؤال يجب أن نأخذ في اعتبارنا شيئين اثنين. الأول افتقار وودهاوس التام - بقدر ما يحكم المرء من أعماله المطبوعة - للوعي السياسي. إن الكلام عن "ميول نازية" في أعماله عبارة عن هراء. ليس هناك أي ميول بعد ١٩١٨ إطلاقاً. في كل أعماله هناك وعي مقلقل محدد لمشكلة الفروق الطبقية تبعثرت خلاله في أوقات مختلفة إشارات جاهلة لكنها ليست معادية للاشتراكية. في قلب أحمق (١٩٢٦) هناك قصة سخيفة نوعاً ما عن روائي روسي ألهمه الصراع العصبوي المتأجج آنذاك في الاتحاد السوفييتي، لكن الإشارات فيه إلى النظام السوفييتي تافهة تماماً وغير معادية بشكل ملحوظ بأخذ تاريخها بعين الاعتبار. ذلك هو مدى الوعي السياسي لوودهاوس بقدر ما كُشف من خلال كتاباته، فهو لم يستخدم كلمة "فاشية" أو "نازية" في أي مكان حسب معرفتي. في دوائر الجناح اليساري وفي الدوائر "المتنورة" على كافة أنواعها في الحقيقة يُعتبر إذاعة برنامج على الراديو النازي أو أي تعامل مع النازيين عملاً صادماً قبل

الحرب كما هو في أثنائها. لكن تلك عادة عقلية طُورت أثناء عقد من الصراع الأيديولوجي ضد الفاشية، ويجب أن نتذكر أن الجزء الأكبر من الشعب الإنكليزي بقي مخدراً عن ذلك الصراع حتى عام ١٩٤٠ ومرت إثيوبيا وإسبانيا والصين وتشيكسلوفاكيا - سلسلة طويلة من الجرائم والاعتداءات وانزلقت ببساطة دون أن يعيها أو لاحظها بشكل مبهم على أنها نزاعات بين أجانب و"ليست من شأننا" يستطيع المرء قياس الجهل العام من حقيقة أن الرجل الإنكليزي العادي أعتقد أن "الفاشية" شيء إيطالي حصراً، وارتبك حين طبقت الكلمة على ألمانيا. وليس هناك ما يوحي في كتابات وودهاوس أنه كان على اطلاع أفضل أو أنه كان مهتماً بالسياسة أكثر من عموم قرائه.

الشيء الآخر الذي يجب تذكره هو أن وودهاوس صدف أن وقع في الأسر في اللحظة التي وصلت فيها الحرب طورها اليائس. نحن ننسى هذه الأشياء الآن، لكن حتى ذلك الوقت كانت المشاعر تجاه الحرب فاترة بشكل ملحوظ، ولم يكن هناك أي قتال يذكر، وكانت حكومة تشامبرلاين غير محبوبة، وكان المعلقون البارزون على الشؤون العامة يلمحون إلى وجوب تسوية سلمية بأسرع ما يمكن، وكانت النقابات الحرفية وفروع حزب العمل في كل أرجاء البلاد تمرر قرارات مضادة للحرب. فيما بعد تبدلت الأشياء طبعاً. الجيش تحرر بصعوبة من دونكيرك، وفرنسا انهارت، فبقيت بريطانيا لوحدها، وأمطرت لندن بالقنابل، وصرح غوبلز أن بريطانيا يجب أن "تضعف إلى درجة الانحلال والفقر". في منتصف عام ١٩٤١ عرف الشعب الإنكليزي ما الذي عليهم مواجهته وباتت المشاعر أعنف مما سبق. لكن وودهاوس قضى السنوات الفاصلة في الاعتقال، ويبدو أن معتقليه عاملوه بشكل حسن ومعقول. لقد فوّت نقطة التحول في الحرب، وظل يتفاعل بعبارات عام ١٩٣٩ ولم يكن الوحيد في هذا. ففي مناسبات كثيرة في هذا الوقت تقريباً أحضر الألمان جنوداً بريطانيين أسرى إلى الميكرفون وأدلى بعضهم بملاحظات غير لبقة على الأقل كملاحظات وودهاوس، لكنهم لم يلفتوا انتباه أحد وحتى البائع لوطنه الصريح مثل جون اميري أثار فيما بعد نقمة وسخطاً أقل بكثير مما فعله وودهاوس.

لكن لماذا؟ لماذا أثارت بضع ملاحظات من روائي كهل مثل هذا الاحتجاج العنيف؟ يجب على المرء البحث عن الجواب الصحيح وسط الشروط والمتطلبات القذرة للحرب الدعائية.

هناك نقطة واحدة هامة من غير ريب حول برامج وودهاوس الإذاعية - تاريخها. أطلق سراح وودهاوس قبل يومين أو ثلاثة من غزو الاتحاد السوفييتي، وفي وقت عرفت فيه الرتب العالية من الحزب النازي أن الغزو بات وشيكاً. كان من الضروري أن يبعدوا أمريكا عن الحرب إلى أطول فترة ممكنة، وفي هذا الوقت تقريباً أصبح موقف الألمان من الولايات المتحدة الأمريكية استرضائياً أكثر مما كان عليه من قبل. لم يأمل الألمان بقدرتهم على دحر روسيا وبريطانيا والولايات المتحدة، ولكن إن استطاعوا سحق روسيا بسرعة، ومن المفترض أنهم توقعوا أن يفعلوا هذا - فربما لا يتدخل الأمريكيون أبداً. لقد كان إطلاق سراح وودهاوس مجرد نقلة ثانوية ولكنها لم تكن رشوة سيئة رموها للانعزاليين الأمريكيين، فقد كان مشهوراً في الولايات المتحدة، وكان كما حسب الألمان - محبوباً من الجمهور الكاره للإنكليز كرسام كاريكاتيري سخر من الإنكليزي الأحمق المثير للضحك بقماطيه ونظارته ذات الزجاجة الواحدة. يمكن الوثوق بأنه سيضر بالهيبة البريطانية بطريقة أو بأخرى على الميكروفون، وأن إطلاق سراحه سيبرهن أن الألمان رفاق طيبون ويعرفون كيف يعاملون أعداءهم بشهامة. ذلك هو حسابهم كما يفترض، لكن حقيقة أن وودهاوس لم يبث سوى أسبوع واحد، توحي أنه لم يرتقِ إلى مستوى توقعاتهم.

لكن كانت تعمل حسابات مماثلة، لكنها معاكسة في الطرف البريطاني، ففي السنتين التاليتين لدونكيرك، اعتمدت المعنويات البريطانية أساساً على الشعور بأن هذه الحرب لم تكن حرباً من أجل الديمقراطية، وإنما حرب يجب أن ينتصر فيها الشعب العادي بجهوده الخاصة به، وفقدت الطبقات العليا مصداقيتها بسبب سياسة التهدئة والاسترضاء وكوارث عام ١٩٤٠ وبسبب عملية مساواة اجتماعية بدت تحدث. اقترنت الوطنية وأفكار اليسار العاطفية في العقل الشعبي، وعمل صحفيون عديدون متمكنون على شد هذا الترافق وتمتينه، وكانت برامج بريستلي الإذاعية ومقالات "كاساندرا" في الديلي ميرور نماذج جيدة للدعاية الديماغوجية التي ازدهرت في ذلك الوقت. في هذا الجو مثل وودهاوس الصبي المثالي للجلد. لأن الشعور العام رأى أن الأغنياء خونة ووودهاوس - كما أظهر - "كاساندرا" بنشاط من برنامجه الإذاعي - كان رجلاً غنياً لكنه كان من نوع الأغنياء الذين يمكن مهاجمتهم بحصانة ودون تعريض التركيبة الاجتماعية لأي خطر. إن شجب وودهاوس ليس مثل شجب

بيفربروك مثلاً. فهو مجرد روائي مهما كان ماله المكسوب وليس من الطبقة المالكة. حتى لو قارب دخله الـ ٥٠٠٠٠ جنيه في السنة، فهو لا يملك سوى الشبه الخارجي للمليونير. إنه دخيل محظوظ رماه حظه في الثروة - عادة ثروة مؤقتة - مثل الفائز بسباق جري كالكوتا، وبناء عليه فقد وفرت حماقة وودهاوس ثغرة دعائية جيدة، وكانت فرصة لـ"فضح" طفيلي ثري دون لفت الانتباه إلى أي طفيلي مهم فعلياً.

كان الغضب مما فعله وودهاوس مبرراً في الظروف اليائسة في حينها، لكن الاستمرار في شجبه بعد ثلاث أو أربع سنوات من ذلك - وأكثر، يترك انطباعاً لا يغتفر - بأنه قام بذلك بخيانة متعمدة. هناك بضعة أشياء في هذه الحرب مقرفة أخلاقياً أكثر من المطاردة الحالية للخونة وبائعي الأوطان، وفي أفضل أحوالها معاقبة الجاني بالجاني. في فرنسا جرت مطاردة كل أنواع الواشين الصغار - موظفو الشرطة والصحافيون.. والنسوة اللواتي نمن مع الجنود الألمان - وقبض عليهن، بينما نجا الواشون الكبار بلا استثناء تقريباً، وفي إنكلترا تشدق المحافظون الذين كانوا يسترضون العدو في عام ١٩٣٨ والشيوعيون الذين كانوا يؤيدونه في عام ١٩٤٠ بأشرس الخطب ضد بائعي الوطن. عملت جاهداً كي أبين كيف أصبح التعيس وودهاوس الذي بقى عقلياً في العصر الإدواردي بفضل النجاح والاغتراب فقط الجيفة الفاسدة في تجربة دعائية، وأقترح أن الوقت قد حان لاعتبار الحادث مقفلاً. لو أن السلطات الأمريكية اعتقلت إيرزا باوند وأعدمته رمياً بالرصاص، لتوطدت سمعته نتيجة ذلك كشاعر لمئات السنين؛ وحتى في حالة وودهاوس لو دفعناه للجوء إلى الولايات المتحدة وجردناه من جنسيته كمواطن بريطاني، فإننا سنخجل جداً من أنفسنا في النهاية. في الوقت الحالي، إن كنا نريد فعلاً أن نعاقب الأشخاص الذين أضعفوا المعنويات الوطنية في ظروف حرجة، فهناك متهمون آخرون أقرب في الوطن وجديرون أكثر بالمطاردة.

جيمس بيرنهام والثورة الإدارية

أحدث كتاب جيمس بيرنهام "الثورة الإدارية" بلبلة ضخمة في الولايات المتحدة وفي هذه البلاد عند نشره، ونوقشت فرضيته كثيراً لدرجة لم تعد هناك ضرورة لعرضها، لذلك سأوجزها بقدر ما أستطيع:

تختفي الرأسمالية لكنها لن تستبدل بالاشتراكية، وما يظهر الآن هو نوع من المجتمع المركز المخطط الذي لن يكون رأسمالياً ولا ديمقراطياً بأي معنى للكلمة، كما سيكون حكام هذا المجتمع هم الأشخاص الذين يسيطرون على أدوات الإنتاج - المدراء التجاريون والتقنيون والبيروقراطيون والجنود الذين كومهم بيرنهام معاً تحت اسم "مدراء" فهؤلاء الناس سيجتثون الطبقة الرأسمالية القديمة ويسحقون الطبقة العاملة وينظمون مجتمعاً تبقى فيه كل السلطة والامتيازات الاقتصادية في أيديهم. ستلغى حقوق الملكية الخاصة، لكن لن يتم ترسيخ الملكية العامة. لن تتألف مجتمعات المدراء من خليط من الدول المستقلة، بل من دول عظمى تتجمع حول المراكز الصناعية الرئيسية في أوروبا وآسيا وأمريكا، وستحارب هذه الدول بعضها البعض على امتلاك الأقسام الباقية من العالم التي لم يُستولِ عليها بعد، لكنها لن تستطيع دحر بعضها نهائياً على الأرجح. داخلياً، سيكون كل مجتمع تراتبياً في قمته أرستقراطي الموهبة وفي قاعه جماهير أنصاف العبيد.

في كتابه التالي "الميكيافليون" يتوسع ويعدل تصريحه الأصلي. إن القسم الأكبر من الكتاب عرض لنظريات ميكيافلي وأتباعه الحديثين موسكا وميتشل وباريتو: بتبرير ملتبس يضيف بيرنهام إلى هؤلاء الكاتب النقابي جورجس سوريل. كل ما اهتم به بيرنهام أن يبين بأن المجتمع الديمقراطي لم يوجد أبداً ولن يوجد بقدر ما نرى أيضاً، وأن المجتمع أوليغاركي بطبيعته وتستند قوة الأوليغاركية على القوة والخداع. لا ينكر بيرنهام أن الدوافع "الخيرة" قد تعمل وتؤثر في الحياة الخاصة، لكنه يصر على أن السياسة صراع من أجل السلطة ولا شيء سواه، وأن كل التغيرات التاريخية تنتهي في استبدال طبقة حاكمة بأخرى، وكل الكلام عن الديمقراطية والحرية والمساواة والأخوة وكل الحركات الثورية وكل الرؤى الطوباوية أو

"المجتمع اللاطبقي" أو "مملكة الرب على الأرض" عبارة عن دجل (ليس بالضرورة دجل متعمد) يغطي أطماع طبقة جديدة تشق طريقها نحو السلطة. فقد كان البيورتان الإنكليز واليعاقبة والبلاشفة مجرد باحثين عن السلطة باستغلال آمال الجماهير للفوز بمركز متميز لأنفسهم. يمكن الظفر بالسلطة بدون عنف أحياناً، لكنها تستحيل بدون خداع، إذ من الضروري استغلال الجماهير التي لن تتعاون إن عرفت أنها تخدم أغراض أقلية ما، ففي كل صراع ثوري عظيم تُقاد الجماهير بواسطة أحلام مبهمة عن الأخوة الإنسانية، وبعد أن ترسخ الطبقة الحاكمة الجديدة سلطتها تعيد تلك الجماهير إلى العبودية بالقوة. هذا هو التاريخ السياسي كله كما يراه بيرنهام.

يتخلى الكتاب الثاني عن سابقه الأول في تأكيده بأن العملية برمتها يمكن تفسيرها أخلاقياً إلى حد ما، لو ووجهت الحقائق بصدق أكبر. الميكيافيليون عنوان فرعي من كتابه المدافعين عن الحرية. علم ميكيافيلي وأتباعه أن آداب السلوك والاحتشام غير موجود في السياسة ببساطة، وبهذا تمكنوا من إدارة القضايا السياسية بذكاء أكبر وجور أقل. إن الطبقة الحاكمة التي تدرك أن هدفها الحقيقي هو البقاء في السلطة، تدرك أيضاً أن احتمال نجاحها، سيكون أكبر لو نجحت في خدمة الصالح العام، ويمكن أن تتفادى التيبس والتحول إلى أرستقراطية وراثية. يضع بيرنهام تأكيداً أكبر على نظرية باريتو في "تداول النخب". إن أرادت الطبقة الحاكمة البقاء في السلطة، يجب عليها القبول باستمرار بأعضاء جدد مناسبين من الأدنى، وبذلك يكون أبرع الرجال في القمة دائماً، ويمنع تشكل طبقة جديدة من الناقمين المتعطشين للسلطة من الوجود، وهذا مرجح حدوثه، كما يرى بيرنهام، في مجتمع يحتفظ بعادات ديمقراطية، أي، يسمح للمعارضة وهيئات أخرى محددة مثل الصحافة والنقابات العمالية بالحفاظ على استقلالها الذاتي. هنا يناقض بيرنهام من غير ريب رأيه السابق. في كتابه الثورة الإدارية الذي كتب في عام ١٩٤٠ اعتبر كشيء بديهي أن ألمانيا "الإدارية" في كل الطرق أكثر كفاءة من الديمقراطية الرأسمالية كفرنسا وبريطانيا مثلاً. وفي الكتاب الثاني الذي كتب في عام ١٩٤٢ يعترف بيرنهام أن الألمان كانوا قادرين على تجنب بعض أخطائهم الاستراتيجية لو أنهم سمحوا بحرية التعبير. لكن في كل الأحوال لم تُهجر النظرية الرئيسية. الرأسمالية محكومة بالهلاك والاشتراكية حلم. لو نفهم المهم لاستطعنا توجيه مسار الثورة الإدارية بدرجة ما،

لكن الثورة تحدث الآن شئنا أم أبينا. في كلا الكتابين، ولكن في الأول بشكل خاص هناك سمة مميزة لنكهة واضحة عن وحشية العمليات التي نوقشت وفظاعتها. رغم تكراره بأنه يبين الحقائق فقط ولا يعبر عن تفضيلاته الخاصة به، من الواضح أن بيرنهام مفتون بمشهد السلطة وأن تعاطفه كان مع ألمانيا طالما تبدو ألمانيا بمظهر الفائزة في الحرب. في مقال أحدث "وريث لينين" المنشور في بارتيزان ريفيو في بداية عام ١٩٤٥، يوحي بأن هذا التعاطف تحول إلى الاتحاد السوفييتي منذ ذلك الوقت. "وريث لينين" الذي أثار جدلاً عنيفاً في الصحافة اليسارية الأمريكية لم يطبع ثانية في إنكلترا ويجب أن أعود إليه لاحقاً.

سيتبين أن نظرية بيرنهام ليست جديدة. لقد تنبأ كثير من الكتاب بظهور مجتمع جديد ليس رأسمالياً ولا اشتراكياً، مؤسس على العبودية: لكنهم اختلفوا كلهم عن بيرنهام بأنهم لم يعتبروا أن هذا التطور حتمي. مثال جيد على ذلك دولة العبيد لهيلاري بيلوك الذي نشر في ١٩١١. دولة العبيد كتب بأسلوب ممل والعلاج الذي يقترحه (في العودة إلى الملكية الفلاحية الصغيرة) مستحيل لأسباب كثيرة. تنبأ تشيسترتون أيضاً باختفاء الديمقراطية والملكية الخاصة وصعود المجتمع العبودي الذي يمكن تسميته بالرأسمالي أو الشيوعي، وتنبأ جاك لندن في روايته العقب الحديدية ١٩٠٩ بمزايا المجتمع الفاشي، وكتب مثل كتاب ويلز النائم يستيقظ ١٩٠٠ ورواية زامايتين نحن ١٩٢٣ ورواية ألدوس هكسلي عالم جديد وشجاع ١٩٣٠ كلها وصفت عوالم خيالية تحل فيها مشاكل الرأسمالية دون الاقتراب أكثر من تحقيق الحرية والمساواة أو السعادة الحقيقية. وحديثاً أثبت كتاب مثل بيتر دروكر، وف أ فويت أن الفاشية والشيوعية نفس الشيء جوهرياً. وفي الحقيقة كان واضحاً دائماً أن الاقتصاد المخطط والمجتمع المركز مسؤول عن التطور إلى أوليغاركية أو ديكتاتورية. عجز المحافظون الأرثوذوكسيون عن رؤية هذا، لأنه يشجعهم على الاعتقاد أن الاشتراكية لن تنجح وأن اختفاء الرأسمالية يعني التشوش والفوضى وكذلك عجز الاشتراكيون التقليديون عن رؤية ذلك، لأنهم تاقوا للاعتقاد أنهم سيتولون السلطة قريباً، لذلك سلموا بأن الرأسمالية ستختفي وعندها ستحل مكانها الاشتراكية. ونتيجة لذلك فشلوا في التنبؤ بظهور الفاشية أو في القيام بتكهنات صحيحة بعد ظهورها، ولاحقاً زاد غموض القضية أكثر من قبل بسبب الحاجة إلى تبرير الديكتاتورية الروسية واستبعاد

التشابه الواضح بين الشيوعية والفاشية، لكن فكرة أن الصناعوية يجب أن تنتهي في الاحتكار وأن الاحتكار يجب أن يتضمن الاستبداد، ليست فكرة مفاجئة.

يختلف بيرنهام عن أغلب المفكرين في محاولته في رسم مسار الثورة الإدارية بدقة على مستوى العالم، وفي افتراضه أن الانجراف نحو الشمولية لا يقاوم ولا يجب القتال ضده، ولكن ربما يمكن توجيهه. وفقاً لما كتبه بيرنهام في ١٩٤٠، فإن "الإدارياتية" وصلت إلى تطورها التام في الاتحاد السوفييتي، وتطورت بشكل متساو تقريباً في ألمانيا، وسجلت ظهورها في الولايات المتحدة. ويصف نيو ديل أو الصفقة الجديدة (سياسة لتحسين الاقتصاد وضعها الرئيس روزفلت - المترجم) بأنها "إداروية بدائية" وأن النزعة نفسها في كل مكان أو في كل مكان تقريباً، وأن الرأسمالية المتسامحة (سياسة عدم التدخل في الاقتصاد - المترجم) تستسلم دائماً للتخطيط وتدخل الدولة، ويخسر الملاك السلطة أمام الفني والبيروقراطي. أما الاشتراكية - مثلاً أو ما كان يسمى بالاشتراكية - فلم تبد أية علامة للظهور:

يحاول بعض المدافعين تقديم عذر للماركسية بالقول إنها "لم تحظ بفرصة أبداً"، وهذا بعيد عن الحقيقة، فقد كان لدى الماركسية والأحزاب الماركسية ولايزال عشرات الفرص ففي روسيا تسلم السلطة حزب ماركسي وتخلى عن الاشتراكية ضمن وقت قصير إن لم يكن في الكلام في أثر أفعاله على الأقل، وفي أغلب الأمم الأوروبية كانت هناك أزمات اجتماعية تركت الباب مفتوحاً على مصراعيه للأحزاب الماركسية خلال الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الأولى والسنوات التي تلتها مباشرة: بدون استثناء أثبتت عجزها عن الاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها. لقد أدارت الأحزاب الماركسية الإصلاحية الحكومات في عدد كبير من البلدان - ألمانيا والدانمارك والنرويج والسويد والنمسا وإنكلترا وأستراليا ونيوزيلندة وإسبانيا وفرنسا - وفشلت بشكل متماثل في تقديم الاشتراكية والقيام بأية خطوة حقيقية نحو الاشتراكية. فهذه الأحزاب إما أنها أفشلت الاشتراكية أو تخلت عنها في التطبيق في كل اختبار تاريخي - وكانت كثيرة. هذه هي الحقيقة التي لا يستطيع أن يمحوها لا ألد أعداء الاشتراكية ولا أشد أصدقائها تحمساً. وهذه الحقيقة لا تبرهن وتثبت أي شيء حول الطبيعة الأخلاقية للمثل الاشتراكية، كما يعتقد البعض، وإنما كونت دليلاً لا يمكن التعامي عنه، بأن لاشتراكية لن تأتي بأية طبيعة أخلاقية.

لا ينكر بيرنهام طبعاً إمكانية تسمية الأنظمة الحاكمة الإدارية الجديدة مثل النظامين الروسي والنازي الألماني بالاشتراكية، ويقصد فقط أنها لن تكون اشتراكية بالمعنى الحرفي الذي كان سيقبل به ماركس أو لينين أو كير هاردي أو ويليام موريس أو في الواقع أي ممثل اشتراكي قبل عام ١٩٣٠ فقد كان من المفترض من الاشتراكية حتى وقت حديث، أن تتضمن ديمقراطية سياسية ومساواة اجتماعية وأممية، لكن ليس هناك أصغر علامة تدل على تطبيق أو السير نحو تطبيق أياً من هذه الأشياء بأي شكل في أي مكان، والبلاد العظمى الوحيدة التي حدثت فيها ثورة بروليتارية (كما وصف جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية بالتحديد) ابتعدت بشكل مستمر من المفهوم القديم للمجتمع الحر والمتساوي الهادف إلى أخوة إنسانية كونية. ففي تقدم غير منقطع تقريباً منذ الأيام الأولى للثورة، قُمعت الحرية وخُنقت المؤسسات التمثيلية، وبنفس الوقت ازدادت اللامساواة وتقوت النزعة القومية العسكرية أكثر من قبل. لكن بنفس الوقت يصر بيرنهام على عدم وجود النية للعودة إلى الرأسمالية، وأنِ ما يحدث هو ببساطة نمو "الإدارياتية" التي هي في حالة تقدم في كل مكان، حسب ما يرى بيرنهام، لكن الطريقة التي تحدث بها قد تتنوع من بلاد إلى أخرى.

الآن، في تفسير لما يحدث، فمن المنطقي جداً وضع نظرية بيرنهام في أدنى منزلة، ويمكنها طبعاً تفسير الأحداث، أحداث الخمس عشرة سنة الأخيرة بسهولة أكبر بكثير من أي نظرية أخرى. من الواضح أن جمهوريات الاتحاد السوفييتي ليست اشتراكية، ولا يمكن تسميتها بالاشتراكية، إلا إذا أعطى المرء معنى آخر للكلمة يختلف عن معناها الحقيقي بأي سياق آخر. من جانب آخر، التنبؤات بأن النظام الروسي سيرتد وبرجع إلى الرأسمالية، جرى تكذيبها دائماً وتبدو الآن أبعد عن التحقق من أي وقت مضى. إن بيرنهام يبالغ على الأرجح في الادعاء بأن العملية قطعت شوطاً بعيداً مساوياً لما قطعته ألمانيا النازية، لكن من المؤكد كما يبدو أن الانجراف كان بعيداً عن أنموذج الرأسمالية القديمة ونحو اقتصاد مخطط مع أوليغاركية حاكمة متبناة. في روسيا جرى تحطيم الرأسماليين أولاً ثم سحق العمال تالياً، أما في ألمانيا فقد جرى سحق العمال أولاً وبدأت بالتخلص من الرأسماليين، وكان الافتراض المؤسس على أن النازية "مجرد رأسمالية" يتناقض مع الأحداث دائماً. لكن بيرنهام يصل إلى أقصى ضلاله في اعتقاده بأن "الإدارياتية" متطورة وتتقدم في الولايات المتحدة، البلاد الكبيرة الوحيدة التي لاتزال الرأسمالية الحرة فيها نشيطة وقوية، لكن لو فكر المرء في الحركة العالمية ككل، فمن

الصعب معارض استنتاجاته أنه في الولايات المتحدة نفسها لن ينجو الإيمان السائد في الحرية الاقتصادية من الأزمة الاقتصادية الكبرى التالية. لقد اتهم بيرنهام بأنه أعطى أهمية كبيرة جداً "للمدراء" بالمعنى الضيق للكلمة، أي مدراء المصانع والمخططون والفنيون - وادعى أن هؤلاء الناس هم الماسكون الحقيقيون بالسلطة حتى في روسيا وليس زعماء الحزب الشيوعي. لكن هذا خطأ ثانوياً على أي حال وصحح جزئياً في المكافيليين، والسؤال الحقيقي ليس في تسمية هؤلاء الناس الذين سيمسحون جزمهم بنا خلال الخمسين سنة القادمة مدراء أو بيروقراطيون أو سياسيون: السؤال هل ستستسلم الرأسمالية التي تبدو محكومة بالهلاك الآن لأوليغاركية أم لديمقراطية حقيقية.

لكن الغريب جداً أن المرء حين يتفحص التنبؤات التي أسسها بيرنهام على نظريته العامة يجدها قابلة للدحض والتفنيد بقدر ما هي قابلة للإثبات. وقد أشار عدد من الناس إلى هذا مسبقاً لكن تنبؤات بيرنهام تستحق التتبع بالتفصيل، لأنها من نموذج مختلف يعود إلى أحداث معاصرة تكشف أيضاً باعتقادي عن ضعف هام جداً في الفكر السياسي الحديث.

لنبدأ بما كتبه في عام ١٩٤٠: يعتبر بيرنهام انتصار ألمانيا مسلم به تقريباً. وصف بريطانيا بـ"المنحلة" أو "المظهرة" لكل الخصائص التي تميز الحضارات المتفسخة في تحولات تاريخية ماضية، بينما وصف فتح وتوحيد أوروبا الذي أنجزته ألمانيا بـ"غير العكوس". كتب بيرنهام أن "إنكلترا أياً كان حلفاؤها من غير الأوروبيين، لن تستطيع أن تأمل وتتخيل أنها ستهزم القارة الأوروبية". وألمانيا حتى لو حدث وخسرت الحرب، فلا يمكن تقطيع أوصالها أو تقليلها إلى منزلة جمهورية فايمر، فهي ملزمة أن تبقى مثل النواة لأوروبا الموحدة. "لقد رسمت خريطة العالم المستقبلية بدوله الثلاث الكبرى في كل الأحوال وثبتت خطوطها الأساسية مسبقاً: ونوى هذه الدول الكبرى الثلاث: اليابان وألمانيا والولايات المتحدة". ويربط بيرنهام نفسه للرأي الذي يرى أن ألمانيا لن تهاجم جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية قبل أن تهزم بريطانيا، وقال في تكثيف لكتابه الذي نشر في بارتيزيان ريفيو عدد مايو - يونيو عام ١٩٤١ وعلى الأرجح في وقت بعد صدور الكتاب نفسه:

كما في حالة روسيا، يبقى الجزء الثالث من المشكلة الإدارية في ألمانيا - الصراع من أجل الهيمنة مع قطاعات أخرى من المجتمع الإداري - للمستقبل. أولاً يجب أن تكون الضربة

المميتة والقاضية التي تضمن الإطاحة بالنظام الرأسمالي العالمي، وتعني أولاً وقبل كل شيء تدمير أساسات الإمبراطورية البريطانية (مرتكز النظام الرأسمالي العالمي) بشكل مباشر وبواسطة محق التركيبة السياسية الأوروبية التي تمثل دعامة ضرورية للإمبراطورية. وهذا هو التفسير الجوهري للحلف النازي السوفييتي الذين لا يمكن فهمه بمبررات أخرى. الصراع المستقبلي بين ألمانيا وروسيا سيكون صراعاً إدارياً بكل ما للكلمة من معنى، وقبل المعارك العالمية الإدارية الكبرى يجب التأكد من نهاية النظام الرأسمالي. إن الاعتقاد بأن النازية "رأسمالية متفسخة" يجعل من المستحيل تفسير التحالف النازي السوفييتي بشكل منطقي. ومن هذا الاعتقاد يستنتج أن الحرب المتوقعة الدائمة بين ألمانيا وروسيا لن تكون حرباً فعلية حتى الموت، كالتي بين ألمانيا والإمبراطورية البريطانية. إن الحرب بين ألمانيا وروسيا واحدة من الحروب الإدارية التي ستدور في المستقبل، وليست من حروب الأمس واليوم المعادية للرأسمالية. سيقع الهجوم على روسياً لاحقاً، ومن المؤكد أو شبه المؤكد أن تنهزم روسيا. "هناك كل الأسباب للاعتقاد بذلك..... أن روسيا سوف تتمزق إلى أجزاء وسينجذب النصف الغربي نحو القاعدة الأوروبية والشرقي نحو القاعدة الأسيوية". هذا الاقتباس يأتي من الثورة الإدارية. كتبت المقالة المقتبسة آنفاً بعد ستة أشهر، لكنها أوضحت بشكل أقوى: "يشير الضعف الروسي إلى أن روسيا لن تكون قادرة على التحمل، وستتحطم إلى أجزاء وتسقط باتجاه الشرق والغرب". وفي ملاحظة تكميلية أضيفت إلى الطبعة الإنكليزية (بيلكان) وكتبت كما يبدو في نهاية عام ١٩٤٤ يتكلم بيرنهام كما لو أن عملية التحطم إلى أجزاء قد حدثت مسبقاً "الحرب جزء من الوسائل التي بواسطتها سيتم دمج النصف الغربي من روسيا في الدولة الأوروبية الكبرى".

بفرز هذه التكهنات يكون لدينا التالي:

١ - ألمانيا ملزمة بالفوز بالحرب.

٢ - ألمانيا واليابان ملزمتان بالنجاة والبقاء كدولتين عظميين ونواتين للقوة في منطقتيهما.

٣ - ألمانيا لن تهاجم الاتحاد السوفييتي إلا بعد دحر بريطانيا.

٤ - الاتحاد السوفييتي ملزم بأن يهزم.

لكن بيرنهام قام بتكهنات أخرى بالإضافة إلى ما سبق. فقد أدلى برأيه في مقالة صغيرة في بارتيزيان ريفيو، في صيف ١٩٤٤ أن الاتحاد السوفييتي سيتحالف مع اليابان لكي يمنع الهزيمة الكاملة للأخير، بينما سيتكفل الشيوعيون الأمريكيون ببدء العمل على تخريب النهاية الشرقية للحرب. وأخيراً، في مقالة بنفس المجلة في شتاء ١٩٤٤ - ٤٥ ادعى بأن روسيا محكومة منذ فترة قصيرة بأن "تتحطم إلى أجزاء" ضمن مشهد فتح كل أوراسيا. هذه المقالة التي سببت جدلاً عنيفاً وسط الإنتلجنسيا الأمريكية، لم تطبع في إنكلترا، لذلك يجب علي أن أقدم بعض الوصف لها هنا، لأن أسلوبها في المقاربة ولهجتها العاطفية من نوع غريب، وبدراستها يقترب المرء أكثر من الجذور الحقيقية لنظرية بيرنهام.

إن المقالة بعنوان "وريث لينين"، وقد وُضعت لتظهر أن ستالين هو الوصي الحقيقي والشرعي للثورة الروسية التي لم "يخنها" بأي شكل، لكنه حملها إلى الأمام على خطوط كانت مضمنة فيها منذ البداية. بحد ذاته، هذا رأي بلعه أسهل من الزعم التروتسكاوي بأن ستالين مجرد لص محتال حرّف الثورة الروسية وشوهها لغاياته الخاصة، وأن الأشياء ستكون مختلفة جداً لو عاش لينين أو بقي تروتسكي في السلطة. في الواقع لا يوجد سبب قوي للاعتقاد أن الخطوط الرئيسية للتطور ستكون مختلفة جداً، فقبل عام ١٩٢٣ كانت بذور المجتمع الشمولي صريحة هناك. لينين في الواقع واحد من هؤلاء السياسيين الذين فازوا بسمعة لا يستحقها من خلال الموت قبل الأوان.[١] فلو عاش لتمت الإطاحة به من السلطة على الأرجح مثل تروتسكي، أو لكان احتفظ لنفسه بالسلطة بوسائل بربرية أو شبه بربرية كتلك التي اتبعها ستالين. لذلك عنوان المقال يطرح فرضية معقولة، ويتوقع المرء منه الاستغاثة بالوقائع.

على كل حال نادراً ما تلامس المقالة موضوعها الظاهري المزعوم. إذ من الواضح لكل مهتم حقيقي في إظهار وجود استمرارية سياسية بين لينين وستالين، عليه أن يبدأ بتحديد الخطوط

---

١ - من الصعب التفكير بأي سياسي يعيش ليبلغ الثمانين، ويظل معتبراً كناجح. ما ندعوه "رجل دولة عظيم، يعني عادة واحد يموت قبل أن يتوفر الوقت لسياسته لتعطي نتائجها المرجوة. لو عاش كرومويل بضع سنوات أكثر، لسقط من السلطة واعتبرناه فاشلاً في هذه الحالة، ولو مات بيتان في فرنسا في ١٩٣٠ لوقرته فرنسا كبطل ووطني غيور. لاحظ نابليون قائلاً مرة لو حدث وضربته قذيفة مدفع وهو يمتطي حصانه في موسكو لسقط في التاريخ كأعظم رجل عرفه العالم. (حاشية المؤلف).

الأساسية لسياسة لينين ثم يفسر الطريقة التي يشبهها ستالين بها. لم يفعل بيرنهام هذا. باستثناء جملة خاطفة أو اثنتين لم يقل شيئاً عن سياسة لينين، ولم يحظر اسم لينين نفسه إلا خمس مرات في مقال من اثنتي عشرة صفحة: في السبع صفحات الأولى لم يحظر أبداً إلا في العنوان. إن الهدف الحقيقي من المقال تقديم ستالين كشخصية شاهقة فوق بشرية، وفي الواقع جنس من نصف إله، والبلشفية كقوة لا تقاوم تتدفق فوق الأرض، ولا يمكن إيقافها حتى تصل إلى أقصى حدود أوراسيا. حتى الآن كل ما بذل بيرنهام من محاولات ليثبت قضيته، اقتصر على تكرير أن ستالين "رجل عظيم" مرة تلو الأخرى - الذي ربما يكون صحيحاً، لكنه غير لازم تماماً تقريباً، ورغم أنه يقدم بعض الحجج القوية للإيمان في عبقرية ستالين، لكن من الواضح أن فكرة "العظمة" في ذهنه تختلط بشكل لا ينفصم مع فكرة القسوة والخداع. هناك صفحات غريبة توحي كما يبدو أن ستالين يجب أن ينال الإعجاب بسبب العذاب الذي لا حدود له الذي سببه:

أثبت ستالين أنه "رجل عظيم" بالطريقة الفخمة. وصف الولائم التي قدمت في موسكو للضيوف أصحاب المقامات الرفيعة التي أقيمت في موسكو حدد النغمة الرمزية. بقوائم أنواع الطعام الهائلة من سمك الستيرجون الضخم الغني بالكافيار والمشاوي ولحوم الطيور والحلويات وأنهار الشراب الكحولي وعشرات الأنخاب التي أنهوا الولائم بها والشرطي الصامت الذي لا يتحرك خلف كل ضيف، كل ذلك على خلفية شتاء من جماهير ستالينغراد المحاصرة الكثيرة الجائعة والملايين التي تحتضر وتموت على جبهات القتال ومعسكرات الاعتقال المكتظة وجماهير المدن التي اكتفت بحصصها القليلة جداً على حافة الحياة؛ وبدلاً من أثر قليل للوسطية الباهتة أو يد بابيت (كناية عن أسلوب الطبقة الوسطى - المترجم) نرى أشد التقاليد إدهاشاً للقياصرة وملوك الميديين والفرس العظام وخانات القبيلة البدوية الذهبية والوليمة التي خصصت لآلهة العصور البطولية إجلالاً لنفاذ البصيرة بأن الصفاقة واللامبالاة والوحشية بهذا المقياس تزيح الكائنات من المستوى الإنساني..... إن تقنيات ستالين تظهر تحرراً من القيود التقليدية، لا تتوافق مع الوسطية والاعتدال: الرجل المعتدل شخص محكوم بالعادة. إن مستوى عملياتهم هو من يميزهم عن بعضهم البعض في غالب الأحيان. من العادي مثلاً أن يدبر رجال فاعلون في الحياة السياسية مكيدة عرضية، لكن تنفيذ المكيدة ضد عشرات آلاف الناس ونسبة هامة من طبقة كاملة من المجتمع تشمل العدد الأكبر من رفاق المرء أبعد ما تكون عن العادي،

لذلك يكون الاستنتاج الجمعي الطويل الأجل، إما أن المكيدة حقيقة أو على الأقل "فيها بعض الحقيقة" أو أن الخضوع لتلك السلطة الهائلة جداً "ضرورة تاريخية" كما قالها المثقفون.... لا شيء مفاجئ في ترك قلة قليلة من الأفراد يموتون من الجوع من عدة ملايين من أجل الدولة، لكن تجويع ملايين الناس بقرار هو أنموذج فعل لا ينسب إلا إلى الآلهة عادة.

في هذه المقاطع وأخرى مشابهة، هناك أثر من السخرية، لكن من الصعب عدم رؤية نوع من الإعجاب المفتون. يقارن بيرنهام في نهاية المقال ستالين مع هؤلاء الأبطال شبه الأسطوريين مثل موسى وازوكا الذين يجسدون عصراً تاريخياً كاملاً بأنفسهم، ويمكن نسب أعمال بطولية لهم لم يفعلوها في الواقع. يستخدم بيرنهام في الكتابة عن السياسة الخارجية السوفييتية التي يفترض أن يكون موضوعياً فيها لهجة أكثر غموضاً:

بدءاً من الجزء المركزي المغناطيسي للبر الأوراسي الأساسي، تغمر السلطة السوفييتية مثل حقيقة واحد الأفلاطونية الجديدة في سلسلة هابطة من التقدم المنبعث وتفيض إلى الخارج غرباً إلى داخل أوروبا، وجنوباً إلى داخل الشرق الأدنى، وشرقاً إلى داخل الصين، وتلتف حول شواطئ الأطلنطي والبحر الأصفر والبحور الصينية والبحر الأبيض المتوسط والخليج العربي. هذا الواحد الوحيد الذي لا يختلف في تقدمه، ينزل عبر درجات العقل والروح والمادة، ومن ثم يعود عبر عودته الحتمية إلى نفسه، هكذا تفعل السلطة السوفييتية، تنبثق من مركز استبدادي مكتمل وتتقدم إلى الخارج بالامتصاص (البلطيق وبيساربيا وبوكوفينا وشرق بولندا) وتهيمن على (فنلندا والبلقان ومنغوليا وشمال الصين وغداً ألمانيا) ووراء المجال المادي الخارجي ووراء الحدود الأوراسية في تهدئة مؤقتة وارتشاح (إنكلترا والولايات المتحدة).

لا أعتقد أن الإيحاء بأن المقصود من الحروف الكبيرة غير الضرورية التي حشي بها هذا المقطع، أن يكون له أثر منوم على القارئ، هو إيحاء وهمي. يحاول بيرنهام تشييد صورة لسلطة مرعبة لا تقاوم وتحويل مناورة سياسية عادية مشابهة للارتشاح إلى ارتشاح يُضاف إلى الغطرسة العامة. يجب أن يُقرأ المقال كاملاً، فرغم أنه ليس من نوع المديح الذي يعتبره محب الروس العادي مقبولاً. ورغم ادعاء بيرنهام بأنه كان موضوعياً بشكل صارم، إلا أنه في الحقيقة يمثل فصلاً من الولاء والتقدير وإذلال الذات حتى. هذا المقال يعطينا نبوءة أخرى نضيفها إلى القائمة: جمهوريات الاتحاد السوفييتي ستغزو كل أوراسيا وربما أكثر منها بكثير،

ويجب على المرء أن يتذكر أن نظرية بيرنهام الأساسية تتضمن بنفسها نبوءة لازالت بحاجة للاختبار - مهما سيحدث غير ذلك، فإن الشكل الإداري للمجتمع سيسود بشكل حتمي.

إن نبؤة بيرنهام السابقة بانتصار ألمانيا في الحرب وتوحيد أوروبا حول النواة الألمانية، دُحضت ليس في خطوطها الرئيسية، بل وفي بعض من تفاصيلها الهامة. يصر بيرنهام دائماً أن الإداريانية ليست أكثر كفاءة فحسب من الديمقراطية الرأسمالية أو الاشتراكية الماركسية، ولكنها مقبولة أكثر من الجماهير. لم يعد لشعارات الديمقراطية وحق تقرير المصير كما يقول أي جاذبية بالنسبة إلى الجماهير: لقد أكد على "إداريانية" الألمان ضد "فتور الشعور" و"لامبالاة" البريطانيين والفرنسيين..إلخ، وصُورت النازية كقوة ثورية تكتسح أوروبا وتنشر فلسفتها "بالعدوى". إن الطابور النازي الخامس "لا يمكن استئصاله" والأمم الديمقراطية عاجزة تماماً عن وضع خطة لأية تسوية يفضلها الألمان أو الجماهير الأوروبية الأخرى على النظام الجديد. في كافة الأحوال لا تستطيع الديمقراطيات دحر ألمانيا "إلا إذا ذهبت في الطريق الإدارياتي أبعد مما فعلت ألمانيا".

أصل الحقيقة في كل هذا، هو أن الدول الديمقراطية الصغرى التي أفسدها تشوش وركود سنوات ما قبل الحرب، انهارت بصورة أسرع مما يجب أن تفعل، ويمكن التخيل أنها ستقبل بالنظام الجديد إن وفى الألمان بجزء من وعودهم. لكن التجربة الفعلية للحكم الألماني أثارت على الفور ضراوة من الكره وحب الانتقام، لم يشهد العالم لها مثيلاً من قبل. فبعد بداية عام ١٩٤١ لم تعد هناك أية حاجة لهدف إيجابي للحرب، وبات التخلص من الألمان هدفاً كافياً لوحده. إن مسألة المعنويات وعلاقتها بالتضامن الوطني مسألة ضبابية، ويمكن التلاعب بالدليل لإثبات أي شيء آخر. لكن لو قارن المرء نسبة الأسرى ومجموع باعة الأوطان، لوجد أن الدول الشمولية أسوأ من الديمقراطيات. يبدو أن مئات الآلاف من الروس ذهبوا إلى الألمان أثناء الحرب، وذهبت أعداد مماثلة من الألمان والإيطاليين إلى الحلفاء قبل أن تنشب الحرب. أما الرقم المطابق من المرتدين الأمريكيين والبريطانيين لم يصل إلى العشرات. كمثال عن عجز "الأيديولوجيات الرأسمالية" لتجنيد الدعم، يستشهد بيرنهام بـ"الفشل التام في التجنيد العسكري التطوعي في إنكلترا (وكل الإمبراطورية البريطانية) والولايات المتحدة." يفهم المرء من هذا أن جيوش الدول الشمولية كانت من المتطوعين. في الواقع ليس هناك أية

دولة شمولية اهتمت بالتجنيد التطوعي من أجل أي غرض، ولم يجمع جيش كبير بوسائل تطوعية في التاريخ كله.[1] القوائم الكثيرة من الحجج التي قدمها بيرنهام لا تستحق الذكر. النقطة أن بيرنهام يفترض أن الألمان يجب أن يربحوا الحرب الدعائية بالإضافة إلى الحرب العسكرية، وهذا التخمين لم تولده الأحداث في أوروبا في أية درجة.

يتبين مما سبق أن تنبؤات بيرنهام ليست حين تكون قابلة للإثبات يثبت أنها خاطئة فقط، وإنما تناقض بعضها البعض بطريقة قوية أحياناً. والحقيقة الأخيرة هي المهمة. التنبؤات السياسية عادة ما تكون خاطئة لأنها تبنى على تفكير رغبوي، لكنها قد تملك قيمة دلالية وخصوصاً حين تتبدل فجأة. إن العامل الكاشف والمظهر هو التاريخ الذي قيلت فيه غالباً. عند تأريخ كتابات بيرنهام المتنوعة بدقة كما يمكن فعل ذلك من الدليل الداخلي، نجد العلاقات التالية:

في الثورة الإدارية يتكهن بيرنهام بنصر ألماني وبتأجيل الحرب الروسية - الألمانية إلى ما بعد دحر بريطانيا، ومن ثم دحر روسيا. لقد كتب الكتاب أو جله في النصف الثاني من عام ١٩٤٠ في الوقت الذي اجتاح فيه الألمان أوروبا الغربية وكانوا يقصفون بريطانيا، وكان الروس يتعاونون معهم بقوة في ما بدا مزاج تهدئة واسترضاء في أي حال.

في الملاحظة التكميلية المضافة إلى النسخة الإنكليزية من الكتاب، يفترض بيرنهام أن الاتحاد السوفييتي دُحر وأن عملية الانشقاق على وشك البدء. نُشر هذا في ربيع ١٩٤٢ وكُتب كما يفترض في نهاية ١٩٤١ حين كان الألمان في ضواحي موسكو.

التكهن بأن روسيا ستنضم إلى اليابان وتشكلان جماعة ضد الولايات المتحدة، كُتب في وقت مبكر من ١٩٤٤ بعد عقد اتفاقية روسية يابانية جديدة.

التكهن بفتح روسي عالمي، كُتب في شتاء ١٩٤٤ حين كان الروس يتقدمون بسرعة في أوروبا الشرقية، بينما كان الحلفاء معاقين في إيطاليا وشمال فرنسا.

---

١ - جمعت بريطانيا مليون متطوع في القسم المبكر من حرب ١٩١٤ - ١٨. هذا بالتأكيد رقم عالمي، لكن الضغوطات المطبقة كانت هائلة، لذلك يُشك في إمكانية وصفه بالتجنيد بالتطوعي. حتى أكثر الحروب أيديولوجية تم حوضها برجال مرغمين ومضغوطين. في الحرب الأهلية الإنكليزية والحروب النابليونية والحرب الأهلية الأمريكية والحرب الأهلية الإسبانية..إلخ، كلا الجانبين فيها لجأ إلى التجنيد الإلزامي أو عصابات تجند الناس بالقوة. (حاشية المؤلف).

يتبين أن كل نقطة يتنبأ بها بيرنهام، هي **استمرار للشيء الذي كان يحدث**. الآن النزعة لفعل هذا ليس مجرد عادة رديئة مثل الغلطة أو المبالغة التي يستطيع المرء تصحيحها بالمراجعة، وإنما مرض عقلي تكمن جذوره جزئياً في الجبن وجزئياً في عبادة السلطة التي لا تنفصل تماماً عن الجبن.

افترض في ١٩٤٠ أنك أجريت استفتاء غالوب للآراء حول السؤال التالي: "هل ستربح ألمانيا الحرب؟" لوجدت ومما يثير العجب أن الجماعة التي تجيب "بنعم" تحتوي على النسبة المئوية للناس الأذكياء - الناس الذين يتجاوز مقياس الذكاء عندهم ١٢٠ أعلى بكثير من المجموعة التي أجابت "بلا". نفس الشيء في منتصف ١٩٤٢. في هذه الحالة لن تكون الأرقام مفاجئة جداً. لكن لو طرحت السؤال "هل سينتزع الألمان الإسكندرية؟" أو "هل يستطيع الألمان الاحتفاظ بالأراضي التي انتزعوها؟" عندئذ سيكون هناك ميل ملحوظ للذكاء مرة أخرى يتركز في جماعة "نعم". في كل حالة الشخص الأقل ذكاء يكون الأرجح في إعطاء الجواب الصحيح.

إذا مررنا بهذه الأمثلة فقط سيفترض المرء أن الذكاء العالي والرأي العسكري الرديء يسيران معاً دائماً، لكن ليس الأمر بهذه البساطة. كانت الطبقة المثقفة الإنكليزية في المجمل أكثر انهزامية من جماهير الناس - استمر بعض من أفرادها بانهزاميتهم في الوقت الذي كُسبت فيه الحرب تماماً - جزئياً، لأنهم كانوا أقدر على تصور السنوات الكئيبة للحرب التي تنتظرهم. لقد كانت معنوياتهم أسوأ لأن قدراتهم الخيالية كانت أقوى. إن أسرع طريقة لإنهاء الحرب هي خسارتها، وإن وجد المرء أن الحرب طويلة لا تطاق، فمن الطبيعي ألا يؤمن بإمكانية النصر. كان هناك نفور من عدد كبير من المثقفين أيضاً، مما جعل من الصعب عليهم ألا ينحازوا إلى جانب أي بلاد تعادي بريطانيا. وكان الأعمق من كل هذا وجود الإعجاب - لكن في حالات قليلة جداً إعجاب واعٍ - في قوة نظام الحكم النازي وطاقته ووحشيته. إن مراجعة صحافة الجناح اليساري وتعداد كل الإشارات العدائية للنازية خلال سنوات ١٩٣٥ - ٤٥ جهد مفيد لكنه ممل. سيجد المرء، وليس لدي شك، أنها وصلت إلى إشارة عالية في الأعوام ١٩٣٧ - ٨ و١٩٤٤ - ٥ وانخفضت بشكل ملحوظ في سنوات ١٩٣٩ - ٤٢ - أي أثناء الفترة التي كانت تحقق ألمانيا فيها انتصارات. سيجد المرء أيضاً أن نفس الناس يؤيدون

تسوية سلمية في ١٩٤٠ ويوافقون على تقطيع أوصال ألمانيا في ١٩٤٥. ولو درس المرء ردود أفعال المثقفين الإنكليز نحو الاتحاد السوفييتي، لوجد أيضاً دوافع متقدمة بصدق مختلطة بإعجاب بالقوة والوحشية. من الجائر جداً أن نوحي بأن عبادة القوة هي الحافز الوحيد لشعور المحب للروس، لكنه أحد الحوافز وربما يكون الأقوى وسط الطبقة المثقفة.

إن عبادة القوة تشوش الرأي السياسي لأنها تؤدي بشكل لا يمكن تفاديه إلى الاعتقاد في استمرار الميول الحالية. أياً كان الفائز الآن سيبدو دائماً لا يغلب. لو فتح اليابانيون جنوب آسيا فإنهم سيحتفظون بها إلى الأبد، وإذا انتزع الألمان طبرق، فإنهم سينتزعون القاهرة بشكل غير قابل للخطأ، وإذا كان الروس في برلين، فلن يمر وقت طويل حتى يكونوا في لندن وهكذا. هذه العادة الذهنية تؤدي أيضاً إلى الاعتقاد بأن الأشياء ستحدث بسرعة وكارثية أكبر مما تحدث عملياً. إن ظهور الإمبراطوريات وسقوطها واختفاء الثقافات والأديان متوقع حدوثه مع فجأة زلزالية، والعمليات التي بدأت بالكاد يجري الحديث عنها وكأنها في نهايتها سلفاً. كتابات بيرنهام تعج برؤى تنبؤية مروعة. أمم وحكومات وطبقات وأنظمة اجتماعية وُصفت باستمرار بالمتوسعة والمنكمشة والمضمحلة والمتبددة والمنقلبة والمنهارة والمتقوضة والمتبلورة والتي تتصرف بطريقة غير مستقرة وميلودرامية (مثيرة). لم يُسمح أبداً لبطء التبدل التاريخي وحقيقة أن أي عصر يتضمن دائماً قدراً كبيراً من العصر الذي سبقه. إن طريقة التفكير هذه تؤدي بشكل محتوم إلى تنبؤات خاطئة، لأنها حتى حين تقدر اتجاه الأحداث بشكل صحيح، فإنها تخطئ في حساب سرعة حدوثها. ضمن خمس سنوات تنبأ بيرنهام بهيمنة ألمانيا على روسيا وهيمنة روسيا على ألمانيا. في كل حالة كان يطيع نفس الغريزة؛ غريزة الركوع أمام الغازي والفاتح الراهن والقبول بالميل القائم كشيء غير عكوس. بهذه العقلية يستطيع المرء أن ينتقد تاريخه بطريقة أشمل وأوسع.

إن الأخطاء التي أشرت إليها لا تدحض نظرية بيرنهام، لكنها تلقي الضوء على المبررات المحتملة التي دعته إلى تبنيها. في هذا التسلسل المنطقي لا يستطيع المرء إهمال حقيقة أن بيرنهام أميركي. كل نظرية سياسية لها مسحة إقليمية محددة حولها، وكل أمة وكل ثقافة لها تحيزاتها المميزة ورقع من الجهل الخاصة بها. هناك مشاكل محددة يجب أن تُرى بشكل محتم تقريباً في منظور مختلف وفقاً للوضع الجغرافي الذي ينظر منه المرء. الآن، الموقف الذي يتبناه بيرنهام في

تصنيف الشيوعية والنازية بأنهما الشيء عينه تقريباً ويقبل بالاثنين بنفس الوقت - أو في كافة الأحوال لا يفترض الصراع العنيف ضد أي منهما - هو موقف أمريكي أساساً وهو موقف مستحيل بالنسبة إلى الرجل الإنكليزي أو الأوروبي الغربي. إن الكتاب الإنكليز الذين اعتبروا الشيوعية والفاشية الشيء عينه ظلوا متمسكين بشكل ثابت بأنهما شران رهيبان يجب القتال ضدهما حتى الموت: من جهة أخرى إن الرجل الإنكليزي الذي يعتقد أن الشيوعية والفاشية ضدان، يشعر بضرورة الانحياز إلى جانب أحدهما.[1] إن انتصر النظام الشمولي وتحققت أحلام الجيوسياسيين، ستختفي بريطانيا كقوة عالمية، وسوف تُبتلع أوروبا الغربية برمتها من قبل دولة كبرى وحيدة. هذا ليس توقعاً يسهل على الإنكليزي تأمله بعدم تحيز. إما أنه لا يريد أن تختفي بريطانيا - في هذه الحالة يميل إلى بناء نظريات تثبت الشيء الذي يريده أو يقرر مثل أقلية من المثقفين أن بلاده انتهت ويحول ولاءه إلى قوة أجنبية ما. الأمريكي غير مضطر إلى نفس الخيار. مهما يحدث ستنجو الولايات المتحدة كقوة كبرى. ومن وجهة النظر الأمريكية ليس هناك فرق كبير إن هيمنت روسيا أم ألمانيا على أوروبا. أغلب الأمريكيين الذين يفكرون بالقضية يفضلون أن يروا العالم مقسماً بين دولتين عملاقتين أو ثلاث اكتملت حدودهما الطبيعية، وتستطيع كل منهما مساومة الأخرى حول القضايا الاقتصادية دون أن تكترث وتزعج نفسها بالاختلافات الأيديولوجية. مثل هذه الصورة للعالم تناسب الميل الأمريكي في الإعجاب بالحجم بحد ذاته وفي الشعور بأن النجاح يشكل مبرراً وفي المشاعر السائدة المعادية لبريطانيا. عملياً أُجبرت بريطانيا والولايات المتحدة مرتين على التحالف ضد ألمانيا، وربما تُجبران على التحالف ضد روسيا قريباً: لكن موضوعياً، أغلب الأمريكيين يفضلون إما روسيا أو ألمانيا على بريطانيا، وبين روسيا وألمانيا يفضلون الأقوى منهما كما يبدو في الوقت الحالي.[2] لذلك ليس من المفاجئ أن تكون رؤية بيرنهام للعالم دائماً قريبة بشكل

---

١ - الاستثناء الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه هو برنارد شو، الذي ظل يصرح لبعض سنوات أن الشيوعية والفاشية مثل بعضهما تقريباً وكان يؤيدهما كليهما، لكن شو أولاً وأخيراً ليس إنكليزياً، وربما لا يشعر أن مصيره مرتبط ببريطانيا (حاشية المؤلف).

٢ - في وقت متأخر في خريف ١٩٤٥، أجري استفتاء للآراء في معهد غالوب للجنود الأمريكيين في ألمانيا، فأظهر أن ٥١٪ منهم يرون "أن هتلر فعل الكثير من الخير قبل ١٩٣٩" كان هذا بعد خمس سنين من الدعاية المعادية لهتلر. هذا الرأي كما اقتبس لم تستحسنه ألمانيا، لكن من الصعب أن يُعطى رأياً مساوياً مؤيداً لبريطانيا بنسبة قريبة من ٥١٪ من الجيش الأمريكي. (حاشية المؤلف).

ملحوظ من وجهة نظر الإمبرياليين الأمريكيين من جانب أو من رؤية الانعزاليين من جانب آخر. إنها نظرة عالمية "قاسية" أو "واقعية" تتناسب مع الشكل الأمريكي للتفكير الرغبوي. إن الإعجاب الصريح تقريباً بالطرق النازية الذي يبديه بيرنهام في كتابيه السابقين والذي يبدو صادماً لكل قارئ إنكليزي تقريباً، يعتمد جوهرياً على حقيقة أن الأطلنطي أوسع من القنال.

كما قلت من قبل، ربما كان بيرنهام أقرب إلى الصواب في رؤيته فيما يتعلق بالحاضر والماضي القريب. ففي الخمسين سنة الأخيرة السابقة كان الانجراف العام نحو الأوليغاركية. التمركز المتزايد الدائم للصناعة والسلطة المالية والأهمية المتناقصة للرأسمالي الفرد أو المساهم، ونمو طبقة المدراء الجديدة من علماء وفنيين وبيروقراطيين، وضعف البروليتاريا أمام الدولة المركزية وزيادة عجز البلدان الصغيرة أمام الكبيرة، وانحلال المؤسسات التمثيلية، وظهور أنظمة الحزب الواحد المؤسسة على إرهاب الشرطة والاستفتاءات العامة المزيفة..إلخ كل هذه الأشياء تشير إلى نفس الوجهة. يرى بيرنهام هذه النزعة ويفترض أنها لا تقاوم مثل أرنب تشله عن الهرب عضلة أفعى ويفترض أنها أقوى شيء في العالم. حين ينظر المرء في العمق يرى أن كل أفكاره [بيرنهام] مبنية على بديهيتين سلم بهما في كتابه السابق ووضحهما في كتابه الثاني وهما:

١ - السياسة جوهرياً هي نفسها في كل العصور.

٢ - السلوك السياسي مختلف عن أنواع السلوك الأخرى.

لنأخذ النقطة الثانية أولاً. في الميكافيليين، يصر بيرنهام أن السياسة مجرد صراع من أجل السلطة. كل حركة اجتماعية عظيمة وكل حرب وكل ثورة وكل برنامج سياسي مهما كان منوراً وطوباوياً تكمن خلفه حقيقة أطماع جماعة قطاعية خرجت لتنتزع السلطة لنفسها. لا يمكن كبح السلطة بمجموعة قواعد أخلاقية أو دينية وإنما بسلطة أخرى. إن أقرب مقاربة ممكنة للسلوك الغيري هي إدراك الجماعة الحاكمة بأنها ربما تظل في السلطة أطول، إن تصرفت بأدب واحترام. لكن الغريب أن هذه التعميمات لا تطبق على أي نوع من السلوك سوى السلوك السياسي. في الحياة اليومية كما يرى بيرنهام ويعترف، لا يستطيع المرء تفسير كل فعل إنساني بتطبيق مبدأ لمصلحة من ومن المستفيد. من الواضح أن لدى الكائنات البشرية دوافع ليست أنانية. الإنسان لذلك حيوان يستطيع التصرف بشكل أخلاقي حين يتصرف كفرد، لكنه يصبح غير أخلاقي حين يتصرف بشكل جماعي. لكن حتى هذا التعميم ليس حقيقياً

وعملياً إلا للجماعات العليا. فالجماهير كما يبدو لديها طموحات وآمال غامضة نحو الحرية والأخوة الإنسانية التي يعزف عليها الأفراد المتعطشون للسلطة والأقليات بسهولة، لهذا يتألف التاريخ من سلسلة من عمليات الاحتيال، والجماهير أول من يتعرض فيها لإغواء الثورة ووعدها باليوتوبيا، وبعد أن تقوم بوظيفتها تستعبد مرة أخرى بواسطة سادة جدد.

لذلك النشاط السياسي نوع خاص من السلوك يتميز بتجرد تام عن المبادئ الأخلاقية والضمير، ولا يحدث إلا وسط جماعات صغيرة من الناس وخصوصاً وسط جماعات مستاءة، لا تحصل مواهبها على حرية العمل والتصرف تحت الشكل القائم للمجتمع. الجمهور الكبير من الناس – وهذا حيث يرتبط (٢) مع (١) – سيظل غير سياسي دائماً. لذلك تنقسم البشرية في الحقيقة إلى نوعين: الأقلية الأنانية المرائية، والرعاع البلهاء الذين يُقادون أو يُساقون إلى قدرهم كما يُعيد المرء خنزيراً إلى الحظيرة بركله في بطنه أو بقعقعة عصا داخل سطل طعامه حسب حاجات اللحظة الراهنة. وهذا النموذج الجميل يجب أن يستمر إلى الأبد. قد يعبر أفراد من صنف إلى آخر وقد تدمر طبقات كاملة بعضها البعض وتصعد إلى الموقع المسيطر، لكن قسمة البشرية إلى حكام ومحكومين راسخة ولا تتبدل، مثلما هم غير متساوين في رغباتهم وحاجاتهم. يوجد "قانون حديدي من الأوليغاركية" يعمل حتى لو لم تكن الديمقراطية مستحيلة لأسباب ميكانيكية.

الغريب أن بيرنهام لم يتوقف أبداً في حديثه كله عن الصراع من أجل السلطة للتساؤل لماذا يريد الناس السلطة، لكنه يفترض أن التعطش للسلطة غريزة طبيعية، ليس هناك داع لتعليلها مثل الرغبة في الطعام رغم أنها لا تهيمن إلا على قلة من الناس نسبياً، ويفترض أيضاً أن قسمة المجتمع إلى طبقات تخدم نفس الغرض في كل العصور. هذا عملياً تجاهل لتاريخ من مئات السنين. حين كان سيد بيرنهام، ميكيافيلي يكتب لم يكن الانقسام الطبقي محتوماً فقط بل جذاباً ومرغوباً أيضاً. طالما كانت وسائط الإنتاج بدائية كانت الجماهير الكبيرة مكبلة بالعمل اليدوي المرهق الكئيب: وكان من الضروري أن تتحرر قلة من الناس من هكذا عمل وإلا فلن تستطيع الحضارة الحفاظ على نفسها أو تحقيق أي تقدم. لكن منذ وصول الآلة تبدل النموذج برمته ولم يعد تبرير الامتيازات الطبقية – إن وجد – نفسه، لأنه لم يوجد مبرر آلي للسبب الذي يجبر الإنسان العادي أن يظل كادحاً. صحيح أن الكدح استمر والفروقات الطبقية أعادت توطيد

نفسها في شكل جديد، والحرية الفردية كانت في نزول: لكن بما أن هذه التطورات يمكن تفاديها تقنياً الآن، إذاً يجب أن يكون لها سبب نفسي، لم يبذل بيرنهام أي جهد لاكتشافه. السؤال الذي كان ينبغي أن يسأله ولم يفعل أبداً هو: لماذا تصبح الشهوة الصريحة للسلطة حافزاً إنسانياً رئيسياً الآن بالضبط حين باتت سيادة إنسان على إنسان آخر غير ضرورية؟ بالنسبة إلى الادعاء بأن "الطبيعة الإنسانية" أو "القوانين التي لا تتبدل" لهذا وذاك تجعل الاشتراكية مستحيلة، هو مجرد إسقاط للماضي في قلب المستقبل، وبالتالي يحاول بيرنهام أن يثبت بها أن سبب المجتمع الكوني كائنات بشرية حرة ومتساوية لم يوجد قط، فهو لا يمكن أن يوجد أبداً. بنفس الحجة يمكن للمرء أن يبرهن فكرة استحالة الطائرات في العام ١٩٠٠ أو السيارات في ١٨٥٠.

إن الفكرة التي ترى أن الآلة بدلت العلاقات البشرية، وبالتالي أصبح ميكافيلي عتيقاً، هي فكرة واضحة جداً، وإن فشل بيرنهام في التعامل معها، فذلك في اعتقادي، لأن غريزته السلطوية كانت تقوده إلى تجاهل أي إيحاء بأن عالم ميكيافيلي، عالم القوة والخداع والطغيان، قد انتهى بشكل ما. من الهام أن نحمل في ذهننا ما قلته سابقاً: إن نظرية بيرنهام مجرد شكل مختلف - شكل أمريكي ممتع بسبب شموليته - من عبادة السلطة المتفشية وسط المثقفين الآن، وهناك شكل مختلف آخر عادي أكثر في إنكلترا بأي حال هو الشيوعية. لو تفحص المرء الناس الذين لديهم فكرة ما عن ماهية نظام الحكم الروسي ويحبون الروس جداً، لوجد أنهم ينتمون بالمجمل إلى الطبقة "الإدارية" التي يكتب عنها بيرنهام. أي أنهم ليسوا مدراء بالمعنى الضيق بل عبارة عن علماء وتقنيين ومعلمين وصحفيين وإذاعيين وبيروقراطيين وسياسيين محترفين: على العموم أناس متوسطون يشعرون بأنهم مقيدون بنظام لايزال أرستقراطياً جزئياً ومتعطشون لسلطة أكبر ومكانة أكبر. هؤلاء الناس ينظرون إلى جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية ويرون فيها أو يعتقدون أنهم يرون نظاماً تخلص من الطبقة العليا وأبقى الطبقة العاملة في مكانها وسلم سلطة غير محدودة للناس الذين يشبهونهم جداً. لم يبدأ المثقفون الإنكليز الاهتمام بنظام الحكم السوفييتي بأعداد كبيرة، إلا حين أصبح نظاماً شمولياً بشكل لا يحتمل الخطأ. رغم أن الطبقة المثقفة الإنكليزية المحبة لروسيا سوف تنكر تهمة بيرنهام لها وترفضه، إلا أنه في الحقيقة يعبر بصوت مسموع عن رغبتها الخفية: الرغبة في تدمير النسخة القديمة من الاشتراكية المنادية بالمساواة والدخول في مجتمع تراتبي، يستطيع المثقف فيه وضع

يديه على السوط (أن يحظى ببعض السلطة) على الأقل. لدى بيرنهام الاستقامة والصدق للقول إن الاشتراكية ليست قادمة، أما الآخرون فيقولون إن الاشتراكية قادمة، ومن ثم يعطون كلمة "اشتراكية" معنى جديداً يسفه المعنى القديم ويفرغه من مضمونه. لكن نظريته بكل ما تظهره من الموضوعية هي عقلنة للرغبة وتسويغ لها. لا يوجد مبرر قوي للاعتقاد أنها ستخبرنا شيئاً عن المستقبل ما عدا المستقبل القريب ربما، ولا تخبرنا إلا عن نوع من العالم الذي تحب طبقة الإداريين أو على الأقل أعضاء الطبقة الأكثر وعياً وطموحاً أن يعيشوا فيه.

لحسن الحظ لم يكن الإداريون لا يُغلبون كما يعتقد بيرنهام. يتجاهل بإصرار غريب في الثورة الإدارية الأفضليات العسكرية والاجتماعية التي تتمتع بها البلاد الديمقراطية، ويقحم الدليل في كل نقطة كي يبين قوة وحيوية ومتانة نظام هتلر المجنون. ألمانيا تتوسع بسرعة و"التوسع المحلي السريع كان دائماً علامة ليس على التفسخ...... بل على التجدد" ألمانيا تفتعل حروباً بشكل ناجح و"المقدرة على إشعال حر ب بشكل حسن ليس علامة تفسخ أبداً بل العكس". ألمانيا أيضاً "تثير في ملايين الأشخاص ولاء تعصبياً، وهذا أيضاً لا يترافق أبداً مع التفسخ" حتى أنه اقتبس قسوة النظام النازي لصالحه، بما أن"النظام الاجتماعي الفتي الصاعد ضد القديم فسيلجأ على الأرجح إلى الأكاذيب والإرهاب والاضطهاد بشكل واسع". لكن خلال خمس سنوات فقط حطم هذا النظام الاجتماعي الجديد الفتي نفسه إلى قطع واصبح متفسخاً حسب استخدام بيرنهام للكلمة، وحدث هذا بشكل واسع تماماً بسبب التركيبة الإدارية (غير الديمقراطية) التي أعجبت بيرنهام. لقد كان السبب المباشر لهزيمة الألمان، هو الحماقة غير المسبوقة في مهاجمة جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية في الوقت الذي لم تُهزم فيه بريطانيا وكانت أمريكا تستعد للقتال بشكل واضح. أخطاء بهذا القدر الكبير لا يمكن أن تُرتكب أو يُحتمل أن ترتكب إلا في البلدان التي لا يكون فيها للرأي العام سلطة. طالما يستطيع الرجل العادي الحصول على فرصة لسماع رأيه، فإن قوانين أولية مثل ألا تقاتل كل أعدائك في وقت واحد، تظل أقل عرضة للانتهاك.

لكن في أي حال، يجب أن يكون المرء قادراً على أن يرى منذ البداية أن حركة كالنازية لا تستطيع أن تفرز أية نتيجة جيدة أو راسخة. يبدو أن بيرنهام في الواقع لا يرى شيئاً خطأً في أساليب النازيين طالما هم يكسبون. ويقول إن هكذا أساليب تبدو شريرة لأنها جديدة فقط:

لا يوجد قانون تاريخي ينص على حتمية انتصار أنماط السلوك المحتشم و"العدل" لأن التاريخ فيه دائماً مسألة "سلوك من" و"عدالة من". يجب أن تخترق الطبقة الاجتماعية الصاعدة والنظام الاجتماعي الجديد منظومات القوانين الأخلاقية القديمة مثل اختراقهما للمؤسسات الاقتصادية والسياسية القديمة تماماً، ومن الطبيعي أن يكونا وحشيين من وجهة نظر النظام القديم، وسيهتمان بأنماط السلوك ومبادئ الأخلاق في الوقت المناسب، إن فازا.

هذا يتضمن حرفياً أن أي شيء يمكن أن يصبح صحيحاً أو خطأ إن رغبت الطبقة المسيطرة الراهنة بذلك، وبهذا تتجاهل حقيقة وجود قواعد معينة من السلوك يجب مراعاتها إن كان للمجتمع أن يتماسك معاً، لذلك عجز بيرنهام أن يرى بأن جرائم وحماقات النظام النازي يجب أن تؤدي بمسار أو آخر إلى كارثة، وكذلك في إعجابه الوليد بالستالينية أيضاً. من المبكر جداً التحدث عن الطريقة التي سيدمر النظام الروسي نفسه فيها. إن كان علي التكهن، يجدر بي القول إن استمرار سياسات روسيا في الخمس عشرة سنة الأخيرة - والسياسة الداخلية والخارجية طبعاً مجرد وجهين لشيء واحد - فلن تقود إلا إلى حرب تدار بقنابل نووية وتجعل من غزو هتلر يبدو حفلة شاي. وفي كل الأحوال إن النظام الروسي إما سيدقرط نفسه أو يفنى. إمبراطورية العبيد الأبدية الضخمة التي لا تغلب، لن تصمد طويلاً وتدوم، لأن العبودية لم تعد أساساً مستقراً للمجتمع الإنساني.

لا يستطيع المرء أن يقوم بتنبؤات إيجابية دائماً، لكن هناك مرات ينبغي أن يكون المرء قادراً فيها على القيام بتنبؤات سلبية. لم يكن متوقعاً من أحد أن يتنبأ بالنتائج الدقيقة لمعاهدة فرساي، لكن ملايين الناس المفكرين استطاعوا وتنبئوا بأن تلك النتائج ستكون سيئة، واستطاع عدد وافر من الناس، ليسوا كثيرين جداً في هذه الحالة، التنبؤ بأن نتائج التسوية المفروضة على أوروبا الآن ستكون سيئة أيضاً، وأن الإحجام عن الإعجاب بهتلر أو ستالين أيضاً يجب ألا يستلزم جهداً عقلياً هائلاً.

لكنه جهد أخلاقي جزئياً. أن يرى رجل بمواهب بيرنهام لوهلة أن النازية شيء مثير للإعجاب وشيء ربما يبني نظاماً اجتماعياً عملياً ومتيناً، يبين مدى الضرر الكبير الذي لحق بالإحساس في الواقع بواسطة تغذية ما يسمى الآن بـ"الواقعية".

رأي بيرنهام في الصراع العالمي المعاصر

إحدى الأفكار الخاطئة المتبقية من القرن التاسع عشر ولازالت تؤثر على أفكارنا، هي أن حربين رئيسيتين لا يمكن أن تنشبا معاً خلال بضع سنين. صحيح أن الحرب الأهلية الأمريكية والحرب الفرانكوبروسية حدثتا بنفس الوقت تقريباً، لكنهما كانتا في قارتين مختلفتين، وخاضهما أناس مختلفون. وإلا فإن القاعدة ستفهم بأنك لا تستطيع أن تجعل الناس يتحاربون، إلا حين يكون كل من يتذكر كيف كانت الحرب الأخيرة قد تجاوز عمر تجنيده العسكري. حتى الفجوة بين الحربين العالميتين - واحد وعشرون سنة - كانت كبيرة بما يكفي لتضمن أن عدد الرجال الذين شاركوا فيهما كجنود عاديين قليل جداً. ولهذا السبب نوقش الاعتقاد الغامض المنتشر أو الأمل بأن الحرب العالمية الثالثة لن تندلع قبل عام ١٩٧٠ بتفاؤل أن "كل أنواع الأشياء يمكن أن تحدث" في ذلك الوقت.

لكن القنبلة الذرية بدلت كل هذا كما أشار جيمس بيرنهام. كتابه نتاج للأسلحة الذرية: إنه مراجعة وهجر تقريباً لصورته السابقة للعالم على ضوء حقيقة أن الأمم الكبرى الآن في وضع يمكنها أن تبيد بعضها فعلاً. حين تصل الأسلحة إلى هذا المستوى من القدرة على الإماتة لا يستطيع المرء أن يخاطر ويسمح للعدو بالضربة الأولى، لهذا بمجرد أن تمتلك أمتان القنابل الذرية، سيحدث الانفجار مباشرة. في رأي بيرنهايم أمامنا عشر سنوات أو على الأرجح خمس سنوات قبل الحرب العالمية الثالثة التي تأججت بشكل غير رسمي منذ ١٩٤٤ ودخلت في طورها العلني.

لا شك ليس من الضروري القول ما هي القوى التي ستتحارب. هدف بيرنهام الرئيسي من كتابة كتابه هو حث الولايات المتحدة وتحريضها كي تغتنم المبادرة وتؤسس ما يرقى إلى إمبراطورية عالمية الآن، قبل أن تبتلع الشيوعية كل أوراسيا. إن الاستمرار الفعلي للحضارة كما يقول مهدد بوجود الأسلحة الذرية، وليس هناك وقاية سوى التأكد بألا تمتلكها سوى أمة واحدة فقط. مثالياً، يمكن ضبط الطاقة الذرية من قبل سلطة دولية، لكن لا يوجد شيء كهذا، ومن غير المحتمل في الزمن الطويل القادم. وفي الوقت الحالي المتنافسان الوحيدان

على السلطة العالمية هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. لكن الصراع ليس مجرد صراع بين الديمقراطية الغربية والشيوعية. إن تعريف بيرنهام للشيوعية أساسي للكتاب ويجدر التوقف لتفحصه.

إنه لا يقبل بالتعريف واسع الانتشار الآن بأن الشيوعية مجرد إمبريالية روسية: من وجهة نظر الكتاب إنها حركة عالمية أصيلة والاتحاد السوفييتي ليس إلا القاعدة أو النواة التي ستبتلع الدول الواحدة بعد الأخرى في نظامها. لو غطى النظام كل الأرض فسيظل "وسط أوراسيا" بلا شك المركز الحقيقي للسلطة والحكومة، لكن عالم الشيوعية لا يعني تماماً غزو روسيا بواسطة شكل خاص من التنظيم الاجتماعي. إن الشيوعية ليست حركة سياسية بالمعنى العادي: إنها حركة تآمرية عالمية للاستيلاء على السلطة. هدفها تأسيس نظام مشابه للنظام السائد في روسيا السوفيتية في كل مكان - أي أنها نظام الجماعية تقنياً لكنها تركز كل السلطة في بضعة أيد قليلة جداً أساسها العمل القسري واستئصال كل الخصوم الحقيقيين أو الوهميين بواسطة الإرهاب، ويمكنها أن تمتد إلى خارج المدى الضارب للجيش الأحمر، لأن لها في كل دولة قلة من الناس المناصرين المخلصين وعدد أكبر من المخدوعين بدرجة ما، وآخرين أيضاً من الذين يقبلون بالشيوعية طالما هي التي ستفوز ولم يتوفر لهم بديل آخر. أما في البلدان التي لا يستطيعون السيطرة عليها، فيقوم الشيوعيون بدور الطابور الخامس، ويعملون من خلال منظمات خفية من شتى الأنواع، ويتلاعبون بطموحات الطبقة العاملة وجهل الليبراليين الطيبين، وهدفهم الدائم إضعاف المعنويات ضد اليوم الذي تندلع فيه الحرب، وكل النشاطات الشيوعية موجهة نحو هذه الحرب في الحقيقة. إذا لم يمكن إجبار الشيوعية على التراجع إلى الوضع الدفاعي ممكناً، فلن تظل هناك فرصة لتفادي الحرب بما أن حتمية "الصراع النهائي" جزء من الأسطورة اللينينية التي تحظى بتصديق، وكأنها بند من الإيمان.

بعد مناقشة طبيعة الشيوعية والسياسة الخارجية الروسية، يتفحص بيرنهام الوضع الاستراتيجي. "الشيوعية - أي الاتحاد السوفييتي مع الأمم التابعة له والطوابير الخامسة - تملك أفضليات هائلة في القوة البشرية والموارد الأولية في قلب أرض أوراسيا المعزول وفي

الجاذبية الشيوعية الشبيهة بالدين، وربما في نوعية قيادتها قبل كل شيء. القادة الكبار للحركة الشيوعية رجال ليس لهم أي هدف في الحياة سوى الاستيلاء على السلطة، ولا تُقلق الأخلاق ضمائرهم، وهم غير ملزمين بالاهتمام بالرأي العام فهم خبراء ومتعصبون بينما خصومهم هواة خرقاء غير متحمسين. من جانب آخر إن "الشيوعية" متخلفة تقنياً، وتعاني من ضعف في كونها أسطورة لا يصدقها سوى الناس الذين لم يروا الحكم الروسي عن قرب. إن الولايات المتحدة ضعيفة في القوة البشرية بالمقارنة، وموقعها الجغرافي ليس قوياً جداً بالمطلق، لكن في الناتج الصناعي والتكنيك تتقدم على كل منافسيها بأشواط، ولديها حلفاء محتمون في كل أنحاء العالم وخصوصاً في أوروبا الغربية. لذلك أكبر عائق للولايات المتحدة عدم وجود أي نظرة عالمية محددة وواضحة لديها: إذا فهم الأمريكيون قوتهم والخطر الذي يهددهم أيضاً، يصبح الوضع قابلاً للاسترداد والتعويض.

يناقش بيرنهام ماذا يجب فعله وماذا يمكن فعله، وماذا سيتم فعله على الأرجح. يشطب السلمية كعلاج عملي. من حيث المبدأ يمكنها (السلمية) حل أمراض العالم، لكن بما أن أعداداً هامة من الناس لا يمكن إقناعهم واستمالتهم لتبنيها، فهي لا تقدم سوى الخلاص لعدد قليل من الأفراد وليس للمجتمعات. البدائل الحقيقية أمام العالم هيمنة الشيوعية وهيمنة الولايات المتحدة. ومن الواضح تفضيل الأخيرة، ويجب على الولايات المتحدة أن تعمل بسرعة وخفة، وتوضح هدفها دون أي التباس. يجب أن تشرع في اقتراح اتحاد – ليس تحالفاً وإنما اندماج تام – مع بريطانيا والدول التابعة لها، وتجاهد لجذب كل أوروبا الغربية في فلكها. يجب عليها أن تقتلع بلا رحمة الشيوعية داخل حدودها. وتنصب نفسها علناً وصراحة بطل العالم ضد الشيوعية، وتدير دعاية متواصلة لشعوب البلدان المحتلة من قبل روسيا وللشعب الروسي نفسه أيضاً وتوضح لهم أنهم ليسوا هم الأعداء وإنما حكامهم. يجب أن تتبنى أشد موقف ممكن نحو الاتحاد السوفييتي، وتدرك دوماً أن التهديد أو الإيماء إن لم يدعما بالقوة العسكرية فلا طائل منهما. يجب أن تقف إلى جانب أصدقائها وتدعمهم، ولا تقدم هبات من الغذاء والآلات إلى أعدائها. والأهم أن تكون للولايات المتحدة سياسة واضحة. إن لم تكن لديها خطة محددة ومفهومة وواضحة من أجل تنظيم العالم، فلن تستطيع اغتنام المبادرة من الشيوعية. في هذه النقطة بالذات بيرنهام متشائم جداً. في الوقت

الحاضر الشعب الأمريكي ككل ليس لديه إدراك للوضع العالمي، والسياسة الخارجية الأمريكية ضعيفة ومتقلبة ومتناقضة. يجب أن تكون هكذا - بمعزل تام عن تخريب "رفاق السفر" وإقحام السياسة الداخلية - لأنها لا تملك هدفاً عاماً طاغياً. في تلخيصه للسياسة للولايات المتحدة، يشير بيرنهام إلى ما يمكن عمله فقط. أما ما يمكن حدوثه فهو أكثر إرباكاً وتذبذباً، وسيؤدي في ظرف خمس سنوات أو عشر إلى حرب تدخلها الولايات المتحدة في وضع غير موات وخطير.

هذا هو الموجز العام لحجة بيرنهام، لكنني أعدت ترتيب ما عرضه قليلاً. يتضح أنه يطالب بحرب وقائية فورية ضد روسيا. صحيح أنه لا يريد أن تحدث حرب، ويعتقد أنه يمكن منعها إن أظهرت الصلابة الكافية. لكن المغزى الأساسي من خطته: يجب ألا تمتلك القنابل الذرية سوى دولة واحدة وسيملكها الروس عاجلاً أو آجلاً إن لم يُعطلوا بحرب. كما يتضح أيضاً أن بيرنهام يهجر بشكل كبير صورته السابقة للعالم وليس الوجه الجغرافي منها فقط. في **الثورة الإدارية** تنبأ بيرنهام بظهور دول كبرى لن تكون قادرة على هزم بعضها البعض وتتقاسم العالم فيما بينها. الآن تضاءلت الدول الكبرى إلى اثنتين، وبفضل الأسلحة الذرية كلاهما لا تغلبان. لكن تبدل أكثر من ذلك. في الثورة الإدارية فهمنا ضمناً أن الدول الكبرى الثلاث ستكون متشابهة جداً. ستكون كلها شمولية واستبدادية في تركيبتها، أي أنها ستكون جماعية وليست ديمقراطية وستحكمها فئة من الإداريين والعلماء والبيروقراطيين الذين سوف يدمرون الرأسمالية ذات الأسلوب القديم ويخضعون الطبقة العاملة دائماً. في عبارة أخرى ـ سيسود شيء يشبه "الشيوعية" نوعاً ما في كل مكان. في **الميكيافيليين** أخفض من نغمة نظريته، لكنه استمر بالإصرار على أن السياسة ليست إلا صراع من أجل السلطة، وأن الحكومات يجب أن تُؤسس على القوة والخداع. الديمقراطية غير عملية، وفي كافة الأحوال لا تريدها الجماهير ولن تضحي دفاعاً عنها. في كتابه الحالي يبدو بيرنهام في الواقع بطل الديمقراطية من النمط القديم. الآن يقرر أن هناك مقداراً كبيراً في المجتمع الغربي يستحق المحافظة عليه. إن الإدارياتية مع عملها القسري والترحيل والمجازر والمحاكمات المدبرة، ليست المرحلة التالية المحتومة في التطور البشري، ويجب علينا أن نتحد ونقمعها قبل أن يفوت الأوان. يجب أن تحتشد كل القوى المتاحة فوراً تحت

راية العداء للشيوعية. إنه برنامج رجعي محافظ في الحقيقة، يدعو إلى حب الحرية والحشمة العادية، وليس إلى عاطفة دولية.

قبل انتقاد أطروحة بيرنهام، هناك شيء واحد يجب أن يقال. إن لدى بيرنهام شجاعة فكرية ويكتب عن قضايا حقيقية، وهو متأكد بأنه سيُدان ويُشجب كمروج للحروب بسبب كتابة هذا الكتاب. لكن إن كان الخطر حاداً كما يعتقد، سيكون المسار الذي اقترحه هو المسار الصحيح على الأرجح: وأكثر من هذا إنه يتحاشى الموقف الريائي المعتاد في "تجريم" السياسة الروسية، وبنفس الوقت يستنكر أن يكون الذهاب إلى الحرب صحيحاً في أي ظرف. أما في السياسة الدولية فيرى إما أن تكون مستعداً لممارسة التهدئة دائماً وبشكل غير محدود، أو أن تكون مستعداً للحرب في نقطة معينة. ويرى أيضاً أن التهدئة سياسة غير واقعية، لأن الأمة العظيمة التي تشعر بقوتها لا تسير فيها أبداً. سيشعر المرء من كل الذي سيحدث عاجلاً أو آجلاً بطلب ما لا يمكن التسامح معه، فيتخبط في حرب ربما كان تفاديها ممكناً لو أنه أخذ موقفاً قوياً وثابتاً مسبقاً. إن قول أشياء كهذه غير دارج في هذه الأيام، وبيرنهام يستحق الفضل في قولها، لكن هذا لا يعني أنه محق في حجته الأساسية. الشيء المهم هو عامل الوقت. كم لدينا من الوقت قبل لحظة الأزمة؟ بيرنهام كالعادة يرى كل شيء في أشد ألوانه كآبة، ولا يسمح لنا إلا بخمس سنوات أو عشر على الأكثر. إن كان ذلك صحيحاً ستكون الإمبراطورية العالمية الأمريكية هي الأمل الوحيد. من جانب آخر، إذا كنا نملك عشرين سنة نناور فيها، فهناك احتمالات أخرى وأفضل ينبغي ألا نهملها.

إذا لم تكن العلامات مخادعة جداً، فإن الاتحاد السوفييتي يتحضر لحرب ضد الديمقراطيات الغربية. وفي الواقع كما يقول بيرنهام بشكل محق إن الحرب حدثت مسبقاً في حرب اعتباطية ومتقطعة. متى ستندلع وتتحول إلى صراع شامل، فهذا سؤال صعب يثير كل أنواع المشاكل العسكرية والاقتصادية والعلمية التي لا يملك الصحفي أو المراقب السياسي أي معلومات ومعطيات عنها. لكن هناك نقطة واحدة مهمة جداً لحجة بيرنهام التي يمكن مناقشتها بشكل مفيد، وهي موقف الأحزاب الشيوعية و"رفاق السفر" والاتكال الذي وضعته عليهم الاستراتيجية الروسية.

يشدد بيرنهام على تكتيك "الارتشاح" الشيوعي. الشيوعيون ورفاقهم العلنيون والسريون والليبراليون الذين يلعبون لعبتهم بغير معرفة، موجودون في كل مكان. إنهم في النقابات وفي القوات المسلحة وفي إدارة الدولة وفي الصحافة وفي الكنائس وفي المنظمات الثقافية، في كل عصبة واتحاد ولجنة مع أهداف تقدمية مزعومة، يتسربون داخل كل شيء مثل فيروس عابر للمصفاة. في الوقت الراهن ينشرون الفوضى والسخط، وعندما تأتي الأزمة سيضربون بكل قوتهم فوراً، وعلاوة على ذلك فإن الشيوعي مختلف تماماً نفسياً عن كائن إنساني عادي كما يرى بيرنهام:

الشيوعي الحقيقي...... "إنسان مكرس لغرض ما". ليس لديه حياة خارج منظمته ومجموعة أفكاره المنظمة بشكل صارم. كل شيء يفعله وكل شيء يملكه، العائلة والوظيفة والمال والمعتقد والأصدقاء والحياة، كل شيء يخضع لشيوعيته وهو ثانوي بالنسبة إليها. إنه ليس شيوعياً في يوم الانتخاب أو في مراكز الحزب فقط. هو شيوعي دائماً. يأكل ويمارس الحب ويفكر ويذهب إلى الحفلات ويبدل مكان إقامته ويضحك ويهين كشيوعي دائماً. بالنسبة إليه العالم مقسوم إلى صنفين اثنين من البشر: الشيوعيون وكل البقية.

ومرة أخرى:

لقد كشفت محاكمات موسكو الصورية الطبيعة الحقيقة الدائمة للأخلاق الشيوعية: أي يجب ألا تكون ممتلكات الفرد المادية وحياته ثانوية وخاضعة فقط، وإنما سمعته وضميره وشرفه وكرامته أيضاً. يجب عليه أن يكذب ويتذلل ويغش ويبلغ ويخون من أجل الشيوعية ويموت أيضاً. ليس هناك قيد ولا حد.

هناك مقاطع كثيرة مشابهة. كلها تبدو صحيحة، حتى يبدأ المرء بتطبيقها على الشيوعيين الذين يعرفهم فعلياً. لا شك أن وصف بيرنهام لـ"الشيوعي الحقيقي" جيد ويناسب بضع مئات الآلاف أو الملايين من الناس المتعصبين والمجردين من إنسانيتهم الذين أغلبهم داخل الاتحاد السوفييتي ويشكلون نواة الحركة. ويعتبر وصفه لكل من ستالين ومولوتوف وجدانوف إلخ ولعملائهم الأكثر إخلاصاً من في الخارج جيداً. لكن هناك حقيقة واحدة صحيحة ومصادقة عن الأحزاب الشيوعية في أغلب البلدان، وهي الانقلاب السريع في

عضويتها. اندفع الناس للدخول بعشرات الآلاف في المرة الواحدة أحياناً، والآن يندفعون للخروج مرة أخرى. في بلد مثل الولايات المتحدة أو بريطانيا يتألف الحزب الشيوعي أساساً من حلقة داخلية من الأعضاء الخانعين تماماً الطويلي الأمد الذين لبعضهم وظائف مدفوعة ومن جماعة أوسع من العمال الصناعيين المخلصين للحزب، لكنهم لا يفهمون بالضرورة أهدافه الحقيقية ومن كتلة متغيرة من الناس الذين يملأهم الحماس، ليبدأوا لكنهم يبردون بسرعة. بالتأكيد إن كل جهد يبذل يهدف إلى إقناع أعضاء الحزب الشيوعي بالعقلية الشمولية التي يصفها بيرنهام، وقد حقق هذا نجاحاً دائماً في بضع الحالات ونجاحاً مؤقتاً في حالات كثيرة: لكنك يمكن أن تقابل أشخاصاً مفكرين ظلوا شيوعيين عشر سنين قبل أن يستقيلوا أو يطردوا ولم يتعطلوا فكرياً بالتجربة. مبدئياً إن الأحزاب الشيوعية في كل أرجاء العالم منظمات بائعة للأوطان (خائنة) موجودة لهدف التجسس والتمزيق، لكنها ليست بالضرورة كفوءة جداً وخطرة كما يوحي بيرنهام. لا ينبغي أن يعتقد المرء بأن الحكومة السوفييتية تسيطر في كل دولة على جيش ضخم سري من المحاربين المتعصبين، الذين لا يعرفون الخوف ولا تنتابهم الشكوك، وليس لديهم أية فكرة سوى أن يعيشوا أو يموتوا من أجل وطن العمال الأم. في الواقع إن كان ستالين ميالاً إلى مثل هذا السلاح فإن المرء سيضيع وقته في مقاومته.

ليس من مصلحة حزب سياسي تماماً أن يبحر تحت راية مزيفة. هناك دائماً خطر أن يهجره أتباعه في لحظة أزمة حين تكون أفعاله ضد الصالح العام بشكل واضح. دعني أضرب مثالاً في المتناول. لقد تخلى الحزب الشيوعي البريطاني كما يبدو على الأقل في الوقت الحالي، عن محاولة أن يصبح حزباً جماهيرياً، وبدلاً من ذلك ركز على انتزاع مواقع رئيسة خصوصاً في نقابات العمال. طالما لا يتصرف الشيوعيون كجماعة قطاعية بشكل واضح، فهذا يعطيهم تأثيراً أكبر من نسبتهم العددية. ولهذا ونظراً لفوز حفنة من المندوبين الشيوعيين بقيادة عدة نقابات، تستطيع هذه الحفنة التحكم بعدة ملايين من الأصوات في مؤتمر واحد لحزب العمل، وهذا ناتج عن العمل غير الديمقراطي الداخلي للحزب الشيوعي الذي يسمح لمندوب أن يتكلم عن ملايين الناس الذين لم يسمعوا به، أو ربما هم في خلاف تام معه. في الانتخابات البرلمانية حيث يصوت الفرد عن نفسه، لا يستطيع المرشح الشيوعي كقاعدة أن يحصل على أي دعم.

في الانتخابات العامة لعام ١٩٤٥ فاز الحزب الشيوعي بـ ١٠٠٠٠٠ صوت فقط في كل البلاد، رغم أنه كان يتحكم بملايين الأصوات داخل النقابات العمالية نظرياً. حين يكون الرأي العام ثابتاً وهاجعاً تستطيع مجموعات من محركي الأسلاك الخفيين إنجاز الكثير، لكن في أوقات الطوارئ يجب أن يكون للحزب السياسي جمهور يتبعه أيضاً. مثال واضح عن هذا فشل الحزب الشيوعي البريطاني بالرغم من المحاولات الكثيرة، في تعطيل جهد الحرب أثناء الفترة ما بين ١٩٣٩ - ١٩٤١. إن الشيوعيين في كل مكان قوة خطيرة بالتأكيد، وبالأخص في آسيا؛ حيث يملكون أو يستطيعون تقديم أنفسهم ظاهرياً بأنهم يملكون شيئاً ما يقدمونه للسكان المستعمرين. لكن على المرء ألا يفترض، كما فعل بيرنهايم، أنهم يستطيعون جذب أتباع وراءهم مهما كانت السياسة التي يتبنونها.

هناك أيضاً قضية "رفاق السفر" و"الأعضاء السريين" والمتعاطفين من أطياف متنوعة الذين يعززون أهداف الشيوعيين دون أن تكون لهم أية رابطة رسمية معهم. لا يدعي بيرنهام أن كل هؤلاء الناس محتالون أو خونة، لكن يعتقد كما يبدو أنهم يستمرون دائماً في نفس اللحن حتى لو تدهور الوضع العالمي إلى حرب مفتوحة. أخيراً "رفاق السفر" المتحررون من الوهم شخص مثل الشيوعي المتحرر من الوهم. الشيء المهم عمله مع هؤلاء الناس - صعب جداً لأن المرء لا يملك سوى دليل استنتاجي - فرزهم وتحديد الصادق وغير الصادق منهم. هناك مثلاً مجموعة كاملة من أعضاء البرلمان في البرلمان البريطاني (بريت وزيلاكوز إلخ) الذي لقبوا بشكل مشترك وعام بـ"الأعضاء السريين". هم بلا شك تسببوا في الكثير من الأذى وخصوصاً في تشويش الرأي العام حول طبيعة الأنظمة الدمى الحاكمة في أوروبا الشرقية، لكن على المرء ألا يتسرع ويفترض أنهم كلهم كذابون بالتساوي أو أنهم يعتنقون الآراء ذاتها حتى. ربما بعضهم لم يدفعه سوى الغباء. أخيراً هكذا أشياء حدثت من قبل.

وهناك أيضاً الانحياز المؤيد للفاشية من قبل التوريين البريطانيين والطبقة المشابهة لهم في الولايات المتحدة في سنوات قبل ١٩٣٩. حين يرى المرء عضو برلمان يبتهج ويهلل لخبر قصف الطائرات الإيطالية التي تخدم فرانكو للسفن البريطانية، هذا يغريك للاعتقاد بأن هؤلاء الناس خونة بالفعل لبلادهم، لكن حين تأتي القرصة (الضغط - الحرمان) يكتشف

أنهم وطنيون مثل الآخرين. إنهم بنوا آراءهم على قياس منطقي ينقصه الطرف الأوسط: الفاشية معادية للشيوعية لذلك هي في جانبنا. في دوائر الجناح اليساري هناك قياس منطقي مطابق: الاشتراكية معادية للرأسمالية لذلك هي تقدمية وديمقراطية. هذا غباء، لكنه يمكن أن يُقبل بقصد طيب من قبل القادرين على إدراك الحقيقة عاجلاً أو آجلاً. السؤال ليس إن كان "الأعضاء السريون" و"رفاق السفر" يقدمون مصالح الاتحاد السوفييتي على مصالح الديمقراطيات. من الواضح أنهم يفعلون هذا. السؤال الحقيقي هو كم منهم سيستمر بنفس الخط إن كانت الحرب وشيكة فعلاً؟ الحرب الكبرى - إلا إن كانت حرباً شنها بضعة من الاختصاصيين مثل بيرل هاربور بقنابل ذرية - غير ممكنة، حتى تصبح القضايا واضحة تماماً.

لقد توقفت عند مسألة الطوابير الخامسة داخل البلدان الديمقراطية، لأنها أقرب للإثبات من القضايا الأخرى التي يطرحها كتاب بيرنهام. بخصوص الاتحاد السوفييتي نفسه اقتصرنا على التخمين. نحن لا نعرف كم الروس أقوياء وكم عطلتهم الحرب، وعلى ماذا يعتمد شفاؤهم وإلى أي مدى سيعتمد شفاؤهم على المساعدة الأمريكية، وكم حجم السخط الداخلي الذي يواجهونه أو متى سيمتلكون الأسلحة الذرية. كل ما نعرفه بشكل مؤكد عدم وجود أي دولة كبرى في الوقت الحاضر تستطيع مادياً شن حرب سوى الولايات المتحدة، والولايات المتحدة ليست جاهزة نفسياً لفعل هذا. في نقطة ما حيث يتيسر دليل ما، يبدو بيرنهام لي أنه غالى في حالته، وهذه خطيئة مغرية باستمرار. إنه مغرم بالرؤى الدينية الغامضة ومستعد جداً للاعتقاد أن كل التطورات التاريخية المشوشة تحدث فجأة وبشكل منطقي. لكن أفترض أنه مخطئ. أفترض أن السفن لن تغرق وإنما ترشح فقط. أفترض أن الشيوعية ليست قوية بعد لتبتلع العالم، وأن خطر الحرب تأجل إلى عشرين سنة أو أكثر: عندها لن نقبل بعلاج بيرنهام - أو على الأقل لن نجبر على قبوله فوراً ومن غير جدال.

تتطلب نظرية بيرنهام، إن قبلت، أفعالاً فورية معينة.

الشيء الأول، أنها تطالب كما يبدو بحرب وقائية في المستقبل القريب طالما يمتلك الأمريكيون القنابل الذرية ولا يمتلكها الروس. حتى لو كان هذا الاستنتاج غير مبرر، فليس

هناك شكوك حول الطبيعة الرجعية لبرنامج بيرنهام في نقاط أخرى. مثلاً، لقد رأى في كتاباته في عام ١٩٤٦ أن الاستقلال التام يجب ألا يُعطى للهند لأسباب استراتيجية. هذا النوع من القرار يمكن أن يُؤخذ تحت ضغط ضرورة عسكرية، ولكنه غير مبرر في أي ظرف آخر. وها هو بيرنهام مرة أخرى يؤيد قمع الحزب الشيوعي الأمريكي والقيام بالفعل بشكل تام وكامل، ما يعني استخدام نفس الوسائل التي استخدمها الشيوعيون ضد خصومهم حين يكونون في السلطة. الآن هناك أوقات يبرر فيها قمع حزب سياسي. إن كنت تقاتل من أجل حياتك، وإن كانت هناك منظمة ما تعمل لصالح العدو علناً وقوية بما يكفي لتلحق الضرر بك، إذاً اسحقها وحطمها. لكن أن تقمع الحزب الشيوعي الآن أو في أي وقت لا يهدد فيه البقاء الوطني بشكل واضح، سيكون كارثياً. يجب على المرء المفكر استحسان الناس فقط! يدعي بيرنهام وقد يكون على صواب، أنه حين تتوطد الإمبراطورية الأمريكية يبات من الممكن الانتقال إلى هيئة عالمية مقبولة ومرضية أكثر. لكن المناشدة الأولى من برنامجه يجب أن تكون للمحافظين، وإن وجدت مثل تلك الإمبراطورية سيكون التأثير الثقافي الأقوى فيها للكنيسة الكاثوليكية.

في الوقت الراهن، هناك حل واحد ممكن تصوره في أي حال يهمله بيرنهام ويرفضه ولا يذكره تقريباً. ذلك، في مكان ما أو آخر - ليس في النرويج أو نيوزيلاندا وإنما فوف منطقة واسعة - أن نجعل الاشتراكية الديمقراطية تنجح. لو استطاع أحد تحقيق الأمان الاقتصادي بدون معسكرات العمل القسري ستختفي ذريعة الديكتاتورية الروسية، وستفقد الشيوعية الكثير من جاذبيتها. لكن المنطقة الملائمة والعملية الوحيدة هي أوروبا الغربية زائد أفريقيا. إن فكرة تشكيل هذه المنطقة الواسعة إلى ولايات اشتراكية متحدة لم تكسب أي رأي مويد بعد والمصاعب العملية والنفسية التي في الطريق هائلة. لكنه يظل مشروعاً ممكناً إن أراده الناس بشكل حقيقي وإن كانت هناك عشر سنوات أو عشرين من السلام الأكيد لتنفيذه في الواقع. وبما أن المبادرة يجب أن تأتي من بريطانيا في المقام الأول، الشيء الهام أن تتجذر هذه الفكرة وتترسخ وسط الاشتراكيين البريطانيين. في الوقت الحاضر إن كان لفكرة أوروبا موحدة أي انتشار يذكر، فذلك مرتبط بتشرشل. هنا يعود المرء إلى واحدة من النقاط الرئيسية في برنامج بيرنهام - اندماج بريطانيا مع الولايات المتحدة.

يعتقد بيرنهام أن الصعوبة الرئيسية في الطريق سيكون الكبرياء الوطني، بما أن بريطانيا ستكون الشريك الصغير. في الواقع لم يتبقَّ هناك الكثير من ذلك النوع الكبرياء، ولم يكن منذ سنين كثيرة مضت. بالمجمل، شعور عدائي للأمريكان في أشد قوته عند المعادين للإمبريالية والعسكرة. هذا ليس صحيحاً بالنسبة إلى الشيوعيين و"رفاق الطريق" الذين يتشوقون لفعل الضرر والأذى فقط، وإنما للناس الطيبين الذين يرون أن ربطهم بأمريكا ربما يعني رأسمالية محافظة في بريطانيا. لقد سمعت مراراً أو شاركت في أحاديث كهذه:

"كم أكره الأمريكيين! أحياناً يجعلوني أشعر بتأييد الروس تقريباً".

"نعم، لكنهم في الواقع ليسوا أعداءنا. إنهم ساعدونا في عام ١٩٤٠ حين كان الروس يبيعون النفط للألمان. لن نستطيع الوقوف على أقدامنا أطول من ذلك، وفي النهاية يجب علينا أن نختار بين الخضوع لروسيا أو الدخول مع أمريكا".

"أنا أرفض أن أختار. كلاهما قاطعي طريق تماماً".

"نعم لكن أفترض أنه عليك أن تختار. افترض أنه ليس هناك مخرج آخر، وأنك مجبر أن تعيش تحت النظام الأول أو الآخر. أيهما ستختار، روسيا أم أمريكا؟"

"أوه حسناً، طبعاً، إن كان المرء مجبراً على أن يختار، فليس هناك شك حولها – أمريكا طبعاً"

لقد أدرك الناس أن الاندماج مع الولايات المتحدة سيكون الطريق الوحيد للخروج من مصاعبنا. في الحقيقة، لقد كنا بلداً تابعاً تقريباً للولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٠ وورطتنا الاقتصادية اليائسة تدفعنا في هذا الاتجاه بشكل أسرع. إن الاتحاد الذي يرغب به بيرنهام قد يحدث من تلقاء ذاته وبدون ترتيب رسمي وبدون خطة أو فكرة خلفه. وأعتقد أن أقلية قليلة جداً صاخبة تفضل الاندماج مع النظام السوفييتي. إن الكتلة الكبرى من الشعب البريطاني لن تقبل بهذا أبداً، لكن الأشخاص المفكرين بينهم، لن يأخذوا في اعتبارهم البديل الممكن – الامتصاص من قبل أمريكا – بحماسة. أغلب اليساريين الإنكليز في الوقت الحاضر يؤيدون سياسة تافهة في "التعايش والانسجام مع روسيا" بأن نكون أقوياء بما يكفي لمنع هجوم، وضعفاء بما يكفي لنزع الشكوك. تحت هذا يكمن

الأمل أنه حين يصبح الروس أكثر ازدهاراً ربما يصبحون أكثر وداً ولطفاً. الطريق الآخر لخروج بريطانيا من أزمتها هو اتحاد الولايات الأوروبية الاشتراكية، الذي لاتزال له الكثير من الجاذبية بعد. وكلما طغت وسادت رؤية بيرنهام وأمثاله التشاؤمية للعالم، فإن صعوبة ظهور مثل تلك الأفكار وتمكنها تزداد.

يقدم بيرنهام خطة قد يكون لها حظ في النجاح ولكنها شريرة، ويجب ألا تُقبل عن طيب خاطر. في النهاية قد تقبل الشعوب الأوروبية بهيمنة أمريكية كطريقة لتجنب الهيمنة الروسية، لكن ينبغي أن يدركوا، بينما لايزال هناك الوقت، أن هناك إمكانيات أخرى. بنفس الطريقة تقريباً، لقد قبل الاشتراكيون بكافة ألوانهم تقريباً قيادة تشرشل أثناء الحرب حتى بفرض أنهم لم يريدوا لبريطانيا أن تهزم، ولأنه لا يستطيعون القيادة بأنفسهم ولعدم وجود أحد آخر فعال غيره، وكان تشرشل مفضلاً عند هتلر. لكن لو استطاعت الشعوب الأوروبية أن تفهم طبيعة الفاشية قبل خمس سنوات، لكان الوضع مختلفا، وفي تلك الحالة لكانت الحرب التي حدثت حرباً من نوع آخر، حرب حارب فيها الناس تحت قادة مختلفين ولغايات مختلفة.

إن ميل الكتاب من أمثال بيرنهام الذي فكرته الرئيسية هي "الواقعية"، أن يبالغ في تقدير الدور الذي تلعبه القوة الصرفة في العلاقات الإنسانية. أنا لا أقول إنه مخطئ طول الوقت. إنه محق تماماً في الإصرار على أن العرفان بالجميل ليس عاملاً في السياسات الدولية وحتى السياسة السامية لا فائدة منها، إذا لم تظهر طريقة عملية لتنفيذها وتفعيلها، وأنه في علاقات الأمم والمجتمعات، مقارنة بالأفراد، لا يستطيع المرء أن يأمل بأكثر من حلول مؤقتة ومنقوصة. وهو محق أيضاً في الجدل بأن المرء لا يستطيع أن يطبق على السياسة نفس القواعد الأخلاقية التي يطبقها أو يحاول أن يطبقها في حياته الخاصة الشخصية. لكن صورته عن العالم دائماً مشوهة قليلاً بطريقة ما. **الثورة الإدارية** مثلاً، يبدو لي وصفاً جيداً لما يحدث في أقسام مختلفة من العالم أي نمو المجتمعات ليس رأسمالياً وليس اشتراكياً ومنظم تقريباً على أساس نظام الطائفة. لكن بيرنهام يستمر في الجدل، بما أن هذا كان الذي يحدث، فليس هناك شيء غيره يمكن أن يحدث وأن الدولة الشمولية المتماسكة بإحكام يجب أن تكون أقوى من

الديمقراطيات الهيولية. لذلك - من بين أشياء أخرى - ألمانيا يجب أن تكسب الحرب. حتى بعد أن انهارت ألمانيا ولو جزئياً على الأقل بسبب بنيتها الشمولية. أي دولة أكثر ديمقراطية وأقل كفاءة، لم تكن ترتكب هكذا أخطاء في السياسة والاستراتيجية، ولم تكن ستثير هذا الحجم الكبير من الكره في كل أرجاء العالم.

إن كتاب بيرنهام أكثر من مجرد اقتراح لتنصيب إمبراطورية أمريكية طبعاً وهناك الكثير من التفاصيل الذي يتفق معه المرء فيها. أعتقد أنه محق إلى حد بعيد في وصفه للطريقة التي تعمل فيها الدعاية الشيوعية وفي صعوبة مجابهتها، وهو محق بالتأكيد في قوله إن واحدة من أهم المشاكل في هذه اللحظة، إيجاد طريقة لمخاطبة الشعب الروسي من وراء حكامهم. لكن الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب مثل كل شيء كتبه بيرنهام هو السلطة. بيرنهايم دائماً مفتون بالسلطة أن كان يؤيدها أو يقف ضدها، ودائماً يراها أكبر بقليل من الحياة. أولاً من كان سيبتلع العالم هي ألمانيا ثم روسيا بعدها، والآن أمريكا ربما. حين نشر كتابه الثورة الإدارية، تولد لدي انطباع أن وجدان بيرنهام وتعاطفه بالمجمل مع ألمانيا، وأنه قلق بكل الأحوال ألا تخسر الولايات المتحدة عبثاً بالمجيء لإنقاذ بريطانيا. المقال الذي نوقش كثيراً "وريث لينين" والذي كان أطروحة - أثر أدبي بالأحرى - عن قوة ومكر ووحشية ستالين، يمكن أن يُفسر كتعبير إما عن الاستحسان أو الاستهجان. أنا نفسي اعتبرته تعبيراً عن الاستحسان والقبول، لكن من النوع المروع.

هذا يبدو خطأ الآن. بيرنهام لا يؤيد ستالين أو الستالينية، وبدأ يجد فضائل في الديمقراطية الرأسمالية التي كان يعتبرها في حالة من السبات والاحتضار، ولكن نغمة سحر لاتزال فيها. قد تكون الشيوعية شريرة، لكنها كبيرة في أي حال مثل وحش مفترس، يقاتل المرء ضده دون أن يستطيع تفادي الإعجاب به. يعتقد بيرنهام دائماً بالوحوش والجوائح. لهذا لم يذكر احتمالين على الأقل كان يجب عليه أن يناقشهما في كتاب من هذا النوع. الأول أن النظام الروسي الحاكم ربما يصبح أكثر ليبرالية وأقل خطورة بعد جيل من الآن، إن لم تندلع الحرب في الوقت الفاصل. طبعاً هذا لن يحدث بموافقة الزمرة الحاكمة، لكن يمكننا أن نتصور أن ميكانيكا الوضع قد تحدثه. الإمكانية الأخرى أن

القوى العظمى سترتعب من آثار الأسلحة الذرية، ولن تستخدمها أبداً، لكن هذا يبدو باهتاً جداً وبطيئاً لبيرنهام. كل شيء يجب أن يحدث فجأة وتماماً، ويجب أن يكون الخيار كل شيء أو لا شيء قابلاً للتحقق المجد أو الخراب:

ربما تؤدي كآبة المأساة الكبرى إلى تسريع نهاية التاريخ القصير والساطع للولايات المتحدة - لأن هناك ما يكفي من الحقيقة في الحلم بالعالم الجديد بأن يجعل الفعل مأساوياً. لقد استدعيت على الولايات المتحدة قبل أن تكتمل التمارين والتجارب. قوتها ووعدها لم تنضجها حكمة الزمن والمعاناة. والطلبات ليست أقل من قيادة العالم، هذا أو لا شيء. من المعقول توقع الفشل وذلك مجرد قياس لحجم الانتصار المأمول.

قد تكون الأسلحة الحديثة سرعت الأشياء إلى النقطة التي يمكن أن يكون فيها بيرنهام محقاً، لكن لو حكم المرء من الماضي ومن الكوارث الهائلة مثل سقوط الإمبراطورية الرومانية، فإن التاريخ لا يحدث أبداً بهذا الشكل الميلودارمي. نيوليدر (نيويورك) ٢٩ مارس ١٩٤٧.

نحو وحدة أوروبية

إن الاشتراكي اليوم في موقع طبيب يعالج كل شيء ماعدا الحالة الميئوس منها، ومن واجبه كطبيب إبقاء المريض على قيد الحياة، وبالتالي الافتراض أن للمريض فرصة في الشفاء على الأقل، ولكن من واجبه كعالم أيضاً أن يواجه الحقائق، وبالتالي أن يعترف أن المريض ربما يموت. ليس لنشاطاتنا كاشتراكيين أي معنى إلا إذا سلمنا بأن الاشتراكية يمكن أن تتوطد، لكن لو توقفنا لتأمل ما يحتمل أن يحدث، علينا عندئذ أن نعترف أن الفرص ضدنا في اعتقادي. لو كنا ناشري كتب ونحسب ببساطة الاحتمالات الراجحة ونترك رغباتنا جانباً، لأعطيت أفضليات ضد بقاء الحضارة خلال المائة سنة القادمة. فهناك ثلاثة احتمالات أمامنا:

١ - سيقرر الأمريكيون استعمال القنبلة الذرية طالما هم يملكونها ولا يملكها الروس. هذا لن يحل شيئاً. سوف تتخلص من خطر محدد تمثله جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية الآن، لكنها ستؤدي إلى ظهور إمبراطوريات جديدة وتنافسات جديدة وحروب أكثر وقنابل ذرية أكثر..إلخ. في كل حال هذه هي النتيجة الأقل احتمالاً بين الثلاث في رأيي، لأن الحرب الوقائية جريمة لا تغتفر بسهولة في بلاد تحتفظ بأقل قدر من الديمقراطية.

٢ - ستستمر 'الحرب الباردة' الحالية حتى يمتلك الاتحاد السوفييتي وبلدان أخرى غيره القنابل الذرية أيضاً. عندها فقط سيكون هناك فاصل قصير قبل أن نطلق الصواريخ وتنطلق القنابل وتمسح المراكز الصناعية العالمية عن وجه الأرض بشكل عصي على الإصلاح وحتى لو انبثقت دولة واحدة أو مجموعة من الدول من هكذا حرب كمنتصر تقني ستكون عاجزة عن بناء حضارة الآلة من جديد، لذلك سيسكن العالم مرة أخرى بضعة ملايين أو بضعة مئات الآلاف من الكائنات البشرية التي ستعتاش على مورد الزراعة، وربما بعد جيلين اثنين لن نحتفظ من حضارة الماضي بأكثر من معرفتنا كيف نصهر المعادن. هذا نتيجة مرغوبة في تصوري، لكن من الواضح أنها لا علاقة لها بالاشتراكية.

٣ - سيكون الخوف الذي أثارته القنبلة الذرية وأسلحة أخرى لم تأتِ بعد عظيماً، لذلك سيمتنع كل واحد عن استعمالها. يبدو لي هذا الاحتمال الأسوأ من الكل، وسوف يعني تقسيم

العالم بين دولتين أو ثلاث دول عظمى عاجزة عن هزم بعضها البعض ولا يمكن الإطاحة بها بواسطة عصيان داخلي وستكون تركيبتها في كل الاحتمالات تراتبية، تتربع طائفة شبه مقدسة في القمة وعبودية صريحة في القاع، وسيفوق سحق الحريات فيها أي شيء شهده العالم، وسيتم الحفاظ ضمن كل دولة على الجو النفسي الضروري بواسطة الفصل التام عن العالم الخارجي وبواسطة حرب زائفة مستمرة ضد الدول المنافسة. حضارة من هذا النوع قد تبقى راكدة لآلاف السنين.

إن أغلب الأخطار التي أوجزتها موجودة وتم التنبؤ بها منذ زمن طويل قبل اختراع القنبلة الذرية، والطريقة الوحيدة لتفاديها التي أستطيع تخيلها، أن نقدم في مكان ما أو آخر وعلى صعيد واسع مشهداً لمجتمع الناس فيه أحرار وسعداء نسبياً، والدافع الرئيسي في الحياة فيه ليس السعي وراء المال أو السلطة. بعبارة أخرى يجب أن تمكن الاشتراكية الديمقراطية من العمل في منطقة كبرى ما. لكن المنطقة الكبرى الوحيدة التي يمكن أن تعمل فيها في أي مستقبل قريب هي أوروبا الغربية. بمعزل عن أستراليا ونيوزلندا، لا يمكن القول بوجود بيئة اشتراكية ديمقراطية إلا في الدول الاسكندنافية وألمانيا والنمسا وتشيكسلوفاكيا وسويسرا والبلدان المنخفضة وفرنسا وبريطانيا وإسبانيا وإيطاليا، حتى هنا لا توجد إلا في مخاطر. في تلك البلدان فقط هناك أعداد ضخمة من الناس لازال لكلمة اشتراكية بعض الجاذبية ومرتبطة بالحرية والمساواة والدولية بالنسبة إليهم. أما في أي مكان آخر فليس لها ولو موطئ قدم أو أنها تعني شيئاً مختلفاً. في أمريكا الشمالية الجماهير قانعة بالرأسمالية ولا يستطيع المرء أن يتنبأ بأية دورة سيأخذون حين تبدأ الرأسمالية بالانهيار. هناك، في الاتحاد السوفييتي، يسود نوع من الجماعية الأوليغاركية، التي يمكن أن تتطور فقط إلى اشتراكية ديمقراطية ضد إرادة الأغلبية الحاكمة. في آسيا اختُرقت كلمة 'اشتراكية' بصراحة. الحركات القومية الآسيوية إما حركات فاشية بطبيعتها أو تتطلع نحو موسكو أو نجحت في الجمع بين الموقفين: وفي الوقت الحاضر كل الحركات وسط الشعوب الملونة تشوبها مسحة من التصوف العرقي. في أمريكا الجنوبية الوضع مماثل في الجوهر وهكذا الأمر في أفريقيا والشرق الأوسط. لا توجد الاشتراكية في أي مكان آخر، وحتى كفكرة هي غير سارية إلا في أوروبا في الوقت الحاضر. طبعاً لا يمكن القول إن الاشتراكية لن تتوطد حتى تصبح في كل أرجاء العالم، لكن العملية

يجب أن تبدأ في مكان ما، ولا أستطيع تخيلها أن تبدأ إلا من خلال اتحاد دول أوروبا الغربية وتحولها إلى جمهوريات اشتراكية بدون ملاحق استعمارية. لذلك دول أوروبا الاشتراكية المتحدة تبدو لي الهدف السياسي الجدير الوحيد اليوم. هكذا اتحاد سيضم ٢٥٠ مليون نسمة وربما يشمل نصف العمال الصناعيين المهرة في العالم. أنا لست بحاجة لأن يقال لي إن صعوبات تحقيق شيء كهذا هائلة ومرعبة، وسأدرج بعضها في قائمة في لحظة، لكن ينبغي علينا ألا نشعر أنها مستحيلة في طبيعتها أو أن البلدان المختلفة جداً عن بعضها البعض لن تتوحد طوعياً. إن اتحاد أوروبي غربي بحد ذاته هو نتيجة محتملة أكثر من الاتحاد السوفييتي أو الإمبراطورية البريطانية.

والآن إلى المصاعب. الصعوبة الكبرى هي اللامبالاة والنزعة المحافظة للناس في كل مكان وجهلهم للخطر وعجزهم عن تخيل أي شيء جديد - عموماً، كما صاغها برتراند راسل مؤخراً، رفض العرق البشري الإذعان إلى بقائه. لكن هناك أيضاً قوى حقودة فاعلة تعمل ضد الوحدة الأوروبية وهناك علاقات اقتصادية قائمة تعتمد عليها الشعوب الأوروبية في مستوى معيشتها لا تنسجم مع الاشتراكية الحقيقية. أجدول ما يبدو لي أنه العقبات الرئيسية الأربع، وسأشرح كل منها باختصار بقدر الممكن:

١ - الخصومة الروسية. لا يستطيع الروس إلا أن يكونوا عدائيين لأي اتحاد أوروبي غير خاضع لسيطرتهم، لذلك على المرء أن يدخل هذا في حسبانه مع خطر الحرب الوقائية والترهيب المنهج للأمم الأصغر وتخريب الأحزاب الشيوعية في كل مكان، وأهم من ذلك الخطر أن تستمر الجماهير الأوروبية في تصديق الخرافة الروسية. طالما هم يصدقونها لن تكون فكرة أوروبا اشتراكية جذابة بما يكفي لتحريض الجهد الضروري.

٢ - الخصومة الأمريكية. إن ظلت الولايات المتحدة رأسمالية وإن احتاجت إلى أسواق للتصدير خصوصاً، فلن تنظر بعين الود إلى أوروبا اشتراكية. لاشك أن احتمال تدخلها بالقوة الوحشية أقل من الاتحاد السوفييتي، لكن الضغط الأمريكي عامل هام ويمكن ممارسته بسهولة على بريطانيا الدولة الوحيدة في أوروبا التي تقع خارج الفلك الروسي. منذ عام ١٩٤٠ حافظت بريطانيا على وقفتها ضد الديكتاتوريين الأوروبيين على حساب أن تصبح تقريباً بلداً تابعاً للولايات المتحدة. في الواقع لا تستطيع بريطانيا أن تتحرر من أمريكا، إلا

بإسقاط محاولتها بأن تكون قوى أوروبية زائدة. إن السيادات الناطقة بالإنكليزية التابعة لبريطانيا والبلدان المستعمرة ما عدا أفريقيا وحتى موارد بريطانيا من النفط كلها رهائن بيد أمريكا. لذلك هناك دائماً الخطر بأن تفكك الولايات المتحدة أي تحالف أوروبي بسحب بريطانيا منه.

٣ - الإمبريالية. تدين الشعوب الأوروبية وخصوصاً الشعب البريطاني منذ وقت طويل بمستوى معيشتها العالي، إلى الاستغلال المباشر أو غير المباشر للشعوب الملونة. هذه العلاقة لم توضحها الدعاية الشيوعية الرسمية أبداً، وبدلاً من أن يخبروا العامل البريطاني أنه يعيش فوق دخله بالمعايير العالمية، علموه أن يعتبر نفسه عبداً مستغلاً ومجهداً بالعمل. بالنسبة إلى الجماهير في كل مكان تعني الاشتراكية أو تترافق على الأقل مع أجور أعلى وساعات عمل أقصر وبيوت أفضل وتأمين اجتماعي شامل..إلخ، لكننا بالتأكيد لا نستطيع توفير هذه الأشياء إن تخلينا عن المنافع التي نجنيها من الاستغلال الاستعماري. كيفما قسمنا الدخل القومي بالتساوي، فإن هبط الدخل ككل يجب أن يهبط معه مستوى معيشة الطبقة العاملة، وفي أفضل الأحوال ستكون هناك فترة طويلة وغير مريحة من إعادة التنظيم والبناء لم يُحضر الرأي العام لها. لكن بنفس الوقت يجب على الأمم الأوروبية أن تكف عن استغلالها في الخارج إن كانت تنوي بناء اشتراكية حقيقية في أوطانها. إن الخطوة الأولى نحو اتحاد أوروبي اشتراكي بالنسبة إلى البريطانيين أن يخرجوا من الهند، لكن هذا يستلزم شيئاً آخر. لكي تكون الدول الأوروبية المتحدة مكتفية ذاتياً وقادرة أن تستجمع قواها وتدافع عن نفسها ضد روسيا وأمريكا، يجب أن تشمل معها أفريقيا والشرق الأوسط، لكن هذا يعني ضرورة تغيير موقف الشعوب الأصلية في تلك البلدان بواسطة الاعتراف بها - أي يجب ألا تبقى المغرب وإثيوبيا مستعمرات أو شبه مستعمرات، وتصبح جمهوريات مستقلة ذاتياً وعلى مساواة تامة مع الشعوب الأوروبية. هذا يشترط تغييراً واسعاً في وجهة النظر وصراعاً مريراً ومعقداً قد لا يُسوى بدون سفك دم. حين تأتي الشدة تنقلب قوى الإمبريالية لتكون قوية جداً، والعامل البريطاني الذي علموه أن ينظر إلى الاشتراكية بشروط مادية، قد يقرر أخيراً أن الأفضل له أن يبقى قوة إمبريالية بدلاً من أن يرضى بدور ثانوي لدى أمريكا. في كل الأحوال ستواجه الشعوب الأوروبية التي ستشكل جزءاً من الاتحاد المزعوم نفس الخيار في درجات مختلفة.

٤ - الكنيسة الكاثوليكية. بازدياد الصراع بين الشرق والغرب الذي بات مكشوفاً، هناك خطر أن يندفع الاشتراكيون الديمقراطيون والرجعيون إلى نوع من جبهة شعبية. الكنيسة هي الجسر المحتمل بينهما. في أي حال ستبذل الكنيسة كل جهدها للاستيلاء على أي حركة تهدف إلى وحدة أوروبية وإجدابها. الشيء الخطير حول الكنيسة أنها ليست رجعية في العقل العادي، وهي ليست مرتبطة بالرأسمالية أو بالنظام الطبقي القائم، ولن تفنى معهما بالضرورة، وهي قادرة تماماً أن تتصالح مع الاشتراكية أو تتظاهر بذلك، بشرط أن يبقى موقعها مصاناً، وستجعل من تأسيس الاشتراكية أمراً مستحيلاً، لأن تأثيرها دائم ويجب أن يكون ضد حرية الفكر والتعبير وضد المساواة الإنسانية وضد أي شكل للمجتمع يميل إلى تعزيز السعادة الأرضية.

حين أفكر بالمصاعب الأخرى، حين أفكر بإعادة الضبط والتعديل العقلي الهائل الذي يجب أن يتم، يبدو لي مظهر الدول الأوروبية الاشتراكية المتحدة حدثاً غير محتمل. لا أقصد أن القسم الأعظم من الناس غير معد ومجهز بطريقة سلبية، وإنما أقصد أنني لا أرى شخصاً أو جماعة من الأشخاص لهم أضعف فرصة في الوصول إلى السلطة وبنفس الوقت لديهم فهم تخيلي واسع ليروا الحاجات الملحة ويطالبوا بالتضحيات الضرورية من أتباعهم. لكنني أيضاً لا أرى أي هدف مشجع في الوقت الحاضر. سابقاً اعتقدت أن تشكيل الإمبراطورية البريطانية وتحويلها إلى اتحاد من الجمهوريات الاشتراكية أمر ممكن، لكن حتى لو وجدت تلك الفرصة، فنحن أضعناها بسبب فشلنا في تحرير الهند وموقفنا نحو الشعوب الملونة عموماً. ربما انتهت أوروبا، وعلى المدى البعيد قد يظهر شكل أفضل للمجتمع في الهند أو الصين، لكنني أعتقد أن أوروبا وليس أي مكان آخر هي التي يمكن أن تصبح فيها الديمقراطية الاشتراكية حقيقة وواقعاً في وقت قصير يكفي لمنع إسقاط القنابل الذرية.

طبعاً، هناك أسباب، إن لم تكن للتفاؤل، فعلى الأقل لإرجاء الحكم على نقاط محددة. أحد الأشياء التي لصالحنا أن الحرب الرئيسية غير محتملة الحدوث فوراً. أعتقد أنه يمكن أن يكون لدينا نوع الحرب الذي يتألف من إطلاق صواريخ وليست حرباً تنطوي على تعبئة عشرات الملايين من الرجال. في الوقت الحاضر أي جيش ضخم قد يتفكك، وهذا قد يبقى صحيحاً لعشر سنوات أو حتى عشرين. خلال ذلك الوقت قد تحدث أشياء غير متوقعة. فمثلاً قد

تظهر حركة اشتراكية جبارة لأول مرة في الولايات المتحدة. في إنكلترا الحديث الرائج الآن أن الولايات المتحدة دولة 'رأسمالية' مع المعنى الضمني بأن هذا شيء غير قابل للتغيير وهو نوع من صفة عرقية كلون العيون أو الشعر. لكن في الواقع لا يمكن أن تكون عصية على التغيير، لأن الرأسمالية نفسها ليس لها مستقبل كما هو واضح ونحن غير واثقين مقدماً من أن التغيير التالي في الولايات المتحدة لن يكون تغييراً نحو الأفضل.

ثم نحن لا نعرف ما هي التغييرات التي ستحدث في الاتحاد السوفييتي أيضاً إن استطاع الجيل التالي تفادي الحرب. في مجتمع من ذلك النوع فإن التغيير الراديكالي غير مرجح دائماً ليس لأنه لا يمكن أن تكون هناك معارضة علنية، وإنما لأن نظام الحكم بسيطرته التامة على التعليم والأخبار..إلخ يهدف متعمداً إلى منع الحركة النشطة المطردة بين الأجيال التي تحدث في المجتمعات الليبرالية. لكننا كلنا نعرف أن النزعة عند كل جيل في رفض أفكار الجيل السابق هي صفة إنسانية ثابتة تعجز عن اجتثاثها حتى وزارة الداخلية السوفييتية. في تلك الحالة بحلول عام ١٩٦٠ ربما يكون هناك الملايين من الشباب الروس الذين يضجرون من الديكتاتورية ومواكب الولاء ويتوقون إلى مزيد من الحرية وينظرون إلى الغرب بعين الود.

أو يمكن أن ينقسم العالم إلى ثلاث دول عظمى لا تُقهر أيضاً وتكون البيئة الليبرالية قوية بما يكفي ضمن القسم الأنغلو - أمريكي من العالم لتجعل الحياة مقبولة وتوفر بعض الأمل في التقدم أيضاً، لكن هذا تخميناً واحتمالات، وعلى النظرة الحقيقية والتفكير الجدي أن ينطلقا من الواقع.

نشرت لأول مرة في بارتيزان ريفيو - تموز/ يوليو - أب/ أغسطس ١٩٤٧ المقالات المجمعة صحافة ورسائل أورويل.

بلادي يمينية أم يسارية تظل بلادي

عكساً للاعتقاد الشعبي، لم يكن الماضي زاخراً بالأحداث أكثر من الحاضر، وإن بدا هكذا، فذلك لأنك حين تنظر إلى الأشياء التي حدثت منذ سنين كل على حدة تكون مضغوطة ومتداخلة معاً ولأن قلة قليلة من ذكرياتك تعود إليك نقية بشكل صادق، ويعود أغلب السبب إلى الكتب والأفلام والذكريات الماضية المختلفة عنها، فتبدو الحرب التي حدثت بين ١٩١٤ - ١٩١٨ كأنها تمتلك صفة هائلة وملحمية تفتقر إليها الحرب الحالية.

لكن لو كنت حياً أثناء تلك الحرب وعزلت ذكرياتك الحقيقية عن إضافاتها المتأخرة، لوجدت أنها لم تكن الأحداث الكبيرة المعتادة التي هيجتك مرة، فأنا لا أعتقد أن معركة مارني مثلا، لها الخاصية الميلودرامية (المثيرة) التي أعطيت لها فيما بعد عند الجمهور العام، ولا أتذكر أنني سمعت عبارة "معركة مارني" إلا بعد سنوات من حدوثها أنها كانت مجرد أن الألمان كانوا على بعد اثنين وعشرين ميلًا عن باريس - وبالتأكيد كان ذلك مروعاً جداً بعد قصص الأعمال الوحشية في بلجيكيا - ثم تراجعوا إلى الوراء لسبب ما. كنت في الحادية عشرة من العمر حين بدأت الحرب. لو فرزت ذكرياتي بصدق وتغاضيت عما تعلمته فيما بعد، لوجب علي أن أعترف أنني لم أتأثر بشيء خلال السنة كلها بعمق مثلما فعل بي فقدان التايتانيك قبل ذلك بقليل. هذه كارثة صغيرة بالمقارنة صدمت العالم كله ولم تتلاشَ الصدمة تماماً بعد. أنا أتذكر التقارير والأخبار المفصلة الفظيعة التي قرأتها بصوت عالٍ على طاولة الإفطار (في تلك الأيام كانت قراءة الصحيفة بصوت عال عادة شائعة) وأتذكر من بين كل قائمة الطويلة للأحداث المرعبة أن الحدث الذي أثر بي أكثر من الكل أن التايتانيك انقلبت فجأة أخيراً وغرقت مقدمتها أولاً، وارتفع الناس الذين تشبثوا بمؤخرة السفينة إلى أكثر من ثلاثمائة قدم في الهواء، قبل أن يغطسوا ويغرقوا في اللج، وولد في نفسي إحساساً كئيباً في البطن، لا أزال أشعر به، ولم يكن فيها في كل الحرب شيء ولد في نفسي مثل هذا الإحساس تماماً.

من نشوب الحرب، لدي ثلاث ذكريات نشطة لكونها تافهة ولا علاقة لها بالموضوع والتي لم تتأثر بأي شيء أتى لاحقاً. واحدة عن الصورة الكاريكاتورية للإمبراطور الألماني (أعتقد أن الاسم البغيض "القيصر" لم يصبح جماهيرياً إلا بعد وقت لاحق) التي ظهرت في الأيام الأخيرة من تموز يوليو. صدم الناس ببرود من السخرية من شخصية ملكية (لكنه في الحقيقة رجل وسيم!) رغم أننا كنا على حافة الحرب. الذكرى الأخرى حين صادر الجيش كل الخيول في بلدتنا الريفية الصغيرة، وبكى سائق عربة نقل في السوق حين أخذوا منه حصانه الذي كان يعمل عنده سنوات. والذكرى الثالثة لجمهرة من الشبان في محطة القطار تزاحموا من أجل صحف المساء التي وصلت لتوها في قطار لندن، وأتذكر كومة الصحف الخضراء (بعضها مازال أخضر في تلك الأيام) والياقات العالية والسراويل الضيقة والقبعات السوداء المستديرة، أفضل بكثير مما أستطيع تذكره عن أسماء المعارك الرهيبة التي كانت مستعرة على الجبهة الفرنسية.

في منتصف سنوات الحرب، أتذكر بشكل رئيس الأكتاف القوية وبطات الساق المتورمة والمهاميز المجلجلة لجنود المدفعية، الذين فضلت زيهم الرسمي على زي جنود المشاة. بالنسبة إلى الفترة النهائية الحاسمة، إن سألتني أن أتحدث بصدق عن الذكرى الرئيسية عندي، يجب أن أجيب ببساطة - السمن النباتي الصناعي. إنه شاهد على أنانية الأطفال الرهيبة قبل ١٩١٧ ولم تعد الحرب تحرك مشاعرنا إلا عبر بطوننا. في مكتبة المدرسة، خريطة ضخمة للجبهة الغربية ثبتت بإبر على حمالة، مع خيط حريري أحمر يسير بخط على دبابيس الرسم. أحياناً يتحرك الخيط بوصة بهذا الاتجاه أو ذاك، كل حركة تعني هرماً من الجثث. لم أبد أي اهتمام. كنتُ في المدرسة مع صبيان كانوا فوق متوسط مستوى الذكاء، ومع ذلك لا أتذكر أن حدثاً رئيسياً واحداً من ذلك الوقت بدا لنا في دلالته الحقيقية. الثورة الروسية مثلاً لم تترك أي أثر علينا، ماعدا قلة صدف أن لآبائهم أموالاً مستثمرة في روسيا. بين الصغار جداً دخل رد الفعل الرافض لحمل السلاح قبل أن تنتهي الحرب بوقت طويل، واعتبر الإهمال والتجرؤ على الاستعراضات العسكرية في المدارس وعدم الاكتراث بالحرب علامة تنوير. الضباط الصغار الذين عادوا وتقسوا بتجربتهم الرهيبة واشمأزوا من موقف الجيل الأصغر الذين لم تعنِ لهم تلك التجربة أي شيء، كانوا يوبخوننا على وهننا. طبعاً لم يستطيعوا إبراز

أي برهان كنا قادرين على فهمه، ولم يستطيعوا سوى النباح بوجهك بأن الحرب "شيء جيد" و"تجعلك صلب العود" و"تحفظ لياقتك" إلخ..إلخ. وكنا نسخر منهم فقط، وكانت حجتنا العوراء (السلامية - رفض حمل السلاح)، بأن الحرب امتياز للبلدان المحمية بأساطيل قوية. لسنوات بعد الحرب ظلت أية معرفة أو اهتمام بالمسائل العسكرية حتى لو معرفة أي طرف من البندقية تخرج منه الرصاصة شبهة بالدوائر "المتنورة" ١٩١٤ - ١٩١٨ شُطبت كمذبحة لا معنى لها، وحتى الرجال الذين ذبحوا تعرضوا للوم بطريقة ما. ضحكت مراراً عند التفكير في ذلك الملصق الخاص عن التطوع. "ماذا فعلت في الحرب العظمى يا أبي؟" (طفل يسأل هذا السؤال والده المصاب بالخزي) وكل الرجال الذين جرى إغراؤهم في الدخول إلى الجيش بذلك الملصق فقط، وبعد أن احتقرهم أولادهم لأنهم لم يكونوا من المعارضين ذوي الضمير الحي.

لكن الرجال الموتى نالوا انتقامهم أخيراً. بعد أن انتهت الحرب وأصبحت من الماضي، أدرك جيلي بالخصوص - هؤلاء الذين كانوا "صغاراً جداً" - سعة التجربة التي ضيعها، فكنت تشعر أنك أقل من رجل لأنك فقدتها. أمضيت السنوات ١٩٢٢ - ١٩٢٧ وسط أناس أكبر مني عمراً بقليل، خاضوا تجربة الحرب. تحدثوا عنها بلا توقف، برعب طبعاً، لكن بحنين متزايد بشكل ثابت أيضاً. تستطيع رؤية هذا الحنين تماماً بوضوح في كتب الحرب الإنكليزية. بالإضافة إلى ذلك، كان رد فعل رافضي حمل السلاح مجرد طور وحتى "الصغار جداً" تدربوا جيداً للحرب. أغلب أفراد الطبقة الوسطى تدربوا على الحرب من المهد فصاعداً ليس فنياً وإنما أخلاقياً. الشعار السياسي الأقدم الذي أتذكره هو "نحن نريد (ثمانية دروع) ولن ننتظر" في سن السابعة كنت عضواً في عصبة البحرية، ولبست بدلة بحار مع "سفينة ملكية لا تغلب" على قبعتي. حتى قبل مدرستي العامة، كنت في كتيبة التلاميذ في مدرسة خاصة. بشكل متقطع كنت أمشي بخطى قصيرة ببندقية منذ أن كنت في العاشرة، استعداداً ليس للحرب فقط بل لنوع خاص من الحرب، حرب ترتفع فيها البنادق إلى نشوة مسعورة من الضجيج، وفي اللحظة المعينة تتسلق وتخرج من الخندق وتكسر أظافرك على أكياس الرمل وتتعثر عبر الوحل والأسلاك تحت وابل من رصاص البنادق الرشاشة. أنا مقتنع أن قسماً من سبب الافتتان بالحرب الإسبانية الأهلية للأشخاص الذين بعمري تقريباً،

لأنها كانت تشبه الحرب الكبرى كثيراً. في أوقات معينة قدر فرانكو على الزج بطائرات كافية ورفع الحرب إلى المستوى الحديث، وكانت هذه نقاط تحول. لكن بقيتها كانت نسخة رديئة من ١٩١٤ - ١٩١٨، حرب خنادق موضعية ومدفعية وغارات جوية وقناصين وأسلاك شائكة وقمل وركود. في بداية عام ١٩٣٧ كان الجزء من جبهة أراغون الذي كنت فيه مثل قطاع هادئ في فرنسا في عام ١٩١٥. لم تنقصه سوى المدفعية. حتى في المناسبات النادرة التي كانت كل المدافع في هويسكا وخارجها تطلق النار في وقت واحد، لم تكن تخلق سوى ضجيج متقطع غير مؤثر مثل انتهاء عاصفة رعدية وكانت القذائف من عيار ست بوصات التي تطلقها مدفعية فرانكو تصدر صوتاً عالياً، لكن لم يكن منها أكثر من دزينة في المرة الواحدة. أعرف بماذا شعرت حين سمعت المدفعية تطلق نيرانها لأول مرة "بغضب" كما يقولون، كان شعوراً بالخيبة إلى حد ما، وكان مختلفاً جداً عن الهدير الهائل غير المتقطع الذي كانت تنتظره حواسي لمدة عشرين سنة.

لا أعرف تماماً في أية سنة عرفت لأول مرة بيقين أن الحرب الحالية قادمة. بعد عام ١٩٣٦ طبعاً كان الشيء واضحاً لكل شخص ما عدا الأبله. لسنوات كثيرة كانت الحرب القادمة كابوساً لي، حتى أني ألقيت خطباً وكتبت كراسات ضدها في بعض الأوقات. وفي الليلة التي سبقت إعلان المعاهدة الروسية الألمانية، حلمت أن الحرب بدأت. كان واحداً من تلك الأحلام التي مهما كان معناه الداخلي الفرويدي، فهو يكشف لك أحياناً عن الحالة الحقيقية لمشاعرك. لقد علمني شيئين اثنين، الأول أنني يجب أن أكون هادئاً ومرتاحاً حين تبدأ الحرب الطويلة المروعة، ثانياً لأنني كنت وطنياً في الصميم، فلن أشارك في أي عمل تخريبي ضد بلادي أو أقاتل ضدها، وسأؤيد الحرب وأقاتل فيها إن أمكن. نزلت إلى الطابق السفلي لأجد الجرائد تعلن عن ذهاب ريبينتروب جواً إلى موسكو [في ٢١ آب/ أغسطس دعي ريبينتروب إلى موسكو، وفي ٢٣ أغسطس وقع هو ومولوتوف المعاهدة الروسية الألمانية]. لهذا كانت الحرب قادمة، وكانت الحكومة حتى حكومة تشامبرلاين متأكدة من ولائي. لا حاجة إلى القول إن هذا الولاء كان ويبقى مجرد إيماءة، لأن كل واحد تقريباً يعرف أن الحكومة رفضت بصراحة أن تستخدمني في أي عمل مهم، حتى لو كان كاتباً في مكتب أو جندياً. لكن ذلك لا يغير مشاعر المرء، وسوف يجبرون على الاستفادة منا عاجلاً أو آجلاً أيضاً.

إن كان عليّ أن أدافع عن مبرراتي لتأييد الحرب، فيمكنني فعل ذلك كما أعتقد. ليس هناك بديل حقيقي بين مقاومة هتلر والاستسلام له. ومن وجهة نظر اشتراكية، يجب أن أقول إن الأفضل أن تقاوم. وفي كل الأحوال، لا أرى أية حجة تفضل الاستسلام لا تتفه المقاومة الجمهورية في إسبانيا والمقاومة الصينية لليابان إلخ..إلخ، لكنني لا أزعم أن ذلك كان الأساس العاطفي لأفعالي. ما عرفته في حلمي في تلك الليلة، كان تلك الوطنية الثاقبة الطويلة التي تشعر بها وتحملها الطبقات الوسطى، والتي فعلت فعلتها، وعرفت أنه من المستحيل لي أن أخرب بمجرد أن تكون إنكلترا في ورطة خطيرة. لكن يجب ألا أدع أحداً يسيء فهم ما أعنيه. إن الوطنية تختلف تماماً عن النزعة المحافظة، وليس لها أية علاقة بها. هي إخلاص وحب لشيء يتبدل، لكنك تشعر بشكل غامض أنها نفسه مثل حب البلاشفة البيض السابقين لروسيا. أن تكون مخلصاً لإنكلترا تشامبرلاين وإنكلترا الغد، فهذا يبدو استحالة لو لم يعرف المرء أنها ستكون ظاهرة يومية. إن الثورة فقط هي التي تستطيع أن تنقذ إنكلترا، وكان ذلك واضحاً منذ سنين، لكن الآن الثورة بدأت وقد تتقدم بسرعة كبيرة، إن استطعنا إقصاء هتلر. وخلال سنتين وربما سنة سنرى تغييرات ستدهش البلهاء الذين ليس لديهم بصيرة إن استطعنا أن نتماسك ونصمد. وأظن أن بالوعات لندن ستسيل دماً. حسناً ليكن ذلك إن كان هناك ضرورة. لكن حين تتمركز الميليشيات الحمر رسمياً في الريتز، سأظل أشعر أن إنكلترا التي تعلمت حبها منذ زمن طويل جداً لأسباب مختلفة جداً، مستمرة بطريقة ما.

ترعرعت في جو مشبوب بالروح العسكرية، وبعد ذلك أمضيت خمس سنوات مملة ضمن صوت الأبواق، وإلى هذا اليوم يسبب عدم الوقوف باستعداد أثناء "أطال الرب عمر الملك" شعوراً واهناً من تدنيس المقدسات. ذلك طفولي طبعاً، لكن لو لم يكن لدي هذا النوع من التربية، لكنت مثل مثقفي الجناح اليساري "المتنورين" جداً لدرجة أنهم يستطيعون فهم أغلب العواطف العادية. إنهم بالضبط الأشخاص الذين لا تثب قلوبهم بالفرح أبداً بمنظر العلم الاتحادي الذي سيجفل من الثورة حين تحين اللحظة. دع أي شخص يقارن قصيدة جون كورنفورد التي كتبها قبل أن يقتل بوقت ليس بطويل ("قبل قصف هويسكا") مع قصيدة السير هنري نيوبولت "هناك صمت مطبق في البقعة

المسيجة الليلة"[٢]. ضع جانباً الاختلافات الفنية التي هي مجرد مسألة عصر، وسترى أن المحتوى العاطفي للقصيدتين نفسه بالضبط تقريباً. الشيوعي الصغير الذي مات بشكل بطولي في اللواء الأممي كان مدرسة حتى الصميم. لقد تحدى ولاءه، ولكن ليس عواطفه. ماذا يثبت ذلك؟ يثبت إمكانية بناء شخص اشتراكي على عظام شخص بليمب (محافظ) وقدرة نوع واحدد من الولاء على التحول والتغير من شكل إلى آخر، ويثبت أيضاً أن الحاجة الروحية إلى الوطنية والقيم العسكرية، التي مهما كان حب الأرانب المهتاجة من اليسار لها قليلاً، لم يوجد لها بديل حتى الآن.

١- قبل قصف هويسكا

يا فؤاد العالم المتحجر
أيها الفؤاد الغالي، التفكير بك
وجع في خاصرتي،
يظل يقشعر مشهدي.

الريح تهب في المساء
تذكرني باقتراب الخريف
أخشى أن أفقدك
أخشى من خشيتي.

عند آخر ابتسامة لهويسكا،
آخر سياج لكبريائنا
توقع بصدر رحب يا عزيزي أنني
أحسك بجانبي.

وإذا الحظ العاثر دفن قوتي

في داخل قبر سطحي

تذكر كل الجيد الذي تستطيعه

لا تنس حبي.

٢- هناك صمت مطبق في البقعة المسيجة الليلة

هناك سكون يحبس الأنفاس في البقعة المسيجة لليلة

لتحقيق عشرة والفوز بمباراة

نغمة تسبب الصرع وضوء يعمي البصر

ساعة للهو والرجل الأخير فيها.

وهي ليست من أجل غلاف مزخرف بأشرطة زينة،

أو الأمل الأناني بسمعة آنية،

لكن يد قائده على كتفه ضربت بقوة –

"تباهى! تباهى! والعب اللعبة!"

رمل الصحراء تشبع باللون الأحمر –

أحمر بحطام ركن من الميدان انكسر –

ضُغطت بنادق الغاتلينغ ومات الكولونيل،

وأعمى الغبار والدخان الفوج.

وأُترعت ضفتا نهر الموت،

وإنكلترا بعيدة واللقب اسم،

لكن صوت تلميذ يحشد الصفوف

"تباهوا! تباهوا! والعبوا اللعبة!"

هذا هو العالم سنة تلو أخرى

بينما المدرسة في مكانها نصبت،

كل واحد من أبنائها يجب أن يسمع،

ولا يجرؤ أن ينسى أي شيء مما سمع،

هؤلاء هم كلهم بذهن مبتهج

يحملونه خلال حياتهم مثل مشعل مضطرم

"تباهوا! تباهوا! والعبوا اللعبة!"

كشف السر الإسباني

ربما أنتجت الحرب الإسبانية محصولاً من الأكاذيب أغنى وأكبر من أي حدث آخر منذ الحرب العظمى ١٩١٤ - ١٩١٨ لكنني أشك بصدق، رغم كل تلك المجازر عن الراهبات اللواتي اغتُصبن وصُلبن أمام أعين مراسلي الديلي ميل، إن كانت الصحف المناصرة للفاشية هي التي تسببت بمعظم الضرر. من فعل ذلك هما صحيفتا اليسار، ذا نيوز كرونيكل وذا ديلي وركر بأساليبهما الأدهى في التشويه، التي منعت الجمهور البريطاني من إدراك الطبيعة الحقيقية للصراع.

إن الواقع الذي أخفته هذه الصحف بمهارة هو خوف الحكومة الإسبانية (وتشمل حكومة كاتالونيا شبه المستقلة) من الثورة، الذي تجاوز بكثير خوف الفاشيين. من شبه المؤكد الآن أن الحرب سوف تنتهي بنوع من التسوية، وهناك مبرر للشك إن كانت الحكومة التي تركت بيلباو يفشل دون أن ترفع إصبعاً، ترغب بانتصار ساحق، ولكن ليس هناك أدنى شك حول حرصها التام على سحق ثوارها. في وقت ما مضى، كان هناك حكم رعب وهلع - قمع قسري للأحزاب السياسية ورقابة خانقة على الصحافة وتجسس لا يتوقف وحبس جماعي من دون محاكمات. حين غادرت برشلونة في أواخر يونيو/ حزيران كانت السجون متورمة حقاً، لقد فاضت السجون النظامية منذ زمن بعيد وقُذف بالسجناء في المتاجر الفارغة وأي مستودع مؤقت آخر يمكن إيجاده لهم. لكن النقطة التي يجب ملاحظتها أن الناس الذين في السجون الآن ليسوا فاشيين بل ثواراً وقريبين كثيراً من اليسار، وأن الأشخاص المسؤولين الذين وضعوهم هناك هم هؤلاء الثوريون المروعون الذين مجرد ذكر اسمهم يجعل جارفين يرتعد خوفاً في حذائه المطاطي - الشيوعيون.

في الوقت الحالي تستمر الحرب ضد فرانكو، لكن ماعدا العفاريت المساكين الذين في خنادق خط الجبهة، لا أحد في الحكومة الإسبانية يعتبرها حرباً حقيقية. إن الصراع الحقيقي هو بين الثورة والثورة المضادة؛ بين العمال الذين يحاولون عبثاً التمسك بالقليل الذي فازوا به

في عام ١٩٣٦ وكتلة الليبراليين والشيوعيين الذين يسلبونه منهم بنجاح. من الباعث للبؤس أن قلة قليلة فقط من الناس في إنكلترا أدركوا الحقيقة التالية: أن الشيوعية قوة مضادة للثورات، وأن الشيوعيين في كل مكان في تحالف مع الإصلاحية البورجوازية، ويستخدمون كل التهم الكبيرة لسحق أو تكذيب أي حزب يبدي علامات ميول ثورية. وهذا سبب المشهد الخيالي الغريب لمهاجمة الشيوعيين "الحمر" الأشرار، لهجوم من قبل مثقفي الجناح اليميني الذين هم في اتفاق معهم في الجوهر. فالسيد ويندهام لويس مثلاً، ينبغي عليه أن يحب الشيوعيين مؤقتاً على الأقل. في إسبانيا أصبح التحالف الليبرالي الشيوعي منتصراً تماماً تقريباً. من كل ما كسبه العمال الإسبان في عام ١٩٣٦ لم يبق شيء مادي صلب سوى بضع مزارع تعاونية وكمية محدودة من الأرض استولى عليها الفلاحون السنة الماضية، وهؤلاء يُحتمل أن يُضحى بهم لاحقاً حين لا تظل هناك حاجة لإرضائهم. كي نرى كيف انبثق الوضع الحالي، علينا أن نعود إلى الوراء وننظر إلى أصول الحرب الأهلية.

إن ادعاء فرانكو بالسلطة لنفسه، مختلف عن هتلر وموسوليني، كونه تمرداً عسكرياً مشابهاً للغزو الخارجي، ولذلك لم يحظ بدعم جماهيري رغم محاولات فرانكو لاكتسابه منذ ذلك الوقت. كان مؤيدوه الرئيسيون، باستثناء شرائح محددة من رجال الأعمال الكبار، هما الأرستقراطية مالكة الأرض والكنيسة الطفيلية الهائلة، وكان من الواضح أن ظهور هذا النوع سيجمع ضده قوى متنوعة ليست متفقة على أية نقطة أخرى. الفلاحون والعمال يكرهون الإقطاعية والأكليركية؛ ويشاركهم هذا الكره البورجوازي "الليبرالي" الذي لا يعترض على أية نسخة أحدث من الفاشية، طالما أنها لا تُسمى بالفاشية على الأقل. إن البورجوازي الليبرالي ليبرالي حقيقي إلى النقطة التي تتوقف فيها مصالحه الخاصة، ويؤيد درجة التقدم المتضمنة في عبارة "الدرب مفتوح للموهوبين" لأنه كما هو واضح، لا يملك أية فرصة للتطور في مجتمع إقطاعي عماله وفلاحوه فقراء جداً لا يستطيعون شراء بضائعه، وصناعته محملة بأعباء ضرائب ضخمة، يدفعها لأديرة الأساقفة. كل وظيفة مربحة فيه، تذهب بشكل طبيعي إلى صديق غلام ابن الدوق غير الشرعي. لهذا، في وجه رجعية سمجة كرجعية فرانكو، نجد وضعاً مؤقتاً يقاتل فيه العامل والبورجوازي جنباً إلى جنب، ولكنهما في الحقيقة عدوان لدودان. عُرف هذا التحالف المقلقل بالجبهة الشعبية (أو عرف في الصحافة الشيوعية بجبهة

الشعب، ليعطوها جاذبية ديمقراطية منحولة) وهو تجمع حيويته وحقه في التواجد مثل خنزير برأسين أو شكل أو آخر من بشاعة بارنوم وبايلي.

في أي ظرف طارئ جدي، كان التناقض الضمني في الجبهة الشعبية محكوماً بالإشعار عن نفسه، لأنه حتى حين يقاتل كل من العامل والبورجوازي ضد الفاشية، فإنهما لا يقاتلان من أجل الأشياء نفسها؛ يقاتل البورجوازي من أجل الديمقراطية البورجوازية أي الرأسمالية، بينما يقاتل العامل من أجل الاشتراكية بالقدر الذي يفهم فيه القضية. وفي الأيام الأولى من الثورة، فهم العمال الإسبان القضية جيداً جداً، فلم يكتفوا بطرد القوات المتمردة من البلدات في المناطق التي دُحرت فيها الفاشية، بل اغتنموا الفرصة، واستولوا على الأرض والمصانع، وشيدوا البدايات القاسية لحكومة عمالية بواسطة اللجان المحلية والميليشيات العمالية وقوات الشرطة وهلم جرا؛ لكنهم ارتكبوا خطأً (ربما لأن أغلب الثوار النشطين كانوا من الفوضويين الذين لا يثقون بالبرلمانات) في ترك الحكومة الجمهورية بسلطة اسمية، وظلت كل حكومة تالية من نفس الصفة البورجوازية الإصلاحية في إدارييها وموظفيها رغم التغييرات المتنوعة الكثيرة. لم يبدُ هذا الأمر مهماً في البداية، لأن الحكومة وخصوصاً في كاتلونيا، كانت ضعيفة وبلا سلطة تقريباً. وكانت البورجوازية مضطرة ألا تلفت الانتباه أو تتخفى كعمال (كان هذا يحدث حين وصلت إلى إسبانيا في كانون الأول). مؤخراً، حين انزلقت السلطة من أيدي الفوضويين إلى أيدي الشيوعيين والاشتراكيين اليمينيين وباتت الحكومة قادرة على إعادة تأكيد نفسها، خرجت البورجوازية من مخبئها، وظهرت ثانية قسمة المجتمع القديمة إلى أغنياء وفقراء، من دون تعديل يذكر. من الآن فصاعداً أضحت كل حركة، ماعدا بضع حركات أملتها الضرورة العسكرية، موجهة نحو تعطيل العمل الذي أُنجز في ال أشهر القليلة الأولى من الثورة. وسأورد من الصور الإيضاحية التي اخترتها واحدة فقط: تفتيت وتعطيل الميليشيات العمالية القديمة التي نُظمت بنظام ديمقراطي حقيقي وبضباط ورجال يتلقون نفس الأجر ويختلطون بشروط من المساواة التامة واستبدالها بالجيش الشعبي ("جيش الشعب" في اللغة الاصطلاحية الشيوعية مرة أخرى) الذي جعلوه بأقصى ما يمكن نسخة من الجيش البورجوازي العادي مع طبقة محظية من الضباط وفروق هائلة في المرتبات إلخ إلخ، وقُدّم كضرورة عسكرية تساعد على تحسين الكفاءة العسكرية بالتأكيد لفترة قصيرة على

الأقل، لكن كان هدف التغيير الذي لا لبس فيه، هو توجيه ضربة لمذهب المساواة. اتبعت نفس السياسة في كل قسم وإدارة، وكانت النتيجة الفعلية بعد سنة واحدة فقط من اندلاع الحرب والثورة، دولة بورجوازية عادية، بالإضافة إلى عهد حكم من الرعب للحفاظ على الوضع القائم.

لو حدث الصراع من دون تدخل أجنبي، لما وصلت هذه العملية إلى ذلك المدى ربما، لكن الضعف العسكري للحكومة جعل هذا مستحيلاً. أُجبرت الحكومة على أن تلجأ إلى روسيا بحثاً عن العون في وجه مرتزقة فرنسا الأجانب، ورغم المبالغة الكبيرة جداً بكمية الأسلحة التي قدمتها روسيا (في ال أشهر الثلاث الأولى لوجودي في إسبانيا، لم أر سوى سلاح روسي واحد، بندقية آلية فردية) فإن مجرد وصولها، جلب الشيوعيين إلى السلطة. بداية، لقد رفعت الطائرات الروسية والمدافع والصفات العسكرية الجيدة للألوية الأممية (التي لم تكن شيوعية بالضرورة وإنما تحت سيطرة الشيوعيين) هيبة الشيوعيين ومكانتهم بشكل هائل. لكن الأهم، بما أن روسيا والمكسيك كانتا البلدين الوحيدين المزودين بالأسلحة على نحو مكشوف، فإن الروس لم يحصلوا على المال لقاء أسلحتهم فقط، وإنما انتزعوا شروطاً قُدمت بأشد الأشكال فجاجة أيضاً: "اسحقوا الثورة، وإلا فلن تحصلوا على أي أسلحة أخرى". يعزى المبرر إلى الموقف الروسي: أنه لو بدت روسيا تحرّض على الثورة، فسوف يتعرض حلف السوفييت - فرانكو للخطر وربما (التحالف المأمول والمنتظر مع بريطانية العظمى) أيضاً، وربما يثير مشهد ثورة حقيقية في إسبانيا أصداء غير مرغوبة في روسيا. أنكر الشيوعيون طبعاً أي ضغط مباشر مارسته الحكومة الروسية. لكن حتى لو كان هذا حقيقياً، فإنه قلما يكون متصلاً بالموضوع، لأن الأحزاب الشيوعية في كل البلدان تعتبر منفذة للسياسة الروسية؛ ومن المؤكد أن الحزب الشيوعي الإسباني زائد الاشتراكيين اليمينيين الذين يتحكمون بهم زائد الصحافة الشيوعية في العالم كله، استخدموا كل نفوذهم الهائل والمتزايد على الدوام لدعم الثورة المضادة.

في القسم الأول من هذا المقال نوهت بأن الصراع الحقيقي في إسبانيا، من جانب الحكومة، كان بين الثورة والثورة المضادة، وأن الحكومة رغم تلهفها الشديد لتجنب الهزيمة أمام

فرانكو، كانت متلهفة أكثر لتعطيل وتخريب التغييرات الثورية التي ترافقت مع اندلاع الحرب.

هذا الفكرة سيرفضها كل شيوعي ويعتبرها خاطئة أو كذبة متعمدة، وسيخبرك أن الحديث عن سحق الحكومة الإسبانية للثورة عبارة عن هراء، لأن الثورة لم تحدث أبداً؛ وأن مهمتنا في الوقت الحاضر هي دحر الفاشية والدفاع عن الديمقراطية. وفي هذا الصدد فإن الأكثر أهمية أن نرى كيف تعمل الدعاية الشيوعية المضادة للثورة. من الخطأ الاعتقاد أن هذا ليس له صلة بإنكلترا حيث الحزب الشيوعي صغير وضعيف نسبياً. سنرى صلته بسرعة كافية إن دخلت إنكلترا في تحالف مع الاتحاد السوفييتي أو ربما قبل ذلك، لأن تأثير الحزب الشيوعي سيزداد حتماً - ويزداد بشكل واضح الآن - بعد تأكد المزيد من الرأسماليين بأن الشيوعية العصرية تلعب لعبتهم.

تعتمد الدعاية الشيوعية عموماً على ترويع الناس من رعب الفاشية (الحقيقي)، وتشمل أيضاً التظاهر - ليس بالتعبير الصريح وإنما الضمني - بأن الفاشية لا علاقة لها بالرأسمالية. الفاشية نوع من الشر الخالي من المعنى وانحراف و"سادية جماعية"، نفس الشيء الذي يحدث إن أطلقت فجأة سراح مجانين قتلة يملؤون مستشفى أمراض عقلية. اعرض الفاشية بهذا الشكل، ويمكنك بذلك تعبئة الرأي العام ضدها لفترة على أي حال، من دون أن تثير أو تستفز أية حركة ثورية. يمكنك معارضة الفاشية بالديمقراطية البرجوازية يعني الرأسمالية، لكن في الوقت الحالي عليك أن تتخلص من الشخص المزعج الذي يشير بأن الفاشية والديمقراطية البرجوازية توأمان يصعب التمييز بينهما. تفعل ذلك بنعته بالمبشر غير العملي، وأنه يشوش القضية ويشق صفوف القوى المناوئة للفاشية، وأن هذه اللحظة ليست للمتاجرة بالعبارات الثورية، ويجب علينا الآن أن نقاتل ضد الفاشية من دون السؤال والبحث الدقيق عن السبب الذي نقاتل من أجله. لاحقاً، إن ظل يرفض السكوت، بدل نغمتك وانعته بالخائن، وبصورة أدق انعته بأنه من أتباع تروتسكي.

ومن هو التروتسكاوي؟ هذه كلمة رهيبة - في إسبانيا في هذه اللحظة يمكن رميك في السجن وحبسك هناك بشكل غير محدد بلا محاكمة لمجرد الإشاعة بأنك تروتسكاوي - بدأ

الناس يتقاذفونها في إنكلترا وسنسمع الكثير منها لاحقاً. تستخدم كلمة "تروتسكاوي" أو "فاشي تروتسكاوي" عادة لتعني فاشي مقنع يتظاهر أنه ثوري متطرف لكي يشق القوى اليسارية، لكنها تستمد قوتها الغريبة من حقيقة أنها تعني ثلاثة أشياء منفصلة. يمكن أن تعني الشخص الذي يرغب في ثورة عالمية مثل تروتسكي، أو عضو من التنظيم الفعلي الذي يرأسه تروتسكي (الاستعمال الصحيح الوحيد للكلمة)، أو الفاشي المتنكر المذكور آنفاً. يمكن تصغير المعاني الثلاث وإدخالها ببعضها البعض عند الرغبة. المعنى الأول: قد يحمل أو لا يحمل المعنى الثاني. المعنى الثاني: يحمل معه المعنى الثالث بشكل ثابت تقريباً، ولهذا: لو سُمع أن إكس واي يتكلم بشكل مؤيد للثورة العالمية، فهو إذاً تروتسكاوي، وبالتالي فاشي. في إسبانيا وإلى حد ما في إنكلترا، أي شخص يعترف بالاشتراكية الثورية (أي، يعترف بالأشياء التي كان الحزب الشيوعي يعترف بها منذ سنوات قليلة) سيكون مشتبهاً بأنه تروتسكي يعمل لصالح فرانكو أو هتلر.

الاتهام من النوع الخبيث جداً، لأنه قد يكون صحيحاً في أية حالة مفترضة، إلا إذا صدف وكان المرء يعرف النقيض. قد يتنكر جاسوس فاشي كثائر. في إسبانيا كل شخص آراؤه على يسار أعضاء الحزب الشيوعي، يكتشف لاحقاً بأنه تروتسكي أو خائن على الأقل. في بداية الحرب كان البيوم، وهو حزب شيوعي من المعارضة، مشابه تقريباً لحزب العمال المستقل الإنكليزي، حزب مقبول وقدم وزيراً للحكومة الكاتالونية، لكنه لاحقاً طُرد من الحكومة، ثم اتهم بالتروتسكية؛ ثم قُمع ورمي في السجن كل عضو من أفراده استطاعت الشرطة الإمساك به.

منذ أشهر قليلة ماضية وُصف النقابيون الفوضويون بأنهم "يعملون بولاء" إلى جانب الشيوعيين، ثم أُخرج النقابيون الفوضويون من الحكومة؛ ثم ظهر أنهم لا يعملون بولاء، والآن هم في طريقهم ليكونوا خونة. بعد ذلك سيأتي دور الاشتراكيين اليساريين، فهذا كاباليرو الاشتراكي اليساري ورئيس الوزراء السابق ووثن الصحافة الشيوعية حتى مايو أيار ١٩٣٧ "هو في ظلام خارجي الآن وتروتسكاوي وعدو الشعب". وهكذا تستمر اللعبة. أما النهاية المنطقية، فهي نظام حكم يُقمع فيه كل حزب معارض وصحيفة،

وسيكون كل مخالف منها كان شأنه في السجن. طبعاً هكذا نظام سيكون فاشية، لكنها لن تكون نفس الفاشية التي سيفرضها فرانكو، وستكون أفضل من فاشية فرانكو، لدرجة تستحق القتال من أجلها، لكنها تظل فاشية، وسوف تُسمى شيئاً مختلفاً، فقط لأنها تُدار بواسطة الشيوعيين والليبراليين.

هل يمكن الفوز بالحرب في الوقت الحالي؟ كان تأثير الشيوعية ضد الهيولى الثورية، ولذلك نزع إلى إنتاج كفاءة عسكرية، أكبر بمعزل عن المساعدة الروسية. لو أنقذ الفوضويون الحكومة من أغسطس/ آب إلى أكتوبر/ تشرين أول ١٩٣٦ لأنقذها الشيوعيون من أكتوبر/ تشرين أول وما بعد، لكن في تنظيمهم للدفاع نجحوا في قتل الحماسة (داخل إسبانيا وليس خارجها) ولم يجعلوا التجنيد الإلزامي في الجيش ممكناً فقط وإنما ضرورياً أيضاً. من الهام أن التجنيد الطوعي توقف عملياً مبكراً منذ يناير/ كانون الثاني من هذا العام. يستطيع الجيش الثوري أن يربح بالحماسة أحياناً، لكن الجيش المجند الإلزامي يجب أن يربح بالأسلحة، ومن غير المحتمل أن ترجح كفة الحكومة في الأسلحة، إلا إذا تدخلت فرنسا، أو قررت ألمانيا وإيطاليا الهروب والنجاة بالمستعمرات الإسبانية، وترك فرانكو في وضع ميئوس منه. وفي المجمل يبدو أن الورطة هي الاحتمال الأكبر.

وهل الحكومة جادة فعلياً لتفوز؟ هي لا تعتزم أن تخسر، هذا مؤكد، لكن من جانب آخر، سيثير النصر الكامل والصريح وفرار فرانكو مذعوراً واندحار الألمان والطليان إلى البحر، مشاكل صعبة بعضها واضح جداً ولا يحتاج إلى الذكر. ليس هناك دليل حقيقي، ولا يستطيع المرء الحكم إلا بواسطة الأحداث، لكني أشك أن الحكومة تلعب من أجل تسوية تترك وضع الحرب قائماً جوهرياً. إن كل التنبؤات خاطئة، لذلك ستكون هذه خاطئة، لكني سأغامر وأقول إن الحرب التي قد تنتهي قريباً جداً أو تستمر لسنين، ستنتهي بإسبانيا مقسمة إما بحدودٍ فعلية أو إلى مناطق اقتصادية، وطبعاً في هكذا تسوية، يمكن لأي من الطرفين أو كليهما بالزعم بأنها نصر له.

كل ما قلته في هذه المقالة سيبدو مبتذلاً وعادياً في إسبانيا أو حتى في فرنسا، أما في إنكلترا، على الرغم من الاهتمام الشديد الذي أثارته الحرب الإسبانية، فلم يكن هناك سوى قلة قليلة

من الناس سمعوا بالصراع الهائل الدائر من خلف خطوط الحكومة. طبعاً هذا ليس حادثاً عرضياً، وإنما كانت هناك مؤامرة متعمدة (يمكنني تقديم أمثلة تفصيلية) لمنع فهم الوضع الإسباني، كما أن الناس الذي ينبغي بهم أن يعرفوا بشكل أفضل، باعوا أنفسهم للخداع على أساس أنك لو قلت الحقيقة حول إسبانيا، فسوف تُستخدم كدعاية فاشية.

من السهل رؤية ما يؤدي إليه هذا الجبن. لو قُدم للجمهور البريطاني تقرير ووصف صادقاً للحرب الإسبانية، لتوفرت له فرصة أن يعرف ما هي الفاشية، وكيف يمكن مقارعتها. وهكذا توطدت بقوة أكبر من ذي قبل رواية ذا نيوزكرونيكل للفاشية كنوع من المس الإجرامي خاص بالكولونيل بليمبز يئز في الخواء الاقتصادي، وهكذا اقتربنا خطوة من الحرب العظمى "ضد الفاشية" (قارن ١٩١٤ "ضد العسكرة") التي ستسمح لفاشية من النوع البريطاني أن تنزلق وتتسلط على أعناقنا في غضون أسبوعها الأول.

التفكير بالحرب الإسبانية ثانية (١٩٤٢)

١ - أولاً، وقبل كل شيء، الذكريات المادية: الأصوات والروائح والمظاهر الخارجية للأشياء.

الغريب أن أقوى ما أستطيع تذكره من الحرب الإسبانية بعد انتهائها، هو أسبوع ما سمي بالتدريب الذي تلقيناه قبل إرسالنا إلى جبهة القتال - ثكنات سلاح الفرسان الضخمة في برشلونة بزرائبها العاصفة وساحاتها المرصوفة بالحجارة، والبرد الجليدي لمضخة الماء التي نغتسل منها، والوجبات القذرة التي تجعلها أكواب النبيذ المعدنية مقبولة، ونساء الميليشيا بسراويلهن وهن يقطعن حطب الوقود، وجدول التفقد في الصباحات الباكرة؛ حيث يشكل اسمي الإنكليزي الممل فاصلاً وسط الأسماء الإسبانية المدوية، مانويل غونزاليس، بيدرو أغويلار، رامون فينيلوزا، روك باليستر، جيام دومينيش، سيباستيان فيلترون، رامون نوفو بوش. أسمّي هؤلاء الرجال بشكل خاص، لأنني أتذكر وجوههم كلهم، ويحتمل أنهم ماتوا كلهم ماعدا اثنين كانوا مجرد رعاع، ومن دون أي شك أصبحا عضوين كتائبيين صالحين في هذا الوقت، أما الاثنان اللذان عرفت بموتهما، كبيرهما كان سيبلغ الخامسة والعشرين وصغيرهما السادسة عشرة.

إحدى تجارب الحرب الأساسية، عدم قدرتك على الإفلات من الروائح المثيرة للاشمئزاز ذات المصدر البشري. إن المراحيض موضوع مبتذل في أدب الحرب، وكنت لن أذكره لو لم يفعل المرحاض في ثكناتنا فعله في ثقب أوهامي الخاصة عن الحرب الأهلية الإسبانية. إن الأنموذج اللاتيني من المراحيض الذي عليك أن تقرفص فيه، سيء جداً في أفضل أشكاله، لكن تلك التي أتكلم عنها مصنوعة من نوع من الحجارة المصقولة الملمعة الزلقة جداً، لذلك كل ما يمكنك عمله أن تبقى على قدميك، بالإضافة إلى أنها كانت مسدودة دائماً. الآن في ذاكرتي الكثير من الأشياء المقرفة، لكن أعتقد أن تلك المراحيض هي التي أوضحت وأكدت لي الفكرة التي تتكرر غالباً: ها نحن جنود جيش ثوري ندافع عن الديمقراطية ضد الفاشية،

ونخوض حرباً لها هدف ما، وتفاصيل حياتنا قذرة ومهينة، كما لو كانت في سجن، عداك عن الحياة في جيش برجوازي. كثير من الأشياء عززت هذا الانطباع فيما بعد، كالضجر والجوع البهيمي لحياة الخنادق والمكائد الحقيرة حول فتات من الطعام، والشجارات الوضيعة النكدة التي انغمس فيها الناس الذين استنزفهم نقص النوم.

لم يتأثر الرعب الجوهري في حياتي العسكرية (كل من كان جندياً سيعرف ما أقصد بالرعب الجوهري لحياة الجيش) إلا قليلاً بطبيعة الحرب التي نخوضها، فقد كان الانضباط مثلاً هو نفسه أساساً في كل الجيوش، والأوامر يجب أن تطاع وتفرض عن طريق العقاب عند الضرورة، والعلاقة بين الضابط والجندي يجب أن تكون علاقة الأعلى بالأدنى. إن صورة الحرب المرسومة في كتب مثل **هدوء تام على الجبهة الغربية** صحيحة فعلياً. الرصاص يطعن والجثث تتعفن والرجال تحت النار يملؤهم الرعب القوي فيتبولون في سراويلهم. صحيح أن الخلفية الاجتماعية التي ينشأ منها أي جيش، تلون وتصبغ تدريبه وتكتيكه وكفاءته العامة، وكذلك الشعور بكونك على حق، يمكن أن يدعم المعنويات، لكن هذا يؤثر على السكان المدنيين أكثر من القوات. (ينسى الناس أن الجندي في أي مكان في خط الجبهة يكون عادة جائعاً جداً أو خائفاً جداً أو بردان، وقبل كل شيء متعب جداً ولا يقلقه الأصل السياسي للحرب أياً كان). إن قوانين الطبيعة لا تتوقف أو تتعطل من أجل جيش "أحمر"، أكثر مما تفعل من أجل جيش "أبيض"، فالقملة قملة والقنبلة قنبلة حتى لو كنت تحارب من أجل قضية عادلة.

لماذا تجدر الإشارة إلى شيء واضح جداً؟ لأن معظم المثقفين البريطانيين والأمريكيين كانوا غافلين بشكل جلي عنه آنذاك والآن. إن ذواكرنا قصيرة هذه الأيام، لكن لنعد قليلاً وننقب في ملفات النيوماسيز أو الديلي وركر ونلقي نظرة على الوحل الرومانسي المثير للحرب الذي كان يمينيونا يدلقونه في ذاك الوقت. كل العبارات القديمة الممجوجة! وقساوتها البليدة! ضبط النفس التي واجهت فيها لندن قصف مدريد! أنا لست منزعجاً من الدعائيين المضادين من اليمينيين من أمثال لون وغارفين، وإنما من الناس الذين ظلوا لمدة عشرين سنة يستهجنون ويسخرون من "مجد" الحرب ومن القصص والوحشية والوطنية وحتى من الشجاعة البدنية،

والذين خرجوا علينا الآن بكلام فارغ لو بدلنا فيه بضعة أسماء لأصبح ملائماً للديلي ميل في عام ١٩١٨ لو كان هناك شيء واحد تميل إليه الطبقة المثقفة البريطانية وتتمسك به، فهو الرواية المفضوحة للحرب، نظرية أن الحرب كلها جثث ومراحيض ولا تؤدي إلى أية نتيجة جيدة أبداً. حسناً، نفس الناس الذين كان يقهقهون في عام ١٩٣٣ إن قلت إنك ستقاتل من أجل بلادك في ظروف محددة ويتهمونك بفاشي - تروتسكي في عام ١٩٣٧ إن قلت إن الأخبار في النيوماسيز التي تتحدث عن الرجال الذين جرحوا مؤخراً كانوا يطالبون بصخب للعودة إلى القتال مبالغ بها. أما مثقفو اليسار فقد انحرفوا تماماً من "الحرب جحيم" إلى "الحرب مجيدة" من دون أي إحساس بالتنافر وبلا أي مرحلة فاصلة. وقام أكثرهم مؤخراً بانتقالات مساوية في العنف. هناك عدد كبير من الناس بالتأكيد يشكلون النواة المركزية لطبقة المثقفين استحسنوا إعلان تصريح "الملك والبلاد" في عام ١٩٣٥ وهتفوا من أجل "صف قوي وثابت ضد ألمانيا" في عام ١٩٣٧ وأيدوا اتفاقية الشعب في عام ١٩٤٠ ويطالبون بجبهة ثانية الآن.

إن التأرجحات غير العادية للرأي، التي تحدث في هذه الأيام، والعواطف التي تنهمر وتنقطع مثل صنبور مياه نتيجة للتنويم المغناطيسي الذي تقوم به الصحف والإذاعة، وفي وسط أفراد الطبقة المثقفة، يجب أن أقول إنها ناتجة عن المال والسلامة البدنية؛ ففي لحظة محددة ربما يكونون "مؤيدين للحرب" أو"معارضين للحرب"، لكن في كلتا الحالتين ليس لديهم صورة واقعية للحرب في عقولهم. حين تحمسوا للحرب الإسبانية، عرفوا طبعاً أن الناس كانوا يُقتلون، وأن يُقتل المرء أمر بغيض، لكنهم شعروا أن الحرب بالنسبة إلى جندي في جيش الجمهورية الإسبانية تجربة ليست مخزية بشكل ما. فالمراحيض تصدر رائحة نتنة أقل، والانضباط أقل إزعاجاً. عليك أن تلقي نظرة عجلى على النيوستيتمان لترى أنهم آمنوا بذلك؛ ويكتب هراء مماثل تماماً عن الجيش الأحمر الآن. أصبحنا متحضرين جداً لنفهم الواضح، لأن الحقيقة بسيطة. لكي تبقى على قيد الحياة، عليك أن تقاتل، ولكي تقاتل عليك أن تلوث نفسك. إن الحرب شر، وغالباً ما تكون أقل الشرين. هؤلاء الذين حملوا السيف يموتون بالسيف، وهؤلاء الذين لم يحملوا السيف يموتون بأمراض كريهة الرائحة. حقيقة إن مثل هذه

البلاهة تستحق الكتابة والتدوين، وتبين ما فعلته بنا سنوات رأسمالية أصحاب دخول السندات.

٢ - فيما يتعلق بما قلته آنفاً، حاشية عن الأعمال الوحشية

لديّ دليل مباشر قليل عن الأعمال الوحشية في الحرب الأهلية الإسبانية. عرفت أن بعضها ارتكبها الجمهوريون وأخرى أكثر منها (لاتزال مستمرة) ارتكبها الفاشيون. لكن ما انطبع في ذهني آنذاك وترك أثراً دائماً منذ ذلك الوقت، أن الأعمال الوحشية تصدق أو لا تصدق على دوافع ميول سياسية فقط. كل واحد يصدق أعمال العدو الوحشية، ولا يصدق تلك التي ارتكبها جانبه من دون الاهتمام أبداً بتفحص الدليل. مؤخراً أعددت جدولاً بالأعمال الوحشية خلال الفترة ما بين ١٩١٨ والوقت الحالي؛ فلم أجد سنة واحدة لم تحدث فيها أعمال وحشية في مكان أو آخر، ولم تكن هناك حالة واحدة صدق فيها اليسار واليمين نفس القصص في وقت واحد. والأغرب أنه يمكن أن ينقلب الوضع إلى نقيضه في أية لحظة وتصبح قصة الأمس المثبتة تماماً كذبة سخيفة، فقط لأن المشهد السياسي تبدل.

في الحرب الحالية نحن في الوضع الغريب أن "حملتنا الوحشية" انطلقت بشكل واسع قبل أن تبدأ الحرب وقام بأكثرها اليسار، الناس الذين يتباهون بأنفسهم في شكوكيتهم. في نفس الفترة اليمين، مروجو الأعمال الوحشية بين عام ١٩١٤ و١٩١٨ كانوا يحدقون بألمانيا النازية ويرفضون صراحة أن يروا أي شر فيها. ثم حالما اندلعت الحرب، كان مناصرو النازية في الأمس هم من يكرر قصص الرعب، بينما وجد المعادون للنازية أنفسهم فجأة يشككون بحقيقة وجود الجيستابو. ولم يكن هذا مجرد نتيجة للميثاق الروسي الألماني، وإنما لأن اليسار أعتقد خاطئاً قبل الحرب أن بريطانيا وألمانيا لن تتحاربا أبداً، ولذلك بإمكانه أن يكون معادياً لألمانيا ومعادياً لبريطانيا في الوقت نفسه، وهذا بسبب دعاية الحرب الرسمية أيضاً بنفاقها المثير للاشمئزاز وتعاليمها التي تنزع دائماً إلى جعل الناس المفكرين يتعاطفون مع العدو، وكان رد الفعل المناصر للألمان المبالغ فيه الذي تلا ذلك جزء من الثمن الذي دفعناه لقاء الكذب الممنهج في ١٩١٤ - ١٩١٧ خلال السنوات ١٩١٨ - ١٩٣٣ كانت صيحات الاستهجان في دوائر الجناح اليساري تقاطعك، إن حمّلتَ ألمانيا ولو جزءاً يسيراً من المسؤولية

عن الحرب. في كل اتهامات فيرساي، التي استمعتُ إليها خلال تلك الحرب، لا أظن أنني سمعت مرة السؤال "ماذا كان سيحدث لو ربحت ألمانيا؟"' ولم يذكر حتى، عداك عن مناقشته، وهكذا أيضاً مع الأعمال الوحشية. فالحقيقة تصبح كذبة حين تسمع عدوك يتفوه بها. مؤخراً لاحظت أن نفس الأشخاص الذين ابتلعوا أي وكل قصة رعب عن اليابانيين في نانكينغ في ١٩٣٧ رفضوا أن يصدقوا نفس القصص تماماً عن هونغ كونغ في ١٩٤٢. كان هناك ميل للشعور أن أعمال نانكينغ الوحشية أصبحت غير حقيقة عند استعادتها، لأن الحكومة البريطانية لفتت الانتباه إليها الآن.

لكن لسوء الحظ، فإن حقيقة الفظاعات، أسوأ بكثير من تلك التي كذبوا عنها وحولوها إلى دعاية. الحقيقة أن تلك الفظاعات تحدث. ولكونها تقدم كمبرر للشكوكية غالباً - بأن قصص الرعب نفسها تظهر في حرب تلو أخرى - يجعلها أرجح من القصص الحقيقية. من الواضح أنها أوهام واسعة الانتشار، والحرب توفر فرصة لوضعها قيد الممارسة، وهناك الجدل البسيط أيضاً حول القول الذي لم يعد رائجاً عن أن "البيض" يرتكبون فظاعات أكثر وأسوأ من "الحمر" ليس هناك أوهى شك حول القصة الطويلة عن الانتهاكات الفاشية خلال السنوات العشر الأخيرة في أوروبا، فحجم البينة هائل والحصة المحترمة منها تأتي من الصحافة والإذاعة الألمانية. هذه الأشياء حدثت فعلياً، وذلك هو الشيء الذي ينبغي الاستمرار في مراقبته. إنها حدثت حتى ولو قال لورد هاليفاكس إنها حدثت. الاغتصاب والذبح في المدن الصينية والتعذيب في زنازين الجيستابو والأساتذة الجامعيون والشيوخ اليهود الذين يرمون في المبولات ورمي اللاجئين بالرشاشات على طول الطرق الإسبانية - كلها حدثت ولم يظهر أي منها، لأن الديلي تلغراف اكتشفتها فجأة بعد مرر خمس سنوات على حدوثها.

٣ - ذكريتان اثنتان: الأولى لا تثبت أي شيء على وجه الخصوص، والثانية تعطي مقاربة معينة إلى جو الفترة الثورية:

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، خرجت ورجل آخر لنقنص الفاشيين في الخنادق خارج هويسكا. كان خطهم يبعد عن خطنا ثلاثمائة ياردة، وهذا مدى لا تستطيع بنادقنا

القديمة التصويب عليه بدقة، لكن بالتسلل إلى بقعة أقرب في حوالي مائة ياردة عن الخنادق الفاشية، يمكنك، إن كنت محظوظاً، أن تطلق طلقة على أحد من خلال ثغرة في المتراس. لسوء الحظ كانت الأرض بيننا عبارة عن حقل بنجر مستوٍ بلا غطاء، باستثناء قلة من أقنية الري. وكان من الضروري الخروج خلال الظلام والعودة بعد الفجر قبل أن يصبح الضوء جيداً. لم يظهر أي فاشي هذه المرة. مكثنا طويلاً جداً وأمسك بنا الفجر. كنا في قناة للري، لكن خلفنا مائتي ياردة من الأرض المنبسطة لا غطاء فيها ولو لأرنب. كنا نقوي أنفسنا لنقوم بهجوم حين يكون هناك ضجيج وصوت صفارات في الخندق الفاشي. بعض من طائراتنا كانت تحوم فوقنا. في هذه اللحظة قفز رجل يحمل رسالة، كما يفترض لضابط، وخرج من الخندق وركض على قمة المتراس في مشهد كامل. كان شبه عارٍ ويرفع سرواله بيديه الاثنتين وهو يركض. أحجمت عن إطلاق النار عليه. صحيح أنا صياد رديء ومن غير المحمل أن أصيب رجلاً راكضاً على بعد مائة ياردة، وكنت أفكر بشكل أساسي أيضاً في العودة إلى خندقنا بينما كان اهتمام الفاشيين متركزاً على الطائرات؛ لكنني لم أسدد عليه أيضاً جزئياً، بسبب ذلك التفصيل حول السروال. أتيت إلى هنا لأصوب السلاح ضد "الفاشيين"، لكن رجلاً يرفع سرواله ليس "فاشياً"، ومن الواضح أنه كان مخلوقاً وزميلاً مثلي ولا أريد أن أطلق النار عليه.

ماذا يثبت هذا الحادث؟ ليس الكثير، لأنه نوع الشيء الذي يحدث دائماً في كل الحروب. الآخر مختلف. لا أفترض في روايته أنني أستطيع أن أجعله يؤثر فيك عندما تقرأه، لكن أسألك أن تصدق أنه أثر بي كحدث مميز للجو الأخلاقي في لحظة محددة من الزمن.

كان أحد المتطوعين الذين انضموا إلينا حين كنت في الثكنات صبياً ذا مظهر بري من الشوارع الخلفية لبرشلونة. كان رث الثياب وحافياً، وكان أيضاً أسمر جداً (أظن أنه من دم عربي) ويقوم بإيماءات عادة لا ترى أوروبياً يقوم بها؛ واحدة بشكل خاص - الذراع ممدود وراحة اليد شاقولية - كانت إيماءة خاصة بالهنود. في أحد الأيام سرقت من سريري رزمة من السيجار الذي كنا لازلنا نشتريه بسعر بخس في ذلك الوقت. بشكل أحمق أبلغت الضابط عن السرقة، فأتى أحد الأوغاد فوراً، كنت قد ذكرته مسبقاً، وقال كاذباً إن خمسة وعشرين بيزتا سرقت من سريره. لسبب ما قرر الضابط فوراً أن الصبي ذا الوجه الأسمر ينبغي أن يكون

اللص. كانوا قساة جداً بخصوص السرقة في الميليشيا، ونظرياً يمكن رمي الناس بالرصاص جراء السرقة. الولد البائس سمح لنفسه أن يقاد إلى غرفة الحرس لكي يفتش. ما أدهشني جداً أنه لم يحاول أن يؤكد براءته. في حتمية موقفه واستسلامه للقدر، يمكنك رؤية الفقر المدقع الذي تربى فيه. أمره الضابط أن يخلع ثيابه. خلع الصبي ثيابه بإذلال أرعبني، حتى بات عارياً وفتشت ثيابه. طبعاً لم يكن السيجار أو المال هناك، ففي الحقيقة هو لم يسرقهما. أكثر ما يؤلم أنه لم يبدُ أقل خجلاً بعد أن ثبتت براءته. تلك الليلة أخذته إلى السينما، وأعطيته براندي وشوكولا. لكن ذلك كان مرعباً أيضاً – أقصد محاولة إزالة الأذى بالمال – لقد اعتقدت لبضع دقائق تقريباً أنه يجب أن يكون لصاً، وذلك لا يمكن إزالته.

حسناً، بعد أسابيع قليلة في الجبهة، اختلفتُ مع أحد الرجال في فصيلتي. في هذا الوقت كنت "كابو" عريفاً، وتحت إمرتي اثنا عشر رجلاً. كانت حرباً والبرد رهيب ومهمة الرئيس أن يبقي الحراس مستيقظين في محارسهم. في أحد الأيام رفض أحد الرجال فجأة الذهاب إلى محرس محدد، قيل عن حق إنه معرض لنيران العدو. كان مخلوقاً ضعيفاً، وأمسكت به وبدأت في جره نحو محرسه. هذا أثار مشاعر الآخرين ضدي، بالنسبة إلى الإسبان، أعتقد أن الكائن يستاء من الملامسة أكثر مما نفعل نحن. على الفور كنت مطوقاً بحلقة من الرجال الصارخين: "فاشي! فاشي! دع الرجل! هذا ليس جيشاً بورجوازياً. فاشي! إلخ إلخ". بأفضل ما استطعت في لغتي الإسبانية الرديئة، صرخت بهم أن الأوامر يجب أن تُطاع. وتطور الشجار إلى واحدة من تلك المناظرات الضخمة، بواسطتها سحق الانضباط بالتدريج في الجيوش الثورية. قال البعض إنني كنت مصيباً، وقال آخرون إنني كنت مخطئاً. لكن النقطة المهمة أن الوحيد الذي وقف في صفي وكان الأكثر حميمية من الجميع، هو الصبي ذو الوجه الأسمر. حالما رأى ما كان يحدث، وثب إلى داخل الحلقة، وبدأ يدافع عني بحماس. بإيماءته الهندية الجامحة الغريبة ظل يهتف "إنه أفضل عريف عندنا!" وبعد ذلك تقدم بطلب نقل، لينضم إلى فصيلتي.

لماذا أثر هذا الحادث في نفسي؟ لأنه من المستحيل في الظروف العادية أن تعود المشاعر الطيبة بين هذا الصبي وبيني، فالاتهام الضمني بالسرقة لم تخففه جهودي في التعويض وربما زادته سوءاً. إن أحد آثار الحياة المتحضرة، هي الحساسية المفرطة الهائلة التي جعلت كل

العواطف الأولية تبدو مقرفة نوعاً ما، فالكرم مؤلم كالبخل والعرفان بالجميل مكروه مثل نكرانه. لكن في إسبانيا في عام ١٩٣٦ لم نكن نعيش في زمن عادي. كان زمناً كانت فيه المشاعر السمحة والإيماءات أسهل فيه مما تكون عادة. أستطيع سرد عشرات الأمثلة المشابهة، ليست قابلة للنقل حقيقة، لكنها مرتبطة في ذهني مع جو خاص من ذلك الوقت: الثياب الرثة والملصقات الثورية الزاهية، والاستخدام الشامل لكلمة "رفيق"، والقصائد الشعرية الغنائية المعادية للفاشية المكتوبة على ورق مهلهل وتباع ببنس، وعبارات مثل "التضامن البروليتاري الأممي" التي كانت تتكرر بشكل مثير للشفقة من قبل رجال جهلة آمنوا بأنها تعني شيئاً. هل تقدر أن تشعر بود تجاه شخص وتناصره في شجار بعد أن تفتش بشكل شائن في حضوره من أجل ملكية يفترض أنك سرقتها منه؟ كلا لا تقدر؛ لكنك تقدر إن كنتما قد مررتما بتجربة واسعة عاطفياً. تلك واحدة من المنتجات الجانبية للثورة، لكن في هذه الحالة لم تكن سوى بدايات ثورة من الواضح أنها محكومة بالفشل.

٤ - إن الصراع من أجل السلطة بين أحزاب الجمهورية الإسبانية محزن وشيء ناءٍ، ليس لدي رغبة في إنعاشه في هذا التاريخ. أنا أذكره فقط لأقول: لا تصدق أي شيء أو أي شيء تقريباً مما تقرأ عن الشؤون الداخلية من جانب الحكومة، فكلها - أياً كان مصدرها - دعاية حزبية - أي أكاذيب. إن الحقيقة العريضة عن الحرب بسيطة جداً. رأت البورجوازية الإسبانية فرصتها في محق الحركة العمالية، واغتنمتها مدعومة من النازيين ومن القوى الرجعية في كل أنحاء العالم، ويشك إن كان سيثبت ويؤكد شيئاً أكثر من ذلك.

أتذكر قولي لآرثر كوستلر مرة إن "التاريخ توقف في عام ١٩٣٦" الذي رد عليه بإيماءة من رأسه في تفهم سريع. كنا نحن الاثنان نفكر في الديكتاتورية عموماً وبشكل أخص في الحرب الأهلية الإسبانية. في وقت مبكر من حياتي، لاحظت أنه ليس هناك حدث واحد نقل بشكل صحيح في أية صحيفة، لكن في إسبانيا رأيت للمرة الأولى الصحف تنقل أخباراً ليست لها أية علاقة بالوقائع، ولا حتى العلاقة المتضمنة في الكذبة العادية. رأيت معارك عظيمة؛ حيث لم يكن هناك أي قتال وصمت تام؛ حيث قتل مئات الرجال. رأيت جنوداً قاتلوا بشجاعة، اتهموا بالجبن والخيانة، وآخرين لم يروا رصاصة أطلقت، رُحب بهم كأبطال انتصارات وهمية، ورأيت صحفاً في لندن تبيع هذه الأكاذيب بالمفرق، ومثقفين متشوقين

يبنون بنى فوقية عاطفية على هذه الأحداث التي لم تقع أبداً. رأيت في الحقيقة تاريخاً يُكتب، ليس بشروط ما حدث وإنما لما كان ينبغي أن يحدث وفقاً "للسياسات حزبية". لكن بطريقة ما، رغم كل هذا الشيء الرهيب، لم يكن مهماً ويعتبر قضايا ثانوية - أي الصراع حول السلطة بين الكومينترن وأحزاب الجناح اليساري الإسبانية ومساعي الحكومة الروسية لمنع الثورة في إسبانيا. لكن الصورة العريضة لقضايا الحرب التي قدمتها الحكومة الإسبانية للعالم لم تكن كاذبة. القضايا الرئيسية كانت ما قيل إنها كانت. لكن بالنسبة إلى الفاشيين ونصرائهم كيف لهم أن يقتربوا من حقيقة كتلك؟ كيف لهم أن يذكروا أهدافهم الحقيقية؟ لقد كانت روايتهم عن الحرب محض خيال، في ظروف لا يمكنها أن تكون غير ذلك.

كان خط الدعاية الوحيد المفتوح للنازيين والفاشيين أن يقدموا أنفسهم كوطنيين مسيحيين متحمسين ينقذون إسبانيا من ديكتاتورية روسية. تضمن هذا الزعم أن الحياة في حكومة إسبانيا كانت مذبحة طويلة واحدة فقط (راجع كاثوليك هيرالد أو ديلي ميل - لكن هذه كانت لعب أطفال مقارنة مع الصحافة الفاشية القارية) وشمل تضخيم التدخل الروسي بشكل هائل. من بين هذا الهرم من الأكاذيب التي لفقتها وراكمتها الصحافة الكاثوليكية والرجعية في كل أرجاء العالم، دعني أتناول نقطة واحدة - وجود جيش روسي في إسبانيا. كل أنصار ديفوت فرانكو صدقوا هذا، ووصلت تقديرات قوته إلى نصف مليون عسكري. الآن لم يكن هناك روس في إسبانيا، وربما كانت هناك حفنة من الطيارين والفنيين أي بضع مئات في أكثر الأحوال، لكن لم يكن هناك جيش. كان هناك آلاف من الأجانب الذين قاتلوا في إسبانيا، لا داعي لذكر ملايين الإسبان وكانوا شهود عيان على هذا، لكن لم يكن لشهادتهم أي أثر إطلاقاً على مروجي دعاية فرانكو الذين لم يطأ أحد منهم أرض إسبانيا الحكومية. رفض هؤلاء الناس معاً وتماماً الاعتراف بحقيقة التدخل الألماني والإيطالي، في الوقت الذي كانت فيه الصحافة الألمانية والإيطالية تتفاخر ببطولات "فيالقهما" اخترت نقطة واحدة للذكر، لكن في الحقيقة كل الدعاية الفاشية عن الحرب كانت في هذا المستوى. هذا النوع من الأشياء يخيفني، لأنه يعطيني الشعور بأن مفهوم الحقيقة الموضوعية ذاته يتلاشى من العالم. في المجمل إن لتلك الأكاذيب أو الأكاذيب المتشابهة فرص كي تمر وتدخل التاريخ. كيف سيكتب تاريخ الحرب الإسبانية؟ إن بقي فرانكو في السلطة، فإن الذين سيعينهم في المناصب سيكتبون

التاريخ (لألتزم بنقطتي المختارة) وسيصبح الجيش الروسي الذي لم يكن له وجود، حقيقة تاريخية يتعلمها طلاب المدارس لأجيال بعد ذلك. لكن أفترض أن الفاشية دحرت أخيراً، وعادت إلى إسبانيا حكومة ديمقراطية نوعاً ما في المستقبل القريب، فكيف سيكتب تاريخ الحرب؟ أي نوع من السجلات سيتركه فرانكو خلفه؟ أفترض أن السجلات التي حفظتها الحكومة أمكن استردادها، وحتى مع ذلك، كيف سيكتب تاريخ صحيح للحرب؟ لأن الحكومة كما نوهت سالفاً، تعاملت أيضاً بشكل واسع بالأكاذيب. من زاوية معادية للفاشية، يقدر المرء أن يكتب تاريخاً واسعاً للحرب، لكنه سيكون تاريخاً موالياً لا يعتمد عليه في أية نقطة ثانوية. لكن بالمجمل سيكتب نوع ما من التاريخ، وبعد أن يموت هؤلاء الذين يتذكرون الحرب فعلياً، سيكون مقبولاً عالمياً. وهكذا تصبح الكذبة حقيقة بالنسبة إلى كل الأهداف العملية.

أعرف أن الرائج اليوم هو القول إن كل التاريخ المدون عبارة عن أكاذيب على كل حال. أنا أرغب بتصديق أن التاريخ في جله غير دقيق ومتحيز، لكن ما هو فريد في عصرنا، هو التخلي عن الفكرة التي ترى أن التاريخ يمكن أن يكتب بشكل صادق. في الماضي كان الناس يتعمدون الكذب أو يلونون دون دراية ما يكتبون أو يقاومون وراء الحقيقة، وهم يعرفون جيداً أنهم يجب أن يرتكبوا أخطاء؛ لكنهم كانوا يؤمنون بأن "الوقائع" موجودة وقابلة للاكتشاف بشكل أو بآخر وبالممارسة يوجد هناك قدر كبير من الحقيقة دائماً يتفق عليه الجميع تقريباً. لو فتشت بتاريخ الحرب الأخيرة في الموسوعة البريطانية مثلاً، ستجد أن مقداراً محترماً من المادة مأخوذ من مصادر ألمانية. قد يختلف مؤرخ إنكليزي وآخر ألماني بعمق على أشياء كثيرة حتى في الأساسيات، لكن يظل هناك ذلك القدر من الحقيقة المحايدة التي لم يحتج أي منهما بجدية حولها على الآخر. إنه هذا الأساس المشترك من الاتفاق فقط، وتضمينه أن الكائنات البشرية كلها من جنس حيواني واحد، وأن نظام الحكم الشمولي يدمره. في الحقيقة إن النظرية النازية بشكل خاص تنكر حقيقة وجود مثل هذا الشيء، وليس هناك شيء كـ"علم" وإنما فقط "علم ألماني" و"علم يهودي" إلخ. الهدف الضمني لهذا الخط الفكري هو عالم كابوسي يسيطر فيه قائد أو زمرة حاكمة ليس على المستقبل فقط، وإنما على الماضي أيضاً. فلو قال القائد عن هذا الحدث المهم أو غيره "لم يحدث أبداً" حسناً فهو لم يحدث أبداً،

وإن قال إن اثنين واثنين يساويان خمسة - حسناً فإن اثنين واثنين يساويان خمسة. هذا المشهد يخيفني أكثر بكثير من القنابل - وبعد تجاربنا في العقود الأخيرة القليلة، فإن هذه إفادة ليست تافهة.

لكن هل ترويع إن المرء لنفسه برؤى من مستقبل استبدادي أمر طفولي أو مرضي؟ قبل شطب كتابة أن العالم الاستبدادي كابوس لا يمكن أن يتحقق، تذكروا أن عالم اليوم كان يبدو في عام ١٩٢٥ كابوساً لا يمكن أن يتحقق أبداً. هناك في الواقع حارسان اثنان ضد ذلك العالم الوهمي المتبدل الذي يمكن فيه للأسود أن يصبح أبيض غداً، ويمكن لطقس الأمس أن يتغير بمرسوم. الحارس الأول هو مهما أنكرت الحقيقة، ستظل موجودة كما هي خلف ظهرك، وبناء عليه لا تستطيع تدنيسها بطرق تتلف الكفاءة العسكرية. الحارس الآخر أنه طالما تبقى أجزاء من الأرض لم تهزم، ستظل التقاليد الليبرالية حية. دع الفاشية أو ربما حتى مجموعة من الفاشيات الكثيرة تهزم العالم بأكمله، ولن يظل لهذين الشرطين وجود. نحن في إنكلترا نقلل من خطر هذا النوع من الأشياء لأن تقاليدنا وأمننا الماضي أعطيانا اعتقاداً عاطفياً يرى أنه في النهاية لا يصح إلا الصحيح، والشيء الذي تخشاه جداً لن يحدث أبداً في الحقيقة. بعد أن تربينا لمئات السنين على أدب ينتصر فيه الحق في الفصل الأخير دائماً، نحن نؤمن بشكل شبه غريزي أن الشر يهزم نفسه دائماً على المدى الطويل، ونزعة رفض حمل السلاح (السلامية) مثلاً تأسست بشكل كبير على هذا الاعتقاد. لا تقاوم الشر وسوف يدمر نفسه بطريقة ما. لكن لماذا يجب عليه ذلك؟ ما الدليل بأنه سيفعل ذلك؟ وأي مثال هناك عن انهيار دولة صناعية إذا لم تدحر من قوة عسكرية خارجية؟

تأمل للحظة إعادة الرق ثانية. من كان يتخيل قبل عشرين سنة أن الرق سيعود إلى أوروبا؟ حسناً لقد استرجع الرق رغم أنوفنا، وها هي معسكرات العمل القسري في كل أرجاء أوروبا وشمال أفريقيا، حيث يكدح البولونيون والروس واليهود والسجناء السياسيون من كل عرق في شق الطرق وتجفيف المستنقعات من أجل حصصهم الغذائية فقط، وهم مثال بسيط عن عبودية الرق. أقصى ما يمكن أن يقوله المرء إن شراء وبيع العبيد كأفراد لم يعد مسموحاً به. بطرق أخرى - تفكيك الأسر مثلاً والظروف التي ربما أسوأ مما كانت في مزارع القطن الأمريكية. ليس هناك أي مبرر للتفكير أن هذه الحالة من الأمور سوف تتغير، طالما ظل هناك

نظام شمولي استبدادي. نحن لا نفهم مضامينه التامة، لأننا بطريقتنا الباطنية نشعر أن نظام الحكم المؤسس على العبودية يجب أن ينهار. لكن يجدر بنا أن نقارن مدة بقاء إمبراطوريات العبيد القديمة مع تلك في أية دولة حديثة. لقد دامت الحضارات المؤسسة على الرق لفترات امتدت إلى أربعة آلاف عام.

إن التفصيل الذي يخيفني حين أفكر في العصور القديمة، هو أن هؤلاء المئات من ملايين العبيد الذين اتكأت على ظهورهم الحضارة جيلاً بعد جيل، لم يتركوا خلفهم سجلاً محفوظاً أياً كان نوعه. نحن لا نعرف أسماءهم حتى. في كل التاريخ الإغريقي والروماني كم هي أسماء العبيد المعروفة لديك؟ أستطيع أن أفكر في اثنين أو ربما ثلاثة: الأول سبارتاكوس والآخر إيبكتيتيوس، وأيضاً في الغرفة الرومانية في المتحف البريطاني هناك مرطبان زجاجي نقش اسم صانعه على قاعدته، فيليكس فيسيت. لدي صورة ذهنية للمسكين فيليكس (شخص غال بشعر أحمر وطوق معدني حول عنقه) لكنه في الواقع ربما لم يكن عبداً؛ لهذا هناك عبدان اثنان فقط أعرف اسميهما بشكل واضح، وربما قلة من الناس يستطيعون تذكر أكثر. أما البقية منهم فقد فقدوا في صمت مطبق.

٥ - كانت الطبقة العاملة الإسبانية الجزء الأساسي من المقاومة ضد فرانكو وخصوصاً أعضاء النقابات في المدن. ومن المهم أن نتذكر أنه على المدى الطويل - تبقى الطبقة العاملة فقط أهم عدو موثوق للفاشية، وذلك ببساطة لأن الطبقة العاملة تقف وتصمد لتكسب أكثر من خلال إعادة بناء محترمة للمجتمع، ولا يمكن رشوتها بشكل دائم خلافاً للطبقات أو الفئات الأخرى.

هذا لا يعني إضفاء المثالية على الطبقة العاملة؛ ففي الصراع الطويل الذي تلا الثورة الروسية، من اندحر كان العمال اليدويون، ومن المستحيل ألا يشعر المرء بأن ذلك كان خطؤهم. مرة بعد أخرى وفي بلاد إثر بلاد، كانت حركات العمال المنظمة تسحق بعنف مكشوف غير قانوني، ورفاقهم من خارج البلاد الذين يربطهم معهم تضامن نظري، يتفرجون ببساطة من دون أن يفعلوا شيئاً. وتحت هذا سبب سري لخيانات كثيرة، رسخت حقيقة مفادها أن بين العمال البيض والعمال الملونين لا يوجد حتى التظاهر الكاذب بالتضامن. من يستطيع أن يؤمن بالبروليتاريا الأممية الواعية طبقياً بعد أحداث السنوات العشر الماضية؟

بالنسبة إلى الطبقة العاملة البريطانية بددت مذبحة رفاقهم في فيينا وبرلين ومدريد أو أي مكان آخر، أقل تشويقاً وأهمية من مباراة الأمس لكرة القدم، لكن هذا لا يبدل حقيقة أن الطبقة العاملة سوف تواصل نضالها ضد الفاشية بعد أن ينسحب الآخرون ويستسلموا. إحدى مزايا الغزو النازي لفرنسا كان الردات الصاعقة للطبقة المثقفة وضمنها المثقفون السياسيون من الجناح اليساري. المثقفون هم الناس الذين يصرخون بأعلى صوت ضد الفاشية، ومع ذلك ينهار قسم كبير منهم إلى انهزامية حين تأتي الفرصة، وهم متبصرون لدرجة يرون فيها الفرص ضدهم، ويمكن رشوتهم أيضاً - فمن الواضح أن النازيين اعتبروا أن رشوة المثقفين عمل يستحق العناء. لكن الأمر عكس ذلك مع الطبقة العاملة، فهم أجهل من يروا الخدعة التي انطلت عليهم، فقد بلعوا الوعود الفاشية بسهولة لكنهم عاجلاً أو آجلاً سيتنطعون للصراع مرة ثانية. يجب أن يفعلوا هكذا، لأنهم يكتشفون بأجسادهم دائماً أن الوعود الفاشية لا يمكن أن تنفذ، ولكي يفوزوا على الطبقة العاملة بشكل مستمر، يجب على الفاشيين أن يرفعوا المستوى المعيشي العام، وهذا ما يعجزون عنه أو لا يرغبونه ربما.

إن صراع الطبقة العاملة مثل نمو النبتة، فالنبتة عمياء وغبية، لكنها تعرف ما يكفي لمواصلة الدفع نحو الأعلى باتجاه الضوء، وتفعل هذا في وجه المثبطات التي لا نهاية لها. من أجل ماذا يقاتل العمال؟ ببساطة من أجل حياة محترمة يدركون أكثر فأكثر أنها ممكنة تقنياً الآن. إن وعيهم لهذا الهدف في مد وجزر. في إسبانيا لوهلة كان الناس يتصرفون بوعي ويتقدمون نحو هدف أرادوا الوصول إليه، وآمنوا بإمكانية الوصول، وهو المسؤول عن الشعور المبتهج الغريب الذي كان للحياة في إسبانيا الحكومة خلال ال أشهر الأولى من الحرب. لقد عرف عامة الناس بعظامهم أن الجمهورية صديقتهم وفرانكو عدوهم، وعرفوا أنهم في المسار الصحيح، لأنهم كانوا يقاتلون من أجل شيء كان العالم مدان لهم به، وكان قادراً على إعطائه لهم.

يجب أن يتذكر المرء هذا ليرى الحرب الإسبانية في منظورها الحقيقي. حين يفكر المرء بالوحشية والقذارة وعبث الحرب - وفي هذه الحالة الخاصة من المؤامرات وأعمال الاضطهاد والأكاذيب وسوء الفهم - هناك دائماً الإغراء للقول: "الطرف الأول سيء كالطرف الآخر، أنا حيادي". لكن في الممارسة لا يستطيع المرء أن يكون محايداً ولا يوجد شيء كهذا في حرب

لا يفرق فيها من يفوز بها. يمثل الطرف الأول بشكل أو بأخر التقدم، ويمثل الطرف الآخر الرجعية دائماً تقريباً. إن الكره الذي إثارته الجمهورية الإسبانية في المليونيرين والأدواق والكرادلة والمستهترين وكبار العسكريين وأمثالهم، يكفي ليبين كيف ستؤول إليه الأمور. لقد كانت حرباً طبقية في الجوهر، ولو تم الفوز بها لباتت قضية عامة الشعب أقوى، لكنها كانت خاسرة، ولفرك ساحبو الأسهم والحصص في كل أنحاء العالم أيديهم. تلك هي القضية الحقيقية وكل شيء سواها زبد على السطح.

٦ – حسمت نتيجة الحرب الإسبانية في لندن وباريس وروما وبرلين – وليس في إسبانيا على كل حال. بعد صيف ١٩٣٧ أدرك من له عينان ورأس أن الحكومة لا تستطيع الفوز بالحرب إلا إذا كان هناك تغيير عميق في التركيبة الدولية وفي قرار القتال إلى جانب نيجرين، وربما تأثر آخرون جزئياً بتوقع أن الحرب العالمية التي اندلعت فعلياً عام ١٩٣٩ ستحدث عام ١٩٣٨. إن الخلاف والانشقاق الذي ضخمته الدعاية من جانب الحكومة، لم يكن السبب الرئيسي للهزيمة. كانت ميليشيات الحكومة التي جمعت بسرعة سيئة التسليح وغير بارعة في رؤيتها العسكرية، لكنها كانت ستظل على ما هي عليه لو وجد اتفاق سياسي منذ البداية. مع اندلاع الحرب، لم يكن عامل المصنع الإسباني العادي يعرف كيف يطلق البندقية (لم يكن هناك تجنيد عام إجباري في إسبانيا) وكانت سلامية (رفض حمل السلاح) اليسار التقليدية عقبة كبيرة. لقد شكل آلاف الأجانب الذين خدموا في إسبانيا كتائب مشاة جيدة، لكن كانت هناك قلة قليلة من الخبراء بينهم، وكانت الفرضية التروتسكية تقول بأن الحرب يمكن الفوز بها إذا لم تخرب الثورة زيفاً ووهماً. إن تأميم المصانع وهدم الكنائس وإصدار بيانات ثورية سياسية، لم يجعل الجيوش أكثر كفاءة. لقد فاز الفاشيون، لأنهم كانوا الأقوى ولديهم أسلحة حديثة ليست لدى الآخرين، ولا تستطيع أي استراتيجية سياسية تعديل ذلك.

كان الشيء المربك جداً في الحرب الإسبانية سلوك القوى العظمى، فقد فاز فرانكو بالحرب بفضل الألمان والإيطاليين الذين كانت دوافعهم واضحة جداً، أما دوافع فرنسا وبريطانيا فكانت غير مفهومة بالمقارنة. في عام ١٩٣٦ كان من الواضح لكل شخص لو أن بريطانيا ساعدت الحكومة الإسبانية بسلاح حتى ولو ببضعة ملايين الجنيهات، لانهار فرانكو وتفككت الاستراتيجية الألمانية بشدة. في ذلك الوقت لم يكن المرء بحاجة ليكون مستبصراً

نيتكهن بأن الحرب بين بريطانيا وألمانيا كانت قادمة؛ حتى أن المرء العادي استطاع أن يتنبأ بقدومها في غضون سنة أو اثنتين، ومع ذلك بذلت الطبقة الحاكمة البريطانية أقصى جهدها وبأوضع وأجبن وأزيف طريقة كي تسلم إسبانيا لفرانكو والنازيين. لماذا؟ الجواب الواضح؛ لأنهم (الطبقة الحاكمة) كانوا مؤيدون للنازية، وكانوا كذلك من دون أي شك وحتى حين وصلت الأمور إلى المكاشفة الحاسمة، قد اختاروا أن يقفوا إلى جانب ألمانيا. لايزال غير مؤكد أية خطة نفذوها لدعم فرانكو وربما لم تكن لديهم أية خطة إطلاقاً. إذا كانت الطبقة الحاكمة في بريطانيا شريرة أم مجرد غبية، هو أحد أصعب الأسئلة في زمننا، وهو سؤال هام جداً في لحظات محددة. بالنسبة إلى الروس فقد كانت دوافعهم في الحرب الإسبانية مبهمة تماماً. هل تدخلوا في إسبانيا كما أعتقد القرنفليون لكي يدافعوا عن الديمقراطية ويمنعوا النازيين؟ أم هل تدخلوا كما ظل الكاثوليكيون يعتقدون لكي يعززوا الثورة في إسبانيا؟ إذاً لماذا تدخلوا بمستوى ضعيف جداً وتركوا إسبانيا تغرق؟ ولماذا فعلوا كل ما في قوتهم لسحق الحركات الثورية الإسبانية ودافعوا عن الملكية الخاصة، وسلموا السلطة للطبقة الوسطى لكونها ضد الطبقة العاملة؟ أم هل تدخلوا كما قال التروتسكيون ليمنعوا الثورة الإسبانية؟ إذاً لماذا لم يدعموا فرانكو؟ في الحقيقة تفسر أفعالهم بسهولة بالغة أن افتراض المرء أنهم كانوا يشتغلون على دوافع كثيرة متناقضة. أعتقد أننا في المستقبل سنصل إلى الشعور بأن سياسة ستالين الخارجية، بدلاً من أن تكون ذكية بشكل شيطاني كما زعم، كانت مجرد سياسة انتهازية وغبية، لكن في كل الأحوال لقد برهنت الحرب الإسبانية على أن النازيين عرفوا ما كانوا يفعلون وخصومهم لم يعرفوا. لقد جرت الحرب بمستوى فني متدنٍ، وكانت استراتيجيتها الرئيسية بسيطة جداً. الطرف الذي يملك السلاح سيفوز. أعطى النازيون والطليان الأسلحة لأصدقائهم الفاشيين الإسبان، أما الديمقراطيات الغربية والروس، فلم يعطوا أسلحة لهؤلاء الذين يفترض أنهم أصدقاؤهم، لهذا فنيت الجمهورية الإسبانية وهلكت وكسبت ما لم تخسره أية جمهورية.

هل كان تشجيع الإسبان للاستمرار في قتال من الصعب عليهم الفوز به كما فعلت من غير ريب كل الأجنحة اليسارية في البلدان الأخرى، صحيحاً أم غير صحيح، سؤال تصعب الإجابة عليه. أنا نفسي أعتقد أنه صحيح، لأنني أعتقد أنه حتى من وجهة نظر البقاء أن تقاتل

وتهزم أفضل من تستسلم بدون قتال، ومن غير الممكن تقييم الآثار على الاستراتيجية الكبرى للصراع ضد الفاشية بعد. لقد صمدت جيوش الجمهورية المهلهلة والعزلاء سنتين ونصف، وكان ذلك أطول بلا شك مما توقع أعداؤها. لكن إن كان ذلك قد خلع الجدول الفاشي وفككه أو إن كان من جانب آخر أجل الحرب الرئيسية فقط وأعطى النازيين وقتاً إضافياً ليعدوا التهم الحربة، فهذا غير مؤكد.

٧ - لم أفكر بالحرب الإسبانية أبداً من دون أن تخطر في ذهني ذكريتان اثنتان. الأولى من جناح المستشفى في ليردا، والأصوات الحزينة لجرحى رجال المليشيا وهم يغنون أغنية تنتهي باللازمة التالية -

أونا روزليسيون، لوشار هاست ال فين! (قرار، القتال حتى النهاية - المترجم).

حسناً، إنهم حاربوا حتى النهاية بشكل صحيح. في ال أشهر الثمانية عشرة الأخيرة من الحرب، كانت الجيوش الجمهورية تقاتل من دون سجائر والقليل جداً من الطعام. حتى حين غادرت إسبانيا في منتصف عام ١٩٣٧ كان اللحم والخبز نادرين والتبغ نادر جداً والحصول على القهوة والسكر غير ممكن.

الذكرى الأخرى لجندي ميليشيا إيطالي صافحني في غرفة الحرس في اليوم الذي انضممت فيه إلى الميليشيا. كتبت عن هذا الرجل في بداية كتابي عن الحرب الإسبانية [تقديراً لكاتالونيا] ولا أريد أن أكرر ما قلته هناك. حين أتذكر - أوه كم هي حية ونشطة هذه الذكرى! - بزته النظامية المهلهلة ووجهه البريء الحزين العنيف تبدو القضايا الجانبية المعقدة للحرب تتلاشى، وأرى بوضوح أنه لم يكن هناك أي شك في كل الأحوال حول من الذي كان على حق. بالرغم من سياسة السلطة والكذب الإعلامي، كانت القضية المركزية للحرب محاولة أناس للفوز بحياة كريمة عرفوا أنه حقهم بالولادة. من الصعب التفكير بغاية هذا الرجل بالذات المحتملة بدون أنواع كثيرة من المرارة. منذ أن قابلته في ثكنة لينين كان تروتسكياً أو فوضوياً ربما، وفي الظروف الغريبة لزمننا كان هؤلاء الناس يتعرضون للقتل، فإن لم يقتلهم الجيستابو يقتلهم جي بي يو (الشرطة السرية الروسية) عادة. لكن ذلك لا يؤثر على القضايا البعيدة. وجه هذا الرجل الذي رأيته لمدة دقيقة أو اثنيتن فقط، ظل معي كنوع من مذكر بصري لما كانت من

أجله الحرب. إنه يرمز بالنسبة إلي إلى نخبة الطبقة العاملة الأوروبية التي يغير عليها رجال الأمن من كل البلدان، والناس الذين يملؤون القبور الجماعية في ميادين المعارك الإسبانية والملايين الكثيرة من الناس الذين يتعفنون في معسكرات العمل القسري الآن.

حين يفكر المرء بالناس الذين أيدوا ويؤيدون الفاشية، يقف مذهولاً من تنوعهم. يا لهم من عصبة! فكر ببرنامج يمكن أن يجمع بأي شكل ولو لوهلة هتلر وبيتان ومونتاغو نورمان وبافيليتش ووليم راندولف هيرست وسترايخر وبوشمان وإيزرا باوند وجوان مارش وكوكتو وثايسين والأب كوغلين ومفتي القدس وأرنولد لون وأنتونيسكو وشبينغلر وبيفرلي نيكولاس والليدي هيوستون وماريتيتي، كلهم في نفس القارب! لكن مفتاح اللغز بسيط فعلاً. إنهم أناس لديهم شيء يخسرونه أو أشخاص يتوقون إلى مجتمع تراتبي، ويفزعون من مشهد عالم من بشر أحرار متساوين، وخلف كل الجلبة والصياح عن روسيا "الملحدة" و"مادية" الطبقة العاملة، يكمن قصد هؤلاء الناس في التشبث بأموالهم وامتيازاتهم، وبالمثل الحديث العقيم حول إعادة بناء اجتماعي غير مترافق مع "تغيير القلب" رغم ما يتضمن من حقيقة مجزوءة، فالورعون من البابا إلى متمرني اليوغا في كاليفورنيا بارعون في "التغيير من القلب" فهو مطمئن من وجهة نظرهم أكثر من تغيير في النظام الاقتصادي، وبيتان يعزو سقوط فرنسا إلى حب العوام للمتعة. ويمكن للمرء أن يرى هذا في منظوره الصحيح إن توقف وتساءل كم هي المتعة التي تحتويها حياة الفلاح الفرنسي العادي أو العامل مقارنة مع متعة بيتان، ويوبخ هؤلاء السياسيين والقساوسة ورجال الأدب وأشباههم بوقاحة مقيتة، فرد الطبقة العاملة الاشتراكي على "ماديته!" علماً أن كل ما يطلبه هذا العامل هو ما يراه هؤلاء الآخرون الحد الأدنى الذي لا يمكن الاستغناء عنه، والذي بدونه لا يمكن للحياة البشرية أن تقوم أبداً. ما يكفي من الأكل والتحرر من رعب البطالة الملازم والمعرفة بأن أولادك سيحظون بفرصة عادلة والاستحمام مرة واحدة في الأسبوع وملابس كتانية نظيفة كثيرة بشكل معقول وسقف لا يرشح وساعات عمل قصيرة، تكفي لتترك فيك قليلاً من الطاقة حين ينتهي اليوم، فلا أحد من هؤلاء الذين يعظون ضد "المادية" يعتبر الحياة تحتمل بدون هذه الأشياء، وكم سهل تحقيق ذلك الحد الأدنى إن اخترنا أن نضعه هدفاً لنا لمدة عشرين سنة! لنرفع مستوى المعيشة لكل العالم، ولن يكون ذلك بالنسبة إلى بريطانيا تعهداً أكبر من

الحرب التي نخوضها الآن. لا أدعي ولا أعرف أن أدعي أن ذلك لن يحل أي شيء بحد ذاته. يجب أن يلغى الحرمان والعمل البهيمي، قبل أن تصبح معالجة المشاكل الحقيقية للإنسانية غير ممكنة. إن المشكلة الرئيسية في زمننا هي انحلال الاعتقاد في الخلود الشخصي الذي لا يمكن معالجته طالما الكائن البشري العادي إما أنه يكدح مثل ثور أو يرتعد خوفاً ورعباً من الشرطة السرية. كم هي محقة الطبقة العاملة في "ماديتها"! كم أفرادها محقون في إدراكهم أن البطن تأتي قبل الروح، ليس في ميزان القيم النبيلة، وإنما من ناحية الوقت! افهموا ذلك ويصبح الرعب الطويل الذي نقاسيه جلياً. كل الأفكار على الأرجح تجعل المرء يتردد - الأصوات الفاتنة لبيتان أو غاندي، والحقيقة التي لا مفر منها التي ترى أنك لكي تقاتل عليك أن تحط من قدرك وتهين نفسك، والموقف الأخلاقي الملتبس لبريطانيا بعباراتها الديمقراطية وإمبراطوريتها من الحمالين (الهنود)، والتطور المنحوس لروسيا السوفييتية والمسرحية الهزلية لسياسة الجناح اليساري - كل هذا يتلاشى ولا يرى المرء سوى صراع عامة الناس الذين ينهضون تدريجياً ضد أسياد الملكية وأفاكيهم المستاجرين ومصاصي المؤخرات. السؤال بسيط جداً. هل سيحب الناس أن يسمح لذلك الجندي الإيطالي أن يعيش حياة إنسانية كريمة كاملة قابلة للتحقق فنياً الآن، أم لا يحبون؟ هل سيدفع الرجل العادي إلى الوراء في الوحل أم لا؟ أنا نفسي أعتقد وربما على أسس غير كافية - أن الرجل العادي سيفوز بقتاله عاجلاً أو آجلاً، وأريد أن يكون ذلك عاجلاً وليس آجلاً - في وقت ما خلال المائة سنة القادمة مثلاً، وليس خلال العشرة آلاف سنة القادمة. تلك هي القضية الحقيقة للحرب الإسبانية والحرب الأخيرة وللحروب القادمة ربما.

لم أر رجل الميليشيا الإيطالي ثانية أبداً ولم أعرف اسمه أبداً. من المؤكد أنه مات. بعد سنتين تقريباً حين وضح أن الحرب كانت خاسرة، كتبت هذه الأبيات الشعرية في ذكراه:

صافحني الجندي الإيطالي

بجانب طاولة غرفة الحرس؛

اليد القوية واليد الرقيقة

اللتان راحتاهما استطاعتا فقط

أن تلتقيا داخل ضجيج البنادق
لكن أوه! أي سلام عرفته بعدئذ
في التحديق في وجهه الممزق
الأنقى من وجه أية امرأة!

لأن الكلمات الفاسدة التي جعلتني أتقيأ
لازالت في أذنيه مقدسة،
فقد ولد وهو يعرف ما تعلمته
أنا ببطء من الكتب.

لكن البنادق الغادرة روت حكايتها
ونحن صدقناها كلانا،
لكن قرميدتي الذهبية صنعت من ذهب - أوه!
من كان له أن يتخيل هذا؟

ليصطحبك الحظ الطيب أيها الجندي الإيطالي
لكن الحظ ليس للشجعان؛
ما الذي سيرده العالم لك؟
سيظل دائماً أقل مما أعطيت

بين الظل والشبح
بين الأبيض والأحمر

بين الرصاصة والكذبة
أين ستخبئ رأسك؟

لأنه أين مانويل غونزاليس،
وأين بيرو أغويلار،
وأين رامون فينيلوسا؟
دود الأرض يعرف أين يكونون.

اسمك ومآثرك نسيت
قبل أن تجف عظامك،
والكذبة التي ذبحتك طمرت
تحت كذبة أعمق؛

لكن الشيء الذي رأيته في وجهك
لا تستطيع قوة أن تطرده
ولا تستطيع أية قنبلة انفجرت
تحطيم الروح الشفافة.

شمال وجنوب

حين تسافر إلى الشمال الشرقي، لا تلاحظ عيناك اللتان ألفتا الجنوب أو الشرق، أي اختلاف كبير حتى تتجاوز بيرمنغهام. في كوفنتري وفينسبيري بارك أيضاً وبول رينغ في بيرمنغهام التي لا تختلف عن نورويتش ماركت، وبين كل مدن الأراضي الوسطى، تنتشر هناك حضارة الفيلات التي لا تتميز عن الجنوب. لا تبدأ بملاقاة قبح التصنيع قبل أن تبتعد أكثر نحو الشمال وتصل إلى مدن الفخار وتتجاوزها، ذلك القبح المخيف والآسر للنظر لدرجة يجبرك على قبوله.

إن كوم النفايات شيء شنيع في أفضل حالاته، لأنه بلا هدف أو وظيفة، وهو شيء مكوم على الأرض مثل تفريغ حاوية قمامة عملاقة. هناك مناظر طبيعية ريفية مرعبة في ضواحي مدن التعدين: جبال رمادية مثلمة تطوق أفقك تماماً، ووحل ورماد تحت أقدامك، وأسلاك فولاذية فوق رأسك تنتقل عليها أحواض الوحل ببطء لتعبر مسافات طويلة في قلب الريف. غالباً ما تكون أكوام النفايات مشتعلة، فترى في الليل أنهراً حمراء من النار تتعرج بهذا الدرب أو ذاك ولهباً كبريتياً أزرق يتحرك ببطء ويبدو دائماً على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكنه يثب فجأة دائماً، فحتى حين يغور كوم النفايات كما يحصل أخيراً، لا ينمو عليه سوى عشب بني كريه ويحتفظ بسطحه الناتئ، وقد استخدم في أحد شوارع ويغان القذرة كملعب، لكنه بدا مثل بحر متلاطم الأمواج تجمد فجأة (حشوة الفراش) كما سموه محلياً. بعد قرون من الآن عندما يمر المحراث فوق الأماكن التي نُجّم فيها عن الفحم، ستظل مواقع أكوام النفايات مميزة من الطائرة.

أتذكر عصر يوم شتوي في ضواحي ويغان البغيضة. كل ما يحيط بك منظر قمري لأكوام النفايات، وإلى الشمال عبر الحواجز ترى مداخن المعامل وهي تنشر غيوم الدخان، كما لو كانت بين جبال من مخلفات البراكين. كان ممر القناة خليطاً من الجمر المطفأ والوحل المتجمد الذي قطعته آثار قباقيب لا تحصى وتمتد في كل المحيط وصولاً إلى أكوام النفايات البعيدة و-

الومضات - برك من المياه الراكدة تسربت إلى التجاويف التي سببها انخساف الحفر القديمة. كان الجو بارداً بشكل رهيب وغطى "الومضات" البرك جليد بلون بني مصفر، وتكمم رجال المراكب بأكياس والتحت البوابات المقفلة بالجليد. بدا عالماً طردت منه الحياة النباتية ليس فيه سوى الدخان والصلصال والوحل والمياه القذرة. لكن حتى ويغان تبدو جميلة مقارنة بشيفيلد. شيفيلد أعتقد أنني أستطيع أن أطلق عليها أبشع بلدة في العالم القديم: سكانها الذين أرادوا أن تتفوق، قدموا هذا الطلب من أجلها. يبلغ سكانها نصف مليون، وفيها عدد من الأبنية المقبولة أقل مما هو موجود في أية قرية إنكليزية في الشرق تعدادها خمسمائة شخص. والرائحة الكريهة! لو حدث في لحظات ولم تشم فيها رائحة الكبريت، فستشم رائحة الغاز بدلاً منها. حتى لون النهر الضحل الذي يجري في البلدة فهو أصفر ساطع بسبب مادة كيمائية أو أخرى. توقفت مرة وأحصيت عدد مداخن المعامل التي استطعت أن أراها، فكانت ثلاث وثلاثين مدخنة، ولولا الظلام الذي شكله الدخان، لكان هناك عدد أكبر بكثير من ذلك. لقد احتفظت ذاكرتي بأحد تلك المناظر بشكل خاص. بقعة مخيفة من أرض خالية (بطريقة أو بأخرى، توجد هناك بقعة أرض خالية تصل إلى درجة من القذارة يستحيل مثيلها حتى في لندن) خلت من العشب ولوثت بالجرائد وقدور الطبخ القديمة. إلى اليمين صف معزول من البيوت بلونها الأحمر الغامق والتي اسودت من الدخان، وعلى اليسار منظر لمداخن المصانع الواحدة تلو الأخرى، والتي تلاشت في ضباب مسود مبهم، وورائي جسر سكة الحديد مصنوع من بقايا الأفران، وأمامي عبر بقعة الأرض الخالية بناء مكعب الشكل من الآجر الأحمر والأصفر بعلامة (توماس غروكوك، متعهد نقل العربات).

في الليل، حين لا يمكن رؤية الأشكال الشنيعة للبيوت ويغطي اللون الأسود كل شيء، تبدو مدينة مثل شيفيلد كنوع من الجلال المنحوس. أحياناً تضغط تيارات من الدخان الكبريتي الوردي وألسنة اللهب المتفرقة مثل مناشير دائرية نفسها، لتخرج من تحت أغطية مداخن صهر المعادن. من خلال أبواب معامل سبك المعادن المفتوحة ترى أفاعي مشتعلة من الحديد يحملها ذهاباً وإياباً صبية مضاؤون بلون أحمر، وتسمع صوت ضربات المطارق البخارية وأزيزها وصرخات الحديد تحت الضربة. مدن الفخار متساوية في القبح تقريباً بطريقة تافهة. بين صفوف البيوت المسودة الصغيرة وعلى استقامتها في جزء من الشارع،

هنالك مداخن قرميدية مخروطية مثل قناني خمر فرنسية عملاقة مدفونة في التراب تنفث دخانها في وجهك. ثم تواجه فجوات هائلة من الصلصال طول الواحدة منها مئات الأقدام، ولا يقل عمقها عن ذلك أيضاً مع أحواض صدئة صغيرة، تتسلق ببطء سلسلة سكة حديدية من جانب، وعلى الجانب الآخر عمال معلقون مثل جامعي الياقوت يحفرون بمعاولهم وجه الجرف. مررت بذلك الطريق في جو مثلج وكان الثلج أسود أيضاً. أفضل شيء يراه المرء في مدن الفخار هو صغر حجمها النسبي وتوقفها المفاجئ. على مسافة أقل من عشرة أميال، يمكنك أن تقف في ريف غير ملوث، تبدو من على تلال شبه جرداء بلدات الفخار مجرد لطخة بعيدة.

حين تفكر في قبح كهذا، يخامرك سؤالان؛ الأول: هل هذا محتوم؟ الثاني: هل هذا مهم؟

لا أعتقد أن في الصناعوية شيء متأصل وقبح لا يمكن تجنبه. المصانع وحتى معامل الغاز ليست ملزمة بطبيعتها بأن تكون قبيحة أكثر من القصر أو وجر الكلاب أو الكاتدرائية، فكل شيء يعتمد على التقليد المعماري للفترة الزمنية. البلدات الصناعية في الشمال قبيحة لأنها صدف وبنيت في زمن لم تعرف فيه الوسائل الحديثة للبناء الفولاذي ومخففات الدخان، وشغل جمع المال الناس وصرفهم عن الاهتمام بأي شيء آخر. استمرت بالقبح لأن الشماليين اعتادوا على ذلك النوع من الشيء ولم يلاحظوه. لو استنشق كثير من الناس في شيفيلد أو مانشستر الهواء على طول كورنيش كليفز، سيؤكدون أنهم لم يشموا أية رائحة فيه. لكن منذ الحرب اتجهت الصناعة للانتقال جنوباً، وبفعل هذا أصبحت أكثر وسامة. المصنع النموذجي لفترة ما بعد الحرب، ليس عبارة عن بناء ضخم كئيب أو فوضى مرعبة من السواد والمداخن المتجشئة وإنما بناء أبيض بهي من الإسمنت المسلح والفولاذ والزجاج محاط بمروج خضراء ومسابك أزهار الخزامى. انظر إلى المصانع التي تمر بها حين تسافر من لندن بسكة الحديد الغربية الكبرى؛ قد لا تكون إنجازات جمالية ناجحة، لكنها بالتأكيد ليست بقبح مصانع الغاز في شيفيلد. على أي حال يظل القبح أوضح شيء في التصنيع، وأي قادم جديد يحتج ضده. وأشك إن كان مهماً جداً. ربما من غير المرغوب للتصنيع أن يخفي نفسه بشيء آخر. كما لاحظ السيد ألدوس هاكسلي بصدق، ينبغي على المصنع الشيطاني المظلم أن يبدو مثل مصنع شيطاني مظلم وليس كمعبد آلهة غريبة وغامضة. علاوة على ذلك حتى في أسوأ المدن الصناعية يمكن

أن يرى المرء الكثير مما هو ليس قبيحاً بالمعنى الجمالي الضيق. المدخنة التي تقذف الدخان أو الأحياء الفقيرة النتنة منفرة أساساً، لأن فيها أرواح بائسة وأطفال مرضى. انظر إليها من وجهة نظر جمالية بحتة، فربما تجدها ذات جاذبية رهيبة معينة. العادة أن كل ما هو غريب بشكل مفرط يسحرني في النهاية حتى وإن كنت أكرهه بقوة. ظلت مناظر بورما الطبيعية وغيرها ترعبني، كما لو كانت كابوساً، وتنتاب أفكاري، حتى أجبرت أن أكتب رواية عنها لأتخلص منها. (في كل الروايات التي عن الشرق، فإن المنظر الجميل هو الموضوع الحقيقي المهم). قد يكون من السهل استخراج نوع من الجمال كما فعل أرنولد بينيت من سواد المدن الصناعية، ويمكن للمرء أن يتخيل بودلير بسهولة مثلاً وهو يكتب قصيدة عن كوم مخلفات، لكن جمال وقبح الصناعوية قلما كان مهماً، ويكمن شره على عمق كبير، ولا يمكن استئصاله، وهذا بسبب وجود إغراءات دائمة للتفكير بأن الصناعوية غير ضارة طالما أنها نظيفة ومرتبة.

لكن عندما تذهب إلى الشمال الصناعي، تشعر بمعزل تام عن المنظر غير المألوف، وبأنك تدخل دولة غريبة. هذا جزئياً بسبب وجود اختلافات حقيقية معينة، لكن الأهم بسبب تناقض الشمال والجنوب الذي انصقل داخلنا منذ زمن طويل في الماضي. توجد في إنكلترا عبادة غريبة للشمال ونوع من الغطرسة الشمالية. الشخص الذي من يوركشاير حين يكون في الجنوب يحرص دائماً على أن يدعك تعرف بأنه يعتبرك شخصاً أدنى، ولو سألته لماذا، فسيعلل ذلك أنه لا توجد حياة حقيقية إلا في الشمال، وأن العمل الصناعي في الشمال هو العمل الحقيقي الوحيد وأن الشمال لا يقطنه إلا الناس الحقيقيون، وأن الجنوب ليس فيه سوى أصحاب الدخول وطفيلييهم. الشمالي لديه (العزم) وهو صلب وصارم ومقدام وطيب القلب وديمقراطي، أما الجنوبي فهو متكبر ومخنث وكسول - هي نظرية على أي حال. لهذا يذهب الجنوبي إلى الشمال للمرة الأولى بعقدة نقص غامضة لرجل متحضر يغامر وسط همجيين، بينما يأتي ابن يوركشاير إلى لندن كالاسكتلندي بروح البربري الخارج إلى النهب. هذه المشاعر نتيجة للتقاليد ولا تتأثر بالوقائع المرئية. كالإنكليزي الذي يبلغ طوله خمسة أقدام وأربع بوصات ومحيط صدره تسع وعشرون بوصة ويظن بأنه متفوق بدنياً على البلطيقي - كامرا (كامرا كونه داغو) وهكذا مع الشمالي والشرقي. أتذكر أن رجلاً صغير الحجم وشديد الهزال من يوركشاير والذي يهرب لو نبح عليه كلب صغير، أخبرني أنه شعر في الجنوب كغازٍ

متوحش. لكن الإعجاب تبناه أشخاص أكثرهم غير شماليين بالمولد. منذ سنة أو سنتين أخذني صديق لي تربى في الجنوب ويعيش الآن في الشمال بسيارته عبر سوفوك، ومررنا بقرية جميلة نوعاً ما. نظر باستهجان إلى البيوت الصغيرة وقال:

طبعاً أغلب القرى في يوركشاير بشعة، لكن أهلها رجال ممتازون، أما هنا فعلى العكس تماماً ترى قرى جميلة وأناساً فاسدين. كل الناس الذين في تلك البيوت تافهون تماماً.

لم أستطع أن أمنع نفسي من السؤال إن كان قد عرف أحداً من تلك القرية، فأجاب لا، لكن بما أن هذا هو الشرق الإنكليزي فكل من فيه تافه. صديق آخر لي أيضاً جنوبي بالولادة لا يضيع أي فرصة لمدح الشمال وذم الجنوب. هذا مقتطف من إحدى رسائله لي:

أنا في كاليثيرو، لينز...أعتقد أن المياه الجارية جذابة أكثر في بلاد الجبال والمستنقعات من الجنوب المترهل والكسول. (ترنت الفضي المتعجرف) كما قال شكسبير؛ وأنا أقول الجنوبي الأشد تعجرفاً. (ترنت نهر في وسط إنكلترا - المترجم).

هذا مثال عن إعجاب الشماليين الشديد بأنفسهم. لم يصفك أنت أو أنا ولا حتى كل جنوبي أيضاً بالبدين والكسول، بل حتى الماء عندما يتجاوز شمال خط عرض معين لا يظل ذرتان من الهيدروجين وذرة من الأكسجين، وإنما يصبح شيئاً أرفع على نحو غامض. إن أهمية هذا المقطع، لأن الكاتب رجل ذكي جداً وذو آراء تقدمية وليس لديه سوى احتقار القومية في شكلها العادي. ولو سلمنا بصحة هذا الافتراض: (بريطاني واحد أفضل من ثلاثة أجانب) لرفض ذلك برعب، لكن عندما يتعلق الأمر بالشمال مقابل الجنوب، فإنه على استعداد تام للتعميم. كل الامتيازات القومية وكل الادعاءات بالتفوق على الآخر بفضل اختلاف شكل الجمجمة أو اللهجة، هي زائفة تماماً لكنها مهمة طالما يعتقد بها الناس. لا يوجد شك حول قناعة الرجل الإنكليزي الفطرية بأن الذين يعيشون على جنوبه أدنى منزلة، حتى أن ذلك يتحكم بسياستنا الخارجية إلى حد ما، لذلك أعتقد أن الإشارة إلى زمن ظهور هذه الظاهرة وأسبابها يستحق العناء.

حين أصبحت القومية ديناً لأول مرة، وحين نظر الإنكليز إلى الخريطة ورأوا بأن جزيرتهم تقع في مكان عالٍ جداً في نصف الكرة الشمالي، استنبطوا نظرية ترضيهم، وتقول: كلما ابتعدت

في العيش شمالاً كلما زادت فضائلك. تبدأ عادة علوم التاريخ التي تعلمتها في الصغر بأغبى تعليل بأن الطقس البارد يجعل الناس نشيطين والطقس الحار يجعلهم كسالى، ولهذا انهزم الأسطول البحري الإسباني. هذا الهراء عن تفوق طاقة الإنكليز (فعلياً هم أكسل أمة في أوروبا) ظل سائداً مائة عام على الأقل. وكتبت مجلة ربعية في العام ١٨٢٧ بعنوان (أن يحكم عليك بالعمل لصالح بلادنا، أفضل لك من حياة مترفة بين الزيتون والعنب والرذائل) الزيتون والعنب والرذائل تلخص الموقف الإنكليزي العادي تجاه السلالات اللاتينية. في أساطير غارليل وكريسي وغيرهم يصور الشمالي (التيوتوني والنوردي لاحقاً) على أنه رجل جبار ضخم الجثة بشاربين أشقرين وأخلاق طاهرة، بينما الجنوبي ماكر وجبان وفاسق. هذه النظرية لم تستكمل نهايتها المنطقية التي ستؤدي إلى أن أروع شعب في العالم هم الأسكيمو، لكنها لم تشر إلى أن الشعوب التي تعيش في شمالنا تتفوق علينا. لهذا وسم جزئياً حب اسكتلندا والأشياء الاسكتلندية الشديد الحياة الإنكليزية بعمق خلال الخمسين سنة الماضية. لكن الصناعوية هي التي أعطت لتضاد الشمال والجنوب انحرافه الغريب. حتى وقت حديث نسبياً كان القسم الشمالي في إنكلترا متخلفاً وإقطاعياً، لهذا تركزت الصناعة في لندن وفي الجنوب الشرقي. في الحرب الأهلية مثلاً التي هي حرب بين المال والإقطاعية صراحة، كان الشمال والغرب مع الملك، والجنوب والشرق مع البرلمان، لكن مع زيادة استخدام الفحم عبرت الصناعة إلى الشمال وربت أنموذجاً جديداً من البشر هناك، رجل الأعمال الشمالي العصامي - السيد راونسويل والسيد باوندرباي عند ديكنز. رجل الأعمال الشمالي بفلسفته البغيضة (تقدم أو اخرج) كان المظهر المهيمن في القرن التاسع عشر ونوع من الكيان الاستبدادي الذي لا يزال يحكمنا. هذا هو الأنموذج الذي ثقفه أرنولد بينيت - الأنموذج الذي يبدأ بنصف كراون وينتهي بخمسين ألف جنيه، ومفخرته الرئيسية أنه ظل فلاحاً أكثر سذاجة بعد أن كسب نقوده. بتحليل حسنته الوحيدة يتبين أنه موهوب في جمع المال. نحن احترمناه رغم أنه قد يكون ضيق الأفق ومثيراً للقرف وجاهلاً وجشعاً وأخرق، لكن لديه (العزم) و(يتقدم) أي انه يعرف كيف يجمع المال.

هذا النوع من الانحراف هو مفارقة تاريخية صرفة في الوقت الحاضر، لأن رجل الأعمال الشمالي لم يعد ناجحاً وثرياً، لكن التقاليد لا تتلفها الحقائق، وظل تقليد عزم الشمالي موجوداً.

لا يزال هناك شعور غامض بأن الشمالي يتقدم أي يجمع المال والجنوبي يفشل. في باطن عقل كل يوركي أو اسكتلندي قادم إلى لندن صورة من نوع ديك وتينغتون الصبي الذي بدأ ببيع الصحف وانتهى عمدة للمدينة، وتلك حقيقة منتهى غروره واستهجانه. لكن يرتكب المرء خطأ جسيماً إذا تخيل أن هذا الشعور يشمل الطبقة العاملة. في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى يوركشاير منذ سنين، تخيلت أنني ذاهب إلى بلاد الفلاحين. اعتدت على اليوركي الذي يعيش في لندن بخطاباته التي لا تنتهي وافتخاره بلهجته اللاذعة (قطبة في وقتها تنجيك من تسع) كما نقول في الدوائر الغربية، وتوقعت أن أستقبل بفظاظة كبيرة، لكنني لم أجد ذلك بين عمال الفحم على الأقل. في الحقيقة لقد عاملني عمال يوركشاير ولانكشاير بلطف واحترام مربكين، ولو أن هناك شخصاً أشعر بأنني أدنى مرتبة منه، فسيكون عامل منجم الفحم. طبعاً لم يبد أي شخص أية علامة احتقار لي لأنني قادم من قسم مختلف من البلاد، وهذا له أهميته عندما يتذكر المرء أن التكبر الإقليمي الإنكليزي هو قومية مصغرة، ويثبت أن الافتخار بالمكان ليس صفة للطبقة العاملة.

رغم ذلك يوجد اختلاف حقيقي بين الشمال والجنوب، كما يوجد أثر من الحقيقة على الأقل بأن صورة جنوب إنكلترا، هي كشكل مكبر لمدينة برايتون التي يقطنها المتكئون على الأرائك الكسالى لأسباب مناخية وتميل الطبقة الطفيلية التي تسحب أرباح أسهمها إلى الاستقرار في الجنوب (برايتون مدينة اصطياف في جنوب شرق إنكلترا).

في لانكشاير مدينة القطن، يمكنك أن تمضي شهوراً من دون سماع لهجة (مثقفة) بينما في أي بلدة في الجنوب يندر أن ترمي قرميدة من دون أن تصيب ابنة أخ أسقف، وبناء على ذلك من دون طبقة أرستقراطية صغيرة تنظم المسار، فإن تبرجز الطبقة العاملة يتم ببطء رغم أنه يحدث في الشمال. فمثلاً كل اللهجات الشمالية تثابر بقوة، بينما انهارت لهجات الجنوب قبل زمن السينما ومحطة البي بي سي، لذلك تسمك لهجتك المتعلمة كأجنبي، أكثر من كونك من الطبقة الأرستقراطية الصغيرة، وهذه فائدة هائلة، لأنها تسهل عليك تواصلك مع الطبقة العاملة.

لكن هل من الممكن حقيقة أن تكون حميماً مع الطبقة العاملة؟ سأناقش ذلك لاحقاً؛ ولن أقول هنا سوى إنني لا أعتقد أن هذا ممكن. لكن بلا شك أن تلتقي بأفراد من الطبقة العاملة

بشروط مساوية تقريباً في الشمال أسهل من الجنوب. العيش في بيت عامل منجم وقبول أهله بك كفرد من العائلة، أسهل كثيراً من العيش مع عامل مزرعة في الأقاليم الجنوبية التي قد يكون ذلك فيها مستحيلاً. رأيت ما يكفي من أفراد الطبقة العاملة ليجنبني تصويرهم بالمثاليين، لكنني أعرف تماماً أنك ستتعلم الكثير لو استطعت الوصول إلى هناك. النقطة الجوهرية أن مفاهيم الطبقة الوسطى وميولها توضع على المحك بالتواصل مع الآخرين الذين هم ليسوا أفضل بالضرورة، لكنهم مختلفون بالتأكيد.

خذ مثلاً الموقف المختلف تجاه العائلة. تتماسك عائلة العامل معاً كعائلة الطبقة الوسطى، لكن العلاقة فيها أقل استبدادية بكثير؛ فالعامل لا يرزح تحت عبء هيبة العائلة القاتل الملتف حول عنقه كحجر الرحى، أما فرد طبقة الوسطى فيدمره تأثير الفقر تماماً، وعموماً هذا بسبب سلوك عائلته - بسبب علاقاته الكثيرة التي تضايقه وتزعجه ليلاً ونهاراً لفشله بتحقيق (التقدم) بالإضافة إلى الحقيقة بأن الطبقة العاملة تعرف كيف تتحد والطبقة الوسطى لا تعرف، قد يكون هذا بسبب مفاهيمها المختلفة للولاء العائلي. لا يمكن أن تجد نقابة فعالة من عمال الطبقة الوسطى، لأن زوجة كل واحد منهم تحث زوجها ليحل محل عامل مضرب أثناء الإضرابات والحصول على وظيفة زميله الآخر. صفة أخرى مقلقة في البداية من صفات الطبقة العاملة، خطابهم البسيط نحو كل من يعتبرونه نداً لهم. لو قدمت شيئاً لعامل لا يريده، فهو يقول لك بأنه لا يريده؛ أما فرد الطبقة الوسطى سيقبله كي يتجنب الإساءة. وخذ أيضاً موقف العامل من (التعليم) كم هو مختلف عن موقفنا وكم هو سليم! يكن العمال تبجيلاً غامضاً للتعلم من الآخرين في أكثر الأحيان، لكن حين يؤثر التعليم على حياتهم الخاصة يتحققون منه ويرفضونه بغريزة سليمة. في الوقت الذي كنت أرثي فيه صورة خيالية مستقبلية لصبية في الرابعة عشرة تخلفوا عن رفاقهم محتجين على دروسهم وبدؤوا بالعمل في وظائف كئيبة بدا لي مرعبا أن يقع قدر الوظيفة على صبي في الرابعة عشرة، وأنا أعرف طبعاً أنه ليس هناك صبي واحد في الألف من أولاد الطبقة العاملة لا يتوق إلى اليوم الذي يترك فيه المدرسة، فهو يريد أن يعمل عملاً حقيقياً وألا يضيع وقته في ترهات سخيفة كالتاريخ والجغرافيا. تعتبر الطبقة العاملة فكرة البقاء في المدرسة حتى يصبح الصبي بالغاً، خسيسة وغير رجولية. فكرة الصبي الكبير ابن الثامنة عشرة الذي يجب أن يجلب جنيهاً إلى البيت أسبوعياً ويعطيه لأهله،

الذهاب إلى المدارس بالزي الرسمي السخيف والتعرض للضرب بالعصا لعدم القيام بدروسه أيضاً! تخيل صبياً من العمال في الثامنة عشرة يسمح لنفسه بأن يضرب بعصا! هو رجل بينما الآخر لا يزال طفلاً. إيرنست بونتيفكس في *طريق كل البشر* لصاموئيل بتلر، بعد أن احتك بالحياة الواقعية وحصل على لمحات قليلة منها، نظر إلى تعليمه في المدرسة الخاصة والجامعة ووجده (فسوق موهن وسقيم). هناك الكثير من حياة الطبقة الوسطى الذي يبدو سقيماً وواهناً من وجهة نظر الطبقة العاملة.

تتنفس في بيت العامل - أنا لا أفكر في هذه اللحظة بالعاطل عن العمل، بل بالبيوت المزدهرة بالمقارنة - هواء إنساني مليء بالدفء والاحترام الذي لا تجده في أي مكان آخر. يجب أن أقول إن العامل اليدوي إن كان في عمل ثابت وينال أجراً جيداً - ولو كان في ازدياد دائم - تتوفر له فرصة أفضل من الرجل المثقف. ويبدو أن حياته المنزلية تأخذ شكلاً سليماً ولائقاً بشكل طبيعي. لقد اندهشت مرات كثيرة بالكمال السهل والمتميز والتناسق المثالي للشؤون الداخلية للطبقة العاملة في أفضل حالاتها، خصوصاً في أمسيات الشتاء بعد الشاي حين تتوهج النار في الموقد المفتوح وتتراقص ظلالها على الحاجز الحديدي، ويجلس الأب بأكمام قميصه في كرسيه الهزاز بجانب أحد أطراف الموقد وهو يقرأ نهائيات السباق، وتجلس الأم على الطرف الآخر مع معدات الحياكة، والأولاد سعداء بحلوى النعناع الرخيص، ويتراخى الكلب وهو يدفئ نفسه على ممسحة الأرجل - إنه مكان جيد لتكون فيه، شرط ألا تكون داخله فقط بل ومنه أيضاً كأمر بديهي.

يتكرر هذا المشهد في أغلب البيوت الإنكليزية، لكنه ليس بكثرة فترة ما قبل الحرب. تعتمد سعادته أساساً على مسألة وحيدة - إن كان الأب على رأس عمله. لكن لاحظ الصورة التي استدعيتها لعائلة فرد من الطبقة العاملة تجلس حول نار الفحم بعد وجبة سمك وبعد الشاي الثقيل وتنتمي إلى زمننا فقط ولا تنتمي إلى المستقبل ولا إلى الماضي. اقفز مائتي عام داخل المستقبل إلى المستقبل الطوباوي، وسيختلف المشهد تماماً ويصعب استمرار وجود أي شيء مما تخيلته هناك. في ذلك العصر عندما لن يظل أي عامل يدوي ويكون الكل (متعلماً) من غير المحتمل أن يظل الأب رجلاً خشناً بيدين كبيرتين ويحب الجلوس بأكمام قميص ويقول (آه وصلت الحرب إلى شارعنا) ولن يكون هناك نار فحم في الموقد بل شيء

ما من التدفئة المخفية، وسيكون الأثاث مصنوعاً من المطاط والزجاج والحديد، وإن ظلت أشياء مثل صحف المساء، فلن تجد فيها أخبار السباقات بالتأكيد، لأن القمار لن يبقى له أي معنى في عالم ليس فيه فقر، وسيختفي الحصان عن وجه الأرض وستقمع الكلاب أيضاً لأسباب صحية، ولن يكون هناك الكثير جداً من الأطفال، إن فعل المسيطرون على الولادات ما يريدون. لكن لو عدنا إلى العصور الوسطى فسنكون وسط عالم غريب مشابه من البيوت الصغيرة التي لا نوافذ لها ونار الحطب التي تدخن في وجهك لعدم وجود مدخنة، والخبز المتعفن بورجون، والقمل والإسقربوط وولادات الأطفال السنوية ووفياتهم، والقس الذي يرعبك بقصصه عن الجحيم.

ليست الغرابة في انتصارات الهندسة الحديثة والمذياع والفن السينمائي والخمسة آلاف رواية التي تنشر سنوياً، والحشود في اسكوت وايتون، ومباراة هارو، بل في ذكرى الشؤون الداخلية للطبقة العاملة أيضاً التي تذكرني بأن عصرنا لم يكن كله عصراً سيئاً للعيش، خصوصاً كما كنت أراه أحياناً في طفولتي قبل الحرب حين كانت إنكلترا مزدهرة.

في أعماق المنجم

إن حضارتنا، مع الاعتذار من تشيسترتون، ترتكز على الفحم أكثر مما يدرك المرء حتى يتوقف ويفكر فيها والآلات التي تبقينا أحياء، تعتمد كلها بشكل مباشر أو غير مباشر على الفحم. في كل حركة العالم الغربي، فإن عامل المنجم هو الثاني بالأهمية بعد المرء الذي يحرث التربة، وهو كالعمود الذي يحمل تقريباً كل شيء ليس مكسواً بالسخام. لهذا السبب، فإن العملية الفعلية التي يستخرج فيها الفحم، تستحق المشاهدة، إن توفرت الفرصة لذلك وتحملت المخاطرة.

عندما تنزل في منجم فحم، من المهم أن تحاول الحصول على منظر وجه الفحم أثناء عمل المعبئين، لكن هذا ليس سهلاً، لأن الزوار يسببون إزعاجاً وغير مرحب بهم عندما يكون المنجم يعمل. ولو ذهبت في أي وقت آخر، فإنك قد تخرج بانطباع خاطئ تماماً. فمثلاً يبدو المنجم هادئاً في يوم الأحد، لكن الوقت المناسب للذهاب إليه عندما تكون الآلات تهدر والهواء أسود من غبار الفحم، وعندما ترى ما يجب أن يفعله العمال. في تلك الأوقات يكون المكان مثل جهنم أو بأي مقياس مثل الصورة العقلية التي كونتها عن جهنم. أكثر الأشياء التي يتخيلها المرء في جهنم موجودة هناك - الحرارة والفوضى والظلام والهواء الفاسد، وأهم شيء الفراغ الضيق الذي لا يحتمل. كل شيء ما عدا النار. ليس هناك سوى أشعة مصابيح ديفي الواهنة والمشاعل الكهربائية التي نادراً ما تخترق غيوم غبار الفحم.

عندما تصل إلى هناك أخيراً - والوصول بحد ذاته مهمة مرهقة: سأشرح ذلك في لحظة - تزحف عبر آخر صف من دعامات الحفر، وترى مقابلك جداراً أسود براقا بارتفاع ثلاثة أو أربعة أقدام. هذا هو وجه الفحم. فوقك سقف ناعم صنعته الصخور التي قُطع الفحم منها، ومن تحتك الصخر ثانية، لهذا فالدهليز الذي أنت فيه بارتفاع عرق الفحم نفسه الذي لا يتجاوز الياردة الواحدة. الانطباع الأول الذي يطغى على كل شيء لبرهة، هو الضجيج الصام للآذان والمرعب الصادر عن السير الناقل الذي يحمل الفحم إلى الخارج. لا يمكنك أن ترى إلى مسافة بعيدة، لأن ضباب غبار الفحم يعكس شعاع مصباحك ويرده، لكن يمكنك أن

ترى صف الرجال نصف العارين الجاثين على كلا جانبيك - واحد في كل أربع أو خمس ياردات - يشقون مجاريفهم تحت الفحم الساقط ويقذفونه بسرعة من فوق أكتافهم. إنهم يغذون فيه السير الناقل المطاطي المتحرك الذي يكون بعرض قدمين ويتبعهم على بعد ياردة أو اثنتين منهم. أسفل السير يجري نهر لامع من الفخم باستمرار. في المناجم الكبيرة يحمل هذا السير معه أطناناً كثيرة من الفحم في كل دقيقة، يحمله إلى مكان ما في الطرق الرئيسية؛ حيث يرمى في أحواض تصل حمولة واحدها إلى نصف طن، وتجر من ذلك المكان إلى أقفاص لترفع إلى الجو الخارجي.

يستحيل أن تراقب المعبئين وهم يعملون من دون أن تشعر بغصة من الحسد لصلابتهم. إن المهنة التي يقومون بها مرعبة ومهنة جبابرة بمقاييس الشخص العادي. هم لا ينقلون كميات ضخمة جداً من الفحم فقط، بل يقومون بذلك في وضع يُضاعف فيه عملهم مرتين أو ثلاث. يجب أن يبقوا جاثين كل الوقت - لا يمكنهم النهوض والوقوف على أقدامهم من دون أن يصطدموا بالسقف - ويمكنك بسهولة أن ترى معنى هذا الجهد الهائل بتجريب ذلك. إن الجرف سهل نسبياً، لأنك تكون واقفاً فيه وتستطيع استخدام ركبتك وفخذك لحمل المجرفة، لكن عند الجثو يقع كل الجهد على ذراعك وعضلات بطنك، بالإضافة إلى الشروط الأخرى التي لا تجعل الأمر أسهل. هناك الحرارة - التي تتنوع، ففي بعض المناجم تكون خانقة - وغبار الفحم الذي يقتحم حلقك ومنخريك ويتراكم على جفنيك. أما الصليل الأبدي للسير الناقل في ذلك المكان المحصور، فيشبه صليل بندقية آلية. لكن المعبئون أخذوا على عاتقهم العمل وكأنهم مصنعين من الفولاذ. في الواقع يبدون وكأنهم تماثيل حديدية مطروقة - تحت غطاء غبار الفحم الناعم الملتصق بهم من رأسهم حتى أقدامهم. لا تدرك عظمة رجال المناجم إلا عندما تراهم في المنجم وهم عراة. أغلبهم صغار الحجم (الرجال الضخام غير مناسبين لهذه المهنة) لكن لكلهم تقريباً أجمل الأجسام: أكتاف عريضة تضيق لتتصل بخصور رفيعة مرنة وأرداف بارزة صغيرة وأفخاذ وترية من دون أي أونصة من الشحم في أي مكان. في المناجم الأشد حرارة يلبسون سروالاً تحتياً رقيقاً وقبقاباً ووسادات للركب، ولا يمكنك التمييز بالنظر إن كانوا صغاراً أم كبار فقد يكونون بأي عمر حتى الستين أو الخامسة والستين، لكن عندما يغطيهم اللون الأسود ويكونون عراة، يبدون متشابهين كلهم. لا أحد

يستطيع القيام بعملهم إن لم يكن جسمه كجسم شاب ومظهره ملائم للحراس، وإن مجرد بضعة أرطال زائدة على الخصر تجعل الانثناء مستحيلاً. لن تستطيع نسيان ذلك المشهد إن رأيته مرة - خطوط الانحناء والأشكال الجاثية والسخام الأسود الذي يغطي كل شيء وهم يشقون مجاريفهم الضخمة تحت الفحم بقوة هائلة وسرعة كبيرة، ويعملون سبع ساعات ونصف من دون أية استراحة نظرياً، لأنه لا يوجد انقطاع عن العمل، ولكنهم عملياً يخطفون ربع ساعة تقريباً أثناء الوردية يتناولون فيها الطعام الذي يحضرونه معهم والمكون عادة من قطعة ضخمة من الخبز وماء الشواء والشاي البارد. أول مرة كنت أراقب فيها المعبئين أثناء عملهم، وضعت يدي على شيء مروع لزج وسط الفحم. لقد كان مضغة تبغ، وكل المعبئين تقريباً يمضغون التبغ، وقيل إنه مفيد ضد العطش.

ربما عليك أن تنزل إلى مناجم كثيرة قبل أن تفهم العملية التي تجري من حولك هناك. هذا أولاً، لأن مجرد جهد الانتقال من مكان إلى آخر يجعل من الصعب ملاحظة أي شيء آخر ويخيب الآمال أحياناً، أو على الأقل ليس كما تتوقع. تدخل في القفص، وهو عبارة عن صندوق فولاذي بعرض حجرة الهاتف وأطول بمرتين أو ثلاث. يحمل الصندوق عشرة رجال، يحزمونهم مثل السمك في العلبة، ولا يستطيع الرجل الطويل الوقوف فيها بشكل مستقيم، ثم يغلق الباب الفولاذي عليك، ويقوم شخص في الأعلى بلفّ ناقل الحركة ليسقطك في الفراغ. يتنابك شعور بالمغص المؤقت المعتاد في بطنك وضجة انفجارية في أذنيك، لكن لا يتولد لديك إحساس كبير بالحركة حتى تقترب من القاع، عندما يتباطأ القفص فجأة لدرجة تتمنى فيها أنه سيصعد إلى الأعلى مرة أخرى. في وسط السباق قد تقارب سرعة القفص الستين ميلاً في الساعة وفي المناجم الأعمق يتجاوز ذلك. حين تصل وتحبو على القاع تكون على عمق أربع مائة ياردة تحت الأرض. هذا يعني حجم جبل فوقك؛ مئات الياردات من الصخر الأصم والعظام والوحوش المنقرضة والتربة التحتية وحجر الصوان وجذور الأشياء النامية والعشب الأخضر والأبقار التي ترعى فوقه - كل هذا معلق فوقك لا تدعمه سوى دعامات خشبية بسماكة ربلة ساقك. لكن بسبب السرعة التي ينزلك بها القفص والظلام الدامس الذي تسافر عبره، فإنك قلما تشعر بأنك على عمق أكبر من نفق سكة حديد بيكاديلي.

المدهش من الجانب الآخر، المسافات الأفقية الهائلة التي عليك قطعها تحت الأرض. قبل أن أنزل في منجم، تخيلت على نحو غامض بأن عامل المنجم يخطو من القفص ويصل إلى العمل على رف من الفحم على بعد بضع ياردات. لم أدرك أنه قبل أن يصل إلى العمل عليه أن يزحف في ممرات طويلة تعادل المسافة من لندن إلى أوكسفورد سيركوس. في البداية، طبعاً، يغور بئر مصعد المنجم في مكان ما قرب درزة (طبقة) الفحم؛ لكن حالما يتم حفر تلك الطبقة تأتي بعدها طبقات جديدة أخرى، وتصبح الحفريات أبعد وأبعد عن قاع الحفرة. إن كانت المسافة ميلاً من قاع الحفرة إلى وجه الفحم، فذلك هو المتوسط النموذجي المسافة، أما ثلاثة أميال فهو عادي جداً، وقيل إن بعض المناجم تتجاوز المسافة فيها الخمسة أميال. لكن تلك المسافات لا علاقة لها بالمسافة فوق الأرض، لأنه في الميل أو الثلاثة أميال قلما يوجد أي مكان خارج الطريق الرئيسي، ولا توجد أماكن كثيرة هناك يستطيع الرجل الوقوف فيها بقامة منتصبة.

لا تلاحظ تأثير هذا إلا بعد أن تقطع بضع مئات من الياردات حتى تبدأ بالانحناء بشكل خفيف وأنت تنزل في الدهليز ذي الإضاءة العاتمة الذي بلغ عرضه ثمان أو عشر ياردات وارتفاعه خمس ياردات تقريباً، وجدرانه المبنية من ألواح من صخر الصلصال مثل الجدران الحجرية في ديربي شاير.

كل ياردة أو اثنتين هناك دعامات خشبية تحمل العوارض الخشبية الأفقية والعوارض الحديدية المثبتة، التوى بعضها بانحناءات غريبة الشكل يجب عليك تفاديها. من السيىء السير في الطريق الذي تحت قدميك - غبار كثيف أو قطع مثلمة من الصخر، وفي بعض المناجم هناك ماء بقذارة ساحة المزرعة. وهناك أيضاً مسار لأحواض الفحم مثل مصغر مسار سكة حديدية مع عوارض تبعد الواحدة عن الأخرى قدماً أو اثنين يصعب عليه المشي. كل شيء رمادي بسبب غبار الصلصال؛ وهناك رائحة حارة ومغبرة تجدها في كل المناجم. وترى آلات غريبة لن تعرف الغرض منها أبداً وحزمة من الأدوات معلقة معاً على أسلاك، وأحياناً تندفع الجرذان مبتعدة عن عمود المصابيح. وهي مألوفة إلى حد الدهشة وخصوصاً في المناجم التي فيها أو كان فيها خيول. وسيكون ممتعاً أن تعرف كيف وصلت هناك أولاً؛ ربما بالسقوط من بئر المصعد - لأنهم يقولون إن الجرذ يستطيع أن يسقط من أية مسافة من دون أن يتضرر، بفضل منطقة سطحه الواسعة نسبة إلى ثقله. تضغط نفسك بالجدار لتفسح

الطريق لصف الأحواض المترنحة ببطء باتجاه العمود ويسحبها سلك فولاذي متصل بدار من السطح. وتحبو عبر ستائر الخيش والأبواب الصوفية الثخينة التي عندما تفتح تسمح بدخول هبات قوية من الهواء الساخن البغيض. الأبواب جزء هام من نظام التهوية. الهواء المستنفذ يمتصه أحد الأعمدة بواسطة المراوح ويدخل الهواء الجديد من الآخر بنفسه. لكن لو ترك لحاله، سيأخذ الهواء طريقاً أقصر دورة تاركاً العمال الذين في الأماكن الأعمق دون تهوية؛ لهذا كل الطرق المختصرة يجب أن تفصل بحواجز. في البداية يبدو المشي وظهرك محني شيء هين، لكن لا تلبث تلك السهولة في التلاشي سريعاً. أنا معاق إلى حد ما بسبب طولي، وحين يكون ارتفاع السقف أربعة أقدام أو أقل يصبح المشي مهمة قاسية لا يقدر عليها سوى قزم أو طفل. ليس عليك أن تنحني للضعف فقط، بل يجب عليك أن تبقي رأسك مرفوعاً لترى الروافد والعوارض وتتفاداها عندما تأتـي. لذلك تصاب رقبتك بتشنج، لكنه لا يقارن بالألم في الذي تعانيه ساقاك وركبتاك. بعد نصف ميل يصبح الألم مبرحاً لا يطاق (وأنا لا أبالغ) وتبدأ بالتساؤل إن كنت ستصل إلى النهاية - بل الأسوأ التفكير في العودة - فتصبح خطواتك أبطأ وأبطأ، ثم تصل بعد مسافة مائتي ياردة إلى منطقة منخفضة على نحو استثنائي، يجب عليك أن تكون فيها بوضع القرفصاء، بعدها ينفتح السقف على ارتفاع غريب - منظر انحدار صخرة قديمة، من المحتمل - تظل ماشياً بقامة منتصبة مسافة عشرين ياردة فيغمرك الارتياح. لكن بعد هذا هناك مسافة مائة ياردة أخرى منخفضة، ثم سلسلة من الروافد الخشبية التي يجب أن تزحف تحتها. تنزل على أطرافك الأربعة، وحتى هذا يبدو مريحاً بعد مهمة القرفصاء، لكن عندما تصل إلى نهاية الروافد الخشبية وتحاول النهوض ثانية، تجد أن ركبتيك أضربتا عن العمل مؤقتاً وترفضان رفعك إلى الأعلى. تصيح: توقف، بصورة شائنة، وتقول بأنك تود أن تستريح لمدة دقيقة أو اثنتين. دليلك، وهو عامل منجم، يتعاطف معك ويعرف أن عضلاتك ليست كعضلاته. يقول لك مشجعا (لم يبق سوى أربعمائة ياردة أخرى)، وتشعر بأنه يقول أربعمائة ميل أخرى. لكنك بشكل أو بآخر تزحف حتى تصل وجه الفحم. تقطع ميلاً فيما يقارب الساعة؛ بينما يقطعها عامل المنجم في حوالي عشرين دقيقة. بعد الوصول هناك، يجب أن تنبطح على الفحم لعدة دقائق لتستجمع قوتك قبل أن تستطيع مراقبة سير العمل بأي نوع من الذكاء.

الإياب أسوأ من الذهاب، ليس لأنك متعب مسبقاً، بل لأن الرحلة إلى الممر الرأسي صاعدة قليلاً. وتمر عبر الأماكن المنخفضة بسرعة السلحفاة، ولا تستحي من الصياح طلباً للتوقف بسبب ركبتيك الخائرتين، اللتين لا تحملانك، حتى حمل المصباح يصبح مزعجاً، ويمكن أن تسقطه عندما تتعثر؛ لذلك إن كان من نوع ديفي ينطفئ. يصبح تحاشي الروافد الخشبية أكثر صعوبة وإجهاداً وأحياناً تنسى تجنبها. تحاول المشي ورأسك إلى الأسفل كما يفعل العمال، لكنك تخبط عمودك الفقري. حتى العمال يخبطون عمودهم الفقري كثيراً. في المناجم الحارة جداً يكون من الضروري التنقل شبه عار، لهذا فإن أغلب العمال لديهم ما يسمونه (نقر في أسفل ظهورهم) في كل فقرة من ظهورهم. عندما يكون المسار منحدراً يهيئ العمال قباقيبهم، التي تكون مجوفة من الأسفل على قضبان السكة وينزلقون. في المناجم التي فيها التنقل سيء جداً يحمل العمال كلهم عصياً طولها قدمان ونصف مجوفة تحت القبضة. في الأماكن العادية تقبض بيدك بأعلى العصا، وفي الأماكن المنخفضة تزلق يدك إلى التجويف. تعتبر العصي عوناً كبيراً، وتعتبر الخوذة الخشبية وهي اختراع حديث نسبياً مصادفة سعيدة. تبدو مثل الخوذ الإيطالية والفرنسية المعدنية، لكنها مصنوعة من لب وخفيفة وقوية جداً، لدرجة لو تعرضت لضربة عنيفة، فلن تشعر بها. عندما تعود وتصل إلى السطح أخيراً، تكون قد أمضيت ثلاث ساعات تحت الأرض وقطعت ميلين أنهكاك أكثر من قطع خمس وعشرين ميلاً مشياً فوق الأرض. وتظل ساقاك متيبستين أسبوعاً، ويصبح نزول الدرج مأثرة بطولية؛ إذ تشق طريقك بطريقة جانبية غريبة دون ثني الركب. يلاحظ أصدقاؤك العمال صعوبة المشي بالنسبة إليك ويمزحون. (ما رأيك بالعمل في الحفرة؟) حتى عامل المنجم عندما يعود إلى الحفرة بعد مرض مثلاً يعاني بشكل سيء خلال الأيام الأولى القليلة.

ربما أكون مبالغاً، لكن ليس هناك أحد هبط في حفرة قديمة الطراز - وأغلب حفر المناجم الإنكليزية كذلك - إلا وقال نفس الكلام. لكن ما أريد تأكيده هو هذا. الزحف المخيف ذهاباً وإياباً الذي هو بالنسبة إلى أي شخص عادي عمل يومي مجهد بحد ذاته، وهو ليس جزءاً من عمل العامل إطلاقاً، بل هو عمل إضافي مثل رحلة رجل المدينة في قطار الأنفاق. يقوم العامل بتلك الرحلة ذهاباً وإياباً وتعصره سبع ساعات ونصف من العمل الوحشي. لم أقطع أبداً أكثر من ميل واحد للوصول إلى وجه الفحم؛ لكنها ثلاثة أميال في العادة، وفي تلك الحالة أنا وأغلب

الناس من غير العمال لا يصلون إلى هناك أبداً. هذه هي النقطة التي ينساها الناس دائماً. عندما تفكر بالمنجم، يخطر لك العمق والحرارة والظلام والأشكال المسودة التي تعزق جدران الفحم؛ ولا تفكر بالضرورة بتلك الأميال من الزحف ذهاباً وإياباً. وهناك قضية الوقت أيضاً؛ إذ تبدو نوبة العمل المؤلفة من سبع ساعات ونصف غير طويلة، لكن يجب أن نضيف إليها ساعة من التنقل والأغلب ساعتين وأحياناً ثلاث ساعات. فنياً التنقل ليس عملاً ولا يتقاضى العامل أجراً عليه لكنه عمل لا يختلف عن عمله الآخر. من السهل القول بأن العمال لا يكترثون بذلك، لكن بالتأكيد ليس بالنسبة إلي وإليك. فهم متعودون على ذلك منذ الطفولة، ويملكون العضلات المتحجرة المناسبة ويستطيعون التنقل تحت الأرض برشاقة فظيعة. يضع العامل رأسه إلى الأسفل ويركض بخطوات طويلة متمايلة عبر أماكن أمشي فيها مترنحاً. تراهم يثبون في أماكن العمل على أطرافهم الأربعة حول دعامات الحفرة كالكلاب. لكن الاعتقاد بأنهم يستمتعون بذلك خطأ فادح. تحدثت في هذا الموضوع مع عشرات العمال، واعترفوا كلهم بأن التنقل عمل شاق؛ على أي حال عندما تسمعهم يتحدثون عن حفرة فيما بينهم، يكون التنقل أحد عناصر النقاش، ويقولون دائماً بأن النوبة تكون أسرع في الذهاب منها في الإياب، ويقولون أيضاً بأن الانتقال من المكان بعد يوم شاق، مزعج بشكل خاص. إنه جزء من عملهم وهم مهيئون له، لكنه بالتأكيد مجهود وربما يقارن بتسلق جبل صغير قبل وبعد يوم عمل.

بعد أن تنزل في حفرتين أو ثلاثة، تبدأ بإدراك العملية التي تجري تحت الأرض. (بالمناسبة يجب أن أقول بأنني لا أعرف أي شيء عن الجانب التقني للتعدين: أنا وصفتُ ما رأيته فقط). يتوضع الفحم في درز رقيقة بين طبقات ضخمة من الصخر، لذلك فإن استخراجه أساساً يكون مثل جرف الطبقة المركزية للجليد النابولي. في السابق كان العمال يحفرون بشكل مستقيم في الفحم بمخل وعتلة - وهي مهنة بطيئة جداً لأن الفحم عندما يكون متوضعاً في حالته العذرية، يكون قاسياً كالصخر. في الوقت الحاضر تقوم بذلك العمل أدوات قطع كهربائية، التي هي من حيث المبدأ عبارة عن منشار دوار قاس وقوي بشكل هائل، يدور أفقياً بدلاً من عمودياً، وله أسنان بطول بوصتين ونصف وسماكة بوصة، يمكنه التحرك إلى الأمام وإلى الخلف بنفسه، ويستطيع الرجال الذين يشغلونه تدويره بهذا الاتجاه أو ذاك. وقبل أن أنسى، يصدر هذا المنشار ضوضاء من أبغض الأصوات التي سمعتها في حياتي، ويبعث غيوماً

من غبار الفحم، تجعل من المستحيل أن ترى على بعد أكثر من قدمين أو ثلاثة، ومن المستحيل التنفس أيضاً. تنتقل الآلة على وجه الفحم وهي تقطع بقاعدته وتحفره بعمق خمسة أقدام أو خمسة أقدام ونصف؛ بعد هذا يصبح من السهل نسبياً استخراج الفحم حتى عمق الحفرة التي أحدثها المنشار. في الأماكن الصعبة يجب أن تحرر بالمتفجرات. يحفر رجل بمثقب كهربائي يشبه المثقب الذي يستخدم في إصلاح الطرق، لكنه أصغر حفراً على فواصل في الفحم ويدخل فيها المسحوق المتفجر ويسدها بالوحل ويلتجئ خلف زاوية قريبة في حال توفرها (المفروض أن يتراجع إلى مسافة خمس وعشرين ياردة) ويفجر الحشوة بالتيار الكهربائي. ليس الغرض من هذا إخراج الفحم بل تحريره. أحياناً تكون الحشوة قوية جداً فلا تسبب تحرر الفحم فقط، بل تهاوي السقف وسقوطه أيضاً. بعد القيام بالتفجير، يقلب المعبئون الفحم ويفتتونه ويجرفونه لوضعه على الحزام الناقل. يخرج أولاً على شكل جلاميد هائلة الحجم قد يزن أحدها عشرين طناً، ويقذفها الحزام الناقل إلى الأحواض التي ترحلها إلى الطريق الرئيسي، وتعلق بسلك فولاذي يدور دائماً ويسحبها إلى القفص. وهناك يتم رفعها. وعلى السطح يفرز الفحم بتمريره فوق مناخل ويغسل قي حال الضرورة أيضاً. وبقدر الإمكان تستخدم القذارة - الصلصال لتعبيد الطرق السفلية. وكل ما يزيد يرسل إلى السطح ويفرغ هناك، ويشكل أكواماً ضخمة من القذارة مثل الجبال الرمادية البشعة وهي مشهد يميز مناطق الفحم. بعد أن يستخرج الفحم إلى العمق الذي أحدثته الآلة يكون وجه الفحم قد تقدم حوالي خمسة أقدام. توضع دعامات جديدة لتسند السقف المكشوف الجديد، وخلال النوبة التالية يفكك حزام النقل إلى قطع وينقل خمسة أقدام إلى الأمام ويعاد تجميعه. وبقدر ما تسمح به الظروف تتم العمليات الثلاث من الحفر والتفجير والاستخراج في ثلاث نوبات منفصلة، الحفر بعد الظهر والتفجير في الليل (يوجد قانون، لا يلتزم به دوماً، يحرم التفجير أثناء عمل العمال في الجوار) والتعبئة في النوبة الصباحية التي تستمر منذ السادسة صباحاً حتى الواحدة والنصف بعد الظهر.

حتى عندما تراقب عملية استخراج الفحم، فإنك تراقبه لفترة قصيرة، ولا تدرك ضخامة العمل الذي ينجزه المعبئون حتى تقوم ببعض الحسابات. في العادة كل رجل عليه أن يزيل حيزاً بسعة أربع أو خمس ياردات. تحفر الحفارة الفحم إلى عمق خمسة أقدام، لهذا إن كانت

درزة الفحم بارتفاع ثلاثة أو أربعة أقدام، كل رجل علية تقطيع وتفتيت وتعبئة كمية بين سبع ياردات مكعبة أو اثنتي عشرة من الفحم. هذا يعني بها أن الياردة المكعبة تزن ألفين وسبعمائة حجر أي أن كل رجل ينقل فحماً بمعدل طنين في الساعة تقريباً. ولقد جربت عمل المخل والمجرفة مسبقاً وأفهم ما يعني هذا. عندما أحفر خندقاً في حديقتي، لو نقلت طنين من التراب خلال فترة ما بعد الظهر، أشعر بأنني أستحق شايي. لكن التراب مادة قابلة للطرق مقارنة بالفحم ولست مجبراً على العمل وأنا جاثٍ وعلى عمق ألف قدم تحت الأرض في حرارة خانقة، وأبلع غبار الفحم في كل شهقة، ولست مجبراً على قطع ميل وظهري محني جداً قبل أن أبدأ. إن مهنة عامل المنجم تفوق قدراتي مثل العمل على أرجوحة طائرة للفوز بجائزة المواطن الكبير. أنا لست عاملاً عضلياً وأشكر الرب لأنني لن أكون كذلك أبداً، لكن هناك بعض أنواع العمل اليدوي التي أستطيع القيام بها إن اضطررت. بدرجة ما يمكن أن أكون كناس طرق أو بستانياً عاجزاً أو حتى عامل مزرعة من الدرجة العاشرة، لكن لم أتخيل أنني قد أصبح عامل منجم لا بالجهد ولا بالتمرين، وسيقتلني ذلك بعد بضعة أسابيع.

بمراقبة عمال المناجم وهم يعملون، تدرك مؤقتاً مدى اختلاف العالم الذي يعيشون فيه. في الأسفل حيث يحفر الفحم، عالم معزول قد تمضي حياتك كلها دون أن تسمع به. وربما أغلب الناس لا يفضلون السماع به. لكنه يظل بالتأكيد مكملاً ضرورياً لعالمنا العلوي.عملياً كل ما نفعله من الآيس كريم (البوظة) إلى عبور الأطلسي ومن خبز رغيف الخبز إلى كتابة الرواية يتضمن استخدام الفحم بشكل مباشر أو غير مباشر. كل فنون السلام تحتاج إلى الفحم، وإن اندلعت الحروب تصبح ضرورته أشد. في زمن الثورة يجب على عامل المنجم العمل باستمرار وألا يتوقف، لأن الثورة تحتاج للفحم بقدر ما تحتاجه الرجعية. مهما يحدث على السطح يجب أن يستمر الحفر والغرف دون توقف أو بأي ظرف دون توقف لأكثر من أسابيع قليلة في أفضل الأحوال. لكي يمشي هتلر بخطوة الوزة، ولكي يشجب البابا البلشفية، ويجتمع جمهور الكريكت في اللوردز، ويحك الشعراء ظهور بعضهم البعض، يجب أن يكون الفحم في متناول اليد. لكن بالإجمال نحن غير منتبهين إلى ذلك، وكلنا نعرف بأنه يجب أن يكون لدينا فحم، لكن نادراً أو مطلقاً ما نتذكر ماذا يتضمن الحصول على الفحم. أنا الآن أكتب مرتاحاً أمام نار فحم موقدي. إنه شهر نيسان، لكنني لازلت بحاجة إلى النار. مرة كل نصف شهر تأتي عربة الفحم

إلى الباب ويحمل رجال بسترات جلدية الفحم إلى داخل بيتي في أكياس مملوءة تفوح منها رائحة القطران، ويرمونها وهي تقعقع في قبو الفحم تحت الدرج. ومرات نادرة قليلة بذلت فيها مجهوداً عقلياً واضحاً ربطت به هذا الفحم بالجهد البعيد في المناجم؟ إنه مجرد فحم - شيء يجب أن أحصل عليه؛ مادة سوداء تصل بشكل غامض من اللامكان على وجه الخصوص مثل المنّ، باستثناء أنك تدفع ثمنه. ويمكنك بسهولة قيادة سيارتك في شمال إنكلترا ولا تتذكر أبداً أنه على عمق مئات الأقدام تحت الطريق الذي أنت عليه هناك عمال مناجم يغرفون الفحم. ومع ذلك وبمعنى آخر إنهم عمال المناجم الذين يدفعون سيارتك للمضي قدماً. عالمهم المضاء بالمصابيح هناك في الأسفل ضروري لعالم النهار العلوي كضرورة الجذر للزهرة.

كانت ظروف المناجم منذ زمن غير بعيد أسوأ مما هي عليه الآن. لا تزال هناك نساء عجائز عملن في شبابهن في المناجم والنير حول خصورهن والسلسلة المارة من بين أرجلهن، يزحفن على أطرافهن الأربعة ويسحبن أحواض الفحم. كن يواصلن العمل حتى وهن حوامل. وحتى في وقتنا الحالي لو لم ينتج الفحم دون نساء حوامل تجره إلى الأمام والخلف، لتركناهن يقمن بذلك بدلاً من حرمان أنفسنا منه كما أتصور. لكن طبعاً منن الأفضل أن ننسى في أغلب الأوقات أنهن كن يعملن ذلك. إنه ككل العمل اليدوي يحافظ على بقائنا أحياء ونحن غافلون عن وجوده. أكثر من أي شيء آخر، ربما يقف عامل المنجم كنموذج للعمال اليدويين، ليس لأن عمله كريه بشكل ضخم فقط، بل لأنه ضروري بشكل حيوي أيضاً وبعيد جداً عن خبرتنا، مخفي جداً لدرجة أننا قادرون على نسيانه كما ننسى الدم الذي في عروقنا. إن مراقبة عمال المناجم وهم يعملون طريقة مهينة وتثير الشك في نفسك مؤقتاً بمنزلتك كمفكر وكشخص أرفع منزلة عموماً. إنه يحمل إليك إلى باب بيتك على الأقل بينما أنت تراقب، ذلك لأن عمال المناجم يلفظون أحشائهم ليظل الأشخاص الأعلى مقاماً أعلى. أنا وأنت ومحرر *تايمز ليتريتشر* والشعراء ورئيس أساقفة كانتربيري والرفيق سين مؤلف كتاب *الماركسية للقصر* - كلنا ندين حقيقة بمدنية وحشمة حياتنا النسبية للكادحين المساكين تحت الأرض، الذين يغطيهم السواد حتى عيونهم وحلوقهم مترعة بغبار الفحم يشقون مجاريفهم إلى الأمام بأذرع وبطون فولاذية.

قتل فيل

في مولمين في بورما السفلى، كنت مكروهاً من قبل عدد كبير من الناس - المرة الوحيدة في حياتي التي كنت فيها مهماً كفاية ليحدث هذا لي. كنت ضابط شرطة في فرقة عسكرية فرعية في البلدة، وكان الشعور المعادي للأوروبيين فيها قاسياً ومريراً بطريقة غير هادفة وحقيرة. لا أحد لديه الشجاعة ليثير شغباً، لكن إذا مرت امرأة أوروبية في الأسواق لوحدها ربما يصب أحدهم على ثوبها عصير البيتل. كضابط شرطة كنت هدفاً واضحاً وكنت مغرياً كلما بدا فعل ذلك آمناً. عندما يعثرني ويوقعني بورمي فطن في ملعب كرة القدم ويكون الحكم (بورمي آخر) ينظر إلى الجهة الأخرى، كان الحشد يهتف بضحك شائن. حدث لي هذا أكثر من مرة. في النهاية كان للوجوه الصفراء الساخرة للشبان الذين أقابلهم في كل مكان والإهانات التي يطلقونها خلفي حين أكون على مسافة آمنة، وقع سيء على أعصابي، وكان رجال الدين البوذيون الصغار أسوأ من الجميع، وهناك الآلاف الكثيرة منهم في البلدة، ولايبدو لأحدهم أي عمل سوى الوقوف في زوايا الشوارع والسخرية من الأوروبيين.

كل هذا كان مربكاً ومقلقاً، لأنني في ذلك الوقت عزمت وقررت أن الإمبريالية كانت شيئاً شريراً، وكلما أسرعت في استقالتي من وظيفتي كان أفضل. نظرياً - وبصورة سرية، طبعاً - كنت أؤيد البورميين وكنت ضد مضطهديهم تماماً، أي البريطانيين. بالنسبة إلى الوظيفة التي كنت أعمل بها، كرهتها بشكل أكبر مما أستطيع التعبير عنه بشكل واضح، ففي وظيفة مثل تلك ترى عمل الإمبراطورية القذر عن قرب: السجناء البائسون الرابضون في الأقفاص النتنة للسجون والوجوه الرمادية المروعة للمحكومين بمدد طويلة وأرداف الرجال المندبة الذين علقوا بالخيزران - كل هذا أحزنني بإحساس لا يطاق من الذنب، لكن لم أستطع أن أكوّن منه رأياً ووجهة نظر. كنت صغيراً وتعليمي رديء، وكنت مجبراً على أن أفكر بحل لمشاكلي في صمت مطبق فُرض على كل إنكليزي في الشرق، حتى إنني لم أكن أعرف أن الإمبراطورية البريطانية كانت تحتضر، ولم أعرف أيضاً أنها كانت

أفضل بكثير من الإمبراطوريات الأصغر عمراً التي ستحل محلها. كل ما عرفته أنني كنت عالقاً بين كره الإمبراطورية التي أخدمها وغضبي الشديد من الوحوش الصغيرة الشريرة التي حاولت أن تجعل من وظيفتي شيئاً مستحيلاً. بجزء من ذهني اعتبرت الحكم البريطاني طغياناً واستبداداً قوياً مثل شيء ثُبت بإحكام ضد إرادة الشعوب الخاضعة المغلوبة، وفي الجزء الآخر من ذهني ظننت أن أعظم فرح في العالم يكون في غرز حربة في أحشاء رجل دين بوذي. مشاعر كهذه نتاج جانبي للإمبريالية: اسأل أي موظف أنكلوهندي إن استطعت الإمساك به خارج واجبه.

في أحد الأيام حدث شيء كان منوراً بطريقة ملتوية. كان حدثاً صغيراً جداً بحد ذاته، لكنه أعطاني لمحة أفضل من التي كانت لدي من قبل عن الطبيعة الحقيقية للإمبريالية والدوافع الحقيقة التي تعمل من أجلها الحكومات الاستبدادية. في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، حدثني عبر الهاتف ضابط الشرطة المساعد في مخفر الشرطة في الطرف الآخر من البلدة، وقال إن فيلاً كان يتلف السوق، ورجاني أن أذهب وأفعل شيئاً ما. لم أعرف ما الذي يمكنني عمله، لكنني أردت أن أرى ما كان يحدث، فامتطيت حصاناً وانطلقت. أخذت بندقية من نوع وينشستر ٤٤ وهي أصغر بكثير من أن تقتل فيلاً، لكن ظننت أن الضجيج قد يفيد في تخويفه. أوقفني بورميون مختلفون على الطريق وأخبروني عن أعمال الفيل. لم يكن فيلاً برياً طبعاً وإنما كان فيلاً مروضاً أصابته لوثة جنون. كان مقيداً لكنه في الليلة السابقة نزع سلسلته وفرّ. إن الفيلة المروضة تكون على هذه الحالة دائماً حين تحين هجمة "المسك" (مادة تفرزها الفيلة حين يكون مستوى التستسترون فيها عالياً وتكون عدوانية جداً - المترجم) وكان سائقه وهو الشخص الوحيد الذي يستطيع تدبر أمره حين يكون في تلك الحالة، قد انطلق في مطاردته، لكنه أخذ الوجهة الخاطئة، وهو الآن على مسافة سير مدتها اثنتي عشرة ساعة، وفي الصباح عاد الفيل إلى الظهور في البلدة ثانية. السكان البورميون ليس لديهم أسلحة، وكانوا عاجزين تماماً على مواجهته. لقد دمر كوخ خيزران لأحدهم وقتل بقرة وغار على أكشاك فاكهة والتهم المخزون، كما قابل عربة القمامة التابعة للبلدية وقلب العربة رأساً على عقب، وأنزل عنفه بها بعد أن قفز منها سائقها وفر هارباً.

كان ضابط الشرطة المساعد وبعض الشرطة الهنود ينتظرونني في الحي الذي شوهد الفيل فيه. كان حياً فقيراً جداً وعبارة عن متاهة من أكواخ الخيزران الحقيرة المسقوفة بورق النخيل، تلتف من كل جهة من التل المنحدر. أتذكر أن الصباح كان غائماً ومتجهماً وفي بداية موسم الأمطار. بدأنا نستجوب الناس عن المكان الذي ذهب إليه الفيل، وكالعادة فشلنا في الحصول على أية معلومة محددة. تلك هي الحالة التي لا تتغير في الشرق، قصة تبدو واضحة دائماً بما يكفي من بعيد، لكن كلما اقتربت من مسرح الأحداث أكثر تصبح أكثر غموضاً. بعض الناس قالوا إن الفيل ذهب في اتجاه ما، وبعضهم الآخر قال إنه ذهب في اتجاه آخر، والبعض تظاهروا بعدم سماعهم بأي فيل حتى. حسمت أمري بأن القصة كلها كانت عبارة عن حزمة من الأكاذيب حين سمعنا صيحات على مسافة قريبة. كانت هناك صيحة مروعة عالية "ابتعد أيها الطفل! ابتعد هذه اللحظة!" وامرأة عجوز مع سوط في يدها استدارت حول كوخ لتطرد حشداً من الأطفال العراة بعيداً. تبعتها نسوة أكثر يتمطقن ويهتفن: من الواضح وجود شيء يجب ألا يراه الأطفال؟ استدرت حول الكوخ، ورأيت جسد رجل ميت منبطحاً في الوحل. كان هندياً، حمال درافي أسود، شبه عارٍ مات قبل دقائق قليلة كما أعتقد. قال الناس إن الفيل داهمه عند زاوية الكوخ فأمسكه بخرطومه ووضع قدمه على ظهره وطحنه على الأرض؟ كان هذا فصلاً ماطراً، وكان التراب طرياً، فحفر وجهه خندقاً بعمق قدم وبطول ياردتين. كان مستلقياً على بطنه وتصالبت ذراعاه والتوى رأسه بشدة على أحد أطرافه. كان وجهه مغطى وعيناه مفتوحتين وأسنانه مكشوفة تكشر بتعبير عن ألم مبرح لا يحتمل. (بالمناسبة لا تقولوا لي أبداً إن الميت يبدو مسالماً وهادئاً. أغلب الجثث التي رأيتها بدت شيطانية). احتكاك قدم الحيوان الضخم سلخ الجلد عن ظهره بدقة كما يسلخ الشخص جلد أرنب. حالما رأيت الرجل الميت، أرسلت حاجبي إلى بيت صديق في الجوار لاستعارة بندقية خاصة بالفيلة. أعدت الحصان قبل ذلك، لأني لم أرده أن يصاب بالجنون ويطيح بي على الأرض إن شم رائحة الفيل.

عاد الحاجب بعد بضع دقائق مع بندقية وخمسة خرطوشات، وفي غضون ذلك وصل بعض البورميين وأخبروني أن الفيل كان في حقول الأرز على بعد بضع مئات الياردات. حين

انطلقت إلى الأمام عملياً خرج سكان الحي كلهم من بيوتهم ولحقوا بي. لقد شاهدوا البندقية وكانوا يصيحون بهياج أنني سوف أردي الفيل. لم يبدوا اهتماماً كبيراً بالفيل حين كان يخرب بيوتهم، لكن الأمر اختلف حين عرفوا أنه سوف يُردى قتيلاً. كان شيئاً ممتعاً لهم كما كان بالنسبة إلى جمهرة من الإنكليز؛ بالإضافة إلى أنهم أرادوا اللحم. هذا أربكني بشكل غامض. لم تكن لدي نية في قتل الفيل - أرسلت بطلب البندقية لأدافع عن نفسي إن تطلب الأمر - والأمر يكون مقلقاً ومثيراً للأعصاب دائماً حين يتبعك جمع غفير من الناس. سرت وهبطت من التلة وأنا أبدو وأحس بأنني أحمق مع بندقية فوق كتفي وجيش متزايد من الناس دائماً يتدافع في أعقابي. في الأسفل حين تكون بعيداً عن الأكواخ تجد هناك طريقاً مرصوفاً بالحجارة، وبعده مستنقع بور من حقول الأرز بطول ألف ياردة لم يحرث بعد، لكنه مشبع بالماء من الهطولات المطرية الأولى ومنقط بأعشاب خشنة. كان الفيل واقفاً على بعد ثمان ياردات من الطريق وجانبه الأيسر نحونا. لم يكترث أبداً بالحشد الذي اقترب منه. كان يقلع حزماً من العشب ويضربها بركبتيه لينظفها ثم يحشوها في فمه.

توقفت على الطريق. حالما رأيت الفيل، عرفت بيقين تام أنني يجب ألا أطلق النار عليه. إطلاق النار على فيل عامل وقتله مسألة خطيرة - وتقارن بتدمير آلة ضخمة ونفيسة - ومن الواضح أن الأمر يجب ألا يتم إن كان تجنبه ممكناً. من تلك المسافة بدا الفيل الذي كان يأكل بهدوء أقل خطورة من بقرة. فكرت آنذاك وأفكر الآن إن هجمة - المسك - التي تعرض لها مرت مسبقاً؛ في تلك الحالة سوف يتجول في المكان دون أن يؤذي أحداً حتى يعود سائقه ويمسك به. بالإضافة إلى أني لم أرد بأي شكل أن أطلق النار عليه. قررت أن أراقبه لبرهة قصيرة لكي أتأكد أنه لن ينقلب إلى وحش ثانية، ثم أعود إلى البيت.

لكن في تلك اللحظة نظرت حولي إلى الحشد الذي لحق بي. كان حشداً ضخماً من ألفي شخص على الأقل وكانوا يتزايدون في كل دقيقة. لقد سد الطريق لمسافة طويلة من كلا الجانبين. نظرت إلى بحر من الوجوه الصفراء فوق الثياب الصارخة الألوان - وجوه كلها سعيدة وهائجة بهذا المتعة، كلهم متأكدون بأن الفيل سيردى قتيلاً بالرصاص. كانوا يراقبونني كما يراقبون مشعوذاً على وشك القيام بخدعة. لم يحبوني، لكن مع البندقية السحرية في يدي كنت

جديراً بالمشاهدة مؤقتا. وفجأة أدركت أنني يجب أن أردي الفيل أخيراً. توقع الناس مني ذلك وعلي أن أقوم به؛ شعرت برغبات الألفي شخص وهي تدفعني قدماً بشكل لا يقاوم. في تلك اللحظة، حين وقفت هناك مع البندقية بيدي، أدركت عقم وعبث سيادة الرجل الأبيض على الشرق. ها أنا رجل أبيض ببندقية أقف أمام حشد أعزل من السكان المحليين - ظاهرياً أنا الفاعل القيادي في هذا المكان؛ لكنني في الواقع لم أكن سوى دمية مضحكة تُدفع إلى الأمام والخلف بإرادة تلك الوجوه الصفراء التي في الخلف. لاحظت في هذه اللحظة أن الرجل الأبيض حين يتحول إلى طاغية، فإنه يدمر حريته الخاصة به. يصبح نوعاً من دمية مجوفة متكلفة، الشكل التقليدي للصاحب. لأن شرط حكمه أن يمضي حياته في محاولة صعق "السكان المحليين"، وهكذا في كل أزمة عليه أن يفعل ما يتوقعه "السكان المحليون" منه. إنه يرتدي قناعاً ووجهه ينمو ليلائمه. كان علي أن أردي الفيل. لقد ألزمت نفسي بفعل ذلك حين أرسلت بطلب البندقية. الصاحب يجب أن يتصرف كصاحب؛ عليه أن يُظهر التصميم ويعرف نيته ويفعل أشياء محددة. أن يأتي ويمشي الطريق كله وبيده بندقية مع ألفي شخص يمشون في أعقابه ثم يبتعد بوهن وبطء دون أن يفعل شيئاً - لا، هذا مستحيل. سيسخر مني الحشد. إن حياتي وحياة كل رجل أبيض في الشرق كانت صراعاً طويلاً بألا يكون أضحوكة.

لكنني لم أرد قتل الفيل. راقبته يضرب حزمة عشب بركبتيه بالطريقة الحنونة القلقة التي تملكها الفيلة. بدا لي أن قتله بإطلاق الرصاص عليه سيكون جريمة. في ذلك العمر لم أكن مفرط الحساسية فيما يخص قتل الحيوانات، لكنني لم أطلق النار على فيل أبداً، ولم أرد فعل ذلك أبداً. (بشكل أو آخر يبدو قتل حيوان ضخم شيء سيء) بالإضافة إلى ذلك كان يجب آخذ مالك الحيوان في الاعتبار. حياً، كان الفيل بقيمة مائة جنيه، وميتاً لن يساوي سوى قيمة نابيه، خمس جنيهات ربما. لكن علي التصرف بسرعة. التفت إلى بعض البورميين الخبراء الذين كانوا هناك حين وصلنا وسألتهم كيف تصرف الفيل. قالوا كلهم الشيء عينه: إنه لن يكترث بك لو تركته وشأنه، لكنه قد يهجم عليك إن اقتربت منه كثيراً جداً.

وضح تماماً لي ما ينبغي فعله. ينبغي علي أن اقترب منه لنقل على بعد خمس وعشرين ياردة وأختبر سلوكه. إن هجم أستطيع إطلاق النار عليه، وإن لم يكترث بي فمن الأسلم

أن أتركه حتى يعود سائقه، ولكن عرفت أيضاً أنني لن أفعل شيئاً كهذا. كنت رامياً سيئاً على البندقية وكانت الأرض موحلة وطرية يغوص فيها المرء في كل خطوة. إذا هجم الفيل وأخطأت في إصابته، ستكون فرصتي بقدر فرصة ضفدع تحت مدحلة بخارية. لكن حتى في ذلك الوقت لم أكن أفكر بنجاتي بشكل خاص، وإنما بالوجوه الصفراء المراقبة خلفي، فقط لأنني في تلك اللحظة والحشد يراقبني، لم أكن خائفاً في المعنى العادي مثلما لو أنني كنت لوحدي. يجب على الرجل الأبيض ألا يبدو خائفاً مرعوباً أمام "السكان المحليين"، وهكذا وعموماً هو لا يخاف. كانت الفكرة الوحيدة في ذهني لو فشل أي شيء في العملية سوف يراني الألف بورمي والفيل يطاردني ويمسك بي ويدوسني ويحولني إلى جثة مكشرة مثل الهندي الذي في أعلى التلة. وإذا حدث وذلك محتمل جداً سيضحك بعضهم. ذلك لن يحدث أبداً.

لم يكن هناك سوى خيار وحيد فقط. دفعت الخرطوش في داخل المخزن واستلقيت على الطريق لأسدد بشكل أفضل. هدأ الحشد أكثر، وصعدت تنهيدة منخفضة سعيدة عميقة من حلوق لا تحصى مثل أناس يرون ستارة المسرح ترتفع أخيرا. سينالون متعتهم الرخيصة أخيراً. كانت البندقية شيء ألماني جميل مع شعيرة تسديد. لم أكن أعرف آنذاك أنه عند إطلاق الرصاص على فيل يجب أن يطلق المرء الرصاص ليقطع قضيباً وهمياً يمتد من فتحة الأذن الأولى إلى الفتحة الأخرى. لهذا ينبغي علي بما أن الفيل كان واقفاً بشكل جانبي بالنسبة إلي، أن أسدد عليه بشكل مباشر ومستقيم إلى حفرة أذنه، لكني في الواقع سددت على بضع بوصات قبل هذا المكان معتقداً أن الدماغ سيكون أبعد باتجاه الأمام.

حين شددت على الزناد لم أسمع الدوي، ولم أشعر بالارتداد - المرء لا يشعر بذلك حين تذهب الطلقة إلى هدفها - لكنني سمعت الزئير الشيطاني للمرح الذي تصاعد من الحشد. في الحال وفي وقت قصير جداً، كان على المرء أن يفكر حتى بالطلقة أن تصل إلى هناك، في التبدل الغريب والرهيب الذي طغى على الفيل. لم يتحرك ولم يسقط وإنما تبدل كل خط في جسده. بدا مصعوقاً ومنكمشاً وعجوزاً بشكل هائل، كما لو أن التأثير المرعب للطلقة قد شله دون أن يسقطه أرضاً. وأخيراً وبعد ما بدا وقتا طويلاً - ربما كان خمس

ثوان كما أظن - ارتخى وخر على ركبتيه بشكل ضعيف. سال اللعاب من فمه. شيخوخة شنيعة رسخت فوقه كما بدا. يمكن للمرء أن يتخيله بعمر ألف سنة. أطلقت النار مرة أخرى في نفس البقعة. في الطلقة الثانية لم يسقط، لكنه تسلق ببطء مفرط على قدميه ووقف منتصباً بوهن مع ساقين رخوتين ورأس متدلٍ. أطلقت للمرة الثالثة. وكانت تلك الطلقة التي قضت عليه. يمكنك أن ترى الألم وهو ينخع كل جسده ويضرب آخر بقية من القوة في ساقيه. لكن في سقوطه بدا ينهض للحظة لأن ساقيه الخلفيتين انهارتا تحته، فبدا يرتفع إلى الأعلى مثل صخرة ضخمة تسقط، وامتد خرطومه نحو السماء مثل شجرة. صرخ صرخة مدوية لأول وآخر مرة. ثم خر إلى الأسفل، بطنه نحوي مع ارتطام هز الأرض حتى في المكان الذي تمددت فيه.

نهضتُ. كان البورميون يتسابقون في الوحل وقد تجاوزوني. كان واضحاً أن الفيل لن ينهض ثانية أبداً لكنه لم يمت. كان يتنفس بشكل موزون مع لهاث متحشرج طويل، وكان ركامه الكبير جداً يرتفع ويسقط بشكل مؤلم. كان فمه مفتوحاً - استطعت أن أرى عميقاً جداً في كهوف رقبة قرنفلية باهتة. انتظرت وقتاً طويلاً لكي يموت، لكن تنفسه لم يضعف. أخيراً أطلقت عليه الطلقتين المتبقيتين في نفس البقعة التي اعتقدت أن قلبه يجب أن يكون فيها. تفجر الدم السميك خارجاً منه مثل مخمل أحمر لكنه لم يمت. لم يهتز جسده حين أصابته الطلقات، واستمر التنفس المشوه دون توقف. كان يحتضر ببطء شديد وبألم عظيم، لكن في عالم ما ناءٍ عني حيث لا يمكن أن تؤذيه حتى الطلقة أيضاً. شعرت أنني يجب أن أضع نهاية لذلك الضجيج البغيض. شيء مخيف أن ترى دابة كبيرة جداً مستلقية هناك عاجزة عن الحركة وعاجزة عن الموت ولا تستطيع القضاء عليها حتى. أرسلت بطلب بندقيتي الصغيرة وصببت طلقات واحدة وراء أخرى في داخل قلبه وبأسفل عنقه. بدت الطلقات بلا أي أثر. استمرت اللهثات المشوهة بثبات مثل دقات الساعة.

في النهاية لم أستطع تحمل ذلك فترة أطول فابتعدت. سمعت لاحقاً أنه لم يمت إلا بعد نصف ساعة. كان البورميون يجلبون السكاكين الطويلة وسلالاً قبل أن أغادر، وقيل لي إنهم جردوا الجسد تماماً تقريباً حتى العظام قبل العصر.

فيما بعد، طبعاً، كانت هناك نقاشات لانهاية لها حول إطلاق النار على الفيل وقتله. كان المالك مهتاجاً، لكنه كان مجرد هندي وليس بوسعه فعل أي شيء. بالإضافة إلى ذلك، قانونياً، أنا قمت بالفعل الصحيح، لأن الفيل المجنون يُقتل مثل الكلب المجنون إن فشل مالكه في السيطرة عليه. بين الأوربيين انقسم الرأي. قال الرجال المسنون إن ذلك كان عملاً صحيحاً، أما الصغار فقالوا إنه من الخزي اللعين إطلاق النار على فيل لأنه قتل حمالاً. وبعد ذلك كنت مسروراً لأن الحمال قد قُتل ووضعني ذلك في الجانب الصحيح قانونياً وأعطاني عذراً وافياً لإطلاق النار على الفيل وقتله. تساءلت كثيراً إن كان الآخرون قد فهموا أنني فعلت ذلك كي أتجنب الظهور بمظهر الأحمق.

المسمار

[ملاحظة: المسمار مكان يُحتجز فيه المتشردون مؤقتاً ويقدم لهم فيه الطعام]

كان ذلك في وقت متأخر من بعد الظهر وكنا تسعة وأربعين، ثمانية وأربعون رجلاً وامرأة واحدة، استلقينا على العشب الأخضر بانتظار فتح المسمار. لم نتحدث كثيراً لأننا كنا متعبين جداً، لقد انبطحنا منهكين فقط، مع سجائر محلية ناتئة من وجوهنا الحقيرة. فوق رؤوسنا أغصان شجرة كستناء غطتها براعم الزهور، وخلف ذلك غيوم كبيرة صوفية تطفو ساكنة تقريباً في سماء صافية. برمي فضلاتنا على العشب، ظهرنا رعاعاً قذرين. لقد دنسنا المنظر، بعلب السردين وأكياس الورق على الشاطئ.

كل حديث هناك دار حول الرائد الصعلوك لهذا المسمار. كان شيطاناً واتفق الجميع أنه تتري وطاغية وكلب مجعجع بذيء اللسان وغير متسامح، وحين يكون قريباً منك لا تستطيع القول إن روحك لك، فقد طرد الكثير من المسافرين مشياً في منتصف الليل لأنهم ردوا عليه. حين تأتي لكي تفتش، يُمسكك من الأعلى والأسفل ويهزك، وإن وجد معك بعض التبغ فالجحيم مصيرك، وإن دخلت بمال (وهذا مخالف للقانون) فليكن الرب في عونك.

كان معي ثمانية بنسات فنصحني القدماء "حباً بالمسيح أيها الرفيق، لا تأخذها معك. ستعاقب بسبعة أيام في المسمار بسببها!".

لهذا طمرت نقودي في حفرة تحت السياج وعلمت البقعة بكتلة من الصوان، ثم شرعنا في تهريب أعواد الثقاب والتبغ الخاص بنا، بسبب الحظر الذي فُرض على إدخال هذه الأشياء إلى كل المسامير تقريباً، والتي يفترض من المرء أن يسلمها عند البوابة. خبأناها في جواربنا، ما عدا الخمسة والعشرين بالمائة منا الذين ليس لديهم جوارب، فقد اضطروا إلى حملها في جزمهم أو تحت أصابع أقدامهم. حشونا كواحلنا بالمهربات، ولو رآنا أي أحد لتخيل تفشي إصابتنا بتضخم الأعضاء. لا يقوم بالتفتيش تحت الركبة أقسى الرواد المسؤولين عن دور المشردين، لكنه لم يكن قانوناً مدوناً، وفي النهاية لم يتم الإمساك إلا برجل واحد. إنه سكوتي، متشرد

ضئيل الحجم يكسوه الشعر، مع لهجة هجينة من لهجة كوكني بلندن وغلاسكو، فقد سقطت علبة أعقاب سجائره من جرابه في اللحظة الخطأ وصُودرت.

في السادسة، فتحت البوابة فدلفنا إلى الداخل. أدخل موظف عند البوابة أسماءنا وخصوصيات أخرى في السجل وأخذ منا صررنا وأبعدها. أرسلت المرأة إلى الإصلاحية، أما نحن وآخرون فأرسلنا إلى داخل المسهار. كان مكاناً كئيباً وبارداً مبيضاً بالكلس، يتألف من حمام وغرفة معيشة وحوالي مائة زنزانة حجرية ضيقة. قابلنا رائد المسهار البغيض عند الباب، وقادنا كالقطيع إلى الحمام لنُعرى ونُفتش. كان رجلاً عسكرياً فظاً في الأربعين من عمره، لم يمنح المتشردين تشريفات أكثر مما يمنح لخروف في بركة الغطس، دفعهم وأقحمهم بهذه الطريقة وتلك، وهو يصرخ بالشتائم والسباب في وجوههم. لكنه حين وصل إلي نظر إلي وقال:

"أنت سيد، أليس كذلك؟".

"أفترض هذا" قلت.

رماني بنظرة أخرى. "حسناً، ذلك الحظ السيئ اللعين أيها المدير" قال "ذلك الحظ السيئ اللعين، نعم". وبعد ذلك فكر بأن يعاملني بحنو وبنوع من الاحترام حتى.

كان ذلك الحمام منظراً مقززاً. لقد كُشفت كل الأسرار غير اللائقة لثيابنا الداخلية، والسخام والشقوق والرقع وقطع الخيط التي قامت بدور الأزرار، والطبقات المتراكمة من الثياب الممزقة التي كان بعضها مجرد مجموعة من الثقوب تماسكت معاً بواسطة القذارة. أصبحت الغرفة مطبعة من التعري المتبخر، وكانت روائح تعرق المتشردين تتنافس مع رائحة الغائط النتنة المتأصلة في المسهار. رفض بعض الرجال الاستحمام، وغسلوا خرق أصابعهم فقط، الخرق الملوثة الصغيرة التي يربطها المتشردون حول أقدامهم. لكل واحد منا ثلاث دقائق ليستحم. ست مناشف قذرة ملوثة للتنشيف فقط لنا كلنا.

بعد أن غسلنا ثيابنا، أخذت منا بعيداً، وألبسونا قمصان الأحداثية، أشياء قطنية رمادية اللون تشبه قمصان النوم تصل إلى وسط الفخذ. ثم أرسلنا إلى غرفة الطعام، حيث وضع العشاء على الطاولات. كانت وجبة المسهار الثابتة التي لا تتغير، نفس الوجبة دائماً، إن كانت إفطاراً أو غداء أو عشاء - نصف رطل من الخبز، قطعة صغيرة من السمنة النباتية وباينت من المسمى شاياً. أمضينا خمس دقائق لبلع الطعام الرخيص الضار بالصحة. ثم أعطى رئيس

المسمار ثلاث بطانيات قطنية لكل منا، وساقونا إلى زنزاناتنا للمبيت. أقفلت الأبواب من الخارج قبل الساعة السابعة مساء، لنظل محبوسين خلال الاثنتي عشرة ساعة القادمة.

طول كل زنزانة ثمانية أقدام وعرضها خمسة، وليس فيها أداة إضاءة ما عدا نافذة مسدودة عالية في الجدار وعين التجسس في الباب. ليس هناك بق الفراش، وكان لدينا هيكل سرير وفرشات من القش، وكلاهما رفاهية نادرة. في كثير من المسامير ينام المرء على رف خشبي، وفي البعض على الأرض الجرداء ومعطف ملفوف كمخدة. مع زنزانة لي وسرير كنت أطمع بليلة مريحة جداً. لكنني لم أنل ذلك، لأن هناك شيئاً خطأ دائماً في كل مسمار، إنه البرد. لقد بدأ شهر مايو أيار، وعلى شرف هذا الموسم - أضحية صغيرة لآلهة الربيع، ربما - قطعت السلطات البخار من الأنابيب الحارة. كانت البطانيات القطنية بلا فائدة تقريباً. يمضي المرء ليلته في التقلب من جانب إلى آخر ثم يغفو لمدة عشر دقائق، ويستيقظ وهو شبه متجمد في انتظار بزوغ الفجر.

كما يحدث في المسمار دائماً، أخيراً نجحت في النوم بشكل مريح حين حان موعد الاستيقاظ. جاء رئيس المسمار يتبختر بخطواته الثقيلة، فتح الأبواب وصرخ بنا أن ننهض. على الفور امتلأ الممر بأشكال مكسوة بقمصان رمادية قذرة تندفع إلى الحمام، إذ لم يكن سوى حوض غسيل واحد مملوء بالماء لنا في كل فترة الصباح، ومن يأتي أولاً ينال الخدمة. حين وصلت كان هناك عشرون متشرداً غسلوا وجوههم قبلي. ألقيت نظرة على الزبد الأسود الطافي فوق الماء، فقررت أن أظل متسخاً في اليوم كله.

هرعنا لارتداء ثيابنا، ثم ذهبنا إلى غرفة الطعام لنتناول إفطارنا. كان الخبز أسوأ من المعتاد، لأن المعتوه ذو العقل العسكري رئيس المسمار، قطعه إلى شرائح في الليلة السابقة، لهذا كان صلباً مثل البسكويت، لكننا سعدنا بالشاي بعد ليلة باردة قلقة. لا أعرف ما الذي يفعله المتشردون بدون الشاي، أو بالأحرى المادة التي يطلق عليها خطأ اسم الشاي. إنه غذاؤهم ودواؤهم وعلاجهم الشافي لكل الأضرار. بدون نصف الغون الذي يشربونه منه في اليوم، أعتقد صادقاً أنهم لن يستطيعوا مواجهة بقائهم.

بعد الإفطار، كان علينا أن نتجرد من ثيابنا ثانية من أجل الفحص الطبي، وهو تدبير احترازي ضد الجدري قبل ثلاثة أرباع الساعة من وصول الطبيب. وكان لدى المرء متسع من الوقت للنظر حوله، ويرى أي نمط من الرجال كنا. كان منظراً تعليمياً. وقفنا نرتجف، عراة

حتى الخصر في صفين طويلين في الممر. الضوء الراشح، البارد المائل للزرقة أنارنا بوضوح لا يرحم. لا أحد يستطيع التخيل حتى يرى مثل هذا الشيء، فقد ظهرنا مثل كلاب هجينة منحطة مكرشة. رؤوس مكومة ووجوه مشعرة متغضنة وصدور غائرة وأقدام مسطحة وعضلات مرتخية متدلية - كل أنواع التشوه الخلقي والفساد البدني كانت هناك. كل شيء كان مترهلاً وباهت اللون، بما أن كل المتشردين كانوا تحت ضربة شمس مضللة. شكلان أو ثلاثة هناك في الذهن ويتعذر استئصالها. أولد دادي البالغ من العمر الرابعة والسبعين مع حزام فتقه وعينيه المحمرتين الدامعتين وأحشاء سمكة ميتة من الجوع مع لحية وخدين غائرين، وكان يبدو مثل جثة لازاروس في بعض الصور البدائية: أبله يتجول هنا وهناك يطلق قهقهات مبهمة وكان مسروراً باستحياء لأن سرواله كان ينزلق إلى الأسفل دائماً فيظل عارياً. لكن القليل منا أفضل من هؤلاء، إذ لم يكن هناك سوى عشرة رجال من ذوي البنية السليمة بيننا، وأعتقد أن نصفنا كان يجب أن يكونوا في المستشفى للعلاج.

كان هذا يوم أحد، ويجب أن نبقى في المسمار حتى نهاية عطلة الأسبوع. حالما انتهى الطبيب من فحصنا، جمعونا كالقطيع وأعادونا إلى غرفة الطعام، وأغلق بابها علينا. كانت غرفة مبيضة بالكلس وأرضيتها حجرية، موحشة بشكل لا يوصف بأثاثها من موائد التوزيع والمقاعد الطويلة وبرائحتها كسجن. كانت النوافذ عالية جداً، لذلك لا يستطيع المرء النظر إلى الخارج، والزينة الوحيدة كانت مجموعة من القواعد المهددة بعقوبات رهيبة لأي لامبالٍ يسيء التصرف والسلوك. ازدحمت الغرفة بنا وتراصفنا فيها بشكل شديد، لذلك لا يستطيع المرء تحريك مرفقه بدون الاصطدام بأحد ودفعه. وفي الساعة الثامنة صباحاً ضجرنا من أسرنا مسبقاً. لم يكن هناك للحديث سوى إشاعات الطريق الصغيرة والمسامير الجيدة والرديئة والأقاليم المتصدقة وغير المتصدقة ومظالم رجال الشرطة وجيش الخلاص، ولا يستطيع المتشردون الفرار من هذه المواضيع إلا قليلاً، ولا يوجد لديهم شيء جدير يمكن تسميته بمحادثة، إذ لم يترك لهم التشوش الناتج عن جوع بطونهم أي تفكير في أرواحهم، وبات العالم كثيراً جداً بهم، فالوجبة التالية ليست مضمونة تماماً أبداً، ولهذا لا يستطيعون التفكير بأي شيء سوى الوجبة التالية.

مرت ساعتان ببطء شديد. جلس أولد دادي الذي خبله العمر ساكتاً، وظهره محني مثل قوس، وعيناه الملتهبتان تقطران الدموع ببطء، على أرض الغرفة. وكان جورج ذلك المتشرد العجوز القذر المشهور في عادته الغريبة بالنوم في قبعته، يتذمر حول مخزن رشاش فقده على

الطين. أما بيل المستجدي، الرجل ذو الجسم الأفضل بيننا كلنا، المختلس الهيرقلي القوي الذي تفوح منه رائحة البيرة حتى بعد اثنتي عشرة ساعة في المسمار، فقد كان يحكي لنا حكايات عن الاختلاسات وباينتات قدمت له في محلات الشرب، وعن كاهن بلغ عنه الشرطة فسجنته سبعة أيام. وغنى كل من ويليام وفريد، وهما صيادا سمك شابان من نورفوك، أغنية حزينة عن بيلا الحزينة التي خُدعت وماتت في الثلج. وتكلم الأبله بحماقة عن شخص متأنق وهمي، أعطاه مرة مائتين وسبعة وخمسين ليرة ذهبية. هذا مر الوقت بحديث مزعج وفحش بليد. كان الجميع يدخنون ماعدا سكوتي الذي صودر تبغه، وكان بائسا في حالته بدون دخان، لذلك أعطيته واحدة من سجائري. دخنا بشكل مختلس وحذر وخبأنا سجائرنا مثل تلاميذ المدارس، حين سمعنا خطوات رائد ملجأ المتشردين، لأن التدخين الذي يتم التغاضي عنه كان محظوراً رسمياً.

قضى أغلب المتشردين عشر ساعات متوالية في هذه الغرفة الكئيبة، وبات من الصعب تخيل تحمل الساعة الحادية عشرة. وصلت إلى الاعتقاد أن الضجر أسوأ شرور المسمار على الإطلاق، وهو أسوأ من الجوع والمشقة، وأسوأ من الشعور الدائم بالخزي الاجتماعي حتى. جزء سخيف من الوحشية أن تحتجز إنساناً جاهلاً كل اليوم من دون أن يفعل شيئاً، فذلك مثل تكبيل كلب في برميل، فالحجز لا يتحمله الرجل المثقف الذي لديه سلوان داخل نفسه. إن المتشردين الذين كلهم من الأميين تقريباً يواجهون فقرهم بعقول عاجزة جوفاء. يثبتونهم على منصة غير مريحة لمدة عشر ساعات، ولا يعرفون أية وسيلة لإشغال أنفسهم، وإن حدث وفكروا، فانهم يتذمرون فقط من حظهم البائس وعن توقهم إلى العمل وهم لا يمتلكون القوة في أنفسهم كي يتحملوا رعب الكسل والتبطل، وهذا بما أن الكثير جداً من حياتهم ينقضي من دون أن يفعلوا شيئاً، فإنهم يعانون من كروب السأم والضجر.

كنت محظوظا أكثر من الآخرين، لأن رائد مأوى المتشردين اختارني لأشهى مهمة في المسمار، مهمة المساعدة في مطبخ الإصلاحية. لم يكن هناك أي عمل يستلزم القيام به هناك في الحقيقة، واستطعت أن أهرب وأختبئ في كوخ يستخدم لتخزين البطاطا مع بعض فقراء الإصلاحية المعدمين الذين تواروا ليتفادوا صلاة خدمة الأحد الصباحية. كان هناك موقد مشتعل وصناديق تعليب مريحة للجلوس وأعداد سابقة من فاميلي هيرالد، وحتى نسخة من رافلز من مكتبة الإصلاحية. كانت فردوساً بعد المسمار.

أيضا، أخذت غدائي من مائدة الإصلاحية، وكانت واحدة من أكبر الوجبات التي تناولتها في حياتي كلها. المتشرد لا يرى مثل هذه الوجبة مرتين في السنة في المسهار أو خارجه. أخبرني الفقراء المعدمون أنهم دائماً يأكلون بنهم حتى نقطة الانفجار في أيام الآحاد ويظلون جياعاً في أيام الأسبوع الستة الأخرى. حين انتهت وجبة الطعام، جعلني الطباخ أغسل الطبق، وأخبرني أن أرمي الطعام المتبقي. كان الهدر مذهلاً صحون كبيرة جداً من لحم البقر وقدور كبيرة مملوءة بالفول والخضار أبعدت جانباً مثل النفاية، ثم لوثت بأوراق الشاي. ملأت خمسة صناديق زبالة طفحت بالطعام الجيد. وبينما كنت أفعل هذا، كان المشردون رفاقي يجلسون على بعد مائتي ياردة في المسهار ببطون نصف مملوءة بغداء المسهار المكون من الخبز والشاي الدائمين، وربما من حبتين باردتين من البطاطا لكل واحد على شرف يوم الأحد. تكشف أن الطعام كان يرمى بعيداً بسياسة متعمدة بدلاً من أن يُعطى للمتشردين.

غادرت مطبخ الإصلاحية في الساعة الثالثة، وعدت إلى المسهار. الضجر في تلك الغرفة المكتظة وغير المريحة أصبح لا يطاق الآن. حتى التدخين توقف، لأن دخان المتشرد ليس سوى أعقاب سجائر تُلتقط من الأرض، ومثل بهيمة ترعى يجوع إن كان بعيداً عن الرصيف - المرعى. لكي أملأ الوقت، تحدثت مع متشرد أرفع مقاماً، وهو نجار شاب ارتدى ياقة وربطة عنق، وكان على الطريق لافتقاره لعدة الأدوات كما قال. عزل نفسه قليلاً عن المتشردين الآخرين، واعتبر نفسه رجلاً متحرراً وغير رسمي ولديه ميول أدبية أيضاً، فكان يحمل رواية لسكوت في كل ترحاله. أخبرني أنه لم يدخل مسهاراً أبداً، إلى أن دفعه الجوع إلى هناك، وأن النوم تحت الحواجز وخلف الأكداس أفضل. كان يتسول على طول الشاطئ الجنوبي في النهار وينام في آلات الغسيل لمدة أسابيع في المرة الواحدة.

تحدثنا عن حياة التجوال. انتقد النظام الذي يجعل المتشرد يمضي أربع عشرة ساعة في اليوم في المسهار والساعات العشر الأخرى في المشي وتفادي رجال الأمن. تكلم عن حالته الخاصة - ستة أشهر على المساعدة الحكومية بسبب احتياجه لأدوات قيمتها ثلاثة باوندات. كان ذلك عتهاً كما قال.

ثم أخبرته بعد ذلك عن هدر الطعام في الإصلاحية، وعن رأيي في ذلك، فغير موقفه عندئذ على الفور. أدركت أنني أيقظت مستأجر منضدة الكنيسة النائم في كل حرفيّ إنكليزي،

ورأى في الحال مبررات لرمي الطعام وإتلافه بدلاً من إعطائه للمشردين، رغم أنه تم تجويعه مع البقية ولامني بقسوة وقال:

"يجب عليهم أن يفعلوها. إن جعلوا هذه الأماكن لطيفة جداً فستجد كل غثاء البلاد يندفعون أفواجاً إليها. لا يبعد هؤلاء الغثاء سوى الطعام الرديء. هؤلاء المتشردون كسالى جداً ولا يريدون أن يعملوا. هذا هو الخطأ فيهم. أنت لا تريد تشجيع ذلك فيهم. إنهم غثاء".

قدمت حججاً لأثبت خطأه، لكنه لم ينصت إلي، وظل يكرر:

"أنت لا تريد أن تشفق على هؤلاء المتشردين - الغثاء، إنهم كذلك. لا تريد أن تحاكمهم بنفس المعايير التي تطبق على رجال مثلك ومثلي. إنهم غثاء مجرد غثاء".

من الممتع رؤية كيف عزل نفسه عن رفاقه المتشردين بمكر. أصبح متشرداً منذ ستة أشهر، لكنه في نظر الرب، بدأ يفترض ضمناً أنه ليس متشرداً. ربما كان جسده في المسمار، لكن روحه حلقت عالياً في أثير الطبقة الوسطى النقي.

كانت عقارب الساعة تدب ببطء موجع. مللنا حتى من الكلام، وكان الصوت الوحيد للتجديف والتثاؤب المرتد. يجبر المرء نفسه أن يشيح بصره عن ساعة الجدار لمدة بدت له دهراً، ويعود لينظر مرة أخرى ليرى أن العقارب لم تتقدم إلا ثلاث دقائق فقط. خثر الملل أرواحنا مثل شحم لحم ضأن بارد وأوجع عظامنا. وقفت العقارب على الرابعة، والعشاء لن يقدم قبل السادسة، ولم يعد هناك شيء لافت غير القمر الزائر.

وأخيراً دقت الساعة السادسة، ووصل رائد المتشردين ومساعده مع العشاء. تنشط المتشردون المتثائبون كالليوث في وقت الإطعام، لكن الوجبة كانت خيبة كئيبة، فالخبز الذي كان رديئاً جداً الصباح، بات الآن غير صالح للأكل حقيقة؛ كان قاسياً جداً، حتى أن أقوى فكين لا يتركان سوى أثر بسيط عليه، فظل الرجال الكبار في السن بدون عشاء تقريباً، ولم يستطع أي رجل إكمال حصته رغم جوعنا الشديد. حين انتهينا من العشاء، قُدمت لنا البطانيات على الفور، ودُفعنا بقوة للخروج والذهاب إلى الزنازين الجرداء الباردة على الفور.

ثلاث عشرة ساعة مرت. عند السابعة تم إيقاظنا وهرعنا مسرعين لنتنازع حول ماء الحمام ونلتهم حصتنا من الخبز والشاي. انتهى وقتنا في المسمار، لكننا لم ننجح في المغادرة حتى فحصنا الطبيب مرة أخرى، لأن السلطات كانت مرعوبة من الجدري وانتشاره وسط

المتشردين. لقد حجزنا الطبيب لمدة ساعتين في الانتظار، وكانت الساعة العاشرة تماماً حين نجونا من المسمار أخيراً وبتنا خارجه.

أخيراً حان وقت الذهاب، فأطلقونا في الباحة. يا للإشراق الذي بدت به الأشياء كلها! ويا للحلاوة التي هبت بها الريح بعد المسمار الكئيب ذو الرائحة الكريهة! سلم رائد الملجأ كل رجل حزمة من ممتلكاته المصادرة وكتلة ضخمة من الخبز والجبن من أجل وجبة الظهيرة، ثم انطلقنا في الطريق بعد ذلك مستعجلين للخروج من منظر المسمار وقواعده الصارمة. كان هذا الفاصل فترتنا في الحرية. بعد نهار وليلتين من الوقت الضائع، صار لدينا ثمان ساعات تقريباً لنباشر هواياتنا ونطوف الطرقات ذهاباً وإياباً بحثاً عن أعقاب السجائر ونتسول ونبحث عن عمل، وأيضاً لنقطع الأميال العشرة أو العشرين ربما إلى المسمار التالي، حيث تبدأ اللعبة مرة أخرى من جديد.

أخرجت بنساتي الثمانية من مخبئها، وأخذت الطريق مع نوبي وهو متشرد محترم حزين، حمل حذاء احتياطياً وزار كل مكاتب العمل. كان رفاقنا السابقون يتبعثرون شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً مثل البق في داخل فرشة. لم يظل سوى البلهاء فقط يتسكعون عند بوابات المسمار، حتى اضطر رئيس الملجأ إلى طردهم بعيداً.

انطلقنا أنا ونوبي إلى كرويدون. كان طريقاً هادئاً لم تمر به سيارات، وغطت الأزهار المتفتحة أشجار الكستناء مثل شموع عظيمة. كل شيء كان هادئاً جداً ويفوح برائحة نظيفة جداً. وكان من الصعب أن ندرك أننا قبل دقائق قليلة، كنا محشورين مع تلك العصبة من السجناء في رائحة مصرف مياه وصابون رائق. اختفى الآخرون كلهم؛ وبقينا الاثنان المتشردان الوحيدان على الطريق فقط.

ثم سمعت خطوة مستعجلة خلفي، وشعرت بنقرة خفيفة على ذراعي. إنه سكوتي الصغير الذي كان يركض لاهثاً خلفنا. سحب صندوقاً معدنياً صدئاً من جيبه. كست وجهه ابتسامة ودية مثل رجل يفي ويرد تعهداً.

"تفضلوا يا زملاء" قال بحرارة. "أنا مدين لكم ببعض أعقاب السجائر. أنتم أعطيتموني دخاناً في الأمس. أعطاني رئيس الملجأ المتشرد صندوق أعقاب سجائري حين خرجت هذا الصباح. دور طيب يستحق دوراً آخر - تفضلا".

ووضع أربعة أعقاب سجائر مبللة فاسدة وكريهة في يدي.

مقدمة للطبعة الأوكرانية
لرواية مزرعة الحيوان

يتوقع القراء مني أن أقول شيئاً عن نشوء مزرعة الحيوان، لكنني أود أن أقول شيئاً عن نفسي وتجاربي التي وصلت من خلالها إلى موقفي السياسي. لقد ولدت في الهند عام ١٩٠٣ لوالد كان موظفاً رسمياً في الإدارة الإنكليزية هناك، ولعائلة من عائلات الطبقة الوسطى التي تضم الجنود ورجال الدين والموظفين الحكوميين والمعلمين والمحامين والأطباء..إلخ. تعلمت في أيتون، أكثر المدارس الإنكليزية الخاصة تكلفة وتكبراً، والتي لم أصل إليها إلا من خلال منحة دراسية، فوالدي لم يكن يتحمل أقساط مدرسة من هذا النمط.

بعد أن أنهيت دراستي في أيتون بوقت قصير (لم أكمل العشرين من عمري) ذهبت إلى بورما، وانضممت إلى الشرطة الإمبراطورية الهندية، التي كانت شرطة مسلحة ونوعاً من الدرك شبيهة جداً بالحرس المدني الإسباني أو الحرس المتنقل في فرنسا. أمضيت في الخدمة خمس سنوات، لكنها لم تناسبني، وجعلتني اكره الإمبريالية، ولم تكن العلاقة بين الإنكليز والبورميين ودية رغم عدم وضوح المشاعر الوطنية في بورما آنذاك. استقلت من الخدمة عام ١٩٢٧ حين كنت في إجازة في إنكلترا، وقررت أن أصبح كاتباً. بين عامي ١٩٢٨ و١٩٢٩ عشت في باريس، وكتبت قصصاً قصيرة وروايات لم ينشرها لي أحد (وأتلفتها كلها). في السنوات التي تلت ذلك، عشت على الكفاف، وعانيت من الجوع في مناسبات كثيرة، ولم أعش مما كسبته من كتابتي حتى عام ١٩٣٤ وبعد. في غضون ذلك، عشت شهوراً وسط الفقراء وأشباه المجرمين الذين كانوا يقطنون أسوأ وأفقر الأحياء، وتشردت في الشوارع كمتسول أو لص. في ذلك الوقت عاشرتهم بسبب عوزي للمال، لكني تأثرت كثيراً بطريقة عيشهم نفسها فيما بعد، كما أمضيت شهوراً كثيرة (بطريقة أكثر منهجية هذه المرة) أدرس ظروف عمال المناجم في شمال إنكلترا. لم أنظر إلى نفسي كاشتراكي إلى عام ١٩٣١. وفي الحقيقة، لم تكن لي آراء سياسية محددة بوضوح آنذاك. أصبحت من مناصري الاشتراكية، بسبب الاشمئزاز من الطريقة التي اضطهد وأهمل فيها الفقراء والعمال الصناعيين، أكثر من إعجابي النظري بالمجتمع المخطط.

في عام ١٩٣٦ تزوجت، وفي نفس الأسبوع اندلعت الحرب الأهلية في إسبانيا، فرغبنا أنا وزوجتي في الذهاب إلى إسبانيا والقتال دفاعاً عن الحكومة الإسبانية، وكنا جاهزين في غضون ستة أشهر حالما أنهيت الكتاب الذي كنت أكتبه. أمضيت في إسبانيا ستة أشهر على جبهة أراغون، إلى أن أصابني قناص فاشي بطلقة اخترقت عنقي في هويسكا. في المراحل الأولى من الحرب، لم يدرك الأجانب إجمالاً الصراعات الداخلية بين الأحزاب السياسية المختلفة المؤيدة للحكومة. بعد سلسلة من الحوادث، لم أنضم إلى الكتيبة الأممية كغيري من غالبية الأجانب، وإنما إلى ميليشيا البيوم - التروتسكيين الإسبان، لذلك في منتصف عام ١٩٣٧ حين فاز الشيوعيون بالسيطرة (أو السيطرة الجزئية) على الحكومة، وبدأوا بحبس التروتسكيين، وجدنا أنفسنا أنا وزوجتي بين الضحايا، وكنا محظوظين لخروجنا أحياء من إسبانيا، ولم يلق القبض علينا ولا مرة، لكن أعدم الكثير من أصدقائي، وسجن آخرون وقتاً طويلاً أو اختفوا ببساطة.

استمرت مطاردة الرجال في إسبانيا، وتزامنت مع حملات التطهير الكبرى في الاتحاد السوفييتي، وكانت مكملاً لها في إسبانيا، وكانت طبيعة الاتهامات واحدة كما في روسيا (التآمر مع الفاشيين). وفيما يتعلق بإسبانيا، فلدي كل الأسباب للقول إن الاتهامات كانت مزيفة. كانت تلك التجربة درساً موضوعياً قيماً: علمني كيف تستطيع دعاية النظام الشمولي السيطرة بسهولة على رأي الناس المتنورين في البلدان الديمقراطية. لقد رأينا أنا وزوجتي أشخاصاً أبرياء يرمون في السجون لمجرد الاشتباه باللاعقائدية. الأدهى عند عودتنا إلى إنكلترا، وجدنا عدداً هائلاً من المراقبين المطلعين جيداً والمدركين الذين كانوا يصدقون أكثر الروايات حماقة عن المؤامرة والخيانة والتخريب التي كانت تنقلها الصحافة من محاكمات موسكو، وأدركت أنا أيضاً أكثر من قبل التأثير السلبي للأسطورة السوفييتية على الحركة الاشتراكية الغربية. وهنا يجب علي أن أصف موقفي من النظام السوفييتي.

لم أزر روسيا قط، ومعرفتي بها مما تعلمته من قراءة الكتب والجرائد، وليس لدي رغبة التدخل في الشؤون الداخلية السوفييتية. ولو كان لي نفوذ، فلن أشجب ستالين ورفاقه بسبب أساليبهم الهمجية وغير الديمقراطية، فربما لم يكن بإمكانهم التصرف بطريقة أخرى تحت الظروف السائدة هناك، حتى لو توفرت أفضل النوايا. لكن، في المقابل، من المهم جداً لي ضرورة أن يرى الناس في أوروبا الغربية النظام السوفييتي على حقيقته. منذ ١٩٣٠ لم أر دليلاً واحداً ولو

كان صغيراً بأن الاتحاد السوفيتي كان يتقدم نحو شيء يمكن تسميته بشكل حقيقي بالاشتراكية، بل على العكس صعقتني علامات تحوله إلى مجتمع تراتبي، ليس للحكام فيه أي سبب في التخلي عن السلطة كغيرهم من الطبقات الحاكمة. إضافة إلى أن العمال والمثقفين في بلاد كإنكلترا، لم يدركوا أن الاتحاد السوفييتي اليوم يختلف تماماً عما كان عام ١٩١٧ وذلك جزئياً لأنهم لم يريدوا ذلك (فقد أرادوا أن يؤمنوا بوجود اشتراكية في مكان ما فعلياً) وجزئياً لأنهم لم يفهموا الشمولية إطلاقاً، بسبب اعتيادهم على حرية نسبية واعتدال في الحياة العامة.

لكن يجب أن يتذكر المرء أن إنكلترا ليست ديمقراطية تماماً، فهي بلاد رأسمالية أيضاً مع امتيازات طبقية عظيمة وفروق عظيمة في الثروة حتى الآن، رغم أن الحرب نزعت إلى المساواة بين الناس، لكنها مع ذلك، بلاد عاش الناس فيها معاً مئات السنين دون صراع أساسي، والقوانين فيها عادلة نسبياً، ويمكن تصديق الأخبار الرسمية والإحصائيات فيها، وأخيراً وليس أخراً هي بلاد تتبنى آراء الأقلية، ولا يشمل التعبير عنها أي خطر مميت. في جو كهذا، ليس لدى رجل الشارع أي فهم حقيقي لأشياء مثل معسكرات الاعتقال والترحيل الجماعي والاعتقال دون محاكمات والرقابة على الصحافة..إلخ. كل شيء يقرأه عن الاتحاد السوفييتي يترجم فوراً إلى المصطلحات الإنكليزية، ويقبل ببراءة بأكاذيب الدعاية الشمولية. حتى عام ١٩٣٩ وبعده أيضا، كانت غالبية الشعب الإنكليزي عاجزة عن تقييم الطبيعة الحقيقة للنظام النازي في ألمانيا، والآن مع النظام السوفييتي لا تزال إلى حد كبير تحت تأثير نفس الوهم، ما سبب ضرراً عظيماً للحركة الاشتراكية في إنكلترا، وكان له عقابيل خطيرة على السياسة الخارجية الإنكليزية. في الواقع، برأيي، لم يساهم شيء في إفساد الفكرة الأصيلة للاشتراكية بهذا القدر الكبير، كما فعل الاعتقاد بأن روسيا بلاد اشتراكية، وأن كل فعل لحكامها يجب أن يبرر إن لم يقلد. ولذلك اقتنعت في السنوات العشر الماضية بأن تدمير الأسطورة السوفييتية كان ضرورياً وجوهرياً، إن أردنا بعث الحركة الاشتراكية وإحياءها.

عند عودتي من إسبانيا، فكرت في كشف الأسطورة السوفييتية في قصة يمكن أن تكون مفهومة بسهولة من قبل أي واحد؛ وتترجم بسهولة إلى اللغات الأخرى، لكن التفاصيل الفعلية للقصة لم تخطر لي إلا في يوم (كنت أعيش آنذاك في قرية صغيرة) رأيت فيه صبياً صغيراً يقود عربة ضخمة يجرها حصان في ممر ضيق، وكان يجلده بالسوط: كلما حاول التراجع

والدوران، فخطر لي لو أن هذا الحيوان أصبح مدركاً لقوته، فلن تظل لنا عليه أي سلطة، وأن البشر يستغلون الحيوانات بنفس الطريقة التي يستغل فيها الأغنياء البروليتاريا.

لقد شرعت في تحليل نظرية ماركس من وجهة نظر الحيوانات. بالنسبة إليها (الحيوانات) من الواضح أن فكرة الصراع الطبقي بين البشر كانت محض وهم، فكلما كان استغلال الحيوانات ضرورياً، يتحد البشر كلهم ضدها: الصراع الحقيقي بين الحيوانات وبين البشر. من هذا المنطلق أصبح التوسع في القصة صعباً. لم أكتبها حتى عام ١٩٤٣ لأنني كنت منشغلاً دائماً بعمل آخر لم يترك لي الوقت لذلك. وفي النهاية ضمنتها بعض الأحداث مثل مؤتمر طهران الذي انعقد وأنا اكتب الرواية، لهذا ظلت الخطوط الرئيسية للقصة في ذهني لمدة ست سنوات قبل أن أكتبها فعلياً. لا أرغب في الحديث عن العمل، فإذا لم يتكلم هو عن نفسه، فهو فاشل؛ لكنني أود التأكيد على نقطتين: الأولى، أنه وبرغم المشاهد الكثيرة المأخوذة من التاريخ الفعلي للثورة الروسية، إلا أنها عولجت وعوملت بطريقة منهجية، وتم تغيير ترتيبها الزمني، وكان هذا ضرورياً لتناسق القصة. النقطة الثانية التي أغفلها أغلب النقاد، ربما لأنني لم أشدد عليها بالشكل الوافي. ربما هناك عدد كبير من قراء الكتاب ينهونه بالانطباع بوجود تسوية كاملة بين الخنازير والحيوانات، لكن قصدي لم يكن ذلك، على العكس فقد قصدت أن أنهيها بملاحظة مدوية من الخلاف، لأنني كتبتها بعد مؤتمر طهران الذي أعتقد الجميع أنه وطد أفضل العلاقات الممكنة بين الاتحاد السوفييتي والغرب، وأنا شخصياً لا أعتقد أن هذه العلاقات الطيبة ستدوم طويلاً، وقد بينت الأحداث أنني لم أذهب بعيداً في خطئي.

لا أعرف ماذا يجب أن أضيف أيضاً. إن اهتم أي واحد بالتفاصيل الشخصية، فسوف أضيف أنني أرمل ولي ابن عمره ثلاث سنوات، وأنني كاتب بالمهنة، ومنذ بداية الحرب أعمل كصحفي على الأغلب. أكثر الدوريات التي أساهم في الكتابة لها هي التريبيون الأسبوعية الاجتماعية السياسية التي تمثل الجناح اليساري من حزب العمل. ربما تنال كتبي التالية اهتمام القارئ العادي: أيام بورما (قصة عن بورما) وتحية إجلال إلى كاتالونيا (انبثقت من تجاربي في الحرب الأهلية الإسبانية) والمقالات النقدية (مقالات عن الأدب الإنكليزي الشعبي المعاصر التي هي من وجهة النظر الاجتماعية أكثر تثقيفية من وجهة النظر الأدبية.

السياسة في مواجهة الأدب: دراسة لرحلات غاليفار

تتعرض الإنسانية إلى هجوم في رحلات غاليفار، وتُنتقد من ثلاث زوايا مختلفة، وتتبدل بشكل ما الشخصية الضمنية لغاليفار نفسه بالضرورة في صيرورة العمل. في القسم الأول هو رحالة أنموذجي من القرن الثامن عشر، جريء وعملي وغير رومانسي، يؤثر منظره البسيط ببراعة على القارئ بواسطة التفاصيل المتعلقة بالسيرة الذاتية في البداية وبعمره (فهو رجل في الأربعين من العمر ولديه طفلان حين يبدأ في مغامراته) وبقائمة الأشياء التي في جيوبه خصوصاً نظارته التي تبرز في مظاهر كثيرة. في القسم الثاني لديه نفس الشخصية بشكل عام، لكن في لحظات تتطلبها القصة أحياناً، لديه ميل إلى التطور إلى معتوه قادر على التباهي بـ"بلادنا النبيلة وخليلة الفنون والأسلحة ومهلكة فرنسا" إلخ إلخ، وفي الوقت نفسه إلى البوح بكل واقعة مخزية متاحة عن البلاد التي اعترف بحبها. في القسم الثالث: هو أشبه كثيراً لما كان عليه في القسم الأول رغم انطباع المرء بأنه ارتفع في السلم الاجتماعي؛ حيث كان يعاشر بشكل أساسي رجال الحاشية الملكية ورجال المعرفة. في القسم الرابع يتصور رعب السلالة البشرية غير الظاهر أو الذي لا يظهر إلا متقطعاً في الكتب السابقة، ويتحول إلى نوع من ناسك غير ديني، رغبته الوحيدة أن يعيش في بقعة مهجورة، يستطيع فيها تكريس نفسه للتأمل في طيبة الهوينيم. لقد فُرضت هذه التضاربات على سويفت بحقيقة أن غاليفار هناك ليوفر التباين بشكل أساسي، فمن الضروري عليه مثلاً أن يظهر عاقلاً ومنطقياً في القسم الأول وساذجاً بشكل متقطع على الأقل في القسم الثاني، لأن المناورة الجوهرية هي نفسها في كلا الكتابين، أي جعل الكائن البشري يبدو مضحكاً بتصويره كمخلوق يبلغ طوله ست بوصات. وحين لا يقوم غاليفار بدور الأضحوكة، يظل هناك نوع من الاستمرارية في شخصيته التي تظهر في دهائه خصوصاً ومراقبته للتفاصيل البدنية. هو إلى حد كبير نفس النوع من الشخص مع نفس الأسلوب النثري حين يقلب سفن بيلفوسكو، وحين يشق بطن الجرذ الهائل، وحين يبحر بعيداً على المحيط في زورقه الهش المصنوع من جلود بهائم الالياه أو

الياهو (جنس من البهائم). فضلاً على ذلك، من الصعب ألا تشعر أن غاليفار في لحظاته الأدهى هو سويفت. وهناك حدث واحد على الأقل يبدو فيه سويفت ينفس عن شكواه الخاصة ضد المجتمع المعاصر. سنظل نتذكر أنه حين احترق قصر الإمبراطور ليلبوت أطفأه غاليفار بالتبول عليه، وبدلاً من يُهنأ على حضور بداهته العقلية يجد أنه ارتكب جريمة كبرى في التبول في أفنية القصر. وقد أكد لي سراً أن الإمبراطورة تكن أشد المقت لما فعلته، وانتقلت إلى الجانب البعيد من البلاط، وقررت بشكل قطعي ألا تجري عملية إصلاح تلك الأبنية، لكي تستعملها، ولم تستطع الامتناع عن القسم بالثأر بحضور رئيس أصدقائها المؤتمنين.

يرى البروفيسور جي أم تريفيليان في كتابه (**إنكلترا في عهد الملكة آن**) أن من أسباب فشل سويفت في الحصول على مكانة رفيعة، يكمن في أن الملكة صُدمت أخلاقياً بـ **حكاية حوض استحمام** - الكراسة التي كتبها سويفت، وشعر أنه قدم خدمة عظيمة للتاج البريطاني، لأنه انتقد فيها المنشقين عن الكنيسة الأنجليكانية بقسوة، وانتقد الكاثوليكيين بشكل أقسى، بينما ترك الكنيسة الموطدة الرسمية دون مساس. في كافة الأحوال لا يمكن لأحد أن ينكر بأن رحلات غاليفار كتاب حقود وتشاؤمي أيضاً، وأنه في القسمين الأول والثالث خصوصاً انحدر إلى مشايعة سياسية من النوع الضيق، في أحوال كثيرة، امتزجت فيهما الحقارة والشهامة والجمهورية والفاشية وحب العقل وفقدان حب الفضول. أما كره الجسم البشري الذي ترافق مع سويفت بشكل خاص، فهو لا يهيمن إلا في القسم الرابع. لكن هذا الهاجس الجديد، لم يحدث بشكل مفاجئ. يشعر المرء أن كل هذه المغامرات وهذه التبدلات في المزاج، يمكن أن تحدث للشخص نفسه، وأن العلاقة المتداخلة بين ولاءات سويفت السياسية ويأسه المطلق، واحدة من أكثر المزايا البارزة في الكتاب تشويقاً.

سياسياً، كان سويفت واحداً من هؤلاء الأشخاص الذين دفعوا إلى نوع من التورية (المحافظية) المشوهة بسبب حماقات الحزب التقدمي آنذاك. ظاهرياً إن القسم الأول من رحلات غاليفار عبارة عن هجاء للعظمة الإنسانية. ولو نظر المرء بتعمق أكبر لرأى أنه هجوم صريح على إنكلترا، على حزب الهويغ المسيطر وعلى الحرب مع فرنسا التي - أياً كانت دوافع الحلفاء الخبيثة فيها - فقد أنقذت أوروبا من أن تستبد بها سلطة رجعية واحدة. لم يكن سويفت ستيوارتياً ولا تورياً بتعبير أدق، وكان هدفه المعلن في الحرب معاهدة سلام عادلة،

وليس الهزيمة التامة لإنكلترا. لكن هناك أثراً من الكويسلينغية (الخيانة الوطنية) في موقفه الذي يبرز في نهاية القسم الأول ويتضارب قليلاً مع القصة المجازية الرمزية. إن فرار غاليفار من ليليبوت (إنكلترا) إلى بيلفوسكو (فرنسا) يُسقط الافتراض الخسيس والمتأصل الذي يرى أن طول الكائن البشري ست بوصات. ففي الوقت الذي تصرف أهل ليليبوت تجاه غاليفار بأقصى درجة من الغدر والخسة، تصرف معه أهل بيلفوسكو بطريقة كريمة ومستقيمة. وبالفعل هذا المقطع من الكتاب ينتهي بملاحظة تختلف في نغمتها عن الخيبات التي في كل الفصول السابقة. من الواضح أن عداء سويفت في المقام الأول موجه ضد إنكلترا. إنها "أهلك" (أي أبناء قومك) الذين يعتبرهم الملك بروب - دينغدانغ "السلالة الأشد فتكاً من الحشرات الطفيلية البغيضة الصغيرة التي تزحف على سطح الأرض التي عانت منها الطبيعة" والمقطع الطويل في النهاية الذي يشجب فيه الاستعمار والفتح الأجنبي، يستهدف إنكلترا بوضوح، رغم أن العكس معلن بشكل مفصل. يهاجم سويفت الهولنديين بنفس القسوة تقريباً في القسم الثالث، وهم حلفاء إنكلترا، وكانوا هدفاً لواحد من أكثر كتيباته شهرة. وهناك ما يشبه الملاحظة الشخصية في المقطع، حيث يسجل فيها غاليفار ارتياحه من أن البلدان المختلفة التي اكتشفها، لا يمكن أن تكون مستعمرات للتاج البريطاني:

في الحقيقة لا يبدو أن الهومينيم مستعدون جيداً للحرب، وهو علم أنهم غرباء عنه تماماً وخصوصاً ضد أسلحة الرسائل. لكن لو كنت وزيراً حكومياً، فلن أنصح بغزوهم، تخيل عشرين ألفاً منهم، يقتحمون جيشاً أوروبياً فيربكون صفوف الجند ويقلبون العربات ويهرسون وجوه المحاربين ويحولونها إلى مومياء برفسات رهيبة من حوافرهم الخلفية......

باعتبار أن سويفت لا يهدر الكلمات، فإن العبارات "يهرسون وجوه المحاربين ويحولونها إلى مومياء" ربما تشير إلى رغبة خفية، يرى فيها جيوش دوق مارلبورو التي لا تغلب تُعامل بطريقة مماثلة. وهناك لمسات مشابهة في مكان آخر، فحتى البلاد المذكورة في القسم الثالث التي "يتألف السواد الأكبر من الناس فيها من نمامين وشهود ومخبرين ومتهمين ومدعين وأدلة ومحلفين معاً مع مساعديهم الكثيرين ووسائلهم المتعلقة بالقضية، كلهم تحت العلم الرسمي وتحت الإدارة وعلى راتب وزراء الحكومة" تُسمى لانغدون والتي تكون جناساً مع إنغلاند ضمن حرف واحد. (بما أن الطبعات السابقة تحتوي أخطاء مطبعية، فربما كان المقصود أن يكون الجناس

كاملاً). إن نفور سويفت البدني من الإنسانية، حقيقي تماماً بالتأكيد، ويشعر المرء بأن فضح سويت لزيف العظمة الإنسانية ونقده الساخر العنيف للوردات والسياسيين وحاشية البلاط..إلخ، له وظيفة موضعية، ونابع من حقيقة أنه كان ينتمي إلى الحزب الخاسر. هو يشجب الظلم والاضطهاد، لكنه لا يقدم أي دليل عن حبه للديمقراطية. ورغم قدراته العظيمة والهائلة، فإن موقفه الضمني مماثل لموقف المحافظين المتذاكين الذين لا يحصون في زمننا - أناس مثل سير آلان هيربرت والبرفيسور جي أم يونغ ولورد اياتون ولجنة توري للإصلاح أو الخط الطويل من المدافعين الكاثوليكيين من دبليو اتش مالوك وصاعداً: أناس تخصصوا في إطلاق دعابات متقنة على حساب كل ما هو "عصري" و"تقدمي" ويعتنقون الآراء الأكثر تطرفا دائماً لأنهم يعرفون أنهم عاجزون عن التأثير في سير الأحداث. أخيراً كراسة مثل **حجة لإثبات أن إلغاء المسيحية** إلخ مثلاً تشبه كثيراً "**تيموثي شاي**" فيه قليل من السخرية النظيفة من هيئة العقول أو من فضح الأب رونالد نوكس لأخطاء برتراند راسل. إن السهولة التي صُفح فيها عن سويفت من قبل مؤمنين ورعين أحياناً - في تجديفه في **حكاية حوض استحمام** - تُظهر بوضوح تام وهن المشاعر الدينية مقارنة بمثيلاتها السياسية.

مع ذلك القالب الرجعي لعقل سويفت، لا يكشف عن نفسه بشكل رئيسي في انتماءاته السياسية. إن الشي المهم هو موقفه من العلم ومن الفضول العقلي والفكري عموماً. إن أكاديمية لاغادو الشهيرة التي وصفت في القسم الثالث من رحلات غاليفار، هي هجاء مبرر بلا شك لأغلب ما يسمى بالعلماء في عصر سويفت. هناك مغزى من وصف الناس الذين يعملون فيها بـ"عارضي الصور" أي أناس ليسوا منشغلين في بحث نزيه، وإنما مراقبة آلات توفر الجهد وتكسب المال، لكن لا توجد أية إشارة - في الحقيقة في الكتاب كله - إلى أن العلم الصرف جذب سويفت كنشاط جير بالاهتمام، بل هناك إشارات كثيرة إلى النقيض من ذلك. لقد تعرض النوع الأهم من العلماء للنقد واللوم في القسم الثاني، حين حاول "العلماء" الذين يرعاهم الملك بروبدينغدانغ تفسير قامة غاليفار الصغيرة:

بعد جدال طويل استنتجوا بالإجماع أنني **ريبليوم سكالكاث**، التي تترجم حرفياً طفرة طبيعية، قرار مقبول تماماً من قبل الفلسفة الأوروبية الحديثة، التي اخترع أساتذتها الذين ازدروا حيلة العلل الغامضة القديمة، التي حاول أتباع أرسطو عبثاً إخفاء جهلهم بواسطتها هذا الحل الرائع لكل المصاعب ولتقدم المعرفة الإنسانية الذي لا يُوصف.

لو أخذ المرء هذا الكلام لوحده، لافترض أن سويفت مجرد عدو للعلم الزائف، لكنه يخرج عن طريقه في عدد من الأماكن ليعلن صراحة عقم كل أنواع التعلم والفكر التي لا توجه نحو غاية عملية ما:

إن تعلم (أهالي بروبدينغدانغ) ناقص وفيه خلل كبير، ويتألف فقط من علم الأخلاق والتاريخ والشعر والرياضيات؛ حيث يُسمح لهم فيها التفوق. والأخير منها (الرياضيات) تُطبق برمتها على ما هو مفيد في الحياة، لتحسين الزراعة وكل الفنون الميكانيكية، وهذا تحظى بتقدير قليل بيننا. أما بالنسبة إلى الأفكار والكينونات والمجردات والخوارق، فلم أستطع أن أقحم أي مفهوم صغير منها في رؤوسهم.

إن الهيومنيم - كائنات سويفت المثالية - متخلفون حتى في المعنى الميكانيكي، فهم لا يعرفون شيئاً على المعادن، ولم يسمعوا بالقوارب قط، ولا يمارسون الزراعة (أُخبرنا بأن الشوفان الذي يعيشون عليه ينمو بصورة طبيعية) ولا يبدو أنهم اخترعوا العجلات[1] وليس لديهم أبجدية وليس لديهم فضول كبير نحو العالم المادي كما هو واضح، ولا يعتقدون بوجود أي بلاد مأهولة تتواجد إلى جانب بلادهم، ولكنهم يفهمون حركات الشمس والقمر وطبيعة الكسوف والخسوف "هذا هو أقصى تقدم في علم الفلك عندهم". لكن في المقابل، فإن فلاسفة الجزيرة الطائرة لابوتا منهمكون أيضاً على نحو مستمر في حسابات رياضية، لذلك قبل التكلم إليهم يحتاج المرء لجذب انتباههم بمغافلتهم بوضع مثانة على آذانهم. لقد فهرسوا عشرة آلاف نجم ثابت، وحسبوا مدد ثلاثة وتسعين مذنباً، واكتشفوا وجود قمرين للمريخ، وسبقوا الفلكيين الأوروبيين في ذلك - معلومات اعتبرها سويفت كلها سخيفة وعقيمة وبليدة. كما يتوقع المرء، فإن سويفت يعتقد أن مكانة العالم إن كانت لديه واحدة، فهي في المختبر، وأن المعرفة العلمية ليس لها أثر على المسائل السياسية:

لم أستطع أن أجد أي تفسير لميلهم القوي الذي لاحظته نحو الإخبار والسياسة، فهم يستفسرون بشكل دائم عن القضايا العامة ويبدون آراءهم في قضايا الدولة دائماً، ويفندون بانفعال

---

١ - لا يستطيع الهومينوم المشي بسبب الكبر، ووصفوا أنهم يحملون على زلاجات أو في نوع من المركبات تجر مثل الزلاجات ويفترض أنها بلا عجلات. (ملاحظة المؤلف).

كل جزء من رأي المشارك الآخر. لاحظت في الحقيقة نفس الميل وسط أغلب علماء الرياضيات الذين عرفتهم في أوروبا، رغم أنني لم أستطع أن أكتشف أدنى تشابه بين العلمين؛ إلا إذا افترض هؤلاء الناس أن أصغر دائرة فيها عدد من الدرجات، مثل أكبر دائرة، لذلك فإن تنظيم العالم وإدارته، لا يتطلب قدرات ومهارات أكثر من الإمساك بالكرة الجغرافية وتدويرها.

ألا يوجد أي شيء مألوف في تلك العبارة "لم أستطع أن أكتشف أدنى تشابه بين العلمين؟" فيها بالضبط سمة المدافعين الكاثوليكيين الذين يعترفون باندهاشهم حين ينطق عالم برأي في مثل هذه المسائل كوجود الرب أو خلود الروح مثلاً. إن العالم كما أُخبرونا، خبير في حقل محدد فقط: لماذا تكون لآرائه قيمة في مجال آخر؟ المعنى الضمني أن اللاهوت علم دقيق كعلم الكيمياء مثلاً وأن القس خبير أيضاً ويجب القبول باستنتاجاته في مواضيع معينة. وسويفت في الواقع يدعي بنفس الحق من أجل السياسي، لكنه يتفوق على سلفه حين لم يسمح للعالم - العالم "الصرف" أو المحقق الارتجالي - أن يكون شخصاً مفيداً في خطه الخاص. حتى لو لم يكتب سويفت القسم الثالث من رحلات غاليفار، لاستطاع المرء الاستنتاج من بقية الكتاب أنه مثل تولستوي ومثل بليك، يكره فكرة دراسة عمليات الطبيعة. الـ"سبب" الذي جعله يُعجب جداً في الهونيم لا يعني أساساً القدرة على استخلاص استنتاجات منطقية من وقائع مدركة وملحوظة، ورغم أنه لم يحدده أبداً إلا أنه ظهر في أكثر السياقات ليعني إما الحس السليم - أي القبول بالواضح واحتقار الحيل والمجردات - أو انعدام الشغف والخرافة. وعلى العموم هو يعتقد أننا نعرف كل ما نحتاج إلى معرفته مسبقاً، ولكننا نستخدم معرفتنا بشكل غير صحيح. فالطب مثلاً علم لا فائدة منه، لأننا إن عشنا بطريقة طبيعية أكثر، فلن تكون هناك أمراض. لكن سويفت ليس داعية للحياة البسيطة أو معجب بالهمجي النبيل فقط، وإنما يؤيد الحضارة وفنون الحضارة أيضاً، ولا يرى قيمة أنواع السلوك الجيدة والمحادثة الجيدة وحتى المعرفة من النوع الأدبي والتاريخي فقط، وإنما يرى أيضاً الحاجة إلى دراسة الزراعة والملاحة والهندسة المعمارية والزراعة التي يمكن تحسينها ببعض المزايا. لكن هدفه المبطن ثابت، مدنية غير فضولية - عالم عصره لكن أنظف قليلاً وأعقل قليلاً دون تغيير جذري أو بحث فضولي في الأشياء التي لا يمكن معرفتها، أكثر مما يرجوه المرء. كما أنه يجل الماضي بشكل لا يتوقعه المرء من أي واحد متحرر جداً من الأفكار الخاطئة المقبولة، ويوقر العصر الكلاسيكي القديم

بصورة خاصة، ويعتقد أن الإنسان الحديث قد انحدر بحدة وانحط خلال المائة سنة الأخيرة.[1]

في جزيرة السحرة، حيث يمكن استدعاء أرواح الموتى عند الرغبة:

رغبت لو يظهر شيوخ روما أمامي في حجرة واسعة، وممثلو برلمان حديث في حجرة مقابلة أخرى، لبدت الأولى مجلس أبطال وأنصاف الآلهة، والأخرى زمرة من الباعة الجوالين والنشالين وقطاع الطرق والمتنمرين.

رغم أن سويفت يستخدم هذا المقطع من القسم الثالث، كي يهاجم صدقية التاريخ المدون، إلا أن روحه الناقدة تهجره فور تعامله مع الإغريق والروم. هو يعلق على فساد روما الإمبريالية طبعاً، لكنه يكن إعجاباً عاطفياً غير مفسر لبعض من شخصيات العالم القديم البارزة:

دُهشت بتوقير عميق بمنظر بروتوس، واستطعت أن أكتشف بسهولة أكثر فضيلة مكتملة وأعظم جرأة وأثبت عقل وأصدق حب للوطن وإحسان عام للبشرية في كل قسمات محياه.... كان لي الشرف أن أتحدث كثيراً مع بروتوس، وعلمت أنه وأسلافه جونيوس وسقراط وايباميندونانداس وكاتو الأصغر والسير توماس مور كانوا معاً دائماً: فريقاً سداسياً لا تستطيع عصور العالم كلها أن تضيف لهم سابعاً.

سيُلاحظ أنه من بين الأشخاص الستة، ليس هناك سوى مسيحي واحد فقط. هذه نقطة هامة. إن أضاف المرء تشاؤمية سويفت وتوقيره للماضي ولامبالاته ورعبه من الجسد البشري، لوصل إلى موقف شائع بين الرجعيين المتدينين، أي أناس يدافعون عن نظام اجتماعي غير عادل في الزعم بأن هذا العالم لا يمكن تحسينه جوهرياً، وأن "العالم التالي" فقط هو المهم. لكن سويفت لا يبدي أي علامة عن امتلاكه لأي شعور ديني على الأقل بالمعنى العادي للكلمة، ولا يبدو أنه يؤمن بجدية في الحياة بعد الموت، وأن فكرته عن الطيبة مرتبطة بالنظام الجمهوري وحب الحرية والشجاعة و"الإحسان" (بمعنى الروح الجماعية) والعقل وصفات وثنية أخرى. هذا يذكر المرء بنزعة أخرى في سويفت غير منسجمة إطلاقاً مع عدم إيمانه بالتقدم وكرهه العام للإنسانية.

---

١ - التفسخ البدني الذي يدعي سويفت بملاحظته ربما كان واقعاً في ذلك العهد، وينسبه إلى مرض السيفليس (الزهري) الذي كان جديداً في أوروبا والذي ربما كان أخبث مما هو عليه الآن. الأشربة الكحولية المقطرة أيضاً كانت بدعة جديدة في القرن السابع عشر، وأدت إلى زيادة هائلة في الثمل. (ملاحظة المؤلف)

بداية، لدى سويفت لحظات يكون فيها "بنّاء" بل و"تقدمياً" حتى. يكون التضارب وعدم الانسجام أحياناً علامة على الحيوية في كتب اليوتوبيا، فسويفت يقحم بين الحين والآخر كلمة مديح في مقطع ينبغي أن يكون هجائياً صرفاً، وهكذا كأفكاره عن تربية الشباب نسبت إلى أهل ليليبوت الذين لديهم ولدى الهوينم الآراء نفسها حول هذا الموضوع. ويمتلك أهالي ليليبوت أيضاً مؤسسات اجتماعية وقانونية متنوعة (فمثلاً توجد هناك رواتب تقاعدية لكبار السن والناس يكافؤون على تقيدهم بالقانون ويعاقبون على انتهاكه) أحب سويفت أن يراها منتشرة بشكل كبير في بلاده. يتذكر سويفت هدفه الهجائي في وسط المقطع فيضيف "فيما يخص هذه والقوانين التالية، أرغب أن أُفهم بأنني أقصد المؤسسات الأصيلة وليس أشكال الفساد المخزي جداً الذي أسقطت طبيعة الإنسان المنحطة هؤلاء الناس فيه". لكن بما أن ليليبوت تمثل إنكلترا كما يُفترض بها، والقوانين التي يتكلم عنها لم يكن لها نظير أبداً في إنكلترا، فمن الواضح إذاً أن الباعث إلى توجيه تلميحات بناءة كان كثيراً جداً عليه. لكن مساهمة سويفت الكبرى في الفكر السياسي بالمعنى الضيق للكلمة، هي هجومه وخصوصاً في القسم الثالث، على ما يسمى اليوم بالنظام الشمولي، فقد كانت لديه بصيرة واضحة استثنائية لـ"لدولة الأمنية" بمطارداتها اللانهائية للهرطقات ومحاكمات الخيانة العظمى التي كرست كلها لتحييد السخط الشعبي بتبديله إلى هيستريا الحرب. ويجب أن يتذكر المرء أن سويفت هنا يستنتج الكل من الجزء الصغير تماماً، فالحكومات الضعيفة في عصره، لم تعطه أي توضيحات جاهزة مسبقاً. فمثلاً هناك البروفيسور في مدرسة العارضين السياسيين الذي "أطلعني على ورقة كبيرة من التعليمات لاكتشاف المكائد والمؤامرات" والذي زعم أن المرء يستطيع اكتشاف أفكار الناس الخفية بتفحص برازهم:

لأن البشر غير جديين ومهتمين ومصممين حين يكونون في المرحاض، اكتشف البروفيسور من خلال تجارب مكررة: أنهم في مثل هذه الأوضاع حين فكر بالطريقة الأمثل لقتل الملك، كان لون غائطه يميل إلى اللون الأخضر، وكان مختلفا تماماً حين فكر في إثارة عصيان مسلح أو إحراق العاصمة.

قيل أن المحاكمات الحكومية الأخيرة هي التي أوحت لسويفت بالبروفيسور ونظريته، فقد وجدت بعض الرسائل في مرحاض أحد الأشخاص التي وضعت كدليل. بعد ذلك وبنفس الفصل، يبدو لنا أننا في وسط التطهيرات الروسية:

في مملكة تريبنيا التي يسميها السكان الأصليون لانغدون.... يتكون الجزء الأعظم من الناس بشكل ما من نمامين وشهود ومخبرين ومتهمين ومدعين وأدلة ومحلفين.... كان أول ما اتفقوا عليه وأقروه، من هم الأشخاص المشتبه بهم الذين يجب اتهامهم في مكيدة: ثم تؤخذ عناية فعالة لحماية رسائلهم وأوراقهم ووضع المالكين في الأصفاد. هذه الأوراق تسلم إلى هيئة الفنانين البارعة جداً في اكتشاف المعاني الغامضة للكلمات والمقاطع اللفظية والحروف...... إن فشلت هذه الوسيلة، فلديهم وسيلتان أكثر فعالية غيرها يسميها المتعلمون منهم (أكروستيكس) و(أناغرامز). في الوسيلة الأولى يستطيعون ترجمة كل الحروف الاستهلالية إلى معانٍ سياسية: وهكذا: حرف النون يرمز إلى مكيدة، وحرف الباء إلى فوج من الخيالة، وحرف اللام إلى أسطول في البحر. في الوسيلة الثانية يغيرون مواضع حروف الأبجدية في أي ورقة مشبوهة، وبذلك يستطيعون كشف أعمق نوايا الطرف المستاء. لذلك لو قلت في رسالة لصديق مثلاً إن أخونا توم أصيب بالبواسير، سيكتشف فاكّ الشيفرة البارع أن نفس الأحرف التي شكلت هذه الجملة، يمكن أن تحلل إلى الكلمات التالية: قاوم – المكيدة جُلبت إلى الوطن – البرج.

كما اخترع أساتذة آخرون في نفس المدرسة لغات مبسطة، وألفوا كتباً بالآلات، وعلموا تلامذتهم عن طريق نقش الدرس على رقاقة مدورة من البسكويت، وجعلوا تلاميذهم يبلعونها، وعزموا على إلغاء الفردانية تماماً، وذلك باستئصال جزء من دماغ شخص وزرعها في رأس شخص آخر. هناك شيء مألوف بشكل يثير الاستغراب في جو هذه الفصول مخلوط بخداع كبير، هناك إدراك أن أحد أهداف الحكم الشمولي الاستبدادي، ليس التأكد من أن الناس لا يفكرون بالأفكار الصحيحة فحسب، بل في جعلهم أقل وعياً. وبعد ذلك، يصف لنا سويفت القائد مرة أخرى الذي يجب أن يوجد عادة ليحكم قبيلة الياهو و"المفضل" الذي يعمل في البداية كفاعل أعمال قذرة، ثم لاحقاً ككبش الفداء الذي يناسب جيداً وبشكل لافت عصرنا. لكن أليس حرياً بنا أن تستنتج من كل هذا بأن سويفت كان أولاً وقبل كل شيء خصماً للاستبداد ونصيراً للفكر الحر؟ كلا: إن آراءه الخاصة بالقدر الذي يستطيع المرء إدراكها ليست ليبرالية بشكل واضح المعالم. لا شك أنه يكره اللوردات والملوك والجنرالات وسيدات الموضة والأوسمة والألقاب والمجاملات الفارغة عموماً، لكن يبدو أنه لم يحسن الظن بالعوام من الناس، ويعتبرهم أفضل من حكامهم، أو أن يؤيد ويدعم مساواة اجتماعية متزايدة أو يتحمس للمؤسسات النيابية التمثيلية. إن الهونيم منظمين في نظام طبقي طائفي ذي

طبيعة عنصرية: إن ألوان الخيول التي تقوم بالعمل العبودي الوضيع تختلف عن ألوان سادتها، وليس هناك تزواج وتناسل معهم، كما أن النظام التعليمي الذي أعجب به سويفت في ليليبوت يسلم جدلاً بامتيازات طبقية موروثة. فأطفال الطبقات الفقيرة لا يرتادون المدارس، لأن "مهمتهم كانت في حرث الأرض وفلاحتها..... ولذلك فإن تعليمهم قضية ذات أهمية قليلة بالنسبة إلى الشعب". ولا يبدو كذلك أنه كان مؤيداً قوياً لحرية الكلام والصحافة، رغم التسامح التي نعمت به كتاباته. يندهش ملك بروبدينغدانغ من كثرة الطوائف الدينية والسياسية وتنوعها في إنكلترا، ويعتبر أن هؤلاء الذين يعتنقون "آراء ضارة بالشعب" (في السياق هذا يعني الآراء المنشقة لا غير) لا يجبرون على تبديلها فقط، وإنما يجبرون على كتمها أيضاً: "بما أن فرض الأول من قبل أي حكومة استبداد وظلم، فإن عدم فرض الثاني بالقوة ضعف". هناك إشارة أدق إلى موقف سويفت الشخصي في الطريقة التي يغادر فيها غاليفار أرض الهونيم. على نحو متقطع على الأقل كان سويفت فوضوياً (أناركياً). والقسم الرابع من رحلات غاليفار، هو صورة عن مجتمع فوضوي لا يحكمه القانون بالمعنى العادي، وإنما بإملاءات "العقل" المقبولة طوعياً من قبل الجميع. تحض الجمعية العامة للهومنيم سيد ومالك غاليفار على التخلص منه، ويمارس جيرانه ضغطاً عليه ليذعن. ويعطي مبررين. الأول أن وجود هذا الياهو غير العادي قد يزعزع بقية القبيلة، والآخر أن العلاقة الودية بين واحد من الهونيم وواحد من الياهو "ليست مقبولة للعقل أو الطبيعة أو شيء لم يسمعوا به قط". إن سيد غاليفار غير راغب في الإذعان إلى حد ما، لكن لا يمكن له أو لغيره تجاهل "الحض" (الهونيم كما أخبرنا لا يُجبر أبداً على فعل أي شيء وإنما يسمح (بتحذيره وحضه ونصحه)). وهذا يوضح جيداً جداً النزعة الاستبدادية التي تظهر في رؤية الفوضوي أو السلمي للمجتمع. في مجتمع ليس للقانون وجود فيه ولا للقسر نظرياً، يكون الناظم الوحيد للسلوك هو الرأي العام. لكن الرأي العام بسبب الإلحاح الهائل والحث على الامتثال والتطابق في حيوانات قطيعية أقل تسامحاً من أي نظام قانوني. حين تُحكم الكائنات البشرية بـ"أنت لن" يستطيع الفرد ممارسة مقدار محدد من الغرابة والاختلاف، أما حين يُحكمون بواسطة "الحب" أو "العقل" كما هو مفترض، يكون الفرد تحت ضغط مستمر لحمله على التصرف والتفكير بنفس الطريقة التي يتصرف بها أي شخص آخر. فالهونيم كما أُخبرنا يتفقون بالإجماع تقريباً على كل المواضيع. المسألة الوحيدة التي يناقشونها دائماً هي كيف يتعاملون مع

الياهو. غير ذلك ليس هناك أي مجال للخلاف بينهم، لأن الحقيقة دائماً إما أنها واضحة في حد ذاتها، أو أنها غير قابلة للاكتشاف وغير مهمة. ليس لديهم على ما يبدو كلمة بمعنى "رأي" في لغتهم، وفي محادثاتهم لا يوجد أي "فارق واختلاف في المشاعر والعواطف". هم وصلوا في الحقيقة إلى أعلى مرحلة من التنظيم الشمولي الاستبدادي، المرحلة التي يصبح فيها الامتثال والتطابق عاماً، لذلك ليس هناك حاجة لقوة الشرطة. يستحسن سويفت هذا النوع من الشيء، لأن الفضول والطيبة ليسا من بين مواهبه الكثيرة. لقد بدا له الاختلاف في الرأي مجرد ضلال دائماً. ويقول إن "العقل" عند الهونيم "ليس نقطة تحتمل الجدال كما عندنا؛ حيث يستطيع الناس التجادل بشكل مقبول ومعقول ظاهرياً في كلا جانبي المشكلة؛ لكنه يفاجئك باقتناع فوري لا تخالطه أو تشوهه أو تحجبه عاطفة أو مصلحة". بعبارة أخرى، نحن نعرف كل شيء مسبقاً، لهذا لماذا التسامح مع الآراء المنشقة؟ إن المجتمع الاستبدادي الشمولي للهونيم الذي لا يمكن أن تكون فيه حرية أو تطور، ناتج عن هذا بشكل طبيعي.

يصح لنا أن نعتبر سويفت ثائراً ومهاجماً للمؤسسات القديمة، إلا في مسائل ثانوية معينة فقط. ففي إصراره على وجوب تلقي النساء التعليم نفسه كالرجال مثلاً، لا يمكن تصنيفه بـ"اليساري". هو توري (محافظ) فوضوي، يزدري السلطة، لكنه لا يؤمن بالحرية ويحافظ على وجهة النظر الأرستقراطية، ورغم ذلك يرى بوضوح أن الأرستقراطية الموجودة منحطة وخسيسة. عندما يتفوه سويفت بإحدى خطبه اللاذعة التي يتميز بها ضد الأغنياء والمتنفذين، يجب على المرء ربما كما قلت آنفاً، أن يمحي شيئاً ما من أجل حقيقة أنه هو نفسه كان ينتمي إلى الحزب الأقل نجاحاً وكان محبطاً شخصياً. إن "المعارضة" لأسباب واضحة أكثر تطرفاً من "الحكم" دائماً.[1] لكن الشيء الأكثر جوهرية في سويفت، هو عجزه عن الاعتقاد بأن الحياة –

---

١ – في نهاية الكتاب، كعينات أنموذجية عن الحماقة البشرية والنزعة الشريرة، يسمي سويفت "محامياً بالنشال وعقيداً بالأحمق ولورداً بالمقامر وسياسياً بسيد العاهرات وطبيباً بالعلامة أو الأمارة والمدعي العام بالخائن وهلم جرا". يرى المرء هنا العنف غير المسؤول للعجز وتخلط القائمة معاً هؤلاء الذين ينتهكون قواعد التقاليد والأعراف وهؤلاء الذين يحافظون عليها. فمثلاً لو أنك أدنت عقيداً بشكل آلي، فعلى أي أساس تدين خائناً؟ أو مرة أخرى إن أردت أن تقمع النشالين، يجب أن يكون لديك قوانين، وبالتالي أن يكون لديك محامون بالضرورة. إن المقطع الختامي بأكمله الذي فيه الكره حقيقي وصادق جداً ومبرره المقدم غير وافٍ وغير ملائم، ليس مقنعاً بشكل ما. يشعر المرء أن الحقد الشخصي يفعل فعله. (ملاحظة المؤلف)

الحياة العادية على الأرض الصلبة وليس النسخة المعقلنة والمعطرة عنها - يمكن أن تُجعل جديرة بالعيش. طبعاً، ليس هناك شخص عاقل الآن يزعم بأن السعادة حالة عادية بين الكائنات البشرية البالغة؛ لكن ربما في الإمكان جعلها عادية. وهذه هي القضية التي يدور حولها كل الجدل السياسي الجاد حقيقة. يشترك سويفت في أشياء كثيرة - أكثر مما لوحظ - مع تولستوي، جاحد آخر في إمكانية السعادة. تجد لدى كلا الرجلين نفس وجهة النظر، تغطي المسحة الاستبدادية في عقله. في كليهما تجد نفس العداء للعلم، ونفس التململ من الخصوم، ونفس العجز عن رؤية أهمية أي قضية لا تهمهما شخصياً. وفي كلا الحالتين تجد نوعاً من الرعب من العملية الحقيقة والفعلية للحياة، لكنها في حالة تولستوي، وصلت متأخرة ومختلفة. لم تكن التعاسة الجنسية عند كلا الرجلين من نفس النوع، لكنهما كانا يشتركان بوجود اشمئزاز صادق اختلط بافتتان مرضي. كان تولستوي فاسقاً تم تقويمه وإصلاحه، وانتهى به المطاف إلى التبشير بالعزوبية التامة، لكنه واصل ممارسة النقيض في أواخر شيخوخته. أما سويفت فكان عاجزاً جنسياً كما يفترض، ولديه رعب مبالغ فيه من الروث الإنساني: كان يفكر فيه باستمرار أيضاً كما يظهر بجلاء في كل أعماله. من غير المحتمل لمثل هؤلاء الناس أن يستمتعوا ولو بقدر قليل من السعادة التي تحل على أغلب الكائنات البشرية، ولبواعث واضحة، فمن غير المحتمل أن يعترفوا بأن الحياة الأرضية قادرة على التحسن الكبير. إن لامبالاتهما، وبالتالي عدم تحملهما، ناتجان عن نفس المصدر.

سيكون لاشمئزاز سويفت وضغينته وتشاؤميته معنى على خلفية "العالم التالي"، لو أن هذا العالم كان مقدمة استهلالية له. بما أنه لم يظهر أنه يؤمن جديا بأي شيء من هذا، فمن الضروري تشييد فردوس يفترض أن يتواجد على سطح الأرض، لكنه مختلف تماماً عن أي شيء نعرفه، ويستأصل منه كل الذي يستهجنه من أكاذيب وحماقة وتغيير وحماس ومتعة وحب وقذارة. كائنه الأمثل الذي اختاره هو الحصان، لأنه حيوان غائطه ليس كريهاً. الهومينيم بهائم كئيبة - هذا مسلم به عموماً لذلك تلك النقطة لا تستحق الجهد. تستطيع عبقرية سويفت جعلهم معقولين، لكن قد يوجد عندها عدد قليل جداً من القراء لن تثير فيهم هذه البهائم أي شعور أبعد من الكره. وهذا ليس من خيلاء جريح من رؤية حيوانات تُفضل على البشر؛ لأن الهومينيم أكثر شبهاً بالكائنات البشرية من الياهو. ورعب غاليفار من الياهو واعترافه بأنهم

نفس النوع من المخلوقات مثله هو، يحتوي سخفاً منطقياً. هذا الرعب يواجهه فور رؤيته الأولى لهم. يقول "لم أر أبداً في كل رحلاتي حيواناً كريهاً كهذا، ولم أتخيل واحداً بغضته بشكل طبيعي بهذه القوة". لكن الياهو مثيرون للاشمئزاز مقارنة بمن؟ ليس مع الهونيم، لأن غاليفار لم ير الهونيم في هذا الوقت. لا يمكن أن يكون إلا مقارنة بنفسه أي مع الكائن البشري. لكنه يخبرنا لاحقاً أن الياهو كائنات بشرية، ويصبح المجتمع الإنساني لا يحتمل بالنسبة إلى غاليفار، لأن كل البشر يكونون ياهو. في تلك الحالة لماذا لم يتخيل اشمئزازه من البشرية في وقت أبكر؟ في الواقع يقال لنا إن الياهو مختلفون عن البشر بشكل غريب، ومع ذلك هم نفس الشيء. سويفت تجاوز نفسه في غضبه وهو يصرخ برفاقه من المخلوقات "أنتم أقذر مما أنتم عليه!" ومع ذلك من المستحيل أن تتعاطف كثيراً مع الياهو، وليس الهونيم غير جذابين لأنهم يضطهدون الياهو. إنهم غير جذابين لأن "العقل" الذي يحكمهم في الواقع هو رغبة في الموت. إنهم يخلون من الحب والصداقة والفضول والأسى و- باستثناء مشاعرهم تجاه الياهو الذين يشغلون في الواقع في مجتمعهم نفس المكان كما اليهود في ألمانيا النازية - الغضب والكره. "ليس لديهم أي حنان نحو مهورهم وفلائهم، والعناية التي يأخذونها في تربيتهم تنشأ كلياً من إملاءات العقل. هم يثمنون ويقدرون "الصداقة" و"الإحسان"، لكنهما لا تقتصران على أشياء خاصة وإنما شاملة لكل السلالة. وهم يثمنون المحادثة أيضاً، لكن لا توجد اختلافات في الرأي في محادثاتهم و"لا يمر إلا المفيد والمعبر عنه بأقل الكلمات وأبلغها". يطبقون تحكماً صارماً في الولادات، فكل زوجين يخلفان طفلين ثم يمتنعان عن الجماع. وأبلغ زواجاتهم مرتبة لهم من قبل كبارهم على مبادئ تحسين النسل. ولغتهم لا تحتوي على كلمة "حب" بالمعنى الجنسي. حين يموت أحدهم يستمرون كما كانوا قبل ذلك بالضبط دون شعور بالحزن. سيتضح لاحقاً أن هدفهم هو أن يكونوا مثل جثة بأقصى ما يمكن طالما يحتفظون بحياة بدنية. صحيح أن واحدة أو اثنتين من صفاتهم المميزة لا تبدو "معقولة" تماماً في استخدامهم الخاص للكلمة. لهذا يضعون قيمة كبيرة ليس على القوة البدنية فقط وإنما على الرياضة أيضاً، وهم مخلصون للشعر. لكن هذه الاستثناءات قد تبدو أقل اعتباطية مما تبدو. يؤكد سويفت على قوة الهونيم البدنية، ليوضح أنهم لا يمكن أن يُغلبوا من قبل السلالة البشرية البغيضة، بينما تذوقهم للشعر ربما يلعب دوراً بين صفاتهم، لأن الشعر بدا لسويفت نقيضاً مباشراً للعلم من وجهة

نظره والأقل نفعاً من بين كل المهن. في القسم الثالث هو يسمي "التخيل والخيال والإبداع" قدرات مرغوبة كان علماء الرياضيات في لابوتان يفتقدونها تماماً (رغم حبهم للموسيقا). يجب أن يتذكر المرء أن سويفت على الرغم من أنه كان كاتباً ممتازاً للشعر الهزلي، إلا أن نوع الشعر الذي اعتقده نافعاً ربما كان الشعر التعليمي الوعظي. يقول عن شعر الهونيم:

يجب أن يسمح لهم بالتفوق على كل المخلوقات الفانية الأخرى؛ حيث لا يضاهيهم أحد في تشبيهاتهم الصائبة والدقيقة ووصفهم الدقيق والمضبوط في الحقيقة. كما أن أشعارهم تعج كثيراً بهذين الشيئين، وتتضمن عادة إما أفكاراً رفيعة عن الصداقة والإحسان، أو تمجيداً لهؤلاء الذين ظفروا في السباقات والتمارين البدنية الأخرى.

لكن للأسف حتى عبقرية سويفت لم تقدر أن تنتج عينة نستطيع بواسطتها أن نقيم شعر الهونيم، لكن يبدو كما لو أنه مادة فاترة (في مقاطع شعرية ملحمية مؤلفة من بيتين كما يفترض) وليس في صراع جدي مع مبادئ "العقل".

تشتهر السعادة بصعوبة وصفها، ونادراً ما تكون صور مجتمع عادل ومنظم بشكل جيد جذابة أو مقنعة. إن أغلب مبدعي اليوتوبيات "المفضلة" يهتمون بإظهار كيف يمكن للحياة أن تكون لو عاشها الناس بشكل أكمل. يؤيد سويفت رفضاً بسيطاً للحياة، ويدعي مبرراً ذلك أن العقل يتكون في إعاقة وإحباط غرائزك. إن الهونيم مخلوقات بلا تاريخ، يواصلون العيش في تعقل واقتصاد جيلاً بعد جيل، ويحافظون لشعبهم على نفس المستوى بالضبط، ويتفادون كل شغف وغضب، ولا يعانون من أي مرض، ويلاقون الموت بلامبالاة، ويدربون صغارهم على نفس المبادئ – وكل ذلك من أجل ماذا؟ لتستمر نفس العملية إلى الأبد. تغيب كل الأفكار التي ترى أن الحياة هنا والآن تستحق العيش أو يمكن جعلها تستحق ذلك، أو يجب أن يُضحى بها من أجل مستقبل جيد. عالم الهيومينيم الكئيب عن يوتوبيا جيدة بالقدر الذي استطاع سويفت رسمه، مع التسليم أنه لم يؤمن بـ "العالم الآخر" ولم يستطع أن يجد أي رضى وإشباع من نشاطات عادية محددة، لكنه لم يُشد كشيء مرغوب بحد ذاته في الحقيقة، وإنما كمبرر لهجوم آخر على الإنسانية. والهدف كالمعتاد، أن يحط من قدر الإنسان بتذكيره بأنه ضعيف وسخيف، وقبل كل ذلك نتن ورائحته كريهة، والحافز الأساسي على الأرجح نوع من الحسد، حسد الشبح للعيش وللإنسان الذي يعرف أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً من أجل الآخرين الذين –

يخشاهم جداً - ربما يكونون أسعد قليلاً منه. التعبير السياسي لمثل هذه النظرة، يجب أن تكون إما رجعية أو عدمية، لأن الشخص الذي يعتنقها سوف يريد أن يمنع المجتمع من التطور في اتجاه ما يمكن أن يكشف عن زيف تشاؤميته. ويمكن للمرء أن يفعل هذا، إما بنسف كل شيء وتحويله إلى فتات، أو بتفادي التغيير الاجتماعي. لقد نسف سويفت كل شيء وحوله إلى فتات أخيراً بالطريقة الوحيدة التي كانت معقولة وعملية قبل القنبلة الذرية - أي أنه جن - لكن كما حاولت إظهار أن أهدافه السياسية بالمجمل كانت أهدافاً رجعية.

ربما أبدو مما كتبته بأنني ضد سويفت، وأن هدفي أن أفنده وأن أقلل من شأنه حتى. بالمعنى السياسي والأخلاقي أنا ضده بالقدر الذي فهمت فيه هذا الرجل. لكن اللافت تماماً أنه واحد من الكتاب الذين أعجبت بهم دون أدنى تحفظ، وأن رحلات غاليفار بشكل خاص كتاب يستحيل أن أضجر منه. لقد قرأته أول مرة حين كنت في الثامنة من عمري - كان ينقصني يوم واحد عن الثامنة للدقة لأنني سرقت النسخة التي كانت ستقدم لي في اليوم التالي بمناسبة عيد ميلادي الثامن وقرأتها - وإنني بالتأكيد قرأتها أكثر من نصف دزينة من المرات على الأقل منذ ذلك الحين. إن سحره يبدو لا ينضب. ولو كان علي أن أرتب ستة كتب لتبقى محفوظة حين تخرب كل الكتب الأخرى، لكنت وضعت رحلات غاليفار بينها بالتأكيد، وهذا يطرح السؤال: ما هي العلاقة بين الاتفاق مع آراء الكاتب والاستمتاع بعمله؟

إن كان المرء قادراً على الانفصال الفكري، فإنه يستطيع أن يدرك قيمة في كاتب يختلف معه بعمق، لكن الاستمتاع مسألة مختلفة. بافتراض وجود شيء كفن جيد أو رديء، عندئذ يجب على الجودة أو الرداءة أن تكمن في العمل الفني نفسه - مستقلة ليس عن الملاحظ فقط وإنما مستقلة عن مزاج الملاحظ في الحقيقة. ليس صحيحاً أن تكون قصيدة ما جيدة في يوم الاثنين ورديئة في يوم الثلاثاء، لكن إن حكم المرء على قصيدة من خلال الإعجاب الذي تثيره في نفسه يمكن عندئذ أن يكون ذلك صحيحاً بالتأكيد، لأن الإعجاب أو الاستمتاع حالة ذاتية لا يمكن السيطرة عليها. فحتى الشخص الأكثر ثقافة، لا تكون لديه مشاعر جمالية مهما كانت في قدر كبير من حياته الواعية، كما أن القدرة على امتلاك مشاعر جمالية تتدمر بسهولة. حين تكون خائفاً أو جائعاً أو تعاني من ألم في الأسنان أو دوار البحر. الملك لير من وجهة نظرك ليس أفضل من بيتر بان. يمكنك أن تعرف الإحساس الفكري بالعمل الأفضل، لكن ذلك

مجرد واقعة تتذكرها: أنت لن تشعر بقيمة الملك لير حتى تعود إلى حالتك السوية العادية، والحكم الجمالي يمكن أن يكون فاسداً وكارثياً بنفس الوقت - كارثياً أكثر لأن السبب أقل من أن يُميز بسهولة - بسبب خلاف سياسي أو أخلاقي. إن أغضبك كتاب أو جرحك أو أرعبك، حينئذ لن تستمتع به مهما كانت قيمته. إن بدا لك كتاب ما أنه خبيث حقيقة وربما يؤثر على أناس آخرين في طريقة غير مرغوبة، إذاً أنت تنشئ نظرية جمالية تبين فيها أن هذا الكتاب يخلو من أية قيمة. يتألف النقد الأدبي المعاصر إلى حد كبير من هذا النوع من المراوغة والتنقل بين مجموعتين من المعايير ويمكن للعملية المعاكسة أن تحدث أيضاً: يستطيع الاستمتاع قهر الاستهجان والاستنكار حتى لو أدرك بشكل واضح أنه يستمتع بشيء ضار. إن سويفت الذي نظرته إلى العالم غير مقبولة بشكل غريب جداً ومع ذلك هو الكاتب المحبوب إلى أبعد حد، مثال جيد عن هذا. لماذا لا نعترض على تسميتنا بالياهو، رغم أننا مقتنعون بقوة بأننا لسنا من الياهو.

ليس كافياً أن نعطي الجواب المعتاد بأن سويفت كان مخطئاً طبعاً وفي الحقيقة مجنوناً، لكنه كان "كاتباً جيداً". صحيح أن النوعية الأدبية للكتاب يمكن إلى حد ما فصلها عن موضوعه الرئيسي. يتمتع بعض الناس بموهبة فطرية في استخدام الكلمات مثلما لدى بعض الناس "عين جيدة" في الألعاب بشكل طبيعي. إنها أساساً مسألة توقيت ومعرفة غريزية لحجم التأكيد المستخدم. كمثال في المتناول، انظر إلى المقطع الذي اقتبسته آنفاً الذي يبدأ "في مملكة تريبنيا المسماة من قبل السكان الأصليين لانغدون". فهو يستمد الكثير من قوته من الجملة الأخيرة: "وهذه هي طريقة صنع الجناس". هذه الجملة بالتحديد غير ضرورية، لأننا رأينا مسبقاً الجناس، فككنا لغزه، لكن التكرار الجدي الساخر الذي يبدو المرء فيه أنه يسمع صوت سويفت يتفوه بالكلمات، يؤكد بلاهة النشاطات الموصوفة مثل ضربة المسمار الخفيفة الأخيرة. لكن ليس كل قوة نثر سويفت وبساطته ولا الجهد التخيلي الهائل الذي لم يخلق عالماً واحداً فقط، وإنما سلسلة من العوالم المستحيلة معقولة وقابلة للتصديق أكثر من غالبية كتب التاريخ - ولا أي من هذا سيمكننا من الاستمتاع بسويفت لو كانت نظرته إلى العالم جارحة ومروعة في الواقع. بالتأكيد إن ملايين الأشخاص في بلدان كثيرة من العالم قد استمتعوا برحلات غاليفار، في الوقت الذي رأوا وفهموا مضامينه المعادية للإنسانية: وحتى الطفل الذي يقبل

بالقسم الأول والثاني كقصة بسيطة، يتولد في نفسه إحساس بالسخافة ومجافاة العقل من التفكير في كائنات بشرية طول أحدها ست بوصات. التفسير يجب أن يكون أن وجهة نظر سويفت العالمية ليست زائفة في المجمل - أو ربما نكون أدق في القول - ليست زائفة دائماً. إن سويفت كاتب سقيم، فهو يظل في مزاج كئيب دائماً يكون متقطعاً لدى أغلب الناس، أو بالأحرى مثل شخص يعاني من اليرقان أو من مضاعفات الإنفلونزا، ويجب عليه أن يمتلك الطاقة لكتابة الكتب. لكن كلنا نعرف ذلك المزاج ويوجد شيء فينا يستجيب للتعبير عنه. خذ مثلاً واحداً من أكثر أعماله تميزاً **غرفة ملابس السيدة**: يمكن للمرء إضافة القصيدة القريبة منها نزولاً **عند طلب حورية صغيرة جميلة في السرير**. أيهما أصدق: وجهة النظر المعبر عنها في هاتين القصيدتين، أم وجهة النظر المُضمنة في عبارة بليك "الأنثى العارية شكل إنساني مقدس"؟ لا شك أن بليك أقرب إلى الحقيقة، ولكن من يستطيع ألا يحس بنوع من المتعة في رؤية ذلك الخداع والرقة الأنثوية التي تتفجر مرة واحدة؟ سويفت يزيف صورته عن العالم برفضه رؤية أي شيء في الحياة الإنسانية سوى القذارة والحماقة والشر، لكن الجزء الذي يزيله ويفصله عن الكل موجود، وهو شيء نعرف عنه كلنا بالرغم من إحجامنا عن ذكره. جزء من عقولنا - في الشخص السوي هو الجزء المهيمن - يعتقد أن الإنسان حيوان نبيل وأن الحياة جديرة بالعيش: لكن هناك أيضاً نوعاً من النفس الداخلية التي تقف مشدوهة على الأقل من رعب الوجود. في أغرب طريقة تترابط المتعة والاشمئزاز معاً. الجسد البشري جميل ولكنه منفر ومضحك أيضاً، وهذه حقيقة يمكن إثباتها في أية بركة للسباحة. الأعضاء الجنسية مواضيع شهوة وبغض أيضاً إلى حد كبير، لذلك تستخدم أسماؤها في لغات كثيرة إن لم يكن في كلها ككلمات سباب. اللحم لذيذ، لكن محل الجزار يجعل المرء يشعر بالقرف، وكل طعامنا في الحقيقة ينشأ أساساً من الروث والأجساد الميتة، الشيئان الاثنان من كل الأشياء الأخرى الأشد فظاعة بالنسبة إلينا. الطفل بعد أن يجتاز المرحلة الطفولية ويظل ينظر إلى العالم بعينين جديدتين يحركه الرعب بقدر ما يحركه التعجب - الرعب من المخاط والبصاق ومن براز الكلاب على الرصيف والضفدع الميت المملوء باليرقات ورائحة العرق الكريهة للكبار، وبشاعة الرجال الكبار في السن برؤوسهم الصلعاء وأنوفهم المنتفخة البصلية. في عزفه اللانهائي على المرض والقذارة والتشوه، لا يبتدع سويفت أي شي في الواقع وإنما يحذف شيئاً

ما فقط. سلوك إنساني، أيضاً، خصوصاً في السياسة كما يصفه هو، رغم احتوائه على عوامل أخرى أكثر أهمية يرفض الاعتراف بها. بقدر ما نستطيع أن نرى الرعب والألم كلاهما ضروريان لاستمرار الحياة على هذا الكوكب، ولذلك مباح للمتشائمين مثل سويفت أن يقول:"إن كان يجب على الرعب والألم أن يكونا معنا دائماً، فكيف يمكن للحياة أن تتحسن بشكل هام؟" إن موقفه متأثر بالموقف المسيحي ناقص الرشوة بـ"العالم الآخر" - الذي على الأرجح له سيطرة على عقول المؤمنين أقل من الاقتناع بأن العالم وادٍ من الدموع وأن القبر مكان للراحة. أنا متأكد بأنه موقف خاطئ، وواحد يمكن أن يكون له تأثيرات ضارة على سلوكنا،؛ لكن شيئاً فينا يستجيب له، كما يستجيب إلى الكلمات الكئيبة في مراسم الدفن والرائحة الحلوة للجثث في كنيسة ريفية.

لقد أثبت مراراً الناس الذين يعترفون بأهمية الموضوع الأساسي على الأقل، أن الكتاب لا يمكن أن يكون"جيداً" إن عبر عن وجهة نظر حياتية زائفة بشكل صريح، وأُخبرنا في عصرنا مثلاً أن أي كتاب له قيمة أدبية أصيلة سيكون "تقدمياً" في نزعته. هذا يتجاهل حقيقة وجود صراع مماثل محتدم بين التقدم والرجعية عبر التاريخ، وأن أفضل الكتب في أي عصر كتبت دائماً من وجهات نظر مختلفة كثيرة قد تكون إحداها أكثر زيفاً من الأخريات. بقدر ما يكون الكاتب داعية ومروجاً، يكثر سؤال المرء عنه إن كان يؤمن بصدق فيما يقوله وأن قوله ليس شيئاً سخيفاً متوهجاً. في العصر الحالي مثلاً، يمكن للمرء أن يتصور كتاباً جيداً كتبه كاثوليكي أو شيوعي أو فاشي أو سلمي أو فوضوي وربما ليبرالي تقليدي أو محافظ عادي، وفي المقابل لا يستطيع المرء أن يتصور كتاباً جيداً كتبه مستحضر أرواح أو واحد من البوشمان أو عضو في الكوكلكسكلان. وجهات النظر التي يعتنقها الكاتب يجب أن تكون منسجمة مع سلامة العقل بالمعنى الطبي ومع القدرة على التفكير المتواصل: أبعد من ذلك نطلب منه الموهبة التي ربما تكون اسماً آخر للاقتناع. لم يمتلك سويفت الحكمة العادية، لكنه امتلك كثافة رهيبة من الرؤية، قادرة على انتقاء حقيقة مخفية منفردة ثم تضخيمها وتشويهها. تحملية رحلات غاليفار واستمراره، تثبت أن النظرة إلى العالم التي تنجح في اختبار السلامة العقلية كافية لإنتاج عمل فني عظيم، إذا كانت قوة الإيمان وراءها.

الشعر والميكروفون

منذ سنة تقريباً انشغلت وآخرون في بث برامج أدبية إلى الهند، ومن بين الأشياء الأخرى التي بثثناها، كمية جيدة من الشعر لكتاب إنكليز معاصرين وشبه ومعاصرين، من أمثال إيليوت وهربرت ريد وأودين وسبندر وديلان توماس وهنري تريسي وأليكس كومفورت وروبرت بريدجز وإيدموند بلندين ودي إتش لورانس. كلما توفر لنا الوقت، كنا نبث قصيدة للشخص الذي كتبها. لماذا أُنشأت هذه البرامج الخاصة (الحركة التفافية الصغيرة والنائية في الحرب الإذاعية) ليس هناك حاجة لتفسيره هنا، لكن يجب أن أضيف حقيقة أننا كنا نبث لجمهور هندي أملى علينا تقنيتنا إلى حد ما. النقطة الجوهرية أن بثنا الأدبي استهدف طلاب الجامعة الهنود، وهم جمهور صغير وعدائي ولا يقترب من أي شيء يمكن وصفه دعاية بريطانية. كان معروفاً مسبقاً بأننا لا نستطيع أن نأمل بأكثر من بضعة آلاف من المستمعين في أحسن الأحوال، وهذا يعطينا العذر لنكون بمستوى "ثقافي رفيع" أعلى مما هو ممكن على الهواء عموماً.

إن كنت تبث شعراً لأناس يعرفون لغتك لكنهم لا يشاركونك الخلفية الثقافية نفسها، فلا مفر لك من مقدار محدد من التعليق والشرح. وكانت الصيغة التي اتبعناها عادة، أن نبث ما يُفهم بأنه مجلة أدبية شهرية. كان أعضاء هيئة التحرير يجلسون في مكاتبهم كما يُفترض، يناقشون ما سيضعونه في العدد القادم. يقترح أحدهم قصيدة، ويقترح آخر قصيدة أخرى، ويدور هناك نقاش مقتضب، ثم تأتي القصيدة نفسها لتقرأ بأصوات مختلفة ويُفضل من قبل مؤلفها. هذه القصيدة تستدعي قصيدة أخرى بشكل طبيعي، وهكذا يتواصل البرنامج مع نصف دقيقة من النقاش بين أي مادتين عادة. بدا أن ستة أصوات لبرنامج مدته نصف ساعة هو العدد الأمثل. إن برنامج من هذا النوع كان بلا شكل نوعاً ما بالضرورة، لكن يمكن أن يُعطى مظهراً محدداً من الوحدة والانسجام بجعله يدور حول موضوع مركزي واحد. فمثلاً كُرّس عدد واحد من مجلتنا التخيلية لموضوع الحرب، وشمل قصيدتين للشاعر إيدوموند بلندين وقصيدة أودين "سبتمبر/ أيلول ١٩٤١" ومقتطفات من قصيدة طويلة للشاعر جي

إس فريزر "رسالة إلى آني ريدلر" وقصيدة بايرون "جزر الإغريق" ومقتطف من تي أي لورانس "ثورة في الصحراء". هذه المواد الست مع الحجج التي سبقتها وتلتها، غطت بشكل معقول المواقف المحتملة من الحرب. استغرقت القصائد ومقتطفات النثر حوالي عشرين دقيقة من البث، واستغرقت الحجج حوالي ثماني دقائق.

قد تبدو هذه الصيغة سخيفة ومهينة، لكن حسنتها أن عنصر التعليم المحض، موضوع الكتاب المدرسي الرئيسي، الذي يتعذر تجنبه إن كان المرء سيبث شعراً جاداً و"صعباً" أحياناً، يصبح أقل تنفيراً حين يظهر كنقاش غير رسمي. يستطيع هؤلاء المتكلمون المتنوعون الستة ظاهرياً أن يقولوا لبعضهم البعض ما يقولونه للجمهور في الحقيقة، وهذه المقاربة تعطي أيضاً سياقاً للقصيدة يفتقر إليه الشعر من وجهة نظر الرجل العادي. لكن هناك أساليب أخرى طبعاً. إحدى الطرق التي استخدمناها، أننا كنا نضع القصيدة في موسيقى، ونعلن أننا سنبث القصيدة الفلانية بعد بضع دقائق، ثم تُشغل الموسيقى لمدة دقيقة واحدة، ثم تتلاشى في القصيدة المختارة التي تلي الموسيقى، دون ذكر عنوانها أو ملاحظة حولها، ثم تخبو الموسيقى ثانية، وتشغل لدقيقة أخرى أو اثنتين – يستغرق الأمر برمته خمس دقائق. من الضروري اختيار الموسيقى المناسبة، لكن لا ضرورة للقول إن الغرض الحقيقي من الموسيقى هو عزل القصيدة عن بقية البرنامج. وبهذه الطريقة يمكنك تقديم قصيدة (سونيتا) لشكسبير مثلاً ضمن ثلاث دقائق من نشرة إخبارية من دون تنافر فاضح بالنسبة لمسمعي على الأقل.

هذه البرامج التي أتكلم عنها، ليس لها قيمة كبيرة بحد ذاتها، لكنني ذكرتها بسبب الأفكار التي تثيرها في نفسي وفي بعض النفوس الأخرى، حول إمكانيات الراديو كوسيلة لتبسيط الشعر وجعله مفهوماً على صعيد جماهيري. لقد فوجئت مبكراً بحقيقة أن بث قصيدة بواسطة الشخص الذي كتبها لا يؤثر على جمهور المستمعين فقط، وإنما على الشاعر نفسه أيضاً. يجب على المرء أن يتذكر أن ما تم فعله في طريقة بث الشعر في إنكلترا قليل جداً، وأن كثيراً من الناس الذين يكتبون الشعر لم يفكروا أبداً في قراءته بشكل جهري. إن وضع الشاعر أمام ميكرفون وخصوصاً إن حدث ذلك بشكل منتظم ومتكرر، فإنه يُجلبه إلى علاقة جديدة مع عمله الأدبي لم تكن ممكنة إلا في زمننا وبلادنا. من العادي في الأزمنة الحديثة – في المائتي سنة الأخيرة مثلاً – أن يصل الشعر إلى علاقة أقل وأقل بالموسيقى والكلمة المحكية. إنه بحاجة

للطبع لكي يبقى بأي شكل. لم يعد متوقعاً من الشاعر أن يعرف كيف يغني أو حتى كيف يلقي قصيدته أكثر مما هو متوقع من المهندس المعماري كيف يجصص سقفاً. توقفت كتابة الشعر الغنائي والبياني تقريباً، وأصبح العداء للشعر مسلما به من جانب الإنسان العادي في أي بلاد يستطيع كل من فيها القراءة. وحيثما وجد هذا الصدع، فإنه يميل إلى الاتساع دائماً، بسبب مفهوم الشعر على أنه شيء مطبوع أولاً وشيء لا تفهمه إلا الأقلية ويشجع على الغموض و"الذكاء". كم عدد الناس الذين لا يشعرون بشكل شبه غريزي بوجود مشكلة في أية قصيدة لا يفهم معناها من نظرة واحدة؟ من غير المحتمل كما يبدو أن تتوقف هذه الميول، إذا لم تصبح قراءة الشعر جهراً أمراً عادياً مرة أخرى، ويصعب أن نرى كيف يمكن إحداث هذا إلا من خلال الراديو كوسيط. لكن ينبغي ملاحظة الفائدة المميزة للراديو هنا، المتمثلة في قوته في انتقاء جمهور المستمعين الصحيح، والتخلص من رهبة خشبة المسرح وإرباكها.

إن جمهورك افتراضي في البث الإذاعي، لكنه جمهور الشخص الواحد. ربما يستمع الملايين للبث، لكن كل واحد منهم يصغي لوحده أو كفرد من جماعة صغيرة، ولدى كل واحد منهم (أو يجب ذلك) الشعور بأنك تتكلم إليه على انفراد. الأكثر من هذا، من المعقول أن تفترض أن جمهورك متعاطف أو مهتم على الأقل، لأن أي واحد يضجر يستطيع إطفاءك فوراً بتدوير مقبض. لكن ليس لهؤلاء المستمعين أية سلطة عليك رغم التسليم بتعاطفهم معك. وهنا تماماً يختلف البث الإذاعي عن الخطبة أو المحاضرة. على المنبر، كما يعرف كل من اعتاد على مخاطبة الجمهور، من المستحيل تقريباً ألا تأخذ نغمتك ونبرتك من الحضور، ويتضح دائماً في غضون بضع دقائق ما يستجيبون له وما لا يستجيبون له. وعملياً أنت مجبر تقريباً للتكلم لمصلحة من تعتبره أغبى شخص حاضر، وتداهن نفسك بواسطة الضجيج المعروف بـ "الشخصية". إن لم تفعل هكذا، تكون النتيجة دائماً جواً من الارتباك الفاتر؛ فهناك دائماً بعض من المستمعين الذين يصيبهم الضجر أو المعادين علناً الذين لا يستطيعون إزاحة أنفسهم بمجرد تدوير مقبض، وهي نفس الصعوبة أساساً في المسرح - حيث لا يمكن انتقاء الحضور - التي تجعل الحصول على عرض مسرحي محترم لشكسبير في إنكلترا أمراً مستحيلاً. على الهواء لا توجد هكذا أشياء. يشعر الشاعر بأنه يخاطب أناساً يعني لهم الشعر شيئاً، وحقيقة أن الشعراء الذين

اعتادوا على البث الإذاعي يستطيعون القراءة في الميكرفون ببراعة لا يرتقون إلى مستواها أمام مستمعين مرئيين قبالتهم. العنصر التخيلي الذي يدخل هنا لا يهم كثيراً. المهم أنه بتلك الطريقة الوحيدة الممكنة الآن، يتم إحضار الشاعر إلى وضع تبدو فيه قراءة الشعر جهراً شيئاً طبيعياً غير مربك، وتبادل عادي بين إنسان وآخر: هذا أيضاً يقوده إلى التفكير في عمله كشيء صحيح وتام، بدلاً من النظر إليه كأنموذج على الورق. وبهذا القدر الكبير تصبح المصالحة بين الشعر والإنسان العادي أقرب، وهي موجودة مسبقاً في نهاية جانب موجات الأثير التي يقف عندها الشاعر، أياً كان الذي يحدث على النهاية الأخرى.

لكن لا يمكن تجاهل ما يحدث في النهاية الأخرى والاستخفاف به. سيُنظر إليّ بأنني أتكلم كما لو كان موضوع الشعر كله مربكاً وبذيئاً تقريباً، وكما لو كان تبسيط الشعر ونشره جماهيرياً مناورة استراتيجية أساساً، مثل تمرير جرعة دواء في حلق طفل أو توطيد تسامح أقلية مضطهدة. لكن لسوء الحظ تلك هي الحالة أو ما يشبهها. ليس هناك أي شك بأن الشعر يقابل بشك وعدم تصديق أكثر من غيره من الفنون في حضارتنا، والفن الوحيد في الحقيقة الذي لا يرى الرجل العادي فيه أية قيمة. لم يبالغ أرنولد بينيت حين قال في البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية كلمة شعر تشتت جمهوراً أسرع مما يفعله خرطوم إطفاء. وكما أشرت أن شرخ من هذا النوع يميل إلى التوسع لمجرد وجوده، فعداء الرجل العادي للشعر يزداد أكثر فأكثر، ويبدو الشاعر متغطرساً وغير مفهوم أكثر فأكثر، إلى أن يتم القبول بالطلاق بين الشعر والثقافة الشعبية كقانون من قوانين الطبيعة، لكنه في الحقيقة لا ينتمي إلا إلى زمننا الخاص بنا وإلى منطقة صغيرة نسبياً من الكرة الأرضية. نحن نعيش في عصر فيه الكائن البشري العادي في البلدان المتحضرة جداً أدنى جمالياً من أحط همجي. يُنظر إلى هذه الحالة من العلاقة على أنها عصية على العلاج بواسطة أي فعل واعٍ، ومن جانب آخر يُتوقع أن تصحح نفسها بنفسها طوعاً حالما يأخذ المجتمع شكلاً أنسب. باختلافات طفيفة، سيخبرك كل من الماركسي والفوضوي والمتدين وبعبارات فضفاضة، بأن هذا صحيح في بلا أدنى شك. القبح الذي نعيش في غماره له أسبابه الروحية والاقتصادية، ولا يجوز تفسيره بمجرد الانحراف عن العرف والتقاليد في موضع ما أو آخر. لكن هذا لا يعني أن التحسن ليس ممكناً ضمن هيكليتنا الحالية، ولا أن التحسن الجمالي ليس قسماً ضرورياً من الخلاص العام للمجتمع.

لذلك يجدر بنا التوقف للتساؤل إن كان بالإمكان حتى الآن إنقاذ الشعر من وضعه الخاص كأكثر فن من بين الفنون كرهاً، وأن نكسب له على الأقل نفس درجة التسامح الموجودة لدى الموسيقى. ولكن يجب على المرء أن يبدأ في السؤال بأية طريقة الشعر غير شعبي ومكروه وإلى أية درجة؟

في ظاهر الأمر، تبدو لاشعبية الشعر كما لو كانت تامة، لكن عند إعادة النظر يجب أن يُقيم الوضع بطريقة مميزة نوعاً ما. بداية لا يزال هناك مقدار كبير من الشعر الشعبي (قصائد بيوت الحضانة..إلخ) المعروفة والمقتبسة عموماً التي تشكل قسماً من خلفية ذهن كل واحد، وهناك حفنة من الأغاني العتيقة والأغاني الشعبية التي لم تفقد شعبيتها أبداً أيضاً، بالإضافة إلى ذلك هناك شعبية أو على الأقل تسامح مع الشعر "رديء الجيد" من النوع الوطني أو الوجداني عموماً. هذا يبدو غير متصل بالموضوع لو لم يكن للشعر "رديء الجيد" كل الصفات التي ظاهرياً تجعل الرجل العادي يكره الشعر الحقيقي. إنه شعر منظوم ومقفى ويقدم عواطف نبيلة ولغة غير عادية بدرجة ملحوظة. لهذا من البديهي تقريباً أن يكون الشعر الرديء أكثر "شاعرية" من الشعر الجيد، وهو حتى لو لم محبوباً بشدة، فإنه محتمل على الأقل. فمثلاً قبل أن أكتب هذا المقال كنت أستمع إلى اثنين من كوميديي البي بي سي يقومان بدورهما العادي قبل أخبار التاسعة. في الدقائق الثلاث الأخيرة أعلن أحدهما فجأة أنه "يريد أن يكون جاداً للحظة واحدة" واستمر في إلقاء قطعة من الهراء الوطني بعنوان "سيد إنكليزي عجوز حساس" تمجيداً لجلالة الملك. الآن ما هو رد فعل المستمعين على هذا الارتداد الفجائي إلى أسوأ نوع من الشعر الملحمي المقفى؟ لا يمكن أن يكون سلبياً بشكل صارخ جداً، أو سيكون هناك مجلد من الرسائل الناقمة التي تطالب البي بي سي بوقف عمل هذا النوع من الشيء. يجب على المرء أن يستنتج أن الجمهور الكبير ليس معادياً بقوة للكلام المنظوم رغم عدائه للشعر. أخيراً لو كُرهت القافية والوزن لنفسيهما، فلن تكون للأغاني أو القصائد الفكاهية القذرة أية شعبية. الشعر مكروه لأنه مترافق مع عدم الوضوح والتباهي الثقافي وشعور عام بأنه عطلة في يوم عمل. اسمه يخلق سلفاً نفس الانطباع السيئ لكلمة "الرب" أو قلادة كلب الخوري. إلى حد ما فإن تبسيط الشعر وجعله شعبياً مسألة تفكيك كبح مكتسب ومسألة جعل الناس يصغون بدلًا من التنزه الآلي برفض آلي. لو أُمكننا تقديم الشعر الحقيقي

للجمهور الكبير بطريقة يبدو فيها عادياً، كقطعة الهراء التي سمعتها للتو التي بدت عادية كما يفترض، فسيُقهر قسم من التحامل ضده.

من الصعب التصديق بأن الشعر يستطيع دائماً أن يكون شعبوياً وجماهيرياً ثانية من دون محاولة مدروسة لتثقيف الذوق الشعبي، تتضمن استراتيجية وذريعة حتى. اقترح تي إس إيليوت مرة أن الشعر وخصوصاً الشعر المسرحي يمكن إعادته إلى وعي الناس العاديين من خلال صالات الموسيقى؛ وكان بوسعه أن يضيف التمثيل والمسرح الإيمائي الذي لم تستكشف إمكانياته الواسعة تماماً على ما يبدو. ربما كُتبت "سويني أغونيستس" وفي الذهن مثل هذه الفكرة، وسيمكن تخيلها في الواقع مثل وظيفة صالة الموسيقي، أو على الأقل مشهداً في عرض مسرحي منوع. لقد اقترحت الراديو كوسيط مشجع أكثر، وأشرت إلى حسناته التقنية من وجهة نظر الشاعر. السبب الذي يبدو فيه مثل هذا الاقتراح متعذراً حين سماعه لأول مرة، هو أن قلة من الناس قادرة على تخيل استخدام الراديو لبث أي شيء غير التوافه. يصغي الناس إلى المادة التي تقطر فعلياً من مكبرات صوت العالم، ويستنتجون أن الراديو لهذا الغرض، وليس لسبب آخر. في الحقيقة كلمة "لاسلكي" تستدعي صورة، إما لحكام مستبدين يهدرون، أو أصوات حلقية لطيفة تعلن أن ثلاث من طائراتنا فشلت في العودة. إن الشعر مثل (الميوزات - ربات الشعر الإغريقية) بسراويل مخططة. لكن رغم ذلك ينبغي ألا نخلط بين قدرات الآلة مع الفائدة التي وضعت من أجلها. البث في حالته هذه، ليس بسبب وجود شيء مبتذل موروث وسخيف ومضلل في جهاز الميكرفون وجهاز الإرسال، وإنما لأن البث الذي يحدث في كل أرجاء العالم الآن يخضع لسيطرة الحكومات أو الشركات الاحتكارية الكبرى المهتمة بصورة فاعلة في الحفاظ على الوضع القائم، وبالتالي منع الشخص العادي من أن يصبح ذكياً جداً. إن شيئاً من نفس النوع يحدث للسينما التي ظهرت لأول مرة كالراديو أثناء المرحلة الاحتكارية للرأسمالية، وتشغيلها مكلف بشكل خيالي. ونجد نفس النزعة في شتى أنواع الفنون. إن قنوات الإنتاج تحت سيطرة البيروقراطيين المتزايدة، الهادفين إلى تدمير الفنان وإخصائه على الأقل. هذه نظرة كئيبة إن لم تُخفف الاستبداد الجاري الآن والذي يجب أن يستمر بلا شك في كل بلدان العالم بعملية أخرى، ليس من السهل التنبؤ بها ولو لمدة قصيرة من خمس سنوات.

أي أن تلك الآلات البيروقراطية الهائلة التي نحن جزء منها، بدأت تعمل وتصدر صريراً بسبب حجمها ونموها المطرد. إن النزعة في الدولة الحديثة تمسح حرية العقل، ولكن بنفس الوقت كل دولة خصوصاً تحت ضغط الحرب، تجد نفسها بحاجة متزايدة إلى طبقة مثقفة تقوم بدور دعائي وترويجي لها. تحتاج الدولة الحديثة مثلاً إلى كتاب الكراريس وفناني الملصقات وإلى مصورين ومذيعين ومحاضرين ومنتجي أفلام وممثلين وملحني أغاني ورسامين ونحاتين عداك عن علماء النفس والاجتماع والكيمياء الحيوية والرياضيات وغيرها. بدأت الحكومة البريطانية الحرب الحالية بقصد صريح وعلني في إبعاد الطبقة المثقفة الأدبية عنها؛ لكنها بعد ثلاث سنوات من الحرب امتصت كل كاتب مهما كان تاريخه السياسي وآراؤه غير المرغوبة في وزاراتها المتعددة أو في البي بي سي، وحتى الذين دخلوا القوات المسلحة، يحتمل لهم أن يجدوا أنفسهم بعد مدة قصيرة في العلاقات العامة أو في وظيفة أدبية أساساً أخرى. لقد امتصت الحكومة كل هؤلاء الناس بلا رغبة كافية، لأنها وجدت نفسها عاجزة عن التقدم بدونهم. كان الهدف، من وجهة النظر الرسمية، وضع كل الدعاية والترويج في أيد "أمينة" مثل ا.ب. هربرت أو إيان هاي: لكن لعدم توفر ما يكفي من أمثالها، اضطرت إلى الانتفاع من الإنتلجنسيا الموجودة، وجرى تعديل نغمة الدعاية الرسمية ومضمونها إلى حد ما وفقاً لذلك.

لم يتخيل كل من اعتاد على كراريس الحكومة ومحاضرات المكتب العسكري للقضايا الراهنة والأفلام الوثائقية والنشرات الإذاعية الموجهة للبلدان المحتلة التي صدرت أثناء السنتين الماضيتين، أن حكامنا سيرعون هذا النوع من الشيء لو كان بإمكانهم تجنب ذلك. لكن كلما كبرت آلة الحكومة، زادت النهايات الرخوة والزوايا المنسية الموجودة فيها. هذا عزاء صغير ربما، لكنه ليس خسيساً، وهذا يعني أن الاستبداد البيروقراطي لا يمكن أن يكتمل أبداً في البلدان التي توجد فيها تقاليد ليبرالية قوية مسبقاً. سوف يسود أصحاب السراويل المخططة، لكن طالما هم مجبرون على الحفاظ على إنتلجنسيا، فستمتلك الإنتلجنسيا مقداراً محدداً من الاستقلال الذاتي. إن احتاجت الحكومات إلى أفلام وثائقية مثلاً، يجب أن توظف أشخاصاً مهتمين بشكل خاص في تقنية السينما، ويجب أن تسمح لهم بالحد الأدنى الضروري من الحرية، وبالتالي ستمتلك الأفلام التي كلها خطأ من وجهة

النظر البيروقراطية نزعة للظهور دائماً، وكذلك الأمر مع الرسم والتصوير وكتابة النص والتحقيق الصحفي والمحاضرات، وكل أنواع الفنون الأخرى وأشباه الفنون، التي تحتاجها الدولة الحديثة المعقدة.

تطبيق هذا على المذياع واضح. في الوقت الحاضر مكبر الصوت هو عدو الكاتب الإبداعي، لكن هذا قد لا يبقى بالضرورة صحيحاً حين تزداد جهورية الصوت ومجال البث.على الرغم من أن البي بي سي تنفذ برنامجاً إذاعياً واهناً مهتماً بالشعر المعاصر، إلا أن انتزاع خمس دقائق على الهواء مباشرة لبث قصيدة، أصعب من اثنتي عشرة ساعة تنشر فيها دعاية كاذبة وموسيقى معلبة ودعابات مبتذلة ونقاشات زائفة. لكن الأوضاع الحالية قد تتبدل في الطريقة التي نوهت بها، وإلى أن يأتي ذلك الوقت، ستصبح التجربة الجدية لبث الشعر والتجاهل التام للمؤثرات المعادية المتنوعة التي تمنع مثل هذا الشيء في الوقت الحاضر، ممكنة. أنا لا أدعي أنني متأكد من أن مثل تلك التجربة ستكون لها نتائج عظيمة. لقد خضع المذياع للبيروقراطية مبكراً جداً في سيرته، لذلك لم تؤخذ العلاقة بين البث الإذاعي والأدب في الاعتبار أبداً. ليس من المؤكد أن الميكرفون هو الأداة التي يمكن بواسطتها إرجاع الشعر إلى الناس العاديين، وليس مؤكداً أيضاً أن الشعر سيكسب حين يكون شيئاً محكياً أكثر من كونه مكتوباً، لكنني أحض على بقاء هذه الإمكانيات، وأن يدير الناس المهتمون بالأدب أذهانهم مرات أكثر إلى هذا الوسيط المحتقر كثيراً الذي ربما أخفت أصوات كل من البروفيسور جود والدكتور غوبلز قدراته الخيرة.

حرية المنتزه

قبل بضعة أسابيع ألقى رجال الشرطة القبض على خمسة أشخاص كانوا يبيعون الجرائد خارج هايد بارك بتهمة العرقلة. حين أخذوا إلى القضاة، وجدوا أنهم مذنبين كلهم، وألزموا أربعة منهم بعدم البيع في المكان لستة أشهر، وحكموا على الآخر بغرامة مقدارها أربعين شلناً أو سجن شهر، ففضل أن يؤدي مدة حكمه.

كانت الجرائد التي يبيعها هؤلاء الأشخاص هي بيس نيوز وفورووورد وفريدوم بالإضافة إلى كتب أدبية أخرى من نفس العائلة. بيس نيوز هي لسان اتحاد عهد السلام، أما فريدوم (حتى حديثاً كانت تدعى مسجل أحداث الحرب) فكانت للفوضويين، وبالنسبة إلى فورووورد، فإن سياستها تتحدى التعريف، لكنها بأي مقياس يسارية عنيفة. القاضي، في تمرير العقوبة، أوضح أنه لم يتأثر بطبيعة الأدب الذي كان يباع؛ وإنما كان مهتماً بواقعة العرقلة فقط، وتلك الجريمة ارتكبت تقنياً.

هذا يثير نقاطاً هامة. بداية، ما هو موقف القانون من الموضوع؟ بقدر ما أستطيع اكتشافه، إن بيع الجرائد في الشوارع عرقلة تقنياً، لكن على أي حال لو فشلت في التحرك حين يأمرك رجال الشرطة بذلك سيكون من القانوني لأي رجل شرطة أن يعتقل أي بائع صحف لبيعه إيفنينغ نيوز. من الواضح أن هذا لم يحدث، لذلك فرض القانون بالقوة، يعتمد على حصافة وتقدير الشرطة.

وما هو الشيء الذي يجعل الشرطة تعتقل رجلاً دون غيره؟ مهما يكن الأمر مع القاضي، وجدت من الصعب الاعتقاد أن الشرطة في هذه الحالة لم تتأثر بأي اعتبارات سياسية. إنه أكثر من مصادفة بحتة أن تتنمر الشرطة على أشخاص يبيعون تلك الصحف فقط. لو أنهم اعتقلوا أحداً يبيع تروث أو ذا تيبليت أو سبيكتاتور أو حتى تشيرتش تايمز، لكان الاعتقاد في نزاهتهم أسهل.

الشرطة البريطانية ليست مثل الجندرمة أو الجيستابو، لكن لا أظن [مقتبسة] أن المرء يقدحهم بقول ذلك، في الماضي، كانوا ولا يزالون عدائيين لنشاطات الجناح اليساري،

وأظهروا عموماً ميلاً إلى الانحياز مع هؤلاء الذين اعتبروهم المدافعين عن الملكية الخاصة. إلى وقت حديث وكلمات "أحمر" و"غير قانوني" مترادفتين تقريباً، وكان بائع الديلي وركر دائماً مثلاً وليس بائع ديلي تلغراف مثلاً، هو الذي يُجبر على الانتقال والابتعاد ويتعرض للمضايقة عادة. من الواضح أن الأمر يمكن أن يكون نفسه تقريباً، في أي لحظة، تحت حكومة العمال.

شيء أريد أن أعرفه - شيء نسمع عنه القليل جداً - وهو ما هي التغيرات التي حدثت في الهيئة الإدارية حين يكون هناك تغيير في الحكومة؟ هل يستمر ضابط الشرطة الذي لديه فكرة غامضة عن "الاشتراكية" بأنها تعني شيئاً ضد القانون، بنفس الطريقة حين تكون الحكومة نفسها اشتراكية؟

حين تتولى السلطة حكومة عمالية، أتساءل ماذا يحدث لاسكوتلانديارد والفرع الخاص؟ للمخابرات العسكرية؟ لم يخبرنا أحد بذلك، لكن علامات وأعراض كالتي هناك، لا توحي بأي لخبطة واسعة جارية.

على كل حال، النقطة الأساسية في هذا الحدث المترابط، أن بائعي الصحف والكتيبات يجب ألا يعاقوا أبداً. أية أقلية خاصة عُزلت - إن كانت من السلميين أو الشيوعيين أو الفوضويين أو شهود يهوه لفيلق المصلحين المسيحيين الذي صرح مؤخراً بأن هتلر هو يسوع المسيح - هي مسألة ثانوية. من الأهمية العرضية كان يجب اعتقال هؤلاء الناس فوراً. لا يسمح لك ببيع أعمال أدبية داخل هايد بارك، لكن منذ سنوات كثيرة من المعتاد لباعة الصحف أن يتمركزوا خارج البوابات ويوزعوا الأعمال الأدبية المتعلقة بالاجتماعات التي تعقد خارج البيوت على بعد مئات الياردات. لقد بيعت كل أنواع المنشورات هناك من دون أي تدخل.

يُبالغ دائماً بدرجة حرية الصحافة القائمة في هذه البلاد. تقنياً هناك حرية كبيرة، لكن الحقيقة أن القسم الأكبر من الصحافة الذي تملكه قلة قليلة من الناس، يشتغل إلى حد كبير بنفس طريقة رقابة الدولة. من جانب آخر، حرية الكلام حقيقية. على المنبر، أو في فراغات خارج البيوت محددة معترف بها مثل هايد بارك، يمكنك أن تقول أي شيء تقريباً، والأهم ربما، لا أحد يخشى من التعبير عن آرائه الحقيقية في الحانات وعلى قمم الحافلات وهلم جرا.

المغزى أن الحرية النسبية التي نتمتع بها تعتمد على الرأي العام. القانون ليس حصانة. الحكومات تصنع القوانين، لكن هل تنفذ أم لا وكيف تتصرف الشرطة، فذلك يعتمد على المزاج العام في البلاد. إذا اهتمت أعداد كبيرة من الناس في حرية الكلام، ستكون هناك حرية الكلام، حتى لو كان القانون يحظرها؛ إن كان الرأي العام بليداً، تُضطهد الأقليات المزعجة، حتى لو وجدت قوانين لحمايتها. الانحدار في الرغبة في الحرية الفردية لم يكن حاداً جداً كما تنبأت قبل ست سنوات، حين ابتدأت الحرب، لكن لازال هناك انحدار. الفكرة أن آراء محددة لا تحظى بفرصة الاستماع إليها تتزايد. عملة معطاة من قبل المثقفين الذين يخلطون القضية في عدم التمييز بين المعارضة الديمقراطية والعصيان المفتوح، وهذا ينعكس في لامبالاتنا المتنامية في الاستبداد والظلم في خارج البلاد. وحتى هؤلاء الذين يعلنون بأنهم يؤيدون حرية الرأي عموماً، يسقطون زعمهم حين يكون خصومهم الشخصيون هم من يعاني الاضطهاد.

أنا لا أوحي بأن اعتقال خمسة أشخاص بسبب بيعهم لصحف غير مؤذية كارثة رئيسية. حين ننظر إلى ما يحدث في العالم اليوم، لا يبدو حدث صغير جداً كهذا يستحق الصراخ. لكن، ليس عرضاً جيداً أن تحدث أشياء كهذه حين تنتهي الحرب تماماً، وسأشعر بسعادة أكبر لو أن هذه السلسلة الطويلة من الأحداث المتماثلة التي سبقتها، كانت قادرة على إثارة صخب شعبي صادق، وليس مجرد رفرفة لطيفة في أقسام صحافة الأقلية.

أفكار وخواطر حول غاندي

يجب الحكم على القديسين بالجرم دائماً حتى تثبت براءتهم، لكن المعايير التي يجب تطبيقها عليهم ليست واحدة طبعاً في كل الحالات. في حالة غاندي، فإن السؤال الذي يشعر المرء بالميل إلى طرحه: إلى أية درجة كان غاندي متأثراً بالغرور - بالشعور بنفسه كعجوز متواضع عار، يجلس على حصيرة الصلاة ويهز إمبراطوريات بقوته الروحية فقط - وإلى أي مدى وفق بين مبادئه الخاصة بإدخالها في السياسة، التي لا تنفصل عن القسر والخداع بطبيعتها؟ لإعطاء جواب محدد، على المرء أن يدرس أعمال غاندي وكتاباته بتفصيل كبير، لأن حياته كلها كانت نوعاً من رحلة حج، كل فعل فيها مهم وذو مغزى. لكن هذه السيرة الذاتية الجزئية التي انتهت في عشرينيات القرن العشرين، دليل قوي لصالحه، لأنها قبل كل شيء تغطي ما كان عليه أن يسميه القسم الضال في حياته، ويذّكر المرء أن في داخل القديس أو شبه القديس شخصاً داهية كبيراً وبارعاً، كان بمقدوره لو أنه اختار أن يحقق نجاحاً متألقاً كمحامٍ أو رجل إدارة أو حتى رجل أعمال.

في الوقت الذي ظهرت فيه سيرته الذاتية، أتذكر أنني قرأت فصولها الافتتاحية في صفحات سيئة الطباعة في بعض الصحف الهندية، وقد تركت انطباعاً جيداً علي، لم يتركه غاندي نفسه آنذاك. كانت الأشياء التي ترافقت معه - الثوب المصنوع محلياً، "القوى الروحية" والنباتية - غير جذابة، وبرنامجه القروسطي كان واضحاً أنه غير قابل للتطبيق في بلاد متخلفة وجائعة ومكتظة بفيض من السكان. كان من الواضح أن البريطانيين كانوا يستغلونه أو ظنوا بأنهم يستغلونه. للتكلم بدقة، كشخص قومي، كان عدواً، لكن بما أنه كان يحض نفسه على منع العنف في كل أزمة - وهذا من وجهة النظر البريطانية يعني منع أي عمل مؤثر أياً كان نوعه - فقد كان يعتبر "رجلنا" وجرى سراً الاعتراف بذلك بشكل ساخر، وكان لأصحاب المليارات الهنود نفس الموقف أيضاً الذين دعاهم غاندي إلى التوبة، وفضلوه طبعاً على الاشتراكيين والشيوعيين الذين لو توفرت الفرصة لهم لأخذوا منهم أموالهم. إلى أي

مدى يمكن التعويل على مثل هذه الحسابات على المدى الطويل، أمر مشكوك فيه؛ لأن غاندي نفسه قال "في النهاية يخدع الخداعون أنفسهم فقط"؛ لكن على كل الأحوال، فإن الرقة واللين اللتين عومل بهما تعودان جزئياً إلى الشعور بأنه كان مفيداً. لم يغضب المحافظون البريطانيون منه، إلا حين حول لاعنفه ضد محتل مختلف كما في عام ١٩٤٢.

لكنني رأيت أنه حتى المسؤولين البريطانيين الذين تكلموا عنه بمزيج اللهو والاستهجان، أحبوه وأعجبوا به بصدق، تقليداً للموضة، ولم يوحوا أبداً أنه كان فاسداً أو طموحاً بطريقة سوقية أو أنه فعل شيئاً بدافع الخوف أو الحقد. في الحكم على رجل مثل غاندي، يبدو أن الواحد يطبق معايير سامية غريزياً، لذلك مرت بعض فضائله من دون أن تلاحظ. مثلاً، واضح من سيرته الذاتية أن شجاعته البدنية الطبيعية كان بارزة تماماً: طريقة موته وتعليله اللاحق لهذا لأن أي رجل مشهور يمثل أية فضيلة لأبناء جلدته، يفترض أن ينال حماية مناسبة أكثر. مرة أخرى، يبدو أنه كان متحرراً تماماً من الشك الجنوني الذي قال عنه أي أم فورستر بصراحة في كتابه رحلة إلى الهند، أنه الرذيلة الهندية المحدقة باستمرار التي تشبه رذيلة الرياء البريطانية. لكن مما ل أشك فيه أنه كان ذكياً بما يكفي ليكتشف عدم الاستقامة، يبدو أنه كان يعتقد أن الناس الآخرين كانوا يتصرفون بإيمان خير، ولديهم طبيعة أفضل، من خلالها يمكن الاقتراب منهم وفهمهم. ورغم أنه انحدر من عائلة من الطبقة الوسطى، فقد بدأ حياته بطريقة غير سارة، وربما بمظهر بدني غير ملحوظ وبارز، لم يكن مصاباً بالحسد أو بشعور بالدونية. الشعور باللون حين صادفه في أسوأ أشكاله في جنوب أفريقيا، يبدو بأنه أدهشه. حتى حين كان يقاتل في حرب اللون، لم يفكر في الناس على أساس العرق أو المكانة. حاكم الإقليم، مليونير القطن، والحمال شبه الجائع والجندي البريطاني، النفر كلهم كانوا كائنات بشرية متساوية، ويجب معاملتها وفهمها بنفس الطريقة؟ ولوحظ أنه في أسوأ الظروف، كما في جنوب أفريقيا حين كان يجعل نفسه غير محبوب كبطل للجماعة الهندية، لم ينقصه أصدقاء أوروبيون.

السيرة الذاتية التي نشرت خلال فواصل قصيرة في سلسلة من الجرائد، لم تكن تحفة أدبية، لكنها الأكثر تأثيراً بسبب عادية مادتها. من الحسن التذكير أن غاندي بدأ بالطموحات العادية

لطالب هندي شاب، ولم يعتنق آراءه المتطرفة إلا بالتدريج، وهو كاره في بعض الحالات. كان هناك وقت ارتدى فيه قبعة عالية وأخذ دروساً في الرقص ودرس الفرنسية واللاتينية، وصعد إلى برج إيفل، وحاول تعلم العزف على الكمان حتى - كل هذا كان فكرة التمثل بالحضارة الأوروبية بأكمل صورة ممكنة. لم يكن من هؤلاء القديسين الذين اشتهروا بورعهم الاستثنائي من طفولتهم فصاعداً، ولم يكن أيضاً من النوع الآخر الذي هجر العالم وانغمس في الملذات الحسية. لقد اعترف تماماً بالآثام التي ارتكبها وهو شاب، لكن في الحقيقة لم يكن هناك الكثير ليعترف به. كواجهة للكتاب، هناك صورة لممتلكات غاندي في وقت موته. كل التجهيزات يمكن شراءها بخمسة جنيهات، وآثام غاندي، آثامه البدينة على الأقل، ستشكل نفس المظهر لو أنها وضعت في كومة واحدة. بضع سجائر ولقيمات من اللحم وبضعة قروش اختلسها من الخادمة وزيارتان للماخور(في كل مرة كان يرحل دون "أن يفعل شيئاً")، زلة فلتت بشق النفس مع صاحبة الفندق في بلايماوث، نوبة غضب واحدة - هذه هي كل المجموعة تقريباً. من طفولته تقريباً، كان لديه شعور عميق بالجدية، موقف أخلاقي أكثر مما هو ديني، لكن حتى أن بلغ الثلاثين تقريباً، لم يكن لديه إحساس بتوجه محدد وواضح. دخوله إلى ما يمكن وصفه بالحياة العامة كان عن طريق النباتية. تحت صفاته الأقل من عادية، يحس المرء دائماً برجال أعمال الطبقة الوسطى الصلبين الذين كانوا أجداده. يشعر المرء بذلك حتى بعد أن تخلى عن طموحه الشخصي، كان يمكن أن يكون محامياً نشيطاً واسع الحيلة ومنظماً سياسياً مجداً بارعاً في تخفيض النفقات ومدرب لجان داهية ومتابعاً لا يكل للاشتراكات. شخصيته كانت خليطاً غير عادي، لكن ليس فيها شيء تقريباً تضع إصبعك عليه وتقول إنه سيء. وأعتقد أن حتى ألد أعداء غاندي يعترفون أنه كان رجلاً ممتعاً وغير عادي، أثرى العالم بحياته. لكني لست متأكداً تماماً إن كان رجلاً محبوباً أيضاً أو أن تعاليمه نالت إعجاب الذين لم يتقبلوا المعتقدات الدينية التي تأسسوا عليها.

أصبحت الموضة في السنوات الأخيرة، الحديث عن غاندي، ليس كما لو أنه كان متعاطفاً مع الحركة اليسارية الغربية فقط، وإنما وكأنه جزء مكمل لها. فقد اعتبره الفوضويون والسلميون خصوصاً بأنه في صفهم، فلم يلاحظوا فيه سوى معارضته للمركزية وعنف الدولة، وتجاهلوا الميول الدنيوية والحياتية الأخرى وغير الإنسانية في مذهبه وتعاليمه. لكن

يجب أن يدرك المرء كما أعتقد أن تعاليم غاندي لا يمكن أن تتوافق مع الاعتقاد بأن الإنسان هو مقياس الأشياء كلها وأن مهمتنا أن نجعل من الحياة على هذه الأرض جديرة، الأرض الوحيدة التي نملكها. هذه التعاليم لا معنى لها، إلا بافتراض أن الرب موجود، وأن العالم المادي وهم علينا النجاة منه. من الجدير التفكير بمبادئ غاندي التي فرضها على نفسه - لكنه ربما لم يصر على أتباعه أن يطيعوا كل التفاصيل - التي اعتبرها أساسية ولا غنى عنها إن أراد المرء أن يخدم إما الرب أو الإنسانية. أول تلك المبادئ، عدم أكل اللحوم، وإن أمكن أي غذاء حيواني أيا كان شكله. (غاندي نفسه، من أجل صحته، أجبر على قبول الحليب، ولكنه نظر إلى ذلك كما يبدو بأنه ارتداد عن الطريق القويم). عدم السماح بالكحول والتبغ ولا التوابل أو البهارات حتى لو كانت من نوع الخضار، بما أن الغذاء يؤخذ ليس من أجل ذاته بل لكي يحفظ لنا قوتنا فقط. ثانياً، إن أمكن، رفض الجماع الجنسي. إن كان يجب حدوث الجماع الجنسي، فسيكون عندها من أجل غرض وحيد وهو إنجاب الأطفال، ويفترض أن يكون على فواصل طويلة. غاندي نفسه، في أواسط ثلاثينياته، أقسم البراهماشاريا، التي لا تعني التطهر الكامل وإنما استئصال الرغبة الجنسية. هذه الحالة، كما تبدو، صعب تحقيقها دون حمية خاصة وصوم متكرر. إحدى مخاطر شرب اللبن أنه قادر على إثارة الرغبة الجنسية. وأخيراً - هذه هي النقطة الرئيسية - للذين ينشدون الصلاح، يجب ألا تكون لهم صداقات حميمة وأحباء حصريون بأي شكل.

يقول غاندي أن الصداقات خطرة لأن "الأصدقاء يؤثرون على بعضهم البعض". ومن خلال الولاء لصديق يمكن أن يقاد المرء إلى مسلك لاشرعي. هذا صحيح ولا ريب فيه. إضافة إلى أنه يجب على المرء أن يحب الرب أو يحب الإنسانية جمعاء، فلن يستطيع إعطاء تحيزه وتفضيله لأي شخص فرد. هذا صحيح أيضاً، ويشير إلى النقطة التي يتوقف فيها التوفيق بين الموقف الإنساني والديني والتصالح بينهما. بالنسبة إلى الإنسان العادي، فالحب لا يعني شيئاً إن لم يعنِ حب شخص ما أكثر من الآخرين. السرية الذاتية لغاندي تركت الأمر غير مؤكد إن كان غاندي قد تصرف بطريقة لم يراع فيها مشاعر زوجته وأطفاله، لكنه في كافة الأحوال من الواضح أنه في ثلاث مناسبات كان مستعداً وراغباً بأن يدع زوجته أو طفله يموت على إعطائهما الغذاء الحيواني الذي وصفه لهما الطبيب. من الصحيح أن الموت المنذر لم يحدث

فعلياً، وأن غاندي أيضاً كان يعطي دائماً المريض خيار البقاء حياً بثمن ارتكاب إثم، لكنه كان يحرم الغذاء الحيواني مهما كانت المخاطر، إن لم يكن القرار يعود للمريض نفسه. ويقول يجب أن يكون هناك حد أقصى لما نقوم به لكي نبقى أحياء، والحد الحسن في هذا الجانب على حساء الدجاج. هذه الموقف ربما يكون موقفاً نبيلاً، لكن بالمعنى الذي يصفه كل الناس كما أعتقد بغير الإنساني. جوهر الكائن الإنساني أن المرء لا يسعى إلى الكمال، وأن المرء يرغب أحياناً بارتكاب المعاصي من أجل الولاء، وأن المرء لا يدفع بالزهد إلى النقطة التي تجعل من العلاقة الودية أمراً مستحيلاً، وأن المرء مستعد في النهاية كي تهزمه الحياة وتحطمه، وهو ثمن محتوم لربط حب المرء نزولاً عند رغبة أفراد إنسانيين آخرين. لا شك بأن الكحول والتبغ وهلم جرا أشياء على القديس أن يجتنبها، لكن القداسة أيضاً شيء يجب على البشر اجتنابه. هناك حجة معاكسة واضحة لهذه، ولكن يجب أن يكون المرء حذراً في تبيانها. في هذا الزمن المصاب باليوغا، لقد تم التسليم بسرعة بأن "عدم الارتباط" ليس أفضل من القبول التام بالحياة الدنيوية فقط، وإنما لأن الإنسان العادي يرفضها لأنها صعبة جداً. بعبارة أخرى الإنسان العادي كان قديساً فاشلاً. كثير من الناس لا يرغبون بأن يكونوا قدسيين، وأن البعض الذين استطاعوا أو طمحوا بالقداسة لم يشعروا قط بانجذاب كبير لأن يكونوا بشراً. وإن استطاع المرء إرجاعها لجذورها النفسية، سيجد المر باعتقادي أن الحافز الأساسي لـ"عدم الارتباط" رغبة للنجاة من ألم العيش، وقبل كل شيء من الحب الجنسي واللاجنسي الذي هو عمل شاق. لكن من الضروري هنا أن نناقش إن كانت المثل الدنيوية الأخرى أم المثل الإنسانية "أسمى". النقطة أنهما متنافرتان. على المرء أن يختار بين الرب والإنسان وكل "الراديكاليين" و"التقدميين"، من الليبراليين المعتدلين إلى أشد الفوضويين تطرفاً، اختاروا الإنسان في الواقع.

لكن يمكن فصل سلمية غاندي عن تعاليمه إلى درجة ما. لقد كان دافعها دينياً، لكنه ادعى بأنها تقنية حاسمة ووسيلة قادرة على إنتاج نتائج سياسية مرغوبة. لم يكن موقف غاندي كموقف أغلب السلميين. ساتياغراها، التي نشأت أولاً في جنوب أفريقيا، كانت نوعاً من حرب غير عنيفة، طريقة لدحر العدو دون إيذائه ودون الشعور بالكره أو إثارته. وشملت أشياء مثل العصيان المدني والإضرابات والاستلقاء على سكك الحديد لمنع القطارات من

الحركة، وتحمل شجب رجال الشرطة وقمعهم دون الفرار ودون الرد بالضرب وما شابه. عارض غاندي "المقاومة السلبية" بكونها ترجمة للساتياغراها التي تعني في الغوجاراتية "الحزم والثبات في الحقيقة". في أيامه الأولى خدم غاندي حامل نقالة في صف الإنكليز في حرب البوير، وأُعد ليقوم بنفس الدور في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨. حتى بعد أن تجنب العنف تماماً كان صادقاً حين رأى أنه من الضروري أن يصطف المرء في الحرب إلى طرف عادة. لم يركز خلال حياته السياسية كلها على الصراع من أجل استقلال قومي، لم يستطع أن يأخذ المسار الكاذب والعقيم في التظاهر أن كلا الطرفين مثل بعضهما تماماً في كل حرب ولن تشكل هوية الفائز أي فرق. كما لم يتخصص كما فعل أغلب السلميين الغربيين في تحاشي الأسئلة المربكة. فيما يتعلق بالحرب الأخيرة، سؤال كان على كل السلميين الإجابة عليه: "ماذا عن اليهود؟ هل أنت مستعد أن تراهم يبادون؟ إن كان الجواب لا، ماذا تقترح لإنقاذهم بدون اللجوء إلى الحرب؟" يجب علي أن أقول بأنني لم أسمع جواباً صادقاً لهذا السؤال من أي سلمي غربي، وإنما سمعت الكثير من التملص والمراوغة، عادة من "أنت من النموذج الآخر". لكن حدث أن سئل غاندي سؤالاً مشابهاً عام ١٩٣٨ وذلك الجواب مدون في كتاب السيد لويس فيشر غاندي وستالين. حسب ما جاء عن فيشر أن رأي غاندي كان: ينبغي على اليهود الألمان أن ينتحروا بشكل جماعي "ليوقظوا العالم والشعب الألماني كي ينتبه إلى العنف الذي يمارسه هتلر ضدهم" كان غاندي صادقاً مع نفسه. إن لم تكن مستعداً لانتزاع الحياة، عليك أن تتحضر لحياة ستضيع بطريقة أخرى. حين حرض على المقاومة غير العنيفة ضد الغزو الياباني عام ١٩٤٢ كان مستعداً للاعتراف بأن ذلك قد يكلف ملايين الضحايا.

في الوقت نفسه، هناك سبب للتفكير أن غاندي الذي ولد عام ١٨٦٩ لم يفهم طبيعة الشمولية ورأى كل شيء من خلال نضاله ضد الحكم البريطاني. النقطة الهامة هنا ليست أن البريطانيين تحملوه وصبروا عليه، لذلك استطاع أن يحقق شعبية. كما يرى من العبارة المقتبسة أعلاه، لقد آمن "في إيقاظ العالم"، إن توفرت الفرصة بأن يسمع العالم بما تفعله. من الصعب أن نرى أساليب غاندي تطبق في بلاد يختفي فيها خصوم النظام في منتصف الليل ولا يسمع عنهم بعد ذلك أبداً. بدون صحافة حرة وحق التجمع، يستحيل مناشدة الرأي العام الخارجي وتكوين حركة جماهيرية أو حتى التعريف والكشف عن أهدافك لأعدائك. هل هناك غاندي

في روسيا في هذه اللحظة؟ وإن كان هناك، ما الذي أنجزه؟ لا تستطيع الجماهير الروسية ممارسة العصيان المدني، إلا إذا حدث وخطرت الفكرة لهم كلهم بوقت واحد، وحتى لو حصل، فلن يكون هناك أي فرق وذلك بالحكم من خلال تاريخ المجاعة الأوكرانية. لكن لنسلم أن المقاومة غير العنيفة تستطيع أن تكون فعالة ضد حكومة المرء نفسها أو ضد سلطة محتلة: كيف يمكن للمرء أن يضعها موضع التطبيق على الصعيد الدولي؟ غاندي نفسه وفي تصريحات متناقضة عديدة حول الحرب الأخيرة، بين أنه شعر بصعوبة هذا. إن تطبيق السلامية على السياسة الخارجية إما أنه ينهي سلميتها أو تصبح مهدئة. إضافة الافتراض الذي خدم غاندي كثيراً في التعامل مع الأفراد بأن كل البشر ممكن الوصول إليهم تقريباً، ويستجيبون للإيماءة الكريمة، يثير شكوكاً جدية وكبيرة. فهو ليس صحيحاً بالضرورة مثلاً عند التعامل مع المجانين. بعدئذ يصبح السؤال: من العاقل؟ هل هتلر عاقل؟ وألا يمكن لحضارة كاملة أن تكون مجنونة بمقاييس شخص آخر؟ وبقدر ما يمكن قياس مشاعر أمم كاملة، هل هناك أي ارتباط ظاهر بين العمل الكريم والاستجابة الودية؟ هل العرفان بالجميل عامل في السياسة الدولية؟

هذه الأسئلة وأشباهها تحتاج إلى نقاش وتحتاجه بأسرع ما يمكن، في السنوات القليلة التي تبقت لنا وقبل أن يضغط شخص الزر وتبدأ الصواريخ بالتطاير. ومن المشكوك على ما يبدو بأن الحضارة تستطيع الصمود بوجه حرب رئيسية أخرى، وأن الخروج منها يكمن من خلال اللاعنف. ولغاندي الفضل بأنه كان سيعطي رأيه بصدق على الأسئلة التي أثرتها آنفاً، وربما هو ناقش هذه الأسئلة في مكان أو آخر في مقالاته الصحفية التي لا تعد. ويشعر المرء أن هناك الكثير الذي لم يفهمه غاندي، لكن ليس هناك شيء خاف من قوله أو التفكير فيه. أنا لم أستطع أن أكن الود الكبير لغاندي، لكني لست متأكداً أنه كمفكر سياسي كان مخطئاً في غالبه، ولا أعتقد أن حياته كانت فشلاً. من الغريب أنه حين اغتيل، كثيرون من أقرب المعجبين به هتفوا حزينين على أنه عاش طويلاً بما يكفي ليرى عمل حياته يخرب وينهار، لأن الهند كانت متورطة في حرب أهلية نُظر إليها دائماً على أنها إحدى المفرزات الجانبية لانتقال السلطة. لكن الشيء الذي أمضى غاندي حياته من أجله، لم يكن محاولة حل الصراع الهندوسي الإسلامي، فقد كان هدفه السياسي الأساسي الإنهاء السلمي للحكم البريطاني الذي تحقق أخيراً.

وكالعادة فإن الحقائق المتصلة بالموضع تتقاطع مع بعضها البعض. من جانب، خرج البريطانيون من الهند بدون قتال، حدث لم يتكهن به أحد قبل سنة من حدوثه؛ ومن جهة أخرى، من فعل ذلك حكومة عمالية وبالتأكيد لو كانت حكومة محافظين وخصوصاً واحدة برأسها تشرشل لتصرفت بطريقة مختلفة. لكن لو لم يكن هناك رأي عام كبير متعاطف مع استقلال الهند في عام ١٩٤٥ ماذا سيكون مدى تأثر غاندي الشخصي على هذا؟ ولو أن، كما يمكن أن يحدث، بريطانيا والهند توصلتا إلى علاقة ودية محترمة، هل سيكون هذا جزئياً لأن غاندي طهر الجو السياسي في استمراره في نضاله بعناد وبلا كره؟ حتى أن المرء يفكر في طرح أسئلة تتعلق بمكانته. ربما يشعر المرء كما أشعر أنا بنوع من النفور الجمالي من غاندي، ويرفض إطلاق ادعاءات القداسة عليه (هو لم يدع ذلك أبداً بالمناسبة) وينبذ القداسة كنموذج ومثل أعلى، ولهذا يشعر أن أهداف غاندي الأساسية كانت غير إنسانية ورجعية: لكن بالنظر إليه كسياسي فقط ومقارنة بالشخصيات السياسية القيادية الأخرى لعصرنا، يا للرائحة النظيفة التي تركها وراءه!

أنتم والقنبلة الذرية

لم تثر القنبلة الذرية جدلاً كبيراً كما هو متوقع، باعتبارها قد تنسف عالمنا وتحوله إلى أشلاء في السنوات الخمس القادمة، فقد نشرت الصحف رسوماً بيانية هائلة لا تفيد الرجل العادي عن البروتونات والنيترونات..... لكنها لم تقل سوى القليل حول السؤال الملح الذي يهمنا كلنا: ما هو مدى صعوبة تصنيع مثل هذه الأشياء؟

مثل هذه المعلومات التي نمتلكها نحن الجمهور الكبير حول هذا الموضوع، أتت إلينا بطريق غير مباشر، من خلال قرار الرئيس ترومان بعدم إفشاء أسرار معينة وتسليمها للاتحاد السوفييتي. منذ عدة أشهر، حين لازالت القنبلة مجرد إشاعة، ساد اعتقاد واسع أن انشطار الذرة كان مجرد مشكلة للفيزيائيين، وأنهم حين يحلونها سيكون بمتناول أي شخص تقريباً سلاح مدمر جديد. (بأي لحظة كما جاء في الإشاعة قد ينسف مجذوب منعزل في مخبر الحضارة إلى فتات بسهولة إشعال ألعاب نارية).

إن كان هذا صحيحاً، فإن اتجاه التاريخ بكامله سوف يتبدل فجأة، وبشكل خطير، وسوف يتلاشى التمييز بين الدول العظمى والدول الصغرى، وسوف تضعف سلطة الدولة على الفرد بشكل عظيم. على كل حال، يظهر من ملاحظات الرئيس ترومان ومن تعليقات متنوعة حولها أن القنبلة باهظة التكلفة وتطلب تصنيعها جهداً صناعياً ضخماً، لذلك لا يقدر على تصنيعها سوى أربع دول في العالم. هذه نقطة ذات أهمية رئيسية، لأنها تعني أن اكتشاف القنبلة الذرية، بمعزل عن عكس التاريخ وقلبه، سوف يكثف الميول والنزعات التي ظهرت في العشرين سنة الماضية.

من المعروف أن تاريخ الحضارة هو بشكل رئيسي تاريخ أسلحة. فقد أشير مراراً وتكراراً إلى العلاقة بين اكتشاف البارود وإسقاط الإقطاعية بواسطة البورجوازية..... أعتقد أن القاعدة التالية ستكون صحيحة عموماً: العصور التي يكون فيها السلاح المسيطر مكلفاً أو صعباً تصنيعه، تميل إلى أن تكون عصور استبداد، وعندما يكون رخيصاً وبسيطاً يكون للناس

العاديين فرصة وحظ. لذلك فإن الدبابات والسفن والطائرات أسلحة استبدادية بالأصل بينما الأقواس والبنادق المحلزنة والقديمة والرمانات اليدوية أسلحة ديمقراطية بالأساس. إن الأسلحة المعقدة تجعل القوي أقوى بينما البسيطة منها - طالما ليس هناك رد عليها - تعطي مخالب للضعيف.

عصر الديمقراطية والاستقلال الوطني العظيم كان عصر البنادق القديمة..... التي كانت سلاحاً فعالاً وبسيطاً يمكن تصنيعه في أي مكان. إنها مركب من صفات جعلت نجاح الثورتين الأمريكية والفرنسية ممكناً، وجعلت العصيان الشعبي قضية أكثر خطورة مما يمكن أن يكون في عصرنا. بعد البندقية الطويلة (موسكت) أتت البندقية التي تحشى من الخلف. كان هذا معقداً نسبياً، لكن ظل إنتاجها ممكناً في عشرات البلدان، وكانت رخيصة الثمن ويتم تهريبها بسهولة واقتصادية في الذخيرة. حتى الأمم المتخلفة جداً يمكنها الحصول على بنادق من مصدر أو آخر، لهذا استطاع البوير والبلغار والإثيوبيون والمغاربة وحتى أهل التيبت - خوض حروب من أجل استقلالهم وكانت حروباً ناجحة أحياناً. لكن بعد ذلك كان كل تطور في التكنيك العسكري لصالح الدولة وضد الفرد ولصالح الدولة الصناعية وضد الدولة المتخلفة وباتت مراكز القوة أقل. سابقاً في عام ١٩٣٩ كان هناك خمس دول فقط قادرة أن تشن حرباً على نطاق واسع، والآن ليس هناك سوى ثلاث وربما اثنتين فقط. كان هذا الميل واضحاً منذ سنوات، وقد أشار إليه قلة من المراقبين قبل عام ١٩١٤ حتى. الشيء الأول الذي يمكن أن يعكسه ويقلبه هو اكتشاف سلاح - أو لوضعها في عبارة أوسع - طريقة قتال - لا تعتمد على تمركز هائل للمؤسسات الصناعية.

يستطيع المرء أن يستنتج من مظاهر متنوعة أن الروس لم يمتلكوا سر صنع القنبلة الذرية بعد؛ ومن جانب آخر، والرأي المتفق عليه بالإجماع أنهم سيمتلكونه خلال بضع سنوات كما يبدو، لذلك أمامنا مشهد لدولتين عملاقتين أو ثلاث تمتلك كل منها سلاح يمكنه مسح ملايين الناس في بضع ثوان، وسوف تقتسم هذه الدول العالم بينها. وهذا يعني كما يفترض حروباً أكبر وأكثر دموية وقد تكون نهاية فعلية لحضارة الآلة. لكن لو افترضنا - وهذا هو التطور الأرجح - أن الأمم الكبرى الناجية ستعقد اتفاقاً ضمنياً بألا تستعمل القنبلة الذرية

ضد بعضها البعض؟ ولو افترضنا أنها ستستعملها فقط أو تهدد بها الشعوب التي تعجز عن الرد والانتقام؟ في هذه الحالة سنعود إلى ما كنا عليه من قبل، والفارق الوحيد أن القوة ستتركز في أيدٍ أقل، وأن مستقبل الشعوب الخاضعة والطبقات المضطهدة سيظل بلا أمل وأكثر من قبل.

حين كتب جيمس بيرنهام كتاب الثورة الإدارية، بدا لكثير من الأمريكيين أن الألمان سيفوزون بالبر الرئيسي الأوراسي، بينما تظل اليابان سيدة شرق آسيا. وهذا كان خطأً تقديرياً، لكنه لا يؤثر على الحجة الأساسية، فقد ثبت أن الصورة الجغرافية التي رسمها بيرنهام للعالم صحيحة، ويتضح أكثر فأكثر أن سطح الأرض يوزع بين ثلاث إمبراطوريات كبرى، كل واحدة منها مكتفية بذاتها، ومقطوعة عن الاتصال بالعالم الخارجي، ومحكومة تحت قناع أو آخر من قبل أقلية منتخبة ذاتياً. وسوف تستمر المماحكة حول رسم الحدود بينها، وستسمر لسنين، وثالثة الدول العظمى - شرق آسيا التي تحكمها الصين - لاتزال احتمالاً أكثر منها حقيقة، لكن الانتقال العام واضحاً لا لبس فيه ويعجل بحدوثه كل اكتشاف علمي في السنوات الأخيرة.

قيل لنا إن الطائرات قد "ألغت الحدود"؛ لكن في الواقع منذ أن أصبحت الطائرات سلاحاً مهماً بات من الصعب اجتياز الحدود. وكان متوقعاً من الراديو أن يعزز التفاهم الدولي والتعاون، وثبت أنه وسيلة لعزل الأمم عن بعضها البعض، وربما تكمل القنبلة الذرية عملية سرقة الطبقات المستغلة والشعوب من كل قدرة على الثورة، وفي الوقت نفسه تضع مالكي القنبلة على أساس من المساواة العسكرية، ولعجز هذه الدول عن دحر بعضها بعض، فإنها على الأرجح ستستمر في حكم العالم بينها، ومن الصعب قلب هذا التوازن، إلا بتبدلات ديموغرافية بطيئة، لا يمكن التنبؤ بها.

لقد حذرنا إتش جي ويلز وغيره في السنوات الماضية، أن الإنسان مهدد بتدمير نفسه بأسلحته تاركاً النمل أو جنس سربي آخر يسيطر. كل من يرى المدن الألمانية المدمرة، يجد أن هذه الفكرة قابلة للتصور على الأقل. رغم ذلك، فعند النظر إلى العالم ككل، لعقود الكثيرة، نجد أن الانتقال لم يكن نحو الأناركية (المدينة الفاضلة) وإنما نحو إعادة فرض العبودية. قد لا

نكون متجهين إلى انهيار عام، وإنما إلى عهد راسخ بصورة كريهة مثل إمبراطوريات الرق القديمة. لقد نوقشت نظرية جيمس بيرنهام كثيراً، لكن قلة من الناس دققت في مضامينها الأيديولوجية - أي الرأي العالمي والمعتقدات والتركيب الاجتماعي التي قد تسود في دولة لا تقهر وفي حالة دائمة من "الحرب الباردة" مع جيرانها.

لو تبين أن القنبلة الذرية ستكون رخيصة مثل تصنيع دراجة أو ساعة منبه، فإنها قد تعيدنا إلى البربرية، لكنها من جانب آخر قد تعني نهاية السيادة الوطنية والدولة الأمنية شديدة التمركز. وإن كانت القنبلة نادرة ومكلفة وصعب تصنيعها كإنتاج بارجة حربية كما يبدو، فإنها على الأرجح ستضع نهاية للحروب الكبيرة، لمصلحة سلام غامض مطول لكنه "ليس بسلام".

كيف يموت الفقراء؟

في عام ١٩٢٩ أمضيت عدة أسابيع في مستشفى "سين"، في الحي الخامس عشر في باريس. قذف الموظفون بي عبر الدرجة الثالثة المعتادة، إلى منضدة الاستقبال؛ حيث بقيتُ أجيب على أسئلتهم لمدة نصف ساعة، قبل أن يسمحوا لي بالدخول. إن كنت قد ملأت استمارات في دولة لاتينية، ستعرف نوع الأسئلة التي أعنيها. منذ بضعة أيام مضت، لم أكن كفؤاً للتحويل من مقياس ريامور إلى الفهرنهايت، لكنني أعرف أن درجة حرارتي كانت حوالي ١٠٣. وفي نهاية المقابلة وجدت صعوبة في الوقوف على قدمي. كانت ورائي مجموعة صغيرة مذعنة من المرضى، الذين كانوا يحملون صرراً ملفوفة بمناديل ملونة، وينتظرون دورهم ليُسألوا.

بعد الاستجواب، جاء دور الحمام - وهو روتين إجباري لكل الوافدين الجدد على ما يبدو، كما في السجون أو الإصلاحيات. أخذوا ثيابي مني، وبعد أن جلست أرتعش من البرد في خمسة بوصات من الماء الدافئ، أُعطوني قميص نوم كتاني وعباءة زرقاء قصيرة صوفية ناعمة بدون خفين، إذ لم يكن لديهم أخفاف كبيرة تناسبني كما قالوا، وقادوني إلى الخارج في الهواء الطلق. كان هذا في ليلة من شهر فبراير/ شباط، وكنت أعاني من مرض ذات الرئة. كان الجناح الذي ذهبنا إليه على بعد ٢٠٠ ياردة، ولكي تصل إليه، عليك أن تعبر الحدائق والأرض المحيطة ببناء المستشفى. تعثر شخص أمامي كان يحمل مصباحاً. كان الممر المرصوف بالحصى مكسواً بالصقيع تحت الأقدام، ولفت الريح قميص النوم حول ربلتي العاريتين. حين دخلنا إلى الجناح أحسست بشعور غريب من الألفة، لم أنجح في تحديده حتى وقت متأخر من الليل. كانت غرفة طويلة، إضاءتها سيئة تعج بأصوات مدمدمة مع ثلاثة صفوف من الأسرة قريبة من بعضها البعض بشكل مدهش، وهناك رائحة فاسدة برازية مائلة للحلاوة. استلقيت على السرير. قبالتي تقريباً هناك رجل صغير الجسم رملي الشعر مدور الكتفين، يجلس شبه عارٍ، بينما يقوم الطبيب وطالب معه بعملية جراحية ما غريبة له. في البداية أخرج الطبيب من حقيبته السوداء دزينة من كؤوس صغيرة

مثل كؤوس النبيذ، وأشعل الطالب عود ثقاب داخل كل كأس ليفرغه من الهواء، ثم أقحم الكأس ووضعه على ظهر الرجل وصدره، وسحب الخلاء قيحاً أصفر كثيراً جداً. بعد لحظات أدركت ما كانا يفعلان به. كان شيئاً يسمى الحجامة، وهي علاج يمكنك أن تقرأ عنه في الكتب الطبية القديمة، لكن حتى ذلك الوقت كانت لدي فكرة غامضة بأنه واحد من تلك الأشياء التي يجرونها للخيول.

ربما خفّض الهواء البارد في الخارج درجة حرارتي، وراقبت هذا العلاج البربري بتحيز وبمقدار محدد من التسلية أيضاً. في اللحظة التالية، جاء كل من الطبيب والطالب إلى سريري ورفعاني إلى الأعلى بوضع عمودي، وبدون التفوه بأي كلمة طبّقا مجموعة الكؤوس ذاتها علي من دون أن تعقم بأي شكل. لم تلق الاعتراضات القليلة التي تفوهت بها أية استجابة، كما لو أنني كنت حيواناً. تأثرت كثيراً بالطريقة اللاوديّة التي عاملني بها هذان الرجلان. لم أدخل جناحاً عاماً في مستشفى من قبل، وكانت تجربتي الأولى مع أطباء يعالجونك دون التحدث إليك وبلا شعور إنساني، ولا يبدون لك أقل اكتراث. وضعا ستة كؤوس في حالتي فقط، وبعد هذا خدشا البثور وطبقا الكؤوس مرة أخرى، فسحب كل كأس حوالي ملعقة حلوى من الدم ذي اللون الأسود. حين استلقيت مرة أخرى مذلولاً ومشمئزاً وخائفاً من الشيء الذي فعلاه بي، ظننت أنهما سيتركاني بحالي على الأقل. لكن كلا. لا شيء من ذلك، فقد كان هناك علاج آخر قادم كمادة الخردل، ويبدو أنه روتين مثل الحمام الساخن. جهزت ممرضتان قذرتان الكمادة مسبقاً وربطتاها بإحكام حول صدري بقوة مثل سترة ضيقة، فبدأ بعض الرجال الذين كانوا يتجولون في الجناح في قمصان وسراويل بالتجمع حول سريري، وعلى وجوههم تكشيرات شبه متعاطفة. وعلمت مؤخراً أن التفرج على مريض يضعون له كمادة الخردل، كان هواية مفضلة في الجناح. هذه الأشياء تطبق عادة لمدة ربع ساعة، وبالتأكيد هي مضحكة بشكل كافٍ إن لم تكن الشخص الذي يطبق عليه العلاج. أثناء الدقائق الخمس الأولى، كان الألم مبرحاً، لكنك تعتقد بأنك تستطيع تحمله. وخلال الدقائق الخمس الثانية يتبخر هذا الاعتقاد، لكن الكمادة مثبتة على الظهر، ولا تستطيع نزعها، وهذه هي اللحظة التي يستمتع بها المتفرجون كثيراً. خلال الدقائق الخمس الأخيرة لاحظت نوعاً من الخدر غير المتوقع. بعد أن أزالوا الكمادة عني، أقحموا وسادة مقاومة للماء فيها جليد تحت رأسي

وتركوني لوحدي. لم أنم، وبحدود معرفتي كانت هذه الليلة الوحيدة في حياتي - الليلة الوحيدة التي أقضيها في سرير - ولم أنم فيها ولو لدقيقة واحدة.

خلال ساعتي الأولى في مشفى سين، تعرضت لسلسلة مختلفة من العلاجات المتناقضة، لكن هذا تضليل وخداع. وعلى العموم أنت لا تحصل على أي علاج إطلاقاً سواء كان جيداً أم سيئاً، إلا إن كنت مريضاً في طريقة مشوقة وتثقيفية. في الخامسة صباحاً تقوم الممرضات بجولة يوقظن فيها المرضى، وينظرن إلى درجات حرارتهم، لكنهن لا يقمن بغسلهم. إن كنت بصحة جيدة تكفي أن تغسل نفسك، وإلا فعليك الاعتماد على لطف بعض المرضى المتجولين. وكانت العادة أن المرضى هم الذين يحملون قوارير الأسرة ونونية السرير المقيتة المسماة كسرولة. في الثامنة يصل الفطور المسمى على النمط العسكري بالحساء. وهو عبارة عن حساء خضار رقيق تطفو فوقه كتل دسمة من الخبز. في وقت لاحق من النهار يقوم الطبيب ذو اللحية المهيبة الطويلة السوداء بجولاته مع طبيب مقيم وفرقة من الطلاب في أعقابه، لكن يوجد في الجناح حوالي الستين شخصاً منا، ومن الواضح أن لديه أجنحة أخرى يزورها أيضاً. هناك أسرة كثيرة يتجاوزها يوماً بعد آخر، تتبعه منها صيحات توسل أحياناً. من جانب آخر، إن كان لديك مرض ما يرغب الطلاب في الاطلاع عليه، فإنك تنال الكثير من الاهتمام. أنا نفسي مع عينة رائعة استثنائية من الخشخشة القصبية يكون لدي، أحياناً، عدد كبير من الطلاب المصطفين في رتل ليسمعوا صدري. كان شعوراً غريباً جداً - غريب، أقصد، بسبب اهتمامهم المكثف بتعلم مهنتهم معاً مع نقص واضح لأي تفهم وإدراك أن المرضى كائنات إنسانية. من الغريب أن أروي ذلك، لكن أحياناً حين يتقدم أحد الطلاب ليأخذ دوره في معالجتك باليد، كان يرتعش فعلياً من الإثارة مثل صبي وضع يده أخيراً على قطعة ثمينة من آلة، ثم بعد ذلك الأذن تل تلو الأخرى لشبان وشابات من السود - تضغط على ظهرك وسباق متناوب من الأصابع الوقورة التي تنقر بطريقة خرقاء من دون أن تحصل منهم على كلمة أو حديث أو نظرة مباشرة في وجهك. مريض مجاني في قميص نوم موحد، إذاً أنت أولاً وقبل كل شيء عينة، شيء لم أمتعظ منه، لكنني لم أعتد عليه تماماً أبداً.

بعد بضعة أيام تحسنت صحتي، وسمحت لي في الجلوس معتدلاً ودراسة المرضى المحيطين بي. كان في الغرفة ذات الهواء الفاسد وأسرتها الضيقة المتقاربة كثيراً لدرجة

يمكنك فيها لمس يد جارك بسهولة، كل أنواع المرض ما عدا، كما أعتقد، الحالات المعدية الحادة. كان جاري الذي على يميني إسكافياً أحمر الشعر، لديه ساق أقصر من الأخرى، وكان يعلن موت أي مريض آخر (حدث هذا عدة مرات، وكان جاري الأول الذي يسمع بذلك دائماً) فيصفر لي هاتفاً "رقم ٤٣!" (أو أياً كان) ويقذف بذراعه فوق رأسه. هذا الرجل لم يكن متضرراً كثيراً، لكن في أغلب الأسرة الأخرى التي ضمن زاوية رؤيتي، كان يحدث بعض من مأساة قذرة أو بعض من الرعب السافر. في السرير الذي تحاذي نهايته نهاية سريري استلقى هناك حتى مات (أنا لم أره يموت - نقلوه إلى سرير آخر) رجل ضئيل كان يعاني من مرض لا أعرفه، لكنه شيء جعل جسده كله حساساً جداً لدرجة أن أية حركة من جانب إلى آخر وحتى ثقل ملاءات السرير أحياناً، تجعله يصرخ عالياً من الألم، لكن أسوأ عذاباته كان التبول، فقد كان يقوم به بصعوبة بالغة. كانت إحدى الممرضات تجلب له قنينة السرير، ثم تقف بعد ذلك بجانب سريره لوقت طويل كما يفعل ساسة الخيل مع الخيول كما يقال، ومع زعيق حاد بـ"أنا أنفلق" حتى. في السرير المجاور له، كان الرجل ذو الشعر الرملي الذي رأيته يعالج بالحجامة وكان يسعل مخاطاً مقلماً بالدم في كل الساعات. جاري الذي على يساري شاب طويل مترهل، كانوا يدخلون أنبوباً في ظهره دورياً ويسحبون منه كميات مذهلة من سائل مزبد من جزء ما في جسده. في السرير الذي يلي ذلك، يوجد محارب قديم من حرب ١٨٧٠ كان يحتضر، رجل عجوز وسيم مع لحية إمبراطورية بيضاء، تتجمع حول سريره في كل الساعات التي تسمح فيها الزيارات أربع نساء كبيرات في السن قريبات له، يرتدين الأسود، ويجلسن مثل الغربان تماماً. من الواضح أنهن يخططن من أجل ميراث هزيل. في السرير المقابل لسريري في الصف الأبعد، هناك رجل عجوز أصلع مع شاربين متدليين ووجه وجسد منفوخين كثيراً، كان يعاني من مرض ما يجعله يتبول بشكل متواصل تقريباً. انتصب إناء زجاجي ضخم بجانب سريره بشكل دائم. في أحد الأيام أتت زوجته وابنته لزيارته. أشرق وجه الرجل العجوز المنتفخ برؤيتهما بابتسامة حلوة مدهشة، وحين اقتربت ابنته وهي فتاة جميلة في العشرين من عمرها تقريباً، من سريره، رأيت يده تشق طريقها ببطء من تحت ملاءات السرير. تصورت أني أعرف مسبقاً الإيماءة التالية - الفتاة جاثية بجانب

السرير ويد الرجل العجوز المحتضر تستقر على رأسها ليباركها. لكن كلا لم يحدث هذا؛ لقد ناولها قارورة السرير، فأخذتها منه في الحال، وأفرغتها في الوعاء.

على بعد عشرة أسرّة مني كان الرقم ٥٧ - أعتقد أن ذاك هو رقمه - حالة تشمع كبدي. كل من في الجناح يعرفه من منظره، لأنه كان موضوع المحاضرة الطبية أحياناً. في محاضرتين بعد الظهر أسبوعياً يحاضر طبيب طويل رزين في الجناح في فرقة من الطلاب، وفي أكثر من مناسبة كانوا يأخذون العجوز رقم ٥٧ بعربة مدولبة إلى وسط الجناح؛ حيث يشمر الطبيب قميص نوم العجوز ويوسع بأصابعه نتوءاً ضخماً مترهلاً في بطن المريض - كبد المريض كما أعتقد - ويشرح برزانة أن هذا مرض يُعزى للإدمان على الكحول وأنه أكثر شيوعاً في البلدان التي تشرب الخمر. كالعادة هو لم يتكلم مع مريضه، ولم يمنّ عليه بابتسامة أو حتى إيماءة من أي نوع من العرفان بالجميل. كان يمسك بالجسد المخرب تحت يديه، وهو يتحدث برزانة وباستقامة، وأحياناً يعطيه دحرجة لطيفة إلى الأمام والخلف في وضع مماثل تماماً لامرأة تمسك بمرقاق العجين. ولم يهتم الرقم ٥٧ كذلك بهذا النوع من الشيء. من الواضح أنه كان نزيل مشافٍ قديم وعرض دائم في المحاضرات، وقيمة كبده تناقصت منذ زمن طويل إلى قنينة في أحد متاحف علم الأمراض. لم يكن مهتماً إطلاقاً بما يقال له، وكان يستلقي بعينيه البليدتين اللتين تحدقان بلا شيء، بينما يعرضه الطبيب مثل قطعة أثرية صينية عتيقة. كان رجلاً في حوالي الستين من عمره، تقلص وانكمش بشكل مذهل. اصفرّ وجهه الشاحب الجلدي وانكمش كالرق، حتى بدا بحجم وجه الدمية.

في صباح أحد الأيام أيقظني جاري الإسكافي بسحب وسادتي قبل أن تصل الممرضات. "رقم ٥٧!" - وقذف بذراعيه فوق رأسه. كان في الجناح ضوء يكفي للرؤية، فاستطعت أن أرى العجوز رقم ٥٧ ممدداً، وقد تكوم على جانبه ونتأ وجهه من فوق طرف السرير واتجه نحوي. مات في الصقيع أثناء الليل، ولم يعرف أحد متى. حين أتت الممرضات، تلقين خبر موته بلا مبالاة وتابعن عملهن. بعد وقت طويل ربما ساعة أو أكثر، دخلت ممرضتان تمشيان جنباً إلى جنب كالجنود مع صخب هائل للقباقيب، وربطتا الجثة بالملاءات، ولم تُنقل حتى وقت متأخر.

في هذه الأثناء في الضوء الأفضل، توفر لي الوقت لنظرة جيدة على رقم ٥٧. في الحقيقة استلقيت على جانبي لأنظر إليه. الغريب أنه كان أول أوروبي ميت أراه. رأيت رجالاً أمواتاً

من قبل، لكنهم كانوا من الآسيويين عادة الذين ماتوا ميتة عنيفة عادة. كانت عينا رقم ٥٧ مفتوحتين وفمه مفتوح أيضاً والتوى وجهه الصغير في تعبير من الألم المبرح. لقد أثر بي بياض وجهه أكثر من غيره. كان شاحباً سابقاً، لكنه بات الآن أدكن قليلاً من ملاءات الموت. حين تفرست بالوجه الصغير جداً الملتوي، خطر لي أن هذه القطعة المقززة من النفاية التي كانت تنتظر لتُنقل بعربة وتُكب على لوح في غرفة المشرحة، كانت مثالاً عن "الموت الطبيعي" الذي هو أحد الأشياء التي تتضرع وتبتهل من أجله في صلواتك. هذا هو ما ينتظرك بعد عشرين أو ثلاثين سنة من الآن: تلك هي الطريقة التي يموت فيها المحظوظون الذين يظلون أحياء ويطعنون في السن. يريد المرء أن يعيش طبعاً، وفي الحقيقة يبقى المرء حياً بفضل خوفه من الموت، لكنني أعتقد الآن كما اعتقدت سابقاً أن الأفضل للمرء أن يموت ميتة عنيفة بدلاً من أن يموت من الهرم. يتحدث الناس عن رعب الحرب، لكن أي سلاح اخترعه الإنسان اقترب في قسوته وحشيته من بعض الأمراض الشائعة؟ إن الموت "الطبيعي" بالتعريف تقريباً، يعني شيئاً بطيئاً وكريهاً ومؤلماً، وحتى هذا يفرق كثيراً إن استطعت إنجازه في بيتك الخاص وليس في مؤسسة عامة. فهذا الهرم البائس المسكين الذي انطفأ مثل عقب شمعة، لم يكن مهماً ليسهر عليه أحد بجانب سرير احتضاره. لقد كان مجرد رقم ثم "جثة" لمباضع الطلاب وتلك العلنية الخسيسة للموت في هكذا مكان! في المستشفى سين حيث الأسرة متقاربة جداً وليس هناك ستائر. تخيل أنك ستموت مثل ذلك الرجل الصغير الحجم الذي كانت نهاية سريره بمحاذاة نهاية سريري، الشخص الذي كان يصرخ بصوت عال حين تلمسه ملاءات السرير! أعتقد أن آخر كلماته المسجلة كانت "أنا أبول". ربما الذين يحتضرون لا يقلقون أنفسهم بأشياء كهذه - هذا هو الجواب القياسي على الأقل - لكن المحتضرين أشخاص أسوياء في عقولهم في معظم الأوقات تقريباً حتى ضمن يوم أو حوالي ذلك من النهاية.

في الأجنحة العامة لأي مستشفى ترى رعباً لا يمكن أن تلقاه بين أناس يرتبون للموت في بيوتهم الخاصة، كأن أمراضاً معينة لا تهاجم إلا الناس من ذوي الدخول الأكثر تدنياً. لكن في الحقيقة أنت لن ترى في أي مستشفى إنكليزي بعضاً مما رأيته في المستشفى سين. مسألة موت الناس مثل حيوانات تنفق مثلاً دون وجود أحد يقف إلى جانبهم ويهتم بهم أو لا يلاحظ الموت نفسه حتى الصباح - هذا حدث أكثر من مرة. بالتأكيد لا يمكن أن ترى ذلك في

إنكلترا، والأندر من ذلك أن ترى جثة تركت على مرأى المرضى الآخرين. أتذكر مرة في مستشفى صغير في إنكلترا احتضر رجل بينما كنا نشرب الشاي، وعلى الرغم من أننا كنا ستة أشخاص في الجناح فقط، فقد رتبت الممرضات الأشياء ببراعة، لذلك مات الرجل وأزيحت جثته، ولم نسمع كلمة حتى انتهى الشاي. شيء نبخسه قيمته في إنكلترا، وهو أننا نتمتع بامتلاكنا أعداداً كبيرة من الممرضات المدربات جيداً والمنضبطات بشكل صارم. لا شك أن الممرضات الإنكليزيات غبيات بما يكفي - وربما يقرأن الحظوظ بأوراق الشاي ويلبسن شارات العلم البريطاني ويحتفظن بصور للملكة على رفوف مواقدهن، لكنهن على الأقل لن يتركنك تستلقي وأنت متسخ دون غسيل ومصاب بالإمساك على فراش غير مرتب بدافع الكسل المحض. لازال في ممرضات المستشفى سين أثر من السيدة غامب. ولقد رأيت مؤخراً في المشافي العسكرية في إسبانيا الجمهورية ممرضات جاهلات جداً تقريباً حتى لأخذ درجة الحرارة. لن ترى ذلك في إنكلترا أيضاً مثل القذارة الموجودة في مستشفى سين. فيما بعد، حين تحسنت صحتي لدرجة تكفي لأغسل نفسي في الحمام، اكتشفت وجود كيس ضخم معبأ هناك فيه كسرات الخبز والتوابل التي يرميها الجناح، وكان طلاء الجدران الداخلية يعج بالصراصير. حين استرددت ثيابي واسترجعت قوتي للوقوف، هربت من مستشفى سين قبل أن تنتهي مدتي ودون انتظار تسريحي الطبي. لم أهرب من المستشفى سين فقط، وإنما من كآبتها وعريها ورائحتها المثيرة للغثيان، وقبل كل شيء من شيء استثنائي في جوها العقلي يبرز في ذاكرتي بوضوح. لقد أُخذت إلى هناك لأنها كانت مستشفى تتبع للمنطقة الإدارية التابع لها، ولم أعلم إلا لاحقاً أنها تحمل سمعة شائنة. بعد سنة أو اثنتين من ذلك، أخذت المحتالة الشهيرة مدام هانود التي مرضت وهي في السجن الاحتياطي، إلى مستشفى سين، وبعد أيام قليلة نجحت في التملص من حراسها، وأخذت سيارة أجرة وعادت إلى السجن، وعللت ذلك أنها كانت مرتاحة أكثر في السجن. ليس لدي شك بأن مستشفى سين ليست المثال النموذجي عن المشافي الفرنسية آنذاك. لكن المرضى الذين كلهم من العمال تقريباً كانوا مستسلمين بشكل يثير الدهشة. كان بعضهم يجد الظروف مريحة تقريباً واثنان منهم على الأقل كانا متمارضين معدومين، وجدا هذا طريقة جيدة لقضاء الشتاء. الممرضات تواطأن معهما لأن المتمارضين يفيدون في القيام بمهام غريبة. لكن موقف الأغلبية كان: هذا مكان مقمل طبعاً

لكن ما الذي تتوقعه غير ذلك؟ لم يستغربوا أن تستيقظ في الساعة الخامسة ثم تنتظر ثلاث ساعات قبل بدء يومك بحساء رديء، أو أن يموت الناس دون أن يجدوا من يقف بجانب سريرهم، أو أن فرصتك في الحصول على عناية طبية تعتمد على لفت اهتمام الطبيب وهو يمر من جانبك. حسب تقاليدهم هذا هو حال المستشفيات. إن كنت مصاباً بمرض خطير وكنت فقيراً لا تستطيع أخذ العلاج في بيتك الخاص، عليك إذاً الدخول إلى المستشفى، وعليك أيضاً تحمل الإزعاج والمشقة كما تفعل في الجيش. لكن في رأس هذا أنا مهتم في إيجاد اعتقاد متبق في الحكايات القديمة التي خبت من الذاكرة تقريباً الآن في إنكلترا - مثلاً، قصص عن أطباء يقطعونك ويفتحون بطنك لمجرد الفضول أو الاعتقاد بأنه من المسلي أن يجروا لك عملية جراحية قبل أنت تدفن "تحت" بشكل لائق. هناك قصص كئيبة عن غرفة عمليات صغيرة كانت وراء الحمام مباشرة، وكانت تصدر من هذه الغرفة صرخات مرعبة كما قيل. لم أر ما يؤكد هذه القصص، ولا شك أنها كانت هراء، رغم أنني رأيت طالبين يقتلان صبياً في السادسة عشر من عمره أو كادا يقتلانه (بدأ يحتضر حين غادرت المستشفى، لكنه ربما شفي لاحقاً) بواسطة تجربة عبثية. حسناً في الذاكرة الحية كان الاعتقاد في لندن أن المرضى كانوا يُقتلون في بعض المشافي الكبيرة للحصول على جثث للتشريح. لم أسمع بتكرر هذه الحكاية في مستشفى سين، لكن أفترض أن بعض الرجال يصدقونها. تكمن غرابة هذا المستشفي ليس في الأنظمة والطريق فقط، وإنما في جوها الذي يعود إلى القرن التاسع عشر أيضاً.

أثناء السنوات الخمسين الماضية تقريباً حدث تبدل عظيم في العلاقة بين الطبيب والمريض. لو نظرت إلى أي نتاج أدبي قبل القسم الأخير من القرن التاسع عشر، ستجد أن المستشفى كانت تعتبر شعبياً شيئاً مثل السجن، بل هي سجن قديم الطراز وزنازين محصنة ومكان للقذارة والتعذيب والموت، وهي نوع من حجرة انتظار إلى القبر. لا يفكر أحد سوى المعدم والمعوز تقريباً في دخول مثل هذا المكان للعلاج، وفي القسم الأول من القرن السابق خصوصاً حين ازدادت جرأة العلوم الطبية أكثر من قبل دون تحقيق أي نجاح إضافي، كان الناس العاديون ينظرون إلى عمل التطبب برمته برعب وخشية أكثر من قبل، وأن الجراحة على وجه الخصوص ليست أكثر من شكل شنيع إلى حد غريب من السادية، واعتبر التشريح الذي لم يكن ممكناً إلا بمساعدة خاطفي الجثث، استحضاراً للأرواح. من القرن التاسع عشر، يمكن

جمع نتاج أدبي مرعب كبير متعلق بالأطباء والمشافي. فكر في المسكين العجوز جورج الثالث الذي كان في خرفه يصرخ طلباً للرحمة حين يرى جراحيه يقتربون منه لـ "فصد دمه حتى يغمي عليه"! وفكر في أحاديث بوب سوير وبينجامين ألين التي هي ليست حكايات هزلية بلا شك، أو في الكارثة والحرب والسلام أو ذلك الوصف الصادم لعملية بتر في السترة البيضاء؛ لميلفيل. حتى الأسماء التي أعطيت للأطباء في قصص القرن التاسع عشر الشرّاط والنقاش والنشار والدفان وهلم جرا واللقب الشامل "منشار العظام"، كانت مقيتة بقدر ما هي تهكمية. إن أفضل تعبير للعرف العدائي للجراحة، هو قصيدة تينيسون أطفال المستشفى، وهي أساساً وثيقة لفترة ما قبل البنج، لكنها كتبت في وقت متأخر في عام ١٨٨٠ كما يبدو. إضافة إلى ذلك فإن النظرة التي يدونها تينيسون في هذه القصيدة يقال عنها الكثير. حين تفكر كيف يجب أن تكون العملية الجراحية بدون مخدر وأي صيت رديء لها، من الصعب ألا ترتاب في دوافع الناس الذين يتولون أشياء كهذه، وأن هذه الأعمال المرعبة الدموية التي يتطلع إليها الطلاب بتشوق "منظر رائع إن أجراها الشرّاط!" كانت عديمة الجدوى تقريباً باعتراف الجميع: المريض الذي لا يموت بالصدمة يموت عادة بالغنغرينا (الموات أو الأكال) وهي نتيجة بديهية ومسلم بها. كل من عانى كثيراً من المرض أو استمع إلى حديث طلبة الطب، يعرف ماذا أقصد. لكن العقاقير المخدرة كانت نقطة تحول، والمطهرات نقطة أخرى. لا يوجد مكان في العالم الآن ترى فيه نوع المشهد الذي وصفه اكسيل مونثي في قصة سان ميشيل، حين كان الجراح الشرير ذو القبعة العالية ومعطف الفراك وقميصه المنشى الذي تلطخ صدره بالدم والصديد، يقطع المريض تلو الآخر بنفس السكين ويرمي الأعضاء المنفصلة في كوم بجانب الطاولة. إضافة إلى ذلك، فقد قضى الضمان الصحي الوطني على فكرة أن مريض الطبقة العاملة عالة ولا يستحق سوى القليل من الاهتمام. حتى وقت ما من هذا القرن كان من العادي أن تقتلع أسنان المرضى "المجانين" بدون مخدر في المشافي الكبيرة. هم لم يدفعوا، فلماذا نوفر لهم المخدر؟ - هذا هو الرأي والنظرة. هذا تبدل أيضاً.

مع ذلك، فكل مؤسسة ستحمل ذاكرة متبقية من ماضيها دائماً. الغرفة الثكنة لازالت مسكونة بأشباح كيبلينغ، ومن الصعب أن تدخل إصلاحية للأحداث دون أن تذكرك بـ أوليفر تويست. بدأت المستشفيات كنوع من المعتقلات للمجذومين وأمثالهم ليموتوا فيها،

واستمرت كأماكن يتعلم فيها طلاب الطب مهنتهم بأبدان الفقراء. مازال بإمكانك أن تلمح مسحة باهتة من تاريخها في هندستها المعمارية المتميزة بالكآبة. سأبتعد عن التذمر من المعالجة التي تلقيتها في أي مستشفى إنكليزي، لكني أعرف أن الغريزة التي تحذر الناس في الابتعاد عن المشافي إن أمكن ذلك، هي فطرة سليمة وصحيحة وخصوصاً الأجنحة العامة فيها. مهما يكن الموقف القانوني، فمن المؤكد وغير القابل للشك أن سيطرتك على علاجك الخاص بك، ستكون أقل بكثير، ويكون يقينك أقل بكثير ألا تجرى عليك التجارب العبثية حين تكون مسألة "اقبل بالتعليمات أو اخرج". شيء عظيم أن تموت في سريرك الخاص بك، ومن الأفضل كذلك أن تموت وأنت متنعلاً حذاءك. مهما تكن الرأفة والكفاءة في أي مستشفى، فإن الموت فيها يكون تفصيلاً ثانوياً قاسياً وقذراً، شيء ربما أصغر من أن يروى، لكنه يترك ذكريات مؤلمة بشكل رهيب خلفه، ينشأ من العجلة والاكتظاظ ومن تجرد المكان من العواطف الإنسانية، المكان الذي يموت فيه الناس يومياً وسط أشخاص غرباء.

ربما مازال الفزع من المشافي باقياً بين الفقراء جداً، والذي لم يختف ثينا كلنا إلا مؤخراً. إنه لطخة سوداء ليست بعيدة عن سطح أذهاننا. لقد قلت في البدء إنني حين دخلت إلى الجناح في المستشفى سين، كنت مدركاً لشعور غريب من الألفة. ذكرني المشهد طبعاً بمستشفيات القرن التاسع عشر ذات الروائح الكريهة التي يملأها الألم، والتي لم أرها أبداً ولكن لدي معرفة تقليدية بها. وهناك شيء، ربما الطبيب الذي يرتدي الأسود مع حقيبته السوداء المزرية أو ربما الرائحة المثيرة للغثيان فقط، لعبت دوراً في الكشف عن قصيدة تينسون من ذاكرتي الدفينة، أطفال المستشفى، التي لم أفكر بها منذ عشرين سنة. حين كنت طفلاً، حدث أن قرأتها لي ممرضة بصوت عال، ربما امتدت حياتها للوراء إلى العصر الذي كتب فيه تينسون القصيدة. كانت حالات الرعب والعذاب في المشافي القديمة ذكرى نشطة بالنسبة إليها. ارتعدنا فوق القصيدة معاً ثم نسيتها بعد ذلك على ما يبدو. حتى اسمها لم يكن يذكرني بأي شيء. لكن اللمحة الأولى من الغرفة المضاءة بشكل سيء والممتلئة بالدمدمة مع أسرتها القريبة جداً من بعضها البعض، أيقظت فجأة سلسلة أفكار تنتمي إليها. وفي الليلة التي تلت، وجدت نفسي أتذكر القصة كلها وجو القصيدة مع كثير من أبياتها كاملة.

الكاتب البروليتاري

حوار بين جورج أورويل وديزموند هوكنز

هوكنز: كنت أشكك دائماً بوجود أدب بروليتاري. سؤالي الأول ماذا يقصد الناس به؟ هل نتوقع منه أن يكون أدباً كتب خصيصاً للبروليتاريا ويقرأ من قبلها؟

أورويل: كلا. لا بالتأكيد. في تلك الحالة يكون الأدب البروليتاري بعضاً من صحف الصباح، لكن بإمكانك رؤية وجود منشورات مثل **الكتابة الجديدة ومسرح الوحدة**. للمصطلح معنى ما لكن لسوء الحظ اختلطت به أفكار مختلفة. يقصد الناس به أدباً تحظى فيه وجهة نظر الطبقات العاملة بفرصة الاستماع إليها، والتي يفترض بها أنها تختلف عن وجهة نظر الطبقات الغنية، كما اختلط ذلك بالدعاية الاشتراكية أيضاً. لا أظن أن الذين يرمون هذا التعبير هنا وهناك يقصدون به أدباً يكتبه البروليتاريون. كان دبليو إتش ديفيز من البروليتاريا، لكنه لم يوصف ككاتب بروليتاريا، ووصف بول بوتس كاتباً بروليتارياً، ولم يكن من البروليتاريا. سبب شكي في الفكرة هو أنني لا أعتقد أن بإمكان البروليتاري إبداع أدب مستقل، والبروليتاريا ليست الطبقة المسيطرة. أعتقد أن أدبها يجب أن يكون أدباً برجوازياً بنكهة مختلفة قليلاً. أخيراً ما يفترض أنه جديد هو الوضع القديم مقلوباً على رأسه. إن القصائد التي كتبت عن الحرب الأهلية الإسبانية مثلاً كانت نسخاً عن المادة التي كتبها روبرت بروك في عام ١٩١٤.

هوكنز: لكن أعتقد أن على المرء أن يعترف بجماعة الأدب البروليتاري وبتأثيرها، سواء كانت النظرية صحيحة أم لا. انظر إلى كتاب مثل جيمس هانلي أو جاك هيلتون لديهم جديد يقولونه، شيء لم يقله أي أحد من الطبقة الوسطى العادية. طبعاً هناك قدر هائل من النفاق حول الأدب البروليتاري بعد سنوات من هبوط الأسعار حين أصبحت جماعة بلومزبيري (مجموعة من الأدباء والفنانين أشهرهم برتراند راسل وفيرجينيا وولف - المترجم) ماركسية كلها وأصبحت الشيوعية موضة رائجة، لكن الشيء بدأ قبل ذلك. يجب أن أقول إنه بدأ قبل

الحرب الأخيرة حين التقى مُحرِّر إنكليش ريفيو بدي إتش لورانس، ورأى فيه بشير لطبقة جديدة وجدت تعبيراً لها في الأدب. في الحقيقة لقد طرق كتاب أبناء وعشاق للورانس مجالاً جديداً مسجلاً بذلك تجربة لم يعرفها عالم النشر من قبل، ومع ذلك شاركته الملايين من الناس فيها. السؤال هو لماذا لم تدون قبل ذلك؟ ولماذا لم تكن هناك كتب مثل أبناء وعشاق قبل ذلك؟

أورويل: أعتقد أن المسالة ببساطة تتعلق بالتعليم. على أي حال نال لورانس تعليماً لا يختلف عن تعليم الطبقة الوسطى، رغم أنه كان ابن عامل منجم، وكان خريجاً جامعياً كما تذكر. قبل تاريخ محدد، قبل التسعينات حين بدأ تطبيق مرسوم التعليم، قلة قليلة من البروليتاريا استطاعت أن تكتب: أقصد أن تكتب بتسهيلات كافية لتنتج كتاباً أو قصة، ومن جانب آخر لا يعرف الكتاب المحترفون شيئاً عن حياة البروليتاريا. يشعر المرء بهذا حتى مع كتاب راديكاليين حقيقيين مثل ديكنز. لم يكتب ديكنز عن الطبقة العاملة، وهو لا يعرفها كفاية. لقد ناصر الطبقة العاملة، لكنه كان يشعر باختلافه التام عنها، أكثر مما يحس به أي فرد عادي من الطبقة الوسطى في الزمن الحالي.

هوكنز: إذا كان ظهور البروليتاريا مكنها أخيراً من إنتاج كتب، ما يعني تطوراً جديداً في الأدب موضوعه جديد كلياً وكذلك نظرته إلى الحياة؟

أورويل: نعم إلا فيما يتعلق بأن تجربة كل الطبقات في المجتمع تميل لأن تتشابه أكثر فأكثر. أنا أؤكد أن الفروق الطبقية في بلد مثل إنكلترا ليست فروقاً حقيقية الآن، لذلك لا يمكن أن تستمر أطول من ذلك. قبل خمسين سنة أو حتى عشرين، كان عامل المصنع والحرفي الصغير كائنين مختلفين، لكنهما متشابهين جداً في الوقت الحالي، رغم عدم إدراكهما لهذا. يشاهدان نفس الأفلام ويستمعان لنفس الراديو ويلبسان ثياباً متشابهة جداً ويسكنان في بيوت متشابهة. ما كان يسمى بروليتاري أو ما قصده ماركس بالبروليتاري، غير موجود الآن إلا في الصناعات الثقيلة وعلى الأرض. لكن ليس هناك شك بأن هذه خطوة كبيرة حين تطبع حياة الطبقة العاملة على الورق وتنشر. أعتقد أنها فعلت شيئاً لإعادة الفن القصصي إلى الواقع، وأبعدته عن الهراء المبالغ في التمدن الذي كتبه غلاسورثي وأمثاله. أعتقد أن الكتاب الأول الذي فعل هذا: المحسنون ذوو السراويل المرقعة الذي يبدو لي دائماً كتاباً رائعاً رغم أنه

كتب بلا اهتمام كبير. لقد دوّن أشياء كانت تجارب يومية لكنها لم تلاحظ من قبل. مثل القول إنه لم يلاحظ أحد قط قبل عام ١٨٠٠ بعد الميلاد أن البحر كان أزرق. جاك لندن كان رائداً في نفس الخط أيضاً.

هوكنز: ماذا عن اللغة والتكنيك؟ يقول سيريل كونولي، وقد تتذكر ذلك، إن الإبداعات العظيمة في الأدب أنجزت في التكنيك وليس المحتوى، والمثال على ذلك جويس الذي ليس عنده جديد سوى تكنيكه. لكن بالتأكيد هؤلاء البروليتاريون الثوريون لم يبدوا أي اهتمام في التكنيك؟ إن البعض منهم اختلف في الأسلوب قليلاً عن الروائيين الذين يحثون السيدة الورعة على الأخلاق. لقد كانت ثورتهم في المضمون – أليس ذلك؟

أورويل: أعتقد أن ذلك صحيح إلى حد بعيد. في الحقيقة أصبحت اللغة الإنكليزية عامية أكثر مما كانت قبل عشرين سنة، وذلك أفضل، لكننا استعرنا من أميركا أكثر بكثير مما أخذناه من الطبقة العاملة الإنكليزية. إن أحد الأشياء التي تلفت الانتباه، هي أن الكتاب البروليتاريين أو ممن يوصفون كذلك محافظون جداً. يمكننا أن نستثني كتاب ليونيل بريتن جوع وحب. لكن لو تفحصت مجلداً من الكتابة الجديدة، لن تجد تجارب كثيرة.

هوكنز: إذاً نحن نعود إلى هذا. إن ما يسمى بأدب بروليتاري يتمثل في الموضوع. أعتقد أن السحر حول هؤلاء الكتاب هو الحرب الطبقية والأمل بمستقبل أفضل وصراع الطبقة العاملة ضد الظروف المعيشية البائسة.

أورويل: نعم، الأدب البروليتاري في جوهره أدب ثورة. لا يمكنه أن يكون غير ذلك.

هوكنز: وخصامي معه حول هيمنة الاهتمامات السياسية عليه دائماً. أعتقد أن السياسيين والأدباء لا ينجحون معاً. هدف السياسي محدود دائماً وجزئي وقصير الأمد ومبسط جداً. يجب أن يكون هكذا كي يكون لديه أمل في التحقق. كمبدأ للعمل لا يمكنه أن يتحمل التفكير ملياً في نواقصه وفي الفضائل المحتملة لخصومه. لا يمكنه أن يفكر طويلاً في محنة ومأساة السعي الإنساني. باختصار يجب عليه أن يستثني الأشياء النفيسة في الفن. هل توافق أن الأدب البروليتاري حين يصبح أدباً، يكفّ عن أن يكون بروليتارياً – بالمعنى السياسي؟ أم أنه حين يصبح دعاية يكفّ أن يكون أدباً؟

أورويل: أعتقد أن ذلك تبسيطاً مفرطاً. قلت وأقول دائماً إن كل فنان هو مروج دعائي. لا أقصد المروج الدعائي السياسي. لا يمكن أن يكون غير ذلك إن كان يتمتع بأية مصداقية أو موهبة. أغلب الدعاية السياسية عبارة عن قول الأكاذيب ليس فيما يتعلق بالوقائع، وإنما بالمشاعر نفسها أيضاً. لكن كل فنان دعائي بمعنى أنه يحاول بصورة مباشرة أو غير مباشرة أن يعرض رؤية للحياة تبدو مرغوبة له. أعتقد أننا اتفقنا كثيراً حول الرؤية الحياتية التي يحاول الأدب البروليتاري فرضها. كما قلت قبل قليل إن السحر وراءه هو الحرب الطبقية. ذلك شيء حقيقي. بأي شكل أنه شيء يؤمن الناس به. شيء يموت الناس من أجله ويكتبون عنه أيضاً. لقد ماتوا من أجله في إسبانيا. رأيي في الأدب البروليتاري أنه مهم ومفيد حتى الآن، لكن من غير المرجح أن يكون دائماً أو بداية لعصر أدبي جديد. لقد تأسس على الثورة ضد الرأسمالية، والرأسمالية تختفي الآن. في الدولة الاشتراكية لن يجد الكثير من أدبائنا اليساريين من أمثال إدوارد ابوورد وكريستوفر كوديل وآليك بروان وآرثر كلادر مارشال وغيرهم الذين تخصصوا في مهاجمة المجتمع الذي يعيشون فيه، ما يهاجمونه. لنرجع لحظة إلى الكتاب الذي ذكرته آنفاً كتاب ليونيل بريتين جوع وحب. لقد كان بارزاً، وأظن أنه ممثل للأدب البروليتاري. حسناً، إنه يدور حول شاب بروليتاري يتمنى لو أنه لم يكن بروليتارياً. يستمر الكتاب في ظروف لا تحتمل من حياة الطبقة العاملة. السطح الذي يرشح والمغسلة التي تصدر رائحة منتنة وكل الأشياء المشابهة الأخرى. لا يمكن تأسيس أدب على سقف يرشح ومغسلة تصدر عنها رائحة نتنة. لا يمكنه أن يدوم كتقليد أكثر من حصار طروادة. يمكنك أن ترى خلف هذا الكتاب والكثير غيره التاريخ الحقيقي للكاتب البروليتاري الآن. من خلال حدث ما وغالباً ما يكون الكاتب على منحة البطالة لمدة طويلة - شاب من الطبقة العاملة ينال فرصة في التعلم الذاتي ثم يبدأ بعدها بكتابة الكتب، وطبيعي أن يستفيد من تجاربه السابقة ومعاناته الفقر وثورته ضد النظام القائم وهلم جرا، لكنه لا يبدع أدباً مستقلاً في الحقيقة. هو يكتب بأسلوب برجوازي وبلهجة الطبقة الوسطى. إنه ببساطة الخروف الأسود (الضحية) في العائلة البرجوازية، يستخدم أساليب قديمة لأغراض مختلفة قليلاً. لا تسئ فهمي. أنا أقول لا يمكنه أن يكون كاتباً جيداً كغيره، لكن إن كان كذلك فليس لأنه رجل عامل، وإنما لأنه شخص موهوب وتعلم أن يكتب بشكل جيد. طالما البرجوازية هي الطبقة المسيطرة، فيجب

أن يكون الأدب برجوازياً، لكن لا أظنها ستظل كذلك طويلاً أو أي طبقة أخرى أيضاً. أعتقد أننا نمر بفترة لاطبقية، وما نسميه أدب بروليتاري، هو إحدى علامات التغيير. لكنني لا أنكر ولو للحظة الخير الذي فعله - التأثير المنشط له في تمكين مثل وقيم تجربة الطبقة العاملة من الطبع والنشر.

هوكنز: وطبعاً كمكسب إيجابي. لقد ترك وراءه الكثير من الكتب الجيدة.

أوروبل: أوه نعم، كتاب جاك لندن **الطريق** وجاك هيلتون **كاليبان يصرخ** وجيم فيلان **كتب السجن** وجورج غاريت **قص البحر** وبرايفت ريتشارد **الجندي العجوز** صاحب وجيمس هانلي **أطفال غري** - لم نذكر سوى القليل فقط.

هوكنز: طوال هذا الوقت لم تقل شيئاً عن الأدب الذي تقرأه البروليتاريا - ليس الصحف الصباحية وإنما الأسبوعيات التي تباع بسنتين؟

أوروبل: نعم يجب أن أقول إن الصحف الأسبوعية أكثر نموذجية. صحف مثل هوم شات أو اكستشينج اند مارت وكيج بيردز.

هوكنز: ولم تقل شيئاً عن الأدب الذي يأتي من الناس أنفسهم. خذ القصائد الغنائية حول نار الخيمة للرجال الذي شقوا سكة حديد الباسيفيك الكندي وأكواخ البحر. قصائد الزنوج مثل "ستاغولي" ولوحات الشوارع القديمة - خصوصاً التي عن الإعدامات، النوع الذي يفترض أنه ألهم كيلينغ في كتابه "داني دوفر" ونقوش الرثاء على الأضرحة والقصائد الفكاهية المؤلفة من خمسة أبيات والإعلانات المقفاة - التصقت بالشعر، تلك هي الأدب المميز للبروليتاريا أليس كذلك؟

أوروبل: نعم وينبغي ألا ننسى الدعايات التي على البطاقات البريدية الملونة الهزلية وخصوصاً بطاقات دونالد ماكجيل. أنا متعلق بتلك على نحو خاص. أولاً والأهم الأغاني التي ألفها الجنود وغنوها لأنفسهم في الحرب الأخيرة، وأغاني الجيش الأخيرة لنداءات البوق والاستعراض العسكري - ذلك هو الشعر الحقيقي في زمننا، كالقصائد الغنائية في العصور الوسطى. من المحزن أنها غير قابلة للطبع دائماً.

هوكنز: لكن أخشى أننا انجرفنا إلى الأدب الشعبي، ويبدو لي أننا يجب أن نبقي الشيئين الاثنين متميزين عن بعضهما. أتصور مما قلته أن كلمة "بروليتاري" تكون بلا معنى إن فصلتها عن السياسة الثورية.

أورويل: نعم، مصطلح بروليتاري سياسي، لا ينتمي إلا إلى العصر الصناعي.

هوكنز: حسناً، أعتقد أننا متفقان تماماً على أن نظرية وجود أدب بروليتاري منفصل فاشلة. فعلى الرغم من كل الاختلاف الظاهر، فهو يندرج ضمن إطار ما تسميه بالكتابة البرجوازية.في اتفاق تام.

أورويل: أنا لا أقصد ببرجوازي وبرجوازية، الناس الذي يبيعون ويشترون فقط، وإنما أقصد كل الثقافة المهيمنة في عصرنا.

هوكنز: لو اتفقنا حول ذلك، يبقى علينا تقييم الدور والمساهمة التي قدمها ما يسمون بكتاب بروليتاريين، ولأنها مساهمة فمن السخف إهمال ذلك بحذف النظرية والتخلص منها.

أورويل: أعتقد بأنهم قدموا نوعين من المساهمة؛ الأول قدموا موضوعاً جديداً إلى حد ما دلّ كتاباً آخرين ليسوا من الطبقة العاملة، إلى النظر إلى أشياء كانت تحت أنوفهم ولم يلاحظوها من قبل؛ الثاني أدخلوا نغمة يكمن تسميها فجاجة وحيوية. كانوا صوتاً في الصالة منع الناس من أن يصبحوا مسرفين في التناغم والتمدن.

هوكنز: وهناك إسهام آخر أنت ذكرته آنفاً وهو اللغة. أكد تي إس ايليوت الأهمية الدائمة لاستجرار الكلمات المصاغة حديثاً إلى اللغة، وفي السنوات الأخيرة أتت هذه الكلمات الجديدة والعبارات من الطبقة العاملة بشكل أساسي. قد تكون من السينما أو الشارع أو عبر أية قناة، لكن الكاتب البروليتاري يستحق الفضل والشكر لإعطاء اللغة الإنكليزية الكثير من حيويتها ولونها.

أورويل: حسناً، طبعاً، السؤال إن كان لديها الكثير من اللون! لكن الشيء! لكن الشيء الذي نستطيع قوله عن النثر النموذجي في السنوات العشر الأخيرة، هو عدم احتوائه على الكثير من الزخارف والنعوت غير الضرورية. إنه بسيط. لكن هناك شك قليل إن كان هذا النوع من النثر الذي تطور بهذه الطريقة مناسباً للتعبير عن الأفكار المصقولة جداً لكنه ممتاز

لوصف الفعل، وهو ترياق جيد للنموذج المصقول بإفراط الذي اعتاد أن يكون الرائج - جيد جداً في طريقته طبعاً لكن ينزع إلى إضعاف اللغة برمتها.

هوكنز:حسناً لنختم - يبدو وكأن شعار الأدب البروليتاري قد حقق حشداً وتأييداً لعمل ما يستحق التملك، ومرتكزاً لكتاب الطبقة العاملة، سواء كانوا ثوريين أم لا في التكنيك أو في السياسة أو في الموضوع، لكن العبارة نفسها كمصطلح نقدي بلا فائدة عملياً.

أورويل: هناك فائدة معينة له كطابع لأدب مغاير ينتمي إلى فترة انتقال وتحول، لكن أتفق معك أنه لكي يكون هناك ما يمكن تسميته فعلياً بأدب بروليتاري، يجب أن تكون البروليتاريا الطبقة المسيطرة.

هوكنز: نعم، وبافتراض ذلك، يجب بالتأكيد أن تغير طبيعتها. وذلك يظل تاركاً السؤال الذي لامسناه للتو مفتوحاً - إلى أي مدى يمكن إدخال السياسة في الفن من دون أن تفسده؟

بثت في الخدمة الوطنية لمحطة البي بي سي في ٦ ديسمبر ١٩٤٠ ونشرت في ذا ليسنر في ١٩ ديسمبر ١٩٤٠.

مجلات الصبيان الأسبوعية
ورد ڤرانك ريتشاردز

لن تبتعد كثيراً في أي حي فقير في البلدات الكبيرة أبداً، من دون أن تصادف متجراً صغيراً لبيع الصحف. المظهر العام لهذه المحال نفسه دائماً: ملصقات قليلة **للديلي ميل ونيوز إف ذا ورلد** في الخارج، واجهة زجاجية صغيرة وضيقة مع قناني الحلويات ورزم من بليرز، وداخل مظلم تفوح منه رائحة كل أنواع الكحول، وأشرطة زينة من الأرض إلى السقف بصحف رخيصة، أغلبها مع رسوم أغلفة مثيرة في ثلاثة ألوان.

باستثناء الصحف النهارية والمسائية، مخزون هذه المحال نادراً ما يتطابق مع محلات بيع الصحف الكبيرة. خط مبيعاتها الرئيسي هو الأسبوعيات التي ببنسين، أما عدد وتنوع هذه الأسبوعيات فهو لا يصدق. لكل هواية وتسلية صحيفة على الأقل مكرسة لها من طيور الأقفاص والزخرفة بالنشر والنجارة والنحل والحمام الزاجل واستحضار الأرواح في البيت وجمع الطوابع البريدية والشطرنج وغيره. للبستنة وتربية الماشية هناك عشرون أسبوعية على الأقل، وهناك الصحف الرياضية وصحف الإذاعة وصحف رسوم الأطفال الهزلية وصحف القصاصات المتنوعة مثل **تيت - بيتس**، ونطاق واسع من الصحف المكرسة للأفلام، والتي تستغل سيقان النساء، وصحف الحرف المتنوعة، وصحف قصص النساء (**أوراكل، سيكريتس، بيغز بيبر**، إلخ إلخ) وصحف التطريز - هذه كثيرة جداً لدرجة أن عرضها لوحدها يملأ واجهة محل كاملة - بالإضافة إلى سلسلة طويلة من "**يانك ماغز**" (قصص الملاكمة وقصص الأكشن وقصص قصيرة غربية، إلخ) وهي نفايات محلات الكتب التي استوردت من أمريكا، وتباع ببنسين ونصف أو ثلاثة، والصحف الدورية التي تتظلل شيد زاف في قصص طويلة بأربع بنسات، **الداين بوكسينغ نوفيلز وبويز ريفايند لايبراري وذا سكولغيرلز اون لايبراري** وكثير غيرها.

ربما محتويات هذه المحلات، هي العلامة المتاحة الأفضل عما تشعر به وتفكر فيه جماهير الشعب الإنكليزي حقيقة. بالتأكيد ليس هناك شيء كاشف في شكل وثائقي على الإطلاق،

فالروايات الأكثر رواجاً مثلاً، تروي الكثير، لكن الرواية تستهدف حصرياً أناساً مستوى دخلهم الأسبوعي فوق الأربعة جنيهات، أما الأفلام فعلى الأرجح دليل غير موثوق عن الذوق الشعبي، لأن صناعة الأفلام عملياً احتكار، ما يعني أنها غير مجبرة على دراسة جمهورها عن كثب إطلاقاً. الشيء عينه يطبق إلى حد ما على الصحف اليومية، وأغلبه على الراديو. لكنه لا ينطبق على الصحف الأسبوعية ذات التوزيع القليل والمواضيع المختصة. صحف مثل **ايكستشينج اند مارت أو كيج - بيردز أو أوراكل أو بريديكشن أو ماتريمونيال تايمز** يعتمد وجودها على طلب محدد، فإنها تعكس أذهان قرائها، بشكل لا تستطيع فعله صحف يومية وطنية كبرى مع توزيع بالملايين.

هنا أنا سأتعامل مع سلسلة واحدة فقط من الصحف، أسبوعيات الصبيان الرخيصة، والتي توصف بشكل خاطئ بـ"القصص المثيرة التي تباع ببنس". تندرج بشكل صارم في هذا النوع هنا حالياً عشر صحف، **ذا جيم وماغنيت ومودرن بوي وتريومف وتشامبيون** التي تملكها المطبعة المندمجة، وذا **ويزارد وروفر وسكيبر وهوتسبر** وادفنتشر المملوكة من قبل دي سي ثومبسون اند كو. أنا لا أعرف حجم توزيع هذه الصحف. المحررون وأصحاب الملك يرفضون تحديد أي رقم. وفي كل الأحوال حجم توزيع أي صحيفة تحمل قصصاً متسلسلة محكوم بالتذبذب بشكل واسع، لكن ليس هناك شك بأن للصحف العشرة جمهوراً كبيراً جداً. فهي تباع في كل مدينة في إنكلترا، وكل صبي يقرأ تقريباً يمر بطور قراءة واحدة أو أكثر منها. **ذا جيم وماغنيت**، وهما أقدم هذه الصحف، هما من أنموذج مختلف عن البقية وخسرتا بعضاً من شعبيتهما خلال السنوات القليلة الأخيرة بشكل واضح، فهناك عدد جيد من الصبيان الآن يعتبرونهما قديمتي الطراز و"بليدتين". مع ذلك أريد أن أناقشهما أولاً لأنهما ممتعتان نفسياً أكثر من الأخريات، ولأن مجرد بقاء مثل هاتين الصحيفتين في ثلاثينات القرن العشرين ظاهرة مدهشة.

ذا جيم وماغنيت هما صحيفتان أختان (صفات إحداهما تظهر في الأخرى كثيراً) وبدأتا منذ أكثر من ثلاثين سنة، وكانتا بنفس الوقت الصحف الرئيسية والهامة للصبيان مع **تشامز وبي أو بي** القديمة، وظلتا مهيمنتين إلى وقت قريب جداً. تحمل كل واحدة منهما أسبوعياً قصة مدرسية من خمسة عشر أو عشرين ألف كلمة، تامة بنفسها لكنها متصلة تقريباً بقصة الأسبوع الذي سبق. بالإضافة إلى قصتها المدرسية، تحمل **ذا جيم** قصة مغامرات متسلسلة

واحدة أو أكثر. باستثناء ذلك، فالصحيفتان متشابهتان جداً لدرجة يمكن التعامل معهما كواحدة، لكن ذا ماغنيت كانت دائماً الأفضل، وذلك ربما لأنها تمتلك ميزة ممتازة في الصبي البدين، بيلي بنتر.

إن فحوى القصص عن الحياة المدرسية، أما المدارس (غريفرايرز في ذا ماغنيت وسينت جيم في ذا جيم) فتمثلان المؤسستين القديمة جداً والحديثة من أنموذجي ايتون أو وينشستر. كل الشخصيات الرئيسية صبيان من الصف الرابع بأعمار الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، ويظهر صبيان أكبر أو أصغر في أدوار ثانوية جداً فقط مثل سيسكتون بليك ونيلسون لي، فهذان الصبيان يستمران أسبوعاً تلو آخر وسنة تلو أخرى من دون أن يكبرا أبداً. بين حين وآخر يصل صبي جديد أو تسقط شخصية ثانوية، لكن الشخصيات لم تتغير بأي معدل في الخمس وعشرين سنة الأخيرة إلا نادراً. كل الشخصيات الرئيسية في كلتا الصحيفتين - بوب تشيري وتوم ميري وهاري وارتون وجوني بول وبيلي بنتر والبقية غيرهم - كانوا في غريفرايرز أو سينت جيم من قبل الحرب الكبرى بوقت طويل، وهم بنفس العمر تماماً كما في الوقت الحاضر، ولديهم نفس المغامرات تقريباً، ويتحدثون بنفس اللهجة تماماً. ولم تظل الشخصيات فقط بلا تغيير وإنما جو ذا جيم وماغنيت كله من خلال تطبيق أسلوب متقن جزئياً، فقصص صحيفة ذا ماغنيت توقع باسم "فرانك ريتشاردز"، وقصص صحيفة ذا جيم باسم "مارتن كليفورد"، لكن السلسلة تستمر لمدة ثلاثين سنة، ولايمكن أن تكون عمل الشخص نفسه أسبوعياً، وبناء على هذا كانت تكتب بأسلوب يسهل تقليده - أسلوب غير عادي متكلف وتكراري، يختلف تماماً عن أي شيء آخر موجود في الأدب الإنكليزي. اقتباسان من ذا ماغنيت يكفيان لعملية الإيضاح:

تأوه!

اصمت، يا بنتر!

تأوه!

لم يكن الصمت في الحقيقة في خط بيلي بنتر، فهو لا يصمت بالرغم من الطلب المتكرر. في المناسبة البغيضة المقدمة، لم يكن البوم البدين من غريفرايرز ميالاً إلى الصمت، وهو لم يصمت! تأوه وتأوه واستمر في التأوه.

حتى التأوه لم يعبر تماماً عن مشاعر بنتر، فمشاعره لا يمكن التعبير عنها في الحقيقة.

كان هناك ستة منهم في المأزق! لم ينطق بأصوات الولولة والعويل من الستة إلا واحد منهم فقط، وكان ذلك الواحد ويليام جورج بنتر الذي تلفظ بما يكفي ويزيد عن كل الفريق.

وقف هاري وارتون وشركاه في مجموعة حانقة وقلقة، وتم إنزالهم إلى اليابسة وسوقهم إلى الشاطئ؛ حيث خدعوا وأطعموا وحكم عليهم بالهلاك! إلخ إلخ إلخ.

وهذا مقتطف من ذا جيم:

أيها المغفل!

أيها المضغة!

أوووووف!

أووفف!

جلس آرثر أغسطوس مشوش الذهن. أمسك منديله وضغطه على أنفه المصاب، أما توم ميري فجلس يلهث من أجل نسمة، نظرا إلى بعضهما.

"بحق جوبيتر! هذه مباراة، أيها الصبي العزيز!" صاح آرثر أغسطوس بصوت متقطع. "لقد رميت في أخدود، آه المياه! المتوحشون! الدخلاء المخيفون! يا للهول!" إلخ إلخ إلخ.

هذان مقطعان نموذجيان تماماً: ستجد مثلهما في كل فصل تقريباً من كل عدد، سواء كان اليوم أو منذ عشرين سنة. الشيء الأول الذي يلاحظه أي واحد، هو المقدار غير العادي من الحشو (المقطع الأول يحتوي على مائة وخمس وعشرين كلمة، التي يمكن ضغطها إلى ثلاثين تقريباً) المصمم على ما يبدو لإطالة القصة، لكنه عملياً يلعب دوره في خلق الجو، ولنفس السبب تكرر تعبيرات فكاهية متنوعة مرة تلو أخرى مثل "حنق واهتز وسكب الطعام وهلك" كما تتكرر على الدوام أوووف! غروو! يارووو! (صيحات ألم) وهكذا ها! ها! ها! التي تأخذ سطراً كاملاً لوحدها دائماً. لهذا أحياناً يتألف ربع عمود تقريباً من "ها! ها! ها!" ولم تتبدل اللغة العامية كذلك (اذهب واجلد الكوك...مثلاً يا لها من جلدة! أنت حمار فرابجوس) لهذا يستخدم الصبيان الآن لغة عامية باتت عتيقة منذ ثلاثين سنة على الأقل. بالإضافة إلى ذلك تصقل الألقاب المتنوعة في كل مناسبة ممكنة، ونُذكّر دائماً بأن هاري وارتون

وشركاه هم "المشاهير الخمسة" وبنتر دائماً "البوم البدين" أو "بوم الصف الانتقالي" فيرمون - سميث دائماً المرح والصاخب في غريفرايرز، أما غوسي (المبجل آرثر أغسطوس دي اكري) فهو الأبرز في سينت جيم وهلم جرا. هناك محاولة دائمة لا تكل للحفاظ على سلامة الجو والتأكد من أن كل قارئ جديد يعرف فوراً كل شخصية ومن تكون. وفي النتيجة تحولت غريفرايرز وسينت جيم إلى عالم غير عادي بحد ذاتها، عالم لا يمكن أخذه على محمل الجد من قبل أي شخص فوق سن الخامسة عشرة، ولكنه بكل المعايير عالم لا يمكن نسيانه بسهولة. بنيت سلسلة من "الشخصيات" المقولبة في تقليد لأسلوب ديكنز بشكل ناجح جداً أحياناً، لهذا يجب أن يكون بيلي بنتر مثلاً واحداً من أشهر الشخصيات في القصص الإنكليزي؛ فهو بالنسبة إلى عدد الناس الذين يعرفونه، يحتل مرتبة مع سيكستون بليك وطرزان وشارلوك هولمز وحفنة من شخصيات ديكنز.

لا حاجة للقول بأن هذه القصص تختلف كثيراً جداً عن الحياة في مدرسة عامة حقيقية. إنها تحدث في دوائر من نماذج مختلفة، لكنها عموماً من أنموذج القصة الهزلية والصاخبة مع اهتمام مركز على مزاج خشن ونكات عملية وانتقادات لاذعة وجولات قتالية وضرب بعصي الخيزران وكرة قدم وكريكيت وطعام. قصة تتكرر باستمرار، وهي قصة صبي يتهم بجرم ما ارتكبه آخر، لكن يصعب على الرياضي كشف الحقيقة. الصبيان "الأخيار" هم "أخيار" في العرف المحتشم للرجل الإنكليزي - يواظبون على تدريب صعب ويغسلون خلف آذانهم ولا يضربون تحت الحزام أبداً إلخ إلخ، - وبالتباين هناك سلسلة من الصبيان "الأشرار" راك وكروك ولودر وآخرون الذين يتكون شرهم من المراهنات وتدخين السجائر وارتياد الحانات، وهؤلاء الصبيان دائماً على حافة الطرد، لكن بما أن طرد أي صبي فعلياً يعني تبديلاً في مجموع الشخصيات في القصة، لذلك لا يُمسك أي منهم في جرم خطير حقيقي. إن السرقة مثلاً نادراً ما تدخل كدافع، والجنس محرم تماماً، وخصوصا في الشكل الذي يظهر في المدارس العامة فعلياً. أحياناً تدخل الصبايا في القصة، ونادراً جداً ما يكون هناك ما يقارب الغزل المعتدل لكنه بروح الهزل الصرف. صبي وصبية يستمتعان برحلة على الدراجات الهوائية معاً - هذا كل ما تصل إليه، فالتقبيل مثلاً يعتبر "عاطفياً إلى حد مفرط" ويفترض أن الصبيان السيئين بلا جنس تماماً حتى. حين بدأت جيم وماغنيت، كانت هناك نية متعمدة في الابتعاد عن الجو الآثم الملوث بالجنس الذي تفشى

كثيراً جداً في أدب الأطفال الأقدم. في التسعينيات مثلاً كانت لصحيفة ذا بويز اوون بيب أعمدة مراسلة مملوءة بتحذيرات مرعبة ضد الاستمناء، وأثقلت كتب مثل شارع وينيفرد وأيام توم براون في المدرسة بالمشاعر اللوطية من دون أن يدرك مؤلفوها ذلك بلا شك. في ذا جيم وماغنيت لم يتواجد الجنس كمشكلة، وكان الدين أيضاً من المحرمات. وخلال ثلاثين سنة من إصدار الجريدتين، لم تخطر كلمة "رب" ماعدا في "أطال الرب عمر الملك". ومن جانب آخر كان هناك دائماً "ضبط للنفس" قوي جداً، واعتبر شرب الكحول والتدخين عملاً شائناً حتى في سن الرشد ("مضلل" الكلمة المعتادة) لكنهما كانا بنفس الوقت شيئاً فاتناً بشكل لا يقاوم ونوعاً بديلاً عن الجنس. في جوهما الأخلاقي ذا جيم وماغنيت تتشابهان كثيراً مع حركة صبيان الكشافة التي بدأت بنفس الوقت.

كل هذا النوع من الأدب منتحل جزئياً، فسيكستون بليك مثلاً بدأ بشكل صريح تماماً كتقليد لشارلوك هولمز وظل يشبهه بقوة: له معالم صقر ويعيش في شارع بيكر ويدخن بشكل هائل ويلبس رداء حريرياً بيتياً حين يريد أن يفكر. ربما تدين كل من ذا جيم وماغنيت بشيء إلى كتّاب القصة المدرسية القديمة الذين ازدهروا حين بدأ غنباي هداث وديزموند كوك والبقية، لكنهما تدينان أكثر إلى نماذج القرن التاسع عشر. إن شبه - إن وجد - ركبي توم براون بمدرسة عامة حديثة مثل شبه غريفرايرز وسينت جيم بالمدارس الحقيقية، فمثلاً لا يوجد في كلا المدرستين مدرب رياضية والألعاب ليست إجبارية، ويُسمح للأولاد فيهما بلبس الثياب التي يحبون. لكن المصدر الرئيسي لهاتين الجريدتين هو كتاب ستوكي اند كو بدون شك الذي كان له تأثير هائل على أدب الصبيان، وهو واحد من تلك الكتب التي تملك نوعاً من السمعة التقليدية عند أناس لم يروا في حياتهم نسخة واحدة منه. ففي أكثر من مرة وجدت إشارة إلى ستوكي اند كو في صحف الصبيان الأسبوعية، وكُتبت كلمة ستوكي فيها"ستوركي" كما أخذتا من الكتاب اسم الممثل الهزلي الرئيسي بين مدرسي غريفرايرز، السيد براوت من ستوكي اند كو أيضاً بالإضافة إلى الكثير جداً من اللغة العامية مثل مرح ومسبب للدوار وتجار وفرابجوس..إلخ، التي كانت قديمة حتى حين بدأت ذا جيم وماغنيت. هناك مصادر أسبق أيضاً، فربما أخذ اسم "غريفرايرز" من ثاكري وغوسلينغ وبواب المدرسة في ذا ماغنيت يتحدث مقلداً لهجة ديكنز.

لكن مع كل هذا، صُورت "الفتنة" المزعومة للحياة في المدرسة العامة بكل ما تستحق. هناك الممتلكات الشخصية وغرفة الحجز وسجل التفقد، والبيوت المصنوعة من عيدان الكبريت وتدخين السجائر، والطالب المتقدم (العريف)، والشاي الدافئ حول موقد الدراسة..إلخ - وإشارة دائمة إلى "المدرسة القديمة" و"الحجارة الرمادية القديمة" (كلا المدرستين أسستا في بداية القرن السادس عشر) و"روح الفريق" عند "رجال غريفرايرز"، وكان الاتهام بالتكبر غير معيب أبداً. كل مدرسة لديها صبي أو اثنين بلقب تقتحم ألقابها وجه القارئ دائماً، وهناك صبيان آخرون يحملون أسماء عائلات أرستقراطية مشهورة، تالبوت ومانرز ولاوثر، ونُذكر دائماً بأن غوسي هو المبجل آرثر أي دياركي ابن اللورد ايستوود وأن بليك هو الوريث "لأطيان واسعة"، وأن هوري جامسيت سنج (الملقب انكي) هو صاحب الثروة والمكانة في بهانيبور، وأن والد فيرمون - سميث مليونير. حتى وقت متأخر ظلت الرسومات التوضيحية في كلا الصحيفتين تصور الصبيان في ملابس تقلد ملابس ايتون. في السنوات القليلة الأخيرة بدلت غريفراريز السترة الفضفاضة وبنطال الفلانيلة، لكن سينت جيمس تمسكت بسترة ايتون وتمسك غوسي بقبعته العالية. في مجلة المدرسة التي تظهر كل أسبوع كجزء من ماغنيت، يكتب هاري وارتون مقالاً يناقش فيه مصروف الجيب الذي يأخذه "الرفاق في الصف الانتقالي" ويكشف أن بعضهم يحصل على مبلغ كبير يصل إلى خمسة جنيهات في الأسبوع! هذا النوع تحريض متعمد تماماً لفنتازيا الثروة. وهنا تجدر الملاحظة كواقع غريب بأن القصة المدرسية شيء خاص بإنكلترا، وبالقدر الذي أعرفه هناك قصص مدرسية قليلة جداً جداً في اللغات الأجنبية، والسبب كما هو واضح، أن التعليم في إنكلترا هو مسألة مكانة بشكل رئيسي. إن الخط الفاصل الواضح بين البورجوازية الصغيرة والطبقة العاملة، أن الأولى تدفع من أجل تعليمها وضمن الطبقة البورجوازية هناك فجوة أخرى يتعذر تجسيرها بين المدرسة "العامة" والمدرسة "الخاصة". من الواضح تماماً وجود عشرات الآلاف من الناس الذين يرون في أي تفصيل من الحياة في مدرسة "ممتازة" شيئاً مثيراً ورومانتيكياً. حدث أن كانوا خارج ذلك العالم الخفي بساحاته المربعة وبيوته الملونة، لكنهم يشتاقون إليه ويحلمون به في يقظتهم، ويعيشون فيه عقلياً لساعات طويلة في المرة الواحدة. السؤال هو من هم هؤلاء الناس؟ من يقرأ ذا جيم وماغنيت؟

من الواضح أن المرء لن يكون متأكداً من هذا النوع من الشيء. كل ما أستطيع قوله من خلال رصدي هو أن الصبيان المرجح أن يذهبوا إلى المدارس العامة يقرأون عادة ذا جيم وماغنيت، لكنهم عادة يتوقفون عن قراءتها دائماً حين يبلغون سن الثانية عشرة، أو ربما يستمرون لسنة أخرى بقوة العادة، لكنهم في ذلك العمر يتوقفون عن أخذها بجدية. من جانب آخر يواصل الصبيان في المدارس الخاصة الرخيصة جداً والمدارس التي صممت للناس الذين لا يستطيعون تحمل تكلفة المدارس العامة ويعتبرون مدارس المجلس "وضيعة"، قراءة ذا جيم وماغنيت لعدة سنوات أطول. منذ بضع سنوات كنت معلماً في اثنتين من هذه المدارس، واكتشفت أن الصبيان عملياً لا يقرأون ذا جيم وماغنيت فقط، وإنما يأخذونها بشكل جدي حتى حين بلغوا الخامسة عشرة والسادسة عشرة من العمر. هؤلاء الصبيان كانوا أبناء أصحاب الحوانيت وموظفي المكاتب والتجار الصغار والمهنيين، ومن الواضح أنهم الطبقة التي تستهدفها ذا جيم وماغنيت. لكنهما تقرآن من قبل صبيان الطبقة العاملة أيضاً وتُباعان عموماً في أفقر أحياء البلدات الكبيرة، وأعرف أنهما تُقرآن من قبل صبيان يتوقع المرء أنهم منيعون من "فتنة" المدارس العمومية. فمثلاً رأيت عامل منجم صغير، صبي عمل لسنة أو سنتين تحت الأرض يقرأ ذا جيم بتشوق. ومؤخراً قدمت كمية من الصحف الإنكليزية لجنود بريطانيين من الفيلق الأجنبي الفرنسي في شمال أفريقيا؛ فاختاروا منها ذا جيم وماغنيت أولاً. كلا الصحيفتان تُقرآن من قبل الصبايا، ويكشف قسم أصدقاء المراسلة في ذا جيم، أنها تُقرأ في كل ركن من الإمبراطورية البريطانية من قبل الأستراليين والكنديين واليهود والفلسطينيين والمالاويين والعرب وصينيي المضائق..إلخ إلخ. يتوقع المحررون من قرائهم أن تكون أعمارهم حوالي الرابعة عشرة، وتشير الإعلانات تقريباً (الشوكولا بالحليب والطوابع البريدية والمسدسات المائية ومعالجة احمرار الوجه وخدع السحر ومسحوق الحكة وفاين فون رينغ الذي يدخل إبرة في يد صديقك..إلخ) إلى نفس العمر، وهناك الإعلانات الأميرالية أيضاً التي تخاطب الشباب بين السابعة عشرة والثانية والعشرين، وليس هناك شك بأن هذه الصحف تُقرأ من قبل البالغين أيضاً، فمن المألوف تماماً للناس أن يكتبوا إلى هيئة التحرير ويقولون إنهم قرأوا كل عدد من ذا جيم وماغنيت في الثلاثين سنة الماضية. هنا رسالة مثلاً من سيدة في سليزبيري:

أستطيع القول عن قصص هاري وارتون وشركاه الممتازة من غريفرايرز، بأنها لم تخفق في الوصول إلى المستوى الرفيع أبداً، وهي بلا شك من أجمل القصص في نوعها في السوق اليوم، وهذا يعني الكثير، فهي تضعكم وجهاً لوجه مع نيتشر. أنا أخذت **ذا ماغنيت** منذ البداية، وتابعت مغامرات هاري وارتون وشركاه باهتمام جذل. ليس لدي أبناء ذكور، ولكن عندي ابنتان تطلبان بإلحاح دائم أن تكونا أول من يقرأ الصحيفة الرائعة القيمة، وزوجي أيضاً كان قارئاً وفياً **للماغنيت** إلى أن سُلب منا فجأة.

يجدر بنا الحصول على بعض النسخ من صحيفتي **ذا جيم وماغنيت**، خصوصاً **ذا جيم** لنلقي نظرة على عمود المراسلة. المدهش حقيقة هو الاهتمام المركز في متابعة أدق تفاصيل الحياة وأصغرها في غريفريرز وسينت جيم. هنا مثلاً، بعض الأسئلة التي أرسلها القراء:

"ما هو عمر ديك رويلانس؟ كم عمر سينت جيم؟ هل يمكنكم إعطائي قائمة بالقوقعة ودراساتهم، كم كلفت نظارة دياركي الوحيدة العدسة؟ كيف يستقيم الأمر بأن يكون القوقعة رفاق مثل كروك ويكون رفاق محترمون مثلك في الصف الرابع فقط؟ ما هي واجبات كابتن الصف الرابع الرئيسية؟ (من فتاة)، أين توجد سينت جيم؟ هل يمكنك أن تخبرني كيف أصل إلى هناك لأنني أحب أن أرى العمارة؟ هل أنتم صبيان (مزيفون) تماماً كما أظنكم؟"

من الواضح أن الكثير من الصبيان والفتيات الذين يكتبون هذه الرسائل، يعيشون في حياة خيالية تماماً. أحياناً يكتب صبي مثلاً معطياً عمره وطوله وقياس صدره وعضلة الذراع، ويسأل عن العضو من القوقعة أو الصف الرابع الأكثر شبها به، كما أن المطالبة بقائمة بالدراسات على رحلة القوقعة مع تقرير دقيق عن كل واحد يعيش فيها مألوف وعادي جداً. يبذل المحررون كل ما في وسعهم طبعاً للحفاظ على الوهم، ففي **ذا جيم** يكتب جاك بلاك كما يفترض أجوبة الرسائل، وفي **ذا ماغنيت** تُخصص صفحتان دائماً لمجلة المدرسة (ذا غريفرايرز هيرالد) التي يحررها هاري وارتون. وهناك صفحة أخرى تكتب فيها شخصية أخرى كل أسبوع. تجري القصص في دورات وتظل شخصيتان أو ثلاثة في الطليعة لعدة أسابيع متواصلة في الدورة الواحدة. أولاً تكون هناك سلسلة من قصص المغامرات المرحة تصور المشهورين الخمسة وبيلي بنتر؛ ثم تأتي سلسلة من قصص تدور حول هوية مزيفة مع ويبلي (ساحر المكياج ميك آب) في دور النجم؛ ثم دفقة من قصص أكثر جدية فيها فيرنون -

سميث يرتعش على حافة الطرد. وهنا يأتي المرء إلى السر الحقيقي للجيم والماغنيت والسبب الأرجح الذي يجعل الناس يستمرون في قراءتها، بالرغم من قدمها الواضح وبطلانها.

إن السبب هو الشخصيات التي صنفت بعناية لتعطي كل أنموذج من القراء شخصية يستطيع التماثل والتطابق معها. أغلب صحف الصبيان تهدف إلى فعل هذا، ولهذا هناك المساعد الصبي (تينكر لسيكستون بليك ونيبر لنيلسون لي..إلخ) الذي يرافق المستكشف عادة أو البوليس السري أو أياً كان في كل مغامراته. لكن في هذه الحالات هناك صبي واحد ونفس النموذج من الصبيان على الأكثر عادة. في ذا جيم وماغنيت هناك أنموذج لكل شخص تقريباً. هناك الصبي الرياضي الشجاع العادي (توم ميري وجاك بلاك وفرانك ناغينت) ونسخة أكثر فظاظة قليلاً من هذا الأنموذج (بوب تشيري) ونسخة أكثر أناقة وأرستقراطية (تالبوت ومانرز) ونسخة أهدأ وأكثر جدية (هاري وارتون) ونسخة متبلدة قوية وجسورة (جوني بول). ثم هناك أنموذج الصبي الجريء والمتهور (فيرنون - سميث) والصبي الذكي والمجتهد بشكل واضح (مارك لينلي وديك بينفولد) والصبي الغريب الأطوار غير البارع في الألعاب لكن لديه موهبة خاصة (سكينر ويبلي)، وهناك صبي المنحة الدراسية (توم ريدوينغ) وهو شخصية مهمة في هذا الصنف من القصص، لأنه يمكّن الصبيان المتحدرين من بيوت فقيرة من تخيل أنفسهم في جو المدارس العامة. وبالإضافة إلى ذلك هناك الأسترالي والإيرلندي وصبيان ويلز ومانكس ويوركشاير ولانكشاير، واللعب على الشعور الوطني المحلي. لكن دقة تصوير الشخصيات أعمق من هذا. لو درس المرء أعمدة المراسلة، لوجد أنه لا توجد شخصية في ذا جيم وماغنيت لا يتطابق معها قارئ أو آخر غيره ماعدا الشخصيات الهزلية الواضحة كوكر وبيلي بنتر وفيشر تي فيش (الصبي الأمريكي مختطف الأموال) والأساتذة طبعاً. إن بنتر إبداع حقيقي رغم أنه يدين في أصله بشيء إلى الولد البدين بيكويك. بنطاله الضيق الذي يرتطم به حذاؤه وخيزرانته دائماً ودهائه في البحث عن الطعام، وحوالته البريدية التي لم تظهر أبداً، جعلته مشهوراً في كل مكان رفرف فيه العلم البريطاني، ولكنه لم يكن موضوعاً لأحلام اليقظة، ومن جانب آخر هناك شخصية ممتعة أخرى، غوسي (المحترم آرثر أي دياركي) نالت إعجاباً أكثر بشكل واضح. مثل كل شيء آخر في ذا جيم والماغنيت، كان غوسي قديماً ومهجوراً قبل ثلاثين سنة على الأقل، فقد كان (نات - عقدة) بداية

عشرينات القرن العشرين أو حتى "هراس" التسعينات ("بحق جوبيتر أيها الصبي الغالي! ويلي أنا ملزم بأن أجلدك جلداً مخيفاً") والأبله صاحب النظارة أحادية العدسة الذي نجح في حقول مونز ولو غاتو. تنجح شعبيته الواضحة في إظهار جاذبية التكبر المتجذرة عميقاً عند هذا الأنموذج من الناس. إن الشعب الإنكليزي مغرم إلى حد الإفراط بالحمار الذي يحمل لقباً (قارن اللورد بيتر ويمسي) الذي يظهر شخصاً محظوظاً ومؤثراً في لحظة الضرورة. هذه رسالة من فتيات معجبات بغوسي:

أظنكم قسوتم كثيراً على غوسي. أتساءل إن كان مازال في الوجود، بعد الطريقة التي عاملتموه بها. إنه بطلي. هل تعرف أني أكتب الشعر الغنائي؟ ما رأيك بهذه - على أنغام "غودي غودي"؟

سوف أحصل على قناع الغاز وأنضم إلى القوة الجوية الملكية.
لأنني منتبه لكل تلك القنابل التي أسقطتها علي
سوف أحفر خندقاً لي
داخل سياج الحديقة؛
سوف أسدّ نوافذي بالقصدير
كي لا يدخل منها الغاز المسيل للدموع
سوف أنصب مدفعي تماماً عند الحاجز الحجري على الطريق
مع ملاحظة لأدولف هتلر: "يرجى عدم الإزعاج!"
وإذا لم أسقط بأيد نازية أبداً
فذلك كاف لي
سأحصل على قناعي الغازي وأنضم إلى سلاح الجو الملكي.
ملاحظة - هل تنسجم وتتواصل بشكل جيد مع الفتيات؟

اقتبست هذا كاملاً لأن تاريخه يعود إلى عام ١٩٣٩ وهو مشوق، لكونه أول ذكر لهتلر في ذا جيم ربما. في ذا جيم هناك بطولة الولد البدين أيضاً. فاتي واين ثقل كموازن ومعادل

ضد بنتر. فيرمون - سميث الصاخب غير المهذب في صف المنقولين شخصية بايرونية، ولكونه على شفير الطرد دائماً شيء محبب أيضاً. وحتى بعض الأوغاد أيضاً لديهم أتباع فلودر مثلاً، "البغيض في الصف السادس" وغد لكنه رفيع الثقافة أيضاً وميال إلى قول أشياء ساخرة عن كرة القدم وروح الفريق. يراه صبيان صف المنقولين وغداً بسبب هذا، لكن أنموذجاً معيناً من الصبيان يتماثلون معه. حتى راكي وغروكي وشركاه ينالون إعجاب صبيان صغار يعتقدون أن تدخين السجائر عمل شرير وشيطاني. (سؤال متكرر في عمود المراسلة: ما هي ماركة السجائر التي يدخنها راكي؟).

إن سياسة ذا جيم وماغنيت سياسة محافظة طبعاً، لكن بأسلوب قبل حرب ١٩١٤ تماماً ومن دون أي أثر فاشي. في الحقيقة لديهما فرضيتان سياسيتان اثنتان: الأولى لا شيء سيتغير أبداً، والثانية الأجانب مثيرون للسخرية. في ذا جيم ١٩٣٩ الفرنسيون ظلوا (فروغيز) ضفادع والإيطاليون (داغوز) كلاب. موسو المدرس الفرنسي في غريفرايرز، هو فروغ، الشخصية الهزلية الورقية المعتادة مع لحية مدببة وسروال حزامه معلق بالكتفين..إلخ. انكي الصبي الهندي رغم أنه راجا (أمير هندي) ولديه جاذبية التكبر هو البابو (السيد الهندوسي) الهزلي في تقاليد ذا بنتش. ("الشجار ليس الحيلة المناسبة يا بوب المحترم" قال انكي. "دع الكلاب تبتهج في النباح والعض، لكن الجواب العليل هو القاذف المعطوب الذي يصل إلى طير في الأجمة كما يقول المثل الإنكليزي") فيشر تي فيش هو يانكي المرحلة القديمة ("حسناً، أنا أظن"..إلخ) الذي يعود تاريخه إلى فترة من الحسد الأنغلوأميريكي. وإن لونغ الصبي الصيني (الذي تلاشى مؤخراً لا شك لأن بعض قراء ذا ماغنيت من مضايق الصين) هو صيني المسرحيات الإيمائية في القرن التاسع عشر مع قبعة مثل الطبق وضفيرة تتدلى من مؤخرة رأسه بلغة إنكليزية بسيطة. الافتراض منذ البداية دائماً أن الأجانب ليسوا هزليين فقط ويجب أن يوضعوا هناك لنسخر منهم، وإنما يمكن أن يصنفوا بنفس الطريقة التي نصنف بها الحشرات أيضاً. لهذا السبب كل صحف الصبيان وليس ذا جيم وماغنيت فقط، تصور الصيني بشكل ثابت مع ضفيرة في مؤخرة رأسه. إنها الشيء الذي تميزه به مثل لحية الفرنسي واورغ الإيطالي الأسطواني. في صحف من هذا النوع يحدث أحياناً حين يكون مشهد القصة في بلاد أجنبية أن يُبذل جهداً لوصف السكان المحليين ككائنات بشرية فردية، لكن كقاعدة يفترض أن يكون الأجانب من أي عرق متشابهين ويطابقون بشكل أو بأخر النماذج التالية تماماً:

الفرنسي: سريع الهياج. له لحية ويومئ بيديه أثناء الكلام بشكل جامح.

الإسباني والمكسيكي..إلخ: فاسد وغدار

العربي والأفغاني..إلخ: فاسد وغدار

الصيني: فاسد وغدار وله ضفيرة في مؤخرة رأسه.

الإيطالي: سريع الهياج. يعزف على أورغ يدوي أو يحمل خنجراً صغيراً

السويدي والدانمركي..إلخ: طيب القلب وغبي

الزنجي: هزلي ووفي جداً.

تدخل الطبقات العاملة في ذا جيم وماغنيت كشخصيات هزلية أو أشباه أجلاف (بياعو معلومات السباق..إلخ). أما بالنسبة إلى الاحتكاك الطبقي والحركة النقابية والإضرابات وهبوط الأسعار والبطالة والفاشية والحرب الأهلية، فلم تُذكر. في مكان ما أو آخر في إصدارات الثلاثين سنة قد تجد كلمة "اشتراكية"، لكن عليك أن تبحث عنها طويلاً. إن كانت هناك إشارة إلى الثورة الروسية في أي مكان، فإنها تكون غير مباشرة في كلمة "بولشي" (تعني شخصاً ذا عادات عنيفة غير مقبولة). بدأت كلمتا هتلر والنازيين بالظهور للتو في نوع الإشارة التي اقتبستها آنفاً. أزمة حرب أيلول/ سبتمبر ١٩٣٨ كان لها أثر كافٍ لإنتاج قصة ينتهز فيها السيد فيرمون – سميث المليونير والد الصبي المرح الفظ الهلع العام، ويشتري بيوتاً ريفية لكي يبيعها إلى "الفارين من الأزمة". كان الاهتمام الذي وصلت إليه ذا جيم وماغنيت قريباً من الاهتمام الأوروبي، إلى أن بدأت الحرب فعلياً. هذا لا يعني أن هاتين الصحيفتين غير وطنيتين – على العكس تماماً! خلال الحرب العظمى كانت ذا جيم وماغنيت من أكثر الصحف ثباتاً وابتهاجاً في وطنيتهما في إنكلترا. ففي كل أسبوع تقريباً يمسك الصبيان بجاسوس أو معارض مدفوع إلى الجيش، وخلال فترة إخضاع الطعام لنظام الحصص كانت عبارة "تناول خبزاً أقل" تطبع بأحرف كبيرة على كل صفحة. لكن وطنيتهما لا علاقة لها بأي شكل بسياسة القوى والحرب "الأيديولوجية". إنها أشبه بالولاء العائلي. وفي الحقيقية تعطي المرء مفتاحاً لفهم موقف الناس العاديين وخصوصاً الكتلة الضخمة التي لم تتأثر من الطبقة الوسطى والشريحة الأغنى من الطبقة العاملة. هؤلاء الناس وطنيون إلى نخاع العظم، لكنهم لا يشعرون أن ما

يحدث في البلدان الأجنبية شيء يهمهم أو يخصهم. حين تكون إنكلترا في خطر يتجمعون ويتسابقون للدفاع عنها كأمر بديهي، لكن في الأوقات الفاصلة هم غير مهتمين.

أخيراً، إنكلترا دائماً في السليم، وإنكلترا دائماً تفوز، لهذا لماذا القلق؟ إنه موقف اهتز أثناء العشرين سنة الماضية، لكن ليس بالعمق المتصور أحياناً. الفشل في فهمه هو أحد الأسباب التي كانت وراء عدم قدرة الأحزاب اليسارية على إنتاج سياسة خارجية مقبولة.

لذلك إن العالم العقلي للجيم والماغنيت شيء كالتالي:

ليس هناك فرق بين العام ١٩١٠ - والعام ١٩٤٠. أنت في غريفرايرز صبي مورد الخدين في الرابعة عشرة في ثياب أنيقة ممتازة فصلت على قياسك، تجلس تشرب الشاي في مكتبك في فصل المطرودين، بعد لعبة كرة قدم مثيرة، تم الفوز فيها بواسطة هدف غريب في نصف الدقيقة الأخيرة. هناك نار دافئة في المكتب، والريح في الخارج تصفر. عناقيد اللبلاب تلتف بكثافة حول الحجارة الرمادية القديمة. الملك على عرشه والجنيه يساوي جنيه. في أوروبا الأجانب المثيرون للسخرية يثرثرون، لكن السفن الحربية المقيتة للأسطول البريطاني ترسل أبخرتها عالياً في القنال الإنكليزي، وفي المخافر الأمامية للإمبراطورية الرجال الإنكليز بالنظارة أحادية العدسة يحتجزون الزنوج ويمنعون خطرهم. فاز اللورد موليفرار بخمسة أخرى، ومتعنا أنفسنا في حفلة شاي ضخمة من النقانق والسردين والكعك غير المحلى واللحم المحفوظ والمربى والكعك المحلى. بعد الشاي سنجلس حول نار المكتب نضحك من بيلي بنتر ونناقش الفريق من أجل مباريات الأسبوع القادم ضد روك - وود. كل شيء آمن ومتواصل ولا ريب فيه. كل شيء سيظل نفسه إلى الأبد. ذلك هو الجو تقريباً.

لكن الآن أنتقل من الجيم وماغنيت إلى الصحف الأحدث التي ظهرت منذ الحرب العظمى. الشيء الهام الحقيقي أن نقاط تشابهها مع ذا جيم وماغنيت أكثر من نقاط الاختلاف. لكن من الأفضل دراسة الاختلافات أولاً:

هناك ثمان من الصحف الأحدث هذه، ذا موديرن بوي وتريومف وتشامبيون وويزارد وروفر وسكيبر وهتسبر وادفنتشر. كلها ظهرت منذ الحرب، باستثناء ذا موديرن بويل التي يقل عمر أحدها عن الخمس سنوات. صحيفتان ينبغي أن تذكرا هنا رغم أنهما ليستا من نفس

صنف البقية تماماً هما ذا ديتكتيف ويكلي وذا ثريلير، كلاهما مملوكتين من قبل المطبعة المندمجة. ذا ديتكتيف ويكلي استولت على سيكستون بليك. كلا الصحيفتين يقبلان بمقدار محدد من الاهتمام بالجنس في قصصهما وتُقرآن من قبل الصبيان؛ إلا أنهما لا تستهدفانهم حصرياً. كل الأخريات صحف صبيان صرفة وبسيطة وتُدرس على السواء معاً. وليس هناك فرق ملحوظ بين منشورات تومسون والمطبعة المندمجة.

حالما ينظر المرء إلى هذه الصحف، يرى تفوقها التقني على ذا جيم وماغنيت. بداية، لديها أفضلية كبيرة بأنها لا تُكتب من قبل شخص واحد. بدلاً من القصة الطويلة الكاملة، يتألف العدد من الويزارد أو الهوتسبير من نصف دزينة أو أكثر من المسلسلات التي لا يستمر أحدها إلى الأبد، وفي النتيجة يكون هناك تنوع أكبر وحشو أقل، وليس هناك أي شيء من تنميط وفكاهة ذا جيم وماغنيت. انظر إلى هذين المقطعين مثلاً:

تأوه بيلي بنتر

مر ربع ساعة من الساعتين التي احتجز فيهما بنتر من أجل حصص إضافية في اللغة الفرنسية.

في ربع ساعة لا يوجد سوى خمسة عشر دقيقة فقط! لكن كل واحدة من هذه الدقائق بدت لبنتر طويلة بشكل مبالغ فيه. بدت تلك الدقائق تزحف مثل حلزونات منهكة.

ناظراً إلى ساعة الجدار في غرفة الصف رقم ١٠ البومة السمينة، لم تصدق أن الخمسة عشر دقيقة الوحيدة مرت. بدت أكثر من خمسة عشر ساعة إن لم تكن خمسة عشر يوماً!

الرفاق الآخرون كانوا في درس لغة فرنسي إضافي مثل بنتر. لم يكترثوا على العكس من بنتر.

(ذا ماغنيت)

بعد تسلق رهيب، حفر مماسك ليديه في الجليد الأملس في كل خطوة من الطريق الصاعد. كان الرقيب لايونهارت لوغان يتشبث مثل ذبابة بشرية على واجهة جرف جليدي أملس وغدار مثل لوح عملاق من الزجاج.

عاصفة ثلجية في أوج ضراوتها كانت تضرب بجسده وتدفع الثلج المعمي في وجهه، وتسعى إلى تمزيق أصابعه وإرخائها من مسكاتها، لتقذف به ويموت على الجلاميد المثلمة الواقعة بسفح الجرف بالأسفل على بعد مائة قدم.

ربض وسط تلك الجلاميد أحد عشر صياداً حقيراً بذلوا أقصى جهدهم ليردوا بالرصاص لايونهارت ورفيقه جيم روجرز - إلى أن محت العاصفة المتسلقين عن النظر.(ذا ويزارد).

المقطع الثاني يحملك إلى مسافة ما في القصة، بينما يأخذ الأول مائة كلمة ليخبرك أن بنتر في صف الحجز، فضلاً، بعدم التركيز على القصص المدرسية (من حيث العدد تهيمن القصص المدرسية في كل هذه الصحف ما عدا ذا ثريلر وذا ديتيكتيف ويكلي) هناك فرص لكل من ذا ويزارد وهتسبير أكبر بكثير من اللجوء إلى الإثارة. بمجرد النظر إلى رسومات هذه الصحف التي أمامي على الطاولة، هذه بعض الأشياء التي أراها. في واحدة منها هناك راعي بقر معلق من أصابع قدمه بجناح طائرة في الجو، ويطلق النار على طائرة أخرى بمسدسه. وفي صحيفة أخرى صيني يسبح لإنقاذ نفسه في مصرف صحي، وسرب من جرذان نهمة جائعة يسبح خلفه. وفي صحيفة ثالثة مهندس يشعل عوداً من الديناميت بينما روبوت حديدي يبحث عنه ويتلمسه بمخالبه. في صحيفة رابعة هناك رجل في بدلة طيار يقاتل بيديه العاريتين ضد جرذ أكبر من الحمار. وفي صحيفة خامسة رجل عارٍ تقريباً بمظهر عضلي مروع يمسك بأسد من ذيله ويقذف به إلى مسافة ثلاثين ياردة من فوق جدار الحلبة مع كلمات "إليك أسدك المزهر!" من الواضح أنه لا توجد أية قصة مدرسية يمكنها منافسة هذا النوع من الشيء. ومن وقت إلى آخر ربما يحترق بناء المدرسة أو يتحول الأستاذ الفرنسي إلى رئيس عصابة دولية من الفوضويين، لكن بشكل عام يتركز الاهتمام على الكريكت والمنافسات المدرسية والدعابات العملية..إلخ. ليس هناك متسع كبير للقنابل أو أشعة الموت أو المدافع النصف آلية أو الطائرات أو خيول السهول الأمريكية أو الأخطبوطات أو اللحى الرمادية أو قطاع الطرق.

إن تفحص عدد كبير من هذه الصحف، يبين أن الموضوع المفضل لها باستثناء القصص المدرسية، هو الغرب المتوحش والشمال المتجمد والفيلق الأجنبي والجريمة (دائماً من وجهة نظر المحقق السري) والحرب العظمى (سلاح الجو أو الاستخبارات وليس المشاة) وفكرة طرزان بأشكال متنوعة وكرة القدم الاحترافية، واستكشاف المناطق الاستوائية والقصص التاريخية الرومانسية (روبن هود والفرسان وحليقو الرؤوس رواندهيدز..إلخ) والاختراعات العلمية. في كل الأحوال لايزال الغرب المتوحش في الصدارة كخلفية، لكن يبدو أن الهنود الحمر خبوا وتلاشوا. إن الموضوع الجديد الوحيد حقيقة، هو الموضوع العلمي: أشعة الموت

والمريخيون والرجال غير المرئيين والروبوتات والمروحيات والصواريخ العابرة للكواكب: هنا وهناك توجد إشاعات نائية من العلاج النفسي والغدد الصم. بينما تستمد ذا جيم وماغنيت مواضيعهما من ديكنز وكيبلينغ وتدين كل من ذا وزارد وتشامبيون ومودرين بوي..إلخ إلى اتش جي ويلز الذي يعتبر أب "قصص الخيال العلمي" أكثر من ميلها إلى جول فيرن. من الطبيعي أن يُستغل المظهر المريخي الفاتن للعلم أكثر من غيره، لكن صحيفة أو اثنتان فقط فيهما تضمنتا مقالات عن مواضيع علمية بالإضافة إلى كميات من الأخبار التثقيفية الصغيرة (أمثلة: "شجرة كاوري في كوينزلاند في أستراليا عمرها أكثر من ١٢ ألف سنة؛ تحدث خمسون ألف عاصفة رعدية تقريباً في كل يوم؛ يكلف ١٠٠٠ متر مكعب من غاز الهليوم جنيهاً واحداً؛ هناك أكثر من ٥٠٠ نوع من العناكب في بريطانيا العظمى؛ إطفائيو لندن يستخدمون ١٤ مليون غالون من الماء سنوياً، إلخ إلخ). هناك تقدم ملحوظ في الفضول الفكري بالمجمل وتلبية رغبات القراء وميولهم. عملياً ذا جيم وماغنيت وصحف ما بعد الحرب، تُقرأ من نفس الجمهور تقريباً، لكن العمر العقلي المستهدف ارتفع كما يبدو سنة أو سنتين - تحسنٌ ترافق مع التحسن في التعليم الابتدائي منذ عام ١٩٠٩.

الشيء الآخر الذي ظهر في صحف الصبيان التي صدرت بعد الحرب لكنه لم يبلغ المدى الذي توقعه المرء، هو عبادة التنمر والإعجاب الشديد بالعنف.

إذا قارن المرء ذا جيم وماغنيت مع صحيفة حديثة حقيقية، فإن الشيء الذي يلفت انتباهه على الفور هو غياب عنصر القائد. لا توجد شخصية مركزية مسيطرة وبدلاً منها هناك خمسة عشر أو عشرين شخصية كلها على قدم المساواة تقريباً، تستطيع نماذج مختلفة من القراء التماثل والتطابق معها. في الصحف الأحدث تختلف الحالة عادة. فبدلاً من التماثل مع تلميذ مدرسة أو بعمره تقريباً، يوجه قارئ ذا سكيبر أو هتسبير..إلخ للتعاطف مع جي - مان عميل فيدرالي أو مع عضو في فيلق أجنبي أو مع طرزان مختلف أو مع طيار بطل أو جاسوس كبير أو مستكشف أو ملاكم محترف - في كل الأحوال مع شخصية واحدة كلية القوة تسيطر على كل واحد حولها وأسلوبها المعتاد في حل أية مشكلة لكمة على الفك. هذه الشخصية معدة كرجل خارق وكقوة بدنية، لأنها شكل القوة الذي يستطيع الصبيان فهمه بأفضل شكل ويكون عادة نوعاً من الغوريلا البشرية. وفي القصص التي من أنموذج قصص طرزان، هو عملاق في

الحقيقة بطول ثمانية أو عشرة أقدام أحياناً. بنفس الوقت مشاهد العنف في كل هذه القصص تقريباً غير مؤذية بشكل لافت وغير مقنعة. هناك اختلاف كبير في الأسلوب بين أكثر الصحف الإنكليزية وحشية وبين اليانك ماغز الرخيصة والفايت ستوريز وأكشن ستوريز..إلخ (ليست صحف حصرية للصبيان ولكنها صحف تُقرأ من قبل الصبيان). في اليانك ماغز تجد أن الشهوة إلى الدم والتصوير المجمد للدم حقيقة وأسلوب القتال في القفز على الحصى مكتوب بلغة رطنة غريبة أتقنها إلى درجة الكمال أناس تربوا على العنف بشكل لانهائي. صحيفة مثل فايت ستوريز مثلاً يفترض أن تكون جاذبيتها قليلة جداً ماعدا للساديين والماسوشيين. يمكنك أن ترى رقة الحضارة الإنكليزية النسبية من خلال الطريقة غير الاحترافية التي توصف بها ملاكمة الجوائز في أسبوعيات الأطفال. ليس هناك مفردات تخصصية. انظر إلى هذه المقتطفات اثنان إنكليزيان واثنان أميركيان.

حين رن الجرس، كان الرجلان يتنفسان بصعوبة، وعلى صدر كل منهما علامات حمراء كبيرة. كان ذقن بيل ينزف ولديه جرح فوق عينه اليمنى.

انهارا في زاويتهما من الإنهاك، وحين رن الجرس ثانية نهضا بسرعة ورشاقة وهجما على بعضهما البعض مثل النمور. (روفر)

دخل ماشياً متبلد الحواس وضربني بيمينية كالهراوة على وجهي. انبجس الدم ونكصت على كعبي، لكنني اندفعت وأطلقت يمناي تحت القلب. يمينية أخرى اصطدمت كلها بفم بين المهروس، بصق شظايا سن وضربني بيسارية استقرت على جسدي كالأداة التي يدرسون بها الحنطة.(فايت ستوري)

من المدهش أن نراقب النمر الأسود وهو يعمل. عضلاته تموجت وانزلقت تحت جلده الأسمر. كان هناك كل القوة والتناسق لسنور عملاق في سرعته ورشاقته وانقضاضه الرهيب.

وجه وابلاً من الضربات مع سرعة مربكة بالنسبة إلى رفيق ضخم. في لحظة كان بين يصد بقفازيه بأفضل ما استطاع. بين كان معلماً مدافعاً سابقاً. لديه انتصارات كثيرة رائعة خلفه. لكن يمينية نيغرو ويساريته حطمته من خلال فتحات نادراً ما يستطيع أي ملاكم إيجادها. (ويزارد)

ضربات عنيفة حزمت الكرة الحديدية الضارية لملوك الغابة انهارت تحت الفأس الذي قذف في أجساد الشخصين الضخمين وهما يتبادلان اللكمات. (فايت ستوريز)

لاحظ كم تبدو المقتطفات الأمريكية أكثر اطلاعاً. لقد كُتبت لأنصار حلبة الملاكمة المتحمسين وليس لغيرهم. يجب التأكيد أيضاً أن صحف الصبيان الإنكليزية محتشمة بناء على مستوى منظومتها الأخلاقية، فالجريمة والخداع لم يرتقيا إلى حد الإعجاب، وليس هناك وجود لكلبية وفساد قصص قطاع الطرق الأمريكية. يبين المبيع الضخم ليانك ماغز في إنكلترا وجود طلب لذلك النوع من الشيء، لكن قلة قليلة من الكتاب الإنكليز تقدر على إنتاجه. حين أصبح كره هتلر عاطفة أساسية في أميركا كان من الممتع رؤية السرعة المفاجئة التي كيّف بها محررو اليانك ماغز "معاداة الفاشية" وحولوها إلى أغراض إباحية.. إحدى المجلات التي أمامي كرست لقصة طويلة كاملة "حين يأتي الجحيم إلى أميركا" التي يحاول فيها عملاء ديكتاتور أوروبي متعطش للدماء غزو الولايات المتحدة الأمريكية واحتلالها بأشعة الموت والطائرات غير المرئية. هناك إغراء وانجذاب أوضح نحو السادية، المناظر التي يربط فيها النازيون القنابل بمؤخرات النساء ويقذفوهن من ارتفاعات عالية ليراقبوهن وهن ينتفخن ويتحولن إلى مزق في الجو، ومناظر أخرى يربطون فيها فتيات عاريات معاً من شعورهن وينخسوهن بسكاكين ليرقصن..إلخ. يعلق رئيس التحرير برزانة على كل هذا ويستخدمه ذريعة لتضييق القيود على المهاجرين. على صفحة أخرى من نفس الصحيفة: "حياة فرقة كورال هوتشا. تكشف كل الأسرار الحميمة والتسالي الساحرة لفتيات برودوي هوتشا الشهيرات" "لم يحذف أي شيء". الثمن ١٠ سنت."كيف تحب" ١٠ سنت. "فرينش فوتو رينغ" ٢٥ سنت. "نوديز الداعرة تتحول". من خارج الزجاج ترى فتاة جميلة بثياب بسيطة، لكن دورها، وانظر عبر الزجاج وأوه! يا له من اختلاف! طقم من ٣ تحويلات ٢٥سنت الخ الخ. لا يوجد شيء كهذا إطلاقاً في أية صحيفة إنكليزية يمكن أن تُقرأ من قبل الصبيان. لكن عملية الأمركة مستمرة رغم ذلك. إن المثل الأعلى الأمريكي، "الذكر العدواني القوي" أو "الفتى الصلب" أو الغوريلا (السفاح) الذي يصحح كل شيء بضرب كل واحد على فكه، يظهر في غالبية صحف الصبيان. الآن في أحد المسلسلات في سكيبرز يُصور المثل الأعلى بشكل مشؤوم وهو يلوح بعصا مطاطية.

إن تطور الوزارد وهتسبير..إلخ في مواجهة صحف الصبيان السابق، اقتصر على هذا: أسلوب أفضل واهتمام علمي أكبر وسفك دم أكثر وعبادة قادة أكثر. لكن أخيراً إن الشيء الأهم واللافت هو العوز إلى التطور.

بداية ليس هناك تطور سياسي أياً كان شكله. عالم سكيبر وتشامبيون لايزال عالم ماغنت وجيم قبل عام ١٩١٤. قصص الغرب المتوحش مثلاً مع خشخشة القطيع وقانون لينش وأدوات أخرى تنتمي إلى الثمانينات، هي شيء مهجور وقديم بشكل غريب. اللافت تماماً في صحف من هذا الأنموذج ومن المسلم به دائماً أن المغامرات تحدث فقط في أطراف الكرة الأرضية وفي الغابات الاستوائية والبراري القطبية والصحاري الأفريقية والمروج الغربية وفي أوكار الأفيون الصينية - في كل مكان في الحقيقة ماعدا الأماكن التي تحدث فيها الأشياء حقيقة. ذلك اعتقاد يعود تاريخه إلى ثلاثين أو أربعين سنة خلت، حين كانت عملية اكتشاف القارات الجديدة مستمرة. في الوقت الحاضر طبعاً إن أردت المغامرة، فإن المكان الذي ستبحث عنه سيكون في أوروبا. لكن بمعزل عن الجانب التصويري للحرب العظمى، إن التاريخ المعاصر مستثنى بدقة وعناية. وباستثناء الأميركيين الذين كانوا مثار سخرية في السابق وأصبحوا محط إعجاب الآن، ظل الأجانب نفس الشخصيات المثيرة للسخرية التي كانوا عليها دائماً. إن ظهرت شخصية صينية فإنها تظل الشرير مهرب الأفيون ذا الضفيرة في مؤخرة رأسه الذي ابتدعه الكاتب ساكس رومر؛ ليس هناك أية إشارة إلى الأشياء التي حدثت في الصين منذ عام ١٩١٢ ولا إشارة إلى الحرب التي لاتزال مشتعلة هناك مثلاً. إن ظهر إسباني، فإنه يظل يُدعى "داغو" أو "المشحم" الذي يلف السجائر ويطعن الناس في ظهورهم؛ وعدم الإشارة إلى الأشياء التي حدثت في إسبانيا. هتلر والنازيون لم يظهروا بعد أو ظهروا بالكاد لتوهم، وسيكون هناك الكثير عنهم بعد برهة قصيرة، لكن من زاوية وطنية صارمة (بريطانيا ضد ألمانيا) مع إخفاء المغزى الحقيقي للصراع بأقصى ما يمكن. بالنسبة إلى الثورة الروسية من الصعب إيجاد أية إشارة إليها في أي من هذه الصحف، وحين تُذكر روسيا، إن حدث وذكرت، فستكون نتفة معلومة عادة (مثال:"هناك ٢٩ ألف شخص تجاوزوا المائة سنة في اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية") وأية إشارة إلى الثورة الروسية، ستكون غير مباشرة ومضللة وباطلة منذ عشرين سنة. في إحدى القصص في الروفر مثلاً، هناك شخص لديه دب مروض، وبما أنه دب روسي

فقد لقب بتروتسكي - من الواضح أنه صدى لفترة ١٩١٧ - ٢٣ وليس لخلافات حديثة. الساعة توقفت في ١٩١٠. بريطانيا تسيطر على الأمواج، ولم يسمع أحد بحالات هبوط الأسعار وأصوات القنابل أو الديكتاتوريات وأعمال التطهير ومعسكرات الاعتقال.

ومن المنظور الاجتماعي ليس هناك أي تقدم. التكبر أقل صراحة نوعاً ما، مما هو في ذا جيم وماغنيت - ذلك أقصى ما يستطيع المرء قوله. بداية لقد تم حذف القصص المدرسية بالتأكيد التي تعتمد على جاذبية التكبر دائماً. كل صحيفة من صحف الصبيان تتضمن قصة مدرسية على الأقل. وهذه القصص تفوق بالعدد قصص الغرب المتوحش. لم تقلد تلك الصحف حياة الفنتازيا المفصلة التي في الجيم والماغنيت، وهناك تأكيد على المغامرة الدخيلة والعرضية، لكن الجو الاجتماعي (الحجارة الرمادية) ظل نفسه تقريباً. حين يجري التعريف بمدرسة في بداية القصة تستعمل نفس الكلمات بالضبط "كانت مدرسة ممتازة جداً". بين الفينة والأخرى تظهر قصة موجهة ضد التكبر ظاهرياً. يتكرر ظهور صبي المنحة الدراسية باعتدال (قارن توم ريدوينغ في الماغنيت) وهو الموضوع الجوهري ويُقدم أحياناً بهذا الشكل: هناك تنافس كبير بين مدرستين، واحدة تعتبر نفسها أكثر امتيازاً من الأخرى، وهناك قتال ودعابات عملية ومباريات بكرة القدم..إلخ التي تنتهي دائماً بهزيمة المتكبرين. إن ألقى المرء نظرة سريعة وسطحية على بعض من هذه القصص، قد يتخيل أن الروح الديمقراطية دبت في أسبوعيات الصبيان، لكنه حين ينظر عن كثب، سيرى أن هذه القصص ليست سوى انعكاس لمشاعر الغيرة المرة الموجودة داخل طبقة الياقات البيضاء. إن الوظيفة الحقيقية لها هو السماح للصبي الذي يذهب إلى مدرسة خاصة رخيصة (ليس مدرسة مجلس) أن يشعر بأن مدرسته بعين الرب ممتازة مثل وينشستر أو ايتون. إن عاطفة الولاء للمدرسة (نحن أفضل من الرفاق الذين في آخر الطريق) غير المعروفة تقريباً بالنسبة إلى الطبقة العاملة الحقيقية لاتزال مستمرة. وبما أن هذه القصص تُكتب بأيدٍ مختلفة كثيرة، فإنها تختلف بدرجة كبيرة في أسلوبها طبعاً. بعضها متحرر تماماً من التكبر، وفي قصص أخرى يُستغل المال والأصل الكريم بوقاحة أكبر مما في ذا جيم والماغنيت. (لقد صادفت في واحدة من تلك الصحف أغلبية فعلية من الصبيان الذي أشير إليهم بالألقاب).

حيث تظهر شخصيات الطبقة العاملة، تكون عادة إما شخصيات هزلية (دعابات عن المتشردين والمجرمين..إلخ) أو ملاكمو جوائز وبهلوانيون ورعاة بقر أو لاعبو كرة قدم محترفون

أو جنود في فيالق أجنبية - بعبارة أخرى، مغامرون. ليس هناك مواجهة للحقائق المتعلقة بحياة الطبقة العاملة أو في الحقيقة لحياة العمل مهما كان نوعه. في حالة عرضية قليلة جداً قد يصادف المرء وصفاً واقعياً لعمل في منجم مثلاً، لكنه في كل الاحتمالات يكون عبارة عن خلفية لمغامرة مثيرة فقط، وفي كافة الأحوال من غير المحتمل أن تكون الشخصية المحورية عامل منجم. دائماً الصبي الذي يقرأ هذه الصحف - في تسع حالات من عشرة - صبي من النوع الذي سيمضي حياته في العمل في متجر أو مصنع أو في وظيفة ثانوية في مكتب - ويُقاد ليتماثل ويتطابق مع الناس الذين في مركز السلطة والسيطرة، وقبل كل شيء مع الناس الذين لم يتجشموا أبداً عناء نقص المال. إن شخصية اللورد بيتر ويمسي الأبله ظاهرياً والذي يتشدق ويرتدي نظارة بعدسة واحدة لكنه دائماً في المقدمة في لحظات الخطر تتكرر المرة تلو الأخرى. (هذه الشخصية مفضلة جداً في قصص الخدمة السرية للاستخبارات) وكالمعتاد الشخصيات البطولية يجب أن تتحدث بلهجة البي بي سي؛ ربما تتحدث السكوتلندية أو الإيرلندية أو الأمريكية، لكن لم يسمح لأحد في دور النجم أبداً أن يسقط حرف الايتش. هنا يجدر مقارنة الجو الاجتماعي لأسبوعيات الصبيان مع أسبوعيات النساء الأوراكل والفاميلي ستار وبيغز بيبر..إلخ.

صحف النساء تستهدف جمهوراً أكبر عمراً، وتُقرأ من أغلب الفتيات اللواتي يعملن لكسب العيش، وبالتالي هي سطحية أكثر منها حقيقية. فمن المسلم به مثلاً أن كل واحد تقريباً يجب أن يعيش في بلدة كبيرة يعمل بوظيفة بليدة مملة تقريباً. الجنس هو الموضوع الرئيسي وبعيد عن التابو. الميزة الخاصة في القصص القصيرة الكاملة بهذه الصحف هي من نوع "أتى الفجر" عموماً: البطلة تنجو بشق النفس من خسارة "رجلها" على يد منافسة ماكرة أو "الرجل" يخسر وظيفته ويضطر إلى تأجيل الزواج، لكنه يحصل على وظيفة أفضل في الحال. فنتازيا استبدال طفل بآخر منذ الولادة (فتاة تتربى في بيت فقير هي حقيقة ابنة والدين ثريين) شيء مفضل آخر. من أين تأتي الإثارة في الحلقات المتسلسلة عادة؟ إنها تنشأ من نوع من الجريمة العائلية مثل تعدد الزوجات والتزوير أو القتل أحياناً؛ إذ ليس هناك وجود للمريخيين أو الأشعة المميتة أو عصابات الفوضويين الدولية. هذه الصحف في كل الأحوال تستهدف المصداقية ولديها رابط مع الحياة الحقيقية في أعمدة المراسلة حيث تناقش مشاكل حقيقية. عمود نصائح روبي أم إيريس في الأوراكل مثلاً، معقول جداً ومكتوب بشكل جيد. ومع ذلك عالم الأوراكل

وبيغز بيبر عالم وهمي محض. نفس الفنتازيا في كل العصور؛ التظاهر بأنك أثرى مما أنت عليه. الانطباع الرئيسي الذي تولده كل قصة تقريباً في هذه الصحف في نفس المرء هو "التهذيب" البغيض الغامر. ظاهرياً الشخصيات من الطبقة العاملة، لكن عاداتها في داخل البيوت وثيابها ونظرتها وقبل كل شيء خطابها، من الطبقة الوسطى برمته. كل الشخصيات تعيش ببضع جنيهات فوق دخلها في الأسبوع ولا حاجة للقول إن ذلك هو الانطباع المنشود بالضبط، والفكرة هي إعطاء فتاة المعمل الضجرة أو الأم المرهقة لخمسة أطفال الحلم بحياة تتخيل فيها نفسها ليس كدوقة (ذلك التقليد زال وبطل) ولكن كزوجة مدير بنك مثلاً. لم يكن رسم مستوى حياتي بخمسة أو ستة جنيهات في الأسبوع هو المستوى المثالي فقط، وإنما الاعتقاد الضمني أن هذا هو الشكل الذي تعيش به الطبقة العاملة فعلاً. لم تواجه الحقائق الأساسية. لقد اعترف مثلاً أن الناس يخسرون وظائفهم أحياناً لكن تزول الغيوم السوداء بعد ذلك، ويحصلون على وظائف أفضل بدلاً منها، وليس هناك ذكر للبطالة كشيء دائم ومحتوم أو للإعانة التي تقدمها الحكومة للعاطلين عن العمل أو أي ذكر للحركة النقابية أيضاً، وليست هناك أية إشارة في أي مكان على وجود خلل في النظام كنظام، وإنما هناك مصائب فردية فقط يسببها شخص شرير، ويمكن تصحيحها في كل الأحوال في الفصل الأخير. فدائماً تزول الغيوم السوداء، وصاحب العمل الحنون يرفع أجور ألفريد، وهناك وظائف لكل شخص ماعدا السكيرين. لايزال عالم ويزارد وذا جيم نفسه باستثناء استبدال البنادق الآلية بزهور البرتقال.

إن وجهة النظر المغروسة في كل هذه الصحف، هي وجهة نظر عضو غبي بشكل استثنائي من عصبة الأسطول في عام ١٩١٠. نعم يمكن قول هذا، لكن ما أهمية ذلك؟ وماذا تتوقع غير ذلك؟

طبعاً لا أحد في قواه العقلية يريد أن يحول المجلات الرخيصة جداً إلى روايات واقعية أو كراسات اشتراكية؛ فقصة المغامرات يجب أن تكون بطبيعتها بعيدة عن الحياة الحقيقية، لكن كما حاولت أن أوضح أن وهم وزيف ذا ويزارد وذا جيم ليس ساذجاً كما يبدو الأمر، فهاتان الصحيفتان تتواجدان بسبب طلب خصوصي، لأن الصبيان في أعمار محددة يجدون من الضروري لهم أن يقرؤوا عن المريخيين والأشعة المميتة والدببة الرمادية وعصابات قطاع الطرق، فيحصلون على ما يبحثون عنه، لكنهم يحصلون عليه ملفوفاً بالأوهام التي يعتقد

أصحاب العمل المستقبليون أنها مناسبة لهم. إلى أي مدى يستمد الناس أفكارهم من الأدب القصصي أمر قابل للجدل، وأنا شخصياً أعتقد أن معظم الناس يتأثرون بالروايات والأفلام وهلم جرا أكثر ما يعترفون به. وبناء على وجهة النظر هذه، فإن أسوأ الأعمال الأدبية هي الأكثر أهمية، لأنها هي التي تقرأ عادة في وقت مبكر من حياة المرء. ومن المحتمل أن كثيراً من الناس الذين يعتبرون أنفسهم رفيعي الثقافة وتقدميين يحملون في الواقع خلال حياتهم خلفية خيالية اكتسبوها في طفولتهم من سابر وايان هاي مثلاً. وإن كان الأمر كذلك، فإن أسبوعيات الصبيان الرخيصة ذات أهمية قصوى. هذا هو الهراء الذي يُقرأ بين أعمار الثانية عشرة والثامنة عشرة من قبل نسبة كبيرة جداً وربما من غالبية الصبيان الإنكليز، ويشمل الكثيرين الذين لن يقرأوا أي شيء آخر غير الصحف، وبذلك يتشربون بمجموعة من المعتقدات التي تُعتبر عتيقة وبالية بشكل ميئوس في المكتب المركزي لحزب المحافظين، لهذا من الأفضل لأن العملية تتم بشكل غير مباشر، أن تضخ فيهم القناعة بأن المشاكل الرئيسية لزمننا ليس لها وجود، وليس هناك خلل مع الرأسمالية الليبرالية، وأن الأجانب رسوم هزلية تافهة، وأن الإمبراطورية البريطانية نوع من كونسيرن خيري سيدوم للأبد. عند التفكير بمالكي هذه الصحف من الصعب التصديق بأن هذا ليس متعمداً. من الصحف الاثنتي عشرة التي ناقشتها (اثنتا عشر تشمل ثريلر وديتكتيف ويكلي) سبعة تعود ملكيتها لشركة الطباعة المدمجة التي هي من أكبر اتحادات الطباعة في العالم، وتسيطر على أكثر من مائة صحيفة مختلفة، لذلك ذا جيم وماغنيت مرتبطتان بشدة مع الديلي تلغراف والفايننشال تايمز.هذا بحد ذاته يثير ما يكفي من الشكوك حتى لو لم يكن واضحاً، أن القصص في أسبوعيات الصبيان قد دُققت وفُحصت سياسياً. لهذا فإن شعرت بالحاجة إلى حياة وهم تسافر فيها إلى المريخ وتقاتل الأسود بيديك المجردتين (وأي صبي لا يحب ذلك؟) فإنك لا تنالها إلا بتسليم نفسك عقلياً إلى أناس مثل اللورد كامروز. لأنه ليس هناك تنافس، فخلال كل هذا الدفق من الصحف، فإن الاختلافات لا تذكر، وفي هذا المستوى لا يوجد غيرها. هذا يثير السؤال، لماذا لا يوجد شيء كصحيفة يسارية للصبيان؟

فكرة كهذه تجعلني أشعر بالاشمئزاز قليلاً من النظرة الأولى. من السهل جداً تخيل الشكل الذي ستكون عليه صحيفة يسارية للصبيان إن وجدت. أتذكر في عام ١٩٢٠ أو ١٩٢١ أن

شخصاً متفائلاً كان يقدم كراسات الدعاية الشيوعية لمجموعة من صبيان المدارس، وكان الكراس الذي أعطي لي من نوع سؤال وجواب:

سؤال: هل يستطيع صبي شيوعي أن يكون صبي كشافة يا رفيق؟

جواب: كلا يا رفيق.

سؤال: لماذا يا رفيق؟

جواب: لأن صبي الكشافة يا رفيق يجب أن يحيي العلم البريطاني، وهو رمز الاستبداد والظلم..إلخ إلخ.

أفترض الآن أن أحداً أطلق جريدة يسارية تستهدف الصبيان من عمر الثانية عشرة أو الرابعة عشرة. أنا لا أقول إن كل محتوياتها ستكون مثل المقطع الذي اقتبسته آنفاً، لكن هل يشك أحد بأنها ستكون شيئاً مثله؟ بالتأكيد هكذا جريدة ستكون إما من تأييد وتشجيع كئيب أو تحت تأثير شيوعي وتُكرس لتملق روسيا السوفييتية، وفي كلا الحالتين لن ينظر إليها أي صبي سوي. بمعزل عن الأدب الرفيع، كل الصحافة اليسارية الموجودة عبارة عن كراسة دعاية سياسية طويلة. إن الصحيفة الاشتراكية في إنكلترا التي يمكن أن تعمر أسبوعاً واحداً بجدارتها كصحيفة هي الديلي هيرالد: وكم من الاشتراكية في الديلي هيرالد؟ لذلك في هذه اللحظة إن وجود جريدة ذات ميل يساري وبنفس الوقت يحتمل أن تجذب الصبيان العاديين في سنين مراهقتهم، شيء أبعد من الرجاء.

لكن هذا لا يعني أن هذا مستحيل. ليس هناك سبب واضح لأن تكون كل قصة مغامرات مخلوطة بالضرورة بالتكبر وبالوطنية القذرة. لأن القصص في هتسبر وmodرين بوي ليست كراسات دعائية للمحافظين؛ وإنما مجرد قصص مغامرات مع تحيز للمحافظين، ومن السهل تخيل العملية معكوسة، فمثلاً من الممكن تخيل صحيفة مثيرة ونشطة مثل هتسبر، لكن بموضوع رئيسي و"أيديولوجيا" أحدث. ومحتمل أيضاً (رغم أنه يثير صعوبات أخرى) تخيل صحيفة نسائية بنفس المستوى الأدبي لصحيفة أوراكل، تعالج نفس النوع من القصص تقريباً وتهتم أكثر بوقائع حياة الطبقة العاملة بنفس الوقت. مثل هذه الأشياء تم فعلها سابقاً لكن ليس في إنكلترا. في السنين الأخيرة من الملكية الإسبانية كان هناك نتاج كبير في إسبانيا من

الروايات اليسارية القصيرة، بعضها من أصل فوضوي واضح، لكن لسوء الحظ أنا لم أر مغزاها الاجتماعي في الوقت الذي ظهرت فيه وضيعت المجموعة التي كانت لدي، لكن لا شك أن الحصول على نسخ منها لايزال سهل المنال. في الشكل والأسلوب كانت القصص مشابهة للقصص الإنكليزية التي تباع بأربع بنسات، ماعدا أن إلهامها وتحفيزها "يساري"، فمثلاً لو صورت قصة مطاردة الشرطة للفوضويين عبر الجبال، فستكون من وجهة نظر الفوضوي وليس الشرطة ومثال أقرب للتناول هو الفيلم السوفييتي تشابايف الذي عرض عدة مرات في لندن. فنياً بمستوى الزمن الذي صنع فيه تشابابيف هو من الطراز الأول، لكنه عقلياً غير بعيد جداً عن هوليوود رغم خلفيته الروسية غير المألوفة. الشيء الوحيد الذي يرفعه ويميزه عن الفيلم العادي هو التمثيل اللافت للممثل الذي أخذ دور الضابط الأبيض (البدين) - أداء بدا مثل قطعة ملهمة من تقييد الرأي وإلا فإن الجو مألوف. كل الأدوات العادية هنا - قتال بطولي ضد المصاعب المحتملة ونجاة في اللحظة الأخيرة وإطلاق نار من فوق خيول تعدو، وعلاقة حب وفاصل كوميدي. إن الفيلم في الحقيقة عادي جداً باستثناء أن ميله يساري. في أفلام هوليوود عن الحرب الأهلية الروسية يكون البيض ملائكة والحمر شياطين، أما في النسخة الروسية يكون الحمر ملائكة والبيض شياطين، وتلك كذبة أيضاً، لكنها كذبة أقل ضرراً وخبثا من الأخرى عند التفحص الطويل.

هذه مشكلات صعبة عدة تقدم نفسها؛ طبيعتها العامة واضحة جداً ولا أريد مناقشتها، ولكن سأشير فقط إلى حقيقة أن الأدب الشعبي التخيلي في إنكلترا ميدان أعتقد الجناح اليساري أنه لن يبدأ بالدخول أبداً. كل الفن القصصي من الروايات في المكتبات الواسعة ونزولاً يخضع للرقابة التي تخدم مصالح الطبقة الحاكمة. وقصص الصبيان خصوصاً، إن الكلام المليء بالأحداث المثيرة الذي يلتهمه كل صبي في وقت أو آخر تقريباً مخضل بأسوأ أوهام عام ١٩١٠ . هذه الحقيقة ليست مهمة فقط لو أعتقد المرء أن ما يقرأه في الطفولة لا يترك أي أثر وراءه. من الواضح أن اللورد كامروز وزملاءه لا يعتقدون بشيء من هذا النوع، وأخيراً ينبغي للورد كامروز أن يعرف.

فن دونالد ماكجيل

من لا يعرف "المجلات الهزلية" في واجهات محلات القرطاسية الرخيصة، والبطاقات البريدية التي تباع ببنس أو اثنين، مع تتاليها اللانهائي من سيدات بدينات في ثياب سباحة ضيقة وصورهن الفجة والألوان التي لا تحتمل، وخصوصاً الأثر الذي بلون بيضة عصفور السياج وبحمرة مكتب البريد؟

ينبغي أن يكون السؤال بلاغياً، لكن الحقيقة الغريبة أن كثيراً من الناس يجهلون بوجود هذه الأشياء، أو بالأحرى لديهم فكرة غامضة بأنها أشياء لا توجد إلا على شاطئ البحر مثل مغنٍ زنجي أو صخرة النعناع. فعلياً هي تباع في كل مكان - يمكن شراءها من أي مكان في وولروث تقريباً مثلاً - هي تُنتج بشكل واضح بأعداد ضخمة وتظهر سلاسل جديدة منها باستمرار، ويجب ألا يخطئ المرء بينها وبين نماذج متنوعة أخرى من البطاقات البريدية المزينة، كالبطاقات العاطفية مثلاً التي تتعامل مع الجراء والقطط الصغيرة، أو البطاقات الويندية أو البطاقات دون - الإباحية التي تستغل علاقات الأطفال الغرامية. هي نوع فني بذاتها متخصصة في الفكاهة "الدنيئة" جداً من أنموذج الحماة ومنديل الأطفال وحذاء رجل الأمن وشكل مميز عن كل الأنواع الأخرى بعدم امتلاكها لأي طموحات فنية. عشرات من دور النشر تصدرها، رغم أن الأشخاص الذين يرسمونها، لا يبدون كثيرين في وقت واحد.

أرفقت خصيصاً مع اسم دونالد ماكجيل، ليس لأنه الأخصب إنتاجاً فقط والأفضل بكثير من فناني البطاقات البريدية المعاصرين، وإنما لأنه الأكثر تمثيلاً والأحسن في المهنة أيضاً. من يكون دونالد ماكجيل، أنا لا أعرف. هو اسم تجاري كما يبدو، ليس لأن سلسلة واحدة من البطاقات البريدية على الأقل صدرت بعنوان "رسومات دونالد ماكجي الهزلية"، وإنما أيضاً لأنه شخص حقيقي بلاشك، ويملك أسلوباً في الرسم يمكن تمييزه من لمحة واحدة. أي واحد يتفحص بطاقاته البريدية في الجملة، يلاحظ أن الكثير منها ليست حقيرة كرسوم، لكن

الادعاء بأنها تملك أية قيمة جمالية مباشرة هو مجرد رأي هواة. إن البطاقة البريدية الهزلية هي صورة توضيحية لدعابة "دعابة دنيئة" بشكل ثابت تصمد أو تسقط حسب مقدرتها على إثارة الضحك وليس لها اهتمام "أيديولوجي" أبعد من ذلك. إن ماكجيل ذكي ويتمتع بلمسة رسام كاريكاتير حقيقي في رسم الوجوه، لكن القيمة المميزة لبطاقاته البريدية أنها أنموذجية تماماً. إنها تمثل معيار البطاقة البريدية الهزلية. إنها تمثل بالضبط ومن دون أي تقليد ما كانت عليه البطاقات البريدية في أي وقت من الأربعين سنة الأخيرة، والتي منها يمكن استنتاج معنى هذا النوع الفني كله وهدفه.

احصل على دزينة من هذه الأشياء، ويفضل أن تكون من بطاقات ماكجيل - فلو انتقيت وعزلت من الكومة البطاقات التي تبدو الأكثر إثارة للضحك والتي ستجد أن معظمها من ماكجيل - ثم انشرها على طاولة. ما الذي ستراه؟

انطباعك الأول أنها سوقية مفرطة. هذا بمعزل تام عن الفحش الموجود دائماً وبمعزل عن بشاعة الألوان. فيها خسة مطلقة من الجو العقلي البارز ليس في طبيعة الدعابات فحسب، وإنما في الصفة الغريبة الصارخة البارزة للرسوم. إن التصاميم مثل تصاميم الأطفال مليئة بخطوط ثقيلة ومساحات فارغة، وفيها كل الأشكال وكل إيماءة ووضع قبيح بشكل متعمد، والوجوه مكشرة وبلهاء. أما النسوة فرسمن بشكل ساخر غير سوي بمؤخرات مثل نساء الهوتينتوت (شعب غير متحضر يعيش في جنوب أفريقيا - المترجم). أما انطباعك الثاني فهو ألفة غير معروفة. بماذا تذكرك هذه الأشياء؟ لماذا هي بهذا الشكل؟ في المقام الأول طبعاً إنها تذكرك بالبطاقات البريدية المختلفة التي ربما حدقت بها في طفولتك. لكن الأكثر من هذا، أن الذي تنظر إليه حقيقة هو شيء تقليدي كالمأساة الإغريقية ونوع من عالم المؤخرات المصفوعة والحموات الهزيلات الخفي الذي هو جزء من الوعي الأوروبي الغربي. تلك الدعابات ليست مبتذلة بالضرورة، لو أخذها واحدة تلو الأخرى وليست البذاءة محظورة لها، والبطاقات البريدية تكرر نفسها مرات أقل مما تفعل أعمدة الدعابة في المجلات المحترمة، لكن موضوعها الأساسي ونوع الدعابة التي تستهدفه لا يتغير أبداً. إن القلة منها ظريف وذكي بصدق، تلك التي في أسلوب ماكس ميلر. أمثلة:

"أحب رؤية الفتيات المجربات ملجأ ووطناً"

"لكني أنا لست مجربة!"

"أنت لست وطناً وملجأ بعد!"

"منذ سنين وأنا أصارع للحصول على معطف من الفرو. كيف حصلت على معطفك؟"

"توقفت عن الصراع"

"القاضي: أنت تراوغ يا سيد. هل نمت أم لم تنم مع هذه المرأة؟"

"شريك الزنا: ولا لحظة يا مولاي!"

على كل حال هي ليست ذكية بشكل عام، ولكن هزلية ويجب إن يقال عن بطاقات ماكجيل بالخصوص إن الرسم جيد غالباً ومضحك أكثر بكثير من الدعابة التي تحته. من الواضح أن الميزة البارزة للبطاقات الهزلية هي فحشها، ويجب أن أناقش ذلك بشكل كامل لاحقاً، لكن سأعطي هنا تحليلاً قاسياً لموضوعها الرئيسي المعتاد مع ملاحظات مفسرة حين تكون هناك حاجة إليها:

الجنس - أكثر من نصف الدعابات أو ربما ثلاثة أرباعها هي دعابات جنسية، تتدرج من الدعابات غير المؤذية إلى تلك التي لا تصلح للنشر أبداً. المفضل الأول ربما الطفل غير الشرعي. عناوين نموذجية: "هل تستطيع تبديل هذه الحلي الصغيرة الجالبة للحظ الجيد بقنينة إرضاع طفل؟" "هي لم تدعني إلى حفلة التعميد، لهذا لن أذهب إلى حفلة الزفاف". تضاف إليه المتزوجات حديثاً والعوانس والتماثيل العارية والنساء في ثياب السباحة. كل هذه مضحكة بطبيعة الحال ويكفي مجرد ذكرها لإثارة الضحك. لم تستغل دعابة الخيانة الزوجية إلا نادراً وليس هناك أية إشارة إلى الشذوذ الجنسي.

أعراف الدعابة الجنسية:

(١) الزواج يفيد النساء فقط. كل رجل يخطط ويحيك الخطط للإغواء، وكل امرأة تحيك الخطط للزواج. ليس هناك امرأة واحدة ظلت غير متزوجة بطيب خاطرها.

(٢) الفتنة الجنسية تتلاشى في عمر الخامسة والعشرين. الأشخاص الوسيمون والنضرون الذين تجاوزوا شبابهم الأول لم يُصوروا أبداً. الزوجان العاشقان في شهر

العسل يظهران ثانية كزوجة ذات طلة متجهمة وزوج مشوه بشاربين وأنف محمر ولم يُسمح بمرحلة وسطى.

الحياة البيتية - تلي الجنس، الزوج الذي تسيطر عليه زوجته هو المزحة المفضلة. العنوان النموذجي:"هل أخذوا "صورة شعاعية لفك زوجتك في المستشفى؟ - كلا، أخذوا صورة سينمائية بدلاً من ذلك".

الأعراف:

(١) لا يوجد شيء اسمه زواج سعيد.

(٢) ليس هناك رجل غلب امرأة في خلاف أبداً. السكر - والامتناع عن السكر مضحكان بطبيعة الحال.

دعابات المرحاض - ليس هناك عدد كبير من هذه. قدور حجر النوم مضحكة بطبيعة الحال وكذلك المراحيض العامة. بطاقة بريدية نموذجية بعنوان "صديق وقت الضيق"، تُظهر قبعة رجل تطير عن رأسه وتختفي تحت درج سلم مرحاض السيدات.

تكبر الطبقة العاملة المتداخلة وعجرفتها - الكثير من هذه البطاقات البريدية يوحي أنها تستهدف الفئة الأغنى من الطبقة العاملة وفقراء الطبقة الوسطى. هاك دعابات تدور حول إساءة استعمال الألفاظ والأمية وسلوك ساكني الأحياء الفقيرة الفظ، وهنا بطاقات بريدية لا تحصى تُظهر عجائز متسخات بالوحل من أنموذج الخدامة النهارية يتبادلن شتائم "لا تليق بالسيدات". جواب بارع أنموذجي يظهر سرعة البداهة: "أتمنى لو أنك كنت تمثالاً وأنا حمامة!" أنتج عدد محدد من البطاقات منذ الحرب تعالج التغوط من وجهة نظر معادية للمتغوط. هناك الدعابات المألوفة عن المشردين والمتسولين والمجرمين، وتظهر الخادمة المضحكة بشكل متكرر بعض الشيء، ويظهر أيضاً العامل غير البارع المضحك والملاح..إلخ؛ لكن ليس هناك دعابات عن النقابات. التكلم بشكل عام أن كل واحد بدخل فوق أو تحت الخمس جنيهات في الأسبوع بكثير يعتبر مثيراً للضحك. "الشخص البارز والممتاز والأنيق" شخص هزلي بشكل آلي مثل ساكن الأحياء الفقيرة.

الشخصيات الشائعة والمألوفة - الأجانب قلما يظهرون أو لا يظهرون أبداً. الدعابة المحلية الرئيسية هو الاسكتلندي الذي لا ينضب تقريباً. المحامي محتال دائماً ورجل الدين أبله وهلع ويقول الشيء الخطأ دائماً. "العقدة" أو "الهراس" لازال يظهر كما في زمن إدوارد تقريباً في ثياب سهرة عتيقة الزي وقبعة أوبرا أو حتى طماق كاحل وخيزرانة بعقدة. من الباقين المنادية بحق المرأة في الاقتراع، وهي واحدة من الدعابة الكبيرة لفترة ما قبل ١٩١٤ وقيمة جداً يعز التخلي عنها. لقد عادت إلى الظهور مرة أخرى من دون أي تغيير في مظهرها البدني كمحاضرة تطالب بحقوق النساء ومساواتهن مع الرجال أو متعصبة بخصوص الامتناع عن شرب الخمر. إن الميزة البارزة في السنوات القليلة الأخيرة هي الفحش التام في البطاقات البريدية المعادية لليهود، اختفت "النكتة اليهودية" البغيضة أكثر من "النكتة الاسكتلندية" فجأة بعد ظهور هتلر بقليل.

السياسة - أي حدث معاصر أو طائفة دينية أو نشاط لديه إمكانيات هزلية كـ"الحب الحر" والنسوية - نظرية المساواة بين الجنسين و(التحذير من الغارات الجوية - المترجم) والتعري مثلاً يجد طريقه بسرعة إلى صورة البطاقات البريدية، لكن جوها العام قديم الطراز بشكل زائد. النظرة السياسية الضمنية راديكالية مناسبة لعام ١٩٠٠ تقريباً. في أوقات عادية هي ليست وطنية فقط، بل تؤيد السخرية من الوطنية بنكات عن "أطال الله عمر الملك" وعلم الاتحاد..إلخ. لم يعكس الوضع الأوروبي نفسه فيها حتى وقت ما في عام ١٩٣٩ وأول مرة فعل هذا في نكات التحذير من الغارات الجوية، وحتى في هذا التاريخ كانت البطاقات البريدية التي تطرقت إلى الحرب قليلة جداً ماعدا دعابات التحذير من الغارات الجوية (امرأة بدينة تعلق في مدخل ملجأ أندرسون: يهمل القيمون واجبهم بينما تتعرى امرأة شابة عند النافذة التي نسيت أن تطليها باللون الأسود، إلخ إلخ) عدد قليل يعبر عن عواطف معادية لهتلر ليس من النوع الحاقد. واحدة، ليست من ماكجيل، تظهر هتلر بالمؤخرة المتضخمة المعتادة، ينحني إلى الأسفل ليلتقط زهرة. عنوان "ماذا ستفعلون يا رفاق السكن؟" هذا تحليق عال عن الوطنية بالقدر الذي تستطيع بلوغه أي بطاقة بريدية. على خلاف الجرائد الأسبوعية التافهة الرخيصة، فإن البطاقات

البريدية ليست نتاج أية شركة احتكارية كبرى، ومن الواضح أنها لا تعتبر مهمة أبداً في تشكيل الرأي العام، ليست هناك علامات لأي محاولات في تلك البطاقات في الحث على رأي مقبول للطبقة الحاكمة.

هنا يعود المرء إلى الميزة الهامة البارزة للبطاقات البريدية – فحشها. بهذا كل واحد يتذكرها وهو مركزي أيضاً لغرضها، لكن ليس بطريقة واضحة مباشرة.

المرأة ذات العجيزة الناتئة دافع متواتر ومهيمن تقريباً في البطاقات البريدية، ففي نصفها ربما أو أكثر من النصف حتى حين لا يتعلق هدف النكتة بالجنس، يظهر نفس شكل الأنثى، شخصية ريانة "شهوانية" مع ثوب ملتصق بها بشكل ضيق مثل جلد آخر ومع أثداء أو أرداف أكد عليها زيادة وبشكل فاضح ومبالغ به كيفما قلبتها. لا يمكن أن يكون هناك شك بأن هذه الصور رفعت الغطاء عن كبت واسع الانتشار جداً وطبيعي في بلاد نساؤها في صغرهن يملن إلى أن يكن نحيلات إلى درجة الهزال. لكن بنفس الوقت بطاقات ماكجيل – وهذا ينسحب على كل البطاقات البريدية الأخرى في هذا النوع – ليس المراد منها أن تكون فناً إباحياً، وإنما شيء ألطف وأكثر حشمة كملاحظة هجائية ساخرة من الفن الإباحي. إن أشكال الهوتينتوت للنساء كاريكاتيرات لمثال الرجل الإنكليزي السري الأعلى وليست صوراً له. حين يتفحص المرء بطاقات ماكجيل البريدية عن قرب أكثر يلاحظ أن نوع فكاهتها ليس له أي معنى إلا بعلاقته مع النظام الأخلاقي الصارم نوعاً ما. ففي صحف مثل ايسكواير أو لا في باريسيان تكون الخلفية المتخيلة للنكات الاتصال الجنسي غير الشرعي والانهيار التام لكل المعايير، نجد أن خلفية بطاقات ماكجيل هي الزواج. إن النكات البارزة الأربع، العري والأطفال والزنا والعوانس والأزواج المتزوجون حديثاً، لا تبدو مضحكة في مجتمع فاجر بشكل حقيقي أو حتى "رفيع الثقافة وذي تجارب". البطاقات التي تتعامل مع الأزواج الذين في شهر العسل تملك دائماً قلة اللباقة الحماسية لأعراس القرى التي لاتزال تعتبر مضحكة إلى حد صارخ عندما تخيط أجراساً بسرير العرس. في واحدة مثلاً، عريس شاب يظهر خارجاً من الفراش في الصباح الذي تلى ليلة الزفاف ويقول: "أول صباح في بيتنا الصغير الخاص بنا، يا حبيبتي! سأذهب وأحضر اللبن والجريدة وأحضر لك كوباً من

الشاي". الصورة المدرجة صورة لعتبة الباب الخارجي الأمامية وعليها أربع صحف وأربع قناني من الحليب. هذا فحش إن أحببت لكنه ليس فسقاً. مضمونها - وهذا المضمون فقط الذي تتجنبه ايسكواير أو نيويوركر بأي ثمن - إن الزواج شيء مثير بعمق ومهم وأكبر حدث في حياة الكائن البشري العادي.

وهكذا أيضاً مع النكات عن الزوجات المنكدات والحماوات المستبدات. هي تدل ضمناً على الأقل على مجتمع مستقر، الزواج فيه أبدي ولا فكاك منه، والولاء العائلي يُعتبر من المسلمات. ويرتبط بهذا شيء لاحظته قبل ذلك، ألا وهو حقيقية عدم وجود أو من النادر وجود صور لأشخاص جذابين تجاوزوا فترة شبابهم الأول. هناك الزوجان اللذان "يتغازلان" والزوجان اللذان في منتصف العمر بعلاقتهما المتقلبة في الحب والكره ولا شيء بينهما. إن العلاقة علاقة الحب المحرمة، لكن المحتشمة تقريباً التي هي النكتة المألوفة والشائعة في الصحف الفرنسية الهزلية، ليست موضوع البطاقات البريدية. وهذا يعكس على المستوى الهزلي وجهة نظر الطبقة العاملة، التي تعتبر من الطبيعي والبديهي أن تنتهي فترة الشباب والمغامرة - في الواقع الحياة الفردية - بالزواج. وهذه إحدى الاختلافات الطبقية الحقيقية - مقارنة بالامتيازات الطبقية التي لاتزال موجودة في إنكلترا بأن أفراد الطبقات العاملة يهرمون في عمر مبكر جداً. هم لا يعيشون حياة أقصر طالما تجاوزوا طفولتهم أحياء، ولن يفقدوا نشاطهم البدني بوقت مبكر أكثر ولكنهم يفقدون مظهرهم الشبابي بصورة مبكرة جداً. هذه الحقيقة ترى وتلاحظ في كل مكان لكن يمكن التأكد منها بسهولة بمراقبة واحد من المجموعات العمرية الأعلى وهو ينضم إلى الخدمة العسكرية؛ إن منظر أفراد الطبقة الوسطى والعليا في المتوسط، أصغر بعشر سنوات من الآخرين. من المألوف نسب هذا إلى الحياة الأصعب التي تُجبر الطبقات العاملة على عيشها، لكن يُشك بوجود فرق كهذا مسؤول عن ذلك. الحقيقة الأرجح هي أن الطبقات العاملة تصل إلى منتصف العمر بوقت أبكر، لأنها تقبل به بوقت أبكر، لأنه لتبدو شاباً بعد الثلاثين مثلاً هو إلى حد كبير مسألة رغبة لتفعل هذا. هذا التعميم أقل صحة مع العمال من ذوي الأجور الأفضل وخصوصاً هؤلاء الذين يعيشون في بيوت المجلس البلدي وشقق التوفير العمالية، لكنه صحيح كفاية حتى بينهم ليشير إلى

اختلاف في وجهة النظر. وفي هذا كالعادة هم تقليديون ومنسجمون مع الماضي المسيحي أكثر من النساء الثريات اللواتي يحاولن البقاء شابات وهن في الأربعين بواسطة الاهتزازات البدنية ومستحضرات التجميل وتجنب الحمل. إن الحافز للتشبث بالشباب بأي ثمن ومحاولة الحفاظ على الجاذبية الجنسية ورؤية منتصف العمر، بأنه مستقبل لنفسك وليس أطفالك شيء ذو أصل حديث وطد نفسه أخيراً بشكل مقلقل، وقد يختفي ثانية حين تهبط مستويات العيش ويرتفع معدل الولادات عندنا. إن عبارة "الشباب متاع لا يدوم" تعبر عن الموقف التقليدي العادي. إنها هذه الحكمة القديمة جداً التي يعكسها ماكجيل وزملاؤه من دون قصد بلا شك، حين لم يسمحوا لأية مرحلة انتقالية بين زوجي شهر العسل وهذين الشخصين اللذين فقدا كل فتنة وسحر فيهما، الأم والأب.

قلت إن نصف بطاقات ماكجيل على الأقل دعابات جنسية ونسبة عشرة بالمائة ربما فحش أكثر من أي شيء آخر يطبع في إنكلترا. وتعرض بائعو الصحف لمحاكمات قضائية أحياناً بسبب بيعها، وسيكون هناك محاكمات أكثر إن لم تحمَ البطاقات الأكثر تحرراً بواسطة المعنى المزدوج بشكل دائم. يكفي مثال واحد ليبين كيف يتم هذا. في إحدى البطاقات، بعنوان "لم يصدقوها" امرأة شابة مقيدة اليدين توضح شيئاً طوله قدمين تقريباً لزوجين مندهشين من معارفها. خلفها على الجدار سمكة متخمة في صندوق زجاجي، وبجانب ذلك صورة لرياضي عارٍ تقريباً. من الواضح أنها لا تشير إلى السمكة، لكن لا يمكن إثبات هذا. الآن من غير المؤكد أن توجد أية جريدة في إنكلترا تنشر دعابة من هذا النوع، وبالتأكيد لا توجد جريدة تفعل ذلك بشكل اعتيادي. هناك كمية ضخمة من الفن الإباحي من الصنف المعتدل وصحف توضيحية لا تعد تتاجر بسيقان النساء، لكن ليس هناك أدب شعبي متخصص في المظهر الهزلي "السوقي" للجنس. من الجانب الآخر إن دعابات مثل دعابات ماكجيل هي التغيير الصغير العادي لمرحلة الملاهي وصالات الموسيقى، وما يُسمع من المذياع أيضاً في أوقات يكون فيها الرقيب ينود برأسه من النعاس. إن الهوة بين ما يمكن أن يقال وما يمكن أن ينشر، واسعة بشكل استثنائي في إنكلترا. إن الملاحظات والإيماءات على خشبة المسرح التي لا يعترض عليها أحد إلا نادراً، تثير احتجاجاً شعبياً عنيفاً إن جرت أية محاولة لإعادة إنتاجها

على الورق. (قارن هذر ماكس ميلر على المنصة مع عموده الأسبوعي في الصنداي ديسباتش). إن البطاقات البريدية الهزلية الاستثناء الوحيد فقط لهذه القاعدة والناقل الوحيد الذي يفكر بنشر المزاح "الدنيء" حقيقة. فقط في البطاقات البريدية وعلى منصة حفلات المنوعات، يمكن استغلال أنموذج نكات العجيزة البارزة للخارج والكلب وعمود النور وحفاظ الطفل بشكل حر. مع التذكير أن المرء يرى الوظيفة التي تنجزها هذه البطاقات البريدية بطريقتها المتواضعة.

ما تقوم به تلك البطاقات البريدية، هو أنها تعطي تعبيراً لنظرة سانكو بانزا للحياة وللموقف من الحياة الذي لخصته الآنسة ريبيكا ويست مرة بـ"استخراج أكبر قدر ممكن من المتعة من مؤخرات ضخمة في مطابخ الأقبية". مركب دون كيشوت وسانشو بانزا الذي هو أقدم ثنائية من الجسد والروح في الفن القصصي طبعاً، يتكرر كثيراً في أدب السنوات الأربعمائة الأخيرة أكثر مما يمكن تفسيره كمحاكاة فقط، ويظهر مرة أخرى وأخرى في أشكال متنوعة لانهاية لها، بوفارد وبوشيه، جيفز ووستر، بلوم وديدالوس، هولمز وواتسون (الشكل هولمز - واتسون نوع بارع بشكل استثنائي لأن الصفات البدنية المعتادة للشريكين نُقلتا من واحد إلى آخر). من الواضح أنه يتطابق مع شيء متبق في حضارتنا، ليس بمعنى أن تلك الشخصية يجب أن توجد في حالة "نقية" في الحياة الحقيقية، وإنما بمعنى أن المبدأين الاثنين، الحماقة النبيلة والحكمة الرديئة، يتواجدان جنباً إلى جنب في كل كائن بشري تقريباً. لو نظرت في عقلك، فأيهما أنت، دون كيشوت أم سانشو بانزا؟ بالتأكيد أنت الاثنان تقريباً. هناك جزء أول منك يتمنى أن يكون بطلاً أو قديساً، ولكن الجزء الآخر منك عبارة عن رجل صغير بدين يرى بوضوح أفضليات البقاء حياً بكامل جلده. إنه نفسك غير الرسمية وصوت البطن التي تحتج ضد الروح، وهو الذي تتجه ميوله وولعه نحو الأمان والأسرة الناعمة وعدم العمل وقدور البيرة والنساء ذوات الأشكال "الشهوانية"، وهو من يخرق مواقفك الرائعة ويحثك للسعي وراء الرقم واحد وتكون غير مخلص لزوجتك وتتهرب من سداد ديونك وهلم جرا. إن سمحت لنفسك للتأثر به أم لا، فهذه مسألة مختلفة. لكن من الكذب الصريح القول إنه ليس جزءاً منك مثل كذبة القول بأن دون كيشوت ليس جزءاً منك، لكن كل ما قيل وكتب يتألف من الكذبة الأولى أو الأخرى وعادة الأولى.

لكنه واحد من الشخصيات الشائعة والمألوفة في الأدب، بالرغم من أشكاله المتغيرة.
أما في الحياة الحقيقية وفي الطريقة التي رُتب بها المجتمع خصوصاً، لم تلق وجهة نظره آذاناً صاغية أبداً. هناك مؤامرة عالمية دائمة للتظاهر بأنه غير موجود أو أنه ليس مهماً على الأقل. لم يكن هناك متسع كافٍ في المنظومات القانونية والأخلاقية أو الأنظمة الدينية للنظرة الساخرة من الحياة. أي شيء هزلي مفسد وكل نكتة في النهاية فطيرة كستارد، والسبب أن القسم الكبير من النكات يتركز على الفحش، هو ببساطة أن كل المجتمعات يجب أن تصر على معيار رفيع للأخلاق الجنسية كثمن للبقاء. إن النكتة القذرة طبعاً ليست هجوماً خطيراً على الفضيلة، وإنما نوع من التمرد العقلي ورغبة لحظية في أن تكون الأشياء مختلفة، وهكذا أيضاً مع كل النكات التي تركز دائماً حول الجبن والكسل والخداع والكذب أو سجية ما أخرى لا يستطيع المجتمع تحمل نتائج تشجيعها. على المجتمع دائماً أن يطلب من الكائنات البشرية أكثر قليلاً من الذي يناله عملياً. عليه أن يطالب بانضباط لا عيب فيه وتضحية بالذات، وعليه أن يتوقع من رعاياه أن يعملوا بجد ويدفعوا ضرائبهم ويكونوا مخلصين لزوجاتهم، ويجب عليه أن يفترض أن الرجال يعتقدون أن الموت في ساحة الحرب عمل مجيد، وأن النساء يرغبن ويردن أن يرهقن أنفسهن بحمل الأطفال. إن كل ما يمكن أن يسميه المرء بالأدب الرسمي، مؤسس على مثل هذه الافتراضات. أنا لم أقرأ أبداً بلاغات الجنرالات قبل المعركة، وخطابات الفوهررات ورؤساء الوزراء وأغاني المدارس العامة التضامنية والأحزاب السياسية اليسارية والأناشيد الوطنية وكراسات الاعتدال وضبط النفس والمنشورات البابوية والعظات التي ضد القمار ومنع الحمل، من دون أن أتصور أنني أسمع في الخلفية جوقة من الأصوات الدالة على الكره من الملايين من عامة الناس الذين لا تجذبهم أو تغريهم هذه العواطف.
لكن العواطف السامية تفوز في النهاية دائماً، والقادة الذين يقدمون الدم والكدح والدموع والعرق دائماً يحصلون من أتباعهم أكثر من هؤلاء الذين يوفرون الأمان والوقت الجيد.
حين تصل الأمور إلى مرحلة الشدة (القرصة) تكون الكائنات البشرية كائنات بطولية، فالنساء يواجهن المخاض وفرشاة الفرك والتنظيف، والثوار يعظون على نواجذهم ويغلقون أفواههم في غرف التعذيب، والبوارج تطلق النار من مدافعها وهي تغرق

وتغمر المياه أرضياتها. إنه العنصر الآخر في الإنسان فقط، العنصر الزاني والكسول والجبان والمتهرب من دفع الديون الذي داخلنا الذي لا يمكن أن يُقمع تماماً أبداً ويحتاج أن نستمع إليه أحياناً.

البطاقات البريدية الهزلية هي أسلوب تعبير واحد عن وجهة نظره، ووجهة نظر متواضعة وأقل أهمية من قاعات الموسيقا، لكنها تظل جديرة بالاهتمام. من الطبيعي في المجتمع الذي لايزال مسيحياً في جوهره أن يكون التركيز على النكات الجنسية؛ وفي المجتمع الاستبدادي، إن كان لديه أية حرية تعبير، سوف يكون التركيز على الأرجح على الكسل أو الجبن، وفي كافة الأحوال على غير البطولي بشكل أو بآخر. أنا لن أعمل على شجبها بحجة أنها سوقية وقبيحة. فذلك بالضبط المقصود أن تكونه. إن كل معناها وفضيلتها في دونيتها غير المفتداة، ليس بمعنى الفحش بل دونية وجهة النظر في كل اتجاه أياً كان كما أن أدنى أثر للتأثيرات "الأسمى" سوف يدمرها تماماً. هي تمثل رأي عين الحشرة للحياة وعالم صالات الموسيقى حيث الزواج نكتة قذرة أو كارثة هزلية، والإيجار متأخر دائماً والثياب فوق الصنبور دائماً، والمحامي محتال دائماً، والاسكوتلندي بخيل دائماً، وحيث الأزواج الجدد يجعلون من أنفسهم سخرية على الأسرة الشنيعة في بيوت الإيجار في الشاطئ، وحيث الأزواج الثملون بأنوفهم المحمرة يعودون مترنحين إلى البيت في الساعة الرابعة صباحاً، ليجدوا الزوجات في ثياب النوم الكتانية في انتظارهم خلف الباب الأمامي ومذكي النار في أيديهن. وجود البطاقات حقيقة وواقع، وكون الناس يريدونها شيء مهم في دلالاته، وهي نوع من المرح الصاخب وتمرد ليس مؤذياً للفضيلة مثل صالات الموسيقى، وتعبر كذلك عن ميل واحد في العقل البشري، لكنه ميل موجود دائماً وسيجد لنفسه مخرجاً دائماً مثل الماء. بالمجمل وعلى العموم إن الكائنات البشرية تريد أن تكون خيرة، لكن ليست خيرة جداً وليست تماماً طول الوقت. لأن:

هناك إنسان مستقيم يهلك في صلاحه وتقواه، وهناك إنسان شرير يطيل حياته في شروره.
لا تكن صالحاً ومستقيماً بإفراط، ولا تجعل نفسك عاقلاً بإفراط ؛ لماذا يجب أن تدمر نفسك؟
لا تكن شريراً جداً ولا تكن أحمق: لماذا يجب أن تموت قبل أوانك؟

في الماضي استطاع مزاج البطاقة البريدية الدخول في التيار المركزي للأدب والتلفظ بدعابات لم تختلف عن ماكجيل إلا بالكاد بسهولة بين جرائم القتل في مسرحيات شكسبير. هذا لم يعد ممكناً الآن، وقد تضاءل صنف كامل من الفكاهة كان متمماً ومكملاً لأدبنا حتى عام ١٨٠٠ تقريباً إلى هذه البطاقات البريدية المرسومة بشكل سيء التي تعيش وتحظى بالكاد ببقاء ووجود شرعي في واجهات محلات القرطاسية الرخيصة. إن الزاوية من القلب البشري التي تعبر عنها، يمكن أن تظهر نفسها بسهولة بأشكال أسوأ، وأنا مع كل من يأسف على رؤيتها وهي تتلاشى.

من هم مجرمو الحرب؟

ظاهرياً كان انهيار موسوليني قصة من الميلودراما الفيكتورية مباشرة. أخيراً وبعد طول انتظار انتصرت الاستقامة والعدالة وهزم الرجل الشرير، وعادت مطاحن الرب للعمل، لكن عند التفكير ملياً، فإنها حكاية أخلاقية أبسط وأرفع. بداية ما هي الجريمة - إن وجدت - التي ارتكبها موسوليني؟ في سياسية القوة ليس هناك جرائم لعدم وجود قوانين، ومن جانب آخر هل هناك أي ميزة بارزة في نظام موسوليني الداخلي يستطيع أحد من الذين سيجلسون للحكم عليه الاعتراض عليها بشكل جدي؟ لأنه كما يبين مؤلف هذا الكتاب (محاكمة موسوليني بقلم كاسيوس) بوفرة - وهذا في الحقيقة الغرض الرئيسي للكتاب - ليس هناك عمل نذل ارتكبه موسوليني بين ١٩٢٢ و١٩٤٠ لم يمجده نفس الأشخاص الذين تعهدوا بجلبه إلى المحاكمة.

محاكمة موسيليني بقلم كاسيوس

يتخيل كاسيوس، لأغراض قصته الرمزية، موسوليني متهماً أمام محكمة بريطانية مع محام عام كمدعٍ. قائمة التهم مؤثرة والوقائع الرئيسية - من جريمة قتل ماتيوتي إلى غزو اليونان ومن تدمير التعاونيات الفلاحية إلى قصف أديس أبابا - تهم لا يمكن نكرانها، واعترف بكل شيء من معسكرات اعتقال ومعاهدات معطلة وهراوات مطاطية وزيت الخروع. السؤال المزعج الوحيد كيف يمكن لشيء كان جديراً بالثناء حين جرى فعله - منذ عشر سنوات مثلاً - أن يصبح فجأة مستحقا للشجب الآن. سمح لموسوليني أن يستدعي شهوداً من الأموات والأحياء على السواء ليبين بكلماتهم المطبوعة أن القادة البريطانيين المسؤولين عن الرأي البريطاني شجعوه في كل ما فعل منذ البداية. مثلاً هذا اللورد روثرمير في عام ١٩٢٨:

كان (موسوليني) في بلاده الترياق لكل سم مميت، وبالنسبة إلى بقية أوروبا كان مقوياً وأنجز خيراً لا يحصى. أستطيع القول بارتياح صرف إنني سأكون الرجل الأول في منصب ذي تأثير شعبي يضع إنجازات موسوليني الباهرة في مكانها الصحيح...... إنه الشخصية البارزة الأعظم في عصرنا.

هذا ونستون تشرشل في عام ١٩٢٧:

لو كنت إيطاليا، فسأكون بالتأكيد معك بإخلاص وحماس في صراعك المظفر ضد الميول البهيمية والعواطف اللينينية... (إيطاليا) قدمت الترياق الضروري للسم الروسي. بعد الآن لن تكون هناك أمة عظيمة غير مزودة بوسائل حيوية وحاسمة من الحماية ضد نمو البلشفية السرطاني.

هذا اللورد موتيستون في عام ١٩٣٥:

أنا لا أعارض (القتال الإيطالي في إثيوبيا). أردت أن أبدد الوهم السخيف بأن التعاطف مع الخاسر والضحية شيء من التهذيب.... أنا قلت إن إرسال أسلحة أو التواطؤ لإرسالها إلى هؤلاء الإثيوبيين الوحشيين القساة شيء شرير، ولازلت أرفض أن تُعطى للآخرين الذين يلعبون دوراً مشرفاً.

هذا السيد دوف كوبر في عام ١٩٣٨:

بخصوص الحدث الإثيوبي، خير الكلام ما قل ودل، حين يتصالح أصدقاء قدماء بعد عراك، فإن مناقشة الأسباب الأصلية للعراك تشكل خطراً عليهم.

هذا السيد وارد برايس، من الديلي ميل، في عام ١٩٣٢:

يتحدث الناس الجاهلون والمتحاملون عن الشؤون الإيطالية كما لو كانت تلك الأمة تابعة لحكم استبدادي تحاول الإطاحة به برغبتها. مع ذلك الرثاء المريض للأقليات المتعصبة وهو القاعدة مع قطاعات محددة مطلعة بشكل منقوص من الرأي العام البريطاني، هذه البلاد أغمضت عيونها طويلاً عن العمل الرائع الذي يؤديه ذلك النظام الفاشي. أنا سمعت موسوليني مرات كثيرة نفسه يعبر عن عرفانه بالجميل نحو الديلي ميل، لأنها الصحيفة البريطانية الأولى التي وضعت أهدافه دون تحيز أمام العالم.

وهكذا وهلم جرا وهلم جرا. هوري وسايمون وهاليفاكس ونيفيلي تشامبرلاين وأوستن تشامبرلاين وهور - بيليشا واميري واللورد لويد وآخرون غيرهم دخلوا إلى قفص الشهود وهم مستعدون للشهادة إن كان موسوليني قد سحق النقابات العمالية الإيطالية، ولم يتدخل في إسبانيا، وصب غاز الخروع على الإثيوبيين، ورمى العرب من الطائرات، وإن بنى أسطولاً بحرياً لاستخدامه ضد بريطانيا، وإن كانت الحكومة البريطانية وناطقها الرسمي يؤيدانه في السراء والضراء. أظهروا لنا السيدة (اوستن) تشامبرلاين وهي تصافح موسوليني في عام

١٩٢٤ وتشامبرلاين وهاليفاكس في وليمة معه يشربان نخب "إمبراطور إثيوبيا في عام ١٩٣٩ واللورد لوي يداهن النظام الفاشي في كراسة رسمية إلى عام ١٩٤٠ الانطباع الصرف الذي تركه هذا الجزء من المحاكمة بوضوح تام أن موسوليني غير مذنب، ولم تظهر قضية حقيقية ضده إلا لاحقاً، حين قدم الإثيوبيون والمعادون للفاشية من الإسبان والإيطاليين أدلتهم.

الكتاب كتاب خيالي، لكن هذا الاستنتاج حقيقي، ومن غير المحتمل أن يقدم التوريين البريطانيين موسوليني للمحاكمة، ولا يمكنهم اتهامه بشيء إلا إعلانه الحرب في عام ١٩٤٠. إن حدثت "محاكمة لمجرمي الحرب" والتي يحلم بعض الناس في الاستمتاع بها، فإنها لا يمكن أن تحدث إلا بعد ثورة في بلدان التحالف، لكن فكرة إيجاد كباش فداء وإلقاء اللوم على أفراد أو أحزاب أو أمم عن الكوارث التي حدثت لنا، ستثير سلسلة من الأفكار الأخرى التي سيكون بعضها محبطاً ومقلقاً.

إن تاريخ العلاقات البريطانية مع موسوليني، يوضح الضعف البنيوي للدولة الرأسمالية. بالتسليم بأن سياسة القوة ليست أخلاقية، فإن محاولة شراء إيطاليا وإخراجها من دول المحور - وهذه الفكرة تبطن السياسة البريطانية منذ عام ١٩٣٤ فصاعداً - كانت نقلة استراتيجية، لكنها نقلة لم يقدر بولدوين وتشامبرلاين والبقية منهم على تنفيذها، ولا يمكن أن تتم إلا عندما تكون قوياً ولا يجرؤ موسوليني على الاصطفاف إلى جانب هتلر.

كان هذا مستحيلاً لأن اقتصاداً يحكمه حافز الفائدة، ليس كفؤاً لإعادة التسلح بالمقياس الحديث. ولم تبدأ بريطانيا بالتسلح إلا حين كانت ألمانيا في كالياس. قبل ذلك، جرى في الواقع التصويت والموافقة على مبالغ مالية كبيرة للتسلح، لكنها انزلقت بشكل مسالم إلى جيوب حاملي الأسهم، ولم تظهر الأسلحة. وبسبب انعدام النية في تقليص امتيازاتهم الخاصة، كان من المحتم على الطبقة الإنكليزية الحاكمة أن تنفذ كل سياسة بشكل متردد وتتعامى عن الخطر القادم. لكن الانهيار الأخلاقي الذي تضمنه هذا كان شيئاً جديداً في السياسة البريطانية. ففي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان الساسة البريطانيون منافقين، لكنه نفاق تضمن نظاماً أخلاقياً. لكن الشيء الجديد أن يهلل أعضاء التوري في البرلمان لأخبار قصفت الطائرات الإيطالية للسفن البريطانية، أو أن يساعد أعضاء مجلس اللوردات في حملة تشهير منظمة ضد أطفال الباسك الذين جلبوا إلى هنا كلاجئين.

حين يفكّر المرء بأكاذيب وخيانات تلك السنوات، والاستسلام الكَلبي لحليف بعد الآخر والتفاؤلية البلهاء لصحافة التوري، ورفض التصديق الصريح بأن الديكتاتوريين عزموا على الحرب وحتى حين صرخوا بها من سطوح البيوت، فإن عجز الطبقة الثرية عن رؤية أي خطأ في معسكرات الاعتقال والجيتوهات والمجازر والحروب غير المعلنة، يجبر المرء على الشعور بأن التهور الأخلاقي لعب دوره بالإضافة إلى الحماقة. قبيل عام ١٩٣٧ تقريباً لم يكن التشكيك بطبيعة الأنظمة الفاشية ممكنا. لكن أسياد الملكية قرروا أن الفاشية في صفهم وهم راغبون في بلع أنكر الشرور طالما ظلت ملكياتهم آمنة، وفي طريقتهم الخرقاء كانوا يلعبون لعبة ميكيافيلي في "الواقعية السياسية" بأن "كل ما يرقي ويدعم قضية الحزب صحيح" - الحزب في هذه الحالة طبعاً حزب المحافظين.

كل هذا يورده "كاسيوس"، لكنه يتهرب من نتيجته الطبيعية. في كل كتابه يشير ضمناً بأن التوريين فقط غير أخلاقيين، ومع ذلك تظل هناك إنكلترا أخرى فيقول "هذه الإنكلترا الأخرى تمقت الفاشية من اليوم الذي ولدت فيه.... هذه كانت إنكلترا اليسار، إنكلترا حزب العمال". هذا صحيح لكنه جزء فقط من الحقيقية. لقد كان السلوك الفعلي لليسار مشرفاً أكثر من نظرياته، فقد قاتل ضد الفاشية، لكن ممثليه المفكرين دخلوا بعمق كخصومهم في عالم شر "الواقعية" وسياسة القوة.

إن "الواقعية" (كانت تدعى الخداع) جزء من الجو السياسي لزمننا، وهي علامة ضعف في موقف كاسيوس الذي يستطيع المرء تجميع كتاب مشابه لكتابه تماماً بعنوان محاكمة ونستون تشرشل أو محاكمة شيانغ كاي - شيك أو حتى محاكمة رامسي ماكدونالد. في كل حالة ستجد أن قادة اليسار يناقضون أنفسهم بالشكل الضخم الذي اقتبسه كاسيوس تقريباً، لأن اليسار كان راغباً في التعامي بدرجة كبيرة والقبول ببعض الحلفاء المريبين جداً أيضاً. نحن نضحك الآن عند سماع التوريون يشتمون موسوليني في حين كانوا يداهنونه قبل خمس سنوات، ومن كان يتكهن أن يكون ونستون تشرشل فاتن الديلي وركر بعد عشر سنوات من الإضراب العام؟ في السنوات من ١٩٣٥ إلى ١٩٣٩، حين بدا كل حليف ضد الفاشية مقبولاً تقريباً، وجد اليساريون أنفسهم يمدحون مصطفى كمال، ثم بعد ذلك طوروا عرض خدمات لكارول من رومانيا.

لكن يمكن غفران ذلك كله أكثر من موقف اليسار من نظام الحكم الروسي الذي يشبه بوضوح موقف التوريين من الفاشية. كان هناك نفس الميل لمغفرة أي شيء تقريباً "لأنهم في

صفنا". من الجيد التكلم عن ليدي تشامبرلاين وهي في صورة تصافح موسوليني، والصورة الأحدث لستالين وريبنتروب وهما يتصافحان. عموماً كان دفاع مثقفو اليسار عن الاتفاقية الروسية الألمانية "واقعية" مثل سياسة تشامبرلاين المهدئة وبنفس النتائج. إن كان هناك طريق للخروج من الزريبة الأخلاقية التي نعيش فيها فربما تكون الخطوة الأولى نحوها أن نفهم أن "الواقعية" لن تفيد، وأن الاستسلام وبيع الأصدقاء والجلوس وفرك الأيدي وهم يُدمرون ويبادون، ليست الكلمة الأخيرة في الحكمة السياسة.

هذه الحقيقة يمكن إثباتها في أية مدينة بين كارديف وستالينغراد، لكن الناس الذين يرونها ليسوا كثيرين. إن مهمة كاتب الكراريس في الوقت الراهن، أن يهاجم اليمين ولا يداهن اليسار، لأن اليسار كان قانعاً جداً وراضياً عن نفسه، ولأنه الآن في نفس المكان الذي كان فيه.

موسوليني في كتاب كاسيوس يدخل القفص بنفسه بعد استدعاء شهوده ويلتزم بعقيدته الميكيافيلية: القوة هي الحق، فاي فيكتيس! (والويل للمغلوب - المترجم) ولم يُجرم إلا بجرم وحيد مهم وهو جرم الفشل ويعترف أن لخصومه الحق في قتله - لكنه ليس لهم الحق في لومه كما أصر. كان تصرفهم مشابهاً لتصرفه وإداناتهم الأخلاقية كلها رياء. وبعد ذلك أتى الشهود الثلاث الآخرون الإثيوبي والإسباني والإيطالي الذين كانوا على مستوى مختلف أخلاقياً، لأنهم لم يهادنوا الفاشية أبداً أو يتورطوا في سياسة القوة، وطالب الثلاثة بعقوبة الإعدام.

هل كانوا سيطالبون بها في الحياة الحقيقية؟ هل يمكن لشيء كهذا أن يحدث قط؟ من غير المحتمل حتى لو أمسك الناس الذين لهم حق حقيقي في محاكمة موسوليني، بموسوليني بأيديهم. التورويون طبعاً، رغم أنهم سيتفادون الاستجواب الحقيقي في أسباب الحرب الأصلية، إلا أنهم لن يأسفوا ويفوتوا فرصة إلقاء كل اللوم على بضعة أفراد من ذوي السمعة السيئة من أمثال موسوليني وهتلر. بهذه الطريقة تصبح مناورة درلان - بادوغوليو أسهل. موسوليني كبش فداء جيد، لكنه عموماً سيكون كبشاً خطراً في الأسر. والآن ماذا عن الناس العاديين؟ هل سيقتلون طواغيتهم بدم بارد بأشكال قانونية إن توفرت لهم الفرصة؟

صحيح أن وجود إعدامات كهذه في التاريخ قليلة جداً. في نهاية الحرب الأخيرة فاز اقتراع واحد جزئياً حول شعار "اشنقوا القيصر"، ولكن لو جرت مثل هكذا محاولة، فقد يثور

ضمير الأمة. حين يوضع الطغاة للموت، يجب أن يكون ذلك بواسطة رعاياهم، لأن الذين تعاقبهم سلطة أجنبية مثل نابليون، يتحولون ببساطة إلى شهداء وأساطير.

ليس المهم جعل أفراد العصابات السياسية هؤلاء يعانون ويتعذبون، بل جعلهم يكذبون أنفسهم. لحسن الحظ أنهم يفعلون هذا في حالات مختلفة إلى درجة مدهشة، فأسياد الحرب في دروعهم اللماعة ورسل الفضائل الحربية لا يميلون إلى الموت، وهم يقاتلون حين تحين الفرصة. يغص التاريخ بحوادث فرار شائنة لعظماء ومشاهير، فقد استسلم نابليون للإنكليز ليحصل على حماية من البروسيين، وهربت الإمبراطورة يوجيني في عربة جميلة مع طبيب أسنان، ولجأ لوديمدورف إلى مشهد مثير للسخرية، وهو واحد من أجلف الأباطرة الرومان، حين حاول أن ينجو من الاغتيال بحبس نفسه في المرحاض، وهرب أحد القادة الفاشيين من إسبانيا بإعداد رائع عبر مجرور خلال الأيام الأولى من الحرب الأهلية الإسبانية.

يتمنى المرء لموسوليني مخرجاً كهذا، ولو ترك لنفسه لربما قام بذلك وربما هتلر أيضاً. قيل عن هتلر إنه حين يأتي وقته لن يطير أو يستسلم، بل سيموت بطريقة أوبريتية ما، بالانتحار على الأقل. لكن ذلك كان حين كان هتلر ناجحاً لكن خلال السنة الأخيرة، ومنذ أن بدأت الأشياء تسوء بات من الصعب الشعور أنه سيتصرف بكرامة أو شجاعة. ينهي كاسيوس كتابه مع إيجاز القاضي، ويترك الحكم مفتوحاً وتشجيع قرائه على أخذ القرار. حسناً لو ترك الأمر لي، فلن يكون حكمي على هتلر وموسوليني عقوبة الإعدام، إلا إن حدث بطريقة مستعجلة وغير مبهرجة. لو أحب الألمان والطليان تقديمهما إلى محكمة عسكرية عاجلة ومن ثم تنفذ زمرة من الجند حكم الإعدام رمياً بالرصاص، فليكن لهم ذلك، أو الأفضل من ذلك دع الاثنين يهربان بملء حقيبة كبيرة من الضمانات، ويستوطنان مثل الأشخاص المضجرين المفوضين في فندق سويسري، لكن لا لتحويلهم إلى شهداء أو إلى مهنة القديسة هيلانة وأهم شيء لا للمحاكمة الزائفة المهيبة لمجرمي الحرب مع كل الأبهة الفارغة لطقوس القانون البطيئة والوحشية الذي بعد مرور فترة من الوقت، لديه طريقة غريبة في تركيز ضوء عاطفي حالم على المتهم وتحويل الوغد إلى بطل.

نشرت لأول مرة: التريبيون - لندن - ٢٢ تشرين أول/ أكتوبر ١٩٤٣.

مستقبل ألمانيا مخرب

باستمرار التقدم في عمق ألمانيا، وانكشاف التخريب المتزايد الذي تحدثه طائرات الحلفاء القاذفة، هناك ثلاث تعليقات يجد كل مراقب للوضع تقريباً نفسه يدلي بها. الأول: الناس في الوطن ليس لديهم أية فكرة عن هذا. الثاني: استمرارهم في القتال معجزة. والثالث: فكر فقط ببناء هذا كله مرة أخرى!

صحيح تماماً أن مدى وقوة مهاجمة ألمانيا بالغارات الجوية لم يُدرك حتى الآن في هذه البلاد، كما بُخس إسهامها في تعطيل المقاومة الألمانية وتدميرها. من الصعب إضفاء الواقعية على تقارير الحرب الجوية، ويُغفر لرجل الشارع إن تخيل أن ما تفعله بألمانيا خلال السنوات الأربع الماضية هو نفس نوع الشيء الذي فعله الألمان بنا عام ١٩٤٠

لكن في هذا الخطأ الذي يفترض أن يكون شائعاً أكثر في الولايات المتحدة، خطر كامن والاعتراضات الكثيرة ضد القصف العشوائي التي أطلقها السلميون والإنسانيون لم تفعل إلا في التشويش على القضية.

إن القصف بشكل ليس غير إنساني. إن الحرب نفسها غير إنسانية، والطائرة القاذفة التي تستخدم لشل الصناعة والنقل هي سلاح متمدن نسبياً. إن الحرب "العادية" أو "الشرعية" مهلكة تماماً، وبالمثل للأشياء غير الحية ولحياة البشر بشكل هائل جداً.

فضلاً على ذلك، إن قصف القنابل يقتل مقطعاً عرضياً اعتباطياً من السكان، بينما الرجال الذين يُقتلون في المعركة هم بالضبط الذين لا يستطيع المجتمع تحمل فقدانهم والتعويض عنهم. لم يهن على الشعب في بريطانيا قصف المدنيين، وبلا أدنى شك سيكون مستعداً للإشفاق على الألمان حالما يدحرهم بشكل واضح، لكن الذي لم يفهمه بعد - بفضل مناعته النسبية الخاصة به - التدمير المرعب للحرب الحديثة والفترة الطويلة من الإفقار التي تلوح الآن بوجه العالم ككل.

أن تمشي في المدن الألمانية المخربة، هو أن تشعر بشك فعلي في استمرارية الحضارة، لأن المرء يجب أن يتذكر بأن ما يتعرض للقصف ليس ألمانيا فقط. نفس الخراب يمتد بأي حال في بقع كبيرة على طول الطريق من بروكسل إلى ستالينغراد، أما في المناطق التي تشهد قتالاً أرضياً، يكون الدمار فيها أكثر شمولاً حتى. لم يبق في ٣٠٠ ميل تقريباً بين المارن والراين جسر أو معبر لم يُفجّر.

حتى في إنكلترا نحن ندرك أننا نحتاج إلى ثلاثة ملايين منزل، وأن فرصة الحصول عليها ضمن فترة محسوبة من الوقت هزيلة نوعاً ما، لكن كم منزلاً ستحتاج ألمانيا أو بولونيا أو الاتحاد السوفييتي أو إيطاليا؟ حين يفكر المرء بالمهمة الهائلة لإعادة بناء مئات المدن الأوروبية، يدرك أن فترة طويلة يجب أن تنقضي قبل أن نستطيع توطيد مستويات المعيشة في عام ١٩٣٩ ثانية حتى.

نحن لا نعرف المدى الكامل للضرر الذي أصاب ألمانيا، لكن بالحكم من المناطق التي دحرت وتم اجتياحها حتى الآن، من الصعب الوثوق في قدرة الألمان على دفع أي نوع من التعويضات سواء كانت على شكل بضائع أم عمل. إن إعادة إسكان الشعب الألماني في بيوت وتهيئة المصانع المدمرة للعمل والحفاظ على الزراعة الألمانية من الانهيار بعد أن يتم تحرير العمال الأجانب، سوف يستهلك كل الجهد الذي يحتمل من الألمان التخلص منه.

لو - كما جرى التخطيط له - رُحل الملايين منهم من أجل عمل إعادة البناء، فسيكون شفاء ألمانيا الأبطأ. بعد الحرب الأخيرة أُدرك الناس أخيراً استحالة إحراز تعويضات مالية كبيرة، لكن الإدراك بأن إفقار أي بلاد سوف يؤثر بشكل سلبي على العالم كله، كان أقل عموماً. ليس هناك أية فائدة من تحويل ألمانيا إلى حي ريفي فقير.

الانتقام مر

كلما أقرأ كلمات مثل "محاكمات مجرمي الحرب" و"معاقبة مجرمي الحرب" وما شابه، تعود إلى ذهني ذكرى شيء رأيته في معسكر لأسرى الحرب في جنوب ألمانيا، في وقت سابق من هذه السنة.

كنت ومراسل صحفي آخر في جولة في المعسكر أخذنا فيها يهودي من فيينا تجند في فرع للجيش الأمريكي يتعامل مع استجواب الأسرى. كان نشيطاً أشقر الشعر ووسيماً في الخامسة والعشرين من عمره، ولديه معرفة سياسية أكبر بكثير من الضابط الأمريكي العادي، لذلك كانت رفقته مبهجة. كان المعسكر على أرض مطار. وبعد أن تجولنا حول الزنازين، قادنا دليلنا إلى حظيرة طائرات فيها أسرى متعددين من صنف مختلف عن الآخرين، لقد كانوا "محجوبين".

في أحد أطراف الحظيرة، كان هناك حوالي اثني عشر رجلاً استلقوا في صف على الأرض الإسمنتية، جرى عزلهم عن بقية الأسرى كما شرح لي ضباط الاس اس، وكان بينهم رجل في ثياب مدنية قذرة استلقى نائماً كما يبدو وذراعه على وجهه. له قدمان غريبتان مشوهتان بشكل مرعب. كانت الاثنتان متناسقتين ولكنهما ضربتا وحولتا إلى شكل كروي، ما جعلهما تبدوان أشبه بحوافر حصان منهما بأي شيء بشري. حين اقتربنا من المجموعة، بدأ اليهودي الصغير يتوتر، وفي حالة من الإثارة.

"ذاك هو الخنزير الحقيقي!" قال وفجأة اندفع إليه بحذائه العسكري الثقيل ووجه ركلة رهيبة مباشرة على نتوء في إحدى قدميه المشوهتين، وصرخ حين استيقظ الرجل من النوم فجأة: "انهض أيها الخنزير!" ثم كرر شيئاً من نفس النوع بالألمانية، فتسلق الرجل على قدميه ووقف منتصباً بشكل أخرق. بدا اليهودي حانقاً، وبنفس النغمة – وفي الحقيقة كان يرقص للأعلى والأسفل وهو يخبرنا بتاريخ الأسير. كان "نازياً" حقيقياً: هكذا أشار رقمه الحزبي، وعضواً منذ الأيام الأولى، وتسلم منصباً مماثلاً لجنرال في الفرع السياسي للاس اس، ومن

المؤكد أنه متهم بإشرافه على معسكرات الاعتقال، وترأس أعمال التعذيب والشنق. باختصار كان يمثل كل شيء كنا نقاتل ضده خلال السنوات الخمس الماضية.

في تلك الأثناء كنت أدرس مظهره الخارجي، وبمعزل عن الطلة الحقيرة الجائعة وغير الحليقة التي يظهر بها الأسير الجديد عموماً، كان أنموذجاً مقرفاً لكنه لم يبدُ وحشياً أو مخيفاً بأي شكل: مجرد عصابي ومفكر بطريقة وضيعة. تشوهت عيناه الباهتتان المراوغتان بنظارة قوية. كان يمكن أن يكون قساً مجرداً من سلطته أو ممثلاً دمره شرب الكحول أو وسيطاً روحانياً. لقد رأيت أناساً يشبهونه كثيراً في بيوت الإيجار العمومية في لندن وفي غرفة المطالعة في المتحف البريطاني أيضاً.

من الواضح تماماً أنه كان مضطرباً ويشك بسلامة عقله في الحقيقة، لكنه في تلك اللحظة بدا في عقله السليم بشكل يكفي لأن يرتعب من تعرضه لرفسة أخرى. رغم كل ما أخبرني به اليهودي عن تاريخ هذا الأسير الذي قد يكون صحيحاً وعلى الأرجح كان صحيحاً! فقد تضاءل هذا المعذب النازي الذي كان في خيال المرء والشكل الرهيب الذي قاتل ضده سنوات كثيرة، إلى بائس هزيل حاجته الواضحة لم تكن العقوبة بل نوعاً من العلاج النفسي.

لقد كانت هناك أعمال إذلال إضافية لاحقاً، فقد أمر ضابط آخر من الاس اس مفتول العضلات أن يتعرى للخصر ويظهر رقم زمرته الدموية الموشوم تحت ذراعه، وأجبر ضابط آخر أن يشرح لنا كيف كذب أنه لم يكن عضواً في الاس اس، وحاول أن يمرر نفسه كجندي عادي من الجيش الألماني. تساءلت إن كان اليهودي يحصل على أي نشوة حقيقية من سلطته الوليدة الجديدة التي كان يمارسها، واستنتجت أنه لم يكن يستمتع بها في الواقع، وكان مثل رجل في ماخور أو صبي يدخن سيجاره الأول أو سائح يتسكع حول صالة لوحات فنية، يقول لنفسه إنه مستمتع، ويتصرف كما خطط أن يتصرف في الأيام التي كان بائساً فيها.

من المنافي للعقل أن تلوم أي يهودي ألماني أو نمساوي على انتقامه وتحامله ضد النازيين. يعلم الله أي إساءات على هذا الرجل بالذات مسحها؛ من المحتمل جداً أن عائلته قتلت كلها وأخيراً حتى ركلة فاسقة لأسير شيء صغير جداً مقارنة بالإساءات والاعتداءات التي ارتكبها نظام هتلر. لكن هذا المشهد وغيره الكثير مما رأيته في ألمانيا، أوضح لي أن فكرة الانتقام

والعقاب حلم صبياني. في صريح العبارة ليس هناك شيء اسمه الانتقام. الانتقام هو فعل تريد ارتكابه حين تكون عاجزاً: حالما يزول الشعور بالعجز، تتبخر الرغبة في الانتقام أيضاً.

من لم يطر من الفرح في عام ١٩٤٠ بفكرة ركل وإذلال ضباط الاس اس؟ لكن حين يصبح الشيء ممكناً، يصبح مثيراً للشفقة والاشمئزاز. قيل إن جثة موسوليني عرضت للعموم وأشهرت امرأة مسنة مسدساً ورمتها بخمس طلقات وهي تهتف "هذه من أجل أبنائي الخمسة!" إنها قصة لفقتها الصحف، لكنها يمكن أن تكون صحيحة. أتساءل كم هو الارتياح والرضى الذي نالته من تلك الطلقات الخمس التي حلمت بها سنيناً قبل إطلاقها بشرط أن يكون موسوليني جثة عندما تقدر الاقتراب الكافي لتطلق النار عليه.

يتحمل الجمهور الكبير في هذه البلاد المسؤولية الكبرى التي عن تسوية السلام البشعة التي فرضت على ألمانيا، بالتساوي مع فشلنا بأن نرى مقدماً أن عقاب العدو لا يجلب أي إرضاء ولا يشبع حاجة. نحن قبلنا بجرائم مثل طرد كل الألمان من شرق بروسيا - جرائم لم نستطع منعها في بعض الحالات، لكن كان الاحتجاج عليها ممكناً على الأقل - لكن لأن الألمان أغضبونا وأرعبونا، كنا متأكدين أننا لن نشفق عليهم حين يخسرون، ونستمر في تلك السياسات أو نسمح للآخرين في الاستمرار فيها لمصلحتنا بسبب شعورنا الغامض أننا بعد أن شرعنا في معاقبة ألمانيا، يجب أن نتقدم ونفعل ذلك. في الواقع هناك كره شديد قليل لألمانيا باق في هذه البلاد وأقل مما تتوقع أن تجده في جيش احتلال حتى. فقط الأقلية من الساديين، الذين حصلوا على "وحشيتهم" من مصدر أو آخر يشعرون بمتعة عارمة في "مطاردة" مجرمي الحرب وبائعي الأوطان. لو سألت الرجل العادي ما هي الجرائم التي يجب أن يتهم بها غورينغ ورينتروب والبقية في محاكمتهم، فلن يستطيع أن يقول لك. بطريقة أو بأخرى عقاب هؤلاء المسوخ لم يعد جذاباً حين أصبح ممكناً: في الحقيقة بمجرد أن أصبحوا تحت القفل والمفتاح، لم يظلوا مسوخاً تقريباً.

لسوء الحظ، هناك حاجة دائماً تقريباً لحدث ملموس قبل أن يستطيع المرء اكتشاف الحالة الحقيقة لمشاعره. هذه ذكرى أخرى من ألمانيا. بعد بضع ساعات من استيلاء الجيش الفرنسي على شتوتغارت، دخلنا أنا وصحفي بلجيكي البلدة التي كانت لاتزال في حالة من الفوضى.

كان البلجيكي يبث خلال فترة الحرب لمحطة البي بي سي - الخدمة الأوروبية ومثل كل الفرنسيين والبلجيك كان له موقف تجاه "البوشي" أقسى بكثير مما لدى الإنكليزي أو الأميركي. نسفت الجسور الرئيسية في البلدة واضطررنا إلى الدخول من جسر صغير للمشاة دافع عنه الألمان بمحاولات مجنونة كما هو واضح. عند أسفل الدرج هناك جندي ألماني ميت استلقى منبطحاً على ظهره. كان وجهه أصفر شمعياً، وعلى صدره وضع أحدهم باقة من الليلاك الذي كان مزهراً في كل مكان.

أشاح البلجيكي بوجهه جانباً. حين كنا فوق الجسر أسرّ لي قائلاً أن هذه المرة هي الأولى التي يرى فيها رجلاً ميتاً. أعتقد أنه في الخامسة والثلاثين من العمر، وكان له أربع سنوات يقوم بدعاية حربية على الراديو. بعد هذا بعدة أيام كان موقفه مختلفاً تماماً عما كان عليه في السابق. نظر بازدراء إلى المدينة التي دمرتها القنابل والإذلال الذي كابده الألمان، حتى أنه تدخل في إحدى المناسبات ليمنع عملاً قليلاً من النهب خصوصاً. حين غادر أعطى بقية القهوة التي جلبناها معنا للجنود الألمان الأسرى الذين كنا مسؤولين عن إيوائهم. قبل أسبوع من ذلك، كان سيصدم بفكرة إعطاء قهوة إلى "بوشي". لكن مشاعره مرت بتغيير بمنظر مقتل هذا المسكين بجانب الجسر كما أخبرني: لقد وضح له فوراً معنى الحرب. ومع ذلك، لو حدث ودخلنا البلدة من طريق آخر، لربما نجا من معاناة رؤية جثة واحدة من العشرين مليون جثة التي أنتجتها الحرب.

عدم الاهتمام بالزنوج
وأخذهم بعين الاعتبار

في السنوات العشر الماضية، نُظر إلى كل من تكهن بالاصطفاف السياسي الحاضر كمجنون، ومع ذلك يفترض بالوضع الحالي - ليس بالتفصيل طبعاً وإنما في الخطوط الأساسية - أنه كان قابلاً للتكهن في العصر الذهبي قبل هتلر، ويجب حدوث الشيء عينه حالما يتهدد الأمن البريطاني بشكل خطر.

إن سياسات الجناح اليساري في البلدان المزدهرة، وقبل كل شيء في البلدان الإمبريالية، احتيال دائماً، فليس من الممكن وجود إعادة بناء حقيقية لا تؤدي على الأقل إلى هبوط في مستوى الحياة الإنكليزية، وهي طريقة أخرى للقول إن أغلبية سياسيي اليسار ومروجيه أناس يكسبون رزقهم بالمطالبة بشيء لا يريدونه حقيقة. هم ثوار يشتعلون حماسة طالما كل شيء يجري على ما يرام، لكن أية حاجة ملحة حقيقية تكشف على الفور أنهم دجالون. إن التهديد واحد سواء كان "لقناة السويس" أو"معادة الفاشية" أو"الدفاع عن المصالح البريطانية" وأكتشف أنها متطابقة.

سيبدو الإيحاء ضحلاً وغير منصف أيضاً بأنه ليس هناك شيء فيما يسمى الآن "معاداة الفاشية" سوى قلق للأسهم المالية البريطانية، لكن الفواحش السياسية في السنتين الماضيتين ونوع التهريج البشع الذي يقفز فيه كل واحد بشكل ثابت عبر الخشبة بأنف مزيف - الهزازون يصيحون من أجل جيش أكبر والشيوعيون يلوحون بالعلم البريطاني، وونستون تشرشل يتظاهر كديمقراطي - حقيقة وواقع لم يكن ممكناً بدون هذا الوعي الآثم بأننا كلنا في نفس القارب. أجبرت الطبقة الحاكمة البريطانية على الوضع العدائي لهتلر رغماً عن إرادتها. لايزال ممكناً أنهم سيجدون طريقة للخروج منه، لكنهم يتسلحون في توقع واضح للحرب، وبالتأكيد تقريباً سيقاتلون حين تصل إلى النقطة التي سيكون البديل فيها أن يتخلوا عن بعض من ملكيتهم بدلاً من، كما هو اليوم، ملكية شعب آخر. وفي الوقت الفاصل تندفع ما يسمى

بالمعارضة بقوة وسرعة قدماً بدلاً من محاولة إيقاف الانجراف إلى الحرب، وتمهد الأرض وتحبط أي انتقاد ممكن. يستطيع المرء أن يكتشف أن الشعب الإنكليزي لازال معادياً بشكل متطرف لفكرة الحرب وإن أصبح الشعب متصالحاً، فإن المسؤول عن ذلك ليس "العسكريين" وإنما "المعادين للعسكريين" في الخمس سنوات الأخيرة، فحزب العمال يواصل ذر الرماد ضد التجنيد الإلزامي وبنفس الوقت تجعل دعايته الخاصة أي صراع ضد التجنيد الإلزامي مستحيلاً، وبنادق برن الآلية تنهمر من المصانع، وكتب بعناوين مثل **دبابات في الحرب التالية والغاز في الحرب التالية**..إلخ تنهمر من الصحافة، ومحاربو نيو ستيتمان يموهون طبيعة العملية بواسطة عبارات مثل "كتلة السلام" و"جبهة السلام" و"الجبهة الديمقراطية"، وعموماً بالتظاهر بأن العالم قطيع خراف وماعز، قطع وفصل بشكل أنيق بواسطة الرواد القوميين.

في هذا الصدد، يجدر النظر إلى كتاب السيد (كليرانس ك) ستريت الذي نوقش كثيراً، **الاتحاد الآن**. السيد ستريت، مثل أنصار "كتلة السلام" يريد من الديمقراطيين أن يشكلوا عصبة ضد الديكتاتوريات، لكن كتابه بارز لسببين. أولاً هو يذهب إلى أبعد من الآخرين، ويقدم خطة بناءة حتى لو كانت مروعة. ثانياً رغم أسلوبه الأمريكي الساذج القديم من القرن التاسع عشر، فإن لديه جوهرياً طرح عقلي مقبول. اشمأز من فكرة الحرب بصدق، ولم ينحدر إلى الرياء بالتظاهر بأن أي بلاد يمكن أن تجلب إلى الفلك البريطاني تصبح بلاداً ديمقراطية فوراً. لذلك يعرض كتابه نوعاً من الاختبار ترى فيه نظرية الغنم والماعز بأوضح صورة لها، وإن لم تستطع القبول بذلك الشكل، فإنك بالتأكيد لن تقبله بالشكل الذي قدمه نادي الكتاب اليساري.

باختصار، إن ما يقترحه السيد ستريت هو أن الأمم الديمقراطية التي بدأت بخمس عشرة يسميها، يجب أن تشكل نفسها في اتحاد طوعي - ليس عصبة أو تحالفاً وإنما اتحاد مماثل للولايات المتحدة مع حكومة مشتركة ونقد مشترك وتجارة داخلية حرة كاملة. الدول الخمس عشرة الأولى هي طبعاً الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا العظمى والديمقراطيات الأوروبية الأصغر من دون أن يشمل تشيكوسلوفاكيا التي لازالت قائمة حين كتب الكتاب.

في وقت لاحق الدول الأخرى يمكن قبولها بالاتحاد إذا "أثبتت أنها جديرة" منذ البداية وحتى النهاية يفهم ضمناً أن دول السلام والرخاء الموجودة داخل الاتحاد، ستكون محسودة جداً، لذلك فإن أية دولة أخرى سوف تتوق للانضمام إليها.

والجدير بالملاحظة أن هذا المخطط ليس وهمياً جداً كما يبدو. طبعاً هو لن يحدث، فأي شيء يؤيده رجال الأدب حسنو النية لا يحدث. هناك مصاعب معينة لم يناقشها السيد ستريت، لكنها من نوع الأشياء التي يمكن أن تحدث. إن جغرافية الولايات المتحدة والديمقراطيات الأوروبية الغربية أقرب لتكون اتحاداً مثلاً من الإمبراطورية البريطانية، فأغلب تجارتها مع بعضها البعض، ولديها ضمن أراضيها كل ما تحتاجه، والسيد ستريت محق ربما في زعمه أن قوتها الموحدة ستكون عظيمة جداً لدرجة تجعل من أي هجوم عليها متعذر حتى لو انضمت جمهوريات الاتحاد السوفييتي إلى ألمانيا. لماذا إذاً يرى المرء من نظرة أن مخططه فيه شيء خطأ؟ ما الذي تفوح الرائحة فيه - لأنها تفوح طبعاً؟

ما تفوح رائحته هو الرياء والرضا الذاتي طبعاً. السيد ستريت نفسه ليس مرائيا، لكن رؤيته محدودة. انظر ثانية إلى قائمة أغنامه وماعزه. لا حاجة لإجفال الماعز(ألمانيا وإيطاليا واليابان) إنها ماعز بما يكفي وبطون بيلليز في ذلك. لكن انظر إلى الأغنام! ربما الولايات المتحدة ستنجح في الامتحان إن لم ينظر المرء إليها عن قرب شديد. لكن ماذا عن فرنسا؟ ماذا عن إنكلترا؟ ماذا حتى عن بلجيكا وهولندا؟ مثل كل واحد من مدرسته الفكرية كوم السيد ستريت ببرود الإمبراطوريتين الضخمتين البريطانية والفرنسية - في الجوهر لا شيء سوى آليات لاستغلال العمل الملون الرخيص - تحت رئاسة الديمقراطيات!

هناك إشارات هنا وهناك في الكتاب، ولكن ليس غالباً إلى "البلدان التابعة" للدول الديمقراطية. "البلدان التابعة" تعني الأعراق التابعة. على أنها ستظل بلدانا تابعة وستكون مواردها صندوقاً مشتركاً لدول الاتحاد، ولن يكون لسكانها الملونين حق الاقتراع في شؤون الاتحاد. وباستثناء ما توررده جداول الإحصاء، لن يخمن المرء أبداً للحظة كم عدد الكائنات البشرية المتورطة في ذلك. فالهند مثلاً التي تحتوي على سكان أكثر من سكان كل "الديمقراطيات الخمس عشرة" معا، وقدّ نالت صفحة ونصف في كتاب السيد ستريت،

وذلك لمجرد تعليل أن الهند ليست لائقة بعد لحكم نفسها بنفسها. ولهذا يستمر الوضع الحالي. وهنا يبدأ المرء يرى ما سيحدث فعلياً إن طبق مخطط السيد ستريت. ستتلقى الإمبراطوريتان البريطانية والفرنسية قوات أمن جديدة من الستمائة مليون من الكائنات البشرية المحرومين من حق الاقتراع، وستكون القوة الضخمة للولايات المتحدة وراء سرقة الهند وأفريقيا. يخرج السيد ستريت القطط من الحقائب، لكن كل العبارات من أمثال "كتلة السلام" و"جبهة السلام"..إلخ تحتوي بعضاً من هذا التضمين، كلها تدل ضمناً على تضييق البنية الموجودة. إن العبارة التي لم تقال هي دائماً "عدم أخذ الزنوج بالاعتبار" إذ كيف سنشكل "موقفاً ثابتاً" ضد هتلر إن كنا نضعف أنفسنا في الوطن في وقت واحد؟ بعبارة أخرى كيف سنحارب الفاشية إلا بمساندة وتقوية عدالة أوسع بكثير؟

لأنها طبعاً أوسع، ونحن ننسى دائماً أن الحجم الضخم الساحق للبروليتاريا البريطانية لا يعيش في بريطانيا وإنما في آسيا وأفريقيا. ليست قوة هتلر مثلاً من تجعل بنسا في الساعة أجراً صناعياً عادياً، فهذا عادي تماماً في الهند، ونحن نبذل جهوداً عظيمة لنبقيه هكذا. يحصل المرء على بعض فكرة عن العلاقة الحقيقية بين إنكلترا والهند حين يجد أن الدخل السنوي للشخص الواحد في إنكلترا فوق ثمانين جنيهاً، وفي الهند سبع جنيهات تقريباً. من الشائع تماماً أن تكون ساق العامل الهندي أرفع من ذراع الرجل الإنكليزي. وليس هناك شيء عرقي في هذا وإنما بسبب التجويع الصرف، لأن كل الأفراد البدناء من كل الأعراق هم من بنية جسدية عادية. هذا هو النظام الذي نعيشه والذي يجب أن نشجبه حين يبدو عدم وجود خطر في تغييره. مؤخراً طبعاً أصبح واجب "معادي الفاشية الجيد" الأول أن يكذب بخصوصها ويساعد في الحفاظ على بقائها.

أي استقرار حقيقي من أوهى قيمة، يمكن أن يكون على طول هذه الخطوط؟ ما المعنى الذي سيكون هناك حتى لو نجح في إسقاط نظام هتلر وترسيخ شيء أكبر بكثير وبنفس السوء بطريقة مختلفة؟

لكن ظاهرياً لانعدام أي موقف حقيقي هذا سيكون هدفنا. لن توضع أفكار السيد ستريت الإبداعية قيد التنفيذ، ولكن شيئاً كمقترحات "كتلة السلام" ربما يفعل ذلك. لاتزال

الحكومتان البريطانية والروسية تتماحكان وتؤجلان وتتلفظان بتهديدات مكتومة لتبديل الأطراف التي تنحاز إليها، لكن الظروف سوف تجبرهما معاً. وماذا عند ذلك الحين؟ لا شك أن التحالف سيعيق الحرب لسنة أو اثنتين، وبعدها ستبحث حركة هتلر عن بقعة ضعيفة أو لحظة غير محمية، وعندها ستكون حركتنا تسليح أكثر وعسكرة أكثر ودعاية أكثر - عقلية ميالة للحرب أكثر - وهلم جرا، وبسرعة متزايدة.

ليس مؤكداً أن الاستعداد المطول للحرب أفضل أخلاقياً من الحرب نفسها، وهناك أسباب مساوية للاعتقاد أنه ربما يكون أسوأ، وربما ننحدر بعد سنتين أو ثلاثة فقط دون مقاومة إلى نوع محلي من نمسا - فاشية وربما يظهر بعد سنة أو اثنتين شيء كرد فعل ضد هذا لم نسمع به أبداً في إنكلترا - حكة فاشية حقيقية تجمع في صفوفها نفس الأشخاص الذين ينبغي بهم أن يعارضوها، وذلك لأنها ستملك الشجاعة لتتكلم بوضوح.

تصعب الرؤية أبعد من ذلك. إن الانزلاق المنحدر يحدث، لأن كل القادة الاشتراكيين تقريباً معارضون لجلالته حين تصل الأمور إلى القرصة، ولا أحد يعرف كيف سيعبئ حشمة الشعب الإنكليزي التي يلقاها المرء في كل مكان حين يتكلم مع كائنات بشرية وليس من قراءة الصحف. لن ينقذنا على الأرجح سوى انبثاق حزب جماهيري حقيقي خلال السنتين القادمتين تكون تعهداته الأولى رفض الحرب وتصحيح الظلم الإمبريالي، لكن إن وجد هكذا حزب في الوقت الحاضر، فهو مجرد إمكانية وبضع بذور صغيرة جداً ملقاة هنا وهناك في تربة عطشى.

نشرت للمرة الأولى ادلفي تموز ١٩٣٩.

هكذا كانت المباهج

بعد أن وصلت إلى كروسيت بفترة قصيرة (ليس على الفور وإنما بعد أسبوع أو اثنين، حين بدا لي أنني تعودت على روتين الحياة المدرسية) بدأت أبلل سريري. أنا الآن في عمر الثامنة، لذلك كان هذا ارتداداً إلى عادة يفترض أنني بتّ كبيراً عليها قبل أربع سنوات على الأقل.

في الوقت الحاضر، أعتقد أن تبليل الفراش في هكذا ظروف، يعتبر أمراً مسلماً به. إنه رد فعل طبيعي للأطفال الذين ينقلون من بيوتهم إلى مكان غريب. لكن في تلك الأيام، نظر إلى الأمر كجريمة مثيرة للاشمئزاز ارتكبها الطفل متعمداً، والعلاج المناسب لها كان الضرب. بالنسبة إلي أنا لم أحتج ليخبرني أحد بأنها جريمة. صليت الليلة تلو الأخرى بحماس لم أحرزه في صلواتي قط (أرجوك يا ربي لا تدعني أبلل فراشي! لكن هذا لم يحدث فرقاً كبيراً، فقد كان الشيء يحدث في بعض الليالي ولا يحدث في بعضها الآخر، فالأمر لم يكن خياراً أو واعياً، يمكن القول بدقة بأن المرء لا يفعل العمل: يستيقظ في الصباح ليجد ملاءات السرير مشبعة بالبلل.

بعد الجريمة الثانية أو الثالثة أنذرت بالضرب في المرة التالية، لكنني تلقيت الإنذار بطريقة ملتوية غريبة. في بعد ظهر أحد الأيام، حين كنا ننصرف من طابور الشاي، كانت السيدة سيمبسون زوجة مدير المدرسة تجلس على رأس إحدى الطاولات، تثرثر مع سيدة لا أعرف عنها شيئاً، سوى أنها كانت في زيارة مسائية إلى المدرسة، وكانت شخصاً مرعباً وذات مظهر ذكوري، ترتدي بذلة ركوب خيل أو شيء بدا لي بذلة ركوب خيل. وبينما كنت أغادر الغرفة، نادتني السيدة سيمبسون، وطلبت من أن أعود كما لو أنها ستقدمني للضيفة.

كانت السيدة سيمبسون تلقب ببينغو، وسوف أكنيها بهذا الاسم، لأنني لا أتذكر لها اسماً آخر. (لكن كانت تخاطب رسمياً بـ"مام" التي ربما كانت نسخة لـ"مدام" يستخدمها صبيان المدرسة مع زوجات أرباب بيوت الطلاب). كانت امرأة ذات بنية قوية قصيرة وممتلئة مع خدين أحمرين صلبين وجبهة مستوية عالية، ولها حاجبان ناتئان

وعينان مريبتان توضعتا عميقاً. لكنها كانت تتملق بود زائف في قسم كبير من وقتها، فتلاطف المرء بلغة عامية مسترجلة (عجل، أيها الرجل المتمرس! وهلم جرا) وتستخدم الاسم المسيحي للمرء حتى، وكانت عيناها لا تفقدان نظرتها الاتهامية الملتهبة أبداً، وكان النظر في وجهها دون شعور بالذنب صعباً حتى في اللحظات التي لا يكون فيها المرء مذنباً بأي شيء بعينه.

"هذا هو الولد الصغير،" قالت بينغو، وأشارت إلي وهي تخاطب السيدة الغريبة "الذي يبلل فراشه كل ليلة. هل تعرف ماذا سأفعل بك إن بللت فراشك مرة أخرى؟" أضافت، وهي تلتفت إلي. "سأجعل طلبة الصف السادس يضربونك"

تظاهرت السيدة الغريبة بصدمة لا توصف وهتفت "أعتقد أن الأمر هكذا!". وهنا حدثت واحدة من حالات سوء الفهم الطائشة المجنونة التي كانت جزءاً من التجربة اليومية للطفولة. كان الصف السادس مجموعة من صبيان أكبر منا عمراً، وينتقون على أن لهم "شخصية" ويمكنوهم من ضرب الصبيان الأصغر. لم أكن أعلم بوجودهم، وسمعت الكلمة على أنها السيدة فورم بدلاً من الصف السادس. فهمتها كإشارة للسيدة الغريبة - ظننت أن اسمها كان السيدة فورم. كان اسماً بعيد الاحتمال، لكن ليس لدى الطفل محاكمة عقلية في مثل هذه المسائل، لذلك تخيلت أنها هي التي ستُعيّن لضربي. ولم أستغرب أن تُحول هذه الوظيفة إلى ضيفة عرضية لا علاقة لها بالمدرسة إطلاقاً، وافترضت أن السيدة فورم انضباطية قاسية تستمتع بضرب الناس (مظهرها يوحي بذلك بشكل ما) وانتابتني رؤية مفزعة فورية بأنها أتت في عدة ركوب كاملة ومسلحة بسوط صيد من أجل المناسبة. وأستطيع أن أحس إلى هذا اليوم بنفسي وأنا أكاد أن أفقد الوعي من الخزي، حين وقفت كصبي صغير جداً مدور الوجه في سروال قطني قصير أمام المرأتين الاثنتين. لم أستطع التكلم، وشعرت أنني سأموت لو ضربتني السيدة فورم، لكن الشعور المسيطر لم يكن الخوف أو الامتعاض حتى، كان الخزي، لأن شخصاً آخر، وهي امرأة، تم إخباره بجريمتي المقززة.

بعد وقت قصير، نسيت كيف عرفت أخيراً أن من سيضربني ليست السيدة فورم، ولا أتذكر إن كنت في تلك الليلة بالذات قد بللت فراشي مرة أخرى، لكن في أي حال بللته مرة

أخرى بعد وقت قريب جداً. أوه اليأس والشعور بالظلم القاسي. فبعد كل صلواتي وتصميمي أجد نفسي فوراً مستيقظاً بين الملاءات الرطبة مرة أخرى! ليس هناك أية فرصة لإخفاء ما اقترفته. القيّمة الشرسة التي تشبه التمثال دافني وصلت إلى المهجع خصيصاً لتفتش سريري. شدت الأغطية إلى الخلف، ثم ابتعدت، وبدت الكلمات المرعبة تتدحرج منها مثل جلجلة الرعد:

"قدم شكوى على نفسك لمدير المدرسة بعد الإفطار!".

لا أعرف كم مرة سمعت تلك العبارة أثناء سنواتي الأولى في كروسغيت، وكانت مرات نادرة جداً لم تكن تعني لي الضرب والعقاب. كان للكلمات صوت منذر في مسمعي دائماً مثل طبول كتومة أو لكلمات النطق بعقوبة الإعدام.

حين وصلت لأبلغ عن نفسي، كانت بينغو تفعل شيئاً ما عند الطاولة الطويلة اللماعة في غرفة الانتظار التي قبل المكتب. تفحصتني بعينيها المربكتين حين مررت بها، وكان السيد سيمبسون الملقب بسيم ينتظر في المكتب. كان سيم رجلاً انحنت كتفاه إلى الأمام، ويبدو أحمق بشكل غريب، مشيته بطيئة، ووجهه لحيم مثل وجه طفل نما بشكل مفرط، قادر على الدعابة الجيدة. كان يعرف طبعاً لماذا أرسلت إليه، فأخرج مسبقاً سوط ركوب له قبضة عظمية من الخزانة، لكن التبليغ عن نفسك بأن تعلن عن جريمتك بشفتيك كان جزءاً من العقاب. حين قلت قولي، تلا علي محاضرة قصيرة لكنها طنانة، ثم أمسك بي من مؤخرة عنقي وفتلني إلى أعلى، وبدأ بضربي بسوط الركوب. كانت لديه عادة إكمال محاضرته وهو يجلدك، وأتذكر الكلمات "أيها الصبي القذر" التي كانت تتناغم مع الضربات. لم يكن الضرب موجعاً (ربما لأنها كانت المرة الأولى فلم يضربني بقسوة شديدة) وخرجت ماشياً، وكنت أشعر أنني بحال أفضل بكثير. الحقيقة أن العقاب لم يكن موجعاً، وكان نوعاً من النصر، وأزال جزئياً خجلي من تبليل الفراش. كنت غافلاً حتى عن التظاهر بالتكشير، فبعض الصبيان الصغار كانوا يتلكؤون في الممر خارج باب بهو الانتظار.

"هل ضربت بعصا الخيزران؟"

"إنها لم تؤلم،" قلت متباهياً.

سمعت بينغو كل شيء، وعلى الفور أتى صوتها صارخاً خلفي:

"تعال إلى هنا! تعال فوراً! ما ذاك الذي قلته؟"

"قلت إنه لم يؤلم" قلت متلعثماً.

"كيف تجرؤ على قول شيء كهذا؟ هل تظن أن قول ذلك شيء مناسب؟ ادخل وبلغ عن نفسك مرة أخرى!".

هذه المرة ضربني بجدية حقيقية، واستمر مدة من الوقت، لدرجة أرعبني وأدهشني حوالي خمس دقائق، انتهت بكسر السوط. لقد طارت القبضة العظمية في الغرفة.

"انظر إلى ما جعلتني أفعل!" قال بحنق وهو يحمل السوط المكسور.

سقطت في كرسي أنشقُّ بوهن. أتذكر أن هذه هي المرة الوحيدة في كل طفولتي التي أضعفني فيها الضرب وأنزل دموعي، والغريب جداً أنني لم أكن أبكي من الألم، فالعقاب الثاني لم يكن موجعاً أكثر من سابقة بكثير إذ يبدو أن الخوف والخزي خدراني. كنت أبكي جزئياً لأنني شعرت أن هذا كان متوقعاً مني وجزئياً من التوبة الصادقة، ولكن جزئياً أيضاً بسبب حزن خاص بالطفولة ليس من السهل نقله والتعبير عنه: إحساس بالوحدة المقفرة والعجز الناتج عن حبسي ليس في عالم عدائي فقط، وإنما في عالم من الأخيار والأشرار، كان الالتزام بقوانينه بالنسبة إلي غير ممكن فعلياً.

عرفت أن تبليل السرير كان (أ) شريراً و(ب) خارج سيطرتي. فقد كنت مدركاً للحقيقة الثانية ولم أشك بالحقيقة الأولى، لذلك كان من الممكن أن ترتكب إثماً دون أن تعرف أنك ارتكبته أو الرغبة بأن ترتكبه أو أن تكون قادراً على تجنبه. الإثم ليس بالضرورة شيئاً أنت فعلته: قد يكون شيئاً حدث لك. لا أريد أن أدعي بأن هذه الفكرة ومضت في ذهني كبدعة كاملة في هذا اللحظة تحت ضربات خيزرانة سيم. يفترض أن لدي لمحات منها قبل أن أغادر البيت حتى، لأن طفولتي لم تكن سعيدة بالمجمل. لكن في كافة الأحوال هذا كان درساً عظيماً ثابتاً من طفولتي: أنا كنت في عالم، من المستحيل له أن يكون جيداً لي، وكان الضرب المضاعف نقطة تحول، لأنه أوضح لي لأول مرة قساوة البيئة التي رميت فيها، فقد كانت الحياة بغيضة أكثر، وكنت شريراً أكثر مما تخيلت. في كل الأحوال حين جلست على حافة الكرسي في

مكتب سيم ولم أكن أمتلك الثقة للوقوف. عندما انقض عليّ، تملكتني قناعة بالإثم والضعف، لا أتذكر أنني شعرت بها من قبل.

على العموم، فإن ذكريات المرء عن أية فترة يجب بالضرورة أن تضعف حالما يبتعد عنها. يتعلم المرء حقائق جديدة بشكل مستمر، ويجب على القديمة أن تسقط لتخلي المجال للجديدة. في العشرين من عمري كنت قادراً على أن أكتب تاريخ أيام الدراسة بدقة باتت مستحيلة الآن. لكن يمكن أيضاً أن يحدث أن ذكريات المرء تصبح أكثر حدة بعد انقضاء مدة طويلة من الزمن، لأن المرء ينظر إلى الماضي بعينين جديدتين، ويستطيع العزل ويلاحظ حقائق موجودة مسبقاً غير متمايزة وسط ذكريات كثيرة أخرى. شيئان أتذكرهما بمعنى ما، لكنهما لم يستأثرا بانتباهي كشيئين غريبين أو مثيرين إلا مؤخراً. الذكرى الأولى: أن العقوبة الثانية بدت لي عادلة ومنطقية. أن تنال عقوبة أولى ثم تنال واحدة أخرى أشد وأقسى فوقها لكونك أحمق، وتظهر أن العقوبة الأولى لم تؤلم - ذلك كان طبيعياً تماماً. الآلهة غيورة، وحين يكون لديك حظ طيب، عليك أن تتكتم عليه. الذكرى الأخرى هي أنني قبلت سوط الركوب المكسور كجريمتي الخاصة بي. لا أزال أذكر مشاعري حين رأيت القبضة ملقاة على السجادة - الشعور بارتكاب شيء غير مهذب وأخرق. هذا القبول بالذنب كمن في ذاكرتي غير ملحوظ لمدة عشرين أو ثلاثين سنة.

أكثرت حول حادثة تبليل الفراش، لكن هناك شيئاً آخر بعد يجب أن يعلق عليه، وهو أنني لم أبلل فراشي ثانية مرة أخرى - فعلتها مرة أخرى على الأقل، ونلت عقوبة أخرى ثم توقفت المشكلة. لهذا ربما نجح هذا العلاج البربري، لكن بثمن باهظ من دون شك.

لقد كان كل هذا منذ عشرين سنة أو أكثر. السؤال هو: هل يمر طفل المدرسة بهذه التجربة في وقتنا الحالي؟

الجواب الصادق الوحيد باعتقادي هو أننا لا نعرف بيقين. طبعاً من الواضح أن موقف الزمن الحالي نحو التعليم أكثر إنسانية ومنطقية بشكل هائل مما كان في الماضي، فالغطرسة التي كانت جزءاً مكملاً في تعليمي، ستكون شيئاً غير وراد اليوم، لأن المجتمع الذي كان يغذيها مات. أتذكر محادثة وقعت منذ سنة كما يجب قبل أن أترك كروسغيت، أن ولداً روسياً، ضخماً وأشقر الشعر وأكبر مني بسنة، سألني:

"كم يكسب والدك من المال في السنة؟".

أخبرته ما ظننته، وأضفت مئات قليلة ليبدو أكبر، فاخرج الصبي الروسي الأنيق في عاداته قلم رصاص ودفتراً صغيراً وأجرى حساباً.

"والدي يملك من المال مائتي ضعف مما تملكون" أعلن بنوع من الاحتقار الساخر.

كان ذلك في عام ١٩١٥ أتساءل ماذا حدث لذلك المال بعد سنتين؟ ولا أزال أتساءل أيضاً هل تحصل مثل هذه المحادثات في المدارس التمهيدية الآن؟

من الواضح أن هناك تغيراً واسعاً في وجهات النظر ونمواً عاماً وتطوراً لفكرة "للتنوير" حتى وسط أفراد الطبقة الوسطى العاديين، فقد تلاشى الإيمان الديني بشكل واسع مثل،اً وسحب خلفه أنواعاً كثيرة من الهراء. وأتخيل أن قلة قليلة جداً من الناس تقول لطفل إن مارستَ العادة السرية سينتهي بك المطاف في ملجأ للمجانين. كما أن عقوبة الضرب أيضاً فقدت مصداقيتها وحرمت أيضاً في مدارس كثيرة، وكذلك لم يعد ينظر إلى التغذية الناقصة للأطفال على أنها عمل عادي ويستحق الثناء، وليس هناك أحد الآن يعطي تلاميذه طعاماً أقل مما هو ضروري لهم، أو يعلمهم أن النهوض من وجبة جائعاً مثلما عندما جلست لتناوله أمر صحي. إن الوضع الإجمالي للأطفال تحسن جزئياً، لأنهم باتوا أقل عدداً، ولانتشار المعرفة النفسية رغم قلتها، جعل من الصعب على الآباء والأمهات والمعلمين الانغماس في ضلالهم تحت اسم الانضباط. ها هي حالة غير معروفة لي شخصياً، لكنها معروفة لشخص أضمن صدقه، وحدثت خلال الزمن الذي عشته أنا. فتاة صغيرة ابنة رجل دين استمرت في تبليل فراشها حتى عمر يفترض أنها كبرت فيه على ذلك. لكي تُعاقب عن هذا الفعل البغيض جداً أخذها والدها إلى حفلة كبيرة في حديقة، وهناك قدمها لكل الجماعة كفتاة صغيرة تبلل فراشها: ليؤكد شرها صبغ وجهها باللون الأسود مسبقاً. لا أقول إن بينغو وسيم قد فعلا شيئاً كهذا، لكن أشك إن كان ذلك قد أدهشهم كثيراً. أخيراً إن الأشياء تتبدل، ومع ذلك تظل!

السؤال ليس أن الصبيان مازالوا يتزينون بياقات ايتون في أيام الآحاد أم ل،ا أو القول إن الأطفال الرضع يستخرجون من تحت أشجار عنب الثعلب. هذا النوع من الشيء

انتهى باعتراف الجميع. السؤال الحقيقي هو إن لازال من العادي لطالب المدرسة أن يعيش لسنوات وسط أهوال غير منطقية وحالات من سوء الفهم المجنون. وهنا يكون المرء في مواجهة الصعوبة الكبيرة لمعرفة ما يشعر به الطفل ويفكر فيه. إن الطفل الذي يبدو سعيداً بشكل معقول ربما يعاني فعلياً من رعب لم يكشف عنه أو لم يستطيع فعل ذلك. إنه يعيش في عالم غريب تحت الماء لا يمكننا اختراقه إلا بالتذكر أو العرافة. أحد المفاتيح الأساسية هو أننا كنا أطفالاً سابقاً، ولكن يبدو الكثيرون من الناس أنهم نسوا جو طفولتهم الخاصة بهم تماماً تقريباً. فكر مثلاً في العذابات غير الضرورية التي يسببها الناس بإعادة طفل إلى المدرسة في ثياب من النموذج الخاطئ، ورفضهم أن يروا هذا أمراً هاماً! يفصح الطفل عن احتجاجه ضد أشياء كهذه أحياناً، لكن في أوقات كثيرة يكون موقفه موقف إخفاء فقط. ألا تكشف عن مشاعرك الحقيقية لشخص بالغ، يبدو أمراً غريزياً في عمر السابعة أو الثامنة فصاعداً. حتى عاطفة الحب التي يشعر بها المرء تجاه طفل والرغبة في حمايته أو تدليله، هي سبب لسوء الفهم. يستطيع المرء أن يحب الطفل أكثر مما يحب شخصاً بالغاً، لكن من الطيش الافتراض أن يبادله الطفل نفس الشعور مقابل ذلك. بتذكر طفولتي الخاصة بي بعد أن انتهت سنوات الرضاعة، لا أعتقد أنني شعرت بحب لأي شخص ناضج باستثناء أمي، وحتى هي لم أكن واثقاً من ذلك - أعني أن الخجل جعلني أكتم أغلب مشاعري الحقيقية عنها. الحب، عاطفة الحب العفوي المفرط، كانت شيئاً لم أشعر به إلا نحو الناس الصغار في السن، أما الناس الكبار في السن - وأتذكر أن "كبار" بالنسبة إلى الطفل تعني فوق الثلاثين أو حتى الخامسة والعشرين - الذين يشعر المرء نحوهم بالتوقير أو الاحترام أو الإعجاب أو الندم، فقد كنت مفصولاً عنهم بستار من الخوف والخجل الممزوج بنفور مادي. يميل الناس جداً إلى نسيان انكماش الطفل البدني ونفوره من الشخص البالغ. إن حجم الأشخاص البالغين الضخم وأجسادهم القاسية الغليظة وجلودهم الخشنة المجعدة وجفونهم الرخوة الكبيرة وأسنانهم المصفرة وروائح ثيابهم العفنة والبيرة والتعرق والتبغ التي تنطلق منهم فوراً! جزء من قبح البالغين بعيني الطفل. إن الطفل ينظر إلى الأعلى عادة، والوجوه التي تبدو جميلة حين يُنظر إليها من الأسفل قليلة جداً، بالإضافة إلى ذلك، لدى الطفل لكون نظره

سلبياً معايير عالية متعذرة في مسألة الجلد والأسنان وملامح الوجه، لكن العقبة الأكبر هي فكرة الطفل الخاطئة عن العمر. لا يستطيع الطفل تصور حياة بعد الثلاثين، وفي حكمه على أعمار الناس يرتكب أخطاء غريبة، فهو يرى الشخص الذي في الخامسة والعشرين في الأربعين من عمره، ويرى الشخص الذي في الأربعين في الخامسة والستين وهكذا. لهذا حين وقعت في حب ايلسي اعتبرتها ناضجة وبالغة، وحين قابلتها ثانية وكنت في الثالثة عشرة من عمري وهي في الثالثة والعشرين كما أعتقد، بدت لي امرأة في منتصف عمرها تجاوزت ريعان شبابها تقريباً. كما أن الطفل يعتبر الكبر في السن كارثة فاحشة لن تحدث له أبداً لسبب ما. كل الذين تجاوزوا الثلاثين أشخاص غريبون كئيبون يثيرون هياجاً حول أشياء لا أهمية لها، ويبقون أحياء دون أن يكون لديهم أي شيء يعيشون من أجله بنظر الطفل. فقط حياة الطفل هي الحياة الحقيقية. إن المعلم يتخيل نفسه محبوباً وموضع ثقة من قبل صبيانه، لكنهم في الحقيقة يلمزونه بالألقاب ويسخرون منه من وراء ظهره. إن البالغ الذي لا يبدو خطيراً، يبدو سخيفاً دائماً بالنسبة إليهم.

أبني هذا التعميم على ما أستطيع تذكره من وجهة نظر طفولتي. رغم غدر الذاكرة، فإنها تبدو لي الوسيلة الرئيسية التي نملكها في اكتشاف كيفية عمل عقل الطفل. فقط بإعادة بناء ذكرياتنا الخاصة بنا، نستطيع أن نعرف كم رؤية الطفل للعالم مشوهة وبشكل لا يصدق. تأمل هذا مثلاً. كيف ستبدو لي كروسغيت الآن إن استطعت الرجوع بعمري الحالي ورأيتها كما كانت عليه في عام ١٩١٥؟ ماذا يجب أن يكون رأيي ببينغو وسيم، هذان المسخان القويان البغيضان؟ يجب أن أراهما زوجين من الناس ضحلين سخيفين وتافهين تواقين إلى تسلق السلم الاجتماعي الذي يراه أي شخص عاقل بأنه على وشك الانهيار. لن أخاف منهما أكثر من خوفي من زغبة (حيوان شبيه بالسنجاب). إضافة إلى ذلك، لقد رأيتهما في تلك الأيام عجوزين جداً لكني أتخيل - رغم أنني لست متأكداً - أنهما أصغر عمراً مني الآن، وكيف سيظهر جوني هال بيديه الشبيهتين بيدي حداد ووجهه الأحمر الساخر؟ مجرد صبي صغير وضيع يمكن تمييزه بالكاد من المئات من غيره من الصبيان الصغار الوضيعين. توجد مجموعتا الحقائق الاثنتان في ذهني جنباً إلى جنب لأنهما صدف وحدث أن كانتا ذكرياتي. لكن من الصعب جداً علي أن أرى بعيني طفل آخر إلا

بجهد من المخيلة التي ربما تضللني تماماً. إن الطفل والراشد يعيشان في عوالم مختلفة، وإن كان الأمر هكذا، فلا نستطيع التأكد من أن المدرسة، المدرسة الداخلية في أي حال، لم تعد للكثيرين من الأطفال تلك التجربة المفزعة التي عاشوها. احذف الرب واللاتينية والخيزرانة والفروق الطبقية والمحرمات الجنسية والخوف والكره والتكبر ويظل سوء الفهم كله هناك، وسوف ترى أن مشكلتي الرئيسية كانت انعداماً واضحاً وتاماً لأي إحساس بالتناسب والأرجحية، وهذا قادني إلى قبول إساءات وتصديق سخافات وعذابات على أشياء ليست ذات أهمية في الحقيقة. لا يكفي القول إنني كنت "سخيفاً" و"ينبغي أن أعرف أكثر". عد إلى طفولتك وفكر بالهراء الذي كنت تصدقه والتفاهات التي جعلتك تعاني. طبعاً حالتي لها اختلافاتها الفردية، لكنها كانت تجربة أولاد آخرين لا يحصون. ضعف الطفل هو أنه يبدأ كصفحة بيضاء خالية، فهو لا يفهم ولا يرتاب في المجتمع الذي يعيش فيه، وبسبب سذاجته التي يعمل عليها الناس الآخرون، يلوثونه بشعوره بالدونية والفزع من انتهاك قوانين غامضة بغيضة. إن كل ما حدث لي في كروسغيت ربما حدث في أكثر المدارس "تنويراً" لكن بأشكال ألطف، لكني متأكد جداً من شيء واحد: أن المدارس الداخلية أسوأ من المدارس النهارية. إن فرصة الطفل أفضل حين يكون بيته ملجأ بمتناول يده، وأعتقد أن أغلاط الطبقتين العليا والوسطى المميزة، سببها جزئياً العادة العامة التي تمارس حتى مؤخراً بشكل عام، في إرسال الأطفال بعيداً عن بيوتهم وهم بعمر التاسعة أو الثامنة أو السابعة حتى.

أنا لم أعد إلى كروسغيت أبداً، ولم أفكر بشكل حقيقي في أيامي المدرسية إلا في العقد الأخير، رغم أن ذكرياتها كانت تراودني بشكل قوي. وأعتقد أنني لو زرت المكان مرة أخرى في الوقت الحاضر، فسيكون أثره ضئيلاً علي إن ظل موجوداً. وإذا دخلت وشممت رائحة الغبار والحبر في حجرة الدرس الكبيرة والرائحة الراتنجية لمكان العبادة والرائحة الراكدة لحمام السباحة والرائحة الباردة الكريهة للمراحيض، أعتقد أنني لن أشعر إلا بما يشعره المرء بشكل ثابت في زيارته لأي مشهد من طفولته: يا للصغر الذي كبر فيه كل شيء ويا لفظاعة التلف في نفسي!

مراكش

حين مرت الجثة، غادر الذباب طاولة المطعم في غيمة، واندفع وراءها، لكنه عاد بعد دقائق قليلة.

سلك حشد قليل من النادبين - كلهم رجال وصبيان ولا نساء - طريقهم عبر السوق بين أكوام من الرمان وسيارات الأجرة والجمال، ينتحبون بترتيلة قصيرة يكررونها مرة تلو أخرى. ما كان يجذب الذباب في الحقيقة هو أن الجثة هنا لا توضع في تابوت أبداً، وإنما تلف في خرق وتحمل على نعش خشبي قاسٍ على أكتاف أربعة من الأصدقاء. حين يصل الأصدقاء إلى أرض الدفن يحفرون بالفأس حفرة مستطيلة بعمق قدم أو اثنين، ويسقطون الجسد فيها، ويرمون فوقه قليلاً من التراب المتكتل الجاف الذي يشبه القرميد المكسر، ويتركونه بدون شاهدة أو اسم أو علامة تعريف من أي نوع. فأرض الدفن مجرد قفر هائل من الأرض المرتفعة، مثل مبنى مهجور. وبعد شهر أو اثنين، لا يستطيع المرء التأكد من المكان الذي دفن قريبه فيه.

حين تمشي عبر بلدة كهذه - تعداد سكانها مائتي ألف، عشرون ألفاً منهم لا يملكون حرفياً شيئاً سوى الثياب الممزقة التي يقفون فيها - حين ترى الناس كيف يعيشون والأكثر كيف يموتون بسهولة، لا تصدق نفسك بأنك تمشي وسط كائنات بشرية إلا بصعوبة. كل الإمبراطوريات الاستعمارية في الواقع بُنيت على تلك الحقيقة. الناس لهم وجوه سمراء - وهناك الكثير جداً منهم! هل هم حقيقة مثلك من نفس اللحم والدم؟ هل يملكون أسماء حتى؟ أم هل هم مجرد نوع من المادة السمراء غير المميزة وأفراد مثل النحل والحشرات المرجانية تقريباً؟ ينبعثون من الأرض، يتعبون ويجوعون لعدد قليلٍ من السنين، ثم يغورون في أكوام مجهولة في المقبرة دون أن يلاحظ أنهم ماتوا ورحلوا. حتى القبور نفسها تذوي داخل التربة بعدة فترة قصيرة. أحياناً تخرج لتتمشى وتلاحظ وأنت تشق طريقك عبر الكمثرى الشائك مطبات تحت قدميك، وتعرف من خلال تناسق المطبات أنك كنت تمشي فوق هياكل عظمية.

كنت أطعم غزالاً في حديقة عامة.

الغزلان هي الحيوانات الوحيدة تقريباً التي تبدو جيدة للأكل وهي لا تزال حية، ومن الصعب النظر إلى أجزائها الخلفية من دون التفكير في صلصة النعناع في الواقع. يبدو أن الغزال الذي أطعمته كان يعرف أن هذه الفكرة كانت في ذهني، ومن الواضح أنه لم يكن يحبني، رغم أنه كان يأخذ قطعة الخبز التي أمدها إليه. كان يقضم الخبز بسرعة، ثم يُخفض رأسه، ويحاول نطحي، ثم يأخذ قضمة أخرى ثم ينطح ثانية. ربما كانت فكرته أنه لو استطاع أن يبعدني، ستبقى قطعة الخبز معلقة في الهواء.

عامل عربي يعمل على الطريق المجاور أنزل حذاءه الثقيل وانسل نحونا. نقل نظره من الغزال إلى الخبز ومن الخبز إلى الغزال بنوع من الاندهاش التام، كما لو انه لم ير شيئاً كهذا من قبل. وأخيراً قال باستحياء بالفرنسية:

"بإمكاني أكل بعضٍ من ذاك الخبز".

مزقت قطعة، وخزنها شاكراً في مكان سري تحت أسماله. الرجل موظف في البلدية.

حين تدخل في الأحياء اليهودية، فإنك تجمع فكرة عن حال الغيتوهات في العصور الوسطى. تحت القوانين المغربية، لم يكن يسُمح لليهود بتملك الأراضي إلا في مناطق محصورة محددة. وبعد قرون من هذا النوع من المعاملة، لم يعد يقلقهم الاكتظاظ، فالكثير من الشوارع لا يتجاوز عرضها الستة أقدام، والبيوت بلا نوافذ تماماً، والأطفال بعيونهم المقرحة يتجمعون في كل مكان بأعداد لا تصدق مثل أسراب من الذباب، وفي وسط الشارع يوجد عادة نهر صغير من البول يجري.

في السوق توجد عائلات ضخمة من اليهود، يلبسون ثياباً سوداء طويلة وقبعات سوداء صغيرة، ويعملون في أكشاك مظلمة يملؤها الذباب مثل الكهوف. نجار يجلس مقرفصاً عند مخرطة خشب من قبل التاريخ، يدير أرجل الكرسي بسرعة الضوء، ويشغل المخرطة بقوس بيده اليمنى ويوجه الإزميل بقدمه اليسرى. وبسبب الجلوس في هذا الوضع طيلة حياته، التوت رجله وتشوهت، وبجانبه حفيده في السادسة من عمره، وقد بدأ مسبقاً في الأجزاء الأبسط من العمل.

كنت أمر في أكشاك النحاسين، حين لاحظ شخص ما أنني كنت أشعل سيجارة، فاندفع على الفور من الثقوب المظلمة المحيطة عدد كبير من اليهود بشكل محموم أكثرهم أجداد كبار في السن بلحى رمادية منسابة يطالبون بسيجارة. حتى إن رجلاً أعمى في مكان ما خلف أحد الأكشاك، سمع إشاعة السجائر، فجاء يحبو متلمساً الهواء بيده. في حوالي دقيقة استهلكت علبة السجائر كلها. لا أحد من هؤلاء الأشخاص يعمل أقل من اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وكل واحد منهم ينظر إلى السيجارة كما لو كانت ترفاً مستحيلاً تقريباً.

بما أن اليهود يعيشون في جاليات مستقلة مكتفية ذاتياً، فهم يتبعون نفس المهن مثل العرب ماعدا مهنة الزراعة. باعة فاكهة وخزافون وصاغة فضة وحدادون وجزارون وعمال جلود وخياطون وسقاة وشحاذون وحمالون - أي طريق تنظر فيه لا تجد سوى اليهود. وفي الواقع هنالك ثلاثة عشر ألفاً منهم يعيشون في حيز من بضعة أكرات من الأرض. لا يوجد هنا قاتل كهتلر، لكن ربما هو في طريقه. لا تسمع الإشاعات المعتادة الشريرة عن اليهود من العرب فقط، بل ومن الأوروبيين الأكثر فقراً أيضاً.

"نعم، يا شيخي، هم انتزعوا وظيفتي مني وأعطوها ليهودي. اليهود! إنهم الحكام الحقيقيون لهذه البلاد كما تعرف. لقد حازوا على المال كله، فهم يسيطرون على البنوك والتمويل - كل شيء"

"لكن أليس حقيقة أن اليهودي العادي شغيل يعمل ببنس في الساعة تقريباً؟" قلت.

"آه، ذلك مجرد مظهر فقط! كلهم مرابون في الحقيقة. اليهود ماكرون".

في الطريقة نفسها تماماً كانت النساء العجائز يُحرقن بتهمة السحر قبل مائتي سنة، حين لم يستطعن ممارسة ما يكفي من السحر لنيل وجبة طعام واحدة تشبعهن.

كل الناس الذي يعملون بأيديهم غير مرئيين جزئياً، وكلما كان عملهم الذي يشتغلونه هاماً كانوا ظهورهم أقل. لكن البشرة البيضاء تظل بارزة بوضوح دائماً. في شمال أوروبا حين ترى عاملاً يحرث الحقل تخصه بنظرة ثانية، أما في البلدان الحارة في أي مكان جنوب جبل طارق أو شرق السويس، فالفرص أنك لن تراهم حتى. لقد لاحظت هذا مراراً. في المشهد الطبيعي الاستوائي ترى العين كل شيء ماعدا الكائنات البشرية. ترى التربة الجافة وشجرة

الكمثرى الشائكة وشجرة النخل والجبل البعيد، لكنها دائماً لا ترى الفلاح وهو يعزق في قطعة أرضه، فهو بنفس لون التراب، والنظر إليه ليس فيه أي نوع من المتعة.

لهذا السبب فقط تُستحسن البلدان الجائعة في آسيا وإفريقيا كمنتجعات سياحية. لا أحد يفكر في تسيير رحلات رخيصة إلى المناطق المنكوبة، لكن في الأماكن التي فيها بشرة البشر سمراء لا يلاحظ الفقر هناك ببساطة. ما الذي تعنيه المغرب بالنسبة إلى الفرنسي؟ بيارة برتقال أو وظيفة حكومية. أو للإنكليزي؟ جمال وقلاع وأشجار نخيل وفيالق أجنبية وأطباق نحاسية وقطاع طرق. يمكن أن يعيش المرء هنا لسنوات ولا يلاحظ أن الحياة بالنسبة إلى تسعة أعشار الناس صراع لانهائي قاصم للظهر لانتزاع القليل من الطعام من تربة متآكلة.

غالبية المغرب أرض مقفرة، لدرجة لا يستطيع حيوان بري أكبر من الأرنب العيش فيها. مناطق هائلة كانت تغطيها الغابات في الماضي، تحولت إلى مناطق قاحلة بلا أشجار، وصارت التربة مثل القرميد المكسر تماماً. رغم ذلك كمية جيدة منها تُحرث بجهد مرعب. كل شيء يتم عمله يدوياً. صفوف طويلة من النسوة انثنين مثل حرف إس مقلوب يعملن ببطء في الحقول، يحصدن الأعشاب الشائكة بأيديهن. أما الفلاح فيجمع البرسيم من أجل علف الماشية، يقتلعه سويقة سويقة بدلاً من حصده لكي يوفر بوصة أو اثنتين من كل سويقة. المحراث شيء خشبي بائس وهزيل جداً لدرجة يمكن حمله على الظهر، ومزود من الأسفل برزة حديدة قاسية تحرك التربة بعمق أربع بوصات تقريباً. هذا يتناسب مع ما تفعله قوة الحيوان. العادة أن الفلاحة تتم على بقرة وحمار يربطان إلى نير واحد معاً. حماران لن تكون القوة كافية، لكن بقرتان يكلف علفهما الكثير. لا يملك الفلاحون مسحاة لتسوية التربة، هم يحرثون التربة عدة مرات متكررة في اتجاهات مختلفة فقط، وأخيراً تتكون فيها أخاديد وعرة. وبعد ذلك يجري تشكيل الحقل كله بالمجاريف إلى قطع مستطيلة لحفظ الماء. باستثناء يوم أو اثنين من العواصف المطرية النادرة ليس هناك ما يكفي من الماء. على طول حواف الحقول حفرت قنوات بعمق ثلاثين قدم أو أربعين للوصول إلى أصغر المجاري المائية الهزيلة التي تجري عبر التربة التحتية.

في كل يوم بعد الظهر تعبر مجموعة من العجائز الطريق الذي يقع خارج بيتي، تحمل كل واحدة منهن حملاً من حطب الوقود. كلهن حنطهن كبر السن والشمس وأحجامهن بالغة الصغر. يبدو لي أن الحالة العامة في المجتمعات البدائية للنساء أنهن ينكمشن إلى حجم

الأطفال حين يتجاوزن سناً معينة. في أحد الأيام تجاوزتني خلوقة هرمة لا يبلغ طولها أربعة أقدام وهي تحبو تحت حمل هائل من الحطب. أوقفتها، ووضعت قطعة نقدية من فئة خمسة سو (أكثر من فارذينغ بقليل) في يدها. ردت بعويل وصيحة كانت عرفانا بالجميل جزئياً وبالاندهاش رئيسياً. حين أبديت أقل الاهتمام بها، فأنا انتهكت قانون الطبيعة من وجهة نظرها، لأنها قبلت بوضعها كامرأة عجوز أي كدابة للحمولة. حين تسافر العائلة، من المعتاد تماماً أن ترى الأب وأبناءه الذكور البالغين يركبون الحمير، وامرأة عجوز تلحق بهم مشياً على الأقدام وتحمل الأمتعة.

لكن الغريب حول هؤلاء الناس، هو اختفاؤهم عن الأعين. لعدة أسابيع في نفس الوقت من اليوم دائماً تمر مجموعة من النسوة العجائز بجانب البيت وهن يعرجن بحطبهن، ولو لم يسجلن أنفسهن في مقالتي، لما استطعت أن أقول إنني رأيتهن في الحقيقة. كان الحطب يمر - تلك كانت الطريقة التي رأيته فيها. إلى اليوم الذي صدف وكنت أتمشى خلفهن، فلفتت الحركة الغريبة لحمل الحطب التي ترتفع وتهبط انتباهي إلى كائن بشري تحته. حينها للمرة الأولى لاحظت الأجساد المسكينة التي بلون التراب، أجساد تقلصت إلى عظام وجلد، انثنت تحت حمولة ساحقة. أعتقد أنني لم أتجاوز الخمس عشرة دقيقة على التراب المغربي، حتى لاحظت الحمولة المفرطة التي يضعونها على الحمير، فأغاظني ذلك. ليس هناك خلاف أن الحمير تعامل بصورة لعينة. إن الحمار المغربي ليس أكبر من كلب القديس برنارد، ويحمل حمولة يعتبرها الجيش البريطاني كثيرة جداً على بغل كبير، وفي أغلب الأحيان لا يُنزع سرجه عن ظهره لأسابيع متوالية. لكن المثير للشفقة بشكل خاص أنه المخلوق الأكثر طوعاً على الأرض الذي يتبع صاحبه مثل الكلب ولا يحتاج لجاماً ولا رسناً. بعد عشر سنوات من العمل المخلص، يسقط ميتاً فجأة، عندئذ يتكرم عليه صاحبه ويرميه في خندق لتمزق كلاب القرية أمعاءه قبل أن تبرد جثته.

هذا النوع من الأشياء يجعل الدم يغلي، بينما محنة البشر إجمالاً لا تحرك ساكناً. أنا لا أعلق، وإنما أشير إلى واقع فقط. الناس أصحاب البشرة السمراء شبه محجوبين. أي واحد يمكنه أن يتأسف على الحمار بظهره المتقرح، لكن هذا يعود عموماً إلى نوع من المصادفة، حتى إن لاحظ أحد المرأة المسنة تحت حملها من عيدان الحطب.

حين تطير اللقالق باتجاه الشمال، كان الزنوج يزحفون باتجاه الجنوب - طابور طويل مغبر وكتيبة مشاة وبطاريات مدفعية، ومن ثم كتيبة مشاة أخرى، يصل عددهم كلهم إلى أربعة أو خمسة آلاف يتلوون على الطريق بأحذية طويلة الساق ثقيلة وقعقعة عجلات حديدية.

كانوا من السنغاليين، أشد الزنوج سواداً في أفريقيا، سود جداً لدرجة من الصعب أحياناً أن ترى في أي مكان من رقابهم يبدأ شعر رؤوسهم. أجسامهم الممتازة كانت مخبأة في أزياء كاكية رسمية نظامية جاهزة ورخيصة، انهرست أقدامهم في أحذية بدت مثل قوالب من الخشب وكل قبعة قصديرية بدت أصغر بقياسين. كان الجو حاراً جداً والرجال مشوا مسافة طويلة. ناخوا تحت ثقل صررهم، وكانت وجوههم السوداء الحساسة على نحو غريب تتلألأ بالعرق. حين مروا التفت شاب زنجي صغير جداً وطويل ونظر إلي. لكن النظرة التي رماني بها ليست النظرة التي يمكن أن تتوقعها على الأقل. ليست عدائية وليست ازدرائية وليست وقحة وليست فضولية. كانت نظرة اندهاش خجولة، وهي في الحقيقة نظرة احترام عميق. رأيت كيف كانت. هذا الصبي البائس الذي هو مواطن فرنسي، ولذلك سحب من الغابة لينظف الأرض ويصاب بالسفلس في مدن الحاميات العسكرية، وفي الواقع لديه مشاعر توقير أمام البشرة البيضاء، فقد علموه أن العرق الأبيض هم سادته ولا يزال يصدق ذلك.

لكن توجد فكرة واحدة يفكر فيها كل رجل أبيض (وفي هذا السياق لا تستحق بنسين إن دعا نفسه اشتراكياً) حين يرى جيشاً من السود يمر ماشياً به. "كم من الوقت نستطيع المضي في خداع هؤلاء الناس؟ كم من الوقت حتى يديرون بنادقهم إلى الجهة الأخرى؟".

كان ذلك غريباً فعلاً. كل رجل أبيض هناك لديه هذه الفكرة مخزنة ومخبأة في مكان ما في ذهنه. أنا لدي، وكذلك المتفرجون الآخرون، والضباط الذين على خيولهم المتعرقة والقادة الذين يسيرون في الصفوف. كان نوعاً من السر الذي نعرفه كلنا، وليس من الذكاء كشفه؛ فقط الزنوج لا يعرفونه. وفي الحقيقة كان مثل مراقبة قطيع من الأنعام تقريباً لترى طابوراً طويلاً بطول ميل أو اثنين من الرجال المسلحين يتدفقون بهدوء في الطريق، بينما اندفعت طيور بيضاء كبيرة فوقهم في الاتجاه المعاكس تلمع مثل قصاصات من الورق.

ما هو العلم؟

في عدد الأسبوع الماضي من التريبيون، هناك رسالة مثيرة للاهتمام من السيد جي. ستيوارت كوك، يقول فيها إن أفضل طريقة لتفادي خطر "الهرمية العلمية" هو النظر إليها إن كل عضو من الجمهور العام مثقف علمياً بأقصى ما يمكن، ويجب بنفس الوقت إخراج العلماء من عزلتهم وتشجيعهم على المشاركة بدور أكبر في السياسة والإدارة.

كتصريح عام، أعتقد أن أكثرنا يتفق مع هذا، لكني لاحظت أن السيد كوك كالعادة لم يعرف العلم، ودلل ضمناً وبشكل عابر أنه يعني علوماً معينة دقيقة يمكن إجراء تجاربها تحت ظروف مخبرية، ولهذا يميل تعليم البالغين إلى إهمال الدراسات العلمية لصالح المواضيع الأدبية والاقتصادية والاجتماعية". فعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع، لم يعتبرا فرعين من العلوم كما يتضح. المغزى ذو أهمية عظمى. لأن كلمة علم في الوقت الحاضر تستخدم بمعنيين على الأقل، ومسألة التعليم العلمي برمتها تحجبها النزعة الراهنة في المراوغة من معنى إلى آخر.

يُفهم العلم عموماً كمعنى إما (ألف) العلوم الدقيقة كالكيمياء والفيزياء..إلخ، أو (باء) طريقة في التفكير تحرز نتائج مثبتة باستنتاجات منطقية من واقع ملحوظ.

لو سألت عالماً أو في الحقيقة أي شخص متعلم تقريباً "ما هو العلم؟" ستحصل على الأرجح على جواب مقارب لـ(باء). لكن في الحياة اليومية، في الكتابة والكلام، حين يقول الناس "علم" يقصدون (ألف). العلم يعني شيئاً يحدث في مختبر: الكلمة نفسها تستدعي صورة لرسوم بيانية وأنابيب اختبار وموازين وحراقات بنزين ومجاهر. عالم الأحياء وعالم الفلك وربما العالم النفسي أو عالم الرياضيات، يوصفون بـ "رجل علم": لا أحد يفكر بتطبيق هذا المصطلح على رجل دولة أو شاعر أو صحفي أو حتى فيلسوف. وهؤلاء الذين يخبروننا أن الصغار يجب أن يتثقفوا علمياً، يقصدون، بشكل ثابت، أنهم يجب أن يعلموا أكثر عن النشاط الإشعاعي أو النجوم أو علم وظائف الأعضاء أو أجسادهم بدلاً من أن يجبروا على تعلم التفكير بدقة أكبر.

هذا التشوش في المعنى، الذي هو متعمد جزئياً، فيه خطر عظيم. ضمن المطالبة بتعليم علمي أكثر الزعم أنه لو كان المرء مدرباً علمياً ستكون مقاربته لكل المواضيع ذكية أكثر من المرء الذي لم يتلق هذا التدريب. آراء العالم السياسية كما يفترض، آراؤه حول القضايا الاجتماعية والأخلاق والفلسفة وحتى الفنون، ستكون نافعة أكثر من آراء الرجل العادي ليمان. لكن 'العالم'، كما رأينا للتو، يعني عملياً المختص في واحد من العلوم الدقيقة. يتبع ذلك أن الكيميائي أو الفيزيائي از ساتش، أذكى سياسياً من الشاعر أو المحامي، از ساتش. وفي الواقع، هناك الملايين من الناس يعتقدون بهذا.

لكن هل صحيح حقيقة أن 'العالم'،بالمعنى الضيق، من المحتمل أن يقارب المشاكل غير العلمية بطريقة موضوعية أكثر من الناس الآخرين؟ لنأخذ اختباراً بسيطاً واحداً – القدرة على الصمود بوجه القومية. غالباً ما يقال على نحو غير دقيق إن 'العلم دولي'، لكن عملياً العمال العلميون في كل البلدان يصطفون خلف حكوماتهم مع شكوك أقل من تلك التي يشعر بها الكتاب والفنانون. التجمع العلمي الألماني كله، لم يبد أية مقاومة لهتلر. هتلر ربما دمر آفاق العلم الألماني البعيدة، لكن تظل وفرة من الرجال الموهوبين للقيام بالبحث الضروري على أشياء كهذه مثل النفط التركيبي والطائرات النفاثة والقذائف الصاروخية والقنبلة الذرية. بدونهم آلة الحرب الألمانية لم تكن تبنى أبداً.

من جانب آخر، ماذا حدث للأدب الألماني حين وصل النازيون إلى السلطة؟ أعتقد أنه لم تنشر قوائم كاملة، لكن أتخيل أن عدد العلماء الألمان – بمعزل عن اليهود، الذين نفوا أنفسهم طوعاً أو اضطهدهم نظام الحكم، كان أصغر بكثير من عدد الكتاب والصحفيين. الأكثر نحساً من هذا، أن عدداً من العلماء الألمان قبلوا بلا اعتراض برهابة 'العلم العنصري' يمكنك أن تجد بعض البيانات التي وضعوا فيها أسماءهم في كتاب البروفيسور برادي روح وبنية الفاشية الألمانية. لكن بأشكال مختلفة قليلاً، الصورة نفسها في كل مكان. في إنكلترا نسبة واسعة من علمائنا البارزين قبلوا ببنية المجتمع الرأسمالي، كما نستطيع أن نرى من الحرية النسبية التي أعطوا فيها رتب الفروسية والبارونية والنبالة. منذ تينيسون، ليس هناك كاتب إنكليزي يستحق القراءة – قد يقوم

المرء باستثناء وحيد للسير ماكس بيربوهم - وهب لقباً. وهؤلاء العلماء الإنكليز الذين لم يقبلوا بالوضع القائم شيوعيون في الأغلب، مما يعني أنه كيفما كانت شكوكهم العقلية في سياسة عملهم، فقد كانوا مستعدين ليكونوا ضعيفي التمييز ومضللين حتى في مواضيع محددة. الحقيقة أن مجرد تدريب في علم دقيق واحد أو أكثر حتى لو اتحد مع مواهب رفيعة جداً، ليس ضمانة لموقف إنساني شكاك. فيزيائيو نصف دزينة من الأمم الكبرى الذين يعملون كلهم بشكل محموم وسري في القنبلة الذرية، دليل على هذا.

لكن هل هذا كله يعني أن الجمهور العام يجب ألا يكون مثقفاً علمياً؟ على العكس! كل ما يعنيه أن التعليم العلمي للجماهير سيدر القليل من النفع، وربما الكثير من الضرر بالأدب والتاريخ. تأثيره المحتمل على الكائن البشري العادي سيكون تضييق مدى أفكاره وجعله أكثر من قبل مزدرياً لهكذا معرفة كالتي لا يمتلكها: وردود أفعاله السياسية ربما تكون إلى حد ما أقل ذكاء من ردود أفعال فلاحٍ ريفي أمي، احتفظ بالقليل من الذكريات التاريخية وبإحساس جمالي صحيح بشكل معتدل.

من الواضح أن التعليم العلمي يجب أن يعني زرع عادة العقل المنطقية والشكاكة والتجريبية. ينبغي أن يعني اكتساب منهج - منهج يمكن أن يستخدم على أية مشكلة يقابلها المرء - وليس مجرد تكديس الكثير من الوقائع. صغها بهذه الكلمات وسيوافق المدافع عن التعليم العلمي عادة. اضغطه أكثر، اسأله أن يخصص، وبطريقة ما ثبت أن التعليم العلمي يعني انتباهاً أكثر إلى العلوم، بعبارة أخرى، حقائق أكثر. فكرة أن العلم يعني طريقة في النظر إلى العالم، وليس مجرد كيان من المعرفة، عملياً تلاقي مقاومة قوية. أظن أن الغيرة المهنية الصرفة جزء من سبب هذا. لأن العلم مجرد منهج أو موقف، لذلك أي أحد عملياته الفكرية منطقية بشكل واف، يمكن أن يوصف بالعالم - ماذا عندها سيحدث للهيبة والمكانة الضخمة التي يتمتع بها الكيميائي والفيزيائي..إلخ وزعمه بأنه أعقل من بقيتنا بطريقة ما.

قبل مائة عام وصف تشارلز كينغزلي العلم كـ "إصدار روائح كريهة في مختبر". منذ سنة أو اثنتين أخبرني كيميائي صناعي شاب بلطف أنه 'لا يستطيع أن يرى الفائدة من

الشعر". لذلك يتأرجح البندول إلى الأمام والخلف، لكن لا يبدو لي أن أحد الموقفين أفضل من الآخر. في اللحظة الراهنة يتطور العلم ويتحسن، ولذلك نحن نسمع بشكل صحيح تماماً الطلب من الجماهير أن تُثقف علمياً، لكننا لا نسمع كما ينبغي الطلب المضاد بأن على العلماء أنفسهم أن يستفيدوا بالقليل من التعليم. قبل كتابة هذه المقالة مباشرة، رأيت في مجلة أمريكية خبراً يفيد بأن عدداً من الفيزيائيين البريطانيين والأمريكيين رفضوا من البداية إجراء أبحاث على القنبلة الذرية، لأنهم كانوا يعرفون جيداً الاستخدام الذي ستُصنع من أجله. هنا لدينا مجموعة من الرجال العقلاء في وسط عالم من المجانين. ولعدم نشر أي أسماء سيكون تخميناً آمناً لو قلت إنهم كلهم كانوا أشخاصاً لديهم نوع من خلفية ثقافية عامة وبعض الاطلاع على التاريخ أو الأدب أو الفنون - باختصار أناس لم تكن اهتماماتهم علمية صرفة، بالمعنى الراهن للكلمة.

الروح الرياضية

بعد أن انتهت الزيارة القصيرة لفريق دينامو لكرة القدم؛ بات من الممكن القول علناً ما قاله الكثير من الناس المفكرين سراً قبل أن يصل الدينامو، بأن الرياضة سبب لا يخفق للعداوة، وإن كان لمثل هذه الزيارة أي أثر على الإطلاق على العلاقات الأنغلوسوفيتية، فهو ليس سوى زيادتها سوءاً عما كانت عليه من قبل.

حتى الصحف لم تقدر أن تخفي أن اثنتين من المباريات الأربعة على الأقل، أدتا إلى شعور سيء. قال لي شخص حضر مباراة الأرسنال: تبادل لاعب بريطاني وآخر روسي اللكمات، وأطلقت الحشود صيحات استهجان ضد الحكم. كما أخبرني شخص آخر عن مباراة غلاسكو: كانت فوضى وشغب منذ البداية. ومن ثم كان هناك جدل، نموذجي في عصرنا القومجي، حول تكوين فريق الأرسنال. هل هو حقيقة فريق كل إنكلترا كما ادعى الروس، أم أنه مجرد فريق فئة كما ادعى البريطانيون؟ وهل أنهى الدينامو جولته فجأة كي يتجنب اللعب مع فريق إنكلترا كلها؟ كالعادة أجاب كل شخص على هذه الأسئلة حسب ميوله السياسية. ليس كل واحد تماماً. فقد لاحظت باهتمام، كمثال عن الانفعالات الشريرة التي تثيرها رياضة كرة القدم، أن المراسل الرياضي للنيوزكرونيكلز المعادية للروس أخذ خطاً معادياً للروس، وأصر أن الأرسنال لم يكن فريق إنكلترا كلها. لا شك أن الجدل سيظل يتردد لسنوات في هوامش كتب التاريخ. وفي الوقت الحالي إن النتيجة لجولة الدينامو، إن كانت له أي واحدة، خلق عداوة جديدة في كلا الجانبين.

وكيف لها أن تكون غير ذلك؟ أنا أنذهل دائماً حين أسمع الناس يقولون إن الرياضة تخلق شعوراً ودياً بين الأمم، ولو استطاع عوام الناس في العالم الالتقاء مع بعضهم البعض في كرة القدم أو الكريكت، فلن يكون لديهم أي ميل لمواجهة بعضهم في ميادين القتال. حتى لو لم يعرف المرء من الأمثلة الملموسة (الألعاب الأولمبية عام ١٩٣٦ مثلاً) بأن المنافسات الرياضية العالمية تؤدي إلى عربدة مفرطة من الكره، فإنه يستطيع استنتاجها من المبادئ العامة.

إن كل الرياضات التي تمارس في هذه الأيام تقريباً ألعاب تنافسية. أنت تلعب لتربح، واللعبة لا يكون لها سوى قليل من المعنى، إلا إذا بذلت أقصى جهدك للفوز. إن اللعب من أجل المتعة والتمرين ممكن على عشب القرية، حيث تختار الأطراف دون توريط أي شعور بالوطنية المحلية، لكن بمجرد ظهور مسألة المقام والاعتبار وشعورك أنت ووحدة ما أكبر بأنكم ستصابون بالخزي إن خسرتم، تُثار أقوى الغرائز التنافسية همجية. كل من لعب حتى ولو في مباراة كرة قدم مدرسية يعرف هذا. أما في المستوى العالمي، فالرياضة حرب مقلدة بشكل صريح. لكن الشيء الهام ليس سلوك اللاعبين، وإنما موقف المتفرجين ومن خلف المتفرجين من الأمم الذين يهيجون ويغضبون حول هذه المسابقات السخيفة، ويعتقدون جدياً - لفترات قصيرة على الأقل - أن الجري والوثب وركل الكرة هي اختبارات للفضيلة القومية.

حتى لعبة الكريكت المتروية التي تتطلب رشاقة أكثر من القوة، يمكنها التسبب بالكثير من العداوة، كما رأينا في الجدل حول بودي - لاين بولينغ وحول التكتيك القاسي للفريق الأسترالي الذي زار إنكلترا في عام ١٩٢١ وكذلك كرة القدم، اللعبة التي يتضرر كل واحد منها والتي لكل أمة طريقتها الخاصة في اللعب الجائر بنظر الأجانب، أسوأ بكثير، أما الأسوأ من الكل فهي الملاكمة. فالقتال بين ملاكم أبيض وملاكم ملون أمام جمهور مختلط، واحد من أرهب المناظر في العالم، كما أن جمهور الملاكمة مثير للقرف دائماً، وسلوك النسوة بشكل خاص، لذلك لا يسمح لهن الجيش، كما أعتقد، بحضور مسابقاتها. على أي حال قبل سنتين أو ثلاث، حين أقام الحرس الوطني والقوات النظامية دوري للملاكمة، وُضعت لحراسة باب الصالة مع أوامر تمنع إدخال النساء.

إن الهاجس بالرياضة سيء بما يكفي في إنكلترا، لكن العواطف الأعنف تثار حتى في البلدان الناشئة؛ حيث يعتبر كلٌّ من لعب الألعاب والقومية تطورين حديثين فيها. في بلدان مثل الهند أو بورما، من الضروري في مباريات كرة القدم أن يكون هناك حزام من رجال الأمن لمنع الجماهير من اجتياح أرض الملعب. في بورما رأيت مشجعي أحد الطرفين يخترقون صفوف رجال الأمن ويعيقون حارس مرمى الطرف المعارض في لحظة حرجة. أول مباراة

كرة قدم كبيرة لعبت في إسبانيا منذ حوالي خمس عشرة سنة، أدت إلى شغب تعذر ضبطه. حالما تثار مشاعر التنافس القوية تتلاشى فكرة لعب اللعبة حسب القوانين دائماً. الناس يريدون رؤية طرفاً في القمة والطرف الآخر في حالة خزي، وينسون أن النصر الذي اكتسب بواسطة الغش أو تدخل الجمهور لا معنى له. حتى حين لا يتدخل المتفرجون بدنياً، يحاولون التأثير على اللعبة بتشجيع طرفهم الخاص بهم و"مضايقة" اللاعبين المعارضين بصيحات الاستهجان والإهانات. الرياضة الجدية لا علاقة لها باللعب القانوني والمشروع. إنها مرتبطة بالكره والغيرة والتبجح وبتجاهل كل القوانين وبمتعة سادية في مشاهدة العنف: بعبارة أخرى إنها حرب من دون إطلاق النار.

بدلاً من الهراء عن التنافس الصحي النظيف في ملعب كرة القدم والدور الكبير الذي لعبته الألعاب الأولمبية في جمع الأمم معاً، من الأفيد أن نتساءل كيف ولماذا أثيرت العبادة الحديثة للرياضة. أغلب الألعاب التي نلعبها في الوقت الحالي ذات منشأ قديم جداً، لكن اللعبة الرياضية لم تؤخذ على محمل جدي بين الأزمنة الرومانية والقرن التاسع عشر على ما يبدو. حتى في المدارس الإنكليزية العامة (الحكومية) لم تبدأ عبادة الألعاب حتى الجزء الأخير من القرن. لقد نظر الدكتور أرنولد الذي يعتبر عادة مؤسس المدارس العامة الحديثة، إلى الألعاب على أنها مضيعة للوقت. لقد تحولت الألعاب في إنكلترا والولايات المتحدة بشكل رئيسي إلى نشاط تمويلي كبير، قادر على جذب جماهير واسعة، وإثارة العواطف الهمجية، وانتشرت العدوى من بلاد إلى أخرى. إن أعنف الرياضات التنافسية هي كرة القدم والملاكمة، وهما اللتان انتشرتا بشكل واسع. ليس هناك شك كبير بأن الشيء برمته مرتبط بظهور الشعور القومي – أي مع العادة الحديثة المجنونة في انتساب المرء إلى وحدات سلطة واسعة والتعاطف معها ورؤية كل شيء من منظور المكانة التنافسية. أيضاً ستزدهر الألعاب المنظمة على الأرجح في المجتمعات المدينية حيث يعيش الكائن البشري العادي حياة جلوس أو حياة ضيق، ليس للعمل الإبداعي فرص كثيرة فيها. في المجتمع الريفي يعمل الصبي أو الشاب، ويصرف كمية كبيرة من طاقته الفائضة بالمشي والسباحة والتراشق بالثلج وتسلق الأشجار وامتطاء الخيل وبرياضات متنوعة تشمل الوحشية تجاه الحيوانات مثل صيد السمك وقتال الديكة وصيد

الجرذان. في البلدات الكبيرة يجب على المرء أن ينغمس في مجموعة من النشاطات إن أراد متنفساً لقوته البدنية أو لدوافعه السادية. أخذت الألعاب على محمل الجد في لندن ونيويورك، وأخذت في روما وبيزنطا جدياً: في العصور الوسطى كانت تلعب، وربما لعبت بوحشية بدنية أكبر، لكنها لم تكن مختلطة بالآراء السياسية، ولم تكن سبباً لمجموعة من الضغائن.

إن أردت أن تضيف إلى رصيد العداوة الكبير الموجود في العالم في هذه اللحظة، يمكن فعل ذلك بشكل أفضل بسلسلة من مباريات كرة القدم بين اليهود والعرب، وبين الألمان والتشيك، والهنود والبريطانيين، والروس والبولونيين، والإيطاليين واليوغسلافيين، كل مباراة ستشاهد من قبل جمهور متنوع مؤلف من ١٠٠ ألف متفرج. أنا لا أوحي طبعاً إلى أن الرياضة واحدة من الأسباب الرئيسية للتنافس الدولي؛ الرياضة الشعبية الواسعة بنفسها كما أعتقد مجرد أثر آخر للأسباب التي أوجدت القومية. لكنك تزيد الأمر سوء بإرسال فريق من أحد عشر رجلاً بوصفهم أحد عشر بطلاً قومياً لخوض معركة ضد فريق منافس آخر، وتسمح للشعور من كلا الجانبين بأن الأمة التي ستُهزم سوف "تفقد هيبتها"

كلي أمل ألا نتبع زيارة الدينامو بإرسال فريق بريطاني إلى جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية. إن كان يجب فعل ذلك، فدعونا نرسل فريقاً من الدرجة الثانية، تكون هزيمته مؤكدة ولا يمكن الزعم أنه يمثل بريطانيا ككل. هناك أسباب اضطراب كافية مسبقاً، ولسنا في حاجة إلى زيادتها بتشجيع الشبان على رفس قصبات أرجل بعضهم، وسط صرخات المتفرجين الحانقين.

كأس من الشاي اللذيذ

لو بحثت عن كلمة 'شاي' في أول كتاب عن الطبخ في متناول يدك، ربما لن تجد له ذكراً أو تجد بضعة أسطر من التعليمات الأولية التي لا تعطي حكماً عن أهم النقاط الكثيرة.

هذا غريب، ليس لأن الشاي واحد من الدعامات الرئيسية للحضارة في هذه البلاد وإيرلندا أيضاً وأستراليا ونيوزيلندا، وإنما لأن أفضل طريقة لإعداد الشاي هي موضوع جدل عنيف.

حين أتفحص وصفتي لإعداد فنجان من الشاي المثالي، أجد ما لا يقل عن إحدى عشر نقطة بارزة. واحدة أو اثنتان منها تنال موافقة عامة، لكن أربعاً على الأقل موضع خلاف حاد. هذه هي قواعدي الإحدى عشرة، وأعتبر كل واحدة منها ذهبية:

بادئ ذي بدء يجب على المرء أن يستخدم شاياً هندياً أو سيلانياً. الشاي الصيني له فضائل لا يجب ازدراؤها في هذه الأيام - فهو اقتصادي ويستطيع المرء أن يشربه بدون حليب - لكن ليس فيه تنبيهاً كثيراً. لا يشعر المرء بذكاء وشجاعة وتفاؤلاً أكثر بعد شربه. أي شخص استخدم عبارة "كأس من الشاي اللذيذ" المطمئنة، فإنه يقصد بشكل ثابت الشاي الهندي. ثانياً، يجب أن يحضر الشاي بكميات صغيرة - أي في إبريق شاي، لأن الشاي من وعاء ضخم لا طعم له دائماً، وشاي الجيش المعد في قدر له طعم شحم وماء الكلس. يجب أن يكون إبريق الشاي مصنوعاً في الصين أو من الخزف. أباريق الشاي الفضية أو أواني الشاي البريطانية تنتج شاياً أدنى درجة، والأباريق المصقولة المطلية، هي أسوأ، والغريب جداً أن إبريق الشاي المصنوع من القصدير (النادر في هذه الأيام) ليس سيئاً جداً. ثالثاً، يجب أن يسخن الإبريق مقدماً. وطريقة وضعه على الحاجز الحديدي أفضل من الطريقة المعتادة بشطفه بالماء الساخن. رابعاً، يجب أن يكون الشاي قوياً. بالنسبة إلى إبريق يتسع لربع غالون، إن كنت ستملأه للحافة تقريباً يحتاج إلى ستة ملاعق شاي مترعة. في زمن الحصص الغذائية هذه فكرة لا يمكن تحقيقها في كل يوم من أيام الأسبوع، لكن أنا أؤيد أن فنجاناً واحداً من الشاي القوي، أفضل

من عشرين فنجاناً من الشاي الضعيف. كل عشاق الشاي لا يحبون شايهم قوياً فقط، وإنما يحبونه أن يكون أقوى قليلاً مع كلِ سنة تمر - حقيقة معترف بها في الحصة الغذائية الإضافية التي تعطى للمتقاعدين المسنين.

خامساً، يجب أن يُوضع الشاي في الإبريق مباشرة. بدون مصافٍ أو أكياس قطنية رقيقة أو أي أداة أخرى لحبس الشاي. في بعض البلدان تُزود أباريق الشاي بسلال متدلية صغيرة تحت الصنبور لتمسك بأوراق الشاي الشاردة التي يُعتقد أنها مضرة. في الواقع يستطيع المرء بلع أوراق الشاي بكميات ضخمة من دون أن يكون لذلك نتائج مرضية. وإن لم يكن الشاي طليقاً في الإبريق، فإنه لن ينقع بشكل لائق أبداً. سادساً، يجب على المرء أن يأخذ إبريق الشاي إلى الغلاية وليس العكس. يجب أن يكون الماء يغلي فعلاً في لحظة الاصطدام، ما يعني أنه يجب على المرء أن يبقي الإبريق على اللهب حين يصب الشاي منه. بعض الناس يضيفون أن المرء يجب ألا يستخدم للغلي سوى الماء الذي أحضر حديثاً، لكني لم ألحظ أبداً أن ذلك يشكل فرقاً. سابعاً، بعد صنع الشاي يجب أن يُحرك، أو يُهز الإبريق هزة قوية أفضل، وبعد ذلك يسمح للأوراق أن تستقر. ثامناً، يجب أن يشرب في فنجان جيد من فناجين الفطور - أي، النموذج الأسطواني من الفناجين وليس النموذج المسطح القليل العمق. فنجان الفطور يحتفظ بالحرارة أكثر، أما النوع الآخر يكون الشاي شبه بارد فيه دائماً - قبل أن يباشر المرء في شربه. تاسعاً، يجب صب قشدة الحليب والتخلص منها قبل استخدامها في الشاي. الحليب ذو القشدة الزائدة يُعطي الشاي مذاقاً بائساً غير صحي. عاشراً، يجب وضع الشاي في الفنجان أولاً. هذه النقطة الأكثر إثارة للخلاف والجدل؛ في الحقيقة في كل عائلة في بريطانيا هناك مدرستان من الفكر حول الموضوع. مدرسة الحليب أولاً تستطيع تقديم حجج قوية، لكني أؤيد أن حجتي قاطعة لا تدحض، وهي أننا بوضع الشاي أولاً وتحريكه عند صبه، نستطيع تعديل وتنظيم كمية الحليب، لكن إن فعلنا العكس، نكون عرضة لأن نضع كمية كبيرة جداً من الحليب.

أخيراً يجب أن يُشرب الشاي بدون سكر إن لم يكن المرء يشربه بالطريقة الروسية. أعرف جيداً أنني في أقلية هنا. لكن، كيف يمكنك نعت نفسك كعاشق حقيقي للشاي إن كنت

ستدمر نكهة شايك بوضع السكر فيه؟ وبالتساوي من المعقول أن تضع بعض الفلفل أو الملح فيه. كُتب على الشاي أن يكون مراً، كما كُتب على البيرة أن تكون مرة. إن حليته بالسكر، فأنت لن تتذوق شاياً وإنما تتذوق السكر؛ يمكنك إعداد شراب مشابه بتذويب السكر في ماء ساخن.

سيرد بعض الناس أنهم لا يحبون الشاي بحد ذاته، وأنهم يشربونه فقط ليحصلوا على الدفء والتنبيه، وأنهم يحتاجون إلى السكر ليتخلصوا من طعمه. لهؤلاء الناس المضللين أقول جربوا شرب الشاي بدون سكر لمدة نصف شهر مثلاً، والأرجح أنكم لن تريدوا أن تفسدوا شايكم بتحليته بالسكر مرة أخرى.

هذه ليست النقاط الخلافية الوحيدة ذات الصلة بشرب الشاي فقط، ولكنها كافية لتبين مدى الرهافة والسمو الذي أصبحت عليه العملية برمتها. هناك أيضاً الآداب والتشريفات الاجتماعية الغامضة التي تطوق إبريق الشاي (لماذا يعتبر شرب الشاي من طبق الفنجان شيئاً سوقياً مثلاً؟) ويمكن كتابة الكثير عن الاستخدامات الجانبية لأوراق الشاي كقراءة الطالع والتكهن بوصول الزوار وإطعام الأرانب وعلاج الحروق وتنظيف السجاد. هذه التفاصيل جديرة بالاهتمام مثل تسخين إبريق الشاي، واستخدام الماء الذي يغلي فعلياً لكي نتأكد من انتزاع أكواب الشاي الجيدة القوية العشرين التي ينبغي أن تمثلها حصة المرء من هاتين الأونستين المعالجتين بشكل مناسب.

القمر تحت الماء

ايفننغ ستاندارد، ٩ شباط فبراير ١٩٤٦.

لا تبعد حانتي المفضلة **القمر تحت الماء** سوى دقيقتين عن موقف الحافلة، لكنها في شارع جانبي، لم يجد الأشخاص المشاكسون وحفلات السكر طريقهم إليها أبداً حتى في أمسيات أيام السبوت. يتألف زبائنها رغم ضخامتهم من 'مواظبين' يشغلون نفس المقاعد كل مساء، يذهبون للتحدث وللجعة على السواء. لو سألت لماذا تفضل حانة بعينها، سيبدو من الطبيعي وضع الجعة أولاً، لكن الشيء الذي يجذبني أكثر في **القمر تحت الماء** ما يسميه الناس بـ'الجو'.

بداية، هندستها المعمارية وتجهيزاتها فيكتورية بحتة. ليس فيها طاولات مغطى سطحها العلوي بالزجاج أو بأشكال البؤس الحديثة الأحرى، ومن جانب آخر ليس هناك وجود لعوارض السقف الخشبية المزيفة أو زوايا المواقد المنعزلة، أو الألواح البلاستيكية المتنكرة كالسنديان والمنحوتات الخشبية المحبحبة، والمزايا المزخرفة خلف البار، والمواقد الحديدية الصلبة والسقف المزخرف الملطخ باللون الأصفر الغامق من دخان التبغ، ورأس الثور المتخم فوق رف الموقد - كل شيء يملك قبح المريح والصلب للقرن التاسع عشر.

في الشتاء، هناك نار جيدة تحترق في اثنين من البارات على الأقل، والتصميم الفيكتوري للمكان يعطي المرء وفرة من السعة. هناك بار عام وبار بهو وبار للسيدات وزجاجة وإبريق لهؤلاء الخجلين جداً من شراء بيرة العشاء جهاراً، ودور علوي وغرفة طعام.

تجري الألعاب في البار العام فقط، لهذا يمكنك التنقل في البارات الأخرى باستمرار من دون أن تضطر إلى المراوغة لتحاشي الأسهم الطائرة.

في **القمر تحت الماء** الجو هادئ تماماً من أجل الحديث. الحانة ليس فيها راديو أو بيانو وحتى في مساء عيد الميلاد ومثله من مناسبات الغناء الذي يحدث فيها من النوع المحتشم.

النادلات يعرفن أغلب الزبائن بالاسم، ويهتممن بشكل شخصي بكل واحد منهم. كلهن في وسط أعمارهن - اثنتان منهن صبغتا شعرهما بظلال مدهشة - وتخاطبن كل واحد بـ'عزيزي'، بغض النظر عن عمره أو جنسه. 'عزيزي' وليس 'ساحري': في الحانات التي تخاطبك ساقياته بـ'ساحري' جوها فاسق وغير مقبول دائماً.

خلافاً للحانات، تبيع **القمر تحت الماء** التبغ والسجائر أيضاً، وتبيع كذلك الأسبيرين والطوابع وتسمح لك باستعمال الهاتف.

لا يمكنك الحصول على وجبة عشاء في **القمر تحت الماء**، لكن هناك دائماً طاولة للوجبات الخفيفة، تحصل فيها على شطائر نقانق الكبد وبلح البحر (علامة مميزة للحانة) والجبن والمخلل وبسكويت كبير فيه بذور الكراوي التي لا توجد إلا في الحانات كما يبدو.

في الطابق العلوي ولستة أيام في الأسبوع، يمكنك تناول وجبة غداء جيدة صلبة - مثلاً، قطعة من اللحم ونوعان من الخضار ولفة من المربى المسلوق - مقابل ثلاثة شلنات.

المتعة المميزة لهذه الوجبة، أنك تستطيع شرب جعة قوية معها. أشك إن كانت ١٠ بالمائة من حانات لندن تقدم الجعة القوية الداكنة، لكن **القمر تحت الماء** واحدة منهن. إنها نوع غير مسكر وله قشدة من الجعة القوية، وتكون أحسن في القدور القصديرية.

هم متفردون بأواني الشرب في **القمر تحت الماء**، ولم يخطئوا أبداً ويقدموا باينت من الجعة في قدح بلا قبضة مثلاً. عدا عن الأباريق الزجاجية والقصديرية، لديهم بعض الأباريق السائغة من الخزف الوردي الفراولي التي قلما تراها الآن في لندن. لقد بطلت الأباريق الخزفية منذ ثلاثين سنة تقريباً، لأن أغلب الناس يحبون أن يكون شرابهم شفافاً، لكن برأيي طعم البيرة من إبريق خزفي أفضل.

المفاجأة الكبرى للقمر تحت الماء هي حديقتها. تجتاز ممراً ضيقاً يقودك من البهو، لتجد نفسك في حديقة كبيرة نوعاً ما مع أشجار الدلب، تحتها طاولات خضراء مع مقاعد حديدية حولها. في إحدى أطراف الحديقة هناك مراجيح وأنبوب منحدر للأطفال.

في مساءات الصيف تقام حفلات عائلية، تجلس تحت أشجار الدلب تتناول الجعة أو شراب عصير التفاح على أنغام صيحات مبتهجة لأطفال يهبطون في الأنبوب المائل. عربات الأطفال مع الأطفال الأصغر عمراً يُركنون قرب البوابة.

فضائل **القمر تحت الماء** كثيرة، أعتقد أن حديقتها أفضل ميزاتها، لأنها تسمح لكل العائلات بالذهاب إلى هناك بدلاً من اضطرار الأم إلى البقاء في البيت وتحمل إزعاج الطفل بينما يخرج الأب لوحده.

رغم عدم السماح بتواجد الأطفال إلا في الحديقة فقط، إلا أنهم يحبون التسرب إلى داخل الحانة وإحضار الشراب لوالديهم حتى. أعتقد أن هذا ضد القانون، لكنه قانون جدير بأن يخرق بسبب الهراء المتزمت في إقصاء الأطفال والنساء بدرجة ما من الحانات، وبهذا تُحول هذه الأماكن إلى مجرد دكاكين سكر، بدلاً من أماكن للتجمعات العائلية، وهو ما يجب أن تكون عليه.

القمر تحت الماء، هي الشكل المثالي للحانة بالنسبة إلي - في كافة المقاييس في منطقة لندن. (المواصفات التي يتوقع المرء أن يجدها في حانة ريفية مختلفة قليلاً).

لكن الآن حان الوقت لكشف شيء ربما خمنه القارئ الفطن والمتحرر من الوهم مسبقاً. ليس هناك وجود لمكان مثل **القمر تحت الماء**. هذا يعني ربما هناك حانة بهذا الاسم، لكنني لا أعرفها ولا أعرف حتى أية حانة بتلك التركيبة من الصفات. أعرف حانات فيها الجعة جيدة، لكنك لا تستطيع تناول وجبة طعام فيها، وأخرى يمكنك تناول وجبة طعام، لكنها صاخبة ومكتظة، وغيرها هادئة لكن الجعة فيها مرة. بالنسبة إلى الحدائق بارتجال أتذكر ثلاث حانات فقط في لندن فيها حدائق.

لكن للإنصاف أعرف بضع حانات تصل إلى مستوى **القمر تحت الماء** تقريباً. لقد ذكرت آنفاً عشر صفات للحانة المثالية، وأعرف إحدى الحانات فيها ثمان صفات، لكن لا توجد فيها جعة قوية داكنة أو أباريق خزفية.

وإن كان أي أحد يعرف حانة تقدم الجعة القوية الداكنة وفيها مواقد مفتوحة ووجبات طعام رخيصة وحديقة ونادلات حنونات وبلا راديو، يسرني السماع بها، حتى لو كان اسمها غير شعري مثل **الأسد الأحمر** أو **أسلحة الخطوط الحديدية**.

ذكريات مكتبة

حين عملت في مكتبة للكتب المستعملة - لو لم أعمل في واحدة لتصورتها بهذه السهولة فردوساً يتصفح فيه السادة المحترمون المتقدمون في العمر دائماً أغلفة المخطوطات الجلدية - كان الشيء الذي أدهشني بشكل أساسي ندرة الناس المولعين بشكل حقيقي بالكتب. يوجد في مكتبتنا مخزون ممتع على نحو استثنائي، لكني أشك إن كان عشرة بالمائة من زبائننا يعرفون الكتاب الجيد من الرديء. كان المتكبرون الذين يبحثون عن الطبعة الأولى أكثر شيوعاً من عشاق الأدب، والطلاب الشرقيون الذين يساومون على الكتيبات المدرسية الرخيصة أكثر شيوعاً منهم، لكن النساء ذوات الرغبات المبهمة الباحثات عن هدايا الميلاد لأبناء أخوتهن وأخواتهن كن الأكثر شيوعاً من الجميع.

الكثير من الأشخاص الذين جاؤوا إلينا من النوع الذي يكون إزعاجاً في أي مكان، وفي المكتبة لديهم فرص مميزة. هناك مثلاً السيدة العجوز المحبوبة التي "تريد كتاباً لمعتل (طلب شائع جداً) والسيدة العجوز المحبوبة الأخرى التي قرأت ذلك الكتاب الجميل في ١٨٧٩ وتتساءل إن كانت تستطيع إيجاد نسخة منه، ولسوء الحظ هي لا تتذكر العنوان أو اسم المؤلف أو موضوع الكتاب، لكنها تتذكر جيداً أن غلافه أحمر. لكن بمعزل عن هؤلاء، هناك نموذجان مشهوران من الأشخاص البغيضين الذين يترددون كثيراً إلى كل مكتبات الكتب المستخدمة. النموذج الأول الشخص الفاسد الذي تفوح منه رائحة كسر الخبز القديمة، والذي يأتي كل يوم وعدة مرات في اليوم أحياناً ويحاول أن يبيعك كتباً لا قيمة لها. أما النموذج الآخر، فهو الشخص الذي يطلب كميات كبيرة من الكتب التي ليس لديه أقل نية لدفع ثمنها. في مكتبتنا لا نبيع شيئاً بالدين، لكننا نضع الكتب جانباً أو نطلبها في حالة الضرورة لأشخاص رتبوا ليأخذوها لاحقاً. نصف الأشخاص الذين كانوا يطلبون كتباً منا لم يعودوا أبداً، وكان ذلك يحيرني في البداية. ما الذي يجعلهم يفعلون ذلك؟ كانوا يدخلون ويطلبون كتباً نادرة وثمينة، ويحملوننا على التعهد مراراً أن نحجزها لهم، ومن ثم

يغيبون ولا يرجعون أبداً. لكن كثيراً منهم طبعاً كانوا من المصابين بجنون العظمة بشكل واضح. كانوا يتحدثون عن أنفسهم بطريقة تتكلف العظمة، ويروون أحذق القصص ليعللوا كيف حدث وخرجوا من البيت دون نقود - قصص في حالات كثيرة أنا متأكد أنهم صدقوها. في مدينة مثل لندن، يوجد هناك وفرة من المجانين غير المثبتين تماماً يمشون في الشوارع وينجذبون إلى المكتبات، لأن المكتبة أحد الأمكنة القليلة التي تستطيع أن تتسكع فيها لوقت طويل دون إنفاق أي مال. في النهاية يستطيع المرء معرفة هؤلاء الأشخاص من نظرة واحدة، لأن كل حديثهم الكثير فيه شيء باطل ولا معنى له. في أحوال كثيرة حين كنا نتعامل مع أشخاص مصابين بجنون العظمة، كنا نضع الكتب جانباً التي يطلبونها ثم نعيدها إلى الرفوف في اللحظة التي يرحلون فيها. لا أحد منهم كما لاحظت، حاول أن يأخذ الكتب من دون أن يدفع ثمنها أبداً؛ فقد كان يكتفي بالطلب - وهذا يعطيهم الوهم أنهم كانوا ينفقون نقوداً حقيقية كما أفترض.

مثل أغلب المكتبات التي تبيع الكتب المستعملة، لدينا خطوط إضافية أخرى. كنا نبيع الآلات الكاتبة مثلاً والطوابع أيضاً أقصد الطوابع المستعملة. جامعو الطوابع أشخاص غريبون صامتون من سلالة شبيهة بالسمك ومن كل الأعمار، لكنهم من جنس الذكور فقط؛ النساء على ما يبدو، فشلن برؤية السحر المميز للصق قطع صغيرة من الورق الملون في ألبومات. كنا نبيع أيضاً خرائط نجوم رخيصة لقراءة الطالع، جمعها شخص زعم أنه تنبأ بزلازل اليابان. كانت في مغلفات ملصقة، لم أفتح أي واحد منها بنفسي أبداً، لكن الناس الذين اشتروها كانوا يعودون دائماً تقريباً ويخبروننا كم كانت "صحيحة" خرائطهم. (لا شك أن أية خريطة نجمية لقراءة الطالع تبدو صحيحة إن أخبرتك بأنك جذاب جداً للجنس الآخر وأسوأ نواقصك هو الكرم). لقد ربحنا الكثير من كتب الأطفال بشكل رئيسي "الكتب الراكدة". كتب حديثة للأطفال، أشياء رهيبة تماماً خصوصاً حين تراها بالجملة. شخصياً كنت سأعطي طفلاً نسخة من بيترينيوس الحكم بدلاً من بيتر بان، لكن حتى باري يبدو رجولياً ومفيداً مقارنة مع بعض من مقلديه اللاحقين. في موعد عيد الميلاد نمضي عشرة أيام محمومة نتصارع فيها مع بطاقات عيد الميلاد والتقاويم الممل بيعها، لكنها

رابحة طيلة فترة الموسم. كانت تمتعني رؤية الكلبية الوحشية التي تُستغل فيها العاطفة المسيحية. كان مروجو السلع من شركات بطاقات أعياد الميلاد يأتون بكاتلوجاتهم مبكرين منذ يونيو حزيران، وقد التصقت عبارة من إحدى فواتيرهم في ذاكرتي: دزينتان من يسوع الرضيع مع الأرانب.

لكن الخط الجانبي الرئيسي كان مكتبة الإعارة - مكتبة "بنسان من دون وديعة" وفيها خمسمائة أو ستمائة مجلد كلها من القصص. كم يحب لصوص الكتب تلك المكتبات! إنها الجريمة الأسهل في العالم أن تستعير كتاباً من إحدى المكتبات ببنسين، ثم تزيل عنه اللصاقة وتبيعه في مكتبة أخرى بشلن. مع ذلك يجد بائعو الكتب عموماً أنه من المجزي لهم أن يتحملوا عدداً محدداً من الكتب المسروقة (كنا نفقد دزينة تقريباً كل أسبوع) بدلاً من إرعاب الزبائن بطلب وديعة.

تقع مكتبتنا على الحد الفاصل بين هامبستيد وكامدون تاون بالضبط، ويتردد علينا كل النماذج من البارونات إلى محصلي الحافلات. ربما كان المشتركون في مكتبتنا مقطعاً جيداً مرضياً من جمهور لندن القارئ. لذلك من الجدير بالملاحظة أن من كل المؤلفين في مكتبتنا هل كان من المؤلفين المفضلين بريستلي؟ همنغواي؟ وال بول؟ ودهاوس؟ كلا لقد كانوا ايثل أم ديل أولاً، ثم ورويك ديبينغ ثانياً، وجيفري فارنول ثالثاً. تُقرأ روايات ديل من قبل النساء فقط طبعاً، نساء من كل الأنواع والأعمار وليس كما يتوقع المرء مجرد عوانس كئيبات وزوجات بائعي التبغ البدينات. ليس صحيحا أن الرجال لا يقرأون الروايات، لكنهم يتجنبون فروعاً كاملة من القصص. الكلام عما يمكن تسميته بالرواية المتوسطة العادية والرديئة الجيدة مثل أعمال غلاسورثي، والأعمال الخفيفة التي هي معيار للرواية الإنكليزية - يبدو أنه غير موجود إلا لدى النساء فقط، أما الرجال فيقرأون إما الروايات التي يمكن احترامها أو القصص البوليسية، لكن استهلاكهم للقصص البوليسية هائل ومروع. كل واحد من أربعة مشتركين حسب معرفتي يقرأ أربع أو خمس قصص بوليسية كل أسبوع لأكثر من سنة واحدة، بالإضافة إلى قصص أخرى يحصل عليها من مكتبة أخرى. ما أدهشني بشكل رئيسي أنه لم يقرأ أبداً نفس الكتاب مرتين. من الواضح أن مجمل ذلك

السيل الجارف المخيف من القمامة (الصفحات التي تُقرأ كل سنة تغطي ثلاثة أرباع أكر من الأرض كما حسبتها) كانت تخزن في ذاكرته إلى الأبد. لم يكن يهتم بالعناوين أو أسماء المؤلفين، لكنه يستطيع أن يقول بمجرد النظر إلى كتاب إن كان قد امتلكه مسبقاً. في مكتبة الإعارة ترى أذواق الناس الحقيقة وليس الأذواق الزائفة. والشيء الذي يلفت نظرك كيف خرج الروائيون الإنكليز "الكلاسيكيون" من دائرة التفضيل والاستحسان. من العبث الصريح وضع ديكنز وثاكري وجين أوستن وترولوب..إلخ في قائمة الإعارة العادية؛ فلا أحد يستعير كتبهم. الناس بمجرد النظر إلى رواية من القرن التاسع عشر يقولون "أوه، لكن تلك قديمة!" وينفر بعيداً فوراً. مع ذلك كان سهلاً دائماً بيع أعمال ديكنز كما هو سهل دائماً بيع أعمال شكسبير. ديكنز أحد المؤلفين الذين يعزم الناس على قراءتهم دائماً وهو معروف على نطاق واسع في مجال الكتب المستعملة مثل الكتاب المقدس. الناس يعرفون من السمع من الآخرين أن بيل سايكس كان لصاً، وأن السيد ميكاوبر له رأس أصلع، كما يعرفون من السمع من آخرين أن موسيس وُجد في سلة من البردي ورأى اللورد "الأعضاء الخلفية". الشيء الآخر اللافت جداً تزايد لاشعبية الكتب الأمريكية. وشيء آخر - أن الناشرين كانوا منزعجين من هذا في السنتين أو الثلاث هذه - لاشعبية القصص القصيرة. يقول الشخص الذي يسأل أمين المكتبة ليساعده على اختيار كتاب له دائماً تقريباً "أنا لا أريد قصصا قصيرة" أو "أنا لا أرغب في قصص صغيرة" كما كان يصيغها زبون ألماني. لو سألته لماذا يعلل ذلك أحياناً بالقول إن الاعتياد على طاقم جديد من الشخصيات في كل قصة متعب جداً؛ وأنه يحب أن "يدخل" في رواية لا تتطلب تفكيراً أكثر بعد الفصل الأول. لكنني أعتقد أن اللوم الأكبر هنا يقع على الكتاب أكثر من القراء. إن أغلب القصص القصيرة الإنكليزية والأمريكية الحديثة لا حياة فيها ولا قيمة تماماً بشكل أكثر من أغلب الروايات. إن القصص القصيرة هي قصص لها شعبية كافية، انظر إلى دي اتش لورانس، تجد أن قصصه القصيرة مشهورة ولها شعبية مثل رواياته.

هل أنا راغب بأن أكون بائع كتب كمهنة؟ في المجمل - رغم اللطف الذي يبديه صاحب العمل لي وبعض الأيام السعيدة التي قضيتها في المكتبة - كلا.

بتوفر المكان الجيد والمقدار المناسب من رأس المال، ينبغي على كل شخص متعلم أن يكون قادراً على جني رزق مضمون صغير من مكتبة. إن لم يشتغل الشخص في كتب "نادرة" وهي مهنة تعلمها ليس صعباً وتبدأ بميزة كبيرة جداً، إذا كنت تعرف أي شيء بها في داخل الكتب. (أغلب باعة الكتب لا يفعلون. يمكنك تقييمهم بإلقاء نظرة سريعة على الصحف التجارية التي يعلنون فيها عن حاجاتهم. إذا لم تر إعلاناً لكتاب بوزويل **الانحدار والسقوط**، فكن متأكداً بأنك سترى واحداً لكتاب تي إس ايليوت **المطحنة على الجدول**) كما أنها مهنة إنسانية أيضاً يصعب تحويلها إلى مهنة مبتذلة أكثر من نقطة محددة. اتحادات الشركات لا تستطيع أبداً أن تخرج بائع الكتب المستقل الصغير من الوجود بالقوة كما أُزيح البقال وبائع الحليب. لكن ساعات العمل طويلة جداً – كنت مستخدماً بدوام جزئي، لكن صاحب العمل يعمل سبعين ساعة أسبوعياً عدا عن بعثات دائمة إلى الخارج تمتد لساعات من أجل شراء الكتب – وهي حياة غير صحية. كقاعدة المكتبة باردة بشكل مرعب في الشتاء، لأنك إن دفأتها كثيراً سيغطي الضباب والغشاوة واجهات المكتبة، وبائع الكتب يعيش على الواجهات، والكتب تقذف غباراً أكثر وأخطر من أي صنف آخر من الأشياء التي اخترعت إلى الآن، وقمة الكتاب هي المكان الذي تفضل أي ذبابة زرقاء الموت فيها.

لكن السبب الحقيقي لماذا ألا أحب أن أكون في تجارة الكتب طيلة حياتي، لأنني فقدت حبي للكتب فيها. يجبر بائع الكتب على الكذب حول الكتب وذلك يسبب له نفوراً منها، والأسوأ من ذلك حقيقة أنه دائماً ينفض عنها الغبار وينقلها ذهاباً وإياباً. كان هناك زمن أحببت فيه الكتب حقيقة – أحببت منظر ورائحة وملمس الكتب، أقصد إن كانت قديمة في عمر الخمسين سنة أو أكثر على الأقل. لا شيء يسرني أكثر من تأمين صفقة رابحة في شراء عمل واحد من بين الكثير لقاء شلن في مزاد ريفي. هناك نكهة مميزة حول الكتب البالية غير المتوقعة التي تنتقيها في ذلك النوع من المجموعات: شعراء القرن الثامن عشر الثانويين ومجلات الإعلانات القديمة ومجلدات غريبة لروايات منسية، وأعداد متواصلة من مجلات السيدات في فترة الستينات. للقراءة العرضية – في حمامك مثلاً أو في وقت متأخر من الليل حين تكون متعبا جداً للذهاب إلى السرير أو في ربع الساعة الزائد قبل الغداء –

لاشيء يضاهي عدداً سابقاً من صحيفة الفتيات الخاصة. لكن حين ذهبت للعمل في المكتبة توقفت عن شراء الكتب. حين تراها بالجملة خمسة آلاف أو عشرة في المرة الواحدة، تكون الكتب مملة ومقززة للنفس حتى. في الوقت الحالي أشتري كتاباً بين الفينة والأخرى فقط، إن كان كتاباً أريد أن أقرأه ولا أستطيع استعارته ولا اشتري أبداً الكتب البالية. لم تعد تجذبني رائحة الورق الفاسد، فهي تترافق في ذهني مع الزبائن المصابين بجنون العظمة والذباب الأزرق الميت.

بقع متعة

منذ عدة شهور، قصصت بعض فقرات من مجلة لماعة كتبتها صحفية أنثى، تصف فيها منتجع المتعة في المستقبل. لقد أمضيت بعض الوقت مؤخراً في هونولولو؛ حيث لا تبدو صعوبات الحرب بارزة جداً. لكن "ربان طائرة النقل... أخبرني أنه مع كل القدرة الابتكارية والإبداعية التي تراكمت في هذه الحرب، من المؤسف أن أحداً لم يكتشف كيف يمكن للإنسان المتعطش للحياة دائماً والذي يعاني من الضجر، أن يسترخي ويستريح ويلعب البوكر ويشرب ويعاشر دفعة واحدة وعلى مدار الساعة، ويخرج بشعور جيد ونضر، ويكون جاهزاً للمهمة مرة أخرى". ذكّرها هذا بمقاول قابلته مؤخراً، كان يخطط لـ "بقعة متعة يعتقد أنها ستشتهر وتغدو شعبية غداً، كما فعلت سباقات الكلاب وقاعات الرقص في الأمس". وُصف حلم ذلك المقاول ببعض من التفصيل:

صوّر مخططه فسحة تغطي بضعة أكرات تحت سلسلة من الأسقف المنزلقة، لأن الطقس البريطاني غير جدير بالثقة، وفسحة مركزية امتدت فوقها أرضية رقص ضخمة مصنوعة من البلاستيك الشفاف، يمكن إنارتها من الأسفل. حولها تجمعت فسح وظيفية أخرى في مستويات مختلفة. مشارب ومطاعم، وشرفات تطل على مناظر مرتفعة لأسطح المدينة، ونسخ مطابقة في المستوى الأرضي. صف من حارات لعبة القناني الخشبية. بحيرتان زرقاوان: واحدة تحرك دورياً بالأمواج للسباحين الأقوياء، وأخرى بركة هادئة سلسلة وصيفية لمستحمي التسلية واللهو. مصابيح بضوء الشمس فوق البركتين، تحاكي أوج الصيف في الأيام التي لا تفتح فيها الأسقف، لتكشف عن الشمس الحارة في سماء صاحية. صفوف من الأسرة، يستطيع الناس الذين يلبسون النظارات الشمسية وسراويل السباحة الاستلقاء عليها، والشروع في التعرض للشمس، أو يعمقون اسمراراً موجوداً تحت مصباح أشعة شمسية.

الموسيقى ترشح عبر مئات من المشابك المتصلة بمسرح توزيع مركزي، حيث تعزف فرق رقص أو أوركسترا سيمفونية، أو يمكن التقاط برامج الراديو وتضخيمها وبثها. في الخارج، موقفان للسيارات يتسع كل واحد إلى ١٠٠٠ سيارة، واحد مجاني، والآخر سينما في الهواء

الطلق، يشاهدها الناس وهم في سياراتهم، سيارات تصطف في أرتال لتتحرك عبر أبواب دوارة. والفيلم يعرض على شاشة عملاقة بمواجهة صف السيارات المجتمعة. خدم ذكور بزي رسمي يتفحصون السيارات، ويقدمون مساعدة مجانية وماء، ويبيعون البنزين والزيت. فتيات في سراويل فضفاضة من الساتين الأبيض، يأخذن طلبات المأكولات والمشروبات للمقصف ويحضرنها على أطباق.

كلما سمع المرء بعبارات مثل "بقعة متعة" و"منتجع متعة" و"مدينة متعة"، من الصعب ألا يتذكر الأبيات الافتتاحية لقصيدة كولريدج "قبلة خان".

في زانداو أصدرت قبلة خان مرسوماً ملكياً لقبة متعة: حيث يجري النهر المقدس ألف عبر كهوف لا حد لها بالنسبة إلى الإنسان، وأدنى من أي بحر مظلم. عشرة أميال من الأرض الخصبة تحيط بها أسوار وأبراج من الخارج: وهناك جنان تتألق فيها جداول متموجة وتزهر فيها أشجار كثيرة تحمل عبق البخور، وهناك غابات قديمة كالتلال، تلف بقعاً مشمسة من الخضرة.

لكن يتضح أن كولريدج فهمها بشكل خاطئ تماماً. هو يطلق ملاحظة زائفة بذلك الحديث عن الأنهار "المقدسة" و"الكهوف" التي لا قرار لها. في أيدي المقاول المذكور آنفاً سيكون مشروع قبلة خان شيئاً مختلفاً تماماً. الكهوف الكبيرة المكيفة بالهواء والمضاءة بمهارة، والتي دفن داخلها الصخري الأصلي تحت طبقات من البلاستيك الملون بشكل أنيق، ستتحول إلى سلسلة من كهوف الشاي على النموذج المغربي أو القوقازي أو الهاوايايي. ألف، النهر المقدس سوف يحجز بسد لصنع برك سباحة مدفأة اصطناعياً، بينما ينار البحر المظلم بأضواء كهربائية وردية من الأسفل، وسوف يطوف المرء فوقه في جندولات فينيسية حقيقية كل واحدة منها مزودة بجهاز راديو خاص به. الغابات و"بقع الخضرة" التي أشار إليها كولريدج، سوف تزال لتفسح الطريق لملاعب تنس مغطاة بسقوف زجاجية ومنصة للجوقة الموسيقية وحلبة للتزلج، وربما ملعب للتنس. باختصار، سيكون هناك كل شيء يتمناه الإنسان "المتعطش للحياة".

أنا لا أشك أن التخطيط يجري الآن في كل أرجاء العالم لمئات من منتجعات المتعة، مشابهة لتلك التي وصفت أعلاه، وربما يجري تشييدها حتى. من غير المحتمل أن يُنظر إليها بأنها ستكون أحداثاً عالمية منجزة - لكنها تمثل بأمانة كافية فكرة الرجل العصري عن المتعة. شيء من هذا النوع تم تحقيقه مسبقاً جزئياً في قاعات الرقص الرائعة، وفي قصور السينما والفنادق

والمطاعم وبواخر الترف. في رحلة بحرية أو في لايونز كورنر هاوس، ينال المرء مسبقاً أكثر من لمحة عن هذا الفردوس المستقبلي. تحليله وصفاته الرئيسية المميزة هي التالية:

١ - إن المرء ليس وحيداً أبداً.

٢ - لا يساعد المرء نفسه أبداً.

٣ - لا يرى المرء ضمن مشهد من حياة نباتية برية أو أشياء طبيعية من أي نوع.

٤ - ينظم الضوء والحرارة بشكل اصطناعي دائماً.

٥ - لا يكون المرء خارج صوت الموسيقى أبداً.

الموسيقى، وإن أمكن، يجب أن تكون نفس الموسيقى لكل شخص - المكون الأهم. وظيفتها منع التفكير والمحادثة وطرد الصوت الطبيعي كأغاني الطيور أو صفير الريح مثلاً الذي قد يدخل عنوة. الراديو استخدم عمداً مسبقاً لهذا الغرض، من قبل أناس لا يعدون. في بيوت إنكليزية كثيرة، لا يُطفأ الراديو حرفياً، رغم التلاعب به من حين إلى آخر، ليؤكدوا أن الموسيقى الخفيفة هي الوحيدة التي ترشح منه. أعرف أناساً يتركون الراديو مشتغلاً خلال كل الوجبات، وبنفس الوقت يتحدثون بصوت عالٍ جداً لكي يطغى على الموسيقى. يتم هذا بغرض محدد. الموسيقى تمنع المحادثة من أن تكون جدية أو حتى مترابطة منطقياً، بينما ثرثرة الأصوات تمنع المرء من الاستماع بانتباه إلى الموسيقى، وبهذا تمنع هجوم ذلك الشيء المفزع، التفكير. لأن الموسيقى الخفيفة يجب ألا تزول أبداً./ الموسيقى يجب أن تظل تعزف دائماً،/ كي لا نرى أين نحن،/ تائهون في غابة مسحورة،/ الأطفال يخافون الظلام / الذين لم يكونوا أبداً سعداء أو سليمين.

من الصعب ألا تشعر بأن الهدف غير المقصود في أغلب منتجعات المتعة الحديثة، هو عودة إلى الرحم. فهناك أيضاً لم يكن المرء وحيداً أبداً، ولم ير ضوء النهار ودرجة الحرارة المنظمة، والمرء غير مجبر على القلق حول العمل أو الغذاء، وأفكار المرء إن كانت هناك، تُغرق بخفقان متواتر مستمر.

حين ينظر المرء إلى تصور كولريدج المختلف لـ"قبة المتعة"، يرى أنها تدور جزئياً حول البساتين، وجزئياً حول الكهوف والأنهار والغابات والجبال مع "صدوع رومانتيكية عميقة"؛ باختصار حول ما يسمى بالطبيعة. لكن فكرة الإعجاب بالطبيعة في مجملها والشعور بنوع من

الرهبة الدينية في حضرة الأنهار الجليدية والصحاري والشلالات، مرتبط بالإحساس بضآلة الإنسان وضعفه ضد قدرة الكون. القمر جميل جزئياً، لأننا لا نستطيع الوصول إليه (بحر كاذب مثير للإعجاب)، لأن المرء لا يستطيع أن يطمئن أبداً من عبوره بأمان. حتى المتعة التي يأخذها المرء في زهرة - وهذا صحيح حتى لعالم النبات الذي يعرف كل ما يجب معرفته هناك عن الزهرة - يعتمد على الإحساس بالغموض جزئياً. لكن في الوقت الحالي، تزداد سلطة الإنسان على الطبيعة بشكل مضطرد. بمساعدة القنبلة الذرية، يمكننا تحريك الجبال حرفياً: نستطيع حتى، كما قيل، أن نغير مناخ الأرض بإذابة جليد القبتين القطبيتين وريّ الصحارى. لذلك أليس هناك شيء وجداني وغامض في تفضيل شدو الطيور على موسيقى التأرجح، وفي الرغبة بترك بقع قليلة من الأرض البور هنا وهناك، بدلاً من تغطية كل سطح الأرض بشبكة من الطرق السريعة (أوتوبان) التي يغمرها ضوء شمس اصطناعي؟

السؤال يطرح فقط لأن الإنسان لم يبذل أية محاولة لاستكشاف نفسه في استكشافه للكون المادي. إن الكثير مما يندرج ضمن إطار ما يعرف باسم المتعة، هو مجرد محاولة لتدمير الوعي. لو بدأ المرء في السؤال ما هو الإنسان؟ ما هي احتياجاته؟ كيف يستطيع التعبير عن نفسه بأفضل شكل؟ لاكتشف المرء أنه مجرد تملك القدرة على تجنب العمل والعيش من المولد حتى الممات على ضوء كهربائي وأنغام الموسيقى المعلبة، ليس مبرراً لفعل هذا. يحتاج المرء إلى الدفء والمجتمع ووقت الفراغ والراحة والأمان: ويحتاج أيضاً إلى العزلة والعمل الإبداعي والإحساس بالتعجب والدهشة. لو أدرك هذا، لاستطاع استخدام منتجات العلم والصناعة بشكل انتقائي مطبقاً نفس الاختبار دائماً: هل هذا يزيد من آدميتي أم يقللها؟ ولتعلم أن السعادة الأسمى لا تكمن في الاسترخاء والراحة ولعب البوكر وشرب الخمور وممارسة الجنس في وقت واحد. والرعب الغريزي الذي يحسه كل الأشخاص الحساسين نحو المكننة المتقدمة للحياة، لن يرى مجرد لفظة عاطفية مهجورة، وإنما كشيء مبرر تماماً. لن يبقى الكائن البشري إنساناً إلا بالحفاظ على بقع واسعة من البساطة في الحياة، أما الميل والنزوع إلى الكثير من الاختراعات الحديثة وخصوصاً الفيلم والراديو والطائرة - هي لإضعاف وعيه وتبليد فضوله، وبشكل عام لدفعه بشكل أقرب إلى الحيوانات.

كتب مقابل السجائر

قبل سنتين كان لي صديق، محرر صحيفة، كان يراقب الحرائق مع بعض من عمال المصنع الذين بدأوا بالحديث عن صحيفته التي يقرأها أغلبهم ويستحسنوها. وحين سألهم عن رأيهم بالقسم الأدبي، كان الجواب الذي حصل عليه: أنت لا تتخيل أننا نقرأ هذا الهراء، أليس كذلك؟ لماذا تتحدثون نصف الوقت عن كتب كلفتها اثنا عشر شلناً ونصف! فتيان مثلنا لا يمكنهم صرف اثني عشر شلناً ونصف على كتاب. وقال: "هؤلاء رجال لا يفكرون في صرف جنيهات كثيرة من أجل نزهة يوم إلى بلاكبول".

الفكرة بأن شراء الكتب أو حتى قراءتها، هواية مكلفة وأبعد من منال الشخص العادي واسعة الانتشار لدرجة تحتاج إلى بعض الفحص المفصل. ماذا تكلف القراءة بالضبط بحساب بنس في الساعة، صعب تقديره، لكني بدأت بقائمة جرد لكتبي، وأضفت إليها السعر الإجمالي. بعد الإقرار بنفقات أخرى منوعة، يمكنني أن أقدم تخميناً جيداً لإنفاقي خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة.

الكتب التي أحصيتها وقدرت ثمنها، هي الكتب التي أملكها هنا في شقتي. لدي عدد مماثل تقريباً مخزن في مكان آخر، لذلك سأضاعف الرقم النهائي، لكي أصل إلى المقدار الكامل. لم أحسب الزوائد كالنسخ التجريبية والمجلدات المشوهة والطبعات الرخيصة ذات الأغلفة الورقية والكراريس أو المجلات، إلا إن كانت مجمعة على شكل كتاب. لم أحص أبداً أنواع الكتب المستعملة المدرسية القديمة وهلم جرا - التي تكدست في قاع الخزانة. لقد أحصيت تلك الكتب التي اقتنيتها طوعاً، والتي أنوي الاحتفاظ بها. في هذا الصنف، وجدت بأنه لدي ٤٤٢ كتاباً، حصلت عليها بالطرق التالية:

اشتريت ٢٥١ كتاباً (أغلبها مستخدمة) - أُعطيت لي أو اشتريتها ببطاقات شراء كتب ٣٣. نسخ مراجعات ونسخ مجانية ١٤٣ .استعارة مؤقتة ٥. - المجموع العام ٤٤٢.

أما بالنسبة إلى طريقة التسعير. تلك الكتب التي أدرجتها كانت بسعرها الكامل بأدق صورة استطعت تحديدها. أدرجت أيضاً الكتب التي أعطيت لي بسعرها الكامل، وتلك التي

استعرتها مؤقتاً أو استعرتها واحتفظت بها. هذا لأن إعطاء الكتب واستعارة الكتب وسرقة الكتب سويت أيضاً. أملك كتباً لا تخصني بشكل صريح وصارم، لكن الكثير من الناس الآخرين لديهم كتب لي: لهذا، فالكتب التي لم أدفع ثمنها، يمكن اعتبارها موازنة للأخرى التي دفعت ثمنها، لكنها لم تعد في حوزتي. من جانب آخر، أدرجت نسخ مراجعات ونسخاً مجانية بنصف الثمن. ذلك ما كنت سأدفعه تقريباً ثمناً لها كنسخ مستعملة، وهي في الغالب الكتب التي كنت سأشتريها نسخاً مستعملة لو حدث ذلك. بالنسبة إلى الأسعار التي وضعتها، اعتمدت أحياناً على الحدس، لكن أرقامي ليست بعيدة. كانت الكلفات على الشكل التالي:

(شراء:٣٦ جنيهاً و٩ شلنات؛ هدايا ١٠جنيهات و١٠ شلنات، نسخ مراجعات إلخ ٢٥ جنياً و١٢ شلناً؛ مستعارة لم ترجع ٤ جنيهات و١٧ شلناً؛ استعارة مؤقتة ٣ جنيهات و١٠ شلنات؛ رفوف ٢ جنيه؛ المجموع الإجمالي ٨٢ جنيهاً و١٨ شلناً).

بإضافة كميات الكتب الأخرى التي أملكها في مكان آخر، يبدو أنني أمتلك ٩٠٠ كتاب تقريباً بكلفة تقريبية تقدر بـ ١٥٦ جنيهاً. هذا ما كدسته في خمسة عشر عاماً - فعلياً أكثر بما أن بعض من هذه الكتب يعود تاريخها إلى طفولتي: لكن لنقل خمسة عشر عاماً. هذا يعني ١١ جنيهاً في السنة، لكن هناك نفقات أخرى يجب إضافتها لكي أقدر نفقات قراءتي الكاملة. أكبرها سيكون للصحف والدوريات، وأعتقد أن ٨ جنيهات في السنة رقم معقول. ثمانية جنيهات في السنة تغطي صحيفتين يوميتين وصحيفة مسائية وصحيفتين من صحف الأحد ومراجعة أسبوعية أو مجلتين شهريتين. هذا يرفع الرقم إلى ١٩ جنيهاً، لكن للوصول إلى الرقم الإجمالي الكلي، يجب على المرء أن يخمن. من الواضح أن المرء ينفق المال على كتب من دون أن يحوز على شيء يتباهى به لقاءها. هناك اشتراكات المكتبات، وهناك أيضاً الكتب من طبعات بنغوان الرخيصة وغيرها التي يشتريها المرء ثم يضيعها أو يرميها. لكن على أساس أرقامي يبدو أن ٦ جنيهات تكون كافية لنفقات من هذا النوع. لهذا، فإن نفقات القراءة الإجمالية في الخمس عشرة سنة الماضية، وصلت إلى حدود ٢٥ جنيهاً تقريباً في السنة الواحدة.

إن مبلغ خمسة وعشرين جنيهاً سنوياً يبدو كبيراً إلى أن تقيسه مع أنواع أخرى من النفقات. إنه يعني تسعة شلنات و٩ بنسات في الأسبوع تقريباً. المساوي لـ ٨٣ سيجارة (بليارز): حتى

قبل الحرب كان يمكن شراء ٢٠٠ سيجارة بأقل من ذلك المبلغ. بالأسعار الحالية، أنا أنفق على التبغ أكثر مما أنفقه على الكتب بكثير. أنا أدخن ست أونسات من التبغ أسبوعياً بنصف كراون للأونسة أي ٤٢ جنيهاً في السنة. حتى قبل الحرب، حين كان نفس التبغ يكلف ٨ بنسات للأونسة، كنت أنفق أكثر من عشرة جنيهات عليه في السنة: وإذا أضفت عليه بمعدل باينت واحد من البيرة يومياً بقيمة نصف شلن، تكلفني هاتان المادتان ما يقارب ٢٠ جنيهاً في السنة. هذا ليس فوق المعدل الوطني بكثير. في عام ١٩٣٨ أنفق الفرد من سكان هذه البلاد ١٠ جنيهات على الكحول والتبغ سنوياً: لكن ٢٠ بالمائة منهم يحسمون لأنهم من الأطفال دون الخامسة عشرة و٤٠ بالمائة من النساء، لهذا فإن المدخن وشارب الكحول المتوسط ينفق أكثر من عشرة جنيهات بكثير. في عام ١٩٤٤ كان الإنفاق السنوي للفرد الواحد على هاتين المادتين لا يقل عن ٢٣ جنيهاً. نترك النساء والأطفال كما فعلنا آنفاً، ويصبح ما ينفقه الفرد ٤٠ جنيهاً. بمعدل أربعين جنيهاً في السنة يمكن شراء علبة سجائر ودباينز يومياً ونصف باينت من المشروب المعتدل ستة مرات في الأسبوع - حصة ليست كبيرة. طبعاً، الآن تضخمت الأسعار كلها بما فيها أسعار الكتب: لكن يظهر أن كلفة القراءة حتى لو اشتريت الكتب بدلاً من استعارتها، واشتريت عدداً معتدلاً من الدوريات، فلن يصل ذلك إلى أكثر من الكلفة الموحدة للدخان والشراب.

من الصعب تأسيس وتوطيد أية علاقة بين أسعار الكتب والقيمة التي ينالها المرء منها. الكتب تشمل الروايات والشعر والكتب المدرسية والمراجع والبحوث الاجتماعية والكثير غيرها، ولا يتطابق الطول والسعر مع بعضهما، خصوصاً إن كان المرء معتاداً على شراء الكتب المستعملة. يمكنك إنفاق عشرة شلنات على قصيدة من ٥٠٠ بيت، ويمكن إنفاق نصف شلن على معجم ترجع إليه في أوقات عرضية لمدة عشرين سنة. هناك كتب يقرأها المرء مرة تلو أخرى، كتب تصبح جزءاً من أثاث المرء الذهني، وتبدل موقفه من الحياة برمتها، كتب يغرق المرء فيها دون أن يكمل قراءتها أبداً، كتب يقرأها المرء في جلسة واحدة وينساها بعد أسبوع: والتكلفة بمقياس النقود، قد تكون نفسها في كل الحالات. لكن إذا نظر المرء إلى القراءة على أنها مجرد هواية مثل الذهاب إلى السينما، عندئذ يمكنه أن يجري تقديراً متفاوتاً لما تكلفه. إن لم تقرأ سوى الروايات "الخفيفة" واشتريت كل كتاب قرأته، ستنفق حصة قدرها ثمانية شلنات

كثمن لكتاب واحد وأربع ساعات من الوقت في قراءته - شلنان للساعة. هذا ما يعادل تقريباً كلفة الجلوس في واحد من المقاعد الأغلى في السينما. إذا ركزت على كتب أكثر جدية، واشتريت كل ما تقرأ، تكون نفقاتك نفسها تقريباً. ستكلف الكتب أكثر، لكن قراءتها تحتاج إلى وقت أطول. في كلتا الحالتين تظل تمتلك الكتب بعد أن تقرأها، وتظل قابلة للبيع بثلث سعر شرائها. لو اشتريت كتباً مستعملة فقط، تكون نفقات قراءتك أقل بكثير طبعاً: ربما نصف شلن في الساعة يكون تقديراً عادلاً. ومن جانب آخر، إن لم تشتر الكتب وإنما استعرتها فقط من مكتبة إعارة، ستكلفك القراءة نصف بنس في الساعة: إن استعرتها من مكتبة عامة، لا تكلفك أي شيء تقريباً.

لقد قلت ما يكفي بأن القراءة واحدة من أرخص الهوايات: بعد الاستماع إلى المذياع ربما هي الأرخص. في الوقت الحالي، ما هو المبلغ السنوي الذي يصرفه الشعب البريطاني على الكتب؟ لا أستطيع كشف أي رقم، لكنها موجودة من دون شك. لكني أعرف أنه قبل الحرب، كانت هذه البلاد تطبع سنوياً حوالي ١٥ ألف كتاب، ويشمل الطبعات المعادة والكتب المدرسية. لو بيع من كل كتاب ١٠ آلاف نسخة مع إهمال الكتب المدرسية، يكون هذا تقديراً عالياً - الشخص المتوسط سيشتري بشكل مباشر أو غير مباشر ثلاثة كتب فقط في السنة. تبلغ كلفة الكتب الثلاث جنيهاً واحدا أو حتى أقل من ذلك.

هذه الأرقام تخمينية، ويهمني كما ينبغي لو أن أحداً صححها لي. لكن إن كان تخميني قريباً من الصحيح، فلن يكون تدويناً مشرفاً لبلاد تبلغ نسبة المتعلمين فيها ١٠٠ بالمائة تقريباً، والإنسان العادي فيها ينفق على السجائر أكثر مما يصرف الفلاح الهندي على كل معيشته. إن ظل استهلاكنا للكتب متدنياً كما هو عليه، دعونا نعترف على الأقل أن القراءة هواية أقل إثارة من الذهاب إلى المقهى أو السينما أو الحانة، وليس لأن الكتب المشتراة والمعارة على السواء غالية ومكلفة جداً.

كلمة طيبة
بحق راعي أبرشية براي

منذ بضع سنوات أخذني صديق إلى كنيسة بيركشاير الصغيرة، التي كان راعي أبرشية براي الشهير يشغل المنصب فيها. (في الحقيقة هي تبعد بضعة أميال عن براي، لكن ربما كانت مهنة القس ومهنة راعي الأبرشية التابعة للكنيسة واحدة). في فناء الكنيسة انتصبت شجرة طقوس رائعة (فصيلة من الصنوبريات) التي زرعها راعي أبرشية براي نفسه، ولا أحد سواه حسب ما جاء في ملاحظة مكتوبة عند جذعها، وهذا لفت انتباهي آنذاك كشيء غريب أن يترك رجل مثله مثل ذلك الأثر الطيب خلفه.

لا يمكن وصف راعي أبرشية براي كشخصية باهرة، رغم أنه مجهز جيداً ليكون كاتباً بارزاً في صحيفة التايمز. ومع ذلك، وبعد مرور هذا الوقت، كل ما بقي منه أغنية هزلية وشجرة جميلة رأتها عيون الأجيال واحداً بعد الآخر. وبالتأكيد رجحت وعوضت عن الآثار السيئة التي نتجت عن خيانته السياسية لوطنه.

إن ثيباو آخر ملك لبورما، أبعد ما يكون عن وصفه بالرجل الطيب، فقد كان سكيراً ولديه خمسمائة زوجة - يبدو أنه احتفظ بهن للعرض أساساً، وحين وصل إلى العرش، كان عمله الأول قطع رؤوس سبعين أو ثمانين من أخوته، لكنه قدم للذرية صفقة جيدة بزرع شوارع ماندالي القذرة بأشجار التمر الهندي التي كانت تلقي ظلاً مبهجاً، إلى أن حرقتها القنابل اليابانية الحارقة عام ١٩٤٢.

يبدو أن الشاعر جيمس شيرلي عمم بتصرف كبير حين قال "إن الأعمال المشروعة والصحيحة فقط التي تصدر رائحة حلوة وتزهر في ترابها" أحياناً تصبح الأفعال الجائرة عملاً جيداً ومتقناً بعد مرور فترة من الوقت. حين رأيت شجرة راعي أبرشية براي، ذكرتني بشيء ما. وبعد ذلك حصلت على كتاب فيه مختارات شعرية لجون أوبري، فأعدت قراءة قصيدة رعوية يفترض أنها كُتبت في وقت ما في القرن السابع عشر، بقلم امرأة تدعى السيدة أوفراول.

كانت السيدة أوفراول زوجة كاهن كبير عميد، وكانت تخونه بشكل واسع، وعلى ذمة أوبري هي "لم تستطع أن ترفض أي واحد إلا نادراً" وكان لها "أجمل عينين عُرفتا، لكنها فاسقة رائعة". القصيدة بعنوان ("الراعي العاشق") عن شخص يدعى السير جون سيلبي، وتبدأ كالتالي:

على الأرض يستلقي الراعي العاشق
رزيناً جداً ومحتشماً
تواقاً لمومسته ثانية
مع رأسه على رابية استند
وذراعاه متوضعتان على خصره
وكل ذلك بسبب خسارته
هاي نوني نوني، نو
حلوة كانت ولطيفة
كالحب الذي قيد العاشق إلى الأبد
لن ينعم رجل أبداً
بمثل هذا الحب اللذيذ مرة أخرى.
أطلق ألف امرأة في صف
أنا أحرم أن أي عرض
يكون مثلها أبداً
هاي نوني نوني نو.

وتتابع القصيدة عبر ستة أبيات أخرى، وتأخذ اللازمة هاي نوني نوني نو معنى فاحشاً بجلاء، لكنها تنتهي بستانزا (مقطع شعري) رائعة:

لكل من وطىء السهل مرة
مهما حدث لها من مصائب

لا تلوموا الراعي العاشق

لماذا؟ لأنها كانت عدوة نفسها

وأعطت نفسها للهلاك

لكونها صريحة جداً في

هاي نوني نوني نو

لم تكن السيدة أوفراول شخصية أنموذجية أكثر من راعي أبرشية براي، لكنها كانت جذابة أكثر. في النهاية كل ما بقي منها قصيدة لاتزال تعطي المتعة لكثير من الناس، رغم أنها لسبب ما لم تدخل في المقتطفات الأدبية المختارة. العذاب الذي سببته والتعاسة والعبث في حياتها الخاصة الذي يفترض أن ينتهي، تحول إلى نوع من أريج باقٍ مثل رائحة نبتة التبغ في مساء صيفي.

لكن لنعد إلى الأشجار. إن غرس شجرة، خصوصاً واحدة من الأشجار المعمرة القاسية، هبة تستطيع أن تقدمها لذرية بدون تكلفة وعناء تقريباً. وإذا تجذرت الشجرة، فسوف تعمر أكثر بكثير من الأثر المنظور لأي من الأعمال الأخرى سواء كانت خيرة أم شريرة. قبل سنة أو اثنتين من الآن، كتبت بضع فقرات في التريبيون عن بعض من الزهور المتعرشة الرخيصة بنصف شلن من وولويرث، كنت زرعتها قبل الحرب، وجلب لي هذا رسالة ناقمة من قارئ قال إن الزهور برجوازية، لكنني أعتقد أن نصف شلني قد صرف بطريقة أفضل من أن يذهب على السكائر، أو حتى على واحدة من كراريس البحث الفابية الرائعة.

مؤخراً أمضيت يوماً في كوخ كنت أعيش فيه، ولاحظت بدهشة وسرور - لأكون دقيقاً شعرت بأنني قمت بعمل جيد بشكل لاشعوري - تقدم الأشياء التي زرعتها قبل عشر سنوات تقريباً، وأظن أن تسجيل تكلفة بعضها جدير بالتدوين، لأبين فقط ماذا تستطيع فعله بشلنات قليلة إن استثمرتها في شيء ينمو.

أولاً، كانت هناك الوردتان المتعرشتان من وولويرث وثلاثة من زهور النرجس بسعر نصف شلن للواحدة. ثم تلت ذلك شجرتان من الزهور كانتا قسماً من مجموعة في حديقة دار حضانة. تألفت المجموعة من ستة من أشجار الفاكهة، وثلاث شجيرات من الزهور،

وشجيرتان من عنب الثعلب، وكلها بعشرة شلنات. ماتت واحدة من أشجار الفاكهة وواحدة من شجيرات الزهور، لكن البقية أزهرت كلها. العدد الإجمالي خمس أشجار فاكهة وسبع زهور واثنان عنب الثعلب، كلها باثني عشر شلناً ونصف. هذه النبتات لا تتطلب عملاً كثيراً، ولم أصرف شيئاً عليها فوق المبلغ الأصلي. لم تتلق أي سماد، ماعدا ما كنت أجمعه بسطل أحياناً حين يقف أحد خيول المزرعة خارج البوابة.

في تسع سنوات يفترض بشجيرات الورد السبعة أن تعطي ما يزيد عن مائة أو مائة وخمسين شهراً من الإزهار. أشجار الفاكهة التي كانت مجرد شجيرات صغيرة حين غرستها، نمت بسرعة وبشكل جيد جداً. الأسبوع الماضي كانت شجرة خوخ كتلة من البراعم، وبدت شجرة التفاح واعدة وتنمو بشكل رائع. إن شجرة تفاح كوكس أورانج بيبين التي اعتبرت الضعيفة في العائلة أصلاً والتي لم تكن مشمولة في صفقة الجملة لو كانت نبتة جيدة، نمت وأصبحت شجرة قوية وعليها الكثير من أغصان الفاكهة. أصر على القول إن زرع شجرة كوكس عملاً خيرياً لأن هذه الأشجار لا تثمر بسرعة، ولم أتوقع لها أن تدوم طويلاً هناك. لم أحصل على تفاحة واحدة منها، لكن يبدو أن أحداً آخر سينال تفاحاً كثيراً منها. من ثمارهم ستعرفونهم، وشجرة أورانج كوكس بيبين معروفة بفاكهتها الجيدة. أنا لم أغرسها بقصد مدرك لفعل شيء جيد لأحد ما، ولكني رأيت أن صفقة الجملة رخيصة، وثبت الأشياء في داخل الأرض بدون الكثير من الإعداد.

الشيء الذي أندم عليه وسأحاول علاجه يوماً ما، هو أنني لم أغرس شجرة جوز واحدة في حياتي. لا أحد يغرسها اليوم – حين ترى شجرة جوز فهي شجرة قديمة بشكل دائم تقريباً. إن زرعت شجرة جوز، فأنت تزرعها لأحفادك، ومن يهتم بأحفاده البتة؟ وكذلك لا أحد يزرع السفرجل أو التوت أو شجرة الورد. لكن هذه أشجار حدائق لا تتوقع أن تغرسها، إلا إذا كنت تملك رقعة من الأرض لك ملكك. من جانب آخر في أية قطعة ضخمة من الأرض البور يصدف أن تكون ماشياً عبرها، يمكنك أن تعمل شيئاً لعلاج المذبحة المرعبة للأشجار وخصوصاً أشجار السنديان والبلوط والدردار والمران التي حدثت خلال سني الحرب.

يمكن لشجرة التفاح أن تعيش مائة عام تقريباً، لذلك شجرة كوكس التي غرستها في عام ١٩٣٦ ربما تظل تحمل ثماراً حتى القرن الواحد والعشرين، وشجرة سنديان أو المران قد تعيش لمئات السنين وتكون متعة لآلاف أو عشرات آلاف الأشخاص قبل أن تتحول إلى حطب أخيراً. أنا لا أقول إن المرء يستطيع التحرر من كل التزاماته تجاه المجتمع بواسطة خطة لإعادة التشجير الشخصي، لكن يمكن ألا تكون فكرة رديئة لو أنك كلما ارتكبت عملاً عدائياً للمجتمع، سجلت ملاحظة في مفكرتك، وفي الموسم الملائم زرعت جوزة بلوط في الأرض.

وحتى لو وصلت إلى سن الرشد في واحد وعشرين منها، فستكون قد فعلت الكثير من الضرر في حياتك كلها، ومع ذلك يمكنك أن تموت كمحسن شعبي مثل راعي أبرشية براي بعد كل شيء.

ساعتهم الأجمل والأصفى،
بقلم ونستون اس تشرشل

يصعب على رجل الدولة الذي لايزال له مستقبل سياسي، الكشف عن كل ما يعرفه: وفي مهنة يكون فيها طفلاً رضيعاً في الخمسين من عمره ومتوسط العمر في الخامسة والسبعين، من الطبيعي أن أي شخص لم يلحق به العار فعلياً أن يشعر أنه لازال لديه مستقبل. كتاب مثل مذكرات كيانو سيانو مثلاً، لم يكن ينشر لو أن مؤلفه بقي في وضع جيد. لكن من المناسب لونستون تشرشل أن يقول إن الذكريات السياسية التي ينشرها من حين إلى آخر، كانت فوق المعدل بكثير دائماً في صراحتها ونوعيتها الأدبية. تشرشل من بين أشياء أخرى، صحفي ولديه إحساس حقيقي بالأدب إن لم يكن مميزاً جداً، ولديه أيضاً عقل قلق باحث ومتسائل يهتم بالوقائع الملموسة وفي تحليل الدوافع التي تشمل دافعه الخاصة به أحياناً. على العموم كتابات تشرشل هي كتابات لكائن بشري عادي أكثر منها لشخصية عامة. يحتوي كتابه الحالي طبعاً على مقاطع لها مظهر الفرار من خطاب انتخابي، ولكنه يظهر أيضاً رغبة طوعية كبيرة للاعتراف بالأخطاء.

هذا المجلد، الثاني في السلسلة، يغطي الفترة بين بداية الهجوم الألماني على فرنسا ونهاية عام ١٩٤٠ . لذلك أحداثه الرئيسية، انهيار فرنسا والهجمات الجوية على بريطانيا، وازدياد تورط الولايات المتحدة في الحرب، وتسارع حرب الغواصات، وبداية الصراع الطويل في شمال أفريقيا.

الكتاب موثق بشكل مكثف وكبير، مع مقتطفات من خطابات أو رسائل في كل خطوة. وعلى الرغم من هذا، فإنه يؤدي إلى قدر كبير من التكرار، لكنه يُمكّن من المقارنة بين ما قيل في ذلك الوقت وما حدث فعلياً. كما يعترف هو بنفسه، قلل تشرشل من قيمة نتيجة التغييرات الأخيرة وأثرها في تكنيك الحرب، لكنه تفاعل بسرعة حين اندلعت العاصفة في عام ١٩٤٠ تمثل إنجازه الكبير بأنه أدرك في ذاك الوقت أن فرنسا ستُهزم وأن بريطانيا لن تُهزم، رغم كل

المظاهر، وهذا الحكم الأخير لم يكن مبيناً على مجرد النزعة القتالية، وإنما على تفحص عاقل للوضع. كانت الطريقة الوحيدة التي تمكن ألمانيا من الفوز بالحرب بسرعة، هي إلحاق الهزيمة بالجزر البريطانية. ولكي يدحروا الجزر البريطانية، يجب أن يصلوا إليها، مما يعني السيطرة على القنال والتحكم بها. لذلك رفض تشرشل بشكل ثابت الرمي بكل القوى الجوية البريطانية في معركة فرنسا. كان قراراً مؤلماً ومزعجاً، وسبب الكثير من المرارة في ذاك الوقت، وربما أضعف موقع رينود ضد الانهزاميين في الحكومة الفرنسية، لكنه كان قراراً صحيحاً من الناحية الاستراتيجية. حُفظت الأسراب الخمسة والعشرون التي لا يمكن الاستغناء عنها في بريطانيا وهُزم الغزو المهدد. قبل انتهاء السنة، تراجع الخطر الذي يهدد بشكل كاف نقل المدافع والدبابات والرجال من بريطانيا إلى الجبهة المصرية، لكن ظل بمقدور الألمان هزيمة بريطانيا بالغواصات أو بالقصف كما تخيلوا، لكن ذلك يستغرق سنيناً كثيرة. وفي غضون ذلك كان مؤكداً أن الحرب ستمتد وتنتشر.

عرف تشرشل طبعاً أن الولايات المتحدة ستدخل الحرب عاجلاً أو آجلاً، لم يتوقع، لكنه في هذه المرحلة كما يبدو أن يصل جيش أمريكي مؤلف من ملايين الرجال إلى أوروبا أخيراً. لقد تنبأ حتى في عام ١٩٤٠ أن الألمان ربما يهاجمون روسيا، وحسب بشكل صحيح أن فرانكو لن يدخل الحرب إلى جانب المحور، مهما كانت وعوده التي أطلقها. ورأى أيضاً أهمية تسليح اليهود الفلسطينيين وإثارة تمرد وعصيان في إثيوبيا. حين ضلت أحكامه وأخطأت، كان ذلك بشكل أساسي بسبب كرهه غير المميز والأعمى "للبلشفية" والميل الناتج في تجاهل الفروق السياسية، فقد كشف حين قال: إنه حين أرسل السير ستاتفورد كريبس كسفير إلى موسكو، لم يدرك أن الشيوعيين يكرهون الاشتراكيين أكثر مما يكرهون المحافظين. لم يدرك أي توري بريطاني هذه الحقيقة البسيطة، إلا بعد مجيء الحكومة العمالية في عام ١٩٤٥ والفشل في فعل ذلك مسؤول جزئياً عن السياسة البريطانية في الحرب الأهلية الإسبانية. إن موقف تشرشل من موسوليني رغم أنه لم يؤثر على مسار الأحداث على الأرجح، كان مؤسساً على تقدير وحساب خاطئ. في الماضي أعجب به واعتبره "حصناً ضد البلشفية"، وانتسب إلى المدرسة التي صدقت أنها تستطيع سحب إيطاليا وإخراجها من المحور بواسطة الرشى، وقال أيضاً إنه لم يتشاجر مع موسيليني أبداً حول قضية كقضية إثيوبيا.

حين دخلت إيطاليا الحرب، لم يعبر تشرشل عن صدمته بقوة، ولو أدرك التوريون البريطانيون قبل عشر سنوات أن الفاشية ليست نسخة أخرى من المحافظين وأنها بطبيعتها ستكون معادية لبريطانيا، لكان الوضع أفضل بكثير.

يدور واحد من أمتع الفصول في كتابه "ساعتهم الأجمل والأصفى" حول تبديل المدمرات الأمريكية بقواعد عسكرية في جزر الهند الغربية البريطانية. وتشكل الرسائل التي تبادلها تشرشل وروزفلت نوعاً من التعليق على السياسة الديمقراطية. عرف روزفلت أن من مصلحة أمريكا أن تمتلك بريطانيا المدمرات، وعرف تشرشل أيضاً أن امتلاك الولايات المتحدة للقواعد لن يكون خسارة لبريطانيا، وإنما على العكس من ذلك. مع ذلك وبمعزل عن الصعوبات القانونية والدستورية، كان من المستحيل تسليم السفن بدون مساومة. كان على روزفلت - الذي كانت الانتخابات أمامه وعينه على الانعزاليين - التظاهر بأنه يخوض مساومة صعبة، وكان عليه أيضاً أن يطالب بتعهد بألا يُسلم الأسطول البريطاني تحت أي ظرف كان للألمان. طبعاً كان فرض هذا الشرط خالياً من المعنى. إذ من المؤكد أن تشرشل لن يسلم الأسطول البريطاني: لكن من جانب آخر، إن نجح الألمان في اجتياح بريطانيا، سينصبون حكومة دمى لن يكون تشرشل مسؤولاً عن أفعالها، لذلك كان عاجزاً عن إعطاء تعهد قوي وثابت كما طلب منه واستطالت المساومة والصفقة بسبب ذلك. كان الحل السريع، تعهد وضمان من الشعب البريطاني كله وبالأخص أطقم السفن. لكن الغريب جداً كان تحاشي تشرشل من نشر الوقائع للعموم، فمن الخطر الكبير أن يكشف كم كانت بريطانيا قريبة من الهزيمة - ربما هذه كانت المناسبة الوحيدة التي قلل فيها من تقديره للمعنويات الشعبية.

ينتهي الكتاب في شتاء عام ١٩٤٠ المظلم حين عوضت انتصارات غير متوقعة في الصحراء مع حمولات كبيرة من الأسرى الطليان عن قصف لندن وإغراق السفن المتزايد في البحر. حين يقرأ المرء، يتنقل الفكر ذهاباً وإياباً بشكل لا يمكن تجنبه:

"إلى أي مدى كان تشرشل حراً في الكلام؟" إن الأهمية الرئيسية للمذكرات، محكومة بأن تأتي لاحقاً، حين يخبرنا تشرشل (إن قرر أن يخبرنا) ماذا حدث فعلياً في طهران ويالطا، وإن

كانت السياسات التي تم تبنيها هناك، كانت تلك التي استحسنها ووافق عليها، أم أنها كانت السياسات التي فرضها عليه روزفلت بالقوة. لكن بأي حال، فإن نغمة هذا المجلد والمجلد السابق توحي أنه سيخبرنا من الحقيقة أكثر مما كشف عنه حتى الآن، حين يأتي الوقت المناسب.

إن كان عام ١٩٤٠ الساعة الأجمل لأي أحد آخر أم لا، فمن المؤكد أنه كان لتشرشل. مهما اختلف معه المرء ومهما كان سعيداً وشاكراً لأنه وحزبه لم يفوزا بالانتخابات عام ١٩٤٥ يجب على المرء أن يعجب به، ليس في شجاعته فقط وإنما في الإسهاب المؤكد واللطف الذي ظهر من مذكرات رسمية من هذا النموذج الأقل شخصنة بكثير من كتاب حياتي المبكرة. رفض الشعب البريطاني عموماً سياساته، لكنه كان يكن له الحب دائماً كما يمكن للمرء أن يراه من نغمة القصص التي تدور حوله والتي رويت خلال جل حياته. كانت هذه القصص مشكوكاً في صحتها غالباً، ولم تكن مطبوعة أحياناً، لكن حقيقة تداولها له أهمية ومغزى. في زمن إخلاء دونكيرك مثلاً، حين أدلى تشرشل بخطابه القتالي، سرت إشاعات أن ما قاله عند تسجيل الخطاب للإذاعة كان "سوف نقاتل على الشواطئ وسوف نقاتل في الشوارع.... و..و.....هذا كل ما تُرك لنا". لكن طبعاً، المراقب العامل في البي بي سي الممسك، ضغط على المفتاح بإبهامه في اللحظة المناسبة. قد يفترض المرء أن هذه القصة غير حقيقية، لكن في ذلك الوقت شعر الناس بأنها ينبغي أن تكون صحيحة. كانت تقديراً مناسباً من الناس العاديين إلى الرجل العجوز الصلب والهزلي الذي لم يقبلوا به قائداً في وقت السلم، لكنهم شعروا أنه هو من يمثلهم بالذات في وقت الكارثة.

كتبت في ٩ أبريل/ نيسان ١٩٤٩؛ نيوليدر (نيويورك)،١٤ مايو/ أيار ١٩٤٩.

سياسة التجويع

تلقيت حزمة أوراق أدبية من لجنة "أنقذوا أوروبا الآن" منذ بضعة أيام، التي حاولت - بلا تشجيع كبير من الحكومة أو مساعدة من الصحافة - أن تزيد تزويد أوروبا بالغذاء. اقتبست سلسلة تصريحات من مصادر رسمية سأعود إليها بعد قليل، تبين منها أننا أغنياء باعتدال، وأن الولايات المتحدة تستمتع في عربدة من التخمة، بينما الجزء الأكبر من أوروبا يسقط في مجاعة بهيمية. في عدد الأوبزيرفر الصادر ١٣ يناير، قرأت مقالة موقعة لقائد القوى الجوية الماريشال السير فيليب جوبيرت يعبر عن الرأي المناقض:

في هذا الشتاء السابع من الحرب (يكتب السير فيليب) يبدو مظهر الشعب البريطاني لواحد عائد من وراء البحار مأساوياً، فالكآبة تبدو على وجوه الناس وينقصهم النشاط ولا تراهم يضحكون إلا نادراً. ترى الأطفال شاحبين وبدينين، لكن بنيتهم غير سليمة، فهم مرضى مقارنة مع أطفال الدانمارك المتوردة وجناتهم، والذين لديهم كل اللحم والدهن الذي يحتاجونه مع وفرة من الفاكهة في أوانها.

إن المعنى الرئيسي لرسالته، أننا بحاجة إلى كميات أكثر اللحوم والدهون والبيض أي الكثير من الغذاء الخاضع لنظام الحصص - ونشويات أقل. تبين الأرقام الرسمية في الحقيقة أننا أفضل صحة مما كنا عليه قبل أن تنقل الحرب انطباعاً خادعاً: أولاً - هذه حجة غريبة تماماً لأن الصحة والتغذية باعتراف الجميع كانتا في طريق سيئ قبل الحرب، لهذا إن التحسن الحالي لا شيء ليكتب عنه؛ ثانياً إن الهبوط في معدل الوفيات لا يعني سوى "مدة أطول في البقاء" ويجب ألا "نخلط بين البقاء والحياة". إذا لم نستطع أن نحصل على "الحيوية والنشاط والقوة" التي يتضمنها اللحم والدهن وقصب السكر، فلن نستطيع تقديم المجهود المحتاج لواجب إعادة البناء. ينهي السير فيليب مقالته:

بالنسبة إلى هؤلاء الذين سيقللون حصصنا الحالية ليعطوا أكثر للألمان، يفترض أن هناك الكثيرين الذين سيردون عليهم: "أتمنى أن يكبر أطفالي ويتربوا في الحرية والود تجاه الناس

عاجلاً، ويجب أن يتمتعوا بطاقة تامة أكثر من الألمان الذين قد يستخدمون قوتهم لشن حرب أخرى في جيل آخر".

يتبين أنه يفترض (أ) أن أي تصدير أكثر للغذاء يعني نقصاً في الحصص هنا، و(ب) أن المطلوب إرسال الغذاء إلى ألمانيا فقط. وفي الحقيقة هذا هو شكل المشروع كما سمعه الجمهور الكبير، رغم أن هؤلاء المسؤولين أكدوا منذ البداية أنهم لا يطالبون إلا بتنازل طوعي عن مواد غذائية معينة من قطاعات سكانية لن تتضرر من هذا، ولم يطلبوها من أجل فائدة ألمانيا فقط.

هذه بعض الحقائق من أحدث نشرة أصدرتها لجنة "أنقذوا أوروبا الآن". في بودابست في شهر تشرين ثاني/ نوفمبر: لقد أغلقت الصيدليات أبوابها بسبب نقص الموارد، ولا يوجد في المستشفيات نوافذ أو وقود أو أدوية تخدير. لقد أحصي عدد الأطفال المشردين بـ ٣٠٠٠٠ طفل ومنهم من نظموا أنفسهم في عصابات إجرامية. في ديسمبر/ كانون أول قال "مراقبون مستقلون" سيموت مليون شخص من الجوع في هنغاريا هذا الشتاء، إذا لم تجلب مؤن غذائية بسرعة. في فيينا (نوفمبر) "يتكون طعام الجراحين في المستشفيات من القهوة غير المحلاة وحساء رقيق وخبز، يعني أقل من ٥٠٠ كالوري كلها". وصرح وزير الخارجية النمساوي في ديسمبر أن المناطق السكنية المزدحمة في شرق النمسا مهددة "ببؤس لا حدود له والأوبئة والجريمة والانحدار البدني والأخلاقي". في نوفمبر/تشرين الثاني ناشد وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا كلاً من بريطانية والولايات المتحدة كي ترسلا السمن واللحم لإنقاذ ٧٠٠٠٠٠ "طفل يعانون من سوء التغذية و٥٠٪ منهم مصابون بالسل الرئوي مسبقاً". في ألمانيا أطفال منطقة السار "يموتون ببطء من الجوع" في المنطقة البريطانية، قال الفيلد مارشال مونتغمري إنه "سيعتمد كلياً على المستوردات من القمح إن كان سيحافظ على معدلات الحصة الغذائية الحالية للشعب الألماني التي تتراوح بين ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ كالوري". هذا كان في نوفمبر تشرين ثاني. في الوقت نفسه، خطب الجنرال آيزينهاور من المنطقة الفرنسية وقال "إن الحصة العادية ١١٠٠ كالوري باليوم للمستهلك المتوسط، ولم تلبَّ بشكل دائم وثابت" وهلم جرا. خلال ذلك الوقت يتراوح معدل استهلاكنا بين ٢٨٠٠ إلى ٢٩٠٠ كالوري باليوم، وكانت أغلب الأرقام الحديثة عن الوفيات بسبب مرض السل، ووفيات الأمهات في الولادات، ووفيات الأطفال من كل الأعمار حتى الخامسة هي الأدنى

التي سجلت في أي وقت. بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ارتفع كثيراً استهلاك الزبدة، وألغت توزيع اللحم بالحصص. قدر وزير الزراعة أن "رفع نظام الحصص الغذائية، سيجعل اللحم متوفراً للمدنيين بمعدل ١٦٥ باونداً سنوياً - كان الإمداد قبل الحرب حوالي ١٢٥ باونداً"

حتى لو كانت هذه الأرقام لا تنقل فكرة كافية، فمن لم ير صور الأطفال الهياكل العظمية في اليونان وأماكن أخرى - أطفال لم يفكر أحد بتطبيق مصطلح فيليب جويبرت "شحميون، بدينون"؟ مع ذلك هناك مقاومة كبيرة بلا شك لفكرة إرسال غذاء أكثر إلى أوروبا. تسعى لجنة "أنقذوا أوروبا الآن" الآن إلى أهداف محدودة، فقد اقترحت أن يضحي هؤلاء الذين يميلون إلى التضحية بنقاطهم أو بعض من نقاطهم، وأن تقدم الحكومة الطعام المستغنى عنه إلى المناطق التي ضربها الجوع. (حين خضع الطعام لنظام الحصص في بريطانيا، كانت السلع الأساسية توزع "بقسائم" أما سلع الرفاهية والفاكهة المعلبة واللحم المعلب، فتوزع بنظام "النقاط"). ثُبطت هذه الخطة رسمياً ولاقت قبولاً بارداً أيضاً من أشخاص كثيرين. كان الأشخاص الذين في موقع يمكنهم من ترويج الخطة للشعب، خائفين منها صراحة، وسُمح لعوام الناس أن يتخيلوا أن الاقتراح يعني أخذ الطعام من ربات البيوت البريطانيات لإعطائه إلى مجرمي الحرب الألمان. في الحقيقة كل الطريقة التي نوقشت بها المسألة، توضح الكذب الغريب الذي أصاب كل قضية سياسية في الوقت الحالي. هناك شيئان يجعلان اليسار الرسمي حزب العمال أو الشيوعيين يخافان من أية خطة تعني إرسال غذاء إضافي إلى ألمانيا. الشيء الأول، هو الخوف من ردة فعل الطبقة العاملة؛ حيث قيل إن الطبقات العاملة تستاء حتى من الترتيب الطوعي الذي يعني أن الناس في الجماعات ذات الدخول الأعلى الذين يشترون الطعام غير الخاضع للحصص ويأكلون بعضاً من لحمهم في المطاعم، يجب أن يتخلوا عن الفائض لديهم. كان الخوف من أن تجيب المرأة المتوسطة الواقفة في طابور السمك: "إن كان هناك أي طعام يمكن توفيره فعلاً، دعونا نأكله، أو لماذا لا تعطوه لعمال مناجم الفحم؟". لا أعرف إن كان هذا هو رد الفعل لو شرحت القضايا بشكل وافٍ. أشك أن بعض الناس الذين جادلوا هكذا، أن الفكرة القذرة التي في أذهانهم كانت كالتالي: إن ضحينا بكميات كافية من الطعام تشكل فرقاً، فهذا لن يعني التخلي عن النقاط فقط وإنما تقليص حصة

المطاعم. عملياً، أياً كانت نية نظام الحصص الخاص بنا غير ديمقراطي بالكامل، وكل الشجار الدائر حول موضوع تصدير الطعام، يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقة، وأعتقد أن ذلك جزء من مبرر عدم مناقشة هذه المسألة بشكل وافٍ في الصحافة.

إن الغذاء سلاح سياسي أو يعتبر كسلاح سياسي. إن أشد المناطق جوعاً، إما في المنطقة الروسية، أو في الأجزاء الأوروبية المقسومة بين الاتحاد السوفيتي والحلفاء الغربيين. يرى أناس كثيرون أننا لو أرسلنا المزيد من الطعام إلى هنغاريا مثلاً، سيزداد النفوذ الأمريكي والبريطاني: بينما إن تركنا الهنغاريين يجوعون وأطعمهم الروس، فالاحتمال الأكبر أنهم سيتطلعون إلى الاتحاد السوفييتي. لذلك كل هؤلاء المحبون جداً للروس ضد إرسال الطعام، لأنهم يرونه طريقة لإضعاف المقام والهيبة الروسية. لا أحد كان صادقاً بما يكفي ليعترف بهكذا دوافع، لكن ما عليك إلا أن تتفحص قوائم الذين أيدوا والذين لم يؤيدوا حملة "أنقذوا أوروبا الآن" لترى حقيقة الأمور. حماقة كل هذه الحسابات تكمن في افتراض أنك تستطيع الحصول على نتائج جيدة من المجاعة دائماً. مهما تكن التسوية السياسية النهائية في أوروبا، فإنها ستكون أسوأ إن سبقتها سنين من الجوع والبؤس واللصوصية والجهل. نصحنا المارشال الجوي جوبيرت أن نطعم أنفسنا بدلاً من إطعام الأطفال الألمان الذين سيقاتلون ضدنا بعد جيل من الآن. هذه هي النظرة "الواقعية". في ١٩١٨ "النظرة الواقعية" كانت تفضل الإبقاء على الحصار بعد الهدنة. حافظنا على الحصار والأطفال الذين جوعناهم هم الشباب الذين يقصفوننا الآن في ١٩٤٠. ربما لا أحد يستطيع أن يتنبأ تماماً بتلك النتيجة، لكن الناس الطيبين استطاعوا التنبؤ بأن نتائج تجويع ألمانيا بشكل داعر وحيواني والسلام الانتقامي، سيكون شراً، وكذلك أيضاً مع رفع حصصنا الخاصة بنا كما سيحدث بعد وقت قصير، بينما تخيم المجاعة على أوروبا. لكن إذا قررنا أن نفعل هذا، دعوا القضايا تناقش بصراحة على الأقل، ودعوا صور الأطفال الجائعين تنشر علناً في الصحافة، لكي يدرك أهل هذه البلاد ماذا يفعلون.

التريبيون

١٨ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٦

تدرجية مأساوية

هناك نظرية لم تكتمل صياغتها بدقة، ولم تعط اسماً بعد، لكنها قبلت على نطاق واسع، ويؤتى بها كلما كان من الضروري تبرير عمل ما يتعارض مع حشمة الإنسان العادي ولياقته. يمكن تسميتها إلى أن يجدوا لها اسما أفضل، نظرية التدرجية المأساوية. حسب هذه النظرية، لم يُنجز ولن يُنجز أي شيء بدون سفك دماء وأكاذيب وخيانة وظلم. ومن جانب آخر، لا يمكن توقع أي تغيير كبير ومهم نحو الأفضل ينتج عن أعظم الاضطرابات وأشدها. إن التاريخ يستمر ويتقدم بالكوارث والمصائب، وبالضرورة سيكون كل عصر لاحق سيئاً كسابقه تقريباً. يجب على المرء ألا يعترض ضد أعمال التطهير العرقي والترحيل القسري وقوات الشرطة السرية وهلم جرا، لأن هذه هي الأثمان التي يجب أن تدفع من أجل التقدم: لكن من الجانب الآخر سترى "الطبيعة البشرية" دائماً أن التقدم بطيء أو غير مدرك بالحواس حتى. إن اعترضت على الديكتاتورية، فأنت رجعي، وإن توقعت نتائج جيدة من الديكتاتورية، فأنت عاطفي جداً.

في الوقت الحالي، تستخدم هذه النظرية كثيراً جداً لتبرير نظام حكم ستالين في جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية. ومن الواضح أنها يمكن أن تستخدم وسوف تستخدم، بسبب الظروف الملائمة لتبرير أشكال أخرى من الأنظمة الشمولية. لقد تقوت نتيجة فشل الثورة الروسية - إن الثورة الروسية فشلت في إنجاز الآمال التي أيقظتها قبل خمس وعشرين سنة. وباسم الاشتراكية، ارتكب نظام الحكم الروسي كل الجرائم تقريباً التي يمكن تخيلها، وفي الوقت نفسه ابتعد في تطوره عن الاشتراكية، إلا إذا أعاد المرء تعريف تلك الكلمة بعبارات لن يقبلها أي واحد من اشتراكيي ١٩١٧ . لا يوجد أمام هؤلاء الذين يقبلون بهذه الممارسات، سوى مسارين اثنين مفتوحين. المسار الأول، إن رفض الاعتراف بالنظرية الشمولية برمتها كما فعلت قلة من المثقفين الإنكليز، كانت لديهم الشجاعة على ذلك. المسار الثاني، الانكفاء والعودة إلى التدرجية المأساوية. إن الصيغة الموظفة عادة: "لا تستطيع صنع عجة من دون أن

تكسر البيض". وإذا أجبت بنعم "فأين العجة؟" تكون الإجابة المحتملة: "أوه، حسناً، لا يمكن أن تتوقع لكل شيء أن يحدث في لحظة واحدة".

هذا الجدال يدفعك بشكل طبيعي نحو الماضي، إلى التاريخ الذي صُمم ليظهر أن كل تقدم تم إنجازه على حساب جرائم وحشية، ومن المستحيل إنجازه بطريقة أخرى. المثال المستخدم عادة هو إطاحة البرجوازية بالإقطاعية الذي يفترض به أن ينذر بإطاحة الاشتراكية بالرأسمالية في عصرنا. لقد نوقش بأن الرأسمالية كانت قوة تقدمية قديماً، ولذلك كانت جرائمها مبررة أو غير مهمة على الأقل. في عدد حديث لنيوستيتمان، نرى السيد كينغسلي مارتن يؤنب آرثر كوستلر فيها لعدم امتلاكه "نظرة تاريخية" حقيقية، حين قارن ستالين مع هنري الثامن، واعترف بأن ستالين قام بأفعال مروعة، لكنه بالمجمل خدم قضية "التقدم"، وبضع ملايين من "التصفيات" يجب ألا تسمح بحجب هذه الحقيقة. وبالمثل كانت شخصية هنري الثامن قد خلفت الكثير من المرغوب، لكنه أخيراً مكن الرأسمالية من الظهور، ولذلك بالمجمل يمكن اعتباره صديقاً للإنسانية.

الآن لا يملك هنري الثامن شبهاً قوياً جداً بستالين، أما كرومويل فيوفر شبهاً أفضل. لكن السيد مارتن منح هنري الثامن الأهمية المعطاة له. إلى أين سيؤدي هذا الجدال؟ هنري الثامن مكن الرأسمالية من الظهور، وهذا أدى إلى فظائع الثورة الصناعية، ومن ثم إلى دورة من الحروب الهائلة، كادت نتائجها أن تدمر الحضارة كلها. لهذا بمعاينة سير العملية عن قرب، يمكننا صياغة الموضوع كالآتي: "كل شيء يجب أن يُغفر لهنري الثامن، لأنه في النهاية هو من مكننا من تمزيق أنفسنا بالقنابل الذرية"، ونُقاد إلى سخافات مماثلة حين نجعل من ستالين المسؤول عن حالتنا الحالية، والمستقبل الذي يبدو أنه في انتظارنا. وفي الوقت نفسه، نصر أننا يجب أن ندعم سياساته.

أنا أعتقد أن دوافع المثقفين الإنكليز الذين أيدوا الديكتاتورية الروسية، كانت مختلفة عن تلك التي يعترفون بها في العلن، لكن من المنطقي الصفح عن الاستبداد والقتل الوحشي إن افترض المرء أن التقدم محتوم. لو اعتبرنا أن كل عصر أفضل من سابقة أمراً بديهياً، فسوف تكون كل جريمة أو حماقة تدفع بالعملية التاريخية إلى الأمام عملاً مبرراً. يُغفر للمرء تقريباً إن تصور أن تقدماً من النوع الملموس والمقاس، كان يحدث في الفترة الواقعة بين ١٧٥٠

و١٩٣٠ مؤخراً أصبح هذا أصعب فأصعب بالنسبة إلى نظرية التدرجية المأسوية. جريمة تتلوَ جريمة، وطبقةَ حاكمة تُستبدل بطبقة حاكمة أخرى، وبرج بابل يرتفع ويسقط، لكن يجب على المرء ألا يقاوم هذه العمليةَ المستمرة - في الواقع يجب عليه أن يكون مستعداً للتصفيق واستحسان النذالة التي تحدث - لأن هذا هو التقدم بطريقة باطنية في نظر الرب أو ربما في نظر ماركس أيضاً. إن البديل سيكون (أ) أن تقف وتفكر إلى أي مدى يكون التاريخ حتمياً ومقدراً مسبقا؟ (ب) وما هو المقصود بالتقدم؟ عند هذه النقطة يجب على المرء أن يستدعي العالم الروحاني (اليوغي) كي يصحح المفوض (القوميسار).

في مقاله الذي نوقش كثيراً، أعتقد بشكل عام أن كوستلر انتقد وهجم بشدة على الروحاني. فعلياً إن سلم المرء أن الروحاني والمفوض على طرفين متعاكسين من كفة الميزان، فإن كوستلر أقرب نوعاً ما إلى المفوض. هو يؤمن بالحرب والعنف (إذا لزم) والحكومات وبالتالي في الانتقالات والتسويات التي لا يمكن فصلها عن الحكومات. لقد أيد الحربَ والجبهة الشعبية قبلها، كما قاتل ضد الفاشية منذ ظهورها بأقصى قدراته، وكان عضواً في الحزب الشيوعي لسنوات كثيرة. إن الفصل الطويل في كتابه الذي انتقد فيه الاتحاد السوفييتي أبطله وأفسد ولاءه المتبقي لحزبه القديم وميله الناتج عنه إلى تأريخ كل التطورات السيئة منذ ظهور ستالين: ينبغي على المرء في اعتقادي أن يعترف بأن بذور الشر كانت منذ البداية، وأن الأشياء لم تكن ستختلف بشكل جوهري لو بقي لينين أو تروتسكي في رأس الحكم. إن كوستلر أقل من يستطيع الادعاء بأننا نستطيع أن نصحح كل شيء بالتفرج على سررنا في كاليفورنيا، ولا يستطيع أن يزعم أيضاً كما يفعل المفكرون المتدينون، أن "التغيير في القلوب" يجب أن يأتي قبل أي تحسين سياسي حقيقي. لأقتبس كلماته: لن يستطيع القديسون أو الثوريون إنقاذنا، وإنما المركب الناتج عن كليهما. لا أعرف إن كنا قادرين على إنجاز ذلك أم لا. لكن إن كانت الإجابات سلبية، فليس هناك أمل كما يبدو في منع هلاك الحضارة الأوروبية، إما بواسطة الحرب المطلقة التي سيؤججها ورثة الحروب، أو بغزو بيزنطي - خلال العقود القليلة القادمة. هذا يعني أن "تغيير القلوب" يجب أن يحدث، لكنه لن يحدث إلا إن أثمر بفعل في كل خطوة. من جانب آخر لا يستطيع أي يتغير في تركيبة المجتمع لوحده أن يحدث تحسناً حقيقياً. كانت الاشتراكية تعرف بـ "ملكية مشتركة لوسائل الإنتاج"، لكنها

الآن لا تعني أكثر من سيطرة مركزية، وأنها تمهد الطريق لشكل جديد من الأوليغاركية (حكم القلة). السيطرة المركزية شرط مسبق وضروري للاشتراكية، لكن لا ينتج عنها اشتراكية أكثر مما ستنتجه الآلة التي أكتب عليها لوحدها من هذا المقال الذي أكتبه. عبر التاريخ أدت الثورات الواحدة تلو أخرى، رغم أنها حققت بعض الارتياح المؤقت عادة كالذي يحصل عليه المريض من التقلب في السرير، إلى تغيير السادة فقط، وذلك لأنها لم تبذل جهداً جدياً لاستئصال غريزة السلطة: ولو بذل هذا الجهد لاقتصر على القديسين وحدهم ولاعبي اليوغا الذين أنقذوا أرواحهم على حساب تجاهل المجتمع. في أي حال لقد اختلط في عقول الثوار النشيطين والأشخاص الذين "يصلون إلى هناك" توقهم إلى مجتمع عادل دائماً مع نيتهم في ضمان السلطة لأنفسهم. يقول كوستلر "إننا يجب أن نتعلم تكنيك التأمل مرة أخرى الذي يظل المصدر الوحيد لتوجيه العضلات الأخلاقية؛ حيث تفشل معايير المنفعة الاجتماعية". يقصد كوستلر بـ"التأمل" "الإرادة التي لا تريد" وإخضاع الرغبة للسلطة. قادنا ويقودنا الرجال العمليون إلى حافة الهاوية، ويحثنا المثقفون الذين قبلوا بسياسة القوة التي قتلت فينا الإحساس الأخلاقي ومن بعده الإحساس بالواقع، ويحرضوننا على السير قدماً دون أن نبدل الوجهة. يصر كوستلر أن التاريخ ليس لحظات محتومة ومقدرة سلفاً أبداً، وإنما هناك نقاط انعطاف تكون الإنسانية فيها حرة لتختار الطريق الأفضل أو الأسوأ. إحدى نقاط الانعطاف (التي لم تظهر حين كتب الكتاب) هي القنبلة الذرية. إما أن نتخلى عنها، أو أنها ستدمرنا. لكن التخلي عنها جهد أخلاقي وجهد سياسي. يدعو كوستلر إلى "أخوة جديدة في مناخ روحي جديد، قادتها مربوطون بقسم الفقر بأن يشاركوا ويعيشوا حياة الجماهير، وهم ممنوعون بواسطة قوانين الأخوة من إحراز سلطة غير مقيدة". يضيف: "إن كان هذا يبدو طوباوياً، فالاشتراكية طوباوية" ربما ليست طوباوية حتى – وقد يكون اسمها بالذات في الذاكرة بعد جيلين – إذا لم نستطع النجاة من حماقة "الواقعية". لكن ذلك لن يحدث بدون تغيير في القلب الفردي. إلى ذلك المدى وليس أبعد، فإن رجل اليوغا محق بوصفه ضد المفوض.

رسالة لندن إلى بارتيزان ريفيو
٣ يناير ١٩٤١

إن البارتيزان ريفيو أكثر المجلات الأميركية اليسارية نفوذاً، بدأت بنادي جون ريد الشيوعي في نيويورك في ١٩٣٤ توقف النشر في أغلب عام ١٩٣٧ واستأنف في نهاية تلك السنة، وأصبحت أكثر أدبية، وسياسياً أكثر تروتسكية في تعاطفها. يحررها وليام فيليبس وفيليب راف منذ ١٩٣٣

من هذا التاريخ حتى صيف ١٩٤٦ كان جورج أورويل يكتب بانتظام رسالة لبارتيزان ريفيو.

أعزائي المحررين

أكتب هذه الرسالة رداً على رسالتكم بالذات، ومن الأفضل أن أبدأ باقتباس مما قلتموه، لكي أوضح الأسئلة التي سأحاول الرد عليها. هناك أشياء لا تذكرها الأخبار، مثل ما الذي يحدث تحت السطح في السياسة؟ ما هو المزاج العام إن كان هناك شيء كهذا وسط الكتاب والفنانين؟ ما هي التحولات التي حدثت في حياتهم واهتمامهم؟

حسنا بالنسبة إلى الوضع السياسي: أعتقد أنه يصح القول إننا الآن وسط نتائج وعقابيل لن تشكل فرقاً كبيراً وحاسماً. أصاب الرعب الرجعيين الذين يقرأون التايمز في الصيف، لكنهم يقون موقفهم الآن بشق النفس ضد الأزمة الجديدة التي قد تحدث في الربيع. لقد وجد في الصيف وضع يرقى إلى مستوى الوضع الثوري في إنكلترا، لكن لم يغتنمه أحد. بعد عشرين سنة من الاقتيات على السكر والماء، أدركت الأمة فجأة ماهية حكامها، وكان هناك استعداد واسع لتغييرات اقتصادية واجتماعية كاسحة مترافقة مع تصميم مطلق على منع الغزو. الآن أعتقد أن الفرصة موجودة لعزل طبقة أصحاب الأموال وحشد جماهير الأمة خلف سياسة تجمع بين مقاومة هتلر والقضاء على الامتياز الطبقي.

ملاحظة كليمنت غرينبيرغ في هورايزون، بأن الطبقة العاملة هي الطبقة الوحيدة في إنكلترا العازمة جدياً على دحر هتلر، تبدو لي غير صحيحة أبداً. إن القسم الأعظم من

الطبقة الوسطى معادٍ لهتلر مثل الطبقة العاملة، وربما معنوياته أكثر موثوقية. حين ينظر الشيوعيون إلى المشهد الإنكليزي من الخارج خصوصاً، لا يدركون أن وطنية الطبقات الوسطى شيء يمكن الاستفادة منه. سيحول الناس الذين يقفون باستعداد ويقولون "أطال الرب عمر الملك" ولاءهم لنظام اشتراكي إن لاقوا معاملة فيه الحد الأدنى من اللباقة. على كل حال، في الصيف لم يرد أحد الفرصة، فقد سمح قادة العمل (باستثناء بيفن) لأنفسهم أن يكونوا قططاً أليفة لدى الحكومة، وحين فشل حدوث الغزو وكانت الغارات أقل رعبا مما توقعه الجميع انحسر المزاج الثوري. في الوقت الحاضر، يقوم اليمين بهجوم مضاد. دخول مارغيسون في مجلس الوزراء أقرب بديل ممكن لتشامبرلاين ونبشه من قبره. نوقش انتصار وافيل في مصر. الحملة على البحر الأبيض المتوسط لم تنته بعد، لكن الأحداث بينت بسرعة أن وقوف المحافظين ضد اليسار، كان محقاً، ويتوقع منهم أن يغتنموا ذلك. من غير المستبعد أن تحظر صحيفة أو اثنتان من الصحف اليسارية قريباً. قيل إن صحيفة ديلي ووركر بحث أمرها في مجلس الوزراء، لكن هذه الدورة في النواس غير مهمة جداً، إلا إذا صدقها الشخص كما لم أفعل أنا، وأشك أن يصدقها الكثير من الناس الذين أعمارهم دون الخمسين، أن إنكلترا تستطيع الفوز بالحرب دون أن تمر بثورة وتعود مباشرة إلى الحالة السوية في ما قبل ١٩٣٩ ومع ثلاثة ملايين عاطل عن العمل..إلخ..إلخ.

لكن في الوقت الحالي، لا توجد أية سياسة مؤثرة بين كونك وطنياً بأسلوب وطريقة "الملك والبلاد" وكونك مؤيداً لهتلر. إن وصلت موجة أخرى من المشاعر المعادية للرأسمالية، لا يمكنها إلا أن تصب في الانهزامية. وهناك إشارة صغيرة، في الوقت نفسه، عن هذا في إنكلترا، لكن الروح المعنوية أسوأ ربما في البلدات الصناعية من أي مكان آخر. في لندن، بعد أربعة أشهر من القصف الذي لم يتوقف، الروح المعنوية أفضل بكثير مما كانت عليه قبل سنة حين كانت الحرب راكدة.

الناس الوحيدون الانهزاميون بشكل علني، هم أتباع موسلي والشيوعيون والسلاميون (رافضو الحرب). مازال الشيوعيون يمتلكون موطئ قدم في المصانع وربما

منصة في وقت ما وعودة بإثارة الشكاوى والمظالم حول ساعات العمل..إلخ، لكنهم يواجهون صعوبة في جعل أتباعهم يقبلون سياسة واضحة مؤيدة لهتلر، وسيجبرون على السكوت خلال الأيام العصيبة في الصيف، كما أن تأثيرهم الجمهور العام صفر، كما يراه المرء في أصوات الانتخابات الفرعية، وانكسرت القبضة القوية التي كانت لهم في الصحافة في السنوات ١٩٣٥ - ١٩٣٩ تماماً. أما أتباع موسلي من ذوي القمصان السوداء، فلم يعد لهم وجود كمنظمة شرعية، لكنهم ربما يستحقون أن يؤخذوا بجدية أكثر من الشيوعيين، حتى ولو بسبب كون دعايتهم مقبولة أكثر للجنود والبحارة والطيارين على الأقل. لم تفز أية منظمة يسارية أبداً بموطئ قدم في القوات المسلحة. حاول الفاشيون طبعاً أن يلقوا بلوم الحرب والمشقة التي سببتها الغارات الجوية على اليهود، وخلال أسوأ قصف لإيست ايند، نجحوا في إثارة تذمر عدائي للسامية، لكنه ضعيف. لقد كان التطور الأكثر إمتاعاً للجبهة المعادية للحرب، هو تفسير الحركة السلمية بأفكار فاشية خصوصاً معاداة السامية. بعد موت ديك شيارد، يبدو أن السلمية البريطانية عانت سقوطاً أخلاقياً؛ فلم تصدر أية إيماءة مهمة ولا حتى شهداء كثيرين وفقط خمسة عشر بالمائة من أعضاء بيس بليدج يونيون نشيطين الآن. لكن الكثير من السلميين الناجين الآن ينسجون خطاً من الخطاب، لا يتميز عن خطاب البلاكشيرتز (أوقفوا هذه الحرب اليهودية..إلخ) كما أن العضوية الفعلية لبيس بليدج يونين (اتحاد ضمان السلام) والبريتش يونيون (اتحاد للفاشيين البريطانيين بقيادة السير أوزوالد موسلي) متطابقتان إلى درجة ما. كل المنظمات المناصرة لهتلر لا يصل عدد أعضائها إلى ١٥٠ ألفاً، ومن غير المحتمل أن ينجزوا الكثير في محاولاتهم، لكنهم قد يلعبون دوراً مهماً في وقت ما، حين تفكر حكومة على شاكلة حكومة بيتان بالاستسلام. هناك مبرر ما للاعتقاد بأن هتلر لا يريد لمنظمة موسلي أن تصبح قوية جداً. اللورد هاوهاو، أكثر المذيعين الألمان باللغة الإنكليزية تأثيراً، كان عضو في الحزب النازي المنشق بشكل مؤكد مثل جويس وعدواً لدوداً وشخصياً لموسلي.

أنت تسأل عن الحياة الفكرية في إنكلترا والتيارات المتنوعة في العالم الأدبي. أعتقد أن العوامل المسيطرة هي التالية:

أ - التدمير التام للعقيدة اليسارية المعادية للفاشية في السنوات الخمس الأخيرة، بسبب المعاهدة الروسية الألمانية.

ب - حقيقة أن أغلب الناس اللائقين بدنياً دون الخامسة والثلاثين في الجيش.

ج - ازدياد في استهلاك الكتب بسبب الضجر من الحرب مع رفض الناشرين المخاطرة بالأموال على كتّاب غير معروفين.

د - القصف الذي أصبح الآن أكثر وأشد ضرراً مما تتخيل.

دفعت المعاهدة الروسية الألمانية بالستالينيين وشبه الستالينيين إلى موقف مؤيد لهتلر، لكنها أنهت لعبة "أخبرتك هكذا" التي ظل يلعبها الكتاب اليساريون لمدة خمس سنوات. إن معاداة الفاشية، كما فسرت من قبل النيوكونيكلز والنيو ستيتهان ونادي الكتاب اليسار، اعتمدت على الاعتقاد - وأعتقد على الأمل شبه المقصود أيضاً - بأنه ليس هناك أية حكومة بريطانية ستواجه هتلر وتتحداه. حين ذهبت حكومة تشامبرلاين للحرب، أخرجت الريح من أشرعة الجناح اليساري بتفعيل السياسة التي كانوا هم يطالبون بها. في الأيام القليلة التي سبقت إعلان الحرب، كانت مراقبة سلوك أفراد الجبهة الشعبية التقليديين مسلية جداً للذين كانوا يهتفون بكآبة "ستكون ميونخ أخرى"، رغم أنه كان من الواضح قبل أشهر في الواقع أن الحرب كانت حتمية. هؤلاء الناس كانوا في الحقيقة يأملون في ميونيخ أخرى تسمح لهم الاستمرار بدور كاساندرا، من دون أن يُجبروا على مواجهة حقائق الحرب الحديثة. كنت في ورطة كبيرة مؤخراً، حين نشرت أن هؤلاء الذين كانوا ألد أعداء الفاشية أثناء الفترة بين ١٩٣٥ و١٩٣٩ كانوا أكبر الانهزاميين الآن. رغم ذلك، أعتقد أن هذا صحيح بشكل واسع، ولا يقتصر على الستالينيين فقط. إنها حقيقة، أنه حالما بدأت الحرب، فإن كل النيران تلاشت من "معاداة الفاشية" التقليدية. كل الهراء حول الأعمال الوحشية الفاشية واتهامات تشامبرلاين..إلخ، التي كان من المستحيل لها أن تبتعد عن أية مجلة ثقافية في زمن السلم، انتهى فجأة وثار هرج ومرج أكبر وسط مثقفي الجناح اليساري حول اعتقال اللاجئين الألمان أكثر من أي شيء فعله العدو. شعر مثقفو الجناح اليساري أثناء الحرب الإسبانية أن هذه الحرب حربهم، وأنهم يؤثرون في أحداثها إلى حد ما. بالدرجة التي توقعوا فيها حدوث الحرب ضد

ألمانيا، تخيلوا كذلك أنها ستكون نسخة موسعة من الحرب في إسبانيا، حرب يسارية يمكن للشعراء والروائيين أن يكونوا شخصيات مهمة فيها. طبعاً هي ليست من هذا النوع. إنها حرب حديثة مرهقة يخوضها بشكل رئيسي خبراء تقنيون (طيارون..إلخ) وتُدار من قبل أناس وطنيين في رؤاهم، ولكنهم رجعيون تماماً في موقفهم. في الوقت الراهن، ليس هناك أي عمل للمفكرين والمثقفين فيها. من البداية سارت الحكومة على مبدأ "إبعاد الحمر عنها"، ولم يُسمح للرجال الذين عُرف أنهم حاربوا في إسبانيا في الانضمام إلى الجيش إلا بعد الكارثة في فرنسا. وبالتالي النشاط الرئيسي وسط كتاب الجناح اليساري، كان نوعاً من النقد التافه الذي تحول إلى نوع من الرعب حين فازت إنكلترا بالنصر، لأن هذا يدحض تنبؤاتهم دائماً. في الصيف كان مثقفو الجناح اليساري انهزاميين تماماً أكثر مما سمحوا في إظهاره بالنشر. في الوقت الذي بدت فيه إنكلترا على وشك الاجتياح والتعرض للغزو، أراد كاتب يساري مشهور أن يثبط فكرة المقاومة الجماهيرية على أساس أن الألمان سيتصرفون بشكل متساهل أكثر إذا لم يتعرضوا لمعارضة ومقاومة. كان هناك تحرك حثيث مع عين على الاحتلال النازي القادم لجعل الفرع الخاص من اسكوتلانديارد يتلف الإضبارات السياسية التي يحتفظ بها لأغلبنا بلا شك. كل هذا كان في تناقض صارخ مع موقف الناس العوام الذين إما أنهم لم يعوا حقيقة أن إنكلترا في خطر، أو كانوا مصممين على المقاومة إلى آخر خندق. لكن عدد محدد من الكتاب والمحاضرين الذين قاتلوا في إسبانيا وأبرزهم توم وينترينغهام، فعلوا الكثير لاستئصال مد الانهزامية وإيقافه.

أنا شخصياً أعتبر القضاء على فترة مزاج المتاجرة بالحرب للجبهة الشعبية ودعايتها الكاذبة وجوها المرعب من الأرثوذكسية شيئاً جيداً، لكنه ترك نوعاً من الفجوة. لا أحد يعرف بماذا يفكر، ولم يبدأ أي شيء. من الصعب جداً تخيل ظهور أية "مدرسة" أدبية جديدة في الوقت الذي وجد فيه الكتاب الصغار عالمهم مثقوباً، والكتاب الأصغر منهم عمراً، إما في الجيش أو أبعدوا عن النشر بسبب نقص الورق. إضافة إلى تنقل الأساسات الاقتصادية للأدب وتبدلها، إن المجلة الأدبية الثقافية التي تعتمد جوهرياً على الناس المترفين الذين تربوا في ثقافة الأقلية، أصبحت أقل وأقل احتمالاً. هورايزن نسخة حديثة مدقرطة عن هذا (قارن نغمتها العامة مع

الكرايتريون قبل عشر سنوات) وحتى هورايزن تستمر لكن بصعوبة. من جانب آخر تزداد القراءة الشعبية، وأخذ مستوى الصحافة الشعبية الثقافي قفزة هائلة نحو الأعلى منذ اندلاع الحرب. لكن نادراً ما تظهر كتب جيدة. لا تزال الروايات تنشر بأعداد كبيرة، لكنها من التوافه التي لا تصدق. فقط الأموات فكرياً قادرون على الجلوس وكتابة روايات بينما يستمر هذا الكابوس. الظروف التي مكنت جويس ولورانس من كتابة أفضل أعمالهما أثناء حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ لم تعد موجودة (الشعور بأن العالم الحالي سيعود إلى رشده ثانية). هناك شك بخصوص استمرار الحضارة التي ظلت حية بصعوبة لأربعمائة سنة. وفي الوقت الراهن هناك غارات جوية جعلت استمرار الحياة الفكرية صعباً جداً. لا أقصد بسبب الخطر المادي. صحيح أن كل واحد في لندن في هذا الوقت نجا من الموت بعناية إلهية مرة على الأقل، لكن الإصابات الفعلية قليلة جداً، وحتى الأضرار رغم ضخامتها اقتصرت على مدينة لندن وأزقة إيست ايند الفقيرة. لكن الخلل في وسائل النقل والاتصالات..إلخ، يسبب مضايقات لا نهاية لها. يصرف المرء نصف وقته للحصول على كيس فحم بسبب انقطاع الكهرباء، أو لوصل المكالمات الهاتفية على سلك انطفأ، أو في التجوال بحثاً عن حافلة في هذا الشتاء البارد والماطر البائس. إن الحياة الليلية في لندن توقفت تقريباً، ليس بسبب القصف، وإنما بسبب الشظايا الكثيرة جداً التي جعلت الخروج من البيت بعد الغروب أمراً خطراً. فدور السينما تغلق أبوابها باكراً، والمسارح توقفت كلياً ماعدا عدد قليل من الحفلات النهارية. وحدها الحانات فقط باتت أكثر من المعتاد، رغم ارتفاع أسعار البيرة الآن. في الليالي التي تكون فيها الغارات الجوية سيئة وصخب المدافع الصام للآذان، يصبح العمل صعباً. إنه وقت يصعب فيه الاستقرار على أي شيء، فحتى كتابة مقال جريدة سخيف يأخذ ضعف الوقت العادي.

أتساءل حتى فيما قلته، إن كنت ضخمت خطورة الغارات الجوية؟ يجدر أن أذكر أن أسوأ فترة للغارات حدثت حين لم يكن سوى ١٥٪ من سكان لندن ينامون في الملاجئ. يضاف إلى العدد هؤلاء الذين دمر بيوتهم القصف، لكن عددهم يقل باستمرار بفضل الذين يتقسون ويتعودون على القصف. بعد كل ما قيل وفعل، إن انطباع المرء الرئيسي بلادة الناس العاديين والوعي الغامض المنتشر بشكل واسع بأن الأشياء لن تعود كما كانت ثانية مع النزعة الحياتية في العودة إلى النموذج المألوف. في سبتمبر/ أيلول في اليوم

الذي هجم فيه الألمان وأحرقوا أرصفة السفن، أعتقد أن عدداً قليلاً جداً من الناس الذين شاهدوا تلك الحرائق الهائلة، لم يشعروا أن الذي حصل كان نهاية لحقبة. يشعر المرء أن تلك التغيرات الهائلة التي مر بها مجتمعنا، كانت ستحدث فوراً. لكن المذهل أن الأشياء عادت إلى وضعها العادي. سأنهي ببضع اقتباسات من مفكرتي، وأحاول أن أعطي فكرة عن الجو:

الطائرات تعود وتعود كل بضع دقائق. الأمر مثل أية دولة شرقية حين تعتقد بأنك قتلت آخر بعوضة داخل شبكتك، وفي كل مرة تطفئ فيها الضوء تبدأ واحدة أخرى بالأزيز فوراً... الهياج الناتج عن مجرد مرور القذيفة في الهواء مذهل. يهتز البيت كله وتقعقع الأشياء التي على الطاولة. لماذا تغرق الأضواء الكهربائية حين تمر قذيفة عن قرب، لا أحد يعرف... يوم أمس كان شارع أكسفورد من طريق أكسفورد إلى قوس الرخام خالياً تماماً من السيارات، ولم يكن فيه سوى عدد قليل من المشاة، في الوقت الذي كانت فيه شمس بعد الظهر تسطع مباشرة على طريق السيارات الفارغ، وتتألق على شظايا لا تحصى من الزجاج المكسور. خارج جون لويس كومة من موديلات عرض الألبسة البلاستيكية الوردية الحمراء. والحقيقية يمكن أن يخطئ بها المرء من مسافة قليلة ويحسبها كوماً من الجثث. مثل المشهد في برشلونة تماماً باستثناء القديسين المصنوعين من الجبس الذين جُلبوا من الكنائس المنتهكة... المظاهر مألوفة في هذا الوقت: أكوام من الزجاج مجمعة بشكل أنيق، ركام من الحجارة وشظايا من حجر الصوان، رائحة لتسرب الغاز، زمر من المتفرجين ينتظرون عند النطاق الذي تضربه الشرطة حيث توجد القنابل التي لم تنفجر..... أناس يصعب وصفهم يتجولون في المكان بعد أن تم إجلاؤهم من بيوتهم بسبب القنابل ذات التأثير المؤجل. أمس أوقفتني فتاتان في الشارع، أنيقتان جداً في مظهريهما ماعدا وجهيهما المتسخين بالتراب: "من فضلك أيها السيد، هل يمكنك أن تخبرنا أين نحن؟".... ومن ناحية أخرى هناك أيضاً مساحات هائلة من لندن عادية تقريباً وكل واحد فيها سعيد تماماً في النهار، ولا يبدو عليهم أبداً أنهم يفكرون بالليلة التالية، مثل حيوانات عاجزة عن التنبؤ بالمستقبل، طالما لديها القليل جداً من الطعام ومكان تحت الشمس.

رسالة إلى البارتيزان ريفيو
١٥ أبريل/ نيسان ١٩٤١

أعزائي المحررين

كما رأيتم التاريخ المكتوب بالأعلى، لم تصلني رسالتكم إلا بعد شهر من إرسالها، لهذا لن تحصلوا على رد مني قبل ٢٠ أبريل. أتوقع أنها ستصلكم قبل يونيو. سأحاول أن أجيب على أسئلتكم باختصار، لكني يجب أن أرجع إلى المساحة المخصصة إن أجبت على كل الأسئلة بشكل كامل، لهذا سأركز على الأسئلة التي أعرف عنها أكثر. لم تذكروا أي شيء في رسالتي السابقة إن كان الرقيب قد قص شيئاً منها، لهذا أفترض أنني أستطيع التكلم بحرية.

١ - ما هو مستوى الصحافة الشعبية ونغمتها هذه الأيام؟ كم مقدار المعلومات الحقيقية عن الحرب التي تظهر؟ إلى أي مدى تنشر أخبار الإضرابات العمالية والاضطرابات؟ ماذا يدور في نقاشات البرلمان؟ إلى أية درجة تهيمن نغمة الدعاية؟ هل هذه الدعاية أغلبها معادية للهون ومفرطة في الوطنية الشوفينية، أم أنها معادية أكثر للفاشية؟ ماذا عن دور الإذاعة؟ والسينما؟

تحسنت نغمة الصحافة الشعبية بفضل الإدراك خلال السنة الماضية. وهذا بارز بشكل ملحوظ في الديلي ميرور والسنداي بيكتوريال (صحيفتان حجم ورقهما صغير توزعان بشكل واسع أغلب قرائهما من الجيش) وصحف بيفربروك الديلي إكسبريس والسنداي إكسبريس والإيفيننغ ستاندارد. باستثناء الديلي ميل وبعض صحف الأحد التي كانت القسم الأقل ثقافة، فقد أصبحت كل الصحف جادة سياسياً، ولكنها حافظت على تركيبتها "المثيرة" والعناوين الصارخة..إلخ، وباتت كلها تنشر مقالات كانت تعتبر مستحيلة قبل سنتين فوق رؤوس القراء. أما صحيفتا الميرور والستاندارد، فهما يساريتان بشكل واضح. إن صحيفة الستاندارد هي الأقل أهمية بين صحف بيفربروك الثلاثة، وقد صرف النظر عنها وتركها بوضوح لصحفيين صغار من الجناح اليساري، وسمح لهم قول ما يحبون بشرط ألا يهاجموا

المدير مباشرة. كل الصحافة الآن يسارية تقريباً مقارنة بما كانت عليه قبل دونكيرك - حتى التايمز تدمدم عن الحاجة إلى تملك ممركز ومساواة اجتماعية أكبر - ولكي تجد أي تعبير مباشر للآراء الرجعية، رجعية بالمعنى قبل الفاشي القديم، عليك الآن أن تذهب إلى أسبوعيات وشهريات مغمورة أغلبها صحف كاثوليكية. هناك عنصر من غسول العين (الكلام المضلل) في كل هذا، لكنه عائد جزئياً إلى حقيقة أن الهبوط التجاري في السلع الاستهلاكية سلب الكثير من سلطة المعلنين على سياسة هيئة التحرير. وهذا سيفلس الصحف، وسيجبر الدولة على تولي الأمر، لكن في الفترة الفاصلة فإن السيطرة على الصحف للصحفيين بدلاً من المعلنين.

بالنسبة إلى دقة الأخبار وصحتها، أعتقد أن هذه هي الحرب الأصدق التي جرت في الأزمنة الحديثة. طبعاً المرء لا يرى صحف العدو إلا نادراً، لكن في صحفنا لا يوجد شيء بالتأكيد مقارنة مع الأكاذيب المخيفة التي تقال من الجانبين في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ أو في الحرب الأهلية الإسبانية. أعتقد أن الإذاعة خصوصاً في البلدان التي لا يمنع فيها الإصغاء للإذاعات الأجنبية، تجعل الكذب الواسع النطاق أصعب وأصعب. الألمان الآن أغرقوا البحرية البريطانية مرات كثيرة في بياناتهم المنشورة، لكنهم على العكس لم يكذبوا كثيراً بخصوص الأحداث الرئيسية. حين تسوء الأمور تكذب حكومتنا بطريقة غبية، فتمنع الأخبار، وتكون متشائمة بشكل غامض، لكنها عموماً كانت تخرج بالحقيقة خلال بضعة أيام. لقد عرفت من مسؤولين جيدين أن تقارير المعارك الجوية..إلخ التي تصدرها وزارة الجوية، صادقة جوهرياً، لكنها متحيزة بشكل مؤيد طبعاً. بالنسبة إلى الجيشين المتحاربين لا أستطيع الكلام. أشك إن كانت الاضطرابات العمالية تُنقل تماماً، وعلى الأرجح لا يمكن التكتم وإخماد أخبار إضراب واسع النطاق، لكن أعتقد بوجود ميل قوي للسكوت والتهدئة بخصوص الاحتكاك العمالي، وأيضاً الاستياء الذي سببه الإيواء والإجلاء وبدلات فصل الجنود عن زوجاتهم..إلخ. نقاشات البرلمان ربما لا تشوه وتحرف في الصحافة، لكن في برلمان مملوء بالرؤوس الميتة، أصبحت النقاشات أقل إمتاعاً، وليس هناك سوى أربعة صحف تعطيها أهمية الآن.

تدخل الدعاية في حياتنا أكثر مما فعلته قبل سنة، لكن ليس بشكل فاضح، والمغالاة بالوطنية وكره الهون بلا ريب لا شيء قياساً بما كان في ١٩١٤ - ١٩١٨ لكنه يزداد. أعتقد أن رأي الأغلبية سيكون: نحن نقاتل الشعب الألماني وليس النازيين فقط. كراسة فانسيتارت الكارهة للألمان، **سجل أسود**، بيعت مثل الكعك الحار. من التافه الادعاء بأن هذا شيء خاص بالبورجوازية، فقد كانت هناك تجليات قبيحة جداً منها وسط الناس العاديين، لكن مع استمرار الحرب مازال الكره قليلاً بشكل لافت حتى الآن في هذه البلاد، كما أن "العداء للفاشية" من النوع الذي كان موضة شائعة أثناء فترة الجبهة الشعبية، ليس قوياً حتى الآن، ولم يصب الشعب الإنكليزي بذلك، ومعنوياته الحربية تعتمد على وطنية قديمة الطراز، وعلى رفضه أن يحكمه الأجانب، وعلى عدم إدراكه حين يكون في وضع خطر.

أعتقد أن البي بي سي، بالرغم من غباوة دعايتها الأجنبية وأصوات مذيعيها التي لا تحتمل، صادقة جداً، وتعتبر عموماً هنا أكثر موثوقية من الصحافة. أما السينما فتبدو وكأنها لم تتأثر بالحرب، أي في التكنيك وفي الموضوع الرئيسي، وتستمر بنفس الهراء الحلو، وحين تلامس السياسة، تكون متخلفة بسنين عن الصحافة الشعبية وبعقود من الزمن خلف الكتاب العادي.

٢ - هل صدرت هناك أية كتابة جادة؟ هل هناك أي أدب معادٍ للحرب مثل باربوسي..إلخ في الحرب الأخيرة؟ نسمع هنا عن وجود نزعة وميل نحو المدرسة الرومانسية والهروبية في الكتابة البريطانية الراهنة. هل هذا صحيح؟

بقدر معرفتي، لم يكتب أي شيء ذو أهمية ماعدا بشكل شظايا، مفكرات ومخطوطات قصيرة مثلاً. كانت أفضل الروايات التي قرأتها أثناء السنة الفائتة، إما أمريكية أو ترجمات من كتب أجنبية كتبت قبل عدة سنين. هناك نتاج كبير من الأدب المعادي للحرب، لكن من نوع النظرة الواحدة غير المسؤول. لا يوجد شيء مطابق لخصائص كتب الحرب في ١٩١٤ - ١٩١٨ تلك الكتب التي في طرقها المختلفة اعتمدت على إيمان بوحدة الحضارة الأوروبية، وعموماً على إيمان في تضامن الطبقة العاملة الدولي. هذا لم يعد موجوداً الآن - قتلته الفاشية، ولم يعد أحد يصدق بأن العمال يستطيعون إيقاف الحرب إن رفضوا القتال من كلا الطرفين

وفي وقت واحد. أن تكون معادياً للحرب فعالاً في إنكلترا الآن، هو أن تكون مؤيداً لهتلر. وقلة من الناس لديها الشجاعة الفكرية لتكون هكذا بإخلاص. أنا لا أفهم لماذا لم تُكتب كتب جيدة من المنظور المؤيد لهتلر، لكن لم يظهر شيء حتى الآن.

لا أرى أي ميل للفرارية في الأدب الراهن، لكن أعتقد إن نتج الآن أي عمل رئيسي، فسيكون هروبياً أو غير موضوعي في أي حال. استنتج هذا من البحث في عقلي أنا. لو استطعت توفير الوقت والسلام والهدوء العقلي لكتابة رواية الآن،لرغبت أن أكتب عن الماضي، فترة ما قبل ١٩١٤ التي تندرج تحت عنوان "الهروبية"

٣ - كيف هي معنويات الجيش النظامي؟ هل هناك نزعة نحو ديمقراطية أكثر؟ هل يمكن القول إنه جيش بريطاني في المقام الأول، أو جيش معادٍ للفاشية - مثل الجيش الموالي في إسبانيا؟

أعتقد أن المعنويات في الجيش جيدة جداً بالمعنى القتالي، لكن هناك سخطاً كبيراً حول بدلات حصص الانفصال وحول الامتياز الطبقي في مسألة الترقيات، وأن الجنود في إنكلترا ضجروا بشكل رهيب من التبطل الطويل والمخيمات الكئيبة القذرة التي يمضون الشتاء فيها، بينما عائلاتهم تُقصف في البلدات الكبيرة، وغباوة النظام العسكري الذي صُمم لمرتزقة أميين والذي يطبق الآن على مجندين متعلمين ومثقفين. مازال الجيش جيشاً "غير سياسي" في المقام الأول. والآن هناك دروس نظامية في التعليم السياسي تخضع لتغييرات محلية اعتماداً على قائد الوحدة، ويبدو وجود قدر جيد من حرية النقاش. بالنسبة إلى "نزعة" "نحو الديمقراطية" يجب أن أقول إنها أقل مما كانت عليه قبل سنة، لكن لو عاد المرء خمس سنوات إلى الوراء، فسيرى أن التقدم هائل. في الخدمة الفعلية الضباط الآن يلبسون تقريباً نفس اللباس الموحد كما الرجال (بزة الحرب) وبعضهم يرتديها في الخدمة الداخلية عادة، كما بطلت تحية الضباط في الشارع أيضاً. يجب أن يجتاز المجندون المسحوبون الجدد المراتب والترقيات حسب الكفاءة نظرياً، لكن هذا الادعاء الرسمي مؤسس على أن الجيش ديمقراطي بالكامل، يجب ألا يؤخذ بمحمل الجد الآن. لايزال نظام وهيكلية الضباط الرسميين هناك، ويميل الوافدون الجدد أن يرقوا على أسس اجتماعية مع أخذ الجدارة السياسية بعين الاعتبار. لكن هذا كله سوف يتبدل

إن استمرت الحرب. ستكون الحاجة إلى الرجال القادرين كبيرة جداً. وبما أن الاختلاف بين الطبقة الوسطى والطبقة العاملة ذات الأجر الأفضل صغير جداً الآن، ستبقى الرتب العسكرية الدنيا على أساس طبقي. إن الكوارث التي بانتظارنا الآن، ربما تدفع عملية الديمقراطية قدماً، كما فعلت كارثة فلاندرز قبل سنة.

٤ - قرأنا مقالة مشوقة في عدد حديث من التريبيون عن الحرس الوطني. هل يمكنك إعطائنا فكرة عن الوضع الحالي لهذه الحركة؟ هل لايزال وينترينغهام القوة المحركة خلفها؟ هل هو جيش للطبقة الوسطى أم للطبقة العاملة في غالبه؟ إلى أي مدى هو ديمقراطي الآن؟

الحرس الوطني كيان ضد الفاشية موجود في إنكلترا الآن، وفي الوقت نفسه ظاهرة مدهشة، فهو نوع من جيش شعبي ضباطه من البليمبس. أغلب الجنود من الطبقة العاملة مع توابل قوية من الطبقة الوسطى، لكن عملياً كل القيادات بيد الكهول الأثرياء الذين أكثرهم غير أكفاء بشكل واضح. الحرس الوطني قوة بدوام جزئي، وفي البداية نُظم بشكل واعٍ ومقصود في اعتقادي بطريقة لن يتوفر فيها الوقت الإضافي لأفراد الطبقة العاملة لتسلم أي مركز فوق رتبة الرقيب. مؤخراً أتخمت المناصب العليا بالجنرالات المتقاعدين وأدميرالات البحر والألقاب الفارغة من كل الأنواع. أعمار رؤساء مجموعات الجنود بين الخامسة والثلاثين والخمسين أو دون العشرين. ضباط من آمر سرية (نقيب) فصاعداً أكبر عمراً من المعدل بكثير، وأحياناً بعمر السبعين. بسبب هذه التركيبة، يمكنك تخيل الصراع المستعر بين طبقة البليمبس الحاكمة التي تريد جيش مشاة استعراضي من نموذج ما قبل ١٩١٤ وبين الجنود الذين يريدون أنموذجاً أكثر ديمقراطية متخصصاً في حرب العصابات وأسلحتها. النزاع لم يكن سياسياً بشكل صريح، لكنه تحول إلى صراع على نقاط فنية تنظيمية وقواعد الانضباط والتكتيك، وكلها طبعاً لها مضامين سياسية مفهومة بشكل شبه واعٍ من كلا الطرفين. وزارة الحرب كانت منفتحة ومفيدة بوضوح، لكنني أعتقد أنه يصح القول إن الرتب العليا في الحرس الوطني قاتلت بثبات ضد النظرة الواقعية للحرب وأن كل التجريب والمحاولات في التدريب الجدي كانت نتيجة الحث والدفع من الأسفل. لازال وينترينغهام وبعض من مرافقيه في مدرسة الحرس الوطني للتدريب (بدأت بشكل غير رسمي بواسطة

أسبوعية البكتشربوست وبعدئذ تولتها وزارة الحرب) لكن مدرسة جيش الشعب للفكر التابعة لونترينغهام، فقدت ثقلها خلال الأشهر الستة الماضية ولونترينغهام تأثير عظيم، باعتبار أن آلاف الرجال من كل أصقاع البلاد تدربوا على يديه في دورات التدريب مدة الواحدة منها ثلاثة أيام. إن الحرس الوطني الآن أشبه بالجيش النظامي أو بالأحرى بالجيش المحلي قبل الحرب منه حين بدا أنه ديمقراطي وضد الفاشية أكثر مما يرغب بعض قادته، كما انتشرت إشاعات مرات كثيرة بأن الحكومة انزعجت منه وفكرت في تسريحه، لكن لم يكن أي تحرك في هذا الاتجاه. نقطة هامة جداً، ضرورية تقنياً لقوة من هذا النوع، لكن لا يمكن إحرازها إلا بعد صراع، وهي أن يحتفظ الرجال ببنادقهم وأن يتخلصوا من التحية العسكرية عند الانصراف من الصف. ليس هناك احتكاكات كثيرة على الرغم من الطبيعة الطبقية للقيادة المفهومة جداً. ضمن الرتب الدنيا الروح ديمقراطية جداً ورفاقية، مع غياب التكبر والارتباك الطبقي. وهذا لم يكن متخيلاً قبل عشر سنين. أتكلم عن تجربة بما أنني أخدم في منطقة سكنية مختلطة يسير فيها عمال المصانع والرجال الأغنياء في الصفوف معاً. عموماً الموقف السياسي للرجال موقف وطني من الطراز القديم، ممزوج بكره غامض للنازية، لكنه صادق. اليهود كثيرون في وحدات لندن. بشكل عام أعتقد الخطر الموجود الذي يهدد الحرس الوطني أن يتحول إلى ميليشيا رجعية من الطبقة الوسطى، لكن هذا غير محتمل الآن.

٥ - ما مدى عدائية رجعية الشركات الكبيرة ووضوحها (ليس قمصان موسلي السوداء وإنما القوى الأصلب والأخطر للرأسمال الكبير)؟ أنت ذكرت انتقالاً سياسياً إلى اليمين في حكومة تشرشل في الأشهر الأخيرة. هل هذا يعني أن قوى رجال الأعمال المنظمة عادت وتسلقت السرج؟

لا أعرف ما يحدث وراء الكواليس، ولا أستطيع الإجابة إلا بشكل عام جداً: الرأسمالية المتساهلة ميتة في إنكلترا، ولا تستطيع أن تحيا، إلا إذا انتهت الحرب خلال الأشهر القليلة القادمة. الملكية المركزية والاقتصاد المخطط آتيان حتماً. القضية كلها هي من سيحكم. الانتقال اليميني الأخير، يعني أننا خضعنا لسيطرة الأثرياء والأرستقراطيين وليس للناس العاديين. هم سيستخدمون سلطتهم للحفاظ على تركيبة الحكومة على أساس طبقي، ويتلاعبون

بالضرائب وتقنين المؤن لمصلحتهم، ويتفادون استراتيجية الحرب الثورية، لكن لا عودة إلى الرأسمالية من النوع المشوش القديم. الانتقال في الأشهر الستة الماضية، لا يعني أكثر من حرية اقتصادية أو فوائد لرجل الأعمال الفرد - على العكس تماماً، لكنه لا يعني أيضاً أنك لن تحصل على وظيفة مهمة إذا لم تكن واحداً من المدارس الصحيحة - لقد قدمت مبرراتي للاعتقاد أن هذا الميل سيتبدل، لكنه كان الميل منذ الخريف الماضي.

٦ - هل تريد أن تقول إن بيفن وموريسون لازالا يقودان دعم الطبقة العاملة البريطانية؟ أليس هناك أي سياسي آخر من حزب العمال نال أبعاداً جديدة في مجريات الحرب - يغتصب ما يملكه هذان الاثنان؟ هل مازالت حركة مدراء المتاجر تكبر وتزداد؟

أنا لا أعرف إلا القليل جداً عن القضايا الصناعية. يجدر أن أقول إن بيفن يقود تأييد الطبقة العاملة، أما موريسون فعلى الأرجح لا. هناك شعور واسع أن حزب العمال ككل تنازل عن حقه ببساطة. الرجل الآخر من حزب العمال الذي زادت شهرته هو كريبس. إن أجبر تشرشل على الرحيل، فان كريبس وبيفن على رأس الرجال المحتملين للعضوية مع تفضيل واضح لبيفن.

٧ - كيف تعلل ما يبدو لنا هنا الحفاظ على مقدار لافت من الديمقراطية والحريات المدنية أثناء الحرب؟ أهو ضغط العمال؟ أو التقاليد البريطانية؟ أو ضعف الطبقات العليا؟

إن عبارة "التقاليد البريطانية" عبارة غامضة، لكني أعتقد أنها الإجابة الأقرب. أفترض أنني سأبدو كأني سأعطي نفسي إعلاناً مجانياً، ولكني في الحقيقة أريد أن ألفت الانتباه إلى كتاب حديث لي، **الأسد ووحيد القرن** (أعتقد أن نسخاً منه وصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية)؟ أشرت فيه إلى أن في إنكلترا يوجد شعور محدد من الولاء العائلي الذي يتقاطع مع النظام الطبقي (وأخشى أيضاً أنه يسهل للنظام الطبقي بقاءه حياً) ويكبح نمو الكره السياسي. أعتقد أنه كان يمكن أن تكون هناك حرب أهلية في إنكلترا، لكني لم أقابل قط أي شخص إنكليزي قادر على تخيل شيء كهذا. في الوقت نفسه، يجب على المرء ألا يبالغ في تقدير مقدار الحرية الفكرية الموجودة هنا. الوضع في إنكلترا: هناك احترام عظيم لحرية الكلام وقدر قليل جداً من حرية الصحافة. خلال السنين العشرين الماضية جرى تدخل مباشر أو غير مباشر

بحرية الصحافة من دون أن يثير ولو بصيص احتجاج شعبي. الثقافة في هذه البلاد ضئيلة، وهناك شعور بأن الكلمة المطبوعة غير مهمة كثيراً، وأن الكتاب وأمثالهم يستحقون الكثير من العطف. ومن جانب آخر أن الجو الذي لا تجرؤ فيه على التحدث بالسياسة خوفاً من أن يسمعك الجستابو، شيء لا يمكن تصوره في إنكلترا، وأية محاولة لإنتاجه ستكسر ليس بالمقاومة الواعية وإنما بعجز الناس العاديين على إدراك المطلوب منهم. مع الطبقة العاملة بشكل خاص التذمر عادي جداً، لذلك لا يريد أفرادها أن يعرفوا متى يتذمرون. حين يمكن استخدام البطالة كوسيلة ضغط يخشى الرجال غالباً من التعبير عن آراء "حمراء" قد تنتقل إلى المراقب أو المدير، لكنهم نادراً ما يقلقون أن يسمعهم شرطي. أعتقد الآن بوجود منظمة للتجسس السياسي في المصانع والحانات..إلخ، وطبعاً في الجيش، لكن أشك إن كان بمقدورها أكثر من تقديم التقارير عن حالة الرأي العام وأحياناً تضحي بفرد ما يُعتبر خطيراً. مرر قانون غبي في وقت ما في الماضي، يعتبر قول أي شيء "يحتمل أن يسبب الذعر والجزع" جريمة يعاقب عليها القانون (أو كلمات). كانت هناك مقاضاة تحته، لكنه عملياً قانون ميت، وربما غالبية الناس لا يدرون بوجوده، ونادراً ما تدخل حانة أو عربة قطار دون أن تسمعه يخترق تقنياً. فمن الواضح أن المرء لا يستطيع نقاش الحرب بجدية دون الإدلاء بتصريحات قد تسبب الذعر. ربما في وقت ما سوف يمرر قانون يمنع الناس من الاستماع إلى محطات الإذاعات الأجنبية، لكنه لن يكون منفذاً بالقوة أبداً. الطبقة الحاكمة البريطانية تؤمن بالديمقراطية والحرية المدنية في أضيق وأكذب طريقة. وفي أي حال تؤمن برسالة القانون وتلتزم به أحياناً حين لا يكون لمصلحتها، ولا تبدي أية علامة عن تطوير عقلية فاشية أصيلة. إن الحرية من كل نوع يجب أن تنحدر بوضوح نتيجة الحرب، لكن بسبب التركيبة الحالية للمجتمع والجو الاجتماعي، توجد هناك نقطة لا يستطيع الانحدار تجاوزها. قد تصبح إنكلترا فاشية من الخارج أو نتيجة ثورة داخلية ما، لكن الطبقة الحاكمة القديمة لا تستطيع في رأيي إنتاج نظام حكم شمولي لوحدها. ليس لسبب آخر سوى أنها غبية جداً. لقد كانت عاجزة على إدراك الشيء الأول والمهم حول طبيعة الفاشية، لهذا نحن في وسط هذه الفوضى.

٨ - من هنا يبدو كما لو أن هناك تقدماً سريعاً جداً نحو اقتصاد حربي شمولي في الأشهر القليلة الماضية - نظام تقنين الطعام وإخضاعه للحصص الذي انتشر بشكل أوسع، وتجنيد

بيفن الإجباري لطبقات محددة من العمال، وتوسيع سيطرة الحكومة على التجارة. هل هذا الانطباع صحيح؟ هل الإيقاع يزداد سرعة أم يقل؟ كيف يشعر رجل الشارع حول فعالية الجهد الحربي؟ إلى أي حد يشعر في حياته اليومية بأثر هذه الإجراءات؟

نعم، الشيء يحدث بسرعة كبيرة مسبقاً، وسيتسارع بشكل هائل في الأشهر القادمة. في القريب العاجل، سنكون كلنا في الزي الموحد، أو نعمل في عمل إجباري، وربما نأكل بشكل متساو ومشاعي. لا أظن أن هذا سيقابل بمعارضة كبيرة، طالما يصيب كل الطبقات بالتساوي. الأغنياء سيصرخون، طبعاً - في الوقت الحاضر هم يتهربون من الضرائب بشكل ظاهر، ونظام الحصص نادراً ما يؤثر بهم - لكنهم سيجبرون على الانصياع إن كانت الورطة شديدة فعلاً. أنا لا أعتقد أن الإنسان العادي يهتم البتة إن تحول الاقتصاد إلى اقتصاد شمولي. الناس كأصحاب المعامل الصغيرة والمزارعين والحانوتيين يقبلون في انتقالهم من رأسماليين صغار إلى موظفين عند الدولة بدون اعتراض، بشرط أن يبقى مصدر رزقهم محمياً. الناس في إنكلترا يكرهون فكرة الجستابو، وهناك الكثير من المعارضة التي كان بعضها ناجحاً ضد التجسس على المنشقين السياسيين واضطهادهم، لكن لا أعتقد أن الحرية الاقتصادية فقدت جاذبيتها الكبيرة. الانتقال إلى الاقتصاد المركز، لا يبدو أنه سيغير أسلوب حياة الناس تقريباً مثلما فعل نقل السكان من أماكنهم إلى أخرى، وخلط الطبقات مع بعضها البعض نتيجة التجنيد الإجباري والقصف. لكن هذا ربما يكون أقل حقيقة في الشمال الصناعي؛ حيث كل الناس هناك يعملون أكثر في ظروف متعبة أكثر والبطالة انتهت عملياً. لا أستطيع أن أتنبأ برد الفعل حين نبدأ بمعاناة الجوع المتوقع في الأشهر القليلة التالية. بمعزل عن القصف والعمل الإضافي الشاق المفروض على فئات معينة من العمال، لا يستطيع المرء القول بصدق إن هذه الحرب سببت صعوبات أكبر حتى الآن. مازال لدى لناس من الطعام أكثر مما لدى الشعوب الأوروبية في زمن السلم.

٩ - ما هي أهداف الحرب التي اتفقت عليها حركة اليسار والعمال الآن؟ كم أنت متفائل بهذه الأهداف التي نفذت؟ كم هو مقدار الضغط الآن على الحكومة لكي تعلن عن أهداف الحرب الاشتراكية؟ هل يبدو هناك أي اختلاف راديكالي بين أعضاء العمال والتوري في

حكومة تشرشل حول قضية أهداف الحرب وحول سياسة تجاه أوروبا وألمانيا إن حدث النصر؟ كم هي واضحة ودقيقة خطط "إعادة بناء المجتمع" في إنكلترا بعد الحرب؟

ليس لدى الجريدة متسعاً للإجابة على هذا السؤال بشكل صحيح ولائق، لكن أعتقد أنه يمكنك أن تعتبر أن حزب العمال الآن ليس لديه سياسة مستقلة حقيقية عن الحكومة. بعض الناس يعتقدون أن اليسار المحافظ (ايدين وربما تشرشل) من المحتمل أن يتبنوا سياسة اشتراكية أكثر من حزب العمال. هناك مناشدات مستمرة للحكومة كي تعلن عن أهدافها من الحرب، لكنها تأتي من أفراد، وليست العمل الرسمي لحزب العمال. ليست هناك أي علامة عن امتلاك الحكومة خطة تفصيلية أو عامة حتى لفترة ما بعد الحرب. إن الشعور بأن "الأشياء بعد الحرب ستكون مختلفة" واسع الانتشار، وأن إنكلترا قد تكون أسوأ من الماضي طبعاً، لكن العودة إلى إنكلترا تشامبرلاين لا يمكن تصوره حتى لو كان ممكناً تقنياً.

١٠ - هل تود القول إن الجماهير، الطبقة العاملة والطبقة الوسطى، يقفون بحماس أكثر أو أقل خلف الحكومة الحالية، مما فعلوا في مايو/ أيار ١٩٤٠؟ هل هم وراء جهود الحرب بشكل عام؟

بالقدر الذي تريده الحكومة أقل حماساً لكن ليس بدرجة كبيرة جداً. لقد أتت هذه الحكومة مع درجة من التأييد الشعبي، وهذا أمر غير معتاد تماماً. خيبت توقعات الناس في سياستها الداخلية لكن ليس بالشكل الفادح الذي تفعله الحكومات عادة. ستتضاءل شعبية تشرشل الشخصية نوعاً ما، لكن مازال له أتباع أكثر من أي رئيس وزراء في العشرين سنة الأخيرة. بالنسبة إلى الحرب لا أعتقد أنه سيكون هناك الكثير من التغيير والاختلاف. لقد مل الناس وضجروا، لكن لا يتوقع المرء شيئاً. لا يستطيع المرء التكلم عن يقين عن هذا إلى ما بعد الأزمة القادمة، التي ستكون ذات طبيعة مختلفة - أقل وضوحاً ربما وأصعب تحملاً من تلك التي حدثت في السنة الماضية.

أرجو أنني قد أجبت على أسئلتكم بهذا. أخشى أنها كانت أطول مما سمحتم لي بقليل. كل شي حسن هنا، حسن بعض الشيء. تعرضنا لقصف عنيف ليلة أمس، واشتعلت حرائق ضخمة في المكان، وصخب المدافع منعنا من نوم نصف الليلة. لكن لا يهم، كانت الضربات

على المسارح والمتاجر الأنيقة، وهذا الصباح يوم ربيعي جميل وأشجار اللوز أزهرت وسعاة البريد وعربات الحليب يتجولون ذهاباً وإياباً كالعادة. وفي زاوية الشارع امرأتان بدينتان تتبادلان القيل والقال بجانب عمود صندوق البريد. لكم كلكم كل التوفيق.

ملحق في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤١

كانت الأحداث الرئيسية منذ أن كتبت لكم في ١٥ أبريل/ نيسان الهزائم البريطانية في ليبيا واليونان، والوضع العام في الشرق الأوسط ازداد سوءاً، وفي العراق ثورة، وستالين يستعد للدخول في شراكة مع هتلر، ودارلان يستعد للسماح بدخول القوات الألمانية إلى سوريا. هناك أيضاً خلال اليومين الأخيرين وصول غريب لهيس، الذي سبب الكثير من التسلية والتخمين، لكن التعليق على الحدث مبكر جداً.

السؤال المهم إن كان المنعطف الذي أخذته الحرب، سيؤدي إلى نمو أكثر في العاطفة الديمقراطية كما حدث السنة الماضية. أخشى أن على المرء أن يقول إن الفرص ضدنا. كان السبب الذي جعل لحملة دونكيرك وانهيار فرنسا أثراً في الرأي العام، وفعل الكثير هو القرب الشديد لهذه الأشياء حدثت. كان هناك تهديد مباشر وفوري بالغزو، وهناك الجنود العائدون إلى الوطن بمئات الآلاف الذين أخبروا عائلاتهم كيف تعرضوا للخذلان. هذه المرة الشيء يحدث بعيد جداً في بلدان لا يعرفها الإنسان العادي أو يهتم بأي شيء عنها - العامل البريطاني العادي ليس لديه أوهى فكرة أن قناة السويس لها أية علاقة بمستوى معيشته الخاص - ولو كان لدى الجنود الذين طردوا من اليونان حكايات يروونها، لفعلوا ذلك في مصر وفلسطين. أيضاً لم يتوقع أحد أن تكون حملة اليونان إلا كارثة. قبل أن يصدر الإعلان بوقت طويل، كان معروفاً أنه لنا قوات في اليونان، ولم أجد أي أحد من أي نوع كان يؤمن بنجاح الحملة. ومن جانب آخر، شعر كل واحد تقريباً أن من واجبنا أن نتدخل. لقد أدرك بشكل عام أننا لن نستطيع قتال الألمان في القارة الأوروبية حتى يكون لدينا جيش حديث، لكن بنفس الوقت "نحن لا نستطيع أن نخذل اليونانيين". الشعب البريطاني لم يتلوث بعبادة السلطة، ولا يشعر بعقم هذا النوع من الإيحاء كما شعر شعب القارة. في النقاش البرلماني حول الحملة الإغريقية، كان الهجوم على الحكومة بقيادة المنبوذين الحسودين مثل لويد جورج، وبدلاً من أن يكون

نقاشاً لائقاً، حُرّف النقاش إلى مطلب اقتراع ثقة استحقته الحكومة عموماً لعدم وجود حكومة بديلة في الوقت الحالي. الارتدادات التي ربما تحدث في أستراليا قد تفعل شيئاً نحو دقرطة إدارة الحرب. بدأ الناس هنا يقولون إن الدفعة نحو اليسار التالية يجب أن تأتي من أمريكا. أقترح مثلاً أن يضع روزفلت شرطاً لمساعدة أكبر، وهو أن تفعل الحكومة البريطانية شيئاً بخصوص الهند. أنتم أقدر مني على الحكم إن كان هذا محتملاً.

الغارات الجوية مستمرة. بالنسبة إلى الناس العاديين، هذا هو القسم المهم من الحرب. وفي الواقع هي الحرب، لكن بلادة حسهم مثيرة للدهشة. كانت هناك معلومات جانبية عن العقل الشعبي ربما لم يأت ذكرها في الصحافة الأمريكية والتي ربما تهمكم، في انتخابات فرعية حديثة في بيرمنغهام. منشق محافظ سمى نفسه "مرشح الأخذ بالثأر" رشح ضد مرشح الحكومة. ادعاؤه أننا يجب أن نركز على قصف المدنيين الألمان للانتقام لما حدث ويحدث هنا. كانون ستيوارت موريس أحد القياديين المشهورين في اتحاد التعهد بالسلام (بيس بليدج يونيون) رشح في لائحة السلاميين. كانت الشعارات الشخصية للمرشحين الثلاثة "اقصفوا برلين" و"أوقفوا الحرب" و"ادعموا تشرشل" حصل رجل الحكومة على ١٥ ألف صوت، وحصل الاثنان الآخران على ألف وخمسمائة صوت لكل منهما. الاقتراع ضعيف ربما، لكن مع اعتبار الأوقات التي نعيش فيها، أعتقد أن هذه الأرقام مشجعة.

جورج أورويل
بارتيزان ريفيو
يوليو/أغسطس ١٩٤١

رسالة لندن إلى بارتيزان ريفيو
١٧ أغسطس ١٩٤١

أعزائي هيئة التحرير

طلبتم مني أن أبعث برسالة أخرى، ولكنكم تركتم لي الحرية في اختيار ما سأكتب عنه، وأضفتم أن قراءكم ربما يهتمون لسماع المزيد عن الحرس الوطني. سأعطي بعض الملاحظات عن الحرس الوطني بقدر ما لدي من فسحة من الكتابة، لكني أعتقد أن موضوعي الأساسي يجب أن يكون عن دخول جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية في الحرب. فقد خيمت على كل شيء في الأسابيع السبعة الأخيرة، وأعتقد أنه من الممكن الآن إجراء نوع من التحليل الأولي لحالة الرأي العام البريطاني.

التحالف الأنغلوسوفييتي

اللافت جداً حول التحالف الأنغلوسوفييتي، فشله في التسبب بأي انقسام في البلاد أو أي صدى سياسي جدي من أي نوع. صحيح أن غزو هتلر للاتحاد السوفييتي فاجأ وأدهش الجميع هنا، فلو تم التحالف في عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ - كما كان ممكناً له أن يحدث - بعد الجدالات الطويلة والمريرة مع أعضاء الجبهة الشعبية الذين يصرخون من جانب وصحافة التروي التي تشارك روسيا الحمراء في كل ما تستحق من الجانب الآخر، لكانت هناك أزمة سياسية من الطراز الأول، وربما انتخابات عامة، وبالتأكيد نمو حزب مؤيد للنازية علناً في البرلمان والجيش..إلخ. لكن قبل حزيران يونيو ١٩٤١ بدا ستالين شيطاناً صغيراً مقارنة بهتلر، ولم يصدق المؤيدون للفاشية أنفسهم، وحدث الهجوم بشكل مفاجئ. لذلك لم يكن هناك وقت لمناقشة منافع ومضار تحالف روسي. أظهر التحول الجديد للحرب حقيقة واحدة، بأن هناك أعداداً كبيرة من الشعب الإنكليزي الذين ليس لديهم أي رد فعل خاص تجاه روسيا السوفييتية، فهي مجرد بلاد غامضة مثل الصين أو المكسيك، قامت فيها ثورة في الماضي ونسيت طبيعتها. لقد تم تجاوز كل الجدالات الشائنة حول أعمال التطهير والخطط الخماسية ومجاعة

أوكرانيا من قبل قارئ الصحف العادي ببساطة. لكن بالنسبة إلى البقية الذين لديهم أثر محدد من تأييد الروس أو عدائهم، فقد انقسموا إلى عدة كتل واضحة أهمها التالية:

الأغنياء: إن البرجوازيين معادون للروس شخصياً، ولا يمكنهم أن يكونوا غير ذلك. وجود عدد كبير من بلاشفة الردهات الأثرياء، لم يبدل هذا الواقع، لأن هؤلاء الناس ينتمون بشكل ثابت إلى الجيل الثالث من طبقة أصحاب الدخول من الأرض. هؤلاء الذين من الطبقة الرأسمالية سينظرون إلى تدمير هتلر للاتحاد السوفييتي بمشاعر مختلطة في أفضل الأحوال، لكن من الخطأ الافتراض بأنهم يخططون لخيانة مباشرة أو يُحتمل للقلة القادرة على فعل هذا أن تفوز بالسيطرة على الدولة. إن استمرارية تشرشل في المنصب ضمانة ضد ذلك.

الطبقة العاملة: الأعضاء الأذكياء في الطبقة العاملة البريطانية كلهم يؤيدون الروس بشكل معتدل وغامض. الصدمة التي سببتها الحرب الروسية ضد فنلندا، كانت حقيقية تماماً، لكنها اعتبرت حدثاً غير مهم في ذلك الوقت بالنسبة الحرب الرئيسية، ونسيت تماماً، لكن ربما من الخطأ التخيل أن اشتراك روسيا في الحرب بحد ذاته سيحفز الطبقة العاملة البريطانية على بذل جهود وتضحيات أعظم. بقدر ما كانت إضرابات ومشاحنات السنتين الماضيتين بسبب الأعمال الاستفزازية المتعمدة التي قام بها الشيوعيون، فإنها ستتوقف وتنتهي طبعاً، لكن يُشك إن كان الشيوعيون يقدرون على أكثر من تمجيد الشكاوي المشروعة وتضخيم. ستظل الشكاوي هناك، ولن تشكل رسائل البرافدا الأخوية أي فرق في مشاعر عامل الميناء الذي يفرغ حمولة السفن أثناء الغارة الجوية، أو عامل الذخيرة الذي يفوته آخر قطار يقله إلى البيت. من المحتمل أن يظهر ولاء الطبقة العاملة تجاه روسيا بشكل كالتالي، إذا أبدت الحكومة علامة بأنها ستخذل الروس، هل ستأخذ الطبقة العاملة خطوات لفرض سياسة أكثر فاعلية عليها؟ في تلك اللحظة أعتقد سيُكتشف أن هناك نوعاً من الولاء للاتحاد السوفييتي مازال موجوداً، ويجب أن يكون موجوداً طالما أن روسيا هي البلاد الوحيدة التي تتظاهر بأنها دولة للعمال، لكن هذا الولاء لم يعد قوة. وحقيقة أن هتلر يتجرأ على شن حرب عليها، إثبات على هذا بحد ذاته. منذ خمسة عشر عاماً كانت حرب كهذه مستحيلة في أي بلاد ماعدا اليابان، لأن الثقة بأن الجنود العاديين سيستخدمون أسلحتهم ضد وطن الأسلاف الاشتراكي، لم تعد ممكنة. لكن هذا النوع من الولاء ضيعته أنانية السياسة الروسية القومية تدريجياً. إن الوطنية من الطراز

القديم أقوى بكثير الآن من أية أهمية أو أية فكرة عن وطن الأسلاف الاشتراكي. وهذه الحقيقة ستنعكس في استراتيجية الحرب أيضاً.

الشيوعيون: ليس هناك حاجة كي أخبركم عن تنقلات السياسة الشيوعية الرسمية خلال السنتين الماضيتين، ولكني لست متأكداً إن كانت عقلية الإنتلجنسيا الشيوعية في الولايات المتحدة مشابهة للتي عندنا هنا. في إنكلترا، الشيوعيون الذين يمكن احترامهم هم عمال المصانع، لكنهم ليسوا كثيرين، ولأنهم بالضبط عمال مهرة عادة ورفاق مخلصين، فلا يمكنهم أن يظلوا مخلصين تماماً دائماً لسياسة الحزب. بين سبتمبر/ أيلول ١٩٣٥ ويونيو/ حزيران ١٩٤١ لم يقوموا بأية محاولة واضحة في تخريب إنتاج الأسلحة، على الرغم من منطق السياسة الشيوعية المطالب بهذا. أما شيوعيو الطبقة الوسطى، فهم حالة مختلفة على أي حال، ويشملون أغلب قادة الحزب الرسميين وغير الرسميين، ومعهم يجب تكديس القسم الأعظم من الإنتلجنسيا الأدبية الشابة وخصوصاً في الجامعات. كما أشرت في مكان آخر، تبلغ "شيوعية" هؤلاء الناس حد القومية وعبادة القائد في أكثر أشكالها سوقية المحولة إلى الاتحاد السوفييتي. إن أهميتهم في هذه اللحظة أنهم مع دخول روسيا في الحرب، ربما يستردون التأثير الذي حققوه في الصحافة بين عام ١٩٣٥ و١٩٣٩ وخسروه خلال السنتين الأخيرتين. إن صحيفة ذا كرونيكلز الثانية بالأهمية بعد الديلي ميل في الصحف اليسارية اليومية (بتوزيع حوالي مليون وأربعمائة نسخة) منشغلة مسبقاً بتلميع الرجال الذين كانت تشجبهم كخونة منذ قليل. ما يسمى بالميثاق الشعبي الذي يقوده دي ان بريت (عضو برلمان زعم الشيوعيون أنه عضو سري في حزبهم) لايزال موجوداً، لكنه عكس سياسته فجأة. إذا سمح للشيوعيين بنفس النوع من العلنية التي حصلوا عليها في عام ١٩٣٨ فإنهم سيزرعون بذور الشقاق عن قصد أو دون قصد بين بريطانيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية. هم لا يتوقون إلى تدمير هتلر وإعادة الاستقرار لأوروبا، وإنما يريدون نصراً عسكرياً سوقياً لوطن الأسلاف المتبنى، وسيبذلون أقصى جهودهم لتحقير الرأي العام هنا بتحويل أقصى قدر ممكن من هيبة ومقام الحرب لروسيا، ورمي الشكوك حول وفاء بريطانيا الطيب. خطر هذا النوع من الشيء يجب ألا تُقلل أهميته. الروس أنفسهم ربما يفهمون كيف ستتطور الأوضاع ويتصرفون بناء على ذلك. إن كانت

هناك حرب طويلة في انتظارنا، فليس من مصلحتهم أن يكون استياء وسخط في هذه البلاد. لكن بقدر ما يستطيع الشيوعيون الحصول على فرصة لقول آراءهم وسماعها، يجب اعتبارهم إحدى القوى التي تعمل ضد الوحدة الأنغلوروسية.

الكاثوليك:هناك كما يفترض مليونا كاثوليكي في هذه البلاد، معظمهم من العمال الفقراء الإيرلنديين. هم يصوتون لحزب العمال، ويقومون بدور ضغط خامد على سياسة حزب العمال لكنهم ليسوا تماماً تحت إبهام كهنتهم ليكونوا فاشيين في تعاطفهم. إن أهمية كاثوليكيي الطبقتين الوسطى والعليا أنهم كثيرون جداً في وزارة الخارجية والخدمة القنصلية، ولهم قدر كبير من التأثير على الصحافة، لكنه أقل مما كان في السابق. الكاثوليكيون "المولدون" من عائلات كاثوليكية قديمة، أقل تأييداً للبابا وأكثر وطنية عادة من المثقفين المهتدين (رونالد نوكس وأرنولد لون..إلخ) الذين لهم نفس العقلية التي لدى الشيوعيين البريطانيين بعد إجراء التعديلات اللازمة. أعتقد أنني لا أحتاج إلى أن أعيد وأذكر نشاطاتهم المؤيدة للفاشية في الماضي. منذ اندلاع الحرب لم يتجرأوا أن يؤيدوا هتلر علناً، لكنهم وجهوا دعايتهم مباشرة لكيل المديح لبيتان وفرانكو. مؤسس حركة سيف روح القدس الكاردينال هينسلي (الديمقراطية الكاثوليكية) يبدو معادياً للنازية بصدق وفقاً لمعاييره، لكنه لا يمثل سوى قطاع من الرأي الكاثوليكي. بمجرد أن غزا هتلر جمهوريات الاتحاد السوفييتي، حتى أعلنت الصحافة الكاثوليكية ضرورة اغتنام المهلة والراحة التي وفرها ذلك لنا، لكن "لا تحالف مع روسيا". من الملاحظ أن الصحافة الكاثوليكية أصبحت أشد عدائية للروس حين بدا أن الروس يقاومون بشكل ناجح. كل من درس الأدب الكاثوليكي في السنوات العشر الأخيرة، لا يشك بأن القسم الأعظم من الهيئة الكهنوتية والإنتلجنسيا ستصطف مع ألمانيا ضد روسيا، لو توفرت أقل فرصة لذلك. كرههم لروسيا سام فعلاً، ويكفي لإثارة اشمئزاز شخص يعادي الستالينية مثلي، لكن دعايتهم تقليدية (فظاعات بلشفية، تأميم النساء..إلخ) ولا تترك أثراً كبيراً على أفراد الطبقة العاملة. حين تستقر الحملة الروسية بشكل أو بآخر، أقصد حين يكون هتلر في موسكو أو يبدي الروس علامات عن غزوهم لأوروبا، سيخرجون إلى العلن، ويقفون إلى جانب هتلر، وسيكونون بالتأكيد في المقدمة إن قُدمت تسوية سلمية بشروط مقبولة. لو أقيمت أية حكومة مشابهة لحكومة بيتان هنا، فإنها ستعتمد كثيراً على الكاثوليك.

هم الأعداء الواعون والأذكياء الوحيدون في الحقيقة إن وصلت الديمقراطية إلى إنكلترا، ومن الخطأ الاستخفاف بهم. هناك الكثير من أجل تيارات الرأي المتنوعة. بدأت هذه الرسالة منذ أيام مضت، ومنذ ذلك الوقت والشعور بأننا لم نفعل ما يكفي لمساعدة الروس تقوى بشكل ملحوظ. العمل الغريب المفضل الآن هو أننا نعطي روسيا "كل معونة غير حربية" حتى صحافة بيفربروك تردد هذا. بما أن روسيا دخلت الحرب، فهناك برودة في المشاعر تجاه الولايات المتحدة الأمريكية. سبب إعلان تشرشل - روزفلت الكثير من الخيبة في اعتقادي. إلى أي مدى ذهب تشرشل، كان سراً رسمياً، لكن يبدو أنه معروف على نطاق واسع، وأغلب الناس يتوقعون أن تدخل أميركا الحرب أو تحتل بعض النقاط الاستراتيجية على الأطلسي على الأقل. يقول الناس الآن إن الروس يقاتلون، والأميركيون يتكلمون. ويبدأ القول المتداول العام الماضي يتكرر "التعاطف للصين والنفط لليابان".

الحرس الوطني: أنشئت هذه القوة المعروفة بمتطوعي الحرس المحلي في الربيع الماضي، استجابة لنداء أنتوني ايدن في الراديو، بعد نجاح قوات المظليين الألمانية في هولندا، وحصلت على ربع مليون متطوع في الأربع والعشرين ساعة الأولى، ووصل العدد الآن بين مليون ونصف ومليونين، وتذبذب في السنة الماضية، لكن مع ميل للزيادة. وباستثناء نواة صغيرة من الضباط الإداريين ومدربي ان سي أو انضموا إليهم من الجيش النظامي، هم بالكامل من الذين يعملون بدوام جزئي وبدون مرتب. عدا عن التدريب، فإن الحرس الوطني يريح الجيش من الدوريات الروتينية وحراسة الأبنية..إلخ، ويقوم بمقدار معين من عمل التدبيرات الوقائية ضد الغارات الجوية.

يتنوع مقدار الوقت الذي يخصصه الأعضاء العاديين من أجل الوطني بين خمس وخمس وعشرين ساعة أسبوعياً. وبما أن الشيء برمته تطوعي، فليس هناك طريقة لفرض الحضور، لكن الذين يغيبون بشكل متكرر، يُطلب منهم الاستقالة والعضوية غير النشطة التي لا تزيد على العشرة بالمائة. في حالة الغزو، سيتبنى الحرس الوطني نفس الأساس الانضباطي للجيش النظامي، وسيدفع للأعضاء أجراً مقابل خدماتهم، وكل الجنود سيستلمون نفس المبلغ. في البداية كان الحرس الوطني قوة غير متجانسة وبنيوياً أشبه بالميليشيات الإسبانية، لكنه شكل تدريجياً على شاكلة الجيش النظامي، وكل الفرق العادية جرى ضمها إلى أفواج تنتمي إلى

المجالس المحلية. لكن المصانع والسكك الحديدية والمكاتب الحكومية لها وحداتها المنعزلة الخاصة المسؤولة عن الدفاع عن أبنيتها وأراضيها فقط.

إن الفكرة الاستراتيجية للدفاع الوطني، هي الدفاع الثابت في العمق أي من الشاطئ إلى الشاطئ الآخر من إنكلترا. والفكرة التكتيكية ليست دحر الغازي، وإنما إعاقته حتى تصل القوات النظامية، إذ ليس المراد من الحرس الوطني المناورة بأعداد كبيرة وعلى مناطق واسعة، وعملياً قد لا يستطيع العمل في وحدات أكبر من السرية، وليس هناك فرقة تستطيع التقدم أو التراجع إلى أبعد من بضعة أميال. القصد أن أي غازٍ يجتاز أي قسم من البلاد، سيواجه دائماً زمراً صغيرة لا تحصى من الأعداء من خلفه وأمامه إلى أن يصل إلى الشاطئ البحري. بالنسبة إلى الطرق التي تتم فيها المقاومة بأفضل أشكالها، فقد تنوعت النظريات، ولكنها ناتجة عن مراقبة الحملات المختلفة في الخارج. في البداية كان القصد مجرد التعامل مع رجال المظلات، لكن الأحداث في فرنسا والبلدان المنخفضة سببت خوفاً مبالغاً فيه من الطابور الخامس، ولدى السلطات فكرة جلية لتحويل الحرس الوطني إلى نوع من قوة شرطية إضافية، لكن هذه الفكرة عقيمة، لأن الرجال الذين انضموا لم يريدوا إلا محاربة الألمان (في يونيو/ حزيران كان الغزو متوقعاً مباشرة) وفي الظروف المشوشة للوقت، كان عليهم تنظيم أنفسهم. بعد أن وزعت عليهم أسلحة كافية وزياً عسكري، لكي يبدو رجال الحرس الوطني مثل الجنود، كانت هناك رغبة في تحويلهم إلى مشاة عاديين من أنموذج ما قبل الحرب الخاطفة الكاسحة. وبعد نجاح الألمان في إيصال فرقهم العسكرية المدرعة عبر البحر إلى ليبيا، انتقل التشديد إلى القتال ضد الدروع. بعد ذلك بقليل، بينت خسارة كريت ماذا يمكن أن يعمل بالمظليين والقوات المحمولة جواً، وتم إعداد التكتيكات للتعامل معها. أخيراً أدى القتال بطريقة حرب العصابات الروسية خلف الخطوط الألمانية، إلى تجديد التأكيد على حرب العصابات والتخريب. كل هذه النزعات المتتالية انعكست في الأدب الغزير الرسمي وغير الرسمي الذي نشأ وتطور مسبقاً حول الحرس الوطني.

يعتبر الحرس الوطني الآن قوة خطيرة قادرة على مقاومة قوية لفترة قصيرة في أي حال، فلا يستطيع أي غازٍ الانتقال لأكثر من بضعة أميال عبر الريف المفتوح، أو أكثر من بضع مئات من الياردات في البلدات الكبيرة، من دون أن يجد عقدة من الرجال المسلحين. يمكن الاعتماد

على المعنويات بشكل مطلق وأكيد، لكن الرغبة في ارتكاب أعمال تخريب ومواصلة القتال في أراض محتلة نظرياً يتنوع حسب الآراء السياسية للوحدات العسكرية المختلفة. هناك صعوبات جمة وجلية في طريقة إبقاء هذه القوة في الميدان لأكثر من أسبوع أو اثنين في الوقت الواحد. وإن كان هناك قتال مطول في إنكلترا، فقد يندمج الحرس الوطني في الجيش النظامي بالتدريج ويفقد طابعه التطوعي المحلي. إن الصعوبة الأكبر هي في التزويد بضباط. رغم عدم وجود تمييز طبقي ولو نظرياً، يقود الحرس الوطني عملياً ضباط على أساس طبقي بشكل أكبر من الحالة في الجيش النظامي، وليس من السهل أيضاً كيف يمكن تحاشي هذا حتى لو كانت الرغبة موجودة. في أي جيش يميل الأشخاص من الطبقتين الوسطى والعليا إلى الحصول على مواقع القيادة - حدث هذا في الميليشيات الإسبانية الأولى، وحدث في الحرب الأهلية الروسية - وفي القوة التي تعتمد على وقت فراغ أفرادها، لا يستطيع الشغيل العادي أن يجد وقتاً للقيام بروتين قائد الفصيلة أو السرية الإداري. أيضاً لا تقدم الحكومة مساعدات مالية لقائد الفصيلة سوى مكافأة رمزية حين يكون الرجال في العمل طوال الليل ومؤن السلاح والبذلات الرسمية. لا يستطيع المرء التآمر على جنود من دون اكتساب نفقات صغيرة ثابتة، ومبلغ خمسين جنيهاً سنوياً هو الحد الأدنى الذي يصرفه أي ضابط مفوض على وحدته. هذا يعني عملياً أن كل المناصب القيادية تقريباً بيد الكولونيلات المتقاعدين أو الأشخاص الذين لديهم دخول خاصة، وفي أفضل الأحوال رجال الأعمال الأثرياء ونسبة محترمة من الضباط من كبار السن الذين شاركوا في حرب ١٩١٤ بالإضافة إلى الحروب التي تلتها. في حالة القتال المطول، قد يكون من الضروري التخلص من عدد كبير من الضباط يصل إلى النصف. يعرف الجنود العاديون كيف تستقيم الأمور، وسيبتكرون طريقة ما لانتخاب ضباطهم إن تطلبت الحاجة. لقد نوقش انتخاب الضباط بين الرتب الدنيا أحياناً، لكن لم يطبق إلا في بعض وحدات المصانع، كما أعتقد.

لم يعد طاقم الحرس الوطني وكادره نفس الهيئة التي كانت في البداية. الرجال الذين اندفعوا أفواجاً في الصفوف في الأيام القليلة الأولى، كان أغلبهم من الرجال الذين حاربوا في الحرب الأخيرة، وكانوا كباراً جداً على هذه الحرب. الأسلحة التي وزعت ذهبت إلى أيدي الناس المعادين للفاشية تقريباً، لكنهم غير مثقفين سياسياً. الخميرة الوحيدة هي قلة من عمال

المصانع الواعين طبقياً وحفنة من الرجال الذي حاربوا في الحرب الأهلية الإسبانية. اليسار كالعادة فشل في أن يرى فرصته - كان بإمكان حزب العمل أن يجعل الحرس الوطني منظمته الخاصة به لو تصرف بقوة في الأيام القليلة الأولى - وفي دوائر اليسار كان الرائج وصف الحرس الوطني كمنظمة فاشية. فيما بعد حين وُزعت الأسلحة كانت الفكرة أن من الجيد امتلاك بعضها، فبدأوا في الدخول. ووجد عدد معين من مثقفي اليسار طريقهم إلى داخل صفوف الجيش. لم يكن ممكناً أبداً الحصول على دفق كبير من حزب العمل، ولكن أغلب المجندين الراغبين كانوا دائماً الناس الذين كان مثالهم الأعلى تشرشل. القوة التثقيفية الرئيسية ضمن الحركة كانت مدرسة التدريب التي أنشأها توم وينترنغهام وهوغ سلاتر وآخرون وخصوصاً في الأشهر القليلة الأولى قبل أن تتولى وزارة الحرب قيادتهم. كانت تعاليمهم عسكرية صرفة، لكن مع الإصرار على طرق حرب العصابات التي فيها مضامين ثورية، كانت مفهومة تماماً من قبل الكثيرين من الرجال الذين كانوا يصغون إليها. الحزب الشيوعي منع أعضاءه منذ البداية من الانضمام إلى الحرس الوطني، وشن حملة شعواء من القذف ضد وينترينغهام وشركاه. خلال الأشهر الأخيرة، جرد التجنيد العسكري الإجباري تقريباً الحرس الوطني من الرجال الذين بين العشرين والأربعين من العمر، لكن في الوقت نفسه كان هناك دفق من صبيان الطبقة العاملة من أعمار السابعة عشرة. أغلبهم غير مسيسين تماماً في مواقفهم. وحين سئلوا عن سبب انضمامهم، قالوا إنهم يريدون الحصول على بعض التدريب العسكري ضد الزمن حين يستعدون للخدمة العسكرية الإلزامية بعد ثلاث سنوات. هذا يعكس حقيقة أن الكثيرين من الشعب الإنكليزي لا يستطيعون الآن أن يتخيلوا وقتاً لا تكون فيه حرب. وهناك أيضاً عدد لا بأس به من الأجانب في الحرس الوطني. في فترة الهلع في السنة الماضية تم إقصاؤهم بشكل صارم. إحدى وظائفي الأولى كانت أن ألف على تهدئة وإرضاء الأعضاء المحتملين الذين رفضوا لأنهم لم يكونوا من أصل بريطاني من جهة الأب والأم كليهما. أحد الرجال رفض لأن أمه أو أباه كان أجنبياً ولم يجنس حتى عام ١٩٠٢ الآن أسقطت هذه الأفكار. وفي وحدات لندن، هناك روس وتشيك وبولونيون وزنوج وأمريكان، لكن لا ألمان أو طليان. لن أقسم إن الموقف السائد في الحرس الوطني أكثر "يسارية" من العام الماضي. إنه يعكس الموقف العام للبلاد الذي تحول إلى هذا الشكل وذلك في غضون السنة

الماضية مثل باب على مفصلاته. لكن النقاشات السياسية التي يسمعها المرء في المطاعم المتنقلة وغرف الحرس الوطني، أكثر ذكاء مما كانت، كما كان لانتفاضة المشاعر وسط الشباب من كل الطبقات الذين أجبروا الآن على علاقة حميمة لوقت طويل، فائدة جمة.

يستطيع المرء رؤية مستقبل الحرس الوطني إلى نقطة ما. حتى لو تبين عدم وجود غزو، فلن يُحل قبل نهاية الحرب وربما إلى ما بعدها، وسيلعب دوراً مهماً إن كانت هناك أية محاولة من نوع سلام بيتان أو في أي اقتتال داخلي بعد الحرب. إنه يمارس تأثيراً سياسياً قليلاً على الجيش النظامي وسيمارس تأثيراً أكبر تحت ظروف خدمة نشطة. لقد شُكل في البداية، لأن إنكلترا بلاد محافظة؛ حيث يمكن الاعتماد على انصياع الناس العاديين للقانون، لكنه بمجرد أن أصبح كياناً وفر عاملاً سياسياً لم يوجد قط في بريطانيا من قبل. ربع مليون عامل بريطاني يملكون بنادق في غرف نومهم الآن، ولا يرغبون في التخلي عنها أبداً. إن الإمكانيات المتضمنة في ذلك لا تحتاج إلى إشارة.

أرى أنني كتبت أكثر مما نويت. بدأت في كتابة الرسالة في ١٧ أغسطس/ آب وأنهيتها في الـ ٢٥ منه. لقد زحف الروس والبريطانيون إلى داخل إيران، وهذا أفرح الجميع. استمتعنا بصيف جميل نوعاً ما، وحصل الناس على بعض من أشعة الشمس في عظامهم لتساعدهم خلال الشتاء. لم تتعرض لندن لغارة جوية حقيقية منذ أربعة أشهر تقريباً. أجزاء من إيست ايند فارغة ومهدمة تماماً، والمدينة كتلة من الخراب، لكن كنيسة القديس بول لم تمس وتقف بارزة مثل صخرة هائلة. أما الأجزاء التي تعرضت لقصف أقل من لندن، فقد نُظفت تماماً لدرجة لن تعرف أنها تضررت أبداً. حين أقف على سطح هذه الكتلة العالية من الشقق التي أسكن فيها وأنظر حولي، لا أرى أي أضرار قصف في أي مكان ماعدا بضع كنائس انفصلت أبراجها من الوسط مما جعلها تبدو مثل سحالٍ فقدت ذيولها. لا يوجد عجز حقيقي في الطعام، لكن نقص الأطعمة المركزة (لحم، لحم الخنزير المقدد، والجبن، والبيض) يسبب نقص تغذية خطير وسط العمال الذين يبذلون جهداً كبيراً كعمال المناجم الذين يضطرون إلى تناول وجبة منتصف النهار بعيداً عن البيت. هناك ندرة مزمنة في السجائر وعجز محلي في البيرة. بعض بائعي التبغ يعتبرون أن مقدار التبغ المدخن بلغت نسبة أربعين في المائة منذ الحرب. الأجور لا تتماشى مع الأسعار، لكن من جانب آخر، ليس هناك بطالة. وبالرغم من أن الأجر

الفردي أقل مما كان عليه، إلا أن دخل العائلة أعلى. الثياب خضعت لنظام التقنين الصارم، لكن الحشود في الشوارع ليست رثة بشكل ملحوظ بعد. أتساءل كثيراً كم أُتلفنا كلنا تحت تأثير الحر وكم حجم الصدمة التي سيشعر بها المرء إن استطاع أن يرى لندن التي كانت قبل ثلاث سنوات جنباً إلى جنب مع لندن الآن. لكنها كانت عملية حدثت بالتدريج ولم نلاحظ أي تغيير. لا أستطيع أن أتخيل سماء لندن بدون ستار المناطيد، ويجب أن أشعر بالأسف إن رأيتها تذهب.

آرثر كوستلر الذي ربما تعرفون عمله، هو جندي في الرواد، وفرانز بوركيناو مؤلف الحلبة الإسبانية والشيوعي الأممي، الذي رحل قسراً إلى استراليا أثناء هلع السنة الماضية، عاد إلى إنكلترا، ولويس ماكنيس ووليام ايمبسون يعملان للبي بي سي، وديلان توماس في الجيش، وآرثر كلادر - مارشال أصبح ضابطاً، وعاد توم وينترينغهام مرة أخرى كمدرس في الحرس الوطني بعد أن استقال فترة. في الوقت الحالي اعترف الروس بمقتل ٧٠٠ ألف شخص، والجيوش تتجمع في ستالينغراد من نفس الطرق التي سلكتها قبل اثنتين وعشرين سنة. لم أتوقع أبداً أنني سأعيش لأقول "حظاً طيباً" للرفيق ستالين، لكنني سأفعل.

المخلص لكم - جورج أورويل

ملاحظة: يجب أن أضيف كلمة عن تلك "الرسالة" المروعة من الروائي الروسي أليكسي تولستوي للكتاب البريطانيين، مع القصص الوحشية القديمة التي نُقب عنها واستخرجت من ١٩١٤ وظهرت في عدد سبتمبر/ أيلول من صحيفة ذا هورايزن. تلك هي صورة الحرب وطبيعتها التي تخيفني أكثر من الغارات الجوية. لكن أتمنى من شعب في الولايات المتحدة الأمريكية ألا يتصور أن الشعب هنا يأخذ هذا الهراء على محمل الجد، فكل الذين أعرفهم يضحكون حين يسمعون الكلام القديم حول ربط الألمان بقيود إلى مدافعهم الرشاشة.

بارتيزان ريفيو

نوفمبر/ تشرين ثاني - كانون أول ١٩٤١

رسالة لندن
إلى البارتيزان ريفيو ١٩٤١

أعزائي المحررين،

لا يحدث شيء سياسي في إنكلترا في هذه اللحظة. وبما أننا أمام حرب استنزاف طويلة بانتظارنا، فإن المعنويات العالية بالغة الأهمية فيها. أريد أن أستغل معظم الرسالة في مناقشة تيارات فكرية راهنة تتحرك ذهاباً وإياباً تحت السطح. قد تعني بعض النزعات القليل في الوقت الحالي، لكنها تخبرنا شيئاً عن التطورات الممكنة المستقبلية.

نحن نقاتل ضد من؟

بدأ هذا السؤال الذي يجب أن يجد إجابة له عاجلاً أم آجلاً، يقلق الجمهور الكبير لبعض الوقت من عام ١٩٤١ بعد كراريس فانيسيتارت وإطلاق صحيفة يومية ألمانية للاجئين (داي زيتونغ، يسارية معتدلة توزيعها ٦٠ ألف نسخة). ترى فرضية فانيستاريت أن كل الألمان شريرين، وليس النازيين فقط. لا حاجة لي أن أخبركم كيف انقض البليمبز بمرح كبير عليها، كوسيلة للهروب من فكرة أننا نقاتل ضد الفاشية. لكن مؤخراً أخذ خط "الألماني الطيب الوحيد هو الألماني الميت" الشكل الأكثر شؤماً حملة جديدة ضد اللاجئين. ارتكب الملكيون النمساويون خطأ بحق الأجنحة اليسارية الألمانية التي اتهموها بتأييد الألمان سراً، وهذا أبهج البليمبز الذين يحاولون دائماً خداع عدويهما الاثنين ألمانيا والاشتراكية في الوقت نفسه. تم الوصول إلى الهدف، حين بات كل من يصف نفسه عدواً للفاشية مشتبهاً به بتهمة مؤيد للألمان. لكن السؤال أكثر تعقيداً، بسبب حقيقة أن البليمبز لديهم قدر محدد من الصواب إلى جانبهم. فانيساريت على الرغم من أنه يكتب على نحو رديء، إلا أنه رجل قادر، ولديه تجربة أكثر من أغلب خصومه، وأصر على حقيقتين اثنتين بذلت النخبة أقصى قدرتها للتعتيم عليهما. الأولى أن الفلسفة النازية ليست جديدة، وإنما مجرد استمرار للرابطة الألمانية؛ والحقيقة الأخرى أن بريطانيا لا تستطيع أن تمتلك سياسية

أوروبية من دون أن تمتلك جيشاً. النخبة (الورديون) لا تستطيع الاعتراف بأن الجماهير الألمانية تقف خلف هتلر، أكثر مما يستطيع البليمبز الاعتراف أن طبقتهم يجب أن تُزاح من السلطة، إن كان علينا أن نكسب الحرب. احتدم النزاع لأربعة أشهر أو أكثر في أعمدة المراسلة في صحف كثيرة، وإحدى الصحف حافظت على استمراره كوسيلة لاصطياد اللاجئين و"الحمر" عموماً. لكن لم يبث أحد أي نظريات عنصرية عن ألمانيا، وهذا تقدم عظيم على الدعاية الحربية عام ١٩١٤ - ١٩١٨.

لا يبدو أن العمال العاديين يكرهون الألمان أو أنهم يميزون بين الألمان والنازيين. كان هناك في كل الأماكن مشاعر عنيفة معادية للألمان في وقت الغارات الجوية السيئة، لكنها خمدت. مصطلح "هون" لم يدرج ويشيع وسط أفراد الطبقات العاملة هذه المرة، وقد لقبوا الألمان بـ "جيري" التي ربما لها معنى فاحش غير حاد، لكنه ليس معادياً. ووقع اللوم على هتلر من أجل كل شيء، وبشكل أكثر من القيصر خلال الحرب الأخيرة. واعتدنا أن نسمع بعد الغارة الجوية الناس يقولون "هو كان فوق مرة أخرى ليلة أمس"، طبعاً المقصود بهو هتلر. ولقبوا الإيطاليين عموماً بالعيون المعصوبة، وهي أقل عدوانية من كلمة ووبس، ولا يوجد شعور شعبي ضدهم أياً كان ولا ضد اليابانيين أيضاً. وبالحكم من خلال الصور في الصحف، فإن فتيات الأرض جاهزات لمواعدة الأسرى العاملين في المزارع. أما بالنسبة إلى الأمم الأصغر التي يفترض أنها كانت في حالة حرب معنا، فلا أحد يتذكر أسماءها حتى. النسوة اللواتي كن مشغولات في حياكة الجوارب للفنلنديين في السنة الماضية، منشغلات الآن في حياكتها للروس، لكن ليس هناك مشاعر سيئة. الانطباع الرئيسي الذي يستمده المرء من كل هذه الفوضى في الآراء، أن عدم وجود هدف إيجابي للحرب أو حتى أي صورة عقلية محددة للعدو، لا يشكل أهمية بالنسبة إلى الناس المتفقين في رفضهم أن يحكمهم الأجانب.

حلفاؤنا

مهما يمكن أن يحدث بين المسؤولين الكبار، فقد كان للتحالف الروسي أثر في زيادة المشاعر المؤيدة للروس. من المستحيل مناقشة الحرب مع الطبقة العاملة وأفراد الطبقة الوسطى من

دون أن تشعر بهذا. لكن الحماس الذي يشعر به الناس العاديون نحو روسيا، ليس مقروناً مع أوهى اهتمام في النظام السياسي الروسي. كل الذي حدث أن روسيا باتت محترمة. راية هائلة للمطرقة والمنجل ترفرف يومياً فوق سيلفريدج أكبر متجر في لندن. لم يسبب الشيوعيون الكثير من الاحتكاك كما توقعت. كانوا لبقين في ملصقاتهم وبياناتهم العامة، وذهبوا إلى أبعاد غير مسبوقة بتأييد تشرشل، ولا يبدو أنهم كسبوا في النفوذ السياسي، رغم أنهم كسبوا في الإعداد نتيجة التحالف الروسي. المدهش أن الناس العاديين لم يدركوا وجود أي رابط بين موسكو والحزب الشيوعي، أو حتى أن السياسة الشيوعية تبدلت كنتيجة لدخول روسيا في الحرب. كل واحد مسرور أن الألمان فشلوا في الاستيلاء على موسكو، لكن لا أحد يرى في هذا أي مبرر للانتباه إلى ما يمكن أن يقوله بالم دوت وشركاه. عملياً هذا الموقف معقول ومحسوس، لكن في صميمه يكمن نقص عميق من الاهتمام بعلم السياسة النظري. لم يرفع الحظر عن الديلي ووركر، فبعد أن حظرت مباشرة، ظهرت ثانية كجريدة مصنع طبعت بصورة غير شرعية، وتم التغاضي عنها، والآن تباع في الشوارع من دون تدخل، تحت عنوان البريتش وركر، لكنها لم تعد جريدة يومية، وفقدت جلّ توزيعها. في أقسام الصحافة الأهم، لم يسترد الشيوعيون تأثيرهم.

ليس هناك زيادة مماثلة في الشعور المؤيد لأمريكا - إن حدث شيء فهو العكس. صحيح أن دخول اليابان وأمريكا في حرب كان متوقعاً من الجميع، أما الغزو الألماني لروسيا، فقد جاء مفاجئاً. لقد سبب تحالفنا الجديد بوضوح قدراً هائلاً من الشعور المعادي لأمريكا وسط الطبقة الوسطى العادية ضئيلة الثقافة. إن المشاعر الإنكليزية الثقافية نحو الأمريكان معقدة، لكن يمكن تحديدها بدقة. في الطبقة الوسطى، الناس غير المعادين للأمريكان هم أنموذج التقنيون المخفضة رتبتهم الطبقية الاجتماعية (مثل مهندسي الراديو) والمثقفين الصغار. إلى عام ١٩٣٠ كان كل الناس "المثقفين" تقريباً يشمئزون من الولايات المتحدة الأمريكية التي اعتبرت مُفسدة إنكلترا وأوروبا. إن زوال هذا الموقف متصل ربما بسقوط اللغتين اللاتينية والإغريقية من موقعهما المهيمن كمواد دراسية. ليس لدى المثقفين الأصغر عمراً أي اعتراض على اللغة الأمريكية، ويميلون إلى يكون لهم موقف مازوشي نحو الولايات المتحدة الأمريكية

ألتي يعتقدون أنها أغنى وأقوى من بريطانيا. طبعاً هذا هو بالضبط الذي يهيج الغيرة في نفس المواطن العادي من الطبقة الوسطى. أعرف أناساً يطفئون الراديو آلياً حالما يأتي أي خبر أمريكي، بينما يحظى أتفه فيلم بريطاني بدعم الطبقة الوسطى لأنه "راحة كبيرة للابتعاد عن تلك الأصوات الأمريكية". يُعتقد أن الأمريكيين متبجحون وسيئو السلوك وعبدة مال ومتهمون بالتآمر ليرثوا الإمبراطورية البريطانية. هناك غيرة تجارية أيضاً، وهي قوية في المهن التي ضربتها إتفاقية الإعارة والتأجير (اتفاقية تعير فيها أمريكا المدمرات والسفن لبريطانيا، مقابل استخدام الأولى للقواعد العسكرية للثانية - المترجم). موقف الطبقة العاملة مختلف تماماً. أفراد الطبقة العاملة الإنكليزية يكرهون الأمريكان دائماً حين يكونوا على تماس مباشر معهم، لكنه ليس لديهم عداء ثقافياً مسبقاً لهم. في البلدات الكبيرة يتأمركون أكثر فأكثر في كلامهم بتأثير أفلام السينما.

من غير المؤكد إن كان الرهاب من الأجانب في إنكلترا كسره حضور أعداد كبيرة من الأجانب أم لا. أعتقد أنه فعل، لكن عدداً وافراً من الناس يختلفون معي. ليس هناك شك بأن شك الطبقة العاملة بالأجانب في صيف ١٩٤٠ مكّن من اعتقال اللاجئين. تكلمت مع عدد لا يحصى من الناس آنذاك، ولم أجد أحداً باستثناء المثقفين اليساريين، من رأى خطأ في ذلك. لاحق البليمبس اللاجئين، لأن أغلبهم كانوا من الاشتراكيين، وكان خط الطبقة العاملة "ماذا يريدون من مجيئهم إلى هنا؟" يكمن تحت هذا أثر من فترة أسبق، امتعاض ضد هؤلاء الأجانب الذين كانوا يأخذون وظائف الإنكليز كما تصوروا. في السنوات التي سبقت الحرب كانت معارضة النقابات العمالية هي التي منعت التدفق الكبير للاجئين اليهود الألمان. أصبحت المشاعر الحديثة أكثر ودية، لأنه لم يعد هناك اندفاع على الوظائف جزئياً، وجزئياً برأيي أيضاً يعود إلى الاتصالات الشخصية. القوات الأجنبية التي سكنت هنا بأعداد كبيرة، يبدو أنها تآلفت جيداً مع السكان، فقد حقق البولونيون بشكل خاص نجاحاً كبيراً مع الفتيات. من جانب آخر هناك مقدار معين من العداء للسامية. يصادف المرء دائماً جيوباً منها، عنيفة جداً وواضحة لدرجة مزعجة. يُفترض أن اليهود يتهربون من الخدمة العسكرية، وأنهم أسوأ المذنبين في السوق السوداء..إلخ. وقد سمعت هذا النوع من الحديث حتى من أهالي

الريف الذين ربما لم يروا يهودياً قط في حياتهم، لكن لا أحد يريد أن يفعل أي شيء لليهود فعلياً، ولا يبدو أن فكرة أن اليهود مسؤولين عن الحرب قد راجت وانتشرت وسط الجمهور الكبير، رغم محاولات الراديو الألماني.

الانهزامية والدعاية الألمانية

استرضاء من نوع تشامبرلاين لم "يمت"، كما تؤكد لنا الصحف باستمرار، وهو كامن في الأسفل. لكن هناك مدرسة أخرى من انهزامية الجناح اليميني التي يمكن دراستها بشكل مناسب في صحيفة ذا ترث الأسبوعية. لصحيفة ترث تاريخ غريب وتأثير واضح. في السابق كانت صحيفة واقعية غير سياسية متخصصة بشكل أنيق من تقليب القذارة (كشف خداع براءات الأدوية..إلخ) وقوبلت كأمر طبيعي في كل نادٍ ومطعم عسكري في كل أرجاء أوروبا. حسب معرفتي لا يزال توزيعها نفسه، لكن مؤخراً أخذت خطاً سياسياً واقتصادياً واضحاً، وأصبحت معقلاً لأسوأ نوع من تورية (رجعية) الجناح اليمني. السير ايرنست بن مثلاً، يكتب فيها أسبوعياً. هي ليست معادية للعمال، وإنما معادية لتشرشل بطريقة حذرة ومعادية للروس والأكثر وضوحاً معادية للأمريكان. إنها تعارض تبادل القواعد البحرية مقابل المدمرات الأمريكية. أما المعارضون الآخرون، فكانوا أصحاب القمصان السود والشيوعيين. الاستراتيجية التي تدافع عنها، تجنب التحالفات المربكة والابتعاد عن أوروبا والتركيز على الدفاع عن النفس في البحر والجو. المنطق الواضح لهذا، هو عقد تسوية سلمية في أقرب فرصة ممكنة. كمية الإعلانات للبنوك وشركات التامين التي تحتويها الجريدة، تبين جيداً أنها من تلك الأحياء. وكشفت استجوابات في البرلمان مؤخراً، أن ملكيتها تعود إلى آلة حزب المحافظين جزئياً.

انهزاميو الجناح اليساري مختلفون تماماً وأكثر تشويقاً. واحد أو اثنان من الأحزاب السياسية الثانوية (الفوضويون البريطانيون الذين دونوا الغزو الألماني لروسيا بكراسة رهيبة وبارعة معادية للسوفييت بعنوان **حقيقة روسيا**) يتبعان خطاً مضمونه "انهزامي ثوري" . حزب العمال المستقل الأول يبشر بما يرقى إلى المقترحات العشرة التي ذكرتها في البارتيزان ريفيو، لكن في شروط غامضة جداً، ولم توضح أبداً إن كان يؤيد الحرب أم لا.

لكن التطور المشوق فعلاً هو التطابق المتزايد بين الفاشية والسلامية، كلاهما تطابقاً بدرجة ما مع تطرفية "اليسار". موقف الشباب أهم من موقف ورديي النيوستيتمان الذين تاجروا بالحرب بين ١٩٣٥ و١٩٣٩ ثم كشروا حين اشتعلت الحرب. حسب معرفتي، فإن القسم الأعظم من إنتلجنسيا الشباب ضد الحرب، ولكن هذا لم يوقفهم من الخدمة في القوات المسلحة طبعاً - ولا يؤمنون بأي "حصن للديمقراطية" ويميلون إلى تفضيل ألمانيا على بريطانيا، ولم يشعروا بالرعب من الفاشية الذي نشعر به نحن الأكبر سناً. دخول روسيا الحرب، لم يبدل هذا. تجد الظاهرة الأغرب من الناس الذين بدأوا في شجب العنف وانتهوا بتعظيم هتلر والدفاع عنه. حافز عداء السامية قوي جداً رغم التلطيف المعتاد في النشر. لكن السلاميين الإنكليز الذين لديهم الشجاعة الفكرية والثقافية ليتأملوا عميقاً بأفكارهم، ليسوا كثيرين. وبما أنه لا يوجد جواب حقيقي لاتهام السلامية بأنها مؤيدة للفاشية موضوعياً، فكل الأدب السلامي شرعي، أقصد متخصص في تجنب القضايا المربكة. لنأخذ مثالاً واحداً، أثناء الفترة الأولى من الحرب، قبلت الصحيفة الشهرية السلامية أدلفي التي يحررها ميدلتون موري ظاهرياً، بالادعاء الألماني بأن ألمانيا دولة "اشتراكية" تحارب ضد بريطانيا "البلوتوقراطية - حكومة الأثرياء"، وساوت تقريباً بين ألمانيا وروسيا. غزو هتلر لروسيا تفّه هذا الخط الفكري. وفي الإصدارات الخمسة أو الستة التي تلت ذلك، أنجزت أدلفي العمل البطولي المدهش في عدم ذكر الحرب الروسية الألمانية. تورطت أدلفي مرة أو مرتين في مضايقة اليهود بطريقة معتدلة، وصحيفة بيس نيوز التي يحررها الآن ميدلتون موري أيضاً تتبع التقليد القديم في معارضة الحرب لأسباب مختلفة ومتنافرة، في لحظة لأن العنف شرير، وفي أخرى لأن السلام "سيحافظ على الإمبراطورية البريطانية" إلخ.

منذ سنوات كان هناك ميل إلى الفاشيين والمصلحين الرائجين للكتابة في نفس الصحف، وانضم إليهم السلاميون في الفترة الأخيرة. أمامي نسخة من صحيفة معادية للحرب الآن، تحتوي على مساهمات منها لدوق بيدفورد والكساندر كمفورت وجوليان سايمونز ورف روس ويليمسن. الكساندر كمفورت سلامي "بحت" من مدرسة الخد الآخر. دوق بدفورد

واحد من الداعمين الأساسيين لحركة دوغلاس كريدت منذ سنين، وهو أيضاً أنجليكاني ورع وسلمي أو شبه سلمي واحد كبار ملاكي الأراضي. في الأشهر الأولى من الحرب (بعدئذ ماركيز تافيستوك) ذهب إلى دوبلن بمبادرة منه، وأحرز، أو حاول ذلك، شروط مسودة سلام من السفارة الألمانية، ومؤخراً نشر كراريس تلحّ على استحالة الفوز بالحرب، ونصف هتلر بأنه رجل أسيء فهمه، ولم يختبر إيمانه ووفاءه قط. هيغ روس ويليامسن اختلط بالحركة الفاشية لبعض الوقت، لكن في القسم المنشق منها التي ينتمي إليها وليام جويس ("لورد هاو - هاو"). قبل الحرب تماماً شكل مع آخرين حزباً فاشياً جديداً سمى نفسه حزب الشعب، وكان دوق بدفورد عضواً فيه. لم يحقق حزب الشعب أي شيء. وفي الفترة الأولى من الحرب، كرس ويليامسن نفسه لمحاولة إحداث لقاء بين الشيوعيين وأتباع موسلي. ترون هنا مثالاً لما أعنيه بالتطابق بين الفاشية والسلمية.

ما هو مشوق، هو أن كل مقطع من الآراء المعادية للحرب، لديه مقطع من دعاية راديو ألمانيا كأنه ينتسب إليها. منذ اندلاع الحرب، لم يفلح الألمان إلا نادراً في توجيه دعاية مباشرة في إنكلترا، إلا من خلال الراديو. أفضل برامجهم الإذاعية المشهورة، في الواقع البرامج الوحيدة التي يمكن القول عنها إنها نالت الاستماع إلى أي مدى مهم برامج وليام جويس. لا شك أن هناك كذباً مفرطاً غالباً، لكنه أنموذج مسؤول تقريباً من البث، موجه جيداً ويعطي إخباراً أكثر من كونه دعاية مباشرة. بالإضافة إلى ذلك، يحتفظ الألمان بأربع محطات زائفة، "الحرية" تعمل وتبث في القارة، لكنها تدعي أنها تفعل ذلك في إنكلترا بصورة غير شرعية. أفضلها وأشهرها محطة البث البريطانية الجديدة التي أعلن عنها أصحاب القمصان السود بواسطة الصور التي على ظهرها مادة لاصقة في بداية الحرب. إن الخط العام لهذه الإذاعات "أخبار لا تخضع للرقابة" أو "ما تخفيه الحكومة عنك". تؤثر بطريقة حسنة الاطلاع ومتشائمة لشخص من داخل الداخل، وتتبنى أرقاماً هائلة عن خسائر السفن والشحن..إلخ، وتحث على طرد تشرشل، وتتحدث بقلق عن "الخطر الشيوعي" وتعادي الأمريكان. اللهجة المعادية للأمريكان أقوى من برامج جويس. الأمريكان يخدعوننا باتفاق الإعارة والإيجار، ويمتصون الإمبراطورية بالتدريج..إلخ. إن

الأكثر إمتاعاً من محطة ذا نيو بريتش، هي محطة ذا ووركرز تشالينج. هذه المحطة تنتهج خطاً من الأحاديث الثورية الملتهبة تحت عناوين مثل "اطردوا تشرشل" يوجهها رجل عامل بريطاني أصلي، يستخدم الكثير من الكلمات التي لا تطبع. نحن يجب أن نطيح بالحكومة الرأسمالية الفاسدة التي تبيعنا للعدو، وننصّب حكومة اشتراكية تأتي لإنقاذ رفاقنا الأبطال من الجيش الأحمر وتمنحنا نصراً على الفاشية. (هذه المحطة لا تتردد في التحدث عن "خطر النازية" وفظائع الجستابو المرعبة..إلخ). إن محطة الووركرز تشالينج ليست انهزامية بشكل صريح، وخطها الدائم هو أن الأوان قد فات، وأن الجيش الأحمر انتهى، لكن ربما نقدر أن ننقذ أنفسنا إن استطعنا فقط أن "نطيح بالرأسمالية"، وهذا يجب أن يكون من خلال الإضرابات والتمرد والعصيان والتخريب في مصانع التسليح، وهلم جرا. محطتا "الحرية" المتبقيتان، هما كريستشان بيس موفمنت حركة السلام المسيحي (سلامية)، وراديو كاليدونيا (قومية اسكوتلندية).

ترون كيف أن كل نغمة من الدعاية الألمانية، توافق وتطابق زمرة موجودة أو محتملة. محطتا لورد هاو - هاو والنيو بريتش تستهدفان الطبقة الوسطى المعادية للأمريكان، بشكل عام الناس الذين يقرأون صحيفة ذا تروث والمصالح التجارية التي عانت وتضررت من الحرب. محطة الووركرز تشالينج تستهدف الشيوعيين واليساريين المتطرفين عموماً. الكريستيان بيس موفمنت تستهدف البي بي يو (بيس بليج يونيون). لكن لا أريد أن أعطي الانطباع بأن للدعاية الألمانية تأثيراً كبيراً في هذه اللحظة، فقد كانت فشلاً تاماً تقريباً وخصوصاً أثناء الأشهر الثمانية عشرة الأخيرة. أوحت أشياء متنوعة حدثت، بأن الألمان لم يستطيعوا الاطلاع جيداً على الأحوال الداخلية في إنكلترا منذ اندلاع الحرب، وفشل الكثير من دعايتهم حتى لو نالت الاستماع بسبب أخطاء نفسية بسيطة يستطيع كل من لديه معرفة حقيقية بإنكلترا تصحيحها. لكن النزعات المتنوعة للمشاعر الانهزامية موجودة هناك، وقد تكبر في وقت ما. في بعض ما قلته آنفاً قد أبدو أنني ذكرت أناساً وزمراً لا أهمية لهم ولا يستحقون الذكر، لكن في هذا التهريج الملطخ بالدم الذي نعيش فيه، لا يعرف المرء أبداً أي فرد غامض أو نظرية شبه معتوهة قد

لا تصبح مهمة. يبدو أنني ألاحظ نزعة عند المثقفين وخصوصاً الصغار منهم، أنهم تصالحوا مع الفاشية، وهذا شيء يجب الانتباه إليه. بات المثقف البائع لوطنه ظاهرة في السنتين الأخيرتين. سابقاً كنا نعتقد أن الفاشية مرعبة كأمر بديهي، وليس لأي شخص مفكر وعاقل أية علاقة بها، وأيضاً أن الفاشيين دائماً يمحون الإنتلجنسيا حين تتوفر لهم الفرصة، لكن كلا الافتراضين غير صحيح. كما استطعنا أن نرى مما حدث في فرنسا، فقد وجد كل من فيشي والألمان من السهل جداً الحفاظ على الواجهة الكاذبة "للثقافة الفرنسية" في البقاء. كان الكثير من المفكرين مستعدين للذهاب إلى هناك، وكان الألمان جاهزين تماماً للاستفادة منهم حتى حين كانوا من "الفاسدين المنحطين". في هذه اللحظة دريو لا روشيه يحرر نوفيل ريفيو فرانسيز (المجلة الفرنسية الجديدة) وباوند يجأر ضد اليهود في راديو روما، وسيلين ينال التكريم في معرض في باريس أو على الأقل كتبه. كل هذه تندرج تحت عنوان كلتربولشفيسموس (الثقافة البلشفية) لكنها أوراق مفيدة للعب ضد الإنتلجنسيا في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وإذا وصل الألمان إلى إنكلترا، فستحدث أشياء مماثلة، ويمكنني أن أفكر بقائمة أولية من أسماء الناس الذين سيذهبون إلى هناك.

ليست هناك أخبار كثيرة هنا. كل شيء هادئ على الجبهة الأدبية. النقص في الورق يُفضل ظهور الكتب القصيرة، وربما ذلك أفضل، وربما يعيد القصة القصيرة الطويلة التي لم تلق تعاملاً عادلاً في إنكلترا.

أخبرتكم بالخطأ في رسالة سابقة أن ديلان توماس كان في الجيش. إنه غير لائق بدنياً ويقوم بمهام لمحطة البي بي سي ووزارة الإعلام، وكذلك كل من كان كاتباً تقريباً وأغلبنا تحولنا إلى سكان أصليين.

وضع الطعام أفضل من قبل. لدينا الحلويات في عيد الميلاد، لكنها كانت أبهت من المعتاد. وضع التبغ صحيح نفسه، لكن عيدان الثقاب قليلة جداً. هم يضيفون الماء إلى البيرة مرة أخرى للمرة الثالثة منذ إعادة التسلح. الطلاء باللون الأسود خف تدريجياً بغياب الغارات الجوية. لا يزال هناك أناس ينامون في محطات السكك الحديدية، لكنهم

حفنة فقط في كل محطة. أقبية البيوت المدمرة بنيت بالقرميد وحولت إلى خزانات مياه في حال الحريق، وتبدو مثل حمامات رومانية، وتعطي الخرائب منظراً بومبياً أكثر من قبل. أثناء أسوأ الغارات، وضعت مخططات ضخمة لتسوية قطع قاحلة من الأرض، لتكون ملاعب باستخدام الأنقاض التي خلفتها القنابل كطبقة تحتية، لكن كل هذا توقف في منتصفه، إذ لم تعد هناك أنقاض وبقايا.

جورج أورويل

الأزمة البريطانية
رسالة إلى بارتيزان ريفيو ١٩٤٢

أعزائي المحررين

كتبت لكم أن بعض الأمور بدأت تسير في مسار خاطئ في الشرق الأقصى، ولم يحدث شيء سياسي. أنا متأكد الآن أننا على شفا أزمة سياسية توقعتها على مدار السنتين الماضيتين. إن الوضع معقد جداً، وأتوقع حدوث الكثير الذي سيزيف تكهناتي، لكنني سأقوم بأفضل تحليل أستطيعه. الحقيقة الأساسية أن كل الناس ضجروا وباتوا جاهزين لسياسة راديكالية كما كانوا في زمن دونكيرك، مع الاختلاف بأنهم يملكون قائداً كامناً أو يظنون كذلك في ستافورد كريبس. لا أقصد أن أعداداً كبيرة من الناس تطالب بقوة بتقديم الاشتراكية، وإنما أغلب الأمة تريد أشياء معينة، لا يمكن الحصول عليها في ظل الاقتصاد الرأسمالي، وهي مستعدة وراضية بدفع أي ثمن للحصول عليها. يبدو لي أن عدداً قليلاً من الناس يشعرون بالحاجة إلى تأميم الصناعة، لكن الجميع باستثناء قلة مستفيدة، يقبلون بالتأميم بلا تردد، لو أخبروهم بشكل رسمي وموثوق، أنهم لن يمتلكوا إنتاجاً حربياً فعالاً إلا بذلك. الحقيقة أن الاشتراكية ليست صيحة سباق، كما أن الغثيان واسع الانتشار من الأحزاب السياسية القديمة، واحد من مزايا هذا الزمن. إذاً ماذا سيفعل الناس؟ يجب أن أقول إن الناس يريدون مساواة اجتماعية أكبر واجتثاثاً نهائياً للقيادة السياسية، واستراتيجية حربية عدوانية، وتحالفاً أوثق مع جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية، لكن يجب أن أنبه إلى خلفية هذه الرغبات، قبل محاولة التنبؤ بالتطور السياسي المحتمل الآن.

المساواة الاجتماعية

أوضحت الحرب للشعب الإنكليزي طبيعته الطبقية بطريقة حادة بطريقتين: الطريقة الأولى؛ الحقيقة التي لا تقبل الخطأ بأن كل السلطة الحقيقية تعتمد على الامتياز الطبقي. لن تحصل على وظائف محددة، إن لم تكن خريج مدرسة صحيحة، وإن فشلت وطردت،

سيتولى الوظيفة شخص آخر من المدارس الصحيحة. وهكذا تستمر العملية التي تجري من دون أن تلاحظ حينما تكون الأشياء في حالة ازدهار، لكنها تصبح واضحة جداً في أوقات الكارثة. الطريقة الثانية؛ هناك صعوبات الحرب التي خففت على كل واحد دخله أكثر من ٢٠٠٠ جنيه سنوياً. لا أريد أن أضجركم بالتفاصيل حول الطريقة التي كان يجري فيها التهرب من تقنين الطعام، لكن يجب أن تدركوا أنه بينما كان على الناس العاديين أن يعيشوا على حمية مزعجة ومملة ويستغنوا عن الرفاهيات التي اعتادوا عليها، لم يعانِ الأغنياء من شح كل شيء، باستثناء الخمور والفواكه والسكر. لا يمكنك ألا تتأثر بحصص الطعام من دون أن تخرق القانون. فقد كانت هناك سوق سوداء منتعشة، وهناك بيع غير قانوني للبنزين، وتملص منتشر وملحوظ من الضريبة. هذا لا يستمر من دون أن يلاحظ، لكن لم يحدث شيء إلى الآن، لعدم وجود إرادة للهجوم عليها حين تتطابق السلطة والمال تقريباً. سأعطي مثالاً واحداً: وزارة الغذاء توشك أن تقلل "أغذية الترف" بتقليص المبلغ الذي يمكن صرفه على وجبة في فندق أو مطعم، فقوبل هذا بمعارضة شديدة في الأماكن العليا، وقبل أن يمرر القانون، تمّ ابتداع طرق للتخلص منه، وتمت مناقشته بلا قناع في الصحف.

هناك توترات أخرى أحدثتها الحرب، ولكنها أقل وضوحاً من الغيرة التي سببتها السوق السوداء، أو استياء الجنود من أقنعة الغاز بأوامر من مجموعة حمقى من الضباط ومن توتر آخر من الامتعاض المتزايد من قبل القوات المسلحة، التي بُخس راتبها مقارنة بالأجر العالي الذي يأخذه عمال الذخيرة. لو جرى التعامل مع هذا برفع مرتبات الجنود إلى مستوى عمال الذخيرة، لكانت النتيجة إما التضخم، أو تحول العمال من الإنتاج الحربي إلى البضائع الاستهلاكية. إن العلاج الحقيقي الوحيد هو تقليص أجور العمال المدنيين أيضاً، الذي لا يمكن جعله مقبولاً إلا بواسطة أشد التخفيضات في كل الدخول، باختصار "شيوعية الحرب". بالإضافة إلى الصراع الطبقي بمعناه العادي هناك مشاعر من الغيرة عند البرجوازية أعمق مما يدركه الأجانب. إن كنت تتحدث بلهجة البي بي سي، يمكنك الحصول على وظائف لا يستطيع البروليتاري الحصول عليها، ولكن من المستحيل عليك أن تتجاوز نقطة محددة، إذا لم تكن تنتمي إلى القشرة العليا اجتماعياً. يشعر

الرجال القادرون في كل مكان أنهم يُبعدون من قبل بلهاء عاجزين من العائلات الريفية. يرتبط مع هذا الشعور المحطم الذي لدينا في بريطانيا في العشرين سنة الأخيرة، بأنه لو كنت ذكياً، فستنظر إليك القشرة العليا بعين الريبة، وستبعدك عن أية وظيفة مهمة حقاً. أثناء سنوات رأس المال الاستثماري أنتجنا حكماً رجعياً احتكر السلطة الرسمية والعسكرية ولديه كره غريزي للذكاء. هذا مهم ربما في إنكلترا أكثر منه في بلاد "جديدة" كالولايات المتحدة مثلاً: إنه يعني أن ضعفنا العسكري يتجاوز الضعف الموروث للدولة الرأسمالية. حين تجد موهوباً في إنكلترا في مركز مؤثر فعلاً، فهذا لأنه حدث وولد لعائلة أرستقراطية، الأمثلة: تشرشل وكريبس وماونتباتون، لكنهم رغم ذلك لا يصلون إلى هناك إلا في أوقات الكوارث، حين لا يريد الآخرون تحمل المسؤولية. باستثناء الأرستقراطيين، لا يستطيع الأشخاص المصنفون أذكياء وضع أيديهم على رافعات السلطة الحقيقية ويعرفون ذلك. طبعاً يظهر الأفراد الأذكياء في الطبقة العليا، لكن القضية طبقية أساساً: الطبقة الوسطى ضد الطبقة العليا.

القيادة السياسية

إن التقرير الذي صدر عن العلاقات العامة في مارس وأبريل بأن زمام السلطة لا يزال في يد تشرشل بقوة، هو تقرير خاطئ. إن مركز تشرشل مهزوز جداً. كان هذا صحيحاً حتى سقوط سنغافورة، حين كانت جماهير الشعب تحب تشرشل وتكره حكومته في الوقت نفسه، لكن في الأشهر الأخيرة انخفضت شعبيته كثيراً. بالإضافة إلى ذلك، هناك حزب التوري الذي يقف ضده (كان حزب التوري يكره تشرشل دائماً رغم أنه... لفترة طويلة) وبيفربروك الذي يلعب لعبة لم أنهمها تماماً، ولكن يفترض أن هدفها تقديم نفسه للسلطة. لن أعطي تشرشل أكثر من أشهر أخرى في السلطة، لكن بمن سيستبدل! فهذا غير واضح، ربما كريبس أو بيفربروك أو أحد آخر مثل السير جون أندرسون.

السبب أن كل من يعادي النازية منذ سقوط فرنسا وبعد، لم ير أحداً آخر غيره معروف جيداً ويقدر على استلام السلطة، ويمكن الوثوق من أنه لن يستسلم في الوقت نفسه. من العبث القول إنه كان ينبغي تنصيب حكومة اشتراكية في عام ١٩٤٠ لأن الأساس

الجماهيري كان موجوداً لكن القيادة السياسية لم تتوفر. لم تكن لدى حزب العمال الشجاعة، وانهزم الورديون، والشيوعيون كانوا يؤيدون النازية فعلياً، وعلى أي حال لم يكن في اليسار رجل واحد له سمعة حقيقية على مستوى الأمة. في الأشهر التي تلت، كان المطلوب هو العناد الذي لدى تشرشل الكثير منه. لكن الوضع تبدل الآن. إن الوضع الاستراتيجي أفضل بكثير مما كان عليه في العام ١٩٤٠ لكن أغلب الناس لا يؤمنون بهذا، فقد اشمأزوا من الهزائم التي أدركوا أن بعضها لم يكن ضرورياً، وتحرروا بالتدريج من الوهم، وأدركوا أن تشرشل لم يفعل شيئاً رغم خطاباته، فقد ظلت العصابة القديمة في السلطة. لأول مرة منذ أن وصل تشرشل إلى السلطة، بدأت الحكومة تخسر الانتخابات الفرعية. من الخمسة الأخيرة خسرت ثلاثة، وفي الاثنتين التي خسرتها واحدة أمام مرشح معارض كان معادياً للحرب (حزب العمال المستقل) والآخر من الانهزاميين. في كل هذه الانتخابات كان الإقبال على الاقتراع منخفضاً جداً، فقد وصل في إحدى الحالات إلى ٢٤٪ (وأغلب اقتراعات الحرب كانت منخفضة، لكن يجب على المرء أن يلغي شيئاً بسبب الانتقال الكبير للسكان). هناك فقدان واضح في الإيمان بالأحزاب القديمة، بالإضافة إلى عامل جديد، تمثل في حضور كريبس الذي يتمتع الآن بسمعة شخصية هامة. في اللحظة التي فيها الأمور سيئة جداً عاد من روسيا بوهج من التمجيد غير المستحق. في هذا الوقت نسي الناس الظروف التي اندلعت فيها الحرب الروسية الألمانية، وصدقوا كريبس بأنه جلب روسيا لتكون إلى جانبنا وفي صفنا. لكنه كان يعتمد على تاريخه السياسي السابق، وأنه لم يبع آراءه السياسية أبداً. هناك مبرر وجيه للاعتقاد أنه في تلك اللحظة، ومع عدم امتلاكه لآلة حزبية تحت تصرفه، لم يدرك ويتحقق من قوة مركزه الشخصي. ولو أنه خاطب الجمهور مباشرة عبر القنوات المفتوحة، لربما استطاع فرض سياسة أكثر راديكالية على الحكومة بخصوص تسوية كريمة مع الهند. وبدلاً من ذلك، ارتكب خطأ آخر في الدخول في الحكومة، وخطأ آخر يساويه في الذهاب إلى الهند، من أجل غرض كان متأكداً أنه سيُقابل بالرفض. لا أستطيع أن أنشر القليل الذي أعرفه عن التاريخ الداخلي لمفاوضات كريبس - نهرو، وعلى كل حال القصة أعقد من أن تكتب في رسالة بهذا الحجم. السؤال المهم إلى أي حد أفقد هذا الفشل مصداقية كريبس. الناس

المهتمون جداً بإلغاء المفاوضات، كانوا العصبة المؤيدة للنازيين في حزب المؤتمر الهندي والجناح اليميني البريطاني من التوريين. خطاب هاليفاكس الذي ألقاه في نيويورك في ذلك الوقت، فُهم هنا على أنه محاولة للدوس على أصابع الكثيرين من الهنود. وبهذا بات لقاء كريبس ونهرو صعباً جداً. تجري محاولة مشابهة من الطرف المعاكس في هذه اللحظة. النتيجة النهائية، أن سمعة كريبس قد تضررت في هذه البلاد وليس في الهند - إن تضررت - فذلك بسبب دخوله في الحكومة، وليس في فشله في دلهي.

لا أستطيع أن أدلي برأي جدير إن كان كريبس هو الرجل الذي يؤمن به الجمهور الكبير أم لا. إنه رجل نشيط غير مستقر سياسياً، ويتفق الذين يعرفونه على شيء واحد فقط، بأنه شريف وصادق. يستند موقعه على إيمان الشعب به، لأن ماكينة الحزب ضده تقريباً، ويريد التوريون ومؤيدوهم المؤقتون استخدامه ضد تشرشل وبيفربروك، ويعتقدون أنهم يستطيعون تحويله إلى قط أليف آخر مثل آتكي. يميل بعض من عمال المصانع إلى الشك به، فقد وصلتني إحدى التعليقات: إنه يشبه موسلي كثيراً جداً، ويكرهه الشيوعيون لأنه متهم بعدائه لستالين، ويبدو أن بيفربروك أسس للهجوم على كريبس، وتستغل صحفه ملاحظاته المعادية لستالين في الماضي. ألاحظ أن الألمان من خلال إذاعاتهم، يرغبون في رؤية كريبس في السلطة، إن تخلصوا من تشرشل بهذا الثمن، وربما يعتقدون أن التوريين سيخلعون كريبس عاجلاً بما أنه لا يعتمد على ماكينة حزبية، ويفسحون المجال للسير جون أندرسون أو لورد لندنديري أو آخر مثلهما. لا أستطيع القول حتى الآن بشكل مؤكد إن كريبس مجرد شخصية من الصنف الثاني علق عليها الجمهور آماله وعبارة عن فقاعة سببها السخط الشعبي، لكن على أي حال، فإن الطريقة التي يتحدث بها الناس عنه حين عاد من موسكو، مهمة بدلالاتها.

استراتيجية الحرب

هناك حديث لا نهاية له عن جبهة ثانية؛ فقد انقسم المؤيدون والمعارضون حسب توجهاتهم الحزبية. الكثير مما قيل جاهل جداً، لكن حتى الناس الذين لديهم القليل من المعرفة العسكرية، يرون أننا خسرنا في الأشهر القليلة الماضية بأعمال دفاعية عقيمة قوة لو

جمعت في مكان واحد واستخدمت هجومياً، لأنجزنا بها الكثير. الرأي العام متقدم على ما رأي من يسمون بالخبراء في قضايا الاستراتيجية الكبرى وفي التكتيك والأسلحة أحياناً. أنا شخصياً لا أعرف إن كانت الجبهة الثانية فكرة عملية، لأنني لا أعرف الوقائع حول وضع الشحن البحري. الدليل الوحيد الذي لدي أن وضع الغذاء لم يتبدل خلال السنة الماضية. يبدو أن السياسة الرسمية لا تحبذ فكرة الجبهة الثانية، لكن قد يكون ذلك مجرد خداع عسكري. أكدت صحف اليمين كثيراً على أهمية قصفنا الجوي لألمانيا، واقترحت إمكانية إنزال مليون جندي على طول الشاطئ الأوروبي بواسطة غارات مستمرة للفدائيين. إن الأخير هراء، لأن الفدائيون لا يستطيعون فعل الكثير حين تقصر الليالي، وبعد تجاربنا قلة من الناس هنا تعتقد أن القصف يمكن أن يحل شيئاً. على العموم الجمهور الكبير ذو عقلية هجومية ويسر، ويبتهج حين تظهر الحكومة انتهاكاً للقانون الدولي. وهناك أمثلة: إيران وسوريا ومدغشقر، تأخذ الحرب على محمل الجد. لا تطرح فكرة الهجوم على إسبانيا أو المغرب الإسبانية إلا نادراً (وهي المنطقة الملائمة والمشجعة من أجل فتح جبهة ثانية برأيي). لقد اتفق كل المراقبين على أن الجنود والكثير من الضباط الصغار ضجروا وانزعجوا إلى أبعد حد، لكن الحالة ليست مماثلة في البحرية وسلاح الجو الملكي، ومن السهل الحصول على مجندين للفيالق الخطرة مثل المغاوير وقوات المظلات. مؤخراً ظهرت كراريس مجهولة المصدر، تهاجم حكم البليمب وتلميع الأزرار..إلخ، وتُباع بشكل هائل. وهذا الخط تنهجه الديلي ميرور أيضاً، التي تعتبر مجلة الجنود المفضلة التي منعت تقريباً منذ بضعة أسابيع بسبب انتقادها القيادة العليا. من جانب آخر، تلاشت الكراريس التي تظهر عادة في الحروب سابقاً، وتتحدث عن مشاق الحياة العسكرية. ربما المهم والعرضي الآن، هي القصة المنتشرة الآن بشكل واسع، بأن السبب الحقيقي الذي جعل السلطة العليا تستمر بموقفها ضد تبني الطائرات القاذفة، لأن تصنيعها رخيص ولا تمثل ربحاً كثيراً. لا أعرف شيئاً حول حقيقة هذه القصة، لكني ذكرتها لأن الكثير من الناس يصدقونها. فُسر خطاب تشرشل قبل بضعة أيام، الذي أشار فيه إلى استخدام الألمان المحتمل للغاز السام، على أنه إنذار ببدء حرب الغاز قريباً. تعليق معتاد: "أتمنى أن نستعمله نحن أولاً" يبدو لي أن الناس باتوا أقسى وأعنف في

مواقفهم، على الرغم من السخط العام وخلو الحرب من أي أهداف إيجابية. من الصعب تقدير حجم ومدى تأثر رجل الشارع العادي واهتمامه بكارثة سنغافورة. يبدو لي أن الطبقة العاملة متأثرة أكثر بفرار السفن الحربية الألمانية من بريست ونجاتها. يرى الرأي العام أن ألمانيا العدو الحقيقي، وفشلت كل الجهود الصحفية لإثارة الكره ضد الأعمال الوحشية اليابانية. فكرتي أن الناس سيستمرون في القتال، طالما ظلت ألمانيا في الميدان، لكن إن هُزمت ألمانيا، فلن يستمروا في الحرب ضد اليابان، إلا أن كان هناك هدف مبرر وحقيقي ومفهوم للحرب.

التحالف الروسي

أشرت في رسائل سابقة إلى الازدياد الكبير للشعور المؤيد للروس، لكن من الصعب معرفة عمقه. قال لي أحد التروتسكيين مؤخراً إنه يعتقد أن الروس بمقاومتهم الناجحة استعادوا كل الرصيد الذي خسروه بسبب معاهدة هتلر - ستالين والحرب الفنلندية. لكني لا أعتقد هذا؛ كل ما حدث أن الاتحاد السوفييتي كسب الكثير من المعجبين الذين لم يكن يمتلكهم سابقاً، لكن الكثير من مناصريه السابقين السذج أصبحوا أبعد نظراً وحكمة. يلاحظ المرء فجوة بين ما يقال علانية وبين ما يقال سراً. في العلن لا أحد يقول كلمة ضد الاتحاد السوفييتي، لكن في السر وعلى المستوى الشخصي وباستثناء الستالينيين "الخائبين والمحبطين" الذين يلتقيهم المرء باستمرار، ألاحظ موقفاً شكوكياً أكبر وسط الناس المفكرين. ويرى المرء هذا في الأحاديث عن الجبهة الثانية خصوصاً. إن الموقف الرسمي للورديين هو التالي: إن فتحنا جبهة ثانية، سيقر الروس بالجميل، ويصبحون رفاقنا إلى النهاية. في الواقع والحقيقة، إن فتح جبهة ثانية من دون اتفاق مسبق، سيعطي الروس الفرصة لعقد اتفاق سلام منفصل؛ لو استطعنا إبعاد الألمان عن أراضيهم، فما هو السبب الذي يدعوهم لمواصلة القتال؟ نظرية أخرى تفضلها صحف الجناح اليساري، وهي أنه كلما قاتلنا أكثر، سيكون رأينا وصوتنا أقوى في تسوية ما بعد الحرب. هذا وهم أيضاً؛ هؤلاء الذين يملون معاهدات السلام، هم هؤلاء الذين يظلون الأقوى، ما يعني عادة هؤلاء الذين ينجحون في تجنب الاشتراك في القتال (كالولايات المتحدة الأمريكية في

الحرب الأخيرة مثلاً). إن الأفكار والاعتبارات من هذا النوع نادراً ما تُنشر في الصحافة، لكنها مقبولة جداً بشكل شخصي وسري. أعتقد أن الناس لم ينسوا تماماً المعاهدة الروسية الألمانية، وأن الخوف من خيانة أخرى يفسر رغبتهم في تحالف أمتن. لكن هناك تأييداً عاطفياً كبيراً لروسيا مؤسس على الجهل، يلعبه كل أنواع المحتالين المعادين للاشتراكية علناً، لكنهم يرون أن الجيش الأحمر خط شعبي. يجب أن أعود إلى بعض الإشارات المحبية التي قمت بها في رسائل سابقة عن صحافة بيفربروك. بعد أن أعطى الحرية للصحفيين الذي يعملون عنده لمدة سنة أو أكثر وقام بعضهم بعمل جيد في تنوير الجمهور الكبير، عاد بيفربروك ثانية وهز السوط وجهز فريقه للعمل على مهاجمة تشرشل، وبشكل مباشر أكثر على كريبس. هو في وقت واحد يثرثر ضد إخضاع الوقود والبنزين لنظام الحصص (التقنين) وضد قيود أخرى على الرأسمالية الخاصة، ويقف كستاليني أكثر من الستالينيين. أغلب صحافة الجناح اليميني تتبنى الخط الحذر جداً في مدح "الشعب الروسي العظيم" (تطابقات تاريخية مع نابليون..إلخ) وتستمر في الوقت نفسه بالصمت حول طبيعة نظام الحكم الروسي. كلمة "الأممي" باتت تبث على الراديو أخيراً، وخطاب مولتوف عن الأعمال الوحشية الألمانية صدر ككتاب أبيض، لكن نزولاً عند رغبة شخص ما (لا أعرف إن كان ستالين أم الملك) حذفت الأسلحة الملكية من الغلاف. عموماً الناس يريدون الاستبشار بروسيا خيراً، رغم أنهم مازالوا معادين للشيوعية بشكل مبهم، وسوف يرحبون بإعلان مشترك عن أهداف الحرب وتعاون وثيق في الاستراتيجية. أعتقد أن الكثيرين من الناس يدركون أن تحالفاً قوياً مع روسيا أمر صعب، طالما ظل طاقم ميونيخ في السلطة، وأدرك عدد أقل بكثير منهم أن التقاعس السياسي النسبي للولايات المتحدة يمثل صعوبة أخرى.

ثورة أم كارثة

حسناً، هذا هو الوضع كما أراه. يبدو لي أننا عدنا إلى "الوضع الثوري" الذي وُجد ولم يُستغل بعد دونكيرك. من ذلك الوقت حتى عهد قريب جداً تتحرك أفكار المرء بالضرورة في سلسلة متعاقبة كالتالي:

لا نستطيع الفوز بالحرب مع بنيتنا الاجتماعية والاقتصادية الحالية.

البنية لن تتبدل، إذا لم يكن هناك نمو سريع في الوعي الشعبي.

الشيء الوحيد الذي يعزز هذا النمو، هو الكوارث العسكرية.

كارثة إضافية أخرى، وسنخسر الحرب.

في هذه الظروف، كل ما يقدر المرء على فعله أن "يؤيد الحرب"، وذلك يشمل تأييد تشرشل ويأمل انها كوم رايت اون ذا نايت، أي أن مجرد ضرورات الحرب والانجراف الحتمي نحو اقتصاد ممركز ومستوى معيشة أكثر مساواة، سوف تجبر نظام الحكم تدريجياً على الانتقال إلى اليسار، وتسمح بطرد ليفر آوت أسوأ الرجعيين. لا أحد عاقلاً يفترض أن الطبقات الحاكمة ستشرع بنفسها نسفها من الوجود، لكنها يمكن حشرها في موقع يكون استمرارها في السلطة فيه في مصلحة النازي بشكل واضح. في تلك الحالة غالبية الأمة ستنقلب ضدها، ويكون من الممكن التخلص منها بلا عنف أو بقليل منه. قبل شطب هذا كاستراتيجية "إصلاحي" يائس، يجدر التذكير بأن إنكلترا ضمن مدى بندقية القارة. الروح الانهزامية الثورية أو أي شيء يقاربها عمل أحمق وهراء في وضعنا الجغرافي. إن حدث خلل خطير في القوات المسلحة لمدة أسبوع واحد، سيكون النازيون هنا، وبعدها يتوقف الحديث عن الثورة أيضاً.

على نطاق ضيق حدثت أشياء كما تكهنت. يستطيع المرء أخيراً أن يميز حدود عالم الحرب الثورية. بريطانيا أجبرت على الدخول في تحالف مع روسيا والصين، وعلى إعادة ملك الحبشة، وعقد معاهدات كريمة ومنصفة مع بلدان الشرق الأوسط، وبسبب أشياء أخرى منها الحاجة إلى زيادة قوة جوية ضخمة، حدث خرق خطير في النظام الطبقي. الهزائم في الشرق الأقصى ذهبت بعيداً في قتل المفهوم القديم للإمبريالية، ولكن كانت هناك فجوة في السلم لم نتغلب عليها أبداً، والتي ربما كان التغلب عليها مستحيلاً في الوقت الذي لم يتواجد فيه حزب ثوري ولا قيادة يسارية قادرة. هذا قد يتبدل أو لا يتبدل بظهور كريبس. من المؤكد في اعتقادي، أنه سوف يظهر حزب سياسي جديد بالضرورة، إن كان هناك أي تغيير، وقد يسرع هذا في إفلاس الأحزاب القديمة. قد يفقد كريبس

بريقه بسرعة كبيرة، إن لم يخرج من الحكومة. لكن في الوقت الحالي وفي موقعه المعزول الغريب، هو الرجل المحتمل الأكبر لأية حكومة جديدة تتبلور. إن فشل، لينقذنا الرب من البدائل الأخرى المحتملة لتشرشل.

أفترض كالعادة أنني أطلت كثيراً. هناك تغيير كثير في حياتنا اليومية هنا. الأمة تستمر في الخبز الأسمر منذ بضعة أسابيع. حصة البنزين الأساسية تتوقف الشهر التالي، ما يعني نظرياً انتهاء قيادة السيارات الخاصة. ضرائب الرفاهية الجديدة مرعبة. علبة السجائر الآن بعشر شلنات، ويكلف الباينت الواحد من أرخص نوع من البيرة عشرة بنسات (أربع ١٩٣٦). الكل يعملون لفترات أطول وساعات أطول. بين الحين والآخر وعلى فواصل مدتها أسابيع، يخرج المرء رأسه فوق الماء لدقيقة، ويلاحظ باندهاش أن الأرض مازالت تدور حول الشمس. لاحظت في أحد الأيام الزعفران في الحدائق، وفي يوم آخر تفتح أشجار الأجاص، وفي آخر غيره الزعرور البري. يبدو أن المرء يلمح بشكل غامض هذه الأشياء من خلال غشاوة أخبار الحرب.

المخلص لكم دائماً

جورج أورويل

رسالة لندن إلى بارتيزان ريفيو
٢٩ أغسطس/آب ١٩٤٢ لندن، إنكلترا

أعزائي المحررين

أكتب هذه الرسالة في لحظة، من شبه المؤكد أن تغمرها الأحداث وتتجاوزها. نحن لانزال في نفس الحالة من الأزمة المجمدة، كما كنا منذ ثلاثة أشهر مضت. لايزال كريبس في المنصب بشكل محير، وقد فقد رصيده وسمعته بالتدريج مع اليسار، لكن مازال الكثيرون يعتقدون أنه ينتظر لحظته المناسبة ليترك الحكومة ويعلن عن سياسة ثورية. هكذا تطور كالذي حدث، هو توجه رجعي بالتأكيد. لاحظت بالإضافة إلى أناس كثيرين، زيادة واسعة في البليمبية (الرجعية) ونشاطاً ضد إعطاء الحرب لوناً معادياً للفاشية وتساقطاً عاماً للراديكالية المزيفة في السنتين الأخيرتين. قضية الهند نزعت الأقنعة عن وجوه كثيرة، ومنهم اللورد روثرمير. هذا يبدو انتهاكاً للمبدأ الذي يرى أن نظام حكم ينتقل إلى اليسار في لحظات الكارثة، والعكس صحيح، لأنه من الصعب على المرء أن يصف الأشهر الستة الأخيرة بالانتصار. لكن يبدو أن هناك شيئاً أو آخر جعل البليمبس يشعرون بثقة أكبر في أنفسهم.

هناك بضع أحداث سياسية ثانوية نسجلها. جماعة **سيروا إلى الأمام** التابعة للسير ريتشارد أكلاند الراديكالية المعتدلة (نوع من الاشتراكية المسيحية) اندمجت مع لجنة بريستلي ١٩٤١ الأقل راديكالية، وسمت هذه الحركة السياسية نفسها بالكومونويلث[1] وأعتقد أن

١ - لجنة ١٩٤١ تأسست في بداية ١٩٤١ من قبل مجموعة من المعلقين على الشؤون العامة اليساريين والسياسيين والوجهاء. جيه بي بريستلي، الروائي الذي جعله بثه الإذاعي في ١٩٤٠ شخصية وطنية، كان رئيس النقاشات، لكن أورويل يردد سوء فهم شعبي حين يسميها "لجنة بريستلي" هدفها كان الضغط على حكومة الائتلاف من خلال الإعلام المنشور وجماعات الضغط لصالح تغييرات اقتصادية وسياسية يسارية فورية. انشقاق داخل اللجنة أدى إلى انحلالها، وما بقي منها ظهر مع جماعة أكلاند "سيروا إلى الأمام" في يوليو/تموز ١٩٤٢ لتشكيل حزب سياسي، كومنويلث.

الاندماج حدث ضد رغبة أكلاند، وانضموا الآن إلى الديماغوجي النافع توم وينترينغهام، لكن لا أعتقد أن هؤلاء الناس يؤخذون على محمل الجد، رغم أنهم فازوا بمقعد في الانتخابات الفرعية. دخلت التروتسكية الأخبار أخيراً بسبب الدعوة القضائية التي رفعت ضد الجريدة الأسبوعية سوشاليست ابيل، وأعتقد أنها مازالت تصدر رغم خطر المنع، ونجحتُ في الحصول على نسخة منها - نفس المادة المعتادة، لكنها ليست جريدة سيئة، ويصل عدد المجموعة المسؤولة عنها إلى خمسمائة. صحافة روثمير نشطة وفعالة خصوصاً في مطاردة التروتسكيين. السنداي ديسباتش تشجب وتنتقد التروتسكية لنفس الأسباب التي يستخدمها الشيوعيون. السنداي ديسباتش واحدة من أسوأ صحف البواليع (جرائم وسيقان فتيات الكورس وعلم الاتحاد (إنكلترا واسكتلندا وايرلندا)) وتنتمي إلى الصحافة التي تفوقت على كل الآخرين قبل الحرب في تملق الفاشية والسجود لها، وظلت تصف هتلر حتى وقت متأخر في الأشهر الأولى من ١٩٣٩ بـ"الجنتلمان العظيم" ألغي الحظر عن الديلي وركر، وعادت إلى الظهور في ٧ سبتمبر/ أيلول، وهذا كان النتيجة الضرورية لرفع الحظر عن الصحافة الشيوعية في الهند. يهتم الأدب الشيوعي الآن أساساً في الحض على فتح جبهة ثانية، وقد صدرت كراريس أيضاً تهاجم كل أعضاء البرلمان من أي حزب يصوت ضد الحكومة. لا تختلف الكراريس المعادية للتروتسكية الصادرة الآن نادراً، عن تلك التي كانت في فترة الحرب الأهلية الإسبانية، لكنها تجاوزتها كثيراً في الكذب. حققت القضية الهندية بعض الحركة هنا، لكن أقل مما يتوقعه المرء، لأن الصحف الكبيرة تآمرت لتشويه الحقائق، والمثقفون الهنود في هذه البلاد يخرجون عن نهجهم ليخاصموا الناس المحتمل أن يساعدوهم. جدل وخلاف فانسيتارت يدوي في الكتب والكراريس وأعمدة المراسلة والمجلات النقدية الشهرية. المرشحون "المستقلون"، بعضهم دجالون بشكل صريح، يطوفون البلاد ويخوضون انتخابات فرعية وتشوب بعضهم مسحة من الفاشية، لكن ليس هناك علامة لظهور أية حركة فاشية.مكتبة سُر مَن قرأ

السير ريتشارد أكلاند ١٩٠٦ - أصبح عضو برلمان ليبرالي في ١٩٣٥. عند اندلاع الحرب أعلن اعتناقه للاشتراكية، كما فضل تسميتها الملكية العمومية المشتركة. بعد نشر كتابه الناجح **قتالنا**، وكتاب **بيان رسمي لرجل عادي**، شكل حركة صغيرة سماها "السير إلى الأمام"

كانت سياسات كومنويلث سياسات الاشتراكية الطوباوية، لكن أكلاند تحاشى العبارات الماركسية التقليدية، وأصر على أن أساس الثورة الاشتراكية، يجب أن يكون أخلاقياً وليس اقتصادياً. دعم كومنويلث الحرب بالإضافة إلى حزب العمال المستقل المعادي للحرب، وشكل المعارضة المنظمة الوحيدة للهدنة السياسية وحكومة تشرشل، كحزب فاز في الانتخابات الفرعية خلال الحرب، لكنه اخفق بشكل كارثي في انتخابات ١٩٤٥ العامة، حين خسر أكثر مرشحيه الثلاثة والعشرين بما فيهم أكلاند أماكنهم لصالح المعارضة العمالية. بعد ذلك انضم أكلاند ومعظم قادته إلى حزب العمال، واختفى الكومنويلث (الذي مازال موجوداً) من البرواز السياسي.

هذه كل الآراء السياسية التي تبدو لي. وكان في بالي منذ وقت مضى أنكم ربما تهتمون بالتغيرات الاجتماعية الثانوية التي حدثت في هذه البلاد، التي يمكن أن يطلق المرء عليها تسمية النتائج الآلية للحرب.

لقد تم التحكم بأسعار كل الأشياء، ما أدى إلى وجود سوق سوداء لأطعمة الترف. وكان الضرر المعنوي الناتج عن ذلك أقل من الاستغلال الصفيق الذي حدث في المرة السابقة. النقطة الممتعة والمهمة إن كانت القيود التي وضعت على الغذاء ستؤثر على الصحة العامة وإلى أية جهة ستبدل النظام الغذائي الوطني. عدد محدد من الناس من ذوي الدخول الثابتة الصغيرة - كالمتقاعدين من كبار السن مثلاً - في عسر مالي شديد، والحسومات التي تدفع لزوجات الجنود تافهة جداً، لكن القدرة الشرائية للطبقة العاملة ككل ازدادت. رأيي أن الناس في المتوسط يتغذون بشكل أفضل مما كانوا، والزيادة في مرض السل الذي له عدد من الأسباب، لكن سببه في بعض الحالات يعود إلى سوء التغذية بالتأكيد. على الرغم من صعوبة التأكد بدون معيار للمقارنة، إلا أنني أشعر أن ملامح الناس في لندن ومظهرهم أفضل مما كانت، وهم أكثر نشاطاً وفعالية. وبات المرء يرى عدداً أقل من الناس البدينين جداً. حتى قبل الحرب وحتى عندما كانت الأجور عالية جداً، كان الشعب الإنكليزي الشغيل يعيش على أسوأ نظام غذائي ضار يمكن تخيله، وأعادهم تقنين الطعام بالضرورة إلى غذاء أبسط. من الغريب أن نعلم مثلاً أن استهلاك الحليب بحصة من ثلاث بينتات للشخص البالغ، قد زاد

فعلياً منذ الحرب. كان الهبوط كبيراً وملموساً في استهلاك السكر والشاي. قبل الحرب عدد كبير من الناس كانوا يأكلون باوندات كثيرة من السكر أسبوعياً. أونستان من الشاي حصة بائسة بالمعايير الإنكليزية، لكن خففتها حقيقة أن الأولاد الصغار لا يشربون كل حصتهم المخصصة لهم من الشاي. إن إبريق الشاي الذي يغلي باستمرار، كان واحداً من أسس الحياة الإنكليزية في فترة الإعانة الحكومية، وأنا نفسي أفتقد الشاي، على الرغم من أنني لا أشك أننا أفضل بدونه. كما يعتبر الخبز المصنوع من دقيق القمح تحسناً أيضاً، لكن الناس الشغيلة لا يحبونه عادة.

تميل الحرب والتخلي عن المستوردات الناتجة عنها، إلى تحويلنا إلى النظام الغذائي الطبيعي لهذه الجزر المكون من دقيق الشوفان وسمك الرنجة والحليب والخضراوات الخضراء والتفاح، وهو غذاء صحي حتى لو كان مملاً. أنا لست متأكداً كم نتتج من طعامنا، لكن أعتقد ٦٠ أو ٧٠ بالمائة. لقد تم حرث ستة ملايين أكر إضافية في إنكلترا منذ الحرب، وتسعة ملايين في بريطانيا العظمى ككل. بعد الحرب ستصبح إنكلترا بلاداً زراعية بالضرورة، لأن أسواقاً كثيرة ستختفي مهما كانت نتيجة الحرب، بسبب التصنيع في الهند وأستراليا..إلخ. في تلك الحالة يجب أن نعود إلى نظام غذائي مشابه لنظام أجدادنا، وربما لم تكن سنوات الحرب إجراء وتحضيراً سيئاً. حقيقةَ أنّ مئات الآلاف من الأطفال الذين ولدوا في المدن، يعيشون الآن ويكبرون في الريف، بسبب عمليات الإجلاء، ستساعد البلاد كي تعود إلى أسلوب حياة زراعية أسهل.

بدأ إخضاع الثياب للتقنين، ويبدأ نظام الحصص الآن يتجلى في رثاثة عامة، وقد توقعت منه أن يبرز الاختلافات الطبقية، لأنه إجراء غير ديمقراطي تماماً، لكنه لم يؤثر على الناس الأغنياء الذين لديهم مخزون من الثياب مسبقاً. كما أن نظام الحصص أيضاً ينظم عدد الثياب التي تستطيع شراءها فقط، ولا علاقة له بالثمن، لهذا أنت تتخلى عن نفس عدد القسائم من أجل معطف فرو بمائة جنيه ومعطف مطري بثلاثين شلناً. على كل الناس ليسوا في زي موحد رث الآن. اختفت ثياب السهرة عملياً، وازدادت البناطيل القطنية المتينة المضلعة والسيقان العارية عند النساء. ليس هناك بعد فيما يسمى تغييراً ثورياً في الثياب، لكن ربما تكون هناك واحدة

بسبب الحاجة المحضة إلى إنقاص الهدر في القماش. تتعامل هيئة الحرف مع المشكلة بإلغاء طيات نهايات البناطيل، وتفكر في وضع كل واحد في بزة حربية. نوع القماش يسوء، لكن بشكل أقل مما توقعت. مستحضرات التجميل أصبحت نادرة. السجائر فقدت ورقها الشفاف وأغلفتها المضادة للعرق، وباتت تُباع في أغلفة ورقية رخيصة أو بدونها. ورق الكتابة وورق التواليت يشبه صفيحة القصدير الآن. الأواني الفخارية للطبخ نادرة الآن، وتصنع من أدوات معدنية بياضها شائن مثل الأشياء التي يمكن أن تراها في السجون. كل الأشياء التي لم تضبط مثل قطع الأثاث والبياضات وساعات الحائط والأدوات، ارتفعت أسعارها بشكل حاد وخيالي. وبعد أن توقفت الحصة الأساسية من البنزين، أضحت السيارات الخاصة نادرة جداً على الطرقات. في الريف يعود الناس الآن إلى عربة الحصان ذات الدولابين مرة ثانية. في لندن ليس هناك وسائل نقل سوى القليل جداً من سيارات الأجرة العرضية بعد منتصف الليل. بات الأمر عادياً أن تنام في بيت الشخص الذي تتناول العشاء عنده. مع الغارات الجوية اعتاد الناس الذين يراقبون الحرائق على النوم خارج أسرتهم وفي أي مكان يجدونه. نقص الوقود ليس ملحوظاً بعد، لكنه سيشتد في شهر يناير/ كانون الثاني. منذ زمن طويل نجح مالكو الفحم في تخريب المحاولات لإدخال التقنين ونظام الحصص على الفحم. ومن المتوقع أن يصل النقص في مادة الفحم خمس وعشرون مليون طن في هذا الشتاء. الأبنية في كل مكان تزداد رثاثة، ليس بسبب أضرار الغارات الجوية فقط، وإنما من انعدام الإصلاحات. الجص يتقشر والنوافذ مرقعة بالقماش والكرتون، والمتاجر فارغة في كل شارع. أصبح ريجنسي لندن خراباً تقريباً. البيوت الجميلة لكن المهلهلة والتي لم يعد أحد يسكنها، تتساقط بسبب الرطوبة والإهمال. من الجانب الآخر، تحسنت الحدائق بفضل إزالة الأسيجة من أجل خردة الحديد، وكقاعدة زالت الأسيجة من الحدائق التي في الساحات أيضاً، لكن في أماكن أخرى نجح الأغنياء والمتنفذون في التمسك بأسيجتهم وأبقوا العوام خارجها. بشكل عام، حيث توجد النقود توجد الأسيجة.

أحد الأشياء التي تذكرك بشكل متكرر بتبدل الأشياء في إنكلترا منذ الحرب، هو وصول المجلات الأمريكية بحجمها الهائل وورقها الأملس وإعلاناتها الملونة الساطعة

الكثيرة التي تحثك على إنفاق المال من أجل كلام فارغ. لا شك أن الإعلانات الإنكليزية قبل الحرب، كانت ملونة وإبداعية بشكل أقل من الأمريكية، لكن جوها العقلي كان مماثلاً، ومنظر الصفحة الكاملة على ورق لماع يعطي المرء إحساساً بالعودة إلى عام ١٩٣٩. تخلت الدوريات عن حصة كبيرة جداً من حجمها المتضائل لصالح الإعلانات، لكن المقدار الكلي للإعلان الآن أصغر بكثير، وإعلانات الحكومة تفوز دائماً ضد الإعلانات التجارية. في كل مكان هناك لوحات إعلانات ضخمة فارغة. في محطات الأنفاق ترى عملية تطوير مهمة قائمة: الإعلانات التجارية تصغر أكثر فأكثر (بعضها لا يتجاوز قدم بقدمين) لتحل محلها الإعلانات الرسمية بشكل دائم. على كل حال هذا لا يعكس إلا تضاؤل التجارة الداخلية، ولا يشير إلى أي تبدل عميق في المشهد. المعلم البارز الاستثنائي للزمن، هي إعلانات لمنتجات لم تعد موجودة. أعطي مثالاً واحداً: كلمة **حديد** بأحرف كبيرة وتحتها صورة مؤثرة لدبابة، وتحتها مقالة صغيرة عن أهمية جمع خردة الحديد من أجل الإنقاذ، وفي أسفل الصورة رسالة بأحرف صغيرة جداً تذكر أن حبوب الحديد ستباع كما في السابق. هذا يلقي ضوءاً جانبياً على الواقع الغريب الذي نقلته مؤخراً **ماس أوبزيرفر**، وأكدته تجربتي الخاصة المحدودة بأن الكثيرين من عمال المصانع يخافون فعلياً من انتهاء الحرب، لأنهم يتنبؤون بالعودة الفورية للظروف القديمة مع ثلاثة ملايين عاطل عن العمل..إلخ. إن فكرة أن الرأسمالية القديمة محكومة بالهلاك مهما حدث، وأن الخطر الذي يهددنا أكثر من البطالة هو العمل القسري، لم تصل إلى الجماهير إلا بشكل فكرة غامضة بـ"أن الأشياء ستكون مختلفة". الإعلانات التي يبدو أنها تبدلت بسبب الحرب بشكل أقل من غيرها، هي تلك التي عن المسارح والأدوية المرخصة. أدوية محددة لا يمكن الحصول عليها، لكن البريطانيون لم يفقدوا أياً من حماسهم القديم لتناول الدواء بلا شك، وقد ازداد استهلاك الأسبيرين والفيناسيتين..إلخ. كل الحانات بلا استثناء تبيع الأسبيرين، وظهرت أدوية متنوعة جديدة مرخصة، أحدها شراب منشط سريع اسمه بليتز.

مرة أخرى، يبدو أنني سأحدثكم عن أشياء تافهة، لكن هذه التغيرات الثانوية في عاداتنا التي تتجه كلها نحو مساواة أكثر في طريقة الحياة، واعتماد أقل على وسائل الترف

المستوردة، يمكن أن تكون لها أهميتها في فترة الانتقال الصعب الذي يجب أن يحدث إن أصبحت بريطانيا بلداً اشتراكياً. نحن نعتاد تدريجياً على ظروف كان يتصورها المرء في الماضي لا تطاق، وقللنا من العقلية الاستهلاكية التي بذل كل من الاشتراكيين والرأسماليين أقصى جهودهم لغرسها فينا في أوقات السلم. بما أن إدخال الاشتراكية يعني بشكل أكيد تقريباً هبوط في مستوى المعيشة أثناء السنوات القليلة الأولى، فربما يكون هذا عادلاً أيضاً. لكن طبعاً التغيير في طعامنا وثيابنا ليس له أي معنى إذا لم يقترن بتغيير بنيوي أيضاً. لأن الكثير من العمليات التي حدثت في الحرب الأخيرة تحدث الآن، وكان آنذاك أيضاً نقص في الطعام وكثرة في النقود وازدهار الزراعة وانتقال النساء إلى الصناعة بأعداد ضخمة، وتضخم عضوية النقابات العمالية، وتزايد تدخل الحكومة في الحياة الخاصة، واهتزاز النظام الطبقي بسبب الحاجة إلى أعداد كبيرة جداً من الموظفين، لكن لم يكن هناك انتقال حقيقي للسلطة. وفي ١٩١٩ عدنا إلى الوضع "العادي" بسرعة مروعة. لا أستطيع أن أصدق بأن الشيء نفسه سيحدث هذه المرة، لكن لا أستطيع القول أيضاً إنني أرى دليلاً ملموساً بأن ذلك لن يحدث. في الوقت الحاضر، إن الضمانة الوحيدة ضد ذلك كما يبدو لي، أن نقبل بما يمكن أن نسميه ميكانيكا الوضع. لا تستطيع الرأسمالية القديمة الفوز بالحرب، وأحداث السنوات الثلاثة الأخيرة توحي أننا لا نستطيع أن نطور نسخة محلية من الفاشية. لذلك يستطيع المرء الآن كما منذ سنتين، التكهن في المستقبل بشكل "إما - أو": إما أن ندخل الاشتراكية، أو أن نخسر الحرب. الحقيقة الغريبة وربما المقلقة أن التكهن بهذا في ١٩٤٠ كان سهلاً كما هو الآن، علماً أن الوضع الجوهري لم يتبدل تقريباً. بقينا سنتين على أرضية ديك تحترق، وبطريقة ما لم ينفجر المستودع ماغازين أبداً.

هناك جنود أمريكيون كثيرون جداً في الشوارع. كان السخط ظاهراً على وجوههم. لا أعرف إن كان هذا هو التعبير العادي للملامح الأمريكية التي بعكس الملامح الإنكليزية اللطيفة والغامضة والقلقة نوعاً ما عادة. في الحرس الوطني، لدينا أوامر لنكون دقيقين وحريصين على تحية الضباط، وأنا أخشى أنني لن أنفذها، وهم لا يتوقعونها. أعتقد أن بعض البلدات المحلية قد استولت عليها القوات الأمريكية. هناك كثير من الغيرة مسبقاً، ومن

الضروري أن يتم عمل شيء بخصوص الفروق في الراتب عاجلاً أم آجلاً. الجندي الأمريكي يتقاضى خمسة أضعاف ما يتقاضاه الإنكليزي، وهذا له تأثيره على الفتيات. أيضاً فتيات الطبقة العاملة ربما يجدن المتعة في سماع لهجة اعتدن عليها في الأفلام، وينطق بها وجه حي. لا أعتقد أن القوات الأجنبية هنا تستطيع أن تتذمر حول الطريقة التي تعاملهم بها النساء. لقد قام البولونيون بعملهم الصغير مسبقاً فيما يتعلق بحل مشكلة معدل الولادات عندنا. بارتيزان ريفيو، جورج أورويل. نوفمبر - ديسمبر ١٩٤٢.

رسالة لندن إلى البارتيزان ريفيو
أواخر مايو/ أيار ١٩٤٣

أعزائي المحررين،

أبدأ رسالتي بعد انحلال الكومنتيرن، وقبل أن تتضح نتائجه الكاملة. من السهل التكهن بنتائجه الفورية في بريطانيا طبعاً. من الواضح أن الشيوعيين سيندمجون مع حزب العمال (هذا ما رفضه رئيس الحزب مسبقاً) ومن الواضح أن يُقال لهم يجب أن يحلوا أنفسهم وينضموا كأفراد، وبمجرد أن يكونوا داخل حزب العمال، سيحاولون العمل كزمرة منظمة مهما كانت الوعود التي أعطوها مقدماً. تكمن الأهمية الحقيقية في التنبؤ بالآثار بعيدة المدى للانحلال على حزب شيوعي من النموذج البريطاني. بتقدير الاحتمالات، أعتقد أن الإيماءة الروسية يجب أن تؤخذ بقيمتها الاسمية، أي أن ستالين يهدف بصدق إلى علاقة أقوى مع الولايات المتحدة وبريطانيا وليس مجرد "خداع البرجوازية" كما يجب أتباعه أن يعتقدوا. لكن ذلك لوحده لن يبدل سلوك الشيوعيين البريطانيين، لأن خضوعهم خلال الخمسة عشر سنة الأخيرة، لم يرتكز أولاً وأخيراً على أية سلطة حقيقية. لا يمكن إعدام الشيوعيين البريطانيين أو نفيهم لو أنهم اختاروا العصيان. وبقدر معرفتي هم لم يتقاضوا أي مبلغ مالي من موسكو في السنين الأخيرة. إضافة إلى ذلك، فقد أظهر الروس بجلاء احتقارهم لهم. اعتمدت طاعتهم على سحر وشذا الثورة التي بدلت نفسها تدريجياً إلى ولاء قومي للدولة الروسية. إن الإنتلجنسيا اليسارية الإنكليزية تعبد ستالين، لأنها فقدت وطنيتها وإيمانها الديني من دون أن يفقدوا الحاجة إلى إله ووطن. قلت دائماً إن الكثيرين منهم سيحولون ولاءهم إلى هتلر، إن فازت ألمانيا بالحرب. طالما "الشيوعية" مجرد وسيلة تعزز مصالح وزارة الخارجية الروسية، من الصعب أن نشاهد أي فرق لزوال الكومنتيرن. يستطيع كل واحد تقريباً أن يرى دائماً من النظرة الأولى أية سياسة مطلوبة، حتى لو لم تكن هناك منظمة مركزية تسلم التوجيهات والتعليمات.

ومع ذلك يجب على المرء أن يأخذ بعين الاعتبار الأثر على عضوية الطبقة العاملة، التي لها وجهة نظر مختلفة عن المبتذلين المأجورين الذين يقبضون الرواتب في قيادة الحزب. هؤلاء

الناس الإعلان الصريح بأن الأممي مات، يجب أن يحدث فرقاً، رغم أنه كان شبحاً مسبقاً في الحقيقة. وحتى في اللجنة المركزية للحزب، هناك اختلافات في وجهة النظر التي ربما تتسع، إذا بدأ الحزب الشيوعي البريطاني بعد مدة قصيرة بالنظر إلى نفسه كحزب مستقل. حتى الشيوعيون الدائمون، لن يعترفوا بأنهم مجرد عملاء للروس في غالب الأحيان، ولذلك لا يرون بالضرورة ما هي الخطوة المطلوبة، حتى تصل التعليمات من موسكو. لذلك حالما تم توقيع المعاهدة العسكرية الفرانكو - روسية، بات من الواضح أن الشيوعيين الفرنسيين والبريطانيين يجب أن يكونوا وطنيين، لكن حسب معرفتي فقد فشل بعضهم في إدراك هذا. أو مرة أخرى بعد توقيع المعاهدة الروسية الألمانية، رفض الكثيرون من الأعضاء القياديين قبول الخط المعادي للحرب، واضطروا إلى الزحف على بطونهم قبل أن يغفر لهم تمردهم. في الأشهر التي تلت ذلك، أصبح المعلقان الرئيسيان في الحزب، متعاطفين جداً مع النظرة العالمية النازية، رغم فزع بعض الآخرين الواضح. إن خط الانقسام بين المثقفين المستأصلة جذورهم مثل بالم دوت ورجال النقابات مثل بوليت وهانينغتون. بعد كل السنين التي أمضوها في الوظيفة، لم يستطع أي واحد من هؤلاء الرجال أن يتخيل أية مهنة سوى تأييد روسيا السوفيتية بحماس، لكنهم ربما اختلفوا حول أفضل طريقة لفعلها، إذا انسحبت القيادة الروسية حقاً. عموماً يجب أن أتوقع أن حلّ الكومنتيرن، ستكون له نتائج هامة، لكن ليست فورية، ويجب أن أقول إن الشيوعيين البريطانيين سيستمرون كما هم دائماً خلال ستة أشهر أو ربما أكثر، لكن بعد ذلك، ستظهر الانشقاقات، والحزب إما يتلاشى، أو يتطور إلى منظمة أكثر رخاوة وأقل حباً للروس تحت قيادة جديدة أحدث.

يبقى اللغز الأكبر، لماذا جرى حلّ الكومنتيرن. إن كنت على صواب وكان الروس فعلوها ليحدثوا الثقة، يجب على المرء أن يفترض أن حكام بريطانيا والولايات المتحدة أرادوا حلّ الكومنتيرن، وطالبوا به كجزء من ثمن الجبهة الثانية. لكن على كل حال، لم يكن في بريطانيا في السنين العشرة الأخيرة سوى إشارة صغيرة عن اعتراض جدي من الطبقة الحاكمة على وجود الحزب الشيوعي، فحتى أثناء فترة المؤتمر الشعبي، أبدت مقداراً مدهشاً من التسامح، وفي كل الأوقات الأخرى منذ عام ١٩٣٥ فصاعداً، كان الحزب الشيوعي ينال دعماً قوياً من قطاع أو آخر من الصحافة الرأسمالية. إن الشيء الذي يصعب التأكد منه هو من أين يحصل الشيوعيين على أموالهم. من غير المحتمل أنهم يحصلون عليها من داعميهم العلنيين. وأعتقد أنهم

صادقون في قولهم إنهم لا يحصلون على شيء من موسكو. الفارق أنهم ينالون "مساعدة" من الناس الإنكليز الأثرياء من حين إلى آخر، الذين يرون قيمة منظمة تقوم بدور مصيدة سمك للاشتراكيين الفاعلين. ينسب لبيفربروك عن صح أو خطأ، أنه مول الحزب الشيوعي في السنة الماضية أو السنتين. ربما هذه إشاعة أكثر منها حقيقة. حين يفكر المرء بتاريخ السنين العشرين الماضية، يصعب ألا يشعر المرء أن الكومنتيرن كان من ألد أعداء الطبقة العاملة. مع ذلك يسر القشرة العليا أن ترى زواله - حقيقة أدونها، لكني لا أستطيع تفسيرها بسرعة وسهولة.

كلن التطور السياسي الهام الآخر خلال الأشهر الثلاثة الماضية، هو نمو الكومنويلث، حزب السير ريتشارد اكلاند. ذكرت هذا في رسائل سابقة، لكنني بخسته أهميته. إنها الآن حركة يحسب لها حساب، ومكروهة من قبل كل الأحزاب الأخرى على السواء.

برنامج أكلاند الذي وُضع بلغة أطفال تقريباً في وريقات وكراريس كثيرة، يمكن وصفه بالاشتراكية ناقص الحرب الطبقية مع التأكيد على الدافع الأخلاقي بدلاً من الدافع الاقتصادي. يطالب البرنامج بتأميم كل الثروات الأساسية، وباستقلال الهند الفوري، والتشارك في المواد الخام بين البلدان التي تملك والتي لا تملك، وإدارة دولية للمناطق المتخلفة، وجيش مؤلف من أكبر عدد ممكن من البلدان للحفاظ على السلام بعد انتهاء الحرب. عموماً، هذا البرنامج لا يقل قسوة عن برامج الأحزاب المتطرفة اليسارية، بل وله صفات غير عادية جديرة بالملاحظة بما أنها تفسر التقدم الذي حققه الكومنويلث أثناء الأشهر القليلة الماضية.

في المقام الأول، جرى التخلي عن أيديولوجيا الحرب الطبقية كلها. رغم أن أصحاب الملكية كلهم سوف يُجردون من ملكياتهم، إلا أنهم سيتلقون تعويضاً ضئيلاً - بالتالي، سيُعطى البورجوازي معاشاً تقاعدياً مدى الحياة بدلاً من فريق الإعدام. واستنكرت وشجبت فكرة ديكتاتورية الطبقة العاملة بشكل خاص: يجب على الطبقتين الوسطى والعاملة الاندماج بدلاً من محاربة بعضهما. تهدف أدبيات الحزب بشكل رئيسي إلى كسب الطبقة الوسطى، كلاهما الطبقة الوسطى التقنية والرجل الصغير (المزارعين والحانوتيين..إلخ). ثانياً، يؤكد الجانب الاقتصادي من البرنامج على زيادة الإنتاج بدلاً من المساواة في الاستهلاك. ثالثاً، تبذل جهود للتوليف بين الوطنية وبين وجهة النظر الأممية، كما جرى التأكيد على أهمية اتباع التقليد البريطاني و"عمل الأشياء بطريقتنا الخاصة بنا"، فمن الواضح سيُحافظ البرلمان على شكله الحالي، ولم يُذكر شيء ضد النظام الملكي. رابعاً، كومنويلث لم يصف نفسه بـ"اشتراكي"،

وتحاشى بحرص الأسلوب الماركسي في التعبير، وأفصح عن نفسه بأنه يرغب في التعاون مع أي حزب آخر له أهداف مشابهة. (مع حزب العمال الاختبار هو أن يخرق الحزب الهدنة الانتخابية) خامساً - والأهم ربما - دعاية كومنويلث لها لذعة أخلاقية قوية. يتألف أفضل ملصق ببساطة من الكلمات " هل هي نافعة؟" التي شطبت واستبدلت ب"هل هي صحيحة؟" قساوسة أنجليكانيون كثيرون في مقدمة الحركة، لكن الكاثوليك يبدون ضدها.

أنا لست متأكداً إن كان لهذه الحركة مستقبل، لكن نموها منذ آخر مرة كتبت لكم فيها لافت جداً. مرشحو أكلاند يقاتلون في الانتخابات الفرعية في كل أنحاء البلاد. رغم أنهم لم يفوزا إلا بمقعدين حتى الآن، إلا أنهم أحدثوا انقلاباً في الأصوات ضد مرشحي الحكومة، وربما الأكثر مغزى أن الاقتراع كل يزداد أينما ظهر مرشحو كومنويلث. قام حزب العمال المستقل بمغازلة الكومنويلث من بعيد، لكن الأحزاب اليسارية الأخرى معادية وربما خائفة. النقد المعتاد أن الكومنويلث يحقق تقدماً بسبب الهدنة الانتخابية فقط - بكلمات أخرى، لأن حزب العمال على ما هو عليه، وقيل أيضاً إن عضوية الحزب كلها من الطبقة الوسطى. الشيوعيون طبعاً صنفوا كومنويلث كفاشيين، ويعملون الآن هم والمحافظون معاً في الانتخابات الفرعية.

البرنامج الذي أوجزته بفظاظة فيه مبادئ من الديماغوجية والطوباوية، لكنه يأخذ في اعتباره توازن القوى أكثر مما فعلته الأحزاب اليسارية القديمة. ربما تتوفر له الفرصة في السلطة إن ظهر وضع ثوري آخر، إما من خلال كارثة عسكرية، أو في نهاية الحرب. صرح بعض الذين يعرفون أكلاند أن لديه "عقدة الفوهرر"، وأنه إذا رأى الحركة تنمو وتخرج عن سيطرته، سيشقها ولن يشارك أحداً في السلطة. أنا لا أصدق أن الأمر سيكون هكذا، لكني لا أصدق أيضاً أن أكلاند لوحده يستطيع أن يخلق حركة على مستوى الأمة. هو ليس شخصية كبيرة بما يكفي، وليس رجل الشعب بأي شكل. رغم خلفيته الأرستقراطية والزراعية (إنه البارون الخامس عشر) له سلوك وهيئة الموظف المدني مع لهجة الطبقة العليا النموذجية. في إنكلترا أن تكون جنتلمان، فهي إعاقة خطيرة بالنسبة إلى القائد الشعبي. تشرشل مثلاً ليس جنتلمان. كريبس جنتلمان لكن لموازنة هذا فهو مشهور بـ"تقشفه" تلك اللمسة الغاندية التي يفتقدها أكلاند رغم ميله الأخلاقي والديني. أعتقد أن هذه الحركة يجب أن تراقب باهتمام. ربما تتطور إلى الحزب الاشتراكي الجديد الذي ننتظره كلنا، أو إلى شيء منحوس جداً: فيها بعض الأتباع المثيرين للريبة مسبقاً.

أخيراً، فإن كلمة عن العداء للسامية لا يمكن القول إنها وصلت إلى منزلة "المشكلة". لقد قلت في رسالتي إنها لم تكن تزداد، لكنني الآن أعتقد أنها تزداد. إن الإشارة الخطيرة والتي تعتبر وقاية أيضاً، أن الكل يعيها ويدركها ويجري نقاشها في الصحافة بشكل لامتناه. على الرغم من النظرة المزدرية لليهود في إنكلترا ومنعهم من ممارسة بعض المهن (أشك أن يقبل يهودي أن يعمل ضابطاً في البحرية مثلاً) إلا أن عداء السامية شيء طبقي في الأصل، وتجد أقوى أشكالها عند العمال الإيرلنديين، وقد رأيت بعض اللمحات من عداء الطبقة العاملة للسامية أثناء وجودي في الحرس الوطني لمدة ثلاث سنوات، الذي وفر مقطعاً أنموذجياً يمثل كافة أطياف المجتمع - في منطقة يتواجد فيها الكثير من اليهود. اكتشفت من خلال تجربتي أن الناس في الطبقة الوسطى يسخرون من اليهود، ويمارسون التمييز ضدهم إلى حد ما، لكن وسط الطبقة العاملة، فهناك إيمان كامل بأن اليهود عرق ماكر وشرير يعيشون على استغلال غير اليهود (الوثنيين حسب الدين اليهودي). بعد كل الذي حدث في السنوات العشر الأخيرة، فمن المخيف أن تسمع رجلاً عاملاً يقول "حسناً، أظن أن هتلر قام بعمل جيد حين طردهم" لقد سمعت ذلك أكثر من مرة. لا يبدو أن هؤلاء الناس، لم يدركوا أن هتلر فعل شيئاً باليهود غير طردهم، ولم يلاحظوا المذابح المنظمة والترحيل..إلخ. لكن يُشك إن كان الاعتراض على اليهودي كيهودي أم كأجنبي. ليس هناك اعتبارات دينية. إن اليهودي الإنكليزي الأرثوذكسي بصرامة والإنكليزي تماماً في عاداته، مكروه أقل من اللاجئ الأوروبي الذي لم يقترب من أي معبد منذ ثلاثين سنة. بعض الناس يعترضون على اليهود، بحجة أن اليهود ألمان! لكن العداء للسامية ينتشر الآن وسط الطبقة الوسطى أيضاً بأشكال مختلفة. الصيغة المعتادة هي "أنا لا أريدك أن تعتقد أنني معادٍ للسامية، لكن....". ويتبع هذا فهرس بالآثام اليهودية. يُتهم اليهود بالتملص من الخدمة العسكرية وخرق قوانين الغذاء، وشق طريقهم إلى مقدمة الطوابير..إلخ. يشير الناس الأذكى والأوسع معرفة إلى أن اللاجئين اليهود يستغلون هذه البلاد كملجأ مؤقت، وأنهم لا يظهرون أي ولاء نحوها. موضوعياً هذا صحيح، فانعدام اللباقة لدى بعض اللاجئين لا تصدق تقريباً. (مثلاً، سمعت ملاحظة ليهودية ألمانية خلال معركة فرنسا: "أفراد الشرطة الإنكليزية هؤلاء ليسوا أنيقين مثل رجالنا في الإس إس") لكن الحجج التي من هذا النوع عبارة عن عقلنة للتحامل. الناس يكرهون اليهود كثير جداً، لذلك لا يريدون أن يتذكروا عذاباتهم، وحين تُذكر أعمال الرعب التي تحدث في ألمانيا أو بولونيا، يكون الرد دائماً: "أوه نعم،

طبعاً ذلك مروع، لكن..."، وتأتي القائمة المعتادة من الشكاوي. ليست كل الإنتلجنسيا منيعة ومحصنة ضد هذا الشيء. هنا يكون المخرج والحجة عادة أن اللاجئين كلهم "بورجوازيون صغار". وهكذا يستمر التعسف ضد اليهود تحت قناع محترم. يجد السلاميون وآخرون من المعادين للحرب أنفسهم مجبرين في معاداتهم للسامية.

يجب ألا يضخم المرء خطر هذا النوع من الشيء. بداية هناك عداء للسامية الآن في إنكلترا، أقل مما كان عليه قبل ثلاثين سنة. في السرد القصصي الثانوي آنذاك، تجد أن اليهودي من مرتبة أدنى أو شخصية للسخرية، كشيء مسلم به وشائع بشكل أكثر مما تجد في هذه الأيام، وقد اختفت "دعابة اليهودي" من المسرح والراديو والصحف الهزلية منذ ١٩٣٤. ثانياً، هناك وعي كبير لخطر تفشي معاداة السامية وجهد مقصود للصراع ضده. لكن الشيء يبقى. وربما هو واحد من الأمراض العصابية المحتومة الناتجة عن الحرب. أنا بشكل خاص لست خائفاً من حقيقة أن عداء السامية لن يأخذ أشكالاً عنيفة. صحيح أنه لا أحد يريد أن تكون هناك مذابح جماعية منظمة ورمي أساتذة الجامعة اليهود في المجارير، لكن هناك جريمة قليلة جداً أو عنف في إنكلترا بأي حال. الشكل الألطف من معاداة السامية السائد هنا، يمكن أن يكون قاسياً بطريقة غير مباشرة، لأنه يجعل الناس يتغاضون عن مشكلة اللاجئين برمتها، ولا يبالون بمصير اليهود الأوروبيين الناجين. لأن يهودية بدينة اختطفت مكانك في الحافلة منذ يومين، تقوم وتطفئ المذياع حين يبدأ المذيع الحديث عن الغيتوهات في وارسو؛ هكذا تعمل عقول الناس في هذه الأيام.

هذه كل الأخبار السياسية التي عندي. الحياة تستمر إلى حد كبير كما في السابق. لم ألحظ أن طعامنا اختلف، لكن الوضع الغذائي يعتبر أسوأ عموماً. الحرب تضرب المرء بسلسلة متتابعة من الصفعات في أماكن غير متوقعة. منذ زمن طويل باتت شفرات الحلاقة مستحيلة المنال والآن ملمع الأحذية. الكتب تطبع على أردأ أنواع الورق في نسخ بالغة الصغر متعبة جداً للعيون. عدد قليل من الناس يلبسون أحذية ذات نعال خشبية. هناك مقدار مرعب من السكر والثمل في لندن. يبدو أن علاقة الجنود الأمريكيين بالسكان المحليين تتحسن، وربما تكيفوا مع المناخ..إلخ. الغارات الجوية مستمرة، لكن بمعدل هزيل. لاحظت أن الكثيرين أصبحوا يشعرون بالشفقة تجاه الألمان، لأنهم هم من يتعرض للقصف الآن - تبدل منذ عام ١٩٤٠ حين رأى الناس بيوتهم تنهار ركاماً حولهم أرادوا أن يروا برلين تُمحى من الخريطة.

جورج أورويل. بارتيزان ريفيو، يوليو / أغسطس - ١٩٤٣

رسالة من لندن إلى بارتيزان ريفيو
٣ يناير ١٩٤٣

أعزائي المحررين

اكتملت سنتان منذ أن كتبت لكم رسالتي الأولى. كتبت تلك الرسالة على أصوات المدفعية ونحن نمر في مصاعب شديدة، وأيضاً في الوقت الذي يبدو لنا أننا على حافة تقدم سياسي سريع. بدأت هذه الرسالة في وقت فيه الوضع العسكري أفضل بشكل هائل، لكن المشهد السياسي أشد سواداً مما كان عليه أبداً. لقد عنونتم بمبادرة منكم رسالتي الأخيرة التي كتبتها في مايو/ أيار من هذه السنة بالأزمة البريطانية. حسناً، تلك الأزمة انتهت، وفازت قوى الرجعية بالحكم. تشرشل ثبت على السرج ثانية، وكريبس أهدر فرصه، ولم يظهر أي قائد يساري أو حركة، والأهم أنه من الصعب أن نرى تكرر أي وضع ثوري حتى تنتهي الحرب في الغرب. أتيحت لنا فرصتان: دنكيرك وسنغافورة، ولم نغتنم أياً منهما. قبل التكهن بعواقب هذا، دعوني أجمل النزعات الرئيسية في هذه السنة كما أراها.

على الرغم من أن الحوادث الفردية لا تتوافق وتتناسب بشكل دقيق كما يجب، إلا أن القاعدة تظل صحيحة بأن الحكومة تنتقل إلى اليمين في أوقات النجاح، وإلى اليسار في أوقات الكارثة. انهيار في الشرق الأقصى - كريبس في الحكومة وإرسال كريبس إلى الهند (أحداث رتبت ربما لتؤكد أنها يجب ألا تكون مقبولة أبداً، لكنها كانت تنازلاً كبيراً لصالح الشعور الشعبي في هذه البلاد على الأقل) انتصارات أمريكية في الباسيفيكي، وفشل ألماني في الوصول إلى الإسكندرية - إلقاء القبض على قادة المؤتمر الهندي. انتصار بريطاني في مصر وغزو أمريكي لشمال أفريقيا - ارتباط مع دارلان، وتملق جديد لفرانكو. لكن خلال السنة كلها - في الواقع لقد ذكرتها في رسائل سابقة - كان هناك نمو ثابت للبليمبية وإبعاد "الحمر" بالقوة الذين كانوا مفيدين حين كانت المعنويات بحاجة إلى

تنشيط، لكن الآن يمكن التخلص منهم. إن الطرد المفاجئ لكريبس يرمز إلى عملية تحدث في كل مكان. بمعزل عن التأرجح نحو اليمين، هناك تطوران آخران مهمان كما يبدو. الأول التحريض والهياج حول الجبهة الثانية الذي وصل إلى ذروته في يوليو/ تموز ثم أخذ لوناً سياسياً أكثر وضوحاً من قبل. الحملة الأمريكية في شمال أفريقيا أسكتت مؤقتاً المطالبة الصاخبة حول جبهة ثانية، لكن الجدال والخلاف في الأشهر السالفة، لم يكن عسكرياً وإنما صراعاً بين مؤيدي روسيا ومعارضيها. التطور الآخر هو نمو الموقف الشعبي المعادي لأمريكا، والتحكم الأمريكي المتزايد في السياسة البريطانية. الموقف الشعبي من أميركا تبدل في اعتقادي في الأشهر القليلة الأخيرة. وسأعود إلى هذا في دقيقة. في الوقت الراهن الشكوك المتنامية بأننا قللنا في تقديرنا للقوة الرأسمالية، وأن اليمين ربما يكون قادراً أخيراً على الفوز بالحرب بمضربه هو دون اللجوء إلى أي تغيير راديكالي، محزنة جداً لكل شخص يفكر. الكلبية حول "ما بعد الحرب" انتشرت بشكل واسع، وتلاشى شعور عام ١٩٤٠ "كلنا فيها معاً"

الموضوع السياسي الكبير في الأسابيع القليلة الماضية، كان تقرير بيفربريدج عن الضمان الاجتماعي. يشعر الناس أن هذا الإجراء الإصلاحي المعتدل جيد وأكثر من أن يكون حقيقياً. ماعدا أقلية صغيرة جداً، فكل الناس يؤيدون بيفريدج ومنهم - صحف الجناح اليساري أيضاً التي منذ بضع سنوات مضت كانت ستشجب هذه الخطة وتعتبرها شبه فاشية - وفي الوقت نفسه لا أحد يصدق أن خطة بيفريدج سوف يتم تبنيها فعلياً. الرأي المعتاد: أنهم (الحكومة) ستتظاهر بقبول تقرير بيفرديج ثم تسقطه ببساطة. يتزايد الشعور بالعجز كما يبدو، وينعكس في التناقص المتزايد في أعداد المقترعين في الانتخابات الفرعية. المظاهرات الشعبية الأخيرة المهمة، كانت تلك التي تطالب بجبهة ثانية في الصيف الماضي. لم تخرج مظاهرات ضد صفقة دارلان، على الرغم من الرفض شبه الجماعي لها، ولم تخرج كذلك ضد قضية الهند رغم الشعور الشعبي المؤيد للمؤتمر. مازال اليسار المتطرف يميل إلى الانهزامية باستثناء موقفه من الجبهة الروسية، وفي كل مرحلة من الحملة الأفريقية تتمسك صحافته بيأس بتفسير متشائم للأحداث. أعتقد أنه من

الجدير أن نلاحظ أن الخبراء العسكريين المفضلين عند اليسار، كلهم من الانهزاميين، الذين لم تتضرر سمعتهم، حين دحضت تنبؤاتهم التشاؤمية الكئيبة، أكثر من تضرر سمعة المتفائلين المرحين المضللين لدى اليمين. على كل الأحوال هذا ناتج جزئياً من الغيرة و"العقلية المعارضة": عدد قليل جداً من الناس يؤمنون الآن بانتصار ألماني. بالنسبة إلى العبرة الحقيقية للسنوات الثلاثة الماضية - كان لدى اليمين شجاعة ومقدرة أكثر من اليسار - لم يقبل بها أحد.

الآن هذه كلمة حول العلاقات الأنغلوأمريكية. في رسالة سابقة، حاولت أن أشير باختصار شديد إلى تيارات مختلفة من الشعور المؤيد والمعادي للأمريكان في هذه البلاد. لقد كان هناك تنامٍ واضح من العداء لأمريكا منذ ذلك الوقت، وقد امتد الآن إلى أناس كانوا مؤيدين لأمريكا بشكل واضح، كالإنتلجنسيا الأدبية مثلاً. من المهم أن ندرك أن بريطانيا اختلفت في الخمس عشرة سنة الأخيرة عن أغلب البلدان، بعدم امتلاكها لإنتلجنسيا وطنية تستحق الحديث عنها. إن المثقف العادي معادٍ لبريطانيا، ورغم أنه يعبد الاتحاد السوفييتي بشكل رئيسي، إلا أنه يميل أيضاً للنظر إلى أمريكا، ليس بكونها ليست أكفأ وأحدث من بريطانيا فقط، وإنها أكثر ديمقراطية حقيقية وصادقة منها أيضاً. خلال فترة ١٩٣٥ - ٩ إنتلجنسيا اليسار خدعت إلى درجة مدهشة بسلوك "معادٍ للفاشية" تساهلت معه صحف أمريكية كثيرة. كان هناك أيضاً ميل إلى الانحناء والتذلل ثقافياً لأمريكا وإلحاح على تفوق وأفضلية اللغة الأمريكية واللهجة الأمريكية أيضاً. لكن هذا الموقف تبدل حين بدأ الإدراك بأن الولايات المتحدة الأمريكية إمبريالية كامنة، وسياسة ومواقف بريطانية متقدمة عليها كثيراً جداً. رأي مفضل في هذه الأيام: بينما يسترضي تشامبرلاين ألمانيا، فإن تشرشل يسترضي أمريكا. من الواضح في الواقع أن الطبقة الإنكليزية الحاكمة تقوت كثيراً بالأسلحة الأمريكية، وبذلك حصلت على فترة حياة جديدة لا يمكن لها أن تملكها لولا ذلك. الناس يلومون الولايات المتحدة الأمريكية الآن على كل حركة رجعية بشكل أكثر من أن يبرر حتى. مثلاً، حتى الناس المطلعون جيداً اعتقدوا أن وظيفة دارلان كانت "تدبيراً" قام به الأمريكيون من دون معرفتنا، ويفترض بالحكومة البريطانية أن تطلع عليه.

هناك شعور عدائي نحو أميركا وسط الطبقة العاملة بفضل وجود الجنود الأمريكان، وأعتقد أنه شعور عدائي لبريطانيا مرير جداً وسط الجنود أنفسهم. يجب عليّ أن أتكلم عن الدليل المتوفر والمستخدم هنا، لأن التواصل مع جندي أمريكي شبه مستحيل. تراهم في كل مكان في كل الشوارع، لكنهم لا يذهبون إلى الحانات العادية، وحتى في الفنادق وبارات الكوكتيل يبقون لوحدهم ولا يريدون أن يتكلم معهم أحد. ويقول المدنيون الأمريكان الذين يتواصلون معهم أنهم بمعزل عن تذمرهم العادي من الطعام والمناخ..إلخ، يتذمرون من المعاملة غير المضيافة ومن أنهم مجبرون على الدفع لقاء لهوهم وتسليتهم، وأنهم مشمئزون من القذارة وقدم الأشياء وتخلفها عن الموضة، والفقر العام للحياة في إنكلترا. من المؤكد أنه ليس من السائغ الانتقال الفجائي من رفاهية أمريكا وتساليها إلى بلدة ماطرة مسودة بالدخان في وسط البلاد، أنهكتها ثلاث سنوات من الحرب، وينقصها كل نوع من البضائع الاستهلاكية. ولكني أشك إن كان الأمريكي العادي سيجد إنكلترا مقبولة وتحتمل حتى في زمن السلم. إن الاختلافات الثقافية عميقة جداً وربما متضاربة وعنيدة، ومن الواضح أن الأمريكيين ينظرون لإنكلترا بأشد الازدراء وأشبه بالازدراء الذي يحس به الإنكليزي ضئيل الثقافة العادي تجاه الأعراق اللاتينية. كل من على تواصل مع الجنود الأمريكيين، ينقل عنهم أن هذه الحرب "حربهم" وأنهم قاموا بكل القتال فيها، وأن البريطانيين غير فالحين في أي شيء باستثناء الهروب..إلخ. إن انعدام التواصل بين الأمريكان والمحليين مروع. مرت الآن ثمانية أشهر على وصول أول جنود أمريكيين، ولم أر بعد جندياً بريطانياً وجندياً أمريكياً معاً. الضباط يفعلون ذلك من حين إلى آخر، أما الجنود فلا. يبدو أن الانطباع الجيد المبكر الذي شكله الجنود الأمريكيون عن النساء أصبح بالياً وقديماً الآن. لا يراهم المرء إلا مع مومسات أو أشباه مومسات، وهذا ما يحدث في أغلب أقسام البلاد، حسب ما تفيد به التقارير. لكن قيل إن العلاقات أفضل في اسكتلندا، حيث الناس مضيافون أكثر منهم في إنكلترا بالتأكيد. وأيضاً يبدو أن الناس يفضلون الزنوج على الأمريكان البيض. لو سألت الناس لماذا لا تحبون الأمريكيين، ستجد أولاً الجواب بأنهم "يتباهون دائماً". ومن ثم تجد شكوى ملموسة أكثر في مسألة راتب الجنود والطعام. الجندي النفر العادي الأمريكي ينال عشرة

شلنات في اليوم، ما يعني - حسب الأجور والدخل الآن - أن كل الجيش الأمريكي من الطبقة الوسطى مالياً وفي مكانة عالية فيها. بالنسبة إلى الطعام، أنا لا أتصور أن الناس يستاؤون من الجنود، لأنهم يتغذون بشكل أفضل من المدنيين، لأن الجيش البريطاني يتغذى بشكل أفضل أيضاً من حيث المكونات، وإنما لأن الأمريكيين تُعطى لهم مواد غذائية مخصصة للأطفال، ووسائل ترف مستوردة، تهدر وتقلص سعة سفن الشحن. حتى أنهم يستوردون البيرة، لأنهم لا يشربون البيرة الإنكليزية. ويشير الناس بشيء من المرارة، أن البحارة يغرقون حتى يجلبوا هذه المادة من الجانب الآخر للمحيط. يمكنك أيضاً أن تتخيل تركيز البرجوازية الصغيرة على أن الضباط الأمريكيين يحتكرون كل سيارات الأجرة ويشربون كل الويسكي، وضخموا إيجارات الغرف المفروشة إلى مستويات غير مسموع بها. التعليق المعتاد "لن أهتم وأعترض إن كانوا يقاتلون ولا يتكلمون فقط" هذا يقال بدافع الحقد، لكن هذا الموقف سوف يتبدل بشكلٍ عميق عندما يتورط الجيش الأمريكي في أوروبا. في الوقت الحاضر إن التشابه مع علاقاتنا مع أوروبا أثناء الحرب الزائفة، واضح جداً.

إن كانت هذه الحالة من العلاقات ستتبدل بوسائل دعائية أفضل، فإنه موضوع قابل للجدل. لاحظت أن الناس العائدين من الولايات المتحدة الأمريكية حديثاً أو الذي يلمون بالأوضاع فيها وخصوصاً الكنديين، مهتمون بالعلاقات الأنغلوأمريكية، ومتلهفين جداً إلى ضرورة تعزيز الجهد الحربي بشكل أعلى في الولايات المتحدة. إن مشاكل الدعاية البريطانية أعقد مما يدركه الناس. لنأخذ مثالاً واحداً: من الضروري سياسياً تملق الدول التابعة للتاج البريطاني الذي يشمل الإقلال من تبعيتها لبريطانيا. نتيجة لذلك يقدر الألمان أن يقولوا بشكل يقبل التصديق إن قتال بريطانيا يخوضه عنها جنود المستعمرات، لكن هذا يعتبر شراً أقل من إهانة الأستراليين الذين يرتبطون بالإمبراطورية بشكل رخو ويعادون بريطانيا ثقافياً. هذا المعضلة تفرض نفسها مرة تلو أخرى في اختلافات كثيرة. بالنسبة إلى أمريكا، بعض الدعائيين يرون أن الأفضل للأمريكان أن يكونوا معادين لبريطانيا، بما أن هذا يمنحهم اعتقاداً جيداً بأنفسهم و"يبقي معنوياتهم عالية" بعضهم مرغوب، لأن من يمثلوننا في أميركا أناس على

شاكلة اللورد هاليفاكس - الذي، يُخشى - أن يُعتبر إنكليزياً أنموذجياً. الخط المعتاد هو "لماذا لا نرسل بضعة من الشغيلة من ويغان أو برادفورد، لنبين لهم أننا أناس عاديون مثلهم؟". هذا يبدو لي عاطفية زائدة. صحيح طبعاً أن اللورد هاليفاكس ممثل لبريطانيا كرئيس قبيلة الهنود الحمر بالنسبة إلى الولايات المتحدة، لكن النظرية التي ترى أن عامة الشعب في كل الأمم يحبون بعضهم البعض من لمحة ليست مدعومة بالتجربة. إن الناس العاديين (العوام) في كل الأمم يعانون من الرهاب من الأجانب، لأنهم لا يستطيعون تعويد أنفسهم على الطعام الأجنبي والعادات الأجنبية. اعتناق آراء الجناح اليساري لا يشكل فرقاً إلى هذا، حقيقة انطبعت في ذهني في الحرب الأهلية الإسبانية. الود والرضا تجاه جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية في هذه البلاد، تعتمد جزئياً على حقيقة أن قلة من الإنكليز رأوا شخصاً روسيا. وعلى المرء أن ينظر فقط في العالم الناطق باللغة الإنكليزية بمتاهته من الضغائن الثقافية، ليرى أن التحدث بنفس اللغة ليس ضمانة للصداقة.

مهما يحدث، فإن بريطانيا لن تسلك الطريق الذي سارت فيه فرنسا. والعداوة المتنامية بين البريطانيين والأمريكيين، ليس لها أية أهمية حقيقية إلى أن تنتهي الحرب. لكن ربما يكون لها تأثير مباشر على الأحداث إذا - كما هو متوقع الآن - دحرت ألمانيا في وقت ما في عامي ١٩٤٣ أو ١٩٤٤ عندئذ سيتطلب حسم موضوع اليابان سنتين إضافيتين. في تلك الحالة يمكن بكل سهولة تصوير الحرب ضد اليابان بأنها "حرب أمريكية" وشكل بديل مقبول أكثر من "حرب يهودية".

إن الجماهير ترى، وبشكل ثابت، أن هتلر هو العدو، ومن الشائع والعادي أن تسمع جنودنا يقولون: "أنا سأتوقف عن القتال وأترك الجيش حالما تُهزم ألمانيا". هذا لا يعني أنهم كانوا يقصدون أو يقدرون أن يفعلوا هذا. وأعتقد أن رأي الأغلبية في الواقع، سيكون مع البقاء في الحرب، إذا لم تبدل الأطراف تحالفاتها في ذلك الوقت مرة أخرى. لكن السؤال "ماذا ننتظر؟" محكوم بأن يظهر بشكل أكثر حدة حين تهزم ألمانيا. وهناك عناصر قليلة مؤيدة لليابانيين في هذه البلاد، قد يكونوا أذكياء بما يكفي للانتفاع من ضجر حرب شعبية. إن الحرب في الشرق الأقصى، من وجهة نظر رجل الشارع، هي

حرب من أجل شركات المطاط والأمريكيين. وفي ذلك السياق قد تكون لاشعبية الأمريكيين هامة جداً. الطبقة الحاكمة البريطانية، لم تعلن أبداً عن أهداف الحرب الحقيقية، التي حدث أن تكون شيئاً لا يجوز ذكره. وطالما كانت الأمور تحدث بشكل سيئ، فقد دفعت بريطانيا نحو استراتيجية ثورية في جزء من طريقها. لذلك كانت هناك دائماً إمكانية دقرطة الحرب من دون خسارتها في الاستمرار. لكن الآن بدأ المد ينقلب، والعالم الكئيب، الذي نوى المليونيريون الأمريكان وأتباعهم البريطانيون أن يفرضوه علينا، بدأ يأخذ شكله على الفور. إن الشعب البريطاني بأغلبيته، لا يريد مثل هذا العالم، وقد يقول هذا بقوة حين يزاح النازيون عن الطريق. ما يريده الشعب، بالشكل الذي صاغه فكره، نوعاً من ولايات أوروبية متحدة، يسيطر عليها تحالف وثيق بين بريطانيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية. عاطفياً، أغلب الناس في هذا العالم يفضلون الارتباط مع روسيا، بدلاً من أمريكا، ومن الممكن تخيل الأوضاع التي تصبح فيها القضية الشعبية، هي قضية العداء لأمريكا. هناك علامات لهذا الاصطفاف في ردود الأفعال حول قضية دارلان. لا أعرف إن كان هناك أي قائد أو حزب قادر على الاستجابة لتلك الميول القوية وتبنيها، والتي ستنشأ حتى لو انتهى هتلر وكانت أوروبا في فوضى كبيرة.

لا توجد أخبار كثيرة أخرى. لقد ظهر حزب فاشي آخر، هو الحزب القومي البريطاني. إنه نفس الهراء المعتاد – معادٍ للبلشفية ومعادٍ للشركات الكبيرة..إلخ. هؤلاء الناس حصلوا على بعض المال من مكان ما، لكن لا يبدو أن لهم أتباعاً خطرين. انشق أعضاء حزب الكومنويلث بعد أن تشاجروا، لكن المجموعة الرئيسية مازالت تتقدم على الأرجح. هناك علامات أخرى عن نمو عصبة يسارية في كنيسة إنكلترا، التي كان لها ميول في هذا الاتجاه منذ سنين مضت. وتتركز هذه الميول عكساً لما يتوقعه المرء في "الحداثيين" وإنما في الأنغلوكاثوليك، الجناح اليمني المتطرف عقائدياً من الكنيسة.

ذا تشيرتش تايمز التي هي جريدة رسمية تقريباً لكنيسة إنكلترا (توزيع هائل في مقار القساوسة الريفية) أصبحت منذ سنين مضت جريدة يسارية معتدلة وذكية تماماً سياسياً. قسم من صحف الروم الكاثوليك أوغلت كثيراً في تأييدها للفاشية منذ قضية دارلان. هناك انشقاق واضح في الإنتلجنسيا الكاثوليكية حول قضية الفاشية برمتها، وقد هاجموا

بعضهم بعض علناً بطريقة يتجنبونها في العادة. لايزال هناك عداء للسامية، لكن لا توجد علامات على نموها. غذائنا كالمعتاد تقريباً. حلويات عيد الميلاد، التي هي دليلي إلى أوضاع الشحن البحري، كانت بنفس اللون تقريباً للسنة الماضية. تزداد صعوبة العيش مع الأسعار والضرائب الموجودة الآن، ويبدو أن المرء لديه ساعات أقل وأقل من وقت الفراغ بين ساعات العمل الطويلة، وبعدها مراقبة الحرائق والحرس الوطني والوقاية من الغارات الجوية وأمثالها، وخصوصاً بما أن كل الرحلات الآن بطيئة وغير مريحة. حظاً جيداً للعام ١٩٤٣.

بارتيزان ريفيو

مارس/ أبريل (آذار/نيسان) ١٩٤٣

رسالة لندن إلى البارتيزان ريفيو
مايو/أيار ١٩٤٦

أعزائي المحررين

لسوء الحظ، يجب أن أكتب هذه الرسالة وأنتهي منها، قبل أن تنبثق أية نتيجة من المفاوضات في الهند، وقبل انتهاء المعركة حول انضمام الشيوعيين إلى حزب العمال واندماجهم معه. الجماهير الكبيرة ليست متحمسة ومدركة إلى أهمية القضية الهندية، وقبل أن يحدث شيء دراماتيكي، من الصعب الحكم على مشاعرهم الحقيقية حول استقلال الهند. أثارت قضية الشيوعيين اهتماماً ملحوظاً أكبر. مازال من غير المؤكد إن كان الشيوعيون سيقومون بمحاولة انضمام أخرى، لكن بسبب الشذوذات في دستور حزب العمال، من الممكن أن ينجزوا ذلك بنتائج كارثية. من الواضح أن قادة حزب العمال يعتبرون الخطر جدياً، ووجهوا النقد والشجب للشيوعيين. إنها قضية معقدة، لكن أعتقد أنني أستطيع توضيحها أكثر، لو لخصت الخلفية السياسية العامة أولاً.

أولاً، وقبل كل شيء، بالنسبة إلى وقوف حكومة العمال مع الأمة ككل. هناك سؤال في ذهني: إن استمرار هذا جيد والدليل المفحم في شكل الانتخابات المحلية وتؤكده استفتاءات الرأي العام. في الوقت نفسه، ليس لدينا بعد فائدة ملموسة من تغيير الحكومة، والناس بشكل عام يدركون هذا - بالنسبة إلى كل واحد خارج القوات المسلحة، أصبحت الحياة مادياً منذ الهدنة أبغض مما كانت أثناء الحرب وربما أسوأ جداً، وذلك بسبب تراكم آثار حالات محددة من العجز والنقص. النقص في الثياب مثلاً أصبح أقل تحملاً، لأن ثيابنا باتت بالية أكثر فأكثر، وكان وضع الوقود أثناء الشتاء الماضي أسوأ مما كان في أي وقت من الحرب، ومازال الطعام كئيباً وبليداً كما حاله دائماً، والطوابير لم تقصر أبداً، والتباين بين الشخص الثري الذي يأكل في المطعم وربة البيت التي عليها أن تكتفي بحصتها، واضح وفاضح كما كان دائماً، وأي نوع من الحرمان يبدو مثيراً أكثر الآن، ولم تعد هناك حرب تبرره. لقد ازداد نشاط السوق السوداء منذ

توقفت الحرب، ولم يتحسن الوضع الإسكاني، ومن غير المحتمل أن يفعل حتى وقت طويل قادم. وهناك قدر هام وكبير من البطالة. ومن جانب آخر، هناك استياء ضد ساعات العمل الطويلة وظروفه السيئة، وتجلى هذا في سلسلة من الإضرابات "غير الرسمية". حين تستمع إلى الأحاديث في طابور السمك، لا يخامرك الشك بأن الشخص العادي من الطبقة العاملة ساخط ويشعر بأن نهاية الحرب كان يجب أن تجلب له راحة أكثر وتسلية، ولم يفهم السبب الذي يجعل أرغفة خبزنا أصغر أو بيرتنا خفيفة لمنع أوروبا من المجاعة. ومع ذلك مازال النقد العدائي على أسباب سياسية صرفة قليلاً بشكل غريب. لا يستطيع المرء الحصول على فكرة صحيحة عن رد الفعل العام من الصحافة البريطانية، لأن ملكية أغلبها تعود إلى التوريين، وقسم من صحافة الأقلية تحت تأثير الشيوعيين. لقد سمعت تذمراً لا نهاية له تقريباً، لأن "هم" لا يوفرون بيوتاً جديدة بالسرعة الكافية، أو لأنهم لا يسمحون لك بامتلاك كمية كافية من الفحم تدوم طيلة فصل الشتاء، أو بسبب ظروف النقل الرديئة وضريبة الدخل وبطء التسريح من الجيش وغلاء الخضار وصغر حصة الحليب، ولا أعرف ماذا أيضاً: لكن لم أسمع أي مواطن عادي يقول إن الحكومة لم تقم بأية خطوة محسوسة نحو إدخال الاشتراكية. حتى لو راعينا أن كل شيء يحتاج إلى وقت، فمن المدهش التغيير القليل الذي يفترض أن يحدث في تركيبة المجتمع حتى الآن. بمعنى اقتصادي صرف، أعتقد أن الانجراف سيكون نحو الاشتراكية، أو نحو ملكية الدولة على الأقل. لقد جرى تأميم النقل مثلاً. باع المساهمون في الخطوط الحديدية حصصهم بأسعار يصعب عليهم الحصول عليها في السوق المفتوحة، لكن في النظام الاجتماعي ليس هناك أية علامة يمكن للمرء أن يستنتج منها أننا لا نعيش تحت حكومة محافظة. لم يكن هناك أي تحرك ضد مجلس اللوردات مثلاً، وليس هناك أي حديث عن سحب الدولة اعترافها بالكنيسة، وليس هناك سوى القليل جداً من استبدال السفراء التوريين ورؤساء الأقسام أو كبار الموظفين. وإن بذلت أية محاولة فعلية لدقرطة التعليم، فإنها لم تثمر عن أية نتيجة بعد. مازالت الطبقات العليا تعيش حياتها المعتادة رغم الإفقار العام، وهي لا تحب الحكومة العمالية بالتأكيد، ولا تبدو خائفة منها. هذا كله ينسجم مع التفضيل البريطاني لعمل الأشياء ببطء وعدم إثارة الكره الطبقي - علماً أن أي مراقب كان يتوقع تغيراً أكبر في الجو الاجتماعي، حين تصل حكومة عمالية ذات أغلبية ساحقة إلى السلطة لمدة ثمانية

أشهر. لكن الشخص العادي لا يعبر عن الاستياء على هذه الأسباب والمبررات. بقدر اهتمام الناس بالسياسة، مازالوا يشعرون أنهم فازوا بنصر عظيم الصيف الماضي - وهم فعلوا حقيقة - ورغم أفعال الحكومة الجديدة غير الملهمة، ليس هناك أيديولوجيا منافسة وشيكة. حزب المحافظين أفلس فكرياً حتى باعتراف معلقيه وإعلامييه، وكل ما يستطيع فعله النباح ضد "تدخل الدولة" و"البيروقراطية" اللتان يكرهما الشخص العادي، لكنه يفضلهما على عدم الأمان الاقتصادي. يعتقد عدد جيد من التوريين أن أملهم الأفضل يكمن في الشيوعيين الذين ربما ينجحون في شق حزب العمال، ويجبرون الجناح اليميني من الحزب على تشكيل تحالف آخر. أنا شخصياً لا أعتقد أن هذا سيحصل، لكن الحقيقة أن الشيوعيين في الوقت الحاضر هم الخطر الرئيسي على الحكومة، وقد يصبحون قوة سياسية حقيقية إن حصلت كارثة ما في الخارج، كقتال واسع النطاق في الهند مثلاً، وجعل سياسة الحكومة الخارجية غير شعبية بشكل حاد.

مازال العدد الحقيقي للشيوعين و"رفاق السفر" يقدر ببضع عشرات الآلاف، وتناقص في السنة الماضية بالتأكيد. لكن في الوقت الذي خسروا فيه وتراجعوا مع الشعب، نجحوا في انتزاع قيادة عدد هام من النقابات، بالإضافة إلى وجود مجموعة شيوعية "سرية" من أعضاء البرلمان - انتخبوا كرجال من حزب العمال، لكنهم أعضاء في الحزب الشيوعي سراً أو متعاطفون معه بقوة. عدد هؤلاء ليس مؤكداً، لكن يجب أن أقول إن هناك عشرين أو ثلاثين منهم من مجموع ٣٠٠ عضو برلمان عمالي. تكتيكهم الصراخ خارج وداخل البرلمان من أجل سياسة تهدئة واسترضاء نحو جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية، وفي الوقت نفسه، محاولة تجميع عناصر اليسار في البلاد حولهم باللعب على النقمة الداخلية. في الوقت الحالي عزلوا أنفسهم حين كشفوا عن أهدافهم، ويجري التراشق بعبارات مثل "تسرب" و"شيوعي سري" من قبل أشخاص لم يسمعوا بهكذا أشياء قبل سنة من الآن. حين قام بيفن بمواجهة حاسمة مع حزب العمال البرلماني حول مسألة سياسته الخارجية، لم يصوت له سوى ستة أعضاء برلمانيين، رغم امتناع الآخرين عن التصويت. باعتبار أن الاتحاد السوفييتي يعادي - ويجب أن يكون - بشكل حقود وعنيد أية حكومة ديمقراطية من النموذج البريطاني. من الواضح أن تركيبة من شيوعيين علنيين مثل آرثر هورنر على رأس النقابات العمالية

وشيوعيين "سريين" مثل زيلياكوس في البرلمان و"متعاطفين" مثل بريستلي في الصحافة الشعبية، يمكن أن تكون تركيبة خطيرة جداً. لكن الصعوبة بالنسبة إلى هؤلاء الناس أنهم لا يستطيعون وضع تأكيدهم الرئيسي على المظالم والشكاوى الوطنية الداخلية. إنهم مرتبطون بالدفاع عن السياسة الخارجية الروسية التي يشعر الشخص العادي أنها لا تبرر، ويتعذر الدفاع عنها. قد تحصل من قراءة صحافة الأقلية اليسارية، على فكرة أن حزب العمال يغلي بالثورة، وأن نصراء الحزب من العمال العاديين يملؤهم الحماس نحو العمليات العسكرية الروسية في إيران ورومانيا..إلخ، وأيضا يتلهفون إلى تسليم أسرار القنبلة النووية من دون الحصول على أية معلومات عسكرية بالمقابل. لكن من المؤكد أن هذا ليس هو الحال. أظهرت استفتاءات الرأي التي أجرتها النيوز كرونيكل أن شعبية بيفن تصاعدت بشكل ممتاز ومثير بعد معركته مع فيشينسكي، وصعدت أكثر وسط مؤيدي وأنصار حزب العمال. حتى أنني أشك إن كان هناك أي شعور واسع الانتشار ضد سياسات بيفن في اليونان وأندونيسيا، بالقدر الذي لا تزال فيه هاتان القضيتان حيتين. لكن بالنسبة إلى الاتحاد السوفييتي، من النادر الإنكار حتى من قبل المحبين لروسيا، بأن الحماس الشعبي الذي كان في العام الماضي أو العامين بليَ وتآكل، وحتى لو لم تكن هناك أية علامة أخرى، أستطيع استنتاج هذا من حقيبة مراسلاتي فقط. كمدافعين علنيين عن النظام الستاليني، يلعب الشيوعيون الآن على ورقة خاسرة وهدف شبه مستحيل، ولكن إن استطاعوا الدخول في حزب العمال ككيان منظم، فربما يكونون قادرين على التسبب بضرر هائل. حتى أسوأ انشقاق لا يمكن أن يسفر عن حكومة يسيطر عليها الشيوعيون – والذي كما أعتقد سيكون أقل خطراً من وجهة النظر الروسية عن مشهد حكومة عمالية تحقق نجاحات حقيقية. سياسياً، ليس هناك الكثير مما يحدث غير ذلك. كان هناك نشاط خفيف من جانب أتباع موسلي والجماعات الفاشية، لكن ليس هناك أية علامة عن وجود أتباع حاشدة لهم. الصراع الثقافي بين أنصار ستالين وخصوم ستالين يستمر مع ارتدادات مثيرة متكررة في الاصطفاف من طرف إلى آخر. لقد علمت من مصادر موثوقة أن ويندهام لويس أصبح شيوعياً أو متعاطفاً قوياً على الأقل، وأنه يكتب كتاباً الآن في مديح ستالين، ليوازن كتبه السابقة التي فضل فيها هتلر. كل من يهتم بالسياسة منهمك وغارق في الصراع اليومي على تريستي وفلسطين والهند ومصر وتأميم الصلب

والفولاذ والقرض الأمريكي وإعادة الإسكان ووثيقة الخدمة الصحية وغيرها، ولكن لا يوجد أي شخص أعرفه لديه تصور لمستقبل مفعم بالأمل. الفكرة بأن حرباً بين روسيا وأمريكا خلال العقود القليلة القادمة، وأن بريطانيا محكومة بالتمزق إلى أشلاء بالقنابل النووية بسبب موقعها الجغرافي غير المواتي، هي فكرة مقبولة بنوع من التسليم الغامض، كما قبل الناس بالفكرة التي تقول إن الشمس ستبرد عاجلاً أم آجلاً، وسوف نتجمد حتى الموت. يبدو أن الشعب العام نسي موضوع القنبلة النووية التي نادراً ما تظهر في الأخبار. كل واحد مصمم على الاستمتاع بوقت جيد بقدر ما تسمح به ظروفنا الصعبة. مباريات كرة القدم تحضرها حشود ضخمة ودور السينما مكتظة بالمشاهدين دائماً، واستخدام السيارات انتعش إلى درجة مدهشة. لو أخذنا باعتبارنا أن البنزين لازال خاضعاً للتقنين نظرياً، فإن الحصة الأساسية هي خمسة غالونات فقط في الشهر. السيارات المستعملة تباع بأسعار خيالية، وتُرى أشياء غير عادية بعضها بعمر عشرين أو ثلاثين سنة تنفث الدخان على طول الطرقات. وصل التزوير في كوبونات البنزين إلى المستوى الذي دفع السلطات إلى التخلي عن التقنين واليأس منه. ببعض الصعوبة تستطيع الآن شراء مكنسة كهربائية، لكنني لم أر ثلاجة للبيع حتى الآن، ومن المستحيل أن تفرش بيتاً وتجهزه بأقل شكل من دون أن تنفق مئات الجنيهات، وتجبر على القبول بقدر كبير من الأمتعة المصنوعة بشكل رديء. فمثلاً مازلنا بلا أوانٍ فخارية باستثناء أواني "المنفعة" الشنيعة أو الأطقم المستعملة وبأسعار خيالية. الندرة العامة تجعل كل واحد تنافسياً حول الممتلكات الصغيرة. وعندما تنجح في شراء شيء مثل ساعة يد أو قلم حبر، تتباهى به لمدة أسبوع بعد شرائه. نغمة التكبر تعود إلى الإعلانات. وعلى الرغم من الرثاثة الكلية يشعر المرء بضغط هادئ لدفع الناس إلى اللبس الرسمي مرة أخرى. منذ يومين حين كنت أمر بكنيسة القديس بول، كان يجري نوع من طقس ما، ولفت انتباهي رؤية القبعات العالية بأعداد كبيرة لأول مرة منذ ستة أشهر أو أكثر. لكنها كانت قبعات عالية بالية، ولم استطع أن أقول من خلال منظر الحشد إن كان الدور الذي يؤديه هذا الطقس حفل زفاف أم جنازة. لا يوجد سوى القليل جداً على الجبهة الأدبية لأخبركم به. لاتزال الصحف في حجمها المصغر، ويحتمل أن تبقى هكذا لبعض الوقت، لكن هنالك إشاعات مطردة عن إطلاق صحيفتين مسائيتين جديدتين أو ثلاثة ومجلة سياسية أسبوعية جديدة من أنموذج ذا

نيوستيتسمان أو التريبيون. الكتب نادرة وبيعها سهل كما هو الحال دائماً. أغلب الأوقات لا أستطيع أن أشتري نسخاً من كتبي المفضلة. المقتطفات الأدبية المختارة من نوع "قص والصق" والمنوعات تستمر في الظهور بأعداد كبيرة جداً. ومنذ أن كتبت لكم آخر مرة، ظهرت إلى الوجود مجموعة كبيرة كاملة من الشهريات والربعيات الأدبية. أغلب هذه المجلات أشياء صغيرة بائسة، وعلى الأرجح لن تعمر طويلاً؛ لكن النوع المنظم والقوي ذا الشكل المصقول والبارع من أشباه المجلات الثقافية التي اعتدتم عليها في الولايات المتحدة، بدأت الآن بالظهور هنا أيضاً. مثالان حديثان، هما فيوتشر وكونتاكت، وقيل إن هاتري الذي دخل إلى تجارة الكتب بعد أن خرج من السجن، هو الممول البارع الذي يقف خلف البعض من هذه المشاريع الجديدة. الناس المهتمون يراقبون هذه التطورات بوجل.

لكن من الواضح أنك لن تحصل على توزيع كبير لهذا النوع من المجلات التي توجد فيها طباعة الحرف حول حواف الصور، والتي تعطي القارئ العادي الشعور بأنه "تقدمي" من دون إجباره فعلياً على التفكير. ومن المعروف جيداً أن قسماً كبيراً من الدوريات الإنكليزية المطبوعة عتيقة بشكل ميئوس منه، وإذا لم تحدّث نفسها، فربما تستبدل فجأة بأي مجلات يقرر الأمريكان إطلاقها هنا. نوع "الديجست - الملخص" من المجلات يزداد شعبية أكثر فأكثر، وحتى المكتب المركزي للمعلومات (وزارة الإعلام سابقاً) ينشر هذا النوع في لغات كثيرة لتوزيعها في أوروبا. وفي البي بي سي يحدث الآن ما كان يرجى أن يكون تغييراً هاماً. بعد سنوات من النضال، تقرر تخصيص موجة واحدة للبرامج الذكية. من أكبر مشاكل البث في هذه البلاد أن البرنامج لا يُعتبر اقتصادياً إذا لم يجذب ملايين الأشخاص من الناس، وأن أي برنامج بأصغر درجة من الثقافة الرفيعة، يحرض عواصف من السخط من مستخدمي الراديو العاديين الذين يدعون أن الوقت الذي يصرفونه يضيع على مادة لا تجذب سوى أقلية من الناس. أيضاً بما أن البي بي سي شركة مرخصة، فقد تلقت مساعدات مالية ضخمة من الحكومة، فتعرضت لقدر عظيم من النقد العدواني في البرلمان الذي أرعب مديريها. إن عزلت مادة الثقافة الرفيعة في موجة منفصلة، يستطيع فيها المستمع المتوسط استقبال بث الهوم سيرفس لمدة ثلاث وعشرين ساعة باليوم من دون أن يمل، سيختفي الكثير من النقد، ويكون للأشخاص الأكثر ذكاء في البي بي سي حرية التصرف. وأعرف جيداً أن هنالك في كوادر البي

بي سي الدنيا أشخاصاً موهوبين كثيرين، يدركون أن إمكانيات الراديو لم تستكشف بعد، ولا يمكن أن تستكشف إذا لم يرض المرء بأقلية من المستمعين. على كل حال، رغم الادعاء بأن برامج "جيم" (البرامج التي ستبث على موجة منفصلة) ستكون تجريبية جداً وأغلبها غير خاضعة للرقابة، لكن في النهاية يظل الناس المسؤولون عنها من موظفي البي بي سي الدائمين الكبار، لذلك لا أتوقع حدوث تغيير حقيقي.

لا أستطيع التفكير بأية أخبار أخرى. الربيع جميل، وكل شيء فيه أزهر بشكل مبكر جداً. لم تجدد الأسيجة حول المتنزهات، لكن التماثيل تعود إلى قواعدها. لندن تبدو رثة وقذرة كما هي دائماً بعد سنة من الهدنة، ومازال الظلام (العتمة) متعة ظريفة.

بارتيزان ريفيو، صيف ١٩٤٦

رسالة إلى تي آر فايفل

غرانهام- ١٥ أبريل/ نيسان ١٩٤٩.

عزيزي توسكو

شكراً جزيلاً لك لإرسال كتاب روث فيشر (**ستالين وألمانيا شيوعية**). لقد نويت شراءه، لكني قد لا أحتاج إليه بعد قراءة النسخة المستعارة. سوف أرى أن أعيده إليك. قرأت كتاب مارغريت نيومان (**تحت ديكتاتوريين اثنين**) ببعض الاهتمام. لم يكن كتاباً جيداً بشكل مميز، لكنها جذبتني كشخصية مخلصة. حصل غولانكس أيضاً على رواية رائعة تماماً عن معسكرات العمل القسري لشخص سمى نفسه باسم مستعار "ريتشارد كارغو"، أعتقد أنه بولوني، وأنا لست متأكداً من مدى موثوقيته، لكنه كتاب لافت بالطريقة السلافية (كتاب المعذب لريتشارد كارغو، وهو أحد الأسماء المستعارة لروبرت باين). هناك نقاط كثيرة في مقالاتك، نويت أن أناقشها معك. الأولى حول غراهام غرين. أنت تستمر في الإشارة إليه على أنه محافظ متطرف من النوع الرجعي الكاثوليكي المعتاد، وهو ليس هكذا إطلاقاً سواء في كتبه أو في شخصه. هو كاثوليكي طبعاً، وفي بعض القضايا ينحاز ويتحزب مع الكنيسة، لكن في نظرته هو يساري معتدل مع ميول حزبية شيوعية ضعيفة. حتى إنني فكرت أنه يمكن أن يصبح رفيقنا الكاثوليكي الأول في السفر، وهذا شيء لم يتواجد في إنكلترا، لكنه يتواجد في فرنسا إلخ. لو نظرت إلى كتبه مثل **بندقية للبيع** و**إنكلترا صنعتني** و**العميل السري**، سترى أن الموجود هناك هو المشهد اليساري المعتاد. الرجال السيئون هم أصحاب الملايين وأصحاب مصانع السلاح.. إلخ، والرجل الطيب شيوعي أحياناً. في كتابه الأخير هناك أيضاً الشعور اللوني المعكوس المعتاد. يرى راينر هيينستول، أن غرين أيّد على مضض فرانكو أثناء الحرب الإسبانية الأهلية بطريقة ما، لكن **العميل السري** كُتب من وجهة النظر الأخرى. الشيء الآخر أنك تهاجم دائماً روائيين لعدم كتابتهم عن المنظر المعاصر. لكن هل يمكنك التفكير في رواية كتبت عن المنظر المعاصر بشكل حصري؟ أية رواية تكون محظوظة جداً أي تستحق القراءة، إن تأخرت ثلاث سنوات على الأقل عن المنظر المعاصر. إن حاولت في عام

١٩٤٩ أن تكتب رواية، فسوف تكون ببساطة "تحقيقاً صحفياً" وربما تبدو عتيقة وسخيفة قبل أن تستطيع نشرها. لدي رواية تتعامل مع عام ١٩٤٥ في رأسي الآن، لكن لن ألمسها قبل عام ١٩٥٠ حتى لو بقيت حياً لأكتبها. السبب ليس فقط أن المرء لا يستطيع أن يرى أحداث اللحظة بمنظور موضوعي، وإنما أيضاً يجب أن تعيش مع الرواية لسنين قبل أن تصبح كتابتها ممكنة، وإلا فلن يحدث عمل التفاصيل الذي يستغرق وقتاً هائلاً، ولا يمكن فعله إلا في لحظات غريبة. هذه تجربتي، وأعتقد أنها تجربة أشخاص آخرين. أحياناً أكتب ما يسمى برواية ضمن سنتين بعد التصور والفهم الأصلي لها، لكنها تكون دائماً عندئذ ضعيفة وسخيفة أكبحها فيها بعد. ربما تتذكر أن كل الكتب الجديدة عن حرب عام ١٩١٤ ظهرت بعد انتهائها بخمس أو عشر سنين أو أكثر حتى. أعتقد أن كتباً حول الحرب الأخيرة على وشك أن تظهر الآن، وستظهر كتب عن الفترة التي تلت الحرب مباشرة في وقت ما في الخمسينيات. لقد كنت مريضاً بشكل رهيب في الأسابيع الأخيرة القليلة. لقد عانيت من انتكاسة بسيطة، ثم قرروا أن أحاول مرة أخرى مع الستريبتومايسين الذي استفدت منه كثيراً سابقاً مؤقتاً على الأقل، ولكنه هذه المرة لم يكن له سوى نتائج شنيعة، وأعتقد أنني كونت حساسية أو شيئاً ما. على كل حال، أنا أفضل قليلاً الآن، لكنني لا أستطيع أن أعمل، ولا أعرف متى سأكون قادراً على ذلك. ليس لدي أمل في الخروج من هنا قبل أواخر الصيف. إن كان الطقس جيداً، فربما أذهب إلى اسكتلندا لبضعة أسابيع وليس أكثر، ثم أمضي فصل الخريف في مصحة سكنية. لا أستطيع رسم خطط حتى تتغير صحتي وتستقر في وضع محدد أكثر بشكل أو آخر. ريتشارد يزدهر أو هكذا كان حينما رأيته آخر مرة. سيبلغ الخامسة في شهر مايو/ أيار. أعتقد أنه سيذهب إلى مدرسة القرية هذا الشتاء، لكن في السنة التالية سوف أنقله إلى البر الأساسي لكي يستطيع الذهاب إلى مدرسة نهارية مناسبة...... إن كبر ليصبح مزارعاً، فيجب أن أكون راضياً، لكن أنا لن أحاول التأثير عليه.... (امتهن ريتشارد بلير الزراعة، وتزوج من إيلنور موار عام ١٩٦٤ وأنجبا صبيين اثنين).

المخلص لك جورج.

رسالة إلى إف جيه ورببرغ

٢٧ بي كانونبيري سكوير/ ازلينغتون
/ لندن أن ون/ ٤ مايو/ أيار ١٩٤٦.

عزيزي فريد

سأرسل يوم الأربعاء، في مغلف منفصل، كتاب تروتسكي حياة ستالين ومذكرات فيكتور سيرج الذي استلمته يوم أمس. لقد ألقيت نظرة فقط على الأخير ووجدت أنه مخطوط غير مرتب، لكن إن ارتقى إلى مستوى المقتطفات التي نشرت في البوليتكس، فيجب أن يكون كتاباً قيماً. أنا آسف لأقول إن إحدى شقيقاتي ماتت بشكل غير متوقع، ويجب أن أذهب إلى نوتينغهام يوم الأربعاء (أخته الكبرى مارجوري دانكن). لكني سأعود وأكون في لندن قبل أن أرحل نهائياً في حدود الجمعة القادمة، وأتمنى أن أراك وروجر (روجر سينهاوس مدير سيكر أند وربيرغ) آنئذ. بالنسبة إلى كتاب تروتسكي، فأنا لم أقرأه كله، لكني قرأت قدراً جيداً منه، أي أغلب الأشياء التي تتعامل مع طفولة ستالين، ومع الحرب الأهلية، ومع جريمة مقتل لينين المزعومة. بالنسبة إلى سبب سحبه السابق بواسطة هاربر، فهناك ملاحظة افتتاحية في بارتيزان ريفيو في عدد مارس- أبريل/ آذار-نيسان يوضح:

ثلاثة كتب إما نقدية أو معادية بشكل واضح للنظام الحاكم في روسيا، سُحبت من النشر بعد أن أعلن عنها أمام الملأ.... وكتاب حياة ستالين أيضاً. أرسل الكتاب الأخير للمراجعة فعلياً، ثم تمّ استرداده بعد بضعة أيام (في ديسمبر/ كانون الأول) بملاحظة موقعة من قبل بريزدنت كاس كانفيلد، وختمت الملاحظة بالآتي: "نحن نأمل أن تتعاون معنا في مسألة تحاشي أي تعليق مهما كان، بخصوص السيرة الذاتية وتأخيرها" أعتقد أنه من الواضح وخصوصاً بالنظر إلى التاريخ (بعد أسبوع من دخول الولايات المتحدة الحرب)، أن سبب السحب يجب أن يكون تجنب إزعاج العاطفة الروسية، وليس كما زعموا فيما بعد بسبب اعتراضات أثارها التروتسكيون. لو كان هناك أي من الأخيرين، لكنت سمعت بهم خصوصاً بما أنني أشرت مرة أو مرتين في الطباعة إلى وجود هذا الكتاب الممنوع. وعلى أي حال، إذا سحبت هاربر الكتاب سابقاً لأن التروتسكيين اعترضوا، فلماذا تعيد إصداره من جديد الآن؟ بالنسبة إلى قيمة الكتاب الجوهرية، أعتقد أنه

سيكون جديراً بالنشر إن استطعت شراء ألواح لنقل ألف نسخة وجلدتها. سيكون إنتاجه من جديد مكلفاً جداً في اعتقادي، وسوف يستهلك الكثير من الورق بالنسبة إلى كتاب متخصص نوعاً ما. يبدو لي أنه كتاب أصلي وغير مزيف، بمعنى أنه من عمل تروتسكي، وحتى في المقاطع غير المكتملة، فهو نوع الشيء الذي كان سيقوله هو. كان ناقصاً حين قتل، فأكمله المترجم. الأجزاء الأولى بالكامل هي لتروتسكي، لكن باقتراب النهاية هناك مقاطع طويلة كتبها المترجم كلها تقريباً. الأماكن التي لم يكتبها تروتسكي معلّمة بأقواس تربيعية، ويستطيع المرء التحقق من أرملة تروتسكي وآخرين مقربين منه بأن التنقيح تمّ بأمانة وصدق. وجدت الأقسام الأولى التي تشير إلى طفولة ستالين وتاريخه المبكر كثوري، مشوقة خصوصاً لأنها توضح صعوبة تأسيس أية حقيقة عن شخصية عامة، أصبحت موضوعاً للدعاية. أعتقد أن كل هذا القسم وذاك الذي يشير إلى الحرب الأهلية، يظهر بنجاح ما لا يمكن قوله كثيراً إلا نادراً بأن ستالين كان شخصية ثانوية حتى عام ١٩٢٥. والصورة الآن المقدمة له على أنه اليد اليمنى للينين إلخ، عبارة عن تلفيق. إن المقاطع التي تشير إلى السياسة الداخلية للحزب مملة بالنسبة إلي، لكنني أعتقد أن لها أهمية بالنسبة إلى الأخصائيين. عموماً يجب أن أقول إن الكتاب له قيمة تاريخية، ورغم أنه ليس غير متحيز طبعاً، إلا أنه ناضج مقارنة بما كتب عن مواضيع مشابهة على الجانب الآخر. كل تاريخ الثورة الروسية يجب أن يجمع قطعة قطعة من شظايا كتبت هنا وهناك وسط أكوام هائلة من الأكاذيب، وإن الوثائق الشخصية المباشرة غير الرسمية التي تنشر هي الأفضل. بالنسبة إلى الإيحاء بأن ستالين كان مسؤولاً عن موت لينين، فإن تروتسكي لم يدع أنه قادر على إثباته، لكن يقترحه كشيء محتمل في الأصل، ويقدم قدراً محدداً من الدليل الداعم، ويبدو لي استنتاجاً ينبغي على المؤرخ السماح به حتى إن لم يتفق معه. ستالين أخيراً هو من اغتال تروتسكي.

هذا ليس نوع كتاب أنا نفسي أريد أن أقرأه بكامله من أجل ذاته فقط، لكن أظنه كتاباً ينبغي أن يُنشر. إذا أضاف المرء مقدمة للطبعة الإنكليزية، فقد يكون من الأجدر محاولة الحصول على معلومات أكثر حول ظروف اغتيال تروتسكي، التي ربما قررت جزئياً بسبب المعرفة التي كان يكتبها في هذا الكتاب بالذات. كانت هناك محاولة سابقة استهدفت حياته. ويجب أن يكون المرء قادراً على أن يستنتج شيئاً من معرفة تاريخ كهذا.........

المخلص لك- جورج.

رسالة إلى إف جيه ورببرغ

بارنهيل/جزيرة جورا/ ٣١ مايو/ أيار ١٩٤٧.

عزيزي فريد

شكراً جزيلاً على رسالتك. لقد قمت ببداية جيدة في الكتاب (ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون) وأعتقد أنني كتبت ثلث المسودة. لم أصل إلى ما أملته في هذا الوقت، لأنني كنت في أبأس وضع صحي هذا العام منذ يناير/ كانون ثاني (صدري كالعادة)، ولم أستطع أن أتخلص منه. على كل، أنا مستمر على العمل بجد، وآمل أن أكمل المسودة أو على الأقل أقصم ظهرها حين أترك هذا المكان في شهر أكتوبر/ تشرين أول. طبعاً إن المسودة الأولية تكون عبارة عن فوضى شنيعة دائماً، ولها علاقة قليلة بالنتيجة المكتملة. لكن مع ذلك إنها الجزء الرئيسي من المهمة. لهذا إن أنهيت المسودة الأولية في أكتوبر/ تشرين أول، فيمكن أن أنهي الكتاب في أوائل عام ١٩٤٨ إلا إذا مرضت. أنا لا أحب الحديث عن كتب قبل أن تُكتب، لكن سأخبرك الآن أنها رواية عن المستقبل- أي بمعنى الفنتازيا لكن بشكل رواية من المذهب الطبيعي. هذا هو ما يجعلها مهمة صعبة -طبعاً ككتاب توقعات، سيكون بسيطاً كتابته بالمقارنة.

أنا أرسل إليك بشكل منفصل مخطط سيرة ذاتية طويلاً، تعهدت به أصلاً كنوع من ملحق وتعليق لكتاب سيريل كونولي **أعداء الوعد**، بعد أن سألني أن أكتب ذكريات من المدرسة الإعدادية التي كنا فيها معاً. أنا لم أرسلها في الواقع إلى كونولي أو هورايزن، لكونها طويلة نسبياً بالنسبة إلى مجلة دورية، وأعتقد أنها تشهيرية جداً على النشر. وأنا لست ميالاً إلى تغييرها باستثناء الأسماء ربما. لكن أعتقد أنها يجب أن تنشر عاجلاً أو آجلاً حين يكون أغلب الناس المعنيين موتى. وربما عاجلاً أو آجلاً قد أكتب كتاباً من مسودات مختارة. يجب أن أعتذر عن النسخة المطبوعة بالآلة الكاتبة. إنها ليست نسخة كربونية فقط، وإنما طباعة تجارية سيئة، كان عليّ أن أصححها إلى حد كبير-لكن أعتقد أنني أخرجت كل الأخطاء الفعلية. ريتشارد بصحة جيدة على الرغم من المصائب المتنوعة.

أولاً سقط وجرح جبينه، مما استلزم قطبتين، وبعد ذلك أصيب بالحصبة. هو يتحدث أكثر بكثير الآن (كان في الثالثة قبل أسبوع أو اثنين). الطقس تحسن بعد أن كان منتناً تماماً، والحديقة التي أنشأناها من غابة عذراء، أصبحت جميلة تماماً. من فضلك بلّغ تحياتي لباميلا وروجر.

المخلص لك/جورج.

رسالة إلى إف جيه ورببرغ

٣٠ مارس/ آذار ١٩٤٩.

عزيزي فريد

شكراً على رسالتك. قرأت نحن منذ سنتين ولا تظن أني أريدها أن تطبع بشكل خاص، فأنا لا أريد أن أفرضها عليك، ولكن أظنها تستحق اهتمامك. وبأي حال يجب أن يعاد نشرها من قبل شخص ما. بالتأكيد فيها أخطاء، لكنها تبدو لي أنها تشكل رابطاً ممتعاً وحلقة في سلسلة من كتب اليوتوبيا. ومن جانب آخر هي تكشف وتعري أنموذج اليوتوبيات فوق المنطقي المتعي (أعتقد أنه انتحل إلى درجة ما من عالم جديد شجاع لألدوس هكسلي) لكنها من جانب آخر تهتم بالشيطانية، وتميل إلى العودة إلى شكل مبكر من الحضارة يبدو أنه من جزء من الأنظمة الشمولية والاستبدادية. تبدو لي كتاباً جيداً في نفس طريقة العقب الحديدية، لكنها مكتوبة بشكل أفضل. لكن طبعاً ليس هناك علم إن كانت ستباع، وليس لدي رغبة في إنزالك إلى اليابسة مع فيل أبيض (شيء لا قيمة له). أظن أنه ينبغي على أحد ما أن ينشرها، ومن المخزي أن يبقى كتاب من هذا النوع مع تاريخه الغريب واهتمامه الحقيقي خارج النشر، في الوقت الذي ينشر فيه الكثير جداً من الهراء التافه يومياً.

لقد كنت في وضع صحي منحرف نوعاً ما، وأعاني من نوع من الناعور. لهذا السبب لم أكتب هذا بخط يدي. لقد منعوني من استخدام طابعتي لمدة أسبوع لأنها تتعبني كما يفترض. بلغ تحياتي للجميع.

المخلص لك- جورج

رسالة إلى إف جيه وربيرغ

غرانهام/ ١٦ مايو/ أيار ١٩٤٩.

عزيزي فريد

شكراً جزيلاً على رسالتك. وكما أخبرتك هي، كان علي أن أؤجل سونيا براونيل. أنا في أسوأ وضع صحي، وكنت على هذا الحال منذ أسابيع. كان من المفترض أن تجرى لي صورة شعاعية أخرى، لكنني كنت أعاني من الحمى منذ أيام وأعجز عن الوصول إلى غرفة الأشعة وأقف مقابل الشاشة. حين تؤخذ الصورة، أخشى أنه لن يبقى الكثير من الشك من أنها ستظهر أن كلا الرئتين قد فسدتا بشكل سيئ. سألت الطبيبة مؤخراً إن كانت تظن أنني سأنجو، ولم تقل أكثر من أنها لا تعرف. إذا كان "التشخيص" بعد هذه الصورة سيئاً، فسأحصل على رأي ثانٍ. هل تستطيع أن تعطيني اسم ذاك الاختصاصي الذي ذكرته؟ ثم بعد ذلك سوف أستشيره، أو الدكتور مورلوك اختصاصي آخر استشرته قبل الحرب. هم لا يستطيعون فعل أي شيء بما أنني لست حالة لعملية جراحية، لكني أرغب في رأي خبير ما حول كم يحتمل لي أن أبقى حياً. أنا أتمنى ألا يبدأ الناس بمطاردتي ويجعلوني أذهب إلى سويسرا التي يعتقد أنها تمتلك صفات سحرية. أنا لا أعتقد أن المكان الذي يكون المرء فيه، يشكل أي اختلاف، والسفر سيكون الموت بالنسبة إليّ. الفرصة الوحيدة للنجاة كما أتصور، هي في أن ألزم الهدوء. لا تظن أنني استسلمت وعزمت على الموت. على العكس لدي أقوى المبررات للرغبة في البقاء حياً، لكنني أريد أن أحصل على فكرة واضحة لطول الفترة التي سأبقى حياً فيها، وأن يكف الأطباء عن ملاطفتي طول الوقت وعدم إخباري بالحقيقة.

نعم تعال لتراني. أنا أتمنى ذلك، وأثق أنه في بداية حزيران ربما أكون أفضل قليلاً، فعلى الأقل ستخف الحمى. أنا مسرور أن ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون حققت نجاحاً قبل النشر. نشرت ذا وورلد ريفيو أغبى مقطع فيها، واختصرت بطريقة حولتها إلى شيء تافه (ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون والخطاب الجديد وورلد ريفيو مايو/ أيار ١٩٤٩). كنت

لن أدع مور يرتب هذا لو عرفت أنهم نووا أن يقطعوها. على كل حال أعتقد أنه إعلان. رجل الإيفنينغ ستاندارد السيد كوران أتى ليقابلني، ورتب ليأتي ثانية، لكني أظن أنني سوف أؤجله لأنه أتعبني كثيراً في المرة الماضية وجادلني حول السياسة. بلغ تحياتي للجميع أرجوك.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى إف جيه ورييرغ

مصح ومنتجع غرانهام/ غرانهام/
غلوسستر/ ٢٢ أغسطس/ آب ١٩٤٩.

عزيزي فريد

من فضلك هل ترسل نسخة واحدة من كل من أيام في بورما والصعود إلى الهواء إلى سونيا براونيل عن طريق صحيفة هورايزن. لقد أتى مورلاند لزيارتي، بناء على طلبي مرة أخرى هذا المساء (الدكتور أندرو مورلاند اختصاصي في مرض السل، استدعاه إف جيه وربيرغ). نصح مورلاند أن ينقل أورويل إلى مستشفى الجامعة في لندن. أعاني من شعور رهيب وشنيع متقطع. يأتي ويذهب، وأعاني من نوبات دورية من الحرارة العالية إلخ. سأخبرك ماذا قال مورلاند. ريتشارد عاد لتوه إلى جورا، وسوف يذهب إلى مدرسة القرية في الفصل الشتوي. لا أستطيع وضع خطط أبعد في الوقت الحالي. أنا سجلته في ويستمنستر، لكنه لن يكون هناك حتى عام ١٩٥٧ ولا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث حتى ذلك الوقت. كما حذرتك، فإنني قد أنوي الزواج مرة أخرى (من سونيا) حين أكون في أرض الأحياء مرة أخرى إن حصل ذلك قط. أعتقد أن كل واحد سوف يرتعب، لكن بمعزل عن اعتبارات أخرى، فأنا أعتقد أنني يجب أن أبقى حياً لفترة أطول إن تزوجت. لقد وضعت مخطط كتاب المقالات. أود أن أنشره السنة القادمة، لكنني أريد أن أضمنه مقالين طويلين عن جوزيف كونراد وجورج غيسينغ، وطبعاً لا أستطيع لمس هذين إلى أن أتحسن بشكل حاسم.

سلامي للجميع/جورج.

رسالة إلى جورج وودكوك

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير/
٢ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٦.

عزيزي جورج (جورج وودكوك مؤلف وفوضوي ومحرر لمجلة ناو من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٧ ويعمل الآن أستاذاً في جامعة بريتش كولومبيا، منذ عام ١٩٥٩ محرر كنديان ليتريتشر. بعد جداله ومناظرته مع أورويل في "السلمية والحرب" تراسلا وبقيا أصدقاء حتى وفاة أورويل).

شكراً جزيلاً من أجل الشاي -لقد جاء في اللحظة المناسبة. ففي هذا الأسبوع جاءت القرية الأقرب إلى هنا في شاحنات، لتكون في حقل الذرة مقابل بيتنا، وطبعاً يجب أن يتدفق الشاي مثل الماء خلال استمرار العمل. كنا نساعد المزارع الصغير في قشه وذرته وهو جارنا الوحيد حين لم يجعل المطر العمل مستحيلاً على الأقل. كل شيء يعمل هنا بطريقة بدائية لا تصدق. حتى عندما يحرث الحقل بجرّار، تظل الذرة تبذر بالنثر ثم تحصد بالمناجل وتجمع في حزم يدوياً. يبدو أنهم ينثرون الذرة أو الشوفان في كل أرجاء اسكتلندا. ويجب أن أقول يبدو أنهم يحصلون عليها كما لو أنها عملت بواسطة آلة تقريباً. بسبب الرطوبة لا يدخلون القش حتى نهاية شهر سبتمبر/ أيلول أو بعده حتى. أحياناً لا يستطيعون تركه في العراء لوقت متأخر، ويجب أن يخزنوه في العليات. الكثير من الذرة لا تنضج تماماً وتطعم للقطيع في حزم مثل القش. يجب على المزارعين أن يعملوا بجد كبير، لكن بطرق أغنى وأكثر استقلالاً من عامل المدينة، وسيكونون مرتاحين تماماً، إن استطاعوا الحصول على مساعدة قليلة عن طريق الآلات والطاقة الكهربائية والطرقات، وإن استطاعوا إنزال ملاكي الأراضي عن ظهورهم وتخلصوا من الأيائل. هذه الحيوانات شائعة في هذه الجزيرة بالذات، لذلك تعتبر لعنة مطلقة. تأكل المراعي تماماً حيث ينبغي أن تكون الأغنام. وإن بناء أسيجة هو عمل مكلف أكثر بكثير مما هو ضروري. لا يسمح للمزارعين أن يطلقوا النار عليها، ودائماً يضيعون وقتهم في جرّ جيف الأيائل من سفح التل أثناء موسم المطاردة. كل شيء يضحى به للبهائم، لأنها مصدر

سهل للحم، ولذلك فهي مربحة للناس الذين يملكونها. أعتقد عاجلاً أو آجلاً أنه سوف يعتنى بهذه الجزر، ومن ثم يمكن أن تتحول إلى مناطق من الطراز الممتاز لإنتاج الألبان واللحوم، أو يساعدوا عدداً كبير من السكان المزارعين الذين يعيشون على تربية الماشية وصيد السمك. في القرن الثامن عشر كان عدد السكان هنا عشرة آلاف شخص- الآن عددهم أقل من ثلاثمائة.

سلامي إلى أنجي. أتمنى أن أعود إلى لندن في ٣١ أكتوبر/ تشرين الأول.

المخلص لك/جورج.

رسالة إلى جورج وودكوك

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير/
٢٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٦.

عزيزي جورج (لاحقاً السيد جورج وودكوك)

لقد انبهرتُ تماماً عند سماعي منك عن توليك الإس بي سي (مركز الكتاب الاشتراكي). كيف حدث ذلك؟ أعتقد أنهم كانوا يعملون بشكل جيد تماماً. وماذا حدث بمنشوراتهم مثل الكراريس التي كانوا يصدرونها من حين إلى آخر؟ كان هناك واحد من كراريسي نشروه قبل بضعة أشهر (جيمس بيرنهام والثورة الإدارية) وأنا لا أعرف حتى كم نسخة بيعت منه. إنها ببساطة فاجعة إذا لم تبق مكتبة كبيرة يسارية واحدة ليست تحت سيطرة الحزب الشيوعي. لكن أنا لا أقول إنه يستحيل تأسيس منافس ناجح، لأن أي مكتبة للحزب الشيوعي ستكون معاقة ومقيدة كدكان، لكونها غير قادرة على تخزين النوع "الغلط" من الأدب. يجب علينا أن نناقش هذا حين أعود. ليس لدي فكرة ما هو الرأسمال المطلوب لتأسيس مكتبة ذات مخزون جيد، لكن أتصور أن يكون المبلغ عدة آلاف من الجنيهات. ليس أمراً لا يمكن تخيله أن يطلب المرء المال من شخص حسن النية مثل هولتون إن رأى أن حركته ليست خاسرة. الشيء هو إيجاد دكان بالإضافة إلى كونه يبيع الهراء اليساري كله، يكون مكتبة جيدة ولديه مكتبة إعارة، ويدار من قبل شخص يعرف شيئاً عن الكتب. ولأنني عملت في مكتبة، فعندي أفكار حول الموضوع سأخبرك عنها عندما أعود.

طبعاً من الرياء الشديد أن أملك تلك المقالة في البوليتكس؟ ليست لدي نسخة من **لتبقى الزنبقة ترفرف**. وجدت نسخة في مكتبة للكتب المستعملة منذ أشهر، لكني استغنيت عنها. هناك كتابان أو ثلاثة أنا خجل منها ولم أسمح بإعادة طباعتها أو ترجمتها، وهذا واحد منها. يوجد واحد أسوأ حتى يسمى **ابنة القس**. هذا كتب كتمرين، وكان يجب ألا أنشره، لكني كنت في أمس الحاجة إلى المال، والشيء نفسه حين كتبت **لتبقى الزنبقة ترفرف**. في ذلك

الوقت، لم يكن في داخلي كتاب، لكن كنت شبه جائع، وكان عليّ أن أصنع شيئاً ليجلب لي مائة جنيه.

أنا راحل من هنا في التاسع من هذا الشهر، وسأصل إلى لندن في الثالث عشر منه. سأهتف لك آنذاك. سلامي لإنجي. ريتشارد يزدهر.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جورج وودكوك

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير/
١٨ يونيو/ حزيران ١٩٤٧.

عزيزي جورج

نعم بالتأكيد الناس في ميونيخ ربما يعيدون طبع القطعة التي نشرت في دورية ناو (كيف يموت الفقراء). أنا مسرور أنك تدير عملاً ما، وأنك تفكر في كتابة شيء عن وايلد. أنا كنت دائماً مؤيداً لوايلد. أنا أحب **دوريان غراي** بشكل خاص، سخيف كما هو بطريقة ما. أنا قرأت مؤخراً حياة هيسكيث بيرسون -فقط السيرة المبتذلة العادية، لكني وجدت قطعاً صغيرة منها ممتعة، خصوصاً الجزء الذي عن الوقت الذي قضاه وايلد في السجن. أنا لا أظن أنني قرأت حياة وايلد من قبل، لكني قرأت منذ سنين بعض ذكريات كتبها فرانك هاريس، من الواضح أنها كاذبة، وقسم من الكتاب بقلم شيرهارد يرد فيه على سيرة هاريس الذاتية. أحب أن اقرأ وصفاً مفصلاً للمحاولتين. سررتُ بملاحظات تلك المرأة في المجلة الأمريكية التي أرسلتها إلي. يا لها من ساذجة! الطقس هنا انقلب واستاء مرة أخرى بعد أن كان جميلاً لمدة أسبوع أو اثنين.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جورج وودكوك

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير
/٩ أغسطس/ آب ١٩٤٧.

عزيزي جورج

أخيراً اقتنعت للرد على رسالتك المؤرخة في الخامس والعشرين من يوليو/ تموز. أنا كما تعرف من حيث المبدأ، مستعد لأن أكتب مقالاً في السلسلة التي ذكرتها، لكن "من حيث المبدأ" صحيح تقريباً أنني مشغول، ولا أريد أن أتعهد بأي عمل أكثر آخر في المستقبل القريب. أنا أصارع مع هذه الرواية، وأرجو أن أنهيها في وقت مبكر من عام ١٩٤٨. أنا لا أتوقع أن أنهي المسودة الأولية قبل شهر أكتوبر/ تشرين أول، ثم يجب أن آتي إلى لندن لمدة شهر بعد ذلك لأهتم بأشياء مختلفة، وأكتب مقالة أو اثنتين وعدت بإنجازهما مسبقاً، ثم سأبدأ بإعادة كتابة الكتاب الذي سيستغرق مني من أربعة إلى خمسة أشهر، إن لم أفعل شيئاً آخر غيره. ولا أستطيع أن أتفادى كتابة مقالة عرضية عادة لإحدى المجلات الأمريكية، لأن المرء يجب أن يكسب بعض المال من حين إلى آخر.

أعتقد أنني سأعود في شهر نوفمبر/ تشرين ثاني، وسأمضي الشتاء هنا. أستطيع أن أعمل هنا بانقطاع أقل، وأعتقد أن البرد سيكون أقل هنا. المناخ رغم أنه رطب، إلا أنه بارد تماماً مثل بريطانيا، والحصول على الوقود أسهل بكثير. نحن نوفر فحمنا بأقصى ما نستطيع، ونأمل أن نبدأ الشتاء باحتياطي من ثلاثة أطنان، ويمكنك الحصول على نفط ببرميل سعته أربعين غالوناً هنا، بينما الشتاء الماضي في لندن كنت تجبر على الركوع على ركبتيك لتحصل على غالون واحد كل أسبوعين.

يوجد أيضاً حطب ونبات نصف متفحم، لكن تجميعه متعب إلا أنه يساعد الفحم. قسم من الشتاء يمكن أن يكون قارساً، والمرء أحياناً ينقطع عن البر الرئيسي لمدة أسبوع أو أثنين، لكن لا يهم طالما لديك طحين متوفر تصنع منه الكعك. مؤخراً كان الطقس لا يصدق جداً وأخشى أننا سندفع ثمن ذلك قريباً. ذهبنا الأسبوع الماضي في جولة في القارب، وأمضينا

يومين على الجانب الأطلسي غير المأهول للجزيرة في كوخ رعوي تماماً- لا أسرة، لكنه مريح تماماً. توجد شواطئ بيضاء جميلة في ذلك الجانب، وإن تسلقت التلال لمدة ساعة، تصل إلى بحيرة مملوءة بالسمك المرقط، لكنك لن تصطاد شيئاً منه بسبب صعوبة اصطياده. في هذا الأسبوع الأخير طبعاً انكسرت ظهورنا في إدخال القش، ومعنا ريتشارد الذي يحب التدحرج على القش عارياً. إن أردت أن تأتي إلى هنا في أي وقت تعال طبعاً، لكن أخبرني فقط قبل أسبوع من اللقاء. بعد سبتمبر/ أيلول يصبح الطقس هائجاً، لكن أعرف أنه ستكون هناك أيام دافئة جداً حتى في منتصف الشتاء.

حصلت على نسختين من نشرة لجنة الدفاع عن الحريات. أنا لست سعيداً جداً حول متابعة حالة نان ماي، أي تصويره كرجل حسن النية جرت التضحية به. أعتقد أن وزير الداخلية يستطيع إرباك هذا الطلب إن أراد أن يفعل. أنا وقعتُ العريضة الأولى، لكن ليس من دون هواجس، لأنني أظن أن عشر سنين هي عقاب قاسٍ (بفرض أن أية عقوبة سجن مبررة). إن كان عليّ أن أناقش القضية، فيجب أن أشير إلى أنه لو أفشى المعلومات إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فربما حصل على تخفيف الحكم لسنتين على الأكثر. لكن الحقيقة أنه كان جاسوساً عادياً -لا أقصد أنه كان يعمل من أجل المال وخرج إلى كندا كجزء من حلقة تجسسية. أتوقع أنك قرأت الكتاب الأزرق حول الموضوع. يبدو لي أيضاً القول إنه شعر بأن المعلومات كانت تمنع من قبل حليف، لأنه في وضعه يفترض أنه عرف أن الروس لن ينقلوا معلومات عسكرية إلى أي أحد أبداً، عبارة عن حجة ضعيفة. لكن طالما كان الهدف إخراجه من السجن في وقت مبكر أكثر، فأنا لست ضده.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جورج وودكوك

الجناح رقم ثلاثة/ مستشفى هيرمايرز/
لاناراكشاير/ ٤ يناير/ كانون الأول ١٩٤٨

عزيزي جورج

نويت منذ بعض الوقت أن أكتب لأشرح أنني لن آتي إلى لندن أخيراً. كما كنت أخشى، فأنا مريض جداً. أعاني من سل في رئتي اليسرى......

أتمنى أن تفعل لجنة الدفاع عن الحريات شيئاً بخصوص هذه المطالب الثابتة، لتحظر موسلي وشركاه. أعتقد أن موقف التريبيون كان مخزياً. وحين كتب زيلاكوس الأسبوع قبل الماضي مطالباً بما يرقى إلى شريعة فاشية وخلق مواطنين من الدرجة الثانية، لم يرد عليه أحد كما يبدو. الشيء برمته رغبة مقنعة بستار شفاف لاضطهاد شخص ما لا يستطيع أن يرد وينتقم. وكما هو واضح إن مصير موسلي غير مهم البتة، ولا يمكن أن يحظى بمتابعة جماهيرية حقيقية. أعتقد أنها حجة من أجل كراسة، وأنا أتمنى فقط أن أتحسن بما يكفي لأكتب واحدة. الشيء المركزي الذي يجب أن يقبل به المرء، هو الحجة التي يقدمها هؤلاء المدافعون عن التشريع القمعي دائماً أنه "لا يمكن السماح للديمقراطية أن تُستخدم للإطاحة بالديمقراطية -لا يمكن السماح بالحرية لهؤلاء الذين يستخدمونها فقط لكي يدمروا الحرية" لكن لو حملنا هذا إلى نتيجته، فلن تكون هناك حجة للسماح بأي حرية سياسية أو ثقافية مهما كانت. لذلك من الواضح أنها قضية تميز بين تهديد حقيقي ومجرد تهديد نظري للديمقراطية، ويجب ألا يضطهد أي أحد بسبب التعبير عن آرائه مهما كانت معادية للمجتمع ومصلحته، ويجب ألا تقمع أي منظمة سياسية، إلا بعد أن يظهر أن هناك تهديداً قوياً لاستقرار الدولة. هذه هي النقطة الأساسية التي يجب أن أطرحها في كل الأحوال. طبعاً هناك نقاط كثيرة أخرى.

أصدق تحياتي الى إنجي/ المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جورج وودكوك

الجناح رقم ثلاثة/ مستشفى هيرمايرز/
لاناراكشاير ٢٣ مارس/ آذار ١٩٤٨/

عزيزي جورج

شكراً جزيلاً على الكراريس الثلاث وعلى قصائدك. أنا نويت أن أكتب لك بشكل أطول عن الأخيرة، لكن أولاً هناك نقطتان:

١ - توجد هفوة في مقدمتك لكراسة تولستوي. هو لم يمت في عام ١٩٠١ بأي حال كان فوق الثمانين، وأتصور أنه كتب عدداً كبيراً من الكراريس بعد هذه الواحدة.

٢- هل لجنة الدفاع عن الحرية أخذت أي موقف في هذه اللحظة حول هذا الحظر على الشيوعيين والفاشيين؟ (من المهم في هذه اللحظة فيما يتعلق بالشيوعيين ويستهدفهم فقط) ليس من السهل أن يكون لك موقف واضح، لأنه إذا اعترف المرء بحق الحكومات في الحكم، فيجب عليه أن يعترف بحقها في اختيار وكلاء وعملاء مناسبين. وأعتقد أن أي منظمة كالحزب السياسي مثلاً، لها الحق في أن تحمي نفسها ضد أساليب التسرب. لكن في الوقت نفسه، إن الطريقة التي ستعمل بها الحكومات مقلقة ومبهمة كما يبدو، وكل الأمور الظاهرة تبدو لي جزءاً من انهيار عام لوجهة النظر الديمقراطية. منذ أسبوع أو أسبوعين كان الشيوعيون يصرخون ويطالبون بأساليب غير دستورية كي تستخدم ضد الفاشيين، والآن نفس الأساليب تُستخدم ضدهم هم، وفي سنة أخرى أو اثنتين قد تستخدمها الحكومات المؤيدة للشيوعيين ضدنا. في الوقت الراهن يتزايد فتور الشعور العام بخصوص حرية التعبير إلخ باستمرار، والذي يهم أكثر بكثير مما يمكن أن يكون في كتب التشريع. تبدو لي حالة من أجل كراسة -لكن بأي حال فإن لجنة الدفاع عن الحريات ينبغي أن توضح موقفها بشكل صريح في اعتقادي. أتمنى أن ينجح مشروع كندا. سيكون تغييراً كبيراً. أعتقد أن هناك صيد سمك لا يصدق في كندا، إن كنت مهتماً في ذلك.

المخلص لك/ جورج

١-كانت الكراريس الثلاث الأولى والمنشورات الوحيدة في سلسلة "كراريس بوركوباين" التي حررها جورج وودكوك لمطبعة بوركوباين، وهي روح الإنسان تحت الاشتراكية لأوسكار وايلد؛ والعبودية في عصرنا لليو تولستوي؛ ودفاعاً عن الشعر ورسالة إلى لورد إيلينبورو لبيرسي بايش. راجع أورويل روح الإنسان تحت الاشتراكية في الأوبزيرفر في ٩ مايو/ أيار ١٩٤٨. القصائد التي شكر أورويل وودكوك عليها، كانت قصائده في كتاب تخيل الجنوب عام ١٩٤٧

رسالة إلى جورج وودكوك

الجناح الثالث / مستشفى هيرمايرز/ إيست كيلبرايد/ لاندارك /٢٤ أبريل/ نيسان ١٩٤٨.

عزيزي جورج

لم أكتب قبل هذا الوقت، لأنني كنت أمرّ بوقت عصيب طيلة نصف الشهر تقريباً مع آثار ثانوية للستريبتومايسين. لقد قرأت قصائدك باهتمام. أحببت القصيدة الطويلة في النهاية أكثر من الكل "جسر واترلو"، وبعد تلك أعتقد "لوح الأسلاف" و"المهيج" و"الجزيرة". أعتقد أنك وصلت إلى أفضل تأثير لك مع أبيات العشر مفردات التي هي شاذة نوعاً ما لتعطي نوعاً من الحركة مكسورة الظهر، مثل "ومرة أخرى أنا أفكر في الملائكة ووليام بليك" أو"هذه هي الساعة المنافية للعقل والطبيعة التي نهض فيها القياصرة". لكن أعتقد أنك تحتاج أن تقرر بشكل أفضل بخصوص موضوع القافية. في بعض الأحيان تستخدم قوافي عادية، لكن لفترة جيدة من الوقت تستخدم السجع والتوازنات إلخ. يجب أن أقول أنني ضد هذا النوع من القافية الذي يبدو لي فقط قافية فكرية موجودة على الورق، ونستطيع أن نرى أن الحروف الصامتة النهائية نفسها. إن نقص القافية في الإنكليزية صعوبة كبيرة جداً وتزداد مع الوقت، لأن القوافي المألوفة تبتذل أكثر فأكثر، لكنني كنت أشعر دائماً أنه إذا كان يجب على المرء أن يستخدم قوافي ناقصة، فمن الأفضل له أن يجعلها صوت الحروف اللينة وليس الحروف الصامتة.

كتبتُ مقالة قصيرة -ليست مراجعة نقدية في الواقع، لكنها واحدة من تلك المقالات التي يضعونها على الصفحة الافتتاحية- من أجل الأوبزيرفر عن أوسكار وايلد روح الإنسان تحت الاشتراكية التي قد تساعدها قليلاً. تشارلز ديفي، وهو أحد المحررين، سألني إن كنت أستطيع أن أكتب مقالة قصيرة عن لجنة الدفاع عن الحريات وأهدافها ومجالها. سوف أفعل طبعاً ولا شك. إنها سوف تجلب لي بعض المساهمات. أعتقد أنه يجب أن يكون القول صحيحاً بأنه لا يوجد الآن أي منظمة أخرى لها تلك الأهداف (ماعدا

طبعاً المجلس الوطني للحريات المدنية إن سي سي إل التي ربما أقدر أن أتخلص منها على الماشي)؟

المخلص لك جورج

ملاحظة. لقد ضيعت عنوانك الجديد -سوف أرسل هذا التذكير إلى منتدى التغيير الديمقراطي الإف دي سي.

رسالة إلى جورج وودكوك

مستشفى هيرماير/ ٢٤ مايو/ أيار١٩٤٨.

عزيزي جورج

استلمت رسالة أخرى من تشارلز ديفي، لفتت انتباهي إلى حقيقة أن أي أم فورستر استقال من المجلس الوطني للحريات المدنية. بعدئذ جلست أو بالأحرى وقفت مع فكرة كتابة تلك المقالة عن منتدى التغيير الديمقراطي، لكن عند إعادة النظر لا أعتقد أنني أستطيع أن أفعلها. بدايةً، لدي مقالتان طويلتان جاهزتان في متناولي، ولا أستطيع فعل أكثر بعد، لكن ما هو أقرب إلى القصد أنني لا أعرف كفاية عن منتدى التغيير الديمقراطي من أجل هذا الغرض في الحقيقة. هل تعتقد أنك تستطيع أن تكتب المقالة؟ أظن أنك قلت إن ديفي كتب لك، وربما يمكنك التحدث إليه بالهاتف. أنا لا أعرف إن كنت تعرفه -هو رجل مهذب. أنا لا أعرف بالضبط ماذا يريدون، لكني أفترض أنهم يريدون تقريراً عن اللجنة ونشاطاتها بشكل عام، مع بعض الملاحظات عن تهديد الحرية الفردية في الدولة المركزية الحديثة. أنا لا أحب ترك هذا عليك. ومن جانب آخر إن كانوا راغبين في أن تكتب لهم المقالة، سوف يدفعون لك مبلغاً جيداً لقاءها. لم أشكرك بعد على نسخة كتاب المقالات **(الكاتب والسياسة -جورج وودكوك)**. طبعاً أنا مبتهج لأرى المقالات التي كتبت عني تظهر في شكل كتاب. أنا أحببت الكتاب الذي عن بيتس (هنري ولتر بيتس الذي زار أمريكا الجنوبية عام ١٨٤٨ وألف كتاب **الطبيعي على نهر الأمازون**) والذي قرأت كتابه منذ سنين مضت. كل كتب نايتتين سينتشري عن أمريكا الجنوبية لها جو رعوي، لكن أعتقد أنني كنت منجذباً إلى سهول البامبا العشبية أكثر من الغابات. أعتقد أنك قرأت **الأرض الأرجوانية**. أيضاً الكتاب الذي عن التراتيل الدينية، الذي كنت أنوي دائماً أن أكتب شيئاً عنه أنا نفسي. أعتقد أنك مخطئ في القول إن الناس يستجيبون إلى ترتيلة مثل "قم معي" (بالمناسبة ألا يجب أن تكون "الظلام يتعمق" وليس "يتجمع") بشكل رئيسي بسبب الحروب والبطالة إلخ. هناك قدر كبير من الحزن المتأصل والعزلة في الحياة الإنسانية يظل نفسه مهما كانت الظروف

الخارجية. أنت لم تذكر اثنين من أفضل التراتيل "تسبيح للأقدس" و"القدس بيتي السعيد" - أعتقد أن هذا الترتيل يجب أن يكون أسبق بكثير من المجموعات الأخرى التي كنت تدرسها. في قديم وحديث إن كنت أتذكر، يجب حذف الكثير لإخراج التخيل الكاثوليكي منه. أنا أفضل بكثير الآن، وأنهض لمدة ساعتين يومياً وأخرج قليلاً حين يكون الطقس دافئاً. لم يخبروني بالتحديد متى أستطيع أن أغادر المستشفى، لكن ربما في شهر أغسطس/ آب تقريباً. يبدون لي الآن أنهم يفكرون في أنني يجب ألا أستمر في العلاج حين أغادر، ما سيكون نعمة عظيمة، لأنه يعني أنني سأستطيع أن أعود إلى جورا، بدلاً من الجلوس في سكينة في غلاسغو أو أدنبره. ريتشارد ممتاز جداً بكل المقاييس ويكبر بشكل هائل. طبعاً لم أره منذ أشهر، لكنني أحاول أن أرتب لإحضاره إلى هنا بأي شكل في زيارة مسائية، بعد أن أصبحت أستطيع الخروج إلى الهواء الطلق وأراه في الأراضي. من فضلك بلّغ تحياتي لإنجي. لقد ذهبت وفقدت عنوانك الجديد، لكن سأفكر في شخص ما ليرسل هذا. سأكتب لتشارلز ديفي عن المقالة.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى سونيا براونيل

بارنهيل/ جزيرة جورا/ أغريلشاير
/١٢ أبريل/ نيسان ١٩٤٧.

العزيزة جداً جدا سونيا (سونيا براونيل سكرتيرة التحرير في هورايزن ١٩٤٥-٥٠ التي أصبحت زوجة أورويل الثانية في ١٩٤٩). أكتب بخط اليد، لأن آلة الطباعة خاصتي في الدور السفلي. وصلنا بخير من دون حادث يوم أمس. ريتشارد رائع كالذهب واستمتع بالنوم بعد أن تغلب على غربته الأولى. وفور وصولنا إلى داخل الطائرة في غلاسغو، غط في النوم ربما بسبب الضجيج. لم أستقل طائرة من قبل، وأظن أنها أفضل بكثير. تكلف جنيهان أو ثلاثة أكثر، لكنها توفر خمس ساعات وضجر الذهاب بالقوارب. وحتى إن كان المرء مريضاً، فهي ثلاثة أرباع الساعة فقط. بينما إن ذهب المرء بالبحر، فسيمرض لخمس أو ست ساعات في طقس سيء. كل شيء هنا متخلف ومتأخر عما هو في إنكلترا، ونادراً ما ترى برعماً. ورأيت الكثير من الثلج يوم أمس، لكنه طقس ربيعي جميل. النباتات التي زرعتها في السنة الجديدة تبدو لي حية على الأغلب. النرجس البري في كل مكان والزهرة الوحيدة في الخارج. أنا مازلت أصارع تقريباً مع مرج عذري، لكن بحلول السنة القادمة سيكون لدي حديقة جميلة جداً هنا. طبعاً عانينا من كابوس كل اليوم في ترتيب الأشياء مع ريتشارد الجاهز جداً للمساعدة، لكن الأمر على ما يرام الآن تقريباً، وبدأ البيت يبدو متحضراً تماماً. يلزمنا بعض الأسابيع قبل أن نحل مشكلة النقل نهائياً. أنا سوف أرسل بطلب بعض الدجاج حالما نعمر قن الدجاج.

وهذه السنة سأكون قادراً على اتخاذ تدابير من أجل الكحول، لكي يكون عند المرء القليل من الروم في كل يوم. العام الفائت أجبرنا أن نكون من الممتنعين عن شرب الكحول عملياً. أعتقد أنه خلال أسبوع سيكون كل شيء على ما يرام، وسيتم إنجاز العمل الأساسي في الحديقة، ومن ثم أستطيع التفرغ إلى عمل آخر.

كتبت إلى جانيتا (صديقة سونيا بروانيل) أسألها أن تأتي كلما أحبّت، وأعطيتها تعليمات بشأن الرحلة. طالما هي ستجلب الطفل وليس إرساله، يجب أن يكون الأمر بسيطاً تماماً. أريد أن أعطيك التفاصيل الكاملة عن الرحلة التي ليست مرعبة كما تبدو على الورق. الحقائق هي التالي: الساعة الثامنة صباحاً تغادرين غلاسغو سنترال إلى غوركوك. التحقي بقارب إلى تاربيرت في غوروك. في الثانية عشرة ظهراً تصلين إلى إيست تاربيرت. سافري بالحافلة إلى ويست تاربيرت (الحافلة تسير في تزامن مع القوارب) التحقي بقارب إلى كريغهاوس (جورا) في ويست تاربيرت. في الثالثة والنصف بعد الظهر تصلين كريغهاوس. خذي سيارة مستأجرة إلى ليلت حيث نتقابل.

إن أردت القدوم بالطائرة، فهناك رحلات يومياً ما عدا أيام الآحاد كما أعتقد، وهي عادة تقلع دائماً إلا إذا كان الجو ضبابياً جداً. خط الرحلة كالآتي: ١٠.٣٠ تصلين إلى مكتب الخطوط الجوية الاسكتلندية في محطة اينوك غلاسغو (المكتب في محطة القطار).

١٠.٤٠ تغادر الحافة إلى رينفرو. ١١.١٥ تغادر الطائرة ايزلي (تلفظ ايلي). ١٢ ظهراً تصلين ايزلي. استأجري سيارة أو خذي الحافلة إلى العبارة التي تذهب إلى جورا. الساعة الواحدة تقريباً تعبر العبارة. استأجري سيارة إلى ليلت.

من المهم أن تدعينا نعرف مقدماً متى ستأتين بسبب السيارة المستأجرة. هنا بريدان في الأسبوع فقط ومناسبتان، أستطيع أن أرسل فيهما طلب سيارة إلى كريغهاوس. إن أتيت بقارب، ربما يمكنك أن تحصلي على سيارة بطلبها في رصيف الميناء، لكن إن أتيت جواً، فلن تكون هناك سيارة في المعبر (الذي يبعد عدة أميال عن كريغهاوس) إلا إذا طلبتها مسبقاً.

لذلك إذا نويت القدوم لنقل في ١٥ الشهر، فيجب عليك أن تكتبي في الخامس منه، لأنه حسب يوم الأسبوع قد يكون أربعة أو خمسة أيام قبل أن يصل البريد، وثلاثة أو أربعة أيام قبل أن أستطيع أن أرسل رسالة. لا فائدة من كتابة برقية، لأن البرقيات يجلبها ساعي البريد.

أنت تريدين معطفاً مطرياً، وإن كان ممكناً البسي بوطاً أو حذاء قوياً - إن كان لديك. ربما نملك بعض الجزم. أنا لست متأكداً. نحن أغنياء بالمشمع الإضافي وأشياء مثله. سوف يساعدك لو جلبت حصص أسبوع من الطعام، لأنهم ليسوا سريعين هنا في جلب حصص أي

قادم جديد إلى هنا، وجلبت قليلاً من الدقيق والشاي أيضاً. أخشى أنني أثير ضجة مهولة، لكن في الحقيقة فإن الأمر سهل والبيت مريح تماماً. الغرفة التي ستكون لك صغيرة قليلاً، لكنها تطل على البحر. أريدك أن تكوني هنا. في ذلك الوقت آمل أن نعثر على محرك للقارب. وإذا حصلنا على طقس محترم، يمكننا القيام بجولة في الرؤوس البحرية غير المأهولة نهائياً على الطرف الغربي من الجزيرة؛ حيث توجد رمال بيضاء جميلة ومياه صافية مع فقمات تسبح فيها. في واحد منها يوجد كهف نستطيع أن نتخذه ملجأ حين تمطر، وواحد آخر يوجد فيه كوخ راعٍ مهمل، لكنه ملائم للعيش تماماً؛ حيث يمكن للمرء أن يقوم بنزهة ليوم أو اثنين. بأي حالٍ تعالي وتعالي متى ترغبين ومتى تحبين، ولكن دعيني أعرف بذلك مسبقاً. وفي الوقت الراهن اعتني بنفسك وكوني سعيدة.

تذكرت للتو أنني لم أدفع لك من أجل البراندي الذي جلبته لي، لهذا وضعت ثلاثة جنيهات داخل الرسالة. أعتقد أن المبلغ كان قريباً أليس كذلك؟ كان البراندي رائعاً جداً وعرفنا قدره في الرحلة، لأنهم لا يستطيعون الحصول على الكحول هنا بسهولة. الجزيرة التالية اسمها ازلي وتقطر الويسكي، لكنه يصدر كله إلى أمريكا. أعطيت سائق الشاحنة لكمة ضخمة أكبر من اثنتين، واختفت فوراً وبدا أنها ضربت أسفل بطنه.

مع حبي الكبير/جورج

رسالة إلى رئيس تحرير فورورد

سيدي

أثناء محاكمات موسكو السياسية عام ١٩٣٦ كانت هناك تلميحات وإشارات كثيرة إلى زمالة مزعومة بين ليون تروتسكي ومتهمين آخرين من جانب، وبين الحكومة النازية والجيستابو (البوليس السري النازي) من جانب آخر.

لمتابعة محاكمات موسكو، شُكلت لجنة استقصاء، بادرت بها اللجنة الأمريكية للدفاع عن ليون تروتسكي، وحصلت على تفويض من منظمات مماثلة في بلدان أخرى. بعد الاجتماع في أمريكا عملت اللجنة تحت رئاسة الدكتور جون ديوي الخبير في الشؤون العامة والعالم التربوي البارز، تساعده المؤلفة والصحفية سوزان لا فوليت كسكرتيرة، ويساعده كمستشار جون بي فينيتري المشهور كمستشار سابق لساكو وفانزيتي وتوم موني. بقية اللجنة كانت مؤلفة من شخصيات شعبية مشهورة -علماء اجتماع وعلماء تربية ورؤساء تحرير وصحفيين ومؤلفين. في التقرير الضخم الذي أصدرته اللجنة لاحقاً، وصف المفوضون أنفسهم بأنهم "يحملون آراء سياسية واجتماعية متباعدة جداً، ولم يكن أي منهم نصيراً سياسياً لليون تروتسكي...". اللجنة تبرئ تروتسكي تماماً من التهم الموجهة ضده.

في عامي ١٩٣٦ و٣٧ حين وقعت المحاكمات في موسكو وفي عام ١٩٣٧ حين انعقدت لجنة التحقيق، لم يكن طبعاً ممكناً لكلا الجانبين أن يتفحصا ادعاءات التواطؤ بين تروتسكي والنازيين بالرجوع إلى مصادر نازية. أما الآن فالوضع مختلف. كل سجلات الجستابو في أيدي قوى التحالف وهيس -النازي الوحيد المسمى في اتهامات موسكو- متوفرة في نورنبرغ للاستجواب العام. لهذا فإن الفرصة المتاحة لتحقيق يهدف إلى ترسيخ حقيقة تاريخية، استناداً على الاستقامة السياسية والأرقام والشخصيات وميول الموقف الدولي نفيسة.

لذلك نحن نقترح الآتي:

١ -أن يستجوب هيس في نورنبرغ بخصوص لقائه المزعوم مع تروتسكي.

٢-أن يستدعى ممثل معتمد عن أرملة ليون تروتسكي ناتاليا سيدوف تروتسكي لحضور هذه الجلسة من محاكمة نورنبرغ مع سلطة لاستجواب المتهم والشهود.

٣-أن تعطى تعليمات لخبراء التحالف الذين يفحصون سجلات الجستابو، إن كانت هناك أي وثائق تثبت أو تنفي أي صلة بين الحزب النازي أو الدولة، وبين تروتسكي أو قادة البلاشفة القدماء الآخرين في محاكمات موسكو. وإن كان كذلك، فيجب أن تكون متاحة للنشر.

المخلصون لكم إلخ

جورج بادمور. بول بوتس. اف ايه ريدلي. هنري سارا. سي ايه سميث. جوليان سيمونز. إتش جي ويلز- جون بيارد. ايه ايه بالاراد. فرانك هورابين. آرثر كيسلر. جورج أورويل. ٢٥ فبراير/ شباط ١٩٤٦. فورورد، ١٦ مارس/ آذار ١٩٤٦.

رسالة إلى جوليان سيمونز

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير
/ ٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٧.

عزيزي جوليان (جوليان سيمونز شاعر وروائي وكاتب سيرة وكاتب جرائم، ترأس تحرير تونتيث سنتشري فيرس ١٩٣٧-٩. قابل أورويل أثناء الحرب، وبقيا صديقين حتى موت أورويل).

سوف أكون في لندن في شهر نوفمبر/ تشرين ثاني، وسأصل في الخامس منه، وأعتقد وأرجو أن نستطيع أن نلتقي. سوف أتلفن وأكتب إليك مع اقتراب الوقت. أنت كتبت مراجعة نقدية لطيفة جداً لذلك الكتاب السخيف الشعب الإنكليزي في مانشستر إيفنينغ نيوز. العذر الوحيد الحقيقي له، هو أنني كتبته تحت التنمر البدني والترهيب من قبل تيرنر. لقد كتب في بداية عام ١٩٤٤ لكنه لم يظهر من النص بعد أن توغل فيه السنة الماضية مصحح البروفات المطبعية بسرعة وأقحم ملاحظة هنا وأخرى هناك، ليظهر أن الانتخاب الطبيعي قد حدث في الوقت المحدد.

..... نحن كنا قادرين أيضاً على أن نقوم بترتيب بخصوص المزرعة المهملة التي يقع عليها هذا البيت لكي تحرث أخيراً. لهذا فإن ضميري لن يوجعني حول منع شخص آخر من الأرض القابلة للحراثة. ريتشارد يكبر بشكل ضخم ويتحدث كثيراً. إنه يستمتع بصيف حافل يشمل الحصبة، وانقطعت قطعة هائلة من جبينه على إبريق مكسور، وأيضاً تحطم على جزيرة قاحلة وأوشك على الغرق. الطقس بالمجمل كان إعجازياً. مرت علينا ستة أسابيع من دون مطر. في الواقع لا يوجد لدينا ماء في الحنفيات منذ أسبوع أو اثنين. لاحقاً هطلت كمية جيدة من المطر، لكنهم دخلوا في الحصاد بمعاناة أقل من العام الماضي.

بلغ تحياتي لزوجتك من فضلك.

جو. أورويل

رسالة إلى جوليان سيمونز

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ إيست كيلبرايد
/لاناركشاير/ ٢ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٨.

عزيزي جوليان

شكراً جزيلاً لإرسالك لي القلم الذي استعمله كما ترى. طبعاً سيكون جيداً كما يبدو وأفضل لون الحبر. قلمي الآخر كان على ساقه الأخيرة، ولا تستطيع استخدام حبر في السرير. أعتقد أنني تحسنت قليلاً. لا أشعر أنني هزيل وشبحي تماماً وأتناول طعاماً أكثر من قبل. هم يحشونني بالطعام كل الوقت هنا. أنا لا أعرف إن كان وزني سيزداد، لأنني ألزم السرير بشكل صارم في هذه المرحلة من العلاج..... من السخرية أن تعتقد دائماً أن اسكتلندا يجب أن تكون باردة. القسم الغربي ليس أبرد من إنكلترا، والجزر ليست حارة جداً. حينما أصبحُ بصحة جيدة تكفي لأغادر المستشفى، سوف أستمر في عملية ضخ الهواء، لهذا سوف أبقى إما في غلاسغو أو لندن لعدة أشهر، وأنتقل إلى جورا حين أستطيع. لقد رتبت الأشياء بشكل جيد هناك. أنا وأختي نملك البيت. ومعنا فتى فقد قدمه في الحرب يشاركنا حياة المزارعين ويفلح المزرعة. ولي صديق آخر يتصرف كشريك نائم يمول المزرعة ويأتي للمساعدة في الأوقات التي فيها عمل كثير. ليس في داخلي ضمير سيئ حول العيش في بيت مزرعة والاحتفاظ بشخص يعتنى بحيواناتنا في غيابنا كلما أردت ذلك حينما أغادر المزرعة. أنا سوف أباشر بالأبقار واحدة أو اثنتين، لأنني في رعب من أن يصاب ريتشارد بهذا المرض.

حول مراجعة الكتاب. ليس لدي أفكار في العودة إلى مانشستر إيفنينغ نيوز. أنا أرتب لكتابة مقالة نقدية مرة كل نصف شهر للأوبزيرفر. وأظن أنني سأحاول، وأثبت مرة واحدة في نصف الشهر لأحد آخر. كما سأكتب مقالة واحدة في الأسبوع الآن. أعتقد أن ذلك يبين أنني الآن في وضع صحي أفضل، لم أستطع أن أتوقعه قبل بضعة أسابيع. لا أستطيع القيام بأي عمل جدي - لا أستطيع أن أعمل وأنا في السرير أبداً، حتى لو شعرت أنني بصحة جيدة. لا أستطيع أن أريك الرواية التي اكتملت جزئياً. أنا لم أرها لأي أحد، لأنها مجرد فوضى ولا تمت إلى المسودة النهائية

بأي صلة. أنا دائماً أقول إن الكتاب لا يعتبر موجوداً إلى أن يكتمل. أنا مسرور لأنك أكملت حياة أخيك. (ايه جي ايه سيمونز شخصية مشهورة في المشهد الأدبي في لندن. باحث ومجمع كتب ومؤلف البحث عن كورفو) إنه جهد ضخم أن تكمل كتاباً في هذا الوقت.

أنا أتفق معك حول التريبيون، لكن أظن أن فايفل وليس كيمشي هو المسؤول عن التأكيد الزائد على الصهيونية (جون كيمشي صحفي ومؤلف ورئيس تحرير التريبيون ورئيس تحرير الأوبزيرفر اليهودية لاحقاً). كانت ستقوم بدور أفضل عندما يصفها حزب العمال بشكل صريح بأنها عميلة للحكومة (أ) لأنها متفقة مع الحكومة في كل المسائل الرئيسية (ب) لأن حزب العمال ليس لديه صحيفة أسبوعية مخلصة له بشكل واضح، وتكون دفاعية عنه في الحقيقة بأقصى ما تستطيعه الصحافة. أعتقد أن العبقري الشرير في الصحيفة كان غروسمان الذي أثر عليها عبر فوت أند فايفل (ره س غروسمان أكاديمي وصحفي ورئيس تحرير وسياسي يساري) (مايكل فوت عضو في البرلمان). ظن غروسمان وبقية العصابة أنهم رأوا منفذاً لأنفسهم في الصراخ حول السياسية الخارجية التي كانت ملزمة بأن تسوء في تلك الظروف. وهكذا كانت التريبيون في موقع السقوط إلى جانب الحكومة، كلما كانت هناك قضية رئيسية كالتجنيد الإلزامي مثلاً. وفي نفس الوقت كانت تحاول أن تنظر بخوف إلى اليسار برفع صرخة حول اليونان مثلاً. أنا فعلاً أفضل قدر زيلاكوس بما أنهم كلهم يملكون سياسة أي تهدئة روسيا. بدأت بكتابة رسالة مفتوحة إلى التريبيون عن هذا، لكنني مرضت قبل أن أنهيها. (دفاعاً عن الرفيق زيلاكوس) أنا أكره بشكل خاص تلك الخدعة في تملق زمر اليسار من خلال مهاجمة أمريكا دائماً، بينما نعتمد على أمريكا لإطعام وحماية أنفسنا، حتى أنني حصلت على رسائل من طلاب جامعة أمريكية يسألونني لماذا تختار التريبيون دائماً مهاجمة الولايات المتحدة وبتلك الطريقة الجاهلة.

حسناً هذه رسالة طويلة. شكراً كثيراً مرة أخرى لإرسالك القلم إلي. سأرسل قلم بيرو القديم في وقت ما حين أحصل على قليل من الورق. وربما تكون لطيفاً وتملأه بالحبر من جديد. أحر تحياتي لزوجتك.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ ايست كيلبرايد /لاناركشاير/ ٢١ مارس/ آذار ١٩٤٨.

عزيزي جوليان

أخيراً وجدت صندوقاً أضع فيه هذا القلم. لهذا أنا مدين لك بالشكر إن استطعت أن تبعث لي عبوة جديدة. ليست هناك عجلة. أرفقه بحوالة بريدية من أجل ٦/٣ عبوات. نسيت كم تكلف العبوة. أعتقد أنك تحب أن تسمع أن صحتي تحسنت كثيراً. كنت أتعالج بالستروبتومايسين لمدة شهر تقريباً، ومن الواضح أنه قام بعمله جيداً. لم أكسب وزناً كثيراً، لكنني أفضل بكثير في كل الطرق الأخرى وأتوق إلى النهوض من السرير الذي طبعاً لن يدعوني أفعله لقرون قادمة بعد. مازلت أستطيع فعلاً القيام بأعمال خفيفة فقط مثل كتابة مراجعات نقدية للكتب. كتبت مقالتين طويلتين، لكني وجدت أصابعي كلها إبهامات حالما حاولت بأي شيء جدي. على كل إن الطبيب راض جداً بطريقتي التي أتقدم فيها، ويقول يجب أن أنهض من الفراش في فصل الصيف تقريباً. ربما أستمر بمعالجة دورية لعدة أشهر بعد ذلك، لكن في تلك الحالة سأستأجر غرفة في غلاسغو وأهرع إلى جورا أو إلى لندن بين فترات العلاج. الظاهر، حتى بعد أن قتلوا كل الميكروبات، أنهم أبقوا الرئة منخمصة إلى أن يعتبروها شفيت.

ريتشارد بخير، وبقدر استطاعتي على الحكم على الأشياء من الصور، فهو ينمو بسرعة. لن أستطيع رؤيته إلى أن أصبح غير معدٍ وهذا مزعج قليلاً. لقد زارني أناس متنوعون منهم فريد وربيرغ الذي جلب لي نسخة غير منجزة من طبعتي النظامية التي بدأنا بها هذه السنة. لقد فزعت قليلاً لأجد أنه اختار غلافاً لونه أخضر فاتح، لكن ربما يقدر أن يحصل على لون أغمق. أعتقد أن الطبعة النظامية يجب أن تكون دائماً بسيطة المظهر، ويفضل اللون الأزرق الغامق. قرأت مقالتك عن جورج إليوت في الويند ميل (مجلة أدبية) باهتمام، لكن يجب أن أقول إنني لم أستطع أن أقرأ جورج إليوت نفسه. لا شك أنني سأعودُ إليها يوماً ما. مؤخراً قرأت رواية أو

اثنتين من روايات شارلوت برونتي الثانوية التي لم أقرأها من قبل -ودهشت كم كانت جنسية ومثيرة. وقرأت ثيرزي لمورياك وهي ليست بجودة امرأة من المرائين، لكنها جعلتني أفكر في الروائيين الكاثوليك. وبعد قراءة مقالة هابينستال في البارتيسان ريفيو، فأنا أحاول أن أحصل على ليون بلوي التي لم أقرأها أبداً. أرسلت البوليتكس أند لترز نسخة من مجلتهم وكتباً لسلسلة "الناقد واللوثيان" رغم أنني فعلاً لا أستطيع أن أكتب مقالات طويلة الآن. كنت متأثراً جداً بالمجلة التي لم أرها من قبل، وربما سوف تتطور إلى نوع الشيء الذي نحن في أمس الحاجة إليه. من الواضح أن البوليتكس تتأرجح مسبقاً -أصبحت مجلة ربعية، وهذا فأل سيء جداً عادة. أرسل إلي دوايت مكدونالد نسخة من كتاب صغير عن ولاس نشر لتوه -كتاب جيد جداً، وأنا أحث غولانكس لأن ينشره هنا. أخشى أن دبليو قد يجعل "رجلنا" يخسر الانتخابات، ومن ثم لا يعرف إلا الرب ماذا سيحدث. لكن مهما كانت الطريقة التي ينظر المرء فيها إلى الأخبار، فإنه يجدها محزنة جداً للحديث عنها.

اكتب لي أن توفر لك الوقت وأرجوك بلغ تحياتي لزوجتك. أتمنى أن أكون في المتناول في الصيف وأكون قادراً على أن أرى كل واحد مرة ثانية.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى جوليان سيمونز

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ ايست كيلبرايد
/لانارکشایر/ ٢٠ أبريل/ نيسان ١٩٤٨.

عزيزي جوليان

شكراً جزيلاً لإرسالك القلم والشوكولا المرتقبة التي ذكرتها. أنا مسرور جداً لسماعي أنك ستزرق بطفل. الأطفال متعة هائلة رغم الإزعاج، وحين ينمون يعيش المرء طفولته ثانية معهم. أعتقد أن هناك شيئاً واحداً على المرء الاحتراس منه، وهو فرض طفولتك الخاصة بك على الطفل، لكن أعتقد أنه من السهل نسبياً إعطاء الطفل وقتاً لائقاً في الوقت الحاضر، والسماح له بالفرار من العذابات غير الضرورية التي عانيتها أنا مثلاً. لست متأكداً إن كان على المرء أن يضايق نفسه كثير جداً في إنجاب طفل إلى عالم القنابل الذرية أم لا، لأن الذين يولدون الآن لن يعرفوا أبداً أي شيء سوى الحروب وحصص الطعام إلخ، وربما يستطيعون أن يكونوا سعداء في هذه الخلفية إن حصلوا على بداية سيكولوجية جيدة. أنا أفضل بكثير، لكني مررت بنصف شهر سيئ مع آثار ثانوية للستريبتومايسين. أعتقد أن كل هذه الأدوية مثل حالة إغراق السفينة للتخلص من الجرذان. على كل حال أوقفوا الستريبتومايسين الآن، ومن الواضح أنه أدى دوره. أنا لازلت ضعيفاً بشكل مخيف ونحيلاً، لكنهم يبدون راضين عن حالتي. وأظن أنني ربما أخرج من المستشفى في وقت ما خلال الصيف. إن فعلت، فأتخيل أن أبقى في غلاسغو أو في مكان قريب في كل الأحوال، لكي أراجع المستشفى كل نصف شهر تقريباً، ويعاد فحصي "ويملؤوني ثانية" (بالهواء). لا شك أنني سأكون قادراً بين الحين والآخر على أن أنزل إلى لندن وإلى جورا أيضاً، لكنهم أخبروني أنني يجب أن أقلل من السفر بأقصى ما يمكن، وعلى أي حال أن أرتاح لمدة سنة تقريباً. من الأفضل أن أستمر في العلاج في هذه المستشفى، إنها مستشفى جيدة وهم يعرفون حالتي. أنا مشتاق للذهاب إلى جورا لبضعة أيام، لأرى ريتشارد وأرى كيف وضع المزرعة. لكن يجب أن أكون حذراً ألا أعمل كثيراً. أخشى حتى عندما أشفى تماماً أنني لن أكون جيداً كثيراً بدنياً لبقية حياتي -أنا لم أكن قوياً

ورياضياً قط، لكنني لا أحب حياة الجلوس بالمجمل، ويجب عليّ أن أغير عاداتي لكي أتحرك من دون بذل جهد عضلي كبير وأكف عن الحفر وتقطيع الحطب مثلاً.

من المضحك أنك ذكرت غيسينغ. أنا من أنصار أعماله الكبار (لكني لم أقرأ أبداً **وُلد في المنفى** التي يقول البعض إنها تحفته، لأنني لم أستطع الحصول على نسخة منها) وكنت على وشك أن أقوم بقراءة ثانية للطبعتين اللتين وعدت أن أكتب عنهما مراجعة نقدية لبوليتكس أند لاترز. أظن أنني سوف أكتب مقالة طويلة لها أو لجريدة أخرى. أعتقد أن **النساء الغريبات** واحدة من أفضل الروايات باللغة الإنكليزية. سألتني عن طبعتي النظامية الموحدة. هم بدؤوا مع رواية تسمى **الصعود إلى الهواء** نشرت في عام ١٩٣٩ وقتلتها تقريباً الحرب، وسيطبعون **أيام في بورما** في وقت لاحق من السنة. صححت للتو البروفات الطباعية للرواية الأخيرة التي كتبتها قبل أكثر من خمس عشرة سنة، وربما لم أنظر إليها منذ عشر سنوات. كانت تجربة غريبة- تقريباً مثل قراءة كتاب بقلم شخص آخر. أنا أيضاً سوف أحاول أن أجعل هاركورت بريس يعيد طبع هذين الكتابين في الولايات المتحدة، ولكن حتى لو فعلوا فإنهم على الأرجح سيأخذون (ألواح) فقط التي لن تنفع كثيراً. المضحك أن يوشك الناشرون الأمريكيون على إعادة طبعه. هاركورت بريس يضايقني منذ سنتين من أجل مخطوط من أي نوع، والآن يناقشون معي فكرة عمل سلسلة من إعادة الطباعة، لكن حين حثثته أن يعيد طبع **أيام في بورما** فوراً بعد أن ركز جهوده على **مزرعة الحيوان** لم يفعل. ولم يفعل الناشرون الأصليون، رغم أنهم كانوا يحاولون أن يحصلوا على شيء ما مني. من الواضح أن إعادة الطبعات في الولايات المتحدة تتم أغلبها بواسطة شركات خاصة تتعهدها وتقوم بها إن كانت آمنة وتحقق بيعاً ضخماً. نعم أظن أن عدد البوليتكس الأخير جيد تماماً، لكن يجب أن أقول إنه بالرغم من كل قصائدها الرثائية، فأنا أحتفظ بشكوك قائمة حول غاندي مؤسسة على إشاعات فقط، لكن هذا الكم الكبير من الإشاعات يجب أن يكون شيء فيها باعتقادي.

أرجو أن تبلغ تحياتي إلى زوجتك.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ ايست كيلبرايد
/لاناركشاير/ ١٠ مايو/ أيار ١٩٤٨.

عزيزي جوليان

شكري الجزيل والدائم أبداً لك ولزوجتك، من أجل الشوكولا والشاي والرز الذي وصل إلى هنا الأسبوع الماضي. كانت أنوي أن أكتب إليك. أنت ترى أنني جهزت آلة الطباعة أخيراً. إن استخدامها في السرير مربك قليلاً لكنه يوفر الأخطاء الطباعية الشنيعة في المراجعات النقدية التي تسببها الكتابة بخط اليد. كما تقول فإن قلم الحبر الناشف هو المرحلة الأخيرة في فساد الخط. لكني تبرأت من خطي منذ سنين. في الماضي اعتدت أن أمضي ساعات مع أقلام المخطوطات والورق المربع محاولاً أن أعلم نفسي من جديد أن أكتب. لكن كان الأمر عبثاً. بعد أن تعلمت على الكليشة النحاسية شجعتني أن أكتب بيد "أكاديمية". كتابة الأطفال في الوقت الحاضر أسوأ مما كانت كتابتنا، لأنهم يعلمونهم الكتابة غير المتصلة البطيئة. من الواضح أن أول شيء يجب الحصول عليه هو الكتابة بأحرف متصلة جيدة، لكن الأهم يجب أن تتعلم التحكم باليد. وفي الواقع إن تعلم الكتابة يتضمن تعلم الرسم. من الواضح أنه يمكن أن تتم كما في بلدان مثل الصين واليابان، حيث كل من يستطيع الكتابة يكتب بشكل جميل تقريباً.

أنا سعيد أن (إي) و(إس) راضيان بالسيرة الذاتية، لكن دعهم يفران مع "البحث عن ايه جي ايه سيمونز" كعنوان. صحيح إذا كان الكتاب سيباع، فلن يقتله عنوان، لكن أنا واثق بأنه عنوان سيئ. طبعاً لا أستطيع أن أقدم اقتراحات بدون رؤية الكتاب، بيد أنهم إن أصروا على اسم شيء مثل "ايه جي ايه سيمونز: مذكرات" فهو اسم غير كريه دائماً.

الصعود إلى الهواء ليست كبيرة جداً، لكني أظنها تستحق أن تطبع ثانية، لأنها قتلت باندلاع الحرب، ثم قصفت إلى خارج الوجود بشكل كامل. لذلك لكي نحصل على نسخة منها لإعادة تنضيدها، علينا أن نسرق واحدة من مكتبة عامة. طبعاً أنت محق تماماً حول

شخصيتي، فهي تتطفل على القاص دائماً. أنا لست روائياً حقيقياً بأي حال، وتلك النقيصة بشكل خاص متأصلة في كتابة رواية في الشخص الأول (أنا) وهو ما يجب ألا يفعله المرء أبداً. إحدى الصعوبات التي لم أحلها أبداً، هي أن المرء لديه أعداد هائلة من التجارب يريد بحماس الكتابة عنها، كالقسم الذي عن صيد السمك في ذلك الكتاب مثلاً، ولا توجد طريقة للاستفادة منها، إلا بإخفائها تحت قناع رواية. طبعاً الكتاب كان ملزماً بأن يوحي بويلز مخفف. أنا أكن إعجاباً عظيماً لويلز ككاتب، وكان له تأثير مبكر جداً علي. أظن أنني كنت في العاشرة أو الحادية عشرة حين حصلنا أنا وسيريل كونولي على نسخة من كتاب ويلز بلاد العميان (قصص قصيرة)، وقد افتتنا به وبقينا نسرقه من بعضنا. مازلت أتذكر في الساعة الرابعة تماماً في صباح منتصف الصيف والمدرسة نائمة بعمق والشمس مائلة من خلال النافذة، وأنا أزحف عبر ممر إلى مهجع كونولي؛ حيث أعرف أن الكتاب سيكون بجانب سريره. نحن تورطنا أيضاً في مشكلة قاسية لامتلاكنا نسخة من كومبتون ماكينزي شارع منحوس. الآن أخبروني أنني يجب أن أبقى هنا حتى آب تقريباً. إن الميكروبات صفيت بوضوح، لكن الشفاء الفعلي للرئة وتعزيز القوة يستغرق وقتاً طويلاً.

لا أزال ألهث بشكل رهيب، وأعتقد أنني سأستمر هكذا طالما يبقون الرئة منخمصة لسنة أو أكثر. على كل حال إنها تستحق تصليحاً جيداً. هم الآن يدعونني أخرج إلى الهواء الطلق فترة قصيرة كل يوم، وأنا أشعر بتحسن أكبر، لذلك أشعر أنني سأكون قادراً على أن أقوم بعمل جدي قليل مرة أخرى. ما يقلقني بشكل رئيسي، هو ريتشارد الذي لم أره منذ أربعة أو خمسة أشهر. لكن ربما أكون قادراً على ترتيب زيارة قصيرة له في غلاسغو، ومن بعدها يستطيع أن يأتي ويزورني. أنا لا أعرف من وضع ذلك المعدل في الستاندارد. شخص عرفني، لكن هناك الأخطاء المعتادة. أنا لا أظن أنهم ينبغي أن يعطوا اسمي الحقيقي.

أرجوك بلغ تحياتي لزوجتك.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ ايست كيلبرايد /لاناركشاير/ ١٠يوليو/ تموز١٩٤٨.

عزيزي جوليان

يجب أن أشكرك على لطفك الزائد للمراجعة النقدية في أم ي نيوز (كتب جوليان سيمونز مراجعة نقدية لرواية **الصعود إلى الهواء** في طبعتها الثانية في مانسشتر إيفنينغ نيوز في ١٩ مايو/ أيار ١٩٤٨) التي حصلت منها على قصاصة. أتمنى أن تكون زوجتك في أحسن حال وأن كل شيء سار على ما يرام. ظننت أنك قد تحب أن تسمع أنني سأغادر هذا المكان في الخامس والعشرين من الشهر. يبدو أنهم يعتقدون أنني بصحة جيدة الآن، ولكن يجب أن آخذ الأشياء بهدوء جداً لوقت طويل ربما سنة أو هكذا. يجب أن أنهض من الفراش لمدة ست ساعات فقط في اليوم، لكني لا أعرف إن كان ذلك سيشكل فرقاً كبيراً بما أنني يجب أن أتعود على العمل في السرير. أختي أحضرت ريتشارد إلى هنا ليزورني هذا الأسبوع، وهذه أول مرة أراه منذ عيد الميلاد. هو في وضع صحي ممتاز ولديه طاقة مخيفة. لازال حديثه يبدو مرتبكاً، لكنه بطرق أخرى كان متقدماً. تبدو حياة المزرعة تناسبه، لكني واثق بأنه واحد وهوايته في الميكانيك أكثر منها في الحيوانات. أنهض من الفراش لمدة ثلاث ساعات يومياً في الوقت الحاضر، وأذهب في مشاوير مشي قصيرة، وألعب الكروكيت لكني بدأت أضجر هنا، وأتطلع بتشوق للذهاب إلى البيت. أنا لا أعتقد أنني سأكون في لندن حتى الشتاء، وفي هذا الوقت أتمنى أن أكمل هذه الرواية البغيضة التي يفترض أن تكتمل في هذا الربيع. أيضاً أخشى أنني إذا ذهبت إلى لندن، فلن أمكث في السرير. لا يوجد أحد أتحدث معه هنا. في الجناح في الأسفل هنا محرر هوتسبير مريض لكنه بليد. أخبرني أن حجم توزيعهم ثلاثمائة ألف نسخة. كتبت مؤخراً مقالاً طويلاً عن غيسينغ لدورية بوليتيكس أند لترز، لكني اضطررت إلى فعلها من دون كتب، لأنه من الصعب الحصول على كتب غيسينغ الآن. بقدر ما اكتشفته، ليس هناك سيرة ذاتية لغيسينغ باستثناء تلك السيرة السخيفة في شكل رواية بقلم مورلي روبيرتس. إنها

مهمة تصيح بصوت عالٍ ليفعلها أحد. قبل سنة أو سنتين سألني الناشر (هوم وفان ثال) إن كنت سأكتب واحدة، لكن طبعاً لا أستطيع أن أقوم بكل البحث الذي سيكون مطلوباً. مؤخراً قرأت رواية غراهام غرين الجديدة وأظنها مروعة. وأنا أيضاً لم أكن مبتهجاً مثل أغلب الناس برواية إيفلين واو الشخص المحبوب، رغم أنها كانت مسلية. بخلاف الكثيرين من الناس، أظن زيارة ثانية لبرايدزهيد كانت جيدة جداً بالرغم من أخطاء شنيعة على السطح. كنت أحاول أن أقرأ مقتطفات من كتاب ليون بلوي (روائي فرنسي) الذي لم أنجح أبداً في الحصول على رواياته. لقد أثار سخطي وكذلك فعل بيغاي (شاعر وفيلسوف فرنسي) قليلاً، وهو الذي حاولت أن أقرأه مؤخراً أيضاً، وجعلني أشعر بالتوعك. أعتقد أنه حان الوقت لكي أقوم بهجوم مضاد على هؤلاء الكتاب الكاثوليك. قرأت أيضاً ستودس لونيغان لفاريل للمرة الأولى، وشعرت بخيبة أمل كبيرة جداً. أنا لا أعرف إن كنت قرأت أكثر من ذلك. كان الطقس هنا قذراً كل شهر يونيو/ حزيران، لكنه الآن تبدل أخيراً، وهم الآن يحصدون القش بسرعة كبيرة. أنا مشتاق للذهاب إلى صيد السمك، أكتني أعتقد أنني لن أكون قادراً على ذلك هذه السنة، ليس لأن السمك بحد ذاته يسبب الكثير من الإجهاد، وإنما لأنه يجب عليك أن تمشي من خمسة إلى عشرة أميال دائماً لتنتهي وقد بللك العرق كلك. بلغ تحياتي لزوجتك من فضلك. بعد الخامس والعشرين سيكون عنواني كالسابق أي بارنهيل، جزيرة جورا، ارغيلشاير.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

بارنهيل/ جزيرة جورا/ ارغيلشاير
/٢٩ أكتوبر/ تشرين أول ١٩٤٨.

عزيزي جوليان

لا أستطيع أن أشكرك بما يكفي من أجل الشاي الذي أتمنى أنك استطعت الاستغناء عنه. أختي التي تعتني بأمور البيت من أجلي افتتنت برؤيته، وطلبت مني أن أقول إنها سوف تحزم لك قليلاً من الزبدة في يوم الخض التالي. أنا سعيد جداً لأسمع أن كل الأمور جيدة مع زوجتك وابنتك وأنك تستمتع بولادة طفلة. هما متعة عظيمة فعلاً لذلك أجد نفسي أتمنى في كل مرحلة أن يبقيا كذلك. أفترض أنك تبذل قصارى جهدك للحفاظ على التوازن في حياتك مع خمس قوارير حليب وخمسة عشر حفاظاً في اليوم الواحد. شيء مضحك أن يكونوا جشعين جداً ونهمين حين يكونون أطفالاً صغاراً، ثم بين الثانية والسادسة من العمر يكون هناك قتال مر كي تجعلهم يأكلون في أوقات ما بين الوجبات. أتساءل أي نوع من الحليب تستعمل. نحن جلبنا لريتشارد اوسترميلك الذي يبدو أفضل من ناشينال درايد... يجب أن تخوض معركة كبيرة سلفاً حين يصل الأمر إلى وقت الفطام. لقد تحسنت صحتي لبعض الوقت بعد خروجي من المستشفى، لكني توعكت كثيراً في الشهر الماضي. السخرية أنها بدأت مع عودتي إلى المستشفى ليعاد فحصي، وكنت متضايقاً من الرحلة. لقد مررنا بصيف قذر لم يساعدني على الشفاء. أخيراً الطقس كان جميلاً لكني كنت مريضاً جداً وآسفاً لأنني لم أخرج من البيت. أستطيع أن أعمل، لكن هذا كل ما أستطيع فعله تقريباً. حتى المشي لمدة نصف ساعة يضايقني. كنت سأنزل إلى لندن في يناير/ كانون ثاني، لكني استشرت طبيبي إن كان يعتقد أن الأفضل لي أن أذهب إلى مصحة خاصة فيها لو استطعت أن أجد واحدة، من أجل أسوأ أشهر الشتاء أي يناير وفبراير. ربما أستطيع الذهاب إلى خارج البلاد، لكن الرحلة ستكون مثل الموت بالنسبة إلي، لهذا ربما تكون المصحة هي الأفضل. أعتقد أنني سوف أتخلى عن شقتي في لندن بما أنني لن أستخدمها في الوقت الحاضر، وتكلفني مائة جنيه سنوياً وكثيراً من الإزعاج. طبعاً علي أن أجد مكاناً آخر في لندن. سوف أكمل كتابي، في أسبوع أو عشرة أيام، لكني أجفل نوعاً ما من طباعته بالآلة الكاتبة،

فهي عملية متعبة في أي حال لا يمكن تنفيذها في السرير؛ حيث يجب أن أكون نصف اليوم. لهذا أنا أحاول أن أجلب كاتب اختزال إلى هنا لمدة نصف شهر. لا أستطيع أن أرسل ال أم اس بعيداً، لأنها في فوضى كبيرة، ولن تكون واضحة إلا إن كنت هناك لأشرحها. المشكلة ليس من السهل الحصول على ضارب آلة كاتبة لفترات قصيرة في الوقت الحالي على الأقل ضارب جيد، والبعض قد يخشى من الرحلة. إنها رحلة ساعتين فقط، لكن يمكن أن يمرض المرء في ساعتين كما أعرف جيداً. أنا مندهش لسماعي عن انضمام جون دافنبورت (ناقد وأديب) إلى صحيفة الحزب الشيوعي أو القريبة منه (اوار تايم). هو لم يكن يميل إلى ذلك الطريق وهذا ما عرفته عنه. أنا آسف لأقول إن بوليتكس أند لترز قد اختفت، ويفترض أن تعود إلى الظهور كصحيفة شهرية. ومما يزيد في إزعاجي أن لي عندها مقال. هراء ما قاله فيفل عن إليوت بأنه معادٍ للسامية. طبعاً يمكن أن تجد ما يسمى الآن بعداء السامية في أعماله السابقة، لكن من الذي لم يقل مثل هذه الأشياء في ذلك الوقت؟ يجب على المرء أن يميز بين ما قيل قبل عام ١٩٣٤ وما قيل بعده. طبعاً كل ذلك التحامل القومي سخيف، لكن كره اليهود ليس أسوأ فعلياً من كره الزنوج أو الأمريكيين أو أي كتلة أخرى من الناس. في أوائل العشرينيات كانت ملاحظات إليوت المعادية للسامية متساوية مع السخرية الآلية التي يطلقها المرء على الكولونيلات الأنغلوهنود في الفنادق الصغيرة. من جانب آخر، إن كتبت بعد بدء أعمال الاضطهاد، فإنها تعني شيئاً مختلفاً تماماً. انظر مثلاً إلى بغض الإنكليز الشديد في الولايات المتحدة الذي يشارك فيه أناس مثل إدموند ويلسون حتى. هو غير مهم لأننا لا نتعرض للاضطهاد. لكن لو قتل ستة ملايين إنكليزي مؤخراً في عربات الغاز، فأتصور أننا سنشعر بعدم الأمان حتى لو رأيت دعابة في مجلة هزلية فرنسية عن أسنان نساء إنكليزيات بارزة للخارج. بعض الناس يذهبون من مكان إلى آخر بحثاً عن أخبار عداء السامية طوال الوقت. ليس لدي شك بأن فيفل يعتقد أنني معادٍ للسامية. لقد كُتب هراء حول الموضوع أكثر من أي شيء آخر أستطيع تذكره. لقد حصلت للتو على كتاب سارتر حول الموضوع لمراجعته، وأشك إن كان ممكناً حزم هراء أكثر في متسع صغير جداً. قلت دائماً ومنذ البداية إن سارتر شخص ثرثار بشكل مزعج، لكن حين يأتي الأمر إلى الوجودية التي لا أعترف أنني أفهمها، قد يكون الأمر غير ذلك. ريتشارد يزدهر. مازال متخلفاً في التحدث كما أعتقد، لكنه نشيط جداً في طرق أخرى ومفيد فعلاً في المزرعة والحديقة. أحياناً يخبرني أنه لن يكون واحداً من متعلمي الكتب وأن ميله لعلم الميكانيك. أنا لن أحاول التأثير عليه، لكن إن كبر مع

طموح أن يكون مزارعاً، فيجب أن يرضيني. طبعاً ربما تكون تلك هي المهنة الوحيدة المتبقية بعد القنابل الذرية. إن بدأ العرض وكان سيئاً كما يخشى المرء، سيكون من السهل أن تكون معيلاً لنفسك على هذه الجزر بشرط ألا يسلبك أحد. الشتاءات جيدة وأكثر اعتدالاً مما هي في إنكلترا، مما يعني بوجود فرصة كي يستطيع المرء تربية الحيوانات خلال الشتاء بلا علف. وفي الواقع نادراً ما تعلف الخراف في الشتاء العادي. للمرة الأولى في حياتي جربت تربية خنزير. هي بهائم مقرفة فعلاً وكلنا نتوق إلى اليوم الذي يذهب فيها إلى الجزار، لكنني مسرور برؤيتها تزدهر هنا. لقد كبر إلى حجم هائل على الحليب والبطاطا فقط من دون شراء أي طعام له من الخارج. بعد سنة أخرى سأفكر في تعليم ريتشارد، لكنني لن أرسم أي خطط، لأن المرء لا يستطيع أن يرى المستقبل البعيد الآن. أنا لن أدعه يذهب إلى مدرسة داخلية قبل أن يبلغ العاشرة، وأحب أن يبدأ بالمدرسة الابتدائية إن استطعت أن أجد مدرسة جيدة. إنها قضية صعبة. من الواضح أنه من الديمقراطية لكل واحد أن يذهب إلى نفس المدارس أو على الأقل أن يبدأ من هناك، لكن حين ترى وضع المدارس الابتدائية والنتائج، تشعر أن أي طفل يمتلك الفرصة يجب أن يُنقذ منها. من السهل تماماً مثلاً أن تترك تلك المدارس في سن الرابعة عشرة من دون أن تتعلم القراءة. سمعت على الراديو مؤخراً أن عشرة بالمائة من المتطوعين في الجيش من عمر التاسعة عشرة يجب أن يتعلموا القراءة بعد أن ينضموا إلى الجيش. أتذكر أنني قابلت جون ستاركي عام ١٩٣٦ في الشارع -ثم عضو حزب شيوعي أو على الأقل على هيئة صحيفة الديلي ووركر- وأنه أخبرني أن لديه ابناً وضعه في إيتون، قلت له "كيف يمكنك فعل ذلك؟" قال إنها بعرف مجتمعنا أفضل تعليم موجود. حقيقة أنا أشك إن كانت الأفضل، لكن من حيث المبدأ أنا لست واثقاً أنه كان مخطئاً. على كل حال أنا لم أتخذ أي قرارات بخصوص ريتشارد بشكل أو بآخر. طبعاً ربما نقتل كلنا قبل أن يصبح الأمر ملحاً، لكن أنا شخصياً لا أتوقع حرباً بالرصاص لمدة خمس أو عشر سنوات. بعد أن استرد الروس وضعهم تماماً وباتوا يملكون القنابل الذرية، أظن أن تفاديها أصبح غير ممكن. وحتى لو تم تفاديها، فهناك الكثير من المزعجات التي تتفجر.

أرجو أن تبلغ زوجتك تحياتي، وأفضل تحياتي إلى ابنتك.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

مصحة كوستولد/ غرانهام/ غلوسستر
/٢ فبراير/ شباط ١٩٤٩/

عزيزي جوليان،

أتساءل كيف تطور علاقتك أنت والعائلة. أنا مقيم في هذا المكان منذ شهر. أعتقد أني أخبرتك في المرة الأخيرة أنني أشعر بوضع صحي رديء جداً مرة أخرى....

طفلكم يجب أن يكون في وزن جيد، ويجب أن تكون لديه أسنان قاطعة ويأكل الطعام الصلب. أتساءل إن دخلت في معركة حول الفطام مثل تلك التي خضناها مع ريتشارد. إنها مثل ما قاله مكيافيلي عن الحكومة: لا يمكنك أن تعملها إلا بالقوة أو بالخداع. ريتشارد أصبح في الخامسة الآن وهو ضخم وصحته جيدة، لكنه مازال غير مهتم بتعلم الحروف. هو يحب أن نقرأ له، لكنه لا يرى أي مبرر للتعلم بنفسه. أفترض منه في هذا الشتاء أن يبدأ بالذهاب إلى المدرسة التي سيستمتع بها بالتأكيد لأنه اجتماعي جداً.

كتابي الجديد يفترض أن يصدر في يوليو/ تموز (قال وربيرغ في مايو/ أيار أو يونيو/ حزيران مما يعني يوليو/ تموز في لغة الناشر) لكن ربما تصدر الطبعة الأمريكية أولاً. على أي حال سأراك وأجلب إليك نسخة. يجب أن أشكرك على بعض الإشارات الودية في أم أي نيوز التي تضمنت إشارة إلى ذلك الكتاب البغيض من الكراريس الذي اشتركت في نشره متردداً. سأقوم بمحاولة أخرى لأجعل وربيرغ يعيد طبع بعض من كتب غيسنغ التي سأكتب لها مقدمة بنفسي. هم أعادوا طبع (نسيت أي ناشر) ثلاثة منها السنة الماضية، لكن الكتب الخطأ منها طبعاً. في الوقت الحالي مازلت أحاول الحصول على نسخة من **شارع جراب الجديد** وأحاول الآن في نيويورك. الشيء المزعج لي أن صحيفة بوليتكس أند لترز طلبت مني أن أكتب مقالاً عن غيسينغ ومن ثم مات، ولم يرجع مقالي إلي أو أن تجيب عن سؤالي عنه، لكن يبدو بوضوح أنه من غير المحتمل أن تعاود المجلة إلى الظهور ثانية. يا له من بؤس أننا لا نستطيع أن نجد طريقة لتمويل مجلة محترمة في هذه البلاد. أعتقد أنها مسألة خسارة ألفين جنيه

في السنة. البارتيزان ريفيو إما أنها زادت مبيعاتها أو حصلت على بعض المال من مكان ما، كما ألاحظ أنهم يدفعون الآن بشكل كريم تماماً. من أجل كل تلك المقالات التي كتبتها خلال الحرب لهم، حصلت على عشرة دولارات فقط على كل مرة.

لا أعرف هذا الجزء من البلاد، لكن يفترض به أن يكون بقعة جميلة. البروفيسور تاوني يعيش قريباً مني، لكن لسوء الحظ يجب عليه أن يعود إلى لندن مع بداية الفصل الدراسي. الطقس لا يصدق أبداً، شمس ساطعة وطيور تصدح كما لو كنا في أبريل/ نيسان. بلغ تحياتي لزوجتك من فضلك، وسامحني على خط يدي السيئ.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

مصحة كوستولد/ غرانهام/ غلوسستر
/٤ فبراير/ شباط ١٩٤٩

عزيزي جوليان

شكراً جزيلاً على رسالتك. هل أرسلت لي نسخة من روايتك المثيرة (**بداية عليلة**). أنا متأكد بأنني سأستمتع بها. أنا لا أعمل شيئاً الآن باستثناء القراءة بأي حال، وأنا هاوي قصص بوليسية، لكن كما تعرف لدي ذوق قديم الطراز فيها. بالمناسبة قرأت مؤخراً لأول مرة **ساعي البريد يدق جرس الباب مرتين دائماً**- يا له من كتاب بغيض. أحب لو استطعت أن تأتي وتزورني في أي وقت، لكن طبعاً لا تربك نفسك. أعتقد أن شخصاً آخر سيأتي في الثاني عشر أو السادس والعشرين من فبراير/ شباط، ولكن أي تاريخ آخر غير ذلك مناسب. قال تاوني باول إنه قد يتمكن من أن يأتي ليزورني -إن كان الأمر كذلك، فيمكن أن تأتي في اليوم نفسه. ستصل إلى هنا عند وصولك إلى ستراود على سكة الحديد الغربية الكبرى. كتابي الجديد يوتوبيا في شكل رواية. لقد عملتها بصورة رديئة، وهذا يعود إلى مرضي الشديد حين كتبتها، لكني أعتقد أن بعض الأفكار قد تهمك وتمتعك. لم نثبت العنوان بشكل محدد وواضح، لكن أعتقد أنها ستسمى "**ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون**". توني يقول إن مالكولم لديه رواية ستصدر في الوقت نفسه.

أرجو أن تبلغ تحياتي للعائلة

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

غرانهام/ ١٥ مارس/ آذار ١٩٤٩

عزيزي جوليان

هل أنت تعمل على حياة ديكنز تلك (كتاب ديكنز: شخصيته، السيرة والكوميديا تأليف هيسكث بيرسون الذي نشر في نيويورك). فكرت أنك يجب أن تلقي نظرة على هذا (أنا لا أريدك أن تعيدها). لم يطبع بعد في هذه البلاد حتى الآن حسب علمي، ولا أعتقد أن فيه شيئاً لم تستخلصه أنت من بوب–هينيسي، لكنه يثير نقطة ثانوية مهمة أو اثنتين، فهو يوضح مثلاً أن قبول ديكنز لمنصب البارون قبل موته مباشرة كان مجرد نوع من الدعابة العملية. هيسكث بيرسون في كتابها تبدو أنها توحي أن الأمر ليس هكذا. أنا لم أتابع هذا إلى الآخر، ويجب أن أقول إنني لا أعتبره أمراً مهماً بما أن عقل ديكنز في ذلك الوقت لان واستسلم بأي حال. ويقول أيضاً ما لم أعرفه من قبل إن ديكنز تأثر بإدغار آلان بو الذي يجب أن يكون آنذاك (١٨٤٢) مغموراً، وحاول من دون أن ينجح أن ينشر له حكايات في شكل كتاب. تساءلت كثيراً إن كان بو قد تأثر بحكاية الرجل المجنون في بيكويك.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى جوليان سيمونز

نزل غرانهام /غرانهام/ غلوسستر
/١٦ يونيو/ حزيران ١٩٤٩.

عزيزي جوليان

أظن أنك أنت من راجع ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون في ملحق التايمز الأدبي. يجب أن أشكرك على هذه المراجعة النقدية الرائعة والكريمة أيضاً. لا أعتقد أنه كان من الممكن أن تظهر معنى الكتاب بشكل أفضل في هكذا متسع قصير. أنت محق طبعاً حول فظاظة وسوقية "الغرفة ١٠١". كنت مدركاً لهذا، وأنا أكتبها، لكني لم أعرف طريقة أخرى للوصول إلى مكان قريب من النتيجة التي أردتها. لقد كنت مريضاً بشكل مرعب منذ أن رأيتك، لكني أصبحت أفضل بكثير في الأسابيع القليلة الأخيرة، وأتمنى الآن أن أكون قد تجاوزت مرحلة الخطر. الأطباء الذين فحصوني كلهم كانوا مشجعين جداً لكنهم قالوا إنني يجب أن أبقى هادئاً، وأن أتوقف عن العمل لوقت طويل قد يصل إلى سنة، أتمنى ألا يكون بهذا الطول طبعاً. إنه شيء مضجر لكنه يستحق إن كان يعني الشفاء. ريتشارد يقيم في مكان قريب في فترة الصيف ويأتي ويزورني كل أسبوع. بدأ الدوام في روضة أطفال. وفي هذا الشتاء سيذهب إلى مدرسة القرية في جورا. أنا لا أعرف إلى متى. كنت أفكر بويستمنستر بالنسبة إليه حين يكبر. لقد تخلوا عن قبعاتهم العالية كما علمت. إنها مدرسة نهارية وهذا ما أفضله، وأظن أنها تملك نقاطاً جيدة أخرى. بأي حال أنا سوف أقوم باستفساراتي وأسجل اسمه إن كانت مناسبة. طبعاً يعرف الرب ماذا سيحدث عندها، لنقل في عام ١٩٥٦ لكن يجب أن يخطط المرء كما لو أنه لن يتبدل أي شيء بشكل جذري. هل لديك أي أخبار عن الـ ايمبسون الذين كانوا في بكين؟ أنا لا أعرف إن كنت تعرفهم. كانت هناك إشاعات مختلفة، وأنا أحاول أن أحصل على بعض الأخبار من ناشري ايمبسون في أمريكا. هل قرأت كتاب روث فيشر **ستالين وألمانيا شيوعية**! هي ستزورني غداً كما أتوقع.

أتمنى كل الخير لك، والازدهار للطفلة. بلغ تحياتي لزوجتك.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى جوليان سيمونز

غرفة ٦٥/ جناح خاص/ مستشفى يوسي/شارع غاور.
دبليو سي ١ /١٧/ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٩.

عزيزي جوليان

شكراً جزيلاً على رسالتك. منذ نصف شهر وأنا هنا. نويت أن أكتب إليك أو أهاتفك، منذ يوم أو اثنين فقط. لم أتوقع أن يأتيني زوار. كنت مريضاً بشكل مروع فعلاً لعدة أشهر، لكني الآن أفضل قليلاً. إنها عملية بطيئة، ويعلم الرب متى سأكون قادراً على النهوض من الفراش والعودة إلى العمل ثانية. كما رأيت من تلك الأسعار الفاحشة في الصحف، فأنا وسونيا نفكر في الزواج بينما لاأزال مريضاً، مما سيسهل الأمر لها لتأتي وتعتني بي أينما أذهب بعد خروجي من المستشفى بالإضافة إلى أشياء أخرى. تعال وزرني في وقت ما. يفترض بي أن أستقبل زائراً واحداً فقط لمدة عشرين دقيقة (طبعاً يمكن تمديدها قليلاً) لهذا فهي لا تستحق القيام ببعثة خاصة. ربما يمكنك أن تهاتفني ونرتب يوماً يناسبك. إن هتفت لي ستحولك المستشفى إلى غرفتي. إن أفضل وقت للقدوم في المساء، أي وقت بعد الخامسة. أود كثيراً أن أرى سيرة أخيك إن جلبتها معك.

أستطيع التعاطف مع محاولتك للكتابة في شقة مع طفل صغير. إن لم تجد مكاناً مناسباً في ايسكس، فيمكنك أن تحاول في هيرتفوردشاير. إنه ريف جذاب من حيث المكان وزراعي جداً. ينبغي أن أقول إن غولانكس يتحدث بغباء عن إصدار روايتك تحت اسم آخر. أفترض أن الصحيح لو كنت بيتر تشيني أو جيمس هادلي تشيز.

ريتشارد لم يكن يقيم قربي في فترة الصيف (في المستعمرة الفوضوية في وايتواي) والآن عاد إلى جورا. هو يداوم في مدرسة القرية، وأعتقد أنه سيستمتع بها. إنه ينمو بشكل ضخم وهو نشيط بشكل مفرط، لكنه مازال مرتبكاً قليلاً في التحدث. هو يحب الزراعة والقوارب، حتى إنه في السنة الماضية ساعدني بعمل المزرعة لدرجة أنه كان مفيدا تماماً. لن أؤثر عليه إن استطعت تفادي ذلك، لكن إن كبر ليصبح مزارعاً أو بحاراً أو مهندساً مدنياً أو شيء ما مفيد

من هذا القبيل، سأكون راضيا جداً. ما رأيك في تخفيض القيمة؟ أنا أتخيل أنه كان عليهم أن يفعلوها عاجلاً أو آجلاً، لكنني لم أتوقع ذلك حتى بعد الانتخابات.

بلغ تحياتي لزوجتك من فضلك.

المخلص لك جورج.

رسالة إلى فيكتور غولانكس

٢٧ بي كانونبيري سكوير/ ازلينغتون، أن ١
/١٤ مارس/ آذار ١٩٤٧.

عزيزي غولانكس

أعتقد أن ليونارد مور تكلم إليكم مسبقاً عن العقد الذي مازال سارياً معكم وعن رغبتي للتحرر منه. أعتقد أن العقد الذي لازال مستمراً بيننا هو العقد من أجل **لتبقى الزنبقة ترفرف** في عام ١٩٣٧ الذي اشترط فيه أن أعطيكم حق المنفعة من رواياتي الثلاث التالية. قبلتم **الصعود إلى الهواء** لكنكم لم تقبلوا **مزرعة الحيوان** التي رأيتموها ورفضتموها عام ١٩٤٤. لهذا أنا مازلت مدين لك حسب شروط العقد بحق رفض أو قبول روايتين. أنا أريد أن أطلب منك أن تقدم لي منك خدمة كبيرة في طلبي منك إلغاء العقد، لكن ظروف متنوعة تبدلت في السنين العشر منذ أن وقعناه، وأعتقد أن إنهاءه سيكون لمصلحتك كما هو لمصلحتي بالتأكيد. ما جرى هو أنك نشرت لي ثلاثة من كتبي، لكنك رفضت أيضاً كتابين آخرين لأسباب سياسية، وكان هناك أيضاً كتاب آخر لم ترفضه، لكن يبدو من الطبيعي أنك ستأخذه إلى ناشر آخر، وكانت القضية الحاسمة **مزرعة الحيوان**. في الوقت الذي أنهي فيه هذا الكتاب، سيكون من الصعب جداً نشره. وأنا صممت إن تمكنت من ذلك، أن آخذ كل نتاجي المستقبلي إلى الناشر الذي ينشرها لي، لأنني عرفت أن الناشر الذي يخاطر بهذا الكتاب سيخاطر بأي شيء. إن سيك اند وربيرغ ليس مستعداً لنشر **مزرعة الحيوان** فقط، بل راغب أيضاً حين يتوفر الورق في نشر طبعة موحدة لبعض من كتبي أعتبرها جديرة بطبعة ثانية، وضمنها بعضاً من الكتب التي خارج النشر تماماً في الوقت الحاضر.

كما أن سيك أند وربيرغ متشوق أيضاً لإعادة نشر روايتي **الصعود الى الهواء** في طبعة عادية هذه السنة، لكن ليس بشكل غير طبيعي، وإنما راغب فقط أن يعمل كل هذا إن استطاع أن يحصل على عقد شامل يعطيه التحكم بأي شيء أكتبه.

من وجهة نظري، من غير المرضي تماماً أن يتوجب علي أن آخذ كل رواياتي إلى ناشر واحد، وفي الوقت نفسه أكون ملزماً على الأقل في بعض الحالات بأن آخذ الكتب غير القصصية إلى مكان آخر. أنا أعترف طبعاً بأن الوضع السياسي الآن ليس ما كان عليه بالضبط حين رفضت أنت **مزرعة الحيوان**. وعلى أي حال أنا أحترم عدم استعدادك لنشر كتب تتعارض مع مبادئك السياسية بشكل مباشر. لكن يبدو لي أن هذه صعوبة يحتمل أن تظهر مرة أخرى في شكل أو آخر، وأنه من الأفضل لو كنت مستعداً وراغباً بوضع حد لهذا الأمر كله. إن رغبت في أن أراك بخصوص هذا، فأنا تحت تصرفك وسأكون في هذا العنوان حتى العاشر من أبريل/ نيسان.

المخلص لك/ جو. أورويل.

رسالة إلى فيكتور غولانكس

٢٧ ب كانونبيري سكوير/ ايزلنغتون/
لندن أن ١/ ٢٥ مارس/ آذار ١٩٤٧.

عزيزي غولانكس

يجب أن أشكرك على رسالتك العطوفة والكريمة والتي فكرت فيها باهتمام. لكن رغم ذلك مازلت أعتقد إن كنت راغباً في الموافقة، فذلك سيكون أفضل لإنهاء عقدنا. لبس هناك أي شيء في الكتاب الذي أكتبه الآن قد يؤدي إلى مشاكل، لكن يجب أن أفكر في الوضع الإجمالي. لن يستطيع وربيرغ أو أي أحد غيره أن يعتبرني عرضاً جيداً إذا لم يستطع أن يكون له حق التصرف بكامل نتاجي الذي لا يعتبر كبيراً بأي حال. من الواضح أن الأفضل لو أستطيع أن أوقف الكتابة عن السياسة من حين إلى آخر، فأنا أخشى من ظهور خلافات أكثر مما كان في الماضي. أنت تعرف أي صعوبة هي روسيا. لخمس عشرة سنة كنت أنظر إلى النظام الحاكم هناك برعب خالص، ورغم ذلك أنا سأبدل رأيي إن رأيت مبرراً طبعاً، ولا أعتقد أن مشاعري سوف تتبدل طالما بقي الحزب الشيوعي في السلطة. أنا أعرف أن موقفك في السنوات الأخيرة لم يكن بعيدا جداً عن موقفي، لكن لا أعرف كيف سيكون إن كان هناك تقارب آخر من جديد بين روسيا والغرب في السنوات القليلة القادمة، أو مرة أخرى في وضع حرب فعلية. أنا لا أريد اندلاع حرب، لكن إن أجبر المرء أن يختار بين روسيا وأمريكا – وأعتقد أن ذلك هو الخيار الذي يجب على المرء أن يتخذه – فسأختار أمريكا دائماً. أعرف وربيرغ ورأيه جيداً، وأنه من غير المحتمل أبداً أن يرفض أي شيء لي لأسباب سياسية. كما تقول لا يوجد ناشر يستطيع أن يوقع على بياض ضماناً بطبع أي شيء ينتجه كاتب، لكني أعتقد أن احتمال رفض وربيرغ أقل من أغلبهم. أنا أعرف أنني أطلب شيئاً كثيراً منك نظراً لأن بيننا عقداً أنا وقعته بحريتي ومازلت ملزماً به. إن قررت أن يبقى العقد طبعاً، فأنا لن أنتهكه، لكن في حقيقة مشاعري أحب أن أنهيه. أرجوك سامحني على كل ما يبدو أنه فظاظة مني، وعلى المشاكل التي سببتها لك.

المخلص لك/ جو. أورويل.

رسالة إلى فيكتور غولانكس

٢٧ب كانونبيري سكوير/ ايزلنغتون، أن ١
/٩ أبريل/ نيسان ١٩٤٧.

عزيزي غولانكس

كان يجب أن أكتب إليك منذ عدة أسابيع، لكني كنت مريضاً وطريح الفراش.

شكراً جزيلاً لك على فعلتك الكريمة.

المخلص لك/ جورج أورويل.

رسالة إلى أنتوني باول

بارنهيل/ جزيرة جورا/ ارغيلشاير
/٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٧.

عزيزي توني (روائي وصديق أورويل)

شكراً جزيلاً لك على بطاقتك البريدية التي أعتقد أنها كانت محظوظة لتصل إلى هنا- بأي حال أعتقد أن المزارع الذي جلب البريد في الأميال السبعة الأخيرة كان سيمنعها لو رآها. أنا قادم إلى لندن في بداية شهر نوفمبر/ تشرين ثاني، لكن ربما لمدة شهر واحد فقط. نحن نخطط إلى قضاء الشتاء هنا، لكي أستطيع الاستمرار في عملي من دون أن أغرق في الكتابة الصحفية. وأظن أيضاً أن الجو سيكون مريحاً لي أكثر هنا، بالرغم من الطين والعزل. والمرء في حال أفضل هنا بالنسبة إلى الوقود. وبالمجمل أفضل بالنسبة إلى الطعام. أسوأ عوز حقاً هو تخصيص الخبز والنقص الجديد في البنزين، وذلك لأننا يجب أن نقوم برحلة في السيارة، يتعذر تجنبها مرة أسبوعياً لجلب البقالة إلخ. أصبح البيت مريحاً تماماً الآن ماعدا طبعاً أننا مازلنا نستخدم المصابيح التي تعمل بالزيت للإضاءة، ولدي حديقة صغيرة حول البيت. مررنا بطقس لا يصدق في الحقيقة، جفاف قاسٍ، ونتيجة ذلك لم يكن هناك ماء في الحنفيات لمدة نصف شهر تقريباً، وخلال هذه الفترة لم يستحم أحد. نظرياً يستطيع المرء الاستحمام في البحر، لكنني أجده بارداً جداً والذي لم أغص فيه أبداً ماعدا مرة أو اثنتين طوعياً في أي وقت من حياتي. مؤخراً أربعة منا بما فيهم ريتشارد غرقنا كلنا في البركة المشهورة في كوريفريشان التي وردت في فيلم اسمه "أنا أعرف إلى أين أنا ذاهب". كان هناك وصف غير صحيح أبداً للكارثة في الديلي إكسبريس. كان الأمر بغيضاً حين انتهى بنا الحال أن تحطمنا على جزيرة صحراوية كان يمكن أن نحبس فيها ليوم أو اثنين، لكن لحسن الحظ رأى صيادو جراد البحر النار التي أشعلناها كإشارة وأخرجونا منها. ريتشارد أحب كل لحظة منها ماعدا حين كان في الماء فعلياً. هو يكبر بشكل ضخم ويتحدث كثيراً. لقد سقط سقطة سيئة في وقت مبكر في السنة، تركت ندبة في جبهته، لكن أتخيل أن الندبة ستختفي بعد سنة أو اثنتين. أنا أتقدم في

روايتي وأتمنى أن أنهيها في فصل الربيع إن لم أفعل شيئاً غيرها. أنا أعرف أنني إن رجعت إلى لندن وعلقت بالمقالات الأسبوعية، لن أبدأ بأي شيء أطول. يبدو أن للمرء قدرة محدودة على العمل في هذه الأيام وعلى المرء أن يقتصد بها. السيدة كريستين تقول إنك أرسلت لي كتاباً (روايات من مجتمع رفيع من العصر الفيكتوري) أعتقد أنه طبعة جديدة من روايات من العصر الفيكتوري أنت كتبت لها مقدمة -لكنها لم ترسله بعد. شكراً جزيلاً على كل حال. سوف أتلفن لك حالما أعود إلى لندن. أرجوك بلغ تحياتي لفايوليت.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى أنتوني باول

بارنهيل/ جزيرة جورا/ ارغيلشاير
/٢٣ أكتوبر/ تشرين أول ١٩٤٧.

عزيزي توني

قراءة كتب غيسينغ مرة جديدة- أحب أن أفعل ذلك، لكني في الحقيقة أخشى أنني يجب أن أقول لا. الشيء هو أنني لا أتصارع مع هذا الكتاب خاصتي فقط، ولكن سأكون منشغلاً أيضاً حين أكون في لندن. لدي كل الوسائل لفعل أشياء تضييع الوقت، بالإضافة إلى أنني كلفت بمقالة أخرى لا أستطيع التهرب منها. أتمنى بأي حال أن أعمل بجد كبير عليها خلال وجودي في لندن، لكن ذلك لا يعني التعهد بأي شيء آخر. أنا آسف، فقد كنت أود لو أنني كتبت مقالة عن غيسينغ.

أنا آت في السابع من الشهر وسأتلفن لك. بدأ الشتاء هنا مظلماً وكئيباً نوعاً ما. مسبقاً أنرنا المصابيح في الخامسة والنصف تقريباً. لدينا قدر من الفحم هنا أكثر مما يفترض أن يكون لدينا في لندن، وهذا بيت صامد للعوامل الجوية أكثر من شقتي؛ حيث كان الماء يأتي عبر السقف في اثني عشر مكاناً في الشتاء الماضي. أرجوك بلغ محبتي إلى فايوليت.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى أنتوني باول

بارنهيل/ جزيرة جورا/ ارغيلشاير
/٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧.

عزيزي توني

شكراً جزيلاً على رسالتك. أنا مازلت مستلقياً على ظهري، لكن أعتقد أنني أتحسن فعلياً الآن بعد انتكاسات كثيرة. أنا ربما أكون على ما يرام في هذا الوقت إن استطعت الوصول إلى أخصائي صدر خاص بي، لكن لا أجرؤ على أن أقوم بالرحلة إلى البر الأساسي، وأنا أعاني من ارتفاع حرارتي. إنها رحلة قذرة في الشتاء فعلاً، حتى لو ذهب المرء بالطائرة في قسم من الطريق. على كل حال، لقد رتبت لرجل أن يأتي من غلاسغو ويلقي عليّ نظرة فاحصة سريعة، ثم ربما بعدها سوف أنهض من السرير وأذهب إلى لندن أو ربما إلى غلاسغو فقط. أعتقد أنني يجب أن أدخل إلى المستشفى لفترة قليلة. فبالإضافة إلى العلاج هناك تصوير شعاعي إلخ. وبعد ذلك ربما أقوم بمحاولة الذهاب إلى خارج البلاد لمدة شهرين إن استطعت الحصول على مهمة صحفية إلى مكان ما دافئ. طبعاً لم أقم بأية كتابة منذ أسابيع- لقد كتبت فقط مسودة أولية لروايتي التي أعتبرها دائماً العلامة الوسطى. كان من المفترض أن أنهيها في مايو/ أيار- يعرف الرب متى. أنا مسرور لأن كتاب أوبري وصل أخيراً (جون أوبري وأصدقاؤه). أعتقد أنه على المرء في هذه الأيام أن يضع موعداً للكتابة، بالإضافة إلى وضع موعد للنشر. في الربيع سأعيد طبع رواية لي خرجت في عام ١٩٣٩ وقتلتها الحرب (**الصعود إلى الهواء**) لذلك هذا سيجعلني أتأخر قليلاً براويتي الجديدة.

من الظاهر أن السيدة كريستين قد أبحرت للتو. ما كتبته جزئياً عن هذا كان: هل لديك أو هل تعرفين أي أحد لديه سرج للبيع؟ الحالة الجيدة ليست ضرورية جداً طالما فيه حزام كامل وركابان. إنه لحصان قياس الجانب المتين منه فقط ١٤ إنشاً، لهذا من المحتمل جداً أن يكون سرج يعود إلى حصان كبير وافياً بالغرض. إنه نوع الشيء الذي قد يكون مرمياً ولا تستطيع

شراءه أبداً. حصان المزرعة لدينا هنا يركب لأغراض معينة لتوفير البنزين، كما أن الركوب من دون سرج متعب جداً. أنا مستعد أن أدفع سعراً معقولاً.

ريتشارد جيد بشكل قوي ومليء بالعنف، كما عانى من سعال وشهيق من دون أن نلاحظ أنه أصيب به. حبي للجميع. أتمنى أن أراكم جميعاً يوماً ما.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى أنتوني باول

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ ايست كيلبرايد /لاناركشاير/ ٢٥ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٨.

عزيزي توني

شكراً جزيلاً على رسالتك. لا توجد مشكلة بخصوص السرج. يفترض أن يأتينا واحد، لكن إن حدث وصادفت واحداً آخر، فأنا سأشتريه، لأنه لا يضر أن أملك اثنين. وضع البنزين كارثي، لذلك على المرء أن يستخدم الخيول لأغراض معينة، وأيضاً الفتى الذي يسكن معنا ويفلح المزرعة، تعثر في إيطاليا، وأسهل له أن يجمع قطيعاً على ظهر حصان. كلا لا أظن أن المرء يستطيع أن يستخدم سرجاً جانبياً. سيكون مثل إطلاق نار على ثعلب جالس أو شيء ما. أحياناً أفكر سراً أن أجرب الركوب على الحصان بشكل جانبي (القدمين على نفس الجهة)، لأنني أعتقد أنه من شبه المستحيل أن تسقط منه... كل الأفضل لفايوليت. أتمنى أن أراك بعد بضعة أشهر من الآن.

المخلص لك جورج

رسالة إلى أنتوني باول

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ لاناركشاير
/ ٢٥ يونيو/ حزيران ١٩٤٨.

عزيزي توني

تلقيت رسالة من صديقك سيسيل روبيرتس، يسألني فيها إن كان يستطيع أن يأخذ شقتي. يجب أن أكتب وأخبره أنه أمر مستحيل. أنا آسف جداً بخصوص هذا، لكنهم كانوا يدفعونني مسبقاً إلى مثل هذا الكابوس وإعارتها إلى السيدة كريستين، ويهددون أن يدعوا بورو يأخذها مني. أنا لا أريد أن يحدث هذا، لأنه يجب أن يكون لي منزل مؤقت ثانوي في لندن، وأيضاً لدي أثاث قليل مازال هناك والكثير من الأوراق التي من المربك تخزينها في مكان آخر. حتى لو تخليت عن الشقة، فلن يدعوني أنقل عقد الإيجار، وطبعاً هم لديهم مرشحوهم الخاصون بهم جاهزين مع رشاوى بأيديهم. إن صدف ورأيت غراهام غرين، هل تفاجئه وتخبره أنني كتبت مراجعة نقدية رديئة لروايته لب القضية للنيويوركر. لم أستطع أن أفعل غير ذلك. أظن أن الكتاب شنيع، لكني لم أعبر عنه بتلك الطريقة طبعاً. أنا سوف أكتب مراجعة كتاب كينغزميل للأوبزيرفر في أقرب فرصة، لكن مازال لدي كتاب آخر يجب أن أزيله عن دربي أولاً. يبدو أنني أعود إلى طاحونة الصحافة، لكن أنا أقوم بأعمال صغيرة على روايتي ولا شك سوف أكملها في نهاية السنة. أنا أفضل بكثير الآن، وأستطيع النهوض من الفراش لمدة ثلاث ساعات يومياً. كنت ألعب الكروكيت كثيراً وهي تبدو لعبة قاسية تماماً حين تكون مستلقياً على ظهرك لمدة ستة أشهر. في الجناح تحتي رئيس تحرير هتسبير مريض. أخبرني أن حجم توزيعهم ٣٠٠ ألف. يقول إنهم لا يدفعون معدلات جيدة جداً حسب الشخص، لكنهم يعطون الناس عملاً دائماً ويعطونهم أيضاً حبكات الروايات، وعليهم فقط أن يقوموا بالكتابة الفعلية. يستطيع الرجل بهذه الطريقة أن ينتج ٤٠ ألف كلمة في الأسبوع، ولديهم رجل واحد اعتاد أن يعمل ٧٠ ألف كلمة، لكن مادته عبارة عن "قالب" تقريباً. أتمنى أن أخرج في أغسطس/ آب، لكن

الموعد ليس ثابتاً، لأنه يعتمد على متى تستأنف رئتاي شكلهما الطبيعي بعد أن يقل العلاج. ريتشارد قادم ليزورني في وقت مبكر من يوليو/ تموز. لم يستطع قبل ذلك بسبب العدوى. أظن أنني لن أعرفه إلا بصعوبة بعد ستة أشهر من الغياب.

اليوم يصادف عيد ميلادي الخامس والأربعون، أليس الأمر مروعاً. حصلت أيضاً على أسنان اصطناعية، وازداد الشعر الرمادي في رأسي. أرجوك بلغ تحياتي لفايوليت.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى أنتوني باول

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير
/١٥ نوفمبر/ تشرين أول ١٩٤٨.

عزيزي توني

أرجوك اعذرني على الطباعة الرديئة، لكنني في الفراش وهذه آلة كاتبة بالية جداً. شكراً كثيراً لك على رسالتك. نعم أنا أرسل كتب باري بين (روائي ساخر مؤلف كتب ايلايزا من العصر الإدواردي). أنا أحب أي شيء يشبه ذلك. ربما بعضها جديرة بالتجليد. هناك أشخاص في ادنبره يجلدون الكتب. خرجت من المستشفى في يوليو/ تموز بوضع أفضل بكثير، لكني كنت في حالة صحية قذرة في الشهر الأخير، وأحاول أن أرتب كي أمضي أسوأ فترة من الشتاء في مصحة. أعتقد أنها زيادة عن الشتاء الماضي، أي مصحة وليست مستشفى، وربما أقدر أن أقضي الشتاء في البيت، وربما أستطيع الذهاب إلى الخارج، ولكن أخشى أن تكون الرحلة هي الموت حرفياً بالنسبة إلي. أستطيع أن أكتب، لكن ذلك كل ما أستطيع فعله. إن مشيت ولو بضع مئات من الياردات، فإني أشعر بالانزعاج. إنه شيء مزعج أنه بعد صيف قذر أن نكون في طقس خريفي جميل ولا أستطيع أن أجز عشبة واحدة من حديقة البيت. أنا باشرت الآن بالمهمة الرهيبة في طباعة روايتي. لا أستطيع أن أطبع كثيراً لأن الجلوس وراء طاولة يتعبني كثيراً جداً، وطلبت من روجر سينهاوس أن يرسل إلي كاتب اختزال لمدة نصف شهر، لكن طبعاً ليس من السهل العثور على شخص لفترة قصيرة مثل تلك. من المروع حين أفكر أنني كنت أعبث مع هذا الكتاب منذ يونيو/ حزيران ١٩٤٧ ولايزال فوضى فاضحة حتى الآن. لكن طبعاً كنت مريضاً جداً لمدة سبعة أشهر أو ثمانية من الفترة. ريتشارد يزدهر ويزداد حجمه. أنا لا أعتقد أنه سيكون واحداً من رجال المعرفة. هو متخلف قليلاً في الحديث ولا يبدي أي اهتمام في حروفه (عمره أربع سنوات ونصف) لكن من جانب آخر هو بارع في الآلات ويحب العمل في المزرعة وصيد السمك وأشياء مثل تلك. أنا لن أؤثر عليه، لكن إن ذهب إلى الزراعة فسأحب هذا، فربما هي الوظيفة الوحيدة التي ستظل موجودة بعد القنابل

النووية. سنة أخرى وأعتقد أنه سيذهب إلى المدرسة. أنا قرأت ثانية روايتك من فكرة إلى حالة موت واستمتعت بها كثيراً جداً. طلبت كتب أوبري مع الأوبزيرفر، لكن لا أعرف إن كنت سأحصل عليها أم لا. إن رأيت مالكولم أخبره عني أنني قرأت كتابه مؤخراً عن صامويل بتلر. ورغم أنني استمتعت به، إلا أنني أعتبره مخجلاً تماماً. رجاء بلغ تحياتي لفايوليت. أرجو أن تكون العائلة كلها بخير.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى أنتوني باول

كرانهام/١١ مايو/ أيار ١٩٤٩.

عزيزي توني

شكراً جزيلاً لك على رسالتك. أخيراً (فقط أمس) حصلت على نسخة من جون أوبري وأنا أقرأه باهتمام. أنا لست مدركاً أنه كان فتى متعدد المواهب -فكرت فيه بالارتباط مع حكايات مخزية. أنا أتطلع إلى مجموعاتك المختارة. نعم أنا قرأت كتاب مارغريت نيومان. أخبر مالكولم مارغريدج إن لم يره، فينبغي عليه أن يقرأ كتاب روث فيشر (ستالين والشيوعية الألمانية)- بأي درجة إنه كتاب مفيد امتلاكه كمرجع. أنا آسف حول المسكين هيو كينغزميل. أنا لا أعرف إن كنتَ قد رأيته، لكن إن فعلت، أخبره أنني قرأت كتابه عن ديكنز (تأخر الفجر) مرة أخرى، وقد حصلت عليه بصعوبة، وأظن كما من قبل - أنه كتاب رائع لكنه حجة المقاضاة. أتساءل لماذا لا يعيد أحد ما طبع بعد البيوريتانية. أقحمت تنويهاً عنه حين كتبت مراجعة نقدية لكتابه الآخر الذي أعادوا طبعه، لكن تم قصه كما تجري الأمور في المراجعات النقدية.

حصلت بالمناسبة أخيراً على نسخة من شارع غروب جديد وقمت بمحاولة أخرى على حمل أحد كي يعيد طباعته. يفكر المرء بأن مكتبة إيفريمان قد تمتلك واحداً من كتب غيسينغ على الأقل، لكن لا أعرف كيف سيتقرب المرء منها -على الأقل أنا لا أملك سلكاً أستطيع شده هناك. كنت مريضاً بشكل مفرط. لا أستطيع وضع أي خطط ثابتة وقوية. إن كنت سأقدر على المشي ولن أستطيع مواجهة الرحلة، فسوف أبقى في مكان ما مثل برايتون. إذا كان علي أن أستمر في السرير، فسأحاول أن أنتقل إلى مصحة ما قرب لندن؛ حيث يستطيع الناس أن يأتوا ويزورروني بسهولة أكبر. يبدو كما لو أنني سأمضي بقية حياتي إن لم يكن في السرير فعلياً، فعلى كافة الأحوال في مستوى كرسي المقعدين. أستطيع الصمود لخمس سنوات إن استطعت أن أعمل فقط. في الوقت الحاضر لا أستطيع أن أفعل شيئاً ولا كتابة مراجعة نقدية لكتاب حتى.

أرجوك بلغ حبي للجميع. المخلص لك/ جورج

رسالة إلى أنتوني باول

كرانهام لودج/ كرانهام/
غلوسستر/ ٦ يونيو/ حزيران

عزيزي توني

شكراً لإرسالك لي كتاب أوبري. (حيوات موجزة وكتابات أخرى مختارة من جون أوبري). أنا مسرور جداً لأنك أدخلت المفضلة عندي السيدة أوفراول أخيراً والقصة التي عن السير دبليو راليف وابنه أيضاً. أنا آسف جداً بخصوص هيو كنغزميل. إن كانوا يحاولون الحصول على معاش تقاعدي لأرملته، فاشملني معكم إن كان توقيعي ينفع بأي شكل طبعاً. أنا أفضل بكثير وواثق أن هذا سيستمر. لدي أخصائي من لندن قال نفس الكلام الذي قاله الناس هنا، أي أنني لو وصلت إلى ناصية الشارع، فأستطيع أن أكون جيداً لعدة سنين، لكن يجب علي أن أبقى هادئاً، وألا أحاول أن أعمل لوقت طويل ربما لفترة سنة أو سنتين- أنا واثق بأنها لن تكون طويلة مثل تلك. شيء ممل جداً لكنه جدير إن كان يعني أني أستطيع أن أعمل مرة أخرى لاحقاً. ريتشارد (ابنه بالتبني) يقيم في مكان قريب في فترة الصيف ويأتي ويزورني مرة أو مرتين في الأسبوع. أرجوك بلغ تحياتي للجميع. أتمنى أن تأتي أنت ومالكولم (مالكولم ماغريدج) وتزوروني في وقت ما- لكن طبعاً لا تتعبا نفسيكما. أنا أعرف أي رحلة متعبة يجب أن تكون.

المخلص لك/جورج

ملاحظة: أنا أقرأ دانتي!

رسالة إلى سيليا كيروان

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير
/١٧ أغسطس/ آب ١٩٤٦

عزيزتي سيليا (مساعدة رئيس التحرير في البوليمك آنذاك)

كم رائعاً منك أن تشتري البراندي وترسليه بمبادرة منك. أرفق شيكاً بالمبلغ المقدر. أتمنى ألا تكوني قد تكلفت نفقات أخرى بشأنه - إن كان هناك أي شيء آخر، رجاء دعيني أعرف.

نسيت أن أقول إني أعتقد أن واحداً أو اثنين من العناوين (الكراريس وهلم جرا) في مقالات سويفت غير صحيحة (السياسة مقابل الأدب) لأنني كنت أقتبسها من الذاكرة دائماً، لكن حالما أرى البروفة الطباعية، سيكون من السهل تصحيحها.

أنا آسف أنك تعانين في لندن. يجب أن يكون كائن مقمل هناك في هذا الوقت من السنة، خصوصاً إن كان لديك مثل هذا الطقس العجيب كالذي عندنا هنا في الأسبوع الأخير أو الأسبوعين الأخيرين.

حتى الآن لم أفعل أي عمل يمكن الكلام عنه، ويبدو هناك دائماً الكثير الذي تفعله من أنواع أخرى والرحلات التي يقوم بها المرء مذهلة جداً. وصل طفل سوزان إلى هنا أمس، ويفترض بي أن أذهب إلى غلاسغو للقائه. انطلقت قبل صباح الأمس، لكني ثقبت إطار دراجتي النارية على الطريق، ولهذا فقدت القارب. بعد ذلك أقلني صاحب شاحنة، ثم ركبت في سيارة، وعبرت بالعبارة إلى الجزيرة التالية، على أمل أن تكون هناك طائرة إلى غلاسغو. لكن الطائرة كانت مملوءة، لهذا أخذت الحافلة إلى ميناء إيليم؛ حيث يكون هناك قارب في صباح الجمعة. كان ميناء إيلين مملوءاً إلى حوافه بسبب معرض للقطعان، وكانت كل الفنادق مملوءة، لهذا نمت في زنزانة في مخفر الشرطة مع عدد كبير من الناس بمن فيهم زوجان متزوجان مع عربة أطفال. في الصباح استيقظت، وذهبت إلى القارب، وحملت الطفل وأعدته، ثم استأجرنا سيارة من أجل العشرين ميلاً الأولى ومشينا الخمسة أميال الأخيرة إلى البيت. هذا الصباح أقلني قارب بمحرك إلى حيث كانت دراجتي، فأصلحت الإطار المثقوب

وركبتها وعدت إلى البيت -كل هذا في ثلاثة أيام. أعتقد أننا كنا سنحصل على قارب بمحرك، أي قارب مع محرك خارجي بعيد عن وسط المركب، بما أنه أفضل وسيلة سفر هنا حين يكون الطقس لطيفاً. في الوقت الحاضر لدينا فقط قارب تجديف صغير مناسب لصيد السمك، لكن لا يمكنه الذهاب إلى مسافة بعيدة في البحر. نحن نذهب إلى الصيد تقريباً كل ليلة، لأننا نعتمد جزئياً على السمك كغذاء لنا. واصطدنا أيضاً قدرين من جراد البحر. وأمسكنا عدداً محدداً من القريدس والسرطانات. الآن تعلمت كيف أربط مخالب السرطان الذي عليك أن تفعله إن كنت ستبقيه حياً، لكنه خطير جداً خصوصاً في الظلام. نحن أيضاً اصطدنا أرانب برية حين قلت اللحوم المحفوظة، وزرعنا خضاراً، لكني لم أبق هنا وقتاً طويلاً طبعاً للحصول على مرتجعات من الأرض بما أنها كانت دغلاً حين وصلت إلى هنا. مع كل هذا يمكنك أن تتخيل أنني لم أنجز عملاً كبيراً- على كل، لقد بدأت بكتاب جديد فعلياً، وأرجو أن أتمم أربعة أو خمسة فصول قبل عودتي في شهر أكتوبر/ تشرين أول. أنا سعيد لأن همفري (هيو سلاتر) راضٍ بـ -أتساءل كيف يباع المهرطقون؟ رأيت أن نورمان كولينز (كاتب ومؤلف وصحفي) كتب مراجعة نقدية متكبرة للكتاب في الأوبزيرفر.

ريتشارد يلبس الآن سروالاً قصيراً لطفل آخر كبر عليه وحمالات، وحصلت على حذاء عامل مزرعة حقيقي له. يجب أن يلبس حذاء طويل الساق هنا حين يذهب بعيداً عن البيت، لأنه لو كان لديه حذاء عادي من المحتمل أن يرميه. وتوجد أفاع هنا. أعتقد أنك ستحبين هذا المكان. تعالي في أي وقت تريدين. لكن إن فعلت حاولي ودعيني أعرف مقدماً (يعني اكتبي لي قبل أسبوع لأن رسائلنا تصل مرتين في الأسبوع فقط) لكي أستطيع ترتيب موضوع استئجار سيارة. أيضاً لا تحضري أمتعة أكثر من حقيبة ظهر وجراب، لكن من جانب آخر اجلبي لي قليلاً من الدقيق إن استطعت. نحن دائماً تقريباً نعاني من نقص في الخبز والدقيق هنا، منذ أن خضعنا لنظام الحصص. لكن لن تحتاجي إلى ثياب كثيرة طالما لديك معطف مطري وحذاء طويل الساق متين أو حذاء عادي. تذكري أن القارب يبحر أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، ويجب أن تغادري غلاسغو في حوالي الساعة الثامنة. أتوقع أن أكون هنا حتى العاشر من أكتوبر/ تشرين أول.

مع محبتي/ جورج

رسالة إلى سيليا كيروان

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير
/٧ ديسمبر كانون أول /١٩٤٧.

عزيزتي سيليا

كم هو جميل أن أستلم رسالتك. لسوء الحظ أنا لا أستطيع الرد برسالة طويلة، لأنني مريض جداً في الواقع. بالنسبة إلى سؤالك اينيز (اينيز هولدن مؤلفة وصحفية عمة سيليا كيروان وصديقة أورويل) لم أسمع منها في الواقع، لكن حين وجدت أنني لا أستطيع الذهاب إلى لندن (بسبب هذا المرض) كتبت اسألها أن تتلفن وتخبر أصدقائي المتنوعين وهذا ما فعلته، لهذا هي في المتناول بأي حال. أنا مريض في الفراش منذ ستة أسابيع، وأشعر باعتلال صحي في وقت ما قبل ذلك. حاولت أن أبقى بصحة كافية للقيام برحلة لندن - أخيراً أحضرت أخصائي صدر إلى هنا. يقول إنني يجب أن أذهب إلى مصحة ربما لأربعة أشهر تقريباً. إنه ملل مرعب، لكن ربما يكون الأفضل إن استطاعوا علاجي وشفائي. أنا لا أظن أن العيش في جورا كان له أثر سيئ على صحتي - على أي حال، فإن المصحة التي سوف أذهب إليها قريبة من غلاسغو من نفس المناخ. في الواقع مررنا بطقس عجيب هذه السنة وجاف جداً. حتى الآن أنا أتطلع كيف يمكن أن يكون اليوم في الربيع إذا كان السرخس أخضر. ريتشارد بصحة جيدة دائماً وأصبح صلباً وثقيلاً. سأدعك تعرفين عنوان المصحة حين أصل إلى هناك. وسأحاول أيضاً أن أكتب إليك رسالة أفضل إن سمحوا لك بالجلوس هناك. أود أن أراك في وقت ما - لكن الرب يعرف متى سيحدث ذلك.

مع محبتي/ جورج

رسالة إلى سيليا كيروان

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ لاناركشاير
/ ٢٠ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٨.

عزيزتي سيليا

سررت كثيراً برسالتك اللطيفة الطويلة. أنا هنا منذ شهر تقريباً بعد أن كنت مريضاً لمدة شهرين في البيت. أعتقد أنني أخبرتك عن نوع المشكلة الصحية التي أعاني منها. إنها السل الرئوي الذي سينال مني عاجلاً أو آجلاً. وفي الحقيقة أنا مصاب به منذ زمن، لكن ليس بهذه الدرجة من السوء. على كل حال، أنا لا أظنه خطير جداً ويبدو أنني أتحسن ببطء. لا أشعر بشحوب شديد كما فعلت منذ شهر بعد أن خسرت حجرين تقريباً (١٤ باونداً). اليوم حين أجريت فحص الأشعة السينية، قال لي الطبيب إنه استطاع أن يرى تحسناً محدوداً. لكن يحتمل أن أبقى هنا لفترة طويلة، بما أن المعالجة بطيئة، ولا أظن أنني سأكون لائقاً للخروج من السرير لمدة شهرين تقريباً........ هذا عيد الميلاد الثاني الذي أمضيه في المستشفى. إنه دائماً شيء يغيظ مع "حفلات" يقيمونها -كل الأسرة تجر إلى داخل جناح واحد، ثم هناك حفلة موسيقية وشجرة عيد ميلاد. هذه مستشفى جيدة وكل واحد بأقصى اللطف معي، وأنا لدي غرفة لوحدي. بدأت أحاول القيام بعمل قليل جداً، أي مراجعة نقدية عرضية لكتاب ما، بعد تعطل عن العمل لمدة ثلاثة أشهر.

نعم أتذكر لا دو ماغو (مقهى باريسي يلتقي فيه الأدباء). أعتقد أنني رأيت جيمس جويس هناك في عام ١٩٢٨، لكني لم أكن قادراً أبداً أن أجزم بذلك، لأن جيمس لم يكن ذا مظهر مميز جداً. ذهبت أيضاً إلى هناك لأقابل كامو الذي كان من المفترض أن يتناول الغداء معي، لكنه كان مريضاً ولم يأت. أعتقد أن باريس ابتهجت قليلاً منذ أن كنت هناك في بداية عام ١٩٤٥ كانت كئيبة جداً من أجل الكلمات، ثم وطبعاً كان من المستحيل أن تحصل على أي شيء يؤكل ويشرب وكل واحد كان رث الثياب وشاحباً. لكني لا أستطيع أن أصدق أنها الآن مثلما كانت. لحسن حظك أنك كنت صغيرة جداً ولم تريها في العشرينات؛ حيث بدت

دائماً شبحية وغريبة قليلاً بعد ذلك حتى قبل الحرب. أنا لا أعرف متى سأزور فرنسا مرة أخرى لأن المرء لا يستطيع السفر في الوقت الحاضر بسبب قضية العملة، لكن إذا نجح أحد كتبي وحالفه الحظ، فسوف أجعلهم يحتفظون لي ببعض الفرنكات في فرنسا لكي أستطيع الذهابِ وأصرفها. إن شفيت.

في ذلك الوقت تقريباً كما أفترض أنني سأفعل، سوف أحاول أن أحتال لأجد وظيفة مراسل هذا الشتاء، لكي أقضي الشتاء في مكان دافئ. شتاء عام ١٩٤٦-٧ في لندن كان فعلاً غليظاً جداً نوعاً ما، وأظنه هو الذي أوصلني إلى هذه الحال على الأرجح. في جورا الأمر أفضل قليلاً، لأن الجو ليس بارداً جداً، ونحصل على فحم أكثر وطعام أكثر، لكنها مربكة قليلاً إن احتاج المرء إلى رعاية طبية في وقت لا يستطيع فيه أن يصل إلى البر الرئيسي. في وقت مبكر من هذا العام انخلع ذراع أختي، وكادت أن تغرق عند العبور إلى الطبيب في قارب صغير جداً يعمل بمحرك. اينيز بالغت في مغامرتنا الأخيرة قليلاً، لكن حصل معنا حادث كريه في دوامة كوريفريشان الشهيرة (التي وردت في فيلم اسمه "أنا أعرف أين أنا ذاهب") وكنا محظوظين بأننا لم نغرق. الشيء البغيض كان وجود ريتشارد معنا، لكنه أحب كل لحظة منها باستثناء تواجدنا في الماء. أعتقد أن جورا أفادته كثيراً ولكنه لم ير عدداً كافياً من الأولاد هناك، لذلك مازال متأخراً في الحديث، وغير ذلك فهو مقدام جداً ومملوء بالحيوية ويخرج إلى العمل في المزرعة طوال اليوم. جميل أن أتمكن من تركه يتجول في المكان من دون أن أخشى من حركة سير في المكان. اكتبي لي مرة أخرى إن توفر لك الوقت. أحب أن تصلني رسائل.

مع محبتي/جورج

رسالة إلى سيليا كيروان

جناح اس/ مستشفى هيرمايرز/ايست كيلبرايد
/لاناركشاير/ ٢٧ مايو/ أيار ١٩٤٨.

عزيزتي سيليا

شكراً جزيلاً على رسالتك. يجب علي أن أقول إن أي شيء يتعلق باليونيسكو، يبدو محبطاً للهمم. بأي حال يجب أن أستخرج كل النقود التي أستطيع أخذها منهم، وأفترض أنهم سيبقون لفترة أطول.

أنا أفضل بكثير الآن من أي وقت مضى، ولبعض الوقت لم يجدوا أي جراثيم في جسدي. هم الآن يقومون بآخر محاولة. إن لم يجدوا أي شيء هذه المرة، فإننا نستطيع أن نعتبر الجراثيم قد قمعت، لكن عملية العلاج طبعاً تستغرق وقتاً طويلاً. أنا مازلت ضعيفاً بشكل مخيف ونحيل، لكنني أنهض من السرير لمدة ساعتين يومياً وأذهب إلى الخارج قليلاً. مازالت غير قادر على القيام بقدر كبير من العمل، لكنني أقوم بالقليل جداً منه يومياً. لم يقولوا بالضبط متى سوف أغادر المستشفى، لكن ربما يكون ذلك في أغسطس/ آب. والخبر الجيد جداً أنهم على ما يبدو يفكرون الآن في أنني يجب أن أستمر في المعالجة كمريض خارجي، ما يعني أنني أستطيع العودة إلى جورا بدلاً من اضطراري إلى البقاء في غلاسغو أو أدنبره. يبدو أنهم استمتعوا بطقس إعجازي في جورا، وانشغلنا جداً نحن بعمل المزرعة بما فينا ريتشارد. أنا لم أره منذ قبل عيد الميلاد خشية إصابته بالعدوى، لكن سأستطيع رؤيته إن استطعت أن أرتب ذلك وأجلبه إلى هنا ليوم أو يومين. هو يكبر بشكل ضخم، وواضح أنه تعلم التحدث أكثر. سيحين عيد ميلاده الرابع هذا الشهر.

كم أتمنى لو كنت معك في باريس بما أن الربيع بدأ هناك. هل ذهبت قط إلى حديقة النباتات؟ كنت أحبها علماً أنه لم يكن فيها ما يثير الاهتمام حقاً سوى الجرذان التي غزتها مرة وكانت أليفة جداً، لذلك كانت تأكل يدك تقريباً. في النهاية أصبحت تشكل إزعاجاً كبيراً، لذلك أدخلوا القطط التي قضت عليها تقريباً.

أشجار الدلب جميلة جداً في باريس، لأن اللحاء لم يصبح أسود بالدخان كما حصل له في لندن. أعتقد أن الطعام وهلم جرا مازال شنيعاً جداً، لكن ذلك سوف يتحسن إن نجحت خطة مارشال. أرى أنك ستضعين طابعاً بعشر فرنكات على رسالتك مما سيعطيك فكرة عن كلفة وجبات الطعام الآن.

لا أستطيع تفادي الشعور أنه نوع من الخيانة من جانب آرثر إن استقر في الولايات المتحدة. هو تحدث عن القيام بذلك سابقاً. أعتقد أنه غاضب حول ما يحدث في فلسطين، لكن أنا لا أعرف ماذا يمكن أن يتوقعه المرء غير ذلك. يبدو أن جولة محاضراته كانت ناجحة تماماً. أتساءل إن كان قد عاد أم لا، وماذا سيفعل بخصوص مكانه في ويلز. يبدو لي أنه من المثير للشفقة البدء بحبس الجذور في مكان آخر، ثم تمزيقها مرة ثانية، وأتخيل أن ماميان لا يحبها.

يبدو وكأن سنوات طويلة مرت منذ أن رأيتك آخر مرة، وفي الواقع يجب أن تكون خمسة عشر شهراً. المضحك التفكير أنني لم أخرج من اسكتلندا منذ أكثر من سنة، علماً أنني أحببت أن أخرج لو بقيت بصحة جيدة. هذه القضية (المرض) أجلت عملي بشكل مخيف. الكتاب الذي أعمل فيه كان من المفترض أن ينتهي في بداية هذه السنة- الآن لا يمكن أن ينتهي قبل نهاية السنة، مما يعني أنه لن يخرج حتى نهاية عام ١٩٤٩. على كل هو شيء قابل للعمل عليه من جديد. السنة الماضية قبل أن يجلبوني إلى هنا، شعرت حقاً كما لو أنني انتهيت. أشكر الرب أن ريتشارد سوف يتمتع بصحة جيدة على ما يبدو. لدينا الآن بقرتان خضعتا للفحص، لهذا في كل الأحوال لن يصاب المريض من خلال الحليب، وهو الطريق المعتاد مع الأطفال. اعتني بنفسك واكتبي لي مرة أخرى في وقت ما.

مع محبتي/ جورج

رسالة إلى راينر هابنستول

ذا ستورز/ ولنغتون/ ن ر بولدكوك،
هيرتس/ ١١ أبريل/ نيسان ١٩٤٠.

عزيزي راينر (روائي وشاعر وناقد، من أشهر مؤلفاته وهج الظهيرة وأربعة غائبين صديق أورويل).

هل وصلت هذه الصور إلى أي شيء؟ إن كان كذلك، فسأكون شاكراً لجميلك لو أرسلت إلي أية واحدة تبدو تستحق إعادة إنتاجها، ودعني أعرف ما هي كلفة المسودات. لدي شيء من نوع ما من أميريكان ليتراري تريدني أن أرسل إليهم صورة، وأعتقد أنه من الأفضل أن أذعن بها أنها من أجل إعلان.

أتمنى أن تكون الأمور معك تسير بشكل جيد. أنا هنا لوحدي. إيلين (زوجة أورويل) ستأتي في عطلة نهاية الأسبوع إن استطاعت. هم يتعبونها حتى الموت في المكتب (مكتب رقابة المطبوعات) وأريد أن أخرجها منه إن أمكن، لكن في الوقت الحاضر لا شيء مرشح من أجل وظيفة لي. أنا لم ألمس روايتي (قصة عن أعمال بطولية لم يبدأها أورويل جدياً أبداً) لكنني كنت مشغولاً بكتابة مراجعات نقدية تساعدني على إبقاء الذئب على بعد بضع خطوات من الباب الخلفي. أيضاً في الحديقة بذار الربيع في أوجها. أنا أهدف إلى زراعة ستمائة رطل من البطاطا ضد المجاعة التي أتنبأ بها في الشتاء القادم. صحيح، هل ذهبت إلى مؤتمر الايستر في لانغهام (مقر فرع لاديلفي)؟ طلبوا مني أن ألقي خطاباً، وأنا لم أستطع التهرب، لكنني أرسلت محاضرة سوف يقرؤها أحد ما آخر، هاجمت فيها السلمية بكل قوتي. لا أعرف كيف أحبوها، وأود أن أسمع من شخص كان هناك. من فضلك بلغ تحياتي لمارغريت (زوجة راينر). أتمنى أنها تتواصل بشكل جيد.

المخلص لك/ إيريك.

ملاحظة لديّ بعض المطبوعات بواسطة أشخاص يسمون أنفسهم المدرسة الرؤيوية النبوئية، لأكتب مراجعة نقدية عنهم مؤخراً وأغتنم الفرصة لإعطاء تعزيز لديلان (توماس ديلان) الذي قررت أنني أحب مادته فعلاً.

رسالة إلى راينر هابنستول

ذا ستورز/ ولنغتون/ ن ر بولدكوك،
هيرتس/ ١٦ أبريل/ نيسان ١٩٤٠.

عزيزي راينر

آلاف التهاني على الطفلة. آمل وكلي ثقة بأن كليكما أحسنتما صنعاً. من فضلك بلغ مارغريت أفضل التهاني مني. يا له من شيء رائع أن يكون لك طفل أو طفلة من لحمك ودمك، أنا أردت ذلك دائماً. لكن يا راينر لا تورط الطفلة الصغيرة المسكينة باسم سيلتي، إذ لا أحد يعرف كيف يهجئه. سوف تنضج نفسياً وتصبح وسيطة روحانية أو شيئاً ما. الناس دائماً يكبرون مثل أسمائهم. استغرق الأمر مني ثلاثين سنة تقريباً للتخلص من آثار تسميتي بإيريك. إن أردت الفتاة أن تكبر وتكون جميلة، فسمها إليزابيث، وإن أردتها أن تكون مخلصة وصادقة وطباخة جيدة، فاختر شيئاً مثل ميري أو جين. المشكلة أنك إن أسميتها إليزابيث، سيفكر كل واحد أنك أسميتها على اسم الملكة كما يفترض أن تكون في يوم ما.

شكراً لك على الصور، لكنك لم تخبرني ماذا كلفت المسودات. اخترت صوراً معلمة برقم ثلاث وخمس لأرسلها إلى الناس. أظن أن الصورة المرقمة بثلاث هي أفضل شبه بي، لكن طبعاً هذه من أجل الناس في الجانب الآخر من العالم. أنا لا أعرف لماذا يجب ألا يرسل المرء صورة لصبي وسيم في القوى الجوية أم ما شابه. أنا أخشى بالتحديد من نقص الفتنة، لأنني حصلت على عدد كبير من الرسائل من نساء صغيرات يخبرنني فيها أنني شيخ. لدي رسائل رائعة واحدة من قابلة كتبتُ لها رداً من دون أن أخبرها أنني متزوج، لكن في النهاية كانت فرحة إيلين كبيرة، إذ تبين أنها في الخامسة والثلاثين من العمر ولديها أربعة أطفال.

أنا لا أعرف متى سنكون في المدينة. أنا مدفون تحت كتب ومستمر في المراجعات النقدية، ولم أعمل في كتابي الخاص بي. يعرف الرب إن كان سيُكتب قط، أو أن هكذا أشياء مثل نشر الروايات سوف تظل تحدث بعد سنتين من الآن. أتمنى الأفضل للجميع.

المخلص لك/ إيريك.

رسالة إلى راينر هابنستول

مؤسسة البث الإذاعي البريطانية/ دار البث،
لندن، دبيلو ١/ ٢٤ أغسطس/ آب ١٩٤٣.

عزيزي راينر

شكراً لك على رسائلك. أتمنى ألا يكون بريدك الجديد مخزياً جداً. سأحاول لأجد الوقت لحديث من أجلك في حصتنا الأدبية التالية، لكن ذلك سيكون بعد ستة أسابيع أو أكثر من الآن- الجدول مملوء حتى ذلك الحين.

أتساءل ألا تشعر أنك ملائم لتعيد صياغة القصة الرئيسية للإذاعة؟ نحن نعمل ذلك مرة كل ثلاثة أسابيع. أنا كتبت أول قصتين بنفسي، واخترت **كرينكيلبيل** للكاتب أناتول فرانس، و**الثعلب** للكاتب لايغانزيو سيلوني (هذان برنامجان لنصف ساعة) ربما أسلم وظيفة إعادة الصياغة في قصص مستقبلية إلى ليونيل فيلدن، لكنه ليس بالضرورة سيفعلها في كل مرة. الصعوبة الرئيسية تكمن في اختيار القصص المناسبة، لأنها يجب أن تكون (أ) بالطول الصحيح تقريباً (ب) لها حبكة قوية (ج) شخصياتها ليست كثيرة جداً (د) ألا تكون محلية جداً لأن هذه القصص موجهة إلى الهند. هل لديك أي أفكار؟ أستطيع أن أرسل إليك نصاً مكتوباً كعينة، ولا شك بأنك تستطيع أن تحسن تكنيكي في كتابة القصة.

الكلبية مرة جديدة. أنت ستكون كلبياً إن كنت في هذه الوظيفة. لكن أنا سأتركها بالتأكيد في غضون ثلاثة أشهر. ثم في وقت ما من عام ١٩٤٤ ربما أكون إنساناً تقريباً مرة جديدة وقادراً على أن أكتب شيئاً جدياً. في الوقت الحاضر، أنا مجرد برتقالة داسها بوط قذر جداً.

المخلص لك/ إيريك.

رسالة إلى راينر هابنستول

٢٧ ب كانون بيري سكوير/ ايزلنغتون ن١
/٢٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٧.

عزيزي راينر

شكراً على رسالتك بخصوص مزرعة الحيوان (صاغ أورويل مزرعة الحيوان من جديد وكيفها من أجل الراديو وأنتجها راينر). كان لدي عدد من الناس هنا واستمعوا إليها في اليوم الأول، ورأوا كلهم أنها جيدة، وبروتيوس (هيو غوردون بروتيوس: ناقد أدبي وخبير بالأدب الصيني) الذي لم يقرأ الكتاب، فهم ما كان يحدث بعد بضع دقائق. أنا أيضاً وصلتني رسالة أو اثنتان من معجبين، وكانت ملاحظات الصحافة جيدة باستثناء التريبيون التي تصرفت بدافع محلي. بالنسبة إلى ما أظنه بنفسي، من الصعب علي أن أكوّن موقفاً معزولاً، لأنني كلما أكتب شيئاً من أجل الإذاعة يتكون لدي انطباع أنه أفسد، وذلك يعود إلى خروجه المحتوم بشكل مختلف عن تصوري له. يجب أن أقول إنني لا أوافق على أن يكون هناك قصاص كثير جداً، وإن فكرت بأي شيء، فسيكون ضرورة وجود تفسير أكثر. يتوق الناس دائماً إلى التخلص من القصاص، لكن يبدو لي أنه إن لم يتم التغلب على مشاكل معينة، فأنت تتخلص من القصاص على حساب اضطرارك إلى لعب خدع غبية، تدع الناس من خلالها يعرفون ماذا يحدث. إن الشيء هو جعل القص يبدو جيداً، لكن ذلك يعني كتابة نثر جدي لا يريده الناس، ويجعل الممثلين يلتزمون به بدلاً من الضحك ومحاولة جعل كل شيء مريح ودافئ وطبيعي.

أنا لا أستطيع أن أكتب أو أتعهد بأن أكتب أي شيء أكثر، ففي الوقت الحاضر أنا مشغول. مازالت لدي أفكار عن قصص الجنيات. أتمنى أن تُستخرج، وأصوغ من جديد نسختي من "ثياب الإمبراطور الجديدة" لقد تم عملها على الخدمات الشرقية والأفريقية، لكن في تلك الأيام لم أكن مرتبطاً بشكل يكفي لأحطم البيت. أتوقع أن الأسطوانات سوف تكسر. لقد أعدت تسجيلها بشكل محظور في استديو تجاري، لكن الكثير منها ضاع. فكرت ملياً دائماً بسندريلا التي هي على قمة قصص الجنيات طبعاً، لكن من النظرة الأولى هي مثيرة

للصور الذهنية أكثر مما ينبغي لتناسب الإذاعة. لكن لا تظن أن المرء يستطيع أن يحول العرّابة إلى مغنية رائعة يمكنها أن تغني بنغمة أعلى من أي أحد آخر أو شيئاً من هذا النوع؟ أفضل طريقة ستكون إن كان لديها صوت رائع، لكن لا تستطيع أن تغني بالنغمة المناسبة مثل تريلباي والعرابة. لقد عالجت هذا. يمكن للمرء أن يجعلها هزلية تماماً مع الأخوات الشريرات اللواتي يغنين بأصوات زاعقة. ربما هذا يستحق الحديث في وقت ما.

بلغ حبي لمارغريت

المخلص لك إيريك.

رسالة إلى روبرت جيرو

مصحة كوستولد/ /غلوسستر
/ ١٤ أبريل/ نيسان ١٩٤٩.

عزيزي السيد جيرو

شكراً جزيلاً على رسالتك في الحادي عشر من الشهر. طبيعي أنا مبتهج لأن كتاب نادي الشهر اختار ١٩٨٤ أخيراً. قبل موعد النشر بقليل، سوف أسالك أن تكون لطيفاً وترسل لي نسخاً مجانية إلى دزينة من الأشخاص في الولايات المتحدة. سوف أرسل إليك الأسماء عبر ليونارد مور. في الواقع بعضهم على قائمتك مسبقاً.

المقال عن لير الذي طلبته مؤخراً (في الواقع إنه عن مقال تولستوي عن شكسبير) ظهر منذ سنتين مضت في مجلة دامت لفترة قصيرة اسمها بوليمك. لسوء الحظ ليس لدي نسخة عنها، وكنت أحاول أن أحصل على واحدة بما أنني قد أريد أن أعيد طبعها في وقت ما. يهمني أن أعرف أين ظهر مقال ايمبسون، كما أحب أن أعرف ماذا كان عليه أن يقول عن لير. هو اختفى في الصين بالطريقة التي يعمل بها الناس، وأنا لا أريد أن أعرف حتى أنه كان يكتب أي شيء في الوقت الحاضر.

كنت مريضاً جداً في الأسابيع القليلة الماضية، لكني أفضل إلى حد ما الآن. أنا أثق بأنني الآن على طريق الشفاء، وسأخرج من هنا قبل أن ينتهي فصل الصيف. لكن من المؤكد أن تكون مهمة بطيئة في أفضل حال. لقد وضعت مخططاً لروايتي التالية، لكني لن ألمسها حتى أشعر أنني بت أقوى. ليس هو العمل الذي يتعبني فقط، وإنما أخشى من القيام بانطلاقة زائفة وأصاب بالإحباط.

المخلص لك/ جو. أورويل

رسالة إلى ليونارد مور

٢٧ كانونبيري سكوير/ ايزلنغتون
/لندن أن ١ /٢٣ فبراير/ شباط ١٩٤٦.

عزيزي السيد مور (وكيل أورويل الأدبي حتى وفاته)

شكراً جزيلاً من أجل القصاصات من ساندي مورنينغ هيرالد التي أرجعتها مرفقة. أعتقد أنها جيدة تماماً، لكنني لا أظن أنها نوع الشيء تماماً الذي يستحق دمجه في كتاب إن تقرر أن تعمل طبعة توضيحية لمزرعة الحيوان. سأتحدث بهذا مع وربيرغ مرة أخرى. (ف ج وربيرغ المدير الإداري لسيكر أند وربيرغ وهو الذي نشر **الحنين إلى كاتالونيا ومزرعة الحيوان**) أعتقد أن الكتاب سوف يعاد إصداره في وقت ما وبالتأكيد سيكون من المسر امتلاكه موضحاً. هناك فكرة غامضة ما بأنه سوف يفعلها (لو- ديفيد لو يساري ومشهور بأنه أفضل رسام صور متحركة بريطاني في جيله) كما جاء عن هورابين بأن لو علّق مرة بأنه يود أن يفعلها (ج ف هورابين صحفي يساري ورسام صور متحركة). لكن أنا لا أعتقد أن ذلك سيصل إلى أي شيء، وأخمن في وقت ما أنني سأصادف فناناً صغيراً يكون أسلوبه مناسباً. أنا أرفق أيضاً عقداً إيطالياً موقعاً كما ينبغي. إن تبين لاحقاً وجود أية صعوبة حول الاسترليني، أي بالنسبة إلى المقدم (السلفة) فلا تضغط عليهم. من المهم أن يترجم الكتاب إلى اللغة الإيطالية، وإذا وجدت أنهم لا يستطيعون أن يدفعوا إلا بالليرة، فأستطيع أن أجد دائماً طرقاً لصرف المال في إيطاليا. في تلك الحالة أنا سأعوضك عن عمولتك. أنا سعيد جداً بسماع أخبار عن مشروع الترجمات الدانمركية والنرويجية. المرأة التي تقوم بالترجمة البولونية أكملتها كما أعتقد. ناشر بولوني في غلاسغو هو الذي سيصدرها. امرأة روسية تحاول أيضاً أن تثير اهتمام ناشرين روس متواجدين في نيويورك. أخبرتها كما في الحالة البولونية، أنني لا أريد أي مال مقابلها، لكن الغريب أنهم إن تبنوا الكتاب، فينبغي أن يكون ممكناً التخلص من بضع نسخ من الترجمة الروسية، لأن حشود من دي بي وروس آخرين لا يمكن تصنيفهم عموماً الآن في ألمانيا وفرنسا. الوصف المفصل في التايمز جيد جداً، وينبغي أن يساعد الطبعة الأمريكية إن ظهرت

قريباً جداً. أعتقد أن الناشرين مدركون لهذا. أنت ذكرت في رسالتك الأخيرة شيئاً عن إعطاء هاركورت بريس حق الاختيار على الكتب المستقبلية. إنه أمر سابق لأوانه بما أنني لا أملك كتاباً معداً جاهزاً بعد، لكن يجب أن أفكر في أن هاركورت بريس هم الأشخاص الذين أرتبط معهم بما أنهم لديهم الشجاعة لنشر مزرعة الحيوان. ربما يؤجلون الفكرة إن أخفق الكتاب في الولايات المتحدة كما يحتمل أن يحدث. أنا لست واثقاً بأن المرء يستطيع الاعتماد على فهم الجمهور الأمريكي لفحوى الكتاب ومغزاه. ربما تتذكر أن ديال بريس كانت قد طلبت مني منذ سنين مخطوطاً، لكن حين أرسلت عملاً لهم في عام ١٩٤٤ أعادوه لي وقالوا باختصار "من المستحيل بيع قصص عن الحيوانات في أمريكا". حديثاً هم كتبوا يقولون إنه "كان هناك خطأ ما"، وأنهم يودون أن يقدموا عرضاً آخر من أجل الكتاب.

أنا أرى أنهم اعتبروها مجرد قصة حيوانات في البداية. لهذا ربما تجدر الإشارة إلى غلاف كتاب للطبعة الأمريكية يبين فيه مضمون الكتاب. إن هاركورت بريس سيكون أفضل الحكام عليها.

أنا سوف أسقط كل الكتابات الصحفية لمدة ستة أشهر اعتباراً من نهاية أبريل/ نيسان، وأبدأ في كتاب جديد. لا أعتقد أنني سأنهي كتاباً في ذلك الوقت، لكنني سوف أنجز القسم الأكبر منه. سيكون الكتاب رواية، لكن أنا لا أرغب في التكلم عنها أكثر من ذلك في الوقت الحاضر.

المخلص لك/ إيريك بلير.

رسالة إلى ليونارد مور

٢٧ ب كانونبيري سكوير/ ايزلنغتون
/لندن ن١/٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٦.

عزيزي مور

شكراً جزيلاً على رسالتك المؤرخة في الأول من نوفمبر/ تشرين الثاني. فكرت ملياً بعرض النيويوركر باهتمام، ولا أظن أن هناك أي شيء أعترض عليه. فقط نقطتان مريبتان ظهرتا، أي النقطة التي أشاروا إليها بـ(ج) إعادة طبع مقالاتي في كتال تصدره النيويوركر، ومسألة "تحرير" مراجعتي النقدية. أنا لست مهتماً بإعادة طبع هذا النوع من المقالات، لأنه سيكون كتاب مراجعات نقدية بشكل كامل، ولن تكون المقالة الواحدة أكثر من ألف وخمسمائة كلمة. أنا لن أعيد طباعتها في كتاب بأقل من ألفي كلمة. لهذا أنا لا يهمني بشكل خاص إن هم اختاروا أن يشملوا أشياء من مقالاتي في مجموعات من القصاصات. حين يكون لدى المرء أي شيء يضمنه في كتاب من هذا النوع، كما يفعل المرء من حين إلى آخر، فلن يحصل على أكثر من جنيهات قليلة منه كما يبدو، وأنا لا أرى كيف يمكن توقع أي شيء غير ذلك بما أن حقوق المؤلف يجب أن تجزأ بين مساهمين متنوعين. أظن أن الأمر لا يستحق أن أسأل النيويوركر كي يحيدوا عن خبرتهم المعتادة في هذه المسألة. مسألة "التحرير" قد تكون أصعب. في تجربتي، وجدت أن المرء لا يستطيع أبداً أن يكون متأكداً من أن مادة المرء ستصل إلى المطبعة من دون تبديل في أي دورية يومية أو أسبوعية. الأوبزيرفر مثلاً، عادة تقص مقالاتي من دون التشاور معي إن كان هناك نقصاً في الدقيقة الأخيرة. في الكتابة للصحف مثل الإيفنينغ ستاندارد، لدي أشياء ليست مجرد قص وقطع وإنما تبديل فعلي، وطبعاً حتى القص دائماً يعدل الإحساس بالمقالة ويبدلها إلى حد ما. ما يهم في الحقيقة هنا، هو إن كان المرء يتعامل مع صحيفة متحضرة ذكية أم لا. ستكون النيويوركر ملزمة بالقيام ببعض القطع والقص من حين إلى آخر، ولن يكون لديها الوقت للتشاور معي كالعادة، لكنني لا أتخيل أن يقوموا بتغيير المقالات بأي طريقة، وهذا ما أعارضه بقوة. لهذا إجمالاً أعتقد أننا نستطيع أن نقبل بمقترحهم كما هو.....

المخلص لك/ إيريك بلير.

رسالة إلى ليونارد مور

مصح كوتسود/ كارنهام/ غلوس.
/١٧ مارس/ آذار ١٩٤٩.

عزيزي مور

سوف أبعث إليك رسالة روبيرت جيرو (محرر في شركة هاركورت أند بريس) التي أرسل إلي منها نسختين.

أنا لا أستطيع الموافقة بأي شكل على نوع التبديل والاختصار المقترح. سوف يبدل كل لون الكتاب ويترك قدر كبير ضروري وجوهري للكتاب. أعتقد أيضاً أنه سوف - رغم أن الحكام الذين قرؤوا الأجزاء المقترحة للحذف يقدرون هذا- يجعل القصة غامضة وغير مفهومة. سيكون هناك أيضاً شيء خطأ بشكل مرئي مع بينة الكتاب إن قطع وقص منه الخمس أو الربع، ومن ثم أقحم الفصل الأخير إلى الجزء الرئيسي المختصر. الكتاب مبني كتركيب متوازن، ولا يستطيع المرء أن يزيل ببساطة أجزاء كبيرة منه هنا وهناك إذا لم يكن المرء مستعداً لأن يعيد صياغة الشيء كله. في حالتي، إن مجرد حذف الفصول المقترحة واختصار المقاطع من "كتاب ضمن الكتاب"، سيعني المزيد من إعادة الكتابة التي لا أشعر أنني قادر عليها ببساطة.

الشروط الوحيدة التي أستطيع الموافقة عليها في أي ترتيب كهذا، سيتكون إن كان الكتاب سينشر كنسخة مختصرة، وإن تبين بوضوح أن الطبعة الإنكليزية تحتوي على فصول عدة لم تحذف. لكن من الواضح أن جماعة كتاب الشهر لا يمكن أن نتوقع منهم أن يوافقوا على شيء كهذا. كما قال روبيرت جيرو في رسالته، فإنهم لم يتعهدوا أن ينتقوا الكتاب بأي حال، لكنه يأمل بوضوح أنهم قد يفعلون ذلك، كما أظن بأن الأمر سيكون مخيباً لهاركورت بريس إن رفضت الاقتراح. وأفترض أيضاً أنك ستخسر مقداراً جيداً من العمولة. لكن أنا في الحقيقة لا أستطيع أن أسمح لعملي أن يتسكع ويتجول أبعد من نقطة ما، وأشك إن كان ذلك مجدياً مالياً على المدى الطويل. يجب أن أكون شاكراً كثيراً إن أوضحت نقطتي لهم.

المخلص لك/ إيريك بلير

رسالة إلى ليونارد مور

غرفة ٦٥/ جناح خاص/ مستشفى يو سي
/١١ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٩.

عزيزي مور

أتساءل إن كنت تستطيع أن تتعامل مع الرسائل المرفقة.

أنا لاأزال ضعيفاً جداً ومريضاً، لكني أعتقد أنني أفضل بالمجمل. أنا تزوجت بصورة غير متأنية جداً هذا الأسبوع. سوف يمر وقت طويل على الأرجح قبل أن أستطيع الخروج من السرير. لكن إن كنتُ قادراً على السفر في نهاية العام، فقد اقترح الطبيب أنني يجب أن أقضي أسوأ أيام الشتاء خارج البلاد، ربما في فرنسا. سيسمحون لي بلا شك ببعض العملة، لكن ربما ليس بما يكفي. وأريد أن أنقل بعض الفرنكات إن أمكن. إذا كنت أملك أي فرنكات تعود لي (مثلاً من الترجمة الفرنسية لرواية ١٩٨٤) هل تعتقد أنك تستطيع أن ترتب لها أن تبقى في فرنسا بعد حسم عمولتك.

المخلص لك/ إيريك بلير.

رسالة إلى تي إس إليوت

مسودة الرسالة

عزيزي إليوت

أتساءل إن كنت تود المشاركة في برنامج يوم الثلاثاء في الثالث من نوفمبر/ تشرين الثاني. لدينا عدد مجلة واحد كل شهر يسمى "صوت"، ويدعي أنه مجلة في شكل بث إذاعي. نحن نحاول ضمن الممكن أن نأتي بشعراء يقرؤون أعمالهم. ونرتب عادة كل عدد حول موضوع مركزي، ونحن نفكر في تقديم عدد أمريكي من المجلة في المرة القادمة. أنت في اعتقادي الشاعر الأمريكي الوحيد في إنكلترا في الوقت الحاضر، لكن ربما هناك آخرون، وفي هذه الحالة يسعدني أن سمع عنهم. على أي حال نحن نحب كثيراً أن تشارك ونسمع شيئاً من أعمالك إما قصيدة واحدة أو اثنتان تستغرق قراءتها خمسة دقائق. الأشخاص الآخرون الذين يمكن أن يشاركوا هم هربرت ريد وويليام ايمبسون وأنا ومولك راج أناند، ولكننا سنحاول أن نجد بعض الكتاب الأمريكيين إن استطعنا. نرجو أن توافق إن كان هذا التاريخ ممكناً بالنسبة إليك. إنه يعني التخلي عن صباح ذلك اليوم بالذات.

المخلص لك

جو. أورويل- منتج الأحاديث في القسم الهندي.

رسالة إلى المبجل إيرويرث جونز

١١١ لنغفورد كورت / ابي رود/
لندن أن دبليو اس/ ٨ أبريل/ نيسان

عزيزي جونز. (قس من الطائفة البروتستانتية)

شكراً جزيلاً على رسالتك (رسالة طلب فيها القس الإفاضة في نقاط محددة في مقال أورويل الأسد ووحيد القرن). ربما في نقطة أو نقطتين عبرت عن نفسي بطريقة غامضة نوعاً ما، وأستطيع توضيح الأشياء أكثر بالرد على بعض من تساؤلاتك.

١ - "ستحتاج الولايات المتحدة إلى تعبئة مواردها حتى لو أجبرت الشركات الكبيرة على ذلك". تعليقك بأن المضربين هم الذين يعطلون الإنتاج. الأمر هكذا طبعاً، لكني كنت أحاول أن أنظر إلى أعمق من الإعاقة المباشرة. إن نوع الجهد الذي تحتاجه الأمة التي في حالة حرب الآن، لا يمكن توفيره إلا إذا جند العمل ورأس المال كلاهما. جوهرياً إن المطلوب والضروري هو أن يكون العمل تحت انضباط كبير كما في القوات المسلحة. هذا الحالة موجودة عملياً في جمهوريات الاتحاد السوفييتي والبلدان الديكتاتورية. لكن من الممكن إجراؤها فقط إن خضعت كل الطبقات إلى نظام صارم على السواء، وإلا سيكون هناك امتعاض واحتكاك اجتماعي يظهر نفسه في إضرابات وأعمال تخريبية. على المدى البعيد، أعتقد أن أصعب الأشخاص الذين سيجبرون، هم رجال الأعمال والتجار الذين يملكون الكثير ليخسروه بزوال النظام الحالي، وفي بعض الحالات سيكونون مؤيدين متعمدين لهتلر. بعد نقطة محددة سوف يصارعون ضد خسارة حريتهم الاقتصادية، وطالما يفعلون هذا سوف تظل أسباب اضطراب العمل موجودة.

٢- أهداف الحرب. طبعاً أنا أؤيد الإفصاح العلني لأهداف الحرب، رغم وجود خطر في التصريح بأي مخطط مفصل جداً عن إعادة البناء بعد الحرب. ومثال ذلك هتلر الذي لن يزعج نفسه في الالتزام بوعوده، وسوف يقدم عرضاً أعلى فور التصريح بأهدافنا. كل ما احتججت ضده في الكتاب كان فكرة أن الدعاية من دون إظهار للقوة العسكرية، لا يمكن أن تنجز أي

شيء. كتاب اكلاند كفاحنا الذي أشرت إليه بأنه: افترض لو أننا أخبرنا الألمان بأننا نريد سلاماً عادلاً فسيوقفون القتال. نفس الفكرة طرحت لكن في هذه الحالة ليست بنية طيبة من قبل تجمع ميثاق الشعب (بريت وشركاه) (نظم في يناير/ كانون الثاني ١٩٤١ من قبل الشيوعيين، وأسس ظاهرياً للقتال من أجل حقوق الشعب وأجور أعلى واحتياطات أفضل ضد الغارات الجوية إلخ، وصداقة مع الاتحاد السوفييتي، لكن يقول بعض المؤرخين إن هدفه الحقيقي التحريض ضد جهد الحرب). (دي أن بريت عضو برلماني عمالي، تم طرده من الحزب لخلافات سياسية. عضو برلمان اشتراكي مستقل. محامٍ مؤيد لقضايا اليسار والاتحاد السوفييتي).

٣- تمرد مؤيد للفاشيين في الهند. لم أكن أفكر بتمرد يقوم به الهنود أساساً، وإنما كنت أفكر بالجالية البريطانية في الهند. جنرال بريطاني يحاول القيام بانقلاب فاشي، استطاع أن يستخدم الهند كنقطة انطلاق كما استخدم فرانكو المغرب، وهذا طبعاً غير محتمل في هذه المرحلة من الحرب. لكن يجب أن يفكر المرء في المستقبل. إن كانت هناك محاولة لفرض فاشية صريحة على بريطانيا، فسوف تُستخدم قوات ملونة بالتأكيد تقريباً كما أعتقد.

٤- غاندي ورفض الحرب (السلمية). ربما لا ينبغي أن أشير ضمناً إلى أن السلميين دائماً هم أناس يعيشون حياة محمية كأفراد. وفي الحقيقة ينتمي السلميون "الصرف" عادة إلى الطبقات الوسطى ويكبرون في ظروف استثنائية نوعاً ما. لكن الفاشية كحركة نادراً ما توجد إلا في مجتمعات لا يشعر الناس فيها بأن الغزو الأجنبي أو الفتح شيء محتمل. لهذا السبب تتواجد الحركات الفاشية دائماً في البلدان البحرية (يوجد هناك كما أعتقد حركة سلمية مهمة في اليابان حتى).

الحكومة لا تستطيع أن تدار على سياسات سلمية صرفة، لأن أي حكومة ترفض استخدام القوة في كل الظروف، يمكن أن يطاح بها من قبل أي شخص، وحتى من قبل أي فرد مستعد وراغب في استعمال القوة. السلمية ترفض أن تواجه مشكلة الحكومة. والسلميون يفكرون دائماً كأناس لن يكونوا أبداً في وضع تحكم وسيطرة. لهذا أنا أسميهم باللامسؤولين.

ظلت حكومة الهند تنظر إلى غاندي كواحد من مساعديها الرئيسيين لمدة عشرين سنة. أنا أعرف ما أتكلم عنه -أنا كنت ضابطاً في الشرطة الهندية. كان يُعترف بأسوأ طريقة ساخرة أن

غاندي سهّل على البريطانيين أن يحكموا الهند بسبب تأثيره، حين كان القيام بأي عمل عسكري يشكل فرقاً دائماً. ولهذا السبب كانت الحكومة تعامل غاندي دائماً بهذا التساهل واللين حين يكون في السجن، وتؤخذ منه اعترافات بسيطة أحياناً. وحين يكون في واحدة من فترات صومه الطويلة الخطيرة، يصيب الضباط البريطانيين الرعب، ويخشون من أن يموت ويحل محله أحد ما يؤمن أقل بـ "قوة الروح" وأكثر في القنابل. غاندي طبعاً صادق تماماً شخصياً وغافل عن الطريقة التي يُستغل بها، واستقامته الشخصية تجعله مفيداً أكثر. أنا لن أفترض القول إن أساليبه لن تنجح على المدى الطويل. لا يستطيع المرء القول إنه بمنع العنف ومنع العلاقات من أن تسوء إلى أبعد من نقطة محددة تبين أن الأرجح أن تسوى مشكلة الهند بطريقة سلمية أخيراً. لكن من الصعب التصديق أن يخرج البريطانيون من الهند بتلك الوسائل. ومن المؤكد أن البريطانيين لا يفكرون بهذا الشكل الآن. بالنسبة إلى فتح واحتلال إنكلترا، فإن غاندي بالتأكيد سينصحنا أن ندع الألمان يحكمون هنا بدلاً من القتال ضدهم - في الواقع إنه يؤيد هذا فقط. وإذا قهر هتلر إنكلترا وهزمها، أتخيل أنه سيحاول أن يشكل حركة سلمية قومية شاملة، ستمنع أي مقاومة جدية، ولذلك يسهل عليه الحكم.

شكرا لك على الكتابة.

المخلص لك/ جورج أورويل.

رسالة إلى جون ليمان

دوريت تشامبرز/ تشاغفورد ستريت/
ايفور بليس ن دبليو١ / ٦ يوليو/ تموز.

عزيزي ليمان (شاعر وناقد ورئيس تحرير)

شكراً على رسالتيك الاثنتين اللتين وصلتا في مغلف واحد. أنا شديد الأسف لأنني لم أكتب شيئاً بعد أن وعدت بأنني سأفعل. بدأت بشيء ما، ثم بدأت الحرب تزداد خطورة. لا أستطيع أن أكتب وهذا الشيء يستمر. لم أكتب أي شيء سوى مراجعات نقدية للكتب إلخ منذ وقت طويل، ووقتي مملوء أيضاً بالمساعدة في متطوعي الدفاع المحلي. الرهيب جداً في هذا النوع من الوضع، أن تكون قادراً ألا تفعل أي شيء. الحكومة لن تستغلني بأي طاقة إنتاجية ولا حتى كاتباً في مكتب، وفشلت في الدخول إلى الجيش بسبب رئتاي. إنه شيء فظيع أن تشعر بأنك بلا فائدة، وفي الوقت نفسه ترى من كل جانب معاقين عقلياً ومؤيدين للفاشية يملؤون الوظائف المهمة. على كل حال إن الأشياء تتحرك قليلاً. لقد قيل لي في وزارة الحرب إنها لم تعد ممتعضة من رجل حارب في الحرب الأهلية الإسبانية. طبعاً يمكنك أن تستخدم مخطوط الفيل (إعدام فيل) مرة أخرى أن أحببت. جنيهان سيكونان ملائمين جداً. بالنسبة إلى الصورة التي أشرت إليها في رسالتك الأخرى، هل يجب أن تكون صورة فنية حقيقية للوجه أم مجرد لقطة سريعة خاطفة تفي بالغرض؟ أنا لست بارعاً بالتقاط الصور عادة. الصورة المرفقة بالرسالة أخذت من أجل بطاقة الهوية، وفيها شبه كبير وجيد، لكن لا أعرف إن كانت تكبّر أم لا. في حال كان من الضرورة أن أتصور فعنواني هو المذكور آنفاً في الأسبوع القادم على كافة الأحوال. أنا أعيش في لندن، لأنني الآن أكتب نقداً مسرحياً للتايم أند تايد.

المخلص لك/ جورج أورويل.

رسالة إلى ايه اس اف غاو

٢٧ كانونبيري سكوير/ لندن ن١
/١٣ أبريل/ نيسان ١٩٤٦.

عزيزي غاو (باحث كلاسيكي، أستاذ مساعد في كلية ايتون ومعلم أورويل)

من اللطيف جداً أن أسمع منك وعن أخبارك بعد كل هذا الوقت الطويل. سمعت بنفس الوقت تقريباً من (هيل أند هون- رسالتا ماجستير كتبهما جورج ليتون) من الذي كتب لي حول جيم وماغنت؟ جورج ليتون الذي يحرر الآن سلسلة للهوم أند فان تاي وأراد مني أن أكتب شيئاً ما. مع أسفي الشديد سأقول لا على الأقل في الوقت الحالي، لأنني على وشك أن أسقط كل الكتابات الصحفية والأعمال العرضية الأخرى لمدة ستة أشهر. قد أبدأ بكتاب آخر خلال هذه الفترة، وعقدت العزم أن أوقف الأدب التجاري لفترة قليلة، لأنني كنت أكتب ثلاث مقالات في الأسبوع في السنتين الماضيتين، وفي السنتين السابقتين لهما كنت أعمل في البي بي سي؛ حيث كتبت ما يكفي من النفاية (أخبار وتعليقات وهلم جرا) تملأ رف كتب. أصبحت أشبه أكثر فأكثر ببرتقالة ممصوصة، وسوف أخرج منها وأذهب إلى اسكتلندا لمدة ستة أشهر؛ حيث لا يوجد هاتف ولا الكثير من الخدمات البريدية.

لقد حدث الكثير لي منذ أن رأيتك. أنا آسف جداً لأقول إنني فقدت زوجتي قبل أكثر من سنة بقليل بشكل مفاجئ جداً وغير متوقع، مع أن صحتها كانت عادية لبعض الوقت. لقد تبنيت ولداً عمره الآن سنتين تقريباً، وكان عمره عشرة أشهر مع أمه، زوجتي ماتت. كان بعمر ثلاثة أسابيع حين تبنيناه. هو طفل ممتاز ولحسن الحظ صحته ممتازة وهو متعة عظيمة بالنسبة إلي. أنا لا أقوم بعمل كثير في الحرب، لأنني صنفت من الفئة الرابعة لكوني مصاباً بمرض يسمى توسع الشعب القصبية، وأيضا بسبب آفة في إحدى الرئتين التي لم تشخص أبداً حين كنت صبياً، لكن صحتي في الواقع كانت أفضل في السنوات القليلة الأخيرة، ويعود الفضل إلى أم أند بي. الشيء القليل من الحرب الذي رأيته عدا عن الغارات الجوية والحرس الوطني، أنني كنت مراسلاً حربياً لفترة قصيرة في ألمانيا، في الوقت الذي انهارت فيه، وكان

شيئاً ممتعاً تماماً. أنا كنت في الحرب الإسبانية لفترة قليلة، وقد جرحت في عنقي مما سبب شللاً لواحد من حبالي الصوتية، لكن هذا لم يؤثر على صوتي. كما جمعت أنت من أخبار، فقد مررت بوقت صعب بسبب كسب معاشي من الكتابة في البداية. لكن حين أنظر إلى الماضي الآن وأعرف أي جلبة هي الصحافة الأدبية، أرى أنني كنت أستطيع أن أدبر الأمر بشكل أفضل بكثير لو أنني كنت أعرف الحبال. في الوقت الحاضر، فإن الصعوبة مع كل الكتاب الذين أعرفهم هي كالتالي: في الوقت الذي أصبح فيه من السهل جداً كسب المعاش من الكتابة الصحفية والعمل في الإذاعة، بات العيش من الكتب شيئاً مستحيلاً. قبل الحرب كنا أنا وزوجتي نعيش من الكتب، لكن بعدها عشنا في الريف على دخل خمس جنيهات في الأسبوع، كانت تكفي آنذاك، ولم نرزق بطفل. في السنوات القليلة الأخيرة أصبحت الحياة مكلفة بشكل فاضح، فوجدت أن الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أكتب فيها كتباً هي أن أكتب مقالات طويلة للمجلات ثم أعيد طباعتها. لكن كل هذا العمل التجاري الذي اشتغلت به في السنين القليلة الأخيرة، كان له فائدة، لأنه أكسبني جمهوراً جديداً. وحين كنت أنشر كتاباً، كان يباع أكثر مما اعتدته في أيام قبل الحرب. أنت ذكرت فريدي ايار. أنا لم أعرف أنك تعرفه. هو صديق كبير لي. هذه المجلة الجديدة اسمها بوليمك، وقد قامت بظهورين اثنين حتى الآن، لكن لدي أمل كبير أنها ستتطور إلى شيء جيد. برتراند راسل النجم الرئيسي طبعاً في الكوكبة. كان مقتل بوبي لونجن عملاً سيئاً (ايه جيه ار. فيلسوف ألف اللغة، العقل والمنطق، كان أستاذ المنطق في جامعتي أكسفورد ولندن). (روبرت بوبي لونجن معاصر لأورويل وكونولي في إيتون. أصبح مدير مدرسة ويلينغتون قبل الحرب وقتل ١٩٤٠ بشظايا قنبلة ضربت المدرسة). أعتقد أن ويلينغتون أصبحت منورة ثقافياً جداً حين كان هو هناك. صبي ربما تعرفه اسمه مايكل ماير كان في سلاح الجو الملكي، والآن أعتقد أنه عاد إلى كامبريدج من جديد، كان في ويلينغتون وكان يعمل عند بوبي ويكنّ له احتراماً كبيراً.

سوف آتي وأزورك في المرة القادمة التي أكون فيها في كامبريدج بالتأكيد، لكن لا أعرف تماماً متى سيكون ذلك. فكرت فيك المرة الماضية التي كنت فيها منذ سنتين عندما كنت أحاضر في كلية لندن للعلوم الاقتصادية التي نقلت إلى هناك. بخصوص اسمي. أنا استخدمت اسم أورويل كاسم مستعار منذ أكثر من عشر سنوات. وأغلب الناس الذين

أعرفهم ينادونني بجورج، لكنني في الواقع لم أبدل اسمي ولازال بعض الناس ينادونني بيلير. سيكون إزعاجاً إن نويت أن أبدله بشكل قانوني، إذ يجب علي أن أذهب إلى محامٍ إلخ، وذلك سيعيقني.

المخلص لك/ إيريك بلير.

ملاحظة لا نتوقع منك أن تقرأ كل الكتب التي أنتجها تلاميذك السابقون، لكني أتساءل إن كنت رأيت كتابي الأخير، مزرعة الحيوان؟ إن كنت لم تره، فيسعدني أن أرسل إليك نسخة منه. إنه كتاب قصير وربما يسليك.

رسالة إلى فينون ريتشاردز

بارنهيل/ جزيرة جورا/ ارغيلشاير
/٦ أغسطس/ آب ١٩٤٦.

عزيزي ريتشاردز (مهندس مدني وصحفي وفوضوي)

أرفق نسخة من عريضة نان ماي (الآن نان ماي عالم فيزياء نووية كان يعمل في مركز سري للبحوث، مرر معلومات عن القنبلة النووية ساعدت الاتحاد السوفييتي في تطوير قنبلته النووية. حكم بالسجن عشر سنوات) التي وقعتها، لكن ليس بلا شكوك خفيفة. أعتقد أن من الحق أن تقدم العريضة (أ) لأن الحكم كان طويلاً جداً و(ب) لأنه طالما كان التساهل مع الجواسيس المقبوض عليهم أقل فهو للأفضل، لكن لا أستطيع تجنب الشعور بشكل شخصي أن العريضة في صيغتها الحالية لم تبين الوقائع بشكل صحيح تماماً. يبدو من الواضح أن دافع نان ماي كان ببساطة أن يسلم سراً عسكرياً إلى جمهوريات الاتحاد السوفييتي وليس إلى العالم كله، فهو لم ينشر معلوماته، وإنما سلمها باليد إلى عميل استخبارات حسب ما جاء عن الشاهد في جلسة الاستماع الأولى، وأيضاً حدد موعداً لمقابلة عميل آخر لاحقاً في لندن. أنا لا أظن أبداً أنه أراد أو توقع أن ينال أجراً على ذلك، لكن بما أن الروس لم يدفعوا له شيئاً فهم يعتبرون أنهم ببساطة يشترون عينة من المعلومات، وهو يجب عليه أن يعرف أي نوع من الناس كان يتعامل معهم. يجب أن أفكر في أن النقطة الأقوى التي يجب أن يشار إليها، هي التاريخ. أنا نسيت أي تاريخ كانت، لكن ألم يحدث هذا بعد أن انتهت الحرب؟

تحياتي إلى ماري لويس. أتوقع أن أعود إلى لندن في أكتوبر/ تشرين الأول. استمتعت بأشهر عديدة مجيدة لم أقم فيها بأي عمل. ريتشارد بصحة ممتازة وبدأ يتحدث قليلاً.

المخلص لك/جو. أورويل.

رسالة إلى آرثر كيسلر

٢٧ ب كانونبيري سكوير/
ايزلينغتون/ لندن ن١/ ١٩٤٦.

عزيزي آرثر

رأيت باربارا وارد (اقتصادية وكاتبة سياسية ناشطة في الحرية الفردية والحقوق المدنية، عرفت لاحقاً بالليدي جاكسون) وتوم هويكنسن (مؤلف وصحفي مشهور بآرائه الليبرالية واليسارية - رئيس تحرير بيكتشربوست) وأخبرتهما عن مشروعنا. (في أواخر عام ١٩٤٥ شعر كل من أورويل وكيسلر بوجود انحدار في الشعور الديمقراطي في كل أرجاء العالم، ودعيا إلى تشكيل منظمة دولية مشابهة لعصبة بحقوق الإنسان التي تشكلت قبل الحرب. أهدافها حماية الأفراد بغض النظر عن بلدانهم ومنع الاعتقال التعسفي والحبس من دون محاكمات ومنع ترحيل الأشخاص من أوطانهم ومنع تقييد الحركة ضمنها، وتعزيز حرية التعبير والصحافة وحق كل فرد في الترشح للمنصب والتصويت للمرشح الذي يختاره. الأسماء المقترحة للمنظمة الجديدة: عصبة الدفاع عن تطوير الديمقراطية والعصبة من أجل حرية الإنسان وكرامته). كانا خائفين قليلاً، والسبب الرئيسي برأيي هو أن منظمة من هذا النوع ستكون عملياً معادية للروس أو سوف تجبر أن تصبح معادية للروس، وهما سوف يمران بطور حاد من معاداة التأمرك. لكنهما متلهفان لسماع المزيد، وبالتأكيد هما ليسا عدائيين نحو الفكرة. أنا قلت إن الخطوة التالية ستكون أن أريهما نسخاً من مسودة البيان أو مهما كانت حين توضع المسودة. أتساءل إن كنت رأيت برتراند راسل، وإن حدث ذلك ماذا قال. أنا لا أشك أن هذين الاثنين سيساعداننا على تمرير أفكارنا وإيصالها إلى أناس آخرين، لكن في مرحلة ما ربما يكون من المفيد أكثر الاتصال مع هولتون شخصياً، وهذا أمر بمقدوري أن أقوم به. (ناشر ذو آراء ليبرالية ومالك بكيتشربوست). لم أكتشف أي شيء هام حول عصبة حقوق الإنسان. لا أحد لديه الكثير عنها في ملفاته كما يبدو. كل ما استطعت أن أكتشفه هو أنها مازالت موجودة في فرنسا، وأنها كانت موجودة في ألمانيا إلى عهد هتلر. لهذا يفترض أنها كانت منظمة دولية. يوجد شيء ما عنها في كتاب إتش جي ويلز صليب انساتا (الذي لم أستطع الحصول عليه)، لهذا من المحتمل أنه كتب مسودة إعلان حقوق الإنسان الذي يثرثر ويلز به دائماً. لكن أنا

متأكد أنه قبل الحرب بسنوات أصبحت منظمة ستالينية، كما أتذكر بشكل واضح، وأنها رفضت التدخل لصالح التروتسكيين في إسبانيا، أو بقدر ما أتذكر لم تفعل أي شيء بخصوص محاكمات موسكو. لكن ينبغي على المرء أن يتأكد من صحة كل هذا. أتمنى أن تكونوا بخير. أنا مشغول جداً كالعادة. تناولت طعام الغداء مع نيغرين قبل يوم أمس، لكني لم أستطع الحصول على معلومات كثيرة منه. (جوان نيغرين رئيس وزراء إسبانيا في الطور الأول من الحرب الأهلية الإسبانية بعدها أسس حكومة في المنفى). لم أنجح أبداً في أن أراه لوحده. لكن مازلت أشعر وأنا واثق من ذلك أنه ليس رجل الروس كما نسب إليه أثناء الحرب الأهلية. على كل حال، أنا لا أعتقد أن هذا يشكل فرقاً كبيراً، كما أنني أخشى عدم وجود فرصة كبيرة لعودة نيغرين حين يرحل فرانكو. سأتناول طعام الغداء أيضاً مع بيفربروك الأسبوع القادم. وإن توفرت الفرصة وتكلمت معه على قدم المساواة، فسوف أسأله عن ستالين، فهو أخيراً رآه عن قرب عدد من المرات.

الناشر الفرنسي الذي وقع عقداً لترجمة مزرعة الحيوان، شعر بخوف شديد، ويقول إنها مستحيلة "لأسباب سياسية". من المؤسف فعلاً التفكير في شيء مثل الذي يحدث في فرنسا من بين كل بلدان العالم. على كل، أنا أخمن أن أحداً ما سيخاطر وينشرها. هل أخبرتك أنني أصلحت وثبتّ الطبعة الأمريكية؟ كتاب المقالات يطبع الآن ويقولون إنهم لا يستطيعون إجراء تبديلات في النص، لكن سوف يدخلون قسيمة طباعية على الأقل بخصوص القضية الألمانية أو الإنكليزية. (أوضح التصحيح في كتاب المقالات **مقالات نقدية** في مقال أورويل عن "آرثر كيسلر" أن كتب كيسلر الأولى كُتبت باللغة الألمانية).

من فضلك بلّغ تحياتي لماميان (زوجة كيسلر). ريتشارد الآن بصحة جيدة (ابن أورويل بالتبني). سيلا أتت على موعد الشاي يوم الثلاثاء ورأته وهو يستحم. (الأخت التوأم لزوجة كيسلر).

المخلص لك/ جورج.

ملاحظة. أنا لم أشكرك قط من أجل إقامتنا. لدي نوع من النهي حول ذلك، لأنني كطفل علموني أن أقول "شكراً لك على استضافتي" ويبدو لي هذا التعبير بغيضاً جداً.

رسالة إلى آرثر كيسلر

٢٧ ب كانونبيري سكوير/ ايزلينغتون
/لندن ن١/ ١٣ أبريل/ نيسان/ ١٩٤٦.

عزيزي آرثر

أنا أعود إلى مذكرة ستيفن كينغ هول التي قرأتها باهتمام (القائد ستيفن كينغ هول تقاعد من البحرية بعد سيرة بحرية مميزة عام ١٩٢٩ وثم أصبح عضو برلمان قومي مستقل. يميني وصريح). مررت لديفيد أستور الاقتراح بأنك قد تعمل قطعتين في الشهر من أجل الأوبزيرفر. أعتقد أنهم سيفرحون ويوافقون على ذلك. اقترحت لديفيد أنه من الضروري أن يكتب لك أحد من الأوبزيرفر الآن. (المبجل ديفيد أستور رئيس تحرير الأوبزيرفر، التقى بأورويل في بداية الحرب وظلا صديقين إلى وفاة أورويل).

بالنسبة إلى نادي الشعراء وكتاب المسرح والروائيين، فقد استلمت رسالة روتينية من ديزموند مكارثي يسألني الانضمام إليه (ديزموند مكارثي أديب وواحد من أكثر النقاد المتنورين والمبهجين والطيبين. رئيس تحرير النيوستيتسمان أند نيشن). هو يمتلك في الحقيقة الوقاحة للإشارة إلى ذلك الكتاب المفزع **حرية وتعبير** الذي نشروه السنة الماضية (كتب أورويل مراجعة نقدية لكتاب **حرية وتعبير** الذي أعده هيرمان أولد في التريبيون، وهذه المراجعة نشطت مقالة أورويل "منع الأدب"). يجب أن أرسل إليه قصاصة من المراجعة النقدية التي كتبتها للكتاب في ذلك الوقت. حتى لو سألوني أن أصبح شيئاً في اللجنة التنفيذية، فأنا لا أستطيع أن أعمل ذلك النوع من العمل. إنه عبارة عن رمي وقت المرء وقدراته في بالوعة المصرف. بأي حال كما تعرف أنا راحل خلال الصيف كله، وسوف أفر من كل هذا. كل من يأتي إلي يريدني أن ألقي محاضرات أو أكتب كتيبات بناءً على الطلب أو أن أنضم إلى هذا أو ذاك إلخ- أنت لا تعرف كيف أتوق إلى التحرر منها كلها وأوفر الوقت لأفرّ مرة ثانية.

تحياتي لماميان.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى آرثر كيسلر

٢٧ ب كانونبيري سكوير/ ايزلينغتون
/لندن ن١/ ٢٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٧.

عزيزي آرثر

أنا أفكر بلاجئ أوكراني اسمه ايهور سيفشينكو ربما كتب لك-أخبرني أنه كتب ولم يحصل على ردّ بعد. هو يريد أن يعرف إن كان يستطيع أن يترجم بعضاً من كتاباتك إلى اللغة الأوكرانية من دون أن يدفع مالاً طبعاً، ويوزعها بين الأشخاص المهجرين الأوكرانيين المطرودين من بيوتهم، التي تبدو الآن أنها تمتلك تجهيزات طباعية خاصة بها داخلة في المنطقة الأمريكية في بلجيكيا. أخبرته أنك ستفرح أن تنتشر كتاباتك وسط المواطنين السوفييت، ولن تلح من أجل مكافأة مالية والتي لا يستطيع هؤلاء الناس دفعها. لقد أنجزوا ترجمة أوكرانية **لمزرعة الحيوان**، وظهرت مؤخراً، وكانت طباعة جيدة ومعقولة ومظهرها جيد، وبقدر ما يمكنني الحكم من مراسلاتي مع سيفيشنكو، فقد كانت الترجمة جيدة. لقد سمعت للتو منهم أن السلطات الأمريكية في ميونيخ استولت على ألف وخمسمائة نسخة وسلمتها إلى الناس الأسرى السوفييت العائدين إلى الوطن، لكن تبين أن حوالي ألفي نسخة وزعت بين الأشخاص المطرودين من بيوتهم أولاً. إن قررت أن تسمح له ببعض من كتاباتك، فأعتقد أنك يجب أن تتعامل مع الأمر كقضية ثقة وسر، وألا تخبر الكثير جداً من الناس عن هذا الهدف بما أن الأمر برمته محظور تقريباً.

سألني سيفيشنكو في الوقت نفسه إن كان لاسكي سيوافق أن يترجم (سيفيشنكو) بعضاً من أعماله (هارولد جيه لاسكي منظر سياسي ماركسي ومؤلف وصحفي، أستاذ العلوم السياسية في جامعة لندن، وعضو في المؤسسة الفابية، وعضو في اللجنة التنفيذية لحزب العمل، وله صلة بمدرسة لندن للعلوم الاقتصادية) (من الواضح أنهم يحاولون الحصول على نماذج تمثل الفكر الغربي). أخبرته أن يتجنب لاسكي، وألا يدع شخصاً من ذلك الأنموذج بأي شكل من الأشكال يعرف أن طباعة محظورة في اللغات السوفييتية تجري في مناطق الحلفاء.

لكنني أخبرته أنك شخص يمكن الثقة به. أنا واثق بأننا يجب أن نساعد هؤلاء الناس بكل ما نستطيع، وأنا قلت وأقول دائماً منذ عام ١٩٤٥ إن الأشخاص المطرودين من بيوتهم كانوا فرصة سعيدة غير منتظرة لإسقاط الجدار بين روسيا والغرب. إن كانت حكومتنا لا ترى هذا، فيجب على المرء أن يعمل ما يستطيع بشكل شخصي وسري. سوف أكون في لندن أثناء نوفمبر/ تشرين الثاني، ولكني سوف أقضي الشتاء هنا، لأنني أعتقد أنه سيكون أسهل علي أن أبقى دافئاً (فحم أكثر إلخ) ولأنني أريد أن أبدأ بروايتي التي أعمل عليها. أتمنى أن أنهيها في الربيع القادم تقريباً، وأنا لن أعمل الكثير غيرها في الوقت الحالي. لقد كنت في حالة صحية بائسة لمدة طويلة من السنة الماضية -صدري كالعادة- بدأ معي في الشتاء الماضي. لكننا نشعر براحة تامة هنا، والوضع من ناحية الطعام أفضل من الوضع في لندن. ريتشارد يكبر بشكل ضخم. تحياتي إلى ماميان.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى آرثر كيسلر

لندن ١٦ مارس/ آذار ١٩٤٦

عزيزي آرثر

كنت مريضاً خلال هذا الأسبوع (شيء غامض يدعى التهاب معدة، يعني أن هناك خللاً في بطني- أفترض لو كان الألم رأسك لسموه التهاب رأس هلم جرا) وقد برحت السرير للتو. بينما كنت في السرير مريضاً، زارني أمريكي يدعى هينسون، وأخبرني عن منظمة أمريكية مشابهة جزئياً لخطوطنا التي يجب أن ننضم إليها كما هو واضح. أرفقُ ورقة بمفكرتهم، ويمكنك أن ترى من يرعاها ونسخة أيضاً من المذكرة عن العلاقات الأنغلوأمريكية التي تركها معي. الغرض من اللجنة الدولية للإنقاذ والإغاثة كما فهمت، هو مساعدة ضحايا الأنظمة الشمولية وخصوصاً في قضايا مثل إعطاء الإغاثة للناس المعوزين ومساعدة اللاجئين للخروج من الأراضي التابعة للأنظمة الشمولية إلخ. أعتقد أنها منظمة غير ستالينية بالتأكيد، ويعرفون كل شيء عن الأساليب الستالينية إلى درجة أن الناس الذين يساعدون أغلبهم هم من التروتسكيين إلخ. ويبدو أن هناك موارد مالية ضخمة تحت تصرفهم، ولذلك هم قادرون على أن يساعدوا الناس بطريقة قوية.

إن فرانسيس هنسون أمريكي (مات ١٩٦٣) وأحد ممثلي لجنة الإنقاذ والغوث الدولية في أوروبا. في ١٩٤٩ كان مدير التعليم لعمال السيارات المتحدين. استنتجت نوعاً من ارتباط ضعيف مع أي آر آر سي، لكنه كان يقول إن الستالينيين أو رفاق السفر غير مستثنين تماماً من تلك، وسألني عن منظمتنا، وأخبرته بالمدى الذي وصلت إليه ومن كان متزاملاً معها. هو مهتم جداً للحصول على أي تفاصيل عن اجتماعنا في عيد الفصح. سيرى أناساً متنوعين من حزب العمال قبل ذهابه إلى باريس. استنتجت أنه سيكون في باريس لبعض الوقت، ويمكن الكتابة إليه على العناوين المرفقة. من الواضح أن هؤلاء هم الناس الذين يجب أن نبقى على تواصل وثيق معهم، لأننا في نفس الشارع تقريباً. أخبرته أنه حالما يكون لديّ أي شيء واضح، فسوف نخبر المثقفين الأمريكيين والمعلقين، وأعطاني عنوانين اثنين لم أعرفهما. أحدهما بيرترام

وولف (كاتب وباحث أمريكي من كتبه: دييغو ريفيرا، ثلاثة صنعوا ثورة، روزا لوكسمبورغ والثورة الروسية)، والثاني بيرت جوليس الذي ربما لا تعرفه، ولكنه يفكر مثلنا تقريباً. أضفت عنوان فيكتور سيرج (روسي الأصل فرنسي التبني، واحد من أكثر المثقفين الشيوعيين الأوائل، ومؤلف لما يزيد عن عشرين كتاباً. معارض يساري في روسيا ومراسل **للبيوم** في الحرب الإسبانية) كما سمعت منه مؤخراً. أفترض أنك أو أحداً ما بدأ بتضبير العناوين المناسبة. من الواضح أننا يجب أن تكون لدينا قوائم شاملة للمتعاطفين في كل البلدان. لن أكتب المزيد، لأنني مازلت أشعر بالمرض.

رسالة إلى آرثر كيسلر

٣١ مارس/ آذار ١٩٤٦

أرفق لك رسالة من أشخاص من الاي آر آرسي الذين كتبت لك عنهم من قبل ومعها نسخة من نشرتهم. القسم الذي عن جيني لي ومايكل فوت غامض نوعاً ما، ولم أتأكد ماذا يريدني أن أفعل، لكن أرجو أن أرى جيني لي غداً وأتكلم معها عن ذلك. مايكل في طهران. أعتقد أنني سأرى مالوري براون يوم الأربعاء، وسأخبره بإلغاء اجتماع عيد الفصح. هل أخبر أحد مايكل؟ أظن أن كوخي في جارا سيكون جاهزاً في مايو/ أيار، وأنا أرتب لإرسال أثاثي إليه في نهاية أبريل/ نيسان، ومن ثم إن كان كل شيء على ما يرام، فسأذهب إلى هناك في مايو/ أيار. إن فشل أي شيء، فسأذهب إلى مكان آخر. لكن في كل الأحوال سأغادر لندن، ولن أكتب أي شيء لشهرين. أنا متعب ومنهك تماماً. ريتشارد في أحسن حال ونشيط، لكنه مازال لا يتكلم. لقد حصلت للتو على كتاب للعالم الذي كلمتك عنه جون بيكر. هو واحد من الناس الذين يجب أن نراسلهم ونخبرهم حين تكون لدينا طلبات جاهزة. يمكنه أن يكون مفيداً أيضاً في إخبارنا عن علماء آخرين لا يميلون إلى الشمولية. وهذا مهم، لأنهم ككيان خاضعون للعادات الشمولية في التفكير أكثر من الكتاب، ولديهم هيبة شعبية أكبر. همفري (هوغ سليتر. رسام ومؤلف وشيوعي سابق) تغلب على وادينغتون (عالم أحياء ومهتم بالسياسة وتطبيق العلوم لغايات اجتماعية) الذي هو قضية مشوشة وصعب تصنيفه، وإن كتب مقالة للبوليمك فهي نقلة جيدة، لأنها ستظهر في نفس العدد الذي نفتح فيه وابل نارنا ضد المودرن كورترلي (تأسست عام ١٩٣٨ وهدفت إلى إعادة تقييم اجتماعية وواقعية للفنون والعلوم، وكرست اهتماماً خاصاً بالدراسات المؤسسة على التفسير المادي للكون) لكنها لسوء الحظ كانت مقالة سيئة.

الحب لماميان.

الطقس ربيعي جميل أخيراً والنرجس في كل مكان. في كل شتاء جديد أجد صعوبة أكبر في الاعتقاد بأن الربيع سيأتي فعلاً.

المخلص لكم جورج

رسالة إلى رئيس تحرير تايم أند تايد

٢٢ يوتيو/ حزيران ١٩٤٠.

سيدي

من شبه المؤكد أن إنكلترا ستتعرض إلى غزو في الأيام والأسابيع القليلة القادمة من قبل قوات محمولة بحراً على الأرجح. في وقت كهذا يجب أن يكون الشعار سلحوا الشعب. لست كفؤاً للتعامل مع أسئلة أكبر عن صد الغزو، لكن الحملة في فرنسا والحرب الأهلية الأخيرة في إسبانيا وضحتا حقيقتين اثنتين. الأولى حين يكون السكان المدنيون عزلاً، لا يستطيع المظليون والدراجون والدبابات الضالة القيام بدمار مخيف فحسب، بل يجبرون قطعات كبيرة من الجنود النظاميين الذين يفترض بهم صد العدو الأساسي على التراجع والانسحاب إلى الداخل. الحقيقة الثانية، اتضح من الحرب الإسبانية أن فوائد تسليح المدنيين تفوق خطر وضع السلاح في الأيدي الخطأ. أظهرت الانتخابات الفرعية منذ بدء الحرب، أ، أقلية قليلة جداً من الشعب الإنكليزي غير متعاطفة، وأغلب هؤلاء عرفوا وحددوا.

سلحوا الشعب: عبارة غامضة بحد ذاتها، وأنا لا أعرف طبعاً ما هي الأسلحة المتوفرة للتوزيع الفوري، لكن هناك أشياء كثيرة على أي حال يجب فعلها الآن خلال الأيام الثلاثة التالية:

١ - القنابل اليدوية: إنها السلاح الوحيد الذي يمكن تصنيعه بسرعة وسهولة وهو الأكثر نفعاً. مئات الآلاف من الرجال في إنكلترا اعتادوا على استعمال القنابل اليدوية، وهم مستعدون جيداً لتعليم الآخرين. لقد قيل إنها مفيدة ضد الدبابات وستكون ضرورية إن نجح مظليو العدو في تثبيت أنفسهم في بلدات كبيرة. لدي رؤية ممتازة في قتال الشوارع في برشلونه في مايو/ أيار ١٩٣٧ أقنعتني بأن الرشاشات تستطيع شل حياة مدينة كبيرة. ولأن الطلقة لا تخترق حجارة الجدران العادية فيمكن تفجيرها بالمدفعية. لكن ليس من الممكن دائماً أن تجلب مدفعاً وتحمله. من جهة أخرى تبين من قتال الشوارع السابق في إسبانيا أنه يمكن طرد الرجال المسلحين من الأبنية الحجرية بالقنابل اليدوية أو بأصابع الديناميت حتى، إن استخدمت بالشكل الصحيح.

٢- بنادق الرش: هناك حديث عن تسليح بعض جماعات الدفاع الوطني الطوعي بهذه البنادق. قد يكون هذا ضرورياً إن احتاج جنود الجيش النظامي إلى كل البنادق وبنادق برن. في تلك الحالة يجب أن يتم التوزيع الآن، ويجب أن تصادر كل الأسلحة فوراً من محلات صنع الأسلحة. راجت أحاديث عن تنفيذ ذلك، لكن في الواقع لا تزال واجهات محلات الأسلحة تعرض صفوفاً من البنادق وهي خطر حقيقي؛ إذ يمكن أن تتعرض هذه المحلات إلى غارات بسهولة. كما يجب أن تشرح قدرات ونقائص بندقية (مع الخردق الكبير المدى القاتل حتى ستين ياردة) للجمهور بواسطة الراديو.

٣- سد الحقول بوجه هبوط الطائرات: هناك حديث كثير لكن لم يتم فعل سوى القليل وبشكل عشوائي، لأن الأمر ترك للجهد التطوعي، أي للناس الذين ليس لديهم الوقت أو القدرة على مصادرة المواد اللازمة. في بلاد صغيرة مأهولة جداً بالسكان مثل إنكلترا نستطيع خلال بضعة أيام أن نجعل من المستحيل لأي طائرة أن تهبط في مكان عدا المطارات. العمل هو كل المطلوب. لذلك يجب أن يمتلك المسؤولون المحليون السلطات لتجنيد العمل ومصادرة المواد التي يحتاجونها.

٤- طلي أسماء الأماكن العامة بالدهان. لقد تم ذلك بإشارات الطرق، لكن لا تزال هناك واجهات المحلات وعربات الحرفيين التي تحمل أسماء مناطقهم. يجب أن تمتلك السلطات القوة لفرض طلائها على الفور، ويجب أن يشمل أسماء مخامر الجعة في المقاهي العامة. أغلب هذه الأماكن محصور في منطقة صغيرة، والألمان دقيقون تماماً في هذا.

٥- محطات اللاسلكي. يجب أن يكون لكل مركز قيادة من قوات الدفاع المحلي التطوعي محطة استقبال لاسلكية خاصة به، يمكنها تلقي الأوامر في حالات الضرورة. من الخطأ المميت الاتكال على الهاتف في الحالات الطارئة. بالنسبة إلى الأسلحة، يجب ألا تتردد الحكومة في مصادرة ما تحتاجه منها.

كل هذه الإجراءات يمكن تنفيذها في غضون أيام قليلة. وفي الوقت الراهن، نكرر القول سلّحوا الشعب، على أمل أن تزداد الأصوات التي تتبنى ذلك. للمرة الأولى منذ عقود لدينا حكومة ذات مخيلة (في ١٠ مايو/ أيار سقطت حكومة تشامبرلاين، وأصبح ونستون تشرشل رئيساً للوزراء على رأس حكومة ائتلافية) وهناك فرصة على الأقل أن تصغي.

رسالة إلى إف تينسون جيسي

لندن، ٤ مارس/ آذار ١٩٤٦.

عزيزتي الآنسة تينيسون جيسي، (روائية وصحفية بريطانية)

أنتِ تسألين عن معرفتي ببورما. إنها معرفة قديمة، لكنها من النوع الجيد. لقد كنت في الشرطة الإمبريالية في بورما من عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٢٧ لهذا أنا أعرف من الداخل القليل عن عمل حكم بلاد من ذلك النوع. أنا أيضاً أعرف كيف كان الأوروبيون يتصرفون. ومما استطعت تعلمه من البورميين ومن معارفي الإنكليز أنهم لم يتحسنوا كثيراً في السنوات الأخيرة. في كتابكِ لم تقولي شيئاً عن استغلالنا السياسي للبلاد وعن الطريقة التي نحصل فيها على النفط والمواد الخام، مقابل جزء بخس مما ستكلفه لو كانت بورما دولة مستقلة. كما أنك لطّفت سوء السلوك الاجتماعي السيئ والفظ للبريطانيين، والخلاف الذي سببه خلال فترة طويلة. بالنسبة إلى أعداد الطابور الخامس البورمي، فأنا لا أرى أن الرقم خمسة آلاف قريباً من الحقيقة بأي شكل، رغم أني أؤمن جيداً أن العدد أقل من العدد الذي نقل في الأخبار في ذلك الوقت. إن صفة الرسمية على الرقم خمسة آلاف لا تعطيه أي مصداقية إضافية، بل على العكس فالمسؤولون عن الإدارة يقللون أعداد المعارضة بشكل طبيعي. منذ ١٩٣١ كان قتال العصابات المتقطع يحدث في بورما، وشمل أعداداً من الناس أكبر من ذلك، وقد جرى الاعتراف خلال حملة عام ١٩٤٢ أن هناك عدداً كافياً من البورميين يعملون مع الجابيين ليؤثروا على القضية العسكرية بدرجة ما. لدي أقوال وروايات لشخصين كانا في بورما آنذاك. كل الإدارة في البلاد انهارت ببساطة في وجه تهديد جدي. وكان من المحتمل التكهن قبل سنين بأن هذا سيحدث. لقد عاملنا بورما أفضل مما عاملنا بعض البلدان الأخرى، لكن في المجمل إنها قصة قذرة، ويجب على كل من يريد أن يكتب كتاباً عن بورما، أن يبدأه بهذا القول. هل قرأت قط روايتي عن بورما (أيام بورمية)؟

أخمن أنها غير مستقيمة بطريقة ما، وغير دقيقة في بعض التفاصيل، لكن أكثرها تقرير ووصف لما رأيته.

المخلص لك جورج أورويل.

رسالة إلى إف تينسون جيبسي

١٤ مارس/ آذار ١٩٤٦.

عزيزتي الآنسة تينيسون جيسي.

أنا مريض وطريح الفراش، ولهذا لم أستطع أن أرد على رسالتك في وقت أسبق. وحتى الآن لا أستطيع أن أكتب رسالة مناسبة وصحيحة. أعتقد أنك لم تفهمي قصدي، فهو لم يكن الذي قلتيه عن البريطانيين في بورما، وإنما الذي لم تقوليه. لا يستطيع أحد أن يستنتج من كتابك أن البريطانيين فعلوا أي شيء أسوأ من كونهم كانوا أغبياء قليلاً، وأحيانا اتبعوا سياسات خاطئة. لم تذكري شيئاً عن النهب والاستغلال الاقتصادي للبلاد من خلال كونسيرنات مثل شركة بورما للنفط، ولا عن السلوك الاجتماعي البريطاني المقرف الذي لم ينته إلا مؤخراً. أنا أعرف شيئاً عن هذا. بمعزل عن الوقت الذي أمضيته هناك، لدي علاقات عائلية مع البلاد لأكثر من ثلاثة أجيال. جدتي عاشت أربعين سنة في بورما، وفي النهاية لم تستطع النطق بكلمة بورمية واحدة -وكانت مثالاً أنموذجياً لموقف المرأة الإنكليزية العادية.

المخلص لك جورج أورويل.

رسالة إلى رئيس تحرير النيوز كرونيكل

غرانهام/ غلوسسترشاير

أناشدكم للوقوف إلى جانب الجمهوري الإسباني إنريكي ماركو نادال المحكوم بالإعدام في إسبانيا. لقد أسره الإيطاليون حين انهارت الحكومة الإسبانية في عام ١٩٣٩ ثم أسره الألمان في ١٩٤٤-٥ بعد قتاله مع الفرنسيين.

دخل إسبانيا مرة أخرى بشكل سري بعد الحرب، وحكم عليه بالإعدام من دون محاكمة. ربما لم يفعل أي شيء يشكل جريمة قانونية في أي بلد ديمقراطي.

جورج أورويل

النيوزكرونيكل ٣ مارس/ آذار ١٩٤٩.

رسالتان إلى رئيس تحرير التريبيون

[عند قراءة "رسالة لندن" التي كتبها أورويل.. أنا زيلاياكوس أرد عليه بالرسالة التالية.] (سياسي وكاتب كراريس ومؤلف كتب ذات مواضيع سياسية، عضو برلمان عمالي، مؤيد ومتطرف للسوفييت).

أرسل إلي صديق في الولايات المتحدة نسخة من البارتيزان ريفيو (المجلد الثامن العدد الثالث صيف ١٩٤٦) يتضمن "رسالة لندن" بقلم السيد جورج أورويل، عبر فيها عن ذعره واستيائه من الأذى الذي ربما لحق بسياسية السيد بيفن الأجنبية المجيدة من قبل المعارضة، التي نعتها أعضاء برلمان شيوعيين سريين -أي أعضاء برلمان انتخبوا كرجال من حزب العمال، ولكنهم في السر عبارة عن شيوعيين "سريين" مثل زيلاياكوس في البرلمان، و"متعاطفين" مثل بريستلي في الصحافة.

شيء دنيء حتى بالنسبة إلى رجعي (توري) أن يشوه سمعة عضو برلماني عمالي في الصحافة الأمريكية، لأن ذلك يطعن في نزاهة البرلمان نفسه بشكل غير مباشر. يبدو لي شيئاً خسيساً من السيد أورويل أن يفعل ذلك، فمن المفترض أنه يؤيد حزب العمال.

بما أنه رأى من اللائق تشويه سمعة العمال المعادين لسياسة بيفن -تشرشل الخارجية الأجنبية علانية بشكل عام وأنا بشكل خاص، فأتمنى أن تسمحوا لي أن أفضحه بلفت الانتباه إلى مقالته، وأن أسأله بضع أسئلة.

هل السيد أورويل متأكد من أنني عضو سري في الحزب الشيوعي؟ أنا لست عضواً في الحزب الشيوعي، ولم أكن أبداً عضواً في الحزب الشيوعي، وسأعتبره شيئاً مخزياً أن تكون عضواً سرياً في أي حزب أو منظمة، وهي عضوية لا تنسجم مع عضوية حزب العمال. أنا فخور من حقيقة أنني انضممت إلى حزب العمال حين سرحت من الجيش بعد الحرب العالمية الأولى منذ ٢٨ سنة تقريباً، وبقيت فيه، وعملت من أجله دائماً بعد ذلك في الظروف الجيدة والرديئة على السواء.

بالنسبة إلى كوني "متعاطفاً موثوقاً" مع الحزب الشيوعي، فإن قراء التريبيون قد يتذكرون كيف شجبت بقسوة دخول الحزب الشيوعي في المعارضة التي وقفت ضد الحرب (وأيضاً نقدي اللاذع لمعاهدة الصداقة وعدم الاعتداء السوفييتية الألمانية حين كنت أفكر أنني يميني. وواصلت الاعتقاد بذلك، إلى أن رأيت دليلاً معاكساً لذلك أي أن آخرون مثله يسلكون سياسة لا تفرق إلا بصعوبة عن سياسة الحزب الشيوعي، أي أنهم في النتيجة عملاء دعاية للاتحاد السوفييتي في هذه البلاد، وأنهم حين تبدو المصالح السوفييتية والبريطانية تتصادم، فسوف يؤيدون المصلحة السوفييتية. أنا لا أستطيع أن أثبت هذا أمام محكمة قضائية أكثر مما استطعت أن أثبت قبل الحرب أن الكنيسة الكاثوليكية متعاطفة مع الفاشية. أنا أستنتج هذا فقط من الخطابات والكتابات وأفعال سياسية أخرى للسيد زيلياكوس وجماعته، وبشكل خاص جهودهم الحثيثة لإقناع الجمهور في هذه البلاد أن أنظمة الدمى الحاكمة في أوروبا الشرقية هي ديمقراطيات. إن لم يكن زيلياكوس "متعاطفاً موثوقاً" للحزب الشيوعي، فدعوه يظهر هذا في أفعاله. يجب أن أقول إن رسالته هذه تؤيد نظريتي نوعاً ما. وإذا كان ما قلته غير صحيح بشكل واضح، فلماذا انفعل وغضب كثيراً منه؟ مؤخراً وجدتُ نفسي أُوصفُ على صفحات مجلة أمريكية بأنني فاشي. أنا لم أكتب رسالة أشجب هذا كـ "تشويه سمعة" لأن رأيه السياسي لا يهم ولا يعار أي اهتمام. لماذا لا يشعر السيد زيلياكوس نفسه بأنه قادر بالتساوي أن يهمل الإيحاء بأنه هو نفسه "عضو سري"؟

إن السيد زيلياكوس شوّه ما قلته في البارتيزان ريفيو، وجعل الأمر يبدو وكأنني مؤيد ساذج لسياسة بيفن الخارجية، وأنني اعتبرها وربما وصفتها بـ "المجيدة" حتى. في الحقيقة أنا كتبت تنويهاً مختصراً فقط حول السياسة الخارجية في المقالة المشار إليها، والنقطة الرئيسية التي أشرت إليها أنه كانت إذا نجح "الأعضاء السريون" في شق حزب العمال، فسيكون المستفيدون هم الرجعيين (التوريين). يبدو أن السيد زيلياكوس يفكر في أنه من "الخسة" و"الحقارة" وهلم جرا، أن تكيل اتهامات ضد عضو برلماني بريطاني في صحافة دولة أجنبية. لماذا؟ عضو البرلمان شخصية عامة ولناخبيه كل الحق للتعليق، وأنا أكون وكأني أتهرب من واجبي في "رسائل لندن" إلى البارتيزان ريفيو، إن لم أقل بالضبط ماذا أفكر بالرجال القادة لهذه البلاد. في رسالته الحالية يدعي السيد زيلياكوس بوجود "تحالف بيفن تشرشل من تحت

الطاولة" هل سيتردد في تكرير هذا الاتهام في نيويورك أو من أجل تلك المسألة في موسكو؟ وإن كان الجواب لا، فلماذا يجب عليّ أن أمتنع من التعبير عما يدور في ذهني حول المجموعة المعروفة بـ "الأعضاء السريين"؟ عند النظر إلى "رسائل لندن" وتفحصها خلال أربع سنوات، أجد إشارات وصلات على الأقل مساوية للعدائية ضد اتلي وتشرشل وبيفربروك وهاليفاكس إلخ، لكنني لم أر السيد زيلاياكوس في تلك المناسبات يهبّ للإنقاذ على أساس أنني كنت "أشوه سمعة البرلمان". هل يتخيل أنه وأفراد جماعته الصغيرة يظنون أنه يجب أن يكون معفياً ومستثنى بشكل خاص من النقد؟ أم هل هو تحت تأثير الانطباع بأنه يستطيع إخافتي وإسكاتي؟ دعوه يتأكد أنني سوف أواصل جهودي في الرد على الدعاية الشمولية الاستبدادية في هذه البلاد.

من جانب آخر، لو بدل آراءه في أي وقت، وأصبح مرة ثانية مؤيداً للديمقراطية، فسأكون واحداً من أوائل الذين سيلاحظون هذا، وبالتأكيد سوف أكون مستعداً للاعتراف به وقبوله.

جورج أورويل. لندن ن١.

رسالة إلى ستافورد كوتمان

٢٧بي كنتونبيري سكوير/ ايزلينغتون
لندن ن١/ ٢٥ أبريل/ نيسان ١٩٤٦.

عزيزي ستاف (موظف في الحكومة المحلية، ثم انضم إلى حزب العمال المستقل. قابله أورويل في إسبانيا، وهو رقيب في سلاح الجو الملكي أيضاً).

شيء لطيف جداً أن أسمع منك. لم أعرف أنك مازلت في سلاح الجو الملكي. ثق وابحث عني في لندن حين أكون هنا (إن كنت تعرف رقم الهاتف ستجدني دائماً) لكني قريباً سأرحل لمدة ستة أشهر. لقد قمت بكتابة الكثير من المقالات الصحفية التجارية في السنين العديدة الماضية، وقررت أن أتوقف عن ذلك قليلاً -لمدة شهرين، أقصد ألا أفعل أي شيء، ثم بعدها ربما أبدأ بكتاب آخر. لكن على أي حال لن أكتب للصحافة حتى الخريف القادم.

لقد كنت أكتب ثلاث مقالات في الأسبوع لمدة سنتين، بالإضافة إلى كل الهراء الذي كتبته لمحطة البي بي سي لمدة سنتين قبل ذلك. تخليت عن البيت الريفي الصغير في هيرتفوردشاير، وأخذتُ بيتاً آخر في جزيرة جورا في الهيبريدز، وأتمنى أن أذهب إلى هناك في العاشر من مايو/ أيار تقريباً إذا وصل أثاثي في ذلك الوقت. إنه مكان يصعب الوصول إليه، لكنه بيت جميل. وأعتقد أنني أستطيع أن أجعله مريحاً جداً ببعض العناء. وبعدئذ سيكون لدي مكان ظريف أعتكف فيه بين الحين والآخر بلا إيجار تقريباً.

ابني الصغير الذي أعتقد أنك لم تره أبداً، أصبح عمره الآن سنتين وهو نشيط بشكل مفرط، وهذا أحد الأسباب التي تجعلني متشوقاً للخروج من لندن في فصل الصيف. كان في شهره العاشر حين ماتت إيلين. كان موتها عاراً بغيضاً -لقد أرهقت بعمل شاق لسنين كثيرة، وكانت في صحة بائسة، ثم بدت الأشياء تتحسن وحدث ذلك. إن الشيء الوحيد الذي لم تتوقعه في اعتقادي، أن يحدث أي خطأ في العملية الجراحية. ماتت نتيجة المخدر عندما أعطوه لها مباشرة تقريباً. كنت في فرنسا في ذلك الوقت، لأن لا أحد منا توقع أن تكون العملية

خطيرة جداً. أعتقد أن الطفل كان صغيراً جداً ليفقدها ويشتاق إليها، وقد ازدهر في صحته وكل شيء آخر. لدي ربة منزل جيدة تعتني به وبي.

في اليوم قبل الماضي، صادفتُ بادي دونوفان في طريق الجوير. يعمل في وظيفة تنظيف النوافذ، وقال إنه سيتلفن لي لكنه لم يفعل بعد. كان رائعاً في ألمانيا في وقت عبور الراين. لا تنسَ أن تتلفن لي إن كنت في البلدة في الخريف القادم.

المخلص لك/ إيريك بلير.

رسالة إلى السير ريتشارد ريز

كرانهام/ ٢٨ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

فكرت ملياً بما قلت، ويبدو لي إذا لم يُرِد بيل بشكل واضح، فسيكون من المؤسف جداً أن يقطع علاقته مع بارنهيل التي وضع كثيراً من العمل فيها. إن نقل المخزن سيكلف قدراً كبيراً من المال. ومن جانب آخر، فإن بيعه والبدء من جديد، سيشكل خسارة على الأرجح. كان يجب أن أفكر بأن آل فليتشرز (يملكون الطرف الشمالي من جزيرة جورا وأجّروا بارنهيل لأورويل) المهتمين في إبقاء نورث ايند تحت الحراثة، ربما يستطيعون تدبير شخص يدير أمور البيت لبيل أثناء الشتاء. اقترحت على أفريل إن كانت تريد ذلك فيمكنها أن تقيم هناك، وأنا سأقوم بترتيبات من أجل ريتشارد ومن أجلي أثناء أشهر الشتاء. بقدر ما يهمني، يجب أن أكون آسفاً جداً، لأنني لم أكن قادراً على أن امتلك بارنهيل كمكان لي خلال فصل الصيف. أغلب أثاثي وكتبي هناك الآن، والحديقة تقريباً تحت السيطرة، ويمكن أن يعاد تنظيمها كي لا تحتاج إلى الكثير من العمل. من جانب آخر ليس لدي شك بأنني يجب أن أعيش حياة بطالة في فصول الشتاء من الآن فصاعداً. في البداية طبعاً أخذنا المكان كمنزل صيفي، وكانت فكرتي أن نمضي فصول الشتاء في لندن. والشيء غير السار نهائياً هو أن العمل المستمر في المزرعة يعتمد تقريباً على حضورنا، علماً أننا لسنا مزارعين. وأشعر بالحزن لأن صحتي يجب أن تتعارض مع هذا. يجب أن أعتبرها ترتيباً ممكناً أن يعيش بيل مع روسغاس (حرثوا المزرعة الصغيرة التي تقع إلى الشمال من بارنهيل) إن اتفق هو وهم، وإذا أخذ أبقاره الحلوبة إلى هناك. خطر لي أن على روسغاس أن يدفع من أجل إقامته، وهذا ربما يهدئهم ويدفعهم إلى التفاهم إن حققا مكسباً قليلاً من الصفقة. وأنا لن أعترض على أن أساهم بشيء من أجل هذا كل أسبوع. أنا أؤيد الحفاظ على استمرار المؤسسة وعلى أن تبقى نورث ايند مأهولة. يمكنك أن تخبرني عن رأيك في كل هذا. لا تنسَ أنني أدين لك بمبالغ من المال. من أجل وديعة الشراب وسجادة ووسادتين ولا شك من أجل أشياء أخرى نسيتها. من الأفضل أن نستقر قبل أن تختلط الأمور كثيراً. كان علي أن أساهم بـ ٢٥ جنيهاً من أجل الشاحنة.

يبدو الناشر الأمريكي متشوقاً جداً حول كتابي، لهذا سوف يتابعون من دون أن ينتظروا البروفات الطباعية من وربيرغ. هذا سوف يعني مجموعتين من البروفة الطباعية يجب تصحيحهما. أنا لا أعتقد أنها سوف تظهر، لكن إن حدث هذا فأنا أشعر بتوعك كبير وغير كفء لتصحيح البروفات الطباعية. فهل تعتقد أنك تستطيع فعل ذلك من أجلي؟ بما أن هناك الكثير من الألفاظ الجديدة، فمن الضروري أن يكون هناك أخطاء مطبعية كثيرة من النوع الغبي، والمنضدون الأمريكيون يتضايقون جداً من التعامل معها لأنهم يظنون دائماً أنهم يعرفون أفضل من المؤلف. أنا لن أثق بالناشرين أو وكلائهم ليقوموا بهذه المهمة. ومن جانب آخر لا أتوقع أن يكون هناك أكثر من هفوات قليلة جداً. من الأهمية البالغة ألا يكون هناك أخطاء مطبعية في كتاب من هذا النوع. لكن كما قلت لا أتخيل أن هذا سوف يظهر. كنت أشعر بتحسن ولم أعانِ من ارتفاع في الحرارة الآن، لكنني لا أعرف كم هو مقدار التقدم الذي حققته بما أنني لم أزن نفسي بميزان أو أجري أي فحص شعاعي منذ المرة الأولى. هذه المادة تجعلني أشعر بالغثيان، لكنها من جانب آخر لا يبدو أن لها تأثيرات ثانوية، وهم هنا يعتنون بالمرء بشكل جيد جداً، لكن الأطباء لا يهتمون كثيراً. أنا لم أر الطبيب الرئيس الدكتور هوفمان قط، والطبيب الآخر امرأة تطل كل صباح ببساطة وتسأل كيف أشعر، ولم تستخدم سماعة الطبيب أبداً. على كل حال، أعتقد أنهم يعرفون أفضل منا. حين أكون قريباً مرة ثانية، أعتقد في هذا الصيف، فسوف أرى أخصائياً في لندن، وإن أمكن سيكون الرجل الذي رأيته قبل الحرب. هم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً لك، لكنني أريد رأي خبير لأعرف كم من الوقت يحتمل لي أن أعيش، لأنني يجب أن أرسم خططي بناءً على ذلك.

أرفق ملاحظات من المجلة الروسية ترجمها ستراوس. لا تضيعها. هل ستفعل. لأنني لا أملك نسخة. حتى مع السماح لجور ممكن في الترجمة، فيجب ألا يفاجئك أن هناك شيئاً غريباً حول لغة الأدب الشمولي الاستبدادي -نوع غريب متشدق بالمساواة كما لشخص يختنق من الهياج ولا يستطيع أبداً أن يجد الذي يريده؟ أتمنى أن تكون قادراً على قراءة هذا. الكتابة اليدوية السيئة تعود إلى يدي الباردتين. لقد ازداد البرد بعد أن كان الجو لطيفاً بشكل لا يصدق لبضعة أيام. أنا دافئ تماماً في السرير، لأنني أملك بطانية كهربائية حارة، وهي أفضل بكثير من قارورة المياه الحارة.

المخلص لك/ إيريك.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

مصحة كوتسولد/ كرانهام/ غلوس.
/ ٤ فبراير/ شباط ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

أرفق شيكاً بما أدين به لك. سوف تلاحظ أنني أضفت ثلاثة جنيهات. هل تتكرم أن تطلب من تاجر النبيذ خاصتك أن يرسل إلي قارورتين من شراب الروم اللتين أعتقد أن سعرهما سيكون حوالي ذلك. أفترض أنه سيصرهما ويغلفهما كي لا تنكسران.

سمعت من أفريل التي تقول إنها وبيل يعتقدان أن الأفضل الانتقال إلى مزرعة في البر الرئيسي. أعتقد أنهما محقان، لكن لا أستطيع تحاشي الشعور بالسوء حولها، بما أنني أشعر أن صحتي هي العامل العاجل والمندفع، ولكن حالة الطريق تساعد بشكل جيد. أعتقد أنك ستكون متهوراً إن تغرق نقوداً أكثر في أي تحسينات غير قابلة للنقل إلخ، لأن هكذا مكان قد يكون من طبيعته أن يصبح الدفاع عنه متعذراً في وقت ما. أنا واثق من أنه سيكون من الممكن أن ننتقل من دون أن نبيع المستودع ونخسر في الصفقة. أخشى أن تكون النقلة الفعلية عملية بغيضة. أنا سأتغيب عنها عندما تحدث. طلبت من أفريل أن تخبر روبين أنه إذا لم يعثر على مستأجر يحرث المكان، فإنني أحب أن أستمر في عقد إيجار البيت. أنا لا أرى لماذا لا يجعلها مكاناً للإجازات الصيفية. والمرء يستطيع أن يترك أسرّة وفرش التخييم هناك. طبعاً أنا لن أكون قوياً بما يكفي من أجل هذا النوع من الشيء ثانية أبداً حتى في فصل الصيف، لكن الآخرين ربما يكونون كذلك، والأجرة هي شيء لا يذكر تقريباً.

أنا أقرأ آخر كتاباً لبرتراند راسل الآن عن المعرفة الإنسانية. (المعرفة الإنسانية: مداها وحدودها)

هو اقتبس شكسبير"أشك أن تكون النجوم ناراً، وأشك أن تكون الأرض تتحرك" وتتابع كما أظن "أشك أن تكون الحقيقة أكذوبة، لكني لا أشك أبداً بأنني أحب" لكن هو يجعلها "أشك أن الشمس تتحرك" ويستخدم هذا كمثال عن جهل شكسبير. هل ذلك

صحيح؟ أنا لدي فكرة أنها كانت "الأرض"، لكني لا أملك كتب شكسبير هنا، ولا أستطيع أن أتذكر حتى أين وردت أبيات الشعر (يجب أن تكون في إحدى مسرحياته الكوميدية كما أعتقد). أتمنى أن تتأكد من صحة هذا من أجلي إن استطعت أن تتذكر أين وردت. بالمناسبة، أنا أرى أن المطبعة الروسية وصفت بي آر (برتراند راسل) بالذئب في سترة عشاء وبهيمة برية في ثياب فيلسوف.

أنا لا أعرف حقاً إن كنت سأهتم جداً بذلك الكتاب عن ورق اللعب إلخ. سمعت من ذلك الفتى من قبل، لكني لا أستطيع أن أكون مهتماً بالتخاطر، إلا إذا أمكن تطويره إلى طريقة موثوقة. كنت أقرأ أوروبا الأولى (تاريخ عصور الظلام) كتاب ممتع جداً، رغم أنه كتب بطريقة مضجرة نوعاً ما. لأنني لم أجلب مخزوني من الكتب في الأسبوع الأول أو الأسبوعين إلى هنا، فقد اضطررت إلى أن أعتمد على المكتبة -في الواقع ليست بالسوء الذي توقعته - تجد نوعاً من روائي طبيعي مثل ايه اس أم هتشينسون وأيضاً بيتر تشيني الذي من الواضح أنه انتعش من كتبه، كما اعتدت كثيراً أن أحصل على دعوات منه من أجل حفلات ممتازة في دورتيشستر. أرسلت بطلب بعض من روايات هاردي، وأنا أنظر إليها بلا تحمس نوعاً ما.

المخلص لك/ إيريك.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

كراتهام/ ٣ مارس/ آذار ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

شكراً جزيلاً لك على رسالتك مع القصاصات التي أظنها قد أعطت عرضاً جيداً لسياسة الحزب الشيوعي. أنا دائماً لا أوافق، لكن حين ينهي الناس بقول إنهم يستطيعون مقاتلة الشيوعية والفاشية أو مهما يكن، فقط إذا طورنا عصبية مماثلة ومعادلة. يبدو لي أن المرء يهزم المتعصب بالضبط بألا يكون متعصباً مثله، وذلك باستخدام المرء لذكائه بنفس الطريقة التي يستطيع الرجل فيها أن يقتل نمراً لأنه لا يحب النمر، ويستخدم دماغه لاختراع بندقية لا يستطيع أي نمر أن يخترعها. بحثت عن المقطع في كتاب راسل. إذاً إن نقض عبارة "بعض" هو دائماً عبارة "كل"، فإنه يبدو لي أن النقض لعبارة "بعض الرجال بلا ذيل" ليس "كل الرجال لهم ذيول" وإنما "كل الرجال بلا ذيول". يبدو أن راسل في تلك الفقرة يستشهد بأزواج من العبارات واحدة منها غير صحيحة، لكن من الواضح أن تكون هناك بالضرورة حالات كثيرة حين تكون كل من "بعض" و"كل" صحيحتين ماعدا أن "بعض" تقليل للقيمة وتبسيط لها. لهذا "بعض الرجال بلا ذيول" صحيحة إلا إذا ضمنتها أن بعض الرجال لهم ذيول. لكنني لا أستطيع أبداً أن أتبع ذلك النوع من الشيء. إنه نوع الشيء الذي يجعلني أشعر أن الفلسفة يجب أن يحرمها القانون.

لقد رتبت الأمور لأكتب مقالاً عن إيفلين واو. لقد قرأت كتابه المبكر عن روسيتي وأيضاً **سرقة تحت القانون** (عن المكسيك). أنا الآن أقرأ **حياة جديدة** لديكنز بقلم هيسكث بيرسون، ويجب عليّ أن أكتب له مراجعة نقدية. (**ديكنز: الشخصية والكوميديا والسيرة**). إنه ليس جيداً تماماً. لا يبدو أن هناك حياة مثالية لديكنز -رغم أنه منحرف وجائر. أنا أعتقد فعلاً أن كتاب كينغزميل هو الأفضل (**الرحلة الوجدانية: حياة تشارلز ديكنز**). أنت كنت محقاً حول كتب هكسلي (**قرد وجوهر**)- إنه رديء. وهل لاحظت أنه كلما ازداد قداسة كلما كانت كتبه تغرق في الجنس أكثر. هو لا يستطيع أن ينفك عن طرح

موضوع جلد النساء بالسياط. ربما لو كانت لديه الشجاعة لخرج وقال إن هذا هو الحل لمشكلة الحرب. إن أخذناها بقليل من السادية الخصوصية التي أخيراً لا تتسبب بالكثير من الألم، ربما نحن كنا لا نريد أن نسقط القنابل إلخ. قرأتُ أيضاً بعد سنوات كثيرة تيس أوربيرفيل وجود الغامض (لأول مرة) تيس هي الأفضل كما أتذكر وعرضياً مسلية تماماً في أماكن لا أظن أن هاردي كان قادراً عليها.

يقول الدكتور أنني سوف أبقى في السرير لمدة شهرين آخرين، أي حتى شهر مايو/ أيار.

لهذا أعتقد أنني لن أخرج إلى الخارج فعلياً حتى يوليو/ تموز. على أي حال، أنا أعرف أنني لن أرى الصغير ريتشارد. أنا خائف جداً من ابتعاده المتزايد عني، أو أن يكون رأيه بي أنني مجرد شخص مستلقٍ في السرير دائماً ولا يستطيع اللعب. طبعاً، الأطفال لا يستطيعون أن يفهموا المرض. اعتاد أن يأتي إلي ويقول "أين أذيت نفسك؟" - أظن أن هذا هو المبرر الوحيد الذي استطاع أن يفهمه لوجودي الدائم في السرير. لكن من جانب آخر فأنا لا أعترض على وجودي هنا، وأنا مرتاح ويُعتنى بي بشكل جيد. أشعر أنني أفضل بكثير صحياً وشهيتي أفضل أيضاً. (بالمناسبة أنا لم أشكرك لإرسال ذلك الروم. هل دفعت لك الثمن الكافي الذي يستحقه؟) أتمنى أن أبدأ بعمل جدي ما في أبريل/ نيسان. وأعتقد أنني أستطيع أن أعمل بشكل جيد هنا بما أن المكان هادئ ولا توجد معيقات كثيرة. أناس مختلفون أتوا لزيارتي، وأنا نجحت في البقاء متزوداً بالكتب بشكل جيد. على عكس ما قاله الناس إن الوقت يبدو سريعاً جداً حين تكون في السرير والأشهر تمر مسرعة من دون أن يظهر منها سوى الأزيز.

المخلص لك/ إيريك/ انكاونتر ١٩٦٢.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

كرانهام/ ١٦ مارس/ آذار ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

أتمنى أن يسير كل شيء بشكل جيد معك. سمعت مرة أو مرتين من بارنهيل وأشياء بدت لي أنها ازدهار ملائم. أفريل تقول إن بيل سوف يزرع حوالي أكر من اللفت. إيان مككيتشني هناك في الوقت الحاضر، يعمل على الطريق، وفرانسيس بويلي قام ببعض العمل في الحديقة. اقترح بيل أننا يجب أن نبيع الأبقار الحلوبة بما أن بعضاً من أبقاره سوف تلد، وسيكون هناك فائض من الحليب وطبعاً سوف توفر متسعاً أكبر في الزريبة. من جانب آخر، توجد مسألة التراكب، لهذا اقترحت الاحتفاظ بواحدة في ايارشاير. القارب في حال جيد كما يبدو، وقد ذهبوا به إلى كرينان. أفريل تقول إنها اكتشفت حول النقود، أي أنها فهمت أنك تستطيع أن تشتري حلويات بها، لهذا أتوقع أنه من الأفضل أن تبدأ بإعطائه مصروف جيب علماً أنه لا يملك الفرصة لإنفاقها في الوقت الحاضر. عرضياً، إن الحصول على مصروف جيب سيعلمه أيام الأسبوع ربما. لقد شعرت بتحسن في صحتي لكنهم طبعاً لن يتركوني ولو بالحلم. أغلب الوقت كان الطقس جميلاً كما لو كان ربيعاً. كنت أقرأ كتب إفلين واو المبكرة (عن روسيتي وواحداً أو اثنين آخرين) لأني تعهدت بكتابة مقال عنه للبارتيزان ريفيو. أيضاً فهناك كتاب حياة ليست جيدة جداً لديكنز بقلم هيسكث بيرسون الذي يجب أن أكتب له مراجعة نقدية. أيضاً قرأت من جديد إسرائيل زانغويل أطفال الغيتو الذي أعتقد أنه كان أفضل من الآخر. أنا لا أعرف ماذا كتب أيضاً، لكن أعتقد أنه كتب الكثير. أعتقد أنه روائي جيد جداً لم ينل حق قدره، لكن ألاحظ الآن أن لديه مسحة قوية جداً من الصحافة اليهودية من النوع الممل نوعاً ما. أرسلت بطلب مفكرة ماري باشكيرتسيف التي لم أقرأها أبداً، وهي الآن تحدق بوجهي كمجلد ضخم ومرعب قليلاً. أنا لم أر كتاب كيسلر الجديد الذي أعتقد أنه لم ينشر إلا في الولايات المتحدة. لكن أعتقد أنني سأرسل في طلبه. أعلن أن كتابي سيظهر في الخامس عشر من يونيو/ حزيران. سيكون كتاب الشهر للإيفنينغ ستاندارد الذي أعتقد أنه لا يعني شيئاً بشكل خاص.

هل نزعت سجل الثياب؟ (انتهى تخصيص الثياب لنظام الحصص في ١ فبراير/ شباط ١٩٤٩). رد فعل أي أحد هنا كان نفسه- "يجب أن تكون مصيدة". طبعاً الثياب الآن توزع بالسعر. أعتقد أنا سأطلب لنفسي سترة جديدة رغم كل شيء.

المخلص لك/ إيريك

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

كرانهام/ ١٨ مارس/ آذار ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

أنا آسف لأنني لم أرد مباشرة على رسالتك السابقة. إن تقرضني بعض المال فهذا لطف وكرم كبير منك، لكن حقيقة أنا لا أحتاجه. أنا مرتاح تماماً لبعض من الوقت القادم. الشيء الوحيد الذي يقلقني حول وضعي المالي، هو احتمال أن أصبح مثل بعض الناس هنا، أي أن أكون قادراً على أن أبقى حياً، لكنني غير قادر على العمل. على كل، هذا غير محتمل جداً. بخصوص سؤالك الآخر، فأنا لم أفكر كثيراً بكتاب سليتر (المتآمر). يبدو لي أنه روتيني وميكانيكي، وأظن كما فعلت أنت أن مادة الجنس كانت خارج مكانها وبذوق رديء. أنا حقيقة أظن أن هذه عادة حديثة لوصف الجماع بالتفصيل، شيء ستنظر إليه أجيال المستقبل كما نفعل نحن على أشياء مثل موت نيل الصغير.

ليس لدي أي مبرر للظن بأن هناك من يعبث برسائلي. في مناسبة واحدة منذ عشر سنوات، فُتحت رسالة لي فعلاً من قبل الشرطة، لكن كان ذلك لأنها معنونة إلى ناشر باريسي كانت كتبه ممنوعة بالجملة. أخبرني أناس آخرون أحياناً أنهم يظنون أن رسائلهم كانت تفتح. وفي إحدى المرات حاولت أن أخترع مغلفاً لا يمكن فتحه من دون أن يصبح ذلك ظاهراً. لكن أنا لا أظن بوجود أي مبرر للاعتقاد أن الحزب الشيوعي له أي يد في ذلك النوع من الشيء، أو أي سلطة للوصول إلى رسائل الناس.

شكراً لإرسالك الهاي ويه (هاي ويه مجلة تصدرها جمعية العمال التعليمية، فيها مراجعة نقدية بقلم ج م كاميرون لمقالة لفلاديمير ويدلي مأزق الفنون). أعتقد أن المقالة جيدة تماماً، لكنني لم أفكر كثيراً في كتاب ويدلي حين حاولت أن أقرأه في وقت ما سابق-في الحقيقة بدا لي أنه ورّط نفسه بفوضى.

أتى روبرت ويلر بزيارة قصيرة بعد ظهر هذا اليوم. (مزارع يعيش قرب كرانهام طلب منه السير ريتشارد ريس أن يزور أورويل). لقد كان في سويسرا.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

كرانهام/ ٣١ مارس/ آذار ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

شكراً جزيلاً لك من أجل رسالتك. أرسلت معها نسخة من البارتيزان ريفيو مع المقالة التي تكلمت لك عنها. اف دي أرسلها سابقاً. وأظنها ستثير اهتمامك. لكني كنت تحت تأثير الانطباع بأنك تفهم البارتيزان ريفيو. سيليا كيروان كانت هنا قبل أمس وسوف ترسل نسخة من ذلك العدد من البوليمك الذي فقدته والذي فيه المقال الذي كتبته عن تولستوي. إنه في الحقيقة يرتبط مع المقالة التي كتبتها عن غاندي. نعم يجب أن يدبر لي أحد هذه القضية بشكل مقبول. لقد كتبت وصيتي كما ينبغي بمساعدة محامٍ، ثم حينما أردت أن أقوم ببعض التعديلات، أعدت كتابتها بنفسي. وأظن أن المسودة الثانية غير قانونية رغم توقيع الشهود عليها. هل لديك محامٍ في أدنبره؟ أنا فقدت الاتصال مع المحامين الذين أعرفهم في لندن. من المهم أن تضبط الوصية بشكل لائق ودقيق، وأيضاً لأتأكد حول وضع ريتشارد لأن هناك اختلافاً قانونياً نسيت ما هو في حالة الطفل المتبنى. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن أحدث الملاحظات التي تركتها لك حول كتبي أي حول الطبعات اللاحقة.. إلخ. حين عادت أفريل من البلدة، جلبت صناديق ملفات مكتوب عليها "شخصي" التي أعتقد فيها كل المادة اللازمة. هل تعتقد أنك حين تكون في بارينهيل ستستطيع أن تراجع هذه الملفات وترسل إلي الأوراق اللازمة. أريد وصيتي، أي الوصية الثانية المؤرخة في بداية عام ١٩٤٧ كما أعتقد. إن الملاحظات التي تركتها لك والمذكرة المعلمة بـ "مقالات يعاد طبعها" بحاجة إلى تحديث. من المهم أن تكون سلطاتك واضحة، أي يجب أن يكون لك القول الأخير حين يتم توريط أي قضية أدبية محددة. مثال. جماعة كتاب الشهر الأمريكي على الرغم أنهم لم يتعهدوا في الحقيقة وإنما شبه تعهدوا أن يختاروا كتابي الحالي، إن استطعت أن أستأصل ربعه تقريباً. طبعاً أنا لن أفعل هذا، لكن لو أنني مت في الأسبوع الماضي، فسيقفز مور والناشرون الأمريكيون من الفرح بالعرض ويدمرون الكتاب، حتى أنهم لن

ينتفعوا من ملكيتي كثيراً، لأنه كلما كسبت مبلغاً كبيراً، فأنت في صنف الضريبة الإضافية، وستؤخذ كلها منك مرة ثانية.

لقد كنت في وضع صحي رديء جداً، وكنت أبصق كميات من الدم. هذا لن يسبب بالضرورة أي ضرر. وفي الحقيقة قال الدكتور مورلوك الاختصاصي الذي ذهبت إليه قبل الحرب، إن البصاق قد يقوم بعمل جيد حتى، لكنه دائماً يوهن عزيمتي ويثير اشمئزازي ويشعرني بالكآبة. لا يوجد شيء محدد جداً يستطيعون فعله من أجلي. هم يتحدثون عن إجراء عملية "صدر"، لكن الجرّاح لن يتولاها لأنه يجب أن تملك رئة واحدة سليمة، وهذا ما لا أملكه. من الواضح أن الشيء الوحيد الممكن فعله هو أن ألتزم الهدوء. إن قلقي هو أرى الصغير ريتشارد، لكن ربما أستطيع أن أرتب له أن يزورني لاحقاً بطريقة ما. إن نهضت من الفراش في هذه السنة، فأريد أن آخذه في رحلة إلى لندن.

المخلص لك/ إيريك

سامحني على هذه الكتابة. لقد منعوني من استخدام الآلة الكاتبة في الوقت الحالي لأنها متعبة.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

٨ أبريل/ نيسان ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

ظننت أنك تود أن تعرف أنني تلقيت برقية تقول إن نادي كتاب الشهر اختار روايتي أخيراً، بالرغم من رفضي إجراء التغييرات التي طلبوها. هذا يبين أن الفضيلة هي مكافأة نفسها، أو أن الصدق هو أفضل سياسة، لقد نسيت أيها. أنا لا أعرف إن كنت أخيراً سأنهي أموري بأرباحي الصافية، لكن بأي حال هذا يجب أن يسدد متأخرات ضريبة الدخل التي عليّ.

طلبت من مكتب البرقيات في المصحة أن يبلغ المجلات التي تعهدت لها بمقالات، وقلت إنني غير مؤهل للقيام بأي عمل، وهذه هي الحقيقة.

لا تنكد على الآخرين كثيراً جداً بهذا، لكن الواقع أنني في طريق سيء في الوقت الحاضر. سوف يجربون الستريبتومايسين مرة ثانية. وقد طالبتهم سابقاً أن يجربوه، واعتبره السيد ديك هذه الفكرة بأنها فكرة جيدة. كانوا يخشون منه بسبب آثاره الثانوية، لكنهم يقولون الآن إنهم يستطيعون إبعاد هذه الآثار إلى مدى ما مع النيكوتين أو شيء ما. وفي أي حال يستطيعون دائماً أن يوقفوه إن كانت النتائج سيئة جداً. إذا سارت الأمور بشكل سيء -طبعاً نحن نأمل أنها لن تكون كذلك لكن على المرء أن يستعد للأسوأ- سوف أسألك أن تجلب لي ريتشارد الصغير ليراني قبل أن يصبح مظهري مخيفاً جداً. أعتقد أنه سوف يزعجك أقل مما يزعج أفريل، وقد يكون هناك صفقات عمل نتحدث حولها أيضاً. إن اشتغلت المادة كما يبدو، كما في المرة السابقة، فسوف أهتم هذه المرة بأن أحافظ على التحسن بممارسة نمط حياة عاجزة في بقية السنة.

نسيت أن أقول إنني أتمنى أن تلقي نظرة على كتبي في وقت ما وترى أنها لم تتعفن جداً (طلبت من أفريل أن تشعل ناراً من وقت إلى آخر من أجل ذلك الغرض) وأن تكون المجلات

التي في الرف السفلي في حالة منظمة نوعاً ما. أريد أن أحتفظ بكل المجلات الموجودة هناك لأن في بعضهن مقالات لي ربما أريد أن أعيد طبعهن. الكتب تتكدس هناك، وأنا سوف أرسلها إلى البيت في وقت ما، لكنني لا أستطيع أن أقسمها في رزم في الوقت الحاضر.

حبي للجميع

إيريك.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

٢٥ أبريل/ نيسان ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

شكراً على رسالتك. كانت صحتي في نوع من الصعود والهبوط، لكن بالمجمل أنا في حال أفضل كما أعتقد. مازلت غير قادر على أن أضع أي خطط، لكني تحسنت. أما في فصل الشتاء تقريباً، فقد رأيت أنها لن تكون فكرة سيئة أن أسافر إلى مكان ما إلى الخارج. وقد اقترح علي الصحفي أرلاندو (لا أدري إن كنت تعرفه فهو يكتب للأوبزيرفر أحياناً) كابري كمكان جيد للإقامة. يبدو أن فيها طعاماً جيداً ونبيذاً. وصديقي سيلوني يعيش هناك أيضاً، وسيكون قادراً على أن يرتب لي مكاناً ما أقيم فيه. على أي حال، هذا شيء يستحق التفكير فيه جيداً. جاء آل تاوني قبل يوم أمس. أظن أنهم سيعودون إلى لندن فوراً تقريباً، لهذا أخشى أنني لن أراهم مرة ثانية. بالنسبة إلى عيد ميلاد ريتشارد الصغير، سوف تحاول إينز هولدن أن تجلب لي الآن واحدة من الآلات الكاتبة الخاصة بالأطفال التي تراها في الإعلانات، إن لم تكن غالية جداً جداً. أعتقد أنه إذا استطاع أن يمتنع عن تحطيمها، ستكون مفيدة له حين يبدأ بتعلم الأحرف بشكل جدي، وسوف تبعده أيضاً عن آلتي الكاتبة. أخذ آل تاوني كتابك وسوف يرسلونه إليك. حين تأتي بريندا، فسوف أجعلها ترتب بعض الرزم لي وأرسل بعض الكتب التي تتكدس بشكل مخيف إلى البيت. مازلت لا أستطيع القيام بأي عمل. يوماً ما سوف آخذ قلماً وورقة وأحاول أن أكتب بضعة أسطر، لكن هذا مستحيل. حين تكون في هذه الحالة، تكون تحت تأثير الانطباع أن دماغك يعمل بشكل عادي حتى تحاول أن تضع الكلمات معاً، ومن ثم تجد أنك اكتسبت نوعاً من الثقل البغيض والخرق، بالإضافة إلى العجز عن التركيز لأكثر من بضع ثوانٍ. أنا أقرأ **رحلة السيد سبونج الرياضية** التي لم أقرأها من قبل. أنا لا أعتقد أنها بجودة **هاندلي كروس**. كما قرأت مؤخراً **دوريت الصغيرة** مرة جديدة لأول مرة منذ سنين كثيرة. إنه كتاب ممل بطريقة ما، لكنه يحتوي على شخصية مصقولة، هي شخصية ويليام دوريت التي لا تشبه تماماً أغلب شخصيات ديكنز. أحد ما في الولايات المتحدة نجح في إرسال نسخة لي من كتاب غيسينغ **شارع غراب جديد** أخيراً. لا تضيّع **النساء الغريبات**، لن تفعل.

المخلص لك/ إيريك.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

كرانهام لودج/ كرانهام/ غلوسستر
/٢٨ يوليو/ تموز ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

شكراً جزيلاً لك على رسالتك والقصاصات. هل تعتقد أنك تستطيع أن تجعل السيد روبرتس يصنع لي خزانة كتب بنفس الأبعاد، ولكن أن يكون العرض خمسة أقدام إن كان يستطيع تدبر ذلك. إن حدث كما أفترض، فلتكن من الخشب الأبيض. وأفترض أنه يجب أن تبقع أو تطلى بأي لون فهذا لا يهمني، بيد أنها إن طليت باللون البيج فإنه سيكون اللون الأفضل. سأكون ملزماً كثيراً إن استطعت أنت أن تجعله يفعل هذا ويرسلها إلى بارنهيل.

أعتقد أنك سوف تجد في بارنهيل واحدة من روايات تشارلز ويليامز اسمها **مكان الأسد** أو شيء قريب من ذلك من منشورات غولانكس. هو غير مقروء تماماً، وواحد من هؤلاء الكتاب الذين يستمرون في الكتابة وليس لديهم فكرة عن الاختيار. أعتقد أن استحسان إليوت له يجب أن يكون طائفياً بكل معنى الكلمة (أنغلوكاثوليكي). لم يفاجئني أن أعلم أن إليوت استحسن سي إس لويس أيضاً. كلما رأيت أكثر، شككتُ أكثر إن كان الناس قد أطلقوا حقيقة أحكاماً جمالية قط. كل شيء يحكم عليه لأسباب سياسية، ثم يُعطى قناعاً جمالياً. فمثلاً حين لم يستطع إليوت أن يرى أي شيء جيد في شيلي أو أي شيء سيئ في كيبلينغ، كان السبب الخفي الحقيقي الذي يجب أن يكون هو أن الأول من النوع الراديكالي المتطرف، والآخر من النوع المحافظ التقليدي. لكن من الواضح أن لدى المرء ردود أفعال جمالية، وخصوصاً بما أن الكثير من الفن وحتى الأدب محايد سياسياً، وأيضاً لوجود معايير محددة واضحة، مثال: هومر أفضل من إدغار ولاس.

ربما الطريقة التي يجب أن نضعها فيها: كلما كان المرء واعياً ومدركاً لانحيازه السياسي، كلما استطاع أكثر أن يكون مستقلاً عنه. وكلما زعم المرء أكثر أنه سيكون حيادياً، كلما كان انحيازه أكثر.

حظيت ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون بمراجعة نقدية جيدة في الولايات المتحدة، لكن طبعاً مع بعض من الدعاية التي تجعلك تخجل. سوف يسعدك أن تسمع أن مزرعة الحيوان ترجمت إلى اللغة الروسية أخيراً في صحيفة في فرانكفورت. أنا أحاول أن أرتب لها أن تكون في شكل كتاب.

المخلص لك/ إيريك.

انكاونتر يناير/ كانون الثاني ١٩٦٢.

جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

العقول الحرة – كما يقول نيتشه – تحدث ضجيجاً عظيماً. وجورج أورويل صاحب عقل حر، ولكنه مضاد لنيتشه فيما يتعلق بالعرق والحريات والأخلاق. إنه النقيض الأخلاقي بمعنى ما.

لقد أحدث جورج أورويل، في حياته وبعد مماته، ضجيجاً كبيراً، لا يزال يسمع صوته إلى الآن. ورغم هدير قنابل الطائرات والقذائف الحارقة، زمن الحرب العالمية الثانية، إلا أن صوت أورويل كان قوياً كفاية، ليلفت الأنظار إليه؛ مع أن صوته كان مضاداً للهمجية الغربية برمتها، وقتلها للإنسان في الأرض الأوروبية أو في الأمكنة البعيدة.

هذا العقل الناضج والخطر، حمل الآخرين على نعته بمعاداة الوطن، أو بالجبان، لأنه ناهض احتلال الآخر والليبرالية والديمقراطية الزائفة، ودافع عن الإنسان في أي مكان.

يقرأ أورويل الأدب السابق والمعاصر له، بذهنية مفتوحة، ولا يتطرف أبداً في الحكم على الأعمال الأدبية، مع أنه ينظر إليها من زاوية خاصة، زاوية فنية إنسانية في الوقت نفسه. ولعل من الملفت أنه يضيء نقاطاً قلما ينتبه إليها القارئ، ومن خلالها يحرض على قراءة ثانية لهذا العمل أو ذاك.

هنا، في هذا الكتاب، يرتقي أورويل ككاتب مقال أدبي وسياسي رفيع، ولن أكون متطرفاً إذا قلت إن مقالاته أشد حيوية من رواياته. إنه هنا يتحالف مع الفن والعقل والفضيلة، بشجاعة فائقة.

عقبة زيدان

نينوى
للدراسات
والنشر
والتوزيع

GEORGE ORWELL



جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

ترجمة: أسعد الحسين

دراسات فكرية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

الجزء الثاني

جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

عنوان الكتـاب: جورج أورويل – الأعمال السياسية والأدبية - الجزء الثاني

اسـم المؤلـف: جورج أورويل

إعداد وترجمـة: أسعد الحسين

الموضـــوع: دراسات فكرية

عدد الصفحات: 800 ص

القيــــاس: 17 × 24 سم

الطبعـة الأولى: 1000 / 2019 م - 1440 هـ

ISBN: 978-9933-38-149-3

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963+

هاتـــف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org

ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

 دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

 Ayman ghazaly

---

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

الجزء الثاني

إعداد وترجمة:

أسعد الحسين

الفهرس

تشارلز ديكنز

القسم الأول:

ديكنز واحد من هؤلاء الكتاب الجديرين بأن يُسرقوا، حتى إن دفن جثته في ويستمنستر آبيه، كان ضرباً من السرقة، هذا إذا انتبهتم للأمر وفكرتم فيه.

حين كتب تشيسترتون مقدماته لأعمال ديكنز، التي نشرتها مطبعة إيفريمان، بدا له من الطبيعي تماماً أن يَسِمَ ديكنز صاحب الطابع الفردي الرفيع الخاص به، بمُثُل ومبادئ القرون الوسطى، كما بذل الكاتب الماركسي السيد تي إيه جاكسون جهوداً نشطة مؤخراً لتحويل ديكنز إلى ثوري متعطش للدماء؛ إذ يزعم الماركسيون أنه ماركسي "تقريباً"، ويزعم الكاثوليكيون أنه كاثوليكي "تقريباً"، ويزعم كلاهما أنه بطل البروليتاريا (أو "الفقراء" كما يضعها تشيسترتون). ومن جانب آخر، تروي ناديجدا كروبسكايا، في كتيبها عن لينين، أن لينين قبيل نهاية حياته ذهب ليرى نسخة ممثلة على المسرح من **الصرصار على الموقد**، ووجد أن تعاطف ديكنز مع "الطبقة الوسطى" كان مفرطاً، لذلك مشى وخرج في منتصف المشهد.

إذا اخذنا معنى "طبقة وسطى" بالمعنى الذي توقعته كروبسكايا، فربما كان حكماً أكثر صحة من حكمي تشيسترتون وجاكسون. لكن اللافت أن الكره الموجه إلى ديكنز، المفهوم ضمنياً في هذه الملاحظة، شيء غير عادي، فقد وجده الكثير من الناس لا يطاق، لكن الذين شعروا بعداوة تجاه الروح العامة لأعماله قليلون جداً كما يبدو. بعد بضع سنوات نشر السيد بيشهوفر روبيرتس هجوماً طويلاً على ديكنز في شكل رواية بعنوان (**هذه الوثنية المنحازة**)، لكنها كانت مجرد هجوم شخصي، اهتمت في قسمها الأكبر بمعاملة ديكنز لزوجته. عالجت الرواية أحداثاً لم يسمع بها واحد من ألف من قراء ديكنز، والتي لا توهن عمله بتاتاً. في الحقيقة كل ما بينه الكتاب، هو أن شخصية الكاتب الأدبية لا علاقة لها بشخصيته الذاتية. كان ديكنز من ذلك النوع الأناني المتبلد كما أظهره السيد بيشهوفر روبيرتس في كتابه، لكن في أعماله المنشورة، هناك شخصية ضمنية تختلف تماماً عن هذه، شخصية أكسبته أصدقاء أكثر بكثير من الأعداء. حتى لو كان ديكنز برجوازياً، فإنه كان

بالتأكيد كاتباً مخرباً وراديكالياً، ويمكن القول بصدق إنه كان متمرداً، وقد شعر بهذا كل من قرأ الكثير من أعماله. فمثلاً غيسينغ، وهو من أفضل الذين كتبوا عن ديكنز، قال إنه كان أي شيء باستثناء أنه راديكالي، واستهجن هذه النزعة في ديكنز، وتمنى لو لم تكن موجودة، لكن لم يخطر في باله أبداً أن يرفضها. في **أوليفر تويست وأزمنة صعبة وبيت كئيب والصغيرة دوريت**، هاجم ديكنز المؤسسات الإنكليزية بضراوة لم يدانيه فيها أحد أبداً، ونجح في فعل ذلك من دون أن يجعل من نفسه مكروهاً، بل أكثر من هذا، لقد قبله الناس الذين هاجمهم، لذلك أصبح بنفسه مؤسسة وطنية. بهذا الموقف من ديكنز، كان الجمهور الإنكليزي مثل الفيل الذي يشعر بأن ضربة العكاز دغدغة مبهجة. قبل أن أبلغ العاشرة من عمري، جرّعني مدراء المدارس بديكنز حتى حلقي، الذين حتى وأنا في ذلك العمر رأيت فيهم شبهاً قوياً مع السيد كريكل، والمرء يعرف من دون حاجة لإخباره بأن المحامين يبتهجون بالرقيب بوزفوز، وأن دوريت الصغيرة محبوبة في وزارة الداخلية. يبدو أن ديكنز نجح في مهاجمة كل واحد من دون أن يخاصم أي واحد. لهذا من الطبيعي أن يتساءل أخيراً إن كان هناك شيء غير حقيقي في هجومه على المجتمع.

في المقام الأول، هو لم يكن، كما أظهره السيدان تشيسترتون وجاكسون ضمناً، كاتباً "بروليتارياً". بداية هو لم يكتب عن البروليتاريا، وهو في هذا يشبه الأكثرية الساحقة من الروائيين في الماضي والحاضر. إن بحثت عن الطبقات العاملة في القصص وخصوصاً القصص الإنكليزي، فإن كل ما ستجده ثقباً. ربما يحتاج هذا البيان إلى تأهيل. لأسباب تسهل رؤيتها، نال العامل الزراعي (في إنكلترا بروليتاري) ظهوراً جيداً إلى حد ما في القصص، وكُتب مقدار كبير عن المجرمين والمهملين وعن مثقفي الطبقة العاملة حديثاً، لكن البروليتارية المدينية العادية. الناس الذين يجعلون العجلة تدور، جرى تجاهلهم دائماً من قبل الروائيين، وحين يجدون طريقهم بين أغلفة كتاب، يكونون دائماً موضوع شفقة أو كفترة راحة من الهزل. يحدث الفعل المركزي لقصص ديكنز في بيئات الطبقة الوسطى بشكل ثابت تقريباً. لو تفحص المرء رواياته بالتفصيل، لوجد أن موضوعه الرئيسي هو برجوازية لندن التجارية وطفيليوها- المحامون والكتبة وأصحاب المتاجر وأصحاب الخانات والحرفيون الصغار والخدم. ليس لديه صورة لأي عامل زراعي، بل صورة واحدة فقط (ستيفن بلاكبول في

أزمنة صعبة) لعامل صناعي. ربما يكون آل بلورنيش في الصغيرة دوريت أفضل صورة لعائلة من الطبقة العاملة- آل بيغوتي مثلاً الذين لا يتمون إلى الطبقة العاملة- لكن في المجمل لم يكن ديكنز ناجحاً في هذا النوع من الشخوص. إن سألت أي قارئ عادي عن أي شخصية بروليتارية يتذكرها لديكنز، فإن الشخوص الثلاث الذين سيذكرهم بالتأكيد هم: بيل سايكس وسام ويلر والسيدة غامب. قابلة ثملة ولص ومنظف ملابس- شخصيات ليست بالضبط عينة أنموذجية من الطبقة العاملة الإنكليزية.

ثانياً، في المعنى المقبول للكلمة عادة، ديكنز ليس كاتباً ثورياً. لكن موقعه هنا يحتاج إلى بعض التحديد.

أياً كان ديكنز، فهو لم يكن منقذ أرواح خفي ونوع الأبله حسن النية، الذي يعتقد بأن العالم يكون مثالياً لو أصلحت بضعة قوانين داخلية ومحوت بضع حالات شاذة. يجدر مقارنته بتشارلز ريد مثلاً. كان ريد رجلاً ذا اطلاع أفضل من ديكنز، وفي بعض النواحي إنسانياً أكثر منه. لقد كره أعمال التعسف والانتهاكات التي استطاع إدراكها، وأظهرها في سلسلة من الروايات التي قُرأت بإفراط رغم كل سخافتها، وربما ساعد في تغيير الرأي العام في نقاط ثانوية قليلة، لكنها هامة، ولكن إدراك ذلك يتجاوز قدراته، بسبب الشكل القائم للمجتمع والشرور المعينة المستعصية على العلاج. التمسك بهذا التعسف الثانوي أو ذاك وفضحه وكشفه للعلن وإحضاره أمام هيئة محلفين بريطانية وكل شيء، سيكون على ما يرام. هكذا رأى الأمور. لم يتخيل ديكنز في أي مقياس أنك تستطيع مداواة البثرة باستئصالها. يستطيع المرء أن يرى في كل صفحة من أعماله وعياً بأن المجتمع خطأ في مكان ما في أساساته. لن يبدأ في فهم موقفه، إلا حين يسأل المرء "أي أساس؟"

الحقيقة هي إن نقد ديكنز للمجتمع أخلاقي حصراً في غالبه. لهذا تفتقر كل أعماله تماماً إلى أي اقتراح بناء. هو يهاجم القانون والحكومات النيابية والنظام التربوي وهلم جرا، من دون أي اقتراح واضح لما سيضعه بدلاً منها. طبعاً ليس من عمل الروائي بالضرورة أو الهجّاء أن يقدم اقتراحات بنّاءة، لكن المهم أن موقف ديكنز في أساسه ليس هداماً. لا توجد أي علامة واضحة بأنه يريد الإطاحة بالنظام القائم، أو أنه يؤمن بأن الإطاحة به تشكل فرقاً كبيراً، لأن هدفه في الواقع لم يكن المجتمع وإنما "الطبيعة الإنسانية". من الصعب الإشارة إلى مقطع في

أي من أعماله يوحي بأن النظام الاقتصادي خاطئ كنظام، ولم يهاجم في أي مكان المشاريع الخاصة أو الملكية الخاصة. حتى في كتاب مثل صديقنا المشترك الذي يشغل طاقة الجثث لتتصادم مع الناس الأحياء بواسطة إرادات حمقاء، لم يخطر له أن يوحي بأن الأفراد يجب ألا يملكوا هذه القدرة غير المسؤولة. طبعاً يستطيع المرء التوصل إلى هذا الاستنتاج بنفسه، ويستطيع المرء التوصل إليه من الملاحظات حول إرادة باوندرباي في نهاية أزمنة صعبة. وفي الحقيقة من كل أعمال ديكنز، يستطيع المرء استنتاج شر الرأسمالية المنفلتة؛ لكن ديكنز نفسه لا يقوم بهذا الاستنتاج. قيل إن ماكاولي رفض أن يراجع رواية أزمنة صعبة، لأنه لم يستحسن "اشتراكيتها الفظة". من الواضح أن ماكاولي يستخدم كلمة "اشتراكية" هنا بالمعنى نفسه الذي كان يُشار فيه، قبل عشرين سنة، إلى وجبة طعام نباتية أو إلى صورة تكعيبية بأنها "بلشفية" لا يوجد سطر واحد في الكتاب يمكن وصفه بأنه اشتراكي كما ينبغي؛ وميله في الواقع إن وُجد مناصر للرأسمالية، لأن المغزى الكلي للكتاب يكمن في أن الرأسمالية يجب أن تكون لطيفة وكريمة، وليس أن يكون الشغيلة متمردين. كان باوندرباي متبجحاً متنمراً، وكان غراندغريند أعمى أخلاقياً، ولو كانا رجلين أفضل، لاشتغل النظام بشكل جيد. ذلك هو المضمون. وبقدر ما يذهب إليه النقد الاجتماعي، لا يمكن للمرء أن يستخلص من ديكنز أكثر من هذا، إلا إذا قرأ فيه مدلولات بشكل متعمد. إن "رسالته" الكلية واحدة، وتبدو للنظرة الأولى مثل تفاهة: لو تصرف الناس بشكل محترم، لأصبح العالم محترماً.

طبعاً (وهذه رسالته) هو ينادي بضعة أشخاص في موقع السلطة، يتصرفون بشكل محترم. هذا الشخص الذي يصوره ديكنز بشكل متكرر، هو الرجل الغني الطيب، وهذا الشخص ينتمي إلى فترة ديكنز المتفائلة المبكرة على وجه الخصوص، وهو عادة "تاجر" (ليس علينا أن نعرف بأي بضاعة يتاجر). وهو دائماً سيد كبير السن طيب القلب بشكل فوق بشري "يهرول ذهاباً وإياباً، يرفع أجور موظفيه، ويربت على رؤوس الأطفال، ويُخرج المدينين من السجن". وفي العموم يقوم بدور العرّابة الجنية. طبعاً هو شخصية خيالية صرفة، وأبعد كثيراً عن الحياة الحقيقية من سكويزر أو ميكاوبر مثلاً. حتى ديكنز، كما يفترض، فكر ملياً أحياناً بأن الشخص التوّاق إلى التخلي عن ماله، يفترض أنه لا يجعله أبداً في الدرجة الأولى. إن السيد بيكويك مثلاً "ذهب إلى المدينة"، لكن من الصعب تخيل أنه جمع ثروة هناك. رغم ذلك، فإن هذه

الشخصية تسري مثل خيط واصل عبر معظم كتبه الأولى. بيكويك وآل تشيريبيل والعجوز تشوزلويت وسكروج- إنها نفس الشخصية تكرر مراراً، شخصية الرجل الغني الطيب الذي يناول الجنيهات. لكن ديكنز يبدي علامات عن تطوره هنا. وفي كتبه في الفترة الوسطى، يخبو الرجل الغني الطيب إلى حد ما، فليس هناك أحد لعب هذا الدور في **قصة مدينتين** أو في **آمال عظيمة**- إن **آمال عظيمة** في الحقيقة هجوم على الرعاية والإحسان- وفي **أزمنة صعبة**، لعب غراندغريند الدور بعد إصلاحه بشكل ملتبس. كما تظهر هذه الشخصية مرة أخرى في شكل مختلف قليلاً باسم ميغلز في **دوريت الصغيرة** وجون جارندايس في **بيت كئيب**- ويمكن للمرء أن يضيف بيستي تروتود في **ديفيد كوبرفيلد**. لكن في هذه الكتب، تضاءل الرجل الغني الطيب من "تاجر" إلى صاحب دخل من أرض أو سندات. هذا مهم. صاحب الدخل جزء من الطبقة المتملكة، يستطيع ومن دون أن يعرف ذلك تقريباً، أن يجعل أناساً آخرين يعملون من أجله، إلا أن سلطته المباشرة قليلة جداً. وعلى العكس، فإن سكروج أو آل تشيريبيل، لا يستطيع تصحيح كل شيء برفع أجور الجميع. إن الاستنتاج الظاهري من الكتب الكئيبة نوعاً ما التي كتبها ديكنز في الخمسينيات، هو أنه فهم في ذلك الوقت عجز الأفراد ذوي النوايا الحسنة في مجتمع فاسد. ومع ذلك، ففي الرواية الأخيرة المكتملة **صديقنا المشترك** (نشرت ١٨٦٤-٥)، يعود الرجل الغني الطيب بكل أبهته في شخص بوفين. بوفين بروليتاري في الأصل والمنشأ وغني بالميراث، لكنه **الرب الآلي أو الأداة السحرية**، يحل مشاكل كل واحد بإمطار نقوده في كل الاتجاهات. حتى إنه "يهرول" مثل آل تشيريبيل. إن **صديقنا المشترك** بطرق كثيرة، هي عودة إلى الأسلوب السابق، ولكن هذه العودة غير ناجحة كذلك. يبدو أن أفكار ديكنز بلغت دورتها الكاملة وعادت إلى بداياتها. مرة أخرى، يكون العطف الفردي هو العلاج لكل شيء.

أحد الشرور الصارخة في زمنه، التي لم يقل عنها ديكنز سوى القليل، هو عمل الأطفال. هناك وفرة من الصور لأطفال يعانون في كتبه، لكنهم يعانون في المدارس عادة بدلاً من المصانع. إن السرد الوحيد المفصل عن عمل الأطفال، هو ذاك الذي قدمه في وصفه لديفيد الصغير في **ديفيد كوبرفيلد** وهو يغسل القناني في مخزن ميردستون وغرينبي. وهذه سيرة ذاتية طبعاً؛ فديكنز نفسه في عمر العاشرة عمل في معمل ورين للصباغ في الستراند الذي يشبه

كثيراً ما وصفه هنا. كانت ذكرى مريرة مرعبة له، جزئياً لأنه شعر أن الحدث برمته ضار بسمعة والديه، وأخفاه عن زوجته حتى وقت طويل بعد زواجهما. عند تذكر هذه الفترة، يقول في ديفيد كوبرفيلد:

"إنها مسألة تدهشني نوعاً ما حتى الآن، كان يمكن لي أن أصبح منبوذاً ومهملاً بسهولة في هذا العمر. طفل ذو قدرات ممتازة وقوة ملاحظة، سريع ومتشوق ومرهف، ثم يتعرض لأذى جسدي وعقلي عاجلاً. بدا لي من الرائع لو أن أحداً ما أدلى بأي إشارة لصالحي، لكن ذلك لم يحدث، وأصبحت عاملاً صغيراً عمره عشر سنوات في خدمة موردستون وغرينبي".

كما وصف كثيراً الأولاد القساة الذين عمل وسطهم:

"ليس هناك كلمات تستطيع التعبير عن عذاب روحي حين انحدرت إلى هذه الرفقة.... وشعرت أن آمالي بأن أكبر وأتعلم وأكون رجلاً مميزاً، تُسحق في صدري".

من الواضح أن المتكلم ليس ديفيد كوبرفيلد، وإنما ديكنز نفسه، وهو يستخدم تقريباً نفس الكلمات في السيرة الذاتية، التي بدأ بكتابتها، ثم تخلى عنها قبل بضعة أشهر. إن ديكنز محق طبعاً في قوله إن الطفل الموهوب يجب ألا يعمل عشر ساعات في اليوم في لصق الرقع على القناني، لكنه لم يقل إن هذا القدر يجب ألا يكون مصير أي طفل. وليس هناك سبب للاستنتاج بأنه فكر بذلك. يهرب ديفيد من المستودع، لكن ميك وكر وميلي بوتيتوز وآخرين ظلوا هناك. ولا توجد أي إشارة بأن هذا أقلق ديكنز على نحو خاص، فهو كالعادة لم يكشف عن أي وعي في إمكانية تغيير بنية المجتمع. كما أنه يزدري السياسة، ولا يؤمن بأي شيء جيد يأتي من البرلمان- لقد كان كاتب اختزال في البرلمان، وكانت تجربة مخيبة للآمال بلا شك- وهو عدائي قليلاً تجاه أهم حركة واعدة في عصره، الحركة النقابية العمالية. في أزمنة صعبة تُصور الحركة النقابية كشيء ليس أفضل من صخب وشيء يحدث، لأن أصحاب العمل ليسوا أبويين (لطفاء) بشكل كافٍ. إن رفض ستيفن بلاكبول الانضمام إلى النقابة، يُعدّ فضيلة في نظر ديكنز. أشار السيد جاكسون أيضاً إلى أن جمعية الحرفيين في بارنابي رودج التي ينتمي إليها سيم تابيرتيت، كانت على الأرجح ضربة للنقابات غير الشرعية أو الشرعية بالكاد في عصر ديكنز. من الواضح أنه يريد أن يُعامل الشغيلة باحترام، لكن ليست هناك إشارة تبين أنه يريدهم أن يتولوا مصيرهم بأيديهم ولو بالعنف المكشوف.

كما يحدث، يتعامل ديكنز مع الثورة بأضيق إدراك في روايتين له: **بارنابي رودج وقصة مدينتين**. في **بارنابي رودج** تكون الثورة هي حالة شغب أكثر منها ثورة. إن أعمال شغب غوردون في عام ١٧٨٠ رغم تذرعها بالتعصب الديني، إلا أنها لم تعدُ عن كونها انفجاراً عبثياً من النهب. موقف ديكنز من هذا النوع من الأشياء مشار إليه بفكرته الأولى في جعل زعماء الشغب ثلاثة مجانين فروا من مصحة عقلية. كذريعة بدت مجرد اندلاع لنهب غير هادف، وقد نُصح في الامتناع عن هذا، لكن الشخصية الرئيسية في الكتاب هي معتوه ريفي في الحقيقة. في الفصول التي تعالج الشغب، يبدي ديكنز رعباً عميقاً من عنف الغوغاء، ويبتهج في وصف مشاهد تتصرف فيها "حثالة" السكان بوحشية فظيعة. إن هذه الفصول من الكتاب لها أهمية نفسية عظيمة، لأنها تظهر العمق الذي فكر فيه بهذا الموضوع. إن الأشياء التي وصفها لا تخرج إلا من خياله، إذ لم يحدث أي شغب أو ما يشبهه بنفس الدرجة في حياته. هذا واحد من أوصافه كمثال:

لو أن بوابات بيدلام (مستشفى المجانين في لندن - المترجم) فتحت على مصراعيها، لما تدفق منها ممسوسون مثل السعار الذي خرج منها في تلك الليلة. كان هناك رجال يرقصون ويدوسون على مساكب الزهور، كما لو كانوا يدوسون على أعداء بشريين، يلوونها وينتزعونها من سوقها مثل متوحشين يلوون وينتزعون رقاباً بشرية. هناك رجال يقذفون مشاعلهم في الهواء ويتركونها تسقط على رؤوسهم ووجوههم، فتقرح الجلد بحروق عميقة عنيفة. هناك رجال اندفعوا إلى النار وجذفوها بأيديهم، كما لو كانوا في الماء، وآخرون منعوا بالقوة من الغطس فيها ليشبعوا رغبتهم المميتة. صبي ثمل لم يبلغ العشرين من عمره من خلال منظره، استلقى على الأرض مع قنينة في فمه، فانهمر الرصاص من السقف على جمجمته، وتدفق في وابل من النار السائلة الحارة البيضاء، وصهرت رأسه كالشمع.... لكن لم يعرف أحد من كل الحشد الكبير المولول الرحمة أو الاشمئزاز من هذه المناظر؛ ولم يشبع الغيظ الرهيب والمخبول والأحمق رجلاً واحداً.

ربما تظن أنك كنت تقرأ وصفاً لـ "الحمر" تقريباً كتبه أحد أنصار الجنرال فرانكو. ينبغي على المرء طبعاً أن يتذكر أن "غوغاء" لندن مازالت موجودة عندما كان ديكنز يكتب. (الآن ليس هناك غوغاء، بل مجرد قطيع فقط). لقد سببت الأجور المتدنية والنمو وانتقال السكان،

بوجود بروليتاريا الأحياء الفقيرة الهائلة، ولم تكن هناك قوة شرطة حتى أواسط القرن التاسع عشر. حين بدأت شظايا القرميد بالتطاير، لم يكن هناك شيء بين إغلاق مصاريع نوافذك وأمر الجنود في فتح النار. في **قصة مدينتين** يتعامل ديكنز مع ثورة كانت حول شيء ما في الحقيقة، وكان موقفه مختلفاً لكن ليس كلياً. من الحقيقي والمسلم به أن **قصة مدينتين** كتاب يميل إلى ترك انطباع زائف خلفه، خصوصاً بعد مرور فترة من الوقت.

الشيء الوحيد الذي يتذكره كل من قرأ **قصة مدينتين**، هو عهد حكم الإرهاب. الكتاب كله تهيمن عليه عربات المقصلة وهي ترعد ذهاباً وإياباً، وسكاكين تقطر دماً ورؤوس تتدحرج إلى داخل سلة، وعجائز فاسدات يحكن وهن يتفرجن. في الواقع هذه المشاهد لا تشغل سوى بضعة فصول، لكنها كُتبت بكثافة شديدة، وبقية الكتاب عبارة عن تقدم بطيء. لكن **قصة مدينتين** ليست مجلداً وصيفاً لـ **كزبرة الثعلب القرمزية**. لقد رأى ديكنز بوضوح أن الثورة الفرنسية كانت ستحدث بشكل مؤكد، وأن الكثير من الأشخاص الذين أعدموا يستحقون ما نالوه. وقال إن تصرفتم كما فعلت الأرستقراطية الفرنسية، ستواجهون الانتقام. كرر هذا مراراً، وذُكرنا بشكل دائم أنه طالما "سيدي" يتسكع في السرير مع أربعة خدم ببزاتهم الرسمية يعدون ويقدمون له شراب الشوكولا والفلاحون يموتون من الجوع، ستنمو في الخارج في مكان ما في الغابة شجرة وتقطع وتُنشر في الحال إلى ألواح من أجل منصة المقصلة إلخ، إلخ، إلخ. لقد أكد على حتمية الإرهاب المعروفة أسبابه بأوضح العبارات:

كان التحدث عن هذه الثورة الرهيبة، كما لو أنها كانت الحصاد الوحيد المعروف تحت السماوات الذي لم يُبذر-وكأن شيئاً لم يُفعل أي شيء أو يُهمل أدى إليها، وكأن مراقبو الملايين البائسة في فرنسا والموارد التي استخدمت بشكل سيء التي كان مناطاً بها أن تجعلهم مزدهرين، لم يروها قادمة حتماً قبل سنوات من حدوثها، ولم يدونوا ما رأوه في عبارات صريحة.

مرة أخرى:

كل الوحوش المفترسة والنهمة التي يمكن تخيلها منذ بدأ تدوين التخيل، اندمجت في تحقق واحد هو المقصلة. ومع ذلك لا يوجد في فرنسا بتنوعها الغني في التربة والمناخ، نصل نبتة وورقة وجذر ونبع وحبة فلفل تنمو لتنضج تحت ظروف مؤكدة، أكثر من تلك التي أنتجها

هذا الرعب. اسحقْ الإنسانية وشوّهها مرة أخرى تحت مطارق مماثلة، وستحيك ذاتها في الأشكال المعذبة نفسها.

بكلمات أخرى، لقد حفرت الأرستقراطية الفرنسية قبرها بيديها. لكن لا توجد هنا بصيرة لما يسمى الآن بالحتمية التاريخية. يرى ديكنز أن النتائج حتمية بفضل الأسباب، لكنه يعتقد بإمكانية تفادي الأسباب. الثورة شيء ما، حدث بسبب قرون من الاضطهاد، جعلت طبقة الفلاحين الفرنسيين دون مستوى البشر. لو استطاع النبيل الشرير قلب صفحة جديدة مثل سكروج، لما كانت هناك ثورة أو فلاحون ثوار (جاكريه) أو مقصلة، وهذا أفضل. هذا نقيض الموقف "الثوري". من وجهة النظر "الثورية" فإن الصراع الطبقي هو المصدر الأساسي للتقدم، وذلك النبيل الذي سرق الفلاح ودفعه ليثور، يلعب دوراً ضرورياً بقدر دور اليعقوبي الذي قصل النبيل. لم يكتب ديكنز سطراً واحداً في أي مكان يمكن تفسيره بهذا المعنى. والثورة كما يراها هي مجرد مسخ ينجبه الاستبداد، وتنتهي دائماً بالتهام أدواتها الخاصة بها. في رؤية سيدني كارتون في أسفل المقصلة، يتنبأ بفناء ديفارج وأرواح كل قادة الإرهاب الأخرى تحت السكين نفسها- وهو ما حدث تقريباً في الواقع.

إن ديكنز متأكد جداً بأن الثورة مسخ. لهذا السبب يتذكر كل واحد أن للمناظر الثورية في **قصة مدينتين** صفة الكابوس، وهو كابوس ديكنز الخاص به. يصرّ ديكنز المرة تلو الأخرى على رعب الثورة العبثي- المجازر الجماعية والظلم وإرهاب الجواسيس الحاضر دائماً ورغبة الغوغاء المخيفة المتعطشة للدماء. إن المقاطع التي وصف فيها غوغاء باريس- كوصف حشد القتلة وهم يتصارعون حول المجلخة لشحذ أسلحتهم قبل ذبح السجناء في مذابح سبتمبر- فاقت أي شيء في بارنابي رودج. لقد بدا له الثوار همجيين منحطين ومجانين في الحقيقة. تأمل سعارهم بكثافة خيالية لافتة، وهو يصفهم يرقصون "الكارمانيول" مثلاً:

لا يمكن أن يكونوا أقل من خمسمائة شخص، وكانوا يرقصون مثل خمسة آلاف عفريت..... رقصوا لأغنية الثورة الفرنسية المحبوبة، وحافظوا على تزامن شرير كان مثل صرير أسنان متناغم.... تقدموا، تراجعوا، ضربوا أيادي بعضهم البعض، تشبثوا برؤوس بعضهم، لفوا حول أنفسهم فرادى، أمسك بعضهم بالآخر، وألفوا أزواجاً، حتى سقط الكثير منهم.... فجأة توقفوا ثانية، تأنوا، بدؤوا الجولة من جديد، وشكلوا صفوفاً بعرض

الطريق العام وبرؤوسهم التي نكسوها نحو الأسفل وأيديهم المرفوعة إلى الأعلى انقضوا وهم يزعقون. ليس هناك قتال بنصف رعب وإرهاب هذه الرقصة. كانت تسلية هابطة بشكل لافت للنظر، وشيئاً كان بريئاً مرة، لكنه سُلم لسلطة شيطانية.

حتى إنه ينسب إلى بعض من هؤلاء الحقراء ميلاً لفصل الأطفال. إن الفصل الذي أوجزته آنفاً، يجب أن يُقرأ بأكمله، فهو كغيره من المقاطع المشابهة له، يبين كم كان رعب ديكنز عميقاً من الهستريا الثورية. لاحظ مثلاً ذلك الأثر "برؤوسهم التي نكسوها نحو الأسفل وأياديهم المرفوعة إلى الأعلى"، إلخ...، والصورة الشريرة التي تنقلها. إن السيدة ديفارج شخصية بغيضة جداً في الحقيقة، وهي بالتأكيد أنجح محاولات ديكنز في تصوير شخصية الخبيث. إن ديفارج وآخرين ليسوا سوى المضطهدين الجدد والظالمين الذين انبثقوا من دمار المضطهدين القدماء. "المحاكم الثورية يرأسها أحط وأقسى العوام" وهكذا، وهلم جرا. من البداية حتى النهاية، يصرّ ديكنز على عدم الأمان الكابوسي للفترة الثورية. وفي هذا يبدي مقداراً كبيراً من التبصر. "قانون المشتبه به الذي أزال كل ضمانة للحرية أو الحياة، وسلم أي شخص طيب وبريء إلى أي شخص سيئ ومذنب؛ غصت السجون بأشخاص لم يرتكبوا أي إثم من دون أن يتمكنوا من فرصة لسماع أقوالهم"- وهذا يطبق على نحو دقيق تماماً في كثير من البلدان اليوم.

يحاول المدافعون عن أي ثورة، التقليل من رعبها عادة. أما حافز ديكنز فكان أن يضخم رعبها- و بالغ في ذلك بالتأكيد من وجهة نظر تاريخية. حتى عهد حكم الإرهاب كان شيئاً أصغر بكثير مما أظهره ديكنز. رغم أنه لم يعط أرقاماً، إلا أنه أعطى انطباعاً لمذبحة مسعورة استمرت لسنين، بينما في الحقيقة كان الإرهاب برمته وبأقصى عدد للأموات، مجرد دعابة مقارنة بمعركة واحدة من المعارك التي خاضها نابليون. لكن السكاكين التي تقطر دماً وعربات الفلاحين التي تتدحرج ذهاباً وإياباً، خلقت في ذهنه رؤية شريرة خاصة، نجح في تمريرها إلى أجيال من القراء. بفضل ديكنز أصبح لكلمة "عربة" نفسها صوت قاتل؛ حتى إن المرء ينسى أن الكلمة تعني مجرد نوع من عربات المزارع. إلى هذا اليوم، لا تعني الثورة الفرنسية للشخص الإنكليزي العادي أكثر من هرم من الرؤوس المقطوعة. شيء غريب أن يلعب ديكنز، المتعاطف مع أفكار الثورة أكثر من أغلب الإنكليز في زمنه، دوراً في خلق هذا الانطباع.

إن كنت تكره العنف ولا تؤمن بالسياسية، فإن العلاج الوحيد المتبقي هو التعليم. ربما فات الأوان على التضرع والصلاة من أجل المجتمع، لكن يظل هناك دائماً أمل بالكائن الإنساني الفرد، إن لحقت به وهو صغير كفاية. هذه الاعتقاد يفسر جزئياً ويبرر انهماك ديكنز بالطفولة وانشغاله بها.

لا يوجد أحد، وفي كل الأحوال لا يوجد كاتب إنكليزي كتب عن الطفولة أفضل من ديكنز. رغم كل المعارف التي تراكمت منذ ذلك الحين، ورغم حقيقة أن الأطفال يعاملون الآن بطريقة سليمة وعقلانية نسبياً، فليس هناك روائي أظهر نفس المقدرة على الدخول إلى قلب وجهة نظر الطفل. يفترض أنني كنت في التاسعة من عمري تقريباً حين قرأت **ديفيد كوبرفيلد** لأول مرة. الجو الفكري للفصول الافتتاحية كان مفهوماً لي في الحال، لذلك تخيلتُ بصورة مبهمة أنها كُتبت بواسطة طفل، ولكن حين يعيد قراءة الكتاب رجل راشد ويرى آل ميردستون مثلاً، يتضاءلون من شخصيات عملاقة تتحكم بالأقدار إلى مسوخ شبه هزلية، هذه المقاطع لا تخسر شيئاً. كان ديكنز قادراً على أن يقف داخل وخارج عقل الطفل معاً، بطريقة يمكن لنفس المنظر أن يكون سخرية شديدة أو واقعية مشؤومة وفقاً للعمر الذي يقرؤه الشخص فيه. انظر مثلاً إلى المشهد الذي اتُّهم فيه ديفيد كوبرفيلد ظلماً بأكل قطع لحم الضأن، أو المشهد من **آمال كبيرة**، الذي فيه بيب العائد من الآنسة بيت هافيشام، ويجد نفسه عاجزاً تماماً عن وصف ما رآه، فيلجأ إلى سلسلة من الأكاذيب الفاضحة -التي تُصدق بتلهف طبعاً. تجد كل انعزال الطفولة هناك والدقة العالية التي سجل فيها آليات ذهن الطفل ونزعته للتخيل وحساسيته إلى أنواع محددة من الانطباع. يروي بيب كيف اشتق في طفولته أفكاره عن والديه الميتين من شاهدتي قبريهما:

أشكال الحروف على ضريح والدي أعطتني فكرة غريبة، بأنه كان رجلاً أسمر مربعاً وسميناً مع شعر أسود مجعد. من طبيعة ودوران النقش في عبارة "**أيضاً غريغوريا زوجة المذكور آنفاً**"، استنتجت استنتاجاً طفولياً بأن أمي كانت منمشة وسقيمة. خمسة أحجار مربعة صغيرة، طول الواحدة منها حوالي قدم ونصف، رتبت في صف أنيق بجانب قبريهما، كانت مخصصة لذكرى خمسة من أشقائي.... أنا مدان لاعتقاد استضفته بورع بأنهم ولدوا كلهم على ظهورهم، وأيديهم في جيوب سراويلهم، ولم يخرجوها أبداً في هذه الحالة من الوجود.

هناك مقطع مشابه في **ديفيد كوبرفيلد**. بعد عضّ يد السيد ميردستون، يُبعد ديفيد إلى مدرسة ويُجبر على وضع إعلان على ظهره يقول "احذروا منه. إنه يعضّ". ينظر إلى الباب في الملعب حيث نقش الأولاد أسماءهم، ومن مظهر كل اسم تراءى له أنه يعرف نغمة صوت الصبي الذي سيقرأ الإعلان:

كان هناك صبي – محدد جي ستيرفورث – حفر اسمه عميقاً جداً، وكثيراً ما تخيلتُ أنه سيقرأه بصوت قوي نوعاً ما، ثم يشد شعري، وهناك ولد آخر هو تومي ترادليز، خشيت أن يجعل منه لعبة، ويتظاهر بأنه خائف بشكل مفزع مني، وكان هناك ثالث جورج ديمبل تخيلت أنه سيغنيه.

حين قرأت هذا المقطع كطفل، بدا لي أن هؤلاء كانوا بالضبط الصور التي تستحضرها تلك الأسماء الخاصة. السبب طبعاً هو الترافق الصوتي لكلمات ("ديمبل" ومعبد و"ترادليز" وفرار). لكن كم شخصاً قبل ديكنز لاحظ مثل هذه الأشياء؟ الموقف المتعاطف تجاه الأطفال كان شيئاً أندر بكثير في عهد ديكنز مما هو الآن. لم يكن القرن التاسع عشر زمناً جيداً لتكون طفلاً فيه. في شباب ديكنز، كان الأولاد "يحاكمون بوقار في أقفاص المحاكم الجنائية حيث يحتجزون لكي يُشاهدوا"، وليس بعيداً الزمن الذي كان يُشنق الأطفال فيه وهم في الثالثة عشرة من العمر بسبب سرقات تافهة. عقيدة "كسر روح الطفل" كانت في أوجها وكان كتاب **عائلة فيرتشايلد**، هو الكتاب المعياري للأطفال حتى وقت متأخر في القرن. هذا الكتاب المشؤوم الذي تصدر منه الآن طبعات جميلة خاضعة للرقابة، يجدر أن يُقرأ بنسخته الأصلية. إنه يعطي فكرة ما عن الأبعاد التي وصل إليها انضباط الطفل أحياناً. السيد فيرتشايلد مثلاً حين يمسك أطفاله يتشاجرون، كان يضربهم أولاً، ويتلو عليهم كلام الدكتور واتس "دعوا الكلاب تبتهج لتنبح وتعضّ" بين ضربات العصا، ثم يأخذهم لقضاء فترة بعد الظهر تحت مشنقة؛ حيث تعلق جثة قاتل متعفنة. في القسم الأول من القرن كان عشرات آلاف الأطفال من أعمار صغيرة حتى السادسة أحياناً يُشغلون فعلياً حتى الموت في المناجم أو معامل القطن، وكان الأولاد يجلدون بالسياط حتى في المدارس الخاصة الحديثة، حتى يتدفق الدم منهم لخطأ في أبيات من الشعر اللاتيني. يبدو أن ديكنز قد اعترف بشيء واحد لم يعترف به أغلب معاصريه وهو العنصر الجنسي السادي في الجلد. أعتقد أنه يمكن

استنتاج هذا من ديفيد كوبرفيلد ونيكولاس نيكلباي. إن القسوة العقلية تجاه الأطفال أثارت حنقه بقدر القسوة الجسدية، ولكن هناك عدداً لا بأس به من الاستثناءات، فنظراء مدرسته أوغاد عموماً.

لقد تعرضت كل أنواع التعليم الموجود آنذاك، باستثناء الجامعات والمدارس الخاصة الكبيرة، لنقد شديد من ديكنز. هناك أكاديمية الدكتور بليمبر؛ حيث يقصف الأولاد باللغة الإغريقية حتى ينفجرون، ومدراس المؤسسات الخيرية المقززة في تلك الفترة التي أنتجت عينات مثل نوح كليبول ويورياه هيب وسالم هاوس ودوذابويز هول، ومدرسة السد الصغيرة الشائنة التي تديرها عمة السيد وبسل الكبيرة. إن بعض ما قاله ديكنز يظل صحيحاً حتى اليوم. سالم هاوس هي سلف "المدرسة الإعدادية الحديثة التي مازالت تحمل شبهاً كبيراً منها؛ وبالنسبة إلى عمة السيد وبلس الكبيرة، مازال بعض من الخداع القديم ذو الطابع نفسه مستمراً في هذه اللحظة في كل بلدة صغيرة في إنكلترا تقريباً. لكن كالعادة، لم يكن نقد ديكنز خلاقاً أو هداماً، إنه يري بلاهة النظام التعليمي المبني على المعجم الإغريقي والعصا التي عولجت أطرافها بالشمع؛ ومن جانب آخر لم يكن لديه أي نفع للنوع الجديد من المدارس التي ظهرت في الخمسينيات والستينيات، المدرسة "الحديثة" بإصرارها الشجاع والحازم على "الحقائق". إذاً ما الذي يريده؟ كما هو الحال دائماً، ما يريده على ما يبدو هو نسخة فاضلة من الشيء الموجود- الطراز القديم من المدارس، لكن من دون ضرب بالعصا ومن دون تنمر أو تغذية ناقصة ومن دون الكثير جداً من اللغة الإغريقية. إن مدرسة الدكتور سترونغ التي ذهب إليها ديفيد كوبرفيلد بعد فراره من مدرسة موردستون وغرينباي، هي ببساطة سالم هاوس بحذف العيوب منها وإضافة قدر جيد من جو مدرسة "أولد غري ستونز":

"كانت مدرسة الدكتور سترونغ ممتازة ومختلفة عن مدرسة السيد كريكل كما الخير عن الشر. كانت رزينة ومرتبة بشكل محترم، ومبنية على نظام سليم، ودعوة في كل شيء إلى احترام الصبيان وحسن نواياهم........... التي فعلت المعجزات. شعرنا كلنا أن لنا دوراً في إدارة المكان وفي دعم خصوصيته وكرامته، لهذا أصبحنا مرتبطين به فوراً- أنا متأكد أنني عملت من أجل واحد، ولم أعرف في حياتي كلها صبياً مختلفاً- وتعلمت بنية طيبة وهمة جيدة وتقت إلى جعلها مفخرة. كانت لدينا ألعاب نبيلة لساعات، ووفرة من الحرية، لكن حتى في ذلك الوقت

كما أتذكر، تحدثت عنا البلدة بكلام طيب، ولم نرتكب أي عمل مخزٍ بمظهرنا أو بسلوكنا يضر بسمعة الدكتور سترونغ وصبيانه"

في غموض هذا المقطع المشوش، يرى المرء افتقار ديكنز الكلي لأي نظرية تعليمية. يستطيع تخيل الجو الأخلاقي للمدرسة الجيدة، لكن لا شيء أكثر من ذلك. الصبيان "يتعلمون بمشيئة طيبة"، لكن ما الذي يتعلمونه؟ لا شك بأنه منهاج دكتور بليمبر بشكل مخفف قليلاً. بتأمل موقف ديكنز من المجتمع المتضمن في كل أعماله، يوشك المرء أن يصدم حين يعرف أنه أرسل ابنه الأكبر إلى إيتون، وأرسل أولاده كلهم إلى طاحونة التعليمي العادي. يعتقد غيسينغ أنه ربما فعل هذا، لأنه كان مدركاً بنحو موجع بتدني مستواه التعليمي. لم يتلقّ ديكنز تعليماً رسمياً أو القليل منه، لكنه لم يخسر شيئاً بتضييعه. وفي المجمل كان مدركاً لهذا. ولو أنه كان عاجزاً عن تخيل مدرسة أفضل من مدرسة دكتور سترونغ في الحياة الحقيقية، فذلك يعود إلى نقص فكري مختلف عما يوحي به غيسينغ.

يبدو أن كل هجوم يشنه ديكنز على المجتمع، كان يشير دائماً إلى تغيير في الروح بدلاً من تغيير في البنية. من العبث أن تحاول أن تنسبه إلى أي علاج محدد أو أي عقيدة سياسية. كانت مقاربته دائماً بموازاة المستوى الأخلاقي، ويلخص موقفه على نحو كاف في تلك الملاحظة حول مدرسة سترونغ، كونها مختلفة عن مدرسة كريكل "كاختلاف الخير عن الشر". شيئان يمكن أن يكونا متشابهين جداً، ومع ذلك يختلفان بشكل مطلق. إن الفردوس والجحيم في المكان نفسه. لا فائدة من تغيير المؤسسات بدون "تغيير في القلوب"؛ هذا جوهر ما يقوله دائماً.

إن كان ذلك كل شيء، فربما لا يكون أكثر من كاتب مبهج ودجال رجعي. إن "تغيير في القلوب" في الحقيقة، هو العذر الذي يقدمه الأشخاص الذين لا يرغبون في تعريض الوضع القائم للخطر. لكن ديكنز ليس دجالاً، باستثناء القضايا الثانوية، والانطباع الأقوى الوحيد الذي يحمله من كتبه هو كرهه للاستبداد. لقد قلت سابقاً إن ديكنز ليس كاتباً ثورياً بالمعنى المستحسن، لكن من غير المؤكد نهائياً أن النقد الأخلاقي للمجتمع ليس كالنقد "الثوري" تماماً - والثورة أخيراً تنعي قلب الأشياء رأساً على عقب-مثل النقد السياسي - الاقتصادي الرائج في هذه اللحظة. لم يكن بليك سياسياً، لكن فهمه لطبيعة المجتمع السياسي في قصيدة مثل "أنا أهيم في كل شارع مرسوم" أكثر من ثلاثة أرباع الأدب السياسي. إن التقدم ليس

وهماً. إنه يحدث، لكن ببطء ومخيباً للآمال بشكل متغير. دائماً هناك طاغية جديد يستولي على السلطة من طاغية قديم- ليس بنفس الدرجة من السوء عادة، لكنه يظل طاغية. وبناءً عليه، فكلا الرأيين مبرران دائماً. الرأي الأول، كيف تستطيع تحسين الطبيعة الإنسانية قبل أن تغير النظام؟ والرأي الآخر ما الفائدة من تغيير النظام قبل أن تحسن الطبيعة البشرية؟ إنهما يجذبان أفراداً مختلفين، ويظهران ميلاً إلى التبادل في نقطة من الزمن. الفاضل والثوري يقوضان بعضهما البعض باستمرار. فجر ماركس مئة طن من الديناميت تحت موقع الفاضل، ونحن لا نزال نعيش في صدى ذلك الارتطام الهائل. لكن مسبقاً، وفي مكان ما أو آخر، يعمل مهندسو الألغام وقد حشوا ديناميتاً جديداً معداً لنسف ماركس وإرساله إلى القمر. عندئذ سيرد ماركس أو أحد ما مثله بديناميت أكثر. وهكذا تستمر العملية إلى نهاية لا يمكننا التنبؤ بها، وتبقى المشكلة المركزية- كيف يمكن منع إساءة استعمال السلطة- دون حل. إن ديكنز الذي لم تكن له البصيرة ليرى أن الملكية الخاصة عائقاً مزعجاً، كانت لديه البصيرة ليرى أنه "لو تصرف البشر بطريقة محترمة فسيكون العالم محترماً" وهذه ليست ملاحظة تافهة كما تبدو.

القسم الثاني:

ربما يمكن تفسير ديكنز على ضوء أصله الاجتماعي أكثر من أي كاتب آخر، رغم أن تاريخ عائلته في الواقع ليس ما يستنتجه المرء تماماً من رواياته. كان والده كاتباً في الخدمة الحكومية، ولديه أقرباء من خلال عائلة والدته في الجيش والبحرية، لكنه من عمر التاسعة وبعد، تربى في لندن في بيئة تجارية وفي جو من فقر مجهد عموماً. عقلياً هو ينتمي إلى البرجوازية المدينية الصغيرة، وكان أنموذجاً رائعاً وفذاً لهذه الطبقة بكل "النقاط" المتطورة جداً. وهذا ما جعله مشوقاً وممتعاً جزئياً. وإن أراد المرء مكافئاً عصرياً له، فسيكون الأقرب اتش جي ويلز، الذي لديه تاريخ مماثل إلى حد ما، والذي يدين وبوضوح بشيء لديكنز كروائي. كما أن أرنولد بينيت جوهرياً من نفس النوع أيضاً، لكنه على خلاف الاثنين السابقين، كان من وسط البلاد ومن خلفية صناعية منشقة عن الكنيسة، ولم يكن من خلفية تجارية أنجليكانية.

إن مساوئ ومحاسن البورجوازية المدينية الصغيرة، هي وجهة نظره المحدودة. إنه يرى العالم عالم للطبقة الوسطى، وكل شيء خارج هذه الحدود القصوى، هو إما مثير للسخرية أو

شرير قليلاً. فهو من جهة، ليس له أي تماس مع الصناعة أو الأرض، ومن جهة أخرى ليس له تماس مع الطبقات الحاكمة. كل من يقرأ روايات ويلز بشكل مفصل، يلاحظ أنه رغم كرهه للأرستقراطي (النبيل) مثل السم، لم يكن لديه اعتراض خاص على البلوتوقراطي (الثري المتنفذ) ولا حماس للبروليتاري (العامل- الكادح). الأنموذج الذي يكنّ له أشد الكره هم الأشخاص الذي يعتقد أنهم المسؤولون عن كل الشرور البشرية، الملوك وأصحاب الأراضي والكهنة والقوميون والجنود والعلماء والفلاحون. إن القائمة التي تبدأ بملوك وتنتهي بفلاحين، تبدو في الوهلة الأولى خليطاً، لكن في الحقيقة فإن كل هؤلاء الناس لديهم عامل مشترك. كلهم نماذج عتيقة وأناس تحكمهم التقاليد وعيونهم استدارت باتجاه الماضي، لذلك فإن العكس منهم هو البورجوازي الصاعد الذي وضع نقوده على المستقبل، ويرى الماضي مجرد أثر غير مرغوب.

لقد عاش ديكنز في الحقيقة في فترة كانت البورجوازية فيها طبقة صاعدة فعلياً، ويبرز هذه الصفة بقوة أقل من ويلز، كما أنه لم يكن مدركاً وشاعراً بالمستقبل تقريباً، ولديه حب للتصويرية ("الكنيسة القديمة غريبة الطراز" الخ). وعلى الرغم من ذلك فإن قائمته لأشد النماذج المكروهة، تشبه قائمة ويلز، لأن التماثل بينهما لافت. هو يقف إلى جانب الطبقة العاملة على نحو مبهم- لديه تعاطف معهم لأنهم مضطهدون- لكنه في الحقيقة لا يعرف شيئاً عنهم؛ يأتون في كتبه كخدم بشكل رئيسي وخدم مضحكون. في الطرف الآخر من كفة القياس، هو يشمئز من النبيل و- يتفوق على ويلز في هذا الاشمئزاز الذي يطال البورجوازي الكبير أيضاً. إن تعاطفه الحقيقي يقتصر على السيد بيكويك في حده الأعلى، وعلى السيد باركيس في حده الأدنى، لكن مصطلح "أرستقراطي" بالنسبة إلى الأنموذج الذي يكرهه ديكنز، غامض ويحتاج إلى تعريف وتحديد.

في الواقع لم يكن هدف ديكنز الأرستقراطية الكبيرة جداً، التي نادراً ما دخلت في كتبه بقدر فروعها الصغيرة، كأرامل النبلاء العجائز المتسولات اللواتي يعشن في بيوت صغيرة كالإسطبلات في مايفير، والبيروقراطيين والجنود المحترفين. في أعماله كلها هناك صور عدائية لا تحصى لهؤلاء الناس، ونادراً ما كانت ودية. لا توجد عملياً صور ودية لطبقة ملاكي الأراضي مثلاً. ربما يشكك المرء بالسير ليزيستر ديدلوك كاستثناء؛ لهذا ليس هناك سوى السيد

وادل (وهو شخصية مخزنة لـ"تابع الفارس القديم الطيب" وهاريديل في بارنابي رودج الذي نال تعاطف ديكنز لأنه كاثوليكي مضطهد. ليس هناك صور ودية للجنود (الضباط) أو رجال البحرية. بالنسبة إلى بيروقراطييه وحكامه وقضاته، فكلهم يشعرون بالارتياح في مكتب الإسهاب. الموظفون الوحيدون الذين يتعامل معهم ديكنز بدون أي نوع من الود وبشكل واضح، هم رجال الشرطة.

إن موقف ديكنز مفهوم بسهولة للشخص الإنكليزي، لأنه جزء من التقليد الإنكليزي المتزمت الذي يمت إلى هذا اليوم. إن الطبقة التي ينتمي إليها ديكنز بالتبني على الأقل، كانت تزداد ثراء على حين غرة بعد قرنين من الخمول. لقد نمت، بشكل رئيس، في البلدات الكبيرة التي ليس لها أي اتصال بالزراعة، وكانت الحكومة، العاجزة سياسياً في أن تجرب شيئاً، إما متدخلة بشؤونها أو قمعية. وبناءً عليه كانت طبقة ليس لها تقاليد في الخدمة العامة، وليس لها الكثير من تقاليد المنفعة. إن الذي يلفت نظرنا كشيء رائع الآن حول الطبقة الجديدة الغنية في القرن التاسع عشر، هو عدم مسؤوليتها التامة؛ فأفرادها يرون كل شيء من خلال النجاح الفردي من دون أي شعور بوجود المجتمع. من جانب آخر كانت لدى تايت بارناكل، حتى حين كان يهمل واجباته، فكرة غامضة للواجبات التي كان يهملها. إن موقف ديكنز لم يكن غير مسؤول أبداً، فقد ظل يأخذ خط سمايلز المنقب عن المال؛ لكن في خلفية ذهنه كان هناك دائماً شبه اعتقاد بأن الجهاز الحكومي برمته غير ضروري، فالبرلمان ليس أكثر من لورد كودل والسير توماس دودل، والإمبراطورية الميجور باغستوك وخادمه الهندي، والجيش الكولونيل تشاوزر والدكتور سلامر، والخدمات العامة مكتب الإسهاب، وهلم جر. الذي لم يره أو رآه بشكل متقطع أن كودل ودودل وكل الجيف الأخرى المتبقية من القرن الثامن عشر، كانت تنجز وظيفة، ولم تكن تقلق وتزعج بيكويك ولا بوفين أبداً.

إن هذا الضيق في الرؤيا، واحد من الفوائد العظيمة له طبعاً، لأن رؤية الكثير جداً قاتلة بالنسبة إلى رسام الكاريكاتير. من وجهة نظر ديكنز "الطيب" هم مجرد مجموعة من البلهاء القرويين. يا لها من عصبة، ليدي تيبينز! السيدة غوان! لورد فيرسوفت! الموقر بوب ستيلز! السيدة سبارسيت (زوجها أسير حرب)! ذا تايت بارناكلز! نوبكينز! إنه سجل حالات الجنون. لكن في الوقت نفسه، فإن بعده عن طبقة ملاكي الأراضي والعسكر والبيروقراطيين

أوهنه من الهجاء الكامل. لم يكن ينجح مع هذه الطبقة إلا حين يصور أفرادها كعاهات عقلية. الاتهام الذي وجه ضد ديكنز في حياته بأنه "لم يستطع أن يصور الجنتلمان" كان سخافة، لكنه صحيح بهذا المعنى. لذلك ما يقوله ضد طبقة "الجنتلمان" نادراً ما كان مؤذياً جداً، فالسير مولبيري هوك مثلاً محاولة بائسة لأنموذج البارون الشرير، أما هارتهاوس في أزمنة صعبة، فإنه أفضل، لكنه مجرد مأثرة عادية بالنسبة إلى ترولوب أو ثاكري. إن أفكار ترولوب قلما انتقلت إلى خارج طبقة "الجنتلمان"، لكن لثاكري أفضلية كبرى، فقد كان له موطئ قدم في معسكرين أخلاقيين، وكانت وجهة نظره مشابهة جداً لوجهة نظر ديكنز في بعض النواحي، فقد تعاطف مثل ديكنز مع الطبقة الغنية المتزمتة ضد الأرستقراطية التي تلعب القمار وتتهرب من سداد الديون. والقرن الثامن عشر، كما يراه، يخترق القرن التاسع عشر، ويظهر فيه بشكل بارز في شخص اللورد ستاين الشرير. إن دار الغرور عبارة نسخة طويلة لما فعله ديكنز في بضعة فصول في دوريت الصغيرة، لكن بالأصول والتربية كان ثاكري أقرب نوعاً ما إلى الطبقة التي هجاها. وبناءً على ذلك استطاع أن ينتج نماذج مصقولة نسبياً كالميجور بينديس وردون كروالي مثلاً، فالميجور بينديس نفاج ضحل عتيق وردون كراولي شرير غبي لا يرى خطأ في العيش لسنين في الاحتيال على أصحاب المتاجر؛ لكن ثاكري يدرك أنهما ليسا رجلين سيئين بناءً على نظامهما الأخلاقي المعوج. إن الميجور بينديس لا يوقع شيكاً باطلاً مثلاً، أما رودون فيفعل ذلك بالتأكيد، لكنه من جانب آخر لا يتخلى عن صديق يكون في وضع حرج. وكلاهما تصرفا بصورة جيدة في ساحة المعركة- شيء لم يكن جذاباً لديكنز. النتيجة أنه في النهاية يُترك المرء مع نوع من التسامح نحو الميجور بينديس ومع شيء يقارب الاحترام لرودون؛ لكن المرء يرى بشكل أفضل مما يفعله أي نقد لاذع، الفساد المطلق والفاضح لذلك النوع من حياة التسول والتزلف على هوامش مجتمع نشيط وذكي ومنظم. إن ديكنز سيكون عاجزاً عن هذا، وبيديه سينحط كل من رودون والميجور إلى رسمين كاريكاتوريين. وبالمجل، إن هجماته على المجتمع "الجيد" ميكانيكية وفاترة نوعاً ما. إن الأرستقراطية والبورجوازية الكبيرة توجدان في كتابه بشكل رئيس كنوع من "ضجيج بعيد" وكورال متلعثم في مكان ما في الأجنحة مثل ولائم بودسناب المسائية. حين ينتج صورة مؤذية مصقولة بشكل حقيقي مثل جون دوريت أو هارولد سكيمبول، تكون عادة لشخص عادي غير مهم.

إن الشيء اللافت جداً حول ديكنز، خصوصاً إذا أخذنا الزمن الذي عاش فيه في الاعتبار، هو افتقاره إلى النزعة القومية السوقية. كل الشعوب التي وصلت إلى النقطة التي أصبحت فيه أمماً تميل إلى احتقار الأجانب، وليس هناك شك كبير بأن السلالات الناطقة بالإنكليزية هي أسوأ المذنبين. يستطع المرء أن يرى هذا من حقيقة أنهم حالما يصبحون مدركين لأي سلالة أجنبية، يخترعون لقباً مهيناً لها. إن ووب وداغو وفروغي وسكوير هيد وكايك وشيني ونيغار وتشينك، ليست سوى باقة مختارة. (ووب للإيطالي، وداغو للإسباني والبرتغالي، وفروغي للفرنسي، وسكويرهيد للألماني أو الاسكندنافي، وكايك لليهودي واللماع، ونيغر للزنجي، وتشينك للصيني، ووغ للشخص صاحب البشرة غير البيضاء، غريسر للأمريكي اللاتيني، ويلوييلي للجبان-المترجم). لو كنا في أي زمن قبل عام ١٨٧٠ لكانت القائمة أقصر، لأن خريطة العالم كانت مختلفة عما هي الآن، فقد كانت هناك ثلاث سلالات أو أربع فقط دخلت إلى داخل الوعي الإنكليزي، وكان الموقف الإنكليزي المحابي نحو تلك السلالات وخصوصاً نحو الفرنسيين الأمة الأقرب، لا يحتمل أبداً، لهذا مازالت "الغطرسة" و"الرهاب من الأجانب" أسطورتين، وهما ليستا أسطورتين غير صحيحتين تماماً حتى الآن طبعاً، فحتى وقت متأخر جداً كل الأطفال الإنكليز تقريباً تربوا على ازدراء الأعراق الأوروبية الجنوبية. والتاريخ كما يُعلّم في المدارس كان أساساً عبارة عن قائمة بالمعارك التي انتصرت فيها إنكلترا. وينبغي على المرء أن يقرأ كورترلي ريفيو من الثلاثينيات ليعرف ما هو التبجح فعلاً. ففي تلك الأيام شيد الإنكليز أسطورتهم عن أنفسهم كـ"سكان جزر لا يقهرون" و"قلوب صلبة من السنديان"، زمن سلّم فيه الإنكليز كحقيقة علمية، وأن الرجل الإنكليزي الواحد يعادل ثلاثة أجانب. في كل روايات القرن التاسع عشر وصحفه الهزلية المصورة، تسري الشخصية التقليدية لـ"فروغ"- رجل مضحك ضئيل الجسم بلحية صغيرة جداً وقبعة عالية مدلاة، يثرثر ويومىء دائماً، تافه، طائش وملمع بالتفاخر بمآثره الحربية، لكنه تعود على الفرار عادة حين يظهر خطر حقيقي، وبمواجهته جون بول "ضابط البحرية الإنكليزي الصغير الذي لا يستسلم" أو (نسخة مدرسية أكثر شعبية) الرجل الإنكليزي القوي والصامت في أعمال تشارلز كينغزلي وتوم هيوز وآخرين.

إن ثاكري مثلاً لديه وجهة النظر هذه بقوة، لكن هناك لحظات رأى من خلالها وسخر منها. إن الحقيقة التاريخية الوحيدة التي ثبتت بقوة في ذهنه هي أن الإنكليز انتصروا في معركة واترلو، ولا يقرأ المرء كثيراً في كتبه من دون أن يجد إشارة إلى ذلك، فهو يرى الإنكليز لا يغلبون بسبب قوتهم البدنية الهائلة العائدة بشكل أساس إلى تناولهم للحم البقر. ومثل أغلب الإنكليز في عصره، كان لديه الوهم الغريب بأن الإنكليز أضخم من الشعوب الأخرى (كان ثاكري أضخم من أغلب الناس) ولذلك استطاع كتابة مقاطع كهذه:

أقول لك إنك أفضل من الفرنسي، وأراهن بالمال أن طولك أكثر من خمسة أقدام وسبع بوصات، وتزن أكثر من أحد عشر حجراً، بينما طول الفرنسي خمسة أقدام وأربع بوصات ولا يزن تسعة أحجار؛ يتناول الفرنسي بعد حسائه طبقاً من الخضار، بينما تتناول أنت طبقاً من اللحم. أنت حيوان مختلف ومتفوق- حيوان يهزم الفرنسي (لقد أثبت تاريخ من مئات السنين أنك هكذا)، إلخ إلخ.

هناك مقاطع مشابهة تبعثرت في كل أعمال ثاكري. لم يرتكب ديكنز أبداً أي إثم من ذلك النوع، لكن القول إنه لم يسخر من الأجانب في مكان ما هو مبالغة، وهو لم يتأثر بالثقافة الأوروبية طبعاً مثل كل إنكليز القرن التاسع عشر تقريباً، لكنه لم ينغمس أبداً في التبجح الإنكليزي وأسلوب الحديث المكون من "سلالة الجزر" و"ذرية البولدوغ" و"الجزيرة الصغيرة المثلى والمحكمة". لا يوجد سطر واحد في كل قصة مدينتين يمكن أن يفهم كـ" انظر كيف يتصرف هؤلاء الفرنسيون الأشرار!". إن المكان الوحيد الذي يبدي فيه كرهاً عادياً للأجانب، هو في الفصول الأمريكية لـ مارتن تشازلويت، لكن هذا كان ببساطة رد فعل العقل السمح ضد الانحراف. لو كان ديكنز حياً اليوم، لقام برحلة إلى روسيا السوفييتية، وعاد إلى الكتاب مثل كتاب جايد عودة إلى الاتحاد السوفييتي، لكنه كان متحرراً بشكل لافت من حماقة النظر إلى الأمم ومعاملتها كأفراد. حتى إنه لم يؤلف دعابات تهاجم الجنسية، ولم يستغل الايرلندي المضحك مثلاً، ليس لأنه يعترض على الشخوص المخزنة والدعابات المصنعة الجاهزة التي من الواضح أنه لم يستخدمها، والأكثر بروزاً أنه لم يُظهر أي تحامل ضد اليهود. صحيح أنه يسلم بديهياً بأن متلقي البضائع المسروقة في (أوليفر تويست وآمال كبيرة) يكون يهودياً، وهذا كان مبرراً في عصره. لكن "الدعابة اليهودية" الوباء

المستوطن في الأدب الإنكليزي حتى ظهور هتلر، لم تظهر في كتبه. وفي صديقنا المشترك يقوم بمحاولة ورعة، لكنها لم تكن مقنعة جداً للوقوف إلى جانب اليهود وتأييدهم.

إن خلو ديكنز من القومية السوقية، هو جزئياً علامة عن سعة عقل حقيقة، وجزئياً نتيجة لموقفه السياسي السلبي غير الداعم. إنه إنكليزي حقيقي جداً، لكنه قلما أدرك ذلك. وبالتأكيد لم تثر فكرة كونه إنكليزياً الرعشة فيه. ليست لديه مشاعر إمبريالية ولا آراء مرئية حول السياسة الخارجية، ولم يتأثر بالتقليد العسكري. ومزاجياً هو أقرب بكثير إلى تاجر صغير منشق ينظر بازدراء إلى "المعاطف الحمر"، ويعتقد أن الحرب شريرة- نظرة عوراء، لكن بعد كل شيء الحرب شريرة. من الملاحظ أن ديكنز قلما كتب عن الحرب ولو لشجبها، ولم يصف أي معركة رغم كل قواه العجيبة في التصوير ووصف الأشياء التي رآها، إلا إذا اعتبرنا الهجوم على الباستيل في قصة مدينتين وصفاً لمعركة. ربما لم يشده الموضوع كموضوع مشوق. وفي كافة الأحوال لم يعتبر ساحة المعركة مكاناً يمكن أن يستقر فيه أي شيء جدير بالاستقرار. إنها مكان يقتصر على العقلية المتزمتة للطبقة الوسطى الدنيا.

القسم الثالث:

لقد ترعرع ديكنز قريباً من العوز، بشكل يكفي ليرتاع منه، ولم يتحرر من تحامل الأنيق الرث رغم اتساع عقله وسماحته. إن اعتباره كاتباً "شعبياً" وبطل "الجماهير المضطهدة" أمر عادي. فهو هكذا طالما أنه يفكر فيهم كأناس مضطهدين، لكن هناك شيئين اشترطا موقفه. في المكان الأول هو رجل من جنوب إنكلترا وكوكني في ذلك، ولذلك لم يتأثر بالقسم الأكبر من الجماهير المضطهدة الحقيقية، العمال الصناعيين والزراعيين. من المشوق أن نرى تشيسترتون وهو كوكني آخر يصور ديكنز دائماً على أنه الناطق بلسان "الفقراء" من دون أن يبدي وعياً كثيراً ويدرك من وكيف هم "الفقراء" الحقيقيون. إن "الفقير" بالنسبة إلى تشيسترتون يعني أصحاب المتاجر الصغيرة والخدم. ويقول إن سام ويلر هو "الرمز الكبير للجماهير العادية الخاص بإنكلترا في الأدب الإنكليزي"، علماً أن وسام ويلر مستخدم ينظف الملابس في فندق! النقطة الأخرى أن تجربة ديكنز المبكرة أعطته رعباً من الخشونة البروليتارية، ويبدي هذا بشكل غير ملتبس كلما كتب عن أفقر الفقراء من ساكني الأحياء الفقيرة، كما أن وصفه لأحياء لندن الفقيرة، ممتلئ دائماً بنفور سافر:

الطرقات ملوثة وضيقة والمتاجر والبيوت بائسة والناس شبه عراة وسكارى غير مبالين وقبيحين. إن الأزقة والمداخل المقنطرة تنفث روائحها الكريهة والقذارة، مثل أماكن تبول كثيرة. كما أن الحياة في الشوارع ممتدة بغير اتساق أو نظام، والحي كله يفوح برائحة الجريمة والفحش والشقاء.. إلخ إلخ.

هناك مقاطع مشابهة كثيرة في ديكنز، يخرج المرء منها بانطباع عن أعداد كاملة مغمورة من السكان الذين يعتبرهم غير مقبولين أبداً، وبنفس الطريقة يشطب المنظر الاشتراكي المعاصر بازدراء كتلة واسعة من السكان على أنها "بروليتاريا سوقية غبية مهمشة".

يُظهر ديكنز تفهماً للمجرمين أقل مما هو متوقع منه، ويشعر دائماً تقريباً كما يبدو، رغم إدراكه الجيد لأسباب الجريمة الاجتماعية والاقتصادية، أن الإنسان يضع نفسه خارج المجتمع الإنساني حين ينتهك القانون. يوجد فصل في نهاية **ديفيد كوبرفيلد** يزور فيه ديفيد السجن؛ حيث يقضي لاتيمر ويورياه هيب عقوبتيهما. يبدو أن ديكنز بالفعل يعتبر السجون "الأنموذجية" الرهيبة حيث شن تشارلز ريد هجومه البارز في **لم يفت الوقت على الإصلاح**، أكثر من إنسانية. يشكو ديكنز بأن الطعام أكثر من جيد! حالما ينقلب ضد الجريمة أو ضد أسوأ أعماق الفاقة، يُظهر آثاراً من العادة الذهنية "أنا حافظت على احترام نفسي دائماً". إن موقف بيب (موقف ديكنز نفسه بوضوح) تجاه ماغويتش في **آمال كبيرة** مشوق إلى أقصى حد. يشعر بيب دائماً بعقوقه تجاه جو، وبالقليل جداً من العقوق نحو ماغويتش بالمقارنة. حين يكتشف الشخص الذي حشاه بالفوائد لسنين هو مجرم منفي محكوم في الحقيقة، تنتابه نوبات من الغثيان. "إن المقت الذي أضمرته للرجل والفزع الذي نالني منه والتقزز الذي جعلني أنكمش وأبتعد عنه، لا يمكن أن يفوقه شيء، حتى لو أنه كان بهيمة رهيبة" إلخ إلخ. ويكتشف المرء من النص أن هذا الأمر ليس لأن بيب روعه ماغويتش في فناء الكنيسة حين كان طفلاً، وإنما لأن ماغويتش مجرم ومدان بحكم. هناك أثر أكثر من "أنا حافظت على احترام نفسي دائماً" في حقيقة أن بيب يشعر كأمر بديهي أنه لا يستطيع أن يأخذ نقود ماغويتش. إن النقود ليست نتاج الجريمة، وقد اكتسبت بطريقة شريفة، لكنها نقود مدان سابق، ولذلك هي "ملطخة". لا يوجد شيء زائف نفسياً في هذا أيضاً. نفسياً القسم الختامي من **آمال كبيرة** حول أفضل شيء فعله ديكنز؛ خلال هذا القسم من الكتاب يشعر المرء

"نعم، ذلك ما سيتصرفه بيب تماماً" لكن النقطة أن ديكنز يتعاطف مع بيب في مسألة ماغويتش، وأن موقفه متكبر في أساسه. النتيجة أن ماغويتش ينتمي إلى نفس الصنف من الشخصيات الغريبة مثل فالستاف، وربما دون كيشوت- شخصيات مثيرة للشفقة أكثر مما قصده المؤلف.

حين تكون القضية الفقير غير المجرم أو الفقير العادي المحتشم والشغيل، فلا يوجد هناك طبعاً أي شيء ازدرائي في موقف ديكنز، فهو يكن أخلص الإعجاب لأناس مثل آل بيجوتي وآل بلورنيش، لكن يُشك أنه اعتبرهما أنداداً متساوين في الحقيقة. من أعظم الفوائد قراءة الفصل الحادي عشر من ديفيد كوبرفيلد ومعه شظايا السيرة الذاتية (أجزاء من هذا معطاة في كتاب فروستر حياة) الذي يعبر فيه ديكنز عن مشاعره تجاه حادث معمل الصباغ بصورة أقوى بكثير من الرواية. وبعد أكثر من عشرين سنة ظل هذا الحادث ذكرى مؤلمة جداً له، لدرجة أنه خرج عن طريقه، ليتجنب ذلك القسم من الشاطئ، ويقول: إن عبور ذلك الطريق "جعلني أبكي بعد أن استطاع طفلي الأكبر أن يتكلم". يوضح النص جيداً أن الذي آذاه أكثر من غيره ومن ثم عند استعادة الماضي، هو الاتصال المباشر الإجباري مع رفاق "دونيين":

ليست هناك كلمات تستطيع أن تعبر عن كرب روحي الخفي، حين غرقت في هذه الرفقة، بمقارنة هؤلاء الرفاق اليوميين مع هؤلاء في طفولتي الأكثر سعادة. لكنني تقلدت مركزاً ما في مستودع الصباغ أيضاً..... أصبحت بعد فترة قصيرة بارعاً وسريعاً في استخدام يدي مثل غيري من الصبيان على الأقل. رغم تآلفي معهم، كان سلوكي وأسلوبي مختلفين عنهم بشكل يكفي لوضع مسافة بيننا. هم والرجال كانوا يتكلمون دائماً عني بـ "بالجنتلمان الصغير". رجل معين.....اعتاد أن يناديني "تشارلز" أحياناً حين كان يكلمني؛ لكنني أعتقد أن أكثره حين كنا نتبادل الأسرار..... ثار بول غرين مرة وتمرد ضد استعمال "الجنتلمان الصغير"، لكن بوب فاغين هدّأه بسرعة.

كان جيداً أن تكون هنا "مسافة بيننا" كما ترى. مهما كان إعجاب ديكنز بالطبقات العاملة كبيراً، إلا أنه لم يرغب في أن يشبههم، ومن الصعب أن يكون غير ذلك بسبب أصوله والزمن الذي عاش فيه. في بداية القرن التاسع عشر ربما كان العداء الطبقي أكثر حدة مما هو عليه

الآن، وكانت الاختلافات السطحية بين طبقة وطبقة أكبر بكثير، ويفترض أن الـ"جنتلمان" والـ"الرجل العادي" كانا مثل جنسين مختلفين من الحيوانات. إن ديكنز صادق تماماً في وقوفه في صف الفقراء ضد الأغنياء، لكن من شبه المستحيل ألا ينظر إلى الطبقة العاملة كشيء خارجي، كما لو كانت وصمة عار. في إحدى خرافات تولستوي، يحكم فلاحو قرية معينة على كل رجل غريب من حالة يديه. إن كانت راحتا يديه قاسيتين من العمل، يسمحون له بالدخول، وإن كانتا ناعمتين كانوا يطردونه. كان هذا غير مفهوم لديكنز، فكل أبطاله أياديهم ناعمة. أبطاله الأصغر عمرا -نيكولاس نيكلباي ومارتن تشازلويت وإدوارد تشيستر وديفيد كوبرفيلد وجون هارمون- عادة من النوع المعروف بـ"الجنتلمان الذي يمشي على قدميه". إنه يحب مظهر البورجوازي الخارجي واللهجة البرجوازية (وليس الأرستقراطية). إحدى هذه الظواهر الغريبة في هذا المجال أنه لم يسمح لأي واحد يلعب دوراً بطولياً أن يتكلم مثل رجل من الطبقة العاملة. يستطيع بطل هزلي مثل سام ويلر أو مجرد شخصية مثيرة للشفقة مثل ستيفن بلاكبول، التكلم بلهجة رحبة، لكن الرئيس الصغير يتكلم دائماً بلغة معادلة للغة محطة البي بي سي. الأمر هكذا حتى حين يتضمن سخافات، فمثلاً ليتل بيب رباه أناس يتكلمون لهجة ايسكس، لكنه تحدث بإنكليزية الطبقة العليا منذ طفولته المبكرة؛ بينما يفترض فيه في الواقع أن يتكلم بنفس اللهجة العامية مثل جو أو على الأقل مثل السيدة غارغري. وهكذا الأمر كذلك مع ويسل وليزي هيكسام وسيسي جوبي وأوليفر تويست-وربما يمكن إضافة دوريت الصغيرة. حتى راشيل في أزمنة صعبة، تجد بالكاد أثراً من لهجة لانكشاير في كلامها، وهذه استحالة في حالتها.

هناك شيء واحد يعطي دليلاً على مشاعر الروائي الحقيقية في المسألة الطبقية، وهو الموقف الذي يتخذه حين تتصادم الطبقة مع الجنس، وهذا شيء من الصعب والمزعج الكذب فيه، وبالتالي هو أحد النقاط التي يميل فيها التظاهر في "أنا لست متكبراً" إلى الانهيار.

يرى المرء ذلك في أوضح صوره، حين يكون الاختلاف الطبقي اختلافاً في اللون أيضاً. يوجد شيء مشابه للموقف الكولونيالي بأن (النساء الأصليات- بنات البلد لهو ومرح مشروع، أما النساء البيض فمقدسات إلى أبعد الحدود) في شكل مستتر في المجتمعات التي كلها من البيض ويسبب امتعاضاً مريراً لكلا الطرفين. حين تظهر هذه القضية، يرتد

الروائيون دائماً تقريباً إلى مشاعر طبقية فجة، قد يتنصلون منها في أحيان أخرى. وهناك مثال جيد عن ردة فعل الوعي الطبقي في رواية شبه منسية لأندرو بارتون بعنوان **أهالي كلويتون**، تختلط فيها مجموعة المبادئ الأخلاقية للمؤلف بالكره الطبقي بوضوح تام. يشعر تجاه إغواء رجل غني لفتاة فقيرة كشيء شنيع ونوع من الدنس؛ شيء مختلف تماماً عن إغوائها من قبل رجل من نفس مشربها في الحياة. يتناول ترولوب هذا الموضوع مرتين (**الكتبة الثلاث والبيت الصغير في ألينغتون**) وكما يتوقع المرء، يعالجه من زاوية الطبقة العليا بالكامل، فيرى أن العلاقة الغرامية مع نادلة حانة أو ابنة صاحبة فندق مجرد "ورطة أو شرك" يجب الفرار منها. إن معايير ترولوب الأخلاقية صارمة، ولا يسمح بحدوث الإغواء، لكن المعنى الضمني دائماً هو أن مشاعر فتاة الطبقة العاملة لا تهم كثيراً، حتى إنه يفصح عن ردة فعل طبقية أنموذجية في إشارته بأن للفتاة "رائحة كريهة" في **الكتبة الثلاث**. يتبنى ميريديث (روهدا فليمنغ) وجهة نظر طبقية أشد، لكن ثاكري يبدو متردداً كما هو غالباً، فموقفه في **بيندينس** (فاني بولتون) يشبه موقف ترولوب كثيراً، وموقفه في **قصة أرستقراطي** رث أقرب إلى ميريديث.

يستطيع المرء أن يتكهن بالكثير حول أصول ترولوب أو ميريديث أو بارتون الاجتماعية، من مجرد تناولهم للموضوع الجنسي الطبقي. ويستطيع كذلك مع ديكنز، لكنه يميل إلى التعاطف مع الطبقة الوسطى أكثر من البروليتاريا كما يظهر عادة. إن الحدث الوحيد الذي يبدو يناقض هذا، هو قصة الفتاة الريفية الصغيرة في مخطوطة الدكتور مانيه في **قصة مدينتين**، لكن هذا كان مجرد مسرحية أُقحمت لشرح كره مدام ديفارج الحقود الذي لم يتظاهر ديكنز باستحسانه، وفي **ديفيد كوبرفيلد** حيث يتناول إغواء القرن التاسع عشر الأنموذجي لم تجذبه القضية الطبقية كقضية أساسية كما يبدو. إن عدم السماح بمرور الجرائم الجنسية من دون عقاب، هو قانون في روايات العصر الفيكتوري. ولهذا يتم إغراق ستيرفورث في رمال يارماوث، لكن ديكنز أو العجوز بيغوتي أو حتى هام، لم يشعروا كما يبدو أن ستيرفورث قد زاد من جريمته، كونه ابن والدين غنيين. يتأثر آل ستيرفورث بدوافع طبقية، لكن آل بيغوتي ليسوا كذلك حتى في المشهد بين السيدة ستيرفورث والعجوز بيغوتي، ولو فعلوا لانقلبوا ربما ضد ديفيد وضد ستيرفورث أيضاً.

في صديقنا المشترك يعالج ديكنز حادثة يوجين رايبرن وليزي هيكسام بواقعية شديدة ومن دون إظهار للتحيز الطبقي. وفقاً لتقليد "ارفع يدك عني أيها المسخ!" ينبغي بليزي إما أن "ترفض وتزدري" يوجين، أو أن يسلبها عفافها، فترمي نفسها من فوق جسر واترلو: يوجين ينبغي أن يكون إما خائناً متحجر القلب أو بطلاً صمم على تحدي المجتمع، لكنه لم يتصرف بهذا الشكل أبداً. ترتعب ليزي من محاولات تقدم يوجين نحوها، وبالفعل تهرب بعيداً عنه، لكنها قلما تظاهرت بكرهها لتقدمه؛ يوجين ينجذب إليها، لكن لديه احتشاماً كبيراً يمنعه من محاولة إغوائها، ولا يجرؤ على الزواج بها خوفاً من عائلته. أخيراً يتزوجان من دون أن يتضرر أحد سوى السيدة تويملو التي ضيعت بضع مآدب خطوبة. وهذا شبيه جداً بما كان يفترض أن يحدث في الحياة الواقعية. لكن أي روائي لديه وعي طبقي، كان سيسلمها إلى براطلي هيدستون.

لكن حين يكون الأمر معكوساً -أي حين تكون الحالة رجل فقير يطمح في امرأة "فوقه"، يتقهقر ديكنز فوراً إلى موقف الطبقة الوسطى، وهو مفتون بالفكرة الفيكتورية بأن المرأة (امرأة بحرف كبير) فوق الرجل. يشعر بيب أن ايستيلا "فوقه"، وإيستر سومرسن "فوق" غوبي، وليتل دوريت "فوق" جون شيفري، ولوسي مانيه "فوق" سيدني كارتون. في بعض من هذه الحالات تكون الفوقية أخلاقية فقط، وفي حالات أخرى تكون الفوقية اجتماعية. هناك رد فعل طبقي لا يقبل الخطأ حين اكتشف ديفيد كوبرفيلد أن يورياه هيب يخطط للزواج من أغنيس ويكفيلد. يورياه المثير للاشمئزاز يعلن فجأة أنه مفتون بها:

"أوه، أستاذ كوبرفيلد، بوجدان طاهر أحب الأرض التي تمشي عليها أغنيس"

"أعتقد أن فكرة محمومة خطرت لي بأن أمسك بمذكي النار الحامي وأخرجه من النار وأطعنه به، وغادرتني كصدمة، كرصاصة أطلقت من بندقية، لكن صورة أغنيس الغاضبة جداً من فكرة هذا الحيوان ذي الشعر الأحمر، بقيت في ذهني (حين أنظر إليه وهو يجلس بشكل منحرف، كأن روحه الخسيسة أمسكت بجسده بقوة) وجعلتني أصاب بالدوار....." (يقول ديفيد لاحقاً) "أعتقد أن أغنيس ويكفيلد بعيدة جداً فوقك وبعيدة جداً عن طموحاتك كلها كبعد القمر نفسه"

عند التأمل في الطريقة التي انتقدت فيها دونية هيب العامة -سلوكه المتذلل وإسقاط حروف الاتش وغيرها من أول الكتاب إلى آخره، لا يبقى شك كثير حول طبيعة مشاعر ديكنز. يلعب هيب طبعاً دوراً حقيراً، لكن حتى الحقراء لديهم حياة جنسية؛ إن فكرة أغنيس "الطاهرة" في فراش مع رجل يسقط حروف الاتش الاستهلالية، تجعل ديكنز يثور ويشمئز. إن ميله المعتاد يجعله يتعامل مع الرجل المفتون بامرأة "فوقه" كدعابة. إنها واحدة من الدعابات المخزنة في الأدب الإنكليزي من ماليفوليو فصاعداً. غوبي في بيت كئيب أنموذج عن ذلك، وجون شيفري أنموذج آخر، وهناك معالجة أسوأ وأردأ لهذا الموضوع في "السواري" في أوراق بيكويك.

هنا يصف ديكنز خدم باث بأنهم يعيشون في الخيال، ويقيمون المآدب تقليداً لـ"الأفضل" منهم، ويخدعون أنفسهم بأن سيداتهم الشابات مفتونات بهم، وهذا يلفت انتباهه كشيء هزلي جداً، لكن يمكن أن يتساءل المرء: هل الأفضل ألا تكون لدى الخادم أوهام من هذا النوع والقبول بمنزلته الاجتماعية في روح المبادئ المسيحية، أم العكس.

لم يسبق ديكنز عصره في موقفه تجاه الخدم. في القرن التاسع عشر كانت الثورة ضد الثورة ضد الخدمة المنزلية في بدايتها، وسببت إزعاجاً كبيراً لكل من يفوق دخله الـ ٥٠٠ جنيه سنوياً. وقد تناول عدد هائل من الدعابات الساخرة في صحف القرن التاسع عشر الهزلية غرور الخدم واعتدادهم بأنفسهم، وظلت صحيفة بنش حتى سنوات قريبة تصدر سلاسل من النكات المسماة "سيرفانت غاليزم" التي تتجاهل الحقيقة المذهلة بأن الخادم كائن بشري. وديكنز نفسه مذنب أحياناً بهذا النوع من الشيء؛ فكتبه تزخر بالخدم العاديين المثيرين للضحك؛ يصورهم غير أمينين في آمال كبيرة وغير أكفاء في ديفيد كوبرفيلد، ويرفضون الطعام الجيد، ويتكبرون عليه في أوراق بيكويك، إلخ إلخ- بروح ربة بيت الضواحي مع طباخ جنرال مضطهد واحد، لكن الغريب في متطرف من القرن التاسع عشر، أنه حين يريد أن يرسم صورة يتعاطف فيها مع الخادم، يخلق ما يعرف بالأنموذج الإقطاعي. إن سام ويلر ومارك تابلي وكلارا بيغوتي، كلهم شخصيات إقطاعية ينتمون إلى "تابع خادم العائلة العجوز" ويرتبطون بعائلة سيدهم، ويكونون مخلصين كالكلاب ومألوفين تماماً. لا شك أن شخصيتي مارك تابلي وسام ويلر مشتقتان من سموليت بدرجة ما، ومن ثم من

سيرفانتيس. لكن الممتع أن ديكنز كان منجذباً إلى مثل هذا النوع كما يفترض. إن موقف سام ويلر قروسطي بلا ريب، فهو يجلب الاعتقال لنفسه، لكي يلحق السيد بيكويك في الأسطول، ويرفض بعدئذ الزواج، لأنه يشعر بأن السيد بيكويك مازال بحاجة إلى خدماته. يوجد مشهد مميز بينهما:

"بأجر أو من دونه، بطعام أو من دونه، بسكن أو من دونه، سام ويلر يظل إلى جانبك مثلما أخذته من الخان القديم في المدينة مهما حدث"

قال السيد بيكويك: "يا تابعي الطيب جين"، جلس السيد ثانية مرتبكاً من حماسه "يجب عليك أن تراعي مشاعر المرأة الشابة أيضاً".

"لقد راعيتُ مشاعر المرأة الصغيرة يا سيدي" قال سام. "راعيتُ مشاعرها وتكلمت معها وأخبرتها بوضعي، وهي مستعدة لتنتظر كي أكون مستعداً، وأنا أصدق بأنها ستفعل. إن لم تفعل، فهي ليست المرأة الصغيرة التي سأختار، وسأتخلى عنها بسهولة"

من السهل تخيل ما الذي كانت المرأة الصغيرة ستقوله رداً على هذا في الحياة الواقعية. لكن لاحظ الجو الإقطاعي. سام ويلر مستعد كشيء مسلم به، للتضحية بسنين عمره من أجل سيده، ويستطيع الجلوس في حضرة سيده أيضاً، أما الخادم في العصر الحديث، فلا يفكر أبداً في كلا الفعلين. إن آراء ديكنز في قضية الخدم، لا تتعدى تمنيه بأن يحب ذلك السيد وخادمه بعضهما البعض. إن سلوبي في صديقنا المشترك، رغم أنه فشل بائس كشخصية، إلا أنه يمثل نفس النوع من الولاء مثل سام ويلر. إن هكذا ولاء طبيعي وإنساني ومحبوب طبعاً، لكن هكذا كانت الإقطاعية.

إن ما يفعله ديكنز كالمعتاد على ما يبدو، هو الوصول إلى نسخة مثالية من الشيء القائم. كان يكتب في زمن كانت الخدمة المنزلية فيه شراً لا يمكن تجنبه كما يبدو، ولم تكن هناك أدوات منزلية توفر الجهد. وكان هناك تفاوت هائل في الثروة. كان عصراً من العائلات الضخمة والوجبات الطنانة والبيوت المتعبة، كانت فيه الخادمة تكدح أربع عشرة ساعة في اليوم في المطبخ القبو، ويعتبر الأمر شيئاً عادياً جداً. وبسبب حقيقة العبودية، كانت العلاقة الإقطاعية هي العلاقة المقبولة الوحيدة. إن سام ويلر ومارك تابلي شخصيتان حالمتان لا تقلان عن آل شيريبل. إن توجب وجود سادة وخدم، فكم يجب أن يكون السيد أفضل من السيد بيكويك،

والخادم أفضل من سام ويلر؟ إن الأفضل عدم وجود خدم نهائياً -لكن ديكنز لم يكن قادراً على تخيل ذلك. إن العدالة الإنسانية غير ممكنة عملياً من دون مستوى عال من التطور الآلي. ويبين ديكنز أنها غير متخيلة أيضاً.

القسم الرابع:

ليس من قبيل المصادفة ألا يكتب ديكنز عن الزراعة أبداً، وفي الوقت نفسه لم يتوقف عن الكتابة حول الغذاء. لقد كان كوكنيا ولندن هي مركز الأرض، كما البطن مركز الجسد، وهي مدينة من المستهلكين ومن الناس المتمدنين بعمق، لكنهم ليسوا مفيدين أصلاً. شيء يلفت انتباه المرء، فحين ينظر إلى ما تحت سطح كتب ديكنز، يجد أنه كان جاهلاً في الواقع مقارنة بما كان عليه روائيو القرن التاسع عشر، ولا يعرف إلا القليل عن الطريقة التي تحدث بها الأشياء في الحقيقة. من الوهلة الأولى يبدو هذا القول غير صحيح بشكل صريح، ويحتاج إلى بعض التأهيل.

لدى ديكنز نظرات حية من "الحياة الخسيسة" كالحياة في سجن المدينين مثلاً، وكان روائياً مشهوراً قادراً على أن يكتب عن الناس العاديين. وهكذا كانت الصفة المميزة لكل الروائيين الإنكليز في القرن التاسع عشر، فقد شعروا بالراحة في العالم الذي عاشوا فيه، أما كاتب هذه الأيام فمعزول جداً على نحو ميئوس منه. لهذا فإن الرواية الحديثة الأنموذجية، هي رواية عن الروائي نفسه. حتى حين أمضى جويس مثلاً عقداً من الزمن في محاولات صبورة للتواصل مع "إنسانه العادي" الذي تكشف بأنه يهودي، إلا أنه كان أرفع ثقافة قليلاً. أما ديكنز فلم يعانِ من الشيء نفسه على الأقل، ولم يواجه أي صعوبة في تقديم البواعث الشائعة كالحب والطموح والجشع والانتقام وهلم جرا، لكن الذي لم يكتب عنه بشكل ملاحظ، هو الشغل.

إن أي شيء من طبيعة الشغل في روايات ديكنز، يحدث في الكواليس. والشخصية الوحيدة من أبطاله التي لديها مهنة ظاهرية معقولة، هو ديفيد كوبر فيلد، الذي كان في البداية كاتب اختزال، ثم روائياً مثل ديكنز نفسه. أما الطريقة التي يكسب فيها أغلب الآخرين غيره أرزاقهم، فيأتي معظمها وصفاً في الخلفية. فمثلاً بيب "يدخل عالم التجارة والأعمال في مصر"، لكننا لا نعرف أي نوع من التجارة والأعمال. ولا يأخذ وصف حياة عمل بيب أكثر من نصف صفحة من الكتاب، وكلينهان اشتغل في عمل تجارة غير محددة في الصين، ثم عمل

لاحقاً في عمل تجارة لم تُسمَّ مع دويس، ومارتن تشزلويت مهندس معماري، لكن لم يتسنى له الوقت لممارسة مهنته كما يبدو. وليس هناك حالة واحدة انبثقت فيها مغامراتهم من عملهم بشكل مباشر. وهنا يبدو التباين بين ديكنز وترولوب مثلاً مروعاً، والسبب الوحيد لهذا أن ديكنز لا يعرف عن المهن التي يفترض بشخوصه متابعتها سوى القليل. ماذا كان يحدث بالضبط في مصانع غرادغريند؟ كيف جمع بودسناب ماله؟ كيف ينجح ميرديل في غشه؟ يعرف المرء أن ديكنز لم يستطع أبداً أن يدوّن تفاصيل الانتخابات النيابية ومضاربات البورصة، مثلما استطاع ترولوب. وعندما كان يضطر إلى التعامل مع التجارة أو التمويل أو الصناعة أو السياسة، كان يلجأ فوراً إلى الغموض أو الهجاء. وهذا هو الحال مع الدعاوى القانونية التي يفترض به أن يعرف الكثير عنها. قارن أية دعوى قضائية عند يكنز مع أخرى في **مزرعة أوريلي** مثلاً.

يعود السبب جزئياً إلى التشعبات غير الضرورية في روايات ديكنز و"الحبكة" الفيكتورية الرهيبة. صحيح أن رواياته كلها ليست متشابهة. **قصة مدينتين** قصة جيدة جداً وبسيطة تماماً، وكذلك **أزمنة صعبة** بطريقتها المختلفة؛ لكن هاتين هما الاثنتان اللتان رُفضتا دوماً بأنهما "لا تشبهان ديكنز"- ولم تُنشرا في أعداد شهرية بالمناسبة. إن الروايتين اللتين كتبتا بصيغة ضمير المتكلم، هما قصتان جيدتان بمعزل عن حبكتيهما الثانويتين. لكن روايات ديكنز الأنموذجية هي **نيكولاس نيكلباي** و**أوليفر تويست** و**مارتن تشيزلويت** و**صديقنا المشترك**، والتي تتواجد دائماً في إطار من الميلودراما. إن الشيء الأخير الذي يتذكره كل واحد حول الكتب دائماً، هو قصتها المركزية. ومن جانب آخر، أعتقد أنه لا يوجد أحد قرأها، ولم يحمل معه ذكرى صفحات فذة إلى يوم مماته. يرى ديكنز الكائنات البشرية بأقصى درجة من الحيوية الشديدة، لكنه يراها دائماً في حياة خاصة شخصية كـ "شخوص روائية" وليس كأفراد فعالين في المجتمع. وبعبارة أخرى هو يراهم بشكل ستاتيكي (ساكن)، وبناء عليه كانت **أوراق بيكويك** أعظم نجاح له، وهي ليست قصة على الإطلاق، وإنما مجرد سلسلة من المسودات، وليس فيها سوى محاولة صغيرة للتطوير- تستمر الشخصيات وتستمر ببساطة وتتصرف كالحمقى بنوع من الأبدية، وبمجرد أن يحاول إجبار شخصياته على الفعل، تبدأ الميلودراما. لا يستطيع هو أن يجعل الفعل يدور حول المهن العادية، ولهذا السبب تجد لعبة

المصادفات والمؤامرات وجرائم القتل والتنكر والوصايا المطمورة والإخوة المفقودين منذ زمن طويل.. إلخ إلخ. في النهاية حتى أناس مثل سكويرز وميكاوبر، تمتصهم هذه الآلية.

طبعاً من السخف القول إن ديكنز مجرد كاتب غامض أو ميلودرامي، فالكثير مما كتبه واقعي بإفراط، ولا يضاهيه أحد في القدرة على استحضار الصور البصرية. وحين يصف ديكنز شيئاً، تظل تراه طوال حياتك، لكن ملموسية ومادية رؤيته علامة لما افتقده. أخيراً وبعد كل شيء، إن ذلك هو ما يراه المتفرج العرضي دائماً -المظهر الخارجي وغير الوظيفي وسطح الأشياء. إن المتورط في المشهد بشكل فعلي، لا يرى المشهد أبداً. لا يصف ديكنز الصيرورة دائماً تقريباً مثلما يستطيع وصف المظهر بشكل رائع. إن الصور النشيطة التي ينجح في تركها في ذاكرة المرء دائماً تقريباً، هي صور الأشياء التي تُرى في لحظات الفراغ في مقاهي فنادق الريف الصغيرة، أو عبر نوافذ عربة تجرها الخيول، مثل لافتات الفنادق ودقاقات الأبواب النحاسية والأباريق الملونة بالطلاء، وباطن المتاجر، والبيوت الخاصة، والثياب والوجوه، وقبل كل شيء الطعام. كل شيء يُرى من وجهة نظر المستهلك. حين يكتب عن كوكستاون، فإنه ينجح في بضع فقرات في استحضار جو مدينة من مدن لانكشاير، كما يراها زائر جنوبي مصاب بالغثيان: "فيها قناة سوداء ونهر أرجواني يجري مع صباغ كريه الرائحة وأكوام واسعة من الأبنية مليئة بالنوافذ؛ حيث توجد قعقعة ورجفة طول اليوم؛ وحيث يعمل كباس المحرك البخاري بشكل رتيب، يرتفع وينخفض مثل رأس فيل، في حالة من الجنون السوداوي"

هذا أقرب مكان يصل إليه ديكنز من آلات المطاحن. إن المهندس أو سمسار القطن سيراها بشكل مختلف، لكن لا يستطيع أيّ منهما على تلك اللمسة الانطباعية حول رأس الفيلة.

إن موقفه من الحياة بمعنى مختلف قليلاً، غير مادي بشكل متطرف. إنه رجل يعيش بواسطة عينيه وأذنيه أكثر من يديه وعضلاته. في الواقع لم تكن عاداته جلوسية خاملة جداً كما يبدو هذا ضمناً، فرغم حالته الصحية وبنيته الجسدية المتواضعة، كان نشيطاً إلى درجة القلق. وخلال حياته كلها كان مشاءً استثنائياً. وعلى أي حال استطاع بشكل جيد أن ينجر وينصب المشهد المسرحي، لكنه لم يكن واحداً من الأشخاص الذين يشعرون بحاجة إلى استخدام أياديهم. من الصعب تخيله وهو يحفر في قطعة أرض مزروعة بالكرنب مثلاً، ولم يعط أي دليل

على معرفة أي شيء يتعلق بالزراعة. ومن الواضح أنه لا يعرف شيئاً عن أي لعبة أو رياضة، وليس لديه اهتمام في الملاكمة مثلاً. وإذا أخذنا بعين الاعتبار عمره حين كتب هذا، فإننا نجد أن قلة الوحشية البدنية الموجودة في روايات ديكنز تثير الدهشة. إن مارتن تشزلويت ومارك تابلي مثلاً يتصرفان بتساهل غير عادي تجاه الأمريكيين الذين يهددونهما بشكل مستمر بمسدسات وبسكاكين ضخمة مغمدة. أي كاتب إنكليزي أو أميركي عادي كان سيجعلهم يوجهون لكمات على الفك ويتبادلون الطلقات في كافة الاتجاهات. إن ديكنز محتشم جداً عن هذا، فهو يرى حماقة العنف، وينتمي أيضاً إلى طبقة مدينية محترسة، لا تتعامل مع كيل اللكمات للفك، حتى ولو كان ذلك بشكل نظري. وموقفه من الرياضة يختلط مع مشاعر اجتماعية. ففي إنكلترا تمتزج الرياضة وخصوصاً الميدانية منها، مع التكبر بشكل لا ينفصم لأسباب جغرافية بشكل رئيسي. يشكك الاشتراكيون الإنكليز دائماً تقريباً وعلى نحو مكشوف، حين يقال لهم إن لينين كان مخلصاً للرماية مثلاً، فهم يرون أن الرماية والصيد.. إلخ هي مجرد طقوس متكبرة لطبقة ملاكي الأراضي، ونسوا أن هذه الأشياء قد تظهر بشكل مختلف في بلاد شاسعة بكر مثل روسيا. من وجهة نظر ديكنز، فإن كل نوع من الرياضة تقريباً هو موضوع هجاء في أفضل حالاته، وبناء على ذلك، كان جانب من حياة القرن التاسع عشر- جانب حياة الملاكمة والسباق وقتال الديكة وحفر الغرير والصيد في أراضي الغير والإمساك بالجرذان، هو الجانب الذي حُنط بشكل عجيب، وحُفظ في رسومات ليتش التوضيحية إلى سورتيس- خارج مجاله.

اللافت أكثر في الراديكالي "التقدمي" ظاهرياً، أنه غير مهتم بالميكانيك، ولا يبدي اهتماماً في تفاصيل الآلات ولا في الأشياء التي يمكن للآلات فعلها، فكما يلاحظ غيسنغ: لم يصف ديكنز في أي مكان رحلة بالقطار، بحماس يشبه الذي يبديه في وصف رحلات بواسطة العربة التي يجرها الحصان. في كل كتبه تقريباً يتولد لدى المرء شعور غريب بأنه يعيش في الربع الأول من القرن التاسع عشر. وفي الحقيقة هو يميل إلى العودة إلى هذه الفترة. **ليتل دوريت** التي كُتبت في منتصف الخمسينات، تتناول أواخر العشرينات، و**آمال كبيرة** (١٨٦١) ليست مؤرخة، لكنها تتناول بوضوح العشرينيات والثلاثينيات. لقد ظهرت اختراعات واكتشافات كثيرة لأول مرة في حياة ديكنز، جعلت العالم الحديث ممكناً، مثل (التلغراف الكهربائي

والبندقية التي تحشى من عقبها ومطاط الهند وغاز الفحم والورق المصنوع من لب الخشب)، لكنه لم يذكرها في كتبه إلا نادراً. لا شيء أغرب من الغموض الذي يتكلم فيه عن اختراع دويس في **ليتل دوريت**، فقد صوره كشيء إبداعي جداً وثوري وذي أهمية عظيمة لبلاده ورفاقه البشر، وهو رابط ثانوي هام في الكتاب. ومع ذلك لم يخبرنا ما هو هذا "الاختراع"! من جانب آخر صور مظهر دويس البدني بلمسة ديكنزية أنموذجية: لديه طريقة غريبة في تحريك إبهامه، طريقة يتميز بها المهندسون. بعد ذلك يرسو دويس بقوة في ذاكرة المرء، لكن كالعادة، فإن ديكنز فعل ذلك من خلال ربطه بشيء خارجي.

هناك أشخاص كتينيسون مثلاً يفتقرون إلى المقدرة الميكانيكية، لكنهم يستطيعون رؤية الإمكانيات الاجتماعية للآلات، لكن ديكنز ليس لديه هذه الصفة العقلية، ويبدي وعياً قليلاً جداً بالمستقبل. وحين يتكلم عن التقدم الإنساني، يكون عادة في سياق التقدم الأخلاقي -بشر يتحسنون، وربما لم يقبل أبداً بأن البشر طيبون فقط بالقدر الذي يسمح فيه لهم التطور التقني. إن الفجوة في أقصاها بين ديكنز ونظيره الحديث اتش جي ويلز في هذه النقطة. ويلز يحمل المستقبل حول عنقه مثل حجر الطاحونة، وتفكير ديكنز العقلي غير العلمي مضرّ بنفس القدر بطريقة مختلفة، وهو الذي جعل أي موقف إيجابي صعباً بالنسبة إليه. هو عدائي تجاه الماضي الإقطاعي الزراعي، وليس له أي تماس حقيقي مع الحاضر الصناعي. حسناً إذاً، كل ما بقي هو المستقبل (يعني العلم، والتقدم وهلم جرا) الذي قلما دخل في أفكاره. لذلك لم يكن لديه أي معيار معرف للمقارنة حين هاجم فيه كل شيء وشيك وآت. كما أشرت سابقاً، هو يهاجم النظام التعليمي الراهن بإنصاف تام، ومع ذلك وبعد كل شيء، ليس لديه علاج يقدمه سوى نظراء مدارس أكثر لطفاً. لماذا لم يشر إلى ما يجب أن تكون عليه المدارس؟ لماذا لم يدع أبناءه يتعلمون بنفس خطته، بدلاً من إرسالهم إلى مدارس خاصة ليتم حشوهم باللغة الإغريقية؟ لأنه كان يفتقر إلى ذلك النوع من التخيل. لديه شعور أخلاقي لا يُخطئ، لكن فضوله العقلي قليل. وهنا يجد المرء شيئاً في الحقيقة، وهو أنه عجز هائل في ديكنز، وشيء جعل القرن التاسع عشر يبدو بعيداً جداً عنا- لم يكن لديه أية فكرة عن العمل.

باستثناء وحيد مريب في **ديفيد كوبرفيلد** (هو ديكنز نفسه) لا يستطيع المرء الإشارة إلى شخصية منفردة واحدة من شخصياته مهتمة أساساً بمهنتها. أبطاله يعملون ليكسبوا رزقهم

ويتزوجوا البطلات، وليس لأنهم يشعرون باهتمام عاطفي في موضوع واحد خاص. مارتن تشزلويت مثلاً لم يتحرق شوقاً ليكون مهندساً معمارياً، وكان يمكن أن يكون طبيباً أو محامياً. على أي حال، في الرواية الديكنزية الأنموذجية تدخل القوة السحرية الخارقة في حقيبة من ذهب في الفصل الأخير، فيُعفى البطل من صراع أطول. الشعور "هذا ما جئت إلى العالم لكي أفعله. كل شيء آخر غير ممتع. سوف أفعل هذا حتى لو كان يعني الموت جوعاً" الذي يحول البشر ذوي الطبائع المختلفة إلى علماء ومخترعين وفنانين ورجال دين ومستكشفين وثوار-هذا الحافز غائب تماماً تقريباً من كتب ديكنز. هو نفسه كمشهور عمل مثل عبد وآمن بعمله، كما لم يفعل سوى قلة من الروائيين. لكن ليس هناك على ما يبدو أي مهنة سوى كتابة الروايات (وربما التمثيل) يستطيع نحوها تخيل هذا النوع من التكريس والإخلاص، وأخيراً إن اعتبار موقفه سلبياً تجاه المجتمع، هو شيء طبيعي جداً. في الملاذ الأخير لا يوجد شيء أثار إعجابه سوى آداب السلوك المشتركة. العلم غير ممتع، والآلات قاسية وقبيحة (رؤوس الفيلة). التجارة للأشرار فقط مثل باوندرباي. بالنسبة إلى السياسة-اتركها لتيت بارناكلز. حقيقة، ليس هناك أي هدف سوى الزواج من البطلة والاستقرار والعيش برخاء، ويكون لطيفاً. ويمكنك فعل ذلك بشكل أفضل بكثير في حياتك الخاصة.

ربما يرى المرء هنا لمحة من خلفية ديكنز التخيلية الغامضة. ما هي الطريقة المرغوبة الأفضل للعيش برأيه؟ حين تصالح مارتن تشزلويت مع عمه، وعندما تزوج نيكولاس نيكلباي النقود، وحين اغتنى جون هارمان بواسطة بوفين، ماذا فعلوا؟

الجواب واضح بأنهم لم يفعلوا شيئاً. استثمر نيكولاس نيكلباي نقود زوجته مع آل تشيريبل و"أصبح تاجراً غنياً وناجحاً"، ولكن حين اعتزل في دوفنشاير، نستطيع الافتراض بأنه لم يعمل بجد كبير. أما السيد والسيدة سنودغراس فقد "اشتريا مزرعة صغيرة وحرثاها بدافع تملك الأرض أكثر من الربح". تلك هي الروح التي تنتهي بها جلّ كتب ديكنز -نوع من الكسل المشع؛ حيث يبدو بأنه يستهجن الشبان الذين لا يعملون، مثل هارتهاوس وهاري، غوان وريتشارد كارستون، ورايبيرن قبل إصلاحه، فذلك لأنهم كلبيون وفاسقون، أو لأنهم عبء على شخص آخر. إن كنت "صالحاً" وتعيل نفسك أيضاً، فلا يوجد أي سبب يمنع من أن تمضي خمسين سنة من عمرك في استجرار إيراداتك من الأسهم. إن الحياة

البيتية وافية دائماً. وأخيراً هذه كانت الفرضية العامة لعصره. إن "الاكتفاء الدمث" و"الجدارة" و"الجنتلمان ذو الوسائل المستقلة" (أو "في ظروف سهلة") - عبارات تتحدث كلها عن الحلم الغريب والفارغ للبورجوازية الوسطى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كان حلماً من الكسل التام. ينقل تشارلز ريد روحها بشكل مثالي في نهاية **عملة صعبة**. بطل **عملة صعبة** ألفريد هارداي، هو البطل الروائي الأنموذجي في القرن التاسع عشر (أسلوب المدارس الخاصة) بمواهب تصل إلى حد "النبوغ"، كما وصفها ريد. خريج قديم من إيتون وأكاديمي في أكسفورد، يعرف كل الآثار الأدبية الإغريقية واللاتينية تقريباً عن ظهر قلب، ويستطيع التلاكم مع مقاتلي الجوائز والفوز بالزوارق الماسية في هينيلي، ويجتاز مغامرات لا تصدق، يتصرف فيها طبعاً ببطولية معصومة، ثم في عمر الخامسة والعشرين يرث ثروة ويتزوج حبيبته جوليا دود، ويستقر في ضواحي ليفربول، في نفس البيت كما فعل حماه وحماته:

عاشوا كلهم معاً في البيون فيلا، والفضل في ذلك يعود لألفريد.... أوه أنت فيلا صغيرة سعيدة! أنت كنت مثل فردوس كما يمكن أن تكون أي دار هالكة، لكن جاء اليوم الذي لم تعد فيه جدرانك تستوعب كل النزلاء السعداء. منحت جوليا لألفريد صبياً جميلاً؛ تدخل ممرضتان وتبدي الفيلا علامات التفجر. شهران إضافيان، ويهرع ألفريد وزوجته إلى الفيلا التي تليها مباشرة، والتي تقع على بعد عشرين ياردة، وكان هناك سبب مضاعف لهذه الهجرة. وكما يحدث دائماً تقريباً بعد كل انفصال طويل، يهب الرب الكابتن والسيدة دود رضيعاً آخر ليلعب على ركبهما، إلخ إلخ.

هذا الضرب من النهايات الفيكتورية السعيدة -رؤية لعائلة ضخمة محبة من ثلاثة أو أربعة أجيال تكوموا معاً في نفس البيت ويتضاعفون باستمرار مثل سرير من المحار. اللافت جداً، هي الحياة السهلة المحمية الهينة التي تتضمنها. إنها ليست كسلاً عنيفاً مثل حياة سكواير ويسترن.

تلك هي أهمية خلفية ديكنز المدينية، وعدم اهتمامه بالجانب الرياضي البذيء للحياة العسكرية. إن أبطاله بمجرد أن يرثوا النقود ويستقرون، لا يكتفون بعدم امتهان أي عمل فقط، وإنما أيضاً لا يركبون الخيل أو يطلقون النار أو يبارزون أو يفرون مع الممثلات أو

يضيعون نقودهم في سباقات الخيل. إنهم يعيشون في بيوت على أسرّة من الريش، ويفضلون أن يكون جيرانهم من أقرباء الدم الذين يعيشون نفس الحياة تماماً:

كان أول عمل لنيكولاس، حين أصبح ثرياً وتاجراً ناجحاً، هو شراء بيت والده القديم. وبمرور الزمن أتى حوله تدريجياً مجموعة من الأطفال الجميلين، فتغير البيت وتوسع، لكن لم تُهدم واحدة من الغرف القديمة أو تقتلع شجرة واحدة، ولم يُنقل أو يُبدل أي شيء كان له أي ارتباط بالأزمنة الماضية.

على مسافة رمية حجر، كان هناك منزل آخر يعج بأصوات أطفال مسرة أيضاً؛ وهنا كانت كيت... نفس الأخت المغرمة الصادقة والمخلوقة اللطيفة، ونفس الحب لكل ما يحيط بها كما في أيام صباها.

إنه نفس الجو السفاحي، كما في المقطع المقتبس من ريد. ومن الواضح أن هذه هي النهاية الديكنزية المثالية التي تحققت تماماً في نيكولاس نيكلباي ومارتن تشازلويت وبيكويك، وتحققت تقريباً وبدرجات متفاوتة في كل الأعمال الأخرى، والاستثناءات هي أزمنة صعبة وآمال كبيرة- الأخيرة فيها "نهاية سعيدة" في الحقيقة، لكنها تناقض الميل العام للكتاب، وأُقحمت بطلب من بولار ليتون.

يبدو أن المثل الأعلى الذي يجب الصراع من أجله أذاً، هو شيء مثل هذا: مئة ألف جنيه وبيت قديم عتيق الطراز مع وفرة من نبات اللبلاب عليه، وزوجة أنثوية بصورة حلوة، وقبيلة من الأطفال ومن دون عمل. كل شيء آمن وسهل وهادئ، وقبل كل شيء منزلي. قبور الأحباء الذي رحلوا قبل حدوث النهاية السعيدة في فناء الكنيسة التي تنمو عليها الطحالب في أسفل الطريق. الخدم هزليون وإقطاعيون، والأطفال يثرثرون عند قدميك، والأصدقاء القدماء يجلسون حول موقدك يتحدثون عن الأيام الماضية، وهناك سلسلة متوالية لا تنتهي من الوجبات وشراب البنش البارد، وخمرة شيري، وأسرّة الريش، ومدفئات السرير، وحفلات عيد الميلاد مع الألعاب التمثيلية التحزيرية، وعكاز الرجل الأعمى؛ لكن لا شيء يحدث أبداً سوى ولادات الأطفال السنوية. الشيء الغريب أن تلك هي صورة سعيدة بصدق وحقيقية، أو أن ديكنز استطاع أن يجعلها تبدو هكذا. إن التفكير في تلك الحياة وذلك الوجود اللطيف يرضيه ويسره، وهذا وحده فقط سيكون كافياً ليخبر المرء أن أكثر من مئة سنة مرت منذ أن

كتب ديكنز كتابه الأول. لا يستطيع أي رجل عصري أن يوحد ويجمع مثل هذه التفاهة بهذا القدر الكبير من الحيوية.

القسم الخامس:

في هذا الوقت ربما يغضب مني كل محب لديكنز قرأ إلى هنا فقط.

كنت أناقش ديكنز في ضوء "رسالته"، وتجاهلت صفاته الأدبية تقريباً. لكل كاتب وخصوصاً الروائي "رسالة" - سواء اعترف بذلك أم لا- تؤثر على أدق التفاصيل في أعماله. إن الفن كله دعاية (بروباغاندا)، ولم يفكر ديكنز أو غيره من أكثر الروائيين الفيكتوريين في إنكار هذا، لكن من جانب آخر ليس كل الدعاية فناً. كما قلت سابقاً إن ديكنز واحد من هؤلاء الكتاب الذين شعروا بأنهم جديرون بأن يُسرقوا، وقد سُرق من قبل الماركسيين والكاثوليكيين، وقبل كل شيء من قبل المحافظين. السؤال هو ماذا يوجد هناك لسرقته؟ ولماذا يهتم الجميع بديكنز؟ ولماذا أنا أهتم بديكنز؟

لم تكن الإجابة على هذا النوع من الأسئلة سهلة أبداً. إن التفضيل الجمالي كقاعدة، إما أنه شيء لا يُفسر، أو أنه أُفسد ببواعث غير جمالية، ما يدفع المرء إلى التساؤل إن كان النقد الأدبي برمته ليس سوى شبكة ضخمة من الخدع والدجل. في حالة ديكنز العامل المعقد هو ألفته وحميميته. صدف أنه واحد من "المؤلفين العظماء" الذين ملؤوا حلق كل واحد في موضوع الطفولة، ما سبب في وقته تمرداً وتقيؤاً، ولكن قد يكون له آثار لاحقة في حياة تالية. فمثلاً إن كل واحد تقريباً يشعر بحب خفي للقصائد الوطنية التي حفظها عن ظهر قلب حين كان طفلاً "أنتم يا بحارة إنكلترا" و"مهمة اللواء الخفيف" وهلم جرا، وقد لا يستمتع بالقصائد نفسها بقدر استمتاعه بالذكريات التي تستدعيها تلك القصائد. ومع ديكنز تعمل نفس القوى التي تعمل في تداعي الأفكار. قد تجد نسخاً لواحد أو اثنين من كتبه في أكثر البيوت الإنكليزية، وكثير من الأطفال بدؤوا معرفتهم بشخصياته بالنظر قبل أن يعرفوا القراءة حتى، لأن ديكنز بالمجمل كان محظوظاً في أمثلته التوضيحية. إن الشيء الذي تتشرب به بوقت مبكر لن يتعارض مع أي حكم نقدي. حين يفكر المرء بهذا، فإنه يفكر بكل ما هو رديء وسخيف في ديكنز- "الحبكات" الروائية القوية والشخصيات التي لا تقوم بأي عمل، والمقاطع المملة الطويلة، والفقرات المكتوبة بالشعر الحر، وصفحات "الرثاء" البغيضة، ثم تنبثق الفكرة

بعدئذ. هل أقصد حين أقول أنا أحب ديكنز، أني أحب التفكير بطفولتي فقط؟ وهل ديكنز مجرد عُرف؟

إن كان كذلك، فهو عُرف لا مناص منه. فكم مرة في الحقيقة يفكر المرء بكاتب ما، وحتى الكاتب الذي يهتم به، شيء صعب تقريره؛ وأشك أن يستطيع كل من قرأ ديكنز فعلياً أن يمرر أسبوعاً من دون أن يتذكره في سياق أو آخر. إن كنت تستحسنه أم لا، فهو هناك مثل عمود نيلسون. في أية لحظة أنت عرضة بأن يخرج عليك مشهد ما أو شخصية من أحد كتبه التي لا تستطيع تذكر اسمه، ويسقط في ذهنك. رسائل ميكاوبر! ويتكل في قفص الشهود! السيدة غامب! السيدة ويتيترلي والسير توملي سنوفيم! وآل تودجر! (قال جورج غيسنغ إنه حين مرّ بالنصب التذكاري، فإن ما فكر فيه، لم يكن حريق لندن أبداً، وإنما آل تودجر دائماً) السيدة ليو هانتر! وسكويرز! وسيلاس ويغ وسقوط الإمبراطورية الروسية! والسيدة ميلز وصحراء الصحارى! وبسل وهو يمثل دور هاملت! والسيدة جليباي! ومانتاليني وجيري كرنشر وباركيس وبامبلتشوك وتريسي توبمان وسكيمبول وجو غارغيري وبيكسنيف- وتطول قائمة الأسماء. إنها أشبه بعالم مؤلف من سلسلة طويلة من الكتب. عالم ليس هزلياً صرفاً أيضاً، لأن قسماً مما يتذكره المرء في ديكنز هو مرضيته الفيكتورية وانجذابه المرضي نحو الجثث ومناظر الدم والرعد -موت سايكس واحتراق كروك العفوي وفاجين في زنزانة المحكومين، والنسوة يحبكن حول المقصلة. لقد دخل كل هذا وبمدى مدهش حتى في عقول الناس الذين لم يهتموا بكتبه. يستطيع أي ممثل هزلي في صالة موسيقى أن يصعد إلى المسرح ويمثل دور ميكاوبر أو السيدة غامب، وهو متيقن تماماً بأنه سيكون مفهوماً رغم عدم وجود واحد من عشرين من الحضور الذين قرؤوا كتاباً كاملاً لديكنز. حتى الذين يتظاهرون بازدرائه، فهم يقتبسونه من دون قصد منهم.

ديكنز كاتب يمكن تقليده إلى نقطة محددة، ومثال على ذلك، يوجد في الأدب الشعبي الأصلي نسخة الفيل والقلعة لسويني تود التي انتحلها بوقاحة تامة. إن الذي تمّ تقليده ببساطة، هو العرف الذي أخذه ديكنز من روائيين سابقين وطوره، ألا وهو عبادة "الشخصية" أي غرابة الأطوار. أما الشيء الذي لا يمكن تقليده، فهو خصوبة إبداعه الذي يقلّ في الشخصيات ويقلّ أكثر في "الأوضاع" مقارنة بأسلوبه الخاص في التعبير والتفاصيل

الملموسة. إن السمة البارزة والجلية في كتابات ديكنز هي **التفاصيل غير الضرورية**، والاقتباس التالي مثال عما أقصده. إن القصة التالية ليست هزلية بشكل متميز، لكن فيها عبارة واحدة متفردة مثل البصمة. السيد جاك هوبكنز في حفلة بوب سوير، يروي قصة طفل بلع قلادة أخته:

في اليوم التالي بلع الطفل خرزتين، وفي اليوم الذي تلاه متّع نفسه بثلاث، وهلم جرا. وفي غضون أسبوع، استهلك العقد -خمس وعشرين خرزة. الأخت التي كانت فتاة كادحة، وقلما دللت نفسها ولو بقليل من الحلي والبهرجة، بكت كثيراً على خسارة القلادة، وبحثت عنها في كل مكان، لكنها لم تجدها. وبعد بضعة أيام من ذلك، كانت العائلة على وجبة الغداء -كتف خروف محمص وبطاطا تحته- الطفل الذي لم يكن جائعاً كان يلعب في الغرفة حين كان هناك ضجيج رهيب مثل عاصفة برد صغيرة فجأة. "لا تفعل ذلك يا بني" قال الأب. "أنا لم أفعل شيئاً" قال الطفل. "حسناً لا تفعل ذلك ثانية" قال الأب. كان هناك صمت قصير، ثم بدأ الضجيج ثانية بشكل أسوأ من ذي قبل. "إن لم تكترث بما قلته لك يا ولدي" قال الأب "ستجد نفسك في السرير في شيء أقل من همسة خنزير". هز الأب الطفل لكي يمتثل للأمر، ونتج عن هذا الهز ما لم يسمعه أحد من قبل. "لماذا تدينوني، إنه في الطفل" قال الأب "لقد أصيب بالخناق في المكان الخطأ!"، قال الطفل "كلا لم أصب يا أبي" وبدأ بالبكاء "إنها القلادة؛ لقد بلعتها يا أبي" حمل الأب الطفل وركض به إلى المستشفى، وكان الخرز يقعقع في معدته طول الطريق مع الارتجاج، والناس ينظرون عالياً في الجو وفي الأقبية في الأسفل ليروا من أين يأتي الصوت غير المعتاد. "إنه في المستشفى الآن" قال جاك هوبكنز "ويصدر ضجيجاً رهيباً حين يمشي في المكان، لذلك اضطروا إلى تلفيعه ولفه بمعطف خفير كي لا يوقظ المرضى"

إجمالاً هذه القصة يمكن أن تأتي من أي صحيفة هزلية في القرن التاسع عشر، لكن لمسة ديكنز الواضحة والشيء الذي لم يفكر فيه أحد غيره، هو كتف الخروف المحمص والبطاطا تحته. كيف يحسّن هذا القصة ويجعلها تتقدم؟ الجواب: هذا لن يحسنها، وهو شيء غير ضروري تماماً وخربشة مزخرفة تافهة على هامش الصفحة، ولكن بهذه الخربشات فقط يخلق ديكنز جوه الخاص به. الشيء الآخر الذي يلاحظه المرء هنا، هو أن طريقة ديكنز في رواية القصة تأخذ وقتاً طويلاً، والمثال المشوق عن ذلك والذي أطول من أن يُقتبس هو قصة سام

ويلر عن المريض العنيد في الفصل الرابع والأربعين من أوراق بيكويك. في الحقيقة وكما حدث، ينتحل ديكنز القصة عمداً أم دون قصد، ولدينا معيار للمقارنة هنا. القصة يرويها كاتب إغريقي قديم جداً لا أستطيع إيجاد المقطع الآن، لكني قرأته منذ سنين حين كنت صبياً في المدرسة، وهي تحدث على الشكل التالي تقريباً:

أحد التراسيين الذي اشتهر بعناده، حذرّه طبيبه بأنه إذا شرب قنينة كبيرة من النبيذ، فإنها ستقتله. وبناء على ذلك، شرب التراسي قنينة النبيذ وقفز فوراً من أعلى البيت فهلك، وقال "لأنني بهذه الطريقة سأثبت بأن النبيذ لم يقتلني".

يروي الإغريقي القصة كلها بطريقته في حوالي ستة أسطر. أما سام ويلر فتأخذ منه ألف كلمة. قبل أن نصل إلى الغرض والمغزى بوقت طويل، يخبرنا عن ثياب المريض ووجبات طعامه وعاداته وحتى الصحف التي قرأها، والتركيبة الغريبة لعربة الطبيب التي تخفي عدم تناسب سروال الحوذي مع معطفه، ثم الحوار بين الطبيب والمريض. قال المريض "إن الكعك المحمص بالزبدة مفيد للصحة يا سيدي" ردّ الطبيب بقوة وبغض شديد: "إن الكعك المحمص بالزبدة ليس مفيداً للصحة يا سيدي" في النهاية تُطمر القصة تحت التفاصيل، والحال نفسه في أغلب مقاطع ديكنز المميزة، فخياله يغمر كل شيء مثل نوع من العشب الضار. يقف سكويرز ليخاطب صبيانه ويأتي إلى مسامعنا على الفور شيء عن والد بولدر المحتاج إلى جنيهين وعشرة بنسات، وزوجة والد موب التي أُخذت إلى سريرها حين سمعت أن موب لن يأكل الدسم، وتمنت أن يجلده السيد سكويرز ويدفعه إلى حالة عقلية أبهج. السيدة ليو تكتب قصيدة بعنوان "الضفدعة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة" ويُقدم منها مقطعان شعريان كاملان، وبوفين يُرسم كبخيل. وعلى الفور نهبط وسط سير ذاتية قذرة عن بخلاء من القرن التاسع عشر بأسماء مثل فلتشر هويكينز والمبجل بلوبيري جونز، وعناوين فصول مثل "قصة فطائر لحم الضأن" و"كنوز كومة الروث" والسيدة هاريس التي ليس لها وجود، ولها تفاصيل كُدست عليها تكفي لوصف أكثر من ثلاث شخصيات في أي رواية عادية. ونعرف في وسط الجملة أن ابن شقيق ميرلي الرضيع مثلاً شُوهد في قارورة في غرينيتش فير مع السيدة ذات العينين القرنفليتين والقزم البروسي والهيكل العظمي الحي. جو غارغيري يصف كيف سطا اللصوص على بيت تاجر الذرة والبذور بمبلتشوك "وأخذوا درج نقوده وخزنته

وشربوا نبيذه وأكلوا لغود دجاجه، وصفعوه على وجهه وشدو أنفه وربطوه إلى قائمة سريره، وسدوا فمه بنباتات حولية مزهرة كاملة النمو لمنعه من الصراخ". مرة أخرى نجد لمسة ديكنز الواضحة حول النباتات الحولية المزهرة. ولو كان أي روائي آخر، فلن يتذكر نصف هذه الانتهاكات. كل شيء يُكوّم ويُكدّس، تفصيل فوق تفصيل آخر وزخرفة فوق أخرى. من العبث الاعتراض أن تعتبر هذا النوع من الشيء روكوكو (زخرفة مفرطة) -يمكن للمرء أن يقوم بنفس الاعتراض على كعكة الزفاف. إما أنك تحبه أو لا تحبه. كتّابنا في القرن التاسع عشر، سورتيس وبارهام وثاكري وحتى ماريات، لديهم بعض من صفة ديكنز الفائضة والغزيرة، لكن ليس بنفس الدرجة والمقياس. إن جاذبية هؤلاء الكتاب كلهم الآن تعتمد جزئياً على نكهة دورية، ولكن ماريات مازال رسمياً "صبي كاتب"، وسورتيس لديه نوع من السمعة الأسطورية وسط رجال صيادين، وربما يُقرأ من قبل الناس المولعين بالمطالعة.

من الجدير بالذكر أن أكثر كتب ديكنز نجاحاً (ليس أفضل كتبه) أوراق بيكويك وهو ليس رواية، وازمنة صعبة، وقصة مدينتين غير الهزلية. إن خصوبة ديكنز الطبيعية كروائي، عرقلته كثيراً جداً بسبب المحاكاة الساخرة التي لم يقدر على مقاومتها أبداً، والتي تقتحم دائماً ما ينبغي به أن يكون أوضاعاً جدية. هناك مثال جيد عن هذا في الفصل الافتتاحي من آمال كبيرة. المجرم الفار ماغويتش الذي أسر بيب ذا الست سنوات في باحة الكنيسة. يبدأ المشهد بشكل مروع تماماً من وجهة نظر بيب. المجرم مغطى بالوحل، وبقيده المتدلي من ساقه يثب فجأة من وسط القبور ويخطف الطفل ويقلب عاليه على أسفله ويسرق جيوبه. ثم يبدأ بترويعه في جلب مبرد:

أمسك بي من ذراعي في وضع عمودي على قمة صخرة، واستمر بهذه العبارات المخيفة:

"ستحضر لي ذلك المبرد والسكاكين في صباح الغد. اجلب لي الكثير في ذلك الحصن القديم هناك. افعل ذلك ولا تحاول أن تنبس بكلمة أو بإشارة تتعلق برؤيتك لشخص مثلي أو أي شخص آخر، وسوف أتركك تعيش. إن فشلت أو خرجت عن كلماتي بأي جزئية مهما كانت صغيرة، فسأمزق قلبك وكبدك وأشويهما وآكلهما. الآن أنا لست لوحدي كما تظن. هناك شاب مخبأ في داخلي، وأنا ملاك مقارنة بذلك الشاب. ذلك الشاب يسمع الكلمات التي تفوهت بها. ذلك الشاب لديه طريقة خاصة به في الوصول إلى أي صبي وإلى قلبه وإلى كبده.

من العبث أن يحاول صبي أن يختبئ من ذلك الشاب. قد يغلق صبي بابه على نفسه ويتدفأ بسريره وربما يغطي نفسه جيداً بلحاف أو يشد ثيابه فوق رأسه، وقد يظن نفسه مرتاحاً وآمناً، لكن ذلك الشاب سيتسلل ويشق طريقه إليه بسهولة، وينتزع الباب ويفتحه. أنا أمنع ذلك الشاب من إيذائك في الوقت الحالي، لكن بصعوبة كبيرة. أنا أجد صعوبة في منع ذلك الشاب عن أحشائك. ما رأيك الآن؟

يستسلم ديكنز للإغراء هنا ببساطة. بداية ليس هناك شخص مطارد وجائع يتكلم بهذه الطريقة، وبالرغم من الخطاب الذي يبين معرفة واضحة بالطريقة التي يفكر بها عقل الطفل، إلا أن كلماته الفعلية لا تتناسب أبداً مع النغمة التي تلي ذلك، لأنها حولت ماغويتش إلى العم الشرير في المسرحيات الإيمائية، أو إلى مسخ مرعب لو رآه أحد بعيني طفل. وفي صفحات لاحقة من الكتاب، لم يصَوّر ويُقدم أياً من الشكلين السابقين. وبسبب هذا لم يُصدق عرفانه بالجميل المبالغ به الذي تدور حوله الحبكة. كالمعتاد يغمره خيال ديكنز. إن التفاصيل التصويرية أجود من أن تُحذف. حتى مع شخصيات أكثر قليلاً من ماغويتش الذي كان عرضة للسقوط بعبارة إغواء، فالسيد ميردستون مثلاً له عادة في إنهاء دروس ديفيد كوبرفيلد في كل صباح بعملية جمع حسابية كريهة تبدأ دائماً: "لو دخلت أنا إلى متجر بائع الجبن، واشتريت أربعة آلاف قطعة جبن مزدوجة من نوع غلوستر، سعر القطعة الواحدة منها أربعة بنسات، قدم الفاتورة". مرة أخرى تجد التفصيل الأنموذجي عند ديكنز، الجبن المزدوج من صنف غلوستر، لكنها لمسة أبعد من أن تكون إنسانية بالنسبة إلى ميردستون لو جعلها خمسة آلاف خزنة حديدية. كلما تعزف هذه النغمة، تعاني وحدة الرواية. وهذا ليس مهماً بأي درجة، لأن ديكنز كاتب تهمه أجزاءه أكثر من كلياته بشكل واضح، وهو مكوّن من كل الكسر وكل التفاصيل المتعفنة لأسلوب البناء، لكنها تماثيل قبيحة رائعة -ولم يكن ديكنز أفضل حين يرسم واحدة من شخصياته التي تُجبر لاحقاً على الفعل بشكل متضارب.

من غير المعتاد طبعاً أن تجادل وتقول إن ديكنز جعل شخصياته تتصرف بشكل متضارب، لأنه متهم عموماً بفعل العكس تماماً. يفترض بشخصياته أنها مجرد "أنماط"، كل واحدة منها تمثل سمة وحيدة ومزودة برقعة مميزة، تتعرف من خلالها على هذه السمة. إن الاتهام المعتاد بأن ديكنز مجرد "رسام كاريكاتير"، هو اتهام ظالم لم ينصفه. بدايةً، هو لم ير نفسه رسام

كاريكاتير، وكان دائماً يشرك شخصياته، التي يفترض أنها ستاتيكية تماماً، في الفعل القصصي. سكويرز وميكاوبر والآنسة ماوتشر.* حوّل ديكنز الآنسة ماوتشر إلى بطلة، لأن المرأة الحقيقية التي رسمها بشكل كاريكاتوري، قرأت الفصول السابقة، واستاءت بشدة. فقد أردها سلفاً أن تلعب دوراً خسيساً. لكن أي فعل من قبل هكذا شخصية، سوف يبدو متضارباً. حاشية المؤلف. ويغ، سكيمبول وبيكسنيف وكثيرون غيرهم يُربطون في النهاية في "حبكات"، يبدون غير مناسبين فيها، ويتصرفون بشكل لا يصدق إطلاقاً. يبدؤون مثل شرائح فانوس سحري، وينتهون كما لو أنهم في فيلم من الدرجة الثالثة. أحياناً يستطيع المرء وضع إصبعه على جملة بعينها يتهدم فيها الوهم الأصلي. هناك مثل هذه الجملة في ديفيد كوبرفيلد. بعد حفلة عشاء مشهورة (الحفلة التي لم ينضج فيها فخذ الخروف) يقود ديفيد ضيوفه للتفرج على البيت، فيوقف ترادلز بأعلى درج السلم:

"ترادلز" قلت، "إن السيد ميكاوبر لا يقصد أي ضرر يا رفيقي المسكين، لكني لو كنت مكانك فلن اقرضه أي شيء"

"عزيزي كوبرفيلد" رد ترادليز مبتسماً "ليس لدي ما أقرضه إياه".

"لديك اسم، أنت تعرف ذلك" قلت.

....

في المكان الذي يقرأ المرء فيه هذه الملاحظة، فإنها ترتج قليلاً عبر شيء من النوع المحتوم عاجلاً أو آجلاً. القصة واقعية إلى حد ما، وديفيد يكبر، وأخيراً هو مجبر بأن يرى السيد ميكاوبر كما هو، وغد متسول. بعدئذ طبعاً، تهزمه عاطفية ديكنز، ويدفع ميكاوبر إلى قلب صفحة جديدة، لكن منذ ذلك الوقت بات من المستحيل استرداد ميكاوبر الأصلي رغم المحاولات اليائسة. كقاعدة، "الحبكة" التي تُشبك فيها شخصيات ديكنز، غير معقولة بشكل واضح، لكنها تتظاهر ببعض الواقعية على الأقل، والعالم الذي تنتمي إليه بلاد الأحلام الرائعة ونوع من الخلود. لكن هنا تماماً يرى المرء أن "مجرد رسام كاريكاتير" ليس إدانة في الحقيقة. إن الظن الدائم بديكنز كرسام كاريكاتير، على الرغم من محاولاته الدائمة بأن يكون شيئاً آخر، هي ربما أقوى علامة عن عبقريته. لازالت الفظاعات التي خلقها تُذكر كفظاعات، رغم الخلط بينها وبين ما يمكن اعتباره ميلودراما. أثرها الأول قوي جداً، لدرجة لا يمحوه أي شيء يليه، ومثل الناس الذين عرفهم المرء في طفولته، يتذكرهم المرء دائماً في وضع محدد

واحد، ويفعلون الشيء بعينه. فالسيدة سكويزر توزع الكبريت والدبس دائماً، والسيدة غميدج تبكي دائماً، والسيدة غارغيري تخبط رأس زوجها بالجدار دائماً، والسيدة جيليباي تخربش في كراسات، بينما أطفالها يسقطون في فناء الدار- وهم كلهم هناك مثبتون إلى الأبد مثل منمنمات متلألئة مرسومة على أغطية علب السعوط. إنها شخصيات وهمية تماماً، ولا تصدق. ومع ذلك إنها أكثر صلابة، ويمكن تذكرها أكثر بكثير من محاولات الروائيين الجديين. حتى بمعايير عصره، كان ديكنز كاتباً متكلفاً بشكل استثنائي. كما قال روسكين هو"اختار أن يعمل في دائرة نار المسرح". شخصياته مشوهة ومبسطة أكثر من شخصيات سموليت. ليس هناك قوانين في كتابة الرواية، ولكن لأي عمل فني هناك اختبار وحيد جدير بالاهتمام، ألا وهو البقاء. بهذا الاختبار، نجحت شخصيات ديكنز حتى لو لم يرها الناس الذين يتذكرونها، كائنات بشرية. إنها مسوخ، ولكنها موجودة وحية في كافة الأحوال.

لكن بالمثل، هناك سلبية وخسارة في الكتابة عن المسوخ. تصل إلى القول إن ديكنز لا يستطيع أن يخاطب إلا أمزجة محددة فقط، وأن هناك مناطق واسعة من العقل البشري لم يلمسها أبداً. لا يوجد شعور شاعري في أي مكان في كتبه أو مأساة حقيقية أو حتى الحب الجنسي خارج منظوره تقريباً. في الواقع إن كتبه ليست لاجنسية جداً كما تظهر أنها كذلك أحياناً، ومع الأخذ بعين الاعتبار الوقت الذي كان يكتب فيه، فهو صريح باعتدال، لكن لا يوجد فيه أي أثر من المشاعر التي يجدها المرء في مانون ليزكو أو سالامبو أو كارمن أو مرتفعات وذرينغ. حسب ما نقل ألدوس هكسلي، فإن دي إتش لورانس قال مرة إن بلزاك كان "قزماً عملاقاً"، وذلك يصح على ديكنز بمعنى ما. هناك عوالم كاملة لم يعرف عنها شيئاً أو لم يرغب في ذكرها. لا يستطيع المرء تعلم الكثير جداً من ديكنز إلا بطريقة ملتوية نوعاً ما، وقولي هذا يجعلني أفكر بالروائيين الروس العظام في القرن التاسع عشر فوراً. لماذا تبدو سيطرة تولستوي أضخم من سيطرة ديكنز بكثير- لماذا يبدو أنه قادر أن يخبرك الكثير جداً عن نفسك؟ ليس لأنه أكثر موهبة أو حتى في التحليل النهائي أكثر ذكاء، وإنما لأنه يكتب عن أناس يكبرون. إن شخصياته تكافح من أجل صنع جوهرها ونفسها، بينما شخصيات ديكنز منجزة وتامة مسبقاً. إن شخصيات ديكنز تتواجد في ذهني الخاص بي في أحوال أكثر بكثير وحية أكثر بكثير من شخصيات تولستوي، لكن في موقف واحد لا يتبدل دائماً كالصور أو

قطع الأثاث. لا يمكنك أن تدير محادثة خيالية مع شخصية من شخصيات ديكنز كما تستطيع مع بيتر بيزوخوف مثلاً، وهذا ليس لأن جدية تولستوي أكبر، فهناك أيضاً شخصيات هزلية تستطيع تخيل نفسك وأنت تتحدث إليها- بلوم مثلاً أو بيكوشيه أو حتى السيد بولي عند ويلز. السبب أن شخصيات ديكنز ليست لها حياة عقلية، فهي تقول الشيء الذي يجب عليها قوله تماماً، ولا يمكن تخيلها وهي تتحدث عن أي شيء آخر. إنها لا تتعلم أبداً ولا تفكر أبداً. ربما أكثر الشخصيات ولعاً بالتأمل والتفكير، هي شخصية بول دومبي وأفكاره هريسة. هل يعني هذا أن روايات تولستوي "أفضل" من روايات ديكنز؟ الحقيقة أنه من السخف إجراء مثل هذه المقارنة من منظور "أفضل" و"أسوأ". لو أُجبرت أن أقارن بين تولستوي وديكنز، ينبغي أن أقول إن جاذبية تولستوي أوسع على المدى الطويل، لأن ديكنز نادراً ما يكون مفهوماً خارج الثقافة الناطقة بالإنكليزية. ومن جانب آخر إن ديكنز قادر على الوصول إلى الناس البسطاء، وهذا ما عجز عنه تولستوي. تستطيع شخصيات تولستوي عبور الحد، أما شخصيات ديكنز فيمكن تصويرها على ورقة سيجارة. إن المرء ليس ملزماً على الاختيار بينهما، أكثر من اختياره بين قطعة من النقانق وبين وردة. إن أهدافهما نادراً ما تتقاطع.

القسم السادس:

لو كان ديكنز مجرد كاتب هزلي، لما تذكر أحد اسمه الآن، أو في أحسن الأحوال كانت ستبقى بضعة من كتبه بنفس الطريقة التي بقيت فيها كتب مثل **فرانك فيرلي** والسيد **فيردانت غرين** و**محاضرات السيدة كوديل المحجوبة**، كنوع من مخلفات الجو الفيكتوري، ونفحة ضئيلة لطيفة من المحار والجعة البنية. من منا لم يشعر أحياناً "بالأسف" لأن ديكنز هجر خط ونوع **بيكويك** من أجل أشياء مثل **ليتل دوريت الصغيرة** و**أزمنة صعبة**؟ إن الذي يطلبه الناس دائماً من الروائي الشعبي، هو أن يكتب نفس الكتاب مرة تلو أخرى، ناسين أن الرجل الذي يكتب نفس الكتاب مرتين، لا يستطيع أن يكتبه ولو مرة واحدة.

أي كاتب ليس ميتاً على نحو واضح، يتنقل على نوع من القطع المكافئ والتقوس النازل متضمن في التقوس الصاعد. أجبر جويس أن يبدأ بكفاءة فاترة في **أهالي دوبلن**، وانتهى بلغة حالمة في **يقظة فينيغان**، لكن **يوليسيس** و**صورة الفنان**، فهما جزء من المسار المنحني. إن الشيء الذي دفع ديكنز قدماً إلى شكل من الفن، لم يكن يناسبه في الحقيقة، والذي بنفس

الوقت جعلنا نتذكره هو في الحقيقة أنه كان عالم أخلاق والشعور بأن "لديه ما يقوله". إنه يقدم المواعظ السلوكية دائماً، وهذا هو السر الحاسم لقدرته الإبداعية. لأنك تستطيع أن تبدع فقط إن استطعت أن تهتم. لا يمكن إنتاج أنماط مثل سكويرز وميكاوبر بواسطة كاتب مبتذل يبحث عن شيء ليكون مضحكاً. إن الدعابة الجديرة بأن تضحك دائماً، توجد فكرة خلفها وتكون فكرة متمردة عادة. إن ديكنز قادر على الاستمرار بكونه مضحكاً، لأنه في ثورة ضد السلطة، والسلطة دائماً هناك لإثارة السخرية. هناك دائماً متسع لفطيرة كستر أخرى.

إن راديكاليته من النوع الأكثر غموضاً، ومع ذلك يعرف المرء أنها موجودة هناك دائماً. ذلك هو الفرق بين الداعية الأخلاقي والسياسي. ليس لديه مقترحات بناءة ولا حتى إدراك واضح لطبيعة المجتمع الذي يهاجمه، وإنما لديه بصيرة عاطفية بالخطأ الموجود، وكل ما يستطيع قوله أخيراً "تصرفوا باحترام"، الذي كما أوحيت مسبقاً ليس بالضرورة ضحلاً جداً كما يبدو. غالبية الثوريين هم توريون (محافظون) كامنون، لأنهم يتصورون أن كل شيء يمكن تصحيحه بتبديل شكل المجتمع، وبمجرد إنجاز ذلك التغيير، كما يحدث أحياناً، يرون عدم الحاجة إلى أي شيء آخر غيره. ليس لدى ديكنز هذا النوع من الفظاظة العقلية. غموض سخطه هو العلامة على استمرار هذا السخط. هو ليس ضد هذه المؤسسة أو تلك، وإنما كما قالها تشيسترتون "تعبير على الوجه الإنساني". إن مبادئه الأخلاقية مبادئ مسيحية تقريباً، لكن رغم نشأته الإنجليكانية، إلا أنه كان مسيحي الكتاب المقدس، مثلما حين اهتم أن يوضح ذلك عند كتابة وصيته. وبأي حال لا يمكن وصفه بدقة كرجل متدين. لقد "آمن بالدين" بلا شك، لكن الدين بالمعنى التعبدي لم يدخل في أفكاره كما يبدو.* إنه مسيحي في وقوفه شبه الغريزي إلى جانب المظلومين ضد الظالمين. إنه يقف في صف الضحية دائماً وفي كل مكان، كشيء بديهي ومسلم به. لو دفعنا بهذا إلى نتيجته المنطقية، فيجب على المرء أن يبدل

---

* من رسالة إلى ابنه الأصغر عام ١٨٦٨: "سوف تتذكر أنك لم تتعرض إلى مضايقة في البيت أبداً بسبب الطقوس الدينية أو الشكليات. لقد كنت حذراً دائماً بألا أرهق أولادي بمثل هذه الأشياء قبل أن يكونوا كباراً ويشكلوا آراءهم التي يحترمونها. لذلك سوف تفهم أني الآن أغرس فيك صدق وجمال الدين المسيحي، كما جاء من المسيح نفسه، واستحالة أن تضل وتتوغل في الخطأ إن احترمته بإخلاص وتذلل..... لا تتخلَّ عن الممارسة المفيدة في تأدية صلواتك أبداً في الليل وفي الصباح. أنا لم أتركها أبداً وأعرف الراحة التي تجلبها. ملاحظة المؤلف.

الاصطفاف حين يتحول الضعيف إلى غالب، ولكن ديكنز في الحقيقة لم يرغب أو يميل إلى هذا الفعل. إنه يشمئز من الكنيسة الكاثوليكية مثلاً، لكن بمجرد أن يُضطهد الكاثوليك (بارنابي رودج) يصبح في صفهم، ويشمئز من الطبقة الأرستقراطية أكثر، لكن فور الإطاحة بها (الفصول الثورية في قصة مدينتين) يميل تعاطفه. كلما كان يحيد عن موقفه العاطفي كان يتوه. مثال معروف في نهاية ديفيد كوبرفيلد؛ حيث كل من يقرأه يشعر بوجود خلل ما. الخلل أن الفصول الختامية كانت مشبعة بعبادة النجاح بشكل باهت لكنه ملحوظ. إنه الإنجيل بالنسبة إلى سمايل بدلاً من الإنجيل بالنسبة إلى ديكنز. الشخصيات الرثة الثياب الجذابة التي تم التخلص منها، ميكاوبر يجني ثروة، هيب يدخل السجن- هذان الحادثان مستحيلان بشكل واضح- حتى دورا تُقتل لتخلي المجال لأغنيس. إن أحببت يمكنك أن تقرأ دورا على أنها زوجة ديكنز وأغنيس أخت زوجته، لكن النقطة الجوهرية أن ديكنز قلب طبيعته المحترمة الخاصة به وقسا عليها. لهذا ربما تكون أغنيس الأشد كرهاً بين بطلاته، الملاك الذي بلا ساقين في القصص العاطفي الفيكتوري، ورديئة بدرجة لورا عند ثاكري.

ليس هناك شخص ناضج يقرأ ديكنز ولا يشعر بقصوره وعجزه، ومع ذلك يبقى هناك سخاء عقله الأصيل الذي يعمل كنوع من مرساة تبقيه حيث ينتمي، وربما هو السر المركزي لشعبيته. إن تناقض المبادئ الدمث والسلمي من الأنموذج الذي لدى ديكنز هو إحدى علامات الثقافة الشعبية الغربية، والتي يراها المرء في القصص الشعبية والأغاني الهزلية والشخصيات الخيالية مثل ميكي ماوس والبحار بوب-آي (كلاهما شكلين مختلفين عن جاك قاتل المارد) وفي تاريخ اشتراكية الطبقة العاملة في الاحتجاجات الشعبية (غير فعالة دائماً لكنها ليست زائفة دائماً) ضد الإمبريالية وفي الدافع الذي يجعل هيئة المحلفين تمنح مكافأة عن أضرار مفرطة تسببها عربة غني حين تدهس رجلاً فقيراً؛ إنه الشعور بأن يكون المرء في الجانب الخطأ من الضحية وفي جانب الضعيف ضد القوي. بمعنى واحد إنه الشعور الذي بات عتيقاً ومهملاً منذ خمسين سنة. إن الإنسان العادي لازال يعيش في عالم ديكنز العقلي، لكن كل مثقف عصري تقريباً انتقل إلى شكل آخر من الاستبدادية. من وجهة نظر الماركسي أو الفاشي إن كل ما مثله ديكنز وناصره تقريباً يمكن شطبه باعتباره "مبادئ أخلاقية بورجوازية". لكن في المنظور الأخلاقي لم يستطع أحد أن يكون أكثر "بورجوازية" من الطبقات العاملة

الإنكليزية. الناس العاديون في البلدان الغربية لم يدخلوا أبداً عقلياً في عالم "الواقعية" وسياسة القوة. ربما يفعلون هذا قريباً، وفي هذه الحالة سيكون ديكنز عتيقاً ومهملاً مثل العربة التي يجرها الحصان. لكن في عصره وعصرنا كان مشهوراً وله شعبية أساساً، لأنه كان قادراً أن يوضح في صور هزلية مبسطة، وبناءً عليه يمكن تذكرها شكلاً من آداب سلوك الرجل العادي المحتشم الأصيلة، والمهم من وجهة النظر هذه يمكن وصف الناس الذين من أنواع مختلفة جداً بـ"العوام". في بلاد مثل إنكلترا هناك وحدة ثقافية معينة رغم التركية الطبقية. في كل العصور المسيحية ومنذ الثورة الفرنسية خصوصاً، لازمت فكرة الحرية والمساواة العالم الغربي، ونفذت إلى كل مراتب المجتمع، على الرغم من كونها مجرد فكرة فقط. إن أشنع المظالم والأعمال الوحشية والأكاذيب والغطرسة موجودة في كل مكان، لكن ليس هناك أناس كثيرون يستطيعون النظر إلى هذه الأشياء بنفس لامبالاة الروماني مالك الرق مثلاً، فحتى المليونير يعاني من إحساس مبهم بالذنب مثل كلب يأكل فخذ ضأن مسروق. كل واحد تقريباً أياً كان سلوكه يستجيب عاطفياً لفكرة الأخوة الإنسانية. عبر ديكنز عن نظام آمن الناس به ولازالوا عموماً حتى من قبل الذين ينتهكونه، وإلا من الصعب تفسير لماذا استطاع الناس الشغيلة قراءته (شيء لم يحدث لأي روائي في منزلته) ولماذا دُفن في دير ويستمنستر.

حين يقرأ المرء أي قطعة مميزة من الكتابة، يتشكل لديه انطباع بأنه يرى وجهاً في مكان ما وراء الصفحة. ليس بالضرورة الوجه الحقيقي للكاتب. أشعر بهذا بقوة مع سويفت وديفو ومع فيلدينغ وستندال وثاكري وفلوبير، لكن في حالات كثيرة أنا لا أعرف كيف هو شكل هؤلاء الناس، ولا أريد أن أعرف. إن الذي يراه المرء هو الوجه الذي ينبغي بالكاتب أن يملكه. حسناً في حالة ديكنز أرى وجهاً ليس الوجه الذي في صور ديكنز تماماً لكنه يشبهه. إنه وجه رجل في حوالي الأربعين من عمره بلحية صغيرة وملامح متوردة. وجه يضحك مع لمسة من الغضب في ضحكه، لكنها بلا انتصار أو خبث. وجه رجل يحارب دائماً ضد شيء ما، لكنه يحارب جهاراً وعلى المكشوف وليس خائفاً، وجه رجل غاضب لكن بنبل -بعبارة أخرى وجه رجل ليبرالي من القرن التاسع عشر ذو ذكاء سخي ونمط مكروه بكره متساوٍ من قبل كل العقائد الأرثوذوكسية الصغيرة ذات الرائحة الكريهة، التي تتنافس على أرواحنا الآن.

داخل الحوت

القسم الأول:

حين ظهرت رواية هنري ميلر مدار السرطان في عام ١٩٣٥، قوبلت بثناء حذر نوعاً ما، اشترطه في بعض الحالات الخوف من التظاهر في الاستمتاع بالفن الإباحي. وكان من بين الذين أثنوا على الرواية تي إس إليوت وهيربرت ريد وألدوس هكسلي وآيرزا باوند- وهم إجمالاً ليسوا الكتاب الدارجين في هذه اللحظة. وفي الحقيقة، إن الموضع الرئيسي للكتاب وجوّه الفكري ينتمي في مدى محدد إلى العشرينيات أكثر منه إلى الثلاثينيات.

مدار السرطان رواية تُروى بضمير الشخص المتكلم، أو هي سيرة ذاتية في شكل رواية، كيفما كانت الطريقة التي تحب أن تنظر إليها بها. إن ميلر نفسه يصرّ على أنها سيرة ذاتية مباشرة، لكن الإيقاع السريع للأحداث وأسلوب سرد القصة، ينتميان إلى الرواية. إنها قصة باريس الأمريكية، لكن ليست على الخطوط المعتادة تماماً، لأن الأمريكيين الذين يظهرون فيها كانوا أشخاصاً من دون مال. أثناء سنوات الازدهار الاقتصادي، حين كانت الدولارات وافرة وكانت قيمة صرف الفرنك متدنية، اجتاحت باريس حشود من الفنانين والكتّاب والطلاب والفنانين الهواة والمنجمين والفاسقين والمتبطلين الصريحين، بشكل لم يشهد العالم له مثيلاً. وفي بعض أحياء المدينة، فاق عدد الفنانين المزعومين في الواقع، عدد السكان العاملين. ففي آخر العشرينيات في الواقع، كان هناك حوالي ثلاثين ألف رسام في باريس تقريباً، أغلبهم من الدجالين. ازدادت قسوة الجماهير نحو الفنانين، إلى درجة أن سحاقيات بأصواتهن الفظة وسراويلهن القصيرة المخططة وشبان في أزياء إغريقية أو قروسطية، ساروا في الشوارع من دون لفت الانتباه. وعلى طول ضفاف السين ونوتردام، كان من المستحيل تقريباً أن تجد طريقك بين مساند الرسم. لقد كان عصر الخيول السود والجني المهمل، والعبارة التي على كل لسان كانت "حين أكون مشهوراً" كما تبين فلم يكن أحد "مشهوراً"، وحلّ الركود وهبوط الأسعار مثل عصر جليدي آخر. تلاشى الرعاع العالميون من الفنانين، وتحولت مقاهي شارع مونتبارناس، التي كانت قبل عشر سنوات فقط تعج حتى الساعات المتأخرة بجماعات من المتكلفين

الزاعقين، إلى مقابر مظلمة خلت حتى من الأشباح. إنه العالم -الذي وصفه ويندهام لويس في روايته تار بين روايات أخرى - والذي كتب عنه ميلر من دون أن يتعامل إلا مع الجانب السفلي منه، والجماعة البروليتارية المتورمة التي كانت قادرة على البقاء حية والنجاة من الركود، لأنها مؤلفة جزئياً من فنانين أصيلين وجزئياً من أوغاد حقيقيين. إن الجن المهملين والمصابين بجنون العظمة الذين دائماً "سوف" يكتبون الرواية التي سيتفوقون فيها على بروست، هم جن فقط في اللحظات النادرة، حين لا يكونون يتصيدون ويفتشون عن الوجبة التالية. في قسمها الأكبر هي قصص الغرف الممتلئة بالبق في فنادق العمال والعراك والشجار والمتبطلين والمواخير الرخيصة واللاجئين الروس والتطفل والاحتيال والوظائف المؤقتة. كل جو الأحياء الفقيرة الباريسية كما يراها الأجنبي- الأزقة المرصوفة بالحصى ودخان النفايات الكريه والمطاعم الصغيرة بطاولاتها المصنوعة من الزنك والملوثة بالشحم وأرضياتها الخشبية المهترئة ومبولاتها الحديدية المفتتة ورائحة محطات المترو الغريبة المثيرة للغثيان، والسجائر التي تتكسر والحمام في حدائق لوكسمبورغ- كلها هناك، أو الشعور بأنها هناك على أي حال.

ظاهرياً، ليس هناك مادة واعدة أقل منها. حين نُشرت **مدار السرطان**، كان الإيطاليون يتخطون في أثيوبيا، ومعسكرات الاعتقال الهتلرية تتورم. كانت البؤر الثقافية في العالم روما وموسكو وبرلين، ولم تكن لحظة يُتوقع أن تُكتب فيها رواية ذات قيمة بارزة حول أميركي رث ومنهك يتسول جرعات الشراب في الحي اللاتيني. طبعاً الروائي غير ملزم أن يكتب عن التاريخ المعاصر بشكل مباشر، لكن الروائي الذي يهمل الأحداث العامة الرئيسية الراهنة، هو ببساطة إما عابث أو أبله صريح عموماً. من مجرد الموضوع الرئيسي لمدار السرطان، فإن أغلب الناس ربما يفترضون أنها ليست سوى بقية فائضة بذيئة من العشرينيات. فعلياً كل من قرأها تقريباً، رأى فوراً أنها تخلو من ذلك النوع، وهي كتاب رائع. كيف ولماذا هو رائع؟ سؤال لم تكن الإجابة عليه سهلة أبداً. من الأفضل البدء بوصف الانطباع الذي تركته مدار السرطان على ذهني.

حين فتحت كتاب **مدار السرطان** لأول مرة، ورأيته مملوء بكلمات غير صالحة للنشر، كان رد فعلي الفوري رفض التأثر، وأغلب الناس سيكونون مثلي كما أعتقد. مع ذلك، بعد فترة من الوقت، بدا جو الكتاب بالإضافة إلى تفاصيل لا تحصى، يتلكأ في ذاكرتي بطريقة غريبة. في هذه المرة كان مدار السرطان حاضراً في عقلي بقوة أكبر مما كان حين قرأته لأول مرة.

لم تكن لشعوري الأول حول **ربيع أسود**، الذي أظهر سقوطاً، نفس الوحدة التي في الكتاب الآخر حقيقة. لكن بعد سنة، كانت هناك مقاطع كثيرة في **ربيع أسود** جذرت نفسها في ذاكرتي. من الواضح أن الكتب التي من هذا النوع تترك نكهة بعدها-كتب "تخلق عالماً خاصاً بها" كما يقال. الكتب التي تفعل هذا، ليست كتباً جيدة بالضرورة، وقد تكون كتباً رديئة مثل قصص **رافلز** أو **شارلوك هولمز**، أو كتباً منحرفة وكئيبة مثل **مرتفعات وذرينغ** أو **البيت ذو درفات النوافذ الخضر**. لكن بين الحين والآخر تظهر رواية تعلن عن عالم جديد، ليس بكشف ما هو غريب وإنما بكشف ما هو مألوف. الشيء البارز حقاً حول **يوليسيس** مثلاً هو عادية (ابتذال) مادته. طبعاً هناك ما هو أكثر من هذا في **يوليسيس**، لأن جويس شاعر ومنظّر متحذلق كبير، وكان إنجازه الحقيقي هو الحصول على المألوف ووضعه على الورق. تجرأ- لأنها مسألة جرأة بقدر ما هي تكنيك- أن يعرض بلاهات العقل الداخلي، وبهذا الفعل اكتشف أمريكا التي كانت تحت أنف كل شخص. هنا عالم كامل من الحشو الذي تفترض أنه غير قابل للنقل بطبيعته، ويأتي شخص وينجح في نقله. الأثر هو تحطيم العزلة التي يعيش فيها الكائن الإنساني مؤقتاً في أي حال. حين تقرأ مقاطع محددة من **يوليسيس**، تشعر أن عقل جويس وعقلك هما عقل واحد، وأنه يعرف كل شيء عنك، رغم أنه لم يسمع باسمك أبداً، وأن هنالك عالماً ما خارج الزمان والمكان، تكونان أنت وهو فيه معاً. هناك لمسة من هذه الخاصية في هنري ميلر، رغم أنه لا يشبه جويس في طرق أخرى، لكنها ليست في كل مكان، لأن عمله متفاوت الجودة كثيراً، وأحياناً يميل إلى الإغراق بالحشو أو إلى عالم السرياليين الهش، خصوصاً في **ربيع اسود**. لكن اقرأ خمس صفحات أو عشراً له، وستشعر بارتياح غريب لا يأتي من فهمك له وإنما من كونك مفهوماً بالنسبة إليه. تشعر أنه "يعرف كل شيء عني" وأنه "كتب هذا خصيصاً لي". كأنك تسمع صوتاً يخاطبك، صوت أمريكي ودود ليس فيه احتيال أو غرض أخلاقي، وإنما مجرد افتراض ضمني بأننا كلنا متشابهون. الآن ابتعدتَ عن الأكاذيب والتبسيط، ووصفة أسلوب الدمية المتحركة للقصص العادي وحتى القصص الجيد، وتتعامل مع تجارب بشرية مألوفة ومدركة.

لكن أي نوع من التجارب؟ أي نوع من البشر؟ ميلر يكتب عن الإنسان الذي في الشارع، وبالمصادفة وليس الشفقة كان شارعاً مليئاً بالأشقاء. تلك هي عقوبة تركك لبلادك الأصلية

التي ولدت فيها ونقل جذورك إلى تربة ضحلة. ربما يكون المنفى مضراً للروائي أكثر من الرسام أو حتى الشاعر، لأن أثره ينتزعه من اتصاله المباشر مع الحياة الجارية الفعلية ويضيق مجاله إلى الشوارع والمقهى والكنيسة والماخور والمرسم. إجمالاً أنت تقرأ في كتب ميلر عن أناس يعيشون حياة المنفى، أناس يشربون ويتحدثون ويتأملون ويزنون، وليسوا أناسا يعملون ويتزوجون ويربون الأطفال؛ وللأسف كان عليه أن يصف المجموعة الأولى من النشاطات بالإضافة إلى المجموعة الأخرى. في ربيع أسود هناك ارتجاع فني (فلاش باك) رائع لنيويورك، نيويورك التي تعج بحشود الايرلنديين، نيويورك في فترة هنري، لكن المشاهد الباريسية هي الأفضل، وقُبلت تفاهتها الصارخة كنماذج اجتماعية، وعولجت حفلات السكر والمتبطلين الذين في المقاهي بشعور في الخصوصية، وفي تكنيك احترافي بارع لا تضاهيه أي رواية حديثة، وكلهم ليسوا معقولين فقط، وإنما مألوفين تماماً أيضاً. وتشعر أن كل مغامراتهم حدثت لك شخصياً. ليس هناك ما يفاجئ في درب مغامراتهم. هنري يحصل على وظيفة مع طالب هندي مكتئب، ثم يحصل على وظيفة أخرى في مدرسة فرنسية مروعة أثناء عضة برد تتجمد فيها المغاسل والمراحيض، ويستمر في جولات من الشراب والسكر في لوهافر مع صديقه القبطان البحري كولينز، ويذهب إلى المواخير؛ حيث الزنجيات الرائعات، ويتحدث مع صديقه الروائي فان نوردن الذي لديه الرواية العظمى عن العالم في رأسه، لكنه لا يستطيع أن يحمل نفسه على البدء في كتاباتها. صديقه كارل الذي كان على حافة الموت جوعاً، تلتقطه أرملة ثرية راغبة في الزواج منه. هناك محادثات هاملتية لانهائية، يحاول فيها كارل أن يقرر أيهما أسوأ، الجوع أم النوم مع امرأة كبيرة في السن. بتفصيل شديد يصف زياراته للأرملة، كيف يذهب إلى الفندق في أحلى حلة وكيف يهمل التبول قبل الدخول، لذلك يكون المساء كله فترة من العذاب المتزايد إلخ إلخ. وأخيراً هذا الأمر برمته غير حقيقي، فليس هناك وجود للأرملة -لقد اختلقها كارل ليعطي أهمية لنفسه. الكتاب كله في هذا المزاج تقريباً. لماذا هذه التفاهات الهائلة فاتنة جداً؟ ببساطة لأن الجو كله مألوف جداً ولأنك تشعر طول الوقت بأن هذه الأشياء حدثت لك، ويتملكك هذا الشعور لأن شخصاً ما اختار أن يسقط لغة جنيف من الرواية العادية، ويسحب سياسة الواقع من العقل الباطن، ويخرجها إلى العلن. في حالة ميلر هي ليست مسألة استكشاف آليات العقل، أكثر مما هي اعتراف بحقائق الحياة اليومية

وعواطف الحياة اليومية. لأن الحقيقة أن الكثير من الناس العاديين وربما الأغلبية الفعلية، يتكلمون ويتصرفون بالطريقة التي دونت هنا تماماً. الفظاظة القاسية التي تتحدث بها شخصيات مدار السرطان نادرة جداً في القصص، لكنها شائعة إلى حد الإفراط في الحياة الواقعية؛ لقد سمعت المرة تلو الأخرى مثل هذه المحادثات من أناس لم يدركوا أنهم كانوا يتحدثون بصورة فظة حتى. من اللافت أن مدار السرطان ليس كتاباً لرجل شاب. كان ميلر في أربعينيات عمره حين نشر الكتاب، ومنذ ذلك الوقت أنتج ثلاثة أو أربعة كتب أخرى. ومن الواضح أن هذا الكتاب الأول قد عاش معه لسنوات. إنه واحد من تلك الكتب التي أُنضجت ببطء في فقر وظلمة بواسطة أناس يعرفون ما يجب أن يفعلوه، ولذلك كانوا قادرين على الانتظار. النثر مذهل، وفي بعض أقسامه أفضل من ربيع أسود حتى. لسوء الحظ لا أستطيع الاقتباس؛ كلمات لا تصلح للطبع تظهر في كل مكان تقريباً. لكن تمعّنْ في مدار السرطان وتمعّنْ في ربيع أسود، واقرأ المائة صفحة الأولى فقط بشكل خاص. إنها تعطيك فكرة لكل مازال فعله ممكناً مع النثر الإنكليزي حتى في هذا الوقت المتأخر. فيهما (في الكتابين) تُعامل اللغة الإنكليزية كلغة محكية، لكن محكية بلا خوف، بلا خوف من علم البيان أو من المعتاد أو الكلمة الشعرية. عادت الصفة بعد عشر سنوات من نفيها. إنه نثر متدفق ومتورم، نثر فيه إيقاع، إنه شيء يختلف تماماً عن العبارات الحذرة الصريحة ولهجات المطاعم والمقاهي الدراجة الآن.

حين يظهر كتاب مثل مدار السرطان، فمن الطبيعي أن يكون الشيء الأول الذي يلاحظه الناس فيه هو فحشه. بسبب أفكارنا الحالية عن اللياقة الأدبية، ليس من السهل أبداً مقاربة كتاب غير قابل للطبع بانحياز؛ فالمرء إما أن يصاب بصدمة أو يشعر بالغثيان أو تسري فيه رعشة مريضة أو يعقد العزم على ألا يتأثر مهما كان. ربما يكون رد الفعل الأخير هو الأكثر شيوعاً، مع الاستنتاج بأن الكتب غير القابلة للطبع تحظى غالباً باهتمام أقل مما تستحقه. إن الدارج اليوم هو القول: لا شيء أسهل من كتابة كتاب فاحش، وإن الناس يفعلون ذلك ليجعلوا الآخرين يتحدثون عنهم أو لكسب المال إلخ، إلخ. يوضح الكتاب أن الحالة ليست هكذا، وأن الكتب الفاحشة في مفهوم محكمة الجنح غير شائعة بلا ريب، ولو كانت هناك أموال تأتي سهلة بواسطة الكلمات القذرة، لفعلها الكثير من الناس. لكن لأن الكتب الفاحشة

لا تظهر كثيراً جداً، فهناك ميل لرميها من دون تمييز كقاعدة غير مبررة نهائياً. أُرفق مدار السرطان على نحو غامض مع كتابين آخرين هما **يوليسيس** و**رحلة إلى آخر الليل**، لكن لا يوجد الكثير من التشابه في كلا الحالتين. إن الشيء المشترك بين ميلر وجويس، هو الرغبة والاستعداد لذكر الحقائق الحقيرة والتافهة للحياة اليومية. بوضع الاختلافات في التكنيك جانباً، فإن المشهد الجنائزي في **يوليسيس** مثلاً يلائم **مدار السرطان**؛ الفصل كله نوع من الاعتراف وفضح للتحجر الداخلي المخيف للكائن البشري. لكن التشابه ينتهي هناك. فرواية **مدار السرطان** أقل من **يوليسيس** منزلة. جويس فنان بالمعنى الذي لم يرغب أن يكون به ميلر، وفي كافة الأحوال فإن محاولته أكبر بكثير، فهو يستكشف الحالات المختلفة للوعي والحلم وأحلام اليقظة (فصل برونز بالذهب) والسكر إلخ، وتعشيقها كلها في أنموذج معقد ضخم مثل الحبكة الفيكتورية تقريباً. ميلر شخص قاس غير عاطفي، يتحدث عن الحياة ورجل أعمال أميركي عادي مع شجاعة فكرية وموهبة في الكلمات. ومن الهام ربما أنه يبدو تماماً مثل الفكرة التي يحملها كل واحد عن رجل الأعمال الأمريكي. أما بالمقارنة مع **رحلة إلى آخر الليل**، فهو ابعد كثيراً عن الغرض. إن كلا الكتابين يستخدمان كلمات مهينة، وكلاهما عبارة عن سيرة ذاتية بشكل ما، وهذا كل شيء. **رحلة إلى آخر الليل** كتاب هادف، وهدفه الاحتجاج ضد رعب الحياة العصرية وخلوها من أي معنى -الحياة الفعلية والحقيقية. إنه صيحة من الاشمئزاز الذي لا يحتمل، وصوت من المبولة. أما **مدار السرطان** فهو العكس تماماً تقريباً. يصبح الشيء غير عادي لدرجة يبدو شاذاً تقريباً، لكنه كتاب لرجل سعيد، وكذلك أيضاً **ربيع أسود** رغم أنه أقل تطابقاً، لأنه ملون في بعض الأماكن بالحنين إلى الوطن. بعد سنوات من الحياة البروليتارية المتورمة خلفه وجوع وتشرد وقذارة وفشل وليال في العراء ومعارك مع موظفي الهجرة وصراعات لا تنتهي من أجل القليل جداً من النقود، يجد ميلر نفسه أنه يمتع نفسه. إن مظاهر الحياة التي أشعرت سيلين بالرعب، هي التي جذبته بالضبط، ويقبلها راضياً وبعيداً عن الاحتجاج، وكلمة قبول بعينها تستدعي شبيهه الحقيقي الأمريكي الآخر والت ويتمان.

لكن هناك شيئاً غريباً نوعاً ما، بأن يكون ويتمان حياً في ثلاثينيات القرن العشرين. ليس من المؤكد إن كان ويتمان نفسه حياً في اللحظة التي كتب فيها أي شيء يشبه بأقل درجة أوراق

العشب. لأن ما يقوله بعد كل شيء هو: "أنا أقبل"، وهناك اختلاف جوهري بين القبول الآن والقبول آنذاك. كان ويتمان يكتب في زمن رخاء لا مثيل له، والأكثر من ذلك أنه كان يكتب في بلاد كانت فيها الحرية شيئاً أكثر من مجرد كلمة. الديمقراطية والمساواة والروح الرفاقية التي كان يتحدث عنها دائماً، ليست قيماً ومثلاً نائية، وإنما شيء متواجد أمام عينيه. في منتصف القرن التاسع عشر، شعر الرجال الأمريكيون بأنهم أحرار ومتساوون. كانوا أحراراً ومتساوين بالحد الأقصى الممكن خارج مجتمع من الشيوعية الصرفة. كان هناك فقر، وكانت هناك فروق طبقية أيضاً، لكن باستثناء الزنوج لم تكن هناك طبقة مغمورة دائماً. كل واحد لديه نوع من الجوهر في داخله والمعرفة بأنه يستطيع أن يحظى بعيش كريم يكسبه من دون تملق وتذلل. حين تقرأ عن مراكبية وربابنة الميسيسيبي الذين كتب عنهم مارك توين أو **المنقبون عن الذهب** لهربرت هات، فإنهم يبدون أبعد من آكلي لحوم البشر في العصر الحجري. السبب هو ببساطة أنهم كانوا بشراً أحراراً، لكن الوضع نفسه حتى مع الولايات الشرقية المدجنة المسالمة في أميركا **نساء صغيرات وأطفال هيلين والركوب من بانغور**. للحياة صفة نشطة ومبهجة تستطيع، وأنت تقرأ، الشعور بها مثل إحساس بدني في بطنك. إن كان ذلك ما يمجده ويتمان، فإنه فعله بطريقة رديئة جداً، لأنه واحد من الكتاب الذين يخبرونك بما يجب أن تشعر به بدلاً من أن تشعر به بنفسك. لحسن حظ معتقداته، مات مبكراً جداً، قبل أن يرى في الحياة الأمريكية ذلك الفساد الذي حدث مع ظهور الصناعة الكبيرة واستغلال العمل المهاجر الرخيص.

وجهة نظر ميلر قريبة جداً من وجهة نظر ويتمان، وكل من قرأه تقريباً لاحظ هذا. **مدار السرطان** تنتهي بمقطع وايتماني استثنائي، فبعد أعمال الفسق والاحتيال والقتال ونوبات السكر والحماقات، يجلس ببساطة ويراقب جريان السين بنوع من القبول الصوفي للشيء كما هو عليه. لكن بماذا قَبِل؟ في المقام الأول، ليس أمريكا وإنما بكومة العظام العتيقة لأوروبا؛ حيث كل حبة تراب اخترقت عدداً لا يحصى من الأجساد البشرية. ثانياً، ليس عصر توسع وحرية، وإنما عصر خوف واستبداد وخضوع للنظام. إن القول "أنا أقبل" بعصر مثل عصرنا، هو القول إنك تقبل بمعسكرات الاعتقال والعصي المطاطية وهتلر وستالين والقنابل والطائرات والطعام المعلب والبنادق الآلية والعصيانات المسلحة وحملات التطهير والشعارات وأحزمة وأقنعة الغاز والغواصات والجواسيس والمستفزين ورقابة الصحف

والسجون السرية والأسبرين وأفلام هوليوود والجرائم السياسية. ليست تلك الأشياء فقط طبعاً وإنما تلك الأشياء من بين كثير غيرها. وفي المجمل، هذه وجهة نظر ميلر، لكن ليس دائماً تماماً، لأنه أحياناً يبدي أمارات من نوع الحنين الأدبي العادي. هناك مقطع طويل في القسم الأول من ربيع أسود يمدح فيه العصور الوسطى، وكتشر يجب أن يكون من أكثر القطع تميزاً في الكتابة في السنوات الأخيرة، ولكنه يكشف موقفاً لا يختلف جداً عن موقف تشيسترتون. في **ماكس وخلايا البلعمة البيضاء**، هنالك هجوم على الحضارة الأمريكية الحديثة (إفطار الحبوب والسيلوفان إلخ) من الزاوية المعتادة لرجل الأدب الذي يكره الصناعوية، لكن بشكل عام موقف "دعنا نبلعها (نقبلها) كلها". ومن هذا جاء الانهماك الظاهري في قلة الاحتشام والجانب القذر للحياة. إنه مجرد تظاهر، فقط لأن الحقيقة هي أن الحياة اليومية العادية تتألف من أشياء مرعبة أكثر مما تبالي وتعترف به القصص التي يكتبها الكتّاب. ويتمان نفسه "قَبِل" بالكثير جداً مما وجده معاصروه واعتبروه لا يصح ذكره. هو لم يكتب فقط عن المرج، بل تجول في المدينة ولاحظ الجمجمة المحطمة للمنتحر والوجوه المريضة الرمادية للمستمنين إلخ إلخ. لكن عصرنا في أوروبا الغربية أقل تعافياً وأقل أملاً بكل المقاييس من العصر الذي كتب فيه ويتمان. بعكس ويتمان، نحن نعيش في عالم منكمش، و"الآفاق الديمقراطية" انتهت بأسلاك شائكة، وهناك شعور أقل بالخلق والنمو، وتأكيد أقل فأقل بالمهد المتأرجح بشكل لانهائي، وتأكيد أكثر فأكثر على إبريق الشاي الذي يطبخ على النار بشكل متواصل. إن القبول بالحضارة، يعني عملياً القبول بالانحلال والانحطاط، فلم يعد الأمر موقفاً متحمساً، بل أصبح موقفاً سلبياً بل "منحطاً" حتى إن كان لتلك الكلمة معنى.

لكن بالضبط لأنه سلبي بمعنى ما تجاه التجربة. استطاع ميلر أن يقترب من الإنسان العادي أكثر مما هو ممكن لأكثر الكتاب الهادفين إلى ذلك، وكان سلبياً بالنسبة إلى الشخص العادي أيضاً، وشعر بأنه سيد قدره ضمن دائرة ضيقة مثل الحياة البيتية وربما النقابة العمالية أو السياسة المحلية، ولكنه كان عاجزاً ضد أحداث رئيسية وضد العناصر. بعيداً عن السعي للتأثير على المستقبل، ارتاح وترك الأشياء تحدث له. أثناء العشر سنوات الماضية ورط الأدب نفسه أكثر في السياسة. وفي النتيجة بات الحيز بالنسبة إلى الرجل العادي الآن أقل من أي وقت

خلال القرنين السابقين. يستطيع المرء أن يرى التغيير في الموقف الأدبي السائد بمقارنة الكتب التي كتبت حول الحرب الأهلية الإسبانية مع تلك التي كتبت حول حرب ١٩١٤-١٩١٨. الشيء اللافت بصورة فورية حول كتب الحرب الإسبانية على الأقل المكتوبة باللغة الإنكليزية، هو بلادتها المروعة وسوءها، لكن الأكثر أهمية أن أغلبها يسارية كانت أو يمينية، كتبت من زاوية سياسية بواسطة أنصار واثقين يخبرونك بما يجب أن تفكر فيه، بينما الكتب عن الحرب الكبرى كتبها جنود عاديون أو ضباط صغار، ولم يتظاهروا حتى بفهمهم لهدف الحرب ومغزاها. كتب مثل **كل الهدوء على الجبهة الغربية**، **والحريق**، **ووداعاً للسلاح**، **وموت بطل**، **ووداعا لكل ذاك**، **ومذكرات ضابط مشاة وملازم أول على سومي**، لم يكتبها المروجون والدعاة وإنما الضحايا. هم يقولون في الواقع "بحق الجحيم من أجل ماذا كل هذا؟ الرب هو من يعرف. كل ما نستطيع فعله هو أن نتحمل". وعلى الرغم من أنه لم يكتب عن الحرب أو السعادة إجمالاً، فهو أقرب إلى موقف ميلر من موقف العارف بكل شيء، وهو النمط السائد الآن. **ذا بوستر** هي دورية قصيرة العمر، عمل فيها محرراً جزئياً، وكانت تصف نفسها في إعلاناتها بـ "غير السياسية وغير التربوية وغير التقدمية وغير التعاونية وغير الأخلاقية وغير الأدبية وغير المتناسقة وغير المعاصرة"، ويمكن وصف عمل ميلر بنفس العبارات تقريباً. إنه صوت من الحشد، من المرؤوس، من حافلة الدرجة الثالثة، من الرجل العادي اللاسياسي واللاأخلاقي والسلبي.

استخدمت عبارة "الإنسان العادي" على نحو فضفاض نوعاً ما، واعتبرت من البديهي أن الإنسان العادي موجود الشيء الذي ينكره بعض الناس الآن. لا أقصد أن الناس الذين يكتب ميلر عنهم، يشكلون أغلبية، وأنه كتب أقل من ذلك عن البروليتاريين. لم يحاول أي روائي إنكليزي أو أمريكي ذلك بعد. ومرة أخرى، فإن الناس في **مدار السرطان** أخفقوا بأن يكونوا عاديين لدرجة أنهم كانوا كسالى وسيئي السمعة و"فنيين" تقريباً. كما قلت آنفاً، هذا يدعو للرثاء، لكنه نتيجة ضرورية للاغتراب. الإنسان العادي عند ميلر، ليس العامل العادي وليس رب بيت الضواحي أيضاً، وإنما المهمل المنبوذ والذي خُفضت رتبته الاجتماعية، والمغامر والمثقف الأمريكي الذي بلا جذور ونقود. لكن حتى التجربة التي من هذا النوع، تتطابق جزئياً مع تجارب الناس الأكثر عادية. استطاع ميلر الاستفادة من مادته المحدودة

بأقصى قدر، لأنه كان يمتلك الشجاعة للتعاطف معها. لقد أُعطي الإنسان العادي، الإنسان الحسي الداعر العادي، القدرة على التعبير مثل حمار بلعام.

سينظر إلى هذا كشيء بالٍ وعتيق أو كخارج النمط الدارج في كل المقاييس. الرجل الحسي العادي خارج النمط السائد. الانهماك بالجنس والصدق حول الحياة الداخلية خارج النمط السائد. باريس الأمريكية خارج النمط السائد. كتاب مثل **مدار السرطان**، ينشر في وقت كهذا، يجب أن يكون إما حذلقة مملة أو شيئاً غير عادي. وأعتقد أن الأكثرية من الناس الذين قرؤوه، يوافقون بأنه ليس الأول، ويستحق محاولة أن نكتشف ماذا يعني هذا الفرار من نمط التيار الأدبي السائد، لكن فعل ذلك يفرض على المرء أن يراه ضد خلفيته -أي ضد التطور العام للأدب الإنكليزي في السنوات العشرين التي تلت الحرب الكبرى.

القسم الثاني:

حين يقول امرؤ عن كاتب ما إنه متطابق مع الزي الحديث، فهو يقصد عملياً أنه نال إعجاب الناس الذين دون الثلاثين من عمرهم. في بداية الفترة التي أتكلم عنها أي في السنوات التي تلت الحرب مباشرة، كان الكاتب الذي له القبضة الأقوى على الشباب المفكر هو هاوسمان بلا ريب تقريباً. في السنوات بين ١٩١٠ و١٩٢٥ كان لهاوسمان تأثير هائل وسط الناس المراهقين ليس من السهل فهمه الآن. في عام ١٩٢٠ حين كنت في السابعة عشرة، عرفت **غلام الخراف الإنكليزية** عن ظهر قلب على الأرجح. أتساءل عن حجم الانطباع الكبير الذي أحدثه **غلام الخراف الإنكليزية** في هذه اللحظة على صبي بنفس العمر وبنفس العقل تقريباً؟ لا شك أنه سمع به أو حتى ألقى نظرة عليه: ربما لفت نظره ككتاب مناسب لرخصه -ربما سيكون ذلك كل الأمر. لكن هذه هي القصائد التي كنا نتلوها لأنفسنا مرة تلو أخرى بنوع من النشوة، كما تلتها الأجيال التي قبلنا "حب في الوادي" لميرديث و"حديقة بروسربابن" لسوينبيرن إلخ إلخ.

قلبي مترع بالأسى من أجل أصدقاء ذهبيين كانوا لي، ومن أجل عذارى ورديات الشفاه وصبيان رشيقين.

بجانب الجداول الواسعة التي يستحيل الوثب من فوقها، استلقى الصبيان الرشيقون؛ العذارى ذوات الشفاه الوردية نائمات في حقول ذوت فيها الورود.

إنها ترن تماماً. لكن لا يبدو أنها ترن في عام ١٩٢٠. لماذا تنفجر الفقاعة دائماً؟ للإجابة على هذا السؤال، على المرء أن يأخذ في حسبانه الظروف الخارجية التي تجعل كتاباً معينين مشهورين في أوقات معينة. لم تجذب قصائد هاوسمان الكثير من الاهتمام حين نشرت لأول مرة. ما هو الشيء الذي فيها وجذب بعمق اهتمام جيل واحد، الجيل الذي ولد في عام ١٩٠٠ تقريباً؟

في المقام الأول، إن هاوسمان شاعر "ريفي" وقصائده مليئة بسحر القرى المنسية والحنين إلى أسماء الأماكن، كلونتون وكلونبيري ونايتون ولودلو وعلى وينلوك إيدج، وفي فصل الصيف على بريندون وسقوف القش وجلجلة الحدادين والنرجس البري في المراعي والتلال الزرق التي في الذاكرة. إن أغلب الشعر الإنكليزي في الفترة بين ١٩١٠ و١٩٢٥ ريفي ما عدا قصائد الحرب، والسبب أن طبقة أصحاب الدخول من الأرض المحترفين، لم يعد لها أي علاقة حقيقية بالتربة. وعلى أي حال ساد هناك نوع من التكبر أشد من الآن في الانتماء إلى الريف واحتقار المدينة. لم تكن إنكلترا آنذاك بلداً زراعياً أكثر مما هي الآن، لكن قبل أن تبدأ الصناعات الخفيفة في الانتشار، كان من الأسهل تصورها كذلك. غالبية صبيان الطبقة الوسطى ترعرعوا في مشهد المزرعة، ومن الطبيعي أن يكون الجانب الفاتن من حياة المزرعة مغرياً لهم- الحرث والحصاد ودرس القش وهلم جرا. قبل أن يقوم بنفسه كصبي بالعمل، من غير المحتمل أن يلاحظ الكدح الرهيب لعزق اللفت وحلب الأبقار بأثدائها المفلوعة في الساعة الرابعة صباحاً إلخ إلخ. إن فترة ما قبل الحرب وما بعدها مباشرة وأثناءها كانت العصر العظيم لـ"شاعر الطبيعة" وذروة مجد ريتشارد جيفريز ودبليو إتش هدسون. إن قصيدة روبرت بروك المتألقة "غرانتشيستر" ليست سوى تدفق هائل للوجدان الريفي ونوع من القيء المتراكم لمعدة أُتخمت بأسماء الأماكن. قصيدة "غرانتشيستر" شيء أسوأ من التفاهة، لكنها صورة إيضاحية لما أحس به شباب الطبقة الوسطى المفكر في تلك الفترة ووثيقة قيمة.

لكن هاوسمان لم يتحمس للزهور المتعرشة في مزاج عطلة نهاية الأسبوع الذي لدى بروك والآخرين. يتواجد موضوع "الريف" هناك طوال الوقت لكن كخلفية أساساً. أغلب القصائد فيها موضوع شبه إنساني ونوع من الريفي المثالي، وفي الواقع عودة لستيفنسن وكوريدون بعد تحديثها. هذا بحد ذاته له جاذبية عميقة. تبين التجربة أن الناس المتمدنين جداً يستمتعون بالقراءة عن الريفيين (عبارة رئيسية- "القريبين من التربة") لأنهم يتصورونهم أكثر

بدائية وعاطفية منهم، ولهذا كانت رواية "الأرض المظلمة" لشيلا كايا-سميث إلخ. في ذاك الوقت كان صبي الطبقة الوسطى المنحاز للريف، يتعاطف مع العامل الزراعي، ولم يفعل أبداً ذلك مع عامل المدينة. أكثر الصبيان في أذهانهم صورة للحراث المثالي والغجري ولص الصيد وحارس الطرائد، الذي صُور دائماً كشخص طائش متجول حر وجامح وحياة صيد الأرانب ومصارعة الديوك والخيل والجعة والنساء، كما تمنحك هذه الرؤية بشكل فج جداً "النعمة الأزلية" لمانسفيلد، وهي عبارة عن دراما تاريخية قيمة أخرى اشتهرت وسط الصبيان في سنوات الحرب. يمكن أخذ موريسات هاوسمان وتيرينساته على محمل الجد، بينما لا يمكن ذلك مع سول كين مانسفيلد، في هذا الجانب كان هاوسمان مانسفيلد مع دفعة من الثيوقراطية. علاوة على ذلك فإن كل مواضيعه هي قتل مراهق وانتحار وحب حزين وموت مبكر. مواضيع تعالج كوارث بسيطة ومفهومة، وتشعرك أنك في مواجهة "حقائق الحياة الصلبة":

الشمس تحترق على التلة شبه المحصودة، والآن جفّ الدم؛ وموريس وسط القش مازال مستلقياً وسكّينتي في خاصرته.

مرة أخرى:

وضعونا الآن في سجن شروزبيري، ونفخت الصفارات بالبؤس، والقطارات تأنُّ طول الليل على السكة لرجال يموتون في الصباح.

هي من نفس اللحن تقريباً. كل شيء يأتي غير ثابت. "استلقى نيد طويلاً في فناء الكنيسة واستلقى توم طويلاً في السجن". ولاحظ أيضاً الشفقة على الذات المتقنة وشعور لا أحد يحبني:

حبات الماس التي تزين المتراس الواطئ في المرعى، إنها دموع الصباح التي ذُرفت، لكن ليس من أجلك.

حظ سيئ يا عزيزي! مثل هذه القصائد كان يمكن أن تكتب خصيصاً للمراهقين. التشاؤمية الجنسية المنتظمة (الفتاة تموت أو تتزوج شخصاً آخر دائماً) بدت مثل حكمة للصبيان المتجمعين معاً في مدارس خصوصية كالقطيع، ويميلون للاعتقاد بأن النساء شيء لا يمكن الوصول إليه. أشك إن كان هاوسمان جذاباً للفتيات أبداً. في قصائده لا يكترث بوجهة

نظر المرأة وهي مجرد حورية وغاوية ومخلوق نصف بشري غدار، تقودك إلى مسافة قصيرة ثم تفرّ منك.

إن هاوسمان لم يكن يناشد الناس الذين كانوا شباباً في عام ١٩٢٠ لو لم يكن ذلك من أجل نزعة تجديفية متناقضة ومتشائمة فيه. كان القتال الذي يحدث بين الأجيال دائماً مريراً بشكل استثنائي في نهاية الحرب العظمى، وهذا بسبب الحرب نفسها جزئياً ونتيجة مباشرة للثورة الروسية جزئياً. ولكن الصراع الثقافي كان متوقعاً في ذلك الموعد في كافة الأحوال. بسبب الحياة السهلة والأمان في إنكلترا التي لم تفسدها الحرب حتى، كثير من الناس الذين تشكلت أفكارهم في الثمانينات أو قبل ذلك، حملوها معهم من دون أي تعديل إلى عشرينات القرن العشرين. في هذه الأثناء، وبالقدر الذي يهم الجيل الأصغر، كانت المعتقدات الرسمية تتبدد مثل قلاع من الرمل. فقد كان سقوط المعتقدات الدينية دراماتيكياً مثلاً، ولسنوات كثيرة أخذت الخصومة بين الكبار والشباب صفة الكره الحقيقي. وخرج من بقوا أحياء من جيل الحرب زاحفين من المذبحة ليجدوا كبارهم مازالوا يجأرون بشعارات ١٩١٤. وكان الجيل الأصغر قليلاً من الصبيان يتضور من الألم تحت نظراء مدارس عزاب من ذوي التفكير القذر. هؤلاء هم الذين ناشدهم هاوسمان بثورته الجنسية الضمنية وتشكيه الشخصي ضد الرب. صحيح أنه كان وطنياً، لكن بطريقة قديمة لم تؤذ موقف المعاطف الحمر و"حفظ الرب الملكة" أكثر منه خوذ حديدية و"اشنقوا القيصر" كان معادياً للنصرانية بشكل مقبول، وأيد نوعاً من الوثنية الجريئة اللاذعة والاقتناع بأن الحياة قصيرة والآلهة ضدك، مما ناسب بالضبط المزاج السائد للشباب. وكان كل ذلك بصيغة شعر ساحر رقيق تألف جلّه من كلمات من مقطع واحد.

سيتبين أنني ناقشت هاوسمان كما لو أنه كان مجرد مروج دعائي ومتفوه بالحكم والاقتباسات القصيرة، لكن من الواضح أنه كان أكثر من ذلك. لا حاجة لبخسه قدره الآن، لأن تقييمه كان مبالغاً في السنوات القليلة الماضية. بالرغم من المشاكل التي يتورط بها المرء جراء قول هذا، هناك عدد من قصائده "في قلبي هواء يقتل" مثلاً و"هل فريقي يحرث؟" التي من غير المتوقع أن تبقى طويلاً من دون استحسان. لكن في العمق، هناك ميل الكاتب دائماً و"غرضه" و"رسالته" التي تجعله محبوباً أو مكروهاً، والبرهان على هذا هو الصعوبة

القصوى بأن ترى أي قيمة أدبية في كتاب يؤذي معتقداتك العميقة. لا يوجد كتاب محايد بصدق أبداً. نزعة أو أخرى لا تدرك دائماً في الشعر كما في النثر، حتى لو تفعل أكثر من تحديد الشكل واختيار الصور. إن الشعراء الذين ينالون شهرة واسعة مثل هاوسمان، هم كقاعدة كتاب خرافيون بالتأكيد لكن من الصعب فهمهم.

بعد الحرب وبعد هاوسمان وشعراء الطبيعة، ظهرت مجموعة من الكتاب ذات ميل مختلف كلياً -جويس وإليوت وباوند ولورانس وويندهام ولويسو ألدوس هكسلي وليتون ستراتشي. حتى أواسط وأواخر العشرينيات كان هؤلاء هم "الحركة" كما كانت جماعة أودن-سبيندر هي "الحركة" أثناء السنوات القليلة الماضية. صحيح أنه لا يمكن إدراج كل الكتّاب الموهوبين في تلك الفترة في هذا القالب، فقد كان أي إم فورستر مثلاً من جيل ما قبل الحرب أساساً، رغم أنه كتب أفضل كتاب له في عام ١٩٢٣ أو حوالي ذلك، ولا يبدو أن ييتس ينتمي إلى العشرينيات في كلا طوريه. آخرون مازالوا أحياء مثل مور وكونراد وبينيت وويلز ونورمان دوغلاس، أغلقوا أبوابهم بوجه الحرب المستمرة. من جانب آخ، فإن الكاتب الذي يجب إضافته إلى المجموعة والذي لم ينتمِ إليها بالمعنى الأدبي الضيق، هو سومرست موم. طبعاً لا تتطابق التواريخ بدقة، فأغلب هؤلاء الكتاب نشروا كتباً لهم قبل الحرب، لكن يمكن تصنيفهم بكتاب ما بعد الحرب بنفس المعنى الذي نصنف به الرجال الأصغر سناً الذين يكتبون الآن بكتاب مرحلة ما بعد السقوط. وبالمثل طبعاً يمكنك تفحص أكثر الصحف الأدبية في ذلك العصر، ولا تدرك أن هؤلاء الناس هم "الحركة" كما كان النقاد البارزون في الصحافة الأدبية في تلك الفترة مشغولين أكثر من أي وقت آخر بالزعم بأن فترة العصر قبل الأخير لم تصل إلى نهايتها. سكواير حكم لندن، ميركوري وغيبس ووالوب كانوا معبودي مكتبات الإعارة، كان هناك إعجاب وميل شديد للمرح والرجولة والبيرة والكريكيت والغلايين الخشبية والزواج الأحادي، وكان ممكناً في كل الأوقات كسب بضع جنيهات من كتابة مقال تشجب فيه "رفيعي الثقافة" لكن وبالرغم كل شيء، كان رفيعو الثقافة المحتقرون هم من أسروا وجذبوا الشباب. كانت الرياح تعصف من أوروبا ونسفت مدرسة البيرة والكريكيت وعرت أعضاءها من كل شيء، ولم تترك لهم سوى فروسيتهم قبل عام ١٩٣٠ بوقت طويل.

لكن أول ما يلاحظه المرء عن جماعة الكتاب الذين ذكرتهم آنفاً، أنهم لا يبدون كجماعة، فضلاً عن أن عدداً منهم رفضوا أن يقرنوا بالكثيرين منهم. كان لورانس وإليوت متنافرين في الواقع، أما هكسلي فقد بجّل لورانس، لكنه نفر من جويس، في حين أغلب الآخرين نظروا باحتقار لهكسلي وستارتشي وموم، كما هاجم لويس كل واحد منهم بالتتالي، وقد استندت سمعته ككاتب على هذه الهجمات بشكل كبير في الواقع. ومع ذلك هناك شبه مزاجي مثير معين اتضح الآن بما يكفي، رغم أنه لم يكن كذلك قبل عشر سنوات ماضية، ليصل إلى حد النظرة التشاؤمية، لكن من الضروري أن نوضح ما المقصود بالتشاؤمية.

إن كانت الفكرة الرئيسية والهامة عند الشعراء الجورجيين هي "جمال الطبيعة"، فإن الفكرة الرئيسية عند كتاب ما بعد الحرب هي "الشعور المأساوي بالحياة". إن المزاج الذي خلف قصائد هاوسمان مثلاً ليس مأساوياً ومتشكياً فقط، بل إنه مذهب المتعة الخائبة. وهذا يصح على هاري، لكن يجب أن نستثني الأمراء. إن جماعة جويس-إليوت التي أتت لاحقاً زمنياً، لم يكن خصمها الرئيسي البيوريتانية (التزمّت) واستطاع أعضاؤها منذ البداية أن "يروا ويدركوا" أغلب الأشياء التي قاتل من أجلها أسلافهم. كانوا كلهم معادين بشكل مزاجي لفكرة "التقدم" الذي في منظورهم ليس لم يحدث فقط، وإنما يجب ألا يحدث. مع هذا التماثل الشامل، هناك طبعاً اختلافات في المقاربة بين الكتاب الذين ذكرتهم بالإضافة إلى درجات مختلفة من الموهبة. إن تشاؤمية إليوت تشاؤمية مسيحية جزئياً تتضمن لامبالاة معينة بالبؤس الإنساني، وجزئياً رثاء لانحطاط الحضارة الغربية ("نحن الرجال المجوفون، نحن الرجال المتخمون، إلخ إلخ) ونوع من شعور بدمار الآلهة النهائي بعد معركتهم مع قوى الشر الذي يرشده أخيراً في سويني أغونيستيس مثلاً، كي ينجز مأثرة صعبة بجعل الحياة العصرية في الخارج أسوأ مما هي عليه. مع ستارشي هي مجرد شكوكية مهذبة من القرن الثامن عشر مختلطة بميل لفضح الزيف. مع موم هي نوع من الإذعان الصبور، الصاحب الحقيقي الذي يكتم ألمه في مكان ما شرق السويس، ويستمر في مهمته التي لا يؤمن بها مثل أنتونايِن أمبرور. لا يبدو لورانس كاتباً متشائماً من النظرة الأولى لأنه مثل ديكنز، رجل ذو آراء ومواقف متبدلة، ويصرّ دائماً بأن الحياة هنا والآن، ستكون على ما يرام لو نظرت إليها بطريقة مختلفة قليلاً. لكنه يطالب بحركة بعيدة عن حضارتنا الممكننة لن تحدث. لذلك يتحول سخطه على الحاضر مرة أخرى

إلى إضفاء المثالية على الماضي، وهذه المرة ماض أسطوري آمن، العصر البرونزي. لكن حين يفضل لورانس الأوترورين علينا، فمن الصعب موافقته في ذلك، بل إنه نوع من الانهزامية حتى، لأن تلك ليست هي الجهة التي يتحرك العالم إليها. نوع الحياة التي يشير إليها دائماً، هي حياة تتمحور حول ألغاز بسيطة -الجنس والتراب والنار والماء والدم- مجرد قضية خاسرة. لذلك فإن كل الذي أنتجه كان رغبة بأن تحدث الأشياء بطريقة من الواضح أنها لن تحدث بها. يقول: "موجة سخاء أو موجة موت" لكن من الجلي عدم وجود أمواج سخاء في هذا الجانب من الأفق، لهذا يفرّ إلى المكسيك ليموت وهو في الخامسة والأربعين قبل بضع سنوات من بداية موجة الموت. سأبدو ثانية أنني أتكلم عن هؤلاء الناس كما لو أنهم ليسوا فنانين وكأنهم مجرد دعائيين ينقلون "رسالة" ومرة أخرى يتضح أنهم كلهم كانوا أكثر من ذلك. من السخف مثلاً أن ننظر إلى يوليسيس على أنها مجرد عرض لرعب الحياة العصرية، لعهد الديلي ميل القذر، كما عبر عنها باوند. في الحقيقة، إن جويس "فنان صرف" أكثر من أغلب الكتاب. لكن لا يمكن أن تُكتب يوليسيس بواسطة شخص هاو يتلاعب بشكل الكلمات؛ إنها نتاج رؤية مميزة للحياة، رؤية الكاثوليكي الذي فقد إيمانه. يقول جويس إن "الحياة هنا بلا رب. انظر إليها فقط!" وابتكاراتها الفنية رغم أهميتها تخدم هذا الغرض أساساً.

لكن اللافت حول هؤلاء الكتّاب، أن "الغرض" الذي لديهم غامض جداً. ليس هناك انتباه للمشاكل الملحة الآنية، وبشكل أساسي ليس هناك سياسية بالمعنى الأضيق. عيوننا موجهة إلى روما وبيزنطة ومونبانا والمكسيك والأتروريين وإلى اللاوعي وإلى المجموعة الشمسية- إلى كل مكان باستثناء الأماكن التي تحدث فيها الأشياء فعلياً. حين ينظر المرء إلى العشرينات، لا يجد شيئاً أكثر غرابة من الطريقة التي غابت فيها الأحداث المهمة عن نظر الطبقة المثقفة الإنجليزية؛ فالثورة الروسية كلها مثلاً تلاشت من الوعي الإنكليزي في الفترة بين موت لينين ومجاعة أوكرانيا -عشر سنوات تقريباً. خلال تلك السنوات، كانت روسيا تعني تولستوي ودستويفسكي والكونتات المنفيين الذين يقودون عربات الأجرة. وكانت إيطاليا تعني صالات عرض اللوحات الفنية والآثار والكنائس والمتاحف -وليس أصحاب القمصان السوداء. أما ألمانيا، فكانت تعني الأفلام والعري والتحليل النفسي -وليس هتلر الذي لم يسمع به أحد حتى عام ١٩٣١ تطاولت حركة "الفن من أجل الفن" عملياً في

الدوائر الثقافية إلى تقديس اللامعنى، وافترض بالأدب أن يكون مجرد تلاعب بالكلمات. وكان الحكم على كتاب من خلال موضوعه خطيئة لا تغتفر، وحتى الاطلاع على موضوعه هفوة ذوقية. في عام ١٩٢٨ تقريباً واحدة من الدعابات المضحكة الحقيقية الثلاث التي أنتجتها بنش منذ الحرب العظمى، تصور شاباً لا يطاق، يُخبر عمته أنه ينوي أن "يكتب"، فسألته العمة: "وعن ماذا ستكتب يا عزيزي؟" قال الشاب بشكل حاد: "عمتي الغالية، المرء لا يكتب عن أي شيء وإنما يكتب فقط". إن أفضل كتاب العشرينيات لم يؤيدوا هذا المذهب، وكان "غرضهم" في أغلب الحالات صريحاً نوعاً ما، لكنه عادة "غرض" بموازاة الخطوط الثقافية الدينية الأخلاقية، وعند تفسيره حسب المصطلحات السياسية، فهو ليس "يسار" في أي حال. إن ميل ونزعة كل كتاب هذه الجماعة، هو ميل محافظ بشكل أو بآخر. فمثلاً أمضى لويس سنوات في بحث مسعور عن آثار "البلشفية"، وكان قادراً على اكتشافها في أماكن غير متوقعة جداً. لقد بدل بعضاً من آرائه مؤخراً بعد تأثره بمعاملة هتلر للفنانين، لكن من الأسلم الرهان أنه لن يذهب بعيداً جداً باتجاه اليسار. يبدو أن باوند أيّد الفاشية بوضوح والنوع الإيطالي منها في كافة الأحوال. بقي إليوت بمعزل، لكن إن أجبر بفوهة المسدس أن يختار بين الفاشية وبين شكل آخر من الاشتراكية أكثر ديمقراطية، فقد يختار الفاشية. بدأ هكسلي بيأسه المعتاد من الحياة، ثم تحت تأثير "بطن لورانس السوداء" جرب شيئاً سُمي بعبادة الحياة، ووصل أخيراً إلى السلمية (رفض حمل السلاح)- موقف يمكن الدفاع عنه، موقف محترم في هذه اللحظة، ولكن ربما يشمل نبذ الاشتراكية على المدى الطويل. من اللافت أيضاً أن أكثر الكتاب في هذه الجماعة لديهم حنان محدد للكنيسة الكاثوليكية، لكنه ليس من النوع الذي يقبل به الكاثوليكي الأرثوذوكسي عادة.

إن الرابط العقلي بين التشاؤمية والنظرة الرجعية واضح بما لا يدع مجالاً للشك، لكن غير الواضح ربما هو لماذا كان كتاب العشرينيات البارزين متشائمين بصورة مهيمنة، ولماذا الإحساس دائماً بالانحطاط والجماجم والصبار ورثاء الإيمان المفقود والحضارات المستحيلة؟ أليس السبب لأن هؤلاء الناس كانوا يكتبون في فترة مريحة بشكل استثنائي؟ من الصائب في مثل تلك الأوقات أن يزدهر "اليأس الكوني" أهل البطون الفارغة لا ييأسون أبداً من الكون ولا يفكرون بالكون حتى. كانت الفترة ما بين ١٩١٠ و١٩٣٠ فترة ازدهار، وحتى

سنوات الحرب كانت مقبولة مادياً إن لم يكن المرء مقاتلاً في إحدى بلدان التحالف. بالنسبة إلى العشرينيات، فقد كانت العصر الذهبي لصاحب الدخل من السندات- المثقف، فترة من عدم المسؤولية لم يشهدها العالم من قبل قط. انتهت الحرب ولم تظهر دول الشمولية الجديدة وتلاشت كل ضروب التابوهات الدينية وتدفق النقد إلى الداخل. كان "التحرر من الوهم" هو الموضة السائدة. كل من في يوفر في خزنته ٥٠٠ جنيه سنوياً تحول إلى مثقف وبدأ يمرن نفسه على سيرة ذاتية مضجرة. كان عصر النسور والكعك المدور المحلى واليأس السهل وهاملتات الأفنية الخلفية وتذاكر العودة الرخيصة في آخر الليل. في بعض من الروايات ذات الميزة القاصرة لتلك الفترة، كتب مثل رُوِيّ بواسطة أبله يصل فيها اليأس من الحياة إلى جو حمام تركي من الإشفاق على الذات. وحتى أفضل كتاب العصر يمكن إدانتهم بموقف أولمبي متشدد واستعداد زائد لغسل أياديهم من المشاكل العملية العاجلة. رأوا الحياة بشكل شامل جداً وأكثر بكثير من هؤلاء الذي أتوا قبل أو بعد الحرب مباشرة، لكنهم رأوها من خلال الطرف الخطأ من المنظار المقرب. لكن ذلك لم يبطل كتبهم ككتب. إن الاختبار الأول لأي عمل فني هو بقاؤه وبقاء كمية كبيرة مما كُتب في فترة ١٩١٠-١٩٣٠ حية وتبدو أنها ستستمر هو حقيقة. يكفي المرء أن ينظر إلى يوليسيس والعبودية البشرية وأغلب أعمال لورانس الأولى وخصوصاً قصصه القصيرة وعملياً كل قصائد إليوت حتى عام ١٩٣٠ تقريباً، ليتساءل ما الذي يكتب الآن والذي سيدوم بهذا القدر الجيد.

لكن حدث شيء بشكل مفاجئ في السنوات ١٩٣٠-٥. لقد تبدل المناخ الأدبي بظهور جماعة من الكتاب أودين وسبيندر والبقية. وكان هؤلاء الكتاب يدينون تقنياً لسابقيهم، إلا أن ميلهم كان مختلفاً تماماً. فجأة خرجنا من شفق الآلهة إلى جو صبي الكشافة (بوي سكوت) بالركب العارية والغناء الجماعي، ولم يعد رجل الأدب الأنموذجي هو المغترب المثقف الذي لديه ميل للكنيسة، وأصبح تلميذاً تواقاً يميل إلى الشيوعية. إن كانت الفكرة الرئيسية لكتاب العشرينيات هي "الإحساس المأساوي بالحياة"، فإن الفكرة الأساسية للكتاب الجدد هي "الغرض الجدي"

لقد نوقش الفرق بين المدرستين مطولاً في كتاب لويس ماكنيس **الشعر الحديث**، وكُتب هذا الكتاب طبعاً من وجهة نظر جماعة الشباب، واعتبر تفوق معاييرهم أمراً بديهياً. فوفقاً لما يراه السيد ماكنيس:

شعراء الإمضاءات الجديدة* على خلاف ييتس وإليوت متحزبون عاطفياً. اقترح ييتس أن يدير ظهره للأمنيات والضغائن؛ وجلس إليوت يتفرج على عواطف الناس بضجر وبإشفاق ساخر على الذات..... ومن جانب آخر تضمن كل شعر أودين وسبيندر وداي لويس الأمنيات والضغائن الخاصة بهم، بل أكثر من ذلك كانوا يعتقدون أن بعض الأشياء يجب أن يكون مرغوباً وبعضها الآخر مكروهاً.

ويقول ثانية:

شعراء الإمضاءات الجديدة رجعوا.... إلى التفضيل الإغريقي للمعلومة والبيان. إذاً المطلب الأول أن يكون لديك شيئاً تقوله، وبعد ذلك عليك أن تقوله بأفضل شكل تستطيعه.

بعبارة أخرى لقد عاد "الغرض" ودخل الكتّاب الشباب عالم السياسة. كما نوهتُ من قبل، لم يكن إليوت وشركاه غير متحزبين حقيقة مثلما اقترح السيد ماكنيس، ويظل صحيحاً عموماً أن التأكيد الأدبي في العشرينيات، كان أكثر على التكنيك وأقل على الموضوع مما هو عليه الآن.

الشخصيات القيادية والموجهة في هذه الجماعة هي: أودين وسبيندر وداي لويس وماكنيس، وهناك سلسلة طويلة من الكتّاب من نفس الميل تقريباً مثل إيشروود وجون ليهمان وآرثر كالدار - مارشال وإدوارد أبوارد وآلي براون وفيليب هندرسون والكثيرين غيرهم. وكما فعلت من قبل، أنا أجمعهم معاً حسب الميل فقط؛ إذ من الواضح وجود تباينات كبيرة في الموهبة. وحين يقارن المرء هؤلاء الكتاب مع جيل جويس- إليوت، فإن الشيء اللافت جداً هو السهولة الكبيرة في تشكيلهم في جماعة واحدة. تقنياً هم أقرب إلى بعضهم البعض، وسياسياً لا يمكن التمييز بينهم، ونقدهم لأعمال بعضهم البعض كان ودياً. كان الكتاب البارزون في العشرينات من أصول متنوعة جداً، والقليل جداً منهم مروا عبر الطاحونة التعليمية الإنكليزية العادية (أفضلهم لم يكونوا من الإنكليز باستثناء لورانس) وأغلبهم اضطروا في فترة ما إلى النضال ضد الفقر والإهمال والاضطهاد الصريح حتى. من جانب آخر، كل الكتاب الصغار الشباب تقريباً يمكن أن يكونوا مناسبين بسهولة لأنموذج -

---

* نشر عام ١٩٣٢.

مدرسة وجامعة بلومزبيري. إن القليلين منهم الذين لهم أصل بروليتاري، هم من النوع الذي نُزعت عنه الصفة الطبقية في وقت مبكر من حياته أولاً بواسطة المنح الدراسية، ثم بواسطة حوض تبيض "ثقافة" لندن. من الملاحظ أن الكثيرين من هذه الجماعة، لم يكونوا أولاداً وإنما أساتذة في المدارس الخاصة. منذ سنوات وصفت أودين بـ"كيبلينغ جبان"، وهذا كنقد غير جدير. وفي الواقع كان مجرد ملاحظة حاقدة، لكن حقيقة في أعمال أودين خصوصاً المبكرة منها، هناك جو من الترفع- شيء أشبه بـ لو كيبلينغ أو العب بكل طاقتك، العب بكل طاقتك والعب بشرف واستقامة!- لا يبدو بعيداً جداً أبداً. خذ قصيدة "أنتم راحلون الآن، وهذا يتوقف عليكم يا أولاد"، إنها رئيس فرقة كشافة صرفة ونفس سمة خطاب العشر دقائق المباشر عن أخطار الاستمناء. لا شك أن هنالك عنصراً من المحاكاة الساخرة الذي تقصده، لكن أيضاً هناك شبه أعمق من الذي تتعمده. إن السمة المتزمتة نوعاً ما الشائعة عند أكثر هؤلاء الكتاب، هي علامة انعتاق طبعاً. بإقصاء "الفن الصرف" جانباً، فإنهم حرروا أنفسهم من الخوف من أن يُسخر منهم ووسعوا مداهم كثيراً. كان الجانب التنبؤي في الماركسية مثلاً مادة جديدة للشعر تملك إمكانيات عظيمة:

نحن لا شيء، نحن سقطنا في الظلام وسوف نهلك. لكن تذكر أننا في هذا الظلام نحمل الصرة السرية لفكرة يدور دولابها الحي والمضيء في سنوات مستقبلية في الخارج. (سبيندر، محاكمة قاضٍ).

لكن، في الوقت نفسه، لم يقترب أكثر من الجماهير لكونه أدباً ممركساً، وبأخذ الفاصل الزمني في الاعتبار، كان أودين وسبنسر أبعد من أن يكونا كاتبين مشهورين مثل جويس وإليوت ناهيك عن لورانس. كما في السابق هناك كتاب معاصرون كانوا خارج التيار، لكن ليس هناك شك كبير حول ما هو التيار. بالنسبة إلى أواسط الثلاثينيات وأواخرها كان أودين وسبنسر وشركاؤهما هم "الحركة" كما كان جويس وإليوت وشركاؤهما في العشرينيات، وكانت الحركة نحو جهة غامضة سُميت بالشيوعية. فمنذ عام ١٩٣٤ او١٩٣٥ اعتبر من الشاذ في الدوائر الأدبية ألا تكون "يسارياً" تقريباً، وبعد سنة أو اثنتين من ذلك نضج معتقد يساري وخلق مجموعة محددة من الآراء الملزمة بشكل قاطع في بعض المواضيع، وبدأت الفكرة تتطور وتتوسع (راجع إدوارد أبوارد وآخرين) بأن الكاتب يجب إما أن يكون يسارياً

فاعلاً أو أنه سيكتب على نحو رديء. بين عام ١٩٣٥ وعام ١٩٣٩ كان للحزب الشيوعي فتنة لا تقاوم تقريباً لأي كاتب دون الأربعين من عمره، وأصبح من العادي أن تسمع أن فلاناً "انضم" كما كان قبل بضع سنين حين كانت الكثلكة الرومانية هي النمط السائد، وتسمع أن فلاناً "قُبل ورُحب به" لمدة ثلاث سنوات تقريباً في الحقيقة ظل التيار المركزي للأدب الإنكليزي تحت سيطرة شيوعية مباشرة تقريباً. كيف أمكن لشيء كهذا أن يحدث؟ وبنفس الوقت ما هو المقصود بـ "الشيوعية"؟ من الأنسب أن نجيب على السؤال الثاني أولاً.

بدأت الحركة الشيوعية في أوروبا الغربية كحركة للإطاحة بالرأسمالية بشكل عنيف، وانحطت خلال سنوات قليلة إلى أداة للسياسة الروسية الخارجية، وربما كان هذا محتوماً حين خمد هذا الهياج الثوري الذي تلا الحرب العظمى. بالقدر الذي أعرفه، إن التاريخ الشامل الوحيد لهذا الموضوع في اللغة الإنكليزية حسب معرفتي، هو كتاب فرانز بوركيناو الشيوعي الأممي. إن الوقائع التي يقدمها بوركيناو والتي تفوق استنتاجاته، توضح أن الشيوعية لم يكن بمقدورها أبداً أن تتطور بموازاة خطوطها الحالية، لو وجد أي شعور ثوري في البلدان الصناعية. ففي إنكلترا مثلاً من الواضح أن مثل هذا الشعور لم يتواجد لسنين مضت. وأرقام العضوية المثيرة للشفقة لكل الأحزاب المتطرفة، تبين هذا بوضوح. لذلك من الطبيعي أن يسيطر على الحركة الشيوعية الإنكليزية أشخاص كانوا تابعين لروسيا عقلياً وفكرياً، وليس لديهم أي هدف حقيقي سوى استغلال السياسة الإنكليزية الخارجية لصالح المصالح الروسية. طبعاً لا يمكن الاعتراف بهدف كهذا بشكل علني، وهذه الحقيقة هي التي أعطت الحزب الشيوعي طبيعته الغريبة جداً، أما النوع الأعلى صوتاً من الشيوعيين حقيقة فهو عميل للدعاية الشيوعية المتظاهر بأنه اشتراكي أممي. إنه موقف يمكن الحفاظ عليه بسهولة في الأوقات العادية، لكنه يصبح صعباً في الأزمات بسبب حقيقة أن الاتحاد السوفييتي شكاك في سياسته الخارجية أكثر من القوى العظمى. إن التحالفات وتبديل الجبهات..إلخ التي لا معنى لها إلا كجزء من لعبة سياسات القوة، يجب أن تُفسر وتُبرر على ضوء الاشتراكية الأممية. كل مرة يبدل ستالين فيها الشركاء تُسبك "الماركسية" وتُصاغ في شكل جديد، وهذا يستلزم تغييرات عنيفة ومفاجئة في "الخط" و"أعمال تطهير" واتهامات وتخريب ممنهج لأدب الحزب إلخ إلخ. إن كل شيوعي في الحقيقة عرضة في أي لحظة بأن يُجبر على تبديل جلّ قناعاته

الأساسية أو ترك الحزب. العقيدة التي لا يرقى إليها الشك في يوم الاثنين ربما تصبح هرطقة لعينة في يوم الثلاثاء وهكذا. لقد حدث هذا ثلاث مرات على الأقل خلال السنوات العشر الماضية. ونتيجة لذلك كان الحزب الشيوعي في أي بلد غربي غير مستقر دائماً وصغير جداً عادة، وكانت عضويته طويلة الأمد تتألف حقيقة من حلقة داخلية من المثقفين الذين تماثلوا مع البيروقراطية الروسية، وكيان أكبر من أشخاص من الطبقة العاملة الذين يشعرون بالولاء لروسيا السوفييتية، من دون أن يفهموا سياساتها، وإلا لكانت هناك عضوية متنقلة مجموعة تأتي وأخرى تذهب مع كل تغيير في "الخط".

في عام ١٩٣٠ كان الحزب الشيوعي الإنكليزي قزماً وتنظيماً قلما كان شرعياً، نشاطه الأساسي التشهير بحزب العمال. لكن في عام ١٩٣٥ تبدل وجه أوروبا وتبدلت معها سياسة الجناح اليساري. صعد هتلر إلى السلطة وبدأ يتسلح ثانية، ونجحت الخطة الروسية الخماسية، وظهرت روسيا ثانية كقوة عسكرية عظمى. وبما أن الأهداف الثلاثة التي سيهاجمها هتلر هي بريطانيا العظمى وفرنسا والاتحاد السوفييتي، فقد أُجبرت البلدان الثلاثة على نوع من التقارب الصعب. هذا يعني أن الشيوعي الإنكليزي أو الفرنسي كان مجبراً بأن يكون مواطناً صالحاً وإمبريالياً- أي أن يدافع عن نفس الأشياء التي كان يهاجمها في الخمس عشرة سنة الأخيرة، وخبا لون شعارات الكومنترن فجأة من الأحمر إلى القرنفلي. أخلت "الثورة العالمية" الطريق لـ "الدفاع عن الديمقراطية" و"إيقاف هتلر". وكانت السنوات من ١٩٣٥ إلى ١٩٣٩ فترة معاداة الفاشية والجبهة الشعبية وذروة نادي الكتاب اليساري والوقت الذي زارت فيه الدوقات الحمر والكهنة الكبار المنفتحون ساحات المعارك الحرب الإسبانية، والوقت الذي كان فيه ونستون تشرشل الصبي الأزرق العينين للديلي ووركر. منذ ذلك الحين طبعاً كان هناك تبدل آخر في "الخط"، لكن الهام من أجل غرضي هو أن الكتاب الإنكليز الأصغر عمراً انجذبوا إلى الشيوعية أثناء الطور المعادي للفاشية.

لا شك أن الصراع العنيف المتشعب بين الفاشية والديمقراطية، كان مصدر جذب بحد ذاته. تحولهم إلى المعتقد الجديد كان متوقعاً في ذلك التاريخ تقريباً في أي حال. كان واضحاً أن الرأسمالية الحرة هلكت، وكان من الضروري وجود نوع ما من نظام وبناء جديد وفي عالم ١٩٣٥ كان من شبه المستحيل أن تبقى غير مبالٍ بالسياسة، لكن لماذا استدار هؤلاء الشباب

ولجأوا إلى شيء غريب جداً مثل الشيوعية الروسية؟ لماذا كان على الكتاب الانجذاب إلى شكل من الاشتراكية يجعل الاستقامة الفكرية مستحيلة؟ إن التفسير يكمن في شيء جعل نفسه محسوساً قبل السقوط وقبل هتلر: بطالة الطبقة الوسطى.

البطالة ليست مسألة عدم حصولك على وظيفة فقط. أغلب الناس يستطيعون الحصول على وظيفة ما حتى في أسوأ الأوقات. كانت المشكلة أنه في حوالي ١٩٣٠ لم يكن هناك نشاط يمكن أن يؤمن به الشخص المفكر سوى البحث العلمي والفنون والسياسة اليسارية. وصل انفضاح الحضارة الغربية إلى ذروته، وانتشر "التحرر من الوهم" بشكل واسع. من يستطيع الآن أن يثق ويتحمل الحياة على طريقة الطبقة الوسطى، كجندي وقس وسمسار في البورصة وكموظف مدني هندي أو غيره؟ وكم من القيم التي عاش بها أجدادنا لا يمكن أخذها على محمل الجد؟ الوطنية والدين والإمبراطورية والعائلة وقدسية الزواج ورباط المدرسة القديمة والمولد والتكاثر والشرف والسلوك المنضبط- أي واحد ذو تعليم عادي يستطيع قلب المجموعة كلها رأساً على عقب في غضون ثلاث دقائق. لكن مع ذلك ما الذي أنجزته بالتخلص من مثل هذه الأشياء الأساسية كالوطنية والدين مثلاً؟ أنت لم تتخلص بالضرورة من الحاجة إلى شيء تؤمن به. كان هناك فجر زائف قبل بضع سنوات، حين فرّ عدد من المثقفين الشباب ومنهم كثيرون من الكتاب الموهوبين (إيفلين واو، كريستوفر هوليس وآخرون) بشكل ثابت إلى الكنيسة الكاثوليكية وليس إلى كنيسة إنكلترا أو الكنيسة الإغريقية أو الطوائف البروتستانتية؛ ذهبوا إلى الكنيسة التي هي منظمة عالمية والكنيسة التي لها انضباط صارم والكنيسة ذات السلطة والمكانة. ما هو جدير بالملاحظة وربما تحول المعتقد العصري الوحيد لمواهب الطراز الأول الحقيقية، كان إليوت الذي لم يعتنق الكثلكة (الكاثوليكية الرومانية) وإنما الكاثوليكية الإنكليزية المكافئ الكنسي للتروتسكوية. لكن لا أعتقد أن المرء يحتاج أن ينظر أبعد من هذا من أجل السبب الذي جعل الكتاب الشباب في الثلاثينيات يدخلون أسراباً في الحزب الشيوعي أو أن يتجهوا نحوه. إن كان مجرد شيء للإيمان، فهنا كنيسة وجيش وعقيدة وانضباط. هنا أرض الأجداد، وفوهرر منذ ١٩٣٥ إن كل الولاءات والخرافات التي تخلص منها العقل على ما يبدو، استطاعت أن تعود باندفاع قوي عنيف تحت أوهى الأقنعة. فالوطنية والدين والإمبراطورية والمجد العسكري -كلها في كلمة واحدة،

روسيا والأب والملك والقائد والبطل والمنقذ- كلهم في كلمة واحدة، ستالين. الرب - ستالين. الشيطان -هتلر. الجنة -موسكو. الجحيم -برلين. لقد مُلئت كل الثغرات، لهذا فإن "شيوعية" المثقف الإنكليزي هي شيء قابل للتفسير تماماً: إنها وطنية المستأصل من جذوره.

لكن هناك شيئاً آخر ساهم بدون شك في الإعجاب بروسيا وسط الإنتجلنسيا الإنكليزية خلال هذه السنين، ألا وهو نعومة الحياة والأمان في إنكلترا. بكل جورها تظل إنكلترا أرض القضاء، والغالبية العظمى من الشعب الإنكليزي ليس لديه تجربة في العنف أو اللاشرعية. إن تربيت وكبرت في ذلك الجو، فلن يكون من السهل أبداً لك أن تتخيل ما هو شكل النظام الاستبدادي. كل الكتاب المسيطرين في الثلاثينيات تقريباً انتموا إلى الطبقة الوسطى شبه الناضجة المتحررة، وكانوا أصغر من أن تكون لهم ذكريات مؤثرة عن الحرب العظمى. لأناس من هذا النوع أشياء مثل أعمال التطهير والشرطة السرية والإعدامات العاجلة والحبس دون محاكمة إلخ إلخ، لن تكون مرعبة، ويستطيعون بلع الشمولية لعدم معرفتهم بأي تجربة سوى الليبرالية. انظر مثلاً إلى هذا المقتطف من قصيدة السيد أودين "إسباني" (مصادفة هذه القصيدة واحدة من القلة المحتشمة التي كتبت حول الحرب الإسبانية):

الغد للشباب والشعراء ينفجرون كالقنابل والمشاوير بجانب البحيرة وأسابيع المشاركة والتعاون المثالي؛ غداً سباقات الدراجات عبر الضواحي في أمسيات الصيف. لكن في الوقت الحالي الصراع.

في الوقت الحالي الزيادة المتعمدة في فرص الموت والقبول المقصود بإثم القتل الضروري؛ في الوقت الحالي استهلاك الطاقات على الكتيب المنبطح السريع الزوال والاجتماع الممل.

إن المراد من المقطع الشعري الثاني نوع من مخطط مختصر ليوم من حياة "رجل حزبي صالح". في الصباح جريمتان سياسيتان وفاصل من عشرة دقائق لخنق الندم "البرجوازي"، ثم غداء عاجل، وأصيل حافل بالعمل، ومساء من الكتابة على الجدران بالطباشير وتوزيع الكراريس. تعليمي جداً. لكن لاحظ عبارة "قتل ضروري" التي لا يكتبها سوى شخص تكون الجريمة بالنسبة إليه مجرد كلمة على الأغلب. أنا لن أتكلم بهذا الاستخفاف عن القتل، فقد حدث ورأيت أجساد عدد من الرجال القتلى- لا أعني أنهم قتلوا في معركة، أقصد قتلوا. لذلك لدي فكرة عن معنى القتل-الإرهاب والكره والأقرباء النائحون وفحوصات الجثة بعد

الوفاة والدم والروائح الكريهة. إن القتل بالنسبة إلي شيء يجب تجنبه، وهكذا هو بالنسبة إلى كل شخص عادي. الهتلريون والستالينيون يجدون القتل ضرورياً، لكنهم لا يعلنون قساوة قلوبهم ولا يتكلمون عنه كجريمة؛ إنه "تصفية" و"إزالة" أو عبارة مخففة أخرى. إن نوع عدم الحس الأخلاقي عند أودين ممكنة فقط إن كنت نوع الشخص الذي يكون دائماً في مكان آخر حين يُشد زناد البندقية. الكثير من فكر الجناح اليساري هو نوع من اللعب بالنار من قبل أناس لا يعرفون أن النار حارة حتى. إن تهييج الحروب الذي استسلمت له الطبقة المثقفة الإنكليزية في الفترة بين ١٩٣٥ و١٩٣٩ كان مبنياً على إحساس بالمناعة الشخصية، أما الموقف في فرنسا فقد كان مختلفاً؛ إذ كان من الصعب تفادي الخدمة العسكرية. وكان رجال الأدب يعرفون ثقل الصرة أيضاً.

في نهاية كتاب السيد سيريل كونولي الحديث **أعداء الوعد**، يظهر مقطع مشوق وكاشف. إن الجزء الأول من الكتاب عبارة عن تقييم للأدب المعاصر تقريباً. ينتمي السيد كونولي إلى جيل كتاب "الحركة"، ولكن بلا شك فإن قيمهم هي قيمه. من الممتع ملاحظته أنه من بين كتاب النثر معجب بشكل أساسي بهؤلاء المتخصصين بالعنف وبالمدرسة الأمريكية التي ترغب أن تكون قاسية وهمنغواي إلخ. لكن القسم الأخير من الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية، ويتألف من وصف دقيق بشكل مذهل لحياة في المدرسة الإعدادية، وإيتون في السنوات ١٩١٠-٢٠. ينهي السيد كونولي قائلاً:

لو استنتجت أي شيء من مشاعري عندما تركت إيتون لسميته نظرية المراهقة الدائمة، وهي النظرية التي ترى أن التجارب التي مر بها أولاد المدارس الخاصة كانت حادة جداً لدرجة تهيمن على حياتهم وتكبح تطورهم.

حين تقرأ الجملة الثانية من هذا المقطع، يبحث دافعك الطبيعي عن خطأ مطبعي. من المفترض عدم وجود حذف أو شيء ما. لكن لا، لا شيء من ذلك! إنه يقصد ذلك! والأكثر من ذلك هو يتكلم الحقيقة فقط لكن بطريقة معكوسة. لقد وصلت حياة الطبقة الوسطى المثقفة إلى درجة من النعومة، يمكن أن يُنظر إلى الخمس سنوات من التعليم في المدارس الخاصة- خمس سنوات في حمام التكبر الفاتر - كفترة حافلة بالأحداث. بالنسبة إلى الكتّاب الذين أُحصوا خلال الثلاثينيات هل حدثت أشياء أكثر مما دونه السيد كونولي في كتابه **أعداء**

الوعد؟ أنه الأنموذج نفسه دائماً؛ المدرسة الخاصة والجامعة ورحلات قليلة إلى الخارج ثم لندن. لم يكن الجوع والمشاق والعزلة والنفي والحرب والسجن والاضطهاد والعمل اليدوي سوى ألفاظ. لا عجب أن تجد قبيلة ضخمة عرفت بـ "الناس اليساريين الحقيقيين" أنه من السهل التغاضي عن أعمال التطهير والشرطة السرية جي بي يو للنظام الروسي ورعب الخطة الخماسية الأولى. كانوا عاجزين بشكل تام عن فهم ما كانت تعنيه. في حوالي عام ١٩٣٧ كانت كل الطبقة المثقفة الإنكليزية في حالة حرب فكرياً. لقد ضاق الفكر اليساري وتقلص إلى شكل من معاداة الفاشية أي إلى سيل سلبي من أدب الكره الموجه ضد ألمانيا والسياسيين المحبين لألمانيا، سيل كان ينهمر من الصحافة. إن الشيء الذي أخافني جداً في الحرب في إسبانيا لم يكن العنف الذي شهدته بعيني ولا حتى العداوات الحزبية خلف خطوط القتال، وإنما ظهور الجو الفكري للحرب العظمى من جديد في دوائر الجناح اليساري. نفس الأشخاص الذين سخروا من تفوقهم على هستيريا الحرب كانوا الأشخاص الذين تراجعوا بقوة إلى العقلية القذرة لعام ١٩١٥ كل حماقات الحرب المألوفة من صيد الجواسيس وشم المعتقدات (شم، شم. هل أنت عدو صالح للفاشية؟) وتسويق قصص الأعمال الوحشية عادت للرواج، كما لو أن السنوات الفاصلة لم تحدث أبداً. قبل نهاية الحرب الإسبانية، وقبل ميونيخ حتى، بدأ بعض من أفضل كتاب الجناح اليساري بالارتباك والتلوي. لم يكتب أودين أو سبيندر شيئاً عن الحرب الإسبانية بنفس المسحة التي كانت متوقعة منهما. منذ ذلك كان هناك تبدل في الشعور وكثير من الفزع والتشوش، لأن المسار الفعلي للأحداث سفّه عقيدة الجناح اليساري في السنوات القليلة الأخيرة، وبعد ذلك لم تعد هناك حاجة لذكاء كبير لترى أن الكثير منها كان عبارة عن هراء منذ البداية. وبناء عليه لم يكن هناك يقين بأن العقيدة التالية التي ستنبثق ستكون أفضل من سابقتها.

في المجمل يبدو التاريخ الأدبي للثلاثينيات يبرر الرأي بأن الكاتب يفعل الصواب إن ابتعد عن السياسة، لأن أي كاتب يقبل أو يقبل جزئياً بأنظمة حزب سياسي سيواجه عاجلاً أو أجلاً بالخيار: أطع الأوامر أو اصمت. طبعاً من الممكن أن تقول ما يُملى عليك وتستمر في الكتابة– كما هو رائج. أي ماركسي يستطيع أن يثبت بسهولة كبيرة جداً أن حرية الفكر "البرجوازية" هي مجرد وهم، لكن حين ينهي إثباته، تبقى هناك الحقيقة النفسية أنه من دون هذه الحرية

"البورجوازية" تتبدد القدرات الإبداعية وتتلاشى. قد يظهر الأدب الشمولي الاستبدادي في المستقبل، لكنه سيكون مختلفاً تماماً عن أي شيء نستطيع تخيله الآن. الأدب كما نعرفه شيء فرداني ويتطلب أمانة عقلية وحداً أدنى من الرقابة، وهذا صحيح في النثر أكثر منه في الشعر. ربما ليس مصادفة أن أفضل كتاب الثلاثينيات كانوا شعراء. إن الجو العقائدي مؤذ للشعر دائماً، وقبل كل شيء مدمر تماماً للرواية، الشكل الأكثر فوضوية من كل أشكال الأدب. كم عدد الكاثوليكيين الرومان الذين كانوا روائيين جيدين؟ حتى الحفنة التي يستطيع عدها المرء كانوا كاثوليكيين رديئين. إن الرواية عملياً شكل فني بروتستانتي ونتاج العقل الحر للفرد المستقل بذاته. لم يكن هناك عقد في المائة وخمسين سنة الماضية خلا من النثر التخيلي، كما كان عقد ثلاثينيات القرن العشرين. كانت هناك قصائد جيدة وأعمال سوسيولوجية جيدة وكراريس متألقة، لكن عملياً لم يكن هناك قصة أو رواية قيّمة على الإطلاق. من عام ١٩٣٣ فصاعداً كان المناخ العقلي ضدها بشكل متزايد، فأي شخص حساس وتأثر بروح العصر كان متورطاً في السياسة. ليس كل واحد بالتحديد طبعاً كان في العربدة السياسية، لكن عملياً كان كل واحد على محيط السياسة وتورط تقريباً في حملات الدعاية والجدالات القذرة. كان للشيوعيين والقريبين منهم تأثير واسع بشكل غير متكافئ في المجلات النقدية الأدبية. كان زمن الرقع والشعارات والمراوغات. في أسوأ اللحظات كان يتوقع منك أن تحبس نفسك في قفص صغير مقبِض للأمعاء من الأكاذيب وفي أفضلها نوع من الرقابة الطوعية ("هل ينبغي علي أن أقول هذا؟؟ وهل هذا القول مؤيد للفاشية؟") أسئلة كانت تدور في عقل كل واحد. من الصعب التصور أن تكتب روايات جيدة في جو كهذا. إن الروايات الجيدة لا تُكتب بواسطة شمامي العقائد ولا بواسطة أناس ضمائرهم معذبة بخصوص لاعقيدتهم (هرطقتهم). إن الروايات الجيدة تُكتب بواسطة أشخاص غير خائفين، وهذا يعيدني إلى هنري ميلر.

القسم الثالث:

إن كانت هذه هي اللحظة لإطلاق "مدرسة" أدبية، فربما يكون هنري ميلر نقطة البداية لمدرسة جديدة. فعلى أي حال إنه يرمز إلى أرجحة غير متوقعة لبندول الساعة. فالمرء ينجو في كتبه من "الحيوان السياسي"، ويعود إلى وجهة نظر ليست فردية فقط وإنما سلبية تماماً-

وجهة نظر رجل يؤمن بأن مسار العالم خارج سيطرته، ورجل نادراً ما يرغب بأي حال في السيطرة عليه.

قابلت ميلر لأول مرة في نهاية عام ١٩٣٦ حين كنت أمر بباريس في طريقي إلى إسبانيا. إن أكثر ما أثار فضولي حوله أنني وجدت أنه لم يشعر بأي اهتمام في الحرب الإسبانية. أخبرني فقط في تعبيرات قسرية أن الذهاب إلى إسبانيا في تلك اللحظة عمل رجل أحمق. هو يفهم أي واحد يذهب إلى هناك، إما بدوافع أنانية محضة كدافع الفضول مثلاً، أو أن تورط نفسك في مثل هذه الأشياء من إحساس في الواجب فهو مجرد غباء. وفي حالتي كانت أفكاري عن مقارعة الفاشية والدفاع عن الديمقراطية إلخ كلها هراء. حضارة مقدر لها ومحكومة بأن تكنس وتستبدل بشيء مختلف جداً لدرجة يجب ألا نعتبره إنسانياً - مشهد لا يضايقه كما قال. وبعض من وجهة النظر هذه متضمنة في كل أعماله. في كل مكان هناك إحساس بالجائحة الوشيكة، وفي كل مكان تقريباً الاعتقاد الضمني بأنها شيء غير مهم. إن التصريح السياسي الوحيد حسب معرفتي الذي أدلى به مطبوعاً كان تصريحاً سلبياً. منذ سنة أو أكثر أرسلت المجلة أمريكية الفصلية الماركسية استبياناً لكتاب أمريكيين مختلفين سألتهم أن يحددوا موقفهم من موضوع الحرب. ردّ ميلر في سلمية مفرطة ورفض فردي للقتال، مع عدم وجود رغبة ظاهرة في هداية الآخرين لاعتناق نفس الرأي - عملياً في الحقيقة هو تصريح باللامسؤولية.

لكن هناك أكثر من نوع من اللامسؤولية. كقاعدة إن الكتاب الذين ليس لديهم الرغبة في التعاطف مع العملية التاريخية الراهنة، إما يتجاهلونها أو يقاتلون ضدها. إن استطاعوا تجاهلها فهم حمقى على الأرجح. إن استطاعوا أن يفهموها جيداً بشكل يكفي أن يرغبوا في القتال ضدها، فعلى الأرجح تكون لديهم رؤيا كافية ليدركوا أنهم لا يستطيعون الفوز. انظر مثلاً إلى قصيدة مثل "الغجري العالم" مع شكواها ضد "مرض الحياة العصرية الغريب" والتشبيه الانهزامي في الستانزا الأخيرة. إنها تعبر عن واحد من المواقف الأدبية العادية وربما كان الموقف السائد فعلياً خلال المائة سنة الأخيرة. في المجمل كتاب العشرينات أخذوا الخط الأول، وكتاب الثلاثينات الخط الثاني. وفي أي لحظة محددة طبعاً، توجد قبيلة ضخمة من أمثال باري ودييبنغ وديل الذين لم يلاحظوا ماذا يحدث. إن أهمية عمل ميلر يكمن في تجنبه

لكل هذه المواقف. فهو لم يدفع العملية التاريخية إلى الأمام ولم يحاول جرها إلى الخلف، لكن من جانب آخر لم يتجاهلها بالتأكيد. يجب أن أقول إنه يؤمن بالدمار الوشيك للحضارة الغربية بشكل أقوى من أغلبية الكتاب "الثوريين، لكنه لا يشعر بأنه يجب أن يفعل أي شيء بخصوص ذلك. هو يعزف بكمانه بينما روما تحترق، وبخلاف الأغلبية الهائلة من الناس الذين يفعلون هذا، يعزف ووجهه نحو ألسنة اللهب.

في **ماكس والخلايا البيضاء البالعة**، هناك مقاطع كاشفة يخبرنا فيه الكاتب قدراً كبيراً عن نفسه بينما يتحدث عن شخص آخر. يتضمن الكتاب مقالاً طويلاً عن مذكرات أنايس نين، التي لم أقرأها أبداً باستثناء بضع أجزاء صغيرة، والتي أعتقد أنها لم تنشر. يدعي ميلر أنها الكتابة الأنثوية الحقيقية الوحيدة التي ظهرت إلى الآن بغض النظر عما تعنيه. لكن المقطع الممتع هو المقطع الذي يقارن فيه أنايس نين، الشخصية تماماً وبشكل واضح والكاتبة الانطوائية، مع يونس في بطن الحوت. هو يشير بشكل عابر إلى مقال كتبه ألدوس هاكسلي منذ عدة سنوات عن صورة أل غريكو، حلم فيليب الثاني. يلاحظ هاكسلي أن الناس في صورة أل غريكو كما لو أنهم كانوا في بطون حيتان، ويدعي أنه اكتشف شيئاً مرعباً بشكل غريب في فكرة أن تكون في "سجن من الإمعاء". ميلر يرد على ذلك بشكل معاكس بقوله إن هناك أشياء كثيرة أسوأ من أن تبتلعك الحيتان. ويوضح المقطع أنه نفسه يجد الفكرة جذابة نوعاً ما. هو يقصد ويتطرق إلى وتر الوهم واسع الانتشار على الأرجح.

من الجدير بالملاحظة أن كل واحد وعلى الأقل كل شخص ناطق بالإنكليزية، يتكلم عن يونس والحوت. طبعاً المخلوق الذي ابتلع يونس كان سمكة ووصفت في الإنجيل، لكن الأطفال يظنونه خطأ أنه حوت. وهذه القطعة الصغيرة من حديث طفولي عادة تحمل إلى حياة لاحقة -علامة ربما عن أثر أسطورة يونس على مهاجرينا. أن تكون في داخل حوت، هي فكرة مريحة جداً ودافئة وعائلية. يونس التاريخي إن كان يمكن وصفه بذلك، كان مسروراً جداً لنجاته وفراره، وقد حسده عدد لا يحصى من الناس في الخيال وفي أحلام اليقظة. والسبب واضح جداً طبعاً. بطن الحوت رحم كبير يكفي لشخص بالغ. ها أنت في الفراغ المظلم الوثير الذي يناسبك تماماً مع ياردات من الدهن والبدانة بين نفسك وبين الحقيقة، قادر على أن تحافظ على موقف من اللامبالاة التامة لكل ما يحدث. عاصفة قد تغرق كل السفن الحربية في العالم قلما

تصلك كصدى. حتى حركات الحوت نفسه ربما تكون غير محسوسة لك. قد يكون يتمرغ وسط الأمواج السطحية أو يندفع بقوة نحو الأسفل في قلب الظلام ووسط البحار (بعمق ميل حسب ما جاء عن هيرمان ميلفيل) لكنك لن تلاحظ الفرق أبداً. إنها المرحلة النهائية التي لا يمكن تجاوزها من اللامسؤولية إن لم يكن المرء ميتاً. ومهما كانت مع أنايس نين، ليس هناك شك بأن ميلر نفسه داخل الحوت. كل مقاطعه المميزة والأفضل كتبت من زاوية يونس، يونس الراغب والمستعد. ليس لأنه انطوائي بشكل خاص-على العكس تماماً. في حالته صدف أن كان الحوت شفافاً. لكنه لم يشعر بأي دافع لتبديل العملية الجارية التي يقاسيها أو السيطرة عليها. هو أنجز فعل يونس الجوهري في حين سمح لنفسه أن يُبتلع وبقي سلبياً وموافقاً.

سوف يتبين ماذا يضيف هذا. إنه نوع من الأمان واطمئنان الروح الذي يتضمن إما عدم إيمان تام أو درجة من الإيمان الذي يصل إلى التصوف. إن موقف "جي مي نفوس" أو "أنا أثق به رغم أنه يذبحني" أياً كانت الطريقة التي نظرت إليه بها؛ لأغراض عملية، كلاهما متطابق، المغزى في كلا الحالتين "اجلس على عجيزتك، سيت اون يور بوم". لكن في زمن كزمننا هل هذا موقف يمكن الدفاع عنه؟ لاحظ أنه من شبه المستحيل الامتناع عن طرح هذا السؤال. في هذه اللحظة من الكتابة نحن لانزال في فترة ترى من البديهي أن الكتب يجب أن تكون إيجابية دائماً وجدية و"بناءة". منذ عشر سنوات هذه الفكرة كانت تقابل بالضحك والسخرية. ("عمتي العزيزة. المرء لا يكتب عن أي شيء. المرء يكتب فقط"). بعدئذ تأرجح النواس وابتعد عن الفكرة العابثة بأن الفن مجرد تكنيك، ولكنه ابتعد لمسافة طويلة جداً إلى نقطة من الحزم والتوكيد بأن الكتاب لا يمكن أن يكون جيداً إلا إذا تأسس على رؤية "صحيحة" للحياة. من الطبيعي أن الناس الذين يؤمنون بهذا، يؤمنون أيضاً بأنهم أنفسهم يمتلكون الحقيقة. النقاد الكاثوليكيون مثلاً يميلون إلى الادعاء بأن الكتب جيدة فقط عندما تكون نزعتها كاثوليكية. وزعم النقاد الماركسيون بالمثل، وبشكل أكثر جرأة بالنسبة إلى الكتب الماركسية مثل "تفسير ماركسي للأدب" للسيد إدوارد أبوارد في **عقول في قيود**:

النقد الأدبي الذي يهدف أن يكون ماركسياً يجب....... أن يعلن صراحة أنه لم يُكتب كتاب جيد في الوقت الحاضر يمكن أن يكون "جيداً" إذا لم يُكتب من وجهة نظر ماركسية أو قريبة منها.

كما صرح كتاب مختلفون آخرون بتصريحات مماثلة أو مساوية. السيد أبوارد يطبع بأحرف مائلة في الوقت الحالي، لأنه أدرك أنك لا تستطيع مثلاً أن تتجاهل هاملت على أرضية أن شكسبير لم يكن ماركسياً. ومع ذلك، فإن مقاله الممتع لا يشير إلى هذه الصعوبة إلا بتلميحات قصيرة جداً. إن الكثير من الأدب الذي أتى إلينا من الماضي مخترق، وفي الحقيقة مؤسس على اعتقادات (الاعتقاد بأبدية الروح مثلاً) التي تبدو لنا الآن مزيفة وفي بعض الحالات سخيفة وتافهة، وحتى لو كان "أدباً جيداً" إن كان البقاء هو الاختبار. يرد السيد أبوارد بلا أدنى شك أن الاعتقاد الذي كان ملائماً قبل عدة قرون قد لا يكون مناسباً، وبالتالي باطلاً الآن. لكن هذا لا يوصلنا إلى أبعد مما سبق، لأنه يفترض أن عصراً يكون فيه كيان إيماني واحداً، هو التيار الأقرب إلى الحقيقة، وأن الأدب الأفضل في عصره يكون منسجماً تقريباً معه. فعلياً لم يتواجد مثل هذا التناغم والاتساق. في إنكلترا القرن السابع عشر مثلاً، كان هناك انشقاق ديني وسياسي يشبه بوضوح خصومة اليسار الراهنة. عند النظر إلى الوراء، نجد أن أغلب الناس العصريين يشعرون أن وجهة النظر البرجوازية-البيوريتانية كانت أقرب إلى الحقيقة من وجهة النظر الكاثوليكية-الإقطاعية. لكن من المؤكد أن الحالة لم تكن أن كل أو أكثرية أفضل الكتاب كانوا من البيوريتانيين. وأكثر من هذا، وجد هناك "كتاب جيدون" كانت نظرتهم إلى العالم مزيفة وسخيفة. مثال على ذلك إدغار آلان بو. نظرة بو في أفضل حال لها رومانسية جامحة وفي أسوأ حالاتها ليست بعيدة عن كونه مجنوناً في المعنى السريري الأدبي. لماذا إذاً أن قصص مثل **القط الأسود والقلب الملهم تيلل-تيل وسقوط بيت آشر** وهلم جرا، التي كان يمكن لمعتوه أن يكتبها، لم تنقل شعوراً بالزيف؟ لأنها حقيقية وصحيحة ضمن إطار محدد وتتقيد بقواعد من عالمها الخاص بها مثل صورة يابانية. لكن يبدو أنه لتكتب بنجاح عن هكذا عالم، عليك أن تؤمن به. يرى المرء الاختلاف فوراً إن قارن حكايات بو مع محاولة جوليان غرين المرائية في رأيي لتطوير جوّ مماثل في **مينوبت**.

الشيء الذي يلفت اهتمام المرء فوراً حول **مينوبت**، هو عدم وجود مبرر لوجوب حدوث أي من الأحداث فيه. كل شيء اعتباطي تماماً وليس هناك تتابع عاطفي. ولكن هذا بالضبط الذي لا يشعر المرء به مع قصص بو. هناك منطق محسوس مقنع تماماً في بيئته المكانية والزمانية. حين يمسك الثمل بالقط الأسود ويقلع عينه بمطواة الجيب خاصته مثلاً، يعرف المرء بالضبط

لماذا فعل ذلك إلى درجة الشعور أن المرء كان سيقوم بنفس الفعل. لذلك يبدو أن تملك الحقيقة بالنسبة إلى الكاتب الإبداعي أقل أهمية من الصدق والإخلاص العاطفي. حتى السيد أبوارد لن يزعم أن الكاتب لا يحتاج إلى شيء يتعدى التدريب الماركسي. هو يحتاج إلى موهبة أيضاً، لكن من الواضح أن الموهبة مسألة أن تكون قادراً على الاهتمام والاعتناء وعلى الإيمان الحقيقي بمعتقداتك إن كانت صحيحة أو مزيفة. الفرق بين سيلين وإيفيلين واو مثلاً، هو فرق في الحدة العاطفية. إنه الفرق بين يأس صادق أصلي ويأس هو تظاهر باليأس جزئياً على الأقل. وبرفقة هذا، يصح اعتبار آخر ربما يكون أقل وضوحاً: هناك مناسبات يكون فيها التمسك بمعتقد "غير حقيقي"، محتملاً أكثر من المعتقد "الحقيقي"

لو نظر المرء إلى كتب الذكريات الشخصية التي كتبت حول حرب ١٩١٤-١٨، يلاحظ أن كل الكتب التي ظلت تقرأ بعد مرور فترة من الزمن، كتبت من زاوية سلبية هامدة. إنها سجلات لشيء ما لا معنى له تماماً وكابوس حدث في الخلاء. تلك ليست الحقيقة حول الحرب، ولكنها الحقيقة حول ردة فعل فردية. الجندي الذي يتقدم إلى داخل وابل من نيران البنادق الآلية أو يقف غارقاً حتى خصره في خندق غمره الفيضان، كان يعرف فقط أن هناك تجربة مفزعة هو فيها عاجز تماماً، وكان على الأرجح سيكتب كتاباً جيداً بسبب عجزه وجهله وليس من قوة مزعومة ترى الشيء كله من منظورها. بالنسبة إلى الكتب التي كتبت أثناء الحرب نفسها كان أفضلها عمل الأشخاص تقريباً الذين أداروا ظهورهم وحاولوا ألا يلاحظوا أن الحرب كانت تحدث. لقد وصف السيد أي إم فورستر كيف قرأ في عام ١٩١٧ بروفروك وقصائد أخرى مبكرة لإليوت، وكيف شجعته في هكذا وقت أن يمسك بقصائد كانت "بريئة من الحماسة الشعبية":

تغنت بالاشمئزاز الشخصي واللامبالاة وبأشخاص بدوا صادقين لأنهم كانوا غير جذابين أو ضعفاء.... هنا كان احتجاج واحتجاج واهن ومتجانس أكثر لكونه واهناً..... هو الذي استطاع أن يتنحى جانباً ليتشكى من سيدات ومن غرف استقبال واحتفظ بنقطة صغيرة جداً من احترامنا للذات، هو حمل على الإرث الإنساني.

قيل ذلك بشكل جيد جداً في الكتاب الذي أشرت إليه للتو، ويقتبس السيد ماكنيس هذا المقطع ويضيف باعتداد إلى حد ما:

بعد عشر سنوات من احتجاجات أقل، قام بها شعراء، استمر الإرث الإنساني بشكل مختلف نوعاً ما.... إن تأمل عالم من شظايا صغيرة، أصبح مملاً وخلفاء إليوت اهتموا أكثر في ترتيبه.

ملاحظات مماثلة تبعثرت في كل كتاب السيد ماكنيس. إن الذي تمنى منا أن نصدقه، هو أن "خلفاء" إليوت (القصد السيد ماكنيس وأصدقاؤه) احتجوا بطريقة ما بشكل أكثر فاعلية مما فعله إليوت في نشره قصيدة بورفروك، في اللحظة التي كانت جيوش الحلفاء تهاجم فيها جبهة هندينبيرغ. أنا لا أعرف أين توجد هذه الاحتجاجات، ولكن في المقارنة بين تعليق السيد فورستر وبين السيد ماكنيس، يكمن الاختلاف كله بين رجل يعرف كيف كانت حرب ١٩١٤-١٨ وبين رجل قلما يتذكرها. الحقيقة أنه في عام ١٩١٧ لم يكن هناك شيء يستطيع الشخص المفكر والحساس فعله، سوى أن يبقى إنسانياً إن أمكن وإيماءة من العجز وحتى من العبث، قد تكون الطريقة الأفضل لفعل ذلك. ولو أنني كنت جندياً يحارب في الحرب الكبرى، لتمسكت ببروفورك أكثر من المائة الألف الأولى أو رسائل إلى الأولاد في الخنادق لهوراشيو بتملي. كنت سأشعر مثل السيد فورستر بالوقوف جانباً والتواصل مع عواطف ما قبل الحرب، كان إليوت يحمل على التراث الإنساني. أي راحة ستكون في وقت كهذا، أن تقرأ عن تردد مثقف كبير أصلع في منتصف عمره! مختلفة جداً عن ثقب حربة! بعد القنابل وطوابير الطعام وملصقات التجنيد، صوت إنساني! يا لها من راحة!

لكن أخيراً، كانت حرب ١٩١٤-١٨ مجرد لحظة مضاعفة وعميقة في أزمة شبه مستمرة. في هذا التوقيت لم تكن هناك حاجة للحرب، حتى توضح لنا تفسخ مجتمعنا والعجز المتزايد لكل الناس المحتشمين. لذلك لهذا السبب كما أعتقد يكمن تبرير الموقف السلبي غير المعين المتضمن في أعمال هنري ميلر. إن كان على أعماله أن تكون تعبيراً عما ينبغي للناس أن يشعروا به أم لا، فإنها على الأرجح تقترب من التعبير عما يشعرون به. مرة أخرى، إن الصوت الإنساني وسط انفجارات القنابل، صوت أمريكي صديق "بريء من الحماسة الشعبية" لا مواعظ، وإنما مجرد الحقيقة الموضوعية. وبهذا المنوال من الواضح أنه من الممكن أن تُكتب رواية جيدة. ليست بالضرورة رواية مثقفة ومنورة، وإنما رواية تستحق القراءة، ويحتمل أن يتذكرها المرء بعد قراءتها.

بينما أكتب هذه المقالة، اندلعت حرب أوروبية أخرى. إما أنها ستستمر سنيناً كثيرة وتمزق الحضارة الغربية وتحولها إلى أشلاء، أو تنتهي بشكل غير حاسم وتمهد الطريق لحرب أخرى ستقوم بالوظيفة مرة وإلى الأبد. لكن الحرب مجرد "سلام مكثف" إن ما يحدث بوضوح سواء كان حرباً أم لا، فهو تفسخ الرأسمالية الليبرالية والثقافة المسيحية الليبرالية. حتى وقت حديث، لم يتكهن بالمعنى الضمني التام لهذه الحرب، لأن الناس عموماً تخيلوا أن الاشتراكية يمكنها أن تحافظ وتوسع جو الليبرالية. والآن هي البداية لندرك كم كانت تلك الفكرة زائفة. من شبه المؤكد أننا نتحرك إلى داخل عصر من الديكتاتوريات الشمولية - عصر ستكون فيه فكرة الحرية خطيئة مميتة أولاً، وفكرة مجردة لا معنى لها لاحقاً، وسوف يُستأصل الفرد المستقل ويُجتث من الوجود. وهذا يعني أن الأدب بالشكل الذي نعرفه، يجب أن يقاسي موتاً مؤقتاً على الأقل. إن أدب الليبرالية في طريقه إلى الهلاك، وأدب الشمولية لم يظهر بعد، ومن الصعب تخيله. بالنسبة إلى الكاتب، هو يجلس على جبل جليدي ذائب: إنه مجرد مفارقة تاريخية وأثر باق من العصر البرجوازي محكوم بالهلاك مثل جاموس البحر. يبدو لي ميلر رجلاً خارجاً عن المألوف لأنه رأى هذه الحقيقة الواقعية، وأعلن عنها قبل أن يفعل أغلب معاصريه بوقت طويل، حين كان الكثيرون منهم يثرثرون حول انبعاث ونهضة للأدب في الواقع. قال ويندهام لويس قبل سنين إن التاريخ الرئيسي للغة الإنكليزية انتهى، لكنه بنى هذا على مبررات تافهة. لكن من الآن فصاعداً، فإن الحقيقة الأهم للكتاب الإبداعيين ستكون أن هذا العالم ليس عالماً للكتاب. هذا لا يعني أنه لا يستطيع أن يساعد على ولادة المجتمع الجديد، وإنما لأنه لا يستطيع أن يشارك في العملية ككاتب. لأنه ككاتب هو ليبرالي، وما يحدث هو تدمير لليبرالية، لذلك من المحتمل كما يبدو أنه في السنين المتبقية من حرية الكلام، فإن أي رواية جديرة بالقراءة ستتبع تقريباً الخطوط التي سلكها ميلر- أنا لا أقصد في التكنيك أو الموضوع الرئيسي، وإنما في الموقف المتضمن. إن الموقف السلبي سيعود وسيكون أكثر سلبية من قبل. لقد تبين أن التقدمية والرجعية مخادعتان وغشاشتان. على ما يبدو لم يبق شيء سوى التصوف -سلب الواقع الحقيقي من إرهابه بمجرد الخضوع له. ادخل في بطن الحوت- أو بالأحرى اعترف بأنك داخل الحوت (لأنك في داخله طبعاً). سلم نفسك للعملية العالمية الجارية، وتوقف عن

القتال ضدها أو تظاهر أنك تتحكم بها واقبل بها ببساطة وتحملها ودوّنها. تلك هي الصيغة والوصفة التي على ما يبدو أن أي روائي حساس الآن يحتمل منه أن يتبناها. ففي الوقت الحالي من الصعب جداً تخيل رواية "بناءة" وأكثر إيجابية وليست زيفاً عاطفياً.

لكن هل أقصد بهذا أن ميلر "مؤلف عظيم" وأمل جديد للنثر الإنكليزي؟ إن ميلر نفسه سيكون الأخير الذي يدعي أو يريد أن يكون مثل هذا الشيء. لا شك بأنه سوف يستمر في الكتابة -أي أحد بدأ سيستمر دائماً في الكتابة- ويرافقه في ذلك عدد من الكتاب لهم نفس النزعة تقريباً. لورانس دوريل ومايكل فرانكل وآخرون ويشكلون "مدرسة" تقريباً. لكن هو نفسه يبدو لي جوهرياً رجلاً ذا كتاب واحد. عاجلاً أو آجلاً عليّ أن أتوقعه يسقط في الغموض -عدم الوضوح أو الشعوذة: هناك علامات لكليهما في عمله اللاحق. كتابه الأخير **مدار الجدي** الذي لم أقرأه حتى، ليس لأنني لم أرغب بقراءته وإنما لأن الشرطة ومسؤولي الجمارك نجحوا إلى حد الآن في منعي من الحصول عليه. لكنه سيفاجئني إن اقترب من كتاب **مدار السرطان** بأي شكل أو من الفصول الافتتاحية في **ربيع أسود**. مثل روائيي سيرة ذاتية آخرين، لديه الميزة لفعل شيء واحد بشكل مثالي. إن التأمل والتفكير بشكل النثر القصصي وحاله في ثلاثينات القرن العشرين مسألة أخرى.

نشرت كتب ميلر في مطبعة أوبليسك في باريس. ماذا سيحدث لمطبعة أوبليسك إذا اندلعت الحرب الآن ومات الناشر جاك كاثين؟ أنا لا أعرف. لكن في أي حال لازالت الكتب سهلة المنال. أنا أنصح جدياً أي واحد لم يفعل هكذا أن **يقرأ مدار السرطان** على الأقل. بإدارة بارعة بسيطة أو بدفع ثمن أكثر بقليل من الثمن المعلن، يمكنك الحصول عليه، وحتى إن أثارت اشمئزازك أجزاء منه، سوف يبقى في ذاكرتك. كما أنه كتاب مهم أيضاً بمعنى مختلف عن المعنى الذي تستخدم فيه الكلمة عادة. كقاعدة يقال عن الروايات "مهمة" حين لا تكون "اتهامية فظيعة" لشيء أو آخر، أو عندما تقدم لك بعضاً من الابتكار التقني. كلا هذين الصنفين لا ينطبقان على مدار السرطان. أهميتها مجرد شيء عرضي. هنا في رأيي كاتب النثر الخيالي الوحيد من أخف قيمة الذي ظهر وسط الأعراق الناطقة باللغة الإنكليزية في السنين الماضية. حتى لو جرى الاعتراض على هذا بكونه مبالغة، فربما يكون اعترافاً أن ميلر

كاتب غير عادي يستحق أكثر من مجرد نظرة سريعة، وأخيراً إنه كاتب سلبي تماماً وغير بناء وغير أخلاقي، مجرد يونس، قابل سلبي بالشر ونوع من وابتهان وسط الجثث. وفقاً للأعراض، ذاك مهم وذو مغزى أكثر من واقع أن خمسة آلاف رواية تنشر في إنكلترا كل سنة، أربعة آلاف وتسعمائة منها تافهة. إنها إيضاح وإثبات عن استحالة وتعذر وجود أي أدب رفيع حتى يهز العالم نفسه في شكله الجديد.

روديارد كيبلينغ

اضطر السيد إليوت أن يكون في وضع دفاعي إلى حد كبير في المقالة الطويلة التي استهل بها هذه الباقة المختارة من أشعار كيبلينغ، وهذا أمر يدعو إلى الرثاء. وكان تفادي ذلك متعذراً. فقبل أن يستطيع المرء التكلم عن كيبلينغ، يجب عليه أن يبدد أسطورة اختلقتها مجموعتان من الأشخاص الذين لم يقرؤوا أعماله. كان كيبلينغ في وضع غريب، بكونه موضوع سخرية وتهكم لمدة خمسين سنة. طوال خمسة أجيال أدبية احتقره كل شخص متنور، وفي نهاية ذلك الوقت تسعة أعشار هؤلاء الأشخاص المتنورين باتوا في عالم النسيان، وظل كيبلينغ هناك. لم يعلل السيد إليوت هذه الحقيقة بصورة مرضية، لأنه في الرد على التهمة المألوفة الضحلة بأن كيبلينغ كان "فاشياً" سقط في الخطأ المعاكس في الذود عنه وفي المكان الذي لا يمكن الدفاع عنه. من غير المجدي التظاهر بأن رؤية كيبلينغ للحياة بالمجمل مقبولة، أو يمكن التسامح معها من قبل الشخص المتمدن، ومن العبث الزعم مثلاً أنه حين يصف جندياً إنكليزياً يضرب "زنجياً" بسيخ التنظيف لكي يخرج النقود منه، بأنه كان يتصرف كمراسل إخباري فقط، ولا يستحسن بالضرورة ما يصفه. ليس هناك أوهى علامة في أي مكان في أعمال كيبلينغ يستهجن فيها ذلك النوع من السلوك -على العكس يوجد ضرب واضح من السادية فيه تفوق الوحشية التي يجب أن يمتلكها أي كاتب من ذلك الأنموذج. كيبلينغ إمبريالي (مؤيد للاستعمار) متطرف ومتبلد الإحساس أخلاقياً ومثير للاشمئزاز جمالياً. من الأفضل البدء بالاعتراف بذلك، ومن ثم المحاولة في اكتشاف سبب بقائه حياً، بينما تقادم الأشخاص الأنقياء والمهذبين الذين سخروا منه وتهالكوا بصورة سيئة جداً.

لكن رغم ذلك، يجب الردّ على تهمة الـ "فاشي"، لأن أول مفتاح لأي فهم لكيبلينغ أخلاقياً وسياسياً هي الحقيقة بأنه لم يكن فاشياً. إنه أبعد ما يكون فاشياً من أكثر شخص إنسانية و"تقدمية" في الوقت الحاضر. مثال مشوق للطريقة التي تتكرر فيها الاقتباسات بشكل ببغائي من دون أي محاولة للبحث عن سياقها أو اكتشاف معناها، هو بيت من قصيدته الانسحابي "سلالات أقل خارجة عن القانون". هذا البيت مثال جيد دائماً للسخرية في دوائر

اليسار المخنثة. من المفترض أن الـ"سلالات الأقل شأناً" هم "السكان الأصليون"، وتُستحضر صورة عقليه للصاحب الحقيقي (أنغلوهندي) في خوذة من الريش يركل حمالاً هندياً. معنى البيت في سياقه نقيض هذا تماماً تقريباً. إن عبارة "سلالات أقل" تشير بالتأكيد إلى الألمان وخصوصاً رابطة الكتاب الألمان الذين هم "خارج القانون"، بمعنى كونهم متمردين وليس بمعنى عاجزين. تقليدياً، إن القصيدة التي اعتبرت طقساً معربداً من التفاخر والتباهي هي شجب لسياسة القوة البريطانية والألمانية أيضاً. مقطعان شعريان جديران بالاقتباس (أقتبس هذا كسياسة وليس كشعر):

"لو ثملنا بمنظر القوة، ستنطلق ألسنتنا التي لا تهابك وتخشاك/ بتباه وتبجح مثل الذي يستخدمه الوثنيون أو سلالات أقل شأناً خارجة عن القانون -يا سيدنا رب الحشود كن معنا كي لا ننسى- كي لا ننسى!

للقلب الوثني الذي يضع ثقته في أنبوب تفوح منه روائح كريهة وكسرة حديد/ كل الثرى الشجاع الذي ينتصب على الثرى، ويدافع/ لم يدعوك لتدافع من أجل تبجح مسعور وكلمة غبية- ارحم شعبك يا رب!

إن الكثير من لغة كيبلينغ مأخوذة من الكتاب المقدس، ولا شك أنه في المقطع الشعري الثاني، كان يفكر في نص المزمور اثنين وسبعين: "لو لم يبنِ الرب البيت لكدحوا عبثاً لبنائه؛ لو لم يحمِ الرب المدينة لسهر الخفير دون جدوى". إنه ليس النص الذي له تأثير كبير على العقل ما بعد هتلر. لا يوجد أحد في زمننا يؤمن بأي قانون أعظم من القوة العسكرية، ولا أحد يعتقد بإمكانية قهر القوة إلا بقوة أعظم منها. ليس هناك "قانون"، هناك قوة فقط. أنا لا أقول بأن ذلك اعتقاد صحيح، لكنه الاعتقاد الذي يحمله كل الناس الحديثين فعلياً. هؤلاء الذين يتظاهرون بغير ذلك، هم إما مثقفون جبناء أو عبدة سلطة تحت قناع رقيق، أو أنهم ببساطة لم يقتربوا من العصر الذي يعيشون فيه. إن وجهة نظر كيبلينغ قبل فاشية، فهو لازال يعتقد بأن الغرور يأتي قبل السقوط، وأن الآلهة تعاقب الكبرياء. إنه لم يتنبأ بالدبابة والطائرة القاذفة والراديو والشرطة السرية أو نتائجها النفسية.

لكن في قولي هذا، ألا يسحب المرء كلامه حول ما قلته آنفاً عن وطنية كيبلينغ المغالية ووحشيته؟ كلا سيقول المرء إن وجهة نظر إمبريالي القرن التاسع عشر ووجهة نظر فرد

العصابة المعاصر شيئان مختلفان. ينتمي كيبلينغ إلى الفترة بين ١٨٨٥-١٩٠٢ بالتحديد. إن الحرب العظمى ونتيجتها نغصتا حياته، لكنه لا يبدي سوى علامة بسيطة عن تعلمه أي شيء من أي حدث تلا حرب البوير. كان نبي الإمبريالية البريطانية في طورها التوسعي (في قصائده وحتى في روايته اليتيمة النور الذي انطفأ يعطيك الجو في ذلك الزمن) وكان أيضاً المؤرخ غير الرسمي للجيش البريطاني، جيش المرتزقة القديم الذي بدأ بتغيير شكله في عام ١٩١٤ وبأن ثقته كلها وحيويته السوقية النشطة انبثقت من العجز والقصور الذي لم يشاركه فيه أي فاشي أو شبه فاشي.

أمضى كيبلينغ الجزء الأخير من حياته في عبوس، والسبب الكامن خلف هذا بلا شك خيبة أمل سياسية أكثر منه غروراً أدبياً. بطريقة ما لم يحدث التاريخ حسب خطة ما. بعد أعظم نصر عرفته في حياتها، كانت بريطانيا قوة عالمية أقل مما هي عليه من قبل، وكان كيبلينغ ذكياً تماماً ليرى هذا. رحلت الفضيلة من الطبقات التي أسبغ عليها المسحة المثالية، والشباب كانوا تلذذين أو ساخطين، والرغبة في تلوين الخريطة بالأحمر تبخرت. لم يفهم ما كان يحدث، لأنه لم يفهم أبداً ويدرك القوى الاقتصادية الكامنة وراء التوسع الإمبريالي. من الجدير بالذكر أن كيبلينغ لم يدرك على ما يبدو "أكثر مما أدركه الجندي العادي أو رجل الإدارة في المستعمرات بأن الإمبراطورية هي أولاً وبشكل أساسي مشروع تجاري مربح. الإمبريالية كما رآها نوع من التنصير القسري. تنقض بندقيتك الغاتلينغ على حشد من "السكان الأصليين" العزّل ثم بعد ذلك تؤسس "القانون" الذي يشمل الطرق وسكك الحديد ودور القضاء، ولذلك لم يستطع التنبؤ بأن البواعث نفسها التي خلقت الإمبراطورية وأتت بها إلى الوجود، سوف تنتهي بتدميرها. إنه نفس الباعث مثلاً الذي سبب قص الغابات المالاوية من أجل ملكيات المطاط، وهو السبب الآن في تسليم تلك الملكيات سليمة إلى اليابانيين. يعرف المستبدون الحديثون ما يفعلون، أما إنكليز القرن التاسع عشر لم يعرفوا ماذا كانوا يفعلون. كلا وجهتي النظر لهما إيجابياتها، لكن كيبلينغ لم يقدر أبداً أن يتقدم ويتحرك من واحدة إلى الأخرى. إن وجهة نظره التي سمحت لحقيقة أنه فنان أولاً وأخيراً، كانت وجهة نظر واحد من البيروقراطيين من ذوي الرواتب الذي عاش حياته يحتقر عامل الكشك الهندي، من دون أن يدرك أن عامل الكشك هو من يتحكم بالأمر ويصدح باللحن.

بربط نفسه بالطبقة الرسمية وتأييدها، يمتلك كيلينغ شيئاً واحداً قلما امتلكه الأشخاص "المتنورون"، ألا وهو الشعور بالمسؤولية، ولهذا يكرهه يساريو الطبقة الوسطى بقدر كرههم لقسوته وسوقيته. إن كل أحزاب الجناح اليساري في البلدان الصناعية المتطورة زيف وخداع في صميمها، لأنها جعلت من القتال ضد شيء لا ترغب حقاً في تدميره مهنة لها. لديها أهداف أممية، وفي الوقت نفسه تناضل للحفاظ على مستوى حياتي يتنافر مع تلك الأهداف. نحن كلنا نعيش بسرقة العمال غير المؤهلين الآسيويين، ويطالب "المتنورون" منا بعتق هؤلاء العمال غير المؤهلين وتحريرهم، لكن مستوى عيشنا وبالتالي "تنويرنا" يتطلب ضرورة استمرار تلك اللصوصية. إن الإنساني المحب للخير منافق دائماً، وربما كان فهم كيلينغ وإدراكه لهذا هو السر المركزي لقدرته على خلق عبارات مؤثرة. من الصعب انتقاد السلمية العوراء للإنكليز في بضع كلمات أقل من عبارة "الاستهزاء بالثياب الرسمية التي تحرسك وأنت نائم". صحيح أن كيلينغ لم يدرك المظهر الاقتصادي للعلاقة بين المثقف وبين الشخص المحافظ الساذج، ولم يفهم أن الخريطة لونت بالأحمر لكي يُستغل العامل، وبدلاً من العامل الشرقي غير المؤهل يرى موظف الخدمة المدنية الهندي؛ ولكن حتى في ذلك المستوى كان فهمه لدور ووظيفة "من يحمي من" صحيحاً جداً. هو يرى بوضوح أن الناس لا يستطيعون أن يكونوا متمدنين جداً، إلا حين يكون هناك أناس أقل تمدناً حتماً يحمونهم ويطعمونهم.

إلى أي حد يتماثل كيلينغ مع المدراء والجنود والمهندسين الذين يتغنى بمدحهم؟ ليس كما يفترض تماماً أحياناً. لقد ارتحل بعيداً جداً حين كان شاباً وكبر ونضج بعقل متألق في بيئة محافظة أساساً، وفيه عرق عصابي ربما جعله يفضل الإنسان النشيط على الإنسان الحساس. كان أنغلوهنود القرن التاسع عشر -لنذكر الأقل تأييداً من معبوديه- بأي مقياس أشخاصاً فعلوا أشياء وربما كان كل ما فعلوه شراً، لكنهم بدلوا وجه الأرض (من المفيد النظر إلى خريطة آسيا ومقارنة شبكة الخطوط الحديدية الهندية مع تلك التي في البلدان المحيطة) لو كانت وجهة نظر الأنغلوهنود تلك التي للأديب أي إم فورستر مثلاً، لما استطاعوا إنجاز أي شيء، أو استطاعوا الاحتفاظ بالسلطة لأسبوع واحد. رغم البهرجة والضحالة، تظل الصورة الأدبية التي رسمها كيلينغ هي الوحيدة التي نملكها عن الهند الإنكليزية في القرن التاسع عشر، والتي استطاع خلقها، فقط لأنه كان فظاً بما يكفي، مما مكنه في التواجد

والسكوت في النوادي والمطاعم العسكرية. لكنه لم يكن يشبه كثيراً الناس الذين أعجبوه. أعرف من مصادر خاصة عديدة أن الكثيرين من الهنود الإنكليز المعاصرين لكيلينغ لم يحبوه ولم يستسيغوه وقالوا ولا شك بصحة ذلك، أنه لا يعرف شيئاً عن الهند، ومن جانب آخر كان من وجهة نظرهم مثقفاً أكثر مما يلزم. في الهند مال إلى الاختلاط مع الناس "الخطأ"، وبسبب ملامح وجهه الداكنة، ظنوا بشكل خاطئ أن لديه عرقاً من دم آسيوي. ويشير الكثير من نشوئه إلى ولادته في الهند وتركه المدرسة في سن مبكرة بخلفية مختلفة قليلاً، بأنه كان يمكن أن يكون روائياً جيداً أو كاتباً متفوقاً للأغاني التي تغنى في صالات الموسيقى، لكن إلى أي مدى وكم كان صحيحاً أنه كان قومياً فظاً مخلصاً ووكيلاً دعائياً لسيسيل رودز؟ هذا صحيح، لكن ليس صحيحاً أنه كان منافقاً للسلطة وانتهازياً، وبعد أيامه المبكرة لم يغازل الأسلوب الشعبي المحبب أبداً. يقول السيد إليوت إن ما أساء إليه أنه عبر عن وجهات نظر غير شعبية بأسلوب شعبي. هذا يضيق القضية بافتراض أن "غير شعبي" تعني غير شعبي مع الإنتلجنسيا، لكن الحقيقة أن "رسالة" كيلينغ لم يكن الجمهور الكبير يريدها، وفي الواقع لم يقبل بها أبداً، فقد كان العدد الأكبر من الناس في التسعينيات كما الآن وطنيين دون قصد فقط، ولكنهم معادون للروح العسكرية وضجروا من الإمبراطورية. كان المعجبون الرسميون بكيلينغ ولازالوا "موظفي" الطبقة الوسطى والناس الذين قرؤوا كتابات بلاكوود. في السنوات الأولى الغبية في هذا القرن، اكتشف المحافظون السذج أخيراً أحداً ما يمكن تسميته بشاعر كان في صفهم، فنصبوا كيلينغ على قاعدة تمثال وأعطوا بعضاً من قصائده المترعة بالمواعظ كقصيدة "لو" مثلاً منزلة مقدسة، لكن يُشك إن كان المحافظون السذج قرؤوه بانتباه أكثر مما قرؤوا به الكتاب المقدس، وهم لا يمكن أن يوافقوا على الكثير من أقواله. قلة قليلة هم الأشخاص الذين انتقدوا إنكلترا من الداخل وقالوا عنها أشياء أمر وأعنف مما قاله هذا الوطني البالوعة. كقاعدة، إن الذي يهاجمه كيلينغ هو الطبقة العاملة البريطانية لكن ليس دائماً. إن العبارة التي عن "الحمقى الذين يرتدون الفانيلة عند شباك بيع التذاكر والخرقاء الملوثون بالوحل عند المرمى تنغرز مثل السهم إلى هذا اليوم الموجه إلى مباراة إيتون وهارو وإلى نهائي مباراة الكأس. بعض الأشعار التي كتبها حول حرب البوير فيها رنين عصري غريب بقدر ما يصل إليه موضوعها الرئيسي، وقصيدة

"ستيلينبوش" التي كتبت في عام ١٩٠٢ كما يفترض، تلخص ما كان يقوله كل ضابط مشاة ذكي في عام ١٩١٨ أو ما يقوله الآن حول تلك المسألة.

إن أفكار كيبلينغ الرومانتيكية عن إنكلترا والإمبراطورية، كان يمكن ألا تكون مهمة لو أنه استطاع حملها من دون تحيز طبقي رافقها في ذلك الوقت. لو تفحص المرء أفضل أعماله وأكثرها أنموذجية، قصائد جنديه أغاني غرفة الثكنة للاحظ أن ما يفسدها أكثر من أي شيء آخر، هو جو ضمني من المناصرة والرعاية. يصبغ كيبلينغ المثالية على ضابط الجيش وخصوصاً الضابط الصغير وذلك إلى مدى أبله. أما الجندي النفر فيجب أن يكون هزلياً رغم كونه محبوباً ورومانتيكياً وصوّره دائماً وهو يتكلم بنوع من اللهجة الكوكنية الممنهجة غير المنتشرة بشكل كبير، مع إسقاط كل الاتشات والاغات في آخر الكلمات التي حذفت بعناية، فكانت النتيجة مربكة دائماً تقريباً مثل التلاوة الهزلية في حفلة أنس في الكنيسة. وهذا هو سبب الحقيقة الغريبة الذي يجعل المرء يستطيع استحسان قصائد كيبلينغ دائماً تقريباً ويجعلها أقل مضايقة وأقل سماجة بدراستها ونقلها من الكوكنية إلى لهجة قياسية. هذا صحيح في لوازم قصائده بشكل خاص التي لها صفة غنائية حقيقية دائماً تقريباً. مثالان سيكفيان بالغرض (واحد عن جنازة والآخر عن زفاف):

أطفئوا غلايينكم واتبعوني! انهوا شرب جعتكم واتبعوني! أوه عجلوا إلى نداء الطبل الكبير، اتبعوني-اتبعوني إلى الوطن!

ومرة أخرى:

هللوا لزفاف الرقيب -أعطوهما هتافاً آخر! خيول رمادية تجر المدافع في الريف ووغد يتزوج من مومس!

أنا استرجعت الاتشات هنا. كان ينبغي بكيبلينغ أن يعرف أفضل. كان عليه أن يرى أن البيتين الختاميين في المقطع الشعري الأول، هما بيتان جميلان، وكان ينبغي بهذا أن يتجاوز باعثه في السخرية من لهجة الإنسان العامل. في القصائد الروائية القديمة كان السيد الإقطاعي والفلاح يتكلمان اللغة نفسها. هذا مستحيل بالنسبة إلى كيبلينغ الذي ينظر من منظور طبقي مشوه وبواسطة قطعة من الاستقامة الشعرية أُفسدت أفضل أبياته الشعرية، لأن اتبعوني إلى الوطن (مع حذف حرف الاتش في كلمة وطن أقبح بكثير من بقائها) ولكن حتى حيث لا

يكون هناك أي فرق في الموسيقي، فإن لهجته الكوكنية تضايق وتثير الغضب. في كل الأحوال يُقتبس كيلينغ سماعياً وشفوياً أكثر منه قراءة على صفحة مطبوعة، وأغلب الناس يقومون بالتغيرات الضرورية غريزياً حين يقتبسونه.

هل تستطيع تخيل أي جندي نفر في التسعينات أو الآن يقرأ أغاني غرفة الثكنة ويشعر بأن كاتب هذه القصيدة يتكلم بالنيابة عنه؟ من الصعب فعل هذا. أي جندي قادر على قراءة كتاب من الشعر، سيلاحظ على الفور أن كيلينغ غير مدرك تقريباً للحرب الطبقية المستعرة في الجيش كما في أي مكان آخر، وهو لا يرى الجندي مثيراً للسخرية فقط، وإنما يراه وطنياً وإقطاعياً معجباً بضباطه وفخوراً بكونه جندياً عند الملكة. طبعاً هذا صحيح جزئياً، وإلا لما أُمكن خوض المعارك، لكن "ماذا فعلت من أجلك يا إنكلترا يا إنكلترتي؟" هو التساؤل الذي تسأله الطبقة الوسطى أساساً، وأي رجل عامل تقريباً يتبعه بسؤال ثان مباشرة "ما الذي فعلته إنكلترا لي؟" ويرجع كيلينغ هذا حسب إدراكه إلى "أنانية الطبقات الدنيا الشديدة" (حسب تعبيره). حين يكتب عن الهنود "الموالين" وليس عن البريطانيين، يحمل الموضوع "السلام، الصاحب" إلى أبعاد مثيرة للغثيان أحياناً. لكن يبقى صحيحاً أنه يكن اهتماماً كبيراً للجندي العادي وقلقاً كبيراً لدرجة ينال معاملة عادلة أكثر من "ليبرالي" عصره أو عصرنا، فهو يرى أن الجندي مُهمَل ويُبخس في أجره ويُحتقر على نحو زائف من قبل أشخاص هو من يحمي دخولهم. ويقول في مذكراته التي تلت وفاته "أدركت الرعب المكشوف لحياة الجندي والعذاب غير الضروري الذي يتحمله" هو متهم بتمجيده للحروب، وربما فعل هذا، لكن بالطريقة المعتادة بالتظاهر بأن الحرب نوع من مباراة كرة قدم. مثل أغلب الناس القادرين على كتابة شعر المعارك، لم يقاتل كيلينغ في أي معركة قط، لكن رؤيته للمعارك واقعية. هو يعرف أن الرصاص يؤذي، وأن الكل يرتعب تحت القصف، وأن الجندي العادي لم يعرف أبداً الهدف الذي تدور الحرب من أجله أو ماذا يجري إلا في ركنه الخاص من المعركة، وأن القوات البريطانية كغيرها من القوات تهرب كثيراً:

"سمعت الحراب خلفي/ لكنني لم أجرؤ أن أواجه أي رجل/ ولم أعرف إلى أين ذهبت لأنني لم أتوقف لأرى/ حتى سمعت شحاذاً يصرخ بصوت عال من أجل مأوى/ واعتقدت أنني عرفت الصوت وكان صوتي أنا!"

حدّث أسلوب هذا المقطع، وستخرج بواحد من كتب الحرب الفاضحة في عشرينات القرن العشرين. أو مرة أخرى:

والآن الرصاصات المعانقة تأتي وتنقر عبر التراب/ ولا أحد يريد مواجهتها، لكن كل مشرد يجب/ مثل رجل مقيد بالحديد غير مسرور بالذهاب/ يصرفونهم في جماعات متيبسة وبطيئة بشكل غير مألوف.

قارن هذا به:

إلى الأمام أيها اللواء السريع!/ هل يوجد أي رجل خائف؟ كلا! لكن الجندي عرف واحداً تعثر وارتبك.

إن بالغ كيلينغ بأي شيء، فقد بالغ في الرعب، لأن الحروب التي حدثت في شبابه لم تكن حروباً بمقاييسنا، وربما يعود ذلك إلى أثر عصابي فيه وجوع للقسوة والوحشية، ولكنه يعرف على الأقل أن الرجال الذين يُؤمرون للهجوم على أهداف مستحيلة، هم جنود خائفون، ويعلم أيضاً أن أربعة بنسات في اليوم ليست راتباً تقاعدياً سخياً.

هل الصورة التي تركها لنا كيلينغ عن الخدمة الطويلة لجيش من المرتزقة في أواخر القرن التاسع عشر، صحيحة أو تامة وإلى أي مدى؟ يجب القول عن هذا ـ إن ما كتبه كيلينغ عن الهند الإنكليزية في القرن التاسع عشر، ليس الصورة الأدبية الأفضل فقط وإنما الوحيدة التي في حوزتنا. لقد وضع على التدوين مقداراً ضخماً من الحشو، لذلك لا يستطيع المرء جمعه إلا من الحديث الشفوي أو من مؤرخين غير مقروئين تابعين للنظام. ربما صورته عن الحياة في الجيش تبدو أكمل وأكثر دقة مما عي عليه، لأن أي فرد من الطبقة الوسطى يعرف جيداً على الأرجح كيف يملأ الثغرات. على أي حال، فإن قراءة المقال عن كيلينغ الذي كتبه السيد إدموند ويلسون، نُشر أو على وشك ذلك[*]، دهشت بعدد الأشياء التي تبدو مألوفة لنا بشكل ممل وغير مفهومة للأمريكيين. لكن من الجزء الأساسي لأعمال كيلينغ المبكرة، تنبثق صورة حية وليست مضللة لجيش ما قبل البندقية الآلية–الثكنات شديدة الحر في جبل طارق أو لوكناو، والمعاطف الحمر والأحزمة المبيضة بالطين، والقبعات المدورة الصغيرة، والجعة وأعمال القتال والجلد

[*] نشر في مجلد من المقالات المختارة، الجرح والقوس. (ملاحظة المؤلف ١٩٤٥).

بالسوط والشنق والصلب، ونداءات البوق ورائحة الشوفان، وبول الخيول، والرقيب الذي يجأر بشواربه التي طولها حوالي القدم، والمناوشات الدامية وسوء الإدارة الدائم، وسفن الجند المكتظة، والمعسكرات التي تفشى بها وباء الكوليرا، والخليلات المحليات، والموت المطلق في الإصلاحيات والملاجئ. إنها صورة سوقية فجة، تحولت فيها صالة الموسيقى الوطنية وتشابهت مع مقاطع زولا الأكثر رعباً، لكن من هذه الصورة ستكون أجيال المستقبل قادرة على تجميع فكرة ما عن حال جيش المتطوعين لفترة طويلة، وبنفس المستوى ستقدر تلك الأجيال أن تتعلم شيئاً عن الهند البريطانية في الأيام التي لم تكن السيارات والثلاجات معروفة فيها. من الخطأ التخيل أننا كنا سنمتلك كتباً أفضل حول هذه المواضيع، لو أن الفرص التي توفرت لكيلينغ توفرت لجورج مور أو غيسينغ أو توماس هاردي مثلاً. هذا هو النوع من المصادفة الذي لا يمكن أن يحدث. كان من غير الممكن لإنكلترا القرن التاسع عشر أن تنتج كتاباً مثل الحرب والسلام أو مثل قصص تولستوي الثانوية عن حياة الجيش مثل سيباستوبول أو القوزاق، ليس السبب هو الافتقار إلى الموهبة، وإنما لعدم قيام الشخص الذي يتمتع برقة إحساس تكفي لكتابة مثل هذه الكتب بالاحتكاك المناسب. عاش تولستوي في إمبراطورية عسكرية عظيمة، كان من الطبيعي فيها لكل شاب من عائلة تقريباً أن يقضي بضع سنوات في الجيش، بينما كانت الإمبراطورية البريطانية تدار بهيئة مدنية لدرجة وجدها المراقبون القاريون لا تصدق تقريباً. الرجال المتحضرون لا يرحلون بسهولة ويبتعدون كثيراً عن مراكز الحضارة، وفي أغلب اللغات يوجد نقص كبير جداً لما يمكن تسميته بالأدب الكولونيالي. استدعى الأمر تجميع ظروف غير محتملة لإنتاج لوحة كيلينغ المبهرجة التي وضع فيها المجند أورثريس والسيدة هاوكسبي على خلفية من أشجار النخيل وصوت أجراس المعبد، بالإضافة إلى ظرف ضروري آخر، وهو أن كيلينغ نفسه كان نصف متمدن.

إن كيلينغ هو الكاتب الإنكليزي الوحيد في عصرنا الذي أضاف عبارات إلى اللغة. إن العبارات والألفاظ الجديدة التي أخذناها واستخدمناها من دون أن نتذكر مصدرها وأصلها، لا تأتي دائماً من كتّاب أعجبونا. إنه أمر غريب مثلاً أن نسمع المذيعين النازيين يشيرون إلى الجنود الروس بـ "روبوتات"، هم من دون قصد يستعيرون الكلمة من ديمقراطي تشيكي كانوا سيقتلونه لو وضعوا أياديهم عليه. هنا نصف دزينة من العبارات التي صاغها كيلينغ،

وتقتبسها مكاتب مدراء صحافة البواليع أو تُسمع في صالونات المشارب من أشخاص لم يسمعوا باسمه إلا نادراً. وكلها تشترك بميزة واحدة كما تظهر:

الشرق شرق والغرب غرب. عبء الرجل الأبيض. ما الذي يعرفه عن إنكلترا أولئك الذين لم يعرفوا سوى إنكلترا؟ أنثى النوع مميتة أكثر من الذكر. في مكان ما شرق السويس. سداد ضريبة التاج الدانماركية.

هناك أشياء أخرى مختلفة تشمل بعض أقوال عاشت بعد سياقها سنيناً كثيرة. فقد كانت عبارة "اقتل كروغر بفمك" مثلاً متداولة حتى وقت متأخر. ومن المحتمل أيضاً أن كيلينغ هو من أطلق استخدام كلمة "هانس" على الألمان، وعلى أي حال بدأ في استخدامها حين أطلقت نيران البنادق في عام ١٩١٤ لكن العبارات التي جدولتها آنفاً تشترك كلها بكونها عبارات يتفوه بها المرء بشيء من السخرية (كما هو الحال في "لأنني سأكون ملكة أيار يا أمي، أنا سأكون ملكة أيار" وسيعتاد عليها عاجلاً أم آجلاً. لا شيء يمكنه أن يتخطى احتقار ذا نيوستيتسمان مثل كيلينغ، لكن كم هي المرات الكثيرة التي وجدت فيها ذا نيوستيتسمان نفسها تقتبس تلك العبارة أثناء فترة ميونيخ حول سداد ضريبة التاج الدانماركية[1]؟ الحقيقة أن كيلينغ بمعزل عن حكمته الخفيفة وموهبته في حشو الكثير من الصور المثيرة الرخيصة في بضع كلمات ("نخيل وصنوبر" و"شرق السويس" و"الطريق إلى ماندالي") يتحدث بصدق عن أشياء كانت ذات اهتمام ملح. وليس مهماً من وجهة النظر هذه أن يجد الأشخاص المفكرون والمحترمون عموماً أنفسهم في الجانب الآخر من السياج عنه. إن عبارة "عبء الرجل الأبيض" تستحضر على الفور مشكلة حقيقية، حتى لو شعر المرء أنها كان ينبغي أن تُبدل إلى "عبء الرجل الأسود". قد لا يتفق المرء مع الموقف السياسي المتضمن في "ساكني الجزر"، لكنه لا يستطيع القول إنه موقف تافه. يتعامل كيلينغ بأفكار دارجة ودائمة، وهذا يثير الشك في مكانته المميزة كشاعر أو كاتب كلام منظوم.

---

[1] في الصفحة الأولى من كتابه الأخير آدم وحواء يقتبس السيد ميدلتون موراي الأبيات الشهيرة:

هناك تسعة وستون طريقة/ لبناء الأوكار القبلية/ وكل واحدة منها صحيحة.

هو ينسب هذه الأبيات إلى ثاكري، وهذا ما يعرف بـ"الخطأ الفرويدي". إن الشخص المتحضر لا يفضل أن يقتبس كيلينغ – أي أنه يفضل ألا يحس بأن كيلينغ عبر عن هذه الفكرة من أجله. (ملاحظة المؤلف ١٩٤٥)

يصف السيد إليوت أعمال كيلينغ العروضية بـ "الكلام المنظوم" وليس "شعراً"، لكنه يضيف أنه كلام منظوم "عظيم"، ويذهب إلى أبعد من ذلك في تحديه، ويقول إن الكاتب لا يوصف بـ"كاتب كلام منظوم عظيم" إذا لم يكن هناك بعض من عمله لا يمكننا القول عنه إنه كلام منظوم أو شعر". من الواضح أن كيلينغ كان ناظماً (ينقل النثر إلى شعر) يكتب بعض القصائد أحياناً. ومن المثير للشفقة في هذه الحالة أن السيد إليوت لم يعين هذه القصائد بالاسم. المشكلة أنه كلما بدت هناك حاجة إلى حكم فني على أعمال كيلينغ، يكون السيد إليوت في موقف دفاعي لا يستطيع فيه التكلم ببساطة ووضوح. إن الذي لم يقله ويجب على المرء أن يبدأ بقوله عند مناقشة أعمال كيلينغ، هو أن أغلب كلام كيلينغ المنظوم سوقي بشكل فظيع، ويعطي المرء نفس الإحساس الذي يصيبه من مشاهدة عرض موسيقي لمؤدٍ من الدرجة الثالثة يتلو "ضفيرة وو فانغ فو" وأضواء المسرح الأرجوانية على وجهه. ومع ذلك هناك الكثير منه قادر على إمتاع أناس يعرفون ماذا يعني الشعر. في أسوأ قصائده وفي أكثرها حيوية مثل "غونغا دين" أو "داني ديفر" فإن المتعة التي يخلقها كيلينغ مخزية، تقريباً مثل الولع بحلويات رخيصة يحملها سراً بعض الناس معهم إلى منتصف عمرهم. وحتى مع أفضل مقاطعه، يكون لدى المرء نفس الإحساس بأنه أغري بشيء زائف، ولكنه أغري بشكل لا يرقى إليه الشك. إن لم يكن المرء متعجرفاً وكذاباً، يستحيل أن يقول ما لم يستطع أحد يهتم بالشعر أن يجد متعة في أبيات شعرية كهذه:

لأن الريح في أشجار النخيل/ وأجراس المعبد تقول/ "عودوا أيها الجنود البريطانيون، عودوا إلى ماندالي!"

مع ذلك، فإن هذه الأبيات ليست شعراً بنفس المعنى الشعري لـ"فيليكس راندال" أو "حين تتدلى الكتل الجليدية من الجدار". يستطيع المرء ربما أن يقيم كيلينغ بشكل مرض أكثر من التلاعب بكلمات "كلام منظوم" و"شعر"، إن وصفه ببساطة كشاعر رديء جيد. إنه شاعر بقدر ما كانت هاريت بيتشر روائية، ومجرد بقاء عمل من هذا النوع والذي أُدرك من قبل جيل بعد جيل بأنه عمل سوقي، ومع ذلك يظل يُقرأ ويخبرنا شيئاً واحداً عن العصر الذي نعيش فيه.

هناك مقدار كبير من الشعر الرديء الجيد في اللغة الإنكليزية، يجب أن أقول، تلا عام ١٧٩٠. أمثلة عن قصائد رديئة جيدة -أنا أختار عمداً قصائد متنوعة- "جسر الحسرات"

و"حين كل العالم صغيراً أيها الغلام" و"مهمة الفرقة الخفيفة" وقصيدة بريت هارت "ديكنز في الخدمة العسكرية" و"دفن السير جون مور" و"جيني ثبلتني" و"كيث رايلستون" و"كازبيانكا". كل هذه الروائح الكريهة من العاطفية المفرطة لكن -ليست هذه القصائد خصوصاً بل القصائد من هذا النوع قادرة على إعطاء متعة حقيقية للناس الذين يستطيعون أن يرووا بوضوح الخطأ الذي فيها. يستطيع المرء أن يملأ مقتطفات أدبية من الحجم المناسب بقصائد رديئة جيدة، حتى لو لم يكن ذلك من أجل الحقيقة الهامة بأن الشعر الرديء الجيد عادة مشهور جداً ليكون جديراً بإعادة طبعه.

لا يجدي التظاهر في عصر كعصرنا مثلاً، بأن الشعر "الجيد" يستطيع امتلاك أي شعبية حقيقية. إنه، ويجب أن يكون، محط إعجاب قلة من الناس الأقل تسامحاً مع الفنون. ربما يحتاج ذلك القول إلى قدر معين من التوضيح. يمكن للشعر أن يكون مقبولاً للعدد الأكبر من الناس أحياناً حين يقنع نفسه على أنه شيء آخر. يمكن للمرء أن يرى مثالاً عن هذا في الشعر الشعبي الذي لا تزال إنكلترا تمتلك أشعاراً مقفاة منه تغنى في حجر نوم الأطفال وأشعاراً مقفاة مساعدة للذاكرة مثلاً، والأغاني التي يؤلفها الجنود وتشمل الكلمات التي تترافق من نداءات البوق، لكن عصرنا عموماً حضارة تستحضر فيها مجرد كلمة "شعر" قهقهة عدائية، أو في أفضل الأحوال نوع من الغثيان المجمد الذي يشعر به أكثر الناس حين يسمعون كلمة "رب"

إن كنت تتقن العزف على الأوكورديون، فربما تستطيع الدخول إلى أقرب مشرب عام وتجمع لنفسك حضوراً معجباً من المستمعين خلال خمس دقائق، لكن كيف يكون موقف نفس الحضور لو اقترحت أن تقرأ لهم قصائد (سونيتات) شكسبير؟ لكن الشعر الرديء الجيد يستطيع أن يصل إلى المستمعين غير الواعدين إن هُيء له الجو مسبقاً. قبل بعضة شهور أنتج تشرشل أثراً عظيماً باقتباس "مسعى" كلوف في واحد من خطاباته الإذاعية. استمعت إلى هذا الخطاب وسط أناس لا يمكن بالتأكيد اتهامهم بالاهتمام بالشعر، وأنا مقتنع بأن الزلة في الشعر انطبعت في أذهانهم ولم تربكهم، لكن حتى تشرشل نفسه لم يكن يستطيع النجاة والإفلات بها لو أنه اقتبس شيئاً أفضل من هذا.

كان كيبلينغ محبوباً، وربما لازال بالقدر الأقصى الذي يمكن لكاتب الشعر أن يكونه وتجاوزت في حياته بعضاً من قصائده الشعب القارئ بكثير وأيام الجوائز المدرسية وأغاني

صبيان الكشافة والطبعات ذات الأغلفة الجلدية اللينة والتقاويم، ووصلت إلى الخارج، إلى عالم القاعات الموسيقية الأوسع. على الرغم من هذا، يعتقد السيد إليوت بأهمية تحرير كتابات كيبلينغ، وبهذا إقرار بذوق يتشارك فيه آخرون، لكنه ليس صادقاً بما يكفي لذكره دائماً. أن يستطيع شعر رديء جيد من البقاء والتواجد، فهذا علامة عن التشابك العاطفي بين المثقف والرجل العادي في الحقيقة. إن المثقف يختلف عن الرجل العادي، لكن في مقاطع محددة من شخصيته فقط وحتى آنئذ ليس دائماً. لكن ما هي ميزة القصيدة الرديئة الجيدة؟ القصيدة الرديئة الجيدة هي نصب تذكاري جميل للواضح، وهي تسجل بشكل يمكن تذكره- في الشعر أداة تساعد على التذكر من بين أشياء أخرى- عاطفة ما يستطيع كل كائن بشري المشاركة فيها. إن قيمة قصيدة مثل "حين يكون العالم كله صغيراً أيها الصبي" بكون عاطفيتها "حقيقية" بغض النظر عن درجة عاطفيتها الزائدة، بمعنى أنك ملزم بأن تجد نفسك تفكر بالفكرة التي تعبر عنها عاجلاً أو آجلاً، ثم إن صدف وعرفت القصيدة، ستعود إلى ذهنك وتبدو لك أفضل مما كانت من قبل. هذا النوع من القصائد نوع من الأمثال المقفاة. والحقيقة أن الشعر الشعبي يُكثر من المواعظ والأقوال المأثورة. مثال واحد من كيبلينغ يكفي:

يدان بيضاوان تتشبثان بسير اللجام/ ينزلق المهماز من الحذاء الرافس/ أحن الأصوات تصرخ "در ثانية!"/ شفاه حمر تلطخ السيف الفولاذي المغمد/ إما سقوط إلى جيهينا (جهنم) أو سمو إلى العرش/ يرتحل أسرع من يرتحل لوحده.

هذه فكرة سوقية عُبّر عنها بقوة ربما تكون صحيحة، لكنها في كافة الأحوال فكرة يفكر بها كل واحد وعاجلاً أم آجلاً ستتاح لك الفرصة لتشعر أن المسافر الأسرع هو من يسافر لوحده، والفكرة هناك جاهزة مسبقاً في انتظارك وكذلك الفرص، فبمجرد أن تسمع هذا البيت الشعري سوف تتذكره.

هناك سبب واحد لقوة كيبلينغ كشاعر رديء جيد اقترحته مسبقاً، وهو شعوره بالمسؤولية التي مكنته من أن تكون لديه نظرة عالمية حتى ولو كانت زائفة. كان كيبلينغ محافظاً رغم أنه لم يكن على علاقة مباشرة مع أي حزب سياسي، وهذا شيء لا تجده في هذه الأيام. فهؤلاء الذين يدعون أنفسهم محافظين، هم إما ليبراليون أو فاشيون أو متواطئون مع الفاشيين وشركاء لهم. إنه يربط نفسه مع السلطة الحاكمة ويؤيدها، وليس مع المعارضة. وهذا يبدو غريباً لنا بل

ومقززاً حتى في الكاتب الموهوب، لكن كان له الفضل في إعطاء كيلينع فهماً معيناً للواقع. إن السلطة الحاكمة يواجهها دائماً السؤال "ماذا ستفعلين في ظروف كذا وكذا؟" بينما المعارضة ليست ملزمة بتولي المسؤولية أو اتخاذ أي قرارات حقيقية. إن كانت معارضة دائمة وتتلقى منحاً حكومية كما في إنكلترا، فإن نوعية فكرها ستتلف بالنتيجة. بل أكثر من ذلك، إن كل من يباشر في نظرة تشاؤمية ورجعية للحياة عرضة لأن تبررها الأحداث، لأن المدينة الفاضلة لن تصل أبداً و"آلهة عناوين الدفاتر" كما يسميهم كيلينغ يعودون دائماً. باع كيلينغ نفسه للطبقة الحاكمة البريطانية ليس مالياً وإنما عاطفياً، وهذا شوه رأيه السياسي وحكمه، لأن الطبقة الحاكمة البريطانية لم تكن كما تخيلها، وقادته إلى لجج الحماقة والغطرسة، لكنه كسب فائدة موازية في أنه حاول تخيل كيف يكون الفعل والمسؤولية. شيء عظيم لصالحه أنه لم يكن سريع البديهة وذكياً، ولم يكن جريئاً وليست لديه رغبة في إدهاش البورجوازيين. لقد تعامل مع الملاحظات المبتذلة. وبما أننا نعيش في عالم من التفاهة والابتذال، علق الكثير مما قاله في الأذهان. إن أسوأ حماقاته تبدو أقل ضحالة وأقل إثارة للغضب من العبارات "التنويرية" المتداولة بنفس الفترة، مثل حكم وايلد ومواعظه الساخرة أو مجموعة الشعارات النارية الكاذبة في نهاية الإنسان والإنسان الخارق.

ليـر وتولستوي والمهرج

إن كراسات تولستوي هي الجزء الأقل شهرة في أعماله، والوثيقة التي هاجم شكسبير فيها ليس من السهل العثور على ترجمة إنكليزية لها بأي شكل. لذلك ربما من المفيد لو أعطيت ملخصاً للكراس قبل محاولة مناقشته. الكراس بعنوان **شكسبير والدراما**.

كتبت في عام ١٩٠٣ تقريباً كمقدمة لكراس آخر شكسبير والطبقة العاملة، بقلم إيرنست كروسبي، (ملاحظة المؤلف).

يبدأ تولستوي بالقول إن شكسبير أثار فيه "نفوراً ضجراً لا يقاوم" خلال حياته وبسبب إدراكه لرأي العالم المتمدن المعارض لرأيه، قام بمحاولات الواحدة تلو الأخرى بخصوص أعمال شكسبير، فقرأها وأعاد قراءتها بالروسية والإنكليزية والألمانية، لكن "مررت بشكل ثابت بنفس المشاعر من النفور والضجر والارتباك". والآن وهو في عمر الخامسة والسبعين، يقول إنه قرأ مرة أخرى الأعمال الكاملة لشكسبير بما فيها مسرحياته التاريخية، وشعر وبقوة أكبر بنفس المشاعر- لكن هذه المرة ليس من الحيرة وإنما من قناعة ثابتة أن المجد الذي نعم به شكسبير كعبقري عظيم لا يرقى إليه الشك والذي أجبر كتاباً من عصرنا على تقليده وقراء ومتفرجين على اكتشاف فضائل غير موجودة فيه- وبذلك شوه فهمهم الجمالي والأخلاقي - شر عظيم مثله مثل أي كذبة.

ويضيف تولستوي إن شكسبير ليس غير عبقري فقط، وإنما ليس "مؤلفاً عادياً حتى"، ولكي يثبت هذا سوف يدرس مسرحية الملك لير التي كما ظهر من اقتباساته لهازليت وبرانديس وآخرين غيرهما، التي مُجدت بإسراف، ويمكن أخذها مثالاً عن أفضل أعمال شكسبير.

ثم يقوم تولستوي بعرض وتفسير لحبكة الملك لير، ويجدها في كل مرحلة غبية ومطنبة وغير طبيعية وغير مفهومة ومنمقة ومبتذلة ومملة ومليئة بأحداث لا تصدق، "هذيانات جامحة" و"دعابات غير مرحة" ومفارقات تاريخية وأشياء لا علاقة بينها وفواحش وتقاليد مسرحية بالية وأخطاء أخلاقية وجمالية أخرى. لير في أي حال، هو انتحال من مسرحية أسبق

وأفضل بكثير كتبها مؤلف مجهول وسرقها شكسبير ومن ثم خربها. يجدر اقتباس فقرة كنموذج لتوضيح الطريقة التي ذهب فيها تولستوي في عمله. الفصل الثالث المشهد الثاني (الذي فيه لير وكنت والبهلول معاً في العاصفة) ملخصة بالشكل التالي:

يتمشى لير في أرض بور ويقول كلاماً القصد منه التعبير عن يأسه: هو يتمنى أن تعصف الريح بقوة لكي تكسر وتسحق وجناتهم والمطر ليغمر كل شيء، والبرق لكي يحرق لحيته البيضاء، والرعد ليسوي العالم بالتراب ويدمر كل البذور "التي تخلق الإنسان العاق"! يستمر البهلول في التلفظ بكلمات فارغة أكثر. يدخل كنت: لير يقول إنه لسبب ما أثناء هذه العاصفة سوف يُكتشف كل المجرمين ويحاكموا. يحاول كنت الذي لازال غير معروف من لير إقناعه بأن يلوذ في كوخ. في هذه النقطة ينطق البهلول بنبوءة لا صلة لها بالوضع بأي شكل ويفترقون كلهم.

إن حكم تولستوي النهائي على لير، هو حكم لا يستطيع مراقب غير منوم مغناطيسياً إن وجد ذلك النوع من المراقبين، أن يقرأه إلى النهاية بأي شعور سوى "المقت والسأم". والمثل صحيح بالضبط في "كل مسرحيات شكسبير الممجدة الأخرى من دون ذكر الحكايات التي لا معنى لها المسرحة بيركليس والليلة الثانية عشرة والعاصفة وسيمبلين وترويلوس وكريسيدا"

بعد أن اهتم بلير، يشهر تولستوي تهمة عامة أخرى ضد شكسبير. يجد أن شكسبير لديه مهارة فنية محددة يعود أصلها جزئياً إلى كونه ممثلاً، ولولاها لما كانت لديه أي جدارة. ليس لديه قدرة على رسم الشخصية أو صياغة الكلمات، والأفعال تثب بشكل طبيعي من الأوضاع، ولغته مبالغ فيها وسخيفة بشكل منتظم، ويقحم دائماً أفكاره العشوائية الخاصة به في فم أي شخصية تكون في متناوله، ويظهر "غياباً تاماً للشعور الجمالي" وكلماته "ليس فيها أي شبه بالفن والشعر".

يختم تولستوي قائلاً: "كان بإمكان شكسبير أن يكون أي شيء تحب، لكنه لم يكن فناناً" إضافة إلى ذلك لم تكن آراؤه أصيلة أو مشوقة، وميله "من النوع المنحط جداً والفاسق جداً. من اللافت أن تولستوي لم يؤسس هذه الحكم على الكلام الذي تفوه به شكسبير، وإنما على إفادات اثنين من النقاد جيرفينوس وبراندِس. بناءً على جيرفينوس (أو بقراءة تولستوي

لجريفنوس) "تلقن شكسبير.... بأن الشخص يمكن أن يكون طيباً جداً"، بينما حسب برانديس: "مبدأ شكسبير الأساسي...... هو الغاية تبرر الوسيلة. يضيف تولستوي على مسؤوليته أن شكسبير كان وطنياً متطرفاً من أسوأ الأنماط، وبالإضافة إلى هذا يعتبر أن جيرفينوس وبراندس قدما وصفاً حقيقياً ووافياً لوجهة نظر شكسبير في الحياة.

بعد ذلك يلخص تولستوي في بضع فقرات، النظرية الفنية التي عبر عنها بشكل مطول في مكان آخر، ولكنها تظل قصيرة وترقى رغم اختصاره الأكبر لها إلى مطالبة بنبل الموضوع الأساسي والصدق والحرفية. إن العمل الفني الكبير يجب أن يعالج موضوعاً "مهماً للحياة البشرية" ويجب أن يعبر عن شيء يحس به المؤلف بصدق، ويجب أن يستخدم الأساليب الفنية التي تنتج التأثير المرغوب. بما أن شكسبير كان منحطاً في وجهة نظره ومهملاً في تنفيذه وعاجزاً عن أن يكون مخلصاً ولو للحظة واحدة، فإنه مدان بشكل واضح.

لكن يبرز هنا سؤال صعب. إن كان شكسبير كما أظهره تولستوي، فكيف نال إعجاب الجميع؟ من الواضح أن الجواب يكمن فقط في نوع من التنويم المغناطيسي الجماهيري أو "إيحاء وبائي". لقد ضُلل العالم المتمدن كله بشكل ما ليعتقد أن شكسبير كاتب جيد، لدرجة أن أوضح الإثباتات لنقض ذلك الاعتقاد لا تؤثر ولا تحدث أي انطباع، لأن المرء لا يتعامل مع رأي صواب ومبرر، وإنما مع شيء أقرب إلى الإيمان الديني. يقول تولستوي إنه عبر التاريخ كانت هناك سلسلة لانهائية من هذه "الإيحاءات الوبائية الشائعة" -مثل الصليبيين والبحث عن حجر الفلاسفة والجنون بزراعة الخزامى الذي اكتسح هولندا سابقاً وهكذا. وكمثال معاصر يورد بشكل ملحوظ قضية دريفوس التي هيجت العالم كله بعنف دون مبرر كافٍ. هناك أيضاً حالات جنون قصيرة الأمد بالنظريات السياسية والفلسفية الجديدة أو بهذا أو ذاك الكاتب أو الفنان أو العالم كداروين مثلاً الذي (في ١٩٠٣) "بدأ يُنسى" وفي بعض الحالات قد يبقى أحد المعبودين الشعبيين التافهين مفضلاً ومقبولاً تماماً لمدة قرون. و"يحدث أن تكون حالات الجنون التي تظهر نتيجة لأسباب خاصة تفضل مؤسستها مصادفة وتتوافق بدرجة ما مع وجهات نظر حياتية في المجتمع". استمرت مسرحيات شكسبير بنيل الإعجاب خلال فترة زمنية طويلة لأنها "توافقت وتطابقت مع الإطار اللاديني واللاأخلاقي لعقلية الطبقات العليا في عصره وفي عصرنا".

ويفسر تولستوي الطريقة التي بدأت فيها شهرة شكسبير بأنها "صعدت" بواسطة أساتذة ألمان في حوالي نهاية القرن الثامن عشر. إن صيته "نشأ في ألمانيا ومن هناك انتقل إلى إنكلترا" اختار الألمان رفع شأن شكسبير لأنهم عاشوا في زمن لم تكن فيه دراما ألمانية تستحق الذكر، وكان الأدب الكلاسيكي الفرنسي فاتراً ومصطنعاً، فافتتنوا "بتطوير شكسبير الذكي للمناظر المسرحية" ووجدوا فيه أيضاً تعبيراً جيداً عن موقفهم الخاص تجاه الحياة. لقد صرح غوته بأن شكسبير شاعر عظيم، وبناء على ذلك احتشد النقاد الآخرون خلفه مثل سرب من الببغاوات، واستمر الافتتان العام منذ ذلك الحين، وكانت النتيجة انحطاطاً أكبر في الدراما - تولستوي حريص أن يشمل مسرحياته الخاصة به حين اتهم المسرح المعاصر - وفساداً أكبر في النظرة الأخلاقية السائدة، وفي النتيجة إن "التمجيد الزائف لشكسبير" شر هام، شعر تولستوي أن من واجبه مقارعته.

هذا هو جوهر كراسة تولستوي إذاً. إن الشعور الأول الذي يحس به المرء تجاه شخص يصف شكسبير ككاتب رديء، هو أن هذا الشخص يقول شيئاً غير صحيح وغير حقيقي بشكل واضح. لكن الحالة ليست هذه، ففي الواقع ليس هناك أي دليل أو حجة يستطيع شكسبير أو كاتب آخر أن يبين بواسطتها أنه كاتب "جيد"، وبالمثل ليس هناك أي طريقة تثبت دون ريب أن ورويك بيبنغ "رديء". أخيراً ليس هناك اختبار -مثلاً- للجدارة الأدبية سوى البقاء الذي هو مؤشر بحد ذاته عن رأي الأغلبية. إن النظريات الفنية كنظرية تولستوي لا قيمة لها بتاتاً، ليس لأنها تنطلق من افتراضات اعتباطية فقط، وإنما لأنها تعتمد على مصطلحات غامضة أيضاً مثل ("خاص" و"هام" وهلم جرا) يمكن تفسيرها بالطريقة التي يختارها الشخص. للتكلم كما ينبغي لا يستطيع المرء الرد على هجوم تولستوي. السؤال المشوق هو: لماذا قام بفعلته هذه؟ لكن يجب أن يُلاحظ وبشكل عابر أنه استخدم حججاً كثيرة ضعيفة أو كاذبة، والبعض منها جدير بالتنويه، ليس لأنها تبطل تهمته الأساسية، وإنما لأنها دليل على الحقد كما يقال.

بداية، إن دراسته للملك لير ليست "نزيهة ومحايدة" كما زعم ذلك مرتين، فعلى العكس كانت تدريباً مطولاً في تشويه الحقائق والتحريف. من الواضح أنه حين تلخص الملك لير لفائدة أحد لم يقرأها، فأنت لست محايداً حقيقة حين تقدم خطاباً مهماً (خطاب لير حين تكون

كورديليا ميتة بين ذراعيه) بهذه الطريقة: "مرة أخرى تبدأ هذيانات لير البغيضة التي تشعر المرء بالخزي كما في الدعابات الفاشلة" وفي سلسلة طويلة من الأمثلة، يتبدل تولستوي قليلاً أو يلون المقاطع التي ينتقدها بطريقة محددة دائماً يظهر فيها أن الحبكة معقدة وبعيدة الاحتمال، أو أن اللغة مبالغ بها. مثال على ذلك، نحن نعلم أن لير "ليس لديه حاجة أو حافز للتنازل عن العرش" بالرغم أن مبرره للتنازل (بأنه عجوز ويرغب في التقاعد من هموم الدولة) مشار إليه بوضوح في المشهد الأول. سيتبين حتى في المقطع الذي اقتبسته آنفاً أن تولستوي أساء فهم عبارة واحدة عمداً وبدّل معناها بأخر متجاهلاً الملاحظة المعقولة والصائبة في سياقها. ليست أي من هذه القراءات الخاطئة ثقلاً كبيراً بحد ذاتها، لكن أثرها التراكمي يكمن في تضخيم التنافر والتفكك النفسي للمسرحية. مرة أخرى تولستوي عاجز عن تفسير لماذا لا تزال مسرحيات شكسبير تُطبع وتُمثل على المسرح بعد مائتي سنة من وفاته (قبل أن يبدأ "الإيحاء الوبائي")؛ وسرده الكامل عن صعود شكسبير للشهرة هو تخمين تمزقه بيانات كاذبة تماماً. ومرة أخرى إن الكثير من اتهاماته تناقض بعضها البعض: مثلاً شكسبير مجرد ممثل هزلي و"ليس جاداً" ومن جانب آخر يضع أفكاره الخاصة به في أفواه شخصياته دائماً. في المجمل من الصعب أن تشعر أن انتقادات تولستوي تنم عن نية حسنة. بأي حال من المستحيل عليه أن يؤمن تماماً بفرضيته الأساسية بأن العالم المتمدن كله انخدع بكذبة هائلة صريحة لقرن أو أكثر ولم يقدر أن يكتشفها أحد غيره. من المؤكد أن كرهه لشكسبير حقيقي تماماً، لكن أسباب ذلك الكره قد تكون مختلفة أو مختلفة جزئياً عما يجهر به، وهنا تكمن أهمية الكراسة.

في هذه النقطة يُجبر المرء على البدء في التخمين. لكن هناك مفتاحاً واحداً ممكناً على كل حال، أو على الأقل هناك سؤال ربما يلمح إلى طريق يؤدي إلى مفتاح وهو: لماذا انتقى تولستوي الملك لير من بين أكثر من ثلاثين مسرحية متاحة للاختيار كهدف لبحثه؟ صحيح أن لير مشهورة جيداً ونالت الكثير من المديح لدرجة يمكنها أن تؤخذ أنموذجاً ومثلاً عن أفضل أعمال شكسبير، لكن اختار تولستوي المسرحية التي كرهها أكثر من غيرها من أجل تحليل عدائي. ألا يحتمل أنه حمل عداوة خاصة نحو مسرحية محددة، لأنه كان مدركاً شعورياً أو لاشعورياً بالتشابه بين قصة لير وقصته هو؟ لكن من الأفضل مقاربة هذا المفتاح من الجهة المعاكسة -أي بدراسة لير نفسها والمزايا فيها التي فشل تولستوي في ذكرها.

أحد الأشياء الأولى التي سيلاحظها القارئ الإنكليزي في كراسة تولستوي، أنها نادراً ما تتعامل مع شكسبير كشاعر. عومل شكسبير ككاتب مسرحي، وكانت شعبيته غير المزيفة كما أُعتقد بفضل الخدع المسرحية التي وفرت فرصاً جيدة لممثلين بارعين. الآن إن هذا الادعاء غير صحيح، ففي كل البلدان الناطقة بالإنكليزية حظيت المسرحيات العديدة، التي لم تمثل أبداً أو نادراً، بأكبر تقدير من عشاق شكسبير "كتيمون الأثيني مثلاً"، بينما حظيت بعض من مسرحياته الأكثر تمثيلاً على المسرح كمسرحية حلم ليلة في منتصف الصيف بأقل إعجاب. هؤلاء الذين اهتموا بشكسبير كثيراً يجلونه في المقام الأول لاستخدامه للغة "الموسيقى اللفظية" التي اعترف ناقد عدائي آخر هو برنارد شو بأنها "لا تقاوم". إن تولستوي يتجاهل هذا، ولا يبدو أنه يدرك أن القصيدة تمتلك قيمة خاصة ومميزة عند هؤلاء الذين يتكلمون اللغة التي كتبت فيها تلك القصيدة. لكن حتى لو وضع المرء نفسه في مكان تولستوي، وحاول أن يعتبر شكسبير شاعراً أجنبياً، لبقي هناك شيء ما واضح حذفه تولستوي. إن الشعر كما يبدو ليس مسألة صوت وتداعي أفكار ومعاني فقط تافهة ولا قيمة لها خارج مجموعته اللغوية الخاصة به: وإلا كيف نجحت بعض القصائد التي كتبت بلغات ميتة في عبور الحدود؟ من الواضح أنه لا يمكن ترجمة قصيدة غنائية كشعر غنائي مثل "غداً عيد القديس فالانتاين" بشكل مسر، لكن في أعمال شكسبير الرئيسية هناك شيء يمكن وصفه كشعر، يمكن فصله عن الكلمات. تولستوي محق في قوله بأن لير ليست مسرحية جيدة جداً كمسرحية. هي مطولة جداً وفيها عدد كبير من الشخصيات والحبكات الثانوية. ابنة شريرة واحدة كانت تكفي وإيدغار شخصية زائدة: وفي الحقيقة كانت ستكون مسرحية أفضل لو أُزيل غلوستر وولداه. لكن بالرغم من ذلك ربما ينجو أنموذج ما أو جو من المضاعفات والفقرات المملة. يمكن تخيل لير كعرض دمى أو مسرحية إيمائية أو رقصة باليه أو سلسلة من الصور. إن الجزء الجوهري والأهم من شعرها متأصل في القصة ولازم لها ولا يعتمد على أي مجموعة محددة من الكلمات، ولا على العرض المسرحي الحي.

أغلق عينيك وفكر بالملك لير من دون استدعاء أي حوار للذهن إن أمكن. ما الذي تراه؟ هذا ما أراه في كافة الأحوال؛ رجل عجوز مهيب في عباءة طويلة سوداء مع شعر أبيض منساب ولحية، شخصية من رسومات بليك (لكن أيضاً وبغرابة كافية مثل تولستوي) يهيم في

عاصفة ويلعن السماوات [illegible] بهلول ومجذوب. وعلى الفور يتبدل المشهد والرجل العجوز لازال يلعن ولازال لا يفقه شيئاً، يحمل طفلة ميتة بين ذراعيه والبهلول يتدلى على مشنقة في مكان ما في الخلفية. هذا هو الهيكل المجرد للمسرحية، وحتى هنا يريد تولستوي أن يقتطع أكثر ما هو جوهري. هو يعترض على العاصفة بأنها غير ضرورية وعلى البهلول الذي يراه إزعاجاً مضجراً بوضوح وعذراً لإلقاء دعابات رديئة، ويعترض على موت كورديليا الذي كما يراه يسرق المسرحية من مغزاها. بالنسبة إلى تولستوي، المسرحية الأسبق الملك لير التي عدلها شكسبير، تنتهي بشكل طبيعي وبتوافق مع المطالب الأخلاقية للمتفرج أكثر مما تفعله مسرحية شكسبير، أي بتغلب ملك بلاد الغال على زوجي الأختين الكبيرتين، وكورديليا التي بدلاً من أن تُقتل تعيد لير إلى وضعه السابق.

بعبارة أخرى، كان ينبغي بالتراجيديا (المأساة) أن تكون الكوميديا (الملهاة) أو ربما ميلودراما، ويُشك إن كان معنى المأساة ينسجم مع الإيمان بالرب: على أي حال إنها لا تنسجم مع الكفر بالكرامة الإنسانية ومع نوع "الطلب الأخلاقي" الذي يشعر بأنه خُدع حين تفشل الفضيلة في الانتصار. إن الوضع المأساوي يتواجد بالضبط حين لا تنتصر الفضيلة فحسب، وإنما أيضاً حين يظل الشعور بأن الإنسان أنبل من القوى التي دمرته. ربما الأكثر أهمية أن تولستوي لا يرى أي مبرر لوجود البهلول. إن البهلول متمم للمسرحية، وهو ليس نوعاً من الكورس يجعل الوضع المركزي أوضح بالتعليق عليه بطريقة أكثر ذكاء من الشخصيات الأخرى فحسب، وإنما كنقيض شفاف يظهر نوبات لير المجنونة. إن دعاباته وأحاجيه وفتات كلامه المقفى ونبشه اللانهائي في حماقة لير النبيلة، تتدرج من السخرية المحضة إلى نوع من الشعر السوداوي "كل الألقاب الأخرى التي تخليت عنها والتي ولدت معها" مثل مجرى ضحل من سلامة العقل يجري عبر المسرحية، ومذكر يذكر في مكان ما أو آخر أن الحياة مستمرة كالمعتاد إلى حد كبير، رغم أعمال الظلم والوحشية والمؤامرات والخداع وسوء الفهم التي جرى تمثيلها هنا. إن نفاد صبر تولستوي من البهلول، يوفر لمحة سريعة عن نزاعه العميق مع شكسبير، فهو يعارض مع بعض التبرير رثاثة مسرحيات شكسبير وعدم تعلق الأشياء ببعضها والمكائد التي لا تصدق واللغة المبالغ بها: لكن ما يكرهه أكثر ومن الصميم، هو نوع من الحيوية والفرح ونزعة -لعدم الأخذ بالكثير من المتعة كاهتمام في الصيرورة الفعلية للحياة.

من الخطأ التغاضي عن تولستوي كأستاذ في علم الأخلاق يهاجم فناناً. هو لم يقل أبداً إن الفن شرير ولا معنى له مثلاً، ولم يقل إن البراعة الفنية الفائقة غير مهمة، ولكن كان هدفه الرئيسي في سنواته الأخيرة تضييق مدى الوعي الإنساني، ويجب أن تكون اهتمامات المرء ونقاط ارتباطه بالعالم المادي والصراع اليومي قليلة وليست كثيرة ما أمكن، ويجب أن يتألف الأدب من حكايات رمزية ذات معنى أخلاقي مجردة من التفصيل ومستقلة عن اللغة تقريباً. يختلف تولستوي في نظرته للحكايات الرمزية عن البيوريتاني المبتذل العادي، ويرى أنها يجب أن تكون بحد ذاتها أعمالاً فنية، لكن يجب إقصاء المتعة والفضول منها، وأيضاً يجب أن يُكتشف العلم من حب الاستطلاع والفضول. ويقول إن عمل العلم ليس اكتشاف ما يحدث، وإنما تعليم الرجال كيف يجب أن يعيشوا، وكذلك الأمر مع التاريخ وعلم السياسة. ويرى أن هناك مشاكل كثيرة (كقضية دريفوس مثلاً) لا تستحق الحل ببساطة، ويرغب في تركها كنهايات رخوة. في الواقع إن نظريته كلها عن "الجنون" أو "الإيحاءات الوبائية" التي يكوم فيها أشياء مثل الصليبيين وشغف الهولنديين بزراعة الخزامى، تبين رغبته في اعتبار نشاطات إنسانية كثيرة بأنها مجرد اندفاعات نملية إلى الأمام وإلى الخلف غير مفسرة وغير مشوقة. ومن الواضح أنه ليس لديه الصبر على كاتب مشوش ومغرق في التفاصيل واستطرادي مثل شكسبير. وكان رد فعله رد فعل رجل عجوز سريع الاهتياج ضايقه طفل كثير الضجيج. "لماذا تواصل الوثب نحو الأعلى والأسفل مثل ذلك؟ لماذا لا تستطيع الجلوس ساكناً كما أفعل؟ بطريقة ما، فإن الرجل العجوز على حق، لكن المشكلة أن ذلك الطفل لديه إحساس في أطرافه فقده الرجل العجوز، ولو عرف العجوز بوجود هذا الإحساس، لكانت النتيجة مجرد زيادة في إزعاجه: سيجعل الطفل شيخاً إن استطاع. ربما لا يعرف تولستوي ما الذي فقده بالضبط في شكسبير، لكنه يدرك أنه ضيّع شيئاً، وهو مصمم أن يحرم الآخرين منه أيضاً. كان تولستوي مستبداً وأنانياً بطبيعته، وبعد أن أصبح ناضجاً وكبيراً، ظل يضرب خدمه أحياناً في لحظات الغضب، وفي وقت متأخر حسب ما جاء عن كاتب سير إنكليزي يدعى ديريك ليون، شعر "برغبة تراوده بضرب وجوه الذين يختلف معهم بعد أوهى استفزاز". لا يتخلص المرء بالضرورة من هذا النوع من المزاج الحساس بتحوله إلى مذهب ديني جديد واعتناقه. وفي الحقيقة من الواضح أن ذلك الوهم في الانبعاث بعد الموت، ربما يسمح لرذائل

المرء الأصلية في الازدهار بحرية أكبر مما سبق، لكن بأشكال أخبث وأمكر. كان تولستوي قادراً على شجب العنف الجسدي وإدراك ما يتضمنه، لكنه لم يكن قادراً على التسامح أو التواضع. وحتى لو لم يكن المرء يعرف أي شيء عن كتاباته الأخرى، فإنه يستطيع استنتاج ميله نحو التنمر الروحي من كراس واحد.

على كل حال، لا يحاول تولستوي أن يسرق الآخرين من متعة لم يشاركهم فيها فقط. هو يفعل ذلك، لكن نزاعه مع شكسبير أبعد من ذلك. إنه النزاع بين الموقفين الديني والإنساني من الحياة. وهنا يعود المرء إلى الموضوع المركزي للملك لير، الذي لم يذكره تولستوي، رغم أنه عرض الحبكة في بعض التفصيل.

لير واحدة من مسرحيات شكسبير التي تدور حول شيء ما بوضوح. يتذمر تولستوي من الهراء الكثير الذي كتب عن شكسبير كفيلسوف وكعالم نفساني وكـ "معلم أخلاقي عظيم" وغيره. لم يكن شكسبير مفكراً ممنهجاً، وأهم أفكاره قيلت بغير اتصال بالموضوع وبشكل غير مباشر، ولا نعرف إلى أي مدى كان يكتب بـ "هدف" أو حتى كم كتب بنفسه فعلياً من العمل الذي نسب إليه، وهو لم يشر في قصائده (السونيتات) أبداً إلى مسرحياته كجزء من إنجازه، رغم أنه قام بتلميح شبه خجول على ما يبدو إلى مهنته كممثل. من الممكن تماماً أنه نظر إلى نصف مسرحياته على الأقل على أنها مجرد أعمال أدبية رخيصة غرضها المال، ونادراً ما اهتم بالغرض أو الأرجح طالما استطاع ترقيع شيء ما على عجل، من مواد مسروقة عادة تتناسق تقريباً على خشبة المسرح. لكن القصة الكاملة ليست تلك. بداية، كما يشير لتولستوي نفسه، فإن شكسبير لديه عادة إقحام الانعكاسات العامة غير المطلوبة في أفواه شخصياته. هذا خطأ فادح عند الكاتب المسرحي، لكنه لا يتلاءم مع صورة شكسبير التي رسمها له تولستوي ككاتب مأجور مبتذل ليس لديه آراء خاصة به، ويرغب فقط في إنتاج أعظم أثر بأقل عناء. والأكثر من هذا أن دزينة من مسرحياته التي كُتبت بعد عام ١٦٠٠ تمتلك بلا ريب معنى ومغزى أخلاقي أيضاً، فهي تدور حول موضوع مركزي يمكن تقليله إلى كلمة واحدة في بعض الحالات، فمثلاً مكبث عن الطموح، وعطيل عن الغيرة، وتيمون الأثيني عن النقود. إن موضوع لير هو التخلي عن ملك أو حق، ولا يستطيع المرء أن يخفق في فهم ما يقوله شكسبير إلا بالتعامي المقصود.

تخلى لير عن عرشه، لكنه توقع من الجميع أن يستمروا في معاملته كملك، ولم ير أنه إن تنازل عن السلطة، فسيغتنم الناس فرصة ضعفه، وأن هؤلاء الذين داهنوه وتملقوه بشكل فاضح مثل ريغان وغونريل، هم بالضبط الذين انقلبوا ضده. في اللحظة التي يجد فيها أنه لم يعد يستطيع حمل الناس على طاعته، كما كان يفعل سابقاً، تصيبه سورة من الهياج، يصفها تولستوي بـ "غريبة وغير طبيعية"، لكنها في الحقيقة أنموذجية وملائمة تماماً. ففي جنونه وقنوطه يمر بمزاجين طبيعيين تماماً في ظروفه، لكن ربما استخدم أحدهما جزئياً كناطق بآراء شكسبير الخاصة. الأول مزاج الاشمئزاز الذي تاب فيه لير، لأنه كان ملكاً، وأدرك للمرة الأولى حقارة العدالة الرسمية والمبادئ الأخلاقية المبتذلة، والآخر مزاج من الغضب الشديد العاجز الذي ينزل بواسطته أعمالاً انتقامية خيالية بهؤلاء الذين ظلموه وأخطؤوا بحقه. "أن يملك ألف بصاق أحمر حارق تنزل فوقهم! وهي تهس" و:

كانت حيلة محكمة أن تكسو فرقة من الخيالة باللباد؛ وسأختبرها؛ وحين أباغت هؤلاء الأصهار عندئذ اقتل، اقتل، اقتل، اقتل، اقتل، اقتل!

ولا يدرك كرجل عاقل إلا في النهاية، أن السلطة والانتقام والانتصار، هي أمور لا تستحق العناء.

كلا، كلا، كلا! تعال، دعنا نرحل إلى السجن..... وسوف نتآكل في حبس مسور، قطعان وطوائف عظيمة تنجزر وتمتد بالقمر.

وفي الوقت الذي ينجح باكتشافه، يكون الأوان قد فات، لأن موته وموت كورديليا قد تقرر مسبقاً. تلك هي القصة وتسمح ببعض الخرق عند روايتها. إنها قصة جيدة جداً.

لكن أليست هي مشابهة بشكل غريب أيضاً لتاريخ تولستوي نفسه؟ هناك شبه عام لا يستطيع المرء تجنب رؤيته، لأن أكثر حدث مؤثر في حياة تولستوي كما في حياة لير، كان فعل التنازل الضخم وغير المبرر. تولستوي في شيخوخته تخلى عن ملكيته ولقبه وحقوق نشره، وقام بمحاولة لم تكن ناجحة، لكنها صادقة للنجاة من موقعه المتميز والعيش حياة فلاح. لكن الشبه الأعمق يكمن في حقيقة أن تولستوي مثل لير تصرف بناءً على دوافع خاطئة، وفشل في الحصول على النتائج المرجوة. إن هدف كل كائن بشري برأي تولستوي هو السعادة، والسعادة لا يمكن بلوغها إلا بفعل مشيئة الرب، لكن فعل مشيئة الرب يعني نبذ كل المتع

الدنيوية والمطامح والعيش من أجل الآخرين فقط. لذلك اعتزل تولستوي العالم أخيراً، على أمل أن يجعله هذا أكثر سعادة. لكن إن كان هناك شيء واحد مؤكد في سنواته الأخيرة، فهو أنه لم يكن سعيداً، بل على العكس فقد دفعه سلوك الناس الذين حوله إلى حافة الجنون، الناس الذين ضايقوه بالضبط بسبب تنازله عن حقوقه. لم يكن تولستوي متواضعاً أو حكماً جيداً على الأشخاص. كان يميل أحياناً إلى الرجوع إلى مواقف الأرستقراطي رغم ثوبه الفلاحي، وكان لديه طفلان كان قد آمن بهما أيضاً، انقلبا ضده أخيراً، لكن بطريقة أقل إثارة من ريغان وغونيرل طبعاً. وكان اشمئزازه المبالغ به من النشاط الجنسي مشابهاً بوضوح لاشمئزاز شكسبير أيضاً. إن ملاحظة تولستوي بأن الزواج "عبودية وتخمة ونفور" ووسيلة لتحمل قرب "القبح والقذارة والرائحة الكريهة والقروح" يناظرها ثوران لير المشهور:

لكن الآلهة تورث للنساء من بين كل الشياطين تحت المشدات؛ هناك جحيم وهناك ظلام وهناك حفرة كبريتية تلتهب وتحرق، تصدر رائحة نتنة إلخ إلخ.

ورغم ذلك، لم يستطع تولستوي أن يتنبأ بهذا حين كتب مقاله عن شكسبير، وحتى في إنهاء حياته -الفرار المفاجئ وغير المخطط عبر الريف من دون رفقة إلا من ابنته المخلصة، والموت في كوخ في قرية غريبة -يبدو فيه أثر من ذكرى شبحية من لير.

لا يستطيع المرء التسليم بأن تولستوي كان مدركاً لهذا الشبه طبعاً، أو أنه كان سيعترف به لو أُشار به أحد إليه. لكن موقفه تجاه المسرحية يفترض أنه تأثر بموضوعها. إن التخلي عن السلطة والتخلي عن الأراضي كان موضوعاً شعر به بعمق ولديه المبرر في ذلك، لهذا ربما أغضبه المغزى الأخلاقي الذي استدره شكسبير على الأرجح، وأزعجه أكثر من انزعاجه من بعض المسرحيات الأخرى كمكبث مثلاً -التي لم تلامس حياته الخاصة به عن قرب. لكن ما هو بالضبط المغزى الأخلاقي من لير؟ من الواضح وجود مغزيين أخلاقيين؛ واحد صريح والآخر ضمني في القصة.

يبدأ شكسبير بافتراض مفاده أن تجعل نفسك عاجزاً، يعني أن تشجع الهجوم عليك. هذا لا يعني أن كل واحد سينقلب ضدك (كنت والمهرج وقفا إلى جانب لير منذ البداية حتى النهاية) لكن في كل الاحتمالات سيفعل ذلك أحد ما. لو ألقيت أسلحتك سوف يلتقطها شخص موسوس من رتبة أدنى. إن أدرت الخد الآخر ستنال صفعة أقسى عليه من التي نلتها

على الخد الأول. هذا لا يحدث دائماً، لكن يجب توقعه. وينبغي عليك ألا تتشكى إن حدث. الصفعة الثانية هي جزء من فعل إدارة الخد الآخر. لذلك أولاً وقبل كل شيء، هناك المغزى الأخلاقي العادي المنطقي الذي يلفت المهرج الانتباه إليه: "لا تتخلَّ عن السلطة، ولا تهب أراضيك". لكن هناك مغزى أخلاقياً آخر أيضاً لم يتفوه به شكسبير أبداً في كلمات كثيرة جداً، ولا يهم كثيراً جداً إذا كان مدركاً جداً له. إنه متضمن في القصة التي هو من ابتدعها أو بدلها لتناسب غرضه وهو التالي: "هب أراضيك وتخلّ عنها إن أردت ذلك، لكن لا تتوقع أن تنال السعادة بفعل هذا، وعلى الأرجح أنك لن تنال السعادة. إن عشت من أجل الآخرين، فيجب أن تعيش من أجل الآخرين، وليس لتحقيق مصلحة شخصية لنفسك بطريقة ملتوية".

من الجلي أن لا أحد من هذين الاستنتاجين كان مرضياً لتولستوي. أولهما يعبر عن الأنانية العادية الدنيوية التي حاول أن يفر منها صادقاً، والآخر يتعارض مع رغبته في نيل الفائدة ودرء الضرر -أي أن يدمر أنانيته. وبهكذا فعل يفوز بحياة أبدية. إن لير ليست عظة لصالح الإيثارية طبعاً. إنها تبرز نتائج ممارسة نكران الذات لأسباب أنانية. لدى شكسبير عرق كبير من الدنيوية فيه، ولو لم يُجبر أن يصطف إلى جانب طرف في مسرحيته، لتعاطف مع المهرج على الأرجح، لكنه على الأقل استطاع أن يرى القضية الكاملة وعاملها بمستوى المأساة. الرذيلة تُعاقب، لكن الفضيلة لا تُكافئ. إن مبادئ شكسبير الأخلاقية في مسرحياته المأساوية اللاحقة، ليست دينية بالمعنى العادي وليست مسيحية بالتأكيد. اثنتان منها فقط هاملت وعطيل تحدثان في العصر المسيحي كما يعتقد، وحتى فيهما ليس هناك أي إشارة إلى "العالم التالي" الذي سيُصحح فيه كل شيء باستثناء الأفعال الغريبة للشبح في مسرحية هاملت. تبدأ كل هذه المسرحيات المأساوية بافتراض إنساني، يرى أن الحياة رغم أنها مترعة بالأسى، تستحق العيش، وأن الإنسان حيوان نبيل- اعتقاد لم يكن تولستوي من المؤمنين به في شيخوخته. لم يكن تولستوي قديساً، لكنه حاول جاهداً أن يجعل من نفسه قديساً، والمعايير التي طبقها على الأدب كانت معايير سماوية. من المهم أن ندرك أن الفرق بين القديس والكائن البشري العادي، هو فرق في النوع وليس في الدرجة. أي يجب ألا يُنظر إلى المرء كشكل ناقص عن الآخر. إن القديس من نوع قديسي تولستوي على كافة الأحوال، لا يحاول القيام بأي تحسينات في الحياة الدنيوية، وإنما على العكس يحاول أن ينهيها ويضع شيئاً مختلفاً في مكانها. وإحدى العبارات الواضحة التي

تدل على ذلك، هي الادعاء بأن العزوبية "أسمى" من الزواج. يقول تولستوي في الواقع لو أوقفنا التناسل والقتال والصراع والاستمتاع، لاستطعنا التخلص ليس من خطايانا فقط بل من كل شيء آخر يربطنا بسطح الأرض -بما فيه الحب، ومن ثم تنتهي العملية المؤلمة برمتها وتأتي مملكة السماء. لكن الكائن البشري العادي لا يريد مملكة السماء: إنه يريد للحياة على الأرض أن تستمر، وهذا ليس لأنه "ضعيف" فقط، وإنما لأنه "آثم" ومتلهف لـ "المتعة والتسلية". أغلب الناس ينالون مقداراً جيداً من المتعة في حياتهم، لكن الحياة معاناة في المجمل والصغار جداً والحمقى جداً فقط من يتخيلونها بشكل مختلف. أخيراً، إنه الموقف المسيحي الأناني النفعي والتلذذي، بما أن الهدف دائماً هو الهروب من الصراع المؤلم للحياة الدنيوية وإيجاد السلام الأبدي في نوع من الفردوس أو النيرفانا. الموقف الإنساني يرى أن الصراع يجب أن يستمر وأن الموت هو الثمن للحياة. "البشر يجب أن يتحملوا ذهابهم من هنا مثلما تحملوا قدومهم إلى هنا: النضوج والاستعداد هو الكل"- وهو رأي غير مسيحي. توجد هدنة ظاهرية بين الإنسانوي والمتدين غالباً، لكن في الحقيقة لا يمكن التسوية بين موقفيهما: على المرء أن يختار بين هذا العالم والعالم التالي، والأغلبية الهائلة من البشر إن فهموا القضية سيختارون هذا العالم. إنهم يقومون بهذا الخيار حين يستمرون في العمل وفي التناسل والموت، بدلاً من تعطيل قدراتهم على أمل إحراز عقد إيجار جديد من البقاء في مكان آخر.

نحن لا نعرف الكثير عن معتقدات شكسبير الدينية، ومن خلال دليل من كتاباته يصبح من الصعب إثبات أي منها. لكن على أي حال هو لم يكن قديساً أو قديساً محتملاً: كان كائناً بشرياً وصالحاً في بعض الأوجه. ومن الواضح مثلاً أنه اتخذ موقفاً جيداً من الأغنياء وأصحاب النفوذ، وكان قادراً على مداهنتهم بأشد الطرق عبودية، كما كان حريصاً وبشكل ملحوظ أيضاً ألا يكون جباناً بطريقته للتفوه بالآراء العامة، ولم يضع أبداً تقريباً ملاحظة هدامة أو شكوكية في فم إحدى شخصياته التي يحتمل أن تتماثل معه. خلال مسرحياته، كان النقاد الاجتماعيون الأذكياء والناس الذين لم ينخدعوا بالأفكار الخاطئة المستحسنة، هم المهرجون والأوغاد والمجاذيب أو الأشخاص الذين يتظاهرون بالخبل أو في حالة من الهستريا العنيفة، وهذه النزعة واضحة جداً بوجه خاص في مسرحية لير، وتحتوي على مقدار كبير من النقد الاجتماعي المقنع. وهذه هي النقطة التي فوتها تولستوي، والتي عبر عنها كلها المهرج

وإدغار حين تظاهر بأنه مجنون، ولير أثناء نوبات جنونه. لم يدل لير بملاحظة ذكية أبداً في لحظاته صحوته، وحقيقة إن شكسبير اضطر إلى استخدام هذه الحيل، تظهر المدى الواسع لتدرج أفكاره. لم يستطع كبح نفسه عن التعليق على كل شيء تقريباً، لهذا ارتدى سلسلة من الأقنعة لكي يفعل هذا. لو قرأ المرء شكسبير بانتباه مرة، فلن يسهل عليه أن يمر يوم دون أن يقتبسه، لأنه لم يترك الكثير من المواضيع الهامة الرئيسية دون أن يناقشها أو يذكرها في مكان أو آخر، على الأقل في طريقته الفوضوية، ولكنها طريقة منورة. وحتى الأشياء غير المتعلقة بالموضوع الرئيسي التي تتبعثر في كل مكان في مسرحياته-التورية والألغاز وقوائم الأسماء وفتات "التحقيق الصحفي" مثل محادثة الرسل في هنري الرابع والدعابات الفاجرة والأجزاء التي تم إنقاذها من الشعر الشعبي المنسي - هي مجرد نتاجات لحيوية مفرطة. لم يكن شكسبير فيلسوفاً أو عالماً، لكنه كان يمتلك حب الاستطلاع، وكان يحب سطح الأرض وصيرورة الحياة التي حتى لو وجب أن تُلغى، ليست نفس الشيء كالرغبة في إمضاء وقت ممتع والبقاء حياً أطول فترة ممكنة. إن شكسبير لم يبق حياً بسبب نوعية أفكاره طبعاً، وربما لن يتذكره أحد ككاتب مسرحي حتى لو لم يكن شاعراً. إن قوته المسيطرة علينا هي من خلال اللغة. ويمكن استنتاج مدى افتتان شكسبير الكبير بموسيقى الكلمات من خطب بستول. إن ما قاله بستول لا معنى له في غالبيته، لكن لو تمعن المرء في أبياته بشكل مفرد سيجدها شعراً بلاغياً رائعاً. من الواضح أن قطع الهراء المدوي ("دع السيول تغمر بأمواجها والعفاريت تولول من أجل الطعام" إلخ) كانت تظهر باستمرار في ذهن شكسبير من تلقاء نفسها، وكان من الضروري اختراع شخصية نصف مجنونة كي تستعملها.

إن لغة تولستوي الأم ليست الإنكليزية، ولا يستطيع المرء لومه لعدم تأثره بشعر شكسبير، ولا حتى رفضه التصديق بأن مهارة شكسبير بالكلمات كانت شيئاً خارجاً عن نطاق العادي والمألوف. ولكن كان عليه أيضاً أن ينبذ فكرة تقييم الشعر من خلال نسيجه ومادته أيضاً-بالضبط تقييمه كنوع من الموسيقى. لو كان بالإمكان بطريقة ما الإثبات له بأن شرحه لارتقاء شكسبير إلى الشهرة هو خطأ، فذلك لأن شعبية شكسبير داخل العالم الناطق بالإنكليزية أصيلة وحقيقية في كافة الأحوال، وأن مهارته في وضع لفظة بجانب أخرى منحت متعة شديدة لجيل تلو آخر للشعوب الناطقة بالإنكليزية -كل هذا كان يمكن اعتباره فضيلة لشكسبير لكن

بالعكس. كانت يكمن أن تكون إثباتاً إضافياً آخر للطبيعة اللادينية الدنيوية لشكسبير ومريديه. قال تولستوي إن الشعر يجب أن يقيّم من خلال معناه، وأن الأصوات الغاوية لا تحدث سوى مدلولات زائفة تمر من دون أن تُلحظ. في كل المستويات إنها نفس القضية -هذا العالم ضد العالم التالي: وبالتأكيد موسيقى الكلمات هي شيء ينتمي إلى هذا العالم.

هناك نوع من الشك يحوم دائماً حول شخصية تولستوي، مثل الشك الذي حام حول شخصية غاندي. هو لم يكن مرائياً مبتذلاً كما صرح بعض الأشخاص عنه، وكان سيفرض تضحيات على نفسه أكبر مما فعل، لو لم يعترض على ذلك المحيطين به وخصوصاً زوجته في كل خطوة، لكن من جانب آخر من الخطر أن نأخذ رجالاً كتولستوي من تقيم أتباعهم ومريديهم. توجد هناك الإمكانية أو الاحتمالية دائماً في الواقع -إنهم لم يفعلوا أكثر من استبدال شكل من الأنانية بشكل آخر. لقد تخلى تولستوي عن الثروة والشهرة والامتياز، وشجب كل أشكال العنف، وكان مستعدا أن يعاني بسبب هذا، لكن ليس من السهل التصديق أنه تخلى عن مبدأ القسر أو على الأقل عن الرغبة في إجبار الآخرين. هناك عائلات يقول الأب فيها لطفله "سوف تعاقب لو فعلت ذلك مرة أخرى"، والأم التي تطفح عيناها بالدموع التي تأخذ الطفل في ذراعيها وتتمتم بشغف "والآن يا حبيبي هل لطيف أن تفعل ذلك بماما؟" ومن يصر أن الأسلوب الثاني أقل استبداداً من الأول؟ إن الفرق الذي يهم حقيقة هو ليس بين العنف واللاعنف وإنما بين امتلاك الشهية للسلطة وعدم امتلاكها. هناك أشخاص مقتنعون أن الجيوش وقوات الشرطة عبارة عن شر، لكنهم مع ذلك يتسامحون ويستقصون في وجهة نظرهم أكثر من الشخص العادي الذي يعتقد أن استخدام العنف ضروري في ظروف معينة. هم لن يقولوا لأحد آخر "افعل هذا أو ذاك أو غيره وإلا ستذهب إلى السجن"، لكنهم سوف يدخلون إلى ذهنه إن استطاعوا ويلقنونه أفكاره في أدق التفاصيل. إن العقائد مثل السلامية (رفض الحرب) والفوضوية تبدو ظاهرياً أنها تتضمن تخلياً تاماً عن القوة ولا تشجع هذه العادة العقلية. إن اعتنقت عقيدة تبدو أنها خالية من قذارة السياسة المعتادة -عقيدة لا تتوقع أن تستجر منها أي فائدة مادية- ألا يثبت ذلك بشكل مؤكد أنك في الصحيح؟ وكلما تعمقت في المسار الصحيح أكثر، يكون من الطبيعي أكثر أن يُجبر كل واحد آخر على التفكير بطريقة مماثلة.

لم يكن تولستوي قادراً على أن يرى أي قيمة في شكسبير، إن كنا سنصدق ما قاله في كراسته، وكان يندهش دائماً حين يجد رفاقه الكتاب تورغينيف وفيت وآخرين، يفكرون بشكل مختلف. نحن متأكدون لو أن تولستوي كان في أيامه الضالة، لكان استنتاجه: "أنتم تحبون شكسبير- أنا لا. دعونا نترك الأمر هكذا" في وقت لاحق، حين هجرته بصيرته الغريبة، بات يرى في كتابات شكسبير شيئاً خطراً عليه هو نفسه. كلما زادت المتعة التي يجدونها في شكسبير، قلّ إصغاؤهم إلى تولستوي. لذلك يجب ألا يُسمح لأي أحد أن يستمتع بشكسبير، مثلما يجب على أي أحد ألا يستمتع بشرب الكحول وتدخين التبغ. صحيح أن تولستوي لم يمنعهم باستخدام القوة، ولم يطالب بأن تحجز الشرطة كل نسخة من أعمال شكسبير، لكنه سيشوه سمعة شكسبير إن استطاع، وسيحاول أن يدخل في عقل كل عاشق لشكسبير، ويقتل متعته بكل خدعة يستطيع التفكير فيها، تشمل -كما بينت في ملخصي لكراسته- حججاً متناقضة ذاتياً أو مشكوك في صدقها حتى.

لكن أخيراً، فإن الشيء اللافت جداً هو الصغر الشديد الذي أحدثه هذا الاختلاف كله. كما قلت سابقاً، إن المرء لا يستطيع الرد على كراسة تولستوي، وعلى الأقل فقراتها التهامية الأساسية. لا توجد حجة يستطيع المرء الدفاع بها عن قصيدة. إنها تدافع عن نفسها بالبقاء، أو أن الدفاع عنها متعذر. إن كان هذا الاختبار فعالاً وصحيحاً، أعتقد أن الحكم في قضية شكسبير يجب أن يكون "غير مذنب". سوف يُنسى شكسبير عاجلاً أو آجلاً مثل أي كاتب آخر، لكن من المستبعد أن تُثار تهمة أثقل ضده أبداً. ربما كان تولستوي الأديب الأكثر إعجاباً في عصره، ولم يكن بالتأكيد كاتب الكراريس الأقل جدارة. حوّل تولستوي كل قدراته وسلطاته في توجيه التهم ضد شكسبير، مثل سفينة حربية تهدر مدافعها كلها في وقت واحد. ولكن بأي نتيجة؟ أربعون سنة تلت ذلك، ولازال شكسبير غير متأثر تماماً، والمحاولة لتدميره لم يبق منها شيء سوى صفحات الكراس المصفرة، التي لم يقرأها أحد تقريباً، والتي كانت ستنسى تماماً، لو لم يكن تولستوي مؤلف الحرب والسلام وآنا كارينينا.

الحصانة الإكليركية:
بعض الملاحظات حول سلفادور دالي

إن السيرة الذاتية لا تكون موضع ثقة، إلا حين تكشف عن شيء شائن؛ فقد يكون الرجل الذي يقدم وصفاً جيداً لنفسه كاذباً، لأن الحياة مجرد سلسلة من الهزائم حين يُنظر إليها من الداخل، ومع ذلك حتى أكذب الكتب وأكثرها تشهيراً (كتابات فرانك هاريس للسير الذاتية مثال على ذلك) يمكن أن تعطي صورة حقيقية عن مؤلفيها. نشر دالي كتاباً مؤخراً، ظهر تحت العنوان التالي حياة. بعض الأحداث فيه لا تصدق بشكل فاضح، وبعضها الآخر رُتب وصُبغ بمسحة مثالية، ولم يُحذف منها الخزي والإذلال فقط، بل حتى الأمور الاعتيادية المستمرة للحياة اليومية. إن دالي نرجسي حتى في تشخيصيه لنفسه، وسيرته الذاتية عبارة عن عمل تعرٍ، جرى تحت أضواء قرنفلية، أو سجل من الفنتازيا والغريزة المنحرفة بات ممكناً، وله قيمة عظيمة بفضل عصر الآلة.

ها هي بعض من الأحداث من حياة دالي من أول سنواته المبكرة فصاعداً. أيها حقيقي وأيها خيالي، هي مسألة غير مهمة: المغزى أن هذا هو نوع الأشياء التي تمنى دالي أن يفعلها.

حين كان في السادسة من عمره، كان هناك بعض الإثارة حول ظهور مذنب هالي:

ظهر أحد الكتبة في مكتب والدي فجأة عند باب غرفة الجلوس، وأعلن عن إمكانية مشاهدة المذنب من الشرفة.... بينما كنت أعبر الصالة، لمحتُ أختي الصغيرة ذات الثلاث سنوات تحبو بصورة غير فضولية عبر المدخل. توقفتُ وترددتُ لثانية، ثم ركلتها بفظاعة في رأسها، كما لو كانت كرة، وتابعت الركض مدفوعاً بـ "فرح هائج"، سببه هذا العمل الوحشي، لكن والدي الذي كان خلفي، أمسك بي وقادني إلى المكتب؛ حيث بقيت فيه كعقوبة حتى وقت العشاء.

قبل سنة من هذا، رمى دالي "فجأة كما تحدث كل أفكاره" صبياً صغيراً آخر من فوق جسر معلق. عدد كبير من الأحداث من نفس النوع دُونت ومنها (كان شذا عندما كنت في

التاسعة والعشرين من العمر) طرح فتاة على الأرض ووطأها بقدميه "حتى اضطروا إلى انتزاعها بقوة وإبعادها عن متناول يدي وهي تنزف"

حين كان في الخامسة أمسك بخفاش مجروح، ووضعه داخل سطل من القصدير. وفي الصباح التالي وجد الخفاش شبه ميت ومغطى بنمل كان يلتهمه، فقام بوضعه في فمه مع النمل وعضه عضة شطره فيها إلى نصفين تقريباً.

حين كان مراهقاً وقعت فتاة في حبه بشكل متهور. كان يقبّلها ويلاطفها حتى يهيجها إلى أقصى حد ممكن، لكنه يرفض الذهاب إلى أبعد من ذلك. وصمم أن يستمر في هذا لمدة خمس سنوات (يسميها بخطته الخمسية) وهو مستمتع بإذلالها وبإحساس القوة الذي يعطيه له ذلك، وأخبرها مراراً أنه سيهجرها في نهاية السنوات الخمس، وحين حان الوقت فعل ذلك.

حتى وقت طويل في حياته كبالغ وراشد، واظب على ممارسة الاستمناء، وأحب هذا الفعل بجلاء أمام المرآة. لأغراض عادية هو عاجز جنسياً كما يبدو حتى عمر الثلاثين تقريباً، وحين قابل زوجته المستقبلية غالا للمرة الأولى، انتابه إغراء لدفعها من فوق جرف، وكان مدركا لشيء تريده أن يفعله لها. وبعد قبلتهما الأولى، يأتي الاعتراف: طرحت رأس غالا إلى الخلف وجررتها من شعرها، وكنت أرتعش في هستريا تامة، ثم أمرتها: "والآن أخبريني ما الذي تريدين أن أفعله بك! لكن أخبريني ببطء وأنت تنظرين في عيني بأفج وأقوى الكلمات الجنسية المثيرة التي أشعرتنا بأعظم الخزي!".

بعدئذ أجابت غالا، التي حولت آخر وميض في تعبيرها عن المتعة إلى ضوء قاس عن استبدادها الخاص بها قائلة: "أريدك أن تقتلني!"، لكنه يشعر بالخيبة بهذا الطلب، لأن هذا هو ما أراد فعله مسبقاً، فيفكر في رميها من برج جرس كاتدرائية توليدو، لكنه يحجم عن هذا الفعل.

أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، يتحاشى بخبث الاصطفاف مع أي طرف، ويقوم برحلة إلى إيطاليا. يشعر نفسه منجذباً أكثر فأكثر إلى الطبقة الأرستقراطية، ويتردد على المعارض الفنية الأنيقة، ويجد لنفسه رعاة أثرياء، ويتصور مع السمين فيسكونت دو نوايليس الذي وصفه بـ "نصيره السخي". حين اقتربت الحرب الأوروبية، كان لديه هاجس وحيد فقط: كيف يجد مكاناً فيه مطبخ جيد كما يستطيع أن ينجح في فرار سريع منه أيضاً إن اقترب الخطر كثيراً منه. يلجأ إلى بوردو ويفر منها إلى إسبانيا في الوقت المناسب أثناء معركة فرنسا. يبقى في

إسبانيا فترة طويلة، ليتقي بضع قصص ضد أعمال الحمر الوحشية، ثم يتجه نحو أمريكا. تنتهي القصة في لهيب من المحترمية. دالي في السابعة والثلاثين، وقد أصبح زوجاً مخلصاً متشافياً من شذوذه أو بعضاً منه ومتصالحاً تماماً مع الكنيسة الكاثوليكية، كما نجح في جمع مقدار جيد من المال أيضاً.

لكنه لم يتوقف البتة عن التفاخر بلوحاته من فترته السريالية بعناوين مثل "المستنمي الكبير" و"لواط جمجمة مع بيانو فخم" إلخ. هناك تناسل ونسخ لهذه في الكتاب كله. إن الكثير من رسومات دالي تمثيلية تصويرية، ولها صفة مميزة تُلحظ لاحقاً، أما في لوحاته الزيتية السريالية وصوره الضوئية، فيبرز شيئان اثنان: الانحراف الجنسي والانجذاب المرضي نحو الجثث. تتكرر المواضيع الجنسية والرموز -بعضها معروف جيداً مثل صديقنا القديم ذي الكعب العالي وأخرى مثل العكاز وفنجان الحليب الدافئ التي اخترعها دالي بنفسه -المرة تلو الأخرى، كما يوجد أيضاً باعث غائطي ملحوظ جيداً. في لوحته الزيتية لعبة الشيطان، يقول "رُسم السروال الداخلي الملوث بالبراز برضا ذاتي دقيق وواقعي، لذلك عانت المجموعة السريالية الصغيرة كلها من السؤال: هل هو من المقتاتين بالروث؟ يقتات به أم لا؟". يضيف دالي بقوة بأنه ليس كذلك، ويعتبر هذا الانحراف "منفراً"، لكنه ليس كذلك على ما يبدو، إلا في النقطة التي يتوقف فيها اهتمامه بالغائط. حتى حين يروي تجربته في التفرج على امرأة تتبول وهي واقفة، أضاف فصلاً بأنها أخطأت هدفها ولوثت حذاءها. لم يُعط أي شخص كل تلك الرذائل. ويتباهى دالي أيضاً بأنه ليس لوطياً، لكن بطريقة مختلفة يبدو أنه يمتلك تجهيزات من الانحرافات بالجودة التي يمكن أن يتمناها أي أحد.

ومع ذلك تظل صفته الأبرز، هي انجذابه المرضي للجثث، وهو يعترف بنفسه بهذا طوعاً، ويزعم بأنه شُفي منه. وجوه ميتة وجماجم وجثث حيوانات تظهر كثيراً وبانتظام في لوحاته، والنمل الذي يلتهم الخفاش المحتضر المتفسخ جداً. صورة أخرى تظهر الحمير الميتة متعفنة على قمة بيانوهات فخمة، شكلت جزءاً من الفيلم السريالي **الكلب الأندلسي**. ظل دالي يعود بأفكاره حول الحمير إلى الماضي بحماس عظيم.

لقد "صنعت" تعفن الحمير بقدور كبيرة من الغراء اللزج صببته فوقها، وأفرغت محاجر عيونها أيضاً ووسعتها بشقها بمقص، وبنفس الطريقة شققت أفواهها بغضب، لأظهر

صفوف أسنانها بشكل أفضل، وأضفت عدة فكوك لكل فم لتُظهر اللوحة أن الحمير كانت متعفنة مسبقاً وكانت تتقيأ موتها أيضاً، كما أن صفوف الأسنان الإضافية تلك شُكلت من مفاتيح البيانو السوداء.

وأخيراً، هناك لوحة -نوع من صورة ضوئية مزيفة بوضوح- "مانيكان تتفسخ في سيارة أجرة". فوق الوجه المتفخ قليلاً مسبقاً وصدر الفتاة الميتة بوضوح كانت تزحف حلزونات ضخمة. في العنوان الذي تحت الصورة، يدوّن دالي بأن هذه حلزونات بورغندي -أي من النوع الصالح للأكل.

طبعاً، في هذا الكتاب الطويل المؤلف من أربع مئة صفحة ربعية، هناك أكثر مما أشرت إليه، لكني لا أعتقد أنني قدمت وصفاً غير عادل لجوه الأخلاقي ومنظره العقلي، فهو كتاب ينافي الأخلاق، ولو أُمكن لكتاب أن يصدر رائحة مادية كريهة من صفحاته لفعلها هذا الكتاب - فكرة ربما أرضت دالي الذي دلك نفسه بمرهم مصنوع من روث الماعز المغلي بغراء السمك قبل أن يطلب يد زوجته المستقبلية لأول مرة، لكن ضد هذا كله يجب أن نقر حقيقة أن دالي رسام بموهبة استثنائية جداً، ولو حوكم من خلال دقة ونجاعة رسوماته كما يجب ذلك، فإنه عامل مجد وشخص استعراضي واحترافي، لكنه ليس دجالاً ولديه موهبة تفوق بخمسين مرة أغلب الأشخاص الذي يشجبون مبادئه الأخلاقية ويسخرون من لوحاته، وهاتان المجموعتان من الحقائق معاً تثيران سؤالاً قلما نال نقاشاً حقيقياً، لانعدام أي أساس اتفاقي حوله.

المهم هنا، لديك هجوم مباشر وجلي، ليس على سلامة العقل والاحتشام فقط، وإنما على الحياة نفسها بما أن بعضاً من صور دالي تميل إلى تسميم الخيال مثل بطاقة بريدية إباحية. إن ما فعله دالي وما تخيله جدالي وقابل للنقاش، لكنه في وجهة نظره وشخصيته، ليس هناك وجود للاحتشام الإنساني، وهو معادٍ للمجتمع مثل البرغوث. من الواضح أن مثل هؤلاء الناس غير مرغوبين، وأن المجتمع الذي يستطيعون الازدهار فيه يعاني من خلل ما.

الآن، لو عرضت هذا الكتاب مع رسوماته التوضيحية ليراه اللورد إيلتون والسيد نويز وكتّاب التايمز الرئيسين الذين يهللون فوق "كسوف المثقف الرفيع" وفي الحقيقة لأي "شخص إنكليزي عاقل كاره للفن- فمن السهل تخيل نوع الاستجابة التي تحصل عليها. سوف يرفضون تماماً أن يروا أي قيمة مهما كانت في دالي. إن مثل هؤلاء الناس ليسوا فقط غير

قادرين على الاعتراف بأن ما هو متفسخ أخلاقياً يمكن أن يكون صحيحاً فنياً، وإنما مطلبهم الحقيقي من كل فنان أيضاً أن يطبب على ظهورهم ويقول لهم إن التفكير غير ضروري. كما يمكنهم أن يكونوا خطرين بشكل خاص في وقت كوقتنا الحالي الذي وضعت فيه وزارة الإعلام والمجلس البريطاني السلطة بأيديهم، وإن دافعهم ليس سحق كل موهبة جديدة فقط، كما يبدو، وإنما إخصاء الماضي أيضاً. شاهد مضايقة المثقفين الرفيعين المتجددة المتواصلة الآن في هذه البلاد وأمريكا، والاحتجاج العنيف ليس ضد جويس وبروس ولورانس فقط، وإنما ضد تي إس إليوت حتى.

لكن لو تحدثت إلى الصنف الذي يرى فضائل دالي، فلن تكون الاستجابة التي تنالها أفضل بكثير عادة. فلو قلت إن دالي رغم كونه رساماً لامعاً، وغد صغير قذر، لَنُظر إليك كهمجي. ولو قلت إنك لا تحب الجيف المتعفنة وأن الأشخاص الذين يحبون الجيف المتفسخة هم مرضى عقلياً، لافترضوا أنك تفتقد إلى الحس الجمالي، طالما أن المانيكان التي تتعفن في سيارة الأجرة هي قطعة فنية جيدة. ليس هناك موقف وسطي بين هاتين الفكرتين الخاطئتين، ولم نسمع الكثير عنه من الجانب الأول الذي يمثل الثقافة البلشفية، ولا من الجانب الآخر الذي يمثل "الفن من أجل الفن" (رغم أن العبارة باتت قديمة). إن مناقشة الفحش بصدق وصراحة قضية صعبة جداً، والناس غير قادرين على تحديد العلاقة بين الفن والأخلاق، لأنهم مرعوبين، إما من التظاهر بالصدمة، أو من عدم التظاهر.

سيتبين أن ما يطالب به المدافعون عن دالي، هو نوع من الحصانة الإكليركية، أي يجب أن يُعفى الفنان من القوانين الأخلاقية التي تلزم الناس العاديين. تلفّظ بكلمة "فن" فقط ويكون كل شيء على ما يرام: ركل الفتيات الصغيرات على رؤوسهن أمر مقبول، وحتى فيلم مثل العصر الذهبي مستحسن (يذكر دالي فيلم العصر الذهبي، ويضيف أن عرضه الأول قوطع من قبل مشاغبين، لكنه لم يقل بالتفصيل عمّ كان الفيلم. بناء على ما جاء عن هنري ميلر في وصفه للفيلم، لقد عرض من بين أشياء أخرى بعض اللقطات التفصيلة لامرأة تتبرز. ملاحظة المؤلف) ويستحسن أيضاً أن يعتاش دالي مترفاً على فرنسا لسنين، ثم يفر كالجرذ فور تعرضها للخطر. طالما أنك تستطيع أن ترسم جيداً بما يكفي لاجتياز الاختبار، فكل شيء مسموح لك.

يستطيع المرء أن يرى كم هذا زائف إن وسّعه ليغطي الجريمة العادية. في عصر مثل عصرنا، حين يكون الفنان شخصاً استثنائياً بالكامل، يُسمح له بمقدار معين من التحلل من المسؤولية كالمرأة الحامل تماماً، لكن مع ذلك لم يقل أحد إن المرأة الحامل يسمح لها بارتكاب جريمة قتل، ولم يطالب أحد بمثل هذا الحق لأي فنان مهما كان موهوباً. لو أن شكسبير عاد إلى الأرض غداً ووُجد أن هوايته المفضلة كانت اغتصاب الفتيات الصغيرات في عربات سكة الحديد، ولا ينبغي علينا أن نخبره بالاستمرار في ممارسة هوايته، بحجة أنه ربما يكتب لنا مسرحية أخرى كمسرحية الملك لير. أخيراً إن أسوأ الجرائم هي ليست تلك التي يُعاقب عليها. بتشجيع أحلام اليقظة حول الانجذاب إلى الجثث، ربما يرتكب المرء ضرراً أكبر بكثير من نشل الجيوب في السباقات مثلاً. ينبغي على المرء أن يحفظ في رأسه وبنفس الوقت الحقيقتين التاليتين: الأولى أن دالي رسام جيد، والثانية أنه كائن بشري مقرف، وأن الأولى لا تبطل أو تؤثر على الأخرى. إن الشيء الأول الذي نطلبه من الجدار هو أن يظل واقفاً، فإن وقف فهو جدار جيد. أما السؤال عن الغرض الذي يخدمه، فإنه أمر منفصل، ولكن حتى أفضل جدار في العالم يستحق أن يُهدم إن كان يطوق معسكر اعتقال. وبنفس الطريقة يمكننا القول كما يفترض "هذا كتاب جيد أو لوحة جيدة، وينبغي أن تُحرق بواسطة جلاد الشعب"، وإذا لم يستطع المرء قول ذلك في خياله على الأقل، فإنه يتهرب من مضامين حقيقة أن الفنان مواطن وكائن بشري أيضاً.

لا يعني ذلك أن تُقمع سيرة دالي الذاتية ولوحاته طبعاً. باستثناء البطاقات البريدية القذرة التي كانت تباع في موانئ البلدات المتوسطية، فإن قمع أي شيء سياسة مريبة، كما أن خيالات دالي ربما تلقي ضوءاً مفيداً على فساد الحضارة الرأسمالية وانحلالها، ولكن ما يحتاجه دالي بوضوح هو التشخيص. السؤال المهم ليس إلى أي حد هو مثل كذا أو لماذا هو مثل كذا. يجب ألا يكون هناك شك أن عقله مريض، وربما لم يتبدل كثيراً بتحوله المزعوم واهتدائه، لأن النادمين الصادقين أو الناس الذين عادوا إلى الرشد، لا يتباهون برذائلهم السابقة بتلك الطريقة الراضية. هذا عرض وعلامة لمرض العالم. الشيء المهم ليس أن نشجبه كوغد ينبغي أن يجلد بالسوط أو ندافع عنه كعبقري ينبغي أن يُستجوب، وإنما أن نكتشف لماذا كان يعرض المجموعة الغريبة من الانحرافات.

ربما يمكن الكشف عن الإجابة في لوحاته التي أنا لست مؤهلاً لدراستها، لكنني أستطيع أن أشير إلى مفتاح ربما يقطع جزءاً واحداً من المسافة، وهو هذا الأسلوب الإدواردي التقليدي المفرط في الزخرفة والتنميق في الرسم الذي يميل دالي إلى الرجوع إليه حين لا يكون سريالياً. إن بعضاً من لوحات دالي عبارة عن مذكر بلوحات دورير وواحدة (في الصفحة ١١٣) تظهر تأثير بيردسلي وأخرى (في الصفحة ٢٦٩) تستعير شيئاً من بليك، لكن الأثر المستمر الأكبر هو الأسلوب الإدواردي. حين فتحت الكتاب لأول مرة ونظرت إلى الإيضاحات الهامشية التي لا تحصى، لاحظت تشابهاً لم أستطع كبحه فوراً. فُتنت بالشمعدان المزخرف في بداية القسم الأول (في الصفحة٧). بماذا يذكرني هذا؟ وأخيراً اقتفيت أثره. لقد ذكرني بنسخة مبتذلة كثيراً ومزينة بشكل منمق لأناتولي فرانس (في الترجمة) يُفترض أنها نشرت في عام ١٩١٤ تقريباً. طبعة لها عناوين فصول مزخرفة وملاحق على غرار هذا الأسلوب. يُظهر شمعدان دالي في أحد طرفيه مخلوقاً مجعداً شبيهاً بالسمك يبدو مألوفاً بشكل غريب (يبدو أنه بني على الدلفين التقليدي) ومن الطرف الآخر شمعة تحترق. هذه الشمعة التي تتكرر في صورة تلو أخرى هي صديق قديم جداً. ستجدها مع نفس اللطخ التصويرية الفاتنة من الشمع المرتب على أطرافها في تلك الأضواء الكهربائية الزائفة التي زُينت كشمعدانات محببة في فنادق تيودر الريفية المزيفة. هذه الشمعة والتصميم الفني الذي تحتها، ينقلان على الفور شعوراً مكثفاً من العاطفية، وكمعادل لها قام دالي برش ملء مكوك من الحبر فوق الصفحة، لكن بلا فائدة. يحافظ الانطباع نفسه على التكرر في صفحة تلو أخرى. إن العلامة بأسفل الصفحة ٦٢ مثلاً تُدرج في بيتر بان تقريباً والشكل على الصفحة ٢٢٤ رغم جمجمته المطولة الذي يشبه سجقة ضخمة هو الساحرة في كتب الحواري والخرافات. الحصان في الصفحة ٢٣٤ ووحيد القرن على الصفحة ٢١٨ يمكن أن يكونا رسمين توضيحيين لجيمس برانش كابيل. الرسومات المخنثة لشبان على الصفحات ٩٧ و١٠٠ وغيرهما تنقل الانطباع نفسه. تستمر التصويرية في الاقتحام. أزل الجماجم والنمل وجراد البحر والهواتف والممتلكات الشخصية الأخرى، فتعود بين الفينة والأخرى إلى عالم باريه وراكهام ودونساني وإلى حيث ينتهي قوس قزح.

والغريب تماماً أن بعض اللمسات الداعرة في سيرة دالي الذاتية، ترتبط بنفس الفترة. حين قرأت المقطع الذي اقتبسته في البداية حول ركل رأس الأخت الصغيرة، كنت متيقظاً لشبه شبحي آخر. ماذا كان؟ طبعاً! قصائد لا رحمة فيها لأوطان قاسية القلب لهاري غراهام. مثل هذه القصائد كانت شائعة جداً في حوالي ١٩١٢ وتقول إحداها:

إن المسكين الصغير ويللي يبكي بشكل مؤلم جداً، إنه طفل صغير حزين، لأنه كسر عنق أخته الصغيرة، ولن ينال المربى من أجل الشاي.

ربما بنيت على مخطوطة دالي تقريباً. إن دالي يدرك ميوله الإدواردية طبعاً وحصد ربحاً كثيراً منها بروح (تقليد الآثار الأدبية). إنه يقر بنزوع استثنائي للعام ١٩٠٠ ويدعي أن كل شيء زخرفي من العام ١٩٠٠ مليء بالغموض والشعر والإثارة الجنسية والجنون والانحراف. إن أي تقليد يتضمن نزوعاً حقيقياً للشيء المُحاكى عادة. يبدو لي أنه من الشائع -إن لم يكن قاعدة- أن يكون الميل الفكري مصحوباً بدافع غير عقلاني أو صبياني حتى في نفس الاتجاه. فالنحات مثلاً يهتم في السطوح المستوية والانحناءات، لكنه أيضاً شخص يستمتع بالفعل البدني في العبث بالوحل أو الحجر، والمهندس شخص يستمتع بلمس الأدوات وضجيج المولدات ورائحة الزيت، والطبيب النفساني لديه ميل نحو الانحراف الجنسي عادة. داروين أصبح عالم أحياء، لأنه كان سيداً ريفياً ومغرماً بالحيوانات، لذلك ربما كان إعجاب دالي المنحرف بشكل ظاهر بالأشياء الإدواردية (مثلاً اكتشافه لمداخل قطار أنفاق ١٩٠٠) مجرد عرض لنزوع أكثر عمقاً وأقل إدراكاً. إن نسخ الرسومات المنفذة بشكل جميل التي لا تحصى في الكتاب المدرسي والمصنفة برزانة بالعنادل والساعة وهلم جرا التي بعثرها في كل أرجاء حواشيه، ربما كان القصد منها دعابة جزئياً، وإن الولد الصغير في السروال القصير الذي يلعب بلعبة الشيطان في الصفحة ١٠٣ لوحة زيتية مستكملة كل شروط عصرها، لكن هذه الأشياء هناك أيضاً، لأن دالي لا يستطيع تحاشي رسم ذلك النوع من الأشياء، لأنه ينتمي في الحقيقة إلى ذلك الأسلوب في الرسم وذلك العصر.

إن كان الأمر هكذا، فإن انحرافاته قابلة للتفسير جزئياً. ربما هي طريقة يؤكد فيها لذاته بأنه ليس مبتذلاً. الصفتان اللتان يمتلكهما دالي بشكل لا جدال فيه هما موهبة في الرسم وأنانية

وحشية. يقول في الفقرة الأولى من كتابه "في السابعة أردت أن أكون نابليون، وكان طموحي يزداد بشكل ثابت منذ ذلك الحين". صيغت هذه العبارة بطريقة مروعة عمداً، لكنها من دون شك صحيحة، وهكذا مشاعر شائعة تماماً. "أعرف أنني كنت نابغة" وقد قالها أحد الناس لي مرة "قبل أن أعرف أنني سأكون نابغة بوقت طويل". لنفرضَ أنك لا تملك شيئاً فيك سوى أنانيتك وبراعة لا تتجاوز كوعك، ولنفرض أن موهبتك الحقيقية هي في أسلوب تصويري تفصيلي أكاديمي في الرسم، لهذا ستكون صنعتك الحقيقية والأساسية رساماً توضيحياً في الكتب المدرسية العلمية، فكيف ستصبح نابليوناً عندئذ؟

هناك مفر واحد دائماً: إلى الشر. ارتكب الشيء الذي يصدم الناس ويجرحهم دائماً. في الخامسة رمى ولداً من فوق جسر وضرب طبيباً هرماً على وجهه بسوط وكسر له نظارته -أو في كافة الأحوال حلم بفعل أشياء كهذه. بعد ذلك بعشرين سنة اقتلع عيني حمار ميت بمقص. بهذا النحو تشعر أنك مبدع وأصيل دائماً. وأخيراً ذلك مربح! وأقل خطورة من الجريمة. بحسم كل أعمال القمع المحتملة في سيرة دالي الذاتية، من الواضح أنه لم يكن عليه أن يعاني ما عاناه جراء غرابة أطوراه، لو أنه فعلها في عصر أسبق. لقد ربي وترعرع في عالم فاسد في نهاية عشرينيات القرن العشرين، حين كان التكلف منتشراً بشكل هائل، وكانت كل عاصمة أوروبية تعج بالأرستقراطيين وأصحاب الدخول الذين هجروا الرياضة والسياسة وأحبوا رعاية الفنون. لو رميت حميراً ميتة للناس لردوا برميك بالنقود. الرهاب من الجنادب -التي كانت منذ بضعة عقود من السنين لا تثير أكثر من قهقهة- باتت الآن "عقدة" مشوقة يمكن استغلالها بنحو مربح. وحين انهار ذلك العالم الخاص أمام الجيش الألماني، كانت أمريكا تنتظر، وكان بإمكانك أن تتجاوز كل هذا بتحول ديني حتى، وتنتقل في وثبة واحدة ومن دون أي ذرة من التوبة من الصالونات الأنيقة في باريس إلى حضن أبراهام.

هذا هو ربما الموجز الأساسي لتاريخ دالي. لكن لماذا وجب أن تكون ضلالاته خصوصية ومتفردة كما كانت، ولماذا كان من السهل جداً "بيع مثل هذه الأشياء المرعبة كالجثث المتعفنة لجمهور رفيع الثقافة؟ تلك أسئلة للعالم النفساني والناقد المختص بعلم الاجتماع. إن النقد الماركسي له أسلوب مختصر مع هكذا ظواهر كالسريالية مثلاً. هي "تفسخ بورجوازي"

تلاعب كبير بعبارات "جيفة تسمم" و"انحلال طبقة أصحاب الدخول والإيرادات" وعلى الرغم من أن هذا قد يؤكد واقعاً، إلا أنه لا يؤسس رابطاً. يظل المرء يود أن يعرف لماذا يميل دالي نحو الانجذاب إلى الجثث الميتة (وليس اللواط مثلاً) ولماذا كان أصحاب الدخول والأرستقراطيون يشترون لوحاته بدلاً من الصيد وممارسة الجماع مثل أجدادهم. إن مجرد الاستهجان الأخلاقي لا يفي بالغرض وينبغي على المرء ألا يتظاهر باسم "عدم التحيز" بأن صوراً مثل "مانيكان تتعفن في سيارة أجرة" هي صور محايدة أخلاقياً. إنها صور مريضة ومثيرة للاشمئزاز، وأي تفحص ينبغي أن يبدأ من تلك الحقيقة.

آرثر كيسلر

إن إحدى الحقائق اللافتة حول الأدب الإنكليزي خلال القرن الحالي، هي هيمنة الأجانب الكبيرة عليه، من أمثال كونراد وهنري جيمس و شو و جويس وبيتس وباوند وإليوت، لكن إن اخترت أن تجعل من هذا مسألة هيبة وطنية و تفحصت إنجازاتنا في فروع الأدب المتنوعة، فلن تجد مساهمة جيدة لإنكلترا، حتى تصل إلى ما يمكن وصفه تقريباً بالكتابة السياسية أو تأليف الكراريس، و أقصد بهذا صنفا خاصا من الأدب، نتج عن الصراع السياسي الأوروبي منذ ظهور الفاشية، ويدرج تحت هذا العنوان روايات وكتب السير الذاتية و كتب التحقيقات الصحفية والبحوث السوسيولوجية والكراسات البسيطة وتكديسها معا، كما أنها تمتلك أصلا مشتركا وإلى حد كبير الجو العاطفي نفسه.

بعض من الشخصيات البارزة في مدرسة الكتاب هم: سيلوني و مالرو و ساليفيميني و بوركيناو و فيكتور سيرج وكيسلر نفسه. بعضهم كتاب إبداعيون وبعضهم ليسوا كذلك، لكنهم متشابهون كلهم بأنهم يحاولون كتابة تاريخ معاصر غير رسمي من النوع الذي جرى تجاهله في الكتب المدرسية وتبعثر في الصحف، ومتشابهون كلهم أيضاً في كونهم أوروبيين قاريين. ربما من المبالغة القول، لكنها ليست مبالغة كبيرة، إنه كلما ظهر كتاب يتناول نظام الحكم الشمولي في هذه البلاد، وظل جديرا بالقراءة بعد نشره لمدة ستة أشهر، فهو كتاب مترجم من لغة أجنبية ما، فقد صب الكتاب الإنكليز في غضون السنوات العشر فصاعدا فيضا هائلا من الأدب السياسي، لكنهم لم ينتجوا تقريبا أي قيمة جمالية والقليل جداً من القيمة التاريخية أيضاً. فنادي الكتاب اليساري مثلاً يعمل منذ ١٩٣٦ فكم اسما من مجلداته المختارة تستطيع أن تتذكر؟ أنتجت كتب مثل ألمانيا النازية وروسيا السوفييتية وإسبانيا وإثيوبيا و النمسا وتشيكوسلوفاكيا وكل تلك المواضيع وأقاربها في إنكلترا، ولكنها كانت كتبا مبتذلة من التحقيقات الصحفية والكراسات المضللة التي بلعت دعايتها كاملة، ثم جرى تقيؤها مرة أخرى بعد هضمها جزئيا. كما أنتجت قلة من كتب الإرشاد الموثوقة والكتب المدرسية. لا يوجد هناك شبيه ل فونتامارا مثلاً أو الظلام في الظهيرة، لأنه لا يوجد كاتب إنكليزي

واحد رأى نظام الحكم الشمولي من الداخل. لقد حدثت في أوروبا خلال العقد الماضي وأكثر، أشياء لأفراد الطبقة الوسطى، لم تحدث حتى للطبقة العاملة في إنكلترا. فقد أُجبر أغلب الكتاب الأوروبيين الذين ذكرتهم آنفاً والعشرات من أمثالهم، على انتهاك القانون ليهمكوا في السياسة بأي طريقة، فرمى بعضهم القنابل وحاربوا في قتال الشوارع. وكان الكثير منهم في السجون أو في معسكرات الاعتقال، أو هربوا عبر الحدود بأسماء مزيفة وجوازات سفر مزورة. لا يستطيع المرء أن يتخيل البروفيسور لاسكي مثلاً منغمساً في نشاطات من هذا النوع، لذلك تفتقر إنكلترا إلى ما يمكن تسميته أدب معسكرات الاعتقال. هذا العالم الخاص الذي أحدثته قوات الشرطة السرية السوفييتية والرقابة على الآراء والتعذيب والمحاكمات المدبرة، معروف ومستهجن إلى حد ما طبعاً، لكنه لم يترك سوى القليل من التأثير العاطفي. أحد نتائج هذا في إنكلترا، هو عدم وجود أدب محرر للوهم بخصوص الاتحاد السوفييتي. يوجد موقف من الاستنكار الجاهل ويوجد موقف من الإعجاب غير النقدي، ولكن لا يوجد سوى القليل جداً بينهما. فالآراء عن محاكمات تخريب موسكو مثلاً كانت منقسمة، وانقسمت بشكل رئيسي حول مسألة إن كان المتهم مذنباً أم لا. ولم يستطع سوى عدد قليل من الناس أن يرى أن المحاكمات كانت رعباً لا يوصف، سواء كانت مبررة أم غير ذلك. وكان الاستنكار الإنكليزي للانتهاكات النازية شيئاً وهمياً أيضاًن يُفتح ويُغلق كصنبور المياه وفقاً للنفعية السياسية. لفهم أشياء كهذه، على المرء أن يكون قادراً على تخيل نفسه الضحية، أما أن يكتب كاتب إنكليزي **ظلام في الظهيرة**، فهذا حدث بعيد الاحتمال، مثل أن يكتب تاجر رقيق **كوخ العم توم**.

نشر كيسلر عملاً يركز حقيقة على محاكمات موسكو، وموضوعه الرئيسي انحطاط الثورات نتيجة الآثار المفسدة للسلطة، لكن الطبيعة الخاصة لديكتاتورية ستالين، دفعته للرجوع إلى موقع غير بعيد من النزعة المحافظة المتشائمة. أنا لا أعرف كم كتاباً كتب، وهو هنغاري كُتبت كتبه الأولى باللغة الألمانية، ونُشرت خمسة من كتبه في إنكلترا: **العهد الإسباني** و**المجالدون** و**ظلام في الظهيرة** و**غثاء الثرى** و**وصول ومغادرة**. إن الموضوع الرئيسي لها كلها نفسه، ولم ينجُ أي كتاب منها من الجو الكابوسي لأكثر من بضع صفحات. يحدث الفعل كله في ثلاثة من الكتب الخمسة أو كلها تقريباً في السجن.

في الأشهر الافتتاحية للحرب الأهلية الإسبانية، كان كيسلر مراسلاً لصحيفة **نيوز كرونيكل** في إسبانيا. وفي بداية ١٩٣٧ أُخذ إلى السجن، حين أسر الفاشيون مدينة مالقا، وكاد أن يعدم اعتباطياً، ثم أمضى بضعة أشهر سجيناً في قلعة يستمع فيها في كل ليلة إلى هدير إطلاق البنادق التي كانت تعدم الجمهوريين دفعة وراء أخرى. وكان في أغلب الوقت في خطر شديد من أن يُعدم هو نفسه. هذه ليست مغامرة تصادفية "قد تحدث لأي أحد" لكنها كانت منسجمة مع نمط حياة كيسلر. إن الشخص الحيادي سياسيأن لن يظل في إسبانيا في ذلك الوقت، والمراقب الأكثر حذراً سيخرج من مالقا قبل وصول الفاشين. ولو أنه كان صحفياً بريطانياً أو أمريكياً، لنال معاملة فيها قدر أكبر من الاهتمام. إن الكتاب الذي كتبه كيسلر عن هذا هو **العهد الإسباني الجديد**، ويحتوي على مقاطع رائعة، لكنه باستثناء القطع المتفرقة التي توجد عادة في كتاب من نوع التقرير الصحفي، زائف في مواضع أخرى بالتأكيد. في مشاهد السجن يؤسس كيسلر بنجاح جواً كابوسياً وهو براءة اختراعه كما يقال، أما بقية الكتاب فملونة جداً بأرثوذكسية الجبهة الشعبية آنذاك. مقطع واحد أو اثنان كما يبدو رُبّما لأغراض تخدم نادي الكتاب اليساري، فكيسلر كان لا يزال عضواً في الحزب الشيوعي في ذلك الوقت أو تركه حديثاً، والسياسيات المعقدة للحرب الأهلية، جعلت من المستحيل لأي شيوعي أن يكتب بصدق عن الصراع الداخلي من وجهة نظر الحكومة. إن خطيئة أفراد الجناح اليساري كلهم تقريباً من عام ١٩٣٣ فصاعداً، أنهم أرادوا أن يكونوا معادين للفاشية من دون أن يكونوا معادين للشمولية. وفي عام ١٩٣٧ كان كيسلر يعرف هذا مسبقاً، لكنه لم يشعر بأنه حرّ لقول هذا، وقد اقترب كثيراً من قوله. وفي الحقيقة قاله، لكنه ارتدى قناعاً لفعل ذلك –في عمله التالي **المجالدون** الذي نُشر قبل الحرب بسنة واحدة، ولسبب ما لم يجذب سوى القليل من الاهتمام.

المجالدون كتاب غير مقبول من بعض النواحي، فهو عن سبارتاكوس، ذلك المجالد التاراسي الذي حرك تمرد العبيد في إيطاليا في العام ٦٥ ق.م. وأي كتاب عن موضوع كهذا، هو كتاب مُعاق بمقارنة مرهقة مع **سالامبو**. في عصرنا يستحيل أن يكتب المرء كتاباً مثل **سالامبو** حتى لو توفرت لديه الموهبة. إن الشيء العظيم حول سالامبو والأهم من تفاصيله الدقيقة حتى، هو قسوته المطلقة، فقد استطاع فلوبير أن يتمعن في قلب الوحشية الصخرية

للعصور القديمة، حيث كان لدى المرء في منتصف القرن التاسع عشر راحة البال، ولديه الوقت للتجول في الماضي. أما في هذه الأيام فالحاضر والمستقبل مروعان كثيراً، لدرجة لا يمكن الهروب منهما. وحتى لو أقلق المرء نفسه بالتاريخ، فذلك لمجرد أن يجد معاني حديثة هناك. جعل كيسلر من سبارتاكوس شخصية مجازية، نسخة بدائية من الديكتاتور البروليتاري، بينما استطاع فلوبير بجهد مطول من التخيل، أن يجعل من سبارتاكوس المرتزق الوثني رجلاً عصرياً، لكن هذا قد لا يكون مسألة مهمة لو كان كيسلر مدركاً تماماً لما تعنيه استعارته المجازية. إن الفكرة الرئيسية للكتاب، هي أن الثورات تفشل دائماً، كما أنه حول السؤال الذي يطرحه بتلعثم وتردد -لماذا تفشل؟- ويدخل شكه في القصة، فيجعل الشخصيات المركزية مبهمة وغير حقيقية.

ظل العبيد الثائرون ناجحين بشكل منتظم لسنوات عديدة، وتضخمت أعدادهم إلى مئات الألوف، وغمروا مساحات عظيمة من جنوب إيطاليا، ودحروا البعثات التأديبية الواحدة تلو الأخرى، وتحالفوا مع القراصنة الذين كانوا في ذلك الوقت سادة البحر الأبيض المتوسط. وأخيراً شرعوا في العمل لبناء مدينة خاصة بهم، كانوا سيسمونها مدينة الشمس. في هذه المدينة سيكون البشر أحراراً ومتساوين، وقبل كل شيء سعداء: ليس فيها عبودية أو جوع أو ظلم أو جلد أو إعدامات. إنها الحلم كما يبدو بمجتمع عادل يراود كل خيال إنساني بشكل يتعذر استئصاله وفي كل العصور، سواء سمي بمملكة السماء أو المجتمع اللاطبقي، أو اعتُبر مثل العصر الذهبي الذي وجد مرة في الماضي ونكصنا وتفسخنا منه. لا حاجة للقول بأن العبيد فشلوا في إنجازه، إذ ما إن شكلوا أنفسهم في مجتمع، حتى تحولت حياتهم إلى حياة ظلم وكدح مرهق، يملؤها الخوف كغيرها. وحتى الصليب رمز العبودية، عاد إلى الحياة وازدهر لعقاب الأشرار، ثم تأتي النقطة الفاصلة حين يجد سبارتاكوس نفسه مجبراً على صلب عشرين واحداً من أعز أتباعه وأكثرهم إخلاصاً، بعدها تهلك مدينة الشمس، ينشق العبيد وينهزمون تماماً ويؤسر آخر خمسة عشر ألفاً منهم ويُصلبون دفعة واحدة.

يكمن الضعف الخطير في هذه القصة، في أن دوافع سبارتاكوس نفسه لم تكن واضحة أبداً، علماً أن القاضي الرومي فولفيوس الذي انضم إلى التمرد وعمل مؤرخاً لأحداثه، وصف المأزق المألوف من الغايات والوسائل: لن تستطيع إنجاز أي شيء، إلا إذا كنت راغباً

ومستعداً لاستخدام القوة والمكر، يمكنك تفسد أهدافك باستخدامها. إلا أن سبارتاكوس لم يُصور كمتعطش للسلطة، ولا كحالم من الجانب الآخر. وكان مدفوعاً بقوة غامضة، لم يفهمها، وفي أكثر الأوقات كان متردداً بين رأيين واختيار أفضلهما: إما أن يرمي بالمغامرة برمتها ويهرب إلى الإسكندرية، أو أن يستمر. كانت جمهورية العبيد ستُدمر في كافة الأحوال بمذهب المتعة، إن لم يكن بالصراع من أجل السلطة. لقد كان العبيد غير قانعين بحريتهم، لأنهم ظلوا مجبرين على العمل. وقد حدث الانقسام الحاسم، لأن العبيد الأكثر شغباً والأقل تمدنا الغاليين والألمان بشكل رئيس، استمروا في التصرف كقطاع طرق، بعد أن تأسست الجمهورية. قد يكون هذا وصفاً صحيحاً للأحداث- وبالطبع نحن لا نعرف سوى القليل عن تمرد العبيد في العصور القديمة، لكن السماح بأن تدمر مدينة الشمس لعدم منع الغالي كريكسوس من السلب والاغتصاب، فهنا يتردد كيسلر بين القصة المجازية والتاريخ. إن كان سبارتاكوس هو الأنموذج الأصلي للثوري الحديث -وواضح أنه مقصود كذلك- يجب عليه أن يتوه بسبب استحالة الجمع بين السلطة والاستقامة الأخلاقية، وشخصيته سلبية تقريباً. وكان منفعلاً أكثر منه فاعلاً، ولم يكن مقنعاً في بعض الأوقات. تفشل القصة جزئياً، وذلك بسبب تجنب المشكلة المركزية للثورة، أو بسبب عدم حلها على الأقل.

ثم حدث تجنبها مرة أخرى وبطريقة أحذق في الكتاب التالي تحفة كيسلر **ظلام في الظهيرة**، لكن القصة هنا تتعرض للتلف، لأنها تتعامل مع أفراد، واهتمامها نفسي. إنها حادثة منتقاة من خلفية يجب ألا يطالها الشك. **ظلام في الظهيرة** تصف حبس البلشفي العريق روباتشوف وموته، وهو الذي ينكر أولاً ثم يعترف أخيراً بجرائم يدرك تماماً أنه لم يرتكبها. إن النضج وانعدام الدهشة والشجب والشفقة والسخرية الذي رُويت بها القصة، تبين فائدة المرء في كونه أوروبياً حين يعالج موضوعاً من هذا النوع. ويصل الكتاب إلى مقام المأساة. ولو كان الكاتب إنكليزياً أو أمريكياً لحوله إلى كراس دعائي جدلي. لقد هضم كيسلر مادته، واستطاع معالجتها على المستوى الجمالي، وفي الوقت نفسه كان لهذه المعالجة مضموناً سياسياً غير مهم في هذه الحالة، لكنه ربما يكون مؤذياً في كتب لاحقة.

من الطبيعي أن يركز الكتاب كله حول سؤال واحد: لماذا اعترف روباتشوف؟ هو ليس مذنباً- أي ليس مذنباً بشيء، عدا الجريمة الأساسية وهي كره نظام ستالين. إن الأعمال المادية

الملموسة للخيانة التي يُفترض أنه تورط بها، تخيلية كلها، وهو لم يتعرض للتعذيب حتى، أو لم يُعذب بقسوة شديدة. لقد أرهقته العزلة ووجع أسنانه وعوزه للتبغ والأضواء المبهرة المسلطة على عينيه والاستجواب المستمر، لكن هذه كلها في حد ذاتها ليست كافية لتقهر ثوري صلد. لقد فعل النازيون به أشياء أسوأ من ذلك من دون أن يكسروا روحه. إن الاعترافات المنتزعة في محاكمات الدولة الروسية قابلة لثلاثة تفسيرات: أولاً المتهمون مذنبون؛ ثانياً المتهمون يتعرضون للتعذيب وربما الابتزاز بواسطة تهديد أقربائهم وأصدقائهم؛ ثالثاً المتهمون مدفوعون باليأس والإفلاس العقلي والولاء للحزب عادة.

إن التفسير الأول مستثنى بالنسبة لغرض كيسلر في ظلام في الظهيرة. ورغم أن هذا ليس المكان لمناقشة أعمال التطهير الروسية، إلا أنني يجب أن أضيف أن وجود أي دليل صغير مثبت هناك، يوحي بأن محاكمات البلاشفة عبارة عن أشراك. لو افترض المرء أن المتهمين ليسوا مذنبين -وهم في كل الأحوال غير مذنبين في الأشياء الخاصة التي اعترفوا بها- إذاً يكون التفسير الثاني هو التفسير المنطقي. لكن كيسلر يؤيد التفسير الثالث، وهو مقبول من التروتسكي بوريس سوفارين في كتيبه **كابوس في الاتحاد السوفييتي**. يعترف روباتشوف أخيراً، لأنه لم يستطع أن يجد في عقله سبباً يمنعه من ذلك، فالعدالة والحقيقة الموضوعية لم تعدا تعنيان شيئاً له منذ وقت طويل، وظل لعقود مجرد عبد للحزب الذي يطلب منه الآن الاعتراف بجرائم غير موجودة. في النهاية كان فخوراً بقراره في الاعتراف، رغم تعرضه للتنمر والإضعاف في البداية. لقد شعر بتفوقه وسموه على الضابط القيصري المسكين القاطن في الزنزانة المجاورة لزنزانته، والذي يتكلم مع روباتشوف بواسطة النقر على الجدار. وقد اندهش ذلك الضابط القيصري حين علم بأن روباتشوف عزم على الإذعان والاستسلام، لأنه يرى من زاويته "البورجوازية" أن على كل شخص حتى البلشفي الاستمرار في مقاومته. وقال إن الشرف يكمن في فعل ما تعتقد أنه صحيح. لكن روباتشوف يردّ عليه بالنقر "الشرف أن تكون مفيداً من دون جلبة". ويتأمل راضياً بأنه كان ينقر الجدار بنظارته الأنفية التي بلا ساعدين، بينما ينقر الآخر عبق الماضي، بنظارته التي بزجاجة واحدة. إن روباتشوف مثل بوخارين "يتطلع إلى الظلام" ماذا يوجد هناك، وأي مبدأ

وأي ولاء وأي ذكرة عن الخير والشر يستطيع من أجلها تحدي الحزب وتحمل قسط آخر من العذاب؟ إنه ليس وحيداً فقط، بل مجوفاً أيضاً، وقد ارتكب بنفسه جرائم أسوأ من التي ترتكب ضده الآن؛ فقد تخلص مثلاً كمبعوث سري للحزب في ألمانيا النازية من أتباعه المطيعين بإفشاء سرهم إلى الجيستابو. والغريب جداً أنه لو كانت لديه أي قوة داخلية يستجرها، فستكون ذكريات صباه حين كان ابن مالك أراضٍ. إن الشيء الأخير الذي يتذكره حين تطلق النار عليه من الخلف وترديه، هي أوراق أشجار الحور على ملكية والده العقارية. ينتمي روباتشوف إلى الجيل الأقدم من البلاشفة الذين كُنسوا في أعمال التطهير، وهو مطلع على الفن والأدب وعلى العالم خارج روسيا، وهو يتناقض بحدة مع جليتكين الشاب الذي يستجوبه ويعمل في الاستخبارات الروسية "رجل الحزب الطيب" الأنموذجي الذي يخلو من الوساوس والفضول تماماً، والذي هو عبارة عن غرامافون (حاكٍ) مفكر. إن روباشوف بخلاف جليتكين، لا يعتبر الثورة نقطة بداية له، ولم يكن ذهنه صفحة فارغة حين اخترقه الحزب، كما أن تفوقه على الآخر يُعزى إلى أصله البورجوازي أخيراً.

لا يستطيع المرء باعتقادي أن يجادل بأن ظلام في الظهيرة مجرد قصة تعالج مغامرات فرد يتخيل، ومن الواضح أنه كتاب سياسي مؤسس على التاريخ، ويقدم تفسيراً لأحداث مثيرة للجدل. فروباتشوف يمكن أن يُكنى بتروتسكي أو بوخارين أو راكوفسكي أو شخصية متحضرة نسبياً وسط البلاشفة القدماء. إذا كتب شخص عن محاكمات موسكو، فعليه أن يجيب على السؤال "لماذا اعترف المتهمون؟"، وأي جواب يقدمه هو بمثابة اتخاذ قرار سياسي. يجيب كيسلر في الواقع "لأن هؤلاء الأشخاص تعفنوا بالثورة التي خدموها"، واقترب بفعله هذا من الزعم بأن الثورات سيئة بطبيعتها. لو افترض المرء أن المتهمين في محاكمات موسكو أُجبروا على الاعتراف بواسطة نوع من الإرهاب، فإنه يقول إن مجموعة خاصة وحيدة من القادة الثوريين ضلت وتاهت عن أهدافها. وهنا سيُلام الأفراد وليس الوضع. لكن مضمون كتاب كيسلر يرى أن روباتشوف لو كان في السلطة، لكان أفضل من جليتكين: أو بالأحرى أفضل فقط لأن وجهة نظره مازالت قبل ثورية جزئياً. يبدو أن كيسلر يودّ القول إن الثورة عملية مفسدة. انضم إلى الثورة وستنتهي إما كـ

روباتشوف أو كـ جليتكين. ليست "السلطة من تُفسد" وحدها، وإنما وسائل إحرازها أيضاً، لذلك فإن كل الجهود لتجديد المجتمع بوسائل عنيفة، تؤدي إلى أقبية الشرطة السرية السوفييتية (جي بي يو - سلف الكيه جيه بي) وقد أدى لينين إلى وجود ستالين، وكان سيصبح مثل ستالين لو بقي حياً.

طبعاً، لم يقل كيسلر هذا بصراحة تامة، وربما لم يكن مدركاً له تماماً. هو يكتب عن الظلام، لكنه ظلام لما يجب أن يكون ظهراً. يشعر في قسم من الوقت أن الأشياء كان يمكن لها أن تحدث بشكل مختلف. إن فكرة فلان وفلان وفلان "خانوا" وأن الأشياء سارت في المسار الخاطئ بسبب الشر الفرداني، حاضرة دائماً في تفكير الجناح اليساري. لاحقاً في وصول ومغادرة، ينتقل أبعد بكثير باتجاه الموقف المعادي للثورة، لكن بين هذين الكتابين هناك كتاب آخر غثاء الثرى، وهو عبارة عن سيرة ذاتية أمينة، ليس فيه سوى رأي غير مباشر في المشاكل التي أثيرت في ظلام في الظهيرة. صادقاً مع نمطه الحياتي، علق كيسلر في فرنسا واحتجز هناك بسبب اندلاع الحرب، وكأجنبي معروف بعدائه للفاشية، ألقت حكومة دالدير القبض عليه واعتقلته. أمضى الأشهر التسعة الأولى من الحرب في معسكر، سجن ثم فرّ خلال انهيار فرنسا، وسافر بطرقات غير مباشرة إلى إنكلترا؛ حيث رُمي في السجن مرة أخرى كغريب عدو، لكن أُطلق سراحه عاجلاً هذه المرة. إن الكتاب تقرير صحفي قيّم ومع بعض القطع الأخرى من الكتابة الصادقة التي أُنتجت في وقت الهزيمة الكاملة، وهو مذكّر ورسالة من الأعماق التي يمكن أن تنحدر إليها الديمقراطية البورجوازية. في هذه اللحظة مع فرنسا المحررة حديثاً وحملة المطاردة المستمرة على أوجها التي استهدفت المتآمرين، نكاد أن ننسى أنه في عام ١٩٤٠ اعتقد مراقبون متنوعون على الأرض بأن حوالي أربعين في المائة من سكان فرنسا كانوا إما موالين للألمان أو لامبالين نهائياً. إن كتب الحرب الصادقة ليست مقبولة أبداً لغير المقاتلين، وكتاب كيسلر لم يلقَ الترحيب الجيد. لم يخرج منها أحد بخير لا السياسيون البرجوازيون الذين كانت فكرتهم في إدارة حرب ضد الفاشية في سجن كل واحد من الجناح اليساري يستطيعون وضع يدهم عليه، ولا الشيوعيون الفرنسيون الذين كانوا موالين للنازيين بشكل فعال وبذلوا ما في وسعهم لتخريب مسعى الحرب الفرنسية، ولا عموم أفراد الشعب الذين كان يسيرون وراء

الدجالين من أمثال دوريت كقادة موثوقين. يدوّن كيسلر بعض المحادثات الرائعة مع زملاء له كانوا ضحايا في معسكر الاعتقال، ويضيف أنه مثل أكثر اشتراكيي الطبقة الوسطى والشيوعيين، لم يقم حتى الآن بأي اتصال حقيقي مع البروليتاريين، وإنما مع الأقلية المثقفة فقط، ويخرج بخاتمة متشائمة: "من دون تثقيف الجماهير، لن يكون هناك أي تقدم اجتماعي. ومن دون التقدم الاجتماعي، لن يكون هناك تثقيف للجماهير" في غثاء الأرض يتوقف كيسلر عن إسباغ المثالية على العامة من الناس، كما أنه يهجر الستالينية، لكنه لم يكن تروتسكياً أيضاً. هذا الكتاب وصلة حقيقية مع كتاب وصول ومغادرة، حُذفت منه ما تسمى بوجهة النظر الثورية، وربما كان ذلك أفضل.

وصول ومغادرة، ليس كتاباً مرضياً، لكن الادعاء بأنه رواية، هو ادعاء هزيل جداً، وهو في الواقع كراسة مفادها أن العقائد الثورية مسوغات للدوافع العصابية. بكل تناسقه المتقن، يبدأ الكتاب وينتهي بنفس الفعل -وثبة إلى بلد أجنبي. شاب شيوعي سابق ينجح في الفرار من هنغاريا، ليقفز على شاطئ البرتغال؛ حيث يأمل في الانضمام إلى الجيوش البريطانية، القوة الوحيدة التي تقاتل ضد ألمانيا في ذلك الوقت. يبرد حماسه قليلاً بحقيقة أن القنصلية البريطانية غير مكترثة وتتجاهله تقريباً. لعدة شهور أثناءها تنفذ نقوده ويفرّ مع لاجئين آخرين أمكر منه إلى أمريكا. يتعرض للإغواء على التوالي من قبل العالم في شكل مروج دعائي نازي، ثم بالجسد على شكل فتاة فرنسية، وبعد انهيار عصبي- بالشيطان في شكل محلل نفساني. يستخرج المحلل النفساني منه حقيقة أن حماسه الثوري ليس مؤسساً على إيمان حقيقي بالحتمية التاريخية، وإنما على عقدة ذنب مرضية ناشئة عن محاولته في طفولته الباكرة لإعماء شقيقه الطفل. في الوقت الذي يحصل فيه على فرصة الانضمام إلى صفوف قوات الحلفاء، يفقد كل مبرر لرغبته في فعل ذلك. وحين يكون على وشك الرحيل إلى أمريكا، تسيطر عليه دوافعه غير العاقلة مرة أخرى. عملياً هو لا يستطيع التخلص من الصراع. حين ينتهي الكتاب، يهبط في مظلة فوق منظر مظلم من بلاده الأصلية؛ حيث يُجند كعميل سري لصالح بريطانيا.

كبيان سياسي (والكتاب ليس أكثر من ذلك بكثير) هو غير كافٍ طبعاً. صحيح أن النشاط الثوري في حالات كثيرة، وربما في كل الحالات، هو نتيجة لعدم التأقلم والانسجام الشخصي.

هؤلاء الذين يصارعون ضد المجتمع، هم على الإجمال الذين لديهم مبرر لكرهه، أما الناس الأصحاء العاديون فلا يجذبهم العنف واللاشرعية أكثر من الحرب. يدلي النازي الشاب في وصول ومغادرة بتعليق ثاقب، بأن المرء يستطيع أن يرى الخطأ في حركة اليسار من خلال قبح نسائها، لكن هذا لا يبطل القضية الاشتراكية أخيراً. إن الأفعال لها نتائج بغض النظر عن دوافعها، فدوافع ماركس الأساسية ربما كانت الحسد والحقد، لكن هذا لا يثبت أن استنتاجاته كانت مزيفة. لكي يأخذ البطل في وصول ومغادرة قراره الحاسم بسبب غريزة محضة بألا يتهرب من معركة أو خطر، يجعله كيسلر يعاني من فقدان مفاجئ لذكائه، لكن بمثل هذا التاريخ الذي لديه خلفه، كان قادراً أن يرى أشياء محددة عليه فعلها، سواء كانت مبرراتنا لفعلها "خيرة" أم "شريرة". إن التاريخ محكوم بالتحرك في جهة محددة، حتى لو دُفع في ذاك الطريق بواسطة العصابيين. في وصول ومغادرة تتساقط أوثان بيتر الواحد تلو الآخر. انحطت الثورة الروسية وانحرفت، وبريطانيا التي يُرمز لها القنصل الهرم بأصابعه المصابة بالنقرس، ليست أفضل، والوعي الطبقي البروليتاري الأممي خرافة. لكن بالنتيجة (بما أن كيسلر وبطله "يؤيدان" الحرب أخيراً) يجب أن يظل التخلص من هتلر هدفاً جديراً، قليل من الاقتيات الضروري دوافعه غير لازمة.

لأخذ قرار سياسي منطقي، يجب أن يكون لدى المرء صورة عن المستقبل. لكن في الوقت الحاضر، يبدو أن كيسلر لا يملك حتى واحدة أو بالأحرى يملك اثنتين باطلتين، فهو يؤمن بالفردوس الأرضي كهدف نهائي، دولة الشمس التي شرع المجالدون في تشييدها والتي لازمت خيال الاشتراكيين والفوضويين والمنشقين الدينيين لمئات السنين، لكن عقله يخبره أن الفردوس الأرضي يتراجع إلى مسافة بعيدة، وأن ما ينتظرنا هو سفك الدماء والاستبداد والحرمان. وقد وصف نفسه حديثاً بـ "المتشائم قصير الأمد". إن كل أنواع الرعب تعصف في الأفق، لكن الأمور ستُصحح كلها في النهاية. هذه النظرة ربما تنتشر وتتسع وسط الناس المفكرين: إنها ناتجة عن الصعوبة الكبيرة ذاتها، بعد أن تخلى المرء عن إيمانه الديني الأرثوذكسي في القبول بالحياة على الأرض كحياة بائسة بشكل متأصل، ومن جهة أخرى من الإدراك بأن جعل الحياة محتملة مشكلة أكبر بكثير مما تبدو عليه. فمنذ عام ١٩٣٠ تقريباً لم يقدم العالم أي مبرر لأي قدر من التفاؤل، ولا شيء في

المدى المنظور سوى هياج من الأكاذيب والكره والقسوة والجهل، كما تلوح وراء مشاكلنا الحالية مشاكل أضخم لم تدخل إلى الوعي الأوروبي إلا الآن. إن مشاكل الإنسان الرئيسية قد لا تُحل أبداً، لكن ذلك لا يمكن تصوره أيضاً! من الذي يجرؤ أن ينظر إلى العالم الحالي ويقول لنفسه "إنه سيظل هكذا دائماً: لا يمكن أن يتحسن بشكل ملحوظ حتى بعد مليون سنة؟" من هنا ينبثق الاعتقاد شبه الصوفي بعدم وجود علاج من أجل الحاضر، وأن الفعل السياسي عقيم كله. لكن في مكان ما في الفضاء والزمان، لن تظل الحياة الإنسانية هذا الشيء البائس البهيمي التي هي عليه الآن.

إن الطريق السهل الوحيد للخروج، هو طريق المؤمن الديني، الذي يعتبر هذه الحياة مجرد تحضير وإعداد للحياة التالية، لكن قلة من الناس المفكرين الآن تؤمن بالحياة بعد الموت، وعدد هؤلاء المؤمنين ربما في تناقص. ولو تدمر أساس الكنائس المسيحية الاقتصادي، لما بقيت حية بجدارتها الذاتية ربما.

المشكلة الحقيقية هي: كيف نحيي الموقف الديني مع القبول بالموت كخاتمة نهائية؟ يمكن أن يكون البشر سعداء فقط حين لا يفترضون أن الهدف من الحياة هو السعادة، لكن من غير المحتمل أن يقبل كيسلر بهذا، فهناك مسحة متعة واضحة في كتاباته وفشله في إيجاد موقف سياسي بعد انفصاله عن الستالينية، هو نتيجة لهذا.

ان الثورة الروسية، وهي الحدث المركزي في خماسية كيسلر، بدأت بآمال سامية. نحن نسينا هذه الأشياء الآن، لكن منذ ربع قرن كان من المتوقع جداً أن تؤدي الثورة الروسية إلى يوتوبيا، لكن من الواضح أن هذا لم يحدث. لم يكن كيسلر قليل الذكاء كي لا يرى هذا، ولا قليل الإحساس كي لا يتذكر الهدف الأصلي. وإضافة إلى هذا يستطيع أن يرى من زاويته الأوروبية أشياء مثل أعمال التطهير والترحيل الجماعي على حقيقتها، وهو ليس مثل شو أو لاسكي، حيث ينظر إليها من خلال الطرف الخطأ من المنظار المقرب. لذلك يتوصل إلى النتيجة: هذا ما تؤدي إليه الثورات. ليس هناك أي شيء من أجلها سوى "متشائم قصير الأمد" أي أن تبتعد عن السياسة، اصنع واحة تستطيع البقاء فيها أنت وأصدقاؤك سليمي العقول وتأملون في تحسن الأشياء بطريقة أو بأخرى خلال مئة سنة.

في أساس هذا، يكمن مذهبه في المتعة الذي يدفعه إلى التفكير في الفردوس الأرضي كشيء مرغوب. ربما درجة ما من المعاناة يتعذر استئصالها من الحياة الإنسانية، وربما الخيار أمام الإنسان دائماً خيار من الشرور، وربما حتى هدف الاشتراكية ليس جعل العالم مثالياً وإنما تحسينه. إن كل الثورات إخفاقات، لكنها ليست بنفس الإخفاق. إن عناد كيلر للاعتراف بهذا، هو الذي قاد ذهنه مؤقتاً إلى زقاق مسدود، ما جعل كتاب وصول ومغادرة يبدو ضحلاً مقارنة بكتبه التي سبقته.

مارك توين - المهرج المجاز

حطم مارك توين بوابات مكتبة إيفريمان الشامخة في توم سوير وهاكلبيري فين فقط اللذين اشتهرا سابقاً تحت قناع "كتب أطفال" (وهما ليسا كذلك) لكن أفضل كتبه وأكثرها تميزاً خشننها والأبرياء في البيت، وحتى الحياة في الميسيسيبي لا تذكر في هذه البلاد إلا قليلاً، ولولا الوطنية التي اختلطت بالحكم الأدبي في كل مكان، لم تبق حية في أميركا بلا شك.

أنتج مارك توين تشكيلة مذهلة من الكتب تتدرج من "حياة" مخنثة وضعيفة لجان دارك، إلى كراسة فاحشة جداً، لدرجة لم تطبع علانية. إلا أن أفضل أعماله تتركز حول نهر الميسيسيبي وبلدات التعدين المقفرة في الغرب. ولد في عام ١٨٣٥ (انحدر من عائلة جنوبية، عائلة غنية بما يكفي لتمتلك عبداً واحداً أو اثنين ربما) وأمضى شبابه والفترة المبكرة من رجولته في العصر الذهبي لأميركا، الفترة التي افتتحت فيها السهول العظيمة. وحين بدت الثروة والفرصة بلا حدود وشعرت الكائنات البشرية بأنها حرة، كانت حرة بالفعل كما لم تكن من قبل أبداً وربما لن تكون مرة أخرى لقرون من الزمن. الحياة في الميسيسيبي والكتابان الاثنان الآخران اللذان ذكرتهما، هي مجموعة مختلطة من حكايات نادرة وأوصاف تصويرية وتاريخ اجتماعي جدي وساخر معاً، لكن لها موضوعاً مركزياً ربما يمكن ترجمته بهذه الكلمات التالية: "هكذا تتصرف الكائنات البشرية حينما لا تكون مرعوبة من الطرد من العمل". لم يتعمد مارك توين كتابة ترتيلة للحرية من خلال كتابة هذه الكتب. في المقام الأول هو مهتم في "الشخصية" وفي التباينات المجنونة التي لا تصدق تقريباً التي تقدر عليها الطبيعة الإنسانية حين يُزال منها الضغط الاقتصادي والعرف. إنه لم يبالغ كثيراً في وصف رجال الطوافات وربابنة الميسيسيبي والمعدنين وقطاع الطرق ربما، لكنهم كانوا مختلفين عن الرجال الحديثين وعن بعضهم البعض، كاختلاف التماثيل ذات الوجوه البشعة في كاتدرائيات القرون الوسطى. استطاعوا تطوير فردانيتهم الغريبة والشريرة أحياناً لنقص في الضغط الخارجي. فالدولة لا وجود لها والكنائس ضعيفة وتتحدث بأصوات كثيرة، والأرض متوفرة ومجانية. إن كرهت وظيفتك، اضرب رئيس عملك في عينه، وانتقل إلى مدى أبعد في الغرب؛ علاوة على ذلك، كانت النقود

وافرة، لدرجة أن أصغر عملة نقدية متداولة تساوي في قيمتها شلناً. لم يكن الرواد الأمريكيون (سوبرمانات) فوق بشريين، ولم يكونوا شجعاناً بصورة استثنائية. بلدات كاملة من المنجمين عن الذهب الجسورين تركت نفسها فريسة الرعب والخوف من قطاع طرق، وافتقرت إلى الروح الشعبية لمقاومتهم. حتى إنهم لم يكونوا متحررين من الامتيازات الطبقية، فالمجرم المتهور الذي كان يطوف في شوارع مستوطنة التعدين مع مسدس ديزينغر في جيب معطفه وعشرون جثة في رصيده، يلبس معطفاً طويلاً وقبعة عالية لماعة ويصف نفسه بقوة بـ "الجنتلمان"، وكان موسوساً وشديد التدقيق بعادته الغذائية. لكن لم يكن قدر الإنسان مقرراً منذ ولادته على الاقل. أسطورة الـ"كوخ الخشبي إلى البيت الأبيض" كانت صحيحة طالما ظلت الأرض المجانية وبطريقة ما. من أجل هذا اقتحمت غوغاء باريس الباستيل. وحين يقرأ المرء مارك توين وبريت هارت ويتمان، فمن الصعب أن يشعر أن مسعاهم كان ضائعاً.

كان هدف مارك توين ومسعاه أن يكون شيئاً أكثر من مؤرخ إخباري للميسيسبي ولسباق البحث عن الذهب. لقد كان مشهوراً في عصره في كل أنحاء العالم كفكاهي ومحاضر هزلي، وكان له في نيويورك ولندن وبرلين وفيينا وملبورن وكالكوتا حضور واسع يهتز بالضحك على دعابات توقفت الآن بدون استثناء تقريباً عن كونها مضحكة. (من الجدير بالملاحظة أن محاضرات مارك توين لم تكن ناجحة إلا مع جمهورين من الحضور الأنغلوساكسوني والألماني فقط، أما الأعراق اللاتينية الناضجة نسبياً التي تركزت فكاهتها الخاصة بها دائماً حول الجنس، فتذمر من كونها لا تهتم بالسياسة أبداً. بالإضافة إلى ذلك، كان لدى مارك توين بعض المطامح ليكون ناقداً اجتماعياً وحتى نوعاً من فيلسوف، وكان لديه في داخله مزاج مهاجم للمعتقدات وثوري حتى أنه أراد بوضوح أن يتابعه، لكنه لم يفعل ذلك أبداً. كان يمكن أن يكون مدمراً للخدع ونبياً للديمقراطية أنفس من ويتمان، لأنه أفضل صحة وأكثر هزلاً، وبدلا من ذلك أصبح ذلك الشيء الملتبس "شخصية عامة" يتملقه موظفو جوازات السفر وتستضيفه الأسرة الملكية. إن مسيرته المهنية تعكس التدهور في الحياة الأمريكية التي توطدت بعد الحرب الأهلية.

لقد جرت مقارنة مارك توين بمعاصره أحياناً أناتول فرانس. وهذه المقارنة ليست تافهة كما تبدو. كان كلا الرجلين الابنين الروحيين لفولتير، وكلاهما لديه رؤية ساخرة ومشككة للحياة

وتشاؤمية فطرية يغطيها الفرح، وكلاهما عرفا أن النظام الاجتماعي القائم هو احتيال ومعتقداته المدللة أوهام في أغلبها كما كان كلاهما ملحدين متعصبين ومقتنعين (في حالة مارك توين كان التأثير لداروين) بقسوة الكون التي لا تطاق. لكن التشابه ينتهي هنا. إن الفرنسي ليس أكثر تعلماً بشكل هائل وأكثر تمدناً وأنشط جمالياً فقط، وإنما أكثر شجاعة أيضاً وهو يهاجم الأشياء التي لا يؤمن بها ولم يلجأ دائماً كمارك توين خلف القناع الأنيس لـ "للشخصية العامة" والمهرج المرخص له، وهو مستعد للمخاطرة بإغضاب الكنيسة، وأخذ الجانب غير الشعبي في الجدال - في قضية دريفوس مثلاً. لم يهاجم مارك توين باستثناء مقال قصير واحد "ما هو الإنسان؟" المعتقدات الموطدة أبداً بطريقة قد تورطه في مشكلة، ولم يستطع أبداً كذلك أن يفطم نفسه من الفكرة، وهي فكرة أمريكية بشكل خاص بأن النجاح والفضيلة هما الشيء نفسه.

في الحياة في الميسيسيبي، هناك توضيح قليل غريب للضعف المركزي لشخصية مارك توين. في القسم الأول من هذا الكتاب الذي بمعظمه عبارة عن سيرة ذاتية، تم تبديل التواريخ. يصف مارك توين مغامراته كملاح في نهر المسيسيبي، كما لو كان صبياً في حوالي السابعة عشر في ذلك الوقت، بينما كان في الحقيقة شاباً في الثلاثين تقريباً. هناك سبب لهذا، وفي نفس القسم من الكتاب يصف بطولاته في الحرب الأهلية التي لم تكن مشرفة بشكل واضح. بالإضافة إلى ذلك بدأ مارك توين بالقتال -ولو أمكن القول حارب- إلى جانب الجنوبيين، ثم بدل ولاءه قبل أن تضع الحرب أوزارها. وهذا النوع من السلوك يمكن غفرانه لصبي وليس لرجل - من هنا جاء تعديل التواريخ. لكن من الواضح بما يكفي أيضاً أنه بدل اصطفافه لأنه رأى أن الشمال سينتصر. فهذا الميل للوقوف إلى جانب الأقوى كلما أمكنه ذلك، والاعتقاد أن القوة هي الصح واضح في كل سيرته المهنية. في خشنتها هناك وصف مشوق لقاطع طريق يدعى سليد، ارتكب ثماني وعشرين جريمة قتل، إضافة إلى انتهاكات أخرى لا تحصى. من الواضح تماماً أن مارك توين معجب بهذا الوغد المثير للاشمئزاز. كان سليد ناجحاً، لذلك كان جديراً بالإعجاب. وهذه النظرة ليست أقل شيوعاً في الوقت الحاضر، ويوجزها التعبير الأمريكي الهام "يفعلها بنجاح".

في فترة البحث عن المال التي تلت الحرب الأهلية، كان من الصعب على أي واحد من طبيعة ومزاج مارك توين رفض النجاح. فقد كانت الديمقراطية القديمة والبسيطة وقطع

الأشجار ومضغ التبغ التي مثّلها أبراهام لينكولن تهلك: أصبح الآن عصر العامل المهاجر الرخيص ونمو الشركات الكبيرة. هجا مارك توين معاصريه بصورة معتدلة في العصر المطلي بالذهب، لكنه أيضاً سلّم نفسه إلى الحمى السائدة، فربح وخسر مبالغ كبيرة من المال. حتى إنه هجر الكتابة لفترة من السنين من أجل التجارة، وبدد وقته على التهريج، ليس في جولات من المحاضرات والمآدب العامة فقط، وإنما في كتابة كتاب مثل **يانكي من كونيكتيكوت في بلاط الملك آرثر** أيضاً، وهو مداهنة متعمدة لكل ما هو أشد سوءاً وسوقية في الحياة الأمريكية. الرجل الذي كان يمكن أن يكون نوعاً من فولتير قروي، أصبح خطيب العشاءات الأشهر عالمياً الذي فتن الحضور بحكاياته النادرة وقدرته على جعل رجال الأعمال يشعرون بأنهم متبرعون ومحسنون شعبيون.

من العادي أن يلقي مارك توين اللوم على زوجته في فشله بكتابة الكتب التي كان ينبغي عليه أن يكتبها، فمن الواضح أنها اضطهدته جيداً وتماماً. ففي كل صباح كان مارك توين يُريها ما كتبه في اليوم الذي قبله، فتقوم السيدة كليمنس (اسم مارك توين الحقيقي صامويل كليمنس) بمراجعته بقلم رصاص، فتقص أي شيء تظنه غير مناسب. يبدو أنها كانت صاحبة قلم أزرق رهيب حتى بمعايير القرن التاسع عشر. هناك وصف في كتاب دبليو. دي هاولز **مارك توين الخاص بي** للاحتجاج والاعتراض الذي حدث حول شتيمة فظيعة انتشرت بإطناب في **هاكلبيري فين**. استغاث مارك توين بهاولز الذي اعترف أنها كانت "ما ينبغي على هاك قوله" لكنه وافق السيدة كليمنس بأن الكلمة لا يمكن أن تُطبع. كانت الكلمة "جحيم"(بمعنى توبيخ قاس). رغم ذلك ليس هناك كاتب يكون العبد الفكري لزوجته في الحقيقة، ولم تكن السيدة كليمنس تستطيع توقيف مارك توين عن كتابة أي كتاب. لو أراد أن يكتب حقيقة، فربما هي جعلته يستسلم للمجتمع بشكل أسهل، لكن الاستسلام حدث بسبب ذلك الخلل في طبيعته الخاصة به، وهو عجزه عن احتقار النجاح.

الكثير من كتب مارك توين محكومة بالبقاء، لأنها تحتوي تاريخاً اجتماعياً نفيساً، فقد غطت حياته الفترة العظيمة للتوسع الأمريكي. حين كان طفلاً، كان الذهاب مع غداء في نزهة ومشاهدة شنق أحد الإلغائيين (الرق) خروجاً يومياً عادياً. وحين مات لم تعد الطائرة ابتداعاً جديداً. أنتجت هذه الفترة أدباً قليلاً نسبياً، ولكن بالنسبة إلى مارك توين، كانت صورتنا

لباخرة بمجاديف ميسيسيبية أو لعربة يجرها حصان تعبر السهول، ستكون أكثر عتامة مما هي عليه. لكن أغلب الناس الذين درسوا أعماله خرجوا بشعور أن مارك توين كان بإمكانه فعل شيء أكثر مما فعل، كما أنه يعطي طول الوقت انطباعاً غريباً بكونه على وشك أن يقول شيئاً ثم يخاف من قوله. لذلك الحياة في الميسيسيبي وباقي الأعمال، تبدو مسكونة بشبح كتاب أعظم وأكثر تماسكاً. من الملاحظ أنه بدأ سيرته الذاتية في التعليق أن حياة الإنسان الداخلية لا يمكن وصفها، ونحن لا نعرف ما كان يفترض أن يقوله–من المحتمل أن تقدم الكراسة صعبة المنال ١٦٠١ مفتاحاً لمعرفة ذلك، لكن يمكننا أن نخمن أنها قد تحطم شهرته وتقلل دخله بنسب معقولة.

تشارلز ريد

يستطيع المرء الزعم أنه مازال لتشارلز ريد أتباع، بما أن كتبه نُشرت ولاتزال في طبعات رخيصة. لكن من النادر أن تقابل أحداً قرأه طوعاً. إن اسمه يستحضر على الأكثر عند أغلب الناس ذكرى غامضة لـ"حل" **الدير والموقد** كواجب مدرسي في يوم العطلة. لسوء حظه أن يذكّر به هذا الكتاب بالخصوص تماماً، كما يذكّر فيلم **يانكي من كونيكتكوت في بلاط الملك آرثر** بمارك توين أساساً. كتب ريد عدداً من الكتب المملة، و**الدير والموقد** أحدها، لكنه كتب أيضاً ثلاث روايات، أنا شخصياً أؤيد بأنها ستعمر أكثر من كل أعمال ميريديث وجورج إليوت، بالإضافة إلى بعض القصص القصيرة الطويلة الرائعة مثل **صاحب السبع مهن** و**سيرة ذاتية للص**.

ما هي جاذبية ريد؟ في الأساس هي نفس السحر الذي يجده المرء في قصص ار اوستين فريمان البوليسية أو مجموعات **غرائب الرائد البحري غولد**- سحر المعرفة العقيمة. كان ريد يفتقر إلى التعليم الموسوعي، ولكنه يمتلك مخزوناً واسعاً من معلومات غير مترابطة، سمحت له موهبته السردية النشطة بحشرها في كتب لا تجاز بأي شكل كروايات. لو كان لديك نوع العقل الذي يجد متعة في التواريخ والقوائم والفهارس والتفاصيل المادية وأوصاف الإجراءات وواجهات محلات السلع المستعملة والأعداد السابقة من اكستشينج آند مارت، ونوع العقل الذي يحب معرفة كيف كان يعمل منجنيق العصور الوسطى بالضبط، أو ما هي الأشياء التي كانت تحتويها زنزانة سجن من عشرينيات القرن الثامن عشر، إذاً فأنت لا تستطيع تفادي الاستمتاع بريد. لكنه طبعاً لم ير عمله في هذا المنظار، فقد تباهى بدقته وجمع كتبه عموماً من قصاصات الجرائد. لكن الوقائع الغريبة التي جمعها كانت ثانوية لـ "غرضه" الذي أراده، فكان مصلحاً اجتماعياً في بطريقة متشظية، وشنّ هجمات نشطة على شرور متنوعة مثل إراقة الدماء والروتين الممل والملاجئ الخاصة والعزوبية الإكليركية والجَلْد القاسي.

إن الرواية المفضلة من روايات تشارلز ريد لديّ هي **غش**، وهي ليست هجوماً على أي شيء على وجه الخصوص. إن **غش** مثل كل روايات القرن التاسع عشر، أعقد من أن تلخص، لكن

قصتها المركزية عن رجل دين شاب اسمه روبرت بينفولد الذي يدان ظلماً بجرم التزوير، فيُرحّل إلى استراليا، لكنه يهرب متنكراً، وتتحطم سفينته على جزيرة مهجورة مع البطلة. هنا طبعاً ريد في مجاله. من كل الرجال الذين عاشوا، كان الأفضل والمناسب لكتابة قصة جزيرة مهجورة. بعض قصص الجزر المهجورة طبعاً أسوأ من بعضها الآخر، لكن كلها لن تكون سيئة برمتها حين تُكرس للتفاصيل المادية الحقيقية عن الصراع من أجل البقاء. إن قائمة بالأشياء في ملكية رجل تحطمت سفينته، ربما أضمن رابح في الأدب القصصي وأضمن من مشهد محاكمة حتى. تقريباً بعد ثلاثين سنة من قراءة الكتاب لا أزال أتذكر تقريباً بالضبط ما هي الأشياء التي امتلكها الأبطال الثلاث في رواية بلانتاين جزيرة المرجان (منظار مقرب وست باردات من الحبل المجدول ومطواة وجرس نحاسي وقطعة حديدية) حتى كتاب كئيب مثل روبنسون كروزو غير قابل للقراءة جملة، ولا تعرف سوى قلة من الناس حتى بوجود الجزء الثاني منه، يصبح مشوقاً حين يصف جهود كروزو لصنع طاولة وصقل آنية خزفية وزراعة رقعة من القمح. لكن ريد كان خبيراً في الجزر القاحلة، أو في كافة الأحوال كان متبحراً في كتب الجغرافيا المدرسية في عصره. بالإضافة إلى ذلك، كان من النوع الذي يرتاح وكأنه في بيته وهو على جزيرة قاحلة، فهو لم يرتبك أبداً مثل كروزو بمشكلة سهلة مثل تخمير الخبز. وعلى العكس من بالانتاين، كان يعرف أن الرجال المتمدنين لا يستطيعون إشعال نار بفرك العصي معاً.

إن بطل غشّ ككل أبطال ريد تقريباً، نوع من رجل خارق. إنه بطل وقديس وعالم وسيد ورياضي وملاكم وملاح وعالم في الفيزيولوجيا وعالم في علم النبات وحداد ونجار، كلها أُدرجت في واحد، وخلاصة كل المواهب التي تخيلها ريد بأمانة لتكون النتاج القياسي لجامعة إنكليزية. طبعاً لم يمر شهر أو شهران فقط حتى يحول هذا الكاهن الرائع الجزيرة القاحلة إلى مكان مثل أحد فنادق ويست ايند. حتى قبل أن يصل إلى الجزيرة بعد أن مات كل الناجين في القارب المكشوف من العطش، أظهر براعته في صنع جهاز تقطير من وعاء فخاري وقارورة مياه حارة وقطعة من شبكة أنابيب. لكن أفضل مآثره هي الطريقة التي استنبطها لمغادرة الجزيرة. هناك جائزة لمن يقتله هو نفسه، ويفترض أن يكون مسروراً في البقاء، لكن البطلة هيلين رولستون التي لا تعلم أنه محكوم، كانت متشوقة للنجاة طبعاً. سألت روبرت أن يحول "عقله العظيم" لحل هذه المشكلة. كانت الصعوبة الأولى طبعاً اكتشاف موقع ومكان الجزيرة

بالضبط. لحسن الحظ كانت هيلين مازالت تلبس ساعة يدها المحتفظة بتوقيت سيدني. بتثبيت عصا في الأرض ومراقبة ظلها، دوّن روبرت لحظة الظهر بالضبط، وبعدها باتت مسألة تحديد خطوط الطول بسيطة- لرجل من قياسه، يفترض منه طبعاً أن يعرف خط طول سيدني، ومن الطبيعي بالمثل أنه يستطيع تحديد خطوط العرض ضمن درجة أو اثنتين من خلال طبيعة الحياة النباتية. أما الصعوبة التالية، فكانت أن يرسل رسالة إلى العالم الخارجي. وبعد تأمل وتفكير، كتب روبرت سلسلة من الرسائل على قطع من الرق مصنوع من مثانات الفقمة بحبر استخلصه من حشرات قرمزية اللون، ولاحظ أن الطيور المهاجرة كانت تستخدم الجزيرة كمكان توقف، وركز على البط كسعاة محتملين، لأن كل بطة عرضة لأن تُصاد عاجلاً أو آجلاً. وبواسطة استراتيجية مستخدمة في الهند كثيراً، أسر عدداً من البط، وربط رسالة بساق كل واحدة وتركها تذهب. أخيراً، التجأت إحدى البطات إلى إحدى السفن، وتم إنقاذ الاثنين (البطل والبطلة)، لكن نصف القصة لم يكتمل عند هذا الحد، إذ يتلوه تشعبات هائلة ومكائد ومكائد مضادة ومؤامرات وانتصارات وكوارث، تنتهي بتبرئة روبرت وبأجراس الزفاف.

ليس من العدل القول إن اهتمام ريد الوحيد كان في التفاصيل الفنية في أي من كتبه الثلاث: غش، ونقود، والإصلاح لا يفوت أوانه أبداً. إن قدرته في الكتابة التصويرية، وخصوصاً في وصف الفعل العنيف، مدهشة أيضاً. وعلى مستوى القصة المتسلسلة هو مخترع رائع للحبكات. ببساطة من المستحيل أخذه كروائي على محمل الجد، إذ ليس لديه إحساس مهما كان نوعه بالشخصية أو بالاحتمالية، لكن لديه أفضلية في إيمانه بأسخف تفاصيل قصصه. كتب عن الحياة كما رآها، وقد رآها كثير من الفيكتوريين بنفس الطريقة: أي كسلسة من (الميلودراما) الأحداث المثيرة الهائلة التي تنتصر فيها الفضيلة في كل مرة، وربما كان الوحيد المنسجم تماماً مع عصره من بين كل روائيي القرن التاسع عشر، الذين ظلوا يُقرأون. وعلى الرغم من كل عدم تقليديته وغرضه وتشوقه لفضح الانتهاكات، لم يخلق نقداً جوهرياً أبداً، وباستثناء قلة من الشرور السطحية، لم ير شيئاً خاطئاً في مجتمع طماع في مساواته بين المال والفضيلة، وبين مليونيريه الأتقياء وكهنته الأرسطوطاليسيين. ربما لم يعطه أحد قياسه أفضل مما ذكره روبرت بينفولد، عند تقديمه في بداية غش، بأنه عالم ولاعب كريكيت وكاهن.

هذا لا يعني أن ضمير ريد الاجتماعي لم يكن سلبياً، وساعد ربما في تثقيف الرأي العام بعدة طرق ثانوية. إن هجومه على نظام السجون في الإصلاح لا يفوت أوانه أبداً مناسب ووثيق الصلة إلى اليوم، أو كان كذلك حتى وقت متأخر. وفي نظرياته الطبية قيل إنه كان متقدماً كثيراً جداً على زمنه، لكنه كان يفتقر إلى الفكرة بأن عصر السكة الحديدية الباكر والمخطط الخاص للقيم المناسبة له، لن يستمرا إلى الأبد. هذا مدهش قليلاً حين يتذكر المرء أنه كان شقيق وينوود ريد. مهما بدا كتاب وينوود ريد استشهاد إنسان متهوراً وغير متوازن، يظل كتاباً يظهر سعة مدهشة من الرؤية، وربما كان الوالد والجد غير المعترف به "للخطوط العريضة" المحبوبة جداً اليوم. ربما كتب ريد "خطوط عريضة" لعلم الفراسة أو صنع الخزن أو عادات الحيتان، لكن ليس للتاريخ الإنساني. كان رجلاً محترماً من الطبقة الوسطى مع ضمير أكثر قليلاً من أغلب أفرادها، وعالماً فضّل العلم الشعبي على الكلاسيكي. من أجل ذلك السبب فقط، هو واحد من أفضل الروائيين "الناجين" الذين لدينا. غش ونقود كتابان جيدان إن أرسلا لجندي يقاسي بؤس خندق حربي مثلاً. ليس هناك مشاكل فيهما ولا "رسائل" أصيلة، بل مجرد سحر عقل موهوب، يعمل ضمن حدود ضيقة جداً، ويقدم انفصالاً تاماً عن الحياة الحقيقية مثل لعبة شطرنج أو أحجية صور مقطعة.

دبليو بي يتس

الشيء الوحيد الذي لم ينجح النقد الماركسي في عمله هو تعقب أثر الارتباط بين "الميل" وبين الأسلوب الأدبي. يمكن تفسير الموضوع الأساسي واللغة المجازية في كتاب بشروط سوسيولوجية، لكن لا يمكن ذلك مع بنيته على ما يبدو، رغم وجوب وجود مثل هذه الرابطة. فالمرء يعرف مثلاً أن الاشتراكي لن يكتب كما يكتب تشيسترتون أو إمبريالي من التوريين مثل برنارد شو، لكن كيف له أن يعرف أن القول ليس سهلاً. في حالة ييتس، يجب أن يكون هناك نوع من الارتباط بين تمرده وأسلوبه المحرف والمشاكس في الكتابة، وبين ورؤيته الشريرة للحياة. إن السيد مينون مهتم بشكل أساسي بالفلسفة الغامضة التي تشكل أساس عمل ييتس، إلا أن الاقتباسات التي تبعثرت في كل كتابه الممتع تخدم في تذكير المرء بالتصنع الكبير في أسلوب ييتس في الكتابة، وكقاعدة، فإن هذا التكلف مقبول كطريقة ايرلندية، أو حتى أن ييتس مشهور بالبساطة، لأنه يستخدم كلمات قصيرة. لكن في الحقيقة قلما يأتي المرء على ستة أبيات متوالية من شعره ليس فيها لفظة مهجورة أو عبارة متكلفة. لنأخذ المثال الأقرب:

هبني جنون رجل عجوز/ نفسي يجب أن أصنعها من جديد / حتى أكون تيمون ولير / أو وليام بليك ذاك / الذي دق على الجدار / حتى امتثلت الحقيقة لندائه.

تستورد كلمة "الذي" غير الضرورية شعوراً بالتكلف والتصنع، ونفس الميل موجود في الكل ما عدا أفضل مقاطع ييتس. ونادراً ما يبتعد المرء عن شك من "الغرابة" وشيء لا يرتبط مع "التسعينيات" فقط والبرج العاجي و"الأغطية الجليدية من العشب المبال فوقه" وإنما مع رسومات راكهام أيضاً. إن النسيج الفني للحرية وأرض أحلام بيتر بأن التي هي أخيراً "أرض البلدة السعيدة" مجرد أنموذج فاتح للشهية أكثر. هذا لا يهم، لأن ييتس في المجمل ينجح في إنجازه، ولو كان إجهاده اللاحق مزعجاً، لأمكنه أيضاً أن ينتج عبارات ("السنوات البارد العقيمة" و"البحار المكتظة بسمك المكاريل") التي تغمر المرء فجأة مثل وجه فتاة يُرى عبر غرفة. إنه استثناء للقاعدة التي ترى أن الشاعر لا يستخدم لغة شاعرية:

كم قرناً أمضته/ الروح الخاملة الجالسة / في أعمال كدح بقياس/ أبعد من النسر أو الخلد،/ أبعد من السمع أو النظر،/ أو تخمين أرخميدس،/ لتعيد إلى الحياة/ ذلك الحسن؟

هنا هو لا يحجم عن كلمة سوقية سهل هرسها مثل "الحسن"، وأخيراً لا تفسد جداً روعة هذا المقطع. لكن نفس الميول معاً مع نوع من الرثاثة المتعمدة بلا أي شك تضعف حكمة قصائده القصيرة المعبرة الساخرة وقصائده الجدلية. مثلاً (اقتبس من الذاكرة) القصيدة القصيرة ضد النقاد الذين أدانوا مستهتر العالم الغربي:

ذات مرة حين ضرب منتصف الليل الهواء/ تراكض المخصيون عبر الجحيم والتقوا/ في كل شارع مكتظ ليحدقوا/ بجوان العظيم وهو يمر ممتطياً حصانه/ حتى لمثل هؤلاء ليشجبوا ليصطفوا ويتعرقوا/ محدقين بساقيه القويتين.

إن القوة التي لدى ييتس داخل نفسه تعطيه التناظر الجاهز وتنتج الاحتقار المروع في السطر الأخير، لكن حتى في هذه القصيدة القصيرة، هناك ست أو سبع كلمات غير ضرورية. لو كانت أكثر أناقة، لكانت أكثر إماتة ربما.

بالمناسبة، فإن كتاب السيد مينون سيرة قصيرة لييتس، لكنه قبل كل شيء مهتم بـ "نظام" ييتس الفلسفي، الذي برأيه يزود موضوع البحث بمزيد من قصائد ييتس أكثر من المألوف عموماً. هذا النظام يعرض بشكل متشظ في أماكن متباينة، وبالتفصيل في رؤية، كتاب طبع سراً؛ أنا لم اقرأه لكن السيد مينون يقتبس منه بشكل واسع. يعطي ييتس روايات متضاربة عن أصله، ويلمح السيد مينون بشكل واسع أن "الوثائق" التي أسس عليها ظاهرياً كانت خيالية. نظام ييتس الفلسفي، يقول السيد مينون، "كان وراء حياته الفكرية منذ البداية تقريباً. شعره يغص به. بدونه شعره الأخير يصبح غير مفهوم تماماً تقريباً". حالما نقرأ حول النظام المزعوم، نكون في وسط طقس الدواليب الكبرى، الحلقات الحلزونية، دوار القمر، التقمص، الأرواح المحررة من الجسد، وعلم التنجيم وغيره.

كلام ييتس عن الحرفية التي آمن بواسطتها بكل هذا، لكنه بالتأكيد تبلل بالروحانية وعلم التنجيم. وفي مرحلة مبكرة من حياته قام ببعض التجارب في السيمياء. رغم تخفيه تحت تأويلات يصعب جداً فهمها عن أطوار القمر، تبدو فكرته المركزية لنظامه الفلسفي أنها صديقنا القديم، الكون الحلقي، الذي يتكرر حدوث أي شيء فيه المرة تلو الأخرى. المرء ربما

ليس له الحق في السخرية من ييتس لمعتقداته الباطنية- لأنني اعتقد أنه يمكن أن يكشف أن درجة ما من الاعتقاد بالسحر هو عالمي تقريباً- لكن يجب ألا يغفل المرء مثل هذه الأشياء كمجرد غرابة أطوار. إنها بصيرة السيد مينون، لهذا هي التي تعطي كتابه أعمق الأهمية. "في الفورة الأولى من الإعجاب والحماس"، يقول "اغلب الناس نبذوا الفلسفة الوهمية مثل الثمن الذي يجب أن ندفعه من أجل فطنة عظيمة وغريبة. لا يدرك المرء تماماً إلى أين كان متوجهاً. وهؤلاء الذين أدركوا، مثل باوند وربما إليوت، استحسنوا الموقف الذي أخذه أخيراً. رد الفعل الأول على هذا لم يأت، كما يتوقع المرء، من الشعراء الإنكليز الشباب الميالين للسياسة. لقد كانوا في حيرة بسبب نظام زائف أقل صلابة من ذاك الذي في رؤية يفترض ألا ينتج شعراً عظيماً لييتس في آخر أيامه". لا يمكن، وفلسفة ييتس لها مضامين شريرة جداً، كما أشار السيد مينون.

مفسراً بالمصطلح الفلسفي، ميل ييتس فاشي. خلال معظم حياته، وقبل أن يسمع بالفاشية، كانت لديه وجهة نظر لهؤلاء الذين وصلوا إلى الفاشية بمسار أرستقراطي. إنه كاره كبير للديمقراطية، للعالم الحديث والعلم والآلات وفكرة التقدم -قبل كل شيء، لفكرة المساواة الإنسانية. الكثير من صور وخيالات أعماله إقطاعية، ومن الواضح أنه لم يكن متحرراً تماماً من الغطرسة العادية. لاحقاً، أخذت هذه الميول شكلاً أوضح، وقادته إلى "قبول مبتهج بالشمولية -الفاشية كحل وحيد. حتى العنف والاستبداد ليسا شرين ضروريين، لأن الناس لا يعرفون الشر والخير، وسيصبحون ميالين إلى قبول الاستبداد تماماً...... كل شيء يجب أن يأتي من القمة. لاشيء يستطيع أن يأتي من الجماهير. "لم يهتم ييتس كثيراً بالسياسة، وقد اشمأز من غزواته المختصرة إلى الحياة العامة، ومع ذلك أطلق بعض البيانات السياسية. هو رجل أكبر من أن يشارك في أوهام الليبرالية. ومبكراً في عام ١٩٢٠ تنبأ في مقطع شهير منصف ("القدوم الثاني") بنوع العالم الذي انتقلنا إليه فعلياً. لكنه يظهر أنه يرحب بالعصر القادم، الذي سيكون "تراتبياً وذكورياً وقاسياً وجراحياً"، وتأثر بإيرزا باوند وكتاب فاشيين إيطاليين آخرين. يصف الحضارة الجديدة التي يأمل ويؤمن بأنها ستصل: حضارة أرستقراطية بأكمل صورة لها، كل تفصيل صغير من حياة تراتبية، كل باب رجل عظيم مكتظ من الفجر بالمتوسلين، ثروة عظيمة في كل مكان بيد قلة من الرجال، الكل يتكل على القلة، حتى الإمبراطور نفسه، الذي

هو حاكم قوي معتمد على حاكم أقوى وأعظم منه. وفي كل مكان، في البلاط، في العائلة، كان التفاوت قانوناً. "سذاجة هذا العرض مشوقة مثل تكبره" لنبدأ بعبارة "ثروة عظمى بيد قلة من الرجال"، يضع ييتس حقيقة الفاشية المركزية عارية، التي صممت كل دعايتها لتغطيتها. يدعي السياسي الفاشي دائماً أنه يقاتل من أجل العدالة: ييتس، الشاعر، يرى بلمحة أن الفاشية تعني الظلم، ويهتف لها للسبب نفسه. لكن، في الوقت نفسه، يفشل برؤية أن الحضارة الفاشية الجديدة، إن وصلت، لن تكون أرستقراطية أو ما يقصد بالأرستقراطية. لن يحكمها نبلاء بوجوه فان دايك، وإنما مليونيريون بلا أسماء وبيروقراطيون من ذوي الأزرار اللامعة وعصابات من قطاع الطرق القتلة. آخرون من الذين ارتكبوا الخطأ نفسه، غيروا آراءهم بعد ذلك، والمرء ينبغي ألا يفترض أن ييتس، إن عاش أطول، سيتبع بالضرورة صديقه باوند، حتى في المشاركة الوجدانية. لكن ميل المقطع الذي اقتبسته آنفاً ورميه التام جانباً لكل ما هو جيد الذي تحقق في السنوات الإلفين الماضية، عرض مرضي مقلق.

كيف ترتبط أفكار ييتس السياسية مع ميله نحو الغموض والأسرار؟ ليس واضحاً من النظرة الأولى سبب كرهه للديمقراطية وميله للاعتقاد بالتحديق الشفاف يجب أن يسيرا معاً. لا يناقش السيد مينون هذا إلا باختصار، لكن من الممكن القيام بتخمينين: لنبدأ أولاً بنظرية أن الحضارة تنتقل في حلقات راجعة ومتكررة، وأنها الطريق الوحيد إلى الخارج للذين يكرهون مفهوم المساواة الإنسانية. إن كان صحيحاً أن"كل هذا" أو شيئاً مثله "قد حدث سابقاً"، فإن العلم والعالم الحديث قد أفرغا بضربة واحدة وأصبح التقدم مستحيلاً إلى الأبد. لا يهم كثيراً إذا اعتلت الطبقات الدنيا غيت ابوف بعضها البعض ووصلت إلى مكان أعلى، لأننا سنعود حالاً أخيراً إلى عصر من الاستبداد. إن ييتس لوحده في هذا الرأي من كل بد.

إن كان الكون يتحرك بشكل دائري على عجلة، فالمستقبل يجب أن يكون مُدركاً قبل حدوثه وفي بعض التفصيل ربما. إنها مسألة لا تعدو عن اكتشاف قوانين حركته كما اكتشف الفلكيون السابقون السنة الشمسية. صدق ذلك ويصبح من الصعب ألا تؤمن بعلم التنجيم أو نظام مشابه ما. قبل الحرب بسنة وبتفحص نسخة من غرينغوار الأسبوعية الفاشية الفرنسية التي يقرؤها ضباط الجيش كثيراً، وجدت فيها ما لا يقل عن ثمانية وثلاثين إعلاناً للمتبصرين. ثانياً مفهوم الأسرار الخفية أوكالتيزم نفسه يحمل معه فكرة أن المعرفة يجب أن

تكون شيئاً سرياً ومقتصرة على دائرة صغيرة من الملقنين. لكن الفكرة نفسها متممة للفاشية. فهؤلاء الذين يفزعون من منظر معاناة الكون والتعليم الشعبي وحرية الفكر وتحرير النساء، سيهرعون في ولع نحو فرق دينية سرية. هناك رابط آخر بين الفاشية والسحر في عدائهما العميق للمبادئ الأخلاقية المسيحية.

لا شك أن ييتس يتقلب في معتقداته، وقد اعتنق آراء مختلفة في أوقات مختلفة بعضها تنويرية وبعضها غير ذلك. يكرر السيد مينون ادعاء إليوت أن لدى ييتس أطول فترة من التطور من أي شاعر عاش حتى الآن، لكن هناك شيئاً واحداً يبدو ثابتاً على الأقل في كل أعماله التي أستطيع تذكرها، ألا وهو كرهه للحضارة الغربية الحديثة والرغبة في العودة إلى العصر البرونزي أو ربما إلى العصور الوسطى. وككل هؤلاء المفكرين يتجه ليكتب مادحاً الجهل. إن الأبله في مسرحيته الرائعة **الساعة الرملية** شخصية تشيسترتونية "أبله الرب" "البريء المولود بشكل طبيعي" الأعقل دائماً من الرجل الحكيم. يموت الفيلسوف في المسرحية بمعرفته أن كل حياته الفكرية ضاعت (أنا أقتبس من الذاكرة مرة أخرى):

تيار العالم بدل مساره، ومع التيار صادفت أفكاري ربيعاً غائماً راعداً؛ ذلك هو المصدر الكبير، نعم، لنوبة جنون عقلي، إن كل ما أنجزناه غير منجز، تخميننا ليس سوى كلام فارغ.

كلمات جميلة، لكنها غامضة في مضمونها ورجعية في العمق، فإن كان صحيحاً حقيقة أن أبله قرية كهذا أعقل من فيلسوف، فمن الأفضل لو لم تخترع الأبجدية أبداً. طبعاً كل المديح للماضي وجدانياً جزئياً، لأننا لا نعيش في الماضي. إن الفقير لا يمتدح الفقر. قبل أن تستطيع احتقار الآلة، يجب على الآلة أن تعتقك من العمل البهيمي. لكن ذلك لا يعني أن توق ييتس لعصر أكثر بدائية وتراتبية لم يكن صادقاً. كم من هذا كله يمكن رده إلى مجرد تكبر ونتاج من موقف ييتس كفرع مفقر من الأرستقراطية مسألة أخرى. والرابط بين آرائه الغامضة وميله نحو "غرابة" لغوية، يبقى بانتظار الحل؛ فالسيد مينون لم يلمسه إلا نادراً.

هذا كتاب قصير جداً، وأحب كثيراً رؤية السيد مينون يتقدم ويكتب كتاباً آخر عن ييتس بادئاً من حيث تركنا الكتاب الحالي. "إن كان أعظم شاعر في عصرنا يقرع الجرس مبتهجاً في عصر من الفاشية، فهذا يبدو عرضاً مزعجاً ومقلقاً إلى حد ما، لأنه ليس عرضاً معزولاً. عموماً أن أفضل كتاب عصرنا كانوا رجعيين في ميولهم، ورغم ذلك لا تقدم

الفاشية أي عودة حقيقية إلى الماضي. إن هؤلاء الذين يتوقون إلى الماضي، سيقبلون بالفاشية قبل بدائلها المرجحة، لكن هناك خطوطاً أخرى للمقاربة كما رأينا أثناء الستين أو الثلاث الماضية. إن العلاقة بين الفاشية والطبقة المثقفة الأدبية تحتاج جداً إلى تفحص، وقد يكون ييتس البداية الحسنة. لقد درس جيداً من قبل شخص مثل السيد مينون، الذي استطاع أن يقارب شاعراً كشاعر في المقام الأول، ولكنه يعرف أيضاً أن معتقدات الكاتب السياسية والدينية ليست ناميات زائدة يجب إبعادها، وإنما شيء ما سيترك علامته وسمته حتى على أصغر التفاصيل في أعماله.

الركوب رحلة من بنغور

إن الظهور الثاني لـ **أطفال هيلين** الذي كان في أيامه واحداً من أشهر الكتب في العالم – لقد قرصنته عشرون شركة نشر مختلفة ضمن الإمبراطورية البريطانية لوحدها، وتلقى المؤلف ربحاً إجمالياً قدره ٤٠ جنيهاً من بيع مئات الآلاف أو الملايين من النسخ- سوف يقرع جرساً في أي شخص متعلم فوق الخامسة والثلاثين. ليس لأن الطبعة الحالية مرضية تماماً، فهو كتاب رخيص مع إيضاحات غير ملائمة وحذف كلمات عامية أمريكية متنوع منه كما يبدو وضياع المجلد المكمل له **أطفال الناس الآخرين** الذي كان معه في الطبعات السابقة، لكن من المسر أن ينشر **أطفال هيلين** مرة أخرى، فقد أصبح نادراً تقريباً في الأيام الأخيرة، وهو واحد من أفضل الكتب الأمريكية الصغيرة التي ولد عليها الناس في بداية تحول القرن وتربوا عليها.

إن الكتب التي يقرؤها المرء في الطفولة، وربما أغلب الكتب الرديئة وجد الرديئة، تخلق خريطة مزيفة للعالم وسلسلة من بلدان خرافية داخلها، يستطيع المرء التقهقر في لحظات شاذة طيلة حياته الباقية، والتي في بعض الحالات يمكن أن تغني عن زيارة البلدان الحقيقية التي تمثلها كما يفترض. البامبا (سهول عشبية أمريكية- المترجم) والأمازون وجزر المرجان في الباسيفيكي وروسيا وأرض شجرة البتولا والسماور وترانسيلفانيا مع نبلائها ومصاصي دمائها وصبن غاي بوثباي وباريس دي موريير-يمكن للمرء عدّ قائمة طويلة، وهناك بلاد خيالية أخرى واحدة اكتسبتها مبكراً في حياتي، كانت تسمى أميركا. ولو توقفت عند كلمة أمريكا، ووضعت الحقيقة الموجودة جانباً بشكل متعمد واستدعيت تصوري لها في طفولتي، سأرى صورتين- صورتين مركبتين طبعاً حذف منهما كثير من التفاصيل.

الصورة الأولى لصبي يجلس في غرفة تعليمية مبيضة باردة، يضع حمالات سروال وعلى قميصه رقع. وإن كان الفصل صيفاً يكون حافياً. في زاوية غرفة المدرسة، يوجد سطل من مياه الشرب مع مغرفة. يعيش الصبي في بيت المزرعة المبني من الحجارة والمبيض أيضاً وعليه رهن عقاري. يطمح أن يكون الرئيس، ويأمل أن يبقي كوم الحطب كاملاً. في مكان في خلفية الصورة إنجيل أسود ضخم مهيمن عليها تماماً. الصورة الأخرى لرجل طويل القامة عظامه

بارزة مع قبعة مشوهة سحبت نحو الأسفل لتغطي عينيه، يتكئ على سياج خشبي ويبري عصا خشبية. فكه السفلي يتحرك ببطء لكن بلا توقف. في فواصل طويلة يقذف بمقاطع من الحكمة مثل "المرأة أعند مخلوق موجود باستثناء البغل" أو "حين لا تعرف شيئاً تفعله فلا تفعل شيئاً"، لكن الأكثر تكراراً هو تدفق عصارة تبغ الصادرة من فجوة في أسنانه الأمامية، وبين هاتين الصورتين تلخص انطباعي الباكر عن أميركا، ومن الاثنتين -التي كما أعتقد تمثل نيوإنغلاند والأخرى تمثل الجنوب- كان للأولى التأثير الأكبر علي.

الكتب التي استمديت هاتين الصورتين منها، تشمل طبعاً كتباً مازالت تؤخذ على محمل الجد مثل: **توم سوير**، و**كوخ العم توم**، لكن النكهة الأمريكية الأقوى موجودة في أعمال ثانوية نُسيت الآن تقريباً. أتساءل مثلاً إن لازال هناك أحد يقرأ **ريبيكا من مزرعة سنبروك** الذي بقي مفضلاً عند الشعب فترة كافية، لكي يصور في فيلم من بطولة ماري بيكفورد، أو ماذا عن كتب"**كاتي**" لسوزان كوليج (**ماذا فعلت كاتي في المدرسة**، إلخ) "العاطفية جداً" لأنها كتب للفتيات التي كان لها فتنة الأجنبي؟ **نساء صغيرات** و**زوجات صالحات** للويزا ام آلكوت مازالا كما أعتقد ينشران، وبالتأكيد لازال لهما أنصارهما. كطفل أحببت كليهما، لكن متعتي بثالث الثلاثية **رجال صغار** كانت أقل، ولم أستطع بلع تلك المدرسة الأنموذجية؛ حيث أسوأ عقوبة كانت ضرب ناظر المدرسة على مبدأ "هذا يؤلمني أكثر مما يؤلمك"

يتمي **أطفال هيلين** في أكثره إلى عالم نساء صغيرات نفسه، ويفترض أنه نشر في التاريخ نفسه تقريباً. ثم كان هناك آرتيموس وارد وبريت هارت وأغان متنوعة وتراتيل وقصائد غنائية شعبية، بالإضافة إلى أشعار عن الحرب الأهلية مثل "انسف هذا الرأس الشائب العجوز إن كان عليك ذلك، لكن حافظ على راية بلدك" و"غيفورد الصغير من تينيسي" لبربارة فريتشيو. هناك كتب أخرى غامضة جداً، لدرجة تبدو غير جديرة بالذكر، وقصص مجلات لا أتذكر منها شيئاً إلا ذلك المسكن القديم الذي يبدو دائماً مرهوناً عقارياً. كان هناك **جوي الجميلة**، الرد الأمريكي على **جمال أسود**، التي يمكنك شراء نسخة منها من كشك تافه. كل الكتب التي ذكرتها كتبت قبل عام ١٩٠٠ لكن شيئاً من النكهة الأمريكية الخاصة ظلت وتباطأت في هذه البلاد مثل ملاحق بستر براون الملونة وحتى في قصص بوث

تاركينغتون "بنرود" التي سوف تكتب في حوالي ١٩١٠. ربما هناك حتى مسحة منها في كتب إرنست ثومبسون سيتون عن الحيوان (الحيوانات البرية التي عرفتها- إلخ) التي سقطت الآن من الاستحسان، لكنها أبكت أطفالاً قبل عام ١٩١٤ بشكل مؤكد، مثلما فعل أسيء فهمه للأطفال من الجيل الأسبق.

باتت صورتي اللاحقة عن أميركا القرن التاسع عشر أكثر دقة، بفضل أغنية مازالت معروفة جيداً، ويمكن إيجادها كما أعتقد في كتاب الطالب الاسكتلندي للأغاني. وكالعادة في هذه الأيام التي ليس فيها كتب ولا أستطيع وضع يدي على نسخة، يجب أن أقتبس شظايا من الذاكرة. تبدأ الأغنية:

راكبين من بانغور/ في قطار الشرق،/ مسمرين بأسابيع من الصيد/ في غابات ماين/ سالفان عريضان جداً/ لحية وشارب أيضاً

جلس زميل طالب/ طويل القامة ونحيل ورائع.

يصعد في الحال زوجان شيخان و"صبية قروية" وصفت بـ "الجميلة والأنيقة" إلى العربة. تطايرت كميات من الجمر في المكان، ولم يمر وقت طويل حتى أصابت إحداها الزميل الطالب في عينه، فانتزعها الصبية القروية لفضيحة الزوجين الشيخين. بعد ذلك بقليل انطلق القطار في نفق طويل "أسود كليل مصر". وحين ظهر في ضوء النهار ثانية، كان وجه الصبية متورداً من الخجل، وانكشف سبب ارتباكها حين:

"ظهرت هناك فجأة/ حلقة أذن صغيرة جداً/ في لحية ذلك الطالب المروعة!".

لا أعرف تاريخ الأغنية، لكن بدائية القطار (ليست هناك أضواء في العربة وجمرة في عين شخص حادث عادي) توحي أنه ينتمي إلى القرن التاسع عشر.

ما الذي يربط هذه الأغنية بكتب مثل: **أطفال هيلين** أولاً وقبل كل شيء نوع من البراءة الحلوة والذروة، كما أن الشيء الذي يفترض أنه يصدمك، هو الحادثة التي تبدأ بها أي قطعة من النوتي نوتي- وثانياً، السوقية اللغوية الباهتة الممزوجة ببهرجة ثقافية محددة. أريد من أطفال هيلين أن يكون كتاباً هزلياً أو حتى سخيفاً، لكنه امتلأ من أوله إلى آخره بكلمات مثل "أنيق" و"أنيق بشكل مسرف" وهو ممتع بشكل رئيسي بسبب كوارثه الصغيرة جداً التي

تحدث على خلفية من الكياسة المقصودة. "وسيمة وذكية ورابطة الجأش وأنيقة الملبس بدون اشتباه بالمغازل العبث أو امرأة الموضة الكسولة حولها تتنبه وتستجيب بأقصى حد لكل عاطفة إعجاب مني" -هكذا وصفت البطلة التي صورت في مكان آخر "منتصبة القامة ونضرة وأنيقة وهادئة وعيناها براقتان ووجهها أشقر ومبتسمة وشديدة الملاحظة" يحصل المرء على لمحات جميلة من العالم الذي تلاشى الآن في تعليقات كهذه: "أعتقد أنك رتبت الزينة الزهرية في معرض سينت زيفانيا في الشتاء الماضي يا سيد بيرتون؟ كان أفضل إظهار للذوق الحسن في الموسم كله" لكن رغم الاستخدام العرضي لألفاظ وأساليب مهجورة -مثل "الردهة" عوضاً عن "غرفة الجلوس" و"مخدع" بدل عن "غرفة النوم" وغيرها -الكتاب لا يحدد التاريخ بشكل ملحوظ ويتخيل كثير من المعجبين به أنه كتب في حوالي عام ١٩٠٠، لكنه في الواقع كتب في عام ١٨٧٥، وهي حقيقة يستنتجها المرء من دليل داخلي، بما أن البطل الذي في الثامنة والعشرين من العمر كان محارباً قديماً في الحرب الأهلية.

الكتاب قصير جداً وقصته بسيطة. شاب أعزب أقنعته أخته بالاعتناء ببيتها وبولديها، الأول في الخامسة والثاني في الثالثة حين تكون هي وزوجها في إجازة مدتها نصف شهر. يدفعه الأطفال إلى حافة الجنون بأعمال لا تنتهي مثل السقوط في البرك وتجرع السم ورمي المفاتيح في الآبار وجرح أنفسهم بأمواس الحلاقة وشبه ذلك، لكنهما يسهلان خطوبته من "فتاة فاتنة كنت أهيم بها من بعيد منذ سنة". تقع هذه الأحداث في إحدى ضواحي مدينة نيويورك في مجتمع غير-أميركي يبدو الآن رزيناً ورسمياً ومتمدناً ومنسجماً مع المفاهيم الراهنة بشكل يثير الاندهاش. كل فعل تحكمه قواعد المعاشرة وآدابها. أن تمر بجانب عربة تحمل سيدات وقبعتك معقوفة محنة وأن تتعرف على أحد المعارف في كنيسة، هو شيء غير مهذب، وأن تصبح مخطوباً بعد عشرة أيام من التودد والمغازلة، هو هفوة اجتماعية قاسية. نحن معتادون على التفكير بأن المجتمع الأمريكي فج ومغامر بالمعنى الثقافي وديمقراطي أكثر من مجتمعنا. ومن كتاب مثل مارك توين وويتمان وبريت هارت، دون ذكر قصص رعاة البقر والهنود الحمر في الجرائد الأسبوعية، يرسم المرء صورة لعالم فوضوي متهور مأهول بغريبي الأطوار والمجرمين المتهورين الذين ليس لهم تقاليد ولا ارتباط بمكان واحد. تلك السمة لأمريكا القرن التاسع عشر موجودة طبعاً، لكن في الولايات الشرقية المزدحمة، هناك مجتمع مشابه

لمجتمع جين أوستن، استمر هناك لفترة أطول مما استمر في إنكلترا. ومن الصعب ألا يشعر المرء أنه كان مجتمعاً أفضل من الذي ظهر من التصنيع المفاجئ في الجزء الأخير من القرن. أطفال هيلين أو نساء صغيرات، ربما يكونان سخيفين باعتدال لكنهما غير فاسدين. لديهما شيء، أفضل وصف له هو الاستقامة أو المعنويات العالية المؤسسة على تقوى غير عاقلة جزئياً. من الطبيعي أن يحضر كل واحد إلى الكنيسة في صباح كل يوم أحد ويشكر الرب على نعمته قبل وجبات الطعام ويتلو الصلوات قبل النوم: لكي يسلي الأطفال، يحكي لهم قصص الكتاب المقدس (الإنجيل) وإن سألوه عن أغنية ستكون على الأرجح "المجد، المجد والشكر للرب". كما أن ذكر الموت بحرية في الأدب الخفيف في تلك الفترة، علامة على الصحة الروحية. مات شقيق بادج وتودي "بيبي فيل" قبل إصدار أطفال هيلين بقليل، وهناك إشارات كثيرة كثيبة إلى "تابوته الصغير جداً" أي كاتب معاصر يحاول كتابة قصة من هذا النوع، سيبقي التوابيت خارجها.

مازال الأطفال الإنكليز يتأمركون بواسطة أفلام السينما، ولم يعد يصلح الادعاء بعد بأن الكتب الأميركية هي الأفضل بالنسبة إلى الأطفال. من الذي يربي طفلاً على مجلات "الرسوم الهزلية" الملونة فيها أساتذة جامعيون فاسدون يقومون بتصنيع قنبلة ذرية في مختبرات تحت الأرض، بينما يطير سوبرمان ويئز عبر الغيوم، ورصاص الرشاشات الشرير يرتد عن صدره مثل حبات البازيلاء، والشقراوات البلاتينيات يغتصبن أو تقريباً جداً، بواسطة رجال آليين من الفولاذ، وديناصورات طول واحدها خمسون قدم؟ إنها صرخة بعيدة من سوبرمان إلى الإنجيل وكوم الحطب. كتب الأطفال السابقة أو الكتب التي يمكن أن يقرأها الأطفال، لم تملك البراءة فقط، وإنما نوعاً من البهجة الأصلية والشعور المفرح السعيد الذي كان، كما يفترض، نتاج الحرية الفريدة والأمن والطمأنينة التي نعم بها القرن التاسع عشر. تلك هي الحلقة الواصلة بين كتب تبدو متباعدة ومفصولة مثل نساء صغيرات والحياة على المسيسبي. في الكتاب الأول، المجتمع الموصوف خاضع ومحب للبيت، بينما الكتاب الآخر يتحدث عن عالم مجنون من قطاع الطرق ومناجم الذهب والمبارزات والسكر والقمار: لكن في كليهما يستطيع المرء أن يكتشف ثقة ضمنية بالمستقبل وإحساس بالحرية والفرصة المناسبة.

إن أمريكا القرن التاسع عشر بلاد غنية وفارغة تقع خارج المجرى الرئيسي للأحداث العالمية. والكابوسان اللذان يؤرقان كل رجل عصري تقريباً، كابوس البطالة وكابوس تدخل الدولة، لم يتشكلا فيها بعد. هناك فروق اجتماعية ملحوظة أكثر مما هي عليه اليوم، وهناك فقر (يظل المرء يتذكر في نساء صغيرات أن العائلة في إحدى المرات كانت بحاجة ماسة إلى المال، لذلك باعت إحدى الفتيات شعرها للحلاق)، لكن لم يكن هناك إحساس منتشر ومسيطر بالعجز كالموجود الآن. كان هناك متسع لكل شخص، وإن عملت بجد، تستطيع التأكد من العيش -وتتأكد حتى من أن تصبح ثرياً: هذا كان اعتقاداً عاماً، وبالنسبة إلى كثير من السكان كان حقيقة عامة. بعبارة أخرى حضارة أميركا القرن التاسع عشر كانت حضارة رأسمالية في أحسن حالاتها. بعد الحرب الأهلية بوقت قصير بدأ التدهور المحتوم. لكن لبعض من العقود على الأقل كانت الحياة في أمريكا ممتعة أكثر بكثير من الحياة في أوروبا - كانت هناك أحداث أكثر وألوان أكثر وتنوع أكثر وفرص أكثر- وكتب وأغاني تلك الفترة فيها نوع من المساواة البريئة المتبرعمة. من هنا كما أعتقد شعبية أطفال هيلين وغيره من الأدب الخفيف الذي جعل من الطبيعي للأطفال الإنكليز قبل ثلاثين أو أربعين سنة أن يتربوا مع معرفة نظرية بالراكونات وحيوانات المرموط والسلاحف الأمريكية والسناجب الأمريكية المخططة وشجر القارية والبطيخ وشظايا غير مألوفة من المشهد الأمريكي.

رافلز والآنسة بلانديش

بعد نصف قرن من ظهوره الأول، مازال "اللص الهاوي" رافلز واحداً من أشهر الشخصيات في الأدب القصصي الإنكليزي. قلة قليلة من الناس لا تعرف أنه لعب الكريكيت من جل إنكلترا، ولديه غرف عزاب في الباني، وسطا على بيوت مايفير التي دخلها أيضاً كضيف. ومن أجل ذلك السبب فقط هو ومآثره يشكلان خلفية، بناء عليها يمكن دراسة قصص جرائم أحدث مثل **لا زهور أوركيد من أجل الآنسة بلانديش**. أي خيار كهذا هو اعتباطي- يمكنني أن أختار بالتساوي آرسين لوبين مثلا- لكن زهور أوركيد وكتب رافلز [لاحظ في الأسفل] تمتلك خاصية مشتركة، كونها قصص جرائم تلقي الأضواء والانتباه على المجرم وليس على رجل الأمن، لأغراض سوسيولوجية لا يمكن المقارنة بينهما. **لا زهور أوركيد** هي نسخة عام ١٩٣٩ للجريمة الفاتنة ورافلز نسخة عام ١٩٠٠ ما يهمني هنا الاختلاف الهائل في الجو الأخلاقي بين الكتابين والتغير في الموقف الشعبي الذي يتضمنه هذا.

[لاحظ: رافيلز ولص في الليل والسيد جستيس رافيلز للكاتب أي دبليو هورنانغ. إن الكتاب الثالث فاشل بالتأكيد، الأول فقط له الجو الرافيلزي الحقيقي. كتب هورنانغ عدداً من قصص الجرائم نزع فيها إلى أخذ جانب المجرم عادة. كتاب ناجح في نفس الوريد مثل رافيلز ستيوغاري. (ملاحظة المؤلف)]

في هذا التاريخ، سحر رافيلز في جوه جزئياً وفي تفوقه التقني للقصص جزئياً. كان هونانغ ذا ضمير حي. وإن كاتباً بارعاً جداً على مستواه وكل من يهتم بالفعالية والكفاءة، فقط يجب أن يُعجب بعمله. لكن الشيء الدرامي حقيقة عن رافيلز والشيء الذي يجعله نوعاً من مثال إلى هذا اليوم (فقط منذ أسابيع قليلة في قضية سطو أشار قاض إلى السجين بـ "رافيلز" في الحياة الحقيقية) هو حقيقة أنه جنتلمان (سيد). يقدم لنا رافيلز وهذا محاك في قصاصات لا تحصى من الحوار والملاحظات العرضية- ليس كرجل شريف ضل، وإنما كرجل مدرسة عامة ضل. ندمه حين يحس بأي منه اجتماعي بشكل صرف تقريباً؛ لقد ألحق الخزي بـ "المدرسة القديمة" وفقد حقه لدخول "المجتمع المحترم"، وخسر منزلته كهاوٍ وأصبح وغداً. لم يشعر

أي من رافيلز أو بوني بقوة بأن السرقة خطأ بحد ذاتها، لكن رافيلز برر لنفسه مرة بملاحظة عرضية من أن "توزيع الملكية خاطئ كله بأي حال" ولم يريا نفسيهما كآثمين وإنما كمرتدين أو ببساطة كمنبوذين. إن النظام الأخلاقي لأغلبنا قريب جداً من نظام رافيلز، لذلك نشعر أن وضعه يجب أن يكون تهكمياً بشكل خاص. رجل نادي ويست ايند هو لص في الحقيقة! تلك قصة بحد ذاتها تقريباً أليست كذلك؟ لكن كيف لو كان اللص سمكرياً أو خضرجياً؟ هل سيكون هناك أي شيء درامياً متأصلاً في ذلك؟ كلا رغم أن الفكرة الرئيسية عن المحترمية المزدوجة التي تغطي الجريمة مازالت هناك. حتى تشارلز بيس بالياقة الإكليركية يبدو إلى حد ما أقل رياء من رافيلز في سترته الزينغارية الفضفاضة.

إن رافيلز، طبعاً، ماهر في كل الألعاب، لكن المناسب بشكل خاص أن تكون لعبته المختارة هي الكريكت. هذا لا يسمح فقط لتشابهات جزئية لانهاية لها بين مكر لاعب بولينغ بطيء ومكره كلص، بل أيضاً يساعد على تحديد الطبيعة الدقيقة لجريمته. الكريكت ليست في الحقيقة لعبة شعبية جداً في إنكلتوا -هي ليست شعبية ككرة القدم في أي مكان مثلاً- لكنها تعبر عن صفة ملحوظة جيداً في الشخصية الإنكليزية، وهي النزعة إلى إعطاء قيمة "للشكل" أو "الأسلوب" أكبر وأهم من النجاح. في عيون أي محب حقيقي للعبة الكريكت، يمكن لجولة من عشرة أدوار أن تكون أفضل من جولة من مئة دور: الكريكت واحدة من الألعاب القليلة جداً التي يستطيع الهاوي فيها التفوق على المحترف. إنها لعبة مملوءة بالآمال اليائسة وتبدلات الحظ المثيرة المفاجئة وقواعدها محددة جداً، لذلك يمكن تأويلها كقضية أخلاقية جزئياً. فمثلاً حين مارس لاروود رمي كرة بوديلاين في أستراليا، لم يكن فعلياً يكسر أي قاعدة: كان يفعل شيئاً لم "يكن من لعبة الكريكت". بما أن الكريكت تستغرق الكثير من الوقت وهي لعبة مكلفة مالياً نوعاً ما، فهي لعبة الطبقة العليا على الأغلب، لكنها بالنسبة إلى الأمة كلها ترتبط بمفاهيم مثل "شكل جيد"، "العب اللعبة" إلخ، وقد انحدرت في شعبيتها كما انحدر عرف "لا تضرب رجلاً حين يكون ملقى على الأرض" إنها ليست من ألعاب القرن العشرين ويكرهها كل أصحاب التفكير الحديث تقريباً. لقد بذل النازيون مثلاً الجهود لتثبيط الكريكت التي حظيت بموطئ قدم معين في ألمانيا قبل وبعد الحرب الأخيرة. حين صور هورنانغ رافيلز كلاعب كريكت بالإضافة إلى لص، لم

يكن يقدمه بقناع مقبول ظاهرياً فقط، وإنما كان يرسم التباين الأخلاقي الحاد الذي استطاع تخيله أيضاً.

إن رافيلز ليس أقل من آمال كبيرة أو الأحمر والأسود، فهو قصة تكبّر وغطرسة، ونالت قدراً كبيراً من تقلقل مركز رافيلز الاجتماعي. ولو كان كاتباً أقل نضجاً لجعل "اللص الجنتلمان" عضواً في طبقة النبلاء أو على الأقل البارونات، لكن رافيلز من أصول من أعلى الطبقة الوسطى، وكان مقبولاً من الطبقة الأرستقراطية بسبب سحره الشخصي فقط. "كنا في مجتمع لكننا لسنا منه" هذا ما قاله لبوني في نهاية الكتاب تقريباً و"لقد دُعيت لأنني ألعب الكريكت". هو وبوني يقبلان بقيم "مجتمع" من غير اعتراض، وسيستوطنان فيه بشكل دائم إن استطاعا الهرب بنهب حمل كبير. كان الخراب الذي يهددهما دائماً هو الأفريقي الأمريكي لأنهما "يتتميان" بشكل يثير الريبة. الدوق الذي يؤدي عقوبة حبس يظل دوقاً، بينما الرجل العادي المديني لا يظل مدينياً إلى الأبد إن لحق به العار مرة. إن الفصول الختامية من الكتاب، حين يكتشف أمر رافيلز ويعيش تحت اسم منتحل، فيها شعور دمار الالهة وجو عقلي أشبه بقصيدة كيبلينغ، خادم ضباط الصف -جنتلمان رانكرز:

نعم، جندي من القوات -الذي سير خيوله الستة! إلخ.

ينتمي رافيلز بشكل لا يمكن إلغاؤه إلى "كتائب الملعونين". ظل يستطيع القيام بعمليات سطو ناجحة لكن ليس هناك مجال للعودة إلى الفردوس، الذي يعني بيكاديلي والام سي سي. بناء على قواعد المدرسة العامة، لا يوجد سوى وسيلة واحدة في إعادة التأهيل: الموت في القتال. يموت رافيلز وهو يقاتل ضد البوير (كما يتنبأ القارئ هذا من البداية) وفي عيون كل من بزني وخالقه هذا يلغي جرائمه.

كلاهما رافيلز وبوني، طبعاً، خاليان من الإيمان الديني، وليس لديهما قواعد أخلاقية حقيقية، مجرد قواعد معينة للسلوك الذي أدركاه بطريقة شبع غريزية. لكن هنا تماماً يصبح الفرق الأخلاقي بعمق بين رافيلز ولا زهور أوركيد ظاهراً. رافيلز وبوني، أخيراً، هما سيدان، وهكذا معايير كالتي لديهم يجب ألا تنتهك. أشياء محددة "لم يتم عملها" وفكرة فعلها قلما تظهر. رافيلز لا ينتهك آداب الضيافة مثلاً. سوف يرتكب عملية سطو في بيت كان يقيم فيه كضيف، لكن الضحية يجب أن تكون ضيفاً مماثلاً وليس المضيف. هو لن يرتكب جريم قتل

[لاحظ في الأسفل]، ويتجنب العنف أينما كان ممكناً، ويفضل أن ينفذ سرقاته أعزل بلا سلاح. هو يعتبر الصداقة شيئاً مقدساً، وشهم، لكن ليس أخلاقياً في علاقاته مع النساء. يجازف في مخاطر إضافية باسم "الروح الرياضية" وأحياناً لأسباب جمالية. وأهم من كل شيء، هو وطني بشكل شديد. هو يحتفل بالعيد الماسي ("لستين سنة، بوني، كنا محكومين من قبل أرفع ملكية عرفها العالم") بإرساله إلى الملكة بواسطة البريد كأساً ذهبية أثرية سرقها من المتحف البريطاني. هو يسرق، بدوافع سياسية جزئياً، لؤلؤة يرسلها الإمبراطور الألماني إلى أحد أعدائه في بريطانيا، وحين تبدأ حرب البوير تسوء فكرته الوحيدة لإيجاد طريقه إلى خط القتال. في الجبهة يكشف جاسوساً بكلفة كشف هويته هو، ومن ثم يموت بشكل مجيد برصاصة بويرية. في هذه التركيبة من الجريمة والوطنية، هو يشبه معاصره القريب أرسين لوبين الذي يقرع وينتقد الإمبراطور الألماني ويمسح ماضيه القذر بتطوعه في الفيلق الأجنبي.

[ملاحظة: رافيلز فعلياً يقتل رجلاً واحداً وهو مسؤول بشكل متعمد تقريباً عن موت رجلين آخرين. لكن ثلاثتهم أجانب وتصرفوا بطريقة تستحق الشجب الشديد، وفي مناسبة واحدة أيضاً فكر بقتل مبتز بلاكميلر. على كل هو تقليد راسخ في قصص الجرائم أن قتل مبتز "لا يؤثر". (حاشية المؤلف، ١٩٤٥)]

من المهم أن نلاحظ أن جرائم رافيلز بالمعايير الحديثة جرائم تافهة. مجوهرات بقيمة أربعمائة جنيه تبدو له غنيمة ممتازة، ولكن القصص مقنعة في تفاصيلها المادية. هي تحتوي على إثارة قليلة جداً -جثث قليلة جداً وبلا دماء أو جرائم جنسية أو سادية أو انحرافات من أي نوع. أربعمائة جنيه من النوع الصغير جداً. يبدو أن الوضع فيما يتعلق بقصص الجرائم بأي مقياس في مستوياتها العليا، زاد بشكل كثير تعطشها للدم أثناء العشرين سنة الأخيرة. إن بعضاً من القصص البوليسية المبكرة لا تحتوي على الجريمة حتى، وقصص شارلوك هولمز مثلاً ليست كلها جرائم قتل وبعض منها لا تعالج الجريمة الاتهامية حتى. كذلك الأمر مع قصص جون ثورندايك أيضاً، بينما قصص ماكس كارودز القليل والثانوي منها جرائم قتل. لكن منذ عام ١٩١٨ اصبحت القصة البوليسية التي لا تحتوي على جريمة قتل، نادرة. كما استغلت أشد التفاصيل المثيرة للاشمئزاز لتقطيع الأوصال وإخراج الجثث من القبور بشكل مشترك. فمثلاً بعض من قصص بيتر ويمسي تظهر اهتماماً مرضياً جداً بالجثث. لقد كتبت قصص

رافيلز من وجهة نظر الجاني، وهي معادية للمجتمع أقل بكثير من الكثير من القصص الحديثة التي كتبت من وجهة نظر البوليس السري. إن الانطباع الرئيسي التي تتركه خلفها صبيانية غير ناضجة، وهي تنتمي إلى زمن كان لدى الناس فيه معايير، رغم أنها معايير غبية. العبارة الرئيسية هي "لم يهلك" إن الخط الذي رسموه بين الخير والشر لا معنى له مثل تابو بولينيزي، لكن على الأقل له ميزة مثل التابو في قبوله من قبل الكل.

الكثير جداً من أجل رافيلز، أما الآن فقفزة في المبولة: **لا زهور أوركيد للآنسة بلانديش** بقلم جيمس هادلي تشيز التي نشرت في عام ١٩٣٩ ويبدو أنها حظيت بأكبر شعبية لها في عام ١٩٤٠ أثناء معركة بريطانيا والغارات الجوية. ملخص قصتها هو التالي:

الآنسة بلانديش ابنة ميلونير خطفت من قبل أفراد عصابة فوجئوا وقتلوا من قبل عصابة أكبر وأفضل تنظيماً على الفور تقريباً. حجزوها من أجل فدية وانتزعوا نصف مليون دولار من والدها. خطتهم الأصلية كانت لقتلها حالما يقبضوا مال الفدية، لكن الحظ يبقيها حية. أحد أفراد العصابة شاب يدعى سالم الذي تألف ابتهاجه الوحيد في غرز السكاكين في بطون الناس. في طفولته تخرج بتقطيع الحيوانات الحية بمقص صدئ. سالم عاجز جنسياً، لكنه يأخذ نوعاً من الرغبة بالآنسة بلانديش. أم سالم التي هي العقل الحقيقي للعصابة، ترى في هذا فرصة لشفاء سالم من عجزه، وتقرر الاحتفاظ بالآنسة بلانديش في حجز حتى ينجح سالم في اغتصابها. بعد محاولات كثيرة وإقناع كثير يشمل جَلْد الآنسة بلانديش بقطعة من أنبوب خرطوم يتم الاغتصاب. في هذا الوقت، يستأجر والد الآنسة بلانديش شرطياً سرياً. وبواسطة الرشوة والتعذيب ينجح الشرطي السري ورجال الأمن في إيجاد العصابة والقبض على أفرادها والقضاء عليهم. يفر سليم مع الآنسة بلانديش ويُقتل بعد اغتصاب أخير، ويحضر البوليس السري لإعادة الآنسة بلانديش إلى عائلتها، لكنها في هذا المرة أظهرت استلطافاً للملاطفات وعناق سالم [لاحظ في الأسفل] وشعرت أنها عاجزة عن العيش بدونه، لهذا تقفز من نافذة ناطحة سحاب.

نقاط عديدة أخرى تحتاج إلى الملاحظة قبل أن يستطيع المرء فهم كل مضامين هذا الكتاب. لنبدأ مع قصتها المركزية التي تحمل شبهاً ملحوظاً جداً مع رواية وليام فوكنر الحرم (الملجأ). ثانياً هي ليست كما يتوقع المرء عملاً مبتذلاً وسرقة جاهل، بل قطعة رائعة من الكتابة بدون

أي كلمة خاوية أو ملاحظة فظة في أي مكان فيها. ثالثاً الكتاب كله، السرد والحوار أيضاً كتب باللغة الأمريكية، علماً أن المؤلف رجل إنكليزي لم يذهب إلى الولايات المتحدة قط (في اعتقادي)، ولكن يبدو أنه قام بانتقال عقلي تام إلى عالم الجريمة والرذيلة الأمريكي. رابعاً، بيع من الكتاب حسب ناشريه ما لا يقل عن نصف مليون نسخة.

لقد أوجزت الحبكة القصصية للتو، لكن الموضوع الرئيسي أقذر ووحشي أكثر مما يوحي هذا بكثير. الكتاب يحتوي على ثمانية جرائم قتل مستفيضة وعدد لا يمكن تحديده من أعمال القتل العرضية والجروح ونبش الجثث (بمذكر حريص للرائحة النتنة) وجلد الآنسة بلانديش وتعذيب امرأة أخرى بأعقاب السجائر المشتعلة وفعل تعرٍ ومشهد من الدرجة الثالثة بقسوة لم يسمع بها، والكثير غير ذلك من النوع نفسه وتفترض ثقافة جنسية كبيرة لدى قرائها (هناك مشهد مثلاً فيه أحد أعضاء العصابة بدافع ماسوشي كما يفترض، يبلغ هزة الجماع في اللحظة التي يطعن فيها) ويعتبر الفساد التام والأنانية معياراً للسلوك البشري كشيء مسلم به. فالبوليس السري مثلاً وغد حقيقي تقريباً كأفراد العصابة وتحركه نفس الدوافع تقريباً، فهو يسعى مثلهم وراء الـ "خمسمائة دولار". من الضروري لأحداث القصة أن يكون السيد بلانديش متلهفاً لاستعادة ابنته، لكن باستثناء هذا، فإن أشياء مثل الحب والصداقة والسجية الطيبة أو حتى الكياسة العادية لا تدخل وتسجل في القصة ولا النشاط الجنسي العادي إلى مدى كبير كذلك. إن الدافع الوحيد الذي يعمل خلال القصة كلها، هو السعي وراء السلطة.

[ملاحظة: قراءة أخرى للفصل الأخير ممكنة. قد يعني أن الآنسة بلانديش حبلى. لكن التفسير الذي أعطيته آنفاً يبدو منسجماً أكثر مع الوحشية العامة للكتاب. (حاشية المؤلف)، ١٩٤٥]

يجب أن يُلاحظ أن الكتاب ليس بالمفهوم العادي للفن الإباحي، وعلى خلاف أغلب الكتب التي تعالج موضوع السادية الجنسية، يؤكد الكتاب على القسوة وليس على المتعة. سالم مغتصب الآنسة بلانديش له "شفتان مبللتان باللعاب الذي يسيل منهما": هذا مقزز، وكان القصد منه أن يكون مقززاً، لكن المشاهد التي تصف القسوة تجاه النساء روتينية نسبياً وتنقصها الحماسة. الجزء الأهم والأكثر متعة في الكتاب هي أعمال القسوة المرتكبة من قبل رجال على رجال آخرين، وقبل كل شيء استجواب فرد العصابة ايدي شولتز الذي رُبط بكرسي وجلد على رغامته بهراوات وكُسرت ذراعاه بضربات حديدة حين حرر نفسه. في

كتب أخرى للسيد تشيز مثل كتاب هو لن يحتاجها الآن، أريد للبطل أن يكون شخصية متعاطفة وربما نبيلة حتى يُوصف وهو يدوس على وجه شخص، ثم بعد ذلك يسحق فم الرجل إلى الداخل ويسحنه بإدخال كعب حذائه فيه وتدويره، وحتى حين لا يخطر هذا النوع من الأحداث المادية، يبقى الجو العقلي لهذه الكتب نفسه دائماً. إن موضوعها الرئيسي هو الصراع من أجل السلطة وانتصار القوي على الضعيف. أفراد العصابة الكبيرة يكنسون أفراد العصابة الصغيرة بلا رحمة، وسمك الكركي يلتهم السمك الصغير في البركة، ورجال الأمن يقتلون المجرمين بقسوة مثلما يقتل أبو الشص سمك الكركي. إذا أيد المرء رجال الأمن ضد أفراد العصابة في النهاية، فذلك فقط لأنهم أكثر تنظيماً وقوة، ولأن القانون في الحقيقة شغب أكبر من الجريمة. القوة هي الحق والويل للمغلوب.

كما ذكرت للتو حظي لا زهور أوركيد برواجه الأكبر في عام ١٩٤٠ رغم أنه كان يعرض كمسرحية بشكل ناجح في وقت لاحق من السنة. وكان في الحقيقة واحداً من الأشياء التي ساعدت لمواساة الناس من ضجرهم من القصف. في وقت مبكر من الحرب نشرت ذا نيويوركر صورة لرجل صغير الحجم يقترب من كشك لبيع الصحف فرش بصحف مع عناوين كهذه "معركة دبابات كبيرة في شمال فرنسا" و"معركة بحرية كبرى في بحر الشمال" و"معارك جوية هائلة فوق القنال" إلخ إلخ. كان الرجل الصغير يقول "قصص إثارة وحركة من فضلك". يمثل الرجل الصغير كل الملايين المخدرة الذين بالنسبة إليهم أفراد العصابات وجلبات ملاكمة الرهان "أصدق" و"أمتن" من أشياء كأشياء الحروب والثورات والزلازل والمجاعات والأوبئة. من وجهة نظر قارئ قصص الأحداث المثيرة، وصف غارات لندن أو الصراعات السرية للأطراف الأوروبية عبارة عن "هراء مخنث". من الجانب الآخر تبدو معارك تافهة بالمسدسات في شيكاغو تخلف عشرات القتلى "متينة" وحقيقية. هذه العادة الذهنية منتشرة بشكل زائد الآن. جندي ينبطح في خندق موحل مع رصاصات بندقية آلية تفرقع فوق رأسه بقدم أو اثنين يبعد ضجره الذي لا يطاق بقراءة قصة عن عضو عصابة أمريكي. وما الذي يجعل تلك القصة مثيرة جداً؟ بالضبط حقيقة أن الناس يطلقون النار على بعضهم البعض ببنادق آلية! لا الجندي ولا أي أحد يرى أي شيء غريب ولافت في هذا. من المسلم به أن الرصاصة الوهمية تثير الرعشة أكثر من الرصاصة الحقيقية.

التفسير الواضح: في الحياة الحقيقية يكون المرء ضحية سلبية عادة، بينما في قصة المغامرات يستطيع المرء اعتبار نفسه مركز الأحداث. لكن هناك أكثر من هذا فيها. هنا من الضروري أن نشير ثانية إلى حقيقة غريبة في لا زهور أوركيد كونها كتبت مع أخطاء فنية ربما، لكن بالتأكيد بمهارة كبيرة باللغة الأمريكية.

يوجد هناك في أمريكا أدب ضخم من نفس طابع لا زهور أوركيد تقريباً. بمعزل تام عن الكتب يوجد عدد كبير من "المجلات التي تطبع على ورق خشن" تتدرج لتقدم أنواعاً مختلفة من الفنتازيا (الخيال الجامح)، لكنها كلها تقريباً لها نفس الجو العقلي. قلة منها تدخل في الأدب الإباحي بشكل مباشر، لكن الغالبية الكبرى تستهدف بوضوح تام الساديين والماسوشيين. تباع النسخة بثلاث بنسات تحت عنوان يانك ماغز [لاحظ في الأسفل] أشياء كانت تتمتع بشعبية ضخمة في إنكلترا، لكن حين جف المخزون بسبب الحرب لم يقدم بديلاً مرضياً. النسخ الإنكليزية المقلدة "لمجلات الورق الخشن" موجودة الآن، لكنها أشياء هزيلة بالمقارنة مع الأصلية. أفلام اللصوص والمجرمين الإنكليزية لم تقترب أبداً من نظيراتها الأمريكية في وحشيتها. إن سيرة السيد تشيز تظهر مدى التأثير الأمريكي البعيد. ليس في كونه يعيش في حياة خيالية في عالم الجريمة والرذيلة في شيكاغو فقط، وإنما يستطيع أن يعتمد على مئات آلاف القراء الذين يعرفون ما هو المقصود بـ "كليشوب" نوادي التعري الليلية أو "هوتسكوات" الكرسي الكهربائي، ولا يضطرون إلى إجراء حساب عقلي حين يجابهون بعبارة "فيفتي غراند" خمسين دولار، ويفهمون من لمحة جملة مثل "جوني كان لاعب ورق ومتقدماً بوثبتين فقط عن نت-فاكتوري مشفى المجانين". من الواضح أن هناك أعداداً كبيرة من الناس الإنكليز الذين تأمركوا لغوياً جزئياً، ويجب أن يضيف المرء وفي وجهة النظر الأخلاقية إذ لم يكن هناك احتجاج شعبي ضد لا ألوان أرجوانية لقد سحب الكتاب في النهاية، لكن فقط حين أثار عمل لاحق الآنسة كالاغان تسير إلى كارثة انتباه السلطات إلى كتب السيد تشيز. الحكم من خلال محادثات عرضية آنذاك، حصل القراء العاديون على رعشة معتدلة من فحش لا ألوان أرجوانية لكنهم لم يروا شيئاً غير مرغوب فيه في الكتاب ككل. وتصور أناس كثيرون بالصدفة أنه كان كتاباً أمريكياً أعيد إصداره في إنكلترا.

[ملاحظة: قيل إنه استورد إلى بلاده كثقل موازن بسبب سعره المتدني ومظهره الضخم. منذ الحرب كانت السفن تفرش بشيء أكثر نفعاً، ربما الحصى. (ملاحظة المؤلف)]

الشيء الذي يجب على القارئ العادي أن يعترض عليه -بشكل شبه مؤكد، وكان يجب أن يعترض عليه قبل عقود قليلة من الزمن- هو الموقف الملتبس تجاه الجريمة. إنه متضمن عبر **لا ألوان أرجوانية** أن تكون مجرماً تستحق التوبيخ فقط، بمعنى أن ذلك لا يكسب الكثير. أن تكون رجل أمن يُكسب أكثر، لكن ليس هناك فرق أخلاقي بما أن رجال الشرطة يستخدمون طرقاً إجرامية. في كتاب **هو لن يحتاجها الآن**، يختفي التمييز بين الجريمة ومنع الجريمة عملياً. هذا رحيل جديد للأدب القصصي الإنكليزي المثير، الذي كان فيه دائماً حتى وقت حديث فرق واضح بين الصح والخطأ واتفاق عام بأن الفضيلة يجب أن تنتصر في الفصل الأخير. كتب إنكليزية تمجد الجريمة (الجريمة الحديثة أي-القراصنة وقطاع الطرق يكونون مختلفين) نادرة جداً. حتى كتاب مثل رافيلز، كما أشرت، تحكمه محرمات (تابوهات) جبارة. ومفهوم بشكل واضح أن جرائم رافيلز يجب أن يُكفر عنها عاجلاً أو آجلاً. في أميركا في الحياة كما في الأدب القصصي، نزعة التسامح مع الجريمة وحتى الإعجاب بالمجرم طالما هو يحقق نجاحاً أكثر من ملحوظ. في الحقيقة، في النهاية وجهة النظر هذه هي التي مكنت الجريمة من الازدهار بهذا المقياس الضخم. كُتبت كتباً عن آل كابوني لا تختلف في النغمة عن الكتب التي كتبت عن هنري فورد وستالين ولورد نورثكليف، وبقية اللواء من "الكوخ الخشبي إلى البيت الأبيض". وبالانتقال إلى ثمانين سنة إلى الوراء، يجد المرء مارك توين يتبنى نفس الموقف تقريباً نحو قاطع الطرق المثير للاشمئزاز سليد، بطل الثمان والعشرين جريمة قتل، ونحو المجرمين المتهورين الغربيين عموماً. كانوا ناجحين، هم "أحسنوا صنيعاً" لذلك هو أعجب بهم.

في كتاب **لا ألوان أرجوانية**، فإن المرء ليس كما في الأسلوب القديم لقصص الجرائم، يفر ببساطة من واقع ممل إلى عالم خيالي من الأكشن، وإنما يفر أساساً إلى قسوة وانحراف جنسي. **لا ألوان أرجوانية** يستهدف غريزة السلطة التي ليست في قصص رافيلز أو شارلوك هولمز. في الوقت نفسه، فإن الموقف الإنكليزي تجاه الجريمة ليس أرفع من الموقف الأمريكي كثيراً مثلما أشرت ضمناً. إنه ممزوج بعبادة القوة، وأصبح ملحوظاً أكثر في السنوات العشرين الأخيرة. كاتب يستحق الدراسة والتفحص إدغار والاس خصوصاً في كتب أنموذجية مثل

الخطيب وقصص السيد جيه جي ريدر. والاس واحد من كتاب قصص الجرائم الأوائل الذي كسر التقليد القديم للمخبر السري وابتعد عنه وجعله شخصيته المركزية ضابط سكوتلانديارد. شارلوك هولمز هو هاوٍ يحل مشاكله بدون العون من رجال الشرطة، وفي القصص المبكرة ضدهم حتى. إضافة إلى ذلك هو مثل لويين مفكر أساساً حتى إنه عالم. هو يفسر منطقياً الواقع المدرك وعقليته تتباين باستمرار مع الطرق الروتينية لرجال الأمن. عارض والس بقوة هذا القدح والذم كما اعتبره من سكوتلانديارد. وفي مقالات صحفية عديدة خرج من مساره ليشجب هولمز بالاسم. مثاله الأعلى كان المخبر -المفتش الذي يمسك بالمجرمين، ليس لأنه ذكي عقلياً، وإنما لأنه جزء من منظمة جبارة. من هنا، فإن الحقيقة الغريبة أن في قصص ولاس الأكثر تميزاً لا تلعب "الإشارة" و"الاستدلال" أي دور. المجرم دائماً مهزوم من قبل صدفة لا تصدق أو لأن رجال الأمن يعرفون كل شيء عن الجريمة مسبقاً بطريقة غير مفسرة. نغمة القصص توضح تماماً أن إعجاب والاس برجال الأمن هو عبادة التنمر. مخبر من اسكوتلانديارد هو النوع الأقوى من الكائنات التي يستطيع تخيلها، بينما شخصيات المجرمين في عقله كخارجين عن القوانين، ويُسمح بكل شيء ضدهم مثل العبيد المحكوم عليهم في المجتلد الروماني. رجال أمنه يتصرفون بشكل وحشي أكثر بكثير مما يفعله رجال الأمن البريطانيون في الحياة الحقيقية- يضربون الناس بدون استفزاز ويطلقون مسدساتهم عند آذانهم ليرعبوهم وهلم جرا- وبعض القصص تظهر سادية فكرية مخيفة. (مثلاً، والاس يحب أن يرتب الأشياء لكي يشنق النذل في نفس اليوم الذي تتزوج فيه البطلة) لكنها سادية تقلد الموضة الإنكليزية: أي أنها لاواعية ولا يوجد أي جنس صريح فيها وهي تظل ضمن حدود القانون. الجمهور الإنكليزي يتسامح مع قانون جنائي قاس ويبتهج بمحاكمات جرائم القتل غير العادلة: لكن يظل ذلك أفضل في ظني من التسامح مع الجريمة أو الإعجاب بها. إن كان على المرء أن يعبد متنمراً، فمن الأفضل أن يكون رجل أمن بدلاً من عضو عصابة. لايزال والاس محكوماً إلى حد ما بمفهوم "لم ينجز". في **لا ألوان أرجوانية** أي شيء "ينجز" طالما أنه يؤدي إلى القوة. كل العقبات على الأرض وكل الدوافع تخرج إلى العلن. تشيز عرض منذر أسوأ من والاس، إلى درجة أن كل ما في المصارعة أسوأ من الملاكمة، أو الفاشية أسوأ من الديمقراطية الرأسمالية.

في استعارة من قصة وليام فوكنر الحرم، يأخذ تشيز الحبكة فقط، لكن الجو العقلي للكتابين ليس متشابهاً، فتشيز يستمد من مصادر أخرى في الحقيقة. وهذا الاقتباس القليل والاستعارة بالخصوص رمزي فقط، إذ يرمز إلى تبسيط الأفكار وإفقارها الذي يحدث دائماً، وربما يحدث بشكل أسرع في عصر الطباعة. وُصف تشيز بـ "فوكنر الجماهير"، لكنه كان أدق لو وصف بكارليل الجماهير. هو كاتب مشهور-هناك الكثير من هذا النوع في أميركا لكنهم لايزالون قلة نادرة في إنكلترا- لحق بما يدعى الآن "بالواقعية"، يعني العقيدة التي ترى أن القوة هي الحق. إن تطور "الواقعية" كان الميزة البارزة الكبيرة للتاريخ الفكري لعصرنا. لماذا هذا يجب أن يكون مسألة معقدة؟ الترابط بين السادية والماسوشية وعبادة النجاح وعبادة السلطة والقومية ونظام الحكم الشمولي، موضوع ضخم، قلما تخدشت حوافه، وحتى ذكره يعتبر فظاً نوعاً ما. خذ أول مثال يخطر بالبال كما أعتقد: لم يبرز أي أحد أبداً العنصر السادي والماسوشي في أعمال برنارد شو، ولم يوحِ بأن هذا له علاقة بإعجاب شو بالحكام الديكتاتوريين. تتساوى الفاشية على نحو طليق بالسادية غالباً، لكن دائماً من قبل أناس لا يرون أي شيء خطأ في عبودية ستالين. الحقيقة هي طبعاً أن مفكرين إنكليز لا يحصون من الذين يقبلون مؤخرة ستالين، ليسوا مختلفين عن الأقلية منهم الذين يقدمون ولاءهم لهتلر أو موسوليني، ليس من الخبراء الأكفاء الذين يبشرون بـ"لكمة قاضية" أو "دافع" أو "شخصية" أو "تعلم لتكن الرجل النمر" في عشرينات القرن العشرين، ولا من ذلك الجيل الأقدم من المفكرين مثل كارليل وكريسي والبقية الذين طأطؤوا رؤوسهم أمام العسكرية العدوانية الألمانية. كلهم يعبدون السلطة والقسوة الناجحة. من المهم أن نلاحظ أن عبادة القوة تميل إلى الاختلاط مع حب القسوة والشر ومن أجلهما فقط. الكل يُعجب بالطاغية إن صدف وكان محتالاً ملطخاً بالدم أيضاً. و"الغاية تبرر الوسيلة" غالباً ما تصبح بالنتيجة "الوسيلة تبرر نفسها بشرط أن تكون قذرة كفاية". هذه الفكرة تلون المنظر لكل المتعاطفين مع النظام الشمولي، ويفسر مثلاً البهجة الحقيقية التي رحب بها كثير من المفكرين الإنكليز بالميثاق النازي-السوفييتي. كانت خطوة مفيدة بشكل مريب للاتحاد السوفييتي فقط، لكنها كانت غير أخلاقية تماماً، ولذلك نالت الإعجاب. أما تفسيراتها الكثيرة والمتناقضة، فيمكن أن تأتي لاحقاً.

حتى وقت قريب، كانت قصص المغامرات المميزة للشعوب الناطقة بالإنكليزية قصصاً يقاتل فيها البطل ضد المحاباة. هذا صحيح بشكل كامل من روبين هود إلى البحار باباي. ربما الأسطورة الأساسية عن العالم الغربي هي جاك قاتل المارد، لكن لو توجهنا *برينغ أب تو* لنؤرخ هذا، لوجب أن يكون جاك قاتل القزم. ويوجد هناك أدب ضخم، يعلم بشكل صريح أو ضمني أن المرء يجب أن يقف إلى جانب الرجل الكبير ضد الصغير. أغلب مما يكتب الآن عن السياسية الخارجية مجرد زخرفة لهذا الموضوع ولمدة عقود عديدة، عبارات مثل "العب اللعبة"، "لا تضرب رجلاً وهو على الأرض" و"المسألة ليست كريكت" لم تفشل أبداً في أي واحدة من الادعاءات الفكرية والذرائع. ما هو جديد نسبياً أن تجد الأنموذج المقبول الذي وفقه (أ) الحق حق والخطأ خطأ، أياً كان الفائز، و(باء) الضعف يجب أن يُحترم ويختفي من الأدب الشعبي أيضاً. حين قرأتُ روايات دي إتش لورانس لأول مرة في عمر يقارب العشرين، احترتُ بحقيقة عدم وجود أي تصنيف للشخصيات في "خيرة" و"سيئة" بدا لورانس متعاطفاً معها كلها بالتساوي تقريباً، وهذا كان نادراً جداً، ما منحني الشعور بأنني ضيعت توجهاتي. اليوم لا أحد يفكر في البحث عن أبطال وأوغاد في رواية متسلسلة، لكن في الفن القصصي الرخيص مازال المرء يتوقع أن يجد فرقاً حاداً بين الصح والخطأ وبين الشرعية واللاشرعية. عوام الناس بالمجمل مازالوا يعيشون في العالم ذي الخير المطلق والشر الذي فر منه المفكرون منذ زمن بعيد. لكن شعبية وشهرة **لا ألوان أرجوانية** والكتب الأمريكية والمجلات التي تشبهه، تظهر السرعة الكبيرة التي يتقدم فيها مبدأ "الواقعية" ويحظى بالقبول.

لاحظ ذلك عدد كبير من الناس بعد قراءة **لا ألوان أرجوانية**، وقالوا لي: "إنها فاشية صرفة" هذا وصف صحيح، رغم أن الكتاب ليس فيه أي أدنى علاقة بالسياسة وبالقليل جداً مع المشاكل الاجتماعية والاقتصادية. إنها نفس العلاقة بالفاشية، مثل علاقة روايات ترولوب برأسمالية القرن التاسع عشر مثلاً. إنه حلم يقظة مناسب لعصر استبدادي شمولي. في عالمه المتخيل من اللصوص والعصابات، يمثل تشيز نسخة مقطرة من المشهد السياسي الحديث، الذي تعتبر فيه أشياء مثل قصف المدنيين بالقنابل واستخدام الرهائن والتعذيب للحصول على الاعترافات والسجون السرية وتنفيذ أحكام الإعدام من دون محاكمة والجلد بالهراوات المطاطية والإغراق بالمباول وسجلات منظمة من التزييف والإحصائيات والخيانة

والرشوة وبيع الوطن، أشياء عادية وحيادية أخلاقياً، وحتى إنها تنال الإعجاب حين تتم بطريقة كبيرة وجريئة. الرجل العادي ليس مهتماً مباشرة بالسياسة، وحين يقرأ يريد أن تترجم له الصراعات الراهنة في العالم إلى قصة بسيطة عن أفراد. يستطيع الاهتمام في بسالم وفينر، لأنه لم يستطع في الجي بي يو الشرطة السرية الروسية والجستابو الشرطة السرية النازية. الناس يعبدون القوة بالشكل الذي يستطيعون فهمه. هناك صبي في الثانية عشرة يعبد جاك ديمبسي، وهناك مراهق في أحياء الفقراء في غلاسغو يعبد آل كابوني، وهناك تلميذ طامح في كلية إدارة الأعمال يعبد لورد نوفيلد، كما أن قراء صحيفة نيو ستيتمان يعبدون ستالين. هناك فرق في النضج الفكري، لكن ليس في وجهة نظر أخلاقية. قبل ثلاثين سنة من الآن، لم يكن لأبطال القصص الشعبي أي علاقة مشتركة مع أفراد العصابات والمخبرين ومحبوبي الطبقة المثقفة الليبرالية الإنكليزية، وكانوا شخصيات متعاطفة نسبياً. بين هولمز وفينر من جانب وبين أبراهام لينكولن وستالين من الجانب الآخر، هناك هوة مماثلة.

لا يجب على المرء أن يستنتج الكثير جداً من نجاح كتب السيد تشيز، فربما تكون ظاهرة معزولة حدثت بالضجر المختلط ووحشية الحرب، لكن إن كانت مثل تلك الكتب قد تأقلمت في إنكلترا بشكل واضح بدلاً من أن تكون مجرد نصف مفهومة مستوردة من أمريكا، فسيكون هناك مبررات جيدة للفزع. باختيار رافلز كخلفية لأزهار أوركيد، فأنا عمداً اخترت كتاباً كان مريباً أخلاقياً بمقاييس عصرنا. رافلز كما أشرت ليس لديه نظام أخلاقي حقيقي أو دين أو وعي اجتماعي بالتأكيد. كل ما لديه مجموعة من انعكاسات لاإرادية للجهاز العصبي لرجل سيد جنتلمان. أعطه نقرة حادة على هذا المنعكس أو ذاك (هي تسمى "رياضة" و"صديق" و"امرأة" و"ملك" و"بلاد" وهكذا) وستحصل على رد فعل متنبأ به. في كتب السيد تشيز ليس هناك رجال سادة محترمون أو محرمات. التحرر تام. فرويد وميكيافيللي وصلا إلى الضواحي الخارجية للمدن. مقارنة الجو الطلابي في الكتاب الأول مع القسوة والفساد في الآخر، يدفع المرء للشعور بأن الغطرسة مثل النفاق قيد وكبح على السلوك الذي قلت قيمته من وجهة نظر اجتماعية.

كلمات جديدة

في الوقت الحاضر، إن تشكيل كلمات جديدة عملية بطيئة (لقد قرأت في مكان ما أن اللغة الإنكليزية تكسب حوالي ست كلمات وتخسر أربع في السنة الواحدة) ولا تصاغ كلمات جديدة عمداً إلا كأسماء لأشياء مادية. لم تصغ كلمات مجردة أبداً رغم أن كلمات قديمة (مثل "شرط" و"انعكاس" إلخ) تحرف إلى معاني جديدة لأغراض علمية. ما سوف أقوله هنا إنه من المعقول جداً أن نخترع مفردات ربما تصل إلى آلاف كثيرة من الكلمات تتعامل مع أجزاء من تجربتنا التي هي غير مذعنة للغتنا الآن عملياً. هناك اعتراضات كثيرة على الفكرة، وسأتعامل معها عند ظهورها. الخطوة الأولى أن نشير إلى نوع الغرض الذي لأجله نحتاج الكلمات.

يلاحظ كل من يفكر أن لغتنا عملياً غير مفيدة لوصف أي شيء يدور داخل ذهنه. هذا معترف به عموماً، فقد بدأ بعض الكتاب الماهرين ورفيعي المستوى (مثل ترولوب ومارك توين) سيرتيهما الذاتيتين بالقول إنهما لم ينويا وصف حياتيهما الداخليتين لأنهما ذاتا طبيعتين غير قابلتين للوصف. حالما نتعامل مع أي شيء ملموس أو مرئي (حتى هناك إلى درجة كبيرة- انظر إلى صعوبة وصف مظهر أي شخص) نجد أن الكلمات لا تشبه الحقيقة أكثر من شبه أحجار الشطرنج بالكائنات الحية. خذ حالة واضحة لا تثير قضايا جانبية، تأمل حلماً. كيف تصف الحلم؟ من الواضح أنك لم تصفه أبداً لعدم وجود كلمات في لغتنا تنقل جو الأحلام. طبعاً يمكنك إعطاء تقدير فج لبعض الوقائع في الحلم. يمكنك القول "حلمت بأنني أتمشى في ريجينت ستريت مع حيوان من القوارض يرتدي قبعة مستديرة سوداء إلخ، لكن ليس هناك وصف حقيقي للحلم، وحتى إن فسر عالم النفس حلمك على أساس "الرموز"، فهو يفعل ذلك بواسطة الحدس، لأن الخاصية الحقيقية للحلم التي تعطي القارض الشائك معناه الوحيد الفريد خارج عالم الكلمات. في الحقيقة إن وصف الحلم مثل ترجمة قصيدة إلى لغة أخرى من دون معرفة؛ إنها إعادة صياغة خالية من المعنى، إلا إذا كان المرء يعرف الأصل.

اخترت حلماً كمثال لا يمكن تفنيده، لكن لو كانت الأحلام فقط هي التي يتعذر وصفها، لربما كانت المسألة لا تستحق القلق. لكن، كما أشير مراراً وتكراراً، العقل اليقظ ليس مختلفاً كثيراً عن العقل الحالم كما يبدو أو كما نحب أن نزعم أنه يبدو. صحيح أن أغلب أفكار يقظتنا معقولة -أي يوجد في عقولنا نوع من رقعة شطرنج تتحرك فوقها الأفكار بشكل منطقي وحرفي؛ نحن نستعمل هذا الجزء من عقولنا لأي مشكلة فكرية مباشرة وندخل في عادة التفكير (أي التفكير في لحظات رقعة شطرنجنا) بأنه العقل كله. لكن من الواضح أنه ليس الكل. إن العالم المضطرب غير الحرفي اللفظي ينتمي إلى أحلام لا تغيب عن عقولنا أبداً، وإن كانت أي عملية حسابية ممكنة، أظن أننا سنكتشف أن نصف مقدار أفكار يقظتنا من هذا النوع. بالتأكيد الأفكار والأحلام تؤثر. حين نحاول التفكير شفوياً، فهي تؤثر على الأفكار الشفوية، وهي التي تجعل حياتنا الداخلية ذات قيمة إلى حد كبير. افحص أفكارك في أي لحظة عرضية، ستجد أن الحركة الرئيسية فيها تيار من أشياء مجهولة -مجهولة جداً لذلك المرء الذي لا يعرف إن كان سيسميها أفكاراً أو صوراً ذهنية أو مشاعر. في المقام الأول هناك أشياء تراها وأصوات تسمعها، يمكن وصفها بالكلمات، لكنها بمجرد أن تدخل إلى عقلك، تصبح شيئاً مختلفاً يتعذر وصفه تماماً[1] بالإضافة إلى ذلك هناك حياة حالمة يخلقها عقلك لنفسه من دون توقف -ولكن أغلب هذا تافه وينسى في الحال، وعلى الرغم من ذلك يحتوي على أشياء جميلة ومسلية..إلخ أبعد من أي شيء يُعبر عنه بالكلام. هذا الجزء غير اللفظي من عقلك والقسم الأهم منه حتى، هو مصدر كل الدوافع تقريباً. كل الذي تحب والذي لا تحب وكل المشاعر الجمالية وكل الأفكار حول الصح والخطأ (الاعتبارات الجمالية والأخلاقية لا سبيل إلى الفكاك منها بأي حال) تنبع من المشاعر التي يعترف بأنها أدق من الكلمات. حين تسأل "لماذا تفعل أو لا تفعل كذا وكذا؟" أنت تدرك بشكل ثابت أن مبررك الحقيقي لا يعبر عنه بالكلمات حتى حين لا تكون لديك رغبة في إخفائه، وبناءً عليه تبرر سلوكك بشكل مضلل تقريباً. أنا لا أعرف إن كان كل واحد سيعترف بهذا، وفي الحقيقة يبدو أن بعض الناس غافلون عن كونهم متأثرين بحياتهم الداخلية أو حتى امتلاكهم لأي داخل. لاحظت أن كثيراً من الناس يضحكون حين يكونون لوحدهم، وأعتقد أنه إن لم يضحك الإنسان حين يكون لوحده، فيجب أن تكون حياته الداخلية عقيمة. لكن كل إنسان فرد لديه حياة داخلية (روحية)

ومدرك للاستحالة العملية لفهم الآخرين أو أن يفهموه-عموماً ومن شبه عزلة النجوم التي تعيشها الكائنات البشرية. إن كل الأدب تقريباً عبارة عن محاولة للفرار من هذه العزلة بوسائل ملتوية -الوسائل المباشرة (كلمات في معانيها الأولية) عديمة الجدوى تقريباً.

الكتابة "التخيلية" هجوم من الخاصرة على مواقع حصينة من الواجهة الأمامية. إن الكاتب الذي يحاول أي شيء ليس غير "فكري" واهن، يستطيع أن ينجز القليل بالكلمات في معانيها الأولية. يباشر تأثيره إن كان له، باستخدام كلمات بطريقة خادعة ملتوية معتمداً على إيقاعها وهلم جرا، مثلما يعتمد في الكلام على النبرة والإيماءة. في حالة الشعر، هذا معروف جداً بأنه يستحق الجدال حوله. لا أحد له أصغر فهم للشعر يفترض أن:

ثبت القمر المميت كسوفه/ وسخر العرافون الحزينون من فالهم ونذيرهم.

ذلك يعني حقاً ما تعنيه الكلمات في معناها المعجمي. (قيل إن بيتي الشعر يشيران إلى الملكة إليزابيث التي تغلبت على حرجها الكبير بأمان). المعنى المعجمي فيه دائماً تقريباً شيء يتعلق بالمعنى الحقيقي، لكن ليس أكثر من علاقة "حكاية" صورة بتصميمها. والشيء نفسه مع النثر مع التغييرات الضرورية. فكر برواية، حتى الرواية التي لا علاقة لها بشكل ظاهر بالحياة الداخلية - ما يسمى "قصة مباشرة". تأمل مانون ليسكوت. لماذا اخترع المؤلف الهراء الطويل حول فتاة خائنة وراهب هارب؟ لأن لديه شعوراً محدداً، رؤيا، سمها ما شئت، ويعرف ربما بعد التجريب، أنه من العبث محاولة نقل هذه الرؤيا بوصفها كما يصف امرؤ جراد البحر لكتاب علم الحيوان. لكن بعدم وصفه، باختراع شيء آخر (في هذه الحالة رواية تشرد: في عصر آخر كان سيختار شكلاً آخر) يستطيع نقلها، أو نقل قسم منها. في الحقيقة، فإن فن الكتابة إلى حد كبير هو تحريف الكلمات، وسأقول حتى إنه كلما كان التحريف أقل وضوحاً، كان إنجاز العمل أتمّ وأشمل. كاتب يبدو أنه يلوي تويست أوت الكلمات من معانيها (جيرارد مانلي هوبكينز مثلاً) لو نظر المرء عن قرب، فهو فعلاً يقوم بمحاولة يائسة لاستخدامها بشكل مباشر. بينما كاتب يبدو ليس لديه أي خدع كانت، مثلاً كتاب القصائد الغنائية الشعبية القديمة، يقومون بهجوم من الخاصرة بشكل بارع مميز، لكن في حالة كتاب القصائد الغنائية، هذا بلا شك غير متعمد. طبعاً يسمع المرء الكثير من النفاق، إلى درجة أن الفن الجيد فن "موضوعي"، وكل فنان حقيقي يحتفظ بحياته الداخلية لنفسه. لكن الناس

الذين يقولون هذا لا يقصدونه. كل ما يقصدونه، هو أنهم يريدون أن يتم التعبير عن الحياة الداخلية بأسلوب ملتو غير مباشر بشكل استثنائي، كما في القصيدة الغنائية أو القصة المباشرة.

يكمن ضعف الطريقة غير المباشرة عدا عن صعوبتها، أنها تفشل عادة. كما أن بلادة الكلمات لمن ليس فناناً هاماً تفضي إلى تزييف متواصل. هل هناك أي أحد من الذين كتبوا الكثير من رسائل الحب شعر أنه قال بالضبط ما نوى أن يقوله؟ الكاتب يزيف نفسه عن عمد وغير عمد. عن عمد لأن الصفات العرضية للكلمات تغويه وترعبه دائماً وتبعده عن معناه الحقيقي. هو يحصل على فكرة، ويبدأ في محاولة التعبير عنها وينخدع في فوضى الكلمات المرعبة التي ينتج عنها عادة أنموذج يبدأ بتشكيل ذاته عرضياً تقريباً. أنه ليس الأنموذج الذي أراده بأي شكل، لكنه في كل الأحوال أنموذج ليس مبتذلاً أو كريهاً، إنه "فن جيد". هو يقبله لأن "الفن الجيد" هبة غريبة تقريباً من السماء، ويبدو تضييعها حين تمنح نفسها، أمراً مؤسفاً. أليس أي شخص بأي درجة من الأمانة العقلية مدركاً لقول الأكاذيب طوال اليوم في الحديث والكتابة، لأن الأكاذيب ببساطة تسقط في قالب فني حيث لا تفلح الحقيقة؟ لكن لو أن الكلمات تمثل المعاني بشكل تام ودقيق، كما يمثل الارتفاع ضرب القاعدة مساحة متوازي الأضلاع -على الأقل ضرورة الكذب لن توجد أبداً، وهناك تشويهات أخرى في عقل القارئ أو السامع، فهو يرى دائماً معاني ليست هناك، لأن الكلمات ليست قناة مباشرة للفكر والإيضاح الجيد، لهذا تقديرنا المفترض للشعر الأجنبي. نحن نعرف من سيرة عاشقة الدكتور واتسون حشو النقاد الأجانب بأن الفهم الصحيح للأدب الأجنبي مستحيل تقريباً، مع ذلك يتظاهر بعض الناس الجهلة تماماً بحصولهم على متعة واسعة من شعر في لغات أجنبية ولغات ميتة حتى. من الواضح أن المتعة التي يستمدونها تأتي من شيء لم يقصده الكاتب أبداً، ربما من شيء يجعله يتلوى في قبره من الغيظ، لو عرف أن هذا الشيء نسب إليه. أنا أقول جملة لاتينية نفسها وأكررها مراراً لمدة خمس دقائق لجمال كلمة ما فيها، لكن بأخذ الفجوة الزمنية والثقافية بعين الاعتبار وجهلي باللاتينية وحقيقية عدم وجود أحد يعرف كيف تلفظ اللاتينية حتى، فهل من الممكن أن الأثر الذي استمتعت به هو الأثر الذي سعى هوراس من أجله؟ كما لو أنني كنت في نشوة وابتهاج من جمال لوحة، وكل ذلك بسبب بعض لطخ وطرطشة من الدهان لصقت بقماش اللوحة عرضياً بعد مئتي سنة من رسمها. لاحظ أنني لا أقول إن الفن

سيتحسن بالضرورة لو نقلت الكلمات بشكل موثوق، لأن كل ما أعرفه أن الفن يزدهر على بساطة وغموض اللغة. أنا أنتقد فقط الكلمات في وظيفتها المفترضة كوسائل نقل ومركبات للأفكار. وتبدو لي لغتنا من وجهة نظر الدقة والتعبيرية أنها بقيت في العصر الحجري.

الحل الذي أقترحه أن نخترع كلمات جديدة بشكل متعمد، كما نخترع أجزاء جديدة لمحرك السيارة. أفترض أن مجموعة من المفردات وجدت لتعبر بدقة عن حياة العقل أو قسم كبير منها. أفترض أن هناك حاجة لعدم إفساد الشعور بأن الحياة لا يمكن التعبير عنها، وليس هناك غش في الخدع الفنية؛ إن التعبير هو ببساطة مسألة أخذ الكلمات الصحيحة ووضعها في مكانها مثل حل معادلة جبرية. أعتقد أن فوائد هذا ستكون واضحة، لكن الأقل وضوحاً هو الجلوس وصياغة كلمات جديدة عمداً في عملية عقلانية. وقبل الإشارة إلى طريقة يمكن صياغة كلمات مرضية ومناسبة فيها، من الأفضل أن أتعامل مع الاعتراضات التي يجب أن تثار.

لو قلت لأي شخص عاقل: "دعنا نشكل جمعية من أجل اختراع كلمات جديدة أدق"، فإنه سيعارض بأنها فكرة شخص غريب الأطوار أولاً، ومن ثم ربما يقول إن كلماتنا الحالية لو عوملت على نحو لائق، ستواجه كل الصعوبات والعوائق. (هذا الأخير مجرد اعتراض نظري. عملياً كل شخص يدرك عدم كفاية وملائمة اللغة -تأمل عبارات كهذه "الكلمات تفشل" و"هذا ليس ما قلته، هذه هي الطريقة التي قالها فيها" إلخ) لكن أخيراً سيعطيك جواباً مثل هذا تقريباً: "لا يمكن فعل الأشياء بتلك الطريقة المتحذلقة. اللغة لا تنمو إلا ببطء مثل الأزهار، ولا تستطيع لصقها مثل قطع آلة. أي لغة مختلقة يجب أن تكون بلا شخصية وبلا حياة- انظر إلى الإسبيرانتو.. إلخ. إن المعنى الكامل للكلمة يكون في ترابطاتها وتداعياتها المكتسبة ببطء.. إلخ"

في المقام الأول، هذه الحجة مثل أغلب الحجج التي تنتج حين يقترح أحد تغيير أي شيء، هي قول طويل ممل بعيد عما يجب أن يكون. حتى الآن لم نهيئ أنفسنا إلى ابتداع متعمد للكلمات، وكل اللغات الحية نمت ببطء ومصادفة، لذلك لا تستطيع اللغة أن تنمو بطريقة أخرى. في الوقت الحاضر، حين نريد أن نقول شيئاً فوق مستوى التحديد الهندسي، فنحن ملزمون باستحضار خدع بأصوات ومرافقات وتداعيات..إلخ، لذلك فهذه الضرورة متأصلة في طبيعة الكلمات. المغالطة المنطقية واضحة. لاحظ أنني حين اقترحت كلمات مجردة، فأنا أقترح توسيعاً

وإضافة لمراسنا الحالي وخبرتنا. لأننا الآن نصيغ كلمات جديدة تعبر عن أشياء مادية. الطائرات والدراجات تخترع، ونحن نخترع لها أسماء، وهو الشيء الطبيعي الذي يجب فعله. إنها مجرد خطوة لصياغة أسماء للأشياء التي لا اسم لها الآن والتي توجد في الذهن. يمكن أن تقول "لماذا لا تحب السيد سميث؟"، وأقول "لأنه كذاب وجبان..إلخ"، وأنا شبه متأكد أنني أعطيت السبب الخطأ. في ذهني الجواب على الشكل التالي "لأنه - نوع من الرجال"- يمثل شيئاً أفهمه وأنت ستفهمه لو استطعت أن أقوله لك. لماذا لا أجد اسماً لـ؟ إن الصعوبة الوحيدة هي التوافق حول ما نسميه. لكن قبل أن تظهر هذه الصعوبة بوقت طويل، فإن أنموذج الإنسان الكاتب والقارئ سوف يتراجع وينفر من هكذا أفكار كاختراع الكلمات مثلاً. سوف يخترع حجة مثل التي أشرت إليها آنفاً أو أخرى مغالطة ساخرة تقريباً. في الواقع كل هذه الحجج هراء. إن النفور يأتي من غريزة عميقة غير مبررة خرافية في أصلها. إنه الشعور أن أي مقاربة عقلية مباشرة لمصاعب المرء وأي محاولة لحل مشاكل الحياة كما يحل المرء معادلة، لن تؤدي إلى أي مكان، وعلى الأكثر وبالتأكيد غير آمنة. يستطيع المرء رؤية هذه الفكرة معبر عنها في كل مكان بطريقة غير مباشرة. كل الهراء الذي جرى الحديث عنه حول عبقريتنا القومية من أجل "التغلب على المصاعب والنجاح" وكل التصوف الملحد الهش الذي أثير ضد صلابة العقل ودقته، القصد الأساسي منه أن عدم التفكير هو الأسلم. أنا متأكد أن هذا الشعور يبدأ في الاعتقاد المشترك عند الأطفال بأن الهواء محمل بعفاريت منتقمة تنتظر لتعاقب الاقتراض والحدس(٢). يظل الاعتقاد حياً عند البالغين كخوف من التفكير العقلاني. أنا المولى ربكم، أنا رب غيور، والغرور يأتي قبل السقوط إلخ- وأخطر أشكال الغرور، هو الغرور الزائف للعقل. عوقب داوود لأنه أحصى الناس- أي لأنه استعمل عقله بشكل علمي. لهذا مثل هذه الفكرة تبدو بحد ذاتها تكفيرية كفكرة نمو الكائن في بيئة اصطناعية خارج الجسم بمعزل عن تأثيراتها الممكنة على صحة العرق والحياة العائلية إلخ. وبالمثل فإن أي هجوم على شيء أساسي مثل اللغة كما لو كان هجوماً على تركيبتنا العقلية نفسها، هو تجديف ولذلك خطر. إن إصلاح اللغة عملياً أن نتدخل بكلمات الرب - لكنني لا أقول إن أي شخص سيعبر عن ذلك في هذه الكلمات بالذات. وهذا الاعتراض مهم لأنه سيمنع أغلب الناس من التفكير بفكرة كهذه، كفكرة إصلاح اللغة مثلاً. وطبعاً الفكرة عبثية إن لم تتنطع لها أعداد كبيرة. لأن رجل واحد أو زمرة

تحاول أن تخترع لغة كما يفعل جيمس جويس الآن، في اعتقادي هي شيء سخيف مثل رجل واحد يلعب كرة القدم لوحده. المطلوب عدة آلاف من الناس الطبيعيين الموهوبين الذين يكرسون أنفسهم لاختراع كلمات بشكل جاد، كالأشخاص الذين يكرسون أنفسهم الآن لبحوث شكسبير. بفرض هذه الأشياء، أعتقد أننا نستطيع فعل الأعاجيب باللغة.

الآن بالنسبة إلى الوسائط. يرى المرء مثالاً عن الابتكار الناجح للكلمات رغم كونه فجاً وعلى صعيد قليل وسط أفراد عائلة كبيرة. كل العائلات الكبيرة لديها كلمتان أو ثلاث خاصة بها -كلمات اخترعوها وتنقل معاني غير معجمية مصقولة. يقولون "السيد سميث- ....- صنف من الرجال"، مستخدمين كلمة بيتية الصنع يفهمها الآخرون تماماً. هنا أيضاً ضمن حدود العائلة، توجد صفة تملأ واحدة من الثغرات التي تركها المعجم. إن الذي يمكن العائلة من ابتداع هذه الكلمات، هو أساس تجربتهم المشتركة. من دون تجربة مشتركة طبعاً ليس هناك كلمة يمكنها أن تعني أي شيء. لو قلت لي "كيف هي رائحة البرغموت؟" أقول "شيء مثل نبات رعي الحمام"، وطالما أنك تعرف رائحة زهرة رعي الحمام، فأنت تفهمني تقريباً. إن طريقة اختراع الكلمات لذلك، هي طريقة قياس وظيفي مبني على معرفة مشتركة جلية، ويجب أن يكون لدى المرء معايير يرجع إليها دون أي فرصة لسوء الفهم، كما تستطيع الرجوع إلى شيء مادي مثل رائحة نبات رعي الحمام. وفي الحقيقة يجب أن تنجح في إعطاء الكلمات وجوداً مادياً (مرئياً ربما). إن مجرد الحديث عن تعريفات لا طائل منها، يستطيع المرء أن يرى هذا كلما جرت محاولة تعريف إحدى الكلمات التي يستخدمها النقاد الأدبيون (مثل، "وجداني"[٣] و"سوقي" و"مرضي" إلخ). كلها لا معنى لها -أو بالأحرى لها معنى مختلف لكل واحد يستخدمها. إن المطلوب أن نظهر معنى في شكل جلي، ومن ثم حين يحدده أناس مختلفون في عقولهم ويميزونه كتحديد يستحق، يعطونه اسماً. إن المشكلة ببساطة تكمن في إيجاد طريقة يستطيع فيها المرء أن يعطي الفكرة وجوداً موضوعياً.

الشيء الذي يقترح نفسه فوراً هو كاميرا التصوير السينمائي. لا بد أن الجميع لاحظوا القوى غير العادية الكامنة في الفيلم -قوى التحريف وقوى الخيال الجامح في فرار عام من قيود العالم المادي. أعتقد أنه لضرورة تجارية فقط استخدم الفيلم بشكل أساسي لمحاكاة سخيفة للمسرحيات التمثيلية بدلاً من التركيز، كما ينبغي أن يكون على أشياء أبعد من خشبة

المسرح. لو استخدم بالشكل اللائق فإن الفيلم هو الوسيط الممكن الوحيد لنقل عمليات عقلية. الحلم مثلاً كما قلت آنفاً يتعذر وصفه بالكلمات تماماً، لكن يمكن تقديمه بشكل جيد على الشاشة. قبل سنوات شاهدت فيلماً لدوغلاس فيربانكس، كان جزء منه تمثيلاً لحلم، أغلبه طبعاً كان مزاحاً سخيفاً حول الحلم؛ حيث أنت بلا ثياب في مكان عام، لكن لبضع دقائق كان مثل الحلم بطريقة كانت مستحيلة على الكلمات أو حتى الصورة أو في الموسيقى كما أتصور. رأيت نفس النوع من الشيء بومضات في أفلام أخرى. كفيلم دكتور كاليغاري الذي كان جله مجرد سخافة، والعنصر الخيالي فيه استغل من أجل ذاته، ولم ينقل أي معنى محدد. لو اعتقد المرء أن هناك القليل جداً في العقل لا يمكن تمثيله بواسطة القوى المحرفة الغريبة للفيلم. إن المليونير الذي لديه كاميرا تصوير سينمائية خاصة به وصالة وكل الدعامات الضرورية وفرقة من الممثلين الأذكياء يستطيع، إن رغب، أن يجعل كل حياته الداخلية معروفة عملياً. يستطيع أن يعلل الأسباب الحقيقية لأفعاله بدلاً من إخبار الناس أكاذيب ممنطقة، ويبرز الأشياء التي يبقيها الإنسان العادي سرية ومقفلة لعدم وجود كلمات للتعبير عنها. عموماً، يمكنه أن يجعل الناس الآخرين يفهمونه. طبعاً هذا ليس مرغوباً من كل إنسان ينقصه النبوغ أن يقدم عرضاً لحياته الداخلية. ما هو مطلوب أن نكتشف المشاعر التي بلا أسماء المشتركة بين الناس. كل الدوافع القوية التي لا يمكن الإفصاح عنها بالكلمات والتي هي سبب في الكذب المتواصل وسوء الفهم والتي يمكن تعقبها وإعطاؤها أشكالاً مرئية متفقاً عليها وأسماء. أنا واثق أن الفيلم بقواه غير المحدودة تقريباً على التقديم، يستطيع أن يكمل هذا على أيدي المحققين الصحيحين، رغم أن وضع الأفكار في شكل مرئي لن يكون سهلاً دائماً - وفي الواقع قد يكون صعباً في البداية مثل أي فن آخر.

ملاحظة حول الشكل الجديد الحقيقي الذي يجب أن تأخذه الكلمات. تصور أن آلافاً كثيرة من الناس الذين يمتلكون الوقت الضروري والمواهب والمال تعهدوا لإجراء إضافات للغة، وافترض أنهم نجحوا في الاتفاق على عدد من الكلمات الضرورية الجديدة، لكن يظل عليهم أن يحترسوا من إنتاج مجرد لغة اصطناعية تسقط من الاستخدام فور اختراعها. يبدو لي أن للكلمة وحتى الكلمة غير المتواجدة بعد، شكل طبيعي أو بالأحرى أشكال طبيعية مختلفة في لغات مختلفة. إن كانت اللغات معبرة حقاً، فلن تكون هناك حاجة للعب على أصوات

الكلمات كما نفعل الآن، ولكن أعتقد أن هناك دائماً علاقة متبادلة بين صوت الكلمة ومعناها. نظرية مقبولة ومعقولة باعتقادي عن أصل اللغات هي التالية. قبل أن تكون لدى الإنسان البدائي كلمات، اعتمد بشكل طبيعي على الإيماء، وكان يصيح مثل أي حيوان آخر في لحظة الإيماءة لكي يجذب الانتباه. والآن يقوم المرء غريزياً بالإيماءة التي تناسب المعنى الذي يقصده، وتتوافق وتنسجم كل أجزاء جسده بما فيها اللسان. لهذا فإن حركات معينة للسان -أي أصوات معينة- تترافق مع معاني محددة. في الشعر يستطيع المرء الإشارة إلى كلمات بمعزل عن معانيها المباشرة، وتنقل على نحو نظامي أفكاراً بأصواتها. وهكذا: "أعمق من صوت أي فادن (أو سقطة عمودية)" (شكسبير -أكثر من مرة كما أعتقد) "فاقت غطسة الفادن سقوط حاد ومفاجئ" (ايه أي هاوسمان). "البحر المالح المبعد الذي لم تسبر أغواره" (ماثيو أرنولد) إلخ. بوضوح، بمعزل عن المعاني المباشرة، صوت بلم و بلن (لون أرجواني مزرق داكن -أو له علاقة مع البحر الذي لا قرار له. لذلك في تشكيل الكلمات الجديدة يجب على المرء الانتباه إلى ملائمة الصوت بالإضافة إلى دقة المعنى. لا يكفي كما حالياً أن نفصل كلمة جديدة لها أي جدة حقيقية من كلمات قديمة، ولا يكفي أيضاً تشكيلها من مجموعة اعتباطية من الأحرف. يجب على المرء أن يحدد الشكل الطبيعي للكلمة. مثل هذا الاتفاق على المعاني الطبيعية للكلمات، يحتاج إلى تعاون عدد كبير من الناس.

كتبت هذا كله على عجالة، وحين راجعته رأيت وجود بقع ضعيفة في برهاني وابتذالاً في أكثره. بأي حال، إن فكرة إصلاح اللغة بمجملها تبدو لأغلب الناس إما فكرة هواة أو فكرة غريبي أطوار. لكن الجدير بالاعتبار هو عدم الفهم المطلق الموجود بين الكائنات البشرية - على الأقل بين هؤلاء غير الحميمين جداً. في الوقت الحاضر كما قال صامويل بتلر، أفضل فن (أي ناقل الفكر الأمثل) يجب أن يبقى حياً من شخص إلى آخر. ليس من الضروري أن يكون الأمر هكذا لو كانت لغتنا أكثر ملاءمة. إنه شيء غريب عندما نعرف وتتعقد حياتنا، ولذلك كما أعتقد فإن عقولنا تتطور بسرعة كبيرة، وينبغي على اللغة وهي الوسيلة الأساسية للاتصال، ألا تتحرك إلا نادراً. لهذا السبب أعتقد أن فكرة الاختراع المتعمد للكلمات تستحق التأمل على الأقل.

مراجعة لكتاب كفاحي
بقلم ادولف هتلر

من علامات السرعة التي تتحرك فيها الأحداث، أن تحرر نسخة كتاب كفاحي الذي نشرته هيرست وبلاكيت في السنة الماضية، من دون أن تحذف منه شيئاً من وجهة نظر مؤيدة لهتلر. إن النية الواضحة للمترجم الذي كتب المقدمة والملاحظات، هي تخفيف نغمة الكتاب الوحشية التي قدمت هتلر بأقصى درجة ممكنة من الكرم واللطف. لأن هتلر مازال رجلاً محترماً في ذلك التاريخ. لقد سحق حركة العمل الألمانية، ومن أجل هذا كانت الطبقات المالكة راغبة في مسامحته في أي شيء تقريباً، فالتقى اليمين واليسار في الفكرة الضحلة جداً، التي رأت أن الاشتراكية القومية مجرد نسخة للنزعة المحافظة.

ثم تبين فجأة أن هتلر لم يكن رجلاً محترماً أبداً، ونتيجة لهذا الاكتشاف أصدرت هيرست وبلاكيت طبعة أخرى بغلاف جديد، شرحت فيه أن كل الأرباح التي سيحققها الكتاب ستكرس للصليب الأحمر. لكن من الدليل الداخلي لكتاب كفاحي، يصعب على المرء أن يصدق حدوث أي تغيير حقيقي في أهداف هتلر وآرائه. حين يقارن المرء بين أقواله التي تفوه بها منذ سنة تقريباً مع تلك التي أدلى بها قبل خمسة عشر عاماً، فإن الشيء اللافت هو صلابة عقله والطريقة التي لم تتطور فيها وجهة نظره. إنها الرؤية الثابتة للشخص المصاب بمس أحادي، ومن غير المحتمل له أن تتأثر كثيراً بالمناورات المؤقتة لسياسة القوة. إن المعاهدة الروسية الألمانية في عقل هتلر لا تمثل أكثر من تغيير في جدول أعمال ومواعيد. كانت الخطة التي وضعت في كفاحي هي تحطيم روسيا أولاً مع النية الضمنية في تحطيم إنكلترا بعد ذلك، لكن الآن تبين أن عليه التعامل مع إنكلترا أولاً، لأن روسيا كانت الأسهل رشوة من الاثنتين، وسيأتي دور روسيا بعد أن تخرج إنكلترا من المشهد- هكذا يرى هتلر الأمر بلا أدنى شك - حتى لو تبين أن تلك الطريقة ستكون مسألة مختلفة طبعاً.

لا يمكن معرفة السبب الأصلي الأولي لمظلمته وشكواه ضد العالم، إلا بالتخمين، لكنها موجودة على أي حال. هو الشهيد والضحية وبروميثيوس المقيد بالصخرة البطل الذي

يضحي بنفسه لوحده ضد الاحتمالات المستحيلة. لو قتل فأراً، فهو يعرف كيف يجعله يبدو كتنين. يشعر المرء مع نابليون أنه يقاتل ضد قدره وأنه لا يستطيع أن يربح، ومع ذلك يستحق أن يربح. إن جذب وضع كهذا هائل. نصف الأفلام التي يراها المرء تدور مثل هذه المواضيع.

لو فرضنا أن هتلر طبق برنامجه. ما الذي كان يتصوره؟ بعد مئة سنة من الآن دولة متراصة عدد سكانها ٢٥٠ مليون ألماني مع وفرة في "غرفة معيشة" (تمتد إلى أفغانستان تقريباً) إمبراطورية بلهاء رهيبة لا يحدث فيها أساساً سوى تدريب الشبان على الحرب وتناسل لانهائي للناس الذين يضحى بهم في الحروب. كيف حصل واستطاع أن يطبق هذا القرار الرهيب وينجزه؟ من السهل القول إنه في مرحلة ما من سيرته موّله أصحاب الصناعة الثقيلة الذين رأوا فيه الرجل الذي سيحطم الاشتراكيين والشيوعيين. ومع ذلك كانوا لن يساندوه لو لم يحدث حركة عظيمة إلى الوجود مسبقاً. كان الوضع في ألمانيا مع السبعة ملايين ألماني العاطلين عن العمل مناسباً للديماغوجيين زعماء الدهماء بوضوح. لكن هتلر لم يكن ينجح ضد منافسيه الكثيرين، لولا جاذبية شخصيته التي يحس بها المرء حتى في كتابته الخرقاء في كتاب كفاحي، والتي تكون ساحقة بلا شك حين يسمع المرء خطاباته. منذ أن وصل إلى السلطة وإلى الآن، أنا مثل كل شخص آخر، لم أكن قادراً على أن أكره هتلر. منذ أن وصل إلى السلطة- حتى بعد ذلك، مثل الكل تقريباً، خُدعت في الاعتقاد بأنه شخص غير مهم- فكرت ملياً أنني سأقتله لو استطعت وضع يدي عليه، لكنني لم أشعر نحوه بأي عداوة شخصية. الحقيقة أن هناك شيئاً جذاباً بشكل عميق حوله. يشعر المرء بهذا حين يرى صوره أيضاً- وأنا أنصح بالصورة التي في بداية طبعة هيرست وبلاكيت بالخصوص، التي تظهر هتلر في أيامه الأولى في القميص البني. وجه كلبي مثير للشفقة، وجه رجل يتعذب تحت أخطاء لا تطاق. بطريقة أكثر رجولية تولد الصورة إنتاج تعبير الصور التي لا تعد ولا تحصى للمسيح المصلوب، ولا شك أن هتلر يرى نفسه هكذا. من الصعب تخمين السبب الأولي الشخصي لشكواه ضد العالم، لكن الشكوى هناك في كل الأحوال. إنه الشهيد والضحية وبروميثيوس المكبل بالصخرة والبطل الإيثاري الذي يحارب لوحده ضد فروق بغيضة مستحيلة. ولو أنه كان يقتل فأراً فهو يعرف كيف يجعله يبدو كتنين. يشعر المرء مع نابليون أنه يقاتل ضد القدر، وأنه لن يفوز رغم أنه يستحقه

بشكل ما. إن جاذبية هكذا صورة هائلة طبعاً. ونصف الأفلام التي يراها المرء تدور حول مثل هذا الموضوع.

وهو أدرك أيضاً زيف الموقف المتعي من الحياة. كل الفكر الغربي تقريباً منذ الحرب الأخيرة وبالتأكيد كل الفكر "التقدمي"، افترض ضمنياً أن الكائنات البشرية لا تطلب أكثر من الراحة والأمان وتجنب الألم. في هكذا نظرة للحياة لا مجال للوطنية والفضائل العسكرية مثلاً. إن الاشتراكي الذي يجد أولاده يلعبون مع الجنود، ينزعج عادة، لكنه لم يستطع أن يفكر ببديل عن الجنود المصنوعين من القصدير، وأن السلامين المصنوعين من القصدير لا يفون بالغرض. بسبب عقله الكئيب، يشعر هتلر بهكذا بقوة استثنائية، ويعرف أن الكائنات البشرية لا تريد الراحة والأمان وساعات العمل القصيرة والعادات الصحية والنظافة وضبط الولادات وبشكل عام الفطرة السليمة والمنطق فقط، ولكنها تريد أيضاً وبشكل متقطع على الأقل الصراع والتضحية بالنفس والطبول والرايات ومسيرات الولاء. إن الفاشية والنازية كنظريات اقتصادية نفسياً أدق بكثير من أي مفهوم متعي للحياة. وهذا يصح تماماً على النسخة الستالينية العسكرية من الاشتراكية. لقد عزز الديكتاتوريون الكبار الثلاثة قوتهم بفرض أعباء لا تحتمل على شعوبهم. حين قالت الاشتراكية وحتى الرأسمالية بطريقة أكثر حقداً للشعب "أنا أقدم لكم وقتاً ممتعاً" قال لهم هتلر "أنا أقدم لكم الصراع والخطر والموت" وفي النتيجة رمت أمة كاملة بنفسها عند قدميه. ربما يملون منه لاحقاً ويبدلون رأيهم في نهاية الحرب الأخيرة. بعد سنوات من الذبح والمجازر والتجويع فإن الشعار الجيد هو "أعظم سعادة لأعظم عدد"، لكن الشعار الرابح في هذه اللحظة هو "نهاية مع الرعب أفضل من رعب بلا نهاية". وبما أننا الآن نقاتل الرجل الذي صاغ هذا الشعار، فينبغي علينا ألا نقلل من جاذبيته العاطفية.

إنغليش ويكلي ٢١ مارس/آذار ١٩٤٠.

لجنة الدفاع عن الحريات

يقبل الشعب البريطاني بالحرية كشيء بديهي، ويميل إلى أن ينسى أن ثمنها "احتراس أبدي"

حتى لو تذكروا القول الشهير، فإنهم لا يدركون على ما يبدو أن الاحتراس فعل يشمل الوقت والطاقة والمال.

تأسست لجنة الدفاع عن الحرية في عام ١٩٤٥ "لتدعم الحرية الأساسية للأفراد والمنظمات، ولتدافع عن هؤلاء الذين يضطهدون بسبب ممارستهم حقوقهم في حرية التعبير والكتابة والفعل".

تبين نشرتنا المتاحة لك كشخص يتقدم بطلب إلى السكرتير، أن وجودنا مبرر وبأي مدى. حالات الحبس الجائر والأحكام القضائية العقابية المفرطة والتمييز العرقي تتكرر ومألوفة. إن تهديدات حرية التعبير والكتابة والفعل تافهة غالباً، وهي منعزلة، إلا أنها تراكمية بتأثيرها، وإن لم تكبح فستؤدي إلى عدم احترام عام وازدراء لحقوق المواطن.

تقدم اللجنة العون للأفراد والمنظمات، بغض النظر عن مواقفهم السياسية. والمعيار الوحيد الذي يحدد ويقرر إن كانت اللجنة ستتصرف أم لا، هو طبيعة الهجوم على حريتهم. إن اللجنة كمبدأ، تعارض كل أشكال العسكرة والتجنيد الصناعي، وتعمل على إلغاء سلطات قانون الطوارئ وقوانين الدفاع وكل التشريعات والأنظمة التي تقيد حرية العمل السياسي.

نحن نحتاج إلى دخل ثابت بحدود ألف جنيه على الأقل كي نستمر ونواصل بشكل فعال. هذا المبلغ لم يكن في المتناول في السنة الماضية، وحساباتنا تظهر عجزاً يزيد عن الـ ١٤٥ جنيهاً. لكي نمكن عملنا من التقدم، نحتاج إلى مبلغ فوري يقدر بـ ٥٠٠ جنيه على الأقل. مستلزماتنا الأساسية متواضعة تماماً -ألف مشترك دائم بكلفة جنيه واحد في السنة؛ لكننا أيضاً في حاجة ماسة لتبرعات مالية كبيرة تمكننا من دفع ديوننا وإبقاء مكتبنا مفتوحاً.

يجب أن ترسل الاشتراكات والتبرعات إلى هربرت ريد رئيس لجنة الدفاع ٨ ايندزلي غاردنز، لندن دبليو سي ١

توقيع: بينجامين بريتن، أي إم فورستر، أغسطوس جون، جورج أورويل، أوزبرت سيتويل.

صحيفة فارذينغ

امي دو بوبيبل صحيفة باريسية. تأسست منذ ستة أشهر وأنجزت شيئاً لافتاً وغريباً حقاً في العالم الذي كل شيء فيه "هياج"، لأنها تباع بعشرة سنتيمات أو أقل من فارذينغ للنسخة الواحدة. إنها صحيفة نافعة وكاملة، فيها أخبار ومقالات ورسوم كاريكاتورية حسب المعايير المعتادة مع ميل للرياضة والجرائم والعاطفة القومية والدعاية المضادة لألمانيا. كل شيء عادي فيها باستثناء سعرها.

وليس هناك مدعاة للدهشة حول هذه الظاهرة الأخيرة، لأن مالكي الصحيفة عللوا كل شيء حولها في بيان ضخم لصق على جدران باريس في كل مكان غير ممنوع فيه لصق الإعلانات. عند قراءة هذا البيان، نعلم باندهاش ممتع أن امي دي بيبل ليست كالصحف الأخرى، فهي الروح الشعبية الأطهر ولم تتلوث بأفكار المكسب الدنيئة التي وراء نشوء غيرها من الصحف. المالكون الذين أخفوا خجلهم بإغفال أسمائهم يفرغون جيوبهم من أجل متعة عمل الخير فقط. أهدافهم كما علمنا، هي شن الحرب على التروستات الكبرى والقتال من أجل تكلفة أقل للمعيشة، والأهم من ذلك منازلة الصحف الجبارة التي تخنق حرية التعبير في فرنسا. بالرغم من المحاولات المشؤومة لهذه الصحف لإخماد فعل صحيفة امي دو بيبل، فإنها ستقاتل حتى آخر لحظة. باختصار هذا كل ما يتضمنه اسمها.

يحيي المرء هذا الموقف من أجل الديمقراطية ويجله كثيراً، لو لم يكن يعرف أن مالك امي دو بيبل هو السيد ام كوتي الرأسمالي الصناعي الكبير ومالك صحيفتي لافيغارو وغولواز. وينظر المرء بشك أقل لو لم تكن سياستها معادية للراديكالية والاشتراكية ومؤيدة ومتحمسة للصناعة والوفاق والمصالحة. لكن هذا كله خارج الموضوع الآن. الأسئلة المهمة بشكل واضح هي التالية: هل امي دو بيبل تغطي تكلفتها؟ وإن كان الأمر كذلك فكيف؟ السؤال الثاني هل المهم بها أن مسيرة التقدم سائرة في اتجاه تروستات أكبر وأردأ دائماً، فإن أي انتقال جدير بالانتباه يقربنا من ذلك اليوم الذي تكون فيه الصحيفة مجرد صفحة إعلان ودعاية مع خبر ضئيل خاضع لرقابة جيدة عن السكر وحبة الدواء.

من الممكن جداً أن امي دو بيبل تحيا على الإعلانات التي تنشرها، ولكن من الممكن وبدرجة مساوية أنها تحقق ربحاً غير مباشر من خلال بث دعاية يريدها ام كوتي ورفاقه. صرح البيان المذكور أن المالكين قد يرتقون إلى ارتفاعات أعلى مدوخة من الإحسان بتوزيع امي دو بيبل مجاناً. هذا ليس مستحيلاً كما يبدو. لقد رأيت صحيفة يومية (في الهند) توزع مجاناً لبعض الوقت مع ربح ظاهر لداعميها، حلقة من المعلنين وجدوا جريدة مجانية لتكون وسيلة رخيصة ومرضية لنفخ بوقهم فيها. كانت الصحيفة فوق المستوى المتوسط في الهند وتقدم الأخبار التي يصادقون عليها فقط وليس غيرها. تلك الصحيفة الهندية الغامضة تكهنت بالهدف المنطقي لصناعة الصحافة الحديثة؛ ويجب أن نعتبر أن امي دو بيبل خطوة في الاتجاه نفسه.

لكن إن كانت هذه المكاسب مباشرة أو غير مباشرة، فإن امي دو بيبل تزدهر بالتأكيد. لقد حققت توزيعاً واسعاً جداً مسبقاً. ورغم أنها بدأت كصحيفة صباحية فقط، فهي تصدر الآن طبعة بعد منتصف النهار وطبعة مسائية. يتكلم مالكوها بصدق تام حين يصرحون أن بعض الصحف الأخرى تعمل جاهدة لسحق تلك البطلة الجديدة لحرية التعبير. قامت تلك الصحف الأخرى (هي تتصرف بدوافع غير أنانية طبعاً) بمحاولة نبيلة لإقصائها من محلات وكلاء الأخبار ونجحت بلفت اهتمام أكشاك زوايا الشوارع في ذلك. ففي بعض المتاجر الصغيرة التي أصحابها من الاشتراكيين، يرى المرء اللافتة "هنا لا تباع امي دو بيبل" معروضة في الواجهات. لكن امي دو بيبل ليست قلقة. فهي تباع في الشوارع والمقاهي بنشاط كبير وتباع في صالونات الحلاقة ودكاكين التبغ وتصل لكل أنواع الناس الذين لم يعملوا وكلاء صحف من قبل. أحياناً تترك أكوام كبيرة منها في الجادة مع علبة من القصدير بقطعتين من العملة الفرنسية (سو تعادل سنت) وبدون بائع أو مراقب. يستطيع المرء أن يرى أن المالكين مصممون بكل الوسائل على جعلها الصحيفة المقروءة الأوسع انتشاراً في باريس.

وافترض أنهم نجحوا، فماذا بعد؟ من الواضح أن امي دو بيبل سوف تخرج واحدة أو اثنتين من الصحف الأقل ازدهاراً من الوجود- لقد شعر عدد من الصحف بالقرصة مسبقاً. في النهاية هذه الصحف إما ستدمر أو تنقذ نفسها بتقليد تكتيك امي دو بيبل كما يفترض. لهذا السبب، فإن كل صحيفة من هذا النوع أياً كانت نواياها، هي عدوة لحرية التعبير. في الوقت الحالي فرنسا هي مقر حرية التعبير في الصحافة، إن لم تكن في غيرها أيضاً. لباريس وحدها

صحف يومية بالعشرات؛ [illegible] واشتراكية وشيوعية؛ إكليركية وضد إكليركية؛ عسكرية وضد عسكرية؛ مؤيدة للسامية ومعادية للسامية. لديها اكسيون فايناس الصحيفة الملكية التي لا تزال واحدة من اليوميات التي تقرأ، ولديها هيومانتي الصحيفة اليومية الحمراء الأكثر تطرفاً خارج روسيا السوفييتية. لديها لا ليبرا التي تكتب بالإيطالية والتي لم تُبَع في إيطاليا أبداً حتى، عدا أنها لا تنشر هناك. تطبع الصحف في باريس باللغات الفرنسية والإنكليزية والإيطالية واليهودية والألمانية والروسية والبولونية ولغات أخرى لا يميز الأوروبي الغربي أبجدياتها. أكشاك الشوارع تغص بالصحف من كل الأنواع. اتحاد الصحف الذي يتذمر منه الصحفيون الفرنسيون ليس له وجود بعد في فرنسا. لكن امي دو بيبل تبذل أنبل جهودها لتجعل منه حقيقة.

وبافتراض أن هذا النوع من الشيء وجد ليكون مجدياً مالياً في فرنسا، فلماذا لا يجرب في مكان آخر؟ لماذا لا يكون لدينا صحف الفارذينغ أو على الأقل صحف النصف بنس في لندن؟ بينما تجد الصحفي مجرد وكيل إعلان للشركات الكبيرة؟ إن التوزيع الواسع الحاصل بوسائل عادلة أو شنيعة هو الهدف الأول والوحيد لأي صاحب صحيفة. حتى وقت حديث، فإن عدداً متنوعاً من صحفنا حقق المستوى المرغوب من "المبيعات الصافية" بالوسيلة البسيطة في التخلي عن بضعة آلاف من الجنيهات بين الحين والآخر على جوائز بطولة كرة القدم. الآن تم إيقاف مباريات كرة القدم من قبل القانون، ولا شك فإن توزيع بعض الصحف سيهبط بضربة سيئة. علاوة على ذلك، فإن هذه أنموذج جدير لأقطاب صحفنا الإنكليزية. دعهم يقلدون امي دو بيبل ويبيعون صحفهم بفارذينغ. حتى لو لم يكن لها أي فائدة أخرى، على الأقل سيشعر الفقراء من عامة الشعب أنهم يحصلون على القيمة الصحيحة مقابل نقودهم.

أي ايه بلير

بعض الأفكار حول الضفدع العادي

قبل السنونو وقبل النرجس البري وبعد زهرة الثلج بقليل، يرحب الضفدع العادي بقدوم الربيع حسب طريقته، فيبزغ من حفرة في الأرض تمدد فيها وطمر نفسه منذ الخريف السابق، ثم يزحف بأسرع ما يستطيع نحو أقرب بقعة ماء. شيء-نوع من رجفة في التراب أو ربما مجرد ارتفاع قليل في درجات الحرارة تخبره أن وقت الاستيقاظ قد حان: لكن يبدو أن عدداً قليلاً من الضفادع ينام على مدار الساعة ويضيع سنة من وقت إلى آخر - على أي حال لقد حفرت الأرض وأخرجتها أكثر من مرة حية، وكانت بحال جيدة ظاهرياً في منتصف الصيف.

في هذه الفترة، بعد صيامه الطويل، يكون لدى الضفدع نظرة روحية جداً مثل الأنغلوكاثوليكي المتشدد تجاه نهاية الصوم الكبير: حركاته بطيئة وهادفة، جسده منكمش، ولكن بالمقارنة تبدو عيناه كبيرتان على نحو شاذ. هذا يسمح للمرء أن يلاحظ- مما قد لا يتوفر في أي وقت أخر- بأن للضفدع عينين أجمل من عيني أي مخلوق حي آخر. إنهما مثل الذهب أو مثل حجارة شبه كريمة بلون ذهبي، يراها المرء أحياناً في الخواتم التي تستخدم كختم رسمي وتسمى كريسوبريل كما أعتقد.

بعد أيام قليلة من الدخول في الماء، يركز الضفدع على بناء قوته بأكل حشرات صغيرة. في الحال ينتفخ إلى حجمه العادي مرة أخرى، ثم بعد ذلك يعزق الأرض في طور من الإثارة الجنسية القوية، وكل ما يعرفه، إن كان ضفدعاً ذكراً على الأقل، أن يضع ذراعيه حول شيء ما، وإن قدمت له عصا أو إصبعك سيتمسك بها بقوة مدهشة ويأخذ وقتاً طويلاً ليكتشف أنها ليست ضفدعة أنثى. كثيراً ما يصادف المرء كتلاً لا شكل لها من عشرة أو عشرين ضفدعاً تتدحرج في الماء، أحدها متشبث بالآخر دون تمييز في الجنس، لكنها تفرز أنفسها إلى أزواج تدريجياً، يكون الذكر جالساً كما ينبغي على ظهر الأنثى. الآن يمكنك تمييز الذكور من الإناث، لأن الذكر أصغر حجماً ولونه أغمق ويجلس على القمة وذراعاه متشابكتان بإحكام حول عنق الأنثى. بعد يوم أو اثنين يتوضع البيض في سيور طويلة تلتف داخل وخارج القصب وتصبح غير مرئية فوراً. وبعد بضعة أسابيع يعج الماء بحشود من أفراخ الضفادع

الصغيرة جداً التي تنمو بسرعة، تتبرعم لها أرجل خلفية ثم أرجل أمامية ثم أذناب، وأخيراً في منتصف الصيف تقريباً يزحف الجيل الجديد من الضفادع التي تكون أصغر من ظفر الإبهام، لكنها تامة في كل تفصيل دقيق، وتخرج من الماء لتبدأ اللعبة من جديد.

ذكرت تفريخ الضفادع لأنها واحدة من ظواهر الربيع الذي يفتنني بعمق، ولأن الضفدع على العكس من القبرة وزهرة الربيع، لم يحصل على أي تشجيع من الشعراء. لكني أدرك أن كثيراً من الناس لا يحبون الزواحف أو البرمائيات. وأنا لا أقترح أنه عليك أن تهتم بالضفادع لكي تستمتع بالربيع. هناك الزعفران أيضاً والطائر المغرد والوقواق والبرقوق إلخ. الهدف أن ملذات الربيع متاحة لكل واحد ولا تكلف شيئاً. حتى في أقذر الشوارع وأخسها يسجل قدوم الربيع نفسه بعلامة أو أخرى حتى لو بزرقة أكثر سطوعاً بين المداخن أو خضرة مفعمة بالحياة تبرعمت في موقع تعرض للقصف. في الواقع إن اللافت للانتباه كيف تواصل الطبيعة البقاء حية في قلب لندن بصورة غير رسمية وعشوائية إذا جاز التعبير. رأيت صقراً يطير فوق مصنع ديبتفورد لإنتاج الغاز، وسمعت حفلة موسيقية ممتازة لشحرور في طريق يوستون. هناك كما يجب مئات آلاف إن لم يكن ملايين الطيور التي تعيش داخل دائرة نصف قطرها أربعة أميال. والفكرة الممتعة أن لا أحد منها يدفع ولو نصف بنس كإيجار.

بالنسبة إلى الربيع، فإن الشوارع الضيقة والمظلمة حول بنك إنكلترا لا تستطيع حتى إقصاءه. يأتي ينز في كل مكان، مثل تلك الغازات السامة الجديدة التي تجتاز كل المصافي. يشار إلى الربيع عادة بـ"المعجزة"، وهذه الصورة البيانية البالية استأجرت فترة جديدة من الحياة خلال السنوات الخمس أو الست الماضية. بعد أنواع الشتاءات التي اضطررنا إلى تحملها مؤخراً، يبدو الربيع خارقاً لأن التصديق بأنه سيحدث بات أصعب فأصعب؛ ففي كل شباط/ فبراير منذ ١٩٤٠ كنت أجد نفسي أفكر بأن الشتاء سيكون دائماً هذه المرة، لكن بيرسفوني مثل الضفادع، دائماً تنهض من الموت بنفس اللحظة تقريباً. فجأة في نهاية شهر مارس/ آذار تحدث المعجزة ويتغير شكل الحي الفقير المتعفن الذي أعيش فيه. في الساحة تتحول شجيرات السياج الملوثة بالسخام إلى لون أخضر ساطع، وتتكاثف الأوراق التي على أشجار الكستناء، ويخرج النرجس البري ويتبرعم المنثور الأصفر، وتظهر سترة رجل الأمن ظلاً أزرق ممتعاً، ويرحب تاجر السمك بزبونه بابتسامة، وحتى عصافير الدوري تكون بلون

مختلف تماماً، بعد أن أحست باعتدال الجو ولطفه، فقوت نفسها لكي تأخذ حمامها الأول منذ سبتمبر/ أيلول الماضي. هل الاستمتاع بالربيع والتغييرات الفصلية الأخرى أمراً شريراً؟ للتعبير بدقة أكبر نستحق الشجب سياسياً حين نظهر ونحن نئن -أو يجب أن نئن على أي حال- ونتعذب تحت أصفاد الرأسمالية، ونبين أن الحياة أجدر للعيش في غالب الأحوال بسبب أغنية طائر حسون أو شجرة دردار صفراء في أكتوبر/ تشرين الأول أو ظاهرة طبيعية أخرى لا تكلف مالاً وليس لها جانباً طبقياً، كما يسميها رؤساء تحرير الجناح اليساري. ليس هناك شك أن كثيراً من الناس يفكرون هكذا. أعرف بالتجربة أن إشارة مفضلة إلى "الطبيعة" في واحدة من مقالاتي، كفيلة بأن تجلب لي رسائل بذيئة تختلط فيها فكرتان، على الرغم من أن الكلمة الرئيسية في هذه الرسائل ستكون "عاطفي جداً". الأولى أن أي متعة في سيرورة الحياة الفعلية تشجع نوعاً من التصوف السياسي والطمأنينة. الناس،حسب التفكير السائد، ينبغي أن يكونوا ساخطين وقلقين، ومهمتنا أن نضاعف رغباتنا وحاجاتنا وليس أن نزيد استمتاعنا بالأشياء التي لدينا مسبقاً. الفكرة الأخرى أن هذا هو عصر الآلات، وأن كره الآلة أو حتى الرغبة في الحد من هيمنتها، عبارة عن نظرة متخلفة ورجعية وسخيفة. يدعم هذه الفكرة القول إن حب الطبيعة نقطة ضعف سكان المدن الذين ليست لديهم أي فكرة عن حقيقة الطبيعة وشكلها، وأن الذين يضطرون إلى التعامل مع التربة الحقيقة -كما ثبت- لا يحبون التربة ولا يكترثون أبداً بالطيور والزهور إلا من وجهة نظر نفعية صارمة. لكي تحب الريف يجب عليك أن يعيش في مدينة وتأخذ إجازة نهاية الأسبوع أحياناً وتتنزه هناك في الأوقات الدافئة من السنة.

إن الفكرة الأخيرة زائفة بشكل مثبت. إن أدب القرون الوسطى مثلاً يشمل قصائد غنائية شعبية ومملوء بالحماسة الجورجية للطبيعة تقريباً، كما أن فن الشعوب الزراعية كالصينيين واليابانيين مثلاً يتركز دائماً حول الأشجار والطيور والزهور والأنهار والجبال. الفكرة الأخرى تبدو لي خاطئة بطريقة ماكرة. بالتأكيد ينبغي علينا أن نكون غير راضين، ولا ينبغي أن نكتشف طرقاً لتجميل المهمة السيئة لتبدو بأفضل شكل، ولكن إن قتلنا كل المتع في سيرورة الحياة الفعلية، فأي نوع من المستقبل نعده لأنفسنا؟ إن لم يستطع الإنسان أن يستمتع بعودة الربيع، فلماذا يجب أن يكون مسروراً في يوتوبيا تقلص له ساعات العمل؟ ماذا سيفعل المرء

بوقت الفراغ الذي ستعطيه له الآلة؟ أشك وأرتاب دائماً بحقيقة أن الحياة ستصبح أكثر بساطة وليست أكثر تعقيداً لو حُلت مشاكلنا الاقتصادية والسياسية فعلياً، وأن ذلك النوع من الاستمتاع الذي يحصل عليه المرء من إيجاد أول زهرة ربيع، سوف يكون أضخم من المتعة التي يحصل عليها من أكل المثلجات على أنغام فيرليتزر. أعتقد أن احتفاظ المرء بحبه الطفولي لأشياء كالأشجار والأسماك والفراشات و-لأعود إلى مثالي الأول- والضفادع يجعل المستقبل الأمن والمحترم ممكناً ومحتملاً أكثر، وأن التبشير بالعقيدة التي ترى أن لا شيء يجب أن ينال الإعجاب سوى الصلب والإسمنت المسلح، يؤكد أكثر أن الكائنات البشرية لن يكون لديها أي متنفس لطاقتها الفائضة، إلا في الكره وعبادة القائد.

على أي حال، إن الربيع هنا وحتى في لندن رقم واحد، وهم لا يستطيعون منعك من الاستمتاع به. هذه فكرة مسرة. كم مرة وقفت أراقب الضفادع وهي تتزاوج أو أراقب زوجاً من الأرانب يتلاكمان في مباراة في حقل من الذرة الصغيرة الناشئة، وفكرت بكل الأشخاص المهمين الذين هم مثلك ليسوا مريضين أو جائعين أو خائفين أو محصورين في سجن أو مخيم عطلات. سيظل الربيع ربيعاً. إن القنابل الذرية تتكدس أكواماً في المصانع، ورجال الأمن يجوسون شوارع المدن وأزقتها، والأكاذيب تتدفق بغزارة كالنهر من مكبرات الصوت، لكن الأرض لاتزال تدور حول الشمس، ولن يقدر الحكام المستبدون الطغاة والبيروقراطيون الذين يستهجنون العملية بقوة ومن أعماقهم أن يمنعوها من ذلك.

مراجعة الديمقراطي على طاولة العشاء بقلم كولم بورغان

إن النرجسية دافع عادي للروائيين، وينطبق هذا على أفضلهم. أن تعمل بثبات وصلابة وتكون جزئيا في لحظة الخطر، وتصحح المظالم وتكون شخصية مهيمنة، وتمارس الفتنة والسحر على الجنس الآخر، وتجلد أعداءك الشخصيين-هذه أشياء تنجز بسهولة أكبر على الورق من الحياة الحقيقية. فالرواية التي لا تحتوي في مكان ما أو آخر على صورة للمؤلف الذي يتخفى بشكل ضعيف كبطل أو قديس أو شهيد، ليست رواية عادية. ويلحظ هذا في الروايات التي فيها محادثة، خصوصاً التي ينتمي السيد بورغان إلى صنفها. من دون تقليد فعلي لتشيسترتون، من الواضح أن السيد بورغان قد تأثر به، وشخصيته المركزية لها قدرات الأب براون في التفوق في الجدال، وأيضاً في إحاطة نفسه بحمقى وأنذال، وظيفتهم أن يصلوا إلى أجوبته البارعة. الفعل -أو بالأحرى سلسلة المناقشات التي يتألف منها الكتاب -تحدث في فندق خاص. الـ "أنا -ضمير المتكلم المفرد" في القصة يصف نفسه كديمقراطي ويظهر ليكون كاثوليكياً: يشاركه طاولة العشاء شيوعي يهودي مدرس ذو آراء تقدمية وقومجي هندي، رجل أعمال وشاعر وصاحبة الفندق. الأسماء الثلاث الأولى أدوات بشكل واضح. رجل الأعمال يسمح له أن يبدي ومضات عرضية من المنطق السليم، بينما الشاعر شخصية مبهمة وغامضة، ويميل أحياناً إلى الاصطفاف إلى جانب الراوي وصاحبة الفندق الأنثى التشيسترتونية الأنموذجية بكونها خالية من أي منطق، لكنها تمتلك حكمة تتجاوز حكمة الذكر. بما أن المناقشات تدور بشكل رئيسي حول قضايا التجارة الحرة مقابل تحكم الدولة تمديد سن ترك المدرسة، يستطيع القارئ المجرب أن يتنبأ مقدماً بقدر كبير مما سيقوله كل واحد من المتجادلين.

ومع ذلك - حين يقارن المرء هذا الكتاب بأسلافه قبل عشرة أو عشرين سنة، يلفت انتباهه التراجع الذي أصاب النزعة المحافظة- أستخدم الكلمة بمعناها الواسع. السيد بورغان يدافع عن الرأسمالية وينفق براعة كبيرة في إظهار أن بريطانيا ستكون لها فرصة لاسترداد حصتها من الأسواق العالمية مع الاقتصاد "الحر" أفضل مما يكون لها مع الصناعات

المؤممة. هو لا يدعي مثل تشيسترتون أنه يمكن العودة إلى العصور الوسطى، وأن الكتلة الأعظم من الناس تتوق إلى فعل هذا. حتى إنه يدافع عن الإنتاج الكبير المتسلسل وهو مستعد للقبول بمبدأ الضمان الاجتماعي، رغم أنه يعارض جعله إجبارياً. هو يعارض النظام التعليمي الموحد ورفع سن ترك المدرسة، لكن من جانب آخر يريد إنفاق مال أكثر على مدارس الأطفال. ولم يقل كما يفترض أن يقوله مفكرون مشابهون له قبل وهلة قليلة، أن يكون للوالدين الحق ليقرروا إن كان أولادهم سيتعلمون أم لا. بالنتيجة الكتاب عمل رجعي - دفاع عن الماضي ناتج عن شعور بأن ما بقي للدفاع عنه ليس كثيراً. على كل حال تتبع المحادثة الأنموذج ذاته. الشيوعي مخلوق حاقد وعدواني يجر المرجعية إلى روسيا السوفييتية في كل جملة. المدرس متبجح ومدعٍ. الهندي كتلة من الترفع الأخلاقي الغامض والشكاوى التخيلية، وحتى رجل الأعمال عملي ومتعنت على طريقته الخاصة ومفتون بمواعظ كاهن كانتربيري. بالنسبة إلى القاص هو أنموذج للفطنة والمعرفة والعقلانية وسعة التفكير والتفكير السليم، وإن فشل في إقناع الآخرين بوجهة نظره، فذلك لأن عقولهم أفسدتها حماقات التعليم الحديث.

المشكلة مع كل هذه الكتب هي نوع من التبرم الناشئ عن عدم امتلاك برنامج عملي لاقتراحه وتقديمه. السيد بورغان مدرك ربما أن العودة إلى الرأسمالية الحرة مستحيلة كما افترض بتشيسترتون أنه أدرك أن العودة إلى الملكية الفلاحية الريفية غير ممكنة، وربما درك أيضاً أن الفائدة عقيمة من إخبار الناس أن التعليم الإجباري والضمان الاجتماعي والتحكم بالاستثمارات والإشراف على العمل وتوجيهه ينتهي بالعبودية، لأنه حتى لو كان ذلك صحيحاً، فإن الجمهور الأكبر من الناس سيفضلون العبودية على هذا البديل. إن العالم يسير في اتجاه محدد، هو لا يحبه لكنه عاجز عن التفكير بأي اتجاه آخر يمكنه الذهاب فيه فعلياً. لهذا يأخذ الخط الدفاعي في الإشارة إلى سخافات وفظائع الفكرة "التقدمية"- الذي في النهاية خط ليس صعباً جداً. لكن ليس بهذه الطرق فقط يجب على المرء أن يفكر مرتين بالشيوعية والنسوية (المساواة بين الجنسين) والإلحاد والسلامية (رفض العنف) أو أي نزعة فكرية يكرهها السيد بورغان.

الأويزيرفر ١٠ فبراير/ شباط ١٩٤٦.

أمام أنفك

أفادت تقارير حديثة كثيرة أنه من المستحيل على الأغلب إن لم يكن تماماً لنا أن نستخرج القدر الذي نحتاجه للوطن ولأغراض التصدير، وذلك لاستحالة إغراء عدد كافٍ من عمال المناجم للبقاء في الحفر. قدرت إحصائية رأيتها الأسبوع الماضي الضياع السنوي في عمال المناجم بـ ٦٠ ألف عامل واستيعاب عمال جدد بـ ١٠ آلاف. وفي الوقت نفسه مع هذا - وأحياناً في العمود نفسه وفي الجريدة نفسها - تجد هناك تقارير تفيد بعدم وجود رغبة في استخدام البولولنيين والألمان، لأن هذا قد يؤدي إلى بطالة في صناعة الفحم. لا تأتي الإفادتان من المصدر نفسه دائماً، لكن بالتأكيد هناك عدد كبير من الناس يقدرون على إبقاء هاتين الفكرتين المتناقضتين تماماً في رؤوسهم في لحظة واحدة. هذا مجرد مثال واحد عن عادة ذهنية منتشرة بشكل واسع. برنارد شو في المقدمة إلى أندروكوليس والأسد، يقتبس الفصل الأول من إنجيل ماثيو الذي يبدأ بالبرهنة أن نسب عيسى ووالد عيسى ينحدر من إبراهيم كمثال. في الآية الأولى يوصف عيسى بـ"ابن داوود، ابن إبراهيم"، ثم تتبع السلالة في الآيات الخمس عشرة التالية: ثم، في الآية التالية ولكن الوحيدة، يشرح أن عيسى لم ينحدر من إبراهيم كأمر بديهي بما أنه لم يكن ابن يوسف. يقول شو إن هذا لا يمثل أي صعوبة بالنسبة إلى المؤمن الديني، ويذكر كحالة مماثلة من الاستهتار في الطرف الشرقي من لندن لأنصار تيكبورن كليمانت الذي أعلن أن الرجل العامل البريطاني خدع وسلبت حقوقه. طبياً أعتقد أن هذه الطريقة في التفكير تسمى شيزوفرينيا: وهي القدرة على اعتناق معتقدين اثنين كل منهما يلغي الآخر ويبطله في الوقت نفسه. وترتبط بها بقوة وتتحالف القدرة على تجاهل الوقائع الواضحة والراسخة التي يجب أن تواجه عاجلاً أو آجلاً. وهذه الرذائل تزدهر في تفكيرنا السياسي خاصة. دعني أقدم بضعة مواضيع كنماذج. ليس بين بعضها البعض أي علاقة عضوية: وهي مجرد حالات أخذت بشكل عشوائي من وقائع صريحة وجلية تجنبها أناس يدركون أنها وقائع في قسم آخر من عقلهم.

هونغ كونغ:

منذ سنين كثيرة يعرف كل من لديه معرفة بأحوال الشرق الأقصى أن وضعنا في هونغ كونغ يتعذر الدفاع عنه، وأننا يجب أن نخسرها بمجرد أن تبدأ حرب رئيسية. لكن هذه المعرفة كانت لا تحتمل، واستمرت الحكومات الواحدة تلو الأخرى في التشبث بهونغ كونغ بدلاً من إعادتها إلى الصين. وزجت بقوات جديدة فيها قبل بضعة أسابيع من بدء الهجوم الياباني مع التأكد بأنهم سوف يؤسرون بلا أي فائدة. جاءت الحرب وسقطت هونغ كونغ فوراً -كما كان يعرف كل واحد منذ البداية أنها ستسقط.

التجنيد الإجباري: قبل الحرب بسنوات كثيرة، كان كل الناس المتنورين تقريباً يفضلون التصدي لألمانيا ومواجهتها: وكانت أغلبيتهم أيضاً ضد امتلاك ما يكفي من العدة والعتاد العسكري كي يكون هذا الموقف مؤثراً وفعالاً. أنا أعرف جيداً الحجج التي وضعت مسبقاً دفاعاً عن هذا الموقف؛ بعضها مبررة لكن في أغلبها كانت أعذاراً جدلية تماماً. إلى وقت متأخر من عام ١٩٣٩ صوت حزب العمال ضد التجنيد الإلزامي، خطوة ربما لعبت دورها الرئيسي في المعاهدة الروسية الألمانية، وبالتأكيد كانت لها نتيجة كارثية على الروح المعنوية في فرنسا. ثم أتى عام ١٩٤٠ بعد ذلك وكدنا نفنى بسبب افتقارنا إلى جيش كبير كفؤ وفعال الذي كان بإمكاننا أن نمتلكه فقط لو أننا فرضنا التجنيد الإلزامي قبل ثلاث سنين من ذلك.

معدل الولادات: قبل عشرين أو خمس وعشرين سنة اعتبر منع الحمل والتنوير مترادفين تقريباً، وإلى هذا اليوم فإن غالبية الناس يجادلون ويحاججون -الحجة يعبر عنها بشكل متعدد لكن تختصر إلى الشيء نفسه تقريباً دائماً- أن العائلات الكبيرة مستحيلة لأسباب اقتصادية. في الوقت نفسه، من المعروف على نطاق واسع أن معدل الولادات يكون في أعلى مستوياته في الأمم التي يتدنى فيها المستوى المعاشي، وفي سكاننا المستوى الأعلى نجده في الجماعات ذات الأجور الأسوأ، وقدمت حجج بأن السكان قليلي العدد يعني بطالة أقل وراحة أكثر، ولكن في الجانب الآخر ثبت جيداً أن تناقص عدد السكان وهرمهم يسبب مشاكل اقتصادية كارثية عصية على الحل. إن الأرقام ليست غير مؤكدة بالضرورة، لكن من المحتمل تماماً أن يزيد عدد السكان في سبعين سنة ١١ مليون نسمة، وسيكون أكثر من نصفهم من المحالين إلى التقاعد بسبب كبَر العمر. بما أن أكثر الناس لا يريدون عائلات كبيرة لأسباب مركبة، فإن الوقائع

المخيفة يمكن أن تتواجد في مكان أو آخر في وعيهم سواء المعلومة منها وغير معلومة في الوقت نفسه.

منظمة الأمم المتحدة: لكي يكون لها أي فعالية من أي نوع، يجب أن تكون المنظمة العالمية قادرة على أن تهيمن على الدول الكبيرة، بالإضافة إلى الدول الصغيرة. يجب أن يكون لها القدرة والسلطة على التفتيش على التسلح والحد منه، ما يعني أن يكون لموظفيها حق الوصول إلى كل بوصة مربعة في كل بلد من البلدان. ويجب أن تكون تحت تصرفها قوة مسلحة أكبر من أي قوة مسلحة أخرى، ولا تكون مسؤولة إلا أمام المنظمة نفسها. لا يبدو على الدولتين العظميين أو الثلاث أن تظاهرت بالموافقة على أي واحد من هذه الشروط حتى، كما أنها نظمت دستور الأمم المتحدة لكي لا يمكن حتى مناقشة تصرفاتها وأعمالها. بعبارة أخرى، فائدة منظمة الأمم المتحدة كوسيلة للسلام العالمي هي صفر. هذا كان واضحاً قبل أن بدأت تؤدي وظيفتها كما هو الآن. مع ذلك منذ بضعة شهور فقط اعتقد الملايين من الناس المطلعين جيداً أنها سوف تكون عملية ناجحة. ليس هناك فائدة من مضاعفة عدد الأمثلة. الهدف أننا كنا قادرين على أن نؤمن بأشياء نعرف أنها غير صحيحة وحقيقية، ومن ثم حين يثبت أنها خاطئة أخيراً، نحرف الوقائع بكل وقاحة لنبين أننا كنا على صواب. عقلياً، من الممكن أن تستمر هذه العملية لوقت غير محدد: الفحص الوحيد لها أن الاعتقاد الزائف سوف يصطدم بالواقع الصلب عاجلاً أو آجلاً في ساحة قتال عادة.

حين ينظر المرء إلى الشيزوفرينيا السائدة والمسيطرة في المجتمعات الديمقراطية، الأكاذيب التي قيلت لأغراض انتخابية، والسكوت عن القضايا الرئيسية وأعمال التحريف التي تقوم بها الصحافة، يميل المرء إلى الاعتقاد أن في البلدان الشمولية الاستبدادية دجل واحتيال أقل ومواجهة أكبر للوقائع. هناك على الأقل الجماعات الحاكمة لا تعتمد على التأييد الشعبي وتستطيع التفوه بالحقيقة بشكل فج ووحشي. استطاع غورينغ أن يقول "البنادق قبل الزبدة" بينما أجبر خصومه الديمقراطيون أن يلفوا نفس الفكرة بمئات من كلمات النفاق والرياء.

لكن فعلياً، تجنب الواقع والحقيقة نفسه في كل مكان وله نفس العقابيل تقريباً. لقد تعلم الشعب الروسي منذ سنين أنه أفضل من أي شعب آخر، وأظهرت الملصقات الدعائية العائلات الروسية تجلس أمام وجبات وافرة، بينما بروليتاريو البلدان الأخرى يموتون من

الجوع في البواليع. وفي ذلك الوقت كان العمال في البلدان الغربية أفضل من العمال الروس بكثير، لذلك كان عدم التواصل بين المواطنين السوفييت والدخلاء هو المبدأ المرشد للسياسة. بعد ذلك ونتيجة للحرب، نفذ ملايين الروس العاديون إلى داخل أوروبا، وحين يُعادون إلى وطنهم سوف يتم دفع ثمن تجاهل الحقيقة الجديدة في احتكاكات وخلافات من أنواع متعددة. لقد خسر الألمان واليابانيون الحرب إلى حد كبير، لأن حكامهم كانوا غير قادرين على رؤية الوقائع الحقيقية التي كانت واضحة لكل عين نزيهة.

لترى ماذا يوجد أمام أنفك يحتاج إلى صراع مستمر. أحد الأشياء التي تساعد هو أن تدون يومياتك أو تدون على الأقل آراءك بخصوص الأحداث الهامة. شيء آخر، حين تسفه الأحداث معتقداً سخيفاً ما ربما ينسى المرء ببساطة أنه كان يؤمن به يوماً ما. التنبؤات السياسية تكون خاطئة عادة، لكن حتى عندما ينجح المرء في واحدة، من الممكن جداً أن يكتشف لماذا كان مصيباً. على العموم لا يكون المرء مصيباً إلا عندما تتطابق الرغبة أو الخوف مع الواقع والحقيقة. إن أدرك المرء هذا فإنه لا يستطيع طبعاً أن يتخلص من مشاعره الذاتية، وإنما يستطيع أيضاً إلى حد ما أن يعزلها عن تفكيره ويتكهن بدم بارد بواسطة كتاب حساب. في الحياة الخاصة أغلب الناس واقعيون نوعاً ما. حين يحسب المرء ميزانيته الأسبوعية فإن مجموع اثنان زائد اثنان يساوي أربعة بشكل ثابت ودائم. السياسة من الجانب الآخر نوع من عالم دون ذري وغير إقليدي؛ حيث من السهل تماماً أن يكون الجزء أكبر من الكل أو أن يكون شيئان اثنان في نفس المكان في وقت واحد. لهذا فإن التناقضات والسخافات المنافية للعقل التي عرضتها أعلاه يعزى أثرها إلى إيمان سري خفي بأن آراء المرء السياسية، ليست مثل الميزانية الأسبوعية، يجب ألا تختبر على محك الحقيقة الصلبة.

التريبيون، ٢٢ مارس/ آذار ١٩٤٦.

مقالة افتتاحية
لصحيفة البوليمك

كرست فصلية المودرن كورترلي في عددها الصادر في ديسمبر/ كانون الأول فقرة واحدة من مقالتها الافتتاحية للهجوم على البوليمك، التي اتهمت كما يبدو بـ "بمحاولاتها الملحة والمستمرة لخلط القضايا الأخلاقية وتشويشها وتدمير الفرق بين الصح والخطأ". ومن المهم القول إن البوليمك وليست ذا تروث أو ذا تيبلت أو ذا نانيتينث سنتشري، هي الوحيدة المستهدفة في هذا الهجوم. لكن قبل التعامل مع هذه النقطة يجدر بنا إلقاء نظرة سريعة على منظومة القواعد الأخلاقية للبطل الذي تعرضه لنا المودرن كورترلي.

يتضمن التصريح المقتبس أعلاه وجود كيانين متلفين بشكل واضح يسميان "الصح والخطأ"، يتميزان عن بعضهما البعض بشكل واضح ولهما طبيعة دائمة تقريباً. ومن دون هذا الافتراض ليس هناك أي معنى. في الفقرة التالية من الافتتاحية نجد التصريح "إن الأساس الأخلاقي كله يحتاج إلى إعادة فحص وتدقيق -ويفهم من هذا ضمناً طبعاً أن الفرق بين الصح والخطأ ليس واضحاً جداً أو غير قابل للاعتراض، وأن تفكيكه أو تحديده واجب مرغوب. لاحقاً وفي نفس العدد في مقال بعنوان "الإيمان والعمل" نجد البروفيسور جيه دي بيرنال يزعم أن كل معيار أخلاقي يجب أن يكشط (يزال) حين تستدعي المنفعة السياسية ذلك.

لا حاجة للقول إن البروفيسور بيرنال لم يقل ذلك بهذا الشكل المباشر والمبسط، لكن إن كان لكلماته معنى فإن المقصود منها هو ذلك. وهذا أحد المقاطع الكثيرة التي يطرح فيها عقيدته.

"إن التغيير الجذري في الأخلاق على أي حال تتطلبه العلاقات الاجتماعية الجديدة التي دخل فيها البشر مسبقاً في مجتمع منظم ومخطط، لذلك بالتأكيد سوف تتأثر الأهمية النسبية للفضائل المتنوعة المختلفة. وقد تبدو الفضائل القديمة رذائل، وسوف يترسخ غيرها. إن الكثير من الفضائل الرئيسية مثل الصدق والرفقة والود قديمة قدم الإنسانية ولا تحتاج إلى تغيير، لكن تلك المؤسسة على الاهتمام المبالغ فيه في الاستقامة الفردية، ستحتاج إلى إعادة توجيه بما يخدم المسؤولية الاجتماعية.

بلغة إنكليزية أبسط، إن هذا المقطع يعني أن الروح الشعبية والاحتشام العام يُجر ويُشد في جهات متعاكسة، أما الفقرة ككل فتعني أننا يجب أن نبدل مفهومنا للصح والخطأ من سنة إلى أخرى ومن دقيقة إلى أخرى في حال الضرورة. وبلا أي شك فإن البروفيسور بيرنال ورفاقه المفكرين أبدوا نشاطاً وسرعة في فعل هذا. خلال السنوات الخمس أو الست الماضية تبدل الصح والخطأ فيما بينهما بسرعة مذهلة، فأصبحت الأفعال التي كانت خطأ في لحظة ما صحيحة بعد ذلك وبأثر رجعي والعكس صحيح. وهكذا في عام ١٩٣٩ شجب راديو موسكو الحصار البحري البريطاني لألمانيا واعتبره إجراء غير إنساني فُرض على أطفال ونساء. وفي عام ١٩٤٥ شجب الراديو نفسه الناس وأدان كل الذين اعترضوا على طرد عشرة ملايين فلاح ألماني من بيوتهم واعتبرهم مؤيدين للنازية، وكذلك تبدل تجويع النساء والأطفال من فعل سيء إلى فعل طيب، وعلى الأرجح ستصبح المجاعات السابقة أمراً جيداً مع مرور الوقت.

يحق لنا الاعتقاد أن البروفيسور بيرنال كان متفقاً مع راديو موسكو في مناسبات كثيرة. ففي عام ١٩٤٥ كان الغزو الألماني للنرويج هجوماً غادراً على دولة محايدة عزلاء. أما في عام ١٩٤٠ فقد كان عملاً مبرراً رداً على غزو سابق من قبل البريطانيين. ويمكن مضاعفة الأمثلة بشكل غير محدود. لكن من الواضح أن أي فضيلة يمكن أن تصبح رذيلة في رأي البروفيسور بيرنال حسب الحاجات الأساسية للحظة. حين استثنى الصدق نفترض أن دافعه كان الحيطة والتبصر. إن المعنى المضمن في المقطع كله يعني أن الكذب يمكن أن يكون فضيلة أيضاً، لكنه لم يكتب هذا حرفياً لأنه غير مجزٍ ومفيد للنشر.

بعد ذلك المقطع بقليل نقرأ التالي: "لأن الفعل الجماعي في الميادين الصناعي والسياسي هو الفعل المؤثر والفعال الحقيقي.... وهو الفعل الفاضل الوحيد. هذا يتضمن المبدأ الذي يرى أن "الفعل الصحيح في القضايا السياسية والصناعية هو الفعل الذي ينجح. ليس من العدل أن قوله هذا يعني أن كل فعل صحيح، لكن المعنى العام للمقال لم يترك أي شك بأن هناك خلطاً وتشوشاً معقداً بين القوة والفضيلة في ذهن البروفيسور بيرنال. لا يمكن للفعل الصحيح أن يكون في الانصياع للضمير أو لعقيدة أخلاقية تقليدية، وإنما يكمن في دفع التاريخ في الجهة التي نسير فيها فعلياً. وما هي تلك الجهة؟ من الطبيعي أن تكون جهة المجتمع اللاطبقي الذي يرغبه كل الناس المحتشمين، لكن الوصول إلى تلك الجهة السائرين نحوها

يحتاج إلى جهد. أي نوع من الجهد بالضبط؟ حسناً إنه التعاون الوثيق مع الاتحاد السوفييتي طبعاً، الذي كما يفهمه كل شيوعي والذي يعني الخنوع للاتحاد السوفييتي. هذه بعض الأجزاء من الخطبة المنمقة للبروفيسور بيرنال:

لقد تم الفوز بالحرب ويوشك العالم على الدخول في مرحلة صعبة من الشفاء وإعادة البناء لكنها مجيدة..... والتحالف الذي أنجزته الولايات المتحدة من خلال ضرورات الحرب، أصبح الآن أكثر أهمية كضمان ضد حروب مستقبلية ربما تكون أسوأ بكثير من الحروب التي مررنا بها. وللحفاظ على هذا التحالف وحمايته من أعدائه الصريحين وأعدائه ناشري الشكوك المتبادلة الماكرين، فإن هذا يتطلب يقظة مستمرة وجهوداً دائمة للوصول إلى تفاهم كبير ودائم... بدرجة نستطيع فيها رؤية الأشياء بنفس المنظور ونستطيع المضي قدماً معاً وبرفقة ومودة وأمل".

ماذا يقصد البروفيسور بيرنال بالضبط بـ "الرفقة والتفاهم الكبير والدائم" بين بريطانيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية؟ هل يقصد مثلاً أنه يُسمح للمراقبين المستقلين البريطانيين عموماً السفر إلى أي بقعة من أراضي الاتحاد السوفييتي وبأعداد كبيرة وإرسال تقارير غير خاضعة للرقابة إلى بلادهم؟ أو أن يُشجع المواطنون السوفييت على قراءة الصحف البريطانية والاستماع إلى محطة البي بي سي والنظر إلى مؤسسات هذه البلاد بعين الود؟ من الواضح أنه لم يقصد ذلك. إن كل ما يقصده: أن الدعاية الروسية في هذه البلاد يجب أن تُكثف وأن تُكمم أفواه كل الذين ينتقدون نظام الحكم السوفييتي الذين أشار إليهم ظلماً وتجنياً بناشري الشكوك المتبادلة. ويكرر الشيء عينه في اماكن أخرى كثيرة في مقالته. لهذا إن اختصرنا مقالته واكتفينا بالجوهري فيها، تبقى لدينا المقترحات التالية:

بمعزل عن الصداقة والمودة والرفقة، لا يمكن تصنيف أي صفة بـ "جيدة" أو "سيئة"

كل عمل يخدم قضية التقدم يعتبر عملاً فاضلاً.

التقدم يعني الانتقال والتحرك إلى مجتمع لاطبقي ومجتمع مخطط علمياً.

أسرع طريقة للوصول إلى هناك، تكمن في التعاون الوثيق مع الاتحاد السوفييتي.

التعاون مع الاتحاد السوفييتي يعني تحريم ومنع النقد الموجه لنظام الحكم الستاليني.

لنختصر المقال أكثر: أي شيء يخدم السياسة السوفييتية الخارجية صحيح.

على الأرجح لا يعترف البروفيسور بيرنال بأن هذا هو قصده، ولكن هذا ما يقوله في الواقع، وقد تطلب منه هذا خمس عشرة صفحة من الورق.

الشيء المميز في مقالة البروفيسور بيرنال هو لغتها الإنكليزية التي كتبت فيها؛ لقد كانت لغة طنانة وقذرة في الوقت نفسه. لا يعتبر لفت الانتباه هذا تدقيقاً مفرطاً، لأن الرابط بين عادات التفكير في الشمولية وإفساد اللغة هو موضوع هام لم يحظ بدراسة وافية أثناء الحرب. لدى البروفيسور بيرنال نزعة قوية مثل كل كتّاب مدرسته في اللجوء إلى اللغة اللاتينية عندما يقول شيئاً سمجاً ومزعجاً. يجدر بنا أن نعيد النظر إلى المقطع الذي اقتبسناه أولاً. القول إن الولاء الحزبي يعني أن تلوث ضميرك يكون فظا جداً، وكذلك القول إن الفضائل المبنية على اهتمام زائد في الفضائل الفردية تحتاج إلى إعادة توجيه نحو المسؤولية الاجتماعية. نلاحظ أن الكلمات الطويلة الغامضة تغير المعنى المقصود وفي الوقت نفسه تموه القذارة الأخلاقية لما قاله. ملاحظة خطرت في "العكس بالعكس" "لاف انستي" إجراءات رهيبة باللغة اللاتينية هي البديل عن كلمة الجلد وتوضح جيداً المبدأ الجوهري لهذا الأسلوب في الكتابة. وهناك صفة أخرى لدى الكتّاب الأصدقاء للنظام الشمولي تمت ملاحظتها، وهي النزعة إلى التلاعب بالتركيب النحوي وإنتاج جمل غير مترابطة أو خالية من أي معنى. سيتبين أن واحدة من الجمل المقتبسة من بروفيسور بيرنال كان يجب أن تعطى "سيك" لتبين عدم وجود خطأ مطبعي، وهناك أمثلة أخرى كثيرة. في العدد الشتوي لعام ١٩٤٤ من البارتيزان ريفيو، كتب إدموند ويلسون بعض الملاحظات الممتعة عن هذا الموضوع، بخصوص فيلم "مهمة إلى موسكو".

"مهمة إلى موسكو" تأسس على كتاب بقلم جوزيف أي ديفيس الذي كان سفير الولايات المتحدة في موسكو خلال فترة عمليات التطهير العرقي. ويعبر في الكتاب عن شكوك خطيرة في عدالة أحكام المحلفين في محاكمات التخريب. بينما في الفيلم الذي يتجسد فيه كواحدة من الشخصيات، يجري تصويره كشعور ليس فيه أي شك. مع الوقت، جعل الفيلم الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي حليفين، وجزء من هدفه "ترقية" أعمال التطهير العرقي واعتبارها إبادة مبررة تماماً للخونة. حتى إن النسخة الأولى احتوت على "لقطات" لتروتسكي متورطاً في مفاوضات سرية من ريبينتروب: ثم جرى حذفها لاحقاً، ربما احتراماً

لمشاعر الجالية اليهودية أو ربما لأنها كانت شديدة الشبه بالصور الفوتوغرافية الحقيقية لريبنتروب وهو يفاوض ستالين. أعطى ديفيس موافقته على نشر الفيلم، الذي كان في الواقع تزييفاً وتحريفاً لما قاله. لمناقشة هذا، يعطي ويلسون بعض النماذج من نثر ديفيس بهدف أن تلقي الضوء على عقليته. مقتطفان اثنان يكفيان:

سلام أوروبا، أن تحقق، في خطر وشيك من أن يكون سلاماً فرضه الحكام الديكتاتوريين تحت ظروف ستندفع فيها كل البلدان الصغيرة مسرعة لتصل وتكون تحت غطاء الحماية الألمانية، أو تحت ظروف تكون فيها حفلة للقوة كما تكهنت لكم قبل سنتين، "وهتلر يقود الفرقة الموسيقية".

ها هو الســيد ديفيس يتحدث عن موضوع يفغيني أونيغين:

كلا الأوبرا والباليه تأسستا على أعمال بوشكين الأدبية، والموسيقا كانت للعظيم تشايكوفسكي. الأوبرا كانت "يفغيني أونيغين" قصة رومانسية عن شابين ذوي منصب تصدعت صداقتهما بسبب سوء فهم، وشجار عشاق انتهى بمبارزة قتل فيها الشاعر. كانت ذات مغزى لنهاية بوشكين الشخصية، والأغرب أنه هو من كتبها.

الفوضى في هذا المقطع هائلة وكثيرة، لدرجة يتطلب فرز الأخطاء المختلفة وتصحيحها وقتاً كثيراً. لكن هنا الســيد بيرنال:

ديمقراطيتنا البريطانية، من الممارسة الطويلة، تمكننا بالتأكيد من أن نصون بدون إكراه وقسر أو سفك دماء لكن بطريقة خرقاء، ببطء شديد جداً وبتحيز ثقيل للامتيازات العتيقة.

ما هي الكلمة أو العبارة المفقودة هنا؟ نحن لا نعرف، ربما البرفيسور بيرنال لا يعرف أيضاً، لكن في كل الأحوال الجملة تخلو من المعنى. والغريب جداً أن مثل هذا النوع من اللغة الإنكليزية يتحول ويصبح مقالة افتتاحية:

إن كان لدى العلم الذي لانزال نتعلمه الكثير مما يعلمنا، يجب على العلم أيضاً أن يكون مدركاً أنه يتعرض اليوم لهجوم بغيض من قبل هؤلاء الذين يخشون أن الإنسان باتت لديه قوة تحت تصرفه أبعد وأكبر من قدرته على التحكم بها. هذه بالضبط واحدة من تلك الأفكار الملساء الطنانة التي يفتقر إليها النقد الذي لا يرحم.

واحدة بلا خاتمة منطقية وعبارة زائدة وأخطاء قواعدية في ستين كلمة. ولا ترتفع المقالة الافتتاحية في أي مكان فيها عن هذا المستوى المشار إليه أعلاه. لا نوحي أن تلك الأسباب للكتابة الخالية من المعنى وغير المرتبة، هي نفسها في كل حالة من الحالات. أحياناً يقع اللوم على "أخطاء فرويدية" وأحياناً بسبب عجز عقلي محض وأحياناً شعور غريزي بأن الفكرة الواضحة تكون خطراً على العقيدة التقليدية. لكن يبدو أن هناك علاقة مباشرة بين القبول بمذاهب الشمولية والاستبداد، وبين الكتابة بلغة إنكليزية رديئة، ونعتقد أن إبراز هذا مهم.

نعود إلى هجوم المودرن كورترلي على البوليمك. لقد بينا أن البروفيسور بيرنال يعلمنا، والمقالة الافتتاحية تقر وتصادق كما يبدو، المبدأ بأن أي شيء يكون صحيحاً إن كان نافعاً وملائماً سياسياً. لماذا إذاً يتهمون البوليمك بنفس الوقت بـ "تشويش القضايا الأخلاقية"، كما لو كان "الصح" و"الخطأ" كيانين ثابتين يعرف كل شخص محترم كيف يميز بينهما مسبقاً؟

السبب الوحيد الممكن أنهم ينزعجون قليلاً من ردود فعل قرائهم ذوي العقول الطرية، وأعتقد أن أهدافهم الحقيقية يجب ألا تُوضح بشكل صريح. وهكذا أيضاً مع ادعائهم أنهم سيستمعون إلى كل وجهات النظر أو الكثير جداً من وجهات النظر (حاشية المؤلف: طلب من البروفسور بيرنال أن يكتب للبوليك الأولى والثانية. ودعي الآن ليساهم في التالية).

هناك مدى واسع من الآراء المختلفة داخل مرجعيتنا ومنظورنا. إن قدراً من الحرية التأملية والتقديم الجسور ليس مسموحاً فقط وإنما مرغوباً أيضاً. يجب أن يردع الكاتب شعوره بأن آراءه قد تسبب صدمة لأي نوع من المعتقدات، فهناك دائماً علاج- رد فوري وفعال.

من الممتع إخضاع هذا التعبير إلى بضع اختبارات. هل ستنشر المودرن كورترلي مثلاً تاريخاً كاملاً عن اعتقال وإعدام القادة البولونيين الاشتراكيين ايهرليتش والتر؟ هل ستعيد نشر موجز من الكراريس الشيوعية "أوقفوا الحرب" التي صدرت في عام ١٩٤٠؟ هل ستنشر المقالات التي كتبها أنطون سيليغا أو فيكتور سيرج؟ هي لن تفعل ذلك. لهذا التعبير المقتبس آنفاً مجرد كذب، الهدف منه خلق انطباع عن سعة التفكير والتسامح على القراء الأغرار. إن تخمين سبب عداء المودرن كورترلي ليس صعباً. هوجمت البوليمك لأنها تؤيد وتدعم قيماً أخلاقية محددة بقاؤها خطر من وجهة نظر الشمولية، وهذه هي ما تسمى بالقيم الليبرالية.

نستعمل كلمة "ليبرالي" بمعنى "حب الحرية". هدفها الأول والأهم الدفاع عن حرية الفكر والتعبير التي تم انتزاعها والفوز بها بشكل موجع خلال الأربعمائة سنة الماضية. من الطبيعي جداً أن يعتبر البروفيسور بيرنال وآخرون مثله هذا هجوماً أسوأ من ابتداع وتشييد شكل ما منافس من الشمولية. حسب ما يرى البروفيسور بيرنال:

بدأت الفلسفة الليبرالية الفردانية الذرية في عصر النهضة، ووصلت إلى مكانتها التامة في الثورة الفرنسية. إنها فلسفة "حقوق الإنسان" و"الحرية والمساواة والإخوة"، والملكية الخاصة والتجارة الحرة والعمل الحر. عرفناها بشكل ممذوق لا علاقة لها بضرورات الزمن التي لم تعالج إلا بالاحتيال والنفاق، والعقول الصادقة والجاهلة فضلت حتى وحشية الفاشية على عقائدها الكاذبة والعقيمة.

يجب علينا أن نتنافس هنا مع اللغة الغائمة المعتادة وفوضى الأفكار، لكن إن كانت الجملة الأخيرة تعني أي شيء، فإنها تعني أن البروفيسور بيرنال يعتبر الفاشية أفضل من الليبرالية. يفترض أن محرري المودرن كورترلي يوافقونه في هذا. وهكذا نصل إلى الاستنتاج الحقيقي القديم البغيض أن الشيوعي والفاشي اقرب إلى بعضهما البعض أكثر من الديمقراطي. بالنسبة إلى الاتهام الخاص المرفوع ضدنا في تهديم الفرق المميز بين الصح والخطأ، فقد نشأ بسبب حقيقة أن أحد المشاركين في مجلتنا اعترض على نظر الصحافة البريطانية وتحديقها المثير للقرف بمنظر الجثث المتدلية. نعتقد أننا قلنا ما يكفي لنبين أن جريمتنا الحقيقية في عيون المودرن كورترلي، تكمن في دفاعنا عن مفهوم الصح والخطأ وفي الآداب والأصول الفكرية التي كانت المسؤولة عن كل تقدم حقيقي في القرون الماضية، والتي بدونها لن تكون ديمومة الحياة الحضرية نفسها مؤكدة على الإطلاق.

البوليمك ٣ مايو/ أيار ١٩٤٦ (بلا توقيع)

مراجعة رواية "نحن"
لاي. آي. زامايتين

بعد سنوات كثيرة من وجودها، وضعت يدي على نسخة من رواية **نحن** لزامايتين أخيراً، وهي واحدة من النوادر الأدبية لهذا العصر الملتهب بالكتب. فتشت عنها في كتاب جليب ستروف **خمس وعشرون سنة من الأدب السوفييتي** ووجدت أن تاريخها كالتالي:

كان زامايتين، الذي مات في باريس، روائياً وناقداً روسياً، نشر عدداً من الكتب قبل وبعد الثورة. "نحن" كتبت في ١٩٢٣، ورغم أنها ليست عن روسيا وليس لها علاقة مباشرة بالسياسة المعاصرة -إنها فنتازية تتعامل مع القرن السادس والعشرين بعد الميلاد- فقد رفض نشرها على أساس أنها غير مرغوبة أيديولوجياً. وجدتْ نسخة من المخطوط طريقها إلى خارج البلاد، وظهر الكتاب في ترجمات إنكليزية وفرنسية وتشيكية، ولم ينشر بالروسية أبداً. نشرت الترجمة الإنكليزية في الولايات المتحدة ولم اتمكن من تدبير نسخة: لكن النسخ الفرنسية موجودة ونجحتُ في استعارة واحدة. إلى تلك الدرجة التي أستطيع الحكم فيها، فإنه ليس كتاباً من الدرجة الأولى، لكنه غير عادي بالتأكيد. وتفاجأت من عدم وجود أي ناشر إنكليزي أقدم على نشره. أول شيء يلاحظه المرء حول "نحن" حقيقة -لم يشر إليها أحد- أعتقد أن رواية ألدوس هكسلي **عالم جديد شجاع** مستمدة جزئياً منه. كلا الكتابين يعالجان عصيان الروح البشرية البدائية ضد عالم معقلن وممكنن لا يعرف الألم، وكلا القصتين يفترض بهما أن تحدثا بعد ستة قرون من الآن. الجو في كلا القصتين متشابه، وتصفان نفس نوع المجتمع تقريباً، لكن كتاب هكسلي يظهر إدراكاً سياسياً أقل وتأثراً أكبر بالنظريات البيولوجية والسيكولوجية الحديثة. في القرن السادس والعشرين، في رؤية زامايتين له، سكان اليوتوبيا (المدينة الفاضلة) يفقدون فردانيتهم تماماً ويعرفون بالأرقام. يعيشون في بيوت زجاجية (كتب هذا قبل اختراع التلفاز) مما يمكن الشرطة السرية المعروفة باسم "الحراس، الأوصياء" من مراقبتهم بسهولة. كلهم يرتدون بدلات نظامية، ويشار للكائن البشري إما "برقم" أو "البزة النظامية" يعيشون على طعام تركيبي، وهوياتهم المعتادة أن يسيروا

بمجموعات يتألف كل منها من أربعة أشخاص، بينما يعزف نشيد الدولة الوحيدة عبر مكبرات الصوت. في فواصل محددة ومبينة يسمح لهم لمدة ساعة واحدة (تعرف بـ"ساعة الجنس") أن ينزلوا الستائر على شققهم السكنية الزجاجية. طبعاً ليس هناك زواج، لكن الحياة الجنسية لا تبدو فاسقة تماماً. لأغراض الجماع لدى كل واحد كتاب حصص لبطاقات وردية، والشريك الذي يمضي معه ساعات الجنس المخصصة يوقع على الأرومة. يحكم الدولة الوحيدة شخص يدعى المحسن يعاد انتخابه سنوياً من قبل كل السكان، ونتيجة التصويت موافقة بالإجماع دائماً. المبدأ الموجه للدولة أن السعادة والحرية متضاربتان. في جنة عدن كان الإنسان سعيداً، لكن بحماقته طالب بالحرية فطرد منها إلى البرية. الآن الدولة الوحيدة أعادت له سعادته بإزالة حريته. حتى الآن التشابه مع عالم جديد شجاع مدهش. بالرغم من أن كتاب زامايتين أقل ترتيباً -فيه حبكة عرضية ضعيفة نوعاً ما يصعب تلخيصها- إلا أنه يملك نقطة سياسية يفتقدها الكتاب الآخر. إن المشكلة في كتاب هكسلي ذات "طبيعة إنسانية" وقد حلت بمعنى ما، وذلك من خلال الفرضية التالية: يمكن جعل الكائن البشري الحي يتخصص في أي طريق مرغوب بواسطة العلاج قبل الولادة وبالمخدرات والتنويم المغناطيسي. يمكن إنتاج عامل علمي من الطراز الأول بنفس السهولة التي ينتج فيها شخص نصف أبله تافه. وفي كلا الحالتين، تتم معالجة آثار الغرائز البدائية كالشعور بالأمومة أو الرغبة في الحرية بسهولة. في الوقت نفسه لا يُقدم سبب واضح لتقسيم المجتمع إلى طبقات بالطريقة المتقنة التفصيلية الموصوفة، فالهدف ليس الاستغلال الاقتصادي، ولا تبدو الرغبة للتنمر والسيطرة حافزاً أيضاً. ليس هناك تعطش للسلطة أو السادية أو القسوة من أي نوع. هؤلاء الذين في القمة ليس لديهم الدافع القوي للبقاء في القمة، ورغم أن الكل سعيد بطريقة بلهاء، إلا أن الحياة أصبحت تافهة ولا معنى لها، لدرجة يصعب التصديق فيها أن هذا المجتمع قادر على الاستمرار والبقاء. كتاب زامايتين بالمجمل يشبه وضعنا الخاص بنا. على الرغم من تعليم ويقظة الحراس لاتزال الكثير من الغرائز البشرية العتيقة موجودة هناك. إن راوي القصة، دي ٥٠٣ مهندس موهوب لكنه كائن تقليدي مسكين، نوع من اليوتوبي بيلي براون في لندن تاون، مروع دائماً بنزوات راجعة جينية تنتابه. يقع في حب (هذه جريمة طبعاً) مع ١-٣٣٠ التي هي عضو في حركة مقاومة سرية، وتنجح فترة في دفعه إلى التمرد. حين يندلع التمرد، يتضح أن

أعداء المحسن كثيرون، وهؤلاء الناس عدا عن تآمرهم للإطاحة بالدولة، ينغمسون في اللحظة التي يسدلون فيها ستائرهم في رذائل مثل التدخين السجائر وشرب الكحول. دي ٥٠٣ ينقذ تماماً من نتائج حماقته. تعلن السلطات أنها اكتشفت سبب الاضطرابات الأخيرة: وجود بعض الكائنات البشرية التي تعاني من مرض اسمه التخيل. لقد حدد المركز العصبي المسؤول عن التخيل، ويمكن الشفاء من المرض بالعلاج بأشعة إكس. يخضع دي ٥٠٣ للعملية التي صار من السهل له أن يعمل ما عرف منذ البداية أن عليه أن يفعله-أي يخون شركاءه في المؤامرة ويبلغ عنهم الشرطة. برباطة جأش تامة وهدوء، يراقب ١-٣٣٠ تعذب بهواء مضغوط تحت أنبوب غوص زجاجي: نظرت إلى يديها تقبضان على ذراعي الكرسي حتى انغلقت عيناها تماماً. أخرجوها وأعادوها إلى الوعي بواسطة صدمة كهربائية ووضعوها تحت الأنبوب ثانية. تكررت هذه العملية ثلاث مرات، ولم تصدر كلمة واحدة من شفتيها. الآخرون الذين أحضروا معها أظهروا أنهم أكثر صدقاً. كثيرون منهم اعترفوا بعد تطبيق واحد. غداً سيرسلون إلى آلة المحسن. آلة المحسن هي المقصلة. هناك إعدامات كثيرة في مدينة زامايتين الفاضلة. تحدث علانية بحضور المحسن مصحوباً بقصائد غنائية عن النصر يلقيها الشعراء الرسميون. المقصلة ليست أداة قديمة خاماً، وإنها أنموذج محسن جداً يذيب ضحيته حرفياً ويقلله في لحظة إلى نفثة دخان وبركة من الماء الصافي. الإعدام في الحقيقة تضحية بشرية، والمشهد الذي يصفه أعطى عمداً لون حضارات العالم القديم العبودية الشريرة. إنه الإدراك الحدسي للجانب غير العقلاني للشمولية -الأضحية البشرية والوحشية كغاية بنفسها وعبادة القائد المنسوب إليه صفات قدسية - ما يجعل كتاب زامايتين أرفع وأفضل من كتاب هكسلي. من السهل أن نرى لماذا رفض نشر الكتاب. المحادثة التالية (اختصرتها قليلاً) بين دي-٥٠٣ و١-٣٣٠ تكفي ليعمل القلم الأزرق:

"هل تدركين أن ما تقترحينه هو ثورة؟".

"طبعاً إنها ثورة. ولماذا لا؟"

"لأنه لا يمكن أن تكون هناك ثورة. ثورتنا كانت الأخيرة ولا يمكن أن تكون هناك ثورة أخرى أبداً. كل واحد يعرف ذلك"

"عزيزي أنت عالم رياضيات. أخبرني ما هو العدد الأخير؟"

"ماذا تقصدين بالعدد الأخير؟"

"حسناً إذاً، أكبر رقم!".

"لكن هذا سخف ومنافٍ للعقل. الأعداد لانهائية. لا يوجد عدد أخير"

"إذاً لماذا تتحدث عن الثورة الأخيرة؟".

هناك مقاطع مشابهة، لكن ربما لم يقصد زامايتين أن يكون نظام الحكم السوفييتي الهدف الخصوصي لهجائه، فقد كتب الكتاب في زمن موت لينين ولا يمكن أن تكون ديكتاتورية ستالين في تفكيره، ولم تكن الظروف في روسيا في العام ١٩٢٣ بالدرجة التي تجعل المرء يثور ضدها، لأن الحياة بدأت تصبح آمنة جداً ومريحة. لم يستهدف زامايتين على ما يبدو بلاداً بعينها، وإنما الأهداف الضمنية للحضارة الصناعية. لم أقرأ أياً من كتبه الأخرى، لكني عرفت من جليب ستروف أنه أمضى عدداً من السنين في إنكلترا وكتب بعض المقالات الهجائية اللاذعة عن الحياة الإنكليزية. واضح من "نحن" أن لديه ميلاً قوياً نحو البدائية. سجنته الحكومة القيصرية في ١٩٠٦ ثم سجنه البلاشفة في ١٩٢٢ في نفس الدهليز في نفس السجن، ولديه مبرره بأن يكره الأنظمة السياسية التي عاش في ظلها، لكن كتابه ليس مجرد تشكٍ وتذمر، بل دراسة للماشين (الآلة) ذلك العفريت الذي أطلقه الإنسان بطيشه من قمقمه، ولم يستطع إعادته ثانية. إنه كتاب يجب البحث عنه حين تظهر منه نسخة إنكليزية.

دفاعاً عن الرفيق زيلايكوس

منذ عدة أسابيع وجه السيد كي زيلايكوس رسالة طويلة، وكالعادة بذيئة إلى التريبيون، لا يتهمها بافتقارها إلى سياسة خارجية واضحة وقابلة للحياة، وإنما بكونها صحيفة معادية للروس، بينما تحافظ على إظهار العداوة نحو إيرنست بيفين. قال: إن بيفن أكثر واقعية من التريبيون منذ أن أدرك أنه لكي تعارض روسيا من الضروري عليك أن تعتمد على أمريكا و"وتدعم الفاشية"، بينما كانت التريبيون تجلس على السياج فقط وتتفوه بشعارات متناقضة ولا تصل إلى أي مكان.

أنا لا أتفق مع السيد زيلايكوس غالباً، ولكن يبهجني جداً أن أسجل اتفاقي معه في هذه المناسبة. بالتسليم في مصطلحه الخاص أعتقد أن اتهامه مبرر تماماً. يجب على المرء أن يتذكر طبعاً أن كلمات مثل الديمقراطية أو الفاشية أو الشمولية في أفواه السيد زيلايكوس ورفاقه لا تحمل تماماً معانيها العادية، فهم يميلون عموماً إلى التحول إلى عكسها. فالفاشية تعني لهم انتخابات غير مزيفة، والديمقراطية تعني حكم الأقلية وهلم جرا. لكن هذا لا يبدل حقيقة أنه لا يستقر على قضايا حقيقية فشلت التريبيون لسنوات المرة تلو الأخرى بأن توضح موقفها منها. هو يعرف أن القضايا السياسية الكبيرة الوحيدة في العالم اليوم هي مع أو ضد روسيا أو مع أو ضد أمريكا أو مع أو ضد الديمقراطية. ورغم أنه يصف نشاطاته في كلمات تختلف عما يستخدمه أغلبنا، لكننا نستطيع أن نراه أين يقف على الأقل.

لكن أين تقف التريبيون؟ أنا أعرف أو أعتقد أنني أعرف ماذا تفضل سياسة التريبيون الخارجية، لكني أعرف بالاستنتاج ومن الاتصالات الخاصة. يستطيع القراء العرضيون وحسب معرفتي هم يفعلون، أن يستجروا انطباعات كثيرة مختلفة. إن كان على المرء أن يلخص سياسة التريبيون الظاهرة بكلمة واحدة، فسيكون الاسم الذي سيصيغه لها أنها معادية للبيفينية. القانون الأول حين بيفن يقول أو يفعل شيئاً ما يجب أن توجد طريقة ما لإظهاره على أنه خطأ حتى لو كان الذي كانت تدافع عنه التريبيون في الأسبوع السابق. القانون الثاني: حين يمكن نقد السياسة الروسية، يجب أن توجد ظروف مخففة دائماً. القانون الثالث: حين يمكن

توجيه إهانة للولايات المتحدة يجب أن تهان. تحت أثر تأطير سياسة على هذه المبادئ، لا يستطيع المرء اكتشاف أي حل تعرضه التريبيون للمشاكل النوعية المحددة التي تناقشها كثيراً. لنأخذ مثالاً. هل تؤيد التريبيون الانسحاب من اليونان فوراً وبلا شروط؟ هل تعتقد التريبيون أن الروس يجب أن يأخذوا الدردنيل؟ هل التريبيون تفضل هجرة يهودية غير مقيدة إلى فلسطين؟ هل تؤيد التريبيون السماح لمصر بضم السودان إليها؟ في بعض الحالات أنا أعرف الإجابات، لكني أعتقد أن من الصعب اكتشافها بمجرد قراءة الصحيفة.

أعتقد أن جزءاً من المشكلة، يكمن في أن التريبيون بعد أن ضخمت بيفن واعتبرته عدو الشعب رقم واحد، اكتشفت أنها ليست على خلاف حقيقي معه. بالتأكيد هناك خلافات حقيقية بينهما حول فلسطين وإسبانيا وربما اليونان، لكن عموما أعتقد أنه والتريبيون يؤيدان نفس النوع من السياسة. هناك، هذا متفق عليه عموماً، ثلاث سياسات أجنبية محتملة لبريطانيا العظمى. الأولى أن تفعل كما يريدنا السيد زيلايكوس أن نفعل، أي أن نصبح جزءاً من المنظومة الروسية بحكومة ربما أقل عبودية من حكومة بولندا وتشيكوسلوفاكيا، لكن جوهرياً مثلهما؛ الثانية أن ننتقل بشكل واضح إلى فلك الولايات المتحدة؛ والثالثة أن نصبح جزءاً من اتحاد فيدرالي في جمهوريات أوروبا الغربية الاشتراكية التي ستشمل أفريقيا إن أمكن وإن أمكن ثانية (رغم أنه أقل احتمالاً) الدول التابعة للتاج البريطاني. أنا أستنتج أن التريبيون -لأنها لم تقل بوضوح- تفضل السياسة الثالثة وبيفين يفضل هذا، أي الحكومة كما أعتقد. لكن التريبيون ليست متورطة في عداء شخصي مع بيفين فقط، وإنما ترفض مواجهة حقيقتين أيضاً -حقائق غير شعبية الآن- يجب أن تواجههما إن أراد المرء أن يناقش اتحاداً غربياً بجدية. الأولى أنه من الصعب لهكذا اتحاد أن ينجح بدون دعم وود أمريكي، والأخرى أن أمريكا ملزمة بأن تجلب العداوة الروسية مهما كانت نواياها مسالمة. هنا بالضبط فشلت التريبيون كجريدة رأي، وكل التباساتها الأخرى كما أعتقد نشأت من الفزع من رأي هازئ حديث جداً بخصوص موضوع روسيا وأمريكا.

أحد الأشياء اللافتة جداً في التريبيون هو التظاهر بأن لبيفين سياسته الخاصة به حصرياً. هو بوضوح نوع من حصان هارب يجر مجلس وزراء عنيد خلفه، وسياستنا كان يجب أن تكون مختلفة تماماً- والأهم علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتي كانت ستكون أفضل لو كان لدينا

فقط وزير خارجية متنور أكثر. الآن واضح أن هذا لا يمكن أن يكون بهذا الشكل. لن يبقى وزير يعطل إرادة الحكومة في المنصب سنتين. لماذا إذاً نلقي اللوم على شخص واحد؟ ألم يكن السبب لأننا لم نقل أن حكومة عمالية كهذه ملزمة على الأغلب أن تكون على علاقة رديئة مع حكومة الاتحاد السوفييتي؟ يمكننا الحصول على علاقات ممتازة متبادلة مع روسيا مع حكومة يرأسها بريت وزيلايكوس، ويمكننا إصلاح بعض التدابير مع حكومة يرأسها تشرشل وبيفربروك، لكن أي حكومة تمثل بصدق الحركة العمالية، فيجب أن ينظر إليها بعداء وحقد. من وجهة نظر الروس والشيوعيين، فإن الاشتراكية الديمقراطية عدو لدود، وللإنصاف هم يعترفون بهذا دائماً. حتى هكذا قضايا خلافية كتشكيل اتحاد غربي غير متصلة بالموضوع هنا. حتى لو لم يكن لنا تأثير في أوروبا ولم نحاول التدخل، تظل هناك مصلحة للحكومة الروسية في إفشال حكومة العمال البريطانية إن استطاعت. السبب واضح جداً. الاشتراكية الديمقراطية بخلاف الرأسمالية توفر بديلاً عن الشيوعية، ويمكنها أن تنجح بمستوى كبير في أن تبين أخيراً أن الاشتراكية ممكنة بدون قوات الشرطة السرية والترحيل الجماعي وهلم جرا-عندها يتلاشى مبرر الديكتاتورية. إن العلاقات السيئة مسبقاً مع روسيا ملزمة بالتدهور مع حكومة عمالية في المنصب. أشار مراقبون مختلفون إلى هذا في وقت الانتخابات العامة، لكن لا أتذكر أن التريبيون فعلت هذا آنذاك وفيما بعد. ألم يكن لأن الأسهل والشعبي أكثر أن نشجع الوهم الواسع الانتشار بأن "حكومة من اليسار تستطيع أن تكون على علاقات أفضل مع روسيا، وأن الشيوعية نفس الشيء مثل الرأسمالية، ثم حين لا تكون الأشياء بتلك الطريقة نسجل دهشة مؤلمة ونبحث عن كبش فداء؟".

وأنا أتساءل ماذا وراء عداء التريبيون الدائم للأمركة؟ في التريبيون أستطيع تذكر ثلاث إشارات مؤدبة إلى أمريكا خلال السنة الماضية (واحدة إشارة إلى هنري والاس) وحبل كامل من الإهانات الصغيرة. لقد تلقيت رسالة من طلاب في جامعة أمريكية للتو يسألونني إن كنت أستطيع تفسير سبب اعتقاد التريبيون بضرورة ازدراء أمريكا. ما الذي سأقوله لهؤلاء الناس؟ سأقول لهم الحقيقة التي أعتقدها -أي أن عداء التريبيون للأمركة ليس صادقاً ولكنه محاولة لمجاراة آخر صرعات الرأي. أن تكون معادياً لأمريكا الآن، أن تصرخ وتصيح مع الرعاع. طبعاً إنهم مجرد رعاع ثانويين، لكن صوتهم عالٍ جدا. رغم وجود مشاعر غير طيبة

نتيجة لوجود القوات الأمريكية، أنا لا أعتقد أن الغالبية العظمى من الشعب في هذه البلاد معادون لأمريكا سياسياً، وبالتأكيد هم ليسوا كذلك ثقافياً. لكن المثقفين الأدبيين-السياسيين لا يخافون من رأي الجماهير عادة، وإنما من الرأي السائد داخل مجموعتهم الخاصة بهم. في أي لحظة هناك دائماً عقيدة تقليدية وصياح ببغائي يجب أن يكرر، والعقيدة الراهنة في أنشط قسم من اليسار هي العداء للأمركة. أعتقد أن جزءاً من السبب (أنا أفكر ببعض ملاحظات في مصنف السيد جي دي اتش كول، دليل الرجل الذكي إلى عالم ما بعد الحرب) فكرة أننا لو استطعنا قطع روابطنا مع الولايات المتحدة، فربما ننجح في البقاء على الحياد في حالة نشوب حرب بين روسيا وأمريكا. كيف لأي أحد أن يصدق هذا بعد النظر إلى الخريطة وتذكر ما حدث للدول المحايدة في الحرب الأخيرة، أنا لا أعرف. هناك أيضاً الفكرة الأنانية الأخرى بأن الأمريكان ليسوا أعداءنا حقيقة، ومن غير المحتمل أن يبدأوا بإسقاط قنابلهم الذرية علينا أو يتركوننا نموت من الجوع. ولذلك نستطيع أخذ خياراتنا بأمان معهم إن كان ذلك مفيداً. لكن العقيدة موجودة هناك في كل الأحوال. للتكلم لصالح أمريكا، لتتذكر بأن الأمريكان ساعدونا في عام ١٩٤٠ حين كان الروس يمدون الألمان بالنفط ويدفعون أحزابهم الشيوعية لتخريب مسعى الحرب ويصنفوا الناس بـ "الرجعيين". أنا أشك أن التريبيون حين تنضم وتشارك في الجوقة، فذلك من خشيتها من هذا الوسم أكثر مما هو قناعة صادقة لديها.

إن كان المرء سيكتب عن سياسة خارجية، فهناك سؤال بالتأكيد يجب أن يجاب عليه بوضوح: "إن كان عليك أن تختار بين روسيا وأمريكا، فأيهما ستختار؟" لن يكفي إعطاء الجواب المراوغ المعتاد "أنا أرفض أن أختار" في النهاية قد يفرض الاختيار علينا. لم نعد أقوياء بما يكفي للوقوف لوحدنا، وإن فشلنا في تكوين اتحاد أوروبي غربي، سوف نكره على المدى الطويل أن نخضع سياستنا إلى تلك أو غيرها من القوى العظمى. وعلى الرغم من كل الثرثرة الحالية، فإن كل واحد منا يعرف في قرارة نفسه أننا يجب أن نختار أمريكا. في اعتقادي، القسم الأعظم من الجماهير سيأخذ خياره غريزياً. بالتأكيد هناك أقلية صغيرة ستختار الطريق الآخر. السيد زيلايكوس مثلاً واحد منهم. أعتقد أنه مخطئ، لكنه يوضح موقفه على الأقل. أنا أعرف جيداً ما هو موقف التريبيون أيضاً. لكن هل أفصحت التريبيون عنه بوضوح قط؟

كم نحن خاضعون في هذه البلاد إلى الاستبداد الفكري الذي تمارسه الأقليات والذي يمكن رؤيته من تركيبة الصحافة. يعتقد الشخص الذي يحكم على بريطانيا من خلال صحافتها أن حزب المحافظين أقوى حزب دائماً وحزب الليبراليين الثاني والشيوعيين الثالث وحزب العمال غير موجود. إن الحزب الجماهيري الحقيقي الوحيد ليس لديه صحيفة يومية خاصة به لا ينازعه بها أحد وليس له أي مؤيد موثوق وسط الأسبوعيات السياسية. أفترض أن التريبيون خرجت بتصريح بسيط عن المبادئ المتضمنة في قراراتها الفردية- في تأييدها للتجنيد الإلزامي مثلاً. هل ستسير ضد الكيان الرئيسي لحزب العمال؟ أشك بذلك. لكن ليتها تذهب ضد الأقلية المجارية للموضة التي تجعل الأشياء بغيضة للصحفي السياسي. هؤلاء الناس لديهم تقنية نظامية في تشويه السمعة والسخرية -مفردات اختصاصية كاملة مصممة لتظهر أن كل من لا يكرر الشعارات والآراء المكررة مجنون ومثير للسخرية. السيد زيلايكوس مثلاً يتهم التريبيون بكونها "عدوة مسعورة للروس" (أو "عدوة مسعورة للشيوعية"). الكلمة الرئيسية هنا هي "مسعور" الكلمات الأخرى المستخدمة في هذا السياق تخلو من التعبير ومخبولة "مريض بالكره" (عبارة النيوريبيلك) وممسوس. النتيجة إن عبرت من وقت لآخر عن نفور معتدل من معسكرات العمل الشاق أو من انتخابات المرشح الواحد، فأنت إما مجنون أو مدفوع بأسوأ الدوافع. بنفس الطريقة حين سئل أحد المراسلين هنري والاس لماذا أصدر نسخاً مزيفة من خطاباته إلى الصحافة، رد عليه "إذاً أنت واحد من الذين يطالبون بصخب بالحرب مع روسيا؟" لم يجب هذا الرد على السؤال، لكنه أخاف أغلب الناس وأسكتهم. أو هناك نوع ألطف من السخرية يتكون في التظاهر بأن الرأي العقلاني لا يتميز من التحامل القديم السخيف. إن لم تحب الشيوعية فأنت تهاجم الحمر وتؤمن بالأعمال الوحشية البلشفية وبتأميم النساء وبذهب موسكو وهلم جرا؛ وبالمثل حين كانت الكاثوليكية هي الرائجة بين الإنتلجنسيا الإنكليزية كما الشيوعية اليوم، فإن كل من يقول إن الكنيسة الكاثوليكية منظمة فاسدة وشريرة وليست صديقة للديمقراطية، يتهم فوراً بأنه بلغ أسوأ حماقات المنظمات الرافضة للبابوية، وينظر تحت سريره خشية أن يختبئ يسوع هناك، ويصدق القصص عن الأطفال الهياكل العظمية المستخرجين من

أرضيات أديرة الراهبات وكل البقية. لكن قلة من الناس تتمسك برأيها، وأعتقد أن من السليم القول إن الكنيسة الكاثوليكية أقل حداثة الآن مما كانت عليه آنذاك.

أخيراً ما أهمية أن يُسخر منك؟ إن الجمهور الكبير لن يفهم الدعابة عادة في كل الأحوال، وإن عبرت عن مبادئك بوضوح وتمسكت بها، سيعود الناس إليك أخيراً. ليس هناك شك حول ممن تخاف التريبيون. إنها تخاف من الشيوعيين ورفاق السفر ورفاق رفاق السفر، لهذا السبب تقوم بهذه المراوغات اللانهائية: فقرة من احتجاج حين يقتل أحد أصدقائنا - صمت حين يقتل ذلك المرء وشجب لهذه الانتخابات المزورة واستحسان مشروط لذلك المرء وهلم جرا. النتيجة، رأيت في الصحف الأمريكية أكثر من مرة عبارة " جماعة فوت-زيلايكوس". طبعاً فوت وزيلايكوس ليسا حليفين لكنهما يبدوان هكذا من الخارج. في الوقت الراهن هل هذا النوع من الأشياء يستميل الناس الذين يستهدفهم؟ هل هو يستميل السيد زيلايكوس مثلاً؟ لقد عومل بلطف مميز من قبل التريبيون. سمح له بزرع أعمدة مراسلته مثل عشبة ضارة خالدة، وحين راجعت التريبيون كتاباً له قبل فترة قليلة، بحثت عبثاً في تلك المراجعة عن أي تصريح صريح عن هويته والمصالح التي يخدمها، فوجدت بدلاً من ذلك إيحاء بأنه ربما كان متحمساً بإفراط وأنه معتاد على محاججة خاصة -وهذا كله متوازن بمديح حيثما أمكن ومعنون بعنوان ودي"الداعية المقاتل" لكن هل السيد زيلايكوس ممتن؟ على العكس، بعد بضعة أسابيع فقط استدار بدون أي استفزاز ووجه ركلة مؤلمة. من الصعب لومه بما أنه يعرف جيداً أن التريبيون ليست في صفه ولا تحبه فعلاً. لكن بينما هو مستعد وراغب في توضيح هذا، لم تفعل التريبيون هذا بالرغم من الهجمات الجانبية العرضية. أنا لا أزعم أن السيد زيلايكوس صادق، لكنه مخلص على الأقل. نحن نعرف أين يقف وهو يفضل أن يضرب أعداءه بدلاً من أصدقائه. طبعاً صحيح أنه يقول ما هو آمن وحداثي الآن، لكني أتصور أنه يتمسك بمبادئه إذا تبدل المدّ. كتبت في الفترة بين أكتوبر ١٩٤٧ ويناير ١٩٤٨ مايكل فوت عضو برلمان. بواسطة تي آر فيفيل مرآة الحاضر بقلم كوني زيلايكوس ٦ يونيو/ حزيران ١٩٤٧.

مراجعة: صورة لشخص يعادي السامية، بقلم جان بول سارتر، ترجمه من الفرنسية إيريك دو موني

من الواضح أن عداء السامية موضوع يحتاج إلى دراسة جادة، لكنها غير محتملة في المستقبل القريب كما يبدو، والمشكلة أنه طالما يعتبر عداء السامية عبارة عن انحراف شائن وجريمة تقريباً، فإن كل متعلم يسمع بالكلمة سوف يزعم أنه محصن ضدها؛ ما يجعل الكتب حول العداء للسامية مجرد مناورات تطرح قذى في عيون الناس الآخرين. إن كتاب السيد سارتر ليس استثناء، وربما ليس أفضل، لأنه كتب في ١٩٤٤ في الفترة المضطربة وتبرير الذات وصيد بائعي الأوطان التي تلت التحرير. في البداية يخبرنا السيد سارتر أن معاداة السامية ليس لها أساس منطقي: في النهاية لن تتواجد في مجتمع لاطبقي، وفي الوقت الراهن يمكن محاربتها إلى حد ما بالتعليم والدعاية. هذه الاستنتاجات يصعب أن تستحق التصريح بها لذاتها فقط، ووسطها هناك نقاش حقيقي قليل للموضوع رغم النشاط العقلي الكثير، ولكن ليس هناك دليل وبرهان حقيقي يستحق الذكر. يخبرنا أن معاداة السامية غير معروفة تقريباً وسط الطبقة العاملة. إنها مرض البرجوازية، والأهم مرض ذلك الكبش الذي تقع عليه كل ذنوبنا "البرجوازية الصغيرة"، وضمن البرجوازية، ونادراً ما توجد بين العلماء والمهندسين. إنها ميزة غريبة لأناس يفكرون بالقومية بشكل ثقافة موروثة وملكية بشكل أرض. لم يناقش السيد سارتر لماذا يختار هؤلاء الناس اليهود وليس ضحية أخرى إلا في مكان واحد، حين يقدم النظرية العتيقة الملتبسة بأن اليهود مكروهون لأنهم يعتبرون مسؤولين عن صلب المسيح. لم يبذل أي محاولة لربط معاداة السامية بظواهر مترابطة بشكل واضح كالتحامل اللوني مثلاً. جزء مما هو خطأ في مقاربة السيد سارتر، مشار إليه بعنوانه. "الـ" معادي للسامية، يبدو أنه يدلل عليه في الكتاب كله، فهو دائماً نفس نوع الشخص الذي يمكن تمييزه بلمحة سريعة على حد تعبيرك، وهو ناشط ويعمل طول الوقت. في الواقع لا يحتاج المرء إلا

إلى قليل من الملاحظة ليرى أن العداء للسامية منتشر بشكل مفرط، وليس مقتصراً على طبقة واحدة، والأهم أنه في الحالات الأسوأ يكون متقطعاً.

لكن هذه الوقائع لا تستقيم مع نظرة السيد سارتر الذرية للمجتمع. لا يوجد -سارتر يقترب من القول- شيء مثل هذا ككائن بشري، وهناك فقط أصناف مختلفة من الناس مثل "الـ" عامل و"الـ" البرجوازي، كلها مصنفة بنفس طريقة تصنيف الحشرات. واحد آخر من هذه المخلوقات الشبيهة بالحشرات هو "الـ" يهودي، الذي كما يبدو يمكن أن يميز بمظهره البدني. صحيح أنه هناك نوعان من اليهود "اليهودي الأصلي" الذي يريد أن يبقى يهودياً، و"اليهودي غير الأصلي" الذي يجب أن يكون مشابهاً للآخرين، لكن اليهودي من كلا النوعين ليس كائناً بشرياً آخر. هو مخطئ في هذه المرحلة من التاريخ إن حاول أن يشبه نفسه بالآخرين، ونحن مخطئون إن حاولنا أن نتجاهل أصله العرقي. يجب أن يكون مقبولاً في الجماعة الوطنية، ليس كرجل إنكليزي عادي أو فرنسي أو أياً كان، وإنما كيهودي.

سنبين أن موقفه نفسه قريب بشكل خطير من معاداة السامية. التحامل العرقي من أي نوع عصاب، ويشك إن كان الجدال يزيده أو يقلله، لكن النتيجة الصافية لكتاب من هذا النوع إن كان لها تأثير، فهو على الأرجح يزيد من انتشار عداء السامية أكثر من قبل. الخطوة الأولى نحو دراسة جدية لمعاداة السامية، هي أن نتوقف من اعتبارها جريمة. في الوقت الحالي كلما كان الحديث عن اليهودي أو المعادي للسامية كنوع من حيوان مختلف عن أنفسنا أقل، كان أفضل.

أوبزيرفر ٧ نوفمبر/ تشرين ثاني ١٩٤٨.

من خلال مرآة، روزيلي

أثارت المقالة الجديدة التي نشرتها التريبيون لمراسلها في فيينا (حين كتب مراسل التريبيون في فيينا تقريراً عن الظروف المروعة في المدينة، ووصف السلوك الرهيب لبعض من القوات الروسية المحتلة بصدق تام، احتج قراء كثيرون ضد ما أسموه "تشويه سمعة" الجيش الأحمر) فيضاً من الرسائل الغاضبة، بالإضافة إلى أنها وصفته بالأحمق والكاذب، ووجهت إليه تهماً أخرى يمكن اعتبارها ذات طبيعة روتينية، وحملت أيضاً تضميناً جدياً بأن عليه أن يبقى صامتاً حتى لو كان يتكلم الحقيقة. هو نفسه رد رداً مختصراً في التريبيون، لكن القضية المعنية هامة جداً وتستحق مناقشة أطول وأشمل.

حين يكون ألف وباء في تعارض ضد بعضهما، فإن كلاً من يهاجم أو ينتقد ألف سيتهم بمساعدة ودعم باء، وموضوعياً وفي التحليل قصير الأجل يسهل الأشياء لباء، لذلك يقول المؤيدون لألف اخرس ولا تنتقد: أو على الأقل انتقد بشكل "بنّاء" ويعنون دائماً عملياً انتقد بشكل محابٍ، لذلك هذا ليس سوى خطوة قصيرة للإثبات بأن مهمة وواجب الصحفي الأسمى هي إخماد الحقائق المعروفة وتشويهها.

الآن لو قسم أحد العالم إلى ألف وباء، وافترض أن ألف يمثل التقدم وباء الرجعية، يصبح عدم الكشف عن أي حقيقة تضر بألف أمراً قابلاً للجدل. لكن قبل الأخذ بهذا الادعاء، يجب أن يدرك المرء إلى أين يقوده هذا. ماذا نقصد بالرجعية؟ أفترض أننا نتفق أن ألمانيا النازية تمثل الرجعية في أسوأ أشكالها أو أحده. حسناً، إن الذين أعطوا جلّ مؤنهم لمروجي النازية أثناء الحرب في هذه البلاد، هم بالضبط منِ يقولون لنا إن انتقاد الاتحاد السوفييتي "موضوعياً" هو تأييد للفاشين. أنا لا أشير إلى الشيوعيين أثناء مرحلة معاداتهم للحرب: أنا أشير إلى اليسار ككل. عموماً حصلت الإذاعة النازية على مواد من الصحافة اليسارية أكثر مما حصلت عليه من اليمين، ولولاها لكان ذلك صعباً، لأن نقد المؤسسات البريطانية موجود بشكل رئيسي في الصحافة اليسارية. كان كل إفشاء عن الأحياء الفقيرة القذرة واللامساواة الاجتماعية وكل هجوم على قادة حزب التوري وكل شجب للإمبريالية البريطانية، هدية لغوبلز. وليس

بالضرورة أن يكون للهدية التافهة بالنسبة إلى الدعاية الألمانية حول "البلوتوقراطية البريطانية" (حكومة الأثرياء) تأثير على البلدان المحايدة خصوصاً في القسم المبكر من الحرب.

هذان مثالان عن نوع المصدر الذي كان مروجو دعاية المحور يأخذون منهما موادهم المعتمدة. نشر اليابانيون في إحدى مجلاتهم الناطقة بالإنكليزية في الصين كتاب بيرفولت **انحدار الإمبراطورية البريطانية وسقوطها** على حلقات-بيرفولت إن لم يكن شيوعياً بالفعل، فقد كان مؤيداً متحمساً للسوفييت- وتضمن الكتاب عرضياً بعض التبجح عن اليابانيين أنفسهم، لكن من وجهة النظر اليابانية لم يكن هذا مهماً بما أن الهدف الرئيسي للكتاب كان معادياً لبريطانيا. في الوقت نفسه بثت الإذاعة الألمانية نسخاً مختصرة من كتاب اعتبره الألمان مؤذياً للهيبة البريطانية. بثوا كتاب أي ام فورستر **رحلة إلى الهند** من بين كتب أخرى. وحسب علمي لم يلجأوا حتى إلى الاقتباسات المضللة، لأن الكتاب كان صادقاً جوهرياً وكتب ليخدم هدف الدعاية النازية.

حسب رأي بليك: الحقيقة التي تقال بقصد سيء تهزم كل الأكاذيب التي تستطيع اختراعها.
وكما قال بليك: الحقيقة التي تقال بنية سيئة تهزم كل الأكاذيب التي تستطيع اختراعها.

إن كل واحد رأى تصريحاته تعود إليه من إذاعة المحور، سيشعر بقوة هذا. في الحقيقة كل من كتب دفاعاً عن قضايا غير شعبية أو كان شاهداً لأحداث مسببة للجدل، يعرف الإغراء المخيف لتشويه الحقائق وطمسها، لأن أي تصريح صادق سيحتوي إفشاءات يمكن للخصم المجرد من الضمير استغلالها. لكن ما يجب على المرء الاهتمام به هي الآثار طويلة المدى. هل تستطيع الأكاذيب خدمة قضية التقدم أم لا على المدى الطويل؟ القراء الذين هاجموا مراسل التريبيون في فيينا بعنف شديد، اتهموه بالكذب لكنهم أيضاً عبروا ضمناً عن أن تلك الوقائع التي قدمها يجب ألا تنشر حتى لو كانت صحيحة. ١٠٠ ألف حالة اغتصاب في فيينا ليست إعلاناً جيداً بالنسبة إلى النظام السوفييتي الحاكم: لذلك حتى لو حصلت، فلا تذكروها. كما أن العلاقات الأنغلوروسية يحتمل أن تزدهر إن جرى التعتيم على الحقائق المزعجة.

المشكلة إن كذبت على الناس، يكون رد فعلهم أعنف حين تتسرب الحقيقة وتنكشف، كما يحدث عادة في النهاية. هذا مثال عن الدعاية غير الصادقة تعود إلى الوكر لتجثم وتقيم. الكثير من الشعب الإنكليزي الخيرين استقوا من صحف اليسار صورة مستحسنة بإفراط لحزب

المؤتمر الهندي، فهم لم يؤمنوا بأنه محق، وإنها تخيلوه نوعاً من منظمة يسارية ذات أهداف ديمقراطية وأممية. هؤلاء الناس إن واجهوا فجأة قومياً هندياً حقيقياً بشحمه ولحمه، سينقلبون إلى مواقف بليمب. شاهدت هذا يحصل عدة مرات. والأمر كذلك مع الدعاية المؤيدة للسوفييت، فهؤلاء الذين ابتلعوها كاملة هم دائماً في خطر تحول مفاجئ، ينبذون فيه فكرة الاشتراكية برمتها. بهذه الطريقة وبطريقة أخرى يجب أن أقول إن الأثر الصافي للدعاية الشيوعية والقريبة من الشيوعية، كان ببساطة إعاقة قضية الاشتراكية، رغم أنها ربها ساعدت مؤقتاً السياسة الخارجية الروسية.

هناك دائماً المبررات الممتازة والوعظية لحجب الحقيقة، وهذه الأسباب تقدم بنفس الكلمات تقريباً من قبل المؤيدين لأسباب متنوعة كثيرة. لي كتابات منعت من النشر خشية ألا يحبها الروس، وكتابات أخرى منعت من النشر لأنها تهاجم الإمبريالية البريطانية ويمكن أن يقتبسها الأمريكيون المعادون لبريطانيا. لقد أخبرونا الآن أن أي انتقاد صريح لنظام ستالين الحاكم "سيزيد الشكوك الروسية"، لكن منذ سبع سنوات فقط كانوا يخبروننا أن أي انتقاد صريح للنظام النازي الحاكم سيزيد شكوك هتلر (وفي بعض الحالات من قبل الجرائد نفسها). في وقت متأخر من ١٩٤١ صرحت بعض الصحف الكاثوليكية أن حضور حزب العمال في الحكومة البريطانية زاد شكوك فرانكو وجعله يميل أكثر نحو دول المحور. عند النظر والعودة إلى الوراء، نرى لو أن الشعبين البريطاني والأمريكي أدركا في عام ١٩٣٣ ماذا يمثل هتلر، لربما كان تفادي الحرب ممكناً. وبالمثل إن أول خطوة نحو علاقات أنغلوروسية محترمة هي إسقاط الأوهام. في المبدأ أغلب الناس سيوافقون على هذا: لكن إسقاط الأوهام يعني نشر الحقائق، والحقائق غير مسرة.

إن حجة أن المرء يجب ألا يتكلم بصراحة ووضوح لأنه "سيكون لعبة بيد" هذا الشرير أو ذاك كاذبة، ولا يستخدمها الناس إلا حين تناسبهم. كما أشرت، فإن هؤلاء القلقين من التلاعب بأيدي التوريين كانوا الأقل قلقاً حول التلاعب بأيدي النازيين. الكاثوليك الذين يقولون "لا تضايقوا فرانكو، لأن هذا سيساعد هتلر" كانوا يساعدون هتلر بشكل أو بآخر لسنين مسبقاً. تحت هذه الحجة يمكن دائماً القصد في القيام بدعاية لمصلحة قطاعية مفردة ما وإسكات النقاد بترهيبهم واتهامهم بأنهم رجعيون "موضوعياً". إنها مناورة مغرية، وأنا

استخدمتها أكثر من مرة، لكنها غير شريفة. أعتقد أن المرء لن يستخدمها لو تذكر أن فوائد الكذب قصيرة دائماً. لهذا يبدو إخماد الحقائق وتلوينها واجباً إيجابياً في أكثر الأحوال! ولكن لا يحدث التقدم الحقيقي إلا من خلال زيادة التنوير الذي يعني الهدم المستمر للخرافات.

في الوقت الحالي، هناك إجلال أخرق غريب لقيم الليبرالية يتجلى في رسائل خصوم حرية التعبير المتكررة للتريبيون، وفي النتيجة: هؤلاء الناس الذين يقولون: "لا تنتقدوا وتكشفوا عن الحقائق المزعجة وغير اللائقة ولا تكونوا لعبة بأيدي الأعداء، مازالوا هم أنفسهم الذين يهاجمون سياسة التريبيون بكل العنف المتوفر لديهم. ألم يخطر لهم أن رسائلهم لن تنشر أبداً لو طبقت المبادئ التي يدافعون عنها.

التريبيون ٢٣ نوفمبر ١٩٤٥.

مراجعة للديمقراطي على
طاولة العشاء لكولم بورغان

إن النرجسية دافع سوي عند الروائيين، وهذا يشمل بعضاً من أفضلهم. أن تتصرف بصرامة وجرأة في لحظات الخطر وتصحح الظلم وتكون شخصية مهيمنة وتتمرن على إفتان الجنس الآخر وتجلد الأعداء الشخصيين -هذه الأشياء تنجز على الورق بطريقة أسهل من الحياة الحقيقية. وإن الرواية التي لا تحتوي في مكان أو آخر منها على صورة لمؤلفها يتنكر بخفة كبطل أو قديس أو شهيد، هي رواية نادرة وغير عادية. يلاحظ هذا في الروايات الحوارية (العامية) بشكل خاص التي ينتمي إليها كتاب السيد بورغان. كان السيد بورغان متأثراً بتشيسترتون من دون أن يقلده بشكل فعلي، ولشخصيته الرئيسية مقدرة شبيهة بالأب براون بالاستفادة من الحجة وفي تطويق نفسه بحمقى وأوغاد وظيفتهم تقديم ملاحظاته ودعاباته البارعة. الفعل -أو بالأحرى سلسلة النقاشات التي يتألف منها الكتاب- تحدث في فندق خاص. الـ "أنا" في القصة تصفه كديمقراطي ويبدو كاثوليكياً أيضاً: يتقاسم طاولة العشاء معه شيوعي يهودي ومدير مدرسة له آراء تقدمية وقومي هندي ورجل أعمال وشاعر وصاحبة الفندق. الأسماء الثلاثة الأولى أدوات وثانويون بصراحة. من الجانب الآخر سمح لرجل الأعمال أن يبدي ومضات من الفطنة والمنطق، بينما كان الشاعر شخصية مبهمة يميل أحياناً إلى الوقوف مع الراوي. أما صاحبة الفندق فهي أنثى تشيسترتونية أنموذجية كونها تخلو من المنطق، لكنها تملك حكمة لا تتجاوز حكمة الذكر. بما أن الجدال يدور حول قضايا المؤسسات الحرة مقابل تلك التي تتحكم بها الدولة وتمديد سن ترك المدرسة، يستطيع القارئ المتمرس التنبؤ بمقدار كبير مما يقوله كل واحد من المتجادلين. مع ذلك حين يقارن المرء كتابه مع ما سبقه من الكتب منذ عشر أو عشرين سنة، لا يستطيع تفادي الدهشة من التراجع الذي أجبرت عليه النوعية المحافظة-استخدام هذه الكلمة بمعناها الواسع. السيد بورغان يدافع عن الرأسمالية وينفق براعة كبيرة في إظهار أن فرص بريطانيا في استرداد حصتها من الأسواق العالمية مع اقتصاد "حر" كانت أفضل من تأميم الصناعات. هو لا يتظاهر مثل تشيسترتون

بإمكانية العودة إلى العصور الوسطى، وأن الكتل الكبرى من الناس تتوق إلى ذلك. حتى إنه يدافع عن الإنتاج الكبير ويقبل بمبدأ الضمان الاجتماعي، لكنه يعارضه حين يكون إجبارياً. كما يعارض النظام التعليمي الموحد ورفع سن ترك المدرسة، لكنه من الجانب الآخر يريد إنفاق أموال أكثر على مدارس الأطفال، ولا يقول كما قال مفكرون مثله قبل قليل، بأن يكون للوالدين الحق بتعليم أو عدم تعليم أولادهم. في النتيجة، الكتاب معركة تراجعية -دفاعاً عن الماضي، لكنه ملهم بشعور أنه لم يبق الكثير للدفاع عنه والمحادثات يتبعها الأنموذج المعتاد: الشيوعي مخلوق بارد الدم يجر التلميحات إلى روسيا السوفييتية في كل جملة. مدير المدرسة متبجح. الهندي كتلة هائلة من الترفع الغامض والمظالم الخيالية حتى، رجل الأعمال عنيد وبراغماتي في خطه، مخدوع بمواعظ كاهن كانتربيري. بالنسبة إلى الراوي فهو أنموذج للفطنة والتعلم والعقلانية والتسامح والحس العام، وإن فشل أخيراً في تحويل الآخرين إلى اعتناق آراءه، فذلك بسبب عقولهم التي أفسدها مسبقاً التعليم الحديث.

إن المشكلة مع كل هذا النوع من الكتب هي النكد الدائم الناشئ من عدم امتلاك برنامج عملي وتقديمه. ربما كان السيد بورغان مدركاً لاستحالة العودة إلى الرأسمالية المتسامحة، كما أدرك تشيسترتون في لحظات استحالة العودة إلى الملكية الفلاحية. وعلى الأرجح أنه أدرك أيضاً عدم جدوى إخبار الناس بأن التعليم الإلزامي والضمان الاجتماعي الإلزامي والتحكم بالاستشارات وتوجيه العمل، يؤدي إلى العبودية بما أن الكتلة العظمى من الناس تفضل كثيراً العبودية على البديل.

إن العالم على الأرجح يسير في اتجاه محدد لا يحبه هو، لكنه عاجز عن التفكير باتجاه آخر يستطيع حث العالم فعلياً على السير فيه. لهذا يأخذ الخط الدفاعي السهل، وذلك في الإشارة إلى سخافات وفظاعات الفكر "المتقدم"، لكنه بهذه الوسائل لن يجعل كلاً من لا يتفق معه يفكر مرتين بالشيوعية والأنثوية (نظرية المساواة بين الجنسين) والإلحاد والسلمية (رفض الحرب) أو أي مدرسة فكرية أخرى لا يحبها السيد بورغان.

الأوبزيرفر ١٠فبراير/ شباط ١٩٤٦.

جورج غيسينغ

يعتقد جورج غيسينغ وروايات جورج غيسينغ، أن العصر الحالي أفضل من سابقه بكثير. لو ظل حياً لكان أصغر عمراً من برنارد شو، ومع ذلك فإن لندن التي كتب عنها تبدو أقدم من لندن التي كتب عنها ديكنز. إنها لندن المطوقة بالضباب، لندن الثمانينات المضاءة بمصابيح الغاز، مدينة المتزمتين الثملين التي تدنت فيها الثياب والهندسة المعمارية والأثاث ووصلت إلى حضيض القبح والتي كان فيها من العادي لعائلة من الطبقة العاملة مؤلفة من عشرة أشخاص أن تسكن في غرفة واحدة. بالمجمل غيسينغ لا يكتب عن أسوأ أعماق الفقر. لكن نادراً ما تستطيع أن تقرأ وصفه لحياة الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى بالصدق الواضح لكآبتهم، من دون الشعور بأننا تقدمنا بشكل ملحوظ عن عالم المعاطف السود الذي يحكمه المال الذي كان موجوداً منذ ستين عاماً فقط.

كل شيء من أعمال غيسينغ -باستثناء كتاب أو اثنين كتبهما في أواخر حياته- يتضمن مقاطع لا تنسى. وكل من يتعرف عليه لأول مرة، قد يفعل أسوأ من البدء في **سنة الويبيل**. من المؤسف على كل حال أن يستهلك ورق لإعادة طبع اثنين من أعماله الثانوية (سنة اليوبيل والدوامة) في الوقت الذي باتت فيه الكتب التي ينبغي أن تذكر به عصية المنال تماماً منذ سنين. النساء الغريبات مثلاً كتاب نفذ من السوق تماماً. أنا أملك نسخة من إحدى الطبعات الرخيصة الرديئة الصغيرة بغلاف أحمر التي ازدهرت قبل حرب ١٩١٤ لكنها النسخة التي رأيتها أو سمعت بها قط. **شارع غراب جديد** نيو غرب ستريت، تحفة غيسينغ لم أنجح في شرائها قط، حين قرأتها كانت نسخاً ملوثة بالحساء مستعارة من مكتبات الإعارة العامة: والأمر هكذا مع ديموس، **العالم السفلي** ومع كتاب أو اثنين آخرين. بقدر ما أعرف فقط **الأوراق الخصوصية لهنري راكروفت**، الكتاب الذي عن ديكنز، و **صباح حياة** لم يطبعا مؤخراً أبداً. على كل حال، الاثنان اللذان أعيد طبعهما الآن يستحقان القراءة وخصوصاً في **سنة اليوبيل** وهو الأقذر لذلك الأميز. في مقدمته يلاحظ السيد ويليام بولمر "روايات غيسينغ عموماً تدور حول المال والنساء" والآنسة مايفانوي إيفانز تقول شيئاً مماثلاً جداً في

تقديم الدوامة. أعتقد أن المرء يستطيع توسيع التعريف ويقول إن روايات غيسينغ احتجاج ضد شكل من تعذيب الذات الذي يمر باسم الحشمة والاستقامة والمحترمية. كان غيسينغ رجلاً مولعاً بالكتب وربما متحضر زيادة يعشق الأشياء العتيقة، وجد نفسه محجوزاً في بلاد باردة دخانية بروتستانتية حيث من المستحيل أن تكون مرتاحاً دون حشوة سميكة من المال بينك وبين العالم الخارجي. يكمن خلف غيظه وتبرمه رأي يرى أن الكثير من الأشياء المرعبة في آخر إنكلترا الفيكتورية لم يكن ضرورياً. السخام والغباء والقبح والمجاعة الجنسية والفسق المختلس والسوقية وأنواع السلوك الرديئة والنقد اللاذع -هذه أشياء كانت غير ضرورية، بما أن البيوريتانية (التزمت) التي كانت هذه الأشياء بقايا منها، لم تعد تحافظ على تركيبة المجتمع. الناس الذين كانوا سعداء نوعاً ما، اختاروا أن يكونوا تعساء - من دون أن يصبحوا أقل كفاءة- بابتداع محرمات لا معنى لها ليرهبوا أنفسهم بها. كان المال شيئاً بغيضاً ومزعجاً لأنك تجوع من دونه؛ كان الأهم إذا لم تكن تملك قدراً كبيراً منه -٣٠٠ باوند سنوياً- فلن يسمح المجتمع لك أن تعيش بشكل لبق وهادئ. النساء كن مزعجات وبغيضات، لأنهن كن يؤمن بالمحرمات أكثر من الرجال حتى، ولازلن مستعبدات من قبل المحترمية حتى ينتهكنها. المال والنساء كانا الأداتين اللتين انتقم بهما المجتمع لنفسه من الشجعان والأذكياء. كان على غيسينغ أن يرغب في مال أكثر قليلاً لنفسه ولبعض الآخرين، لكنه لم يكن مهتماً كثيراً فيما يجب أن نسميه الآن عدالة اجتماعية. لم يعجب كثيراً بالطبقة العاملة ولم يؤمن بالديمقراطية. أراد ألا يتكلم لمصلحة الجماهير وإنما للإنسان الاستثنائي، الإنسان الحساس العزول وسط برابرة. في **النساء الغريبات** ليس هناك شخصية رئيسية واحدة حياتها لم تتدمر بسبب المال القليل جداً الذي لديها، أو في الحصول عليه في مرحلة متأخرة جداً من حياتها، أو بضغط التقاليد الاجتماعية السخيفة تماماً التي لا يمكن مخالفتها. امرأة عانس هرمة تتوج حياة عقيمة بالإدمان على الشراب؛ فتاة جميلة تتزوج رجلاً بعمر والدها، مدير مدرسة مكافح يؤجل الزواج من حبيبته حتى يصبحا في وسط عمريهما ويذبلان، رجل فرح وطيب يضايق حتى الموت من قبل زوجته؛ رجل ذكي بشكل استثنائي ونشيط جداً يضيع فرصته في زواج جسور وينتكس إلى العبث؛ في كل حالة، يكمن السبب النهائي للكارثة في الانصياع إلى مجموعة القواعد الاجتماعية المقبولة أو في عدم امتلاك مال كاف للتغلب عليه بالحيلة. حياة لها صباح، رجل

موهوب يقاسي الخراب والموت، لأن من المستحيل أن يتنقل في بلدة كبيرة من دون أن يضع قبعة على رأسه. طارت قبعته من النافذة حين كان مسافراً في القطار، ولأنه لا يملك مالاً كافياً لشراء واحدة أخرى، يختلس بعضاً من مال رب عمله، ما يجلب عليه سلسلة من الكوارث. هذا مثال جذاب عن التغيير في وجهة النظر التي تستطيع فجأة أن تجعل شيئاً ممنوعاً قوياً جداً يبدو سخيفاً. اليوم، إن استنبطت وسيلة تضيع فيها بنطالك، يمكنك اختلاس المال بدلاً من التنقل في سروالك الداخلي. في "الثمانينات" كان يفترض بالحاجة الملحة أن تكون مساوية في قوتها لحالة القبعة. حتى قبل ثلاثين أو أربعين سنة، كان الرجال الحاسرو الرؤوس يواجهون بصرخات الاستهزاء في الشارع. ثم وبلا سبب واضح أصبح عدم ارتداء القبعة محترماً، واليوم المأساة الخصوصية التي يصفها غيسينغ -مقبولة تماماً في سياقها- تكون مستحيلة تماماً.

الأكثر إثارة للإعجاب من كتب غيسينغ هو شارع غراب جديد. بالنسبة إلى كاتب محترف هو كتاب مزعج ومفسد للأخلاق، لأنه يعالج من بين أشياء أخرى المرض المهني المفزع جداً، العقم. لا شك أن عدد الكتاب الذين فقدوا قدرتهم على الكتابة فجأة ليس كبيراً، لكنها نكبة قد تحدث لأي أحد في أي لحظة مثل العجز الجنسي. غيسينغ يربطه طبعاً بمواضيع مألوفة -المال وضغط منظومة القواعد الاجتماعية وغباء النساء. إيدوين ريردون، روائي صغير-هجر عمله ككاتب في محل لتوه بعد أن حقق نجاحاً بالمصادفة برواية واحدة-يتزوج شابة فاتنة وذكية بشكل واضح، بدخل صغير خاص بها. هنا، وفي مكان أو اثنين، يقوم غيسينغ بما يسمى الآن ملاحظة غريبة أنه من الصعب لرجل مثقف غير غني أن يتزوج. ريردون ينجح في ذلك، لكن صديقه الأقل نجاحاً، الذي يسكن في علية ويساعد نفسه بدروس خصوصية ذات أجر زهيد قبل بالعزوبية كشيء مسلم به وطبيعي. لو نجح في إيجاد زوجة لنفسه كما أخبرنا، ستكون فتاة غير مثقفة من الأحياء الفقيرة. النساء النقيات والحساسات لن يجابهن الفقر. وهنا يلاحظ المرء مرة أخرى الاختلاف الكبير بين ذلك اليوم ويومنا نحن. لا شك أن غيسينغ محق في إدراج هذا في كتبه بأن النساء الذكيات حيوانات نادرة جداً، وإذا أراد المرء أن يتزوج من امرأة ذكية وجميلة يكون الخيار محصوراً أكثر، حسب قاعدة حسابية مشهورة؛ مثل السماح أن تختار فقط من بين النساء المهقاوات والشولاءات منهن. لكن ماذا تبين من معالجة غيسينغ لبطلته البغيضة وأخريات غيرها من نسائه، في زمنه،

أن فكرة العزوبية والنقاء وحتى الذكاء في حالة المرأة كان لا ينفصل عن فكرة المنزلة الاجتماعية الأعلى والبيئات المادية الباهظة. نوع المرأة التي يريد الكاتب أن يتزوجها كان أيضاً نوع المرأة التي ستنكمش إلى العيش في علية. حين كتب شارع جديد كادح ربما كان ذلك صحيحاً، ويمكن القول إنه ليس صحيحاً اليوم في اعتقادي. حالما تزوج ريردون أصبح واضحاً أن زوجته كانت مجرد متعجرفة، من نوع النساء اللواتي تكون "الأذواق الجمالية" عندهن ليست أكثر من غطاء للتنافس الاجتماعي. بزواجها من روائي ظنت أنها تتزوج من شخص سيصبح مشهوراً بسرعة وسيسقط المجد المنعكس عليها نفسها. ريردون رجل مولع بالدراسة، منكمش على نفسه غير فعال، أنموذجي لأبطال غيسينغ. لقد علق بشرك عالم مدع مترف يعرف أنه لن يقدر أبداً أن يحفظ نفسه فيه وتخونه قوته على الفور تقريباً. زوجته طبعاً ليس لديها أدنى فهم لما يعنيه إبداع أدبي. هناك مقطع رهيب -رهيب على الأقل، لكل واحد يكسب رزقه من الكتابة- تحسب فيه عدد الصفحات التي يمكن كتابتها في اليوم الواحد، ومن ثم عدد الروايات التي يتوقع من زوجها أن يكتبها في سنة -مع التفكير أنها فعلاً ليست مهنة مجهدة. الآن ريدرون أصابه الخرس. يوماً تلو الآخر يجلس إلى مكتبه؛ لا يحدث شيء ولا يخرج شيء. أخيراً، في حالة من الذعر يصنع قطعة من الهراء؛ قبل به ناشره متردداً لأن كتاب ريردون السابق كان ناجحاً. منذ ذلك فصاعداً بات عاجزاً عن إنتاج أي شيء يبدو أنه قد ينشر. لقد انتهى. الشيء المخيب أنه لو كان يستطيع العودة إلى مهنته ككاتب وعزوبيته، لكان ذلك جيداً. الصحفي القاسي والبليد الذي تتزوجه أرملة ريردون، تلخصه بدقة بالقول إنه نوع الرجل الذي أن ترك لنفسه سيكتب كتاباً جيداً تماماً كل سنتين. لكن طبعاً لم يترك لحاله. لا يستطيع العودة إلى مهنته القديمة ولا يستطيع أن يستسهل العيش على نقود زوجته: الرأي العام الذي يعمل ويؤثر من خلال زوجته، ينهكه إلى حالة من العجز الجنسي وأخيراً إلى المقبرة. أغلب الشخصيات الأدبية الأخرى في الكتاب ليست أفضل حظاً، والمشاكل التي تزعجهم تشبه كثيراً مشاكل اليوم. لكن على الأقل من غير المحتمل أن الكارثة الرئيسية للكتاب ستحدث الآن بنفس الطريقة أو لنفس تلك الأسباب. لو جعلت زوجة ريدرون الحياة تطاق من أجل زوجها، لكانت أقل حماقة، وكانت الوساوس التي تنتابه أقل حول تنزهها في الخارج لوحدها. امرأة من أنموذج مماثل تظهر في الدوامة بشخص ألما فوثنغهام.

بالمقارنة هناك الآنسات فريتشيز الثلاث في **سنة اليوبيل** اللواتي يمثلن أدنى الطبقة الوسطى الصاعدة-طبقة حسب غيسينغ كانت تحصل المال والقوة اللتين لم تكن مهيأة لاستخدامها- واللواتي كن فظات، ومشاكسات وسليطات وغير أخلاقيات بشكل مدهش تماماً. من الوهلة الأولى تبدو نساء غبسينغ "الشبيهة بالسيدة" و"غير الشبيهة بالسيدة" مختلفات وحتى كنوعين متعاكسين من الحيوانات، وهذا يبدو يبطل شجبه الضمني للجنس الأنثوي عموماً. لكن الحلقة الواصلة بينهما أنهن كلهن محدودات التفكير والأفق بشكل بائس. حتى الذكيات والنشيطات منهن، مثل رودا في **النساء الغريبات** (عينة ممتعة من النيو ومان) لا يستطعن التفكير في العموميات ولا يستطعن التخلص من المعايير الجاهزة المبتذلة. يبدو أن غيسينغ يشعر في فؤاده أن النساء مخلوقات أدنى بالفطرة. يريدهن أن يتثقفن أكثر، لكن من جانب آخر لا يريدهن أن يمتلكن الحرية التي سيسئن استخدامها بالتأكيد. في المجمل أفضل النساء في كتبه هن الخجولات الذليلات ربات البيوت. هناك كتب كثيرة لغيسينغ لم أقرأها أبداً، لأنني لم أستطع الحصول عليها، وتشمل للأسف **ولد في المنفى** التي قال عنها بعض الناس إنها أفضل كتبه. لكن من قوة **شارع غراب جديد** و**ديموس** و**النساء الغريبات** أنا مستعد لأقول إن إنكلترا أنتجت قلة قليلة من الروائيين الأفضل. هذا ربما يبدو مثل بيان متهور حتى يتوقف المرء ليفكر ملياً ما المقصود بالرواية. كلمة "رواية" تستخدم عادة لتغطي أي نوع من القصص تقريباً-**الثعلب الذهبي** و**آنا كارينينا** و**دون كيشوت** و**المرتجل** و**مدام بوفاري** و**مناجم الملك سليمان** أو أي شيء آخر تحبه -ولكنها أيضاً لها معنى أضيق تعني فيه شيئاً قلما يوجد من قبل القرن التاسع عشر وازدهر بشكل أساسي في روسيا وفرنسا. الرواية بهذا المعنى قصة تحاول أن تصف كائنات بشرية معقولة و-بدون استخدام تكنيك المذهب الطبيعي بالضرورة- لتظهرها تعمل وتتصرف بدوافع يومية وليس فقط أن تقاسي جلدات سيور مغامرات غير محتملة. الرواية الحقيقية، بالالتزام بهذا التعريف، ستحتوي أيضاً على الأقل شخصيتين وربما أكثر، توصفان من الداخل وبنفس المستوى من الاحتمالية -التي بالنتيجة تقصي الروايات المكتوبة في الشخص الأول. إن قبل المرء بهذا التعريف، يبدو ظاهراً أن الرواية ليست شكلاً فنياً تفوقت فيه إنكلترا. الكتاب الذين صنفوا عادة كـ"روائيين عظام" لديهم طريق ليبدوا إما ليسوا روائيين حقيقيين أو ليسوا إنكليز.

لم يكن غيسينغ كاتب حكايات عن المتشردين أو محاكاة ساخرة أو مسرحيات هزلية أو كراسات سياسية: كان مهتماً بكائنات بشرية فردية. والحقيقة أنه استطاع التعامل بتعاطف مع مجموعات مختلفة كثيرة من الدوافع، وصنع قصة معقولة من التصادم بينها جعلته استثنائياً بين الكتاب الإنكليز.

بالتأكيد ليس هناك الكثير مما يسمى عادة بالجمال والغنائية الشعرية في الأوضاع والشخوص التي اختار تخيلها، وأقل منه كذلك في بنية كتابته. نثره في الحقيقة مقرف غالباً. هذان مثالان اثنان:

ليس بالحصانة بمقدور تفكيرها أن يعود نفسه على الشرود في مناطق محرمة مهما كان تصميمها قوياً لتبقى جسدياً بعيداً. "الدوامة"

عدم كفاءة النساء الإنكليزيات غير المثقفات في كل يتعلق بملابسهن وزينتهن، حقيقة لا تقبل الشرح المفصل (في سنة اليوبيل)

على كل حال هو لم يرتكب الأخطاء المهمة فعلاً. كان قصده واضحاً دائماً، هو لم "يكتب من أجل التأثير". هو يعرف المحافظة على التوازن بين السرد والحوار وكيف يجعل الحوار يبدو مرجحاً، بينما لا يباين بحدة شديدة مع النثر الذي يطوقه. غلطة أخطر من أسلوبه غير الأنيق في الكتابة هي صغر مداه في التجربة. لم يطلع إلا على بضع طبقات من المجتمع. وبالرغم من فهمه القوي لضغط الظروف على الشخصية، لا يبدو أن لديه إدراكاً قوياً بالقوى السياسية والاقتصادية. بطريقة معتدلة وجهة نظره رجعية، من انعدام البصيرة أكثر من المشاعر السيئة. لأنه أجبر على العيش وسطهم، اعتبر الطبقة العاملة همجيين. وفي قوله هكذا كان مجرد كائن صادق فكرياً؛ لم يرَ أنهم كانوا قادرين على أن يكونوا متحضرين إن أعطوا فرصاً أفضل قليلاً. لكن أخيراً ما يطلبه المرء من الروائي ليس النبوءة وجزء من سحر غيسينغ، إنه ينتمي بشكل واضح إلى عصره، رغم أن عصره عامله بطريقة سيئة.

الكاتب الإنكليزي الأقرب لغيسينغ يبدو أنه معاصره أو شبه معاصره مارك رذرفورد. لو جدول المرء صفاتهما البارزة، يبدو الرجلان مختلفين جداً. كان مارك رذرفورد كاتباً أقل خصباً من غيسينغ وكان أقل وضوحاً كروائي، كتب نثراً أفضل بكثير، كتبه تنتمي بشكل أقل تميزاً

إلى أي عصر محدد. وكان في وجهة نظره مصلحاً اجتماعياً والأهم هو بيوريتاني (متزمت). مع ذلك هناك شبه دائم، ربما يفسر بحقيقة أن كلا الرجلين ينقصهما تلك اللعنة التي تصيب الكتاب الإنكليز "إحساس بالفكاهة". قدر محدد من الكآبة وجو من العزلة مشترك عندهما. هناك طبعاً مقاطع هزلية في كتب غيسينغ، لكنه غير مهتم أساسا بالحصول على الضحك - الأهم، ليس لديه باعث نحو المحاكاة الساخرة. يعامل شخصياته الرئيسية بجدية تقريباً وبمحاولة في التعاطف على الأقل. أي رواية ستحتوي بشكل حتمي على شخصيات ثانوية، هي مجرد شخصيات غريبة مضحكة أو تلاحظ في روح معادية صرفة، لكن هناك شيئاً مثل النزاهة، وغيسينغ أبرع فيها من الأكثرية العظمى من الكتاب الإنكليز. لديه اشمئزاز عميق من قبح وخلاء وقسوة المجتمع الذي عاش فيه، لكنه كان مهتماً بوصفه بدلاً من تغييره. ليس في كتبه ما يمكن أي أحد من أن يشير إليه كوغد وحتى حين يكون هناك وغد لا يعاقب. في معالجته للقضايا الجنسية، يكون غيسينغ صريحاً بشكل مدهش، بالنظر إلى الزمن الذي كان يكتب فيه. لا يعني هذا أنه يكتب قصصاً إباحية أو يعبر عن موافقته على الاتصال الجنسي غير الشرعي، لكن ببساطة هو راغب في مواجهة الحقائق. القانون غير المكتوب للأدب القصصي الإنكليزي، القانون أن البطل والبطلة أيضاً في الرواية يجب أن يكونا عذراوين حين يتزوجان، قد أهمل في كتبه لأول مرة منذ فيلدينغ. كأغلب الكتاب الإنكليز الذين أتوا بعد منتصف القرن التاسع عشر، لم يستطع غيسينغ أن يتخيل أي قدر مرغوب سوى أن يكون كاتباً أو جنتلمان الفراغ. الانقسام الثنائي بين المثقفين وضئيلي الثقافة موجود مسبقاً، والشخص القادر على كتابة رواية وفورة لن يقدر أن يتصور نفسه راضياً تماماً بحياة رجل أعمال أو جندي أو سياسي أو ما شابه. غيسينغ لم يرد بشكل مدرك أن يكون نوع الكاتب الذي كان عليه حتى. مثله الأعلى، بدل المثل السوداوي، أن يملك دخلاً متوسطاً ويعيش في بيت صغير مريح في الريف، بفضل أن يكون غير متزوج حيث يمكنه الانغماس في الكتب خصوصاً الروائع الإغريقية واللاتينية. كان يمكن أن يحقق هذا المثل لو لم ينجح في إدخال نفسه إلى السجن مباشرة بعد الفوز بمنحة أكسفورد الدراسية: كما حدث، أمضى حياته فيما بدا له عملاً مبتذلاً. وحين وصل إلى النقطة التي استطاع التوقف عن الكتابة ضد الوقت أخيراً، مات على الفور تقريباً بعمر خمس وأربعين سنة فقط. موته كما وصفه جي اتش ويلز في كتابه تجربة في

سيرة ذاتية كان قطعة من حياته. العشرون رواية التي كتبها التي أنتجت بين ١٨٨٠ و١٩٠٠ عصرت منه أثناء صراعه نحو فراغ لم يستمتع به أبداً والذي لم يكن يستخدم لمنفعة جيدة لو أنه حازه: لأنه من الصعب التصديق أن مزاجه مهيأ لحياة بحث أكاديمي. ربما الجذب الطبيعي لمواهبه كان قد شده نحو كتابة الروايات عاجلاً أو آجلاً. لو لم، يجب أن نكون شاكرين لجزء الحماقة الشبابية التي حرفته بعيداً عن سيرة طبقة وسطى مريحة، وأجبرته على أن يصبح مؤرخاً للسوقية والفساد والفشل.

مراجعة الضابط البروسي
وقصص أخرى لدي اتش لورانس

يجب ألا تكون المراجعات النقدية من ذكريات شخصية، لكن ربما يجدر بي أن أسجل كيف تعرفت فيها على أعمال دي اتش لورانس لأول مرة، فقد حدث أن قرأته قبل أن أسمع به، والصفات التي أثرت بي ربما كانت الجوهرية منها.

في ١٩١٩ دخلت إلى مكتب مدير مدرستي لغرض، وعندما لم أجده التقطت مجلة ذات غلاف أزرق كانت على الطاولة. كنت في السادسة عشرة ومنغمس في الشعر الجورجي. كانت فكرتي عن القصيدة الجيدة قصيدة روبرت بروك "غرانتشيستر". حالما فتحت المجلة، غمرتني قصيدة تصف امرأة واقفة في المطبخ تراقب زوجها الذي كان يقترب عبر الحقول. في الطريق أخرج أرنباً من المصيدة وقتله. ثم دخل وألقى بالأرنب على الطاولة، وكانت رائحة فراء الأرنب النتن بيديه، لكنها بلعت هذا منه وتأثرت بـ "جمال الطبيعة" الذي شعر به لورانس بعمق، والذي كان قادراً على أن يفتحه ويغلقه مثل صنبور أكثر من اللقاء الجنسي وخصوصاً البيتين (يشيران إلى زهرة):

بعدئذ ستكشف عن صدرها الساطع/ وتهب قطرة عسلها لعشيقها.

لكنني فشلت أن لاحظ اسم المؤلف أو حتى المجلة التي يفترض أنها الإنكليش ريفيو.

بعد أربع أو خمس سنوات، وكنت لاأزال لم أسمع بلورانس، حصلت على مجلد من القصص القصيرة طبعته بنغوان الآن. أثر بي بعمق كل من "الضابط البروسي" و"شوكة في اللحم". لم يكن الذي جذبني بقوة أكثر من رعب لورانس وكرهه للانضباط العسكري، هو فهمه لطبيعته. أخبرني شيء ما أنه لم يكن جندياً أبداً، ومع ذلك استطاع أن يعرض نفسه في جو جيش، جيش ألماني بالضبط. تصورت أنه كوّن هذا من مراقبته لبضعة جنود ألمان يتمشون في حامية إحدى البلدات. من قصة أخرى "الجورب الأبيض" (أيضاً في هذه المجموعة لكن أعتقد أنني قرأتها لاحقاً) استنتجت المغزى وهو أن النساء يتصرفن بشكل أفضل لو تلقين

لكمة على الفك من حين إلى آخر. من الواضح وجود أشياء أكثر من هذا عند لورانس، لكن هذه التأثيرات الأولى تركت في نفسي صورة حقيقة عامة له. كان في الأساس شاعراً غنائياً ولديه حماس منفلت "للطبيعة" أي سطح الأرض التي كانت إحدى صفاته الرئيسية، لكنها لوحظت أقل من انشغاله بالجنس بكثير. وفوق كل هذا لديه قوة في فهم أو التظاهر بفهم أناس مختلفين عن نفسه كالمزارعين وحراس الطرائد ورجال الدين والجنود-ويمكن إضافة عمال المناجم. ورغم أن لورانس عمل في الحفرة في عمر الثالثة عشرة، إلا أنه من الواضح لم يكن عامل منجم أنموذجي. قصصه نوع من قصيدة غنائية، تنتج بمجرد النظر إلى كائن بشري غريب مبهم، وفجأة يكتشف رؤية تخيلية مكثفة لحياته الداخلية. كما أن صحة هذه الرؤى شيء قابل للنقاش. مثل بعض الكتاب الروس من القرن التاسع عشر، دائماً تقريباً يبدو لورانس يتفادى مشكلة الروائي بجعل كل شخصياته حساسة بالتساوي. كل الناس في قصصه حتى العدائي تجاههم، يبدون يجربون نفس العواطف، كل واحد يستطيع التواصل مع أي واحد آخر. والعوائق الطبقية، بالشكل الذي نعرفها فيه، ملغاة تقريباً. مع ذلك يبدو أنه يمتلك قدرة غير عادية على معرفة الشيء بشكل تخيلي ما لم يستطع معرفته بالمراقبة. في مكان ما في أحد كتبه يلاحظ أنه عندما تطلق النار على حيوان بري، فإن العملية ليست مثل عند الإطلاق على هدف. أنت لا تنظر إلى العابر بموازاة المشاهد: أنت تسدد بحركة غريزية لكل الجسد، كما لو أن رادتك ستقود الطلقة إلى الأمام. هذا صحيح تماماً، وأنا لا أعتقد أن لورانس أطلق النار قط على حيوان بري. أو تأمل منظر الموت في نهاية "إنكلترا إنكلترتي" (التي ليست في هذه المجموعة لسوء الحظ). لورانس لم يكن أبداً في ظروف مشابهة لتلك التي يصفها. لديه فقط رؤية خاصة به لمشاعر الجنود تحت النار. ربما هي حقيقة يجربها المرء وربما لا؛ لكنها على الأقل حقيقية عاطفياً، ولذلك مقنعة. مع بضع استثناءات فإن روايات لورانس من الحجم الطبيعي معترف بها عموماً وصعب هضمها. في القصص القصيرة ليست أخطاؤه ذات أهمية كبيرة، لأن القصة القصيرة يمكن أن تكون غنائية صرفة، بينما الرواية تضع في حسابها الاحتمالية ويجب أن تبنى بدم بارد. في الضابط البروسي هناك قصة طويلة نوعاً ما جيدة بشكل رائع اسمها "بنات الكاهن". كاهن إنجليكاني من أنموذج الطبقة الوسطى العادية، وضع في وضع يائس في قرية تعدين، حيث هو وعائلته شبه جياع على معاش صغير جداً وحيث ليس

له أي وظيفة، جماعة التعدين ليسوا بحاجة إليه ولم يتعاطفوا معه. في العائلة المفقرة الأنموذجية من الطبقة الوسطى التي تربى فيها الأطفال بوعي كاذب بالتفوق الاجتماعي، يرمى عليهم مثل كرة وقيد. تنشأ المشكلة المعتادة: كيف ستتزوج البنات؟ الابنة الكبرى تحظى بفرصة زواج من رجل دين ثري نسبياً. صدف أن كان قزماً يعاني من مرض داخلي وهو مخلوق غير إنساني تماماً، أشبه بطفل بغيض نضج قبل أوانه وأصبح رجلاً. لقد فعلت الشيء الصحيح بمعايير أغلب العائلة: لقد تزوجت من جنتلمان. الابنة الأصغر، التي لم يهمها التكبر، تلقي بهيبة العائلة جانباً وتتزوج من عامل منجم شاب سليم البنيان. يتضح أن هذه القصة فيها شبه قريب من عشيق الليدي تشاترلي. لكن برأيي إنها أفضل بكثير وأكثر إقناعاً من الرواية، لأن الحافز المتخيل الوحيد قوياً بما يكفي ليمدها بالحياة. ربما راقب لورانس في مكان ما أو آخر ابنة كاهن كانت تعاني من سوء تغذية، وعازفة أرغن مضطهدة تفني شبابها وفكرت برؤيا مفاجئة عن فرارها إلى عالم الطبقة العاملة الدافئ؛ حيث الأزواج متوفرين بكثرة. إنه موضوع مناسب لقصة قصيرة، لكن حين تمده إلى طول رواية تنشأ صعوبات أمام لورانس وهو غير كفؤ لها. في قصة أخرى في هذا الكتاب "ظلال الربيع" هناك حارس طرائد يقدم كمخلوق طبيعي بري، النقيض للمثقف الواعي. مثل هذه الأشكال تظهر مرة تلو أخرى في كتب لورانس، وأعتقد أنه من الصحيح القول إنها مقنعة أكثر في القصص القصيرة؛ حيث ليس علينا أن نعرف عنهم أكثر مما نعرفه عنهم في الروايات (مثلاً، عشيق الليدي تشاترلي أو المرأة التي رحلت بعيداً رود أواي) لكي تهيأ للفعل، يجب أن تقدم بأفكار معقدة تدمر منزلتها كحيوان صرف. ارحل رود أواي، قصة أخرى "رائحة الأقحوان" تتعامل مع عامل منجم في حادث حفرة. هو سكير، وحتى لحظة موته لم ترد زوجته شيئاً أكثر من التخلص منه. فقط حين كانت تغسل جسده الميت، رأت كما لو كان لأول مرة كم هو جميل. ذاك هو النوع من الشيء الذي يستطيع لورانس فعله. وفي الفقرة الأولى من القصة هناك مثال رائع عن قدرته على الوصف البصري. لكن لا يمكن للمرء أن يجعل من هكذا حدث رواية بالحجم الطبيعي ولا من سلسلة من هكذا أحداث من دون مكونات نثرية أخرى.

تريبيون ١٦ نوفمبر ١٩٤٥.

أدب الكراريس

لا يستطيع المرء مراجعة خمسة عشر كراساً يتألف واحدها من ألف كلمة كما يجب وانتقيت ذلك العدد، لأنها تمثل فيما بينها اصطفاء لثمان نزعات من أصل تسع في أدب الكراريس الراهن. (النزعة المفقودة هي السلمية- رفض حمل السلاح: ليس في متناول يدي كراسة سلمية حديثة) جدولتها تحت عناوين مفصولة مع تعليق قصير قبل محاولة شرح بعض ميزاتها في انتعاش أدب الكراريس خلال السنوات الأخيرة.

١- **المعادية لليسار والأعضاء السريون النازيون:** عالم الجنود الجديد. (عنوان فرعي، كراس ضد المنشقين كتب في مخيم؛ هذا يضرب رفيعي الثقافة بعنف ويثبت أن الرجل العادي لا يريد العبارة الأساسية للاشتراكية: إن الأذكياء لن يتعلموا أبداً الابتهاج بأشياء بسيطة. غولانكز في أرض العجائب الألمانية (فانسيتارتايت). نظام عالمي أم خراب عالمي. ٦ (ضد التخطيط؛ جي اتش كول مدمر).

٢- **محافظون:** آمر القاذفة يستمر. ٧ دي. (أنموذج جيد، الكراس الرسمي).

٣- **الديمقراطيون الاشتراكيون:** قضية النمسا. ٦ دي. (نشرته حركة التحرر النمساوية).

٤- **الشيوعيون:** أزيلوا عملاء هتلر. ٢ دي (عنوان فرعي، كشف للفوضى التروتسكية المنظمة في بريطانيا، أكذوبة بكل استثنائي).

٥- **التروتسكيون والفوضويون:** ثورة كرونشتادت ٢ دي (كراسة فوضوية غالبها هجوم على تروتسكي).

٦- **الراديكاليون غير الحزبيين:** ما هو العيب الذي يعاني منه الجيش؟ ٢دي (هوريكان بوك، وثيقة ذات معلومات جيدة ومكتوبة بشكل جيد ضد البليمبس). جيمس بلونت ٦ دي المخيف الطيب، أسست على الافتراض المبرر أن معظم الشعب الإنكليزي لم يسمع بعد بالفاشية. عراك العمالقة. غير مسعرة، ربما ٦ دي نوع ممتع من الأدب، الحب للروس غير الشيوعيين.

٧- **الدينيون**، رسالة إلى كاهن ريفي ٢ دي كراريس فابيان، (إنجليكاني يساري) مقاتلون إلى الأبد ٦ دي (بوشهان مصححة).

٨- المجانين، قدر بريطانيا الانتصار أو لن تظل الاستقامة الأخلاقية في الجانب المدافع ٦ دي.(إسرائيل البريطانية مزينة بإفراط). متى تغزو روسيا فلسطين ١ اس إسرائيل البريطانية المؤلف ايه جيه فيريس، بي ايه كتب سلاسل طويلة من الكراريس عن مواضيع القرابات، بعضها حظي بمبيعات ضخمة. كراسته حين تقصف روسيا ألمانيا نشرت في عام ١٩٤٠ بيع منها ٦٠ ألف نسخة. قصة هتلر وبرنامجه لفتح إنكلترا لـ "سيفيس بريتانيكوس سوم" ١ اس (مقطع عينة: شيء عظيم أن تلعب اللعبة وتعرف أن ذلك الواحد يعلبها. ثم حين يأتي اليوم تسحب تلك البقايا وتطلق الصافرات لآخر مرة): "الهداف العظيم سيأتي ليكتب ضد اسمك، ليس إن كنت فزت أم خسرت وإنما كيف لعبت اللعبة"

هذه القلة القليلة التي ذكرتها مجرد نقطة في محيط من أدب الكراسات، ومن أجل إعطاء أنموذج دقيق ضمنت أعداداً كثيرة يحب القارئ العادي السماع بها. أي استنتاجات يمكن استخراجها من هذا المثال الصغير؟ الحقيقة المشوقة، التي ليس من السهل تعليلها، أن تأليف الكراريس انتعش على صعيد واسع منذ عام ١٩٣٥ وتنامى بهذا الشكل بدون أن ينتج أي قيمة حقيقية. مجموعتي التي صنعتها في الست سنوات الماضية، تصل إلى مئات كثيرة، لكنها لا تشكل بأي شكل عشرة بالمئة من النتاج الكلي. بعض من هذه الكراريس فاز بمبيعات هائلة خصوصاً الدينية- الوطنية مثل كراريس السيد فيريس وكراريس بي ايه والكراريس الفضائحية مثل وصية هتلر الأخيرة وميثاقه، التي بيع منها ملايين كثيرة كما قيل. الكراريس السياسية المباشرة تباع أحياناً بأعداد كبيرة، لكن انتشار وتوزيع أي كراسة تعبر عن "خط الحزب" (أي حزب) قد يكون الرقم كاذب. بتفحص مجموعتي وجدتها كلها هراء عملياً وليست مشوقة إلا بمسرد المراجع المثبتة. رغم ذلك صنفت الكراريس الحالية تحت تسعة عناوين، ويمكن تقليلها إلى مدرستين رئيسيتين، أخيراً يمكن وصفها عموماً بخط الحزب وعلم التنجيم. هناك هراء استبدادي وهراء البارانويا (جنون الاضطهاد) لكن في كل من الحالتين مجرد هراء. حتى الكراريس الفابية الحسنة الاطلاع هي بلادة مفرطة بالنظر إليها كمادة للقراءة. أنشط الكراريس دائماً هي الكراريس غير الحزبية، ومثال جيد عنها **باركهم كلهم** التي يجب أن تعتبر كراسة رغم

أنها تكلف شلناً ونصف الشلن. سبب سوء الكراريس المعاصرة مذهل نوعاً ما، هو أن الكراسة يجب أن تكون الشكل الأدبي في عصر كعصرنا. نحن نعيش في زمن تتزايد فيه الانفعالات السياسية وتتضاءل قنوات التعبير الحر ويتواجد الكذب المنظم بمقياس لم يعرف من قبل. سد الثقوب في تاريخ الكراسات هو الشكل المثالي. مع ذلك فإن الكراريس النشطة قليلة جداً، والتفسير الوحيد الذي أستطيع تقديمه- تفسيراً أعرج- أن تجارة النشر والصحف الأدبية لم تتجشم عناء جعل الجمهور القارئ مدركاً للكراريس. إحدى صعوبات جمع الكراريس أنها لا تنشر بأي طريقة نظامية، ولا يمكن الحصول عليها حتى في مكتبات المتاحف، ونادراً ما يعلن عنها وقلما تراجع. الكاتب الجيد الذي لديه شيء يريد قوله بحماس -وجوهر تأليف الكراريس هو أن يكون لديك شيء تريد أن تقوله الآن، إلى أكبر عدد ممكن من الناس- سيتردد بأن يرميه في شكل كراسة، لأنه لن يعرف كيف سينشرها، وسيشك إن كان الناس الذين أراد أن يصلهم سيقرؤونها. ربما يخفف فكرته إلى مقالة صحيفة أو يزيدها ويضمها إلى كتاب. في النتيجة، من المؤكد أن العدد الأكبر من الكراريس تكتب إما بواسطة مجانين وحيدين ينشرون على حسابهم أو ينتمي إلى عالم الأديان غريبة الأطوار أو تنشر من قبل الأحزاب السياسية. الطريقة العادية لنشر كراسة هي من خلال حزب سياسي، والحزب سيتعامل معها دون أي "انحراف"- ولهذا أي قيمة أدبية- يجب أن تقصى. كان هناك عدد قليل من الكراسات الجيدة في السنوات الحديثة نوعاً ما. كراسة دي إتش لورانس الفن الإباحي والفحش، كانت واحدة، وبوتوكي دي مونتوك غطرسة وعنف واحدة أخرى، وبعض من مقالات ويندهام لويس في ذا إنيمي تأتي ضمن هذا العنوان. في الوقت الراهن العلامة الأقوى الباعثة للأمل هي ظهور الكراسة اليسارية غير الحزبية، مثل ذا هريكين بوكس. إذاً نتاجات هذا النوع كانت موضوع اهتمام من الصحافة كالروايات وكتب الشعر، شيء ما يفترض أن يعمل بخصوص إعادة الكراسة إلى انتباه جمهورها الصحيح ومستوى النوع برمته سيرتفع. حين يفكر المرء كم هو مرن شكل الكراسة يكون وكم الحاجة ماسة لتوثيق أحداث زمننا، هذا شيء يكون مطلوباً ومرغوباً.

نيوستيتمان ونيشن

٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٣

الذي توثق فيه أحداث زمننا الأخيرة.

مراجعة السيف والمنجل

يوجد سلاح وحيد لا يستطيع أعداؤنا استخدامه ضدنا، ألا وهو اللغة الإنكليزية. هناك عدد من اللغات ينطق بها عدد أكبر من الناس، لكن ليس هناك لغة أخرى تزعم أنها لغة عالمية وشائعة. إن المدراء اليابانيون في الفيليبين والمفوضون الصينيون والقوميون الهنود في برلين، كلهم مجبرون على القيام بأعمالهم باللغة الإنكليزية، لذلك بالرغم من أن رواية السيد أناند تظل ممتعة بفضل مزاياها الخاصة بها، إلا أنه لو كتبها كاتب إنكليزي يستحيل أن تقرأها دون أن تتذكر في كل بضع صفحات أنها شذوذ فكري. إن نمو الأدب الهندي المكتوب باللغة الإنكليزية ظاهرة غريبة، وسيكون لها أثر هام على عالم ما بعد الحرب إن لم يكن على نتيجتها نفسها.

إن الرواية نفسها محاكاة لرواية **القرية** ورواية **عبر المياه السوداء**. الصبي السيخي الذي حارب في فرنسا وأمضى سنوات سجيناً في ألمانيا يعود إلى وطنه، ليجد نفسه ضحية خداع، ولم يحصل على المكافأة التي تخيل أنه كان يقاتل من أجلها. وتعالج بقية الرواية حركة الفلاحين وبدايات الحزب الشيوعي الهندي. الآن، إن أي كتاب عن الهند يكتبه هندي في هذا الوقت من شبه المستحيل أن يتجنب قصة الشكوى والمظلمة. ولاحظت أن السيد أناند قد ورط نفسه فيما وصفه بشكل خاطئ مرارته. في الحقيقة نقص المرارة النسبي في الكتاب طريقة ملتوية لإظهار الضمير الإنكليزي السيئ تجاه الهند. ما الذي تتوقع أن تجده في رواية لها نفس الموضوع لكاتب إنكليزي؟ نكران مازوشي لعرقه وجنسه وسلسلة من الكاريكاتورات للمجتمع الأنغلوهندي بحياة النادي التي لا تطاق والويسكي إلخ. لكن في المشهد كما يراه الهندي، قلما يدخله الإنكليزي. هم دائماً مجرد شر دائم، شيء مسلم به تقريباً، مثل المناخ، ولكن الهدف النهائي هو التخلص من الحكم البريطاني تقريباً ثم نسيانه وسط صراعات داخلية ضروسة بين الثوار أنفسهم. نادراً ما تظهر الشخصيات الإنكليزية في القصة -تذكر أن في الهند هناك شخص أبيض واحد مقابل كل ألف. لا يمكن القول إنهم يعاملون بطريقة أسوأ من الشخصيات الأخرى ولا يقابلون بتعاطف أيضاً، فرسم الشخصيات فظ وقاطع بالمجمل (نعطي مثالاً واحداً، وصف رأس السيد غاندي بأنه يشبه يقطينة أرجوانية نيئة)

والكتاب مملوء بالكآبة الهندية والمشاهد المنحطة القبيحة التي تهين العين كل الوقت في البلدان المفقرة في الشرق. رغم أنها تنتهي بملاحظة متفائلة نسبياً، فإن هذه الرواية لا تكسر القاعدة في أن الكتب التي تكتب عن الهند توقع الكآبة على النفس. ربما يجب عليها أن تكون هكذا. بمعزل تام عن علامة الاستفهام التي تثيرها في الضمير الإنكليزي، تبقى مشكلة الهند الجوهرية، الفقر بلا حلّ. إلى أي مدى يتناسب الأدب الهندي المكتوب باللغة الإنكليزية مع موضوعه الأساسي، هذا غير مؤكد. لكن عند قراءة كتاب السيد أناند وأحمد علي وآخرين كثيرين، من الصعب ألا تشعر هذه المرة بلهجة أخرى مشابهة للهجة الايرلندية- الإنكليزية بازدياد. اقتباس واحد يفي للإيضاح:

"مدركاً مسؤوليته عن المغامرات الفاشلة التي قادهم إليها، انحنى لالو وتحفز لرفع الأجساد الميتة بيدين مرتجفتين. انطلقت رائحة الجسد المتفسخ في منخريه من جثة شاندرا، وكانت يداه ملطختين بدم عنق نادو. جلس وتخيل أن الرائحة هبة كريهة لبكتريا متعفنة من خضرة الغابة التي أتوا منها. لكنه حين انحنى نحو الأسفل مرة أخرى، لم يكن هناك خداع، وبان أنها رائحة الجثة النتنة. وبسرعة أدرك، على الرغم من أن دم نادو كان حاراً الآن، أنه سيبرد قريباً وتتعفن الجثة لو حملت وقطعت الطريق إلى الله آباد.

توجد نكهة غير إنكليزية في عبارة "انطلقت إلى منخريه"، ومع ذلك إنها عمل رجل لم يكن مرتاحاً باللغة الإنكليزية فقط، وإنما اختار التفكير بها أيضاً. مما يطرح السؤال عن مستقبل الأدب الأنغلوهندي. في الوقت الحاضر، اللغة الإنكليزية لغة التجارة والأعمال في الهند: خمسة ملايين هندي ضليعون باللغة الإنكليزية وملايين أكثر يتكلمون نسخة ممذوقة منها، وهناك صحافة هندية هائلة باللغة الإنكليزية، والمجلة الإنكليزية المخصصة للشعر يحررها هنود. وسطياً يكتب الهنود الإنكليزية ويلفظونها.

يعرف من يتعامل مع الدعاية أن تبدلاً مفاجئاً في المشهد الهندي حدث فور دخول اليابانيين الحرب. العديد من المثقفين الهنود وربما أكثرهم يؤيدون اليابانيين في عواطفهم، ويرون أن بريطانيا هي العدو، أما الصين فلا تعني لهم شيئاً، والاتحاد السوفييتي كلام كاذب ومداهنة فقط. لكن هل ترغب الإنتلجنسيا الهندية المعادية لبريطانيا فعلاً أن ترى الصين مستعبدة دائماً والاتحاد السوفييتي مدمراً وأوروبا معسكر اعتقال نازي؟ كلا. هذا ليس عادلاً.

إنها مجرد وطنية الشعوب المهزومة التي تكون انتقامية بالضرورة وقصيرة النظر. لو ناقشت هذه المسألة مع هندي، ستحصل على جواب كهذا: نصفي اشتراكي ولكن نصفي الآخر وطني. أعرف ما تعنيه الفاشية وأعرف جيداً أنني يجب أن أقف في صفكم، لكنني أكره شعبكم كثيراً، وإن استطعنا التخلص منه، فلا يهمني ما يحدث لهم بعد ذلك. هناك لحظات أريد فيها أن أرى الصين واليابان والهند تتحد معاً وتدمر الحضارة الغربية، ليس في آسيا فقط، بل في أوروبا. هذا الرأي واسع الانتشار وسط الشعوب الملونة وجذوره العاطفية واضحة، تخفيه الأقنعة وتخترقه الرؤية بسهولة، لكنه موجود ويحتوي على خطر كبير علينا وعلى العالم. الرد الوحيد على الإشفاق على الذات والكره العرقي الشائعين وسط الهنود، هو أن نشير ونوضح أن الآخرين بالإضافة إلى الهنود مضطهدين. الرد الوحيد على الشعور القومي هو الاشتراكية الدولية (الأممية) وتواصل الهنود وكل الآسيويين مع الأدب الاشتراكي والفكر الاشتراكي عن طريق اللغة الإنكليزية. كقاعدة عامة: إن الهنود معادون صادقون للفاشية بالتناسب مع غربنتهم. هذا هو السبب الذي جعلني أصف اللغة الإنكليزية بأنها سلاح حربي في بداية المراجعة. إنها قمع لأفكار ورؤية الفاشية القاتلة للحياة. لا يحبنا السيد أناند كثيراً جداً وبعض زملائه يكرهوننا جداً، لكن طالما يعبرون عن كرههم بالإنكليزية، فهم في نوع من التحالف معنا، ومازالت التسوية المحتشمة النهائية مع الهنود، الذين أخطأنا بحقهم وساعدناهم، ممكنة أيضاً.

هورايزن يوليو/تموز ١٩٤٢.

طبول تحت النوافذ
بقلم شون أوكيسي

قال دبليو بي ييتس إن الكلب لا يثني على براغيثه، لكن هذا القول يتناقض نوعاً ما مع المكانة الخاصة في هذه البلاد التي يتمتع بها الكتاب القوميون الايرلنديون. ولو أخذنا في الاعتبار تاريخ العلاقات الأنغلوايرلندية، فلن يفاجئنا وجود ايرلنديين عملهم الحياتي هو الإساءة إلى إنكلترا. لكن ما يستدعي الملاحظة والتعليق، هو أنهم يقدرون على النظر إلى الشعب الإنكليزي من أجل الدعم، وفي بعض الحالات يجب أن يعيش أشخاص من أمثال السيد أوكيسي نفسه في البلاد التي هي موضوع كرههم. هذا هو المجلد الثالث من سيرة السيد أوكيسي الذي يغطي الفترة من عام ١٩١٠ إلى ١٩١٦ كما يبدو. بالقدر الذي يمكن فهمه واستخراجه من كتل من الكتابة الطنانة، فإن الموضوع الرئيسي للكتاب قيم وممتع. السيد أوكيسي الابن الأصغر لعائلة بروتستانتية معدمة وفقيرة، عمل سنوات في أعمال عضلية، وانخرط بقوة بنفس الوقت في الحركة القومية والحركات الثقافية المتنوعة التي اختلطت معها، مات عدد من إخوته وأخواته في ظروف من الفقر الكالح الذي سيكون عذراً لعداوة والاستياء ضد الاحتلال الإنكليزي. كان صديقاً للاركين وكونولي والكونتيسة ماركيفيكس وعدد آخر من الشخصيات القيادية السياسية، وكان له رأي مهم وموقع متقدم في ثورة عيد الفصح لعام ١٩١٦.

لكن الأسلوب الغائم الذي كتب فيه الكتاب، جعل من الصعب تحديد الوقائع أو الترتيب الزمني للأحداث. الكتاب يكتب بضمير المفرد الغائب (شون فعل هذا وشون فعل ذاك)، مما يعطي أثراً لا يطاق من النرجسية. كما أن أقساماً كبيرة من الكتاب كتبت بتقليد مبسط لأسلوب يقظة فينيغان لجويس، الذي يكون أحياناً هزلاً خفياً، لكنه لا ينفع من أجل السرد القصصي أبداً. في كل الأحوال إن الصفة المميزة للسيد أوكيسي هي القومية الرومانسية التي ينجح في توحيدها مع الشيوعية. هذا الكتاب لا يتضمن أي إشارة واحدة حرفية إلى

إنكلترا بأنها غير معادية أو محتقرة. من جانب آخر لا توجد هناك صفحة واحدة لا تتضمن مقاطع كالمقطع التالي:

كاثلين هوليهان، بقدميها الحافيتين، تغني من أجل كبريائها الذي عاد ثانية بعد أن كاد أن يموت. بعباءة ممزقة وشعر منكوش تغني، تنفض الرماد من شعرها وتسهل التجاعيد الكبيرة في ثوبها؛ تغني عن رجال احتشدوا في القتال مستعدين في قلوبهم وبأيديهم للزحف مع الراية والبوق والمزمار إلى الموت من أجل وطنهم الأم.

أو مرة أخرى:

كاثلين ابنة هوليهان، تمشي صلبة وراسخة الآن، تورد على خدها المتغطرس. تسمع الهمس والدمدمة في قلوب الناس. عشاقها يتجمعون حولها، لأن الأشياء تغيرت، تغيرت تماماً: "لقد ولد جمال رهيب"

لو بدل المرء "بريطانيا" بدل "كاثلين هوليهان" في هذه المقاطع والأخرى التي تشبهها (كاثلين ني هوليهان تظهر عرضياً مرات كثيرة في كل فصل)، سترى من النظرة الأولى بسبب تنمقها ومباهاتها. لكن لماذا يجب التسامح مع أسوأ الغلو في الوطنية والعنصرية تطرفاً حين تأتي من رجل ايرلندي؟ لماذا القول "بلادي صح أو خطأ" يستحق التوبيخ حين تطبق على إنكلترا وتستحق الاحترام حين تطبق على ايرلندا؟ (أو على الهند بهذا الخصوص)؟ لأنه ليس هناك شك أن بعض مثل هكذا تقاليد تتواجد وأن "الرأي" المستنير في إنكلترا يستطيع أن يقبل حتى القومية الأشد صخباً طالما أنها ليست قومية بريطانية. قصائد مثل "احكم بريطانيا!" أو "أنتم بحارة إنكلترا" سوف تؤخذ على محمل الجد إن أدخل المرء في الأماكن المناسبة اسم بلد أجنبي ما، كما يستطيع المرء أن يرى من الاحترام الممنوح لشعراء حرب فرنسيين وروس شتى اليوم. النقطة التي تذهب إليها ايرلندا حتى الآن أن السبب الأساسي ربما يكون ضمير إنكلترا السيء. من الصعب أن نعترض على القومية الايرلندية من دون التظاهر بالتغاضي قروناً عن الطغيان الإنكليزي والاستغلال. بشكل خاص الحادث الذي ينتهي به كتاب السيد أوكيسي، ملخص إعدام حوالي عشرين أو ثلاثين ثائراً، الذين عوملوا كأسرى حرب، كان خطأ وجريمة. لذلك أي

شيء قيل عنه يجب أن يمر بقبول ومن دون اعتراض. وقصيدة ييتس عن الموضوع التي شكلت نوعاً من موضوع أغنية لكتاب السيد أوكيسي، يجب أن تقبل بلا نقد كقصيدة عظيمة. فعلياً إنها ليست من قصائد ييتس الأفضل. لكن كيف لرجل إنكليزي مدرك لخطأ بلاده في هذا الجانب وفي مناسبات كثيرة، أن يقول شيئاً من هذا النوع؟ لهذا يتشوه الحكم الأدبي بالتعاطف السياسي، ويتمكن السيد أوكيسي وأمثاله من البقاء شبه منيعين ضد النقد. لنراجع موقفنا، لأنه لا يوجد مبرر حقيقي. لماذا لا تجعلنا مذابح كرومويل نخطئ بالكتاب السيئ أو التافه وبالكتاب الجيد.

الأوبزيرفر ٢٨ أكتوبر/تشرين أول ١٩٤٥.

مراجعة العين الكونية
لهنري ميلر

من المؤسف ألا يستطيع أي واحد من الناشرين تجميع شجاعته ويصدر طبعة أخرى من **مدار السرطان**. إذ يمكنه تعويض خسائره بعد سنة بنشر كتاب بعنوان **ما رأيته أنا في السجن أو شيء بهذا المعنى**، لتصل بضع نسخ من النص الممنوع إلى الشعب، قبل أن يحرق جلاد الشعب، أو أياً يكن الذي مهنته حرق الكتب الممنوعة في هذه البلاد، الطبعة كلها في الوقت الفاصل. عكساً للتوقعات يفترض أن يكون **مدار السرطان** أندر كتاب معاصر - لكن قيل إن هناك طبعة مقرصنة يجري تداولها في أمريكا منذ سنتين أو ثلاث -حتى **ربيع أسود** لا يمكن الحصول عليه بسهولة. تطبع أقسام من كتابات هنري ميلر في كل مكان، لكن الأجزاء التي تستحق تبقى صعبة المنال، لهذا يجب على المرء الاعتماد على الذاكرة كي ينتقده. وبما أن الشخص الذي يقرأ النقد قد لا يحظى بفرصة قراءة الكتب أبداً، فإن العملية برمتها مثل أخذ شخص أعمى ليرى عرضاً للألعاب النارية.

تشمل المختارات الحالية القصة القصيرة **"ماكس"** (ربما مسودة مؤقتة أكثر من كونها قصة) ومسودة السيرة الذاتية الممتازة **"عبر ديبي - نيوهافن"** وثلاثة فصول من **ربيع أسود** أثخن فيها قلم الرقيب، وسيناريو لفيلم سريالي، وعدد من مقالات نقدية وشظايا. يختتم الكتاب بملاحظة عن سيرة ذاتية صادقة موجزة تنتهي بهذا الشكل:

أريد أن يقرأني أناس أقل وأقل، وليس لدي أي اهتمام بحياة الجماهير وبنوايا الحكومات الموجودة في العالم. أتمنى وأؤمن أن كل العالم المتمدن سيمسح تماماً في المائة سنة القادمة، وأعتقد أن الإنسان يستطيع أن يحيا وبطريقة أفضل وأوسع من دون "حضارة".

لنقارن **"عبر نيوهافن-ديبي"** والجزء الصغير من **هاملت**، كتاب الرسائل الضخم الذي كتبه ميلر بالتعاون مع مايكل فرانكل، لنحصل على فكرة جيدة عن الذي يستطيع ميلر فعله والذي لا يستطيعه. **"عبر نيوهافن - ديبي"** قطعة صادقة ومؤثرة من الكتابة، تروي

محاولة غير ناجحة للقيام بزيارة قصيرة إلى إنكلترا في ١٩٣٥. يكتشف موظفو الهجرة أنه لا يملك سوى كمية قليلة جداً من المال في جيوبه، فيرمي على الفور في زنزانة شرطة المحكمة بشكل مهين ويعيدونه في اليوم التالي عبر القنال. لقد تم الشيء كله بأقصى الغباء والوقاحة. الشخص الوحيد الذي أظهر بصيصاً من اللياقة والاحتشام في كل القضية، هو موظف الشرطة الذي كلف بحراسة ميلر خلال الليل. نشر الكتاب الذي وردت فيه هذه المسودة في ١٩٣٨ وأتذكر أنني قرأته بعد ميونيخ، وأشعرني هذا الحدث الصغير بخزي أكثر من بلادي، رغم أن تسوية ميونيخ لم تكن الشيء الذي يدعو إلى الفخر. ليس لأن الموظفين البريطانيين في نيوهافن تصرفوا أسوأ بكثير مما يفعله هذا النوع من الأشخاص في كل مكان. لكن بشكل ما الشيء برمته كان محزناً. اثنان من الموظفين البيروقراطيين يمسكان بفنان ويبيت تحت رحمتهما، وخليط الحقد والمكر والغباء الذي عاملاه به، يجعل المرء يتساءل ما فائدة كل هذا الحديث عن الديمقراطية وحرية الصحافة وما شابه.

إن "عبر نيوهافن-ديبي" من نفس مزاج مدار السرطان. لقد عاش ميلر حياة غير آمنة رزية لأربعين سنة أو أكثر، وكانت لديه موهبتان بارزتان ربما يرجعان إلى منشأ وضيع. الأولى عوز تام للخجل العادي، والأخرى مقدرته على كتابة نثر موزون منمق وجريء لم تره اللغة الإنكليزية في العشرين سنة الماضية. من ناحية أخرى ليس لديه القدرة على الانضباط الذاتي أو الإحساس بالمسؤولية، وربما ليس لديه خيال واسع مقارنة بنزوته. لذلك كان معداً ليكون كاتب سيرة ذاتية. وحين تستجر المادة من حياته السابقة وتنتهي، يكون عطاؤه عرضة للجفاف.

بعد ربيع أسود كان من المتوقع لميلر أن ينحدر إلى نوع من الشعوذة. وفي الواقع كان قدر كبير من كتابته اللاحقة مجرد طرق على الطبل الكبير -إحداث ضجيج من الفراغ. ليقرأ أي واحد مقالين في هذا الكتاب، "عالم الموت" (نقد لبروست وجويس) و"رسالة مفتوحة إلى السرياليين في كل مكان". في سبعين صفحة تقريباً كم هو قليل الذي قاله وكم هو مذهل تأثيره. اللافت في الواقع هو نجاح العبارة التي لا معنى لها تقريباً "عالم الموت" لتكون نغمة مميزة. إحدى خدع ميلر هو استخدامه الدائم للغة رؤيوية (شبيه بسفر الرؤيا من حيث الغموض) ليرش كل صفحة بعبارات مثل "التدفق الكوني"، "الفتنة القمرية" و"الفراغات بين النجوم" أو مع جمل مثل "المدار الذي أسافر فوقه قادني أبعد وأبعد عن

الشمس الميتة التي ولدتني" الجملة الثانية في المقال الذي عن بروست وجويس: "مهما حدث في الأدب منذ دستويفسكي فقد حدث في الجانب الآخر من الموت" أي هراء هذا حين تتأمله! الكلمات الرئيسية في هذا النوع من الكتابة هي "الموت" و"الولادة" و"الشمس" و"القمر" و"الرحم" و"الكوني" و"الفاجعة" وباستخدامه الطليق لها، تبدو أتفه العبارات فاتنة وتصويرية في حين أن خلوها التام من المعنى يعطي جواً من الغموض والعمق. حتى عنوان الكتاب "العين الكونية"، لا يعني شيئاً، لكنه يبدو كما لو أنه يجب أن يعني شيئاً فعلاً.

حين يستخرج المرء آراء ميلر من تحت اللغة المزخرفة جداً، يجد أغلبها مبتذلاً ورجعياً، وتنحدر إلى نوع من التصوف العدمي. هو ينكر اهتمامه بالسياسة -في بداية هذا الكتاب يعلن أنه "أصبح إلهاً" و"لا يبالي إطلاقاً بمصير العالم"- لكنه في الواقع يطلق بيانات سياسية بشكل دائم تشمل تعميمات عنصرية واهية عن "الروح الفرنسية" و"الروح الألمانية" إلخ. هو سلمي متطرف، ومن جهة أخرى لديه توق للعنف، بشرط أن يحدث في مكان آخر، ويعتقد أن الحياة رائعة، لكنه يتمنى ويتوقع أن يرى كل شيء ينسف ويمزق قريباً. ويتحدث كثيراً عن "الرجال العظماء" و"أرستقراطيي الشجاعة والقوة" يرفض أن يهتم بالفرق بين الفاشية والشيوعية، لأن "المجتمع مكون من الأفراد" وقد أصبح هذا موقفاً ورأياً مألوفاً الآن، وسيكون رأياً محترماً لو حُمل إلى نتيجته المنطقية التي تعني البقاء سلبياً في وجه الحرب والثورة والفاشية أو أي شيء آخر. في الواقع هؤلاء الذين يتكلمون بنفس النغمة، كما ميلر، يحرصون دائماً على أن يبقوا داخل حماية المجتمع البرجوازي الديمقراطي. وفي الوقت نفسه ينكرون مسؤوليتهم تجاهه: من الجانب الآخر حين يكون أخذ الخيار الحقيقي إجبارياً، لن ينجو الموقف الأكثر هدوءاً أبداً. إن موقف ميلر في العمق موقف فرداني ساذج لا يعترف بأي واجبات تجاه أي أحد آخر - في كل الأحوال لا واجبات تجاه المجتمع ككل- ولا يشعر حتى بالحاجة لأن يكون متناسقاً مع آرائه. إن الكثير من كتاباته اللاحقة مجرد تصريح عن هذه الحقيقة بكلمات مدوية أكثر.

طالما ظل ميلر مجرد شخص منبوذ ومشرد، لديه تجارب مزعجة مع رجال الشرطة وصاحبات الملكيات والزوجات وجامعي الديون والعاهرات ورؤساء التحرير وأمثالهم، فإن

موقفه غير المسؤول لا يشكل ضرراً- وفي الحقيقة هو أفضل موقف كأساس لكتاب مثل **مدار السرطان**. إن الشيء العظيم حول **مدار السرطان** هو خلوه من الأخلاق. لكن إن كنت ستتفوه بأحكام عن الرب والكون والحرب والثورة وهتلر والماركسية واليهود، فإن ماركة ميلر الخاصة بالأمانة الفكرية ليست كافية، لذلك إما أن يبتعد المرء عن السياسة بصدق أو يجب أن يعترف أن السياسة هي علم الممكن. هنا وهناك في كتابات ميلر اللاحقة، تجد لوحاً من سيرة ذاتية متواضعة، ومثال على ذلك "**عبر نيوهافن - ديبي**". وهناك مقاطع مشابهة حتى في كتاب **هاملت** غير المقروء- ثم يظهر السحر القديم مرة أخرى. إن موهبة ميلر الحقيقية تكمن في قدرته على وصف الجانب السفلي من الحياة، لكنه يحتاج إلى سوء حظ يحثه على استخدامها. على كل يبدو أن حياته في كاليفورنيا أثناء السنوات الخمس أو الست الماضية، لم تكن كلها ورطات ومآزق، وربما في واحد من هذه الأيام يتوقف عن كتابة جمل فارغة عن الموت والكون، ويرجع إلى فعل الشيء الذي يناسبه حقيقة. لكن يجب عليه أن يكف عن "كونه إلهاً، لأن الكتاب الجيد الوحيد الذي كتبه الرب هو العهد القديم.

مراجعة استشهاد رجل
بقلم وينوود ريد

إذا أجبر المرء على كتابة تاريخ للعالم، فهل الأفضل له أن يدون الحوادث الصحيحة التي يستطيع اكتشافها، أم أن يفبرك الأمر برمته؟ الجواب ليس بديهياً كما يبدو. يجب على كل من يكتب تاريخ أي فترة زمنية واسعة بالضرورة، فرض أنموذج على الأحداث، أو أن عليه يكتشف أنموذجاً على الأقل ونظرية عامة صحيحة من أجل ذلك الهدف، أو حتى فهماً غريزياً للاحتمالية، فقد يكون ذلك أكثر نفعاً من جبل من المعرفة. إن التاريخ المركب بشكل تخيلي، لا يمكن أن يكون صحيحاً بخصوص أي حدث، لكنه يقترب من الحقيقة الجوهرية أكثر من مجرد جمع وتأليف أسماء وتواريخ ليس فيها عبارة واحدة يثبت بأنها غير صحيحة.

يشعر المرء بهذا بقوة في التحفة الغريبة التي لم تكرم، كتاب وينوود ريد **استشهاد الإنسان**. لا يعني هذا طبعاً أن ريد يفبرك تاريخه. في الواقع هو بطريقة ما يعيد تأكيد قيمة المعرفة التجريبية بمواجهة التقاليد والسلطة، بما أن هدفه الرئيسي مهاجمة المعتقدات الدينية الراهنة، كانت طريقته لفعل هذا الإصرار على الحوادث المعروفة بما فيها نصوص من العهد القديم، يفضل المؤمنون الأرثوذكس نسيانها. وكان مستعداً للاستيلاء على كتل كبيرة من المعلومات من أخصائيين في حقول متنوعة. وأشار في مقدمته للكتاب إلى بعض مصادره، وأقر بوضوح أن "ليس هناك أي شيء في هذا العمل أستطيع الزعم بأنه لي. أنا لم آخذ الوقائع والأفكار فقط، وإنما العبارات والفقرات أيضاً من كتاب آخرين" ومع ذلك فإن كتابه جوهرياً، هو عمل من الخيال، وليس مجرد سجل للأحداث. هو لم يبدأ بفكرة تصورها مسبقاً للأنموذج التاريخي، وإنما من خلال قراءاته ورحلاته أعتقد أنه اكتشف الأنموذج، وبعد أن وجده سقطت التفاصيل في أمكنتها. الكتاب نوع من رؤية أو ملحمة ألهمه بها مفهوم التقدم. الإنسان هو بروميثيوس: لقد سرق النار وعوقب بشكل فظيع بسبب ذلك، لكنه في النهاية سوف يطرد الآلهة من السماء ويبدأ حكم العقل.

على الرغم من كتابته الواضحة والقوية، فإن استشهاد الإنسان كتاب لم يرتب بشكل جيد. إنه مقسم بشكل فظ إلى أربعة أجزاء رئيسية معنونة بالحرب والدين والحرية والعقل، التي يفترض أنها تلخص المراحل الأساسية للتطور الإنساني. والقسم الرابع يلخص جزئياً ويختصر ما قيل سابقاً، ويميل إلى عدم التناسب، طبعاً كما يفترض بأي محاولة لتاريخ شامل دائماً. من شبه المستحيل للأوروبي أن يتصور "العالم" على أنه أطراف البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، من دون أن تدخل الهند أو الصين في مخطط ريد للأشياء، ولا تدخل فيه إنكلترا أو روسيا أو أمريكا الجنوبية. إن مركز العالم كما يراه هو مصر وبلدان الشرق الأوسط، ويتعامل مع إمبراطوريات العبودية في العصور القديمة وظهور الأديان السامية بأفضل أسلوب لديه. لنأخذ هذا المقطع الأنموذجي:

لقد عاشت روما على مبدئها الرئيسي حتى أحدق الخراب بوجهها. إن الصناعة هي المصدر الوحيد الحقيقي للثروة، ولم تكن هناك في روما صناعة. مع الوقت اكتظ طريق أوستيا بالعربات وسائقي البغال التي تحمل للمدينة العظيمة الحرير والتوابل من الشرق والرخام من آسيا الوسطى والأخشاب من الأطلس والذرة من أفريقيا ومصر؛ ولم تخرج العربات منها سوى بأحمال من الروث. تلك كانت حمولتها في العودة.

في الصفات المختلطة لهذا المقطع -سخريته والتظاهر بالمعرفة الأكيدة وإصراره على أهمية العمليات الاقتصادية بالإضافة إلى الاحتفاظ بالأسلوب التصويري- يستطيع المرء أن يرى سبب جاذبية ريد الشعبية كما أعتقد. شعر الناس لمرة أنهم يحصلون على التاريخ من شخص يعرف كل الأحداث، ومع ذلك لم يكن أستاذاً جامعياً -ليس طفيلياً من الطبقات العليا والكنيسة الرسمية. ريد ليس فيه شبه بـ "المؤرخ الاقتصادي" الجاف والصارم جداً. الجانب الرومانتيكي الاحتفالي في التاريخ -الأشرعة المنتفخة للسفن الفينيقية والدروع النحاسية للجنود الرومانيين والفرسان والقلاع والمباريات الرياضية والأسماء الطنانة: قيصر والإسكندر وهنبعل ونبوخذ نصر وشارلمان- كل هذا حاضر في عمله، لكن بتحيز جديد، كما لو أنه يقول طوال الوقت: "انظروا إليه بهذا الشكل". صفة بارزة للكتاب هي معالجته البارعة للوقت. لقد جعل التاريخ يتدفق وينساب: عصور عظيمة لخصت في فقرة واحدة، واندمج المصريون بالفرس والفرس بالإغريق والإغريق بالرومان، واختفت البربرية في

الإقطاعية والإقطاعية في الرأسمالية. فبهذه الطريقة يراه المرء يتدفق ويمر مثل منظر بانورامي مع تجريده من مبادئه الجوهرية وحجز لونه والكثير من تفاصيله أيضاً.

يشير السيد جيه ام روبرتسن في المقدمة التي كتبها لطبعة ثنكر لايبراري أن استشهاد الإنسان جدير ولافت فوراً:

بسبب أثره المستمر على جيلين اثنين من القراء، ونجاحه الثابت في وجه عداء لدود وازدرائي من الصحافة الأدبية، وشق طريقه من سنة نشره من دون كلمة واحدة من الاستحسان الأدبي، أو إعلان واحد من الناشر، ظل يباع لأكثر من ست سنوات طبعة تلو أخرى وصولاً إلى الوقت الحاضر.

هذا الكتاب كأنه تاريخ غير رسمي. كان ريد يستهدف المتحررين والناس الذين لا ترعبهم الحقيقة. لكن كتابه كان شعبياً في جوهره، ويرفض تقريباً من صفحاته الأولى قيم المجتمع البرجوازي. يخمن المرء أن جاذبيته العميقة بالإضافة إلى سبب عداء الصحافة له، ربما يكمن في تفسيره الإنسانوي للمسيحية. حين نشر الكتاب في ١٨٧٢ كان أخذ هذا الخط يحتاج إلى شجاعة. لكنه يظل كتاباً ثورياً لمدة أربعين أو خمسين سنة تالية. أتذكر جيداً تأثيره علي حين قرأت وصف ريد للنبي العبري الأنموذجي ورأيت الكلمات "حالما استلم مهمته توقف عن الاغتسال" شعرت بعمق أن "هذا الرجل في صفنا". ثم تابعت قراءة تفحص ريد لشخصية المسيح. كانت تجربة شافية بشكل غريب. هنا شخص لا يقبل بأن المسيح هو ابن الرب ولا كمعلم أخلاقي عظيم كما كانت الموضة في ذلك الوقت، وبدلاً من ذلك قدّمه مجرد كائن بشري عرضة للخطأ مثل أي شخص آخر- بالمجمل شخصية نبيلة لكن بأخطاء فادحة، وينحدر من خط طويل من المتعصبين اليهود المتشابهين جداً. قال ريد إنه لم ترتبط به أساطير وثنية متنوعة تنتمي إلى أوزيريس وأبولو إلا بعد قرن من وفاته.

هل كان هذا تفسيراً صحيحاً؟ أنا لم أكن أعرف آنذاك ولا أعرف الآن. ينبغي للمرء أن يكون متخصصاً ليدلي برأيه. لكن على الأقل رواية ريد لحياة المسيح يمكن أن تكون صحيحة، بينما النسخة التي أقحمت عليّ من قبل مدير مدرستي تهين البديهة والحس العام. ريد كان كاتباً متحرراً، وبدا يتكلم كرجل لرجل، يحول التاريخ إلى أنموذج مفهوم وواضح ليس فيه حاجة للمعجزات. لقد كان بالغاً وناضجاً حتى لو كان مخطئاً.

رغم أن فكرة التقدم هي من ألهم بالكتاب، ورغم أنه أثر على الحركة اليسارية لأكثر من جيلين، ينبغي على المرء ألا يعتبر شهادة الإنسان كتاباً اشتراكياً. لقد تأثر ريد كثيراً جداً بنظرية داروين حول صراع البقاء، أما وجهة نظره فهي رجعية بوضوح في بعض الطرق. هو يفصح بشكل صريح عن جحوده بالاشتراكية ومقتنع بآثار المنافسة التجارية القيمة، ويعتقد أن الإمبريالية يجب أن تنال التشجيع، ويعتبر الشرقيين أدنى منزلة بالفطرة والطبيعة، كما أنه أيضاً يعبث بفكرة خطرة عن وجود درجات مختلفة من الحقيقة، وأن الاعتقاد الخاطئ يجب ألا يسفه إن كان ذا قيمة اجتماعية. ويقول أشياء غبية جداً -يقول مثلاً إن الشيوعية إذا توطدت قد تتصلب إلى نظام طبقي. وكانت هذه الملاحظة ثاقبة في ١٨٧١- ويرى بوضوح أن المساواة الإنسانية لا يمكن أن تتحقق إلا عند مستوى عالٍ من الحضارة الميكانيكية. أهدافه من النوع الذي يقبل بها أغلب الاشتراكيين، لكن موقفه نحو المجتمع القائم ليس كذلك. هو نوع من حليف غير دائم للحركة الاشتراكية، ويقاتل على الجبهة الدينية بشكل رئيسي. بالتأكيد كثيرون من قراء الطبقة العاملة لم يتفقوا معه في بعض الاستنتاجات، ومع ذلك يشعرون أن لديهم صديقاً جيداً في هذا العالم، انقلب ضد القساوسة واستطاع أن يجعل الماضي ليس مفهوماً وواضحاً فقط بل حياً أيضاً.

التريبيون ١٥ مارس/ آذار ١٩٤٦.

كلفة الأدب

(يجيب جورج أورويل على استبيان "كلفة الأدب" في هورايزن، سبتمبر/ أيلول/ ١٩٤٥ سئل فيه كتاب كثيرون:

١ - كم يحتاج الكاتب من المال برأيك ليعيش ويبقى حياً؟

٢- هل تعتقد أن الكاتب الجاد يستطيع كسب هذا المبلغ من كتابته، وإن كان كذلك فكيف؟

٣- إن كان لا، فما هي المهنة الثانية المناسبة له برأيك؟

٤- هل تحويل طاقة الكاتب إلى وظائف كما تعتقد يضر بالأدب أم يثريه؟

٥- هل تعتقد أن الدولة أو أي مؤسسة أخرى يجب أن تعمل أكثر من أجل الكتاب؟

٦- هل أنت راض عن حلك للمشكلة؟ هل عندك أي نصيحة تعطيها للشباب الذين يتمنون كسب عيشهم بواسطة الكتابة؟

١ - في القيمة الشرائية الحالية للنقود، أعتقد أن عشرة جنيهات أسبوعياً بعد دفع ضريبة الدخل هو الحد الأدنى لرجل متزوج، وربما ست جنيهات للشخص غير المتزوج. أفضل دخل للكاتب في القيمة الحالية للنقود حوالي ألف جنيه في السنة. بذلك المبلغ يمكنه العيش براحة معقولة ليس فيها مضايقات من الدائنين، ولا يُجبر على تقديم عمل مبتذل من دون أن يشعر بأنه انتقل إلى الطبقة ذات الامتيازات. لا أعتقد أن المرء يستطيع أن يتوقع بإنصاف من الكاتب أن يبذل أقصى الجهد بدخل فرد من الطبقة العاملة. ضرورته الأولى التي لا يستغني عنها كالأدوات بالنسبة إلى النجار، هي غرفة مريحة مدفأة بشكل جيد يتأكد ألا يقاطعه أحد ويعيقه فيها، وهذا لا يبدو كثيراً. لكن لو حسب المرء ما يعنيه هذا بمصطلحات الترتيبات المنزلية، فسيعني كسب أموال أكثر. إن عمل الكاتب يتم في البيت وإن تركه يحدث للمصادفة سيخضع إلى مقاطعة دائمة. ليحمي نفسه من المقاطعة، يكلفه هذا مالاً بشكل مباشر أو غير مباشر. ثم إن الكتاب يحتاجون إلى كتب ودوريات بأعداد كبيرة، وهذه تحتاج إلى مكان وأثاث

لتضبير الأوراق، كما يصرف الكتاب الكثير على المراسلات ويحتاجون إلى معونة سكرتارية بدوام جزئي، ويستفيد أغلبهم من السفر والعيش فيما يعتبرونه بيئة متعاطفة وأكل وشرب الأشياء التي يحبونها أكثر، وأن يقدروا على أخذ أصدقائهم ليتناولوا معهم الطعام خارج البيت أو استضافتهم للإقامة معهم. مثالياً، أحب أن يحظى كل إنسان بنفس الدخل، شرط أن يكون دخلاً عالياً نوعاً ما: لكن طالما هناك تمييز وفرق مفروض، أعتقد أن مكانة الكاتب يجب أن تكون في وسط القوس، ما يعني في المعايير الحالية ألف جنيه في السنة.

٢- كلا. علمت أن بضع مئات من الناس في بريطانيا العظمى على الأكثر يكسبون عيشهم من كتابة الكتب فقط، وأغلب هؤلاء من كتاب القصص البوليسية إلخ. بطريقة ما إن تجنب المتاجرة بالمواهب بالنسبة إلى أناس مثل ايثيل ام ديل أسهل مما يكون الأمر لكاتب وقور وجدي.

٣- لو أمكن ترتيب الوظيفة بشكل لا تستهلك كل وقته، أعتقد أن مهنة الكاتب الثانية يجب أن تكون شيئاً غير-أدبي، والأفضل لو كانت شيئاً مناسباً لطبيعته ومزاجه. ويمكنني أن أتخيل أن يقوم موظف البنك أو وكيل التأمين مثلاً بعد أن يذهب إلى البيت بعمل جدي في أمسياته. لكن بذل الجهد يكون صعباً جداً إن بدد المرء مسبقاً طاقاته على عمل نصف إبداعي كالتعليم والبث الإذاعي أو تأليف دعاية لكيانات مثل المركز الثقافي البريطاني.

٤- بشرط ألا يكون وقت المرء وطاقته مستنفدة، أعتقد أنها تفيده. أخيراً يجب على المرء أن يقوم بنوع من التواصل مع العالم العادي، وإلا عمن سيكتب؟

٥- الشيء الوحيد الذي تستطيع الدولة فعله بشكل مفيد أن تحول مقداراً أكبر من المال العام لشراء كتب للمكتبات العامة. إن كان علينا أن نكون في اشتراكية كاملة، من الواضح عندئذ أن يكون الكاتب مدعوماً من الدولة، ويجب أن يوضع مع الجماعات التي تتقاضى أجراً أفضل. لكن طالما نعيش في اقتصاد مثل اقتصادنا الحالي، فيه مقدار كبير من المشروع الحكومي لكن أيضاً مناطق واسعة من الرأسمالية الخاصة، فإن التعامل الأقل للكاتب مع الدولة أو كيان منظم آخر أفضل له ولعمله. هناك خيوط ثابتة مرتبطة بكل نوع من الرعاية المنظمة. من جانب آخر، فإن النوع القديم من الرعاية الخاصة، التي يكون الكاتب بالنتيجة معتمداً كلياً

على فرد ثري ما، غير مرغوبة بشكل واضح. بالتأكيد، إن الراعي الأفضل والأقل تطلباً هو الجمهور الكبير.

لسوء الحظ، إن الجمهور البريطاني لن يصرف نقوداً على الكتب في الوقت الحاضر، رغم أنه بات يقرأ أكثر فأكثر، وارتفع معدل ذوقه كثيراً جداً في العشرين سنة الأخيرة. في الوقت الحاضر، أعتقد أن المواطن البريطاني المتوسط يصرف جنيهاً واحداً على الكتب سنوياً، بينما يصرف خمسة وعشرين جنيهاً للحصول على التبغ والكحول معاً. بواسطة الرسوم والضرائب يمكن جعله يصرف أكثر من دون أن يعرف- كما حدث أثناء سنوات الحرب حين صرف أكثر بكثير من المعتاد على الراديو بسبب العون التي تحصل عليه البي بي سي من الخزانة. إذا أمكن حث الحكومة على تخصيص مبالغ أكبر لشراء الكتب دون الاستيلاء على كل تجارة الكتب وتحويلها إلى آلة دعائية، أعتقد أن موقع الكاتب سيكون مريحاً ويستفيد الأدب أيضاً.

٦- شخصياً أنا راضٍ بمعنى مالي، لأنني كنت محظوظاً على الأقل خلال السنوات القليلة الأخيرة. كان علي أن أصارع بشكل يائس في البداية، ولو استمعت إلى ما قاله الناس لي، فلن أصبح كاتباً أبداً. حتى لوقت حديث تماماً كلما كتبت أي شيء آخذه بجدية، يجب أن تكون هناك جهود شاقة، أحياناً بواسطة أشخاص نافذين لمنعه من الطباعة. بالنسبة إلى كاتب صغير يشعر بامتلاك شيء فيه، فإن النصيحة الوحيدة التي أستطيع أن أقدمها إليه هي ألا يأخذ بأي نصيحة.

مالياً، طبعاً، هناك أفكار مفيدة أستطيع تقديمها، لكنها بلا فائدة أيضاً إن لم يملك المرء نوعاً من الموهبة. إن أراد المرء أن يعيش من خلال وضع كلمات على الورق فقط، فالبي بي سي أو شركات الأفلام وأمثالها مفيدة له بشكل معقول. لكن أن أراد أن يكون كاتباً قبل كل شيء، سيتقدم وينجح إن أدرك موقعه منذ البداية. عندئذ يمكن القول إن المرء في مجتمعنا حيوان جرى التسامح معه، لكنه لم ينل التشجيع -شيء مثل عصفور المنزل.

هورايزن، سبتمبر/ أيلول ١٩٤٦؛ الفكر البريطاني الراهن، بريتش كرينت ثوت عدد ١، ١٩٤٧.

ملاحظات حول تعريف الثقافة

لـ تي. إس. إليوت

يرى السيد ت.إس. إليوت في كتابه **ملاحظات نحو تعريف الثقافة**، أن المجتمع المتحضر يحتاج إلى نظام طبقي كجزء من أساسه. هو لا يتكلم إلا بشكل سلبي طبعاً، ولا يزعم أن هنالك طريقة أخرى يمكن أن تخلق فيها حضارة سامية، ويصر أن هكذا حضارة من غير المحتمل أن تزدهر بغياب ظروف محددة أحدها الفروق الطبقية.

هذا يفتتح مشهداً كئيباً. فمن المؤكد أن الفروق الطبقية من النوع القديم الهاجع من جانب ومن جانب آخر لدى إليوت حالة مثبتة بديهياً على الأقل.

جوهر حجته أن أعلى مستويات الثقافة لم تبلغها سوى مجموعات صغيرة من الناس -إما مجموعات اجتماعية أو مجموعات مناطقية- استطاعت أن تحسن تقاليدها لدرجة الكمال على مدى فترات طويلة من الزمن. إن العائلة هي المؤثر الثقافي الأهم، ويكون الولاء العائلي في أقصى قوته عندما يرى غالبية الناس من البديهي أن يعيشوا الحياة في المستوى الاجتماعي الذي ولدوا فيه. إضافة إلى هذا نحن لا نعرف كيف هو شكل المجتمع الطبقي، لأننا لا نملك سوابق نعتمد عليها. والذي نعرفه فقط هو أن الطبقات ستظل تستبدل بـ "النخب" طالما تظل الوظائف تتنوع وتتوسع وتختلف، مصطلح يستعيره إليوت بنفور واضح من الراحل كارل مانهايم. النخب ستخطط وتنظم وتدير: يشك السيد إليوت بشكل مبرر إن كانت تستطيع أن تصبح الحارسة والناقلة للثقافة، كما كانت طبقات اجتماعية معينة في الماضي.

يصر السيد إليوت كعادته دائماً أن التقاليد لا تعني عبادة الماضي، بل على العكس التقاليد تكون حية فقط حين تكبر. تستطيع الطبقة أن تحافظ على الثقافة لأنها هي نفسها شيء عضوي ومتبدل. لكن هنا يفقد السيد إليوت ما يعتبر أقوى حجة لديه، وهي أن المجتمع اللاطبقي الذي تديره النخب قد يتحجر بسرعة، لأن حكامه يقدرون أن يختاروا خلفاءهم ويميلون دائماً إلى اختيار أناس يشبهونهم. المؤسسات الوراثية -كما يناقش السيد إليوت-

تتميز بكونها متقلبة وغير مستقرة. يجب أن تكون هكذا، لأن السلطة تحول دائماً إلى أناس إما يعجزون عن الاحتفاظ بها، أو يستخدمونها لأغراض لم يقصدها أسلافهم. من المستحيل أن يدوم أي كيان وراثي وقتاً طويلاً جداً وبتغيير طفيف كمنظمة متبناة كالكنيسة الكاثوليكية مثلاً، وعلى الأقل يمكن التفكير بمنظمة متبناة واستبدادية أخرى وهي الحزب الشيوعي الروسي، الذي سيكون له نفس التاريخ. وإن تحجر إلى طبقة كما يعتقد بعض المراقبين أنه فعل مسبقاً، عندئذ سيتبدل ويتطور كما تفعل الطبقات دائماً، لكن إن استمر في اختيار أعضائه من كل طبقات المجتمع ثم مرنهم ودربهم على العقلية المرغوبة، يمكنه أن يحافظ على شكله من دون تغيير من جيل إلى جيل. في المجتمعات الأرستقراطية، يكون الأرستقراطي الشاذ شخصاً مألوفاً، لكن المفوض (قوميسار) الشاذ نقيض بالتعريف. رغم أن السيد إليوت لا يستفيد من هذه الحجة، هو يجادل أنه حتى الخصومة بين الطبقات يمكن أن تثمر عن نتائج جيدة للمجتمع ككل. هذا ربما صحيح مرة أخرى. مع هذا يظل في المرء خلال كل هذا الكتاب شعور بوجود خطأ ما وأنه مدرك لهذا الخطأ. حقيقة أن الامتياز الطبقي مثل العبودية، لم يعد الدفاع عنها ممكناً. هي تتعارض مع افتراضات أخلاقية محددة، يبدو أن السيد إليوت يشارك فيها، مع أنه فكرياً ربما يكون مع خلاف معها. في كل الكتاب موقفه دفاعي بشكل واضح. حين يؤمن الناس بالفروق الطبقية، فليس من الضروري المصالحة والتوفيق بينها وبين العدالة الاجتماعية أو الكفاءة. تفوق وتميز الطبقات الحاكمة يعتبر بديهياً، وعلى أي حال النظام القائم يكون ما قدره الرب ورسمه. الأبكم المغمور ميلتون كان حالة حزينة لكنها غير قابلة للعلاج في هذا الجانب من القبر.

على كل حال، هذا ليس ما يقوله السيد إليوت، فكما يقول هو يود أن يرى في الوجود الطبقات والنخب كليهما. يجب على الإنسان العادي أن يعش حياة في مستواه الاجتماعي المقدر له مسبقاً، لكن من جانب آخر يجب أن يكون الرجل المناسب قادراً على أن يجد طريقه إلى الوظيفة المناسبة. في قوله هذا يبدو أنه يتخلى عن كل قضيته. فلو كانت الفروق الطبقية مرغوبة بحد ذاتها، إذاً فإن إضاعة المواهب أو عدم الكفاءة في المناصب العليا، غير مهمة نسبياً. بدلاً من أن يوجه الفرد غير المنسجم اجتماعياً إلى الأعلى أو الأسفل، عليه أن يتعلم أن يكون قانعاً وراضياً بمركزه الخاص به. لا يقول السيد إليوت هذا: في الحقيقة، قلة قليلة جداً

من الناس في زمننا يقولونها. ستبدو مزعجة أخلاقياً. ربما لذلك لا يؤمن السيد إليوت بالفروق الطبقية كما آمن بها أجدادنا. استحسانه لها سلبي فقط. يعني أنه لا يستطيع أن يرى كيف يمكن لأي حضارة جديرة بالبقاء حية في مجتمع فروقه ناشئة عن خلفية اجتماعية أو عن منشأ جغرافي. من الصعب الرد بأي رد إيجابي على هذا. بالنسبة إلى كل المظاهر تختفي الفروق الاجتماعية القديمة في كل مكان لتهدم أساسها الاقتصادي. قد تظهر طبقات جديدة ومحتملة ضمن مشهد مجتمع لاطبقي، يفترض إليوت أنه سيكون مجتمعاً لا ثقافة له. قد يكون محقاً، لكن يبدو تشاؤمه في بعض النقاط مبالغاً به. يقول: "نحن لا نستطيع أن نؤكد ببعض الثقة أن فترتنا نحن فترة انحدار؛ إن معايير الثقافة أدنى مما كانت عليه قبل خمسين سنة، والدليل على هذا الانحدار واضح في كل قسم من النشاط الإنساني"

يبدو هذا صحيحاً حين يفكر المرء بأفلام هوليوود أو القنبلة الذرية، لكنه أقل صحة إن فكر المرء بملابس ١٨٩٨ وهندسته المعمارية أو شكل الحياة في ذلك التاريخ للعامل العاطل عن العمل في إيست ايند في لندن. بأي حال كما يعترف إليوت نفسه في البداية، نحن لا نستطيع عكس الوجهة الحالية بعمل متعمد. الحضارات لا تصنع كالسلع، بل تنمو من تلقاء ذاتها. هل كثير علينا أن نأمل بأن يفرز المجتمع اللاطبقي ثقافة خاصة به؟ وقبل شطب عصرنا كشيء محكوم بالهلاك نهائياً، ألا يجدر أن نتذكر أن ماثيو أرنولد وسويفت وشكسبير- لنرجع القصة إلى ثلاثة قرون للوراء فقط- كانوا بالتساوي متأكدين من أنهم عاشوا في فترة انحدار.

أوبزيرفر ٢٨ نوفمبر، تشرين الثاني ١٩٤٨.

مراجعة لب القضية
غراهام غرين

إن حصة كبيرة من الروايات المميزة في العقود القليلة الأخيرة، كتبها كاثوليكيون، حتى إنها وصفت بالروايات الكاثوليكية. أحد أسباب هذا أن الصراع ليس فقط بين هذا العالم والعالم الآخر، وإنما بين القداسة والجودة، الذي هو موضوع خصب لم يستطع الكاتب العادي غير المصدق الاستفادة منه. استخدمه غراهام غرين بنجاح مرة، في **السلطة والمجد**، ومرة مع نجاح مقلقل في **صخرة برايتون**. إن كتابه الأخير **لب القضية**، بتعبير أدبي، ليس واحداً من أفضل أعماله، ويعطي الانطباع بأنه بني بشكل ميكانيكي، والصراع المألوف فيه بدأ مثل معادلة جبرية من دون أي محاولة في الاحتمالية السيكولوجية. إليكم موجز القصة:

الزمن في العام ١٩٤٢ والمكان في مستعمرة بريطانية في أفريقيا الغربية، لم تسمَّ، لكنها ربما تكون ساحل العاج. الرائد سكوبي، نائب مفوض الشرطة ومتحول إلى الكاثوليكية، يجد رسالة تحمل عنواناً ألمانيا مخبأة في قمرة قبطان سفينة برتغالية. تبين أن الرسالة خاصة ولا ضرر منها إطلاقاً، لكن طبعاً واجب سكوبي أن يسلمها للسلطة الأعلى كانت الشفقة التي يشعر بها نحو القبطان البرتغالي كبيرة بالنسبة إليه، فيتلف الرسالة ولا يأتي على ذكرها. سكوبي كما شرح لنا، رجل ذو ضمير حي جداً، فهو لا يشرب الكحول ولا يقبل الرشوة ولا يحتفظ بخليلات زنجيات أو يتساهل مع الحيل البيروقراطية، وهو في الحقيقة مكروه من كل الأطراف بسبب استقامته مثل العادل استرايدس. تساهله نحو القبطان البرتغالي كانت هفوته الأولى. بعدها أصبحت حياته نوعاً من خرافة عن موضوع "أوه شبكة متشابكة التي نسجناها"، وكانت طيبته هي التي تقوده إلى الضلال في كل حالة. مدفوعاً بالشفقة في البداية، تصبح له علاقة غرامية مع فتاة أنقذها من سفينة نسفت بطوربيد. يستمر بالعلاقة بدافع من شعوره بالواجب، فالفتاة ستتمزق إلى أشلاء أخلاقياً إن تخلى عنها؛ لهذا يكذب على زوجته بشأنها ليوفر عليها آلام الغيرة. بما أنه نوى أن يستمر

في زناه، فلم يذهب إلى الاعتراف. ولكي يهدئ شكوك زوجته يخبرها أنه راحل. هذا يورطه في الفعل الرهيب حقيقة، فكان يأخذ القربان المقدس وهو في حالة الخطيئة القاتلة. في هذا الوقت، هناك تعقيدات أخرى كلها سببت بنفس الطريقة، فيقرر سكوبي أخيراً أن الطريقة الوحيدة للخروج هي من خلال خطيئة الانتحار التي لا تغتفر. يجب ألا يسمح لأحد آخر بأن يقاسي بسبب موته؛ لهذا يجب أن يبدو انتحاره كأنه حادث. كما يحدث، يخطئ في أحد التفاصيل وتصبح حقيقة ارتكابه لجريمة الانتحار معروفة. ينتهي الكتاب بتلميح قس كاثوليكي بأرثوذوكسية شكاكة أن سكوبي ربما لن يحكم عليه باللعنة. لكن سكوبي لم يعلل نفسه بأمل كهذا. لقد ابيضّ كله وتيبست شفته العليا ورحل إلى ما اعتقد بشكل مؤكد أنه اللعنة بسبب انعدام الحشمة والنبل.

أنا لم أسخر من حبكة الكتاب. فقد ظل سخيفاً ومضحكاً تماماً كما أشرت حتى حين أُلبس بتفاصيل واقعية. الشيء الأكثر خطأ وبشكل واضح فيها هو دوافع سكوبي، فهي لم تفسر أفعاله بشكل كافٍ وملائم حتى لو صدقها المرء. سؤال آخر يظهر: لماذا كان مكان هذه الرواية في غرب أفريقيا؟ باستثناء إحدى الشخصيات، وهو تاجر سوري، كل الشيء كان يمكن أن يحدث في ضاحية من ضواحي لندن. الوجود الأفريقي لا يذكر إلا كخلفية أحياناً، والشيء الذي كان يجب أن يكون في ذهن سكوبي طوال الوقت -العداء بين البيض والسود والصراع ضد الحركة الوطنية المحلية- لم يذكر إطلاقاً. في الحقيقة، رغم أننا اطلعنا على أفكاره بتفصيل كبير، فهو نادراً ما بدا يفكر بخصوص عمله، وبعدئذ بالتفاصيل التافهة منه فقط، ولم يفكر بالحرب أبداً، رغم أن التاريخ كان عام ١٩٤٢ كل ما اهتم به هو تقدمه نحو اللعنة. عدم احتمالية هذا يعرض على خلفية كولونيالية، لكنها لااحتمالية حاضرة في صخرة برايتون ايضاً، وذلك ملزم أن ينتج عن فرض مخاوف لاهوتية على أناس بسطاء في أي مكان. الفكرة المركزية للكتاب أنه أفضل وأسمى روحياً أن تكون كاثوليكياً آثماً من أن تكون وثنياً فاضلاً. غراهام غرين سيوقع ربما بيان المريخي (ماريشان) الذي صدر بخصوص ليون بلوي، "ليس هناك سوى حزن واحد- ألا تكون قديساً" قول بيغاي مقتبس على صفحة العنوان ليعني أن الآثم "في صميم المسيحية" يعرف عن المسيحية أكثر مما يعرفه أي أحد آخر ما عدا القديس.

مثل هذه الأقاويل كلها تحتوي أو يمكن تحميلها الاقتراح المشؤوم بأن الحشمة الإنسانية العادية ليست ذات قيمة، وأن إثم أي امرئ ليس أسوأ من أي إثم آخر. بالإضافة إلى ذلك، من المستحيل ألا تشعر بنوع من التكبر في موقف السيد غرين، هنا وفي كتب أخرى غيره كتبت من وجهة نظر كاثوليكية صريحة. يظهر غرين أنه يشارك في الفكرة التي ترى أن هناك شيئاً ممتازاً في اللعن؛ الجحيم نوع من نادٍ ليلي من نوادي الطبقة العليا، مدخل مخصص للكاثوليك فقط، بما أن الآخرين غير الكاثوليك أجهل من أن يعتبروا مذنبين، مثل البهائم التي تنفق. لقد أخبرونا بحرص أن الكاثوليك ليسوا أفضل من أي أحد آخر وربما يملكون ميلاً ليكونوا أسوأ حتى بما أن إغراءاتهم أكبر. في روايات كاثوليكية حديثة، في كل من فرنسا وإنكلترا، الموضة في الحقيقة أن تتضمن قساوسة سيئين أو على الأقل غير ملائمين، كتغيير من الأب براون. (أتخيل أن أحد أهداف الكتاب الكاثوليكيين الإنكليز الشبان ألا يشبهوا تشيسترتون). لكن كل الوقت- ثمل، فاسق، مجرم أو ملعون تماماً- يحتفظ الكاثوليك بتفوقهم بما أنهم وحدهم يعرفون معنى الخير والشر. عرضياً، أفترض في لب القضية، وفي أغلب كتب غرين الأخرى، أن لا أحد خارج الكنيسة الكاثوليكية يملك أقصى المعرفة الأولية للعقيدة المسيحية. هذا الإعجاب الذي يصل إلى حد العبادة بالآثم المبرأ يبدو لي تافهاً وربما يكمن تحته إيمان ضعيف، لأن الناس حين يؤمنون بالجحيم لا يكونون مولعين بأخذ أوضاع على شفيره. إن محاولة إلباس التخمينات اللاهوتية باللحم والدم، ينتج سخافات سيكولوجية. في السلطة والمجد، الصراع بين القيم الدنيوية وقيم الآخرة مقنع، لأنه لا يحدث داخل شخص واحد. من الجانب الآخر هناك القس، مخلوق مسكين فقير، لكنه جعل بطلاً بإيمانه بالقوى الإعجازية؛ من الجانب الآخر هناك الملازم، يمثل العدالة الإنسانية والتقدم المادي وهو أيضاً شخصية بطل بطريقته. يستطيع كل منهما احترام الآخر ربما، لكنهما لا يفهمان بعضهما. القس في أي حال ليس لديه أفكار معقدة. في صخرة برايتون من جانب آخر الوضع المركزي لا يصدق بما أنه يفترض مقدماً أن أغبى شخص يمكن أن يكون قادراً على رقة فكرية عظيمة، بمجرد أن يتربى على الكاثوليكية. بينكي، عضو عصابة مضمار السباق، هو من النوع الشيطاني، بينما صديقته ضيقة الأفق تفهم وحتى تعرف الفرق بين

الصنفين "الصح" و"الخطأ" في سلسلة تيريزا لمورياك، الصرع الروحي لا ينتهك الاحتمالية، لأنه لم يزعم أن تيريزا شخص طبيعي وعادي. إنها روح مختارة، تسعى وراء الخلاص منذ فترة طويلة من خلال مسار صعب مثل مريض ممدد على أريكة طبيب نفساني. لنأخذ مثالاً معاكساً، إيفلين واو زيارة أخرى لبرايدزهيد، بالرغم من اللااحتماليات، التي يمكن ملاحظتها جزئياً لكون الكتاب كتب بالشخص الأول، تنجح لأن الوضع نفسه وضع عادي وطبيعي. الشخصيات الكاثوليكية تتخبط وترتطم ضد المشاكل التي تقابلها في حياة واقعية؛ ولا تنتقل فجأة إلى مستوى فكري مختلف فور تورط معتقداتها الدينية. سكوبي شخصية لا تصدق، لأن نصفيه الاثنين لا يتوافقان معاً. لو كان قادراً على الوصول إلى نوع الفوضى التي وصفت، لكان دخل فيها قبل ذلك بسنين. لو أنه شعر فعلاً أن الزنى خطيئة مميتة لتوقف عن ارتكابها؛ إن استمر فيها، لأوقظه شعوره بالإثم. لو آمن بالجحيم، فلن يخاطر في الذهاب إليه لمجرد أن يوفر مشاعر امرأتين عصابيتين. ويمكن للمرء أن يضيف أنه لو كان نوع الرجل الذي أخبرنا الكاتب عنه - رجل ميزته الشخصية الرئيسية رعبه من أن يسبب الألم- فلن يكون ضابطاً في شرطة استعمارية. هناك احتمالات أخرى بعضها ينشأ من طريقة السيد غرين في معالجته لعلاقة الغرام. كل روائي لديه تقاليده الخاصة به، وكما في رواية أي ام فوستر هناك ميل قوي للشخصيات أن تموت فجأة من دون سبب كافٍ، كذلك في رواية غراهام غرين هناك ميل للناس أن يذهبوا إلى السرير معاً من دون ابتهاج ورغبة واضحة من كلا الطرفين تقريباً. في أحوال كثيرة هذا معقول نوعاً ما، لكن في لب القضية أثره أن يضعف دافعاً ينبغي أن يكون قوياً لأغراض في القصة. مرة أخرى هناك الخطأ المعتاد الذي لا مفر منه في جعل كل واحد رفيع الثقافة جداً. ليس الميجور (الرائد) سكوبي عالم لاهوت. زوجته، التي صورت كغبية تماماً، تقرأ الشعر، بينما المفتش الذي أرسله فيلق الأمن الميداني ليتجسس على سكوبي، يكتب الشعر أيضاً. هنا يقف المرء بمواجهة حقيقة أنه ليس من السهل على الكتاب الحديثين تخيل العمليات العقلية لأي شخص ليس كاتباً. يحزن المرء حين يتذكر الروعة التي كتب فيها من مكان آخر في أفريقيا. كان على السيد غرين أن يكتب هذا الكتاب من تجاربه الأفريقية في زمن الحرب. واقعة أن يكون مكان وزمان

الكتاب في أفريقيا، بينما الفعل يحدث كله تقريباً داخل جالية بيضاء صغيرة جداً، يعطي جواً من التفاهة. لكن على المرء ألا يفرط في الانتقاد. من المسر رؤية السيد غرين يبدأ ثانية بعد صمت طويل، وفي إنكلترا ما بعد الحرب قدرة رائعة لروائي أن يكتب رواية. في أي حال لم يكن السيد غرين مشوشاً دائماً تفسده العادات التي اكتسبها أثناء الحرب كالكثيرين جداً غيره. لكن يأمل المرء أن يكون لكتابه القادم موضوعاً مختلفاً، أو إن لم يكن ذلك، أن يتذكر على الأقل أن إدراك غرور الأشياء الدنيوية، رغم أنها قد تكون كافية للدخول إلى النعيم، ليس معدات كافية لكتابة رواية.

نيويوركر ١٧ يوليو/ تموز ١٩٤٨.

صباح عظيم
لأوزبيرت سيتويل

بسبب سنوات الحرب المتتالية التي ترتفع عالياً كسلسلة هضاب بيننا وبين الماضي، تصبح السيرة الذاتية نوعاً من المتاجرة بالكتب الأثرية. لا يحتاج المرء إلا أن يكون فوق الأربعين من العمر ليتذكر الأشياء البعيدة جداً عن عصرنا الحالي مثل دروع الحماية أو أحزمة العفة. علّق أناس كثيرون بحنين على حقيقة أنه قبل عام ١٩١٤ يمكنك السفر إلى أي بلد في العالم ما عدا روسيا من دون جواز سفر. لكن ما لفت انتباهي في استعادة الماضي وأدهشني حتى، أنه كان بإمكانك في تلك الأيام أن تدخل إلى محل دراجات هوائية -محل دراجات عادي وليس محل بيع وتصليح أسلحة- وتشتري مسدساً وخرطوشاً من دون أن يسألك أحد. من الواضح أن ذلك لن يكون الجو الذي سنراه مرة أخرى. وحين يكتب السير أوزبيرت سيتويل عن عالم "ما قبل ١٩١٤" بندم ظاهر لا يمكن وصف عواطفه بالرجعية. تتضمن الرجعية محاولة استعادة الماضي، ولو كانت هناك إمكانية تخيل إرجاع العالم إلى أنموذج عام ١٩٣٨ فلن يكون هناك شك في استعادة العصر الإدواردي أكثر من إحياء الالبغانيزية (طائفة إصلاحية تعارض الكنيسة- التسمية نسبة إلى مدينة البي الفرنسية).

لا نعني أن سنوات السير أوزبيرت الأولى كانت خالية من الهموم تماماً، كما يفترض بقراء مجلديه الأولين من سيرته أن يلاحظوا. كان والده السير جورج سيتويل رجل متعباً في أي نوع للتعامل معه: عبقرية معمارية ضائعة، بدد مبالغ مالية خيالية في مخططات معمارية مهووسة بالعظمة، امتدت إلى تبديل المنظر الطبيعي وبناء بحيرات اصطناعية ماؤها يسيل في مناجم الفحم في الأسفل. وسبب دعاوي قضائية لا نهاية لها -كل هذه الوقت يعتبر شلن واحد في الأسبوع كافياً لمصروف صبي في التاسعة عشرة من العمر ويرفض حتى إنقاذ زوجته من براثن مقرض نقود. الهندسة المعمارية لوحدها، هدفه الرئيسي في الحياة -ليس من خبث صريح وإنما كنوع من الهزل العملي- كان أن يجبر كل واحد مرتبط به على فعل كل ما لا يحب. دفع أوزبيرت الذي اشتهر ببغضه للخيول، إلى فوج الخيالة، ثم فرّ إلى حرس الرمانات اليدوية، ثم

حين بدا سعيداً جداً في الحرس، وجد وظيفة في مكتب تاون كلارك في سكاربورو، بعد تلقيه دروساً في تحسين الخط في عمر العشرين. أنقذته الحرب من هذا، لكن شقيقه وشقيقته عوملا بالمثل. رغم ذلك، فإن السنين القليلة الأخيرة قبل الحرب كانت سعيدة وعوضته عن وضعه الشاذ كابن رجل ثري، هو محق ربما في الشعور بأن الحياة الإنكليزية كانت مبهجة ومسرة آنذاك ولن تستعاد أبداً.

الحياة في الحرس كانت ممتعة، لأنها تعني أن تكون في لندن التي تعني بدورها المسارح والموسيقى والمعارض الفنية. أخ أوزبيرت الضباط كانوا متحضرين ومتسامحين، وحتى العقيد الكولونيل سامحه للجلوس في مقهى مع جاكوب إبستين الذي كان في لباس جندي عادي. كان عصر شاليبان والباليه الروسي وانتعاش اهتمام جدي بالموسيقا والرسم في إنكلترا.

كان أيضاً عصر الراغ والتانغو و"الكنوتات -الكسالى الأثرياء" والقوارب السكنية والتنانير المقيدة ونثر الثروة ذهاباً وإياباً بشكل لم يعرفه العالم منذ الإمبراطورية الرومانية المبكرة. لقد تدمرت البيوريتانية الفيكتورية أخيراً، كانت النقود تنهمر من كل صوب وحدب، والشعور بالذنب الذي هو الآن شكل لا ينفصل عن موقع متميز، لم يتطور بعد. بارني بارناتو والسير ويليام وايتلي اعتبرا أنموذجين يقلدان، ونال التظاهر بالغنى الإطراء وليس الغنى فقط. الحياة في لندن كانت جولة لا تنتهي من التسلية بشكل غير مسبوق، ولا يمكن تخيله الآن: فرقة موسيقية واحدة في بيت واحد لم يعد كافياً، يجب أن يكون هناك اثنتان أو حتى ثلاثة. مراوح كهربائية تدور بسرعة على قمم من كتل هائلة من الجليد، مطمورة في صفوف من الشجيرات الكوبية، مثل القوارب الكبيرة التي تغادر إلى سيابيرا. لم تكن هناك عروض للزهور كهذه قط... لم تر أوروبا قط هكذا أكوام من الخوخ والتين والدراق والفراولة في كل المواسم، تجلب من خيم زجاجية ينطلق منها البخار. تنتصب قناني الشمبانيا مكدسة على المائدة... كالضيوف، فقط الفقراء من أي عرق ممنوعين. حتى الأجانب يمكنهم الدخول إن كانوا أغنياء. كان هناك أيضاً حياة البيوت الريفية مع جماعاتها من الخدم. أوزبيرت، معادٍ للخيول، كان رجل صيد، لكنه استمتع بحملات إطلاق النار والأسهم رغم أو ربما بسبب حقيقة أنه لم ينجح في قتل أي شيء أبداً، وبأحاديثه مع حارس الطرائد العجوز النكد المزاج، أنموذج رجل انقرض الآن -النوع الذي يقبل أي وضع من العبودية وضمن

ذلك الإطار قادر على التمتع باستقلال كبير. طبعاً إن حدث ولم تكن تنتمي إلى عالم الشمبانيا وبيوت الفراولة الحارة (البلاستيكية) فإن الحياة قبل ١٩١٤ فيها معيقات خطيرة. حتى في هذا اليوم وبعد حربين مميتتين فإن العمال اليدويين في كل أرجاء العالم أفضل بالمعنى البدني مما كانوا عليه آنذاك. لكن هل يظل هذا صحيحاً بعد حرب ثالثة ستدار بالقنابل الذرية هذه المرة؟ أو حتى بعد خمسين سنة من تآكل التربة وتبديد موارد الوقود العالمية؟ قبل ١٩١٤ كان الناس يملكون ميزة لا تقدر بثمن في عدم معرفتهم متى تأتي الحرب وإن عرفوا فلن يتنبأوا كيف ستكون. السير أوزبورت لا يدعي أكثر من أن الحياة في تلك الأيام كانت متعة للأقلية ذات الامتيازات، ومثل كل من قرأ قبل القصف يعرف ويدرك تماماً كل سوقية العصر وغرابته. يبدو موقفه السياسي حسب ما يتضمنه هذا الكتاب موقفاً ليبرالياً معتدلاً. يقول: "في تلك الأيام كان الأغنياء محترمين كثيراً ويشتمون بشكل جائر كما يحدث الآن، لكنه في صيف عام ١٩١٤ الذهبي استمتع بالغنى وهو صادق في قوله هذا. توجد الآن فكرة واسعة الانتشار، وهي أن مشاعر الحنين للماضي شريرة بشكل متأصل. ينبغي على المرء ظاهرياً أن يعيش في حاضر مستمر وإلغاء متواصل للذاكرة، وإن فكر المرء بالماضي، يجب أن يكون لكي يشكر الرب أننا أفضل بكثير مما كنا فيه. هذا يبدو لي نوعاً من جراحة تجميلية للفكر، الدافع خلفها رعب متكبر من الهرم والكبر. ينبغي على المرء أن يدرك أن الكائن البشري لا يستطيع الاستمرار في التطور بشكل غير محدود، وأن الكاتب بالخصوص يتخلص من ميراثه إن أنكر تجربته في حياته المبكرة. أن نتذكر ذلك الفردوس المفقود "قبل الحرب" -أي قبل الحرب الأخرى، فذلك عقبة خطيرة في طرق كثيرة، وهذا ميزة في طرق أخرى. لكل جيل تجربته الخاصة وحكمته الخاصة به، ورغم ذلك هناك شيء كالتقدم الفكري، لذلك تكون أفكار عصر ما أقل سخافة من تلك التي سبقته أحياناً -لكن يمكن للمرء أن يكتب كتاباً جيداً بالالتصاق برؤيته المكتسبة المبكرة أكثر من محاولة عقيمة في "استمر في". إن الشيء العظيم هو أن تكون في عصرك وتكون صادقاً حول أصولك الاجتماعية. في ثلاثينيات القرن العشرين رأينا جيلاً أدبياً كاملاً أو على الأقل الأفراد الأبرز من جيل يدعون إما أنهم بروليتاريون أو يطلقون العنان في طقوس علنية عامة من كره الذات لأنهم لم يكونوا بروليتاريين. حتى لو حافظوا على هذا الموقف (اليوم، عدد مذهل منهم إما فروا إلى أمريكا أو وجدوا أنفسهم في

وظائف في البي بي سي أو البريتش كانسيل)، ذلك غباء لأن أصلهم البرجوازي لم يكن شيئاً يمكن تبديله. من فضائل السير أوزبيرت أنه لم يتظاهر أن يكون شيئاً آخر غير نفسه: فرد من الطبقات العليا مع موقف المرتاح واللاهي الذي يظهر في أسلوبه في الكتابة والذي لا يمكن أن يكون إلا نتاج تربيته ونشأته المترفة. من المحتمل، بقدر ما تخدمه ذاكرته، يدوّن الأشياء التي يحبها والتي يكرهها بدقة، الذي يحتاج دائماً إلى شجاعة أخلاقية. كم سيكون الأمر سهلاً للكتابة عن إيتون أو حرس رماة الرمانات بروح من تفوق ساخر، مع تضمين ذلك من فترة الشباب المبكرة أنه كان حامل عواطف مستنيرة، والتي هي في الحقيقة لا يحملها شخص وضع في مكان مريح قبل جيل. أو كم من السهل من الجانب الآخر لتقف مدافعاً وتحاول أن تثبت مظالم ولامساواة العالم الذي نشأت وكبرت فيه. هو لم يقم بأي من الأمرين، وفي النتيجة فإن هذه المجلدات الثلاثة (**يد يسرى، يد يمنى والشجرة القرمزية وصباح عظيم**)، رغم أن المدى الذي تغطيه ضيق جداً، يجب أن تكون من بين أفضل كتب السيرة في عصرنا.

ادلفي، يوليو/سبتمبر ١٩٤٨.

قصة بورما
بقلم تينيسون جيسي

إن تاريخ بورما عبارة عن أسطورة حتى القرن الحادي عشر، ويبقى ضبابيا حتى منتصف القرن الثامن عشر حين هزم البورميون أخيراً السكان الأصليين للبلاد، التالاينغ. ليس المراد من كتاب الآنسة تينيسون جيسي أن يكون تأريخاً للأحداث أصلاً، فهي تنزلق فوق الفترة المبكرة وتهملها وتركز على النقاط المهمة والفارقة في التاريخ الحديث لبورما -ضم بورما العليا في عام ١٨٨٥ وتعتقد أن الأخطاء التي ارتكبت بعدئذ كانت مسؤولة عن فشل البريطانيين في بناء إدارة سليمة وشعبية، ولهذا يلامون من أجل انهيار عام ١٩٤٢.

ربما لم يقع اللوم على السلوك البريطاني في بورما، كما حاولت الآنسة تينيسون أن تبين، لكن من الأكيد لو لم يخسر البورميون استقلالهم لصالح البريطانيين، فإنهم كانوا سيخسرونه إلى قوة أخرى، ربما فرنسا. جغرافيا بورما بلاد معزولة، وبقي أهلها لقرون كثيرة يجهلون العالم الخارجي تماماً. والغريب أنهم في عام ١٨٢٠ تقريباً فكروا في إرسال جيش بورمي لغزو الهند وجلب الحاكم العام مقيداً والتقدم واحتلال لندن إن دعت الضرورة. بعد أن جرى ضم بورما السفلى، كانت بورما العليا ستلحق بها عاجلاً أو آجلاً حتماً، ولكن رغم ذلك ارتكب الملك ثيباو السكير وزوجته سوبايالات كل خطأ استطاعا فعله. لقد تعرض التجار البريطانيون والهنود إلى إهانات بطرق لا تحتمل، وكانت مذابح ثيباو السياسية الدورية لرعاياه- احتفل بوصوله إلى العرش بإعدام إخوته الثمانين تقريباً -ترعب حتى البريطانيين المعادين للإمبريالية. حين حدث الغزو أخيراً تبدد جيش ثيباو النظامي من دون قتال، على الرغم من العصابات التي ظلت تحارب سنيناً بعد ذلك.

تعتقد الآنسة تينيسون جيسي أن الخطأ الكبير الفادح كان إلغاء النظام الملكي. كان من الضروري خلع ثيباو من العرش، ولكن كان من الضروري تنصيب أمير آخر على العرش بدلاً منه. كما حدث، لقد تدمر رمز السيادة الذي اعتاد عليه البورميون لقرون، وأضعفت

كثيراً سلطة الكهنوت بشكل غير مباشر والتي تعتمد عليها الحياة الأخلاقية للبلاد. تمزق النظام القديم وأرهقت بورما بنظام قانوني وإداري وتعليمي كان غريباً بالنسبة إلى البلاد، ولم يتجذر فيها. ونتيجة لذلك ازدهرت الجريمة، وامتهن الكهنوت السياسة، وتحولت الجامعات إلى إنتلجنسيا عاطلة عن العمل، وأصبحت عمود الحركة القومية. وكانت كل الصفوف الدنيا من الإدارة فاسدة بشكل عصي على الشفاء. في الوقت نفسه بقيت بورما متخلفة جداً في طرق كثيرة، وعملياً بقيت كل تجارة الجملة بيد البريطانيين أو الهنود والصينيين، وحتى القوات المسلحة كانت من شعوب غير بورمية. ازدادت حدة الاستياء طبعاً، ورغم أن الغزاة اليابانيين لم ينالوا تأييداً فعالاً كبيراً، فلم يكن الولاء لنظام الحكم البريطاني عاملاً في الوضع بالقدر الذي يهم البورمي. يشارك الآنسة تينيسون جيسي آراءها عدد آخر من المتعاطفين مع بورما. إنها ترى ضمناً: أن الأفضل لو شجعت بورما على الخروج من العصور الوسطى ببطء شديد، وذلك يعني قبل كل شيء أن تحاول الحفاظ على الدين البوذي في كل نقائه. تحت هذا يكمن الاعتقاد أننا لو لم نفرض المؤسسات الغربية بالقوة على بورما، لما ظهرت حركة قومية معادية لبريطانيا أبداً. هذا يبدو موضع شك. لقد كان الشعور القومي الذي لم يكن له أن يكون إلا معادياً لبريطانيا بسبب الظروف محتماً، وكان سيتطور بمسار أو بآخر. وكان الوعد في تحدي البلاد قد أعطى الدعاية اليابانية كثيراً من جاذبيتها. يبدو أن الآنسة تينيسون جيسي قد قللت من أهمية القومية الآسيوية والشعور اللوني، وقد قدرت عدد الطابور الخامس في بورما خلال حملة عام ١٩٤٢ بخمسة آلاف، وهذا بخس واضح وخطير. هذا الكتاب مسح شعبي مفيد بشرط أن يتذكر القارئ أنه كتب من وجهة نظر ما يمكن تسميته إمبريالية خيرة. وفي الوقت الذي كانت فيه رقيقة نحو البورميين، كانت بلا شك محسنة جداً نحو البريطانيين.

أوبزيرفر، ٢٤ فبراير/ شباط ١٩٤٦.

اكتشاف أوروبا من جديد

حين كنت صبياً صغيراً علمونا مادة التاريخ -بشكل رديء جداً، طبعاً ككل واحد في إنكلترا تقريباً- كنت أعتبر التاريخ نوعاً من لفيفة ورقية مع خطوط سوداء سميكة مسطرة فوقها على فواصل، وكل واحد من هذه الخطوط يحدد نهاية ما سمي "فترة"، وكنا نميل إلى الفهم أن ما يأتي فيها بعد مختلف تماماً عما سبقه. إنه أشبه بساعة تدق. فمثلاً في عام ١٤٩٩ أنت تظل في العصور الوسطى مع فرسان في دروع كالأطباق يهجمون على بعضهم البعض برماح طويلة، ثم فجأة تدق الساعة ١٥٠٠ فتكون في شيء سمي بعصر النهضة كل شخص فيه لبس طوق الرقبة وصدرة ضيقة ومنشغل بسرقة سفن الكنوز على البر الإسباني. هناك خط آخر أسود وسميك جداً رسم في سنة ١٧٠٠ بعده كان القرن الثامن عشر وتوقف الناس فجأة عن كونهم فرساناً وبيوريتانيين، ليصبحوا سادة مهذبين أنيقين بشكل مفرط في سراويل للركبة وقبعات مثلثية يضعون المساحيق على شعورهم ويأخذون السعوط ويتحدثون في جمل موزونة بدقة، تبدو متكلفة لأنهم يلفظون حرف السين كحرف الفاء، وذلك لسبب لم أفهمه. التاريخ كله كان مثل ذلك في ذهني - سلسلة من فترات مختلفة تماماً تتغير فجأة وبسرعة في نهاية قرن أو في كل الأحوال في تاريخ محدد بوضوح.

هذه الانتقالات المفاجئة السريعة لا تحدث الآن في الواقع، فكل عصر يستمر في العيش ضمن العصر الذي يليه - يجب أن يكون الأمر هكذا لوجود حيوات إنسانية لا تحصى تجسر كل فجوة، ومع ذلك هناك أشياء كالفترات. نحن نشعر أن عصرنا مختلف بعمق عن الفترة الفيكتورية المبكرة مثلاً، وسيشعر شكاك من القرن الثامن عشر مثل جيبون بنفسه وسط متوحشين لو أقحمته فجأة في العصور الوسطى. بين الفينة والأخرى يحدث شيء ما -لا شك أنه يعزى إلى التغييرات في التقنيات الصناعية، رغم عدم وضوح الرابط دائماً- وكل روح وإيقاع تغيرات الحياة فيكتسب الناس نظرة جديدة تعكس نفسها في تصرفاتهم السياسية وسلوكهم وهندستهم المعمارية وأدبهم وكل شيء آخر. لم يستطع أحد اليوم أن يكتب مثل قصيدة غراي "مرثاة في فناء كنيسة ريفية" مثلاً، ولم يستطع أحد أن يكتب غنائيات شكسبير في عصر غراي.

هذه الأشياء تنتمي إلى فترات مختلفة، ولكن تلك الخطوط السوداء فوق صحة التاريخ وهم طبعاً، فهناك أوقات كان فيها الانتقال سريعاً جداً، شيء سريع بما يكفي لأن يكون ميسراً لإعطائه تاريخاً دقيقاً بوضوح. يستطيع المرء أن يقول من دون تبسيط بأنه مفرط فادح، "في تلك السنة بدأ ذلك الأسلوب الأدبي" ولو سئلنا عن نقطة بداية الأدب الحديث- وحقيقة أننا لا نزال نسميه "حديث"، يبين أن تلك الفترة بالخصوص لم تكتمل بعد - سوف أضعها في عام ١٩١٧ في السنة التي نشر فيها إليوت قصيدته "بروفروك". وبأي حال فإن ذلك التاريخ ليس أكثر من خمس سنوات من النهاية. من المؤكد أن المناخ الأدبي تبدل في حوالي نهاية الحرب الأخيرة، وأصبح الكاتب الأنموذجي شخصاً مختلفاً تماماً، وبدت تتواجد أفضل الكتب في الفترة التالية في عالم مختلف عن أفضل الكتب قبل أربع أو خمس سنوات فقط.

لنوضح ما أقصده، أسألك أن تقارن في ذهنك بين قصيدتين ليس بينهما أي رابط لكنهما تكفيان لغرض المقارنة، لأن كل واحدة منهما أنموذجية تماماً عن فترتها. قارن إحدى قصائد إليوت المميزة المبكرة مع قصيدة لروبرت بروك مثلاً، الذي كان، يجب أن أقول الشاعر الفائز بأكبر قدر من الإعجاب في السنوات التي سبقت عام ١٩١٤. ربما القصائد الوطنية هي أكثر من يمثل قصائد بروك، كتبت في الأيام الأولى من الحرب. قصيدة جيدة السونيتة البداية: إن كنت سأموت، فكر بهذا مني فقط: بأن هناك ركناً ما في حقل أجنبي/ ذلك الركن سيبقى إنكلترا إلى الأبد.

الآن أقرأ جنباً إلى جنب مع قصائد إليوت السوينية، مثلاً، "سويني وسط طيور العندليب" - كما تعرف

دوائر القمر العاصفة/ تنزلق غرباً باتجاه ريفر بليت

وكما أقول، ليس هناك أي رابط بين هاتين القصيدتين في الموضوع أو أي شيء آخر لكن من الممكن المقارنة بينهما بطريقة ما، لأن كلاً منهما ممثلة لفترتها الزمنية، وكل واحدة تبدو قصيدة جيدة حين كتبت. الثانية لاتزال تبدو قصيدة جيدة الآن.

ليس الأسلوب فقط بل كل الروح والنظرة الضمنية للحياة والممتلكات الروحية الشخصية الثقافية لهاتين القصيدتين تختلف بشكل عميق جداً. هناك هاوية ضخمة بين الشاب الإنكليزي مع خلفية مدرسية وجامعية الذي يخرج متحمساً ليموت من أجل بلاده

ورأسه مترع بالأزقة الإنكليزية والزهور البرية، وبين الأميركي العالمي المتضائل الذي يرى بنظرة خاطفة الأبدية في مطعم حقير نوعاً ما في الحي اللاتيني في باريس. قد تكون مجرد فرق فردي، لكن المغزى أنك وقعت على نفس النوع من الفرق، فرق يثير نفس التشابهات لو قرأت جنباً إلى جنب أي كاتبين مميزين من الفترتين. الأمر نفسه مع الروائيين كما الشعراء - جويس ولورانس وهكسلي ويندهام لويس من جانب، ويلز بينيت وغلاسورثي من الجانب الآخر مثلاً. الكتاب الأجدد أقل خصباً بشكل هائل من الآخرين وأكثر تشكيكاً واهتماماً بالأسلوب وأقل تفاؤلاً وبشكل العام أقل ثقة بنظرتهم إلى الحياة. لكن أكثر من ذلك، فأنت تشعر طول الوقت أن خلفيتهم الثقافية والفنية مختلفة أكثر مما حين تقارن كاتباً فرنسياً من القرن التاسع عشر مثل فلوبير مع كاتب إنكليزي من القرن التاسع عشر مثل ديكنز. الرجل الفرنسي يبدو أرفع ثقافة بشكل هائل من الرجل الإنكليزي، لكنه ليس كاتباً أفضل بالضرورة بسبب ذلك. لكن دعوني أعود إلى الوراء قليلاً، وأفكر ملياً كيف كان الأدب الإنكليزي في الأيام السابقة لعام ١٩١٤.

عمالقة ذلك الزمن كانوا توماس هاردي رغم توقفه عن كتابة الروايات قبل بعض الوقت من ذلك، وشو ويلز وبينيت وكيبلينغ وغلاسورثي، وجوزيف كونراد المختلف إلى حد ما عن الآخرين بكونه غير إنكليزي إنما بولوني اختار أن يكتب بالإنكليزية. هناك ايه أي هاوسمان (غلام الخراف الإنكليزية) وشعراء جورجيون متعددون وروبرت بروك وآخرون. هناك أيضاً عدد لا يحصى من الكتاب الهزليين السير جيمس باري ودبليو دبليو جاكويز وباري بين وكثيرين غيرهم. لو قرأت كل هؤلاء الكتاب الذين ذكرتهم، فلن تخرج بصورة مضللة للعقل الإنكليزي قبل عام ١٩١٤. هناك نزعات أدبية أخرى فاعلة، هناك كتاب ايرلنديون مختلفون مثلاً من وريد مختلف وأقرب إلى زمننا بكثير، وهناك الروائي الأميركي هنري جيمس. لكن التيار الرئيسي كان التيار الذي أشرت إليه. لكن ما هو القاسم المشترك بين كتاب متباعدين جداً كأفراد مثل برنارد شو وايه أي هاوسمان أو توماس هاردي واتش جي ويلز؟ أظن أن الحقيقة الأساسية حول كل الكتاب الإنكليز في ذلك الوقت، هو جهلهم التام بأي شيء خارج المشهد الإنكليزي المعاصر لهم. بعضهم ككتاب أفضل من غيرهم، وبعضهم كانوا واعين سياسياً، وبعضهم الآخر لم يكونوا كذلك، لكنهم يتساوون بأن التأثير الأوروبي لم

يلمسهم. هذا صحيح حتى لروائيين مثل بينيت وغلاسورثي الذي استمد بإحساس سطحي من النماذج الفرنسية والروسية. كل هؤلاء الكتاب لديهم خلفية حياة الطبقة الوسطى الإنكليزية العادية المحترمة، وإيمان شبه واع بأن هذه الحياة ستستمر إلى الأبد وتزداد إنسانية وتنوراً باستمرار. كان بعضهم متشائماً في نظرته مثل هاردي وهاوسمان، لكنهم كلهم آمنوا على الأقل بأن ما سمي بالتقدم سيكون مرغوباً إن كان ممكناً. يترافق مع نقص رقة الشعور الفني أيضاً شيء- كلهم اهتموا بالماضي وخصوصاً الماضي البعيد. من النادر أن تجد كاتباً من ذاك الوقت لديه ما نعتبره الآن إحساساً بالتاريخ. حتى توماس هاردي حين حاول كتابة دراما ضخمة مبنية على الحروب النابليونية -**السلالة الحاكمة**، كما سماها- رآها كلها من زاوية كتاب مدرسي وطني. كما كانوا كلهم غير مهتمين بالماضي جمالياً؛ فقد كتب أرنولد بينيت مثلاً، مقداراً كبيراً من النقد الأدبي، ومن الواضح أنه عجز تقريباً عن رؤية أي قيمة في أي كتاب من قبل القرن التاسع عشر. وفي الواقع لم يكن لديه أي اهتمام بأي كاتب سوى معاصريه، ورأى برنارد شو أن أغلب الماضي مجرد فوضى ينبغي أن يطمس باسم التقدم وعلم الصحة والكفاءة وغيرها. أما اتش جي ويلز، رغم أنه كتب تاريخاً للعالم في وقت لاحق، فقد نظر إلى الماضي بنفس النوع من التقزز المدهش كما ينظر الإنسان المتمدن إلى قبيلة من أكلة لحوم البشر. كل هؤلاء الناس سواء أحبوا عصرهم أم لا، فقد اعتبروه أفضل من سابقه على الأقل، وسلموا بالمعايير الأدبية لزمنهم. إن أساس كل هجمات برنارد شو على شكسبير، إنه لم يكن عضواً متنوراً من الجمعية الفابية. لو قيل لأي واحد من هؤلاء الكتاب إن الكتاب الذين سيأتون بعدهم مباشرة سيرجعون إلى الشعراء الإنكليز في القرنين السادس عشر والسابع عشر وإلى الشعراء الفرنسيين في منتصف القرن التاسع عشر وإلى فلاسفة العصور الوسطى، فإنهم سيعتبرونهم نوعاً من هواة الفن.

لكن الآن انظر إلى الكتاب الذين بدؤوا بجذب الاهتمام -بعضهم بدأ الكتابة أبكر قليلاً، طبعاً- بعد الحرب الأخيرة فوراً: جويس وإليوت وباوند وهكسلي ولورانس وويندهام لويس. انطباعك الأول عنهم مقارنة بالآخرين -هذا صحيح مع لورانس- أن شيئاً ما قد خرق. بداية، فكرة التقدم رفضت وأهملت. لم يعودوا يؤمنون بأن الناس يتحسنون أكثر فأكثر عبر بتحقيقهم تخفيضاً بنسبة الوفيات وتحكم أكبر بمعدل الولادات وأنابيب مياه أفضل

وطيارات أكثر وسيارات أسرع. كانوا كلهم تقريباً تواقين إلى الماضي البعيد أو فترة ما من الماضي من أترووريا القديمة للكاتب دي اتش لورانس فصاعداً. وكانوا رجعيين سياسياً، أو في أفضل حال غير مكترثين بالسياسة. لم يهتم أحد منهم البتة بالإصلاحات الزائفة المتنوعة التي بدت هامة لسابقيهم مثل حق اقتراع النساء وإصلاح ضبط معاقرة الخمر وضبط الولادات ومنع المعاملة الوحشية للحيوانات. كلهم أكثر وداً أو أقل عداء من الجيل الذي سبقهم نحو الكنائس المسيحية. كلهم تقريباً بدوا ناشطين فنياً بطريقة لم يعرفها أي كاتب إنكليزي منذ انبعاث الرومانتيكية.

لا أحد يستطيع توضيح ما أقوله بالشكل الأمثل بواسطة مثال فردي، أي، بمقارنة كتب بارزة من نوع متشابه في الفترتين. كمثال أول قارن قصص اتش جي ويلز القصيرة -هناك عدد كبير منها جمع معاً بعنوان **بلاد العميان**- مع قصص دي اتش لورانس القصيرة كالتي في **إنكلترا إنكلترتي والضابط البروسي**.

هذه مقارنة ليست ظالمة، بما أن كل من هؤلاء الكتاب كان في أفضل أحواله أو قريباً من الأفضل في القصة القصيرة، وكان كل منهم يجرب نسخة جديدة من الحياة التي كان لها تأثير عظيم على شباب جيله. الموضوع الرئيسي الجوهري لقصص جي اتش ويلز، هو الاكتشاف العلمي أولاً وبعده وتقليد من هو أفضل منك، والمآسي الهزلية للحياة الإنكليزية المعاصرة، خصوصاً حياة فقراء الطبقة الوسطى. "رسالته" الأساسية، سأستخدم تعبيراً لا أحبه، أن العلم يستطيع حل كل ما ورثته الإنسانية، لكن الإنسان في الوقت الحاضر أعمى ليرى إمكانية قدراته. التناوب بين المواضيع اليوتوباوية الطموحة وبين الكوميديا الخفيفة، في دبليو دبليو جاكويز، واضح جداً في عمل ويلز. هو يكتب عن رحلات إلى القمر وإلى قاع البحر، ويكتب أيضاً عن أصحاب محلات صغيرة يتهربون من الإفلاس ويقاتلون ليبقوا مبتهجين في ظروف صعبة في تقليد بغيض خاص بالبلدات الريفية. الرابط الواصل هو إيمان ويلز بالعلم. هو يقول دائماً، لو اكتسب هؤلاء الحانوتويين الصغار نظرة علمية فقط، لانتهت مشاكلهم. وطبعاً هو يؤمن بأن هذا سوف يحدث، ربما في المستقبل القريب. بضعة ملايين أخرى من الجنيهات للبحث العلمي وبضعة أجيال أخرى من المثقفين علمياً وبضع خرافات أخرى ترمى في سلة النفايات وتتم المهمة. الآن لو عدت إلى قصص لورانس، فانك لن تجد هذا

الإيمان في العلم- بدلاً منه العداوة نحوه، إذاً أي شيء- ولن تجد أي اهتمام واضح في المستقبل، بالتأكيد ليس في المستقبل المعقلن المفرط بالمتعة الذي عالجه ويلز. أنت لا تجد الفكرة حتى بأن أصحاب الحوانيت الصغيرة أو أي ضحية أخرى لمجتمعنا ستكون أفضل إن اكتسبت تعليماً أفضل. ما تجده هو تضمين ملح بأن الإنسان ضيع حق بكورته حين بات متحضراً. الموضوع الأساسي الرئيسي لكل كتب لورانس تقريباً، هو فشل الناس المعاصرين، وخصوصاً في البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية بأن يعيشوا حياتهم بطريقة عميقة وشديدة كافية. بالطبع هو يركز أولاً على حياتهم الجنسية. وحقيقة أن أغلب كتب لورانس تتركز حول الجنس، لكنه لم يطالب كما يظن أحياناً بالمزيد مما يسميه الناس الحرية الجنسية. خاب أمله تماماً حول ذلك، ويكره ما سمي تكلف المثقفين البوهيميين، بقدر ما كره نزعة التزمت لدى الطبقة الوسطى. ما يقوله بسيط تماماً، وهو أن الرجال العصريين ليسوا أحياء تماماً، سواء أخفقوا عبر معاييرهم الضيقة جداً أو عبر عدم امتلاكهم لأي معيار. بالتسليم أنهم يستطيعون أن يحيوا تماماً، فإنه لم يكترث كثيراً بأي نظام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي يعيشون في ظله. هو يأخذ التركيبة الموجودة للمجتمع مع فروقه الطبقية وهلم جرا، تلك المسلم بها في قصصه، من دون أن يبدي أي رغبة ملحة في تغييرها. كل ما يطلبه أن الناس سوف يعيشون ببساطة أكثر وأقرب إلى الأرض مع إحساس بسحر الأشياء مثل الحياة النباتية والنار والماء والجنس والدم، أكثر مما يستطيعون في عالم من السيليوليد والإسمنت المسلح؛ حيث لا تتوقف الفونوغرافات عن العزف. هو يتخيل -وهو مخطئ على الأرجح- أن الشعوب الهمجية أو البدائية عاشت بقوة أكبر من الناس المتحضرين، ويبني صورة إنسان أسطوري غير بعيد عن كونه المتوحش النبيل مرة أخرى. أخيراً هو يسقط هذه الفضائل على الأترورين، الشعب القديم الذي عاش في إيطاليا قبل الرومان، والذين لا نعرف عنهم شيئاً في الحقيقة. من وجهة نظر ويلز، كل هذا الهجر للعلم والتقدم والرغبة الفعلية في العودة إلى البداءة، مجرد هرطقة وهراء. ومع ذلك يجب الاعتراف أن نظرة لورانس إلى الحياة سواء كانت صحيحة أو منحرفة؛ فهي على الأقل خطوة متقدمة على عبادة العلم عند اتش جي ويلز أو النزعة التقدمية الفابية الضحلة عند كتاب مثل برنارد شو. إنها متقدمة بمعنى أنها ناتجة عن إدراك زيف الموقف الآخر، وليس من التقصير والفشل في مضاهاته. جزئياً ذلك كان أثر حرب ١٩١٤-١٩١٨ التي نجحت في

فضح العلم والتقدم والإنسان المتحضر وإفراغهم. لقد انتهى التقدم أخيراً بأكبر مجزرة في التاريخ. العلم شيء اخترع الطائرات القاذفة والغازات السامة والإنسان المتحضر، كما تبين، كان مستعداً ليتصرف بشكل أسوأ من أي همجي عند الاضطرار. لكن سخط لورانس على الحضارة الآلية الحديثة سيكون نفسه بلا شك، حتى لو لم تحدث حرب ١٩١٤-١٩١٨.

الآن أريد أن أجري مقارنة أخرى بين رواية جويس العظيمة **يوليسيس**، وبين الرواية الكبيرة جداً المتسلسلة **قصة فورسايت البطولية** لجون غلاسورثي. هذه المرة هي ليست مقارنة عادلة، في الواقع هي مقارنة بين كتاب جيد وكتاب رديء، وهي أيضاً غير صحيحة في الترتيب الزمني، لأن الأجزاء الأخيرة من **قصة فورسايت البطولية** كتبت في عشرينات القرن العشرين. لكن الأجزاء التي من المرجح أن يتذكرها أي أحد كانت في حوالي ١٩١٠ وهدف المقارنة لازم، لأن كل من جويس وغلاسورثي يبذلان الجهود لتغطية لوحة هائلة ويضمان عهداً كاملاً بروحه وتاريخه الاجتماعي بين غلافي كتاب واحد. **رجل الملكية** ربما لا تبدو لنا الآن كنقد اجتماعي عميق للمجتمع، لكنها بدت هكذا لمعاصريها، كما يمكنك أن ترى الموضوع الذي كتبت حوله.

كتب جويس رواية **يوليسيس** في السنوات السبع بين ١٩١٤ و١٩٢١، لاغياً ورك اوي كل سنوات الحرب، التي ربما لم يعرها أدنى اهتمام وكسب رزقاً بائساً كمعلم للغات في إيطاليا وسويسرا. كان مستعداً تماماً أن يعمل سبع سنوات في فقر شديد وغموض تام لكي يكمل كتابه العظيم على الورق. لكن ما هو المهم جداً وملح بالنسبة إليه الذي يعبر عنه؟ أجزاء من يوليسيس ليست مفهومة بسهولة، لكن من الكتاب ككل تحصل على انطباعين رئيسين. الأول أن جويس مهتم إلى حد الهاجس بالأسلوب، وكان هذا أحد الميزات الرئيسية للأدب الحديث، لكنه أصبح مؤخراً نقيصة. تجد تطوراً موازياً في فنون البلاستيك، رسامون ونحاتون حتى، باتوا أكثر اهتماماً بالمادة التي يشتغلون فيها، في علامات الفرشاة على اللوحة مثلاً على حساب تصميمها، عداك عن موضوعها الأساسي. جويس اهتم بالكلمات فقط، الأصوات ومرافقات الكلمات اسزسيشنز، حتى أنموذج الكلمات على الورق، بطريقة لم تكن الحالة مع أي جيل سابق من الكتاب، إلى حد ما باستثناء الكاتب الإنكليزي- البريطاني جوزيف كونراد. مع جويس تعود إلى مفهوم أسلوب الكتابة المرهفة، ربما حتى إلى المقاطع الأرجوانية.

كاتب مثل برنارد شو، من الجانب الآخر، كان سيقول في الحقيقة إن الاستخدام الوحيد للكلمات هو أن تعبر عن معاني دقيقة بأقصر ما يمكن. وبمعزل عن هذا الهاجس الأسلوبوي الموضوع الأساسي الآخر ليوليسيس هو القذارة سكوالور، حتى خلو الحياة الحديثة من أي معنى بعد انتصار الآلة وانهيار الإيمان الديني. جويس- رجل ايرلندي، تذكر، والجدير بالملاحظة أن أفضل الكتاب الإنكليز أثناء عشرينات القرن العشرين كانوا من غير الإنكليز في حالات كثير ة- ككاثوليكي فقد إيمانه لكنه أبقى الإطار العقلي الذي اكتسبه في طفولته الكاثوليكية وصباه. يوليسيس، وهي رواية طويلة جداً، وصف لأحداث يوم واحد، كما يرى بعيون وكيل تجاري يهودي متنقل رث الثياب. في الوقت الذي ظهر فيه الكتاب، كانت هناك ضجة احتجاج كبيرة، واتهم جويس باستغلال البخل متعمداً، لكن في الحقيقة، بأخذ ما تبدو عليه الحياة الإنسانية اليومية بعين الاعتبار حين تتأملها بالتفصيل، لا يبدو أنه بالغ في القذارة أو سخافة أحداث اليوم. ما تحس به خلال العمل كله، هو القناعة التي لم يستطع جويس النجاة منها، أن كل العالم الحديث الذي يصفه يخلو من أي معنى الآن، وأن تعاليم الكنيسة لم تعد موثوقة بعد. إنه يتوق إلى إيمان ديني قاتل ضده جيلان أو ثلاثة سبقوه باسم الحرية الدينية. لكن أخيراً، فإن الاهتمام الرئيسي للكتاب فني. نسبة ضخمة جداً منه تتألف من مختارات أدبية أو محاكاة تهكمية-محاكاة لكل شيء من الأساطير الايرلندية في العصر البرونزي إلى تقارير الصحف المعاصرة. ويستطيع المرء أن يرى أن جويس مثل كل الكتاب المميزين في عصره، لم يستمد من الكتاب الإنكليز في القرن التاسع عشر أي شيء، وإنما من أوروبا ومن الماضي الأبعد. قسم من ذهنه في العصر البرونزي، وقسم آخر في إنكلترا إليزابيث، أما القرن العشرون بعاداته الصحية وسياراته، فلم يجذبه بشكل خاص.

لننظر الآن ثانية إلى كتاب غلاسورثي، **قصة فورسايت البطولية**، وسترى كم مداه ضيق بالمقارنة. قلت مسبقاً إن المقارنة غير عادلة. وفي الحقيقة من وجهة نظر أدبية، هو كتاب سخيف، لكنه يفي بكونه إيضاحاً بمعنى أن المراد من كلا الكتابين إعطاء صورة شاملة للمجتمع القائم. حسناً، الشيء الذي يدهش المرء حول غلاسورثي، أنه كان عاجزاً تماماً عن أن ينقل ذهنه إلى خارج المجتمع البرجوازي الثري الذي يهاجمه، رغم محاولته أن يكون مهاجماً للمعتقدات، فهو يعتبر كل قيمه من المسلمات مع تعديلات خفيفة فقط. كل الخطأ الذي

يتخيله أن الكائنات البشرية غير إنسانية جداً ومغرمة بالنقود جداً، لكن بشكل قليل وليست حساسة جمالياً بما يكفي. حين يشرع بوصف ما الأنموذج المرغوب للكائن البشري بتصوره، يتبين أنه مجرد نسخة خيرة مهذبة من صاحب سندات من أعلى الطبقة الوسطى، نفس نوع الشخص الذي كان يرتاد صالات العرض الفنية في إيطاليا في تلك الأيام ويتبرع لجمعية منع القسوة على الحيوانات بقوة. وهذه الحقيقة- حقيقة أن غلاسورثي لا يكن أي كره عميق للنماذج الاجتماعية التي يعتقد أنه يهاجمها- يعطيك الدليل على ضعفه بأنه يفتقر إلى أي احتكاك مع أي شيء خارج المجتمع الإنكليزي المعاصر الذي ظن أنه لا يحبه لكنه جزء منه. إنه المال والأمان وطوق البوارج الذي فصله (المجتمع الإنكليزي) عن أوروبا الذي كان كثيراً جداً عليه. في صميم قلبه هو يحتقر الأجانب بقدر ما يحتقر أي رجل أعمال أمي في مانشستر. المشاعر التي ترافقك مع جويس أو إليوت أو حتى لورانس، أنهم قرؤوا كل التاريخ الإنساني ووضعوه داخل رؤوسهم، واستطاعوا النظر إلى الخارج من مكانهم وزمنهم الخاص بهم نحو أوروبا والماضي، الشيء الذي لا يمكن أن تجده لدى غلاسورثي أو أي كاتب إنكليزي مميز في الفترة قبل عام ١٩١٤.

أخيراً، هذه مقارنة مختصرة أخرى. قارن أي من كتب اتش جي ويلز اليوتوبية مثلاً **يوتوبيا حديثة أو الحلم أو رجال كالآلهة، مع عالم جديد شجاع** لألدوس هكسلي. مرة أخرى نفس التباين، التباين بين الواثق بإفراط وبين المثبط، بين الإنسان الذي يعتقد بسذاجة بالتقدم، والإنسان الذي صدف أن ولد بعد ذلك وعاش ليرى أن التقدم كما جرى تخيله في الأيام التي سبقت الطائرة خداع وأشبه بالرجعية.

التفسير الواضح لهذا الاختلاف الحاد بين الكتاب المسيطرين قبل وبعد حرب ١٩١٤- ١٩١٨ هو الحرب نفسها. بعض من هذا التطور كان سيحدث بأي حال، لأن الحضارة المادية الحديثة كشفت عن عجزها وعدم كفايتها. لكن الحرب سرعت العملية، جزئياً، بإظهار كم هي ضحلة القشرة الخارجية للحضارة، وجزئياً بجعل إنكلترا أقل ازدهاراً، وبالتالي أقل عزلة. بعد ١٩١٨ لا يمكنك العيش في هكذا عالم ضيق ومبطن، كما عشت حين كانت بريطانيا لا تحكم الأمواج وإنما الأسواق أيضاً. إحدى نتائج التاريخ المروع للعشرين سنة الأخيرة، أنها جعلت قدراً كبيراً من الأدب القديم يبدو أكثر حداثة. الكثير مما حدث في ألمانيا

منذ صعود هتلر، ربما كان سيخرج مباشرة من مجلدات جيبون اللاحقة انحطاط وسقوط الإمبرطورية الرومانية. مؤخراً رأيت مسرحية شكسبير الملك جون تمثل -المرة الأولى التي أراها لأنها مسرحية لم تمثل كثيراً. حين قرأتها، بدت لي قديمة ومهجورة، شيء نبش من كتاب للتاريخ وليس لها أي علاقة بزمننا. حسناً، حين رأيتها تمثل، بمؤامراتها وخياناتها ومعاهدات عدم الاعتداء وباعة أوطانهم والناس الذين يبدلون تحالفاتهم في معمعان المعركة، بدت لي حديثة بشكل استثنائي، وحدث الشيء نفسه في التطور الأدبي بين ١٩١٠ و١٩٢٠ فقد أفرز الطبع السائد للعصر حقيقة جديدة لكل أنواع المواضيع الرئيسية التي بدت قديمة وصبيانية حين حول برنارد شو وفابييه -هكذا ظنوا- العالم إلى نوع من مدينة جنائن عملاقة، وبدت فجأة مواضيع مثل الانتقام والوطنية والنفي والاضطهاد والكره العرقي والإيمان الديني والولاء وعبادة القائد، حقيقة مرة أخرى، فبدا تامرلين وجنكيز خان شخصين موثوقين وميكيافيلي مفكراً وقوراً بعكس ما كانوا في ١٩١٠ نحن خرجنا من حالة ركود وعدنا إلى التاريخ. لا أكن أي إعجاب مفرط لكتاب أوائل عشرينات القرن العشرين، الكتاب الذين منهم إليوت وجويس أسماء رئيسية. هؤلاء الذين اتبعوهم توجب عليهم أن يبطلوا الكثير مما فعلوه. انصرافهم عن مفهوم ضحل للتقدم دفعهم سياسياً في الاتجاه الخاطئ. وليس صدفة أن يصرخ إيزرا باوند الآن بعدائه للسامية مثلاً على راديو روما. لكن يجب على المرء أن يسلم أن كتاباتهم أكثر نضجاً الآن وذات مدى رؤية أوسع مما ساد قبلهم مباشرة. لقد كسروا الدائرة الثقافية التي تواجدت فيها إنكلترا لما يقارب القرن من الزمن. أعادوا تأسيس اتصال مع أوروبا، وأعادوا الإحساس بالتاريخ وبإمكانية التراجيديا. على ذلك الأساس اتكأ كل الأدب الإنكليزي اللاحق ذو الاهتمام التافه والتطور الذي أعاده إليوت وآخرون غيره في السنوات الختامية من الحرب الأخيرة لم يتخذ مساره بعد.

نشر لأول مرة: المستمع، أذيع على
خدمة البي بي سي لما وراء البحار
في ١٠ مارس/ آذار ١٩٤٢.

الديمقراطية في الجيش البريطاني

لم ينطق دوق ويلينغتون بأكثر من الحقيقة ربما، حين وصف الجيش البريطاني بـ"غثاء الأرض، وأن عناصره تطوعوا من أجل الشراب، لكن هذا الرأي لم يلق أي صدى من الإنكليز غير العسكريين، إلا بعد مائة سنة تقريباً من ذلك.

لقد بدلت الثورة الفرنسية والمفهوم الجديد "للحرب الوطنية" شخصية أغلب الجيوش القارية، لكن إنكلترا كانت في وضع استثنائي من المناعة من الغزو بكونها كانت تُحكم من قبل برجوازية غير عسكرية خلال أغلب القرن التاسع عشر. ونتيجة لهذا بقي جيشها كما في الماضي عبارة عن قوة احترافية صغيرة معزولة عن بقية الأمة. نتج عن رعب الحرب في الستينيات جيش المتطوعين الذي تطور لاحقاً إلى جيش إقليمي، ولكن لم يكن هناك حديث جدي عن الخدمة العسكرية الكونية حتى قبل الحرب الكبرى ببضع سنوات.

حتى أواخر القرن التاسع عشر، كان العدد الكلي للجنود الذي وصل في زمن الحرب إلى ربع مليون رجل، وعلى الأرجح أن كل معركة كبرى برية من بلينهايم إلى ولووس خاضتها بريطانيا بجنود أجانب بشكل رئيسي.

في القرن التاسع عشر، كان الجندي الإنكليزي عادة عامل مزرعة أو بروليتارياً من الأحياء الفقيرة دفعه الجوع لينضم إلى صفوف الجيش لمدة أقلها سبع سنوات وأحياناً واحد وعشرين سنة، وتعود على حياة الثكنات والتدريب الذي لا نهاية له، وعلى انضباط صارم غبي وعقوبات بدنية مهينة. وكان من المستحيل عملياً بالنسبة إليه أن يتزوج أو يمارس حقه الدستوري في التصويت حتى بعد توسيعه. يستطيع في حاميات المدن الهندية ركل "الزنوج" والإفلات من العقوبة، ولكنه كان مكروهاً ومحتقراً من قبل السكان العاديين في الوطن باستثناء زمن الحرب حين يكتشف خلال فترة قصيرة أنه بطل. من الواضح أن هكذا رجل كان يخدم علاقاته في طبقته وكان مرتزقاً أساساً، ويعتمد احترامه لذاته على مفهومه لنفسه ليس كعامل أو مواطن، بل مجرد حيوان مقاتل.

منذ الحرب تحسنت ظروف الحياة في الجيش وتطور مفهوم الانضباط والنظام وبات أذكى، لكن الجيش البريطاني احتفظ بخصوصيته- حجم صغير والخدمة تطوعية والتأكيد على الإخلاص للفوج، فكل فوج له اسمه الخاص وليس مجرد رقم كما في أغلب الجيوش، وتاريخه ونكهته وعاداته الخاصة إلخ إلخ، ونتج عن هذا أن عانى الجيش كله من التكبر والتفاخر الذي لم يكن يصدق تقريباً حتى يراه المرء ويختبره عن قرب. هناك درجة من الغيرة تصل إلى درجة الاختلاف الطبقي بين ضباط الفوج (الذكي) وضباط فوج المشاة العادي والأكثر فوج الجيش الهندي، وكان من أثر ذلك أنه غلبت على الجيش النظرة "غير السياسية" الضيقة للمرتزقة بسهولة، بالإضافة إلى كون الجيش البريطاني متخماً بالضباط قليلي الاحتكاك الطبقي، وبهذا جعل الطبقات الدنيا على اتصال أقل بالأفكار "المنحرفة والتخريبية".

لكن الشيء الأهم من كل القوى الأخرى، هو الرأي الرجعي حول الجندي العادي في خدمته في ماوراء البحار. يخدم فوج المشاة كوارترد عادة خارج البلاد لمدة ثمانية عشر سنة على التالي، وينتقل من مكان إلى آخر كل أربع أو خمس سنوات. لهذا فإن أكثر الجنود يقضون مدة خدمتهم في الهند وأفريقيا والصين إلخ. هم يتواجدون هناك فقط لقمع وكبح السكان العدوانيين، وهذه الحقيقة يجلبونها معهم إلى الوطن بطرق غير قابلة للخطأ. العلاقات مع السكان "الأصليين" سيئة بشكل ثابت تقريباً، والجنود وليس الضباط هم الأهداف الواضحة للشعور العدائي لبريطانيا. من الطبيعي أن يثأروا وينتقموا وكقاعدة هم يطورون موقفاً تجاه "الزنوج" أكثر وحشية من موقف الضباط أو رجال الأعمال. في بورما كنت أندهش باستمرار من أن الجنود العاديين كانوا الشريحة المكروهة الأكثر من الجالية البيضاء، وبالحكم عليهم من سلوكهم هم يستحقون هذا الكره بالتأكيد. حتى في مكان قريب مثل جبل طارق، هم يمشون في الشوارع في اختيال وزهو موجه ضد السكان الإسبان الأصليين. وعملياً بعض من هذه المواقف ضروري بلا ريب؛ لا يمكنك أن تقمع رعية إمبراطورية بجنود مفسدين بأفكار التضامن الطبقي. أغلب الأعمال القذرة للإمبراطورية الفرنسية مثلاً لا يقوم بها المجندون الفرنسيون وإنما الزنوج الأميون الجهلة والفيلق الأجنبي، فيلق بأكمله من المرتزقة حصراً.

نلخص ما سبق: على الرغم من التقدم التقني الذي لا يسمح للضابط المحترف أن يكون هادئاً كأبله كما اعتاد أن يكون، وبالرغم من حقيقة أن الجندي العادي يعامل الآن ككائن

إنساني بطريقة أكثر قليلاً مما سبق، يبقى الجيش البريطاني جوهرياً نفس الآلة التي كانت قبل خمسين سنة مضت. لو عدنا إلى الوراء قليلاً لاعترف أي اشتراكي بهذا من دون جدال. لكن حدث أن نكون في لحظة ظهر فيها هتلر وأرعب القادة الرسميين لليسار، ودفعهم إلى موقف غير بعيد من الشوفينية (الغلو في الوطنية). عدد كبير من معلقي وخبراء الجناح اليساري يثيرون المشاعر علناً تقريباً من أجل الحرب. من دون مناقشة هذا الموضوع أخيراً يمكن الإشارة أن الحزب اليساري ضمن مجتمع رأسمالي يصبح حزب حرب مستسلماً ومنهزماً مسبقاً، لأنه يطالب بسياسة لا يمكن أن تنفذ إلا من قبل خصومه.

قادة العمال يدركون هذا بشكل متقطع -شاهد مراوغاتهم في موضوع التجنيد الإجباري. لهذا يختلط مع صيحات "الجبهة الراسخة والقوية" و"الهيبة البريطانية!" إلخ خط متناقض تماماً من الحديث فحواه أن "هذه المرة ستكون الأشياء مختلفة" والعسكرة لن تعني العسكرة، والكولونيل بليمب لن يعود الكولونيل بليمب. وفي صحف الجناح اليساري العاطفية تراوح وتتكرر عبارة "دقرطة الجيش" التي يستحق مضمونها التأمل والتفكير.

"دقرطة الجيش" إن كانت تعني أي شيء، فهو التخلص من هيمنة طبقة واحدة وتقديم شكل أقل ميكانيكية من الانضباط. في الجيش البريطاني هذا سيعني إعادة بناء شاملة وتامة تحرم الجيش من كفاءته لمدة خمس أو عشر سنوات. مثل هذه العملية ممكنة بتردد حين كانت الإمبراطورية البريطانية موجودة وقائمة وعملية، لا يمكن حتى تخيلها، بينما يكون الهدف المتزامن هو "إيقاف هتلر". ماذا سيحدث أثناء السنتين التاليتين؛ بحرب أم بلا حرب، فمن المؤكد أن القوات المسلحة سوف تتوسع بشكل كبير جداً، وسوف تأخذ الوحدات الجديدة لونها الجديد من الجيش المحترف الموجود كما في الحرب الكبرى، وسوف يكون نفس الجيش، لكنه أكبر، وسوف تسحب قطاعات أشد فقراً من الطبقة الوسطى لتكون مخزوناً للضباط، لكن الفئة العسكرية المحترفة ستحتفظ بسيطرتها. أما بالنسبة إلى الميليشيات الجديدة، فمن الخطأ تماماً تخيل أنها ستكون نواة "الجيش الديمقراطي" الذي ستبدأ فيه كل الطبقات من الصفر. من الأسلم التكهن أنه حتى لو لم تكن هناك محاباة طبقية (كما سيكون على الأرجح) فإن جنود الميليشيات من الأصل البرجوازي سوف يرقون أولاً. وقد أشار هور-بيليشا وآخرون كثيراً إلى هذا مسبقاً في عدد من الخطابات. والحقيقة التي لم يقدرها الاشتراكيون

دائماً، هي أن كل البرجوازية في إنكلترا معسكرة إلى حد ما. تقريباً كل صبي ذهب إلى مدرسة خاصة مرّ واجتاز التدريب العسكري الخاص بالضباط (نظرياً هو تطوع لكنه عملياً إلزامي) ويجب ألا ينظر إلى هذا التدريب باحتقار، رغم أنه يتم بين عمري الثالثة عشرة والثامنة عشرة.

في الحقيقة، فإن عنصر الميليشيا الذي اجتاز التدريب العسكري سوف ينطلق خلال بضعة شهور ولديه أفضلية على الآخرين. في كل الأحوال، إن التدريب العسكري هو مجرد خبرة تهدف جزئياً إلى التأثير على الرأي في الخارج، وجزئياً تعويد الشعب الإنكليزي على فكرة التجنيد الإجباري. ما إن تبلى الأشياء الجديدة، تخترع طريقة ما لإقصاء البروليتاريين من مناصب القيادة.

ربما جعلت طبيعة الحرب الحديثة "دقرطة الجيش" متناقضة في معانيها؛ فالجيش الفرنسي مثلاً المؤسس على الخدمة العسكرية العامة، ليس أكثر ديمقراطية من الجيش البريطاني، ويهيمن عليه أيضاً الضباط المحترفون وأصحاب الخدمة الطويلة من صف الضباط. والضابط الفرنسي أكثر "بروسية" في وجهة نظره من نظيره البريطاني. كانت ميلشيا الحكومة الإسبانية خلال الستة أشهر الأولى من الحرب -والسنة الأولى في كاتالونيا -جيشاً ديمقراطياً حقيقياً، لكنها كانت أيضاً أنموذج جيش بدائي جداً غير قادر إلا على العمليات الدفاعية. في تلك الحالة بالخصوص ربما يكون للاستراتيجية الدفاعية المقرونة بالدعاية، فرصة أفضل في النصر من الطرق المتبناة عرضياً، لكن لو أردت كفاءة عسكرية بالمعنى العادي، فليس هناك مفر من الجندي المحترف.

وطالما الجندي المحترف هو من يتحكم ويسيطر، فسوف يرى ويعتبر أن عملية دقرطة الجيش غير ممكنة. وما هو صحيح داخل القوات المسلحة، صحيح على الأمة ككل. فكل زيادة في قوة الماكينة العسكرية، تعني قوة أكبر لقوات رد الفعل. من الممكن أن بعضاً من المتعصبين القوميين في الجناح اليساري يمثلون بعيون مفتوحة، فإن كانوا كذلك يجب عليهم أن يكونوا مدركين أن رواية النيوزكرونيكل حول "الدفاع عن الديمقراطية" تقودك مباشرة بعيداً عن الديمقراطية، حتى في مفهوم القرن التاسع عشر الضيق للحزب السياسي واستقلال التجارة والنقابات وحرية الكلام والصحافة.

المتسولون في لندن

أي زائر لمدينة لندن لا بد أنه لاحظ العدد الكبير من المتسولين في الشوارع. يمكنك أن ترى هؤلاء التعساء المقعدين أو العميان في كل أرجاء العاصمة. ويمكنك القول إنهم جزء من المشهد. وفي بعض المناطق يمكن أن ترى في كل ثلاثة أو أربعة ياردات شخصاً مريضاً في أسمال ممزقة يقف عند حافة الطريق يحمل صينية فيها أعواد ثقاب يتظاهر ببيعها، وآخرون يغنون أغنية شعبية ما بصوت كئيب ومضجر، وآخرون غيرهم يصدرون أصواتاً متنافرة مع أي أداة موسيقية قديمة. كلهم متسولون بدون استثناء، فقدوا أسباب رزقهم بسبب البطالة، والآن باتوا يلتمسون الصدقة من المارة بطريقة شبه صريحة.

كم عددهم في لندن؟ لا أحد يعرف بالضبط، ربما بضعة آلاف، وربما يصل العدد إلى عشرة آلاف في أسوأ قسم من السنة. بأي حال، من المرجح أن هناك متسولاً واحداً من كل أربعمائة ساكن لندني يعيش على حساب الثلاثمائة وتسع وتسعين الآخرين. بعض من هؤلاء المشردين البائسين يعاني من أذيات صناعية، وآخرون ذهبت سنوات من حياتهم في الحرب التي كان يفترض بها أن "تنهي الحروب" بدلاً من تعلم مهنة مربحة، ووجدوا حين عادوا إلى الوطن أن وطنهم الممنون كافأهم على خدماتهم بعدم تقديم أي شيء لهم سوى الخيار بين موت بطيء من خلال الجوع أو التسول. ليس لديهم تأمين بطالة أو إن كان لديهم، فإن فترة الستة وعشرين أسبوعاً التي أقرها القانون التي يستطيعون فيها سحب إعانة البطالة تنقضي قبل أن يجدوا عملاً. في هذه الجمعية الخيرية حيث يفرك كبار السن أكتافهم مع شبان تجاوزوا سن المراهقة بقليل، هناك عدد قليل جداً من النساء نسبياً. يختلف المتسولون مثل المشردين الذين وصفتهم في مقالتي الماضية، بشكل هائل في أصولهم وفي شخصياتهم وفي المهن التي اشتغلوا بها في أوقات أكثر ازدهاراً، لكنهم يتشابهون كلهم في أسمالهم البالية ومسحة البؤس الثابتة عليهم. قبل أن نتوسع في تفحص الطريقة التي يعتاش فيها متسولو لندن على العامة، يجب أن نكون واضحين من وضعهم الغريب والشاذ فيما يتصل بالسلطات.

لندن تغص بالناس الذين إعالتهم الوحيدة هي الصدقة الخاصة. هناك آلاف الناس الذين يتسولون النقود، مع أن التسول ممنوع في المدن الكبرى في الإمبراطورية البريطانية تحت طائلة السجن. كيف يحدث أن يخرق آلاف الناس قانون الأرض كل يوم ويفلتون من العقاب؟

الجواب في الحقيقة أن أسهل شيء في العالم هو مراوغة القانون. إن تطلب نقوداً بشكل صريح أو طعاماً أو ثياباً هو جريمة، لكن من جانب آخر من المشروع والقانوني أن تبيع أي شيء أو تتظاهر بذلك أو تزعج الإخوة المواطنين بالتظاهر في تسليتهم وإمتاعهم. هذه هي غرائب القانون الإنكليزي الذي يتحدى بديهيات المنطق.

دعونا نرَ كيف يمكن التملص من القانون.

أولاً: الموسيقى

يشكل المغنون وأتباعهم من عازفي المزمار أو آلة ترومبون فيلقاً واحداً، أما هؤلاء الذين لا يستطيعون عزف أي آلة فيدورون الحاكي في الشوارع أو على عربة يد، لكن العدد الأكبر من موسيقيي هذه الشوارع هم من عازفي الأورغان. "الأورغان البيانو" آلة موسيقية بحجم البيانو العادي المنتصب تقريباً يُحمَل على عربة تُجر باليدين. لتعزف عليه عليك أن تدير المقبض. هناك عدد هائل من عازفي الأورغان في لندن. وفي الواقع هناك عدد كبير جداً لدرجة يستحيل عليك تقريباً الإفلات من ضجيجهم في بعض المناطق. يمكنك أن تجد شيطاناً مسكيناً يعزف مشغل صندوق الموسيقى في كل ناصية شارع. الموسيقى الكئيبة التي تنتمي إلى لندن بشكل خاص رثائية إلى أقصى درجة.

يجب ألا نخلط أثناء المرور بين عازفي الأورغان وبين الفنانين الأصليين الذين يبذلون كل جهدهم لتسلية وإمتاع رفاقهم. هم متسولون ببساطة بكل ما للكلمة من معنى، وموسيقاهم المرعبة نتيجة إيماءة آلية صرفة، والقصد الوحيد منها هو أن يبقوا على الجانب الصحيح من القانون.

بلوتهم الحقيقية أنهم موضوع استغلال مباشر. توجد في لندن عشرات الشركات المتخصصة في تصنيع الأورغان البيانو الذي يُستأجر بخمسة عشر شلناً في الأسبوع، وهو آلة موسيقية تدوم لعشر سنوات بالمعدل. وصانع الآلة يجني ربحاً كبيراً أكثر من الذي يمكن أن يدفع "الموسيقي" الشارع البائس. يجر المسكين آلته من العاشرة صباحاً حتى الثامنة أو

التاسعة ليلاً. بعد أن يدفع أجرة الأورغان البيانو، فكل ما يتبقى له جنيه استرليني واحد في نهاية الأسبوع. يمكنه أن يربح أكثر إن استطاع أن يعمل لوحده، لكن هذا مستحيل لأنه يحتاج إلى مساعد "ليمرر القبعة على المتفرجين" بينما هو يدير المقبض. إن العامة لا يتسامحون معهم إلا بحقد وضغينة، وإن لم يصروا على تمرير القبعة، فلن يدفعوا لهم. لهذا فإن كل واحد من موسيقيي الشوارع بلا استثناء مجبر أن يضم إليه مساعداً يتقاسم معه المكاسب. هم يفضلون العزف في مقاهي ومطاعم شعبية يتجمعون في الخارج في مواعيد الطعام. أحدهم يعزف آلة أو يغني في الشارع، بينما الآخر يجمع النقود. طبعاً هذا ممكن فقط في مناطق الطبقة العاملة، لأن رجال الشرطة لا يسمحون بالتسول إطلاقاً في المناطق الأغنى، حتى ولو كان بشكل مقنع. في النتيجة، يعيش متسولو لندن بشكل رئيسي على حساب الفقراء.

دعونا نعود إلى عازف الأورغان.

هو يعمل كما رأينا تسع أو عشر ساعات في اليوم، يجر آلته التي تزن ستمائة كيلوغرام من مقهى إلى آخر ويتوقف أمام كل واحد وقتاً كافياً يعزف فيه لحناً. من الصعب تخيل وجود وعيش رتيب بشكل مفرط ليكسب بعد ستة أيام من الجهد المرهق في كل حالات الطقس جنيهاً بائساً واحداً، وهناك ألف واحد في لندن مثله.

يجب على المتسول كما قلنا أن يتظاهر بأنه تاجر أو فنان كي يتجنب الوقوع في شر القانون... تظاهر بائس لا يخدع أحداً. لقد نظرنا إلى عمل موسيقي الشارع للتو، دعونا نعود إلى "فنان الرصيف" أرصفة لندن مصنوعة عادة من الحجر اللوحي الواسع؛ حيث رجلنا مع عيدان ألوانه يرسم صور الأشخاص والحياة الساكنة والمناظر الطبيعية الملونة. أعتقد أن هؤلاء "الفنانين" الذين مثل هذا غير موجودين في أي مكان آخر في أوروبا ويفترض أنهم يعملون مثلما يفعل الموسيقيون ليسلوا العامة، لهذا بممارستهم "مهنتم" هم تقنياً لا يخرقون القانون.

فنان الرصيف هو في هذه المنطقة من الساعة التاسعة صباحاً حتى الغروب. يبدأ برسم ثلاث أو أربع صور بسرعة كبيرة تظهر الملك أو رئيس الوزراء أو منظراً ثلجياً أو ربما فاكهة أو زهوراً إلخ، ثم يجلس على الأرض يستجدي النقود. أحياناً مثل عازف الأورغان يعتمد على مساعدة صديق ليمرر القبعة حالما يتوقف حشد كافٍ للتفرج، ويمكن القول إنه كلما بدا أشد تعاسة

استجر عطفاً أكثر. لهذا هو يمضي أيامه مقرفصاً على الحجر البارد القاسي؛ فالكرسي سواء كان بلا مسند أو من النوع الذي يطوى، يجعله يبدو "غنياً" وهذا سيضر بنجاحه.

من الواضح أن المتسول يجب أن يكون عالماً نفسياً. كما يمكنك أن تتخيل جيداً الصور على أنها أي شيء باستثناء أن تكون تحفاً فنية وبعضها تخجل طفل بعمر العشر سنوات. بعض من فناني هذه الأرصفة الذين لم يتعلموا أن يرسموا أكثر من موضوع واحد، يستمرون في إنتاجه لمدة سنين. حياة هؤلاء المساكين جرداء وفارغة كحياة موسيقي الشوارع. هذا النداء يمكن أن يجلب لهم أحياناً ثلاثة أو أربعة جنيهات أسبوعياً، لكن يجب أن نحسب المشاكل. من المستحيل مثلاً أن ترسم على الرصيف حين تكون حجارة الرصيف مبللة، وفي النتيجة بأخذ المعدل السنوي، فإن المكاسب الأسبوعية لا تتعدى جنيهاً واحداً. فنانو الشوارع بكسوتهم الرثة وتغذيتهم الرديئة الذين يمضون أياماً كاملة معرضين للبرد والريح، يقعون ضحية عاجلاً أو آجلاً للروماتيزم أو السل الرئوي الذي يزيلهم ويقضي عليهم أخيراً.

دعونا نعود إلى هؤلاء الذين يبيعون أو يتظاهرون ببيع أعواد الثقاب وأربطة الأحذية وعطر الخزامى..إلخ في الشوارع. بائع أعواد الثقاب يشتري أعواده بثلاثة وعشرين سنتيماً (نصف بنس) للعلبة الواحدة، وسعر التجزئة يجب أن يتجاوز الخمسين سنتيماً (بنس). قد يعتقد المرء أنه هامش مفيد. ربما كان هكذا في الوهلة الأولى، لكن يجب أن نتذكر أنه لكي تكسب خمسة عشر فرنكاً "نصف كراون" في اليوم وهو الحد الأدنى لتعيش في لندن، يجب أن تبيع ستين صندوقاً. من الواضح أن هذا مستحيل، وباعتنا مثل موسيقي الشوارع وفناني الأرصفة مجرد متسولين متنكرين وقدرهم أنحس من الآخرين. في الطقس الجيد والرديء يجب أن يقفوا بلا حراك لستة أيام كاملة على حافة الطريق يبيعون بضائعهم بصوت كئيب. ليس هناك مهنة أغبى وأحط من ذلك. لا أحد يشتري أعواد ثقابهم أو أشرطة أحذيتهم أو عطرهم، لكن بين الحين والآخر يشفق عليهم أحد المارة ويرمي بقطعة نقدية في الصينية الصغيرة التي يضعونها حول رقابهم لعرض البضاعة عليها. ستون ساعة في الأسبوع من هذا الكدح المخبل لا تجلب أكثر من مئة فرنك "ستة عشر شلناً" مبلغ كافٍ لتجنب المجاعة المميتة فقط. هناك أيضاً الذين يتسولون بشكل علني. هم أندر قليلاً لأنه عاجلاً أو آجلاً

سوف يتم إمساكهم ويتعرفون على سجون جلالته. مع ذلك هناك استثناء للضرير الذي يحظى بمناعة تامة بنوع من الاتفاق الضمني.

الآن وقد ألقينا نظرة على أشكال التسول المتنوعة في لندن، دعونا ننظر إلى حياة هؤلاء المجبرين على العيش على الصدقة والإحسان. هناك الكثير من المتسولين متزوجين وأحياناً مسؤولين عن أطفال على الأقل. بأي معجزة سيلبون احتياجاتهم؟ لا يجرؤ المرء على طرح هذا السؤال. أولاً ماذا عن السكن؟

الرجل الأعزب لديه أفضلية هنا، لأنه يستطيع دفع أربعة فرنكات (ثمانية بنسات) لليلة الواحدة مقابل سرير في أحد بيوت السكن الشائعة التي تتكاثر في المناطق المزدحمة بالسكان، لكن الرجل المتزوج من الجانب الآخر يجب أن يستأجر غرفته إن رغب في أن يعيش مع زوجته، وهذا يكلفه أكثر. وفي الواقع أن ينام كلا الجنسين تحت سقف واحد أمر مخالف للقانون. بيوت الإيجار حتى في المهاجع المنفصلة وكما رأينا، فإن سلطات لندن لا تخاطر بقضية الأخلاق.

يتغذى المتسولون على الخبز والسمن النباتي والشاي ونادراً ما يشربون البيرة أو شراباً كحولياً آخر، لأن لتر البيرة الواحدة تكلف ستة فرنكات (ستة بنسات للباينت) في لندن. لهذا فالشاي هو منبههم الوحيد ويشربونه في كل ساعات النهار والليل كلما تمكنوا من توفير ذلك. مثل المشردين، يتحدث متسولو لندن مع بعضهم بلغة خاصة ونوع من العامية المملوءة بعبارات غريبة أغلبها تدل على تعاملاتهم مع رجال الشرطة، وهم يراعون قواعد التعامل والآداب بينهم. كل واحد يملك بقعة محجوزة على الرصيف لا يحاول أي أحد آخر سرقتها. لا يشغل أي عازف أورغان أو فنان رصيف منطقته إلا إن كانت تبعد ثلاثين متراً على الأقل عن أقرب منطقة إليه، وقد أسسوا قواعد نادراً ما تكسر. يستطيع رجل الشرطة أمرهم بالانتقال حين يحب ذلك، ولكنه لا يستطيع أن يقبض عليهم إن أراد. إن اعتقد أن لوحة فنان الرصيف غير محتشمة، وإن غامر عازف أورغ ودخل في طريق منطقة "أنيقة" ممنوعة فيها الموسيقى، يطرده ممثل القانون والنظام بسرعة، والويل للمتسول الذي لا يرحل، فالسجن في انتظاره بتهمة إعاقة رجل شرطة أثناء تأدية الواجب.

أحياناً يغرق واحد من هؤلاء المساكين الفقراء أكثر. ربما يكون مريضاً ولا يستطيع أن يخرج ليكسب أربعة فرنكات يحتاجها لدفع أجرة سرير لقضاء ليلته. الآن مالكو بيوت الإيجار لا يتعاملون بالدين أبداً، لهذا يجب عليه أن يدفع أربعة فرنكات كل ليلة أو يروض نفسه على النوم في العراء. قضاء الليل في العراء في لندن ليس فيه ما يجذب خصوصاً للفقير البائس ذي الأسهال والسيئ التغذية. بالإضافة إلى ذلك فإن النوم في العراء مسموح به في شارع واحد فقط من شوارع لندن. تستطيع إن رغبت التجول ذهاباً وإياباً في كل الشوارع التي تحبها خلال الليل والجلوس على الدرج أو عند حافة الشارع أو أي مكان آخر، لكن من غير المسموح لك أن تنام هناك. إذا وجدك رجل الشرطة في نوبته نائماً، فمن واجبه أن يوقظك، والسبب أنهم وجدوا أن الرجل النائم يستسلم للبرد بسهولة أكثر من الرجل المستيقظ، وإنكلترا لا تستطيع أن تترك أحداً من أبنائها يموت في الشارع. لهذا أنت حر في قضاء ليلتك في الشارع بشرط أن تكون ليلة بلا نوم. لكن كما قلت هناك طريق واحد يسمح للمشردين النوم فيه، والغريب أنه جسر التايمز غير البعيد عن مبنى البرلمان. هنا توجد بضع مناضد حديدية يأتي إليها ستون أو سبعون شخصاً للنوم يمثلون أدنى درجات الفقر المدقع الموجود في العاصمة، والبرد قارس جداً في الخارج بجانب النهر، وثيابهم الرثة الممزقة لا تحميهم من قسوة البرد، لهذا يلفون أنفسهم بالجرائد القديمة بما أنهم لا يملكون البطانيات.

إن المقاعد غير المريحة وهواء الليلة المجمدة لا تشجع على النوم، ومع هذا ينجح هؤلاء المساكين البؤساء المنهكون جداً رغم كل شيء في النوم ساعة أو اثنتين، ويتكئون على بعضهم البعض. بعضهم لم يعرف منذ عقود سريراً آخر سوى هذه المناضد التي على الجسر. نحن ننصح هؤلاء الزوار القادمين إلى إنكلترا الذين يودون رؤية الجانب المعكوس من ازدهارنا الظاهري أن يهبوا وينظروا إلى هؤلاء الذين اعتادوا على النوم على الجسر في ثيابهم الممزقة القذرة وأجسادهم التي أنهكها المرض ووجوههم غير الحليقة، إنهم تأنيب حي للبرلمان الذي يستلقون في ظله.

إيريك بلير، لو بروغريس سيفيك،
١٢ يناير ١٩٢٩.
ترجمته للإنكليزية جانيت وإيان ويلسون.

يوم في حياة متشرد

أولاً من هو المتشرد؟

المتشرد جنس بشري إنكليزي محلي أصلي، وهذه هي صفاته المميزة: ليس لديه مال ويلبس الأسمال من الثياب ويمشي حوالي عشرين كيلومتراً يومياً ولا ينام ليلتين متتاليتين في المكان نفسه. باختصار هو متجول يعيش على الإحسان والصدقة، يطوف في المكان مشياً على الأقدام يوم بعد آخر لمدة سنين، يقطع إنكلترا من أولها إلى آخرها مرات كثيرة في تجواله. ليس لديه وظيفة أو بيت أو عائلة أو ممتلكات في العالم، باستثناء أسمال بالية تغطي جسده الهزيل، ويعيش على حساب المجتمع.

لا أحد يعرف كم يبلغ عدد المشردين، وكم يشكلون من السكان. ثلاثون ألفاً؟ خمسون ألفاً؟ ربما مائة ألف في إنكلترا وويلز حين يكون وضع البطالة سيئاً بشكل خاص. إن المشرد لا يتجول بدافع تسلية نفسه أو لأنه ورث الغريزة البدوية من أسلافه، ولكنه يحاول أولاً وأخيراً تجنب الجوع حتى الموت. ليس من الصعب أن نفهم السبب؛ المتشرد عاطل عن العمل كنتيجة لحالة الاقتصاد الإنكليزي. لهذا كي يبقى حياً يجب عليه يلجأ إلى الصدقات الخاصة والعامة. لتساعده السلطات أوجدت (ملاجئ أو إصلاحيات) يجد فيها المعدم طعاماً ومأوى. تبعد هذه الأماكن عن بعضها البعض عشرين كيلومتراً تقريباً، ولا يستطيع المتشرد أن يمكث في مسمار (ملجأ) واحد أكثر من مرة واحدة في الشهر. لهذا الترحال اللانهائي للمتشردين إن أرادوا أن يأكلوا ويناموا تحت سقف فوق رؤوسهم، يجب عليهم أن يبحثوا ويسعوا إلى مكان جديد للنوم كل ليلة. وهذا هو تفسير بقاء ووجود المتشردين. الآن دعونا نرى أي نوع من الحياة يعيشون. يكفي أن ننظر إلى يوم واحد، فالأيام متشابهة كلها، لأن هؤلاء التعساء من سكان بلد من أغنى بلدان العالم.

دعونا نأخذ واحداً منهم وهو يخرج من المسمار في حوالي الساعة العاشرة صباحاً.

هو يبعد عشرين كيلومتراً عن الملجأ التالي. يحتاج إلى خمس ساعات لقطع تلك المسافة مشياً، وسيصل إلى وجهته في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر. لن يرتاح كثيراً على الطريق،

لأن رجال الشرطة الذين ينظرون إلى المشردين بعين الشك والريبة سوف يبعدونه على عجل عن أي بلدة أو قرية يمكنه محاولة التوقف فيها. لهذا السبب لن يتلكأ رجلنا ويبقى على الطريق. وكما قلنا يصل إلى المسمار في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر. لكن المسمار لا يفتح حتى الساعة السادسة مساء. ثلاث ساعات مملة يجب أن يمضيها في صحبة المشردين الآخرين الذين ينتظرون مسبقاً. هذا القطيع من الكائنات البشرية الهزيلة وغير الحليقة والقذرة والرثة، يكبر دقيقة بعد أخرى. وخلال وهلة يكون هناك مائة رجل عاطل عن العمل يمثلون كل المهن والحرف تقريباً. عمال التعدين والذين يغزلون القطن وضحايا البطالة المتأججة في شمال إنكلترا، يشكلون الأغلبية، لكن المهن المُمثلة تحتاج إلى مهارة أو غيرها.

أعمارهم؟ من السادسة عشرة إلى السبعين. جنسهم؟ هناك امرأتان في كل خمسين مشرداً.

تنتشر في المكان ثرثرة وكلمات لا معنى لها. بعض الرجال ضعفاء جداً وعجزة، لذلك يتساءل المرء كيف استطاعوا المشي عشرين كيلومتراً؟ تلفت انتباهك ثيابهم كشيء غريب برثاثتها وقذارتها المقززة، وتذكرك وجوههم بوجه حيوان بري ما، ربما ليس حيواناً خطيراً، ولكنه حيوان أصبح متوحشاً فوراً وجباناً بسبب انعدام الراحة والعناية.

ينتظرون هناك؛ حيث يستلقون على العشب أو يقرفصون على التراب. أشجعهم يطوفون خلسة حول محل جزار أو مخبز، على أمل أن يكتشف فضلة طعام، لكن هذا عملاً خطيراً، لأن التسول ضد القانون في إنكلترا. لهذا أغلبهم يكونون قانعين في البقاء متراخين يتبادلون كلمات غامضة ولهجات غريبة ولغة المشردين الخاصة بهم المملوءة بكلمات تصويرية غريبة وعبارات لا يمكن إيجادها في أي قاموس، وهم ينحدرون من كل أرجاء إنكلترا وويلز، ويحكون لبعضهم البعض مغامراتهم، ويتناقشون بلا أمل كبير حول احتمال أن يجدوا عملاً على الطريق. الكثيرون منهم التقوا من قبل في أحد الملاجئ في الطرف الآخر من البلاد، لأن مساراتهم تتقاطع مرة تلو أخرى في تجوالهم الذي لا نهاية له.

هذه الملاجئ مجرد فنادق ونزل بائسة، يتجمع فيها الرحالة الإنكليز لبضع ساعات قبل أن يتبعثروا مرة أخرى في كل الاتجاهات. كل المشردين يدخنون. وبما أن التدخين ممنوع في المسمار، فهم يستغلون ساعات انتظارهم في التدخين. يتألف تبغهم بشكل أساسي من أعقاب السجائر التي يلتقطونها من الشارع، ثم يلفونه في ورق أو يحشونه في غلايين قديمة. حين

يحصل المشرد على بعض المال مقابل عمل قام به أو تسوله على الطريق، فإن أول فكرة تخطر له أن يشتري تبغاً، لكن على الأغلب يجب عليه أن يتعامل ويقنع بأعقاب السجائر التي يلتقطها من الرصيف أو الطريق. إن المسهار لا يقدم له سوى الطعام والمنامة: أما البقية من ثياب وتبغ إلخ، فعليه أن يلجأ إلى نفسه.

الآن توشك بوابات المسهار أن تفتح. يقف المشردون ويصطفون في رتل بجانب جدار بناء ضخم عبارة عن مكعب أصفر قذر من القرميد مبني في ضاحية نائية، يمكن أن تظنه خطأً بأنه سجن. بعد بضع دقائق أخرى تفتح بوابات ثقيلة على مصاريعها ويدخل قطيع الكائنات البشرية. إن التشابه بين هذه الملاجئ والسجن لافت جداً بمجرد أن تدخل عبر البوابات. في وسط ساحة فارغة مطوقة بجدران قرميدية عالية، ينتصب البناء الرئيسي الذي يحتوي على زنازين (حجرات صغيرة) عارية الجدران وحمام ومكاتب إدارية وغرفة صغيرة جداً مفروشة بمناضد توزيع بسيطة تقوم بدور غرفة طعام. كل شيء قبيح ومشؤوم كما تحب أن تتخيل. جو السجن يمكن أن تجده في كل مكان من المسهار. الموظفون الذين يلبسون الزي يتنمرون على المشردين ويدفعونهم هنا وهناك، ولا ينسون تذكيرهم أنهم تخلوا عن كل حقوقهم وكل حريتهم بمجرد دخولهم إلى الملجأ. يُكتب اسم المشرد ومهنته في سجل. بعد ذلك يجبر على الاستحمام، وتؤخذ منه ثيابه وممتلكاته الشخصية. ثم يعطى قميصاً قطنياً خشناً من قمصان الملجأ ليقضي ليلته وينام فيه. إن حدث وكان لديه نقود، فإنها تصادر، لكن إن اعترف بأكثر من فرنكين (أربعة بنسات) فلن يسمح له بدخول المسهار، وعليه أن يجد سريراً في مكان آخر. كنتيجة، يبذل هؤلاء المشردون-ليس هناك الكثير منهم- الذين لديهم أكثر من فرنكين جهداً كي يخبئوا نقودهم في مقدمة أحذيتهم، ويتأكدوا بأنها لن تلاحظ وتكتشف، لأن هذا احتيال يعاقب عليه القانون بالسجن.

بعد الحمام، يستلم المشرد الذي أُخذت ثيابه منه عشاءه: نصف رطل من الخبز مع القليل من السمن النباتي ونصف لتر من الشاي. إن الخبز المصنوع من أجل المشردين بغيض جداً. إنه رمادي اللون وبائت دائماً وله مذاق كريه يجعل المرء يفكر أن طحينه المصنوع منه أتى من قمح فاسد. حتى الشاي سيئ بأقصى ما يمكنه ذلك، لكن المشردين يشربونه بابتهاج، لأنه يريحهم بعد جهد النهار. تبتلع الوجبة الصادة للشهية في خمس دقائق، وبعد ذلك يؤمر المشردون بالدخول إلى الزنازين حيث يقضون الليلة.

الحجيرات عبارة عن زنازين سجن من القرميد أو الحجارة، أبعادها اثنا عشر قدماً بستة. لا يوجد فيها ضوء اصطناعي- مصدر الضوء الوحيد نافذة مسدودة بقضبان ضيقة في مكان عالٍ جداً في الجدار وفتحة تجسس في الباب تسمح للحراس بمراقبة النزلاء. أحياناً تحتوي الزنزانة على سرير، ولكن عادة ينام المشردون على الأرض مع ثلاث بطانيات فقط كفراش وغطاء. لا تجد وسائد عادة، ولهذا السبب يسمح للنزلاء البؤساء أن يحتفظوا بمعاطفهم ليلفوها على شكل وسائد يضعونها تحت رؤوسهم. عادة تكون الغرفة باردة بشكل فظيع، ونتيجة الاستعمال الطويل للبطانيات، فقد أصبحت رقيقة جداً، لذلك لا توفر أي حماية ضد قسوة البرد. حالما يدخل المشردون حجراتهم، تغلق الأبواب بإحكام من الخارج: لن تفتح حتى الساعة السابعة تماماً في صباح اليوم التالي. هناك نزيلان في كل حجرة عادة. مطوقين في سجنهم الصغير لاثنتي عشرة ساعة مملة ولا شيء يحميهم من البرد سوى قميص قطني وثلاث بطانيات رقيقة، يعاني التعساء المساكين بوحشية من البرد ونقص أدنى درجات الراحة. الأماكن موبوءة بالبق دائماً تقريباً، ويكون المشرد ضحية للحشرات. وبعد أن أنهكت أطرافه من التجوال، يمضي ساعات وساعات يتقلب عبثاً منتظراً النوم، وإن نجح في النوم لبضع ثوانٍ، يوقظه ثانية إزعاج النوم على أرض قاسية.

المشردون الماكرون الكبار في السن الذين يعيشون على هذه الحال منذ عشرين أو خمسة عشر عاماً وأصبحوا فلاسفة بالنتيجة، يمضون لياليهم بالحديث. يستريحون ساعة أو اثنتين في اليوم التالي في حقل تحت سياج؛ حيث يجدون ترحيباً أحرّ من المسار. لكن المشردين الأصغر سناً الذين لم يتمرسوا ويعتادوا على الروتين، فيصارعون ويئنون في الظلام، وينتظرون بفارغ الصبر الصباح ليجلب لهم الخلاص.

ومع ذلك، فحين يسطع ضوء الشمس أخيراً في سجنهم، يتأملون في كآبة ويأس مشهد يوم آخر مثل سابقه تماماً. أخيراً تفتح الزنازين. إنه موعد زيارة الطبيب-في الواقع لا يطلق سراح المشردين حتى يتم هذا التصرف الشكلي. يتأخر الطبيب عادة ويجب أن ينتظره المشردون من أجل الفحص وهم مصطفون وشبه عراة في الممر. بعد ذلك يمكن للمرء أن يكوّن فكرة عن حالتهم البدنية.

يا لها من وجوه! ويا لها من أجساد!

الكثيرون منهم عبارة عن تشوهات خلقية منذ الولادة. العديد منهم يعانون من فتوق ويرتدون أحزمة الفتوق. تقريباً كل واحد لديه أقدام مشوهة مغطاة بالتقرحات نتيجة التشرد الطويل في أحذيتهم غير الملائمة. الكبار في السن عبارة عن عظم وجلد فقط. عضلات الجميع متدلية. إنه المنظر البائس للرجال الذين لم يتناولوا وجبة دسمة من أول السنة إلى آخرها. ملامحهم الهزيلة وتجاعيدهم المبكرة وذقونهم غير الحليقة وكل شيء حولهم يحكي ويكشف عن طعام غير كافٍ ونقص في النوم. والآن جاء الطبيب. فحصه سريع وسطحي. الغرض منه أخيراً أن يكتشف إن كانت علامات الجدري ظاهرة على أحد المشردين. يلقي الطبيب نظرات سريعة على كل المتشردين بالدور بسرعة من رأسهم إلى أقدامهم ومن الأمام والخلف. الآن أغلبهم يعانون من مرض ما أو آخر. بعضهم يعانون من عته تام تقريباً وغير قادرين على العناية بأنفسهم. مع ذلك سوف يطلق سراحهم طالما لا تظهر عليهم علامات الجدري المخيفة. لا تكترث السلطات إن كانوا في صحة جيدة أم سيئة، طالما هم لا يعانون من مرض معدٍ.

بعد فحص الطبيب، يرتدي المشردون ملابسهم ثانية. ثم في ضوء النهار البارد تحظى بنظرة جيدة على ثياب البؤساء المساكين التي يرتدونها لتحميهم من المناخ الإنكليزي المدمر.

إن قطع الثياب المتباينة هذه -أغلبها تسولوها من باب إلى آخر- لا تصلح حتى إلى سلة القمامة. ثياب غريبة وغير ملائمة وهي إما طويلة جداً أو قصيرة جداً أو كبيرة جداً أو صغيرة جداً، وغرابتها تجعلك تضحك في أي ظرف آخر. هنا تشعر بشفقة هائلة على مناظرهم. لقد أُصلحت ورتقت بأقصى ما يمكن بكل أنواع الرقع، ويقوم الخيط بعمل الأزرار والثياب الداخلية. هي مجرد مزق قذرة وثقوب متماسكة معاً بفضل القذارة. بعضهم ليس لديه ثياب داخلية، والكثيرون منهم ليس لديهم جوارب، لهذا يلفون أصابع أقدامهم بخرق، ثم يدسون أقدامهم العارية في أحذية أصبحت جلودها قاسية من الشمس والمطر، وفقدت كل ليونتها.

إن مراقبة المشردين وهم يستعدون، هي منظر مرعب.

ما إن يلبسوا ثيابهم حتى يستلم المشردون فطورهم الذي يشبه عشاء ليلتهم السابقة، ثم يصطفون كالجنود في ساحة المسمار؛ حيث يكلفهم الحراس بأعمال. بعضهم سيغسل الأرض،

وآخرون يقطعون الحطب ويكسرون الفحم، ويقومون بمهن متنوعة حتى الساعة العاشرة، حين تعطى إشارة الرحيل.

تعاد لهم ملكياتهم الشخصية التي صودرت في المساء السابق. يضاف إلى هذا نصف رطل من الخبز وقطعة من الجبن من أجل وجبة منتصف النهار، أو أحياناً وبشكل أقل غالباً تعطى لهم بطاقة يمكن صرفها في مقاهٍ محددة على طول الطريق من أجل خبز وشاي بقيمة ثلاثة فرنكات (ستة بنسات).

بعد الساعة العاشرة بقليل، تفتح بوابات المسيار لتحرر مجموعة من الرجال المعوزين البؤساء القذرين الذين سيتبعثرون في كل أرجاء الريف. كل واحد منهم سيتجه إلى مسيار جديد؛ حيث سيعامل بنفس الطريقة تماماً. ولمدة أشهر وسنوات وعقود، ربما لن يعرف المشردون طريقة أخرى للعيش.

في الختام، يجب أن نلاحظ أن الطعام الذي يعطى لكل متشرد يتألف بمجمله من سبعمائة وخمسين غراماً (رطلين) من الخبز مع قليل من السمن النباتي والجبن وباينت من الشاي يومياً. وهذا طعام غير كافٍ لرجل يجب أن يقطع عشرين كيلومتراً مشياً على الأقدام يومياً. لكي يكمل طعامه وينال ثياباً وتبغاً وآلاف الأشياء الأخرى التي يحتاجها، يجب على المشرد أن يتسول حين لا يستطيع إيجاد عمل (ونادراً ما يجد عملاً)- يتسول أو يسرق. الآن، إن التسول عمل ضد القانون في إنكلترا، وأصبح الكثير من المشردين معتادين على سجون جلالته بسبب التسول.

إنها دائرة الشر؛ إذا لم يتسول المشرد يموت من الجوع، وإن تسول ينتهك القانون. حياة هؤلاء المشردين مهينة ومدمرة للأخلاق. خلال زمن قصير تجعل الشخص الفاعل والنشيط غير صالح للعمل والتوظيف وطفيلياً. إضافة إلى ذلك، إنها حياة رتيبة بشكل مفرط. المتعة الوحيدة للمشرد أن يرزق ببضع شلنات بصورة غير متوقعة، وهذا يعطيه فرصة أن يأكل حتى يملأ بطنه، أو أن يشرب حتى يثمل. والمشرد ليس له أي علاقة مع النساء، لأن النساء المشردات قليلات جداً، وبالنسبة لأخواتهن الأفضل حظاً يعتبر التشرد موضوع احتقار، لهذا فإن اللواط رذيلة ليست مجهولة لهؤلاء المتجولين الأبديين.

أخيراً، إن المشرد لم يرتكب أي جريمة، وهو ببساطة ضحية البطالة ومحكوم عليه أن يعيش في بؤس أكبر من أقسى أشكال العبودية. وحين يفكر في قدره التعيس الذي يشاركه فيه آلاف الرجال في إنكلترا، فإن النتيجة الواضحة هي لو أن المجتمع يعامله بعطف أكبر ويضعه في السجن لبقية أيامه حيث يستمتع براحة نسبية على الأقل.

أي ايه بلير. نشرت لأول مرة في بروغريس سيفيك
٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٩
ترجمتها من الفرنسية جانيت بيرسيفال وإيان ويلسون.

"ظلام في الظهيرة"

"ظلام في الظهيرة" (١٩٤٠) تصور محاكمات موسكو الاستعراضية و"التطهير الكبير" للبلاشفة القدماء الذي قام به ستالين. في مراجعته النقدية للستيتمان، مدح أورويل كيسلر "لمعرفته الداخلية بأساليب الحكم الاستبدادي الشمولي": "الناس العوام" يجادلون رجل المباحث الحزبي إيفانوف الذي "لا يستطيع أن يفهم أن "الانحراف عن المذهب أو العقيدة" جريمة بحد ذاته- لذلك يجب أن تُخترع جرائم من النوع الذي يستطيعون فهمه كجريمة القتل أو تخريب القطارات وهلم جرا" كثيرون يرون اعتراف روباتشيف عبارة عن تأثير مباشر على وينستون سميث.

استغل أورويل مراجعته كفرصة لمعاقبة صحافة اليسار في بريطانيا على رفضها التكلم بصوت عالٍ، وبيان قوي جداً صدر بعد سنتين من رفض كينغزلي مارتن نشر رسائله من إسبانيا، خشية أن يبدو ناقداً لستالين وبالتالي الاشتراكية: "المخيف بخصوص هذه المحاكمات، ليس كونها حدثت -لأنه من الواضح أن مثل هذه الأشياء ضرورية في المجتمع الاستبدادي- وإنما تلهف المثقفين الغربيين إلى تبريرها"

يفترض بارثر كيسلر أن يعرف شيئاً ما عن السجون، لأنه قضى حصة محترمة من السنين الأربع الماضية هناك. أولاً فترة طويلة تمطى فيها في واحد من حصون فرانكو مع صوت فرق الإعدام يرن من خلال الجدران عشرين مرة أو ثلاثين في اليوم الواحد. ثم أمضى سنة تقريباً بعد ذلك معتقلاً في فرنسا، ثم فرّ إلى إنكلترا، واعتقل مجددا في بينتونفيل -ومن هناك أطلق سراحه بلا شروط. لا حاجة للقول إنه لم يتهم بأي جريمة محددة في أي حالة من الحالات. الآن، فوق مناطق متزايدة من الأرض، يسجن المرء ليس بسبب ما فعله، وإنما للدقة الأكبر بسبب ما يشتبه به أن يفعله. لكن السيد كيسلر يستطيع أن يهنئ نفسه، لأنه وقع في أيدي الهواة فقط، إذ لو سجنته إنكلترا فستطلق سراحه ثانية في كل الأحوال، ولن تجبره مسبقاً بأن يعترف بتسميم الخراف وارتكاب أعمال تخريب على خطوط السكك الحديدية، والتآمر على اغتيال الملك.

إن روايته الحالية هي ثمرة تجاربه وحكاية السجن الذي تعرض له، واعتراف واحد من قدماء البلاشفة، وموته الذي هو صورة مركبة تحمل شبهاً بحالتي بوخارين وتروتسكي، والحوادث فيها تتبع المسار العادي. روباتشوف واحد من آخر الناجين من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، يُعتقل ويُتهم بجرائم لا تصدق. يُنكر كل شيء ويُعذب ثم يُقتل بطلقة في رقبته من الخلف. تنتهي القصة بفتاة صغيرة استأجر روباتشوف غرفة في بيتها سابقاً وهي تتساءل إن كانت ستبلغ الشرطة السرية عن والدها كطريقة لتأمين الطابق (البيت) لنفسها وزوجها المستقبلي. لكن اهتمام الرواية التام تقريباً يتركز حول الصراع الثقافي بين ثلاثة رجال: روباتشوف نفسه واثنين من موظفي الاستخبارات الروسية هما إيفانوف وجليتكين، اللذين يتعاملان بقضيته. إيفانوف ينتمي إلى نفس الجيل الذي ينتمي إليه روباتشوف، يُصفى ويُعدم فجأة ومن دون محاكمة وسط إجراءات القضية. أما جليتكين فينتمي إلى الجيل الجديد الذي كبر منذ الثورة في عزلة تامة عن العالم الخارجي وعن الماضي أيضاً. إنه "رجل الحزب الخير" والأنموذج المثالي تقريباً للحاكي البشري. إيفانوف لا يصدق فعلياً أن روباتشوف ارتكب الأعمال المنافية للعقل التي اتهم بها. الحجة التي يستخدمها كي يحثه على الاعتراف، هي الخدمة الأخيرة المطلوبة منه من قبل الحزب، ويقول: الناس العاديون لا يستطيعون أن يدركوا أن "الانحراف عن العقيدة" جريمة بحد ذاته، لذلك يجب أن تُخترع جرائم من النوع التي يستطيعون فهمه كجريمة القتل أو تخريب القطارات وهلم جرا. يستخدم جليتكين الحجة نفسها، لكن موقفه مختلف نوعاً ما، ولم يكن مؤكدا إن كان يصدق أن روباتشوف كان مذنباً أم لا. وبدقة أكبر ليس هناك فرق وتمييز بين الذنب والبراءة موجود في عقله. الشكل الوحيد من النقد الذي يقدر أن يتخيله هو جريمة القتل. كما يرى الأمور أي واحد يفكر بفكرة غير محترمة عن ستالين، سيحاول كشيء طبيعي أن يغتاله. لذلك رغم أن محاولة الاغتيال لم تنفذ، إلا أنه يمكن اعتبارها تمت وموجودة مثل منتج لم يسحب بالنسبة إلى خط الإنتاج. إن قوة جليتكين تكمن في القطع التام مع الماضي الذي يتركه، ليس بلا شفقة فقط، وإنما بلا خيال أو معرفة مزعجة وغير ملائمة. ومن جانب آخر كانت نقطة ضعف البلاشفة القدماء، في أنهم ظلوا أوروبيين في صميمهم وأقرب إلى المجتمع الذي أطاحوا به، منهم إلى الجيل الجديد من المسوخ الذي خلقوه.

حين يستسلم روباتشوف ويعترف، لا يكون هذا بسبب التعذيب -فقد عانى أسوأ من ذلك على أيدي النازيين من دون أن يعترف- وإنما بسبب خواء داخلي تام. "سألت نفسي" يقول في محاكمته بنفس كلمات بوخارين تقريباً، "من أجل ماذا أنا أقاتل؟" من أجل ماذا في الحقيقة. إن أي حق للاحتجاج ضد التعذيب أو السجون السرية هو كذب منظم، وهكذا خسر رهانه منذ وقت طويل. هو يعرف أن ما يحدث الآن هو نتيجة لأفعاله هو- حتى إنه يشعر بنوع من الإعجاب بجليتكين كنوع أدنى من البشر، وكونه ضرورياً ليقود الثورة ويوجهها في مرحلتها الحالية. محاكمات موسكو كانت منظراً رهيباً، لكن لو تذكر المرء ماذا وكيف كان تاريخ البلاشفة القدماء، فسيصعب عليه التأسف عليهم كأفراد، إذ إنهم أخذوا السيف وماتوا بالسيف كما سيفعل ستالين أيضاً، إلا إذا مات مبكراً وقبل أوانه مثل لينين.

هذا الكتاب رائع كرواية وقطعة من الأدب الرائع، وربما أنفس تفسير "لاعترافات" موسكو من قبل شخص لديه معرفة داخلية بالأساليب الاستبدادية. إن ما يخيف بخصوص هذه المحاكمات، ليس حقيقة أنها وقعت - لأن مثل هذه الأشياء ضروري في المجتمع الاستبدادي الشمولي- ولكن المخيف هو تلهف المثقفين الغربيين إلى تبريرها. مراسلو الصحف الليبرالية أعلنوا بوضوح "أنهم راضون تماماً" باعتراف رجال جروا إلى الضوء بعد سنين من السجن الانعزالي، كما أنتج محامٍ بارز نظرية مفادها أن خسارة حق الاستئناف كان فرصة كبيرة للمتهم! إن الحالات المتزامنة في إسبانيا التي لفقت فيها نفس الاتهامات تماماً لكنها لم تحرز اعترافات، قُمعت وغُطيت أو كذبت الصحافة اليسارية حولها. كان من الواضح طبعاً أن المتهم في القضايا القانونية الروسية تعرض للتعذيب وهدد بالتعذيب، لكن التفسير ربما كان أعقد من ذلك. يعتقد السيد كيسلر مثل سوفارين أن "مصلحة الحزب" كانت الحجة الحاسمة؛ إن كتابه في الواقع أشبه بكراس موسع عن كابوس في الاتحاد السوفييتي، وقطعة من كتابة تعتبر تقدماً بارزاً وفذاً على عمله السابق.

٤ يناير ١٩٤١.

كيف تستغل أمة - الإمبراطورية البريطانية في بورما

بعد تتبع المشاكل الحديثة في الهند، طلبنا من السيد أي ايه بلير المساهم في مجلتنا والذي ظهر تقصيه حول "مأزق العامل البريطاني" على صفحاتنا، أن يخبرنا شيئاً عن الاضطراب المختمر الهائج في شبه القارة منذ سنين، والذي يهدد في الامتداد إلى الهند الصينية. السيد أي ايه بلير الذي عاش في بورما لعدة سنوات، كتب لنا المقالة المشوقة التالية، التي تبين الأساليب التي تستخدمها الإمبراطورية البريطانية لحلب وتجفيف مستعمراتها الآسيوية.

تقع بورما بين الهند والصين، وتنتمي إثنولوجياً إلى الهند الصينية، ومساحتها تساوي ثلاثة أضعاف مساحة إنكلترا وويلز، وعدد سكانها حوالي أربعة عشر مليوناً، منهم تسعة ملايين بورمي، أما البقية فتتألف من عدد لا يحصى من القبائل المنغولية التي هاجرت في فترات مختلفة من سهول آسيا الوسطى المتصحرة، ومن هنود وصلوا بعد الاحتلال الإنكليزي. إن ديانة البورميين هي الديانة البوذية. أما رجال القبائل فيعبدون آلهة وثنية متنوعة. ولكي تستطيع التكلم بلغة الناس الذين يعيشون في بورما ومن هذه الأصول المختلفة، عليك أن تتعلم مائة وعشرين لغة ولهجة مختلفة. إن كثافة السكان في هذه البلاد عشر كثافتهم في إنكلترا، وهي واحدة من أغنى بلدان العالم. إنها غنية بمواردها الطبيعية التي بدأ استغلالها للتو، هناك القصدير والتنغستن والشب والياقوت، وهذه هي الأقل من بين مواردها المعدنية. في هذه اللحظة هي تنتج خمسة بالمائة من بترول العالم، واحتياطها أكبر من أن ينفد. لكن أكبر مصدر للثروة والذي يطعم من ثمانين إلى تسعين بالمائة من السكان، هو حقول الأرز. يزرع الرز في كل مكان في حوض ايراوادي الذي يجري عبر بورما ويخترقها من الشمال إلى الجنوب. في الجنوب في الدلتا الهائل حيث يجلب ايراوادي أطناناً من طين الطمي كل سنة، توجد تربة خصبة بشكل ممتاز. غلال الحصاد المميزة بنوعيتها وكميتها تمكن بورما من تصدير الرز إلى الهند وأوروبا وحتى أميركا. إضافة إلى ذلك، إن اختلاف درجات الحرارة أقل من المألوف وأقل حدة من الهند. بفضل هطول الأمطار الغزيرة وخصوصاً في الجنوب، لا يحل الجفاف،

والحرارة لا تكون شديدة جداً أبداً. المناخ ككل يمكن اعتباره واحداً من أكثر المناخات الصحية الموجودة في المناطق الاستوائية. إن أضفنا أن الريف البورمي جميل بشكل استثنائي بأنهار عريضة وجبال عالية وغابات خضراء دائمة وورود ملونة ساطعة وفواكه غريبة، فإن عبارة "فردوس أرضي" تخطر في الذهن بشكل طبيعي. لهذا من غير المفاجئ أن تحاول إنكلترا منذ زمن بعيد أن تتملكها، فقد استولى الإنكليز على مساحة واسعة من الأراضي في عام ١٨٢٠ وتكررت هذه العملية في عام ١٨٥٢ وأخيراً في عام ١٨٨٢ رفرف علم الاتحاد يونيون جاك فوق كل البلاد تقريباً. بعض المناطق الجبلية في الشمال التي تسكنها قبائل همجية، نجت من براثن القبضة البريطانية إلى الآن، لكن الاحتمال الأكبر أنها ستواجه نفس المصير الذي واجهته البلاد كلها بفضل عملية عرفت تلطيفاً باسم "اختراق سلمي" التي تعني بإنكليزية صريحة "ضمّ سلمي"

في هذه المقالة لن أسعى إلى مدح أو ذم هذا الظهور للإمبريالية البريطانية؛ دعونا نلاحظ ببساطة أنها نتيجة منطقية لأي سياسة إمبريالية. وسيكون من المفيد أكثر أن نتفحص الجوانب الجيدة والسيئة للإدارة الإمبريالية البريطانية في بورما من منظور اقتصادي وسياسي.

لنعد أولاً إلى السياسة.

إن حكومة المناطق الهندية التي تحت سيطرة الإمبراطورية البريطانية، هي حكومة استبدادية بالضرورة، لأن التهديد بالقوة فقط يمكن أن يخضع سكاناً يعدون ملايين كثيرة من الرعايا. لكن هذا الحكم الاستبدادي مستتر ويختبئ وراء قناع من الديمقراطية. المبدأ الكبير للإنكليز في حكم عرق شرقي هو "لا تفعل شيئاً أبداً باستخدام أوروبي عندما يستطيع رجل شرقي القيام بذلك" بعبارة أخرى تبقى السلطة العليا مع المسؤولين البريطانيين، أما الموظفون المدنيون الصغار الذين عليهم أن ينفذوا الإدارة اليومية والذين يجب عليهم أن يكونوا في احتكاك مباشر مع الناس أثناء تأدية واجباتهم، فيتم تجنيدهم من السكان المحليين. ففي بورما مثلاً أدنى درجة من القضاة وكل رجال الشرطة حتى رتبة مفتش (ضابط شرطة) وأعضاء الخدمة البريدية والموظفون الحكوميون وزعماء القرى، هم بورميون. مؤخراً لتهدئة الرأي الشعبي ووضع نهاية للهياج القومي الذي بدأ يسبب القلق، قرر القبول بترشيح السكان الأصليين المتعلمين لبعض المناصب الهامة. نظام توظيف السكان الأصليين كموظفين

مدنيين فيه ثلاث فوائد. أولاً، يقبل السكان المحليون بأجور أقل من الأوروبيين. ثانياً، لديهم فكرة أفضل عن الأشياء التي يفكر فيها زملاؤهم من أبناء بلدهم، وهذا يساعد على تسوية المشاحنات القانونية بسهولة أكبر. ثالثاً، من مصلحتهم أن يظهروا ولاءهم لحكومة تقدم لهم سبل العيش. وهكذا يحافظ على السلام بضمان تعاون وثيق بين الطبقات المتعلمة وشبه المتعلمة؛ حيث قد ينتج الاستياء قادة تمرد، لكن مع ذلك يسيطر البريطانيون على البلاد. طبعاً بورما مثل أي واحدة من المناطق الهندية، لديها برلمان -مظهر الديمقراطية دائماً- لكن في الواقع هو برلمان سلطته قليلة جداً. ليس هناك شيء مهم ضمن سلطاته القضائية. أغلب أعضائه مجرد دمى بيد الحكومة، تستخدمهم فقط لتعطيل أي وثيقة تبدو غير ملائمة في مهدها. بالإضافة إلى ذلك هناك حاكم لكل منطقة يعينه الإنكليز وتحت تصرفه فيتو مطلق مثل فيتو رئيس الولايات المتحدة، يعارض فيه أي اقتراح يغضبه، لكن مع ذلك فإن الحكومة البريطانية كما بينا، هي حكومة استبدادية في أساسها، وغير محبوبة بأي شكل من الأشكال.

الإنكليز يشقون الطرقات والأقنية -لمصلحتهم طبعاً، لكن البورميين يستفيدون منها- ويبنون المستشفيات ويفتحون المدارس ويحرصون على استتباب الأمن والنظام. أخيراً، فإن البورميين مجرد فلاحين يشتغلون بحراثة الأرض، ولم يصلوا بعد إلى درجة التطور الثقافي التي تجعلهم قوميين. قريتهم هي عالمهم، وطالما يتركون بحالهم في حراثة حقولهم، فهم لا يهتمون إن كان سادتهم من السود أو البيض.

كدليل على هذه اللامبالاة السياسية من جانب الشعب في بورما حقيقة، أن القوات البريطانية العسكرية الوحيدة في البلاد هي عبارة عن كتيبتين إنكليزيتين من المشاة، وحوالي عشرة كتائب مشاة من الهنود والشرطة المحمولة. وبهذا، فإن اثني عشر ألف رجل مسلح أغلبهم من الهنود يكفون لإخضاع سكان عددهم أربعة عشر مليون نسمة.

أخطر أعداء الحكومة هم الشبان من الطبقات المتعلمة. إذا كانت هذه الطبقات كثيرة وكانت متعلمة جداً، فيمكنها رفع راية ثورية. لكنها ليست كذلك. السبب أولاً كما رأينا أن أغلب البورميين فلاحون. ثانياً، أن الحكومة البريطانية قلما تتجشم العناء لتعطي الناس تعليماً مختصراً لا فائدة منه تقريباً يكفي فقط لإنتاج سعاة وموظفين مدنين من مراتب دنيا، وكتبة محامين صغار وعمال ياقات بيضاء آخرين. هناك حرص على تجنب التدريب التقني

والصناعي. هذه القاعدة المتبعة في كل أرجاء الهند تهدف إلى إيقاف الهند من أن تصبح بلاداً صناعية قادرة على منافسة إنكلترا. صحيح القول بشكل عام: إن أي بورمي متعلم فعلياً تعلم في إنكلترا، وينتمي في النتيجة إلى طبقة صغيرة من الأثرياء. لهذا لعدم وجود طبقات متعلمة، فإن الرأي العام الذي يمكن أن يدفع من أجل تمرد ضد إنكلترا، غير موجود.

دعونا الآن نتأمل المسألة الاقتصادية. هنا مرة أخرى نجد أن البورمي عموماً جاهل جداً ليكوّن فهماً واضحاً للطريقة التي يعاملون بها، وبالتالي جاهل جداً لإظهار أدنى درجة من الامتعاض. بالإضافة إلى ذلك، فإنهم إلى الآن يعانون من ضرر اقتصادي كبير. صحيح أن البريطانيين استولوا على المناجم وآبار النفط، وصحيح أنهم يسيطرون على الإنتاج، وصحيح أن كل أنواع الوسطاء والسماسرة وأصحاب المطاحن والخبراء قد جنوا ثروات هائلة من الرز من دون أن يحصل المنتج -أي الفلاح- على شيء منها. صحيح أيضاً أن رجال الأعمال الذي أثروا بسرعة والذين جمعوا رأسمالهم من الرز والنفط إلخ، لا يساهمون كما يجب لما فيه مصلحة البلاد، وأموالهم بدلاً من أن تضخم مصادر الدخول المحلية على شكل ضرائب، ترسل إلى خارج البلاد وتصرف في إنكلترا. إن كنا صادقين تماماً، فإن البريطانيين يسلبون ويسرقون بورما بلا حياء إطلاقاً. لكن يجب أن نؤكد أن البورميين قلما يلاحظون ذلك الآن. بلادهم غنية جداً، وسكانهم مبعثرون جداً، وحاجاتهم مثل كل المشرقيين خفيفة جداً، وهم غير مدركين بأنهم يتعرضون للاستغلال.

الفلاح الذي يحرث رقعته من الأرض يعيش تقريباً كما فعل أسلافه في زمن ماركو بولو. إن رغب، فيمكنه شراء أرض بكر بسعر معقول. هو بالتأكيد يحيا حياة قاسية، لكنه بالمجمل خالٍ من الهموم والجوع والبطالة، وهي كلمات لا معنى لها بالنسبة إليه. هناك عمل وطعام لكل شخص، فلماذا القلق غير الضروري؟

لكن في هذه النقطة الهامة، سيبدأ البورمي المعاناة حين ينحدر قسم كبير من غنى البلاد. على الرغم من أن بورما تطورت إلى حد ما منذ الحرب، إلا أن الفلاح أفقر مما كان قبل عشرين سنة، وقد بدأ يشعر بثقل حمل الضريبة التي لا تعوضها زيادة غلة مواسمه، وأجور العامل لا تتناسب مع تكلفة المعيشة.

إن السبب الذي جعل الحكومة البريطانية تسمح بالدخول الحر إلى بورما لقطعان حقيقية من الهنود الذين أتوا من أرض يموتون فيها من الجوع حرفياً، لكي يعملوا مقابل لا شيء تقريباً، وكنتيجة يكونون منافسين مخيفين للبورميين. أضف هذا إلى ارتفاع النمو السكاني السريع. ففي الإحصاء الأخير سجل السكان زيادة قدرها عشرة ملايين على الأقل في عشر سنوات. ومن السهل أن نرى عاجلاً أو آجلاً وكما يحدث في كل البلدان المكتظة بالسكان، أن يجرد البورميون من ملكية أراضيهم وينحدروا إلى أنصاف عبيد في خدمة الرأسمالية، ويجبروا أن يتحملوا البطالة، وسوف يكتشفون عندئذ الشيء الذي نادراً ما شكوا فيه اليوم بأن آبار النفط والمناجم وصناعة الطحين وبيع وحراثة الأرز، كلها يتحكم بها البريطانيون.

إن السياسة البريطانية في بورما هي نفس سياستها في الهند. صناعياً أُبقيت الهند على جهلها عمداً. هي لا تنتج سوى الحاجات الأساسية المصنوعة يدوياً. حين لا يستطيع الهنود صنع السيارة أو البندقية أو ساعة الجدار أو المصباح الكهربائي إلخ، ولا يستطيعون بناء سفينة تبحر في المحيطات، وفي الوقت نفسه حين يتعلمون في تعاملاتهم مع الغربيين الاعتماد على سلع محددة مصنوعة بالآلة، فإن منتجات المصانع الإنكليزية ستجد منفذاً ومخرجاً مهماً في بلاد عاجزة عن تصنيعها بنفسها. إن المنافسة الأجنبية منعت بعقبة لا تقهر من رسوم جمركية تحريمية، ولهذا فإن أصحاب المصانع الإنكليزية الذين لا يخشون من أي ضرر، يسيطرون على الأسواق ويحصدون أرباحاً فادحة. نحن قلنا إن البورميين لم يعانوا بعد كثيراً جداً، لكن هذا لأنهم بقوا إجمالاً أمة زراعية. ولكن مع ذلك ككل الشرقيين، فقد خلق الاحتكاك مع الأوروبيين الطلب غير المعروف لآبائهم على منتجات الصناعة الحديثة، وفي النتيجة يسرق البريطانيون بورما والبورميين بطريقتين:

أولاً؛ هم ينهبون مواردهم وثرواتهم الطبيعية، ثانياً؛ يمنحون أنفسهم حقاً حصرياً في بيع المنتجات المصنعة التي تحتاجها بورما الآن. وبهذا يجذبون البورميين إلى نظام الرأسمالية الصناعية من دون أي أمل بأن يصبحوا صناعيين رأسماليين هم أنفسهم. بالإضافة إلى ذلك، فإن البورميين مثل كل الشعوب الهندية، يبقون تحت حكم الإمبراطورية البريطانية لاعتبارات عسكرية صرفة، لأنهم في النتيجة غير قادرين على بناء السفن وتصنيع البنادق أو أي أسلحة أخرى ضرورية للحرب الحديثة. وكما تبين الظروف، إذا تخلى الإنكليز عن الهند، ستكون

النتيجة الوحيدة هي تبديل السيد. سوف تتعرض البلاد للغزو، وتستغل بواسطة قوة أخرى ما. ترتكز السيطرة البريطانية على الهند أساساً، على تبادل الحماية العسكرية مقابل احتكار تجاري، لكن كما حاولنا أن نظهر، فإن الصفقة هي لمصلحة الإنكليز الذين تصل درجة سيطرتهم إلى كل الميادين.

نلخص ما قلناه: إن حصلت بورما على فائدة ما من الإنكليز، فيجب عليها أن تدفع ثمناً باهظاً مقابل ذلك. حتى الآن، الإنكليز أحجموا عن اضطهاد السكان الأصليين كثيراً لعدم وجود ضرورة إلى ذلك. لايزال البورميون في بداية فترة انتقالية ستبدلهم من فلاحين زراعيين إلى عمال في خدمة السلعة الصناعية. يمكن أن يقارن وضعهم مع وضع أي شعب من أوروبا القرن الثامن عشر ما عدا الرأسمال ومواد البناء والمعرفة والقوة الضرورية من أجل التجارة والصناعة التي تنتمي حصراً إلى الأجانب. لهذا هم تحت حماية استبدادية تدافع عنهم من أجل غايات خاصة بها، وستهجرهم وتتخلى عنهم بلا أي تردد إن انتهت فائدتهم لها.

إن العلاقة مع الإمبراطورية البريطانية هي علاقة العبد بالسيد.

هل السيد جيد أم سيء؟ هذه ليست المشكلة: دعونا نقول ببساطة إن هذه السيطرة استبدادية، وبتعبير صريح مصلحة شخصية. حتى لو لم يكن للبورميين سبب كافٍ للتذمر حتى الآن، فإن اليوم سيأتي حين تكون ثروات البلاد الغنية غير كافية للسكان الذين يزدادون بشكل مستمر. عندئذ سيكونون قادرين أن يفهموا كيف تظهر الرأسمالية امتنانها لهؤلاء الذين تدين بوجودها وبقائها لهم.

اي ايه بلير. نشرت في لو بروغريس سيفيك
٤ مايو/ أيار عام ١٩٢٩
ترجمها للإنكليزية جانيت بيرسيفال وايان ويلسون.

قطف حشيشة الدينار

"إجازة بمرتب، أنت سيد نفسك كل الوقت الذي تكون فيه هناك، ثم تدفع أجرة نقلك في الذهاب والإياب، وتعود بخمسة جنيهات في جيبك"، أنا اقتبس كلمات اثنين من قاطفي الحشيشة الخبراء، يذهبان إلى مقاطعة كنت في كل موسم منذ أن كانا طفلين، وينبغي أنهما يعرفان أفضل. لكن في الواقع إن قطف حشيشة الدينار أبعد ما يكون عن الإجازة. ومن حيث الأجور، لا توجد وظيفة أو عمل أسوأ منه.

أنا لا أقصد بهذا أن قطف الحشيشة مهنة كريهة بحد ذاتها، فهي تتطلب ساعات طويلة، لكنها عمل صحي في الهواء الطلق، وأي شخص قادر جسدياً، يستطيع العمل فيها. العملية بسيطة جداً. إن النباتات المتسلقة الطويلة مع عناقيد الحشيشة عليها في حزم، مثل عناقيد العنب، معلقة فوق أعمدة أو أسلاك. وكل ما يجب على القاطفين فعله، هو أن يقتلعوها ويجردوا الحشيشة ويضعوها في صندوق ويحافظوا عليها نظيفة بأقصى ما يمكن من الأوراق. السوق الشائكة تجرح راحات الأيدي وتقطعها، في الصباح الباكر، قبل أن يفتح الجرح ثانية، وهو عمل مؤلم، حيث يتعرض القاطف لإزعاج أيضاً مع قمل النبات الذي يملأ الحشيشة، ويزحف على عنق المرء ومنه إلى أجزاء جسمه. لكن عدا ذلك، فليس هناك إزعاج. يمكن للمرء أن يتمشى ويدخن وهو يعمل. وفي الأيام الحارة، ليس هناك مكان ممتع أكثر من الممرات الظليلة بين نباتات الحشيشة مع رائحتها اللاذعة- رائحة منعشة بشكل لا يوصف، مثل ريح تهب من محيطات من البيرة الباردة. ولو استطاع المرء كسب عيشه فيها، سيكون ذلك شيئاً شبه مثالي.

لسوء الحظ، إن معدل الأجرة منخفض جداً، لذلك من المستحيل أن يكسب القاطف جنيهاً واحداً أسبوعياً. وفي سنة ماطرة مثل سنة ١٩٣١ يكسب خمسة عشر شلناً. يتم عمل قطف الحشيشة بنظام القطعة؛ إذ يدفع للقاطفين على البوشل. في المزرعة التي عملت فيها هذه السنة، وككل المزارع في مقاطعة كنت، كان الحساب شلناً من أجل ستة بوشلات- أي كانوا يدفعون لنا بنسين لكل بوشل نقطفه. تغل النباتات الجيدة نصف بوشل من الحشيشة،

ويستطيع القاطف الجيد تجريد بتة كاملة في عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة؛ هذا يؤدي أن القاطف الخبير في الظروف المثالية، يمكن أن يكسب ثلاثين شلناً في أسبوع عمل مدته ستين ساعة. لكن لعدد من الأسباب، فإن هذه الشروط المثالية غير موجودة. لنبدأ بالحشيشة التي تتنوع في نوعيتها بشكل هائل؛ ففي بعض الكروم تكون كبيرة مثل الأجاص الصغير، وفي كروم أخرى لا تكون أكبر من حبة البندق؛ والكروم الرديئة يستغرق تجريدها وقتاً أطول من الجيدة- أطول كقاعدة، لأن الأغصان الدنيا متشابكة أكثر -وعادة خمس منها لا تعطي بوشلاً واحداً. أيضاً هناك فترات تأخير مألوفة في العمل، إما في التبديل من حقل إلى آخر، أو بسبب الأمطار، وتضيع ساعة أو اثنتان بهذه الطريقة يومياً، ولا يُدفع للقاطفين تعويض عن الوقت الضائع. وأخيراً، إن السبب الأكبر للخسارة يكمن في عدم وجود قياس عادل. تقاس الحشيشة بسلال البوشل ذات قياس معياري، لكن يجب أن نذكر أن الحشيشة ليست مثل التفاح أو البطاطا، يمكن للمرء أن يقول إن البوشل هو بوشل وينتهي الأمر. إن الحشيشة أشياء طرية وقابلة للضغط مثل الإسفنج. ومن السهل جداً لأي وزان أن يضغط البوشل ويسحقه ويحوله إلى ربع بوشل إن أراد. كل قاطفي الحشيشة يغنون- حين يأتي للقياس والوزن/ هو لا يعرف أبداً أين يقف/ ايه ايه ادخل في الصندوق وخذ النصيب اللعين!

تفرغ الحشيشة من الصندوق، وتوضع في أكياس يزن واحدها مائة باوند حين تكتمل كما يفترض، ويحملها رجل واحد عادة، لكن غالباً ما تحتاج إلى رجلين للإمساك بكيس مملوء حين يعتبره الوزان ثقيلاً.

مع ظروف العمل هذه، أنا وصديق لي كسبنا في شهر سبتمبر، أيلول هذا حوالي تسعة شلنات في الأسبوع لكل منا. كنا جدداً في هذه الصنعة، لكن القاطفين الخبراء أنتجوا أكثر قليلاً. أفضل القاطفين في زمرتنا والأفضل في كل المخيم، هي عائلة من الغجر مؤلفة من خمسة أشخاص بالغين وطفل؛ هؤلاء الناس يمضون عشر ساعات في اليوم في حقل الحشيشة، وكسبوا عشر جنيهات في ثلاثة أسابيع. بحذف الطفل من الحساب (علماً أن كل الأطفال في الواقع في حقل الحشيشة يعملون) كان المعدل ثلاثة عشر شلناً وأربعة بنسات في الأسبوع الواحد. هناك مزارع مختلفة قريبة؛ حيث يكون جدول الحساب ثمانية أو تسع بوشلات بشلن واحد؛ إذ يكون من الصعب كسب حتى اثني عشر شلن في الأسبوع الواحد. بالإضافة إلى

هذه الأجور المميتة من الجوع، يجب على جاني الحشيشة أن يتأقلم مع القوانين التي تقلله إلى عبد. أحد القوانين مثلاً، يمكّن المزارع من طرد عماله تحت أي عذر كان، وبذلك تتم مصادرة ربع ماهم المكتسب، كما يخفض مال القاطف إن استقال من عمله. لا عجب أن أغلب العمال الزراعيين الجوالين يعملون عشرة أشهر في السنة فقط، بسبب السفر على الطريق والنوم في الملاجئ بين الوظائف والأعمال.

بالنسبة إلى المكان الذي يعيش فيه قاطفو الحشيشة، هناك الآن قبيلة كاملة من موظفي الحكومة يراقبونه. ومن المفترض أنه أفضل مما كان سابقاً. إن الوضع الذي كان عليه في الأيام السابقة صعب تخيله، وحتى الآن إن كوخ قاطف الحشيشة العادي أسوأ من الإسطبل. (أقول هذا عن عمد: في مزرعتنا أنا وصديقي مع اثنين آخرين، نمنا في كوخ صغير جداً، أبعاده عشرة أقدام مع نافذتين من دون زجاج، ونصف دزينة من الفتحات تدخل منها الريح والمطر، وليس هناك أثاث باستثناء كومة من القش: المرحاض كان على بعد مائتي يارده، وحنفية الماء على نفس المسافة. بعض هذه الأكواخ يجب أن يقتسمها ثمانية رجال -لكن ذلك في أي حال يخفف البرد الذي يكون قاسياً في ليالي شهر أيلول/ سبتمبر، حين لا يكون لديك فراش وبطانيات، وإنما كيس مهمل من القش. وطبعاً هناك كل أنواع منغصات حياة المخيم؛ ليست مشقات خطيرة ولكنها كافية لتضمن أننا حين لا نكون في العمل أو نياماً، فإننا نكون إما نحضر الماء، أو نحاول أن نشعل النار بعيدان مبللة.

أعتقد أننا نتفق كلنا على أن هذه ظروف سيئة للأجر والمعاملة بكل معنى الكلمة. مع ذلك، فإن الشيء الغريب هو عدم وجود نقص في جناة الثمار. والأغرب أن الأشخاص أنفسهم يعودون إلى حقول الحشيشة سنة بعد سنة. إن الذي يبقي المهنة مستمرة، ربما حقيقة أن الكوكنيون يستمتعون بالرحلة إلى الريف، بالرغم من الأجر السيئ، وبالرغم من المشقة والإزعاج. وحين ينتهي الموسم يكون القاطفون مسرورين من قلبهم للعودة إلى لندن؛ حيث لا تجبر على النوم على القش؛ وحيث تستطيع وضع بنس في الغاز بدلاً من حطب الوقود، ويكون ولويرث عند ناصية الشارع. ويظل جني حشيشة الدينار في صنف الأشياء التي تعتبر متعة عظيمة حين ينتهي موسمها. إنها تصور في أذهان القاطفين أجازة، رغم أنهم يعملون بمشقة طوال الوقت، ويخرجون خالي الوفاض تقريباً في النهاية. وبالإضافة إلى هذا، يوجد

نظام العمل بالقطعة الذي يخفي معدل الأجر المتدني، لأن "ستة بوشلات بشلن واحد يبدو أكثر من خمسة عشر شلناً في الأسبوع الواحد". وهناك بيئة الأزمان الطيبة قبل عشر سنوات حين كانت الحشيشة غالية، واستطاع المزارعون أن يدفعوا نصف شلن للبوشل الواحد؛ هذا يبقي الحكايات حية عن "العودة إلى البيت مع خمس جنيهات في جيبك". بأي مقياس، ومهما كان السبب، فليست هناك صعوبة في جعل الناس يقومون بالعمل. لهذا على المرء ألا يتذمر كثيراً وبصوت مرتفع حول الظروف في حقول حشيشة الدينار. لكن إذا قارن المرء الأجر والمعاملة مع العمل المقدم، عندها يكون قاطف الحشيشة أسوأ من رجل الإعلانات الذي يعلق الإعلان في رقبته.

إيريك بلير. النيوستيتمان أند نيشن

١٧ أكتوبر/ تشرين أول ١٩٣١.

أورويل عن النظام الملكي

الحرية هي أن تقول للناس ما لا يحبوا أن يسمعوه.

لا شيء أصعب من التأكد إن كانت العاطفة المؤيدة للنظام الملكي مازالت حقيقة في إنكلترا أم لا. فكل الذي قيل في كلا الجانبين ملون بتفكير رغبوي. ورأيي أن الملكية، أقصد الملكية الشعبية، كانت عاملاً قوياً في الحياة الإنكليزية حتى موت جورج الخامس، الذي ظل شخصية أبوية، إظهاراً للفضائل العائلية الإنكليزية طالما كان مقبولاً كملك (وكما كانت فكتوريا ملكة). كان اليوبيل الفضي عام ١٩٣٥ في جنوب إنكلترا في أي حال انفجاراً محزناً للعاطفة الشعبية العفوية والأصيلة، وقد فوجئت السلطة والمسؤولون ومددت الاحتفالات أسبوعاً إضافياً، بينما كان الرجل العجوز المسكين الذي رمم على عجل بعد إصابته بذات الرئة والمحتضر، ينقل ذهاباً وإياباً عبر شوارع أحياء الفقراء التي علقوا فيها أعلاماً من تلقاء أنفسهم وكتبوا على الجدران "يعيش الملك ويسقط ملاكو الأراضي" على طول الطريق. أعتقد أن تنازل إدوارد الثامن عن العرش وجّه صفعة للملكية، ربما لن تشفى منها. إن الشجار بسبب التنازل عن العرش الذي كان عنيفاً حين استمر، قد قسّم الفرق السياسية الموجودة كما يمكن أن يرى من حقيقة أن أبطال إدوارد الصاخبين كانوا تشرشل وموسلي واتش جي ويلز. وبعبارة أشمل وأوضح، كان الأغنياء ضد إدوارد، وكانت الطبقات العاملة متعاطفة معه. لقد وعد عمال المناجم العاطلين عن العمل بأنه سيفعل شيئاً ما لمصلحتهم، وكان ذلك جريمة في عيون الأغنياء. ومن جانب آخر، ربما شعر عمال المناجم والعاطلون عن العمل الآخرين أنه خذلهم بالتنازل عن العرش من أجل امرأة. يعتقد بعض المراقبين القاريين أنه تم التخلص من إدوارد بسبب صداقته ومزاملته للقادة النازيين وتأثره بالكروموبلية. لكن النتيجة الصافية لكل القضية كانت ربما إضعاف الشعور بالطهارة الملكية التي تشكلت بحذر منذ عام ١٨٨٠ وصاعداً، وأوضحت للشعب العجز الشخصي، وأظهرت أن العاطفة الملكية للطبقات العليا التي أعلن عنها كثيراً، كانت مجرد احتيال. وعلى الأقل يجب أن أقول إن إعادة العائلة الملكية كما كانت في عهد جورج الخامس، تحتاج إلى حكم طويل آخر وملك مع نوع من السحر.

إن وظيفة الملك تكمن في تعزيز الاستقرار، وأن يكون نوعاً من المرتكز في المجتمع غير الديمقراطي، واضحة طبعاً، ولكنه أيضاً لديه ويستطيع أن يكون لديه وظيفة العمل كصمام أمان للعواطف الخطيرة. قال لي صحفي فرنسي مرة أن الملكية كانت واحدة من الأشياء التي أنقذت بريطانيا من الفاشية. إن الذي قصده هو أن الناس العصريين لا يستطيعون في الظاهر أن يعيشوا ويتقدموا من دون طبول ورايات ومواكب ولاء وعروض عسكرية، ومن الأفضل أن يربطوا عبادتهم للقائد بشخصية ما ليس لديها أي سلطة حقيقية. في الحكم الديكتاتوري، فإن السلطة والقوة والمجد تخصّ نفس الشخص. في إنكلترا تعود السلطة الحقيقية إلى الرجال غير الجذابين بالقبعات السوداء المستديرة: المخلوق الذي يركب في عربة مطلية بالذهب خلف جنود في دروع، هو في الحقيقة تمثال من الشمع. وطالما يوجد هذا الفصل في الوظيفة والدور، فلا يمكن أن يصل إلى السلطة هتلر آخر أو ستالين. إن البلدان الأوروبية التي تفادت الفاشية بنجاح كبير، كانت بلداناً ملكية دستورية. على ما يبدو إن العائلة الملكية الثابتة والتي تعتبر من المسلمات، ستفهم مركزها الخاص، وستنتج شخصيات قوية ذات طموحات سياسية. هذه الأمور أنجزت في بريطانيا والبلدان المنخفضة واسكندنافيا، لكن ليس في إسبانيا أو رومانيا مثلاً. إن برزت هذه الحقائق إلى الجناح اليميني سيغضب جداً، وهذا لأنه لم يتفحص طبيعة مشاعره الخاصة به نحو ستالين. أنا لا أدافع عن المؤسسة الملكية في المعنى المطلق، لكن أعتقد أنه ربما يكون لها أثر مناعي في عصر مثل عصرنا، وبالتأكيد تسبب ضرراً أقل من وجود ما يسمى بالأرستقراطية (حكم النبلاء). وأنا أيدت دائماً تقريباً أن تقوم حكومة عمالية بإلغاء الألقاب والإبقاء على العائلة الملكية.

وفي نفس السنة كتب في مقالته الطويلة "الشعب الإنكليزي":

في الأوقات العادية فقط، تكون الطبقات الأغنى هي المؤيدة للملك ظاهرياً: في وست ايند في لندن مثلاً يقف الناس باستعداد من أجل "أطال الله عمر الملك" في نهاية عرض فيلم، بينما في الأحياء الأفقر يمشي الناس ويخرجون. لكن العاطفة التي أظهرت من أجل جورج الخامس في اليوبيل الفضي، كانت صادقة وأصيلة بشكل واضح، ويمكن أن ترى فيها البقاء أو تجدد الفكرة القديمة كقدم التاريخ، فكرة أن يكون الملك وعامة الناس في تحالف ضد الطبقات العليا.

مراجعة معطف متعدد الألوان
مقالات عرضية بقلم هربرت ريد

هذه المقالات والمراجعات النقدية في هذا المجلد من الحجم المتوسط الذي يغطي مواضيع كثيرة مثل الفوضوية وكتب الحرب وتولوز لوتريك وبول كلي وإيريك جيل وهافلوك إيليس وأسلوب النثر ولورانس العرب وجيرارد مانلي هوبكنز والواقعية الاشتراكية وجورج سيتسبيري وفيرلين وستاندال ومقدمة وردسوورث وفاوست مارلو والرسم الصيني وسلفادور دالي وكيركغارد وهنري جيمس. هؤلاء الذين سميتهم، يشكلون ربع المواضيع التي ناقشها روبرت ريد فقط زمن الواضح أن هكذا كتاب لا يمكن معالجته بألف كلمة أو خمسمائة. أنا أفضل أن أركز بشكل رئيسي على نقطة واحدة -الصدام بين معتقدات ريد السياسية ونظريته الجمالية. لكن تعدد المواضيع وتنوعها نقطة بحد ذاتها ويجب ملاحظتها. حتى لو اعتبر المرء ريد مجرد ناقد للرسم، فإن مدى اهتماماته وتعاطفه واسع جداً، وانفتاحه وتسامحه كان قوته وضعفه ككاتب. ريد فوضوي وفوضوي من النوع العنيد؛ هو يعترف أن المجتمع المثالي لا يمكن أن يتحقق في هذه اللحظة، لكنه يرفض أن يرضى بشيء أقل من ذلك، أو أن يتخلى عن الاعتقاد بأن الإنسان يمكن أن يبلغ درجة الكمال. هو يقبل بعصر الآلة، ويدافع لأسباب جمالية عن منتجات الآلة. في بعض مقالاته في هذا الكتاب، أبرزها "الفن والاكتفاء الذاتي" ومقال عن إيريك غيل، يبدو مرواغاً وغير مباشر قليلاً، لكن على العموم هو يؤكد أن الشكل الجمالي للمجتمع ينسجم مع مستوى عالٍ من التطور التقني.

بأي حال، إن فكرة الشروع المتعمد في الكتابة عن الفوضوية، يتضمن لامركزية السلطة وتبسيطاً كونياً للحياة. الكينونات غير البشرية كالمدينة الحديثة مثلاً ستختفي. لكن الفوضوية لا تتضمن بالضرورة عودة إلى الحرف اليدوية والصحة سانيتيشن في الهواء الطلق. ليس هناك تناقض بين الفوضوية والطاقة الكهربائية، والفوضوية والنقل الجوي، والفوضوية وتقسيم

العمل، والفوضوية والفعالية الاقتصادية. بما أن المجموعات الفعالة سوف تعمل من أجل المنفعة المشتركة وليس من أجل أناس آخرين أو من أجل تدمير مشترك، فإن مقياس الفعالية سيكون الشهية لعيش كامل.

التعميم غامض المحتوى في الجملة الأخيرة يتملص من السؤال الهائل: كيف يمكن التوفيق بين الحرية والتنظيم والإدارة؟ إن حسب المرء الاحتمالات، فإنه سيقاد إلى الاستنتاج أن الفوضوية تتضمن مستوى متدنياً من العيش. ليس من الضروري أن تتضمن عالماً جائعاً أو غير مريح، لكنها تستثني وتقصي أسلوب الحياة الذي فيه مكيفات الهواء والمطلي بالكروم والذي يعج بالآلات، والذي يعتبر الآن مرغوباً ومنوراً. العمليات المشمولة في صنع الطائرة مثلاً معقدة جداً لدرجة أنها غير ممكنة إلا في مجتمع ممركز ومخطط مع كل الجهاز القمعي الذي يتضمنه. إذا لم يكن هناك تغيير لا يمكن التنبؤ به في الطبيعة البشرية، فإن الحرية والفعالية يظلان في اتجاهين متعاكسين بالضرورة. ريد لن يعترف بهذا، ولن يعترف أخيراً أن الآلة أحبطت الغرائز المبدعة وأفسدت الشعور الجمالي. في الواقع هو يأخذ ما يبدو مثل متعة منحرفة في مدح الأشياء التي تنتج ميكانيكياً وجماعياً كشيء ضد إنجاز الحرفي الفرد:

الجمالي الجديد يجب أن يؤسس على العامل الجديد الأساسي في الحضارة الحديثة -الإنتاج الآلي واسع النطاق. تشمل طريقة الإنتاج صفات محددة تناقض الفكرة المقبولة للجمال- يشار إليها عموماً بكلمة النمطية. النمطية بحد ذاتها ليست مسألة جمالية. إن كان الشيء جميلاً، فأنت لا تقلل ذلك الجمال بإعادة إنتاجه.... المنتجات الآلية النمطية نسخ دقيقة لبعضها البعض، وإن كانت إحداها جميلة ستكون البقية جميلة..... يمكننا أن نعترف أن أشكالاً معينة من التعبير الشخصي ليست مناسبة للإنتاج الميكانيكي كأشياء نمطية، لكننا نطالب بأن الإرادة المبدعة للفنان تستطيع ويجب أن تتكيف مع الظروف الجديدة. نحن نلفت الانتباه إلى أنموذج معين من الفن الحديث (فن تجريدي غير تصويري أو فن بناء) الذي بينما يظل تعبيراً شخصياً جداً للفنانين الأفراد الذين أنتجوه، يكون الأنموذج الأصلي لفن الآل. مثل هذا الإهمال يمكن أن يعاد إنتاجه من دون خسارة أي من صفاته الجمالية.

عند النظرة الأولى، يبدو هذا منطقياً، والاعتراضات التي يحتمل أن تثار ضده تبدو مفرطة بالعاطفة و الزخرفة المنمقة. لكني أختبرها فقط بأمثلة ملموسة. "إن كان الشيء جميل، فجماله لن يقل بسبب إعادة إنتاجه"، أعتقد أنه كان حاجب ايدا المظلل جميلاً. (إن كنت غير مهتم بتلك القصيدة بشكل خاص، فاستبدلها بقصيدة أخرى تهتم بها) حسناً، هل تحب أن تسمعها تقرأ خمسة آلاف مرة بصوت عالٍ بشكل متكرر؟ هل ستظل جميلة في نهاية هذه العملية؟ على العكس، إنها ستبدو أبشع مجموعة كلمات وجدت قط. أي شكل أو صوت أو لون أو رائحة يصبح قبيحاً وبغيضاً جراء التكرار الكثير، لأن التكرار ينهك الأحاسيس التي يجذبها الجمال. يتكلم ريد كثيراً عن الجمال، كما لو كان نوعاً من شيء أفلاطوني مطلق موجود في مكان ما أو آخر بحد ذاته، ولا يعتمد بأي شكل على الإعجاب والتقدير البشري. إن أخذ المرء هذه الرؤية يجب أن يفترض أن قيمة الصورة مثلاً تكمن في الصورة نفسها، وأن الطريقة التي أنتجت فيها غير لازمة وغير مهمة. يمكن أن تنتج بواسطة آلة أو مثل صور سريالية معينة بالصدفة. لكن ماذا عن الكتب؟ من الممكن تصور أن الكتب يمكن أن تكتب بواسطة الآلة، ومن السهل جداً تخيل قصائد تنتج جزئياً بوسائل تصادفية -بواسطة أداة مماثلة إلى المشكال مثلاً. وإن كانت قصائد "جيدة" أنا لا أفهم كيف استطاع ريد أن يعارض مراراً هكذا عملية. إنه وضع غريب لفوضوي يحشر فيه فوضوي. لكن ريد ليس ثابتاً ومتساوقاً في قبوله للآلة. في هذا الكتاب نجده يمدح جمال تصميم السيارة الحديثة، ونجده يبرز أن الجماهير في البلدان الصناعية وصلوا إلى حالة من "المرض العقلي" بأعمال مميتة وبيئة لا حيوية فيها. نجده يكتب متعاطفاً عن بول كلي وبن نيكلسون وعن روسكين وولتر دولا مار. نجده يقول "شخصياً أنا ضد التكلف والفخامة في الفن" ونجده يمدح الأهرامات. أي واحد راجعه وانتقده ريد، يعرف أنه ناقد أكثر من حنون. مدى تعاطفه كما أشرت سابقاً واسع جداً، وربما أكثر من واسع. الشيء الوحيد الذي لا يحبه بشكل شديد هو النزعة المحافظة، وبعبارة أدق الأكدمة. هو دائماً إلى جانب الصغار في السن ضد الكبار. هو يفضل الرسم التجريدي وإبريق الشاي الانسيابي، لأن المحافظين الجماليين لا يحبونها: هو يفضل الفوضوية ويؤيدها، لأن المحافظين السياسيين بمن فيهم اليسار الرسمي لا يحبونها، وهذا يقوده إلى تناقض يبقى بلا حل. من الصعب المبالغة في تمجيد ريد بأنه كان بسيطاً وفي متناول الجماهير وبطل قضايا

قديمة. أعتقد أنه لم يفعل أحد في عصرنا أكثر من أن يشجع الشعراء الشباب ويبقي الشعب البريطاني على اطلاع بالتطورات الفنية في أوروبا، وليس لأحد ذي موقف رصين الشجاعة للتكلم بصوت عالٍ ضد الهوس بروسيا (روسومانيا) في السنين العشر الأخيرة. ربما هو خطأ للفنان من أي نوع وحتى الناقد، أن يحاول "الاستمرار" أبعد من نقطة معينة. هذا لا يعني أن على المرء أن يقبل بالافتراض الأكاديمي العادي بأن الأدب والفن وصلا إلى نهايتهما منذ خمسين سنة مضت. من الواضح أنه يجب على الشباب ومتوسطي العمر أن يحاولوا أن يقدّروا ويحترموا بعضهم البعض. ولكن على المرء أيضاً أن يعترف أن حكم المرء الجمالي لا يكون صحيحاً وسارياً تماماً إلا بين تاريخين محددين بوضوح. هذا لا يعني القبول بإضاعة ميزة وفرصة أن المرء يستمد من كونه ولد في زمن خاص به. وسط الناس الأحياء الآن، هناك خطان قاسيان بشكل حاد. خط بين هؤلاء الذين يستطيعون، وهؤلاء الذين لا يستطيعون تذكر الفترة قبل عام ١٩١٤، والخط الآخر بين هؤلاء الذين بلغوا سن الرشد قبل عام ١٩٣٣ وهؤلاء الذين لم يبلغوه. بتساوي الأشياء الأخرى من هو المرجح أكثر ليملك رؤية أصح في هذه اللحظة، أهو شخص في العشرين من عمره أم شخص في الخمسين؟ لا نستطيع القول، لكن في بعض النقاط ربما تقرر الذرية. كل جيل يتخيل نفسه أنه أكثر ذكاء من الجيل الذي أتى قبله وأكثر حكمة من الجيل الذي يأتي بعده. هذا وهم، ويجب أن يعرفه المرء بحد ذاته، لكن على المرء أيضاً أن يخلص لنظرته الخاصة إلى العالم حتى لو بدا تقليدياً وقديماً، لأن النظرة إلى العالم تنبع من التجارب التي لا يملكها الجيل الأصغر عمراً، وأن التخلي عنها هي قتل لجذور المرء الفكرية والثقافية. إن طبقت الاختبار البسيط على ريد "كم كان التزامه وإخلاصه؟" سأجد أنه لم يترك أي عمل نقدي من أعماله انطباعاً عميقاً عليّ مثلما فعلت مقاطع معينة من كتاباته عن طفولته وحفنة من قصائده. في هذه النقطة، أنا أتذكر وأستدعي بشكل خاص مقطعاً يصف صنع خردق كبير من الرصاص في قالب كرة صغيرة، ومتعة العمل لم تكن في فائدة الرصاصة، وإنما في الرصاص الفضي الطلقة المصكوكة حديثاً، وقصيدة كتبت في وقت مبكر من هذه الحرب، "التجربة المعاكسة". في هذه وفي كتابات مماثلة، يتكلم ريد بصوت عالٍ عن تجربته: هو لا يحاول أن يكون منفتحاً أو معاصراً أو عالمياً أو إيثارياً وخيراً. ريد فوضوي، في النظرية الجمالية هو متأورب (أوروبي)، لكن في أصوله هو

يوركشايري -أي أنه عضو من قبيلة صغيرة ريفية خرقاء يؤمن أعضاؤها سراً بأن الشعوب الأخرى على الأرض أدنى منهم وأقل مرتبة ومنزلة. أعتقد أن عمله الأفضل يأتي من خصلة يوركشايرية فيه. أنا لا أنتقد نشاطاته وفعاليته النقدية بقسوة. كان لها تأثير ممدن، وسيكون من الجحود عدم الاعتراف بها. لكن عكساً لكتاباته عن سيرته الذاتية وإلى بعض من قصائده ومقاطع معينة من كراساته السياسية، فإن عمله النقدي الصرف أكثر من منفتح وأكثر من خيري وأكثر من متمدن وأكثر من متلهف ليبقى معاصراً للفكر الحديث ومواكباً له، ويبقى على اتصال مع كل الحركات في الوقت نفسه، بدلاً من أن يعبر بشكل حماسي عما يدور في ذهنه عن الأشياء التي يحب والتي لا يحب بقدر ما يفعل أي كاتب آخر.

بويتري كوارترلي، شتاء ١٩٤٥.

مقدمة إلى موقع بيغي هاربر
بقلم ليونارد ميريك

مات ليونارد ميريك في عام ١٩٣٩ لكن خلال القسم الأخير من حياته، لم يكتب أو بأي حال ينشر سوى القصص القصيرة، باستثناء كتاب واحد مبكر بات منسياً اليوم، موسى البنفسجي. رواياته من الحجم الطبيعي تنتمي كلها إلى الفترة بين ١٩٠٠ و١٩١٤ هناك حوالي دزينة منها، ومستواها العام عالٍ، رغم أنه يمكنك بسهولة تامة انتقاء ست منها بأنها أفضل وتستحق طبعة جديدة أخرى، إلا أنه ليس من السهل تضييق الخيار إلى مجلد واحد.

لدى ميريك الغرابة أن خلفية قصصه بشكل ثابت تقريباً عن الفنون، رغم كونه كاتباً لا يتمتع بثقافة عالية. من بين رواياته من الحجم الطبيعي، فإن الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة قصة "محبو الدنيا"، وهي قصة انتحال شخصية وخداع مؤسسة على قضية تيتشبورن ومنظر رجل واحد، وهي استثناء جزئي لأن الشخصية المركزية محامٍ. وإلا فإن الناس الذين يكتب عنهم عادة روائيون وشعراء ورسامون والأميز من الكل ممثلون. إن كان هناك شيء واحد فوق كل البقية يستحق ميريك أن يذكر بسببه، فهو صورته المقنعة بشكل استثنائي وغير الساحرة لحياة المسرح؛ وهذا ربما يبرر إعادة نشر وضع بيغي هاربر بدلاً من سينيثيا أو محبي الدنيا اللتين تعتبران جيدتين بالتساوي في طريقتهما المختلفة.

يمكن تقسيم كتب ميريك إلى صنفين اثنين، بالرغم من أنها كلها عن الكتاب أو الفنانين. الصنف الأول وهو لسوء الحظ المشهور به، هو كتبه الباريسية التي أغلبها قصص قصيرة مثل كرسي على الجادة (الطريق المشجر). تصف هذه القصص نوعاً من البوهيمية التي لم يجربها ميريك من الداخل، والتي لا توجد في شكل مشكوك فيه، والجو الذي تحاول أن تنتجه هو جو تريلباي، وفي أسوئها جو دبليو جيه لوك في **مغامرات استرايد بوجول المتعة**. أما حين يصف ميريك مغامراته كما فعل في بعض فصول سينيثيا مثلاً، فإن القصة مختلفة تماماً. التصويرية تختفي ويدخل في مكانها ذلك الشيء المرعب الذي يفهمه هو جيداً، الفقر المدقع ضد خلفية من النبالة. روايات ميريك الرثة النبيلة هو الروايات التي تهم: أفضلها عدا تلك

التي ذكرناها آنفاً، الرجل الذي كان طيباً وبيت لينش والأصحاب الغريبو الأطوار. **كونراد في البحث عن شبابه** واحد من أنجح كتب ميريك، يتعامل جزئياً مع حياة المسرح، لكنه يختلف عن الكتب الأخرى بأن الفقر لم يكن موضوعاً رئيسياً فيه. المال دائماً موضوع فاتن، بشرط توريط مبالغ صغيرة منه فقط. المجاعة البهيمية ليست ممتعة ومشوقة، ولا الصفقات التي تتضمن ملايين الجنيهات، لكن الممثل العاطل عن العمل الذي يرهن سلسال ساعة جيبه ويتساءل إن كانت الساعة ستتبع السلسال الأسبوع التالي -ذلك ممتع ومشوق. لكن كتب ميريك لا تهتم فقط بصعوبة كسب الرزق. موضوعه الإذلال الذي يشعر به الشخص الحساس والصادق حين يجبر على الاحتكاك مع أناس عندهم المعايير تجارية. كريستوفر تاتهام، بطل بيغي هاربر يكتب ميلودراما تحقق نجاحاً مدوياً، بينما الكوميديات التي وضع فيها عمله الحقيقي تمزقت وبليت في رحلتها من وكيل إلى آخر. إنه تفصيل مشوق - يذكر أنه، أخيراً وبعد كل شيء، قد ارتفعت مكانة رجل الأدب أثناء السنوات الثلاثين أو الأربعين الماضية- إن المبلغ الذي يستلمه تاتهام لميلودرامته المؤلفة من خمسة فصول، هو خمسة عشر جنيهاً! لكن أجره القليل والمبخوس أقل أهمية اجتماعياً من عزله. حتى وقت متأخر جداً، هو لم يحظ بفرصة التواصل والاحتكاك بأي طريقة مع أناس يشبهونه. أمه المتكبرة السخيفة وخاله الثري "المترابط بالحجل"، أقل من يفهما وجهة نظره من مدير الممثلين السوقي الذي يشتري ميلودرامته. الارتباط الغبي الذي يدخله هو النتيجة المباشرة لعزلته. حين يلتقي ببيغي هاربر أول مرة في عمر الواحد والعشرين تقريباً، هو ربما لا يعرف -ولم يحظ أبداً بالفرصة ليكتشف- أنه توجد نساء جذابات وذكيات معاً. لم يكن له مكان في المجتمع، إلا بعد أن نجح وازدهر. عالم عائلته التجاري البليد والغبي وعالم شركات السياحة الحقير السوقي، كلاهما عدائيان نحوه، ولحسن الحظ أن العالم الأول أو الآخر لم يبتلعه.

ميريك ليس "كاتباً يضمر هدفاً وغرضاً" عن وعي وبشكل علني بأي حال. إن الروح التجارية والنزعة المادية للحضارة الناطقة بالإنكليزية شيء يهاجمه ميريك، لأنه يعتقد أن هذا شيء غير قابل للتغيير مثل المناخ الإنكليزي. وتوجد هناك الكثير من القيم المقبولة لعصره لم يشكك بها حتى. بشكل خاص هو يسلم كأمر بديهي في كل مكان بتفوق "الجنتلمان" السيد على "الشخص الذي يعوزه التهذيب" وتفوق "اللهجة الجيدة" على اللهجة الشعبية الكوكنية. وفي أغلب كتبه

هناك مقاطع، لو أنها تكتب اليوم لوصفت بالتكبر. في الواقع ميريك ليس كاتباً متكبراً -لو كان كتب ربما عن الناس الأثرياء وذوي الألقاب بدلاً من التركيز على الأنيق- الرث لكنه أصدق من يخفي ويقنع أفضلياته الغريزية. هو يشعر بقوة أن آداب المعاشرة والمشاعر الرقيقة، أشياء مهمة، وأن واحداً من أسوأ أشكال الفقر رعباً، هو أن تتلقى الأوامر من أناس تنشئتهم سيئة وطبيعتهم جلفة. مشهد صغير جميل في بيغي هاربر يوضح نوع العبودية التي يجب على رجل مثقف في شركة سياحية من الصنف المتدني التأقلم معها. كلمة "تهديد" خطرت في نص المسرحية التي تدربوا عليها، ومدير المسرح الجاهل يصر على أنها يجب أن تلفظ "تهديد"

"ما هي تلك -ماذا تسمونها؟ تهديد؟ جرذان، ذلك الباقي على قيد الحياة" هو يستمتع بوضوح باكتشافه لكلمة "باقي على قيد الحياة اكستانت" التي يعتقد أنها مرادف أكاديمي لكلمة "مهجور وقديم". ينظر حوله بحثاً عن تاتهام. ويسأل "أليست كلمة تهديد هي كلمة حي أو موجود؟" يرد عليه تاتهام "تماماً". بيغي هاربر مثل أغلب كتب ميريك -(الاستثناء البارز هو الرجل الذي كان طيباً)- "نهايته سعيدة" لكنه يتضمن خلال الكتاب كله، ذلك أن الاحتشام والذكاء عقبتان خطيرتان. في سينيثيا، وهي قصة عن روائي والصدام بين الصدق والاستقامة والخبز والزبدة (أساسيات العيش) مؤلم أكثر حتى. سينيثيا كتاب ليس من السخف أن يذكر بنفس الجملة كما كتاب جورج غيسينغ **شارع غراب الجديد** (يرمز إلى عالم أو صنف من الصحفيين والكتاب المفقرين -المترجم) لكن موضوعه واحد من المواضيع التي عالجها كتاب كثيرون. الشيء الخاص والاستثنائي أن ميريك استطاع أن يفعل الذي عجز أن يفعله أي واحد غيره، وهو إعادة إنتاج جو الحياة المسرحية من الفئة المتدنية: رائحة مكياج المسرح والسمك ورقائق البطاطا والتنافس القذر، ورحلات أيام الآحاد غير المريحة، وجرّ الحقائب عبر الشوارع الخلفية في البلدات غير المألوفة، والمساكن الاحترافية التي يشرف عليها، وغرف النوم الضيقة "ماما" ومغاسلها المتداعية، والمرحاض المحمول الأبيض الكالح تحت السرير. هل ذكر ميريك المرحاض المحمول الذي يوضع تحت السرير قط؟ على الأرجح كلا: (المرء يبدو أنه يتخيل) والمشي الطويل المجهد ذهاباً وإياباً في الستراند بأحذية نعالها مهترئة، ووكلاء المكاتب؛ حيث تجلس نسوة في عباءات مصبوغة، ينتظرن دورهن، ومجموعة من قصاصات الصحف المهجورة، والمدير الذي يهرب في وسط الرحلة مع كل الإيرادات. رغم أن ميريك كان كاتب

قصص قصيرة ناجح بعض الشيء وخصوصاً عند اقتراب نهاية حياته، فإن رواياته ذات الحجم الطبيعي لم تبع أبداً في هذه البلاد. في عام ١٩١٨ أصدرت ميسرس هودر وستاوتن طبعة موحدة لأعماله مع مقدمات كتبها اتش جي ويلز وجي كي تشيسترتون ودبلي ودي هاولز وكتاب مشهورون آخرون أعجبوا به وشعروا أنه لم يوف حقه الذي يستحقه.

مقدمة بيغي هاربر كتبها السير آرثر بينيرو. لكن الطبعة الموحدة لم تكن ناجحة أكثر مما كانته الطبعات السابقة -حقيقة مربكة جداً، لأنه خلال حياته بيعت كتب ميريك بشكل جيد نسبياً في الولايات المتحدة. التفسير الواضح لعدم شعبيته، هو أنه اختار أن يكتب عن فنانين، بينما الجمهور الكبير، كما لاحظ هو كثيراً، سيقرأ عاجلاً أو آجلاً عن السياسيين ورجال الأعمال؛ أيضاً إن كتبه هي ما يسميها المرء "رمادية" أو "كئيبة" أو "شبيهة بالحياة الحقيقة أكثر من اللازم" صحيح تماماً أن غالبية كتب ميريك بعيدة عن كونها قصصاً مبهجة وسعيدة. لقد كتبت باستهتار ومن أجل الحفاظ على الشكل الكوميدي، ولها "نهاية سعيدة" عادة، لكن مزاجها الضمني مزاج مرّ. لكن يظل من غير الواضح لماذا يجب أن يكون ميريك مشهوراً أكثر في أمريكا. يفترض أن الجمهور الأمريكي لا يميل إلى الوقوف إلى جانب الفنان ضد المجتمع أكثر من الجمهور البريطاني، ولم يقم ميريك بأي تنازلات خاصة للقراء الأمريكيين، لأن الموضوع الرئيسي لأغلب كتبه وكل جوها إنكليزي بقوة. ربما، من وجهة نظر أمريكية، الإنجلزة كانت فتنة غريبة ودخيلة، بينما نوع الفقر والفشل الذي كان يصفه ميريك لم يكن النوع الذي يخشاه الأمريكيون تماماً. بأي حال، رفض ميريك الثابت أن يرى بطانات فضية حيث لا توجد، يفترض أن له علاقة بعدم شعبيته. ربما من الهام أن يكون كتابه **كونراد في بحثه عن شبابه**، الذي بطله ثري، أنجح كتبه تقريباً. ربما من وجهة النظر الأمريكية، أن الإنكليزية كانت فتنة غريبة، بينما الفقر والفشل الذي كان يصفه ميريك لم يكن النوع الذي يخشاه الأمريكيون. بأي حال، رفض ميريك الثابت ليرى بطانات فضية حيث لم يوجد أحدها، يجب أن يكون له علاقة بعدم شعبيته. ربما من المهم أن بطل **كونراد في بحث عن شبابه** ثري، كان الأكثر نجاحاً من بين كتبه. الآن، إن الخوف من الفقر عاطفة أقل إلحاحاً والطلب على قصص السعادة أقل إلحاحاً، هو يبدو فات موعد انبعاثه عن الأحياء.

مراجعة لكتاب إف ايه هايك
الطريق إلى العبودية
وكتاب كي زيلياكوس مرآة الماضي

هذا الكتابان معاً يقدمان مبررات للفزع. أولهما دفاع بليغ عن الرأسمالية المتساهلة، والآخر شجب أعنف لها. يغطي الكتابان نفس الدافع إلى حد ما، وكلاهما يقتبسان نفس المستندات غالباً، ويبدآن بنفس المقدمة؛ حيث أن كلاً منهما يسلم بأن الحضارة الغربية تعتمد على قداسة وطهارة الفرد، لكن كل كاتب مقتنع أن السياسة الأخرى تؤدي مباشرة إلى الرق، والشيء المرعب أن كليهما قد يكون صحيحاً....

بين هذين الكتابين تتلخص ورطتنا الحالية. الرأسمالية تؤدي إلى طوابير الصدقات وفوضى السوق والحرب. الجماعية (ملكية الدولة لوسائل الإنتاج) تؤدي إلى معسكرات الاعتقال وعبادة القادة والحرب. ليس هناك مخرج من هذا، إلا حين يستطيع الاقتصاد المخطط الاتحاد بطريقة ما مع حرية العقل، ولا يمكن أن يحدث هذا، إلا إذا أعيد مفهوم الصح والخطأ إلى السياسة. لقد أدرك كل من هذين الكاتبين هذا تقريباً، لكن بما أنهما لا يستطيعان أن يظهرا أي طريقة عملية قابلة للتطبيق لإحداث ذلك، فإن الأثر الموحد لكتابيهما محزن ومثير للكآبة.

أوبزيرفر ١٩٤٤.

ذنب الحرب

عند قراءة "ذنب الحرب"، الذي تردد صداه في أعمدة المراسلة في الصحف، تلاحظ الدهشة التي اكتشف الناس بها أن الحرب ليست جريمة. بدا هتلر أنه لم يفعل شيئاً يستوجب رفع دعوى بحقه. لم يغتصب أحد ولم ينهب أي شيء بيديه، ولم يجلد أي أحد، ولم يدفن أي رجل جريح حي، ولم يقذف أي طفل في الجو ويتلقفه بالحربة، ولم يغطس أي راهبة بالنفط ويلمسها بشموع الكنيسة- في الواقع هو لم يفعل أياً من الأشياء التي نسبها إليه أعداؤه القوميون في زمن الحرب. هو أحدث حرباً عالمية فقط، كلفت عشرين مليون حياة قبل أن تنتهي. وليس في ذلك أي شيء غير قانوني. كيف يمكن أن يكون، حين تدل الشرعية على القوة ضمناً وليس هناك قوة مع السلطة لتجاوز الحدود الوطنية؟

في المحاكمات الأخيرة في خاركوف، جرت محاولات لتثبيت مسؤولية الجرائم الثانوية على هتلر وهيملر والبقية، وبيّن مجرد ضرورة القيام بهذا، أن ذنب هتلر ليس واضحاً بذاته. جريمته -كما تضمنت- لم تكن بناء جيش بهدف شن حرب عدوانية، وإنما لإعطاء الأمر لذلك الجيش كي يعذب الأسرى. وبهذا فإن الفرق بين العمل الوحشي وشن حرب، شيء منطقي ومشروع. العمل الوحشي يعني عملاً إرهابياً ليس له أي هدف عسكري حقيقي. يجب على المرء أن يقبل بهذا الفرق إن قبل بالحرب، وهو ما يفعله أي شخص في الواقع العملي، ولكن في عالم يعتبر قتل مدني فرد عملاً خاطئاً وإلقاء آلاف الأطنان من المواد المتفجرة على مناطق مأهولة بالسكان عملاً صحيحاً، يجعلني أتساءل إن لم تكن هذه الأرض التي نعيش عليها سوى صندوق تخزين يستفيد منه كوكب آخر.

التريبيون ٣١ ديسمبر كانون أول ١٩٤٣

مجرد خردة لكن من يستطيع أن يقاومها؟

ما هو أجمل دكان خردة في لندن هو مسألة ذوق أو شيء خلافي، لكني أستطيع أن أدلكم إلى بعض الدكاكين الممتازة في مناطق غرينيتش الأكثر قذارة وفي إيزلنغتون قرب الإينجل وفي هولواي في بادينغتون وفي المنطقة الخلفية على طريق إيدجوير. باستثناء اثنين قرب اللورد وحتى تلك التي في قسم من شارع حدث أن ناله العفن والفساد - لم أر قط دكان خردة يستحق نظرة ثانية فيما يسمى حياً "جيداً"

يختلف دكان الخردة عن دكان الأثريات (الأنتيكات) ولا يمكن الخلط بينهما. دكان الأنتيكات نظيف وبضاعته مرتبة بطريقة جذابة ومسعرة بضعف قيمتها، وبمجرد أن تكون داخل المحل، فستجبر على شراء شيء ما عادة.

دكان الخردة فيه طبقة رقيقة من الغبار على الواجهة، ومخزونه يتضمن حرفياً أي شيء لا يفنى أو يفسد، ومالكه الذي يكون نائماً عادة في غرفة صغيرة في الخلف، لا يبدي أي تشوق للبيع. كما أن أجمل كنوزه لا تكتشف أبداً من النظرة الأولى، إذ يجب أن يعرف ويحدد من بين أطباق الخيزران التي تكون على حامل، ويعرض عليها الكعك وأغطية أطباق ماركة بريطانية وساعات الجيب والكتب المطوية صفحاتها من الزوايا، وأواني شرب الخمر التي بلا سدادات، وبيض النعام، وآلات الطباعة التي انقرضت صناعتها، والطيور المحشية (المصبرة) ومجموعات المفاتيح، والنظارات التي بلا عدسات، والمسامير والصواميل، وشاشات معدنية توضع أمام فتحة الموقد لتمسك بالشرر، وأصداف محار من المحيط الهندي، وجرار النزنجبي الصيني، وصور لقطيع هايلاند.

بعض الأشياء التي تبحث عنها في دكان الخردة هي بروشات دبابيس زينة من العصر الفيكتوري وقلادات العقيق وأشباه الأحجار الكريمة.

ربما هناك خمسة أشياء قبيحة بشكل شنيع من ستة، لكن هناك أشياء جميلة جداً أيضاً بينها. هناك أشياء رصعت بالفضة أو بذهب مزيف على الأغلب، سبيكة ساحرة لم تعد تصنع لسبب ما. أشياء أخرى تستحق البحث...... علب العطوس التي على أغطيتها صور، والأباريق

ألمطلية بهادة لماعة، والمسدسات ألتي تلقم من فوهتها صنعت في عام ١٨٣٠ وسفن في قوارير هذه لا تزال تصنع، لكن القديمة هي الأفضل دائماً بسبب شكل القناني الأنيق واللون الأخضر الأنيق للزجاج، وزجاج الثريات. وهناك صناديق الموسيقى ولوحات الخيول النحاسية، وقرون أبواق البارود النحاسية، ولوحات الخيول النحاسية وأباريق اليوبيل الفضي (لسبب ما أنتج يوبيل ١٨٨٧ تذكارات مرضية أكثر من اليوبيل الذي حدث بعد عشر سنين) وثقالات الورق الزجاجية مع صور في القعر.

هناك أشياء أخرى التي فيها قطعة من الياقوت المغلف بالزجاج، لكن أسعارها باهظة بشكل خيالي دائماً. أو يمكن أن تصادف كتاب خردة مملوء بأطباق على النمط الفيكتوري، وزهوراً مضغوطة أو حتى إن كنت محظوظاً بشكل استثنائي فستجد كتاب خردة الأخ الكبير، شاشة خردة.

شاشات الخردة نادرة جداً في هذه الأيام -هي مجرد شاشات من خشب أو قماش مع خردة ملونة مقطعة وملصقة فوقها بطريقة تجعل الصورة متناسقة. أفضلها صنعت في عام ١٨٨٠ تقريباً، لكن إن اشتريت واحدة من محل خردة، فمن المؤكد أن تكون عاطلة، والسحر الكبير الناتج عن ملكية مثل هذه الشاشة، يكمن في أنك تلصق القطع وترتبها بنفسك.

يمكنك استعمال نسخ ملونة من المجلات الفنية وكروت عيد الميلاد والملصقات والإعلانات وأغلفة الكتب وحتى كروت السجائر. هناك دائماً متسع لقطعة من الخردة، وبوضعها بحذر أي شيء يمكن أن يبدو ملائماً ومنسجماً.

وهكذا في ركن من شاشة الخردة خاصتي، وجد لوحة لاعبي الورق لسيزان مع قارورة سوداء بينهم، في منظر في أحد شوارع فلورنسا في القرون الوسطى. بينما على الطرف الآخر من الشارع، إحدى لوحات غوجين لسكان جزر البحر الجنوبي يجلسون بجانب بحيرة إنكليزية؛ حيث سيدة بأكمام مثلثية الشكل تجذف قارباً. كلها تبدو في انسجام مثالي معاً.

كل هذه الأشياء تحفٌ، ولكن المرء يجد أشياء نافعة في محل الخردة أيضاً.

في دكان في كينتش تاون، منذ أن قصفت بغارة جوية، اشتريتُ حربة بارودة فرنسية قديمة بستة بنسات، استخدمتها كمذكي نار لمدة أربع سنوات. وخلال السنين القليلة الماضية كان

دكان الخردة المكان الوحيد الذي تستطيع أن تجد فيه أدوات نجارة معينة - كالمسحاج مثلاً، أو أشياء مفيدة كهذه، كنازع سدادات الفلين ومفاتيح الساعات ودواليب عربات الأطفال.

في بعض الدكاكين، يمكن أن تجد مفاتيح تفتح أي قفل، ومجلات أخرى متخصصة بالصور، لذلك حين تحتاج إلى إطار تجده. أنا وجدت دائماً أن أرخص طريقة لشراء إطار، هي شراء صورة ثم رميها من الإطار.

لكن جاذبية دكان الخردة لا تكمن في الصفقات الناجحة التي تعقدها فقط ولا حتى في القيمة الجمالية التي - في تقدير سخي - ربما تمتلك خمسة بالمائة. جاذبيته تكمن في غراب الزرع الموجود في داخل كل واحد منا والغريزة التي تجعل الطفل يجمع المسامير النحاسية ونوابض الساعات والرخام الزجاجي من قناني الليمون. أنت تحصل على المتعة من دكان أنت لست مجبراً على شراء أي شيء منه ولا حتى الرغبة بشرائه.

أعرف دكاناً في توتنهام كورت رود، حيث لم أر قط ولسنوات كثيرة أي شيء لم يكن قبيحاً بشكل مهين، ودكان آخر ليس بعيداً عن بيكر ستريت؛ حيث يوجد فيه شيء مغرٍ دائماً. الدكان الأول يجذبني بنفس القوة التي يجذبني فيها الدكان الثاني.

دكان آخر في منطقة تشوك فارم لا يبيع سوى أجزاء متفرقة ونفاية من المعادن القديمة. وأتذكر منذ وقت بعيد جداً نفس الأدوات البالية ومواسير الرصاص المرمية في صياني ونفس مدافئ الغاز تتفسخ في المدخل. لم أشتر أي شيء قط من هناك، ولم أر قط شيئاً فكرت في شرائه. مع هذا يستحيل علي أن أمر بذلك الطريق من دون أن أعبر الشارع وألقي نظرة جيدة في الدكان.

مقال السبت، إيفنينغ ستاندارد، ٥ يناير ١٩٤٦.

مراجعة الطريقة البريطانية في الحرب
بقلم بي اتش لندل هارت

هذه المجموعة من المقالات المنشورة والمنقحة، التي كتبت منذ عام ١٩٣٢ وما بعد، هي بشكل رئيسي تاريخ لتطور الجيش البريطاني في السنوات التي بين الحربين. لكن في الفصول الافتتاحية تحتوي مسحاً ونظرة عامة إلى "الإستراتيجية بريطانية التقليدية الكبرى"، وهي القسم الأكثر تشويقاً وإثارة في الكتاب والأكثر أهمية حتى هذه اللحظة. المعركة من أجل المكننة تمّ الفوز بها على أي حال على الورق، لكن الجدال والخلاف حول الجبهة الثانية مازال محتدماً، ونظريات الكابتن لندل وثيقة الصلة جداً بها.

ما هي "الاستراتيجية التقليدية" التي هجرناها، والتي يشير الكابتن لندن ضمناً إلى أننا يجب أن نعود إليها؟ باختصار، استراتيجية الهجوم غير المباشر والأهداف المحدودة. مورست بنجاح عظيم في حروب النهب البريطانية في القرن الثامن عشر، ولم تسقط إلى العقد الذي كان قبل عام ١٩١٤ حين دخلت بريطانيا في تحالف مرهق مع فرنسا. تكنيكها تجاري في جوهره. أنت تهاجم عدوك بشكل أساسي بواسطة الحصار والقرصنة وغارات المغاوير المحمولة بحراً. تتجنب جيشاً ضخماً، وتترك القتال الأرضي بأقصى ما يمكن للحلفاء القاريين الذين يبقونها مستعرة ومتواصلة بواسطة المساعدات المالية. بينما حلفاؤك يقومون بالقتال عنك، أنت تغنم وتأسر تجارة عدوك البحرية وتحتل مستعمراته البعيدة عن المركز. في أول لحظة مناسبة تعقد صلحاً إما بإبقاء الأراضي التي اغتنمتها أو استخدامها كأوراق مساومة. هذه كانت في الواقع استراتيجية بريطانيا المميزة لمدة مائتي سنة، ومصطلح **بريطانية الغدارة** كان مبرراً تماماً بقدر تلك الدرجة التي كان فيها سلوك الدول الأخرى مشابهاً أخلاقياً. حروب القرن الثامن عشر تشن بروح مرتزقة جدد، لذلك تكون العملية معكوسة وتبدو "أيديولوجية" للأجيال القادمة أكثر بالنسبة إلى الناس الذين خاضوها وقاتلوا فيها. لكن في أي حال، فإن استراتيجية "الأهداف

المحدودة" من غير المحتمل أن تكون ناجحة، إلا إذا كنت راغباً ومستعداً لأن تخون حلفاءك كلما كان فعل ذلك مفيداً ومجدياً لك.

في ١٩١٤-١٩١٨ كما هو معروف جيداً، نحن قطعنا مع ماضينا، وأخضعنا استراتيجيتنا إلى استراتيجية حليف خسر مليون قتيل. تعليقاً على هذا يقول ليندل هارت: "لم أستطع أن أجد في ظروف الحرب تفسيراً مرضياً لتغييرنا......... ولم يظهر كما يبدو أي سبب أساسي للتغيير كسياسة تاريخية. لهذا يميل المرء إلى اعتبارها تغييراً في الشكل - في شكل الفكر العسكري الذي أحدثه كلوزويتز. كلوزويتز هو العبقري الشرير للفكر العسكري. علم أو يفترض أنه علم أن الاستراتيجية الملائمة أن تهاجم أقوى عدو لك، وأن لا شيء يحل إلا بالقتال والمعارك، وأن "الدم هو ثمن النصر". مفتونة بهذا النظرية، جعلت بريطانيا بحريتها سلاحاً مساعداً وفرعياً، وأمسكت بسيف لامع مصنوع في القارة. الآن هناك شيء مزعج في تتبع أثر التغيير التاريخي لمنظر فرد، لأن النظرية لا تتطور وتنتشر حتى تساعدها ظروف مادية. لو توقفت بريطانيا عن كونها **بريطانيا الغدارة** لمدة أربع سنوات، لكان هناك مبررات أعمق من ارتباط السير هنري ويلسون مع هيئة الأركان الفرنسية. بداية، من المشكوك فيه جداً إن كانت استراتيجيتنا "التقليدية" لاتزال شغالة وتعمل أم لا. في الماضي اعتمدت استراتيجيتنا على توازن القوى الذي أصبح محفوفاً بالمخاطر كثيراً منذ عام ١٨٧٠ وصاعداً وعلى مزايا جغرافية قللتها التطورات التقنية الحديثة. بعد عام ١٨٥٠ لم تعد بريطانيا القوة البحرية الوحيدة، بالإضافة إلى تقلص مجال الحرب البحرية ككل. بهجر الشراع أصبحت الأساطيل أقل قدرة على الحركة، وكان الوصول إلى البحار الداخلية متعذراً بعد اختراع الألغام البحرية، وفقد الحصار قوته بسبب علم البدائل ومكننة الزراعة. بعد صعود ألمانيا الحديثة بات من الصعب لنا أن نستغني عن الحلفاء الأوروبيين، وأحد الأشياء التي يقدر الحلفاء الإصرار عليها، أن عليك أن تقوم بحصتك العادلة من القتال. المساعدات المالية ليس لها معنى حين تشمل الحرب الجهود الشاملة لكل أمة مولعة بالقتال.

العيب الحقيقي لهذه المقالات المحفزة، يكمن في عدم استعداد الكابتن ليندل هارت للاعتراف بأن الحرب تبدل طابعها وهويتها. استراتيجية "الأهداف المحدودة" تتضمن أن

عدوك نفس نوع الشخص مثلك أنت؛ أنت تريد أن تهزمه وتتفوق عليه، لكن ليس من الواجب عليك لسلامتك أن تبيده أو حتى في أطوار لاحقة أن تتدخل في سياسته الداخلية. هذه الظروف كانت متواجدة في القرن الثامن عشر وحتى في أطوار لاحقة من الحروب النابليونية، لكنها اختفت في عالم الذرة الذي نعيش فيه الآن. في عام ١٩٣٢ أو في تاريخ قريب كان الكابتن ليندل هارت قادراً على أن يقول "هل كان هناك قط شيء كحرب مطلقة منذ أن توقفت الأمم عن إبادة المهزوم أو استعباده؟". المشكلة أنها لم تتوقف. العبودية التي بدت شيئاً نائياً كأكل لحوم البشر في عام ١٩٣٢ تعود بشكل مرئي في عام ١٩٤٢ وفي هكذا ظروف يستحيل أن تستخدم الأسلوب القديم لحرب مربحة محدودة هدفها فقط "حماية المصالح البريطانية" وعقد صلح في أول لحظة مواتية. كما قال موسوليني بصدق، لا يمكن أن تتعايش الديمقراطية والديكتاتورية جنباً إلى جنب. حقيقة غريبة لم ينتبه إليها أحد: في الحرب الحالية، شنت بريطانيا حتى الآن نوع الحرب الذي يؤيده الكابتن ليندل هارت. نحن لم نقاتل حملة قارية كبيرة المقاس، نحن استهلكنا حليفاً تلو الآخر وكسبنا أراضي أكثر بكثير وأغنى من تلك التي خسرناها. مع ذلك لا الكابتن ليندل هارت ولا أي أحد آخر يجادل بأن الحرب سارت بشكل جيد بالنسبة إلينا. لا أحد يؤيد أننا يجب أن نمسح المستعمرات الفرنسية والإيطالية الباقية، ثم نتفاوض من أجل سلام مع ألمانيا، لأن حتى الشخص الجاهل يرى أن هكذا سلام لن يكون نهائياً. بقاؤنا يعتمد على تدمير النظام السياسي الألماني الحالي الذي يتضمن تدمير الجيش الألماني. من الصعب ألا تشعر أن كلوزويتز كان محقاً في تعليمه أنه "يجب أن تركز ضد العدو الرئيسي الذي يجب أن يطاح به أولاً" وأن "القوات المسلحة تشكل الهدف الحقيقي" على الأقل في أي حرب تكون فيها قضية أيديولوجية أصيلة.

إلى درجة ما، تكون نظريات الكابتن ليندل هارت التكتيكية منفصلة عن نظرياته الاستراتيجية. وهنا بررت الأحداث كل نبوءاته بشكل جيد. لا يوجد كاتب عسكري في زمننا فعل أكثر من إنارة الرأي العام. لكن حربه المبررة مع البليمبس ربما طغت على أحكامه. الناس الذين سخروا من المكننة ولازالوا يعملون بقوة لتقليل التدريب العسكري إلى روتين من النباح والدوس بالأقدام، هم يؤيدون أيضاً الجيوش الضخمة والهجمات

الجبهية وحمل الحراب وبشكل عام سفك الدماء الذي لا معنى له. مشمئزاً من مشهد باسشيندايلي، يبدو الكابتن ليندل هارت يعتقد أن الحروب يمكن الفوز بها في الوضع الدفاعي أو بدون قتال -و في الواقع إن حرباً بنصف انتصار، أفضل من حرب بانتصار كامل. ذلك يبقى جيداً فقط حين يفكر عدوك بنفس الطريقة التي تفكر فيها، حالة اختفت حين لم تعد الأرستقراطية تحكم أوروبا.

نيوستيتمان أند نيشن

٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٢

كلا ليس واحداً

لا لمثل هذه الحرية - مراجعة نقدية لمقالة أليكس كمفورت- ادلفي أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤١

قال السيد موراي منذ سنوات إن أعمال أفضل الكتاب الحديثين جويس وإليوت وأمثالهما، تثبت ببساطة استحالة الفن العظيم في زمن كالزمن الحاضر. ومنذ ذلك الحين تقدمنا إلى الأمام إلى فترة أصبح فيها أي نوع من الفرح في الكتابة وأي فكرة كهذه كرواية قصة من أجل غرض التسلية الصرفة، مستحيلاً أيضاً. وفي الوقت الحاضر باتت كل الكتابة دعاية. لذلك إذا عاملت رواية السيد كمفورت ككراسة، فأنا أفعل ما فعله هو مسبقاً. إنها رواية جيدة حسب الروايات اليوم، لكن الحافز لكتابتها لم يكن مما يعتبره كل من ترولوب وبلزاك وحتى تولستوي حافزاً روائياً. لقد كُتبت لتقترح "رسالة" السلمية (رفض العنف)، وكان يجب عليها أن تناسب هذه الرسالة، لذلك ابتدعت الحوادث الرئيسية. وأعتقد أيضاً أنه لدي المبرر في الافتراض بأنها رواية سيرة ذاتية، ليس بمعنى أن الأحداث الموصوفة فيها حدثت فعلياً، وإنما بمعنى أن المؤلف يتماثل مع البطل ويظنه يستحق التعاطف، ويتفق معه بالعواطف والآراء التي يعبر عنها.

هذا موجز القصة. طبيب ألماني شاب كان في نقاهة لمدة سنتين في سويسرا. يعود إلى كولونيا قبل ميونيخ بقليل، ليجد أن زوجته كانت تساعد مقاومي الحرب للفرار من البلاد، وأنها في خطر وشيك من اعتقالها. يفران هو وهي إلى هولندا في الوقت المناسب، وينجوان من المذبحة التي تلت اغتيال فوم راث، ويصلان بالصدفة إلى إنكلترا بعد أن أصيب بجرح خطير على الطريق. بعد تعافيه ينجح في الحصول على تعيين بوظيفة في مستشفى، لكن مع اندلاع الحرب يجلب ليمثل أمام القضاء، ويوضع في الفئة باء من الأجانب، والسبب هو تصريحه بأنه لن يقاتل ضد النازيين، لاعتقاده أن الأفضل "قهر هتلر ودحره بواسطة الحب"، ولكنه حين سئل لماذا لم يبق في ألمانيا وانتصر على هتلر بواسطة الحب هناك، اعترف بأنه لا يملك إجابة. في

الرعب الذي تلا غزو البلدان المنخفضة، يعتقل لبضع دقائق بعد أن ولدت زوجته طفلاً، ويبقى في معسكر اعتقال وقتاً طويلاً؛ حيث لم يستطع الاتصال مع زوجته؛ وحيث ظروف القذارة والازدحام إلخ إلخ سيئة كما أي شيء في ألمانيا. أخيراً يرحل إلى "اراندورا ستار" (أعطيت اسماً آخر طبعاً) ويغرق في البحر وينقذ ويوضع في مخيم آخر أفضل نوعاً ما. حين يطلق سراحه أخيراً ويتواصل مع زوجته، يجد أنها محتجزة في مخيم آخر، وأن الطفل مات فيه بسبب الإهمال وسوء التغذية. ينتهي الكتاب بالزوجين يتطلعان إلى الإبحار إلى أمريكا، ويأملان ألا تنتشر حمى الحرب في هذا الوقت إلى هناك أيضاً.

تأمل واقعة أو اثنتين تشكلان أساس تركيبة المجتمع الحديث، ومن الضروري تجاهلهما، إذا كنا سنقبل بالرسالة السلمية بلا نقد.

(أ) ترتكز الحضارة أساساً على القسر. إن الذي يحفظ تماسك المجتمع ليس رجل الأمن، وإنما الإرادة الطيبة لعوام الناس العاديين، ولكن الإرادة الطيبة تكون بلا سلطة أو قوة إذا لم يكن رجل الأمن هناك لدعمها. أي حكومة ترفض استخدام العنف في دفاعها الذاتي، تنتهي مباشرة تقريباً من الوجود، لأنه يمكن لأي أحد من الرجال أو حتى أي فرد أن يطيح بها، وذلك أقل الوساوس.

موضوعياً، أي امرئ ليس في صف رجل الأمن هو في صف المجرم، والعكس صحيح أيضاً. بالقدر الذي تعيق فيه السلمية البريطانية جهود الحرب في بريطانيا، فإنها تقف في صف النازيين، وكذلك السلمية الألمانية إن وجدت، فهي في صف بريطانيا والاتحاد السوفييتي. وبما أن السلميين لديهم حرية أكثر في العمل في البلدان التي نجا فيها القليل من الديمقراطية، فإن السلمية تستطيع فيها أن تعمل بفعالية ضد الديمقراطية بشكل أكبر مما تفعله لمصلحتها.

موضوعياً، إن السلمي مؤيد للنازيين.

(ب) بما أن القسر لا يمكن التخلص منه أبداً، فإن الفرق الوحيد يكمن في درجات العنف. خلال العشرين سنة الأخيرة، كان هناك عنف وعسكرة داخل العالم الناطق باللغة الإنكليزية، أقل مما كان في خارجه. كما أن كره الحرب الذي يميز شخصية الشعوب الناطقة بالإنكليزية بلا شك، هو انعكاس لوضعهم المفضل، وأن السلمية قوة مهمة فقط في الأماكن

التي يشعر فيها الناس بالأمان الشديد، وبشكل أساسي في البلدان البحرية. حتى في مثل هذه الأماكن، فإن سلمية أدر الخد الآخر، لا تزدهر إلا وسط الطبقة الأكثر غنى وازدهاراً أو وسط عمال نجوا بطريقة ما من طبقتهم. الطبقة العاملة الحقيقية، رغم أنها تكره الحرب ولديها مناعة ضد التعصب القومي (الشوفينية)، فهي ليست سلمية أبداً، لأن حياتها علمتها شيئاً مختلفاً. لكي تنبذ العنف، فمن الضروري ألا يكون لك تجربة فيه. إذا تذكر المرء الحقائق الآنفة، يستطيع كما أعتقد أن يرى الأحداث في رواية السيد كمفورت في منظور حقيقي أكثر. القضية تكمن في أن تضع مشاعرك الشخصية جانباً، وتحاول أن ترى إلى أين تؤدي أفعال المرء فعلياً ومن أين نبعت دوافعه أخيراً. البطل باحث - أخصائي في علم الأمراض، ولم يكن محظوظاً بشكل خاص، وكانت لديه رئة فيها خلل نتيجة الحصار البريطاني المستمر في عام ١٩١٩. وبما أنه فرد من أفراد الطبقة الوسطى ويقوم بعمل اختاره بنفسه، فهو واحد من بضعة ملايين من البشر المميزين الذين يعيشون على انحطاط وتفسخ البقية. هو يريد أن يبدأ بعمله، ويريد أن يكون خارج منال الطغيان والاستبداد النازي، لكنه لن يعمل ويقاتل ضد النازيين بأي شكل آخر غير الهروب بعيداً عنهم. بعد أن وصل إلى إنكلترا، يرتعب من أن يعيدوه إلى ألمانيا، لكنه يرفض أن يشارك في أي جهد بدني لمنع النازيين من الدخول إلى إنكلترا. أمله الكبير أن يصل إلى أمريكا مع ثلاثة آلاف ميل من الماء بينه وبين النازيين. سوف لن يصل إلى هناك إذا لم تحمه السفن والطائرات البريطانية على الطريق، وبعد أن يصل إلى هناك سيعيش هناك تحت حماية السفن والطائرات الأمريكية بدلاً من البريطانية. إن كان محظوظاً، سيكون قادراً أن يستمر في عمله كعالم أمراض، وفي الوقت نفسه يحافظ على موقفه المتمثل بالتفوق الأخلاقي على الرجال الذي جعلوا عمله ممكناً وتحت كل شيء سيظل هناك موقفه كباحث وكشخص مميز يعيش أخيراً على الأرباح والحصص التي سوف تنتهي فوراً، إذا لم تُنتزع بالتهديد بالعنف.

أنا لا أعتقد أن هذا ملخص غير عادل لكتاب السيد كمفورت، وأعتقد أن الحقيقة اللازمة هي أن هذه قصة طبيب ألماني كتبها رجل إنكليزي. الحجة الموجودة ضمنياً في كل العمل والمبينة بشكل صريح أحياناً، هي أنه ليس هناك فرق تقريباً بين بريطانيا وألمانيا؛ فهناك اضطهاد سياسي بنفس الدرجة في كلا البلدين، وهؤلاء الذين يقاتلون ضد النازيين دائماً يصبحون نازيين هم أنفسهم، وسيكون مقنعاً أكثر لو جاء من ألماني. هناك ربما ستون ألف

لاجئ ألماني في هذه البلاد، وسيكون هناك مئات الآلاف الآخرين إذا لم نمنعهم من الدخول بحقارة. لماذا يأتون إلى هنا إذا لم يكن هناك فعلياً أي فرق في الجو الاجتماعي بين البلدين الاثنين؟ وكم عدد الذين طلبوا العودة منهم؟ هم "صوتوا بأقدامهم" كما قال لينين، وكما أشرت آنفا فإن اللطف المقارن للحضارة الناطقة بالإنكليزية، يعود سببه إلى المال والأمن، لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد أي فرق. لكن لنعترف ونسلم بوجود اختلاف محدد، وأن هوية الفائز بالحرب تهمنا كثيراً، وأن تسقط حجة السلمية القصيرة المدى المعتادة على الأرض. لا يمكنك أن تكون مؤيداً للنازية بشكل صريح من دون الادعاء بأنك سلمي -وهي حجة قوية جداً للنازيين، لكن ليس هناك عدد كبير من الناس لديهم الشجاعة للتلفظ بها- لكنك تستطيع التظاهر بأن النازية والديمقراطية تؤمان متشابهان (تويدلدوم وتويدلدي) لو تظاهرت بأن الرعب من عمليات التطهير في يونيو/ حزيران شُطبت وألغيت برعب مماثل من إنكلترا. في الواقع لقد جرى هذا بواسطة انتقاء ومبالغة. إن السيد كمفورت في الحقيقة يدعي أن "الحجة الصلبة" أنموذجية. عذاب وآلام هذا الطبيب الألماني في بلد يسمى بالديمقراطي، رهيبة جداً ويقول ضمناً ـ لكي يمسح ويلغي أثر التبرير الأخلاقي للصراع ضد الفاشية. لكن يجب على المرء أن يُبقي على إحساس بالتناسب. قبل الصراخ بأن ألفين من أسرى الحرب لا يملكون إلا ثمانية عشر سطلاً للمرحاض، يمكنه أن يتذكر أيضاً ماذا حدث خلال السنوات القليلة الأخيرة في بولندا وفي إسبانيا وفي تشيكوسلوفاكيا إلخ إلخ. إن اقترب المرء كثيراً جداً من صيغة أن "هؤلاء الذين يقاتلون ضد الفاشية يصبحون فاشيين هم أنفسهم"، فإنه سيُقاد إلى التزييف والتشويه. ليس صحيحاً مثلاً كما يقول السيد كمفورت ضمناً وجود هوس منتشر من الجواسيس وتحامل ضد الأجانب يزداد بتصاعد زخم الحرب. إن الشعور ضد الأجانب الذي كان أحد العوامل التي جعلت اعتقال اللاجئين ممكناً، اختفى بالتدريج، ويسمح الآن للألمان والإيطاليين بوظائف كانت محظورة عليهم لو كانوا في زمن السلم. ليس صحيحاً، كما يقول بوضوح، أن الفرق الوحيد بين الاضطهاد في إنكلترا وفي ألمانيا، لا أحد يسمع به في إنكلترا. وليس صحيحاً أن الشر في حياتنا يعود إلى الحرب أو الاستعداد للحرب. هو يقول "أنا أعرف أن الشعب الإنكليزي يحب الألمان ولم يكن سعيداً أبداً منذ وضع ثقته في إعادة التسلح". هل كانوا (الشعب) سعداء بشكل بارز من قبل؟ أليست الحقيقة هي نقيض

ذلك، وأن إعادة التسلح قللت البطالة وجعلت الشعب الإنكليزي أسعد نوعاً ما؟ من خلال مراقبتي، يجب أن أقول إن الحرب عموماً جعلت إنكلترا أسعد، وهذه ليست حجة لصالح الحرب، لكنها ببساطة تخبرنا شيئاً ما عن طبيعة السلام المزعوم.

إن القضية القصيرة الأمد العادية للسلمية في الزعم بأنك تستطيع أن تحبط النازيين بأفضل شكل بألا تقاومهم، لا يمكن أن تدوم وتبقى. إذا لم تقاتل النازيين، فأنت تساعدهم، ويجب عليك أن تعترف بذلك. لأن القضية الطويلة الأجل للسلمية، يمكن أن توضح وتفهم. يمكنك القول: "نعم أنا أعرف أنني أساعد هتلر وأريد أن أساعده. دعوه يهزم بريطانيا والاتحاد السوفيتي وأمريكا. دعوا النازيين يحكمون العالم؛ في النهاية سوف يتطورون إلى شيء مختلف". هذا موقف لا يمكن الدفاع عنه أبداً، ويتطلع إلى التاريخ البشري، وأبعد من مدة حياتنا. إن الذي يتعذر الدفاع عنه هو فكرة أن كل شيء في الحديقة سيكون جميلاً الآن لو أوقفنا القتال الشرير فقط، ولكي تدافع وترد هو بالضبط ما يريده النازيون منا أن نفعله. ممن يخشى هتلر أكثر، من اتحاد التعهد بالسلام أم من سلاح الجو الملكي؟ أيهما سبب تخريباً أكثر؟ هل هو يحاول أن يجلب أمريكا إلى الحرب أم يبعدها ويبقيها خارجها؟ هل سيحزن كثيراً إن توقف الروس عن القتال غداً؟ وأخيراً، لقد بين تاريخ العشر سنوات الأخيرة أن هتلر لديه فكرة ظريفة وذكية لمصالحه الخاصة.

إن الفكرة بأنك تستطيع أن تهزم العنف بالاستسلام له، هي ببساطة فرار من الواقع. كما قلت هي ممكنة فقط للناس الذين يملكون المال والبنادق والحقيقة. لكن لماذا يريدون القيام بهذا الفرار بأي حال؟ لأنهم يكرهون العنف بصدق، وهم لا يريدون أن يعترفوا بأنه متمم للمجتمع الحديث، وأن مشاعرهم المرهفة ومواقفهم النبيلة كلها ثمرة الظلم المدعوم بالقوة. لا يريدون أن يعلموا من أين تأتي دخولهم. تحت هذا يكمن الواقع الصعب الذي يصعب جداً على بعض الناس مواجهته بأن الخلاص الفردي ليس ممكناً، وأن الخيار أمام البشر – كقاعدة- ليس خياراً بين الخير والشر وإنما بين شرين. يمكن أن تدع النازيين يحكمون العالم؛ ذلك شر؛ أو يمكنك الإطاحة بهم بالحرب، وهذا شر أيضاً. ليس هناك خيار آخر أمامكم، ومهما اخترتم، فلن تخرجوا بأيدٍ نظيفة. يبدو لي أن النص من أجل زمننا ليس "الويل لمن يأتي الشر من خلاله"، بل النص الذي أخذت منه عنوان هذه المقالة "ليس هناك أحد صالح ومستقيم

أخلاقياً، كلا لا أحد"، وكلنا لمس الملعب، كلنا نموت بالسيف. نحن لا نملك الفرصة في زمن كهذا لنقول "غداً نستطيع أن نكون أخياراً" ذلك هراء. ليس لدينا غير فرصة اختيار الشر الأقل والعمل من أجل تأسيس مجتمع جديد تكون الحشمة العامة فيه ممكنة مرة أخرى. ليس هناك شيء كالحيادية في هذه الحرب. كل سكان العالم متورطون فيها. من سكان الأسكيمو إلى الاندامانيين (جزر في أرخبيل البنغال). وبما أن المرء يجب أن يساعد بشكل محتوم هذا الطرف أو ذاك، فمن الأفضل له أن يعرف ماذا يفعل وأن يحسب التكلفة. رجال مثل دارلان ولافال يمتلكون الشجاعة بأي شكل، فقد أخذوا خيارهم وأعلنوه صراحة وعلى المكشوف، ويقولون إن النظام الجديد "يجب أن يسحق إنكلترا". في أي حال يظهر السيد موري أحياناً وهو يفكر مثلهم وبنفس الطريقة، فهو يقول إن النازيين "يقومون بأعمال الرب القذرة" (هم بالتأكيد قاموا بمهام قذرة بشكل استثنائي حين هاجموا روسيا) ونحن يجب أن نكون حريصين "خشية ألا يكون قتالنا ضد هتلر قتال ضد الرب". هذه ليست مشاعر وآراء سلمية، لأننا لو نقلناها إلى نتيجتها المنطقية، فإنها لا تتضمن الاستسلام لهتلر فقط وإنما مساعدته في حروبه القادمة المتنوعة. وهي آراء مباشرة وشجاعة على الأقل. أنا نفسي لا أرى هتلر كمخلص للإنسانية، ولا حتى المخلص اللاواعي، لكن هناك حجة قوية للتفكير بأنه هكذا وأقوى بكثير مما يتخيله أغلب الناس في إنكلترا. ليست هناك حجة لشجب هتلر، وفي الوقت نفسه تنظر باحتقار إلى الناس الذين يحمونك من براثنه فعلياً. ذلك ببساطة شكل مختلف رفيع الثقافة للنفاق البريطاني ونتاج لرأسمالية متعفنة، وشيء بسببه يحتقرنا الأوروبيون الذين يفهمون طبيعة رجل الأمن وإيراد الحصة الإضافية بشكل مبرر وعادل.

ادلفي، أكتوبر ١٩٤١.

بلوغ اليابسة، بقلم نيفيل شوت
ونيل كرنتشر، بقلم آلبرت كوهين

يقال عموماً إن كل كائن بشري مادة لكتاب جيد. وبالقياس عليه يصح القول إن كل كتلة من الحجر تحتوي تمثالاً، وربما الأقرب إلى القصد أن كل من يقدر على حمل قلم يستطيع أن يكتب رواية جيدة من النوع المتواضع، إن نجح في فترة ما من حياته أن ينجو من المجتمع الأدبي. ليس هناك نقص في الكتاب البارعين في الوقت الحاضر، لكن المشكلة أن هؤلاء الكتاب مفصولون عن الحياة في زمنهم، لدرجة أنهم عاجزون عن الكتابة عن الناس العاديين. تملك الرواية "المميزة" فناناً أو شبه فنان كبطل فيها دائماً تقريباً، لكن هناك تجربة واحدة لكل الكائنات البشرية على السواء تقريباً، ألا وهي الحرب. ولدى "المثقف" فرصة في رؤية حرب عن كثب، لن يرى مثلها قط على الأبواب، لأنه لن يرى أبداً مثلاً إفلاس الأسهم أو التأمين البحري، وبالتالي ستكون هناك كتب جيدة عن الحرب شائعة إلى حد ما. إن الحرب الحالية بسبب طبيعتها الفريدة، لم تنتج أدبها الخاص بها بعد، لكن **بلوغ اليابسة** للسيد نيفيل شوت هي البداية. إنها قصة مقنعة ومباشرة، وسأبقي عيني مفتوحتين من أجل كتب السيد شوت في المستقبل.

ما يجعلها مشوقة، أنها تظهر الغرابة الجوهرية للحرب كمزيج من البطولة والخسة. تدور القصة كلها حول الغيرة بين البحرية وسلاح الجو بخصوص السيطرة على الفرقة الساحلية. البطل طيار شاب يُتهم بقصف غواصة بريطانية وإغراقها. هو لم يفعل هذا في الواقع، لكنه وجد نفسه مداناً من قبل هيئة التحقيق المؤلفة من ضباط بحرية متحاملين ضده. يُبرئ لاحقاً بطرق ملتوية وسلسلة من الظروف المقنعة بشكل غريب. حلقة الوصل الرئيسية فيها مزحة قذرة حول مانعات الحمل. تبين الطريقة التي يتناولها المؤلف فيها، أفضلية أن يعيش إنسان مفكر في ظروف متساوية مع رجال لا يفكرون. الطيار الشاب غير مثقف أبداً. هواياته الحصول على محطات صعبة في اللاسلكي وتركيب سفن ألعاب يشتري قطعها المصنعة مسبقاً؛ ينجح في مغازلة نادلة في بار يتزوجها أخيراً. وهناك فصول كاملة من نوع المحادثة التي يسمعها المرء مراراً وتكراراً في بهو الحانات مملوءة بمعانٍ مزدوجة و"أوه ألست مرعباً!" لكن

المؤلف لا يعالج أياً من هذا بشكل ساخر، وهو يفهم وجهة نظر الطيار الشاب، لأنه في وقت من حياته كما يفترض شاركه هذه التجربة، ويستطيع الوقوف داخله وخارجه أيضاً، ويدرك أنه بطولي وطفولي أيضاً وكفؤ وساذج أيضاً. النتيجة قصة بسيطة وجيدة تخلو من البراعة بشكل سائغ، وأحياناً مثيرة بصدق.

نيل كرانتشر من الجانب الآخر، هي واحدة من أكثر الروايات الطنانة التي قرأتها لزمن طويل. إنها ضخمة وقصة مضحكة بشكل متعمد عن يهود شبه معاقين في جزيرة سيفالونيا اليونانية أولاً، ثم في سويسرا لاحقاً. المميز فيها بشكل رئيسي طولها وقرف مقاطعها الداعرة. حالما وصلت إلى أول هذه، قلبت على الغلاف المغبر الذي فيه دعاية الكتاب، وأنا أعرف جيداً أي صفة سأجدها وواثق تماماً بأنها هناك- "رابليازيان". من الغريب أن هذه الكلمة تستخدم بشكل ثابت كمصطلح للمديح. يقال لنا دائماً بما أن الأدب الإباحي يستحق الشجب "المزاج الرابليازياني الحماسي" (يعني الانشغال بالمرحاض) صحيح ومناسب تماماً. بعيداً عن كونه "سليماً وبصحة جيدة" كما يزعم دائماً، فهو كاتب منحرف ومريض بشكل استثنائي وحالة من أجل التحليل النفسي. لكن الأشخاص الذين يحبون حياة متزمتة، لديهم عقول قذرة، ورابلياس لديه سمعة سرية ضخمة في العهود الفيكتورية. لو قرأ رئيس الشماسة غرانتلي خلسة لنال بقشيشاً، ولأصبح العازب في قصائد براونينغ "نسخة قليلة من رابلياس". ربما الطريقة الوحيدة في جعله محترماً، هي أن نحافظ أن هناك شيئاً ما "عادي" و"حماسي" في كوبروفيليا، والأسطورة عاشت لتدخل في عصر فيه قلة من الناس ألقوا نظرة عاجلة إلى مقاطعه القذرة. في كل الأحوال "رابليازيان" وصف صحيح لنيل كرانتشر. إن كنت تحب دراسة الغائط، فهذا هو الكتاب المناسب لك؛ إن لم تكن كذلك، سأدير الدفة بعيداً عنه، بسبب المقاطع الطويلة المتعمدة التي تجعل أي شخص عادي مريضاً جسدياً.

نيوستيسمان ونيونيش

٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٠.

السلمية (معارضة العنف) والحرب
جدال بين دي اس سافاج وجورج وودكوك
وأليكس كمفورت وجورج أورويل

(دي اس سافاج شاعر تشمل أعماله النقدية المبدأ الشخصي وهاملت والقراصنة).

تعليقات موجزة على رسالة أورويل إلى مجلة لندن عدد مارس/ أبريل (آذار/ نيسان).

من الرائج في هذه الأيام أن تساوي بين الفاشية وألمانيا. يجب علينا أن نقاتل الفاشية، لذلك يجب أن نقاتل ألمانيا. قال السيد أورويل: "القسم الأعظم من الإنتلجنسيا.... لا يشعر بالرعب من الفاشية التي نحن الجيل الأكبر سناً نشعر بها"، أيضاً "لا يوجد جواب حقيقي للتهمة بأن السلمية (رفض العنف) هي موضوعياً تأييد للفاشية" جواب: الفاشية ليست قوة محصورة بأي أمة. نستطيع الحصول عليها هنا كما في أي مكان آخر. العلامات المميزة للفاشية هي: تقليص حريات الأفراد والأقليات، وإلغاء القيم الخاصة، واستبدال حياة الدولة والقيم الشعبية (الشعور الوطني)، وفرض خارجي للانضباط (تسلط العسكر)، وانتشار القيم الجماعية والعقلية الجماعية، وتزييف النشاط الثقافي تحت ضغط الدولة. هذه هي كل ميول بريطانيا في الوقت الحالي. السلمي يعارض كل واحدة من هذه، ويجب أن يوصف بأنه الخصم الصادق الوحيد للفاشية.

لا تدعوا الأسماء تضللنا. الفاشية قادرة تماماً على تسمية نفسها ديمقراطية أو حتى اشتراكية. إن حقيقتها التي تحت الاسم هي المهم. تتطلب الحرب تنظيماً ديكتاتورياً للمجتمع. نظمت ألمانيا نفسها على هذا الأساس قبل أن تبدأ بالحرب. بريطانيا تجد نفسها الآن مجبرة أن تقوم بنفس الإجراءات بعد تورطها بالحرب. ألمانيا تسمي نفسها اشتراكية قومية. نحن نسميها الديمقراطية. النتيجة نفسها.

دعونا نفترض أن السيد أورويل يضمر أنه "مؤيد للألمان موضوعياً". (إن كان هكذا فمصطلحاته الرخوة دلالة بالتأكيد على تفكير مهلهل جداً) من "الموضوعي"؟... هل السيد

أورويل مشايع لجانب واحد خاص في الصراع؟ بناء على هذا النوع من التفكير والحجج، يكون السلمي الألماني أو الألماني "مؤيداً موضوعياً لبريطانيا" هذا صبياني. يفترض السيد أورويل أن السلمي يشاركه ميوله ونوازعه الشوفينية. على العكس، نحن نعتبر الحرب كارثة على الإنسانية. من سيقول إن النصر البريطاني سيكون أقل كارثية من النصر الألماني؟ لقد كان آخر نصر بريطاني لا معنى له تماماً.

السيد أورويل في كل كتاباته الأخيرة حول الموضوع، يظهر عجزاً تاماً لفهم الطبيعة الحقيقية للسلمية. دعوني أحاول في بضع كلمات أن أنوّره.

السيد أورويل نفسه "سياسي" مع نظرة سياسية للأشياء. هو يرى بالتالي السلمية كظاهرة سياسية أولاً وقبل كل شيء، وذلك ليست ما هي عليه، فهي أولاً وأساساً ظاهرة أخلاقية. إن الحركات السياسية تؤسس على برنامج وتنظيم. مع السلمية، فإن البرنامج والتنظيم ثانويان تماماً. تنبثق السلمية من الضمير، أي من داخل الكائن البشري الفرد. يقول أورويل إن "بيس نيوز تتبع تقليدها القديم في معارضة الحرب لأسباب متنافرة مختلفة". هناك بالتأكيد أسباب لا تحصى. لماذا يجب أن تعارض الحرب. لكن السبب الرئيسي هو الطبيعة الشيطانية للحرب الحديثة مع ارتداداتها الشيطانية على الشخصية الإنسانية والقيم. الفساد والتجويف المكتشف في مقاضاة هذه الحرب خسيس جداً تعجز الكلمات عن وصفه. بالتأكيد أنا سأقبل بحصتي من المسؤولية، لكني لن أقاتل في حرب لأطيل عمر الفساد والتجويف.

ربما يجب أن أحاول أن أعطي تعبيراً لما يشعر به الكثيرون من السلميين بخصوص علاقة ألمانيا بأنفسنا، بما أن أورويل يذكر هذه النقطة. لا حاجة للقول: لم نر أي حب للفاشية، وموقفنا التام واحد من المقاومة الشخصية لكل أنواع الفاشية، لأنها تفرض علينا بشكل ملموس. (بينما يبتلع أورويل التجاوزات المادية الملموسة، ويلوح بذراعيه إلى بعبع بعيد). ليس فقط أننا لن نقاتل أو نساعد في الحرب، بل إن "المثقفين" وسطنا سيحقرون أنفسهم في تسوية عقلية مع الحكومة. أورويل لا يحب المثقفين الفرنسيين الذين يلعقون فتات هتلر، لكن ما هو الاختلاف بينهم وبين مثقفينا الذين يلعقون فتات تشرشل؟ على كل حال "نحن الذين لا نؤمن بأي دفاع عن الديمقراطية" نميل إلى تفضيل ألمانيا على بريطانيا، ولا نشعر بالرعب من الفاشية الذي نشعر به نحن الجيل الأكبر سناً. "أنا أستطيع التكلم عن نفسي فقط، لكن بالتأكيد "الدفاع عن

الديمقراطية" يخدمه جيداً دفاع المرء عن حرياته الحقيقية الخاصة به، وليس بمساواة الديمقراطية ببريطانيا والسماح لكل ديمقراطية أن تُدمر لكي نقاتل بشكل أفضل من أجل بريطانيا"، وأورويل لا يحتاج إلى أحد يخبره ما هي بريطانيا الآن وماذا تكون كما يفترض.

أنا لست مفتوناً "بديمقراطية" بريطانيا، وخصوصاً بعد أن باتت تتلاشى تدريجياً تحت ضغط الحرب. بالتأكيد أنا لن أقاتل وأقتل من أجل هكذا وهم خادع. أنا لست معجباً كبيراً بذلك الدور الذي لعبته "بلادي" في الأحداث العالمية. أنا أعتبر أن بريطانيا روحياً فقدت كل معناها، فربما كانت تمثل شيئاً في الماضي، لكن من يستطيع التظاهر أن فكرة "بريطانيا" الآن تعتبر مهمة لأي شيء في العالم؟ هذه ليست كلبية (تشاؤمية). أنا أشعر بالتعاطف مع بلادي بمعنى عميق، وأريدها أن تستعيد معناها وروحها إن كان ذلك ممكناً: لكن إفراغ بليون طن من القنابل على ألمانيا، لن يساعد هذا التقدم إلى الأمام ولو بوصة واحدة. على الرغم من أن بريطانيا أمة مريضة، إلا أن التظاهر "بأنها وجدت روحها" يتواجد في بعض الأحياء الذين تورطوا في الحرب، ومن هذا يجمع المرء أن المرض تمثل بتشامبرلاين وإيجاد الروح في تشرشل. لسوء الحظ، فإن التغييرات العميقة لا تحدث بهذه السهولة. إنكلترا لا تريد ولا تعرف حتى من أجل ماذا تقاتل ومن تقاتل. السلميون "المناصرون" لهتلر الذين يشير إليهم أورويل، هم ببساطة اعتراف منا بأن هتلر وألمانيا فيها ديناميكية تاريخية حقيقية نحن لا نملكها. بينما بقية الأمة قانعة وتنزل اللعن والخزي والعار على رأس هتلر، فيما نحن نعتبر هذا كشيء سطحي. هتلر لا يستلزم الإدانة، وإنما الفهم. هذا لا يعني أننا نحبه أو ندافع عنه. أنا شخصياً لا أكترث البتة بهتلر. هو على كل حال "حقيقي" أكثر من تشامبرلاين وتشرشل وكريبس إلخ في كونه وسيلة نقل لقوى تاريخية خام، بينما هم عبارة عن دمى محشوة وتماثيل من الشمع يعيشون في الوهم. نحن لا نتوق إلى نصر ألماني ولن نرفع إصبعاً لمساعدة كل من بريطانيا أو ألمانيا على "الفوز"، لكن ستكون هناك عدالة عميقة. لكنني أشعر بالرعب في نصر ألماني. (في الواقع أي حاكم سيجدنا زبائن غير مناسبين لا يقل أحدنا عن الآخر).

الآن ماذا عن موقع السيد أورويل وموقع أمثاله من الناس؟ أود أن أسأله أن يفكر ملياً أولاً بالرفقة التي يلازمها. من هم قادته وزعماؤه؟ ما هو النظام الاجتماعي الفعلي الذي يقاتل للدفاع عنه؟ ما هي الآمال التي لديه ليحرف جدول التاريخ المتدفق في الطريق التي يريده أن

يذهب؟ الكلمات الشجاعة والتفكير المشوش لا يستطيعان إخفاء حقيقة أن السيد أورويل وكل المؤيدين الآخرين للحرب من أقطاب الشحن البحري وملاكي الفحم والبروليتاريين وأساتذة الجامعات وصحافيي أيام الآحاد وقادة النقابات وأصحاب المقامات الرفيعة في الكنائس والأوغاد والرجال الشرفاء، جرفهم التاريخ معه ولم يوجهوه، وسيودع مثلهم مع فتات آخر في المكان الذي يقرره التاريخ وليس في المكان الذي يفكر فيه. إن السيد أورويل كما أعتقد رجل استقامة ورجل صدق. لكن ذلك لا يعوض عن سطحيته. وهل نستطيع أن نوفر السطحية في أي وقت كهذا على الأقل؟

١١ مايو/ أيار ١٩٤٢.

دراي درايتون، إنكلترا.

(جورج وودكوك: فوضوي ورئيس تحرير "ناو" ١٩٤٠-١٩٤٧ ومؤلف ويليام غادوين، الفوضوية والروح الشفافة. في الوقت الحالي هو أستاذ للغة الإنكليزية في جامعة بريتش كولومبيا منذ ١٩٥٩ ومحرر كانديان ليترتشر. بعد هذه المناظرة تراسل هو وأورويل وبقيا صديقين حتى وفاة أورويل).

لندن. رسالة إلى مجلة ناو التي أنا رئيس تحريرها.

يوحي أورويل أن هذه الصحيفة لها ميل ونزعة فاشية، ويسمي اثنين من المساهمين هوف روس ويليامسن ودوق بيدفورد ليثبت ادعاءه. في الواقع ناو أسست في وقت مبكر من الحرب كمجلة تنشر المادة الأدبية وأيضاً كمنتدى للكتابة الخلافية التي لا تستطيع أن تجد نشراً تحت ظروف زمن الحرب. ليس كل الكتاب يعارضون الحرب، ومن الخمسين مشاركاً الشاذين إلى الأرقام السبعة، اثنان فقط هما اللذان يسميهما أورويل اشتهرا بميول فاشية. لا أحد من هذين الرجلين ساهم بأكثر من مقال واحد للمجلة. بقية الكتاب تتضمن فوضويين وستالينيين وتروتسكيين وسلميين ومعتدلين النيو ستيتمان. جوليان هكسلي وهربرت ريد اثنان من أشهر المشاركين الذين من الصعب اتهامهم بالفاشية!

الإشارة إلى مقال جوليان سيمون غير عادل برأيي. أورويل لم يعط فكرة عن موضوعه، ولم يقتبس جملة واحدة ليثبت تأكيده بأنه "فاشي مبهم"! لا أحد في إنكلترا باستثناء أورويل وربما الستالينيين، يفكر بالإيحاء بأن جوليان سيمون لديه أي ميول فاشية، بل على العكس كان

معادياً للفاشية بشكل ثابت ومتسق. والمقال المذكور الذي يهاجم فيه افتقار ناو السابق لخط سياسي محدد ماركسي في ميوله.

أنا لا أنوي الدفاع عن هوغ روس ويليامسن أو دوق بيدفورد، لكني سأذكر أن لا أحد منهما ينتمي إلى بي يو اف (اتحاد الفاشيين البريطانيين) وأن حزب الشعب لم يكن حزباً فاشياً رغم احتوائه على فاشيين سابقين، ومن أعضائه سلميون اشتراكيون كثيرون مثل بين غرين الذي سبب حبسه الجائر ومعاملته السيئة في السجن فضيحة كبرى. سأشير أيضاً إن كنا سنكشف الماضي، بأن أورويل نفسه لم ينجح بشكل جيد جداً. الرفيق أورويل الموظف السابق في الإمبريالية البريطانية (التي تعلم منها الفاشيون كل ما يعرفونه) في تلك المناطق من الشرق الأقصى حيث الشمس تغيب دائماً على العلم البريطاني الوسخ! الرفيق أورويل، رفيق سفر سابق للسلميين ومشارك مواظب في أدلفي السلمية -التي يهاجمها الآن! الرفيق أورويل يساري متطرف سابق ونصير لحزب العمال المستقل ومدافع عن الفوضويين (راجع الحنين إلى كتالونيا)! والآن الرفيق أورويل يعود إلى ولاءاته الإمبريالية القديمة ويعمل في محطة البي بي سي، ويدير دعاية بريطانية فيها لخداع الجماهير الهندية! يبدو أن أورويل نفسه يظهر إلى درجة مدهشة تشابك ميول الجناح اليساري والسلمي والرجعي التي يتهم بها الآخرين!

إشارة إلى ناو، سوف أذكر أن هذه المجلة قد هجرت مركزها كمنبر مستقل وأصبحت المجلة الثقافية للحركة الفوضوية البريطانية. ربما يعتبر السيد أورويل هذا دليلاً لثالوثه الباطني القومجي المتكبر.

أخيراً سأشير إلى غلطتين في رسالة أورويل. الكراسة الفوضوية التي أشار إليها هي بعنوان الأسطورة الروسية، ورئيس تحرير أدلفي خلال القسم الأول من الحرب، لم يكن جون ميدلتون موراي، وإنما الراحل ماكس بلومان.

١٩ مايو/ أيار ١٩٤٢.

ريتشموند، إنكلترا

أليكس كمفورت

(أليكس كمفورت شاعر وروائي وكاتب كراريس وعالم أحياء طبي).

أرى أن السيد أورويل صياد مثقفين ثانية في صفحاتكم هذه المرة، وأنه اكتشف أن كل كاتب تحت الثلاثين تقريباً في هذه البلاد كانت قدماه مسبقاً على منحدر الفاشية المزعزع أو على الأقل للتوصل إلى تسوية. يبدو أنني من نوع "سلمي صرف من الخد الآخر" وقطعة تأبين جنابينية، أنا سعيد أنني لم أفقدها، وأنني أستحق ضربة على الردف لزمالتي مع شخص سيء السمعة مثل دوق بيدفورد، و-غير المؤذي تماماً- روس وليامسن. المشكلة أن بعض من قرائكم الأمريكيين قد لا يدركون مكانة أورويل في هذه البلاد، ويأخذون تعليقه على محمل الجد. نحن كلنا نحبه هنا، لكن مقياس تأليفه للكراريس هبط مؤخراً، ونحن نعرفه كمبشر لمذهب الشجاعة البدنية كرصيد لمثقفي الجناح اليساري وهلم جرا. أعتقد أننا كلنا نتفق أنه غير مطلع تماماً أوت اف تاتش على أي كتابة تحت الثلاثين سنة من العمر، كما أن ظهوره العامين الأخيرين توبيخ محزن لكتابي ليس هكذا حرية، و"رسالة لندن" هذه توحي أنه مازال لم يدرك لماذا أغلب شعراء الثلاثينات سلميون أو ماذا ستستلزم سلميتهم إن وصل هتلر إلى هنا.

ينعتنا السيد أورويل "بمؤيدي الفاشية الموضوعين" أعتقد أنه يعني أننا تركنا عداء الفاشية يحدث ولم نكترث. إن قلنا له إننا نحن الذين امتلكنا العزم الوحيد على إنقاذ الثقافة الفنية الإنكليزية حين وصل الارتطام، وأننا الناس الوحيدون المحتمل منهم أن يستمروا بالتمسك بالقيم المعادية للفاشية بشكل صادق، فإنه لن يقتنع. لكن ربما هو سيسلم أن نصر هتلر الأعظم الذي لا يمكن تعويضه علينا هنا، كان إقناعه للشعب الإنكليزي بأن الطريقة الوحيدة للتفوق على الفاشية هي تقليدها. هو يضعنا في معضلة لا يمكن دحضها عملياً، إلا بالفرار منها..... "إن أنا فزت فسيكون لديكم فاشية سياسية منصرة: إن أردتم أن تهزموني، فيجب عليكم أن تمثلوا أكبر قدر تستطيعونه من فلسفتها، ولذلك من المحتوم أن أفوز في كلا الحالتين" بناءً عليه، فقد بدأنا نحشو بشكل محموم في حياتنا الوطنية كل أجزاء الممارسة الفاشية الثانوية التي لم تشمل الأساليب الاشتراكية بكبت الصحافة "لأننا في حرب شاملة" وجعل جنودنا يفقؤون مرارتهم بينما تقصفهم مكبرات الصوت بالدعاية لأن الجيش الألماني يتألف من ياهو (أجلاف) أكفاء. الشعب هو الوحيد الذي قال لكي تهزم الفاشية على المرء (أ) أن يحاول أن يفهمها و(ب) أن يرفض القبول بمعتقداتها. يبدو كما لو أن السيد أورويل

وأصدقاءه المولعين بالحرب، لم يكونوا مؤيدين موضوعيين، وإنما مؤيدون بناؤون لكل الجهاز الفلسفي الكامل الذي يمقتونه تماماً بصدق.

ما هو الدور الذي يجب على الفنان أن يقوم به في المناطق المحتلة كما يتخيله السيد أورويل؟ يجب عليه أن يحتج بكل قوته أينما وكلما استطاع ضد هكذا شرور كما يراها -لكن هل يستطيع أن يفعل هذا بشكل مفيد أكثر بالقبول المؤقت بالوضع القائم، أم بمناوشة في غابة ايبينغ مع جيب مملوء بالقنابل اليدوية؟ أعتقد أن الكتاب الإنكليز يجلون وسوف يتبعون حين تأتي الفرصة، أنموذج الاستقامة الذي وضعه جايد. نحن سوف نؤتمن بوظيفة إنقاذ بقايا بنية القيم الحضارية من هتلر أو من جانب آخر من تشرشل وثاقبي مثانته بلادر بريكرز. الرجال الذين مثل أورويل والذين كان يمكن أن يساعدوا ولم يفعلوا، ينعتوننا بالفاشيين، ويرقصون حول دمار كاتدرائية مونستر. نحن نفضل ألا ننضم إليهم، وإذا وجدنا أنفسنا في متابعة واجبنا أننا ملزمون أن ننشر في نفس الصحيفة كما الشيطان نفسه ورفضنا الآخرون بأدب كأرثوذكس، فسوف نملك وخزات ضمير قليلة جداً.

برينت وود، إنكلترا

١٨ مايو/ أيار ١٩٤٢.

جورج أورويل:

بما أنني لا أعتقد أنكم تريدون ملء العدد كله من بي ار بجدالات حقيرة مستوردة من وراء الأطلنطي، فسوف أكوم الرسائل المختلفة التي أرسلتموها إلي معاً (من السادة سافاج وودكوك وكمفورت) بما أن القضية المركزية لجميعها واحدة. لكن يجب بعد ذلك أن أتعامل بشكل منفصل مع بعض نقاط الواقع الذي أثارته الرسائل المختلفة.

السلمية. السلمية تأييد للفاشية بشكل موضوعي. هذا هو المنطق والفطرة السليمة. إن أعقت جهود الحرب في طرف ما، فأنت أتوماتيكياً تساعد الطرف الآخر. ليس هناك أي طريق حقيقي آخر للبقاء خارج حرب مثل الحرب الحالية. عملياً، "إن الشخص الذي ليس معي هو ضدي". فكرة أنك تستطيع أن تبقى بمعزل عن الصراع ومتسامياً عليه، بينما تعيش على طعام خاطر الجنود البريطانيون بأرواحهم ليجلبونه لك، هو وهم برجوازي تغذى على

المال والأمان. إن ملاحظات السيد سافيج أنه "وفقاً لهذا الأنموذج من الحجج سيكون السلمي الألماني أو الياباني مؤيداً لبريطانيا موضوعياً" سيكون كذلك بالطبع! لهذا السبب فإن نشاطات السلميين غير مسموح بها في تلك البلدان (في اثنين منها يمكن أن تكون العقوبة قطع الرأس) بينما الألمان واليابانيون يفعلون كل ما بوسعهم لتشجيع انتشار السلمية في الأراضي البريطانية والأمريكية. حتى إن الألمان أطلقوا إذاعة "الحرية" الكاذبة التي تخدم دعاية سلمية مستحيل تمييزها عن إذاعة البي بي يو. كلاهما تنشر السلمية في روسيا أيضاً إن استطاعتا، لكن في تلك الحالة لديهما أطفال أقسى تتعاملان معهم. إن الدعاية السلمية تستطيع أن تكون فعالة فقط ضد تلك البلدان، حيث يوجد هناك قدر محدد من حرية التعبير لازال مسموحاً به، بعبارة أخرى إنها تساعد الأنظمة الاستبدادية الشمولية. أنا لست مهتماً بالسلمية كـ "ظاهرة أخلاقية". إذا تخيل السيد سافيج وآخرون أن المرء يستطيع "قهر" الجيش الألماني بالاستلقاء على الظهر، فدعهم يستمرون في تخيلهم ذلك، لكن دعهم أيضاً يتساءلون بين الفينة والأخرى إن كان هذا وهم ناتج عن الشعور بالأمان أم لا، ومن المال الكثير جداً وجهل بسيط بالطريقة التي تحدث بها الأشياء فعلياً. لكوني موظفاً مدنياً سابقاً في الهند، فعندما أسمع أن غاندي مثال لنجاح اللاعنف، يجعلني هذا أقهقه وأضحك بصوت عالٍ.

طيلة السنوات العشرين الماضية، تم الاعتراف بشكل ساخر في الدوائر الأنغلوهندية أن غاندي كان مفيداً جداً للحكومة البريطانية. وهكذا سيكون لليابانيين إن وصلوا إلى هناك. الحكومات الاستبدادية تستطيع تتحمل "قوة أخلاقية" حتى تعود الأبقار إلى البيت؛ ما تخشى منه هو القوة المادية. لكن رغم عدم اهتمامي الكبير بـ "نظرية" السلمية، فأنا مهتم بالعمليات النفسية التي بدأ بها السلميون برعب مزعوم من العنف وانتهوا بنزعة وميل واضح بافتتانهم بنجاح وقوة النازية. حتى السلميون الذين لا يعترفون بأي من هكذا افتتان، بدأوا يزعمون أن النصر النازي مرغوب في حد ذاته. في الرسالة التي أرسلتموها إلي، يعتبر السيد كمفورت أن الفنان في المناطق المحتلة مؤقتاً ينبغي أن "يحتج ضد هكذا شرور كما يراها"، لكنه يعتبر أن هذا يتم فعله بأحسن شكل "بالقبول المؤقت بالوضع القائم" (مثل ديات أو بيرغيري مثلاً؟). قبل بضعة أسابيع كان يتمنى نصراً نازياً بسبب التأثير المحفز الذي سيمارسه على الفنون:

حسب ما أرى، ليس لأي علاج يقل عن الهزيمة العسكرية الكاملة، أي فرصة في إعادة توطيد الاستقرار العام للأدب وللرجل الذي في الشارع. يستطيع المرء تخيل المحنة الأعظم والتحقيق المفاجئ الأعظم لدفق من العمل الخيالي والتطهير المفاجئ الأعظم للشعر، من التفسير المعزول للحرب كفاجعة بالنسبة إلى تحقيق المأساة الحقيقة والتخيلية للإنسان. حين يكون لدينا مدخل إلى أدب سنوات الحرب مرة أخرى في فرنسا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا، فأنا واثق بأن ذلك هو ما سوف نجده. (من رسالة إلى هورايزن).

تغاضيت عن الجهل المحمي بالمال القادر على الإيمان بأن الحياة الأدبية لاتزال مستمرة في بولونيا مثلاً، والقول إن تصريحات كهذه تبرر لي القول إن سلميينا الإنكليز ينزعون ويميلون باتجاه مناصرة الفاشية. لكنني أعارض ذلك على وجه الخصوص. ما أعترض عليه هو الجبن الثقافي للناس المؤيدين بشكل موضوعي وإلى حد ما عاطفي للفاشية، والذين لا يكترثون في قول هذا ويحتمون خلف الصيغة التالية "أنا معادٍ للفاشية مثل كل الآخرين، لكن...". نتيجة هذا هي أن ما يسمى بالدعاية السلمية مضللة ومقززة فكرياً كالدعاية الحربية، وتركز مثل دعاية الحرب على تقديم حالة مسبقاً والتعتيم على وجهة نظر الخصم وتحاشي الأسئلة المربكة. الخط المتبع هو "هؤلاء الذين يقاتلون ضد الفاشية يصبحون فاشيين هم أنفسهم. ولكي تتملص من الاعتراضات الواضحة تماماً التي يمكن إثارتها على هذا، تستخدم الخدع الدعائية التالية:

١- عمليات التحول إلى الفاشية التي تحدث في بريطانيا نتيجة للحرب مبالغ فيها بشكل منظم.

٢- إن السجل الحقيقي للفاشية خصوصاً في تاريخها السابق للحرب، تم تجاهله أو سُخر منه كـ "دعاية"، كما جرى التهرب من نقاش الشكل الذي سيكون عليه العالم إن انتصرت دول المحور.

٣- هؤلاء الذين يريدون أن يصارعوا ضد الفاشية، متهمون بكونهم مدافعين صادقين عن "الديمقراطية" الرأسمالية. لقد تم طمس حقيقة أن الأغنياء في كل مكان يميلون إلى تأييد الفاشية، والطبقة العاملة معادية للفاشية دائماً تقريباً.

٤ - يتم التظاهر والزعم ضمناً بأن الحرب هي بين بريطانيا وألمانيا فقط، وتم تجنب ذكر روسيا أو الصين ومصيرهما إن سمح للفاشية بالفوز. (لن تجد كلمة واحدة عن روسيا أو الصين في الرسائل الثلاث التي أرسلت إلي).

الآن يجب أن أعالج نقطة أو نقطتين، إذا كنتم ستطبعون رسائل المتراسلين معكم بالكامل.

ماضيّ وحاضري: يحاول السيد وودكوك أن يكذبني ويشوه سمعتي بقوله (أ) إنني خدمت في الشرطة الإمبريالية الهندية (ب) إنني كتبت مقالات لدورية أدلفي وخالطت التروتسكيين في إسبانيا و(ج) أدرت دعاية بريطانية لأخدع الجماهير الهندية. بالنسبة لـ (أ) صحيح تماماً أنني خدمت لمدة خمس سنوات في الشرطة الهندية. وصحيح أيضاً أنني تخليت عن وظيفتي جزئياً لأنها لم تناسبني، وأساساً لأنني لم أرغب أن أكون موظفاً للإمبريالية لوقت أطول من ذلك. أنا ضد الإمبريالية، لأنني أعرف شيئاً عنها من الداخل. كل تاريخ هذا موجود في كتاباتي بما فيها رواية (أيام في بورما) أعتقد أنني أستطيع الزعم أنها كانت نوعاً من نبوءة لما حدث هذه السنة في بورما. (ب) طبعاً أنا كتبت لأدلفي، ولماذا لا أفعل؟ أنا كتبت مرة لمجلة نباتية، فهل ذلك جعلني شخصاً نباتياً؟ رافقت التروتسكيين في إسبانيا. كانت فرصة أن أخدم في ميليشيا البيوم (حزب العمال الماركسيين المتحدين) وليس غيرها، وقد اختلفت كثيراً مع خط البيوم، وأخبرت قادتهم ذلك بحرية، لكن حين اتهموا لاحقاً بمناصرتهم للفاشية دافعت عنهم بأقصى استطاعتي. كيف يتناقض هذا مع موقفي الحالي المعادي لهتلر؟ الجديد بالنسبة إلي هو أن التروتسكيين إما سلميين أو مؤيدين للفاشيين (ج) هل يعرف السيد وودكوك فعلاً نوع المادة التي كنت أضعها في نشرات البث الموجهة إلى الهند؟ هو لا يعرف - لكن سأكون سعيداً تماماً أن أخبره عنها. هو حريص ألا يذكر من هم الأشخاص الذين رافقوا هذه النشرات الإذاعية الهندية. واحد على سبيل المثال هو هربرت ريد الذي ذكره باستحسان. آخرون تي اس إليوت وإي إم فورستر وريجينالد رينولدز وستيفن سبيندر وجيه بي اس هولدين وتوم ونترينغهام. أغلب ضيوفنا المتحدثين هم من المثقفين اليساريين الهنود، من الليبراليين إلى التروتسكيين، بعضهم معادون جداً لبريطانيا. هم لا يفعلونها "لخداع الجماهير الهندية"، وإنما لأنهم يعرفون ماذا سيعني النصر الفاشي بالنسبة إلى فرص استقلال الهند. لماذا لا تحاول أن تكتشف ماذا أفعل قبل اتهامي؟

"السيد أورويل صياد مفكرين ثانية"(السيد كمفورت). أنا لم أهاجم أبداً "المثقفين" أو الإنتلجنسيا بالمجمل. استخدمت كثيراً من الحبر، وأرهقت نفسي بالهجوم على الزمر الأدبية المتعاقبة التي لوثت هذه البلاد، ليس لأنها كانت فكرية، وإنما بالضبط لأنهم لم يكونوا ما أقصده بالمفكرين الحقيقيين. حياة الزمرة خمس سنوات تقريباً، وأنا أكتب منذ وقت كان كافياً لأرى مجيء ثلاثة منهم وذهاب اثنين: الزمرة الكاثوليكية والعصابة الستالينية والعصابة السلمية الحالية أو كما يلقبون أحياناً والعصابة الفاشية. قضيتي ضدهم كلهم هي أنهم يكتبون دعاية كاذبة عقلياً، ويحطون من قدر النقد الأدبي إلى نفاق مخز. لكن حتى مع هذه المدارس المختلفة، سأميز بين الأفراد. لن أفكر أبداً في الجمع بين كريستوفر داوسن مع أرنولد لون أو مالروكس مع بالمي دوت أو ماكس بلاومان مع دوق بيدفورد. حتى أعمال واحد من الأفراد يمكن أن يتواجد في مستويات مختلفة جداً مثلاً، السيد كمفورت نفسه كتب قصيدة أثمنها كثيراً (الجزيرة المرجانية في العقل) وأتمنى لو يكتب الكثير منها بدلاً من كراسات دعائية ميتة بلبوس روايات. لكن هذه الرسالة التي اختارها ليرسلها لك قضية مختلفة. بدلاً من الرد على ما قلته، حاول أن يجعل جمهوراً أنا لست معروفاً جيداً من قبله، يتحيز ضدي بتحريف خطي العام والسخرية من مكانتي في إنكلترا. (الكاتب لا يحكم عليه من خلال مكانته وإنما من خلال أعماله) ذلك يتساوى مع دعاية "السلام" التي تتجنب ذكر غزو هتلر لروسيا، وهي ليس ما أعنيه بالأمانة الفكرية. لأنني أنظر إلى وظيفة الإنتلجنسيا بجدية، لذلك أنا لا أحب الساخرين والمشهرين والعبارات الببغائية وحك الظهر المربح مالياً والمزدهر في العالم الأدبي الإنكليزي وربما في عالمكم أيضاً.

١٢ يوليو ١٩٤٢ لندن إنكلترا.

البارتيزان ريفيو- سبتمبر/ أكتوبر ١٩٤٢.

حالات التنبؤ بالفاشية

إن إعادة طبع رواية جاك لندن **العقب الحديدية** جلبت ضمن متناول العوام كتاباً كان مطلوباً كثيراً خلال سنوات العدوان الفاشي. كغيره من كتب جاك لندن، قُرأ الكتاب بشكل واسع في ألمانيا، وحظي بسمعة كبيرة بكونه تنبؤاً دقيقاً وصحيحاً بقدوم هتلر. في الحقيقة الكتاب ليس كذلك. إنه حكاية الاضطهاد الرأسمالي، وكُتب في زمن لم يكن التكهن فيه بالأشياء المتنوعة التي جعلت الفاشية ممكنة- مثل الانبعاث المروع للقومية- أمراً سهلاً.

لكن المكان الذي أظهر فيه جاك لندن بصيرة خاصة، كان في إدراكه أن الانتقال إلى الاشتراكية لن يحدث بشكل آلي أو حتى بشكل سهل. الطبقة الرأسمالية لن "تفنى بسبب تناقضاتها" مثل زهرة تموت في نهاية الموسم. الطبقة الرأسمالية ذكية بما يكفي لترى ما يحدث وتطمس خلافاتها الخاصة بها والهجمات المعاكسة ضد العمال، وتعرف أن الصراع الناتج سيكون الأكثر دموية والمجرد من المبادئ الأخلاقية الذي لم يعرفه العالم قط. من الجدير مقارنة **العقب الحديدية** مع رواية خيالية أخرى عن المستقبل، والتي كُتبت في وقت أسبق، والتي يدين بسببها بشيء ما إلى اتش جي ويلز **النائم يستيقظ**. بفعل هذا يستطيع المرء أن يرى كل من قصور جاك لندن وميزته أيضاً التي تمتع بها بكونه ليس مثل ويلز إنساناً متحضراً تماماً. كتاب العقب الحديدية أقل بشكل هائل. لقد كتب بطريقة خرقاء، ويظهر أي فهم للاحتمالات العلمية، والبطل نوع من الحاكي البشري الذي يختفي الآن حتى من الكراريس الاشتراكية. لكن بسبب عرقه الخاص به في الهمجية، استطاع لندن أن يفهم ما لم يستطع ويلز فهمه، وذلك الذي لا تطيقه المجتمعات المتعبة.

كل من قرأ **النائم يستيقظ** يتذكرها. إنها رؤية لعالم مبهرج فاسد مشؤوم تقسى فيه المجتمع وتحول إلى نظام طبقة، والعمال أرقاء وعبيد بشكل دائم. إنه أيضاً عالم من دون هدف، فيه الطبقات العليا التي يكدح من أجلها العمال غدارة وكلبية ورقيقة تماماً. ليس هناك وعي لأي هدف في الحياة، ولا شيء فيه مماثل لحماس الثوري أو الشهيد الديني.

في عالم جديد شجاع لهاكسلي، نوع من محاكاة ساخرة للمدينة الفاضلة الويلزية. وهذه النزعات تكون مضخمة بشكل هائل. هنا يُدفع المبدأ المتعي إلى أقصاه، والعالم كله تحول إلى واحد من فنادق الريفيرا. رغم أن عالم جديد شجاع كاريكاتير ساخر رائع للحاضر (حاضر عام ١٩٣٠) فربما يلقي الضوء على المستقبل. إن مجتمعاً من هذا النوع، لن يدوم أكثر من جيلين اثنين، لأن الطبقة الحاكمة التي تفكر بالدرجة الأولى بلغة "الوقت الممتع"، ستفقد حيويتها سريعاً. يجب أن تمتلك الطبقة الحاكمة منظومة أخلاقية صارمة وإيماناً شبه ديني بنفسها وجاذبية أيضاً. كان جاك لندن مدركاً، ورغم أنه وصف طبقة البلوتوقراطيين الذين ظلوا يحكمون العالم لسبعة قرون بالمسوخ غير البشرية، إلا أنه لم يصفهم بالكسالى العاطلين أو المنغمسين بالشهوات. كانوا يستطيعون الحفاظ على منصبهم، فقط لأنهم يؤمنون بصدق أن الحضارة تعتمد عليهم. ولذلك وبطريقة مختلفة هم شجعان وقادرون ومخلصون، مثل الثوار الذين يعارضونهم.

قبل جاك لندن بالاستنتاجات الماركسية بطريقة ثقافية، وتخيل أن "التناقضات" الرأسمالية وفائض القيمة الزائدة غير المستهلك وهلم جرا، سوف تستمر حتى بعد أن ينظم الرأسماليون أنفسهم في كيان مشترك واحد، لكنه مزاجياً كان مختلفاً جداً عن أغلبية الماركسيين. بحبه للعنف وقوته البدنية وإيمانه بـ"الأرستقراطية الطبيعية" وعبادته للحيوانية وتمجيده للبدائي، كان لديه في داخله ما يمكن تسميته بنزعة فاشية، وهذا ساعده على الأرجح أن يفهم كيف ستتصرف الطبقة المالكة حين تُهدد بشكل جدي.

هنا تماماً حيث يفشل فيه الاشتراكيون الماركسيون عادة. كان تفسيرهم للتاريخ ميكانيكياً، لذلك فشلوا في التنبؤ بأخطار كانت واضحة لأناس لم يسمعوا أبداً بماركس. يُثار أحياناً ضد ماركس أنه فشل في التنبؤ بظهور الفاشية. أنا لا أعرف إن تنبأ بها أم لا- في ذلك التاريخ كان يستطيع أن يقوم بهذا بشروط عامة جداً فقط، لكن من المؤكد على أي حال أن أتباعه فشلوا بأن يروا أي خطر في الفاشية، حتى كانوا أنفسهم على بوابة معسكرات الاعتقال. سنة أو سنتان بعد صعود هتلر إلى السلطة، كانت الماركسية الرسمية مازالت تصرح بأن هتلر ليس له أهمية، وأن "الفاشية الاجتماعية" (أي الديمقراطية) كانت العدو الحقيقي. لم يكن جاك لندن يرتكب هذا الخطأ على الأرجح، وكانت غرائزه ستحذره بأن هتلر كان خطيراً، وعرف أن

القوانين الاقتصادية لا تعمل بنفس الطريقة التي يعمل بها قانون الجاذبية، وأنها يمكن أن تعاق لفترات طويلة بأشخاص مثل هتلر، يؤمنون بقدرهم الخاص بهم.

العقب الحديدية و**النائم يستيقظ** كلاهما كُتبا من وجهة نظر شعبية. **عالم جديد شجاع**، رغم أنها أساساً هجوم على المتعية، فهي أيضاً ضمناً هجوم على الديكتاتورية والشمولية والطبقة الحاكمة. من المشوق أن نقارن بينها وبين يوتوبيا أقل شهرة تعامل الصراع الطبقي من وجهة نظر الطبقة العليا أو بالأحرى الطبقة الوسطى، هي **العصبة السرية** لإرنست براماه.

كُتبت **العصبة السرية** في عام ١٩٠٧ حين بدأ نمو الحركة العمالية يخيف ويرعب الطبقة الوسطى، التي تخيلت بشكل خاطئ أنها مهددة من الأسفل وليس من الأعلى. كتنبؤ سياسي، هي تافهة، لكنها ذات أهمية عظيمة، بسبب الضوء الذي تلقيه على عقلية الطبقة الوسطى المصارعة.

يتخيل المؤلف حركة عمالية تستلم السلطة مع غالبية ضخمة، لدرجة من المستحيل إزاحتها. لكن العمال لا يُدخلون اقتصاداً اشتراكياً كاملاً، وإنما يستمرون فقط بإدارة وتشغيل الرأسمالية لمنفعتهم الخاصة، برفع مستمر للأجور، وخلق جيش هائل من البيروقراطيين، وتنقل الطبقات العليا إلى خارج الوجود. لذلك "تتلف" البلاد بالطريقة المألوفة، إضافة إلى ذلك تتصرف حكومة العمال في سياستها الخارجية مثل الحكومة الوطنية بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٩. تثور ضد هذا مؤامرة سرية تقوم بها الطبقات الوسطى والعليا، وكانت طريقة ثورتهم حاذقة جداً، بشرط أن ينظر المرء إلى الرأسمالية كشيء داخلي: إنه أسلوب من إضراب المستهلكين. خلال فترة سنتين يخزن المتآمرون من الطبقة العليا زيت الوقود، ويحولون المعامل التي تحرق الفحم إلى معامل تحرق الزيت، ثم فجأة تقاطع الصناعة الرئيسية في بريطانيا، وهي صناعة الفحم، لذلك يواجه أصحاب المناجم وضعاً لا يستطيعون فيه بيع الفحم لسنتين، فتكون هناك بطالة واسعة وعوز ينتهي بحرب أهلية فيها (ثلاثون سنة قبل الجنرال فرانكو!) تتلقى فيها الطبقات العليا مساعدة أجنبية. وبعد انتصارها تلغي النقابات العمالية، وتؤسس نظام حكم غير برلماني قوي - بعبارة أخرى نظام حكم يجب أن نصفه الآن بالفاشي. نغمة الكتاب لطيفة بقدر ما استطاعت أن تكون في ذلك التاريخ، لكن النزعة الفكرية جلية.

لماذا يجد كاتب محترم ولطيف مثل إرنست براماه سحق البروليتاريا عبارة عن رؤية ممتعة ومسرة؟ ببساطة إنه رد الفعل الطبقة المصارعة التي تشعر نفسها مهددة في مركزها الاقتصادي بالقوة والشدة التي تهدد نظام إدارتها وأسلوب عيشها. يرى المرء نفس العداء الاجتماعي الصرف للطبقة العاملة عند كاتب أسبق، ومن وزن أكبر بكثير، هو جورج غيسينغ. لقد علم كل من الزمن وهتلر الطبقات الوسطى الكثير، وربما لن تتحالف مرة أخرى مع مضطهديها ضد حلفائها الطبيعيين، لكن أن تفعل أو لا، فذلك يعتمد جزئياً على الكيفية التي تُعامل بها. كما لغباء الدعاية الاشتراكية مع تغريرها الدائم بـ"البرجوازية الصغيرة" الكثير للإجابة على ذلك.

التريبيون ١٢ يوليو/تموز ١٩٤٠.

مراجعة نقدية لجاري متسول
بقلم ليونيل فيلدن

لو قارنت الإعلانات التجارية مع الدعاية سياسية، فإن الشيء الوحيد الذي سيلفت انتباهك هو الاستقامة الفكرية النسبي. يعرف مروج الإعلان إلى ما يسعى إليه على الأقل - أي النقود؛ بينما المروج الدعائي عصابي، إن لم يكن صحفياً مأجوراً لا روح فيه، فيعمل بدافع حقد شخصي وتوق فعلي إلى نقيض الشيء الذي يدافع عنه تماماً. الهدف المزعوم والظاهر من كتاب السيد فيلدن، هو تقديم قضية استقلال الهند. عمله يفشل في تلك النتيجة، ولا أرى سبباً كبيراً للظن أنه يرغب في أي شيء من هذا النوع، لأنه لو عمل أحد من أجل استقلال الهند بصدق، فما المرجح الذي سيفعله؟

من الواضح أنه سيبدأ بتحديد القوى المحتملة التي ستقف إلى جانبه، ثم بعد ذلك يفكر بدم بارد مثل أي مروج معاجين أسنان، بأفضل طريقة لجذب تلك القوى. هذه ليست مقاربة السيد فيلدن. تدرك عدداً من الدوافع في كتابه، لكن الواضح بشكل فوري هو الرغبة في افتعال صراعات مختلفة مع الحكومة الهندية وإذاعة الهند وأقسام من الصحافة البريطانية. في الواقع هو يحشد عدداً من الوقائع عن الهند، ثم قبيل النهاية يكتب صفحتين من الاقتراحات البناءة، لكن القسم الأعظم من كتابه مجرد تذمر وهجوم غير متصل بالموضوع على الحكم البريطاني، مخلوط بفورة سائح حماسية عن تفوق الحضارة الهندية. على الصفحة البيضاء في أول الكتاب، يحدث الجو الرفاقي الذي يهدف إليه كل المروجين الدعائيين، يوقع رسالته المغرضة "وسط البرابرة الأوروبيين"، ثم بعد بضع صفحات، يقدم هندي خيالي يشجب الحضارة الغربية بكل حدة عانساً في التاسعة والثلاثين من العمر تشجب جنس الذكور:

..... هندي فخور بتقاليده الخاصة ويعتبر الأوروبيين برابرة يحاربون باستمرار ويستخدمون القوة للسيطرة على الشعوب المسالمة، ويفكرون في المقام الأول بالمشاريع الكبيرة والويسكي والجسور، وشعب تطور حديثاً نسبياً، ويضعون مبالغ على أنابيب المياه والسمكرة، ونجحوا في نشر مرض السل والمرض التناسلي في كل أنحاء العالم...... هو يقول ذلك ليجلس في الماء الذي

اغتسلت فيه بدلاً من الاستحمام في مياه جارية. هو ليس نظيفاً، بل قذراً ومثيراً للاشمئزاز، وسيظهر وأنا أوافقه تماماً أن الإنكليز قذرون وأمة نتنة مقارنة بالهنود. ويجزم وأنا لست متأكداً أبداً أنه مخطئ بأن استخدام الشوك والملاعق والسكاكين نصف المغسولة من قبل أناس مختلفين من أجل الطعام، عمل بربري مقزز حين يقارن مع التلاعب الرائع بالطعام بواسطة أصابع الهنود. كما أنه واثق بأن الغرفة الهندية مع جدرانها العارية وسجادها الجميل، أفضل بشكل مطلق من الفوضى الأوروبية ذات المقاعد والطاولات غير المريحة. إلخ. إلخ. إلخ.

إن الكتاب كله مكتوب بهذه المسحة تقريباً. يتكرر التذمر نفسه، وتظهر ملاحظة هستيرية في كل بضع صفحات. وأينما تمكن من إقحام مقارنة يقحمها، وتكون النتيجة دائماً هي أن الشرق جيد والغرب سيء. الآن قبل التوقف للسؤال عن الخدمة التي يقدمها هذا النوع من التفكير إلى قضية الحرية في الهند، دعونا نجري تجربة تستحق التوقف عندها. دعوني أعيد كتابة هذا النص كما ينطق به رجل إنكليزي يتكلم فيه عن حضارته الخاصة به بصورة حادة كلهجة الهندي الذي يقدمه فيلدمان. من المهم أن نلاحظ أن ما يقوله ليس أكثر خداعاً أو غير ذي صلة مما اقتبسته آنفاً:

.. رجل إنكليزي فخور بشدة بتقاليده الخاصة به، ويعتبر الهنود سلالة مخنثة يومئون مثل السعادين وقساة مع النساء ويتحدثون باستمرار عن النقود؛ كشعب قبلوا أن مسؤوليتهم أن يحتقروا العلم الغربي، وبالتالي يتعفنون في الملاريا ودودة الأنغلستوما... سيقول إن الاغتسال في مياه جارية في المناخ الحار له فوائده، لكن في المناخ البارد يستحم كل الشرقيين، إما كما نغتسل أو مثل حال الكثير من القبائل الهندية التي تعيش في التلال -لا يستحمون أبداً؛ سوف يظهر وسأتفق معه تماماً أنه لا يوجد أوروبي غربي يستطيع المشي عبر القرى الهندية ولا يتمنى استئصال أعضائه التي تصدر رائحة مسبقاً، كما أنه سيجزم وأنا لست متأكدا أبداً بأنه مخطئ بأن الأكل بأصابعك الأربعة عادة بربرية، إذ إنه لا يمكن أن يتم بدون إصدار أصوات مثيرة للقرف، وأنه واثق ومتأكد من أن الغرفة الإنكليزية بمقاعدها المريحة ورفوفها الدافئة، أفضل بشكل مطلق من الداخل الهندي العاري؛ حيث مجرد الجلوس من دون مسند لظهرك يسبب لك فراغاً في العقل.. إلخ إلخ.

تبرز نقطتان هنا. أولاً ليس هناك إنكليزي يكتب مثل ذلك. لا شك أن هناك أناساً كثيرين يفكرون بمثل هذه الأفكار وحتى يتفوهون بها خلف الأدوار المغلقة، لكن لكي تجد أي شيء من النوع المطبوع، عليك أن تعود إلى عشر سنوات إلى الوراء. ثانياً إنه يستحق السؤال، ماذا سيكون تأثير هذا المقطع على الهنود الذين يأخذون الأمر بشكل جدي؟ سيشعرون بالإهانة وسيتضايقون. حسناً أليس من الممكن أن يكون لمقاطع كالمقطع الذي اقتبسته من السيد فيلدن تأثير مماثل على القارئ البريطاني؟ ليس هناك أحد يحب أن يسمع عاداته وتقاليده تهان. هذه ليس فكرة تافهة، لأن الكتب التي تكتب عن الهند لها أهمية خاصة الآن. ليس هناك حل سياسي في الأفق، لا يستطيع الهنود نيل حريتهم، والحكومة البريطانية لن تعطيها لهم، وكل الممكن فعله الآن هو دفع الرأي العام العالمي في هذه البلاد وأمريكا في الاتجاه الصحيح. لكن لن يتم ذلك بمجرد دعاية معادية للأوروبيين. رأيت قومياً هندياً مشهوراً منذ سنة بعد فشل مهمة الكريبس، يخطب في اجتماع صغير، يشرح أسباب رفض عرض كريبس. لقد كان فرصة ثمينة لوجود عدد من مراسلي الصحف الأمريكية الذين لو تناولوها باهتمام فسينقلون لأمريكا وصفاً متعاطفاً مع قضية حزب المؤتمر. لقد جاؤوا إلى هنا بعقول منفتحة. في أقل من عشر دقائق، حولهم الهندي إلى مؤيدين متحمسين للحكومة البريطانية، لأنه بدلاً من الالتزام بموضوعه انطلق بخطاب غاضب معادٍ للبريطانيين، ارتكز بوضوح على عقدة الحقد والدونية، وهذا ما لا يرتكبه مروج معجون الأسنان. لكن الآن يحاول مروج المعجون بيع المعجون، وليس ليدير ظهره للبليمب (الرجعي القومي) الذي طرده من عربة الدرجة الأولى قبل خمسة عشر عاماً.

لكن كتاب السيد فيلدن يثير قضايا أوسع من المشكلة السياسية الفورية، فهو يدعم الشرق ضد الغرب، على أساس أن الشرق متدين ومولع بالفن وغير مبالٍ بالتقدم، بينما الغرب مادي وعلمي وسوقي وعدواني. إن الجريمة البريطانية الكبرى أنها فرضت التصنيع على الهند (إن الجريمة البريطانية خلال الثلاثين سنة الأخيرة في الحقيقة أنها فرضت العكس) ينظر الغرب إلى العمل غاية بحد ذاته، وفي الوقت نفسه مهووس بمستوى عالٍ من المعيشة (من الجدير أن نلاحظ أن السيد فيلدن معادٍ للمجتمع ومعادٍ للروس ويحتقر الطبقة العاملة الإنكليزية) بينما لا تريد الهند سوى أن تعيش ببساطة الأسلاف في عالم يخلو من الآلة. يجب أن تكون الهند مستقلة، وفي الوقت

نفسه يجب أن تكون غير صناعية، كما اقترح في مواضع كثيرة أن تكون الهند محايدة في الحرب الحالية. بالإضافة إلى ذلك إن بطل السيد فيلدن هو غاندي الذي لم يقل شيئاً عن خلفيته المالية "لدي فكرة أن أسطورة غاندي يمكن أن تكون إلهاماً مشتعلاً للملايين في الشرق وربما لهؤلاء الذين في الغرب. لكن في الوقت الحالي الشرق هو من يوفر التربة المثمرة، لأن الشرق لم ينبطح أمام العجل الذهبي. وقد يكون للشرق الفرصة مرة أخرى، كي يظهر للبشرية أن السعادة الإنسانية لا تعتمد على ذلك الشكل الخاص من العبادة، وأن غزو المادية غزو حربي أيضاً". يظهر غاندي مرات كثيرة في الكتاب، ويلعب نفس دور "فرانك" في أدب البوشمان.

والآن، أنا لا أعرف إن كان غاندي سيكون أو لا يكون إلهاماً مضيئاً في السنوات القادمة. حين يفكر المرء في المخلوقات التي بجلتها البشرية، فإن هذا على وجه الخصوص لا يبدو غير محتمل. لكن القول بأن الهند "ينبغي" أن تكون مستقلة وغير صناعية ومحايدة في الحرب الحالية، عبارة عن سخافة. إن نسي المرء تفاصيل الصراع السياسي، ونظر إلى الحقائق الاستراتيجية، سيرى حقيقتين في صراع ظاهري: الأولى من غير المرجح للهند أن تكون مستقلة بالمعنى الذي فيه بريطانيا وألمانيا مستقلتين اليوم. الثانية: إن رغبة الهند في الاستقلال حقيقة واقعية، ولا يمكن الحديث عن إزالتها من الوجود.

في عالم تتواجد فيه السيادة الوطنية، لا تستطيع الهند أن تكون دولة مستقلة، لأنها غير قادرة على الدفاع عن نفسها. وكلما ظلت البقرة والنول اللذان يتخيلهما فيلدن أكثر، ظل هذا صحيح أكثر. إن ما يسمى استقلالاً الآن، يعني القدرة على تصنيع الطائرات بأعداد كبيرة. ليس هناك سوى خمس دول مستقلة بشكل حقيقي، وإذا استمرت التوجهات الحالية، فلن يبقى غير ثلاث. في النظرة البعيدة المدى، من الواضح أن للهند فرصة ضئيلة في عالم سياسة القوة، بينما في النظرة القريبة، من الواضح أن الخطوة الضرورية الأولى نحو حرية الهند هي انتصار التحالف. وإلى أن يتحقق هذا، سيظل استقلال الهند خطوة قصيرة وغير مؤكدة، لكن البدائل تؤدي إلى استمرار الخضوع. إن انهزمنا، سوف تستولي اليابان أو ألمانيا على الهند، وتنتهي الحكاية. إن تكون هناك تسوية سلمية (يبدو فيلدن يلمح إلى أنها مرغوبة أحياناً) فلن تكون فرص الهند أفضل، لأننا في هذه الظروف ستتمسك بأي أراضٍ استحوذنا عليها أو لم نخسرها. التسوية السلمية تكون دائماً سلاماً "تمسك بما تستطيع".

يقدم السيد فيلدن هنديه الخيالي، ليقترح أن اليابان ستترك الهند بحالها إن كانت حيادية؛ أشك إن قال أي قومي هندي شيئاً غبياً كهذا. الفكرة الأخرى الأكثر شعبية في دوائر اليسار، بأن الهند تستطيع الدفاع عن نفسها لوحدها أفضل مما لو ساعدناها، هي فكرة سخيفة. لو أن الهنود متطورين عسكرياً لطردونا منذ زمن بعيد. الإكثار من اقتباس الأنموذج الصيني مضلل جداً هنا. إن غزو الهند والانتصار عليها، أسهل بكثير من الصين، وذلك بسبب مواصلاتها الأفضل على الأقل. على أي حال، إن المقاومة الصينية تعتمد على مساعدة الدول الصناعية المتطورة، وكانت ستنهار لولاها. يجب أن نستنتج من هذا أن قدر الهند ومصيرها مرتبط بمصير بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية في السنوات القليلة المقبلة، وقد يختلف الأمر إن استطاع الروس إطلاق يدهم بحرية في الغرب، أو أصبحت الصين قوة عسكرية عظمى، لكن هذا يستلزم هزيمة تامة لدول المحور، ويشير بعيداً عن الحيادية التي يظنها السيد فيلدن جذابة. إن الفكرة التي اقترحها غاندي نفسه بأنه لو وصلت اليابان فيمكن التعامل معهم بالتخريب و"عدم التعاون"، هي مجرد وهم، ولم يظهر غاندي أي علامات قوية في الإيمان بها. تلك الطرق لن تربك البريطانيين جداً، ولن تترك أي بصمة على اليابانيين. أخيراً ورغم كل شيء، أين غاندي الكوري؟

لكن ضد هذا تكمن حقيقة القومية الهندية، التي لن يتم التخلص منها بواسطة هراء وثائق البرلمان التي ترسم سياسة الحكومة أو ببضع عبارات من ماركس. وهي قومية من النوع العاطفي والرومانسي وحتى الشوفيني. عبارات مثل "تراب وطننا المقدس" التي تبدو مضحكة في بريطانيا، تأتي للهندي بشكل طبيعي. حين كان اليابانيون على وشك غزو الهند، استخدم نهرو هذه العبارة "من يموت لو تحيا الهند؟" وهكذا أكمل الدولاب دورة تامة والهنود يتمردون-يقتبس كيبلينغ. والوطنية في هذا المستوى تعمل لصالح الفاشية بشكل مباشر. قلة قليلة من الهنود لم تجذبهم فكرة أن تكون الهند حرة. حتى هؤلاء الذين يقدمون الكلام فقط للإقطاعيين، يريدون عادة اتحاداً مشرقياً، وفكروا في التحالف ضد الغرب. ليس لفكرة الصراع الطبقي سوى جاذبية قليلة في أي مكان في آسيا، ولا تثير كل من روسيا والصين الكثير من الولاء للهند. لا يرى سوى حفنة من الهنود فقط أن سيطرة النازية على أوروبا تؤثر على مصيرهم بأي شكل. في البلدان الآسيوية الأصغر، كان قوميو "بلادي محقة أو مخطئة" بالضبط من ذهب إلى اليابانيين - خطوة لم تكن كلها بسبب الجهل ربما.

لكن تبرز هنا نقطة لم يتطرق إليها السيد فيلدن وهي: نحن لا نعرف إلى أي حد تكون الوطنية الهندية نتاج اضطهادنا نحن. كل الأمم الشرقية باستثناء اليابان كانت في حالة خضوع تقريباً وهستريا (هرع) وقصر نظر، وربما كانت الحركات القومية نتيجة ذلك. ربما يكون الإدراك بأن السيادة الوطنية عدوة للحرية الوطنية، أسهل بكثير حين لا يحكمك أجانب.

ليس مؤكداً أن الأمر هكذا، بما أن أشد القوميين في الأمم المشرقية هي اليابان، وهي الوحيدة التي لم تخضع وتهزم أبداً، لكن يمكن القول على الأقل إن لم يكن الحل بمحاذاة هذه الخطوط، فلن يكن هناك حل. إما أن تستسلم سياسة القوة إلى الاحتشام الشائع، أو على العالم أن يسقط بشكل لولبي في كابوس استطعنا أن نرى لمحات عاتمة منه. والخطوة الضرورية الأولى قبل أن نستطيع التحدث عن اتحاد عالمي معقول وموثوق، هي أن تترجل بريطانيا وتنزل عن ظهر الهند. هذا هو العمل الرئيسي المحتشم الممكن في هذه اللحظة. ستكون الإجراءات التمهيدية الفورية: إلغاء منصب نائب الملك ووزارة الهند وإطلاق سراح سجناء حزب المؤتمر والتصريح باستقلال الهند رسمياً، أما البقية فهي مجرد تفاصيل. (ستكون النتيجة المباشرة طبعاً حلفاً عسكرياً أثناء فترة الحرب، ومن غير المحتمل أن تكون هناك أي صعوبة في ضمان هذا. قلة قليلة جداً من الهنود المتطرفين تريد أن تحكمهم اليابان أو ألمانيا. [ملاحظة المؤلف]).

لكن كيف يمكننا أن نجعل شيئاً كهذا يحدث؟ لو حدث في هذا الوقت، فلا يمكن أن يكون إلا عملاً طوعياً. إن استقلال الهند ليس له رصيد باستثناء الرأي العام في بريطانيا وأميركا، وهو مجرد رصيد كامن. اليابان وألمانيا والحكومة البريطانية كلها في جانب، وأصدقاء الهند المحتملون الصين والاتحاد السوفييتي يقاتلان من أجل حياتيهما، ولا يملكان سوى قوة مساومة قليلة. يبقى الشعبان البريطاني والأمريكي اللذان في موقع يمكنهما فيه أن يضغطا على حكومتيهما، إذا رأيا مبرراً لفعل هذا. في زمن مهمة كريبس مثلاً، كان سهلاً جداً على الرأي العام في هذه البلاد أن يجبر الحكومة على تقديم عرض مناسب، وقد تتكرر فرص مماثلة. بالمناسبة، يبذل السيد فيلدين أقصى جهده ليلقي الشكوك على استقامة كريبس الشخصية، ويترك الأمر يبدو أن لجنة المؤتمر الفاعلة كانت بالإجماع ضد قبول مقترحات كريبس. ولكن الوضع لم يكن كذلك. في الواقع انتزع كريبس أفضل الشروط التي استطاع الحصول عليها من الحكومة، ولكي يحصل على أفضل منها، كان عليه أن يحشد الرأي العام

بشكل فاعل وذكي خلفه. لذلك كانت المهمة الأولى -إقناع الناس العادين في هذه البلاد. جعلهم يرون أن الهند مهمة، وأن الهند عوملت بشكل مخز وتستحق التعويض. لكنك لن تفعل ذلك بتحقيرهم. الهنود ككل يدركون هذا أفضل من المدافعين عنهم، أي الإنكليز. أخيراً ما هو التأثير المرجو من كتاب يسيء إلى كل مؤسسة إنكليزية ويبتهج بـ "حكمة الشرق" مثل معلم مدرسة أمريكية قديم في جولة إرشادية، ويخلط حججاً من أجل حرية الهند وحججاً من أجل الاستسلام لهتلر؟ في أفضل أحواله، لن يهدي إلا المهتدين وربما يرتد بضع من هؤلاء. إن التأثير الخالص يجب أن يكون تقوية الإمبريالية البريطانية، رغم أن دوافعه ربما أكثر تعقيداً مما قد يتضمنه هذا.

إن كتاب السيد فيلدين في ظاهره دعوة إلى "الروحانية" في مواجهة "المادية"، فهو من جهة تبجيل وتقديس لكل ما هو شرقي، ومن جهة أخرى كره للغرب عموماً ولبريطانيا خصوصاً، وكره للآلة وتشكيك بروسيا وازدراء لمفهوم الطبقة العاملة الاشتراكية. يضاف الكل إلى فوضوية الردهات -دعوة إلى الحياة البسيطة مؤسسة على إيرادات الأسهم. رفض الآلة مؤسس دائماً على قبول ضمني بالآلة، حقيقة يرمز إليها غاندي حين يلعب بنوله في دار أحد مليونيري القطن. لكن غاندي يدخل في الصورة بطريقة أخرى. من اللافت أن غاندي والسيد فيلدين لهما موقف ملتبس جداً نحو الحرب الحالية. رغم سمعته المتباينة بكونه سلمياً "صرفاً" وعميلاً يابانياً، ففي الحقيقة أدلى بتصريحات متضاربة كثيرة جداً عن الحرب لدرجة يصعب تتبعها. في لحظة يكون "تأييده الأخلاقي" للحلفاء، وفي لحظة أخرى يسحبه، وفي لحظة يعتقد أن الأفضل التصالح مع اليابانيين، وفي أخرى يرغب في مقاومتهم بوسائل غير عنيفة-على حساب، كما تعتقد ملايين كثيرة من الأرواح- وفي لحظة أخرى يحث بريطانيا على أن تشن حرباً في الغرب وتترك الهند تُغزى، وفي أخرى "ليس لديه رغبة للضرر بقضية الحلفاء، ويصرح بأنه لا يريد من قوات الحلفاء أن تغادر الهند. آراء السيد فيلدن أقل تعقيداً، لكن تساويها في الغموض. لم يصرح في أي مكان إن كان يتمنى أن يهزم المحور أم لا. هو يلح مراراً أن انتصار الحلفاء لن يؤدي إلى نتيجة جيدة، وفي الوقت نفسه يتنصل من "الانهزامية" حتى إنه يلح بأن حياد الهند سيكون مفيداً لنا بالمعنى العسكري، بمعنى أننا نستطيع أن نقاتل بشكل أفضل حين لا تكون الهند عهدة ومسؤولية. هذا يعني أنه يريد تسوية أو سلاماً

تفاوضياً، لكنه يفشل في قول هذا. ولا أشك أن هذا هو ما يريده. لكن الغريب جداً هو الحل الإمبريالي. لا يريد المهدئون دائماً لا الهزيمة ولا النصر الحاسم، وإنما يريدون تسوية مع القوى الإمبريالية الأخرى، ويعرفون دائماً كيف يستغلون غباء الحرب كذريعة.

كان أغلب الإمبرياليين الأذكياء يفضلون تسوية مع الفاشيين في السنين الماضية، حتى لو تنازلوا عن شيء كثير لتحقيق ذلك، لأنهم رأوا أن هذا هو الطريق الوحيد لإنقاذ الإمبريالية. ولا يخشى بعضهم من التلميح الكبير بهذا حتى الآن. ولو دفعنا الحرب إلى نهاية مهلكة، إما تضيع الإمبراطورية البريطانية أو تصبح ديمقراطية أو ترهن لأميركا، لكنها من جانب آخر يمكنها أن تنجو وتبقى في شيء مثل شكلها الحالي إن كانت هناك قوى إمبريالية متخمة لها مصلحة في الحفاظ على النظام العالمي. لو توصلنا إلى تفاهم مع ألمانيا واليابان، قد نقلل ممتلكاتنا وحيازاتنا (حتى ذلك غير مؤكد: لم يهتم بحقيقة أن بريطانيا وأميركا قد كسبتا أكثر مما خسرتا من الأراضي التابعة لهما في هذه الحرب) لكن يمكننا أن نعزز ونثبت ما نملكه مسبقاً. سينقسم العالم إلى ثلاث أو أربع قوى إمبريالية كبرى، ليس لديها أي دافع للتنازع في الوقت الحالي. ستكون ألمانيا موجودة لتحييد روسيا، وستكون اليابان موجودة لتمنع الصين من التطور. بفضل هذا النظام العالمي، ستظل الهند خاضعة إلى الأبد. والأكثر من هذا، يشك أن تجري تسوية سلمية بغير هذا الشكل. لهذا سيبدو أن فوضوية الردهات ليست شيئاً حميداً أخيراً. موضوعياً، إنها تطالب فقط بأسوأ ما يريده المهدئون، موضوعياً هي نوع لإثارة سخط الأصدقاء المحتملين للهند في هذه البلاد. ألا يحمل هذا شبهاً بسيرة غاندي الذي أبعد الجمهور البريطاني بتطرفه وساعد الحكومة البريطانية باعتداله؟ الاستحالة والرجعية دائماً في حلف عادة، لكنه حلف ليس متعمداً طبعاً.

إن النفاق شيء نادر جداً، والنذالة الحقيقية ربما صعبة كالفضيلة. نحن نعيش في عالم تتغير فيه النقائض باستمرار مع بعضها البعض، عالم يجد فيه السلميون أنفسهم يبجلون هتلر، ويصبح الاشتراكيون قوميين، ويكون الوطنيون خونة وبائعي أوطان، ويصلي البوذيون من أجل نجاح الجيش الياباني، ويأخذ سوق الأسهم دورة في الصعود حين تكون المرحلة الروسية عدوانية. إن دوافع الناس تكون واضحة جداً حين تُرى من الخارج، لكنها لا تكون واضحة لأنفسهم. المشاهد التي تخيلها الماركسيون التي فيها يجلس الرجال الأغنياء الشريرون في غرف

سرية ويدبرون المكائد لسرقة العمال، لم تحدث في الحياة الحقيقية. السرقة تحدث، لكن مرتكبيها هم المسرنمون. الآن واحد من أجمل الأسلحة التي يطورها الأغنياء ضد الفقراء دائماً هي "الروحانية" إن استطعت إقناع الرجل العامل بأن يصدق أن رغبته الحقيقية في مستوى حياتي محترم هي "المادية"، فإنك تهزمه أينما تريد. ولو استطعت أيضاً إقناع الهندي بأن يبقى "روحانياً" بدلاً من الانضمام إلى أشياء سوقية مثل نقابات العمال، فيمكنك أن تضمن أنه سيبقى حمالاً (كولياً) دائماً. إن السيد فيلدين ناقم من "مادية" الطبقة العاملة الغربية التي يتهمها بأنها أسوأ من الأغنياء في هذا الصدد، فهي لا تريد الراديوهات فقط، وإنما السيارات ومعاطف الفراء أيضاً. الرد الواضح أن هذه الآراء المغرقة بالعاطفية، لا تأتي صادقة من شخص في موقع مريح ويحظى بامتيازات. لكن ذلك مجرد رد وليس تشخيصاً، لأن مشكلة الطبقة المثقفة الساخطة، لن تكون مشكلة أبداً إن اشتملت على عدم الأمانة والتضليل العادي.

في السنوات العشرين الأخيرة أعطت الحضارة الغربية المثقف الأمان من دون مسؤولية. وفي إنكلترا خصوصاً علمته وثقفته بمذهب الشكوكية، وأرسته بشكل ثابت لا يتحرك في الطبقة ذات الامتيازات، وكان في موقع شاب يعيش على هبة وحصة من أب يكرهه. النتيجة، هي شعور عميق بالذنب والامتعاض غير متحد برغبة صادقة في الفرار. لكن يجب أن يكون هناك فرار نفسي ما وشكل ما من تبرير الذات، والقومية المحولة أو المنقولة هي واحدة من أكثر أشكال الفرار، والتبرير إرضاء. ففي أثناء ثلاثينات القرن العشرين كان التحول العادي إلى روسيا السوفيتية، لكن هناك بدائل أخرى، ومن اللافت أن السلمية والفوضوية قبل الستالينية تنتشران بين الشباب الآن، فهذه العقائد تملك ميزة بأنها تهدف إلى المستحيل، ولذلك تطالب بالقليل جداً في الواقع. لو أضفت لمسة من التصوف الشرقي والنشوة البوشمانية على غاندي، ستمتلك أي شيء يحتاجه المثقف الساخط، ويمكن الاستمتاع بحياة الجنتلمان الإنكليزي والمواقف الأخلاقية للقديس في الوقت نفسه. بمجرد تحويل ولائك من إنكلترا إلى الهند (كانت العادة روسيا سابقاً)، تستطيع أن تنغمس حتى الامتلاء في كل العواطف الشوفينية التي كان من المستحيل أنك عرفت وأدركت ماذا كانت وما هي عليه. باسم السلمية تستطيع أن تعقد تسوية مع هتلر، وباسم الروحانية تستطيع الحفاظ على مالك. ليس مصادفة أن هؤلاء الذين يرغبون في نهاية غير حاسمة للحرب، يميلون إلى تمجيد الشرق

كعدو للغرب. الحقائق الواقعية لا تهم كثيراً. حقيقة، إن أمم الشرق أظهرت نفسها بأنها تحب الحرب على الأقل ومتعطشة للدم كالأمم الغربية، وذلك بعيد جداً من نبذ النزعة الصناعية التي يتبناها الشرق بأسرع ما يستطيع- هذا غير ذي صلة بالموضوع، بما أن المطلوب هو الإيمان الخرافي بالشرق المسالم والمتدين والبطرياركي الذي سيُحرض ويثور ضد الغرب الجشع المادي. حالما ترفض النزعة الصناعية ومن ثم الاشتراكية، فأنت في المنطقة المحرمة؛ حيث يوحد النازيون والفاشيون قواهم. يوجد في الواقع نوع من حقيقة رؤيوية في رواية الراديو الألماني، بأن تعاليم هتلر وغاندي هما الشيء نفسه. يدرك المرء هذا حين يرى ميدلتون موراي يكيل المديح للغزو الياباني للصين، وحين يقترح جيرالد هيرد تأسيس النظام الطائفي الهندي في أوروبا في نفس الوقت الذي يتخلى فيه الهندوس أنفسهم عنه. سوف نسمع الكثير عن تفوق الحضارة الشرقية في السنين القليلة القادمة. في الوقت الحالي هذا كتاب ضار يمكن أن تصفق له الصحافة اليسارية، ويرحب به اليمين الأكثر ثقافة لأسباب مختلفة تماماً.

هورايزون أيلول/ سبتمبر ١٩٤٣

بارتيزان ريفيو شتاء ١٩٤٤.

دفاعاً عن الرواية

ليس هناك حاجة للإشارة في هذه اللحظة بأن مقام الرواية متدن جداً الآن، لذلك فإن كلمات "أنا لم أقرأ روايات" التي كانت تنطق منذ عشر سنين عموماً بإشارة من الاعتذار، باتت تنطق الآن بافتخار متعمد. صحيح أنه مازال هناك قلة من الروائيين المعاصرين أو شبه المعاصرين الذين تعتبر الفئة المثقفة قراءتهم جائزة؛ لكن المغزى أن الرواية العادية الجيدة -الرديئة تم تجاهلها عادة بينما كتب الشعر العادية الجيدة- الرديئة وكتب النقد لازالت تؤخذ على محمل الجد. هذا يعني لو أنك تكتب روايات، فأنت تنال جمهوراً ذكياً بشكل آلي أقل مما تنال لو اخترت شكلاً آخر. هناك سببان واضحان تماماً جعلا من المستحيل أن تكتب الرواية الجيدة. حتى الآن الرواية تتلف بشكل مرئي، وستتلف بشكل أسرع إن كان لدى أغلب الروائيين أي فكرة عن من يقرأ كتبهم. من السهل الجدال طبعاً (راجع مثلاً مقال بيلوك الحقود بشكل غير سوي) أن الرواية شكل خسيس من الفن، وأن مصيرها المحتوم غير مهم. أشك إن كان ذلك الرأي يستحق التفنيد حتى. على كل حال، أنا أعتبر من المسلم به أن الرواية تستحق الإنقاذ، ولكي تنقذها يجب أن تقنع الناس المثقفين أن يأخذوها بجدية. لذلك من الجدير أن نحلل واحداً من أسباب كثيرة -في رأيي. السبب الرئيس -هبوط هيبة الرواية.

المشكلة في الرواية هو صراخها من الوجود. اسأل أي شخص مفكر لماذا هو "لا يقرأ الرواية أبداً"، وستجد عادة في العمق أن السبب الهراء المثير للاشمئزاز الذي يكتبه النقاد الأدبيون الذين يعرفون بالكتاب. ليست هناك حاجة لإضافة الأمثلة. سأقدم عينة واحدة فقط في عدد الأسبوع الماضي من السنداي تايمز: "إن استطعت أن تقرأ هذا الكتاب ولم تصرخ بالبهجة، فإن روحك ميتة". ذاك أو مثيله يكتب الآن عن كل رواية تنشر، كما ترى من دراسة المقتطفات على الدعايات المعرفة بالكتب. لكل واحد يأخذ السنداي تايمز على محمل الجد، فإن الحياة يجب أن تكون صراعاً طويلاً للحاق والوصول. تقدم الروايات لك بمعدل خمس عشرة واحدة يومياً، وكل واحدة منها تحفة لا تنسى وضياعها يهدد روحك بالخطر. هذا

يصعب اختيار كتاب في المكتبة، وينبغي أن تشعر بالذنب حين تفشل في الصراخ بالبهجة. لكن في الواقع لا يُخدع أي مهتم بهذا النوع من الشيء. والخزي الذي سقطت فيه مراجعة الرواية امتد إلى الروايات نفسها. حين كل الروايات تقحم عليك مثل كلمات نابغة، فمن الطبيعي تماماً أن تفترض أنها كلها هراء. ضمن الفئة المثقفة الأدبية هذا الافتراض مسلم به الآن. أن تعترف بأنك تحب الروايات الآن، يعادل تقريباً الاعتراف بأنك تتوق إلى عصير جوز الهند البارد، أو تفضل روبرت بروك على جيرارد مانيلي هوبكينز.

هذا كله واضح. إن الذي أفكر فيه أقل وضوحاً، وهو الطريقة التي ظهر فيها الوضع الحالي. الوجه الأول منها أن انحدار الكتاب بسيط جداً وخداع كلبي. زد يكتب كتاباً، وواي ينشره، وإكس يراجعه في أسبوعية دبليو. إن كانت المراجعة النقدية رديئة، فإن واي سيزيل إعلانه وينقله إلى صحيفة أخرى، ولهذا على إكس أن يُسلم "تحفة لا تنسى" أو يُطرد من العمل. جوهرياً ذلك هو الوضع. ومراجعة الرواية النقدية سقطت إلى عمقه الحالي بشكل رئيسي لأن كل مراجع ناقد لديه ناشر أو ناشرون يضايقونه بالوكالة. لكن الشيء ليس فظاً جداً كما يبدو عليه، لأن الأطراف المتنوعة التي على علاقة بالاحتيال لا تعمل معاً بشكل مقصود، وهم دُفعوا في وظيفتهم الحالية بالقوة وضد إرادتهم.

بدايةً، ينبغي على المرء أن يفترض كما يتم غالباً (راجع مثلاً عمود متسكع الشواطئ كثير الوقوع) أن الروائي يستمتع وحتى أنه بطريقة ما مسؤول عن المراجعات النقدية التي ينالها. لا أحد يحب أن يقال له إنه كتب فتنة نابضة من الهيام ستدوم بعمر اللغة الإنكليزية، لكن طبعاً من المخيب للآمال ألا يقال لك ذلك، لأن الروائيين كلهم يقال لهم الشيء نفسه. وأن تشطب، يعني أن كتابك لن يباع. المراجعة النقدية المبتذلة في الحقيقة نوع من الضرورة التجارية، مثل الدعاية المعرفة عن الكتاب على الغلاف الورقي الخارجي، عبارة عن مجرد امتداد. لكن حتى المراجع النقدي المبتذل لا يلام على الهراء الذي يكتبه، ففي ظروفه الخاصة لا يستطيع أن يكتب غير ذلك. لأنه حتى لو لم تكن هناك مسألة رشوة مباشرة أو غير مباشرة، فلا يمكن أن يكون هناك نقد روائي جيد، طالما يفترض أن كل رواية تستحق مراجعة نقدية.

تنال الدوريات كومها الأسبوعي من الكتب، وترسل دزينة منها إلى المراجع النقدي المأجور إكس الذي له زوجة وعائلة وعليه أن يكسب هذا الجنيه، ولا حاجة لذكر النصف

كراون لكل مجلد يحصل عليه من بيع نسخ مراجعته. هناك سببان لماذا من المستحيل تماماً لإكس أن يقول الحقيقة عن الكتب التي يحصل عليها. أولاً، إن الفرص أن أحد عشر كتاباً من الاثني عشر ستفشل في إثارة أوهى شرارة من الاهتمام فيه. إنها ليست أكثر من الرديئة المألوفة، وهي مجرد كتب حيادية ميتة وبلا مغزى. لو لم يدفع له المال ليفعل هذا، فإنه لن يقرأ سطراً واحداً من أي كتاب منها. وفي كل حالة تقريباً ستكون المراجعة النقدية الصادقة الوحيدة التي يستطيع أن يكتبها: "هذا الكتاب لم يلهمني بأي فكرة". لكن هل هناك واحد يدفع لك المال إن كتبت ذلك النوع من الشيء؟ كلا بوضوح. كبداية لذلك، إكس في الوضع الخائن بأن عليه أن يصنع ثلاثمئة كلمة مثلاً عن كتاب لا يعني له أي شيء، ويفعلها عادة بإعطاء خلاصة مختصرة للحبكة (عرضياً يكشف السر للمؤلف بأنه لم يقرأ الكتاب) ويكتب بضع إطراءات قيمتها بسبب ريائها مثل ابتسامة العاهرة.

لكن هناك شراً أسوأ من هذا بكثير. لا يتوقع من إكس أن يقول ما هو موضوع الكتاب فقط، وإنما أن يعطي رأيه إن كان كتاباً جيداً أو رديئاً. بما أن إكس يستطيع أن يحمل قلماً، فهو على الأرجح ليس أحمق إلى الدرجة التي يتخيل فيها أن **الحورية المخلصة** هي أروع مأساة كتبت قط، وبالمثل إن روائييه المفضلين إن كان يكترث بالروايات قط، هم ستاندال أو ديكنز أو جين أوستن أو دي اتش لورانس أو دستويفسكي -أو شخص ما أفضل بشكل لا يقاس من الدفق العادي من الروائيين المعاصرين. لذلك يجب عليه أن يبدأ بتخفيض معاييره بشكل هائل. كما أشرت في مكان آخر، أن يطبق معيار لائق للدفق العادي من الروائيين مثل وزن برغوث على ميزان النابض المخصص للفيلة. على ميزان كهذا سيفشل البرغوث في التسجيل؛ يفترض أنك بدأت ببناء ميزان آخر يكشف حقيقة وجود براغيث كبيرة وأخرى صغيرة، وهذا تقريباً ما يفعله إكس. لا فائدة من القول الرتيب عن كتاب وراء آخر "هذا الكتاب تافه"، لأنه لن يدفع لك أحد مرة أخرى لقاء كتابة هذا الشيء. يجب على إكس أن يكتشف شيئاً ليس تافهاً وحسناً بشكل متكرر أو يطرد. هذا يعني تخفيض معاييره إلى عمق يكون فيه مثلاً **طريق نسر** للكاتب ايثل ام ديلل كتاباً جيداً تماماً. على سلم القيم يجعل **طريق نسر** كتاباً جيداً و**الحورية المخلصة** كتاباً ممتازاً و**رجل الملكية** - ماذا؟ حكاية خافقة من

الشغف وتحفة رائعة تحطم الروح وملحمة لا تنسى ستدوم بدوام اللغة الإنكليزية وهلم جرا. (وبالنسبة إلى أي كتاب جيد حقيقة، فإنه سيفجر ميزان الحرارة). بعد الافتراض أن كل الروايات جيدة، فإن المراجع النقدي يكون مدفوعاً إلى الأعلى دائماً على سلم من الصفات لا ذروة له. تستطيع رؤية مراجع وراء آخر سائرين بنفس الطريق، وخلال ستين من البدء بنوايا صادقة مقبولة من أي مقياس، يعلن بصرخات مجنونة أن ليلة قرمزية للآنسة برباره بيدورثي هي التحفة الأكثر روعة ونشاطاً وإثارة للعواطف والتي لا تنسى أبداً إلخ إلخ. ليس هناك أي مهرب منها بعد أن ترتكب الخطيئة الأولى بالتظاهر أن كتاباً رديئاً هو كتاب جيد. لكن المرء لا يستطيع أن يكتب المراجعات النقدية للروايات كوسيلة للعيش من دون ارتكاب هذه الخطيئة. والآن كل قارئ ذكي يبتعد عن القرف ويحتقر الروايات بسبب هذا النوع من الواجب الطنان. لهذا من الممكن أن تفلت رواية ذات قيمة حقيقية من الملاحظة، فقط لأنها مدحت بنفس الهراء. وهذه حقيقة غريبة.

اقترح أناس كثيرون أنه سيكون من الأصلح لو لم تُكتب مراجعات نقدية لأي رواية إطلاقاً، لكن الاقتراح عقيم ولن يحدث شيء من هذا النوع. ليس هناك صحيفة تستطيع التخلي عن إعلانات ناشريها، ولذلك يدرك الناشرون الأكثر ذكاءً أنهم سيكونون أسوأ إن ألغيت المراجعة النقدية المعرفة بالكتاب ولا يستطيعون وضع نهاية لها لنفس السبب الذي لا تستطيع الأمم فيه نزع الأسلحة -لأنه لا أحد يريد أن يكون الأول الذي يبدأ. ستستمر لوقت طويل مراجعات أغلفة الكتب، وسوف تزداد سوءاً، والعلاج الوحيد هو استنباط طريقة ما لتجاهل المراجعات وإهمالها، لكن هذا لا يمكن أن يحدث، إلا إذا كان هناك في مكان ما مراجعة نقدية محترمة للرواية تعمل عمل معيار ومقياس للمقارنة. هذا يعني الحاجة إلى مجلة دورية واحدة فقط (واحدة ستكفي في البداية) تجعل من مراجعة الرواية حقل تخصصها، وترفض أخذ أي ملاحظة من التفاهة، والتي يكون المراجعون النقديون فيها مراجعين وليسوا دمى تتكلم من بطونها وتقعقع بفكوكها حين يشد الناشر الخيط.

يمكن الرد على ذلك، بأن هناك مثل تلك الدوريات مسبقاً. هناك عدد من المجلات الرفيعة مثلاً تراجع فيها الرواية، وما يوجد منها ذكي وليس شهادة كاذبة. نعم، لكن النقطة أن الدوريات التي من ذلك النوع لم تجعل من مراجعة الرواية تخصصاً لها، وبالتأكيد لم تبتعد

وتنأى بنفسها عن النتاج القصصي الراهن. هذه الدوريات تنتمي إلى عالم الثقافة الرفيع، العالم الذي افترض فيه مسبقاً أن روايات كهذه محتقرة. لكن الرواية شكل فني محبوب، ومن العبث مقاربتها بافتراض معياري تدقيقي بأن الأدب لعبة حك الظهر (مخالب داخلة أو مخالب خارجة حسب الظروف) بين زمرة صغيرة جداً من رفيعي الثقافة. الروائي هو قصاص أولاً، والإنسان قد يكون قصاصاً جيداً جداً (راجع ترولوب أو تشارلز ريد أو السيد سومرست موم مثلاً) بدون أن تكون "مثقفاً" بالمعنى الضيق. سنوياً تنشر خمسة آلاف رواية، ورالف ستراوس يناشدك أن تقرأها كلها. الكرايتريون ربما تفضل أن تلاحظ وتكتب عن دزينة، لكن بين الدزينة والخمسة آلاف، ربما يكون هناك مئة أو مائتين أو حتى خمسمئة تملك قيمة حقيقية، يجب أن يركز عليها أي ناقد يهتم بالرواية.

لكن الضرورة الأولى هي طريقة ما للتصنيف؛ فهناك أعداد كبيرة جداً من الروايات ينبغي ألا يتم ذكرها أبداً (تخيل مثلاً الآثار البغيضة على النقد إن جرت مراجعة رزينة لكل سلسلة من **بيغز بيبر**!) لكن حتى الروايات التي تستحق الذكر تنتمي إلى تصنيفات مختلفة تماماً. **رافلز** كتاب جيد، وكذلك **جزيرة الدكتور مونرو** وكذلك **منزل بارم الريفي** وهكذا **مكبث**؛ لكنها جيدة بمستويات مختلفة جداً، وبالمثل إن أتى **الشتاء والمحبوب والاشتراكي غير الاجتماعي ودرع ساق السير لانسلوت** كلها كتب رديئة، لكن في مستويات مختلفة من "السوء". هذه هي الحقيقة التي جعل المراجع النقدي المأجور مهنته الخاصة أن يخفيها. ينبغي أن يكون من الممكن استنباط نظام صارم لتصنيف الروايات إلى أصناف، ألف وباء وجيم وهلم جرا، لكن إن امتدح المراجع النقدي كتاباً أم لعنه، ستعرف على الأقل مدى الجدية التي أخذه فيها. بالنسبة إلى المراجعين النقديين، يجب أن يكونوا أناساً يهتمون بفن الرواية (وذلك يعني ربما ألا يكونوا رفيعي الثقافة أو قليلي الثقافة أو متوسطي الثقافة، وإنما مرني الثقافة) أناس يهتمون بالتكنيك ويهتمون أكثر باكتشاف الموضوع الذي يدور حوله الكتاب. هناك الكثير من مثل هؤلاء الناس في الوجود؛ بعض من أسوأ المراجعين النقديين، رغم أنهم ماض نتمنى رجوعه، بدؤوا مثل ذلك، كما يمكنك أن ترى ذلك بالنظر إلى أعمالهم السابقة. عرضياً، سيكون شيئاً جيداً لو تمت مراجعات نقدية أكثر من قبل الهواة. إنسان

ما ليس كاتباً متمرساً لكنه قرأ كتاباً أثر عليه بعمق، وهو مستعد كي يخبرك عن موضوعه أكثر من محترف ضجر كفؤ. لهذا السبب، يكون المراجعون النقديون الأميركيون رغم كل غبائهم أفضل من نظرائهم الإنكليز؛ إنهم هواة أكثر، يعني جديين أكثر.

أعتقد أنه بهذه الطريقة التي أشرت إليها، يمكن استرجاع مقام وهيبة الرواية. الحاجة الأساسية صحيفة تواكب القصص الراهن، ولكن ترفض أن تهبط في مستوياتها. يجب أن تكون صحيفة خفية، لأن الناشرين لن يعلنوا فيها؛ ولكن من جهة أخرى بمجرد أن يكتشفوا وجود مديح ومديح حقيقي في مكان ما؛ سيكونون جاهزين لاقتباسه على دعاياتهم المعرفة بالكتاب. حتى لو كانت جريدة خفية جداً، ربما تسبب رفع مستوى مراجعة الرواية، لأن الهراء الذي في صحف الأحد يستمر لعدم وجود أي شيء يعاكسه. لكن حتى إذا استمر مراجعو الدعاية المعرفة بالكتاب كما في السابق بالضبط، فلن يهم ذلك طالما توجد هناك رواية محترمة أيضاً. لأنه كما وعد الرب بأنه سيدمر سودوم إن أمكن إيجاد عشرة رجال صالحين هناك، فكذلك لن تحتقر الرواية تماماً طالما كان معروفاً أن هناك حفنة من مراجعي الرواية النقديين في مكان ما أو آخر لم يصابوا بالجنون.

في الوقت الحالي، إن اهتممت بالروايات، والأكثر إن كنت تكتبها، فإن المنظر محزن في إفراطه. كلمة "رواية" تستدعي "التعريف بالكتاب" و"النابغة" و"رالف ستراوس" بشكل آلي، مثلما تستدعي كلمة "فرخة" "صلصلة الخبز" الناس الأذكياء يتحاشون الروايات بشكل غريزي تقريباً، وفي النتيجة ينهار الروائيون. أما المبتدئون الذين "لديهم ما يقولونه" فيحولون تفضيلهم إلى أي شكل آخر. الانحطاط الذي يجب أن يتلو واضحاً. انظر مثلاً إلى الراويات القصيرة التي تباع بأربع بنسات التي تراها مكومة على طاولة محل قرطاسية رخيص. هذه الأشياء هي الذرية المتفسخة للرواية التي تحمل نفس العلاقة إلى مانون ليسكوت وديفيد كوبرفيلد كعلاقة الكلب بالذئب. على الأرجح لن تختلف الرواية العادية كثيراً عن الرواية القصيرة الرخيصة التي تباع بأربع سنتات في الأمد القريب، وستظهر في ملازم ذات السبعة سنتات أو الستة من دون شك وسط تبجح أبواق الناشرين. أناس متباينون تنبؤوا بأن الرواية محكومة بالاختفاء في المستقبل القريب. أنا لا أعتقد أنها سوف تتلاشى لأسباب يستغرق عرضها زمناً طويلاً لكنها واضحة جداً. الاحتمال الأكبر إذا لم

تستطع العقول الأدبية الأفضل أن تغرى بالعودة إليها، أن تبقى حية بشكل ميكانيكي محتقر ومنحط بشكل يائس مثل شواهد القبور الحديثة أو عرض وجودي.

١-جيرارد غولد، في زمن مراجع نقدي مؤثر للرواية يعمل من أجل الأوبزيرفر

٢-رالف سيراوس، ١٨٨٢-١٩٥٠ مراجع قصصي رئيسي يعمل للسنداي تايمز من ١٨٨٢ حتى موته.

نشرت لأول مرة في نيو إنكليش ويكلي-١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر و١٩ عام ١٩٣٦ المقالات المختارة، الصحافة ورسائل جورج أورويل. ١٩٦٨.

اعترافات مراجع كتب

في غرفة نوم باردة، لكنها خانقة متسخة بأعقاب السجائر وأكواب الشاي نصف الفارغة، جلس رجل يرتدي عباءة نوم مهترئة أكلها العث وراء طاولة مخلوعة الأوصال، وهو يحاول إيجاد مكان لآلة الطباعة وسط أكوام من الأوراق المغبرة التي تطوقها. لم يستطع رمي الأوراق والتخلص منها في سلة النفايات، لأنها ممتلئة وطافحة مسبقاً، بالإضافة إلى ذلك قد يكون هناك وسط الرسائل التي لم يردّ عليها والفواتير التي لم تدفع، شيك بجنيهين، هو شبه متأكد أنه نسي أن يصرفه في البنك. وهناك أيضاً رسائل عليها عناوين، يجب أن يدخلها في دفتر عناوينه. لقد ضيع دفتر عناوينه، وفكرة البحث عنه أو عن أي شيء في الحقيقة يمليه بدوافع انتحارية حادة.

هو في الخامسة والثلاثين من عمره، لكنه يبدو في الخمسين. أصلع ولديه أوردة دموية متوسعة، ويضع نظارة كان سيلبسها لو لم تكن ضائعة بشكل مزمن. حين تسير الأشياء بشكل عادي معه، فهو يعاني من سوء التغذية، وإن ابتسم له الحظ حديثاً، سيكون يعاني من آثار سكر. في الوقت الراهن، الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً. وبناء على جدوله، يفترض أنه باشر في العمل منذ ساعتين قبل الآن. لكن حتى لو كانت لديه أي محاولة جادة للمباشرة، فسيحبطه رنين الهاتف المستمر تقريباً، وصرخات الطفل الصغير، وقعقعة مثقب كهربائي في الشارع، وصوت أحذية دائنيه الثقيلة، وهم يصعدون الدرج ويهبطونه. أحدث مقاطعة لعمله، كان وصول البريد الثاني وفيه دوريتان، وطلب دفع ضريبة طبعت بالخط الأحمر.

ليس هناك حاجة للقول إن هذا الشخص كاتب. قد يكون شاعراً أو روائياً أو كاتب نصوص سينمائية أو مقالات إذاعية، لأن كل رجال الأدب يتشابهون كثيراً، لكن دعنا نقل إنه مراجع كتب. هناك ظرف منتفخ شبه مخفي وسط الأوراق، يحتوي على خمسة مجلدات، أرسله إليه المحرر، مع ملاحظة يقترح فيها "ينبغي أن تبدو مسرة ومنسجمة". وصلت المجلدات منذ أربعة أيام، لكن شللاً أخلاقياً منع المراجع لمدة ثمان وأربعين ساعة من فتح المغلف. يوم أمس، وفي لحظة تصميم، مزق شريط المغلف، ووجد المجلدات الخمسة، وهي: فلسطين على مفرق

طرق، تاريخ موجز للديمقراطية الأوروبية (هذا لوحده ٦٨٠ صفحة ويزن أربعة أرطال)، العادات القبلية في شرق أفريقيا البرتغالية، ورواية بعنوان الأبهج هو الاستلقاء، ربما وضعت في المغلف بالخطأ. مراجعته -لنقل ٨٠٠ كلمة- يجب أن تذهب قبل منتصف يوم غد.

ثلاثة من هذه الكتب تعالج مواضيع يجهلها جداً، ويجب عليه أن يقرأ خمسين صفحة على الأقل، ليتجنب ارتكاب غلطة بلهاء تفشي سره، ليس للمؤلف فقط (الذي يعرف كل ما يتعلق بعادات مراجعي الكتب طبعاً) وإنما للقارئ العادي. بحدود الساعة الرابعة بعد الظهر، سيخرج الكتب من الأوراق التي لفت بها، لكنه ظل يعاني من عجز عصبي على فتحها. مشهد أن يقرأها وحتى رائحة الورق، أثرا عليه مثل مشهد أكل حلوى باردة من الأرز المطحون بزيت الخردل castor. كما أن اللافت أكثر أن نسخته يجب أن تصل إلى المكتب قبيل الوقت المحدد. لكن بطريقة أو أخرى، كانت تصل دائماً في الوقت المحدد. في الساعة التاسعة سيصفو ذهنه نسبياً، وحتى ساعات الليل الأخيرة سيظل جالساً في غرفة يزداد بردها وكثافة دخان السجائر فيها، وسيتخطى ويحذف كخبير في كتاب تلو آخر، ويضع في آخره تعليقاً يقول "يا الله، ما هذا الهراء!".

في الصباح، وبعينين دامعتين وذقن غير حليقة، يحملق في صفحة بيضاء فارغة من الورق لساعة أو اثنتين، إلى أن يخيفه مؤشر ساعة الجدار المتوعد ويجبره على العمل. عندئذ يبدأ النهش فيها. كل العبارات المبتذلة – "كتاب يجب ألا يفوت أحداً"، "شيء جدير أن يذكر في كل صفحة"، "الفصول التي تعالج كذا وكذا، ذات قدر خاص من القيمة"- ستقفز إلى مكانها مثل برادة الحديد التي تنصاع للمغناطيس. وتنتهي المراجعة وبالطول الصحيح تماماً، ويظل لديه من الوقت ثلاث دقائق إضافية.

في هذه الأثناء تصل بالبريد لفة كبيرة من الكتب غير المتجانسة والمنفرة للشهية. وهكذا تسير الأمور. ومع ذلك، بأي آمال بدأ هذا المخلوق المضطهد وذو الأعصاب المحطمة سيرته المهنية قبل بضع سنوات!

هل أبدو مبالغاً؟ أنا أسأل أي مراجع كتب دائم أو أي مراجع، يراجع مئة كتاب في السنة، إن كان ينكر وهو صادق، أن شخصيته وعاداته ليست كالتي وصفت. على أي حال، كل كاتب، هو ذلك النوع من الأشخاص إلى حد ما، لكن مراجعة الكتب المطولة والعشوائية

مهنة ناكرة للجميل ومثيرة للسخط ومضنية بشكل استثنائي تماماً. فهي لا تقتصر على كيل المديح للقمامة، لكنها تشمل -كما سأبين بعد لحظة- ابتكار ردود أفعال تجاه كتب ليس لدى أحد أي شعور عفوي أياً كان نوعه نحوها. مراجع الكتب، رغم تخمته، ربما مهتم بالكتب كمحترف. ومن الكتب الألف التي تظهر سنوياً، يحتمل أن يكون هناك خمسون أو مئة منها يستمتع في الكتابة عنها. وإن كان من أحد الكسبة الكبار ربما يضع يده على عشرة أو عشرين منها، ولكن على الأرجح سيضع يده على اثنين أو ثلاثة. بقية عمله، مهما كان منجزاً بما يمليه ضميره، عبارة عن دجل في جوهره. هو يهرق روحه الأبدية في مصرف للمياه، باينت واحد في المرة الواحدة.

أغلب المراجعين يقدمون وصفاً غير وافٍ ومضلل للكتاب الذي يعالجونه. منذ الحرب باتت مقدرة الناشرين على لي أذناب المحررين الأدبيين أقل، واستحضار أنشودة المديح لكل كتاب ينتجونه، لكن من جانب آخر هبطت المعايير بسبب نقص الفراغ المخصص والعوائق الأخرى. بسبب النتائج اقترح الناس أن الحل يكمن في الحصول على مراجعة الكتاب المأجورين. الكتب ذات المواضيع الاختصاصية، ينبغي أن يعالجها خبراء. ومن ناحية أخرى، فإن قسماً كبيراً من المراجعات وخصوصاً الروايات، يمكن أن ينجزها الهواة. تقريباً كل كتاب يمكن أن يثير شعوراً عاطفياً، حتى ولو كان كرهاً عاطفياً عند بعض القراء أو غيرهم، الذين لديهم بالتأكيد أفكار أكثر قيمة من تلك التي لدى الخبراء الضجرين. لكن لسوء الحظ، فكل محرر يعرف أن تنظيم ذلك النوع من الأشياء صعب جداً. عملياً يجد المحرر نفسه دائماً يرجع إلى فريقه من الكتاب المأجورين- النظاميين كما يسميهم.

أي واحدة من هذه قابلة للعلاج، طالما أن المسلم به أن كل كتاب ينشر يستحق مراجعة. من المستحيل تقريباً أن تذكر كتباً بالجملة من دون المبالغة الضخمة في مدح أكثرها. لا يكتشف المرء مدى رداءة أكثرها، حتى يصبح لديه نوع من العلاقة الاحترافية مع الكتب. سيكون النقد الصادق والموضوعي الوحيد لتسع حالات من أصل عشرة "إن هذا الكتاب لا قيمة له"، بينما سيكون رد فعل المراجع نفسه "هذا الكتاب لم يشوقني بأي حال من الأحوال، ولن أكتب عنه أي شيء، إلا إذا دفع لي المال لقاء ذلك". لكن العوام لن يدفعوا المال لقراءة هذا النوع من الشيء. لماذا يجب عليهم ذلك؟ هم يريدون نوعاً من دليل للكتب التي طلب

منهم قراءتها، ويريدون كذلك نوعاً من التقييم. لكن بمجرد ذكر القيم تنهار المعايير. فلو قال أحد- وكل مراجع كتب يقول هذا النوع من الشيء تقريباً مرة في الأسبوع الواحد على الأقل- إن الملك لير مسرحية جيدة، وإن الرجال الأربعة العادلون رواية جرائم مثيرة، أي معنى بقي هناك لكلمة "جيد"؟

التدبير الأفضل كما يتبدى لي دائماً- هو ببساطة تجاهل القسم الأعظم من الكتب وتقديم مراجعات طويلة -ألف كلمة كحد أدنى – للكتب التي تبدو جديرة. ملاحظات من سطر واحد أو اثنين عن كتاب وشيك الظهور قد يكون مفيداً، لكن المراجعة متوسطة الطول – ٦٠٠ كلمة فيمكن أن تكون بلا قيمة حتى لو أراد المراجع بصدق أن يكتبها. نظامياً هو لا يريد أن يكتبها. الإنتاج لمدة أسابيع متتالية للنتف، يقلله إلى الشكل المحطم في ثوب النوم الذي وصفته في بداية هذه المقالة. لكن لكل شخص في هذا العالم أحد آخر يستطيع ازدراءه. ويجب علي أن أقول، ومن خلال تجربتي في المهنتين، إن مراجع الكتب أفضل حالاً من الناقد السينمائي الذي لا يستطيع إنجاز عمله في البيت حتى، بل يجب عليه أن يحضر العرض التجاري في الساعة الحادية عشرة صباحاً مع استثناء بارز واحد أو اثنين، ومتوقع منه أن يبيع احترامه وشرفه مقابل كأس من الشيري الرديء.

أمام أنفك

أفادت تقارير حديثة كثيرة، أنه من المستحيل على الأغلب إن لم يكن تماماً لنا، أن نستخرج القدر الذي نحتاجه من الفحم للوطن ولأغراض التصدير، وذلك لاستحالة إغراء عدد كافٍ من عمال المناجم للبقاء في الحفر. قدرت إحصائية، رأيتها الأسبوع الماضي، الضياع السنوي في عمال المناجم بـ ٦٠ ألف عامل واستيعاب عمال جدد بـ ١٠ آلاف. وفي الوقت نفسه مع هذا - وأحياناً في العمود نفسه وفي الجريدة نفسها- تجد هناك تقارير تفيد بعدم وجود رغبة في استخدام البولونيين والألمان، لأن هذا قد يؤدي إلى بطالة في صناعة الفحم. لا تأتي الإفادتان من المصدر نفسه دائماً، لكن بالتأكيد هناك عدد كبير من الناس يقدرون على إبقاء هاتين الفكرتين المتناقضتين تماماً في رؤوسهم في لحظة واحدة. هذا مجرد مثال واحد عن عادة ذهنية منتشرة بشكل واسع. برنارد شو في المقدمة إلى أندروكوليس والأسد، يقتبس الفصل الأول من إنجيل ماثيو (متّى) الذي يبدأ بالبرهنة أن نسب عيسى ووالد عيسى ينحدر من إبراهيم كمثال. في الآية الأولى يوصف عيسى بـ "ابن داوود، ابن إبراهيم،" ثم تتبع السلالة في الآيات الخمسة عشرة التالية: ثم، في الآية التالية ولكن الوحيدة، يشرح أن عيسى لم ينحدر من إبراهيم كأمر بديهي، بما أنه لم يكن ابن يوسف. يقول شو إن هذا لا يمثل أي صعوبة بالنسبة إلى المؤمن الديني، ويذكر كحالة مماثلة من الاستهتار في الطرف الشرقي من لندن لأنصار تيكبورن كليمانت، الذي أعلن أن الرجل العامل البريطاني خدع وسلب من حقوقه. طبياً، أعتقد أن هذه الطريقة في التفكير تسمى شيزوفرينيا: وهي القدرة على اعتناق معتقدين اثنين كل منهما يلغي الآخر ويبطله في الوقت نفسه. وترتبط بها بقوة وتتحالف القدرة على تجاهل الوقائع الواضحة والراسخة التي يجب أن تواجه عاجلاً أو آجلاً. وهذه الرذائل تزدهر في تفكيرنا السياسي خاصة. دعني أقدم بضعة مواضيع من القبعة كنماذج. ليس بين بعضها البعض أي علاقة عضوية: وهي مجرد حالات أُخذت بشكل عشوائي من وقائع صريحة وجلية، تجنبها أناس يدركون أنها وقائع في قسم آخر من عقلهم.

هونغ كونغ:

منذ سنين كثيرة يدرك كل من لديه معرفة بأحوال الشرق الأقصى، أن وضعنا في هونغ كونغ يتعذر الدفاع عنه، وأننا يجب أن نخسرها بمجرد أن تبدأ حرب رئيسية. لكن هذه المعرفة كانت لا تحتمل. واستمرت الحكومات الواحدة تلو الأخرى في التشبث بهونغ كونغ بدلاً من إعادتها إلى الصين. وزجت بقوات جديدة فيها قبل بضعة أسابيع من بدء الهجوم الياباني، مع التأكد من أنهم سوف يؤسرون بلا أي فائدة. جاءت الحرب، وسقطت هونغ كونغ فوراً -كما كان يعرف كل واحد منذ البداية أنها ستسقط.

التجنيد الإجباري: قبل الحرب بسنوات كثيرة، كان كل الناس المتنورين تقريباً يفضلون التصدي لألمانيا ومواجهتها: وكانت أغلبيتهم أيضاً ضد امتلاك ما يكفي من العدة والعتاد العسكري كي يكون هذا الموقف مؤثراً وفعالاً. أنا أعرف جيداً الحجج التي وضعت مسبقاً دفاعاً عن هذا الموقف؛ بعضها مبرر لكن في أغلبها كانت أعذاراً جدلية تماماً. إلى وقت متأخر من عام ١٩٣٩، صوّت حزب العمال ضد التجنيد الإلزامي، خطوة ربما لعبت دورها الرئيسي في المعاهدة الروسية الألمانية، وبالتأكيد كانت لها نتيجة كارثية على الروح المعنوية في فرنسا. ثم أتى عام ١٩٤٠ بعد ذلك، وكدنا نفنى بسبب افتقارنا إلى جيش كبير كفؤ وفعال، جيش كان بإمكاننا أن نمتلكه، فقط لو أننا فرضنا التجنيد الإلزامي قبل ثلاث سنوات من ذلك.

معدل الولادات: قبل عشرين أو خمس وعشرين سنة، اعتبر منع الحمل والتنوير مترادفين تقريباً. إلى هذا اليوم، غالبية الناس يجادلون ويحاججون -الحجة يعبر عنها بشكل متعدد، لكنها تختصر إلى الشيء نفسه تقريباً دائماً- أن العائلات الكبيرة مستحيلة لأسباب اقتصادية. في الوقت نفسه، من المعروف على نطاق واسع أن معدل الولادات يكون في أعلى مستوياته في الأمم التي يتدنى فيها المستوى المعاشي، وفي مجتمعنا، فإن المستوى الأعلى للولادات يوجد بين الجماعات ذات الأجور الأسوأ. وقدمت حجج بأن السكان القليلي العدد يعني بطالة أقل وراحة أكثر، بينما في الجانب الآخر ثبت جيداً أن تناقص عدد السكان وهرمهم يواجه بمشاكل اقتصادية كارثية عصية على الحل. ليست الأرقام غير مؤكدة بالضرورة، لكن من المحتمل تماماً أن يزيد عدد السكان في سبعين سنة فقط ١١ مليون نسمة، أكثر من نصفهم سيكونون من المحالين إلى التقاعد بسبب العمر. بما أن أكثر الناس لا يريدون عائلات كبيرة

لأسباب مركبة، فيمكن أن تتواجد الوقائع المخيفة، المعروفة وغير المعروفة، في مكان أو آخر في وعيهم في الوقت نفسه.

منظمة الأمم المتحدة: لكي يكون لها أي فعالية من أي نوع، يجب أن تكون المنظمة العالمية قادرة على أن تهيمن على الدول الكبيرة إضافة إلى الدول الصغيرة. يجب أن يكون لها القدرة والسلطة على التفتيش على التسلح والحد منه، ما يعني أن يكون لموظفيها حق الوصول إلى كل بوصة مربعة في كل بلد من البلدان. ويجب أن يكون تحت تصرفها قوة مسلحة أكبر من أي قوة مسلحة أخرى، ولا تكون مسؤولة إلا أمام المنظمة نفسها. لا يبدو على الدولتين العظميين أو الثلاث، أن تظاهرت بالموافقة على أي واحد من هذه الشروط حتى، كما أنها نظمت دستور الأمم المتحدة كي لا يمكن حتى مناقشة تصرفاتها وأعمالها. بعبارة أخرى، فائدة منظمة الأمم المتحدة كوسيلة للسلام العالمي، هي صفر. هذا كان واضحاً قبل أن بدأت تؤدي وظيفتها كما هو الآن. مع ذلك، منذ بضعة شهور فقط، اعتقد الملايين من الناس المطلعين جيداً أنها سوف تكون عملية ناجحة. ليس هناك فائدة من مضاعفة عدد الأمثلة. الهدف أننا كلنا قادرون على أن نؤمن بأشياء نعرف أنها غير صحيحة وغير حقيقية. ومن ثم حين يثبت أنها خاطئة أخيراً، نحرف الوقائع بكل وقاحة، لنبين أننا كنا على صواب. عقلياً، من الممكن أن تستمر هذه العملية إلى وقت غير محدد: الفحص الوحيد لها أن الاعتقاد الزائف سوف يصطدم بالواقع الصلب عاجلاً أو آجلاً في ساحة قتال عادة.

حين ينظر المرء إلى الشيزوفرينيا السائدة والمسيطرة في المجتمعات الديمقراطية: الأكاذيب التي قيلت لأغراض انتخابية، والسكوت عن القضايا الرئيسية وأعمال التحريف التي تقوم بها الصحافة، يميل المرء إلى الاعتقاد بأن في البلدان الشمولية الاستبدادية دجل واحتيال أقل ومواجهة أكبر للوقائع. هناك على الأقل الجماعات الحاكمة لا تعتمد على التأييد الشعبي، وتستطيع التفوه بالحقيقة بشكل فج ووحشي. استطاع غورينغ أن يقول "البنادق قبل الزبدة" بينما أجبر خصومه الديمقراطيون أن يلفوا نفس الفكرة بمئات من كلمات النفاق والرياء.

لكن فعلياً، تجنب الواقع والحقيقة نفسه في كل مكان وله العقابيل نفسها تقريباً. لقد تعلم الشعب الروسي منذ سنين أنه أفضل من أي شعب آخر، وأظهرت الملصقاتُ الدعائيةُ العائلاتَ الروسيةَ تجلس أمام وجبات وافرة، بينما بروليتاريو البلدان الأخرى يموتون من

الجوع في البواليع. وفي ذلك الوقت كان العمال في البلدان الغربية أفضل من العمال الروس بكثير، لذلك فإن عدم التواصل بين المواطنين السوفييت والدخلاء، كان المبدأ المرشد للسياسة. بعد ذلك ونتيجة للحرب، نفذ ملايين الروس العاديون إلى داخل أوروبا، وحين يعادون إلى وطنهم، سوف يتم دفع ثمن تجاهل الحقيقة الجديدة في احتكاكات وخلافات من أنواع متعددة. لقد خسر الألمان واليابانيون الحرب إلى حد كبير، لأن حكامهم كانوا غير قادرين على رؤية الوقائع الحقيقية، التي كانت واضحة لكل عين نزيهة.

لكي ترى ماذا يوجد أمام أنفك، تحتاج إلى صراع مستمر. أحد الأشياء التي تساعدك، هو أن تدوّن يومياتك أو تدوّن على الأقل آراءك بخصوص الأحداث الهامة. شيء آخر، حين تسفه الأحداث معتقداً سخيفاً ما، ربما ينسى المرء ببساطة أنه كان يؤمن به يوماً ما. التنبؤات السياسية تكون خاطئة عادة، لكن حتى عندما ينجح المرء في واحدة، من الممكن جداً أن يكتشف لماذا كان مصيباً. على العموم، لا يكون المرء مصيباً، إلا عندما تتطابق الرغبة أو الخوف مع الواقع والحقيقة. إذا أدرك المرء هذا، فلا يستطيع طبعاً أن يتخلص من مشاعره الذاتية، وإنما يستطيع أيضاً إلى حد ما أن يعزلها عن تفكيره ويتكهن بدم بارد بواسطة كتاب حساب. في الحياة الخاصة، أغلب الناس واقعيون نوعاً ما. حين يحسب المرء ميزانيته الأسبوعية، فإن مجموع اثنين زائد اثنين يساوي أربعة بشكل ثابت ودائم. السياسة من الجانب الآخر نوع من عالم دون ذري وغير إقليدي، حيث من السهل تماماً أن يكون الجزء أكبر من الكل أو أن يكون شيئان اثنان في نفس المكان في وقت واحد. لهذا فإن التناقضات والسخافات المنافية للعقل التي عرضتها أعلاه، يعزى أثرها إلى إيمان سري خفي بأن آراء المرء السياسية، ليست مثل الميزانية الأسبوعية، يجب ألا تختبر على محك الحقيقة الصلبة.

التريبيون، ٢٢ مارس/ آذار ١٩٤٦.

السياسة واللغة الإنكليزية

يقر أغلب الناس القلقين بأن اللغة الإنكليزية تسير في طريق سيئ. ويعتقد عموماً أننا لا نستطيع بعمل مقصود أن نفعل أي شيء لها. حضارتنا متفسخة ولغتنا -هكذا يدور النقاش- يجب أن تشترك بشكل محتوم في الانهيار العام. يتلو ذلك أن أي صراع ضد إساءة استعمال اللغة، هو لفظة مهجورة عاطفية مثل تفضيل الشموع على التيار الكهربائي أو المركبات ذات العجلتين على الطائرات. تحت هذا يكمن اعتقاد شبه واعٍ بأن اللغة نمو طبيعي وليست أداة نشكلها من أجل أغراضنا.

من الواضح الآن أن انحدار اللغة، يجب أن تكون له أسباب سياسية واقتصادية، وليس لمجرد التأثير السيئ لهذا الكاتب أو ذاك. لكن النتيجة يمكن أن تصبح سبباً، وتعزز السبب الأصلي، وتنتج نفس الأثر بشكل مكثف، وهكذا إلى الأبد. يمكن للإنسان أن يتعود على الشرب لشعوره بفشله، ثم يفشل بشكل تام أكثر لأنه يشرب. وهذا مشابه لما يحدث للغة الإنكليزية، فهي تصبح قبيحة وغير دقيقة، لأن أفكارنا حمقاء وقذرة، وفي الوقت نفسه، فإن لغتنا سهلت علينا امتلاك أفكار حمقاء. المغزى أن العملية قابلة للعكس. اللغة الإنكليزية الحديثة وخصوصاً الإنكليزية المكتوبة تغص بالعادات السيئة التي تنتشر بالتقليد، والتي يمكن تفاديها إن كان المرء راغباً في تحمل عناء ذلك. فلو تخلص المرء من هذه العادات، لاستطاع التفكير بوضوح، والتفكير بوضوح خطوة ضرورية أولى نحو تجدد وانبعاث سياسي. لذلك فإن القتال ضد اللغة الإنكليزية السيئة ليس تافهاً وليس الاهتمام الحصري للكتاب المحترفين. سأعود إلى هذا على الفور، وأتمنى في ذاك الوقت أن يصبح ما قلته أكثر وضوحاً. في الوقت الحالي هذه خمسة عينات من اللغة الإنكليزية كما تكتب عادة الآن.

لم أختر المقاطع الخمسة لأنها سيئة بشكل استثنائي، ويمكنني اقتباس مقاطع أسوأ منها لو كنت انتقيت – وإنما لأنها توضح العديد من النقائص العقلية التي نعاني منها. إنها أدنى من المستوى المتوسط، لكنها نماذج تمثيلية جداً. رقمتها لكي أستطيع الإشارة إليها عند الضرورة:

(١) في الواقع، أنا لست واثقاً إن كان من غير الصحيح أم لا القول إن ميلتون الذي بدا لا يشبه شيلي القرن السابع عشر، لم يصبح نتيجة تجربة أشد مرارة في كل سنة وأشد غرابة من مؤسس تلك الطائفة اليسوعية التي ليس فيها ما يغريه إلى تحملها. الأستاذ الجامعي هارولد لاكسي (مقال في حرية التعبير).

(٢) أولاً وقبل كل شيء، لا نستطيع أن نتصرف باستهتار مع مجموعة أصيلة من العبارات الاصطلاحية التي تقضي بتراصفات فاضحة من الألفاظ، كاستخدام فعل زائد ظرف أو حرف جر أو الاثنين معاً بدلاً من فعل مؤلف من كلمة واحدة. الأستاذ الجامعي لانسيلوت هوغبن (انترغلوسا).

(٣) من الجانب الأول لدينا الشخصية الحرة، وهي بالتعريف ليست عصابية، لأنه ليس لديها صراع أو حلم، ورغباتها كما هي عليه صريحة، لأنها هي ما يضعها الاستحسان والقبول القانوني والعرفي في مقدمة الوعي وأنموذج قانوني عرفي آخر سيغير عددها وشدتها (الرغبات)؛ هناك القليل فيها ما هو طبيعي، ولا يمكن إنقاصه، أو الخطير ثقافياً. لكن من جانب آخر، فإن الرابط الاجتماعي نفسه لا شيء سوى انعكاس متبادل لهذه الاستقامات الآمنة ذاتياً. تذكروا تعريف الحب. أليس هذا الصورة عينها لأكاديمي صغير؟ أين يوجد مكان في هذه الصالة من المرايا لكل من الشخصية أو الإخاء. مقال عن علم النفس في بوليتكس (نيويورك).

(٤) كل "نخبة" نوادي السادة وكل ربابنة الفاشية المسعورين، اتحدوا في كره مشترك للاشتراكية ورعب وحشي من صعود مدّ حركة الجماهير الثورية، وحولوا هذا إلى أعمال تحريض وأعمال حرق متعمد ة شنيعة وأساطير قروسطية من الآبار المسممة لتشرعن تدميرهم للمنظمات البروليتارية، وأعمال لإثارة البرجوازية الصغيرة الهائجة إلى حماسة شوفينية لصالح القتال ضد الطريق الثوري للخروج من الأزمة. كراسة شيوعية.

(٥) إن كانت هناك روح جديدة سوف تسكب في هذه البلاد القديمة، فسيكون إصلاح وحيد شائك ومثير للنزاع يجب معالجته وهو أنسنة البي بي سي وكلفنتها (الإثارة بصدمات كهربائية). الجبن هنا سينم عن تقرح النفس وضمورها. قلب بريطانيا يمكن أن يظل (لي) يدق بنبضة سليمة وقوية مثلاً، لكن زئير الأسد البريطاني في الوقت الحالي مثل البتوم في

مسرحية شكسبير حلم ليلة منتصف الصيف- ناعم مثل أي حمامة خلقت للتو. بريطانيا جديدة رجولية لا تستطيع أن تستمر إلى الأبد منتهكة بعيون أو بالأحرى بآذان العالم بسبب التراخي الواهن لقصر لانغهام المتنكر بشكل صفيق كـ "إنكليزي معياري" حين يسمع صوت بريطانيا في الساعة التاسعة وتسمع حروف ايتشات تسقط بشكل واضح، هو أفضل بكثير وأقل غرابة وسخفاً من النهيق الحالي المتزمت الطنان المكبوت المدرسي لصبايا بريئات خجولات مموءات. رسالة في تريبيون.

كل واحد من هذه المقاطع فيه أخطاؤه الخاصة به، لكن بمعزل عن القبح الذي يمكن تفاديه، هناك صفتان مشتركتان فيها كلها. الصفة الأولى ابتذال التخيل (اللغة المجازية) والصفة الأخرى انعدام الدقة. الكاتب إما لديه معنى ولا يستطيع التعبير عنه، أو أنه يقول شيئاً آخر عن غير قصد أو غير مبال تماماً إن كانت كلماته ذات معنى أم لا. هذا الخليط من الغموض والعجز المحض، هو الميزة الأوضح للنثر الإنكليزي الحديث وخصوصاً الكتابة السياسية بكل أنواعها. حالما تثار مواضيع محددة، يذوب الملموس إلى المجرد، ولا يبدو أن أحداً قادر على التفكير بتعابير أخرى لم تكرر وتبتذل: يتألف النثر من القليل من الكلمات المختارة من أجل معانيها، ومن الكثير من العبارات التي ربطت معاً مثل أجزاء قن دجاج مصنع مسبقاً. سأكتب قائمة بملاحظات وأمثلة متعددة من الخدع، يتنقل البناء النثري بواسطتها ويراوغ:

استعارات ميتة. تساعد الاستعارة المخترعة حديثاً الفكرة باستدعاء صورة بصرية، بينما من الجانب الآخر الاستعارة "الميتة" تقنيا مثل (**تصميم حديدي**) ارتدت وتراجعت فعلياً لتكون كلمة عادية، وبالتالي يمكن استعمالها عموماً من دون فقدان أي حيوية. لكن بين هذين النوعين هناك مخزون هائل من الاستعارات البالية التي فقدت كل قوتها الإيحائية، وتستخدم لمجرد أنها تنقذ الناس من عناء ابتداع عبارات بأنفسهم. أمثلة: يعمل الشيء بطريقة مختلفة ليكون أكثر إمتاعاً - يدافع ويؤيد بقوة- الالتزام بالقول والعمل بأمر السلطة- يعامل الآخرين معاملة سيئة- يحافظون على توحدهم عند المصاعب- لعبة بيد- لديه رأي شخصي قوي يريد تحقيقه- كل الأشياء مصدر ربح وفائدة محتملة- الصيد في مياه عكرة- الشيء الذي له الأولوية- كعب آخيل نقطة ضعف في الشخصية، تغريدة البجعة أو الإنجاز الأخير قبل الموت أو التقاعد- مرتع للسوء.

تستخدم الكثير من هذه العبارات من دون معرفة معانيها (مثل ما هو صدع؟) والاستعارات المتنافرة المختلطة والمشوشة غالباً علامة أكيدة عن عدم اهتمام الكاتب فيما يقوله. بعض الاستعارات الذائعة الآن حرفت عن معناها الأصلي من دون أن يعي تلك الحقيقة هؤلاء الذين يستخدمونها مثلاً، الالتزام بالقول والعمل بأمر السلطة تكتب أحياناً يجر الخط. مثال آخر عبارة المطرقة والسندان تستخدم دائماً الآن مع معنى ضمني أن السندان سينال الأسوأ من الأمر، أما في الحياة الحقيقية فإن السندان هو الذي يكسر المطرقة وليس العكس أبداً: الكاتب الذي أوقف التفكير فيما يقوله سيكون واعياً لهذا ويتفادى تحريف العبارة.

المشغل أو الفروع الزائفة اللفظية (كلمات وعبارات تستخدم في الكتابة لتضخيم المعنى ليبدو أطول) هذه توفر عناء انتقاء أفعال مناسبة وأسماء وفي الوقت نفسه تبطن كل جملة بألفاظ زائدة تعطي مظهراً من التناسق. عبارات مميزة: يجعله غير فعال، يناضل ضد، يثبت كحقيقة، يتصل مع، يخضع لـ يسبب، يحدث، يمكنه من اغتنام، له تأثير، يلعب دوراً رئيسياً في، يدرك باللمس، يستسلم أو يخضع، ينجح، يظهر نزعة، يخدم غرضاً.

الفكرة الأساسية هي حذف الأفعال البسيطة. بدلاً من كلمة واحدة مثل يكسر أو يوقف أو يفسد أو يصلح أو يقتل، (بريك، ستوب، سبويل، ميند، كيل) يصبح الفعل عبارة مكونة من اسم أو صفة مثبت إلى فعل ذي هدف عام جنرال بيربوز، مثل يثبت أو يخدم أو يشكل أو يلعب أو يتخلى (بروف، سيرف، فورم، بلي، ريندر). بالإضافة إلى ذلك، تستخدم صيغة المبني للمجهول بدلاً من المبني للمعلوم حيثما أمكن، كما تستخدم تراكيب اسمية بدلاً من المصدر (باي اكزامينيشن اف بدلاً من باي اكزامينينغ). صنف الأفعال التي تشكل بواسطة السوابق واللواحق التي تضاف إلى الأفعال مثل (ايز و دي) وإعطاء العبارات التافهة مظهر العمق بواسطة تشكيل النفي بواسطة (نات أو ان). استبدال حروف الجر والعطف البسيطة بعبارات مثل فيما يتعلق، فيما يخص، الحقيقة التي، بفضل، باعتبار، لمصلحة، بفرض أن (وذ ريسبيكت تو)،(هافينغ ريغارد تو، ذا فاكت ذات، باي دينت اف، أن فيو اف، أن ذا انتريست اف، اون ذا هايبوسيس ذات،) كما تنقذ نهايات الجمل من السقوط والانحدار *انتي كلايمكس* بملاحظات، عادية طنانة مثل المرغوب جداً، لا يمكن حذفه من الحساب، تطور يجب توقعه في

المستقبل القريب، يستحق اهتماماً جدياً، (غريتلي تو بي ديزيارد، كان نتب ي ليفت أوف أكاونت، تحقيق نتيجة مرضية وهلم جرا).

الأسلوب الطنان. كلمات مثل **ظاهرة، عنصر، فرد، موضوعي، محدد، فعال، عملي، أساس، أولي، يرقي، يؤلف، يظهر، يستثمر، ينتفع من، يتخلص من، يصفي**، تستخدم لتزين كلام بسيطاً وتعطي جواً من النزاهة العلمية لآراء وأحكام منحازة. صفات مثل، **ذو أهمية رئيسية، ملحمي، تاريخي، لا ينسى، مبتهج بالنصر، دهري، محتوم، عنيد، حقيقي**، تستخدم لتبجل عملية السياسة الدولية القذرة، تهدف كتابة تلك الكلمات إلى تمجيد الحرب وترتدي عادة لوناً مهجوراً، كلماتها المميزة: **دنيا، عرش، مركبة، قبضة مدرعة، رمح ثلاثي الشعب، سيف، درع، ترس، راية، جزمة عسكرية، بوق**. كلمات أجنبية وتعابير مثل نهاية مميتة، حليف أعمى، نظام حكم قديم،.... لتعطي جواً من الثقافة والأناقة. ماعدا الاختصارات المفيدة بعبارة أخرى، مثلاً، إلخ، ليس هناك حاجة حقيقية لمئات العبارات الأجنبية المستخدمة الآن في اللغة الإنكليزية. كتاب رديئون وخصوصاً كتاب علميون وسياسيون وعلماء اجتماع مهووسون دائماً تقريباً بفكرة أن كلمات اللغة اللاتينية واللغة الإغريقية أفخم من الكلمات الساكسونية، والكلمات غير الضرورية مثل يرسل، يتحسن، يتنبأ، دخيل، مستأصل من جذوره، سري، سب اكواس، ومئات من غيرها، تنتشر باستمرار على حساب مقابلاتها الأنغلوساكسونية. [ملاحظة ١، في الأسفل] اللغة الاصطلاحية المبهمة خاصة بالكتابة الماركسية (**ضبع، جلاد، آكل لحوم البشر، البرجوازية الصغيرة، هؤلاء الأرستقراطيون، متزلف، فلنكي، كلب مسعور، الحرس الأبيض**، إلخ) تتألف في أغلبها من كلمات وعبارات مترجمة عن الروسية والألمانية والفرنسية؛ لكن الطريقة العادية لصياغة كلمة جديدة، هو أن تستخدم جذراً لاتينياً أو إغريقياً مع لاحقة ملائمة وتشكيل والايز عند الضرورة. من الأسهل بكثير تشكيل كلمات من هذا النوع (ديريجنالايز، امبيرميسابل، اكستراماريتال، نانفراغمينتاري وهلم جرا...) من التفكير بكلمات إنكليزية تغطي المعنى. النتيجة، عموماً، زيادة في القذارة والغموض.

[ملاحظة: مثال توضيحي عن هذا، هو الطريقة التي طردت فيها أسماء الزهور بالإنكليزية التي ظلت تستعمل حتى وقت قريب بأسماء لاتينية. سنابدراغون أصبح

انتيريهنيوم (أنف العجل) وفورغيت مي نات أصبح مايوسوتيس (أذن الفأر) إلخ. من الصعب أن نرى أي مبرر عملي لهذا التبديل في الشكل: هو ربما بسبب ابتعاد غريزي عن الكلمات الوطنية وشعور غامض أن الكلمة الإغريقية كلمة علمية- حاشية المؤلف).

كلمات ليس لها معنى. في أنواع معينة من الكتابة وخصوصاً في النقد الفني والنقد الأدبي، من العادي أن تصادف مقاطع طويلة ينعدم فيها المعنى تماماً تقريباً. [لاحظ، في الأسفل] كلمات مثل **رومانسي، بلاستيكي، قيم، إنساني، ميت، طبيعي، حيوية،** المستخدمة في النقد الفني، خالية من المعنى تماماً، بمعنى أنها لا تشير إلى أي شيء مكتشف فقط، وإنما من الصعب توقع أن تفعل ذلك من قبل القارئ. حين يكتب ناقد: "الميزة البارزة لعمل السيد س هو نوعيته المفعمة بالحياة"، بينما يكتب آخر: "الشيء اللافت بشكل فوري عن عمل السيد س سكونه الغريب". يقبل القارئ هذا كاختلاف بسيط في الآراء إن كانت كلمتي أسود وأبيض مستخدمتين بدلاً من الكلمتين الرطينتين ميت وحي. وسيرى على الفور أن اللغة استخدمت بطريقة خاطئة. كلمات سياسية كثيرة يساء استخدامها بشكل مماثل. كلمة فاشية ليس لها معنى الآن، إلا حين تدل على "شيء غير مرغوب". كلمات ديمقراطية، اشتراكية، حرية، وطني، واقعي، عدالة، لكل واحدة منها معان مختلفة كثيرة لا يمكن التوفيق بينها. ففي حالة كلمة ديمقراطية مثلاً، ليس عدم وجود تعريف لها متفق عليه فقط، بل حتى المحاولة لإنشاء تعريف تلقى مقاومة من كل الأطراف. نشعر في كل الأمكنة والأحوال تقريباً أننا حين ننعت بلاداً بأنها بلاد ديمقراطية، فنحن نمتدحها: وبالتالي المدافعون عن أي نوع من الأنظمة الحاكمة يدعون أنه ديمقراطي، وقد يتوقفون عن استخدام الكلمة إن ربطت بأي معنى وحيد. كلمات من هذا النوع، تستخدم غالباً بطريقة كاذبة بشكل متعمد. أي أن الشخص الذي يستخدمها لديه تعريفه الخاص به، لكنه يسمح لقارئه بالظن أنه يقصد شيئاً مختلفاً تماماً. تصريحات مثل **الماريشال بيتان كان وطنياً حقيقياً أو الصحافة السوفييتية هي أكثر صحافة حرة في العالم أو الكنيسة الكاثوليكية تعارض الاضطهاد،** تصنع عادة بقصد الخداع دائماً تقريباً. كلمات أخرى تستخدم بمعان متغيرة، وفي أغلب الحالات بشكل مضلل تقريباً: **طبقة، شمولي استبدادي، علم، تقدمي، بورجوازي رجعي، مساواة.**

[ملاحظة: مثال: "سلوى الإدراك الكوني والصورة الذهنية الشمولية الويتهانية في مداها على نحو غريب والنقيض الدقيق تقريباً للإكراه الجمالي، يستمر في استحضار ذلك الجو من التلميح المرتعش التراكمي إلى سرمدية قاسية ساكنة بشكل عنيد... راي غاردينر يحرز نقطة بالتسديد على قلب الهدف. لو أنهم ليسوا بسطاء جداً، وعبر هذا الحزن المستكين يتدفق أكثر من الاستسلام والاستقالة السطحية اللذيذة المؤلمة (فصلية شعرية) حاشية المؤلف].

بعد أن عملت هذه القائمة من أعمال الغش والتحريف، دعوني أعطِ مثالاً آخر عن هذا النوع من الكتابة التي يقودون إليها. هذه المرة يجب أن تكون بطبيعتها كتابة تخيلية. سأقوم بترجمة مقطع من اللغة الإنكليزية الجيدة إلى اللغة الإنكليزية الحديثة من الصنف الأسوأ. هنا شعر مشهور من كتاب العهد القديم الذي كتبه سليمان.

عدت ورأيت تحت الشمس أن السباق ليس لخفيف الحركة والسريع، ولا المعركة للقوي ولا الخبز للعاقل ولا حتى الغنى لرجال الفهم والذكاء ولا حتى الحظوة لرجال البراعة، لكن الزمن والحظ يحدث.

ها هي في اللغة الإنكليزية الحديثة:

إن الاهتمام الموضوعي بالظواهر المعاصرة، يفرض الاستنتاج بأن النجاح أو الفشل في الأنشطة التنافسية لا يظهر ميلاً ليكون متكافئاً مع المقدرة الفطرية. ولكن هناك عنصراً هاماً لا يمكن التنبؤ به، يجب أن يؤخذ في الحسبان بشكل ثابت.

هذه محاكاة هزلية لكنها ليست فظة جداً. عرض (٣) في الأعلى مثلاً يحتوي عدة لصوقات من نفس نوع الإنكليزية. سوف يتبين أنني لم أقم بترجمة كاملة. إن بداية ونهاية الجملة تتبعان المعنى الأصلي عن كثب، لكن في الوسط فإن الإيضاحات الملموسة-عرق، معركة، خبز-تنحل وتتفكك إلى عبارة مبهمة "نجاح أو فشل في نشاطات تنافسية". هذا يجب أن يكون هكذا، لأنه لا يوجد كاتب من النوع الذي أدرسه قادر على استخدام عبارة مثل "اهتمام موضوعي بالظواهر المعاصرة"- يستطيع أن يجدول أفكاره بتلك الطريقة الدقيقة المفصلة. إن النزعة الكاملة للنثر الحديث هي الابتعاد عن التماسك والصلابة. الآن حلل هاتين الجملتين بدقة أكبر. الأولى تحتوي على ٤٩ كلمة و٦٠ مقطعاً لفظياً، وكل كلماتها من كلمات الحياة

اليومية؛ والجملة الثانية تحتوي على ٣٨ كلمة من ٩٠ مقطعاً لفظياً، ١٨ من كلماتها من جذور لاتينية وواحدة من جذور إغريقية. الجمل الأولى تحتوي على ست صور حية ومشرقة وعبارة واحدة فقط "الزمن والحظ" يمكن اعتبارها مبهمة. الثانية لا تحتوي على أي عبارة جديدة لافتة، وعلى الرغم من مقاطعها اللفظية التسعين، فإنها لا تعطي سوى نسخة مختصرة للمعنى المتضمن في الأولى. مع ذلك ومن دون أي شك فإن الجملة الثانية هي التي تتجذر وتفوز في اللغة الإنكليزية الحديثة. أنا لا أريد أن أبالغ. هذا النوع من الكتابة لم يصبح كونياً وشاملاً بعد. إظهار للبساطة سيخطر هنا وهناك في أسوأ صفحة مكتوبة. لكن لو أُمرتُ أنا أو أمرتَ أنت بأن نكتب بضعة سطور عن الشك واللايقين في المصائر والحظوظ الإنسانية، فسنقترب إلى جملتي التخيلية أكثر من الجملة التي من كتاب العهد القديم الذي كتبه سليمان.

حاولت أن أبين أن الكتابة الحديثة في أسوئها لا تتألف من انتقاء كلمات من أجل معانيها فقط وابتداع صور لكي تجعل المعنى أوضح، وإنما تتألف من لصق أشرطة طويلة من كلمات رتبت من قبل شخص آخر مسبقاً وجعل النتائج تبدو صالحة للتقديم بفضل احتيال محض. هذه الطريقة في الكتابة جذابة لأنها سهلة. هي أسهل وأسرع حتى بمجرد أن تتعود على قول **في رأيي هو افتراض غير مبرر** بدلاً من القول أنا أعتقد. إن استخدمت عبارات جاهزة مسبقاً، فلن تضطر إلى البحث عن الكلمات، وإنما لن تضطر إلى إرباك نفسك بتناغم جملك أيضاً بما أن هذه العبارات مرتبة عموماً لتكون رخيمة تقريباً. حين تؤلف في استعجال –حين تملي على كاتب الاختزال مثلاً أو تلقي خطاباً عاماً– من الطبيعي أن تسقط في الأسلوب اللاتيني الطنان. اقتباسات مختصرة مثل **اعتبار ينبغي أن ننجح في تذكره أو استنتاج كلنا نوافق عليه بالإجماع بطيب خاطر**، سوف يوفر الكثير من الجمل ومن السقوط بصوت ارتطام. باستخدام استعارات بالية وتشبيهات ومصطلحات توفر جهداً عقلياً على حساب ترك معناك غامضاً ليس لقارئك فقط بل ولنفسك أيضاً. هذا هو المغزى من الاستعارات المختلطة. الهدف الوحيد هو استدعاء صورة بصرية. حين تتصادم هذه الصور– كما في **الأخطبوط الفاشي غنى أغنيته الأخيرة، الجزمة العسكرية رميت في القدر المذيب**– يفهم وبشكل أكيد أن الكاتب لا يرى صورة عقلية للأشياء التي يسميها؛ بتعبير آخر هو لا يفكر في الحقيقة. انظر ثانية إلى الأمثلة التي أعطيتها في بداية هذا المقال. الأستاذ

الجامعي لاسكي (١) يستخدم خمس أدوات نفي في ٥٣ كلمة. واحدة من هذه غير ضرورية تحول كامل المقطع إلى كلام لا معنى له، بالإضافة إلى ذلك هناك الانزلاق إلى التنافر بدلاً من التشابه مما يزيد التفاهة، وهناك قطع عديدة من الخرق يمكن تجنبها تزيد من الغموض العام. الأستاذ الجامعي هوغبين (٢) يتصرف بطيش في مجموعة من الأشياء القادرة على كتابة وصفات، ويستهجن العبارة العادية، يتحمل ويعارض التفتيش عن كلمة رديئة جداً في المعجم ويرى ما تعنيه. (٣) إن أخذ المرء موقفاً قاسياً تجاهها فهي بلا معنى: ربما يستطيع المرء أن يستنتج المعنى المقصود بقراءة المقال كله. في (٤) الكاتب يعرف تقريباً ما يريد قوله، لكن تكديس العبارات البالية خنقه مثل أوراق الشاي التي تسد المغسلة. في (٥) الكلمات والمعاني افترقت عن بعضها -هي تكره شيئاً وتريد أن تعبر عن التضامن مع آخر- لكنها ليست مهتمة بتفاصيل ما تقوله. إن الكاتب المدقق في كل جملة يكتبها يسأل نفسه على الأقل أربعة أسئلة: ما الذي أحاول قوله؟ ما هي الكلمات التي تعبر عنه؟ ما هي الصور أو المصطلحات التي تجعله أكثر وضوحاً؟ هل هذه الصورة نضرة بما يكفي لتترك أثراً؟ وربما يسأل نفسه سؤالين آخرين: هل أستطيع اختصارها أكثر؟ هل قلت أي شيء قبيح يمكن تفاديه؟ لكن ليس عليك تحمل كل هذا العناء. يمكنك تجنبه بفتح ذهنك وترك العبارات المسبقة الجاهزة تأتي محتشدة وتدخل فيه. سوف تبني جملك لك وتفكر عنك حتى بمدى محدد، وعند الحاجة سوف تنجز الخدمة الهامة في حجب معانيك جزئياً حتى عن نفسك، وعند هذه النقطة يتضح الرابط الخاص بين السياسة وانحطاط اللغة.

في زمننا، إن القول بأن الكتابة السياسية كتابة رديئة صحيح وعلى نطاق واسع، ولو كان غير صحيح لوجدنا عموماً أن الكاتب متمرد بشكل ما يعبر عن رأيه الشخصي وليس عن "خط الحزب". الأرثوذكسية (المعتقد) مهما كان لونها تتطلب كما يبدو أسلوباً ميتاً مقلداً. إن اللهجات العامية السياسية الموجودة في الكراسات والمقالات الرئيسية والبيانات السياسية الرسمية والتقارير الحكومية البيضاء وخطابات ما دون الأمناء العامين، تتنوع من حزب إلى آخر طبعاً، لكنها تتشابه كلها بأن المرء لا يجد فيها أبداً خطاباً نضراً حيوياً من جهد الشخص. حين يراقب المرء كاتباً فاشلاً متعباً على الرصيف يكرر بشكل آلي العبارات المألوفة- **فظاعات وحشية، عقب حديدية، حكم استبدادي ملطخ بالدم، حرروا شعوب**

العالم، **قفوا متراصين**، ينتاب المرء شعور غريب بأنه لا يراقب كائناً بشرياً حياً وإنما نوع دمية: شعور يصبح فجأة أقوى في لحظات حين يمسك الضوء بنظارة المتكلم ويحولها إلى قرصين أجوفين ليست خلفهما عينان، كما يبدو، وهذا ليس خيالياً تماماً، لأن المتكلم الذي يستخدم ذلك النوع من الأسلوب التعبيري قطع شوطاً طويلاً في تحويل نفسه إلى آلة. تخرج الضوضاء المناسبة من حنجرته، لكن دماغه غير متورط بالعملية كما لو أنه كان يختار كلماته لنفسه. إذا كان الخطاب الذي يعمل به خطاباً اعتاد على عمله المرة تلو الأخرى، فهو غير مدرك تقريباً لما يقوله، كما يفعل المرء حين يتلفظ بالردود في الكنيسة، وهذه الحالة المضعفة والمقللة للوعي إن لم تكن لازمة، فهي على أي حال مفضلة للامتثال السياسي والتطابق.

الخطاب السياسي والكتابة السياسية في عصرنا، هما الدفاع عن الشيء الذي يتعذر الدفاع عنه. أشياء مثل استمرار الحكم البريطاني في الهند، وأعمال التطهير الروسية، والترحيل وإسقاط القنابل الذرية على اليابان، لا يمكن الدفاع عنها بالفعل، إلا بالحجج التي يصعب على أغلب الناس مواجهتها لشدة وحشيتها، والتي لا تتوافق مع الأهداف المعلنة للأحزاب السياسية، وبالتالي يجب أن تتألف اللغة السياسية بشكل أساس من عبارات تلطيفية ومغالطات وغموض غائم. القرى العزلاء التي تقصف بالقنابل من الجو، والسكان الذين يطردون إلى الريف، ورشّ قطعان الماشية بالرشاشات، والأكواخ التي تضرم فيها النيران برصاص حارق: هذا يسمى **تهدئة**. ملايين الفلاحين الذين يُسرقون من مزارعهم ويُرسلون مشياً بطرقات طويلة بمتاع لا يزيد عما يستطيعون حمله: هذا يسمى **نقل السكان من مكان إلى آخر- ترانسفير أو تصحيح الحدود والتخوم**. يسجن الناس لسنوات من دون محاكمة، أو يعدمون بإطلاق الرصاص على رقابهم من الخلف، أو يرسلون إلى الموت من الإسقربوط في مخيمات من الخشب في القطب الشمالي: هذا يدعى **التخلص من العناصر غير الجديرة بالثقة**. مثل هذا الأسلوب التعبيري، مطلوب إن أراد المرء تسمية الأشياء من دون استدعاء صورة ذهنية لها. تأمل للحظة أستاذاً جامعياً إنكليزياً مرتاحاً يدافع عن نظام الحكم الشمولي الروسي. هو لا يستطيع القول بصراحة وبشكل كامل "أنا أؤمن بقتل خصومك حين تستطيع الحصول على نتائج جيدة بفعل ذلك". ربما لذلك سيقول شيئاً مثل هذا:

في الوقت الذي نسلم فيه بشكل إرادي أن نظام الحكم السوفييتي يظهر ملامح محددة، يميل الإنسانويون إلى استنكارها. يجب علينا في اعتقادي أيضاً أن نوافق على أن تقليص البعض من حق المعارضة السياسية، حالة مصاحبة لا يمكن تفاديها في الفترات الانتقالية، وأن الصرامة التي طلب من الشعب الروسي تحملها، كانت مبررة تماماً في عالم من الإنجازات العظيمة الملموسة.

الأسلوب الطنان نفسه نوع من تلطيف التعبير. كمية كبيرة من الكلمات اللاتينية تسقط على الحقائق مثل الثلج الناعم، وتلطخ الحدود وتغطي كل التفاصيل. إن العدو الكبير للغة الواضحة، هو عدم الإخلاص. حين تكون هناك فجوة بين الأهداف الحقيقية والمعلنة، يلجأ المرء، كما لو كان بالغريزة، إلى كلمات طويلة واصطلاحات مضنية مثل حبار يبخ الحبر. في عصرنا، ليس هناك أشياء مثل "ابتعاد عن السياسة". إن القضايا كلها قضايا سياسية، والسياسة نفسها كتلة كبيرة من الأكاذيب والمراوغات والكره والفصام. حين يكون الجو العام سيئاً، فعلى اللغة أن تعاني. عليّ أن أتوقع -هذا تخمين ليس لديّ معرفة علمية لإثباته- أن اللغات الألمانية والروسية والإيطالية، قد تلفت كلها في السنوات العشر أو الخمس عشرة الأخيرة نتيجة للديكتاتورية.

لكن إن أفسد الفكر اللغة، فإن اللغة تستطيع إفساد الفكر أيضاً. الاستخدام الرديء يستطيع الانتشار بالتقاليد والمحاكاة، حتى بين الناس الذين يعرفون ويجب أن يعرفوا أفضل. اللغة المذوقة التي أناقشها ملائمة جداً في بعض الأشكال. عبارات مثل افتراض ليس لا يمكن تبريره، يترك كثيراً ليكون مرغوباً، لا يخدم أي غرض جيد، اعتبار يجدر أن نتذكره هو إغراءات مستمرة ورزمة من حبوب الأسبرين في المتناول دائماً. راجع هذا المقال وبالتأكيد ستجد أنني ارتكبت الأخطاء ذاتها التي اعترضت عليها مرة تلو المرة. في بريد صباح هذا اليوم استلمت كراسة تتحدث عن الظروف في ألمانيا. أخبرني المؤلف أنه "شعر بالإكراه" على كتابتها. فتحتها عشوائياً، وهذه الجملة الأولى التي رأيتها: [الحلفاء] لديهم فرصة ليس فقط في إنجاز تحول جذري في بنية ألمانيا الاجتماعية والسياسية بطريقة تتفادى ردة فعل قومية في ألمانيا نفسها، وإنما في الوقت نفسه إرساء الأسس لأوروبا متحدة ومتعاونة. أنتم ترون أنه "شعر بالإكراه"، ويفترض أن لديه شيئاً جديداً يقوله-ومع هذا كانت كلماته مثل خيول الفرسان

التي تستجيب للبوق بتجميع نفسها ذاتياً بالشكل الكئيب المألوف. إن غزو عقل شخص بعبارات جاهزة مثل (يرسي الأسس لـ وينجز تحولاً جذرياً) لا يستطيع المرء منعها، إلا إن كان متيقظاً ضدها دائماً، وكل عبارة من هذه وأمثالها تخدر قسماً من عقل المرء.

قلت إن انحطاط لغتنا قابل للشفاء على الأرجح. هؤلاء الذين ينكرون سيحاججون، إن هم قدموا برهاناً أبداً، أن اللغة تعكس الظروف الاجتماعية فقط، وأننا لا نستطيع التأثير على تطورها بالعبث المباشر بالكلمات والتراكيب. يمكن أن يكون هذا صحيحاً من حيث نبرة اللغة وروحها، لكنه ليس صحيحاً بتفصيلاته. إن الكلمات والعبارات السخيفة تختفي غالباً، ليس من خلال عملية تطورية، وإنما بعمل مقصود من الأقلية. مثالان حديثان يسبر كل جادة ولا يترك حجراً لم يقلب اللذان قتلا بسخريات قلة من الصحفيين. هناك قائمة طويلة من الاستعارات الفاسدة التي يمكن التخلص منها لو رغب عدد كافٍ من الناس في المهمة، ويمكن أيضاً السخرية من تشكيل الإضافات الأمامية والخلفية [ملاحظة: يستطيع المرء شفاء نفسه من تشكيل نت "ان" بتذكر هذه الجملة. كلب ليس غير أسود كان يطارد أرنباً ليس غير صغير عبر حقل ليس غير أخضر. (حاشية المؤلف)] لتقليل كمية اللغتين اللاتينية والإغريقية في الجملة العادية وطرد العبارات الأجنبية والكلمات العلمية الشاردة عموماً لجعل الطنانة عتيقة. لكن كل هذه نقاط ثانوية. إن الدفاع عن اللغة الإنكليزية يتضمن أكثر من هذا، وربما من الأفضل البدء بقول ما لا يتضمنه.

بداية، إن الأمر لا علاقة له باستعمال الألفاظ المهجورة وإنقاذ الكلمات المهجورة وأساليب التعبير، أو مع تشييد "إنكليزية معيارية" لا يجب الحياد عنها على العكس، إنه يتعلق خصوصاً بالتخلص من وهجر كل كلمة أو مصطلح فقد فائدته. لا علاقة للأمر باستخدام قواعد صرفية ونحوية صحيحة ليس لها أهمية، طالما يوضح المرء معناه، أو بتجنب المصطلحات الأميركية، أو بامتلاك ما سمي بـ "أسلوب نثري جيد". ومن جانب آخر، لا يتعلق الأمر بالتبسيط المزيف، ومحاولة جعل اللغة الإنكليزية المكتوبة عامية، ولا حتى تفضيل الكلمة الساكسونية على الكلمة اللاتينية، حتى لو تضمنت استخدام أقل وأقصر الكلمات التي تغطي المعنى. المطلوب الأهم أن تدع المعنى يختار الكلمة، وليس العكس. في النثر، فإن أسوأ ما يمكن أن يفعله المرء بالكلمات هو أن يستسلم لها. حين تفكر في شيء مادي، فأنت

تفكر من دون كلمات. ثم إن أردت أن تصف الشيء الذي تصورته، فستفتش حتى تجد الكلمات الصحيحة والدقيقة التي تبدو مناسبة له. وحين تفكر في شي مجرد، فأنت تميل أكثر إلى استخدام كلمات من البداية. وإذا لم تبذل جهداً واعياً لمنعها، ستأتي اللهجة الموجودة مندفعة وتقوم بالمهمة عنك على حساب الضبابية، أو حتى تغيير المعنى الذي تقصده. من الأفضل ربما أن تؤجل استخدام الكلمات إلى أطول ما يمكن، وتحصل على المعنى الذي تقصده واضحاً، مثلما تستطيع ذلك بواسطة الصور أو الإحساسات. بعد ذلك تستطيع اختيار -وليس القبول فقط- العبارات التي تنقل المعنى بأفضل شكل، ومن ثم تتحول وتقرر ما هي الانطباعات التي يمكن أن تحدثها كلماتك على شخص آخر. المحاولة الأخيرة للعقل استئصال كل الصور الباهتة أو المشوشة وكل العبارات المصنعة مسبقاً والتكرار غير الضروري والاحتيال والغموض عموماً. لكن غالباً ما يشكك المرء في أثر كلمة أو عبارة، ويحتاج إلى قوانين يعتمد عليها حين تفشل الغريزة. أعتقد أن القوانين التالية ستغطي أغلب الحالات:

(١) لا تستخدم استعارة أو تشبيهاً أو صورة بلاغية أخرى اعتدت على رؤيتها مستخدمة في النشر والطباعة.

(٢) لا تستخدم أبداً كلمة طويلة، حيث تفي القصيرة بالغرض.

(٣) إن كان ممكناً صياغة كلمة جيدة، افعل ذلك دائماً.

(٤) لا تستخدم أبداً المبني للمجهول، حيث يمكنك استخدام المبني للمعلوم.

(٥) لا تستخدم أبداً عبارة أجنبية أو كلمة علمية أو كلمة مبهمة أعجمية، إن كان باستطاعتك التفكير بمرادف من الإنكليزية العادية.

(٦) اكسر أي من هذه القوانين، بدلاً من قول أي شيء غير فصيح.

هذه القوانين تبدو أولية وهي كذلك، لكنها تتطلب تغييراً عميقاً في الموقف عند كل من اعتاد على الكتابة بالأسلوب الدارج الآن. يلتزم المرء بها كلها، ويظل يكتب بلغة إنكليزية رديئة، لكنه لا يستطيع أن يكتب الهراء الذي اقتبسته في العينات الخمس في بداية المقال.

أنا لم آخذ بعين الاعتبار هنا الاستخدام الأدبي للغة، وإنما اللغة كأداة للتعبير وليست لحجب أو لمنع الفكر. ستيوارت تشيز وآخرون اقتربوا من الادعاء بأن الكلمات المجردة كلها

بلا معنى، واستخدموا هذا ذريعة لتأييد نوع من التصوف السياسي. حين لا تعرف ما هي الفاشية، فكيف ستناضل ضد الفاشية؟ لا يمكن للمرء تصديق هكذا سخافات، لكن ينبغي عليه أن يدرك أن الفوضى السياسية متصلة بانحلال اللغة وفسادها، وأن المرء يستطيع إحداث بعض التحسينات بالبدء في الهدف اللفظي. إن بسطت إنكليزيتك، ستتحرر من أسوأ حماقات الأرثوذكسية. لا تستطيع التكلم بأي واحدة من اللهجات المحلية الضرورية، وحين تبدي ملاحظة غبية، فإن غباءها سيكون واضحاً حتى لك أنت. إن اللغة السياسية، وهذا يصح على كل الأحزاب السياسية مع بعض الاختلاف من المحافظين إلى الفوضويين، صممت لجعل الأكاذيب تبدو صادقة والجريمة محترمة، ولتعطي مظهراً من الصلابة للريح الصرفة. لا يستطيع المرء تغيير هذا كله في لحظة، لكن على الأقل يستطيع تغيير عاداته الشخصية، ومن حين إلى آخر يستطيع حتى إذا سخر بصوت عالٍ أن يرسل بعض العبارات البالية والعقيمة - البعض مثل جزمة عسكرية طويلة أو كعب آخيل أو مرتع أو خليط أو إثبات اختبار أو حمضي أو جحيم حقيقي أو كوم آخر من النفاية اللفظية- إلى سلة الفضلات حيث تنتمي.

محادثة مع سلمي
(شخص لا يؤمن بالحرب)

في ليلة من عام ١٩٤٠ حين أُطلق وابل من النيران فوق لندن لأول مرة، كنت في ساحة البيكاديلي حين فتحت المدافع أفواهها، فهربت إلى داخل مقهى للالتجاء فيه. بين الحشد في الداخل، يوجد شاب وسيم وأنيق في حوالي الخامسة والعشرين من عمره، كان يقوم ببعض الإزعاج بنسخة من بيس نيوز كان يفرضها على انتباه كل واحد على الطاولات المجاورة. تبادلت الحديث معه، وسارت المحادثة على هذا الشكل:

الشاب: أقول لك سوف تنتهي قبل حلول عيد الميلاد. وستتم تسوية سلمية كما هو واضح. أنا أعلق إيماني بالسير صامويل هوري. أعترف أن صحبته مهينة، لكن يظل هوري إلى جانبنا. طالما هوري في مدريد يظل هناك أمل بالخيانة دائماً.

أورويل: ماذا عن تلك التحضيرات التي تجري ضد الغزو – الأكشاك التي تشبه شكل حبة الدواء التي يبنيها في كل مكان متطوعو الدفاع المحلي وهلم جرا؟

الشاب: أوه، ذلك يعني أنهم يستعدون لتحطيم الطبقة العاملة حين يصل الألمان إلى هنا. أعتقد أن البعض منهم قد يكونون حمقى جداً ويحاولون المقاومة، لكن تشرشل والألمان لن يطول الأمر بينهما حتى يهدئوهم. لا تقلق، ستنتهي الأمور قريباً.

أورويل: هل تريد حقيقة أن ترى أطفالك يتربون كنازيين؟

الشاب: هراء! هل تعتقد أن الألمان سيشجعون الفاشية في هذه البلاد؟ هم لا يريدون أن ينتجوا سلالة من المحاربين تقاتل ضدهم. سيكون الهدف تحويلهم إلى عبيد، لهذا السبب أنا سلمي – أرفض حمل السلاح. سيشجعون أناساً مثلي.

أورويل: ويطلقون النار على أناس مثلي؟

الشاب: سيكون ذلك سيئاً جداً.

أورويل: لكن لماذا أنت تواق جداً لتبقى حياً؟

الشاب: لكي أستطيع الاستمرار والتقدم في عملي طبعاً.

تبين من المحادثة أن الشاب كان رساماً -إن كان ذلك جيداً أو سيئاً، فأنا لا أعرف، لكن في كل الأحوال هو مهتم بإخلاص بالرسم ومستعد تماماً لمواجهة الفقر في السعي وراءه. ربما يكون الرسام أفضل مما يكونه الكاتب أو الصحفي تحت احتلال ألماني. لكن يظل ما قاله يحتوي على فكرة خاطئة خطيرة جداً تنتشر كثيراً الآن في البلدان التي لم توطد الديكتاتورية نفسها فيها.

الاعتقاد أنه بإمكانك أن تكون حراً من داخلك تحت حكومة ديكتاتورية، هي فكرة خاطئة، يواسي عدد كبير من الناس أنفسهم بها. الآن بشكل أو بآخر تترقى الديكتاتورية بشكل مرئي في كل جزء من العالم. في الخارج في الشوارع تجأر مكبرات الصوت وترفرف الأعلام من أسقف البيوت، ورجال الأمن ببنادقهم الرشاشة يطوفون الشوارع ذهاباً وإياباً، ووجه القائد بعرض أربعة أقدام يحملق من كل لوحة إعلانات جدارية ضخمة، لكن في العليات يستطيع أعداء نظام الحكم السريين تسجيل أفكارهم بحرية تامة -تلك هي الفكرة تقريباً. ويعتقد كثير من الناس تحت هذه الفكرة الغامضة، أن هذا هو ما يحدث في ألمانيا وفي البلدان الديكتاتورية الأخرى الآن.

لماذا هذه الفكرة زائفة؟ أنا تغاضيت عن حقيقة أن الديكتاتوريات الحديثة لن تترك في الواقع المنافذ التي تركتها الحكومات الاستبدادية المطلقة التي من الطراز القديم، بالإضافة إلى إضعاف الرغبة في الحرية الفكرية بسبب الأساليب الاستبدادية في التربية. إن التخيل بأن الكائن البشري فرد مستقل بذاته، هو خطأ كبير. إن الحرية السرية التي تستطيع بتصورك الاستمتاع بها في ظل حكومة استبدادية، هي مجرد هراء، لأن أفكارنا ليست خاصتنا تماماً. إن الفلاسفة والكتاب والفنانون وحتى العلماء لا يحتاجون فقط إلى تشجيع وجمهور، وإنما إلى التحفيز المستمر والثابت من الناس الآخرين. من شبه المستحيل أن تفكر من دون حديث. لو عاش ديفو في جزيرة مهجورة حقيقة، لما استطاع أن يكتب روبنسون كروزو، ولا أراد أن يفعل ذلك حقيقة. احذف الحرية من الكلام، فستجف القدرات الإبداعية. لو وصل الألمان إلى إنكلترا فعلاً، لوجد رفيقي في مقهى الرويال بأن رسمه سيتلف قريباً حتى لو تركه الجستابو بحاله. وحين يرفع الغطاء عن أوروبا، أعتقد أن أحد الأشياء التي ستفاجئنا، هي اكتشافنا الكم القليل من الكتابة الجديدة من أي نوع - حتى أشياء مثل المذكرات- التي كانت تنتج في السر تحت ظل الحكام المطلقين.

لماذا لا يؤمن الاشتراكيون بالمرح

التفكير بعيد الميلاد يثير لياً التفكير بتشارلز ديكنز، وذلك لسببين وجيهين؛ أولاً لأن ديكنز من الكتاب الإنكليز القليلين الذين كتبوا عن عيد الميلاد. فعيد الميلاد أكثر الأعياد الإنكليزية شعبية، ومع ذلك لم ينتج إلا قليل من الأدب بشكل يثير الدهشة، فهناك ترانيم مصدر أغلبها العصور الوسطى، وحفنة صغيرة من القصائد لروبرت بريدجز وتي اس إليوت وبعض الآخرين غيرهم، لكن ليس هناك سوى القليل غيرها. ثانياً لأن ديكنز استثنائي وفريد تقريباً وسط كتاب حديثين في القدرة على إعطاء صورة مقنعة للسعادة.

تعامل ديكنز بنجاح مع عيد الميلاد مرتين، في فصل من أوراق بيكويك، وفي **ترنيمة عيد الميلاد**. قرأت القصة الأخيرة للينين وهو على فراش احتضاره، وحسب ما جاء عن زوجته، وجد أن "عاطفيتها البرجوازية" لا تطاق تماماً. الآن لينين محق بمعنى ما: لكنه لو كان في وضع صحي أفضل، لربما لاحظ أن في القصة مضامين اجتماعية مشوقة. بداية، مهما كان ديكنز غليظاً في الصورة التي رسمها، ومهما كان "رثاء" تايني تيم مقززاً، فإن عائلة كراتشيت تعطي الانطباع بإمتاع أنفسهم ويبدون سعداء، كما يبدو سكان وليام موريس في **أخبار من اللامكان** غير سعداء. بالإضافة إلى أن إدراك ديكنز بأن سعادتهم نابعة أساسا من التباين، هو واحد من أسرار قوته. هم بروح عالية، لأنهم امتلكوا لمرة واحدة فقط ما يكفيهم من الطعام. الذئب عند الباب لكنه يلوح بذيله. بخار حلويات عيد الميلاد تندفع فوق خلفية من مكاتب الرهن والعمل المعرق، وبمعنى مزدوج فإن شبح سكروج يقف بجانب طاولة العشاء. حتى أن بوب راتشيت أراد أن يشرب نخب سكروج، وهذا ما رفضته السيدة كراتشيت بحق. آل كراتشيت قادرون على الاستمتاع بعيد الميلاد تماماً، لأنه يأتي مرة واحدة في السنة. سعادتهم مقنعة، فقط لأنها وصفت بالناقصة.

من جانب آخر، فإن كل الجهود لوصف السعادة الدائمة كانت فاشلة. شاعت اليوتوبيات (عرضياً الكلمة المصاغة يوتوبيا لا تعني "المكان الجيد" بل "المكان غير الموجود" فقط) في

الأدب في السنوات الثلاثمئة أو الأربعمئة الماضية، لكن حتى "المفضلة" منها بلا طعم دائماً، وتنقصها الحيوية عادة أيضاً.

بالتأكيد، إن أشهر اليوتوبيات الحديثة، هي يوتوبيات اتش جي ويلز، وقد عبر تماماً عن رؤيته للمستقبل في كتابين كتبهما في أوائل العشرينيات، هما: **حلم** و**رجال كالآلهة**. هنا لديك صورة للعالم كما يجب أن يراه ويلز أو يعتقد أنه يجب أن يراه. إنه عالم أفكاره الجوهرية في الانغماس المتسامح بالمتعة والغرابة العلمية. عالم تلاشت منه كل أنواع الشرور والشقاء التي نعاني منها الآن، وزال الجهل والحرب والفقر والقذارة والمرض والإحباط والجوع والخوف والعمل الشاق والخرافة كلها، وبالتالي من المستحيل أن ننكر أن هذا النوع من العالم هو الذي نرجوه. كلنا نريد إلغاء الأشياء التي ألغاها ويلز، ولكن هل هناك أحد يريد فعلياً العيش في يوتوبيا ويلز؟ على العكس من ذلك، لم يصبح العيش في ذلك العالم ولا الاستيقاظ في حديقة صحية في الضواحي تعج بالمعلمات العاريات، حافزاً سياسياً مقصوداً في الحقيقة. إن كتاب مثل **عالم جديد شجاع** تعبير عن الخوف الفعلي بأن يؤمن الإنسان الحديث بالمجتمع المتعي المعقلن الذي ضمن قدرته على الخلق. قال كاتب كاثوليكي حديثاً إن اليوتوبيات أصبحت الآن محتملة تقنياً، وبالتالي بات تفاديها مشكلة خطيرة. لا نستطيع أن نكتب هذا كملاحظة بسيطة، فقط لأن أحد مصادر الحركة الفاشية هو الرغبة في تفادي عالم معقلن جداً ومريح جداً.

إن كل اليوتوبيات "المستحسنة" تبدو متشابهة في افتراض الكمال، لكنها ظلت عاجزة عن تقديم السعادة. **أخبار من اللامكان** نوع من نسخة فاضلة متكلفة من اليوتوبيا الويلزية. الكل كرماء وعاقلون، وكل الأثاث يأتي من محل الحرية، لكن الانطباع المتروك خلفها نوع من الكآبة المذقة. والمثير أكثر أن جوناثان سويفت الذي اعتبر من أعظم الكتاب الخياليين على الإطلاق، لم ينجح في بناء يوتوبيا "مستحسنة" أكثر مما قدم الآخرون.

ربما تكون الأجزاء الأولى من **رحلات غوليفار** الهجمة الأشد تخريباً على المجتمع الإنساني من كل ما كتب على الإطلاق حتى الآن. كل كلمة منها وثيقة الصلة بالحاضر؛ في أماكن تحتوي على تفاصيل دقيقة لتنبؤات بأشكال الرعب السياسي في عصرنا، لكن الأماكن التي فشل فيها سويفت، هي محاولته في وصف سلالة من الكائنات أعجبته. ففي الجزء الأخير يرينا الهوينم بالمقارنة مع الياهو المقززين، وهم عبارة عن خيول ذكية خالية من العيوب الإنسانية.

الآن هذه الخيول بكل ميزتها السامية وحسها العام الذي لا يخطئ، ظلت مخلوقات كئيبة بشكل لافت مثل قاطني اليوتوبيات الأخرى المتنوعة الذين لم يهتموا إلا في تحاشي الجلبة. يعيش الهوينم حياة هادئة خاضعة "معقولة" خالية من المنازعات والفوضى أو القلق من أي نوع، وحتى من "الرغبة العاطفية" التي تشمل الحب الجسدي؛ فهم يختارون أزواجهم على مبادئ تتعلق بتحسين النسل، ويتحاشون الإفراط في الحب، ويبدون سعداء في الموت حين يأتي وقتهم. لقد بين سويفت في الأجزاء الأولى من الكتاب إلى أين تؤدي بالإنسان حماقته ونذالته، لكن بإقصاء الحماقة والنذالة، فكل ما يبقى معه ظاهرياً هو نوع فاتر من الوجود لا يستحق العيش. ولم تكن محاولات وصف أشكال من السعادة العالمية بالتأكيد أنجح. إن الفردوس هو إخفاق عظيم مثل اليوتوبيا، وجهنم تحتل مكاناً محترماً في الأدب، ووصفت دوماً بدقة وإقناع أكبر.

من المألوف أن الفردوس المسيحي كما صور عادة، لا يجذب أحداً. كل الكتاب المسيحيين تقريباً تعاملوا مع الفردوس إما بشكل صريح على أنه لا يوصف، أو يستحضر صورة غامضة للذهب والأحجار الكريمة وغناء لا نهاية له من التراتيل. صحيح أن هذا ألهم ببعض من أفضل القصائد في العالم: جدرانك من العقيق الأبيض ومتاريسك ماسات وبواباتك من اللؤلؤ الشرقي الحقيقي تفوق الثراء والندرة! لكنها لم تستطع أن تصف حالة واحدة أراد الإنسان العادي بحماس أن يكون فيها. الكثير من القساوسة الذين أرادوا إحياء العادات السالفة وكثير من الكهنة اليسوعيين (لاحظ العظة المروعة في رواية جيمس جويس صورة الفنان مثلاً) أخافوا رعاياهم وأخرجوهم من جلودهم بصورهم الكلامية عن الجحيم. لكن حالما يأتي الأمر إلى الفردوس، فهناك سقوط وتراجع مفاجئ إلى كلمات مثل "النشوة" و"البهجة" مع محاولة صغيرة للقول مم يتكونان. ربما قطعة الكتابة الأكثر حيوية عن هذا الموضوع، هو المقطع الشهير الذي يشرح فيه تريتوليان أن إحدى متع الفردوس الرئيسية هي التفرج على تعذيب الملعونين.

إن النسخ الوثنية للفردوس أفضل قليلاً بالمجمل. يشعر المرء أنه شفق دائم في حقول إيلزية. الأوليمب حيث عاش الآلهة مع شرابهم وعطرهم وحورياتهم وهيبياتهم "المومسات الخالدات" كما وصفهن دي اتش لورانس، ربما يكون مريحاً وعائلياً أكثر من الفردوس

المسيحي، لكنك لا تفضل البقاء هناك طويلاً. بالنسبة إلى الفردوس الإسلامي بحورياته السبع والسبعين لكل رجل واحد اللواتي يطالبن بصخب في الملاطفة بنفس الوقت، فهو ليس سوى كابوس كما يفترض. ولم يقدر الروحانيون رغم تطمينهم الدائم لنا بأن "كل شيء براق وجميل"، على وصف أي نشاط في العالم الآخر يجده الشخص العاقل مقبولاً وفاتناً.

الحال نفسه مع محاولات وصف السعادة الكاملة التي ليست يوتوباوية أو من العالم الآخر، وإنما مجرد سعادة حسية، فهي تعطي دائماً الانطباع بالخلاء والسوقية أو كليهما. في بداية البتول يصف فولتير حياة تشارلز التاسع مع خليلته آغنيس سوريل، فيقول هما "سعيدان دائماً" ومم تتألف سعادتهما؟ من جولة لا تنتهي من المآدب والشراب والصيد والجماع. من لا يشمئز من هذا الوجود بعد بضعة أسابيع؟ يصف رابلياس الأرواح السعيدة التي تستمتع بوقت جيد في العالم الآخر لتعويضها عن الوقت الرديء الذي قضته في هذا العالم. الوصف أغنية لا يمكن ترجمتها إلا بشكل تقريبي: "للوثب وللرقص وللخداع ولشرب النبيذ الأبيض والأحمر وللتبطل طول اليوم ماعدا عد التيجان الذهبية" كم تبدو مملة أخيراً! خلو الفكرة بمجملها من "وقت ممتع" أبدي مبين بجلاء في صورة بيريوغل أرض الكسالى، حيث ثلاثة من البليدين البدينين جداً يستلقون نائمين، الرأس على الرأس، مع بيض مقلي وأفخاذ مشوية من لحم الخنزير تأتي لتؤكل من تلقاء ذاتها.

يبدو أن الكائنات البشرية ربما غير قادرة على وصف أو تخيل سعادة من دون شروط المقارنة. لهذا السبب يختلف مفهوم الفردوس أو اليوتوبيا من عصر إلى آخر. في المجتمع قبل الصناعي، وصف الفردوس كمكان للراحة اللانهائية، وكان مبلطاً بالذهب، لأن تجربة الإنسان العادي كانت العمل الشاق والفقر. أما حوريات الفردوس الإسلامي فتعكس مجتمعاً متعدد الزوجات؛ حيث تختفي أغلب النساء في أجنحة حريم الأثرياء. لكن هذه الصور من "النشوة الأبدية" كانت تخفق دائماً، لأن النشوة أصبحت أبدية (يعتقد أن الأبدية زمن لانهائي) وتوقف تأثير التباين. انبثقت بعض التقاليد التي تجسدت في أدبنا أولاً من الظروف المادية التي لم تعد موجودة الآن، كعبادة الربيع مثلاً. لم يكن الربيع يعني في العصور الوسطى مجرد طيور سنونو وزهور برية، بل كان يعني النباتات الخضراء والحليب واللحم الطازج بعد عدة شهور من العيش على لحم الخنزير المملح في أكواخ بلا نوافذ تعج بالدخان.

كانت أغاني الربيع مرحة، لا تفعل أي شيء سوى الأكل وشرب الأنخاب الطيبة وشكر الرب على السنة البهيجة؛ حيث اللحم رخيص والمجاعات نادرة والغلمان الشهوانيون وكل من معهم يتجولون هنا وهناك بمرح كبير! لأن هناك شيء تمرح من أجله. انتهى الشتاء، هذا هو الشيء العظيم، وعيد الميلاد نفسه عيد سابق للمسيحية، ربما بدأ لضرورة وجود انفجارات عرضية من الإفراط بالأكل والشرب لإيجاد راحة من الشتاء الشمالي الذي لا يطاق.

لقد سبب عجز البشرية عن تخيل السعادة إلا في شكل خلاص من جهد أو ألم للاشتراكيين مشكلة خطيرة. يستطيع ديكنز وصف العائلة المعدمة وهي تلتهم إوزة مشوية بنهم، ويستطيع إظهار أفرادها سعداء، بينما يبدو ساكنو العوالم المثالية من الجانب الآخر لا يملكون المرح العفوي وينفرون منه عادة أيضاً. لكن من الواضح أننا لا نهدف إلى نوع العالم الذي وصفه ديكنز أو أي عالم كان قادراً على تخيله ربما. إن هدف الاشتراكي ليس مجتمعاً يصح فيه كل شيء في النهاية، فالسادة الشيوخ الكرماء اللطفاء يمنحون الديوك الرومية. ما هو هدفنا نحن إن لم يكن مجتمعاً تصبح فيه "الصدقة" غير ضرورية؟ نحن نريد عالماً فيه سكورج مع إيرادات أسهمه، وتايني تيم مع ساقه المصابة بالسل شيئاً غير وارد بتاتاً؟ سأخاطر بقول شيء لن يوافق عليه محررو صحيفة التريبيون، وهو أن الهدف الحقيقي للاشتراكية ليس السعادة، فالسعادة حتى الآن منتج جانبي، وبسبب كل ما نعرف ربما تظل كذلك دائماً. إن الهدف الحقيقي للاشتراكية هو الإخوة الإنسانية. هذا هو الانطباع الذي لم يعبر عنه عادة، أو لم يعبر عنه بصوت مسموع. يستهلك الناس حياتهم في صراعات سياسية محزنة ومزعجة، أو يتسببوا بقتل أنفسهم في حروب أهلية، أو يعرضوا أنفسهم للتعذيب في سجون سرية للجستابو، ليس ليوطدوا فردوساً بتدفئة مركزية وتكييف هواء وإضاءة كهربائية، وإنما لأنهم يريدون عالماً يحب فيه البشر بعضهم بعضاً بدلاً من الاحتيال على بعضهم البعض وقتل بعضهم البعض، ويريدون ذلك العالم كخطوة أولى. إلى أين سيذهبون من هناك، ذلك ليس محدداً، لكنهم يحاولون التكهن بتفصيل يشوش القضية فقط.

أجبر الاشتراكيون على التعامل مع التنبؤ، ولكن بمعانيه الواسعة. يجبر المرء على التوق إلى أهداف لا يراها إلا غامضة جداً. مع ذلك ليس لدى العالم خبرة السلام، ولن تكون لديه أبداً، إلا إذا تواجد الهمجي النبيل. يريد العالم شيئاً يدرك بشكل غامض إمكانية إيجاده، لكن لا

يستطيع تحديده بدقة. في عيد الميلاد هذا هناك آلاف الناس الذين ينزفون حتى الموت في الثلوج الروسية ويغرقون في المياه الجليدية أو ينسفون بعضهم بعضاً إلى مزق على جزر سبخية في المحيط الهادي، وأطفال مشردون ينبشون من أجل طعام وسط حطام المدن الألمانية. إن جعل هذا النوع من الشيء مستحيلاً، هو هدف جيد، لكن القول بالتفصيل عن الشكل الذي سيكون عليه العالم المسالم، هي مسألة مختلفة.

إن كل خالقي اليوتوبيات تقريباً يشبهون الرجل الذي يعاني من ألم في أسنانه، ويعتقد أن السعادة تتكون من عدم معاناة ألم الأسنان. أرادوا أن ينتجوا مجتمعاً مثالياً لانهائياً لشيء قيمته في كونه مؤقتاً. كل من يحاول تخيل الكمال، يكشف ببساطة عن خلوه نفسه. هذا هو الحال حتى مع كاتب عظيم مثل سويفت الذي استطاع أن ينتقد مطراناً أو سياسياً ببراعة كبيرة، لكنه حين حاول أن يخلق رجلاً خارقاً، تركنا في انطباع كان آخر ما يقصده بأن لدى الياهو المتعفنين احتمالية للتطور أكثر من الهوينم المتنورين.

معنى قصيدة

سوف أبدأ باقتباس قصيدة اسمها "فيليكس راندال" للشاعر الإنكليزي المشهور جيرارد مانيلي هوبكنز -كان قساً رومانياً كاثوليكياً مات عام ١٨٩٣.

آه هل مات فيليكس راندال البيطار إذاً؟ انتهت خدماتي كلها
من راقب شكله الرجولي القوي والوسيم والجسور
يهزل ويهزل حتى وقت تاه العقل فيه
وتقوت وكبرت أربعة اعتلالات هناك تتنافس كلها؟

هدّه المرض وكسره. جدف وشتم في الأول لنفاد صبره لكنه أصلح
بمسحه في الزيت وكل ما يلزم؛ كأن قلباً سماوياً بدأ قبل بضعة شهور،
منذ أن قدمت له عفونا الحلو والفدية.
آه أخيراً أراحه الرب الذي كان يغضبه دائماً طيلة دربه!

يحببنا المريض بهذا المنظر، والمنظر محبب لنا أيضاً.
لساني علمك الراحة والسلوان، ولمستي أطفأت دموعك
دموعك مست قلبي يا بني المسكين فيليكس راندال

كم بعيد ترويك وحذرك الآن عن كل سنواتك المرحة الصاخبة
حين في دكان الحدادة الكالح العشوائي كنت القوي بين أندادك
صنعت لحصان العربة الرمادي الكبير خفه الساطع الضارب!

قصيدة يطلق عليها الناس اسم قصيدة "صعبة" -لدي مبرر لاختيار قصيدة صعبة- لكن لا شك أن المسار العام للمعنى واضح تماماً. فيليكس راندال حداد - بيطار. الشاعر

الذي يكون قسه عرفه في ربيع عمره كرجل ضخم وقوي، ثم رآه يحتضر بعد أن أنهكه المرض والبكاء على سريره مثل طفل. هذا كل ما يظهر في القصيدة، لكن لنعد إلى السبب الذي اخترت من أجله متعمداً هذه القصيدة الغامضة، والتي يمكن وصفها بالقصيدة النمطية المتكلفة. هوبكينز هو من يسميه الناس بكاتب الكتّاب، يكتب بأسلوب غريب جداً وملتوٍ- ربما يكون أسلوبياً رديئاً أو إن تقليده رديء بالتأكيد. ليس من السهل فهمه أبداً، لكنه جذاب للأشخاص المحترفين المهتمين بنقاط من التكنيك. لذا تجد في أي نقد لهوبكنز أن التأكيد يتركز حول استعماله للغة، أما موضوع القصيدة فنادراً ما يلامس. وفي أي نقد شعري طبعاً، من الطبيعي أن تحكم بواسطة الأذن -لأن الكلمات في الشعر- أصوات الكلمات وتداعياتها وتناغم الصوت وتداعياته، بحيث يمكن لكلمتين أو ثلاث أن تحدث منظومة -تهم كما هو واضح أكثر مما تفعله في النثر، ولن يبقى أي مبرر للكتابة بالشكل العروضي. ومع هوبكنز بشكل خاص فإن غرابة لغته والجمال المدهش لبعض التأثيرات الصوتية التي ينجح في إحداثها، تطغى على كل شيء غيرها.

أفضل ميزة أو الميزة الأهم الخاصة كما يمكن تسميتها، هي التزامن اللفظي. إن الكلمة التي تربط القصيدة كلها وتعطيها أخيراً جواً من الجلالة، هي شعور بكونها مأساوية بدلاً من مثيرة للشفقة، هي تلك الكلمة الأخيرة "خف" التي خطرت ببال هوبكنز، لأنها صدف ولها نفس إيقاع كلمة راندال. ربما علي أن أضيف أن لكلمة صندل تأثير على القارئ الإنكليزي أكثر من تأثيرها على القارئ الشرقي الذي يرى الصندل يومياً وربما يلبسه. أما الصندل بالنسبة إلينا فهو شيء غريب ويتداعى مع الإغريق والرومان أساساً. حين يصف هوبكنز حذوة حصان العربة بصندل، فإنه يحول الحصان فجأة إلى حيوان أسطوري رائع، شيء مثل حيوان بشير. ويفرض هذا التأثير بإيقاع ممتاز في السطر الأخير.... الذي هو عبارة عن تفعيلة سداسية من نفس البحر الشعري الذي كتب به هومر وفيرجيل. بتركيب معين من أصوات وتداعياتها، نجح في رفع موت قروي عادي إلى مستوى مأساة.

لكن ذلك الأثر المأساوي لا يمكن أن يتواجد في الخلاء، وإنما على تركيبة معينة من المقاطع اللفظية. لا يمكن للمرء أن يعتبر القصيدة مجرد قالب من الكلمات على الورق كنوع من الفسيفساء. القصيدة مؤثرة بفضل مضمونها العاطفي الذي لن يكون هناك لولا معتقدات

هوبكنز وفلسفته كما كانت. إنها قصيدة من كاثوليكي أولاً وقبل كل شيء، وثانياً من رجل يعيش في لحظة محددة من الزمن، القسم الأخير من القرن التاسع عشر، حين كان الأسلوب الإنكليزي الزراعي في الحياة يتلاشى -تجمع القرية السكسونية القديمة- كان يندثر نهائياً. الشعور في كل القصيدة مسيحي. هي عن الموت، والموقف من الموت، ليس لكونه شيئاً مرحباً به أو شيئاً يجب أن يقابل بعدم اكتراث سلبي ما أمكن، وإنما هو شيء مأساوي بشكل عميق يجب تجريبه وتحمله. أعتقد أنه لو توفر للمسيحي الفرصة في حياة أبدية على الأرض لرفضها، لكنه يظل يشعر أن الموت محزن بعمق. الآن، هذا الشعور يشترط استخدام هوبكنز للكلمات. لو لم تكن من أجل علاقته الخاصة كقس، ربما لم تخطر بباله أن يخاطب الحداد الميت بكلمة "ولدي"، ولما استطاع أن يخلق العبارة التي اقتبستها "كل سنواتك المرحة الصاخبة" لولا رؤيته المسيحية بضرورة الموت وحزنه. لكن كما قلت، فإن القصيدة مشروطة أيضاً بحقيقة أن هوبكنز عاش في النهاية الأخيرة من القرن التاسع عشر. لقد عاش في تجمعات ريفية تشبه وبشكل مميز تلك التي في عصور الساكسون، وحين بدؤوا لتوهم في التفسخ تحت تأثير السكة الحديدية، استطاع أن يرى أنموذجاً مثل فيلكس راندال، حرفي القرية الصغيرة المستقلة من منظور كمنظور المرء الذي لا يرى الشيء إلا حين يتلاشى أمامه. هو يستطيع الإعجاب به مثلاً، لأن كاتباً قبل هذه الفترة ربما لم يستطع أن يفعل. وذلك هو السبب في أن الكلام عن عمله استطاع أن يستنبط عبارات مثل "الكير الكالح المرمي عشوائياً" و"القوي وسط الأنداد"

لكن المرء يعود إلى الاعتبار التقني بأن موضوعاً من هذا النوع ساعده كثيراً أسلوب هوبكنز الخاص والغريب. اللغة الإنكليزية خليط من لغات عديدة، لكن الرئيسية منها هي: السكسونية والفرنسية النورمانية. ولايزال هناك تمييز طبقي بينهما في المناطق الريفية حتى هذا اليوم. إن لغة هوبكنز الخاصة به ساكسونية جداً، فهو يميل إلى ربط عدة كلمات إنكليزية مع بعضها، بدلاً من استخدام كلمة واحدة لاتينية طويلة، كما يفعل أغلب الناس حين يريدون التعبير عن فكرة معقدة، وهو يشتق عمداً من الشعراء الإنكليز الأوائل، الشعراء الذين أتوا قبل تشوسر. يستخدم في هذه القصيدة عدة كلمات عامية.... إن إعادة خلقه جو القرية الإنكليزية، لن ينتمي إليه لولا دراسته التقنية الصرفة التي أجراها في وقت أبكر من حياته عن

الشعراء السكسونيين. ترى القصيدة على أنها تركيب لكنها أكثر من تركيب، نوع من النمو معاً -لمفردات خاصة ونظرة دينية واجتماعية خاصة. اندمجت الاثنتان معاً بشكل لا ينفصل، والكل أعظم من الأجزاء.

حاولت أن أحلل هذه القصيدة في أقصر فترة ممكنة، لكن لا شيء مما قلته يستطيع أن يشرح أو يطمس المتعة التي أخذتها منها. هذا غير قابل للتفسير، ولكونه غير قابل للتفسير، فالنقد جدير. يستطيع رجال العلم دراسة تطور حياة زهرة، أو يستطيعون أن يفصلوها إلى عناصرها المركبة، لكن هل يستطيع أي عالم أن يقول لك إن تلك الزهرة لا تصبح أقل روعة أو أكثر روعة إن عرفت كل شيء عنها.

حديث بثته البي بي سي - خدمة ماوراء البحار-١٤ مايو/ أيار ١٩٤١؛ نشرته ذا ليسنر ١٢ يونيو/ حزيران ١٩٤١.

مراجعة لبيرنت نورتون وإيست كوكر
والإنقاذ الجاف للأديب تي إس إليوت

لم يترك عمل إليوت الأخير سوى القليل من الأثر العميق عليّ. هذا اعتراف بشيء ناقص في نفسي، لكنه ليس كما يبدو من النظرة الأولى مبرراً للسكوت من دون قول شيء أكثر من ذلك، لأن التغيير في رد فعلي ربما يشير إلى تغيير خارجي جدير بالاستقصاء. أنا أحفظ كمية معتبرة من أعمال إليوت المبكرة عن ظهر قلب. لم أجلس وأتعلمها، ولكنها لصقت في ذهني مثل أي مقطع شعري يمكنه أن يفعل ذلك.... ويمكنني أحياناً أن أتذكر قصيدة (من ثلاثين إلى أربعين بيتً) كلها بعد قراءة واحدة فقط. إن عمل الذاكرة هو عمل إعادة بناء. أما بالنسبة إلى القصائد الثلاث الأخيرة، فأعتقد أنني قرأت كل واحدة منها مرتين أو ثلاث منذ نشرها، ولم أتذكر شيئاً منها فعلياً؟ "لقد انطمر الزمن والجرس في ذلك اليوم تحت نقطة الركود في عالم يدور. مياه شاسعة من طيور النو وخنازير البحر ونتف من المقطع الذي بدأ "أوه، ظلام ظلام ظلام كلهم ذهبوا إلى داخل الظلام. كلهم ذهبوا إلى داخل الظلام" ولم أحسب عبارة "في نهايتي بدايتي" لأنها اقتباس. هذا كل ما علق برأسي تلقائياً. لا أحد يستطيع أخذ هذا كإثبات أن بيرنت نورتون والبقية أسوأ من كل القصائد السابقة التي يستظهرها المرء، إذ يمكن اعتبارها إثباتاً للعكس بأن الذي يستقر في الذهن ويبقى بسهولة كبيرة من تلقاء نفسه هو الواضح والمبتذل حتى. لكن من الواضح أن شيئاً ما رحل وتياراً ما انطفأ! الشعر الأخير لا يحتوي الشعر السابق، حتى لو زعمنا بأنه تحسين عليه. أعتقد أنه يحق للمرء أن يفسر هذا بأنه انحدار في الموضوع الذي يتناوله إليوت. قبل الذهاب بعيداً، سأقتطع للمقارنة مقطعين متقاربين جداً في المعنى. الأول يتضمن مقطعاً من الإنقاذ الجاف:

والحرية فعل صحيح في الماضي والمستقبل أيضاً/ بالنسبة إلى أغلبنا لم يتحقق هذا الهدف هنا أبداً/ نحن الذين لا ننهزم لأننا نستمر في المحاولة/ نحن قنعنا أخيراً/ أن نكوصنا المؤقت يغذي- (ليس بعيداً جداً عن شجرة الطقوس)- الحياة في التربة الهامة.

وهذا مقطع اقتطفته من قصيدة أسبق بكثير:

براعم النرجس البري بدلات من كرات/ حدقت من مقلتي عينيه/ عرف أن الفكرة تمسكت بقوة بأطراف ميتة/ شدت شهواتها وترفها/ عرف ألم نقي العظام/ وقشعريرة الهيكل العظمي/ لا يوجد اتصال ممكن مع الجسد/ يهدئ الحمى التي في العظم.

يحمل المقطعان وجه مقارنة بما أنهما يعالجان نفس الموضوع أي الموت. الأول يتبع بمقطع أطول يشرحه أولاً، والمهم أن البحث العلمي هراء وخرافة صبيانية بنفس مستوى قراءة الحظ، ثم إن الناس الوحيدين الذين يحتمل منهم أن يفهموا الكون، هم القديسون، أما البقية منا فقد بخسوا قدرهم إلى "التخمين والتلميح" الموضوع الختامي الرئيسي (الاستسلام). هناك معنى في الحياة وفي الموت أيضاً، لكن لسوء الحظ نحن لا نعرف ما هو، لكنه يوقظ زعفرانات واقع، وجوده يفترض به أن يكون مواساة وراحة لنا حين نرفع الزعفران عالياً، أو مهما يكن الذي ينمو ويكبر تحت شجرة الطقوس في مقابر الكنائس الريفية. والآن انظر إلى المقطع الثاني الذي اقتطعته، رغم أنه ينسب إلى شخص آخر ربما يعبر عما شعر به إليوت نحو الموت في ذلك الوقت في أمزجة معينة على الأقل. هو لا يعلن الاستسلام، بل على العكس هو يعلن الموقف الوثني تجاه الموت والإيمان بالعالم الآخر كمكان مظلم غامض مملوء بالأشباح التي تصرخ حاسدة الأحياء، والاعتقاد أن الحياة مهما كانت سيئة، فإن الموت أسوأ. هذا الفهم للموت، يبدو أنه عام منذ الأزمنة القديمة، وعام الآن أيضاً. "ألم نقي العظام وقشعريرة الهيكل العظمي" وقصيدة هوراس الشهيرة ايهيو فوغاكيس، وأفكار بلوم التي لم يتفوه بها أثناء جنازة بادي ديغنام تشبه بعضها تماماً تقريباً. طالما ينظر الإنسان إلى نفسه كفرد، فيجب أن يكون موقفه من الموت استياء بسيطاً، مهما كان هذا الموقف غير مقنع. إن كان الشعور به كثيفاً، فقد ينتج عنه أدب أكثر جودة مما يرجى من الإيمان الديني الذي لا يُشعر به إطلاقاً، وهو مجرد قبول ضد البذرة العاطفية. وبقدر ما تذهب إليه المقارنة، يثبت المقطعان اللذان اخترتهما هذا كما يبدوان لي. لا أظن أن هناك شكاً بأن الشعر في المقطع الثاني أفضل وأسمى بما لا يقبل الشك، وأشد توتراً للمشاعر، بالرغم من الأثر القليل من المحاكاة الساخرة فيه.

ما الذي تدور حوله هذه القصائد الثلاث بيرنت نورتون والبقية؟

ليس من السهل القول عما تدور حوله، لكن ما يظهر على السطح أنها حول مناطق في إنكلترا وأميركا للسيد إليوت علاقات أسلاف وأجداد معها. اختلط معها تأمل كئيب لطبيعة الحياة وهدفها، مع استنتاج غير محدد ذكرته آنفاً. للحياة معنى، لكنه ليس معنى يشعر المرء بالميل كي يزداد غنائية نحوه. يوجد إيمان، لكن لا يوجد أمل كثير ولا حماس بالتأكيد. إن موضوع قصائد إليوت المبكرة مختلف جداً عن هذا. لم تكن مفعمة بالأمل، لكنها لم تكن كئيبة أو مثيرة للكآبة. إن أراد المرء التعامل في المتضادات، يمكن القول إن القصائد اللاحقة إيمان كئيب، والقصائد المبكرة يأس متوهج. لقد تأسست على مأزق الرجل الحديث الذي يئس من الحياة، ولا يريد أن يموت، وفوق كل هذا تعبر القصائد عن رعب المثقف المتحضر جداً في مواجهة القبح والخلاء الروحي لعصر الآلة.

تبدل الموضوع الرئيسي من "غير بعيد جداً عن شجرة الطقوس" إلى "حشود باكية باكية" أو "ربما الأظافر المكسرة للأيدي المتسخة". هذه القصائد يجب أن تشجب كقصائد "منحطة"، ولم يتوقف الهجوم حين ظهرت لأول مرة إلا عندما أدرك أن ميول إليوت السياسية والاجتماعية "رجعية"، وكان هناك إحساس بإمكانية تبرير تهمة "منحطة".

من الواضح أن هذه القصائد كانت النتاج النهائي من تقليد ثقافي وقصائد لا تخاطب إلا الجيل الثالث المثقف من رانتير (الذي يأتي دخله من إيراد السندات) والناس القادرين على الشعور والانتقاد، ولكنهم لم يعودوا قادرين على الفعل. أي إم فورستر أثنى على بروفروك في أول ظهور لها، لأنها "تغنت بالناس الذين كانوا غير فعالين وضعفاء" ولأنها كانت "بريئة من الروح الشعبية" هذا كان أثناء الحرب الأولى حين كانت الروح الشعبية متقدة أكثر مما هي عليها الآن. إن الصفات النوعية لأي مجتمع لكي يدوم أطول من جيل واحد عملياً، يجب أن تعزز وتقوي الصناعة والشجاعة والوطنية والازدهار والتوفير وحب الأهل للذرية والنسل، والتي من الواضح أنه لا مكان لها في قصائد إليوت المبكرة. لا مكان هناك إلا لمثل وقيم رينتير (الذي يسحب إيراده من السندات) وقيم الناس الذين يعجزون عن القتال أو حتى التكاثر بسبب تحضرهم المفرط. لكن ذلك هو الثمن الذي يجب دفعه لكتابة قصيدة تستحق القراءة.

إن الذي شعر به الناس الحساسون، هو مزاج الكسل والتراخي والسخرية والكفر والاشمئزاز، وليس الحماس القوي المطلوب من تابعي الفرسان والهربرات. من الرائج القول إن

المهم في الشعر هو الكلمات فقط، أما المعنى فغير لازم. لكن في الواقع كل قصيدة تحتوي على معنى نثري، وحين تكون القصيدة جيدة يكون معناها هو المعنى الذي رغب الشاعر بقوة أن يعبر عنه. كل الفنون عبارة عن دعاية إلى حد ما. "بروفروك" تعبير عن العبث، لكنها أيضاً قصيدة ذات حيوية وقوة رائعة، تبلغ أوجها في نوع من الانفجار الصاروخي في المقاطع الختامية:

رأيتهم يركبون البحر على الأمواج/ يتسلقون الشعر الأبيض للموجات العاصفة المرتدة/ حين تعصف الريح بالماء وتقذفه أبيض وأسود؟ تسكعنا في حجرات البحر/ بجانب حوريات البحر المكللات بالعشب البحري الأحمر والبني/ إلى أن أيقظتنا أصوات بشرية وغرقنا في الماء.

لا يوجد شيء مثل هذا في القصائد المتأخرة، علماً أن يأس رينتير الذي تأسست عليه هذه الأبيات قد أسقط عمداً. لكن المشكلة هي أن العبث المقصود شيء للصغار فقط. لا يستطيع المرء أن يستمر "باليأس من الحياة" حتى يصل إلى عمر متقدم وناضج. لا يستطيع المرء أن يستمر في "التفسخ والانحطاط" بما أن الانحطاط يعني السقوط، ولا يمكننا القول إن المرء سقط، إلا إذا كان سيصل إلى القاع قريباً جداً. عاجلاً أو آجلاً فالمرء ملزم بأن يتبنى موقفاً إيجابياً نحو الحياة والمجتمع. سيكون من المجحف القول إن كل شاعر في زمننا يجب إما أن يموت صغيراً أو يدخل الكنيسة الكاثوليكية أو ينضم إلى الحزب الشيوعي، لكن في الحقيقة فإن النجاة والفرار من الشعور بالعبث هو عبر تلك الخطوط. توجد هناك حالات أخرى من الموت بالإضافة إلى الموت البدني، وهناك طوائف وعقائد أخرى بالإضافة إلى الكنيسة الكاثوليكية والحزب الشيوعي، لكن يبقى من الصحيح أنه بعد عمر محدد، يجب على المرء إما أن يتوقف عن الكتابة أو أن يكرس نفسه لغرض وهدف ما غير فني وجمالي البتة. مثل هذا التكريس، يعني بالضرورة قطعاً مع الماضي:

كل محاولة هي بداية جديدة بالكامل ونوع مختلف من الفشل/ لأن المرء تعلم فقط أن يقهر الكلمات/ بالنسبة إلى الشيء الذي لم يعد أحد يتكلم عنه أو الطريقة التي/ فيها لم يعد المرء ميالاً إلى قوله. ولهذا كل مغامرة/ تكون بداية جديدة، غارة على الممتنع عن التعبير/ بمعدات بالية دائماً تتلف وتفسد/ في الفوضى العامة من غموض الشعور/ فرق غير منضبطة من العاطفة.

كان فرار إليوت فراراً من الفردانية إلى الكنيسة، الكنيسة الإنجليكانية كما حدث. يجب على المرء ألا يفترض أن البيتانية (نسبة إلى بيتان) الكئيبة التي استسلم لها الآن كما يبدو أنه كانت نتيجة محتومة لتحوله واعتناقه المذهب الجديد. الحركة الكاثوليكية لا تفرض أي "خط" سياسي على أتباعها، وكان الميل الرجعي المساوي الفاشي ظاهراً دائماً في عمله، وخصوصاً كتاباته النثرية. نظرياً لا يزال ممكناً أن يكون مؤمناً أرثوذوكسياً متديناً من دون أن يكون معطلاً ثقافياً في العملية، لكن هذا ليس سهلاً وعملياً. الكتب التي يكتبها المؤمنون الأرثوذوكس تظهر عادة نفس النظرة العمياء المحدودة والضيقة، مثل كتب الستالينيين الأرثوذكس أو الآخرين غير المتحررين عقلياً. السبب هو أن الكنائس المسيحية مازالت تطالب بالموافقة على العقائد التي لا يؤمن بها أحد بشكل جدي. الحالة الأكثر وضوحاً هي خلود الروح. "الإثباتات" المختلفة عن خلود الروح التي يمكن للمدافع المسيحي تقديمها، ليس لها أهمية من الناحية النفسية. ما يهم نفسياً أنه نادراً ما يشعر أي أحد أن نفسه خالدة. قد يكون العالم الآخر "مصدقاً به" بمعنى ما، لكن ليس بنفس الواقعية والصدق ولو من بعيد في عقول الناس كما في بضعة قرون سلفت. قارن مثلاً الغمغمة الكئيبة لهذه القصائد الثلاثة مع "القدس وطني السعيد" المقارنة ليست حمقاء البتة. في الحالة الثانية لديك رجل العالم الآخر حقيقي بالنسبة إليه كالعالم الأول هذا. صحيح أن رؤيته له سوقية بشكل لا يصدق- تدريب جوقة في محل مجوهرات-لكنه يؤمن فيما يقوله، وإيمانه يعطي حيوية لكلماته. في الحالة الأخرى لديك رجل لا يشعر في الواقع بإيمانه، لكنه يذعن له لأسباب معقدة. إنه لا يعطيه بحد ذاته أي دافع أدبي جديد. في مرحلة محددة يشعر بالحاجة إلى "هدف" ويريد "هدفاً" هدفاً رجعياً وليس تقدمياً؛ الملجأ المتاح الفوري هو الكنيسة التي تطالب أعضاءها بسخافات ثقافية، لهذا يصبح عمله مستمراً حول هذه السخافات ومحاولة جعلها مقبولة لنفسه. لا تملك الكنيسة أي صورة بلاغية حية وأي مفردة جديدة تقدمها:

الراحة هي الصلاة ومراعاة القوانين والانضباط والفكر والعمل.

ربما ما نحتاج إليه هو الصلاة ومراعاة القوانين إلخ، لكنك لن تؤلف بيتاً من الشعر برصف تلك الكلمات مع بعضها. يتكلم السيد إليوت أيضاً عن الصراع الذي لا يحتمل مع الكلمات والمعاني، أما الشعر فغير مهم. أنا لا أعرف لكن يجب أن أتخيل أن ذلك الصراع مع

الكلمات والمعاني يجب أن يبدو أصغر، والشعر يجب أن يبدو مسألة أهم إن استطاع أن يجد طريقه إلى عقيدة ما لا تبدأ بإجبار المرء على الإيمان بالذي لا يصدق.

لا يمكن القول إن تطور السيد إليوت كان يجب أن يكون شيئاً آخر أكثر مما كان عليه. كل الكتاب الجيدين تطوروا في حياتهم، وكان الاتجاه العام لتطورهم ثابتاً. من السخف أن نهاجم أورويل كما فعل بعض النقاد اليساريين، لكونه "رجعياً"، وأن نتخيل أنه كان يجب أن يستخدم مواهبه في قضية الديمقراطية والاشتراكية. من الواضح أن الشكوكية بالديمقراطية وعدم الإيمان بـ "التقدم" جزآن مكملان له، ومن دونهما لم يكن يستطيع أن يكتب سطراً واحداً من أعماله. لكن من القابل للأخذ والرد أنه من الأفضل لو ذهب أكثر في الاتجاه المتضمن في بيانه الشهير "الأنغلو- كاثوليكي والملكي". لم يكن بمقدوره التطور إلى اشتراكي، لكن كان يمكن أن يتطور إلى آخر المدافعين عن الأرستقراطية.

لا الإقطاعية ولا الفاشية بالضرورة مميتتان للشعراء كما يكونا لكتاب النثر. إن الشيء المميت فعلياً لكليهما، هو النزعة المحافظة من النوع الحديث الواهن. على الأقل يمكن التخيل لو أن إليوت اتبع النزعة المعادية للديمقراطية والمعادية لتحسن الإنسان التي في نفسه، لربما كان قد ضرب عرقاً مشابهاً لعرقه المبكر. لكن البيتانية السلبية التي تحول أعينها عن الماضي وتقبل بالهزيمة وتمحي السعادة الأرضية كشيء مستحيل، تغمغم بشأن الصلاة والتوبة، وتعتقد أن رؤية الحياة كـ "أنموذج لحشرات حية في أحشاء نساء كانتربيري" هو تقدم روحي- ذاك بالتأكيد هو الطريق المفعم بالأمل الأقل الذي يمكن للشاعر أن يسلكه.

بويتري لندن- أكتوبر/ نوفمبر ١٩٤٢

مراجعة العدو الاستبدادي - بوركيناو

رغم أن هذا الكتاب ليس من أفضل أعمال الدكتور بوركيناو، إلا أنه يحتوي على دراسة جيدة لطبيعة النظام الاستبدادي، وفي الحقيقة من الضروري أن تقرأ في هذه اللحظة. نحن لن نناضل ضد الفاشية إن لم نكن راغبين ومستعدين لفهمها، وهذا ما فشل فيه كل من اليمنيين واليساريين بشكل واضح، طبعاً لأنهم لم يجسروا على ذلك. كانت فرضيتهما حتى توقيع الاتفاقية الروسية الألمانية، أن النظام النازي ثوري. إن الاشتراكية القومية رأسمالية مكشوفة ببساطة، وهتلر كان دمية، وتايسين يشد الخيوط -تلك النظرية الرسمية المثبتة في كراس للسيد جون ستاركي والمقبولة ضمناً من التايمز.

صدقها كل من البليمبز وأعضاء نادي الكتاب اليساري على السواء بسذاجة بالكامل، وثبتنا اهتمامهما بتجاهل الوقائع الحقيقية. من الطبيعي جداً أن تريد الطبقات المالكة التصديق بأن هتلر سيحميها من البلشفية، وطبيعي جداً أن يكره الاشتراكيون الاعتراف بأن الرجل الذي قتل رفاقهم كان اشتراكياً. لهذا كرست جهود مسعورة من كلا الطرفين لنفي التشابه اللافت والمتزايد بين نظامي الحكم الألماني والروسي. ثم كانت اتفاقية هتلر وستالين صدمة. فجأة كان كل من غثاء الأرض وجزار العمال الملطخ بالدم (كما وصف كل منهما الأخر) يسيران معاً، فصداقتهما "تقوت بالدم" كما قال ستالين مبتهجاً. بعدها أصبحت فرضية ستاركي وبليمبز نظرية يتعذر الدفاع عنها. إن الاشتراكية القومية شكل من أشكال الاشتراكية، وثورية بالتأكيد، وستسحق صاحب الملكية كما سحقت العامل. انطلق كلا النظامين من نهايتين متعاكستين ويدوران بسرعة نحو نفس النظام -شكل من الجماعية الأوليغاركية. في الوقت الراهن ألمانيا هي من يتحرك نحو روسيا، وليس العكس، لذلك فإن الحديث عن تحول ألمانيا إلى دولة بلشفية إن سقط هتلر، هو محض هراء. ألمانيا ستكون بلشفية بسبب هتلر وليس رغماً عنه.

السؤال الذي يطرح نفسه فعلياً، ليس كيف استطاع النازيون أن يبدأوا كمنقذين للعالم من البلشفية، وانتهى بهم الأمر كبلاشفة، وإنما كيف استطاعوا أن يفعلوها من دون

أن يخسروا سلطتهم أو ثقتهم بالنفس. يشير الدكتور بوركيناو إلى سببين؛ الأول اقتصادي والثاني نفسي. كان هدف النازيين منذ البداية تحويل ألمانيا إلى آلة حرب، لكن الدولة الفقيرة خصوصاً التي تشن حرباً شاملة أو تعدّ لها، يجب أن تكون اشتراكية بمعنى ما. حين تستولي الدولة على الصناعة، يقلّ مركز الرأسمالي المالك إلى مجرد مدير. وحين تكون البضائع الاستهلاكية نادرة تخضع لنظام حصص صارم لدرجة لا يستطيع الفرد فيه صرف دخل كبير حتى لو استطاع كسبه، حينئذ تتواجد التركيبة الاشتراكية مسبقاً بالإضافة إلى مساواة شيوعية الحرب المزعجة. في قضية الاكتفاء، وجد النازيون أنفسهم يصادرون ويؤممون ويدمرون الناس الذي خططوا لحمايتهم، وذلك لم يقلقهم، لأن هدفهم كان السلطة وليس أي شكل خاص بالمجتمع. إنهم مستعدون ليكونوا حمراً كما هم بيض، شرط أن يظلوا في القمة. إن كانت الخطوة الأولى سحق الاشتراكيين تحت نغمة الشعارات المعادية للماركسية، فهذا جيد وممتاز، فلنسحق الاشتراكيين. وإن كانت الخطوة الثانية سحق الرأسماليين على نغمة الشعارات الماركسية، فهذا جيد وممتاز، فلنسحق الرأسماليين. إنها مصارعة حرة، ليس فيها قاعدة سوى الفوز. منذ عام ١٩٢٨ أبدت روسيا انقلابات مشابهة نزعت دائماً إلى إبقاء الزمرة الحاكمة في السلطة. بالنسبة إلى حملات الكره التي تطلق عنانها الأنظمة الشمولية بلا توقف، هي أصيلة أثناء دوامها، لكن ضرورات اللحظة هي من تمليها ببساطة. اليهود والبولونيون والتروتسكيون والإنكليز والفرنسيون والتشيك والديمقراطيون والفاشيون والماركسيون- أو أي واحد تقريباً، يمكن أن يصور بأنه عدو الشعب رقم واحد، ويمكن تحويل الكره في أي اتجاه في غمضة عين مثل نافخ لهب السمكري. إن الدكتور بوركيناو أقل قبولاً بخصوص المظاهر الاستراتيجية للحرب. إنه متفائل جداً بخصوص الموقف الإيطالي المحتمل، وبخصوص التأثيرات العسكرية المحتملة للاتفاقية الروسية الألمانية، وبخصوص تضامن الجبهة الداخلية، والأهم بخصوص قوة الحكومة الحالية للفوز بالحرب والفوز بالسلام. أساساً، كما يرى ويشير، إن ما يجب علينا فعله هو ترتيب بيتنا الداخلي، كي نحول شكلاً من الجماعية أكثر إنسانية وحرية إلى نوع وتشكيلة من التطهير والرقابة. يمكننا فعل ذلك بسرعة، لكننا بحاجة إلى إيمان صادق وقناعة بأن الحكومة تفعلها.

أتمنى لو يكتب الدكتور بوركيناو كتاباً أطول وأفضل حول ذات الموضوع تقريباً. الكتاب الحالي، رغم المقاطع الذكية والممتازة، يبدو أنه كتب بعجالة وفيه أخطاء في الترتيب. مع ذلك يبقى الدكتور بوركيناو واحداً من أثمن الهدايا التي قدمها هتلر لإنكلترا. في فترة كانت كل الكتب عن السياسة الراهنة تقريباً مجرد أكاذيب أو حماقات أو كليهما، يظل كتابه واحداً من الأصوات العاقلة المسموعة في الأرض، وقد يستمر طويلاً.

ملاحظات على الطريق

بعد قراءة كتاب السيد مالكولم مغريدج الرائع والمثير للكآبة، **الثلاثينيات**، تذكرت خدعة قاسية لعبتها مرة على دبور كان يرضع مربى من طبقي فقطعته إلى نصفين. لم يكترث، وتابع وجبته، بينما جرى سيل بالغ الصغر من المربى من مريه المنفصل. لم يدرك الشيء المرعب الذي حدث له، إلى أن حاول أن يطير. الشيء نفسه يحدث مع الرجل الحديث. الشيء الذي فصل روحه، وكانت هناك فترة -عشرين سنة ربما- لم يلاحظ ذلك خلالها.

كان من الضروري بلا ريب أن تُفصل الروح. الاعتقاد الديني بالشكل الذي عرفناه وجب أن يهجر. في القرن التاسع عشر، كان في جوهره أكذوبة مسبقاً وأداة شبه واعية لإبقاء الغني غنياً والفقير فقيراً. كان على الفقراء أن يقنعوا بفقرهم، لأن كل شيء سيعوض لهم في عالم ما بعد القبر الذي صُور دائماً على أنه منتصف الطريق بين حدائق كيو ومحل المجوهرات. عشرة آلاف في السنة لي وجنيهان في الأسبوع لك، ورغم ذلك كلنا أبناء الرب. وسرت في نسيج المجتمع الرأسمالي كله كذبة مماثلة، كانت ضرورية بشكل مطلق للخداع والسرقة.

وبناء عليه، كانت هناك فترة طويلة، كان كل شخص عاقل تقريباً خلالها متمرداً بمعنى ما، وعادة متمرداً غير مسؤول تماماً. الأدب في جله كان أدب ثورة وتفسخ. جيبون وفولتير وروسو وشيلي وبايرون وديكنز وستندال وصامويل بتلر وإبسن وزولا وفلوبير وشو وجويس -كلهم مدمرون بطريقة أو بأخرى وهدامون ومخربون. لمائتي عام نشرنا ونشرنا ونشرنا في الغصن الذي كنا نجلس عليه. وفي النهاية وبشكل أسرع مما تم التنبؤ به وأشد فجأة كوفئت جهودنا وسقطنا إلى الأسفل. لكن لسوء الحظ كان هناك خطأ صغير. الشيء الذي في القاع لم يكن فراشاً من الزهور، وإنما كان مبولة مملوءة بأسلاك شائكة.

كان الأمر كما لو أننا انزلقنا وعدنا إلى العصر الحجري في فترة السنوات العشر، وعادت إلى الظهور فجأة ثانية أنواع إنسانية انقرضت منذ قرون مثل الدرويش الراقص وشيخ السلابين والمحقق العظيم، وهم ليسوا كنزلاء مصحات ومجانين، وإنما كسادة للعالم، إذ لم تكف المكننة

والاقتصاد الجمعي على ما يبدو، اللذان أديا لوحدهما إلى الكابوس الذي نحن نعيشه الآن: حرب لانهاية لها ونقص تغذية لانهاية له بسبب الحرب، وشعوب من عبيد يكدحون خلف الأسلاك، ونساء جررن إلى المقصلة وهن يزعقن، وأقبية فلينية مخططة ينسف الجلاد فيها أدمغتكم برصاص من الخلف. لهذا يبدو أن بتر الروح ليس مجرد عملية جراحية بسيطة مثل استئصال الزائدة الدودية، فالجرح له ميل إلى التعفن.

فحوى كتاب السيد مغريدج محتوى في نصين من كتاب العهد القديم: "تفاهة التفاهات" يقول المبشر "كل شيء غرور، واخشوا الرب واحفظوا وصاياه: لأن هذا هو واجب الإنسان كله". إنها وجهة نظر حظيت بانتشار واسع مؤخراً وسط أناس كانوا يسخرون منها منذ بضع سنوات فقط. نحن نعيش في كابوس لأننا بالضبط حاولنا أن نشيد فردوساً أرضياً. لقد آمنا بـ "التقدم" ووثقنا بالقيادة البشرية، وأعطينا لقيصر الأشياء التي تعود للرب -ذلك هو الخط الفكري تقريباً.

لسوء الحظ، لم يظهر السيد مغريدج أي علامة عن إيمانه بالرب، أو يبدو أنه سلم كأمر بديهي على الأقل بتلاشي هذا الإيمان من العقل الإنساني. ليس هناك شك كبير بأنه محق هناك. وإن افترض عدم وجود قانون يمكن أن يظل فعالاً إلى الأبد سوى القانون فوق الطبيعي، فسيتضح ما يتلو ذلك. ليس هناك حكمة إلا في مخافة الرب، لكن لا أحد يخشى الرب، لذلك ليست هناك حكمة. يصغر التاريخ الإنساني نفسه إلى ظهور وأفول الحضارات المادية وأبراج بابل واحداً تلو الآخر، ما يجعلنا متأكدين مما ينتظرنا في تلك الحالة. حروب ومزيد من الحروب أيضاً وثورات وثورات مضادة، هتالرة وهتالرة كبار -وهكذا نزولاً نحو الهاوية التي مجرد التفكير فيها يثير الفزع، لكنني أشك إن كان السيد مغريدج قد استمتع بهذا المشهد.

لا بد أنني كنت في حوالي الثلاثين حين تكهن السيد هيلاري بيلوك، في كتابه دولة الرق بدقة مذهلة بالأشياء التي تحدث الآن، لكن لسوء الحظ ليس لديه علاج يقدمه. لم يستطع تخيل شيء بين العبودية والعودة إلى الملكية الصغيرة التي من الواضح أنها لن تحدث ولا تستطيع أن تحدث في الحقيقة. وهناك خلاف "صغير" الآن في تفادي المجتمع الجمعي التعاوني (الاشتراكي). والسؤال الوحيد هو هل كان سيتأسس على التعاون الإرادي أم على

البنادق الرشاشة؟ فشلت مملكة الرب بالتأكيد، فهي أسلوب قديم، لكن من الجانب الآخر فشلت "الواقعية الماركسية" أيضاً بغض النظر عما قد تنجز مادياً. على ما يبدو لا يوجد بديل سوى الشيء الذي حذرنا ضده بشكل جدي السيد مغريدج والسيد اف ايه فويت والآخرون الذين يفكرون مثلهما: "مملكة الأرض" المثيرة جداً للسخرية، هي مفهوم مجتمع يعرف الرجال فيه أنهم فانون، ورغم ذلك راغبون في التصرف كإخوة.

الإخوة تتضمن أباً مشتركاً. لذلك نوقش كثيراً أن البشر لن يستطيعوا أبداً تطوير الشعور المجتمعي إذا لم يؤمنوا بالرب. الجواب هو أن أغلبهم طوروه بطريقة شبه شعورية مسبقاً. إن الإنسان ليس فرداً وإنما خلية في جسد أزلي وهو مدرك لهذا بشكل مبهم. لا توجد طريقة أخرى لتفسير سبب موت الرجال في المعارك. ومن الهراء القول إنهم يفعلون ذلك لأنهم مدفوعين بالقوة إلى ذلك فقط، فلو وجب قسر كل الجيوش، لما كان خوض أي حرب أمراً ممكناً. الرجال يموتون في المعركة -ليسوا مسرورين طبعاً لكن طوعاً في أي حال بسبب مجردات تُسمى "الشرف" و"الواجب" و"الوطنية" وهلم جرا.

كل ما يعنيه ذلك حقيقة، هو أنهم مدركون لكائن حي ما أكبر بكثير من أنفسهم يمتد إلى المستقبل والماضي ويشعرون ضمنه بأنهم خالدون. "من يمت إن عاشت إنكلترا؟" تبدو كلاماً طناناً، لكن لو بُدلت "إنكلترا" بما تفضل لأمكنك أن ترى أنه يعبر عن واحد من الدوافع الأساسية للسلوك الإنساني. يضحي الناس بأنفسهم من أجل جماعات متشظية - الأمة أو العرق أو العقيدة أو الطبقة-ولا يدركون أنهم ليسوا أفراداً إلا في اللحظة التي يواجهون فيها الرصاص. يمكن نقل الزيادة الخفيفة جداً في الوعي وإحساسهم بالولاء للإنسانية نفسها التي ليست فكرة مجردة.

كان كتاب السيد ألدوس هكسلي **عالم جديد** وشجاع كاريكاتيراً جيداً لليوتوبيا المتعية، الشيء الذي بدا ممكناً وحتى وشيكاً قبل ظهور هتلر، لكن ليس له أي علاقة بالمستقبل الحقيقي. ما نتحرك نحوه الآن هو شيء أشبه بمحكمة التفتيش الإسبانية، وربما أسوأ بفضل الراديو والشرطة السرية. إن الفرصة في تفاديه قليلة، إلا إذا استطعنا إعادة الإيمان بالإخوة الإنسانية التي لا تحتاج إلى "عالم تال" تستمد معناها منه. إنه هو الذي يرشد الناس الأبرياء

مثل كاهن كانتربيري إلى التخيل بأنهم اكتشفوا المسيحية الحقيقة في روسيا السوفيتية. لا شك أنهم ليسوا سوى ضحايا مغفلين للدعاية، لكن الذي يجعلهم راغبين جداً بأن يُخدعوا، هي معرفتهم أن مملكة الرب يجب أن تُجلب إلى سطح الأرض بشكل أو بآخر. لسنا مضطرين لأن نكون أولاد الرب حتى لو لم يعد لرب كتاب الصلاة وجود.

الناس الذين نسفوا حضارتنا أنفسهم، كانوا مدركين أحياناً أن قول ماركس الشهير "الدين آفيون الشعب" قد انتزع من سياقه عادة وأعطي معنى مصقولاً لكنه مختلف عن المعنى الذي أعطاه ماركس له. لم يقل ماركس في أي حال في ذلك المقام أن الدين مجرد مخدر سُلم من الأعلى، بل إنه شيء ابتدعه الناس لأنفسهم لسد حاجة اعترف هو بأنها كانت حقيقية. "الدين هو حسرة الروح في عالم لا روح فيه. الدين آفيون الشعب". ماذا قال سوى أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده وأن الكره ليس كافياً، وأن عالماً يستحق العيش فيه لا يمكن أن يؤسس على "الواقعية" والبنادق الرشاشة؟ لو تكهن بحجم تأثيره الفكري الكبير لربما قال ذلك مراراً وبصوت أعلى.

نشرت لأول مرة: تايم أند تايد
٣٠ آذار/ مارس و٦ نيسان/ أبريل ١٩٤٠.

ملاحظة حول السيرة الذاتية

لقد ولدتُ في موتيهاري البنغالية عام ١٩٠٣ وكنت الابن الثاني لعائلة أنغلوهندية. تعلمت في إيتون من ١٩١٧ إلى ١٩٢١ لأنني كنت محظوظاً في الفوز بمنحة دراسية، لكني لم أقم بأي عمل هناك ولم أتعلم سوى القليل جداً، وأنا لا أشعر أن إيتون كان لها أي تأثير تشكيلي كبير على حياتي.

من عام ١٩٢٢ إلى ١٩٢٧ خدمت في الشرطة الإمبريالية الهندية في بورما. تركت هذه الوظيفة، لأن المناخ دمر صحتي جزئياً وجزئياً الأفكار الغامضة التي كانت لدي عن كتابة الكتب، لكن بالدرجة الأولى لأنني لم أستطع أن استمر وقتاً أطول في خدمة الإمبريالية التي بتّ أعتبرها ككل خدعة وابتزاز. حين عدت إلى أوروبا، عشت لمدة سنة ونصف تقريباً في باريس أكتب الروايات والقصص القصيرة التي لم يرغب أحد في نشرها. بعد أن نفدت نقودي، مررت بعدة سنوات من الفقر القاسي عملت خلالها كغاسل أطباق ومعلم خصوصي ومعلم في مدارس خاصة من بين أشياء أخرى، كما عملت أيضاً بوقت جزئي مساعداً في مكتبة في لندن، وهي وظيفة كانت ممتعة بحد ذاتها، لكن سلبيتها أنها أجبرتني على العيش في لندن، وهو ما كنت أكرهه. في عام ١٩٣٥ استطعتُ أن أعيش على ما كنت أكسبه من الكتابة. وفي نهاية تلك السنة انتقلت إلى الريف، وأسست مخزناً صغيراً عاماً لكنه لم يكن مجدياً ويسدد تكاليفه، لكنه علمني أشياء عن التجارة ستكون مفيدة إن قمت بأي مشروع في ذلك الاتجاه مرة ثانية. تزوجت في صيف عام ١٩٣٦. في نهاية السنة ذهبت إلى إسبانيا لأشارك في الحرب الأهلية ولحقت زوجتي بي بعد ذلك بوقت قليل. خدمت أربعة أشهر على جبهة أراغون مع ميليشيا البيوم (حزب عمالي من اتحاد الماركسيين) وقد جرحت جرحاً بليغاً، لكن لحسن الحظ لم تكن له مضاعفات خطيرة. منذ ذلك الوقت باستثناء قضائي شتاء واحداً في المغرب، يمكنني أن أقول بصدق إنني لم أقم بأي عمل سوى كتابة الكتب وتربية الدجاج وزرع الخضار.

ما رأيته في إسبانيا وما رأيته فيها بعد من الأعمال الداخلية للأحزاب السياسية اليسارية، سبّب لي رعباً من السياسة. كنت لوقت قصير عضواً من حزب العمال المستقل، لكني تركته في بداية الحرب الحالية، لأنني اعتبرت أنهم كانوا يتحدثون بكلام أحمق ويقترحون خطأً سياسياً لا يفيد إلا في تسهيل الأشياء لصالح هتلر. في العاطفة والوجدان والفكر أنا "يساري"، لكني أؤمن أن الكاتب يبقى صادقاً فقط إن بقي متحرراً من كل الصفات والوسومات الحزبية.

الكتّاب الذين أبالي بهم كثيراً ولم أضجر منهم أبداً هم: شكسبير وسويفت وفيلدينغ وديكنز وتشارلز ريد وصامويل بتلر وزولا وفلوبير. ومن بين الكتاب الحديثين جيمس جويس وتي إس إليوت ودي اتش لورانس. لكن أعتقد أن الكاتب الحديث الذي أثر عليّ أكثر من غيره هو سومرست موم، الذي يعجبني بشكل هائل بسبب مقدرته وقوته على سرد القصة بشكل مباشر ومن دون تكلف وزخرفة. خارج عملي، فإن الشيء الذي أهتم به جداً هو العمل في حديقة البيت وخصوصاً زراعة الخضار. أحب الطبخ الإنكليزي والبيرة الإنكليزية والنبيذ الفرنسي الأحمر والنبيذ الإسباني الأبيض والشاي الهندي والتبغ الثقيل والقوي ونار مواقد الفحم وضوء الشموع والمقاعد المريحة. أكره المدن الكبيرة والضجيج والسيارات والراديو والطعام المعلب والتدفئة المركزية و"الأثاث" الحديث. ذوق زوجتي يشبه ذوقي تماماً تقريباً. صحتي بائسة، لكنها لم تمنعني أبداً من عمل أي شيء أردت عمله حتى الآن، باستثناء القتال في الحرب الحالية. ينبغي أن أذكر على الرغم من كون هذا السرد والوصف الذي قدمته عن نفسي صحيحاً، إلا أن جورج أورويل ليس اسمي الحقيقي.

أنا لا أكتب رواية في هذه اللحظة، وذلك بسبب الاضطرابات التي تعود إلى الحرب بشكل رئيسي. لكن أنا أخطط لرواية طويلة مؤلفة من ثلاثة أجزاء وسأسميها إما الأسد ووحيد القرن أو السريع والميت، وأتمنى أن أنتج القسم الأول منها في وقت ما من عام ١٩٤١.

المنشورات:

بائس ومتشرد في باريس ولندن ١٩٣٣

أيام في بورما (نشرت في أمريكا قبل أن تنشر بشكل معدل قليلاً في إنكلترا ١٩٣٤).

ابنة القس ١٩٣٥.

لتبقى الزنبقة ترفرف ١٩٣٦.

الطريق إلى رصيف ويغان ١٩٣٧

الحنين إلى كاتالونيا ١٩٣٨

الصعود إلى الهواء ١٩٣٩.

داخل الحوت ١٩٤٠

كتبت في ١٧ أبريل نيسان ١٩٤٠ لمؤلفي ذا تونتيث سنتشري: ستانلي جيه كونتيز واتس هايكرافت ودبليو اتش ويلسون.

مذكرة داخلية للبي بي سي

من: إيريك بلير، القسم الهندي/ الموضوع: تعليق إخباري أسبوعي/ إلى: مدير الخدمة الشرقية/ سري - ١٥ أكتوبر تشرين أول ١٩٤٢.

بخصوص الاقتراح بأنني يجب أن أبث المراجعة النقدية الإخبارية الأسبوعية (إلى الهند) باللغة الإنكليزية باسمي أقصد جورج أورويل. المتحدثون الأربعة الذين يقومون بهذا في الوقت الحاضر بالتناوب، متعاقدون حتى السابع من نوفمبر/ تشرين الثاني، بعد ذلك أنا سأتولى المهمة. لكن هناك نقطة أو اثنتان أفضل أن احددهما بوضوح مسبقاً.

إن أذعت البرنامج باسم جورج أورويل، فأنا أبيع وأخون سمعتي الأدبية لأن اهتمام الهند ينشأ رئيسياً من كتب ذات ميول معادية للإمبريالية، بعضها كانت ممنوعة في الهند. إن قدمت النشرات التي تظهر أنها تصادق وتقر بلا تحفظ سياسة الحكومة البريطانية، فأنا سوف أحذف فوراً كـ "خائن آخر". ويجب على الأرجح أن أخسر جمهوري المحتمل وسط قطاع الطلبة على الأقل. أنا لا أفكر في سمعتي الشخصية، لكن من الواضح أننا يجب أن نبطل هدفنا من هذه النشرات الإذاعية إن لم أستطع أن أحمي وضعي كشخص مستقل وكـ "معلق" حكومي تقريباً. لذلك أود أن أكون متأكداً مسبقاً من أنني أستطيع أن أتمتع بحرية تعبير معقولة. أعتقد أن هذه التعقيبات الأسبوعية لا يكون لها أي قيمة إلا إذا استطعت أن أجعلها من وجهة نظر معادية للفاشية، وليس من وجهة نظر إمبريالية، وأن أتحاشى ذكر مواضيع لا أستطيع أن أتفق عليها حسب ما يمليه عليّ ضميري مع سياسة الحكومة الراهنة.

أنا لا أعتقد أن هذا سيسبب أي مشكلة، بما أن الصعوبة الرئيسية بخصوص السياسة الداخلية الهندية نادراً ما تذكر في تعليقاتنا الإخبارية الأسبوعية. هذه التعليقات تتبع دائماً خطاً "يسارياً" وفي الحقيقة تحتوي القليل جداً الذي أنا لن أوقع عليه باسمي. لكن أستطيع تخيل الأوضاع الناشئة التي يجب أن أقول فيها إنني لا أستطيع أن أقدم تعليقاً لذاك الأسبوع بصدق، لهذا أحب أن يكون الوضع محدداً مقدماً.

ملاحظة: انضم أورويل للعمل في البي بي سي في صيف ١٩٤١.

مراجعة نقدية: خطة ريلي
للكاتب لورانس وولف

خطة ريلي لإعادة الإسكان التي نوقشت كثيراً، هي بحد ذاتها جهد للتخلص من الأرض البور والضجيج والكدح والعزلة المعتادة في أي بلدة عادية أو منطقة مبانٍ، من دون التضحية بالتواصل الثقافي، أو رغبة الإنسان العادي المتوسط بأن يكون له "بيته الخاص به".

هذا الكتاب الذي كتبه مؤيد متحمس للخطة، يطور مضامينها الاجتماعية والنفسية. السير تشارلز ريلي الذي يعترف أنه أصلاً لم يتنبأ بالنتائج البعيدة التي استنتجها تابعه -في الحقيقة لديه قليل من مسحة رجل ركب حصاناً صغيراً فتبين انه كان وحيد قرن- يساهم في المقدمة. في خطة ريلي، أكثرية البيوت لم تُبنَ بمحاذاة طرق وإنما حول مناطق خضراء. "وحدة" ريلي تتألف من ٢٥٠ بيتاً مجمعة في خمس أو ست مناطق خضراء: أغلب المناطق الخضراء بيضاوية الشكل، وعدد من البيوت التي تحيط بها سوف تتفاوت من ٣٠ إلى ٦٠ بيتاً. كل وحدة لها مركز جماعي خاص بها ومدرسة حضانة ومركز تسوق ومطعم وخدمات وجبات ومستقلة لدرجة لن تمر عبرها أي طرق مرور رئيسية. تمتد البيوت حول المناطق الخضراء في صفوف طويلة من البيوت: خلف كل بيت توجد حديقة صغيرة، لكن الباب الأمامي يؤدي مباشرة إلى المنطقة الخضراء. تتم تدفئة البيوت "بتدفئة مناطقية"، ويوجد ماء حار دائم، وتتم إزالة النفايات بواسطة امتصاصها. بعض البيوت أو الطوابق لها مطابخ، وبعضها ليس له. إن كنت تفضل العيش في بيت ليس فيه مطبخ، فيمكن أن تُسلم لك كل وجباتك من مركز الوجبات في أوعية حافظة للحرارة تترك على درجة الباب مثل الحليب، أما الصحون المتسخة فتزيلها نفس الوكالة. يمكن أن تبنى بلدة من عدد كبير من "وحدات" ريلي، طالما هناك حاجة ومتسع لها. طبعاً، إن أي بلدة كبيرة سيكون لها تسوق مركزي ومناطق إدارية، لكن الفكرة الرئيسية من الخطة، هي أن تفصل البلدة إلى تجمعات مستقلة ذاتياً وعملياً، قرى تعداد سكان كل واحدة منها ١٠٠٠ نسمة.

لنفترض أنه يمكن تنفيذها فعلياً -وحسب السيد وولف، هذه طريقة لإعادة الإسكان أرخص وأسرع من الطرق العادية- مزايا الخطة واضحة. الشرط المناسب لبيوت الحضانة النهارية في متناول اليد، و"تدفئة المناطقية" والقدرة على الحصول على وجبات رخيصة في مركز التجمع متى تريدها، وغياب الضجيج والقلق من السير (بمدن بهذا التخطيط لن يكون هناك خطر على الأطفال الشاردين على طرق السيارات) سوف يزاح عبء عمل غير ضروري عن كاهل ربات البيوت. العيش حول المنطقة الخضراء سيعزز بالتأكيد الاختلاط، وتفصيله المهم بأن كل واحد من مراكز التجمع سيخدم فقط ١٠٠٠ شخص، ويفترض أن كلهم يعرفون بعضهم البعض بالشكل. الفراغات الخضراء والمنافذ السهلة لأراضي الملاعب وغياب الدخان والماء الجاري الحار الدائم، كلها ستعوض عن الصحة والنظافة، وسيكبر الأطفال في مجتمع مستقر وثابت يعيش فيه أشخاص آخرون من نفس العمر. ربما ضمن السيد وولف حقوقه في الادعاء بأنه في هكذا تجمعات سيكون هناك كدح أقل وأمراض أقل وجهل أقل وزواجات أبكر ومعدلات ولادات أعلى واضطرابات عصبية أقل، مما نعاني منه في الوقت الحاضر. ومع ذلك-!

يستخدم السيد وولف خطة ريلي، فهي مناسبة وفرصة لهجوم لا يتوقف تقريباً على ما يسميه "الانعزالية": لا تعني الفوضى والحياة التي تخلو من الهدف في المدن الكبرى فقط، وإنما كل البيئة التقليدية الإنكليزية في امتلاك بيتك الخاص بك وعدم الاختلاط مع الناس والتورط في الشؤون العامة. هو ربما محق في القول إن هذا زاد في السنوات الأخيرة، وبالتأكيد هو محق في القول إن ملكية البيوت تثيرها جمعيات التعمير (قبل الحرب كان أربعة ملايين شخص يملكون أو يشترون بيوتهم) وتشجعها. إن العيش في وحدات عائلية صغيرة مع بضع تسهيلات مشتركة، يزيد بشكل طبيعي كدح العمل المنزلي للمرأة متوسطة العمر العادية التي في الثلاثين، بفضل جهد تحضير ست أو سبع وجبات في اليوم في مطبخ غير ملائم والاعتناء بطفلين مثلاً. يواصل السيد وولف بناء صورة لبريطانيا، توحي بأنها ستكون البلاد المرهقة بالعمل الإضافي والمبتلية بالفقر والجريمة والمصابة بالمرض الأكثر تحت الشمس. الذي لم يقله إن أغلب التغيير الاجتماعي في القرن الحالي، كان في الاتجاه الذي يدافع عنه هو.

الحياة في بريطانيا أكثر "انعزالية" مما كانت عليه، لكنها أيضاً مريحة أكثر وأقل جهداً. مقارنة بالوضع قبل ثلاثين سنة، فإن الناس أكثر وأثقل وزناً ويعيشون فترة أطول، ويعملون

ساعات عمل أقصر، ويأكلون طعاماً أكثر، ويصرفون أكثر على التسلية واللهو، ويملكون تسهيلات منزلية وجدها آباؤهم أشياء لا يمكن تخيلها. بأغلب المقاييس التي يطبقها السيد وولف، فإن الكتلة الكبيرة من الناس كانت أغنى وأسعد في عام ١٩٣٩ مما كانوا عليه في عام ١٩٠٩، ورغم أن الحرب قللت الدخل القومي "الحقيقي"، إلا أنها تميل إلى إنتاج مساواة أكبر. هذه الحقائق معروفة لكل واحد تعود ذاكرته إلى ما يكفي من الماضي، لكن يمكن التحقق من ذلك بواسطة الأرقام. كتاب للدراسة جنباً إلى جنب مع كتاب وولف هو **حالة الشعب البريطاني من ١٩١١-٤٥** بقلم مارك آدامز الذي نشر حديثاً بواسطة غولانكس. هذا يبين بشكل جلي التحسن الجسدي الذي حدث. ويبين أيضاً بقدر ما يستطيع المرء الاستنتاج من أرقامه، أننا لم نربِّ أي مبرر أسعد أو أوعى للعيش. الانحدار في معدل الولادات الذي يتذمر السيد وولف عن حق منه، توافق مع ارتفاع في المقاييس المادية. كتاب **الرصد الجماهيري** الحديث عن بريطانيا ومعدل الولادات فيها، يظهر أن الظاهرتين متصلتان مباشرة.

من الملاحظ أن المحتاج إلى تغيير الميل المتواجد، هو نمو شعور بالهدف، وليس من المؤكد أن هذا سيحدث فقط، لأن الناس انتقلوا من بيوتهم المعزولة قديمة الطراز واستقروا في مستعمرات توفر العمل المهدور؛ حيث سيفقدون الكثير جداً من خصوصيتهم. طبعاً، يزعم السيد وولف أن ليس لديه رغبة في تفكيك العائلة، لكن ابتكارات مختلفة يفضلها تميل لإحداث تلك النتيجة. هو متحمس بشكل رائع بخصوص البيوت التي ليس فيها مطابخ و"إلغاء أدوات المطبخ المشوشة والمكلفة". يقول إن العائلة التي تتخلى عن مطبخها "يكون لديها بيت جذاب أكثر ومريح أكثر". الطعام يُسلم في حاوية حافظة للحرارة "شكلها مثل حقيبة تحفظ المكونات ساخنة لعدة ساعات حتى في الجو البارد وحتى لو تركت على عتبة الباب". عندما تشعر بالجوع، ما عليك إلا أن تفتح الباب وتجد الطعام أمامك. ولم يوضح إن كنت تستطيع أن تختار أي وجبة ستتناول، لكن يفترض أنك لا تستطيع. أنت طبعاً تستخدم أواني طبخ أناس آخرين طوال الوقت، لكن هذا لا يهم لأنها تعقم بين الفترات.

ربما من غير الضروري التفكير ملياً بالاعتراضات على هذا النوع من الشيء. الأكثر أهمية واتصالاً بالموضوع، هو أن كل واحد، بمن فيهم ربات البيوت المجهدات بعمل إضافي

اللواتي يشفق عليهن السيد وولف، سوف يتراجعن وينكصن من هكذا مشهد. بالمقارنة، فإن عدداً قليلاً جداً من الناس كما بيّن استطلاع غالوب، يريدون بيوتهم بتدفئة مركزية حتى. وعلاوة على ذلك، ففي الوقت الراهن إن الهاجس الرئيسي هو أن تبنى البيوت وألا نضحي بأي بيت مازال صالحاً للسكن.

لكن عاجلاً أو آجلاً، ستكون إعادة تخطيط كل المناطق ممكنة، ومن ثم سيكون من الضروري أن نقرر نهائياً إن كان الأسلوب القديم للبيوت والطريقة القديمة لتنظيم البيوت سوف تبقى أم لا. المسألة لم تقرر وتناقش بالشكل اللائق. يجب على الناس أن يعتمدوا على غرائزهم التي ربما انحرفت وتشوهت جزئياً. هم يريدون أن يعيشوا قرب أماكن عملهم، لكنهم يريدون أن يعيشوا في بيوت وليس في شقق وبيوت طابقية. يريدون دور حضانة نهارية وعيادات رعاية اجتماعية، لكنهم يريدون أيضاً الخصوصية. يريدون أن يوفروا العمل، لكنهم يريدون أن يطبخوا وجباتهم الخاصة بهم، وألا يأكلوا وجبات اختارها لهم أناس آخرون وأوصلوها إليهم بحاويات تحفظ الحرارة.

غريزة عميقة تحذرهم ألا يدمروا العائلة التي هي الملاذ الوحيد في العالم الحديث من الدولة، لكن قوات عصر الآلة تقوم طول الوقت بتدمير العائلة ببطء. لهذا هم يدركون ذلك بينما تهلك حضارتنا، ومع ذلك يتمسكون بشكل غير عاقل بهكذا شظايا منها مثل العتبة المبيضة والموقد المفتوح.

حتى في خطة ريلي، فإن قدراً كبيراً من الثقافة القديمة بشكل كنيسة تنجو في كل وحدة: وللحكم من خلال الرسومات التخطيطية في هذا الكتاب، يجب أن تكون الكنائس بالأسلوب القوطي. سؤال لم يطرحه السيد وولف وقلما سأله أي أحد: لماذا نحن ولأي مبرر نقود الخروج من هذا؟ وأي نوع من حياة نريد أن نعيشه؟ لكن حتى نجد إجابة على هذا السؤال، سوف لن نحل مشكلة الإسكان، وربما نجعل أن المرجح أن تحلها لنا القنابل النووية.

التريبيون ٢٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٦.

الأدب واليسار

"حين يظهر رجل ذو عبقرية حقيقية في العالم، يمكنك معرفته من هذه العلامة التي لا تخطئ، وهي أن يتآمر ضده كل الأغبياء" هكذا كتب جوناثان سويفت قبل مائتي عام من نشر يوليسيس.

لو راجعت أي كتيب رياضي أو أي كتاب سنوي، ستجد صفحات كثيرة مكرسة لصيد الثعالب والأرانب، ولن تجد كلمة عن صيد الأشخاص رفيعي الثقافة. مع ذلك هذه رياضة الرياضة البريطانية المميزة أكثر من غيرها في موسم يدوم طوال العام، ويستمتع بها الأغنياء والفقراء على السواء، بلا تعقيدات من الشعور الطبقي أو الانحياز السياسي.

لذلك يجب أن يلاحظ أن اليسار ليس محباً ومشجعاً في موقفه من "رفيعي الثقافة" أكثر من اليمين نحو أي كاتب أو فنان يجري تجارب في التكنيك. إن كلمة "رفيع الثقافة" ليست شتيمة في الديلي ووركر وبنتش فقط، وإنما تعني بالضبط هؤلاء الكتاب الذين تُظهر أعمالهم الأصالة وقوة التحمل والبقاء، وهم الذين انتقاهم المنظرون الماركسيون للهجوم. أستطيع أن أسمي قائمة طويلة من الأمثلة، لكنني أفكر بجويس وييتس ولورانس، وإليوت بشكل خاص الذين شجبته وأدانته الصحافة اليسارية أتوماتيكياً وميكانيكياً، كما فعل النقاد بكيبلينغ قبل بضع سنين مضت، وكانوا يبتهجون بشدة بتحف منسية من نادي الكتاب اليساري.

لو سألت "عضو حزب طيب" (وهذا يصح على أي حزب يساري) ما الذي يعترض عليه في إليوت، ستحصل على جواب مصغر كهذا. إليوت رجعي (هو يعلن عن نفسه بأنه ملكي وأنغلوكاثوليكي إلخ) وهو أيضاً "مثقف برجوازي" لا صلة له مع الناس العاديين، لذلك هو كاتب سيئ. يتضمن هذا الكلام فوضى غير واعية من الأفكار التي تبطل كل النقد السياسي الأدبي.

أن تكره سياسة الكاتب شيء، وأن تكره الكاتب لأنه يجبرك على التفكير شيء آخر، وليس بالضرورة أن يكون متنافراً مع الأول. لكن حالما تبدأ الحديث عن الكتاب "الجيدين"

و"السيئين" فأنت ضمناً تلجأ إلى عرف أدبي، وبالتالي تنجر إلى مجموعة مختلفة تماماً من القيم. من أجل ماذا يكون الكاتب "جيداً"؟ هل كان شكسبير "جيداً"؟ أغلب الناس سيوافقون أنه كان كذلك. لكن شكسبير قد يكون رجعياً في ميوله حتى في معايير زمنه، وهو كاتب صعب أيضاً، ويُشك إن كان سهل الفهم بالنسبة إلى الرجل العادي. إذاً ماذا سيحل بفكرة حظر إليوت بكونه ملكياً أنغلوكاثوليكياً اعتاد على اقتباس اللغة اللاتينية؟

لم يكن النقد الأدبي اليساري مخطئاً حول أهمية الإصرار على الموضوع، وربما لم يكن مخطئاً في المطالبة بأن يكون الأدب أولاً وقبل كل شيء دعاية، آخذين في الاعتبار العصر الذي نعيش فيه. يكمن خطؤه في استخدام الأحكام الأدبية الواضحة لغايات سياسية. لنأخذ مثالاً فجاً؛ أي شيوعي يتجرأ على الاعتراف علناً بأن تروتسكي كاتب أفضل من ستالين -كما هو كذلك طبعاً؟ القول إن "سين كاتب موهوب، لكنه عدو سياسي، وسأبذل أقصى جهد لإسكاته" مضر جداً. حتى لو انتهيت بإسكاته ببندقية رشاشة، فأنت لم ترتكب إثماً ضد العقل والذكاء. الإثم المميت أن تقول "سين عدو سياسي، لذلك هو كاتب سيئ". ولو قال أي أحد بأن هذا النوع من الشيء لم يحدث، فأنا أجيب فقط: فتشوا في صفحات الصحافة الأدبية اليسارية من ذا نيوزكرونيكل إلى ذا ليبور مونثلي، وشاهدوا، ماذا تجدون؟

ليست هناك معلومات حول حجم ما خسرته الحركة الاشتراكية بإبعادها الإنتلجنسيا الأدبية. لكنها أبعدتها ونفرتها بالخلط بين الكراريس والأدب جزئياً، وجزئياً بعدم ترك متسع للثقافة الإنسانية. يستطيع الكاتب أن يصوت لحزب العمال بسهولة كأي شخص آخر، لكن من الصعب جداً عليه أن يشارك في الحركة الاشتراكية ككاتب. لكن منظر الكتب المدرب والسياسي العملي سيحتقرانه "كمثقف برجوازي" ولن يضيعا الفرصة لقول هذا له، وسيكون لهما نفس الموقف نحو أعماله مثل موقف سمسار لعبة الغولف. أمية السياسيين ميزة خاصة لعصرنا -كما قالها جي ام تريفيليان "في القرن السابع عشر اقتبس رجال البرلمان الإنجيل، وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اقتبسوا الأعمال الكلاسيكية (الآداب الإغريقية والرومانية) أما في القرن العشرين فلم يقتبسوا شيئاً" واللازمة الطبيعية لذلك هي العجز [السياسي] للكتاب. في السنوات التي تلت الحرب، كان أفضل الكتاب الإنكليز رجعيين في ميولهم، رغم أن أغلبهم لم يأخذوا أي دور مباشر في السياسة. بعدهم في عام ١٩٣٠ تقريباً أتى جيل من

الكتاب الذين حاولوا جاهدين أن يكونوا مفيدين بشكل نشط في الحركة اليسارية، فانضم عدد منهم إلى الحزب الشيوعي، ولقيوا نفس الاستقبال الذي كانوا سيلقونه لو انضموا إلى حزب المحافظين. أي تمت معاملتهم في البداية برعاية وريبة، ثم تبين أنهم لم أو لن يستطيعوا أن يحولوا أنفسهم إلى آلات تسجيل ناطقة، فطردوهم بالقوة. تراجع أغلبهم إلى الفردانية. لا شك أنهم ظلوا يصوتون للعمال، لكن مواهبهم خسرتها الحركة. أما التطور الأكثر شؤماً، فقد جاء بعدهم، وهو جيل من الكتاب الذين كانوا خارج الحركة الاشتراكية منذ البداية من دون أن يكونوا غير سياسيين أبداً. إن الأكثر موهبة من الكتاب الصغار الذين بدأوا الآن سيرهم هم السلميون (الرافضون للعنف) وقلة منهم لديهم ميول فاشية حتى. لا يعني لأي واحد منهم سحر الحركة الاشتراكية شيئاً، وصراع السنوات العشر ضد الفاشية، يبدو لهم بلا معنى ومملاً، ويقولون هذا بشكل صريح. يمكن أن يفسر المرء هذا بعدة طرق، لكن الموقف الازدرائي لليسار من "المثقفين البرجوازيين" جزء من السبب على الأرجح.

يروي جلبرت موراي في مكان ما أنه كان يحاضر عن شكسبير لجمعية اشتراكية، وفي النهاية سأل إن كان للحضور أسئلة، فتلقى سؤالا وحيداً: "هل كان شكسبير رأسمالياً؟" الشيء المحزن في هذه القصة، أنها قد تكون صحيحة. تتبع ولاحظ مضامينها، فربما تحصل على لمحة من السبب الذي دعا سيلين (كاتب فرنسي) إلى كتابة (اعتراف بالخطأ) وجعل أودين يراقب صرته في أميركا. (اتهم أودين بالجبن بهروبه إلى أمريكا أثناء الحرب).

التريبيون ٤ يونيو/ حزيران ١٩٤٣.

رسالة إلى محرر تايم أند تايد

سيدي

من شبه المؤكد أن إنكلترا ستتعرض إلى غزو في الأيام والأسابيع القليلة القادمة، من قبل قوات محمولة بحراً على الأرجح. في وقت كهذا يجب أن يكون الشعار: سلّحوا الشعب. لست كفؤاً للتعامل مع أسئلة أكبر عن صد الغزو، لكن الحملة في فرنسا والحرب الأهلية الأخيرة في إسبانيا وضحتا حقيقتين اثنتين. الأولى؛ حين يكون السكان المدنيون عزلاً، لا يستطيع المظليون والدراجون والدبابات الضالة القيام بدمار مخيف فحسب، بل يجبرون قطعات كبيرة من الجنود النظاميين الذين يفترض بهم صد العدو الأساسي على التراجع والانسحاب إلى الداخل. الحقيقة الثانية؛ اتضح من الحرب الإسبانية أن فوائد تسليح المدنيين تفوق خطر وضع السلاح في الأيدي الخطأ. أظهرت الانتخابات الفرعية منذ بدء الحرب، أن أقلية قليلة جداً من الشعب الإنكليزي غير متعاطفة، وأغلب هؤلاء عرفوا وحددوا.

سلّحوا الشعب: عبارة غامضة بحد ذاتها، وأنا لا أعرف طبعاً ما هي الأسلحة المتوفرة للتوزيع الفوري، لكن هناك أشياء كثيرة على أي حال يجب فعلها الآن خلال الثلاثة أيام التالية:

١ - القنابل اليدوية: إنها السلاح الوحيد الذي يمكن تصنيعه بسرعة وسهولة وهو الأكثر نفعاً. مئات الآلاف من الرجال في إنكلترا اعتادوا على استعمال القنابل اليدوية، ومستعدون جيداً لتعليم الآخرين. لقيد قيل إنها مفيدة ضد الدبابات، وستكون ضرورية إن نجح مظليو العدو في تثبيت أنفسهم في بلدات كبيرة. لدي رؤية ممتازة في قتال الشوارع في برشلونة، في أيار ١٩٣٧ أقنعتني أن الرشاشات تستطيع شل حياة مدينة كبيرة، ولأن الطلقة لا تخترق حجارة الجدران العادية، يمكن تفجيرها بالمدفعية، لكن ليس ممكناً دائماً أن تجلب مدفعاً وتحمله. من جهة أخرى تبين من قتال الشوارع السابق في إسبانيا، أنه يمكن طرد الرجال المسلحين من الأبنية الحجرية بالقنابل اليدوية أو بأصابع الديناميت، حتى إن استخدمت بالشكل الصحيح.

٢ - بنادق الرش: هناك حديث عن تسليح بعض جماعات الدفاع الوطني الطوعي بهذه البنادق. قد يكون هذا ضرورياً إن احتاج جنود الجيش النظامي إلى كل البنادق وبنادق برن.

في تلك الحالة يجب أن يتم التوزيع الآن، ويجب أن تصادر كل الأسلحة فوراً من محلات صنع الأسلحة. راجت أحاديث عن تنفيذ ذلك، لكن في الواقع لا تزال واجهات محلات الأسلحة تعرض صفوفاً من البنادق، وهي خطر حقيقي؛ إذ يمكن أن تتعرض هذه المحلات إلى غارات بسهولة، كما يجب أن تشرح قدرات ونقائص بندقية (مع الخردق البعيد المدى القاتل حتى ستين ياردة) للجمهور بواسطة الراديو.

٣- سد الحقول بوجه هبوط الطائرات: هناك حديث كثير، لكن لم يتم فعل سوى القليل وبشكل عشوائي، لأن الأمر ترك للجهد التطوعي أي للناس الذين ليس لديهم الوقت أو القدرة على مصادرة المواد اللازمة. في بلاد صغيرة مأهولة جداً بالسكان مثل إنكلترا، نستطيع خلال بضعة أيام أن نجعل من المستحيل لأي طائرة أن تهبط في مكان عدا المطارات. كل ما نحتاجه هو العمل. لذلك يجب أن يمتلك المسؤولون المحليون السلطات لتجنيد العمل ومصادرة المواد التي يحتاجونها.

٤- طلي أسماء الأماكن العامة بالدهان. لقد تم ذلك بإشارات الطرق، لكن لا تزال هناك واجهات المحلات وعربات الحرفيين التي تحمل أسماء مناطقهم. يجب أن تمتلك السلطات القوة لفرض طلائها على الفور، ويجب أن يشمل أسماء مخامر الجعة في المقاهي العامة. أغلب هذه الأماكن محصور في منطقة صغيرة والألمان دقيقون تماماً في هذا.

٥- محطات اللاسلكي. يجب أن يكون لكل مركز قيادة من قوات الدفاع المحلي التطوعي محطة استقبال لاسلكية خاصة به، يمكنها تلقي الأوامر في حالات الضرورة. من الخطأ المميت الاتكال على الهاتف في الحالات الطارئة. بالنسبة إلى الأسلحة، يجب ألا تتردد الحكومة في مصادرة ما تحتاجه منها.

كل هذه الإجراءات يمكن تنفيذها في غضون أيام قليلة. وفي الوقت الراهن نكرر القول سلّحوا الشعب، على أمل أن تزداد الأصوات التي تتبنى ذلك. للمرة الأولى منذ عقود، لدينا حكومة ذات مخيلة (في ١٠ مايو/ أيار سقطت حكومة تشامبرلاين، وأصبح ونستون تشرشل رئيساً للوزراء على رأس حكومة ائتلافية) وهناك فرصة على الأقل أن تصغي.

دفاعاً عن الطبخ الإنكليزي

لقد سمعنا حديثاً كثيراً في السنين الأخيرة عن الرغبة في جذب سياح أجانب إلى هذه البلاد. من المعروف جيداً أن أسوأ خطأين لإنكلترا من وجهة نظر السائح الأجنبي، هما أيام الآحاد الكئيبة وصعوبة شراء الشراب.

وهذا الخطآن يعودان إلى الأقليات المعصبة التي ستحتاج إلى الكثير من القمع الذي يشمل تشريعات قاسية. لكن هناك نقطة واحدة يمكن للرأي العام أن يحدث تغيير للأفضل فيها: أقصد الطبخ.

يقال عموماً حتى من الإنكليز أنفسهم، إن الطبخ الإنكليزي هو الأسوأ في العالم. ويفترض ألا يكون غير كفؤ فقط، وإنما تقليدياً أيضاً، حتى إنني قرأت مؤخراً في كتاب لمؤلف فرنسي التعليق التالي: "أفضل طبخ الإنكليزي طبعاً هو مجرد طبخ فرنسي".

الآن، هذا ليس صحيحاً بشكل واضح، لأن أي شخص عاش في الخارج طويلاً يعرف أن هناك حشداً كاملاً من الأطعمة الشهية يستحيل تماماً الحصول عليها خارج البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية. لا شك أنه يمكن الإضافة إلى القائمة، لكن هذه بعض من الأشياء التي بحثت عنها بنفسي في بلدان أجنبية، وفشلت أن أجدها.

أولاً وقبل كل شيء، هناك سمك الرنجة المدخن والمملح وحلويات يوركشاير وقشدة ديفونشاير والفطائر الرقيقة والكعك المسطح المستدير. ثم قائمة بالحلويات التي ستكون لامتناهية إن ذكرتها بالكامل: سوف أنتقي وأذكر بالخصوص حلويات عيد الميلاد، ككعكة دبس السكر وزلابية التفاح. ثم قائمة الكعك التي تساويها تقريباً في الطول: مثلاً كعكة الخوخ السمراء (كالتي اعتدتم الحصول عليها من بوزارد قبل الحرب) وكعك الزعفران والكعك المحلى الصغير. وهناك أيضاً أنواع لا تحصى من البسكويت التي توجد طبعاً في مكان آخر، لكن من المعترف به عموماً أن الأنواع الأفضل والأكثر هشاشة توجد في إنكلترا.

يوجد هناك طرق مختلفة لطبخ البطاطا خاصة وفريدة في بلادنا. في أي مكان آخر ترى بطاطا مشوية تحت مفصل لحم، وهي أفضل طريقة طبخ من أي طريقة أخرى؟ أو كعك البطاطا اللذيذ الذي تجده في شمال إنكلترا؟ أن تطبخ البطاطا الجديدة بالطريقة الإنكليزية- أي تسلقها مع النعناع ثم تقدمها مع قليل من الزبدة المذابة والسمنة النباتية الصناعية- أفضل بكثير من قليها كما يحدث في أغلب البلدان.

ثم هناك الصلصات المتنوعة الخاصة بإنكلترا. مثلاً صلصة الخبز وصلصة الفجل الحار وصلصة النعناع وصلصة التفاح، ولن نذكر جيليه الزبيب الأحمر الممتازة مع لحم الضأن ولحم الأرنب البري أيضاً، ونملك كميات وافرة من أنواع المخللات الحلوة المتنوعة، أكثر من أغلب البلدان على ما يبدو.

ماذا بقي أيضاً؟ خارج هذه الجزر لم أر قط قلب خروف وكبده، ما عدا واحد خرج من علبة تصدير أو قريدس دوبلن أو مربيات أكسفورد أو الأنواع الكثيرة من المربيات (مربى الكوسا وجيليه (هلام) العليق مثلاً) أو النقانق من نفس النوع الموجود عندنا.

توجد هناك أنواع من الجبن الإنكليزي أيضاً. لا توجد أنواع كثيرة منه، لكن أتصور أن جبن ستيلتون هو أفضل جبن من نوعه في العالم، وجبن وينزلديل غير بعيد عنه من حيث الجودة، كما أن التفاح الإنكليزي جيد بشكل بارز وخصوصاً تفاح كوكس أورانج بيبين.

وأخيراً أود أن أقحم كلمة عن الخبز الإنكليزي. كل الخبز جيد من الأرغفة اليهودية الهائلة التي بنكهة بذور الكراوي، إلى خبز الجاودر الروسي الذي بلون دبس السكر الأسود. هل هناك شيء بجودة الجزء الطري من قشرة رغيف الكوخ الإنكليزي (متى سنرى أرغفة مطبخ مرة جديدة؟) أنا لا أعرف.

لا شك أن بعض من الأشياء التي ذكرتها آنفاً يمكن الحصول عليها في أوروبا القارية، مثلما يمكن الحصول على الفودكا أو حساء عش الطائر في لندن. لكن كلها أصيلة وبلدية، وحرفياً لم يسمع بها في مناطق شاسعة.

في جنوب بروكسل لا أتصور أنك ستنجح في الحصول على نقانق الشحم الحيواني سويت بودينغ. في اللغة الفرنسية لا توجد كلمة تترجم بدقة "شحم حيواني". الفرنسيون أيضاً لا يستعملون النعناع أبداً في الطبخ، ولا يستخدمون الزبيب الأسود إلا كأساس للشراب.

سوف يتبن أننا لا نملك أي سبب يجعلنا نخجل من طبخنا من حيث الأصالة والابتكار أو من حيث المكونات، ولكن مع ذلك يجب أن نعترف بوجود عقبة ومشكلة خطيرة من وجهة نظر الزائر الأجنبي، وهي أنك لن تجد عملياً طبخاً إنكليزياً جيداً خارج بيت خاص وشخصي. إن كنت تريد مثلاً شريحة غنية جيدة من حلوى يوركشاير، فإن الاحتمال الأكبر أن تجدها في بيت إنكليزي فقير جداً، وليس في مطعم حيث يأكل الزائر بالضرورة أغلب وجباته.

في الحقيقة من الصعب أن تجد مطاعم إنكليزية بشكل مميز تبيع طعاماً جيداً. الحانات كقاعدة لا تبيع طعاماً جيداً أبداً باستثناء رقائق البطاطا والسندويش الذي لا طعم له. المطاعم الغالية والفنادق أغلبها تقلد الطبخ الفرنسي، وتكتب قوائم طعامها باللغة الفرنسية، لكن إن أردت وجبة جيدة رخيصة، فإنك ستنجذب بشكل طبيعي نحو مطعم إغريقي أو إيطالي أو صيني.

من غير المحتمل أن ننجح في جذب السياح، بينما ينظر إلى إنكلترا كبلاد ذات طعام سيء، ولا يمكن فهمها بالقانون. في الوقت الحاضر لا يستطيع المرء أن يفعل الكثير من أجل هذا، لكن عاجلاً أو آجلاً سينتهي تخصيص الطعام، ومن ثم ستكون اللحظة المناسبة لإحياء طبخنا الوطني وإنعاشه. إنه ليس قانوناً طبيعياً أن كل مطعم في إنكلترا يجب أن يكون إما أجنبياً أو سيئاً، والخطوة الأولى نحو التحسن، ستكون رهناً بالشعب البريطاني نفسه.

إيفنينغ ستاندارد ١٥ ديسمبر/كانون أول ١٩٤٥.

قصف المدنيين - التريبيون

تلقيت عدداً من الرسائل، بعضها عنيف تماماً، تهاجمني على ملاحظاتي على كراسة الآنسة فيرا بريتين المعادية للقصف. هناك نقطتان تحتاجان إلى تعليق أوسع كما يبدو:

أولاً، هناك التهمة التي أصبحت شائعة أننا نحن من بدأ القصف، أي أن بريطانيا أول دولة مارست قصفاً ممنهجاً على المدنيين. يستطيع كل واحد ادعاء هذا مع أخذ تاريخ السنوات العشر الماضية في الاعتبار. أول عمل في الحرب الراهنة -بعض ساعات لو أتذكر بشكل صحيح قبل أن يمر إعلان الحرب- كان قصف الألمان لوارسو. قصف الألمان المدينة بكثافة بالقنابل والقذائف، لدرجة كما قال البولونيون استعر في المدينة ٧٠٠ حريق في وقت واحد. صوروا فيلماً عن دمار وارسو بعنوان "معمودية النار" وأرسلوه إلى كل أرجاء العالم بدافع إرهاب المحايدين. قبل سنوات كثيرة من هذا، قصف فيلق النسر الذي أرسله هتلر إلى إسبانيا المدن الواحدة تلو الأخرى. "الغارات الصامتة" على برشلونة عام ١٩٣٨ قتلت آلافاً كثيرة من الناس في يومين اثنين. قبل هذا قصف الإيطاليون الإثيوبيين العزل تماماً، وفاخروا بمآثرهم كشيء ممتع بشكل صارخ. كتب برونو موسوليني مقالة في جريدة وصف فيها الإثيوبيين المقصوفين "كانوا ينفتحون بسبب الانفجار مثل الوردة"، وقال إنه كان "الأشد إمتاعاً"، وكان اليابانيون منذ عام ١٩٣١ وبشكل مكثف منذ ١٩٣٧ يقصفون المدن الصينية المكتظة؛ حيث لم يكن فيها أنظمة الوقاية من الغارات الجوية، عداك عن مدافع ايه ايه المضادة للطائرات أو طائرات مقاتلة. أنا لا أجادل بأن أسودين اثنين يساويان أبيض واحداً، ولا أن السجل البريطاني سجل جيد على وجه الخصوص. في عدد من "الحروب الصغيرة" منذ ١٩٢٠ فصاعداً أسقط سلاح الجو الملكي ار ايه اف قنابله على الأفغان والهنود والعرب الذين ليس لديهم أي قوة على الرد. لكن من غير الصحيح القول إن القصف الواسع النطاق للبلدات المكتظة بالناس مع الهدف في نشر الرعب، هو اختراع بريطاني. من بدأ هذا العمل هي الدول الفاشية، وطالما كانت الحرب تسير على هواهم، فقد اعترفوا بأهدافهم بوضوح. الشيء الآخر الذي يحتاج إلى التعامل معه هو الصيحة الببغائية المتكررة عن "قتل النساء والأطفال". أشرت

سابقاً إلى ذلك، لكن الأمر يحتاج إلى التكرار بشكل أكيد أنه قد يكون قتل مقطع عرضي من الناس أفضل من قتل الشبان فقط. إن كانت الأرقام التي نشرها الألمان صحيحة بأننا قتلنا مليون ومائتي ألف مدني في غاراتنا، فتلك الخسارة ربما أضرت العرق الألماني، أقل من خسارته المماثلة على الجبهة الروسية أو في أفريقيا وإيطاليا. أي أمة في حالة حرب، ستبذل أقصى ما في وسعها لحماية أطفالها. وعدد الأطفال الذين قتلوا في الغارات، ربما لا يتطابق مع نسبتهم المئوية من عدد السكان العام. لا يمكن حماية النساء بنفس الدرجة، لكن الصرخة ضد قتل النساء، إن قبلتَ بالقتل إجمالاً، عبارة عن مجرد رومانسية مفرطة. لماذا قتل المرأة أسوأ من قتل الرجل؟ الحجة المقدمة عادة أن قتل النساء قتل للولادة، بينما يمكن الاستغناء عن الرجال بسهولة. لكن هذه فكرة خاطئة مبنية على فكرة أن الكائنات البشرية تستطيع التكاثر مثل الحيوانات. الفكرة خلفها أنه بما أن رجلاً واحداً قادر أن يخصب عدداً كبيراً من النساء كما يخصب كبش الجائزة آلاف النعاج، فإن خسارة حياة ذكر واحد غير مهمة نسبياً. لكن الكائنات البشرية ليست قطيعاً. حين تترك المذبحة التي تسببها الحرب فائضاً من النساء، فإن الأغلبية الهائلة من تلك النسوة لن يحملن أطفالاً. إن حياة الذكور مهمة جداً بيولوجياً كحياة النساء. في الحرب الأخيرة خسرت الإمبراطورية البريطانية مليون رجل تقريباً ثلاثة أرباعهم أتوا من هذه الجزر، وأغلبهم كانت أعمارهم أقل من ثلاثين سنة. ولو كان لكل واحد منهم طفل واحد لكان لدينا سبعمائة وخمسون ألف شخص زيادة في عمر العشرين تقريباً. فرنسا التي كانت خسارتها أكثر وأثقل، لن تشفى من مذبحة الحرب الأخيرة، ويشك إن كانت بريطانيا قد تعافت تماماً أيضاً. نحن لا نستطيع حساب الخسائر في الأرواح للحرب الحالية بعد، لكن الحرب الأخيرة قتلت من عشرة إلى عشرين مليون شاب. لو أنها أديرت كما ستدار الحرب التي تلتها مع قنابل طائرة وصواريخ وأسلحة بعيدة المدى تقتل الكبار والصغار والأصحاء والمرضى والذكور والإناث من غير تحيز، فربما كان الضرر على الحضارة الأوروبية أقل مما كان. عكساً لما يظنه الأشخاص الذين راسلوني، ليس لدي حماس للغارات الجوية سواء كانت غاراتنا أو غارات عدونا. مثل الكثير من الناس في هذه البلاد، أنا مللت من القنابل بالتأكيد، لكنني أعارض الرياء في قبول القوة كوسيلة، بينما نصرخ ضد هذا السلاح المفرد أو ذاك أو نشجب حرباً، بينما نريد الاحتفاظ بنوع المجتمع الذي يجعل من الحرب قدراً محتوماً.

صور وحشية - تريبيون

لديّ صورة مقرفة مسبقاً بشكل استثنائي من ذا ستار في عددها الصادر ٢٩ أغسطس/آب، لامرأتين شبه عاريتين مع رؤوس حليقة وصلبان معقوفة على وجهيهما، اقتيدتا في شوارع باريس وسط متفرجين مكشرين بابتسامات عريضة. ذا ستار- أنا لا أنتقد ذا ستار، لأن أغلب الصحف حذت حذوها- تعيد إنتاج هذه الصورة باستحسان واضح.

أنا لا ألوم الفرنسيين على عمل هذا الشيء. لقد قضوا أربع سنوات من المعاناة، وأستطيع تصور ماهية مشاعرهم تجاه المتعاونين مع العدو. لكن هذه قصة مختلفة حين تحاول الصحف في هذه البلاد إقناع قرائها أن حلق رؤوس النسوة فعل حسن. حالما رأيت صورة ذا ستار فكرت "أين رأيت شيئاً كهذا من قبل؟" ثم تذكرت. منذ عشر سنين تقريباً حين بدأ النظام النازي يعرض صوراً مشابهة ليهود مذلولين اقتيدوا في شوارع المدن الألمانية حيث عرضوا في الصحافة البريطانية- لكن مع الاختلاف التالي أنه في تلك المناسبة لم نكن نتوقع استحسانها. حديثاً نشرت جريدة أخرى صوراً لجثث متدلية لألمان شنقهم الروس في خاركوف، وأخبرت قراءها أن هذه الإعدامات قد صورت كأفلام وأن الشعب سيتمكن من مشاهدتها في المسارح الجديدة. أتساءل إن كانوا سيسمحون بدخول الأطفال؟

هناك قول لنيتشه اقتبسته آنفاً لكنه جدير بالاقتباس ثانية: من يقاتل التنانين فترة طويلة جداً يصبح تنيناً بدوره؛ أو إن حدقت طويلاً جداً في الهاوية فستحدق الهاوية بك. "طويلاً جداً" في هذا السياق يجب أن تعتبر مرادفاً لـ "بعد أن يهزم التنين"

مراجعة لكتاب اف ايه هايك
الطريق إلى العبودية
وكتاب كي زيلياكوس مرآة الماضي

هذا الكتابان معاً يقدمان مبررات للفزع. أولهما دفاع بليغ عن الرأسمالية المتساهلة، والآخر شجب أعنف لها. يغطي الكتابان نفس الدافع إلى حد ما، وكلاهما يقتبسان نفس المستندات غالباً، ويبدآن بنفس المقدمة؛ حيث أن كل منهما يسلم بأن الحضارة الغربية تعتمد على قداسة وطهارة الفرد، لكن كل كاتب مقتنع أن السياسة الأخرى تؤدي مباشرة إلى الرق، والشيء المرعب أن كليهما قد يكون صحيحاً....

بين هذين الكتابين، تتلخص ورطتنا الحالية. الرأسمالية تؤدي إلى طوابير الصدقات وفوضى السوق والحرب. الجماعية تؤدي إلى معسكرات الاعتقال وعبادة القادة والحرب. ليس هناك مخرج من هذا، إلا حين يستطيع الاقتصاد المخطط الاتحاد بطريقة ما مع حرية العقل، ولا يمكن أن يحدث هذا إلا إذا أعيد مفهوم الصح والخطأ إلى السياسة. لقد أدرك كل من هذين الكاتبين هذا تقريباً، لكن بما أنهما لا يستطيعان أن يظهرا أي طريقة قابلة للتطبيق عملياً لإحداث ذلك، فإن الأثر الموحد لكتابيهما محزن ومثير للكآبة.

أوبزيرفر ١٩٤٤.

قادة قبيحون - تريبيون

أثناء تفحص صور قائمة الشرف للسنة الجديدة، صعقتُ بالقبح الاستثنائي للوجوه المعروضة هناك وسوقيتها. يبدو أنها القاعدة تقريباً أن نوع الشخص الذي يكسب الحق في تسمية نفسه لورد بيرسي دي فالكونتاورز، يجب أن يبدو مثل جابي ضرائب متفخ في أفضل أحواله أو جابي ضرائب مع قرحة اثني عشرية في أسوأ حالاتها. لكن بلادنا ليست الوحيدة في هذا. أي واحد يكون صانعاً جيداً مع مقص ولصوق، يستطيع أن يؤلف كتاباً جيداً بعنوان حكامنا، ويتألف ببساطة من صور منشورة للأشخاص العظام في الأرض. خطرت لي الفكرة أول مرة عندما رأيت بعض "الصور الفوتوغرافية الثابتة" على عمود صور يلقي خطاباً ويبدو أشبه بنسناس على عصا أكثر مما تعتقد أن يكون لأي واحد لم يكن يفعلها عمداً.

حين تجمع كل مجموعتك من الفوهررات والفعليين والراغبين، ستلاحظ أن صفات كثيرة تتكرر في كل القائمة. بداية، كلهم من كبار السن. بالرغم من النفاق الذي يدفع للشباب في كل مكان، لا يوجد أي شخص في منصب مسيطر بصدق يقل عمره عن الخمسين سنة. ثانياً هم كلهم تقريباً من الحجم الأصغر من العادي. ديكتاتور أطول من خمسة أقدام وست بوصات ندرة عظيمة جداً. وثالثاً يوجد هناك هذا القبح العام تقريباً والغريب تماماً أحياناً. ستضمّ المجموعة صوراً لسترايخر يفجر وعاء دموياً، وأسياد الحرب اليابانيين يجسدون شخصية القردة، وموسوليني بلغده الرديء، وديغول الذي بلا ذقن، وتشرشل بذراعيه القصيرتين السميتين، وغاندي بأنفه الطويل الخبيث وأذنيه الضخمتين الخفاشيتين، وتوغو المتباهي بأسنانه الذهبية الاثنتين والثلاثين. ومقابل كل واحد منهم للمقارنة ستكون هناك صورة لإنسان عادي من البلاد المعنية. مقابل هتلر بحار صغير من غواصة ألمانية، ومقابل توغو فلاح ياباني من النمط القديم، وهلم جرا.

قنابل آلية - التريبيون

لاحظت من التذمر واسع الانتشار أن الطائرات الألمانية التي بلا طيار "تبدو غير طبيعية جداً" (القنبلة التي يسقطها طيار حي طبيعية تماماً كما يبدو) فبعض الصحفيين شجبوا الهجوم البربري وغير الإنساني والعشوائي على المدنيين.

بعد كل ما فعلناه بالألمان في الستين الماضيتين، هذا يبدو سمجاً قليلاً لكنه الرد الإنساني على كل سلاح جديد، وقد شجب الغاز السام والبندقية الآلية والغواصة وحتى القوس النشاب بالمثل في أيامها، وكل سلاح يبدو غير منصف وجائر حتى تتبناه بنفسك. لكني لن أرفض أن الطائرة بلا طيار أو القنابل الطائرة أو مهما كان اسمها الصحيح، شيء بغيض بشكل استثنائي، لأنها بخلاف كل القذائف الأخرى تعطيك الوقت لتفكر. ما هو رد فعلك الأول حين تسمع صوت أزيز تلك الطائرة؟ بالتأكيد إنه الأمل بألا يتوقف ذلك الضجيج. أنت تأمل أن تسقط على شخص آخر. وهكذا أيضاً حين تتفادى قذيفة أو قنبلة عادية -لكن في هذه الحالة أنت لا تملك سوى خمس ثوانٍ لتجد ملجأ، وليس لديك الوقت لتفكر بأنانية الكائن البشري التي لا قرار لها.

مقتطفات من دفتر ملاحظات
مخطوط باليد

[خلال السنة الأخيرة من حياته، احتفظ أورويل بدفتر ملاحظات، دوّن فيه ملاحظات عن قصة قصيرة طويلة "قصة غرفة التدخين"، وبعض من مقالات عن جوزيف كونراد وإيفلين واو، استخدمها كمذكرات عرضية، اخترنا منها التالي. قبل ٢١ مارس/ آذار ١٩٤٩ لم يؤرخ أي بند من البنود].

ربما هناك بعض الحقيقة في ملاحظة بيتان في الوقت الذي أصبح فيه حاكم فرنسا، بأن هزيمة فرنسا كانت جزئياً بسبب معدل الولادات المتدني. في العائلات الصغيرة لا يستطيع السكان المدنيون النظر إلى مقتل أبنائهم بلا تحيز، وموقف الجندي متأثر ربما بكونه تعلم أن يفكر بنفسه أكثر من كونه فرداً، وأهم من كونه مجبراً أن يصارع من أجل البقاء في عائلة جائعة من خمسة أو عشرة أطفال.

أحد الفروق الكبيرة بين الفيكتوريين وبيننا، هو أنهم نظروا إلى الشخص الراشد البالغ واعتبروه أهم من الطفل. في عائلة في أحوال كثيرة مؤلفة من اثني عشر فرداً، كان من المحتوم تقريباً أن يموت واحد أو اثنان في طفولتها. وعلى الرغم من كون هذه الوفيات حزينة طبعاً، كانوا ينسونها بعد وقت قصير جداً، بما أن هناك دائماً أطفالاً أكثر قادمين. في كنيسة القديس جون قرب اللوردز هناك ألواح تذكارية كثيرة لأغنياء من الهند الشرقية إلخ، مع عمود معتاد من الأكاذيب في مديح الرجل المتوفى، ثم سطر أو اثنان عن "ساره أرملة المذكور آنفاً". ومن ثم ربما سطر آخر يقول إن أطفالاً من ذكر واحد وأنثيين اثنتين أو كلام بهذا المعنى دفنوا في نفس السرداب. لم تُعط أسماء. وفي حالة واحدة تقرأ النقش التالي: اثنان أو ثلاثة أطفال. قبل الوقت الذي تنصب فيه حجرة الشاهدة يُنسى كم عدد الذين ماتوا.

في الوقت الحاضر، إن موت الطفل أسوأ شيء يتخيله أغلب الناس. إذا لم يكن للمرء سوى طفل واحد، سيكون من شبه المستحيل عليه أن يسترد رشده بعد فقدان ذلك الطفل. سيسودّ عالمه بشكل دائم. حتى منذ جيلين اثنين أشك إن كان للناس هذا الشعور. قارن جود

الغامض في الحادث المنافي للعقل؛ حيث الطفل الأكبر يشنق الطفلين الاثنين الأصغر منه ثم يشنق نفسه. جود وسو محزونان طبعاً، لكنهما لا يبدو أنهما شعرا أن حياتيهما يجب أن تنتهيا بعد هكذا حادث. سو (اعتقد هاردي أنها شخصية لا تطاق، لكني أعتقد أنه كان ساخراً في هذا المكان) يقول بعد وهلة إنها تدرك لماذا كان على الأطفال أن يموتوا: ليجعلها ذلك امرأة أفضل وليساعدها كي تبدأ حياتها من جديد. لم يخطر ببالها أن الأطفال كانوا مخلوقات أكثر أهمية من نفسها، وأنه بالمقارنة مع موتهم لا شيء يمكن أن يحدث لها الآن، سيكون ذا مغزى كبيراً. قرأت مؤخراً في الجريدة أنه في شنغهاي (المملوءة باللاجئين الآن) أصبح الأطفال المهجورون شيئاً شائعاً على الأرصفة، لدرجة أن لا أحد يلاحظهم. في النهاية أعتقد أن جسد الطفل الميت أصبح مجرد قطعة نفاية يداس عليها. مع ذلك كل هؤلاء الأطفال بدأوا ولديهم الأمل أن ينالوا الحب والحماية، مع القناعة التي يستطيع أن يراها المرء حتى في الطفل الصغير جداً، أن العالم مكان ممتاز ويوجد فيه وفرة من الأوقات الجيدة بانتظاره.

سؤال: هل أنت نفسك ثانية لو أنك مشيت إلى البيت ومشيت فوق أجساد أطفال مهجورين ولم تسعف أياً منهم؟ (حتى كي تحرص ألا تدوس على واحد منهم كنوع من الرياء). يقول مالكولم مارغريدج إن أي واحد عاش في آسيا، فعل هذا الشيء مسبقاً. ربما ليس صحيحاً تماماً إلى درجة أنني حين عشت أنا وهو في آسيا كنا شباناً، وقلما كنا نلاحظ الأطفال الصغار أو ننتبه إلى وجودهم. الآن في العام (١٩٤٩) مرت ١٦ سنة على نشر كتابي الأول وحوالي ٢١ سنة منذ أن بدأت بنشر مقالاتي في المجلات. خلال ذلك الوقت لم يكن هناك حرفياً يوم واحد لم أشعر فيه أنني كنت أتبطل وأنني كنت متأخراً في المهمة الراهنة، وأن نتاجي الإجمالي صغيراً بشكل هزيل. حتى في الفترات التي كنت أعمل فيها عشر ساعات في اليوم على كتاب أو أكتب أربع مقالات أو خمس في الأسبوع الواحد، لم أكن قادراً قط على أن أبتعد عن هذا الشعور العصابي، بأنني كنت أضيع وقتي. أنا لم أستطع أن أحصل على أي إحساس بالإنجاز نابع من العمل الجاري فعلياً، لأنه يسير أبطأ مما نويت دائماً. وفي أي حال كنت أشعر أن الكتاب أو حتى المقالة لا يعتبر موجوداً حتى يكون منجزاً ومنتهياً. لكن حالما يكون الكتاب منتهياً، أبدأ فعلياً من اليوم التالي بالقلق، لأن الكتاب التالي لم يبدأ وأنا مهووس بالخوف ألا يكون هناك كتاب آخر أبداً -لذلك كان دافعي منهكاً دائماً. لو نظرت إلى الماضي

وأحصيت الكمية الفعلية التي كتبتها، عندئذ أرى أن نتاجي كان محترماً، لكن هذا لا يطمئنني، لأنه ببساطة يعطيني الشعور أنني كنت كادحاً ومجداً سابقاً، وتلك كانت خصوبة خسرتها الآن. مؤخراً كنت أقرأ في مكان ما أو آخر عن تاجر تحف إيطالي حاول أن يبيع صليباً من القرن السابع عشر إلى جيه بي مورغان. لم يكن من النظرة الأولى عملاً ممتعاً بشكل خاص. لكن تبين أن النقطة الرئيسة كانت أنه بعد أن قطع الصليب وُجد في داخله خنجر مخفي. يا له من رمز مثالي عن الدين المسيحي.

مع وضد روايات تروى بضمير في الشخص الأول (أنا).

في الحقيقة، أن تكتب رواية في الشخص الأول، مثل إعطاء نفسك جرعة مع بعض المنبه، لكنها مؤذية جداً وعقار إدماني جداً. الإغراء أن تفعلها كبير جداً، لكن في كل مرحلة من الأحداث تعرف جيداً تماماً أنك تفعل شيئاً خطأ وغبياً. على كل حال هناك فائدتان كبيرتان:

١- في الشخص الأول يستطيع المرء دائماً أن يكمل كتابة الكتاب فعلياً وبسرعة نوعاً ما، لأن استخدام الـ (أنا) يبدو أنه يتخلص من الخجل والشعور بالعجز الذي يمنع المرء من التمكن من البدء بشكل جيد. وفي الشخص الأول يستطيع المرء دائماً أن يصل إلى مكان ما قريب من المفهوم الذي بدأ فيه المرء.

٢- في الشخص الأول يمكن أن تجعل أي شيء يبدو معقولاً. أولاً لأنك مهما تكتب، فسيبدو ذلك معقولاً للمؤلف، ولأنك تستطيع أن تحلم حلم يقظة بنفسك بأنك تعمل بأي شكل، بينما مغامرات الشخص الثالث يجب أن تكون محتملة نسبياً. يجد القارئ مرة أخرى أي شيء يقال في الشخص الأول معقولاً، لأنه إما أنه يُشبّه نفسه مع "أنا" القصة، أو لأن "أنا" ما تتحدث إليه يقبلها كشخص حقيقي.

السلبيات والعوائق

١- لا يمكن فصل القاص عن المؤلف أبداً. من المستحيل أن تتجنب نسب أفكار المرء له أحياناً، ولأن المؤلف يجب أن يعلق أحياناً وحتى في الرواية، فإن تعليق المرء الخاص به يصبح بشكل لا مفر منه تعليقات القاص (التي لن تكون هكذا في رواية الشخص الثالث) على الأقل القاص يجب أن يمتلك أسلوب القاص النثري (مثال آمال كبيرة الذي ليس كتاب سيرة ذاتية).

٢- إذا جرى الالتزام بالترتيب بشكل صارم، فإن أحداث القصة تُرى فقط عبر وعي الشخص الأول. لكي تكتشف ماذا يحدث فيجب أن تعرف كيف يقوم القاص باختلاس السمع ويعمل مخبر هاوٍ، أو أن يجعل من الضروري على الناس أن يفعلوا أشياء بشكل جماعي لا يفعلونها في الحياة الواقعية إلا بشكل فردي. إذا كان يجب أن تكشف أفكار الشخصيات الأخرى، عندئذ يجب عليها أن تتحدث بحرية أكثر مما يفعل أي شخص حقيقي، وإلا يجب على القاص أن يقول شيئاً يرقى إلى ذلك "أستطيع أن أفهم بما كان يفكر بالضبط" إلخ إلخ (قارن مشهداً مخيفاً في إيفلين واو زيارة ثانية لبرايدزهيد) لكن عموماً رواية الـ "أنا" ببساطة هي قصة شخص واحد -شخصية ثلاثية الأبعاد وسط رسوم كاريكاتورية، ولذلك لا يمكن أن تكون رواية حقيقية.

٣- مدى المشاعر أضيق بكثير بما أن هناك أنواع كثيرة من الإغراء التي تستطيع خلقها لمصلحة الآخرين وليس لنفسك.

من أجل مقالة عن إيفلين واو.

منافع ألا تكون جزءاً من الحركة بغض النظر عما إذا كانت الحركة في الاتجاه الصحيح أم لا.

لكن المضار في اعتناق آراء زائفة (لا يمكن الدفاع عنها).

الحركة (أودن إلخ).

القوى الدافعة عند واو هي التكبر والكاثوليكية.

حتى الكتب الأولى لم تكن ضد الدين أو ضد الأخلاق بشكل واضح.

لكن لاحظ التكبر المتواصل الظاهر والمتزايد على المستوى الاجتماعي، لكنه يتركز دائماً حول فكرة الاستمرارية والأرستقراطية والبيت الريفي. لاحظ أن كل واحد هو متكبر، لكن وفاء واو هو إلى شكل من المجتمع لم يعد قابلاً للحياة، ويجب أن يكون مدركاً له.

آراء عن إدغار آلان بو لا يمكن الدفاع عنها.

الكاثوليكية. لاحظ أن الكاتب الكاثوليكي لا يجب أن يكون محافظاً بالمعنى السياسي. ميز غراهام غرين. ميزة للروائي بكونه كاثوليكياً -موضوع التصادم بين نوعين من الخير. حلل زيارة ثانية لبرايدزهيد. (لاحظ أخطاء بسبب كونها كتبت بالشخص الأول) موقف متحيز متعمد. ليس بيوريتاني (تطهيري). قساوسة وليست كائنات فوق بشرية. موضع حقيقي -

سكر وثمل سيبستيان وعناد العائلة لمعالجة هذا على حساب ارتكاب إثم. لاحظ أن هذا رحيل حقيقي من الموقف الإنساني المتحضر الذي لا يقبل التسوية.

لكن. المشهد الأخير يرسم فيه الرجل الفاقد الوعي إشارة الصليب. لاحظ أن الطبقة الخارجية يجب أن تتكسر عاجلاً أو آجلاً أخيراً. المرء لا يستطيع حقيقة أن يكون كاثوليكياً وراشداً ناضجاً في الوقت نفسه.

استنتاج. واو روائي جيد كما يمكن للروائي أن يكون (أي كما يكون الروائيون اليوم) لكنه يعتنق آراء لا يمكن الدفاع عنها.

٢١ مارس ١٩٤٩.

الروتين هنا (مصحة كرانهام) يختلف تماماً عن ذاك الذي في مستشفى هيرمايرز. على الرغم من أن كل واحد في هيرمايرز كان لطيفا جداً ومراعياً لي- بشكل مدهش تماماً، هكذا في الواقع- لا يستطيع المرء تفادي الشعور في كل دقيقة بالاختلاف في نسيج الحياة حين يوفي المرء بوعده الخاص به.

أقوى اختلاف ملحوظ هنا، هو أنها أهدأ بكثير من المستشفى، وأن كل شيء يتم بطريقة متروية أكثر. أنا أعيش في ما يسمى بشاليه، واحد من صف متواصل من بيوت خشبية مع أبواب زجاجية، وأبعاد كل شاليه ١٥ بـ ١٢ (قدماً). توجد أنابيب مياه حارة وحوض استحمام وخزانة بأدراج وخزانة ثياب، بالإضافة إلى السرير المعتاد والطاولات إلخ. في الخارج شرفة ذات سقف زجاجي. كل شيء يجلب باليد - ليس هناك أي من العربات المقعقعة المقيتة التي لا ينفك المرء يسمعها في المستشفيات، وليس هناك ضجيج الراديوهات الكبير- كل المرضى عندهم سماعات رأس (هنا هذه تولّف دائماً على البي بي سي). (في هيرمايرز، عادة إلى الخفيف). إن الصوت المتواصل هو صوت الطيور.

في عام ١٩٤٣ حين كنت أعمل للبي بي سي، كانت واحدة من "الرسائل الإخبارية" التي كنت مسؤولاً عنها، ماراثية. هذه الرسائل الإخبارية- فعلياً عبارة عن تعليقات إخبارية تصدر مرة أو مرتين في الأسبوع بلغات ثانوية، من المستحيل أن تبث بها يومياً -كانت تؤلف بواسطة شخص ما في البي بي سي ثم يترجمها متحدث بتلك اللغة، ويذيعها لهم تحت إشراف رقيب هو عادة موظف في البي بي سي. واجهنا صعوبة مع الرسالة الإخبارية الماراثية أيضاً، لأن الهنود من

ذلك العرق حين يعيشون في إنكلترا يفقدون فوراً تقريباً سيطرتهم على لغتهم الأصلية. هذا رغم وجود عدد من الطلاب الماراثيين في إنكلترا، فليس هناك الكثيرون المناسبون للعمل كمذيعين. في عام ١٩٤٣ كان يقوم بالوظيفة رجل صغير الجسم يدعى كوثاري، وهو كروي الشكل تماماً تقريباً. كان شيوعياً كما أعتقد، ومن المؤكد أنه قومي متطرف، لكنه كان موثوقاً تماماً، لأنه كان ضد النازية ومؤيداً للحلفاء. فجأة، فإن "كلية" الكيان الغريب (حقيقة أنا أفكر في ام أي ٥) التي كان عليها الموافقة على كل المذيعين، حصلت على الحقيقة أن كوثاري كان في السجن بسبب جريمة سياسية ما حين كان طالباً. وعلى الفور منع كوثاري من التكلم على الهواء، لأنه لم يكن يسمح لأحد كان في السجن بالعمل كمذيع. بصعوبة عثرنا على شاب آخر اسمه جاثا، وكل شيء سار على ما يرام لبعض الوقت. ثم بعد هذا استمر الوضع لبضعة أشهر، إلى أن أتت مساعدتي الماراثية لزيارتي، واكتشفت بسرية شديدة أن جاثا لم يكن يكتب النشرات الإذاعية. لقد نسي جزئياً لغته الخاصة به، ومع ذلك استطاع أن يذيع الرسالة الإخبارية بعد أن تُكتب، إلا أنه لم يستطع أن يترجمها. كان كوثاري يعمل الترجمة، وهو وجاثا يتقاسمان الأجرة. شعرت أن من واجبي أن أخبر مرؤوسي الدكتور روشبروك-ويليامز حول هذا. وبما أنه سيكون من الصعب إيجاد مذيع ماراثي آخر، فقد قرر أننا يجب أن نغمض أعيننا على ما يحدث. لهذا استمر الترتيب، ولم نعرف أي شيء رسمي عنه.

يبدو لي أن هذا كان قليلاً من الهند نُقل إلى بريطانيا، لكن اللمسة الهندية التامة كانت أن الآنسة شيتيل احتفظت بمعلوماتها لعدة أشهر قبل الإفصاح عنها.

جور فادح وتضليل في كثير من النقد لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بسبب فشل السماح بحجم تلك البلدان. سخافة واضحة أن تقارن سكاناً متجانسين قليلي العدد كسكان بريطانيا مثلاً محشورين في منطقة صغيرة، مع دولة متعددة الأعراق ممتدة على طول قارة. من الواضح أن المرء لا يستطيع مقارنة الظروف في بريطانيا بشكل معقول مع تلك التي في سيبيريا مثلاً. يمكن للمرء أن يقارن سيبيريا مع كندا أو تركستان مع شمال الهند أو لينينغراد مع أدنبره. الشيء نفسه مع الولايات المتحدة. الناس في بريطانيا متزمتون جداً بخصوص معاملة الزنوج، لكن قارن مع الظروف التي في جنوب أفريقيا. بالتأكيد نحن في بريطانيا ليس لدينا سيطرة على جنوب أفريقيا، ولا الناس في الولايات الشمالية لديهم سيطرة على ما يحدث

في ألاباما. في الوقت الراهن نحن نستفيد بشكل غير مباشر مما يحدث في جنوب أفريقيا وفي جامايكا وفي مالايا إلخ. لكن هذه الأماكن مفصولة عنا بالماء. على هذه الواقعة الأخيرة تأسس النفاق الجوهري للحركة العمالية البريطانية.

١٧ أبريل نيسان

أثر غريب هنا في المصحة، في أحد الفصح يكون عند الناس في هذا الصف من الشاليهات (الأغلى) ضيوف على الأغلب، فتسمع أصوات أعداد كبيرة من الطبقة العليا الإنكليزية. لقد أمضيت سنتين تقريباً بعيداً عن أصواتهم، ولم أسمعهم سوى مرة أو مرتين في الفترة الواحدة. واعتادت أذناي أكثر فأكثر على أصوات أفراد أدنى الطبقة العاملة الوسطى الاسكتلندية. في مستشفى هيرمايرز مثلاً أنا حرفياً لم أسمع لهجة "مهذبة" إلا عندما يكون لدي زائر. كما لو كنت أسمع هذه الأصوات لأول مرة. ويا لها من أصوات! نوع من التخمة والثقة بالنفس البلهاء وعبارات الاستخفاف والضحك حول لا شيء، وقبل كل شيء نوع من الثقل والغنى متحدان مع أشخاص حقودين، يشعر المرء غريزياً من دون حتى أن يكون قادراً على رؤيتهم، أنهم أعداء لكل شيء ذكي أو حساس أو جميل. لا عجب أن كل واحد يكرهنا بهذا الشكل.

النقاد الكبار آكلو لحوم البشر يترصدون في المياه العميقة للمجلات النقدية الربعية الأمريكية.

أكبر الخسائر التي ترزح تحتها وتعاني منها الحركة اليسارية: أنها كانت قادماً جديداً إلى المسرح السياسي، وعليها أن تبني نفسها من العدم، وعليها أن تخلق تابعاً لها بنشر الأكاذيب. حين يكون حزب يساري ما في السلطة، فإن خصمه الأخطر دائماً يكوّن دعايته الماضية الخاصة به.

النعومة الكبيرة والمتزايدة دائماً للحياة العصرية والترف.

ارتفاع في معيار الشجاعة البدنية وتحسن في الصحة والبنية الجسدية، وتبديل مستمر للأرقام القياسية الرياضية.

سؤال. كيف يمكن تسوية الخلاف؟

إن كل واحد في الخمسين من عمره، يكون له الكرامة والاعتبار الذي يستحقه.

الملحق الأول
كتب لجورج أورويل
أو كتب تحتوي مساهمة منه

بائس ومتشرد في باريس ولندن، لندن ١٩٣٣ نيويورك ١٩٣٣.

أيام في بورما، نيويورك، ١٩٣٤، لندن ١٩٣٥.

ابنه القس، لندن ١٩٣٥، نيويورك ١٩٣٦.

لتبق الزنبقة ترفرف، لندن ١٩٣٦، نيويورك ١٩٦٥.

الطريق إلى رصيف ويغان، لندن ١٩٣٧، نيويورك ١٩٥٨.

الحنين إلى كاتالونيا لندن ١٩٣٨، نيويورك ١٩٥٢

الصعود إلى الهواء، لندن ١٩٣٩، نيويورك ١٩٥٠

داخل الحوت، لندن ١٩٤٠.

الأسد ووحيد القرن، لندن ١٩٤١.

خيانة اليسار، فيكتور غولانكس وجورج أورويل وجون ستاركي وآخرون، لندن ١٩٤٢.

نصر أم مصالح مكتسبة؟ جي دي اتشك ول وجورج أورويل وآخرون لندن ١٩٤٢

حديث إلى الهند، تحرير ومقدمة لجورج أورويل، لندن ١٩٤٣

مزرعة الحيوان، لندن ١٩٤٥، نيويورك ١٩٤٦.

مقالات نقدية، لندن ١٩٤٦ (عنوان أمريكي) ديكنز ودالي وآخرون، نيويورك ١٩٤٦.

جيمس بيرنهام والثورة الإدارية، لندن ١٩٤٦ (كراسة)

حب الحياة وقصص أخرى لجاك لندن. مقدمة لجورج أورويل، ١٩٤٦

الشعب الإنكليزي، لندن ١٩٤٧

كتّاب الكراريس البريطانيين، المجلد الأول تحرير جورج أورويل وريغنولد رينولدز. مقدمة لجورج أورويل ١٩٤٩ نيويورك ١٩٤٩

ألف وتسعمئة وأربع وثمانون، لندن ١٩٤٩ نيويورك ١٩٤٩.

مجموعات له بعد وفاته

قتل فيل، لندن ١٩٥٠، نيويورك ١٩٥٠.

هكذا كانت المتع، نيويورك ١٩٥٣

إنكلترا إنكلترتكم، لندن ١٩٥٣.

مجموعة أدبية مختارة لأورويل، تحرير ريتشارد اتش روفر، نيويورك ١٩٥٦.

مقالات مختارة، لندن ١٩٦١

الملحق الثاني
الجدول الزمني

.١٩٤٥

بعد ثمانية عشر شهراً من الرفض والنكسات، نشرت دار نشر سيكر أند وربيرغ **مزرعة الحيوان** في ١٧ أغسطس/ آب.

من ١٠ إلى ٢٢ سبتمبر/ أيلول، قام أورويل بزيارته الأولى إلى جورا في الهيدريدز، وبقي في بيت صغير مع أرض مستأجرة. عند عودته إلى شقته ٢٧ بي في كانونبيري سكوير في ايزلينغتون، استأنف الكتابة مرة أخرى للتريبيون والأوبزيرفر بانتظام ومانشستر إيفنينغ نيوز.

على الرغم من توقع أصدقاء أورويل أن يتخلى عن ابنه المتبنى بعد موت زوجته إيلين بلير في مارس/ آذار، رفض أورويل أن يفترق عن الطفل، وكلف ممرضة الأطفال غوين أوشونيسي بالعناية به ثم جويس بريتشارد وبعدها دورين كوب حتى الصيف، وفي الأشهر الاثني عشر التالية سوزان واتسون التي كان لديها طفل صغير، وأصبحت ربة بيت أورويل. أمضى ريتشارد بلير عيد الميلاد مع آرثر كيسلر وزوجته ماميان في بيتهما في نورث ويلز.

.١٩٤٦

نشرت دار سيكر أند وربيرغ كتاب **مقالات نقدية** في ١٤ فبراير/ شباط، ونشرت دار رينال أند هيتشكوك الكتاب بعنوان **ديكنز ودالي وآخرون** في نيويورك في ٢٩ أبريل/ نيسان. من منتصف أبريل توقف أورويل عن الكتابة الصحفية لمدة ستة أشهر وحتى نهاية يوليو/ تموز أخذ استراحة تامة من الكتابة.

في ٣ أيار ماتت أخته الكبرى مارجوري داكين بمرض كلوي في عمر الثامنة والأربعين. بعد حضور جنازتها في نوتنغهام ببضعة أيام، انطلق أورويل شمالاً من لندن، ومكث أسبوعاً مع جورج كوب وزوجته دورين في بيتهما في بيغار، غير بعيد عن أدنبره. وصل في ٢٣ مايو/ أيار إلى بارنهيل ومكث في بيت استأجره في جورا ليجد بعض الهدوء بعيداً عن الكتابة

الصحفية والتلفون إلخ، وبدأ بكتابة الكتب مرة ثانية ووضعها بالترتيب. أتت أخته أفريل بلير في ٣١ مايو/ أيار لتساعده. وفي بداية يوليو/ تموز ذهب إلى لندن وأحضر الصغير ريتشارد وسوزان واتسون التي لم تقم طويلاً. منذ ذلك الوقت أصبحت أخته أفريل مدبرة منزل أورويل، التي تعتني بريتشارد الصغير أيضاً.

في ٢٦ أغسطس/ آب، نشرت هاركورت بريس روايته **مزرعة الحيوان** ونُشرت في نيويورك أيضاً بكونها اختيار نادي كتاب الشهر الأمريكي في طبعة بيع منها أكثر من نصف مليون نسخة، وحررته من مخاوفه المالية لأول مرة في حياته. في أوائل أغسطس/ آب بدأ العمل في روايته **ألف وتسعمائة وأربع وثمانون**. عاد إلى كانونبيري سكوير في ١٣ أكتوبر/ تشرين أول. في نوفمبر/ تشرين ثاني تخلى عن عموده لمراجعة الكتب في المانشستر إيفنينغ نيوز، وقام بمساهمته الأخيرة للخمسة عشر شهراً التالية للأوبزيرفر. بدأ الكتابة الأسبوعية مرة ثانية للتريبيون حتى "**كما يرضيني**"، وكانت آخر قطعة كتبها لها في ٤ أبريل/ نيسان ١٩٤٧. في نوفمبر/ تشرين ثاني، نشر بول إيليك حب الحياة وقصص أخرى لجاك لندن، فكتب أورويل المقدمة في نوفمبر/ تشرين ثاني ١٩٤٥ في ٢٩ ديسمبر/ كانون أول، ذهب إلى جورا ليزرع أشجار فاكهة وشجيرات ورد، وعاد إلى كانونبيري سكوير في ٨ يناير/ كانون ثاني.

١٩٤٧.

في ١١ أبريل/ نيسان وصل إلى جورا مع الصغير ريتشارد وأفريل بلير. في الأسبوع الذي سبق مغادرة لندن، كان أورويل مريضاً في الفراش، وحتى منتصف شهر مايو/ أيار لم يكن بصحة تمكنه من العمل خارج البيت.

من أبريل/ نيسان، وبمعزل عن خمسة عشر مراجعة نقدية للأوبزيرفر بين فبراير ١٩٤٨ وفبراير ١٩٤٩ لم يقم أورويل إلا بالكتابة الصحفية المنتظمة، كما كتب مقالات منفردة ومراجعات نقدية لمجلات أمريكية تدفع أجوراً جيدة، ومراجعات نقدية مثل النيويوركر أو النيويورك تايمز، أو مجلات الأقليات مثل بوليتكس أند لترز، التي شعر أنها بحاجة إلى التشجيع والدعم. في ٣١ مايو/ أيار كتب "هكذا كانت المتع"

وصل السير ريتشارد ريس صديق أورويل المقرب من بارنهيل في أوائل يونيو/ حزيران وبقي حتى نهاية سبتمبر/ أيلول. في نفس الشهر تخلى أورويل عن الستورز البيت الصغير الذي استأجره في ولنغتون في هيرتفوردشاير منذ ١٩٣٦ لأنه عزم الآن أن يجعل من جورا بيته الصيفي، ويحتفظ بـ ٢٧ ب كانونبيري سكوير كبيت مؤقت في لندن.

في أكتوبر/ تشرين أول حضّر **الصعود إلى الهواء**، وظهر المجلد الأول في طبعة موحدة لأعماله تعهدت بها دار سيكر أند وربيرغ. في نوفمبر/ تشرين ثاني، أتى بيل دون، وهو شاب اسكتلندي سرح من الجيش حديثاً، ليعيش في بارنهيل، بعد أن دخل في شراكة مع السير ريتشارد ريس ليحرثها لأورويل.

اعتلت صحة أورويل بشكل متزايد بسبب التهاب رئتيه خلال شهر سبتمبر/ أيلول وأكتوبر/ تشرين أول، لكن في هذا الوقت أجبر على أن يلزم سريره في آخر أكتوبر/ تشرين أول، وأنهى المسودة الأولى من ألف وتسعمائة وأربع وثمانون. شخّص أخصائي أمراض صدرية حالة أورويل بإصابته بالسل في رئته اليسرى. وقبل عيد الميلاد بخمسة أيام دخل أورويل مستشفى هيرمايرز في إيست كيلبرايد قرب غلاسغو.

١٩٤٨

في النصف الثاني من يناير/ كانون ثاني، شعر بتحسن صحته بشكل يكفي للقيام بعمل قليل في مراجعة الكتب. في مارس/ آذار كتب "الكتاب واللوثايان" للبوليتكس أند لترز. وفي أبريل/ نيسان صحح مسودات ليعيد طباعة أيام في بورما. في ١٣ مايو/ أيار نشرت الصعود إلى الهواء في طبعتها الموحدة. استجاب أورويل بشكل جيد تماماً إلى خطة علاجية بالستريبتومايسين لمدة شهرين، بدأت في فبراير/ شباط، وبدأ بالمسودة الثانية من ألف وتسعمائة وأربع وثمانون، وكتب مقالة "صحافة الجناح اليساري في بريطانيا" لعدد يونيو/ حزيران من البروغريسيف (ماديسون، ويسسكونسون). في هذا الوقت تقريباً كتب "جورج غيسينغ" لبوليتكس أند لترز.

في ٢٨ يوليو/ تموز عاد إلى بارنهيل، لكن في سبتمبر/ أيلول بدأت صحته بالانتكاس. أجّل الذهاب من أجل العلاج لكي ينهي ألف وتسعمائة وأربع وثمانون التي أكملها في

نوفمبر/ تشرين ثاني، ثم طبعها بنفسه وأرسل النسخ في ٤ ديسمبر/ كانون أول. خلال الخريف كتب "أفكار عن غاندي" للبارتيزان ريفيو. في ١٥ نوفمبر/ تشرين ثاني نشر آلان وينغيت المجلد الأول من كتّاب الكراريس البريطانيين الذي كتب أورويل مقدمته في ربيع ١٩٤٧. في ديسمبر/ كانون أول تخلى عن شقته في كانونبيري سكوير.

خلال نوفمبر/ تشرين ثاني وديسمبر/ كانون أول تدهورت صحة أورويل، وبات صعباً عليه الخروج من البيت. وفي ٦ يناير/ كانون ثاني اشتد السل عليه كثيراً، فدخل إلى مصحة كوستولد في كرانهام في غلوسسترشاير.

١٩٤٩.

في يناير/ كانون ثاني ظهرت أيام في بورما كمجلد ثانٍ في طبعة موحدة. في منتصف فبراير/ شباط شعر أورويل بتحسن صحي، فوافق أن يكتب مراجعة نقدية من ٥٠٠٠ كلمة عن إيفلين واو، لكنه بدأها ولم يكملها أبداً. في مارس/ آذار صحح مسودات ألف وتسعمائة واربع وثمانون. أصيب بانتكاسة صحية، لكنه نجح في أن ينهي المراجعة، ووعد بكتابة مراجعة ساعتهم الأجمل لونستون تشرشل، وأرسلها في ٩ أبريل/ نيسان إلى النيوليدر (نيويورك) وظهرت فيها يوم ١٤ مايو/ أيار ١٩٤٩. هذه كانت آخر مراجعة نقدية أو مقالة يكتبها. في أبريل/ نيسان كانت لديه خطط لكتابة رواية بدأ بها عام ١٩٤٥ لكنه لم يكن بوضع صحي جيد ليكتبها. خلال السنة كتب موجزاً وكتب أربع صفحات لقصة قصيرة اسمها "قصة غرفة التدخين"، وبدأ يكتب ملاحظات لمقال طويل عن جوزيف كونراد.

في حزيران نشر سيكر أند وربيرغ رواية ألف وتسعمائة واربع وثمانون ونشرها في نيويورك ماركورت، بريس. في يوليو/ تموز اختارها نادي كتاب الشهر الأمريكي. في أغسطس/ آب بدأ أورويل يخطط كتاباً لمقالات يعيد طبعها.

في الثالث من سبتمبر/ أيلول مرض بشدة ثانية، فنقل أورويل إلى مستشفى الكلية الجامعي في لندن. في ١٣ أكتوبر/ تشرين أول تزوج من سونيا براونويل مساعدة رئيس التحرير في الهورايزن، والتي التقى بها في عام ١٩٤٥

.١٩٥٠

في ٢١ يناير/ كانون ثاني قبل أن يسافر إلى مصحة سويسرية ببضعة أيام، توفي أورويل بسبب إصابته بالسل الرئوي. كان في السادسة والأربعين من عمره. دفن في مدفن كنيسة أول سينتس، في ساتون كورتناي في بيركشاير.

إيان إنغوس.

مذكرة الحرب
كما يرضيني (فترات من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٧)

٣ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٣

المشهد في محل لبيع التبغ. جنديان أميركيان يتنقلان حول طاولة المحل، أحدهما يحاول مغازلة المرأتين الشابتين اللتين تديران المحل رغماً عنهما، والثاني في مرحلة تعرف بـ "السكر القتالي" يدخل أورويل بحثاً عن أعواد ثقاب. حاول الجندي المحب للقتال بذل جهد للوقوف منتصباً على قدميه.

الجندي: أين هو، البريطاني الخائن. أسمعت ذلك؟ بريطاني خائن. لا تثق ببريطاني أبداً. لا يمكن الوثوق بالبريطاني.

أورويل: لا تستطيع الثقة بهم في ماذا؟

"أين هو؟ تسقط بريطانيا. يسقط البريطانيون. لا يمكنك فعل أي شيء بخصوص ذلك؟ إذاً أنت تستطيع- حسناً افعلها". (يبرز وجهه إلى الخارج مثل قط على سور حديقة).

بائع التبغ: "سوف يبرحك ضرباً إن لم تخرس".

الجندي: "أين هو، تسقط بريطانيا" (يتهاوى على طاولة المحل مرة أخرى. يرفع البائع رأسه برقة عن الميزان).

هذا النوع من الشيء ليس استثنائياً. حتى لو تجنبت البكاديلي بحشودها الهائجة من السكارى والمومسات، فمن الصعب أن تذهب إلى أي مكان في لندن، من دون أن ينتابك الشعور بأن بريطانيا أرض محتلة الآن. هناك الإجماع بالرأي بأن الجنود الأمريكيين المحتشمين الذين يتصرفون بأخلاق لائقة، هم الزنوج فقط. من جانب آخر، إن شكاوى الأمريكيين مبررة- بشكل خاص شكاواهم من الأطفال الذين يلحقونهم في الليل والنهار وهم يتسولون الحلوى.

هل هذا النوع من الشيء مهم؟ الجواب، أنه قد يكون مهماً حين تكون العلاقات الأنغلوأمريكية متأرجحة وغير واضحة، وحين تكون القوى التي مازالت جبارة في هذه البلاد

وتريد تفاهماً مع اليابان، تكون قادرة مرة أخرى أن تظهر إلى العلن. في هكذا لحظات، يمكن أن يعتبر التحامل والتحيز شيئاً هاماً. قبل الحرب، كان هناك شعور معادٍ للأمريكيين في هذه البلاد. ويعود تاريخه إلى وصول الجنود الأمريكيين. وفاقم هذا الوضع سوءاً، الاتفاق الضمني على عدم مناقشة هذا الأمر في الصحافة.

على ما يبدو إن سياستنا الثابتة في هذه الحرب، هي ألا ننتقد حلفاءنا، ولا نرد على انتقاداتهم لنا. وفي النتيجة، حدثت أشياء قادرة على أن تسبب أسوأ نوع من المشاكل عاجلاً أو آجلاً. مثال: الاتفاق الذي يقضي بعدم مثول كل الجنود الأمريكيين في هذه البلاد أمام المحاكم البريطانية حين يرتكبون جرائم ضد المواطنين البريطانيين -عملياً هذه "حقوق إضافية للجنود". لا يعرف البريطانيون بوجود هذا الاتفاق، ولم تتحدث عنه الصحف، وامتنعت من التعليق عليه، ولم تُطلع الناس ليدركوا مدى الشعور المعادي لبريطانيا في الولايات المتحدة أيضاً. ولأن الناس استمدوا صورة أمريكا من الأفلام التي أعدت بعناية للسوق البريطانية، فلم تكن لديهم أية فكرة من نوع الشيء الذي تربى الأمريكيون على تصديقه والاعتقاد فيه حولنا. ليكتشفوا فجأة، مثلاً، أن الأمريكي العادي يعتقد أن الولايات المتحدة تحملت خسائر في الأرواح أكثر من بريطانيا في الحرب الأخيرة، وكان ذلك صدمة بالنسبة إليهم، وصدمة من النوع الذي يسبب شجاراً عنيفاً. ولم تبحث وتناقش بشكل مناسب أبداً صعوبات أساسية، مثل حقيقة أن راتب الجندي الأمريكي يعادل خمسة أضعاف راتب الجندي البريطاني. ليس هناك شخص عاقل يريد إثارة وتأجيج الغيرة الأنغلوأمريكية. على العكس، لأن المرء يريد فعلاً علاقة طيبة بين الدولتين، لذلك يريد كلاماً بسيطاً وواضحاً. سياستنا الرسمية التملقية غير مجدية في أمريكا، بينما في هذه البلاد يسمح لاستياءات خطيرة بأن تتقيح تحت السطح.

منذ أن ازدهر تأليف الكراريس في عام ١٩٣٥، كنت جامعاً دائماً لكراريس سياسية ودينية وغيرها، وأنصح كل من يصادفها ولديه شلن زيادة، بشراء م.س. ١٩٤٦ بقلم روبين موم، الذي نشرته مطبعة ورفاكتس. إنه أنموذج جيد لتلك المدرسة الأدبية الصغيرة المتنامية، المدرسة الراديكالية غير الحزبية. يصف فحواه المؤسسة في بريطانيا بأنها ديكتاتورية فاشية، بدأت في عام ١٩٤٤، يرأسها جنرال ناجح مأخوذ من أنموذج حي (برأيي). وجدتُ

الكراس ممتعاً، لأنه يعطيك مفهوم رجل الطبقة الوسطى العادي للفاشية، والأهم الأسباب التي تمكنها من النجاح. يبين مظهر الكراس (مقارنة بالكراريس الأخرى المشابهة التي في مجموعتي) المدى البعيد الذي قطعه رجل الطبقة الوسطى العادي منذ عام ١٩٣٩، في الوقت الذي مازالت فيه الاشتراكية تعني تقاسم المال وما يحدث في أوروبا ليس من شأننا.

من كتب هذا؟

بينما كنا نمشي فوق قضبان أقبية درووري لين، صعدت أبشع رائحة نتنة، ومازلت أتذكر شيئاً واحداً بشكل خاص حتى هذا اليوم. دفع رجل شبه مكسو نافذة مكسورة تحتنا ونحن نمرّ، فثارت في تلك اللحظة هبة قوية من العفن، مكوّنة من غازات تولدت من القذارة والهواء الذي استنشق وزفر وأعيد استنشاقه مئة مرة، مشحونة بروائح المرض وقذارة شخصية لا يمكن تسميتها. لذلك ترنحتُ وملتُ إلى البالوعة، مع إحساس مفاجئ بالغثيان، لم أستطع التغلب عليه...... لم أعرف، حتى بت في اتصال مباشر معهم، كم هي المسافة البعيدة جداً التي تفصل الطبقات التي تسكن في قاع المدن الكبرى، عن تلك الطبقات التي فوقها، وكم أفرادها بعيدون تماماً عن الحوافز التي تؤثر على الكائنات البشرية العادية، وكم هو العمق الشديد الذي غرقوا فيه والذي لا يصله شعاع من الشمس أو النجوم، تغمرهم الأنانية المتولدة بشكل طبيعي من الصراع المستمر من أجل البقاء والحرب المتواصلة مع المجتمع. وكانت الفكرة التي تروعني وتحضرني أيام الآحاد دائماً وتنتابني في أوقات أخرى، أن هناك رجالاً ونساء وأطفالاً يعيشون في انحطاط بهيمي، وحين يموتون يأخذ مكانهم آخرون. فبدت لي حضارتنا لا شيء سوى غشاوة رقيقة أو قشرة تتوضع فوق حفرة لا قرار لها. وتساءلت كثيراً إن كانت تلك الحفرة لن تمزق هذه القشرة وتبيدنا كلنا.

ستعرفون على أي حال أن هذا جاء من كاتب من القرن التاسع عشر. وفي الواقع هو مقطع من رواية التحرر لمارك رذرفورد. (مارك رذرفورد اسمه الحقيقي هال وايت، كتب هذا الكتاب كسيرة ذاتية زائفة). بمعزل عن النثر، يمكنك تمييز هذا كشيء قادم من القرن التاسع عشر في وصف قذارة أحياء الفقراء التي لا تطاق. ولكن الصفة المميزة الأكبر، هي تلك

الفكرة بوجود كتلة كبيرة كاملة من السكان انحطت وفسدت، لدرجة باتت فيها أبعد من التواصل والاسترداد.

لقد اتفق معظم كتاب القرن التاسع عشر على هذا حتى ديكنز. إن القسم الكبير من طبقة عمال المدن الذين دمرتهم النزعة الصناعية، هم عبارة عن مجرد همجيين ومتوحشين، وأن الثورة ليست الشيء المرجو والمأمول، وتعني ببساطة إغراق الحضارة في مستنقع من أنصاف البشر. في هذه الرواية (هي واحدة من أفضل الروايات في اللغة الإنكليزية) يصف مارك رذرفورد افتتاح نوع من عمل أو مستوطنة قرب دروري لين، الهدف منها "جذب دروري لين بالتدريج لكي تأتي وتُنقذ". لا حاجة إلى القول إن هذا العمل قد فشل، لأن دروري لم تكن تريد أن تنقذ بالمعنى الديني فقط، وإنما لا تريد أن تتحضر أيضاً. وكان كل ما نجح في فعله مارك رذرفورد وصديقه وغيرهما، هو تقديم ملجأ لعدد قليل من سكان المناطق الذين لا ينتمون إلى بيئاتهم، أما العدد الأكبر منهم، فكان خارج الحل والعون.

كان مارك رذرفورد يكتب عن السبعينيات، ولاحظ في حاشية مؤرخة في ١٨٨٤ أن "الاشتراكية وتأميم الأرض ومشاريع أخرى" التي ظهرت الآن، ربما تعطي بصيص أمل، لكنه يعتقد رغم ذلك أن حالة الطبقة العاملة ستزداد سوءاً، ولن تتحسن بمرور الوقت. كان هذا الاعتقاد طبيعياً (ويبدو أن حتى ماركس أعتقد بذلك)؛ إذ كان من الصعب في ذاك الزمن التنبؤ بالزيادة الهائلة في إنتاجية العمل، واعتبر مارك رذرفورد ومعاصروه أن مثل هذا التحسن في مستوى المعيشة مستحيل تماماً.

لاتزال أحياء لندن الفقيرة سيئة كفاية، لكنها لا شيء مقارنة بأمثالها في القرن التاسع عشر، فقد ولّت الأيام التي كانت فيها أربع عائلات تقطن في غرفة واحدة، وولت الأيام التي كان فيها سفاح القربى وقتل الأطفال أمراً مسلماً به، والأهم أنه ولت الأيام التي بدا فيها إلغاء طبقة كاملة من السكان كهمجيين غير قابلين للاسترداد أمراً طبيعياً. إن أشد شخص حي من المحافظين تكبّراً، لن يكتب عن الطبقة العاملة ما كتبه مارك رذرفورد، علماً أن مارك رذرفورد - مثل ديكنز وشاركه موقفه- كان راديكالياً! لقد حدث التقدم، ويحدث رغم صعوبة تصديق ذلك في هذا العصر، عصر معسكرات الاعتقال والقنابل الكبيرة الجميلة.

١٧ كانون الأول/ ديسمبر

وصلت رسائل كثيرة جداً تهاجمني بسبب ملاحظات لي عن الجنود الأميركيين في هذه البلاد، لهذا يجب عليّ أن أعود إلى هذا الموضوع.

خلافاً لأغلب ما يظنه الذين راسلوني بأنني كنت أحاول إثارة المشاكل بيننا وبين حلفائنا، فلم يملأني الغل والحقد على الولايات المتحدة أيضاً. أنا أقل من معظم الشعب الإنكليزي في عدائه للأمريكيين في هذه اللحظة. ما أقوله وما أكرره، هو أن سياستنا بعدم انتقاد حلفائنا، وعدم الرد على انتقادهم لنا (نحن لا نرد على الروس أيضاً ولا حتى على الصينيين) خطأ، ومن المحتمل أن يبطل هدفها على المدى الطويل. وبقدر ما تصل إليه العلاقات الأنغلوأمريكية، هناك مصاعب بأمس الحاجة إلى كشفها للعلن، والتي لم يرد ذكرها في الصحافة البريطانية أبداً.

١- شعور العداء لأمريكا في بريطانية. قبل الحرب كان شعور العداء لأمريكا شيء يخص الطبقة الوسطى والطبقة العليا، ربما ناتجاً عن غيرة إمبريالية وتجارية، تقنعت بكره اللهجة الأمريكية وغيره. أما الطبقة العاملة البعيدة جداً من العداء لأميركا، فقد تأمركت بسرعة في خطابها بواسطة الأفلام وأغاني الجاز. الآن، بالرغم مما يقوله الذين راسلوني، لا أسمع سوى القليل جداً من الكلمات الطيبة بحق الأمريكيين في أي مكان. وهذا بوضوح نتيجة وصول الجنود الأمريكيين. وزاد الطين بلة حقيقة، أن الحملة المتوسطية ولأسباب متنوعة، صورت كبرنامج استعراضي أمريكي، بينما أغلب الخسائر في الأرواح يتكبدها البريطانيون. (راجع ملاحظات فيليب جوردان في مفكرة تونس). أنا لا أقول إن التحامل الشعبي الإنكليزي مبرر دائماً: أنا أقول إنه موجود.

٢- شعور العداء لبريطانيا في أمريكا. يجب أن نواجه حقيقة أن أعداداً كبيرة من الأمريكيين تربوا على كرهنا واحتقارنا. هناك شريحة واسعة من الصحافة نبرتها الرئيسية معادية لبريطانيا، وعدد لا يحصى من الصحف التي تهاجم بريطانيا بطريقة متقطعة. بالإضافة إلى ذلك، هناك سخرية منظمة لما يفترض أنه عادات بريطانية وسلوك على المسارح ومجلات الرسوم الهزلية والمجلات الرخيصة، تصور الرجل الإنكليزي الأنموذجي كحمار وكأبله بلا ذقن مع لقب ونظارة أحادية العدسة وعادة القول "هاو، هاو". لقد صدقت هذه الأسطورة

من قبل أمريكيين مسؤولين كالروائي ثيودور دريسر مثلاً، الذي قال في خطبة جماهيرية إن "البريطانيين متعجرفون أرستقراطيون خيالة، ومن المألوف على المسارح الأمريكية ألا يسمح للإنكليزي بلعب أي دور مفضل أكثر من الدور المسموح به للزنجي، الذي لا يتعدى دوره شخصاً مثيراً للسخرية. مع ذلك، وإلى أن حدثت بيرل هاربور، عقدت صناعة السينما الأمريكية اتفاقاً مع الحكومة اليابانية بألا تقدم أي شخصية يابانية بصورة سلبية. أنا لا ألوم الأمريكيين بسبب هذا كله. تملك الصحافة المعادية لبريطانيا قوى تجارية جبارة خلفها، بالإضافة إلى النزاعات القديمة التي كانت بريطانيا في معظمها على خطأ. بالنسبة إلى الشعور العدائي تجاه بريطانيا، جزئياً، نحن نجلبه على أنفسنا بتصدير أسوأ عيناتنا. لكن ما أريد التأكيد عليه، أن هذه التيارات المعادية لبريطانيا في الولايات المتحدة قوية جداً، وأن الصحافة البريطانية فشلت باستمرار في لفت الانتباه إليها. لم يكن هناك أبداً في إنكلترا ما يدعى بالصحافة المعادية لأمريكا: ومنذ الحرب صار هناك رفض ثابت للرد على النقد، وفرضت رقابة يقظة على الراديو لقص أي شيء قد يعترض عليه الأمريكيون. في النتيجة لم يدرك الكثير من الإنكليز كيف يُنظر إليهم وكيف يُحترمون، وحين اكتشفوا ذلك صُدموا جداً.

٣- أجر الجنود. مرت سنتان تقريباً على وصول القوات الأمريكية الأولى إلى هذه البلاد، ونادراً ما رأيت جنوداً بريطانيين وأمريكيين معاً. من الواضح تماماً أن السبب الرئيسي لهذا هو الفرق في المرتب. لا تستطيع أن تبني علاقات صداقة قوية فعلية مع شخص دخله يعادل خمسة أضعاف دخلك. مالياً، الجيش الأمريكي كله من الطبقة الوسطى. في المعركة ربما هذا غير مهم، لكنه في فترة التدريب يجعل من المستحيل تقريباً أن يتصادق الجندي البريطاني والجندي الأمريكي. إن كنت لا تريد علاقات صداقة بين الجيش البريطاني والجيش الأمريكي، فذلك حسن وجيد. لكن إن أردت، فيجب عليك إما أن تدفع للجندي البريطاني عشر شلنات في اليوم، أو أن تجعل الجندي الأمريكي يصرف فائض مرتبه في أمريكا. أنا لا أدعي معرفة أي البديلين هو الصحيح.

إحدى الطرق للشعور بأنك معصوم، هو ألا تحتفظ بمفكرة. عند الرجوع إلى المفكرة التي كتبتها في ١٩٤٠ و١٩٤١ وجدت أنني كنت أخطئ عادة حين كان الخطأ محتملاً، ومع ذلك لم

أكن مخطئاً جداً كالخبراء العسكريين. خبراء من شتى أنواع المدارس، كانوا يخبروننا أن خط ماجينو منيع وأن المعاهدة الروسية الألمانية وضعت نهاية لتوسع هتلر باتجاه الشرق. وفي أوائل ١٩٤٠ أخبرونا أن أيام حرب الدبابات انتهت. وفي أواسط ١٩٤٠ أخبرونا أن الألمان سيغزون بريطانيا على الفور. وفي منتصف عام ١٩٤١ أخبرونا أن الجيش الأحمر سينهار في ستة أسابيع. وفي ديسمبر/ كانون أول ١٩٤١ أخبرونا أن اليابان ستنهار بعد تسعين يوماً. وفي تموز/ يوليو ١٩٤٢ أخبرونا أن مصر ستضيع وهلم جرا، ومن دون تحديد تقريباً.

أين الرجال الذين أخبرونا بتلك الأشياء الآن؟ لا يزالون في وظائفهم يستجرون مرتبات ضخمة، وبدلاً من البارجة التي لا تغرق، لدينا الخبير العسكري الذي لا يغرق.

ارتفعت أسعار الكتب مثل غيرها من الأشياء، لكنني عثرت قبل الأمس على نسخة من قاموس ليمبرير الأصلي، الذي يحكي عن الناس القدماء وأسمائهم ومهنهم ومراتبهم بستة بنسات فقط. فتحته عشوائياً، وعثرت على سيرة لاياس محظية البلاط الشهيرة، ابنة خليلة السيبايدس:

"هي بدأت أولاً تبيع جسدها مقابل عشرة آلاف دراخما، ويشهد على مفاتنها الشخصية عدد هائل من الأمراء والنبلاء والفلاسفة والخطباء والعوام الذين غازلوها.... زار ديموستينيز مدينة كورنث من أجل لاياس، لكن المومس أخبرته أن الإذن إلى سريرها يجب أن يُشترى بمبلغ يعادل مائتي جنيه من النقد الإنكليزي، فغادر الخطيب، ولاحظ أنه لن يشتري التوبة بهذا المبلغ الباهظ.... لقد سخرت من تقشف الفلاسفة ومن ضعف هؤلاء الذين ادعوا أنهم ترفعوا عن عواطفهم وهواهم، حين لاحظت أن الفلاسفة لم يكونوا فوق بقية البشر، لأنها وجدتهم على بابها كثيراً ومراراً مثل بقية أهالي أثينا".

هناك الكثير من نفس النوع. على كل حال انتهت السيرة بدرس أخلاقي جيد، لأن "النساء الأخريات الغيورات من مفاتنها وسحرها اغتلنها في معبد فينوس حوالي ٣٤٠ قبل الميلاد". هذا من ٢٢٨٣ سنة مضت، وأتساءل كم عدد القاطنين الحاليين الذين تُكتب سيرهم، ويبقون جديرين بأن يُقرأ عنهم في العام ٤٢٢٦ بعد الميلاد.

٢٤ ديسمبر/ كانون أول ١٩٤٣

عند قراءة كتاب مايكل روبرتس عن تي أي هلم، تذكرت مرة أخرى الخطأ الخطير الذي ارتكبته الحركة الاشتراكية في تجاهل ما يمكن تسميته بمدرسة الكتاب الرجعيين الجدد. هناك عدد كبير من هؤلاء الكتاب: هم متميزون فكرياً ومؤثرون بطريقة هادئة، ونقدهم لليسار مضر أكثر من أي شيء يصدر عن عصبة الفردانيين أو مكتب المحافظين المركزي.

قتل تي أي هولم في الحرب الأخيرة، وترك أعمالاً قليلة كاملة خلفه، لكن الأفكار التي صاغها بقسوة، كان لها تأثير عظيم وخصوصاً على الكتاب الكثيرين الذين تجمعوا حول الكرايتريون في العشرينيات والثلاثينيات. ويدين له بشيء كل من ويندهام لويس وتي إس إليوت وألدوس هكسلي ومالكولم مغريدج وإيفلين واو وغراهام غرين. لكن الأكثر أهمية من تأثيره الشخصي هو الحركة الفكرية التي كان ينتمي إليها، حركة يمكن وصفها من دون تحيز بحركة إحياء التشاؤمية، التي ربما أفضل ممثل حي لها هو الماريشال بيتان. لكن للتشاؤمية الجديدة متسبين أكثر غرابة من تلك. فهي لا ترتبط بالكاثوليكية والنزعة المحافظة والفاشية وإنما بالسلامية (رافضي حمل السلاح) وخصوصاً فرع كاليفورنيا والفوضوية أيضاً. يجدر أن نشير إلى أن تي أي هلم، المحافظ الإنكليزي سليل أعلى الطبقة الوسطى صاحب القبعة المستديرة السوداء، كان معجباً وتابعاً إلى حد ما للنقابي الفوضوي جورجوس سوريل.

الشيء المشترك بين هؤلاء الناس، أن كان التبشير الحزين لبيتان بـ "نظام الهزيمة" أو شجب سوريل لليبرالية أو هز بيردياييف رأسه فوق الثورة الروسية أو "تسديد متسكع الشواطئ" ركلات جانبية لبيفريدج في الاكسبريس أو دفاع هكسلي عن اللامقاومة خلف مدافع الأسطول الأمريكي، هو رفضهم الإيمان في إمكانية التحسين الجوهري للمجتمع الإنساني. فالإنسان غير قابل للكمال، والتغييرات السياسية لا يمكن أن تثمر عن أي نتيجة، والتقدم عبارة عن وهم. إن الرابط بين هذه المعتقد والرجعية السياسية واضح طبعاً، وعالم الآخرة هو العذر الأفضل لدى الرجل الغني. "لا يمكن أن يتحسن البشر بقرار من البرلمان، لذا يمكنني الاستمرار بسحب إيراداتي من الأسهم". لم يقل أحد هذا بهذه الفجاجة، لكن فكر هؤلاء الناس بموازاة تلك الخطوط: حتى الذين مثل مايكل روبرتس وهلم نفسه يعترفون أن تحسين المجتمع الأرضي القابل للتخيل قليل جداً جداً.

يكمن خطر تجاهل التشاؤميين الجدد، في أنهم كانوا مصيبين في نقطة ما. طالما يفكر الشخص في فترات قصيرة، فمن الحكمة ألا يضع الكثير من الأمل على المستقبل. أثبتت خطط التحسين الإنساني فشلها عادة، ولدى المتشائم فرص للقول "أخبرتكم هكذا" أكثر بكثير من المتفائل. وعموماً كان أنبياء الهلاك أصدق وأكثر صواباً من هؤلاء الذين تخيلوا بأن التعليم الشامل وتصويت النساء وعصبة الأمم وأمثالها، سيحقق خطوة حقيقية إلى الأمام.

إن الرد الحقيقي هو فصل الاشتراكية عن الطوباوية. تتألف كل دفاعات التشاؤميين الجدد في تنصيب رجل من القش وطرحه صريعاً على الأرض. رجل القش يدعى الكمال البشري. اتهم الاشتراكيون بأنهم صدقوا أن المجتمع يمكن أن يكون -وسيكون بالفعل بعد تأسيس الاشتراكية - مثاليا تماماً، وأن التقدم حتمي أيضاً. إن فضح زيف مثل هذه المعتقدات مهمة سهلة ومربحة طبعاً.

الرد الذي يجب أن يعلو صوته أكثر من العادة أن الاشتراكية ليست مثالية وكاملة وربما ليست متعية. لا يدعي الاشتراكيون أنهم قادرون على جعل العالم كاملاً ومثالياً: هم يدعون أنهم قادرون على جعله أفضل. أي اشتراكي عاقل سوف يسلم للكاثوليكي ويوافقه أنه حين يُصحح الظلم الاقتصادي، فإن المشكلة الأساسية للإنسان تظل مكانته في الكون. لكن ما يدعيه الاشتراكي هو أن تلك المشكلة لا يمكن أن تعالج، طالما ظلت مخاوف الكائن البشري اقتصادية بالضرورة. الآن وفي الوقت الحالي، يتواجد التشاؤميون الجدد هناك ويتحصنون جيداً في صحافة كل بلد في العالم، ولهم تأثير أكبر، ويكسبون أنصاراً جدداً من الشبان، أكثر مما نرغب في الاعتراف به.

من مذكرة تونس لفيليب جوردان

كنا نناقش مستقبل ألمانيا، فقال جون (ستاركي) لأمريكي حاضر "أنتم لا تريدون بالتأكيد سلاماً قرطاجياً، أليس كذلك؟" قال صديقنا الأمريكي ببطء كبير لكن بوقار "أنا لا أتذكر أننا عانينا مشاكل كثيرة من القرطاجيين منذ ذلك الحين إلى الآن". وأبهجني قوله.

لم يبهجني ذلك. يفترض الرد على الأمريكي بالقول التالي: "كلا، لكننا عانينا مشاكل كثيرة من الرومان". وهناك ردود أكثر وأقوى من هذا. إن الناس الذين يتحدثون بالسلام

القرطاجي، لا يدركون أن هذا النوع من السلام ليس عملياً في عصرنا. بعد دحرك لعدوك عليك أن تختار (إن لم تكن تريد حرباً أخرى بعد جيل واحد) بين إبادته وإفنائه وبين معاملته معاملة كريمة. إن الخيار الأول شيئاً تخيلياً جذاباً ومرغوباً، لكنه غير ممكن. صحيح تماماً أن قرطاج دمرت بكل معنى الكلمة وسويت أبنيتها وبيوتها بالأرض وذبح كل سكانها. مثل هذه الأشياء كانت تحدث في الأزمنة القديمة الغابرة. لكن السكان المتورطين كانوا قليلين جداً. أنا أتساءل إن كان الأمريكي يعرف كم عدد الناس الذين كانوا موجودين داخل أسوار قرطاج حين سلبت ونهبت أخيراً. حسب أقرب مصدر ومرجع في متناول يدي، كانوا خمسة آلاف شخص. ما هي أفضل طريقة لقتل سبعين مليون ألماني؟ سم الفئران؟ يجب أن نبقي هذا في أذهاننا حين يصبح شعار "اجعلوا ألمانيا تدفع" صيحة حرب مرة ثانية.

لاحظ السيد أي كي تشيسترتون في هجومه عليّ في ويكلي ريفيو لأنني هاجمت دوغلاس ريد قائلاً إن بديهية "بلادي تبقى بلادي سواء كانت محقة أو مخطئة" ليس لها مكان في فلسفة أورويل على ما يبدو. وأعلن أيضاً أننا كلنا "نؤمن بأن بريطانيا ستفوز مهما كان ظرفها وفي أي حرب أخرى تتورط فيها".

العبارة الفعالة هي أي حرب أخرى. هناك الكثير منا الذين يدافعون عن بلادنا من دون الاكتراث بنوع الحكومة إن بدا أننا في خطر غزو فعلي. لكن "أي حرب" مسألة أخرى. ماذا عن حرب البوير مثلاً؟ هناك كسرة صغيرة متقنة من السخرية التاريخية هنا. إن السيد أي كي تشيسترتون ابن أخ جي كي تشيسترتون الذي عارض بشجاعة حرب البوير، والذي قال مرة إن عبارتي "بلادي سواء كانت محقة أو مخطئة تظل بلادي" و"أمي ثملة أم صاحية هي أمي" على نفس المستوى الأخلاقي.

التريبيون ٣١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٣

عند قراءة نقاشات "ذنب الحرب" التي ترددت في أعمدة المراسلة في الصحف، لاحظت الدهشة التي اكتشف بها كثير من الناس أن الحرب ليست جريمة، وأن هتلر لم يفعل أي شيء يستوجب الادعاء عليه ومقاضاته، فهو لم يغتصب أحداً، ولم يحمل بيديه قطعة منهوبة، وشخصياً

لم يجلد سجيناً أو يدفن رجلاً حياً ويرمي طفلاً في الهواء ويشكه بحربته، ولم يغرق راهبة بالبترول ويشعلها بشموع الكنيسة- في الحقيقة هو لم يفعل أياً من الأشياء التي يفتخر وطنيو العدو بفعلها في زمن الحرب، وإنما شارك فقط في حرب عالمية تجاوزت كلفتها حياة عشرين مليون شخص قبل أن تنتهي، وليس هناك شيء غير قانوني وشرعي في ذلك، وكيف يمكن أن يكون حين تتضمن الشرعية السلطة، ولا توجد سلطة لها القوة على تجاوز الحدود القومية؟

كانت هناك محاولة في المحاكمات الأخيرة في خاركوف لتثبيت المسؤولية على هتلر وهيملر والبقية عن جرائمهم الثانوية، لكن الذي جرى في الحقيقة بيّن أن ذنب هتلر لم يكن بديهياً. لم تكن جريمته لأنه بنى جيشاً بهدف حرب عدوانية، وإنما لأنه أعطى تعليماته لذلك الجيش لتعذيب الأسرى. وبقدر ما، يكون الفرق بين عمل وحشي وعمل حربي فعالاً وقانونياً. العمل الوحشي يعني عملاً إرهابياً ليس له هدف عسكري حقيقي. على المرء أن يقبل بهكذا فروق إن قبل بالحرب كلها، وهو ما يفعله عملياً كل شخص. بالرغم من ذلك، فإن عالماً تقتل فيه فرداً مدنياً واحداً يعتبر عملاً خاطئاً، وأن تسقط ألف طن من المواد الشديدة الانفجار على منطقة سكنية يعتبر جائزاً وصحيحاً، يجعلني أتساءل أحياناً إن كانت أرضنا هذه ليست مستودعاً من المخبلين يستخدمها كوكب آخر.

حين تحملني الحافلة ٥٣ في الذهاب والإياب، ويكون هناك نور كافٍ، لا أمر أبداً بكنيسة القديس جون الصغيرة، وأعبر الطريق من اللوردز من دون أن أشعر بغصة مؤلمة. إنها كنيسة ريجنسي، واحدة من الكنائس القليلة جداً لتلك الفترة. وحين تمر بذلك الطريق يجدر بك أن تذهب إلى الداخل وتلقي نظرة على داخلها الدافئ الودود، وتقرأ عبارات التأبين الباهرة للأشخاص المهمين من الهند الشرقية، الذين دفنوا هناك. لكن واجهتها التي تعتبر واحدة من أكثر الواجهات فتنة وسحراً في لندن، تدمرت بشكل كامل بنصب تذكاري لحرب شنيعة ينتصب أمامها، وهذه قاعدة ثابتة في لندن كما يبدو: أينما تجد منظراً محترماً -بالصدفة- سدّه بأقبح تمثال تجده. ولسوء الحظ لم نعانِ من أي نقص في البرونز يكفي لكي نصهر تلك الأشياء.

لو تسلقتَ قمة التلة في غرينتش بارك، ستشعر برعشة خفيفة، لأنك تقف فوق خط الطول صفر، وتستطيع تفحص أقبح بناء في لندن، مرصد غرينتش. بعد ذلك، انظر من أعلى

التلة باتجاه التايمز، لتجد تحتك تحفة ويرن ومستشفى غرينتش (الكلية البحرية الآن) وبناء كلاسيكي رائع آخر يعرف بدار الملكة، ويرى المهندسون المعماريون المسؤولون عن تلك اللخبطة الممتدة المشوهة عند قمة التلة لديهم هذين البنائين الاثنين في كل لحظة تبنى فيها قرميدة.

كما لاحظ السيد أوزبيرت سيتويل في زمن "غارات باديكار"- كيف تخيل السذج الألمان أننا نحن البريطانيين يمكن أن يروعنا تدمير نصبنا وآثارنا القديمة! وكأن خراب القنابل الألمانية يساوي الأشياء التي فعلناها نحن بأنفسنا!

أرى أن السيد برنارد شو، من بين آخرين غيره، يريد أن يعيد كتابة المقطع الشعري الثاني من النشيد الوطني. ونسخة السيد شو تحتفظ بالإشارة إلى الرب والملك كمرجعية، لكنها أممية بشكل غامض في وجدانها. هذا يبدو سخيفاً. ألا يكون لديك نشيد وطني، يبدو أمراً منطقياً. لكن إن كان لديك واحد، فيجب أن تكون وظيفته بالضرورة إبراز أننا أخيار وطيبون، وأن أعداءنا أشرار وسيئون. بالإضافة إلى ذلك، يريد السيد شو أن يحذف الأبيات القيمة التي يتضمنها النشيد فقط. كل الأدوات النحاسية والطبول الكبيرة في العالم لا تستطيع أن تبدل "أطال الرب عمر الملك" وتحوله إلى لحن جميل. لكن في المناسبات النادرة جداً حين يغنى بأكمله، تنبعث الحياة في بيتين شعريين اثنين: أربكْ سياساتهم/ أحبطْ خططهم اللئيمة!

في الواقع، أنا كنت أتخيل دائماً أن البيت الشعري الثاني قد حذف بسبب شك غامض من جانب التوريين بأنه يشير إليهم.

مكسب آخر بتسع بنسات: ألواح ورقية مرتبة زمنياً، تعرض كل حدث لافت منذ خلق العالم إلى الوقت الحاضر. طبعه جيه دي ديويك، شارع ادلرزغيت في عام ١٨٠١.

بحثت عن تاريخ خلق العالم ببعض الاهتمام، ووجدت أنه كان في السنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد، و"يفترض أنه حدث في فصل الخريف". وفي موضع آخر من الكتاب أُعطي تاريخاً أدق في سبتمبر/ أيلول سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد.

عند الاقتراب من نهاية الكتاب، هناك صفحات بيضاء يستطيع القارئ متابعة التدوين الزمني لوحده. أياً كان المرء الذي امتلك هذا الكتاب، فإنه لم يأخذه على محمل الجد، لكن واحدة من المدونات الأخيرة: "الخميس ٤ مايو/ أيار. أعلن السلام هنا. توضيح عام". كان ذلك سلام اميان (مدينة فرنسية وقعت فيها معاهدة سلام بين إنكلترا وفرنسا) وهذا ينذرنا ألا نكون متسرعين جداً في شروحنا وإيضاحاتنا حين تأتي الهدن.

التريبيون ٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٤

عند تفحص صور قائمة الشرف للسنة الجديدة، اندهشتُ (كالعادة) من القبح الاستثنائي للوجوه المعروضة وسوقيتها. يبدو أن القاعدة تقريباً أن نوع الشخص الذي يكسب حق تسمية نفسه اللورد بيرسي دي فالكونتاورز، يجب أن يبدو على الأقل في أفضل الحالات، مثل صاحب حانة متخم، أو مثل جابي ضرائب مع قرحة اثنا عشرية في أسوأ حالاتها. لكن بلادنا ليست الوحيدة في هذا، أي شخص ماهر في استخدام المقص واللاصق، يمكن أن يجمع كتاباً ممتازاً بعنوان حكامنا مكوناً من مجرد صور منشورة لعظماء أهل الأرض. خطرت لي الفكرة أول مرة حين رأيت ملصقاً "الصور فوتوغرافية ساكنة" لبيفربروك وهو يلقي خطاباً، ويبدو كنسناس على عصا أكثر مما تتصور أن هذا ممكن لشخص لم يفعل ذلك متعمداً.

حين تلمّ مجموعتك من الفوهررات الفعليين والراغبين، ستلاحظ أن صفات معينة تتكرر خلال القائمة كلها. أولاً إنهم كلهم كبار في السن. وبالرغم من الوعود الكاذبة والرياء المقدم للشباب في كل مكان، فلا يوجد شخص في مركز سيطرة حقيقية يقل عمره عن الخمسين سنة. ثانياً قلما يتجاوز طول الطاغية الخمسة أقدام والست بوصات إلا في حالات نادرة جداً. ثالثاً هناك القبح العام تقريباً والقبح الغريب أحياناً. ستحتوي المجموعة على صور لسترايخر وهو يفجر وعاء دموياً، وأسياد حرب يابانيين يجسدون شخصيات البابون (نوع من القردة)، وموسوليني مع لغده الحقير، وديغول الذي بلا ذقن، وتشرشل القصير البدين بذراعيه القصيرتين، وغاندي بأنفه الطويل الماكر وأذنيه الخفاشيتين الكبيرتين، وتوجو الذي يظهر أسنانه الذهبية الاثنتين والثلاثين. وللمقارنة مقابل كل واحد منهم هناك صورة لكائن بشري عادي من البلاد المعنية. بحار صغير من غواصة ألمانية مقابل هتلر، وفلاح ياباني من الأنموذج القديم مقابل توجو، وهلم جرا.

ولنعد إلى قائمة الشرف. حين تتذكر أن بقية العالم كله أسقطتها، يبدو من الغريب أن نرى هذا الهراء مازال مستمراً في إنكلترا البلد الذي ماتت فيه الأرستقراطية منذ مئات السنين، واختفى التمييز العرقي الذي تأسست عليه فكرة الأرستقراطية من إنكلترا قبل نهاية العصور الوسطى، وتلاشت فكرة "الدم الأزرق" كقيمة نفيسة بحد ذاته، واستقلال النقود في عصر إليزابيث. منذ ذلك الوقت أصبحنا بلوتوقراطية صريحة، ومع ذلك مازلنا نقوم بمحاولات متشنجة لنلبس أنفسنا ألواناً من الإقطاعية.

فكر في مكتب ابتكار الشعارات ومنحه وهو يزوّر الأصول والتواريخ ويبتكر تصاميم ورموز شعار النبالة بحوريات الماء ووحيدي قرن رابضة تدير رؤوسها إلى الخلف، وأشباه ذلك لمدراء شركات في قبعات مستديرة سوداء وبناطيل مخططة! ما أحبه أكثر، هو التدرج الدقيق الذي توزع فيه الألقاب دائماً في تناسب مباشر مع مقدار الأذى والضرر الذي ارتكب- أملاك وأراضي البارونية للشركات الكبيرة، ولقب البارونية للجراحين الحداثيين، ورتبة الفروسية لأساتذة الجامعات المروضين. لكن هل يتخيل هؤلاء الناس أنهم بتسمية أنفسهم لوردات وفرساناً وهلم جرا، أصبحوا يمتلكون شيئاً مشتركاً ومشابهاً لأرستقراطية العصور الوسطى؟ هل يشعر السير ولتر سيترابن مثلاً أنه نفس نوع الشخص مثل كلايد رولاند، أو يتخيل اللورد نوفيلد أننا سنحسبه فارساً صليبياً يرتدي درعاً؟

مع ذلك، فإن لقضية قائمة الشرف هذه مظهر عملي واحد صارم، وهو أن اللقب اسم مستعار من الدرجة الأولى. يستطيع السيد إكس عملياً أن يلغي ماضيه بتحويل نفسه إلى اللورد واي. بعض المناصب الكهنوتية التي أوجدت أثناء هذه الحرب، لم يكن يمكن لتحدث من دون مثل هذا القناع. كما قالها توم باين: "هؤلاء الناس يبدلون أسماءهم كثيراً جداً، لذلك فإن التعرف عليهم وتمييزهم صعب، كالتعرف على اللصوص وتمييزهم.

أكتبُ هذا المقال على صوت مثقب كهربائي. إنهم يثقبون حفراً في جدران ملجأ سطحي، ويزيلون قرميداً في فواصل نظامية. لماذا؟ لأن الملجأ مهدد بخطر السقوط، ومن الضروري دعمه بطبقة من الإسمنت.

يشك إن كانت هذه الملاجئ السطحية ذات فائدة كبيرة. إنها توفر حماية ضد الشظايا والانفجار، لكنها حماية ليست أكثر من تلك التي تجدها في بيت عادي. والمرة الوحيدة التي رأيت فيها قنبلة تسقط قريباً من أحدها شرحته وأزالته من الأرض ببراعة، كما لو أن ذلك حدث بواسطة سكين. على كل أن النقطة الحقيقية في الزمن الذي بنيت فيه هذه الملاجئ، هي أنه كان من المعروف أنها ستنهار بعد سنة أو اثنتين. وأشار إلى هذا عدد لا يحصى من الناس، لكن لم يحدث شيء، فقد استمر البناء المهمل، وحصل شخص ما على العقد قبل غيره. بالتأكيد بعد سنة أو سنتين سوف يُبرأ المتنبئون. بدأت قذائف المورتر بالتساقط من خلال الجدران، وأصبح من الضروري تغليف الملاجئ بالإسمنت. ومرة أخرى شخص ما -وربما نفس الشخص- يفوز بالعقد قبل غيره. أنا لا أعرف في أي قسم من البلاد استخدمت هذه الملاجئ فعلياً أثناء الغارات الجوية، لكن في القسم الذي أعيش فيه في لندن، لم يكن هناك أي شك بأنها لم تستخدم أبداً، فقد ظلت مغلقة باستمرار في الواقع خشية أن تستخدم لـ "أغراض غير مناسبة". لكن هناك شيئاً واحداً يمكن أن تكون مفيدة له كما تخيلوا، وهو أنها ستكون حصناً صغيراً في قتال الشوارع. وعلى العموم، لقد بُنيت في الشوارع الأكثر فقراً. سأضحك كثيراً إن أتى الوقت وكان المسؤولون الكبار وأصحاب المناصب العليا عاجزين عن سحق الجمهور الذي زودوه بآلاف الرشاشات عن تهور وطيش مسبقاً.

١٤ يناير عام ١٩٤٤.

يبدو أن عادة تجميع المجلات والدوريات وتنضيدها في كتب قد انتهت، وهذا يدعو إلى الأسف، لأن الإصدار السنوي لأغبى مجلة تظل قراءته ممتعة أكثر من غالبية الكتب. أنا لا أعتقد أنني وفقت بصفقة أفضل من المجلدات العشر من الكورترلي ريفيو التي تبدأ منذ عام ١٨٠٩، فقد اشتريتها بشلنين في مزاد علني في بيت مزرعة، وأعداد سنة كاملة من مجلة كورنهيل حين كان ترولوب أو ثاكري رئيس تحريرها -لقد نسيت- بستة بنسات، وصفقة موفقة أخرى، هي مجلدات غريبة من مجلة الجنتلمان من منتصف الستينيات بثلاثة بنسات لكل مجلد، وأمضي وقتاً سعيداً مع تشامبرز بيبر فور ذا بيبل التي ازدهرت في الخمسينات، وكتاب لسوء الحظ رأيته لكنني لم أشتره -مجلد للاثينيوم في أوائل العشرينيات حين كان يحررها ميدلتون موراي، وكان وتي إس إليوت وإي أم فورستر وغيرهما يفرضون تأثيرهم على

الجمهور الكبير. أنا لا أعرف لماذا لا يقوم أحد بفعل هذا في هذه الأيام. ولكي تحصل على أعداد مجلة مجمعة في كتاب، يكلفك ذلك أقل من شراء رواية. ويمكنك أن تقوم بالمهمة لوحدك، إن وفرت لهذا الغرض الوقت المسائي والمواد الصحيحة.

إن الفتنة العظيمة لتلك المجلات، هي في الكمال الذي "تؤرخ" فيه. في انهماكها في شؤون اللحظة تخبر المرء عن الأنماط السياسية الرائجة والميول التي نادراً ما تذكر في أكثر كتب التاريخ الشائعة. من الممتع مثلاً أن تدرس في مجلات معاصرة للحدث ذعر الحرب في سنوات الستينيات الأولى حين أعتقد الجميع من كل الأطراف أن بريطانيا على وشك أن تُغزى، وشكل المتطوعون ونشر الاستراتيجيون الهواة خرائط تبين المسارات التي بواسطتها ستتجمع الجيوش الفرنسية على لندن، والمواطنون المسالمون يختبئون في قنوات الري، بينما رصاص نوادي البنادق (المكافئ للحرس الوطني اليوم) يتردد في كل الاتجاهات.

كان الخطأ الذي ارتكبه كل المراقبين البريطانيين في ذلك الوقت، هو أنهم لم يلاحظوا أن ألمانيا كانت خطيرة. لقد افترضوا أن الخطر الوحيد سيأتي من فرنسا التي استهلكت مواردها كقوة عسكرية وليس لديها أي مبرر كان للتنازع مع بريطانيا. وأنا أعتقد أن القراء العرضيين في المستقبل الذين يغوصون في جرائدنا ومجلاتنا، سيلاحظون ضلالاً مماثلاً في الابتعاد عن الديمقراطية وإعجاباً صريحاً بالديكتاتورية استولى على الطبقة المثقفة البريطانية في حوالي عام ١٩٤٠.

حديثا، بالعودة إلى أعداد من هورايزن، عثرتُ على مقال طويل عن كتاب الثورة الإدارية لجيمس بيرنهام، قبلت فيه نظرية بيرنهام الرئيسية من دون تدقيق وتفحص، وهي مثلت كما زعم أناس كثيرون التكهن الأذكى في عصرنا، والتي تأسست فعلياً على الاعتقاد بمناعة الجيش الألماني ضد الهزيمة، ولكن الأحداث نسفتها ومزقتها إرباً.

٢١ يناير / كانون الثاني عام ١٩٤٤.

أنبني متراسل لكوني "سلبياً" و"أهاجم الأشياء دائماً". الحقيقة أننا نعيش في زمن ليست فيه أسباب الفرح كثيرة. لكنني أمدح الأشياء حين يتوفر منها ما يدعو للمديح، وأحب أن أكتب هنا بضعة أسطر -يجب أن تكون استدراكية، لسوء الحظ -في مديح مشتل ولزويرث للزهور.

في الأيام الطيبة حين لا شيء في ويلزويرث، كان يكلف أكثر من نصف شلن، كان واحداً من خطوطهم شجيرات الورد. كانت دائماً نبتات صغيرة في العمر جداً لكنها كانت تزهر في سنتها الثانية، ولا أعتقد أن واحدة منها ماتت على يدي. اهتمامها الرئيسي أنها لم تكن أبداً أو كانت نادراً ما أدعوه على اللصاقات الموجودة عليها. اشتريت واحدة لدوروثي بيركنز، وتبين أنها زهرة بيضاء صغيرة ذات قلب أصفر، واحدة من أجمل النباتات المتعرشة التي رأيتها في حياتي. زهرة البوليانثا (نوع من النرجسيات) وصفت بأنها صفراء، وتبين أنها حمراء غامقة. شجيرة أخرى، اشتريتها على أنها مثل الإبرتين، لكنها كانت بحجم مضاعف وأعطت كميات هائلة مذهلة من الأزهار. هذه الزهور لديها كل تشويق حزمة التشويق، وهناك فرصة دائماً بأن تعثر على تشكيلة جديدة، لك كامل الحق في أن تسميها بجون سميث أو شيئاً من هذا النوع.

الأسبوع الماضي مررت بكوخ كنت أعيش فيه قبل الحرب. الزهرة البيضاء الصغيرة، ليست أكبر من مقلاع (نقيفة) الصبي الصغير حين زرعتها، كبرت إلى شجيرة ضخمة قوية، الإبرتين أو ما يشبهها كانت تخنق نصف السياج في غيمة من الأزهار القرنفلية. لقد زرعت الاثنين في عام ١٩٣٦. وفكرت "كل ذلك بنصف شلن!". لا أعرف كم تعمر شجيرة الزهر؛ أفترض أن معدل حياتها عشر سنين. وخلال ذلك الوقت، فإن الورد المتعرش يكون في أزهى حالاته لمدة شهر أو ستة أسابيع كل سنة، بينما شجيرة الزهر تزهر وتتوقف ثم تزهر وتتوقف لمدة أربعة أشهر على الأقل. كل ذلك بنصف شلن-الثمن، قبل الحرب، لعشرة بلايرز (نوع من السجائر) أو باينت ونصف من البيرة أو اشتراك لمدة أسبوع في الديلي ووركر أو عشرين دقيقة من الهواء المستهلك في السينما.

٢٨ يناير ١٩٤٤.

أنا أرى أن السيد سوريش فياديا الصحفي الهندي الذي يعيش في إنكلترا، قد اعتقل لرفضه الخدمة العسكرية. هذه ليست القضية الأولى من نوعها، وإن كانت ستكون الأخيرة، فلأنه لم يعد هناك هنود آخرون بعمر الخدمة العسكرية للتضحية بهم.

كل واحد يعرف من دون أن يخبره أحد، الوجوه القضائية لقضية فياديا، وليست لدي الرغبة في الحديث عنها، لكن أحب أن ألفت الانتباه إلى الوجه المنطقي الذي ترفض الحكومة البريطانية التفكير فيه بقوة وباستمرار. باستثناء البحارة الذين يأتون ويذهبون وحفنة من

الجنود الذين لايزالون هنا، ربما هناك ألفان من الهنود في هذه البلاد من كل الأعمار. بتطبيق التجنيد الإلزامي قد يزيد عدد الجنود بضعة أفراد، وبإجبار الحكومة للأقليات التي "تعارض"، يمكن أن يتضخم سكان السجون البريطانية بأعداد مضاعفة جداً. هذه هي النتيجة الصافية من وجهة نظر الخدمة العسكرية.

لكن لسوء الحظ هذا ليس كل شيء. بسلوك من هذا النوع أنت تعادي الجالية الهندية كلها في بريطانيا -لأنه لا يوجد أي هندي مهما كانت آراؤه يعترف بأن لبريطانيا الحق أن تعلن الحرب لمصلحة الهند أو تفرض الخدمة العسكرية الإلزامية على الهنود. إن كل ما يحدث في الجالية الهندية هنا، له ارتدادات فورية في الهند ونتائج مهمة أخرى في الخارج. إن التضحية بهندي واحد مقاوم للحرب، يسبب ضرراً أكبر من التضحية بعشرة آلاف بريطاني. يبدو أنه ثمن باهظ ندفعه من أجل إرضاء مشاعر البليمبز بأنهم قبضوا على "أحمر" آخر في براثنهم. أنا لا أتوقع أن يفهم البليمبز وجهة نظر فياديا، لكنهم يفهمون حقاً، بعد كل تجربتهم، أن تحويل الناس إلى شهداء لا يجدي.

بعث لي أحد القراء رسالة يدافع فيها عن إيزرا باوند، الكاتب الأمريكي الذي نقل ولاءه إلى موسوليني قبل سنوات من الحرب، وكان بوقاً دعائياً لراديو روما. جوهر ادعائه أن باوند لم يبع نفسه من أجل المال أولاً، وأننا يجب أن نتغاضى عن الآراء السياسية للشاعر الحقيقي ثانياً.

الآن طبعاً، لم يبع باوند نفسه من أجل المال فقط. ولم يفعل أي كاتب مثل ذلك أبداً. كل من يبتغي المال أولاً سوف يختار مهنة مربحة أكثر. لكنني أعتقد أن باوند ربما باع نفسه من أجل المنزلة الاجتماعية جزئياً والإطراء والأستاذية. إنه يضمر كرهاً ضغيناً لكل من بريطانيا وأمريكا؛ حيث شعر أن موهبته لم تعط حقها من التقدير. ومن الواضح أنه أعتقد بوجود مؤامرة ضده في كل البلدان الناطقة بالإنكليزية. بعد ذلك، كانت هناك حوادث شائنة كثيرة، تكشفت فيها معرفة باوند الزائفة، والتي وجد أنها لا تغتفر بلا شك. في منتصف الثلاثينيات، كان باوند يكيل المديح "للرئيس-البوس" موسوليني في عدد من الصحف الإنكليزية، بما فيها ربعية موسلي بريتش يونيون (التي كان فيدكون كويزلينغ مساهماً فيها). وفي زمن الحرب الإثيوبية كان باوند معادياً صاخباً للإثيوبيين. في عام ١٩٣٨ أعطاه الإيطاليون مقعداً في

واحدة من جامعاتهم، وبعد بعض الوقت من اندلاع الحرب، نال الجنسية الإيطالية. إن كان شاعر كهذا يجب أن يُسامَح عن آرائه السياسية، فهذه مسألة مختلفة. من الواضح أنه يجب ألا يقول المرء "سين يتفق معي: لذلك فهو كاتب جيد". وبالنسبة إلى السنوات العشر الأخيرة تألف النقد الأدبي الصادق بشكل واسع من مقارعة ذلك الرأي. شخصياً أنا معجب بكتاب كثيرين (سيلين مثلاً) ذهبوا إلى الفاشيين، وأعارض بقوة الآراء السياسية لكثيرين آخرين بقوة. لكن للشخص الحق يتوقع حشمة عادية من الشاعر. أنا لم أسمع أبداً ما يبثه باوند، لكنني أقرأ عادة تقارير مرصد البي بي سي، وكانت مثيرة للاشمئزاز فكرياً وأخلاقياً. إن معاداة السامية مثلاً ببساطة ليست عقيدة شخص ناضج. الناس الذين مارسوا ذلك النوع من الشيء يجب أن يتحملوا العواقب. لكنني أتفق مع مراسلنا في رجائه بألا تمسك السلطات الأمريكية بباوند وتعدمه بالرصاص، كما هددت أن تفعل، لأن ذلك سوف يرسخ شهرته بشكل كامل لمدة مئة عام ربما، قبل أن يستطيع أحد ما أن يحدد بنزاهة إن كانت قصائد باوند المثيرة جداً للجدل جيدة أم ليست جيدة.

في الليلة قبل الماضية، أخبرتني نادلة أنك لو صببت البيرة في قدح رطب، فإنها ستهمد بسرعة أكبر، وأضافت لو غطست شاربك في بيرتك فستهمد أيضاً. قبلتُ هذا فوراً ودون سؤال آخر، وفي الواقع حالما وصلت إلى البيت، قلمت شاربي الذي نسيت أن أقلمه منذ أيام.

لاحقاً، خطر لي أن هذا يمكن أن يكون إحدى الخرافات القابلة للحياة، لأن فيها نكهة الحقائق العلمية. في دفتر لديّ سلسلة طويلة من الأفكار الخادعة التي تعلمتها في طفولتي، وهي في كل حالة منها ليست كحكايا العجائز وإنما كحقيقة علمية. لا أستطيع تقديم كل القائمة، لكن هذا بعض من المفضل منها:

-إن البجعة تستطيع كسر ساقك بضربة واحدة من جناحها.

-إن جرحت نفسك بين الإبهام والسبابة ستصاب بالكزاز.

-الزجاج المسحوق سام.

-إن غسلت يديك بالماء الذي سلق فيه البيض، فستصاب بالثآليل.

-تهتاج الثيران برؤية اللون الأحمر.

-يعمل الكبريت كمقوٍ، حين تضعه في الماء الذي يشربه الكلب.

وهلم جرا. تقريباً كل واحد يحمل واحداً من هذه المعتقدات أو آخر إلى حياته كبالغ وراشد. قابلت شخصاً يزيد عمره عن الثلاثين مازال محتفظاً بالاعتقاد الثاني الذي أدرجته آنفاً. بالنسبة إلى الاعتقاد الثالث، فهو واسع الانتشار جداً، لذلك في الهند مثلاً يحاول الناس دائماً تسميم بعضهم البعض بالزجاج المسحوق، مع نتائج مخيبة للآمال.

أتمنى الآن لو أنني قرأت الإنكليزية الأساسية، بدلاً من اللغات المصطنعة قبل وبعد مراجعة الكتاب الصغير الممتع الذي أطلق فيه البروفسور لانسلوت هوغبن لغته المصطنعة إنترغلوسا، لكنت في تلك الحالة قد أدركت كيف كان البروفسور هوغبن شهماً نحو مخترعي اللغات العالمية المنافسة. إن الجدالات بخصوص المواضيع الجدية، تكون بعيدة عن الأدب والكياسة غالباً. يفترض بأتباع وأنصار الجدل الستاليني- التروتسكي أنهم لاحظوا أن النغمة غير الودية تميل إلى التسلل إلى داخله، وحين انقضت كل من التيبلت وتشيرتش تايمز على بعضهما البعض، لم تكن الضربات فوق الحزام دائماً. ومن أجل قذارة قتالية صرفة، يتطلب العداء بين مخترعي اللغات العالمية المختلفة الكثير من الضرب.

قد تنشر التريبيون قريباً مقالة أو أكثر عن اللغة الإنكليزية الأساسية المبسطة. إن جرى تبني أية لغة كلغة ثانية عالمية، فمن غير المحتمل كثيراً أن تكون لغة مصنعة. ومن اللغات الطبيعية الموجودة، تحظى اللغة الإنكليزية بالفرصة الأفضل، لكن ليس بالشكل الأساسي البيسك بالضرورة. بدأ الرأي العام يستيقظ ويعي الحاجة إلى لغة عالمية، رغم المفاهيم الخيالية التي مازالت موجودة. فمثلاً هناك عدد كبير من الناس يتخيلون أن هدف المؤيدين والمدافعين عن اللغة العالمية، هو إخماد اللغات الطبيعية، وهو شيء لم يقله أحد بشكل جدي أبداً.

في الوقت الحاضر، وبالرغم من الاعتراف المتزايد بهذه الحاجة، يزداد العالم قومية وتطرفاً في لغته، وهذا ناتج جزئياً عن سياسة متعمدة (حوالي نصف دزينة من اللغات الموجودة دُفعت في طريق إمبريالي في أجزاء مختلفة من العالم) وجزئياً إلى الخلع الذي سببته الحرب. مازالت

الصعوبات في التجارة والسفر والتواصل بين العلماء والتشاور والجهد الضائع في تعلم اللغات الأجنبية مستمرة. في حياتي تعلمت سبع لغات أجنبية، منها لغتان ميتتان، ولم أبق إلا على واحدة من السبع، وهذه حالة عادية. أي فرد من قومية صغيرة كالدانمركي أو الهولندي مثلاً، عليه أن يتعلم ثلاث لغات بشكل أكيد إن أراد أن يكون مثقفاً. من الواضح أن هذا الوضع يمكن تحسينه، ولكن الصعوبة الكبيرة هي أن نقرر أية لغة يجب اختيارها وتبنيها كلغة عالمية، وسيكون هناك شجار قبيح قبل أن تحلّ تلك الصعوبة، كما يعرف ذلك كل شخص ألقى نظرة سريعة وفكر في هذا الموضوع.

التريبيون ٤ شباط/ فبراير ١٩٤٤.

حين سجن السير ولتر رالي في برج لندن، شغل نفسه في كتابة تاريخ العالم. أتم المجلد الأول، وكان يعمل في الثاني حين نشب شجار بين بعض العمال قُتل فيه أحدهم تحت نافذة الزنزانة. لم يقدر السير ولتر أبداً أن يكتشف السبب الذي دار حوله الشجار، رغم الاستجوابات الكؤودة. وحقيقة فهو رأى الحدث فعلياً، وبناء عليه كما قيل- وإن لم تكن القصة حقيقية ينبغي لها أن تكون كذلك بالتأكيد- أحرق ما كتب وتخلى عن مشروعه.

تذكرت هذه القصة مرات كثيرة لا أعرف عددها في السنوات العشر الماضية، وكنت دائماً مع فكرة أن راليف ربما كان مخطئاً. فمع أخذ صعوبات البحث في ذلك الوقت في الاعتبار والصعوبة الخاصة في القيام ببحث في داخل السجن، كان من المحتمل له أن يكتب تاريخاً للعالم له بعض الشبه بالمسار الحقيقي للأحداث. حتى وقت قريب فإن الأحداث الرئيسية التي دُونت في كتب التاريخ هي أحداث حدثت على الأرجح، فصحيح أن معركة هاستينغز جرت في عام ١٠٦٦ وأن كولومبوس اكتشف أمريكا، وأن هنري الثامن كان له ست زوجات وهكذا. لقد كانت هناك درجة معينة من الصدق طالما كان هناك اعتراف بأن الحادثة ربما تكون صحيحة، حتى لو لم تكن تحبها. وإلى وقت متأخر قبيل الحرب الأخيرة، كان ممكناً للموسوعة البريطانية مثلاً أن تجمع موادها حول الحملات العسكرية المتنوعة من مصادر ألمانية. واعتبرت بعض من الوقائع كأرقام المفقودين والجرحى مثلاً حيادية، وقبلت جوهرياً من الجميع. لكن الآن لم يعد مثل هذا الشيء ممكناً، وليس هناك أي شبه بين النسخ النازية

وغير النازية عن الحرب الحالية، وأي نسخ منها ستدخل إلى كتب التاريخ، لن تقرره الطرق المثبتة وإنها ساحة القتال.

أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، شعرت بقوة أن التاريخ الحقيقي لهذه الحرب لم ولن يكتب أبداً، فليس هناك أرقام دقيقة أو سرود وروايات موضوعية واضحة لما كان يحدث. وشعرت أنه حتى في ١٩٣٧ حين كانت الحكومة الإسبانية موجودة، فإن الأكاذيب التي روجتها الزمر الجمهورية عن بعضها البعض وعن العدو، كانت قليلة نسبياً؛ فكيف ستكون الحالة الآن؟ حتى لو أُطيح بفرانكو، فأي نوع من السجلات سيعتمد عليه مؤرخ المستقبل؟ وإذا كان فرانكو أو من يشبهه في السلطة، فإن تاريخ الحرب سيتألف بشكل كبير من "وقائع" يعرف ملايين الأشخاص الأحياء الآن أنها أكاذيب. إحدى هذه الوقائع مثلاً وجود جيش روسي كبير في إسبانيا. يوجد هناك أوفر دليل عن عدم وجود مثل هذا الجيش، لكن إن بقي فرانكو في السلطة وإن بقيت الفاشية عموماً، فسيدخل الجيش الروسي كتب التاريخ، وسيصدق تلاميذ المستقبل ذلك.

هذا النوع من الأشياء يحدث طول الوقت. من بين ملايين الأمثلة المتوفرة، سأختار واحداً اتفق أنه قابل للإثبات. خلال جزء من عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ حين كان اللوفتفافا (سلاح الجو الألماني -المترجم) منشغلاً في روسيا، أبهج الراديو الألماني مستمعيه في الوطن بقصص عن غارات جوية مدمرة على لندن. الآن نحن نعرف أن تلك الغارات لم تحدث. لكن ما فائدة معرفتنا لو أن الألمان هزموا بريطانيا؟ بالنسبة إلى أغراض المؤرخ المستقبلي، هل حدثت تلك الغارات أم لم تحدث؟ الجواب: إن نجا هتلر وبقي حياً، فإنها حدثت؛ وإن سقط فهي لم تحدث. وهكذا مع عدد لا يحصى من الأحداث الأخرى في السنوات العشر أو العشرين الماضية. هل أسقط عدد كبير من الطائرات الألمانية في معركة بريطانيا؟ هل رحبت أوروبا بالنظام الجديد؟ لن تحصل في أي حالة على جواب واحد مقبول عالمياً بأنه صحيح: في كل حالة ستحصل على عدد من الأجوبة، يجري تبني أحدها أخيراً نتيجة لصراع مادي. إن التاريخ يكتبه الفائزون.

في التحليل الأخير، مطلبنا الوحيد من النصر أننا لو فزنا في الحرب، فسنروي حولها أكاذيب بشكل أقل من أعدائنا. الشيء المخيف حقاً عن الأنظمة الشمولية، ليس لأنها ترتكب أعمالاً وحشية فقط، وإنها لأنها تهاجم مفهوم الحقيقة الموضوعية. إنها تطالب بالسيطرة على

الماضي بالإضافة إلى المستقبل. بالرغم من كل الأكاذيب والادعاء بالاستقامة الأخلاقية التي تشجعهما تلك الحرب، فأنا لا أعتقد بصدق أننا نستطيع القول إن تلك العادة في التفكير تنمو وتتزايد في بريطانيا. بالرغم من كل المنغصات، يجب علي القول إن الصحافة أكثر حرية مما كانت عليه قبل الحرب، وأعرف من خلال تجربتي الخاصة أنك تستطيع الآن نشر أشياء لم تستطع نشرها قبل عشر سنوات. ربما تعرض مقاومو الحرب لمعاملة قاسية في هذه الحرب أقل من الحرب السابقة، وكان التعبير عن الرأي العام أكثر أماناً بالتأكيد. وبناء عليه، فهناك بعض الأمل أن تنجو عادة التفكير الليبرالية التي ترى الحقيقة كشيء خارج عن الذات وشيء يجب أن يُكتشف، وليس شيئاً تستطيع تلفيقه وأنت تمر بمحاذاته. لكن مازلت لا أحسد المؤرخ المستقبلي على وظيفته. أليس تعليقاً غريباً على زمننا أننا حتى خسائر الحرب الحالية لا يمكن تقديرها ولو ضمن ملايين كثيرة؟

إن إعلان هيئة التجارة بأنها توشك أن تبطل منع ثنيات نهايات البناطيل، هو إعلان خياط يرحب بهذا على أنه القسط الأول من الحرية التي نقاتل من أجلها.

إن كنا نقاتل فعلاً من أجل نهايات البناطيل المثنية، فيجب أن أكون ميالاً إلى تأييد المحور. الثنية ليس لها أي وظيفة سوى أنها تجمع التراب والغبار ولا أي فضيلة سوى أنك حين تنظفها تجد ستة بنسات فيها عادة، لكن تحت صيحة ذلك الخياط المبتهجة تكمن فكرة أخرى، وهي أنه بعد مدة قصيرة سوف تنتهي ألمانيا، وستنتهي نصف الحرب، وسوف تسهل عملية توزيع الغذاء بالحصص، وسيعود التباهي بالثياب إلى سابق عهده مرة أخرى. أنا لا أشارك بهذا الأمل. كلما تمكننا من وقف إخضاع الطعام للحصص بشكل أسرع، كلما زاد سرورنا ورضانا أكثر. ولكن أحب أن أرى استمرار إخضاع الثياب لنظام الحصص حتى يلتهم العث آخر سترة عشاء، وحتى يتخلص المقاولون من قبعاتهم العالية. أنا لا أمانع أن أرى كل الأمة في بزات الحرب المصبوغة لمدة خمس سنوات، إن أمكن بهذه الوسيلة القضاء على واحدة من النقاط الرئيسية التي تولد التكبر. إخضاع الثياب لنظام الحصص لم يُفهم بروح ديمقراطية، لكن مع ذلك له تأثير ديمقراطي. إن لم يكن الفقراء في ثياب أفضل، فعلى الأقل يكون الأغنياء في ثياب أشد رثاثة. ولأنه لم يحدث تغيير بنيوي حقيقي في مجتمعنا، فإن عملية المساواة الميكانيكية الناتجة عن الندرة أفضل من لا شيء.

١١ فبراير/ شباط ١٩٤٤

هناك نشاطان صحفيان دائماً يجلبان لك الرد السريع. الأول مهاجمة الكاثوليك، والآخر الدفاع عن اليهود. حدث مؤخراً أن راجعتُ بعض الكتب التي تعالج اضطهاد اليهود في أوروبا العصور الوسطى والحديثة. جلبت المراجعة لي كمّ من الرسائل المعادية للسامية التي تركتني أفكر للمرة الألف أن هذه المشكلة يتهرب منها حتى الذين تهمهم بشكل مباشر.

الشيء المقلق والمزعج في هذه الرسائل، أنها لا تأتي من مجانين. أنا لا أعترض جداً على الشخص الذي يؤمن ببروتوكولات زعماء صهيون، ولا حتى ضابط الجيش المصروف من الخدمة الذي لم تعامله الحكومة بإنصاف، فتأجج غضباً من رؤية "غرباء" يمنحون أفضل الوظائف. لكن بالإضافة إلى هذه النماذج، هناك رجل الأعمال الصغير أو المهني المقتنع بشكل راسخ بأن اليهود جلبوا كل المشاكل علينا بأساليب سرية تجارية وانعدام تام للروح الشعبية. هؤلاء الناس الذين يكتبون رسائل حصيفة ومتناسقة، ينكرون أي إيمان بالعنصرية، ويدعمون كل ما يقولونه بأمثلة غزيرة. يعترفون بوجود "يهود طيبين" وعادة يصرحون (هتلر يقول نفس الشيء في كتابه كفاحي) أنهم لم يبادروا بأي شعور عدائي نحو اليهود، لكنهم أجبروا عليه بعد ملاحظتهم للكيفية التي يتصرف بها اليهود.

إن ضعف موقف الجناح اليساري نحو معادة السامية، هو مقاربتها من زاوية قومية. من الواضح أن التهم التي كيلت لليهود ليست صحيحة، ولا يمكن أن تكون كذلك، جزئياً لأنها باطلة وجزئياً لأنه لا يوجد هناك شعب واحد يمكن أن يكون لديه مثل هذا الاحتكار للشر. لكن الإشارة إلى هذا فقط ببساطة لا يفيد. نظرة الجناح اليساري الرسمية لمعاداة السامية، أنها شيء "أثارته" الطبقات الحاكمة كي تحول الانتباه وتبعده عن الشرور الحقيقية للمجتمع. اليهود في الواقع كباش فداء. هذا صحيح من دون شك، لكنه بلا فائدة تماماً كحجة. لا يتخلص المرء من اعتقاد بإظهاره بأنه غير منطقي. ومن خلال تجربتي لا يفيد التحدث عن اضطهاد اليهود في ألمانيا أيضاً. إن كان لدى إنسان أقل نزعة نحو معاداة السامية، هكذا أشياء ترتد من ضميره مثل حبات السنبلة من الخوذة الفولاذية. الحجة الأفضل من الكل، إن كانت الحجج ذات أي فائدة، ستكون في الإشارة إلى أن الجرائم المزعومة لليهود ممكنة، فقط لأننا نعيش في مجتمع يكافئ الجريمة. لو كان كل اليهود محتالين، فلنتعامل معهم بترتيب نظامنا

الاقتصادي بشكل لا يمكّن المحتالين من النجاح والازدهار. لكن ما فائدة قول هذا الشيء لإنسان يعتقد مثلما يعتقد بركن من أركان الإيمان بأن اليهود يسيطرون على السوق السوداء، ويشقون طريقهم إلى مقدمة الطوابير، ويتهربون من الخدمة العسكرية؟

يمكننا القيام بتحقيق مفصل في أسباب معاداة السامية، ويجب ألا يفسد مقدماً بافتراض أن تلك الأسباب اقتصادية برمتها. مهما كانت نظرية كبش الفداء صحيحة في التعبير العام، فهي لا تفسر لماذا اليهود وليس أقلية أخرى، من تعرض للمضايقة والسخرية، ولا توضح لماذا هم كبش فداء. شيء مثل قضية دريفوس مثلاً، لا يترجم بسهولة إلى عبارات اقتصادية. بالقدر الذي يهم بريطانيا، الأشياء الأهم التي يجب اكتشافها، هي ما التهم التي كيلت لليهود بالضبط، وهل معاداة السامية في ازدياد حقيقة (ربما نقصت خلال الثلاثين سنة الأخيرة) وإلى أي مدى تفاقمت بتدفق اللاجئين منذ حوالي ١٩٣٨.

يجب ألا يفترض المرء أن أسباب معاداة السامية اقتصادية بطريقة فجة ومباشرة (بطالة، غيرة تجارية، إلخ) ولا يجب الافتراض أن الناس "الحساسين" منيعون عليها. لقد ازدهرت خصوصاً وسط رجال الأدب مثلاً. من دون أن أنهض عن هذه الطاولة لاستشارة كتاب، أستطيع التفكير في مقاطع من أعمال فيلون وشكسبير وسموليت وثاكري وإتش جي ويلز وألدوس هكسلي وتي إس إليوت وكثيرين غيرهم، الذين يمكن تسميتهم بمعادين للسامية، لو أنها كتبت منذ أن أتى هتلر إلى السلطة. غازل كل من بيلوك وتشيسترتون معاداة السامية، وقبلها تقريباً كتاب آخرون مازلنا نحترمهم في شكلها النازي. من الواضح أن العصاب (الاضطراب العصبي الوظيفي) يكمن في العمق، وهو بالضبط ما يكرهه الناس، وحين يقولون إنهم يكرهون كياناً غير موجود يسمى "اليهود"، يظل غير مؤكد، والخوف من اكتشاف مدى انتشار معاداة السامية أيضاً يعيق استقصاءها بشكل جدي.

هذه الأبيات مقتبسة من سيرة أنثوني ترولوب الذاتية:

حين باين-نايت تيست صدرت على المدينة/ بضع أبيات من الشعر الإغريقي أقصيت جانباً/ قُطعت إلى مزق وحُولت إلى خليط؛/ وقُذف بها إلى النار مثل نفاية مقيتة؛/ باختصار

لقد ذُبحت ذبحاً بدلاً من أن تُشرح وتُقطع/ واكتشفت كميات زائفة كثيرة/ بعد أن ارتفع الدخان من الجمر المطفأ/ اكتشفنا أن -الأبيات الشعرية كانت لبندار!

لم يوضح ترولوب من هو مؤلف هذه الأبيات، ويسرني جداً لو أخبرنيَ أحد القراء الذي يعرفون. لكني اقتبستها من أجل ذاتها فقط- من أجل التحذير الرهيب للنقاد الأدبيين التي تحتويه- ومن أجل لفت الانتباه إلى كتاب ترولوب السيرة الذاتية الذي هو كتاب فاتن جداً، رغم انه أو لأنه مهتم كثيراً بالنقود.

إن الجدل مستمر في مجلة تايم أند تايد حول أطلس جيه إف هورابن عن جغرافية الحرب شيء يذكر بأن الخرائط أشياء مخادعة ويجب أن ينظر إليها كما ينظر إلى الصور والإحصائيات.

أنا لست مهتماً بالمظهر القاصر للقومية بأن كل أمة تلون نفسها بالأحمر على الخارطة، هناك أيضاً ميل أن تجعل نفسك أكبر مما تكون، وهذا ممكن من دون تزوير بما أن أي عرض للأرض كشيء مسطح ومنبسط يشوه جزءاً أو آخر منها. خلال "حملة" التجارة الحرة الإمبراطورية كانت هناك خرائط جدارية ملونة مجانية توزع للمدارس بشكل كبير، صممت على منظور جديد وقزمت الاتحاد السوفييتي، وفي الوقت نفسه بالغت في حجم الهند وأفريقيا. بعد ذلك أصبح هناك خرائط اثنية وسياسية أكبر مكافئة للدعاية. خلال الحرب الإسبانية، قسّمتِ الخرائطُ الإمبراطورية التي كانت تثبت في القرى الإسبانية العالمَ إلى دول اشتراكية ديمقراطية ودول فاشية. من هذه يمكن أن تتعلم أن الهند كانت مصنفة ديمقراطية، بينما مدغشقر والهند الصينية (هذه كانت فترة حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا) مصنفة اشتراكية.

ربما ساهمت الحرب في تحسين جغرافيتنا. الناس الذين كانوا يعتقدون قبل خمس سنوات أن كلمة كرواتيين تتناغم مع الماعز، ويستنتجون فرقاً مضللاً بين مينسك وبينسك، يستطيعون الآن معرفة في أي بحر يصب نهر الفولغا، ويشيرون من دون بحث كثير عن أماكن الغودالانكل أو البوثيدوانغ. مئات الآلاف إن لم يكن الملايين من الشعب الإنكليزي يستطيعون الآن لفظ كلمة دنبروبيتروفسك. لكن جعل قراءة الخريطة شيئاً شعبياً تطلب حرباً كاملة. إلى وقت متأخر في زمن حملة وافل على مصر، قابلت امرأة كانت تعتقد أن إيطاليا

متحدة مع أفريقيا. وفي عام ١٩٣٨ حين كنت مغادراً إلى المغرب، بعض الناس في قريتي - قرية بسيطة جداً بالتأكيد ولكنها لا تبعد عن العاصمة أكثر من خمسين ميلاً- سألوني إن كان من الضروري عبور البحر للوصول إلى هناك. إن سألت أي حلقة من الناس (أحب أن أفعل هذا مع أعضاء مجلس العموم) أن يرسموا لك خريطة لأوروبا من ذاكرتهم، ستحصل على بعض النتائج المدهشة. أي حكومة تهتم بالتعليم فعلاً، سترى أن خريطة للكرة الأرضية التي تعتبر نذرة ثمينة في الوقت الحاضر، كانت في متناول أي طفل في المدرسة. من دون فكرة ما عن أي بلاد تجاور أي بلاد وأي الطرق أسرع من مكان ما إلى مكان آخر، ومن أي مكان بعيد عن الشاطئ يمكن أن تقصف السفينة، وأي مكان لا يمكن ذلك، من الصعب أن نرى أي فائدة تجنيها آراء المواطن العادي في السياسة الخارجية.

التريبيون ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٤٤.

قصة قصيرة في مجلة هوم كومبانيون أند فاميلي جيرنال بعنوان مرحباً حبيبتي، تروي مغامرات فتاة شابة اسمها لوسي فالوز، تعمل في مقسم للمكالمات الهاتفية البعيدة. لقد ضحت بالأشياء التي تحبها، وظلت في بذلة نظامية لتحصل على هذه الوظيفة، لكنها وجدتها مملة وخالية من الأحداث. "عدد كبير من الناس يستخدمون المكالمات البعيدة لمجرد الثرثرة مع بعضهم البعض..... ضجرتْ ولم تعد تحتمل، وشعرتْ أنها خادمة لأناس أنانيين".

لكن كما تخمنون، ربما امتلأت وظيفة لوسي بالنشاط والحيوية، وفي وقت قصير وجدت نفسها في خضم مغامرات مثيرة، شملت غرق غواصة وأسر جماعة ألمانية تخريبية، ورحلة طويلة بالسيارة مع ضابط بحرية وسيم له "صوت متهدج". هكذا هي حياة مقسم الهاتف.

في نهاية القصة، هناك ملاحظة صغيرة: "كل واحد من قرائنا الشباب مهتم بالعمل في مقسم المكالمات الهاتفية البعيدة (كالعمل الذي كانت تقوم به لوسي فالوز) يجب أن يتقدم بطلب إلى موجه هيئة العاملين، إل تي آر، لندن الذي سيخبرهم حين تتاح الفرصة".

أنا لا أعرف إن كان هذا إعلاناً يُرجى منه نجاح كبير. لكن أشك إن كانت الفتيات المستهدفات من ذاك العمر، سيصدقن أن أسر غواصة يدخل كثيراً في حياة عمال المقاسم الهاتفية. لكني لاحظت باهتمام العلاقة المتبادلة المباشرة بين حكومة توظف الإعلان وبين قطعة

من القصص التجاري. قبل الحرب، كانت إمارة البحر مثلاً تضع إعلاناتها في صحف المغامرات الخاصة بالصبيان، التي كانت المكان الطبيعي لوضعها. ولكن حسب علمي، لم تكن تكتب القصص بناء على الطلب. ربما لم تكلف بذلك حتى الآن. والاحتمال الأرجح أن الدوائر المعنية تضع عينها على الصحف الأسبوعية (عرضياً أود التفكير في شخصية بينطال مقلم، المكتب العام للبريد تقرأ "مرحباً حبيبي" كجزء من واجباتها اليومية) وتقحم في إعلان حين تبدو القصة أنها تشكل طعماً جذاباً. لكن من ذلك إلى تكليف القصص الفعلي لكي تكتب حول الايه تي إس وجيش أرض النساء أو أي كيان في حاجة للمجندين، فهذا مجرد خطوة قصيرة فقط. ويستطيع المرء على الأغلب أن يسمع الأصوات المثقفة المتعبة من وزارة الإعلام تقول:

مرحباً! مرحباً! هل ذاك أنت يا طوني؟ أو مرحباً. انتبه لقد حصلت على نص مكتوب آخر من أجلك يا طوني، "تذكرة إلى الفردوس". إنها جابية حافلة هذه المرة. هم لن يدخلوا في الأمر. أعتقد أن البنطال لا يصلح أو شيء ما. حسناً بأي حال، يقول بيتر "اجعل النص مثيراً جنسياً لكنه نظيف نوعاً ما- أنت تعرف. لا شيء خارج الزواج. نريد المادة قبل يوم الثلاثاء. خمسة عشر ألف كلمة. تستطيع اختيار البطل. أنا أفضل نوع الرجل المحب للخلاء الذي يحبه كل الفتيان والصبيان الصغار -أنت تعرف. أو طويل جداً مع فم حساس، لا يهم فعلاً. لكن بالغ وشدد على الجنس، يقول بيتر"

هناك شيء يشبه هذا يحدث مع مقالات إذاعية وأفلام وثائقية، لكن حتى الآن لا يوجد هناك أي رابط مباشر بين الأدب القصصي وبين الدعاية. يبدو أن ذلك الإعلان الذي بطول نصف بوصة في الهوم كومبانيون، يحدد معالم مرحلة صغيرة أخرى في عملية "التنسيق" التي تحدث لكل الفنون الآن بالتدريج.

عند مراجعة مقدمة تشيسترتون التي كتبها لرواية أزمنة صعبة في طبعة إيفريمان (بشكل عرضي إن مقدمة تشيسترتون عن ديكنز أفضل شيء كتبه في حياته) لاحظت التصريح الكاسح أنموذجياً: "لا توجد أفكار جديدة الآن". يزعم تشيسترتون هنا أن الأفكار التي بعثت الثورة الفرنسية، لم تكن جديدة، وإنما هي إحياء لعقائد ازدهرت في وقت أسبق ثم

هجرت. لكن الادعاء بـ "عدم وجود أفكار جديدة تحت الشمس" واحد من الحجج المعروفة عن الرجعيين الأذكياء، والتي استخدمها المدافعون الكاثوليك بوجه خاص بشكل آلي. إن كل ما تستطيع قوله أو التفكير فيه، قيل وجرى التفكير فيه من قبل. وكل نظرية سياسية من الليبرالية إلى التروتسكية، هي عبارة عن تطوير لبدعة من بدع الكنيسة القديمة. وكل نظام فلسفي ينبع من الإغريق أساساً وكل نظرية علمية (إن كنا نصدق الصحافة الكاثوليكية الشعبية) كان روجر بيكون وآخرون في القرن التاسع عشر قد عرفوها مسبقاً. زيادة على ذلك، يزعم بعض المفكرين الهنود أن العلم التطبيقي والطائرات والراديو وكل حقائب الخدع، كانت معروفة للهندوس القدماء الذين أسقطوها لكونها غير جديرة باهتمامهم، وليس النظريات العلمية فقط.

ليس من الصعب أن نرى أن هذه الفكرة متجذرة في الخوف من التقدم. إن لم يكن هناك جديد تحت الشمس، وإن عاد الماضي بشكل أو بآخر، فسيكون المستقبل مألوفاً حين يأتي. على أي حال، الذي لن يأتي أبداً- بما أنه لم يحدث من قبل قط- هو ذلك الشيء المكروه والمفزع أي العالم الذي فيه كائنات بشرية متساوية وحرة. إن الفكرة المريحة للمفكرين الرجعيين، هي الفكرة التي ترى الكون حلقياً مدوراً تحدث فيه نفس سلسلة الأحداث وتتكرر مرة تلو أخرى. في هكذا كون، فإن كل تقدم ظاهر نحو الديمقراطية، يعني ببساطة أن عصر الاستبداد والامتياز القادم بات أقرب قليلاً. من الواضح أن هذا الاعتقاد خرافي، لكنه واسع الانتشار وشائع بين الفاشيين وشبه الفاشيين.

هناك أفكار جديدة في الواقع. الفكرة بأن الحضارة المتقدمة لا تحتاج أن تستند على العبودية مثلاً، هي فكرة جديدة نسبياً، وهي أحدث بكثير من الدين المسيحي. لكن حتى لو كان قول تشيسترتون المأثور صحيحاً، فإنه يصح فقط بمعنى أن هناك تمثالاً في كل كتلة من الحجارة. قد لا تتغير الأفكار، لكن التأكيد يتنقل باستمرار. يمكن الزعم مثلاً أن الجزء الأهم من نظرية ماركس محتوى في القول: "أين تكون ثروتك يكون قلبك أيضا"، لكن أية قوة لهذا القول قبل أن يطوره ماركس؟ ومن اكترث به؟ ومن الذي استنتج منه- ما تضمنه فعلاً- بأن القوانين والأديان والأنظمة الأخلاقية عبارة عن بنية فوقية بنيت فوق علاقات الملكية القائمة؟ حسب الإنجيل، كان المسيح من نطق بالنص، لكن ماركس هو من أعاده إلى الحياة. ومنذ أن

فعل هذا باتت دوافع القساوسة والقضاة وأساتذة علم الأخلاق والمليونيريين في كرههم الشديد له، موضع شبهة -لماذا يكرهونه بهذا القدر الكبير.

٣ مارس/ آذار ١٩٤٤

منذ بضعة أسابيع، كتبت إحدى قارئات التريبيون محتجة ضد مراجعة نقدية بقلم تشارلز هامبليت، اعترضت فيها على ملاحظاته حول القديسة تيريزا، وعن جوزيف كوبرتينو القديس الذي طار حول كاتدرائية حاملاً مطراناً على ظهره. كتبتُ رداً دفاعاً عن السيد هامبليت، وتلقيتُ رسالة أشد نقمة في المقابل. تثير هذه الرسالة عدداً من النقاط الهامة جداً التي تستحق واحدة منها النقاش على الأقل، كما تبدو لي. قد لا تبدو الصلة بين طيران القديسين والحركة الاشتراكية واضحة جداً من النظرة الأولى، لكن أعتقد أن بمقدوري أن أبين أن الحالة الضبابية الحالية للعقيدة المسيحية، لها مضامين خطيرة لم يواجهها أي من المسيحيين أو الاشتراكيين.

إن جوهر الرسالة ليس مهماً إن كانت القديسة والآخرون طاروا في الهواء أو لم يفعلوا: المهم أن "رؤية القديسة تيريزا للعالم غيرت مجرى التاريخ". سأسلم بهذا. بما أنني عشت في بلد شرقي، فقد طورتُ لامبالاة معينة تجاه المعجزات، وأعرف جيداً أن العيش في الأوهام أو حتى الجنون التام، ينسجم تماماً مع ما يسمى على نحو فضفاض بالعبقري. وليام بليك مثلاً كان مجنوناً برأيي، وجان دارك كانت على الأرجح مجنونة، ونيوتن كان يعتقد بعلم التنجيم وسترندبيرغ يعتقد بالسحر، ومع ذلك فإن معجزات القديسين هي مسألة ثانوية. يظهر من الرسالة أيضاً أن أكثر المبادئ مركزية في الدين المسيحي، يجب ألا تُقبل بمعانيها الحرفية. فلا يهم مثلاً إن كان المسيح قد وُجد أم لا، فشخصية المسيح (إن كان أسطورة أم رجلاً أم إلهاً. فهذا غير مهم) تجاوزت كل البقية، لذلك أتمنى فقط أن ينظر كل واحد إلى ذلك قبل أن يرفض تلك النسخة من الحياة. لذلك ربما كان المسيح أسطورة أو مجرد كائن بشري، أو ربما كان الوصف الذي أعطته له العقائد المسيحية صحيحاً. وهكذا وصلنا إلى هذا الوضع: يجب على التريبيون ألا تسخر من الدين المسيحي. أما وجود المسيح الذي احترق عدد لا يحصى من الناس بسبب رفضهم الإيمان به، فمسألة لامبالاة.

الآن، هل هذه عقيدة أرثوذوكسية؟ انطباعي أنها ليست كذلك. أستطيع التفكير في مقاطع من كتابات المدافعين الكاثوليكيين المشهورين كالأب وودلوك والأب رونالد نوكس اللذين بيّنا بأوضح العبارات أن العقيدة المسيحية تعني ما يبدو أنها تعنيه، ولا تقبل بمعنى مجازي واهن. وأشار الأب نوكس بالتحديد إلى الفكرة التي لا ترى أهمية إن كان المسيح قد وجد فعلياً أم لا بأنها فكرة "رهيبة" لكن ما تقوله مراسلتي، ردده الكثيرون من المفكرين الكاثوليكيين. لو تحدثت إلى مسيحي مهتم سواء كان كاثوليكياً أم إنجليكانياً، ستجد نفسك غالباً محط تهكم بسبب جهلك الكبير إن كنت تعتقد بأن هناك من أخذ مبادئ الكنيسة بشكل حرفي. سيقال لك إن هذه المبادئ معنى مختلف، أبسط من أن تفهمه أنت. إن خلود الروح لا يعني أنك أنت جون سميث ستبقى واعياً بعد أن تموت. إن انبعاث الجسد لا يعني أن جسد جون سميث سيبعث حقاً وهلم جرا. وبالتالي فإن المفكر الكاثوليكي قادر لأغراض جدلية أن يلعب نوعاً من لعبة خفة، يكرر فيها بنود العقيدة بنفس العبارات التي استخدمها أجداده تماماً، وفي الوقت نفسه يدافع عن نفسه ضد تهمة الاعتقاد بالخرافات، معللاً ذلك بأنه يتكلم بشكل رمزي. يظل جوهر ادعائه، بالرغم من عدم إيمانه بالحياة بعد الموت بأي شكل، نفي أي تغيير في المعتقد المسيحي بما أن أسلافنا لم يؤمنوا فعلياً به أيضاً. في الوقت الحالي يتم التعتيم على حقيقة هامة تقوض واحدة من دعائم الحضارة الغربية.

أنا لا أعرف رسمياً إن كان هناك أي تغيير في العقيدة المسيحية. الأب نوكس ومراسلتي يبدوان في خلاف حول هذا. لكن ما أعرفه جيداً أن الإيمان بالبقاء بعد الموت- البقاء الفردي لجون سميث الذي يظل يشعر بنفسه بأنه جون سميث- أصبح أقل انتشاراً بشكل هائل مما كان، وعلى الأرجح ضعف وسط المسيحيين المترهبنين أيضاً. أما الناس الآخرون عادة، فلا يفكرون حتى بإمكانية أن يكون صحيحاً. لكن أجدادنا بقدر ما نعرف، آمنوا بذلك، وإن لم يكن القصد من كل ما كتبوه هو تضليلنا، فقد آمنوا به بطريقة ملموسة حرفية مفرطة، ورأوا أن الحياة على الأرض كانت فترة قصيرة من التحضير لحياة أهم بكثير بعد القبر. لكن تلك الفكرة اختفت أو تختفي من دون أن تواجه نتائجها وعواقبها.

تأسست الحضارة الغربية جزئياً بخلاف بعض الحضارات المشرقية، على الإيمان بالخلود الفردي. ولو نظر المرء إلى الدين المسيحي من الخارج، فسيظهر له أن هذا الاعتقاد أكثر أهمية

من الإيمان بالرب، ويصعب فصله عن المفهوم الغربي للخير والشر. وليس هناك شك بأن الإعجاب الحديث بعبادة القوة، مرتبط بشعور الإنسان الحديث أن الحياة هنا والآن، هي الحياة الموجودة الوحيدة. لو أن الموت يضع نهاية لكل شيء، لأصبح الاعتقاد أصعب بفكرة أنك في السليم والصحيح حتى لو هزمت. إن رجال الدولة والأمم والنظريات، قضايا يُحكم عليها بشكل حتمي بواسطة اختبار النجاح المادي. بافتراض أن المرء يستطيع فصل الظاهرتين، أود القول إن اضمحلال الإيمان بالخلود الفردي، كان هاماً بقدر ظهور حضارة الآلة. إن لحضارة الآلة إمكانيات رهيبة، كما فكرت ملياً بها في الليلة قبل الفائتة حين انطلقت المدافع المضادة للطائرات: لكن الشيء الآخر له إمكانيات أخرى أيضاً، ولا يمكن القول إن الحركة الاشتراكية أعطتها الاهتمام الكافي.

أنا لا أريد عودة الإيمان بالحياة بعد الموت. وفي كل الأحوال من غير المحتمل له أن يعود. ما أشير إليه هو أن اختفاءه ترك ثقباً كبيراً، وأننا يجب أن ننتبه إلى هذه الحقيقة. أن الإنسان الذي تربى لآلاف السنين على فكرة أن الفرد ينجو ويبقى حياً، يجب أن يبذل جهداً نفسياً ضخماً كي يعتاد على فكرة أن الفرد يموت ويفنى، فمن غير المحتمل منه أن ينقذ الحضارة إن لم يستطع استنباط وتطوير نظام للخير والشر مستقل عن الجنة وجهنم. تقدم الماركسية هذا بالفعل، لكنها لم تُبسط لتصبح في متناول الجمهور العادي أبداً. اكتفى الاشتراكيون بالإشارة إلى أننا سنكون أكثر سعادة بالمعنى المادي فور تشييد الاشتراكية، وأن كل المشاكل تسقط حين تكون المعدة ممتلئة. لكن الحقيقة هي العكس: حين تكون المعدة فارغة، فإن مشكلة المرء الوحيدة هي معدته الفارغة، وحين نتخلص من الكدح والاستغلال، عندئذ نبدأ فعلياً بالتساؤل عن مصير الإنسان والعلة من وجوده. لا يستطيع المرء تخيل صورة جديرة للمستقبل، إلا أن أدرك كم فقدنا بسبب انحلال المسيحية. يبدو قلة فقط من الاشتراكيين أدركت هذا. إن المثقفين الكاثوليك المتمسكين بحرفية العقيدة وقوانينها وبنفس الوقت يقرؤون فيها معاني لم تملكها أبداً ويسخرون من أي شخص بسيط يفترض أن آباء الكنيسة كانوا يعنون ما يقولونه، يرفعون ببساطة ستائر دخانية لإخفاء كفرهم عن أنفسهم.

تلقيت خبر إعادة ظهور مجلة كورنهيل بسرور بالغ بعد أربع سنوات من الغياب. بمعزل عن المقالات -هناك مقالة جيدة عن ماياكوفسكي بقلم موريس بورا، ومقالة أخرى بقلم ريموند مورتيمر عن بورغهام وماكاولي- هناك ملاحظات ممتعة بقلم رئيس التحرير حول التاريخ المبكر لكورنهيل. إحدى الحقائق أنها أظهرت حجم وغنى الجمهور الفيكتوري العادي والمبالغ المالية الضخمة التي كسبها الأدباء في تلك الأيام. لقد بيعت ١٢٠ ألف نسخة من العدد الأول من كورنهيل، ودفعت لترولوب ٢٠٠٠ جنيه مقابل مسلسل -طلب مقابله ٣٠٠٠ جنيه- وطلبت آخر من جورج إليوت بمبلغ ١٠٠٠٠ جنيه. باستثناء القيل جداً من الأدباء الذين نجحوا في الدخول إلى عالم السينما، فإن هذه المبالغ لا تصدق ولا يتخيلها أحد في وقتنا الحالي. يفترض أن تكون كاتباً من الطراز الأول لتدخل إلى طبقة الـ ٢٠٠٠ جنيه. أما بالنسبة إلى الـ ١٠٠٠٠ فلكي تحصل عليها مقابل كتاب واحد، عليك أن تكون شخصاً مثل إيدغار رايس بوروز. تعتبر الرواية ناجحة وممتازة في زمننا الحالي، إن جلبت لمؤلفها ٥٠٠ جنيه -مبلغ يكسبه المحامي الناجح في يوم واحد. إن انحدار الكتاب ليس جديداً كما يتخيل "متسكع الشواطئ" وأعداء آخرون من السلالة الأدبية.

١٠ مارس/ آذار عام ١٩٤٤.

عند قراءتي لكتاب ديريك ليون **حياة تولستوي**، وكتاب الآنسة غلاديس ستوري عن **ديكنز**، وكتاب هاري ليفن عن **جيمس جويس**، والسيرة الذاتية (لم تنشر بعد في هذه البلاد) للرسام السريالي **سلفادور دالي** في الوقت نفسه، دُهشت بقوة غير عادية بالأفضلية والفائدة التي يستمدها الفنان من ولادته ونشأته في مجتمع سليم نسبياً.

حين قرأت **الحرب والسلام** لأول مرة، أفترض أنني كنت في العشرين، عمر لا يخاف فيه المرء من الروايات الطويلة، وشكوتي الوحيدة -مع هذا الكتاب (ثلاثة مجلدات ضخمة)- بطول أربع روايات حديثة- أنه لا يواصل بالطول الكافي. بدا لي أن نيكولاس وناتاشا روستوف وبيير بيزوكوف ودينيسوف والبقية الآخرين، أشخاص يواصل المرء القراءة عنهم بابتهاج إلى الأبد. والحقيقة أن أفراد الأرستقراطية الروسية الصغيرة في ذلك الوقت مع جسارة أفرادها وبساطتهم وملذاتهم الريفية وعلاقات حبهم العاصفة والعائلات الضخمة، كانوا أشخاصاً ساحرين جداً. هكذا مجتمع لا يمكن تسميته بشكل صحيح عادلاً أو تقدمياً. حقيقة

أنه تأسس على قنانة حقيقية، جعلت تولستوي مرتبكاً حتى في صباه. وحتى الأرستقراطي المتنور- يفترض أنهم مثله- كان سيجد صعوبة في اعتبار الفلاحين كنفس جنس الحيوانات مثله هو. تولستوي نفسه لم يكف عن ضرب خدمه حتى بلغ سن الرشد.

مارس مالك الأرض نوعاً من حق السيد الإقطاعي على الفلاحين في ممتلكاته. لتولستوي ولد غير شرعي واحد على الأقل، وكان أخوه غير الشقيق، من زواج غير متكافئ، هو حوذي العائلة. ومع ذلك لا يشعر المرء تجاه هؤلاء الروس السذج كثيري النسل بنفس الاحتقار الذي يشعره نحو الغثاء العالمي المتكلف المتحرر من الأحقاد القومية والمحلية الذي أعطى دالي سبل عيشه. فضلهم المنقذ أنهم ريفيون بسطاء لم يسمعوا قط بينزرداين، ولم يطلوا أظافرهم. وتولستوي الذي تاب مؤخراً عن آثامه في فترة شبابه بطريقه جهرية أعلى من أغلب الناس، يفترض أنه استمد قوته -قوته الإبداعية بالإضافة إلى قوته العضلية الضخمة- من تلك الخلفية الخام الصحية التي فيها يصطاد المرء دجاجة الأرض في المستنقعات، والفتيات يعتبرن أنفسهن محظوظات إن ذهبن إلى ثلاث حفلات رقص في السنة.

إحدى الثغرات في ديكنز، أنه لم يكتب شيئاً حتى ولو بروح ساخرة عن الحياة الريفية، ولم يتظاهر بمعرفة أي شيء عن الزراعة حتى. هناك بعض الأوصاف الهزلية للصيد بالبنادق في أوراق بيكويك. لكن ديكنز كراديكالي من الطبقة الوسطى، غير قادر على وصف هكذا تسلية بصورة متعاطفة. إنه يرى الرياضات خارج البيت (كالصيد وصيد السمك إلخ) في المقام الأول، عبارة عن ممارسة لمظاهر الغرور التي كانت موجودة مسبقاً في إنكلترا آنذاك. الأسيجة والنزعة الصناعية والفروق الشاسعة في الثروة وعبادة التدرج والأيل الأحمر، اتحدت كلها لطرد جماهير الشعب الإنكليزي من الأرض، وجعل غريزة الصيد التي هي ربما عالمية تقريباً في كل البشر تبدو مجرد طقس وصنم للارستقراطية. ربما أفضل شيء في الحرب والسلام، هو وصف صيد الذئب. في النهاية كلب الفلاح يسبق كلاب النبلاء وينال من الذئب، وتجد ناتاشا فيما بعد أن الرقص في كوخ الفلاح أمر طبيعي.

أن ترى هكذا مشاهد في إنكلترا، فعليك أن تعود إلى مئة أو مئتي سنة، إلى زمن لم يكن فيه الفارق في المكانة، يعني أي فرق كبير جداً في العادات. لقد هيمن على إنكلترا ديكنز لوحة إعلانات "من يتعدون على أملاك وأراضي الغير ستتم مقاضاتهم". حين يفكر المرء في موقف

الجناح اليساري المقبول في الصيد بالبنادق وأشباهه، فالغريب أنه يعكس أن لينين وستالين وتروتسكي كانوا كلهم رياضيين رائعين في زمنهم، وأنهم كانوا ينتمون إلى بلاد واسعة فارغة ليس فيها ربط ضروري بين الرياضة والغرور، ولم يكن فيها الفصل بين الريف والمدينة كاملاً أبداً. هذا المجتمع الذي يأخذ أي روائي معاصر مادته منه أكثر شحاً وأقل جمالاً وابتهاجاً من مجتمع تولستوي. وبفهمه لهذا كان واحداً من علامات الموهبة. لو جعل جويس الناس في أهالي دبلن أقل قرفاً مما هم عليه، لكان قد زيّف الحقائق. لكن الأفضلية الطبيعية تكمن مع تولستوي: مع جعل الأشياء الأخرى متساوية، من لا يفضل أن يكتب عن بيير وناتاشا بدلاً من الكتابة عن إغواءات ماكرة في البيوت التي تقدم المنامة والطعام أو رجال أعمال ثملين كاثوليكيين يحتفلون بـ "الاعتزال للصلاة والهدوء"؟

يقدم السيد هاري ليفين في كتابه، بعض التفاصيل القليلة المتعلقة بسيرة جيمس جويس، لكنه لم يستطع أن يخبرنا الكثير عن السنة الأخيرة من حياته، وكل ما نعرفه أنه هرب عبر الحدود إلى سويسرا حين دخل النازيون إلى فرنسا، ومات في بيته القديم في زيوريخ بعد سنة، حتى أنه لم يذكر لنا بشكل مؤكد المكان الذي كان فيه أولاده حتى.

لم يستطع النقاد الأكاديميون أن يقاوموا فرصة الهجوم على جثمان جويس وانتقاده. نشرت التايمز نعياً صغيراً ووضيعاً وحذراً له، ومن ثم رفضت نشر رسالة الاحتجاج التي كتبها رغم أنها (التايمز) لم تفتقر المساحة أبداً من أجل رسائل حول المضارب والوقواق الأول. هذا ينسجم مع التقليد الإنكليزي الجليل بوجوب مدح الميت، إلا إذا حدث وكان فناناً. دع سياسياً يموت ليقف ألد أعدائه على أرض البرلمان ويتلفظ بأكاذيب ورعة على شرفه؛ أما الكاتب أو الفنان، فيجب أن يُحتقر على الأقل. اتحدت الصحف كلها لتهين دي إتش لورانس (كان الوصف المعتاد "إباحي") في اللحظة التي مات فيها. وكان على جويس ألا يترقب سوى عبارات النعي المتكبرة. انهيار فرنسا والحاجة إلى الفرار من الجستابو مثل مشبوه سياسي، كانت مسألة مختلفة. وحين تنتهي الحرب سنكتشف رأي جويس فيها. كان جويس مبعد بشكل متعمد من النزعة المادية المحافظة الإنكليزية-الايرلندية. ايرلندا تبرأت منه، وإنكلترا وأمريكا لم تتحملاه. قوبلت كتبه بالرفض ولم تنشر، وأتلفت من قبل ناشرين

رعاديد، ومنعت حين ظهرت، وتقرصنت مع تستر وتشجيع من السلطات. وفي أي حال، تمّ تجاهلها بشكل كبير، إلى أن نشر كتابه يوليسيس. لقد تعرض لظلم حقيقي، وكان يشعر بشكل مفرط بهذا الظلم. لكن كان هدفه أيضاً أن يكون فناناً "طاهراً"، "فوق العراك" وغير مكترث بالسياسة. لقد كتب يوليسيس في سويسرا، ولديه جواز سفر نمساوي ومعاش تقاعدي بريطاني خلال حرب ١٩١٤-١٩١٨ التي حاول بأقصى ما يمكن ألا يعيرها أي اهتمام. لكن الحرب الحالية، كما اكتشف جويس، ليست من النوع الذي يمكن تجاهله، وأجبرته على التفكير كما أعتقد بأن الخيار السياسي ضروري وأن الغباء حتى أفضل من الديكتاتورية.

لقد أوضح هتلر وأصدقاؤه شيئاً واحداً، وهو الزمن الجيد الذي استمتع به المفكرون والمثقفون في السنوات المئة الأخيرة. أخيراً وبعد كل شيء، كيف يقارن اضطهاد كل من جويس ولورانس وويتمان وبودلير وحتى أوسكار وايلد، بالشيء الذي يحدث للمفكرين والمثقفين الليبراليين في كل أرجاء أوروبا منذ أن وصل هتلر إلى السلطة؟ ترك جويس ايرلندا مشمئزاً:

لم يجبر على الهرب من أجل حياته، كما فعل حين تدحرجت دبابات البانزر في قلب باريس. منعت الحكومة البريطانية يوليسيس في حينه عندما ظهر الكتاب، ورفع المنع بعد خمس عشرة سنة. والأهم ربما أنها ساعدت جويس على البقاء حياً، بينما كان يكتب الكتاب. وبعد ذلك استطاع جويس بفضل كرم معجب مجهول الاسم أن يعيش حياة متحضرة في باريس لمدة عشرين سنة تقريباً، وأن يعمل بغير انقطاع في كتابه يقظة فينيغان، وكان محاطاً بدائرة من المريدين، بينما فِرقٌ مُجِدّة من الخبراء تترجم يوليسيس ليس إلى اللغات الأوروبية المتنوعة، وإنما إلى اللغة اليابانية أيضاً. بين ١٩٠٠ و١٩٢٠ عرف الجوع والإهمال: لكن إجمالاً فإن حياته تبدو جيدة نوعاً ما، لو نظر إليها المرء من داخل معسكر اعتقال ألماني.

لو استطاع النازيون إلقاء القبض على جويس، ماذا كانوا سيفعلون به؟ نحن لا نعرف. ربما كانوا بذلوا جهوداً للظفر به إلى جانبهم وإضافته إلى حقيبتهم المؤلفة من رجال الأدب "المهتدين". لكن يفترض أنه سيرى أنهم لم يفككوا المجتمع الذي اعتاد عليه فقط، وإنما كانوا الأعداء الألداء لكل شيء قدّره واحترمه. إن المعركة التي أرادها أن تكون "فوق" ورطته

بشكل مباشر أخيراً، وأعتقد أنه أجبر نفسه قبل النهاية أن ينطق بتعليق غير محايد على هتلر - ولكونه أتى من جويس يفترض أن يكون لاذعاً جداً- يهجع الآن في زيوريخ وسيكون متاحاً بعد الحرب.

١٧ مارس/ آذار عام ١٩٤٤

من دون قوة على تنفيذ أحكامي، لكن بسيادة ككل سيادات حكومات المنفى التي تلتجئ الآن في أقسام متفرقة من العالم، أعلن حكم الإعدام على الكلمات والعبارات التالية:

عقب آخيل- جزمة عسكرية -ذو رأس كالهدرة -يمتطي نعلاً مزوداً بمسامير -طعنة في الظهر -البرجوازية الصغيرة -جيفة نتنة - يصفي -عقب حديدية -مضطهد ملوث بالدم - خيانة كلبية -الخادم له زي خاص (المتزلف) -خادم في البيت -كلب مسعور -ابن آوى - ضبع -حمام دم.

لا شك أن هذه القائمة، يجب أن تزداد من حين إلى آخر، لكنها تكفي لغرضنا. تحتوي على مجموعة جيدة من المجازات والعبارات الأجنبية المترجمة بشكل رديء، والتي راجت في الأدب الماركسي في السنوات الماضية. هناك طبعاً الكثير من الإفساد للغة الإنكليزية بالإضافة إلى تلك. هناك اللغة الإنكليزية الرسمية أو البنطال المخطط ولغة البرلمان ونقاشات البرلمان (في لحظاتها المحتشمة) ونشرات أخبار البي بي سي، وهناك العلماء والاقتصاديون بتفضيلهم الغريزي لكلمات مثل "لا ينصح بها" و"عدم التقسيم إلى مناطق"، وهناك العامية الأمريكية التي تميل رغم كل جاذبيتها إلى إفقار اللغة على المدى الطويل، وهناك القذارة العامة للكلام الإنكليزي الحديث بحروفه الصوتية المنحطة (في كل منطقة لندن تجبر على استخدام الإشارة لتميز بين "ثلاثة بنسات" و"ثلاثة بنسات ونصف") والميل إلى المبادلة بين الفعل والاسم. لكن أنا مهتم هنا في نوع واحد من الإنكليزية الرديئة، الإنكليزية الماركسية التي يمكن دراستها في الديلي ووركر وذا ليبور مونثلي وذا نيو ليدر وصحف مماثلة.

إن الكثير من العبارات المستخدمة في الأدب السياسي، مجرد عبارات ملطفة لأشياء بغيضة أو خدع بلاغية. "يصفي" مثلاً (أو "يزيل") كلمة مؤدبة عن "يقتل" و"الواقعية" تعني "الكذب" عادة. لكن الأسلوب الماركسي في التعبير غريب في كون أغلبه يتألف من ترجمات.

تأتي (مفرداته) من عبارات ألمانية أو روسية تم إقرارها في دولة تلو أخرى من دون محاولة إيجاد مرادفات مناسبة. هذه مثلاً قطعة من كتابة ماركسية -صدف أن كانت خطاباً موجهاً إلى جيوش الحلفاء من مواطني بانتليرا: يتقدم مواطنو بانتليرا بالتقدير والعرفان للقوات الأنغلوأمريكية، من أجل السرعة التي حررتهم بها من نير الحكم الشيطاني المصاب بجنون العظمة، الذي لم يقنع بامتصاص أفضل قدرات الإيطاليين الحقيقيين لمدة عشرين سنة مثل أخطبوط رهيب، والذي يحول إيطاليا الآن إلى كتلة كبيرة من الخراب والبؤس من أجل دافع واحد -فقط المنفعة الشخصية المجنونة لرؤسائها الذين يخفون تحت قناع مكشوف من الوطنية الجوفاء المزعومة أحط الرغبات الحسية، ويتآمرون مع القراصنة الألمان، ويفقسون أدنى وأحط أنانية وأسوأ معاملة طول الوقت بكلبية ثائرة، ويدوسون على دماء آلاف الإيطاليين. يفترض أن هذا الطهي القذر من الكلمات ترجمة من اللغة الإيطالية، لكن المغزى ألا يعرف المرء أنه كذلك. قد يكون ترجمة من أي لغة أوروبية أخرى أو ربما من الديلي ووركر مباشرة بأسلوب كتابة دولي صادق. صفته المميزة هو الاستخدام اللانهائي لاستعارات مجازية جاهزة. وبنفس الروح، حين كانت الغواصات الإيطالية تُغرق السفن التي تأخذ أسلحة إلى إسبانيا الجمهورية، حثت الديلي وركر البحرية البريطانية "كي تمسح الكلاب المسعورة من البحار". من الواضح أن الناس القادرين على استخدام مثل هذه العبارات نسيوا أن للكلمات معاني.

أخبرني صديق روسي أن اللغة الروسية أغنى من الإنكليزية في مصطلحات الشتم، لذلك لا يمكن ترجمة القدح الروسي بدقة دائماً. حين أشار مولوتوف إلى الألمان بـ "آكلي لحوم البشر" ربما استخدم كلمة بدت طبيعية في الروسية والتي (آكلو لحوم البشر) كلمة فظة قريبة منها. لكن شيوعيينا المحليين أخذوا أكثر من سلسلة كاملة من هذه العبارات المترجمة بشكل فج من الابريكور ومصادر أخرى مشابهة، وبحكم قوة العادة باتوا يعتقدون أنها تعابيرَ إنكليزية حقيقية. مفردات الشتم الشيوعية (المطبقة على الفاشيين أو الاشتراكيين حسب "خط" اللحظة) تشمل كلمات مثل ضبع وجيفة وخادم وقرصان وجلاد ومصاص دماء وكلب مسعور وسفاح ومجرم. إن كانت هذه الترجمات من الدرجة الأولى أو الثانية أو الثالثة، فهي ليست بأي شكل من الكلمات التي يستخدمها الشخص الإنكليزي بشكل طبيعي ليعبر فيها عن استهجانه. تستخدم اللغة من هذا النوع بعد مبالاة مدهشة لمعانيها. اسأل صحفياً ما هي

الجزمة العسكرية، وستجد أنه لا يعرف، ومع ذلك يستمر في التحدث عن الجزمة العسكرية. أو ما هو المقصود بـ يمتطي نعلاً بمسامير؟ عدد قليل جداً من الناس يعرفون هذه أيضاً. من أجل ذلك، في تجربتي، قلة قليلة من الاشتراكيين يعرفون معنى كلمة "بروليتاري"

يمكنك رؤية مثال جيد للغة الماركسية في أسوأ حالاتها في كلمات "خادم تابع" و"ساقط". كانت روسيا قبل الثورة بلداً إقطاعياً فيها جماعات من الخدم الرجال العاطلين عن العمل، كانت جزءاً من التركيبة الاجتماعية؛ في ذلك السياق "متزلف" ككلمة شتم لها معنى. في إنكلترا، المشهد الاجتماعي مختلف تماماً. باستثناء الوظائف العامة، آخر مرة رأيت فيها خادماً في زي الخدم كانت في عام ١٩٢١. وفي الواقع، في الكلام العادي، كلمة "خادم" أضحت مهملة منذ التسعينيات، وكلمة (خادم تابع) منذ قرن. مع ذلك ينقب عن هذه وكلمات أخرى غير ملائمة مثلها لأغراض تخدم تأليف الكراريس. النتيجة، أسلوب كتابي علاقته بكتابة الإنكليزية الحقيقية كعلاقة أحجية الصورة المقطعة برسم لوحة فنية. إنها مجرد مسألة تركيب عدد من القطع الجاهزة معاً. فقط تحدث عن الجزم العسكرية ذات الرؤوس المتعددة، وتمتطي نعالاً خشنة فوق ضباع ملوثة بالدماء، فأنت صحيح ودقيق. للإثبات، راجع أي كراس أصدره الحزب الشيوعي -أو أي حزب سياسي آخر.

٢٤ مارس/ آذار ١٩٤٤.

السؤال: ما هي الفاشية؟ ربما يكون الأهم من بين كل الأسئلة التي لم تتم الإجابة عليها في عصرنا.

وجهت إحدى منظمات المسح الاجتماعية في أمريكا هذا السؤال إلى مئة شخص مختلفين، وحصلت على إجابات تفاوتت من "ديمقراطية صرفة" إلى "شيطنة محضة". ولو سألت شخصاً مفكراً عادياً في هذه البلاد أن يعرف الفاشية، سيرد بالإشارة إلى نظامي الحكم في ألمانيا وإيطاليا. لكن هذا غير مقبول جداً، لأن الدول الفاشية تختلف عن بعضها البعض كثيراً في البنية والأيديولوجيا.

ليس من السهل مثلاً أن تضع ألمانيا واليابان في نفس الإطار، ويصبح الأمر أصعب مع بعض البلدان الصغيرة التي توصف بالفاشية. يفترض عادة مثلاً أن الفاشية يلازمها ولع

بالحروب وتزدهر في جو من هستيريا الحرب، ولا تستطيع حل مشاكلها الاقتصادية إلا بواسطة التحضير للحرب أو بفتوحات أجنبية. لكن هذا ليس صحيحاً، وبشكل واضح مع البرتغال أو ديكتاتوريات متنوعة في أمريكا الجنوبية مثلاً. أو مرة أخرى، إن إحدى العلامات المميزة هي فاشية عداء السامية كما يفترض، لكن بعض الحركات الفاشية ليست معادية للسامية. لم تقدر مناظرات ثقافية ترددت لسنوات.... في مجلات أمريكية أن تحدد إن كانت الفاشية شكلاً من أشكال الرأسمالية أم لا. لكن يظل الأمر حين نطبق مصطلح "فاشية" على ألمانيا أو اليابان أو إيطاليا موسوليني، نحن نعرف ما نقصد تماماً. لقد فقدت تلك الكلمة آخر ذرة من معنى في السياسة الداخلية. فلو دققت في الصحافة، ستجد أنه لا توجد مجموعة من الناس تقريباً -وبالتأكيد حزب سياسي أو هيئة منظمة من أي نوع- لم تُتهم بالفاشية خلال السنين العشر الأخيرة. لا أتكلم هنا عن المعنى الحرفي لمصطلح الفاشية، وإنما عما رأيته مطبوعاً. رأيت كلمات "فاشي في تعاطفه" أو "ميل فاشي" أو فقط "فاشي" تطبق بكل جدية على الجماعات البشرية التالية:

المحافظون: اعتبر كل المحافظين المهدئين وغير المهدئين مؤيدين للفاشية بشكل غير موضوعي. اعتبر الحكم البريطاني في الهند والمستعمرات لا يختلف إطلاقاً عن النازية. صنفت منظمات يمكن وصفها بالوطنية ومن الأنموذج التقليدي بـ "الفاشية السرية" أو "ذات نزعة فاشية". أمثلة على ذلك، الكشافة الصبيان وشرطة المدن والمخابرات العسكرية والفيلق البريطاني. عبارة رئيسية: "المدارس الحكومية أماكن لتفريخ للفاشية".

الاشتراكيون: المدافعون عن الأسلوب القديم للرأسمالية (مثل السير إيرنست بين) يستمرون في القول إن الاشتراكية والفاشية شيء واحد. يقول بعض الصحفيين الكاثوليكيين إن الاشتراكيين كانوا المتواطئين الرئيسيين في البلدان التي احتلتها النازية. نفس الاتهام صادر من زاوية مختلفة من قبل الحزب الشيوعي خلال أطواره اليسارية المتطرفة. في فترة ١٩٣٠-٣٥ كانت الديلي ووركر تشير إلى حزب العمال بالفاشيين العمال. وتردد هذا بواسطة متطرفين يساريين آخرين كالفوضويين مثلاً. بعض القوميين الهنود اعتبروا النقابات الحرفية البريطانية منظمات فاشية.

الشيوعيون: مدرسة فكرية مهمة (مثل راوستشينغ وبيتر دروكر وجيمس بيرنهام وإف إيه فويت) رفضوا الإقرار بأي فرق بين نظام الحكم النازي ونظام الحكم السوفييتي، ورأوا أن

كل الفاشيين والشيوعيين يهدفون تقريباً إلى الشيء نفسه، وإلى حد ما هم نفس الأشخاص حتى. قادة في التايمز (قبل الحرب) أشاروا إلى الاتحاد السوفييتي بـ "بلد فاشي". مرة أخرى من زاوية مختلفة ردد الفوضويون والتروتسكيون هذا.

التروتسكيون: اتهم الشيوعيون التروتسكيين بأنهم منظمة فاشية سرية على جدول الرواتب النازي. ساد هذا الاعتقاد خلال فترة الجبهة الشعبية. في أطوارهم اليمينية المتطرفة، مال الاشتراكيون إلى تطبيق نفس التهمة على كل الزمر التي على يسارهم، مثل الكومنويلث أو حزب العمل المستقل.

الكاثوليكيون: خارج صفوفها، تعتبر الكنيسة الكاثوليكية عموماً تقريباً مناصرة للفاشية بشكل موضوعي وذاتي.

السلميون-مقاومو الحرب: لم يتهم السلميون وآخرون غيرهم بتسهيل الأشياء للمحور، وإنما بتأثرهم بمشاعر مناصرة للفاشية.

مؤيدو الحرب: ترتكز حجة مؤيدو الحرب عادة على الزعم بأن الإمبريالية البريطانية أسوأ من النازية، وينزعون إلى تطبيق مصطلح الفاشية على أي واحد يرغب بنصر عسكري. مؤيدو ميثاق الشعب اقتربوا من الادعاء أن الرغبة في مقاومة الغزو النازي علامة عن التعاطف مع النازية. اتهم الحرس الوطني كمنظمة إرهابية فور ظهوره. بالإضافة إلى أن كل اليسار يميل إلى المساواة بين العسكرة والفاشية. الجنود العسكريون الواعون سياسياً يشيرون دائماً تقريباً إلى ضباطهم بـ "ذوي ميول فاشية" أو "فاشيين بالفطرة". تعتبر المدارس القتالية وابصق ولَمّع وتحية الضباط علامات عن نزعات فاشية. اتهم جيش التجنيد الإلزامي وجيش المحترفين كظواهر فاشية.

القوميون: اعتبرت القومية عموماً فاشية بالأصل، لكن هذا لم يطبق إلا على حركات قومية يستهجنها المتكلم. وصفت القومية العربية والقومية البولندية والقومية الفنلندية وحزب المؤتمر الهندي والعصبة الإسلامية والصهيونية وأي أر إيه (الجيش الايرلندي الجمهوري -المترجم) بالفاشية، لكن ليس من قبل الناس أنفسهم.

يتبين أن كلمة "فاشية" كما استعملت، تخلو من المعنى تماماً تقريباً. وتستخدم في المحادثة طبعاً بطيش أكبر من الطباعة. ولقد سمعتها تطبق على المزارعين، وأصحاب المتاجر، والضمان

الاجتماعي، والعقوبة البدنية، وصيد الثعالب، ومصارعة الثيران، ولجنة ١٩٢٢، ولجنة ١٩٤١، وكيبلينغ، وغاندي، وشيانغ كاي شيك، واللواط، ونشرات بريستلي، ونزل الشباب، وعلم التنجيم، والنساء، والكلاب، وأخرى لا أعرفها.

لكن تحت كل هذه اللخبطة، يكمن هناك معنى خفي. بداية، من الواضح وجود اختلافات عظيمة جداً بعضها سهل تبيانه، ولكن صعب شرحه، بين أنظمة الحكم التي تكنى بالفاشية وتلك التي تكنى بالديمقراطية. ثانياً، إن كانت "فاشيستي" تعني "متعاطف مع هتلر"، فإن بعض من الاتهامات التي جدولتها آنفاً مبررة بشكل واضح أكثر من غيرها بكثير. ثالثاً، حتى الأشخاص الذين يرمون بتهور كلمة "فاشستي" في كل حدب وصوب، يربطونها بمعنى عاطفي ما فهم يقصدون بالفاشية. لنتكلم بصراحة، شيء وحشي ومجرد من الضمير ومتغطرس وظلامي وضد الليبرالية والطبقة العاملة. باستثناء عدد صغير نسبياً من المتعاطفين مع الفاشية، فإن كل شخص إنكليزي تقريباً يقبل بكلمة "متنمر" مرادفة لـ "فاشيستي". هذا أقرب تعريف لهذه الكلمة التي أسيء استعمالها كثيراً.

لكن الفاشية نظام سياسي واقتصادي أيضاً. لماذا لا يكون لدينا تعريف واضح ومقبول عموماً لها؟ واأسفاه! لن يكون لدينا واحد -ليس بعد في أي حال. سبب طول الأمر أكثر من اللازم، لأنه من المستحيل تعريف الفاشية بشكل كافٍ ومرضٍ من دون اعترافات لا يرغب الفاشيون أنفسهم والمحافظون والاشتراكيون من أي لون الإدلاء بها. كل ما يمكن للمرء فعله الآن كما يجري عادة، هو الحذر من امتهان الكلمة إلى مستوى الشتيمة.

٣١ مارس/ آذار عام ١٩٤٤.

في اليوم السابق، حضرت مؤتمراً صحفياً لرجل فرنسي وصل حديثاً وصف بـ "القانوني البارز"- لم يستطع أن يفصح عن اسمه أو أي تخصصات أخرى، لأن عائلته تعيش فرنسا، عبر في المؤتمر عن وجهة النظر الفرنسية حول عملية إعدام بوشيو التي تمت حديثاً. اندهشتُ حين لاحظتُ أنه كان مدافعاً بشكل واضح، واعتبر أن إعدام بوشيو بالرصاص عمل يحتاج إلى قدر جيد من التبرير في عيون البريطانيين والأمريكيين. كانت نقطته الأساسية أن بوشيو لم يعدم لأسباب سياسية، وإنما بسبب الجريمة العادية، وهي "التعاون مع العدو" التي كانت تعاقب بالإعدام دوماً حسب القانون الفرنسي.

سأله مراسل أمريكي السؤال التالي: "هل التعاون مع العدو يكون بالتساوي جريمة في حال كان الفاعل موظفاً صغيراً، مفتش شرطة مثلاً؟". أجاب الفرنسي "مثل بعضهما بالتأكيد" بما أنه جاء من فرنسا للتو، فقد كان ينطق بالرأي الفرنسي، لكن يستطيع المرء أن يفترض أن المتعاونين الأهم والأكثر نشاطاً فقط هم الذين يحكم عليهم بالإعدام، كما أن أي مذبحة كبيرة إن حدثت حقيقة ستكون على الأغلب معاقبة الجاني بالجاني. وهناك دليل كبير بأن قطاعات واسعة من السكان الفرنسيين كانوا مؤيدين للألمان تقريباً في عام ١٩٤٠ ولم يبدلوا آراءهم إلا عندما اكتشفوا حقيقة الألمان.

أنا لا أريد لأشخاص مثل بوشيو أن ينجو ويفلتوا من العقاب، وقد أعدم عدد قليل جداً من باعة الأوطان الخفيين منهم واحد أو اثنان من العرب أيضاً. وهذا العمل من الانتقام من الخونة ومن أسرى الأعداء بمجمله يطرح أسئلة استراتيجية وأخلاقية أيضاً. النقطة أنه لو أعدمنا عدداً كبيراً من الخونة والواشين الصغار الآن، فلن تبقى لدينا القابلية للتعامل مع الخونة الكبار حين يأتي الوقت. من الصعب التصديق أنه يمكن سحق الأنظمة الفاشية تماماً من دون قتل الأفراد المسؤولين بعدد من بضع مئات أو آلاف منهم حتى في كل بلد من البلدان، لكن يمكن أن يحدث وينجو كل الأشخاص المذنبين في النهاية، وذلك لأن الرأي العام ببساطة اشمأز مسبقاً من محاكمات مرائية زائفة وإعدامات وحشية بدم بارد.

وبالتالي هذا ما حدث في الحرب الأخيرة. من هو الشخص الذي كان حياً في تلك السنين ولا يتذكر الكره الجنوني للقيصر الذي ترعرع في هذه البلاد؟ وكان مثل هتلر في هذه الحرب، هو السبب لكل أمراضنا ومآسينا، ولم يشك أحد بأنه سيعدم حالما يلقون القبض عليه. وكان السؤال الوحيد بأي طريقة سيفعلون ذلك. وكتبت مقالات في المجلات عن الطرق المتنافسة لإعدامه، ودرست بعناية من غليه بالزيت أو سحله وتقطيعه إلى أرباع وخلع أطرافه على دولاب. وغصّت معارض الأكاديمية الملكية بالصور المجازية للسوقية التي لا تصدق التي تظهر القيصر مرمياً في الجحيم. وماذا نتج عنها في النهاية؟ اعتزل القيصر وانكفأ إلى هولندا، وعاش اثنين وعشرين سنة أخرى كواحد من أغنى رجال أوروبا (رغم أنه كان يحتضر من السرطان في عام ١٩١٥).

وهذا ما سيحدث لكل "مجرمي الحرب" أيضاً. بعد كل التهديدات والوعود التي أُطلقت، لم يُحاكم مجرمو الحرب: لأكون دقيقاً، جرت محاكمة دزينة من الأشخاص الذين حكم عليهم بالسجن، ثم أطلق سراحهم سريعاً. إن الفشل في سحق الطبقة العسكرية الألمانية، يعود طبعاً إلى السياسة المتعمدة لقادة الحلفاء الذين ارتعبوا من ثورة في ألمانيا، ساعد في جعلها ممكنة تغير مشاعر الناس العاديين الذين لم يعد يريدون الانتقام حين بات في مقدورهم ذلك. وباتت الأعمال الوحشية في بلجيكيا والآنسة كافيل وقباطنة الغواصة الذين أغرقوا سفن المسافرين من دون إنذار والذين نجوا من الرشاشات، كلها في طي النسيان. لقد قُتل عشرة ملايين رجل بريء، ولم يرغب أحد بأن يتبعهم بقتل بضعة آلاف من الأشخاص المذنبين.

إن كنا سنعدم الفاشيين وخونة الوطن الذين يحدث أن يقعوا في أيدينا، ليس مهماً بحد ذاته، ولكن المهم ألا يكون الانتقام و"العقاب" قسماً من سياستنا أو من أحلام يقظتنا حتى. حالياً، إحدى الصور المهدئة من هذه الحرب، أن الكره في هذه البلاد كان ومازال قليلاً جداً، وليس هناك شيء من العنصرية غير المنطقية التي وجدت في المرة السابقة. فمثلاً، ليس هناك ذريعة وادعاء بأن لكل الألمان وجوه كوجوه الخنازير، كما لم تنتشر كلمة "هون" نفسها على نطاق شعبي حتى، ولم يتعرض الألمان الذين في هذه البلاد وأغلبهم لاجئون إلى أي معاملة سيئة، ولم يُضطهدوا ويُقمعوا بشكل خسيس كما حصل في المرة الماضية. في الحرب الماضية، كان التحدث إلى ألماني في الشارع شيئاً خطراً جداً، كما أغلق الغوغاء محلات أصحاب الأفران الصغيرة ومزيني الشعر الألمان البائسين، ولم تعد الموسيقى الألمانية مفضلة ومحبوبة، حتى أن سلالة الدهشند كادت تختفي، فلم يعد هناك أحد يريد امتلاك "كلب ألماني". وكان للموقف البريطاني الضعيف في الفترة المبكرة من إعادة التسلح الألماني، علاقة مباشرة بحماقات سنوات الحرب تلك.

إن الكره أساساً مستحيل للسياسة، والغريب تماماً أنه يمكن أن يؤدي إلى رقة مفرطة أو قسوة مفرطة بالتساوي. في حرب ١٩١٤-١٩١٨ جُهز الشعب البريطاني وعُبئ بشعور من الكره المسعور الشائن، وتغذى على أكاذيب منافية للعقل عن صلب أطفال بلجيكيين وعن مصانع ألمانية تحول الجثث فيها إلى سمن صناعي: ثم بعد ذلك وفور توقف الحرب، عانوا من نفور طبيعي كان الأقوى، لأن الجنود عادوا إلى الوطن كما يفعل الجنود عادة، بإعجاب قوي بالعدو.

كانت النتيجة رد فعل مؤيداً للألمان، بدأ في عام ١٩٢٠ واستمر إلى أن استولى هتلر على السلطة ومكّن نفسه. خلال تلك السنين كان كل الرأي "المستنير" (راجع عدد من الديلي هيرالد قبل عام ١٩٢٩ مثلاً) يعتبر من المسلم به أن ألمانيا لا تتحمل المسؤولية عن الحرب. وذهب كل من تريتشكي وبيرنهاردي والرابطة الجرمانية والأسطورة النوردية والتباهي الصريح بـ " دير تاغ" الذي كان الألمان يصنعونه منذ عام ١٩٠٠ وصاعداً- أدراج الرياح. لقد كانت معاهدة فرساي أكبر عمل شائن شهده العالم: بضعة أشخاص فقط سمعوا ببريست-ليتوفسك، وكان هذا كله ثمن عربدة السنوات الأربع تلك من الكذب والكره.

كل من حاول أن يوقظ الرأي العام أثناء سنوات العدوان الفاشي من عام ١٩٣٩ وما بعد، يعرف كيف ستكون نتائج دعاية الكره تلك. أصبح ينظر إلى الأعمال الوحشية كمرادف لكلمة "أكاذيب"، لكن القصص عن معسكرات الاعتقال الألمانية، كانت قصصاً وحشية: لذلك كانت أكاذيب -هكذا استنتج الرجل العادي. حاول اليساريون أن يفهموا الجمهور أن الفاشية رعب لا يوصف، وأنهم كانوا يقاتلون ضد دعايتهم في الخمس عشرة سنة الماضية.

لهذا السبب -رغم أنني لن أوفر مخلوقاً مثل بوشيو حتى لو استطعت- أنا لا أكون سعيداً عندما أرى محاكمات "مجرمي الحرب" وخصوصاً حين يكونون من المجرمين الصغار جداً، وحين يسمح للشهود بإلقاء خطابات سياسية ملتهبة، وأكون أقل سعادة حين أرى اليسار يضم نفسه إلى خطط تهدف إلى تقسيم ألمانيا وتجنيد ملايين الألمان في عصابات العمل القسري، وفرض تعويضات تجعل من تعويضات فرساي تبدو مثل ثمن تذكرة حافلة. كل هذه الأحلام الانتقامية مثل تلك في ١٩١٤-١٩١٨ سوف تجعل من الصعب وجود سياسة واقعية لفترة ما بعد الحرب. لو فكرت في شروط "جعل ألمانيا تدفع"، ستجد نفسك على الأرجح تمدح هتلر في عام ١٩٥٠ إن الذي يهم هو النتائج، وإحدى النتائج التي نريدها من هذه الحرب أن نكون مطمئنين وواثقين من أن ألمانيا لن تشن حرباً أخرى. لكنني لست متأكداً تماماً أيها أفضل: أن يحدث هذا وينجز بالقسوة أم بالكرم، لكنني متأكد تماماً أن كلاً منهما سيكون أصعب إن سمحنا لأنفسنا أن نتأثر بالكره.

التريبيون، ١٤ نيسان/ أبريل ١٩٤٤.

كرست صحيفة الكومنويلث عدة فقرات من عددها الصادر في شهر أبريل/ نيسان لمشكلة هبوط معدل الولادات في بريطانيا. إن الكثير مما قالته صحيح، لكنها أسقطت الملاحظات التالية:

أسرع العلماء بالإشارة إلى موانع الحمل وأخطاء التغذية وعدم الخصوبة والأنانية وانعدام الأمن الاقتصادي.. إلخ، كأسباب رئيسية للانحدار. لكن الوقائع لا تؤيدها. في ألمانيا النازية؛ حيث حبوب منع الحمل غير شرعية، وصل معدل الولادات إلى رقم قياسي في الانخفاض، بينما في الاتحاد السوفييتي؛ حيث لا توجد مثل هذه القيود والسكان صريحون وصادقون...... فإن التكاثر، كما ساعدت تجربة بيكام على إثباته، يُحفز في بيئة تميزها الألفة والتعاون...... حين تستعيد الحياة معناها وغرضها، تستمر عجلة التكاثر في الطنين، وتصبح الحياة مغامرة وتجربة مثيرة مرة أخرى بدلاً من كونها عبثاً، لن نسمع بعد اليوم بنقص في الأطفال.

ليس من المناسب للجمهور معاملة مواضيع هامة جداً بهذه الطريقة المتهورة. بداية: تستنتج من المقطع المذكور أعلاه أن هتلر خفض معدل الولادات في ألمانيا. على العكس لقد رفعه إلى مستويات غير مسبوقة أثناء جمهورية فيمار. قبل الحرب، كان المعدل فوق المستوى المكتمل لأول مرة في سنوات كثيرة. بدأ الهبوط الكارثي في معدل الولادات في ألمانيا في عام ١٩٤٢ وهذا يعود جزئياً كما يفترض إلى أن عدد كبير من الذكور الألمان كانوا بعيدين عن الوطن. الأرقام غير متاحة الآن، لكن معدل الولادات في روسيا هبط أيضاً بالتأكيد في الفترة نفسها.

وسوف تستنتج أيضاً أن تاريخ معدل الولادات العالي في روسيا يعود إلى بداية الثورة، لكنه كان مرتفعاً في زمن القياصرة أيضاً. وليس هناك ذكر أيضاً للبلدان التي معدل الولادات فيها بأقصى مستوياته كالهند والصين واليابان (التي خلفهما بقليل). هل من الصائب القول إن حياة الفلاح الهندي "مغامرة وتجربة مثيرة وليست عبثاً"؟

الشيء الوحيد الذي يمكن قوله بدرجة شبه كاملة من اليقين حول هذا الموضوع، إن معدل الولادات المرتفع يتماشى مع مستوى عيش منخفض، والعكس صحيح. وإن كانت هناك استثناءات حقيقية، فهي قليلة جداً، وإلا فإن القضية معقدة جداً. من الهام والحاسم أن

نتعلم عن الموضوع أقصى ما نستطيع، لأنه سيكون هناك هبوط كارثي في عدد سكاننا إذا لم ينعكس الاتجاه الحالي في غضون عشرين سنة كحد أقصى. لا يجب أن نفترض كما يفعل بعض الناس، أن هذا مستحيل، لأن مثل هذه التغيرات في الاتجاه والنزعة حدثت من قبل. يثبت الخبراء الآن أن عدد سكاننا سيكون بضعة ملايين في نهاية هذا القرن، لكنهم أثبتوا أيضاً في عام ١٨٧٠ أننا في عام ١٩٤٠ سيكون عدد السكان ١٠٠ مليون نسمة. لكي نصل إلى مستوى الاكتمال مرة أخرى، يجب ألا يأخذ معدل ولادتنا مثل هذه التقلبات الصاعدة المثيرة كمعدل الولادات التركية مثلاً، بعد أن استولى مصطفى كمال على السلطة. لكن الضرورة الأولى أن نكتشف سبب هبوط وارتفاع عدد السكان، وأن الادعاء بأن معدل الولادات المرتفع هو منتج جانبي للاشتراكية، افتراض يجافي العلم تماماً مثل القبول بكل ما يقوله القساوسة الرومان الكاثوليك الذين لا أولاد لديهم، حول هذا الموضع.

حين قرأت الأحداث في مجلس العموم الأسبوع قبل الماضي، تذكرتُ حادثة صغيرة شهدتها بعيني منذ أكثر من عشرين سنة.

كانت مباراة كريكت في قرية. كابتن الطرف الأول كان إقطاعياً محلياً، وبالإضافة إلى كونه غنياً جداً كان تافهاً وطفولياً، بدا له الفوز بهذه المباراة أمراً هاماً جداً. كان كل الذين يلعبون في صفه تقريباً من المستأجرين عنده. كان فريق الإقطاعي خاسراً، وكان هو نفسه خارج اللعب ويجلس في الخيمة. صدفة ضرب أحد اللاعبين ويكته (ثلاث عصي تعتبر هدفاً) بنفس الوقت الذي دخلت فيه الكرة في يدي حارس الويكت. "ذلك لم يخرج" قال الإقطاعي فوراً، وتابع التحدث مع الشخص الذي بجانبه. قرر الحكم أنه "خرج"، وكان اللاعب في وسط طريقه عائداً إلى الخيمة قبل أن يدرك الإقطاعي ما كان يحدث. لكنه فجأة لمح اللاعب العائد، فتلون وجهه بظلال كثيرة حمراء.

"ماذا!" صاح "لقد أعطاه الخروج؟ هراء! طبعاً هو لم يخرج!". ثم وقف بعد ذلك وصرّ قبضتيه وصرخ بالحكم: "مرحباً، لماذا أعطيت ذلك الرجل الخروج؟ هو لم يخرج أبداً!"

توقف لاعب الكرة. تردد الحكم، ثم استدعى ضارب الكرة إلى الويكت، واستمر اللعب.

كنت مجرد ولد في ذلك الوقت، وبدا هذا الحادث أكثر شيء صادم رأيته في حياتي. لكن الآن وبعد أن تقسينا كثيراً مع مرور الوقت، سيكون رد فعلي مجرد سؤال إن كان الحكم من مستأجري الإقطاعي أيضاً.

في هجوم علي وعلى السيد سي ايه سميث في مالفيرن تورش، بسبب ملاحظات متنوعة عن الدين المسيحي، تأجج السيد سيدني دارك غضباً لأنني قلت إن الاعتقاد في الخلود الشخصي أصابه البلاء والعفن، وقال: "أنا أراهن لو أن غالوب أجرى استفتاء للرأي، فسيعترف خمسة وسبعون بالمئة (من سكان بريطانيا) باعتقاد غامض في البقاء". وفي مكان آخر وخلال نفس الأسبوع، جعلها السيد دارك خمس وثمانين بالمئة.

اكتشفت أنه من النادر جداً الآن أن تلتقي بأحد مهما كانت خلفيته، ويعترف باعتقاده في الخلود الشخصي. ومع ذلك مازلت أعتقد أنك لو سألت كل واحد هذا السؤال ووضعت قلماً وورقة بيديه، لقبل عدد كبير (أنا لست حراً جداً مع نسبتي المئوية مثل السيد دارك) بإمكانية أن يكون هناك "شيء بعد الموت". إن النقطة التي يفقدها السيد دارك، تكمن في أن الاعتقاد لم تعد له الواقعية التي كانت لدى أجدادنا، وأنا لم أقابل أحداً أبداً أعطاني الانطباع في إيمانه بالعالم الآخر بقوة كإيمانه بوجود أستراليا مثلاً. إن الإيمان بالعالم الآخر، لا يؤثر على السلوك، كما كان له أن يفعل لو كان حقيقياً. كم ستبدو حياتنا تافهة في ذلك الوجود اللانهائي بعد الموت الذي نتطلع إليه! أغلب المسيحيين يعترفون بإيمانهم بجهنم، لكن هل قابلت قط مسيحياً بدا خائفاً من جهنم كما يخاف من مرض السرطان؟ حتى المسيحيون الورعون جداً سيسخرون من جهنم، لكنهم لا يسخرون من الجذام أو من طياري آر أي إف (القوة الجوية الملكية) بوجوههم المحترقة: الموضوع مؤلم جداً. هنا تقفز في ذهني قصيدة صغيرة من ثمانية أبيات للراحل جي كي تشيسترتون:

ما يدعو للأسف أن بوبا باع روحه

التي جعلته يئز من الاحتراق عند الإفطار

النقود كانت مفيدة ولا تزال كذلك عموماً

ما يدعو للأسف أن بويا باع روحه

حين كان عليه أن يتماسك ويواصل مثل البارون ديك ول

ولا يرحل بسرعة حين كان الثمن متدنياً

ما يدعو للأسف أن بويا باع روحه

التي جعلته يئز من الاحتراق عند الإفطار.

ليت تشيسترتون ككاثوليكي قال إنه يؤمن بجهنم. لو كان جاره احترق حتى الموت، لما كتب قصيدة ساخرة عنه، لكنه استطاع أن يسخر من شخص يئز ويتقلى منذ ملايين السنين. أقول إن هكذا إيمان ليس له واقعية، وأنه عملة زائفة مثل النقود في بنوك بتلر الموسيقية.

٢١ أبريل/ نيسان

في رسالة نشرت هذا الأسبوع في التريبيون، هاجمني أحدهم بعنف لأنني قلت إن البي بي سي مصدر أنباء أفضل من الصحف اليومية، ولهذا تحترم من قبل الجمهور. ولمح قائلاً بأنني لم أسمع أبداً العمال العاديين يصيحون "أخرِس ذلك المغفل!" حين تقدم نشرة الأخبار.

على العكس، لقد سمعت هذا كثيراً ورأيت أكثر زبائن الحانة يواصلون اللعب ورمي سهامهم والاستماع إلى موسيقاهم وغيره من دون أي تخفيف للضجيج، حين تبدأ نشرة الأخبار. لم أدعِ أن كل شخص يحب البي بي سي أو يرى أنها ممتعة أو ناضجة أو ديمقراطية أو تقدمية. لقد قلت إن الناس يعتبرونها مصدراً دقيقاً وصحيحاً نسبياً للأخبار. لقد عرفت مراراً أشخاصاً حين يرون بعض الشكوك في خبر من الأخبار، ينتظرون تأكيده من الراديو قبل تصديقه، كما أن عمليات المسح الاجتماعي تبين الشيء نفسه -أي أن احترام الصحف الإخبارية انحدر مقارنة بالراديو.

وأنا أكرر ما قلته آنفاً من خلال تجربتي مع البي بي سي، إنها صادقة نسبياً، والأهم أن لها موقفاً مسؤولاً تجاه الأخبار، ولا تنشر الأكاذيب لمجرد أنها "حافلة بالأخبار". إن التصريحات الكاذبة تبث طبعاً، وأي شخص يستطيع تقديم الأمثلة على ذلك. لكن في أغلب الحالات هذا يعود إلى خطأ أصلي وخطايا البي بي سي في تجنب أي شيء خلافي أكثر بكثير من خطايا الدعاية المباشرة. وأخيراً- نقطة هامة لم يذكرها صاحب الرسالة- سمعتها الخارجية

عالية بالمقارنة. اسأل أي لاجئ من أوروبا أي عن الإذاعة الأكثر صدقاً من الإذاعات المتحاربة وفي آسيا كذلك وحتى في الهند، حيث السكان عدائيين جداً ولا يستمعون إلى الدعاية البريطانية، وقلما يصغون إلى برنامج تسلية بريطاني، يستمعون إلى أخبار البي بي سي، لأنهم يعتقدون أنها تداني الحقيقة.

حتى لو مررت البي بي سي الأكاذيب البريطانية الرسمية، فهي تبذل بعض الجهد لتغربل الأكاذيب الأخرى. أغلب الصحف مثلاً استمرت في النشر من دون أي تساؤل بخصوص تصديق المزاعم الأمريكية بإغراق الأسطول الياباني بأكمله مرات كثيرة. البي بي سي على حد علمي، كشفت عن موقف مبكر من الشك تجاه هذا وتجاه مصادر غير موثوقة معينة أخرى. في أكثر من مرة، عرفت جريدة تنشر نبأ- وأخبار غير سارة لبريطانيا- من دون أي مرجع آخر أكثر من الإذاعة الألمانية، لأنه "خبر حافل بالأحداث" ويدر الكثير من المكاسب.

إن رأيت شيئاً كاذباً بشكل واضح في صحيفة وهاتفتهم لتسأل "من أين حصلتم على هذا الخبر؟" سوف تصرف عادة بالصيغة التالية: "أخشى أن السيد فلان ليس في المكتب". لو ألححتَ، ستجد أن الخبر بلا أساس، لكنه يبدو خبراً جيداً. وحين يتعلق الأمر بالتشهير يندهش الصحفي العادي ويملأه الازدراء إن اهتم أي شخص بدقة وصحة الأسماء والتواريخ والأرقام والتفاصيل الأخرى. إن أي صحافي يومي يخبرك أن واحداً من أهم أسرار مهنته، هو الخدعة بجعل الأمر يبدو أن هناك خبراً حين لا يكون هناك خبر.

من غير الممكن أن يحدث ويكون الرومانسيون من النوع الأكثر تطرفاً وعاطفية، لا ينتمون إلى الأمة التي يبجلونها. القادة الذين أسسوا جاذبيتهم على الحزب أو أرض الأجداد، كانوا أجانب بالكامل أو أتوا من بلدان محاذية من إمبراطوريات عظمى. أمثلة جلية على ذلك أن هتلر نمساوي ونابليون كورسيكي. لكن هناك آخرين كثيرين غيرهما. الرجل الذي يمكن القول إنه مؤسس الوطنية البريطانية المغالى بها كان ديزرائيلي وهو يهودي إسباني، واللورد بيفربروك الذي حاول حث الإنكليز المعارضين أن يصفوا أنفسهم بريطانيين هو من أصل كندي. لقد شيدت الإمبراطورية البريطانية إلى حد كبير بأيدي الرجال الايرلنديين والاسكتلنديين وأشد قوجيينا عناداً وأغلب إمبرياليينا من الالستريين (ايرلندا الشمالية). حتى تشرشل النصير الملهم للوطنية الرومانتيكية في عصرنا نصف أمريكي. ليس رجال الحرب

فقط، وإنها منظرو القومية أيضاً جلهم أجانب. الرابطة الجرمانية مثلاً التي أخذ منها النازيون الكثير من أفكارهم، كان جلّها من نتاج رجال ليسوا ألماناً: مثلاً هاوستون تشامبرلاين إنكليزي وغوبيناو فرنسي. روديارد كيبلينغ كان إنكليزياً، لكن من النوع المشكوك فيه. انحدر من خلفية أنغلوهندية غير عادية (والده القيم على متحف بومباي) قضى طفولته المبكرة في الهند وكان ذا قامة صغيرة وبشرة داكنة سببت له شكوكاً مغلوطة عن امتلاكه لدم آسيوي. قلت دائماً لو كان لدينا هتلر في هذه البلاد، فسيكون ايرلندياً شمالياً، أو من جنوب أفريقيا أو مالطياً أو أوراسياً أو أمريكياً -لكن ليس إنكليزياً في كل الأحوال.

في نهاية شهر مايو/ أيار من عام ١٩٤٠، منعت ملصقات معينة لتوفير الورق، لكن عدد من الصحف استمر في عرض ملصقات لبعض الوقت بعد ذلك. عند الاستعلام، وجد أن هذه الصحف كانت تبيع الملصقات القديمة، وتمكنت من استخدام عناوين مثل "فرق من البانزر عادت بسرعة" و"الجيش الفرنسي صامد بقوة" مرة تلو الأخرى. بعد ذلك أتت الفترة التي زوّد باعة الورق ملصقاتهم بلوح وقطعة طبشور وفي أيديهم أصبح الملصق شيئاً صادقاً وواقعياً. إنه يدل على شيء موجود فعلياً في الصحيفة التي سوف تشتريها، وعادة ينتقي الأخبار الحقيقية وليس قطعة هراء حسي مثير. باعة الورق الذين لم يعرفوا عادة أي طريق يذهب حول العاصمة، ليس لديهم فكرة عن ماهية الخبر وعن إحساسهم بالمسؤولية نحو الجمهور أفضل من أصحاب عملهم المليونيرين.

يعتبر مراسلنا أن الجمهور والصحفيين وليس الملاكين هم من يجب أن يلاموا عن سخف الصحف الإنكليزية. وهو يقول ضمناً إنك لا تستطيع أن تصنع صحيفة ذكية تربح، لأن الجمهور يريد شيئاً تافهاً. أنا لست متأكداً إن كان الأمر هكذا. في الوقت الحالي أغلب التوافه تتلاشى وكم توزيع الصحف لم ينحدر. لكني أوافق -وأنا قلت هكذا- أن الصحفيين يقتسمون الملامة. لقد عمل الصحفيون بشكل كبير وبعيون مفتوحة على السماح لمهنتهم أن تكون مهينة، بينما إلقاء اللوم على شخص مثل نورثكليف لأنه يريد ربح المال بأسرع طريقة، هو مثل إلقاء اللوم على حيوان الظربان بسبب رائحته النتنة.

أحد ألغاز اللغة الإنكليزية، هو لماذا تستعير كلمات وعبارات أجنبية دائماً رغم امتلاكها لأكبر عدد من المفردات في الوجود. أين المغزى مثلاً في قول طريق مسدود باللغة الفرنسية، حين تقصد نفس العبارة الموجودة باللغة الإنكليزية؟ عبارات فرنسية أخرى غير ضرورية نهائياً مثل سعادة العيش وحب الذات وجهاً لوجه. هناك العشرات منها. استعارات غير ضرورية أخرى تأتي من اللاتينية (لكن توجد اختصارات مفيدة كاختصار أي ومثلاً) ومنذ الحرب ابتلينا بوباء الكلمات الألمانية مثل مجال حيوي ونظرة عالمية وفرقة دبابات بانزر وغيرها، التي ترمى هنا وهناك بحرية كبيرة. في كل حالة هناك مرادف إنكليزي مسبقاً موجود أو يمكن ارتجاله بسهولة. هناك أيضاً ميل لاغتنام عبارات عامية أمريكية من دون فهم معانيها كتعبير "نزع لحاء الشجرة الخطأ" مثلاً الذي يستخدم على نطاق واسع، لكن الاستعلام يبين أن أغلب الناس لا يعرفون مصدره ولا ماذا يعني بالضبط.

أحياناً من الضروري استعارة كلمة أجنبية، لكن في تلك الحالة يجب أن نجعل لفظها إنكليزياً، كما اعتاد أجدادنا أن يفعلوا، لأنه ما الحكمة في تلويث كلامنا بشظايا من ألفاظ أجنبية مزعجة جداً لكل واحد لم يتعلم تلك اللغة بالذات؟

ولماذا لا يستخدم أغلبنا كلمة ذات أصل إنكليزي إن استطعنا إيجاد كلمة إغريقية مصنعة؟ يرى المرء مثالاً جيداً عن هذا، فيما الاختفاء السريع لأسماء الزهور الإنكليزية. وهناك أسماء أخرى تختفي لصالح أسماء إغريقية لا لون لها من كتب علم النبات المدرسية. من الأفضل ألا نستمر طويلاً جداً في هذا الموضوع، لأنني آخر مرة ذكرت فيها الزهور في هذا العمود، كتبت لي سيدة ناقمة قائلة إن الزهور برجوازية. لكن لا أظن أنه نذير خير لمستقبل اللغة الإنكليزية أن "ماريغولد - القطيفة" يجب أن تسقط لصالح "كاليندولا"، و"شيدار بينك- قرنفل" الصغير السائغ يخسر اسمه ويصبح مجرد "دايانثوس كاسيوس".

التريبيون ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٤٤

في ليلة من عام ١٩٤٠ حين أطلق وابل من نيران المدفعية المضادة للطيران فوق لندن لأول مرة، كنت في ساحة البيكاديلي حين فتحت المدافع أفواهها، فهربت إلى داخل مقهى والتجأت فيه. بين الحشد في الداخل، شاب وسيم وأنيق في الخامسة والعشرين من عمره تقريباً، وكان

يقوم ببعض الإزعاج بنسخة من بيس نيوز بفرضها على انتباه كل واحد في الطاولات المجاورة. تبادلت الحديث معه، وسارت المحادثة على هذا الشكل:

الشاب: أقول لك سوف تنتهي قبل حلول عيد الميلاد، وستتم تسوية سلمية كما هو واضح. أنا أعلق إيماني بالسير صامويل هور. أعترف أن صحبته مهينة، لكن يظل هور إلى جانبنا. طالما هور في مدريد، يظل هناك أمل في الخيانة دائماً.

أورويل: ماذا عن تلك التحضيرات التي تجري ضد الغزو- المعاقل الصغيرة التي يبنيها في كل مكان متطوعو الدفاع المحلي وهلم جرا؟

الشاب: أوه، ذلك يعني أنهم يستعدون لتحطيم الطبقة العاملة حين يصل الألمان إلى هنا. أعتقد أن البعض منهم قد يكونون حمقى جداً، ويحاولون المقاومة، لكن تشرشل والألمان لن يطول الأمر بينهما حتى يسووا أمرهم. لا تقلق ستنتهي الأمور قريباً.

أورويل: هل تريد حقيقة أن ترى أطفالك يتربون كنازيين؟

الشاب: هراء! هل تعتقد أن الألمان سيشجعون الفاشية في هذه البلاد؟ هم لا يريدون أن ينتجوا سلالة من المحاربين تقاتل ضدهم. سيكون الهدف تحويلهم إلى عبيد، لهذا السبب أنا سلامي- أرفض حمل السلاح. سيشجعون أناساً مثلي.

أورويل: ويطلقون النار على أناس مثلي؟

الشاب: سيكون ذلك سيئاً جداً.

أورويل: لكن لماذا أنت تواق جداً لتبقى حياً؟

الشاب: لكي أستطيع الاستمرار والتقدم في عملي طبعاً.

تبين من المحادثة أن الشاب كان رساماً -إن كان ذلك جيداً أو سيئاً، فأنا لا أعرف، لكن في كل الأحوال هو مهتم بإخلاص في الرسم ومستعد تماماً لمواجهة الفقر في السعي وراءه. ربما يكون الرسام أفضل مما يكونه الكاتب أو الصحفي تحت احتلال ألماني، لكن يظل ما قاله يحتوي على فكرة خاطئة خطيرة جداً، تنتشر كثيراً الآن في البلدان التي لم تتوطد الديكتاتورية فيها.

إن الاعتقاد بأنك تستطيع أن تكون حراً من داخلك تحت حكومة ديكتاتورية، هي فكرة خاطئة ووهم، وهناك عدد كبير من الناس يواسون أنفسهم بهذه الفكرة، بعد أن ترقت

الديكتاتورية وتعززت بشكل واضح في كل جزء من العالم. في الخارج في الشوارع تجأر مكبرات الصوت وترفرف الأعلام من أسطح البيوت، ويطوف رجال الأمن ببنادقهم الرشاشة في الشوارع ذهاباً وإياباً، ويطلّ وجه القائد بعرض أربعة أقدام من كل لوحة إعلانات جدارية ضخمة. لكن في العليات يستطيع أعداء نظام الحكم السريين تسجيل أفكارهم بحرية تامة -تلك هي الفكرة تقريباً، ويعتقد كثير من الناس بسبب هذه الفكرة الغامضة، أن هذا هو ما يحدث في ألمانيا وفي البلدان الديكتاتورية الأخرى الآن.

لماذا هذه الفكرة فكرة زائفة؟ أنا سأتجاهل حقيقة أن الديكتاتوريات الحديثة لن تترك المنافذ التي تركتها الحكومات الاستبدادية المطلقة من الطراز القديم، بالإضافة إلى إضعاف الرغبة في الحرية الفكرية بسبب الأساليب الاستبدادية في التربية. إن الخطأ الأكبر، هو التخيل بأن الكائن البشري فرد مستقل بذاته. إن الحرية السرية التي تستطيع الاستمتاع بها في تصورك في ظل حكومة استبدادية، مجرد هراء، لأن أفكارنا ليست خاصتنا تماماً. إن الفلاسفة والكتاب والفنانين وحتى العلماء، لا يحتاجون إلى تشجيع وجمهور فقط، وإنما إلى تحفيز مستمر وثابت من الناس الآخرين. من شبه المستحيل أن تفكر من دون حديث. لو عاش ديفو في جزيرة مهجورة لما استطاع أن يكتب روبنسون كروزو، ولا رغب في فعل ذلك حقيقة. احذف الحرية من الكلام، لتجد أن القدرات الإبداعية قد جفت. لو وصل الألمان إلى إنكلترا فعلاً، لوجد رفيقي في مقهى الرويال أن رسمه سيتلف قريباً حتى لو تركه الجستابو بحاله. وحين يُرفع الغطاء عن أوروبا، أعتقد أن أحد الأشياء التي ستفاجئنا، هو اكتشافنا هي درجة تفاهة الكتابة من أي نوع- حتى أشياء مثل المذكرات- التي ستنتج في السر تحت ظل الحكام المطلقين.

سمح السيد باسيل أنريكو، رئيس محكمة لندن الشرقية للأحداث، لنفسه بالتعليق على موضوع الفتاة العصرية، وقال إن الصبيان الإنكليز "ممتازون ورائعون"، لكن الأمر مختلف مع الفتيات:

نادراً ما يصادف المرء صبياً سيئاً حقيقياً. يبدو أن الحرب أثرت على الفتيات أكثر من الصبيان...... يذهب الأطفال (الصبيان والبنات-المترجم) إلى السينما الآن عدة مرات في الأسبوع الواحد، ويرون ما يتخيلون أنه الحياة البهيجة الأمريكية، بينما هو في الواقع طعن

وتشهير على تلك البلاد. هم أيضاً يعانون من آثار الاستماع عبر الميكروفون إلى الضجيج الأجش الراقص الذي يسمى موسيقى...... الفتيات بعمر الرابعة عشرة يلبسن ويتحدثن مثل الفتيات اللواتي في الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، ويضعن نفس القذارة والوحل على وجوههن.

أتساءل إن كان السيد إنريكو يعرف (أ) أنه من قبل الحرب كان من المعتاد نسب جريمة الحدث إلى الأنموذج الشرير في الفن السينمائي، و(باء) أن الفتاة العصرية هي نفسها تماماً منذ ألفي سنة؟

إحدى أكبر حالات الفشل في التاريخ الإنساني، كانت المحاولة الأبدية لمنع النساء من طلي وجوهن بمواد الزينة والأصباغ. شجب فلاسفة الإمبراطورية الرومانية تفاهة المرأة العصرية بنفس العبارات تقريباً التي تُشجب بها اليوم. في القرن الخامس عشر شجبت الكنيسة العادة الملعونة في نتف حواجب العيون. البوريتان الإنكليز والبلاشفة والنازيون كلهم حاولوا أن يعيقوا مستحضرات التجميل من دون أن ينجحوا. في إنكلترا في العصر الفيكتوري، اعتبرت الحمرة شيئاً شائناً، لذلك كانت تباع تحت اسم آخر، لكن ظلت تستخدم.

شُجبت أنماط كثيرة من الكساء من فستان طوق الرقبة المكشكش في العصر الإليزابيثي، إلى تنورة العصر الإدواردي الضيقة، من منابر الوعظ في الكنائس من دون نتيجة. في عشرينات القرن العشرين حين كانت التنانير بأقصر شكل لها، أصدر البابا مرسوماً يمنع دخول النساء اللابسات بشكل غير محتشم إلى الكنائس الكاثوليكية، لكن الأزياء النسائية ظلت ولم تتأثر بذلك. عرضت "المرأة المثالية" في نظر هتلر: أنموذج مبسط جداً في معطف واقٍ من المطر في كل أرجاء ألمانيا وكثير من أجزاء العالم الأخرى، لكنها لم تلهم سوى القليل جداً من المقلدات. أنا أتكهن أن الفتيات الإنكليزيات سوف يستمرنّ في "وضع القذارة والوحل على وجوههن" رغم أنف السيد إنريكو. حتى في السجون كما قيل إن السجينات يحمرن شفاههن بصبغة يستخرجنها من مغلفات مكتب البريد التي توضع فيها الرسائل.

لكن لماذا تستخدم النساء مواد التجميل، هي مسألة مختلفة. لكن يبدو لي الأمر مشكوكاً به إن كانت الجاذبية الجنسية هي الهدف الرئيسي. من غير المعتاد أن تقابل رجلاً لا يعتبر طلاء أظافر الأصابع باللون الأحمر عادة مقززة، لكن مئات آلاف النساء يستمرن في فعلها رغم

ذلك. في الوقت الحالي قد يواسي السيد إنريكو أن يعرف رغم أن المكياج يستمر ويواصل، وأنه أقل اتساعاً وإتقاناً مما كان عليه في الأيام التي كانت فيه الجميلات الفكتوريات "يطلين" وجوهن بالمينا، أو حين كان من العادي تبديل شكل ومحيط الخدود بواسطة "السمكريين"، كما وصفت ذلك قصيدة سويفت "عن حورية جميلة شابة تستعد للنوم".

التريبيون ٥ أيار/ مايو ١٩٤٤.

لكل من يريد أن يضحك جيداً، أنصحه بكتاب نشر منذ عشر سنوات، لم أنجح في الحصول عليه إلا مؤخراً؛ إنه كتاب النقد العملي لآي ايه ريتشاردز.

يصف الكتاب تجربة قام بها مع أو ربما يجب أن يقول على طلابه الإنكليز في كامبريدج، رغم أن غالبه مهتم بالمبادئ العامة للنقد الأدبي. شارك في التجربة متطوعون متنوعون، ليسوا طلاباً في الواقع، وإنما من المهتمين بالأدب الإنكليزي. قُدمت لهم ثلاث عشرة قصيدة، وطُلب منهم انتقادها من دون أن يكشف عن مؤلفي القصائد، ولم تكن معروفة جيداً بما يكفي لتمييزها بنظرة من قبل القارئ العادي. لذلك أمامك عينات من النقد الأدبي لم يصعبها ويعقدها التكبر العادي.

يجب ألا يترفع المرء جداً، ولا حاجة لأن يكون كذلك، لأن الكتاب مرتب جداً لدرجة يمكنك تطبيق التجربة لوحدك. القصائد غير موقعة، وكلها من نهايتها، وأسماء المؤلفين في صفحة مطوية يجب ألا تنظر إليها إلا فيما بعد. سأقول إنني لم أحدد فوراً سوى اثنين من مؤلفي القصائد، أحدهما كنت أعرفه مسبقاً، ولكني ارتكبت خطأين شنيعين، رغم أني حددت تاريخ أغلب القصائد المتبقية ضمن بضعة عقود. في الحالة الأولى نسبت لشيلي قصيدة كتبت في عشرينيات القرن العشرين. لكن تظل بعض من التعليقات المسجلة بقلم ريتشاردز مذهلة، فهي تبين أن كثيراً من الناس الذين يصفون أنفسهم عشاقاً للشعر، ليس لديهم أية فكرة للتمييز بين قصيدة جيدة وأخرى رديئة، أكثر مما لدى كلب عن علم الحساب.

مثلاً، نالت قطعة من الكلام المنمق الطنان المزور تماماً بقلم ألفريد نويس، الكثير من المديح، وقارنه أحد النقاد بكيتس. وحظيت قصيدة غنائية وجدانية من قوافي خشنة من قسيس، لوودباين ويلي بتعليق جيد من الصحافة. لكن من جانب آخر، لاقت سونيتة لجون

دون قبولاً بارداً. لم يدون ريتشاردز سوى ثلاثة انتقادات محببة وعشرة انتقادات باردة أو معادية. قال أحد الكتاب بازدراء إن القصيدة "يمكن أن تكون ترتيلة جيدة"، بينما لاحظ آخر "لا أستطيع أن أجد أي رد فعل آخر سوى الاشمئزاز" كان جون دون في ذلك الوقت في أوج شهرته، ولاشك أن أغلب الناس الذين شاركوا بهذه التجربة، كانوا يخرون على وجوههم عند ذكر اسمه. قصيدة دي إتش لورانس "البيانو" نالت الكثير من السخرية، رغم أنها امتدحت من قبل أقلية. وهكذا أيضاً مع قصيدة قصيرة لجيرارد مانلي هوبكينز، قال عنها أحد الكتاب "أسوأ قصيدة قرأتها في حياتي"، بينما نقدها كاتب آخر بعبارة بيش-بوش (صوت يعبر عن الازدراء- المترجم).

على أي حال، قبل لوم هؤلاء الطلاب الشباب على حكمهم الرديء، لنتذكر أنه حين ينشر أحد مدونة للقرن التاسع عشر ليست مزيفة بشكل مقنع، كان الناقد الكهل السير إدموند غوس وقيم مكتبة مجلس اللوردات، ينخدع بها على الفور. وهناك أيضاً قضية نقاد الفن الباريسيين، نسيت من أي مدرسة، الذين عبروا بحماس عن بهجتهم بلوحة، اكتشف فيما بعد أنها رسمت بواسطة حمار ربطت بذيله فرشاة رسم.

تحت عنوان "نحن نهلك الطيور التي تنقذنا"، لاحظت نيوز كرونيكل أن "الطيور المفيدة تعاني من الجهل الإنساني. هناك اضطهاد أحمق للكيسترل (نوع من الصقور) وبومة مخازن الحبوب. أفضل جنسين من الطيور المفيدة لنا"

لسوء الحظ أنه ليس بسبب الجهل حتى، تقتل أغلب الطيور الجارحة من أجل عدو إنكلترا طائر التدرج. بخلاف الحجل، التدرج لا يزدهر في إنكلترا، بالإضافة إلى الغابات المهملة وقوانين الصيد الشريرة المسؤولة عنها كل الطيور والحيوانات، التي يشك بأنها تأكل بيضه أو أفراخه تزال تماماً بشكل منظم. قبل الحرب، قرب قريتي في هيرتفوردشير، كنت أمرّ بسياج طويل؛ حيث يحتفظ حارس طرائد بحافظة اللحوم خاصته. تتدلى من الأسلاك جثث القواقم وابن عرس والجرذان والقنافذ وأبو زريق والبوم والصقور، وكلها مخلوقات مفيدة للزراعة. القاقم يبعد الأرانب، وابن عرس يأكل الفئران، وكذلك تفعل الصقور والبواشق، والبوم يأكل الفئران والجرذان أيضاً. لقد أحصي أن بوم المخازن يبيد ما بين ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠

جرذ وفأر في السنة، ومع ذلك تقتل من أجل طير غير نافع وصفه روديارد كيبلينغ بشكل صحيح "لورد الكثيرين في كل مقاطعة".

التريبيون ١٢ أيار/ مايو ١٩٤٤

بعد قراءة كمية من الكتب "التقدمية" المتفائلة قليلاً، فوجئت بالطريقة الآلية التي يستمر الناس فيها بتكرار عبارات محددة درجت قبل عام ١٩١٤. العبارتان المفضلتان جداً هما "إلغاء المسافة" و"اختفاء الحدود"، ولا أعرف كم مرة رأيت العبارات "الطائرة والراديو ألغيا المسافة" و"كل أجزاء العالم الآن تعتمد على بعضها البعض".

إن أثر الاختراعات الحديثة زاد من النزعة القومية فعلياً، ما جعل السفر أصعب بكثير، وقلص وسائط التواصل بين بلاد والبلدان الأخرى، وجعل أجزاء العالم أقل اعتماداً على بعضها، وليس أكثر في الغذاء والبضائع المصنعة. هذا ليس نتيجة للحرب، فالميول نفسها كانت تعمل عملها منذ عام ١٩١٨ لكنها تكثفت بعد الكساد العالمي.

لنأخذ السفر فقط كمثال. في القرن التاسع عشر، لم يكن هناك أي قيود على السفر تقريباً، على الرغم من أن بعض من أجزاء العالم لم تكتشف، وإلى عام ١٩١٤ لم تكن بحاجة إلى جواز سفر للسفر إلى أي بلاد ما عدا روسيا. المهاجر الأوروبي الذي يستطيع توفير بضع جنيهات للرحلة، يبحر ببساطة إلى أمريكا أو أستراليا، وحين يصل لا يتعرض لأي سؤال. وفي القرن الثامن عشر، كان من العادي تماماً والآمن السفر إلى بلاد هي في حالة حرب مع بلادك.

لكن في زمننا، أصبح السفر أصعب بشكل ثابت. إعداد قائمة بالأجزاء التي يتعذر الوصول إليها من العالم قبل أن تنشب الحرب، هو عمل جدير بالتعب.

أولاً وقبل كل شيء، كل آسيا الوسطى، آسيا السوفييتية، لم يدخلها أي أجنبي في السنوات الكثيرة الماضية، باستثناء قلة قليلة من الشيوعيين الموثوقين. والتيبت بلاد مغلقة منذ عام ١٩١٢ بفضل الحسد الأنغلوروسي، وسينكيانغ التي هي نظرياً جزء من الصين، كان الوصول إليها متعذراً بالمثل. كل الإمبراطورية اليابانية باستثناء اليابان نفسها، كانت مسدودة أمام الأجانب عملياً. حتى الهند أصبحت غير متاحة منذ ١٩١٨ جوازات السفر تُرفض حتى للرعايا البريطانيين - وأحياناً للهنود أيضاً.

حتى في أوروبا كانت قيود السفر تضيق. من الصعب جداً أن تدخل إلى بريطانيا إلا لزيارة قصيرة، كما اكتشف الكثير من اللاجئين البائسين المعادين للفاشية. التأشيرات إلى الاتحاد السوفييتي تصدر بشكل شحيح منذ عام ١٩٣٥ وما بعد. كل البلدان الفاشية مسدودة أمام كل من له سجل معادٍ للفاشية. مناطق مختلفة لا يمكن عبورها إلا إذا تعهدت بألا تخرج من القطار. الحدود كلها مطوقة بالأسلاك الشائكة والبنادق الآلية والخفراء الجوالين الذين يضعون أقنعة الغاز غالباً.

لقد جفت الهجرة منذ القرن التاسع عشر عملياً. بذلت كل بلدان لعالم الجديد أقصى جهدها لمنع المهاجر من الدخول إلا إذا جلب مبالغ محترمة من المال معه. توقفت الهجرة اليابانية والصينية إلى الأمريكيتين تماماً. أُجبر يهود أوروبا على البقاء ليذبحوا، لأنهم لم يجدوا مكاناً يذهبون إليه، بينما في حالة مذابح القيصر قبل أربعين سنة، كانوا قادرين على الفرار في كل الاتجاهات. في وجه هذا كله أشعر بالإحباط والخيبة حين يقول أي أحد إن وسائل السفر الحديثة عززت التواصل بين البلدان المختلفة.

التواصل الفكري تناقص أيضاً منذ زمن طويل. القول إن الراديو وضع الناس على اتصال مع البلدان الأجنبية، غير منطقي وهراء، وإن فعل شيئاً فهو العكس. ليس هناك شخص عادي يستمع إلى إذاعة أجنبية قط، ولو أظهر عدد كبير من الناس علامات عن فعلهم ذلك في أي بلاد، لمنعتهم الحكومة، إما بعقوبات شديدة أو بمصادرة أجهزة الموجة القصيرة أو بنصب محطات تشويش. النتيجة أن كل إذاعة قومية هي نوع من عالم استبدادي بنفسه، تنهق بدعاية ليلاً ونهاراً لأناس لا يستطيعون سماع شيء آخر غيرها. في الوقت الحالي، تتناقص عالمية الأدب أكثر فأكثر. أغلب البلدان الاستبدادية تمنع الصحف الأجنبية، ولا تسمح بدخول سوى عدد صغير من الكتب الأجنبية الخاضعة لرقابة يقظة، وأحياناً تُصدر بنسخ مشوهة. الرسائل التي تنتقل من بلاد إلى أخرى، يتم العبث بها عادة في الطريق. وفي السنوات العشر الماضية، أعيدت كتابة كتب التاريخ في بلدان كثيرة بشروط قومية أكثر بكثير من قبل، لذلك سيتربى الأطفال على صورة زائفة للعالم الخارجي بأقصى ما يمكن.

إن التوجه المستمر نحو الاكتفاء الاقتصادي الذاتي ("السيادة المطلقة") المستمر منذ ١٩٣٠ تقريباً والذي كثفته الحرب، ربما ينعكس سيره أو لا ينعكس. جعل بلدان مثل الهند وأمريكا

الجنوبية بلداناً صناعية، يزيد من قوتها الشرائية. ولذلك ينبغي نظرياً أن يكون مفيداً للتجارة العالمية. لكن الذي لم يفهمه الذين يقولون بابتهاج إن "كل أجزاء العالم تعتمد على بعضها البعض"، هو أنها لم تعد تعتمد على بعضها البعض أبداً. في عصر يمكن فيه صنع الصوف من الحليب، والمطاط من النفط، وزرع القمح في الدائرة القطبية الشمالية، ويكون الايتبرين بديلاً كافياً عن الكينين، وأقراص فيتامين سي بديلا مقبولاً عن الفاكهة، لم تعد المستوردات مسألة مهمة جداً. أي مساحة كبيرة تستطيع أن تعزل نفسها بشكل كامل، أكثر بكثير من الزمن الذي زحف فيه جيش نابليون الضخم إلى موسكو مرتدياً المعاطف البريطانية رغم الحظر. طالما ظل العالم يتجه نحو النزعة القومية والاستبدادية، فإن التقدم العلمي يساعده على ذلك.

هذه بعض الأسعار الحالية:

ساعة منبه سويسرية صغيرة سعرها قبل الحرب أقل بـ ٥٪ أو ١٠٪ من السعر الحالي: ٣ جنيه و ١٥ بنساً. آلة طباعة مستعملة، سعرها قبل الحرب ١٢ جنيهاً، السعر الحالي ٣٠ جنيهاً. فرشاة فرك صغيرة من نوعية رديئة من ألياف جوز الهند، سعرها قبل الحرب ٣ بنسات، السعر الحالي شلن و٩ بنسات. ولاعة غاز سعرها قبل الحرب أقل بواحد بالمئة تقريباً، السعر الحالي ٥ شلنات و٩ بنسات.

يمكنني الاستشهاد بأسعار أخرى مماثلة. من الجدير بالملاحظة مثلاً، الساعة المذكورة أعلاه يفترض أنها مصنعة قبل الحرب بالسعر القديم. لكن في المجمل، أسوأ ارتفاع حدث في البضائع المستخدمة-مثل المقاعد والطاولات والساعات وعربات اليد والدراجات الهوائية وملاءات الأسرة. عند الاستعلام، وجدت أن هناك قانوناً الآن ضد بيع البضائع المستخدمة بثمن فاحش. هذا يفترض أن يريحني كثيراً، مثلما يرتاح المتهمون بأمر المثول أمام المحكمة، أو الحمالون الهنود حين يعلمون أن الرعايا البريطانيين متساوون أمام القانون.

في كتاب حملة سيدان لهوبر، هناك وصف للمقابلة التي حاول فيها الجنرال ويمبفين إحراز أفضل الشروط الممكنة للجيش الفرنسي المهزوم. فقال: "لفائدتكم من وجهة نظر

سياسية، أن تمنحونا شروطاً مشرفة... إن السلام المؤسس على شروط تشبع كبرياء الجيش، سيكون متيناً. أما الإجراءات الصارمة والقاسية، فستثير الانفعالات والعواطف الرديئة، وربما تسبب حرباً لانهاية لها بين فرنسا وبروسيا"

يقاطعه بسمارك المستشار الحديدي، وكلماته مدونة في مذكراته:

قلت له يمكننا أن نبني على تقدير أمير وعرفانه، وليس على تقدير وعرفان شعب بالتأكيد، وعلى الأقل على عرفان الشعب الفرنسي. بما أن المؤسسات والظروف ليست ثابتة ومستمرة في فرنسا؛ والحكومات والسلالات الحاكمة تتغير باستمرار، والمرء غير مجبر على تنفيذ وعد أجبره الآخر على التعهد به......؛ وفي الوضع الذي آلت إليه الأشياء، فمن الحماقة ألا نستفيد تماماً من نجاحنا.

يعتقد أن العبادة الحديثة "للواقعية" بدأت مع بسمارك عموماً. لقد اعتبر ذلك الخطاب الأبله "واقعياً" بشكل مهيب آنذاك، وسيكون هكذا الآن. إن ما قاله ويمبفين بالرغم من أنه كان يحاول أن يساوم من أجل شروط أفضل، كان صحيحاً تماماً. لو تصرف الألمان بكرم عادي (أي بمقاييس الزمن) لكان من المستحيل تحريض روح الانتقام في فرنسا. ماذا كان بسمارك سيقول، لو قيل له إن الشروط القاسية الآن ستعني هزيمة مريعة بعد ثمان وأربعين سنة؟ لا يوجد شك كبير في الجواب: كان سيقول إن الشروط يجب أن تكون أقسى. هكذا هي "الواقعية" -وبنفس المبدأ يرد الطبيب بمضاعفة الجرعة حين يزيد الدواء المرض على المريض.

التريبيون ١٩ أيار/ مايو ١٩٤٤.

إن كراسة الآنسة فيرا بريتين، **بذور الفوضى**، عبارة عن هجوم بليغ على القصف العشوائي أو "الطمس"، فبسبب غارات الآر أي إف (سلاح الجو الملكي -المترجم): "آلاف الأشخاص الأبرياء العزل في المدن الألمانية والإيطالية والمدن التي تحتلها ألمانيا، تعرضوا لأشكال من الموت المعذب والأذى، مشابهة لأسوأ أشكال التعذيب في العصور الوسطى" وقد أظهر مناوئون للقصف مشهورون كالجنرال فرانكو والفريق فولر مثلاً، تأييدهم لهذا، لكن الآنسة بريتين لا تأخذ بوجهة نظر رافضي حمل السلاح (السلميين)، فهي راغبة ومتشوقة لكسب الحرب ظاهرياً، وتتمنى منا أن نلتزم بالوسائل "المشروعة" للحرب،

لكنها تخشى من أن يشوه قصف المدنيين سمعتنا في عيون الأجيال القادمة. كراستها هذه، أصدرتها لجنة تقييد القصف التي أصدرت عناوين مماثلة أخرى.

لا يوجد عاقل ينظر إلى القصف أو أي عملية حربية أخرى إلا بالاشمئزاز، ومن جانب آخر ليس هناك شخص محتشم يهتم البتة برأي الأجيال القادمة. لكن، في الوقت نفسه، هناك شيء كريه جداً في قبول الحرب كوسيلة، ويريد الكل تفادي المسؤولية عن معالمها البربرية الأشد وضوحاً. إن السلمية ورفض حمل السلاح موقف ممكن الدفاع عنه بشرط الاستعداد لتحمل العواقب، لكن الحديث عن "تقييد" أو "أنسنة" الحرب، هو مجرد خداع مؤسس على حقيقة أن الكائن البشري العادي لم يهتم أبداً بالتدقيق في الشعارات.

الشعارات المستخدمة في هذا الصدد، هي "قتل المدنيين"، "ذبح للنساء والأطفال" و"تدمير تراثنا الثقافي". إن القصف الجوي يفترض ضمناً أن يسبب هذا النوع من الشيء، أكثر من الحرب البرية.

حين تنعم النظر عن قرب أكثر، فإن السؤال الأول الذي يواجهك هو: لماذا يعتبر قتل المدنيين أسوأ من قتل الجنود؟ من الواضح أن المرء يجب ألا يقتل الأطفال إن أمكن تفادي ذلك بأي وسيلة، لكن في كراسات الدعاية فقط، كل قنبلة تسقط تقع على مدرسة أو دار أيتام. إن القنبلة تقتل شريحة من السكان من دون انتقاء تفضيلي، وعادة أول من يتم إخلاؤهم هم الأطفال والأمهات الحوامل، أما الشبان فأغلبهم يكون بعيداً في الجيش. وربما يكون العدد الكبير غير المتناسب من ضحايا القصف من متوسطي الأعمار (قتلت القنابل الألمانية حتى هذا التاريخ من ستة آلاف إلى سبعة آلاف طفل في هذه البلاد، وباعتقادي هذا رقم أقل من العدد الذي يُقتل في حوادث الطرق في نفس الفترة). من الجانب الآخر، فإن الحرب "النظامية" أو "المشروعة" تنتقي وتذبح كل الشبان الذكور الأصحاء والشجعان من السكان. في كل مرة تغرق فيها غواصة ألمانية وترسو في قاع المحيط، يختنق خمسون شاباً من ذوي البنية البدنية الرائعة وقوة التحمل والشجاعة. مع ذلك يكرر الأشخاص الذين يرفعون أيديهم عالياً بارتياح ورضى لنفس الكلمات مثل قصف "المدنيين" وعبارات مثل "نحن نكسب معركة الأطلسي" لكن لا يعلم سوى الرب كم عدد الأشخاص الذين قتلتهم

غاراتنا الجوية على ألمانيا والبلدان المحتلة، وكم ستقتل. لكن يمكنك أن تثق تماماً أنها لن تقترب أبداً من المذبحة التي حدثت وتحدث على الجبهة الروسية.

لا يمكن تجنب الحرب في هذه المرحلة من التاريخ. وبما أنها يجب أن تحدث، فإن قتل المدنيين بالإضافة إلى الشبان، لا يبدو لي شيئاً سيئاً. كتبت في عام ١٩٣٧: "أحياناً يريحني الاعتقاد بأن الطائرات تبدل ظروف الحرب. حين تأتي الحرب العظمى التالية، ربما نرى ذلك المنظر غير المسبوق في التاريخ لوطني متطرف مع ثقب رصاصة فيه". لم نر ذلك بعد (هو ربما تناقض في التعبير) لكن على أي حال لقد تم اقتسام ألم وعذاب هذه الحرب بشكل متساوٍ أكثر من الحرب السابقة، وتحطمت حصانة المدنيين، وهي إحدى الأشياء التي جعلت الحرب ممكنة. وأنا غير آسف على ذلك بخلاف الآنسة بريتين، ولا أشعر أن الحرب تكون "مؤنسنة" باقتصار الذبح على الشبان، وتصبح "بربرية" حين يُقتل كبار السن أيضاً.

أما بالنسبة إلى الاتفاقات الدولية "لتقييد" الحرب، فإن الالتزام بها لن يتم حين يكون خرقها مجزياً. قبل الحرب الأخيرة بوقت طويل، اتفقت الأمم على عدم استخدام الغاز، لكنها استخدمته كلها على السواء، وامتنعت هذه المرة فقط، لأن الغاز غير فعال نسبياً في حرب من الحركة، واستخدامه ضد السكان المدنيين سيثير بالتأكيد انتقامات من نفس النوع. أما ضد عدو لا يستطيع الرد كالأثيوبيين مثلاً، فقد استخدم وبسرعة كافية. من الأفضل الاعتراف بأن الحرب بربرية بطبيعتها، وإن رأينا أنفسنا كالهمجيين، فإن بعض التحسن ممكن أو أن تصوره ممكن على الأقل.

عينة من مراسلات التريبيون

إلى رئيس تحرير تريبيون الجديد المأجور لليهود -لندن

يهود في الجيش البولوني. أنت تهاجم حلفاءنا البولونيين البواسل دائماً، لأنهم يعرفون كيف يعاملون الوباء اليهودي، ويعرفون أيضاً كيف يتعاملون مع كل رؤساء التحرير المأجورين لصالح اليهود والصحف الشيوعية. نحن نعرف أنك على جدول رواتب الليدز (اليهود) والسوفييت. أنت صديق لأعداء بريطانيا! يوم الحساب اقترب. احذر. سيباد كل اليهود الخنازير بالطريقة الهتلرية -الطريقة الوحيدة للتخلص من الليدز. افنوا يهوداً.

طبعت بآلة ريمينغتون (خاتم بريد إس دبليو) والذي في ذهني تفصيل مشوق، هذه نسخة كربونية عنه.

أي عارف بالطباعة، يعرف أنه ليس هناك تأكيد أو برهان أو دليل صلب، يقنع كاتب هذا الرسالة بأن التريبيون ليست صحيفة شيوعية، وليست على جدول رواتب الحكومة الروسية. إحدى مزايا الفاشيين الغربية -أنا أتكلم عن الفاشيين الهواة: أفترض أن الجستابو أذكى- هي فشلهم في إدراك أن الأحزاب اليسارية تتميز عن بعضها البعض، ولا تستهدف نفس الشيء بأي شكل، ويعتقدون دائماً أنها كلها عصابة واحدة أياً كانت مظاهرها الخارجية. في الرقم واحد تأتي البريتش يونيون كورترلي التابعة لموسلي التي هي بجانبي (تحتوي بالصدفة على مقال لشخص مهم هو الميجور فيدكون كويسلينغ) ولاحظت أن حتى ويندهام لويس يتكلم عن ستالين وتروتسكي، كما لو أنهما شخصان متساويان. إن أرنولد لون في بروفته الإسبانية، يوحي فعلياً كما يبدو بأن تروتسكي أسس الأممية الرابعة بأوامر من ستالين.

بنفس الطريقة تماماً ومن خلال تجربتي، لن يصدق سوى قلة قليلة من الشيوعيين أن التروتسكيين ليسوا على جدول رواتب هتلر. حاولت أحياناً أن أجرب وأشير إلى أنه لو أن التروتسكيين كانوا على جداول هتلر أو غيره، لكانوا حصلوا على بعض المال من حين إلى آخر. لكن لا فائدة، هذا لم يسجل، وهكذا هو الأمر مع دسائس اليهود، أو الاعتقاد الذي انتشر على نطاق واسع بين القوميين الهنود، من أن كل الإنكليز مهما كان لونهم السياسي في مؤامرة سرية مع بعضهم بعض. أما الأغرب فهو الاعتقاد بأن الماسونيين عبارة عن منظمة ثورية. في هذه البلاد سيكون الاعتقاد بهكذا شيء من البوفالو. منذ أقل من جيل إن لم يكن الآن، هناك راهبات كاثوليكيات يعتقدن أن الشيطان يظهر شخصياً في الاجتماعات الماسونية مرتدياً ثياب السهرة مع ثقب في سرواله ليخرج منه ذيله. إن هذا النوع من الشيء يهاجم أي أحد بشكل أو بآخر كما يبدو، ومن الواضح أنه يستجيب لحاجة نفسية غامضة خاصة بزمننا.

التريبيون ٢٦ أيار/ مايو ١٩٤٤.

كنت أتحدث مع جندي أمريكي شاب قبل الأمس، وأخبرني -كما فعل الكثيرون غيره- أن الشعور المعادي لبريطانيا عام تماماً في الجيش الأمريكي. لقد حل في هذه البلاد حديثاً فقط، وحين خرج من القارب، سأل فرد من الشرطة العسكرية على رصيف الميناء "كيف حال إنكلترا؟"

رد الشرطي العسكري: "الفتيات هنا يخرجن ويتمشين مع الزنوج، ويطلقن عليهم الهنود الأمريكيين".

هذه هي الحقيقة البارزة عن إنكلترا من وجهة نظر الشرطي العسكري. في الوقت نفسه، أخبرني صديقي أن الشعور العدائي للبريطانيين ليس عنيفاً، وليس هناك سبب محدد بشكل واضح للشكوى. ربما قسم كبير منه تبرير للقلق الذي يشعر به أغلب الناس بكونهم بعيدين عن الوطن. لكن موضوع الشعور العدائي تجاه بريطانيا في الولايات المتحدة برمته، بحاجة ماسة إلى التقصي. وقد أعطي مثل عداء السامية سلسلة كاملة من التفسيرات المتناقضة، وقد يكون كعداء السامية مرة أخرى بديلاً نفسياً عن شيء آخر. ما القضية الأخرى التي تحتاج إلى تفحص.

في الوقت الحالي هناك إدارة واحدة للعلاقات الأنغلوأمريكية تعمل جداً كما يبدو. أُعلن منذ أشهر عن زواج عشرين ألف فتاة إنكليزية من جنود وبحارة أميركيين، ثم زاد العدد بعد ذلك. بعض من الفتيات تلقين تعليماً عن حياتهن في بلاد جديدة في "مدرسة لعرائس جنود الولايات المتحدة" نظمها الصليب الأحمر الأمريكي. هنا يتعلمن تفاصيل عملية عن أنماط السلوك والعادات والتقاليد الأمريكية، وربما يعالجن من الوهم الواسع الانتشار أيضاً بأن كل أمريكي يملك سيارة، وكل بيت أمريكي فيه حمام وثلاجة وغسالة كهربائية.

احتوى عدد مايو/ أيار من صحيفة ماتريمونال بوست أند فاشينابل ماريج، على إعلانات لـ ١٩١ رجلاً يبحثون عن عرائس، وأكثر من ٢٠٠ امرأة يبحثن عن أزواج. باتت الإعلانات من هذا النوع تظهر بكثرة في سلسلة من المجلات منذ الستينيات أو قبل، وهي متشابهة جداً تقريباً. مثلاً:

أعزب عمره ٢٥ سنة، طوله ٦ أقدام وبوصة واحدة، نحيل، مغرم بالحراثة والحيوانات والأطفال والسينما إلخ، يود لقاء سيدة عمرها من ٢٧ إلى ٣٥ تحب الزهور والطبيعة والأطفال، يجب أن تكون طويلة ومتوسطة البنية ومن كنيسة إنكلترا.

إن القسم الأكبر من الإعلانات مثل هذا، لكن أحياناً تقحم ملاحظة غير عادية مثلاً:

أنا في ٢٩، ٥ أقدام وبوصة، إنكليزي، بنية ضخمة، لطيف، هادئ، اهتمامات ثقافية متنوعة، خلفية أخلاقية صارمة، تقدمي، خلاق، ميول أدبية. تاجر في الطوابع النادرة، الدخل متغير لكنه كاف. سباح ماهر، درّاج، فأفأة خفيفة أحياناً. من غير شروط. يبحث عن الندرة التالية، فتاة متعلمة، أنيسة، متكيفة، سلسلة على العين والأذن، تحت ٣٠، من طراز السكرتيرات أو مشابه، مغامرة عقلياً، منيعة ضد المرتزقة والبواعث الاجتماعية، إحساس مشرق بالفكاهة الصادقة، شريكة عمل موثوقة، رأس المال غير مهم، الشخصية حيوية ومهمة.

الشيء اللافت والذي يظل كذلك في هذه الإعلانات، أن كل المتقدمين بالطلبات تقريباً مؤهلون بشكل ملحوظ. ليس أغلبهم متحررين وأذكياء ويحبون الحياة المنزلية فقط: بل هم موسيقيون، مخلصون وصادقون وحنونون مع إحساس رائع بالفكاهة، وفي حالة النساء شكل جيد: في غالبية الحالات هم في وضع مالي جيد أيضاً. حين تفكر بمدى السهولة القاتلة التي يجري بها الزواج، فلن تتخيل أن عازباً في الـ ٣٦ من عمره، "شعر أسود وملامح وبشرة شقراء وقوام نحيل، طول ٦ أقدام، مثقف جيداً ومراع للآخرين، مرح ومزاج متوقد، دخل ١٠٠٠ جنيه سنوياً ورأسمال، يحتاج أن يجد لنفسه عروساً من خلال أعمدة جريدة. والشيء نفسه ينطبق على "امرأة شابة مغامرة"، آراء يسارية، نظرة حديثة مع شكل مليء تماماً لكنه حسن، شعر مجعد ملون، عيون زرقاء-رمادية، بشرة شقراء، لون طبيعي، صحة جيدة بشكل استثنائي، مهتمة بالموسيقى والفن والأدب والسينما والمسرح ومغرمة بالمشي وقيادة الدراجة الهوائية والتنس والتزلج والتجذيف". لماذا تضطر هذه الماسة المثالية للإعلان؟

يجب أن نشير إلى أن ماتريمونيال بوست صادقة وتدقق بحرص على المعلنين لديها.

هذه الأشياء توضح حقيقة العزلة المروعة للأشخاص الذين يعيشون في البلدات الكبيرة. الناس يلتقون في العمل ثم يتفرقون في بيوت مفصولة ومتباعدة جداً. أن تعرف أسماء الأشخاص الذين في البيت الملاصق لبيتك، هو شيء استثنائي ونادر في أي مكان في لندن الداخلية.

منذ سنة سكنت في بيت لفترة في بورتوبيلو رود. هذا حي أنيق بالكاد، لكن صاحبة البيت كانت وصيفة لنسوة من ذوات الألقاب وكانت معتدة بنفسها. في أحد الأيام تعطل الباب الخارجي وانحبسنا أنا وصاحبة المنزل وزوجها خارج البيت، وكان واضحاً أننا يجب أن

ندخل من نافذة علوية. وبما أن جارنا يعمل بمهنة البناء، اقترحت أن نستعير سلماً منه. بدت صاحبة البيت متضايقة نوعاً ما، وقالت أخيراً:

"لا أميل إلى فعل ذلك. إننا لا نعرفه كما ترى. نحن هنا من أربع عشرة سنة، وقد حرصنا دائماً ألا نعرف الجارين اللذين على طرفي بيتنا. لن ينفع، ليس في حي كهذا. لو بدأت الحديث إليهم مرة سيتخطون الرسميات معك، كما ترى"

لهذا اضطررنا لاستعارة سلم من شخص قريب لزوجها، وحمله مسافة ميل بجهد كبير ومشقة.

التريبيون ٢ يونيو/ حزيران ١٩٤٤.

مقتطف من الراديو الإيطالي، يصف الحياة في لندن في منتصف عام ١٩٤٢ تقريباً:

(خمسة شلنات ثمن البيضة الواحدة، وجنيه استرليني واحد من أجل كيلوغرام من البطاطا، واختفى الرز حتى من السوق السوداء، وأصبحت البازلاء امتيازاً للمليونيرين. لا يوجد سكر في السوق، وحتى لو وجدت كميات صغيرة، فهي موجودة بأسعار خيالية).

يوماً ما سيكون هناك تحقيق علمي حريص كبير عن مدى تصديق الدعاية. مثلاً، ما هو أثر خبر مثل الخبر المذكور أعلاه وهو أنموذجي من الراديو الفاشي؟ ينبغي على الإيطالي الذي يأخذه على محمل الجد أن يفترض أن بريطانيا على وشك الانهيار خلال أسابيع قليلة. وبعد فشل حدوث الانهيار، يُتوقع منه أن يفقد ثقته في السلطات التي خدعته. لكن من المؤكد أن هذا لن يكون رد فعله. في كل الأحوال، يستطيع الناس أن يبقوا لفترات طويلة جداً غير قلقين بواسطة أكاذيب جلية، إما لأنهم نسوا ما كان يُقال من يوم إلى آخر، أو لأنهم تحت قصف مستمر من الدعاية، لذلك أصبحوا مخدرين عن المسألة برمتها.

يبدو من الواضح أن قول الحقيقة يفلح حين تسوء الأشياء، لكن من غير المؤكد أبداً أنها تفلح لتتناسق مع دعايتك. أعيقت الدعاية البريطانية إلى حد كبير بجهودها كي لا تناقض ذاتها. إذ من المستحيل تقريباً مثلاً أن تناقش قضية اللون بطريقة تسر البوير والهنود، أما الألمان فلا يقلقهم البتة شيء كهذا. إنهم يقولون لكل واحد ما يظنون أنه يرغب في سماعه، مفترضين وربما عن صواب أنه ليس هناك من يهتم بمشاكل غيره، حتى إن محطات إذاعاتهم المتنوعة تهاجم بعضها بعضاً أحياناً.

إحدى المحطات التي استهدفت فاشيي الطبقة الوسطى أحياناً، كانت تحذر مستمعيها ضد تحدي اليسار العمالي-الزائف، بحجة أن الأخير كانت تموله موسكو.

شيء آخر سيتعامل معه التحقيق والتحليل - إن حدث- هو الصفات السحرية للأسماء. كل الكائنات البشرية تقريباً تشعر أن شيئاً ما يصبح مختلفاً، إن أطلقت عليه اسماً مختلفاً. لهذا حين اندلعت الحرب الإسبانية، أنتجت محطة البي بي سي اسم "المتمردين" لأتباع فرانكو، مما غطى حقيقتهم كمتمردين حين بدا التمرد محترماً. أثناء الحرب الإثيوبية، سمي هيلي سيلاسي بالإمبراطور من قبل أصدقائه، وبالنجاشي من قبل أعدائه. يستاء الكاثوليكيون بشدة حين يسمون بالروم الكاثوليك؟ التروتسكيون يدعون أنفسهم بلاشفة لينينيين، لكنهم يرفضون هذا النعت من قبل خصومهم. البلدان التي حررت نفسها من المحتل الأجنبي أو مرت بثورات قومية، غيرت أسماءها بشكل ثابت تقريباً، وبات لبعضها سلسلة كاملة من الأسماء، لكل واحد منها مضمون مختلف. لذلك سمي اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية بـ روسيا، أو يو إس إس آر يعتبر (حيادياً أو اختصاراً) وروسيا السوفيتية (صديق) والاتحاد السوفييتي (صديق جداً). والحقيقة الغريبة أن بلادنا تكنى بستة أسماء، والاسم الوحيد الذي لا يطأ على أصابع أحد هو الاسم القديم جداً والمضحك قليلاً "البيون".

عند الخوض في مواد مسابقة القصة القصيرة، اندهشت مرة أخرى بالعجز الذي تعاني منه القصص القصيرة، كونها فصلت بطول متساوٍ. في الماضي كانت أطوال القصص القصيرة العظيمة تتراوح بين ١٥٠٠ كلمة و٢٠٠٠٠ كلمة، فأغلب قصص موباسان مثلاً قصيرة جداً، لكن تحفتيه "اجتماع الحاشية" و"منزل مدام تيلير" طويلتان بلا جدال. وكذلك تتنوع قصص بالمثل، وربما تعتبر كل من قصة دي إتش لورانس "إنكلترا، إنكلترتي" وقصة جويس "الميت" وقصة كونراد "شباب" وقصص كثيرة لهنري جيمس، طويلة جداً لأي دورية إنكليزية حديثة. لهذا بالتأكيد قصة مثل قصة أفراح كارمن ستكون كذلك، فهي تنتمي إلى صنف "القصص القصيرة" التي ماتت في هذا القرن بسبب عدم وجود متسع لها، لأنها طويلة جداً بالنسبة إلى المجلات وقصيرة جداً لنشرها في كتب. يمكنك طبعاً أن تنشر كتاباً يحتوي على بضع قصص قصيرة، لكن هذا لا يتم غالباً، لأن هذه الكتب لا تباع أبداً في الأوقات العادية.

لو استطعنا أن نعود إلى مجلات القرن التاسع عشر الضخمة التي فيها متسع للقصص من أي طول، لساعد ذلك بالتأكيد على رد الاعتبار للقصة القصيرة. لكن المشكلة أن مجلات إنكلترا الحديثة الشهرية والربعية من كافة التوجهات، فكرية ولا تدفع. حتى كرايتيريون التي تعتبر أفضل جريدة أدبية لدينا، ظلت تخسر المال لمدة ستة عشر عاماً قبل أن تلفظ أنفاسها.

لماذا؟ لأن الناس لم يعودوا يرغبون بتبديد السبعة شلنات ونصف التي تكلفها. لن يدفع الناس ذلك المبلغ الكبير على مجرد مجلة، لكن لماذا يدفعون نفس المبلغ ثمناً لرواية ليست أضخم من كرايتيريون وأقل قيمة؟ لأنهم لا يدفعون ثمن الرواية مباشرة. الشخص المتوسط لا يشتري كتاباً جديداً أبداً باستثناء طبعات بنغوان ربما. لكنه يفعل ذلك من دون معرفة حين يشتري عدداً وافراً من الكتب بدفع بنسين لمكتبات الإعارة. لو استطعت أن تأخذ مجلة أدبية من المكتبة كما تأخذ كتاباً، لأصبحت هذه المجلات مشاريع تجارية، ولاستطاعت أن تكبر حجمها وتدفع أجوراً أفضل للمشاركين في تحريرها. إن ما يبقي المؤلفين وناشري الكتب على قيد الحياة هو إعارة الكتب وليس شراءها، وليس هناك مبرر وجيه لعدم امتداد نظام مكتبات الإعارة ليشمل المجلات. أعد المجلة الشهرية أو اجعل الجريدة الأسبوعية أثخن بربع بوصة، عندئذ يمكنك أن تسترد القصة القصيرة. وبالمناسبة ربما تصبح مراجعة الكتاب النقدية التي تضاءلت إلى ملخص ميكانيكي بسبب انعدام المتسع، عملاً فنياً مرة أخرى كما كانت في أيام الأدنبره والكوارترلي.

بعد قراءة ماتريمونيال بوست الأسبوع الماضي، بحثت في كتاب المؤرخ هيرودوتوس (طبعة بنغوان) عن مقطع أتذكره بشكل غامض، عن عادات الزواج عند البابليين. هذا هو:

مرة في السنة، في كل قرية يجمعن العذارى اللواتي في سن الزواج معاً في مكان واحد، ويقف الرجال حولهن بشكل دائرة، ثم ينادي المنادي على الآنسات الواحدة تلو الأخرى ويعرضهن للبيع. يبدأ بالأجمل. حين تباع مقابل مبلغ غير صغير من المال، يعرض للبيع الواحدة التي تليها جمالاً..... كانت العادة حين ينتهي المنادي من الآنسات الجميلات، أنه يجب عليه أن ينادي أقبح فتاة ويعرضها على الرجال سائلاً من يقبل أن يأخذها بأقل مهر،

والرجل الذي يعرض أصغر مبلغ تخصص له. كانت المهور تموّل من المال المدفوع ثمناً للآنسات الجميلات. وهكذا تتقاسم الآنسات الأجمل مهورهن مع الآنسات الأقبح.

يبدو أن هذه العادة نجحت جداً، وتحمس هيرودوتوس جداً لها، وأضاف لكنها بطلت في حوالي السنة ٤٥٠ قبل الميلاد كغيرها من العادات الجيدة.

التريبيون ٩ يونيو / حزيران ١٩٤٤

مقالة آرثر كيسلر الجديدة في التريبيون (٢٨ أبريل/ نيسان ١٩٤٤)، كتب كيسلر مقالة على شكل رسالة إلى عريف شاب كتب له يطلب نصيحة حول مراجعات الكتب النقدية التي يمكن اعتبارها أدلة موثوقة. أبرز كيسلر المعايير الكئيبة للنقد السائد في أغلب الصحف.

جعلتني مقالة آرثر كيسلر الجديدة في التريبيون، أتساءل إن كانت ضجة الكتاب ستنهض ثانية في نشاطها القديم بعد الحرب حين يكون الورق وافراً، وتكون هناك أشياء أخرى تنفق النقود عليها.

يجب أن يعيش الناشرون مثل أي أحد آخر، ولا تستطيع لومهم على إعلانهم عن بضائعهم. لكن الصورة المخزية للحياة الأدبية قبل الحرب كانت الضبابية في التمييز بين الإعلان عن البضائع وبين النقد. كان عدد من المراجعين المزعومين، وخصوصاً الأكثر شهرة، مجرد كتّاب دعاية. بدأ الإعلان "الصارخ" في وقت ما في عشرينات القرن العشرين، عندما أخذت المنافسة حيزاً أكبر واستخدمت أقصى عدد ممكن من صيغ التفضيل، وأصبحت أشرس، برز ناشرو الإعلانات كمصدر هام للدخل بالنسبة إلى كثير من الصحف. كانت الصفحات الأدبية في صحف مشهورة كثيرة، مملوكة عملياً من قبل حفنة من الناشرين الذين لهم عملاء زرعوا في كل الوظائف الهامة. يطلق هؤلاء الخسيسون مديحهم ويكررون كلمات مثل- "تحفة" و"متألقة" و"لا تنسى" وهلم جرا، مثل بيانوهات آلية كثيرة. إن الكتاب القادم من الناشرين الصحيحين، لا يحظى بمراجعة نقدية محابية فقط، وإنما يوضع على القائمة "المزكاة" التي يقصها مستعيرو الكتب المجدون ويأخذونها إلى المكتبة في اليوم التالي.

لو نشرت كتباً في دور نشر مختلفة عديدة، ستتعلم سريعاً كم هو قوي ضغط الإعلانات. كتاب قادم من ناشر كبير يصرف مبالغ كبيرة على الإعلانات، يحصل على خمسين أو سبعين

مراجعة نقدية: كتاب من ناشر صغير، ربما لا ينال سوى عشرين مراجعة فقط. أعرف حالة عن ناشر لاهوتي وضع في رأسه لسبب ما أن ينشر رواية. صرف مبلغاً كبيراً من المال على الإعلان عنها. حصلت على أربع مراجعات نقدية في كل إنكلترا، وكانت المراجعة الطويلة الوحيدة في صحيفة عن السيارات اغتنمت الفرصة لتبرز أن قسم البلاد الموصوف في الرواية مكان جيد لنزهة بالسيارة. لم يكن هذا الرجل في الضجة، ومن غير المحتمل لإعلاناته أن تصبح مصدراً نظامياً لدخل الصحف الأدبية، ولهذا تجاهلته.

حتى الصحف الأدبية حسنة السمعة، لا تستطيع تحمل إهمال إعلاناتها تماماً. من المعتاد تماماً أن ترسل كتاباً إلى مراجع نقدي مع صيغة كهذه: "راجع هذا الكتاب إن أبدى أي فائدة وإن لم يكن كذلك فأعده. نحن لا نرى أن طبع مراجعات نقدية فاشلة، شيء يستحق العناء".

طبعاً، إن الشخص الذي يحصل على الجنيه أو ما يقاربه لقاء المراجعة النقدية التي تعني له أجرة البيت لأسبوع قادم، سيتمنع عن إرجاع الكتاب من دون مراجعة، وسيعتمد على إيجاد شيء ما يمدحه، مهما كان رأيه الشخصي في الكتاب.

في أمريكا حتى التظاهر بأن المراجعين المبتذلين يقرؤون الكتب التي يقبضون مالاً لقاء نقدها، هُجر جزئياً. يرسل الناشرون أو بعض الناشرين مع نسخ المراجعة، موجزاً صغيراً يملي على المراجع ما يجب أن يقوله. مرة في حالة عن إحدى رواياتي، أخطؤوا في تهجئة اسم إحدى الشخصيات، وظهر نفس الخطأ الهجائي في مراجعة نقدية تلو أخرى. لم يلق الناقد المزعوم نظرة سريعة على الكتاب الذي رفعه أغلبهم إلى السماء.

عبارة استخدمت كثيراً في الدوائر السياسية في هذه البلاد، هي "لعبة بأيدٍ". إنها نوع من تعويذة أو رقية لإسكات الحقائق المضايقة. حين يقال لك إنك لعبة بيد عدو شرير ما، فاعرف أن واجبك أن تصمت فوراً.

مثلاً، لو قلت أي شيء ضار عن الإمبريالية البريطانية، فأنت لعبة بيد الدكتور غوبلز. إن انتقدت ستالين، فأنت لعبة بيد التيبلت أو الديلي تيلغراف. إن انتقدت تشيانغ كاي-شيك، فأنت لعبة في يد وانغ شين غوي وهلم جرا، بلا نهاية.

إن هذه التهمة صحيحة موضوعياً في الغالب. من الصعب دائماً أن تهاجم جماعة أو فريقاً لدرجة النزاع من دون أن تساعد الآخر مؤقتاً. التوريون المتطرفون يستولون على أي شيء معادٍ للروس، ولا يهتمون إن أتى هذا الهجوم من مصادر تروتسكية، وليس من مصادر يمينية. الإمبرياليون الأمريكيون الذين يتقدمون للهجوم خلف ستارة دخانية من الروائيين، يبحثون دائماً عن أي تفصيل ضار بسمعة الإمبراطورية البريطانية. ولو كتبت أي شيء صادق عن أحياء لندن الفقيرة، فستسمعه على الأرجح معاداً على الراديو النازي بعد أسبوع. لكن ماذا يتوقع منك أن تفعل بعد ذلك؟ هل تتظاهر بعدم وجود أحياء فقيرة؟

يستطيع كل واحد له أي علاقة بالدعاية والإعلان، أن يتذكر مناسبات دُفع فيها ليكذب بشأن مسألة هامة حيوية، لأن قول الحقيقة سيعطي ذخيرة حربية للعدو. أثناء الحرب الأهلية الإسبانية مثلاً، لم تُدرس الانشقاقات في جانب الكومة وتنتقد بشكل مناسب أبداً في صحف اليسار، رغم أنها شملت نقاطاً أساسية مبدئية. فقد قالت تلك الصحف للناس إن نقاش الصراع بين الشيوعيين والفوضويين، سوف يعطي الديلي ميل الفرصة لتقول إن الحمر كلهم كانوا يذبحون بعضهم البعض. وكانت النتيجة الوحيدة أن قضية اليسار ككل أضعفت. ربما أضاعت الديلي ميل القليل من قصص الرعب، لأن الناس أمسكوا ألسنتهم ولم يتكلموا، لكن ظلت هناك دروس هامة جداً لم نتعلمها نعاني منها حتى هذا اليوم.

التريبيون ١٦ يونيو/ حزيران ١٩٤٤.

سئلت مرات عديدة شفوياً وكتابياً لماذا لا أستفيد من هذا العمود للانقضاض على براينز تروست (هيئة خبراء – المترجم). (براينز تروست كان برنامجاً مشهوراً للبي بي سي، يرأسه الدكتور جود رئيس قسم علم النفس والفلسفة في كلية بيربيك في لندن مع هيئة من "الخبراء" الذين يردون على الأسئلة التي يطرحها المستمعون). "بحق المسيح اهجم على جود وانتقده نقداً لاذعاً" قال أحد القراء. الآن أنا لا أنكر أن براينز تروست شيء مرعب جداً، وموضوعياً أنا ضد براينز تروست، بمعنى أني أطفئ الراديو دائماً فور بدء ظهور البرنامج. إن التظاهر الزائف بأن الشيء كله عفوي وغير خاضع للرقابة، بالإضافة إلى التجنب الدائم لأي موضوع جدي والتركيز على أسئلة من نوع "لماذا تكون آذان الأطفال بارزة إلى الخارج؟" والحماسة الـ........ والأصوات المثيرة للغضب المتكرر وفكرة المذيعين

الهواة غير المؤهلين الذين يُدفع لهم عشرة شلنات أو خمسة عشر في الدقيقة ليقولوا «ار-ار-ار"، كلها أشياء يصعب تحملها، لكنني لا أشعر ضد هذا البرنامج بنفس سخط الكثيرين من معارفي، والسبب جدير بالتعليل.

في هذا الوقت ازداد ضجر الجمهور من براينز تروست، لكنه ظل لفترة طويلة برنامجاً محبوباً بشكل حقيقي. لم يكن يُسمع في إنكلترا فقط، وإنما في أجزاء أخرى من العالم. وتبنت أسلوبه جماعات نقاش لا تحصى في الجيش والدفاع المدني. كان فكرة "ناجحة" كما يقول المثل، وليس صعباً رؤية السبب. كان براينز تروست خطوة متقدمة عظيمة بمعايير نقاش الصحف والراديو السائدة في هذه البلاد حتى عام ١٩٤٠، وأظهر على الأقل سعيه وتوجهه إلى التعبير الحر والجدية الفكرية، ولكنه أخيراً أجبر أن يظل صامتاً حول "السياسة والدين". يمكنك اختيار حقائق مشوقة عن "حساء فراخ الطيور، أو عادات خنازير البحر، أو قصاصات من التاريخ أو معرفة سطحية متناثرة من الفلسفة". وكان أقل عبثاً بوضوح من برامج الراديو العادية. وعموماً هو مثل التنوير. ولهذا رحبت به ملايين المستمعين في كل الأحوال لمدة سنة أو اثنتين.

ولهذا السبب اشمأز منه البليمب ومازالوا. براينز تروست موضوع هجمات لا تنتهي من مثقفي اليمين من أنموذج جي أم يونغ- أي بي هيربرت، والسيد دوغلاس ريد أيضاً. وحين أسست هيئة خبراء منافسة بقيادة فريق من رجال الدين، خرج البليمب وقالوا إنهم أفضل بكثير من جود وشركاه. إن هؤلاء الناس يرون براينز تروست رمزاً لحرية الفكر، ويدركون أن برامجهم مهما تكن سخيفة، فهي تهدف إلى جعل الناس يفكرون. أنت أو أنا ربما لا نرى في البي بي سي منظمة تخريبية خطرة، لكنها تعتبر هكذا في بعض المناطق، وهناك محاولات دائمة للتدخل في برامجها. قد يُعرف المرء من أعدائه إلى حد معين. إن الكره الذي نظر به كل الناس من ذوي الفكر اليميني إلى براينز تروست -وجماعات النقاش العامة والخاصة أيضاً- كان منذ البداية علامة على وجود شيء جيد فيه. لهذا السبب أنا لا أشعر بدافع قوي لانتقاد الدكتور جود الذي نال حصته العادلة من الانتقادات في كل الأحوال. أقول بدلاً من ذلك: هل فكرتم قط كيف سيكون براينز تروست، لو كان لورد إيتون والسيد هارولد نيكلسون والسيد ألفريد نوياس أعضاءه الدائمين.

لا يستطيع المرء شراء مجلات من خارج البلاد في هذه الأيام، لكنني أنصح كل من له صديق في نيويورك أن يحاول الحصول على نسخة من المجلة الشهرية الجديدة بوليتكس، التي يحررها الناقد الأدبي الماركسي دوايت مكدونالد. أنا لا أتفق مع سياسة هذه المجلة المعادية للحرب (ليس من وجهة نظر رفض حمل السلاح) لكني معجب بجمعها بين التحليل السياسي الرفيع والنقد الأدبي الذكي. من المحزن أن أضطر للاعتراف بأننا لا نملك مجلات شهرية أو فصلية تضاهي المجلات الأمريكية -هناك مجلات أخرى كثيرة من نوع بوليتكس. نحن لانزال فريسة لفكرة نصف شعورية، بأن من لديه إحساسات فنية وجمالية، يجب أن يكون واحداً من التروي. لكن التفوق الحالي للمجلات الأمريكية، يعود سببه جزئياً للحرب. إن الصحيفة الوحيدة في هذه البلاد التي تشبه البوليتكس أكثر من غيرها كما أعتقد، هي ذا نيو ليدر. عليك فقط أن تقارن الشكل وأسلوب الكتابة وتدرج المواضيع والمستوى الفكري للصحيفتين، لترى ماذا يعنيه العيش في بلاد مازال فيها وقت الفراغ ولب الخشب.

التريبيون ٢٣ يونيو/ حزيران ١٩٤٤.

في الأسبوع قبل الفائت، نشرت التريبيون مقالة في الذكرى المئوية لجيرارد مانلي هوبكنز، وبعدها مباشرة ذكرني عدد من أميركان نيشن عثرت عليه صدفة، بأن عام ١٩٤٤ يصادف الذكرى المئوية لكاتب أكثر شهرة– أناتولي فرانس.

حين مات أناتولي فرانس قبل عشرين سنة، عانى صيته من تلك السقطات المفاجئة التي يتعرض لها بشكل خاص الكتّاب الواسعو الثقافة الذين يعمرون طويلاً بشكل يكفي ليصبحوا محبوبين. في فرنسا، حسب العرف الفرنسي الساحر، شُنت هجمات شخصية شريرة عليه، بينما كان يحتضر وبعد أن مات فوراً. هجوم ضغين حقود بشكل خاص كتبه بيير دريو لا روشيل، ليصبح بعد ذلك متعاوناً ومتآمراً مع النازيين. في إنكلترا أيضاً اكتُشف أن أناتولي فرانس لم يكن جيداً. بعد بضع سنوات من هذا، أكد لي رجل شاب مرتبط بصحيفة أسبوعية (قابلته في باريس فيما بعد ووجدت أنه لا يستطيع شراء تذكرة ترام بدون مساعدة) أن أناتولي فرانس "كتب بلغة فرنسية رديئة جداً"، وأن فرانس كان كاتباً سوقياً ومنتحلاً ومقلداً، وهذا ما يراه كل واحد الآن. في الوقت نفسه تقريباً، حصلت اكتشافات مماثلة حول برنارد شو

ولايتون ستاركي: لكن الغريب جداً أن الكتاب الثلاثة ظلوا مقروئين حتى الآن، بينما بات أغلب الذين حطوا من قدرهم في طي النسيان.

أنا لا أعرف إن كان النفور من أناتولي فرانس نفوراً أدبياً أصيلاً والى أي مدى. لقد بولغ في مديحه بالتأكيد، والمرء يضجر أحياناً من كاتب متكلف جداً وداعر بشكل متعمد. لكن الذي لا يرقى إليه الشك أنه هوجم لأنه واحد من الشخصيات الرمزية في الصراع السياسي-الأدبي العنيف الذي تأجج منذ مئة سنة أو أكثر. رجال الكهنوت والرجعيون كرهوه بنفس الطريقة التي كرهوا فيها زولا تماماً. أناتولي فرانس دافع عن دريفوس، وهذا احتاج إلى شجاعة عظيمة، وعرّى جان دارك، وكتب تاريخاً هزلياً لفرنسا، والأهم أنه لم يفوت فرصة في السخرية من الكنيسة. كان أناتولي فرانس يمثل كل ما يمقته رجال الكهنوت والمطالبين بالانتقام الذين وعظوا وبشروا في البداية بألا يسمح للبوش (الألمان -المترجم) أن يشفوا ويعودوا إلى وضعهم السابق أبداً، وبعد ذلك لعقوا الدهان الأسود من حذاء هتلر.

لا أعرف إن كانت أهم كتب أناتول فرانس المميزة ككتابه **مشواة رينيه بيداك** مثلاً، جديرة بقراءة ثانية في هذا الوقت، فكل ما فيها موجود في فولتير حقيقة، لكنها قصة مختلفة مع الروايات الأربع التي تتعامل مع المسيو بيرغريت. فهي تعطيك أثمن صورة للمجتمع الفرنسي في التسعينات وخلفية قضية دريفوس، بالإضافة إلى كونها مسلية جداً. هناك أيضاً "**كرينكوبيلي**"، واحدة من أفضل القصص القصيرة التي قرأتها في حياتي، وكانت مصادفة هجمة مدمرة على القانون والنظام.

يجب على المرء حقيقة ألا يصنف أناتول فرانس كاشتراكي، رغم أنه تمكن من التكلم بصوت عال عن الطبقة العاملة في قصة مثل "كرينكيوبيلي"، ورغم أن طبعات رخيصة لأعماله حظيت بدعاية في الصحف الشيوعية. لقد رغب بأن يساعد الاشتراكية، وأن يلقي محاضرات عنها في الصالات المقفرة حتى، وعرف أنها ضرورية وحتمية، لكن يُشك إن كان أرادها شخصياً. قال مرة: إن العالم سيحصل على راحة من مجيء الاشتراكية، تشبه الراحة التي ينالها رجل مريض من التقلب في السرير. في الأزمات كان مستعداً لتصنيف نفسه مع الطبقة العاملة، لكن فكرة المستقبل الطوباوي أحزنته، كما يُرى من كتابه **الحجارة البيضاء**. وهناك نزعة تشاؤمية أعمق حتى في كتابه عن الثورة الفرنسية **الربات عطشات**. لم يكن مزاجياً اشتراكياً فقط بل راديكالياً

أيضاً. في هذا الوقت ربما هذا هو الأندر من الاثنين. إن راديكاليته وشغفه للحرية والأمانة الفكرية، هي التي أعطت لونها الخاص لرواياته الأربع عن مسيو بيرغريه.

لم أفهم أبداً لماذا تسمح النيوز كرونيكل ذات السياسة القرنفلية الشاحبة جداً -القريبة من لون عجينة الروبيان لكنها تظل قرنفلية- للكاثوليكي الرومي المحترف تيموثي شاي (دي بي ايندهام لويس) أن يستمر في تخريبه اليومي في عموده الهزلي. إن رفيقه الكاثوليكي "متسكع الشواطئ" (جيه بي مورتون) يشعر بتمام الراحة في لورد بيفربروك إكسبريس.

عند النظر إلى العشرين سنة الماضية، كان هذان الاثنان يقومان بعملهما، ومن الصعب أن تجد قضية رجعية لم يمجداها - بيلسوديسكي وموسوليني والتهدئة والانتقاد وفرانكو والرقابة الأدبية؛ لقد وجدا كلمات جيدة لكل شيء يرفضها الشخص المحترم بشكل غريزي، وأدارا دعاية لا تنتهي ضد الاشتراكية وعصبة الأمم والبحث العلمي، واستمرا في حملة التعسف ضد كل كاتب جدير بالقراءة من جويس فصاعداً، وكانا معادين للألمان بشكل شرير حتى ظهر هتلر، ففتر عداءهم للألمان بطريقة لافتة. وفي هذه اللحظة، من البديهي أن يكون الهدف المميز لكرههما هو بيفريدج.

من الخطأ اعتبار هذين الاثنين مجرد ممثلين هزليين بسيطين. إن كل كلمة كتباها أريدَ منها أن تكون دعاية كاثوليكية، وبعض من المتدينين يقدرون أعمالهما كثيراً جداً في هذا الاتجاه. إن خطهما العام مألوف لكل من قرأ تشيسترتون ومن شابهه من الكتاب، فنغمة خطهما الجوهرية هي تشويه سمعة إنكلترا والبلدان البروتستانتية عموماً، وهذا ضروري من وجهة النظر الكاثوليكية. يشعر الكاثوليكي والمدافع منهم على الأقل أن عليه أن يدعي بتفوق وتميز البلدان الكاثوليكية والعصور الوسطى على الحاضر، مثلما يشعر الشيوعي أن من واجبه أن يؤيد الاتحاد السوفييتي في كل الظروف. لهذا يسخر "متسكع الشواطئ" و"تيموثي شاي" بشكل لا ينقطع من كل مؤسسة إنكليزية -الشاي والكريكت ووردزوورث وشارلي شابلن والعطف على الحيوانات ونيلسون وكرومويل وأي شيء مماثل. وهو السبب أيضاً في محاولات تيموثي شاي إعادة كتابة التاريخ الإنكليزي وزمجرات الكره التي فلتت منه وهو يتفكر في هزيمة الأسطول الحربي الإسباني. (كيف علق في أحشائه ذلك الأسطول الحربي الإسباني! كما لو أن هناك من يهتم بذلك الأمر في

هذا العصر) ولهذا-حتى تلك السخرية اللانهائية من الروائيين، لم يبرع الكاثوليك برمتهم في الراوية، لكونها شكلاً أدبياً من فترة ما بعد الإصلاح الديني أساساً.

من وجهة نظر أدبية أو سياسية، فإن هذين الاثنين مجرد بقايا على طبق تشيسترتون. كانت نظرة تشيسترتون للحياة زائفة في بعض أشكالها، فقد أعاقه جهل ضخم، لكنه امتلك الشجاعة على الأقل، وكان مستعداً لمهاجمة الأغنياء والجبارين، ما أضر بسيرته المهنية. لكن غرابة كل من "متسكع الشواطئ" و "تيموثي شاي" أنهما لم يجازفا بشعبيتهما، وكانت استراتيجيتهما غير مباشرة دائماً. لهذا إن أردت أن تهاجم مبدأ حرية التعبير، فافعل ذلك بالسخرية من براينز تروست كما لو كان مثالاً أنموذجياً. دكتور جود لن ينتقم! حتى أعمق قناعاتهم تُلف في تخزين بارد حين تصبح خطيرة. قبل ذلك في الحرب حين كان فعل هذا آمناً، كتب "متسكع الشواطئ" كراسات شريرة معادية للروس، أما في هذه الأيام فلا تظهر أي ملاحظة معادية للروس في عموده. لكنها ستظهر ثانية إن هبطت المشاعر الشعبية المؤيدة للروس. أنا متشوق لأرى إن كان كل من "متسكع الشواطئ" أو "تيموثي شاي" سيردان على ملاحظاتي. إن حدث هذا، فسيكون الشاهد الأول المسجل لكليهما بأنهما يهاجمان كل من يحتمل منه أن يرد الضربة وينتقم. (هما لن يفعلا ذلك أبداً).

التريبيون ٣٠ يونيو/ حزيران ١٩٤٤.

ألاحظ بمعزل عن التذمر واسع الانتشار حول الطائرات الألمانية التي بلا طيار، بأنها "تبدو غير طبيعية أبداً" (القنبلة التي يسقطها طيار حي طبيعية تماماً كما يبدو) بعض الصحفيين أيضاً يشجبونها ويصفونها بالبربرية وغير الإنسانية، وبأنها "هجمة عشوائية على المدنيين"

بعد ما فعلناه بالألمان خلال السنتين الماضيتين، يبدو هذا كثيراً نوعاً ما، لكنه الاستجابة الإنسانية العادية لكل سلاح جديد. الغاز السام والبندقية الآلية والغواصة والبارود وحتى النشابية، كانت تستنكر بالمثل في زمنها. كل سلاح جديد يبدو جائراً حتى تتأقلم عليه. لكنني لا أنكر أن الطائرات بلا طيار والقنابل الطائرة أو مهما يكن اسمها الصحيح، هي شيء بغيض بشكل استثنائي، لأنها بعكس كل القذائف الأخرى، تعطيك الوقت لتفكر. ما هو رد فعلك الأول حين تسمع ذلك الضجيج المتصاعد الرتيب؟ بلا شك هو الأمل بألا يتوقف الضجيج. أنت تريد أن تسمع القنبلة تمر من فوق رأسك بأمان وتتلاشى بعيداً قبل أن ينطفئ المحرك.

بعبارة أخرى، أنت ترجو أن تسقط على شخص آخر. وهكذا أيضاً حين تتفادى قذيفة مدفع أو قنبلة عادية -لكن في تلك الحالة ليس لديك سوى خمس ثوان لتتصرف، وليس لديك الوقت لتفكر بأنانية الكائن البشري التي لا نهاية لها.

ليست مصادفة أن يكون القومجيون من النوع الرومانتيكي والمتطرف جداً، لا ينتمون إلى الأمة التي بجلوها، فقد كان القادة الذين تأسست جاذبيتهم على الحزب أو أرض الأجداد أجانب بالكامل، أو أنهم أتوا من بلدان محاذية لإمبراطوريات عظمى. ومن الأمثلة الجلية على ذلك، أن هتلر نمساوي ونابليون كورسيكي، وهناك آخرون كثيرون غيرهما. وكان الرجل الذي يمكن القول عنه إنه مؤسس الشوفينية البريطانية المغالية كان ديزرائيلي، وهو يهودي إسباني، وكان اللورد بيفربروك الذي حاول حث المعارضين الإنكليز ليصفوا أنفسهم بالبريتونز كندياً. لقد شيدت الإمبراطورية البريطانية إلى حد كبير بأيدي الرجال الايرلنديين والاسكتلنديين، وكان أشد قومجيينا عناداً وإمبرياليينا أغلبهم من الالستريين (ايرلندا الشمالية)، حتى تشرشل النصير الملهم للوطنية الرومانتيكية في عصرنا، كان نصف أمريكي. لكن ليس رجال الحرب فقط، وإنما منظرو القومية جلهم أجانب أيضاً. الرابطة الجرمانية مثلاً التي أخذ النازيون منها الكثير من أفكارهم، كان جلها من نتاج رجال ليسوا ألماناً: فمثلاً كان هاوستون تشامبرلاين إنكليزياً وغوبيناو فرنسياً. كان روديارد كيبلينغ إنكليزياً، لكن من النوع المشكوك فيه، فقد انحدر من خلفية أنغلوهندية غير عادية (والده القيّم على متحف بومباي) وقضى طفولته المبكرة في الهند، وكان ذا قامة صغيرة وبشرة داكنة، سببت له شكوكاً مغلوطة عن امتلاكه دماً آسيوياً. قلت دائماً لو كان لدينا هتلر في هذه البلاد، فسيكون ايرلنديا شمالياً أو من جنوب أفريقيا أو مالطياً أو أوراسياً أو أمريكياً -لكن ليس إنكليزياً في كل الأحوال.

قيل إن ستة ملايين كتاب دمرتها الحملة الجوية لعام ١٩٤٠ من ضمنها ألف عنوان فريد لا يعوض. أغلبها لم يكن خسارة ربما، لكن المرعب أن تجد كمّ الأعمال الأدبية القياسية الكثيرة التي نفدت تماماً الآن. الورق من أجل أكبر كرش مرعبة، كما يمكنك أن ترى من مجرد نظرة سريعة إلى داخل أي واجهة مكتبة، بأن كل الطبعات المكررة كإيفري مان مثلاً، فجوات

ضخمة في قوائمها. حتى عمل مشهور كمعجم ويبستر مثلاً لم يعد الحصول عليه ممكناً، إلا إن عثرت صدفة على نسخة مستعملة. في العام الماضي كان عليّ بث برنامج إذاعي عن جاك لندن. حين بدأت بتجميع المادة، وجدت أن الكتب التي أردتها أكثر من غيرها من كتبه، تلاشت تماماً، وحتى مكتبة لندن لم تستطع إنتاجها. ولكي أحصل عليها كان عليّ الذهاب إلى غرفة المطالعة في المتحف البريطاني الذي لم يكن منفذاً سهلاً في تلك الأيام. وهذا يبدو كارثة، لأن جاك لندن واحد من الكتاب الوسط من حيث الجودة الذين ربما نسيت أعماله تماماً، إلا إذا تجشم العناء أحد ما لإحيائها. حتى **العقب الحديدية** التي كانت ندرة مميزة لبضع سنين، لم تُعد طباعتها، إلا عندما جعل منها صعود هتلر إلى السلطة موضوعاً راهناً.........

التريبيون ٧ يوليو/ تموز ١٩٤٤.

حين دمر الخليفة عمر مكتبات الإسكندرية، ظلت الحمامات العامة دافئة لمدة ثمانية عشر يوماً بالمخطوطات المحترقة، وهلك عدد كبير من تراجيديات يوريبيديس وغيرها بشكل لا يسترد كما قيل. عندما قرأت عن هذا وأنا صبي، أتذكر أنني استحسنتُ الأمر بحماس كبير، وكان الأمر بالنسبة إلي التخلص من استخراج معاني عدد كبير جداً من الكلمات من المعجم. أنا في الواحد والأربعين من العمر، ويفترض بعمري الكبير أنني تعلمت في زمن لا يمكن فيه تفادي اللاتينية واليونانية إلا بصعوبة كبيرة، بينما لم تكن "الإنكليزية" موضوعاً مدرسياً على الإطلاق.

تلاشى التعليم التقليدي أخيراً، لكن يوجد حتى الآن أشخاص كبار في السن يجبرون على تعلم الأعمال الباقية الكاملة لإسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس وأريستوفانيس وفيرجيل وهوراس وغيرهم من المؤلفين اللاتينيين والإغريق، أكثر بكثير مما يقرؤون تحف القرن الثامن عشر الإنكليزية. يبدي الناس ولاء كلامياً لفيلدينغ والبقية طبعاً، لكنهم لا يقرؤونهم. ويمكنك أن تكتشف من خلال استعلامات قليلة وسط أصدقائك كم شخصاً قرؤوا **توم جونز** مثلاً؟ وليسوا كثيرين الذين قرؤوا الكتب الحديثة من رحلات غوليفار حتى. حظي **روبنسون كروزو** بنوع من الشعبية في نسخ رياض أطفال، لكن الكتاب ككل معروف قليلاً، لدرجة أن قلة قليلة مطلعة تعرف بوجود الجزء الثاني (الرحلة عبر تارتاري). أتصور أن أعمال سموليت هي الأقل قراءة من الكل، وقد حذفت الحبكة المركزية لمسرحية شو **بجماليون** من بيرغرين بيكل، ولم يشر أحد غيري إلى هذا في الطبعة كما أعتقد، مما يوحي أن قليلاً من

الأشخاص قرؤوا الكتاب. لكن الأغرب من كل ذلك، أن سموليت بقدر ما أعرف، لم يحصل على تشجيع أو تأييد القوميين الاسكتلنديين المتيقظين جداً الذين طالبوا بأن بايرون منهم. إن سموليت بالإضافة إلى كونه واحداً من أفضل الروائيين الذين أنتجتهم العروق الناطقة بالإنكليزية، كان اسكتلندياً، وصرح بذلك علناً في وقت يضر بسيرته ومهنته.

الحياة في العالم المتمدن

(العائلة تتناول الشاي)

أزيز-أزيز-أزيز!

"هل هناك جرس إنذار يرن؟"

"كلا، هو خال تماماً"

"ظننت أن هناك جرس إنذار يرن"

أزيز-أزيز-أزيز!

هناك آخر من تلك الأشياء قادم

لا بأس أنه على بعد أميال

أزيز-أزيز-أزيز!

احذر! ها هو يأتي! إنه تحت الطاولة! أسرعوا!

أزيز-أزيز-أزيز!

لا بأس إنه يضعف ويبهت.

أزيز-أزيز-أزيز!

إنه يعود!

يبدون في نوع من حلقة دائرية ويعودون ثانية. حصلوا على شيء في أعقابهم جعلهم يفعلونها. مثل قنبلة ضخمة مجنحة.

أزيز-أزيز-أزيز!

"يا يسوع! إنها ضربة فوق رؤوسنا!"

صمت مميت.

"الآن انخفض للأسفل. أبقِ رأسك منخفضاً جيداً. نعمة كبيرة أن الطفل ليس هنا!

"انظر إلى القط! هو مرعوب أيضاً"

"طبعاً الحيوانات تعرف. تستطيع أن تشعر بالاهتزازات"

دوي!

"الأمر على ما يرام، قلت لك إنها على بعد أميال"

(يستمر الشاي)

أرى أن اللورد وينترتون، كتب في إيفنينغ ستاندارد، يتكلم عن "التكتم اللافت (الذي لم يفرض بأمر قضائي أو قانون) الذي أظهره كل من البرلمان والصحافة في هذه الحرب، لتجنب تهديد الأمن القومي للخط، وأضاف أنه "فاز بإعجاب العالم المتمدن".

لا تلاحظ الصحافة البريطانية هذا التكتم الطوعي، إلا في زمن الحرب فقط. إن أحد الأشياء الأكثر غرابة عن إنكلترا، هو عدم وجود رقابة رسمية تقريباً، ومع ذلك لا يصل أي شيء هجومي فعلاً إلى الطباعة ضد الطبقة الحاكمة على الأقل في أي مكان يحتمل أن يقرأه عدد كبير من الناس. إذاً الأمر "لم ينضج" لذكر شيء أو آخر، فهو لن يذكر. تلخص أبيات هيلاري بيلوك الموقف (كما أعتقد):

لا أمل لك أن ترشو أو تحرف

الحمد للرب! الصحفي البريطاني

يرى فقط ما يفعله الإنسان

غير مرتش! لا توجد فرصة لذلك

لا رشاوى أو تهديدات أو عقوبات -تكفي مجرد إيماءة أو غمزة ويتمّ الشيء. مثال مشهور، قضية التنازل عن الحق. قبل أسابيع تفشت الفضيحة رسمياً، عشرات أو مئات الآلاف من

الناس سمعوا كل شيء عن السيدة سيمبسون، ومع ذلك لم تصدر كلمة واحدة من الصحافة ولا حتى في ديلي ووركر، رغم أن الصحف الأمريكية والأوروبية جعلت من القصة موضوعها المثير. لكن مع ذلك ليس هناك منع رسمي محدد في اعتقادي: مجرد "طلب" رسمي، وكان هناك اتفاق عام أن نشر الخبر قبل أوانه "لن يفيد". وأستطيع أن أذكر أمثلة أخرى من قصص الأخبار الجيدة التي فشلت أن ترى النور، رغم عدم وجود أي عقوبة لنشرها.

في هذا الوقت، يمتد هذا النوع من الرقابة المقنعة إلى الكتب أيضاً. لا تملي (الإم أو إي- وزارة الإعلام) طبعاً خطاً حزبياً أو تصدر فهرساً للحذف. هي "توصي" فقط الناشرين أن يأخذوا المخطوطات إلى وزارة الإعلام، وبدورها "تقترح" أن هذا أو ذاك غير مرغوب أو في غير أوانه أو "لا يخدم غرضاً جيداً". ورغم ذلك ليس هناك منع محدد أو بيان واضح، يبين أن هذا أو ذاك يجب ألا يطبع، سياسة رسمية لم يجر انتهاكها أبداً. كلاب السيرك تقفز حين يفرقع المدرب بسوطه، لكن الكلب المدرب جيداً هو الذي يقوم بشقلبته حين لا يكون هناك سوط. وتلك هي الحالة التي وصلنا إليها في هذه البلاد بفضل الثلاثمائة سنة من العيش معاً من دون حرب أهلية واحدة.

إليكم مسألة صغيرة تستخدم أحياناً كاختبار ذكاء:

مشى رجل مسافة أربعة أميال عن بيته باتجاه الجنوب، وقتل دباً رمياً بالرصاص. ثم مشى ميلين آخرين باتجاه الغرب، ثم مشى أربعة أميال باتجاه الشمال، وعاد إلى بيته ثانية. ما لون الدب؟

النقطة المشوقة حسب ملاحظتي- أن الرجال يرون جواب هذه المسألة عادة، لكن النساء لا يفعلن.

التريبيون ١٤ يوليو/ تموز ١٩٤٤.

استلمت عدداً من الرسائل، بعضها عنيف يهاجمني بسبب ملاحظاتي عن كراسة الآنسة فير بريتين المعادية للقصف. هناك نقطتان تحتاجان إلى تعليق أكبر كما يبدو.

الأولى، هي التهمة التي أصبحت شائعة تماماً، أننا "نحن بدأناه" أي أن بريطانيا كانت الدولة الأولى في ممارسة قصف منظم للمدنيين. كيف يمكن لأي واحد أن يدعي بهذا، وفي

الذهن تاريخ العشر سنوات الماضية، شيء أبعد من تصوري. كان العمل الأول في الحرب الحالية - قبل أن يمر إعلان حرب ببضع ساعات، إن كنت أتذكر بشكل صحيح - القصف الألماني لوارسو. قصف الألمان المدينة بالقنابل والقذائف بكثافة شديدة، لدرجة كما جاء عن البولونيين شبّ فيها ٧٠٠ حريق دفعة واحدة، ثم أنتجوا فيلماً عن دمار وارسو أطلقوا عيه اسم "تعميد حريق"، وأرسلوا نسخاً منه إلى كل أرجاء العالم، بهدف ترويع الحياديين. قبل هذا بسنوات عديدة، قصف فيلق النسر الذي أرسله هتلر إلى إسبانيا المدن الإسبانية الواحدة تلو الأخرى. قتلت "الغارات الصامتة" على برشلونة في عام ١٩٣٨ ألوفاً كثيرة من الناس في غضون يومين. قبل ذلك، قصف الإيطاليون الإثيوبيين العزل تماماً، وفاخروا بأعمالهم البطولية كشيء مضحك إلى حد بعيد. كتب برنو موسوليني مقالة صحفية، وصف فيها الإثيوبين الذين قُصفوا "يتفجرون ويتفتتون مثل زهرة"، وقال بأن ذلك كان "الأكثر إمتاعاً". واستمر اليابانيون منذ ١٩٣١ وبشكل مكثف منذ ١٩٣٧، بقصف المدن الصينية المزدحمة بالسكان، التي لا يوجد فيها أي نظام وقاية من الغارات الجوية، ولا مدافع مضادة للطائرات المقاتلة.

أنا لا أحاول أن أبرهن على أن أسود وأسود يساويان أبيض، ولا أن السجل البريطاني سجل جيد بشكل خاص. ففي عدد من "الحروب الصغرى" منذ عام ١٩٢٠ فصاعداً، أسقط سلاح الجو البريطاني قنابله على الأفغان والهنود والعرب الذين يفتقرون إلى قوة الرد والانتقام. لكن غير صحيح القول إن القصف على صعيد واسع لمناطق البلدات المزدحمة بالسكان، بهدف إحداث ذعر، هو اختراع بريطاني. الدول الفاشية هي من بدأت هذه الممارسة، وطالما ظلت الحرب الجوية لمصلحتهم، فإنهم يصرحون بأهدافهم بوضوح تام.

الشيء الآخر الذي يحتاج إلى معالجة، هو البكاء الببغائي عن "قتل النساء والأطفال" أشرت إلى هذا سابقاًن لكن من الواضح أن الأمر يحتاج إلى تكرار: ربما من الأفضل قتل شريحة مختلطة من السكان بدلاً من قتل الشبان. إن كانت الأرقام التي ينشرها الألمان صحيحة، وأننا قتلنا مليون ومائتي ألف مدني في غاراتنا، فإن خسارة الأرواح أضرت العرق الألماني بشكل أقل من مثيلتها على الجبهة الروسية أو في أفريقيا وإيطاليا.

إن أية أمة في حالة حرب، تبذل أقصى ما تستطيع لحماية أطفالها. وعدد الأطفال الذين قتلوا في الغارات الجوية، ربما لا يتوافق مع نسبتهم المئوية من عدد السكان العام. لا يمكن حماية

النساء بنفس الدرجة، لكن الاحتجاج العنيف ضد قتل النساء، إن قبلتم بالقتل إطلاقاً، هو مجرد عاطفية مبتذلة. لماذا يعتبر قتل المرأة أسوأ من قتل الرجل؟ الحجة المقدمة عادة في قتل النساء أنك تقتل الولادات بينما يمكن توفير الرجال بسهولة. لكن هذه فكرة خاطئة تبين أن الكائنات البشرية يمكن أن تتكاثر مثل الحيوانات. الفكرة التي خلفها هي بما أن رجلاً واحداً قادر على تلقيح عدد كبير من النساء كما يستطيع الكبش تلقيح آلاف النعاج، فإن خسارة حياة الذكر غير مهمة بالمقارنة. لكن البشر ليسوا قطيعاً. حين تترك المجزرة التي تسببها الحرب فائضاً من النسوة، فإن الأغلبية الضخمة من تلك النسوة لن يحملن بأطفال. حياة الرجال مهمة بيولوجياً مثل حياة النساء، وبالدرجة نفسها تقريباً.

خسرت الإمبراطورية البريطانية في الحرب الأخيرة مليون رجل، ثلاثة أرباعهم تقريباً من هذه الجزر، ويفترض أن يكون أغلبهم الآن دون الثلاثين من عمرهم. ولو كان لكل واحد من هؤلاء الشبان طفل واحد، لكان لدينا الآن ٧٥٠ ألف نسمة زيادة بعمر العشرين تقريباً. فرنسا التي خسرت خسارة أثقل وأكبر بكثير، لن تتعافى من مذبحة الحرب الأخيرة أبداً، ويشك أن تتعافى بريطانيا منها تماماً أيضاً. لا نستطيع إحصاء خسائر الأرواح في الحرب الحالية، لكن الحرب الأخيرة قتلت من عشرة ملايين إلى عشرين مليون شاب. ولو أنها جرت بالطريقة التي ستجري بها الحرب التالية بالقنابل الطائرة والصواريخ والأسلحة بعيدة المدى الأخرى التي تقتل الكبير والصغير والسليم والمريض والذكر والأنثى من غير تحيز، لكان ضررها على الحضارة الأوروبية أقل نوعاً ما مما فعلت.

خلافاً لما يعتقده بعض المراسلين، أنا لست متحمساً للغارات الجوية سواء غاراتنا أو غارات العدو، ومثل الكثيرين من الناس في هذه البلاد، ضقتُ ذرعاً من القنابل بالتأكيد، لكنني أعترض على الرياء في قبول القوة كوسيلة، بينما نصرخ ضد هذا السلاح الخاص أو ذاك، أو نشجب الحرب، بينما نريد الحفاظ على نوع المجتمع الذي يجعل الحرب حتمية.

لاحظت في مفكرتي لعام ١٩٤٠ توقعاً بأن الإعلانات التجارية ستختفي من الجدران خلال سنة واحدة، وبدا لي هذا محتملاً في ذلك الوقت. وبعد سنة أو سنتين بدا الاختفاء يحدث فعلياً، لكن ببطء أكبر مما توقعت. كانت الإعلانات التجارية تنكمش في العدد والحجم،

لتأخذ إعلانات الوزارات المتنوعة مكانها أكثر فأكثر على الجدران وفي الصحف. يمكن القول في الحكم من هذا العرض لوحده، إن الروح التجارية كانت في انحدار بالتأكيد. لكن في السنتين الأخيرتين حققت الإعلانات التجارية بكل سخافتها وتكبرها عودة ثابتة. في السنوات الأخيرة، أرى أن الأشد عدوانية من كل الإعلانات التجارية البريطانية، هي إعلانات روز لايم جوس، مع فكرة "الزير الصغير" وحوار بي جي ودهاوس الخاص بها.

أخشى أنك لا تراني في أفضل حالاتي هذا الصباح يا جينكس. كانت هناك حفلة صاخبة في الليلة الماضية. سيدك الصغير نظر إلى النبيذ حين كان أحمر وإلى الويسكي حين كان أصفر. سأستعمل العبارة السوقية. رأسي ثقيل، ماذا تتوقع من الطبيب أن يصف لي يا جينكس؟

لو تجرأت يا سيدي، فإن قدحاً من ماء الصودا مع دفقة من عصير الليمون روز، سيحقق النتيجة المرادة. هيا هاته يا جينكس! أنت دليلي دائماً وفيلسوفي وصديقي إلخ إلخ إلخ.

حين تتأمل ستجد أن هذا الإعلان يظهر في كل برنامج مسرحي مثلاً ليكون لكل مرتاد للمسارح حياة وهمية سرية يظن نفسه شاباً عصرياً مع خدم مخلصين كبار فيها، يا له من مشهد تغيير اجتماعي عنيف يتقهقر بشكل ملحوظ.

هناك أيضاً الإعلانات عن مقويات الشعر، التي تخبرك كيف حصلت دافني على ترقية في القوة الجوية الاحتياطية النسوية، بفضل أناقة ولمعان شعرها. لكن هذه الإعلانات مضللة وداعرة أيضاً، لأنني لم أمرّ بمجموعة من الضباط في القوة الجوية الاحتياطية النسوية أو الخدمة البحرية الملكية النسوية، من دون أن أفكر ملياً في أن الترقية في كل الأحوال في الخدمة النسوية، لا علاقة لها بتعبيرات الوجه لوكس -بالجمال.

كما أشاء ٢١ يوليو/ تموز ١٩٤٤.

وجدت نسخة من مذكرات صموئيل بتلر الطبعة الكاملة من السلسلة الأولى التي نشرها جوناثان كيب عام ١٩٢١ عمرها عشرون سنة، وتعرضت لعدة مواسم من المطر في بورما، لكنها على أي حال موجودة وحية، وهذا جيد، لأن هذا آخر كتاب من الكتب المشهورة التي لم يعد شراؤها متاحاً. في وقت لاحق أصدر جوناثان كيب نسخة مختصرة في مكتبة المسافر، لكنها كانت غير مرضية. والسلسلة الثانية التي نشرت عام ١٩٣٤ لم تحتوِ على قيمة كبيرة. إنها

السلسلة الأولى التي تجد فيها قصة مقابلة بتلر مع مسؤول تركي في الدردنيل، وتجد أسلوبه في شراء البيض الجديد، ومحاولاته لتصوير مطران أصابه دوار البحر، وتفاهات مماثلة أخرى لها قيمة أكبر من أعماله الرئيسية.

إن فكرة بتلر الرئيسية، تبدو إما غير مهمة أو أنها تعاني من تأكيد خاطئ. باستثناء علماء علم الأحياء، من يهتم الآن إن كانت نظرية داروين في التطور أو نسخة لاماركيان التي يؤيدها بتلر، هي الصحيحة؟ إن قضية التطور برمتها تبدو أقل أهمية وخطورة مما تبدو عليه، لأننا بخلاف الفيكتوريين لا نشعر إن كنا ننحدر من أصل حيواني، فهذا شيء مهين للكرامة البشرية. ومن جانب آخر يسخر بتلر ويستهزئ كثيراً من أشياء تبدو لنا في غاية الأهمية. مثلاً:

يجب ألا نبحث عن الاختلافات الرئيسية والفرعية في العرق البشري بين الزنوج والشراكسة والماليزيين وسكان أمريكا الأصليين، وإنما بين الأغنياء والفقراء. إن الاختلاف في التكوين البدني بين هذين الجنسين، أكبر مما هو بين النماذج والأنواع البشرية المزعومة. يستطيع الرجل الغني أن يذهب من نيوزيلندا إلى إنكلترا متى أحب، والرجل الفقير ممنوع حمله إلى أبعد من حدود ضيقة. لم يستطع الغني أو الفقير رؤية فلسفة الشيء أو يعترف أن من يستطيع أن يضيف جزءاً غير ضروري على واحد من قوارب بي أن أو على هويته، هو منظم أكثر من الذي لا يستطيع.

هناك مقاطع لا تحصى مشابهة في عمل بتلر، يمكنك أن تفسرها بسهولة بمعنى ماركسي، لكن النقطة أن بتلر نفسه لم يفعل ذلك. أخيراً فإن وجهة نظره محافظة، على الرغم من هجومه الناجح على المعتقد المسيحي ومؤسسة العائلة. الفقر مهين، ولذلك احرص ألا تكون فقيراً- هذا هو رد فعله. من هنا تأتي النهاية غير المحتملة وغير المرضية لكتابه **طريق كل البشر** الذي يتناقض بشكل غريب مع واقعية الأجزاء السابقة.

رغم أنه نصف بالٍ، إلا أنه أفضل بكثير من معاصريه الجديين مثل ميريديث وكارليل، لأنه لم يفقد القدرة على استخدام عينيه، ووجد المتعة في الأشياء الصغيرة، وكتب بشكل جيد بالمعنى التقني الضيق. حين يقارن المرء نثر بتلر مع نثر ميريديث المشوه ونثر ستيفنسون المتصنع، يرى الأفضلية الهائلة المكتسبة من عدم محاولة أن تبدو حاذقاً وذكياً. إن أفكار بتلر حول الموضوع تستحق الاقتباس:

أنا لم أعرف كاتباً بذل جهوداً كبيرة على أسلوبه وكان مقروءاً في الوقت نفسه. ينبغي على الإنسان أن يتحمل عناءً كبيراً كي يكتب بشكل واضح ومختصر وعذب، لكنه سيكتب ثلاث جمل أو أربع أكثر، وإن عمل أكثر من ذلك، فهذا أسوأ من عدم إعادة الكتابة إطلاقاً. سيتكبد عناء كبيراً ليرى أنه لم يكرر نفسه ويرتب مادته بالطريقة الأفضل لكي يفهمه القارئ، ويحذف الكلمات غير الضرورية، ويتجنب المادة غير اللازمة للموضوع. لكن في كل حالة لن يفكر بأسلوبه، وإنما بما يناسب قارئه..... أود أن أؤكد أنني لم أكترث أبداً بأسلوبي الكتابي، ولم أفكر فيه إطلاقاً، ولم أعرف ولم أرد أن أعرف إن كان أسلوباً أو لم يكن، كما أعتقد وأتمنى أن يكون أسلوباً صريحاً وصادقاً ومستقيماً. لا أستطيع أن أتخيل كيف يستطيع الرجل التفكير بأسلوبه من دون أن يخسر نفسه وقراءه. ويضيف بتلر بشكل مميز خاص على أي حال، أنه بذل جهوداً كبيرة لتحسين خط يده.

حجة ينبغي أن يستعد الاشتراكيون لمواجهتها، بما أنها تطرح بشكل دائم من قبل المدافعين المسيحيين والمتشائمين الجدد من أمثال جيمس بيرنهام، وهي عدم قابلية "الطبيعة البشرية" للتغير. يُتهم الاشتراكيون - أعتقد بلا مبرر - في اعتقادهم بأن الإنسان قابل للتحسن، وعندئذ يشار إلى أن التاريخ البشري في الحقيقة تاريخ حكاية طويلة من الطمع واللصوصية والاضطهاد. وقيل إن الإنسان يحاول دائماً أن يقهر جاره ويتفوق عليه ويأخذ أكثر من نصيبه بأقصى ما يستطيع من الملكية لنفسه وعائلته. إن الإنسان آثم ومذنب بطبيعته، ولا يمكن أن تجعله فاضلاً بمرسوم برلماني. لذلك يبقى المجتمع اللاطبقي مستحيلاً إلى الأبد على الرغم من إمكانية التحكم بالاستغلال الاقتصادي إلى حد.

إن الرد المناسب كما يبدو لي، أن هذه الحجة تنتمي إلى العصر الحجري، وأنها تفترض مسبقاً أن السلع المادية ستظل في حالة شحّ وندرة دائماً. إن قوة الجوع لدى الكائنات البشرية، تمثل مشكلة خطيرة في الحقيقة، لكن ليس هناك مبرر للاعتقاد أن الطمع في الثروة صفة إنسانية مميزة دائمة. نحن أنانيون في المسائل الاقتصادية، لأننا نعيش في رعب من الفقر، لكن حين لا تكون السلعة نادرة، لن يحاول أي أحد أن يأخذ أكثر من حاجته منها. إن المليونير والمتسول كلاهما قانعان بالهواء الذي يتنفسانه فقط. لنأخذ الماء مثلاً أيضاً. في هذه البلاد نحن لا نخشى

من نقص في الماء، ولدينا الكثير منه، وبالتالي من النادر أن يدخل الماء في شعورنا. لكن في البلدان الجافة كبلدان شمال أفريقيا، يسبب نقص المياه الكثير من الحسد والغيرة والكره والجرائم المرعبة. وهكذا الحال مع بقية السلع الأخرى، فلو جعلت كثيرة، ويمكن أن يكون هذا سهلاً، فلن يبقى مبرر للتفكير بأن غرائز الكائن البشري المكتسبة المفترضة لن تتكاثر بعد جيلين اثنين. وأخيراً، إن كانت الطبيعة البشرية لا تتبدل أبداً، فلماذا لم نعد نمارس عادة أكل لحوم البشر ولا نريد ذلك حتى؟

لغز عقلي آخر

اعتاد رجل أعمال الذهاب إلى بيته في قطار الضواحي الذي يغادر لندن في السابعة والنصف. وفي مساء أحد الأيام أوقفه الحارس الليلي الذي جاء من أجل نوبته وقال: "المعذرة يا سيدي، أنصحك ألا تسافر بقطارك المعتاد الليلة. حلمت ليلة أمس بتحطم القطار ومقتل نصف الناس الذين كانوا فيه. ربما تعتقد أنني شخص أؤمن بالخرافات، ولكن الحلم كان قوياً ونشطاً جداً لدرجة لم أستطع إلا أن أعتبره إنذاراً.

تأثر رجل الأعمال بما يكفي، وانتظر، ثم استقل القطار الذي تلى قطاره المعتاد، وحين فتح الجريدة في صباح اليوم التالي رأى وبشكل مؤكد أن القطار تحطم وقتل فيه أشخاص كثيرون. في المساء أرسل بطلب الحارس الليلي وقال له:

"أريد أن أشكرك لأنك حذرتني ليلة أمس. أعتبرك أنقذت حياتي، وفي المقابل أحب أن أقدم إليك هدية من ثلاثين جنيهاً، وأن أخبرك أيضاً أنك مفصول من العمل. لديك مهلة أسبوع بدءاً من اليوم.

هذا فعل عقوق، لكن رجل الأعمال كان صارماً في عقوقه. لماذا؟

كما أشاء ٢٨ يوليو/ تموز ١٩٤٤.

منذ بضع سنوات، في سياق مقالة عن مجلات الصبيان الأسبوعية، كتبتُ بعض الملاحظات العابرة عن صحف النساء- أقصد الصحف التي ببنسين من أنموذج بيغس بيبر والتي تسمى عادة "كتب الحب"، وجلب لي من بين رسائل كثيرة رسالة طويلة من امرأة

ساهمت وعملت للاكي ستار والغولدن ستار وبيغز بيبر وسيكريتس وذا أوراكل وعدد من الصحف المشابهة. كانت نقطتها الرئيسية أنني كنت مخطئاً في القول إن هذه الصحف تهدف إلى خلق وهم الثروة. قصصها من نوع سندريلا، ولا تستغل "حافز أنها تزوجت من رئيس عملها". أضافت المتراسلة:

ذكرت البطالة - بشكل متكرر... الإعانة الحكومية والنقابة لم تذكرا إطلاقاً. ربما تكون متأثرة بحقيقة أن أكبر الناشرين لهذه المجلات النسائية دور غير نقابية. لا يسمح للمرء أبداً بانتقاد النظام أو أن يظهر الصراع الطبقي كما هو في الواقع، وكلمة اشتراكي لم تذكر أبداً. - كل هذا صحيح تماماً. لكن ربما يكون من الممتع أن نضيف أن الشعور الطبقي ليس غائباً تماماً. الأغنياء يصورون دائماً كصانعي مال بخلاء قساة وكسالى. الزير الغني والكسول يخطط دائماً للزواج من دون خاتم، وتصور الصبية ينقذها عامل المرآب. الرجال من دون سيارات "سيئون" عادة، والرجال الذين في البدلات باهظة الكلفة والمفصلة جيداً دائماً محتالون. إن المثل الأعلى والهدف من هذه القصص، ليس دخلاً يساوي زوجة مدير بنك، وإنما حياة تعتبر جيدة. الحياة مع زوج عطوف مستقيم أخلاقياً مع أطفال و"كوخ صغير" لقضاء العطل. القصص مشروطة لتظهر أن الحياة الشحيحة ليست سيئة جداً فعلا، طالما أنت سعيد وصادق ومخلص، وأن الغنى يجلب المشاكل والأصدقاء المزيفين. الفقراء يعطون قيماً أخلاقية يتوقون للوصول إليها.

توجد تعليقات كثيرة، يمكن أن أدونها هنا، لكنني اخترت أن أهتم بنقطة التفوق الأخلاقي بكونك فقيراً، مع عدم ذكر النقابات والاشتراكية. ليس هناك شك بأن هذا سياسة متعمدة. في صحيفة نسائية واحدة، قرأت قصة تعالج إضراباً في منجم فحم، وحتى في هذا السياق لم تذكر النقابات المهنية. حين دخلت جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية الحرب، اغتنمت على الفور واحدة من هذه الصحف، ونشرت قصة متسلسلة بعنوان "عشيقها السوفييتي"، لكن يمكننا التأكد أن الماركسية لم تدخل فيها بشكل كبير جداً.

في الحقيقة، إن هذا العمل بخصوص التفوق الأخلاقي للفقراء، واحد من أشد الأشكال المهلكة للهروب من الواقع الذي طورته الطبقة الحاكمة. يمكن أن تداس وتتعرض للنصب والاحتيال، لكنك في عيون الرب أنت متفوق على مضطهديك، وكذلك يمكنك الاستمتاع

بوجود خيالي بواسطة الأفلام والمجلات، تنتصر فيه على الأشخاص الذين هزموك في الحياة الواقعية. إن كل أشكال الفن مصممة لتجذب أكبر عدد من الناس، ولم يسمع أبداً بتفوق الرجل الغني على الرجل الفقير. الرجل الغني سيء عادة ومكائده تفشل دائماً. الرجل الفقير الطيب يهزم الرجل الغني السيئ، وهي صيغة مقبولة. ولو كان العكس لشعرنا بوجود شيء خاطئ جداً في مكان ما. هذا بارز في الأفلام والمجلات الرخيصة، وربما يكون أكثر بروزاً في الأفلام الصامتة القديمة. إن الغالبية العظمى من الناس التي تشاهد الأفلام هي من الفقراء، لهذا تكون سياسة الفيلم أن تجعل من الفقير بطلاً. أساطين السينما وسادة الصحافة وأمثالهم، يكومون قدراً كبيراً من ثرواتهم بالإشارة إلى كون الثروة شريرة.

إن صيغة الرجل الفقير الطيب يهزم الرجل الغني السيئ، هي نسخة أشد مكراً من "فطيرة في السماء" (الوعد الفارغ) وتهذيب للصراع الطبقي. طالما تستطيع أن تحلم بأنك رجل الكاراج القوي والمجد الذي يوجه لصانع المال لكمة على الفك، يمكنك نسيان الوقائع الحقيقية. هذه خدعة أذكى من الوهم بالثروة، لكن الغريب جداً أن الواقع يدخل في الصحف في مجلات النساء هذه، ليس من خلال القصص، وإنما من خلال أعمدة المراسلة خصوصاً في الصحف التي تقدم نصائح طبية مجانية. هنا يمكنك أن تقرأ حكايات مزعجة عن "سيقان سيئة" و"بواسير" و"أم التسعة" و"المصابة بالإمساك دائماً". مقارنة هذه الرسائل بقصص الحب المتلاصقة جنباً إلى جنب، تبين الدور الكبير الذي تلعبه أحلام اليقظة في الحياة العصرية.

لقد قرأت للتو رواية كيفن كيسلر **المجالدون** التي تصف تمرد العبيد بقيادة سبارتاكوس عام ٧٠ ق.م. إنها ليست أفضل أعماله، وبأي حال إن أي رواية تصف تمرد العبيد في الأزمنة القديمة، ستعاني من كونها ستخضع لمقارنة مع سالامبو العظيمة للكاتب فولتير عن تمرد المرتزقة القرطاجيين. لكنها ذكرتني بعدد العبيد القليل جداً الذين نعرف عنهم أي شيء. أنا نفسي أعرف أسماء ثلاثة عبيد فقط: سبارتاكوس نفسه، والخرافي إيسوب الذي كان عبداً كما يفترض، والفيلسوف أبكتيتوس الذي كان أحد العبيد المتعلمين والذي أحب الحكام الأثرياء الرومان أن يملكوهم وسط حاشيتهم. كل الآخرين ليسوا أسماء حتى. نحن لا نعرف مثلاً أو على الأقل أنا لا أعرف اسم واحد من عشرات آلاف الكائنات البشرية التي بنت الأهرامات. أعتقد أن سبارتاكوس هو العبد الأكثر شهرة في كل الأزمنة. إن الحضارة استندت على

العبودية لأكثر من خمسة آلاف سنة، وحتى عندما ينجو ويحيا اسم عبد واحد، فهذا لأنه لم ينصع إلى الأمر القضائي "لا تقاوم الشر"، لكنه أثار تمرداً عنيفاً. أعتقد أن هناك مغزى من هذا للسلميين الذين ينبذون الحرب.

نشرنا في الأسبوع الماضي جزءاً من رسالة عن قصيدة معادية للحرب بعنوان "رؤيا أوباديا هورنبروك" مع التعليق "أنا متفاجئ بأنكم نشرتموها". أنا مثل مراسلنا، أختلف مع أوباديا هورنبروك، لكن هذا ليس سبباً كافياً لعدم نشر ما كتب. لكل جريدة سياسة، وفي أقسامها السياسية تفرض هذه السياسة وتقصي السياسات الأخرى، وهذا الفعل ليس غباء. لكن هدف الصحيفة الأدبية قضية أخرى. حتى هناك لا توجد صحيفة تعطي مكاناً فيها لهجوم مباشر على ما تؤيده وتناصره. نحن لن ننشر مقالة تمتدح معاداة السامية مثلاً، لكن بمنح الموافقة الضرورية الدنيا، فإن القيمة الأدبية هي الشيء المهم. بالإضافة إلى ذلك، إن كانت الحرب حول شيء ما، فهي لصالح حرية الفكر. يجب عليّ أن أكون آخر من يدعي التفوق الأخلاقي على أعدائنا، وهناك حجة قوية بأن الإمبريالية البريطانية أسوأ من النازية. لكن يبقى الاختلاف الذي لم يفسر، بأنك في بريطانيا حر نسبياً بأن تقول وتنشر. حتى في أشد البقع سواداً في الإمبراطورية البريطانية كالهند مثلاً، هناك حرية تعبير أكبر من أي دولة استبدادية شمولية. أنا أريد أن يبقى هذا صحيحاً وحقيقياً، وبين الفينة والأخرى إعطاء الآراء غير الشكلية فرصة استماع. وأعتقد أننا نساعدها على هذا.

التريبيون ٤ أغسطس/ آب ١٩٤٤

بذكر القصف المشبع، أضاف مراسل صحفي اختلفَ معي بشدة وكان من السلميين الرافضين لحمل السلاح بأي شكل، ثم اعترف وقال "يجب أن يُهزم الهون". لكنه اعترض على الأساليب البربرية التي نستخدمها الآن فقط.

الآن يبدو لي أنك تسبب ضرراً أقل بإسقاط القنابل على الناس من تسميتهم بـ "الهون". من الواضح أن المرء لا يريد أن يسبب الموت والجروح إن استطاع تجنب ذلك، لكن لا أستطيع أن أشعر أن مجرد القتل حاسم وحيوي. سوف نموت بعد أقل من مئة سنة وأغلبنا بالرعب القذر المعروف بـ "الموت الطبيعي". الشيء الشرير حقاً أن تتصرف بطريقة تصبح فيها الحياة المسالمة مستحيلة. الحرب تؤذي نسيج الحضارة، ليس بالتدمير الذي تسببه (التأثير الجوهري للحرب

يمكن أن يزيد القدرة الإنتاجية للعالم كله) أو بذبح الكائنات البشرية حتى، وإنما بإثارة الكزه والخداع. أنت لا تخطئ بحق عدوك في أعماقك بإطلاق النار عليه، لكن من خلال كرهه وابتداع الأكاذيب عنه وتربية الأطفال على تصديقها والمطالبة بشرط سلام جائر يسبب المزيد من الحروب المحتملة، أنت لا تهلك جيلاً واحداً وإنما الإنسانية نفسها.

من خلال المشاهدة، فإن الأشخاص الذين أصيبوا بأقل درجة من هستريا الحرب، هم الجنود المقاتلون. أنهم أقل ميلاً من كل الناس إلى كره العدو وبلع الدعاية الكاذبة أو المطالبة بسلام انتقامي. لدى كل الجنود تقريباً -وهذا ينطبق على الجنود المحترفين في وقت السلم حتى- موقف عقلاني نحو الحرب. هم يدركون أنها مثيرة للاشمئزاز وأنها ربما تكون ضرورية. هذا أصعب على المدني، لأن الموقف المتسق للجندي ناتج جزئياً عن الإنهاك الصرف والنتائج الواقعية للخطر والاحتكاك المستمر مع آلته العسكرية. لدى المدني الشبعان عاطفة فائضة أكثر، وهو ميال إلى استهلاكها في كره شخص أو آخر -العدو ولو كان ببغاء، وحليفه إن كان من الرافضين لحمل السلاح. لكن عقلية الحرب شيء يمكن الصراع ضده وقهره، مثلما يمكن التغلب على الخوف من الرصاص. المشكلة أن كلاً من اتحاد ضمان السلام وجمعية لن تتكرر ثانية أبداً لا يعرفان عقلية الحرب حين يريانها. في الوقت الحالي، فإن الحقيقة المتمثلة بأن هذه الألقاب الحربية المهينة مثل "الهون" لم تجذب الجمهور الكبير، تبدو لي فألاً حسناً.

إن الذي بدا لي دائماً واحداً من أشد الأفعال الصادمة في الحرب الأخيرة، هو فعل لم يستهدف قتل أحد، بل على العكس ربما أنقذ أرواحاً كثيرة. قبل إطلاق هجومهم الكبير على كابوريتو، أمطر الألمان الجيش الإيطالي بنشرات دعائية اشتراكية مزيفة، زعموا فيها أن الجنود الألمان مستعدون لقتل ضباطهم والتآخي مع رفاقهم الإيطاليين إلخ إلخ. خدع عدد من الإيطاليين الذين أتوا ليتآخوا مع الألمان، فحُولوا إلى أسرى- وكما أعتقد سخروا منهم بسبب سذاجتهم. سمعت دفاعاً عن هذا العمل، بأنه طريقة ذكية وإنسانية جداً لشن الحرب- إن كان هدفك الوحيد هو أن تنقذ أكبر قدر من الأشخاص، ومع ذلك فإن خدعة مثل تلك تؤذي جذور التضامن الإنساني بطريقة يعجز أي عمل عنيف عن إحداثها.

أرى أن الحواجز تعود- الخشبية فقط، لكنها تظل حواجز- في ساحة تلو الأخرى في لندن. لكي يتمكن المقيمون الشرعيون الاستفادة من مفاتيحهم ثانية، ويمكن إبعاد أطفال الفقراء في الخارج.

حين أزيلت الحواجز التي حول المنتزهات العامة والساحات، كان الهدف جزئياً تكويم الخردة، لكنها ظلت أيضاً إيماءة ديمقراطية. المزيد من المساحات الخضراء مفتوحة للعامة الآن، ويمكنك البقاء في المنتزهات في كل الساعات، بدلاً من أن تُطارد وتُطرد في أوقات الإغلاق من قبل حراس قساة. واكتشف أيضاً أن هذه الحواجز لم تكن ضرورية فقط، وإنما بشعة بشكل شنيع. تحسنت المنتزهات بفضل فتحها واكتسبت منظراً ودياً ريفياً تقريباً لم تعرفه من قبل، ولو تلاشت الحواجز بشكل دائم، فسيتلو التحسن السابق تحسن آخر. جنينات كئيبة من أشجار الغار وجنبة الرباط -نباتات غير ملائمة لإنكلترا ومغبرة دائماً في كل الأحوال في لندن- كان يمكن نكشها واستبدالها بأسرة من الزهور. لكن المتنفذين نجحوا في تفادي هذا الإصلاح مثل الكثير غيره. وفي كل مكان انتصبت سياجات الأوتدة الخشبية، عداك عن الهدر في الجهد وفي الخشب.

حين كنت في الحرس الوطني، كنا نقول إن العلامة السيئة حين يطبق الجلد بالسوط الذي لم يحدث بعد، لكن كل الأعراض الاجتماعية الثانوية تشير إلى نفس الاتجاه، أما العلامة الأسوأ من الكل التي يجب علينا توقع حدوثها في الحال تقريباً في اعتقادي- إذا فاز التوريون في الانتخابات العامة- الظهور الجديد للقبعات العالية في شوارع لندن التي لن يلبسها المقاولون أو رسل البنوك. نأمل أن ننتقد ونحلل قبل أن يطول الأمد -وفي الوقت الراهن أنتهز الفرصة للفت الانتباه إلى- كتاب غير عادي اسمه **شارع برانش** للمؤلفة لماريا بانيث، وهي عاملة متطوعة أو كانت تعمل في نادٍ للأطفال، وكتابها يكشف الظروف الهمجية التي مازال أطفال لندن يتربون فيها، لكن ليس واضحاً تماماً إن كانت هذه الظروف ناتجة عن الحرب. أود أن أقرأ سرداً رسمياً لأثر الحرب على الأطفال. لقد أخلي مئات الآلاف من أطفال المدن إلى مناطق ريفية وانقطع الكثيرون منهم عن التعليم لشهور دفعة واحدة، ومرّ آخرون منهم بتجارب مرعبة مع القنابل (في وقت سابق من الحرب، فتاة صغيرة في الثامنة أخليت إلى قرية هيرتفوردشاير، أكدت لي أنها قصفت سبع مرات) ونام قسم آخر منهم في ملاجئ أنبوبية

أحياناً لمدة سنة متواصلة تقريباً. أود أن أعرف مدى تأقلم أطفال المدن مع حياة الريف- إن كانوا تربوا على الاهتمام بالطيور والحيوانات، أم أنهم تاقوا للعودة إلى دور السينما- وإن كان هناك أي زيادة مهمة في جرائم الأحداث. إن الأطفال الذين وصفتهم السيدة بانيث يبدون مثل عصابات أكثر من "أطفال جامحين"، وهم منتج جانبي للثورة الروسية.

في الماضي في القرن الثامن عشر، حين كان الموسلين الهندي أحد عجائب العالم، أرسل ملك هندي رسلاً إلى بلاط لويس الخامس عشر للتفاوض حول اتفاق تجاري، وكانوا يدركون أن للنساء في أوروبا نفوذاً سياسياً عظيماً، وجلب الرسل لهن معهم بالة من الموسلين النفيس، وأعطيت لهم تعليمات بتقديمه إلى خليلة لويس. لسوء الحظ لم تكن معلوماتهم حديثة: مشاعر لويس غير المستقرة انحرفت، وقدم الموسلين إلى خليلة نبذها مسبقاً. كانت المهمة فاشلة، وقطعت أعناق الرسل حين عادوا إلى الوطن.

لا أعرف إن كان لهذه القصة مغزى، لكن حين أرى نوع الناس الذين تحب وزارة خارجيتنا جمعهم والاجتماع بهم، أتذكرها دائماً تقريباً.

التريبيون ١١ أغسطس/ آب ١٩٤٤

منذ بضعة أيام، كتب لي شخص من غرب أفريقيا يخبرني أن إحدى صالات الرقص في لندن نصبت "عائقاً لونياً"، لكي ترضي الجنود الأمريكيين الذين شكلوا قسماً من زبائنها. محادثة هاتفية مع إدارة صالة الرقص أتت لنا بالأجوبة: أ) إن "الحاجز اللوني" ملغى و(ب) إنه لم يفرض أبداً. لكني أعتقد أن لتهمة مخبرنا نوع من الأساس. كانت هناك حوادث مماثلة أخرى مؤخراً. مثلاً خلال الأسبوع الماضي أبرزت دعوة قضائية أنه لم يسمح للزنوج الهنود الغربيين العاملين في هذه البلاد بالدخول إلى أماكن التسلية وهم يلبسون الزي الرسمي للحرس الوطني. وهناك أمثلة كثيرة عن طرد هنود وزنوج وآخرين من الفنادق على أساس أننا "لا نقبل الناس الملونين"

من الهام جداً أن نكون يقظين ضد هذا النوع من الشيء، وأن نثير أكبر هياج شعبي ممكن كلما حدث، لأنه واحد من المسائل التي تحقق إثارة الضجة شيئاً فيها. لا يوجد هناك عجز وعدم أهلية قانونية ضد الناس الملونين في هذه البلاد، والأكثر أن الشعور اللوني الشعبي قليل

جداً. (هذا ليس بسبب أي قيمة موروثة في الشعب البريطاني كما بين سلوكنا في الهند، وإنما لأن بريطانيا نفسها ليست فيها مشكلة اللون).

تنشأ المشكلة بنفس الطريقة دائماً. فندق أو مطعم أو أي شيء آخر يرتاده الناس الذين يملكون المال لإنفاقه، ويعترضون على الاختلاط بالهنود أو الزنوج. يخبرون المالك أنه إذا لم يفرض حاجز اللون، فسيذهبون إلى مكان آخر. قد يكونون أقلية صغيرة وقد لا يتفق المالك معهم، لكن تصعب عليه خسارته لزبائن جيدين، لهذا يفرض حاجز اللون. هذا النوع من الشيء لا يمكن أن يحدث حين يكون الرأي يقظاً وحين تُعطى سمعة كريهة ضد أي مؤسسة يُهان فيها الناس الملونون. أي واحد يعرف أي مثال يمكن إثباته عن التمييز اللوني يجب فضحه دائماً، وإلا فإن النسبة المئوية الصغيرة جداً للمتكبرين اللونيين الموجودين بيننا، يمكن أن يسببوا ضرراً لا نهاية له، ويعطوا للشعب البريطاني صيتاً سيئاً لا يستحقه في المجمل. في عشرينيات القرن العشرين، حين كان السواح الأمريكيون جزءاً كبيراً من المشهد في باريس مثل أكشاك التبغ والمبولات القصديرية، بدأت تظهر بدايات الحاجز اللوني في فرنسا أيضاً. الأمريكيون ينفقون المال مثل الماء، ومالكو المطاعم وأشباههم لا يتحملون خسارة تجاهلهم. في مساء ما في حفلة رقص في مقهى مشهور جداً، اعترض بعض الأمريكيين على حضور زنجي كان هناك مع امرأة مصرية. بعد اعتراضات واهنة، استسلم مالك المقهى وطرد الزنجي.

في صباح اليوم التالي، كانت هناك ضوضاء فظيعة، وحمل المالك ليقف أمام وزير حكومي وهدد بالمقاضاة. تبين أن الزنجي كان سفير هاييتي. الناس من هذا النوع يمكنهم الحصول عادة على الإرضاء، لكن أغلبنا ليس لديهم الحظ الطيب ليكونوا سفراء، والهندي العادي أو الزنجي أو الصيني لا يمكن أن يكون محمياً ضد إهانة قذرة، إلا إذا كان الناس العاديون مستعدين أن يجهدوا أنفسهم للوقوف في صفه.

التريبيون ١٨ أغسطس/ آب ١٩٤٤

على ذكر ملاحظاتي عن وضع الحواجز حول ساحات لندن، كتب أحد المراسلين: "هل الساحات التي أشرت إليها ملكية عامة أم خاصة؟ إن كانت خاصة، فأظن أن ملاحظاتك تدافع بلغة جلية عن شيء لا يقل عن السرقة، ويجب أن تصنف مثل ذلك"

إن كانت إعادة أرض إنكلترا إلى شعب إنكلترا سرقة، فأنا سعيد بتسميتها سرقة. في حماسه للدفاع عن الملكية الخاصة، لم يتوقف مراسلنا ليتأمل كيف وضع هؤلاء الملاكون المزعومون أيديهم عليها. فهم ببساطة استولوا عليها بالقوة، ثم استأجروا محامين ليزودهم بصكوك الملكية بعد ذلك. في حالة تسييج الأراضي المشاع التي استمرت منذ ١٦٠٠ إلى ١٨٥٠ لم يكن لدى مغتصبي الأرض العذر بكونهم فاتحين أجانب حتى، فقد كانوا يأخذون بصراحة تامة الإرث من أبناء بلدهم من دون أي ذريعة عدا أنهم امتلكوا القوة لفعل ذلك.

ما عدا القلة القليلة الباقية من الأرض المشاع والطرق العامة وأراضي الائتمان الوطني وعدد محدد من المتنزهات العامة وشواطئ البحر، فإن كل بوصة مربعة من إنكلترا مملوكة من قبل بضعة آلاف من العائلات. هؤلاء الناس نافعون مثل الدودة الشريطية. من المرغوب أن يمتلك الناس بيوتهم السكنية، وربما مرغوب أن يمتلك المزارع أرضاً بالقدر الذي يستطيع زراعتها. أما مالك الأراضي في مناطق المدن، فليس له وظيفة أو مبرر لوجوده. إنه مجرد شخص اكتشف طريقة في استغلال الشعب من دون أن يعطي أي شيء بالمقابل، وهو من يتسبب برفع الإيجارات ويُصعّب تخطيط المدن أكثر ويُبعد الأطفال عن المساحات الخضراء. وهذا كل ما يفعله حرفياً لكي يستجر دخله. إن إزالة الحواجز في الساحات، هي الخطوة الأولى ضده. إنها خطوة صغيرة جداً، لكنها هامة مثل التحرك الحالي لاستعادة الاستعراضات المسيجة. ظلت الساحات مفتوحة لثلاث سنوات تقريباً وتطأ مروجها المقدسة أقدام أطفال الطبقة العاملة. وهذا منظر يجعل ساحبي الأسهم يصرون على أسنانهم الاصطناعية. إن كانت تلك سرقة، فكل ما أستطيع قوله هو: طوبى لها من سرقة.

لاحظتُ أن هناك حديثاً جدياً مرة أخرى عن محاولة جذب السياح إلى هذه البلاد بعد الحرب. وقيل إن هذا سيجلب سيلاً مرحباً به من العملة الأجنبية. لكن من الآمن تماماً التنبؤ بأن تلك المحاولة ستكون فاشلة. عداك عن المصاعب الكثيرة الأخرى، فإن قوانين منح الرخص والأسعار الزائفة للشراب، كافية لإبعاد الأجانب. لماذا سيزور الناس الذين اعتادوا على شراء باينت النبيذ بستة بنسات، بلاداً يكلف فيها باينت الجعة شلناً؟ لكن حتى هذه الأسعار أقل ترويعاً للأجانب من القوانين المجنونة التي تسمح لك بشراء قدح من البيرة في

الساعة العاشرة والنصف، بينما تمنعك من شرائه في الساعة العاشرة وخمس وعشرين دقيقة، والتي فعلت ما بوسعها لتحويل الحانات إلى محلات سكر بإقصاء الأطفال منها.

نحن مضطهدون جداً مقارنة مع أغلب الشعوب الأخرى، فحتى الناس البعيدون عن كونهم "معتدلين في الشرب" لا يتخيلون جدياً إمكانية تغيير قوانين رخصنا. كلما اقترحت أن يسمح لحاناتنا البقاء مفتوحة في فترة بعد الظهر أو لنقل حتى منتصف الليل، أحصل على نفس الرد دائماً. وأول الأشخاص الذين يعترضون هم أصحاب الحانات الذين لا يريدون أن يفتحوا حاناتهم مدة اثنتي عشر ساعة في اليوم. يفترض الناس أن القانون يجب أن ينظم ساعات الفتح سواء كانت طويلة أو قصيرة حتى بالنسبة إلى مشروع الرجل الواحد. في فرنسا وبلدان أخرى متنوعة، يفتح صاحب المقهى ويغلق في الشكل الذي يناسبه. يستطيع البقاء فاتحاً مقهاه طيلة الأربع وعشرين ساعة إن أراد. ومن الجانب الآخر إن أحب أن يغلق ويسافر لمدة أسبوع يمكنه أن يفعل ذلك أيضاً. أما في إنكلترا فليس لدينا مثل هذه الحرية منذ مئة سنة تقريباً، والناس غير قادرين على تخيلها إلا بصعوبة.

يجب على إنكلترا أن تكون بلاداً قادرة على جذب السياح. لديها الكثير من المناظر الطبيعية الجميلة والمناخ الهادئ والقرى الجذابة التي لا تحصى، وكنائس من القرون الوسطى، والجعة الجيدة والمواد الغذائية ذات الطعم الطبيعي الممتاز. لو تستطيع المشي حيثما تشاء بدلاً من أن تطوقك الأسلاك الشائكة وألا يواجه المتعدون على أملاك الغير الهيئات القضائية، وألا يسمح للبنائين المضاربين بتخريب المناظر الممتعة ضمن عشرة أميال من البلدات الكبيرة، ولو تستطيع الحصول على شراب في الوقت الذي تريد وبالثمن العادي، ولو أن وجبة الطعام الصالحة للأكل في نزل ريفي تصبح تجربة عادية، ولو يتوقف يوم الأحد عن أن يكون يوم بؤس بشكل مصطنع؛ عندها يمكن توقع قدوم الزوار الأجانب إلى هنا. لكن لو كانت هذه الأشياء صحيحة، فلن تظل إنكلترا إنكلترا، وأتخيل أننا يجب أن نجد طريقة ما في الحصول على عملة أجنبية تتوافق أكثر مع شخصيتنا القومية.

بالرغم من حملتي ضد الجزمة العسكرية الثقيلة -التي لا أديرها لوحدي- ألاحظ أن الجزم العسكرية الثقيلة شائعة كما هي دائماً في أعمدة الصحف. حتى في مقالات الصفحات الأولى

في الإيفنينغ ستاندارد، صادفت العديد منها مؤخراً. لكنني لا أزال من دون أي معلومة واضحة عن أي جزمة هي. إنها نوع من الحذاء عالي الساق تلبسه حين تريد أن تتصرف بطريقة استبدادية: ذلك بقدر ما يعرفه أي واحد.

لاحظت وآخرون غيري أن الحرب حين تدخل إلى المقالات الرئيسية، تصبح عرضة لأن تخاض بأسلحة قديمة الطراز بشكل لافت، ولا تظهر الطائرات والدبابات إلا في المناسبات. لكن حين يجب لفت الانتباه إلى الموقف البطولي، فلا يظهر من الأسلحة سوى السيف ("لن نغمد السيف حتى" إلخ إلخ) والرمح والدرع والترس والرمح المشعب والمركبة رباعية العجلات والبوق فقط، وكلها أسلحة قديمة وبالية بشكل عضال (فالمركبة مثلاً لم تستعمل بشكل مؤثر منذ سنة ٥٠ ميلادية) وحتى الغرض من بعضها أصبح منسياً. ما هو الترس مثلاً؟ إحدى المدارس الفكرية تصر أنه درع مستدير صغير، لكن مدرسة أخرى تعتقد أنه نوع من حزام. البوق بوق كما أعتقد لكن أغلب الناس يتخيلون أن "نداء البوق" لا يعني سوى الضجيج العالي. أشار أحد التقارير عن مشاهدة القداس الأولى يتحدث عن تتويج جورج السادس، أن ما يسمى بـ "مناسبات وطنية" تسبب دائماً زلة في لغة مهجورة. فمثلاً، حين قامت "سفينة الدولة" بالظهور كان لها قيدوم وخوذة بدلاً من القوس والعجلة كما في السفن الحديثة. بقدر ما يطبق على الحرب، فإن الحافز لاستخدام هذا النوع من اللغة هو الرغبة في لطافة التعبير، فعبارة "نحن لن نغمد السيف" تبدو أكثر احتراماً من عبارة "نحن سنظل نسقط قنابل ضخمة شديدة الانفجار" رغم أنهما في النتيجة تعنيان الشيء عينه.

إحدى الحجج لصالح الإنكليزية الأساسية في البقاء جنباً إلى جنب مع الإنكليزية المعيارية، أنها يمكن أن تكون المصحح لخطب رجال الدولة والمعلقين على الشؤون العامة. حين تترجم العبارات الطنانة إلى اللغة الأساسية، تفرّغ بطريقة مذهلة عادة. مثلاً، قدمت لخبير في اللغة الأساسية الجملة "هو لم يعرف إلا القليل عن القدر الكامن الذي كان يترصده". في اللغة الأساسية تصبح "هو كان بعيداً من التأكد مما سيحدث" قيل لي: في اللغة الأساسية لا يمكنك أن تشكل عبارة خالية من المعنى من دون أن تظهر بأنها خالية من المعنى - وهذا يكفي ليفسر سبب اعتراض الكثير جداً من المدرسين والمحررين والسياسيين والنقاد الأدبيين عليها.

التريبيون ٢٥ أغسطس/ آب ١٩٤٤

أرسلت إلي الجمعية الهندية-البورمية مقداراً جيداً من المادة التي عالجت الحملة البورمية، والجمعية هيئة غير رسمية تمثل التجمعات الأوروبية في تلك البلدان، وتدعم سياسة "معتدلة" مبنية على مقترحات كريبس.

تشتكي الجمعية الهندية-البورمية بإنصاف من أن بورما خدمت بشكل سيء فوق العادة في طريقة الإعلان عنها. ليس لأن الرأي العام لم يكن له أي اهتمام في بورما رغم أهميتها الواضحة من وجهات نظر كثيرة فقط، بل لأن السلطات لم تنجح في إنتاج كتيب جذاب يخبر الناس ما هي مشاكل بورما وما هي علاقتها بمشاكلنا حتى. كانت التقارير الصحفية عن القتال في بورما من ١٩٤٢ فصاعداً غير تثقيفية وخصوصاً من وجهة النظر السياسية. حالما بدأ الهجوم الياباني، تبنت الصحف ومحطة البي بي سي عادة الإشارة إلى كل سكان بورما بـ "البورميين"، حتى أن الاسم طبق على شعوب شبه همجية ومتميزة تماماً في أقصى الشمال. هذا غير دقيق وليس مثل تسمية السويدي الإيطالي فقط، وإنما يحجب حقيقة أن الياباني يجد دعمه وسط البورمي الحقيقي، لأن أغلب الأقليات مؤيدة لبريطانيا. في الحملة الحالية أثناء أخذ الأسرى، لم توضح تقارير الصحف إن كانوا يابانيين أو أنصارهم من البورميين والهنود- وهي نقطة في غاية الأهمية.

كانت كل الكتب تقريباً التي نشرت عن حملة ١٩٤٢ مضللة. أنا أعرف ماذا أتحدث، لأنني كتبت مراجعات نقدية لأغلبها. لقد كُتبت إما بواسطة صحفيين أمريكيين من دون معرفة محلية وبتحيز ضخم معادٍ لبريطانيا، أو بواسطة مسؤولين بريطانيين مجندين للدفاع وتواقين للتغطية على كل شيء يضر بالسمعة. في الواقع تعرض المسؤولون البريطانيون ورجال الجيش للوم بسبب الكثير الذي لم يكن خطأهم، وكان منظر الحملة البورمية التي قادها اليساريون في هذه البلاد مشوهاً مثل تلك التي قادها البليمبز. تنشأ هذه المشكلة لعدم وجود جهد رسمي للإعلان عن الحقيقة. فحسب معرفتي هناك مخطوطات تعطي معلومات قيمة، لكنها لا تجد ناشرين لأسباب تجارية.

أستطيع تقديم أمثلة. في ١٩٤٢ بورمي شاب كان عضواً في ثاكين حزب (قومي متطرف) تآمر مع اليابانيين، وهرب إلى الهند بعد أن غير رأيه بخصوص اليابانيين، حين رأى كيف كان

حكمهم. كتب كتاباً قصيراً، نشر في الهند تحت عنوان ما الذي حدث في بورما، وكان حقيقياً وموثوقاً في معظمه. الحكومة الهندية بطريقتها المهملة أرسلت نسختين إلى إنكلترا. حاولتُ أن أحث ناشرين مختلفين لإعادة إصداره، لكنني فشلت في كل مرة: كلهم أعطوا نفس السبب- لا يستحق إضاعة الورق على موضوع لا يهتم به الجمهور الكبير. لاحقاً، جلب الميجور إنريكيز الذي نشر كتب رحلات عن بورما، إلى إنكلترا مفكرة تغطي الحملة البورمية وتقهقرها إلى الهند. كانت وثيقة كاشفة جداً -في أماكن كاشفة بشكل شائن، لكنها عانت نفس المصير كالكتاب الآخر. الآن أنا أقرأ مخطوطاً آخر، يعطي خلفية قيمة عن تاريخ بورما وظروفها الاقتصادية وأنظمة تملك الأراضي فيها وهلم جرا. لكنني أراهن أنه لن ينشر أيضاً إلى أن ينتهي النقص في الورق.

إن كان الورق والمال غير مستعدين لكتب من هذا النوع -كتب ربما تكشف السر لكنها تساعد على إبطال الأكاذيب التي لفقها المتعاطفون مع دول المحور- إذاً يجب ألا تفاجأ الحكومة إن لم يعرف الجمهور شيئاً عن بورما وكان لامبالياً. وما ينسحب على بورما ينسحب على العشرات من المواضيع المهمة الأخرى المهملة.

في الوقت الراهن أقدم اقتراحاً. أينما ظهرت وثيقة غير رائجة تجارياً، لكنها تكون مفيدة على الأرجح للمؤرخين في المستقبل، يجب أن تخضع للجنة يقوم المتحف البريطاني بتعينها مثلاً. إن اعتبرها أعضاء اللجنة قيمة تاريخياً، فيجب أن تكون لهم السلطة لطبع عدة نسخ منها وتخزينها لاستخدام الباحثين. في الوقت الحاضر المخطوط الذي يرفضه الناشرون التجاريون، ينتهي به المطاف في سلة النفايات تقريباً. فكم عملاً يبغي تصحيح الأكاذيب المقبولة فُني وأُبيد بهذه الطريقة!

١ سيتمبر/ أيلول ١٩٤٤

ليست وظيفتي الأساسية مناقشة تفاصيل السياسة المعاصرة، لكن هناك شيئاً يصيح عالياً يجب قوله. ولأن ليس هناك أحد آخر يفعل هذا كما يبدو، أريد أن أحتج ضد الموقف الخسيس والجبان الذي تبنته الصحافة البريطانية تجاه الثورة الحديثة في وارسو.

حالما تفشت أنباء الثورة، تبنت صحيفة ذا نيوز كرونيكلز وقريباتها موقفاً مستنكراً بشكل واضح. تركتنا إحداها بانطباع بأن البولونيين يستحقون أن تجلد مؤخراتهم على الفعل الذي

حرضتهم عليه إذاعات الحلفاء منذ سنوات، وأنهم لم يحصلوا على أي مساعدة من الخارج، ولا يستحقون ذلك. اقترحت بعض الصحف بتردد أن الإنكليز والأمريكان الذين يبعدون ألف ميل، يمكنهم إسقاط الأسلحة والمؤن لهم، ولم يقترح أحد حسب علمي أن الروس الذين لا يبعدون عنهم أكثر من عشرين ميلاً، يمكنهم أن يفعلوا ذلك. وشككت صحيفة نيوستيتمان في عددها الصادر في ١٨ أغسطس/ آب في إمكانية مساعدة جيدة من الجو في هكذا ظروف. وألقت كل صحف اليسار تقريباً اللوم على حكومة لندن اللاجئة التي أمرت أتباعها ليثوروا قبل أن تنضج الظروف، ويكون الجيش الأحمر على الأبواب. وقد بدأ هذا الخط الفكري الأسبوع الماضي، في رسالة إلى التريبيون من السيد جي. باركلوف. رمى بالتهم الواضحة التالية:

١-لم تكن ثورة وارسو "ثورة شعبية عفوية"، وإنما "بدأت بأوامر من الحكومة البولونية المزعومة في لندن"

٢-أعطي الأمر بالثورة "من دون استشارة الحكومة البريطانية أو السوفيتية" و"لم تقم أية محاولة للتنسيق مع أعمال الحلفاء القتالية"

٣-إن المقاومة البولونية ليست متحدة حول حكومة لندن أكثر من توحد المقاومة اليونانية حول الملك اليوناني جورج. (أكد هذا الاستخدام المتكرر لكلمات مثل: اللاجئة والمزعومة إلخ، التي طبقت على حكومة لندن).

٤-عجلت حكومة لندن بالثورة، لكي تستولي على وارسو حين يصل الروس، ففي تلك الحالة "يتحسن موقف حكومة اللجوء". حكومة لندن "مستعدة لتخون قضية الشعب البولوني، لتدعم مدة ولاياتها المقلقلة في المنصب"

لم يقدم أي دليل لهذه التهم، رغم أن الأولى والثانية من النوع الذي يمكن إثباته على أنه صحيح. أخمن أن الثانية صحيحة والأولى صحيحة جزئياً. الثالثة تسفه الاثنتين الأوليين. إن لم تكن حكومة لندن مقبولة من الشعب في وارسو، فلماذا قام بعصيان يائس بأمر منها؟ بإلقاء اللوم على سوسنكوفسكي والبقية بخصوص الثورة، أنت تفترض آلياً أنهم هم من يبحث عنهم الشعب البولوني كمرشد ودليل له. هذا التناقض الواضح تكرر في صحيفة تلو أخرى، من دون أن يشير إليه شخص واحد يمتلك الاستقامة والصدق. إن استعمال عبارات مثل

لاجئة، عبارة عن خدعة بلاغية. إن كان بولونيو لندن لاجئين، فكل لجنة التحرير الوطنية البولونية كذلك، بالإضافة إلى كل الحكومات "الحرة" لكل البلدان المحتلة. لماذا يعتبر المرء لاجئاً حين يلجأ إلى لندن، ولا يعتبر كذلك حين يلجأ إلى موسكو؟

التهمة الرابعة تتساوى أخلاقياً مع اقتراح أوزرفاتور رومانو أن الروس أخروا هجومهم على وارسو لكي يقتل أكبر عدد ممكن من أفراد المقاومة. إنها التأكيد غير المثبت وغير القابل للإثبات لمروج دعائي ليست لديه الرغبة في ترسيخ الحقيقة، ويريد تلويث خصمه بأقصى ما يستطيع. وكل ما قرأته عن هذه المسألة في الصحافة -ماعدا بعض الصحف الغامضة جداً وبعض الملاحظات في التريبيون والإيكونوميست والإيفنينغ ستاندارد- بنفس مستوى رسالة السيد باركلوف.

الآن، أنا لا أعرف شيئاً من الشؤون البولونية، ولو كان لدي السلطة لذلك، فلن أتدخل بين الحكومة البولونية (في لندن) ولجنة التحرير الوطنية (في موسكو). إن الذي يهمني هو موقف الإنتلجنسيا البريطانية التي لا تستطيع أن ترفع صوتاً واحداً منها ليشكك بما تؤمن به أنه سياسة روسية، مهما كان الاتجاه الذي تأخذه. وفي هذه الحالة لديها الخسة غير المسبوقة لتلمح إلى وجوب عدم إرسال قاذفاتنا لمساعدة رفاقنا الذين يقاتلون في وارسو. إن الأكثرية الهائلة من اليساريين الذين صدقوا بسذاجة السياسة التي روجتها ذا نيوز كرونيكلز، لا يعرفون عن بولونيا أكثر مما أعرف، وكل ما يعرفونه أن الروس يعترضون على حكومة لندن، ونصبوا منظمة منافسة، وذلك يسوي المسألة بالقدر الذي يهمهم. ولو أسقط ستالين لجنة التحرير واعترف بحكومة لندن، فستحتشد كل الإنتلجنسيا البريطانية وراءه مثل جمهرة من الببغاوات. إن موقفهم تجاه السياسة الخارجية الروسية، ليس "هل هذه السياسة صحيحة أم خاطئة؟ وهذا الموقف مدافع عنه ومحمي على أساس القوة على الأقل.

الروس أقوياء في أوروبا الشرقية، ونحن لسنا كذلك: لهذا يجب ألا نعارضهم. هذا يتضمن المبدأ، الغريب بطبيعته عن الاشتراكية، يجب ألا تحتج ضد شر لا تستطيع منعه.

أنا لا أستطيع أن أناقش هنا لماذا طورت الإنتلجنسيا البريطانية مع بضع استثناءات ولاء قومياً نحو الاتحاد السوفييتي، وتجاهلت انتقاد سياساته. وعلى أي حال لقد ناقشتها في مكان آخر. لكني أحب أن أختم باعتبارين يستحقان التفكير ملياً:

الأول، رسالة إلى صحفيي الجناح اليساري والمثقفين عموماً: "تذكروا أن الخداع والكذب والجبن يجب أن يُدفع ثمنه دائماً. لا تتخيلوا أنكم تستطيعون أن تجعلوا من أنفسكم مروجين دعائيين متملقين لنظام الحكم السوفييتي لسنوات، ثم فجأة تعودون إلى الحشمة العقلية. ساقطة مرة، ساقطة دائماً.

الثاني، لا شيء مهم في العالم اليوم أكثر من الصداقة الأنغلوروسية والتعاون، وذلك لن يتحقق من دون خطاب صريح وواضح. إن الطريقة الأفضل للتوصل إلى اتفاق مع أمة أجنبية، ليس في الامتناع عن انتقاد سياساتها إلى درجة ترك شعبك في الظلام عنها. في الوقت الحاضر، إن موقف الصحافة البريطانية كلها تقريباً وضيع جداً، لدرجة أن لدى الناس العاديين أقل فكرة لما يحدث، وقد يسلموا لسياسات سيرفضونها في مدة خمس سنوات. بطريقة مضللة علمنا أن شروط السلام الروسية أقوى من شروط فرساي مع تقسيم ألمانيا وتعويضات فلكية وعمل قسري على نطاق هائل. لم تُنتقد هذه المقترحات عملياً، بل إن أغلب الكتاب المبتذلين وحتى المأجورين في صحافة اليسار مجّدوها وهللوا لها، وكانت النتيجة أن الإنسان المتوسط ليس لديه فكرة عن فداحة ما تم اقتراحه. ولا أعرف حين يأتي الوقت إن كان الروس يريدون حقاً أن يطبقوا هذه الشروط أم لا. أخمن أنهم لا يريدون ذلك. لكن الذي لا أعرفه، هو لو تم عمل أي شيء من هذا، فربما لن يؤيده الجمهور البريطاني والأمريكي بعد أن خمدت عاطفة الحرب. إن أية تسوية سلمية ظالمة بشكل واضح، ستجعل الشعب البريطاني يتعاطف بشكل غير عقلاني مع الضحايا. إن الصداقة الأنغلوروسية تعتمد على وجود سياسة يتفق عليها الطرفان، وهذا مستحيل من دون نقاش حر ونقد صادق الآن. لا يمكن أن يكون هناك تحالف أساسه "ستالين مصيب دائماً"، وإن الخطوة الأولى نحو تحالف حقيقي، هي في إسقاط الأوهام.

أخيراً، كلمة للناس الذين سيكتبون لي رسائل عن هذا الموضوع. هل لي أن ألفت انتباهكم إلى عنوان هذا العمود، وأذكّر كل واحد منكم أن محرري التريبيون ليسوا موافقين على كل ما أقوله، لكنهم يطبقون إيمانهم بحرية التعبير؟

التريبيون ٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٤.

يحتوي كتاب السير أوزبرت سيتويل، **رسالة إلى ولدي**، كمية مدهشة من القدح بالنسبة إلى حجمه المكون من ٣٢ صفحة. أتخيل أن القدح أو الأحرى سمو الناس الذي وجه ضدهم، دفع السير أوزبرت إلى تغيير ناشره. ومن بين المقاطع غير العادلة أحياناً والتافهة أحياناً أخرى، نجح بقول بعض الأشياء الناقدة الذكية عن موقع الفنان في مجتمع مركزي حديث. هذه بعض المقتطفات كمثال:

يجب على الفنان الحقيقي أن يقاتل دائماً، لكنه سيكون صراعاً أشد وأقوى بالنسبة إليك وإلى الفنانين الآخرين من جيلك مما سبقه من صراعات. فهذه المرة سيجد الرجل العامل عناية أفضل وستتملقه الصحافة وترشوه خطط بيفريج، لأنه يمتلك أغلبية أصوات الاقتراع، لكن أنت من سيكترث بك ويقدرك ومن سيتعشم عناء الدفاع عن قضية الكاتب الصغير أو الرسام أو النحات أو الموسيقي؟ وأي إلهام ستقدمه حين يكون المسرح والباليه وصالات الموسيقى مخربة، ولن يكون هناك فنانون بارعون لعدة عقود من السنين بسبب انقطاع التدريب؟ والأهم ألا تقلل من أهمية كمية عداء الناس المتأصل وقوته الذي يضمرونه لك، وهؤلاء ليسوا الرجال العمال الذين لم يحصلوا على تعليم عالٍ وينظرون إلى الفنون ببرود، وليس لديه أفكار مسبقة، وليسوا أيضاً النبلاء المتبقين القلة، وإنما هم الجيش الكبير بين الطبقات الوسطى السمينة والرجال الصغار. وهنا علي أن أشير إلى الموظف المدني كعدو......... في أفضل الأحوال ستكون مسحوقاً بين أقلية فاشية صغيرة لكنها جبارة من مخرجي ومديري الفنون ومبتزي المتاحف وخياطي الملابس النسائية المتأنقين المقهقهين الذين يكتبون عن الفن والأدب، وبين الدونات (الذين -لكي أنصفهم- سيساعدونك إن كتبت كما يأمرونك)- والبقية الهائلة التي لن تهتم أو بالأحرى ستكون مسرورة إن رأتك تموت جوعاً. لأننا نحن الإنكليز فريدون في كوننا أمة تنتج الفن، لكننا لسنا عاشقين له. في الماضي كان الفن يعتمد على رعاة ونصراء أغنياء جداً، لكن المجتمع الذي شكلوه لم يبنَ ثانية أو يؤهل، وإن مجرد اسم عاشق الفن ينضح برائحة كريهة..... الامتيازات التي بحوزتك اليوم كفنان، هي امتيازات إسماعيل -يد كل رجل ضدك- لذلك تذكر أن المنبوذين يجب ألا يخافوا أبداً.

هذه ليست آرائي. إنها آراء محافظ ذكي يبخس فضائل الديمقراطية وينسب إلى الإقطاعية ميزات محددة تعود حقيقة إلى الرأسمالية. فمثلاً، من الخطأ أن تحنّ إلى راعٍ ونصير أرستقراطي، فالراعي يمكن أن يكون سيداً قاسياً مثل البي بي سي، ولا يدفع لك مرتبك بانتظام. لقد قاسى فرانسوا فيلون كما أعتقد وقتاً صعباً كأي شاعر في عصرنا، وكان رجل الأدب الذي يموت جوعاً في علية من صفات القرن الثامن عشر المميزة. في أفضل الأحوال في عصر من الرعاة والنصراء، عليك أن تضيع الوقت والموهبة في مداهنات مقززة كما فعل شكسبير. في الواقع إن نظر المرء إلى الفنان على أنه فرد مثل إسماعيل -مستقل لا يدين بشيء للمجتمع، فإن العصر الذهبي للفنان كان العصر الرأسمالي. لقد نجا الفنان آنذاك من الراعي، ولكنه بات أسيراً للبيروقراطي. استطاع الكاتب والموسيقي والممثل وربما حتى الرسام- كسب رزقهم بعيداً عن الجمهور الكبير الذي لم يكن متأكداً مما يريد ويأخذ ما يُعطى له. لقد ظل الفنان في الحقيقة قادراً لمدة مائة على كسب رزقه بإهانة الجمهور بشكل صريح، كما تظهر سير كل من فلوبير وتولستوي ودي إتش لورانس وحتى ديكنز مثلاً.

لكن رغم كل هذا، هناك شي كثير في الذي يقوله السير أوزبرت، فهو أن الرأسمالية الحرة (عدم التدخل) ماتت والوضع المستقل للفنان يجب أن يختفي معها بالضرورة. يجب على الفنان أن يصبح إما هاوياً في وقته فراغه، أو موظفاً. حين ترى ماذا حدث للفنون في البلدان ذات الأنظمة الشمولية، وحين ترى الشيء ذاته يحدث هنا بطريقة مقنعة أكثر بواسطة وزارة الإعلام ومحطة البي بي سي وشركات الأفلام - منظمات لا تشتري الكتاب الشباب الواعدين فقط وإنما تخصيهم وتحولهم إلى نوع من عملية الحزام الناقل- وهذه بشائر غير مشجعة. مع هذا يظل صحيحاً أن الرأسمالية التي كانت بطرق كثيرة لطيفة مع الفنان والمثقف عموماً، هلكت ولم يعد إنقاذها مجدياً. لهذا أنت تصل إلى هذين الواقعين المتناقضين: ١- لا يمكن تنظيم المجتمع بشكل يراعي مصلحة الفنانين ٢-من دون الفنانين تموت الحضارة. أنا لم أرَ أي حل لهذه الورطة أبداً (ولكن يجب أن يكون هناك حل) وهي لم تناقش كثيراً بشكل صادق أيضاً.

لدي أمامي صورة مثيرة للاشمئزاز بشكل استثنائي من صحيفة الستار بتاريخ ٢٩ أغسطس/ آب لامرأتين شبه عاريتين حلق شعر رأسيهما، وعلى وجهيهما رسم صلبان

معقوفة، اقتيدتا عبر شوارع باريس وسط متفرجين مكشرين. أنا لا أنتقد صحيفة الستار فقط، لأن أغلب الصحف تصرفت ونسخت هذه الصورة باستحسان ظاهر.

لا ألوم الفرنسيين على فعل هذا النوع من العمل. لقد مروا بأربع سنوات من العذاب، وأستطيع تخيل مشاعرهم تجاه المتعاونين مع المحتل، لكن القصة تختلف حين تحاول الصحف في هذه البلاد إقناع قرائها أن حلق رؤوس النسوة فعل مهذب وجميل. فكرت حين رأيت هذه الصورة في الستار "أين رأيت شيئاً كهذا من قبل؟"، ثم تذكرت: قبل عشر سنوات فقط حين بدأ النظام النازي بأولى خطواته، ظهرت صور مشابهة جداً في الصحف البريطانية ليهود مذلولين اقتيدوا عبر شوارع المدن الألمانية -لكن الاختلاف أن استحساننا لم يكن متوقعاً في تلك المناسبة.

نشرت الصحف حديثاً صور جثث متدلية لألمان شنقهم الروس في خاركوف، وأخبرت قراءها بحرص أن هذه الإعدامات صورت في أفلام، وأن الجمهور يستطيع مشاهدتها في المسارح الجديدة. (أتساءل إن يكن يسمح بحضور الأطفال).

هناك اقتباس لنيتشه استشهدت به من قبل، لكنه يستحق الاقتباس مرة أخرى:

من يحارب التنانين طويلاً يصبح تنيناً.

وإن حدقت في الهاوية طويلاً، ستحدق الهاوية بك.

ربما تعني "وقتاً طويلاً" في هذا السياق "بعد أن يهزم التنين".

١٥ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٤

في أواخر عام ١٩٣٦ مررت بمدينة باريس في طريقي إلى إسبانيا، وكان عليّ أن أزور شخصاً لم أكن أعرف عنوانه، ففكرت أن أسرع طريقة للوصول هي أن أستقل سيارة أجرة. لم يكن السائق يعرف العنوان أيضاً. على كل حال انطلقنا في الشارع، وسألت أقرب رجل شرطة، فتبين أن العنوان الذي كنت أبحث عنه لم يكن يبعد أكثر من مئة ياردة، لهذا قللت من مكانة السائق لأنني قدرت أجرته بما يعادل ثلاث بنسات بالعملة الإنكليزية.

هاج السائق من الغضب، وبدأ يتهمني بصوت هادر وبأقصى السوقية بأنني "فعلت هذا متعمداً" اعترضت بأنني لم أكن أعرف أين يقع المكان، وأنني لو كنت أعرف لما أخذت

سيارة أجرة، لكنه رد عليّ صائحاً "أنت تعرفه جيداً!". كان رجلاً عجوزاً أشيب ضخماً قصيراً وبشاربين رماديين أشعثين ووجه ذي طبيعة شريرة غير عادية. في النهاية فقدت السيطرة على نفسي، وعاد لي تمكني من الفرنسية في هياجي، فصرخت به "أتظن أنك عجوز وكبير جداً بالنسبة إلي وأني لن أهشم لك وجهك. لا تكن واثقاً من ذلك!" تراجع إلى السيارة مزمجراً يملأه حبه للشجار رغم سنواته الستين.

بعدئذ أتت لحظة دفع الأجرة. أخرجت ورقة من فئة العشرة فرنكات، فصاح حالما رأى النقود "ليس لديّ فكة. اذهب واصرفها بنفسك!".

"أين يمكنني الحصول على مكان صرافة؟".

"كيف لي أن أعرف؟ هذا شأنك".

لهذا اضطررت إلى عبور الشارع لأجد محل بائع تبغ وأحصل على فكة. حين رجعت أعطيت السائق الأجرة التي يستحقها تماماً، وأخبرته بعد سلوكه هذا أنني لا أرى أي مبرر لإعطائه أي شيء زائد، وافترقنا بعد تبادل عدد من الشتائم.

تركني هذا الشجار القذر غاضباً بشكل عنيف في لحظتها، وبعد قليل من الوقت شعرت بالحزن والقرف وفكرت: "لماذا يتصرف الناس بذلك الشكل؟". لكنني رحلت إلى إسبانيا في تلك الليلة. كان القطار بطيئاً يعج بالتشيك والألمان والفرنسيين الذين كانوا ملتزمين بنفس المهمة. في القطار كله يصل إلى مسمعك عبارة واحدة تتكرر مرة تلو أخرى (إلى هناك) بلهجات كل اللغات الأوروبية. كانت عربتي ذات الدرجة الثالثة مملوءة بألمان صغار جداً يعانون من نقص في التغذية بشعورهم الفاتحة في بذلات رسمية رديئة بشكل لا يصدق- أول بديل قماش أراه- كانوا يندفعون بسرعة إلى الخارج في كل مكان توقف، ليشتروا زجاجات الخمر الرخيصة، ثم خروا نائمين في شكل هرمي على أرض العربة. بعد نصف الطريق تقريباً، نزل المسافرون العاديون. ربما ظل هناك بضعة صحفيين بسيطين مثلي أنا، لكن القطار عملياً كان قطار جنود والريف يعرفه. في الصباح عندما زحفنا عبر جنوب فرنسا، كان كل فلاح يعمل في الأرض يلتفت نحونا ويقف منتصباً بوقار ويؤدي التحية المعادية للفاشية. لقد كانوا مثل حرس شرف يحيون القطار في كل ميل وميل.

بينما كنت أراقب هذا، خطَرَ بذهني سائق سيارة الأجرة العجوز. رأيت الآن السبب الذي جعله هجومياً جداً من دون ضرورة. كنا في عام ١٩٣٦ سنة الإضرابات الكبيرة وحكومة بلوم مازالت في السلطة. الشعور الثوري الذي اجتاح فرنسا، أثر على أناس مثل سائق الأجرة، مثلما أثر على عمال المصانع. بلهجتي الإنكليزية بدوت له كرمز للسياح الكسولين الأجانب الذين يبذلون أقصى جهدهم لتحويل فرنسا إلى شيء وسط بين المتحف والماخور. في نظره السائح الإنكليزي يعني بورجوازي. كان ينتقم قليلاً من الطفيليين الذين كانوا أسياده عادة. وأدهشني أن دوافع الجيش المؤلف من عناصر أجنبية مختلفة الذي ملأ القطار والفلاحين بقبضاتهم المرفوعة في الخارج في الحقول ودافعي الخاص بي في الذهاب إلى إسبانيا ودافع سائق سيارة الأجرة العجوز، كانت نفسها تماماً أساساً.

إن التصريح الرسمي عن القذائف الطائرة، حتى لو أخذ مع التصريح السابق الذي أدلى به تشرشل، ليس كاشفاً جداً، لأنه لم يعط أرقاماً واضحة عن عدد الناس الذين تأثروا بها، وكل ما أخبرونا به أن لندن تقصف وسطياً بثلاثين قنبلة يومياً. وبحسب تقديري الشخصي المبني ببساطة على حوادث شهدتها بأم عيني، أن كل قنبلة طائرة تضرب لندن، تحول ثلاثين بيتاً فيها إلى مكان غير قابل للسكن، وتتسبب بتشريد خمسة آلاف شخص يومياً. لهذا وصل بهذا المعدل عدد الأشخاص الذين قصفت بيوتهم وأُخرجوا منها في الأشهر الثلاثة الأخيرة ثلاثة أرباع المليون شخص.

قيل إن لاعبي البلياردو الماهرين يدهنون عصيهم بالطبشور قبل أن يقوموا بالضربة، أما اللاعبون الرديئون فيفعلون ذلك بعد الضربة. وبنفس الطريقة لو تحضرنا واستعدينا لكل نوع من الغارات الجوية قبل أن تحدث وليس بعد أن تحدث، كنا حققنا نجاحاً ممتازاً في هذه الحرب. قبل اندلاع الحرب بوقت قصير أخبرني مسؤول عاد من مؤتمر ما مع مسؤولين آخرين في لندن، أن السلطات استعدت لتكون خسائر الغارات الجوية ٢٠٠ ألف شخص في الأسبوع الأول، فصنعت أعداداً هائلة من التوابيت الكرتونية الهشة، وحفرت قبور جماعية كثيرة. وكان هناك أيضاً تحضيرات خاصة لزيادة كبيرة جداً في حالات الاختلال العقلي. لكن تبين بعدئذ أن الخسائر في الأرواح والأضرار قليلة جداً نسبياً، وانحدرت كما أعتقد حالات

الاختلال العقلي. أما من الجانب الآخر فقد فشلت السلطات في التنبؤ بأن الناس المقصوفين سيكونون مشردين وبلا بيوت وبحاجة إلى الطعام والكساء والملجأ والمال، كما فشلت السلطات التي تنبأت بالقنابل الحارقة في إدراك الحاجة إلى مصدر مائي بديل بعد أن فجرت القنابل المصادر الرئيسية.

في حدود العام ١٩٤٢ كنا مستعدين كلنا من أجل غارات ١٩٤٠. كانت هناك زيادة في الملاجئ، وامتلأت لندن بخزانات المياه التي كانت ستنقذ مبانيها التاريخية إن ظلت موجودة حين تحدث الحرائق. ومن ثم أتت القذيفة الطائرة التي كانت تنسف ثلاثة أو أربعة بيوت من الوجود، وتحويل عدد كبير منها إلى أماكن غير قابلة للسكن، ولكنها تترك داخلها سليما تقريباً في الوقت نفسه. وبهذا سببت صدعاً آخر غير متوقع -تخزين الأثاث- فالأثاث من البيت المقصوف يُنقذ دائماً تقريباً، لكن إيجاد أماكن لوضعه وجهد نقله، كان يفوق قدرة السلطات المحلية. وعموماً كان يجب أن يتم التخلص منه في بيوت غير محمية؛ حيث تخربها الرطوبة إن لم تتعرض للنهب.

أهم المعلومات في خطاب دونكان ساندي، كانت تلك التي تعاملت مع إجراءات الحلفاء المضادة، فقد أوضح مثلاً أن الألمان أطلقوا ٨ آلاف قذيفة طائرة أو حوالي ٨ آلاف طن من المواد المتفجرة. أما نحن فأسقطنا ١٠٠ ألف طن من القنابل على القواعد العسكرية، بالإضافة إلى خسارة ٤٥٠ طائرة وإطلاق ملايين القذائف المضادة للطائرات. لا يسع المرء إلا أن يقوم ببعض الحسابات في هذا التاريخ، فيبدو له أن للقذائف الطائرة مستقبل كبير أمامها في الحروب القادمة، ويجب التذكير بأن المدفعية لم تحقق إلا نجاحاً جزئياً في المعارك.

٦ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٤

أقتبس بعد الإذن مقاطع من رسالة تعليمية لمتراسلة معي تلقتها من مدرسة صحفية مشهورة. يجب أن أشرح أنها حين باشرت "مقررها التعليمي" سألها المعلم أن تقدم الحد الأدنى من المعلومات حول خلفيتها وتجربتها، ثم طلب منها أن تكتب عينة من مقالتين عن موضوع مشوق بالنسبة إليها. وباعتبارها زوجة عامل منجم، فقد اختارت أن تكتب عن عملية استخراج الفحم. سوف أقتبس قسماً من الرسالة التعليمية:

لقد قرأت التمرينين بعناية واهتمام. كان يجب أن يكون لديك الكثير الذي تكتبي عنه: لكن احذري أن يكون لديك نحلة في قلنسوتك. إن عمال المناجم ليسوا الوحيدين الذين يقومون بعمل شاق. ماذا عن ضباط البحرية الذين يكسبون أجراً أقل من عامل المنجم- الذين يجب أن يمضوا ثلاثة أو أربعة أيام بعيداً عن البيت والعائلة في المناطق الجليدية الباردة أو الاستوائية الحارة؟ وماذا عن الناس المتقاعدين الكثيرين الذين يعيشون على راتب تقاعدي قليل جداً أو منحة الذين قلصت ضريبة الدخل أجرهم السابق البالغ جنيهين أو ثلاثة إلى النصف؟ كلنا نبذل التضحيات في هذه الحرب- وما يسمى بالطبقات العليا قاست من ضربة قاسية في الحقيقة.

متراسلتي التي وافقت مقدماً على ما يبدو أن تدفع ١١ جنيهاً مقابل هذا المقرر، أرسلت رسالة إلي، وطرحتُ فيها السؤال التالي: هل أعتقد أن معلمها كان يحاول التأثير عليها ليعطي لكتاباتها نزعة سياسية مقبولة؟ هل كانت محاولة منه أن تعبر في كتابتها كما يفعل الشخص الاشتراكي؟

أنا أعتقد هذا طبعاً، لكن المعنى الضمني لهذه الرسالة أسوأ من ذلك. هذه ليست مؤامرة رأسمالية لتخدير العمال. كاتبة تلك الرسالة القذرة ليست متآمرة شريرة، لكنها مجرد حمار (يجب أن أقول أتان تماشياً مع الأسلوب) لم تتأثر بسنين من القصف والحرمان. ما تظهره الرسالة، هي عادات التفكير التي لا تقهر والضارة لفترة ما قبل الحرب. تفترض الكاتبة كما يتبين- أن الهدف الوحيد للصحافة هو أن تداعب النقود في جيوب رجال الأعمال المتعبين، وأن أفضل طريقة لفعل هذا أن تتجنب قول الحقائق المزعجة عن مجتمع الزمن الحالي. إن الجمهور القارئ كما تفكر (أو يفكر) لا يجب أن يُدفع إلى التفكير: لذلك لا تجعلهم يفكرون. أنتم وراء الكعكة الكبرى (بيغ دوف) وليس أي اعتبار آخر.

إن أي شخص له علاقة بمقررات الصحافة المستقلة أو اقترب منها كدراسة كتاب الكاتب الميت الآن وكتاب الكاتب والفنان السنوي مثلاً، سيميز نغمة الرسالة: "تذكر أن مهمتك أن تسلي" "لا يوجد أي قارئ يزعج نفسه بعد يوم عمل صعب بقراءة قائمة بآلام ومصاعب شخص آخر" و"أنصحك بعدم الكتابة عن الأشياء الخلافية، فهي أشياء يصعب بيعها" سأتغاضى عن حقيقة أن هذه النصيحة مضللة حتى من وجهة نظر تجارية. إن المهم

والمغزى هو الادعاء التالي: لم يتغير أي شيء أبداً، وأن الشعب سيكون ويجب أن يكون نفس الرعاع من البلهاء الذين لا يريدون سوى أن يظلوا مخدرين ومضللين فقط، وأنه ليس هناك شخص عاقل يجلس خلف آلة طباعة لا يهدف إلا إلى إنتاج هراء قابل للبيع.

حين بدأت بالكتابة منذ خمسة عشر عاماً، لم يفلح أناس كثيرون في الحصول على ١١ جنيهاً مني مقابل نصيحة مماثلة تقريباً لما اقتبسته آنفاً قدموها لي. وكما تبين أن الناس لم يريدوا أن يسمعوا عن أشياء "مزعجة" مثل البطالة ومقالات على مواضيع "خلافية يصعب بيعها". إن العالم البديل للصحفي المستقل، عالم غرف الجلوس والنوم المفروشة، وآلات الطباعة المستأجرة والظروف المعنونة بعنوان المرسل تهيمن عليه تماماً نظرية "مهمتك أن تسلي". لكن في ذلك الزمن كانت هناك بعض الأعذار. أولاً كانت هناك بطالة واسعة الانتشار، وكانت كل جريدة ومجلة مطوقة بحشود من الهواة الذين يصارعون بشكل جنوني من أجل كسب جنيهات غريبة.

بالإضافة إلى أن الصحافة كانت أسخف بشكل لا يقارن مما عليه الآن. وكان هناك بعض الحقيقة في الزعم أن محرري الصحف لا ينشرون المساهمات "الكئيبة". إن نظرت إلى الكتابة ببساطة وفقط كطريقة لكسب المال، فإن أفضل خط هو المادة المبهجة والمفرحة إذاً. إن المحزن أن ترى العالم توقف بالنسبة إلى مدرسة الصحافة، فالقنابل لم تنجز شيئاً. في الواقع، حين قرأت تلك الرسالة، انتابني نفس الشعور بأن عالم ما قبل الحرب عاد علينا، كما شعرت قبل برهة مضت حين كنت أراقب شخصاً من خلال نافذة حجرات في المعبد باهتمام كبير ومتعة واضحة، يقوم بتلميع قبعة رسمية.

من غير الضروري القول إن رحلات القطارات الطويلة ليست ممتعة في هذه الأيام، وإن شركات السكك الحديدية لا تتحمل مسؤولية القدر الجيد من الإزعاج والمشقة التي يجب أن يتحملها الناس. إن الخطأ ليس خطأ تلك الشركات بوجود حركة مرور هائلة ذهاباً وإياباً للمدنيين في وقت تحتكر فيه القوات المسلحة أغلب الأعمدة الأسطوانية (رولينغ ستوك)، وليس لأن عربة سكة الحديد الإنكليزية تصنع بهدف ظاهر بإضاعة أكبر قدر ممكن من الفسحة والفراغ. لكن الرحلات التي تستلزم الوقوف لست ساعات أو ثمانية في ممرات مزدحمة، يمكن التخفيف من إزعاجها ومشقتها بإصلاحات قليلة جداً.

بداية، إن هراء الدرجة الأولى يجب أن يلغى نهائياً. ثانياً، أية امرأة تحمل طفلاً صغيراً، يجب أن تكون لها أولوية الجلوس. ثالثاً، يجب أن تبقى غرف الانتظار مفتوحة في الليل. رابعاً، إن تعذرَ التقيد بجداول المواعيد المواقيت، فيجب تزويد الموظفين والبوابين بالمعلومات الصحيحة وليس كما يحدث الآن، يخبرونك أنك يجب أن تبدل حين لا تريد ذلك والعكس صحيح. أيضاً- شيء سيء جداً في زمن السلم، لكنه أسوأ في هذه اللحظة -لماذا لا توجد هناك طريقة رخيصة لنقل الأمتعة في البلدات الكبيرة؟ تأخذ سيارة أجرة. وافترض أنك لا تملك أجرة السيارة، ماذا تفعل عند ذلك؟ على الأغلب ستستعير عربة يد أو توازن صندوق الملابس على عربة أطفال؟ لماذا لا توجد عربات رخيصة لنقل الأمتعة، مثل وجود حافلات لنقل المسافرين البشر؟ أو لماذا لا يجعل من الممكن حمل الأمتعة على سكة الحديد؟

هذا المساء حين أفرغت كينغ كروس جماعة أخرى من النازحين العادين، رأيت رجلاً وامرأة بدا عليهما الإنهاك من رحلة طويلة، يحاولان الركوب في حافلة. المرأة حملت طفلاً يصرخ وتمسكت بيدها الأخرى بطفل في السادسة من عمره؛ كان الرجل يحمل حقيبة مكسورة ربطت بحبل وسرير طفل أكبر. رفضت الحافلات الواحدة تلو الأخرى أن تحملهم. طبعاً لا توجد حافلة يمكنها حمل سرير طفل نقّال على متنها. كيف يتوقع ذلك منها؟ لكن من جانب آخر، كيف سيصل هؤلاء الناس إلى بيوتهم؟ انتهى الأمر بأن ركبت المرأة مع الطفلين في إحدى الحافلات بينما مشى الرجل في أثرها حاملاً السرير النقّال. كل ما أعرفه أنه يجب أن يقطع خمسة أميال حتى يصل إلى وجهته.

في زمن الحرب، يجب على المرء أن يتوقع هذا النوع من الشيء. لكن المغزى لو أن هؤلاء الناس قاموا بنفس الرحلة، محملين بالمثل، في زمن السلم، ستظل ورطتهم نفسها تماماً. لأن:

المطر تمطره السماء كل يوم/ على قاطع الأشجار العادل والظالم/ لكن الأكثر على العادل لأن/ الظالم يملك المظلة المناسبة.

إن مجتمعنا معدّ ومرتب لكي يكون في مقدورك شراء وسائل الرفاهية والترف إن كنت تمتلك النقود، فهذا هو الدور المناط بالنقود أخيراً، وهو معدّ أيضاً إن كنت لا تملك المال أن تقوم في كل ساعة من اليوم بأعمال مهينة حقيرة وإزعاجات غير ضرورية -كالعودة إلى البيت مشياً مع حقيبة سفر تقطع أصابع يدك عندما يوصلك إلى هناك نصف شلن فقط في خمس دقائق.

التريبيون ١٣ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٤.

حديثاً، أُخبرت بالقصة التالية، ولديّ كل المبررات للتصديق بأنها حقيقية.

من بين الأسرى الألمان الذي أُسروا في فرنسا، يوجد عدد معين من الروس. في وقت سابق أُسر اثنان لم يكونا يتكلمان الروسية أو أي لغة أخرى معروفة لآسريهم أو لرفاقهم السجناء، ولا يستطيعان التحدث إلا مع بعضهما فقط. أحضر أستاذ جامعي في اللغات السلافية من أكسفورد، فلم يفهم شيئاً مما كانا يقولانه، ثم صدف أن سمعهما يتحدثان رقيب خدم في جبهات الهند، وعرف لغتهما التي كان يتكلمها بشكل قليل. كانت لغة التيبيت! وبعد بعض الاستجواب، نجح في استخلاص قصتهما.

قبل بضع سنوات تاها فوق الحدود إلى الاتحاد السوفييتي، وجُندا إلزامياً في كتيبة من العمال، وبعد ذلك أُرسلا إلى غرب روسيا حين اندلعت الحرب مع ألمانيا. أُسرا من قبل الألمان، وأرسلا إلى شمال أفريقيا؛ ثم بعد ذلك أرسلا إلى فرنسا، ومن ثم تحولا إلى وحدة مقاتلة حين فتحت الجبهة الثانية، وأسرهما البريطانيون. كل ذلك الوقت لم يقدرا على التكلم مع أي أحد، إلا مع بعضهما، ولم تكن لديهما أية فكرة لما كان يحدث أو من كان يقاتل من.

كانت القصة ستكتمل بشكل بارع لو أنهما جندا في الجيش البريطاني، وأرسلا لقتال اليابانيين، وينتهي بهما المطاف في آسيا الوسطى قريباً جداً من قريتهم الأصلية، لكنهما تظل محيرة بسبب ما تدور حوله.

أرسل إلي صحفي هندي قصاصة من مقابلة مع برنارد شو. يقول شو شيئاً منطقياً أو شيئين، ويؤكد أن قادة الهيئة التشريعية العليا كان يجب ألا يُعتقلوا، لكنها على العموم كانت عرضاً مقززاً. هذه بعض الأمثلة:

سؤال: لو كنت زعيماً وطنياً للهند، كيف ستتعامل مع البريطانيين؟ ماذا ستكون وسائلك لإنجاز استقلال الهند؟

جواب: أرجوك لا تفترض وضعاً لن يحدث أبداً. إنجاز استقلال الهند ليس من شأني.

سؤال: ما هي الطريقة الأكثر فعالية لإخراج البريطانيين من الهند برأيك؟ ما الذي يجب أن يفعله الهنود؟

جواب: جعل الإنكليز فائضين عن الحاجة، وذلك بقيام الهنود بعملهم بشكل أفضل أو جعلهم مشابهين للهنود بواسطة الإخصاب المهجن. الأطفال البريطانيون لا يزدهرون في الهند.

أي نوع من الأجوبة تلك التي تعطي لشعب يرزح تحت ضيم وشكاوي مبررة هائلة؟ يرفض شو أيضاً أن يرسل تهانيه لغاندي في عيد الميلاد، على أساس أن هذا عمل لم يقم به أبداً، وينصح الشعب الهندي ألا يتضايق إن أنكرت بريطانيا الدَّين الضخم الذي كومته الهند في هذه البلاد أثناء الحرب. أتساءل أي انطباع تعطيه هذه المقابلة لبعض الشباب الطلاب الهنود الذين أمضوا سنتين في السجن، ولم يسمعوا إلا بشكل مبهم ببرنارد شو كواحد من المفكرين البارزين "التقدميين"؟ هل يكون الأمر مفاجئاً لو كان حتى الهنود الهادئين جداً عرضة لشك متكرر بأن "كل الإنكليز متشابهون؟"

كتاب السير روبرت سيتويل الصغير (رسالة إلى ولدي، راجع كما أشاء ٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٤) وملاحظاتي عليه، قدم مقداراً كبيراً غير عادي من الرسائل المتبادلة، وبعض النقاط التي أثيرت بحاجة إلى تعقيب آخر.

أحد المراسلين حلّ المشكلة برمتها، من خلال التأكيد على أن المجتمع يستطيع أن يتحسن تماماً من دون فنانين، ويمكنه أيضاً المضي قدماً من دون علماء ومهندسين وأطباء وبنائي الآجر ومصلحي الطرق -في الوقت الحالي. حتى يمكنه المضي قدماً من دون حصاد العام التالي، بشرط أن يكون مفهوماً أن كل واحد سيجوع حتى الموت في مدة اثني عشر شهراً.

هذه الفكرة، التي انتشرت بعض الشيء وشجعها أناس يفترض بهم أن يعرفوا أفضل، تعيد قول المشكلة في شكل جديد. إن ما يفعله الفنان ليس من الضروري أن يكون فورياً وواضحاً بنفس الطريقة التي يفعل بها موزع الحليب أو عامل المنجم. باستثناء المجتمع المثالي الذي لم يتم التوصل إليه بعد، أو في عصور مشوشة جداً ومزدهرة مثل العصر الذي انتهى للتو، هذا يعني عملياً أن الفنان يجب أن يملك نوعاً من الراعي -طبقة حاكمة أو الكنيسة أو الدولة أو الحزب السياسي. والسؤال "أيها أفضل" يعني "أي منها يتدخل في شؤونك أقل؟".

أشار مرسلون آخرون إلى أن للفنان حلاً واحداً، بأن يكون له سبل رزق بديلة. "من المعقول تماماً" يقول السيد بي فيليبس برابس، أن يكتب ويكرس نفسه للاشتراكية، وفي الوقت نفسه أن يرضى برعاية إذاعة البي البي سي أو الإم أو أي (وزارة الإعلام) أو رانك (جه آرثر رانك لإنتاج الأفلام) أو السي أي أم ايه (مجلس تشجيع الموسيقى والفنون)..... الطريق الوحيد للخروج من هذا، هو شكل ثانوي ما من بيع المواهب بدوام نصفي. والصعوبة هنا هي أن مهنة الكتابة أو أي فن آخر تأخذ الكثير من الوقت والطاقة، كما أن المهمة التي يحصل عليها الكاتب في زمن الحرب إن لم يكن في الجيش (أو حتى لو كان- لأن هناك علاقات عامة دائماً) لها علاقة بالدعاية عادة وهي بحد ذاتها نوع من الكتابة. إن تأليف كراسة دعاية أو مقال إذاعي، يحتاج إلى جهد بقدر جهد كتابة شيء تؤمن به، مع اختلاف أن المنتج المنجز يكون عديم القيمة. أستطيع تقديم لائحة كاملة من كتاب الوعود أو التمثيليات الذين يعصرون الآن كالبرتقال في وظيفة رسمية ما أو أخرى. صحيح أنها في أغلب الحالات مهمة تطوعية. يريدون الفوز بالحرب، ويعرفون أن على كل واحد أن يضحي بشيء. لكن تظل النتائج نفسها. سيخرجون من الحرب بلا شيء للتباهي بجهودهم ولا حتى بالتجربة المحزنة التي يحصل عليها الجندي مقابل معاناته البدنية.

لو كان على الكاتب أن تكون له مهنة بديلة، فمن الأفضل ألا تكون لها أي علاقة بالكتابة. كان ترولوبي أحد الحاملين لمهنتين الناجحين، فكان ينتج ألفي كلمة بين الساعة السابعة والتاسعة صباحاً قبل أن يغادر إلى عمله في مكتب البريد. لكن ترولوب كان رجلاً استثنائياً، وكان يصطاد لثلاثة أيام بالأسبوع ويلعب الورق حتى منصف الليل عادة. وأشك إن كان أداؤه لواجباته الرسمية بجهده. أشار مرسل آخر أن التمييز بين الفنان والإنسان العادي سيتلاشى في المجتمع الاشتراكي الحقيقي على الأرجح، لكن مثل هذا المجتمع لم يتواجد بعد. وزعم آخرون أن رعاية الدولة ضمانة ضد الجوع، وهي أفضل من الضمانة الخاصة، لكنها تبدو لي استعداداً كبيراً للتغاضي عن الرقابة التي يتضمنها هذا. كان الخط المعتاد أن يكون الفنان عضواً مسؤولاً في تجمع، أفضل من أن يكون فردانياً فوضوياً. إذاً القضية ليست بين "التعبير عن الذات" غير المسؤول وبين الانضباط، وإنما بين الحقيقة والأكاذيب. لا يعترض الفنانون كثيراً جداً على الانضباط الجمالي. سيصمم المهندسون المعماريون المسارح والكنائس عن طيب

خاطر بالتساوي، وسيتحول الكتّاب من رواية الثلاث مجلدات إلى رواية المجلد الواحد أو من المسرحية إلى الفيلم حسب الطلب. لكن النقطة أن هذا العصر عصر سياسي. يكتب الكاتب بشكل محتم -وهذا ينطبق بشكل أقل مباشرة على كل أشكال الفن- حول الأحداث المعاصرة، ودافعه أن ينقل ما يعتقد أنه الحقيقة. لكن ليس هناك حكومة أو منظمة كبيرة تدفع ثمناً من أجل الحقيقة. لنأخذ مثالاً بسيطاً: هل تستطيع أن تتخيل أن تقوم الحكومة البريطانية بتكليف أي أم فورستر ليكتب رحلة إلى الهند؟ استطاع أن يكتبها فقط لأنه لم يكن متكلاً على مساعدة الدولة. ضاعف هذا المثال بمليون وسترى الخطر المتضمن -ليس في الحقيقة، في اقتصاد ممركز كهذا وإنما في سيرنا المستمر نحو عصر جمعي اشتراكي من دون أن نتذكر أن ثمن الحرية يقظة واحتراس أبدي.

٢٠ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٤.

بعد قراءة كتاب عن العميد وينغيت الذي قتل في وقت مبكر من هذا العام في بورما، لاحظت باهتمام أن جنوده من "الصينيين الهنود" الذين زحف بهم عبر بورما العليا في عام ١٩٤٣ لم يكونوا يلبسون خوذ الريش المعتادة الخرقاء المنافية للذوق، وإنما قبعات متدلية مثل تلك التي تلبسها أفواج غوركا. وهذا يظهر نقطة صغيرة، لكنه ذو معنى اجتماعي مهم. فقبل عشرين سنة أو عشر سنوات، كان ذلك مستحيلاً، وكان كل واحد تقريباً وأي طبيب معهم سيتنبأ بموت أعداد كبيرة من هؤلاء الناس من ضربة الشمس.

لقد تبنى الأوروبيون في الهند موقفاً خرافياً، حتى وقت قريب، من السكتة الدماغية التي تسببها الحرارة أو ضربة الشمس كما تسمى عادة. واعتقدوا أنها شيء خطير على الأوروبيين وليس على الآسيويين. حين كنت في بورما، تأكدت أن الشمس الهندية، حتى في أبرد حالاتها، لها قدرة مميتة بشكل خاص، ولا يمكن الاحتماء منها إلا بارتداء خوذة من الفلين ولب الثمر. "السكان الأصليون" جماجمهم أسمك، لا يحتاجون إلى هذه الخوذ، لكن بالنسبة إلى الأوروبي حتى قبعة اللباد المضاعفة ليست حماية موثوقة.

لكن لماذا تكون الشمس في بورما، حتى في يوم بارد، خطراً مميتاً أكثر منها في إنكلترا؟ لأننا أقرب إلى خط الاستواء وأشعة الشمس عمودية أكثر. هذا أدهشني، لأن أشعة الشمس

عمودية عند الظهر فقط. ماذا عن الصباح الباكر؟ إنها كذلك تماماً، قيل لي إن أشعتها تكون على أشدها. لكن ماذا عن الفصل الماطر، حين لا يرى المرء الشمس لعدة أيام متوالية في كل مرة بشكل متكرر؟ ثم أخبرني كل المتمرسين المحنكين القدماء أن أتمسك "بالتوبي" (الخوذة المصنوعة من لب الشجر تسمى توبي) في كل الأوقات. الأشعة المميتة ترشح عبر الغيمة بالمثل، وفي يوم فاتر أنت في خطر نسيانها. انزع قبعتك (توبي) في العراء للحظة واحدة وربما تصبح ميتاً. بعض الناس، لم يقنعوا بالفلين ولب الشجر، يؤمنون في فضائل النسيج الصوفي الأحمر ويلصقون رقعاً صغيرة تُخاط على قمصانهم فوق الفقرة العلوية. الجالية الأوراسية، متلهفة لتأكيد أصلها الأبيض، اعتادت مع الوقت أن تلبس توبيات أكبر وأسمك من تلك القبعات التي يلبسها البريطانيون.

عدم إيماني في كل هذا، يعود تاريخه إلى اليوم الذي طارت فيه قبعتي عن رأسي وحملها النهر بعيداً، وصرت أمشي حاسر الرأس كل اليوم من دون أي آثار سيئة. ولكن حقائق أخرى كانت تتعارض مع الاعتقاد السائد. بداية مع بعض الأوروبيين (مثلاً بحارة يعملون في تجهيزات السفن) يعملون حاسري الرؤوس في الشمس. أيضاً، حين تحدث ضربات شمس (لأنها تحدث)، لم يبدُ أن سببها يعود إلى مناسبة خلع الضحية فيها قبعته عن رأسه. وكانت تحدث للآسيويين كما تحدث للأوروبيين. وقيل إنها أكثر شيوعاً وسط وقّادي السفن التي تعمل بالفحم التي كانت خاضعة لحرارة شديدة وليس لأشعة الشمس. كانت الضربة الحاسمة، هي الاكتشاف بأن التوبي التي يفترض أنها الحماية الوحيدة ضد الشمس الهندية، هي اختراع حديث تماماً. لم يعرف الأوروبيون الأوائل شيئاً عنها. باختصار، الأمر برمته هراء.

لكن لماذا اختلق البريطانيون في الهند هذه البدعة عن ضربة الشمس؟ بسبب التأكيد اللانهائي على الاختلافات بين "السكان الأصليين" و"بينك"، وهذا واحد من الدعامات الضرورية للإمبريالية. لا يمكنك أن تحكم سلالة تابعة، خصوصاً حين تكون أقلية صغيرة، إلا إن اعتقدت بصدق أنك أفضل وأرفع منها عرقياً، ويساعدك في هذا الصدد إذا استطعت أن تعتقد أن السلالة مختلفة بيولوجياً. هناك عدد كبير جداً من الطرق اعتاد الأوروبيون في الهند الإيمان بها من دون دليل وإثبات، بأن أجساد الآسيويين مختلفة عن أجسادهم. واعتقدوا بوجود اختلافات تشريحية هامة بينهم حتى. لكن هذا الهراء عن كون الأوروبيين يتعرضون

لضربة الشمس والمشرقيون لا يتعرضون لها، كانت الخرافة الأشد احتراماً من بين الكل. الجمجمة الرقيقة كانت علامة التفوق العرقي، وقبعة لب الشجر كانت رمزاً للإمبريالية.

لهذا يبدو لي انطلاق رجال وينغيت من بريطانيين وبورميين وهنود على السواء بقبعات عادية من اللباد، هي علامة على تبدل الأزمنة. هم عانوا من الزحار والملاريا والطفيليات والعوالق والقمل والأفاعي والياباني، لكن أعتقد أنه لم تسجل ضربة شمس واحدة. والأهم من كل ما سبق، يبدو أنه لم يكن هناك أي اعتراض رسمي وشعور أن ترك التوبي (القبعة) كان ضربة بارعة لهيبة البيض ومقامهم.

في كراسة السيد ستانلي (انوين) التي نشرت في بيس أند وور، بعض الحقائق الممتعة عن كميات الورق التي خصصتها الحكومة لأغراض متنوعة. هذه بعض الأرقام:

الصحف: ٢٥٠ ألف طن. مكتب القرطاسية التابع لوزارة الداخلية ١٠٠ ألف طن. الدوريات: ٥٠ ألف طن تقريباً. الكتب: ٢٢ ألف طن.

اللافت أن وزارة الحرب تحصل على ٢٥ ألف طن على الأقل من حصة مكتب القرطاسية أو أكثر من كل ما تحصل عليه تجارة الكتب مجتمعة.

أنا لم أشهد بعيني شخصياً، لكن أستطيع تخيل ضياع الورق الذي يحدث في وزارة الحرب والوزارات الأخرى. أنا أعرف ما يحدث في البي بي سي. هل تصدق أن كل برنامج إذاعي يبث على الهواء مثلاً حتى المحادثة العرضية التي يتبادلها الكوميديون، تطبع منه ست نسخ على الأقل وأحيانا خمس عشرة نسخة؟ ويضبر كل هذا الهراء منذ سنوات في مكان ما في أرشيف هائل، وفي الوقت نفسه إن الورق المخصص للكتب قليل جداً، وحتى الكتاب "الأثر الأدبي المهم" عرضة لأن تنفد طبعاته، وأن الكثير من المدارس تعاني من نقص في الكتب المدرسية، وأن الكتّاب الجدد ليس لديهم أي فرصة في البدء، وحتى الكتاب الراسخون يجب عليهم أن يتوقعوا فجوة من سنة أو سنتين بين إنهاء الكتاب ورؤيته منشوراً. ولهذا ابتلعت أمريكا تجارة تصدير الكتب الإنكليزية.

هذا الجزء من كراسة السيد انوين قصة محزنة. يكتب بغضب مبرر عن الموقف المزدري نحو الكتب الذي أبدته الحكومات الأخرى. لكن في الحقيقة، فإن الإنكليز بشكل عام ليس

لديهم توقير للكتب، رغم أنهم أفضل من الأمريكان في هذا المجال. في البلدان الصغيرة مثل هولندا وفنلندا، كان استهلاك الفرد للورق هو الأعلى. أليس من المهين أن تعرف أن مدينة نائية مثل ريكيافيك أقامت منذ بضع سنوات قليلة قبل الحرب معرضاً للكتب البريطانية أفضل من أي مدينة إنكليزية تساويها في الحجم؟

٢٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٤.

قبل أسبوع أو اثنين، وبعد قراءة كتاب السيد سي إس لويس **ما وراء الشخصية** الذي يتألف من سلسلة من النشرات الإذاعية عن علم اللاهوت، الذي أعيد طبعه حديثاً، عرفت من الدعاية المعرفة المكتوبة على الغلاف أن الناقد الذي يجب عليه أن يعرف ويعرف في الحقيقة بشكل أفضل شبهه بكتاب سابق **أحرف شيطانية** وبكتاب **تقدم الحاج**. أنا لم أتردد بمقارنة إنجاز السيد لويس في **تقدم الحاج** حيث كانت كلماته المقتبسة. هذا مثال من الكتاب الأخير وهو تمثيلي تماماً:

حسناً حتى على المستوى الإنساني، هناك نوعان من التظاهر والادعاء. هناك نوع سيئ حيث يكون التظاهر بدلاً من الشيء الحقيقي، مثلما حين يتظاهر رجل بمساعدتك بدلاً من أن يساعدك فعلياً. حين لا تحس بشعور ودي خاص لكنك تعرف أن عليك أن تشعر، فإن أفضل شيء تستطيع فعله في الغالب أن تتظاهر بسلوك ودي، وتتصرف كما لو أنك كنت رجلاً أفضل بكثير مما أنت عليه في الحقيقة. وبعد بضع دقائق كما لاحظنا كلنا، ستشعر أنك فعلياً وديّ أكثر مما كنت. لهذا السبب فإن ألعاب الأطفال مهمة جداً. فهم يتظاهرون طول القوت بأنهم جنود لاعبون بالغون ويشدون عضلاتهم ويقوون فطنتهم ودهاءهم طول الوقت، لكي يساعدهم التظاهر بأنهم كبار وبالغون.

الكتاب كله مثل هذا، وأعتقد أن أغلبنا يتردد طويلاً قبل مساواة السيد لويس مع بونيان. يجب على المرء أن يدرك أن هذه المقالات بثت في الراديو، ثم أعيد طبعها، لكن حتى على الهواء ليس من الضروري إهانة جمهورك الإذاعي بعبارات ودية مثل "أنت تعرف" و"انتبه" أو بعبارات إدواردية دارجة مثل "بشكل شنيع"، "وبشكل ممتاز جداً" و"خصوصاً" و"وقاحة بغيضة" وهلم جرا. إن الفكرة بالطبع هي في أن تقنع القارئ المرتاب أو المستمع، بأن المرء يستطيع أن يكون مسيحياً و"رجلاً طيباً جداً" في الوقت نفسه. أنا لا أتخيل أن

المحاولة ستنجح كثيراً، وأن يجعل القطن الطبي الذي تحشو به البي بي سي أفواه مستمعيها أي نقاش حقيقي للمشاكل اللاهوتية مستحيلاً، حتى لو كان من وجهة نظر أرثوذكسية. لكن رواج السيد لويس الآن والوقت الذي أعطي له على الهواء والمديح المبالغ به، هي أعراض سيئة تستحق لفت النظر إليها.

سيلاحظ طلاب علم الدفاع الديني الشعبي مبكراً في الكتاب مساعداً وصديقاً لكل الأشخاص الذين يظهرون كل بضع سنوات بدين مبسط مجاز خاص بهم، وتلميحات شتى بأن الشك شيء قديم وعتيق وهلم جرا، وسيتذكرون أن رونالد نوكس قال الشيء ذاته قبل خمس عشرة سنة، وآر إتش بينسون قبل ذلك بعشرين أو ثلاثين سنة، وسيعرفون بأي برج حمام يجب أن يوضع السيد لويس.

هناك نوع كتاب استوطن وانتشر بشكل واسع في إنكلترا لمدة ستين عاماً، وهو كتاب ديني سخيف ذكي، استمر من حيث المبدأ ليس بتهديد غير المؤمن بالجحيم، وإنما بإظهاره أبله مخالفاً للمنطق وعاجزاً عن التفكير الواضح وجاهلاً، وأن كل ما يقوله قيل وفُند سابقاً. أعتقد أن هذه المدرسة الأدبية بدأت مع الجمهورية الجديدة لدبليو إتش مالوك، التي كتبت كما يفترض في ١٨٠٠ تقريباً، وكان لها صف طويل من الممارسين -آر إتش بينسون وتشيسترتون والأب نوكس ومتسكع الشواطئ وآخرون أغلبهم من الكاثوليك، لكن بعضهم من الإنجليكان كالدكتور سيريل إلينغتون والسيد لويس نفسه (كما أشك).

خط الهجوم نفسه دائماً. كل بدعة قيلت وروجت من قبل (مع التلميح بأنها فندت من قبل) وعلم اللاهوت لا يفهمه سوى علماء اللاهوت (مع التلميح بأنك يجب أن تترك تفكيرك للقساوسة). بهذه الخطوط يستطيع المرء طبعاً أن يجد الكثير من التسلية في "تصحيح التفكير الرخو"، والإشارة إلى أن فلاناً وفلاناً يقولان ما قاله بيلاجيوس في عام ٤٠٠ ميلادية (أو أي زمن كان) واستعملوا كلمة "تحول" (تحول الخبز والنبيذ في القربان إلى جسد المسيح ودمه- المترجم) بالمعنى الخطأ. هذه هي الأهداف الخاصة لهؤلاء الناس تي إتش كسلي وإتش جي ويلز وبرتراند راسل والبروفسور جود وآخرين، الذين ارتبطوا في العقل الشعبي بالعلم والعقلانية، الذين لم يجدوا صعوبة كبيرة في تدميرهم -علماً أني ألاحظ أن أغلب المدمرين لا يزالون هناك، بينما بدأ أغلب المدافعين المسيحيين أنفسهم في الذبول.

إن المبرر الوحيد للتأييد المفرط الذي يجده هؤلاء الناس في الصحافة دائماً، هو ولاءاتهم السياسية الرجعية بشكل ثابت، حتى أن بعضهم كان معجباً بالفاشية طالما كان ذلك آمناً. لهذا السبب قمت بلفت الانتباه إلى السيد سي إس لويس وأحاديثه الإذاعية الصغيرة الودودة التي سيكون منها الكثير بلا شك، وهي في الحقيقة ليست غير سياسية كما قُصد لها أن تبدو، بل إنها حركة مطوقة ومجهضة في الهجوم المضاد الكبير على اليسار الذي كان يديره إيه بي هربرت وجي أم يونغ وألفريد نويس وآخرون طوال السنتين الماضيتين.

لاحظتُ أن السيد ميدلتون موري في كتابه آدم وحواء يعتبر الهياج ضد إطلاق سراح موسلي من الاعتقال، علامة على نمو النظام الشمولي أو العادة الذهنية الاستبدادية في هذه البلاد. يقول إن عامة الشعب لاتزال تمقت النظام الشمولي، لكنه يضيف في حاشية لاحقة أن فعل موسلي هزّ هذا الرأي إلى حد ما. أتساءل إن كان مصيباً أم لا في قوله. ظاهرياً إن المظاهرات ضد إطلاق سراح موسلي، علامة سيئة جداً، وتعني عملياً أن الناس كانوا هائجين ضد الأمر بالمثول أمام المحكمة. في عام ١٩٤٠ كان اعتقال موسلي وسجنه عملاً صحيحاً تماماً، وبرأيي كان من الأنسب إعدامه لو وطأ الألمان أرض بريطانيا. حين تكون القضية قضية وجود الأمن القومي، لا تستطيع أية حكومة التمسك بحرفية القانون: وإلا فإن كل خائن محتمل للوطن، ليس عليه إلا أن يتحاشى ارتكاب الجرائم التي تعرضه للمقاضاة، ويستطيع البقاء حراً وجاهزاً، ويذهب إلى العدو ويعمل كقائد في الحزب النازي فور وصول العدو. لكن الوضع في عام ١٩٤٣ كان مختلفاً تماماً. لقد مر خطر غزو ألماني جدي، وموسلي (رغم أنه من المحتمل أن يعود ويتراجع في تاريخ مستقبلي) مجرد سياسي فاشل سخيف مصاب بتوسع في أوعيته الدموية. إن استمرار حبسه من دون محاكمة، كان انتهاكاً لكل مبدأ نقاتل من أجله كما يفترض.

هناك شعور شعبي قوي ضد إطلاق سراح موسلي، ولكن ليس لأسباب شريرة كالتي يشير إليها السيد موري ضمناً في رأيي. إن التعليق الأكثر تكرراً الذي يسمعه المرء "لقد فعلوها لأنه رجل ثري"، وهذه طريقة مبسطة للقول "امتياز طبقي يتعزز مرة أخرى". من المبتذل أن يسرق منا بالتدريج التقدم السياسي الذي يبدو أننا حققناه في عام ١٩٤٠ مرة أخرى. لكن الغريب أن الإنسان العادي يرى هذا يحدث ولا يستطيع مقاتلته: يبدو أنه ليس

هناك مكان للتحكم والسيطرة. بطريقة ما، السياسة توقفت. لم تعد هناك انتخابات عامة، والناخب يدرك عجزه عن التأثير على رئيس أو عضو البرلمان، والبرلمان ليس له أية سلطة على الحكومة. ربما لا تحب الأشياء التي تحدث، لكن ماذا يمكنك أن تفعل لها بالضبط؟ ليس هناك فعل مادي ملموس يمكنك الاحتجاج ضده بشكل منطقي.

لكن بين الحين والآخر، يحدث شيء ما عبارة عن علامة واضحة للنزعة العامة -شيء يمكن أن يتبلور حوله الاستياء الموجود. "اسجنوا موسلي" صيحة جيدة لاستجماع القوة. كان موسلي في الحقيقة رمزاً، مثلما لايزال بيفريدج ومثلما كان كريبس في عام ١٩٤٢. أنا لا أعتقد أن موري يجب أن يقلق حول مضامين هذا الحدث، فعلى الرغم من كل الذي حدث، فشل أي رأي ديكتاتوري من التقدم والقبول وسط الناس العاديين في هذه البلاد.

٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٤.

بدأت بنغوين نشر الكتب باللغة الفرنسية الآن، وهي ذات شكل لطيف وبسعر نصف كراون. ومن بين تلك التي ظهرت، هي الأجزاء الأخيرة من جورنال أندريه جيد التي تغطي سنة واحدة من الاحتلال الألماني. حين ألقيت نظرة سريعة على **الآلهة عطشى** للعجوز المفضل أناتول فرانس (إنها رواية عن حكم الإرهاب أثناء الثورة الفرنسية)، خطرت الفكرة لي: ما هي المقاطع التي يستطيع المرء اختيارها كأثر أدبي هام من كتابة تصف عمليات الإعدام! يفترض أن هناك المئات منه مبعثرة في الأدب و-لمبرر أعتقد أنني أستطيع تخمينه- يفترض أنها كتبت بشكل أفضل من الكتب التي تصف المعارك.

من بين الأمثلة التي أتذكرها في هذه اللحظة، وصف ثاكري لشنق كورفوازير، وإعدام المجالدين في سالامبو، والمشهد الأخير من قصة مدينتين، وجزء من رسالة أو مفكرة لبايرون تصف الإعدام بالمقصلة، وقطع رأسي نبيلين اسكتلنديين بعد تمرد عام ١٧٤٥ الذي وصفه هوراس والوب كما أعتقد. هناك فصل رائع جداً يصف عملية إعدام بالمقصلة في أولد وايفز تيل لأرنولد بينت، وفي واحدة مرعبة من روايات زولا (تلك التي عن ساكر كور) ثم هناك قصة جاك لندن القصيرة الشيناغو ووصف أفلاطون لموت سقراط -لكن يستطيع المرء توسيع القائمة بشكل لا حدود له، ويجب أن يكون هناك أيضاً عدد كبير من الأمثلة في الشعر، أتذكر

منها الآن القصائد الغنائية الشعبية القديمة عن الشنق مثلاً، التي تدين لها بشيء ما قصيدة كيلينغ "داني بيفر".

الشيء اللافت جداً، أنه ليس هناك كاتب واحد -أو أنا لا أتذكر- كتب عن عملية إعدام باستحسان. السمة الغالبة دائماً هي الرعب. إن المجتمع لا يستطيع على ما يبدو التقدم والتعايش من دون عقوبة الإعدام -لأن ترك بعض الناس أحياء هو أمر غير آمن ببساطة - ومع ذلك حين تأتي الفرصة، فلا يوجد أحد يشعر أنه من الصحيح والعدل قتل إنسان آخر بدم بارد. رأيت رجلاً يشنق مرة واحدة. ليس هناك شك أن كل شخص مهتم يعرف أن الإعدام سيكون عملاً مفزعاً وغير طبيعي. أعتقد أن الأمر دائماً نفسه -السجن كله والحراس والسجناء على السواء يضطربون ويحزنون حين تكون هناك عملية إعدام. ربما حقيقة أن عقوبة الإعدام مقبولة كشيء ضروري، ومع ذلك يشعر الناس بأنها خطأ، هي التي تعطي للأوصاف الكثيرة جداً لعمليات الإعدام جوها المأساوي. لقد كتب هذه الأوصاف أشخاص شاهدوا الإعدام وشعروا أنه تجربة فظيعة ومفهومة جزئياً فقط يريدون تسجيلها؛ بينما أدب المعارك كتبه أشخاص على الأغلب لم يسمعوا قط بندقية تُطلِق، ويفكرون في المعركة كنوع من مباراة بكرة القدم لا يتأذى أحد فيها.

ربما من التسرع قليلاً القول إنه لم يكتب أحد عن الإعدام باستحسان، حين يفكر المرء بالطريقة التي تتلمظ بها صحفنا فوق عمليات قتل خونة الوطن البائسين بدم بارد في فرنسا وفي كل مكان آخر. أتذكر، في إحدى الصحف، سلسلة كاملة من الصور تظهر إعدام كاروسو الرئيس السابق لشرطة روما. ترى الجسد الضخم البدين مفرشخاً على كرسي وظهره بمواجهة الفرقة التي ستطلق النار، ثم غيمة الدخان المتصاعدة من سبطانات البنادق، والجسد يهبط من الجانبين. المحرر الذي رأى من المناسب نشر هذا، ظن أن الإعدام نبأ سار كما اعتقد، لكنه لم يكن عليه أن يشاهد الفعل الحقيقي بعد ذلك. أظن أنني أستطيع تخيل مشاعر الرجل الذي التقط الصور وفريق الإعدام.

إلى عشاق المعرفة غير المفيدة (وأنا أعرف هناك الكثير منهم، من عدد الرسائل التي تصلني دائماً حين أثير أية قضية من هذا النوع) أقدم مشكلة صغيرة غريبة ناشئة عن طبعة حديثة للبيلكان لكتاب إنكلترا شكسبير. كاتب اسمه فاينيس موريسون، طاف في إنكلترا في عام

١٦٠٧ يصف البطيخ الذي يزرع وينمو بحرية. أندرو مارفيل، في قصيدة شهيرة جداً كتبت بعد خمسين سنة من ذلك، يشير إلى البطيخ أيضاً. كلا المرجعين أظهرا أن البطيخ كان ينمو في العراء. وبالفعل كان يفترض بالبطيخ أن يفعل هذا لو أنه زرع قط ونما. كان المستنبت اختراعاً حديثاً في عام ١٦٠٠ وكانت البيوت البلاستيكية نادرة إن وجدت. من الصعب أن تزرع تحت زجاج بسبب سعرها. يتكلم فاينيس موريسون عن زراعة العنب أيضاً بكميات كبيرة لصنع النبيذ. هل من الممكن أن مناخنا تبدل بشكل جوهري في السنوات الثلاثمائة الأخيرة؟ أم هل كان المسمى بطيخاً هو يقطين في الواقع؟

١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٤.

منذ أسابيع مضت، وصفتُ مجلة ذا رايتر بعدم اكتراث "بالميتة"، خلال بعض ملاحظات لي عن مدارس الصحافة. تلقيت رسالة نتيجة ذلك من مالكيها الذين أرفقوا بالرسالة عدد تشرين الثاني/ نوفمبر من المجلة وطالبوني بسحب تصريحي. سحبته على الفور. لاتزال ذا رايتر حية، وتبدو لي كما هي دائماً، رغم أنها غيرت تصميمها وشكلها الذي عرفته. وأعتقد أن هذه النسخة العينة تستحق تفحص الضوء الذي تلقيه على مدارس الصحافة وكل تجارة استخراج أجور من صحفيين مستقلين كادحين.

المقالات من الأنموذج المعتاد، "تقنية الحبكة" بواسطة وليام باغلي إلخ، لكني مهتم أكثر بالإعلانات التي تشغل أكثر من ربع المساحة. أغلبها من أشخاص يدعون أنهم قادرون على أن يعلموك كيف تكسب نقوداً من الكتابة. عدد مذهل يتعهد بتزويدك بحبكات جاهزة. هذه بضع عينات منها:

حبكات من دون دموع. تعلم طريقتي. أبسط طريقة على الإطلاق. تعاد النقود إن لم تكن راضياً. ٥ شلنات. البريد مجاني.

طريقة لا تنضب للحبكات للصحافة النسائية، خمسة شلنات وثلاث د. تعطيك براعة حقيقية. عشرة أيام ابروفال.

حبكات: حبكاتنا بدأت بالتسلسل وكلها جاهزة للمقال بأطوال لكل سلسلة. إعادة القولبة غير ضرورية -ماعدا الكسوة بالكلمات الضرورية. كل الأنماط متوفرة.

حبكات في مشاهد حية وقوية. بأسطر افتتاحية مدهشة من أجل استعمال حقيقي في القصص. محادثات أنموذجية تتضمن لهجة أصيلة....... قصيرة قصيرة، ٥ شلنات، قصة قصيرة ٦ شلنات، طويلة كاملة مع نهايات موترة حابسة للأنفاس ٥ شلنات و٦ د. مسلسل: رواية، رواية قصيرة (فصل فصل) مقدمة ملائمة، اقتباسات نثرية أو شعرية إن كانت هناك رغبة ١٥ شلناً و٦ د. جنيه.

هناك الكثير غيرها. شخص ما يسمى السيد مارتن ولتر يدعي أنه قلل بناء القصة إلى علم دقيق، وطور أخيراً صيغة الحبكة التي بنيت بناء عليها قصصه وقصص طلابه في كل أرجاء العالم. إن كنت تتوق إلى كتابة القصة الأدبية أو القصة الشعبية أو أن تنتج قصصاً لأي سوق قائم، تذكر أن صيغة السيد ولتر وحدها من تكشف لك ما هي الحبكة وكيف تنتج واحدة منها. الكلفة لا تكلفك سوى جنيه واحد. ثم هناك "قافلة صحفيي الشوارع الجاهزين لمراجعة وتنقيح مخطوطاتك بـ ٢ شلن و٦ د لكل ألف كلمة. كما أننا لا ننسى الشعراء أيضاً.

تحيات وترحيب

هل أنتم أيها الشعراء تهملون الطلب الكبير لما بعد الحرب للعاطفة والوجدان؟

هل أنتم متخصصون، وهل تعرفون ما المطلوب والضروري؟

مقرر بطاقة ترحيب التعليمي الشهير لايدا ريبين موجود للطلاب المقبولين المستعدين للعمل المجهد. كتابها عاطفة وبطاقة ترحيب ناشرين، نشر بـ ٣ شلنات وبنس ٦ د، يمكن الحصول عليه من، إلخ إلخ.

أنا لا أرغب في قول أي شيء هجومي ومهين، لكن لكل شخص ينزع لأن يستجيب لهذا النوع من الإعلانات المقتبسة آنفاً، أقدم هذه الفكرة. إن كان هؤلاء الناس يعرفون فعلاً كيف يجنون المال من الكتابة، لماذا لا يفعلون ذلك بدلاً من بيع سرهم بخمسة شلنات للسر الواحد؟ بمعزل عن أي اعتبار آخر، هم سيربون حشوداً من المنافسين لأنفسهم. هذا العدد من ذا رايتر يحتوي على ثلاثين إعلاناً تقريباً من هذا الطابع وذا رايتر نفسها، بالإضافة إلى أنها تعطي نصائح في مقالاتها وتدير مكتبها الأدبي الخاص بها، حيث تنتقد المخطوطات من قبل خبراء معروفين بكلفة كذا للألف كلمة. لو حصل كل واحد من هؤلاء المعلمين المتنوعين

على عشرة طلاب ناجحين في الأسبوع، فإنهم سيطلقون في السوق حوالي خمسة عشر ألف كاتب ناجح في السنة! أيضاً أليس غريباً ألا تذكر أسماء (صحفيي الشارع الرشيقين-فليت ستريت جورناليست) والمؤلفين المعترف بهم والروائيين المشهورين الذين يعلمون هذه المقررات التعليمية أو يكتبون الشهادات لهم، أو حتى إن ذكرت أسماؤهم لا يكونون أبداً أشخاصاً رأيت أعمالهم المنشورة في أي مكان؟ إن عرض برنارد شو أو جيه بي بريستلي أن يعلماك كيف تكسب مالاً من الكتابة، ربما تشعر بوجود شيء فيها. لكن من الذي يشتري قارورة من محيي الشعر من رجل أصلع؟ إن كانت ذا ريتر تريد المزيد من بعض الشهرة المجانية، فسوف تنالها، لكنني أخمن أن هذا العمل سيستمر.

إحدى الطرق المفضلة لتزييف علم التاريخ الآن، هي تبديل التأريخ. موريس ثوريز، الشيوعي الفرنسي عفت عنه الحكومة الفرنسية (كان يخضع لعقوبة الفرار من الجيش). فيما يتصل بهذا، لاحظت إحدى صحف لندن أن ثوريز "سيكون قادراً الآن على أن يعود من موسكو، حيث كان يعيش منفياً في السنوات الست الماضية".

على العكس، كان له في موسكو خمس سنوات بأقصى تقدير، كما يدرك جيداً محرر هذه الصحيفة. ثوريز الذي عبر عن تلهفه للدفاع عن فرنسا ضد الألمان منذ عدة سنوات مضت، والذي استدعي إلى الجيش منذ اندلاع الحرب في عام ١٩٣٩ وفشل في تسجيل ظهور، ظهر في موسكو في وقت لاحق.

لكن لماذا تبديل التأريخ؟ لكي يبدو فرار ثوريز من الجندية، إن فر، وقع قبل سنة من الحرب، وليس بعد أن بدأ القتال. هذا مجرد عمل واحد في الجهد العام الرامي إلى تبرئة وتبييض سلوك الفرنسيين وشيوعيين خلال فترة المعاهدة الروسية الألمانية. أستطيع أن أسمي أعمال تزوير أخرى في السنوات الأخيرة. أحياناً تستطيع أن تعطي حدثاً لوناً مختلفاً تماماً بتغيير التأريخ لبضعة أسابيع فقط. لكن الأمر لا يهم طالما كلنا نبقي عيوننا مفتوحة وننظر إليه. إن الأكاذيب لن تزحف إلى خارج الصحف وتدخل إلى كتب التاريخ.

مراسل ينقصه غريزة التنافس، أرسل نسخة من مبادئ أو أهواء، كراسة بستة بنسات بقلم كينيث بيكثورن، عضو البرلمان المحافظ، مع نصيحة (وضع خطاً أحمر تحتها): "تُحرق بعد أن تُقرأ"

لم أفكر أنا في حرقها. وذهبت فوراً إلى أرشيفي. لكنني أوافق أنها قطعة أدبية مقززة، وأن سلسلة الكراسات كلها (كتيبات ساينبوست، بواسطة مؤلفين مثل جي أم يونغ ودوغلاس وودراف والكابتن ال دي غامانز) علامة سيئة. إن السيد بيكثورن واحد من أذكى أعضاء البرلمان التوريين الصغار (صغار في الدائر السياسية تعني تحت عمر الستين) وفي هذه الكراسة يحاول أن يقدم التورية في ضوء محبب وديمقراطي، وفي الوقت نفسه يقذف بضربات مضللة صغيرة على اليسار. انظر إلى هذا مثلاً من أجل تحريف وتشويه نظرية الماركسية:

ليس هناك شخص واحد يقول إن العوامل الاقتصادية تحكم العالم، يصدق ذلك عن نفسه. لو كان كارل ماركس مهتماً اقتصادياً أكثر منه سياسياً لاستطاع فعل شيء أفضل لنفسه، بدلاً من قبول عطف الرأسمالي إنجلز وبيع مقالاته إلى صحف أمريكية أحياناً.

وسط الناس الجاهلين، هذا يعني أن الماركسية تعتبر الكسب الفردي هو القوة الدافعة في التاريخ. إن ماركس لم يقل هذا فقط، بل قال عكسه تماماً. كثير من الكراسات عبارة عن هجوم على فكرة الأممية، وتدعمها ملاحظات كتلك: "ليس هناك رجل دولة بريطاني واحد يجب أن يشعر أنه مخول أن ينفق الدم البريطاني من أجل تعزيز شيء أهم وأسمى من المصالح البريطانية". لحسن الحظ يكتب السيد بيكثورن بطريقة سيئة جداً لتكون له جاذبية واسعة، لكن بعض كتاب الكراسات الآخرين في هذه السلسلة أرفع بالمقارنة. كان حزب التوري يعرف دائماً بـ "الحزب الغبي". لكن معلقي وخبراء هذه الجماعة، لديهم نخبة جيدة من الأدمغة وسطهم. وحين يزداد التوريون ذكاء، يحين الوقت كي تتلمس ساعة يدك وتعدّ الفكة الصغيرة في جيبك.

٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٤.

كانت هناك شكاوى لا تعد ولا تحصى مؤخراً حول توحش أصحاب الحوانيت وفظاظتهم. أنا شخصياً أعتقد وأنا مصيب، أن أصحاب الحوانيت يشعرون بمتعة سادية حين يخبرونك أنهم لا يخزنون الشيء الذي تطلبه. أن تذهب لتبحث عن شيء نادر مثل مشط أو علبة ملمع أحذية، هي تجربة بائسة. إنها تعني الجرجرة من متجر إلى آخر والحصول على

سلسلة من إجابات النفي المقتضبة والجافة أو العدائية. لكن حتى التجارة الروتينية لشراء حصص الطعام والخبز، جعلت صعبة بأقصى ما يمكن بالنسبة إلى الناس المنشغلين. كيف لامرأة أن تقوم بالتسوق المنزلي إن كانت تعمل حتى الساعة السادسة يومياً، بينما أغلب المتاجر تغلق أبوابها في الساعة الخامسة؟ تستطيع فعل ذلك فقط بالقتال حول مناضد المحلات المكتظة أثناء الساعة المخصصة لتناول وجبة الغداء. لكن الزجر الذي يقابلن به حين يطلبن مادة شحيحة في السوق، هو ما يخشاه أغلبهن. أغلب أصحاب الحوانيت يعتبرون الزبون نوعاً من متسول، وبشعورهم هذا هم يمنون عليه ببيعه أي شيء. وهناك شكاوى أخرى عادلة – مثلاً– طلب ثمن باهظ على السلع غير الخاضعة للسيطرة كالأثاث المستعمل مثلاً، والحيلة المثيرة للغضب، الأكثر شيوعاً الآن في عرض مواد في واجهة المحل، ليست للبيع.

قبل إلقاء اللوم على الحانوتي عن كل هذا، هناك عدة أشياء يجب أن يتذكرها المرء. بداية، إن حدة الطبع والسلوك السيئ في ازدياد في كل مكان. ليس عليك ألا أن تراقب الناس الأسوياء الذين يعانون طويلاً، مثل مفتشي التذاكر في الحافلات، كي تدرك هذا. إنه عصاب سببته الحرب. لكن بالإضافة إلى ذلك، فإن الكثير من أصحاب الحوانيت الصغيرة المستقلين (في تجربتي هي تعامل بطريقة مؤدبة أكثر بكثير من الحوانيت الكبيرة) هم أناس لديهم شكوى منطقية ضد المجتمع. بعضهم مستخدمون بأجر سيئ عند شركات الجملة، وآخرون سحقتهم ببطء منافسة المتاجر المتسلسلة، وفي أكثر الأحيان تعاملهم السلطات المحلية بأكبر قدر من عدم مراعاة مشاعرهم. أحياناً نظام إعادة الإسكان يسرق من الحانوتي نصف زبائنه في ضربة واحدة. في زمن الحرب هذا يمكن أن يحدث وبطريقة أكثر قسوة، بسبب القصف والتجنيد الإجباري. وللحرب إزعاجات خاصة لأصحاب الحوانيت. نظام التقنين والحصص يضع كمية كبيرة من العمل الإضافي على كاهل البقالين والجزارين إلخ، ومن المزعج جداً أن تسأل طوال اليوم عن مواد وسلع لم تحصل عليها وليست لديك.

لكن أخيراً، وبعد كل شيء، الحقيقة الأساسية هي أن كل من مساعد الحانوتي وأصحاب الحوانيت المستقلين مضطهدون في الأوقات العادية. يعيشون على نغمة "أن الزبون على حق دائماً". في أوقات السلم في المجتمع الرأسمالي، يحاول كل واحد أن يبيع سلعاً حيث ليس هناك مال كاف أبداً لشرائها، بينما في زمن الحرب، فإن المال متوفر بكثرة والسلع نادرة. علب

الكبريت وأمواس الحلاقة ومصابيح البطاريات وساعات المنبه ورضاعات الأطفال الصغار وزجاجات الرضاعة، عبارة عن ندرة ثمينة، والرجل الذي يمتلكها كائن جبار، يجب عليك أن تكون قبعتك في يدك حين تدنو منه. لا أعتقد أن المرء يستطيع لوم الحانوتي بسبب الانتقام القليل مما يعانيه حين يكون الوضع معكوساً مؤقتاً. لكنني أوافق وبقوة على أن سلوك بعضهم مثير للغثيان، وحين يعامل المرء بأكثر من العجرفة العادية، يكون من واجب الشعب ألا يذهب إلى ذلك المتجر مرة أخرى.

عند تفحص نسخة من أولد مور الماناك رزنامة المغربي العجوز القديمة، تذكرت المتعة التي أحصل عليها في صباي من الرد على الإعلانات. زد طولك، اكسب خمسة أرطال في أسبوع في وقت فراغك، عادة السكر يمكن قهرها في ثلاثة أيام، أحزمة كهربائية، مظهرات الصدر وعلاجات للسمنة، الأرق، تورم إبهام القدم، أنوف حمراء، الفأفأة، الخجل، البواسير، السيقان السيئة، الأقدام المسطحة والصلع- كل الأشياء المحببة هناك تقريباً. بعض من هذه الإعلانات ظلت دون أن تتبدل نهائياً لأكثر من ثلاثين سنة.

أتصور أنك لا تستطيع أن تحصل على منفعة كبيرة من أي من هذه الأدوية السرية، لكنك تحصل على متعة كبيرة في الرد على الإعلانات. وبعد ذلك تجرهم ويخسرون الكثير من الطوابع في إرسال لفائف متتالية من الشهادات، ثم تتركهم فجأة في غضبهم. منذ سنوات كثيرة رددتُ على إعلان من وينفريد غريس هارتلاند (كان الإعلان يحمل صورة فوتوغرافية لها -امرأة متألقة تشبه كائناً خرافياً (سلف) يعني طويلة ورشيقة ادعت بقدرتها على علاج البدانة). في الرد على رسالتي، افترضت أنني امرأة- أدهشني هذا في ذلك الوقت، لكن أدرك الآن أن المغفلين الذين هم ضحايا هذه الإعلانات أغلبهم من الإناث. حثتني على المجيء وزيارتها فوراً وكتبت لي: "تعالي قبل أن تطلبي كنزاتك الصيفية، لأنه بعد أن تأخذي علاجي، سيتبدل شكلك حتى إنك لن تعرفيه". كانت تصرّ بشكل خاص على أنني يجب أن أزورها شخصياً، وأعطت عنواناً في مكان في لندن دوكس. استمر هذا لوقت طويل، خلاله انخفض الأجر تدريجياً من جنيهين إلى نصف كراون، ثم أنهيت المسألة عندما كتبت لها إنني شفيت من البدانة بواسطة وكالة منافسة.

بعد سنوات من ذلك، صادفت نسخة من قائمة تحذيرية كانت تصدرها ذا تروث من وقت إلى آخر، تحذر الشعب من المحتالين والغشاشين. وكشفت أنه ليس هناك شخص باسم وينفرد غريس هارتلاند، هذا الاحتيال كان يديره محتالان أمريكيان هاري سويت وديف ليتل. الغريب أنهما كانا متشوقين لزيارة شخصية. وفي الحقيقة لقد تساءلت إن كان هاري سويت وديف ليتل كانا فعلاً منشغلين في شحن البضائع المرسلة إلى نساء بدينات إلى أجنحة الحريم في اسطنبول.

كل واحد لديه قائمة بكتب يقصد دائماً أن يقرأها، وبين الحين والآخر يقرأ المرء واحداً منها. واحد قطعته من قائمة حديثة كان لجورج بورن بعنوان مذكرات من سوري لابورار. لقد أصبت منه بقليل من الإحباط بسبب الرجل الذي تدور عنه، رغم أنها قصة حقيقية، لأن الرجل لم يكن عاملاً عادياً. لقد كان عامل مزرعة، لكنه أصبح بستانياً مضارباً، وعلاقته بجورج بورن كانت علاقة عبد بسيد. رغم ذلك، فهناك بعض التفاصيل الرائعة فيها، وتعطي صورة حقيقية للنهاية القذرة القاسية التي تكافأ بها حياة كاملة من العمل الصعب في الأرض. كتب الكتاب منذ أكثر من ثلاثين سنة، لكن الأشياء لم تتبدل بشكل جوهري. قبل الحرب مباشرة، في قريتي أنا في هرتفوردشاير، أنهى رجلان عجوزان أيامهما بطريقة البؤس المكشوف نفسه الذي وصفه جورج بورن. كتاب آخر قرأته حديثاً أو بالأحرى أعدت قراءته، هو حماقات وخداع الروحانية، أصدرته جمعية الطباعة العقلانية راشيناليست بريس سوسيتي منذ عشرين سنة تقريباً. هذا كتاب ربما يكون الحصول عليه ليس سهلاً، لكنني أزكي بالتساوي كتاب السيد بيتشفورد-روبيرتس عن الموضوع نفسه. الحقيقة الممتعة التي يبرزها هذان الكتابان المتشابهان، هي عدد العلماء الذين خدعوا بالروحانية.

تشمل القائمة السير وليام كروكيس والبيولوجي والاس ولومبروزو وعالم الفلك فلاماريون (بدل رأيه فيما بعد) والسير أوليفر لودج وقافلة كاملة من أساتذة الجامعات الألمان والإيطاليين. هؤلاء الناس ليسوا نخبة العالم العلمي الأولى ربما، لكن لن نجد مثلاً شعراء في أعداد مشابهة تقع ضحية للوسطاء. يعتقد أن إليزابيث باريت براونينغ فتنت بوسيط مشهور، لكن براونينغ نفسه رأى من خلاله لمحة وكتب قصيدة انتقادية قاسية عنه (سلج الوسيط). المهم، إن الناس الذين لم يتحولوا إلى الروحانية أبداً، هم المشعوذون.

١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٤.

توفر في تو (قيل لي إنني أستطيع الآن ذكرها في الطباعة طالما أنتم تسمونها في تو، ولا تصفها بشكل دقيق) مثال آخر عن تناقض الطبيعة البشرية. يشكو الناس من القوة غير المتوقعة التي تنفجر فيها هذه الأشياء. "الصيغة المعتادة: ليست سيئة جداً إن وفرت لك إنذاراً بسيطاً". هناك ميل للحديث بتشوق عن أيام في ون. القذيفة الطائرة القديمة الطيبة التي كانت تعطيك الوقت لتختبئ تحت الطاولة إلخ، بينما في الواقع حين تتساقط القذائف الطائرة، كان موضوع الشكوى هو فترة الانتظار غير المريح قبل أن تنفجر. بعض الناس راضون جداً. أنا شخصياً لست عاشقاً لفي تو، وخصوصاً في اللحظة التي يكون فيها البيت يهتز بسبب انفجار جديد، لكن ما يحزنني بخصوص هذه الأشياء، هي الطريقة التي تجعل الناس يتكلمون فيها عن الحرب التالية. أسمع إشارات متشائمة إلى "المرة القادمة" والملاحظة: "أعتقد أنهم قادرون على إطلاقها عبر الإطلنطي آنذاك" في كل مرة تنفجر فيها واحدة. لكن لو سألت من سيقاتل من حين تندلع هذه الحرب المتوقعة، فإنك لا تحصل على جواب واضح. إنها حرب في معناها المجرد -الفكرة بأن الكائنات البشرية تستطيع التصرف بشكل سليم ومعقول دائماً، قد تلاشت بشكل ظاهر من ذكريات الكثير من الناس.

موريس بارينغ في كتابه عن الأدب الروسي، الذي نشر في عام ١٩٠٧ وكان الوسيط لتقديم عدد كبير من الناس في هذه البلاد إلى الروائيين الروس العظام، لاحظ أن الكتب الإنكليزية كانت مشهورة في روسيا أيضاً. من بين المفضلات يذكر **مذكرة شخص نكرة** (التي أعادت إيفريمان لايبراري طبعها بالمناسبة). كنت أتساءل دائماً كيف تبدو مفكرة شخص نكرة في الترجمة الروسية. وبالفعل ارتبت قليلاً أن الروس ربما استمتعوا بها لأنها كانت مثل كتب تشيخوف حين ترجمت. لكنها بطريقة ما كتاب جيد إن أردت الحصول على صورة للحياة الإنكليزية، رغم أنها كتبت في الثمانينات، وفيها رائحة قوية جداً لتلك الفترة. تشارلز بوتر رجل إنكليزي حقيقي في دماثته المحلية الأصلية وبلاهته القوية. الشيء الممتع أن تتبع أصول هذه الكتاب. من أين نشأ؟ من شبه المؤكد، أعتقد من دون كيشوت، وهو في الواقع نسخة حديثة بثوب إنكليزي منه. بوتر رجل مستقيم ومغامر حتى، يعاني من نكبات تسببها حماقته دائماً ومحاط بقبيلة من أمثال سانشو بانزا. لكن بمعزل عن اعتدال

الأشياء التي تحدث له بالمقارنة ـ يرى المرء في نهايتي الكتابين اختلافاً هائلاً بين عصر سيرفانتس وعصرنا.

في النهاية يشفق آل غروسميث على المسكين بوتر. ويتصحح كل شيء، أو كل شيء تقريباً، وفي النهاية هناك أثر من العاطفية الزائدة التي لا تنسجم مع بقية الكتاب. الحقيقة التي يكشف عنها الكتاب، هي أننا لا نستطيع أن نظل نشعر بأن التسبب بالألم للآخرين مجرد شيء مضحك وممتع. لاحظ نيتشه في مكان ما أن العنصر المثير للشفقة في دون كيشوت ربما يكون اكتشافاً حديثاً. وبالمثل تماماً لم يقصد سيرفانتس أن يبدو دون كيشوت مثيراً للشفقة -ربما قصد فقط أن يكون مضحكاً، وأراد من الكتاب أن يكون دعابة عالية حين تحطمت أسنان العجوز المسكين بحجرة مقلاع (نقيفة). مهما كان هذا مع دون كيشوت، فأنا متأكد أن ذلك كان صحيحاً مع فالستاف كشخصية مثيرة للشفقة وهزلية أيضاً. إنه مجرد كيس ملاكمة للقدر، نوع من بيلي بنتر مع موهبة لغوية. الشيء الذي يبدو لنا محزناً جداً، هو اتكال فالستاف العاجز على نصيره البغيض برينس هاري، الذي وصفه جون مانسفيلد بشكل مناسب "بهيمة سمينة مقززة". ليس هناك علامة أو في أي حال علامة واضحة، أن شكسبير يرى أي شيء مثير للشفقة أو مهيناً في مثل هذه العلاقة.

قل ما تحب، إن الأشياء تتبدل. منذ بضع سنوات كنت أعبر جسر هنغرفورد مع سيدة في الستين من عمرها أو أقل ربما. كان المد منحسراً، وحين نظرنا إلى القاع المكون من وحل سائل قذر، لاحظتْ قائلة: "حين كنت فتاة صغيرة، كنا نرمي البنسات في قنابر الوحل هناك".

خدعتها وسألت ماذا كانت قنابر الوحل. شرحت لي أن المستولين المحترفين المعرفين بمدلاركس في تلك الأيام كانوا يجلسون تحت الجسر ينتظرون الناس أن يرموا لهم البنسات. كانت البنسات تطمر نفسها عميقاً في الوحل ويغوص المتسولون، رأسهم في الأول، ويستعيدونها. كان يعتبر منظراً مسلياً جداً.

هل هناك أحد يهين نفسه بتلك الطريقة في الوقت الحاضر؟ وكم عدد الناس الذين يستمتعون في التفرج على ذلك الآن؟

قبل اغتياله بوقت قليل، أكمل تروتسكي كتاب حياة ستالين. قد يعتبره المرء أنه لم يكن كتاباً غير منحاز تماماً، لكن من الواضح أن سيرة ستالين بقلم تروتسكي -أو من أجل ذلك الأمر، سيرة تروتسكي بقلم ستالين- سيكون رابحاً من وجهة نظر البيع. شركة نشر أمريكية مشهورة ستصدر الكتاب. طبع الكتاب -هذه هي النقطة التي كنت أنتظر للتأكد منها قبل ذكر هذه المسألة في ملاحظاتي- ووزعت نسخ المراجعات النقدية حين دخلت الولايات المتحدة الحرب. سُحب الكتاب مباشرة، وطُلب من النقاد الأدبيين أن يتعاونوا في "تجنب أي تعليق مهما كان بخصوص السيرة وتأجيلها".

لقد تعاونوا على أكمل وجه. مرت القضية من دون ذكر في الصحافة الأمريكية حسب علمي، ولم تذكر أبداً في الصحافة البريطانية، علماً أن الوقائع كانت معروفة جيداً وتستحق بشكل واضح فقرة أو اثنتين.

نظراً لأن دخول أمريكا في الحرب جعل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي حليفين، أظن أن سحب الكتاب كان فعلاً مفهوماً ومنطقياً إن لم يكن رائعاً بشكل خاص. المقزز هو الرغبة العامة لكبت ومنع أي ذكر له. قبل ذلك بقليل حضرت اجتماعاً لنادي الكتاب ـ عقد للاحتفال بالذكرى المئوية الثالثة للايروباغيتيكا، كراسة ميلتون الشهيرة عن حرية الصحافة. كان هناك خطابات لا تحصى، تؤكد على أهمية الحفاظ على الحرية الفكرية حتى في زمن الحرب. إن كنت أتذكر، عبارة ميلتون عن الخطيئة غير العادية لـ "قتل" كتاب، طبعت على وريقات النادي من أجل تلك المناسبة. لكني لم أسمع أية إشارة إلى هذه الجريمة الخاصة، التي وقائعها معروفة بلا شك لأكثر الناس الموجودين هناك.

هذا سؤال صغير آخر محير للعقل. المقطع التالي هو مقطع اقتبس كثيراً من الفصل الرابع من مسرحية شكسبير التراجيدية **تيمون الأثيني**: لا تأت إلي مرة أخرى، لكن قل للأثينيين،/ إن تيمون بنى قصره الأبدي/ على حافة المد المالح الرملية/ الذي سيغمره الطمي الهائج/ بزبده المزخرف مرة في اليوم.

يحتوي المقطع على ثلاثة أخطاء؛ ما هي؟

٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٤.

لقد كنت جامع كراريس مجداً منذ سنين وقارئاً دائماً لكل أنواع الأدب السياسي. الشيء الذي يلفت نظري أكثر فأكثر ويلفت انتباه عدد كبير آخر من الناس أيضاً- هو رداءة وخداع الجدل السياسي في زمننا. أنا لا أقصد أن الجدالات السياسية لاذعة فقط. يجب أن تكون كذلك حين تكون عن مواضيع جدية. أقصد أن لا أحد يشعر أن خصمه يستحق استماعاً عادلاً منه، أو أن الحقيقة الموضوعية مهمة طالما أنت تستطيع تسجيل نقطة نقاشية أنيقة. حين أنظر إلى مجموعتي من الكراريس -محافظة أو شيوعية أو كاثوليكية أو تروتسكية أو سلامية أو فوضوية أي أياً كانت تبدو لي، فإن أغلبها لها نفس الجو العقلي رغم تنوع نقاط التوكيد. لا أحد يبحث عن الحقيقة، كل واحد يضع مقدماً "حجة مقنعة" مع إهمال تام للعدل والدقة. وأغلب الحقائق الواضحة الصريحة، يمكن تجاهلها من قبل هؤلاء الذين لا يريدون رؤيتها. نفس خدع الدعاية الموجودة في كل مكان وتصنيفها يتطلب كثيراً من صفحات هذه الجريدة، لكني هنا ألفت الانتباه إلى عادة جدالية واحدة منتشرة كثيراً- إهمال دوافع الخصم.

لقد علمونا أن أفعال الناس الموضوعية هي التي تهم فقط، وأن مشاعرهم الشخصية لا أهمية لها. السلاميون (الذي لا يؤمنون بالعنف)، بإعاقتهم لجهود الحرب، يساعدون النازيين "موضوعياً"، ولذلك حقيقة أنهم يجب أن يكونوا معادين شخصياً للفاشية، غير لازمة أو متصلة بالموضوع. نفس الحجة تطبق على التروتسكية، يوصف التروتسكويون من قبل الشيوعيين على الأقل بأنهم عملاء نشطين ومتعمدين لهتلر، لكن حين تظهر الأسباب الكثيرة الواضحة التي تكذب هذا الاتهام، فإن الخط الموضوعي للحديث يعود إلى الواجهة عادة مرة أخرى.

هذا ليس كذباً فقط، إنه يحمل عقاباً قاسياً معه أيضاً. إن أهملت دوافع الناس، يصبح التنبؤ بأفعالهم أكثر صعوبة. لأنه هناك مناسبات يستطيع فيها حتى الشخص المضلل أن يرى نتائج ما يفعله. هذا مثال بسيط لكنه توضيحي تماماً. شخص سلامي يعمل بوظيفة توفر له منفذاً للوصول إلى معلومات عسكرية هامة، وتقرب منه عميل ألماني سري. في تلك الظروف تحدث مشاعره الشخصية فرقاً كبيراً. إن كان مؤيداً للنازيين بشكل شخصي، سيبيع بلاده، وإن لم يكن، فلن يفعل. وتظهر دائماً أوضاع مماثلة جوهرياً، لكنها أقل إثارة.

في رأيي، بضعة أشخاص من السلاميين مؤيدين للنازية من داخلهم وأحزاب يسارية متطرفة، سوف تحتوي بشكل حتمي على جواسيس ألمان. الشيء المهم أن نكتشف أيهم الأفراد الشرفاء والمخلصين، وأيهم ليسوا كذلك والاتهام المبطن المعتاد يصعب هذا أكثر. جو الكره الذي تدار به المناظرات يعمي الناس عن الأخذ بالاعتبار في هذا النوع. لتعترف أن الخصم يمكن أن يكون صادقاً وذكياً، هو شعور لا يحتمل. من المرضي أكثر ومباشرة أن تصرخ إنه غبي أو وغد أو كلاهما، بدلاً من أن تكتشف هويته الحقيقية وطبيعته. هذه العادة العقلية، من بين أشياء أخرى، جعلت التنبؤ السياسي في زمننا عملاً فاشلاً بشكل لافت.

نشرت الوريقة التالية، ومررها لي أحد معارفي في حانة:

يعيش الايرلندي!

أول جندي يقتل يابانياً كان مايك مورفي/ أول طيار أمريكي يغرق سفينة حربية يابانية كان كولن كيلي/ أول عائلة أمريكية تفقد خمسة من أبنائها في معركة واحدة سميت سفينة حربية باسمهم، كانوا من آل سوليفان/ أول أمريكي يسقط طائرة يابانية كان دوتش أو هارا/ أول خفير من خفر السواحل يكتشف ويحدد جاسوساً ألمانياً كان جون كونلان/ أول أمريكي ابن عاهرة يحصل على أربعة أطواق جديدة من هيئة حصص الطعام كان آبي غولدشتاين.

أصل هذا الشيء يجب أن يكون ايرلندياً، لكن الاحتمال الأكبر أنه أمريكي. ليس هناك شيء يشير إلى مكان طبعه، لكنه ربما أتى من حانوت طباعة تابع لمنظمة أمريكية في هذه البلاد. إن ظهر أي بيان آخر من هذا النوع، أكون مهتماً لسماعه.

هذا العدد من التريبيون يتضمن رسالة من السيد مارتن ولتر، موجه المؤسسة البريطانية لعلم كتابة القصص المحدودة، التي يتشكى فيها أنني طعنت في سمعته. يقول (ألف) إنه لم يطالب بإنقاص كتابة القصص إلى مجرد علم. (باء) إن عدداً من الكتاب الناجحين أنتجوا بواسطة أساليبه التعليمية. و(جيم) يسأل إن كانت التريبيون تقبل إعلانات تعتقد أنها زائفة.

بما يخص (ألف)، فقد ادعت المؤسسة أن هذه المشاكل (لكتابة القصص) حلها مارتن ولتر الذي، كان مقتنعاً بالنظرية التي ترى أن الفن هو علم في جوهره، وحلل ٥ آلاف قصة. وأخيراً استنبط صيغة حبكة صممت بناء عليها كل قصصه وقصص طلابه في كل أنحاء العالم. "لقد أثبت أن طبيعة الحبكة علمية تماماً" تصريحات من هذا النوع تبعثرت في كل كتيبات السيد ولتر وإعلاناته. إن لم يكن هذا مطالبة بتقليل الكتابة القصصية إلى مجرد علم، فماذا تكون بحق الشيطان؟

بالنسبة إلى (باء): من هم هؤلاء الكتاب الناجحون الذين أطلقهم السيد ولتر على العالم؟ دعنا نسمع أسماءهم وأسماء أعمالهم المنشورة لنعرف أين نحن بعد ذلك.

بالنسبة إلى (جيم): يجب على الدوريات ألا تقبل الإعلانات التي لها مظهر كونها محتلة، لكنها لا تستطيع غربلة كل شيء مقدماً. ماذا يجب أن يفعل مثلاً بإعلانات الناشرين، التي يدعي كل منها أن كل كتاباً سمي من أعلى قيمة ممكنة؟ إن الأهم في هذا الارتباط أن الدوريات يجب ألا تدع أعمدة محرريها تتأثر بإعلاناتها. التريبيون حريصة جداً على ألا تفعل ذلك- إنها لم تعمل بحجة السيد ولتر نفسه مثلاً.

ربما يهم السيد ولتر أن يعرف أنني يجب ألا أشير إليه إن لم يكن قد أرفقَ الإعلان الذي أدخله في وقت مضى، مع بعض النسخ المجانية من كتيبه (الذي شمل صياغة الحبكة) والاقتراح أنني يجب أن أذكرها في عمودي. كان هذا الذي لفت انتباهي إليه. الآن أنا أشرت إليه وذكرته، ويبدو أنه لم يحب ذلك.

أجوبة مسألة الأسبوع الأخير. هناك ثلاثة أخطاء:

(أ). "الذي" في حالة الرفع بدلاً من "الذي" في حالة النصب.

(ب). دفن تيمون تحت إشارة المد العالي. يجب أن يحجبه البحر مرتين في اليوم، وليس مرة واحدة، لأن هناك مدّين عاليين في كل أربع وعشرين ساعة.

(ج) إنه لن يحجبه إطلاقاً بما أنه ليس هناك مدّ محسوس في البحر الأبيض المتوسط.

٢٩ ديسمبر ١٩٤٤

أنا مدين لمقال للسيد دوايت ماكدونالد في البوليتكس في عددها الصادر في سبتمبر/ أيلول، ومدين لشهرية النيويورك لنشرها مقاطع من كتاب بعنوان **اقتل أو ستقتل**، وهو كتيب تعليمي عن القتال المباشر للميجور ريكس ابلغيت.

هذا الكتاب الذي نشر بشكل شبه رسمي، لا يعطي معلومات شاملة ومكثفة عن الطعن بالسكين والخنق وأشكال متنوعة من الرعب التي جدولت تحت عنوان "القتال من دون سلاح" فقط، وإنما يصف المدارس القتالية التي تدرب الجنود على القتال من بيت إلى بيت. هذه بعض التوجيهات كمثال:

قبل الدخول إلى النفق، يعرض المدرب تمثالاً لعرض الملابس، يستخدم الطالب السكين عليه. وبينما يتقدم الطالب ويباشر من الهدف رقم واحد إلى الهدف رقم أربعة، تُعزف ترنيمة "منظر تعذيب الجستابو" أو "اللعن الإيطالي" من مكبرات الصوت...... الهدف رقم تسعة يكون في الظلام، وحين يدخل الطالب هذه الحجيرة تعزف ترنيمة "اغتصاب جاب" بينما يعيد المدرب حشو مسدس الطالب بالطلقات، تعزف ترنيمة "نل من ابن القحبة الأمريكي". حين يجتاز المدرب والطالب الستارة ويدخلان إلى الحجيرة التالية، يواجههما تمثال مضاء بنور أخضر، يجب ألا يطلق الطالب النار عليه، لكن عملياً كلهم يفعلون ذلك.

يعلق السيد ماكدونالد: "هناك مشكلة ممتعة في تنفيذ المقرر التعليمي. رغم أن الكاتب لم يوضح ذلك بشكل مباشر، يبدو أن هناك خطر من أن ينهار منع الطالب تماماً، وأنه سيطلق النار على المدرب الذي يرافقه أو يطعنه....... لهذا ينصح المدرب أن يبقى في وضع يستطيع فيه مسك يد الطالب التي تحمل البندقية وانتزاعها منه "في أية لحظة". وبعد أن تُطعن التماثيل الثلاثة في طريقه "تؤخذ السكين من الطالب منعاً للحوادث" وأخيراً: "لا يوجد مكان في المسار يسود فيه الظلام التام يكون فيه المعلم والمدرب قريباً من الطالب".

أنا أعتقد أن مقررات قتالية مماثلة في الجيش البريطاني أوقفت الآن أو خففت، لكن يجدر التذكر أن شيئاً كهذا محتوم إن أراد المرء كفاءة عسكرية. إن عدم وجود أيديولوجيا أو وعي في امتلاك "شيء تقاتل من أجله" هو البديل التام عنه. إن العمل المتعمد في جعل الملايين من الكائنات البشرية وحوشاً، جزء من ثمن المجتمع في شكله الحالي. لقد كان اليابانيون خبراء في

هذا النوع من الشيء منذ مئات السنين. في الماضي كان أولاد الأرستقراطيين يؤخذون في مرحلة مبكرة من العمر، ليشاهدوا عمليات الإعدام. وإذا أظهر أي صبي علامة غثيان، يجعلونه يبلع كميات كبيرة من الرز الملطخ بلون الدم.

إن عوام الناس الإنكليز ليسوا عشاقاً كباراً للمجد العسكري، وأنا أشرت في مكان آخر إلى أنه حين تفوز قصيدة عن معركة وتحظى بشعبية عريضة، تكون عن كارثة عادة وليس عن نصر. لكن قبل يوم أمس حين كررت هذا في سياق ما، خطرت ببالي الأغنية المحبوبة سابقاً - قد تصبح محبوبة مرة أخرى إن اهتمت بتسجيلها إحدى شركات الأسطوانات- "الأدميرال بينباو". هذه الأغنية الشوفينية نوعاً ما تبدو تتناقض مع نظريتي، لكنني أعتقد أنها تدين ببعض شعبيتها إلى كونها تمتلك وجهة نظر حرب طبقية كانت مفهومة في ذلك الوقت.

الأدميرال بينبو حين كان يقاتل ضد الفرنسيين، تخلى عنه قباطنته التابعون له فجأة، وتُرك يقاتل ضد فرص صعبة. كما صاغتها الأغنية:

قال كربي لويد "نحن سنهرب، نحن سنهرب"/ قال كربي لويد "نحن سنهرب؛/ لأنني لن أهتم بأي عار/ ولا خسارة مكاني/ ولكنني لن أواجه العدو،/ ولا بنادقه ولا بنادقه. نحن سنهرب".

لهذا ترك بينباو ليقاتل لوحده، لكنه يُقتل رغم انتصاره. هناك وصف ملطخ بالدم وعنيف لموته، لكنه صادق وأصيل:

خسر الشجاع بينباو ساقيه بزخة من الطلقات، بزخة من الطلقات،/ خسر الشجاع بينباو ساقيه بزخة من الطلقات؛/ الشجاع بينباو خسر ساقيه/ ورجانا وهو على ساقيه المبتورتين،/ واصلوا القتال يا أولادي الإنكليز،/ هذا هو قدرنا، هذا هو قدرنا.

ضمد الطبيب الجراح جراحه، بينباو يصيح، بينباو يصيح/ ضمد الطبيب الجراح جراحه، بينباو يصيح/ ضعوا المهد بسرعة/ على المكان المخصص للضباط على ظهر السفينة/ لكي أواجه العدو/ حتى أموت، حتى أموت/

المغزى أن بينباو كان بحاراً عادياً ظهر من بين صفوف الجنود. لقد بدأ سيرته كصبي قمرة. وقباطنته يفترض أنهم فروا من القتال لأنهم لم يريدوا أن يروا قائداً من عوام الشعب

يفوز بنصر. أنا أتساءل إن كانت هذه البيئة وهذا التقليد، هو من جعل بينباو بطلاً شعبياً محبوباً، وجعل اسمه يكرم ويذكر ليس في الأغاني الشعبية البسيطة فقط، وإنما على لافتات المقاهي والحانات الشعبية التي لا تحصى؟

أعتقد أنه لا يوجد أي تسجيل لهذه الأغنية، لكن -كما اكتشفت حين كنت أعمل في البي البي سي، وأردت أن أستخدم قطعاً مشابهة كسد فراغ لخمس دقائق- أنها كانت الوحيدة فقط من سلسلة الأغاني الشعبية والأغاني الفولكلورية التي لم يتم تسجيلها. وأعتقد حتى لوقت حديث أنه ليس هناك تسجل "لتوم بولينغ" أو "للغرينسليفز" أيضاً، أي كلمات الأغاني وموسيقاها. أغان أخرى فشلت في العثور عليها: "كوخ سقف بقش بشكل جيد" و"غرين يزيد الهجمات" و"أو" و"بدد ندى الصباح" و"تعالوا أيها الصبيان والفتيات". أغنيات مشهورة أخرى سجلت في نسخ مبتورة وغنيت عادة من قبل مغنين محترفين بطريقة روتينية ميكانيكية مبتذلة، لدرجة تبدو لك فيها أن رائحة الويسكي ودخان السجائر تصدر من الأسطوانة. ومجموعة الأناشيد المسجلة فقيرة جداً أيضاً. لا تستطيع أن تحصل في اعتقادي على "الجوقة والعذراء" أو "مثل مصابيح فضية في ضريح بعيد" أو "غوص ولازوريس" وغيرها من المفضلات القديمة. من جانب آخر إن أردت أسطوانة لـ "دحرج البرميل" أو "بومبيز أي ديزي"، إلخ، ستجد عدداً كبيراً من التسجيلات بأداءات مختلفة تختار منها.

عبر مراسل التريبيون في ١٥ ديسمبر/ كانون أول عن "رعبه واشمئزازه" حين سمع باستخدام القوات الهندية ضد اليونانيين، وقارن هذا بعمل فرانكو عندما استخدم القوات المغربية ضد الجمهورية الإسبانية.

أعتقد أنه من المهم أن هذه الرنجة الحمراء القديمة يجب ألا تجرجر عبر الممر (المقصود أن المقارنة غير صحيحة -المترجم). بداية أن الجنود الهنود ليسوا مثل مغاربة فرانكوا بتاتاً. لقد أرسل زعماء العشائر المغاربة الرجعيون الذين تربطهم بفرانكو نفس العلاقة التي تربط أمراء الهند بحزب المحافظين، أولادهم بهدف متعمد لسحق الديمقراطية. إن الجنود الهنود مرتزقة يخدمون البريطانيين كتقليد عائلي أو كوظيفة، لكن مؤخراً بدأ قسم منهم يعتبر نفسه جيشاً

هندياً أو نواة قوات مسلحة للهند المستقلة مستقبلاً، ومن غير المحتمل أن يكون لوجودهم في أثينا أي مغزى سياسي، وربما بالصدفة فقط كانوا القوات المتوفرة الأقرب.

لكن بالإضافة إلى ذلك، من فائق الأهمية ألا يكون للاشتراكيين أي تعامل مع التحامل اللوني. في عدد من المناسبات -احتلال الرور عام ١٩٢٣ والحرب الأهلية الإسبانية مثلاً- علت صيحة "استخدام القوات الملونة" كما لو أن القتل برصاص هندي أو زنجي أسوأ من القتل بنار أوروبي. جريمتنا في اليونان أننا تدخلنا في شؤونها الداخلية: لون الجنود الذين ينفذون الأوامر غير هام. في قضية احتلال الرور، ربما كان الاحتجاج ضد استخدام الجنود السنغاليين مبرراً/ فربما اعتبره الألمان زيادة في إذلالهم، وربما استخدم الفرنسيون جنوداً سوداً لهذا الغرض بالذات. لكن مشاعر كهذه ليست عامة وشاملة في أوروبا، وأشك بوجود أي تميز ضد الجنود الهنود الذين يتمتعون بسلوك حسن صريح. كان على مراسلنا أن يشير في قضية من هذا النوع، إلى أنه من الدناءة والخسة استغلال جنود المستعمرات الجاهلين سياسياً الذين لا يفهمون المهمة القذرة التي زجوا فيها. لكن على الأقل لا تدعونا نهين الهنود بالتلميح بأن وجودهم في أثينا مزعج وعدواني أكثر من وجود البريطانيين.

٥ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٥

كنت أنظر في كتاب مجلد من الكورترلي ريفيو لسنة ١٨١٠، الذي كان السنة الثانية من وجود الكورترلي كما أظن.

لم يكن عام ١٨١٠ الفترة الأشد سواداً من وجهة النظر البريطانية، فترة الحرب النابليونية، لكنها كانت الأشد سواداً تقريباً، وربما يوازي عام ١٩٤١ في الحرب الحالية. كانت بريطانيا معزولة تماماً، تجارتها مسدودة وممنوعة في كل ميناء أوروبي بقرارات وأحكام من برلين. إيطاليا وإسبانيا والدانمرك وسويسرا والبلدان المنخفضة أُجبرت على الخضوع كلها. النمسا كانت في تحالف مع فرنسا. روسيا كانت أيضاً في اتفاقية مضطربة مع فرنسا، لكن كان من المعروف أن نابليون نوى أن يغزو روسيا قريباً. الولايات المتحدة، التي لم تكن في الحرب بعد، كانت معادية لبريطانيا بشكل علني. لم يكن هناك أي سبب منظور للأمل باستثناء الثورة في إسبانيا، التي أعطت بريطانيا مرة أخرى موطئ قدم في القارة، وفتحت بلدان أمريكا الجنوبية للتجارة

البريطانية. لذلك من الممتع أن نلاحظ نغمة الصوت التي تكلمت بها الكورترلي ريفيو- الصحيفة المحافظة التي تؤيد الحرب بقوة- عن فرنسا وعن نابليون في هذه اللحظة اليائسة.

هذه هي الكورترلي عن ميول الشعب الفرنسي المزعومة لشن الحروب. إنها تنشر مراجعة نقدية لكراس للسيد والش الأمريكي العائد لتوه من فرنسا: نحن نرتاب من الأعمال المستمرة ذات الميول العسكرية التي ينسبها السيد والش إلى الشعب الفرنسي. من دون الشك في الصورة القوية والنشطة التي استمدها من الابتهاج المثار وسط سكان باريس القذرين والمجوعين عند خبر كل انتصار جديد لجيوشهم، يمكننا أن نلاحظ أن هكذا ابتهاج هو الحالة المصاحبة المعتادة لمثل هذه الأحداث في كل مكان؛ وأن إرضاء الغرور القومي يكون شيئاً ما، وأن المهرجانات التي يجلبها النصر معه ربما توفر تسلية ممتعة للتعساء الذين يخلون من أي إحساس بالطموح. اعتقادنا في الواقع أن تلك المشاعر في الحاضر مقتصرة تقريباً على صدر الفاتح العظيم، وتلك التي وسط رعاياه، يمكننا القول وسط ضباطه وجيوشه، الرغبة الكونية هي من أجل السلام.

قارن هذا مع الكلام الذي تفوه به اللورد فلنسيتارت، أو في الحقيقة في القسم الأكبر من الصحافة. نفس المقالة تحتوي على الكثير، لكن الشيء الذي وجدته مثيراً للإعجاب أكثر من غيره، أن عدد الكورترلي الصادر هذه السنة يحتوي مراجعات نقدية كثيرة للكتب الفرنسية التي نشرت حديثاً- تقديم الاحترام لعبقرية نابليون العسكرية- وهي مراجعات نقدية جادة ودقيقة لا تختلف في نغمتها عن بقية مقالاتها. هناك مثلاً مقالة بحدود ٩٠٠ كلمة عن منشور لكيان فرنسي معروف باسم سوسيتي دي اكرويل. العلماء الفرنسيون غاي-لوساك، لابلاس والبقية منهم، عوملوا بأقصى الاحترام وأعطوا لقب "مسيو" في كل مرة. من قراءة المقالة، يكون من المستحيل أن تكتشف أنه كانت هناك حرب مستعرة.

هل تستطيع أن تتخيل الكتب الألمانية الحالية التي تراجع في الصحافة البريطانية خلال الحرب الحالية؟ كلا. لا أعتقد أنك تستطيع. أنا لا أتذكر في الحقيقة سماع اسم كتاب واحد نشر في ألمانيا خلال الحرب. وإن ذكر كتاب ألماني معاصر في الصحافة، سيكون بالتأكيد محرفاً بطريقة ما. بتصفح المراجعات النقدية للكتب الفرنسية في الكورترلي، لم ألحظ أي تسلل دعائي إلا في الكتب السياسية المباشرة، وحتى عندئذ تكون معتدلة جداً بمعاييرنا. بالنسبة إلى الفن

والأدب والعلم، تؤخذ في عين الاعتبار طبيعتها العالمية كأمر بديهي. ومع ذلك، أعتقد أن بريطانيا كانت تقاتل من أجل البقاء في الحرب النابليونية بشكل مؤكد كما في هذه الحرب، ومقارنة للسكان الذين تورطوا، كانت الحرب أقل دموية وإنهاكاً بكثير.

كنت أقرأ ببعض الاهتمام عائلة فيرتشايلد التي كتبت في عام ١٨١٣ وكانت الكتاب القياسي للأطفال لخمسين سنة أو أكثر. لسوء الحظ لا أمتلك سوى المجلد الأول في حالته حيث لم يحذف منه شيء، وحتى تلك النسخ المتنوعة بريتي بريتي، ومع كل ما اقتطع منها التي صدرت في السنوات الحديثة- هناك ما يكفي من الفضول.

نغمة الكتاب يشار إليها بشكل كافٍ بالجملة: "بابا" قالت لوسي (بالمناسبة عمر لوسي تسع سنوات)، "هل يمكنك أن تقرأ لنا بعض الشعر عن بشر يملكون قلوباً سيئة؟ وطبعاً بابا كان راغباً جداً، فأنشد الأبيات التالية التي حفظها عن ظهر قلب بشكل صحيح. أو هنا السيدة فيرتشايلد تحكي للأطفال كيف عصت الأوامر حين كانت طفلة وقطفت حبات كرز برفقة الفتاة الخادمة:

استسلمت ناني لأمها لتجلد، وحبست في غرفة مظلمة، وبقيت عدة أيام على الخبز والماء. وفي نهاية الأيام الثلاثة، أرسلت عماتي بطلبي وتحدثن معي مطولاً.

"لقد انتهكتِ الوصية الرابعة"، قالت العمة بينيلوب "وهي: تذكر أن يبقى يوم السبت مقدساً": وانتهكتِ الوصية الخامسة وهي "كن فخراً لوالديك"...... وانتهكتِ الوصية الثامنة أيضاً وهي "لا تسرق" وأضافت العمة غريس أيضاً "الخزي والعار من تسلق الأشجار مع رفقة منحطة بعد كل الرعاية والآلام التي تحملناها والسلوك المهذب الذي ربيناكِ عليه".

الكتاب كله من هذا الشكل، مع صلاة طويلة في نهاية كل فصل، وتراتيل لا تحصى، وأشعار من الإنجيل انتثرت في كل النص. لكن ميزته الرئيسية، هي العقابات المخيفة من السماء التي تهبط على الأطفال كلما أساؤوا لأنفسهم بسلوكهم. إن تأرجحوا في الأرجوحة من دون إذن يسقطون ويكسرون عدداً من أسنانهم، وإن نسوا أداء صلاتهم يسقطون في الجرن

القذر الذي يشرب منه الخنزير؛ سرقة بضع خوخات تعاقب بهجمة ذات رئة ونجاة صعبة من الموت. في مناسبة ما وجد السيد فيرتشايلد أطفاله يتشاجرون. بعد الجلد المعتاد أخذهم في مشـية طويلة ليروا الجسد المتعفن لقاتل معلق بمشنقة- نتيجة، كما أشار، شجار بين الإخوة.

ميزة ممتعة غريبة في الكتاب، وهي أن أطفال فيرتشايلد الذي تربوا على هذه المبادئ القاسية، يبدون غير جديرين بالثقة بشكل استثنائي. حالما يدير والداهما ظهريهما يتصرفون بشكل سيئ، ما يوحي بأن الجلد والخبز والماء ليست علاجاً صحيحاً وكافياً أخيراً. بالمناسبة، يجدر بنا أن نذكر أن المؤلفة، السيدة شيروود، ربت عدة أطفال، وفي أي مقياس فهم لم يموتوا تحت خدماتها.

١٢ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٥.

كتب أحد المراسلين في وقت ما في الماضي، يسأل إن كنت زرت معرض التماثيل المصنوعة من الشمع التي تظهر الأعمال الوحشية الألمانية، التي وضعت للعرض في لندن منذ أكثر من سنة. لقد أعلن عنها في الخارج بعناوين مثل: رعب من معسكرات العمل القسري. تعال إلى الداخل وشاهد أعمال التعذيب النازية الحقيقية. جلد وصلب وغرف غاز إلخ. قسم تسلية الأطفال من دون تكلفة إضافية.

ذهبت ورأيت هذا المعرض منذ زمن بعيد، وأود أن أحذر الزوار المحتملين من أنه مخيب جداً للآمال. بداية، هناك الكثير من الأشكال ليست بحجمها الحقيقي، وأشك أن بعضها ليست حتى تماثيل شمع حقيقية، وإنما مجرد دمى خياطين ربطت بها رؤوس جديدة. ثانياً، أعمال التعذيب ليست مخيفة بالشكل الذي توقعته بسبب الملصقات الخارجية. المعرض برمته حقير وميت ومحزن. لكن أصحاب المعرض يبذلون أقصى جهدهم كما أعتقد، والعناوين مشوقة بصراحة تامة في جاذبيتها للسادية والمازوشية. قبل الحرب، إن كنت متعصباً للمصارعة المجهدة، أو كتبت رسائل إلى عضو البرلمان الذي يمثلك تحتج فيها على إلغاء الجلد، أو ارتدت مكتبات الكتب المستعملة بحثاً عن كتب مثل متع غرفة التعذيب، فأنت تعرض نفسك إلى شكوك بغيضة. لكن الآن، يمكنك أن تتمرغ في أكثر الأوصاف المقززة للتعذيب والمذابح، ليس من دون أي إحساس بالذنب فقط، وإنما مع شعور أنك تنجز عملاً سياسياً يستحق الثناء.

أنا لا أقترح أن القصص عن الأعمال الوحشية النازية غير صحيحة وحقيقية. أنا أعتقد إلى حد كبير أنها حقيقية وصحيحة. لقد حدثت أعمال الرعب في معسكرات العمل القسري الألمانية قبل الحرب، وليس هناك أي مبرر لإيقافها منذ ذلك الوقت. لكنها لعبت دوراً كبيراً، لأنها أعطت الصحف عذراً وحجة للصور الإباحية الداعرة. نشرت صحف هذا الصباح تقرير الجيش البريطاني الرسمي عن الأعمال الوحشية النازية. حرصت الصحف أن تخبرك بجلد النساء بالسوط وهن عاريات، وأحياناً يشددون على هذا التفصيل بواسطة عنوان. الصحفيون المسؤولون يعرفون جيداً ماذا يفعلون. يعرفون أن عدداً لا يحصى من الناس يشعرون ببهجة سادية في التفكير بالتعذيب وخصوصاً تعذيب النساء، ويستثمرون هذا العصاب واسع الانتشار. ليس هناك وخز ضمير، لأن هذه الأعمال يرتكبها العدو، والمتعة التي يحصل عليها المرء منها يمكن أن تكون مقززة كالاستهجان. ويستطيع المرء الحصول على متعة مماثلة جداً من الأعمال البربرية التي يرتكبها جانبنا نحن طالما تعتبر عقاباً عادلاً للأشرار.

نحن لم نفهم فعلياً مغزى العروض الرومانية للمجالدين بعد، لكننا يمكننا فعل ذلك لو توفرت الذريعة الضرورية. مثلاً، لو أعلن أن قادة الحرب المجرمين سيقدَّمون طعاماً للأسود أو تدوسهم الفيلة حتى الموت في استاد ويمبلي، أتصور أن المشهد سيحضره الكثيرون جداً ويلاقي إقبالاً جيداً.

ألفت الانتباه إلى مقالة بعنوان "الحقيقة حول ميخايلوفيتش؟" (بالمناسبة المؤلف يكتب للتريبيون أيضاً) في وورلد ريفيو الحالية. تعالج المقالة الحملة في الصحافة البريطانية ومحطة البي بي سي لوسم ميهايلوفتش كعميل ألماني.

آراء ياغوسلاف السياسية معقدة جداً، وأنا لا أدعي أنني خبير فيها. وكل ما أعرفه أن الجانب البريطاني والروسي أيضاً يعتبران إسقاط ميهايلوفتش ودعم تيتو أمراً صحيحاً تماماً. لكن الذي أمتعني هو جاهزية الصحف البريطانية الحسنة السمعة بمجرد صدور هذا القرار على التواطؤ في ما يرقى إلى التزوير، لتكذب الرجل التي كانت تعامله قبل بضعة شهور. ليس هناك شك بأن هذا ما حدث. يعطي مؤلف المقالة تفاصيل واحد من الأمثلة الكثيرة التي قمعت فيها الحقائق المادية في أكثر الطرق صفاقة، مدعوماً بأقوى دليل ليظهر أن

ميخايلوفيتش ليس عميلاً ألمانياً، أكثرية الصحف رفضت ببساطة نشرها، بينما ظلت تكرر تهم الخيانة كما من قبل تماماً.

لاحظت في العدد نفسه من وورلد ريفيو، أن السيد إدوارد هولتون يقول مستنكراً نوعاً ما إن "مدينة أثينا الصغيرة تمتلك صحفاً يومية أكثر من لندن". كل ما أستطيع قوله هو هنيئاً لأهالي أثينا حين يكون هناك أعداد أكثر من الصحف فقط تعبر عن كل الميول، يكون هناك فرصة للوصول إلى الحقيقة. بعد إحصاء الصحف المسائية، ليس لدى لندن سوى اثنتي عشرة صحيفة، وهي تغطي كل جنوب إنكلترا وتخترق الشمال حتى غلاسكو. حين تعتمد كلها الكذبة نفسها، ليس هناك صحافة أقلية لتقوم بدور الفاحص والضابط. في فرنسا قبل الحرب، كانت الصحافة فاسدة وفضائحية، لكنك يمكن أن تبحث وتجد أخبارا منها أكثر مما تجده في الصحافة البريطانية، لأن كل عصبة سياسية لديها صحيتها، وكل وجهة نظر تحظى بفرصة السمع. يدهشني أن كانت أثينا تحافظ على تعددية صحفها تحت نوع الحكومة التي ننوي فرضها.

١٩ يناير/كانون الثاني ١٩٤٥

حكم الأسبوع الماضي على الصحفي الفرنسي هنري بيرو بالإعدام – استبدل الإعدام لاحقا بالسجن المؤبد– بسبب التعاون مع الألمان. كان بيرو يساهم في الصحيفة الفاشية غرينغوار، التي في سنواتها الأخيرة أصبحت الجريدة المقززة الأكثر التي يمكن تخيلها. لم أغضب في حياتي قط من أي شيء في الصحافة، مثلما حدث بسبب رسومها الكاريكاتيرية عندما تدفق اللاجئون الإسبان البؤساء إلى فرنسا، وكانت رشاشات الطائرات الإيطالية تقصفهم في كل الطريق. صور الإسبان كموكب من رجال خسيسين أنذال، كل واحد منهم يدفع عربة يدوية محملة بالجواهر وأكياس الذهب. شنت غرينغوار احتجاجا مستمرا من قمع الحزب الشيوعي الفرنسي، لكنها كانت شرسة بالتساوي ضد ألطف سياسيي اليسار أيضاً.

يستطيع المرء أخذ فكرة عن المستوى الأخلاقي الذي تدير به الجدل السياسي، من حقيقة أنها نشرت مرة رسما كاريكاتيريا يظهر ليون بلوم في السرير مع أخته. أعمدة الدعاية كانت مملوءة بكل أنواع الإعلانات عن المستبصرين ويكتب عن الفن الإباحي. هذه القطعة من النفاية توزع ٥٠٠ ألف نسخة كما قيل.

في زمن الحرب الإثيوبية، كتب بيرو مقالة عنيفة مؤيدة للطليان صرح فيها "أنا أكره إنكلترا" وأعطى مبرراته لفعلته. المهم أن الألمان استفادوا من هذا الأنموذج من الناس الذين لم يتستروا على تعاطفهم مع الفاشيين لمدة سنوات سابقاً في الدعاية الصحفية في فرنسا. منذ سنة أو سنتين، نشر السيد ريمون مورتيمر مقالات مماثلة كثيرة في مجلات أمريكية. حين يجمع المرء هذه القطع منها، يصبح من الواضح أن الطبقة المثقفة الأدبية الفرنسية أحسنت التصرف بشكل مفرط تحت الاحتلال الألماني. أتمنى أن أكون متأكداً لو أن الطبقة المثقفة الأدبية الإنكليزية تتصرف بصورة متساوية إن أصبح النازيون عندنا هنا. لكن صحيح إن ابتلت بريطانيا أيضاً، سيكون الوضع ميؤساً منه، ويكون إغراء القبول بالنظام الجديد أقوى.

أعتقد أنني أدين باعتذار بسيط إلى القرن العشرين. فبما يتصل بملاحظاتي حول الكورترلي ريفيو في العام 1810 – التي أشرت فيها إلى أن الكتب الفرنسية حظيت بمراجعات نقدية مؤيدة في إنكلترا في أوج الحرب مع فرنسا – كتب لي اثنان من المتراسلين يخبراني أن المنشورات العلمية الألمانية في الحرب الحالية، تحظى بمعاملة عادلة في الصحافة العلمية في هذه البلاد. لهذا ربما لسنا برابرة أخيراً.

لكن ما زلت أشعر أن أسلافنا كانوا أفضل في بقائهم عقلاء في زمن الحروب أكثر منا. لو مشيت من فليت ستريت إلى السد ايمباتكمينت، الأجدى لو دخلت إلى مكتب صحفية الأوبزيرفر وألقيت نظرة على شيء محفوظ في غرفة الانتظار. إنه صفحة مؤطرة من الأوبزيرفر (التي هي أقدم من صحفنا) ليوم محدد في شهر يونيو – حزيران عام 1815 مظهرها يشبه كثيراً صحيفة حديثة، لكن الطباعة أسوأ قليلاً وخمسة أعمدة فقط على الصفحة. أكبر الحروف المستخدمة لا يتعدى ربع الإنش ارتفاعاً. العمود الأول خصص "للبلاط والمجتمع"، ثم تتلوه عدة أعمدة من الإعلانات، أغلبها عن غرف للإيجار. بعد المنتصف نحو العمود الأخير عبارة عن عنوان معركة دموية في فلاندرز. هزيمة ماحقة للثورة الكورسيكية. هذا هو الخبر الأول من واترلو!

"اليوم هناك ثمانون شخصاً فقط في المملكة المتحدة بدخل يزيد على الستة آلاف جنيه في السنة". (السيد كوينتين هوغ، عضو برلمان. في كراسته الأزمنة التي نعيش فيها).

هناك حوالي الثمانين طريقة في اللغتين الإنكليزية والأمريكية للتعبير عن الشكوكية -مثلاً، أوه غارن، يا للسخف، هل أنت متأكد، مستحيل، أوه لا أعتقد. لكن الجواب المناسب تماماً لملاحظة مثل التي اقتبست آنفاً، هو لكن أعتقد.

قرأت مؤخراً سيرة إدغار والاس التي كتبتها مارغريت لين منذ بضع سنوات. إنها قصة "كوخ خشبي بالنسبة إلى البيت الأبيض" لوغ كابين تو ايت هاوس -حجرة خشبية لبيت أبيض وفي مضمونها تعليق مرعب على عصرنا. تبدأ بكل صعوبة ممكنة- طفل غير شرعي، يربيه والدان مزيفان فقيران جداً في حي قذر من أحياء الفقراء، يشق والاس طريقه، ويتطور بمقدرته وحبه للمغامرة والعمل الجاد فقط. في سنواته اللاحقة كان ينتج ثمانية كتب في السنة الواحدة بالإضافة إلى المسرحيات ونصوص الراديو والكثير من المقالات الصحفية. لم يفكر في تأليف كتاب طويل في أقل من أسبوع. لم يمارس أية رياضة. كان يعمل خلف شاشة زجاجية في غرفة حارة جداً ويشتري كميات كبيرة من الشاي المحلى، ومات متأثر بإصابته بمرض السكر في السابعة والخمسين من عمره.

من الواضح من بعض أكثر كتبه طموحا، أن والاس أخذ عمله على محمل الجد، لكن هدفه الرئيسي كان ربح المال ونجح فيه. قبيل نهاية حياته كان يكسب حوالي خمسين ألف جنيه في السنة. لكنها كانت ذهب جن (مال لا فائدة منه). بالإضافة إلى خسارة مال بتمويل المسارح وتربية عدد من خيول السباق التي لم تربح أبداً، أنفق والاس مبالغ خيالية على بيوته الكثيرة؛ حيث يحتفظ بطاقم من عشرين خادماً. عندما مات فجأة في هوليوود، تبين أن ديونه وصلت إلى ١٤١ ألف جنيه، بينما كانت أرصدته السائلة صفراً عملياً. لكن أسعار كتبه كانت كبيرة، لذلك ارتفعت عوائده من الكتب إلى ست وعشرين ألف جنيه في السنتين التاليتين لموته.

الشيء الغريب أن هذا الضائع بشكل واضح- حياة الجلوس المتواصل تقريباً في غرفة فاسدة الهواء، وتغطية أكرات من الورق بهراء مميت- هو ما يدعى أو كان يجب أن يدعى قبل بضع سنوات "قصة ملهمة" فعل والاس كل كتب الـ "غيت أون أور غيت آوت، من

سمايلز سيلف هيلب فصاعداً، أخبرتكم.... والعالم أعطاه نوع المكافأت التي كان سيطلبها، بعد موته وفي حياته أيضاً. حين جلب جثمانه إلى الوطن، حمل على متن السفينة بيرينغاريا....... وضعوا فوقه العلم البريطاني يونيون جاك، وغطوه بالزهور. تمدد لوحده في البهو الفارغ تحت حمل أكاليل الزهر، لم يذهب أبداً في رحلة رتبت في هكذا منزلة رفيعة ووقار. حين زحفت السفينة في مياه ساوثامبتون، كان علمها يرفرف عند منتصف الصاري وأعلام ساوثامبتون انزلقت ونكست بلطف تحية له. أجراس شارع فليت قرعت، وكانت ويندهام مظلمة.

كل ذلك، والخمسون ألف جنيه في السنة أيضاً! هم أعطوا والاس أيضاً صفيحة معدنية على الجدار في لودجيت سيركوس، والغريب أن لندن تستطيع أن تحتفل بذكرى والاس في شارع فليت وباري في كينسينغتون غاردينز، لكنها لم تقتنع بعد بإعطاء بليك تكريماً في لامبيث.

٢٦ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٥.

في الليلة قبل الماضية، حضرت اجتماعاً حاشداً لمنظمة تسمى العصبة من أجل الحرية الأوروبية. ورغم أنها منظمة لكل الأحزاب، لم يكن هناك سوى عضو برلماني عمالي واحد على المنصة. ويمكن القول في اعتقادي إن الجناح المعادي للروس من حزب التوري يسيطر عليها.

أنا أؤيد الحرية الأوروبية جداً، لكن يسعدني أكثر حين تقترن بالحرية في كل مكان -في الهند مثلاً. كان الناس الذين على المنصة مهتمين بمعارك الروس في بولندا وبلدان البلطيق إلخ، وهجر مبادئ ميثاق الأطلنطي التي تتضمنه تلك المعارك (الأعمال). أكثر من نصف الذي قالوه كان مبرراً، لكن الغريب كفاية أنهم كانوا تواقين تقريباً للدفاع عن إجبارنا لليونان، وتواقين في الوقت نفسه إلى شحب الإجبار الروسي لبولندا. فيكتور رايكس عضو البرلمان التوري الرجعي القادر والصريح، ألقى خطاباً يجب أن أعتبره خطاباً جيداً إن أرجعته فقط إلى بولندا ويوغسلافيا. لكن بعد التعامل مع هذين البلدين استمر في التكلم عن اليونان، ثم فجأة أصبح الأسود أبيض والأبيض أسود. لم تكن هناك أصوات استهجان أو اعتراضات من المستمعين الكثيرين جداً -لم يكن هناك أحد استطاع أن يرى أن فرض حكومات خائنة على شعوب معارضة ورافضة، شيء غير مرغوب بالتساوي أياً كان الفاعل.

من الصعب الاعتقاد أن أناساً مثل هذا، مهتمون فعلاً بالحرية السياسية لذاتها. هم مهتمون فقط لأن بريطانيا لم تحصل على قطعة كبيرة جداً في الصفقة القذرة التي يبدو أنها أجبرت عليها في طهران. بعد اللقاء، تحدثت مع صحفي له اتصالات أشمل وأوسع مع أشخاص ذوي نفوذ وسلطة أكثر مما لي. قال إنه يعتقد أن السياسة البريطانية ربما تتبدل وتأخذ منحى عنيفاً معادياً للروس قريباً، ومن السهل جداً التلاعب بالرأي العام في ذلك الاتجاه إن كان ضرورياً. أنا لا أعتقد أنه كان محقاً لعدة أسباب، لكن تبين أنه كان على صواب، ثم أخيراً كان خطؤنا وليس خطأ خصومنا.

لم يتوقع أحد أن ينشر حزب التوري وصحافته التنوير. المشكلة أنه من سنوات مضت كان من المستحيل استخلاص صورة ناضجة للسياسة الأجنبية من صحافة اليسار أيضاً. حين يتعلق الأمر بمواضيع مثل بولندا وبلدان البلطيق ويوغسلافيا أو اليونان، فأي فرق هناك بين الصحافة المحبة للروس وصحافة التوري المتطرف؟

الأول، هو ببساطة الآخر واقف على رأسه. تعطي النيوز كرونيكل العناوين الكبيرة للقتال في اليونان لكنها تطوي الخبر عن "القوة التي استخدمت" ضد جيش الوطن البولوني بأحرف طباعية صغيرة في أسفل العمود. الديلي ووركر تستنكر الديكتاتورية في أثينا، الكاثوليكية هيرالد تستهجن الديكتاتورية التي في بلغراد. ليس هناك واحد يستطيع أن يقول -على الأقل لا أحد لديه الفرصة ليقول في صحيفة ذات توزيع كبير- إن هذه اللعبة القذرة من عوالم النفوذ وبائعي الأوطان وأعمال التطهير العرقي والترحيل وانتخابات الحزب الواحد واستفتاءات المئة بالمئة، هي مثل بعضها أخلاقياً إن فعلناها نحن أو الروس أو النازيون. حتى في حالة العودة الصراحة إلى البربرية كاستخدام الرهائن مثلاً، لا نشعر بالاستنكار إلا إن كان العدو من فعل ذلك وليس نحن.

وبأي نتيجة؟ حسناً، نتيجة واحدة أنها تصبح أسهل لتضليل الرأي العام. التوريون قادرون على إحداث الفضائح حين يريدون، لأن اليسار يرفض التحدث عن مواضيع محددة بطريقة ناضجة. الحرب الروسية الفنلندية في عام ١٩٤٠ مثال على ذلك. أنا لا أدافع عن العمل العسكري الروسي في فنلندا، لكنه لم يكن شريراً بشكل استثنائي. كان مجرد نفس الشيء الذي فعلناه نحن حين استولينا على مدغشقر. خبر كان سيصدم الجمهور. وفي الحقيقة يمكن

أن يتطور إلى غضب شديد خطير، لأنه تعلم بشكل زائف لسنوات أن السياسة الخارجية الروسية كانت مختلفة أخلاقياً عن البلدان الأخرى.

وصدمني وأنا أستمع إلى السيد راكيز في الليلة قبل الماضية، لو أن التوريين اختاروا أن يكشفوا السر حول لجنة لوبلين والماريشال تيتو وتابعيه الأقرباء، سيكون هناك -شكراً للرقابة الذاتية المطولة على اليسار- الكثير من الأسرار التي ستفضح.

لكن الدجل والخداع السياسي له جانبه الهزلي. لذلك لم يترأس ذلك الاجتماع الذي عقدته العصبة من أجل الحرية الأوروبية شخص أقل من دوقة اثول. منذ سبع سنوات فقط كانت الدوقة- "الدوقة الحمراء" كما كانت تلقب بمحبة- كانت هي المدللة للديلي ووركر وأقرضت الثقل الهام من سلطتها إلى كل كذبة تفوه بها الشيوعيون في تلك الفترة. الآن إنها تقاتل ضد المسخ الذي ساعدت على خلقه. أنا متأكد من أنها وأصدقاءها الشيوعيين السابقين سيرون أي مغزى أخلاقياً في هذا.

أريد أن أصحح الخطأ الذي ارتكبته في هذا العمود في الأسبوع الماضي. يبدو أن هناك لوحة تعريف معدنية لويليام بليك، وهي في مكان قرب كنيسة القديس جورج في لامبيث. فتشت عن واحدة في تلك المنطقة ولم أجدها. اعتذاري للشركة ذات المسؤولية المحدودة.

إن اهتم المرء بالحفاظ على اللغة الإنكليزية، فهناك نقطة يجب أن يقرر المرء إن كانت جديرة بإثارة صراع حين تبدل كلمة معناها. بعض الكلمات أبعد من الاسترداد. لا يستطيع المرء كما أتخيل أن يسترد "وقح" إلى معناها الأصلي أو "صحيفة" أو "يهلك القسم الأعظم" لكن ماذا عن استعمال "يستدل" بدلاً من "يدل ضمناً" (هو لم يقل حقاً أنا كذاب، لكنه استدل عليها) التي ترسخت منذ سنوات؟ ألا يجب أن يحتج المرء على هذا؟ أو على المرء أن يذعن حين تتعرض معاني كلمات محددة للتضييق الاعتباطي؟ أمثلة "خليع" (تقريباً تؤخذ بمعنى غير أخلاقي جنسياً) و"ينتقد" (تؤخذ دائماً بمعنى ينتقد بشكل ضار وسلبي). من المدهش هو ذلك العدد الكبير من الكلمات التي أصبحت معانيها جنسية صرفة،

وذلك يعود جزئياً إلى حاجة تلطيف التعبير. الاستخدام الثابت لمثل هذه العبارات "العلاقة الحميمة حدثت مرتين"، عملياً نفت المعنى الأصلي لكلمة "الألفة والمودة". وقد تم تحريف دزينة من الكلمات الأخرى بنفس الطريقة.

من الواضح أن هذا الشيء ينبغي أن يمنع إن كان ذلك ممكناً، لكن من غير المؤكد أن يستطيع المرء فعل أي شيء بالصراع ضد الاستخدام الراهن. مجيء الكلمات وذهابها عملية غريبة لا نعرف قوانينها. في عام ١٩٤٠ كلمة "والب ضربة عنيفة" التي كانت تعني بيرة غير حادة، أصبحت متداولة في كل أرجاء لندن فجأة. لم أسمع بها قط حتى ذلك التاريخ، ولم تبدُ كلمة جديدة، ولكنها ظلت كلمة غريبة لربع مدينة لندن. ثم انتشرت فجأة في كل الأرجاء. والآن تلاشت تماماً مرة أخرى كما يبدو. الكلمات تستطيع أن تحيا مجدداً أيضاً لسبب غير واضح بعد بقائها هاجعة لمئات السنين ككلمة (عربة سيارة مثلاً) التي لم تكن متداولة في إنكلترا أبداً إلا في الشعر الكلاسيكي الطنان، لكنها انبعثت إلى الحياة في العام ١٩٠٠ لتصف السيارة التي اخترعت حديثاً.

لذلك ربما الانحطاط الذي يحدث للغتنا بشكل مؤكد هو عملية لا يستطيع المرء كبحها بعمل متعمد. لكني أحب أن أرى القيام بالمحاولة. وكبداية أحب أن أرى بضع عشرات من الصحافيين يعلنون الحرب على بعض الاستخدامات السيئة الواضحة -مثلاً، الفعل المقزز "يتصل، يحتك"، أو العادة الأمريكية في ربط حرف جر غير ضروري لكل فعل- وأرى أنه كان باستطاعتهم قتلها بجهودهم المشتركة.

٢ فبراير/ شباط ١٩٤٥. نشرت أول مرة بالتريبيون ١٩٤٣.

لقد أعدت قراءة كتابي المفضل القديم في صباي، **المنعطف الأخضر** للكاتب أولي لوكاويي للتو الذي كان اسماً مستعاراً للميجور سوينتون (الجنرال سوينتون لاحقاً) الذي كان -كما أعتقد- واحداً من الأشخاص العديدين الذين نسب إليهم فضل اختراع الدبابة. كتبت قصص هذا الكتاب في عام ١٩٠٨ تقريباً، وكانت تنبؤات لجندي محترف ذكي تعلم الدروس من حرب البوير ومن الحرب الروسية اليابانية. ومن الممتع أن نقارنها مع ما حدث فعلياً في السنوات القليلة الأخيرة.

إحدى القصص كتبت في وقت مبكر من عام ١٩٠٧ (في تاريخ لم تطر فيه أي طائرة عن الأرض لأكثر من بضع ثوان)، قصة أخرى في نفس السنة تتعامل مع الغزو الألماني لإنكلترا، واهتممتُ بشكل خاص حين لاحظتُ أن الألمان لقبوا بـ "الهون" مسبقاً في هذه القصة. كنت أميل إلى نسب استعمال كلمة "هون" للألمان إلى كيلينغ الذي استخدمها بالتأكيد في القصيدة التي نشرها أثناء الأسبوع الأول من الحرب الأخيرة.

على الرغم من جهود صحف كثيرة، لم تدرج وتنتشر كلمة "هون" أبداً، لكن لدينا الكثير من الألقاب المهينة. يستطيع المرء أن يكتب دراسة ثمينة عن استخدام الأسماء التي تفترض الخلاف والنعوت وتأثيرها في تعتيم المناظرات والجدالات السياسية. إنه يظهر الحقيقة الغريبة بأنك لو قبلت بأن تطبق على نفسك اسماً قصد منه أن يكون إهانة، قد ينتهي بخسارته طبيعته المهينة. هذا يبدو أنه ما يحدث للقب "تروتسكي" الذي أصبح قريباً من أن يكون إطراء ومدحاً. وكذلك الحال مع "كونشي (من يرفض الخدمة العسكرية لأسباب شخصية تتعلق بالضمير -المترجم) أثناء الحرب الأخيرة. مثال آخر "بريتشر -بريطاني". استخدمت هذه الكلمة لسنوات كتعبير عن الازدراء في الصحافة الأمريكية المبغضة للإنكليز. لاحقاً، نورثكليف وآخرون فتشوا عن بديل لكلمة "إنغليشمان" يجب أن يكون فيها نكهة شوفينية وإمبريالية، ووجدوا "بريتشر" جاهزة وفي متناولهم واستولوا عليها. منذ ذلك الحين باتت للكلمة هالة مميزة من الوطنية القذرة، والشخص اللطيف الذي يخبرك "أن ما يحتاجه السكان الأصليون هي يد قوية" ويخبرك أيضاً أنه "فخور لكونه بريتشر" -وهذا مساوٍ تقريباً لصيني قومجي يصف نفسه بـ "تشينك".

تلقيت ورقة من لجنة أصدقاء السلام، تقول إن كان المخطط الراهن هو نقل كل البولنديين من المناطق ليتولى أمرهم الاتحاد السوفييتي وبالمقارنة، إن نقل الألمان من أجزاء ألمانيا لتتولى أمرهم بولندا، ووضع هذا المخطط قيد التنفيذ، فإن هذا "سيتضمن انتقال لا يقل عن سبعة ملايين شخص".

بعض التقديرات في اعتقادي أكثر من هذا، لكن دعنا نفترض أنها ستكون سبعة ملايين. هذا مماثل لاستئصال كل سكان أستراليا من جذورهم وزرعهم في مكان آخر، أو استئصال كل

سكان اسكتلندا وايرلندا معاً. أنا لست خبيراً في النقل أو الإسكان، وأود أن أسمع من شخص مؤهل للتقدير أفضل مني (أ) كم حافلة وعربة ستشارك في نقل هؤلاء الملايين السبعة من الناس بالإضافة إلى مواشيهم ومعدات مزارعهم وبضائعهم البيتية، أو (باء) كم منهم سوف يموت من شدة الجوع والتعرض للعوامل الجوية إن شحنوا من دون مواشيهم.. إلخ.

أتصور أن الإجابة على (أ) ستبين أن هذه الجريمة الشنيعة الهائلة، لا يمكن تنفيذها، لكن يمكن أن تبدأ بفوضى وعذاب وزرع كره عنيد عصي على المصالحة نتيجة لهذا. في الوقت الحالي، يجب أن يحضر الشعب البريطاني، ليفهم وبأكبر قدر ممكن من التفاصيل الملموسة ما نوع السياسات التي يلزمهم بها رجال دولتهم.

هزّ البيت انفجار غير بعيد جداً، وقعقعت النوافذ في إطاراتها. وفي الغرفة التالية استيقظ صف ١٩٤٦ وأطلق صيحة أو اثنتين. كلما يحدث هذا أجد نفسي أفكر: "هل من الممكن أن يستمر البشر بهذا الجنون لفترة طويلة أكثر من ذلك؟". انتم تعرفون الجواب طبعاً. في الواقع، الصعوبة في هذه الأيام أن تجد شخصاً واحداً يعتقد أنه لن تكون هناك حرب أخرى في المستقبل القريب.

أعتقد أن ألمانيا سوف تندحر هذا العام، وحين يتم إخراج ألمانيا من الطريق، لن تقدر اليابان الصمود أمام القوى الموحدة لبريطانيا والولايات المتحدة، ثم يكون سلام الإنهاك مع حروب ثانوية غير رسمية تنشب في كل مكان، وربما يدوم السلام المزعوم لعقود من الزمن. لكن بعد ذلك يتشكل العالم حقيقة، وتصبح الحرب دائمة. مسبقاً وواضح تماماً مع إذعاننا كلنا تقريباً، أن العالم ينقسم إلى دولتين عظميين أو ثلاث، تكهن بها جيمس بيرنهام في كتابه الثورة الإدارية. لا يستطيع المرء رسم حدودها الدقيقة بعد، لكنه يستطيع أن يرى تقريباً المناطق التي تشملها كل واحدة منها. وإذا استقر العالم على هذا الأنموذج، فمن المحتمل لهذه الدول الضخمة أن تكون في حالة حرب دائمة مع بعضها البعض، لكنها لن تكون بالضرورة حرباً شديدة جداً أو دامية، وستكون مشاكلها الاقتصادية والسيكولوجية أبسط بكثير حين تظل الطائرات القاذفة النفاثة تئز باستمرار ذهاباً وإياباً.

إن وطدت هاتان الدولتان أو الثلاثة نفسها كدول عظمى، ستكون كل واحدة منها أكبر من أن تهزم، ولن تكون تحت أي حاجة للمتاجرة مع بعضها البعض أيضاً، وستكون في وضع

تمنع فيه كل اتصال بين مواطنيها. وخلال عشر سنوات أو أكثر من ذاك، ستقتطع مناطق واسعة من الأرض من بعضها البعض، على الرغم من كونها فنياً في حالة سلم.

منذ أشهر مضت، أشرت في هذا العمود إلى أن الاختراعات العلمية الحديثة تميل إلى منع التواصل الدولي أكثر من زيادته، مما جلب لي الكثير من الرسائل الغاضبة من القراء، لكن لم يقدر أي منهم أن يبين أن ما قلته كان زائفاً، وردوا أنه لو كان لدينا اشتراكية فلن تحرف الطائرة والراديو.. إلخ إلى استخدامات خاطئة. صحيح جداً، لكن بما أنه ليس لدينا اشتراكية، فالطائرة أساساً شيء لإسقاط القنابل والراديو أساساً شيء لتمجيد القومية. حتى قبل الحرب، كان هناك تواصل بين سكان الأرض أقل بشكل هائل مما كان عليه قبل ثلاثين سنة، والتعليم كان فاسداً، والتاريخ أعيدت كتابته، وحرية الفكر قمعت إلى درجة لم تحلم بها العصور السابقة. وليس هناك أي علامة مهما كانت عن انعكاس هذه الميول وانقلابها إلى الضد.

ربما أنا متشائم. لكن في كافة الأحوال، فإن تلك الأفكار التي تقلق ذهني (وتقلق ذهن كثير من الناس الآخرين أيضاً كما أعتقد) في كل مرة يدوي فيها انفجار قنبلة في (في١ في ٢ قنابل ألمانية- المترجم) عبر السديم.

عثرت على قصة صغيرة في كتاب.

تلقى شخص دعوة للخروج لصيد الأسود، فهتف قائلاً: "أنا لم أفقد أي أسد!".

٩ فبراير/ شباط ١٩٤٥.

كلما أغسل دفعة من الأواني الفخارية، أتعجب من ضيق مخيلة البشر الذين استطاعوا السفر تحت البحر والطيران عبر الغيوم، ولم يعرفوا بعد كيف يتخلصون من العمل الشاق والقذر المضيع للوقت من حياتهم اليومية. لو دخلت إلى غرفة العصر البرونزي في المتحف البريطاني (حين يفتح مرة أخرى) ستلاحظ أن بعض أدواتنا المنزلية تبدلت خلال ثلاثة آلاف عام.

المقلاة مثلاً أو المشط هي نفس الشيء الذي كانته حين كان الإغريق يحاصرون طروادة. في نفس الفترة تقدمنا من السفينة الراشحة إلى الباخرة ذات الـ ٥٠ ألف طن، ومن العربة التي تجرها الثيران إلى الطائرة.

صحيح أنه في البيت الحديث الموفر للوقت الذي تسكنه نسبة مئوية صغيرة جداً من الكائنات البشرية، يأخذ عمل مثل غسيل الأطباق وقتاً أقل مما كان في الماضي. مع رقائق الصابون، ووفرة الماء الحار وحوامل الأطباق والمطبخ ذي الإنارة الجيدة و-ما تملكه البيوت القليلة جداً في إنكلترا- والطريقة السهلة للتخلص من النفاية، بات من الممكن تحمل الأمر أكثر مما كان حين كانت تنظف الأطباق النحاسية بالرمل في مغاطس حجرية ينفذ الماء منها على ضوء شمعة. لكن بعض الأعمال المحددة (تنظيف المقلاة التي يطبخ فيها السمك مثلاً) مقززة بالأصل، وكل مسألة العبث بخصوص مماسح الصحون وأحواض الماء الحار بدائية بشكل لا يصدق. في هذه اللحظة فإن صف الشقق السكنية الذي أعيش فيه غير صالح للسكن جزئياً: ليس بسبب أعمال العدو القتالية، وإنما بسبب تكدس وتراكم الثلوج جعل الماء ينهمر عبر السطوح ويسقط معه الجص من السقوف. واعتبر من المسلم به أن هذه الكارثة ستحدث كل مرة تسقط فيها كميات استثنائية من الثلوج. لم يكن هناك ماء في الحنفيات لمدة ثلاثة أيام بسبب تجمد الأنابيب: هذا أيضاً عادي، وتجربة سنوية على الأغلب. والصحف أعلنت للتو أن عدد الأنابيب التي انفجرت هائل جداً، لذلك لن تكتمل عملية إصلاحها حتى نهاية عام ١٩٤٥- عندما -كما أفترض- يكون هناك صقيع كبير آخر وتنفجر مرة أخرى. لو أن أسالينا في شن الحروب جارت سرعتنا في تدبير منازلنا، لكنا على حافة اكتشاف البارود.

نعود إلى غسيل الأطباق ثانية، مثل الكنس والفرك وتنفيض الغبار، إنها مهنة غير ابتكارية مدمرة للحياة. لا تستطيع أن تجعل منها فناً كما تستطيع في الطبخ أو البستنة. ماذا يجب العمل بخصوصها إذاً؟ حسناً أن كل مشكلة العمل المنزلي لها ثلاثة حلول. الحل الأول أن نبسط طريقتنا في العيش بشكل كبير جداً. والحل الثاني أن نفترض أن أسلافنا فعلوه، وهو أن الحياة على الأرض بائسة بالأصل، وأنه من الطبيعي تماماً للمرأة العادية أن تكون كادحة ومعتلة الصحة في عمر الثلاثين؛ والحل الأخير أن نكرس قدراً من العقل والذكاء لعقلنة شؤون بيوتنا من الداخل مساوياً للقدر الذي كرسناه للنقل والاتصالات.

إن كنا سنختار البديل الثالث. إن فكر المرء من منظور تجنب العناء ونظم بيته بشكل لا يرحم كما ينظم آلة من الممكن أن نتخيل بيوتاً وشققاً تكون مريحة وتتطلب القليل جداً من

العمل. تدفئة مركزية وأنابيب للنفاية واستهلاك مناسب للدخان وغرف ليس فيها زوايا وأسرة مدفّأة بالكهرباء والتخلص من السجاد. كل هذا يصنع فرقاً كبيراً، لكن بالنسبة إلى غسل الأطباق، فأنا لا أرى حلاً باستثناء فعل ذلك بشكل مشاعي مشترك مثل مغسلة الثياب. كل صباح تقف عربة البلدية عند باب بيتك وتحمل صندوقاً من الأطباق القذرة وتسلمك صندوقاً من الأطباق النظيفة (معلمة بالأحرف الأولى من اسمك طبعاً) بدلاً منها. سيكون تنظيم هذا أصعب من خدمة حفاضات الأطفال اليومية التي كانت تنفذ قبل الحرب. ورغم أن ذلك يعني أن يكون بعض الناس غاسلي أطباق بوظيفة كاملة كما يعمل بعض الناس الآن في مغاسل ثياب في وظيفة بوقت كامل، إلا أن التوفير الكامل والنهائي في العمل والوقود سيكون هائلاً. البدائل أن تستمر العمل بمماسح أطباق ملوثة بالشحم أو أن نأكل من أوانٍ ورقية.

ضوء جانبي على عادات نقاد الكتب

في وقت سابق، كلفتُ بكتابة مقال لكتاب سنوي لن أسميه، تجمع فيه صور وقصاصات من الجرائد. في آخر لحظة (حين استلمت النقود، يسعدني أن أقول) قرر الناشر منع نشر مقالي. في هذا الوقت كان الكتاب في مرحلة التجليد. قطع المقال من كل نسخة، لكن من أجل سبب تقني، كان من المستحيل إزالة اسمي من قائمة المساهمين على صفحة العنوان.

ثم بعد ذلك، تلقيت عدداً من قصاصات الصحف التي تشير إلى هذا الكتاب. في كل حالة ذكر اسمي مع المساهمين، ولم يلاحظ أي ناقد أن المساهمة التي أشير بأنها لي ليست موجودة فعلياً هناك.

الآن، بعد أن سُخر من "اكتشف كل جادة" و"لا تترك أي حجر من دون أن تقلبه" وبطلت من الوجود تقريباً، أعتقد أنه حان الوقت لبدء حملة ضد بعض الاستعارات البالية وغير المفيدة الأخرى التي تلوث لغتنا.

ثلاث استعارات يمكننا التخلص منها وهي "تشاجر مع، اختلف مع، تنازع مع" و"عمل الشيء بطريقة مختلفة ليكون أكثر تشويقاً" و"يؤيد ويدافع عن شخص بقوة" لقد أصبحت

هذه التعابير المتشابهة ميتة ولا حياة فيها، لدرجة أن الناس باتوا لا يتذكرون معناها الأصلي حتى في حالات كثيرة. ما المقصود بـ "رينغينغ ذا تشينجز" مثلاً؟ ربما كان لها علاقة بأجراس الكنيسة مرة، لكن المرء ليس متأكداً إلا بعد الرجوع إلى المعجم. "يؤيد ويدافع عن شخص بقوة" ربما مشتقة من لعبة العصا الواحدة المهجورة. حين تنتقل عبارة بعيداً عن معناها الأصلي كهذه - قيمتها كاستعارة- أي قدرتها على تقديم إيضاح قوي- تتلاشى. ليس هناك أي معنى كان في كتابة "إكس رفع الهراوات من أجل واي". يجب أن يقول بدلاً من ذلك "إكس دافع عن واي" أو فكر باستعارة جديدة تجعل معناك أنشط وأقوى بشكل أصيل.

في بعض الحالات، فصلت هذه التعابير المستهلكة عن معناها الأصلي بواسطة الخطأ في التهجئة. مثال "إبحار بسيط" (إبحار طائرة). والتعبير "اصطف، أطاع الأوامر" أصبحت الآن تهجى في أحوال كثيرة "اسحب الخط" الناس القادرون على هذا النوع من الشيء، لا يربطون بوضوح أي معنى محدد بالكلمات التي يستخدمونها.

أتساءل إن كان الناس يقرؤون بريت هارت في هذه الأيام. لا أعرف لماذا، لكن بعضاً من مقاطع قصيدته "الجمعية فوق ستانيسلاوس" كانت تدور في بالي في الساعة الماضية. تصف القصيدة اجتماعاً لجمعية الآثار انتهى بفوضى:

رفع ابنر كبير الملائكة نقطة نظام، عندما باغتته قطعة حجر رملي حمراء قديمة في بطنه؛/ وابتسم ابتسامة باهتة وتلوى على الأرض،/ ولم يعد يهتم بالإجراءات اللاحقة لما مضى.

ربما من سوء حظ سمعة بريت هارت، أن قصيدتيه الساخرتين جداً، واحدة تدور حول التحامل اللوني والأخرى عن التكبر الطبقي. لكن هناك عدداً يستحق القراءة ثانية، ومنها قصيدتان جديتان: خصوصاً "ديكنز في معسكر" القصيدة الجديدة شبه المنسية تقريباً التي كتبها بريت بعد وفاة ديكنز، والتي كانت عن أرق إجلال ناله قط.

١٦ فبراير/ شباط ١٩٤٥.

تلقيتُ نسخة من بيان عن مستقبل بورما الأسبوع الماضي، أصدرته جمعية بورما، وهي منظمة تشمل أغلب المقيمين البورميين في هذه البلاد. أنا لست متأكداً من درجة تمثيلها،

لكنها على الأرجح تعبر عن رغبات الأغلبية من البورميين الواعين سياسياً. لأسباب سأحاول توضيحها في الحال، كان البيان الذي صدر للتو وثيقة هامة. لخص بأقصى قدر ممكن ليعبر عن المطالب التالية:

أ- العفو عن البورميين الذين تعاونوا مع اليابانيين أثناء الاحتلال. ب- بيان من الحكومة البريطانية في تاريخ محدد تحصل فيه بورما على وضعية السيادة. الفترة، إن أمكن، يجب أن تكون أقل عن ستة أسابيع. يجب أن يدعى الشعب البورمي إلى تجمع دستوري في الوقت الفاصل. ج- عدم وجود فترة مؤقتة فاصلة من "الحكم المباشر". د- يجب أن تكون للشعب البورمي حصة أعظم في التطور الاقتصادي لبلادهم. ت-يجب على الحكومة البريطانية أن تدلي ببيان فوري وجلي عن نواياها تجاه بورما.

الشيء اللافت حول هذه المطالب، هو تواضعها. ليس هناك حزب سياسي ذو نفس قومي أو أي أمل بأن تكون له جماهير مؤيدة، يمكن أن يطلب أقل من ذلك. لكن لماذا يقلل هؤلاء الناس مطالبهم إلى هذه الدرجة المتدينة؟ حسناً، أعتقد أنه يمكن للمرء أن يخمن سببين اثنين. أولاً، إن تجربة الاحتلال الياباني، ربما جعلت من وضعية السيادة تبدو هدفاً مغرياً أكثر مما كان يبدو قبل ثلاث سنين. لكن الأهم- إن طالبوا بهذا الشكل القليل، ربما بسبب أنهم كانوا يتوقعون أن يقدم لهم أقل من ذلك حتى. وعليّ أن أخمن أنهم توقعوا الصح. في الحقيقة، من أكثر الاقتراحات المجدولة آنفاً، فقط الأول المحتمل له أن ينفذ.

لم تدلِ الحكومة أبداً بأي تصريح واضح حول مستقبل بورما، لكن كانت هناك إشاعات أنه حين يطرد اليابانيون من البلاد هناك عودة إلى "الحكم المباشر" وهي تسمية محتشمة للديكتاتورية العسكرية. وما الذي يحدث سياسياً في بورما في هذه اللحظة؟ نحن ببساطة لا نعرف: ليس هناك كلمة واحدة في أية جريدة عن الطريقة التي تدار بها الأراضي التي فتحت ثانية. لنفهم معنى هذا، فعلى المرء أن ينظر إلى خريطة بورما. منذ سنة كانت بورما في الحقيقة بأيدي اليابانيين، وكان الحلفاء يقاتلون في أراضٍ بور تسكنها قبائل بدائية متفرقة لم يحتك بها أحد، وكانت مؤيدة لبريطانيا. تغلغلوا الآن إلى قلب بورما، وسقطت كما يجب بعض البلدات الهامة ومراكز الإدارة في أيديهم، ويجب أن يكون عدة ملايين من البورميين تحت العلم

البريطاني مرة أخرى. لم يخبرونا حتى الآن بأية معلومة عن شكل الإدارة التي ستقام هناك. هل من المفاجئ أن كل بورمي مفكر خاف من الأسوأ؟

من الهام جداً والحيوي إشراك الشعب البريطاني إن أمكن في هذه المسألة. ولأن عيوننا كانت مثبتة على أوروبا، نسينا أن النهاية الأخرى من العالم هناك سلسلة كاملة من البلدان تنتظر التحرير، وفي كل حالة تقريباً هناك أمل بشيء أفضل من مجرد تغيير الفاتحين. ربما تكون بورما أول أرض تابعة لبريطانيا يعاد فتحها، وستكون حالة اختبار: اختبار أهم من اليونان أو بلجيكا، ليس لأن فيها عدد أكبر من الناس فقط، وإنما لأنها مسؤولية بريطانية بالكامل تقريباً. ستكون كارثة مخيفة إن تركنا تشرشل وأميري وشركاه بسبب اللامبالاة والجهل يدبرون تسوية رجعية ما، تجعلنا نخسر صداقة الشعب البورمي إلى الأبد.

بعد الخلاص من اليابانيين بسنة أو سنتين، ستكون بورما في مزاج متفتح ومتقبل للأفكار الجديدة، أكثر مما كانت عليه في السنوات العشر الماضية. ثم تلي ذلك لحظة القيام بإيماءة كريمة. أنا لا أعرف إن كان وضع السيادة دومينون ستيتس ستكون الحل الممكن الأفضل. لكن القطاع الواعي سياسياً من البورميين يطالبون بوضع السيادة. ومن الخطأ الرهيب السماح للتوريين أن يرفضوه في محاولة يائسة لإعادة الماضي. ويجب أن يكون هناك موعد مربوط به، لكن ليس موعداً بعيداً جداً. إن ظل هؤلاء الناس داخل الكومنويلث البريطاني أو خارجه، فإن الشيء الذي يهم على المدى الطويل هو أننا يجب أن نفوز بصداقتهم- ونستطيع ذلك إن لم نخدعهم في لحظة الأزمة. حين تأتي اللحظة من أجل تقرير مستقبل بورما، لن يدير البورميون المفكرون أعينهم نحو تشرشل. هم سينظرون إلينا، الحركة العمالية، ليروا إن كان حديثنا عن الديمقراطية وحق تقرير المصير والمساواة العرقية وغيرها، فيه أي شيء من الحقيقة. أنا لا أعرف إن كان في قدرتنا أن نفرض تسوية محترمة على الحكومة، لكنني أعرف أننا سنضر أنفسنا بشكل يتعذر إصلاحه، إن لم نطالب ونحتج ونتضامن حولها- كما فعلنا في حالة اليونان.

حين سئل: "ما هو الحيوان الأكثر حكمة؟" رد ياباني "هو الحيوان الذي لم يكتشفه الإنسان بعد".

رأيت في كتاب للتو بياناً بأن عدد الفقهات الرمادية، وهي النوع الموجود حول الشواطئ البريطانية، عشرة آلاف فقط. أتصور أن هناك عدداً قليلاً جداً منها، لأنها تعرضت للقتل مثل الكثير من الحيوانات التي بالغت في ثقتها بالإنسان. حيوان الفقمة حيوان وديع تماماً ويبدو لي فضولياً جداً. يلحق بالقارب لمسافة أميال، وأحياناً يتبعك أنت حين تمشي على الشاطئ. ليس هناك أي مبرر وجيه لقتله. جلدها ليس مفيداً للفراء، ولا تسبب أي ضرر سوى أنها تأكل كمية محددة من السمك.

إنها تتكاثر على جزر غير مأهولة على الأغلب. دعونا نأمل أن بعض الجزر تظل غير مأهولة لكي تنجو هذه البهائم التعيسة من الانقراض نهائياً. على كل، نحن لسنا نوع الذباحين الدائمين للحيوانات النادرة الذي كنا عليه من قبل. جنسان من الطيور، الواق وأبو ملعقة، انقرضا منذ سنين كثيرة، ونجحا أن يعودا ثانية ويستوطنا في بريطانيا. وقد شُجعا على أن يتكاثرا في بعض الأماكن. قبل ثلاثين سنة، أي واق يتجرأ أن يظهر منقاره في هذه البلاد سيطلق عليه النار ويُحشى فوراً.

قيل إن لدى الجستابو فرقاً من النقاد الأدبيين، وظيفتهم أن يحددوا بواسطة مقارنة أسلوبية مؤلفي الكراريس مجهولة المصدر. كنت أفكر دائماً أن هذه هي بالضبط الوظيفة التي أحب أن أعمل بها لو أنها كانت من أجل قضية أفضل....

كما أشاء ١٩٤٦

تريبيون ٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٦.

أرسل إلي شخص نسخة من مجلة أمريكية عن الموضة، لن أذكر اسمها. تتألف من ٣٢٥ صفحة من القطع الربعي الضخم، خصصت منها أقل من ١٥ صفحة لمقالات عن السياسة والأدب.. إلخ. تتألف البقية بالكامل من صور مع نص صغير يتسلق حول حوافها: صور لثياب حفلات الرقص، ومعاطف من فرو المنك، وسراويل نسائية داخلية قصيرة، وسراويل نسائية وحمالات صدر، وجوارب حريرية، وأخفاف، وعطور، وأحمر شفاه، وطلاء مزين للأظافر- وطبعاً تلبسها أو تستخدمها نساء جميلات بشكل لا يصدق. لا أعرف كم رسماً أو

صورة لنساء ظهرن في كل المجلد، لكن هناك ٤٥ منها جميلة جداً في الخمسين صفحة الأولى - ولا يستطيع المرء إحصاءها إلا بشكل تقريبي.

أحد الأشياء اللافتة حين ينظر المرء إلى هذه الصور، هو أسلوب الجمال المستنفد المهجن والمنحط حتى، الذي يبدو أننا نصارع لتحقيقه. كل تلك النسوة تقريباً مطولات بشكل ضخم. أنموذج مصري قديم من الوجوه الهزيلة النحيلة تبدو مهيمنة: أوراك ضيقة عموماً، أياد نحيلة ليست للإمساك مثل أيادي سحلية. من الواضح أنه أنموذج بدني، لأنه يظهر كثيراً في الصور والرسوم أيضاً. شيء آخر لافت هو الأسلوب النثري للإعلانات، وهو خليط غير عادي من وفرة وجيزة وأحياناً مع رطانة فنية معبرة جداً. ترمى كلمات مثل سلوك دمث، مكتمل العادات، تطابق كفافي، قفا قفاز، ثوب نسائي من قطعتين يكشف عن الظهر، اختيال رشيق.. إلخ، بتوقع تام وواضح بأن القارئ سيفهمها من مجرد لمحة.

وميض لون شيمر شين جديد يضع يديه ورأسه في دوامة "مكشوف وناهد بشكل جميل" "ميلكين فليس جلبت جزة خروف خفيفة ريشية لحفظ هرتها دافئة!" "آخرون يرونك عبر ستار من الجمال الصرف، ويتساءلون لماذا!"، "ضبط لطيف للتقوسات في حزام سروال شريطي". "هتاف لثوب يعتمد على قماش سلس في مظهره" "فجأة يرتفع شكلك.... بشكل فاتن برشاقة حزام السروال الداخلي" "النظر إليه فاتن وارتداء هذا الليدي دوف أشد فتنة بأطراف أكمامه المطرزة ووسطه البارز"، "قماش خفيف ولدن ولكن يظهر التقوسات بشكل رائع"، "يقولب نهديك في خطوط أنثوية فاخرة" إلخ إلخ.

بحث كؤود في المجلة، يكشف تلميحين حذرين اثنين للشعر الرمادي، لكن لو أن هناك ذِكراً مباشر للبدانة أو وسط العمر في أي مكان، فأنا لم أجده. ولم تذكر الولادة أو الموت أيضاً: ولا العمل/ باستثناء بضع وصفات طهي لأطباق إفطار. الجنس الذكري يدخل بشكل مباشر أو غير مباشر في إعلان واحد من أصل عشرين، وصور كلاب وهررة تظهر هنا وهناك. في صورتين فقط، من الصور الثلاث مئة تقريباً، تصور طفلاً. على الغلاف الأمامي توجد صورة ملونة للأنثى الرائعة المألوفة تقف على كرسي، بينما رجل أشيب يضع نظارة يبدو محطماً في قميص بأكمام يجثو عند قدميها، يعمل شيئاً عند حافة تنورتها. لو نظر المرء عن قرب لوجد أنه

على وشك أن يأخذ قياساً بمقياس ياردات. لكن لنظرة عرضية، يبدو كما لو أنه يقبل حاشية الثوب -ليست صورة رمزية للحضارة الأمريكية أو على الأقل لجانب هام منها.

أحد النماذج المشوقة عن عنادنا في مواجهة الوقائع وجهوزيتنا للقيام بإيماءات معروف مسبقاً بأنها غير مفيدة، هو الحملة الحالية لمنع الموت على الطرق.

صرحت الصحف أن حالات الموت على الطرق في شهر سبتمبر/ أيلول هبطت إلى ٨٠ حالة تقريباً مقارنة مع سبتمبر/ أيلول الماضي. هذا حسن جداً، لكن هذا التحسن ربما لا يستمر. وفي كل الأحوال لن يكون متدرجاً -وفي الوقت الحالي يعرف كل شخص أنك لا تستطيع حل المشكلة طالما ظل النظام المروري على الحالة التي هو فيها. إن حوادث السير تحدث، لأن المركبات والمشاة يتحركون في كل الاتجاهات وفي كل السرعات، من ثلاثة أميال في الساعة إلى ستين أو سبعين ميلاً على الطرق الضيقة غير الملائمة والمليئة بالزوايا غير الظاهرة والمحاطة بالبيوت السكنية. إن أردت أن تمنع الموت على الطرقات حقاً، فعليك أن تضع خطة جديدة لنظام الطرق كله، بطريقة تجعل التصادمات مستحيلة. فكر بما يعنيه هذا (سوف يشمل مثلاً هدم لندن كلها وإعادة بنائها). ويمكنك أن ترى أن ذلك أكبر من طاقة أية أمة في هذه اللحظة. عدا ذلك، لا تستطيع سوى أخذ إجراءات مخففة في جوهرها، لجعل الناس أكثر حذراً.

لكن الإجراء المخفف الوحيد الذي يشكل فرقاً، هو إنقاص قاس في السرعة. قلِّص السرعة القصوى إلى اثني عشر ميلاً في الساعة في كل المناطق العمرانية، وستقل الغالبية الواسعة من الحوادث. لكن هذا "مستحيل" كما يؤكد لك الكل. لماذا هو مستحيل؟ حسناً، سيكون مضايقاً بشكل لا يحتمل، وسيعني أن كل رحلة سوف تستغرق من الوقت ضعفين أو ثلاثة أضعاف الوقت الذي تستغرقه في الوقت الحالي. بالإضافة إلى أنه لا يمكنك أن تجعل الناس يراعون مثل هذه السرعة القصوى. أي سائق سيقود بسرعة اثني عشر ميلاً في الساعة، وهو يعرف أن محركه يمكنه السير بسرعة خمسين؟ وليس من السهل أيضاً أن تبقي سيارة حديثة في سرعة الاثني عشر ميلاً في الساعة، وتبقي ناقل الحركة على تدريجة عالية -وهلم جرا، كلها تضيف إلى الإعلان أن السفر البطيء لا يطاق بطبيعته.

بعبارة أخرى، نحن نثمّن السرعة أكثر مما نثمّن الحياة الإنسانية. إذاً لماذا نقول هكذا، بدلاً من القيام بواحدة من تلك الحملات المرائية كل بضع سنوات (في الوقت الحالي حملة "امنعوا الموت على الطرقات" -منذ بضع سنوات قليلة، كانت الحملة "تعلم اجتياز الحاجز الذي بجانب الطريق") مع معرفة تامة أنه طالما ظلت طرقاتنا كما هي عليه وحافظنا على السرعة الحالية، فإن المجزرة يجب أن تستمر.

إضاءة جانبية عن تقنين الخبز. جاري في اسكتلندا هذا الصيف هو مزارع صغير انشغل في عمل هائل في إصلاح مزرعة أهملت لسنوات كثيرة من دون أي معين له سوى أخته. ليس لديه سوى حصان واحد، ولا يملك سوى أقدم الآلات البدائية التي لا تشمل الحصادة. خلال هذا الصيف، لم يعمل أقل من أربع عشرة ساعة في اليوم على مدى ستة أيام في الأسبوع. حين بدئ بتوزيع حصص الخبز سجل على حصة إضافية، ليكتشف أنه ليس مؤهلاً لحصة عامل زراعي كاملة! رغم أنه يستحق الحصول على خبز أكثر من العامل الجالس. المبرر؟ في القانون هو ليس عاملاً زراعياً! بما أنه يعمل لنفسه، فهو يصنف كمزارع، ويفترض أنه يأكل خبزاً أقل مما يفعل لو كان يعمل عند شخص آخر مقابل أجر.

التريبيون ١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٦

في الوقت الذي أتت فيه الغيوم التي أغلبها أكبر وأقذر من يد رجل، وعصفت في الأفق السياسي، برزت حقيقة واحدة تكررت المرة تلو الأخرى، وهي أن أغلب مشاكل الحكومة الحالية والمستقبلية، ناشئة عن فشلها في نشر دعاية عن نفسها بالشكل اللائق والصحيح.

لا يُبلغ الناس بوضوح كاف بماذا يحدث ولماذا وما هو المتوقع أن يحدث في المستقبل، لذلك كانت كل المصائب الكبيرة أو الصغيرة تفاجئ الشعب، وتجلب الحكومة على نفسها عدم الاحترام، بفعل الأشياء التي يفترض أن تفعلها أي حكومة مهما كان لونها في الظروف نفسها.

خذ مسألة واحدة تناولتها الصحافة كثيراً مؤخراً، لكنها لم تقلب بالشكل المناسب: هجرة العمل الأجنبي إلى هذه البلاد. شاهدنا حديثاً احتجاجاً هائلاً في مؤتمر هيئة النقابات العمالية ضد السماح للبولونيين في العمل في مكانين بحاجة ماسة للعمل فيهما- المناجم والأرض.

لن أفعل وأقلل من أهمية هذا على أنه شيء "أثاره" المتعاطفون الشيوعيون، أو تبريره بالقول إن اللاجئين البولونيين كلهم فاشيون "يتبخترون" وهم يرتدون نظارات أحادية العدسة ويحملون حقائب يد جلدية. السؤال: هل سيكون موقف النقابات العمالية البريطانية أكثر ودية، لو لم تكن قضية فاشيين مزعومين، وإنما قضية ضحايا الفاشية المعترف بهم؟

فمثلاً، هناك مئات الآلاف من اليهود الذين لا وطن لهم، يحاولون الآن باستقتال الوصول إلى فلسطين. لا شك أن الكثيرين منهم سينجح أخيراً، لكن سيفشل آخرون. ما رأيكم بدعوة مئة ألف لاجئ يهودي للاستيطان في هذه البلاد؟ أو ماذا عن الأشخاص الذين اقترب عددهم من المليون، والذين طردوا من أماكنهم وشردوا ووضعوا في مخيمات في كل أرجاء ألمانيا بلا مستقبل أو مكان يذهبون إليه؟ لقد رفضت الولايات المتحدة والأراضي الخاضعة للسيادة البريطانية مسبقاً قبولهم بأعداد كبيرة. لماذا لا تحل مشكلتهم بمنحهم الجنسية البريطانية؟

من السهل تصور رد الشخص البريطاني العادي. حتى قبل الحرب وفي أوج أعمال الاضطهاد النازية، لم يكن هناك تأييد شعبي لفكرة السماح بدخول أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود إلى هذه البلاد، كما لم يكن هناك تحرك قوي لقبول مئات آلاف الإسبانيين الذين فروا إلى فرنسا وسجنوا خلف أسلاك شائكة فيها.

بخصوص تلك المسألة، كان هناك القليل من الاحتجاج ضد اعتقال اللاجئين البائسين الألمان في عام ١٩٤٠ كانت أكثر التعليقات التي سمعتها في ذلك الوقت "ماذا يريدون من مجيئهم إلى هنا؟" و"إنهم يسعون إلى وظائفنا فقط".

في الحقيقة، إن وجود شعور شعبي قوي في هذه البلاد ضد الهجرة الأجنبية، ناتج عن الرهاب من الأجانب جزئياً، وجزئياً من الخشية من تخفيض في الأجور، لكن قبل كل شيء من الفكرة البالية بأن بريطانيا مأهولة بسكان بأكثر من طاقتها، وأن المزيد منهم يعني المزيد من البطالة.

في الواقع وبعيداً من أن هناك عمالاً أكثر من الوظائف، لدينا نقص عمالي خطير يسببه استمرار التجنيد الإلزامي، وسوف يسوء أكثر، ولن يتحسن بسبب هرم السكان.

لا يزال معدل الولادات في الوقت الراهن منخفضاً بشكل مخيف، ومئات الآلاف الكثيرة من النسوة اللواتي في سن الزواج، ليس لديهن فرصة الحصول على أزواج. لكن إلى أي حد هذه الحقائق معروفة أو مفهومة؟

في النهاية، يُشك إن كنا نستطيع حل مشاكلنا من دون تشجيع الهجرة من أوروبا. حاولت الحكومة مسبقاً بطريقة مترددة، أن تقوم بهذا، ولم تقابل إلا بعدوانية جاهلة، لأن الشعب لم يبلغ بالحقائق المتصلة بالموضوع مسبقاً. وهكذا أيضاً مع الأشياء غير المرغوبة الأخرى التي لا تحصى والتي يجب القيام بها من حين إلى آخر.

لكن الخطوة الأكثر إلحاحاً، ليست تحضير الرأي العام لحالات طارئة خاصة، وإنما رفع مستوى الفهم السياسي العام أولاً، والأهم فهم وقبول الحقيقة التي لم تُدرك بشكل مناسب، بأن الازدهار البريطاني يعتمد كثيراً على عوامل خارج بريطانية.

إن قيام الحكومة بمشروع الدعاية لنفسها وشرح نفسها، ليس سهلاً على حكومة عمالية تواجهها صحافة أغلبها معادية في الصميم. مع ذلك، فهناك طرق اتصال مع الشعب، وربما على السيد اتلي وزملائه أن يولوا اهتماماً أكبر بالراديو الناقل، الذي لم يأخذه على محمل الجد سوى قلة قليلة جداً من السياسيين.

هناك سؤال قد يبدو تافهاً ومثيراً للاشمئزاز من النظرة الأولى، لكنني أحب أن أرى إجابة له. أية طريقة اتبعت في أعمال شنق مجرمي الحرب، التي لا تعد، والتي وقعت في كل أرجاء أوروبا خلال السنوات القليلة الماضية- هل هي الطريقة القديمة في الخنق أم الحديثة أم الطريقة الإنسانية نسبياً التي يفترض فيها كسر عنق الضحية في طقة واحدة؟

قبل مئة سنة أو أكثر، كان الناس يشنقون بسحبهم إلى الأعلى وتركهم يرفسون ويصارعون حتى الموت، وقد يستغرق ذلك ربع ساعة تقريباً. ولاحقا أُدخلت السقطة التي تجعل الموت فورياً نظرياً، لكنها لم تكن تنجح دائماً.

في السنوات الأخيرة، ظهرت نزعة العودة إلى الخنق. لم أرَ الفيلم الإخباري عن شنق مجرمي الحرب الألمان في خاركوف، لكن أظهر تصويره في الصحافة البريطانية أن الطريقة التي استخدمت كانت الطريقة القديمة، وكذلك كان الأمر مع الإعدامات في بلدان البلقان.

كانت تقارير الصحف عن أعمال شنق نوريمبيرغ غامضة، وشاع حديث عن السقطة، لكن شاع أيضاً حديث عن أن الرجال المحكومين استغرقوا من عشرة دقائق إلى عشرين دقيقة حتى ماتوا.

أن يظل الشنق شكلاً مقبولاً لعقوبة الإعدام في هذه البلاد، ليس علامة جيدة. الشنق طريقة بربرية غير فعالة في القتل، وهناك حقيقة واحدة حوله على الأقل -معروفة على نطاق واسع باعتقادي- وهي حقيقة فاحشة جداً وغير قابلة للنشر تقريباً.

لكن حتى وقت قريب، كنا نشعر بقلق حول الموضوع، وكنا ننفذ أعمال الشنق في السر. حقاً كان الإعدام العلني قبل الحرب شيئاً من الماضي في كل البلدان المتحضرة تقريباً، لكن يبدو أنه يعود الآن على الأقل في الجرائم السياسية. نحن لم نطبقه ثانية في بلادنا بعد، لكننا نشارك بدرجة ثانية في مشاهدة الأفلام الإخبارية.

يستغرب المرء حين يعود إلى قبل عشر سنين من الآن، ويرى أن إلغاء عقوبة الإعدام كانت واحدة من الأشياء التي أيدها كل الناس المتنورين كشيء طبيعي مثل إصلاح الطلاق أو استقلال الهند. أما الآن فعلامة التنوير من جانب آخر، ليست في قبول عمليات الإعدام فقط، وإنما في الصراخ عالياً والاحتجاج لأنها ليست كثيرة.

لذلك، يبدو لي من الأهمية أن نعرف إن كان الخنق يعتبر عملاً عادياً. إن تعلم الناس أن يحدقوا برضى وإعجاب ليس بالموت فقط وإنما في شكل مرعب من التعذيب أيضاً، فهذا يشير إلى دورة أخرى في المسار الحلزوني المنحدر الذي سلكناه منذ عام ١٩٣٣.

مطلوب اقتباس.

قال تشيخوف على لسان إحدى قصصه التي نسيت اسمها معلقاً: "كما يقول شكسبير (سعيد من يكون صغيراً في شبابه)". لم أستطع أن أجد هذا البيت الشعري أبداً، ولا يبدو عليه أنه من شعر شكسبير. ربما ترجمه المترجم من اللغة الروسية من دون أن يرجع إلى الأصل. هل يستطيع أحدكم أن يخبرني أين ورد هذا الاقتباس؟

٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٦

في النقاشات الراهنة للجنة الملكية التي ستحقق في الصحف، يتركز الحديث دائماً عن التأثير المهين الذي يمارسه الملاكون والمعلنون. لم يقل مراراً إن الأمة تحصل على الصحف التي تستحقها، وباعتراف الجميع أن هذا ليس الحقيقة كلها. حين يكون الجزء الأكبر من الصحافة مملوكاً من قبل حفنة من الناس، لا تبقى هناك خيارات كثيرة أمام المرء. وحقيقة أن الجرائد

خلال الحرب أصبحت أكثر ذكاء مؤقتاً من دون أن تخسر توزيعها، توحي أن الذوق الشعبي ليس بالسوء الذي يبدو عليه. كما أن صحفنا ليست بنفس المستوى، بعضها أذكى من الآخر وبعضها أكثر شعبية من بعضها الآخر، وحين تدرس العلاقة بين الذكاء والشعبية، فماذا تجد؟

في الأسفل وضعت صحفنا الوطنية اليومية التسعة الهامة في عمودين. في العمود الأول رتبتُ الصحف حسب الذكاء بناء على مقدرتي على الحكم: في العمود الآخر رتبتُ الصحف حسب الشعبية التي تقاس بكمية التوزيع. أنا لا أقصد بالذكاء حسب آرائي الخاصة. أنا أقصد الاستعداد لتقديم الخبر بشكل موضوعي وإعطاء الشهرة للأشياء المهمة فعلياً، ومناقشة القضايا الجدية حتى حين تكون غامضة ومملة، وتأييد السياسات المتماسكة والمفهومة والواضحة. بالنسبة إلى التوزيع، ربما أخطأت في تحديد مكان جريدة أو اثنتين، باعتباري لا أملك إحصائيات وأرقاماً حديثة، لكن قائمتي الأولى لن تكون بعيدة جداً.

الذكاء: ١- مانشستر غارديان. ٢- التايمز. ٣- التلغراف. ٤- نيوز كرونيكلز. ٥- الهيرالد. ٦- الميل. ٧- الميرور. ٨- الإكسبريس. ٩- الغرافيك.

الشعبية: ١- الإكسبريس. ٢- الهيرالد. ٣- الميرور. ٤- نيوز كرونيكلز. ٥- الميل. ٦- الغرافيكز. ٧- التلغراف. ٨- التايمز. ٩- مانشستر غارديان.

سيتبين أن القائمة الثانية تقريباً وليس تماماً، هي القائمة الأولى مقلوبة رأساً على عقب، لأن الحياة ليست بهذه الأناقة. وحتى لو لم أرتب هذه القائمة في الترتيب الصحيح تماماً، فستظل العلاقة صحيحة. الصحيفة التي تتمتع بأفضل سمعة في الصدق المانشستر غارديان، وهي الصحيفة التي لا تُقرأ حتى من قبل هؤلاء الذين تعجبهم. يتذمر الناس أنها "بليدة جداً". من جانب آخر، فإن عدداً لا يحصى من الناس يقرؤون الديلي -بينما يقولون صراحة إنهم "لا يصدقون كلمة واحدة منها".

في هذه الظروف، من الصعب أن تتنبأ بتغيير جذري حتى لو أزيح النوع الخاص من الضغط الذي يمارسه الملاكون والمعلنون. الذي يهم هو أنه في إنكلترا نحن نمتلك حرية قضائية من الصحافة التي تمكن المرء من التعبير عن آرائه الحقيقية بلا خوف في الصحف ذات التوزيع القليل نسبياً. من المهم والحيوي أن نحافظ ونتمسك بذلك. لكن اللجنة الملكية، تستطيع أن تجعل التوزيع الكبير للصحف أفضل مما هو عليه بكثير مهما تلاعبت بوسائل

التحكم والضبط. سنمتلك صحافة صادقة شعبية جادة حين يطالب بها الرأي العام بشكل فعال. حتى ذلك الحين، إن لم تشوه الأنباء بواسطة رجال الأعمال، فسوف تشوه من قبل البيروقراطيين الذين هم أفضل بدرجة واحدة فقط.

جحيم مناجم الذهب والمبارزات والسكر والقمار: يكتشف المرء فيها ثقة كامنة في المستقبل وإحساس بالحرية والفرص. كانت أمريكا القرن التاسع عشر بلاداً غنية وفارغة، تقع خارج التيار الرئيسي للأحداث العالمية، ولم يتكون فيها بعد كل من الكابوسين المزعجين لكل رجل معاصر: كابوس البطالة وكابوس تدخل الدولة. كانت هناك فروق اجتماعية واضحة أكثر مما هو موجود في هذه الأيام وفقر (في نساء صغيرات، كانت العائلة في إحدى المرات بحاجة إلى المال لدرجة أن إحدى الفتيات باعت شعرها للحلاق) لكن لم يكن هناك كما اليوم شعور مسيطر تماماً بالعجز. كان هناك متسع للجميع، وإن اشتغلت يمكن التأكد من أنك ستعيش وتصبح غنياً أيضاً: هذا ما كان يؤمن به الجميع، وما يعتبره القسم الأعظم من السكان على أنه صحيح وحقيقي. بعبارة أخري كانت حضارة أمريكا القرن التاسع عشر حضارة رأسمالية في أفضل أشكالها، لكن بعد الحرب الأهلية بقليل بدأ التدهور المحتوم. ورغم ذلك ظلت الحياة في أمريكا لعدة عقود أفضل بكثير من الحياة في أوروبا، فهناك أحداث وتلون وتنوع وفرص أكثر -وتجد في كتب وأغاني تلك الفترة نوعاً من الانفتاح والطبيعة البسيطة. لهذا أعتقد أن شعبية أطفال هيلين وغيرها من الأدب الخفيف، مكن الطفل الإنكليزي منذ ثلاثين أو أربعين سنة أن يكبر بمعرفة نظرية بالراكون والسناجب وسناجب صيدناني الأمريكية المخططة والغوفر والفئران الجبلية وأشجار جوز الهند والبطيخ وشظايا أخرى من المشهد الأمريكي.

٢٩ نوفمبر/ تشرين ثاني ١٩٤٦.

هذا تحليل للصفحة الأولى من جريدتي الصباحية في يوم عادي غير حافل بالأحداث من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٤٦.

يذهب العنوان الكبير إلى اجتماع للأمم المتحدة، يقدم فيه الاتحاد السوفييتي مطالبه من أجل استعلام عن قوة القوات الأنغلوأمريكية في البلدان المعادية سابقاً والمتحالفة. من الواضح أن هذا سيتبعه طلب لتفتيش القوات داخل الاتحاد السوفييتي، ومن السهل التنبؤ أن

النقاش الناتج لن يؤدي إلى أي شيء، سوى اتهامات مضادة وهيبة نصر لهذا الطرف أو ذاك من دون إحراز أي تقدم، ولا حتى محاولة لأي تقدم نحو الاتفاق الدولي الصحيح والحقيقي.

القتال في اليونان يزداد خطورة. المعارضة الدستورية تتأرجح أكثر فأكثر نحو دعم المتمردين، بينما الحكومة لاتزال تزعم أن المتمردين المزعومين في الحقيقة عبارة عن عصابات تقوى بعمليات عسكرية من عبر الحدود.

هناك تأجيل آخر في دعوة الجمعية التأسيسية الهندية (هذا العمود له حاشية: حمام دم في الهند: الصفحة الثانية)، السيد غاندي جوّع نفسه ووصل إلى حالة مسببة للقلق.

إضراب الفحم الأمريكي يستمر، ومن المحتمل أن يكون له نتائج كارثية على مخزون القمح العالمي. بسبب إضرابات حديثة أخرى، ألغت الولايات المتحدة تسليم مليوني طن من الفولاذ إلى بريطانيا، مما سيعقد مشكلة الإسكان في بريطانيا أكثر. هناك أيضاً تباطؤ غير رسمي في الحركة على سكة الحديد الكبرى الغربية.

انفجار قنبلة أخرى في القدس مع عدد من القتلى والمصابين. وهناك أيضاً أخبار عن كوارث ثانوية لا مفر منها، كتحطم طائرة واحتمال حدوث فيضانات في كل أرجاء إنكلترا، وتصادم سفن في ميرسي، مع خسارة ظاهرة لمئة رأس من الماشية، التي أعتقد أنها توفر حصة أسبوعية من اللحم لـ ٤٠ ألف شخص تقريباً.

ليس هناك أخبار جيدة بلا ريب إطلاقاً على الصفحة الأولى. هناك مواد كارتفاع في الصادرات البريطانية خلال شهر أكتوبر/ تشرين أول، الذي يبدو جيداً لكنه قد ينقلب إلى سيئ لو كان للمرء معرفة كافية لتفسيره. هناك أيضاً تصريح بسيط عن القوى المحتلة في ألمانيا "ربما" تصل إلى اتفاق أفضل قريباً. لكن هذا ليس أكثر من تعبير عن أمنية ورعة غير مدعومة بدليل.

أنا أكرر أن هذه الصفحة المليئة بالكوارث، هي مجرد سجل يومي حين لا يحدث الكثير: وبالمصادفة يظهر في جريدة تحاول أن تجمل الأشياء.

حين يتأمل المرء كيف جرت الأمور منذ عام ١٩٣٠ ليس من السهل عليه الإيمان في بقاء الحضارة ونجاتها. أنا لا أقصد من هذا أن الشيء الوحيد الذي يجب أن نفعله، هو أن نتوسل السياسة العملية، وأن ننكفئ إلى مكان ناء، ونركز على الخلاص الفردي أو على بناء مجتمعات

مكتفية ذاتياً ضد اليوم الذي تفعل فيه القنبلة الذرية فعلها. أرى أن المرء يجب أن يتابع الصراع السياسي، كما يجب على الطبيب إنقاذ حياة مريض سيموت على الأرجح. لكنني أقترح أننا لن نصل إلى أي مكان إن لم ندرك أن السلوك السياسي غير منطقي أساساً، وأن العالم يعاني من نوع من مرض عقلي يجب أن يشخص قبل معالجته. النقطة المهمة أن كل المصائب تقريباً التي تحدث لنا غير ضرورية أبداً. إن المسلم به بشكل عام ومشترك، هو أن الكائنات البشرية تريد أن تكون مرتاحة. حسناً، الآن في مقدورنا أن نكون مرتاحين كما لم يكن أسلافنا. قد ترد الطبيعة بزلزال أو إعصار، لكنها هزمت بشكل كبير. وفي اللحظة التي توجد فيه وفرة من كل شيء لكل واحد، يجب أن تستهلك كل طاقتنا في محاولة اغتصاب أراضٍ غنية وأسواق ومواد خام من بعضنا البعض. وفي اللحظة التي يمكن فيها توزيع الثروة عموماً لدرجة لا تحتاج أي حكومة أن تخشى من معارضة خطيرة، يعلن أن الحرية السياسية يجب أن تكون مستحيلة ونصف العالم يصبح محكوماً من قبل قوات الشرطة السرية. تماماً في اللحظة التي تنهار فيها الخرافة وتصبح النظرة المنطقية نحو الكون عملية، يجرم ويرفض حق المرء في التفكير بأفكاره الخاصة كما لم يحدث من قبل قط. الواقع أن الكائنات البشرية تبدأ بمقاتلة بعضها البعض جدياً حين لم يعد هناك ما تتقاتل من أجله.

ليس من السهل إيجاد تفسير اقتصادي مباشر لسلوك الناس الذين يحكمون العالم الآن. تبدو الرغبة الصرفة في السلطة مهيمنة أكثر بكثير من الرغبة في الثروة. لقد تمت الإشارة إلى هذا كثيراً، لكن الغريب جداً يبدو أن الرغبة في السلطة اعتبرت من المسلمات البديهية كغريزة طبيعية وسائدة في كل العصور مثل الرغبة في الطعام. في الواقع إنها لم تعد طبيعية، بمعنى كونها ضرورة بيولوجية أكثر من السكر أو القمار. ووصلت إلى مستويات جديدة من الجنون في عصرنا في رأيي ليصبح السؤال: ما هي الصفة الخاصة في حياتنا الحديثة التي تجعل الحافز الإنساني الرئيسي هو دافع التنمر على الآخرين؟ إن استطعنا الإجابة على هذا السؤال الذي نادراً ما طرح أو تويع- ربما يكون هناك أخبار جيدة على الصفحة الأولى من جريدتكم الصباحية بين الحين والآخر.

على كل، من الممكن دائماً رغم المظاهر أن العصر الذي نعيش فيه ليس أسوأ من العصور الأخرى التي سبقته، وربما لا يختلف كثيراً حتى. على الأقل هذه الإمكانية تخطر لي عندما أفكر في مثل هندي ترجمه لي أحد أصدقائي:

في أبريل/ نيسان ولد ابن آوى،/ في يونيو/ حزيران امتلأت الأنهار التي تتغذى على المطر وانتفخت:/ قال "لم أشاهد أبداً في كل حياتي/ مثل هذا الفيضان العظيم/ .

أعتقد أن النقص في الساعات الجدارية واليدوية، ليس ذنب أحد. لكن هل من الضروري أن نترك أسعارها ترتفع بشكل حاد كما حدث في السنة أو السنتين الماضيتين؟

في وقت مبكر من هذا العام، رأيت ساعة يد عسكرية سابقاً معروضة في خزانة عرض بسعر قليل أقل من ٤ جنيهات للواحدة. بعد أسبوع أو اثنين من ذلك نجحت في شراء واحدة منها بـ ٥ جنيهات. مؤخراً يبدو أن السعر ارتفع إلى ٨ جنيهات. قبل سنة أو سنتين، كانت ساعة المنبه التي كان لا يمكن شراؤها من دون رخصة، تباع بـ ١٦ شلناً. هذا كان السعر المنظم وأعتقد أنه لا يمثل الخسارة الفعلية لصاحب المصنع. في اليوم قبل السابق رأيت ساعات مماثلة تماماً بـ ٤٥ شلناً -قفزة ١٨٠٪. هل يمكن التخيل أن سعر التكلفة ازداد بالمثل؟

عرضياً، بـ ٤٥ شلناً تستطيع إن كنت على الهاتف، أن ترتب مع عامل المقسم أن يهاتفك كل صباح لمدة ١٨ شهراً تقريباً، وهي مدة أطول من حياة ساعة المنبه الوسطية.

تحت عنوان "عودة اليهود إلى فلسطين"، سجل صامويل بتلر في دفتر ملاحظاته:

زارني رجل الأسبوع الماضي، واقترح بشكل جدي أنه يجب أن أكتب كتاباً عن فكرة خطرت لأحد أصدقائه اليهود الذي يعيش في نيو بوند ستريت......... لو أنني أساعد فقط لأصبحت عودة اليهود إلى فلسطين مؤكدة وسهلة. لم يكن هناك أي قلق حول اليهود المساكين، وهو يعرف كيف يستردهم في أي وقت، ولكن الصعوبة تكمن مع آل روتشيلد وآل أوبينهايم وأمثالهم، ومع مساعدتي يمكن إنجاز الأمر. أخشى أنني كنت فظاً جداً أن أنحط لأدخل في المخطط الذي على الأرض، والذي لم أهتم به بتاتاً إن عاد آل روتشيلد وآل أوبنهايم إلى فلسطين أو لم يعودوا. كان هذا عقبة، ثم حاول بعد ذلك أن يجعلني أهتم، وفي تلك النقطة تخلصت منه طبعاً.

كتب هذا في عام ١٨٨٣. ومن كان يتنبأ أنه بعد ستين سنة تقريباً سيحاول كل يهود أوروبا تقريباً العودة إلى فلسطين من تلقاء أنفسهم، بينما يحاول كل واحد آخر تقريباً منعهم؟

التريبيون ٦ ديسمبر/ كانون أول ١٩٤٦.

باستمتاع عظيم قرأت للمرة الثانية تريلباي رواية جورج دو مورييه المحبوبة عن حق، وهي واحدة من أفضل نماذج الأدب "جيد الرديء" الذي ضيعت الشعوب الناطقة بالإنكليزية إنتاجه. تريلباي محاكاة لثاكري، وهي محاكاة جيدة جداً ومقروءة بشكل ممتاز- اعتبرها برنارد شو -إن كنت أتذكر على نحو صحيح- أفضل من ثاكري بطرق كثيرة- لكن بالنسبة إلي أن الشيء الأكثر متعة فيها هي الانطباعات المختلفة التي يستنتجها المرء من قراءتها أولاً قبل سيرة هتلر ثم بعدها.

الشيء الذي يصدم المرء في العين في قراءة تريلباي هو معاداته للسامية. أعتقد أن عدداً قليلاً جداً من الناس يقرؤون الكتاب الآن، إلا أن قصته المركزية معروفة على نطاق واسع، فقد أصبح اسم سفنغالي أنموذجاً جيداً وكلمة متداولة مثل شارلوك هولمز. سفنغالي موسيقي يهودي -ليس مؤلفاً موسيقياً وإنما عازف بيانو لامع ومدرس موسيقى تدخل ضمن تأثيره فتاة ايرلندية يتيمة، أنموذج للرسم، لها صوت رائع لكنها لا تميز النغمات. بعد تنويمها مغناطيسياً في أحد الأيام لمعالجتها من هجمة ألم عصبي، يكتشف أن تعليمها الغناء بشكل متناغم وسليم، ممكن حين تكون منومة.

بعد ذلك، يمضيان عامين تقريباً في السفر من عاصمة أوروبية إلى أخرى. تغني الفتاة كل ليلة لعدد ضخم ومنتشٍ من الجمهور من دون أن تعرف أبداً في حياتها وهي مستيقظة أنها مغنية. تأتي النهاية حين يموت سفنغالي فجأة في وسط الحفلة الموسيقية، فتنهار تريلباي وتتعالى صيحات الاستهجان من الجمهور المستاء من العرض. تلك هي القصة الرئيسية، لكن هناك شيئاً أكثر من هذا طبعاً، يشمل علاقة حب حزينة وثلاثة رسامين إنكليز محتشمين شكلوا نقيضاً لخسة سفنغالي.

ليس هناك من شك بأن الكتاب معادٍ للسامية. بالإضافة إلى حقيقة أن غرور سفنغالي وغدره وأنانيته وقذارته الشخصية وهلم جرا مرتبط دائماً بحقيقة كونه يهودياً. هناك صور

توضيحية أيضاً، فدوموريه المعروف برسومه في البنتش أكثر من كتاباته، زيّن كتابه بها، جعل من سفنغالي كاريكاتيراً شريراً للأنموذج التقليدي، لكن الأكثر تشويقاً هو انحراف معاداة السامية في ذلك الوقت-١٨٩٥ فترة قضية دريفوس- واختلافها عن حالها في وقتنا الحاضر.

أولاً: يرى دوموريه بوضوح وجود نوعين من اليهود: اليهود الطيبون واليهود السيئون، وهناك اختلاف عرقي بينهم. هنا يدخل باقتضاب يهودي آخر في القصة، غلوريولي، الذي يمتلك كل الفضائل والصفات الجيدة التي يفتقر إليها سفنغالي. غلوريولي "واحد من السفارديم" -من أصل إسباني، بينما سفنغالي المنحدر من بولندا الألمانية يهودي عبري إسرائيلي شرقي. ثانياً: يعتقد دوموريه أن الحصول على دفقة من الدم اليهودي ميزة. نعرف أن البطل بيلي الصغير ربما لديه بعض من دم يهودي، فهناك مسحة منه في ملامحه، و"لحسن حظ العالم وحظنا خصوصاً أن أكثرنا لديهم في أوردتهم الحد الأدنى على الأقل من ذلك السائل الثمين". من الواضح أن هذا ليس الشكل النازي من عداء السامية.

ومع ذلك، فإن نبرة الإشارات إلى سفنغالي ازدرائية بصورة غير مقصودة تقريباً. وحقيقة أن دوموريه اختار يهودياً للعب هذا الدور، شيء له مغزاه. إن سفنغالي الذي لا يستطيع أن يغني ويفعل ذلك بواسطة رئتي تريلباي، يمثل ذلك الأنموذج المشهور، المرؤوس الذكي الذي يقوم بدور المخطط والعقل لشخص بارز.

الغريب هو كيف اعترف دو موريه بإرادته أن سفنغالي موهوباً أكثر من الإنكليزيين الثلاثة، وحتى من بيلي الصغير الذي صُور بشكل غير مقنع كفنان لامع. سفنغالي لديه "نبوغ"، بينما لدى الآخرين "شخصية"، و"الشخصية" هي المهم. إنه موقف الطالب المناوب (المتقدم) لاعب الركبي نحو "التلميذ المستجد" ذي النظارة. وربما كان هذا هو الموقف العادي نحو اليهود في ذلك الوقت. هم كانوا أدنى منزلة بشكل طبيعي، لكنهم كانوا أكثر ذكاء وحساسية وولعاً بالفن منا طبعاً، لأن هذه الصفات ذات أهمية ثانوية. في الوقت الحاضر إن الإنكليز أقل ثقة بأنفسهم وأقل ثقة بأن الغباء يفوز في النهاية، وأن الشكل السائد من عداء السامية تبدل نحو الأفضل، لكن ليس كله.

في عدد التريبيون في الأسبوع الماضي، لاحظ السيد جوليان سايمونز -عن حق كما أعتقد- أن روايات ألدوس هكسلي الأخيرة أدنى منزلة بكثير من رواياته الأولى، لكن كان عليه أن يضيف أن هذا النوع من الانحدار عادي في الكتاب التخيليين، وأنه يمر من دون أن يُلاحظ حين يكون الكاتب محمولاً بزخم كتبه الأولى. فمثلاً نحن نثمّن إتش جي ويلز ونقدّره عالياً من أجل تونو - بونغاي والسيد بولي وآلة الزمن إلخ. ولو توقف عن الكتابة في عام ١٩٢٠ لظلت سمعته عالية: لو عرفناه فقط من الكتب التي كتبها بعد ذلك التاريخ، لكان رأينا فيه أدنى. إن الروائي ليس أكثر من ملاكم أو راقص باليه لا يدوم إلى الأبد. لديه باعث أولي مناسب لثلاثة أو أربعة كتب، وربما حتى دزينة، ثم يستنزف ذاته عاجلاً أو آجلاً. من الواضح أن المرء لا يستطيع أن يضع أي قانون صارم، لكن في حالات كثيرة يدوم الباعث الإبداعي لخمسة عشر عاماً تقريباً: عند كتاب النثر هذه السنوات الخمس عشرة تكون ربما بين الـ ٣٠ والـ ٤٥ تقريباً. صحيح أن لدى قلة من الكتاب حياة إصدار أطول بكثير، واستطاعوا الاستمرار في التطور وهم في وسط العمر أو أكبر حتى، لكن هؤلاء عادة (مثل: ييتس وإليوت وهاري وتولستوي) كانوا يقومون بتغيير مفاجئ وعنيف في أسلوبهم أو موضوعهم الرئيسي أو كليهما، وربما يميلون إلى رفض أعمالهم السابقة حتى.

كتّاب كثيرون وربما أغلبهم يجب عليهم أن يتوقفوا عن الكتابة حين يصلون إلى منتصف العمر، لكن مجتمعنا لسوء الحظ لا يدعهم يتوقفون. أغلبهم لا يعرف طريقة أخرى لكسب رزقهم، كما أن الكتابة وكل ما تحمله من صراع وتنافس وتملق وشعور المرء بأنه شبه شخصية عامة، عبارة عن عادة إدمانية. في العالم العاقل، فإن الكاتب بعد أن يقول قوله يشتغل في مهنة أخرى، لكنه في المجتمع التنافسي يشعر كالسياسي بأن التقاعد هو الموت، لهذا يستمر طويلاً بعد أن ينفد باعثه. وكقاعدة كلما قل وعيه بأنه يقلد نفسه، كلما زادت الفظاظة التي يفعل بها ذلك.

في وقت مبكر من هذا العام، قابلتُ ناشراً أمريكياً أخبرني أن شركته تعرضت لدعوى قضائية لتسعة أشهر، وخرجت منها منتصرة جزئياً، لكنها خسرت مالاً لأنها اتهمت بطباعة كلمة من أربعة أحرف نستخدمها كل يوم في اسم المفعول عموماً.

الولايات المتحدة متقدمة عادة عن بريطانيا ببضع سنوات في هذه المسائل، إذ يمكنك طبع كلمة "ق-" بأكملها في الكتب الأمريكية في الوقت الذي يجب أن تظهر فيه في الكتب الإنكليزية على شكل "ق-". حديثاً أصبح ممكناً في إنكلترا طبع الكلمة بأكملها في الكتب، لكن الدوريات لا تزال تستخدم القاف والشارطة. منذ خمس أو ست سنوات طبعت الكلمة في مجلة شهرية مشهورة، لكن الذعر كان عظيماً، لذلك كان على هيئة التحرير القلقة أن تطمس الكلمة يدوياً.

بالنسبة إلى الكلمة الأخرى، كلمة الأحرف الأربع، لا تزال غير قابلة للطبع في الدوريات في هذه البلاد، لكن في الكتب يمكن أن تمثل بالحرف الأول والشارطة. في الولايات المتحدة تم الوصول إلى هذه النقطة منذ عشر سنوات. في السنة الماضية جربت طباعة الكلمة المقصودة كلها، فحظر على الكتاب، وبعد تسعة أشهر من التقاضي رفع الحظر السنة الماضية. لكن العملية أنجزت خطوة مهمة إلى الأمام، إذ صدر قانون يسمح بطباعة الحرف الأول والحرف الأخير من الكلمة بين نجمتين، مشيراً بوضوح إلى أنها من أربعة حروف. هذا يؤكد بشكل منطقي أن الكلمة كاملة ستطبع في غضون بضع سنوات.

وهكذا يستمر التقدم -وهو تقدم حقيقي برأيي، لأنه لو استطاعت كلماتنا "السيئة" التي لا تزيد عن نصف دزينة أن تنزل من جدار المرحاض على الصفحة المطبوعة، لفقدت صفتها السحرية، وأضحت عادة السب المهينة لأفكارك والمضعفة للغتك أقل شيوعاً.

التريبيون - ١٣ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٦

حين يقرأ المرء تقارير مؤتمرات منظمة الأمم المتحدة أو المفاوضات الدولية من أي نوع، فمن الصعب ألا يذكره هذا بـ "لا أتاك" وألعاب حربية مماثلة أخرى اعتاد الأطفال على لعبها بقطع من الورق المقوى، تمثل بوارج وطائرات وهلم جرا، كل واحدة منها لها قيمة ثابتة، ويمكن أن تجابه بطريقة ما معروفة. في الواقع، قد يخترع المرء لعبة جديدة تسمى أونو (الأحرف الأولى من منظمة الأمم المتحدة باللغة الإنكليزية -المترجم) لتلعب في البيوت المتنورة التي لا يريد الوالدان فيها لأطفالهما أن يتربوا على وجهة نظرة عسكرية.

تسمى القطع في هذه اللعبة: العرض والزحف والصيغة والكتلة المعثرة والمأزق والورطة وعنق الزجاجة والدائرة الشريرة. هدف اللعبة أن تصل إلى صيغة. ورغم تنوع التفاصيل، فإن

الشكل العام للعبة نفسه دائماً. أولاً يتجمع اللاعبون، فيستهل أحدهم اللعبة بالعرض، فيرد عليه آخر بالكتلة المعثرة التي من دونها لا تتطور اللعبة. تتحول الكتلة المعثرة عندها إلى عنق زجاجة أو على الأغلب إلى ورطة أو دائرة شر. إن حدثت ورطة واحدة مع دائرة شر واحدة في الوقت نفسه، ينتج عنهما مأزق قد يستمر لأسابيع. عندها أحد ما يلعب الزحف. الزحف يمكن من إنتاج صيغة، وبإيجاد الصيغة يمكن للاعبين الذهاب إلى بيوتهم تاركين كل شيء كما كان في البداية.

في لحظة الكتابة، تغطت الصفحة الأولى من جريدتي الصباحية بطفح قرنفلي من التفاؤل. بدا أن كل شيء سيكون على ما يرام أخيراً. سيوافق الروس على تفتيش الأسلحة، وسيدول الأمريكيون القنبلة الذرية. في صفحة أخرى من نفس الجريدة، هناك تقارير عن الأحداث في اليونان التي ارتفعت إلى حالة حرب بين مجموعتي القوى اللتين كانتا حميمتين جداً في نيويورك.

لكن بينما تستمر لعبة الورطات وأعناق الزجاجات، تُقام لعبة أخرى أكثر خطورة أيضاً تحكمها بديهتان اثنتان. الأولى ليس هناك سلام من دون تنازل عام عن السيادة: الأخرى ليس هناك بلاد تستطيع الدفاع عن سيادتها إن تنازلت عنها أبداً. إن ظل المرء يتذكر هاتين البديهتين، يستطيع عموماً رؤية الوقائع المتعلقة بالموضوع في الشؤون الدولية عبر الستارة الدخانية التي تغلفها بها الصحف. الآن الوقائع الرئيسية:

١- مهما يقول الروس، فإنهم لن يوافقوا على تفتيش حقيقي لأراضيهم من قبل مراقبين أجانب.

٢- مهما يقول الأمريكيون، فإنهم لن يفوتوا الطليعة التكنولوجية في التسلح.

٣- لا توجد هناك الآن بلاد في حالة تسمح لها بخوض حرب رئيسية شاملة.

هذه هي الأضداد الحقيقية في اللعبة في الوقت الحاضر، رغم أنها قد تُبطل لاحقاً، ويقترب المرء من الحقيقة أكثر بتذكرها بشكل ثابت، بدلاً من الابتهاج واليأس من الدجل اليومي للمؤتمرات.

التريبيون - ٢٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٦

هناك إعلان في صحيفة الأحد التي أقرأها، قد حدد بشكل صورة الأشياء الأربعة المطلوبة من أجل عيد ميلاد ناجح. في أعلى الصورة ديك رومي مشوي وفي أسفله حلويات عيد الميلاد، وتحتها طبق من الفطائر المقطعة، وتحت ذلك صفيحة من ليفر سولت (نوع من المسهل).

هي وصفة بسيطة للسعادة. أولاً وجبة الطعام ثم الترياق ثم وجبة أخرى. كان الرومان القدماء سادة كبار في هذه التقنية. على كل حال، بعد أن فتشت عن كلمة فوميتوريوم في معجم لاتيني، وجدت أخيراً أنها لا تعني المكان الذي تذهب إليه لتتخم وتصاب بالغثيان بعد وجبة طعام رئيسية. لذلك ربما هذه ليست صفة مميزة في كل بيت روماني كما يعتقد على نحو شائع.

يتضمن الإعلان المذكور آنفاً فكرة أن وجبة الطعام الجيدة تعني وجبة تتخم نفسك فيها. من حيث المبدأ أنا أوافق. أنا أضيف فقط بين هلالين: حين نتخم أنفسنا في عيد الميلاد هذا إن توفرت لنا الفرصة لنتخم أنفسنا، يجدر بنا أن نفكر بآلاف ملايين البشر الذين لن يكون بمقدورهم فعل الشيء عينه. إن عشاءات عيد ميلادنا ستكون أكثر أماناً على المدى البعيد إن استطعنا التأكد من أن كل شخص لديه عشاء ميلاده أيضاً. سأعود إلى ذلك في الحال.

إن الحافز المعقول الوحيد لعدم الإفراط في الطعام حتى التخمة في عيد الميلاد، هو الشعور بوجود شخص آخر يحتاج إلى الطعام أكثر منك. عيد ميلاد متقشف بشكل متعمد سيكون منافياً للعقل. المغزى التام لعيد الميلاد هو الانغماس في الملذات- عيد ربما ثبت تاريخه بشكل اعتباطي قبل ولادة المسيح بوقت طويل- الأطفال يعرفون هذا جيداً، فعيد الميلاد من وجهة نظرهم يوم من الاستمتاع المعتدل، لكنه بملذات قوية وهم مستعدون لدفع ثمنها بمقدار معين من الألم. الاستيقاظ في الساعة الرابعة صباحاً لتفتيش الجوارب، والشجارات على الدمى منذ الصباح، وهبات الروائح المثيرة للحم المفروم والبصل التي تنبعث من باب المطبخ، والمعركة مع الصحون الكبيرة الممتلئة بالديك الرومي، وانتزاع عظم الترقوة، وتعتيم النوافذ، ودخول حلوى البرقوق المتوهجة، والسرعة للتأكد أن كل واحد لديه قطعة على طبقه، والبراندي المضطرم، والذعر الخاطف حين يشاع أن بيبي ابتلع قطعة الثلاث بنسات، والخدر طيلة فترة ما بعد الظهر، وكعكة عيد الميلاد باللوز والحلوى السميكة، والتبرم في الصباح التالي، وزيت الخروع في السابع والعشرين من ديسمبر/ كانون الأول- إنها مسألة متغيرة، وهي بالتأكيد ليست مسرة بكل معنى الكلمة، لكنها جديرة بلحظاتها المثيرة جداً.

يصدم اللاكحوليون والنباتيون دائماً من هذا الموقف، فهم يرون أن الهدف المنطقي الوحيد هو تجنب الألم والبقاء حياً لأطول فترة ممكنة. إذا امتنعت عن شرب الكحول أو أكل اللحم أو أي كان، فمن المتوقع أن تعيش خمس سنوات إضافية، أما إذا أتخمت نفسك بالطعام والشراب،

فستدفع ثمن ذلك في ألم بدني حاد في اليوم التالي. هل من المؤكد أن ذلك يؤدي إلى القول بأن كل إفراط حتى لو حدث مرة واحدة في السنة كعيد الميلاد، يجب تفاديه كأمر بديهي؟

في الواقع ليس الأمر كذلك. قد يقرر المرء بمعرفة تامة لما يفعل. إن قضاء وقت جيد عرضياً يستحق الضرر الذي يحدثه على الكبد، لأن الصحة ليست الشيء الوحيد المهم، فهناك الصداقة وكرم الضيافة والكحول القوي وتغيير طريقة النظر إلى الأشياء التي يحصل عليها المرء بواسطة الأكل والشرب مع صحبة طيبة نافعة أيضاً. أشك إن كان حتى السكر التام يضر، بشرط أن يكون نادراً-لنقل مرتين في السنة. إن التجربة تشمل التوبة فيما بعد، وتحدث نوعاً من الراحة القصيرة من الروتين العقلي مثل عطلة نهاية الأسبوع في بلاد أجنبية، ربما تكون مفيدة.

في كل العصور، أدرك الرجال هذا، ويوجد إجماع واسع في الرأي يمتد إلى الماضي إلى أيام ما قبل الأبجدية، بأن الإفراط في الشراب والطعام عادة سيئة، بينما تناول الطعام والشراب والولائم والابتهاج عادة جيدة، حتى ولو شعر المرء أحياناً بالأسف على ذلك في الصباح التالي. ما أكثر الأدب الذي كتب عن الأكل والشرب وخصوصاً الشرب، وما أقل ذلك الأدب الجدير الذي قيل عن الجانب الآخرا مرتجلاً لا أستطيع تذكر قصيدة واحدة كتبت في مديح الماء أي باعتبار الماء شراباً. من الصعب تخيل ما يمكن أن يقوله المرء عنه. إنه يطفئ العطش: هذه نهاية القصة. أما بالنسبة إلى القصائد في مدح الخمر من الجانب الآخر، حتى التي نجت منها، فإنها تملأ رفاً من الكتب. بدأ الشعراء بالتوافد منذ اليوم الذي اكتشف فيه تخمير العنب لأول مرة. الويسكي والبراندي والمسكرات المقطرة الأخرى مُدحت ببلاغة أقل جزئياً، لأنها أتت بعده زمنياً. لكن البيرة نالت قدراً جيداً من الطباعة بدءاً من العصور الوسطى، قبل أن يتعلم أحد وضع حشيشة الدينار فيها. الغريب جداً أنني لا أستطيع تذكر قصيدة واحدة في مديح البيرة القوية الداكنة أو البيرة السوداء القوية التي هي أفضل من التنويعة المعبأة في زجاجات برأيي. يوجد وصف مقزز جداً في يوليسيس لرواقيد الجعة القوية الداكنة في دبلن، لكن هناك نوعاً من الإجلال غير المباشر للبيرة الداكنة في الواقع، لذلك فإن هذا الوصف رغم شهرته الواسعة، لم يفعل الكثير في منع الايرلنديين من مشروبهم المفضل.

أدب الأكل واسع أيضاً، لكن أغلبه نثر. لكني لا أتذكر مقطعاً واحداً يضع الاهتمامات الحميوية أولاً عند كل الكتاب الذين استمتعوا بوصف الطعام من رابيلياس إلى ديكنز ومن

بيترونيوس إلى السيدة بيتون. دائماً تشعر أن الطعام غاية بحد ذاته. لم يكتب أحد نثراً بارزاً عن الفيتامينات أو أخطار الإفراط في البروتينات أو أهمية مضغ كل شيء اثنين وثلاثين مرة. عموماً يبدو أن هناك حملاً ثقيلاً وقوياً من الدلائل لصالح الإفراط في الأكل والشرب -بشرط أن يحدثا في مناسبات مميزة وليس بشكل متكرر جداً.

لكن هل ينبغي أن نفرط في الطعام والشراب في عيد الميلاد هذا؟ يجب ألا نفعل، ولا يجب أن يحظى أغلبنا بالفرصة. أنا أكتب في مديح عيد الميلاد، لكن في عيد ميلاد عام ١٩٤٧ أو ربما ١٩٤٨. إن العالم ككل ليس في حالة أعياد هذه السنة. بين الراين والباسيفيكي، لا يمكن أن يكون هناك عدد كبير جداً من الناس يحتاجون إلى المسهل. في الهند هناك -وكان دائماً- حوالي ١٠٠ مليون شخص يحصلون على وجبة واحدة في اليوم، وفي الصين الأحوال مثلها بلا شك. في ألمانيا والنمسا واليونان وأماكن أخرى، عشرات الملايين من الناس يحيون على حمية تحفظ أنفاسهم في أجسادهم، لكنها لا تترك أية قوة فيهم من أجل العمل. في كل أرجاء المناطق التي دمرتها الحرب من بروكسل إلى ستالينغراد، هناك ملايين أخرى لا تحصى من الناس يعيشون في أقبية البيوت المقصوفة بالقنابل وفي مخابئ في الغابات أو في أكواخ حقيرة خلف أسلاك شائكة. ليس مسراً جداً أن تقرأ في وقت واحد تقريباً أن حصة كبيرة من الديكة الرومية في عيد ميلادنا ستأتي من هنغاريا، وأن الكتاب والصحفيين الهنغاريين -يفترض أنهم ليسوا الشريحة الأسوأ أجراً في المجتمع- في عوز يائس، لدرجة يسعدهم أن يتلقوا هدايا من السكرين والثياب المهملة من المتعاطفين الإنكليز. في هكذا ظروف، لا نستطيع أن يكون لدينا عيد ميلاد لائق، حتى لو تواجدت المواد اللازمة له.

لكن سيكون لدينا عيد عاجلاً أو آجلاً في ١٩٤٧ أو ١٩٤٨ أو ربما حتى في ١٩٤٩ وحينئذ ربما لن تكون هناك أصوات النباتيين الكئيبة أو اللاكحوليين التي تنتقدنا على أشياء نقوم بها لتبطين معدنا. يحتفل المرء بوليمة لذاتها، وليس لأي منفعة مفترضة في تبطين لبطوننا. في الوقت الراهن عيد الميلاد هنا أو اقترب. سانتا كلوز يسوق رنته، وساعي البريد يتهادى من باب إلى آخر تحت كيسه المتنفخ ببطاقات أعياد الميلاد، والأسواق السوداء تنشط واستوردت بريطانيا أكثر من ٧ آلاف صندوق شحن من الهذال من فرنسا. لهذا أتمنى لكل واحد عيد ميلاد من الطراز القديم في عام ١٩٤٧، وفي الوقت الراهن نصف ديك رومي وثلاث مندرينات وقنينة من الويسكي، بثمن ليس أكثر من ضعف الثمن القانوني.

٢٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٦

في مكان ما أو آخر - أعتقد في مقدمته لكتاب القديس جون -يلاحظ برنارد شو أننا اليوم عرضة أسهل للخداع والخرافات مما كنا عليه في العصور الوسطى، ويقتبس مثالاً عن السذاجة العصرية في الاعتقاد المنتشر جداً بأن الأرض كروية. يقول شو إن الشخص العادي لا يستطيع أن يقدم دليلاً واحداً للاعتقاد بكروية الأرض. هو يقبل بهذه النظرية لأن فيها شيئاً يجذب إلى عقلية القرن العشرين.

إن شو يبالغ، لكن هناك شيئاً فيما يقوله، والسؤال يستحق المتابعة بسبب الضوء الذي يلقيه على المعرفة الحديثة. لماذا نصدق أن الأرض كروية؟ أنا لا أتكلم عن بضعة آلاف من الفلكيين والجغرافيين وهلم جرا، الذين يمكنهم إعطاء دليل عيني أو لديهم معرفة نظرية بالدليل، وإنما عن المواطن العادي الذي يقرأ الصحف مثلكم ومثلي.

بالنسبة إلى نظرية الأرض المسطحة، أعتقد أنني أستطيع تفنيدها. إن وقفت بجانب الشاطئ في يوم صحو، ترى صواري السفن غير المرئية ومداخنها تعبر على طول خطوط الأفق. هذه الظاهرة لا تفسر إلا بافتراض أن سطح الأرض مقوس. لكن هذا لا يؤدي أن الأرض كروية. تخيل نظرية أخرى تسمى نظرية الأرض البيضوية التي تزعم أن شكل الأرض مثل البيضة. ماذا أستطيع القول ضدها؟

ضد رجل بيضوية الأرض، فإن الورقة الأولى التي أستطيع أن ألعبها هي تشابه الشمس والقمر. رجل بيضوية الأرض يرد فوراً: أنا لا أعرف، من خلال رصدي ومراقبتي أن تلك الأجسام كروية. أنا أعرف فقط أنها مدورة وربما تكون أقراصاً مسطحة. أنا لا أعرف جواباً لهذا السؤال. بالإضافة إلى ذلك يتابع قائلاً: أي مبرر لدي للاعتقاد أن شكل الأرض يجب أن يكون مثل شكل الشمس والقمر؟ لا أستطيع الرد على هذا السؤال أيضاً.

في ورقتي الثانية هي ظل الأرض: حين تلقي بظلها على القمر أثناء الكسوف تبدو ظل شيء مدور. لكن كيف أعرف، يطالب رجل بيضوية الأرض أن كسوف القمر يسببه ظل الأرض؟ الرد هو أنا لا أعرف، لكننا أخذنا هذه المعلومة بشكل أعمى من مقالات الجرائد وكتيبات العلم.

بعد هزيمتي في المحاججة الثانوية، ألعبُ الآن ورقتي الرابحة ملكة البستوني: رأي الخبراء وعلماء المجمع الفلكي الملكي الذين يفترض أنهم يعرفون، أخبروني أن الأرض مدورة. يغطي رجل بيضوية الأرض الملكة بملكه. هل اختبرت تصريح المجمع الفلكي الملكي وهل أعرف حتى طريقة لاختباره؟ هنا أخرج الآس. نعم أنا أعرف اختبارا واحداً. يستطيع علماء الفلك التنبؤ بالكسوف، وهذا يوحي أن آراءهم عن النظام الشمسي صحيحة ومعقولة. لذلك هذا يبرر لي قبولي بما يقولونه عن شكل الأرض.

يرد رجل بيضوية الأرض -ما أعتقد أنه صحيح- إن قدماء المصريين، الذين اعتقدوا أن الشمس تدور حول الأرض، استطاعوا التكهن بالكسوف. لم يبق لي سوى ورقة واحدة: الملاحة. يستطيع الناس الإبحار بالسفن حول العالم ويصلون إلى الأماكن التي يتوجهون إليها، بحسابات تفترض أن الأرض كروية. أعتقد أن هذا يقضي على رجل بيضوية الأرض، لكن ربما يكون لديه بعض الرد والصد.

يتبين من مبرراتي للاعتقاد، أن فكرة أن الأرض كروية هي فكرة مقلقلة ومشكوك فيها. لكن هذه معلومة أولية بشكل استثنائي. في أغلب الأسئلة الأخرى، كان يجب أن أعتمد على الخبير بوقت سابق بكثير لهذا، ويجب أن أكون أقل قدرة على اختبار تصريحاته وتأكيداته. والقسم الأكبر من معرفتنا في هذا المستوى، لا تستند إلى التفكير المنطقي أو التجربة وإنما على السلطة والنفوذ. وكيف لها أن تكون غير ذلك، حين يكون مدى المعرفة واسعاً جداً كهذا، لدرجة أن الخبير نفسه يصبح جاهلاً فور انحرافه عن تخصصه الخاص به؟ أغلب الناس إن سئلوا ليثبتوا أن الأرض كروية، لن يهتموا بإنتاج الحجج الضعيفة التي أوجزتها آنفاً حتى. يبدؤون بالقول "كل واحد يعرف" أن الأرض كروية وإن ضغطت أكثر يغضبون. بطريقة ما فإن شو على حق. هذا عصر ساذج، وعبء المعرفة الذي علينا أن نحمله الآن، مسؤول جزئياً.

ربما تختلف الآراء حول قرار الحكم في قضية التشهير بالبروفيسور لاسكي. لكن حتى لو شعر المرء أن الحكم كان مبرراً تقنياً، فأعتقد أنه يجب أن نتذكر أن البروفيسور لاسكي اعتبر هذا الفعل في الحقيقة مصلحة وفائدة لحزب العمل. كان حادثاً في الانتخابات العامة - جواب، شعر أنه ضروري في وقته، على الدعاية المعادية للحمر من جانب الصحافة المحافظة.

لذلك سيكون من الإجحاف الشديد أن يترك ليدفع الكلف الثقيلة جداً لوحده. ربما أنا أذكّر كل واحد مرة أخرى أن تلك المساهمات يجب أن ترسل إلى مورغان فيليبس سكرتير حزب العمل، ترانسبورت هاوس.

ستؤدي قصية لاسكي على الأرجح إلى إثارة نقاشات أخرى عن تركيب هيئة المحلفين وخصوصاً هيئة المحلفين الخاصة، لكني كنت أتمنى لو كان لها أثر طارئ للفت انتباه الناس مرة أخرى إلى الحالة الراهنة لقانون التشهير.

أعتقد أن مهنة التشهير، مثل غيرها من المهن، مرّت بفترة خمود أثناء الحرب، لكن قبل بضعة سنين من ذلك كانت جلبة أعمال التشهير التافهة جلبة رئيسية وكابوساً للمحررين والناشرين والمؤلفين والصحفيين على السواء. صرح بعض الناس أن الأفضل لو ألغيت قوانين التشهير تماماً، أو على الأقل أصبحت أقل صرامة، لكي يكون للصحف الكثير من الحرية التي كانت لها في فرنسا قبل الحرب مثلاً. أنا لا أستطيع أن أوافق على هذا. إن الناس الأبرياء لهم الحق في الحماية ضد القذف وتشويه السمعة. لم تثر الضجة لأن القانون صارم بشكل مفرط، وإنما لأنه أصبح من الممكن أن يصيبك ضرر عن تشهير لم تعانِ بسببه أي خسارة مالية سابقاً.

إن الأكثر تضرراً، ليس الصحف الكبيرة التي تملك قافلة من المحامين الموكلين وتستطيع أن تدفع الأضرار، وإنما الناشرون والدوريات الصغيرة. أنا لا أعرف فقرات القانون الدقيقة، لكن من خلال مقابلات مع محامين مروعين كنت أقتنيها أحياناً قبل أن يذهب كتاب للطباعة، جمعت أنه من شبه المستحيل أن تخترع شخصية افتراضية قد لا تعتبر صورة عن الشخص الحقيقي. في النتيجة، إن عمل التشهير الابتزازي طريقة سهلة لجني المال من دون تعب. دور النشر والدوريات على الأكثر مؤمنة ضد التشهير إلى مبلغ محدد، مما يعني أنها ستدفع طلباً صغيراً بدلاً من خوض معركة. في إحدى القضايا، سمعت عن التواطؤ الذي مورس حتى. دبرَ ألف تشهيراً بحق باء وهدّد باء بمعركة، وتقاسم الاثنان العوائد.

يبدو لي أن الطريقة إلى تصحيح هذا، هي التأكيد على أن فعل التشهير لا يمكن أن يكون مربحاً. يجب ألا يدفع لقاء أي ضرر إلا إذا تبين أن هناك خسارة فعلية قد حدثت. من جانب آخر، حيث يثبت التشهير، يجب على الطرف المذنب أن يتراجع عن أقواله كتابياً، وهذا لا

يحدث عادة في الوقت الحاضر. إن الصحف الكبيرة ستكون خائفة أكثر بكثير من دفع أضرار بقيمة ١٠٠ ألف جنيه، لكن إن لم يكن هناك مدفوعات مالية، فسيختفي دافع أعمال الابتزاز.

أرسل إلي مترسل نسخة من إحدى المجلات الهزلية الأمريكية التي أشرت إليها منذ بضعة أسابيع. القصتان الرئيـسيتان اللتان في المجلة، هما عن مخلوق جميل يسمى هانغمان، الذي له وجه أخضر، ومثل الكثير جداً من شخصيات الرسوم الهزلية الأمريكية، يستطيع الطيران. على الصفحة الأمامية هناك صورة لمجنون يشبه القرد أو لقرد حقيقي ألبسوه ثياب إنسان، يخنق امرأة بشكل محسوس جداً، لدرجة أن لسانها برز إلى خارج فمها بطول أربع بوصات. مادة أخرى، ثعبان كبير جداً التف حول رقبة رجل ثم شنقه بتعليق نفسه فوق درابزون. رجل آخر يقفز من نافذة ناطحة سحاب ويصطدم بالرصيف بعنف. هناك الكثير الآخر من نفس النوع.

سألني المرسل إن كنت أعتقد أن هذا النوع من الشيء يجب أن يوضع بأيدي الأطفال، وأيضاً إن كنا نستطيع أن نجد شيئاً أفضل ننفق عليه نقودنا المتضائلة.

بالتأكيد أنا سأبعد هذه الأشياء عن أيدي الأطفال إن أمكن ذلك. لكن أنا لست موافقا على منع بيعها. السابقة خطيرة جداً. لكن في الوقت الحالي، هل نحن فعلاً نستخدم دولارات لدفع ثمن هذه النفاية المميتة؟ النقطة ليست غير مهمة تماماً، وأنا أحب أن أراها محلولة.

٣ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٧.

قبل ربع قرن تقريباً، كنت أسافر على متن باخرة إلى بورما. كانت باخرة مريحة ومترفة، ولكنها ليست كبيرة، وحين لا يكون المرء نائماً أو يلعب فإنه يكون يأكل عادة. كانت الوجبات من النوع المدهش الذي كانت شركات البواخر تتنافس في إنتاجه. وفي الأوقات الفاصلة بين الوجبات، هناك وجبات خفيفة مثل التفاح والمثلجات والبسكويت والحساء، كي لا يجد المرء نفسه خائراً من الجوع. بالإضافة إلى ذلك، فإن الحانات تفتح في الساعة العاشرة صباحاً. وبما أننا كنا في البحر، فقد كانت المشروبات الكحولية رخصية نسبياً.

إن أغلب العاملين على سفن هذا الخط هم من الهنود. وبالإضافة إلى الضباط والمضيفين، تحمل السفن ضباطاً أوروبيين صغاراً وظيفتهم إدارة الدفة. واحد من هؤلاء الضباط الصغار،

رغم أنه لم يتجاوز سن الأربعين كما أتوقع، كان واحداً من هؤلاء البحارة القديمين الذي يتوقع أن ترى الإوز ينمو على ظهره (بارناكلز). كان قصيراً قوياً أشبه بالقرد مع ذارعين ضخمين يغطيهما شعر ذهبي كثيف كالحصيرة. شارب أشقر ربما ينتمي إلى شارلمان يحجب فمه تماماً. كنت في العشرين من عمري فقط، وكنت خجلاً من وضعي الطفيلي كمجرد مسافر، ورأيت في البحارة الصغار وخصوصاً صاحب الشعر الأشقر كائنات شبه إلهية على قدم المساواة مع الضباط. لم يخطر لي أن أكلم أحدهم من دون أن يكلمني هو أولاً.

في أحد الأيام، لسبب ما، نهضت عن وجبة الغداء مبكراً. كان ظهر السفينة فارغاً إلا من الضابط ذي الشعر الأشقر، الذي كان يعدو مثل جرذ بمحاذاة الغرف التي على متن السفينة مع شيء تخفيه جزئياً يداه الضخمتان. كان لدي الوقت لأرى ماذا في يديه قبل أن يتجاوزني ويختفي في أحد المداخل. كان طبق فطائر سمك وفيه حلوى بالكريم مخبوزة ومأكول منها.

في لمحة، فهمت الوضع -في الحقيقة كان شعور الرجل بالذنب جلياً. كانت الحلوى بقايا من إحدى طاولات المسافرين، أعطاها له أحد المضيفين بشكل ممنوع ليلتهمها براحته. بعد أكثر من عشرين سنة مازلت أشعر بالصدمة والدهشة التي أصابتني في تلك اللحظة. ولم أفهم الحدث في كل أوجهه إلا بعد بعض الوقت: لكن هل أبدو مبالغاً حين أقول إن هذا الاكتشاف المفاجئ للفجوة بين الوظيفة والمكافأة- الاكتشاف بأن صاحب حرفة ماهر، يحمل أرواحنا كلنا بيديه، كان سعيداً بسرقة طعام من طاولة- علمني أكثر مما تعلمته من نصف دزينة من الكراسات الاشتراكية؟

خبر يتعلق بانشغال يوغسلافيا الآن في حملة تطهير ضد الكتاب والفنانين، جعلني أنظر مرة أخرى إلى التقارير عن أعمال التطهير الأدبية في الاتحاد السوفييتي، حين طرد زوشينكو وأخماتوفا وغيرهما من اتحاد الكتاب.

في إنكلترا لم يحدث هذا الشيء لنا بعد، لذلك نستطيع رؤيته بتحيز مؤكد. والغريب جداً وأنا أنظر مرة أخرى إلى تفاصيل ما حدث، أشعر بأسف من أجل المضطهدين أكثر مما أشعر نحو ضحاياهم. الرئيس بين المضايقين أندريه جدانوف الذي يعتبره البعض خليفة ستالين المحتمل. جدانوف رغم أنه أدار عمليات تطهير أدبية سابقاً، هو سياسي متفرغ -الحكم عليه

من خطاباته- معرفته بالأدب مثل معرفتي بعلم الايروديناميك. وهو لا يترك انطباعاً وفقاً لتعابيره بأنه رجل شرير أو مخادع. لقد صدم بارتداد وانشقاق بعض الكتاب السوفييت، ورأى ذلك خيانة غير مفهومة مثل تمرد عسكري في خضم معركة. إن الغرض من الأدب، هو تمجيد الاتحاد السوفييتي. وهذا يجب أن يكون واضحاً لكل شخص؟ لكن بدلاً من تنفيذ واجبهم البسيط والواضح، انحرف هؤلاء المضللون عن دروب الدعاية، وأنتجوا أعمالاً غير سياسية. وفي حالة زوشينكو سمحوا لملاحظة هجائية في التسلل إلى داخل كتاباتهم. شيء مؤلم جداً ومحير. كما لو أنك تكلف رجلاً بالعمل في مصنع ممتاز وحديث ومكيف وتعطيه أجراً عالياً وساعات عمل قصيرة ومطعماً متنقلاً جيداً وملاعب وشقة مريحة ومدرسة حضانة لأولاده وتأميناً اجتماعياً كاملاً وموسيقى وهو يعمل -لكنك تجد رجلاً جاحداً يرمي مفاتيح الربط في الآلة في يومه الأول.

ما يجعل الأمر برمته محزناً ومثيراً للشفقة، هو القبول العام-اعتراف صادق، بالنظر إلى أن المعلقين السوفييت ليسوا في عادة انتقاد بلادهم- بأن الأدب الروسي جملة ليس ما ينبغي له أن يكون. بما أن الاتحاد السوفييتي يمثل أرفع شكل قائم من الحضارة، فمن الواضح أنه يجب أن يقود العالم في الأدب كما يقوده في كل شيء آخر. يقول جدانوف: "بالتأكيد نظامنا الاشتراكي قادر على خلق الأدب الأكثر تقدماً، الذي سيترك وراءه وعلى مسافة كبيرة أفضل إبداعات العصور القديمة" (إزفيزتيا كما اقتبسته الصحيفة النيويوركية بوليتيكس) ويتمادى أكثر: "ثقافتنا ستقف على مستوى أعلى بما لا يقاس من الحضارة البرجوازية..... أليس واضحاً أن ثقافتنا لها الحق ألا تقوم بدور التلميذ والمقلد، وإنما على العكس، أن تعلم الآخرين الأخلاق الإنسانية العامة؟". ومع ذلك، فإن الشيء المتوقع منها لم يحدث بعد. تصدر التوجيهات، تمر القرارات بالإجماع، تكمم أفواه الكتاب المتمردين: ومع ذلك لسبب ما لم يظهر أدب نشيط وأصيل متفوق بشكل جلي على أدب البلدان الرأسمالية.

هذا كله حدث سابقاً وأكثر من مرة. لقد مرت حرية التعبير بصعود وهبوط في الاتحاد السوفييتي، لكن الميل العام كان يتجه نحو رقابة أضيق. الشيء الذي لم يفهمه السياسيون على ما يبدو، أنك لا تستطيع أن تنتج أدباً نشيطاً وقوياً بواسطة إرهاب كل شخص على الامتثال والخضوع والانسجام. قدرات الكاتب لن تعمل إذا لم يسمح له أن يقول ما يشعر به تقريباً.

تستطيع تدمير العفوية وإنتاج أدب تقليدي لكنه واهن، أو تستطيع أن تدع الناس يقولون ما يختارونه وتتحمل المخاطرة بأن ينطق بعضهم بالهرطقات. ليس هناك مخرج من هذه الورطة طالما ظلت الكتب تكتب بواسطة أفراد.

لهذا السبب أنا أشعر بحزن على المضايقين أكبر من حزني على الضحايا. ربما ارتاح زوشينكو وآخرون غيره على الأقل في فهم ما يحدث لهم: السياسيون الذي يغيرون عليهم ويضايقونهم يحاولون المستحيل فقط. يبدو القول "الاتحاد السوفييتي يستطيع البقاء والحياة من دون الأدب" بالنسبة إلى جدانوف وأمثاله معقولاً. لكن ذلك هو الذي لا يستطيعون قوله. هم لا يفهمون ما هو الأدب، لكنهم يعرفون أنه مهم وأن له قيمة اعتبارية، وأنه ضروري لأغراض الدعاية، وأنهم يحبون تشجيعه لو عرفوا كيف. لهذا هم يستمرون في أعمال التطهير وإصدار التوجيهات مثل سمكة تضرب أنفها بجدار الحوض مرة تلو أخرى، وأغبى من أن تدرك أن الزجاج والماء ليسا الشيء نفسه.

من أفكار الإمبراطور ماركوس أوريليوس:

في الصباح حين تستيقظ وأنت كاره، دع هذه الفكرة تكون حاضرة- أنا أستيقظ للعمل من أجل كائن بشري. لماذا إذاً أنا مستاء إن كنت سأقوم بعمل أشياء أنا أحيا وموجود من أجلها، ومن أجلها ولدت في هذا العالم؟ أم هل أنا خلقت لهذا، للاستلقاء على ملاءات السرير وتدفئة نفسي؟ لكن هذا مرضي أكثر -هل أنت موجود وتحيا للاستمتاع وليس للعمل أو الجهد أبداً؟ ألا ترى النباتات الصغيرة والطيور الصغيرة والنمل والعناكب والنحل تعمل معاً لتنظم أقسامها العديدة من الكون؟ وهل أنت كاره أن تقوم بعمل الكائن البشري، وألم تستعجل في فعل ذلك طبقاً لطبيعتك؟

إن طبع هذا الوعظ والحض الشهير بأحرف كبيرة وتعليقه على الجدار المقابل لسريرك هو خطة جيدة. وإن فشل ذلك، فهناك خطة جيدة أخرى، وهي أن تشتري ساعة منبه صوتها عالٍ وتضعها في موقع، ويجب عليك أن تخرج من سريرك وتلف حولها قطعاً كثيرة من الأثاث حتى تخرسها.

التريبيون ١٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٧.

علاقات الشخص مع جريدة أو مجلة ما متغيرة ومتقطعة أكثر مما تكون مع كائن بشري. من حين إلى آخر قد يصبغ الكائن البشري شعره أو يتحول إلى الكاثوليكية الرومانية، لكنه لا يستطيع تغيير نفسه بشكل جوهري، بينما تمر الدورية بسلسلة كاملة من الكينونات المتنوعة تحت الاسم نفسه. كانت التريبيون في حياتها القصيرة صحيفتين اثنتين مميزتين إن لم تكن ثلاث، واتصالاتي معها تنوعت بحدة. فقد بدأت، إن كنت أتذكر بشكل صحيح، بطرق وضرب على مفاصل الأصابع. لم أعلم بوجود التريبيون حتى عام ١٩٣٩ . بدأت في أوائل عام ١٩٣٧ لكن في الأشهر الثلاثين التي تخللت الفترة التي قبل اندلاع الحرب، أمضيت خمسة أشهر منها في المستشفى وثلاثة عشر شهراً خارج البلاد. ما لفت انتباهي أولاً في اعتقادي كان مراجعة نقدية غير ودية أبداً لواحدة من رواياتي. خلال الفترة بين ١٩٣٩ و١٩٤٢ كتبت ثلاثة أو أربعة كتب وأعيد طبعها. وأعتقد أنه من الصحيح أنني لم أحظَ أبداً بما يسمى مراجعة نقدية "جيدة" في التريبيون، حتى بعد أن أصبحت عضواً في هيئتها. (الحدثان غير مرتبطين). في وقت لاحق من شتاء عام ١٩٣٩ البارد، بدأت أكتب للتريبيون، لكن في البداية والغريب جداً من دون أن أراها بشكل منتظم أو أكون فكرة واضحة عن نوعها كصحيفة. ريموند بوستغيت الذي كان رئيس التحرير آنذاك، طلب مني أن أكتب مراجعات نقدية للروايات بين الحين والآخر. لم يدفع لي أجراً (حتى وقت متأخر، كان من غير العادي أن يدفع للمشاركين من الجناح اليساري) ولم أرَ الجريدة إلا في مناسبات نادرة حين كنت أذهب إلى لندن وأزور بوستغيت في مكتب مجرد من الأثاث ومغبر قرب سور لندن. تريبيون (حتى وقت متأخر كان الكل يسميها (ال) تريبيون) كانت تمر بظروف صعبة في ذلك الوقت. كانت جريدة الثلاثة بنسات، هدفها الأولي هم العمال الصناعيين، وتتبع تقريباً خط الجبهة الشعبية التي تحالفت مع نادي الكتاب اليساري والعصبة الاشتراكية. مع اندلاع الحرب، تعرضت لضربة قاسية، لأن الشيوعيين وأشباه الشيوعيين الذين كانوا من أشد مؤيديها، رفضوا الآن أن يساعدوا في توزيعها. بعضهم استمر في الكتابة لها، وعلى كل حال استمر النزاع العقيم بين "المؤيدين" و"المعارضين" للحرب باللعلعة على أعمدة الصحف، بينما كانت الجيوش الألمانية تتجمع وتحتشد من أجل هجمات الربيع. في وقت مبكر من عام ١٩٤٠ كان هناك اجتماع واسع في قاعة عامة، وكان

الغرض منه مناقشة مستقبل التريبيون وسياسة الجناح اليساري لحزب العمال. كالعادة في مثل هذه المناسبات، لم يقل شيء محدد جداً، وما أتذكره بشكل رئيسي هو فكرة سياسية مفيدة تلقيتها من مصدر داخلي. انتهت حملة النرويج بكارثة، ومشيت إلى القاعة ومررت بالملصقات الكئيبة. اثنان من أعضاء البرلمان لن أسميهما وصلا للتو من مبنى البرلمان.

"ما هي الفرصة الموجودة الناتجة عن هذه القضية للتخلص من تشامبرلاين؟" سألت.

"ليس هناك أمل. إنه صلب." قالا كلاهما. لا أتذكر التواريخ لكن أعتقد أنه يمكن أن تكون قبل خروج تشامبرلاين من رئاسة الوزراء بأسبوع أو بأسبوعين.

بعد ذلك، خرجت التريبيون من وعيي لستتين اثنتين، فقد كنت مشغولاً في محاولة كسب الرزق وكتابة كتاب وسط القنابل والخلل العام. وكان الوقت المتوفر لدي يستهلكه الحرس الوطني الذي كان مازال قوة من الهواة، ويحتاج إلى كمية هائلة من العمل من أعضائه. حين أصبحت مدركاً للتريبيون مرة أخرى، كنت أعمل في القسم المشرقي في البي بي سي. إنها الآن صحيفة مختلفة تماماً ولها تركيبة مختلفة، وتكلف ستة بنسات، ومتوجهة نحو السياسة الخارجية بشكل رئيسي، وكانت تكسب جمهوراً جديداً بسرعة من الذين ينتمون إلى فقراء الطبقة الوسطى، وكانت مكانتها عند هيئة العاملين في البي بي سي لافتة جداً. في المكتبات؛ حيث ذهب المعلقون ليجهزوا أنفسهم، كانت واحدة من الدوريات المفضلة، ليس لأنها كانت تكتب من قبل أناس عرفوا شيئاً من مصادر موثوقة عن أوروبا فقط، وإنما لأنها كانت آنذاك الصحيفة الوحيدة التي انتقدت الحكومة. ربما "انتقدت" بأنها أكثر من معتدلة. لقد دخل السير ستافورد كريبس في الحكومة، وشخصية انيورين بيفان أعطت الصحيفة نغمتها وأسلوبها. في مناسبة واحدة كانت هناك هجمات عنيفة بشكل مذهل على تشرشل من قبل شخص سمى نفسه توماس رينزبورو. هذا اسم مزيف بوضوح، وأمضيت فترة بعد الظهر كلها أحاول أن أحدد مؤلف الكتابة من خلال الأسلوب، لأن النقاد الأدبيين الذين وظفهم الجستابو قيل إنهم كانوا يؤلفون كراسات مجهول اسم مؤلفها. أخيراً قررت أن توماس رينزبورو هو فيكتور غالانكس الذي قال لي: "هل تعرف من كتب مقالات رينزبورو في التريبيون؟ سمعت أنه دبليو" هذا جعلني أفخر بنفسي لكوني ذكياً جداً، لكن بعد يوم أو اثنين سمعت أننا نحن الاثنان كنا على خطأ.

خلال هذه الفترة، كنت أكتب للتريبيون بين الفينة والأخرى، لكن على فواصل طويلة لقلة وقتي وطاقتي. على كل حال، في نهاية عام ١٩٤٣ قررت أن أستقيل من وظيفتي في البي بي سي، وطلب مني أن أتولى رئاسة تحرير القسم الأدبي بدلاً من جون أتكينز الذي كان يتوقع التجنيد في الخدمة العسكرية. تابعت كوني محرراً أدبياً بالإضافة إلى كتابة عمود "كما يرضيني" حتى بداية عام ١٩٤٥. كان عملاً ممتعاً، لكنها ليست فترة أنظر إليها وأتذكرها بفخر. الحقيقة أنني لست ماهراً في التحرير. كنت أكره التخطيط المسبق وعندي عجز نفسي وبدني للرد على الرسائل. أغلب ذكرياتي الأساسية عن تلك الفترة، هي سحب درج هنا وآخر هناك لأجد كلاً منها محشواً برسائل ومخطوطات كان ينبغي التعامل معها قبل أسابيع. فكنت أغلقها ثانية بسرعة. أيضاً لدي ميل قاتل لقبول الكراريس التي أعرف جيداً أنها سيئة جداً ويتعذر طبعها ونشرها. يشك أن كان أي واحد لديه تجربة طويلة كصحفي حر ينبغي أن يصبح محرراً. إنه مثل أخذ مجرم من زنزانته وجعله حاكماً للسجن. لكنها تظل تجربة كما يقولون، ولديّ ذكريات دافئة لمكتبي الضيق الصغير الذي يطل على ساحة خلفية، والثلاثة الذين نتقاسمه انحشرنا في الزاوية حين تأتي الطائرة المحملة بالقنابل التي من دون طيار وتصعد عمودياً بسرعة فوقنا، بعد أن تصطدم القنبلة وتنفجر. في وقت مبكر من عام ١٩٤٥ ذهبت إلى باريس كمراسل للأوبزيرفر. للتريبيون مكانة وهيبة مذهلة في باريس والتي يعود تاريخها إلى ما قبل التحرير. من المستحيل شراؤها، والنسخ العشر التي تأتي للسفارة البريطانية أسبوعياً، لا يمكن أن تخرج خارج جدران البناء. مع ذلك كان الصحفيون الفرنسيون الذين التقيت بهم قد سمعوا بها وعرفوا أنها الصحيفة الوحيدة التي لم تؤيد الحكومة من دون حرج، ولم تعارض الحرب، ولم تبلع الأسطورة الروسية.

في ذلك الوقت، كان هناك -أحب أن أتأكد أنها مازالت موجودة- صحيفة أسبوعية اسمها ليبرتيس، كانت العدو النقيض للتريبيون تقريباً التي أنتجت سراً أثناء الاحتلال، وعلى نفس الآلات كما طبعت باريس زيتونغ. ليبرتيس التي كانت معارضة للغوليين من جانب وللشيوعيين من جانب آخر، لم يكن لديها مال، وكانت توزعها مجموعات من المتطوعين على دراجات هوائية. في بعض الأسابيع كانت تشوهها الرقابة، وغالباً لا يبقى من المقال شيئاً سوى العنوان مثل "الحقيقة حول الهند الصينية" وعمود فارغ تماماً تحته. بعد أسبوع أو اثنين

من وصولي إلى باريس، أخذت إلى اجتماع شبه عام لمؤيدي ليبرتيس، ودهشت حين وجدت أن نصفهم تقريباً يعرفون كل شيء عن التريبيون. رجل عامل ضخم في سروال قماشي أسود جاء إليّ وهتف "أنت جورجس أورفيل!" وحطم عظام يدي تقريباً وحولها إلى هريسة. لقد سمع بي، لأن ليبرتيس كانت تترجم مقاطع من التريبيون عادة. أعتقد أن أحد المحررين كان يذهب إلى السفارة البريطانية كل أسبوع ويطلب رؤية نسخة. بدا لي الأمر مؤثراً أن يستطيع المرء اكتساب جمهور من دون معرفته وسط أناس يحبون هذا، بينما لم أصادف واحداً وسط قبيلة ضخمة من الصحفيين الأمريكيين في هوتيل سكرايب بلباسهم الموحد المبهرج ورواتبهم الضخمة قد سمع بصحيفة التريبيون. لستة شهور خلال صيف عام ١٩٤٦ تخليت عن كوني كاتباً في التريبيون، وأصبحت مجرد قارئ، ولا شك أنه من حين إلى آخر سوف أعمل نفس الشيء ثانية؛ لكني آمل أن تستمر رفقتي معها طويلاً، وأتمنى أن أكتب فيها مقالة في العام ١٩٥٧ في عيدها السنوي مرة أخرى. أنا لا أتمنى أن تكون التريبيون قد ذبحت كل منافسيها. لقد أخذت كل الضروب لتخلق عالماً، وإن استطاع المرء تحليل هذه الأشياء، سيكتشف أن حتى تقديم الخدمات هو هدف مفيد. يفترض أن أعرف أن التريبيون ليست كاملة ومثالية، فقد رأيتها من الداخل. لكني أعتقد أنها الصحيفة الأسبوعية الوحيدة الموجودة التي تبذل جهداً صادقاً لتكون تقدمية وإنسانية - أي لتجمع سياسة اشتراكية راديكالية مع احترام لحرية التعبير والموقف الحضاري نحو الأدب والفنون، وأعتقد أن شعبيتها النسبية وحتى بقاءها حية في شكلها الحالي منذ أكثر من خمس سنوات، هي علامة مشجعة.

١٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٧.

في عدد ذا ديلي هيرالد الصادر في الأول من يناير/ كانون الثاني عام ١٩٤٧ هناك عنوان: رجال يؤيدون هتلر هنا، وتحت هذا صورة لهنديين أعلن أنهما بريجال موكرجي وانجيت سينج ووصفا بأنهما جاءا من برلين. عمود الأخبار الذي تحت الصورة يتابع قائلاً إن "أربعة هنود ربما سيتم إعدامهم يقيمون في فندق لندن"، ثم يتابع ليصف جماعة الهنود الذين يبثون من الراديو الألماني أثناء الحرب بـ "المتعاونين". من الجدير الاقتراب أكثر من هذه التصريحات المتعددة.

بداية هناك خطآن على الأقل؛ أولها خطير جداً. انجيت سينج لم يبث شيئاً على الراديو النازي، وإنما من محطات إيطالية فقط، بينما الرجل الذي وصف ببريجال موكرجي هو هندي كان

في إنكلترا خلال فترة الحرب كلها ومعروف جيداً لي ولأناس كثيرين آخرين في لندن. لكن هذه الأغلاط حقيقة علامة عن موقف عقلي يظهر بوضوح أكثر في أسلوب التقرير ولغته.

ما هو الحق الذي يخولنا في وصف الهنود الذين بثوا على الراديو الألماني بـ "المتعاونين" مع العدو؟ كانوا مواطنين لدولة محتلة، يثأرون من سلطة احتلال بالطريقة التي بدت لهم أفضل. أنا لا أقول إن الطريقة التي اختاروها صحيحة. حتى من وجهة نظر ضيقة، تفترض أن استقلال الهند هو القضية المهمة الوحيدة، أعتقد أنهم كانوا مخطئين بشكل فادح، لأنه إن ربحت دول المحور الحرب -وأن جهودهم كان يجب أن تساعد المحور إلى حد ما- لن تستفيد الهند إلا باستبدال سيد قديم بسيد جديد أسوأ.

لكن الخط الذي أخذوه كان خطأً يمكن اعتباره بنية حسنة، ولا يمكن بأي عدل أو حتى بأي دقة وصفه بـ "التعاون". ترفق كلمة "تعاون" عادة مع بائع الوطن. تتضمن أولاً خيانة لبلاد المرء، وثانياً تعاون كامل مع الغازي، وثالثاً اتفاق أيديولوجي أو اتفاق جزئي على الأقل. لكن كيف ينطبق هذا على الهنود الذي وقفوا إلى جانب المحور؟ لم يكونوا خونة لبلادهم -على العكس، كانوا يعملون من أجل استقلالها كما اعتقدوا- ولم يعترفوا بأي التزام نحو بريطانيا. ولم يتعاونوا بنفس طريقة خائن الوطن.. إلخ. سمح الألمان لهم ببث وحدة قالوا فيها ما أحبوه واتبعوا في حالات كثيرة خطاً سياسياً مختلفاً تماماً عن خط المحور. في رأيي كانوا مخطئين ومؤذين، لكن في موقف أخلاقي وبما بتأثير ما فعلوه، كانوا مختلفين عن المرتدين العاديين.

في الوقت الراهن على المرء يفكر ملياً في أثر هذا النوع من الشيء في الهند. صحيح أم خطأ، هؤلاء الرجال سيرحب بهم كأبطال حين يصلون إلى وطنهم، وإهانة الصحافة البريطانية لهم لن يتم التغاضي عنها، ولا المعالجة القذرة للصور. يظهر عنوان "بريجال موكرجي" تحت وجه شخص مختلف كلياً. لا شك أن الصورة أخذت عند استقبال للهنود العائدين من اللجوء أقامه لهم رفاقهم وأبناء وطنهم في لندن، والمصور التقط صورة الرجل الخطأ بالخطأ. لكن أفترض أن الشخص المقصود كان وليام جويس. في تلك الحالة، ألا تعتقد أن الديلي هيرالد ستهتم كثيراً بأنها كانت تلتقط صورة لويليان جويس وليس لأحد آخر غيره- هكذا هي الفكرة الضمنية. وهذا يحدث ليس في الديلي غرافيك وإنما في جريدة العمل الوحيدة.

أتمنى من كل واحد يستطيع الحصول على نسخة، أن يلقي نظرة سريعة على كتاب فيكتور غولانكس الذي نشر حديثاً، في ألمانيا المظلمة جداً. إنه ليس كتاباً أدبياً، لكنه قطعة صحفية رائعة، قصد منها أن تصدم الجمهور في هذه البلاد بنوع من الشعور بالجوع والمرض والفوضى والإدارة السيئة المجنونة السائدة في المنطقة البريطانية. إن مهمة جعل الناس يشعرون بما يحدث خارج دائرتهم الصغيرة، هي إحدى مشاكل عصرنا الرئيسية. إن أخذنا في اعتبارنا أن الناس في هذه البلاد لا يملكون الوقت المريح، فإنك لا تستطيع ربما أن تلومهم لكونهم قساة حول العذاب في مكان آخر. لكن الشيء اللافت وغير العادي، هو المدى البعيد الذي نجحوا في البقاء فيه جاهلين بهذا العذاب. حكايات المجاعات والمدن المدمرة ومعسكرات العمل القسري والترحيل الجماعي واللاجئون المشردون واليهود المضطهدون- كل هذا قوبل بنوع من الاندهاش غير المبالى به، كما لو أن هذه الأشياء لم يسمع بها من قبل قط، لكن في الوقت نفسه لم تكن مشوقة بشكل خاص. أحدثت الصورتان المشهورتان لأولاد مثل الهياكل العظمية انطباعاً قليلاً جداً. مع مرور الوقت وتكدس الرعب، يبدو أن العقل يفرز نوعاً من جهل يحفظ الذات ويحتاج إلى صدمة أقسى وأشد لاختراقه، مثلما يصبح الجسد منيعاً ضد عقار، فيستلزم جرعات أكبر فأكبر.

يتألف نصف كتاب غولانكس من الصور، وقد عمل بحيطة حكيمة فشمل نفسه في عدد جيد منها. هذا يثبت على الأقل أن الصور صادقة وأصلية وتقطع دابر الاتهام الروتيني، وأنها جلبت من وكالة، وأن الأمر "دعاية". لكن أعتقد أن أفضل أداة في الكتاب بعد أوصاف لا تحصى لأناس يعيشون على "حساء البسكويت" والبطاطا والكرنب والحليب المقشود والقهوة البديلة، كانت تضمينه بعضاً من قوائم الطعام ووجبات العشاء. يقول غولانكس إنه كان يدس قائمة طعام واحدة في جيبه كلما كان باستطاعته ذلك، من دون أن يلاحظه أحد، وأنه طبع نصف دزينة منها. هذه هي الأولى منها:

مرق لحم في فناجين -سمك موسى مقلى بالزبدة/ بطاطا طازجة- شرائح لحم هولندية/ بطاطا مهروسة/ قرنبيط - جبن - قهوة.

هذه الأوصاف عن المجاعة في أوروبا، تبدو أنها ترتبط بفقرة بعنوان "تلميح هذا الأسبوع لمحبي الكلاب" قصصتها من الإيفنينغ ستاندارد قبل عيد الميلاد تماماً:

ربما يعاني كلبك شعور "عقابيل عيد الميلاد" إن كنت دللته بالكثير جداً من الأطعمة الشهية. يحب الكثيرون من أصحاب الكلاب السماح لكلابهم بتذوق طعم أي شيء، من دون مبالاة بحقيقة أن مواد كثيرة من أطعمة عيد الميلاد غير المناسبة للكلاب.

لن يكون هناك ضرر دائم، لكن إن بدا الكلب بليداً وفقد اللسان لونه وأصبح لتنفسه رائحة كريهة، ينصح بزيت الخروع.

راحة لمدة أربع وعشرون ساعة تتبع بحمية خفيفة لبضعة أيام، عادة تحدث شفاء سريعاً- ومن ثمان إلى اثنتي عشرة حبة من كربونات البسموث تعطى ثلاث مرات في اليوم. يجب أن يشجع الكلب على شرب ماء الشعير بدلاً من الماء العادي.

موقعة من قبل عضو في الجمعية الحيوانية.

عند مراجعة ما كتبته آنفاً، ألاحظ أنني استعملت عبارة "شخص مختلف كلياً". لأول مرة يخطر لي غباء هذا التعبير، كما لو أن هناك شخصاً مختلفاً جزئياً! سأحاول أن أحذف هذه العبارة "شخص مختلف جداً" و"شخص مختلف تماماً" من مفرداتي من الآن فصاعداً.

لكن هناك كلمة أخرى وعبارة تستحق بوضوح أن تذهب إلى كوم النفايات، لكنها تستخدم أحياناً لعدم وجود بديل مناسب كما يبدو. مثال كلمة "محدد مؤكد" نحن نقول مثلاً "بعد عمر محدد يتحول شعر المرء إلى اللون الرمادي" أو "سيكون هناك مقدار محدد من الثلج في شهر فبراير/ شباط". في كل هذه الجمل "محدد- مؤكد" تعني "غير محدد، غير مؤكد". لماذا علينا أن نستخدم هذه الكلمة في معنيين متعاكسين؟ ومع ذلك إن لم يقل أحد المتحذلقين "بعد عمر غير محدد" إلخ، لا يبدو أن هناك كلمة أخرى تغطي بالضبط المعنى المطلوب.

٢٤ يناير/ كانون الثاني١٩٤٧.

كنت أستمع مؤخراً إلى حديث بين رجلي أعمال صغيرين في فندق اسكتلندي. أحدهما رجل واعٍ ومهندم في الخامسة والأربعين من عمره تقريباً، له علاقة مع اتحاد أساتذة البناء. الآخر أكبر منه بكثير مع شعر أبيض ولهجة رحبة، كأنه صاحب متجر للبيع بالجملة. كان

يتلو صلاة المائدة قبل وجباته، شيء لم أر أحداً يفعله منذ سنين كثيرة. هما ينتميان إلى الجماعتين اللتين دخلهما ألفي جنيه في السنة وألف جنيه في السنة على التوالي.

كنا نجلس حول نار نصف متفحمة غير كافية، وبدأ الحديث بنقص الفحم. لم يكن هناك فحم، لأن عمال المناجم رفضوا استخراجه. لكن من جانب آخر، من المهم ألا ندع البولونيين يعملون في الحفر، لأن هذا سيؤدي إلى البطالة. كانت هناك بطالة قاسية في اسكوتلندا مسبقاً. لاحظ الرجل الأكبر سناً بارتياح تام أنه سعيد جداً- سعيد جداً بالحقيقة (في لهجته)- بفوز العمل في الانتخابات العامة. أي حكومة تفوز بعد الحرب ستواجه وقتاً صعباً، نتيجة لسنوات من التقنين والعجز في الإسكان والإضرابات غير الرسمية وهلم جرا، وسيدرك الجمهور العام حقيقة وعود الاشتراكيين، ويصوت للمحافظين في المرة القادمة.

بدأ الرجلان الحديث عن مشكلة الإسكان، وعادا مباشرة تقريباً إلى موضوع البولونيين المناسب لمزاجيهما. الرجل الأصغر عمراً باع بيته المؤلف من طابق في أدنبره حديثاً بربح جيد، وكان يحاول شراء بيت. كان مستعداً لدفع ٢٧٠٠ جنيه. وكان الرجل الآخر يحاول بيع بيته بـ ١٥٠٠ جنيه ويشتري بيتاً أصغر. لكن بدا من المستحيل شراء بيوت وبيع طوابق في هذه الأيام. كان البولونيون يشترونها كلها "ومن أين لهم المال؟ هذا لغز محير". كان البولونيون أيضاً يغزون المهنة الطبية. ولديهم مدارسهم الطبية في أدنبره أو غلاسغو (نسيت أيهما) وكانوا ينتجون أطباء بأعداد كبيرة جداً، بينما "صبياننا يستحيل عليهم شراء خبرات. ألم يعرف كل واحد أن لدى بريطانيا أطباء أكثر من الذين تستطيع استخدامهم؟ ليرجع البولونيون إلى بلادهم. هل نحن بحاجة إلى هجرة؟

لاحظ الرجل الأصغر سناً أنه شارك في قضايا كثيرة وجمعيات مدنية وحقق غاية منها كلها، من خلال اقتراح حلول تتمثل في ضرورة إعادة البولونيين إلى بلادهم. أضاف الأكبر سناً أن البولونيين كانوا "منحطين جداً في أخلاقهم". وكانوا مسؤولين عن الكثير الفسق السائد هذه الأيام. وختم بورع: "عاداتهم وسلوكهم ليست عاداتنا وسلوكنا" لم يذكرا أن البولونيين يشقون طريقهم إلى رأس الطوابير ويلبسون ثياباً ألوانها فاقعة، ويبدون الجبن والخوف أثناء الغارات الجوية. لكن لو كنت قدمت اقتراحاً بهذا الشأن، لكان مقبولاً ومرحباً به بالتأكيد.

لا يستطيع المرء فعل الكثير بخصوص هذا الأمر. إنه المكافئ المعاصر لمعاداة السامية في عام ١٩٤٧. كان الناس من النوع الذي وصفته، يدانون بجريمة أن السامية ضارة بالسمعة، ولهذا هم يبحثون عن كبش فداء في مكان آخر. لكن الكره العرقي والأوهام الجماهيرية التي هي جزء من أنموذج عصرنا، ربما تكون أقل سوءاً في آثارها إن لم يعززها الجهل. في السنوات التي قبل الحرب مثلاً، لو عرفت الحقائق حول اضطهاد اليهود في ألمانيا بشكل أفضل، لما كان الشعور الذاتي الشعبي ضد اليهود أقل، ولكانت المعاملة الفعلية للاجئين اليهود أفضل، وكان رفض السماح لدخول اللاجئين بأعداد كبيرة إلى داخل البلاد، سيوصف بالمخزي. مازال الرجل العادي يشعر بالضغينة ضد اللاجئين، لكن عملياً أنقذت أرواح أكثر.

وهكذا الأمر مع البولونيين. الشيء الذي يحزنني أكثر في المحادثة المذكورة، هي العبارة المتكررة: "دعهم يعودون إلى بلادهم". لو أنني قلت لهذين التاجرين: "أغلب هؤلاء الناس ليس لديهم بلاد يعودون إليها" فسيفتحان فميهما من الدهشة. لم تكن واحدة من الحقائق المتصلة بالموضوع معروفة لهما. لم يسمعا قط بالأشياء الكثيرة والمختلفة التي حدث لبولندا منذ عام ١٩٣٩، كما لم يعرفا أيضاً أن الزيادة في عدد السكان الكبيرة في بريطانيا هي خدعة، أو أن البطالة المحلية تستطيع أن تتواجد مع نقص عام في العمل. أعتقد أنه من الخطأ إعطاء مثل هؤلاء الناس العذر بسبب الجهل. لا تستطيع تغيير عواطفهما فعلياً، لكن تستطيع أن تجعلهما يفهمان ماذا يقولان عندما يطالبان بوجوب طرد اللاجئين المشردين الذين ليس لهم وطن من شواطئنا، والمعرفة ربما تجعلهما أقل حقداً.

في الأسبوع قبل الماضي، كان السيد هارولد نيكلسون يواسي نفسه في صحيفة السبيكتاتور بأقصى استطاعته، لأنه وصل إلى عمر الستين. كما يرى أن الرضى الإيجابي الوحيد في الكبر، هو أنك بعد نقطة محددة تستطيع التباهي بأنك رأيت أشياء، لن تتوفر الفرصة لأي أحد آخر أن يراها مرة أخرى. جعلني ذلك أتساءل بماذا يمكنني أن أتباهى في الرابعة والأربعين من عمري. لقد رأى السيد نيكلسون القيصر محاطاً بحراسه من القوقازيين الهائلين الضخمين يمجد النيفا. أنا لم أر ذلك، لكني رأيت ماري لويد، شخصية شبه أسطورية، ورأيت ليتل تيتش -الذي لم يمت حتى عام ١٩٢٨ لكن يفترض أن تقاعد في الوقت نفسه، كما ماريا لويد

-ورأيت سلسلة كاملة من الرؤوس المتوجة ومشاهير آخرين من إدوارد السابع فصاعداً. لكن هناك مناسبتين فقط، شعرت بهما أنني كنت أرى شيئاً مهماً، وإحدى هاتين المناسبتين كانت الظروف، وليس الشخص المعني من جعلني أشعر بهذا.

كان واحد من هؤلاء المشاهير هو بيتان. كانت المناسبة هي جنازة فوش في عام ١٩٢٩. كان مقام بيتان الشخصي عظيماً جداً في فرنسا، وقد حظي بشرف لقب حامي فيردون. وأعتقد أنه هو من صاغ عبارة "لن يمروا"، كما أعطى لنفسه مكاناً في الموكب مع فسحة بياردات عديدة أمامه وخلفه. حين مر شامخاً في مشيته- شخصية طويلة ونحيلة وقامة منتصبة جداً، رغم أنه كان في السبعين من عمره تقريباً مع شاربين أبيضين كبيرين كاسحين مثل جناحي نورس- طار بيتان عبر الحشد الكبير. لقد أثر منظره بي كثيراً جداً، لذلك شعرت بشكل غامض أنه لايزال يملك نوعاً من مستقبل مميز أمامه، بالرغم من سنواته السبعين. الشخصية المشهورة الثانية هي الملكة ماري. في أحد الأيام كنت أمر بجانب ويندسور كاسل حين شعرت بنوع من صدمة كهربائية تسري في الشارع. كان الناس يرفعون قبعاتهم والجنود يقفون في حالة الاستعداد. ومن ثم قعقعة على حجارة الشارع، ومن هناك أتت عربة ضخمة مكشوفة بلون الخوخ يجرها أربعة خيول مع حوذييها. أعتقد أنها المرة الأولى والأخيرة في حياتي التي رأيت فيها حوذياً. على المقعد الخلفي، وظهره للعربة، جلس سائس آخر في وضع مستقيم ومتيبس، وذارعاه واحدة فوق الأخرى. السائس الذي جلس في الخلف كان يدعى النمر. لاحظت الملكة بصعوبة، تسمّرت عيناي على ذلك الشكل الغريب والقديم الذي في المؤخرة، ثابت لا يتحرك مثل تمثال من الشمع، مع بنطاله الأبيض القصير الذي بدا كما لو أنه صبّ في داخله، وعقدة الشريطة التي على قبعته الرسمية. حتى في ذلك التاريخ (١٩٢٠ تقريباً) أعطتني شعوراً رائعاً في النظر إلى الوراء عبر نافذة إلى داخل القرن التاسع عشر.

٣١ يناير /كانون الثاني ١٩٤٧

علاقات الشخص مع جريدة أو مجلة ما متغيرة ومتقطعة أكثر مما تكون مع كائن بشري. من حين إلى آخر قد يصبغ الكائن البشري شعره أو يتحول إلى الكاثوليكية الرومانية، لكنه لا يستطيع تغيير نفسه بشكل جوهري، بينما تمر الدورية بسلسلة كاملة من الكينونات المتنوعة تحت الاسم نفسه. كانت التريبيون في حياتها القصيرة صحيفتين اثنتين مميزتين إن لم تكن

ثلاث، واتصالاتي معها تنوعت بحدة. فقد بدأت، إن كنت أتذكر بشكل صحيح، بطرق وضرب على مفاصل الأصابع. لم أعلم بوجود التريبيون حتى عام ١٩٣٩. بدأت في أوائل عام ١٩٣٧ لكن في الأشهر الثلاثين التي تخللت الفترة التي قبل اندلاع الحرب، أمضيت خمسة أشهر منها في المستشفى وثلاثة عشر شهراً خارج البلاد. ما لفت انتباهي أولاً في اعتقادي كان مراجعة نقدية غير ودية أبداً لواحدة من رواياتي. خلال الفترة بين ١٩٣٩ و١٩٤٢ كتبت ثلاثة أو أربعة كتب وأعيد طبعها. وأعتقد أنه من الصحيح أنني لم أحظَ أبداً بما يسمى مراجعة نقدية "جيدة" في التريبيون، حتى بعد أن أصبحت عضواً في هيئتها. (الحدثان غير مرتبطين). في وقت لاحق من شتاء عام ١٩٣٩ البارد، بدأت أكتب للتريبيون، لكن في البداية والغريب جداً من دون أن أراها بشكل منتظم أو أكون فكرة واضحة عن نوعها كصحيفة. ريموند بوستغيت الذي كان رئيس التحرير آنذاك، طلب مني أن أكتب مراجعات نقدية للروايات بين الحين والآخر. لم يدفع لي أجراً (حتى وقت متأخر، كان من غير العادي أن يدفع للمشاركين من الجناح اليساري) ولم أرَ الجريدة إلا في مناسبات نادرة حين كنت أذهب إلى لندن وأزور بوستغيت في مكتب مجرد من الأثاث ومغبر قرب سور لندن. تريبيون (حتى وقت متأخر كان الكل يسميها (ال) تريبيون) كانت تمر بظروف صعبة في ذلك الوقت. كانت جريدة الثلاثة بنسات، هدفها الأولي هم العمال الصناعيين، وتتبع تقريباً خط الجبهة الشعبية التي تحالفت مع نادي الكتاب اليساري والعصبة الاشتراكية. مع اندلاع الحرب، تعرضت لضربة قاسية، لأن الشيوعيين وأشباه الشيوعيين الذين كانوا من أشد مؤيديها، رفضوا الآن أن يساعدوا في توزيعها. بعضهم استمر في الكتابة لها، وعلى كل حال استمر النزاع العقيم بين "المؤيدين" و"المعارضين" للحرب باللعلعة على أعمدة الصحف، بينما كانت الجيوش الألمانية تتجمع وتحتشد من أجل هجمات الربيع. في وقت مبكر من عام ١٩٤٠ كان هناك اجتماع واسع في قاعة عامة، وكان الغرض منه مناقشة مستقبل التريبيون وسياسة الجناح اليساري لحزب العمال. كالعادة في مثل هذه المناسبات، لم يقل شيء محدد جداً، وما أتذكره بشكل رئيسي هو فكرة سياسية مفيدة تلقيتها من مصدر داخلي. انتهت حملة النرويج بكارثة، ومشيت إلى القاعة ومررت بالملصقات الكئيبة. اثنان من أعضاء البرلمان لن أسميهما وصلا للتو من مبنى البرلمان.

"ما هي الفرصة الموجودة الناتجة عن هذه القضية للتخلص من شامبرلاين؟" سألت.

"ليس هناك أمل. إنه صلب." قالا كلاهما. لا أتذكر التواريخ لكن أعتقد أنه يمكن أن تكون قبل خروج تشامبرلاين من رئاسة الوزراء بأسبوع أو بأسبوعين.

بعد ذلك، خرجت التريبيون من وعيي لستين اثنتين، فقد كنت مشغولاً في محاولة كسب الرزق وكتابة كتاب وسط القنابل والخلل العام. وكان الوقت المتوفر لدي يستهلكه الحرس الوطني الذي كان مازال قوة من الهواة، ويحتاج إلى كمية هائلة من العمل من أعضائه. حين أصبحت مدركاً للتريبيون مرة أخرى، كنت أعمل في القسم المشرقي في البي بي سي. إنها الآن صحيفة مختلفة تماماً ولها تركيبة مختلفة، وتكلف ستة بنسات، ومتوجهة نحو السياسة الخارجية بشكل رئيسي، وكانت تكسب جمهوراً جديداً بسرعة من الذين ينتمون إلى فقراء الطبقة الوسطى، وكانت مكانتها عند هيئة العاملين في البي بي سي لافتة جداً. في المكتبات؛ حيث ذهب المعلقون ليجهزوا أنفسهم، كانت واحدة من الدوريات المفضلة، ليس لأنها كانت تكتب من قبل أناس عرفوا شيئاً من مصادر موثوقة عن أوروبا فقط، وإنما لأنها كانت آنذاك الصحيفة الوحيدة التي انتقدت الحكومة. ربما "انتقدت" بأنها أكثر من معتدلة. لقد دخل السير ستافورد كريبس في الحكومة، وشخصية انيوين بيفان أعطت الصحيفة نغمتها وأسلوبها. في مناسبة واحدة كانت هناك هجمات عنيفة بشكل مذهل على تشرشل من قبل شخص سمى نفسه توماس رينزبورو. هذا اسم مزيف بوضوح، وأمضيت فترة بعد الظهر كلها أحاول أن أحدد مؤلف الكتابة من خلال الأسلوب، لأن النقاد الأدبيين الذين وظفهم الجستابو قيل إنهم كانوا يؤلفون كراسات مجهول اسم مؤلفها. أخيراً قررت أن توماس رينزبورو هو فيكتور غالانكس الذي قال لي: "هل تعرف من كتب مقالات رينزبورو في التريبيون؟ سمعت أنه دبليو". هذا جعلني أفخر بنفسي لكوني ذكياً جداً، لكن بعد يوم أو اثنين سمعت أننا نحن الاثنان كنا على خطأ.

خلال هذه الفترة، كنت أكتب للتريبيون بين الفينة والأخرى، لكن على فواصل طويلة لقلة وقتي وطاقتي. على كل حال، في نهاية عام ١٩٤٣ قررت أن أستقيل من وظيفتي في البي بي سي، وطلب مني أن أتولى رئاسة تحرير القسم الأدبي بدلاً من جون أتكينز الذي كان يتوقع التجنيد في الخدمة العسكرية. تابعت كوني محرراً أدبياً بالإضافة إلى كتابة عمود "كما

يرضيني" حتى بداية عام ١٩٤٥. كان عملاً ممتعاً، لكنها ليست فترة أنظر إليها وأتذكرها بفخر. الحقيقة أنني لست ماهراً في التحرير. كنت أكره التخطيط المسبق وعندي عجز نفسي وبدني للرد على الرسائل. أغلب ذكرياتي الأساسية عن تلك الفترة، هي سحب درج هنا وآخر هناك لأجد كلاً منها محشواً برسائل ومخطوطات كان ينبغي التعامل معها قبل أسابيع. فكنت أغلقها ثانية بسرعة. أيضاً لدي ميل قاتل لقبول الكراريس التي أعرف جيداً أنها سيئة جداً ويتعذر طبعها ونشرها. يشك أن كان أي واحد لديه تجربة طويلة كصحفي حر ينبغي أن يصبح محرراً. إنه مثل أخذ مجرمٍ من زنزانته وجعله حاكماً للسجن. لكنها تظل تجربة كما يقولون، ولديّ ذكريات دافئة لمكتبي الضيق الصغير الذي يطل على ساحة خلفية، والثلاثة الذين نتقاسمه انحشرنا في الزاوية حين تأتي الطائرة المحملة بالقنابل التي من دون طيار وتصعد عمودياً بسرعة فوقنا، بعد أن تصطدم القنبلة وتنفجر. في وقت مبكر من عام ١٩٤٥ ذهبت إلى باريس كمراسل للأوبزيرفر. للتريبيون مكانة وهيبة مذهلة في باريس والتي يعود تاريخها إلى ما قبل التحرير. من المستحيل شراؤها، والنسخ العشر التي تأتي للسفارة البريطانية أسبوعياً، لا يمكن أن تخرج خارج جدران البناء. مع ذلك كان الصحفيون الفرنسيون الذين التقيت بهم قد سمعوا بها وعرفوا أنها الصحيفة الوحيدة التي لم تؤيد الحكومة من دون حرج، ولم تعارض الحرب، ولم تبلع الأسطورة الروسية.

في ذلك الوقت، كان هناك -أحب أن أتأكد أنها مازالت موجودة- صحيفة أسبوعية اسمها ليبرتيس، كانت العدو النقيض للتريبيون تقريباً التي أنتجت سراً أثناء الاحتلال، وعلى نفس الآلات كما طبعت باريس زيتونغ. ليبرتيس التي كانت معارضة للغوليين من جانب وللشيوعيين من جانب آخر، لم يكن لديها مال، وكانت توزعها مجموعات من المتطوعين على دراجات هوائية. في بعض الأسابيع كانت تشوهها الرقابة، وغالباً لا يبقى من المقال شيئاً سوى العنوان مثل "الحقيقة حول الهند الصينية" وعمود فارغ تماماً تحته. بعد أسبوع أو اثنين من وصولي إلى باريس، أخذت إلى اجتماع شبه عام لمؤيدي ليبرتيس، ودهشت حين وجدت أن نصفهم تقريباً يعرفون كل شيء عن التريبيون. رجل عامل ضخم في سروال قماشي أسود جاء إليّ وهتف "أنت جورجس أورفيل!" وحطم عظام يدي تقريباً وحولها إلى هريسة. لقد سمع بي، لأن ليبرتيس كانت تترجم مقاطع من التريبيون عادة. أعتقد أن أحد المحررين كان

يذهب إلى السفارة البريطانية كل أسبوع ويطلب رؤية نسخة. بدا لي الأمر مؤثراً أن يستطيع المرء اكتساب جمهور من دون معرفته وسط أناس يحبون هذا، بينما لم أصادف واحداً وسط قبيلة ضخمة من الصحفيين الأمريكيين في هوتيل سكرايب بلباسهم الموحد المبهرج ورواتبهم الضخمة قد سمع بصحيفة التريبيون. لستة شهور خلال صيف عام ١٩٤٦ تخليت عن كوني كاتباً في التريبيون، وأصبحت مجرد قارئ، ولا شك أنه من حين إلى آخر سوف أعمل نفس الشيء ثانية؛ لكنني آمل أن تستمر رفقتي معها طويلاً، وأتمنى أن أكتب فيها مقالة في العام ١٩٥٧ في عيدها السنوي مرة أخرى. أنا لا أتمنى أن تكون التريبيون قد ذبحت كل منافسيها. لقد أخذت كل الضروب لتخلق عالماً، وإن استطاع المرء تحليل هذه الأشياء، سيكتشف أن حتى تقديم الخدمات هو هدف مفيد. يفترض أن أعرف أن التريبيون ليست كاملة ومثالية، فقد رأيتها من الداخل. لكنني أعتقد أنها الصحيفة الأسبوعية الوحيدة الموجودة التي تبذل جهداً صادقاً لتكون تقدمية وإنسانية - أي لتجمع سياسة اشتراكية راديكالية مع احترام لحرية التعبير والموقف الحضاري نحو الأدب والفنون، وأعتقد أن شعبيتها النسبية وحتى بقاءها حية في شكلها الحالي منذ أكثر من خمس سنوات، هي علامة مشجعة.

التريبيون ١ فبراير/ شباط ١٩٤٧.

مؤخراً كنت أفتش في كتاب السيد بيتر هونت رجل حول البيت، والذي نشرته بايلوت بريس قبل شهر أو شهرين.

إن الكتب التي تخبرك كيف تقوم بالتصليحات المنزلية وافرة، لكنني أعتقد أن هذا الكتاب أفضل ما رأيت. يجمع المؤلف تجربته بالطريقة الصعبة، وذلك بتولي بيت متداعٍ ومهجور تقريباً وجعله قابلاً للسكن بيديه. لهذا هو يركز على نوع من المصاعب التي تظهر فعلياً في الحياة الحقيقية، وليس مثل مؤلف كتاب آخر في حيازتي، يخبرك كيف تصلح ستارات فينسية بينما يتجاهل التركيبات الكهربائية. بحثت عن المصائب المنزلية التي أُجبرت على التعامل معها أثناء العام الماضي، ووجدتها كلها مذكورة باستثناء مشكلة الفئران التي من الصعب ربما أن تدرج تحت عنوان الديكور والتصليح. كتب الكتاب أيضاً بلغة بسيطة وفيه شروحات كافية وجيدة، ويأخذ في حسبانه صعوبة الحصول على الأدوات والمواد في الوقت الحالي.

لكني أعتقد أن هناك مكاناً لكتاب كبير جداً وشامل من هذا النوع، نوع من معجم أو موسوعة مع كل مهنة منزلية يمكن تخيلها مجدولة بعناوين حسب الترتيب الأبجدي. يمكنك أن تفتش عن عنوان حنفيات، كيف توقف التنقيط، أو عنوان ألواح الأرضيات، أسباب أصوات الصرير، بنفس الثقة في الحصول على الجواب الصحيح حين تبحث عن كعكة المادريا أو الخبز المحمص وفوقه الجبنة المذابة الايرلندية في كتاب الطبخ للسيدة بيتون. في الزمن الماضي كان ينظر إلى الرجل الهاوي الذي يقوم بأعمال مختلفة مع مطرقة مساميره وجيبه المملوء بالسدادات (بيشونات)، بأنه مجرد شخص غريب الأطوار وعنصر هزل بالنسبة إلى أصدقائه ومزعج بالنسبة إلى جماعته النسائية. لكن في هذه الأيام، إما أن تقوم بتصليحاتك المنزلية بنفسك أو هم يقومون بها لك. وأغلبنا لازال عاجزاً بشكل لافت. كم شخصاً تعرفه يستطيع استبدال الحبل الذي يرفع وينزل النافذة مثلاً؟

كما يبين السيد هونت، أن الكثير من أعمال السمكرة التي تجري الآن، ستكون غير ضرورية أو أسهل بكثير لو بنيت بيوتنا بطريقة عاقلة وذكية. حتى شيء كاحتراس بسيط مثل وضع علبة فواصم في أماكن سهلة، ستوفر الكثير من إزعاج العمل البائس في نصب رفوف يمكن أن يبسط بشكل كبير جداً من دون أي مواد إضافية أو تغيير جذري في الأساليب. سمعت إشاعات أن البيوت الجديدة التي تبنى الآن ستوضع فيها الأنابيب بمكان لا تتجمد فيه، لكن لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً بالتأكيد. سوف يكون عقبة في مكان ما، وسيحدث التجمد السنوي كالعادة. انفجارات الأنابيب جزء من الشتاء الإنكليزي، وهي ليست أقل من الفطائر الرقيقة والكستناء المشوية. وبلا شك لكان شكسبير ذكرها في الأغنية التي في نهاية جهود المعشوق الضائعة، لو كانت هناك أنابيب مياه في تلك الأيام.

من المبكر جداً الابتهاج والتهليل، لكن يجب أن أقول إن ظواهر التجمد الجديدة أصبحت أقل بغضاً وإزعاجاً من مثيلاتها في عام ١٩٤٠. في تلك المناسبة، لم يسقط الثلج، في تلك القرية التي عشت فيها، لمدة أكثر من أسبوع فقط، وكان من المستحيل الخروج منها، أو أن تصل إليها أي عربة طعام، لكن كل حنفية أو مضخة في القرية تجمدت بقسوة، لدرجة أننا بقينا عدة أيام بلا ماء ماعدا الثلج المذاب. الشيء الكريه في هذا، أن الثلج ملوث دائماً ماعدا بعد هطوله مباشرة. وقد لاحظت هذا حتى في القمم العالية لجبال الأطلس على بعد أميال من المساكن

البشرية. الثلج الأبدي الذي يبدو طاهراً وعذرياً جداً، هو في الحقيقة وسخ بشكل واضح حين تقترب منه.

في الوقت الذي عاد فيه السير ستافورد كريبس من الهند، سمعت تعليقاً بأن عرض كريبس لم يمتد ليشمل بورما، لأن البورميين كانوا سيقبلون به. أنا لا أعرف إن كان مثل هكذا اعتبار يدخل في أذهان تشرشل والبقية. بأي حال، أعتقد أن سياسين بورميين مسؤولين كانوا سيقبلون بالعرض، رغم أن بورما في تلك اللحظة كانت في سياق عملية اجتياح يابانية لها. أيضاً أعتقد أن عرض وضع الدمينيون (سلطة تعترف بالسيادة البريطانية -المترجم) كان سيقبل به بسرور لو قدمناه في عام ١٩٤٤ وحددنا تاريخاً. كما هو الحال، شكوك البورميين أثيرت وستنتهي ربما بالخروج من بورما بشروط هي الأقل فائدة لكلا البلدين. إن حدث ذلك، أحب أن أعتقد أن وضع الأقليات العرقية يمكن أن يضمن بشيء أفضل من الوعود. تبلغ أعدادهم من عشرة إلى عشرين بالمئة من السكان، ويمثلون أنواعاً مختلفة من المشكلة. أكبر مجموعة هم الكارين، مقاطعة عرقية. الكاشين وقبائل حدودية أخرى متخلفة جداً أكثر وتختلف أكثر عن البورميين في العادات والمظهر. لم يكونوا تحت الحكم البورمي. في الواقع، لم تكن مناطقهم محتلة إلا بصورة شكلية حتى من قبل البريطانيين. في الماضي كانوا قادرين على الحفاظ على استقلالهم، لكنهم على الأرجح لن يكونوا قادرين على أن يفعلوا ذلك بوجه الأسلحة الحديثة. الجماعة الكبيرة الأخرى، الشان، الذي يقربون عرقياً للسياميين، نعموا بآثار ضعيفة من الاستقلال الذاتي تحت الحكم البريطاني. الأقلية التي في أصعب وضع من كل الأقليات هم الهنود.

هناك أكثر من مليون منهم في بورما قبل الحرب. مئتا ألف منهم فروا إلى الهند في زمن الغزو الياباني -فعل يوضح بشكل أفضل من أن توضحه أي كلمات- وضعهم الحقيقي في البلاد.

أتذكر قبل عشرين سنة، قال لي كارين "أتمنى أن يبقى البريطانيون في بورما لمدة مائتي سنة" "لماذا؟"- "لأننا لا نتمنى أن يحكمنا البورميون" حتى في ذلك الوقت، فكرت أن هذا سيصبح مشكلة عاجلاً أو آجلاً. حقيقة أن قضية الأقليات مشكلة لا تحل طالما بقيت القومية قوة حقيقية. رغبة بعض الناس في بورما هي حكم ذاتي حقيقي، لكنه لن ينفذ بأي

طريقة آمنة، إلا إذا تدخلت سيادة بورما ككل. نفس المشكلة تظهر في مئة مكان آخر. هل يجب أن تستقل السودان عن بريطانيا؟ وهلم جرا. كلما اضطهد ألف باء، من الواضح للناس الطيبين أن باء يجب أن يكون مستقلاً، لكن عندها يظهر أن هناك جماعة أخرى هي جيم التي تكون متلهفة أن تستقل عن باء. السؤال دائماً هو كم يجب أن يكون حجم الأقلية قبل أن تستحق الحكم الذاتي. الأفضل التعامل مع كل حالة بفضائلها بطريقة فظة وجاهزة: عملياً، لا أحد متناسق في تفكيره حول هذا الموضوع، والأقليات التي تفوز بأكبر قدر من التعاطف، هي تلك التي تملك أفضل وسيلة إشهار ودعاية. من الذي هناك يناصر ويدافع بالتساوي عن اليهود والبايت والأندونيسيين والألمان المطرودين والسودانيين والمنبوذين الهنود والكافير الجنوب أفريقيين؟ التعاطف مع مجموعة ما يستلزم بشكل شبه ثابت قسوة تجاه أخرى.

حين أعادت بنغوان لايبراري نشر رواية إتش جي ويلز **جزيرة الدكتور مورو** بحثت لأرى إن كانت الزلات والأخطاء المطبعية التي تذكرتها في الطبعات السابقة قد تكررت فيها. من المؤكد أنها مازالت هناك. أحد هذه الأخطاء خطأ مطبعي غبي بشكل خاص من النوع الذي يجعل أغلب الكتاب يتضايقون جداً. في عام ١٩٤١ أشرت إلى إتش جي ويلز عن هذا، وسألته لماذا لم يزله. لقد استمر في طبعة تلو أخرى منذ عام ١٨٩٦. ولدهشتي، قال إنه تذكر الخطأ المطبعي لكنه لم يكترث به. لم يعد يهتم البتة بكتبه السابقة: لقد كتبت منذ زمن بعيد لدرجة لم يعد يشعر أنها جزء من نفسه. أنا لست متأكداً أبداً إن كنت سأعجب بهذا الموقف أم لا. من الرائع أن تكون متحرراً تماماً من الغرور الأدبي. ومع ذلك إن أي كاتب بمواهب ويلز لو كان لديه أي قدرة على النقد الذاتي أو الاحترام لسمعته وشهرته الخاصة به، لكان سينتج في خمسين سنة خمسة وتسعين كتاباً، ثلثيها لم يعد مقروءاً؟

٧ فبراير/ شباط ١٩٤٧.

مؤخراً كنت أفتش في كتاب السيد بيتر هونت **رجل حول البيت**، والذي نشرته بايلوت بريس قبل شهر أو شهرين.

إن الكتب التي تخبرك كيف تقوم بالتصليحات المنزلية وافرة، لكنني أعتقد أن هذا الكتاب أفضل ما رأيت. يجمع المؤلف تجربته بالطريقة الصعبة، وذلك بتولي بيت متداعٍ ومهجور

تقريباً وجعله قابلاً للسكن بيديه. لهذا هو يركز على نوع من المصاعب التي تظهر فعلياً في الحياة الحقيقة، وليس مثل مؤلف كتاب آخر في حيازتي، يخبرك كيف تصلح ستارات فينسية بينما يتجاهل التركيبات الكهربائية. بحثت عن المصائب المنزلية التي أُجبرت على التعامل معها أثناء العام الماضي، ووجدتها كلها مذكورة باستثناء مشكلة الفئران التي من الصعب ربما أن تدرج تحت عنوان الديكور والتصليح. كتب الكتاب أيضاً بلغة بسيطة وفيه شروحات كافية وجيدة، ويأخذ في حسبانه صعوبة الحصول على الأدوات والمواد في الوقت الحالي.

لكني أعتقد أن هناك مكاناً لكتاب كبير جداً وشامل من هذا النوع، نوع من معجم أو موسوعة مع كل مهنة منزلية يمكن تخيلها مجدولة بعناوين حسب الترتيب الأبجدي. يمكنك أن تفتش عن عنوان حنفيات، كيف توقف التنقيط، أو عنوان ألواح الأرضيات، أسباب أصوات الصرير، بنفس الثقة في الحصول على الجواب الصحيح حين تبحث عن كعكة المادريا أو الخبز المحمص وفوقه الجبنة المذابة الايرلندية في كتاب الطبخ للسيدة بيتون. في الزمن الماضي كان ينظر إلى الرجل الهاوي الذي يقوم بأعمال مختلفة مع مطرقة مساميره وجيبه المملوء بالسدادات (بيشونات)، بأنه مجرد شخص غريب الأطوار وعنصر هزل بالنسبة إلى أصدقائه ومزعج بالنسبة إلى جماعته النسائية. لكن في هذه الأيام، إما أن تقوم بتصليحاتك المنزلية بنفسك أو هم يقومون بها لك. وأغلبنا لازال عاجزاً بشكل لافت. كم شخصاً تعرفه يستطيع استبدال الحبل الذي يرفع وينزل النافذة مثلاً؟

كما يبين السيد هونت، أن الكثير من أعمال السمكرة التي تجري الآن، ستكون غير ضرورية أو أسهل بكثير لو بنيت بيوتنا بطريقة عاقلة وذكية. حتى شيء كاحتراس بسيط مثل وضع علبة فواصم في أماكن سهلة، ستوفر الكثير من إزعاج العمل البائس في نصب رفوف يمكن أن يبسط بشكل كبير جداً من دون أي مواد إضافية أو تغيير جذري في الأساليب. سمعت إشاعات أن البيوت الجديدة التي تبنى الآن ستوضع فيها الأنابيب بمكان لا تتجمد فيه، لكن لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً بالتأكيد. سوف يكون عقبة في مكان ما، وسيحدث التجمد السنوي كالعادة. انفجارات الأنابيب جزء من الشتاء الإنكليزي، وهي ليست أقل من الفطائر الرقيقة والكستناء المشوية. وبلا شك لكان شكسبير ذكرها في الأغنية التي في نهاية جهود المعشوق الضائعة، لو كانت هناك أنابيب مياه في تلك الأيام.

من المبكر جداً الابتهاج والتهليل، لكن يجب أن أقول إن ظواهر التجمد الجديدة أصبحت أقل بغضاً وإزعاجاً من مثيلاتها في عام ١٩٤٠. في تلك المناسبة، لم يسقط الثلج، في تلك القرية التي عشت فيها، لمدة أكثر من أسبوع فقط، وكان من المستحيل الخروج منها، أو أن تصل إليها أي عربة طعام، لكن كل حنفية أو مضخة في القرية تجمدت بقسوة، للدرجة أننا بقينا عدة أيام بلا ماء ماعدا الثلج المذاب. الشيء الكريه في هذا، أن الثلج ملوث دائماً ماعدا بعد هطوله مباشرة. وقد لاحظت هذا حتى في القمم العالية لجبال الأطلس على بعد أميال من المساكن البشرية. الثلج الأبدي الذي يبدو طاهراً وعذرياً جداً، هو في الحقيقة وسخ بشكل واضح حين تقترب منه.

في الوقت الذي عاد فيه السير ستافورد كريبس من الهند، سمعت تعليقاً بأن عرض كريبس لم يمتد ليشمل بورما، لأن البورميين كانوا سيقبلون به. أنا لا أعرف إن كان مثل هكذا اعتبار يدخل في أذهان تشرشل والبقية. بأي حال، أعتقد أن سياسيين بورميين مسؤولين كانوا سيقبلون بالعرض، رغم أن بورما في تلك اللحظة كانت في سياق عملية اجتياح يابانية لها. أيضاً أعتقد أن عرض وضع الدمينيون (سلطة تعترف بالسيادة البريطانية - المترجم) كان سيقبل به بسرور لو قدمناه في عام ١٩٤٤ وحددنا تاريخاً. كما هو الحال، شكوك البورميين أثيرت وستنتهي ربما بالخروج من بورما بشروط هي الأقل فائدة لكلا البلدين. إن حدث ذلك، أحب أن أعتقد أن وضع الأقليات العرقية يمكن أن يضمن بشيء أفضل من الوعود. تبلغ أعدادهم من عشرة إلى عشرين بالمئة من السكان، ويمثلون أنواعاً مختلفة من المشكلة. أكبر مجموعة هم الكارين، مقاطعة عرقية. الكاشين وقبائل حدودية أخرى متخلفة جداً أكثر وتختلف أكثر عن البورميين في العادات والمظهر. لم يكونوا تحت الحكم البورمي. في الواقع، لم تكن مناطقهم محتلة إلا بصورة شكلية حتى من قبل البريطانيين. في الماضي كانوا قادرين على الحفاظ على استقلالهم، لكنهم على الأرجح لن يكونوا قادرين على أن يفعلوا ذلك بوجه الأسلحة الحديثة. الجماعة الكبيرة الأخرى، الشان، الذي يقربون عرقياً للسياميين، نعموا بآثار ضعيفة من الاستقلال الذاتي تحت الحكم البريطاني. الأقلية التي في أصعب وضع من كل الأقليات هم الهنود.

هناك أكثر من مليون منهم في بورما قبل الحرب. مئتا ألف منهم فروا إلى الهند في زمن الغزو الياباني -فعل يوضح بشكل أفضل من أن توضحه أي كلمات- وضعهم الحقيقي في البلاد.

أتذكر قبل عشرين سنة، قال لي كارين "أتمنى أن يبقى البريطانيون في بورما لمدة مائتي سنة" "لماذا؟"- "لأننا لا نتمنى أن يحكمنا البورميون". حتى في ذلك الوقت، فكرت أن هذا سيصبح مشكلة عاجلاً أو آجلاً. حقيقة أن قضية الأقليات مشكلة لا تحل طالما بقيت القومية قوة حقيقية. رغبة بعض الناس في بورما هي حكم ذاتي حقيقي، لكنه لن ينفذ بأي طريقة آمنة، إلا إذا تدخلت سيادة بورما ككل. نفس المشكلة تظهر في مئة مكان آخر. هل يجب أن تستقل السودان عن بريطانيا؟ وهلم جرا. كلما اضطهد ألف باء، من الواضح للناس الطيبين أن باء يجب أن يكون مستقلاً، لكن عندها يظهر أن هناك جماعة أخرى هي جيم التي تكون متلهفة أن تستقل عن باء. السؤال دائماً هو كم يجب أن يكون حجم الأقلية قبل أن تستحق الحكم الذاتي. الأفضل التعامل مع كل حالة بفضائلها بطريقة فظة وجاهزة: عملياً، لا أحد متناسق في تفكيره حول هذا الموضوع، والأقليات التي تفوز بأكبر قدر من التعاطف، هي تلك التي تملك أفضل وسيلة إشهار ودعاية. من الذي هناك يناصر ويدافع بالتساوي عن اليهود والبايت والأندونيسيين والألمان المطرودين والسودانيين والمنبوذين الهنود والكافير الجنوب أفريقيين؟ التعاطف مع مجموعة ما يستلزم بشكل شبه ثابت قسوة تجاه أخرى.

حين أعادت بنغوان لايبراري نشر رواية إتش جي ويلز **جزيرة الدكتور مورو** بحثت لأرى إن كانت الزلات والأخطاء المطبعية التي تذكرتها في الطبعات السابقة قد تكررت فيها. من المؤكد أنها مازالت هناك. أحد هذه الأخطاء خطأ مطبعي غبي بشكل خاص من النوع الذي يجعل أغلب الكتاب يتضايقون جداً. في عام ١٩٤١ أشرت إلى إتش جي ويلز عن هذا، وسألته لماذا لم يزله. لقد استمر في طبعة تلو أخرى منذ عام ١٨٩٦. ولدهشتي، قال إنه تذكر الخطأ المطبعي لكنه لم يكترث به. لم يعد يهتم البتة بكتبه السابقة: لقد كتبت منذ زمن بعيد لدرجة لم يعد يشعر أنها جزء من نفسه. أنا لست متأكداً أبداً إن كنت سأعجب بهذا الموقف أم لا. من الرائع أن تكون متحرراً تماماً من الغرور الأدبي. ومع ذلك إن أي كاتب بمواهب ويلز

لو كان لديه أي قدرة على النقد الذاتي أو الاحترام لسمعته وشهرته الخاصة به، لكان سينتج في خمسين سنة خمسة وتسعين كتاباً، ثلثيها لم يعد مقروءاً؟

١٤ فبراير شباط ١٩٤٧.

هذه مقتطفات من رسالة من قومجي اسكتلندي. حذفت كل ما يكشف عن هوية الكاتب. الإشارات المتكررة إلى بولندا هناك، لأن الرسالة تتعلق بوجود البولونيين المنفيين في اسكتلندا:

اكتشفت القوات البولونية الآن كم هو غير صحيح القول "إن كلمة الرجل الإنكليزي هي رباطه وتعهده" كان غزو بولندا مجرد عذر لقطاع الطرق الذين في قبعات سوداء عالية كي يهزموا منافسيهم الألمان واليابانيين بمساعدة الأمريكان البولونيين والاسكتلنديين والفرنسيين إلخ إلخ. وبالتأكيد لم يعد هناك بولوني واحد بعد الآن يصدق أي وعود إنكليزية. الآن، وبعد أن انتهت الحرب، أنتم يجب رميكم جانباً كالنفاية في اسكتلندا. إن كان هذا يؤدي إلى احتكاك بين البولونيين والاسكتلنديين، فسيكون ذلك أفضل بكثير. دعهم يقطعون حلوق بعضهم البعض، وبالتالي ستحل مشكلتان. عزيزتي إنكلترا الصغيرة اللطيفة! حان الوقت لكي يسقط البولونيون كل فكرة لديهم عن إنكلترا كمناصر ومحارب من أجل الحرية. انظروا إلى تاريخها وسجلها في اسكتلندا مثلاً. ورجاء لا تشيروا إلينا بـ "بريتونز". ليس هناك عرق كهذا. نحن اسكتلنديون، وهذا يكفينا ويناسبنا. الإنكليز بدلوا اسمهم إلى بريطانيين، لكن حتى لو بدل مجرم اسمه، فإنه يُعرف من بصمات أصابعه....... رجاء تغاضوا عن أي تصريح معادٍ للبولونيين في الـ - - -. إنه خرقة متملقة مؤيدة للإنكليز (كما يسميه مؤيدو موسكو). اسكتلندا جربتها في يالطا في عام ١٧٠٧ حين أنجز الذهب الإنكليزي ما عجزت عنه البنادق الإنكليزية. لكننا لن نقبل الهزيمة. بعد أكثر من مئتي سنة لانزال نقاتل من أجل بلادنا، ولن نعترف بالهزيمة مهما كانت الاحتمالات.

هناك الكثير في الرسالة، لكن هذا كافٍ. يلاحظ أن الكاتب يهاجم إنكلترا من وجهة نظر "يسارية"، لكن على أساس أن اسكتلندا وإنكلترا عدوتان كأمتين. لا أعرف إن كان من المناسب أن نقرأ نظرية عرقية داخل الرسالة، لكن الأكيد أن الكاتب يكرهنا بشدة كما يكره نازي مخلص يهودياً. إنه ليس كره الطبقة الرأسمالية أو أي شيء مثل ذلك، وإنما كره إنكلترا.

ورغم أن الواقعة لم تتحقق بشكلها الكامل، إلا أن هناك مقداراً مدركاً من هذا الشيء يتجول. رأيت بيانات وتصريحات مساوية في عنفها تقريباً في الطباعة.

يبدو أن الحركة القومية الاسكتلندية الجديدة جرى تجاهلها في إنكلترا. لنأخذ أقرب مثال في متناولنا، أنا لا أتذكر أنني رأيتها تذكر في التريبيون، باستثناء المراجعات النقدية للكتب أحياناً. صحيح أنها حركة صغيرة، ولكن يمكن أن تكبر لأن هناك أساس لها. في هذه البلاد، لا أعتقد أنها أدركت تماماً- أنا نفسي لم يكن لدي أي فكرة عنها حتى قبل بضع سنين- إن اسكتلندا لها قضية ضد إنكلترا. على أسس اقتصادية ربما ليست قضية قوية. في الماضي، بالتأكيد، نحن نهبنا اسكتلندا بشكل مخزٍ، لكن إن كان صحيحاً الآن أن إنكلترا ككل تستغل اسكتلندا ككل أم لا، وأن اسكتلندا ستكون أفضل إن حصلت على استقلال تام، هي قضية أخرى.

المغزى أن الكثيرين من الاسكتلنديين من أصحاب الرأي المعتدل، بدؤوا يفكرون بالحكم الذاتي ويشعرون أنهم أقحموا في وضع متدنٍ. لديهم قدر جيد من التبرير. في بعض المناطق، اسكتلندا بلاد شبه محتلة. لديك طبقة عليا إنكليزية أو متشبهة بالإنكليز وطبقة عاملة اسكتلندية تتكلم بلهجة مختلفة بوضوح أو حتى بلغة مختلفة في بعض الوقت. هذا نوع من الانقسام الطبقي أخطر من أي شيء متواجد الآن في إنكلترا. بسبب الظروف المواتية، قد يتطور بطريقة قبيحة. وحقيقة وجود حركة عمالية تقدمية في لندن، لن يشكل فرقاً كبيراً.

لا شك أن أمراض اسكتلندا الرئيسية، سوف تشفى بالتوازي مع أمراض إنكلترا. لكن في الوقت الراهن هناك أشياء يمكن فعلها لتغطي الوضع الثقافي. نقطة صغيرة لكنها ليست تافهة، هي اللغة. في مناطق التي تتكلم الغيلية، لا تعلم الغيلية في المدارس. أنا أتكلم من تجربة محدودة، لكن يجب أن أقول إن هذا هو بداية التسبب بالامتعاض. أيضاً، البي بي سي لا تبث سوى برنامجين أو ثلاث بالغيلية أسبوعياً، مدة الواحد نصف ساعة، وتعطيك انطباعاً بأنها برامج هواة، ومع هذا تسمع بتشوق. كم يكون سهلاً شراء رضى وود قليل ببث برنامج بالغيلية مرة في اليوم على الأقل.

سابقاً كان سيقال إنه من السخف إبقاء لغة قديمة كالغيلية مثلاً لا يتكلم بها سوى بضعة مئات آلاف من الناس. الآن أنا لست متأكداً جداً. بداية، إن شعر الناس بأنهم يمتلكون ثقافة خاصة يجب الحفاظ عليها، وأن اللغة جزء منها، يجب ألا توضع الصعوبات في طريقهم حين

يريدون أن يتعلمها أولادهم بشكل صحيح. يتكلم الناطقون بالغيلية الاسكتلندية لغة إنكليزية جميلة في اعتقادي، لأن الإنكليزية لغة أجنبية تقريباً، لا يستخدمونها لمدة أيام معاً أحياناً، وربما هم استفادوا ثقافياً بأنهم كانوا مطلعين على المعاجم والقواعد النحوية.

بأي مقياس، أعتقد أنه يجب أن ننتبه أكثر إلى حركات الانفصاليين الصغيرة، لكنها عنيفة التي تتواجد ضمن جزيرتنا. قد تبدو غير مهمة الآن. لكن البيان الشيوعي كان وثيقة مغمورة جداً مرة، وكان أعضاء الحزب النازي ستة حين انضم إليه هتلر.

لنبدل الموضوع قليلاً، هذا مقتطف من رسالة أخرى. إنها من شخص يعمل في تقطير الويسكي:

نحن آسفون لأننا أجبرنا على مضض أن نعيد شيكك، بسبب فشل السيد ستارتشي في إنجاز وعده في توفير شعير من أجل التقطير في اسكتلندا. لا نجرؤ أن نتعهد بأي عمل تجاري جديد........ حين تجد صعوبة في الحصول على جرعة شراب، ستكون السلوى أن تعرف أن السيد ستارتشي أرسل ٣٥ ألف طن من الشعير إلى ايرلندا المحايدة لأغراض تخميرها من أجل الجعة.

يجب أن يشعر الناس بالغضب الشديد حين يذكرون هذا النوع من الشيء في رسالة عمل تبدو رسالة دورية (ترسل لعدة أشخاص). هي ليست مهمة جداً، لأن مقطري الويسكي وحتى زبائنهم لا يشكلون أصواتاً انتخابية كثيرة. لكني أود أن أتأكد من أن الأشخاص الذين يبدون تعليقات كالتي وصلت إلى مسمعي في طابور أمام بقالية يوم أمس -"حكومتنا هم لا يحكمون على محل نقانق، هذا العدد لا يستطيع - كانوا قليلين جداً بالعدد كذلك.

سكيلتون شاعر ليس من السهل امتلاكه، وأنا لم أمتلك بعد نسخة كاملة من أعماله حتى الآن. حديثاً، في باقة اخترتها، بحثت وفشلت كي أجد قصيدة أتذكر أنني قرأتها منذ سنين مضت. كانت قصيدة مكتوبة بلغتين قسم بالإنكليزية وقسم باللاتينية- وكانت رثاء لموت شخص ما أو آخر. المقطع الوحيد الذي أتذكره:

سيبولتوس إيست وسط الطحالب -الأشخاص الضارين- ثياب الحداد/ الرب غفر له ذنوبه/ مع هي هو رامبيلو/ رامبوبولورم/ سايكيولا سايكيلورم.

لقد علقت بذهني لأنها تعبر عن وجهة نظر مستحيلة تماماً في عصرنا. في الوقت الحالي ليس هناك أحد حرفياً يستطيع أن يكتب عن الموت بتلك الطريقة المتفائلة. منذ ضعف الاعتقاد في الخلود الشخصي، لم يبدُ الموت شيئاً مضحكاً أبداً، وسيمر وقت طويل قبل أن يكون هكذا مرة أخرى. لهذا فإن اختفاء النقش المرح على الضريح، كان ميزة شائعة في المقابر الريفية. وسوف أدهش إن رأيت نقشاً هزلياً على ضريح يعود تاريخه إلى ما بعد عام ١٨٥٠. هناك واحد في كيو إن كنت أتذكر جيداً، ربما يكون في ذلك التاريخ تقريباً. حوالي نصف شاهدة الضريح مغطاة بمديح طويل من قبل زوج أثكل لزوجته الميتة. في أسفل الشاهدة نقش متأخر يقول: "الآن لقد رحل هو أيضاً".

واحد من أفضل النقوش على الأضرحة الإنكليزية، هو نقش لاندور عن درايس، اسم مستعار لشخص لا أعرفه. إنه ليس هزلياً تماماً لكنه مدنس جوهرياً. لو كنت امرأة، سيكون نقشي المفضل- أي أنه سيكون النقش الذي أحب أن يكون لي. يقول:

قف قريباً من المكان، ستايغان جلس/ لينقل مع درايس في قارب واحد/ أو شارون، لأنه ربما نسي/ أنه عجوز وهي ظل.

أن تكون تلك الكتابة من أجلك وعنك، هو شي يستحق الموت تقريباً.

٢١ فبراير/ شباط ١٩٤٧

نشرت المقالة في مانشستر إيفنينغ نيوز من أجل التريبيون.

للأسبوع الثالث والرابع من فبراير/ شباط عام ١٩٤٧، فإن المجلات النقدية الأسبوعية الوطنية وكثير من تجارة الصحف، أوقفت من النشر بأمر من الحكومة بسبب النقص الحاد في الوقود وانقطاعات الكهرباء الناتجة عن ذلك. للمساعدة أثناء الأزمة، عرضت كل من الأوبزيرفر ومانشستر إيفنينغ نيوز والديلي هيرالد على التريبيون استضافة أعمدتها. يشير أورويل إلى التعليق وخسارة التريبيون لدخلها في رسالته إلى دوايت مكدونالد في ٢٦ فبراير/ شباط عام ١٩٤٧. التالي العمود الذي يكتبه أورويل للتريبيون كل أسبوع:

إن الخبر الذي تكرر للمرة الثانية في الأشهر القليلة الأخيرة عن منع مسرحية من العرض، وقيام محطة البي بي سي ببثها (ربما يمكنها ذلك من كسب جمهور أكبر مما لو مثلت على المسرح) يثير مرة أخرى سخف القوانين التي تحكم الرقابة الأدبية في بريطانيا.

إن المسرحيات والأفلام هي الوحيدة التي يجب أن تخضع للرقابة قبل أن تظهر. بالنسبة إلى الكتب، فيمكنك طبع ما تحب وتتحمل خطر المقاضاة. وهكذا يمكن لمسرحيات منعت سابقاً مثل مسرحية غرانفيل باركر "ضياع" ومسرحية برنارد شو "مهنة السيدة وران"، أن تظهر على شكل كتاب فوراً من دون التعرض إلى خطر المقاضاة، ويباع بشكل أفضل مستغلاً الفضيحة التي حدثت مسبقاً. من الإنصاف القول إن كانت مسرحيات جيدة، المسرحيات الممنوعة ترى النور عادة عاجلاً أو أجلاً. حتى مسرحية "ضياع" التي تحدثت عن السياسة والجنس أيضاً، سوف يسمح لها بالظهور أخيراً، بعد أن كتبت، حين يتلاشى الحديث عن طبيعة الموضوع الذي أعطاه القدر الأكبر من قوتها.

إن المشكلة مع رقابة اللورد تشامبرلاين على المسرح، ليست لأنها تحدث، وإنما لأنها غبية بربرية يقوم بها بيروقراطيون يفتقرون إلى أي تعليم أدبي. إن وجب أن تكون هناك رقابة، فمن الأفضل أن تحدث مسبقاً لكي يعرف المؤلف أين يقف. إن منع الكتب نادر في بريطانيا، لكن المنع الذي يحدث اعتباطي تماماً عادة. "بئر العزلة" مثلاً منع، بينما ظهرت كتب أخرى لها نفس الموضوع بنفس الوقت ومرت من دون أن تُلاحظ.

إن الكتاب الذي يسقط ويمنع، هو الكتاب الذي يصدف أن يلفت انتباه موظف أمي. ربما نصف الروايات المنشورة الآن، كانت ستعاني نفس المصير لو صدف وأن وصلت إلى الأيدي الصحيحة. في الحقيقة -رغم أن الموتى يحترمون دائماً، أشك إن كان بترونيوس أو تشوسر أو رابيلياس أو شكسبير سينجون من تشويه الرقابة لو كان قضاتنا وشرطيونا قراء أكبر.

التريبيون ٢٨ فبراير/ شباط ١٩٤٧
نشرتها مانشستر إيفنينغ نيوز للتريبيون

يلاحظ المرء شيئاً واحداً في هذه الأيام حين أصبحت آلات الكتابة نادرة جداً، ألا وهو السوء المذهل لخط يد كل شخص تقريباً. لقد بات خط اليد الذي يسر النظر وتسهل قراءته،

شيئاً نادراً الآن. لإحداث تحسن، علينا أن نطور "أسلوباً" مقبولاً من الكتابة، كالذي كنا نملكه في الماضي وفقدناه الآن.

لقرون كثيرة في العصور الوسطى، كتب الناسخون المحترفون المخطوط المتقن والرائع، أو بالأحرى سلسلة من المخطوطات التي لا يستطيع أحد حي أن يضاهيها الآن. ثم انحدرت الكتابة باليد التي انتعشت في القرن التاسع عشر بعد اختراع قلم الحبر المعدني. كانت الكليشهات النحاسية أسلوب الطباعة المفضل بعدئذ، وكان أنيقاً ومقروءاً لكنه مليء بخطوط غير ضرورية، لم تناسب النزعة الحديثة في التخلص من الزخرفة أينما أمكن. ثم أصبح الزي الدارج هو تعليم الأطفال كتابة المخطوط بنتائج كارثية عادة. لتكتب مخطوطاً بأناقة حقيقية، عليك عملياً أن تتعلم الرسم، ويستحيل عليك أن تكتبه بسرعة الكتابة المتصلة. الكثير من الشبان والأحداث الآن يستخدمون تسوية صعبة بين المخطوط والكليشيه النحاسية. وفي الحقيقة هناك الكثير من البالغين والناس المتعلمين جداً الذين لم تتشكل أبداً كتابتهم اليدوية بشكل لائق.

من المشوق أن نعرف إن كان هناك أي ارتباط بين خط اليد الأنيق والمقدرة الأدبية. يجب أن أقول إن النماذج الحديثة التي أقدر على التفكير فيها، لا تثبت الكثير كما يبدو. الآنسة ريبيكا ويست لديها خط يد رائع، وأيضاً السيد ميدلتون موري، أما السير سيتويل والسيد ستيفن سبيندر والسيدة إيفلين واو فكتابتهم اليدوية- أقولها بأدب قدر الإمكان- ليست جيدة. البروفيسور لاسكي يكتب بخط جذاب، لكن قراءته صعبة. أرنولد بينيت كتب بخط جميل صغير جداً بذل مجهوداً كبيراً عليه. إتش جي ويلز لديه خط جذاب، لكنه غير مرتب. كتابة كارليل كانت رديئة، لدرجة أن أحد المنضدين ترك ايدنبره ليتخلص من وظيفة ترتيبها. السيد برنارد شو يكتب بخط صغير، لكنه واضح وأنيق جداً. وبالنسبة إلى خط أشهر وأجل روائي بين الروائيين الإنكليز الأحياء حين كنت في البي بي سي وكان لي الشرف في تقديمه على الهواء مرة واحدة في الشهر، فلم يكن هناك سوى سكرتير واحد في كل القسم يستطيع فك شفرة مخطوطاته. (الإشارة إلى خط يد أي أم فورستر).

٧ مارس / آذار ١٩٤٧.

منذ وقت مضى، سألني زائر أجنبي إن كنت أستطيع أن أرشح له مجموعة جيدة مختارة من المقتطفات الأدبية تمثل الشعر الإنكليزي. حين فكرت ملياً، وجدت أنني لا أستطيع أن أسمي

له أي مقتطف بدا لي مرضياً. طبعاً هناك عدد لا يحصى من المقتطفات الأدبية، لكن ليس هناك واحد منها حاول أن يغطي الأدب الإنكليزي كله، إلا بالغريف في كتابه "الكنز الذهبي"، وعمل آخر أشمل وأحدث هو "كتاب أكسفورد للشعر الإنكليزي"

أنا لا أنكر أن كتاب أكسفورد مفيد، وهناك قدر كبير جداً من المادة الجيدة فيه، وأن كل تلميذ يجب أن يمتلك نسخة منه لتعذر وجود الأفضل. لكن حين تنظر إلى الخمسين صفحة الأخيرة، تفكر مرتين بتزكية مثل هذا الكتاب لأجنبي ربما تخيل أنه يمثل الشعر الإنكليزي حقيقة. في الحقيقة، كل هذا القسم من الكتاب، توضيح حزين لما حدث لأساتذة الأدب حين كانوا يضطرون إلى إبداء رأي مستقل. حتى عام ١٨٥٠ تقريباً، لم يكن المرء يستطيع أن يفشل كثيراً في تجميع مجموعة مختارة من المقتطفات الأدبية، لأنها ستكون كل القصائد الأفضل التي بقيت حية. لكن حالما وصل السير آرثر كويلر كاوتش إلى معاصريه، هجره كل أثر ضئيل من الذوق.

يقف كتاب أكسفورد للشعر الإنكليزي تأليف آرثر كويلر كاوتش عند عام ١٩٠٠ ومن المعروف أن العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت فترة فقيرة بالنسبة إلى الشعر. لكن يظل هناك شعراء في التسعينات. هناك إيرنست داوسن- "سينارا" ليست فكرتي عن القصيدة الجيدة، لكنني أفضلها على قصيدة هانلي "إنكلترا إنكلترتي"-وهناك هاردي الذي نشر قصيدته الأولى في عام ١٨٩٦. وهناك أيضاً هاوسمان الذي نشر "صبي الخراف الإنكليزية" في عام ١٨٩٦. وهناك هوبكنز أيضاً الذي لم يكن في عالم النشر أو كان بالكاد، لكن كان على السير آرثر كويلر كاوتش أن يعرف عنهم. لم يظهر أحد من هؤلاء في كتاب أكسفورد. ييتس الذي نشر لتوه قدراً كبيراً في ذلك التاريخ، يظهر بشكل مختصر، لكنه لم يقدم بأفضل قصائده، ولا كيبلينغ أيضاً الذي كتب قصيدة أو اثنتين كما أعتقد (كم هي بعيدة القديسة هيلانه) مثلاً التي تستحق أن تكون ضمن مختارات أدبية جدية. ومن جانب آخر، انظر إلى تلك المادة التي تضمنها الكتاب! قصيدة الكليفتوني العجوز للسير هنري نيوهولت الذي يقف متخشباً على الجبهة الشمالية الغربية، قطع وطنية أخرى لهانلي وكيبلينغ، وصفحة بعد أخرى من الشعر الضعيف التقليدي السقيم لأندرو لانغ والسير وليام واتسون وايه سي بنسون وأليس ماينيل وآخرين غيرهم منسيين الآن. ماذا سيكون رأي المرء في مجموعة مقتطفات أدبية مختارة، تضع نيوبولت وإدموند غوسي في نفس المجلد مع شكسبير ووردزوورث وبليك؟

قد أكون جاهلاً. وهناك مقتطفات أدبية مختارة شاملة موجودة مسبقاً تغطي الأدباء من تشوسر إلى ديلان توماس ولا تشمل أي شيء تافه.

لكن إن لم يكن كذلك، فأعتقد أن الوقت قد حان لتأليف كتاب مقتطفات أدبية شامل أو أن يُحدّث كتاب أكسفورد بانتقاء جديد تماماً من الشعراء، بدءاً من تينيسون فصاعداً.

بعد تصفح ما كتبته، أرى أنني تكلمت بتكبر عن قصيدة داوسن "سينارا" أنا أعرف أنها قصيدة سيئة، لكنها سيئة بطريقة جيدة أو بطريقة سيئة جيدة. وأنا لا أرغب بالتظاهر أني لم أعجب بها أبداً. في الحقيقة لقد كانت واحدة من القصائد المفضلة في صباي. أقتبس التالي منها من الذاكرة:

لقد نسيت الكثير يا سينارا! ذهبت مع الريح،/ قذفت بالورود؟ رقصت مع الحشد الراقص بصخب/ لأنتزع سوسناتك الباهتة الضائعة من ذهني؛ لكنني كنت بائساً ومدمراً ومريضاً من شغف قديم،/ نعم، كل الوقت، لأن الرقصة كانت طويلة-/ أنا كنت مخلصاً لك يا سينارا! بطريقتي.

بالتأكيد هذه الأبيات تمتلك -إن لم تكن تستحق- على الأقل نفس السحر الذي ينتمي إلى زهرة إبرة الراعي القرنفلية أو إلى الشوكولا ذات القلب الطري الناعم.

١٤ مارس/ آذار ١٩٤٧

لم أقرأ أكثر من فقرة صحيفة واحدة عن نيو سبيلينغ (التهجئة الجديدة) لشخص قدم وثيقة في البرلمان، وإن كانت مثل أغلب الخطط الأخرى لعقلنة هجائنا، فأنا ضدها مقدماً، كما يكون أكثر الناس الآخرين في تصوري.

ربما أقوى مبرر لمقاومة التهجئة المعقلنة هو الكسل. كلنا تعلمنا أن نقرأ ونكتب مسبقاً، ولا نريد أن نفعل ذلك مرة أخرى من جديد. لكن هناك اعتراضات أخرى محترمة أكثر. بداية إن لم تفرض الخطة بشكل صارم، ستكون الفوضى الناتجة عن قبول بعض الصحف ودور النشر بها ورفض بعضها الآخر لها مرعبة. ثم إن أي شخص لم يتعلم أن يقرأ إلا بالطريقة الجديدة، سيجد صعوبة كبيرة حين يقرأ الكتب المطبوعة بالطريقة القديمة، لذلك يجب التعهد بتحمل الجهد الهائل لإعادة تهجئة كل أدب الماضي. وأيضاً لا يمكنك تبرير التهجئة تماماً، إن أعطيت

قيمة ثابتة لكل حرف. لكن هذا يعني لفظ قياسي لا يمكن إنجازه في هذه البلاد من دون شجار مروع. ماذا تعمل مثلاً بكلمات مثل "زبدة- بتر" أو "قدح- غلاس" اللتين تلفظان بطرق مختلفة في لندن ونيوكاسل؟ كلمات أخرى مثل "كانوا- وير" تلفظ بطريقتبن مختلفتين حسب ميول الفرد أو حسب السياق.

لكن أنا لا أريد أن أحكم مسبقاً على مخترعي التهجئة الجديدة. ربما فكروا مسبقاً بطريقة يلتفون بها على هذه الصعوبات. وبالتأكيد نظام تهجئتنا الحالي منافٍ للعقل والطبيعة، وهو عذاب للطلاب الأجانب بالتأكيد. هذا مثير للشفقة، لأن الإنكليزية مناسبة جيداً لتكون لغة عالمية ثانية إن كان هناك شيء كهذا. لديها انطلاقة واسعة فوق أي لغة طبيعية وانطلاقة هائلة فوق أي لغة مصنعة، وبمعزل عن التهجئة إن تعلمها سهل جداً. ألا يمكن عقلنتها بالتدريج، بضع كلمات في كل سنة؟ مسبقاً أسخف التهجئات تميل إلى الاندثار والموت بشكل غير رسمي، فكم شخصاً مثلاً يهجئون الآن "فواق- هايكب" على شكل "هايكف"؟

شيء آخر، أنا ضده مقدماً -لأنه سيطرح عاجلاً أو آجلاً بالضرورة- هو الهجر التام لنظامنا الحالي في الوزن والقياس.

من الواضح أنه يجب عليك أن تمتلك النظام المتري لأغراض محددة. العمل العلمي هو قيد الاستعمال منذ وقت طويل وتحتاجه الأدوات والآلات، خصوصاً إن أردت أن تصدرها. لكن هناك حجة قوية للحفاظ على القياسات القديمة من أجل استخدامها في الحياة اليومية. أحد الأسباب، هو أن النظام المتري لا يمتلك أو لم ينجح في توطيد عدد كبير من الوحدات التي يمكن تخيلها. لا توجد فعلياً مثلاً وحدة بين المتر الذي هو أكثر من الياردة والسنتمتر الذي هو أقل من البوصة. في الإنكليزية يستطيع المرء أن يصف شخصاً بكونه بطول خمسة أقدام وثلاث بوصات أو خمسة أقدام وتسع بوصات أو ستة أقدام وبوصة واحدة، وسامعك سيعرف بدقة ماذا تعني. لكنني لم أسمع قط رجلاً فرنسياً يقول "إن طوله مئة واثنان وأربعون سنتمتراً؛ فهذا لا ينقل أية صورة بصرية. وهكذا الأمر مع قياسات أخرى متنوعة. القصبة والفدان والباينت (نصف لتر) والكوارت (ربع غالون) والغالون (ثلاثة أرطال وثلاثة أرباع) والرطل الإنكليزي والحجر (ست كيلوات وثلث) والهندردويت (مئة رطل) كلها وحدات

نحن ألفناها وأحببناها وسنكون أفقر من دونها. فعلياً، في البلدان التي طبق فيها النظام المتري، قلة من المقاييس القديمة بقيت من أجل أغراض يومية رغم ثنيها عن ذلك رسمياً.

هناك الاعتبار الأدبي أيضاً الذي لا يمكن تركه خارج الحساب. أسماء الوحدات في النظام القديم كلمات قصيرة مألوفة أعارت نفسها للكلام القوي والنشيط. وضع ربع غالون في إناء يسع باينت، هو صورة جيدة لا يمكن التعبير عنها في النظام المتري. أيضاً أدب الماضي لا يتعامل إلا بالقياسات القديمة، ومقاطع كثيرة ستصبح إزعاجاً إن اضطر المرء إلى القيام بعملية حسابية، وهو يقرؤها كما يفعل المرء مع تلك الأبيات الشعرية المملة براوية روسية: بوصة النملة وميل النسر/ يجعلان الفلسفة العرجاء تبتسم: تخيل التحول إلى المليمتر!

كنت أقرأ للتو عن فريق ألماني من المعلمين والصحفيين ومندوبي نقابات عمال وآخرين كانوا في زيارة لهذه البلاد. اتضح أن النقابات ومنظمات أخرى أعطتهم رزم طعام، لكن الجمارك في هارويتش أخذتها منهم. لم يسمح لهم حتى أن يأخذوا إلى خارج البلاد طعام الـ ١٥ رطلاً الذي يسمح بها للأسرى العائدين من الحرب. الجريدة التي نقلت هذا الإعلان من دون سخرية ظاهرة بأن الألمان المذكورين كانوا هنا في "منهج عن الديمقراطية لمدة ستة أسابيع".

منذ بضعة أيام كانت لديّ مناسبة لأكتب شيئاً عن تعليم التاريخ في المدارس الخاصة، والمنظر التالي الذي كان متصلاً قليلاً بما أكتب، طاف في ذاكرتي. شاهدته منذ ما لا يقل عن خمس عشرة سنة.

"جونز!"

"نعم يا سيدي!"

"أسباب الثورة الفرنسية"

"بكل سرور يا سيدي، تعود الثورة الفرنسية إلى ثلاثة أسباب، تعاليم فولتير وروسو واضطهاد النبلاء بواسطة الشعب و-"

في هذه اللحظة برودة باهتة مثل العلامة الأولى المخدرة لمرض وقعت على جونز. أيمكن أنه أخطأ في مكان ما؟ وجه الأستاذ غامض ومبهم. عاد جونز بسرعة ورشاقة بذهنه إلى الكتاب الصغير غير الممتع مع الغلاف البني الرملي، صفحة كان يستظهرها يومياً. كان سيقسم أنه فهم الشيء كله بشكل صحيح. لكن في هذه اللحظة اكتشف جونز للمرة الأولى خداع الذاكرة البصرية. إن الصفحة كلها واضحة في عقله وشكل كل فقرة مدونة بدقة، لكن المشكلة لم يعرف الطريقة التي رتبت بها الكلمات. لقد كان متأكداً من أن السبب هو اضطهاد النبلاء من قبل الشعب، لكنه فكر بعد ذلك أن السبب قد يكون اضطهاد الشعب من قبل النبلاء. إنها قرعة. أخذ قراره بشكل يائس -الأفضل أن يتمسك بنسخته الأولى. بربر قائلاً:

"اضطهاد النبلاء من قبل الشعب و-"

"جونز!"

أتساءل هل ذاك النوع من الشيء مازال مستمراً؟

٢٨ مارس/ آذار ١٩٤٧.

كنت أقرأ باهتمام نشرة المراقبة الجماهيرية التي ظهرت بعد عشرة سنوات من بداية إنشاء هذه المنظمة. الغريب أنني أتذكر بأي عداء قوبلت به في البداية. لقد هوجمت بعنف في النيوستيتسمان مثلاً، حيث أعلن السيد ستونير أن المراقبة الجماهيرية الأنموذجية ستكون لها "أذنا فيل ومشية متبخترة وعينان مقرحتان دائماً من النظر من خلال ثقوب المفاتيح" أو كلمات بهذا المعنى. وكان هناك مهاجم آخر هو السيد ستيفن سبيندر. لكن بالمجمل المعارضة على هذا أو أي نوع من المسح الاجتماعي، تأتي من الناس ذوي الآراء المحافظة الذين يبدون غالباً ساخطين بصدق من فكرة اكتشاف ماذا الذي يفكر فيه الجمهور الكبير.

لو سألنا لماذا، سيجيبون دائماً أن ما يكتشف ليس ذو أهمية، وأن أي شخص ذكي يعرف دائماً ما هي الميول الرئيسية للرأي العام. حجة أخرى، وهي أن عمليات المسح الاجتماعي تدخل في الحرية الفردية، وأول خطوة نحو النظام الشمولي. أنشأت الديلي إكسبريس هذا الخط لعدد من السنين، وحاولت أن تسخر من وحدة المسح الاجتماعي الصغيرة التي أسستها وزارة الإعلام وتخرجها من الوجود بتلقيبها كوبرز سنوبرز (متلصصو كوبر). طبعاً خلف

الكثير من هذه المعارضة، يكمن خوف مبرر من إيجاد أن الرأي الجماهيري عن مواضيع كثيرة ليس محافظاً.

لكن يبدو أن بعض الناس يشعرون بصدق أن أمراً سيئاً للحكومة أن تعرف الكثير بما يفكر فيه الناس، كما يشعر الناس تماماً أنه نوع من الوقاحة حين تحاول الحكومة أن تثقف الرأي العام. فعلياً، لا يمكن أن يكون لديك ديمقراطية، إذا لم تعمل العمليتان الاثنتان. الديمقراطية ممكنة فقط حين يعرف المشرعون والإداريون ماذا تريد الجماهير، وماذا يمكن أن تفهمه بشكل مؤكد. إن اهتمت الحكومة الحالية أكثر بهذه النقطة الأخيرة، فإنهم سيقولون بعضاً من علنيتهم ودعايتهم بشكل مختلف. أصدرت المراقبة الجماهيرية تقريراً الأسبوع الماضي عن الورقة البيضاء حول الوضع الاقتصادي. وجدوا كالعادة أن الكلمات المجردة والعبارات التي قذفت هنا وهناك في تصريحات رسمية، لا تعني شيئاً للمواطنين العاديين الكثر. حتى أن بعض الناس أربكتهم كلمة "أرصدة أسيتس" وظنوا أن لها علاقة بكلمة "يساعد أسيست"!

تعطي نشرة منظمة المراقبة الجماهيرية بعض الوصف للطرق التي يستخدمها محققوها، لكنها لا تلمس النقطة المهمة جداً، وهي الطريقة التي تمول بها منظمات المسح الاجتماعي. تبدو منظمة المراقبة الجماهيرية أنها تحافظ على الاكتفاء الذاتي بنشر الكتب والقيام بوظائف محددة للحكومة أو لمنظمات تجارية. بعض من أفضل عمليات مسحها كتلك التي تتعامل مع معدل الولادات، نفذت لأجل نقابة خدمة الإعلانات. المشكلة مع هذه الوسيلة أن الموضوع لا يجري البحث فيه، إلا إذا اهتمت به منظمة ثرية. مثال واضح العداء للسامية، الذي لم يبحث فيه أبداً في اعتقادي أو بطريقة سطحية جداً. لكن عداء السامية هو شكل مختلف واحد فقط من مرض القومية الحديث الكبير. نحن نعرف القليل جداً عن الأسباب الحقيقة للقومية، وربما نستطيع أن نتخيل أننا على الطريق نحو علاجها إن عرفنا أكثر، لكن من هو المهتم كفاية ليوفر آلاف الجنيهات التي يكلفها المسح الشامل؟

في الأسابيع الماضية، كانت هناك مراسلات في صحيفة الأوبزيرفر، عن استمرار وجود "ابصق ولمع" في القوات المسلحة. في الإصدار الأخير هناك رسالة جيدة من مراسل وقعت

باسم "مجند إلزامي"، تصف كيف أجبر هو ورفاقه على إضاعة وقتهم في تلميع النحاس ودهن الخراطيم المطاطية بملمع الأحذية وكشط مقابض المكانس بأمواس الحلاقة وهلم جرا. وتابع المجند قائلاً: "حين ينفذ ضابط (رائد) قراءة روتينية للتعليمات الملكية بخصوص مرض تناسلي، لم يكن يتردد بإضافة: "ليس هناك ما تخجلون منه إن أصابكم المرض -الأمر طبيعي جداً. لكن تأكدوا أن تبلغوا من أجل العلاج فوراً" يجب أن أقول إن الأمر يبدو غريباً لي، وسط الحماقات الأخرى المذكورة، إن تعارض واحدً من الأشياء المعقولة القليلة جداً في نظام الجيش، كالموقف الصريح من مرض تناسلي. نحن لم نستطع أن نجتث الزهري والسيلان حتى تزال منهما وصمة الإثم والشر. حين طبق التجنيد الإلزامي الشامل في حرب ١٩١٤-١٩١٨ اكتشف -إن كنت أتذكر جيداً- أن نصف السكان تقريباً يعانون من مرض تناسلي ما، مما أرعب السلطات ودفعها إلى أخذ بعض الاحتياطات. أثناء سنوات الحرب، فتر الصراع ضد المرض التناسلي بقدر ما وصل إليه السكان المدنيون، واستمر الحال عما هو عليه بين المدنيين. كان هناك تدبير وقائي لمعالجة الذين أصيبوا بالمرض، لكن الاقتراح لتأسيس "مراكز للعلاج المبكر" كما في الجيش، قمعه البيوريتان -المتزمتون. ثم أتت حرب أخرى، مع زيادة في المرض التناسلي سببتها الحرب بالضرورة، وكانت هناك محاولة أخرى للتعامل مع المشكلة. كانت ملصقات ومنشورات وزارة الصحة خائفة، لكن حتى هذه كانت ستثير احتجاجاً قوياً من المتزمتين، لو لم تستدعِ ذلك الضرورة العسكرية.

لا تستطيع معالجة هذه الأمراض، طالما ينظر إليها بأنها عقوبات من الرب، في تصنيف مختلف تماماً عن الأمراض الأخرى. ومن الخداع القول إن "العيش النظيف هو العلاج الحقيقي الوحيد" أنت ملزم بالاتصال الجنسي غير الشرعي والبغاء في مجتمع مثل مجتمعنا، حيث ينضج الناس جنسياً في الخامسة عشرة تقريباً، ويثبطون من الزواج حتى يبلغوا العشرينات، وحيث التجنيد الإلزامي والحاجة إلى التعبئة من أجل العمل تفكك الحياة العائلية، وحيث الناس الشباب يعيشون في بلدات كبيرة، وليس لديهم طريقة نظامية في تشكيل علاقات شخصية ومعارف. من المستحيل حل المشكلة بجعل الناس أخلاقيين أكثر، لأنهم لن يكونوا كذلك ضمن أي وقت منظور. بالإضافة إلى أن الكثير من ضحايا المرض التناسلي هم أزواج وزوجات، لم يسلموا أنفسهم لأي فعل فاسق. الطريق المعقول الوحيد هو

أن نعترف أن الزهري والسيلان مجرد أمراض، يمكن منعها، وحتى شفاؤها، أكثر من أغلب الأمراض الأخرى، وأن الإصابة بها ليست عاراً. لا شك أن المتزمتين سيصرخون. لكن في فعل هذا، ربما يعترفون بدوافعهم الحقيقية، وعندها نقترب أكثر من القضاء على هذا الإثم.

في الخمس دقائق الأخيرة، كنت أحدق من النافذة في الساحة باحثاً عن علامات لفصل الربيع. توجد هناك بقعة متفرقة رقيقة في الغيوم مع أثر ضئيل من اللون الأزرق خلفها. وعلى شجرة جميز هناك بعض أشياء تبدو كأنها براعم. لكن مازلنا في فصل الشتاء. لكن ليس هناك ما يدعو إلى القلق! منذ يومين بعد بحث حريص في الهايد بارك، عثرت على شجرة زعرور بري كانت مزهرة بالتأكيد، وبعض الطيور لم تكن تشدو في الواقع، وإنما تصدر أصواتاً مثل فرقة موسيقية تضبط نغماتها. وأخيراً ها هو الربيع قادم. وكانت الإشاعات عن بداية عصر جليدي آخر قادم بلا أي أساس. بعد ثلاثة أسابيع فقط سوف نستمع إلى طائر الوقواق الذي يشدو عادة في الرابع عشر من أبريل/ نيسان. وثلاثة أسابيع أخرى بعد ذلك، سوف نتشمس تحت السماء الزرقاء، ونأكل المثلجات من عربات اليد، ونتخفف في تخزين وقود للشتاء القادم.

كم تبدو مناسبة القصائد القديمة جداً التي قيلت في مديح الربيع في السنين القليلة الأخيرة! إنها تملك معنى لم تملكه في الأيام التي لم يكن فيها نقص في الوقود. وكنت تستطيع الحصول على أي شيء تقريباً في أي وقت من السنة. من كل المقاطع التي تحتفل بالربيع المفضل منها، عندي مقطعان شعريان من بداية واحدة من أغاني روبن هود الشعبية وقد جددت تهجئتها:

حين ترى اللمعة والمروج نظيفة وواضحة/ والأوراق كبيرة وطويلة/ من المبهج المشي في الغابة الجميلة/ من أجل سماع أغنية الطيور الصغيرة. مرحاً وبهجة.

شدا الودويلي ولم يتوقف/ وهو يجلس فوق غصن الكحلية المزهر/ بصوت عالٍ جداً أيقظ روبن هود/ المستلقي في الغابة الخضراء.

لكن ما هو الودويلي بالضبط؟ لقد اقترح معجم أكسفورد أنه نقار الخشب الذي لم يكن طائراً مغرداً بارزاً، وأنا راغب ومهتم لأعرف إن كان مطابقاً أكثر لطائر آخر.

٤ أبريل/ نيسان ١٩٤٧.

بدأت اللجنة الملكية بخصوص الصحافة، العمل بعد تأخيرات غامضة. ويفترض إن لن تصل إلى أحكام محددة قبل أن يمضي وقت طويل ويمر وقت أطول، حتى تعمل ما هو ضروري على اكتشافاتها. رغم ذلك، يبدو لي أن الآن هو الوقت للبدء في مناقشة مشكلة الحفاظ على صحافة حرة في اقتصاد خاضع لسيطرة الدولة. لأنه إن لم نصبح مدركين للصعوبات قبل أن تكون فوقنا فعلياً، فإن الوضع النهائي للصحافة في هذه البلاد سيكون أسوأ مما يجب أن يكون بالضرورة.

خلال أزمة الوقود، لاحظت عند كثير من الناس إعلاناً عن سوء الحكومة، لتقابل في كل مرة بالجواب أن الحكومة الحالية ليس لها أي أداة تعبير تحت سيطرتها. هذا صحيح طبعاً. ثم قلت، "لماذا لا تستولي على الديلي – وتجعلها الجريدة الناطقة باسم الحكومة؟". كان هذا الاقتراح يقابل بالرعب دائماً. يبدو أن تأميم الصحف يعتبر "فاشية" بينما "حرية الصحافة" تتكون من السماح لبضعة مليونيريين أن يجبروا مئات الصحفيين على تزييف آرائهم. لكن سأهمل السؤال عن كم هي حرة الصحافة البريطانية في الوقت الحاضر. النقطة هي ماذا سيحدث أخيراً إن استمر التوجه الحالي نحو التأميم؟

عاجلاً أو آجلاً، كما يبدو لي، سوف يتم تأميم الصحافة بالتأكيد، طالما أنها لسان ناطق رئيسي. من الصعب جداً أن تستمر في الوجود كبقعة ضخمة من مشروع خاص، مثل نوع من ادخار خفي في وسط اقتصاد جماعي. لكن هل ذلك يعني أن كل قنوات التعبير ستكون أخيراً تحت سيطرة البيروقراطيين؟ بعض من هكذا شيء يمكن أن يحدث بسهولة تامة إن كان الناس الأكثر اهتماماً غير مبالين بقدرهم. يمكن للمرء أن يتخيل جيداً صحفاً ودوريات ومجلات وكتباً وأفلاماً وراديو وموسيقى ودراما كوّمت مع بعضها و"نسقت" تحت إرشاد وزارة فنون جميلة هائلة ما (أو أياً كان اسمها). إنه ليس استشرافاً ممتعاً، لكني أؤمن بإمكانية تفاديه إن أدرك الخطر مقدماً.

ما هو المقصود بحرية الصحافة؟ يجب أن أقول إن الصحافة حرة، حين يكون من السهل، وليس هذا غير قانوني، وصول آراء الأقلية إلى الطبع وتوزيعها للجمهور. إن إنكلترا محظوظة أكثر من أغلب البلدان في هذا الجانب. ومن الإنصاف القول إن ذلك يعود جزئياً إلى التنوع

الموجود في الصحافة التجارية الكبيرة. الصحف اليومية الكبرى، رغم أنها قليلة جداً، إلا أنها تحتوي على ظلال من الاختلاف، أكثر من الصحافة التي تسيطر عليها الحكومة. لكن يظل الحراس الرئيسيون لرأي الأقلية هي الصحف المستقلة الصغيرة الأسبوعية أو الشهرية ودور نشر الكتب.

فقط عبر تلك القنوات تستطيع أن تتأكد أن أي رأي لا يعبر عن تشهير أو تحريض على العنف، سيحصل على فرصة استماع. لذلك إن كانت الصحافة الكبيرة متأكدة من أنها ستؤمم بأي شكل، ألا يمكن وضع هذا المبدأ مقدماً: إن التأميم سيؤثر فقط على الكثير من الصحف، حين تصبح تحت عنوان "شركة كبيرة"، بينما تترك المشاريع التجارية الصغرى لحالها؟

من الواضح أن مالك سلسلة من مئات الصحف، هو رجل رأسمالي، وبالتالي هكذا يكون هو نفسه الناشر الصغير ورئيس تحرير مجلة شهرية ومالكها في الوقت نفسه. لكنك لست مجبراً على أن تعاملهم بالمثل، كما في إلغاء الملكيات الكبيرة للأراضي، فأنت لست ملزماً أن تسرق الملاك الصغير أو جنايني السوق. طالما تستطيع الأقلية التواجد والعيش وتعتمد على تواجد مستمر، حتى في حفرة أو بطريقة حرجة، ستكون الحرية الفردية محمية. لكن الخطوة الأولى هي الإدراك بأن التأميم حتمي، ونضع خططنا وفقاً لذلك. وإلا فإن الناس المهتمين الصحفيين والفنانين والممثلين إلخ، لن يملكوا قوة مساومة حين يأتي الوقت وتبلعهم وزارة الفنون الجميلة كلهم دفعة واحدة.

مؤخراً كنت أتحدث مع محرر صحيفة ذات توزيع كبير جداً، وقد أخبرني أنه ليس من السهل لجريدته أن تستمر على ربع مبيعاتها فقط. وهذا قد يستمر ليكون حقيقة حتى يتحسن وضع الصحيفة كما يقال، مما يعني العودة إلى حجم ما قبل الحرب بتكلفة أعظم بكثير. حتى ذلك الحين، ستكون الإعلانات مصدر الدخل الثانوي المهم الوحيد.

إن كان الوضع هكذا، فأعتقد أن كثيراً من الصحف التي استطاعت البقاء الآن من دون إعلانات -أليس هذا هو الوقت المناسب لدفعة شاملة ضد العلاجات المرخصة؟ قبل الحرب كان من المستحيل أن تهاجم الأدوية المرخصة بطريقة كبيرة، لأن الصحافة التي يفترض أنها تقوم بعملية الفضح، تعيش جزئياً من الإعلانات عنها.

كبداية، قد يكتشف ناشر مغامر مجلدين اثنين من ذلك الكتاب النادر والمسلي، علاجات سرية ويعيد طبعهما. هذا أصدرته -إن كنت أتذكر الجمعية الطبية البريطانية بمصادقة أطباء- ظهر المجلد الأول في عام ١٩١٢ والثاني أثناء عشرينات القرن العشرين. يتألف المجلدان من قائمة من الأدوية الموجودة المحمية بعلامات تجارية مع بيان بحقوقها وتحليل لمحتوياتها وتقدير لكلفتها. كان هناك تعليق قليل جداً لم يكن ضرورياً في أغلب الحالات. أتذكر جيداً أن أحد "علاجات السل" بيع للجمهور بخمس وثلاثين شلناً للقارورة التي قدرت كلفتها بنصف بنس.

لم يكن لكلا المجلدين تأثير كبير على الجمهور. الصحافة، ولأسباب أشرت إليها آنفاً، تجاهلت كلا الإصدارين، وهما الآن نادران جداً، لذلك لم أر قط أية نسخة منهما منذ سنين. (عرضياً، إن كان لدى أي قارئ نسخة، فسأشتريها بكل سرور -خصوصاً المجلد الثاني الذي أظن أنه أكثر ندرة) لو أعيد إصداره ثانية، فسيحتاج الكتاب إلى تحديث، لأن الادعاء بشفاء أمراض محددة قد منعه القانون، بينما وصلت أنواع جديدة من النفاية إلى الأسواق. لكن الكثير من الأنواع القديمة لايزال هناك -هذه هي النقطة المهمة. هل من غير الممكن أن يزداد استهلاك الأدوية المرخصة، إن أعطي الناس فكرة أوضح عن طبيعة المادة وتكلفتها الحقيقية التي يتجرعونها في حلوقهم؟

قبل بضعة أسابيع، سأل مراسل في التريبيون: لماذا لا يسمح لنا أن نزرع ونعتني بتبغ خاص لاستخدامنا الشخصي، عملياً يمكنك فعل هذا كما أعتقد.

هناك قانون ضد ذلك، لكنه لم يطبق بشكل صارم وتام. أنا أعرف أشخاصاً زرعوا تبغهم الخاص بهم، وجهزوه في قطع مثل أي مادة تجارية. جربت بعضه مرة، ورأيته التبغ المثالي لغير المدخن. المشكلة مع التبغ الإنكليزي أنه خفيف جداً، لدرجة لا تستطيع تذوقه إلا بصعوبة. هذا ليس بسبب نقص الشمس كما أعتقد، وإنما لعجز ما في التربة. لكن أي تبغ أفضل من عدمه، وبضعة آلاف من الفدادين تخصص لزراعته في جنوب إنكلترا، قد يساعدنا في نقص السجائر المحتمل أن يحدث هذه السنة من دون استهلاك دولار واحد أو حرمان الدولة من أي ربع.

كنت أقرأ عن الإنكليزية المبسطة (أو بيتش لا مار) المستخدمة في جزر سليمان والنيو هيبريدز في جنوب المحيط الهادي. إنها اللغة المشتركة بين جزر كثيرة يتكلم سكانها لغات مختلفة أو لهجات. وبما أنها تمتلك مفردات قليلة جداً وينقصها أقسام من الكلام (أفعال،

أسماء، حروف جر إلخ) فقد اضطرت أن تستفيد من إطناب مدهش. تسمى الطائرة مثلاً بـ (لانيش "ينطلق" التي تعني حمامة طائرة كذلك). الكمان يوصف كالآتي: "علبة صغيرة تنتمي إلى الرجل الأبيض يحكّه بطنه ليلائم أن يغني رفيق طيب؟" هذا مقطع مما يبدو أنه لغة مبسطة رفيعة مقارنة بمقاطع أخرى. إنه يعلن عن تتويج الملك جورج السادس:

الملك جورج، هو مات. ابنه رقم واحد إدوارد، الآن يريد أن يلبس ثيابه. الابن رقم اثنان هو يحب. المطران ألقى خطاباً طويلاً عن الملك الجيد. قال: "هل أنت تعتني بالشعب بشكل جيد؟". الملك تحدث: "نعم". بعد ذلك، وقف المطران وموظفو الحكومة وأصحاب المتاجر والجنود ومدراء البنوك ورجال الشرطة كلهم وغنوا ونفخوا له البوق. انتهى.

توجد هناك لغات مبسطة مشابهة، أغلبها ليست سيئة جداً في أقسام أخرى من العالم. في بعض الحالات، فإن الناس الذين شكلوها أولاً كانوا متأثرين ربما بأن العرق التابع يجب أن يتكلم بشكل مثير للضحك. لكن هناك مناطق حيث اللغة المشتركة من النوع الذي لا غنى عنه، والتحريفات المستخدمة فعليا تجعل المرء يرى ما هو الكثير الذي يجب أن يقال من اللغة الأساسية.

كانت مقالة أورويل بعنوان كما أشاء، المؤرخة في الرابع من أبريل/ نيسان، هي الأخيرة لصحيفة التريبيون. في العاشر من أبريل/ نيسان غادر إلى جورا لكي يكمل روايته ألف وتسعمائة وثمانية وأربعون.

التريبيون ٢١ فبراير/ شباط ١٩٤٧.
نشرتها مانشستر إيفنينغ نيوز للتريبيون

للأسبوع الثالث والرابع من فبراير/ شباط عام ١٩٤٧، فإن المجلات النقدية الأسبوعية الوطنية وكثير من تجارة الصحف، أوقفت من النشر بأمر من الحكومة بسبب النقص الحاد في الوقود وانقطاعات الكهرباء الناتجة عن ذلك. للمساعدة أثناء الأزمة، عرضت كل من الأوبزيرفر ومانشستر إيفنينغ نيوز والديلي هيرالد على التريبيون استضافة أعمدتها. يشير أورويل إلى التعليق وخسارة التريبيون لدخلها في رسالته إلى دوايت مكدونالد في ٢٦ فبراير/ شباط عام ١٩٤٧ . التالي العمود الذي يكتبه أورويل للتريبيون كل أسبوع:

إن الخبر الذي تكرر للمرة الثانية في الأشهر القليلة الأخيرة عن منع مسرحية من العرض، وقيام محطة البي بي سي ببثها (ربما يمكنها ذلك من كسب جمهور أكبر مما لو مثلت على المسرح) يثير مرة أخرى سخف القوانين التي تحكم الرقابة الأدبية في بريطانيا.

إن المسرحيات والأفلام هي الوحيدة التي يجب أن تخضع للرقابة قبل أن تظهر. بالنسبة إلى الكتب، فيمكنك طبع ما تحب وتتحمل خطر المقاضاة. وهكذا يمكن لمسرحيات منعت سابقاً مثل مسرحية غرانفيل باركر "ضياع" ومسرحية برنارد شو "مهنة السيدة وران"، أن تظهر على شكل كتاب فوراً من دون التعرض إلى خطر المقاضاة، وبباع بشكل أفضل مستغلاً الفضيحة التي حدثت مسبقاً. من الإنصاف القول إن كانت مسرحيات جيدة، المسرحيات الممنوعة ترى النور عادة عاجلاً أو أجلاً. حتى مسرحية "ضياع" التي تحدثت عن السياسة والجنس أيضاً، سوف يسمح لها بالظهور أخيراً، بعد أن كتبت، حين يتلاشى الحديث عن طبيعة الموضوع الذي أعطاه القدر الأكبر من قوتها.

إن المشكلة مع رقابة اللورد تشامبرلاين على المسرح، ليست لأنها تحدث، وإنما لأنها غبية بربرية يقوم بها بيروقراطيون يفتقرون إلى أي تعليم أدبي. إن وجب أن تكون هناك رقابة، فمن الأفضل أن تحدث مسبقاً لكي يعرف المؤلف أين يقف. إن منع الكتب نادر في بريطانيا، لكن المنع الذي يحدث اعتباطي تماماً عادة. "بئر العزلة" مثلاً منع، بينما ظهرت كتب أخرى لها نفس الموضوع بنفس الوقت ومرت من دون أن تُلاحظ.

إن الكتاب الذي يسقط ويمنع، هو الكتاب الذي يصدف أن يلفت انتباه موظف أمي. ربما نصف الروايات المنشورة الآن، كانت ستعاني نفس المصير لو صدف وأن وصلت إلى الأيدي الصحيحة. في الحقيقة -رغم أن الموتى يحترمون دائماً، أشك إن كان بترونيوس أو تشوسر أو رابيلياس أو شكسبير سينجون من تشويه الرقابة لو كان قضاتنا وشرطيونا قراء أكبر.

١- "الأرض البور" لهارلي غرانفيل- بيكر(١٨٧٧-١٩٤٦) منعت من قبل اللورد تشامبرلاين في عام ١٩٠٧ لأن المسرحية، مأساة، تضمنت حالة إجهاض. [عادت ومثلت علانية في عام ١٩٣٦].

٢- مارغورايت راديف هال (١٨٨٠-١٩٤٣) روائية وشاعرة. نشرت عدة مجلدات شعرية، ١٩٠٦-١٥، ثم روايات وقصصاً، تشمل "آدم بريد" (١٩٢٦)، "نبع العزلة"

(١٩٢٨)، وسيد البيت" (١٩٣٢). فازت آدم بريد بجائزة جيمس تايت التذكارية، جائزة حياة أنثى سعيدة، وجائزة إيكلبيرغ النسائية الذهبية. سحبت نبع العزلة من إنكلترا في ٢٨ أغسطس/ آب ١٩٢٨ إثر فضيحة أثيرت بسبب تصويرها للسحاق. ثم أعيد نشرها فوراً في باريس، ونشرت في نيويورك، في عام ١٩٢٨، مع تعقيب بقلم هافلوك إيليس. نشرت الرواية في لندن (من دون تعقيب) في عام ١٩٤٩. رفيقة الآنسة هال، الليدي أونا فيسنزو تروبريدج، كتب حياة ومات راديف هال (١٩٦١).

مذكرة زمن الحرب

خلال السنوات الثلاث الأولى من الحرب، كتب أورويل مذكرات غطت فترتين:

الفترة الأولى من ٢٨ مايو/ أيار ١٩٤٠ إلى ٢٨ أغسطس/ آب ١٩٤١

الفترة الثانية من ١٤ مارس/ آذار ١٩٤٢ إلى ١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٢.

٢٨ مايو/ أيار ١٩٤٠

هذا هو اليوم الأول الذي توقفت فيه ملصقات الصحف.... خصصت الستار نصف الصفحة الأولى منها (إحدى الصحف المسائية في لندن آنذاك) للاستسلام البلجيكي، والنصف الآخر لتأثير قبول البلجيكيين بشروط الاستسلام والملك معهم. هذا بسبب نقص في الورق على ما يفترض، رغم ذلك خصصت ست صفحات من صفحاتها المتبقية للسباق.

ليس هناك أخبار حقيقية في الأيام الماضية، ولم يستنتج سوى القليل عما يحدث فعلياً. الاحتمالاتِ كما يبدو كالتالي:

١-أن الفرنسيين على وشك شنّ هجوم مضاد من الجنوب. ٢-أنهم يرغبون ذلك، لكن القاذفات الألمانية جعلت من المستحيل حشد جيش. ٣- أن القوات التي في الشمال واثقة من قدرتها على الصمود، ورأت أنه من الأفضل أن تنتظر حتى يستهلك الهجوم الألماني نفسه. ٤- الوضع في الشمال ميئوس منه في الحقيقة، ولا تستطيع القوات هناك سوى القتال لشق طريقها نحو الجنوب، أو أن تقبل بشروط الاستسلام، أو أن تدمر تماماً، أو أن تهرب عن طريق البحر بخسائر فادحة خلال العملية. الخيار الرابع الآن هو الممكن الوحيد.

يتحدث الإيجاز الصحفي الفرنسي عن تقوية خط من سومي إلى ويسني، كما لو أن القوات التي انقطعت في الشمال لم تعد موجودة. لكنها فكرة مخيفة. أتمنى لو تتمزق القوة البريطانية المرسلة إلى فرنسا إرباً على أن تستسلم.

يتحدث الناس أكثر قليلاً عن الحرب، لكن كما هو الحال دائماً، لا تسمع إلا من قلة منهم يدلون بتعليقات عليها في الحانات إلخ. الليلة الفائتة ذهبتُ وزوجتي إلى الحانة لنستمع إلى

نشرة الأخبار المسائية، لكن النادلة لم تشغل جهاز الراديو إلا بعد أن طلبنا منها ذلك، ولم يصغ أحد من الحضور إلى الأخبار أبداً.

٢٩ مايو/ أيار

يجب على المرء أن يجمع معلومات رئيسية من خلال الإشارات والتلميحات في هذه الأيام. الشعور الوحيد ليلة البارحة أنه قبل أخبار المساء بُثّ حديث مفرح لدوف كوبر (سياسي محافظ ودبلوماسي بريطاني ومؤلف. بعد استقالته من منصبه اللورد الأول في إمارة البحر بسبب خلاف مع تشامبرلاين حول ميونيخ، أصبح القائد الصوري لليمين الوطني. عينه تشرشل وزيراً للإعلام في حكومة ١٩٤٠ كان محباً للفرنسيين دائماً، ثم أصبح سفيراً في فرنسا، وأعطته النرويج لقب فيسكونت. لقب أدنى من الكونت وأعلى من البارون).

تقول إيلين أن الناس في إدارة الرقابة عن المطبوعات حيث تعمل، يجمعون الصحف الحمراء كلها من دون تمييز، وينظرون إلى التريبيون على أنها من نفس صنف ذا ديلي ووركر أند أكشن التي منعت من التصدير مؤخراً، وأن أحد زملائها سألها "هل تعرفين هذه الجريدة، الديلي ووركر أند أكشن؟" (التريبيون الأسبوعية الاشتراكية- الديلي ووركر صحيفة الحزب الشيوعي- الديلي ووركر أند أكشن صحيفة اتحاد الفاشيين البريطانيين).

الحديث الآن يدور حول أن بيفربروك (المالك الوحيد للصحيفة الذي عينه تشرشل وزيراً لصناعة الطائرات) حصل على ألفي طائرة أخرى في الجو بشقّ النفس، وأن الغارات الجوية المحتملة، ستبدأ في غضون يومين، وأن خطة هتلر تكمن في استخدام آلاف القوارب السريعة التي تستطيع حمل... جماعات من الجنود المحمولين بحراً التي تستطيع الوصول إلى أماكن مناجم الفحم. وأن هناك نقصاً كبيراً في البنادق، وهذا من عدة مصادر. إن معنويات المشاة العاديين الألمان في الجبهة منخفضة بشكل يثير الشفقة. وإن وزارة الحربية لم تزود بمعلومات صحيحة وكافية في قضية النرويج، حتى ولو أن الليالي هناك قصيرة، ولم يتخيلوا أن القوات التي سترسو هناك في وضح النهار تحتاج إلى غطاء من الظلام.

٣٠ - أيار

الحملة البريطانية في فرنسا تتراجع في دونكيرك، ويستحيل معرفة عدد الهاربين أو حتى عدد الباقين هناك. ليلة أمس كان هناك حديث على الراديو لكولونيل (عقيد) عائد من بلجيكا، لكنني

لم أسمعه لسوء الحظ، بينما إيلين سمعته. وأقحم المذيع كلاماً ليفهم الشعب أن الفرنسيين خذلوا الجيش (بعدم شن هجوم مضاد) ومن قبله السلطات العسكرية في الوطن، وذلك لسوء إمدادهم بالمعدات. ليس هناك كلمة في الصحافة تجرم الفرنسيين. وقد حذر دوف كوبر قبل ليلتين من هذا بشكل خاص في حديث إذاعي... تبدو خريطة اليوم وكأن القوة الفرنسية في بلجيكا تضحي بنفسها لتدع الحملة البريطانية في فرنسا تنجو بنفسها وتنسحب.

يقول بوركيناو (فرانس بوركيناو كاتب ولاجئ من ألمانيا الهتلرية مؤلف **قمرة الطائرة الإسبانية والشيوعي الأممي**) إن إنكلترا الآن في المرحلة الأولى من الثورة بالتأكيد. وعلق كونولي (كاتب وناقد وصديق العمر لأورويل ورئيس تحرير هورايزن) على هذا قائلاً إن هناك سفينة قادمة من الشمال الفرنسي وعلى متنها لاجئون وقلة من المسافرين العاديين. أغلب اللاجئين من الأطفال، وكانوا في حالة مزرية بعد أن تعرضوا لرصاص الرشاشات إلخ. من بين المسافرين هناك سيدة حاولت أن تقحم نفسها برأس الطابور لكي تصعد على السفينة، وحين أمرت بالتراجع، قالت باستياء: "هل تعرف من أكون؟" ردّ عليها الحارس: "لا يهمني من تكونين أيتها العاهرة القذرة. يمكنك أخذ مكانك في الطابور".

ليس هناك أي دليل على الاهتمام بالحرب حتى الآن، لكن الانتخابات الفرعية استجابت لنداءات الرجال.. إلخ، وأظهرت ماهية مشاعر الناس. يبدو من المستحيل لهم أن يفهموا الخطر الذي هم فيه، بالرغم من وجود سبب وجيه للظن أن غزو إنكلترا قد يحدث خلال الأيام القليلة القادمة، والصحف كلها تقول هذا! لن يفهموا شيئاً حتى تتساقط القنابل على رؤوسهم، يقول كونولي عندئذ سيرتعبون، لكني لا أظن ذلك.

٣١ مايو/ أيار

ذهبت لمشاهدة مسرحية دينيس غودين ليلة أمس **الفندق الآمن الثلاثية المخيفة**. النقطة المثيرة أن المسرحية قدمت في ١٩٤٠ إلا أنها لا تتضمن أية شارة مباشرة أو غير مباشرة للحرب. دهشت من قلة الرجال الذين تم استدعاؤهم إلى الجيش حتى الآن. كقاعدة عند النظر إلى الشارع، من المستحيل أن ترى فيه زياً عسكرياً.... نصبت أسلاك شائكة في نقاط استراتيجية كثيرة مثلاً بجانب تمثال تشارلز الأول في ساحة ترافيلغار.... سمعت من أطراف كثيرة عن نقص في البنادق، وأعتقد أن الأمر صحيح.

١ يونيو/ حزيران

ذهبت إلى واترلو وفيكتوريا، لأرى إن كنت سأحصل على أي أخبار عن إيريك لورانس، إيريك شقيق إيلين بلير، وكانت متعلقة به كثيراً. جراح قلب وصدر مشهور ورائد في الجيش الملكي البريطاني قتل في فالاندرز، بينما كان ينتظر الإخلاء من دونكيرك. أعلن موته في التايمز في الثامن من يونيو/ حزيران ١٩٤٠.

مستحيل تماماً طبعاً. الرجال الذين.... لديهم أوامر ألا يتحدثوا مع المدنيين وبإخلائهم بكل الأحوال من محطات القطار بأسرع ما يمكن. عملياً رأيت عدداً قليلاً جداً من الجنود، أقصد من الحملة البريطانية إلى فرنسا، وأعداداً أكبر من اللاجئين البلجيكيين والفرنسيين، وقلة من الجنود البلجيكيين أو الفرنسيين، وبعض البحارة، وقلة من رجال البحرية. بدا اللاجئون من صنف مساعدي الحانوتيين، وكانوا في وضع جيد مع كمية محددة من الممتلكات الشخصية. كان لدى إحدى العائلات ببغاء في قفص ضخم. إحدى اللاجئات امرأة كانت تبكي لأنها ارتبكت على ما يبدو من الحشد والغربة. حشد كبير ينتظر-ينتظر في فيكتوريا، ولكن الشرطة منعت المهاجرين والآخرين من الدخول إلى الشارع. ضابط من البحرية في لباسه العسكري كان في الماء، أسرع متوجهاً نحو الحافلة وهو يبتسم ويلمس خوذته ويدفعها إلى الجانب الآخر، حين صاحت به النسوة وربّتن على كتفه.

رأيت جماعة من مشاة البحرية يسيرون في مشية عسكرية عبر المحطة، لكي ينقلوا بالقطار إلى شاتهام، وذهلت بأبدانهم وقوامهم وخبطات أحذيتهم الهائلة والعربة الفاخرة للضباط، مما أعادني إلى عام ١٩١٤ حين بدا لي الجنود كعمالقة.

زعمت الصحف الصباحية على اختلافها أن أربعة أخماس أو ثلاثة أرباع المراكز القيادية للحملة البريطانية في فرنسا نقلت؛ قد تكون الصور مزيفة أو منتقاة، فهي تظهر الرجال في هيئة جيدة ومعداتهم غير متضررة.

٢ يونيو/ حزيران

يستحيل معرفة عدد الجنود البريطانيين في فرنسا الذين عادوا إلى الوطن فعلياً، لكن التقارير التي ظهرت في الصحف تقدر العدد بـ ١٥٠,٠٠٠ وأن العدد الذي تقدم إلى داخل بلجيكيا

أصلاً يقدر بـ ٣٠٠,٠٠٠. ليس هناك إشارة إلى عدد الجنود الفرنسيين الذين معهم. هناك تلميحات في عدد من الصحف أن هناك نية في إبقائهم في دونكيرك بدلاً من إخلائهم تماماً.

هذا يبدو مستحيلاً من دون تخصيص عدد كبير من الطائرات إلى تلك البقعة، لكن إذا تم نقل الـ ١٥٠,٠٠٠ فعلاً، فسيصبح بالإمكان نقل أعداد كبيرة أخرى. دخول إيطاليا في الحرب الآن متوقع في أي وقت بعد الرابع من يونيو/ حزيران، ويفترض بعرض سلام يعطيها الذريعة.. توقع عام أن تجري محاولة لغزو إنكلترا الآن، ولو لتحويل الاهتمام بينما تسعى ألمانيا وإيطاليا إلى القضاء على فرنسا..... احتمال أن يرسو في إيرلندا عدد كبير من الناس ومنهم دي فاليرا. هذه الفكرة لم تذكر إلا نادراً في الأيام القليلة الأخيرة، علماً أنها كانت واضحة منذ البداية.

حشود يوم الأحد التي تندفع إلى الأمام والخلف وعربات الأطفال ونوادي الدراجين والناس الذين يربضون كلابهم وزمر الشباب في زوايا الشوارع، كل هؤلاء لا تظهر على وجوههم أي علامة، أو يصل إلى مسامعك من أي واحد منهم أن هؤلاء الأشخاص يدركون أنهم قد يتعرضون إلى غزو خلال بضعة أسابيع، رغم أن الصحف اليوم أبلغتهم بذلك.

كانت الاستجابة إلى النداءات المتجددة لإخلاء الأطفال من لندن قليلة جداً، والواضح أن التعليل كالآتي: الغارات الجوية لم تحدث في المرة السابقة، لهذا لن تحدث هذه المرة. رغم ذلك، فإن هؤلاء الناس يتصرفون بشجاعة حين يأتي الوقت وطلب منهم أن يفعلوا ذلك.

تحليل أولي للإعلانات الصادرة اليوم في صحيفة ذا بيبل (صحيفة شعبية من صحف يوم الأحد) تتألف من ١٢ صفحة أي ٨٤ عموداً، وقد قسمت على الشكل الآتي: أطعمة ومشروبات خمسة أعمدة وثلاثة أرباع. أدوية تسعة أعمدة وثلث. تبغ عمود.... قمار عمودان وثلث. ملابس عمود ونصف. متفرقات ستة أعمدة وثلاثة أرباع.

من الإعلانات المخصصة للطعام والشراب ستة إعلانات لأشياء الترف غير الضرورية. من ٢٩ إعلاناً للأدوية هناك ١٩ منها لأشياء شبه مخادعة (شفاء الصلع إلخ) ومن النوع الابتزازي والمضر بالصحة "معدة طفلك تحتاج إلى...". من ١٤ إعلاناً للمتفرقات هناك ٤ من أجل الصابون، وواحد لمستحضرات التجميل، وواحد لمنتجع عطلات، واثنان حكوميان، وواحد كبير من أجل الادخار الوطني. ثلاثة إعلانات فقط عن الحرب.

٣ حزيران/ يونيو

رسالة من سيدة أكسفورد إلى الديلي تلغراف عن موضوع اقتصاديات الحرب (مارغوت اسكويث أرملة هربرت سكويث رئيس وزراء سابق. منحت لقب ايرلة أكسفورد واسكويث ١٩٢٥)

بعد أن هجرت أغلب البيوت في لندن، لم يبق سوى القليل من التسلية.... في كل الأحوال اضطر الناس للافتراق عن طباخيهم وسكنوا الفنادق. من الواضح أن هؤلاء الناس لا يعلمون أن ٩٩٪ من السكان مازالوا موجودين.

٦ حزيران/ يونيو

رجحت ومعي بوركيناو في ذلك، أن هجوم هتلر التالي سيكون على فرنسا وليس على إنكلترا، وتبين أن ذلك صحيح. بوركيناو يعتبر أن قضية دونكيرك أثبتت مرة وإلى الأبد أن الطيران لا يستطيع هزم السفن الحربية، إن كان لدى الأخيرة طيرانها الخاص بها. إذاً الأرقام التي أعطيت بدمار ست مدمرات، وفقدان خمسة وعشرين قارباً في إخلاء ما يقارب ثلاثمئة وخمسين ألفاً تبدو حقيقية. ولو ضاعفنا عدد السفن المفقودة، تظل الخسارة غير كبيرة من أجل عمل كبير، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الظروف كانت مناسبة للطيران. يعتقد بوركيناو أن خطة هتلر ستكون تحطيم فرنسا وهزمها، والمطالبة بأن يكون الأسطول الفرنسي جزءاً من شروط السلام. بعد ذلك قد يبدو غزو إنكلترا بجنود محمولين بقوارب معقولاً وعملياً.

إعلان ضخم في داخل إحدى الحافلات: إسعاف أولي في وقت الحرب ومن أجل الصحة والقوة والتحمل: علكة زيغلي.

٧ يونيو/ حزيران

على الرغم من الكبت الذي تتعرض له ملصقات الصحف اليوم، إلا أن المرء يرى باعة الصحف يعرضون نوعاً واحداً بشكل متكرر. يبدو أن الملصقات القديمة قد عادت إلى الحياة، واستخدمت ملصقات بعنوان مثل "غارات سلاح الجو الملكي على ألمانيا".

٨ يونيو/ حزيران

في وسط معركة مخيفة يقتل فيها آلاف الرجال يومياً كما أعتقد، يتكون لدى المرء انطباع بعدم وجود أي أخبار. صحف المساء مثل صحف الصباح، وصحف الصباح مثل صحف الليلة الفائتة، والراديو يكرر ما هو موجود في الصحف. ربما هناك حظر ومنع بدلاً من الكذب الصريح. يرى بوركيناو أن تأثير الراديو يجعل الحرب صادقة نسبياً، وأن الكذب في مستويات كبيرة هو الادعاءات الألمانية عن إغراق السفن البريطانية. إنها خيالية بالتأكيد. كتبت إحدى الصحف المسائية مؤخراً عن إعلانات وتصريحات ألمانية، وأشارت أن الألمان زعموا أنهم أغرقوا خلال عشرة أيام فقط خمس وعشرين سفينة إنكليزية كبيرة، أي أكثر مما نملك من تلك السفن بعشرة. قال لي ستيفن سبيدز مؤخراً: ألا تشعر أنك في وقت من السنين العشر الماضية كنت قادراً على التكهن بالأحداث بشكل أفضل مما فعل مجلس الوزراء؟ يجب أن أوافقه في هذا، لأننا لم تعمنا المصالح الطبقية من جهة مثال: أي شخص ليس له اهتمامات مالية يمكنه أن يرى بلمحة سريعة ذلك الخطر الاستراتيجي على إنكلترا في ترك ألمانيا وإيطاليا تسيطران على إسبانيا. بينما لم يدرك الكثيرون من الجناح اليميني والجنود المحترفين هذا الواقع الواضح جداً. لكني أشعر أن الأشخاص الذين يفهمون الوضع أفضل من المسميين بالخبراء، ليسوا في موقع سلطة للتكهن بأحداث بعينها وإنما.... في فهم نوع العالم الذي نعيش فيه. على أي حال لقد عرفت منذ عام ١٩٣١ أن المستقبل سيكون كارثياً، وقال سبيدر إنه عرف ذلك منذ عام ١٩٢٩. لم أقدر أن أحدد بالضبط ما هي الحروب والثورات التي ستحدث، لكني لم أتفاجأ بحدوثها. عرفت منذ عام ١٩٣٤ أن هناك حرباً قادمة بين إنكلترا وألمانيا. ومنذ عام ١٩٣٦ عرفت ذلك بشكل مؤكد تماماً. أشعر بها في بطني ولم تخدعني أبداً ثرثرة السلميين (الرافضين لحمل السلاح) من جهة، وأعضاء الجبهة الشعبية من جهة أخرى، أولئك الذين تظاهروا بالخوف من أن بريطانيا تحضر لحرب ضد روسيا. وكذلك لم تفاجئني أعمال الرعب تلك كالتطهير العرقي في روسيا، لأنني كنت أشعر دائماً -ليس بدقة وإنما بشيء مثل ذلك-بأنه كان ضمنياً في الحكم البلشفي. شعرت بأدبهم... من كان يصدق قبل سبعة سنين أن هناك أي مستقبل سياسي لونستون تشرشل؟

منذ سنة كان كريبس الصبي الشرير لحزب العمال الذي طرده ورفض الاستماع حتى إلى دفاعه، ومن الجانب الآخر هو الأحمر الخطير من وجهة نظر المحافظين. أما الآن فهو سفير في

موسكو، وقادت صحافة بيفربروك احتجاجاً ضد تعيينه، لكن إلى الآن من المستحيل القول إن كان الرجل الصحيح أم لا. إذا اقتنع الروس في الوقوف إلى جانبنا فهو كذلك، لكن إن ظلوا معادين لنا، فقد كان الأفضل لو كنا أرسلنا رجلاً لا يعجبه نظام الحكم الروسي.

(السير توماس كريبس (١٨٨٩-١٩٥٢) بدأ سيرته كمحامي ناجح، ثم أصبح عضو برلمان عن حزب العمل ١٩٣١. كانت له مشاكل كبيرة دائماً مع قيادة حزب العمل خلال الثلاثينيات. اعتبر عقلاً منظراً سياسياً لامعاً، بينما أكسبه انضباطه الشخصي الصارم وصلابة اشتراكيته الاحترام إن لم يكن المحبة. كان سفيراً في موسكو ١٩٤-١٩٤٢ ثم انضم إلى وزارة الحرب في فبراير/ شباط ١٩٤٢ ثم لورد نيفي سيل وزعيم مجلس العموم، وفي مارس - أبريل ذهب كموفد خاص إلى الهند. وفي أكتوبر/ تشرين أول في نفس السنة أصبح وزيراً لإنتاج الطائرات في حكومة العمال التي أتت بعد الحرب ١٩٤٧-١٩٥٠.

١٠ يونيو/ حزيران

سمعت للتو أن إيطاليا أعلنت الحرب، لكن الخبر ليس في الصحف...... قوات الحلفاء تنسحب من النرويج، المبرر المقدم أنه يمكن استخدامهم في مكان آخر. ونارفيك بعد أسرها تركت بلا فائدة للألمان. لكن في الحقيقة فإن نارفيك لن تكون ضرورية لهم حتى الشتاء، ولن تكون ذات فائدة كبيرة بأي حال، حين لم تعد النرويج حيادية. وأنا يجب ألا أظن أن الحلفاء لديهم قوات كافية في النرويج لتشكل فرقاً كبيراً. السبب الحقيقي هو ربما لكي لا نجبر على أن نخسر سفن حربية. في ظهر هذا اليوم تذكرت بحيوية كبيرة ذلك الحادث مع سائق تاكسي في باريس في عام ١٩٣٦، وكنت سأكتب شيئاً عنه في هذه المذكرة. لكن الآن أشعر بحزن شديد أنني لا أستطيع أن أكتبه. كل شيء يتفسخ. كتابة مراجعة نقدية لكتاب تجعلني أتضور من الألم في هكذا وقت، وحتى يغضبني أن تضييع الوقت هذا مازال مسموحاً به. المقابلة في وزارة الحرب يوم السبت قد تصل إلى شيء ما إن كنت ذكياً في تزييف ماضيّ الطبي. لو قبلت في الجيش، فأنا أعرف بالقياس مع الحرب الإسبانية أنني سأتوقف عن الاهتمام بالأحداث العامة. في الوقت الحالي أشعر كما شعرت عام ١٩٣٦ حين كان الفاشيون يتقدمون نحو مدريد، لكن بشكل أسوأ. لكني سأكتب عن سائق التاكسي في وقت ما.

١٢ يونيو/ حزيران

مشينا أنا وإيلين ليلة أمس عبر يوهو، لنرى إن كان الضرر الذي حصل في المحلات الإيطالية إلخ كان كما جاء في التقارير. يبدو أن هناك مبالغة في الصحف، لكننا رأينا متاجر تحطمت نوافذها. الغالبية أسرعوا ووسموا أنفسهم "بريطانيين". غيناري السمان الإيطالي كان مجصصاً المكان كله بإعلانات مطبوعة تقول "هذه المؤسسة بريطانية بالكامل" بيت السباغاتي متجر متخصص بالأطعمة الإيطالية أعاد تسمية نفسه "متجر الطعام البريطاني". متجر آخر أعلن نفسه سويسرياً، وحتى مطعم فرنسي صنف نفسه ببريطاني. الشيء الممتع أن كل هذه الإعلانات طبعت مسبقاً كما يجب، وكانت جاهزة.

هذه الهجمات على أصحاب المتاجر الإيطاليين غير المؤذين مثيرة للاشمئزاز، وهي ظاهرة مشوقة، لأن الشعب الإنكليزي- أقصد أناساً من النوع الذي يحتمل منه أن ينهب متاجر- لا يعير اهتماماً عفوياً في السياسة الخارجية كقاعدة. أنا لا أعتقد أنه كان هناك أي شيء من هذا النوع لامس جماهير الناس أثناء الحرب الإثيوبية والحرب الإسبانية. لم يكن هناك أي تحرك شعبي ضد المقيمين الألمان في إنكلترا حتى الشهر الماضي أو الشهرين الماضيين. إن الخسة الوحشية الوضيعة لإعلان موسوليني الحرب في تلك اللحظة، يجب أنها خلقت انطباعاً حتى على أشخاص نادراً ما قرؤوا جرائد كقاعدة.

١٣- يونيو/ حزيران

ذهبت أمس إلى مؤتمر جماعي لـ (متطوعي الدفاع المحلي، الذي أصبح لاحقاً الحرس الوطني) عقد في غرفة اللجنة في اللوردس (نادي ماريليبون للكريكت)......... وآخر مرة لي في اللوردس يجب أنها كانت في مباراة إيتون -هارو في عام ١٩٢١. في ذلك الوقت كنت أشعر أن الدخول إلى البافيلون من دون أن تكون عضواً في نادي ماريليبون للكريكت، يعادل التبول على مذبح الكنيسة. وفي سنوات لاحقة كونت فكرة غامضة أنه كان إثماً شرعياً يمكن أن أقاضى بسببه. ألاحظ أن أحد الملصقات المكرسة للرواد، هو عبارة عن قدم تدوس على الصليب المعقوف مع أسطورة "امشِ عليه" منتحلة كفكرة من ملصق حكومي من الحرب الإسبانية. طبعاً إنه بسيط وحوّل إلى رسم هزلي، لكن ظهوره بأي حال يبين أن الحكومة بدأت ترغب بالتعلم.

المرشح الشيوعي في انتخابات الباو الفرعية (دائرة انتخابية للطبقة العاملة في إيست ايند في لندن. جورج لانزبيري عضو في البرلمان وزعيم حزب العمال ونصير متحمس للسلمية) حصل على ٥٠٠ صوت. هذا سجل جديد، لكن أصحاب القمصان السود يحصلون دائماً تقريباً على أصوات أقل (في حالة واحدة حوالي ١٥٠). اللافت أكثر أن الباو مقعد لانزبيري يُتوقع أنه يحتوي على كثير من السلميين، لكن الاقتراع كل كان متدنياً جداً.

١٤ يونيو/ حزيران

الألمان في باريس بالتأكيد قبل يوم من الموعد المجدول. من المؤكد أن هتلر سيذهب إلى فرساي. لماذا لا يلغمونه ويفجرونه بينما هو هناك؟

القوات الإسبانية احتلت طنجة، ومن الواضح أنهم مع فكرة أن يسمحوا للإيطاليين باستخدامها كقاعدة. لقهر المغرب الإسبانية من المغرب الفرنسية، سيكون سهلاً في هذا التاريخ. ولفعل الشيء عينه في المستعمرات الإسبانية الأخرى وتنصيب نيجرين (جوان نيجرين رئيس وزراء الحكومة الإسبانية في آخر طور من الحرب الأهلية) أو واحد من نوعه كحكومة بديلة، سيكون ضربة قاسية لفرانكو. لكن حتى الحكومة البريطانية الحالية، لن تفكر بفعل شيء كهذا أبداً. المرء فقد القدرة تقريباً على تخيل أن تأخذ حكومات الحلفاء المبادرة. دائماً حين أمشي في محطات سكة الحديد التي تحت الأرض، تثير اشمئزازي الإعلانات والوجوه المحدقة السخيفة والألوان الصارخة والصراع العام المسعور لحث الناس على تضييع تعبهم ومادياتهم باستهلاك وسائل ترف عديمة الجدوى وعقاقير مضرة. كم من النفاية ستجرف هذه الحرب لو استطعنا فقط أن نتماسك خلال الصيف. الحرب ببساطة نقيض وعكس الحياة المتحضرة شعارها "أيها الشر لتكن أنت خيري"، والكثير جداً من الأشياء الجيدة في الحياة الحديثة، هي عبارة شرور في الواقع، لذلك يُشك بالنهاية -بعد أخذ كل الأمور في الاعتبار- إن كانت الحرب ضارة.

١٥- يونيو/ حزيران

خطر لي أن أتساءل إن كان سقوط باريس يعني نهاية مكتبة الباتروس (واحدة من أقدم دور النشر في باريس التي تصدر كتباً باللغة الإنكليزية للسوق القارية) كما أظن أنها ستفعل.

إن كان كذلك فسأخسر ٣٠ جنيهاً. يبدو شيئاً لا يصدق أن الناس مازالوا يعلقون أهمية على العقود الطويلة الأجل ورؤوس الأموال والأسهم وسياسات التأمين.. إلخ في ظروف كهذه. الشيء المعقول الذي يمكن القيام به أن تقترض نقوداً من اليمين والشمال لتشتري بضائع مادية صلبة. بعد برهة قصيرة، استفسرت (إيلين) عن شراء ماكينات الخياطة بالتقسيط، ووجدت أنهم عقدوا اتفاقات لأكثر من سنتين ونصف. بي دبليو (فيكتور ويليام (بيتر) واتسون شاب غني قرر بعد سفر كثير أن يكرس حياته للفنون في عام ١٩٣٩. وأسس هو وسيريل كونولوي مجلة هورايزن، ثم كان أحد المؤسسين لمعهد الفنون المعاصرة. كان معجباً بكتابات أورويل) روى أن يونيتي ميتفورد (يونيتي فالكيري ميتفورد الابنة الرابعة للورد الثاني ريزديل. أعجبت بهتلر منذ أن التقت به) بالإضافة إلى أنها حاولت أن تطلق النار على نفسها حين كانت في ألمانيا، كانت ستنجب طفلاً، ونتيجة لهذا هتف رجل صغير البنية ذو وجه متغضن نسيت اسمه وقال "الفوهرر لا يفعل شيئاً كهذا!".

١٦ يونيو/ حزيران

هذا الصباح أوضحت الصحف أن الولايات المتحدة لن تفعل شيئاً إلى ما بعد الانتخابات الرئاسية في كل الأحوال، أي أنها لن تعلن الحرب. وهو الأمر المهم في الحقيقة. فإذا لم تدخل الولايات المتحدة الحرب، لن يكون هناك سيطرة كافية على التجارة وعمل لتسريع إنتاج السلاح. في الحرب الأخيرة كانت هذه هي الحالة حتى عندما كانت الولايات المتحدة دولة محاربة. من المستحيل حتى الآن أن نقرر ماذا نفعل في حال غزا الألمان إنكلترا. الشيء الوحيد الذي لن أفعله هو الانسحاب بأي قياس إلى أبعد من إيرلندا، بفرض ذلك أن يكون محتملاً ومعقولاً. إذا كان الأسطول سلبياً وبدا أن الحرب سوف تستمر من أمريكا إلى المستعمرات التابعة لبريطانيا، عندها يجب على المرء أن يبقى حياً إن أمكن، وإن كان ضرورياً في معسكر اعتقال حتى. إذا كانت الولايات ستتعرض لغزو أيضاً، فليس هناك شيء لها سوى أن تستميت بالقتال. ويجب على المرء قبل كل شيء أن يموت وهو يقاتل ولديه الرضا والقناعة بقتل شخص آخر أولاً.

تحدثت أمس إلى (ام) أحد أعضاء متطوعي الدفاع المحلي في القطاع التابع لي، قلت إنه حين تمر الأزمة الحالية، سيكون هناك ثورة في الحزب المحافظ ضد تشرشل ومحاولة لإجبار

الأجور على النزول مرة أخرى إلخ. قال في تلك الحالة ستكون هناك ثورة "أو على الأقل هو يأمل ذلك". (ام) صاحب مصنع وأتخيل أنه ثري.

١٧ يونيو/ حزيران

استسلم الفرنسيون. تمكنا من التنبؤ بهذا من نشرة يوم أمس الإذاعية. وفي الواقع يفترض أن يكون ذلك متنبأ به منذ أن فشلوا في الدفاع عن باريس التي هي المكان الوحيد الذي كان من الممكن إيقاف الدبابات الألمانية فيه. استراتيجياً كل شيء تحول على الأسطول الفرنسي الذي ليس هناك أي خبر عنه حتى الآن.........

هناك هياج كبير اليوم حول استسلام فرنسا، والناس في كل مكان يناقشونه. خط عادي "نشكر الرب أنه لدينا أسطول بحري". جندي اسكتلندي بميداليات من الحرب الأخيرة شبه سكران ألقى خطاباً وطنياً في عربة المترو أحبه المسافرون قليلاً كما بدا. هناك هجمة على صحف المساء، لدرجة أنني قمت بأربع محاولات قبل أن أحصل على واحدة.

في الوقت الحاضر، حين أكتب مراجعة نقدية، أجلس إلى الآلة الكتابة وأطبعها مباشرة. حتى وقت قريب في الحقيقة ومنذ ستة شهور مضت، أنا لم أعمل هذا أبداً، وكنت أقول لنفسي إنني لا أستطيع أن أفعل ذلك. وعملياً كل الذي كتبته، كتبته مرتين على الأقل، وكتبي ككل كتبتها ثلاث مرات..... وهناك مقاطع منفردة كتبتها خمس مرات أو عشر، ليس لأنني فزت بتسهيلات، وإنما لأنني توقفت عن الاهتمام طالما العمل سيجتاز الفحص ويدر القليل من النقود. وسبب هذا الفساد والتدهور يعود إلى الحرب مباشرة.

حشد كبير في كندا هاوس حيث ذهبت لأستفسر لأن جي (أرملة لورانس) تفكر في إرسال طفلها إلى كندا. لم يسمحوا لأي أحد بين السادسة عشرة والستين أن يغادر باستثناء الأمهات. ومن الواضح أنهم يخشون من هجمة هجرة مسعورة.

٢٠ يونيو/ حزيران

ذهبنا إلى وزارة الـ...... لأرى أي خط يأخذون بخصوص الدفاع الوطني. سي الشخص المهم الآن هناك ضد خط "تسليح الشعب"، وقال إن مخاطره تفوق فوائده المحتملة. إن وجدت قوة ألمانية غازية مدنيين مسلحين، ربما ترتكب أعمال بربرية وتسبب الذعر بين الناس

جميعاً، وتجعل كل واحد تواقاً للاستسلام. وقال من الخطير أن نعتمد على أناس عاديين ليكونوا شجعان. واستشهد بحالة الشغب في غلاسغو حين لفت دبابة حول البلدة ففر الجميع بطريقة جبانة جداً. لكن كانت الظروف مختلفة، لأن الناس في تلك الحالة كانوا غير مسلحين، وكما في الصراع الداخلي دائماً يدركون أنهم يقاتلون والحبال حول رقابهم.... قال سي إنه يعتقد أن تشرشل رغم أنه رجل طيب إلى حد ما، كان غير قادر على فعل الشيء الضروري وتحويل هذه الحرب إلى حرب ثورية. ومن أجل ذلك السبب حمى تشامبرلاين وشركاه، وتردد في جلب الأمة كلها إلى قلب الصراع. أنا لا أعتقد طبعاً أن تشرشل يراها بنفس الألوان التي نراها نحن. ولا أعتقد أنه سيتأخر في أي خطوة (مثلاً المساواة في الدخول واستقلال الهند) يعتقد أنها ضرورية لكسب الحرب. طبعاً من المحتمل أن تنجز الجلسة السرية ما يكفي لإخراج تشامبرلاين وشركاه نهائياً. سألت سي هل هناك أي أمل بحدوث هذا برأيه ـ قال لا أمل إطلاقاً. لكن أتذكر اليوم الذي بدأ فيه البريطانيون بإخلاء نامسو (ميناء في النرويج يسيطر عليه البريطانيون) سألت بيفان وستراوس اللذين أتيا من البرلمان لتوهما هل هناك أي أمل لعزل تشامبرلاين من المنصب، فقالا لا أمل بتاتاً. مع ذلك، بعد أسبوع تقريباً شكلت الحكومة الجديدة. (انيورين بيفان ١٨٩٧-١٩٦٠، عضو برلمان عن حزب العمال ووزير صحة في حكومة ما بعد الحرب. أحد أعظم خطباء إنكلترا. أحبه اليسار وخشي منه اليمين وكرهه. استقال من حكومة العمال ١٩٥١ بسبب انشقاق سياسي، لكنه بقي عضواً في الحزب ورمزاً لطموحاته الاشتراكية. كمدير للتريبيون أعطى أورويل الحرية أن يكتب بالضبط ما يرضيه حتى حين كتب ضد سياسة حزب العمال. مثال ذلك: شجب أورويل النظام السوفييتي أثناء الأطوار الحاسمة من جهد الحرب الروسية البريطانية..(جي آر ستراوس، عضو برلمان عمالي، مدير التريبيون مع صديقه انيورين بيفان).

إن الاعتقاد في خيانة مباشرة في القيادة العليا واسع الانتشار الآن وكافٍ ليكون خطيراً........ شخصياً أعتقد أن مثل هذه الخيانة المتعمدة لا توجد إلا في عنصر مؤيد للفاشية من الأرستقراطية، وربما في قيادة الجيش. إن التخريب غير المتعمد والغباء الذي أوصلنا إلى هذا الوضع كالمعالجة البلهاء لإيطاليا وإسبانيا مثلاً، هي مسألة مختلفة طبعاً. آر إتش (رينار هيينستال) يقول إن الجنود من الرتب المتدنية الذين عادوا من دونكيرك وتكلم

معهم، اشتكوا من سلوك ضباطهم، وقالوا إن الضباط تراجعوا ورحلوا في سيارات وتركوهم في المأزق إلخ. هذا النوع من الشيء يقال دائماً بعد الهزيمة، وقد يكون صحيحاً أو لا يكون. يمكن للمرء التأكد من ذلك بدراسة قوائم الإصابات والخسائر عندما تنشر كاملة. لكن ليس سيئاً بالكامل أن يقال هذا الشيء بشرط ألا يؤدي إلى ذعر مفاجئ بسبب الحاجة المطلقة إلى جعل الشيء بكامله على أساس طبقي جديد. في الجيوش الجديدة فإن أناس الطبقة الوسطى ملزمون بأن يهيمنوا كضباط، وقد فعلوا ذلك بالميليشيات الإسبانية مثلاً، لكنها مسألة التخلص من أشباه الكولونيل بليمب (الرجعيين). الشيء نفسه مع متطوعي الدفاع الوطني. تحت ضغط الحاجة الملحة نحن سوف نتخلص من أشباه الكولونيل بليمب (الرجعيين) إن توفر لنا الوقت، لكن الوقت كل شيء.

فكرة خطرت لي يوم أمس: كيف يكون لدى إنكلترا هذا العدد الكبير من الكولونيلات المتقاعدين، وجيشها واحد من أصغر الجيوش في العالم؟ ألاحظ أن كل المثقفين "اليساريين" الذين ألتقي بهم يعتقدون أن هتلر إن وصل إلى هنا، فسوف يتجشم عناء قتل أشخاص مثلنا، وستكون لديه قوائم شاملة بغير المرغوب فيهم. ويقول سيريل كونولي: توجد حركة مستمرة للحصول على سجلاتنا الشرطية في اسكتلند يارد المهدم. بعض الأمل! الشرطة هم الناس الذين سيذهبون إلى هتلر، بمجرد أن يكونوا متأكدين من أنه فاز وانتصر.

حسناً لو استطعنا الصمود لبضعة أشهر، سنرى في ظرف سنة ميليشيا حمراء مركزها في الريتز، ولن يفاجئني أن أرى تشرشل أو لويد جورج على رأسهم. أفكر دائماً في جزري في الهيبريدز التي أعتقد أني لن أملكها أو أراها حتى. يقول كومبتون ماكنزي إن أغلب الجزر حتى الآن غير مسكونة (هناك ٥٠٠ جزيرة، ١٠ بالمئة منها فقط مسكونة في الأوقات العادية) وأغلبها فيها ماء وأرض قابلة للحراثة وماعز يعيش عليها. حسب آر إتش، فقد استأجرت امرأة جزيرة في هيبريديز لكي تتجنب الغارات الجوية، فكانت أول ضحية للغارات الجوية في الحرب؛ حيث أسقط سلاح الجو الملكي قنبلة هناك بالخطأ. جيد إن كان هذا صحيحاً.

أول غارة جوية لها عقابيل على بريطانيا العظمى، كانت في الليلة قبل الماضية. قتل أربعة عشر شخصاً، وأسقطت سبع طائرات ألمانية حسب زعمهم. نشرت الصحف صوراً لحطام ثلاث طائرات ألمانية، لهذا ربما كان الادعاء صحيحاً.

٢١ يونيو/ حزيران.

لا توجد أخبار حقيقية. أرى من صحف يوم أمس، أن تشيابي انتخب رئيساً لبلدية باريس تحت الضغط الألماني كما يفترض (جان تشيابي رئيس شرطة باريس مؤيد للفاشية ومسؤول عن إجراءات قمعية قاسية ضد اليسار). قيل الكثير عن ادعاء هتلر بأنه صديق الطبقات العاملة وعدو البلوتوقراطية إلخ. كان يوم أمس أول تدريب لفصيلتنا من متطوعي الدفاع الوطني. كانوا رائعين فعلاً؛ ثلاثة أو أربعة فقط من العدد الكلي (حوالي ٦٠ رجلاً) لم يكونوا جنوداً. بعض الضباط كانوا هناك، وأعتقد أنهم أتوا ليسخروا، ولكنهم كانوا متأثرين تماماً.

٢٢ حزيران/ يوليو

لا توجد أخبار حقيقية بعد حول الشروط الألمانية على فرنسا، لكنها ستكون "معقدة جداً" كما قالوا، وتحتاج إلى نقاش طويل. أعتقد أنه يمكن للمرء أن يفترض أن ما يحدث فعلاً، هو أن الألمان على جانب، وبيتان وشركاه على الجانب الآخر، يحاولون أن يتوصلوا إلى صيغة تحثّ القادة الفرنسيين في المستعمرات والبحرية على الاستسلام. فهتلر ليس له سلطة في الحقيقة على هؤلاء، إلا من خلال الحكومة الفرنسية......... أعتقد أننا كنا كلنا متعجلين في افتراضنا أن هتلر سيغزو الآن إنكلترا. وفي الواقع كان هذا متوقعاً بشكل عام، لدرجة أن المرء قد يستنتج من هذا أنه لن يفعلها.......... لو أنني كنت مكانه، لتقدمت عبر إسبانيا وسيطرت على جبل طارق، ثم هجمت على شمال أفريقيا ومصر. إن كان البريطانيون يملكون قوة مرنة، ولنقل ربع مليون رجل، فسيكون المسار الصحيح نقل هذه القوة إلى المغرب الفرنسية، ثم فجأة الاستيلاء على المغرب الإسبانية، ورفع العلم الجمهوري. المستعمرات الإسبانية الأخرى يمكن أن تمسح (تؤخذ) من دون عناء كبير. مشاكل كثيرة. للأسف لا أمل بحدوث شيء كهذا. الشيوعيون يتأرجحون ويتراجعون إلى موقف معادٍ للنازية. هذا الصباح حصلت على كراسة تشجب "خيانة" فرنسا من قبل بيتان وشركاه، رغم أن هؤلاء الأشخاص كانوا قبل أسبوع أو اثنين مؤيدين للألمان.

٢٤ يونيو/ حزيران

شروط الهدنة الألمانية أكثر وأصعب مما هو متوقع..... المشوق حول الأمر برمته، هو المدى الذي انهار فيه أنموذج الولاءات التقليدي والشرف. المفارقة المضحكة أن بيتان هو صاحب

العبارة (في فيردون) "لن يمروا"، والذي مازال حتى الآن شعاراً معادياً للفاشية. منذ عشرين سنة مضت، فإن أي فرنسي كان سيوقع مثل هذه الهدنة، كان سيعتبر يسارياً متطرفاً أو سلمياً متطرفاً، وحتى في ذلك الوقت ستكون هناك شكوك. الآن، الناس الذين يبدلون اصطفافهم عملياً في منتصف الحرب، هم المحبون للوطن المحترفون، بيتان ولافال وفلادين وشركاؤهم. يفترض أن الحرب كلها بدت مثل صراع داخلي مجنون، في لحظة يكون عدوك فيها ينتظر سفك دمك.... لذلك من المؤكد عملياً أن المسؤولين المؤثرين الكبار في إنكلترا يحضرون ويجهزون لبيع كامل مماثل. وبينما... اس.... ليس هناك أي يقين أنهم لن ينجحوا حتى من دون غزو إنكلترا. الشيء الوحيد الجيد في الموضوع كله، أن القاعدة (الطبقة الفقيرة) دحضت ادعاء هتلر بأنه صديق الإنسان الفقير. إن الناس الراغبين فعلاً في عقد صفقة معه، هم المصرفيون والجنرالات والأساقفة والملوك ورجال الصناعة الكبار إلخ..... هتلر هو القائد للهجوم المضاد الهائل للطبقة الرأسمالية التي شكلت نفسها في شركة واسعة، وفقدت امتيازاتها إلى حد ما في عملها هذا، لكنها مازالت تحتفظ بسلطتها فوق الطبقة العاملة. حين يصل الأمر إلى مقاومة هجوم كهذا، فإن أي واحد من الطبقة الرأسمالية يجب أن يكون خائناً أو شبه خائن، وسيبلع أشد الإهانات بدلاً من التصميم على خوض قتال حقيقي..... أينما ينظر المرء، إن كان إلى مظاهر استراتيجية واسعة أو إلى أصغر تفاصيل الدفاع الوطني، فإنه يرى أن أي صراع حقيقي يعني الثورة. إن تشرشل لا يستطيع أن يرى أو يقبل هذا بالتأكيد، لذلك يجب أن يذهب. إن كان سيذهب في الوقت المناسب لينقذ إنكلترا من غزو، فهذا يعتمد على السرعة التي يستطيع الناس عموماً فيها إدراك الأساسيات والأشياء الجوهرية.

استراتيجيا التحولات تعتمد على الصمود حتى الشتاء. حتى ذلك الوقت، مع جيوش احتلال في كل مكان وطعام سينفد تقريباً وصعوبة في إجبار شعوب البلاد المهزومة على العمل، يجب أن يكون هتلر في وضع حرج. سيكون من الممتع أن نرى إن كان سيعيد تأهيل الحزب الشيوعي الفرنسي المضطهد، ويحاول أن يستخدمه ضد الطبقة العاملة في شمال فرنسا، كما استخدم بيتان ضد طبقة البليمب (الرجعيين القوميين). إن حدث الغزو وفشل كل شيء، ستكون الأمور على ما يرام، وسيكون لدينا حكومة يسارية بالتأكيد وحركة واعية ضد الطبقة الحاكمة. أعتقد أن الناس يخطئون عندما يتخيلون أن روسيا ستكون أكثر ودية نحونا إن كان

لدينا حكومة ثورية. بعد إسبانيا أنا لا أستطيع منع شعوري بأن روسيا، أقصد ستالين، يجب أن تكون معادية لأية دولة تمر فعلاً بثورة. سوف يتحرك الروس في اتجاهات معاكسة. تبدأ الثورة بانتشار واسع لأفكار الحرية والمساواة إلخ، ثم يأتي نمو حكم القلة (أوليغاركية) التي تهتم بالتمسك بامتيازاتها مثل أي طبقة حاكمة. وهذه الأوليغاركية يجب أن تكون بالضرورة معادية للثورات في كل مكان، تلك الثورات التي ستثير بشكل محتم أفكار الحرية والمساواة. هذا الصباح أعلنت النيوز كرونيكلز أن تحية الرتب العليا قد أعيد تأسيسها من جديد في الجيش الأحمر. الجيش الثوري سيبدأ بإلغاء التحية. وهذه النقطة الصغيرة جداً دلالة على كل الوضع. الأوامر إلى متطوعي الدفاع المحلي أن تسلم كل المسدسات إلى الشرطة لأن هناك حاجة إليها في الجيش. التمسك بأسلحة لا فائدة منها مثل المسدسات حين يكون لدى الألمان بنادق نصف آلية شيء أنموذجي للجيش البريطاني، لكنني أعتقد أن السبب الحقيقي للأمر هو منع الأسلحة من أن تصل إلى الأيدي "الخطأ".

كلاهما أي وجي سيصران على أنني يجب أن أذهب إلى كندا إن ساءت الأحوال كثيراً، لكي أبقى حياً وأستمر في الدعاية. سوف أذهب إن كان لي دور ما، مثلاً إذا نُقلت الحكومة إلى كندا، وكان لدي نوع من وظيفة، لكن ليس كلاجئ ولا كصحفي مهجر يصرخ من مسافة آمنة. يوجد الكثيرون جداً من هؤلاء "المعادين للفاشية" مسبقاً. الأفضل أن أموت إن كان ضرورياً، وربما حتى كدعاية موت المرء قد يحقق وينجز أكثر من الذهاب إلى الخارج والعيش، كشخص غير مرغوب فيه تقريباً، على إحسان أناس آخرين. أنا لا أريد أن أموت. لدي الكثير جداً لأعيش من أجله، بالرغم من الصحة العليلة وعدم إنجابي لأطفال. كراسة حكومية أخرى هذا الصباح عن التعامل مع إصابات الغارات الجوية. الكتيبات تحسنت كثيراً في النغمة واللغة، والنشرات الإذاعية أفضل أيضاً، خصوصاً نشرات دوف كوبر التي في الواقع مثالية لأي واحد دون مستوى الخمس جنيهات أسبوعياً. ليس هناك شيء حتى الآن في الخطاب الشعبي الحقيقي، لا شيء يحرك الطبقة العاملة الأفقر، أو حتى شيء مفهوم مؤكد. أغلب الناس لا يدركون الانطباع القليل الذي تتركه الكلمات المجردة على الإنسان العادي. حين كان أكلاند يرسل بيانه الحماري "بيان الإنسان البسيط" الذي كتبه بنفسه ووقع على الخط المنقط باسم "رجال بسطاء" اختارهم، أخبرني أن نذيه المسودة الأولى التي دققت من قبل مراقبين

جماهيريين جربوه على عمال ووجدوا أشد حالات سوء الفهم...... أول علامة هي أن الأشياء تحدث فعلاً في إنكلترا، ستكون اختفاء ذلك الصوت النفاج الأرستقراطي من الراديو. عند السهر في البارات العامة، لاحظت أن العمال لا يتنبهون إلى النشرات الإذاعية حين يدور خطاب شعبي. يزعم (اي) مع بعض الحقيقة كما أعتقد، أن الناس غير المتعلمين يحركهم غالباً الخطاب ذو اللغة الرزينة التي لا يفهمونها في الحقيقة، لكنهم يشعرون أنها مؤثرة. مثال على ذلك أن السيدة ايه متأثرة بخطابات تشرشل، رغم أنها لا تفهمها كلمة بكلمة.

٢٥ حزيران/ يونيو

كان هناك إنذار بغارة جوية حوالي الساعة الواحدة صباحاً. كان إنذاراً كاذباً فيما يخص لندن، لكن من الواضح أن هناك غارة حقيقية في مكان ما. نهضنا من أسرتنا ولبسنا ثيابنا، لكننا لم نكترث ولم نذهب إلى الملجأ. هذا ما فعله كل واحد، أي أنه نهض وتوقف للتحدث، مما بدا أمراً غبياً جداً. لكن يبدو من الطبيعي أن تنهض من السرير وتسمع صفارات الإنذار. ثم في غياب أصوات المدافع أو إثارة أخرى، يخجل المرء من الذهاب إلى الملجأ.

رأيت في إحدى صحف الأمس أن أقنعة الغاز صنعت في أمريكا، رغم ذلك يجب على الناس أن يدفعوا ثمنها. أقنعة الغاز لا فائدة لها بالنسبة إلى السكان المدنيين في إنكلترا، ومن المؤكد تقريباً كذلك في أمريكا. إصدارها رمز للتضامن الوطني والخطوة الأولى نحو لبس الزي الموحد......... حالما تبدأ الحرب فإن حمل أقنعة الغاز أو عدم حملها، يفترض مضامين سياسية واجتماعية. في الأيام القليلة الأولى، رفض أناس مثلي أن يحملوا القناع، ويفترض عموماً أن الذين لا يحملون أقنعة الغاز هم "يساريون" ثم خمدت العادة، وكان الافتراض أن الشخص الذي يحمل قناعاً كان من الأنموذج الحريص جداً، أنموذج ساكن الضواحي دافع الضريبة. مع الأخبار السيئة انتعشت العادة، وأظن أن عشرين بالمئة الآن يحملونها. لكن حتى الآن يظل الناس يحدقون بك قليلاً إن حملت قناعاً من دون أن تكون مرتدياً الزي العسكري. حتى حين تحدث الغارات الجوية الكبيرة، فقد فهم الجميع أن الألمان لن يستخدموا الغاز في الحقيقة. إن المدى الذي تحمل فيه الأقنعة سيكون مؤشراً جيداً للانطباع الذي تحدثه أخبار الحرب على الشعب. ذهبت بعد ظهر اليوم إلى مكتب التطويع لأسجل اسمي في كتائب الخدمة الوطنية. علي أن أذهب يوم الجمعة مرة أخرى من أجل الفحص

الطبي، لكن بالنسبة إلى الرجال من عمر ثلاثين إلى واحد وخمسين، أعتقد أن المعايير متدنية. الرجل الذي أخذ اسمي، والذي كان معتوهاً مألوفاً وجندياً قديماً مع ميداليات من الحرب الأخيرة، لا يستطيع أن يكتب إلا بالكاد، فأثناء كتابته بأحرف كبيرة، دوّنها بشكل معكوس أكثر من مرة.

٢٧ يونيو/ حزيران

في الليلة قبل الفائتة وأثناء إنذار الغارة الجوية، استيقظ عدد كبير من الناس في كل أرجاء لندن على إشارة زوال الخطر، واعتبروا ذلك إنذاراً، فذهبوا إلى الملاجئ وبقوا هناك حتى الصباح ينتظرون إشارة زوال الخطر. هذا بعد عشرة أشهر من الحرب. ويعرف الرب كم عدد تفسيرات الوقاية من الغارات الجوية. في الحقيقة إن عدم قيام الحكومة بحملة تجنيد هذه المرة، كان له تأثير مميت على الدعاية..... وكان الشيء اللافت، هو غياب أي ملصق دعائي من النوع العام يتعامل مع الصراع ضد الفاشية إلخ، وحبذا لو أن شخصاً واحداً يري وزارة الإعلام الملصقات التي استخدمت في الحرب الإسبانية أو حتى الملصقات الفرانكوية من أجل تلك المسألة. لكن كيف لهؤلاء الناس أن يوقظوا الأمة ضد الفاشية بينما هم شخصياً مؤيدون للفاشية ويتملقون موسوليني حتى اللحظة التي دخلت فيها إيطاليا الحرب؟ بتلر (ار ايه بتلر، سياسي من المحافظين، ومساعد وزير للشؤون الخارجية، ومستشار في الخزانة، ووزير خارجية في حكومة المحافظين لاحقاً) يجيب عن أسئلة حول الاحتلال الإسباني لطنجة ويقول إن حكومة إتش أم "قبلت كلمة" الحكومة الإسبانية، بأن الإسبان يقومون بهذا فقط لكي يحافظوا على حياد طنجة........ هذا بعد مظاهرات الكتائب في مدريد للاحتفال بغزو طنجة.... هذا الصباح نشرت صحف "نكرانا" أنّ هور (السير صامويل هور فيسكونت تيمبلوود، سياسي ومحامٍ من اليمين المتطرف، وفي هذا الوقت كان سفير بريطانيا في إسبانيا) في مدريد يسأل أسئلة عن هدنة. بعبارة أخرى هو يفعل هكذا. مجرد سؤال فقط - هل نستطيع التخلص من هؤلاء الأشخاص في الأسابيع القليلة القادمة قبل أن يفوت الأوان؟ إن خيانة الطبقة الحاكمة البريطانية غير المتعمدة، هي في النتيجة حرب طبقية واضحة جداً وتستحق الذكر. السؤال الصعب هو: إلى أي حد توجد الخيانة المتعمدة..... إل أم الذي يعرف أو على الأقل قابل كل الأشخاص، يقول باستثناءات فردية كتشرشل مثلاً إن كل الأرستقراطية

البريطانية فاسدة تماماً، وتفتقر إلى الوطنية العادية جداً، ولا تهتم في الحقيقة إلا بالمحافظة على مستويات حياتها الخاصة. يقول إنهم على وعي طبقي مكثف، ويعرفون بوضوح تماثل مصالحهم مع الناس الأغنياء في كل مكان. أحدث تكهنات إل أم (إل إتش مايرز، هو روائي ومؤلف القريب والبعيد) عن الحرب كانت صحيحة. لم يقل شيئاً طوال فصل الشتاء. إن إيطاليا ستُعامل باحترام كبير، ومن ثم تدخل ضدنا فجأة، وسيكون هدف الألمان فرض حكومة دمى على إنكلترا، يستطيع هتلر من خلالها حكم بريطانيا من دون أن يفهم الشعب ماذا يحدث....... النقطة الوحيدة التي كان فيها إل أم مخطئاً، هي أنه أفترض مثلي أن تستمر روسيا بالتعاون مع ألمانيا، حيث يبدو الآن أن هذا التعاون لن يحدث. لكن الروس ربما لم يتوقعوا أن ينهار فرانكو فجأة. إن استطاعوا إنجاز هذا التعاون، فسيقوم بيتان وشركاه بنفس الخيانة ضد روسيا كما فعلت روسيا سابقاً ضد إنكلترا. كان من المشوق أنه في زمن الاتفاقية الروسية الألمانية، افترض كل واحد تقريباً أن الاتفاقية كانت كلها في مصلحة روسيا، وأن ستالين قد "أوقف" هتلر بطريقة ما. لكن لو نظر المرء إلى الخريطة فقط، لرأى أن الأمر لم يكن كذلك.... إن الشيوعية والتطرف اليساري، هما الآن شكل من الاستمناء تماماً في أوروبا الغربية. الناس الذين ليس لديهم أي سلطة على الأحداث في الواقع، يواسون أنفسهم بالتظاهر بأنهم يتحكمون بالأحداث بطريقة ما. من وجهة نظر شيوعية، لا شيء يهم طالما هم يستطيعون إقناع أنفسهم بأن روسيا في القمة وبأفضل وضع. يبدو المشكوك فيه الآن إن كان الروس ربحوا من الاتفاقية أكثر من استراحة بسيطة، لكنهم فعلوها بشكل أفضل بكثير مما فعلناه نحن في ميونيخ. ربما إنكلترا والاتحاد السوفيتي تجبران على تحالف أخيراً. وهذا مثال مشوق عن هيمنة المصالح الحقيقية وتغلبها على أشد أنواع الكره الأيديولوجي.

النيو ليدر (مجلة ناطقة بلسان حزب العمال المستقل) تتحدث الآن عن "خيانة" بيتان وشركاه وعن "الصراع العمالي" ضد هتلر. يفترض أنهم سيؤيدون مقاومة "عمالية" إذا غزا هتلر إنكلترا. وبماذا سيقاتل العمال؟ بأسلحة. ومع ذلك مازال يطالب حزب العمال المستقل بصخب بأعمال تخريبية في معامل السلاح.

هؤلاء الناس في فنتازيا استمنائية تماماً، مشروطة بواقع أن لا شيء يفعلونه أو يقولونه، سيؤثر أبداً على الأحداث ولا حتى تحريك صدفة واحدة.

٢٨ يونيو/ حزيران

اكتأبت بشكل فظيع من الطريقة التي تحدث فيها الأشياء. ذهبت هذا الصباح من أجل نتيجة فحصي الطبي، وكانت سلبية، فعلامتي كانت سي، وهي علامة لا يأخذون أي رجل منها الآن إلى الفيالق...... الشيء المرعب هو ضيق مخيلة نظام لم يجد أية فائدة من رجل دون المستوى المعدل من اللياقة، لكنه ليس عاجزاً على الأقل. إن الجيش يحتاج إلى مقدار هائل من العمل المكتبي، الذي يقوم به أشخاص أغلبهم أصحاء تماماً ونصف متعلمين.......

يستطيع المرء أن يسامح الحكومة في فشلها لاستخدام وتشغيل الإنتلجنسيا (الطبقة المثقفة) الذين بالمجمل غير جديرين بالثقة سياسياً، فقد يقومون بمحاولة تعبئة قوة الأمة البشرية، ويحولون الناس من مهن الترف إلى العمل الإنتاجي. هذا لن يحدث ببساطة، مثلما يمكن للمرء أن يرى من خلال النظر إلى أي شارع.

دخل الروس بيسارابيا اليوم. لم يثر ذلك عملياً أي اهتمام. والملاحظات القليلة التي استطعت سماعها تستحسن ذلك باعتدال أو ليست عدائية على الأقل. قارن الغضب الشعبي الكثيف حول غزو فنلندا. أنا لا أعتقد أن الاختلاف يعود إلى الإدراك بأن فنلندا ورومانيا قضيتان مختلفتان، ولكن ربما هذا بسبب مضايقنا اليائسة وفكرة أن هذه الحركة ربما تربك هتلر- كما أعتقد أنها يجب أن تفعل، رغم أن الواضح هو من أمر بذلك.

٢٩ يونيو/ حزيران

اعترفت الحكومة البريطانية بديغول، لكن بطريقة ملتبسة، أي أنها لم تعلن أنها لن تعترف بحكومة بيتان.

شيء واحد مفعم بالأمل، وهو أن الصحافة إلى جانبنا، واحتفظت باستقلاليتها......
لكن هذا يتضمن صعوبة أن "حرية" الصحافة تعني فعلاً أنها تعتمد على مصالح شخصية، وبشكل كبير على تجارة الترف. الصحف التي ستقاوم الخيانة المباشرة، لا تستطيع أخذ خط قوي حول تقليص وسائل الترف حين تعيش على إعلانات الشوكولا والجوارب الحريرية.

٣٠ يونيو/ حزيران

في عصر هذا اليوم، كان هناك استعراض عسكري لمتطوعي الدفاع المحلي من كل "المنطقة" في ريجنت بارك، أي اثنتا عشر مفرزة تتألف كل واحدة منها من ستين رجلاً نظرياً (فعلياً أقل في الوقت الحاضر). هيمن الجنود القدامى على العرض، وسمح لمظهر الرجال الذين يتدربون في ثياب مدنية، أن يكون حاضراً دائماً وهو ليس سيئاً جداً، وربما كانت نسبة الطبقة العاملة فيهم ٢٥ بالمئة. وإن تواجدت تلك النسبة المئوية في منطقة ريجينت بارك، فيجب أن تكون أعلى بكثير في مناطق أخرى. ولكن لا أعرف بعد إن كانت هناك أي نزعة لتجنب جمع متطوعين للدفاع المحلي من المناطق الفقيرة جداً؛ حيث كل الإدارة والإشراف يفترض أن يكون في أيدي الطبقة العاملة. ففي الوقت الحاضر، تبدو المنظمة كلها في حالة مرتبكة وشاذة، ولها احتمالات مختلفة كثيرة. سابقاً كان الناس يشكلون فرق دفاع محلي بشكل عفوي، وكان الهواة يصنعون القنابل اليدوية. ارتعب أصحاب المراكز العليا تماماً من هذه الميول والنزعات طبعاً..... الجنرال الذي عاين الاستعراض، كان من النوع الأبله المخرف العادي والعاجز والمقعد عملياً، وألقى واحداً من أشد الخطابات إحباطاً التي سمعتها في حياتي. لكن الرجال جاهزون تماماً لكي يُلهموا. ارتفع هتاف عالٍ لخبر يقول إن البنادق وصلت أخيراً. يوم أمس كان خبر موت بالبو (المارشال بالبو قائد القوى الجوية الإيطالية والمسؤول عن قصف إثيوبيا في الحرب الإيطالية الإثيوبية) على الملصقات حين مشيت أنا وكونولي ومررنا في الشارع. أنا وكونولي كنا مسرورين تماماً، وروى لي كيف أسر بالبو وأصدقاؤه زعيم السنوسيين في طائرة ورموه منها. الكل لم يكونوا مستائين حتى (الامز) باستثناء السلميين. وأعتقد أن (اي) مبتهج أيضاً. في وقت لاحق في المساء (قضيت الليلة في كرومز هيل- غرينيتش بيت غوين شونزي) حيث وجدنا فأرة تسللت إلى داخل الحوض، ولم تستطيع أن تصعد وتتسلق الأطراف، فلجأنا إلى صنع نوع من درج من صناديق رقائق الصابون، استطاعت بواسطته الصعود وخرجت. لكن في هذه المرة كانت مرعوبة جداً، فهربت تحت الشريط الرصاصي الذي في حافة الحوض، ولم تتحرك حتى بعد أن تركناها وشأنها بعد نصف ساعة. في النهاية أخرجتها إيلين بلطف بأصابعها وتركتها تذهب. هذا النوع من الشيء لا يهم........ لكن حين أتذكر كم تزعجني مأساة ثيتس (في يونيو/

حزيران ١٩٣٩ فشلت الغواصة ثيتس في أن تطفو في أول غوص لها بعد إطلاقها مباشرة فغرق الطاقم كله) فعلياً إلى درجة التدخل بشهيتي للطعام، وأعتبرها تأثير نحيف للحرب، لدرجة أن المرء بات يسره فعلاً سماع غرق غواصة للعدو ورسوها في القاع.

١ يوليو/ تموز

أطلقت إشاعات في كل صحف اليوم، تقول إن بالبو ارتطم على جانبه بقوة كما في حالة الجنرال فون فريتش (الجنرال فيرتر فون فريتش عضو من الحرس القديم في هيئة الأركان الألمانية، وهو الذي لم يخف احتقاره لهتلر. مات في عملية عسكرية يعتقد أنها من تدبير هتلر). في الوقت الحاضر حين يقتل شخص بارز في معركة، يظهر هذا الإيحاء بشكل حتمي. هناك حالات في الحرب الإسبانية دوروتي والجنرال مولا. (بوينافينتورا دوروتي رئيس الفوضويين الإسبان في بداية الحرب الأهلية، قاتل محترف، أصبح جنرالاً وقائداً شعبياً. قتل في الدفاع عن مدريد ربما على يد الشيوعيين) (الجنرال مولا زميل معادل لفرانكو تحت الجنرال سانجورجو، قتل في المراحل الأولى من الحرب الإسبانية الأهلية قبل ظهور قضية الأقدمية مع فرانكو). الإشاعات عن بالبو تأسست على بيان لسلاح الجو الملكي، بأنهم لا يعرفون أي شيء عن قتال جوي قتل فيه بالبو كما زعموا. إن كانت هذه كذبة كما يمكن أن تكون، فهي واحدة من الضربات الجيدة الأولى التي أنجزتها الدعاية البريطانية.

٣ يوليو/ تموز

في كل مكان، هناك شعور بشيء قريب من اليأس بين الناس المفكرين، بسبب فشل الحكومة في التصرف، وبسبب استمرار العقول الميتة والمؤيدين للفاشية في مراكز القيادة والأمر. اعتراف متزايد أن الشيء الوحيد الذي يصحح هذا الوضع بشكل مؤكد، هو غزو غير ناجح يتضافر معه خوف متزايد من ألا يحاول هتلر الغزو أخيراً، وأنه سيذهب إلى أفريقيا والشرق الأوسط.

٥ يوليو/ تموز

يوضح الانعدام شبه التام للخسائر البريطانية في المعارك ضد السفن الحربية الفرنسية في أوران، أن البحارة الفرنسيين لا بد أنهم رفضوا أن يخدموا البنادق، أو بأي حال إن فعلوا ذلك

فقد فعلوه من دون حماس........ على الرغم من اللغط في الصحف حول "الأسطول الفرنسي العاطل" إلخ إلخ، يبدو من قائمة السفن المعطاة أن حوالي نصف البحرية الفرنسية ليست محسوبة، ولا شك أن أكثر من نصف الغواصات كذلك. لكن ليس هناك شيء في الصحف حول العدد الذي وقع بيد الألمان أو الإيطاليين والعدد الذي مازال في المحيطات...... انفجار الحقد المخيف للراديو الألماني (إن كان التقرير صحيحاً، فهو يطالب فعلياً الشعب الإنكليزي بشنق تشرشل في ساحة ترافالغار) يظهر كم هي صحيحة هذه الحركة.

١٠يوليو/ تموز

لقد أعاقوا البارجة الفرنسية ريتشيليو التي كانت في ميناء داكار. لكن لا تحرك للاستيلاء على أي من موانئ فرنسا في غرب أفريقيا غير محصنة بقوة بلا شك...... حسب ما جاء عن فيرنون بارتلت (صحفي سياسي ليبرالي مشهور لصحيفة نيوز كرونيكل، كان ينقل تقارير عن كل أزمات العالم المتصلة بهتلر وموسوليني والشرق الأقصى) أن الألمان سيقدمون مقترح سلام عبر الخطوط التي تكهنت بها سابقاً، أي أن تُقصى إنكلترا من أوروبا، لكنها ستحتفظ بالإمبراطورية، وتخرج حكومة تشرشل وتستبدل بحكومة مقبولة من قبل هتلر. الوقاحة هي أنه هناك زمرة متشوقة للموافقة على هذا موجودة في إنكلترا، ولا شك أنه تم تشكيل حكومة ظل. يبدو أن الذي لا يصدق تقريباً، هو أن يتخيل أي أحد أن جماهير الشعب سوف تسامح مثل هذا التدبير إذا لم يكافح ويجمد أولاً......... نُقل دوق ويندسور عن طريق البحر كحاكم للبهاما، وهذا نظرياً حكم بالنفي.... الكتاب الذي أنتجه غولانكس رجال مذنبون، "الاتهام" المعتاد لجماعة ميونيخ، يباع مثل الكعك الحار. حسب ما جاء عن صحيفة التايم أن الشيوعيون الأمريكيون يعملون ويدهم في قفاز مع النازيين المحليين لمنع وصول الأسلحة الأمريكية إلى إنكلترا. لا يمكن أن يتأكد المرء من مدى حرية العمل المحلية التي يتمتع بها الشيوعيون. إلى وقت متأخر جداً، بدا أنهم لا يمتلكون شيئاً البتة، وأنهم اتبعوا أحياناً سياسات متناقضة في بلدان مختلفة. ربما سمح لهم بترك "الخط" والتخلي عنه حين يعني التمسك الصارم به الانقراض.

١٦ يوليو/ تموز

لا أخبار حقيقة منذ عدة أيام باستثناء شبه استسلام الحكومة البريطانية لليابان، أي اتفاق وقف إرسال تجهيزات حربية عبر بورما لفترة معينة. هذا ليس محدداً جداً، لذلك يمكن أن يلغى من قبل أي حكومة لاحقة. إن (غولانكس) يعتقد أنها محاولة الحكومة الأخيرة (أي آخر محاولة لأصحاب الاستثمارات في هونغ كونغ إلخ) لتهدئة اليابان واسترضائها، وبعدها سيُجبرون على دعم الصين بالتأكيد. ربما يكون الوضع هكذا، لكن أية طريقة هذه في فعل الأشياء؟

لا تنجز عملاً محتشماً حتى تنكص، كما أن بقية العالم لم يعد يصدق أن دوافعك يمكن أن تكون نزيهة. يقول (دبليو) إن الطبقة المثقفة اليسارية في لندن انهزامية تماماً الآن، وتعتبر الوضع ميئوساً منه، ولا ترغب بشيء سوى الاستسلام. كم من السهل التنبؤ بأنهم سينهارون تحت زعيق جبهتهم الشعبية، حين يبدأ العرض الحقيقي.

٢٢ يوليو/ تموز

لا توجد أخبار حقيقية منذ أيام. الحدث الرئيسي في هذه اللحظة هو مؤتمر الرابطة الأمريكية الذي بدأ الآن وامتصاص الروس لدول البلطيق الذي يجب أن يوجه ضد ألمانيا. زوجة كريبس وبناته سوف يذهبون إلى موسكو. من الواضح أنه يتوقع إقامة طويلة هناك. قيل إن إسبانيا تستورد نفطاً بكميات كبيرة. ومن الواضح أنه للاستخدام الألماني ونحن لم نوقفه. هراء كثير في النيوز كرونيكل هذا الصباح عن رغبة فرانكو في البقاء بعيداً عن الحرب، ومحاولته صد التأثير الألماني إلخ...... سوف يكون كما قلت، سيتظاهر فرانكو بأنه مؤيد لبريطانيا، وهذا سوف يستخدم كمبرر لمعاملة إسبانيا بشكل لطيف، ويسمح باستيراد أي كمية، وفي النهاية سيدخل فرانكو إلى جانب الألمان.

٢٥ يوليو/ تموز

لا أخبار في الحقيقة..... أرسل أشخاص متنوعون أطفالهم إلى كندا وندموا على ذلك مسبقاً....... إن الخسائر المميتة في الأرواح من الغارات الجوية في الشهر الماضي التي نشرت، بلغت حوالي ٣٤٠ حالة وفاة. إن كان هذا صحيحاً، فهو فعلياً رقم أقل من وفيات الطرق في

نفس الفترة......... قيل إن عدد متطوعي الدفاع المحلي الآن بلغ ١٣٠٠٠٠٠ متحمس، وأن التجنيد قد توقف وأعيدت تسميته بالحرس الوطني. هناك إشاعات أيضاً أن هؤلاء الذي يعملون كضباط عسكريين من دون تفويض، يجب أن يستبدلوا برجال من الجيش النظامي. هذا يشير إلى: إما أن السلطات بدأت تأخذ متطوعي الدفاع المحلي على محمل الجد كقوة مقاتلة، أو أنها خائفة منهم.

توجد إشاعات الآن، تقول إن لويد جورج هو بيتان المحتمل لإنكلترا.......... كررت الصحافة الإيطالية نفس الادعاء، وقالت إن صمت لويد جورج يثبت أنها حقيقة. من السهل طبعاً التخيل أن لويد جورج يلعب هذا الدور بدافع الضغينة والحسد، لأنه لم يُعط وظيفة. لكن من الأسهل بكثير تخيله يتعاون مع الزمرة التورية التي ستفضل وتؤيد هكذا مسار. باستمرار حين أمشي في الشارع، أجد نفسي أنظر إلى النوافذ لأرى أيها سيكون أعشاش بنادق آلية. (دي) يقول إن الأمر سيان بالنسبة إليه.

٢٨ يوليو/ تموز

هذا المساء رأيت مالك الحزين يطير فوق بيكر ستريت. لكن هذا ليس غير محتمل كالشيء الذي رأيته منذ أسبوع أو اثنين، أي صقر (كيسترل) يقتل عصفوراً في وسط ملعب اللورد للكريكيت. أعتقد أن السبب هو الحرب، أي نقص حركة المرور التي تميل إلى زيادة الحياة البرية في داخل لندن. الرجل الصغير الحجم الذي أنسى اسمه دائماً، كان يعرف بجويس (وليام جويس المعروف باللورد هاوهاو يفترض من طريقة كلامه أنه مواطن أمريكي لم يحصل أبداً على الجنسية البريطانية، رغم أنه قضى جل حياته في إنكلترا، وكان قومياً مسعوراً. أصبح فاشياً. وفي عام ١٩٣٩ ذهب إلى ألمانيا وحصل على الجنسية الألمانية عام ١٩٤٠. أعدمه البريطانيون في نهاية الحرب) من الحزب الفاشي المنشق الذي نسب إليه بشكل مشترك بكونه اللورد هاوهاو. يقول إن جويس كره موسلي بانفعال شديد، وتحدث عنه بلغة غير قابلة للطبع أبداً. موسلي نصير هتلر الرئيسي في إنكلترا (السير أوزوالد موسلي محافظ ثم مستقل، ثم عضو برلمان عن حزب العمال. في عام ١٩٣١ انفصل عن الحزب وشكل الحزب الجديد مؤخراً، ثم أصبح مؤيداً متعصباً لهتلر، وحوّل حزبه إلى اتحاد الفاشيين البريطانيين) ومن الممتع أنه يجب أن يستخدم جويس وليس أحد رجال موسلي. هذا يثبت ما قاله بوركيناو إن هتلر لا يريد

وجود حزب فاشي قوي جداً في إنكلترا. من الواضح أن الحافز دائماً هو الانشقاق وحتى شق المنشقين. تهاجم الصحافة الألمانية حكومة بيتان، لكن الدافع ليس مؤكداً تماماً، وهكذا أيضاً عناصر الصحافة الفرنسية الذين هم تحت سيطرة الألمان. دورييه (جاك دورييه سياسي فرنسي أصبح قائداً فاشياً بعد أن كان شيوعياً ومتعاوناً نشطاً مع الألمان) طبعاً إلى المقدمة هنا. كانت صدمة لي حين أعلنت السنداي تايمز أن الألمان في باريس يستغلون بيرغري (غاستون بيرغري نائب فرنسي ومفكر، انتقل من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، وأصبح متآمراً بعد سقوط فرنسا). لكنني أقبل هذا بحذر وأعرف كيف تُكذّب هذه الأحزاب المنشقة الصغيرة عادة من قبل اليمين واليسار الرسميين على السواء.

٨ أغسطس/ آب

لقد بدأ الهجوم الإيطالي على مصر أو بالأحرى على الصومال البريطانية. لا توجد أخبار حقيقية بعد، لكن الصحف تلمح بأن الصومال لا تستطيع الصمود بالقوات التي لدينا هناك. النقطة الهامة هي خسارة بيريم التي ستغلق عملياً البحر الأحمر.

إتش جي ويلز يعرف تشرشل ويقول إنه رجل طيب وليس مرتزقاً ولا حتى متطلعاً. لقد عاش "مثل مفوض روسي" "يصادر" سياراته إلخ، لكنه لا يهتم بتاتاً بالنقود. لكنه --- ويقول إن تشرشل يملك قدرة معينة على إغلاق عينيه عن الوقائع، ولديه ضعف برفضه المطلق أن يخذل الصديق الشخصي والمسؤول عن عدم طرد أناس مختلفين.--- والذي أحدث شجاراً ضخماً حول اضطهاد اللاجئين، ويعتبر أن مركز كل التخريب وزارة الحرب.

هو يؤمن أن سجن اللاجئين المعادين للفاشية، أنموذج متعمد تماماً من التخريب المؤسس على المعرفة بأن البعض من هؤلاء الناس على اتصال مع الحركات السرية في أوروبا، وقد يقدرون في لحظة ما على إحداث ثورة "بلشفية" التي من وجهة نظر الطبقة الحاكمة أسوأ بكثير من الهزيمة. هو يقول إن اللورد إس.... هو الرجل الذي يقع عليه أغلب اللوم. سألته هل يظن أنه كان عملاً مقصوداً على دور اللوردـ هذا كان أصعب شيء تقرره. قال إنه يعتقد أن اللورد... يعرف تماماً ماذا يفعل. في هذه الليلة استمعت إلى محاضرة مع شرائح فانوس سحري لضابط كان في حملة دونكيرك. كانت محاضرة رديئة جداً. قال لقد قاتل البلجيكيون

جيداً، وليس صحيحاً أنهم استسلموا من دون إنذار (في الحقيقة أعطوا إنذاراً بثلاثة أيام) لكنه تكلم بشكل سيئ عن الفرنسيين. لديه صورة لفوج من جنود الزواوي وهم يفرون بوضوح وراء البيوت المنهوبة، ورجل سكران تماماً على الرصيف.

٩ أغسطس/ آب

أصبح وضع النقود لا يطاق تماماً........ كتبت رسالة طويلة إلى ضريبة الدخل. يشير الناس إلى أن الحرب عملياً وضعت نهاية إلى سبيل رزقي. وفي الوقت نفسه رفضت الحكومة أن تعطيني أي وظيفة. لن يكون للحقيقة اللازمة والوثيقة الصلة فعلياً حول وضع الكاتب، واستحالة أن يكتب كتباً مع استمرار هذا الكابوس، أي وزن رسمياً.......... أنا لا أشعر بالارتياب نحو الحكومة، وسأتملص من دفع الضريبة إن استطعت. مع ذلك سأعطي حياتي من أجل إنكلترا بسرور وسهولة إن ظننت أن هذا ضروري. لا أحد وطني بخصوص الضرائب. لا أخبار حقيقية في الأيام الماضية. فقط معارك جوية والطيران البريطاني دائماً يحرز نقاط كثيرة إن كانت التقارير صحيحة. أتمنى لو أستطيع التكلم مع ضابط في سلاح الجو الملكي، وأحصل على فكرة ما إذا كانت هذه التقارير صحيحة.

١٦ أغسطس/ آب

الأمور تتطور نحو الأسوأ في الصومال، وهي عملية عسكرية هجومية على مصر من الجناح. معارك جوية هائلة فوق القناة، إن كانت التقارير قريبة من الحقيقة مع خسائر ألمانية هائلة. مثلاً إسقاط حوالي ١٤٥ طائرة يوم أمس..... يمكن للناس في داخل لندن أن يتعاملوا مع غارة حقيقية واحدة تعلمهم كيف يتصرفون. في الوقت الحالي يتصرف كل واحد بأقصى الغباء، ويتوقف كل شيء ماعدا النقل، إن لم تؤخذ احتياطات وقائية. في الخمس عشرة ثانية الأولى كان هناك رعب عظيم ونفخ الصفارات وصياح على الأطفال ليذهبوا إلى داخل البيوت، ثم تجمع الناس في الشوارع وحملقوا في السماء. في النهار يخجل الناس في الظاهر أن يدخلوا إلى الملاجئ إلى أن يسمعوا القنابل. يوم الثلاثاء والأربعاء كانا يومين مجيدين في ولينغتون (قرية في هيرتفوردشاير حيث عاش أورويل منذ ١٩٣٦). لا توجد جرائد ولا ذكر للحرب. كانوا يقطعون الشوفان، ونحن أخرجنا ماركس (كلب أورويل) يومين ليساعد في

مطاردة الأرانب، أبدى فيها ماركس سرعة غير متوقعة. الشيء برمته أعادني مباشرة إلى طفولتي، التي هي ربما آخر قطعة من ذلك النوع من الحياة التي سأملكها.

١٩ أغسطس/ آب

هناك سمة من سمات الغارات الجوية، هي السذاجة المفرطة عند كل واحد حول الضرر الذي تفعله بالأماكن البعيدة. جورج أم وصل حديثاً من نيوكاسل، التي يُعتقد عموماً هنا أنها تحطمت بشكل خطير، وأخبرنا أن الضرر لا يذكر. من جانب آخر هو وصل متوقعاً أن يجد لندن محطمة إلى مزق. وسؤاله الأول عند وصوله كان "إن كنا مررنا بوقت صعب". من السهل أن نرى كيف يستطيع الناس الذين يعيشون في أماكن بعيدة كأمريكا مثلاً، تصديق أن لندن احترقت، وأن إنكلترا تموت من الجوع إلخ إلخ. وفي الوقت نفسه هذا يثير الافتراض إن كان أثر غاراتنا الجوية على ألمانيا الغربية، أقل ضرراً مما ينقل في الأخبار.

٢٠ أغسطس/ آب

تضع الصحف وجهاً جيداً بقدر ما يمكن، على الانسحاب من الصومال الذي هو هزيمة خطيرة وأول خسارة لأرض بريطانية منذ قرون..... شيء يدعو إلى الرثاء أن الصحف (النيوزكرونيكل الوحيدة التي رأيتها اليوم) عازمة على معاملة الخبر بأنه جيد. هذا كان يمكن أن يصنع البداية لهياج آخر يقابل ببعض الخذلان من الحكومة.

شكاوي وسط الحرس الوطني بأن الغارات الجوية باتت الآن أكثر شيوعاً، وأن الخفراء لا يملكون قبعات قصديرية. تفسير من الجنرال مكنمارا الذي أخبرنا أن الجيش النظامي مازال بحاجة إلى ٣٠٠٠٠٠ قبعة قصديرية – هذا بعد سنة من الحرب.

٢٢ أغسطس/ آب

تبدو صحافة بيفربروك، مقارنة مع العناوين التي رأيتها في الصحف الأخرى، أنها تقلل الإيحاء بأن جريمة قتل تروتسكي نُفذت بواسطة المخابرات السوفييتية. في الحقيقة في عدد إيفنينغ ستاندارد الصادر اليوم، هناك مواد منفصلة كثيرة عن تروتسكي، لم تذكر هذا الإيحاء. لا شك أنه مازالت عيونهم على روسيا، ويريدون استرضاء الروس بأي تكلفة، بالرغم من رسوم ديفيد لو الهزلية (سياسي وكاريكاتير. آراؤه يسارية. عمل للإيفنينغ ستاندارد، ومن

بعدها لمانشستر غارديان). لكن تحت هذا، يمكن أن توجد مناورة أخبث. إن الرجال المسؤولين عن إيفينينغ ستاندارد الذين يقدمون سياسة مؤيدة لروسيا، أذكياء ودهاة كفاية ليعرفوا أن "خط" الجبهة الشعبية ليس الطريق حقيقة لضمان تحالف روسي.

لكن هم يعرفون أن الكتلة الكبيرة من الرأي اليساري في إنكلترا، مازالت تسلم كأمر بديهي بأن سياسة معادية للفاشية كاملة، هي الطريق إلى جعل روسيا تقف إلى جانبنا. لذلك فإن تخريب روسيا هو طريق لدفع الرأي العام إلى جهة اليسار. الغريب أنني دائماً أعزو هذه الدوافع المنحرفة إلى أناس آخرين كوني أي شيء باستثناء أن أجرح نفسي، وأجد من الصعب استعمال طرق وأساليب مباشرة حتى عندما أرى حاجة لها. اليوم في ساحة بورتمان، رأيت عربة بأربعة دواليب بأناقة جيدة جداً مع حصان جيد وسائق عربة من طراز ما قبل عام ١٩١٤.

٢٣ أغسطس/ آب

هذا الصباح أُطلق إنذار غارة جوية في حوالي الساعة الثالثة صباحاً. نهضت من السرير ونظرت إلى الوقت، ثم شعرت أنني عاجز عن فعل أي شيء، وعدت إلى النوم فوراً. هم يتحدثون عن إعادة ترتيب نظام الإنذار، وسيعملون هكذا إن كانوا سيمنعون كل إنذار من أن يكلف آلاف الجنيهات في وقت ضائع وخسارة نوم إلخ. في الحقيقة إن أصوات الإنذار في الوقت الحالي في منطقة واسعة حين تقوم الطائرات الألمانية بعملية في قسم منها، لا تعني فقط أن يستيقظ الناس من النوم من دون ضرورة إلى فعل ذلك، ويبعد الناس عن أعمالهم، وإنما تعني وجود انطباع انتشر بأن إنذار الغارات الجوية مزيف دائماً، وهذا شي خطير بشكل واضح.

حصلت للتو على زي الحرس الوطني الخاص بي بعد شهرين ونصف.

ليلة أمس، ذهبت إلى محاضرة لجنرال----، مسؤول عن حوالي ربع مليون رجل. قال إنه أمضى سابقاً واحداً وأربعين عاماً في الجيش. كان في حملة فالاندرز، ولا شك أنه سُرح من الخدمة بسبب العجز. تعليقاً على أن الحرس الوطني قوة دفاعية ثابتة، قال باحتقار وبطريقة واضحة إنه لا يرى أي فائدة من تدربنا على الاختفاء والالتجاء "والتحرك زحفاً على بطوننا" إلخ إلخ. من الواضح أنها ضربة إلى مدرسة تدريب أوسترلي بارك (مركز تدريب للحرس الوطني، أسسها وأدارها توم وينترينغهام مع همفري سلاتر، علّما فيها حرب

العصابات وقتال الشوارع المؤسس على تجاربها في اللواء الأممي أثناء الحرب الأهلية الإسبانية) وقال إن مهمتنا كانت أن نموت في مواقعنا. وكان أيضاً كبيراً على التدرب على الحراب، ولمح إلى أن رتب الجيش النظامي والتحية العسكرية إلخ كان يجب أن تدخلا قريباً........ هؤلاء الرجعيون القوميون البائسون السخيفون والمخرفون بوضوح والمنحطون في كل شيء ماعدا الشجاعة البدنية، هم مثيرون للشفقة، ويشعر المرء بالحزن عليهم إن لم يكونوا معلقين حول رقابنا مثل أحجار الرحى. الموقف من الجنود العاديين في هذه الأحاديث التشجيعية - التواق جداً لتكون متحمساً وجاهزاً للهتاف والضحك على النكات والشعور طول الوقت بأن هناك شيئاً خطأ- يشعرني بالإشفاق والحزن دائماً. لقد حان الوقت تقريباً الذي يقفز فيه المرء عالياً على المنصة، ويخبرهم كيف يتم إنهاكهم وتخريبهم، وكيف تتم خسارة الحرب وبواسطة من، بالنسبة إليهم أن تثور وتجرف الرجعيين في صندوق القمامة. حين أراقبهم يستمعون إلى واحد من هذه الأحاديث الحمارية، أتذكر دائماً المقطع في مذكرة صامويل بتلر عن عجل صغير رآه مرة يأكل روثاً. لم يستطع أن يقرر تماماً إن كان أحبّ المادة أو لا، وكل ما احتاجه كان بقرة مجربة ما كي تعطيه نخزة بقرنها، بعدها سيتذكر طوال حياته أن الروث غير صالح للأكل. خطر لي أمس كيف ستستمر الدولة الروسية وتتقدم من دون تروتسكي؟ والشيوعيون في كل مكان آخر؟ ربما سوف يجبرون أن يخترعوا بديلاً.

٢٦ أغسطس/ آب

(غرينتش) كانت الغارة التي حدثت في الرابع والعشرين، أول غارة حقيقية على لندن حتى الآن بقدر اهتمامي، أي الأولى التي استطعت فيها سماع القنابل. كنا نراقب عند الباب الأمامي حين قصفت أحواض الهند الشرقية. لم تذكر صحف الأحد قصف الأحواض. لهذا من الواضح أنهم يخفون الأمر حين تقصف أهداف مهمة.... كانت خبطة عالية، لكنها ليست مرعبة، ولم تعط انطباعاً بأن الأرض اهتزت. لهذا من الواضح أن القنابل التي أسقطوها لم تكن كبيرة جداً. أتذكر قنبلتين كبيرتين أسقطتا قرب هويسكا، حين كنت في المستشفى في مونفلورايت. الأولى على بعد أربعة كيلومترات نتج عنها هدير اهتزاز البيوت ففررنا من أسرتنا مرعوبين. ربما كانت من ألفي رطل، والقنابل التي أسقطت الآن من وزن خمسمائة رطل.

٢٩ أغسطس/ آب

إنذار غارات جوية خلال الساعات الثلاث الأخيرة بلغ مجموعها من ١٦ إلى ١٨ ساعة في الليالي الثلاث... من الواضح تماماً أن هذه الغارات الليلية يراد بها الإزعاج بشكل أساسي، وطالما من المسلم به عند سماع صوت صفارة الإنذار، يجب على الكل أن يندفع بحثاً عن ملجأ، لا يحتاج هتلر إلا إلى إرسال طائراته في أكثر من نصف دزينة في المرة الواحدة ليعطل العمل ويسرق النوم من الناس إلى أجل غير محدد. على كل حال، هذه الفكرة متعبة مسبقاً..... لأول مرة منذ عشرين سنة، سمعت قاطع التذاكر في الحافلة يفقد أعصابه ويكون جلفاً مع المسافرين. مثلاً الليلة قبل الفائتة، خرج صوت من الظلام: "من يدير هذه الحافلة يا سيدتي، أنا أم أنت؟" أعادني مباشرة إلى نهاية الحرب الماضية..... أنا وإيلين لم نكترث إلا بالحد الأدنى للغارات، وأنا بصدق كنت تحت انطباع أنها لا تقلقني إطلاقاً باستثناء التشويش والفوضى الذي تسببه. لكن هذا الصباح بعد قسط من النوم لساعتين كما أفعل دائماً حين أعود من واجب الحراسة، انتابني حلم كريه جداً بقنبلة تسقط قربي وترعبني وتفقدني صوابي. قارن الحلم الذي كنت أحلم به، بنهاية فترتنا في إسبانيا حيث أكون على منحدر عشبي من دون غطاء، وقذائف الهاون تسقط حولي.

٣١ أغسطس/ آب

أصبحت الإنذارات بالغارات الجوية التي يوجد منها الآن نصف دزينة تقريباً كل أربع وعشرين ساعة، ضجراً كبيراً. انتشر رأي بسرعة أن المرء يجب أن يستخف بالغارات باستثناء حين تكون معروفة على صعيد كبير وفي منطقة المرء. يجب أن أقول عن الناس الذين يتجولون في ريجينت بارك، إنهم على الأقل اكترثوا نصف اكتراث بإنذار الغارة.... ليلة أمس عندما كنا ذاهبين إلى النوم، حدث انفجار ثقيل. وفي وقت لاحق في الليلة، استيقظنا على صوت ارتطام هائل، وقيل لنا إن سببه قنبلة في مايدا فالي. أنا وإيلين علقنا على شدة الصوت ونمنا من جديد. غرقنا في النوم مع انطباع غامض من إطلاق مدافع مضادة للطائرات، ووجدنا أنفسنا عقلياً عائدين إلى الحرب الأهلية الإسبانية، في واحدة من تلك الليالي، حين يكون لديك قش جيد تنام عليه، وقدمان جافتان، وعدة ساعات راحة أمامك، وصوت إطلاق نار بعيد، يعمل كعقار منوم بشرط أن يكون بعيداً جداً.

١ سبتمبر/ أيلول.

مؤخراً اشتريت قبعة غارات....... يبدو أن قبعات غارات من حجم سبعة فما فوق نادرة جداً. من الواضح أنهم يتوقعون جنوداً ذوي رؤوس صغيرة. هذا ينسجم مع الملاحظة التي قدمها شخص في منصب عالٍ إلى ريتشارد ريس في باريس، حين حاول أن ينضم إلى الجيش--- "يا إلهي أنت لا تتوقع أننا نريد رجالاً أذكياء في خط الجبهة أليس كذلك؟" كل ثياب الحرس الوطني الموحدة مصنوعة بقياس رقبة عشرين بوصة...... المحلات في كل مكان بدأت تستفيد من الحرس الوطني، قمصان خاكي إلخ تعرض بأسعار خيالية مع ملاحظات "مناسبة للحرس الوطني" كما في برشلونة؛ حيث في الأيام الأولى كانت الموضة أن تكون في الميليشيا.

٣ سبتمبر/ أيلول

تحدثت يوم أمس مع السيدة سين التي عادت حديثاً من كارديف، وقالت إن الغارات هناك شبه مستمرة. وقد تقرر أخيراً أن العمل بأحواض السفن يجب أن يستمر بغارات أو من دون غارات. وبعد ذلك مباشرة تقريباً نجحت طائرة ألمانية في إسقاط قنبلة بشكل مباشر في مستودع إحدى السفن. وحسب ما قالته السيدة سين فإن بقايا سبعة رجال يعملون هناك "أخرجت في الدلاء". فوراً كان هناك إضراب في الحوض، وبعده كان عليهم أن يعودوا إلى ممارسة الاختباء. وهذا النوع من الشيء هو الذي لا تكتبه الصحف. لقد أصبح واضحاً الآن، لدى كل الأطرف، أن الخسائر في الأرواح في آخر الغارات مثلاً في رامسغيت، قد قللتها السلطات كثيراً لترضي السكان المحليين الذين لا يحبون أن يقرؤوا عن "الأضرار التافهة". حين يقتل مئة شخص إلخ إلخ، سأحرص على أن أرى أرقام الخسائر في هذا الشهر أغسطس/ آب، وأقول إنها تصل إلى ألفين شهرياً لو قالوا الحقيقة. مايكل يقدر أن الوقت الضائع في مصنعه للثياب بسبب الغارات الجوية، يكلفه خمسين جنيهاً أسبوعياً. وهذه من الواضح أنها مسألة فردية صغيرة.

٧ سبتمبر/ أيلول

بات إنذار الغارات الجوية مألوفاً جداً ويدوم وقتاً طويلاً. وبالنسبة إلى الناس فقد نسوا إن كان الإنذار الذي يعمل الآن هو إنذار بغارة أم إنذار إعلان بانتهاء الغارة. بات ضجيج القنابل والمدافع ماعدا حين يكون قريباً جداً (الذي ربما يعني ضمن ميلين اثنين) مقبولاً الآن

كخلفية عادية للنوم أو الحديث. أنا لم أسمع بعد انفجار قنبلة من نوع الهدير الذي يجعلك تشعر بأنك متورط شخصياً.

في خطاب تشرشل، بلغ عدد الذين قتلوا في الغارات الجوية خلال شهر أغسطس/ آب ١٠٧٥ شخصاً. حتى لو كان الرقم صحيحاً، فمن المحتمل أنه اعتراف أقل بكثير من العدد الحقيقي، بما أنه يتضمن خسائر أرواح مدنية........ التكتم الذي يُمارس رسمياً حول الغارات غير عادي. نقلت صحف اليوم أن قنبلة سقطت في ساحة "في وسط لندن" ويستحيل أن تعرف أي ساحة كانت، على الرغم من آلاف الناس الذين يُفترض أنهم يعرفون.

١٠ سبتمبر/ أيلول

لا أستطيع أن أكتب عن الكثير من الجنون في الأيام القليلة الأخيرة. ليس الأمر أن القصف يقلقنا بحد ذاته، بقدر ما تفعل فوضى حركة المرور، وصعوبة الاتصال الهاتفي المتكررة، وإغلاق المتاجر كلما كانت هناك غارة إلخ، مجتمعة مع ضرورة لحاق المرء بعمله العادي قد أرهق المرء، وحول حياته إلى لهاث سريع مستمر للتعويض عن الوقت الضائع.......

تمثل القنابل المؤجل عملها إزعاجاً كبيراً جداً، لكن يبدو أنهم ينجحون في تحديد أماكن معظمها، ويخرجون كل الناس القريبين من المكان حتى تنفجر القنبلة. في كل ساوث لندن هناك مجموعات صغيرة من الناس البؤساء التعساء يتجولون في المكان مع حقائب وصرر، وهم إما أناس تحولوا إلى مشردين، أو في أكثر الحالات أناس طردتهم السلطات بسبب قنبلة لم تنفجر......

أمضينا أغلب الليلة الماضية في الملجأ العمومي. لقد ساقنا إلى هناك الصفير المتكرر وصوت انفجار القنابل الذي لم يكن بعيداً جداً على فواصل بحوالي ربع ساعة. هناك قلق مخيف يعود إلى الاكتظاظ الشديد، رغم أن المكان كان مجهزاً بشكل حسن مع إضاءة كهربائية ومراوح. أغلب الناس من طبقة العمال الكبار في السن الذين تذمروا بمرارة من قسوة المقاعد وطول الليلة، لكن لا يوجد حديث انهزامي.....

يُشاهد الناس الآن كل ليلة عند الغروب وهم يصطفون عند أبواب الملاجئ مع معدات نومهم. هؤلاء الذين دخلوا أولاً يخطفون الأماكن التي على الأرض، وربما يمضون ليلة جيدة معقولة. بالإضافة إلى الغارات النهارية، تستمر ساعات الغارات الليلية من الساعة الثامنة

مساء إلى الساعة الرابعة والنصف صباحاً، أي من العتمة إلى الفجر. أعتقد أن ثلاثة أشهر من الغارات المستمرة بنفس الشدة كغارات الليالي الماضية الأربع، ستكسر معنويات كل شخص.

١٢ سبتمبر/ أيلول

حالما بدأت الغارات الجوية الجدية، لوحظ أن الناس كانوا أكثر استعداداً من قبل للتحدث مع الغرباء في الشارع..... هذا الصباح قابلت شاباً في العشرين تقريباً في أفرول قذر، ربما يعمل صانعاً في مرآب. كان ممتعضاً جداً وانهزامياً من الحرب ومرعوباً من الدمار الذي شاهده في ساوث لندن. قال إن تشرشل زار المنطقة التي قصفت قرب إيلفانت في بقعة دمر فيها عشرون بيتاً من أصل اثنين وعشرين. ولاحظ قائلاً إن هذا "لم يكن سيئاً جداً". قال الشاب: "لو قال هذا لي لعصرت رقبته وخنقته". كان متشائماً بخصوص الحرب، ويرى أن هتلر سيفوز بالتأكيد، ويحول لندن إلى حالة مثل وارسو. تكلم بمرارة عن الناس الذي تحولوا إلى مشردين في ساوث لندن، وتبنى وجهة نظري بحماس حين قلت إنه يجب أن تصادر البيوت الفارغة في ويست لندن وتعطى لهم. هو اعتبر أن كل الحروب تُخاض لفائدة الأغنياء، لكنه وافقني أن هذه الحرب ربما تنتهي بثورة. مع كل هذا لم يكن غير محب لوطنه. قسم من حقده يعود لأنه حاول أن ينضم إلى القوة الجوية أربع مرات في الأشهر الستة الأخيرة، وكان يؤجَّل دائماً.

الليلة وليلة أمس كانوا يجربون الأداة الجديدة لإبقاء وابل النيران مستمراً من المدافع المضادة للطائرات. واضح أنه إطلاق أعمى ومجرد صوت، لكن أعتقد أن هناك نوعاً من كاشف صوت يقدر الارتفاع الذي يجب أن تنفجر فيه القذائف... الضجيج هائل ومستمر تقريباً، لكن لم نكترث به ونشعر أنه إلى جانبنا. أمضيت ليلة أمس في مكان ستيفن سبيندر مع بطارية تطلق في الساحة على فواصل قصيرة خلال الليلة. نمت خلالها بسهولة كافية، ولم تُسمع قنابل في ذلك المكان.

الدمار في إيست اىند وساوث اىند لندن رهيب بكل المقاييس..... خطاب تشرشل ليلة أمس أشار بجدية كبيرة إلى خطر غزو وشيك. إذا جرت محاولة الغزو فعلياً ولم يكن هذا خدعة، فإن الفكرة كما يفترض إما أنه سيضرب ويدمر قواعدنا الجوية على طول الساحل الجنوبي، وبعدها يمكن قصف الدفاعات الأرضية بسهولة، وبنفس الوقت يسبب كل

الفوضى الممكنة في لندن واتصالاتها بالجنوب، أو أن يجذب أقصى ما يستطيعه من قواتنا الدفاعية جنوباً قبل شن الهجوم على اسكتلندا أو ربما ايرلندا. في الوقت الحالي، فإن كتيبتنا من الحرس الوطني وبعد ثلاثة أشهر ونصف، لديها حوالي بندقية واحدة لكل ستة رجال، ولا توجد أسلحة أخرى باستثناء قنابل حارقة، وربما زي رسمي واحد لكل أربعة رجال. أخيراً وقفوا ضد السماح للأفراد بأخذ البنادق إلى البيت، فكلها يجب أن تكوم في مكان واحد؛ حيث قد تأتي قنبلة وتدمرها كلها في أية ليلة.

١٤ سبتمبر/ أيلول

في الليلة الأولى من وابل النيران الذي كان الأشد، قيل إنهم أطلقوا ٥٠٠٠٠٠ قذيفة، أي بمعدل خمسة جنيهات لكل قذيفة، أي ما يعادل ثروة بمليونين ونصف، لكن تستحقها من أجل تأثيرها على المعنويات.

١٥ سبتمبر/ أيلول

هذا الصباح رأيت طائرة تسقط لأول مرة. سقطت مقدمتها أولاً ببطء من الغيوم مثل الشنقب، فقد أصيبت وهي تحلق عالياً في السماء. التهليل الهائل وسط الناس قوطع بين فينة وأخرى بالسؤال "هل أنت واثق من أنها ألمانية؟" كانت الأوامر المعطاة مربكة جداً وكانت هناك أعداد كثيرة جداً من الطائرات، لذلك لا أحد يعرف أيها طائرات ألمانية وأيها طائراتنا. كان اختباري الوحيد إذا كانت الطائرة التي أشاهدها فوق لندن طائرة قاذفة، فيجب أن تكون ألمانية، وإن كانت طائرة مقاتلة، فعلى الأرجح إنها لنا.

١٧ سبتمبر/ أيلول

قصف شديد في هذه المنطقة ليلة أمس حتى الحادية عشرة ليلاً تقريباً.......... كنت أتحدث في مدخل هذا البيت إلى شابين وفتاة كانت معهما. كان الوضع النفسي للثلاثة مشوقاً. كانوا خائفين بشكل علني وبلا خجل، ويتحدثون عن كيف أن ركبهم كانت تصطك ببعضها إلخ. ومع ذلك كانوا في الوقت نفسه مثارين ومهتمين ويراوغون خارج الأبواب بين القنابل، ليروا ماذا كان يحدث ويلتقطون شظايا. بعد ذلك في غرفة صغيرة محصنة للسيدة سين في الدور السفلي، كانت السيدة سين وابنتها والخادمة وثلاث بنات صغيرات مستأجرات هنا.

كانت كل النسوة باستثناء الخادمة يصرخن في انسجام ويعانقن بعضهن ويخبئن وجوههن في كل مرة تسقط فيها قنبلة، لكنهن يكونن في بعض الأحيان سعيدات تماماً وعاديات مع إجراء حديث نشط وحيوي. ماركس أيضاً يكون على هذا الحال أثناء الغارات، أي خاضع وخائف. لكن بعض الكلاب تصاب بالجنون وتصبح متوحشة أثناء الغارات، ويجب أن تضرب بالرصاص. (إيلين) تقول الشيء نفسه عن غرينيتش. حين قصصت شعري في المدينة، سألت الحلاق إن كان يتابع عمله أثناء الغارات. قال لي إنه يفعل، فقلت وحتى لو كنت تحلق ذقن أحدهم؟ قال أوه نعم، أستمر بنفس الطريقة تماماً. وفي يوم ما ستسقط قنبلة قريبة كفاية ستجعله يقفز ويسلخ نصف وجه الزبون.

لاحقاً بادرني رجل بالكلام، أظنه نوع من تاجر متنقل مع أنموذج سيئ من الوجه، بينما كنت أنتظر الحافلة. بدأ بحديث مشتت عن كيف خرج هو وزوجته من لندن، وكيف كانت أعصابه تخونه، وكيف عانى مشاكل في بطنه إلخ إلخ. أنا لا أعرف كم بقي هناك من هذا النوع.......... كان هناك رحيل كبير طبعاً من إيست لندن، وكل ليلة يحدث ما يرقى إلى هجرة جماعية إلى أماكن توجد فيها تجهيزات ملاجئ كافية. عملية دفع شلنين ثمن بطاقة وقضاء الليلة في واحدة من محطات المترو العميقة مثل بيكاديلي، تتزايد....... كل واحد تحدثت معه يوافق على أن البيوت المفروشة الفارغة في ويست ايند يجب أن تستخدم للمشردين. لكن أعتقد أن الأغنياء الخنازير مازالوا يملكون القوة لمنع هذا من الحدوث. قبل الأمس زحف خمسون شخصاً من إيست ايند يرأسهم واحد من أعضاء مجلس بورو، إلى داخل سافوي، وطالبوا باستخدامها كملجأ ضد الغارات الجوية. لم تنجح الإدارة في طردهم، إلى أن انتهت الغارة وخرجوا طوعياً. حين ترى كيف مازال الأثرياء يتصرفون فيما يتطور بوضوح إلى حرب ثورية، تظن أنك في بطرسبوغ في عام ١٩١٦

(مساءً) من شبه المستحيل أن تكتب في هذا الصخب الجهنمي. (الأضواء الكهربائية انطفأت. لحسن الحظ لدي بعض الشموع) شوارع كثيرة في الحي (أضيئت ثانية)، طوقت بسبب قنابل لم تنفجر أي لكي تصل إلى البيت من بيكر ستريت قل ٣٠٠ ياردة، مثل محاولة أن تجد طريقك إلى قلب متاهة.

٢١ سبتمبر/ أيلول

كنت عاجزاً منذ أيام عن شراء مجلد آخر لأستمر في كتابة هذه المذكرة، لأن مكتبات القرطاسية الثلاث أو الأربع القريبة والمجاورة لي، كلها طوقت إلا واحدة بسبب القنابل التي لم تنفجر.

ملامح نظامية للزمن: أكوام من الزجاج المكنس، وركام من حجارة، وشظايا صوان، ورائحة غاز متسرب، وعقد من متفرجين ينتظرون عند النطاق المضروب حول الأمكنة التي فيها قنابل لم تنفجر.

أمس عند مدخل شارع قريب من هنا، كانت مجموعة صغيرة تنتظر مع رجل من القوة الاحتياطية الجوية في قبعة سوداء وسطهم. سمع هدير مدمر مع غيمة غبار ضخمة، فجاء الرجل ذو القبعة القصديرية السوداء يركض نحو مركز قيادة القوة الاحتياطية الجوية؛ حيث ظهر رجل آخر بقبعة بيضاء، وهو يمضغ لقمة من الخبز والزبدة.

الرجل في القبعة السوداء: "دورسيت سكوير يا سيدي"

الرجل في القبعة البيضاء: "حسناً" (أشّر بعلامة صغيرة في دفتره).

أناس يصعب تصنيفهم، يتجولون هنا وهناك، تم إجلاؤهم من بيوتهم بسبب القنابل المؤجل انفجارها. أمس أوقفتني فتاتان اثنتان في الشارع وكانتا أنيقتين جداً في مظهرهما باستثناء وجهيهما اللذين اتسخا بالتراب. "نرجوك يا سيدي، هل تخبرنا أين نحن الآن؟".

ومن ناحية ثانية، هناك مناطق شاسعة من لندن عادية تقريباً، وكل واحد فيها سعيد تماماً في النهار، ولم يفكر قط في الليلة القادمة كما يبدو، مثل حيوانات عاجزة عن التنبؤ بالمستقبل، طالما هي تملك القليل من الطعام ومكاناً تحت الشمس.

٢٤ سبتمبر/ أيلول

شارع أكسفورد يوم أمس، من مدرج أكسفورد إلى قوس المرمر، فارغ تماماً من حركة المرور إلا من بضع مشاة عابرين، مع شمس بعد الظهر التي كانت تسطع على الطرق الفارغة، وتلمع على كسرات وشظايا لا تحصى من الزجاج المحطم. خارج جون لويس هناك كومة من المانيكانات المصنوعة من الجص الوردية جداً والحقيقية، تبدو مثل كومة من الجثث التي يمكن

أن يخطئ المرء بها من مسافة قليلة، مثل الوضع الذي كان في برشلونة تماماً، لكنهم كانوا هناك قديسين من الجص في الكنائس المتهكة.

دار نقاش طويل حول إمكانية أن تسمع قنبلة (أي صفيرها) قادمة مباشرة إليك. كل شيء يعتمد على إن كانت القنبلة أسرع من الصوت.... طورت شيئاً واحداً بنجاح وأظنه مرضياً ومقنعاً، وهو كلما كنت أبعد عن القنبلة الساقطة، كلما كان الصوت الذي تسمعه أطول. أما الأزيز (الصوت القصير) فيجب أن يجعلك تغوص وتبحث عن غطاء وحماية. أعتقد أن هذا هو المبدأ فعلاً الذي بناء عليه يتفادى المرء القذيفة. وهناك طريقة يبدو أن المرء يعرفها بالغريزة.

الطائرات تعود وتعود في كل بضعة دقائق، وهي مثلما حين تكون في بلد شرقي وتفكر بأنك قتلت آخر بعوضة داخل شبكتك، وفي كل مرة تطفئ فيها الضوء، تبدأ بعوضة أخرى بالأزيز.

٢٧ سبتمبر/ أيلول

صحيفة النيوز كرونيكل اليوم انهزامية بشكل واضح، ربما بعد أخبار أمس عن داكار (في سبتمبر/ أيلول عام ١٩٤٠ قامت حملة بريطانية، بالتعاون مع قوات فرنسية بقيادة الجنرال ديغول، بمحاولة استرداد ميناء داكار من حكومة فيشي وفشلت). لكن لدي شعور أن النيوز كرونيكلز ملزمة بأن تصبح انهزامية مهما حدث، وسوف تكون في المقدمة فوراً حين تتقدم شروط سلام مقبولة. هؤلاء الناس ليس لديهم سياسة محددة ولا إحساس بالمسؤولية، لا شيء سوى كره تقليدي للطبقة الحاكمة البريطانية مبني على ضمير منشق أساساً. ليس هناك إلا محدثات ضجيج مثل نيوز كرونيكلز إلخ. كل هؤلاء الناس سينهارون بالتأكيد، حين تصبح ظروف الحرب لا تحتمل.

قنابل كثيرة ليلة أمس، لكن أعتقد أن أية واحدة منها لم تسقط ضمن نصف ميل عن هذا البيت. الاضطراب الناتج عن مرور القنبلة عبر الهواء مذهل. كل البيت يهتز بشكل كافٍ لتتقعقع الأشياء على الطاولة. طبعاً هم يرمون قنابل كبيرة جداً الآن. قيل إن القنبلة غير المتوقعة في ريجينت بارك، كانت "بحجم صندوق البريد العمودي". كل الليلة تقريباً كانت الأضواء تنطفئ على الأقل مرة، لم تكن تنقطع فجأة حين ينقطع الاتصال، وإنما كانت تخبو

تدريجياً لتأتي عادة من جديد بعد خمس دقائق. لا أحد يعرف كما يبدو، لماذا تغرق الأضواء حين تمر القنبلة عن قرب.

١٥ أكتوبر/ تشرين الأول

أكتب هذا في ولينغتون، لأنني كنت مريضاً لمدة نصف شهر بذراع مسمومة. لا أخبار كثيرة، أي فقط أحداث ذات أهمية عالمية؛ لا شيء أثر علي كثيراً شخصياً.

يوحد الآن أحد عشر طفلاً تم إجلاؤهم في ولينغتون (١٢ وصلوا لكن أحدهم هرب وأعيد إلى بيته). فتاة واحدة من ستيبني قالت إن جدها قصف سبع مرات. هم يبدون أطفالاً لطيفين وسيهدؤون ويستقرون تماماً.

مع ذلك هناك الشكاوى المعتادة ضدهم في بعض الأحياء، مثلاً من صبي صغير مع سيدة..... عمره سبع سنوات: "هو شيطان صغير قذر. نعم هو كذلك. يبلل سريره ويوسخ سرواله. سوف أفرك أنفه لو كنت مسؤولة عن هذا الشيطان الصغير القذر".

بعض التمتمات والهمسات عن عدد اليهود في بادلوك --- يوضح أن اليهود يتفوقون بشكل كبير من حيث العدد على الناس الذين يلتجئون في خطوط المترو. يجب أن أحاول وأتأكد من هذا.

موسم البطاطا جيد هذه السنة، بالرغم من الطقس الجاف.

١٩ أكتوبر/ تشرين الأول

كآبة لا توصف في إشعال النيران كل صباح بورق جرائد السنة الماضية، ورؤية لمحات من العناوين المتشائمة التي تتصاعد في الدخان.

٢١ أكتوبر/ تشرين الأول

بالإشارة إلى إعلانات في محطات المترو "كن رجلاً" إلخ (تطلب من الرجال القادرين جسدياً ألا يلتجئوا إلى هناك وأن يتركوا متسعاً للنساء والأطفال). يقول دي إن الدعاية التي تدور في لندن أنه من الخطأ نشر هذه الملاحظات باللغة الإنكليزية.

بريستلي الذي كانت برامجه تبث ليلة الأحد تتضمن دعاية اشتراكية، طُرد من البث بشكل واضح وبإصرار من حزب المحافظين..... يبدو كما لو أن طاقم مارغيسون يوشك أن يقدم

رداً حاداً الآن (جيه بي بريستلي روائي غزير الإنتاج ومسرحي وأديب. أثناء ١٩٤٠ و ١٩٤١ كان يلقي أحاديث مشهورة أسبوعية على الراديو، يحث الأمة فيها على الثبات والوحدة في الصراع ضد هتلر، لكي يجعل البلاد أكثر ديمقراطية ومساواة).

(دي آر مارغيسون عضو برلمان محافظ عن روغبي، ومخلص عنيد لكل رئيس وزراء خدمه، فقد دعم تشامبرلاين حتى سقوطه من الرئاسة، ثم عين في عهد تشرشل وزير حرب بعد ستة أشهر. لقب بفيسكونت، بعد أن أعفاه تشرشل من منصبه في ربيع تلك السنة.

٢٥ أكتوبر/ تشرين الأول

الليلة قبل الفائتة تفحصت حشوداً التجأت في تشانسري لين وأكسفورد سيركس ومحطات بيكر ستريت. ليسوا كلهم يهوداً، لكن أظن أن نسبة من اليهود أعلى مما يراها المرء عادة في حشد بهذا الحجم. السيئ بخصوص اليهود، أنهم ليسوا منافين للذوق فقط، وإنما يتعمدون إزعاج ومضايقة الآخرين. هناك امرأة يهودية خائفة تشبه شخصية كرتونية نظامية في المجلات الهزلية، شقت طريقها بالقوة من القطار في أكسفورد سيركس، موجهة اللطمات إلى كل من يقف في طريقها. أعادتني إلى أيام مترو باريس.

تفاجأت حين وجدت أن (دي) الذي هو يساري في آرائه بوضوح، يميل إلى مشاركة الشعور الراهن ضد اليهود. يقول إن اليهود في الدوائر التجارية، تحولوا إلى مؤيدين لهتلر أو يتحضرون لفعل هذا. يبدو هذا لا يصدق تقريباً، لكن حسب ما جاء عن دي، سوف يعجبون بأي واحد يركلهم. ما أشعر به هو أن أي يهودي، أقصد يهودي أوروبي، سوف يفضل النظام الاجتماعي الذي من نوع هتلر على نظامنا، لو لم يحدث أنه هو من كان يضطهدهم. الشيء نفسه مع أي أوروبي من وسط أوروبا كاللاجئين مثلاً. هم يستغلون إنكلترا كملجأ، لكنهم لا يستطيعون تفادي الشعور بأعمق الاحتقار لها. يمكنك أن ترى هذا في أعينهم، حتى عندما لا يبوحون بهذا مباشرة وصراحة. الحقيقة أن تلك النظرة المتعصبة الضيقة والنظرة القارية، هما نظرتان متنافرتان تماماً.

حسب ما يراه إف. صحيح تماماً أن الأجانب يخافون أكثر من الإنكليز أثناء الغارات. إنها ليست حربهم، ولذلك ليس لديهم شيء يقويهم. أعتقد أن هذا يمكن أن يكون مسؤولاً عن

الحقيقة -أنا متأكد عملياً أنها حقيقة، لكن يجب ألا يذكرها المرء- إن أفراد الطبقة العاملة خائفون أكثر من أفراد الطبقة الوسطى.

نفس الشعور باليأس على الأحداث الوشيكة في فرنسا وأفريقيا وسوريا وإسبانيا -الشعور بتكهن ما يجب أن يحدث، وكوننا عاجزين عن منعه، والشعور مع تأكد مطلق بأن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تعمل في هكذا طريقة لتوجه لكمتها أولاً.

غارات جوية ألطف بكثير من الأيام القليلة الماضية.

١٦ نوفمبر/ تشرين الثاني

لم أفكر أبداً في أنني يجب أن أعيش حتى تتخمني أصوات إطلاق المدافع، لكن ذلك حدث.

٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني

قبل الأمس، تناولت طعام الغداء مع.... إتش بي المتشائم نوعاً ما من الحرب. يعتقد أنه لا يوجد رد على النظام الجديد، أي أن هذه الحكومة عاجزة عن صياغة رد، والناس هنا وفي أمريكا يمكن دفعهم إلى قبوله بسهولة. أنا أسأل إن كان الناس لن يروا أي عرض للسلام على طوال هذه الخطوط على أنه مصيدة. إتش بي يقول "أف اللعنة، أستطيع أن ألبسه ثياباً لكي يظنوا أنه أعظم انتصار في تاريخ العالم. أستطيع أن أجعلهم يأكلونه". ذلك صحيح طبعاً. كل شيء يعتمد على الشكل الذي سيقدم فيه إلى الناس. طالما أن صحفنا لا تقوم بأعمال قذرة، فلن تكون مبالية تماماً للمناشدات من أوروبا. على أي حال إتش بي متأكد أن --- وشركاؤه سيعملون على الاستسلام والخيانة. ويبدو أن --- رغم أنها ليست خاضعة للرقابة، فقد حذرت كل الصحف الآن بألا تنشر أي تأويل عن سياسة الحكومة تجاه إسبانيا.

قبل بضعة أسابيع، جمع دوف كوبر مراسلي الصحف، وأكد لهم "بناء على كلمة شرف منه" أن "الأشياء كانت تسير جيداً جداً في إسبانيا في الحقيقة". (أكثر ما يمكن أن يقوله المرء إن كلمة دوف كوبر أكثر قيمة من كلمة هور) (هور رجل دولة بريطاني).

يقول إتش بي إنه حين انهارت فرنسا، كان هناك اجتماع لمجلس الوزراء ليقرر إن كانوا سيستمرون في الحرب أم سيسعون إلى مصالحة وشروط ومُهل. كانت نتيجة الاقتراع ٥٠ إلى

٥٠ وكان هناك صوت واحد حاسم. وحسب ما جاء عن إتش بي، فإن هذا الصوت كان صوت تشامبرلاين. إن كان هذا صحيحاً، فأنا أتساءل إن كان هذا سينشر للعلن أبداً. لقد كان هذا صنيع تشامبرلاين الأخير العلني، هذا العجوز المسكين، كما يمكن أن يقول المرء.

صفة مميزة لصوت الحرب في الشتاء: الرنين الموسيقي لحبات المطر المتساقطة على القبعات القصديرية.

٢٨ نوفمبر/ تشرين الثاني

تناولت طعام الغداء أمس مع سي رئيس تحرير فرانس (بيير كوميرت صحفي فرنسي ودبلوماسي سابق أتى إلى إنكلترا بعد هدنة ١٩٤٠.)..... لدهشتي كانت معنوياته جيدة، ولم تكن لديه شكاوى. كنت أتوقع لاجئاً فرنسياً يتذمر بشكل لانهائي حول الطعام إلخ، لكن سي يعرف إنكلترا جيداً وعاش هنا من قبل. يقول إن هنالك مقاومة أكثر بكثير في فرنسا المحتلة وغير المحتلة، مما يدرك الناس هنا، لكن الصحافة تقللها بلا شك، بسبب علاقاتنا المستمرة مع فيشي. ويقول إنه أثناء الانهيار الفرنسي، لم يتخيل أي أوروبي أن إنكلترا سوف تستمر في القتال وكذلك الأمريكيون أيضاً. وهو إلى حد ما محب للإنكليز بوضوح، ويعتبر الملكية فائدة عظيمة لإنكَلترا، وقد كانت العامل الرئيسي في منع توطد الفاشية هنا حسب ما يرى..... إنها حقيقة. في المجمل، إن الرأي المعادي للفاشية في إنكلترا، كان مؤيداً لإدوارد، لكن سين يكرر بوضوح ما كان متداولاً في القارة.

كان سي رئيس قسم الصحافة خلال حكومة لافال الذي قال له في عام ١٩٣٥ إن إنكلترا الآن "مجرد مظهر" وإن إيطاليا بلاد قوية حقاً، لذلك يجب على فرنسا أن تقطع علاقاتها مع إنكلترا وتدخل مع إيطاليا. وقال عند العودة من توقيع الاتفاقية الفرنسية الروسية إن ستالين كان أقوى رجل في أوروبا. وبالمجمل، فإن نبوءات لافال دُحضت كما يبدو رغم ذكائه.

روايات متعارضة من شهود عيان حول الضرر الذي أصاب كوفنتري، ويبدو من المستحيل أن تعرف القصف من بعيد. حين نعمنا بليلة هادئة هنا، وجدت أن أناساً كثيرين مرتبكين قليلاً بسبب شعورهم المؤكد أنهم سيمرون بوضع سيئ في المدن الصناعية، ويشعر به كل واحد في داخل عقله، أننا نحجرنا نحوه، وأن المعنويات في مكان آخر أقل موثوقية الآن.

١ ديسمبر/ كانون الأول

إن الوغد تشيابي مجرد جسد ميت الآن، والكل مبتهج مثلما ابتهجوا حين مات بالبو. إن هذه الحرب تقتل بعض الفاشيين على أي حال.

٨ ديسمبر/ كانون الأول

أذعتُ برنامجاً الليلة قبل الفائتة...... قابلتُ هناك بولونياً فرّ حديثاً من بولونيا عن طريق تحت الأرض لم يكشف عنه..... قال: في حصار موسكو تضررت ٩٥ بالمئة من البيوت، ودمرت ٢٥ بالمئة، وتعطلت كل الخدمات والكهرباء والماء. وباقتراب النهاية لم يكن لدى الناس أي دفاع مهما كان نوعه ضد الطائرات والأسوأ المدفعية. والناس يندفعون إلى الخارج ليقطعوا قطعاً صغيرة من حصان قتلته قذيفة، ثم تطردهم قذائف جديدة، ويعودون من حيث أتوا، ثم يندفعون إلى الخارج مرة أخرى. حين فصلت وارسو، كان الناس مدعومين بالإيمان بأن الإنكليز كانوا قادمين لنجدتهم، وكانت هنالك إشاعات طوال الفترة عن جيش إنكليزي في دانزيك إلخ إلخ......

خلال الفترة السيئة من القصف، حين كان كل واحد شبه مجنون ليس من القصف نفسه بقدر ما هو من النوم المتقطع ومكالمات الهاتف المتقطعة وصعوبة الاتصالات إلخ إلخ، وجدت قصاصات شعر تافه كانت تدخل في ذهني دائماً. هي لم تتجاوز أبداً السطر الواحد أو السطرين، وتتوقف حين يركد القصف. والأمثلة كانت:

فلاح روماني عجوز/ عاش في مورنينغتون كريسنت.

والمفتاح لم يناسب والجرس لم يرن/ لكننا نقف كلنا لأن الرب أنقذ الملك.

حين ذهب ماسح أراضي بورو لينام/ على عصاه أو عموده أو مجثمه.

٢٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٤١.

إن رد فعل اليمين الآن في أوجه، ولا شك أن دخول مارغيسون إلى مجلس الوزراء هو استغلال متعمد لانتصار وافل في مصر. المضحك تماماً هو مراجعة نقدية لكتاب اللنبي عن حياة وافل، كتبتها منذ عدة أشهر ونشرتها الهورايزن في الوقت الذي ساد فيه خبر سيدي براني وانتشر تماماً. أنا قلت في المراجعة: بما أن وافل (الجنرال السير أرتشيبالد وافل) تسلم مناصب قيادية هامة، كان الاهتمام الرئيسي للكتاب الضوء الذي ألقاه على فطنته الخاصة به وتركته

ليُستنتج أنني لم أفكر كثيراً بهذا. لهذا كانت الضحكة علي-رغم أن الرب يعلم أنني سعيد جداً، لأنني كنت مخطئاً.

كلمة "غارة جوية" تستخدم الآن لتعني أي نوع من الهجوم على أي شيء. قارن "قصف" في الحرب الماضية. "غارة جوية" لم تستخدم بعد كفعل تطور أنا أتوقعه.

٢٢ يناير/ كانون الثاني

.... أنا مقتنع ربما عن حق، أن خطر جلبة الميثاق الشعبي قد بخس تقديره، وأن المرء يجب أن يرد ويثأر ولا يتجاهله. هو يقول إن آلاف الناس السذج خدعوا بالبرنامج الجذاب لميثاق الشعب، ولم يدركوا أنه مناورة انهزامية المقصود منها مساعدة هتلر. أقتبس رسالة من عميد كانتربيري (المبجل المطلق هيلويت جونسون الذي لقب بالعميد الكاهن الأحمر لتعاطفه وتأييده لروسيا) الذي قال "أريدك أن تفهم أنني متحمس تماماً للفوز بالحرب، وأنني أؤمن أن ونستون تشرشل القائد الوحيد الممكن لنا حتى تنتهي الحرب" (أو كلام بهذا المعنى) ومع ذلك أيّد الميثاق الشعبي. يبدو أن هناك الآلاف مثل هذا.

على ذكر ماذا--- يقول، في الواقع لقد جمع طاقم ميثاق الشعب الكثير من المال من مكان ما وملصقاتهم في كل مكان، وهناك أيضاً الكثير من الملصقات الجديدة من الديلي ووركر. لم تسدد قيمة مساحة الفراغ، لكن حتى الطباعة ستكلف قدراً كبيراً من المال.

مزقت أمس عدداً من هذه الملصقات، وهذه أول مرة أفعل فيها شيئاً كهذا. قارن في الصيف حين كتبت بالطبشور "اطردوا تشامبرلاين" إلخ، وفي برشلونة بعد قمع البيوم حين كتبت بالطبشور "فيسكا بيوم". في أي وقت عادي، أن أكتب على جدار أو أتدخل بما كتبه أي أحد آخر، هو شيء ضد غرائزي.

نقص البصل جعل كل واحد حساساً بشكل شديد إلى رائحة البصل. ربع بصلة مقطعة طولياً في يخنة تبدو قوية بإفراط. عرفت إيلين قبل الأمس حالما قبّلتها، أنني أكلت بصلاً قبل ست ساعات.

مثال عن الابتزاز المستمر. حين لا يتم التحكم بسعر أي صنف فإنه يصبح ندرة- سعر ساعات المنبه. أرخص نوعية يمكن الحصول عليها الآن بـ ١٥ شلناً - هذا النوع الذي كان بـ ٥ شلنات يباع الآن بـ ١٨ شلناً و٦ بنسات، وكل الأخريات بأسعار متطابقة.

استخدمت الديلي إكسبريس "غارة" كفعل.

أخبار هذا الصباح - اخترقت دفاعات طبرق، ومنعت الديلي ووركر. سررت جداً بالخبر الأخير.

٢٦ يناير/ كانون الثاني

حصة من المساحة في هذا الأسبوع في النيو ستيتهان:

سقوط طبرق (مع ٢٠٠٠٠ أسير)- سطران.

منع الديلي ووركر والويك- ١٠٨ أسطر (الويك صحيفة إخبارية شيوعية لمشتركين خاصين، يحررها كلود كوكبيرن).

كل الناس المفكرين قلقون حول الهدوء في نهاية الحرب، ويشعرون أن بعض الأعمال الشيطانية قد تم تحضيرها. لكن التفاؤلية الشعبية تتزايد مرة أخرى، وتوقف الغارات حتى لبضع أيام له مخاطره. أصغيت قبل الأمس إلى محادثة هاتفية لشخص آخر كما يفعل المرء دائماً في هذه الأيام بسبب تشابك الخطوط والأسلاك. سمعت امرأتين تتحدثان حول نفس الموضوع "لن تكون طويلة الآن" إلخ إلخ. في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى متجر السيدة جيه، وعلقت قائلاً بأن الحرب ربما تستمر ثلاث سنوات. صعقت السيدة جيه وارتعبت. "أوه لا يمكنك التفكير هكذا! أوه ذلك غير ممكن! نحن طردناهم كما ينبغي الآن. نحن أخذنا بارديا، ومن هناك نستطيع الزحف إلى داخل إيطاليا، وذلك هو الطريق إلى ألمانيا، أليس كذلك؟". يجب أن أقول إن السيدة جيه امرأة هادئة وذكية بشكل استثنائي، ومع ذلك هي غير مدركة أن أفريقيا هي الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط.

٧ فبراير/ شباط

يوجد الآن انقسام متزايد في الرأي -السؤال ضمني من البداية، لكن الناس لم يدركوه إلا مؤخراً- وهو: هل نحن نقاتل النازيين أم الشعب الألماني؟

هذا مرتبط بالسؤال إن كان على إنكلترا أن تفصح عن أهدافها من الحرب، أو في الحقيقة إن كان لديها أي أهداف. كل ما يمكن تسميته رأياً محترماً، هو ضد إعطاء الحرب أي معنى مهما كان ("مهمتنا أن نضرب البوش -شتيمة تعني الجندي الألماني- هذا هو الهدف الوحيد

الذي يستحق الحديث عنه") وهذا يجب أن يصبح سياسة رسمية أيضاً. قيل إن كراسة فانسيتارت "أكره ألمانيا" تباع مثل الكعك الساخن. (روبرت فانسيتارت هو دبلوماسي وكاتب الكراسة المشار إليها هنا سجل أسود: الألمان- الماضي والحاضر).

لا توجد أخبار محددة من فرنسا. من الواضح أن بيتان سوف يتنازل عن أخذ لافال إلى مجلس الوزراء. عندها سيكون هناك لغط جديد حول مرور قوات عبر فرنسا المحتلة وقواعد في أفريقيا إلخ. "موقف ثابت" آخر ثم تنازل أكثر. كل هذا يعتمد على عامل الوقت، أي إن كان الألمان يستطيعون الحصول على موطئ قدم في أفريقيا قبل أن تنهار الجيوش الإيطالية هناك نهائياً. ربما المدافع التالية ستوجه ضد إسبانيا، وسيتم إخبارنا أن فرانكو أبدى "موقفاً ثابتاً" وأن ذلك يُظهر كم كانت الحكومة البريطانية محقة حين أخذت موقفاً استرضائياً نحو إسبانيا، حتى يستسلم فرانكو ويهاجم جبل طارق، أو يسمح للجيوش الألمانية أن تعبر أراضيه. أو ربما حين يستلم لافال السلطة، سيقاوم لوقت قصير المطالب الألمانية الجائرة، ثم ينقلب فجأة من نذل إلى وطني، ويتخذ "موقفاً ثابتاً" مثل موقف بيتان الآن. الشيء الذي لن يفهمه المحافظون البريطانيون، هو أن قوات اليمين ليس فيها قوة، وهي موجودة لتضرب وتهزم.

٢١ فبراير/ شباط

استدعي آرثر كيسلر هذا الأسبوع، وسوف يُجند إلى الرواد (البايونير) لأن الأقسام الأخرى من القوات مُنعت عنه لأنه ألماني. يا للغباء المرعب حين يكون لديك رجل موهوب صغير السن يتكلم عدداً من اللغات لا أعرف عددها، ويعرف شيئاً عن أوروبا خصوصاً الحركات السياسية الأوروبية، وتكون غير قادر أن تستفيد منه إلا في جرف القرميد.

كنت مرعوباً اليوم من الدمار في كنيسة سانت بول وحولها الذي لم أره من قبل. كنيسة سانت بول بالكاد كشطت، وهي واقفة مثل صخرة. لفت انتباهي لأول مرة أن الصليب الذي فوق القبة عبارة عن صليب مزخرف. كان يجب أن يكون صليباً بسيطاً ناتئاً مثل مقبض سيف.

الغريب تماماً أنه لا تبدو هناك أي ارتدادات وأصداء تتكلم عن ذلك الأحمق العجوز ايرونسايد، الذي أخذ لقب "اللورد ايرونسايد عن اركاينجل". هذا حقاً كان عينة وحشية من الصفاقة، وشيء يجب الاحتجاج ضده مهما كان رأي المرء في النظام الروسي الحاكم.

(الفيلد مارشال ايرونسايد رئيس هيئة الأركان الإمبريالية، ثم رئيس الحرس الوطني وقائد أركان قوات التحالف ضد البلاشفة في اركاينجل).

١ مارس/ آذار

آل (ب) الذين أتوا إلى لندن منذ بضعة أسابيع، ولم يروا شيئاً من القصف الجوي، يقولون إنهم وجدوا أن أهالي لندن تغيروا كثيراً جداً. كان الجميع هستيريين، ويتحدثون بنغمات أعلى بكثير إلخ. إن كان الأمر هكذا، فإنه شيء يحدث تدريجياً ولا يلاحظه المرء حين يكون في وسطه كما مع نمو الطفل. التغير الوحيد الذي لاحظته بوضوح منذ أن بدأت الغارات الجوية، هو أن الناس أصبحوا أكثر استعداداً للتحدث مع الغرباء في الشارع...... محطات المترو لا تنتن والأسرة المعدنية الجديدة جيدة تماماً، والناس الذين يراهم المرء هناك وجدوها معقولة للنوم ويبدون راضين وعاديين في كل الطرق -لكن هذا ما يزعجني بالضبط. ماذا يجب على المرء أن يتوقعه من أناس يواصلون العيش في هذه الحياة دون الإنسانية ليلة تلو أخرى لمدة أشهر، وتشكل الفترات التي لا تقترب فيها أي طائرة من لندن من أسبوع أو أكثر للمرة الواحدة؟...... من المرعب أن ترى أطفالاً مازالوا في كل محطات المترو يعتبرون الأمر بديهياً، ويجدون تسلية كبيرة في الركوب حول الدائرة الداخلية. قبل وقت قليل كان دي جيه قادماً إلى لندن من شيلتنهام، وفي القطار كانت امرأة شابة مع طفليها اللذين تم إجلاؤهما إلى مكان ما في ويست كنتري واللذين تعيدهما من هناك الآن. حين اقترب القطار من لندن، بدأت غارة جوية، وأمضت المرأة بقية الرحلة تبكي. ما الذي جعلها تقرر أن تعود؟ حقيقة إنه في ذاك الوقت لم تكن هناك غارات على لندن لمدة أسبوع أو أكثر، ولهذا استنتجت أن "الأمر مناسب الآن". ماذا يتوقع المرء من عقلية مثل هؤلاء الناس؟

٣ مارس/ آذار

ذهبت ليلة أمس مع جي كي يرى الملجأ في السرداب الذي تحت كنيسة غرينتش. كانت الأسرّة الخشبية المفروشة بالخيش المعتاد، قذرة (لا شك أنها تكون مقملة حين يكون الطقس أكثر دفئاً) وإضاءته سيئة وله رائحة كريهة ومكتظ دائماً، وليس في هذه الليلة بالذات، والسرداب عبارة عن شبكة من الممرات الضيقة التي تصل بين القناطر التي هي أسماء العائلات التي دفنت فيها، وكان أحدثها في عام ١٨٠٠ تقريباً........ أصر جي وآخرون أنني

لم أره في أسوأ حالاته حين يكون مكتظاً (حوالي ٢٥٠ شخصاً) في الليالي، وتصبح الرائحة النتنة لا تطاق. لكنني تمسكت برأيي، رغم عدم موافقة أي واحد من الآخرين معي أن يلعب الأطفال وسط مدافن مملوءة بالجثث، أسوأ كثيراً من أن يتأقلموا مع قدر محدد من الرائحة البشرية الحية.

٤ مارس / آذار

في ولينغتون، انتشر الزعفران في كل مكان وتبرعم القليل من زهر المنثور، وبدت هرة اللبن الثلجية في أحسن حلاتها. زوج من الأرانب البرية يجلسان في القمح الشتوي ويحملقان ببعضهما. بين الحين والآخر، تخرج، في هذه الحرب وعلى فواصل شهرية، أنفك فوق الماء لبضع لحظات، وتلاحظ أن الأرض مازالت تدور حول الشمس.

١٤ مارس/ آذار

في الأيام القليلة الأخيرة، كانت هناك إشاعات وتلميحات أيضاً في الصحف عن أن "شيئاً ما سوف يحدث" في البلقان، أي أننا سوف نرسل قوة وحملة إلى اليونان. إن كان الأمر كذلك، فيجب أن يكون الجيش أو أغلبه في ليبيا الآن. سمعت قبل شهر أن ميتاكساس، قبل أن يموت، طلب منا عشر فرق وقدمنا له أربع. يبدو شيئاً خطيراً جداً أن تخاطر بجيش في أي مكان غرب المضائق. لكي تحصل على أي أفكار قيمة عن استراتيجية هذه الحملة، عليك أن تعرف كم عدد الرجال الذين يستغني عنهم وافل، وكم العدد الذي يجب إبقاءه في ليبيا، وكيف وضع الشحن، وكيف شبكة المواصلات من بلغاريا إلى داخل اليونان، وكم عدد الآليات الممكنة التي نجح الألمان في جلبها عبر أوروبا، ومن يسيطر بشكل فعال على البحر بين صقلية وطرابلس. ستكون كارثة مخيفة إذا نجح الألمان في عبور البحر من صقلية، واستعادوا كل ما خسره الإيطاليون، بينما تغوص قوتنا الرئيسية في مستنقع سالونيكا. كل واحد يعتقد أن المسألة تنجح في كلتا الطريقتين. أن تضع جيشاً في اليونان، هي مخاطرة هائلة لا تقدم كسباً إيجابياً كثيراً، إلا إذا تورطت تركيا، فعندها تستطيع سفننا الحربية دخول البحر الأسود. ومن جانب آخر إن خذلتنا اليونان، نكون قد برهنا مرة وإلى الأبد للجميع أننا لا نستطيع أن نساعد أية أمة أوروبية في الحفاظ على إستقلالها. الشيء الذي أخشاه أكثر من غيره،

هو تدخل ضعيف وفشل فاضح كما في النرويج. أنا أؤيد وضع كل بيضنا في سلة واحدة، ونجازف بهزيمة كبرى، لأنني لا أظن أن أي هزيمة أو نصر بالمعنى العسكري الضيق، يهم بقدر الإثبات بأننا إلى جانب الضعيف ضد القوي.

المشكلة أنه أصبح من الصعب جداً أن نفهم ردود أفعال الأوروبيين كما هي، كما أنهم يبدون الآن عاجزين عن فهمنا. الألمان الذين تكلمت معهم، انزعجوا من خطئنا الفادح في بداية الحرب، لأننا لم نقصف برلين فوراً، واكتفينا بمجرد بعثرة وريقات وكراريس سخيفة. مع ذلك أنا أعتقد أن كل الناس الإنكليز كانوا مبتهجين بهذه الإيماءة (نحن كنا سنظل هكذا، حتى لو عرفنا في ذلك الوقت أن الوريقات والكراريس عبارة عن هراء) لأننا رأيناها كبرهان على أن قتالنا ليس مع الناس العاديين البسطاء في ألمانيا. من جانب آخر، يعلن هافنر، في كتابه الذي نشرناه للتو (هافنر: صحفي ومنفي ألماني معادٍ لهتلر) إنها حماقة من جانبنا أن ندع الايرلنديين يحتفظون بقواعد هامة وحيوية، وأننا يجب أن نأخذ هذه القواعد فوراً. يقول إن مشهد سماحنا لبلاد مستقلة بشكل زائف مثل ايرلندا أن تتحدانا، يجعل كل أوروبا تضحك علينا. هذه هي النظرة الأوروبية مع عدم فهمها للشعوب الناطقة بالإنكليزية. في الواقع، إن أخذنا القواعد الايرلندية بالقوة من دون مسار طويل من الدعاية مسبقاً، فسيكون أثر هذا على الرأي العام كارثياً، ليس في الولايات المتحدة فقط، وإنما في إنكلترا أيضاً.

أنا لا أحب نغمة الكلام الرسمي عن إثيوبيا، فهم يدمدمون عن تعيين "مقيم" بريطاني كما في محاكم الراجاوات الهنود حين يعاد الإمبراطور إلى العرش. يمكن أن يكون الأثر مرعباً حتى إن سمحنا ظاهرياً بقول إننا نسرق إثيوبيا لأنفسنا. إن طُرد الإيطاليون، فستكون لدينا الفرصة أن نقوم بأضخم إيماءة تظهر فوق كل حجة، أننا لا نقاتل من أجل يدنا. وسيتردد صدى هذا في كل أنحاء العالم، لكن هل لديهم الشجاعة أو الحشمة لفعلها؟ لا يستطيع المرء التأكد من ذلك. يستطيع المرء التنبؤ بالحجج المزيفة التي تمهد لاغتصاب إثيوبيا لأنفسنا والهراء حول العبودية إلخ إلخ.

أسقط عدد كبير من الطائرات الألمانية في الليالي القليلة الماضية، ربما لأنها كانت ليالي صحو ومفضلة للمقاتلات، لكن هناك إثارة كبيرة حول "سلاح سري ما" قيل إنه قيد الاستخدام. الإشاعة الشعبية حول وجود شبكة مصنوعة من الأسلاك، تطلق في الجو وتعلق فيها الطائرات.

٢٠ مارس/ آذار

غارات قوية ليلة أمس، ولم تسقط سوى طائرة واحدة. لا شك أن الإشاعات عن "سلاح سري" كلها هراء.

الكثير من القنابل في غرينتش؛ إحداها بينما كنت أتحدث إلى (إيلين) على الهاتف، حدث توقف مفاجئ في المحادثة وصوت رنين.

فسألت: ما هذا؟ أجابت إيلين: لقد تحطمت النوافذ فقط.

سقطت القنبلة في الحديقة المقابلة للبيت، فقطعت سلك المنطاد المضاد للطائرات المعادية، الذي يطير على ارتفاع منخفض، وجرحت أحد رجال المنطاد، وواحداً من الحرس الوطني. اشتعلت النيران في كنيسة غرينتش، ومازال الناس يلتجئون في السرداب والنار تحترق فوقهم، والماء يتدفق في الأسفل، ولم يقوموا بأية حركة للخروج، إلى أن أجبرهم الحراس على ذلك.

قنصل ألماني في طنجة (أول مرة منذ ١٩١٤). يبدو أننا سنسمح بطعام أكثر إلى داخل فرنسا احتراماً للرأي الأمريكي. حتى لو أنشئت لجنة محايدة لمراقبة هذا، فلن تكون مفيدة للفرنسيين. سيسمح الألمان لهم بالاحتفاظ بهذا القمح إلخ، بما أننا نرسله ونمنع كمية مماثلة في مكان آخر. حتى حين نكون مستعدين للسماح بدخول السفن الغذائية، لا توجد أي علامة عن انتزاع الحكومة لأي شيء بالمقابل -كطرد العملاء الألمان من شمال أفريقيا مثلاً. إن المسار المناسب أن ننتظر حتى تكون فرنسا على حافة المجاعة، وتتأرجح حكومة بيتان نتيجة ذلك، عندها نستغني عن إمداد كبير حقاً من الطعام، مقابل بعض التنازلات الجوهرية كاستسلام وحدات مهمة من الأسطول الفرنسي مثلاً. أية سياسة كهذه غير واردة إطلاقاً للحكومة في الوقت الحالي طبعاً. لو استطاع المرء أن يتأكد أن ----، ----- وكل نوعهم خونة فعلاً أو مجرد حمقى.

عند العودة والنظر إلى هذه المفكرة، أرى مؤخراً أنني كتبت فيها على فواصل أطول بكثير وأقل بكثير عن الأحداث العامة، مما فعلت حين بدأت بكتابتها. إن الشعور بالعجز يتزايد في كل واحد منا. يشعر أحدنا أن تأرجح الرأي الضروري، لا يستطيع أن يحدث الآن إلا بثمن كارثة أخرى، نحن لا نستطيع تحملها. ولذلك لا يجرؤ المرء على تمنيها. الأسوأ هو أن الأزمة القادمة الآن، ستكون أزمة جوع، لا يملك الشعب الإنكليزي تجربة حقيقية منها. قريباً جداً سوف تكون المسألة: هل سنستورد السلاح أم الطعام. النعمة أن الفترة الأسوأ سوف تأتي في

أشهر الصيف، وستكون هناك صعوبة شيطانية بأن تجعل الناس يواجهون الجوع، في الوقت الذي لا يرون فيه وجود أي هدف أياً كان من الحرب، وحين يستمر الأغنياء في العيش كما كانوا من قبل تماماً، وكما سيكونون طبعاً إذا لم يتم التعامل معهم بالقوة. لا يهم عدم امتلاك أهداف حربية، حين تكون قضية ضد غزو، لأنه من وجهة نظر الناس العاديين فإن إبعاد الأجانب عن إنكلترا وطردهم هو هدف حربي كافٍ. لكن كيف نستطيع أن نطلب منهم أن يجوعوا أطفالهم لكي نصنع دبابات لنقاتل في أفريقيا، في حين كل ما أخبروهم به في الوقت الحاضر، لا يوجد فيه شيء يوضح أن القتال في أفريقيا أو أوروبا له أية علاقة بالدفاع عن لندن؟

على جدار في ساوث لندن، كتب شيوعي أو واحد من أصحاب القمصان السود على الجدار "الجبن وليس تشرشل". يا له من شعار سخيف. إنه يلخص جهلاً نفسياً لهؤلاء الناس، الذين حتى الآن لم يفهموا أن بعض الناس سيموتون من أجل تشرشل، ولن يموت أحد من أجل الجبن.

٢٣ مارس/ آذار

حضرت أمس استعراضاً إجبارياً تقريباً للحرس الوطني، شارك فيه في اليوم الوطني للابتهال. كان هناك ممثلون عن خدمة الحرائق الإضافية، وطلاب القوة الجوية، والقوة الجوية النسائية الإضافية إلخ إلخ. ارتعبت من الوطنية المفرطة والشعور بأنك أقوم من الآخرين...... أنا لم أنصدم بشجب الكنيسة للحرب، لأنني لاحظت أشخاصاً كثيرين اعترفوا أنهم كذلك، وكانوا تقريباً دائماً ناس غير متدينين أنفسهم. إن قبلت بالحكومة، فأنت تقبل بالحرب، وإن قبلت بالحرب، ففي أغلب الحالات يجب أنك تفضل فوز طرف على آخر. أنا لا أستطيع أبداً أن أطور أي اشمئزاز من مطارنة يباركون ألوان الأفواج إلخ، فكل ذلك النوع من الشيء مؤسس على فكرة عاطفية، جوهرها أن القتال يتضارب مع حبك لأعدائك. وعملياً لا تستطيع أن تحب أعداءك إن كنت مستعداً إلى قتلهم في ظروف معينة. لكن المقرف حول خدمات مثل هذه، هو غياب أي نوع من النقد الذاتي.

من الواضح أن المتوقع من الرب أن ينجدنا على أساس أننا أفضل من الألمان. في الصلاة المؤلفة من أجل المناسبة يُسأل الرب "أن يقلب قلوب أعدائنا ويساعدنا أن نسامحهم ويعطيهم توبة عن أخطائهم ويمنحهم استعداداً للاعتذار"، ولا شيء عن أن يسامحنا أعداؤنا. يبدو لي

أن الموقف المسيحي سيكون أننا لسنا أفضل من أعدائنا -نحن كلنا خطاؤون بؤساء، لكن كما يحدث، فمن الأفضل أن تسود قضيتنا، ولذلك من المشروع أن نصلي من أجل هذا.........

أعتقد أن الفكرة التي تكون سيئة للمعنويات، هي أن ندع الناس يدركون أن العدو لديه حجة، حتى لو كان ذلك خطأً نفسياً في رأيي. لكن ربما هم لا يفكرون في الأصل بالتأثير على الناس المشاركين في الصلاة، وإنما يبحثون فقط عن نتائج مباشرة من حملة صلاتهم الشاملة، كنوع من صندوق نيران يطلق على ملائكتهم.

٢٤ مارس/ آذار

التقارير عن طردات ألمانية ضخمة في الأطلسي، لها هيئة الإشاعات الزائفة، والهدف منها أن تسحب السفن البريطانية الكبيرة والقوية بعيداً. ويمكن تصور هذا على أنه مقدمة للغزو. خفت توقع الغزو كثيراً، لأن الناس شعروا أن هتلر لا يستطيع الآن إلحاق الهزيمة بإنكلترا بأي قوة يستطيع أن يجلبها إلى هنا، إذا لم تُنهك القوة البريطانية البحرية والجوية كثيراً مسبقاً. أعتقد أن الأمر كذلك، وأن هتلر لن يحاول شن الغزو حتى يكون لديه نجاح دراماتيكي في مكان آخر، لأن الغزو بحد ذاته سيبدو فشلاً، وسيحتاج إلى شيء ما ليعادله. لكنني أعتقد أن غزواً فاشلاً يعني خسارة ١٠٠ ألف أو حتى ٥٠٠ ألف رجل ربما يفي بغرضه، بسبب الشلل التام للصناعة ولمورد الغذاء الداخلي الذي يسببه. إذا أمكن إنزال بضع مئات الآلاف من الرجال على البر الإنكليزي وصمدوا لثلاثة أسابيع، فسوف يسببون ضرراً أكبر بآلاف المرات مما تستطيع الغارات الجوية فعله. لكن آثار هذا لن تكون ظاهرة فوراً. ولذلك فإن هتلر لن يجربه إلا حين تكون الأشياء جيدة بشكل ظاهر له ولصالحه. من الواضح أن هناك نقصاً خطيراً جداً في معدات الحرس الوطني والأسلحة..... ومن جانب آخر قيل إن الأسلحة التي اغتنمت في أفريقيا ضخمة جداً، لذلك أرسلوا خبراء لجردها، وستصنع الرسومات، وتصنع أسلحة بهذه المواصفات، وستكون الأسلحة المغتنمة كافية، مثل النواة لصنف كامل من التسليح.

٧ أبريل/ نيسان

قصفت بلغراد يوم أمس، وأول بيان رسمي هذا الصباح يقول إن هناك جيشاً بريطانياً في اليونان قوامه ١٥٠ ألف رجل، هكذا يقولون. لهذا توضح السر أين ذهب الجيش البريطاني الذي كان في ليبيا وحُل أخيراً، رغم أن هذا كان واضحاً تماماً حين تراجع البريطانيون من

بنغازي. مستحيل القول الآن إن كانت معاهدة الصداقة بين يوغسلافيا والاتحاد السوفييتي، تعني أي شيء أو لا تعني شيئاً، لكن من الصعب التصديق أنها لن تشير إلى تردي العلاقات الروسية الألمانية. يحصل المرء على إشارة أخرى من الموقف الروسي، في حال رجع الإمبراطور الإثيوبي واستعاد حكمه، أي أن كانت الحكومة الروسية ستعترف به وترسل سفيراً إلى بلاطه.

نقص في العمالة واضح أكثر فأكثر، وأسعار مثل هذه الأشياء كالمنسوجات والأثاث ترتفع إلى مستوى مخيف... صناعة الأثاث المستعمل تزدهر الآن بعد سنين من الكساد....... واضح أن التعبئة العسكرية تستخدم الآن كطريقة لإسكات الأشخاص غير المرغوبين. عمر الاحتياط للصحفيين ارتفع إلى ٤١ - هذا لن يجلب لهم أكثر من بضع مئات من الرجال، لكنه يمكن أن يستخدم ضد أفراد لا يرغبون بذلك. سيكون من الهزلي أنني بعد أن أرفض من الجيش لأسباب صحية قبل عشرة شهور، أكتشف فجأة أن صحتي تحسنت إلى الحد الذي أكون فيه لائقاً لأكون مجنداً في البايونير (الرواد).

أفكر دائماً بجيشنا في اليونان والخطر الشديد الذي يمر به بعد أن طرد إلى البحر. يستطيع المرء تخيل كيف يعصر الاستراتيجيون من أنموذج ليدل هارت (كابتن بي إتش لندل هارت، خبير عسكري ألّف أعمالاً ضخمة عن الحرب) أيديهم فوق الحركة الطائشة، لكنها صحيحة سياسياً إن تطلع المرء إلى ستتين أو ثلاث إلى الأمام. وأفضل ما يستطيع المرء قوله وحتى بالمعنى الاستراتيجي الضيق، يجب أن يتوفر هناك بعض الأمل في النجاح، أو سيرفض الجنرالات المعنيون تولي المهمة. من الصعب ألا تشعر بأن هتلر لم يسئ توقيت ضربته بحدود شهر. ضاعت إثيوبيا، ومن الصعب أن تكون كارثة إيطاليا البحرية مقصودة، وأيضاً الحرب في البلقان التي دامت سبعة أشهر لها آثار يجب أن تكون خطيرة على مخزون ألمانيا من الطعام في فصل الخريف.

٨ أبريل/ نيسان

قرأت للتو **معركة بريطانيا**، وهو الكتاب الأكثر رواجاً لوزارة الإعلام (يوجد طلب كبير جداً عليه، وكان الحصول على نسخ صعب المنال لعدة أيام). قيل إن كاتب الروايات المثيرة فرنسيس بيدينغ هو من جمعه وصنفه. أعتقد أنه ليس سيئاً، لكن نظراً لأنه ترجم إلى لغات كثيرة، فسوف يقرأ بلا شك في كل العالم -إنه أول رواية رسمية في اللغة الإنكليزية عن

أول معركة جوية كبيرة جداً في التاريخ- المحزن أنهم لم يمتلكوا إحساس تجنب النغمة الدعائية تماماً. فالكراس يغص بالمآثر المجيدة "البطولية" إلخ وتكلم عن الألمان باستخفاف تقريباً. لماذا لا يستطيعون تقديم رواية دقيقة رزينة للوقائع وهي المفضلة تماماً أخيراً؟ من أجل القليل من الابتهاج الذي أنجزته هذه الكراسة في إنكلترا، أضاعوا فرصة إنتاج شيء يكون مقبولاً في كل أنحاء العالم، كمستند ومرجع قياسي يستخدم للرد على الأكاذيب الألمانية.

لكن الذي انطبع في ذهني بشكل رئيسي حين قرأت **معركة بريطانيا** وبحثت عن التواريخ المطابقة في هذا المفكرة، هو الطريقة التي ذكرت فيها أحداث "ملحمية" لم تبدُ أبداً هامة جداً في وقتها. في الحقيقة لدي عدد من الذكريات النشطة والقوية في اليوم الذي اخترق فيه الألمان وقصفوا الأحواض والسفن (أعتقد أنه كان في السابع من سبتمبر/ أيلول) لكن أغلبها من أشياء تافهة. أولاً، النزول من الحافة لتناول الشاي مع كونولي، وامرأتان أمامي أصرتا أن انفجارات القذائف في السماء كانت مظلات، حتى إني قررت ألا أتطوع وأصحح الأمر لهما. ثم الالتجاء في مدخل في بيكاديلي من الشظايا المتساقطة مثلما يحتمي المرء من وابل من المطر. ثم صف طويل من الطائرات الألمانية ملأت السماء، وبعض من الضباط الشبان من سلاح الجوي الملكي والبحرية خرجوا يركضون من الفنادق، ويمررون لبعضهم مناظير عسكرية من واحد إلى آخر. ثم الجلوس في بيت كونولي في الطابق العلوي نراقب الحرائق الهائلة بعد كنيسة القديس بول، وذيل الدخان الكبير من برميل نفط في مكان بأسفل النهر، وها هو سلاتر يجلس في النافذة ويقول: "إنها مثل مدريد تماماً - حنين إلى الوطن تماماً". الشخص الوحيد الذي تأثر بالشكل المناسب كان كونولي، الذي أخذنا إلى أعلى السطح، وبعد التحديق في الحرائق لبعض الوقت قال: "إنها نهاية الرأسمالية. إنه يوم الحساب علينا". لم أشعر أنها ستكون بهذا الشكل، لكني دهشت من حجم اللهب وجماله. في تلك الليلة أيقظتني الانفجارات، وخرجت إلى الشارع لأرى إن كانت الحرائق مازالت مشتعلة- في الحقيقة كان الليل ساطعاً كأنه نهار حتى في حي إن دبليو - لكن مازلت لم أشعر بأن هناك حدثاً تاريخياً كان يجري. بعد ذلك، حين هجرت محاولة قهر إنكلترا بالقصف الجوي بشكل واضح، قلت لفايفل (تي آر (توسكو فايفل) كاتب وصحفي ومذيع صديق أورويل) "كانت تلك ترافلغار، أما الآن فهذه أوسترليتز" لكني لم أر هذا التشابه في ذلك الوقت.

النيوز كرونيكل انهزامية جداً مرة أخرى، وأطلقت صيحة كبيرة حول التخلي عن بنغازي، مع تضمين أننا ينبغي أن نذهب إلى طرابلس، لأن التقدم جيداً، بدلاً من سحب القوات لاستخدامها في اليونان. وهؤلاء هم بالضبط الناس الذي سيرفعون أعلى الزعيق لو كنا واصلنا غزو الإمبراطورية الإيطالية، وتركنا اليونانيين في المأزق.

٩ أبريل/ نيسان

الميزانية تغلبت تقريباً على حملة البلقان، وأخرجتها من الأخبار. إن الذي يناقش في كل مكان حسب ما وصل إلى مسمعي، هو الخبر الأول وليس الثاني.

أخبار هذا المساء لها مظهر سيئ جداً. أصدرت اليونان بياناً عن أن الصرب تراجعوا وكشفوا خاصرتهم اليسرى. معنى هذا أن الناس لا يقولون رسمياً أشياء مثل تلك -عملياً، إن البيان يعني أن الصرب خذلوا اليونانيين- إذا لم يشعروا أن الأشياء تتطور بسوء شديد.

الحرس الوطني يملك الآن بنادق رشاشة على الأقل، اثنتان لكل جماعة. يبدو الأمر مختلفاً جداً حين كنا سنسلح ببنادق الرش -لكن لم يكن هناك أي بندقية رش- وكان سؤالي إن كنا نأمل بعض البنادق الرشاشة، يثير الضحك كشيء سخيف ينافي العقل.

١١ أبريل/ نيسان

جاء في تقارير صحف الأمس أن بريطانيا ترتب كي تقرض مليونين ونصف جنيه لإسبانيا -كمكافأة للاستيلاء على طنجة كما أعتقد. هذه علامة سيئة جداً. خلال الحرب كان الوضع الدائم حين نكون في ضيق مفرط بشكل استثنائي، أن نبدأ بتقديم تنازلات لقوى ديكتاتورية ثانوية.

١٢ أبريل/ نيسان

فكرة أن القوات الألمانية في ليبيا أو بعضها وصلت إلى هناك عن طريق سفن فرنسية وأراضٍ أفريقية فرنسية، قُبلت بسهولة من كل واحد اقترحت عليه، لكن لا شك أنه ليس هناك ذكر لأية إمكانية كهذه في الصحافة. ربما هم مازالوا يتلقون تعليمات لإسكات أي انتقاد لفيشي فرنسا.

قبل يومين، رأيت سمك مياه عذبة (بيرتش) للبيع في محل بيع سمك. قبل سنة لم يلمس الشعب الإنكليزي، أي أهل المدن، شيئاً كهذا.

١٣ أبريل/ نيسان

الأخبار في الحقيقة هي حول كل من اليونان أو ليبيا...... في الصحيفتين اللتين تمكنت من الحصول عليهما اليوم السنداي بيكتوريال، كانت انهزامية قائمة والسنداي إكسبريس ليس أقل منها بكثير. عدد الأمس من الإيفنينغ ستاندارد فيه مقال بقلم "مراسلنا العسكري"...... كل هذا يوحي بأن الصحف ربما تتلقى أخباراً سيئة لا يُسمح لها بتمريرها ونشرها.... يعرف الرب أنها فوضى رهيبة. الشيء الوحيد المشجع ربما، هو أن الخبراء العسكريين كلهم مقتنعون أن تدخلنا في اليونان كارثي، والخبراء العسكريون دائماً على خطأ.

حين تثبت الحملة في الشرق الأقصى بشكل أو بآخر ويستقر الوضع بطريقة ما، سوف أتوقف عن كتابة هذه المذكرة. إنها تغطي الفترة بين حملات هتلر الربيعية لعامي ١٩٤٠ و ١٩٤١. في وقت ما ضمن الشهر القادم أو الشهرين القادمين، يجب أن يبدأ طور عسكري وسياسي جديد. الأشهر الستة الأولى من هذه المفكرة، غطت فترة نصف ثورية تلت الكارثة في فرنسا. الآن نحن بوضوح في فترة كارثية أخرى، لكنها من نوع مختلف، ومفهومة أقل من قبل الناس العاديين، وليست بالضرورة تنتج تحسناً سياسياً مرافقاً. عند النظر إلى الجزء المبكر من هذه المفكرة، أرى الآن أن تنبؤاتي السياسية دحضت. ومع ذلك فإن التغيرات الثورية التي توقعتها تحدث الآن، ولكن في حركة بطيئة. أعرف أنني قلت إن الإعلانات الخاصة سوف تختفي من الجدران خلال سنة واحدة. هي لم تفعل طبعاً -ذلك الإعلان القذر عن شراب السعلة وغيره مازالت لاصقة على المكان كله، لكنها الآن أقل بكثير وملصقات الحكومة أكثر بكثير. قال كونولي مرة إن المثقفين يميلون ليكونوا على حق حول توجه الأحداث، ولكنهم يخطئون حول درجة سرعة أدائها، وهذا صحيح تماماً.

سجلت يوم السبت مع المجموعة ٣٨، وكنت مرعوباً حين رأيت أي مجموعة حقيرة المظهر كانت. والشيء الذي يلفت انتباه المرء حين يرى جماعة كهذه اختيرت حسب تاريخ الميلاد، هو السرعة التي يتقدم بها عمر الطبقات العاملة. هم لا يعيشون أقصر أو فقط بضع سنوات أقصر من الطبقة الوسطى، وإنما بكونهم يملكون متوسط عمر هائل يمتد من الثلاثين إلى الستين.

١٤ أبريل/ نيسان

الأخبار اليوم مرعبة. الألمان على الحدود المصرية، وقوة بريطانية في طبرق يبدو أنها عزلت، رغم أن القاهرة أنكرت هذا. الآراء منقسمة حول: إن كان الألمان يملكون حقاً جيشاً ساحقاً في ليبيا، أو أنهم يملكون قوة صغيرة نسبياً فقط، بينما لا نملك نحن أي شيء عملياً، وأن أغلب قواتنا ومركبات القتال ستُسحب إلى جبهات أخرى، بعد أن أخذنا بنغازي. في رأيي، فإن الاحتمال الثاني هو الأرجح، وأيضاً احتمال أن نرسل قوات أوروبية فقط إلى اليونان ونبقي الهنود والزنوج في مصر. (دي) الذي يتكلم عن معرفة بجنوب أفريقيا، يعتقد أنه بعد أن تؤخذ بنغازي، فإن الجيش الذي سينقل لن يكون مناسباً للاستخدام في اليونان مثل استخدامه ليكمل الحملة الإثيوبية. وإن الحافز من أجل هذا، كان سياسياً لإعطاء الجنوب أفريقيين المعادين لنا تقريباً نصراً يبقيهم في مزاج طيب. إذا استطعنا الاحتفاظ بمصر، سيكون الأمر جديراً من أجل تنظيف البحر الأحمر، وفتح ذلك الطريق للسفن الأمريكية. لكن التكملة الضرورية لهذا هي الموانئ الفرنسية في غرب أفريقيا، التي كان بإمكاننا السيطرة عليها منذ سنة تقريباً من دون قتال.

حصلت معاهدة عدم اعتداء بين روسيا واليابان، وكانت شروطها المنشورة غامضة جداً في معظمها. لكن يجب أن يكون هناك كما يفترض عبارة سرية بواسطتها وافقت روسيا على أن تتنازل بلا شك عن الصين بالتدريج ومن دون اعتراف بما يحدث، كما في حالة إسبانيا، وإلا فمن الصعب أن نرى أي معنى للاتفاقية.

لا أخبار حقيقية أياً كانت من اليونان. فقط قصة سخيفة عن دورية مدرعة بريطانية تفاجئ مفرزة من الجنود الألمان، تكررت إلى الآن على مدى ثلاثة أيام متوالية.

١٥ أبريل/ نيسان

ليلة أمس ذهبت إلى الحانة لأستمع إلى أخبار الساعة التاسعة، ولكني وصلت إلى هناك متأخراً بضع دقائق، فسألت صاحبة الحانة ماذا كان في الأخبار. "أوه، نحن لا نشغل الراديو أبداً. لا أحد يصغي إليها كما ترى. وهم لديهم البيانو يعزف في الحانة الأخرى، ولا يطفئونه من أجل الأخبار" هذا في لحظة يوجد فيها أقوى تهديد مميت لقناة السويس، قارن ذلك بأسوأ لحظة في حملة دونكيرك حين كانت النادلة لا تشغل الراديو على الأخبار إلا حين أطلب منها ذلك..... قارن أيضاً الزمن في

عام ١٩٣٦ حين احتل الألمان الراينلاند مرة أخرى. كنت في بارنزلي في ذلك الوقت. دخلت إلى حانة بعد أن انتهت نشرة الأخبار مباشرة وعلقت جزافاً: "لقد عبر الجيش الألماني الراين". في جو غامض تذكرت شيئاً، فقد تمتم أحد ما "هل تتكلم"، ولا إجابة أكثر من تلك... وهكذا أيضاً في كل لحظة من الأزمة من عام ١٩٣١ فصاعداً. يصبح لديك كل الوقت إحساس الرفس ضد جدار من الغباء لا يُخترق. لكن طبعاً غباؤهم أوقفهم في مكان جيد. لو كانت أية أمة أوروبية في وضع مثل وضعنا، لصرخت عالياً من أجل السلام منذ وقت طويل.

١٧ أبريل/ نيسان

غارة قوية جداً ليلة أمس، ربما هي الأقوى منذ أشهر كثيرة بالنسبة إلى لندن..... قنبلة في أرض ملعب اللورد للكريكت. تلاميذ يتمرنون في الشباك كالمعتاد هذا الصباح على بعد بضع ياردات من حفرة القنبلة، وقنبلة أخرى في فناء كنيسة القديس جون وود. هذه القنبلة لم تسقط لحسن الحظ وسط القبور، الشيء الذي كنت أخشى من حدوثه....... مررت هذا الصباح بشارع جانبي في هامستيد، فرأيت بيتاً واحداً حولته قنبلة إلى كوم من النفاية-- منظر معتاد جداً لدرجة أنه قلما يلاحظه المرء. ضرب نطاق حول الشارع، وبدأت فرق الحفر بالعمل، ورتل من سيارات الإسعاف ينتظر. تحت تلك الكومة الضخمة من القرميد، كانت هناك أجساد مشوهة، وبعضها ربما حي.

ظلت المدافع تطلق نيرانها طوال الليل تقريباً..... اليوم لا أستطيع أن أجد أحداً يعترف بأنه نام ليلة أمس. و(إيلين) تقول الشيء نفسه. الصيغة هي: "أنا لم أغمض عيني لحظة واحدة". أعتقد أن هذا كله هراء. بالتأكيد، إنه من الصعب أن تنام في هكذا جلبة، لكن إيلين وأنا نمنا نصف الليلة كما يجب.

٢٢ أبريل/ نيسان

ذهبت إلى ولنغتون لمدة يومين أو ثلاثة. غارات ليلة السبت يمكن أن تسمع بسهولة هناك -على بعد ٤٥ ميلاً.

حين كنت في ولنغتون زرعت ٤٠ أو ٥٠ رطلاً من البطاطا التي قد تعطي ٢٠٠ إلى ٦٠٠ رطل، حسب الموسم. سيكون من الغريب -أتمنى ألا يكون هكذا، لكنه على الأرجح

سيكون- حين يأتي هذا الخريف، ستكون هذه البطاطا إنجازاً أهم من كل المقالات والنشرات الإذاعية إلخ، وأي شيء عملته هذه السنة.

الخط الإغريقي البريطاني يبدو أنه انتقل جنوباً وارتكز على جانبنا إلى موقع شمال أثينا غير بعيد. إذا كانت تقارير الصحف صحيحة، فقد عبروا سهل ثيسالي من دون ضرر كبير. الشيء الذي يزعج كل واحد والذي سيثير عاصفة في أستراليا، هو نقص الأخبار الحقيقية. قال تشرشل في خطابه إن الحكومة تواجه صعوبة في الحصول على أخبار من اليونان. الشيء الذي يزعج أكثر، هو التصريح المتكرر بأننا ألحقنا خسائر هائلة بالأرواح بالألمان الذين يتقدمون في تشكيل مغلق ويقتلون في عصب إلخ إلخ.

مثل الذي قيل أثناء معركة فرنسا......... هجوم على جبل طارق أو في كل الأحوال حركة معاكسة في إسبانيا، ومن الواضح أنها مؤقتة، ستحدث قريباً. أصبحت خطابات تشرشل تبدو مثل خطابات تشامبرلاين --- تتملص من الأسئلة إلخ إلخ.

دخلت قوات بريطانية العراق منذ أيام. لا أخبار بعد أن كانوا يقومون بالعمل الصحيح والمناسب، أي مسح العملاء الألمان إلخ. الناس على جميع الأطراف يقولون "الموصل لن تكون مفيدة لهتلر حتى لو وصل إلى هناك. البريطانيون سينسفون الآبار قبل ذلك". وأنا أتساءل: هل سيفعلون؟ هل نسفوا آبار رومانيا حين توفرت الفرصة؟ الشيء المثير للكآبة في هذه الحرب، ليست الكوارث التي نحن مجبرين أن نعاني منها في هذه المرحلة، وإنما المعرفة بأن من يقودوننا هم أشخاص ضعاف العقول والشخصية..... أمر مثل حين تعتمد حياتك على لعبة شطرنج، وعليك أن تجلس وتراقبها، لترى أغبى النقلات وأشدها حماقة تلعب، وأنت عاجز عن منعها.

٢٣ أبريل/ نيسان

يبدو أن الإغريق يحزمون الأمتعة. من الواضح أنه سيكون هناك جحيم سندفعه في أستراليا، طالما هو يؤدي إلى مجرد استجواب في الحملة الإغريقية وشجار عام سيحدد فيه موقع أستراليا في الإمبراطورية، وربما إدارة الحرب تتدقرط بطريقة ما؛ فهذا كله نحو الأفضل.

٢٤ أبريل/ نيسان

لا أخبار واضحة ومحددة من اليونان. كل واحد يعرف أن جيشاً يونانياً أو جزءاً من جيش يوناني أو ربما كل الجيش اليوناني، قد استسلم. ليس هناك إشارة عن عدد الرجال الذين لنا هناك، وأي نوع من الوضع تركوا فيه، وإن كان من الممكن الصمود، وإن كان كذلك فأين إلخ إلخ. التلميحات المرمية في الديلي إكسبريس توحي بأننا عملياً لا نملك أية طائرة هناك. شروط هدنة رسمها الإيطاليون تهدف بوضوح إلى استعمال أسرى الحرب اليونانيين كرهائن لاحقاً، مع النظر إلى ابتزاز البريطانيين لتسليم كريت وجزر أخرى.

لا إشارة عن الموقف الروسي. الألمان الآن قريبون جداً من الدردنيل، ومن الواضح أن الهجوم على تركيا وشيك. الروس عندئذ يجب أن يقرروا بوضوح إن كانوا سيتخذون أي موقف ضد ألمانيا ويضغطون على تركيا كي لا تقاوم، أو ربما يحصلون على إيران ثمناً لهذا، أو يجلسون ساكنين ويراقبون كل الشاطئ الجنوبي لبحر البلطيق وقد أصبح في أيدي الألمان. في رأيي، هم سيفعلون الاحتمال الثاني أو الاحتمال الثالث، وفي كلا الحالتين سيقومون بعربدة عامة بالتقوى والتفوق.

٢٥ أبريل/ نيسان

سي من قطاعي في الحرس الوطني، وهو بائع دجاج بالمهنة، لكنه في الوقت الحاضر يتعامل بكل أنواع اللحم، وقد اشترى أمس عشرين حماراً وحشياً باعتها حديقة الحيوان. لحم الكلب فقط ليس للاستهلاك البشري على ما يفترض. يبدو هذا لي مضيعة... قيل إن هناك ٢٠٠٠ حصان سباق في إنكلترا، كل واحد منها يأكل ١٠-١٥ رطلاً من القمح يومياً، أي أن هذه البهائم تلتهم كل يوم ما يعادل حصة من الخبز لفرقة من الجنود.

٢٨ أبريل/ نيسان

خطاب تشرشل ليلة أمس جيد جداً كخطاب، لكن من المستحيل أن تنقب عن أية معلومة فيه. الحقيقة الوحيدة الملموسة التي استطعت استخراجها، هي أنه في وقت هجومه على ليبيا، لم يستطع وافل أن يحشد أكثر من فرقتين لنقل ٣٠٠٠٠ رجل. سمعت الخطاب في معسكر الحرس الوطني. الرجال تأثروا به وفي الحقيقة حركهم. لكني أعتقد أن اثنين فقط من الذين

كانوا هناك، دخلهم أدنى من مستوى خمس جنيهات أسبوعياً. إن خطابة تشرشل جيدة فعلاً بطريقة قديمة الطراز، لكني لا أحب طريقة إلقائه. المحزن هو أنه إما لا يستطيع أو لا يريد أو ليس مسموحاً له أن يقول أي شيء محدد وواضح!

٢ مايو/ أيار

أتى رجل من........ صباح الأمس، ليفصّل غطاء لكرسينا ذي الذراعين. أنموذج تاجر القماش المعتاد صغير وأنيق مع شيء أنثوي حوله، وأعشاش من الدبابيس فوق الشخص كله. أخبرني أن هذه هي المهمة المنزلية الوحيدة التي قام بها اليوم. فهو كل الوقت تقريباً يقص أغطية للمدافع التي يبدو أنها تصنع بنفس طريقة أغطية الكراسي......... وقال إن أهالي........ يعتمدون كثيراً على هذا.

٣ مايو/ أيار

عدد الذين تم إجلاؤهم من اليونان من ٤١٠٠٠ إلى ٤٣٠٠٠، لكن تبين أن لنا رجالاً أقل هناك مما كان متصوراً، أي ربما حوالي ٥٥٠٠٠. يتوقع أن الخسائر بالأرواح ٣٠٠٠ والأسرى ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ وهذه تنسجم مع الأرقام الألمانية. قيل إن ٨٠٠٠ عربة فُقدت، عربات من كل الأنواع كما أظن. لم تذكر خسارة أية سفينة، لكن يفترض خسارة البعض. سبيندر، وهو واحد من الوزراء الأستراليين، أوضح علناً أن البنادق بلا فائدة ضد الدبابات مثل الأقواس والأسهم.

تلك خطوة إلى الأمام بأي حال. ظاهرياً، يوجد ما يرقى إلى الحرب في العراق، وفي أفضل الأحوال هذه مصيبة..... في كل الاحتمالات لن نتعامل بشكل مناسب مع ما يسمى بالجيش العراقي، الذي بلا شك يمكن قصفه وتمزيقه في بضع ساعات. إما أن نوقع اتفاقاً من نوع ما نتنازل فيه عن كل شيء ونترك المسرح لنفس الشيء ليحدث مرة أخرى، أو أن نسمع بأن الحكومة العراقية سيطرت على آبار النفط. لكن هذا لا يهم بما أنهم وافقوا على أن يعطونا كل التسهيلات الضرورية إلخ إلخ. ثم تسمع بعد ذلك في الحال أن الخبراء الألمان نجحوا في الوصول بالطائرة أو عبر تركيا، أو أننا نقف موقف الدفاع ولا نفعل شيئاً إلى أن ينجح الألمان في نقل جيش بالجو، حينها سنقاتل ونحن في وضع خاسر. كلما تتأمل سياسة الحكومة البريطانية، وهذا كان صحيحاً ومستمراً على الدوام منذ عام ١٩٣١، يكون لديك نفس

الشعور الذي تحسه حين تضغط على دواسة البنزين في سيارة لا تعمل فيها سوى أسطوانة واحدة، وهو شعور بالضعف المميت. المرء لا يعرف مقدماً بالضبط ماذا ستفعل، لكنه يعرف بكل الأحوال هل تستطيع أن تنجح أو تتصرف قبل فوات الأوان....... الغريب في الأمر، هي الثقة النسبية التي يشعر بها المرء حين تكون مسألة قتال فقط، والعجز حين تكون مسألة استراتيجية أو دبلوماسية. يعرف المرء مقدماً أن استراتيجية الحكومة البريطانية المحافظة يجب أن تفشل، لأن الإرادة لإنجاحها ليست هناك. وساوسها حول مهاجمة الحياديين -إنه الاختلاف الاستراتيجي الرئيسي بيننا وبين ألمانيا في الحرب الحالية- مجرد علامة من رغبة لاشعورية في الفشل. لا يكون لدى الناس وساوس حين يقاتلون من أجل قضية يؤمنون بها.

٦ مايو/ أيار

عرض الأتراك التوسط في العراق، وهذا ربما علامة سيئة. هناك تعبئة في إيران. الحكومة الأمريكية أوقفت شحنات مواد الحرب إلى الاتحاد السوفييتي، وهذا شيء جيد بحد ذاته، لكنه على الأرجح علامة سيئة أخرى.

مناظر مذهلة في محطات المترو حين يذهب عبرها المرء في وقت متأخر من الليل. اللافت جداً هو الجو المنزلي العادي النظيف الذي تجده عند الكل، وخصوصاً عند الأزواج المتزوجين حديثاً، والنوع البسيط الحريص من نماذج الذين يشترون بيوتهم من جمعية سكنية، والذين اندسوا معاً تحت لحف وردية. وعائلات كبيرة يراها المرء هنا وهناك، أب وأم وعدد من الأولاد كلهم رصفوا في صف مثل أرانب على بلاطة. كلهم يبدون نائمين بسلام تحت ضوء مصباح ساطع. الأولاد يستلقون على ظهورهم مع خدود وردية صغيرة مثل دمى من الشمع، ويغطون في النوم.

١١ مايو/ أيار

الخبر الأهم في الأيام القليلة الأخيرة الذي وضع بعيداً على صفحة خلفية من الصحف، كان إعلان الروس أنهم لم يعودوا يستطيعون الاعتراف بحكومتي النرويج وبلجيكا، وكذلك الأمر مع يوغسلافيا حسب ما جاء عن صحف الأمس. هذه هي أول حركة دبلوماسية منذ أن نصب ستالين نفسه رئيساً، وترقى إلى إعلان أن روسيا سوف تقبل بإذعان بأي عمل

عدواني أياً كان. يفترض أنه صدر تحت ضغط ألماني، وأتى مع إزالة مولوتوف، ويجب أنه يشير إلى توجه معين للسياسة الروسية ووقوفها إلى جانب الألمان. وهذا يحتاج إلى سلطة ستالين لفرضه. لن يمر وقت طويل حتى يقوموا بتحرك عدائي ضد تركيا أو إيران أو كليهما.

غارات ثقيلة جداً ليلة أمس. قنبلة سببت أضراراً خفيفة لهذا البناء، أول مرة يحدث هذا لبيت كنت أنا في داخله. حوالي الساعة الثانية صباحاً، في وسط إطلاق نار المدافع المعتاد والقنابل البعيدة، دوّى صوت انفجار مدمر أيقظنا من النوم، لكنه لم يكسر النوافذ أو يهز الغرف بشكل ملحوظ. نهضت إيلين وذهبت إلى النافذة؛ حيث سمعت أحداً ما يصيح أن هذا البيت هو الذي ضرب. بعد ذلك بقليل خرجنا إلى الممرات، ووجدنا دخاناً كثيفاً ورائحة احتراق مطاط. صعدنا إلى السطح، ورأينا نيراناً في أغلب نقاط المحيط وواحدة إضافية إلى الغرب على بعد أميال مع لهب ضخم يتراقص، لكننا قررنا أخيراً أن كتلة البيوت التي ضربت لم تكن هذه. في هذا الوقت كان الدخان كثيفاً، مما جعل الرؤية صعبة في الممر. على الفور سمعنا "نعم! نعم! مازال هناك أحد في رقم ١١١!" والحراس يصيحون بنا أن نخرج. وقعت أيدينا على بعض الثياب، والتقطنا بضعة أشياء وخرجنا في هذه المرة، وتخيلنا أن البيت يمكن أن يحترق جدياً ومن المستحيل أن يرجع إلى سابق عهده. في هكذا أوقات يأخذ المرء ما يشعر أنه مهم. ولاحظت فيما بعد أن ما أخذته لم يكن الآلة الكاتبة أو أية وثيقة، وإنما سلاحي الناري وجراب يحتوي طعاماً كنا نبقيه دائماً جاهزاً. فعلياً، فإن كل ما حدث كان أن القنبلة أشعلت حريقاً في المرآب، فأحرقت السيارات التي كانت فيه. دخلنا إلى بيت (دي) الذي قدم لنا الشاي، وأكلنا لوحاً من الشوكولا كنا ندخره منذ شهور. لاحقاً، لاحظتُ أن وجه إيلين تلوث بلون أسود وقالت "كيف يكون شكل وجهك برأيك؟" نظرت في المرآة، ورأيت وجهي أسود تماماً. لم يخطر لي عندئذ أنه سيكون هكذا.

ليس لدي نظرية عن سبب وصول هيس (رودولف هيس نازي ألماني، وهو الثاني بعد غورينغ كخليفة لهتلر. طار إلى اسكتلندا حاملاً مقترحات سلام إلى دوق هاملتون). إنه أمر غريب تماماً. الشيء الوحيد الذي أعرفه، هو إن كانت هناك إمكانية لخسارة هذه الفرصة الدعائية، فستجدها الحكومة البريطانية.

١٨ مايو/ أيار

العراق وسوريا والمغرب وإسبانيا ودارلان وستالين وراستشيلج علي وفرانكو -أحس بالعجز المطلق. إن كان هناك شيء خطأ، فسيتم فعله بشكل معصوم عن الخطأ. أصبح المرء يؤمن بذلك، كما لو كان قانوناً طبيعياً.

يوم أمس أو في اليوم الذي قبله أعلنت الصحف: "النازيون يستخدمون القواعد الجوية السورية". حين أعلنت هذه الحقيقة في البرلمان، كانت هناك صيحات "يا للعار!". الظاهر أن هناك أشخاصاً قادرين على أن يُفاجؤوا حين تنقض شروط الهدنة ويستفيد النازيون من الإمبراطورية الفرنسية. ومع ذلك، فإن أي غريب مثلي يستطيع أن يرى في اليوم الذي خرجت فيه فرنسا من هذه الحرب، أن هذا سيحدث.

من الواضح أن كل فرص كسب الحرب ضاعت بطريقة محترمة. خطة تشرشل وشركائه هي أن يستغنوا عن كل شيء، ثم يستعيدون الأشياء كلها بالطائرات الأمريكية وبأنهار من الدم. طبعاً هم لن ينجحوا، وكل العالم سوف ينقلب ضدهم بما فيهم أمريكا ربما. خلال سنتين، إما سنُقهر ونُهزم، أو نكون جمهورية اشتراكية تقاتل من أجل حياتها مع قوة بوليسية سرية، ونصف السكان جوعى. الطبقة الحاكمة البريطانية حكمت على نفسها بالموت، حين فشلت في الدخول إلى داكار وجزر الكناري وطنجة وسوريا، حين كانت الفرصة موجودة.

٢١ مايو/ أيار

كل العيون على كريت. كل واحد يقول الشيء نفسه -إن هذا سوف يوضح بطريقة أو بأخرى إمكانية غزو إنكلترا. هذا يمكن أن يكون هكذا، إذا أخبرونا الحقيقة اللازمة الوحيدة، أي كم عدد الرجال الذين لدينا هناك وكيف معداتهم. إن كان لدينا من ١٠ إلى ٢٠ ألف رجل فقط وكانوا من المشاة، فقد يقهرهم الألمان بالعدد فقط، حتى إن عجزوا عن إنزال دبابات. إذا أخذنا كل الاعتبارات، فإن الظروف في كريت لصالح الألمان، أكثر بكثير مما تكون لصالح إنكلترا. بقدر ما يكون الهجوم على كريت اختباراً، فالمرجح أكثر أن يكون اختباراً للهجوم على جبل طارق.

٢٤ مايو/ أيار

أخبار من كريت جيدة نوعاً ما ظاهرياً، لكن نغمة تشاؤم مرئية في كل مكان تحت السطح. لا أخبار من سوريا أو العراق، وهذه هي الإشارة الأسوأ. أعلن دارلان أنه لن يسلم الأسطول الفرنسي. سوف تنتزع لكمات أكثر بلا شك بسبب هذه الكذبة الصريحة.

٢٥ مايو/ أيار

أسمع سراً أننا خسرنا ثلاث سفن حربية في عمليات قبالة كريت. أعذار كثيرة في الصحف عن عدم امتلاكنا لطائرات مقاتلة. لا تفسير لماذا لم نجعل أراضي الإنزال الموجودة في كريت مستحيلة على حاملات الجنود الألمانية، ولماذا فشلنا في تسليح أهالي كريت قبل فوات الأوان.

٣١ مايو/ أيار

مازلت غير سعيد تماماً حول إثيوبيا. رأيت اليوم شريط أخبار عن قوات جنوب أفريقيا تزحف إلى داخل أديس أبابا. في قصر الإمبراطور (أو مهما كان البناء) رفع العلم الإنكليزي أولاً، وبعد ذلك فقط رفع العلم الإثيوبي.

١ يونيو/حزيرن

نحن ننسحب من كريت. لقد ذكروا إخلاء ثلاثة عشر ألف رجل. لا ذكر بعد للعدد الكامل المتورط. الانطباع المخيف سوف ينشأ إن رحّلنا القوات البريطانية وتركنا اليونانيين في الخلف. علماً أنه من وجهة نظر عسكرية وحشية، ربما يكون ذلك الشيء الذي نفعله هو الصحيح.

البريطانيون في بغداد، وسيكون خبراً أفضل لو أنهم كانوا في دمشق أيضاً. المرء يعرف مقدماً أننا لن نضع شروطاً قاسية على العراقيين، أي أننا لن نمتلك آبار النفط كشرط لمنحهم هدنة. سقط هيس من الأخبار منذ بضعة أيام. الردود المراوغة للأسئلة عنه في البرلمان ونكران تلقي دوق هاملتون رسالة منه، وبيان أن وزارة الإعلام التي "زودت بمعلومات خاطئة" حين نشرت هذا الخبر، وفشل واضح للبرلمان في السؤال عن الذي أعطى معلومات خاطئة لوزارة الإعلام ولماذا، كلها أشياء شائنة جداً، تحثني على أن أبحث في هانسارد، لأكتشف أن الرقابة لم تقصه في تقارير الصحف. دوّت صفارات الإنذار للتو بعد فترة من ثلاثة أسابيع، لم تكن فيها غارة جوية واحدة.

٣ يونيو/ حزيران

بعد أن اكتمل إخلاء كريت، جرى هناك حديث عن عشرين ألف رجل نقلوا. لذلك من الواضح أنهم بدؤوا بالإخلاء قبل أن يعترف بهذا في الصحافة بوقت كثير، والسفن التي غرقت، ربما فقدت في تلك العملية العسكرية. الخسائر الإجمالية ستكون كما يفترض، حوالي عشرة آلاف رجل وسبع سفن حربية (ثلاثة طرادات وأربع مدمرات) وربما بعض السفن التجارية أيضاً، وكثير من المدافع المضادة للطائرات، وعدد قليل من الدبابات والطائرات. كل هذا لا شيء بتاتاً......... الصحف تنتقد بجرأة أكبر مما فعلت حتى الآن. إحدى الصحف الأسترالية تقول بشكل علني وصريح إن الدفاع عن قبرص عديم الجدوى، إذا لم نقم بعمل عسكري ضد سوريا. ليس هنا أي علامة واضحة عن هذا. تقارير هذا الصباح، تقول إن الألمان أنزلوا للتو وحدات مدرعة في اللاذقية. مع هذا فهناك إشارات غامضة عن أن البريطانيين ربما يغزونها. بعد بضعة أيام يمكن أن يفوت الأوان، هذا إذا لم يتأخر ستة شهور مسبقاً.

٨ يونيو/ حزيران

دخل البريطانيون سوريا هذا الصباح.

١٤ يونيو/ حزيران

غموض تام -ولا أحد لديه أخبار حقيقية- يحيط بالوضع بين روسيا وألمانيا. لم أستطع الاتصال مع أي أحد رأى كريبس منذ عودته. يستطيع المرء الحكم فقط من الاحتمالات العامة، ويبدو لي أن الحقائق الحاكمة هي (١) ستالين لن يذهب إلى حرب مع ألمانيا إن كانت هناك أية طريقة لتجنبها غير الانتحار، و(٢) ليس من مصلحة هتلر أن يفقد ستالين هيبته في هذه المرحلة، لأنه طيلة الوقت يستخدمه ضد الطبقة العاملة في العالم. الاحتمال الأكبر من أي هجوم على روسيا أو أي اتفاق ظاهري يضر بروسيا، هو تنازل مقنع كتحالف ربما يُغطى بهجوم على إيران أو تركيا. بعدها سنسمع أن هنالك "تبادل تقنيين" إلخ إلخ، ويبدو بعدها وجود الكثير من المهندسين الألمان في باكو. لكن احتمالية أن يبدو كل هذا مناورة، هي مجرد خدعة لتغطية حركة وشيكة في مكان آخر، فربما يجب أن يظل غزو إنكلترا في المشهد.

١٩ يونيو/ حزيران

ليس هناك اتفاقية عدم اعتداء بين ألمانيا وتركيا. هذه هي مكافأتنا لعدم تطهيرنا سوريا بسرعة. من الآن فصاعداً، استدارت الصحافة التركية ضدنا، وسيكون لهذا أثره على الشعوب العربية.

جرى سباق الخيل في نيوماركت أمس، والظاهر أن حشوداً ضخمة حضرته. حتى الديلي إكسبريس كانت ساخرة حول هذا. صرحت الإيفنينغ ستاندارد أن هتلر يجب أن يغزو بريطانيا خلال ثمانين يوماً، وقالت إن المناورات في أوروبا الشرقية ربما قناع لهذا- لكن الهدف من هذا في اعتقادي، هو تخويف الناس للعمل بجهد أكبر. توقفت الحكومة البريطانية عن إصدار وثائق تسمح لسفن البلدان المحايدة بنقل بضائع من دون أن تفتش إلى بتسامو، وأوقفت ثلاث سفن فنلندية على أساس أن فنلندا الآن أرض محتلة من قبل العدو. هذه الإشارة الأوضح إن هناك شيء ما يحدث فعلاً بين روسيا وألمانيا.

٢٠ يونيو/ حزيران

كنا كلنا في حالة نصف ذوبان لعدة أيام مضت. فوجئت أن إحدى الفوائد الثانوية لهذه الحرب، أنها انقطعت عن عادتها الحمقاء في صنع عناوين الأخبار عن طقس يوم أمس.

٢٢ يونيو/ حزيران

غزا الألمان الاتحاد السوفييتي هذا الصباح. الكل في قمة الإثارة. يفترض عموماً أن يكون هذا التطور لمصلحتنا. يكون كذلك فقط إن نوى الروس فعلياً أن يقاتلوا ويردوا الهجوم، واستطاعوا أن ينشئوا مقاومة جدية إن لم تكن كافية لإيقاف الألمان، فعلى الأقل تكون كافية لتنهك قوتهم الجوية والبحرية. من الواضح أن الهدف الألماني المباشر والعاجل ليس الأراضي أو البترول، وإنما مسح القوة الجوية الروسية من الوجود تماماً، وبهذا تتم إزالة الخطر عن مؤخرتهم حين يتعاملون أخيراً مع إنكلترا. من المستحيل التخمين بنوع العرض الذي يستطيع الروس تقديمه. أسوأ فأل هو أن الألمان لم يحاولوا هذا، لو لم يكونوا متأكدين من أنهم يستطيعون تحقيقه وبسرعة كافية.

٢٣ يونيو/ حزيران

خطاب تشرشل كان جيداً جداً في رأيي. إنه لم يرض اليسار، وغاب عن بالهم أنه يجب أن يخاطب كل العالم من أمريكيي الغرب والوسط والطيارين وضباط البحرية وأصحاب الحوانيت الناقمين والمزارعين وأيضاً الروس أنفسهم، بالإضافة إلى الأحزاب السياسية اليسارية. كانت إشاراته المعادية للشيوعية صحيحة بالكامل، وأكدت ببساطة حقيقة أن عرض المساعدة كان صادقاً. يستطيع المرء أن يتخيل الصراخ الذي سيثيره المراسلون حول هذه الأشياء في نيوز ستيتمان. ماذا سيكون الانطباع برأيهم إن وقف ستالين وأعلن "أنا كنت مؤيداً مقتنعاً دائماً بالرأسمالية"؟

من المستحيل تخمين أي انطباع ستحدثه حركة هتلر هذه في الولايات المتحدة. فكرة تكوين حزب مؤيد للنازية قوي في إنكلترا، هي خطأ مطلق. ليس هناك شك بأن الناس الأثرياء يودون أن يروا هتلر يدمر النظام السوفييتي الحاكم، لكنهم سيكونون أقلية صغيرة. سيكون الكاثوليك بينهم بالتأكيد، لكن ربما يكونون أذكياء جداً، ولن يظهروا أيديهم إلى أن تبدأ المقاومة الروسية في الانهيار. تحدثت مع أناس في الحرس الوطني ومن ضمنهم الرجعيون والتجار الأغنياء جداً، فوجدت أن الكل يؤيدون الروس تماماً، رغم الانقسام الكبير في الرأي حول قدرة الروس على المقاومة. محادثة أنموذجية سجلت كما أتذكرها:

بائع دجاج بالجملة: "حسناً، أتمنى أن يعطيهم الروس جلداً وضرباً جيداً وقوياً".

صانع ملابس (يهودي): "سوف يتمزقون إرباً مثل المرة السابقة. سوف ترى".

طبيب (أجنبي ربما مهاجر): "أنت مخطئ تماماً. كل واحد يقلل من قوة روسيا. سوف يمسحون الأرض بالنازيين".

سمان يبيع بالجملة: "اللعنة عليهم. يوجد مائتا مليون حقير منهم".

صانع ثياب: "نعم، لكنهم ليسوا منظمين إلخ إلخ إلخ".

إن كل ما قيل هو عن جهل، لكنه يظهر ماهية عواطف الناس. منذ ثلاث سنين، كانت الغالبية العظمى من الناس الذين دخلهم فوق ألف جنيه في السنة أو حتى ست جنيهات في الأسبوع، ستصطف مع الألمان ضد الروس، لكن في هذا الوقت جعلهم كره ألمانيا ينسون كل شيء آخر.

الكل يعتمد على: إذا كانت روسيا وبريطانيا جاهزتين ومستعدتين للتعاون فعلاً أم لا، بلا أجندات خفية ولا محاولة إلى دفع وطأة القتال الشديدة على بعضهما البعض. لا شك أن هناك حزباً مؤيداً للنازية قوياً في روسيا، وأقول إن ستالين على رأسه. إن كانت روسيا ستبدل اصطفافها مرة ثانية، ويلعب ستالين دور بيتان، فلا شك أن الشيوعيين هنا سيتبعونه، ويصبحون مؤيدين للنازية مرة أخرى. إن مُسح نظام الحكم السوفييتي عن وجه الأرض وقُتل ستالين أو أُسر، سينقل كثير من الشيوعيين برأيي ولاءهم إلى هتلر.

في الوقت الحاضر، أصدر الشيوعيون البريطانيون نوعاً من بيان يدعو إلى "حكومة شعبية" إلخ إلخ، لكنهم سوف يبدلون نغمتهم فور وصول التعليمات والرسائل من موسكو. إن كان الروس سيقاومون فعلاً، فليس من مصلحتهم أن تكون هناك حكومة ضعيفة في بريطانيا أو تأثيرات تخريبية تعمل هنا. الشيوعيون بلا شك سيكونون وطنيين خارقين ضمن عشرة أيام -ربما يكون الشعار "كل السلطة لتشرشل"- وسيهملون تماماً. لكن إذا كان التحالف بين البلدين صحيحاً وصادقاً مع قدر معين من الأخذ والعطاء (التبادل)، فيجب أن تكون النتائج السياسية على كلا الجانبين من أجل الأفضل. الظروف الخاصة التي جعلت المقاومة العسكرية الروسية تؤثر تأثيراً سيئاً في إسبانيا، ليست موجودة هنا.

كل واحد يلاحظ بترقب أي إزعاج سيصيب الروس الأحرار.

هناك تكهن بأنهم سيكونون مثل الروس البيض. الناس لديهم تخيلات لستالين في حانوت صغير في بوتني (منطقة في غرب لندن) يبيع سماورات ويقوم برقصات قوقازية إلخ إلخ.

٣٠ يونيو/ حزيران

لا أخبار حقيقية عن الحملة الروسية الألمانية. ادعاءات مفرطة من كلا الجانبين طوال الأسبوع عن عدد الدبابات المعادية المدمرة. كل ما يستطيع المرء تصديقه فعلاً، هو الاستيلاء على البلدات، ومزاعم الألمان إلى الآن ليست كبيرة. لقد أخذوا ليمبيرغ، ويبدو أنهم احتلوا ليتوانيا، ويزعمون أيضاً أنهم التفوا حول مينسك. لكن الروس يزعمون أنهم أوقفوا تقدمهم. بأي حال، كان هناك اختراق. كل واحد متفائل جداً مسبقاً. لقد قضم الألمان أكثر مما يستطيعون مضغه. "إذا لم يخترق هتلر في الأسبوع القادم، فإنه سينتهي" إلخ. قلة من الناس يفكرون في أن الألمان جنود جيدون، ولم يتعهدوا بهذه الحملة من دون فرص وازنة مسبقاً.

تقديرات ارزن تضعها على الشكل الآتي: "إن ظل هناك جيش روسي حتى شهر أكتوبر/ تشرين الأول يقاتل ضد هتلر، فإنه (هتلر) سينتهي في هذا الشتاء على الأرجح". إن السبب الذي جعل الحكومة الروسية تصادر كل أجهزة اللاسلكي (الراديو) الخاصة غير مؤكد، ويحتمل الأمر تفسيرات عديدة.

لا شيء محدد وواضح حول طبيعة تحالفنا مع الاتحاد السوفييتي. ليلة أمس كان الجميع ينتظرون بلهو كبير أن يسمعوا نشيد اليسار الانترناسيونالي يعزف بعد نشيد الحفاء الآخرين الوطني. لم يحدث شيء كهذا طبعاً. على كل حال، كان هناك وقت طويل قبل أن يضاف النشيد الوطني الإثيوبي إلى الأناشيد الأخرى. يجب عليهم أن يعزفوا لحناً ما يمثل جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية، لكن اختياره سيكون مهمة معقدة.

٣ يوليو/ تموز

إن خطاب ستالين الذي بث، هو عودة مباشرة إلى الجبهة الشعبية وخط الدفاع عن الديمقراطية، وبالتالي هناك تناقض تام لكل الذي كان يقوله هو وأتباعه في السنتين الماضيتين. مع ذلك، فقد كان خطاباً قتالياً رائعاً، وهو مساوٍ تماماً لخطاب تشرشل، وأوضح أنه لا يرغب على أية تسوية في كل الأحوال في هذه اللحظة، لكن بدت مقاطع منه تتضمن تراجعاً كبيراً يفكر فيه، كما أشير إلى بريطانيا والولايات المتحدة بعبارات ودية وبالحلفاء تقريباً، رغم عدم وجود تحالف رسمي حتى الآن. وتكلم عن ريبنتروب وشركائه بـ "آكلي لحوم البشر"، وهكذا وُصفوا من قبل البرافدا أيضاً. من الظاهر أن أحد أسباب الأسلوب الغريب في الخطابات الروسية، هو أن اللغة الروسية تحتوي على مفردات كبيرة من كلمات الشتم، أكثر مما يوجد لها مرادفات في اللغة الإنكليزية. لا يستطيع المرء الحصول على مثال أفضل من الضحالة الأخلاقية والعاطفية لزمننا، من حقيقة أننا كلنا الآن مؤيدون لستالين تقريباً. هذا مجرم قاتل مثير للاشمئزاز يقف إلى جانبنا مؤقتاً، ولهذا نُسيت أعمال التطهير فجأة، وهكذا الحال مع فرانكو وموسوليني إلخ. ألا يجب أن يأتوا إلينا أخيراً. أكثر شيء صحة يمكن أن يقوله المرء عن ستالين، هو أنه ربما يكون مخلصاً كفرد، بعكس أتباعه الذين يعجزون عن ذلك، لأن تغيير جبهاته اللانهائي في كل الأحوال هو قراره الخاص به. إنه حالة "حين ينقلب أبانا سننقلب نحن"، وأبانا ينقلب كما يفترض، لأن الروح تحركه.

٦ يوليو/ تموز

تزايد ضجر عدد من الصحف من أننا لم نفعل الكثير من أجل مساعدة الاتحاد السوفييتي. أنا لا أعرف إن كانت هناك معركة غير الغارات الجوية يُعد ويُحضر لها حقيقة، لكن إن لم نحاول أي شيء، فهذه علامة مقلقة بمعزل عن النتائج السياسة والعسكرية التي يمكن أن تمتلكها. لأننا إذا لم نقدر أن نشن هجوماً برياً في الوقت الذي توجد فيه ١٥٠ فرقة ألمانية منشغلة في روسيا، فمتى سنكون قادرين إذاً؟ لم أسمع إشاعات مهما كانت عن تحركات القوات، لهذا ليس هناك حملات تُعد بأي شكل من إنكلترا. التطور الجديد الوحيد هو دافع ورغبة بيفربروك في الدبابات، وهي مشابهة لرغبته في الطائرات في السنة الماضية. لكن هذا لا يحمل ثماراً لبضعة أشهر، ولا توجد أي إشارة أين ستستخدم هذه الدبابات. أنا لا أستطيع أن أصدق أنهم يريدونها للاستخدام ضد غزو ألماني. إذا كان الألمان في وضع يسمح لهم بجلب أعداد كبيرة من الوحدات المدرعة هنا، أي إذا كان لديهم تحكم تام في البحر والجو، فيجب علينا أن نخسر الحرب مسبقاً. لا حديث عن تحالف رسمي مع روسيا، ولا شيء في الواقع يوضح علاقتنا، بالرغم من التعبيرات الودية تقريباً من كلا الجانبين. نحن لا نستطيع طبعاً أن نخاطر، إلى أن يصبح من المؤكد أنهم في تحالف قوي وثابت معنا، أي أنهم سوف يواصلون القتال حتى لو نجحوا في صد الغزو.

لا أخبار موثوقة من الجبهات. الألمان عبروا البروث، لكن يشك إن كانوا عبروا بيرسينا أم لا. الدمار الذي زعمه الطرفان غير حقيقي بشكل واضح. الروس يزعمون أن الخسائر الألمانية ٧٠٠٠٠٠ قتيل أي ١٠ بالمئة من جيش هتلر كله.

تفحصت عدداً من صحف كاثوليكية وعدة نسخ من تروث (صحيفة لليمين المتطرف)، كي أرى ما هو موقفها من شبه تحالفنا مع الاتحاد السوفييتي. الصحف الكاثوليكية لم تذهب لتؤيد النازية وربما لن تفعل هذا. الخط أن روسيا موضوعياً إلى جانبنا، ويجب أن تُدعم، لكن يجب أن يكون هناك تحالف محدد. تروث التي تكره تشرشل، تأخذ نفس الخط، لكن هناك ظلاً عدائياً للروس أكثر. بعض من الصحف الكاثوليكية الايرلندية ذهبت لتؤيد النازيين صراحة. إن كان الأمر هكذا، فستكون هناك ارتدادات مماثلة في الولايات المتحدة الأمريكية. سيكون ممتعاً أن نرى إن كانت "الحيادية" التي فرضت على الصحافة الايرلندية التي تحرم

وتمنع أي تعليق على أي دولة محاربة، سوف يتم فرضها بالقوة في حالة روسيا، بعد أن دخلت روسيا الحرب.

صوت الميثاق الشعبي بالدعم التام للحكومة، وطلب "مقاضاة قوية للحرب" - هذا بعد نصف شهر من مطالبتهم "بسلام الشعب". القصة التي تدور هي أنه حين وصل خبر غزو هتلر لروسيا إلى نيويورك كافيه حيث كان بعض الشيوعيين يتحدثون، خرج أحدهم إلى المرحاض، ثم عاد ليجد أن "خط الحزب" قد تبدل أثناء غيابه.

٢٨ أغسطس/ آب

أنا موظف في البي بي سي الآن بلا شك.

الخط على الجبهة الشرقية الآن على الشكل الآتي: تالين، جوميل، سمولينسك، كييف، دنيبروبيتروفسك، خرسون. احتل الألمان منطقة يجب أن تكون أكبر من ألمانيا، لكنهم لم يدمروا الجيوش الروسية. البريطانيون والروس غزوا إيران منذ ثلاثة أيام، والإيرانيون ساعدوا. لا توجد إشاعات يستطيع المرء أن يلتقطها عن حركات القوات في هذه البلاد. لديهم شهر واحد فقط من الآن ليبدؤوا شيئاً ما على القارة، وأنا لا أعتقد أنهم ينوون أي شيء من هذا النوع. تحت شروط بيان تشرشل- روزفلت، يقرأ المرء أن مشاعر الأمريكان المعادين لهتلر قد بردت وهدأت، نتيجة لغزو الاتحاد السوفييتي. ومن جانب آخر لا توجد أية علامة بأن الرغبة لتحمل تضحيات في هذه البلاد قد زادت بسببها. مازالت هناك شكاوى شعبية بأننا لم نعمل ما يكفي لمساعدة الاتحاد السوفييتي، لكن حجمها صغير جداً. أعتقد أن الحملة الروسية يمكن أن تعتبر راسخة، بمعنى أن هتلر لا يستطيع اختراق القوقاز والشرق الأوسط هذا الشتاء، لكنه لن ينهار، وقد ألحق ضرراً أكبر مما تلقى. ليس هناك نصر في المدى المنظور في الوقت الحالي. نحن في حرب طويلة منهكة كئيبة مع تزايد افتقار كل واحد طوال الوقت. الطور الجديد الذي تكهنت به سابقاً، بدأ الآن، والفترة شبه الثورية التي بدأت مع دونكيرك انتهت. لذلك أنا أضع حداً لهذه المفكرة، وأنهيها كما نويت أن أفعل حين بدأ الطور الجديد.

مذكرة زمن الحرب

من ١٤ مارس/ آذار ١٩٤٢

إلى ١٥ نوفمبر/ تشرين الأول ١٩٤٢

١٤ مارس/ آذار

سأفتح هذه المذكرة من جديد بعد فاصل من ستة أشهر. الحرب دخلت مرة أخرى في طور جديد. التاريخ الفعلي لمغادرة كريبس إلى الهند لم يظهر، لكن يفترض أنه ذهب في هذا الوقت. رأي الناس العاديين هنا يبدو متشائماً حول سفره. تعليق متكرر ومألوف -"فعلوها لتخرجه من الطريق" (وهذا واحد من الأسباب التي زعمها الراديو الألماني). هذا سخيف جداً، ويعكس المناطقية عند الشعب الإنكليزي الذي لا يستطيع أن يدرك أية أهمية للهند. الناس المطلعون بشكل أفضل متشائمون، لأن عدم نشر شروط الحكومة على الهند، يشير بالتأكيد تقريباً إلى أنها شروط غير جيدة. مستحيل أن نكتشف ما هي السلطات التي لدى كريبس. هؤلاء الذين ربما يعرفون شيئاً، سوف لن يفشوا شيئاً، والمرء لا يستطيع سحب تلميحات منهم إلا بوسائل غير مباشرة فقط. مثال، أنا أوحيت في رسالتي الإخبارية (في برنامجي في البي بي سي) أنني تلقيت تعليمات كي أرسم شخصية لكريبس وأقدمه كسياسي متطرف. هذا يجذب الإنذار "لا تذهب بعيداً جداً في ذلك الاتجاه" الذي يطرح الافتراض بأن أصحاب المناصب العليا ليس لديهم أمل كبير بتقديم الاستقلال التام للهند. (طار السير ستافورد كريبس إلى الهند في ٢٢ مارس/ آذار في محاولة لترتيب تسوية وسط مع حزب المؤتمر الهندي وحزب استقلال الهند، ليضمن تعاون الهند أثناء الحرب، ويسمح بانتقال تدريجي إلى الاستقلال حين تنتهي الحرب. نهرو وحزب المؤتمر لم يقبلا بشيء أقل من الاستقلال التام. ولأن كريبس لم يكن مخولا بتقديم هذا، فقد توقفت المحادثات في ١٠ أبريل/ نيسان، وعاد إلى إنكلترا).

إشاعات من كل الأنواع تنتشر في كل مكان. يشكك أناس كثيرون كما يبدو بأن روسيا وألمانيا ستتوصلان إلى سلام منفصل هذه السنة. من دراسة الراديو الألماني والروسي، وصلت إلى الاستنتاج منذ زمن، بأن تقارير الانتصارات الروسية مزيفة بشكل كبير، لكن طبعاً فإن

الحملة لم تسر حسب الخطة الألمانية. أعتقد أن الروس ربحوا نوع النصر الذي كسبناه نحن في معركة بريطانيا -أي تأخير الهزيمة في الوقت الحالي، لكننا لم نقرر شيئاً. أنا لا أؤمن بسلام منفصل، إلا إذا انهزمت روسيا بشكل واضح، لأنني لا أرى كيف تستطيع روسيا أو ألمانيا أن توافق على التخلي عن أوكرانيا. من جانب آخر يظن بعض الناس (أنا لدي هذا من أبرامز الروسي البلطيقي المتعاطف مع ستالين بقوة، لكنه ليس عضواً في الحزب الشيوعي) أنه إذا استطاع الروس طرد الألمان من أرضهم، فسوف يعقدون نوعاً من سلام غير معلن، وبعد ذلك يستمرا في قتال زائف.

إشاعات حول مغادرة بيفربروك (استقال اللورد بيفربروك من منصبه كوزير للإنتاج الحربي، وترك الحكومة تحت عذر مرض بدني. أما الأسباب السياسية الحقيقية خلف هذه الحركة، فمازالت قضية تخمين). إشاعات حول رحيل بروك:

أ- أصر كريبي على هذا كشرط لدخول الحكومة.

ب- جرى التخلص من بيفربروك، لأنه معروف باتصاله مع غورينغ بخصوص تسوية سلمية.

ج- أصر الجيش على إزاحة بيفربروك، لأنه كان يرسل كل الطائرات إلى روسيا، بدلاً من ليبيا والشرق الأقصى.

أنا الآن أعمل في البي بي سي منذ ستة أشهر. هل سأبقى فيها إن حدثت التغيرات السياسية التي أتنبأ بها؟ على الأرجح لا. جوها شيء وسط بين مدرسة فتيات ومصحة مجانين، وكل ما نفعله في الوقت الحاضر بلا فائدة أو أسوأ من ذلك. استراتيجية إذاعتنا ميئوس منها أكثر من استراتيجيتنا العسكرية. مع ذلك، يصبح المرء ذا عقلية دعائية، ويطور وجهة نظر لم توجد عنده سابقاً. مثال: أنا أزعم عادة في كل رسائلي الإخبارية أن اليابان تتآمر لمهاجمة روسيا. أنا لا أصدق هذا، لكن الحسابات هي التالية:

إذا هاجم اليابانيون روسيا، نستطيع أن نقول لكم "أنا أخبرتكم"

إذا هاجم الروس أولاً، نستطيع- بعد أن بنينا صورة لمؤامرة يابانية مسبقاً- أن نتظاهر بأن اليابان هي من بدأت ذلك.

إن لم تندلع حرب أخيراً، نستطيع أن نزعم أن هذا حدث لأن اليابانيين خائفون جداً من روسيا.

كل الدعاية عبارة عن أكاذيب، حتى حين يروي المرء الحقيقة. أنا لا أظن أن هذا يهم، طالما يعرف المرء ماذا يفعل ولماذا.......

في ١١ مارس/ آذار، بدأتُ بنشر إشاعة فحواها أن البيرة ستخضع لنظام الحصص، ونقلتُ الخبر إلى ثلاثة أشخاص مختلفين. سأكون مهتماً لأرى في أي تاريخ ستعود هذه الإشاعة إلي. (٣٠ مايو/ أيار ١٩٤٢. لم تعد أبداً. هذا يلقي الضوء على الطريقة التي تتكون فيها الإشاعات).

تحدثت لفترة قليلة قبل الأمس مع "ويليام هيكي" (مذكرة اجتماعية ظهرت في الإكسبريس، وكان يحررها في هذا الوقت توم دريبيرغ) الذي عاد حديثاً من الولايات المتحدة الأمريكية، وقال إن المعنويات هناك مرعبة، والإنتاج لم يبدأ، وهناك شعور عدائي هائج ومتفشٍ نحو بريطانيا من كل الأنواع، بالإضافة إلى شعور معادٍ للروس يؤججه الكاثوليك أيضاً.

١٥ مارس/ آذار

إنذار قصير بغارة جوية في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً. لا قنابل ولا مدافع. أول مرة منذ عشرة أشهر أسمع هذا الصوت. داخلياً أنا خائف نوعاً ما، وكل واحد آخر يشعر مثلي بشكل واضح، لكننا تعمدنا ألا نكترث. وفي الحقيقة لم نشر إلى حقيقة وجود غارة، إلى أن سمعنا الصوت الذي يشير إلى انتهاء الغارة.

٢٢ مارس / آذار

أخبرني ايمسون (شاعر وناقد يعمل في البي بي سي) أنه يوجد منع صارم من وزارة الخارجية لأي خبر يوحي بأن اليابان ستهاجم الاتحاد السوفييتي، لهذا تم تجنب هذا الموضوع بشكل متعمد في النشرات الإذاعية الموجهة إلى الشرق الأقصى، بينما كان يدفع به طول الوقت في النشرات الموجهة إلى الهند. لم يعلموا بعد أننا نقول هذا، فنحن لم نُحذر، ورسمياً لم نعرف بخصوص المنع، وأننا نبذل أقصى ما نستطيع خلال استمراره. نفس الفوضى في كل مكان على الجبهة الدعائية. مثال: أوقفت هورايزن من الحصول على ورقها الإضافي لتطبع نسخاً

للتصدير بسبب مقالتي عن كيبلينغ (كل شيء كان على ما يرام في اللحظة الأخيرة، لأن هارولد نيكوليم ودوف كوبر تدخلا) وفي الوقت نفسه، طلبت من البي بي سي أن أكتب "مقالة خاصة" مبنية على المقالة الأولى.

الدعاية الألمانية متضاربة بطريقة مختلفة تماماً -أي هي هكذا عمداً مع تجرد مطلق من المبادئ والضمير في تقديم كل شيء إلى كل واحد: الحرية إلى الهند، وإمبراطورية استعمارية إلى إسبانيا، والتحرر إلى الكفيريين (الجنوب أفريقيين السود)، وقوانين عرقية أشد صرامة إلى البوير إلخ إلخ. كل شيء قانوني وسليم من وجهة نظر الدعاية في رأيي، نظراً للجهل السياسي الكبير عند غالبية الناس، وعدم اهتمامهم بأي شيء خارج شؤونهم المباشرة، وقلة تأثرهم بالتضارب والتناقض. منذ أسابيع قليلة كانت محطة البث البريطانية الجديدة تهاجم محطة تحدي العمال (محطة أخرى تبث دعاية بالإنكليزية إلى ألمانيا) وتحذر الناس ألا يصغوا إليها لأن "موسكو تمولها"

الشيوعيون في المكسيك يطاردون فيكتور سيرج مرة أخرى (روسي المولد فرنسي الاختيار، من الأدباء الثوار الروس. نفي إلى سيبريا كتروتسكي، وعمل مراسلاً لصحيفة باريس بعد إطلاق سراحه في إسبانيا أثناء الحرب الأهلية. استقر في المكسيك حيث مات فقيراً) ويطاردون أيضاً لاجئين تروتسكيين آخرين وصلوا إلى فرنسا، ويحرضون على طردهم إلخ إلخ، وهو نفس التكتيك الذي اتبع في إسبانيا. اكتأبت جداً برؤية هذه المكائد القديمة وهي تظهر ثانية، ليس لأنها مقززة أخلاقياً جداً جداً، وإنما من هذا التفكير: لعشرين سنة استخدم الكومنترن هذه الأساليب، وكان الفاشيون دائماً وفي كل مكان يهزمونه، لذلك بما أننا ارتبطنا بهم بنوع من التحالف، فسوف ننهزم معهم.

الشكوك بأن روسيا تنوي عقد سلام منفصل، تبدو الآن واسعة الانتشار. من الاثنين سيكون من الأسهل لروسيا أن تتخلى عن أوكرانيا وتسلمها لأسباب جغرافية ونفسية، لكن من الواضح أن الروس لن يتخلوا عن حقول نفط القوقاز من دون قتال. تطور واحد ممكن، وهو اتفاق سري بين هتلر وستالين، يحتفظ فيه هتلر بالأراضي الروسية التي اجتاحها أو بقسم منها، وبعد ذلك لا يقوم بأي هجمات أخرى، وتوجيه هجومه باتجاه الجنوب نحو حقول النفط في العراق وإيران، وتستمر روسيا وألمانيا في حرب شكلية زائفة خلال الوقت الراهن.

يبدو لي بشكل واضح أن سلاماً منفصلاً هو الاحتمال الأكبر، أن قمنا بغزو قاري في هذه السنة، لأننا لو نجحنا في إرباك الألمان وسحبوا قسماً كبيراً من جيشهم، ستكون روسيا في وضع أفضل فوراً لتسترجع أراضيها المحتلة وتساوم على صفقة.. الشيء الوحيد الذي قد يمنع هذا النوع من الخداع القذر، هو تحالف ثابت وقوي بيننا وبين الاتحاد السوفييتي مع أهداف حرب معلنة بالتفصيل. وهذا مستحيل حين تحكمنا هذه الحكومة وربما أيضاً حينما يبقى ستالين في السلطة: على الأقل، المحتمل فقط أن نستطيع الحصول على نوع مختلف من الحكومة، ثم نجد طريقة ما للتكلم مع الشعب الروسي من فوق رأس ستالين. نفس الشعور الذي جربه المرء أثناء معركة فرنسا -أي ليس هناك أي أخبار. هذا ناشئ بشكل رئيسي عن قراءة لا تنتهي للصحف. فيما يتعلق بمصدري الإخباري، أنا الآن أقرأ خمس صحف صباحية كل يوم وعدة طبعات من الصحف المسائية، بالإضافة إلى تقارير رصد ومراقبة يومية. الكمية من المادة الجديدة في كل قطعة مطبوعة يقرأ فيها المرء كمية صغيرة جداً، لكي يحصل على انطباع عام بعدم وجود شيء يحدث. بالإضافة إلى ذلك، فحين تسوء الأشياء، يستطيع المرء التنبؤ بكل شيء. الحدث الوحيد الذي فاجأني في الأسابيع الماضية، كان مهمة كريبس إلى الهند.

٢٧ مارس/ آذار

يتوقع غداً أن تنفجر أخبار الشروط التي أخذها كريبس إلى الهند. أما في الوقت الراهن، فهي مجرد إشاعات، وكلها معقولة لكنها غير متناسقة مع بعضها البعض تماماً. الأقوى - ستعرض على الهند معاهدة شبيهة بالمعاهدة المصرية. كي اس شيفانكار (كاتب وصحفي هندي في إنكلترا) عدونا اللدود، يعتبر هذا مقبولاً إذا أعطيت وزارات الدفاع والمالية والداخلية للهنود.

كل الهنود هنا أكثر تفاؤلاً بعد أسبوع أو اثنين من الاكتئاب. يبدو أنهم شموا بطريقة ما ربما من الوجوه الحزينة في وزارة الهند أن الشروط ليست سيئة أخيراً.

نقاش رهيب في البرلمان حول "قضية" الديلي ميرور (صحيفة يومية يسارية مشهورة. اتهمها تشرشل بالخط الانهزامي أي انتقاد معالجة الحكومة للحرب. بعد نقاش شهير في البرلمان أخفقت وتلاشت القضية) ايه بيفان يقرأ مقاطع من مقالة موريسون في الديلي ميرور، كتبت منذ بداية الحرب لتسلية المحافظين المعادين للديلي ميرور، لكنه لا يستطيع أبداً أن يقاوم

مشهد اشتراكيين اثنين يضربان بقوة بعضهما. كاسندرا (اسم وهمي لويليام كونور، صحفي راديكالي مشهور يكتب عموداً في الديلي ميرور) أعلن أنه يستقيل لينضم إلى الجيش. نبوءة: هو سيعود إلى الصحافة خلال ثلاثة أشهر. لكن أين سنكون بعد ثلاثة أشهر بأي حال؟

انهزم مرشح الحكومة (بأكثرية صغيرة جداً) في الانتخابات الفرعية في غرانتهام. في اعتقادي، هذا يحدث لأول مرة منذ أن بدأت الحرب.

نداء مفاجئ من سريتنا في الحرس الوطني قبل أسبوع أو أسبوعين. احتاج الأمر أربع ساعات ونصف لتجتمع السرية وتوزع الذخيرة، وسنستغرق ساعة أخرى لوضع كل واحد في موقعه القتالي، ويعود هذا بشكل رئيسي إلى الازدحام المسبب برفض توزيع الذخيرة إلا بمجيء كل رجل إلى المقر الرئيسي ليتزود بها هناك. أرسلت مذكرة عن هذا إلى الدكتور توم جونز الذي وجهها مباشرة إلى السير جاس غريغ (معاون وزير الحرب، ثم وزير الحرب لاحقاً). في وحدتي لم أستطع أن أحصل على هكذا مذكرة كقائد للسرية- أو على الأقل، لم أستطع أن أجعلها يُصغى إليها.

الزعفران يملأ الفضاء الخارجي. يبدو المرء وكأنه يراه عبر ضباب أخبار الحرب. رسالة بذيئة من إتش جي ويلز الذي خاطبني بالقول "أنت قذارة" من بين كلمات أخرى.

الفاتيكان يتبادل الممثلين الدبلوماسيين مع طوكيو. الفاتيكان الآن له علاقات دبلوماسية مع كل دول المحور و-أعتقد- من دون أن تكون له علاقة مع أي دولة من الحلفاء. علامة سيئة، ومع ذلك فإن لهذه الخطوة الأخيرة معنى جيداً، وتعني أنهم قرروا بوضوح الآن أن المحور وليس نحن هو من يؤيد السياسة الأكثر رجعية ويمثلها.

١ أبريل/ نيسان.

أنا مكتئب جداً بسبب فشل مهمة كريبس، وأغلب الهنود حزينون بسببها أيضاً، وحتى الذين يكرهون إنكلترا يريدون حلاً كما أعتقد. لكن بالرغم من أسلوب "اقبلها أو ارفضها" الذي بدأت به حكومتنا، أعتقد أن الشروط سوف تعدل فعلياً، استجابةً لضغط لهذه الغاية.

يظن البعض أن الروس خلف الخطة، وأن هذا بسبب ثقة كريبس في تقديم شيء غير جذاب بشكل ظاهر. بما أنهم ليسوا في الحرب ضد اليابان، لا يمكن أن يكون للروس أي

موقف رسمي بخصوص المسألة الهندية، لكنهم ربما يوزعون توجيهات إلى أتباعهم، ومنهم تصل إلى مؤيدين روس. لكن عندئذ لن يوجد هنود كثيرون يؤيدون الروس بشكل موثوق. لا علامة بعد من الحزب الشيوعي البريطاني الذي ربما يعطي سلوكه تفسيراً للموقف الروسي. على هذا النوع من التخمين، يجب أن نبني دعايتنا؛ حيث لا توجيهات واضحة أو نافعة تسلّم لنا من الأعلى.

أراد كونولي يوم أمس أن يقتبس مقطعاً من الحنين إلى كتالونيا في نشرته الإذاعية. فتحت الكتاب وأتيت على الجمل التالية:

إحدى أشد خصائص الحرب بغضاً، هي أن الحرب كلها عبارة عن دعاية، وكل الصراخ والأكاذيب والكره تأتي بشكل ثابت من أناس لا يقاتلون.... والحال دائماً نفسه في كل الحروب؛ يقوم الجنود بالقتال، ويقوم الصحفيون بالصياح، ولا يوجد وطني حقيقي يقترب من الخندق الذي على خط الجبهة أبداً باستثناء جولات الدعاية القصيرة. أحياناً يريحني أن أفكر أن الطائرات ستبدل ظروف الحرب. حين تأتي الحرب القادمة، ربما نرى ذلك المنظر غير المسبوق في التاريخ: وطني متطرف مع ثقب رصاصة فيه.

ها أنا أعمل في البي بي سي، بعد أقل من خمس سنين من كتابة ذلك. أعتقد أننا سنكتب النقوش على أضرحتنا عاجلاً أو آجلاً.

٣ أبريل/ نيسان

قرار كريبس للبقاء أسبوعاً إضافياً في الهند، يعتبر فألاً حسناً، إضافة إلى أنه ليس هناك تفاؤل كثير حوله. غاندي يثير المشاكل عمداً، ويرسل برقيات تعزية إلى عائلة بوز (سوباس شاندرا بوز، صحفي هندي وزعيم يساري، عضو في المؤتمر. كان معادياً بعنف لبريطانيا) حول خبر وفاته، ثم برقيات تهنئة، حين تبين أن ذلك التقرير لم يكن صحيحاً. كما يحث الهنود أيضاً ألا يتبنوا سياسة الأرض المحروقة إن تعرضت الهند للغزو. مستحيل أن تكون متأكداً أي علبة هذه. لكن من ناحية أخرى، هؤلاء الذين ضد غاندي يدعون أن لديه أسوأ نوع من أصحاب النفوذ الرأسماليين (الهنود) خلفه. وفي الواقع إنه يقيم دائماً في بيت مليونير ما أو آخر، وهذا ليس متنافراً بالضرورة مع قداسته المزعومة، لكن سلميته قد تكون صادقة. في

الفترة السيئة من عام ١٩٤٠ هو حثّ أيضاً على عدم المقاومة في إنكلترا إن تعرضت إنكلترا للغزو. أنا لا أعرف إن كان غاندي أو بوشهان هو البديل الأقرب إلى راسبوتين في عصرنا.

يقول أناند (موتك راج أناند) إن المعنويات بين الهنود المنفيين هنا متدنية جداً. مازالوا يميلون إلى الاعتقاد أن اليابان ليس عندها خطط شريرة بخصوص الهند، والكل يتحدثون عن سلام منفصل مع اليابان، ومتحمسون جداً لإعلانهم الولاء نحو روسيا والصين. قلت له إن الحقيقة الأساسية حول كل المثقفين الهنود تقريباً، هي أنهم لا يتوقعون الاستقلال، ولا يستطيعون تخيله، ولا يريدونه في قلوبهم. هم يريدون أن يكونوا في المعارضة دائماً يجربون استشهاداً غير مؤلم، وهم أغبياء جداً ليتخيلوا أنهم يستطيعون لعب نفس ألعاب تلاميذ المدارس مع اليابان أو ألمانيا، مثلما استطاعوا أن يفعلوا ذلك مع بريطانيا. تفاجأت قليلاً حين وافقني إلى حد ما. يقول إن "عقلية المعارضة" عامة بينهم، وخصوصاً بين الشيوعيين، وإن كريشنا مينون (رجل دولة هندي، محامٍ ومؤلف وصحفي) "يتوق إلى اللحظة التي تتعطل فيها المفاوضات". في اللحظة نفسها، حين يتكلمون ببرود عن خيانة الصين بعقد سلام منفصل، تجدهم يصرخون بأن القوات الصينية في بورما لم تحصل على دعم جوي مناسب. لاحظت أن هذا طفولي. ايه: "أنت لا تستطيع أن تبالغ في تقدير حمقهم الطفولي يا جورج. إنه بلا قعر" السؤال هو: إلى أي مدى يعكس الهنود الذين يعيشون هنا وجهة نظر المثقفين في الهند؟ هم أبعد عن الخطر، وأصيبوا بعدوى الجو السلمي للأشهر العشرة الماضية مثل البقية منا. لكن من جانب آخر، فإن كل من بقي هنا فترة طويلة تقريباً، أصبح متأثراً بوجهة نظر غربية. لذلك فإن المثقفين الهنود الحقيقيين على الأرجح، هم أسوأ بكثير. أناند نفسه ليست لديه هذه النواقص، فهو معادٍ للفاشية بصدق، وقد سبب الكثير من العنف لمشاعره وربما لسمعته بسبب دعمه لبريطانيا، لأنه يدرك أن بريطانيا على الجانب المعادي للفاشية بشكل موضوعي.

٦ أبريل/ نيسان

ألقيت أمس نظرة عجلى على الطريق الدائري الذي بني بين أوكسبيردج ودينهام. اندهشت من المستوى الهائل للتعهد. غرب أوكسبريدج يقع وادي كولن، وفوق هذا الطريق جسر من القرميد والأعمدة الإسمنتية. وأعتقد أن طول الجسر ربع ميل. بعد ذلك يتابع الطريق على سد مرفوع. ارتفاع كل واحد من هذه الأعمدة عشرون قدماً وسماكته خمسة عشر قدماً، وهناك

عمودان في كل خمسة عشر ياردة. يجب أن أقول إن كل عمود يستخدم أربعين ألف قرميدة باستثناء الأساسات، والطريق الذي فوق السد استهلك أطناناً من الحديد الصلب والإسمنت المسلح في كل ياردة منه. كميات هائلة من الفولاذ المقوى ملقاة، وألواح ضخمة من الغرانيت تكفي لبناء سفينة حربية من الحجم الجيد. إن الطريق الالتفافي لن يكون على الأغلب ذا فائدة إلى أن تنتهي الحرب، حتى لو انتهى العمل به قبل ذلك. في الوقت الحالي هناك نقص في العمالة في كل مكان. الظاهر أن الناس الذين يبيعون القرميد أقوياء جداً (قارن الملاجئ السطحية غير المفيدة التي حتى حين عمروها، كان من الواضح أنها بلا فائدة لكل واحد يعرف أي شيء عن البناء والترميمات الضرورية المتواصلة للبيوت الخاصة غير المسكونة في كل أرجاء لندن) من الواضح أنه حين تتجاوز الفضيحة مستوى وقدراً محدداً، تصبح غير مرئية.

رأيت في دينهام شخصاً يسوق عربة تجرها الكلاب في حالة جيدة.

١٠ أبريل/ نيسان

خسائر بحرية بريطانية في الأيام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة: غرق طرادين وحاملة طائرات وتحطم مدمرة. خسائر المحور غرق طراد. من خطاب نهرو اليوم: "من يموت إن عاشت الهند؟" كم سيتأثر الورديون (اليساريون) - كيف سيسخرون من "من يموت إن عاشت إنكلترا؟".

١١ أبريل/ نيسان

فشلت مهمة كريبس إلى الهند أخيراً. لكن أنا لا أعتبر هذا أمراً نهائياً. أصخت السمع إلى خطاب كريبس الآتي من دلهي، والذي أعدنا بثه من إنكلترا إلخ. هذا الإرسال الذي نستمع إليه من دلهي أحياناً، هو مؤشرنا الوحيد عن الحال الذي يبدو عليه بثنا في الهند، فهو دائماً ذو نوعية سيئة، وهناك قدر كبير من الضجيج الخلفي الذي يستحيل إزالته في التسجيلات. الخطاب جيد في القسم الأول منه وصريح وصادق تماماً، لدرجة أنه سبب إهانة كبيرة كما أعتقد. في القسم المتأخر، انتقل كريبس إلى مزاج النجود ذات النسمات المبهجة. والحقيقة الغريبة أنه في المقاطع الأكثر تمجيداً في خطابه، اتضح وجود تغيير معين في نغمات صوتية مستعارة من تشرشل. وهذا قد يؤشر إلى الحقيقة التي سوف تفسر تعهده لهذه المهمة حين لم

يكن يملك إلا هذه الشروط الرديئة ليقدمها- إنه في الوقت الحاضر تحت تأثير تشرشل الشخصي كثيراً.

١٨ أبريل/ نيسان

لا شك أن خطاب كريبس سبّب إساءة كبيرة في الهند. خارج الهند أشك إن كان عدد كبير من الناس يلوم الحكومة البريطانية على تعطل المحادثات. مشكلة واحدة الآن، هي تعبيرات الأمريكيين التي تنقصها اللباقة، والذين يثرثرون منذ سنوات "بحرية الهند" والإمبريالية البريطانية، وفجأة أصبحت عيونهم مفتوحة على الحقيقة بأن الطبقة المثقفة الهندية لا تريد الاستقلال أي لا تريد المسؤولية. ألقى نهرو خطاباً استفزازياً، مغزاه أن كل الإنكليز مثل بعضهم مهما كان حزبهم إلخ إلخ. وأيضاً حاول أن يخلق مشكلة بين بريطانيا والولايات المتحدة، بادعائه أن الولايات المتحدة قامت بكل القتال الحقيقي، وفي الوقت نفسه كرر القول على فواصل أنه ليس مؤيداً لليابانيين، وأن حزب المؤتمر سوف يدافع عن الهند إلى النهاية. وبناء عليه، اختارت البي بي سي هذه المقاطع من خطاباته، وبثتها من دون ذكر المقاطع المعادية لبريطانيا، ما جعل نهرو يتشكى (على صواب تماماً) بأن خطاباته حُرِّفت وشُوِّهت. توجيه جديد أخبرنا أنه حين يحتوي أحد خطاباته على مقاطع عدائية لبريطانيا أو عدائية لليابان، فمن الأفضل تجاهلها كلها. يا لها من فوضى! لكن أعتقد إجمالاً أن مهمة كريبس كان لها أثر جيداً، لأنها أوضحت القضية من دون تشويه سمعة كريبس وتكذيبه في هذه البلاد (كما يتم ذلك بسهولة كبيرة). مهما قيل رسمياً، يبقى الاستنتاج الذي انتزعه كل العالم هو: (أ) الطبقة الحاكمة البريطانية لا تنوي التنازل؛ و(ب) الهند لا تريد استقلالاً، ولذلك لن تحصل عليه مهما كانت نتيجة الحرب.

التحدث إلى وينترينغهام (توماس وينترينغهام كاتب وجندي له مؤلفات طرق جديدة في الحرب، وسياسيات النصر، وحرب الشعب) عن الموقف الروسي المحتمل تجاه مفاوضات كريبس (طبعاً إن لم تكن في حرب ضد اليابان، فلن تستطيع اتخاذ موقف رسمي) أنا قلت ربما يجعل الأشياء أسهل بكثير لو أن أكبر عدد ممكن من المدربين العسكريين الذين سوف يُرسلون إلى الهند لاحقا، كانوا من الروس. نتيجة واحدة ممكنة، وهي أن الهند أخيراً سوف تُغزى من قبل الاتحاد السوفييتي. ولكن أنا لا أعتقد أبداً أن الروس سيتصرفون في الهند

بطريقة أفضل مما فعلنا نحن، لكنهم ربما يتصرفون بشكل مختلف، وذلك يعود إلى النظام الاقتصادي المختلف. قال وينترينغهام إنه حتى في إسبانيا يميل بعض المندوبين الروس إلى معاملة الإسبان كـ "سكان أصليين "، وسيفعلون في الهند المثل بلا شك. من الصعب جداً ألا يفعلوا، لأن أغلبية الهنود عملياً أدنى من الأوروبيين، والمرء لا يستطيع أن يتجنب الشعور بهذا، وبعد وهلة قليلة يتصرف المرء بناء على هذا.

سيتأرجح الرأي الأمريكي ويعود ويبدأ بوضع اللوم بخصوص الوضع الهندي على البريطانيين كما من قبل.

من الواضح أن ما يستطيع المرء الحصول عليه من الصحف الأمريكية، هو ذلك الشعور القوي المعادي لبريطانيا، وظهور الانعزاليين من جديد بعد اعتزال مؤقت بنفس البرنامج والشعارات السابقة. صحيفة الأب كوفلين أقصيت من البريد. الذي يرعبني دائماً حول عاطفة العداء الأمريكي لبريطانيا، هو الجهل المروع والشيء نفسه مع الشعور المعادي لأمريكا في إنكلترا.

١٩ أبريل/ نيسان

قصفت طوكيو أو يفترض ذلك أمس. حتى الآن جاء هذا الخبر من مصادر يابانية وألمانية فقط. في هذه الأيام، من المسلم به أن كل واحد يكذب، وأن تقريراً من هذا النوع لن يصدقه أحد إلى أن يؤكده كلا الطرفين. حتى اعتراف من قبل العدو بأن عاصمته قصفت، قد يكون كذبة لسبب أو لآخر.

تقول (أي- إيلين زوجة أورويل) إن أناند قال لها أمس معلقاً كما لو أن الأمر بديهي، إن بريطانيا ستعقد سلاماً منفصلاً هذا العام، وبدا متفاجئاً حين اعترضت. طبعاً الهنود يجب أن يقولوا هذا وقالوها دائماً منذ ١٩٤٠ لأنه يزودهم بعذر في حال الضرورة، لكونهم معادين للحرب، وأيضا لأنهم لو استطاعوا السماح لأنفسهم بأن يحسنوا الظن في بريطانيا، فسوف تُدمر بنيتهم العقلية. أخبرني فايفل كيف في عام ١٩٤٠ حين كان تشامبرلاين في الحكومة، كان في اجتماع حضره بريت وهنود آخرون. علق الهنود بطريقة الماركسية الزائفة "طبعاً حكومة تشامبرلاين- تشرشل توشك على عقد تسوية سلمية". عند ذلك أخبرهم بريت أن

تشرشل لن يعقد تسوية سلمية أبداً، وإن الاختلاف الوحيد (عندئذ) الموجود في بريطانيا، هو الاختلاف بين تشرشل وتشامبرلاين.

حديث متزايد عن غزو لأوروبا -لدرجة تجعل المرء يفكر أن شيئاً من هذا النوع سيحدث، وإلا فلن تخاطر الصحف وتسبب خيبة الأمل بالحديث كثيراً عنه. كل واحد تقريباً يبدو أنه مازال يفكر في أن العرفان بالجميل عامل في سياسة القوة. افتراضان يتكرران في صحافة اليسار عادة: (أ) أن فتح جبهة ثانية هو الطريق لمنع روسيا من عقد سلام منفصل؛ (ب) كلما قاتلنا أكثر، كلما حصلنا على أشياء أكثر في التسوية السلمية النهائية. عدد قليل من الناس يظنون أنه لو نجح غزو لأوروبا إلى درجة سحب الجيوش الألمانية من روسيا، فلن يظل عند ستالين دافع قوي للاستمرار في القتال، وإن خيانة من هذا النوع مشابهة ومنسجمة مع المعاهدة الروسية الألمانية والاتفاق الذي من الواضح أن الاتحاد السوفييتي دخل فيه مع اليابان.

بالنسبة إلى الافتراض الآخر: يتحدث كثير من الناس كما لو أن السلطة لتقرير سياسة لمرحلة ما بعد الفوز بالحرب، هي نوع من مكافأة، لأنك قاتلت جيداً فيها. طبعاً، إن الأشخاص القادرين فعلياً على الهيمنة على الأمور، هم هؤلاء الذين يملكون القوة العسكرية الأكبر. قارن أمريكا في نهاية الحرب الأخيرة. في الوقت الراهن هناك خطوتان اثنتان يمكن أن تصححا الوضع: (أ) اتفاق واضح مع الاتحاد السوفييتي مع تصريح مشترك (مفصل) بأهداف الحرب؛ و(ب) إن غزو إسبانيا مستحيل تماماً سياسياً في ظل الحكومة الحالية.

٢٥ أبريل/ نيسان

اعتقل طيارون أمريكيون هبطوا اضطرارياً على التراب الروسي، بعد أن قصفوا طوكيو. حسب الراديو الياباني، فإن الروس يسهلون حركة العملاء اليابانيين عبر روسيا من السويد (وبالتالي من ألمانيا) إلى اليابان. إذا كان الأمر صحيحاً، فهذا تطور جديد، لأن هذا المرور توقف منذ اللحظة التي هاجمت فيها ألمانيا الاتحاد السوفيتي. لغز سوباس شاندرا بوز في أي مكان يبقى غير قابل للاختراق.

الوقائع الرئيسية هي التالية:

١ -في زمن اختفائه، صرحت الحكومة البريطانية أنه ذهب إلى برلين.

٢- جرى بث صوت زعم وحدد بأنه له على راديو الهند الحرة (ألمانيا).

٣- زعم الراديو الإيطالي مرة أن بوز في الأراضي اليابانية.

٤- يبدو أن الهنود هنا إجمالاً يظنون أنه في أرض يابانية.

٥-إن الفرار إلى الأراضي اليابانية، سيكون مادياً أسهل من الفرار إلى جهة أخرى.

٦-تقرير فيشي عن موته في حادث طائرة بين بانكوك وطوكيو رغم أنه خطأ بالتأكيد تقريباً، لكن يبدو أنه يوحي أن الناس في مناطق فيشي سلموا بديهياً أنه في أرض يابانية.

٧-حسب مهندسين، ليس من المستحيل أن يبث صوته مرمزاً من طوكيو إلى برلين، وهناك يعاد إلى شكله الصحيح ويعيدون بثه.

هناك أراء أخرى لا تحصى وإشاعات لا نهاية لها. السؤالان اللذان يصعب الجواب عليهما هما: إن كان بوز في اليابان، فلماذا هذا الجهد الموسع لجعله يبدو أنه في برلين حيث يكون غير فعال بالمقارنة؟ إن كان بوز في ألمانيا، فكيف وصل إلى هناك؟ طبعاً من المحتمل جداً أنه وصل إلى هناك مع تستّر روسي. عندئذ يطرح السؤال التالي، إن كان الروس مرروا بوز سابقاً، فهل أخبرونا بعد ذلك حين دخلوا الحرب إلى جانبنا؟ لمعرفة الجواب على ذلك السؤال، سيعطي المرء دليلاً مفيداً إلى موقفهم منا. طبعاً لا يستطيع المرء الحصول على معلومات عن أسئلة من هذا النوع هنا. يجب على المرء أن يقوم بدعايته في الظلام، ويخرب بحذر التوجيهات السياسية حين تبدو أكثر من سخيفة عادة.

للحكم من خلال الراديو، الألمان يؤمنون في الغزو القادم إما من فرنسا أو من النرويج. ما هي فرصة الدخول إلى إسبانيا! كما ثبتوا موعداً لها (الأول من مايو/ أيار) ربما يناقشون إمكانية الغزو لكي يسخروا حين لا يحدث. لا علامة هنا لأي تحضيرات للغزو -لا إشاعات حول تجمع قوات أو قوارب أو إعادة ترتيب السكك الحديدية أو الجداول إلخ. العلامة الأكثر إيجابية، هي خطاب بيفربروك المؤيد للغزو في الولايات المتحدة.

يبدو أنه ليس هناك أخبار أياً كانت. منذ شهور لم تكن الصحف فارغة بهذا الشكل. لفت انتباهي البنية البدنية العادية والمظهر الرديء العام للجنود الأمريكيين، الذين يراهم المرء في الشارع بين الحين والآخر، لكن الضباط عادة أفضل من الجنود العاديين.

٢٧ أبريل/ نيسان

تخمينات كثيرة حول معنى خطاب هتلر الذي ألقاه يوم أمس. بشكل عام، أعطى الخطاب انطباعاً من التشاؤم. خطاب غزو بيفربروك فُسر بشكل متنوع في قيمته الظاهرية كحديث منشط للأمريكيين، وكشيء لإقناع الروس أننا لن نتركهم في مأزق، وكبداية لهجوم على تشرشل (الذي ربما أجبر على الرد بعمل دفاعي). في الوقت الحاضر، مهما قيل أو فعل، فإن المرء يبحث باستمرار عن دوافع خفية، ويفترض أن الكلمات تعني أي شيء باستثناء ما يبدو أنها تعنيه......

كلنا غارقون في القذارة. حين أتحدث إلى أي أحد أو أقرأ كتابات أي أحد لديه رأي سكين يريد فرضه على الآخرين، أشعر أن الأمانة الفكرية والحكم المتوازن اختفيا ببساطة من على وجه الأرض. إن فكر كل واحد فكر قضائي جنائي، وكل واحد يفترض "قضية" ويقمع بشكل متعمد وجهة نظر خصمه مع تبلد تام لأي عذابات ماعدا عذاباته هو وأصدقاؤه. القومي الهندي غارق حتى القاع في الإشفاق على الذات وكره بريطانيا، وغير مبال تماماً بالبؤس في الصين. والسلمي الإنكليزي يحمس نفسه إلى نوبات جنون حول معسكرات الاعتقال في جزيرة الإنسان، وينسى هؤلاء الذين في ألمانيا إلخ إلخ. يلاحظ المرء هذا في حالة الناس الذين يختلف معهم كالفاشيين أو السلميين مثلاً، لكن في الحقيقة كل واحد لديه آراء واضحة ومحددة. كل واحد كاذب وكل واحد متحجر الفؤاد تماماً نحو الناس الذين هم خارج مدى اهتمامه وتعاطفه المباشر. اللافت أكثر من أي شيء، هو الطريقة التي يشغل بها التعاطف ويعطله مثل صنبور وفقا للحيل والذرائع السياسية. كل الورديين أو أغلبهم الذين يقذفون بأنفسهم إلى الأمام والخلف في غضبهم الهائج ضد الأعمال الوحشية النازية قبل الحرب، نسوا كل شيء حول هذه الأعمال الوحشية، ومن الواضح أنهم فقدوا تعاطفهم مع اليهود إلخ إلخ حالما بدأت الحرب تضجرهم. الشيء نفسه مع الناس الذين كرهوا روسيا مثل السم إلى ٢٢ يونيو/ حزيران ١٩٤١ ثم فجأة نسوا أعمال التطهير والجي بي يو، في اللحظة التي دخلت فيها روسيا الحرب. أنا لا أفكر في الكذب لغايات سياسية، وإنما بالتغييرت الفعلية في الشعور الشخصي. لكن هل لا يوجد أحد لديه رأي ثابت وقوي ووجهة نظر متوازنة؟ في الواقع هناك الكثير، لكنهم عاجزون وبلا أية سلطة. كل السلطة في أيدي المصابين بجنون الاضطهاد.

٢٩ أبريل/ نيسان

يوم أمس ذهبت إلى البرلمان لأسمع مناقشة وضع الهند. إنه عرض بائس باستثناء خطاب كريبس. هم الآن يجلسون في مجلس اللوردات. خلال خطاب كريبس، يتكون لدى المرء انطباع بأن المجلس مملوء، لكن عند تبدأ العد لا تجد سوى ٢٠٠ أو ٢٥٠ عضواً يكفون لملء أغلب المقاعد. كل شيء له منظر رث. وسائد حمراء على المناضد -أستطيع أن أقسم إنها كانت حمراء مترفة جداً في الماضي. مقدمة قمصان البوابين والحجاب قذرة جداً. حين رأيت هذا الهراء الكئيب يتواصل أو حين قرأت عن الأيام الأخيرة لعصبة الأمم، أو تهريج السياسيين الهنود مع تغييرهم المستمر لجبهاتهم واصطفافاتهم وسياساتهم واتهاماتهم واحتجاجاتهم وإيماءاتهم عموماً، أتذكر دائماً مجلس الشيوخ الروماني الذي وجد في آخر إمبراطورية. هذا انحطاط للديمقراطية البرلمانية، وهذه المخلوقات مجرد أشباح تثرثر في زاوية ما، بينما الأحداث الحقيقية تجري في مكان آخر.

٦ مايو/ أيار

لا يبدو أن الناس راضون عن مدغشقر (غزا الحلفاء المستعمرة الفرنسية ذات الأهمية الاستراتيجية التي تؤيد بيتان) كما فعلوا بخصوص سوريا (في عام ١٩٤١ أوشك الألمان على احتلال سوريا واتخاذها قاعدة جوية، فاستردها الحلفاء من فيشي الفرنسية، واحتفظوا بها إلى نهاية الحرب) ربما لم يستوعبوا جيداً مغزاها الاستراتيجي، لكن الأكثر في اعتقادي كان بسبب الحاجة إلى دعاية مناسبة معززة مسبقاً. في حالة سوريا، فإن وضوح الخطر والقصص المستمرة عن التسلل الألماني والشك الطويل إن كانت الحكومة ستتصرف، أعطى الناس الانطباع أن الذي فرض القرار هو الرأي العام. وحسب معرفتي ربما كان الأمر كذلك إلى حد ما. لا يوجد أي تحضير مماثل في هذه الحالة. حالما أصبح من الواضح أن سنغافورة كانت في خطر، أشرتُ إلى أننا قد نضطر إلى الاستيلاء على مدغشقر، والأفضل البدء بتعزيز صحفنا الإخبارية الهندية. لقد تعرضت للكبت إلى هذا الوقت، ومنذ عدة أسابيع أتت توجيهات أعتقد من وزارة الخارجية، أن مدغشقر كان يجب ألا تذكر. السبب المعطى (بعد نزول القوات البريطانية) "لكي لا نكشف سر العرض". النتيجة، فإن الهجوم على مدغشقر، يمكن أن يمثل في كل أرجاء آسيا كجزء من اغتصاب إمبريالي.

رأيت امرأتين تقودان عربة مربية أطفال قديمة الطراز اليوم (عربة يجرها حصانان). منذ أسبوع أو اثنين رأيت رجلين في عربة يجرها حصانان، وأحد الرجلين يرتدي قبعة مستديرة رمادية.....

٨ مايو/ أيار

حسب ما جاء عن إف جيه وربرغ، سيوقع حلف أنغلوروسي والمندوبون الروس في لندن مسبقاً.

أنا لا أصدق هذا.

الراديو التركي (منذ بعض الوقت، في اعتقادي، كان المصدر الأفضل الموثوق للمعلومات) يزعم أن الألمان والروس يستعدون لاستخدام الغاز السام في المعركة القادمة.

معركة بحرية كبيرة جداً تدور في بحر الكورال (المرجان). حوادث الغرق التي ادعاها الطرفان كبيرة جداً، لذلك لا يعرف المرء من سيصدق منهما. لكن من استعداد ورغبة الراديو الياباني للحديث عن المعركة (لقد سموها مسبقاً معركة بحر الكورال) فالافتراض هو أنهم يعولون على تحقيق هدفهم........

١١ مايو/ أيار

إنذار آخر بالغاز (في خطاب تشرشل) ليلة أمس. أعتقد أننا سوف نستخدمه قبل أن تمر أسابيع كثيرة.

من نشرة إذاعية يابانية: "لكي تحقق العدالة للروح الوطنية عند الكوريين، قررت الحكومة إدخال التجنيد الإجباري في كوريا".

تاريخ الغزو الألماني لبريطانيا حسب الإشاعات: ٢٥ مايو/ أيار.

رأيت كريبس يوم الأربعاء، وهي أول مرة أتكلم معه في الواقع. كان الانطباع جيداً نوعاً ما. كان التحدث إليه سهلاً ومريحاً أكثر مما توقعت، وكنت مستعداً تماماً للرد على الأسئلة. رغم عمره البالغ ثلاثة وخمسين عاماً، فإن بعضاً من حركاته شبه صبيانية. من جانب آخر له أنف أحمر بلا ريب.

رأيته في واحدة من غرف الاستقبال أو مهما كان اسمها خارج مجلس اللوردات. طبعات قديمة ممتعة على الجدران، وتيجان على المقاعد وعلى منافض السجائر، لكن كل شيء في منظر فاسد بشكل غامض تملكه كل المنشآت البرلمانية الآن. قافلة من الناس الذين يصعب تصنيفهم، ينتظرون ليروا كريبس. بينما انتظرت لأحاول التكلم مع سكرتيره، خطرت ببالي عبارة أتذكرها دائماً في تلك المناسبات "يرتجف في غرفة انتظار" في السير الذاتية في القرن الثامن عشر، تقرأ دائماً عن أشخاص ينتظرون رعاتهم ورؤساءهم و"يرتجفون في غرف الانتظار". في واحدة من تلك العبارات الجاهزة مثل "لا تترك حجراً من دون أن تقلبه"، ولكن كم صحيح هذا حالما تصل إلى أي مكان قريب من السياسة، أو حتى الصنف الأغلى ثمناً من الصحافة. كريبس يعتبر أن بوز في الأراضي الألمانية. يقول إن المعروف أنه خرج عبر أفغانستان. سألته ما رأيه ببوز (الذي كان يعرفه جيداً)، ووصفه "ببيضة فاسدة بالكامل". قلت هناك شك قليل أنه مؤيد شخصي للفاشية. كريبس: "هو مؤيد لصبهاس. ذلك كل ما يهتم به. هو لن يفعل أي شيء يعتقد أنه سيساعد سيرته طويلاً".

أنا لست متأكداً من الدليل أن بث بوز الإذاعي كان بهذا الشكل. قلت إنني أعتقد أن بضعة هنود قليلين كانوا معادين للفاشية بشكل موثوق. كريبس يخالف الجيل الأصغر سناً. قال إن الشيوعيين الصغار والاشتراكيين اليساريين معادون مخلصون للفاشية، ولديهم فهم غربي للاشتراكية والأممية. دعنا نأمل أن الأمر هكذا.

١٩ مايو/ أيار

لم يذكرني اتلي بشيء أكثر من سمكة ميتة حديثاً قبل أن يمر عليها الوقت لتيبس.

٢١ مايو/ أيار

قيل إن مولوتوف في لندن. أنا لا أصدق هذا.

٢٢ مايو/ أيار

قيل إن مولوتوف ليس في لندن فقط، بل أن المعاهدة الأنغلو روسية وقعت مسبقاً. هذا يأتي من وربيرغ الذي يكون متفائلاً جداً ومتشائماً جداً بالتناوب - في أي حال هو يؤمن بالتغييرات الضخمة المثيرة. إن كان الخبر صحيحاً، فسيكون مصادفة سعيدة غير متوقعة من

أجل ملء رسالتي الإخبارية. بات من الصعب أكثر فأكثر أن تجد أي شيء تضعه داخل هذه (الرسائل) مع لا شيء يحدث باستثناء على ما يجري على الجبهة الروسية، والأخبار من هناك إن كانت من مصادر روسية أم ألمانية، فإنها تتزايد دجلاً أكثر فأكثر. أتمنى لو أستطيع أن أخصص أسبوعاً لأراجع البث الروسي والألماني في السنة الماضية، وأجمع مزاعمهم المتنوعة. يجب أن أقول إن الألمان يفترض أنهم قتلوا عشرة ملايين رجل، والروس تقدموا إلى مكان ما جيد خارج المحيط الأطلسي.......

٢٢ مايو/ أيار

إشاعات أكثر أن مولوتوف في لندن. أيضاً فقرات موجزة في الصحف، توحي أن الأمر يمكن أن يكون هكذا (من دون ذكر أسماء طبعاً).

٣٠ مايو/ أيار

كل يوم في جوار ريجنت ستريت تقريباً، يرى المرء يابانياً كهلاً أصفر جداً وصغيراً جداً مع وجه مثل وجه سعدان مريض يتعذب، يمشي ببطء إلى الأمام مع شرطي ضخم يمشي بجانبه، وفي بعض الأيام يعقدان محادثة رزينة. أعتقد أنه واحد من أركان السفارة. لكن لا أعرف إن كان الشرطي هناك ليمنعه من ارتكاب أعمال تخريب، أم لحمايته من الغوغاء الهائجة.

يبدو أن إشاعة مولوتوف، قد هدأت ورببرغ، الذي قبل قصة مولوتوف، من دون أي شك، نسيها الآن، وامتلأ بقصة داخلية عن سبب طرد غارفين من الأوبزيرفر. والسبب كان رفضه مهاجمة تشرشل. كل الأستوريين مصممين أن يتخلصوا من تشرشل، لأنه مؤيد للروس، وتغيير الأوبزيرفر جزء من هذه المناورة. يجب على الأوبزيرفر أن تقود الهجوم على تشرشل، وفي الوقت نفسه أن تشق الصحفيين الموهوبين الصغار القادرين على أن يعطوا الحرب معنى ثورياً، وجعلهم يستخدمون طاقتهم على العبثيات، إلى أن يمكن التخلص منهم. كل شيء محتمل بشكل طبيعي. من جانب آخر، أنا لا أعتقد من ديفيد أستور الذي يتصرف مثل الفيل الواقع في شرك، أن يشارك عن قصد في أي شيء كهذا. من المسلي ألا ترى سوى صحافة ببفربروك التي ليست مَلَكية أكثر من الملك بما يخص روسيا، أما أسبوعية نقابة العمال ليبور نورذيرن فويس، فقد اكتشفت فجأة أن غارفين معادٍ مشهور للفاشية، وأنه طُرد بسبب آرائه المتطرفة. (جيه إل

غارفين، صحفي يساري ورئيس تحرير الأوبزيرفر في بداية الحرب. حين كان في عمر متقدم، اختلف مع الفيسكونت أستور، مالك الصحيفة حول ملائمة تشرشل أن يكون رئيس وزراء، وبنفس الوقت وزيراً للدفاع -اللورد أستور شكك بصواب هذا. جعل اللورد أستور ابنه الثاني المبجل ديفيد أستور مساهماً ثانوياً في الجريدة، ورغم أن ديفيد أستور أمضى الحرب في مشاة البحرية، إلا أن له صوتاً في شؤون الجريدة. في نهاية الحرب، حوّل إل أستور الجريدة إلى تروست. أصبح ديفيد أستور محرر الشؤون الخارجية، ثم رئيس التحرير. التقى بأورويل في بداية الحرب، وبقيا صديقين حتى وفاة أورويل).

شيء واحد يلفت انتباه كل شخص في هذه الأيام، وهو النقص في ذكرياتهم. أخبرني ميزموند هوكينز (روائي وناقد أدبي ومذيع في البي بي سي) منذ فترة قصيرة، أنه جلب مؤخراً بعض السمك المقلي ملفوفاً في ورقة جريدة يعود تاريخها إلى عام ١٩٤٠. على أحد أطرافها مقالة تثبت أن الجيش الأحمر لم يكن جيداً. وعلى الجهة الأخرى تقرير مفصل عن ذلك البحار الشهم المشهور المحب للإنكليز الأدميرال دارلان. (الأدميرال دارلان، ضابط بحرية فرنسي وسياسي. كان آمر القوى البحرية الفرنسية حتى سقوط فرنسا في مايو/ أيار ١٩٤٠. أصبح وزير البحرية في حكومة بيتان، وكان الثاني في الوزارة بعد بيتان. اغتاله شاب فرنسي معادٍ للفاشية في الجزائر في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٢).

٤ يونيو/ حزيران

طقس حار جداً. تدهشني عادية الأشياء ونقص الاستعجال وقلة في البزات النظامية ومظهر عام غير حربي لمجموعات تندفع ببطء عبر الشوارع، وهي تدفع عربات أطفال، أو تتسكع في الساحات لتنظر إلى شجيرات الزعرور البري. من الملاحظ سلفاً أن هناك سيارات أقل أيضاً. هنا وهناك سيارة مع محول وقود في الخلف، لها مظهر عربة حليب قديمة الطراز. من الواضح أنه لا يوجد بترول مهرب كثير أخيراً.

٦ يونيو/ حزيران

مازالت إشاعة مولوتوف مستمرة. كان هنا للتفاوض على معاهدة، ورجع إلى بلاده كما قيل، لكن لا توجد أية إشارة أو تلميح في الصحف.

قيل إن هناك خلافاً كبيراً حول إدارة النيوستيتهان على قضية الجبهة الثانية. بعد سنة كاملة من الصراخ بأن علينا أن نفتح جبهة ثانية فوراً، همد كنغزلي مارتين وسكت (صحفي يساري ورئيس تحرير النيوستيتهان). يقول إن العدو لا يمكن الوثوق به، والجنود سيقتلون ضباطهم من وراء ظهورهم.. إلخ. هذا بعد محاولته طوال الحرب أن يجعل الجنود لا يثقون بضباطهم. في الوقت الراهن، أعتقد الآن أن هناك جبهة ثانية متوقعة بلا ريب، هذا إن توفر شحن كافٍ.

٧ يونيو/ حزيران

فترت همة وحماس السنداي إكسبريس. يبدو الخط الرسمي الآن يتجه إلى أن غاراتنا الجوية هي جبهة ثانية. من الواضح أن هناك نشرة تعليهات من الحكومة تخبر الصحف أن تسكت عن هذا الموضوع.

إذا رغبت الحكومة في أن توقف الصحف من نشر إشاعات مضللة، فلماذا لم يتم إسكاتها في وقت مبكر أكثر. من الممكن أنه تم تقرير الغزو الآن بالتأكيد، وطلب من الصحف أن تكون ضد الجبهة الثانية لكي تخدع العدو. في هذه المتاهة من الأكاذيب التي نعيش فيها، فإن التفسير الوحيد الذي لا يصدقه المرء أبداً، هو التفسير الواضح. قارن قصة ديفيد أستور عن لقاء اليهود الألمانيين في القطار:

اليهودي الأول: إلى أين أنت ذاهب؟

اليهودي الثاني: إلى برلين.

اليهودي الأول: كذاب! تقول ذلك لتخدعني فقط. أنت تعرف أنك إن قلت أنا ذاهب إلى برلين، فسأعتبر أنك ذاهب إلى لايبزغ. وأنت طول الوقت، أيها المحتال القذر، مصمم على الذهاب إلى برلين حقاً!"

الثلاثاء الماضي أمضيتُ مساء طويلاً مع كريبس (الذي عبر عن رغبته في مقابلة بعض الأدباء) ومع إيمبسون وجاك كومون وديفيد أوين ونورمان كاميرون وغاي بيرغيس ورجل آخر (مسؤول) لم أحصل على اسمه. استمر اللقاء حوالي ساعتين ونصف من دون أي شيء نشربه. إنه النقاش غير الحاسم المعتاد. على كل، فإن كريبس إنساني جداً ومستعد للاستماع. الشخص الذي واجهه كان جاك كومون. قال كريبس أشياء عديدة أذهلتني وأرعبتني قليلاً.

إحداها كان أن أشخاصاً كثيرين من الذين يعتبر رأيهم جديراً بالاعتبار، يعتقدون أن الحرب ستنتهي في أكتوبر/ تشرين الأول، أي أن ألمانيا ستدمَّر في ذلك الوقت. حين قلت إنني يجب أن أنظر إلى ذلك على أنه كارثة خالصة وبسيطة (لأنه إن تم الفوز بالحرب بهذه السهولة، فلن يكون هنا ثوران، وسيظل الأغنياء الأمريكيون في وضع طبيعي) يبدو أنه لم يفهم. قال إنه بمجرد أن يتم الفوز بالحرب فإن القوى الناجية العظمى سوف تدير العالم كوحدة، وبدا أنه لا يشعر أن هناك فرقاً كبيراً إن كانت القوى العظمى رأسمالية أو اشتراكية. ديفيد أوين والرجل الذي لم أعرف اسمه أيداه. رأيت أنني كنت ضد العقل الرسمي الذي يرى كل شيء عبارة عن مشكلة في الإدارة، ولا يفهم في نقطة محددة، أي أنه حين تهدد المصالح الاقتصادية فإن الروح الشعبية تتوقف عن القيام بوظيفتها. الفرضية الأساسية لمثل هؤلاء الناس أن كل واحد يريد العالم أن يعمل بشكل صحيح ومناسب، وسيبذل أقصى جهده للحفاظ على دوران العجلات. هم لا يدركون أن أغلب هؤلاء الذين يمتلكون السلطة والقوة، لا يكترثون البتة بالعالم ككل، وأن اهتمامهم الوحيد هو زيادة أموالهم الخاصة بهم.

لا أستطيع تحاشي الشعور بانطباع قوي أن كريبس رُشي مسبقاً ليس بالمال أو أي شيء من هذا النوع طبعاً، ولا حتى بالمداهنة والإحساس بالقوة التي في كل الاحتمالات هو لا يكترث بها بالأصل: لكن بمجرد المسؤولية التي تجعل الرجل رعديداً بشكل آلي. بالإضافة إلى ذلك، فحالما تكون في السلطة يقصر مدى مناظيرك. ربما تُشوه رؤية عين الطائر مثل رؤية عين الدودة....

١٠ يونيو/ حزيران

المرة الوحيدة التي يسمع المرء فيها أناساً يغنون في البي بي سي هي في الصباح الباكر بين الساعة السادسة والثامنة، وذلك هو الوقت الذي تعمل فيه الخادمات النهاريات؛ حيث يصل جيش ضخم منهن بنفس الوقت، فيجلسن في صالة الاستقبال ينتظرن مكانسهن التي توزع عليهن، ويثرن ضجيجاً كضجيج ببغاء في البيت، ومن ثم يشكلن فرقاً رائعة تغني معاً. يكنسن الممرات ويصبح للمكان جو مختلف في هذا الوقت عن كل الأوقات اللاحقة من اليوم.

١١ يونيو/ حزيران

أعلن الإمام في الراديو أن ساكني قرية ليديس التشيكية (١٢٠٠ ساكن تقريباً) كانوا مذنبين بإيواء قتلة مأجورين من هايريتش، فقاموا بقتل كل الذكور في القرية، وأرسلوا النساء إلى معسكرات الاعتقال، فيما أرسلوا كل الأطفال من أجل "تعليمهم وتربيتهم من جديد. كما جرفوا كل بيوت القرية وسووها بالأرض وبدلوا اسمها. أنا أحتفظ بنسخة من الإعلان حين سجل في تقرير البي بي سي الصباحي. لم يفاجئني بشكل خاص أن يفعل الناس هذا النوع من الشيء، ولا حتى أنهم يعلنون جهاراً أنهم يفعلونه، لكن الذي يؤثر بي هو أن رد فعل الناس الآخرين على مثل هكذا أحداث، محكوم فقط بالموضة السياسية اللحظية. وهكذا، قبل الحرب كان الورديون يصدقون كل قصة رعب خرجت من ألمانيا أو الصين، والآن لم يعد الورديون يصدقون الأعمال الوحشية الألمانية أو اليابانية، وحذفوا بشكل آلي كل قصص الرعب، واعتبروها "دعاية". وبعد وقت قصير سوف يُسخر منك إذا قلت إن قصة ليديس يمكن أن تكون صحيحة. وعلى الرغم من أن الحقائق موجودة، فقد أعلن الألمان عنها بأنفسهم، وسُجلت على أقراص الحاكي، ومازالت متوفرة بلا شك. قارن قائمة الأعمال الوحشية الطويلة من عام ١٩١٤ فصاعداً، الأعمال الوحشية الألمانية في بلجيكا، والأعمال الوحشية البلشفية، والأعمال الوحشية التركية، والأعمال الوحشية البريطانية في الهند، والأعمال الوحشية الأمريكية في نيكاراغوا، والأعمال الوحشية النازية، والأعمال الوحشية الإيطالية في إثيوبيا وسيرناسيا، والأعمال الوحشية للحمر والبيض في إسبانيا، والأعمال الوحشية اليابانية في الصين- كل حالة تصدق أو لا تصدق حسب الميول السياسية مع عدم اهتمام مطلق بالحقائق، ومع استعداد تام لتبديل معتقدات المرء فور تبدل المشهد السياسي.

الأعمال الوحشية (بعد ١٩١٨)

التاريخ يصدقه اليمين واليسار

١٩٢٠ الأعمال الوحشية التركية (سميرنا).

أعمال سين فين الوحشية. أعمال بلاك أند تان الوحشية البلشفية، والأعمال الوحشية البريطانية في الهند (أرميستار).

١٩٢٣ الأعمال الوحشية الفرنسية (الرور).

١٩٢٨ الأعمال الوحشية الأمريكية (نيكاراغوا) (؟)

١٩٣٣ الأعمال الوحشية البلشفية (مجاعة أوكرانيا).

١٩٣٩-٤٣ الأعمال الوحشية النازية.

١٩٣٥ الأعمال الوحشية الإيطالية (إثيوبيا وسيرناسيا).

١٩٣٦-٩ أعمال الحمر الوحشية، وأعمال الفاشيين الوحشية في إسبانيا.

١٩٣٧ الأعمال الوحشية البلشفية، والأعمال الوحشية اليابانية (التطهير العرقي) (نانكينغ).

١٩٣٩ أعمال وحشية ألمانية، وأعمال وحشية بريطانية (اس اس دنيرا إلخ).

١٩٤١ أعمال وحشية يابانية.

١٣ يونيو/حزيران

الحقيقة الأكثر تأثيراً حول زيارة مولوتوف، هي أن الألمان لا يعرفون شيئاً عنها. لم تذكر كلمة واحدة في الراديو حول حضور مولوتوف إلى لندن، إلى أن أعلن رسمياً عن توقيع المعاهدة، لكن الراديو الألماني كان يصرخ طوال الفترة عن بلشفة بريطانيا. من الواضح أنهم كانوا سيكشفون السر لو عرفوا به فعلياً. وبحساب الأشياء المترابطة الأخرى (مثلاً أسر جواسيس هواة في العام الماضي أسقطوا بالمظلات مع أجهزة بث لاسلكية محمولة ومع قطع من السجق الألماني في حقائبهم). هذا يوحي أن النظام الجاسوسي الألماني في هذه البلاد، غير جاهز وغير قادر على الكثير....

١٥ يونيو/ حزيران

من تقرير لإذاعة البي بي سي.

براغ تحت الوصاية الألمانية. ١٠-٦-٤٢ انتقام هايدنش: قرية جرى مسحها من الوجود: قتل كل الرجال رمياً بالرصاص:

إعلان.

أعلن رسمياً: أن البحث والتحقق من قتلة الجنرال هايدريتش من الإس إس (القوة الشرطية النازية) أثبتت إشارات لا تقبل الشك أن سكان ليديس المحليين قرب كاندو، قد أيدوا ودعموا وقدموا المساعدة إلى دائرة المتآمرين المعنيين. بالرغم من استجواب السكان المحليين، إلا أن وسائط الدليل الوثيقة الصلة كانت مصانة من دون مساعدة السكان. إن موقف السكان من الهجوم الوحشي ظاهر جداً، وتؤكده أعمال أخرى معادية للرايخ، مثل اكتشاف مواد مطبوعة معادية للرايخ، ومخازن ذخيرة وأسلحة، وأجهزة إرسال لاسلكية غير شرعية، وكميات ضخمة من بضائع ممنوعة، وأيضاً بحقيقة أن سكان المحلة في خدمة وكالة فعالة معادية في الخارج. بما أن سكان هذه القرية انتهكوا القوانين الصادرة بشكل فاضح بنشاطهم ودعمهم الذي قدموه لقتلة أوبرغروبين فوهرر هايدريتش، فقد تم إعدام الذكور البالغين رمياً بالرصاص، وإرسال النساء إلى معسكرات الاعتقال، وتسليم الأطفال إلى سلطات تعليمية مناسبة، كما سويت أبنية القرية بالأرض، وتم إلغاء اسمها أيضاً.

ملاحظة: هذا تكرار باللغة الألمانية مطابق لإعلان باللغة التشيكية من براغ، الساعة التاسعة عشرة حين كان الاستقبال رديئاً جداً......

لا شك الآن أن الجبهة الثانية قد أقرت. كل الصحف تتحدث عنها كشيء مؤكد، وموسكو تعلنها بشكل واسع. إن كانت عملية ومعقولة حقاً، فهذا يبقى قيد الانتظار طبعاً.

٢١ يونيو/ حزيران

الشيء اللافت في البي بي سي - هو بوضوح نفس الشيء في أقسام أخرى مختلفة- ليست القذارة الأخلاقية الكثيرة والعقم الجوهري لما نقوم به، بقدر ما يكون الشعور بالإحباط واستحالة عمل أي شيء حتى ولو قطعة ناجحة من النذالة. سياستنا مشتتة جداً والتشوش كبير جداً، وهناك تغييرات كثيرة جداً في الخطة، وخوف من الذكاء وكره شامل جداً له، لذلك لا يستطيع المرء أن يخطط أي نوع من حملة إذاعية أياً كان نوعها. حين يخطط المرء سلسلة من الأحاديث مع خط دعائي محدد تقريباً خلفها، يقال له تابع، وتقدم في الأول ثم يخنق على أساس أن هذا أو ذاك "طائش" أو "ليس في وقته"، ثم يقال له ثانية تابع، ثم يقال له أن تخفف تركيز كل شيء، وتتوقف عن أي تعبير واضح قد يتسلل هنا أو هناك، ثم يقال له أن "يعدل" السلسلة بطريقة ما لدرجة تزيل معناها الأصلي. وفي اللحظة الأخيرة يلغى

الشيء كله فجأة بمرسوم وأمر غامض من الأعلى، ويقال للمرء أن يرتجل سلسلة مختلفة لا يشعر المرء أي اهتمام بها، والتي في أي حال ليس لها فكرة محددة خلفها. يتظاهر المرء باستمرار بمجرد هراء بسبب امتلاك أحاديث تبدو ذكية جداً وتلغى في اللحظة الأخيرة. بالإضافة إلى ذلك، فإن هناك في المنظمة موظفين زائدين لدرجة أن هناك عدداً من الأشخاص ليس لديهم أي عمل حرفياً. لكن حتى حين ينجح المرء في الحصول على شيء جيد نوعاً ما على الهواء، فإن ما يقله هي معرفته بعدم وجود أحد يستمع إليه. باستثناء أوروبا كما أعتقد، لا أحد يستمع إلى البي بي سي في ما وراء البحار، وهي حقيقة معروفة لكل شخص مهتم بالبث وراء البحار. أجريت بعض بحوث إصغاء في أمريكا، ومعروف أنه لا يوجد سوى ٣٠٠ ألف شخص في الولايات المتحدة كلها يستمعون إلى البي بي سي. وفي الهند أو أستراليا لن يكون العدد قريباً من ذلك أبداً. وتبين مؤخراً (أي ستتان بعد أن بدأت الخدمة الإمبراطورية) أن الكثير من الهنود لا يعرفون أن البي بي سي تبث للهند على موجات الراديو القصيرة.

الأمر نفسه مع النشاط الشعبي الوحيد الآخر الذي أشارك فيه، الحرس الوطني. بعد سنتين لم يجر أي تدريب حقيقي، ولم تنفذ أي تكتيكات خاصة، ولم تثبت أي مواقع قتالية، ولم تُبْنَ أي تحصينات- كل شيء خاضع إلى تغييرات لانهاية لها من الخطط وغموض تام بالنسبة إلى ما يفترض أنه هدفنا. تفاصيل المنظمة ومواقع القتال تتبدل بشكل متكرر جداً، لذلك لا أحد يعرف في أية لحظة ما هي التدابير الراهنة المفترضة. سأعطي مثالاً واحداً: ظلت كتيبتنا تحاول حفر شبكة من الخنادق في ريجينت بارك لأكثر من سنة في حال إنزال قوات محمولة جواً هناك. وعلى الرغم من أننا حفرنا مرات كثيرة، إلا أن هذه الخنادق لم تكن في حالة تامة أبداً، إذ بعد أن نكمل نصف العمل، تكون هناك دائماً تغييرات في الخطة وأوامر جديدة ثم تبديل آخر، وهكذا بشكل غير محدود. لا شيء يحدث أبداً باستثناء العمل العصبي والاضطراب المستمر الناتج عن خيبات أمل متوالية شاملة. أفضل ما يستطيع المرء تمنيه، هو أن يكون الأمر نفسه على الجانب الآخر.

٢٤ يونيو/ حزيران

استمعتُ ليلة أمس إلى اللورد هاو-هاو -ليس جويس الذي يبدو أنه انقطع عن الهواء لبعض الوقت، وإنما رجل بدا لي كأنه جنوب أفريقي، ثم تلاه رجل آخر ذو لهجة كوكنية

أكثر. كان هناك قدر جيد حول حركة مؤتمر الهند الحرة في بانكوك، لكني دهشت حين لاحظت أن الأسماء الهندية كلها لُفظت بشكل خاطئ جداً - مثال راس بيهاري بوز تحول إلى راس بيري بوز، على الرغم من توفر كل الهنود الذين يثون من ألمانيا للنصح في هذه النقاط. ربما هم يدخلون ويخرجون من نفس البناء كما اللورد هاوهاو كل يوم، لكن من المشجع قليلاً أن ترى هذا النوع من القذارة يحدث على الجانب الآخر أيضاً.

(راس بيهاري بوز، قومي هندي عمل من أجل استقلال بلاده منذ ١٩١١ كان مسؤولاً عن تنظيم حركات إرهابية. وفي عام ١٩١٥ ذهب إلى اليابان ليعبئ دعماً آسيوياً لعصبة استقلال الهند التي نظمت الجيش الهندي الأممي. في عام ١٩٤٣ انتقلت قيادة الجيش إلى سوباهس شاندرا بوز).

٢٦ يونيو/ حزيران

كل واحد بدا انهزامياً جداً بعد قضية ليبيا (في ٢٠ يونيو/ حزيران سقطت طبرق بيد الألمان، وشكلت نكسة للحملة الشمال أفريقية). بردت بعض الصحف بخصوص الجبهة الثانية مرة أخرى. توم دريبيرغ (وليلام هيكي) ربح الانتخابات الفرعية مسجلاً ضعف أصوات المرشح المحافظ. هذه رابع مرة من أصل آخر ست انتخابات تخسرها الحكومة.

١ يوليو/ تموز

في كالو ايند، وركس (مقيم في مزرعة). لا ضجيج سوى الطائرات والطيور وجزازات العشب التي تقص القش. لا ذكر للحرب باستثناء الإشارة إلى الأسرى الإيطاليين الذين يعملون في بعض المزارع، والذين كما يبدو أنهم اعتبروهم عمالاً جيدين ومن أجل قطف الفاكهة، وهم يفضلون على أهالي البلدات الآتين من ورسيستر، ووصفوا بـ "البارعين" بالرغم من صعوبات الإطعام، توجد وفرة من الخنازير والدواجن والإوز والديوك الرومية في المتناول، والزبدة في كل وجبة في هذا المكان.

قاذفات ضخمة فوق رؤوسنا طوال اليوم. أيضاً تقوم طائرات بأشياء غير عادية، مثل جر طائرات أخرى بسلك (ربما طائرات شراعية؟) أو تحمل طائرات أصغر على ظهورها.

٣ يوليو/ تموز

فشل تصويت توجيه اللوم ب ٤٧٥-٢. هذا الرقم يعني أن هنالك حالات امتناع قليلة جداً. نفس الخدعة كالعادة -تحول النقاش إلى طلب تصويت ثقة في تشرشل نفسه الذي يجب أن يُعطى ذلك له، حيث لا يوجد أحد يأخذ مكان تشرشل. يمكن جعل الأمور أسهل على الحكومة بواسطة الدوافع السيئة الواضحة لمهاجميها الرئيسيين كـ هور-بيليشا مثلاً. أنا لا أعرف إلى متى يمكن أن تستمر هذه الكوميديا، لكن ليس لفترة أطول. (ليزيل هور بيليشا، عضو برلمان ووزير حرب، طرده تشامبرلاين، وبقي بلا منصب في عهد تشرشل).

ليس هناك أية إشارة حول الجبهة الآنية في خطاب تشرشل.

من الواضح أن اليابانيين سيهاجمون روسيا قريباً جداً. يبدو أنهم مستقرون بقوة في اللوشيان الخارجي، الذي لا يمكن فهمه إلا كحركة لقطع الاتصالات بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية.

الورديون يقتلهم الذعر، لدرجة أنهم لم يتعادلوا منذ دونكيرك. مقالة النيوستيتمان الأهم معنونة بالتالي: "مواجهة الشبح". اعتبروا خسارة مصر أمراً بديهياً. يعرف الرب إن كان هذا سيحدث فعلياً، لكن هؤلاء الناس تنبؤوا بخسارة مصر مراراً وتكراراً من قبل، لدرجة أن عملهم هذا مرة أخرى يكفي لإقناع المرء بأنه لن يحدث. الغريب أنهم كيف يعملون دائماً ما يريد الألمان منهم أن يفعلوه - مثال: لفترة من الوقت في الماضي طالبوا أن نوقف الغارات على ألمانيا، ونرسل قاذفاتنا إلى مصر. قبل ذلك بقليل كنا نرسل قاذفاتنا إلى الهند. على كل حال، إنها نفس الحركة التي تطالب بها محطات ألمانيا "الحرة". شيء آخر يلفت انتباهي أيضاً، وهو الترفع الهوائي الذي يتحدث فيه كل الورديين عن غاراتنا الجوية على ألمانيا -غارات جوية لا تحقق سوى تأثير بسيط إلخ إلخ. وهؤلاء هم الناس الذين كانوا يزعقون بأعلى الأصوات أثناء الغارات الجوية على لندن.....

١٠ يوليو/ تموز

منذ يوم أو يومين وصلت شاحنتان تعودان للبحرية مع فريق من الخدمة البحرية الملكية النسائية، وبحارة أمضوا عدة ساعات من العمل في إزالة اللفت من حقل السيد فيليب. كل

نساء القرية ابتهجن بمنظر البحارة في سراويلهم الزرقاء وقمصانهم البيض. "ألا يبدون نظيفين! أنا أحب البحارة. هم يبدون نظيفين دائماً". البحارة وخدمة البحرية الملكية النسائية، بدوا أيضاً مستمتعين بوجودهم في الخارج وبالشراب في الحانة بعد ذلك. بدا أنهم ينتمون إلى منظمة تطوعية ترسل عمالاً إلى الأماكن المحتاجة.

شرح السيد الأمر قائلاً: "إنها منظمة تطوعية من مالفيرن، وهي ترسل الخدمة المحلية الثانوية (الفرع النسائي في الجيش) أحياناً، وأحياناً أخرى ترسل بحارتها. طبعاً نحن نحب أن يعملوا لدينا. حسناً هذا يجعلك مستقلاً قليلاً بعمالك الخاصين بك كما ترى. إن العمال بغيضون في هذه الأيام. يعرفون أنك لا تستطيع الاستغناء عنهم. ولا تستطيع أيضاً أن تجد امرأة تقوم لك بالعمل داخل البيت في هذه الأيام. الفتيات لا يبقين هنا من دون وجود دار سينما في القرية. لدي امرأة تأتي، لكني لا أستطيع الحصول على أي عمل منها. والذي يساعد قليلاً هو أن تحصل على بضع عمال متطوعين. يجعلك الأمر أكثر استقلالاً.

كم هو صحيح ومناسب، حين تفكر كم هو ضروري ألا يُهمل العمل الزراعي، وكم هو صحيح ومناسب أيضاً أن يكون لأهل المدن والبلدات القليل من التواصل والاحتكاك مع التربة. مع ذلك يبقى عمل المنظمات التطوعية والعمل الذي يقوم به البحارة في صناعة القش وغيرها والأسرى الإيطاليين، هو مجرد عمل مستأجر......

أغلق "الجرس الأزرق" مرة أخرى بسبب نقص البيرة. سكر جدي لمدة أربعة أو خمسة أيام في الأسبوع ثم ظمئ. لكن أحياناً حين يغلقون، يُرى الضباط المحليون يشربون في غرفة خاصة ـ بينما يُطرد الجنود العاديون بالإضافة إلى العمال. "الأسد الأحمر" في القرية التالية يعمل بنظام مختلف، يفسره المالك لي: "أنا لا أؤيد إعطاءها كلها لزوار الصيف. إن كان هناك نقص في البيرة، دع الناس المحليون يأتون أولاً. كثير من الأيام أبقي الباب الأمامي مغلقاً، ومن ثم لا يعرف سوى الناس المحليين طريق الدخول من الخلف. رجل يعمل في الحقول يحتاج إلى بيرته خصوصاً مع الطعام الذي يجب أن يأكله في هذه الأيام. لكني أعطيهم حصصاً. أقول لهم "الآن انظروا إليّ، أنتم تريدون بيرتكم نظامية ودائمة أليس كذلك؟ أليس من الأفضل أن تشربوا باينتاً واحداً كل يوم بدلاً من أربعة باينتات في يوم واحد، والثلاثة أيام التالية تكونون عطشانين". نفس الشيء مع الجنود. أنا لا أحب أن أحرم أي بحار من البيرة،

لكني فقط أدعهم يأخذون باينت واحد في شربتهم الأولى. بعد ذلك نصف باينت فقط يا أولاد. بهذا الشكل توزع الحصص، وكل واحد يحصل على حصة قليلة.

٢٢ يوليو/ تموز

من رسالة أحمد علي الأخيرة من الهند:

هذا قليل جداً من دلهي القديمة قد يهمك:

في شارع مزدحم، هناك بائع صحف يصيح باللغة الأوردية: "بانديت جواهر لال يقول إن مسبحته هي الطريق". المقصود أنه بدّل موقفه نحو الحكومة، وحين سئل قال: "لا يمكنك أبداً الوثوق به؛ اليوم يقف بجانب الحكومة ويساعد في جهد الحرب، وغداً يفعل العكس تماماً". ثم ابتعد عني كثيراً، وبدأ يصرخ مضيفاً: "جواهرلال لحدى الحكومة". لكني لم أجد هذا "التحدي" في الصحف.

بائعو صحف آخرون يبيعون صحفاً أوردية: "ألمانيا حطمت روسيا في الهجوم الأول بالذات" لا حاجة للقول إنني قرأت عكس هذا تماماً في الصحف الإنكليزية في صباح اليوم التالي. من الواضح أن صحف الأوردو نقلت أخبارها مما قاله راديو برلين. لا أحد يمنع بائعي الصحف من الصياح بما يحبونه في هذه الأيام.

في أحد الأيام كنت ذاهباً إلى "تونغا"، فسمعت سائقاً يصرخ بحصانه الذي جفل: "لماذا تراجعت مثل ساركار خاصتنا! تقدم مثل هتلر"، ثم شتم ولعن.

الشيء الممتع، هو الخروج إلى الأسواق الشرقية والاستماع إلى صخب القيل والقال- بشرط طبعاً ألا يكون الجو حاراً بشكل لا يطاق. سوف أخبرك من وقت إلى آخر إن كنت مهتماً.

٢٣ يوليو/ تموز

أنا اكتب مواد في هذه المذكرة، أقل بكثير مما كنت أفعل، وذلك لأنني لا أملك حرفياً أي وقت احتياطي لذلك، على الرغم من أنني لا أفعل شيئاً ليس عبثاً، وليس لدي سوى القليل أظهره بدلاً عن الوقت الذي أضيعه. يبدو لي أن الحال نفسه مع كل واحد- الشعور المخيف جداً من الإحباط ومن حماقة عمل الأشياء البلهاء، ليست بلهاء لأنها جزء من الحرب والحرب غبية بالأصل، لكنها أشياء في الحقيقة لا تساعد أو بأي حال تؤثر على جهد الحرب، لكنها

تعتبر ضرورية من قبل الآلة البيروقراطية الضخمة التي نحن عالقون في شراكها. الكثير من الهراء الذي يخرج من البي بي سي، مجرد طلقة في الغلاف الجوي لا يصغي إليه أحد، ومعروف لهؤلاء المسؤولين عن هذا الهراء، أن لا أحد يستمع إليه. وحول هذا الهراء العقيم، يتجمع مئات من العمال المهرة، يكلفون البلاد عشرات الآلاف في كل سنة، وينضم إليهم آلاف آخرون ليس لديهم في الحقيقة أية وظيفة حقيقية، لكنهم وجدوا لأنفسهم كوة هادئة وجلسوا فيها متظاهرين بالعمل. الحال نفسه في كل مكان، وخصوصاً في الوزارات.

إن الخبز الذي يرميه المرء على المياه أحياناً، يصل إلى أماكن غريبة. لقد أجرينا سلسلة من ستة أحاديث حول الأدب الإنكليزي الحديث، برنامج ثقافي جداً كما أعتقد ولم يُستمع إليه أبداً في الهند. هسياو تشين طالب صيني، يقرأ الأحاديث في ذا ليسنار، وهو متأثر جداً بها، لذلك بدأ يكتب كتاباً باللغة الصينية عن الأدب الغربي الحديث، معتمداً كثيراً على أحاديثنا. لهذا فإن الدعاية الموجهة إلى الهند تخطئ الهند وتضرب الصين بالصدفة. ربما أفضل طريقة للتأثير على الهند، تكون بالبث إلى الصين.

اعتُبر الحزب الشيوعي الصيني وصحافته قانونيين مرة جديدة، وأقول بعد هذا إنهم يجب أن يرفعوا الحظر عن الديلي ووركر، وإلا سيكون الوضع سخيفاً جداً.

هذا يذكرني بالقصة التي حكاها لي ديفيد أوين، والتي أعتقد أنها لم تدخل في مذكراته. عند وصول كريبس إلى الهند، طلب من نائب الملك أن يطلق سراح الشيوعيين المحتجزين والمعتقلين. وافق نائب الملك (أعتقد أن أغلبهم أطلق سراحهم منذ ذلك الحين)، لكن في آخر لحظة، تردد وقال بعصبية: "لكن كيف تستطيع أن تتأكد بأنهم شيوعيون فعلاً؟".

قيل إننا سوف نضطر إلى زيادة استهلاكنا من البطاطا بنسبة عشرين بالمئة، جزئياً لتوفير الخبز، وجزئياً للتخلص من موسم البطاطا الذي كان هائلاً هذه السنة.

٢٦ يوليو/ تموز

عن مناورات الحرس الوطني. مررت أمس واليوم بمعسكرات صغيرة متنوعة للجنود في الغابات ومحطات تحديد المواقع بالرادار إلخ، ولفت انتباهي مظهر الجنود وصحتهم الرائعة والنظرة الوحشية في وجوههم. كلهم شبان ويانعون مع أطراف سمينة مدورة ووجوه موردة

وبشرة نظيفة جميلة. لكن سيماءهم بهيمية وقحة- ليسوا متوحشين أو شريرين بأي حال، وإنما مخدرون بالملل والضجر والعزلة والسخط والتعب اللانهائي والصحة البدنية.

٢٧ يوليو/ تموز

تحدثتُ اليوم مع أحد المذيعين المالطيين. يقول إنه قادر على أن يبقى على اتصال جيد مع مالطا، وإن الظروف هناك سيئة جداً و"آخر رسالة استلمتها وصلتني هذا الصباح كانت مثل - كيف سأقول إنها مثل المنخل، فقد قطعها وقصها الرقيب، أنت تفهم ذلك لكني عرفت منها رغم ذلك". تابع ليخبرني، من بين أشياء، أن خمسة باوندات من البطاطا تكلف الآن ما يعادل ثمانية شلنات. هو يعتبر أن القافلتين الاثنتين اللتين حاولتا الوصول إلى مالطا، الأولى من إنكلترا التي نجحت في الوصول إلى هناك كانت تحمل ذخائر، والقافلة القادمة من مصر التي فشلت في الوصول إلى هناك كانت تحمل الغذاء. أنا قلت "لماذا لا يستطيعون إرسال طعام مجفف بالطائرة؟". هز كتفيه متظاهراً بشعور غريزي أن الحكومة البريطانية لن تذهب إلى تحمل هذا العناء الكبير من أجل مالطا، على الرغم من أن المالطيين يبدون مؤيدين راسخين لبريطانيا، والفضل في ذلك يعود إلى موسوليني طبعاً.

يزعم البث الإذاعي الألماني أن فوروشيلوف في لندن، وهو الشيء غير المحتمل، والذي لم تنتشر إشاعات حوله هنا. ربما كانت رمية في الظلام، لكي يعوضوا عن فشلهم في حالة مولوتوف، واستقروا على الرواية التالية: إن مندوباً روسياً رفيع المستوى يحتمل أن يكون هنا في هذه اللحظة. إن كانت القصة صحيحة، فيجب عليّ أن أنقح أفكاري عن المخابرات الألمانية وأعدلها في هذه البلاد.

قُدّر الحشد الذي حضر إلى اجتماع الجبهة الثانية في ساحة ترافليغار أمس، بأربعين ألفاً في الصحف اليمينية وستين ألفاً في صحف اليسار، ولكنه ربما يكون خمسين ألفاً في الحقيقة. تتحدث تقارير سرية بأنه على الرغم من الخط الشيوعي الحالي من "كل السلطة لتشرشل" إلا أن المتحدثين الشيوعيين في الحقيقة يهاجمون الحكومة بعنف شديد.

٢٨ يوليو/ تموز

قرأت اليوم صحفاً أقل من المعتاد، لكن الصحف التي رأيتها سكتت فجأة عن الحديث عن الجبهة الثانية باستثناء النيوز كرونيكلز. نشرت إيفنينغ نيوز مقالاً مضاداً للجبهة الثانية،

بقلم الجنرال برانريغ على صفحتها الأولى. علقت على هذا إلى هربرت ريد الذي قال بتشاؤم "أخبرتهم الحكومة أن يسكتوا حولها". صحيح طبعاً أنه إذا كانوا عازمين أن يبدؤوا شيئاً ما، فيجب عليهم أن ينكرونه ظاهرياً. قال ريد إنه يعتقد أن الوضع في روسيا يائس، وبدا منزعجاً جداً حوله، رغم أنه كان في الماضي أكثر عدائية لستالين مني. قلت له "ألا تشعر باختلاف تام نحو الروس حين أصبحوا في مأزق الآن؟" ووافقني الرأي. بخصوص تلك المسألة، شعرتُ بشعور مختلف تماماً نحو إنكلترا حين رأيت إنكلترا في ورطة. عند استعراض الماضي أرى أنني كنت معادياً للروس (أو بصورة أدق معادياً لستالين) أثناء السنوات التي ظهرت فيها روسيا جبارة عسكرياً وسياسياً، أي من ١٩٣٣ إلى ١٩٤١ أما قبل تلك الفترة وبعدها، فكنت مؤيداً للروس. يمكن للمرء أن يفسر هذا بطرق عديدة مختلفة.

غارة صغيرة على ضواحي لندن ليلة أمس. المدفعية الصاروخية الجديدة التي يدير بعضها الحرس الوطني الآن، اشتركت في المعركة، وقيل إنها أسقطت بعض الطائرات (٨ طائرات). هذه هي المرة الأولى التي يستطيع الحرس الوطني أن يقول إنه اشترك في معركة بعد أكثر من سنتين من تشكيله. لا يعترف الألمان بالضرر الذي يصيب الأهداف العسكرية أبداً، لكنهم يعترفون بخسائر الأرواح المدنية بعد غاراتنا الكبيرة. فبعد غارة هامبورغ منذ ليلتين، وصفوا الخسائر بالثقيلة، والصحف هنا تعيد نشر هذا الخبر بفخر. منذ سنتين كنا نندهش كلنا ونرتعب من فكرة قتل المدنيين، وأتذكر القول لأحد ما أثناء الغارات الجوية: متى سيرد سلاح الجو الملكي على القصف بأقصى ما يستطيع من القصف. في غضون سنة واحدة سترى عناوين في الديلي إكسبريس: "غارة ناجحة على دار أيتام برلين. الأطفال يحترقون". لم يصل الأمر إلى ذلك بعد، لكنه التوجه الذي نسير فيه.

أغسطس/ آب

إذا كانت الأرقام المعطاة لي صحيحة، فإن الألمان خسروا عشرة بالمئة من قوتهم في كل الغارات الأخيرة. حسب ما جاء عن بيتر ميسفيلد (مراسل جوي للسنداي تايمز، ومستشار شخصي لبيفربروك) هذا لا علاقة له بالمدافع الجديدة، وإنما يعود إلى فعل الطائرات المقاتلة الليلية. هو أخبرني أيضاً أن المقاتلة إف دبليو ١٩٠ أفضل بكثير من أي مقاتلة نملكها الآن في الخدمة الفعلية. رجل يبني السفن الطائرة اسمه باوير، كان يبث معه، يوافقه على هذا. أوليفر

ستيوارت (الميجور أوليفر ستيوارت، خبير في علم الطيران وصحفي ومذيع ومراسل جوي للمانشستر غارديان) يعتبر أن الغارات الألمانية الجديدة غارات استطلاعية، وأنهم ينوون بدء غارات القصف من جديد قريباً بأي حال، هذا إن استطاعوا إطلاق أيديهم في روسيا.

لم أفعل الكثير حول عطلة البنوك في نهاية الأسبوع. كنت مشغولاً في كل ثانية بصنع قن للدجاج. هذا النوع من الشيء الآن يحتاج إلى براعة كبيرة بسبب الصعوبة القصوى في الحصول على الخشب. لا شعور بالذنب أو تضييع الوقت حين أعمل أي شيء من هذا النوع -على العكس هناك شعور غامض بأن أية مهنة عاقلة يجب أن تكون نافعة أو مبررة بأي مقياس.

٣ أغسطس/ آب

يقول ديفيد أستور إن تشرشل في موسكو، ويقول أيضاً لن تكون هناك جبهة ثانية. لكن إذا طُلبت جبهة ثانية، فيجب على الحكومة أن تفعل كل ما في وسعها لنشر انطباع معاكس مسبقاً. وديفيد أستور قد يكون واحداً من الناس الذين اعتادوا على زرع الإشاعات.

يقول ديفيد أستور إنه حين يتم إنزال المغاوير، فإن الألمان لن يقاتلوا أبداً، وسينسحبون فوراً، ولا شك أن لديهم أوامر ليفعلوا هذا. هذه حقيقة ليس من المسموح نشرها -مبرر مفترض لمنع العامة من أن يصبحوا مسرفين في الثقة.

حسب ما قاله ديفيد أستور: كريبس لا ينوي أن يستقيل من الحكومة، ولديه خطة بديلة جاهزة. هو لا يستطيع طبعاً التكلم عن هذا علناً، لكنه سيعمل هكذا في السر. على كل حال، سمعت أن (جون) ماكموراي حين أقام مع كريبس مؤخراً، لم يستطع أن يحصل على شيء منه مهما كان بخصوص نواياه السياسية.

٤ أغسطس/ آب

الراديو التركي (من بين وسائل بث أخرى) قال أيضاً إن تشرشل في موسكو.

٥ أغسطس/ آب

رعب عام من فعل حكومة الهند المتهور بنشر وثائق استولت عليها في غارة شرطية على مقرات حزب المؤتمر (بعد فشل مهمة كريبس إلى الهند، أصبح حزب المؤتمر متصلباً جداً. وفي أول أغسطس/ آب تولى غاندي حملة عصيان مدني. أغارت الحكومة على مقرات حزب

المؤتمر في محاولة لضمان النظام، واستولت على نص المسودة الأصلية لقرار استقلال الهند الذي سلم إلى اللجنة العاملة في حزب المؤتمر التي نشرته فيما بعد). كالمعتاد فإن الوثيقة الحاسمة قادرة على أن تحمل أكثر من تفسير، والنزاع الناتج سيحول ببساطة العناصر المتأرجحة في الكونغرس ليكونوا معادين أكثر لبريطانيا. الشعور المعادي للهند الذي أثارته الصحف في أمريكا وربما روسيا والصين، ليس فيه أية فائدة لنا على المدى البعيد.

أعلنت الحكومة الروسية اكتشاف مؤامرة قيصرية من النمط القديم جداً. لا أستطيع تحاشي شعور غامض أن هذا مرتبط بشكل ما مع اكتشاف متزامن لمؤامرة غاندي مع اليابانيين.

٧ أغسطس/ آب

هيو سلاتر مكتئب وقانط جداً حول الحرب. يقول إنه في المعدل الذي يتراجع به الروس، ليس مستحيلاً أن ينجو تيموشنكو بجيشه سليماً كما نقلت التقارير (المارشال تيموشينكو انسحب بنجاح عبر الدون ليدافع عن الفولغا قرب موسكو). يقول أيضاً إن نغمة صحافة موسكو والراديو، تبين أن المعنويات في روسيا يجب أن تكون سيئة جداً. أنا أعرف كما كل واحد تقريباً باستثناء وربيرغ، أنه لن تكون هناك أية جبهة ثانية. وهذا استنتاج يستنتجه كل واحد من زيارة تشرشل إلى موسكو. يقول الناس: "لماذا عليه أن يذهب إلى موسكو ويخبرهم أننا سوف نفتح جبهة ثانية؟ لا بد أنه ذهب ليخبرهم أننا لا نستطيع فعل ذلك". لو أن كل واحد يوافق على اقتراحي بأن يغرق تشرشل في طريق عودته إلى الوطن مثل كيتشنر، لكان عملاً رائعاً وفرحة. طبعاً يبقى الاحتمال أن تشرشل ليس في موسكو.

ليلة أمس قمنا بفك وتركيب بندقية ستين لأول مرة. ليس هناك ما نتعلمه فيها. لا أجزاء احتياطية. إن تعطلت وكان عطلاً خطيراً فيها، سترميها ببساطة وتأخذ واحدة أخرى بدلاً منها. وزن البندقية من دون مخزن خمس باوندات ونصف -وزن الرشاش (تومي غان) سيكون من ١٢ إلى ١٥ باونداً. السعر التقديري ليس خمسين جنيهاً كما تخيلت وإنما ١٨ جنيهاً. أستطيع أن أرى مليون أو مليونين من هذه الأشياء، ومع كل واحدة خمسمائة خرطوشة وكتاب تعليمات، تغمر كل أرجاء أوروبا في مظلات صغيرة. إن كان لدى الحكومة الشجاعة لفعل ذلك، فستكون قد أحرقت قواربها فعلاً.

٩ اغسطس/ آب

قمنا بالرمي من بندقية ستين لأول مرة اليوم. لا ركل أو اهتزاز، صوت قليل جداً ودقة مقبولة. حوالي ألفين وخمسائة جولة من الرمي، حالتا انسداد فقط، في كل حالة كان السبب خرطوشة عاطلة-العلاج أن تحرك المزلاج يدوياً.

١٠ أغسطس/ آب

نهرو وغاندي وآزاد (عبد الكلام آزاد، زعيم قومي هندي مسلم، وهو الناطق بلسان حزب المؤتمر) وكثيرون آخرون في السجن. أعمال الشغب في أغلب أراضي الهند، وعدد من الوفيات، وعدد لا يحصى من الاعتقالات. خطاب أميري الفاضح (ليو أميري، سياسي محافظ وعضو برلمان ووزير خارجية للهند) تكلم عن نهرو وشركائه بـ"رجال أشرار" و"مخربين" إلخ. هذا طبعاً يذاع على الخدمة الإمبراطورية البي بي سي، ويعاد بثه على راديو كل الهند. أفضل نكتة كانت أن الألمان بذلوا قصارى جهدهم لمنعها، لكن لم ينجحوا لسوء الحظ. شعور رهيب بالاكتئاب وسط الهنود، والكل متعاطف مع الهند. حتى بخاري (ذو الفقار علي بخاري، منظم البرامج الهندية في البي بي سي) رجل من العصبة الإسلامية كان يبكي ويتحدث عن استقالته من البي بي سي. من الغريب لكن الصحيح تماماً، أن الطريقة التي تتصرف بها الحكومة البريطانية الآن في الهند، تزعجني أكثر من هزيمة عسكرية.

١٢ أغسطس/ آب

رسالة إخبارية سياسية مرعبة من الهند هذا الصباح. أعمال الشغب لا معنى لها -الوضع جيد وتحت السيطرة- بعد كل شيء فإن أعداد الوفيات ليست كبيرة إلخ إلخ. بالنسبة إلى مشاركة الطلاب في أعمال الشغب، هذا يفسر على خط "الصبيان يبقون صبياناً". "نحن كلنا نعرف أن الطلاب في كل مكان يسرهم جداً أن ينضموا إلى أي نوع من المرح الصاخب" إلخ إلخ، تقريباً فإن كل واحد مشمئز تماماً. بعض من الهنود حين سمعوا بهذا النوع من الهراء، شحب لون وجوههم، إنه منظر غريب.

أغلب الصحف تتحدث عن خطأ قاسٍ، صحافة روثرمير تتحدث بشكل مقزز. إن نجحت هذا الإجراءات القمعية في الهند في الوقت الحالي، فستكون آثارها سيئة جداً في هذه

البلاد. كل شيء يبدو قد أعد من أجل عودة كبيرة للراجعين، ويبدأ يظهر تقريباً كما لو أن ترك روسيا في مأزق كان جزءاً من المناورة.....

١٤ أغسطس/ آب

كان هورابين (جيه إف هورابين، صحفي من حزب العمال، حقق شهرة واسعة بخرائطه التعليمية) يذيع برنامجه اليوم، وكالعادة قدمناه على أنه الرجل الذي رسم الخرائط لويلز في كتابه **موجز للتاريخ**، ولنهرو في **لمحات من تاريخ العالم**. لقد نشر هذا وأعلن عنه بشكل مكثف مسبقاً، وكان ربط هورابين بنهرو جذباً للمستمعين الهنود. اليوم اقتطعت الإشارة إلى نهرو من الإعلان - لكون نهرو في السجن، ولذلك أصبح سيئاً.

١٨ أغسطس/ آب

من رسالة جورج كوب (كان قائد وحدة البيوم التي كان أورويل يخدم فيها في إسبانيا. انضم إلى الفيلق الفرنسي الأجنبي، وأسره الألمان، ثم هرب وعمل في فرنسا كمهندس وعميل بريطاني) من مرسيليا بعد إجراء معقد عن عمل هندسي كان يقوم به.....

أنا أوشك على البدء في الإنتاج على صعيد صناعي. لكن أنا متأكد من أنني سأستمر حقاً، لأن لدي عقوداً محددة مع شركتي التي طورت مؤخراً كما أخشى من علاقات تقلل كثيراً من استقلالها، وربما تستفيد شركة أخرى أكرهها من عملي، لأنني لم أرتب إطلاقاً معها. وبالنسبة إلى الوقت الحالي، فأنا لست مستعداً لتوقيع أي عقد. إن أُجبرتُ على التوقف، فأنا فعلاً لا أعرف ماذا سوف أفعل؛ أتمنى من بعض أصدقائي الأعزاء جداً الذين أكتب إليهم بشكل متكرر، ألا يكونوا بطيئين وسلبيين كما يبدون. إن لم تُفتح أي آفاق في هذا المجال، فأنا أتأمل أن أستفيد من عملية أخرى لي تعود إلى بناء الجسور التي - كما تذكر - نفذتها بشكل ناجح في سان ماتيو قبل الحرب.

مترجم: "أخشى أن تدخل فرنسا في تحالف كامل مع ألمانيا. إذا لم تفتح الجبهة الثانية قريباً سأبذل أقصى جهدي في الفرار إلى إنكلترا".

١٩ أغسطس/ آب

غارة كبيرة للمغاوير على دييي اليوم. الغارة كانت مستمرة هذا المساء. يمكن تصورها على أنها الخطوة الأولى في غزو أو اختبار من أجل الخطوة الأولى، لكنني لا أعتقد أن الأمر

كذلك. الإنذار الذي بُث للشعب الفرنسي أن هذه مجرد غارة وأن عليهم ألا ينضموا إليها، كان في تلك الحالة خدعة.

٢٢ اغسطس/ آب

ديفيد أستور منقبض جداً حول غارة دييي التي رآها عن قرب تقريباً، والتي يقول إنها كانت فشلاً تاماً باستثناء الدمار الكبير للطائرات المقاتلة الألمانية التي لم تكن جزءاً من الخطة. يقول إن القضية شوهت بالتأكيد في الصحافة، والآن تشوه في التقارير إلى رئيس الوزراء، وإن الحقائق الأساسية كانت كالتالي:

من خمسة آلاف رجل كانوا متورطين، كان منهم ألفان على الأقل قتلى أو أسرى. لم يتعمدوا أن يبقوا على الشاطئ أطول مما فعلوا فعلياً (أي من الفجر حتى الرابعة صباحاً) لكن الفكرة كانت أن يدمروا كل الدفاعات في دييي، وكانت محاولة فعل هذا فشلاً ذريعاً. في الحقيقة، لقد حصل ضرر بسيط بالمقارنة: دمار بضع بطاريات مدفعية.. إلخ، وواحدة فقط من المفارز الرئيسية الثلاثة حققت هدفها. الاثنتان المتبقيتان لم تبتعدا كثيراً، وذبحتا على الشاطئ بنيران المدفعية. كانت الدفاعات هائلة، وكان من الصعب التعامل معها حتى لو كان هناك دعم مدفعي، لأن المدافع غرقت في وجه المنحدر أو تحت أغطية إسمنتية هائلة. غرقت مراكب كانت تنزل الدبابات أكثر من تلك التي وصلت إلى الشاطئ. تم إنزال من عشرين إلى ثلاثين دبابة، لكن لم تنزل أية واحدة ثانية. صور الصحف، التي تظهر دبابات أعيدت إلى إنكلترا قصداً، هي صور مضللة. المهمة العامة كانت أن الألمان عرفوا بالغارة مسبقاً، فمنذ أن بدأت فاجؤونا فوراً تقريباً بقوة دعمهم الجوي، وأبقوا طائراتهم المقاتلة على الأرض ليحافظوا على قوتها، ثم أرسلوها إلى الجو فور سماعهم بنزول الدبابات على البر. خسروا عدداً من الطائرات، واختلفت التقديرات في هذا العدد، لكن حسب ما جاء عن سلاح الجو الملكي كانت عالية حتى مائتين وسبعين طائرة. بناء على القوة البريطانية في الجو، كانت المدمرات قادرة على أن تظل مستلقية خارج دييي طول اليوم. واحدة غرقت لكن ببطارية شاطئية، ولكن حين أتى طلب لمهاجمة بعض الأهداف على الشاطئ، شكلت المدمرات خطاً قتالياً وتسابقت نحو الشاطئ مطلقة مدافعها الأمامية، بينما كانت الطائرات المقاتلة تساندها من الأعلى.

يعتبر ديفيد أستور أن هذا يثبت بوضوح أن غزو أوروبا مستحيل. طبعاً نحن لا نستطيع أن نشعر بثقة من أنه لم يُزرع ليقول هذا، مع الأخذ في الاعتبار من يكون والده وأمه. لا أستطيع أن أتجنب الشعور بأن الوصول إلى الشاطئ في نقطة ذات دفاع قوي جداً من دون دعم من طائرات قاذفة أو دعم مدفعي باستثناء مدافع المدمرات (من أربعة إلى تسعة مدافع كما أعتقد) أو القوات المحمولة جواً، كان إنجازاً هاماً.

٢٥ أغسطس/ آب

واحدة من الإشاعات الكثيرة التي تدور بين الهنود هنا، هي أن نهرو وغاندي وآخرين أبعدوا إلى جنوب أفريقيا. هذا نوع الشيء الذي ينتج عن رقابة المطبوعات ومنع الصحف.

٢٧ أغسطس/ آب

رفع المنع عن الديلي ووركر. ظهرت من جديد في السابع من سبتمبر/ أيلول (نفس اليوم الذي قدم فيه تشرشل بيانه إلى البرلمان).

الراديو الألماني يزعم مرة أخرى أن اس سي بوز في بينانغ. لكن المؤشرات أن هذا زلة لسان من آر بي بوز.

٢٩ أغسطس/ آب

إعلان في حانة لأقراص منعشة - فيناسيتين أو شيء من هذا النوع:

إعلان -تنصح بها المهن الطبية تماماً- "الإضاءة" اكتشاف عجيب- الملايين يأخذون هذا العلاج من أجل- من أجل -آثار السكر- هيستريا الحرب - الإنفلونزا- الصداع -ألم الأسنان- الألم العصبي -الأرق -الروماتيزم- الاكتئاب إلخ إلخ- لا تحتوي على الأسبرين.

إشاعة أخرى وسط الهنود عن نهرو- هذه المرة أنه نجا.

٧ سبتمبر/ أيلول

توجد مشكلة بوضوح في سوريا. مذكرة هذا الصباح بهذا المعنى -لسوء الحظ الشديد ضد إرادة حكومة إتش إم- يصر الجنرال ديغول أن سوريا مازالت تحت الانتداب الفرنسي، ومن المستحيل توقيع معاهدة الآن كما في حالة العراق. موقف الجنرال ديغول يعتبر بائساً جداً.

لكن كما يكون هو القائد المعتمد لفرنسا الحرة والوضع القانوني الكلي غامض جداً (المسألة يجب أن تقررها عصبة الأمم التي لسوء الحظ لم تعد موجودة)، فإن حكومة إتش إم عاجزة إلخ إلخ. بعبارة أخرى، لن يحصل السوريون على أية معاهدة، واللوم في هذا يقع على دميتنا ديغول، وإن أمكن سوف نسرق سوريا لأنفسنا. حين أسمع هذا الهراء الفارغ الذي يلغط به روشبروك -ويليامز (مدير البي بي سي) هذا الصباح، وعلينا كلنا أن نصغي ونتظاهر بالجدية وعدم الضحك، تدخل في رأسي، ولا أعرف لماذا، أبيات من **السلالات الحاكمة** لهاردي عن تتويج نابليون في روما:

ألم يتلعثم المطران في لهجته ويخفت صوته/ وتتشوه شفتاه بضحكة محبوسة؟ في مباركة شخص هدفه أن يفوز/ بالكرسي الذهبي الذي دفأته مؤخرات أخرى؟

عادت الديلي ووركر إلى الظهور اليوم -معتدلة جداً لكنها تحث على (أ) جبهة ثانية، (ب) كل المساعدة لروسيا على شكل أسلحة، (ج) برنامج ديماغوجي (غوغائي) من أجور عالية شامل سيكون متضاربا تماماً مع (أ) و(ب).

١٠ سبتمبر/ أيلول

ألقيت محاضرة ليلة أمس في مولي كوليج في لامبيث. قاعة صغيرة فيها حوالي مائة شخص من مثقفي الطبقة العاملة (نفس نوع الحضور في فرع نادي الكتاب اليساري) (الكتاب اليساري أسسه فيكتور غولانكس عام ١٩٣٦ واستمر في نشر كتب شهرية عن مواضيع معادية للفاشية أو اشتراكية). أثناء الأسئلة، لا يقل عن ستة أشخاص سألوا "ألا يعتقد المحاضر أن رفع الحظر عن الديلي ووركر خطأ كبير- المبررات المقدمة أن ولاء الديلي ووركر ليس موثوقاً وأنها مضيعة للورق. امرأة واحدة فقط أيدت الديلي ووركر.. من الواضح أنها شيوعية. وعبّر واحد أو اثنان من الآخرين عن نفاد صبرهم ("أوه هي تقول ذلك دائماً!"). هذا بعد سنة، خلالها كان هناك جلبة لم تتوقف من منظمات يسارية عن حل رفع الحظر. يهمل المرء دائماً أحكامه لأنه يستمع إلى الأقلية الواضحة، وينسى التسعة وتسعين بالمئة الآخرين. قارن. كان أغلب الناس بالتأكيد تقريباً خلف سياسة تشامبرلاين، لكنك حين تقرأ النيوستيتمان لا ترى الأمر هكذا.

١٥ سبتمبر/ أيلول

شعور فاضح بالعجز بخصوص القضية الهندية - خطابات تشرشل والنية الواضحة للبليمبز (الرجعيين) أن يقوموا بمحاولة أخرى فيما يعتبرونه قاسياً، والطريقة الوقحة التي تستطيع فيها الصحف أن تحرف القضية برمتها، عارفين جيداً أن الشعب لن يعرف أبداً أو يهتم جيداً، لكي يتحقق من الوقائع. هذا الأخير أسوأ عرض من الجميع- لكن في الواقع إن لامبالاتنا بخصوص الهند، ليست أسوأ من عدم اهتمام المثقفين الهنود بالصراع ضد الفاشية في أوروبا.

٢١ سبتمبر/ أيلول

قابلت أمس ليدل هارت لأول مرة..... لديه هياج كبير عن بربرية قصف لوبيك. اعتبر ليدل أن البريطانيين يملكون أسوأ سجل من كل الآخرين في الوحشية والتدمير خلال الحروب في القرون الحديثة، لكنه طبعاً عارض بقوة الجبهة الثانية، وكان متلهفاً أيضاً إلى أن نوقف القصف. ليس هناك أي مغزى في فعله، بما أنه لا يستطيع أن ينجز أي شيء ولا يضعف ألمانيا. من جهة أخرى، ينبغي علينا ألا نبدأ بالقصف في المكان الأول (لقد عاند بأننا نحن من بدأه) لأنه يجلب علينا انتقاماً أكبر.

أوزبيرت سيتويل كان هناك أيضاً...... كلاهما اعترفا بأنهما اشمئزا من استيلائنا على مستعمرات فيشي. قال سيتويل إن شعارنا كان "حين تبدو الأمور سيئة، استولِ من جديد على مدغشقر".

قال إنه في حالة الغزو في كورنول كان لدى الحرس الوطني أوامر أن يطلقوا النار على الفنانين. قلت إنه في كورنول ربما يكون هذا من أجل الأفضل. سيتويل: "غريزة ما ستقودهم إلى الأشياء الأفضل".

٢٢ سبتمبر/ أيلول

أغلب الذخيرة من أجل بنادق ستين إيطالية أو مصنوعة في ألمانيا لإيطاليا. أتخيل أن هذا يجب أن يكون أول سلاح يمتلكه الجيش البريطاني، يقاس عياره بالمليمترات بدلاً من البوصات. كانوا سيصنعون سلاحاً آلياً جديداً رخيصاً، ولديهم مخازن هائلة من الذخيرة الجاهزة التي اغتنمت في إثيوبيا، صنعوا البنادق لتناسب أغلفة الطلقات بدلاً من العكس.

الفائدة أن الذخيرة تناسب أي بندقية نصف آلية قارية. سيكون ممتعاً أن نرى إن كان الألمان أو اليابانيون خرجوا بسلاح ٣٠٣ ليناسب الذخيرة البريطانية.

٢٨ سبتمبر/ أيلول

استعراض للكنيسة في الهواء الطلق في ريجنت بارك يوم أمس. كما كان ينبغي للمشهد أن يكون مؤثراً- الكتيبة في ساحة فارغة، فرقة حراس كولدستريم والرجال يقفون حاسري الرؤوس (يوم خريفي جميل، ضباب خفيف وسكون لم تتحرك فيه وريقة شجر، كلاب تعدو في المكان) وينشدون التراتيل بأفضل ما استطاعوا. لكن لسوء الحظ كانت هناك خطبة مع الوحل الشوفوني، وهي المعتادة في مناسبات كهذه، والتي تجعلني أصبح مؤيداً للألمان طالما أنا أصغي إليها. أيضاً صلاة خاصة "للناس في ستالينغراد"- قبلة يهوذا.

تفصيل أحبطني في هذه المناسبات، وهو تنورة القس البيضاء التي تبدو كلها خطأ على خلفية من الأزياء العسكرية. لفتت انتباهي حرفية الفرقة الموسيقية خصوصاً قائد الفرقة (ضابط من الحراس في قبعة سوداء مدببة) حين يقترب كل مصلي من الختام، يدبّ نشاط حركي في الفرقة، تخرج المترددات (آلات موسيقية) من حقائبها الجلدية، عصا قائد الفرقة تظهر عالياً، ويستعدون ليقولوا بصوت عالٍ آمين حين يصل القس إلى "من خلال يسوع المسيح ربنا".

٥ أكتوبر/ تشرين الأول

سوف يُعين نائب ملك جديد للهند قريباً. لا إشارة عن الشخص الذي سيكون. البعض يقول إنه الجنرال أوشينليك -الذي على علاقة طيبة مع اليسار الهندي كما قيل.

حديث طويل مع براندر (لورانس براندر، مؤلف ومحاضر في الأدب الإنكليزي في الهند لمدة ١٢ سنة قبل الحرب) والذي عاد بعد رحلة إلى الهند دامت ستة أشهر. استنتاجاته كثيبة جداً، لدرجة لا أستطيع أن أدع نفسي تدونها. باختصار-الأمور في الهند أسوأ بكثير من أن يُسمح لأي واحد هنا أن يدركها، والوضع في الحقيقة يمكن استرداده، لكنه لن يسترد لأن الحكومة مصممة ألا تقوم بتنازلات حقيقية. وسوف تفتح أبواب الجحيم إن كان هناك غزو ياباني. وبرامجنا الإذاعية عقيمة تماماً، ولا أحد يستمع إليها. قال براندر إن الهنود يستمعون إلى

أخبار البي بي سي، لأنهم يعتبرونها أصدق من الأنباء التي تبثها طوكيو أو برلين. هو يعتبر أننا يجب أن نبث أخباراً وموسيقى ولا شي غير ذلك. هذا ما كنت أقوله منذ زمن في الماضي.

اليوم على شرف الذكرى السنوية للثورة الصينية، رُفع العلم الصيني فوق دار الإذاعة. لسوء الحظ كان مقلوباً رأساً على عقب.

حسب ما جاء عن ديفيد أستور، فإن كريبس سيستقيل قريباً -الهذر أن مجلس وزراء الحرب خدعة، وأن تشرشل في الحقيقة هو السلطة الوحيدة فيه.

١١ أكتوبر/ تشرين الأول

السلطات في كندا سجلت الآن عدداً من الأسرى الألمان، يساوي عدد الأسرى البريطانيين المسجلين في ألمانيا. اللعنة، إلى أين سنصل؟

١٧ أكتوبر/ تشرين الأول

سمعت "نكتة يهودية" على خشبة مسرح ذا بليارز -نكتة معتدلة وحكاها يهودي لكنه مازال معادياً لليهود قليلاً في ميوله.

إشاعات أكثر عن جبهة ثانية. الموعد هذه المرة في العشرين من أكتوبر/ تشرين الأول، وهو موعد غير محتمل أن يكون يوم ثلاثاء. يبدو من الواضح أن شيئاً ما سيحدث في غرب أو شمال غرب أفريقيا.

١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني

أجراس الكنائس تقرع هذا الصباح- احتفالاً بالنصر في مصر. أول مرة أسمعها منذ أكثر من سنتين.

جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

العقول الحرة – كما يقول نيتشه – تحدث ضجيجاً عظيماً. وجورج أورويل صاحب عقل حر، ولكنه مضاد لنيتشه فيما يتعلق بالعرق والحريات والأخلاق. إنه النقيض الأخلاقي بمعنى ما.

لقد أحدث جورج أورويل، في حياته وبعد مماته، ضجيجاً كبيراً، لا يزال يسمع صوته إلى الآن. ورغم هدير قنابل الطائرات والقذائف الحارقة، زمن الحرب العالمية الثانية، إلا أن صوت أورويل كان قوياً كفاية، ليلفت الأنظار إليه؛ مع أن صوته كان مضاداً للهمجية الغربية برمتها، وقتلها للإنسان في الأرض الأوروبية أو في الأمكنة البعيدة.

هذا العقل الناضج والخطر، حمل الآخرين على نعته بمعاداة الوطن، أو بالجبان، لأنه ناهض احتلال الآخر والليبرالية والديمقراطية الزائفة، ودافع عن الإنسان في أي مكان.

يقرأ أورويل الأدب السابق والمعاصر له، بذهنية مفتوحة، ولا يتطرف أبداً في الحكم على الأعمال الأدبية، مع أنه ينظر إليها من زاوية خاصة، زاوية فنية إنسانية في الوقت نفسه. ولعل من الملفت أنه يضيء نقاطاً قلما ينتبه إليها القارئ، ومن خلالها يحرض على قراءة ثانية لهذا العمل أو ذاك.

هنا، في هذا الكتاب، يرتقي أورويل ككاتب مقال أدبي وسياسي رفيع، ولن أكون متطرفاً إذا قلت إن مقالاته أشد حيوية من رواياته. إنه هنا يتحالف مع الفن والعقل والفضيلة، بشجاعة فائقة.

عقبة زيدان

نينوى
للدراسات
والنشـــر
والتوزيـع